الهلال

يناير ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

الحرس الحديدى وثورة يوليو

أزمة الأحزاب السياسية فى مصر

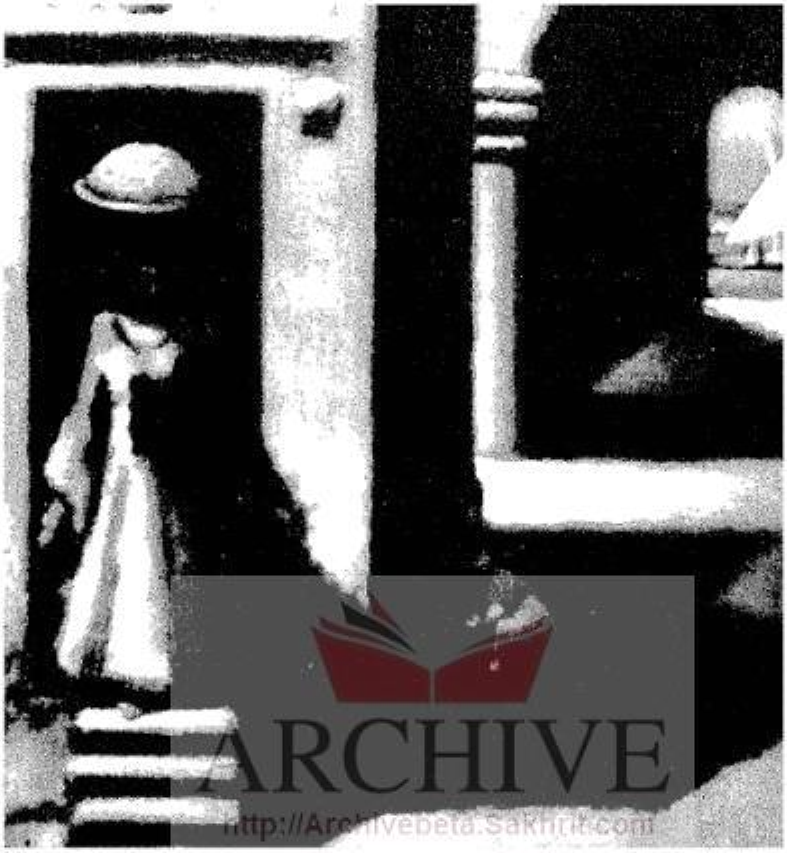
النبوءة عند نجيب محفوظ

النبوءة فى الأدب والتاريخ والفلسفة

جزء خاص



أهم مائة صورة فى مائة عام



لوحة: أمام الدوار

للفنان: محمود سعيد



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقاً) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال

ت: ٣٦٢٥٤٨٦ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ - عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

---

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - ايطاليا ٧٠٠٠ ليرة - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

صورة الغلاف
«فتاة القبائلية» إحدى صور أهم مائة صورة فى مائة عام
(تحقيق صفحة ٦٦)

الإشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية – البلاد العربية ٢٥ دولارا . أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً . باقى دول العالم ٤٠ دولارا

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٢٧٤١١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



عام جديد

مع بداية عام ٢٠٠٢ يتحقق الحلم الذى ظل يراود عشاق وقراء مجلة الهلال، وهو عمل (كشاف) يضم الموضوعات والبحوث الجادة التى نشرت فيها منذ عام ١٨٩٢ وتحديدا فى شهر سبتمبر وإلى يومنا هذا دون توقف ، وكواحدة من المجلات العريقة القليلة فى العالم ، والتى حافظت على الصدور فى موعدها مع بداية كل شهر ميلادى على مدى أكثر من مائة وتسع سنوات.

أما هذا العمل الجاد الذى نتحدث عنه فهو انجاز كشاف الهلال عن الفترة من يناير ١٩٣٦ وحتى ديسمبر ١٩٥٢م وقامت به دار الكتب المصرية ومن الواجب أن نتوجه بالشكر إلى سمير غريب رئيس مجلس ادارة دار الكتب ، والذى وفر كل الإمكانيات لإنجاح هذا العمل الطموح، حيث استمر العمل فى إعداد هذا الكشاف عامين متواصلين، وبلغ عدد البطاقات المكشفة حوالى ١٩ الف بطاقة وليصدر فى مجلدين يضم كل منهما حوالى ٦٠٠ صفحة .

وقام فريق العمل باستخلاص المادة المنشورة فى الهلال ، ووضع رءوس الموضوعات المناسبة لها وترتيب هذه المواد وفقا لقواعد وطرق مقننة تسهل على الباحث الحصول على المعلومة التى يطلبها بسهولة ويسر .

وكانت دار الهلال قد حرصت منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما على إصدار هذا الكشاف ، وقام فريق برأسه المؤرخ الصحفى الدكتور أحمد الصاوى ، وانتهى من عمل كشاف منذ بداية صدور الهلال، وحتى عام ١٩٣٦ وليصبح كشاف الهلال يغطى حوالى اثنين وستين عــاما من عمرها.

وبالطبع مازلنا نطمح فى إسهام دار الكتب المصرية بمواصلة العمل فى هذا الكشاف ليصبح كل ما تضمه المجلة من بحوث ودراسات جادة فى كل المجالات والتخصصات فى متناول الباحثين والدارسين، خاصة الذين يرتادون دار الكتب

المصرية، والتى تعد من أعرق المكتبات فى العالم، بما تضمه من كتب ومخطوطات نادرة.

إن العمل فى هذا المجال ليس من السهولة بمكان، بل يحتاج إلى متخصصين يتميزون بالدقة والأمانة العلمية، لأن مثل هذا العمل يبقى على مر الزمان، شاهدا على قدرة الباحثين فى الاجادة والتميز ، وهو مالمسناه فى المجلدين اللذين يطبعان حاليا بمطابع دار الكتب المصرية .

ونحن من منطلق تأكيدنا على الروابط الثقافية المتينة مع دار الكتب المصرية ، وفى إطار الدور الكبير الذى تلعبه مجلة الهلال فى صياغة ثقافة الكثير من الأجيال العربية عبر تاريخها الطويل، نطمح أن يتم التعاون بيننا فى طبع الهلال منذ صدوره حتى اليوم على أقراص ممغنطة (C.D) ولتساير التطور العلمى المذهل الذى يشهده عالمنا المعاصر ، وهو مشروع ضخم يحتاج إلى الأناة والصبر ، فضلا عن التكلفة المادية العالية، لكن مردوده سوف يعود بالخير الوفير على مصر كلها وعلى أجيال المثقفين المتعاقبة

عزيزى القارئ :

.. لقد طورت «الهلال» منذ بداية يناير ٢٠٠١ الإخراج الفنى والتحريرى، وتحملت فى سبيل ذلك المزيد من العبء المادى ، لكنها كسبت الكثير من وراء ذلك بحصولها على جائزة معرض الكتاب، والتقدير الشديد من كل المثقفين فى مصر وفى الوطن العربى .. صحيح أن النجاح لايأتى بسهولة ، ولكنه يحتاج إلى المزيد من الجهد والتضحية وذلك كله يسعدنا ، حتى يتواصل دور الهلال كرائدة من رواد الثقافة فى عالمنا العربى، ونافذة حقيقية للمتعة الذهنية والتنوع فى العطاء الفكرى والإبداعى .

مر عام على التطوير .. حققنا فيه نسبة لابأس بها من النجاح ، ولن يغمض لنا جفن، حتى نحقق النجاح كله بفضل الله، وبفضل قارئ الهلال العزيز . ■

المحـــــرر

أحداث هذا الزمان

القيادة والشخصية

بقلم
د. مصطفى سويف

قرأت سنة ١٩٧٤ على أنها سنة التدبير (بفعل القوى الخارجية) لإجهاض فرحة المصريين واعتزازهم بانتصار أبنائهم وإخوتهم فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

وسنة الثقة غير الموفقة (من جانب القوى الداخلية) فى نزاهة التدابير التى كانت تحيكها حكومة الولايات المتحدة معتمدة على أدواتها الثلاث الرئيسية: البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وإسرائيل. ومن هذا المنطلق تداعت أحداث العامين ١٩٧٥ و١٩٧٦ أمام ناظرى، فكانت بمثابة ترسيخ للإحباط فى النفوس حتى لا يخامرها أى أمل فى التقدم من النصر فى الحرب الى النصر فى السلام.



عودة الملاحة للقناة بعد نصر أكتوبر المجيد



الرئيس السادات



الملك فيصل

العام ١٩٧٥ :

كانت سنة ١٩٧٥ عاصفة بكثرة أحداثها الدالة، وتلاحق تغيراتها شديدة الوطأة على أحوال المجتمع كما يعيشها المواطنون، وكانت افتتاحية هذه السنة منذرة بالسوء بكل ما لهذه الكلمة من معنى، لمن أراد أن يقرأ.

ففي مارس من هذه السنة قتل الملك فيصل ملك العربية السعودية، قتله شاب من الأسرة المالكة نفسها، وقيل فيما بعد إنه مخبول. وكان هذا الاغتيال رسالة فصيحة اللسان توجهها قوى بعينها إلى كل من يهمه الأمر، فقد وقف الملك وقفة شجاعة إلى جانب الحق المصرى والعربى أيام حرب أكتوبر وعلى امتداد الشهور القليلة التالية لها عندما استخدم البترول سلاحا للضغط على الأمريكيين والإسرائيليين فى مفاوضات الفصل بين القوات، وكان إلى جانب ذلك معروفا بتوجهاته التنويرية فى إدارة شئون الحكم فى بلده، ومن أجل هذا وذاك استحق أن يصير عبرة لغيره. وبعد اغتيال الملك بما يقرب من شهرين وقع أول حادث منذر بقرب اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان (حادث عين الرمانة).

وفى أغسطس من العام نفسه بدأت وقائع هذه الحرب تتوالى. وكان لهذه

القيادة والشخصية

الأحداث الجسام فى الجوار العربى أسوأ الأثر على المناخ السياسى فى مصر.

ولم يكن مواطنونا فى ذلك الوقت بمنأى عن دواعى الغضب والاكتئاب التى أفرزتها إذ ذاك ظروف الحياة داخل الوطن، وكان أسوأ هذه الدواعى موضوع الغلاء (الذى دهمهم إضافة إلى الإحباط السياسى).

وكان أمراً طبيعياً أن يتشاكى الناس فيما بينهم، وكان أمراً طبيعياً كذلك أن يقرنوا فى شكاواهم بين الغلاء واقتصاديات الانفتاح، رغم أن معظمهم لم يكونوا يفهمون كيف يتم هذا الاقتران، ومع ذلك فقد قدر خبراء الاقتصاد معدل ارتفاع الأسعار فى نهاية سنة ١٩٧٥ بأنه بلغ حوالى ١٢٠٪ بالمضاهاة بمتوسط الأسعار فى سنة ١٩٧١، يخص سنتى ٧٤و٧٥ وحدهما ٦٠٪، وهما سنتا الانفتاح. وإزاء ذلك بدأت القلاقل الاجتماعية تطل برأسها، وكان أسوأها قيام التظاهرات العمالية فى المحلة الكبرى، وفى مواجهتها لجأت الحكومة الى اتخاذ إجراءات قمعية قاسية. ثم تغيرت وزارة الدكتور عبدالعزيز حجازى وحلت محلها وزارة برئاسة ممدوح سالم

وقال بعض نواب الشعب يزكون الرجل للمنصب إنه يعرف أربع لغات! وإنه قد سافر إلى الخارج كثيرا!! وهى تعليقات ما أنزل الله بها من سلطان. وصدرت عن الرئيس السادات كثير من الأقوال الغاضبة إزاء أحداث المحلة الكبرى.

وعشنا تلك الفترة فى توترات متزايدة، كان واضحاً أن الحكومة تتعرض لضغوط شديدة من قبل صندوق النقد الدولى لخفض سعر الصرف للجنيه المصرى، وكانت الحكومة تقاوم هذا الضغط. وفى الوقت نفسه سمعنا كثيراً وقرأنا قليلا عن تنامى الواردات وانكماش الصادرات. وهو ما يعنى أن الانفتاح الذى طرأ علينا جاء انفتاحا استهلاكيا أكثر منه انفتاحا إنتاجيا تصديريا. واستمرت الاتصالات السياسية مع الدول العربية، ومع الاتحاد السوفيتى، بالإضافة إلى الولايات المتحدة التماسا لحلول قد تكون ناجعة للمسألة السياسية الاقتصادية، واستمرت التصريحات السياسية (وتضاربت أحيانا). واحتفل فى منتصف سنة ١٩٧٥ باستئناف الملاحة فى قناة السويس، وقيل إن الإسراع بهذه العودة كان أحد بنود الضغط التى مارستها الولايات المتحدة على الحكومة المصرية لكى تخلق على الأرض واقعا يزيد من صعوبة اندلاع حرب جديدة تشارك مصر فيها ضد إسرائيل، وفى حفل إعادة الافتتاح أبحرت فى القناة قافلة من السفن تقدمتها سفينة

أمريكية، فكان هذا الحدث شرحاً على المتن يؤذن باستيلاء الولايات المتحدة على مفاتيح الحل.

وكانت في القافلة سفينة مصرية تقل الرئيس السادات وبرفقته عدد من الساسة والأدباء، وروى لي بعضهم أن السادات التفت في لحظة ما إلى المرحوم الصديق عبدالرحمن الشرقاوي ليقول له، «دي ملحمة يا عبدالرحمن، عايزة ينكتب فيها شعر»، وهو كلام له مغزاه، وبعد حوالي شهرين من هذا الحدث أمكن التوصل مع إسرائيل (عبر جهود كسنجر) إلى إبرام اتفاق فصل القوات الثاني على الجبهة المصرية وفي الوقت نفسه كانت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي قد فسدت إلى غير رجعة.

جدير بالذكر أن المواطن العادي لا يقرأ غالبا مايكتب في الصحف عن المسائل الاقتصادية، لا لأنه يسقط هذه الأمور من حسابه استهانة بها أو نفوراً ولكن لأن الأسلوب الذي تكتب به يسد الطريق أمامه إلى الفهم والاستيعاب، وذلك لكثرة اللف والدوران فيها، أو لحشد المصطلحات الفنية دون التطوع بشرحها، أو لعيوب أخرى كثيرة، هذا على الرغم من أن هذا المواطن يؤمن في قرارة نفسه بأن الاقتصاد هو العمود الفقري لحياته هو ومن يعول. ومعنى ذلك أنه يعتمد في تقديره لهذا الشأن على نوع من الإدراك الحدسي الذي ينتقل من المقدمات الى النتائج مباشرة دون الاعتماد على وسائط. وأنا الآن إذ أسترجع ذكرياتي عن تلك الفترة (فترة الثلاثية الثانية من السبعينيات) أذكر أن المواطنين كانوا يعيشونها ولسان حالهم لا يفتأ يردد القول الشائع «ربنا يفوتها على خير»، كانوا يشعرون بالضائقة، ولا يستشفون في المستقبل القريب فرجاً، ومع ذلك لاتنفك الوعود بالفرج تنثر من حولهم، وهو مايزيد من حدة الصراعات النفسية التي يتعرضون لها، والتي لاتفرز في نهاية الأمر إلا مزيداً من الاكتئاب المختلط أحياناً بالإحباط والغضب. ولكي يدرك قارئ اليوم إلى أي مدى كان هذا الضيق الممتزج بالغضب المكتوم نتاجاً طبيعياً لظروف اقتصادية سياسية بالغة الصعوبة إذ ذاك يمكنه أن يقرأ الفصلين السادس والسابع من كتاب المرحوم الأستاذ عادل حسين عن «الاقتصاد المصري : من الاستقلال إلى التبعية».

التغيرات المجتمعية المواكبة :

ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الضائقة الاقتصادية (المقرونة بوعود وردية لاتتحقق) كانت هي السبب الأوحد أو الرئيسي لهذا الضنك الذي كان يعيشه المواطنون، بل كانت هناك تغيرات مجتمعية تجري من حولهم، وكانت هذه التغيرات تأخذ بخناقهم وهم لايملكون لها ضبطا ولا تحويلا، فكانت تزيد من وطأة الضيق على نفوسهم، ذلك أن الناس

بدأوا يسمعون عن العمولات التى يتقاضاها البعض ممن أفرزهم الانفتاح، والتى تبلغ ملايين الجنيهات أحيانا، وبدأوا يشعرون بأزمة المساكن فى المدن، وبرزت حولهم تباشير الزحام فى شوارع القاهرة، زحام المشاة، وزحام السيارات، وزحام الأصوات، وما يحمله كل ذلك للنفوس من مشقة تتنامى فى كل خطوة، ولم يكن الأمر كذلك حتى شهور فى سنة ١٩٧٤، وراحوا يسمعون عن سير السفهاء من الأغنياء الجدد. ومن المضحكات المبكيات أن انتشار المخدرات فى السوق غير المشروعة (والحشيش بوجه خاص) زاد فى تلك الفترة زيادة فجائية، فقد بلغ حجم المضبوطات من الحشيش (حسب تقارير الإدارة العامة للمكافحة) فى نهاية سنة ١٩٧٤ أكثر من (٢٢) اثنين وعشرين ألف كيلو جرام (بينما ظل طوال الفترة الممتدة من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٣ يتراوح بين ستة آلاف وأحد عشر ألف كيلو جرام). وبالإضافة إلى هذا كله اتسع نطاق الأسفار طويلة الأجل إلى بلاد النفط العربية، ومع هذا الاتساع بدأت تطفح على جسد المجتمع ظواهر منذرة بعواقب وخيمة، من هذا القبيل ظاهرة «تجار الشنطة»، وظاهرة الأنماط السلوكية الوافدة التى كانت تقحم عنوة على منظومة السلوكيات المصرية المستقرة، وظاهرة الشح المتزايد فى العمالة الفنية لدينا .. وأسوأ من هذا وذاك ما طرأ من أعراض وعلامات تشير إلى أن اختلالات خبيثة بدأت تصيب الأسرة المصرية فى صميم تكاملها، نتيجة لغياب الزوج، أو الأب، أو الأم معاً...الخ.

هذا كله وأكثر، ومع ذلك فقد استمرت السياسات التى كانت السبب فى تفشى هذه الاضطرابات جميعاً: مزيد من التمادى فى استيراد السلع الاستهلاكية الترفيهية غالبا، ومزيد من العجز فى الميزانية العامة للدولة، ومزيد من الضغوط الأجنبية (صندوق النقد ومن ورائه الحكومة الأمريكية) لرفع الدعم الحكومى الذى تلقاه السلع التى تعتبر ضرورية لسواد الشعب. ثم إن الناس استشعروا مزيدا من استشراء الأزمة عندما بدأ السادات ينتقد الحكومات العربية بمرارة (حوالى منتصف العام ١٩٧٦)، وكذلك عندما فوجئنا بالإعلان(من جانب واحد هو جانبنا) عن إلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية التى كانت قد عقدت فى سنة ١٩٧١، وكان مقدراً لها أن تبقى سارية المفعول لمدة خمسة عشر عاماً، ورأى البعض فى هذه الخطوة الأخيرة مغامرة غير محمودة العواقب،

واستنتجوا منها أننا قررنا أن نضع البيض كله فى السلة الأمريكية وحدها. وفى ذات الوقت أصبح السادات لايتحدث عن كسنجر إلا بقوله «صديقى هنرى».

كل هذه العوامل مجتمعة، سواء فى ذلك ما طفح على جسم مصر من تغيرات مجتمعية مرضية ومنبئة بمزيد من المرض، أو ما كان من آثار مباشرة للضائقة الاقتصادية التى لاتوحى بانفراج قريب، ومع ذلك لاتكف عن ستر وجهها القبيح وراء وعود موظفة لترحيل الحاضر إلى مستقبل كالسراب أو يكاد، كل هذه العوامل مجتمعة شكلت الظروف الصعبة التى امتحن الناس بها على امتداد سنوات الثلاثية الثانية من السبعينيات، والتى كانت تنفث فى نفوسهم مزيداً من الغضب المكتوم.

السادات : الشخصية والصورة :

فى هذه السياق الضاغط فى جميع الاتجاهات المتعارضة، والذى يتسم إجمالا بالضيق المتزايد فى نطاق حرية الحركة، والمتخم بالتوترات المنذرة، أخذت شخصية السادات تكشف عن كثير من ملامحها كما تسهم فيما يصدر عنه من فعل وانفعال، وتجمعت فى ذهنى حينئذ هذه الملامح مع ما سبق أن كشف عنه صاحبها فى مايو سنة ١٩٧١ (بمناسبة حركة التصحيح)، ثم على امتداد سنة ١٩٧٢ فى مواجهة تظاهرات الطلبة، ثم إنى قرأت هذا كله على خلفية الدور الذى أداه فى شبابه الباكر أيام اتهامه بالاشتراك (مع حسين توفيق وآخرين) فى اغتيال أمين عثمان باشا العضو البارز فى حزب الوفد خلال الأربعينيات، والدور الذى قام به كعضو فى الحرس الحديدى للملك فاروق، حتى انتهى به المطاف إلى دوره فى مجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٢، ومنه إلى تولى رئاسة الجمهورية خلفا لجمال عبدالناصر، قرأت حصيلة هذا التجميع كله، ثم حاولت قدر استطاعتى أن أقيم على أساس صيغة تستوعب شخصية الرجل لعل وعسى أن تساعدنى هذه الصيغة فى مزيد من فهم ما يحدث تحت ناظرى. وإلى القارئ رصد مبسط لرؤياى فى هذا الصدد، فقد رأيت ستة أبعاد رئيسية تنتظم الأفعال وردود الأفعال التى تصدر عن هذه الشخصية:

أولها : سلوك المغامرة إلى درجة تخلّ أحيانا بحسابات المكسب والخسارة.

وثانيها : التعجل، وخاصة بعد الانتهاء من مرحلة اتخاذ القرار، التعجل فى التنفيذ.

وثالثها : شدة الاهتمام بصورته كما تنطبع لدى الآخر.

ورابعها : الإصرار على أن يبدو وكأنه «الزعيم الشامل»، بمعنى القادر على تبنى التوجه ونقيضه (ديمقراطى واستبدادى، ابن بلد وأوروباوى، يقرب المثقفين لا حباً فيهم ولكن على أنهم شر لابد منه...الخ).

القيادة والشخصية

وخامسها : تفضيل الضغط بدلا من المحاجة، فى مواقف التفاعل مع الآخر.

وسادسها : تفضيل التقدم المباشر من خطوة إلى التى تليها، بدلا من التقدم عبر مراجعة المردود، وذلك فى مواقف التعامل مع النفس.

جدير بالذكر أننى أطلت التفكير فى هذه الصيغة قبل أن أقدمها إلى القارئ؛ ومع ذلك فلازلت أرجو أن أتناولها بمزيد من المراجعة والتنقيح.

من العام إلى الخاص :

منذ أن التحقت بالجامعة فى سبتمبر سنة ١٩٤١ وقر فى نفسى أن أفرق بين وجودها المعنوى وكيانها المادى، وكانت هذه التفرقة انبثاقاً جوانياً ولم تأتنى نتيجة لوعظ أو إرشاد. وبقيت على عهدى بها حتى يومنا هذا لذلك لم تستطع كل أنواع العبث التى انصبت على كيانها المادى أن تفسد علىّ إيمانى بقدسيتها، لأنها كانت تطلع على دائماً بوجهها المعنوى وكثيراً ما حدثتنى نفسى فى مواجهة ألوان العبث الهمجي الذى كنت أشهده من حولى مذكرة إياى بقصص من التاريخ الحديث والقديم من شأنها أن تعيننى على اجتياز المحن التى تمتحن بها الجامعة دون أن يهتز إيمانى : كنت أتذكر أنباء الخراب والدمار الذى أوقعه النازيون فى ألمانيا فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى بالجامعات الألمانية، وكنت أذهب أحياناً إلى أبعد من ذلك فأتذكر عدوان جنود الحملة الفرنسية على الأزهر الشريف قبل ذلك بما يقرب من قرن وثلاثين عاما. فهل سقط الأزهر أو وهنت رسالته؟

أم زاده ذلك شرفا على شرف، وسجل بقعة سوداء فى تاريخ المعتدين وقائدهم والنظام الذى أرسلهم وهو يحمل شعار الحرية والإخاء والمساواة؟

وهل اندثرت الجامعات الألمانية أو خبا نورها؟ أم قامت بعد الحرب تنفض الغبار عن وجهها، وتسجل وصمة الخزى والعار على المعتدين الذين رفعوا شعار إعادة الحق إلى الشعب الألمانى، وتسليم صولجان المجد إليه؟

وقد أوقع الرئيس السادات رحمه الله بالجامعات صنوفا متعددة من الأذى (كما فعل كثيرون من قبله). وكان أسوأها فى تقديرى صنفان:

أولهما تحريض التجمعات الطلابية المتطرفة (باسم الدين) على التصدى بأساليبهم (الغوغائية والعنيفة) لإخوانهم من الطلاب ذوى الميول السياسية الاجتماعية المغايرة، بدعوى أن هؤلاء جميعاً شيوعيون كفرة. وقد شهدت الجامعة نتيجة لهذا التحريض أياما

حالكة السواد، لانزال نشهد تداعياتها حتى الآن.

أمـا **الصنف الثـانى** من الأذى الذى حـاق بالجـامـعـة فكان إطلاق الإعارات طويلة المدى لأعضاء هيئة التدريس إلى الدول النفطية (وذلك فى أعقاب تدشين سياسة الانفتاح) بصورة أدت (مع غيرها من أنواع الأذى) إلى إجهاض معظم الآمال فى أن يكون للعلم الجامعى المصرى شأن فى المستقبل القريب.

ولست أريد أن أسترسل فى الحديث هنا عن بند الخسائر الجامعية فى الحاضر والمستقبل، الجدير بالحديث فى هذا المقام أننى كنت أعايش الهم العام كما كان يعيشه مواطنى خارج الجامعة، وكنت أعايشه وهو يزحف بشروره على الجامعة التى هى المدخل الطبيعى إلى عالمى الخاص، وكنت أعى تماماً كل الأخطار المحدقة بنا جميعاً، خارج الجامعة وداخل الجامعة، وكنت أعى فوق هذا وذاك أن عنصر الاستمرار فى العمل الجاد، مقرونا بالمقاومة المعنوية المتجددة لكل ما هو سيئ حولنا هو الأمر المطلوب، وكان تدهور الأحوال من حولى يزيدنى تصميما على مواصلة السير فى طريقى.

كـان العـامـان ١٩٧٥ و١٩٧٦ من الأعوام شديدة الخصوبة فى حياتى الجامعية عامة والبحثية خاصة، فعلى امتدادهما نشرت سبعة بحوث ميدانية فى عدد من دوريات التخصص فى الخارج، وقدمت ثلاث ورقات فى ثلاثة مؤتمرات دولية تحمل إلى أعضاء هذه المؤتمرات نتائج بحوثنا المصرية فى مجال تعاطى المخدرات، وقمت بزيارة أكثر من عشرة أقسام لعلم النفس فى الجامعات الإنجليزية (من مرتبة أكسفورد وجلاسجو وشفيلد) والأمريكية (من مرتبة منيسوتا وشيكاغو وستانفورد) لكى أوفر للقسم الذى أنشأته فى الجامعة أفضل قيادة شكلا ومضمونا. وفى هذه الفترة نفسها أعدت صياغة البرنامج البحثى الذى أتعهده تحت مظلة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بما يكفل له نموا متصلا فى تدريب الكوادر وترسيخ الإنتاج.

وكنت طوال مسيرتى هذه حريصا على ألا تغيب عن بصيرتى أمور بعينها، يأتى فى مقدمتها : أن همى الخاص ضارب بجذوره فى تربة الهم العام، فالهم العام بالنسبة لى هو المنبع والمصب، وأن مفهوم القدوة هو الرابطة العضوية المشروعة بين الخاص والعام فى هذا المجال، وأن عجز العاجز كثيرا ما يتخفى فى ثياب الغضب، وفى هذا المقام لامجال للغضب، وأن الاختيار التزام، فإذا كان الالتزام بالعمل فقد وجبت المثابرة والبصيرة. ■

كتاب مجهول حول الحملة الفرنسية



هدوء المؤرخ من بواعث توفيقه

إنصاف زعيم سياسي ثائر

بقلم

د. محمد رجب البيومي

إن سكينة النفس مطلب ضروري لمن يكتب التاريخ، وإذا كانت هذه السكينة ضرورية في كل عمل يراد نجاحه، فهي في كتابة التاريخ أوجب والزم، لأن المؤرخ قاض يقيم ميزان الحكم العادل بين الناس، وخطؤه يمتد إلى غيره، ولايقف عند نفسه، وقد ذكر الباحثون شروطا خاصة بالمؤرخ نجدها مسطورة فى كتب البحث التاريخى ولكن سكينة المؤلف أولى بالتقديم من هذه الشروط جميعها، فبدونها تنحرف كفة الميزان .



لقد كان الأستاذ الكبير أحمد حافظ عوض من أعلام الثقافة فى النصف الأول من القرن الماضى ، فقد كان صاحب جريدة كوكب الشرق التى تنطق بلسان أكبر حزب سياسى . كما كان عضوا فى مجالس النواب ، وعضوا بالمجمع اللغوى ومشاركا فى كثير من الهيئات العلمية هذا إلى جهاده الصحفى الأول فى عهد الخديوى عباس ، ثم مكانته فى القصر الخديوى ، ومثله لا يغيب عن ذاكرة المثقفين، وقد أصدر عدة كتب تربوية وتاريخية كان أهمها كتابه الشهير « فتح مصر الحديث » وقد استقبل استقبالا حارا حين صدوره فى سنة ١٩٢٥ ، وكتب عنه النقاد والمقرظون ما أعلى مكانته . وكان بين هؤلاء أمير الشعراء أحمد شوقى الذى حيّاه بقصيدة عامرة ، قال فيها مخاطباً المؤلف الكبير :

لك فى الفتح وفى أحداثه
فتح الله حديثاً وخطابا
من يطالعه ويستأنس به
يجد الجد ولا يعدم دعابا
صحف ألفتها فى شدة
يتلاشى دونها الفكر انتهابا
لغة الكامل فى استرساله
وابن خلدون إذا صح وصابا!
وقد طالعت الكتاب منذ أمد

محمد كريم



بعيد ، ثم عنّ لى أن أرجع إليه فى تحقيق حادث تاريخى ، فوجدت الكتاب فى القراءة الثانية يرتعش بين يدى ارتعاشاً ، وجعلت أنكر منه الكثير من أحكامه ، وأعجب لنفسى كيف فاتنى هذا فى القراءة الأولى ، والمؤرخ نابه جليل القدر ، يدفعنى مقامه الأدبى إلى أن أنكر نقدى قبل أن وجعلت أنكر نتائجه ولكنى عاودت القراءة وأمعنت فوجدت أن شوقى رحمه الله قد وضع يده على المفتاح الدقيق حين قال :

صحف ألفتها فى شدة
يتلاشى دونها الفكر انتهابا
شدة شتتت الفكر

وإذن فقد ألف الكتاب فى شدة حاقت بالرجل ، فشتتت بعض أفكاره ، ومن الذى لا تداهمه الفجاءات بما يعصف بآرائه فى مهب القلق والاضطراب ، وهذه الشدة قد أفصح عنها المؤلف الكبير حين قال فى مقدمة كتابه :

« كانت صلتى الشخصية والعمومية بسمو الخديوى السابق عباس حلمى باشا معروفة ، ولها فى تاريخ مصر السياسى صحيفة ذات قيمة عظيمة ، لم يحن بعد أوان نشرها ، فكان من مقتضى هذه العلاقة أن يصيبنى رشاش من النكبة التى أصابته بفقدان عرشه وملكه ، ففقدت كل ما لدى ، وكل عمل أتكسب منه .. واخترت العزلة مع التلطف والاحتيال ، وانتقلت بأسرتى إلى الأسكندرية ، وقضت السلطة العسكرية الانجليزية ألا أبرح ذلك الثغر ، وأن أظل تحت إشرافها وسيطرتها ، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه على الخلاص من النفى والاعتقال ، ومع أنى كنت فى بيتى مع زوجى وولدى فى مدينة واسعة الاكناف ، إلا أنى كنت مع هذا أقاسى آلام الاعتقال والضغط على الحرية ، ورضوخى للاستبداد ، فكان تأليف هذا الكتاب مما يساعد على قطع رقبة الفراغ بسيف العمل » .

فى هذه الحالة النفسية الحرجة ألف المؤرخ كتابه، وكان مزاجه المنحرف يلقى به أحيانا أمام مرآة شاحبة لاتظهر الصورة على حقيقتها ، فيحكم عليها وفق ما ران عليها من شحوب نقلها من الحسن إلى الدمامة ، ومن هنا وقع فى أحكام مخطئة لا يستطيع مثلى مناقشتها نظرا لعدم تخصصى فى هذا الخضم الفسيح ، ولكن من البدهيات الواضحة ما يعلمه المثقف وإن لم يكن متخصصا ، وقد حز فى نفسى أن يكون الزعيم الوطنى الكبير السيد محمد كريم أحد هؤلاء الذين شوهت المرآة الشاحبة صورتهم المضيئة والرجل مصرى صميم، كافح وجالد ، حتى رزق الشهادة على أيدى المجرمين من أعدائه: فكيف يتحدث عنه الكاتب الكبير بما هو غريب وعجيب ؟!

يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض ص ٩٧ :

« لما أنزلت الجنود الفرنسية في البر ليلا ، وفي تلك الليلة القمراء أسرع بدوى على فرسه ، بالسير إلى الأسكندرية وأبلغ الخبر السيد محمد كريم ، ومن يدرى كيف كان ؟ وأين كان في تلك الساعة مع سراريه وأخدانه؟ على نحو ما ألف أهل ذلك الزمن من الترف والنعيم » .

طعنة غير مستحقة

هذه أول طعنة وجهت للرجل ، إذ هو لم يكن حاكما شركسيا أو أغا تركيا حتى يكون من أهل الترف والنعيم ولكنه كان المصرى ، الأوحد مَنْ بين حكام الأقاليم، وقد بلغ هذه المرتبة بكفاح مستميت لفت إليه نظر مراد بك فراه وحده أصلح محافظ يقوم بأعباء الثغر ! وقد نشأ «قبانيا» يزن البضائع فى الجمرك وسمت به همته إلى أرفع منصب سياسى فى الإسكندرية: ولم يشأ أن يستكين للعدو، ولكنه قاوم وناضل قدر المستطاع، وأكتفي بعبارات قالها الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بمقال نشره بمجلة (المجلة) أكتوبر سنة ١٩٦٠ عن السيد محمد كريم قال فيه :

« على أن السيد محمد كريم حاكم المدينة االوطنى استعد للكفاح والنضال، وبث فى نفوس المواطنين روح المقاومة فلبوا نداءه واحتشد الأهلون الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج للدفاع، وحين رأى نابليون الأهالى صغاراً وكباراً بأعلى الأسوار، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، أصدر أمره بالهجوم العام، واستمر المواطنون يطلقون النار فى الشوارع، وكاد نابليون يصاب فى زقاق ضيق برصاصة قاتلة ، لولا الحظ الذى نجاه، وبعد أن احتل الفرنسيون المدينة كف المواطنون عن المقاومة مذعنين لحكم القوة، وظل السيد محمد كريم معتصما بقلعة قايتباى ومعه فريق من المقاتلة إلى أن كلت قواه، فكف عن القتال!

يقول الأستاذ الرافعى « وبدا الفرق واضحا جلياً بين موقفه من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وموقف أمين أغا حاكم الاسكندرية التركى من الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ حيث سلم المدينة للانجليز بدون حرب أو قتال فدخلوها دون أن تطلق رصاصة واحدة» .

أيقال بعد هذا أن الرجل العظيم كان غارقاً بين سراريه وجواريه على نحو ما ألف هذا الزمان!

بعد هذا إن الرجل العظيم كان غارقا بين سراريه وجواريه ، على نحو ما ألف هذا الزمان !.

هذه واحدة !.

موقف مغلوط

أما الثانية فلا أدرى كيف أتحدث عنها ، إذ هى من الغرابة بمكان يستبعد أن يتخيله متخيل ، ولكنها بعض ما تورط فيه الرجل الكبير من أحكام ! أرأيت لو اقتحم منزلك؛ لص مسلح ، وأنت أعزل ليس لديك ما تدافع به عن نفسك ، فعرض عليك أن تنجو بروحك ولا تعارضه فى اغتصاب منزلك ، ثم خرجت فجمعت



الناس للأخذ بحقك ! أفتكون غادراً لم تصن العهد ، أم أنك تدافع عن حقك المغصوب ، ومنزلك المسلوب ؟!

لقد أراد نابليون أن يستميل محمد كريم إلى صفه ، ليكون عونا له في احتلاله فعينه محافظا للاسكندرية أملا أن تهدأ نفسه بعد نوال هذا المنصب الذي كان يتمتع به وحرم منه، فلم يقدر محمد كريم على الرفض العلني وأظهر القبول ، مصمما بينه وبين نفسه أن يكون حربا على العدو الغاصب ، فراسل رجال المقاومة المصرية في رشيد ودمنهور ومراكز البحيرة . وكتب إلى القاهرة يستفزها إلى المقاومة ، وجهز الأسلحة التي يحارب بها المواطنون ، وكل ذلك بطولة شريفة . تعرض الرجل للإعدام ، ولكنه لم يتخوف العاقبة إذ كان تحرير الوطن دينا في عنقه ! هذه البطولة الشريفة ماذا قال عنها الأستاذ أحمد حافظ عوض ؟ إنني لا أصدق عيني وأنا أنقل من كتابه هذه السطور ص ١١٤ .

« لكن السيد محمد كريم هذا ، على الرغم من المعاملة الحسنة، وتلطف نابليون في مخاطبته وثقته به ، لم يحفظ للفرنساويين حرمة ، ولم يرع لهم عهدا ، وكان كعادة أبناء جنسه وزمنه ، وكعادة أبناء وطنه ، لا يثبتون على رأى واحد فبينما هم مع هؤلاء ، إذ هم مع أولئك ، عذرهم في ذلك قصر نظرهم ، وخوفهم من التقلبات زيادة عما ربوا عليه من أثر المذلة والمسكنة وضعف الإرادة إذ وجد الفرنسيون معه بعد ذلك ، مكاتبات بعث بها إلى مراد بك يحرضه على الغارة على الأسكندرية فجاءوا به من الثغر ذليلاً، ومثلوا به تمثيلا » .

ذم في غير موضعه

أفيكون تهيئة النفوس لمقاومة المحتل الغاصب نتيجة لما تربى عليه محمد كريم من الذلة والمسكنة ، وهو يحمل لقب (السيد) مثل السيد عمر مكرم تماماً ، معناه في هذا العصر أنه شريف ينتمي إلى البيت العلوى الكريم ، إن لم يكن ينتمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أورثه هذا الشعور حمية تأبى الضيم ، وتذكره بمصارع أجداده منذ الحسين ومن تلاه من مئات الشهداء الذين كتبت عنهم المؤلفات الخاصة مثل كتاب (مقاتل الطالبين) لأبى الفرج وغيره! ألم أقل أن المؤلف كان في حاجة إلى سكينة مطمئنة تظهر بها الواقف في مرآة ذات صفاء !

أما استشهاد (السيد محمد كريم) فقد تحدثت عنه روايتان مختلفتان رواية ذكرها الحاج عبدالله براون المستشرق الانجليزى إذ أبدى إعجاباً كبيراً بموقف السيد، وقال إنه أبى دفع الفدية ، ومات شهما مقداما، ورواية ذكرها الجبرتي تفيد أنه توسل للمصريين أن ينقذوه بمال الفداء ، وقد أتى الأستاذ عبدالرحمن الرافعي بالمنطق الفصل في ترجيح رواية براون التي نقلها عن المسيو بورين فقال :

« لو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها ، ولكنهم ذكروا في كتاباتهم رواية (بورين) وهو فرنسي شاهد إعدام الرجل بعينه ، وسجل ما سمع ورأى ، وعنه نقل المستشرق الانجليزي براون ، ثم يقول الرافعي : ومن جهة أخرى فإن رواية بورين ترجح رواية الجبرتي لأن الجبرتي لم يكن شاهد عيان، بل كان منزويا في بيته بالصنادقية في ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بورين فقد شهد الواقعة ، ويقول في مذكراته إنه هو الذي أوعز إلى المسيو فانتور أن ينصح السيد محمد كريم بدفع الغرامة فأبى دفعها » .

لقد وقف الأستاذ أحمد حافظ عوض موقف المستنكر لرواية براون وقال ما نصه:

« ولصاحبنا المرحوم الحاج عبدالله براون الانجليزي المستشرق في كتابه (بونابرتة في مصر) إعجاب بالسيد محمد كريم وقال عنه إنه أبى دفع الفدية ، ومات شهماً مقداماً !! وما أدري على من اعتمد في هذه الرواية ومصدره الوحيد الجبرتي وهو يقول أنه تذلل !

لقد أبى الأستاذ أن يقبل رواية براون التي تعلي من شأن السيد كريم وتساءل من أين أتى بهذه الرواية ومصدره الوحيد هو الجبرتي، وها نحن نقرر أنه جاء بها من مصدر فرنسي كان شاهد عيان، ولم يكن من شأنه أن يكيل المدح جزافا لعدد من عداة الفرنسيين، ولكنه وجد نفسه أمام حقيقة لا يستطيع إنكارها، فدونها كما شاهدها بعيني رأسه، وسمعها بأذنيه!

وكان الرافعي أبعد نظرا حين رجح روايته، وقال إنها أدعى إلى الثقة وأقرب إلى الواقع .

استخفاف بالمصريين

أكرر ثانية أني لا أجحد إخلاص المؤلف فيما انتحاه ، ولكني آخذ عليه استخفافه بنفر من كرام المصريين ، قد أدوا أمانة الوطنية أحسن الأداء ، ولم يظهر هذا الاستخفاف في حديثه عن السيد محمد كريم وحده بل تعداه إلى جماعة المجاهدين الذين رفضوا الاذعان لنابليون حين فرض الضرائب الفادحة ، وأزال بوابات المنازل ، وقتل مئات الأرواح مع هتك الأعراض التي أثارت الدم في العروق ، فقامت الثورة الجائحة المعروفة بثورة القاهرة ، وتوسط العلماء بين الثائرين وذوي الأمر فلم يستطيعوا إقناع المندفعين ، فأصدر نابليون أمره بإطلاق المدافع على الجامع الأزهر وما جاوره من أماكن المواطنين في الغورية والفحامين والباطنية ، يقول الجبرتي حينما نزلت هذه الأهوال .. « فلما سقط عليهم ذلك ، ولم يكن في عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام ياخفي الألطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق، ودخلوا في الشقوق».

هذا ما نقله الأستاذ أحمد حافظ عوض عن الجبرتي ثم عقب عليه بقوله ص ٢٤٨ .

« ولا يكاد الإنسان يقرأ عبارة الجبرتي التي نقلناها حتى يشعر بشئ من الاستهزاء أو الضحك الذي هو أشبه



بالبكاء لسخافة أولئك القوم، وتصورهم إمكان مقاومة الفرنساويين، وهم عزل من السلاح محصورون من جميع الجهات!».

مؤرخ مصري بضحك ويستهزئ سخافة من الذين يرفضون الإذعان للعدو المحتل وهم عزل من السلاح! ألا يمكن أن يكون التعليق غير ذلك إذا كان يرفض المقاومة فيقول: «هؤلاء قد اشتعلت الحمية الحادة في صدورهم، وظنوا أنهم قادرون على رد الطغيان، فجاء الواقع بغير ما يأملون، وذهبت أرواح الشهداء ضاربة المثل في الصمود والتحدي دون مبالاة!

وأنا أعرف أن المؤلف قد قرأ كتاب الجبرتي وفحصه كما يقول في المقدمة، ولابد أنه ألم بثورات العلماء المتعددة أمام طغيان المماليك تارة، وأمام تسلط الوالي التركي تارة أخرى ثورات متعددة ذكرها الجبرتي، ولكن المؤلف يجزم في ص ٤٧ بأنه لم يسمع في كل هذه المدة (مدة ما قبل الحملة الفرنسية) بوجود حركة تذمر إلا مرة واحدة قام بها الشيخ الشرقاوي لرد اعتداء وقع على أرضه في الشرقية سنة ١٢٠٩هـ، مرة واحدة: يا أستاذ أحمد!

مواقف مجيدة

إن الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد أبو حديد صدر كتابه (سيرة السيد عمر مكرم) ببحث ضاف تحت عنوان (جهاد شعب مصر في سبيل حقوقه في القرن الثامن عشر) أكد فيه تحفز الشعب لاسترداد حقوقه وحرياته في أزمان متوالية، ففي سنة ١٧٠٢ تحرك أهل الأسواق من أجل تزييف النقود، واجتمعوا بالأزهر، وشكوا أمرهم إلى العلماء، فركبوا إلى الديوان وألزموا الباشا بما يجب من مراعاة المصلحة العامة، وتم ذلك فعلا.

وفي سنة ١٧٣٥، ألزم الراعي أتباعه بإبطال المرتبات التي تصرف في وجوه البر والإحسان استجابة لأمر السلطان، فقامت المعارضة الشديدة، وتزعمها الشيخ سليمان المنصوري، ورد على الوالي بما يبطل أمر السلطان، ودار نقاش حاد انتهى بإعادة المرتبات الخيرية.

ثم ذكر الأستاذ أبو حديد أعلاما من الشيوخ حاربوا الفساد في عهد على بك الكبير ومنهم ابن النقيب والشيخ على الصعيدي، والشعب من ورائهم يشد أزرهم.

وفي عهد مراد وإبراهيم تكرر الاعتداء على مال الوقف، فقام الشيخ الدرديري بمظاهرة كبرى ردعت الظالم وانتهت بكتابة قانون يحفظ الحقوق ويرد المغتصب عن إعتدائه. وقد وقعه العلماء والأمراء.

كما أشار الأستاذ إلى مواقف مماثلة - نقلها عن الجبرتي - كان من أبطالها الشيخان العروسي والدرديري حتى اضطر ابراهيم بك الوالي المتجبر إلى الذهاب للشيخ البكري وجماعة من العلماء

(وتصاغر جداً وأخذ يبكى) لينهوا الرعية عن الثـورة ، على أن يرجع عن مظالمه وقد كان ، فليت شعرى ألم يقرأ المؤلف شذورا من هذه الانتفاضات الصارخة ، إذ يقـرر أن الشعب لم يثر غيـر مـرة واحدة من أجل الشيخ الشرقاوى !.

التماس الهفوات

على أن من أغرب مادونه المؤلف عن الشيخ الشرقـاوى أنه كتب خطابا وقع فيه خطأ نحوى ، ورسم صورة شمسية للخطاب ، والذى يقـرأ الخطاب ، يجـده مختوماً بهذه العبارة (من عند الشـيخ الشرقـاوى) وواضح أن الشيخ لم يكتب بخطه ، وإنما أشار بتوصـيـة كـتـبـهـا صاحب الشفاعة ! والعبارة المخطئة هى (وأنتم لا تحبوا ذلك) فهل كان شيخ الأزهر يجـهل مـا يـعـرفـه تلميـذ الصف الرابع فى المدارس الابتـدائيـة من أن الأفعال الخمسة ترفع بثبوت النون، ألم يقرأ الأستاذ أحمد حافظ عوض ما قاله الجبرتى فى ترجمته للشرقاوى من أنه ألف كتبا كثيرة منهـا حاشيته على التـحـرير فى أجـزاء ، وشـرح العـقـائد المشـرقـيـة، وشـرح الحكم لابن عطاء، وشرح بعض مسـائل الأصول فى جمع الجوامع، ومـخـتـصـر المغنى فى النحـو وغيـرهـا! أفـيـتـرك العـلامـة الكبير هذه الآثار الدقيقة فى علوم عويصة ثم يعجزه أن يعـرف أن الأفـعـال الخـمـسـة ترفع بثبوت النون ليجئ المؤلف فيتهكم به !

لقد بلغت الآن ما أريد تقريره من أن هدوء الأعـصـاب ، وراحـة النفس مما يسـاعـد المؤرخ على اجـتـلاء الحـقـائق والحكم عليـهـا حكمـا سديدا ، كـمـا أن تبلبل الفكر ، واضطراب الخـواطر مما يباعد بين المؤرخ واجتلاء الحقائق على وجـهـهـا الصـحـيح ، إذ للأسـتـاذ الكبـيـر أحـمـد حـافظ عـوض كـتـب شـتى نالت إعجاب الدارسين ، ومنها كتابه الشـهير (من والد إلى ولده) ومقـالاته السـيـاسـيـة التى عـاصـرت النشـاط السـيـاسـى نحـو قـرابة نصف قـرن ، وله فى دار الكتب المصرية كتاب مخطوط تحت عنوان (آثار أقـدام فى الرمـال) تحـدث فـيـه عن مشاهداته فى القصر الخديوى أيام كان ذا شأن فى المعية الخديوية، ولم يشأ أن يطبعه لأنه قد يثير ببعض حقائقه ما لا يرضى حكام الأمس، وقد قـال الأسـتـاذ عباس محمود العقـاد فى حفلة تأبينه بمجمع اللغة العربية (كـان فى طليـعـة الرواد المصريين لفن القصة الاجتماعية، وكان له نصيب مشكور فى القيـام على عهد الخضرمة بين مرحلتى التـقليـد والتجـديد، وسهم مـذكور فى التـعـريف بتاريخ هذه الأمة ردحا من الزمان ينبئها إلى تاريخها فى بعض الأدوار ، وأنه زود العربية بذخيرة من المفردات لا غنى عنها للألسنة والأقلام ، والجانب الانسانى فيه جدير بالتحية والذكر لأنه جانب الرجل الأريحى الذى انتزع من اليتم أبوة بارة يشمل بها كل من شاء أن ينتفع بعطفها وهدايتـهـا ، وهذه شـهـادة العقـاد ، ومـا بعدها من مزيد. ■

أزمة الأحزاب السياسية في مصر

بقلم
د. مصطفى كامل السيد
أستاذ العلوم السياسية - مدير مركز بحوث
ودراسات الدول النامية - جامعة القاهرة

كشفت انتخابات مجلس الشعب الأخيرة في أكتوبر ونوفمبر سنة ٢٠٠٠ عن الهزال الكبير الذي أصاب الأحزاب في الحياة السياسية في مصر.. ففي الواقع، اكتسح المرشحون الذين تقدموا باعتبارهم مستقلين - رسمياً أغلبية المقاعد، حتى وإن قيل أن كثيرين منهم انضموا بعد إعلان نتائج الانتخابات إلي الحزب الوطني الديمقراطي، وانطبق ذلك علي كل من الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة، فقد تفوق المرشحون المستقلون المعارضون علي أي من أحزاب المعارضة منفردة بل إن عدد مرشحي المعارضة المستقلين الفائزين قد تساوي مع عدد مرشحي المعارضة الحزبيين الناجحين، ومن ناحية أخري فإن عدد المرشحين المستقلين قد فاق بكثير عدد المرشحين الحزبيين بدرجة كبيرة، وهذا وضع غريب، في نظام سياسي يوصف بأنه نظام يقوم علي تعدد الأحزاب.

ضياء الدين داود — خالد محيي الدين



والواقع أن تفوق المرشحين المستقلين الحزبيين في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة والذي أوضحته الأرقام لم يكن إلا مظهراً واحداً لأزمة الأحزاب السياسية في مصر .. فقد بلغ إجمالي المرشحين المستقلين، سواء من يقال أنهم ترشحوا على مبادئ الحزب الوطني (١٦٨٠) أو من كانوا مستقلين تماما، (١٣٥٤) أكثر من ثلاثة آلاف مرشح (٣٠٣٤) أو أكثر من ثلاثة أرباع المرشحين (٧٦.٦٪). وقد حصل هؤلاء المستقلون على ٢٣٢ مقعداً أي الأغلبية المطلقة للمقاعد في مجلس الشعب بحساب كل من المقاعد المنتخبين والمعينين على حد سواء، وذلك قبل إعلان وزير الداخلية عن انضمام معظم هؤلاء المرشحين المستقلين إلى الحزب الوطني الديمقراطي لترتفع أغلبيته بذلك إلى ٣٨٨ عضواً بنسبة ٥٨.٥ من إجمالي العضوية.

وقد تحدث المراقبون السياسيون عن هذه الأزمة، وأطلقوا عليها تسميات عديدة، منها تصلب شرايين الأحزاب السياسية، أو ضمور الأحزاب السياسية.

ويمكن أن يجد المراقب من مظاهر الأزمة الأخرى أن الأحزاب السياسية في مصر لا تستوعب أولا كل القوى السياسية الفاعلة في البلاد. ففي الوقت الحاضر وبعد التجميد الفعلي لنشاط حزب العمل الاشتراكي، على الرغم من قرارات قضائية ببطلان هذا التجميد، فإن حركة الإخوان المسلمين والتي كانت تنشط من خلال هذا الحزب لا تجد غطاء حزبيا قانونيا آخر لحركتها، صحيح أن قادتها ينشطون من خلال نقابة المحامين في الوقت الحاضر، وبعض نوادي هيئات التدريس الجامعية، كما أنهم موجودون في مجلس الشعب، ولكنهم محرومون من الوجود الحزبي، على الرغم من أنهم بثقلهم الانتخابي أقوى من أي حزب معارض كما ظهر ذلك أثناء انتخابات مجلس الشعب الأخيرة وعلى الرغم من كل القيود والمضايقات التي تعرض لها مرشحوهم وأنصارهم، كما أن بعض قوى اليسار الماركسي محرومة أيضا من الوجود الحزبي، حتى وإن كان ثقلها الانتخابي أقل بكثير من الثقل الانتخابي للإخوان المسلمين وغيرهم من القوى الإسلامية التي تسعى لكي يكون لها إطار قانوني مثل بعض قيادات تنظيم الجهاد التي تسعى الآن لتكوين حزب باسم حزب الشريعة، وعدم احتواء النظام الحزبي لهذه القوى الفاعلة في المجتمع يقلل بكل تأكيد من درجة تمثيله لما يموج في المجتمع من تيارات فكرية وسياسية.

ويرتبط بهذا الجانب في أوجه ضعف النظام الحزبي في مصر أنه يبدو منقطع الصلة بالقوى الاجتماعية، فكل الأحزاب السياسية تتحدث باسم الوطن ولكن تكون لها عادة قاعدتها الاجتماعية التي تتوجه إليها وهي الأقرب إلى ما تطرحه من أفكار، حزب المحافظين

نعمان جمعه



أحمد الصباحي





البريطاني يتوجه أساسا إلى الطبقة المتوسطة والحزب الجمهوري فى الولايات المتحدة يوجه خطابه إلى الطبقة المتوسطة ، بينما يوجه الحزب الديمقراطى خطابه إلى الطبقة العاملة والأقليات من المواطنين ذوى الأصول الإفريقية والإسبانية. أما الأحزاب المصرية، فباستثناء حزبى التجمع والعربى الناصرى، فإنها تتوجه إلى جميع المواطنين بلا استثناء، وبدون التركيز على فئات محددة منهم، وبذلك يضيع خطابها ويصبح بلا أثر على أى منها.

أحزاب محدودة العضوية

ولهذا السبب، تصبح الأحزاب المصرية محدودة العضوية، والحديث عن عضوية الأحزاب المصرية هو ضرب من التخمين لأن هذه الأحزاب لا تحتفظ ببيانات عن العضوية. وإذا تصادف واحتفظ بعضها بهذه البيانات فإنها لا توفرها للباحثين. وأقل هذه الأحزاب استعدادا لتوفير أى بيانات للباحثين هو تحديدا الحزب الوطنى الديمقراطى وذلك عن تجربة، ومع ذلك يمكن المخاطرة بالقول بأن العضوية الرسمية لهذه الأحزاب جميعا قد لا تتجاوز مليونين من الأشخاص ، وهو عدد ضئيل للغاية لا يزيد على عشر (١٠٪) من لهم حق الانتخاب رجالا ونساء، والأدهى من ذلك، أن عضوية الأحزاب أخذت فى التقلص، وهذا أمر مؤكد وخصوصا بالنسبة لكل من حزبى الوفد والتجمع، وقد أشار إلى ذلك قادة هذه الأحزاب الذين ألتقى بهم كاتب هذه السطور.

والسمة الرابعة لأزمة الأحزاب السياسية فى مصر هى أن وجودها يكاد يكون مقصوراً على العاصمة وبعض المدن الكبرى وخصوصاً فى الوجه البحرى ولكن نادراً ما يكون لها وجود خارج هذه المدن الكبرى أو أن تنشط فى الريف أو فى الوجه القبلى، يكفى أن يقرأ المتشكك فى صحة هذه الملاحظة صفحة النشاط الحزبى فى أى من الصحف الحزبية ليدرك أين تعقد الندوات، وأين تجرى الاجتماعات، وأين يذهب قادة الحزب، صحيح أنه يمكن أن يكون هناك نشاط لحزب من الأحزاب خارج العاصمة، ولكنه يعتمد كثيرا على المواقع التى يوجد فيها أقارب لرئيس الحزب وأيضا لعائلته، ومن ثم فإن نجاح رئيس الحزب فى الانتخابات لا يقترن بالتأييد لأفكار الحزب، وإنما يعتمد على ما لعائلته من «عصبية» فى دائرة من الدوائر ، حتى ولو كان حزبه يرفع أكثر البرامج ابتعاداً عن الطائفية والعصبية.

والسمة الخامسة لأزمة الأحزاب السياسية فى مصر هى غياب المساءلة داخلها فعلى الرغم من خطورة الانتكاسات التى مرت بها جميعا، حزبا حاكما وأحزاب معارضة، إلا أنه لم تجر مساءلة أى من قادتها عن هذه الانتكاسات ، فكل قادتها مازالوا يتربعون على مناصبهم التى يشغلونها منذ سنوات طوال.. تزيد على عقدين فى بعض الحالات.

ومن السهل بطبيعة الحال على قادة أحزاب المعارضة أن يتهموا الحكومة بالمسئولية عن ضآلة مكاسبهم الانتخابية ومن السهل على قادة الحزب الوطنى



الديمقراطى أن «يغطوا» على «هزائمهم» الانتخابية بتحول المرشحين المستقلين الذين رفضوا هم ترشيحهم على قوائم الحزب الوطنى الديمقراطى قبل الانتخابات إلى صفوف هذا الحزب بعد الانتخابات ومن ثم فلا داعى فى رأيهم لأى مساءلة . ولو كان هناك رأى عام داخلى قوى فى أى من هذه الأحزاب لوجب مساءلة كل هؤلاء القادة.. وغياب هذه المساءلة هو عرض آخر لأزمة الأحزاب السياسية.

خيانة أخلاقية للناخب

والسمة السادسة للأزمة هو كثرة الإنشقاقات داخل الأحزاب السياسية وسهولة التحول من حزب إلى آخر ، ولعل أخطر مظاهر هذه السمة هو خوض الانتخابات بصفة المرشح المستقل ثم الانضمام إلى حزب معين، هو غالبا الحزب الحاكم بعد إعلان نتيجة الانتخابات، صحيح أنه ليس هناك ما يحول قانونا دون عمل ذلك، وأن المواطنين لا يعربون عن رفضهم لهذا السلوك، ولكن يفترض ان التصويت هو تعاقد بين المواطن والمرشح بصفته التى خاض على أساسها الانتخابات ومن ثم لا ينبغى على المرشح الفائز أخلاقيا أن يغير هذه الصفة، وإلا أصبح ذلك خيانة أخلاقية للناخب الذى أعطاه صوته على أساس هذه الصفة.

وأخيراً فلكل هذه الأسباب انصرف المواطنون عن الأحزاب السياسية وأصبحوا فى معظمهم لايعيرونها اهتماما، ولا يتابعون أنشطتها، ولذلك دلائل عديدة.

فقد انخفض توزيع الصحف الحزبية، فلم يعد أى منها يصل إلى رقم المائة ألف نسخة والذى تجاوزته فى بعض الأوقات صحيفتا الشعب والوفد، وتجاوزتها فى هذا الصدد صحف غير حزبية توصف بأنها مستقلة مثل الأسبوع والنبأ، ولم تعد الأنشطة الحزبية تجتذب الكثيرين وقل ان يحضر أى ندوة حزبية تعقد فى المقر الرئيسى للحزب بالعاصمة عشرات من الأعضاء إلا إذا كان المتحدث شاعراً أو نجما سينمائيا ، وأدركت الأحزاب أن نجاحها فى الانتخابات لا يتوقف على برامجها ، فلم تجدد فيها، بل صارت فيها شر هزيمة وحفرت فيها قبرها، أو النظم الاشتراكية التى لم تجد الوسيلة للإدارة السلمية لهذا الصراع حتى بين الطبقات التى توصف بأنها صاحبة مصلحة فى الاشتراكية.

والوظيفة الثالثة للأحزاب السياسية هى المشاركة فى صنع السياسات العامة وذلك سواء تولت السلطة التنفيذية بنجاحها فى الانتخابات الرئاسية أو سيطرت على السلطة التشريعية بنجاحها فى انتخابات المجلس النيابى، وتقترن هنا سيطرتها على السلطة التنفيذية بطبيعة الفصل بين السلطتين وهو ما يحدده الدستور السائد فى كل دولة، ولكن فى أى من الحالتين تساهم الأحزاب فى تشكيل السياسات العامة سواء فى الحكم أو فى المعارضة ، بل وحتى إذا لم يكن لها وجود فى المجالس النيابية ، فإنها تستطيع من خلال التأثير فى الرأى العام أن تطرح القضايا، وأن تصوغ الاقتراحات التى يمكن أن يقتبسها صانع القرار.

مدرسة للعمل السياسى

والوظيفة الرابعة للأحزاب السياسية هى أن تعكس اتجاهات الرأى العام فى



بلادها، وهذه وظيفة مستقلة عن المشاركة فى صنع السياسة العامة، فالمهم هنا أن يظهر لصانع السياسة العامة أن هناك تيارات قوية قد تختلف معه بشأن قضايا معينة، وانه لا يوجد إجماع قوى حول مواقف معينة وقد لا تشكل هذه التيارات مدخلاً فى صنع القرار، ولكنها تمثل مع ذلك أحد المعطيات العامة التى لابد وان يأخذها صانع القرار بعين الاعتبار، فالأحزاب الإسلامية في باكستان مثلا لم تشارك فى صنع القرار الخاص بالسماح للقوات الأمريكية باستخدام قواعد جوية معينة فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة ضد نظام طالبان في افغانستان، ولكنها كانت تعكس تياراً مهما للرأى العام فى باكستان . وحزب الخضر فى ألمانيا واصل اعتراضه على قرار الحكومة الألمانية بتأييد الحملة العسكرية الأمريكية ضد نظام طالبان ، ولكنه كان يؤدى وظيفة مهمة إذ عبر عن شعور قطاع مهم من الشعب الألمانى كان يستهجن هذه الحرب.

كذلك فمن بين الوظائف المهمة التى تقوم بها الأحزاب السياسية انها تدرب المواطنين على العمل السياسى، من ثم فإنها تصبح بمثابة مدرسة للعمل السياسى، ولذلك نجد فارقا كبيرا فى نوعية القيادات السياسية بين الدول ذات الأحزاب السياسية القوية والعريقة والدول ذات الأحزاب السياسية الضعيفة ، والمقارنة هنا واضحة بين أوروبا الغربية التى تتميز بأحزابها القوية والولايات المتحدة التى يقتصر دور الأحزاب فيها على تنظيم المنافسة الانتخابية ولذلك تبدو القيادات السياسية الأوربية أكثر نضجا وتمرسا وأكثر معرفة بواقع العالم بالمقارنة بالقيادات السياسية الأمريكية.

وأخيرا فلعل من أهم الوظائف الأخرى التى تقوم بها الأحزاب هى تلك الخاصة بترشيد الاختيارات السياسية للناخبين وتهدئة اجواء المعارك الانتخابية فالأحزاب السياسية «الناضجة» تنقل المعارك الانتخابية الى أرضية البرامج والأيديولوجيات بعيدا عن أرضية الطائفية والعصبية الدينية، ومن ثم فالمعارك الانتخابية فى الدول التى استقرت فيها النظم الحزبية هى أقل عنفا بكثير من تلك التى لم تستقر فيها النظم الحزبية، وعدد القتلى والمصابين فى المعارك الانتخابية التى يسود فيها الولاء الحزبى هو أقل بكثير من عدد القتلى فى المعارك التى يسود فيها الولاء القبلى أو الطائفى أو العنصرى أو الدينى، فأين الأحزاب السياسية المصرية من أداء هذه الوظائف؟!.

وظائف الأحزاب السياسية المصرية

توضح قراءة الدراسات المختلفة عن الأحزاب السياسية المصرية فى فترة التعدد الحزبى الثانية – والمقيد - والمراقبة الوثيقة لهذه الأحزاب تفاوتا فى أداء هذه الوظائف، ويمكن القول أن عددا محدودا منها لا يتجاوز الخمس يمثل بالفعل تيارات واضحة وفاعلة فى المجتمع المصرى، سواء كانت هذه التيارات داخل هذه التيارات فقط أم داخلها وخارجها أيضا، وهى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم وحزب الوفد الجديد ذو الاتجاه الليبرالى الاقتصادى وحزب التجمع الذى



يميل إلى اليسار وحزب العمل الاشتراكى الذى أصبح يرفع راية الاسلام السياسى والحزب العربى الديمقراطى الناصرى، أما الاحزاب الاحد عشر الأخرى فبعضها يقترب من هذه الأحزاب والبعض الآخر ليست له هوية محددة أو لا يتمتع بأى ثقل انتخابى بين المواطنين.

ومن حيث بدائل السياسة العامة يمكن القول انه لا يوجد ثمة فارق فى السياسة الاقتصادية بين الحزب الوطنى الديمقراطى وحزب الوفد الجديد وفيما يتعلق بالحريات السياسية فقد تآكل الفارق بينهما بتجاهل حزب الوفد الجديد التصدى للعديد من انتهاكات الحقوق المدنية والسياسية أخيراً ربما تصوروا لأن الدفاع عن ضحايا هذه الانتهاكات مثل نصر حامد أبو زيد وسعد الدين إبراهيم سوف يفقده قدرا من الشعبية.. بينما تميل احزاب التجمع والعربى الناصرى والعمل إلى الحفاظ على القطاع العام وتتحفظ على الترحيب بالاستثمارات الأجنبية - إلا إذا كانت اسلامية فى حالة حزب العمل - وتدعو إلى الابقاء على الدور القائد للدولة فى عملية التنمية، وهى عموما مع إطلاق الحريات العامة، وإن كان حزب التجمع أوضحها فى هذا المجال، بينما يولى حزب العمل الأولوية لتطبيق الشرعية الإسلامية.

وتلتقى أحزاب المعارضة الرئيسية حول الدعوة إلى إلغاء حالة الطوارئ وإنهاء المحاكمات العسكرية للمدنيين واسقاط القوانين المقيدة للحريات بينما يتحفظ الحزب الوطنى الديمقراطى حول كل هذه الأمور بدعوى أن ذلك يهدد الاستقرار السياسى، وقد ينذر بعودة الإرهاب من جديد.

تمثيل القوى الاجتماعية

وفيما يتعلق بتمثيل القوى الاجتماعية فإنه لا توجد دراسات ترجح أى استنتاج فى هذا الخصوص، وإنما يمكن القول بناء على بعض الدراسات الجزئية وانطباعات خاصة بأن شرائح الرأسمالية الجديدة التى تعتمد على الدولة خصوصا ترى أن الحزب الوطنى الديمقراطى بالسياسات التى بدأت تتبعها الحكومة منذ سنة ١٩٩١ هو أقرب الاحزاب إلى مصالحها حيث اعلن عن أن القطاع الخاص هو المسئول الأساسى عن الجانب الأكبر من الاستثمارات، واتخذ العديد من الخطوات من أجل تسهيل فرص النشاط أمام القطاع الخاص، كما أنه لم يعد أمامه بديل سوى ذلك، كما يبدو أن شرائح الرأسمالية القديمة التى لا تعتمد فى نشاطها على الدولة من خلال اعمال المقاولات بكل أنواعها أو بقايا عائلات كبار ملاك الأراضى هى الأقرب إلى تأييد حزب الوفد الجديد. أما أحزاب المعارضة الرئيسية الثلاث الأخرى فتعتمد على تأييد قطاعات من الطبقة المتوسطة وبعض القطاعات العمالية وذلك بحسب ظروف وجود قيادات هذه الأحزاب.

كذلك يمكن القول بأن الأحزاب الرئيسية فى مصر، تعكس جزئيا اتجاهات الرأى العام فى البلاد تجاه القضايا الرئيسية التى تمر بها ولكن اللافت للنظر أن هذه المهمة تقوم بها الصحف القومية بل والصحف المستقلة بافضل مما تقوم به الصحف الحزبية



في الوقت الحاضر ، قد يكون سبب ذلك هو الحذر الشديد الذي أصبحت تتسم به صحف المعارضة ربما لأنها تخشى أن يتكرر معها ما جرى لصحيفة الشعب التي أغلقت وجمد معها نشاط حزب العمل بقرار من لجنة شئون الاحزاب السياسية بعد اتهامها بإثارة الفتنة لنشرها نقدا لرواية مائدة لأعشاب البحر للروائي السوري حيدر حيدر سارت في أعقابها مظاهرات لطلبة جامعة الأزهر، وعلى الرغم من أحكام قضائية بعدم قانونية الإغلاق والتجديد مازالت الجريدة والحزب غائبين عن الحياة العامة حتى كتابة هذه السطور.

إخفاق في أداء الأدوار

أما فيما يتعلق بالوظائف الأخرى للأحزاب، فقد أخفقت في أدائها الأحزاب المصرية جميعا، حاكمة ومعارضة، فلا هي تشارك في صنع السياسة العامة على أي نحو ولا هي نجحت في تدريب قيادات جديدة، فمازال قادة المستوى الأول فيها هم نفس القادة الذين كانوا على الصدارة منذ عشرين عاما إلا باستثناءات محددة كان السبب فيها انتقال قائد الحزب إلى الرفيق الأعلى، كما لم تنجح الأحزاب المصرية في ترشيد الاختيارات الانتخابية للمصريين الذين شاءوا أن يدلوا بأصواتهم في الانتخابات المحلية أو التشريعية، فقد غابت القضايا العامة في هذه الانتخابات وكان المدهش حقيقة غياب هذه القضايا حتى في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة في أكتوبر - نوفمبر ٢٠٠٠. صحيح أن نظام الانتخابات الفردي يلقي بظلاله على أجواء المعركة الانتخابية، ويعطي ثقلا لسمات المرشح الشخصية، ولكن هذا هو الحال أيضا في بلدان أخرى، ولكن لا تتحول المعركة الانتخابية إلى تنافس بين المرشحين حول أيهما أقدر على تقديم الخدمات لدائرته ومع الغياب الكامل لأي نقاش للبرامج التي تطرحها الأحزاب في وقت واجهت فيه مصر اخطار الركود الاقتصادي قبل أزمة الحادي عشر من سبتمبر، ومعها ازمة بطالة الخريجين، وارتفاع نفقة المعيشة، وتصاعد العنجهية الاسرائيلية وتردي الموقف العربي على الصعيد الدولي، وهشاشة العديد من المشروعات القومية الكبرى، ومع ذلك لم يتردد صدى ذلك في أي من المحاورات التي دارت بين المرشحين الحزبيين وناخبيهم ، بل ضاعت في الحقيقة أصوات المرشحين الحزبيين الذين كانوا مجرد اقلية وسط أغلبية من المرشحين غير الحزبيين.

ما العمل؟

يصعب على من تخصص في علم السياسة ان يتنبأ بمستقبل النظام السياسي المصري لأسباب عديدة، من بينها أن القوى السياسية في مصر ليست منظمة، وأحد صور التنظيم هي بلا شك وجودها في احزاب سياسية تتمتع بالمصداقية، ولاشك أن معظم الاحزاب السياسية القائمة في مصر الآن لا تتمتع بالمصداقية والدليل على ذلك هو حكم المواطنين عليها في الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب، مرشحون كانوا أو ناخبون، وتفسير أزمة الاحزاب السياسية



فى مصر سهل وبسيط ، هو أنها قد أصبحت بلا جدوى، فلا هى تفيد فى صنع السياسة ولا هى تفيد فى إيصال المرشحين إلى مقاعد المجالس المحلية والتشريعية فالسياسة تصنعها السلطة التنفيذية دون استشارة الاحزاب والمرشحون الذين يفوزون فى الانتخابات هم فى الغالب إما من رفضت الاحزاب ترشيحهم أو المستقلون تماما عن الأحزاب.

رفع القيود عن تشكيل الأحزاب

وقد أوضحت الفقرات السابقة أنه لا غنى لأى نظام سياسى يسعى نحو الديمقراطية عن إتاحة حرية التنظيم للمواطنين، بكل ما تتضمنه هذه الحرية من حق فى إقامة الجمعيات والنقابات والاحزاب طالما أنها تؤدى وظائفها دونما استخدام للعنف ودنما اعتداء على حريات الآخرين، ولذلك فإن جانبا مهما من العقبات التى تعترض إحياء دور الأحزاب السياسية فى مصر لابد وان يتمثل فى رفع القيود القانونية على تشكيل هذه الاحزاب ، بما فى ذلك إلغاء قانون الاحزاب السياسية ذاته، وقصر دور السلطة العامة على الرقابة على عدم استخدام الحزب أو أى من تشكيلاته للقوة المسلحة فى نشاطه أو الدعوة لاستخدامها ويقتضى ذلك بطبيعة الحال من الدولة المصرية أن تتخلى عن تصورها انها الوصى فى المجتمع المصرى، فقد بلغ المجتمع المصرى من النضوج درجة تجعله لا يحتاج وصيا، وانما يحتاج شريكا.

ولا يعنى ذلك ان الاحزاب ليست بحاجة الى مراجعة أساليب عملها، فقد اوضحت الفقرات السابقة الكثير من اوجه القصور فى عمل هذه الاحزاب، ولذلك فقد يكون الأخذ بنظام انتخابى يجمع بين التمثيل النسبى والنظام الفردى فى تقاسم للمقاعد بين النظامين على كل المستويات بين المرشحين الحزبيين والمرشحين المستقلين وسيلة لضمان الوجود الحزبى والمنافسة الانتخابية على أساس البرامج من ناحية ، وضمانا لقدر من العدالة فى تمثيل المواطنين المنتمين إلى أحزاب وغير المنتمين الى احزاب من ناحية أخرى.

ولن يكون ذلك مجديا إلا إذا رافقته خطوات واجراءات لاشراك الأحزاب بصبغة استشارية فى صنع السياسة وذلك بان يكون هناك تمثيل أوسع للأحزاب فى مجلس الشورى مثلا من خلال الأعضاء المعينين، وفى المجالس القومية المتخصصة وأن تقوم الأحزاب كذلك بالاستعداد الجدى لهذه المشاركة حتى يشعر المواطن بأن لهذه الأحزاب جدوى.

لقد تحولت الأحزاب الى حقيقة فاعلة فى الحياة السياسية فى عديد من بلدان العالم فى أوروبا وآسيا بعد مسيرة تاريخية طويلة، وربما نجتهد بإعمال الخيال، وبقدر من الاخلاص فى اختصار هذه المسيرة، لو خلصت النوايا فى الإصلاح الحقيقى للنظام السياسى المصرى، وهى مهمة ضرورية وليست باليسيرة. ■





مشهد الصراع الراهن في فلسطين



شارون

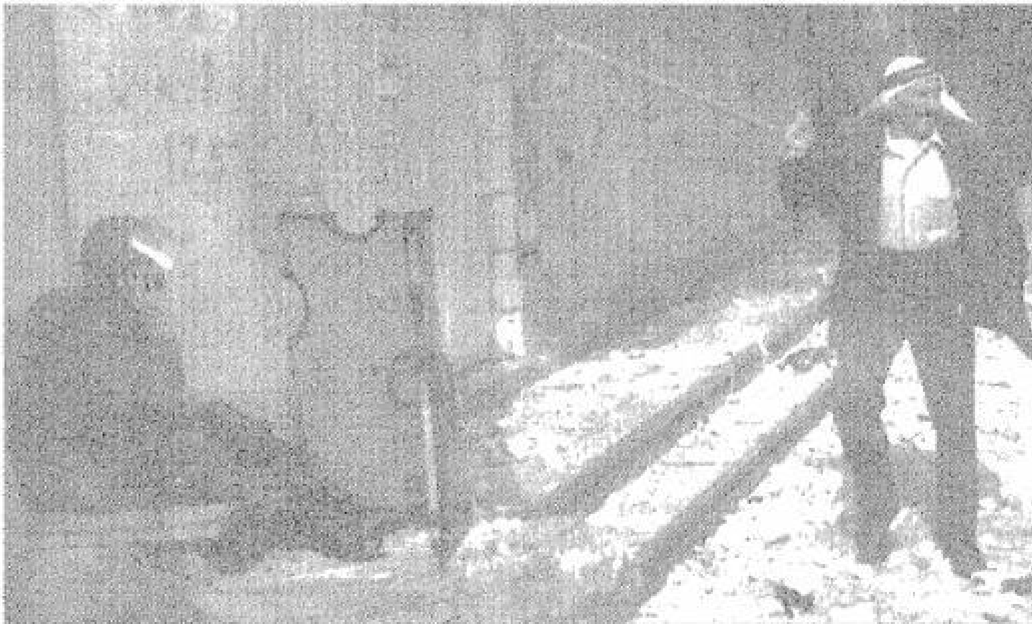


بوش

٣٢

الهلال

بقلم:
د. أحمد يوسف أحمد



"لاشك أن التطورات الأخيرة فى الصراع الدائر على أرض فلسطين تنطوى على دلالات خطيرة بالنسبة للحاضر، وتنذر بأشد خطراً فيما يتعلق بالمستقبل، ولعل البعد الأسوأ فى هذا كله هو ذلك المرتبط بالغياب شبه الكامل للعقلانية في سلوك كل الأطراف، كأنما نشهد جميعا مسرحية عبثية تستعصى على الفهم، ولأن مصائر الشعوب والأمم والأوطان لاينبغي أن تترك للعبث يتعين على كل منا أن يمسك برأسه، وأن يحاول الفهم مرة ومرات، لعل ذلك يساعدنا على أن نرشد أداءنا فى هذه الأوقات العصيبة."



مشهد الإرهاب الإسرائيلى

يبدو غياب العقلانية فى المشهد الإسرائيلى الراهن أقرب إلى الفهم والاستيعاب من المشاهد الأخرى، فإسرائيل تعبير عن حالة استعمارية استيطانية إحلالية فريدة من نوعها فى عالم القرن العشرين، وقد تعلمنا من التجارب الاستعمارية السابقة أن الإرهاب مقوم أصيل فى هذا التجارب، وقد قامت الدولة الإسرائيلية بالفعل منذ أيامها الأولى على ممارسة الإرهاب فى أبشع صوره ضد شعب فلسطين، وهو ماشهد به أخيرا من يسمون بالمؤرخين الصهاينة الجدد فى بعض أعمالهم، كذلك تعلمنا من دراسة الظاهرة الاستعمارية أن رجال الاستعمار ينحدرون عادة إلى أسفل درجات قصر النظر، فلا يرون إلا ماهو فى مواقع أقدامهم، إن رأوه أصلا، فيتصورون أن مواجهة المقاومة المشروعة لسلوكهم الاستعمارى لاتكون إلا بالقوة، إذ مادام ميزان القوى العسكرى مختلاً على نحو فادح لصلحتهم، وأنهم قادرون من خلاله على القتل والتدمير والتخريب فإن الرد على المقاومة بالقوة وعلى نحو مفرط يكون وحده هو الحل، وكلما اتضح عقم هذه النظرة ازداد الاستعماريون شراسة، وواصلوا تطرفهم إلى منتهاه، وهكذا تصل الحالة الاستعمارية فى مراحلها الأخيرة إلى أقصى درجات الاستخدام المفرط للقوة العسكرية، وما يرتبط بذلك من تطرف سياسى، ولولا بعض تعقيدات ظاهرة فى المواقف الفلسطينية والعربية والإقليمية والعالمية لاستنتج المرء باطمئنان أن نهاية الحالة الاستعمارية الإسرائيلية - على الأقل بالنسبة للأراضى المحتلة فى عدوان ١٩٦٧ - باتت أقرب مما يتصور الكثيرون.

وإذا كان السلوك الإسرائيلى الحالى يبدو على النحو السابق سلوكا استعماريا نمطيا فإن المشهد الراهن للإرهاب الإسرائيلى لايخلو من عبثية تنطوى على غياب كامل للعقلانية، ففى الخبرات الاستعمارية السابقة التى لم تقل فى عنصريتها ووحشيتها عن الحالة الإسرائيلية كان مجتمع الدولة الاستعمارية يفرز عادة عناصر «نبيلة»: أفرادا أو جماعات قليلة العدد، تدرك السقوط الأخلاقى لما يجرى، وترفع صوتها منددة به، وتكون أحيانا فاعلة فى التخفيف من غلوائه، أو حتى العمل على إيقافه، ولاننسى فى هذا السياق أن

عددا من أعتى الحالات الاستعمارية قد وصل إلى نهايته المحتومة بتطورات داخلية، صحيح أنها لم تصل بأمثال هؤلاء «النبلاء» إلى مواقع السلطة، لكنها أوصلت إلى هذه المواقع غيرهم من العقلاء الذين تأثروا دون شك - ولو جزئيا - بحركات المعارضة الداخلية للسلوك الاستعماري المتطرف.

ولعلنا نذكر فى هذا السياق الحديث الطويل - والممل فى بعض الأحيان - الذى راج عن حركات السلام فى إسرائيل، وعن ضرورة الالتقاء بها والتعاون معها من أجل الوصول إلى تسوية معقولة للصراع، وعلى الرغم من أن عددا من الباحثين قد نبه كثيرا إلى طبيعة الظاهرة ومحدوديتها، ومخاطر التعامل معها دون حسابات سليمة فإن بعض العرب قد اندفع إلى هذا المسار، وتورط بحسن النية أو بالغفلة المؤكدة فى مواقف نحمد الله على أنها لم تؤت أكلها السيىء المتوقع بالنسبة للوضع العربى فى الصراع، على أساس أن التطورات اللاحقة للسياسة الإسرائيلية قد تكفلت بإفاقة حسنى النية، وإيقاظ الغافلين، وكشف حقيقة الظاهرة ومحدوديتها.

ويعجب المرء كيف أن مجتمعا يفترض أنه «ديمقراطى ليبرالى» يصل إلى هذه الدرجة من الغلو فى امتهان حقوق الإنسان، بل والعصف بالإنسان ذاته، والاستهانة الرخيصة بحياته دون أن يفرز حركة مجتمعية ما ترصد مايجرى، وتنبه إلى مخاطره، وتعترض عليه، وتحاول تقييده أو وضع حد له، ليس من أجل الآخرين الذين يفقدون أرواحهم وممتلكاتهم وأمنهم باستخفاف بالغ، ولكن من أجل مستقبل العيش المشترك - إن كان ثمة مستقبل له أصلا - بل إن ماحدث تحديدا هو تراجع ما كان موجودا من حركات ضعيفة التأثير فى الوقت الذى كان يفترض أن تقول كلمتها فيه.

والحق أن هذا الغياب شبه الكامل للعقلانية فى هذا الصدد - فضلا عن دلالاته السلبية الأكيدة بالنسبة لحقيقة مايسمى بالديمقراطية الإسرائيلية - يحمل أسوأ النذر بخصوص مستقبل الصراع فى فلسطين، ذلك أنه يعنى أن منطق القوة وحده دون أدنى مساندة من العقل هو الذى سيحسم الصراع، وقد يقال إن المجتمع الإسرائيلى بأسره يدافع عن بقائه ضد «الخطر الفلسطينى»، غير أن نقطة البداية فى غياب العقلانية هى الإخفاق فى إدراك أن هذا «الخطر» رد فعل للسلوك



الاستعماري الإسرائيلي قبل أي شيء آخر.

مشهد المعضلة الفلسطينية

لاشك أن النضال الفلسطيني يواجه في الواقع الراهن - كما واجه دائما - معضلة شديدة التعقيد، وبالإضافة إلى الخلل الفائق في ميزان القوى المادية لصالح إسرائيل، وضمور المساندة العربية إلى حد فاق التوقعات أتت أحداث ١١ سبتمبر كأنما لتثبت أن هذا النضال كان دائما على موعد مع مصادفات وأفعال سيئة - عالميا وعربيا - كلما وصل إلى مايشبه النقطة الفاصلة، فقد لعب تدهور الموقف الدولي السابق على الحرب العالمية الثانية دورا في وقف ثورة ١٩٣٦ بتعاون رسمي عربي واضح، ومازالت الذاكرة محملة بالآثار السلبية لأزمة وحرب الخليج في بداية التسعينات من القرن الماضي على انتفاضة أواخر الثمانينات، وهاهي انتفاضة الأقصى تواجه في الوقت الراهن التداعيات الهائلة لأحداث سبتمبر الماضي.

ومن المؤكد أن ماسبق يعطي كثيرا من الأعذار للأطراف الفلسطينية المعنية إذا غامت الرؤى، واختلطت الأوراق، وتضاربت المواقف، لكن الغياب الكامل للعقلانية يبدو ترفا لاتستطيع القضية الفلسطينية تحمله، وقد كشفت التطورات الأخيرة عن نذر مواجهات فلسطينية - فلسطينية، وهي أخطر مايمكن أن يمس نضال الشعب الفلسطيني، ويفضي إلى انكساره مرحليا، فبعد سنة من الصمود الأسطوري في إطار تلاحم وطني قوي وصلنا إلى المواجهات الراهنة.

وقد يقال إن كل حركات التحرر الوطني قد عانت من الانقسامات الداخلية في مرحلة أو أخرى، لكن مثل هذا القول على صحته يمكن أن يرد عليه أولا بأن حركة التحرر الفلسطيني بالذات تواجه حالة استعمارية غير مسبوقة، ولذلك فهي أحوج ماتكون إلى التلاحم الوطني، وثانيا بأن شبهة حدوث حددت الخلاف كانعكاس لإملاء استعماري لم تكن واردة في سوابق الخلافات الداخلية في حركات التحرر الوطني.

وإذا انتقلنا إلى مصدر الخلاف وبدايته لوجدنا أن ثمة قرارا من السلطة الفلسطينية بوقف إطلاق النار، وهو مايدفع إلى اختلاف حول تكييف الموقف الراهن بين الإسرائيليين والفلسطينيين

سبق أن أشار الكثيرون إليه، فالحديث عن وقف إطلاق النار من الجانب الفلسطيني يعطى الانطباع والذريعة معا للأطراف الخارجية بأن هناك تماثلا وتكافؤا فى الموقف بين «إطلاق نار» اسرائيلى وآخر فلسطينى وأن ثمة اعتدالا فلسطينيا قد حدث يفضى الى وقف إطلاق للنار من الجانب الفلسطينى، وبالإضافة إلى ذلك فإن قرار وقف إطلاق النار يمكن أن يكشف عدم سيطرة القيادة الفلسطينية على الموقف فى حالة عدم الالتزام به من الفصائل الفلسطينية الأخرى، وهو مايعطى الذريعة لأصحاب المصلحة للحديث عن عدم جدارة تلك القيادة بإكمال مسيرة التسوية، وأخيرا وليس أخرا فإن الرفض المؤكد للقرار من قبل فصائل فلسطينية، وقدرتها المحتملة على تحديه يمكن أن يصل بالمواجهات الفلسطينية - الفلسطينية إلى مستوى لايضر بالنضال الفلسطينى فحسب وإنما يؤثر بالسلب دون شك على شرعية القيادة الفلسطينية فى الداخل، أو على الأقل على درجة المساندة الشعبية لها، الأمر الذى سيقلل من قدرتها على المشاركة فى صنع تسوية، إن كانت هناك آفاق لتسوية، ويسهل من التدخل الخارجى عامة والإسرائيلى خاصة فى الشأن القيادى الفلسطينى.

تبدو العقلانية غائبة إذن فى الحديث عن وقف إطلاق نار فلسطينى فى ظل استمرار العربدة الإسرائيلية، ولكن هل تعنى العقلانية بالمقابل استمرار النضال الفلسطينى المسلح بغض النظر عن التكلفة؟ لاشك أن الإجابة عن هذا السؤال تنطوى على أقصى درجات التعقد، لكن ثمة مؤشرات يمكن أن تكون مفيدة فى هذا الخصوص.

وأول هذه المؤشرات أن الكفاح المسلح ليس مطلوبا لذاته، وإنما يتم اللجوء إليه بقدر مايفيد هدف التحرر الوطنى، وتكون المبادرة به - أى بالكفاح المسلح - أو الاستمرار فيه قرارا وطنيا صرفا يبنى على تقدير الغاية النهائية للنضال وواقعه الفعلى. بعبارة أخرى فإنه إذا كان من الممكن أن نتصور نضالا تحرريا دون كفاح مسلح (تجربة غاندى على سبيل المثال) أو توقفا تكتيكيا لكفاح مسلح ما بناء على معطيات الواقع (تجربة النضال التحررى فى جنوب أفريقيا) فإنه من غير العقلانى أن تكون القرارات فى هذا الخصوص مملاة من العدو الاستعمارى الذى يفترض أن الكفاح يهدف إلى تقويضه أولا، وأن تتخذ هذه القرارات



بدعوى تفادى مزيد
من العنف من قبل
العدو ثانيا.
والسبب فى ذلك أن
إملاء القرار من العدو
يعنى بالضرورة خطأه من
منظور التحرر الوطنى، كما
أن القول بأن التوقف عن الكفاح المسلح
يحدث لسحب الذرائع من العدو فى
ممارسته لمزيد من العنف ينطوى على
مفارقة تاريخية ومنطقية واضحة، لأن
العنف الاستعمارى عبر التاريخ لم يكن
رد فعل لعنف المقاومة، وإنما كان دائما
سلوكا مبادرا ومستمرا بغض النظر عن
وجود المقاومة من عدمه، فضلا عن أن
التوقف عن الكفاح المسلح فى ظل خلل
ميزان القوى لصالح العدو يفتح شهيته
لمزيد من العنف. والخلاصة أن قرار
التوقف التكتيكى أو الاستراتيجى عن
الكفاح المسلح ينبغى أن يكون قرارا
وطنيا صرفا مبنيا على حسابات
عقلانية، وليس استجابة لإملاء هنا أو
ضغوط هناك.

ويرتبط ثانى المؤشرات التى قد تفيد
فى الإجابة عن سؤال العقلانية فيما
يتعلق بقرار وقف إطلاق النار
الفلسطينى بحظه المتوقع من الفاعلية،
فهذا القرار ينتمى إلى شريحة القرارات
المتعلقة بشأن وطنى عام.. ولذلك فلكى
يكون فاعلا لايمكن أن يتخذ بناء على
تقديرات فرد ما أو فئة دون أخرى مهما
كان وزن ذلك الشخص أو هذه الفئة،
وإنما يفترض أن يصدر قرار كهذا بعد
مداولات ومشاورات ذات طابع
ديمقراطى، ناهيك عن أن يتطلب بنية
للسلطة غير القائمة حاليا تعكس القوى
السياسية الفلسطينية الفاعلة على نحو
سليم، ويتم فى داخلها التداول الحر
بشأن طبيعة الموقف ومقتضياته،
والانتهاء، بعد ذلك إلى القرار الوطنى
السليم الذى لاشك أن حظه من الفاعلية
السياسية سوف يكون كبيرا . ومن
ناحية ثانية فإن قرار وقف إطلاق النار
ينبغى لكى يكون فاعلا ومقبولا أن يرتبط
بعرض جاد لتسوية حتى وإن كانت
ناقصة (جزرة من أى نوع!) لكن الواقع
الذى يلمسه الجميع الآن أن الطرف
الآخر لايملك أى تصور لتسوية سياسية
أصلا، ولن يدخل المفاوضات إلا
مضطرا ومتسلحا برؤية لايمكن أن
تفضى إلى أدنى الآمال فى تسوية ولو
شبه متوازنة.

مشهد العجز العربى

أصبح الحديث عن قصور الدعم
العربى للنضال الفلسطينى مكررا،

وعندما تفجرت انتفاضة الأقصى الراهنة في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠ حملت معها بشائر موقف عربي جديد على الصعيدين الشعبي والرسمي بالأعمال الجماهيرية غير المسبوقة منذ عقود لتأييد النضال الفلسطيني، وكذلك بانتقاد قمة القاهرة في أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٠ التي وضعت خطة طموحة للدعم الاقتصادي العربي للانتفاضة، غير أن هذا كله سرعان مابدأ في التآكل، وإذا كانت كيمياء الجماهير في كل مكان تبدو مستعصية في بعض الأحيان على الفهم، ومن ثم التنبؤ فإن المواقف الرسمية العربية تسبب درجة عالية من الإحباط.

وليس هذا الإحباط راجعا إلى أن تلك المواقف لم تلب ما طالب البعض به على نحو انفعالي بدخول الدول العربية حربا من أجل نصرة الشعب الفلسطيني، وبغض النظر عن الإشكاليات العسكرية والسياسية الهائلة في قرار كهذا فإن مواقف التحرر الوطني لم تتضمن عادة تدخلا خارجيا من جيوش نظامية لنصرة قوى التحرر (حالات الجزائر وجنوب اليمن وفيتنام .... الخ)، وإنما تطلبت دائما دعما خارجيا مؤثرا، وبالذات من الدول المحيطة على النحو الذي حدث في جميع الحالات السابقة وغيرها، ولايحدث في الحالة الفلسطينية الراهنة، وهذا هو بيت القصيد في العجز العربي الراهن، أن المحيط العربي غير قادر على توفير دعم مؤثر للنضال الفلسطيني .

وإذا كان العجز العربي عن الفعل يبدو للأسف مفهوماً لاعتبارات عربية وإقليمية وعالية غير خافية فإنه من غير المفهوم لماذا يمتد هذا العجز إلى ساحة « الامتناع عن الفعل » الذي يمكن أن يكون مؤثراً أيضا لصالح النضال الفلسطيني والأمن العربي، بعبارة أخرى لماذا تتطوع أطراف عربية مؤثرة بالاستمرار في الاتصالات مع الحكومة الإسرائيلية الراهنة، أو في اتصالات دبلوماسية عامة تعلم تلك الأطراف علم اليقين أنها لن تفضي إلى أي شيء في ظل سياسة حكومة شارون الذي توصلت قيادة لها وزنها العربي والعالمي كالرئيس حسني مبارك إلى أنه لايملك سوى القتل سياسة، وأن إنجاز تسوية معه غير وارد، ولماذا تمتنع أطراف عربية عن تسمية الأشياء بمسمياتها فلا تتحدث عن احتلال إسرائيلي ومقاومة فلسطينية، وإنما تشير إلى وقف العنف والتوصل إلى تهدئة ، ولاتتحدث عن عودة الحقوق الفلسطينية المشروعة، وإنما تشير إلى بعض الأفكار الغائمة التي يعلم الجميع



أنها لن تفضي إلى شيء مادامت السياسة الإسرائيلية والمواقف الدولية الراهنة على ماهي عليه.

لقد كان العرب موضعا لسخرية البعض أحيانا باعتبارهم من وجهة نظر هذا البعض تعبيرا عن ظاهرة صوتية، فهل وصلت بهم الأمور إلى درجة أن الصوت الصحيح بات يمثل مستوى راقيا من الأداء لانحلم به، أو عملة نادرة يصعب الحصول عليها؟.

مشهد الانحياز الدولي

عانى نضال العرب والفلسطينيين في مواجهة خطر المشروع الصهيوني على أرضهم من انحياز دولي صارخ منذ اللحظة الأولى لميلاد هذا المشروع، غير أن هذا الإنحياز وصل في الآونة الأخيرة إلى آفاق غير مسبوقة، ومن لديه أدنى شك في هذا عليه أن يقارن المواقف الأمريكية الرسمية في أعقاب عدوان ١٩٦٧ في عهد الرئيس ليندون جونسون الذي كان متهما بممارسة الإذلال المتعمد للعرب بالمواقف الأمريكية الرسمية الراهنة.

وبعض هذا الانحياز من صنع التقاء المصالح الاستراتيجية بين اسرائيل والقوى العالمية الفاعلة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، لكن بعضه الآخر ثمرة طبيعية لجهود قوى الضغط الصهيوني الموالية لإسرائيل، والممتدة باتساع العالم، وللدبلوماسية والدعاية الإسرائيلية البارعتين اللتين تبنيان على كل ماسبق في غياب واضح لسياسات - أو حتى تحركات - عربية فعالة، ولذا فإنه ليس صحيحا أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها هي المنحازة لإسرائيل على نحو صارخ، وإنما يبدو انحيازها صارخا لأنها الأكثر تأثيراً من جانب والأكثر فجاجة في التعبير عن هذا الانحياز من جانب آخر.

غير أن الانحياز المفهوم لإسرائيل شيء، وبناء المواقف تجاه الصراع الراهن دون أدنى أساس من العقلانية شيء آخر، وإلا فأين الدروس الأولى لمبادىء علم السياسة المعاصر الذي ازدهر اساسا في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تتحدث عن «غياب السياسة» أصلاً إذا كانت القوة وحدها - ومن ثم الإكراه - في الساحة؟ وتشير إلى التسويات الهادمة لذاتها إذا لم تؤسس على حد أدنى من التوازن في المصالح؟ وتفرط في الحديث عن الأسلوب الرشيد في إدارة الأزمات

بإتاحة مخرج كريم للخصم؟ وأين هي المعرفة والحنكة الأوربيتان في التعامل مع عشرات من الحالات الاستعمارية السابقة التي لم يكن الخروج منها بسلام ممكنا إلا بعد توفير الاستقلال الشكلي (العلم والنشيد الوطني ومقعد الأمم المتحدة) لشعوب الأقاليم المستعمرة في مقابل استمرار الاستغلال الاستعماري بطرق أخرى؟ وأين هو المنطق في مطالبة السلطة الفلسطينية بتعقب مايسمى بالإرهاب الفلسطيني، والرضى - أو السكوت على الأقل - في الوقت ذاته بامتهان الحكومة الإسرائيلية لهذه السلطة على النحو الذي نراه؟ وأين هو العقل في الجمع بين اتهام الفلسطينيين بالإرهاب ورفض قبول آلية للمراقبة الدولية (مجرد المراقبة وليس إرسال قوات تدخل أو حتى للفصل وحفظ السلام) إلى درجة استخدام الفيتو الأمريكي لاسقاط مشروع قرار بالغ الوداعة ينطوي ضمن أشياء أخرى شديدة التأدب على التلميح إلى التفكير في آلية مراقبة دولية؟، ويتصور هؤلاء على الرغم من كل ماسبق من دروس أن استقرارا وسلاما في منطقة تزخر بمصالح حيوية لهم يمكن أن يبنى على هذا النحو، فأية عقلانية يمكن أن تعيش في مناخ كهذا؟

يبدو أن كل ماسبق مثير للإحباط مستعص على الفهم إذا افترضنا أن أطراف اللعبة تتسم بالعقلانية والرشادة، وسواء كان مايحدث من اسرائيل والأطراف الدولية المساندة لها راجعا إلى سيادة مطلقة لمنطق القوة الغاشمة، أو عجز تام عن الفهم الصحيح بسبب الانحياز الأعمى، أو شلل مطلق للقدرة على تبني المواقف السليمة بسبب قيود سياسية فإن النتيجة واحدة في جميع الحالات: أن السلام بات أبعد من أي وقت مضى، وأن الانفجار المروع سوف يكون وشيكا أو يحدث بعد حين، لكنه واقع لامحالة، أما الأطراف العربية - وبصفة خاصة الطرف الفلسطيني - فهي لاتتحمل ترف غياب العقلانية عن ساحة إدارة الصراع، لأن هذا الغياب يمكن أن يدمر حاضرها ومستقبلها المنظور معا، فهل أن لنا أن نمسك برءوسنا، ونعيد حساباتنا، لعل الله يجعل لنا من أمرنا رشدا؟.

■



الملك فاروق



الملكة نازلى



يوسف رشاد



ناهد رشاد

الحرس الحديدى وثورة يوليو

بقلم
د. عاصم الدسوقى

فى أكتوبر من عام ١٩٧٧ وأنا أتردد على المتحف القضائى بدار القضاء العالى آنذاك لمتابعة جمع مادة علمية حول الاغتيالات السياسية لصالح مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (دار الكتب) تصادقت مع أمين المتحف، وأصبحنا نتسامر حول محتويات المتحف وكيفية إنشائه وأغراضه والقضايا الممنوع الاطلاع على ملفاتها ومنها قضية محاولة اغتيال النحاس باشا فى نوفمبر عام ١٩٤٨ . فلما سألته عن سبب حظر الاطلاع على قضايا ينتمى أطرافها الى العهد الملكى قال هامسا: بسبب تورط الحرس الحديدى للملك فى هذه القضية ولأن أنور السادات كان ضمن الحرس الحديدى!!.


أمين عثمان


مصطفى النحاس


حسن البنا


سعد كامل

وفى الحال تذكرت ما كنت قد قرأته قبل عشر سنوات خلال الستينيات وأنا أعد رسالتي لدرجة الماجستير عن مصر في الحرب العالمية الثانية من أن الملك فاروق كون الحرس الحديدى لحمايته من الانجليز وأعوانهم وذلك فى أعقاب حادثة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ الشهيرة. ولم أهتم وقتها بمتابعة تفاصيل هذه النقطة لأن نشاط هذا الحرس لم يكن ملحوظا حتى نهاية الحرب حيث تنتهى فترة بحثى.

وبعد عدة محاولات من جانبى لإغراء أمين المتحف بإطلاعى على ملف التحقيق فى القضية وهو يرفض، فاجأنى ذات يوم بالملف دون ترتيب سابق، فأسرعت أتصفح أوراقه فى عجالة حيث جلس يرقبنى حتى لا أنقل حرفا مما أقرأ، فعرفت أن التحقيق ظل قائما حتى بعد قيام الثورة حيث حضر البكباشى أنور السادات لمواجهته بالمتهم الرئيسى على حسنين، وكانت مواجهة مثيرة حيث كان السادات يراوغ على حسانين اعتمادا على بعض المعلومات غير الدقيقة التى كانت تجيء على لسان على حسنين عندما يذكر تاريخا معينا التقيا فيه بمقهى بترو بالإسكندرية مثلا لترتيب المهام التى كلفوا بها، فيجيب السادات بأنه كان معتقلا فى ذلك الوقت فى قضية اغتيال أمين عثمان، وعلى حسنين يضرب كفا بكف. وفى الأسبوع التالى وأنا أتهيأ للاطلاع على باقى الملف فاجأنى أمين المتحف بقوله إن رئاسة الجمهورية طلبت الملف وأخذته!!.

أسرار الحرس الحديدى

واعتقد غير جازم أن هذا الملف لابد وأنه يحتوى على كثير من أسرار هذه الجماعة من حيث كيفية تشكيلها وعناصرها والمهام التى قامت بها وذلك من واقع متابعة المحققين لخيوط القضية مما يساعد على كشف حقائق أساسية لدور هذا الحرس فى تاريخ مصر، وتحديد مكانه داخل دائرة العمل السياسى فى الأربعينيات بين مختلف التيارات والتنظيمات. ومما يزيد الأمر

غموضا أن أخبار هذا الحرس جاءت عرضا وحسب مقتضى الحال فى بعض المذكرات السياسية (الذكريات) التى نشرها سياسيون وغير سياسيين من الذين ارتبطوا بالعمل السياسى فى مصر قبل ثورة عام ١٩٥٢ وبعدها فيما عدا مذكرات سيد جاد أحد رجال الحرس الذى نشرها تحت عنوان مباشر «الحرس الحديدى: كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه؟» لكن دون أن يقول لنا تاريخ تكوين هذا الحرس على وجه التحديد، وحتى هذه المذكرات التى نشرت فى عام ١٩٩٢ (وقبل ذلك نشرت أجزاء منها أواخر عام ١٩٨٧ وبسببها استدعى للتحقيق معه فى يناير عام ١٩٨٨) جاءت غفلا من ذكر أى تاريخ أو أى اسم، وتداخلت حوادثها زمنيا خلافا لسياق الوقائع المعروفة فباتت مفككة، وهو أمر متوقع لمن يكتب وهو فى سن متأخرة عن وقائع مضى عليها أكثر من أربعين سنة باعترافه بنفسه فى المقدمة.

وعلى هذا تبدو الكتابة عن الحرس الحديدى مهمة شاقة محفوفة بالمخاطر ومع ذلك لا بأس من محاولة رسم اطار عام لهذا التجمع الخاص من حيث نشأته وطبيعة المهام التى قام بها ثم انهياره وتفككه وانصراف أصحابه الى حياة أخرى حاولت تجميع صورته من عدة روايات كل منها يكمل الآخر فى بعض الوقائع ولكنها فى النهاية تزيد الأمر غموضا.

ليس من المعروف على وجه الدقة تاريخ تكوين الحرس الحديدى لكن المفهوم العام أن فكرته نبتت بعد حادثة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ حين أرغم الانجليز الملك على تكليف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد بتشكيل الحكومة على غير رغبة الملك، وهدفه حماية الملك من أعدائه والانتقام من الانجليز وأعوانهم من السياسيين المصريين. وقد ارتبط هذا التجمع بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك وعرف أنه صاحب الفكرة وانه الرئيس المباشر له. والحاصل أن يوسف رشاد وزوجته ناهد رشاد كانا الى جوار سرير الملك فاروق بعد إصابته فى طريق الاسماعيلية عندما اصطدمت سيارته بسيارة نقل قرب قرية القصاصين فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٣. وقد ربطت هذه الحادثة بين الثلاثة: الملك ويوسف رشاد وزوجته ناهد حيث أصبح يوسف الطبيب الخاص للملك وزوجته كبيرة الوصيفات بالقصر الملكى وكانت والدتها من قبل وصيفة بالقصر. وتذكر الروايات أن ناهد سيطرت على الملك، وانه وقع فى غرامها وكانت ترافقه فى كل رحلاته البحرية على يخته «فخر البحار» بحضور زوجها، وكان الملك قد طلب منها أن ترافقه وحدها فرفضت ناصحة منعا للأقاويل والشائعات.

تكوين الحرس

لكن .. كيف تكون الحرس ومتى؟. هناك رواية تقول أنه فى عام ١٩٤٦ كون

الملازم أول مصطفى كمال صدقي الضابط بإدارة العمليات الحربية (المخابرات) مجموعة داخل الجيش أمنت بأن الاغتيال وسيلة من الوسائل المهمة لمقاومة الاستعمار وأعوانه من أجل تحرير مصر، وكان معه حسن فهمي عبدالمجيد وعبدالرءوف نورالدين وسعد كامل من المدنيين خارج الجيش. واستهدفت المجموعة ضرب العساكر الانجليز بالرصاص والقنابل أو القبضات الحديدية. وفي هذا الاطار قامت هذه المجموعة بإلقاء قنبلتين واحدة على منزل عبدالفتاح عمرو باشا بالدقي (سفير مصر في لندن) والثانية على مبنى الاتحاد المصري الانجليزي بالزمالك وهو اختيار له دلالته.. فهل كانت هذه المجموعة أساس الحرس الحديدي أو هي ذاتها الحرس الحديدي بغير اسم محدد خاصة وأن أسماء ما وردت في بعض الشهادات ضمن أعضاء الحرس.

وهناك رواية تقول إن هذا الملازم نفسه (مصطفى كمال صدقي) كون في يوليه عام ١٩٤٧ جمعية سرية أسماها «الجمعية الوطنية الاشتراكية» (لاحظ الروح النازية في التسمية) ضم إليها خمسة عشر ضابطا وثلاثة صولات فنيين استهدفت نشر المبادىء الثورية بين أفراد الجيش وقلب نظام الحكم وإقامة حكومة عسكرية تقوم بالإصلاح الشامل في البلاد وتحقق العدالة الاجتماعية. وفي العام نفسه (١٩٤٧) ضبطت هذه الجمعية وقدم أفرادها للمحاكمة وعلى رأسهم مصطفى كمال صدقي وعرفت القضية بقضية «الاتفاق الجنائي». وكان السبب الظاهري محاولة اغتيال اللواء إبراهيم عطا الله رئيس الأركان لأنه أقال اللواء عبدالواحد شبل الذي رفض التوقيع على قبول صفقة سيارات للجيش غير مطابقة للمواصفات.

وبعد الإفراج عن مصطفى كمال صدقي قبل أن ينتهي العام (١٩٤٧) اتصل به يوسف رشاد وأقنعه «بأنه يمكن عن طريق الملك تنفيذ ما يريده الضباط». ويذكر حسن فهمي عبدالمجيد أحد رجال الحرس وسفير مصر السابق لأن معظم الذين أفرج عنهم من زملاء مصطفى صدقي في هذه القضية اقتنعوا بهذا الاتجاه وشكلوا تنظيما خاصا لكنه لم يذكر صراحة أن هذا التنظيم اسمه الحرس الحديدي كان يضم الى جانب مصطفى كمال صدقي كلا من خالد فوزي وحسن الطرزي وأحمد زيتون وسعد عثمان وحسن التهامي وحسن إبراهيم وإبراهيم توفيق وسعد كامل (من المدنيين).. الخ. ثم طلب الملك من يوسف رشاد توثيق علاقته بهؤلاء الناس حتى يكونوا على استعداد للانتقام لشرف الملك. وبعد أن اطمأن الملك الى ولائهم واستعدادهم للدفاع عنه بقتل من يرى قتله صدرت القرارات بنقل مصطفى صدقي إلى سلاح الفرسان

وحسن فهمي عبدالمجيد إلى الحرس الملكي وخالد فوزي الى المخابرات الحربية ورقي حسن إبراهيم إلى رتبة ملازم أول وإبراهيم توفيق الى الدرجة الخامسة واختار لهم فاروق اسم «الحرس الحديدي».

وهذه الروايات تربط نشأة الحرس بأواخر عام ١٩٤٧ بعد الإفراج عن المتهمين في قضية «الاتفاق الجنائي» ، أو خلال عام ١٩٤٦ بالحلقة التي كونها مصطفى كمال صدقي كما سبقت الإشارة. لكن مرتضى المراغي يقول أن أول مهمة قام بها الحرس الحديدي كانت اغتيال أمين عثمان. ولما كان هذا الاغتيال قد وقع في ٥ يناير عام ١٩٤٦ فإن هذا يعني أن الحرس الحديدي كان قائما قبل عام ١٩٤٦. وهذا ما تؤكده رواية سيد جاد من أن الحرس الحديدي كان قائما قبل مقتل أمين عثمان ولكن قاتله لم يكن من الحرس الحديدي، وأن العملية تمت بأوامر من الملك من وراء ظهر الحرس بواسطة عناصر تعمل منفردة مع الملك وربما باتصال خاص مع نهاد رشاد، وانحصر دور الحرس الحديدي في هذه الحادثة نزولا على رغبة الملك في تهريب القاتل حسين توفيق من دورة مياه المحكمة الى سوريا عبر الحدود الشرقية. وأما أنور السادات الذي اعتقل في هذه القضية فكان أحد العناصر التي أراد الملك ضمها للحرس الحديدي ومعه آخرون لا يفصح سيد جاد عنهم ولكنهم عناصر في رأيه «لا تتمتع من الناحية الشكلية والعائلية بمواصفات ضابط الحرس لأنهم جميعا من العائلات فوق المتوسطة وأن أفضلهم كما يقول سيد جاد «يعاشر فتاة ألمانية اسمها هيلدا في عوامة ويقوم بأشياء غريبة كالاتصال بالنازية قبل سقوط ألمانيا (والاشارة واضحة).

سر العربة السوداء

على أن الحرس الحديدي لم يكن يحدد بنفسه أعداء الملك وأصدقاء أعدائه للتخلص منهم بل كانت تأتيه القائمة من الملك بواسطة يوسف رشاد وتعرف «بقائمة الخضار». وليس من المعروف يقينا ما إذا كان الملك بنفسه هو الذي يحدد من يريد تصفيته جسديا أم كان الأمر متروكاً لترتيبات يوسف رشاد واختياراته ومعه زوجته، ذلك أن سيد جاد يقول إنهم «لم يسمعوا الملك شخصيا في إصدار هذه الأوامر». وعندما كانت الجماعة تتلقى الأوامر ينطلق المكلفون بالمهمة في عربة سوداء جيب لا يخترقها الرصاص مجهزة بالرصاص والقنابل وتراقب الضحية وتطلق عليه دفعات نار تقتله. وقد تصيب الذين ساقهم حظهم العاثر الى المكان ثم تمرق عائدة بسرعة من حيث أتت في حماية القانون إذ كانت التعليمات صريحة بعدم تعرض رجال الأمن والمرور في الشوارع للعربة حتى أصبح معروفا أنه إذا ظهرت

العربية في مكان ما يعلم المارة سلفا النتيجة.

ورغم نطاق السرية الذي كانت تعمل فيه جماعة الحرس الحديدي إلا أن ظاهر المعلومات التي وردت في شهادات البعض وخاصة سيد جاد يتبين منها أن الحرس كان معروفا في الدوائر العليا من المجتمع وخاصة السياسيين ومن هنا حاول بعض أبناء الصفوة استخدامه للقيام بعمليات انتقامية شخصية غالبا بسبب النساء ولا علاقة لها بخصوم الملك السياسيين اعتمادا على أن صفتهم «الملكية» ستحول دون تعقبهم ومحاكمتهم وكأنهم قتلة محترفون مأجورون.. وفي مذكرات سيد جاد بعض هذه الوقائع.

أما الأعمال التي استهدفت التخلص من خصوم الملك السياسيين فكانت قليلة منها اغتيال عبدالقادر طه، ومحاولة اغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد أكثر من مرة بمنزله أو وهو في الطريق إليه أو بنسف القطار الذي يقله في جولة الى الصعيد عند العياط، وكذا اشتراك الحرس في حرب الفدائيين في القنال التي اندلعت ضد الانجليز عقب إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ في أكتوبر عام ١٩٥١ وكان الملك يدعمها ماليا. وهناك مهام أخرى قام بها الحرس ذكرها سيد جاد يصعب تصديقها من ذلك إحباط مؤامرة لسرقة مذكرات الملكة نازلي بواسطة ضابط إسرائيلي دخل مصر في زي مفتي فلسطين وكشف الحرس المسألة وتخلص من كل أطرافها وكانت المذكرات تتناول علاقة الملك فؤاد بالملكة نازلي قبل زواجهما. ومن ذلك أيضا القول بأن الانجليز وإسرائيل كانوا يفكرون في الإطاحة بالملك فاروق وتنصيب «ملك هندي» على مصر وأحبط الحرس المؤامرة!. كما كان الحرس الحديدي معروفا لدى الضباط الأحرار إذ طلب خالد محيي الدين من سيد جاد أن «يضع الحرس الحديدي في قبضته ويسيطر عليه تماما لنجعل منه وسيلة لخدمة الضباط الأحرار».

وسائل التخلص من الخصوم

ومن الطريف أن نذكر أن سيد جاد عندما انضم الى الحرس الحديدي (لم يذكر لنا تاريخا محددا) كان يضم - كما يقول - عناصر مأجورة تهتم بالقتل والقتل فقط إرضاء للملك وتقربا إليه وإلي يوسف وناهد رشاد، لكنه طلب إجراء محاكمة للشخص المطلوب قتله بواسطة محكمة من رئيس وقاضي اتهام ومحام للدفاع من رجال الحرس وكأنه أمامهم، على ألا ينفذ حكم التصفية إلا بإجماع آراء هيئة المحكمة. ويذكر سيد جاد أن الحرس التزم بهذا القرار فلما جاءتهم تعليمات بالتخلص من الشيخ حسن البنا رفضوا التنفيذ وتم قتل حسن البنا بواسطة جهاز آخر «مماثل» من البوليس على رأسه الأميرلاي عبدالمجيد واثنان من المخبرين. ولما طلب الملك اغتيال النحاس للمرة الثانية

وعرض الأمر على «محكمة الحرس» تضاربت الآراء ونفذت العملية «بطريقة سخيفة ولم تصب شيئا لأن النية كانت عدم التنفيذ». كما كان سيد جاد صاحب اقتراح الاستغناء عن العربة السوداء لتنفيذ العمليات واستخدام الحقن بالإبر المسمومة وقد استخدمت فعلا في التخلص من بعض الانجليز في خط القنال.

كانت المحاولة الثانية لاغتيال النحاس واختلاف «محكمة» الحرس الحديدي بشأنها على نحو ما سبقت الإشارة بداية الانشقاق فيما يبدو في صفوف الحرس بين الولاء المطلق للملك والولاء لزعامة وطنية يمثلها مصطفى النحاس رئيس الوفد فقد انقسمت الجماعة بين فريقين: فريق يريد القتل تنفيذا لأوامر الملك مقابل العطايا، وفريق يرى ضرورة المحاكمة أولا وألا يتم القتل إلا إذا كان يخدم هدفا وطنيا. وانحصر فريق الاغتيال في كل من حسن فهمي عبدالمجيد وأحمد يوسف حبيب وعبدالله صادق، والفريق الآخر يرأسه عبدالرءوف نورالدين ومعه سيد جاد وخالد فوزي. وازداد الشقاق عمقا عندما صدرت الأوامر باغتيال اللواء محمد نجيب بعد فوزه برئاسة نادي الضباط ضد مرشح القصر، فبادر سيد جاد بالذهاب الى محمد نجيب وأقنعه بالذهاب الى يوسف رشاد لتجديد الولاء للملك. ثم بدأ الحرس يضيق بأوامر الاغتيال المتتالية حتى قرر إرهاب الملك نفسه لردعه فقام حسن فهمي عبدالمجيد بإطلاق النيران حوله أثناء جلوسه في أحد فرانادت القصر التي اعتاد الجلوس فيها بعد تناول العشاء.

تفكك الحرس الحديدي

وبعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ بدأ الحرس الحديدي يتفكك فعلا، فلم يعد أفراده يلتقون، وامتنع يوسف رشاد عن مقابلتهم، وامتنعوا هم بدورهم عن تنفيذ أوامره، وبات معروفا أن البلاد مقبلة على حركة سياسية، وعرف القصر بتحركات الضباط الأحرار فطلب يوسف رشاد ومرتضى المراغي (الذي تولى وزارة الداخلية في ٢٧ يناير بعد الحريق) من سيد جاد إبلاغهما بأسماء الضباط الأحرار «لأن الداخلية تعرف انه على اتصال بنوعيات واتجاهات مختلفة بين الضباط» لكنه لم يستجب، وقام أنور السادات بابلاغ ناهد رشاد «بأن الجيش على وشك الانقضاض» لكن ناهد رشاد التي كانت على علاقة بمصطفى كمال صدقي لم تفعل شيئا. ويبدو أنها قررت في آخر المطاف ان تقفز من المركب قبل أن تغرق وكانت تعتقد أن صديقها مصطفى كمال هو رئيس مجموعة الضباط الاحرار فأرادت أن تركب الموجة وتحتفظ بمكان في الصف الأول في النظام القادم بعد القضاء على الملك.

وفي لحظة الخوف على المصير أخذ كل ضابط من ضباط الحرس الحديدي يبحث له عن ظهير من الضباط الاحرار ليحميه

من الموجة القادمة، فيلجأ خالد فوزى الى كمال الدين حسين الذى رحب به بين الضباط الأحرار وأصبح داعية من دعاة الثورة، وحسن فهمي عبدالمجيد تزوج وابتعد مؤقتا عن دائرة الضوء ثم لحق بصفوف الضباط الأحرار وأصبح جمهوريا متشددا، وأحمد يوسف حبيب يختفي بعد أن دهمته متاعبه ثم عينه أصدقاؤه القدامى فى وظيفة بجهاز الشباب والرياضة، وارتبط مصطفى كمال صدقي بالراقصة تحية كاريوكا واتصل بالشيوعيين وأصبح من الثوار، وعبدالله صادق كونستابل العربة السوداء أصبح مرشدا للأمن، وتنصل الباقون «برشاقة» من ماضيهم وتحولوا إلى ثوريين، وفيما بعد تم تعيين خالد فوزى وحسن فهمى عبدالمجيد سفيرين فى حكومة الثورة. أما سيد جاد فقد غرق فى التصوف واشتغل بالمحاماة ولم يلتفت اليه أحد وتساءل بينه وبين نفسه.. كيف قبل الضباط الأحرار بينهم شخصيات انتهازية من الذين عملوا مع الملك طلبا للمال والنفوذ وأمملوه هو مع أن ما فعله من أجل الملك لا يزيد عما فعله أى من أولئك الذين قبلتهم الثورة فى صفوفها.

وبعد.. إن الحرس الحديدى كما جاء على لسان شهوده كان عصبة من القوم قبلوا أن يعملوا تحت لواء الملك لظروف خاصة بكل واحد منهم إما طلبا للمال، وإما طلبا لنفوذ، وإما بحثا عن مغامرة تتناسب مع روح الشباب التى كانوا عليها. واللافت للنظر أنهم استمروا يدافعون عن الملك ضد الوطنيين بعد أن علموا بفساده وشاهدوا وقائع هذا الفساد.

● المعلومات مستخلصة من المراجع الآتية: سيد جاد، الحرس الحديدى: كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه؟، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة عام ١٩٩٢ وهو أحد رجال الحرس الحديدى. مذكرات مرتضى المراغى (وزير الداخلية بعد حريق القاهرة فى وزارة على ماهر وكان قبلها محافظ الإسكندرية منذ عام ١٩٥٠ وقبل ذلك كان مديرا للأمن العام ووكيلا لوزارة الداخلية من عام ١٩٤٧ وهو ابن الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر، نشرت مسلسلة بمجلة أكتوبر (١/٢٦ - ١٩٨٦/٦/٢٢) وجمعها الدكتور محمد الجوادى فى كتابه «على مشارف الثورة»، دار الخيال، القاهرة عام ٢٠٠١. محضر نقاش أجراه أحمد حمروش مع حسن فهمى عبدالمجيد أحد رجال الحرس ونشره فى كتابه، شهود يوليو، جزء ٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت عام ١٩٧٧. جمال شقره ، الحركة السياسية فى مصر من ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ الى أزمة مارس عام ١٩٥٤، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٨٥. ■

الحشاشون

فردوس في الأرض أم في السماء؟!

بقلم
مصطفى نبيل

يقول تولستوى.. «إن التاريخ هو حياة الشعوب، والإمساك به، وتحويله إلى كلمات أمر صعب يكاد يكون مستحيلا»..

حديثنا حول فرقة ظهرت في القرون الوسطي، وبالتحديد في القرن الحادي عشر الميلادي.. وهي الفرقة التي لعبت دوراً مدمراً في تاريخ المنطقة الإسلامية، وهو الدور الذي يكتنفه الغموض والذي يحمل الكثير من الأحاجي، والألغاز، وأعطي الحشاشون للاغتيال اسمه الأجنبي.

وجاء ظهور هذه الفرقة في لحظة تاريخية فارقة، في أوج الهجوم الصليبي الذي قصد بيت المقدس، ومع شيوع ظاهرة العنف في مواجهة الانقسام المذهبي والغزو الأجنبي.

وبدلا من أن يواجه الحشاشون الغزو الأجنبي، تحالفوا معه، وتم علي أيديهم اغتيال العديد من القيادات الإسلامية خلال قتالهم للجيوش الصليبية.

ويقي سؤال طرحه المؤرخون معلقا، وهو هل كانت هذه الفرقة صنيعة .. الإفرنج، أم صنيعة الانقسام والاقتتال المذهبي..؟!

ويقفز سؤال جديد.. هل تنظيم «القاعدة» هو إحياء ظاهرة تاريخية قديمة..؟

ويجدر هنا التنبيه إلى أن أى تشابه بين الحكاية التاريخية، وما يجري اليوم، هو مجرد مصادفة.



فما هو أصل الحكاية التاريخية لهذه الفرقة التى روعت يوماً العالم الإسلامى..؟!

تتناثر القصة فى كتابات المؤرخين، وتجد أول الخيط فى سيرة حياة المؤيد لدين الله الفاطمى داعى الدعاة.. وفى كتاب تاريخ الإسماعيلية ونظمها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين، وفى كتاب «الحشاشون» للمستشرق البريطانى برنارد لويس، وفى كتاب أمين المعلوف عن الحروب الصليبية.

كما ترك لنا الرحالة الإيطالى ماركو بولو وصف شاهد عيان لقلعة «ألموت» قلعة هذه الفرقة ونقطة انطلاقها، والتى مر بها سنة ١٢٧٣م خلال رحلته إلى الصين، والتى تقع اليوم فى إيران التى لا تبعد كثيرا عن الحدود الأفغانية. يقول «.. إنهم يطلقون على زعيمها شيخ الجبل علاء الدين - أحد خلفاء حسن الصباح - الذى قام بإغلاق واد بين جبلين وجعله حديقة فيحاء، أكبر وأجمل حديقة تراها العين، وأنبت فيها كل أنواع الفاكهة، وأقام فيها قصوراً من أروع ما ترى العين، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر، وأخرى تفيض باللبن والعسل، ويقوم على خدمة هذا الفردوس حوريات من أجمل نساء العالم، واللاتى يعزفن بأنامل مدربة ويغنين بأصوات رخيمة، وتظهر الراقصات برقصاتهن الناعمة التى تخلب الالباب.

أراد شيخ الجبل أن يوحى لرجاله أنها الجنة حقا، ولا يسمح شيخ الجبل بدخولها سوى لأتباعه - ومازال الحديث لماركو بولو - وتوجد قلعة عند مدخل الوادى تبلغ من القوة والمنعة أنها تستطيع مقاومة العالم لو اجتمع عليها(!) ويحتفظ شيخ الجبل فى بلاطه بشبان من المناطق المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، ويروى لهم القصص عن الجنة ونعيمها، ويدخلهم جنتهم الموعودة فى مجموعات تتراوح بين أربعة وعشرة أفراد، بعد أن يتناولوا مخدراً معينا يسلمهم إلى نعاس عميق - ولذا أطلق عليهم «الحشاشون» ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك.

وعندما يستيقظون يجدون أنفسهم فى الجنة.

وعندما يعزم شيخهم على اغتيال أحد، يقول « اذهب واقتل، وإذا عدت سأدخلك الفردوس، وإذا قتلت فسأبعث



من يحملك إليها..».

وهذه هى الصورة التى تناقلها الغربيون.

الستر والكتمان

أما أصل الحكاية، فيمكن الإمساك بخيوطها الأولى فى سيرة حياة المؤيد لدين الله (٣٩٠ - ٤٧٠ هـ)، وهى سيرة تزخر بالإثارة والغموض، تقوم على المذهب الإسماعيلى الذى كان سائداً فى مصر الفاطمية، الذى يعد الدعاة لنشر المذهب ويقوم على الستر والكتمان والظاهر والباطن، وإقامة التنظيمات السرية، ومن أقواله «من بالباطن والظاهر، فهو منا، ومن عمل بأحدها دون الآخر فليس منا». هذا علاوة على النظام الهرمى الدقيق المتبع فى اختيار وإعداد وتدريب الدعاة، ثم توزيعهم فى أرجاء العالم الإسلامى.

وإذا كان للستر والكتمان مبرر أيام اختفاء «الإمام» أيام القهر والاضطهاد، فالسرية بعد ذلك يمكن إختراقها فى إحدى حلقاتها، فى الهرم التنظيمى، وتوجيهها بعيدا عن أهدافها.

وقد بدأ انهيار الدولة الفاطمية عقب وفاة المستنصر بالله بعد فترة حكم طويلة تزيد على ستين عاما، وقيام الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى، بإستبدال الخليفة والإمام المستعلى بأخيه الأكبر نزار الذى يستحق الخلافة.. مما أدى إلى خروج حسن الصباح من القاهرة وتأليفه تلك الفرقة الضالة.

شيخ الجبل

تداول حسن الصباح مع رفاقه الأمر على ضفاف النيل، وقرر الهجرة وتكوين فرقته حتى تسترد حقوق «الإمام»، وورث هذه الجماعة كل خبرات التنظيم الاسماعيلى، ونذر الرجل حياته لتنظيم فرقته.

أما من هو الرجل الذى تردد اسمه كصاحب أول تجربة من نوعها فى الشرق، فقد ولد حسن الصباح فى مدينة «قم»، وانتقل مع اسرته إلى مدينة الرى.

ويروى فى سيرته.. «منذ طفولتى كنت أتوق لكى أكون من الفقهاء وذات يوم التقيت بعميرة الذى كان له أكبر الأثر على حياتى.. وهو الداعية الفاطمى، وكانت له شخصية قوية تمكن من إقناعى بما يدعو إليه وأقسمت الولاء للإمام الفاطمى، وسافرت إلى القاهرة مقر الخلافة»..

وبقى حسن الصباح فى مصر ثلاث سنوات، وأودع السجن لتأييده نزار وأبعد بعدها إلى شمال أفريقيا التى لم يصلها



وتحطمت الباخرة التي كانت تقله في البحر، ونقل إلى سوريا، ومنها إلى أصفهان، « ومن هناك سافرت إلى كرمان ويزد، وباشرت الدعوة» وكان الصباح يتفادى المدن ويرسل الدعاة للدعوة بين سكان الجبال، وأخذ يبحث عن «قاعدة» ومخبأ سرى لعمله، ومعقل منيع ، وعثر أخيراً على قلعة «ألموت» التي تقع على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق البحر، والتي أطلق عليها أيضا «وكر النسر»، والتي وصفها ماركو بولو، وفيها امتزجت طبيعة المنطقة النائية والجبلية بأفكاره، وهي حصن على قمة صخرة تسيطر على واد مغلق، وكان أول من سعى إلى تحقيق أهدافه السياسية عن طريق إشاعة الفوضى، وتقويض الكيانات السياسية القائمة، ويعتمد الاغتيال - بما فيه من خسة ونذالة - للوصول إلى أهدافه. وبذلك كانوا الإرهابيين الأول في الشرق الذين استخدموا العنف المجنون.

وبدأ الصباح العمل ولم يغادر القلعة منذ دخوله إليها وحتى وفاته بعد خمسة وثلاثين عاماً، أذاق العالم خلالها الكثير من الآلام.

ويصف المؤرخ المعاصر له رشيد الدين أولى عمليات هذه الفرقة بقوله:

«إن شيخنا نصب الشباك والفخاخ من أجل صيد هدف كبير ، كنظام الملك، ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته وأرسى أسس الفدائية».

وأدت أعماله إلى إنزال الموت المفاجيء بكثير من الأمراء والحكام وقادة الجيوش، وحققت عملية القتل الأولى التي نفذت سنة ١٠٩٢م، أي بعد سنتين من إنشاء هذه الفرقة، والتي استهدفت من أعاد بعث المذهب السني، عندما طعنه بخنجر أحد أتباع حسن الصباح.

ويرى ابن الأثير .. «أنه حين قتل نظام الملك انحلت دولته، ولم تسترد الدولة السلجوقية وحدتها بعد ذلك»

الدولة والدعوة

وقد كان في وسعه ان يبلغ مصر أنه أدى مهمته، ولكن القاهرة كانت في واد آخر غارقة في الضياع بعد سحق الأفضل أصدقاء نزار، وهدم السجن على نزار .

وعند ذلك وقع الانقسام بين الدولة الفاطمية، وتلك العناصر المتمردة التي أقامها الدعاة، فلم يعد هناك إسماعيليون في مصر، وانفصلت الدولة عن الثورة، واستمر المذهب في بلاد إسلامية أخرى،



واتهم «الحشاشون» باغتيال الوزير الافضل فى القاهرة عام ١١٢١م، وعن الاحتياطات التى اتخذت فى مصر يقول المؤرخ المصرى ابن ميسر.. «عندما جاء المأمون إلى الحكم عزل والى عسقلان - التى تبدأ منها حدود مصر - وأمر الوالى الجديد أن يستعرض موقف جميع أصحاب المناصب فى عسقلان والتفتيش عليهم، وأن يبعد من ليس معروفاً، وإذا جاء غريب فعليه ان يوقفه عند الحدود.. ويبحث أحواله، ولا يسمح لأى قافلة بالتقدم إلا بعد إرسال معلومات عنها، وأمر بتسجيل أسماء جميع السكان، وبعث العسس لجمع الأخبار من هناك».

وأصبحت فرقة حسن الصباح طرفاً فى الصراع الذى يجرى فى أسيا، ويروى مؤرخ دمشق.. أنه استفحل أمر الجماعة التى اصبحت غاية من الاستتار والتخفى وتغيير الزى...».

ومما له دلالته أن الحشاشين فى الاغتيالات كانوا يستخدمون الخنجر وحده ولم يلجأوا مطلقا إلى القتل بالسم أو السهام، ويمسك القاتل ولا يحاول الهرب، ويعتبرون ان البقاء على قيد الحياة بعد العملية أمر مخجل!.

ومما يروى عن تلك الشخصية الغامضة أنه كان زاهداً متقشفا أعدم احد أبنائه لشربه الخمر واعدم الآخر بتهمة ثبت عدم صحتها، واعتاد الاشارة إلى اعدامه لابنيه ليروع اتباعه.

ويقول المؤرخ الجوينى حول بعض أساليبه فى العمل.. «كان يرسل السفارات بطلب الاتفاق فلا يجيبه أحد، فاستخدم كل طرق الخداع والرشوة والإغوا،، فمثلا حرض أحد طواشى السلطان بمبلغ كبير من المال، وأرسل إليه خنجراً ، رشقه فى الأرض إلى جوار مخدع السلطان، وعندما استيقظ ورأى الخنجر ملأه الذعر، فبعث إليه حسن الصباح رسالة يقول فيها: ألا ترى أننى أردت بالسلطان خيراً، يغرس فى الأرض الصلبة ولم يغرس فى صدره الرخو، وتوقف السلطان عن مهاجمة الحشاشين !.

ويصفه ابن الأثير بقوله.. «كان حاد الذهن ، ثاقب الفكر، عالماً بالهندسة والحساب والفلك والسحر وأشياء أخرى».

وانطلقت روحه عائدة إلى نار الله وجحيمه فى ليلة الأربعاء ٦ ربيع الثانى عام ٥١٨ هـ، بعد ان ترك خليفة له. هذا ما سجله الجوينى عند وفاته.

العقل المتطرف

وعند تأمل العقل المتطرف ، نجد أنه لا يعرف من الألوان سوى الأبيض والأسود ولا يعترف بما بينهما، ويحركه الغضب



والقهر والإحباط، وأنه يتعامل مع المجردات والمطلقات ولا يتعامل مع الحقائق، يرى ما تحت قدميه ولا يرى المستقبل البعيد، يرفض العالم كما هو ، ويرسم للعالم صورة غير واقعية، رسمها في مخيلته ولا يرضى عنها بديلاً، ويفضل الموت على الحياة، ويميل بطبعه إلى التشاؤم، ويبحث دائما عن من يقوده، ويأخذ له قراراته، لذا يتبع قاعدة وفكرة الولاء والطاعة المطلقة، ولا يعرف قيمة الإنسان، الذى نفخ فيه الله من روحه، وكثيراً ما ينقلب إلى الاتجاه المضاد..!

ويرى الحشاشون أن ما يتفوه به القائد أو يفعله، لا ينزل الباطل من بين يديه، واستطاعت بذلك تلك الفرقة المارقة من تطويع الإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية، والعمل على إشاعة الفوضى.. وجذبوا إليهم الفلاحين والجبليين فى المناطق الفقيرة والنائية.

ويقول الباحث الروسى بارتولد: «إن المغزى الحقيقي لحركة الحشاشين يكمن فى كونها حرباً للقلاع ضد المدن».

وقد استطاعت أن تستقطب الطبقة الحاكمة القديمة المخلوعة، وسكان المدن الساخطين، كما كانت حركة قامت على أكتاف الحرفيين وفقراء المدن وفلاحى المناطق الجبلية.

ويؤكد برنارد لويس.. «إنه ليس هناك تفسير بسيط ووحيد يوضح ظاهرة «الحشاشون» المعقدة.

والتى انتهت بتكوين إمارات إقليمية متعددة وأصبحت هذه الفرقة طرفا تتحالف وتتصارع مع الصليبيين وان ظل صراعهم الاساسى موجهاً ضد أمراء الإسلام .

الحروب الصليبية

أما كيف رأى الصليبيون الحشاشين فقد جاء فى تقرير أعده بروكاردوس للملك فيليب السادس ملك فرنسا عن الأخطار التى سيصادفها عندما كان يعد لحملة صليبية جديدة.. يقول.. «أذكر الحشاشين الذين ينبغى أن يتفاداهم المرء، فهم يبيعون أنفسهم ، ويتعطشون للدماء البشرية ويقتلون مقابل أجر، ولا يقيمون اعتبارا للحياة، ويغيرون مظهرهم مثل الشياطين، التى تتحول إلى ملائكة، وهم يقلدون الأزياء واللغات والعادات لأقوام متعددة، ولا يمكن ان تميزهم فهم يخفون أسماءهم قدر ما يستطيعون».

وعبر عن ذلك دانتى فى النشيد التاسع عشر من الجحيم عندما يذكر الحشاشين الخائن الذى يقتل خلسة أو غدراً، وغالبا ، تكون ضحيته شخصية عامة، يغتالها تعصبا وجشعا.

وكتب وليم الصورى مؤرخ الإفرنج



للحروب الصليبية.» يوجد في إقليم صور اناس يملكون عشر قلاع قوية مع ما يتصل بها من مزارع وقرى وبشر، وعددهم حوالي ٦٠ ألفا أو يزيد، ولا يوجد أي عمل شاق أو صعب إلا وأقدموا على أدائه عندما يأمر شيخهم.

بيت المقدس

وفي الوقت الذى أخذت تتساقط الإمارات العربية واحدة بعد الأخرى في أيدى الصليبين، وفي الوقت الذى سقط فيه بيت المقدس، وامتلأت دروبه بالدماء، لم يفلت شيخ أو امرأة أو طفل عربي من الذبح.

في هذا الوقت انغمس الحشاشون في اغتيال الأمراء الذين يقاتلون الصليبيين، وقد سبق وذكرنا اغتيالهم لنظام الملك، وعندما كان يقاومهم القاضي ابن الخشاب في حلب ويدعو الأهالي إلى مقاومة الصليبيين، وأخذ على الحشاشين المودة التى يبدونها حيال الغزاة، وأخذ ينتقد موقف رضوان الحاكم المفرطة في مصالحة الصليبيين ومهادنتهم والذى يعود الجزء الأكبر منه إلى نصائح أتباع حسن الصباح.

لذا طورد «الحشاشون» غداة المذابح التي تبعت موت رضوان والتى انتقلت من شارع إلى شارع.. «وهرب جماعة منهم أفلتوا إلى الإفرنج وتفرقوا في البلاد..» كما يشير المؤرخ ابن القلانسي، وعادت الجماعة إلى العمل السري!.

وعلى الرغم من وفاة حسن الصباح في قلعته، فقد عرف نشاط الحشاشين نمواً كبيراً، وسقط تحت ضرباتهم أحد ابطال مقاومة الصليبيين. ويذكر جميع المؤرخين مقتله بحزن وإجلال، لأنه الرجل الذى قاد ونظم المقاومة للغزو الصليبي وهو قاضى القضاة أبو سعد الهروى الذى أصبح أرفع المراجع الدينية في عالم الإسلام. كما اغتالوا الأمير السلجوقى مودود في دمشق.

ومثل الحشاشون تهديداً حقيقيا لعالم الاسلام في الوقت الذى يحتاج فيه إلى حشد الطاقات للوقوف في وجه الغزو الصليبي.. وألبس الحشاشون منطق العنف غطاء ايدلوجيا مزيفاً.

صلاح الدين

ولا تكاد تمسك بمعيار ثابت في علاقة الحشاشين بالصليبيين، فمرة يتحالفون معهم، ومرة أخرى يغتالون قادتهم، وسجل التاريخ حالتين على الأقل حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية.

ومن ناحية أخرى كان لاجئو الحشاشين في حلب وبانياس يلجأون الى الافرنج.. ويسجل التاريخ تسليم قلعة



بانياس إلى الافرنج ولبس الى أحد أمراء المسلمين.

كما يروى وليم الصورى حكاية يدعى خلالها اقتراح الافرنج للحشاشين باعتناق المسيحية، مما يظهر التقارب الشديد بين شيخ الجبل سنان - أحد شيوخهم بعد الصباح - ومملكة بيت المقدس الصليبية..

وكان لظهور صلاح الدين الأيوبى كقوة كبرى وانتهاجه سياسة توحيد المسلمين وحشدهم فى مواجهة الغزو الصليبى تغيير مجرى الصراع بالكامل، ورغم ذلك جعل منه الحشاشون خصما خطيراً، وتعددت محاولتهم الفاشلة لاغتيال صلاح الدين، فبينما كان يحاصر حلب، تسلل رجال سنان إلى معسكر صلاح الدين فى أحد أيام الشتاء القارس، وعندما تم اكتشافهم وقع عراك قتل فيه عدد كبير من الرجال ولم يكن بينهم صلاح الدين.

ولم تكن هذه هى المحاولة الوحيدة، ففى العام التالى تكررت المحاولة، عندما تخفى عدد من الحشاشين فى زى جنود صلاح الدين وهاجموه بينما كان يحاصر أحد القلاع الصليبية التى زرعت على طول ساحل البحر الأبيض.. ولم يصب صلاح الدين سوى بجروح طفيفة.

وفى ذات الوقت تمكن الحشاشون من اغتيال المركيز كونراد ملك بيت المقدس عندما كان فى مدينة صور بعد ان تنكر بعض رجالهم فى زى رهبان، وعندما تم استجوابهم اعترفوا أن ملك انجلترا ريتشارد هو الذى دبر العملية.. والذى كان يسعى للتخلص من الماركيز، وأكد ذلك السرعة التى تم بها زواج الكونت هنرى أوف شمبين من أرملة كونراد وارتقاؤه عرش مملكة بيت المقدس.

وعلى هؤلاء الساعين إلى عبرة التاريخ، أن يقدموا هذه الفرقة وما ارتكبته من أعمال فى فيلم سينمائى غنى بالأحداث والإثارة .

وتمر تلك الموجة العاصفة، وبينما كان يرقد آخر الخلفاء الفاطميين فى قصره ينتظر أن يوارى جثمانه الثرى ، أعلن القائد صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية، وخرج الصليبيون من الشام وفلسطين بعد قرنين من الزمان.

ولم يعد «الحشاشون» عصابة.. من السذج المخدرين، يقودهم أفاقون، أو مجرد جزء من مؤامرة لفوضويين عدميين، أو جماعة من القتلة المحترفين، بل أصبحت الفرقة الباقية من هذه الجماعة السرية هم البهرة تحت قيادة الأغاخان، وانتهى استخدام الدين لخدمة طموح مجنون. ■



عولمة الثقافة واللغة.. والدين أيضا؟!

بقلم:
د. محمد عمارة

إذا كان الإسلام يجتهد للتطور والتقدم - في الفكر والثقافة - منهاج التجديد - الذي يستصحب الثوابت الإسلامية ويجدد في المتغيرات وفقه الواقع وفقه الأحكام والنظم والمؤسسات، على النحو الذي يجعل ثقافة الأمة إسلامية دائما وأبدا، عبر الزمان والمكان ويجعلها كذلك متطورة ومواكبة لكل المستجدات - حتى لقد جعل الإسلام من هذا المنهاج التجديدي سنة من سنن الفكر، لا تبديل لها ولا تحويل، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» - رواه أبو داود.

إذا كان هذا هو منهاج الإسلام - في الفكر والثقافة - فإن العولمة الأمريكية تعولم وتعمم وتفرض ثقافة «الحداثة الغربية» التي أقامت وتقيم «قطيعة معرفية» مع الموروث، ومع «الموروث الديني» على وجه الخصوص.. فمنذ عصر التنوير الغربي - الوضعي والعلماني والمادي - أقامت ثقافة الحداثة قطيعة مع الله والغيب والدين، عندما تمحورت حول الإنسان، بدلا من الله، وعندما جعلت هذا الإنسان «طبيعيا» بدلا من أن يكون «ربانيا» نفخ الله فيه من روحه، واتخذه خليفة عنه للنهوض برسالة العمران..



ولقد كشف علماؤنا هذه النزعة «اللادينية - الدهرية» في ثقافة الحداثة الغربية منذ فجر يقظتنا الحديثة والاحتكاك مع هذه الحداثة، الوافدة على بلادنا في ركاب الاستعمار، فعبد الرحمن الجبرتي «١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م» عندما احتك بفكر الحداثة الوافدة مع بونابرت «١٧٦٩ - ١٨٢١م» والحملة الفرنسية على مصر «١٢١٣ - ١٢١٩ هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١م» لم ير في هؤلاء الفرنسيين نصارى كتابيين، ذوى ثقافة نصرانية، وإنما اكتشف حقيقة فلسفتهم الوضعية العلمانية اللادينية، التي أقامت قطيعة معرفية مع مطلق الإيمان الديني .. فكتب - بعمق وعبقرية - معلقا على دعاوى بونابرت أنه «مخلص هو والفرنساوية للإسلام ومحترم لنبي الإسلام» فقال: «إن إسلامهم نصب .. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون(١)».

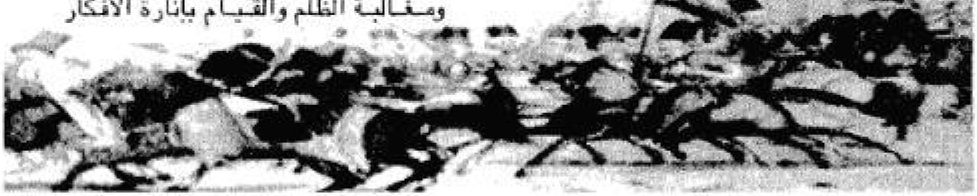
رفاعة والحداثة الأوربية

وكذلك رفاعة رافع الطهطاوى «١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م» - الذي خبر ثقافة الحداثة الأوربية في باريس - فلقد كتب عن جمهور أهل باريس وأغلبيتهم، الذين «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لايصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم في الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية .. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية .. علوم التمدن المدني».

ثم صاغ الطهطاوى هذه المعادلة - ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين .. والبراعة في العلوم الدنيوية - شعرا قال فيه :

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لاتغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا وحقكم عجيب «٢»

أما جمال الدين الأفغاني «١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م» فقد أفاض في الحديث عن «دهرية» هذه الثقافة الحداثية التنويرية الأوربية، التي أحيا فلاسفة تنويرها - وخاصة «فولتير» ١٧٢٤ - ١٧٧٨م» و«روسو» «١٧١٢ - ١٧٧٨م» دهرية «أبيقور» الكلبي «٣٤١ - ٢٧٠ق م». الأمر الذي جعل الثورة الفرنسية «١٧٨٩م» وبالا على الثقافة الفرنسية المتواصلة مع النصرانية .. فبعد أن كان الشعب الفرنسي «مشرقا للتمدن في سائر الممالك الغربية» ظهر فيهم فولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار




عبد الرحمن الجبرتي


رفاعة الطهطاوي


جمال الدين الافغاني


عبد الله النديم

وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبي، وأحيا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف ديني، وغرسا بذور الإباحية والاشراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني، وجهر كلاهما بإنكار الألوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء - «برأهم الله مما قالا» - وكثيرا ما ألف فولتير من الكتب في تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ما جاءوا به. فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم، وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة «في زعمهم»، شريعة الطبيعة..«»٢».

دور مهم للنديم

وعندما قامت في بلادنا - بواسطة المثقفين الموارنة .. الذين صبغت عقولهم وثقافتهم في مدارس الإرساليات الفرنسية - مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية - وفي مقدمتها مجلة «المقتطف» «١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٥٢م» - التي أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية»، كشف عبدالله النديم «١٢٦١ - ١٣١٣ هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م» الطابع الإلحادي لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب «المقتطف» واصفا إياهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه .. والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق . وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»«٤».

هكذا تمتع علماء الأمة بهذا العمق ونفاذ الرؤية، فميزوا بين نهضة الغرب



في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، وبين وضعية ولادينية ثقافته الحداثية .. وهو عمق ونفاذ رؤية افتقر إليهما الذين انخدعوا بهذه الحداثة من مثقفينا التغريبين !..

ولايحسبن أحد أن هذا الذي تحدث عنه أئمة يقظتنا من قيام القطيعة المعرفية بين ثقافة الحداثة الغربية وبين الدين هو مما يمارى فيه الغربيون- كما يمارى فيه بعض المتغربين! - فهذه القطيعة هي من المسلمات التي يعترف بها ويعلنها دعاة هذه الحداثة، عندما يقولون : «إن أيديولوجيا التنوير قد فصلت بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير .. ومنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله يتزاح لكي يخلي المكان التقدم عصر العقل وهيمنته .. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة .. لقد أصبح الإنسان وحده مقياسا للإنسان...»(٥).

بل إن الاعتراف الحداثي بهذه القطيعة مع الله والدين يبلغ حد الاستفزاز لأي لون من ألوان الإيمان بأي دين من الأديان، عندما يعرف أحد الحداثيين هذه الحداثة عند واحد من أبرز دعاتها المعاصرين - د.محمد أركون - فيقول عنها : «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته .. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان امبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون» (٦).

ثقافة القطيعة مع الله

فثقافة الحداثة - باعتراف أهلها .. ورؤية علمائنا لحقيقتها - هي ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين .. ثقافة الدنيا والدنيوية «وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» - الجاثية : ٢٤ - «ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» - الروم ٦، ٧ - .. ثقافة الإنسان «الطبيعي - الحيواني» لا ثقافة الإنسان الرباني، الخليفة لله.. ثقافة عبادة الطبيعة والدنيا، بدلا من عبادة الله !

وهذا العقل الذي ألهته وعبدته هذه الثقافة الحداثية، عندما انتقلت به من «النسبية» الى «الإطلاق» قائلة: «إنه لا سلطان على العقل إلا للعقل»! هو غير العقل والعقلانية في الثقافة الإسلامية المؤمنة، ذلك الذي لاغنى عنه كملكة من ملكات الإنسان، ونعمة من نعم الله على هذا الإنسان، والجوهر الذي تميز به الإنسان عن غيره من المخلوقات، ومناط التكليف الإنساني .. لكنه ليس وحده السبيل الى المعرف، وإنما يزامل في هذه المهمة ويتآزر ويتآخى مع الوحي والتجربة والوجدان، لإفراز الثقافة



المتوازنة.. وفى مقابل التأليه الحداثى للعقل، نجد الرؤية الإسلامية التى صورها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى «٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م» عندما قال : «فمثال العقل البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن : «الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق أن يكون طالب الاهتداء المستغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثال المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور ...«٧».

وإذا كان الاستعمار الغربى، فى مرحلة الغزو المسلح، قد حاول فرض هذه الثقافة الحداثية علينا بحد السيف، و«بحق الفتح» فدعا الفرنسيون - فى شمال إفريقيا - إلى «الفصل بين الإسلام والاستعراب» - لإحلال الفرنسية محل العربية وإلى «فصل الدين عن القانون المدنى .. وحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده .. لدمج العرف فى القانون الفرنسى بدلا من القانون الاسلامى .. لإنشاء نظام للعدلية فى اتجاه فرنسى خالص .. وإحداث التمدن خارج دائرة الإسلام «٨» .. فإن هذا الغرض لثقافة الحداثة، والقطيعة مع الإسلام، هو ماتسعى إليه العولمة الغربية هذه الأيام.. لا بواسطة الفتح المسلح - كما كان الحال إبان الاستعمار التقليدى - وإنما بواسطة شرائح الغلو العلمانى فى بلادنا - تلك التى صنعها الاستعمار على عينه، ومموّل مراكز «أبحاثها» تمويلا علنيا ومباشرا .. ومن خلال تحالف هذا الغلو العلمانى مع شرائح من الأقليات التى دفعتها وتدفعها الحداثة والعلمانية الى الولاء والاحتماء بالغرب، بدلا من الولاء للهوية الإسلامية لثقافتنا الوطنية والقومية .. فيدع هذا التحالف الى الانقلاب على هوية المجتمع، بإلغاء مواد الدستور التى تحدد الهوية الإسلامية لدين المجتمع وقيمه وثقافته وقانونه - كما هو حادث فى مصر الآن - وتسيير المظاهرات وتريق الدماء لوقف إسلام الثقافة القانونية - كما حدث فى نيجيريا - مارس سنة ٢٠٠٠م - تلك هى ثقافة الحداثة، التى بدأ الغرب تعميمها، بالترغيب والترهيب، منذ قرنين من الزمان .. والتى تعولها ، بالاجتياح، ثورة وسائل الاتصال التى تعيش فى ظلالها هذه الأيام ..

العولمة اللغوية:

ومع عولمة القيم الغربية .. وثقافة الحداثة، تتم - أيضا - عولمة اللغات الغربية، لتزيح اللغات الوطنية والقومية عن عروشها : وإذا كانت «الفرنسة»، و«الجلنزة» و«الروسنة» قد بدأت مع الاستعمار الغربى الحديث، ومازالت بصماتها السوداء باقية فى ثقافتنا وإعلامنا ولغة خطابنا وشركاتنا ولافتات

متاجرنا .. فضلا عن مدارسنا وجامعاتنا .. فإن العولمة الاقتصادية التى تحولنا إلى «عمالة» فى الشركات الغربية عابرة القارات والجنسيات وإلى مستوردين وموزعين و«مستهلكين» لمنتجات تلك الشركات ستفرض علينا - بحكم العمل والاستهلاك - إحلال لغات تلك الشركات وأسماء سلعها محل لغاتنا الوطنية والقومية .. حتى تصبح بلادنا «سوبر ماركت» لا علاقة لما فيه بلغاتنا، بما فى ذلك العربية، لسان الإسلام ولغة القرآن الكريم.

العولمة الدينية

وغير العولمة للاقتصاد، والسياسة، والتشريع، والعسكرية، والقيم، والثقافة، واللغات - هناك عولمة الدين، بتنصير المسلمين، طموحا الى إلغاء أمتنا وحضارتنا، وطى صفحة الإسلام من سجل الوجود !!.

وإذا كان الوعد الإلهى قد جعل ويجعل من هذا الهدف المجنون مستحيلا «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر: ٩» ... فيجب أن نفرق بين «حفظ» الدين، وبين «إقامة» الدين .. فالله، سبحانه وتعالى، قد وعد بحفظ القرآن - ديوان الدين الإسلامى - لكن إقامة هذا الدين هى تكليفنا نحن، ومهمتنا نحن .. وهذا هو الذى يتعرض لامتحان العولمة على جبهة التنصير ..

وإذا كانت الأرثوذكسية السلافية الغربية تمارس هذه المهمة، غير المقدسة عن طريق الإبادة، والتطهير «العرقى - الدينى» والمقابر الجماعية التى تدفن فيها المسلمين - من البلقان إلى القوقاز - فإن الكنيسة الكاثوليكية الغربية قد أعلنت الحرب لتنصير المسلمين - بدلا من تنصير بيتها الأوربى، الذى انحدر إلى الإلحاد واللا أدرية - فرفعت شعار «إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م» .. فلما خيب الله آمالهم، لم ترعو، وإنما زحزحت التاريخ إلى ٢٠٢٥م.

وهى لاتستحى من الحديث عن «التحدى الإسلامى» و«الفتح الإسلامى لأوربا» فيقول مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة - الكاردينال «بول بوبار» فى حديثه لصحيفة «الفيجارو» الفرنسية : «إن الإسلام يشكل تحديا بالنسبة لأوربا، وللغرب عموما، وإن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين، وثقافة، ومجتمع، وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان !!«٩»».

أما البروتستانتية الغربية، فإن بروتوكولات قساوسة التنصير فيها قد تبلورت فى مؤتمر «كولورادو» بأمريكا - مايو ١٩٧٨م - تلك التى تقول : «إن



الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز للتركيز على الإسلام، لفهمه، ولاختراقه فى صدق ودهاء !.» «١٠».

ومع التخطيط لاختراق الإسلام وثقافته، بالاعتماد المتبادل مع الكنائس المحلية .. ومن خلال العمالة المدنية الأجنبية .. تعلن البروتستانتية - بلا حياء .. ولا أخلاق - أن صناعة الكوارث فى العالم الإسلامى هى السبيل إلى تحويل المسلمين عن الإسلام إلى النصرانية .. فيقولون : «لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية فلابد من وجود أزمات تدفع الناس خارج حالة التوازن التى اعتادوها . إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرا مهما فى عملية التنصير وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى .. فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى !..» «١١».

هكذا تتم العولة - والاجتياح - على كل الجبهات .. ومختلف الميادين .. من الاقتصاد والسياسة، إلى القيم والثقافة، وحتى الدين .. مرورا بالعسكرية .. والتشريعات .. واللغات!.. ■

الهوامش

«١» «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» ص ٢٤.

«٢» «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى» ج٢ ص ١٥٩، ١٦٠ دراسة وتحقيق : د.محمد عمارة - طبعة بيروت ١٩٧٣.

«٣» «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى» ص ١٦١ ، ١٦٢، دراسة وتحقيق د.محمد عمارة - طبعة القاهرة ١٩٦٨.

«٤» مجلة «الأستاذ» - القاهرة - العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٢٣، ٩٢٤ - فى ٧ ذى القعدة ١٣١٠ هـ ٢٣ مايو ١٨٩٢م.

«٥» هاشم صالح - مجلة «الوحدة» - المغرب - عدد فبراير - مارس ١٩٩٣م - ص ٢٠، ٢١ وهو ينقل عن كتاب : إميل بولا «الحرية ، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة» منشورات سيرف - باريس ١٩٨٧م - وانظر كتابنا «الإسلام بين التنوير والتزوير» طبعة القاهرة ١٩٩٥م.

«٦» د. على حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون» - مقال فى صحيفة «الحياة» - لندن - فى ١٨/١١/١٩٩٦م.

«٧» «الاقتصاد فى الاعتقاد» ص٢، ٣ طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .

«٨» د.محمد عمارة «الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة» ص ٢٧٦ - ٢٧٨ طبعة القاهرة ١٩٩٧م.

«٩» صحيفة «الشرق الأوسط» لندن فى ١/١٠/١٩٩٩.

«١٠» «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى» - الترجمة العربية لوثائق «مؤتمر كولورادو» - ص ٧٥٢ - طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى - مالطا ١٩٩١م - وانظر كتابنا «الغارة الجديدة على الإسلام» ص ٨٥ طبعة القاهرة ١٩٩٨م.

«١١» «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى» ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧.





صور لا تنسى

آلاف الصور جرى نشرها ، على امتداد عشرات السنين، بين دفتى مجلة الجغرافيا الأمريكية «ناشونال جيوجرافيك مجازين».

صور بالآلاف التقطتها عدسات نوابغ المصورين بداية باللونين الأسود والأبيض، ثم بألوان قوس قزح، التقطتها للأرض والسماء والفضاء ، حيث النيازك والكواكب والمجرات بشموسها التى تعد بالملايين.

صور رائعة للكائنات فى أعماق البحار والوديان وأعالى الجبال والغابات العذراء، ولغرائب النجوع والقرى والمدن فى أقاصى الأرض، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

وكما وصف علماء الحملة الفرنسية مصر برسومهم التى لم تترك صغيرة أو كبيرة إلا حاولت إحصاءها، وصفت المجلة الأمريكية بصورها الكرة الأرضية، بتفصيل مثير للدهشة والاعجاب.

ولأنها ، أى المجلة، قد جاوز عمرها المائة عام، مثلها فى ذلك مثل مجلتنا الهلال، وهو أمر نادر فى عالم المجلات، لا سيما ما كان منها جادا.

فضلا عن انتظام صدورها، دون أى انقطاع، بدءا من منتصف الربع الرابع من القرن التاسع عشر، حتى القرن الحادى والعشرين.

فقد ارتأى القائمون على تحريرها إصدار عدد استثنائى، تنشر فيه أفضل مائة صورة، يقع الاختيار عليها من بين صور المجلة، التى تعد بالآلاف.

وبطبيعة الحال، لم يكن الاختيار أمرا يسيرا وبدورها رأت أسرة الهلال أن تختار من بين الصور المائة ، أربع صور.

والأمل أن يكون اختيارها للصور الأربع قد صادفه التوفيق.



عندما لا تجيء الأمطار، تتبخر الآمال وهو الأمر الذى كثيرا ما يحدث فى الصومال والصورة لمعاناة امرأة صومالية من جراء الجوع والحرمان.

ورغم أن روبرتو كابوتو قد التقطها قبل ثمانية أعوام. إلا أن شبحها لايزال يطارده، يؤرق منامه.

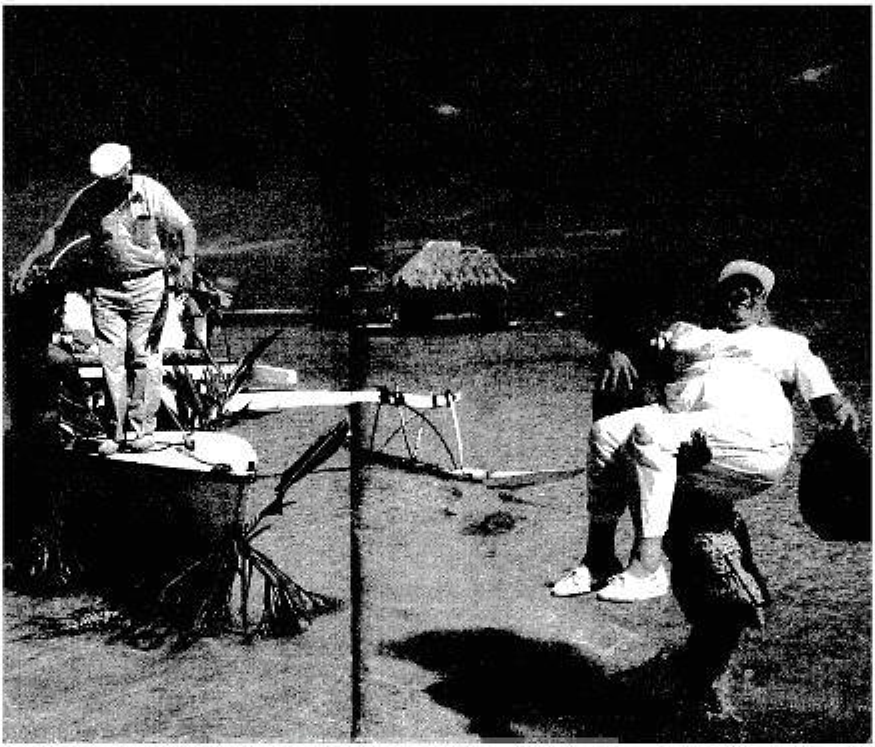
وعنها يقول «إذا لم تؤثر فيك، فثمة شىء غير سليم».



هذه صورة من القطب الجنوبي التقطتها عدسة «فرانس لانتينج» لإمبراطور قصيلة من طيور البطريق، في أثناء قيامه بالنداء على فريخه، وسط حشد كبير من الصغار.

والمثير للدهشة، ربما حبه الكثير من الأمهات والآباء الأنحسيين، وعى الذرية، وتمييزها لصوته، دون غيره من الأصوات.

فما أن تسمعه حتى تسرع بتلبية النداء.



في وسع الصورة أن تكون عملا فنيا، وفي نفس الوقت سوصلا جيدا لحقائق وأفكار أكثر عمقا، وربما أشد إيلاما.

وليس أدل على ذلك من هذه الصورة التي التقطتها كاميرا «جسوادي شوب» لشباب من جزيرة تواهيستي، تحت عبء سواح فرنسيين محمولين إلى بر الأمان.

فيفضلها جرى الكشف من أن فردوس الجزيرة له وجهان، أحدهما متعة سحر الجزيرة الاستوائية، التي تسمو بالمستمتع إلى حد النيرفانا. والآخر قهر الاستعمار الفرنسي بحمله الثقيل.



هذا صقر ذهبي يمسك بقبضة صائد محترف من كازخستان يحاول المحافظة على توازنه، تحت ثقل الصقر ورياح الشتاء.
وما هي إلا ثوان، حتى يطلق الصقر وراء صيد ثمين.
ثم يسرع الخطى، يعدو على صهوة جواده، أملا أن يصل، حيث الصقر، وذلك قبل أن يمزق فراء الفريسة، أو قبل أن يصاب بأذى، في أثناء الصراع معها.
والصورة التقطها دافيد ادواردز قبل عامين، أو يزيد.



البابا شنوده



الكواكبي

العرب المسيحيون

بقلم
د. محمد على اللوباني

لقد وجد العرب فى ديارهم قبل بزوغ الأديان السماوية، فالعرب بقبائلهم وعصبياتهم وتحركاتهم داخل الأرض العربية، موجودون قبل أنبياء اليهود وقبل ظهور السيد المسيح وبزوغ فجر المسيحية، وكذلك هم موجودون قبل ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبزوغ نور الإسلام .

ليس بالضرورة المطلوبة أن تكون مسلما لأن تكون عربيا ، ولا أن تكون مسيحيا لأن تكون عربيا ذلك لأن الديانات السماوية لم تشكل ولن تشكل على مدى عهود التاريخ السابقة واللاحقة قوميات .

* عمان - الأردن



محمد عبده



جارودى



مكرم عبيد

إن الدين الإسلامى دين عربى وان الدين المسيحى دين عربى، فكما لا تعارض بين الاسلام والعروبة، كذلك لا تناقض بين المسيحية والعروبة، والحديث الشريف يقول: «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى باللسان فمن تكلم العربية فهو عربى».

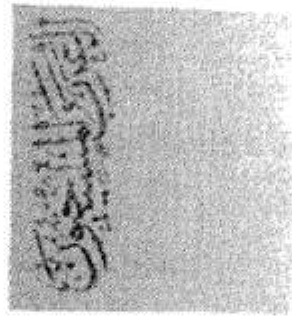
فالقاعدة أن تكون وطنيا منتميا لوطنك وشعبك مدافعا عن تاريخه وتراثه وحضارته وعن ماضيه وحاضره ومستقبله وعن مصالحه وعزه وسؤدده، فالدين علاقة خاصة بين الخالق والمخلوق، بين المواطن وربه عز وجل، فالدين لله والوطن للجميع.

لكل قاعدة شواذ

هذه هى القاعدة المسلم بها منطقيا واجتماعيا ووطنيا، ولكن كما يقولون لكل قاعدة شواذ ... فالطائفية شواذ والعنصرية شواذ والتطرف شواذ، فقد أحاط غلاة الطائفية والعنصرية والتطرف بتراث العرب والفكر القومى العربى ليمضوا به تحريفا وازدراء محاولين أن ينسونا رحاب الفكر القومى وان ينسونا قيادات قومية عربية واعية كمحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى، وساطع الحصرى وزكى الارسوزى وقسطنطين زريق وبطرس البستانى ونجيب عازورى وهو أول من كتب وحذر من الغزو الصهيونى لفلسطين وأول من أنشأ الجامعة العربية فى المنفى وغيرهم الكثير الكثير. إن هؤلاء وغيرهم الكثيرون هم خيرة الخيرة من اعلام الفكر القومى العربى الذين نموا الاحساس بالمواطنة وليس بالطائفية أو العنصرية أو التعصب.

إن احساسك الحق بالمواطنة وانتماءك لوطنك يقوى بك حب الوطن، وينمى إحساسك بالمواطنة الصادقة وينمى الاحاسيس الاصلية بحقوقك كمواطن وعلى العكس من ذلك فإن الطائفية والعنصرية والتطرف المرئية منها والمخفية لن تنقذك من العقد ومركبات النقص وسيطرة هواجس الخوف والتحسب ...

لن نضيف الى الحقيقة الساطعة



جـديدا إن قلنا إن الطائفية والعنصرية والتطرف لاتمت بأية صلة الى اصالة الاديان وسموها ولا الى الاصالة الوطنية والقومية .

إن المتلبسين لاثواب الطائفية والعنصرية والتطرف لايعكسون شيئا من الفهم الدينى أو الفكر القومى وحالاتهم لا تعكس الا جهلا مطبقا بالتعاليم السماوية وآفاقها الواسعة ورحابتها وسماحتها. لقد ثبت انه ليس هناك طائفية بريئة وانه ليس هناك طائفية بلا محرك مقصود أو بلا مخططات، ان قيادات ومنظرى الطائفية والعنصرية والتطرف جهلة لاينتمون الى روح الاديان السماوية بشئ ، كذلك فهم جهلة برحابة الفكر القومى الاصيل .

لقد سئل السيد المسيح .. من أدبك ؟ فأجاب عليه السلام : «ما أدبنى احد، ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته ».

يقول الفيلسوف الفرنسى رجاء جارودى : « ان اليهود كانوا من وراء الصليبيين وكانوا من الاسباب الخفية التى دفعت بالصليبيين لغزو البلاد المقدسة ، وقد اتخذ اليهود المال وسيلة فأخفوا مشاعرهم الدينية والطائفية خلف المال ».

وفى هذا المجال لابد من التنويه ان من الخطأ الفاحش تسمية الحروب الصليبية بهذا الاسم، والصحيح انها حرب الفرنجة لغزو البلاد العربية المقدسة.

ولعل القليل على علم من ان حملة الفرنجة كانت تمارس ايضا ممارساتها الدينية على المسيحيين العرب وعلى الكنيسة العربية، لقد قامت حملة الفرنجة الرابعة أصلا ضد الكنيسة الارثوذكسية العربية والشرقية بقصد جر الكنيسة العربية والشرقية للسيطرة الغربية، وقد قتلت هذه الحملة من المسيحيين العرب أكثر مما دمرت من مساجد المسلمين وقتلهم .

هدفان لحملة الفرنجة

لقد قاومت الكنيسة العربية محاولات التغريب التى حاول الغرب ان يجر المسيحيين العرب لها، تماما كما قاوم الإسلام العربى محاولات التتريك التى حاول الاسلام العثمانى جر العرب المسلمين لهـا، وهكذا التقت المشاعر الاسلامية والمسيحية فى جبهة واحدة للدفاع عن الهوية العربية .

إن غزوة الفرنجة لبلاد الشام كانت تستهدف غايتين :

الأولى : استعمارية وهى السيطرة على هذه المنطقة الغنية وهذا هو الهدف السياسى .

والثانية : اخضاع مسيحيى الشام خاصة ومسيحيى الشرق عامة الى سلطة بابوات روما ، وهذا هو الهدف الدينى، ولهذا وضع شعار «الصليب على صدور هؤلاء الغزاة» .

ومعروف ان المسيحيين العرب عارضوا على الدوام التفسير اليونانى للمسيحية وكان لهم تفسير هو «التفسير الارامى» وقد حاربت بيزنطة هؤلاء المسيحيين وقتلت مئات الألوف وأحرقت مؤلفيها ، أمثال الفيلسوف الشهيد فيلوكسنيوس المنبجى الحلبى .

وقد اتخذت المسيحية الآرامية القومية أساسا للتمايز الدينى عن البيزنطيين وهم رومان الشرق بعد سقوط روما عاصمة رومان الغرب .

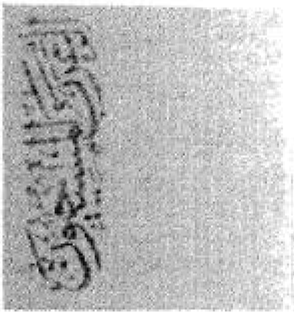
ولهذا السبب عندما ظهر الاسلام كان هؤلاء المسيحيون الآراميون الذين صاروا مسيحيين عربا بعد انصهار العنصر الآرامى بالعنصر العربى منذ القرن الثانى قبل الميلاد صاروا ظهيرا للعرب المسلمين ضد الاحتلال الرومانى لبلاد الشام واعتبروا انتصار ابناء العمومة عرب الجنوب انتصاراً لهم واستعادة الكرامة التى هدرتها روما بتدمير مملكة الأنباط ثم مملكة تدمر وكذلك استعادة الكرامة التى هدرها الفرس عند احتلال بلاد بابل وتدمير الحضارة الأشورية البابلية .

ولهذا لاغرو أن يطلق مسيحيو بلاد الشام على عمر بن الخطاب لقب الفاروق وهو تعبير آرامى يعنى «المنقذ أو المخلص» لأن هذا الفتح العربى خلص المسيحيين السوريين من ظلم الرومان وبطشهم كما يقول البطريرك السريانى مار ميخائيل الكبير فى تاريخه.

وقد كان احتلال بلاد الشام على يد الفرنجة مأساة حقيقية للمسيحيين العرب، بل مأساة مزدوجة فهم من الناحية الاجتماعية صاروا اقنانا للاقطاع الأوربى الغازى الحاكم على وطنهم تماما كإخوتهم العرب المسلمين ، وهذا ما يؤكده المؤرخ زويوروف فى كتابه (الصليبيون فى الشرق) حيث يقول : ان الغزاة لم يكونوا يقيمون أى فرق بين السكان الخاضعين لسلطتهم فقد كانوا بين السكان الخاضعين بنفس القدر من القساوة التى يعاملون به المسلمين حيث كان الفلاحون المسلمون والفلاحون المسيحيون اقناناً .

الفرنجة يبغضون مسيحيى الشرق

وهم ، أى المسيحيين، عانوا من الناحية الدينية لانهم اعتبروا هراطقة ومارقين على الدين وخارجين على سلطان الكنيسة الكاثوليكية وبالتالى فإن دمهم مهدور وقتلهم خدمة لله تعالى وللدين وللكنيسة .



وفعلا بمجرد احتلال القدس لم يقتصر دور الفرنجة على قتل المسلمين ونهب مسجد الصخرة وتخريب مسجد عمر وازالة المحراب بل انهم اتخذوا تدابير اشد ضد المسيحيين فقد طردوا من كنيسة القيامة والمهد جميع الكهنة من الطقس الشرقى عربا وروسيين وجورجيين وأراميين وأقباطا وسريانا الذين كانوا يقيمون صلواتهم وشعائرهم الدينية وفق مذاهبهم دون أى تدخل من جانب العرب المسلمين .

وقد ذهل المسيحيون من هذه الدرجة الفظيعة من البغض فقرروا المقاومة وتعرضوا الى تعذيب بشع حتى يكشف رجال الدين المسيحى عن كنوز المسيحية التى أخفوها وخاصة خشبة الصليب واستمروا فى التعذيب حتى حصلوا على كل هذه الكنوز .

ثم خلعوا البطرك الأرثوذكسى وعينوا بطركا لاتينيا بدلا منه وابعدوا كل الكهنة الشرقيين من عرب وارمن وسريان واقباط عن كنيسة القيامة فاضطرت القيادة الدينية الشرقية الى اللجوء الى خارج القدس. كما قام الفرنجة بمنع الأقباط من الحج الى القدس باعتبارهم هراطقة .

وأمعن الفرنجة فى اضطهاد المسيحيين فاستولوا على الكنائس والأوقاف والأملاك التابعة للأديرة واعتبروها ملكا خالصا لهم لهذه الاسباب كانت مقاومة الفرنجة وطنية لم تقتصر على اتباع دين دون آخر فالاضطهاد الفرنجى أصاب الجميع والعزة القومية هى التى أهينت .

وقد ذكر أسعد منصور فى كتابه «تاريخ مدينة الناصرة » ان صلاح الدين الأيوبى بعد معركة حطين اصدر امرا باعادة جميع كنائس الناصرة الى المسيحيين الشرقيين وأخذ مفاتيح هذه الكنائس من الكهنة الفرنجة .

وبخروج الفرنجة من فلسطين لم يبق أى مكان مقدس أو دير أو صومعة فى حوزة الفرنجة وأعيدت جميعها الى أهلها الوطنيين : المسيحيين العرب والأرمن والسريان والأقباط .

وهذه انماط الفرنجة الكثيرة وظلوا دوما يحنون الى استعادة الأماكن المقدسة فى القدس ومارسوا شتى اساليب الإغراء والضغوط لتحقيق هدفهم هذا ولكن الحكم الاسلامى لم يرضخ وحافظ على بقاء هذه الأماكن المقدسة بيد الوطنيين العرب على مختلف مذاهبهم .

ان المسيحيين كانوا يشكلون نسبة

عالية من سكان بلاد الشام عند بدء حملات الفرنجة على بلاد الشام وان تحولهم الى الاسلام لكى يتخلصوا من الاضطهاد المزدوج الذى كانوا يعانون منه على يد الفرنجة الغزاة الذين كانوا يعاملونهم كخارجين عن الدين المسيحى وهراطقة .

وحين صارت اوروبا قوية وضعفت الامبراطورية العثمانية ازداد الضغط على الحكم العثمانى لنزع بعض الأماكن المقدسة من يد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وأرغموا العثمانيين على نزع بعض هذه الاماكن المقدسة من يد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وارغموا العثمانيين على نزع بعض هذه الاماكن فى معاهدتى برلين ١٨٧٤ وباريس ١٨٥٤ اللتين صاغتا الوضع الراهن للأماكن المقدسة بحيث لم تعد الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الشرقية تملك سوى ٦٥ ٪ من هذه الاماكن بعد أن كانت كلها ملكا لها .

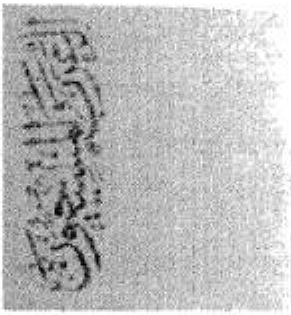
وكان من ضمن بنود هاتين المعاهدتين ان صارت الكنيسة الكاثوليكية تملك حقوقا فى كنيستى القيامة والمهد فى القدس وبيت لحم .

لقد فشلت حروب الفرنجة فى أن تحول المسيحيين العرب عن مذهبهم ولم يقبل أى منهم الخضوع لسلطة روما باستثناء الموارنة الذين تخلوا عن استقلالهم وخضعوا الى سلطة روما الكاثوليكية بينما ظل الارثوذكس الأرمن والسريان والأقباط أمينين على عقيدتهم ومذهبهم وعلى استقلالهم الدينى الوطنى .

صحيح ان هناك الافا من الفرنجة ظلوا فى فسلطين ولم يرحلوا مع الغزاة وقد تساهل معهم الحكم العربى ولم يضطهدهم كما فعل قادتهم الغزاة بالمسلمين والمسيحيين ولكن هؤلاء الفرنجة ولا اقول الصليبيين انصهروا مع السكان وتخلوا عن عقيدتهم وأصبح هؤلاء الفرنجة الذين انصهروا مع الوطنيين العرب وصاروا مسلمين ويعرفون قراهم وعائلاتهم .

ختاما أقول لقد آن الاوان لكى ننقى عقولنا وأفكارنا من تأثير الثقافة الغربية التى رسخت فى عقول الكثيرين تعبير «صليبى» بقصد تمزيق الوحدة الوطنية وخلق الشكوك فى نفوس المسلمين العرب ضد المسيحيين العرب على امل أن يدفع ذلك بعض المسيحيين العرب الى طلب الحماية الأجنبية .

وقد فشل الغرب فى أن يقنع المسيحيين العرب بطلب حماية أو تشويه الوعى التاريخى القومى فى ضميرهم ، وأعلن المسيحيون موقفهم هذا عبر مواقف البابا شنودة القومية : « ان الغرب حاول



تجريع المسيحيين سم كراهية الاسلام والمسلمين خدمة لمصلحته وطمعه بالشرق عن طريق التفرقة وبذر الخلاف

وعبر عنه المطران القومي جورج خضر الذي قال بجلاء ووضوح « لسنا كلنا مسلمين ولكننا اسلاميون بمعنى ان هناك حضارة واضحة جدا هي الحضارة العربية الاسلامية ونحن كلنا ننتمي اليها».

ان النضال المسيحي العربي مازال متواصلا من اجل الانصهار داخل مجتمعه العربي، ويقاوم بلا هوادة محاولات طمس هويته وتاريخه وتراثه وخلق تاريخ كاذب ومزور بقصد تحويل المسيحيين العرب الى مطية للصهيونية والغرب.

لقد عادوا على اعقابهم مدحورين، لقد وقف المسيحيون العرب برؤوس عالية وجباه شامخة وعبر التاريخ الطويل منافحين عن العرب والعروبة مقدمين المناضلين والشهداء وكذلك الجهابذة والمميزين في علوم اللغة العربية والادب العربي والثقافة العربية والصحافة والسياسة والاعلام فما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك وهذا ما اكد عليه اغناطيوس الرابع هزيم حين قال:« ان الكنيسة العربية هي الوحيدة التي تعي متاعب بلادنا بصبر وشجاعة ».

في انطاكية عام ١٩٣٧ عندما جاء افراد لجنة المراقبة الدولية ليحققوا في حجة تركيا لسلخ لواء الاسكندرية من سوريا وضمه الى تركيا ، اغلق الاتراك المساجد يوم الجمعة في وجه المسلمين السوريين ليمنعوهم من الصلاة والتظاهر امام اللجنة الدولية تاكيدا لعروبة لواء الاسكندرون، فما كان من النصارى العرب الارثوذكس وخلال ساعة واحدة من المنع التركي ان فتحوا كنائسهم واحالوها مساجد للمسلمين يؤدون فيها الصلاة الجمعة في اعظم مهرجان وطني مؤثر .

لقد وقف خطيب المسلمين في هيكل المسيح يتلو آيات القرآن وصعد المؤذن الى قبة الناقوس يرفع الاذان وكان الموقف المسيحي التلقائي دافعا لحدوث اروع مظاهرة وطنية في تاريخ النضال العربي السوري من اجل عروبة الاسكندرون وقد قوت هذه المشاعر الوطنية النبيلة في نفوس المسلمين السوريين بصفة خاصة والسوريين العرب والعرب اجمعين بصفة عامة رابطة القومية العربية في ظل الدين الاسلامي والدين المسيحي على حد سواء وفي الشام ظاهرة نبيلة وأصلية لن

ينساها العرب المسلمون لإخوانهم النصارى حيث زحفت الجيوش الاسلامية من الحجاز الى الشام لتحريرها من حكم البيزنطين حيث رفض النصارى العرب ان يحاربوا فى صفوف الجيش الرومانى وانضم كثيرون منهم الى صفوف الجيش الاسلامى لمحاربة جيوش القيصر .

وفى العراق انضم المثنى بن حارثة على رأس قبائل بني شيبان العربية الى جيش سعد بن أبى وقاص لمحاربة كسرى ملك الفرس لفتح بلاد العجم ونشر الدين الاسلامى، وكان شباب بنى شبيان النصارى العرب الارثوذكس على أبواب القادسية يهتفون جذلين فرحين للفتح العربى لبلاد الفرس.

وما دام الشيء بالشيء يذكر وفى القدس الشريف وفى أول الفتوحات الاسلامية كانت ومازالت العهدة العمرية من أرقى وأسمى ما جاء به التسامح الدينى والاخوى على مر العصور والايام حيث اعطت هذه العهود الامان على أرواح المسيحين شيوخا ونساء وشبابا وأطفالا وعلى احترام معتقداتهم وطقوسهم وأديرتهم وكنائسهم وممتلكاتهم وحرية تحركاتهم وترحالهم .

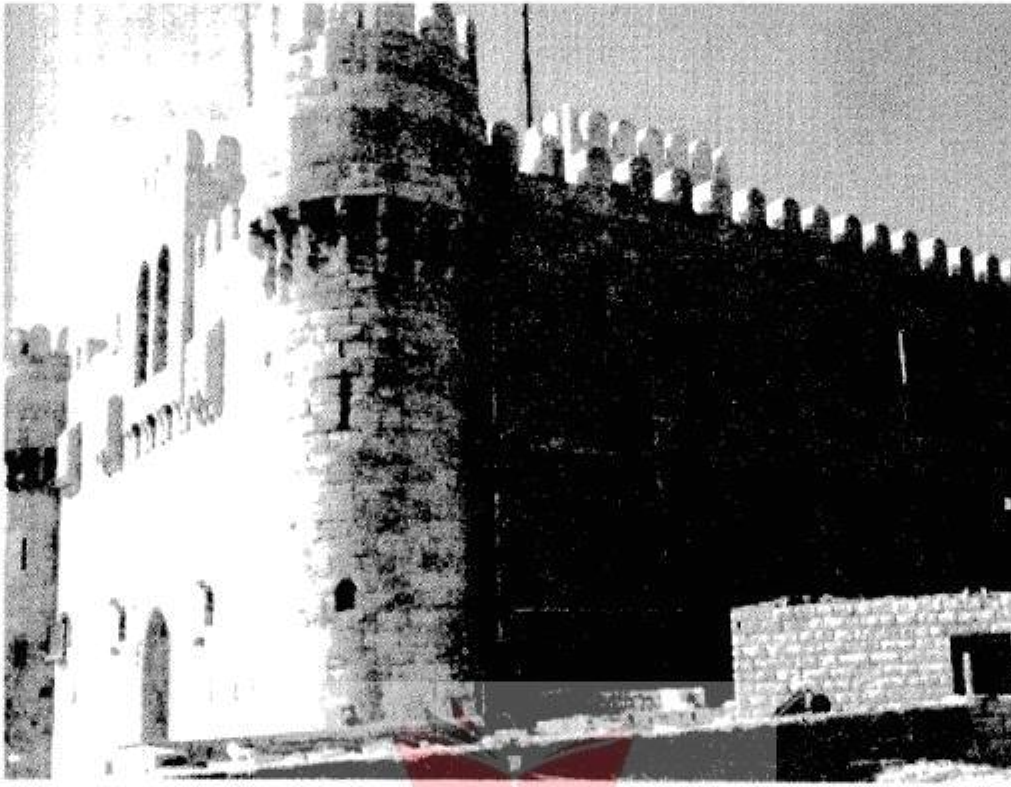
لقد برزت من صفوف النصارى العرب قيادات دينية قومية عربية فذة وقيادات فكرية عربية مميزة ولابد لنا هنا من تسجيل كل مواقف التقدير والاعجاب للبابا شنودة بابا الاقباط فى المشرق والذى يعتبر بحق رمزا دينيا مسيحيا وعربيا فذا .

ولابد لنا من تسجيل كل الاحترام وعميق المحبة والتقدير للمناضلين المسيحيين العرب والمفكرين المسيحيين العرب على مدى التاريخ العربى الطويل كفارس الخورى ومكرم عبيد والمطران كبوشى والكثير الكثير من المناضلين المسيحيين العرب الملتزمين بالفكر القومى العربي والمناضلين ببطولة لنصرة امتهم ورفع مجدها وعزتها الى جانب معتقداتهم الدينية ، عاكسين بذلك صورة مشرقة وسامية وخلاقة لعروبتهم ودينهم العربى المسيحى .

إنهم الكثيرون فرسان الدين المسيحى العربى ،انهم فرسان السيد المسيح عليه السلام والذى كرمه النبى العربى محمد صلي الله عليه وسلم حيث قال :

«انا اولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة ... ليس بيني وبينه نبى ...» «الأنبياء إخوة ، دينهم واحد وشرائعهم شتى »

وبعد فليسقط التطرف والعنصرية ولا عاشت الطائفية . ■



إنقاذ ما يمكن إنقاذه فى الركن الغربى بالقلعة

ماذا يحدث فى قلعة قايتباى؟

أمانى عبد الحميد

تصوير: شرين شوقى

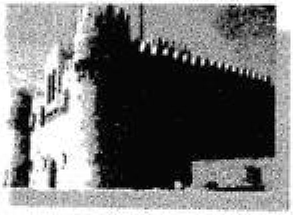


المدخل الذى بناه محمد على أثناء تجديداته للقلعة

◆ انهيار سقف الحواصل.. إهمال أم قضاء وقدر؟!

◆ حتى لا نفقد تراثنا الأثرى: مطلوب تطبيق قانون حماية الآثار وصحوة أثرية قبل فوات الأوان!

عندما دعا الناقد الفنى هربرت ريد إلى خلق ذائقة بصرية، تماما كالذائقة السمعية، فإن ذلك يدعونا بالضرورة إلى التعامل الجيد مع عناصر حضارتنا وآثارنا التاريخية، فما الذى فعلناه من أجل الحفاظ على تلك القيمة الأثرية بأبعادها الإنسانية والروحية والحضارية؟



فعندما تتأمل النفس المرهفة الأحاسيس الآثار التاريخية لا تنظر إليها كمجرد حجارة صماء، بل إن مظهرها الصامت يبعث في الروح انفعالات رائعة تهزها وتتسامي بها، وتشعر بالحنين إلي ذلك الماضي السحيق بكل أحداثه وتفصيلاته.

وإذا كانت مصر تضم بين جنباتها كما هائلا من الآثار فى مختلف الحقب والعصور فإنما يشكل ذلك ملامح حضارتنا وهويتنا وقوميتنا المصرية، وتجعل من عبقرية المكان ميزة مؤكدة، تعكس تاريخنا وتصور الأحداث التاريخية التي مرت بها مصر، فكل أثر يحمل قصة من قصص كفاح مصر وتاريخها العريق الممتد في مختلف الحقب والعصور، ولذلك يجب الحرص علي الحفاظ عليها وصيانتها من كل العوامل والمؤثرات التي يمكن أن تؤثر فيها.

لذلك كان الانزعاج والقلق الشديد عند كل من يدرك قيمة الحفاظ على آثارنا عندما حملت لنا الأنباء سقوط سقف غرفتين أثريتين فى قلعة قايتباى أو الحواصل البالغ عددها خمسا وثلاثين حاصلة، وتمثل ثلاثة أضلاع تحيط بصحن القلعة، بناها محمد على لتستخدم في إعاشة الجنود. فلا يمكن اعتبار الحادث قضاء وقدرا، إنما هو جريمة تهاون واستهتار في حق آثارنا وفي حق هويتنا وتاريخنا لا يمكن السكوت عليها.

صحيح أن القلعة التى أطلق عليها علماء الحملة الفرنسية «حصن الفنارة» تخضع لعمليات ترميم شاملة منذ عام ٢٠٠٠ بعد دراسات تاريخية وأثرية للموقع منذ عام ١٩٩٢، ولكن ما حدث يجب أن ندرسه ونعرف أسبابه وأبعاده.

ويأتى بيان المجلس الأعلى للآثار المشرف على عملية الترميم الجارى تنفيذها فى القلعة كما يلي: «انهيار جزئى فى سقف الحاصلتين رقم ٩ - ١٠ فى الجدار الشرقى للقلعة. يرجع إلى وجود رديم فوق السقف من العصر الإسلامى لوقايته من القنابل التى تسقط عليها أثناء الحروب. ومع ارتفاع مستوى البحر أدى إلى تسرب الرطوبة بها وبالتالى سقوطه حيث لم يتم حتى الآن ترميمه.. فالترميم يشتمل الجزء الغربى فقط..» انتهى بيان المجلس.. وكان رد الفعل الذى اتخذه هو تشكيل لجنة هندسية من جامعة الإسكندرية لاستبيان الأسباب الحقيقية لانهيار السقف. وخلص تقرير اللجنة إلى أن التسبب هو تحلل «المونة» وتآكل الأخشاب الموجودة فى جدار إحدى الحواصل مما أدى إلى انهيار الجدار الحامل لسقف اثنتين من الحواصل وبالتالى انهيار السقف. وبذلك يكون بيان المجلس وتقرير اللجنة مقصورا فقط على

اتهـام الرديم المشـبع بالرطوبة والمونة المتحللة فقط، دون أن يوضح الدور الذى يجب أن يقـوم به الأثرى الموجـود فى الموقع فى مراقبة كافة الشواهد أو الأدلة التى تشير إلى وجود ضعف فى الجدار بشكل يمثل خطراً على الغرفة وسقفها.

ولنا أن نتساءل: «أين نتائج الدراسات والمسوح الهندسية والأثرية التى قام بها المجلس قبل بدء عملية الترميم؟ خاصة إذا علمنا أن تلك الدراسات استغرق إعدادها حوالى سبع سنوات قبل البدء فى تنفيذ عمليات الترميم فى أبريل ٢٠٠٠ والتى من شأنها اكتشاف مواطن الضـعف كلهـا من أجل رسم خطة لعلاجها.

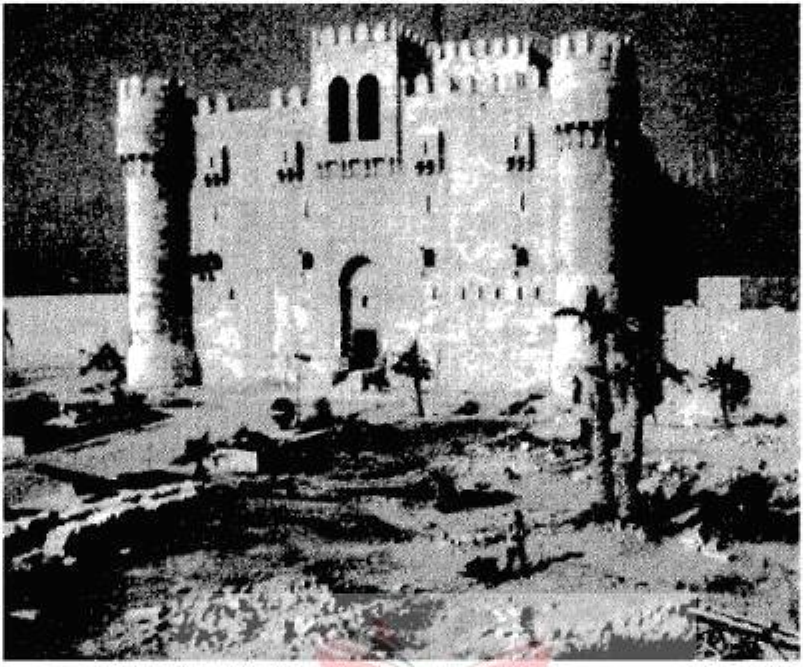
دور فريق الترميم

والمعروف أنه قبل البدء فى مشروع ترميم فإن فريق الترميم يقوم بخطوات ومهام بالغة الدقة فى إطار خطة شاملة يكون هدفها الحفاظ والصيانة والترميم وبالتالى إعادة الموقع الأثرى لما كان عليه فى الأصل. وهو أمـر حـددته المواثيق الدولية مـثل الميثـاق الدولى للحـفاظ وصـيانة وترميـم الآثار المعـروف باسم «ميثاق فينيسيا». كذلك تكون أولى مهام فـريق الترمـيم مـثل توثيق وصنع الأثر والاطلاع على كافة الدراسات التاريخية والأثرية، والرفع المساحى وعمل مساقط وواجهات وقطاعات معمارية علاوة على رفع كافة الزخارف والأعمال الفنية فى الأثر. والأهـم التـأكـد من ثبـات واتزان أساسات الأثر ودراسة نسبة الرطوبة والمياه الجوفية وتحليل التربة وخامات البناء. خطوات تقوم بها أى شركة أو بعثة قبل البدء فى أعمال الترميم لأى أثر أياً كان نوعه.

وبرغم إجراء تلك الخطوات الدقيقة إلا أن نتائج الدراسـات أو حـتى أحد القائمين على عملية الترميم لم يستطيعوا اكتشاف الضعف الذى أدى إلى سقوط السقف الأثرى.

الاستخفاف بما حدث

الأمر الغريب والذى أعتقد أنه غير عـادى هو مـوقف المجلس الأعلى للآثار تجاه المشكلة .. فعندما حاولنا استطلاع الأمر جاء الرد «ما هى المشكلة إذا حدث انهيـار سقف غرفتين أو حاصلتين من حـواصل سور القلعـة.. فالجنازة حارة والميت كلب..» هكذا جـاء رد محـمـد عبدالعزيز مدير الآثار الإسلامية والقبطية بالإسكندرية والبحيرة.. بل إنه استحسن حـادث الانهيـار لأنه كشف عن موقع «المزاغل» أو الفتحـات التى كان جنود قايتباى يقفون داخلها ويستخدمونها فى ضرب من بالخارج دون أن يراهم . والتى كانت الحواصل البالغ عددها ٢٥ تسد فتحـاتها. لقد هالنى رد الفعل الغريب، والتشـبيه بمثل لا ينطبق بأية حال من الأحوال على أثر تاريخى فى قيمة قلعة قايتباى.. فلا أعلم متى تحولت آثارنا إلى مجرد شىء ليس ذا أهمية «ولا أقول هنا كلب» وعندما تنهار يجب علينا أن نتخذ ردود أفعال باردة لا حـارة.. أهكذا تكون مهمة الحفاظ على تراث مصر وتاريخها



قلعة قايتباى .. وأعمال الترميم !!

أهكذا ننظر إلى حادث انهيار السقف.. حجارة متراصة فوق بعضها ثم سقطت ولا مشكلة!

★★★

ولدى لقائى به أوضح «عبدالعزيز» أن محمد على قبل بنائه للحواصل أو الغرف قام بردم كل الأماكن التى لا يحتاجها مثل صهاريج المياه التى كانت تغذى القلعة بالمياه.. وبنى الحواصل بجوار أسوار القلعة التى بناها السلطان قايتباى وعزز تحصينها السلطان قنصوه الغورى من بعده. والحواصل عبارة عن كتل حجرية متراصة تربط بينها مونة.. ونتيجة تغطيتها بالأسمنت خلال عملية الترميم التى شهدتها القلعة فى عام ١٩٨٤.. أدى ذلك إلى كتم الهواء عن المونة - وبما أنها تضعف مع نقص الهواء، وتقوى بالرطوبة.. لذا فإنها تفاعلت مع الأسمنت وعناصر البياض وتحللت.. ورغم ذلك يؤكد على عدم وجود أية شواهد تدل على ضعف هذا الجزء، وأن الانهيار ليس نتيجة إهمال والدليل تقرير اللجنة الهندسية الذى أكد أن تحلل المونة هو السبب وراء الانهيار. كما يشير فى نهاية قوله إلى حجم العمل داخل مشروع الترميم والذى يفوق حجم



رنك السلطان قايتباى كما يظهر فوق مدخل البرج الرئيسى

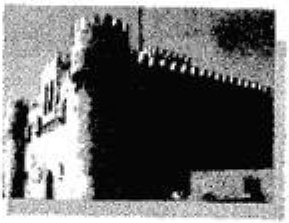
العمل داخل أى مشروع ترميم آخر.. خاصة أن الميزانية المحددة لأعمال الترميم وصلت إلى ٧ ملايين جنيه وتتم بإشراف من الجهاز المركزى للمحاسبات..».

خلط وتناقض

ويظهر لنا تناقض آخر فى تصريحات الأثرى «عبدالعزيز» فهو يؤكد أن المونة المستخدمة فى بناء جدار وسقف الحواصل تقوى بالرطوبة وتضعف فقط مع نقص الهواء.. رغم أن بيان المجلس الأعلى للآثار أوضح أن سبب سقوط السقف تشبعه بالرطوبة، وتقرير اللجنة الهندسية يرى أن السبب هو تحلل المونة.. إنه بالفعل أمر غريب.. يبدو أنهم لم يجدوا أفضل من الرطوبة ليحملوها ما لا يستطيعون تحمله.. فإذا كانت الرطوبة هى السبب فلماذا لم يتخذ الأثريون المتخصصون الخطوات اللازمة لتلافيها وعلاجها بشكل يحمى الأثر من الانهيار.. إذن القضية أكبر من مجرد رديم مشبع برطوبة مياه البحر.

الترميم السليم

القضية تتلخص فى أن من يقوم



بمشروع ترميم لابد له أن يقوم بدراسة دقيقة للأثر، وبالتالي يجب أن يخضع لرقابة صارمة حتى لا نفقد تراثنا الأثرى دون أن نقصد أو نتيجة غفلة منا ثم نتهم الرطوبة.. بل يجب علينا أن نعاقب كل من يتهاون فى حق تراثنا الأثرى بصرامة من أجل وضع حد للتهاون والاستهتار والسلبية التى أصبحت نغمة متفشية فى الآونة الأخيرة.

ولدينا فى القوانين التى تكفل حماية الآثار.. مثل قانون «حماية الآثار مادة ٤٢/٤٥» اللتين تعاقبان كل من يتلف الآثار والمبانى التاريخية أو يشوهها أو يفصل أجزاء منها أو يغير معالمها أو حتى اشترك فى ذلك سواء عن عمد وقصد أو عن طريق الخطأ. والمطلوب هو تطبيق القوانين بصرامة حتى لا تتكرر المأساة فى موقع أثرى آخر.. ويكون الرد مرة أخرى «الجنازة حارة والميت كلب».

وبرغم كل شىء فإن مدينة الإسكندرية وقلعتها الجميلة التى بناها السلطان قايتباى لا تزال الشمس تشرق على وجهها كل يوم لتزيدها جمالا.. فهى بالفعل الحصن فى مدينة الذكريات.

تجلى الذكرى

لدى سفرى لمدينة الإسكندرية .. تجلت الذكرى حتى أصبحت لا تفارقنا .. مدينة لها من المجد والعظمة ما لغيرها.. أغنى مستودع للمعارف الإنسانية منذ أسسها الإسكندر الأكبر مروراً بعهد البطالمة الذين نصبوها عاصمة لبر مصر. وحتى أصبحت المدينة الثانية فى العالم القديم فى عهد الإمبراطورية الرومانية. كما كانت كنيستها أولى كنائس الشرق مما جعل منها واحدة من مدن المسيحية الحقيقية.. ولاتزال المدينة جميلة وبهية خاصة بعد أعمال التجديدات الأخيرة.. ولدى وصولى إلى قلعة قايتباى تجلت ذكرى أخرى.. ذكرى تاريخ أمة وتاريخ مكان.. أمة كافحت ناضلت وحاربت كل من سولت له نفسه غزوها.. وتاريخ مكان.. قلعة حجرية تقف شامخة أمام سواحل البحر الأبيض المتوسط تصد هجمات الغزاة على مدى التاريخ منذ أنشأها قايتباى. صدت هجمات الروديسيين والقبارصة والعثمانيين.. بل وقفت فى وجه أسطول إنجلترا أقوى دولة أثناء حملتها على مصر عام ١٨٨٢.. الأمر الذى عرضها لضرب سفن الأسطول وهدم حوالى ٧٠٪ من أبراجها وأسوارها.

وعندما زار الأديب الإنجليزى الكبير «فورستر» القلعة سنة ١٩٢٠ ذكر أنه كان يوجد داخل سور قايتباى أو على الشاطىء حوالى ثلاثين عمودا من جرانيت أسوان

الأحمر بالإضافة إلى قطعتين أو ثلاثة من الجرانيت المرقش الجميل وقطعة من الرخام من بقايا فنار الإسكندرية.

وفي عام ١٩٣٩ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بترميمات شاملة للقلعة ومن يومها أصبحت محط الاهتمام والرعاية.

وعند دخول ذلك الفراغ الفسيح والذي تحيط به أسوار مزدوجة لا يكسر صمت فراغه سوى تلك الأبراج العالية، والتي لاتزال أحجارها المتراصة وبياض حوائطها وتراب أرضها، وشحوب ألوانها بالمقارنة بزرقة البحر البراقة حولها، تحمل روح السلطان الأشرف قايتباى أعظم السلاطين الذين حكموا بر مصر. وكأنها تجلس فوق عرش السلطنة القابع فوق أبراج الحصن. وأن أشباح جنوده لاتزال تحرس رعايا السلطنة من كل عدو غاز.. ولدى دخول الباب الخشبي المكفت بالنحاس ويعلوه رنك السلطان أبوالنصر قايتباى تستحضرنا روح التاريخ.. وكأن جلبة أصوات المعركة تدور في أذنيك وكأنك ترى المدافع الخشبية أو «المكاحل» تقف في وضع الاستعداد لضرب كل سفينة تقترب من شواطىء المدينة.. وإن كان الأمر اختلف تماما الآن فأمام الفتحات والشبابيك التي تطل منها فوهات المدافع.. لا يكمن الخطر بل أصبحت مواطن عشق وتأمل.. فالصخور المحيطة بجدار القلعة المواجهة للبحر أصبحت مكان التقاء الأحبة.. وموقعا لتجمع الصيادين لانتظار الرزق.

ووسط ذلك الفناء الفسيح لا تملك سوى الاعجاب بعظمة السلطان قايتباى.. فآثاره تعد من أجمل الآثار المملوكية في مصر. أجملها على الإطلاق مسجده وضريحه بصحراء المماليك وبالطبع قلعته. ويكفينا أن نعلم أنه حكم مصر نحو تسع وعشرين سنة لتكون أطول فترة حكم يتولاها سلطان.. خاصة أن فترة حكم المماليك حظيت خلالها مصر برخاء اقتصادي وقوة سياسية وازدهار فني في مجال العمارة.. مما دفع منظمة متاحف بلا حدود إلى اختيار مصر لتمثل الفن الإسلامي المملوكي . حيث تنافس أمراء المماليك على تشييد المنشآت الدينية والعمائر المدنية وحرصوا على إقامة أضرحة فخمة لدفن رفاتهم فيها. وقد اعتبر المؤرخون عصر المماليك (١٢٥٠هـ - ١٥١٦م) العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية. حيث زادت الرغبة في تشييد أنواع متعددة الأغراض مثل المدارس والحمامات والأسبلة والكتاتيب والحصون. أعظمها كما سبق القول السلطان قايتباى (٨٧٢هـ - ٩٠١هـ) فهو الذي واجه أطماع العثمانيين في مصر وحاربهم وكسر شوكتهم وأرغمهم على مصالحته.

ويعتبر بناؤه لقلعته فوق جزيرة فاروس التي حملت فوق أرضها يوما منارة الإسكندرية إحدى عجائب الدنيا السبع، كان الخطوة الأولى التي خطاها

▶ سقف الغرفتين الأثريتين بعد انهياره تماماً



المسلمون منذ دخولهم مصر في درب إعادة النظر والاهتمام بالإسكندرية.. فقد ظلت المدينة تعاني فترة طويلة من الإهمال والتمزقات والصراعات المتلاحقة.. لم يعن بها أحد خاصة بعد زوال سطوة البطالمة بانتحار مليكتها الجميلة كليوباترا السابعة. وعندما فتح العرب مصر عام ٦٤١ هـ أعجب عمرو ابن العاص بمدينة الإسكندرية إلا أن تشييده لمدينة الفسطاط واعتبارها عاصمة للبلاد أفقد الإسكندرية مكانتها التي كانت تتمتع بها كعاصمة للقطر المصري.. وقصر الاهتمام بها على إنشاء أسوار جديدة وبوابات مقابل البوابات القديمة فقط وإقامة بعض المساجد.

وكان أول من اهتم بالمدينة قايتباي، وإن كان اهتمامه عسكريا دفاعيا بالدرجة الأولى. ففي إحدى زياراته للإسكندرية وجد أن أبوابها وأسوارها في حالة يرثى لها.. حتى وصل بها الحال إلى أن أصبحت متاحة لكل غاز.. فأمر بتحصين المدينة.. وعند زيارته لموقع جزيرة فاروس وجد عليها كومة كبيرة من الأحجار والعناصر البنائية.. فأمر بإنشاء برج عام (٨٨٢هـ) واستجلب مهندسا مملوكيا مجلوبا من أوروبا كلفه بإعداد تصميم البرج على غرار



▶ إحدى الكتل الجرانيتية التي استعان بها قايتباي في بناء قلعته

القصور والقلاع الأوروبية في العصور الوسطى.. وأمر باستخدام جميع العناصر الموجودة على الجزيرة من أحجار الجرانيت والأعمدة والرخام وتماثيل الجرانيت في بناء البرج الرئيسي والأسوار المحيطة به.

في أعقاب سقوط دولة المماليك وبداية فترة الولاية العثمانية انحسر الاهتمام بالمدينة مرة أخرى حتى تقلص العمار فيها داخل نطاق ما عرف باسم المدينة التركية وهي الجزء الواقع على الرقبة الممتدة من الشاطئ إلى جزيرة فاروس.. الأمر الذي أصاب علماء الحملة الفرنسية بالأسى على مدينة الإلهام والجمال.. مما حدا «بجراتيان لوبير» أحد علماء الحملة أن يسرد في مقدمة دراسته عن الإسكندرية أبيات شعر لفولني «يقول فيها:

«لقد أصبحت قصور الملوك مأوى للحيوانات الضارية

وأصبحت المذابح موقعاً للزواحف الدنسة

آه ! كم من مجد أفل نجمه

وكم اندثرت من روائع المنجزات

هكذا تفني أعمال البشر

هكذا تزول الإمبراطوريات والدول».

الأمر الذي جعل «لوبير» في كتاب وصف مصر يتنبأ بزوال أطلال المدينة من فوق أرضها نتيجة انحدارها نحو الهاوية، وأنها ستتحول إلى خرائب، المصير الذي آلت إليه مدن جميلة منذ قرون غابرة، «مثل خرائب طروادة وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما الحاكمة القديمة للعالم». ويذكر أنه «لم يعد يعيش بها سوى شعب صغير لايزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره». ومعروف أنه عند مجيء الحملة بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨ - ١٨٠١) كان عدد سكان المدينة لا يتعدى ٧ آلاف نسمة تناقص إلى ٦ آلاف بعد الحملة. كما يصف «لوبير» القلعة التي أطلق عليها اسم «حصن الفنارة» بأنها «برج مربع الشكل بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة. تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار ليلاً».

★★★

وبعدما تجلت الذكرى أمامنا .. بدا لنا الواقع أوضح فنحن في حاجة إلى وقفة طويلة لنفيق من غفوتنا.. فنحن أمة تملك من التاريخ والتراث الكثير والكثير.. فالآثار ليست مجرد طلل قديم يثير الذكرى داخل نفوسنا عن ناس كانوا قبلنا .. بل هي تاريخ طويل يستند عليه حاضرنا ومستقبلنا، وأعلم أن مهمة الحفاظ على الآثار مهمة ثقيلة يحملها المجلس الأعلى للآثار بمفرده.. فحجم الآثار التي تحويها أرضنا متعدد وكبير. يبدأ تاريخها قبل الميلاد بآلاف السنين ويمتد حتى عصرنا الحديث مما يعني أننا أمة أصيلة.. لكن هذا لا يعني أن نقلل من شأن أثر حتى لو كان حجراً صغيراً سقط دون أن ندري. فما بال سقف غرفتين أثريتين حتى لو لم يكن السلطان قايتباي نفسه قد بناهما وإنما محمد علي! ■



من هندسة الطيران إلى البيئة

أسامة أمين الخولى

بقلم
د. رشدى سعيد

فقدت مصر بوفاة أسامة الخولى ١٩٢٣ - ٢٠٠١ فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠١ واحداً من أعز أبنائها الذين أحبوها وعملوا على تقدمها وسعوا لتحتل مكانها المرموق بين الأمم - ولد أسامة فى سنة ١٩٢٣ وتخرج فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٤٥ وأوفد فى بعثة إلى انجلترا فى ذلك العام نفسه لدراسة هندسة الطيران، وهو العلم الجديد الذى ساهم أسامة فى ادخاله إلى مصر عند عودته من البعثة - وخلال خمسينات وستينات القرن العشرين شغل أسامة ببناء قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة بجامعة القاهرة وكذلك فى أنشاء صناعة الطيران الوليدة فى مصر ، وأقبل أسامة على عمله هذا بحماس وعدم أثرة قد يصعب على الجيل الجديد أن يتصورهما فقد كان واحداً من ذلك الجيل الذى امتلأ وطنية ورغبة فى تحقيق الحلم بأن يرى جامعة القاهرة بين الأعظم من الجامعات ومصر بين الأعز من البلاد.





● نهل العلم وأمسك بطرفه حتى أصبح موسوعي المعرفة

شديد الذكاء واسع الاطلاع

عرفت أسامة خلال سنوات البعثة في أربعينات القرن العشرين عندما جاء لزيارة بسويسرا حيث كنت أتلقى العلم في معاهدها بناء على توصية من المرحوم مصطفى مصطفى مشرفة الملحق الثقافي بالسفارة المصرية بلندن ، وأحد القائمين على شئون مكتب البعثات بانجلترا حيث كان يدرس هو فيها وكان أسامة قريباً من ذلك الرجل الفذ الذى كان بالرغم من عجزه وتصلب مفاصل عظامه وهاجاً شديد الذكاء واسع الاطلاع مليئاً بالأفكار غير التقليدية المثيرة للشك في كل ما درجت عليه حياتنا واخذناها كما وجدناها دون تمحيص - وكان المكتب الثقافى في لندن ينشر في ذلك الوقت نشرة دورية تحت اشراف مصطفى مشرفة الذى اختص أسامة من بين طلاب البعثة بالرعاية لتوسمه فيه الذكاء والقدرة الهائلة على الاستيعاب والتمكن من اللغة الانجليزية . وقد حمل أسامة لى طلب مصطفى مشرفة بأن أواظب على الكتابة في نشرة مكتب لندن واعجابه بالخطاب الذى أرسلته للنشرة عما يمكن أن تكتتبه مصر للحضارة العالمية التى كنت ولا أزال أؤمن بأن مصر ينبغى أن تدخلها بكل ثقلها - وانى أذكر هذه الحادثة بالذات ليس فقط لأنها كانت مبدأ معرفتى بأسامة بل لأبين بها الدور الكبير الذى لعبه مصطفى مشرفة في تشكيل أسامة وتوجيه حياته فقد استمرت علاقتهما بعد عودته من البعثة، حين عمل مستشاراً لدار الطباعة التى كان قد أنشأها مصطفى مشرفة منذ عودته إلى القاهرة وفيها تعرف على ناهد حبيبة عمره ورفيقته وزوجته وأم بنته أمانى وابنه أمين والتى كانت تعمل بالدار في ذلك الوقت.

وظللت على اتصال بأسامة منذ ذلك الوقت وازداد قربي منه خلال الستينات عندما ساهم فى تأصيل دعوتى لإصلاح وتطوير جامعة «الأعداد الكبيرة» التى جاء بها العصر لكى تتواءم وأحواله - وهى الدعوة التى كنت قد بدأت عملى بها كأمين للجامعات بالتنظيم السياسى الذى كان قائماً في ذلك الوقت - وكان أسامة من أشد المتحمسين لهذه الدعوة وقد ساهم في تأصيلها وكتب عن نظرته في تطوير التعليم الهندسى في جريدة الأهرام مرات عديدة.

ولما جاءت أحداث كارثة سنة ١٩٦٧ وتعطل العمل في المشروع النهضوي الذي كانت مصر تقوم به وجندت كفاءاتها لإزالة آثار العدوان انتدب أسامة للعمل مستشاراً ثقافياً ومسئولاً عن مكتب البعثات بموسكو انتقل بعدها للعمل بالجامعة العربية أميناً لمنظمة التربية والثقافة والعلوم بها ..

وفي منتصف السبعينات تغيرت توجهات أسامة عندما حل به - كما حل بالكثير من المفكرين والمثقفين - احباط كبير بسبب التغيرات الكبيرة التي حدثت في تلك السنوات والتي اضطرت مصر تحت ضغوط دولية أن تهجر مشروعها النهضوي وأن تقبل تقليل طموحاتها ودورها في العالم - وقد عبر الدكتور مصطفى سويف عن هذا الاحباط أحسن تعبير في مقاله المهم «وكان العام ١٩٧٤» والذي نشر بالهلال بعدد ديسمبر سنة ٢٠٠١ - وفي تقديري أن هذا الإحباط هو الذي حفز أسامة على تغيير توجهاته والخروج من المحلية إلى العالمية ثم الإقامة خارج الوطن عندما استطاع أن يجد في الكويت ثم في البحرين ومنذ عام ١٩٨١ مكاناً يسمح له بتحقيق هذه التوجهات الجديدة، والتي شغل فيها بخدمة القضايا الانسانية العابرة للحدود والتي اختار منها قضية البيئة لكي يسبر غورها ويتعلم مبادئها ويفك أسرارها ويتخصص فيها وقد فعل ذلك باقتدار يثير الإعجاب فقد استطاع أسامة أن ينتقل من تخصص هندسة الطيران إلى تخصص علم البيئة في يسر لم يكن ممكنا إلا لشخص قدير. وفتحت صداقة الدكتور أسامة للدكتور مصطفى طلبة - الذي كان قد اختير مسئولا عن برنامج الأمم المتحدة للبيئة - الطريق أمامه لكي يصول في هذا الميدان الجديد الذي أصبح فيه حجة دولية وفارساً لايشق له غبار وخبيراً لا يمكن الاستغناء عنه سواء على مستوى المنظمات الدولية أو الحكومات على اختلافها وقد وجدت فيه الحكومة المصرية عونا لها في تشكيل سياستها البيئية وكتابة المذكرات الخاصة بها وتمثيلها في مختلف الاجتماعات والمؤتمرات الدولية.



شخصية العدد

● كان ثاقب البصيرة قادراً على تقديم مادته العلمية فى لغة سليمة وسلسلة

متمكن من مادته

وقد رأيت بنفسي تلك المكانة العالية التى حظى بها بين العاملين فى ميدان البيئة عندما حضرت المؤتمر الدولى الذى عقد ببرلين فى سنة ١٩٩٥ لمناقشة موضوع أثر التغيرات المناخية على البيئة فوجدت أسامة فيه نجماً من النجوم تكاد تدور كل المناقشات حوله فقد كان متمكناً من مادته ودارساً لكل جوانبها وبطريقة مبهرة .

والدارس لمختلف المبادرات التى تمت فى مجال البيئة على مستوى العالم عبر الخمس وعشرين سنة الماضية لابد وأن يلحظ بصمة أسامة عليها فقد كان واحداً من أهم من ساهموا فى بناء هذه المبادرات وتحريكها وكتابة مذكراتها وتأصيلها وتقديمها إلى المجتمع العالمى. كان أسامة ثاقب البصيرة قادراً على تقديم مادته العلمية فى لغة سليمة وسلسة وعارفاً بقواعد اللعبة وراضياً على العمل خارج الأضواء - وتشهد المبادرات والمذكرات التى أعدها والكتب التى مررها والخطب التى دبجها له ولغيره من المسئولين عن شئون البيئة باكتتاباته الضخمة فى هذا الميدان. وإذا أردت أن أفرد من بين المبادرات الدولية فى شئون البيئة ماساهم فيه أسامة بقدر كبير لاخترت منها تلك التى تخص مجابهة التغيرات المناخية والمنظمة للتنمية المتواصلة والحاكمة للانتاج الصناعى النظيف، وبالإضافة إلى ما اكتتبه أسامة فى ميدان البيئة فقد ساهم فى ميادين كثيرة أخرى لعل من أهمها مساهمته فى ميدان الكمبيوتر وطريقة ادخال الحرف العربى فى برامجه وكذلك فى ميدان نقل التكنولوجيا وغير ذلك الكثير .

كان أسامة واحداً من ذلك الجيل الذى عرف الدنيا وأحب الحياة والانسان وعشق الموسيقى والسفر والجمال. نهل العلم وأمسك بطرفه حتى أصبح موسوعى المعرفة بغير نظير فى كل ميدان دخل فيه - رحمه الله.

د. أسامة الخولى

وداعـــــــا

بقلم
د. محمد عبد الفتاح القصاص

رحل إلى رحاب الله الأستاذ الدكتور أسامة أمين الخولى ١٩٢٣ - ٢٠٠١ ففقدت العشيرة العلمية فى مصر طودا يستدفىء فى كنفه المعاصرون ورمزا يقتدى به الآتون. كان الزملاء والإخوان يجدون فيه السند والعون فيما يشغلون به أنفسهم من الجهد العلمى والخدمة العامة. وكان الأبناء من قادة العلم فى الغد يجدون فيه العون العطوف والارشاد المخلص والسند القوى. كان خزائن غير ذات أقفال للعلوم والمعارف، ونبع حنان ورفق وعطاء، كل ذلك ميسر لكل راغب.

فقدت مصر معلما من معلمى أبنائها بكليات الهندسة والاقتصاد ومعاهد التخطيط الاقتصادى والتنمية ومؤسسات الطيران والبيئة والبحث العلمى والمجالس القومية المتخصصة، وخادما جعل نفسه لوطنه دون سؤال، وبيرقا خفاقا يحمل اسم مصر عاليا فى مجتمعات العلم ومحافل الفكر العالمية. كان سمته العمل الجاد بغير جلبة، والعطاء المتميز فى هدوء الجدول ورقة النسيم، والجهد الذى لا يفتر ولا ينتظر الأجر.

ولد أسامة، واحد من أبناء الرائد المصرى العظيم أمين الخولى، فى أكتوبر ١٩٢٣. نشأ فى بيت يملؤه عطر الثقافة ونفح الفكر المستنير، واحترام العقل وتكريم الإنسان، ورث أسامة فى قراره الباطن كل هذه العناصر النبيلة وبقيت معه حتى استقر بين يدى الله فى ديسمبر ٢٠٠١.

تخرج فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، حاصلا على درجات الامتياز والشرف التى يؤهل لها النبوغ، وأوفد فى بعثة لدراسة هندسة الطيران بجامعة لندن



شخصية العدد

• فقد العالم بوفاته واحدا من علمائه الأفذاذ

وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥١، وعاد ليخدم فى جامعة الإسكندرية (١٩٥١ - ١٩٥٨) واستقدمته جامعة القاهرة عام ١٩٥٨ لينشيء أول قسم لعلوم هندسة الطيران فى مصر، وساهم بذلك في تحديث مصر والدخول بها إلى معاصرة زمان التكنولوجيا المتقدمة. وقد ظل السعي للدخول بمصر والعالم العربى إلى هذا الزمان موصولا فى حياة الأستاذ الدكتور أسامة الخولى حتى يوم وفاته.

عطاؤه العلمى

شغل منصب المستشار الثقافى والعلمى فى السفارة المصرية بموسكو بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٥. يذكر المبعوثون المصريون إلى جامعات الاتحاد السوفييتي كيف كان كل واحد منهم موضع اهتمامه ومتابعة دراسته ورعاية حياته. وتذكر الجامعات المصرية والهيئات العلمية كيف كان يتابع خطى التقدم العلمى والتكنولوجى فى الاتحاد السوفييتي وينقل متابعاته إلى حيث تكون الافادة منها. ويذكر زوار موسكو من رجال الجامعات ومراكز البحوث كيف كان فى عونهم لانجاز مهامهم وكيف وجدوا منه ومن أهل بيته الرعاية وكرم الضيافة. ويذكر العاملون بالسفارة كيف كانت مصالح مصر موضع اهتمامه البالغ وحرصه الوطنى الفائق. كل ذلك مع خلق دمث وقصد مستقيم.

شغل منصب المدير العام المساعد للعلوم فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٠، فعكف على اثراء برامج عمل المنظمة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والبيئة، فلما كانت أحداث القطيعة العربية لمصر وانتقل مقر المنظمة من القاهرة إلى تونس ظل بالقاهرة حافظا لما بقي من المنظمة وفروعها (معهد الدراسات العربية ومعهد المخطوطات العربية) أمينا على وثائقها ومتابعا لبرامج عملها فى صبر.

فيما بين ١٩٨١ و١٩٨٩ شغل منصب كبير الخبراء فى معهد الكويت للبحوث العلمية. اتيحت لهذا العالم الجليل والإنسان النبيل مجالات العمل فى خدمة العلم والتقدم التكنولوجي والترقى الثقافى فى دولة الكويت وإشعاعها إلى منطقة الخليج جميعا. لم يقتصر جهده على واجبات عمله فى معهد الكويت إنما أفادت من وجوده مؤسسات العلوم والثقافة فى الدولة: مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (خاصة مشروعها لإصدار ترجمة عربية لمجلة العلوم الأمريكية)، نادى العلوم الكويتي، جامعة الكويت، جمعية

الكويت لتقدم الطفولة، مؤسسة الشارخ لتطويع اللغة العربية للحاسبات الآلية وتطوير برامجها التعليمية والثقافية. أى أنه كان بؤرة إشعاع علمي وثقافي باهر. كان في سنوات إقامته بالكويت موضع المودة والاحترام، واحاطت به وباسرته الصداقات والمحبة. فلما كانت نكبة الغزو العراقى كان بيت أسامة الخولي بالمعادي رحبا للأحباب من الكويت. هكذا كان هذا العالم الإنسان رجل العطاء بغير حدود.

فى السنوات الخاتمة من حياته شغل أسامة الخولى كرسى إدارة التكنولوجيا ومدير برنامج تطوير التكنولوجيا فى جامعة الخليج العربى ومقرها المنامة عاصمة البحرين. فى هذا المنصب واصل مساعيه للدخول بأهله فى مصر والعالم العربى إلى مجالات التكنولوجيا المتقدمة وطرائق تطويعها لخدمة التنمية فى البلاد العربية. بانتقاله إلى رحاب ربه فقدت الأمة العربية واحدا من أجنادها ذوى العزم والبصيرة والبذل السخى. فى كل موقع كان العطاء المتميز الذى يعتمد على حصيلة علمية وتقنية قل لها النظير، وعلى نفس راضية يتدفق منها العمل النافع قطرة كما يخرج الماء النقى الشافى من النبع الثر.

● كان فى الجامعة الاستاذ والعطاء بغير حدود وبغير لوائح

فى مجال البيئة والتنمية

بوفاته فقد العالم واحدا من علمائه الأفذاذ الذين ساهموا فى بلورة الرؤى العالمية فى مجالات البيئة والتنمية، كان له دور بارز فى وضع برامج جامعة الأمم المتحدة (طوكيو) ومشروعات البحوث والدراسات التى عكفت عليها، كان خبيرا مبرزا لمنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (فيينا) وخاصة فى مجالات السياسات التكنولوجية وتقنيات المعلومات، وأشرف على برامج العون لعدد من الأقطار العربية. وكان له دور بارز فى نشأة مركز الأمم المتحدة للصناعة والبيئة (باريس) وفى تطوير برامجه وتحرير تقاريره ومنشوراته، وكان واحدا من كبار مستشارى برنامج الأمم المتحدة للبيئة (نيروبى) وخير عون لمدير البرنامج العالم المصرى الدكتور مصطفى كمال طلبة، وكان عضوا فى هيئات التحرير لعدد من المؤلفات والموسوعات الدولية فى مجالات العلوم البيئية.

من أبرز انجازاته وأبقاها وضع وتحرير التقرير الموسوعى عن حالة البيئة فى العالم من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢.



شخصية العدد

• تمتع أسامة بقدر عظيم من الحكمة تدعمها قاعدة عظيمة من المعارف

شارك في هذا العمل الفذ الدكتور مصطفى طلبة وفريق من علماء العالم. يقع هذا التقرير في قرابة الألف صفحة وهو سجل موثق لتطور أحوال البيئة في العالم منذ كان مؤتمر الأمم المتحدة الأول عن الإنسان والبيئة والذى عقد فى ستوكهولم (السويد) حتى كان مؤتمرها الثانى عن البيئة والتنمية والذى عقد فى ريو دى جانيرو (البرازيل). هذا انجاز لا يقدر عليه إلا ذوو العزم .

كنت قد طلبت من العالم الكندى البارز تدمن أن يزكى الدكتور أسامة الخولى لجائزة دولية، وأترجم هنا نص خطاب هذا العالم:

«يسعدنى أن أثنى تزكية أسامة الخولى لجائزة ساساكوا للبيئة لعام ٢٠٠١، فهو مرشح يستحق . ويملؤنى التعجب لأنه لم يحصل على هذه الجائزة من قبل.

عملت مع أسامة منذ الثمانينات خاصة كمؤلفين ومحررين لجلد برنامج الأمم المتحدة للبيئة (بيئة العالم : ١٩٧٢ - ١٩٩٢) . لقد أمضينا ساعات طويلة فى نيروبى وفى جنيف نضع معا فصول هذا الكتاب الضخم. وبعد الانتهاء من هذا العمل، عملنا معا هو كمؤلف لعدة فصول وأنا والدكتور مصطفى طلبة كمحررين للمجلد الرابع من موسوعة تغيرات البيئة العالمية للناشر جون ويلى. وكان أسامة الخولى هو مستشار التحرير فى مجالات الهندسة والتكنولوجيا والأوجه الاقتصادية للتغيرات الكونية والتنمية المستديمة والبيئة . وقد كتب أسامة الخولى فصول المجلد الرابع عن:

- اتجاهات الإدارة البيئية في الأربعين سنة الأخيرة.
- الإنتاج الأنظف.
- البيئة والعلامات البيئية.
- تاريخ حياة مصطفى كمال طلبة.

إسهاماته دوليا

يتمتع أسامة بقدر عظيم من الحكمة تدعمها قاعدة عظيمة من المعارف التى تتجاوز مجال تخصصه (هندسة الطيران). بهذه الموهبة، أضاف إلى جهود توسيع المفاهيم البيئية لطلاب كليات الهندسة فى مصر وفى جامعات الشرق الأوسط. إن اسهاماته فى جهود الأمم المتحدة كانت بارزة، واتسع مدى تأثيره من خلال الاجتماعات الدولية إلى زملائه فى سائر أركان العالم . أنا شخصيا أخذت كثيرا من عمق بصيرته، وخاصة فى

موضوعات الهندسة البيئية وقضايا الشمال والجنوب.

أود أن أؤكد أن علماء البيئة فى أقطار الأرض جميعا سيسرهم اختيار أسامة الخولى ليفوز بهذه الجائزة لعام ٢٠٠١». لكن قضاء الله كان أقرب إليه من الجائزة، رحمه الله.

الإشعاع العلمى والروحى

كان فى الجامعة الأستاذ المعطاء بغير حدود وبغير لوائح، وتلاميذه من طلاب البكالوريوس وما بعدها يذكرون عنه الإشعاع العلمى والروحى. كان عضوا بالمجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا منذ ١٩٧٧، وعضوا فى مجلس إدارة مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس (١٩٧٧ - ١٩٨١)، وأشرف على برنامج المعونة الأمريكية لإكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا لانشاء أول شبكة معلومات علمية (١٩٧٠ - ١٩٨١)، ورأس لجنة تطبيقات علوم الحاسب الآلى (١٩٧٩ - ١٩٨١)، وكان المحرر العلمى لسلسلة كتب العلم للجميع (١٩٦٨ - ١٩٧١)... إلخ. لم يرفض قط طلبا للعون. كان عمله لمصر أقرب إلى العشق الصوفى: فناء فى المحبوب.

● أبرز انجازاته وضع التقرير الموسوعى عن حالة البيئة فى العالم من ١٩٧٢ الى ١٩٩٢

عندما استقرت تنظيمات الشئون البيئية فى مصر بإصدار القانون الموحد رقم ٤ لسنة ١٩٩٤، كان الفقيد فى عون جهاز شئون البيئة ووزارة الدولة لشئون البيئة، وأورد هنا ترجمة لخطاب السيدة الأستاذة نادية مكرم عبيد وزيرة شئون البيئة (السابقة) تزكية لترشيح أسامة الخولى للجائزة الدولية التى أشرت إليها، وفيه بيان عن جهده فى عون مؤسسات البيئة فى مصر.

منذ توليت منصب وزير الدولة لشئون البيئة، تلقيت منه العون الفنى الذى لا يقدر فى وضع برامج العمل، وفى تنفيذ العديد من هذه البرامج، وخاصة:

● أول برنامج وطنى لمكافحة التلوث الصناعى.

● أول برامج تجريبية فى مجالات صناعات النسيج والأغذية.

● برنامج البنك الدولى لمكافحة التلوث الصناعى.

● خطة العمل لتطبيق الالتزام بالقواعد البيئية فى الصناعات الرئيسية.



وقد اتصل جهده لعدة سنوات المستشار الرئيسي لوحدة الأوزون الوطنية، وهي المنوط بها وضع وتنفيذ برامج استجابة مصر لبروتوكول مونتريال، وهي الوحدة التي تابعت التزامات مصر في مجال عمل هذا البروتوكول. وكان الدكتور الخولي المنسق والمدير التنفيذي للبرنامج الوطني للدراسات المتصلة بتغير المناخ والاستجابة للاتفاقية الدولية عن تغير المناخ. وقد وضع وشارك في مناهج دراسية في كليات الهندسة عن الهندسة البيئية والإدارة البيئية، وتبقى وزارة الدولة لشئون البيئة وجهاز شئون البيئة مدينين للعون الذي بذله هذا العالم الفذ والبيئي الملتزم.

إسهاماته عربيا

أما في الإقليم العربي، فإن الدكتور الخولي نهض في أثناء شغله لوظيفة المدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٠، بإدارة عدد من البرامج البيئية المهمة، منها:

- مشروع الحزام الأخضر لدول شمال أفريقيا (بالتعاون مع الأمم المتحدة).
- برنامج حماية بيئة البحر الأحمر وخليج عدن.
- برامج للتربية البيئية في مدارس وجامعات الأقطار العربية.
- تنسيق مشاركة الأقطار العربية في مؤتمر التصحر (١٩٧٧).

• إسهاماته في قضايا البيئة علامات بارزة تستحق الاعتراف والتقدير

وفيما بين ١٩٩٥ و٢٠٠٠ شارك الدكتور الخولي في التخطيط والتمهيد لمشاركة الأردن ولبنان والبحرين ومصر في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية عن تغير المناخ، وإعداد التقارير الوطنية في هذا المجال، وكان له إسهام جوهري في وضع التقارير البيئية الإقليمية للإقليم العربي.

إن إسهامات الدكتور الخولي ذات الصلة بقضايا البيئة في مصر وفي الإقليم العربي وفي العالم، علامات بارزة تستحق الاعتراف والتقدير الذي تمثله الجائزة.

هذه لمحات من حياة الإنسان الذي فقدناه.

إنسان جمع بين البناء العلمي ذي القواعد المكينة، والعقل النابغ والمشرق كضياء الشمس، نور ودفء، والقلب الممتلئ بالمحبة والعطف، والنفس التي ترضى بالعطاء وتنفر من الأخذ. ■

أقوال معاصرة

● «التكفير أمر خطير ، على المسلمين عدم الخوض فيه وتركه لأهل العلم الراسخين» !

الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ
مفتى عام السعودية

● «لغة الاتهام هى السائدة ، وأداتها التخوين والتكفير» !

د. جابر عصفور
أمين عام المجلس الأعلى للثقافة



د. جابر عصفور

● «حظر الموسيقى أمر مستحيل شأنه فى ذلك شأن منع الطير من التغريد» !

الكاتبة البريطانية سوزانا طربوش

● «الابداع مغامرة ، ورحلة فى المجهول وارتياد طرق غير مألوفة» !

الشاعر الأردنى أمجد ناصر

● «القوة بلا حكمة أفضل وصفة لتدمير العالم» !

المفكر التونسى العفيف الأخضر

● «أمريكا تلعب دور المصارع فى روما القديمة» !

الأستاذ برتران بديع
المنحدر من أصل إيرانى



جورج روبرتسون

● «الدوافع السياسية أو الدينية لايمكن أن تبرر قتل الأبرياء» !

جورج روبرتسون
أمين عام حلف الأطلسى

● «مشكلة المثقف العربى عندنا أنه يسير وراء السياسة وليس بالاستقلال عنها ، يطل وراء الأحداث ، لايستبقها لايستشرفها» !

الشاعرة الكويتية سعدية مفرح



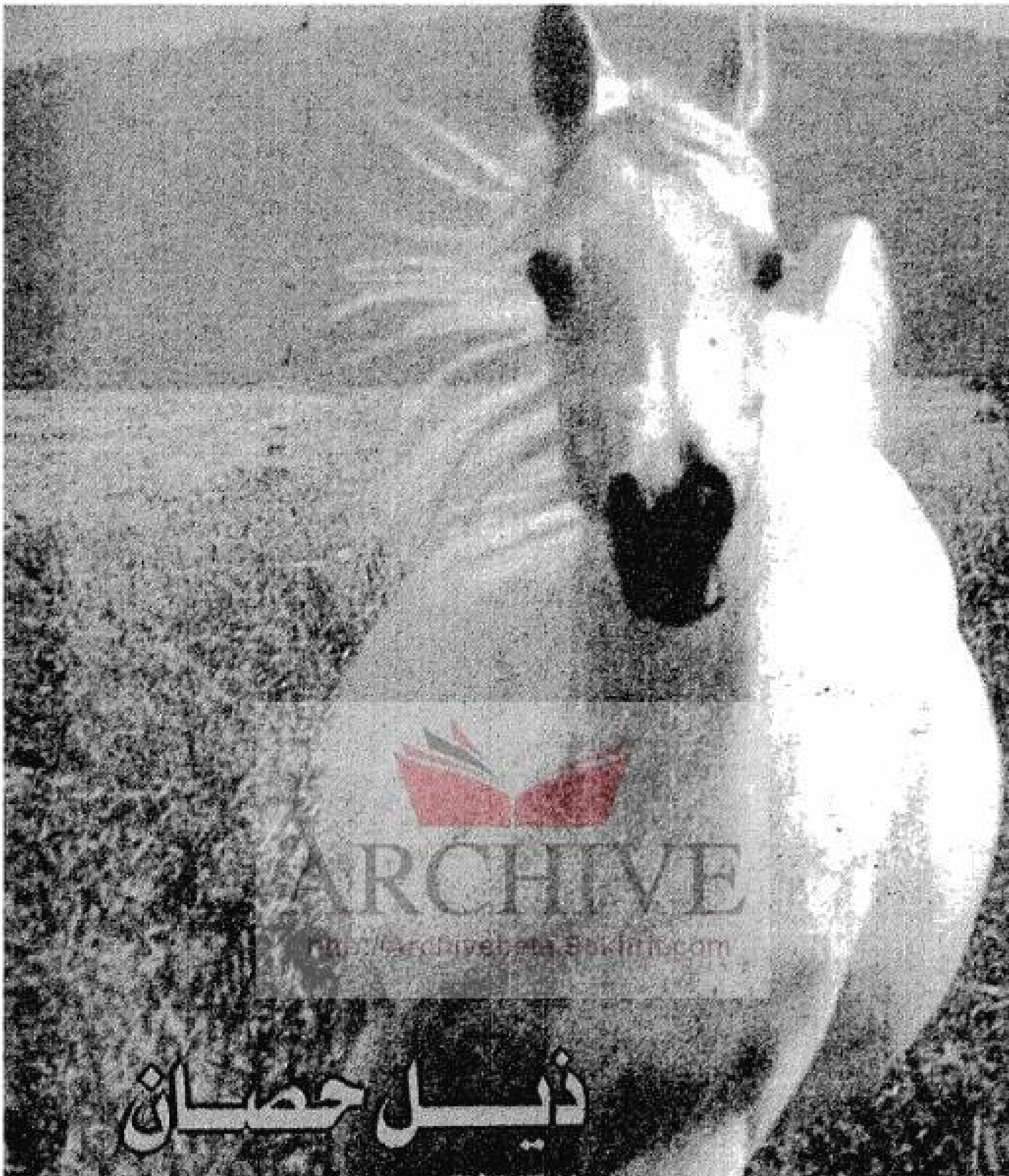
جورج هاريسون

● «كنا مثل قردة فى حديقة الحيوان» !

جورج هاريسون
أحد فريق الخنافس

● «أفغانستان بلد فقير ، نسيه بنو الإنسان» !

ظاهرة ظاهر أمريكية منحدرة من أصل
أفغانى وحلاقة جورج ووكر بوش


ذيل حصان
قرنفلي

شــعــر
د.أحمد تيمور

كحصان

أركض فوق الأرض

لأهرب من شفتيّ

صهيلاً وصدى

أركض

حتى تختفي قوائمي الأربعة

وحتى أتبدد جسداً

يتبقى مني ذيل حصان

يلتف على خصر قرنفلة

يسألها أن يعبر معها الآماد

مدى

فمدى

فيلفُّ شذاها المفرود الأبعاد جميعا

ويسافر

لنجوم لا عدد لها

في أنحاء الكون

فيحصيها عددا

●●●

للعشق

تعشقه في الأرض

وفي الآفاق

وإني للعشق نذرت الشعر

وللشعر نذرت أناشيدي

ونذرت من الكفين

لأوراقي البيضاء يدا

أنشيء شعري إنشاء

فوق الأمكنة المغلقة

جسوراً

تفتحها للمطلق

أنشده

عبر الأزمنة الموقوتة

أبدا

أرسمه فوق شغاف القلب

نياطا من شغف عشبي اللون

وأنظمه في فوضى العقل

ترانيم هدى

●●●

كحصان

أركض فوق الأرض

وأصهل

تنفتح

أمام فمي المدن الذهبية

أقرأ فوق البوابات:

الأمس هو اليوم

إذا ما كان اليوم غدا

أدخل

مدن الذهب الواعد
أبحث
عن بيت حبيبي
فرأني داخله أرقد
فوق سرير من ورق الورد
وفوقي
من نفس الورد ندى

●●●

كان هنالك
عصفور أخضر
خلف النافذة
سألت العصفور
عن الرجل الراقد فوق سرير الورد
فقال لماذا تسأل عنك
ورفرف بجناحيه وطار
ولما طار شدا

●●●

يا ذاك الباحث عن نفسك
نفسك فى نفس حبيبك
وحبيبك
فوق محياك بدا
ويثنى
فى عودك
فاضرب ريشتك على عودك
يتردد في أنحاء الدنيا
صوت وجودك
إنك إن لم تفعل يا شاعر
ضاع العمر سدى

قلت له:
يا عصفور الجنة
إنى أرغب أن أخبر كل الناس
بأنى أحيا حلمى
قال رويدك يا شاعر
لا تخبر عن كنزك أحدا
لا تسكب حلمك
فوق جفون الغافين
فأنت الخارج عنهم
أنت الداخل فى لحم حبيبك
أنت المتوسد منه القلب
وأنت المفترش الكبدا
أنت المكسو بجلد الشمس
فكيف تعرض نفسك للريح
وتطلب من عاصفة الثلج البردا

●●●

أنت الناجى
من ثلاجة أرواحهم
أنت الراجى
دفء فنائك في ذات العشق
المعصوم من الوحدة
فاحمد ربك يا شاعر
قد سمع الله لمن حمدا
مجد سيدك المانحك الشعر
خلاصا وهوى
وروايات ورؤى
ورسوما كاشفة للروح



وموسيقى

تتدفق فى شريانك

مددا

يتبع مددا

●●●

خيَّرك الخالق

بين الشعر وبين النثر

اخترت النجم النابض

واللهب القابض

بالكف على الجمر

ومازال الجمر بكفك متقدا

مازال العشق حريقا

يسرى فى الجسد وفى الروح معا

لتضىء الروح إلى الأبد

وينطفىء الجسد رمادا

يذروه على منعطفات النسيان ردى

تبقى الروح

ويفنى الجسد

فهل يبقى غير الباقى

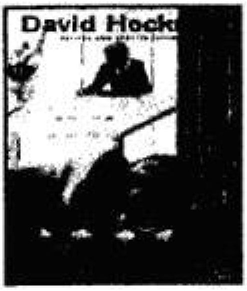
والفانى يتفانى بددا

فى البحر اللؤلؤ والزبد

سيمكث فى شكل حبيبات الضوء

اللؤلؤ

والزبد سيذهب زبداً



المصور ديفيد هوكنى بين التقليدية والحداثة

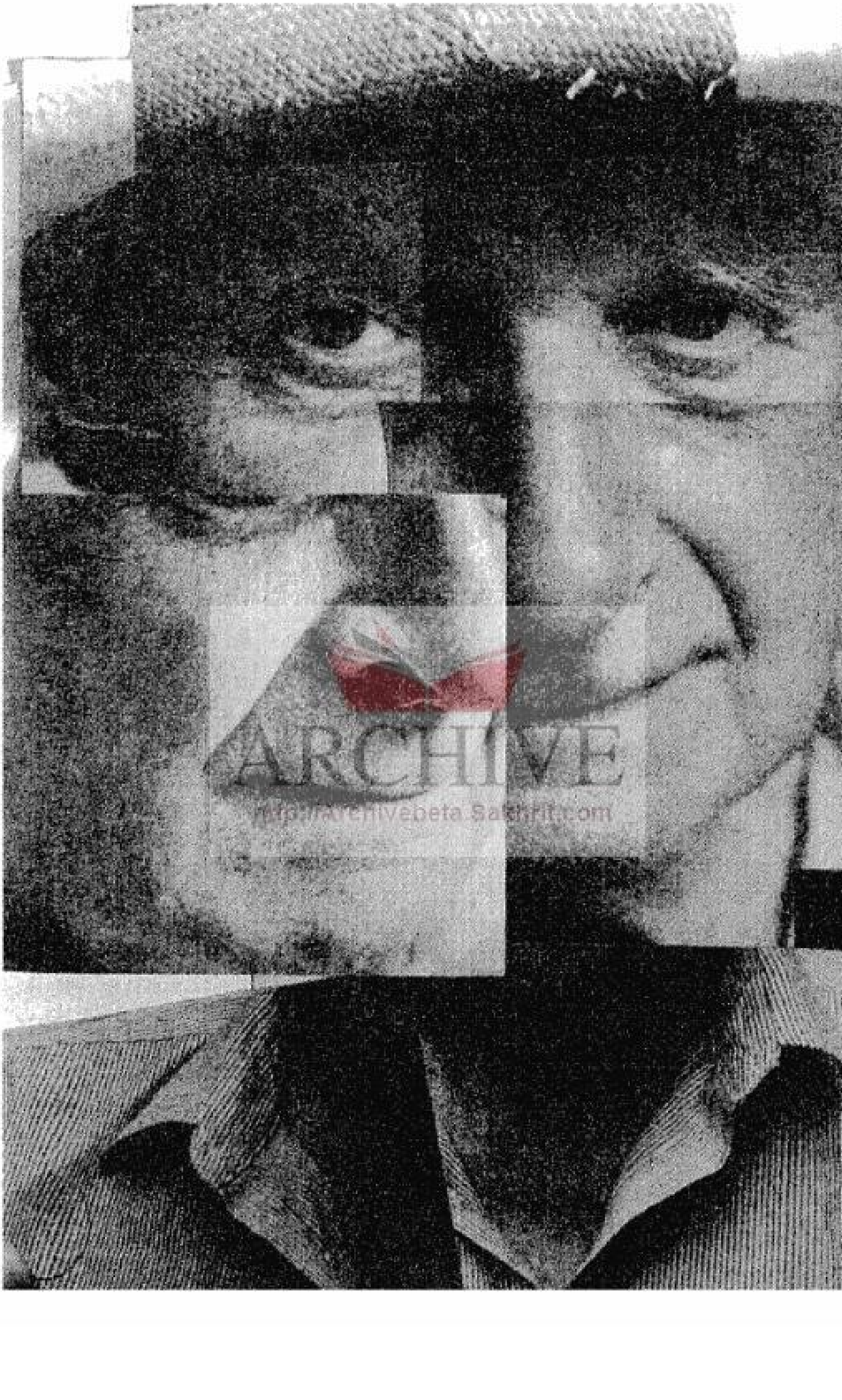
بقلم
د. صبرى منصور

لم يلق فنان إنجليزى معاصر ما لقيه ديفيد هوكنى من ذيوع وانتشار على مستوى العالم، فهو بأسلوبه الفنى الفريد الذى جمع فيه بين معالم الحداثة وبين العناصر التقليدية، قد قدم النموذج على أن الأسلوب الفنى السائد لا يجب أن يفرض على الفنان، بل يجب أن يكون تابعاً منه، وواحداً من أدواته التى يسخرها جميعاً من أجل توصيل أفكاره الخاصة ورؤيته الذاتية.

ولد هوكني – الذي يبلغ الرابعة والستين من العمر – في بلدة براردافورد بمقاطعة يوركشير، وفي مدرستها الثانوية كان ضجراً من المواد الدراسية، واكتشف ميله إلى الفنون فصمم منذ ذلك الحين على أن يكون فناناً. وفي بلدته الصغيرة كان الفن الوحيد المعروف هو فن الملصقات ورسم اللافتات، وكان لوالده اهتمام محدود بالفن ينحصر فى طلاء الأشياء القديمة بغية تجديدها، وقد جذبت هوكنى منذ طفولته فكرة انغماس الفرشاة فى الأصباغ والطلاء.

وفى سن الحادية عشرة التحق بمدرسة الفن فى بلدته حيث تلقى فيها الدراسات الأكاديمية البحتة، ورغبة فى

◄ الشاعر ستيفن سبندر صورة مجمعة ١٩٨٥



مواصلة دراسة الفن المعاصر الذى التقى ببعض نماذجه فى كل من لندن وليدز. التحق بالكلية الملكية للفنون فى لندن فى عام ١٩٥٧. وقد تعرف فى تلك الفترة على أعمال بيكاسو الذى قوبل فى إنجلترا إبان الخمسينات بدرجة من الفتور، خصوصاً فى الأقاليم التى كانت تسودها نزعة تقليدية محافظة.

إشكالية الشكل والمضمون

بدأ هوكنى حياته الفنية برسوم تقليدية لم تكن متميزة عن الأساليب المحافظة السائدة فى بلدته الإقليمية، ولكنه عندما انتقل إلى لندن أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار فى الرسم بأسلوب تقليدى، وكان عليه أن يجد فى البحث عن أسلوب آخر يكون أصدق تعبيراً عن ذاته، فى نفس الوقت الذى تعرف فيه على مدارس الفن الحديث التى لم يفضل إحداها على الأخرى، وإن كان هناك بعض الفنانين الذين انجذب إلى أعمالهم وتركوا بصمة واضحة على إنتاجه الفنى فيما بعد مثل بيكاسو وخاصة رسومه فى الثلاثينات وكذلك لوحة «الجورنيكا» ولوحته التكعيبية المعروفة «المرأة الباكية»، كما كان لكل من فان جوخ وماتيس تأثيرهما أيضاً على رسوم هوكنى فى تلك الفترة وما تلاها.

وفى عام ١٩٥٦ اقيم فى «التيت جاليرى» معرض احتوى على لوحات أمريكية تنتمى إلى الاتجاه التعبيرى التجريدى، وشاهد هوكنى فى ذات الوقت معارض لكل من المصورين التجريديين الأمريكيين روثكو وبولوك،

ولقد كان للأعمال التجريدية الأمريكية تأثير كبير على دارسى الفن الصغار ومن بينهم هوكنى، فلقد رأوا أن الرسم الأمريكى أكثر إثارة وتشويقاً من أسلوب الرسم الفرنسى الذى أخذ أثره يتضاءل ويتلاشى لتحل محله التجريدية التعبيرية الأمريكية، وكان ذلك سبباً دعا هوكنى إلى تجريب هذا النوع من الأسلوب، فأنتج خلال عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ حوالى عشرين عملاً اعتمد فيها أسلوبه على مزيج من إنتاج بولوك وآخرين، وللأسف لم يبق سوى قليل من هذه الأعمال، إذ إن العديد منها قد دمره هوكنى أو رسم فوقه من جديد.

فى تلك الفترة كان هوكنى يرسم طوال الوقت، وكان فكره مشغولاً بكيفية العثور على ملامح ذاتية فى فنه، وأن يحدد ملامح شخصيته، وأن يضع يده على سمات أسلوب فنى متفرد وكان دائم الشكوى بأن أياً من أعماله فى تلك الفترة ينتمى له شخصياً. وقد نصحه صديقه وزميل دراسته الفنان رون كيتاج بأن يبدأ فى التعبير عن الموضوعات القريبة إلى نفسه - وكان هوكنى حينذاك نباتياً متحمساً ومهتماً إلى حد ما بالسياسة - لكنه لم يكن يملك القوة الكافية لرسم الأشكال، إذ إن تشخيص الأفكار كان مبدأ يناقض مفهوم الحداثة، ولقد تبين له أنه لكى يكون فناناً حداثياً فإن عليه أن يهجر كلية الموضوع والمضمون، أى أن يخلع رداء الواقعية لينطوى تحت رداء آخر هو رداء الحداثة الذى يتجاهل الموضوع وينكر الشكل الإنسانى. ولقد أدرك سريعاً حاجته



السيد والسيدة كلارك وبيرسي ١٩٧١



زواج الاساليب أو الزوج الأول ١٩٦٢

إلى البحث عن صوته الخاص، وهو فى سبيل تحقيق ذلك قد رفض التطرف فى الشكلية التجريدية لأنها فى رأيه تفتقد المضمون الإنسانى، وفى نفس الوقت ابتعد عن المفهوم التقليدى للتشخيصية لكونها قد أضحت طرازاً عتيقاً عفا عليه الزمن. وهو فى النهاية قد شعر بالحاجة إلى الموضوع ولكن فى صورة متميزة فى لوحاته كوسيلة لإسعاد وإمتاع المشاهد.

وقد كتب هوكنى فى دليل معرضه الذى أقامه فى لوس أنجلوس خلال الستينات «أنا رسام تقليدى، ولكن حين ينظر المرء إلى أعمالى من زاوية المحتوى، فإنه يجدها ذات محتوى واضح، فلقد كان الشىء الرئيسى فى أعمالى هو الموضوع، ثم قليل من الاهتمام بالمظهر والشكل، وكذلك: كنت تقليدياً لشعورى بضرورة الموازنة بين الشكل والمضمون لتحقيق عمل جيد، فبدون هذه الموازنة فإن اللوحة ستبدو مملة». ورأى هوكنى أنه خلال عقد الخمسينات من القرن الماضى قد تم التركيز على الشكل دون المضمون، فى حين كان يعتقد بضرورة إيجاد التوازن بين العنصرين، ويرى أن تلك مشكلة مزمنة فى الفن وربما لن يتم حلها أبداً من الناحية النظرية، فهو مثلاً كان يجد فى رسوم بييرو ديللافرانشسكا - من مجموعة فنانى ما قبل عصر النهضة - إثارة ومتعة للناظر، وهو يرجع تلك المتعة إلى الطريقة التى رسمت بها هذه الرسوم وليس إلى قصتها ذات الموضوع المحدد.

كما أن هوكنى كان يعتقد بأنه من المتعارف عليه أن هناك بعض الفنانين الذين يحتاجون إلى موضوع يبعث فيهم الإلهام، وأنه إذا كان ذلك صحيحاً فى الأدب فإنه صحيح أيضاً فى الرسم، لكن بعض الفنانين يحتاجونه أكثر من غيرهم، والبعض الآخر منهم يهمل الموضوع، ولكل ذلك أهمية فى تطور الفن، وفى عقد الستينات أهمل الموضوع تماماً وبدأت التجريدية تسيطر على معظم الأعمال الفنية لدرجة أن كثيراً من الناس أصبحوا يعتقدون بأن هذا هو الطريق الذى يجب أن يمضى فيه الفن، وكان ذلك هو شعور هوكنى نفسه حتى عندما بدأ يرفض الأسلوب التجريدى واستمر شعوره هذا حتى عام ١٩٦٦.

وفى بداية بحثه عن أسلوب فنى خاص وجد هوكنى حلاً تمثل فى استعمال الكلمات، فقد رأى أن الكتابة على اللوحات ووضع الكلمة على الرسم فيه تأثير مشابه لرسم شكل ما، فالكلمة هى شىء إنسانى تستطيع أن تلحظه بسرعة وبشكل مباشر وهكذا لا تكون اللوحة رسماً مجرداً. لقد جاءته فكرة استعمال الكلمة لأنه لم يكن يملك الجرأة على رسم شكل حقيقى، وكان عليه أن يوضح رسومه، لهذا نجده يكتب كلمة غاندى على الصورة التى رسمها لغاندى، ومع أن بعض الناس كانوا يرون أن الكتابة على الصور شىء سخيف، لكن هوكنى كان يعتقد بأن

١١٣

الهلال

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م



جبل فوجي ١٩٧٢

الكتابة - في ذلك الوقت - تجعله يشعر بأن شيئاً إنسانياً ما ينبع من تلك الصور.

عالم هوكني الفني

أقام هوكني أول معرض خاص له عام ١٩٦٣ عندما كان فى السادسة والعشرين حين أخذت بعض معالم فنه تتضح وتتبلور، تلك المعالم التى تأكدت خلال السنوات التالية وقدم من خلالها نموذجاً فريداً فى الفن الغربى المعاصر، وشملت تناول موضوعات جديدة لم تكن مألوفة في فن التصوير الحديث، مثل المناظر الداخلية فى المنازل وما تحتويه من قطع أثاث وستائر وأصص النباتات ، والمناظر الطبيعية ، والشبابيك والأبواب والمباني، ومشاهد حمامات السباحة - فقد كان مغرماً بتصوير عنصر المياه - أما الأسلوب الفنى فقد اتسم بالحرية فى التناول والتنقل بين أساليب التنفيذ، ولم يتقيد بتقنية واحدة محددة. وكان قد شاهد فى صيف ١٩٦٠ معرضاً ضخماً فى التيت جاليرى لبيكاسو وأعاد مشاهدته ثمانى مرات مفتتناً بغزارة التجديد الذى أقدم عليه بيكاسو - وهو ما فتىء يعود إليه ويستدعيه فى أعماله إلى اليوم - وكان أهم ما اكتشفه هوكنى هو أن بيكاسو لم يحدّ نفسه فى نوع واحد من الصور والأساليب ولكنه يتحرك فى أى اتجاه يشاء.

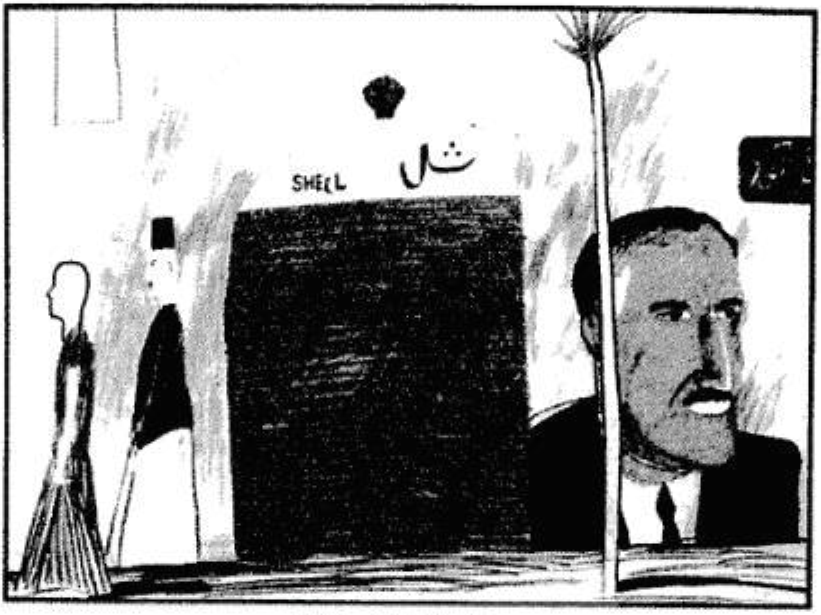
وعلى الرغم من أن هوكني قد نبذ الحداثة القائمة على التجريد المطلق، فإن أعماله تشى بتناول مختلف للعلاقات بين عناصر صوره وأشكاله. وقد ترك الاتجاه التجريدى بصمة واضحة على أعماله التى تولى العلاقات التشكيلية أهمية كبرى. وقد تداخلت عناصر عديدة فى تكوين أسلوب هوكنى الفنى استقاها من أساليب الفنانين الذين كان معجباً بإبداعهم أمثال بيكاسو وفان جوخ وماتيس، أو من الأساليب الفنية الشرقية كالفن الياباني والفن الصينى وكذلك الفن المصرى القديم، بالإضافة إلى بعض سمات فنون الطفل وما تحتويه من براءة وتلقائية.

وقد أعطى هوكنى للرسوم السريعة أهمية فى مجمل إبداعه الفنى. فقد كان يرى أن الفنان فى حالة انجاز عمله بسرعة فإنه يفرغ فيه شحنة عاطفية وانفعالية أكثر صدقاً وعفوية من تلك الأعمال التى تستنفد شهوراً فى انجازها.

التجديد فى الصورة الفوتوغرافية

وقد اعتمد هوكني على الصورة الفوتوغرافية فى إبداعه الفنى التصويرى، وذلك ربما يفسر البرود البادى على لوحاته والأوضاع المفتعلة للأشخاص والأشكال. وذلك على الرغم من عدم التزامه بنقل ما التقطته عين الآلة، فهو يجرى الاختصارات على اللقطة الفوتوغرافية ويعدّل من الأوضاع والأشكال بما يتلاءم مع تصميمه الفنى الذى يتحول على يديه إلى عمل فنى متماسك وفريد فى تشكيله.

ومنذ أوائل السبعينات أعطى هوكنى



جراج شل بالأقصر ١٩٦٣

اهتماماً أكبر للتصوير الفوتوغرافي في حد ذاته وليس كعامل مساعد من أجل فنه، لهذا أصبحت الصور الفوتوغرافية يتم تناولها بطريقة أكثر عناية وحرصاً، فقد تأكد لديه أن بعض الصور الفوتوغرافية التي كان يقصد استعمالها في رسومه لا تصلح لأن تكون عملاً فنيا تشكيلياً، وأصبح أكثر وعياً بأن الصورة الفوتوغرافية شيء آخر تماماً، فبعضها يمتلك المواصفات الكافية كعمل فني مستقل بذاته، ويمكن القول بأنه منذ تلك الفترة كان يرسم بواسطة آلة التصوير، ولم يقم بعرض أعماله في مجال التصوير الفوتوغرافي إلا في عام ١٩٧٦ حين نشر في باريس (ألبوما) يحتوي على عشرين صورة فوتوغرافية بيعت جميعها بأثمان تراوحت ما بين ثلاثمائة وأربعمائة دولار للصورة الواحدة، مما كان مثار دهشة هوكني الذي كان لا يعتقد بأن الصورة الفوتوغرافية - بما تسمح به من استنساخ لا نهائي - يمكن أن تقدر بهذا الثمن المرتفع.

ويعد هوكني من المجددين في مجال التصوير الفوتوغرافي بابتكاره لأسلوب تجميع الصور معتمداً على دروس المدرسة التكعيبية في تجسيد الأبعاد الثلاثية على مسطح ذي بعدين بواسطة تجزيء المشهد وإظهاره من جوانب مختلفة، ولقد حاول أن يمنح الصورة الفوتوغرافية بعداً لا يمكن الإلمام به في لحظة مثلما يحدث في الصور

الفوتوغرافية العادية، فالجمع بين الصور الذى ابتكره يمكن أن يتضمن أبعاداً أخرى تستدعى العودة إلى الصورة المركبة أو المجمعة واستكشافها مرة بعد أخرى.

هوكنى فى مصر

كان هوكنى فى الستينات مستغرقاً فى الرسم من الطبيعة ومهتماً بإيجاد الوسائل الكفيلة بإيقاظ الحاضر الفنى وإثارة إلهامه فى أى وقت وفى أى مكان، وسعياً لخلق صور جديدة كان شغوفاً بالسفر لأماكن جديدة ، لذلك جاء إلى مصر فى زيارته الأولى لها تلبية لدعوة من مجلة صنداى تايمز عام ١٩٦٣ من أجل إنتاج مجموعة من الرسوم التى يمكن طبعها ونشرها (ولكن للأسف لم تنشر المجموعة التى نفذها نظرا للأحداث السياسية المفاجئة التى صاحبت حادث اغتيال الرئيس الأمريكى جون كينيدى فى تلك الفترة) وتلك كانت المرة الأولى منذ أيام دراسته فى برادفورد التى يرسم فيها باستمرار من الطبيعة لفترة طويلة، وتظهر الرسوم التى نفذها فى مصر للوهلة الأولى رؤى خيالية مركبة، وقد تأثرت الأوضاع والحركات والشكل الإنسانى فيها بملامح وسمات الفن المصرى القديم، وعديد من تلك الرسوم تضمن وصفاً وكتابات باللغة العربية كعلامات تصويرية لها جمالها الخاص، مما يوضح غرام هوكنى بشكل الكلمات فى تلك الفترة، وقد نفذت هذه الرسوم بالأقلام الملونة وهى خامة بدأ يستعملها عام ١٩٦٢ وكانت تساعده على التقاط الإحساس الفورى بالأشكال.

وكانت الزيارة الثانية التى قام بها هوكنى لمصر حين كلف بتصميم مناظر أوبرا «الناى السحرى» لمزار لمسرح أوبرا جليندبورن، وكان معظم المصممين لمناظر هذه الأوبرا - فيما قبل - يقرنون تصميماتهم بمشاهد القرن الثامن عشر الأوربية، ورأى هوكنى فى ذلك سوء تجسيد للأحداث التى يجب أن تقع فى مصر القديمة، ومن أجل خلق الصورة الصحيحة وضع تصميماته مبنية على مشاهد مصرية، فهى ممتلئة بأشكال الأهرامات والنخيل والصحراء والمسلات والرؤوس الحجرية الأثرية الضخمة، وقد استخدم من أجل ذلك رسومه وتصويره الذى سبق له تنفيذه فى زيارته الأولى مثل لوحة «الهرم الأكبر فى الجيزة مع رأس محطمة من طيبة» بالإضافة إلى الصور الفوتوغرافية والرسوم التى قام بتنفيذها خلال الرحلة الثانية لمصر عام ١٩٧٨ ، وتنقل فيها ما بين القاهرة والإسكندرية والأقصر.

المكانة الفنية لهوكنى

ومنذ حوالى عام ١٩٧٥ جاء مستوى تنفيذ هوكنى للوحاته مخيباً للآمال مقارنة بالفترة السابقة، وكانت أعماله فى ذلك الحين قد عرفت بشكل واسع، وربما كان الإقبال المتزايد على اقتنائها سبباً وراء اهتمام هوكنى بزيادة كم إنتاجه الذى جاء على حساب الاهتمام



موديل وصورة شخصية غير منتهية ١٩٧٧

بتقنية التنفيذ، كذلك فإن تكريسه لمعظم جهده الفنى فى تجارب التصوير الفوتوغرافى قد ساهم أيضاً فى عدم الاعتناء بإبداعه الفنى، وفى خلال تلك الفترة اتجه نحو تصوير المناظر الطبيعية التى ربما كانت ستحوز الاعجاب لو كنا نجهل امكانياته الممتازة والتى استعرضها فى أعمال سابقة.

ومع ذلك فإن عالم هوكنى الفنى الذى يعتمد على العناصر المعمارية والهندسية والأشكال الآدمية المنعزلة، وتصميماته القائمة على إيلاء الفراغ دوراً رئيسياً والتقنية الفنية التى نفذ بها العديد من أعماله والتى تميل إلى استخدام اللون الصريح فى تناول فنى يتسم برهافة الحس، كل ذلك يشكل أسلوباً فنياً صاغه هوكنى بحرية وانطلاق مؤكداً قدرته على المزج بين الأسلوب التقليدى ومعالم الحداثة فى صياغة فنية متميزة لا تخطئها العين وتؤهله لأن يتبوأ مكانة مرموقة بين الفنانين الغربيين المعاصرين. ■


ستالين


ديستويفسكى


فتحى غانم

النبوءة والأدب

ستالين وشياطين ديستويفسكي.. وأيمن الظواهري وأفيال فتحي غانم.. وانهيار الفلاشفة كما رآه إشبنجلر

بقلم
د. فهمى عبد السلام

«الويل للإنسانية من المتعلمين اليهود الذين يدعون الإلحاد» ديستويفسكى

«إن الشعب الروسى سيهب هبة واحدة وستكون كافية للقضاء على السلطة الشيوعية» اشبنجلر

استطاع كثير من الأدباء استشراف المستقبل والتنبؤ ببعض الأحداث المهمة فالأديب الروسى ديستويفسكى تنبأ بقيام الثورة الروسية ، وسيطرة اليهود على العالم ، والفيلسوف اشبنجلر تنبأ بانهيار ونهاية الشيوعية ، كما تنبأ الأديب فتحى غانم فى قصته «الأفيال» بظهور وانتشار جماعات الأرهاب .

والفلسفة في أعماق أعماقها هي هجوم على اللا مدرك ، أما الفنون والآداب ، فتتحدثان بلغة أخرى . والمراهق فكريا وحده هو الذى يضع «إيمانويل كانت» فى منزلة أرفع من



الوحشية الأسرائيلية كما تنبأ بها ديستويفسكي

منزلة «بيتهوفن» وبينما كان كارل ماركس ينتظر قيام ثورة البروليتاريا في انجلترا الصناعية، والتي كانت في حسابات ماركس قد استوفت كل الشروط لقيام ثورة الطبقة العاملة، فإذا بها تهب كالإعصار في روسيا، بلاد القديسين والأقنان والاكواخ الخشبية، وإذا كان ماركس قد فشل في التنبؤ بأرض الثورة، إلا أن ديستويفسكي الفنان العظيم، ببديهته الصافية وبرؤيته الثاقبة تمكن من استشراف المستقبل وتحقق نبوءته الرائعة بقيام ثورة الانتلجنسيا على أرض روسيا الأم على حد تعبيره.

النبوءة والأدب

(١)

.. قدم ديستويفسكى العظيم رائعته الخالدة «الشياطين» أو «الممسوسون» عام ١٨٧٢، وقبل قيام ثورة البلاشفة عام ١٩١٧ بخمسة وثلاثين عاما، وخلالها تنبأ ديستويفسكى بالمصير المروع الذى ستلقاه روسيا المقدسة على أيدى الإنتلجنسيا الثورية الروسية، ورواية الشياطين الفاتنة، كتبها ديستويفسكى عن تجربة أليمة مر بها عندما كان عضوا فى خلية «بتراشفسكى» الاشتراكية عام ١٨٤٩، وتم القبض على المجموعة، وحكم على ديستويفسكى بالإعدام، وقبيل تنفيذ الحكم الرهيب، وبينما كان ديستويفسكى يقف منتظرا رصاصات الفناء، وفرقة الإعدام تنتظر إشارة البدء، هنا فقط جاء عفو القيصر، إذ تم تبديل حكم الإعدام الرهيب بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سيبيريا، تلك المحنة الأليمة التى تركت ندبة غائرة فى نفس كاتبنا العظيم، رواها فى رائعته «الأبله».

.. وقبل قيام ثورة ١٩١٧، وبالرغم من الشعبية العريضة التى كان ديستويفسكى قد حظى بها، إلا أن الانتلجنسيا الثورية الروسية أدانته، ووسمته بالرجعية، وتلك التهمة لم يكن ديستويفسكى يفهمها، فهو يصيح على لسان أحد الأبطال متسائلا:

«بماذا تفيد تحديد الملكية فى خلاص النفس؟»

وبعد الثورة البلشفية تعرفت السلطة الثورية فى شخص ديستويفسكى على عدوها اللدود، ووسموه بالرجعية، وصودرت مؤلفاته، ولم يأخذ مكانته التى يستحقها إلا بعد أن اطمأن البلاشفة إلى متانة نظامهم الحديدى الذى أقاموه. وأبطال الشياطين هم الانتلجنسيا الثورية المثقفة كما عرفهم ديستويفسكى إبان فترة حلقة بتراشفسكى، وعلى لسان «شاتوف» (واحد من أبطال الشياطين) يدين ديستويفسكى الذين انفصلوا عن شعبهم الروسي ، وهما الانتلجنسيا الثورية التى اعتنقت الاشتراكية «لأسباب عاطفية» والأرستقراطية الروسية التى لم تعد تعرف شعبها. فيقول شاتوف :

«هؤلاء لا يعرفون شيئا على الإطلاق عن الشعب الروسى، إنهم جميعا لا يشعرون تجاه الشعب الروسى إلا بأبشع درجات الازدراء والاحتقار، فالشعب الوحيد فى نظرهم هو الشعب الفرنسى، وليس الشعب الفرنسى كله، إنما شعب باريس وحدها، وهم يخجلون كثيرا من أن الشعب الروسى لا يشبه الباريسيين،

ومن لم يكن له شعب لم يكن له إله، وأولئك الذين أصبحوا لا يفهمون الشعب، يفقدون إيمان آبائهم بنفس المقدار، وهذا هو السبب فى أننا لسنا الآن شيئا على الإطلاق، فنحن جميعا ملاحدة وأشرار».

وكلمات شاتوف هذه ، وهو التائب عن الهوس الثورى، هى كلمات ديستويفسكى نفسه التائب عن الكفر بالإله الروسى خلال مرحلة بتراشفسكى ، وإذا كان ديستويفسكى قد تاب خلال الرحلة الأليمة فى سيبيريا ، فشاتوف الطالب السابق وإبن القن، عاد إلى الإيمان بالشعب وبالإله الروسى خلال رحلة أليمة هو الآخر، لقد رحل شاتوف مع كريليوف وهما عضوان فى حلقة ثورية على متن باخرة إلى أمريكا ، وقد انفقا وهما من الفقراء آخر كوبك يملكانه للقيام بالرحلة ولم يهدفا من رحلتهما إلى الثراء الأمريكى وما إلى ذلك.

(٢)

.. عاد شاتوف ابن القن والطالب السابق، ذلك الأخرق الذى يتمزق لأن شقيقته «داشا» أصبحت عشيقة للعدمى الأرستقراطى الشاب «ستافروجين» ، عاد شاتوف إلى روسيا وقد آمن بالشعب وبالإله الروسى وبرسالة روسيا المقدسة للإنسانية ، وراح يكابد كآبة ميتافيزيقية عميقة تلك الكآبة التى يكابدها كل أبطال ديستويفسكى. فإذا كان شاتوف قد عاد محتقن الدماغ بالإله الروسى، عاد كريليوف وقد احتقنت دماغه الحارة بفكرة سيطرت عليه هو الآخر ، وهى فكرة الانتحار..

عاد كريليوف الى روسيا وقد قرر الانتحار وفقا لأطروحة مدهشة عن فلسفة الانتحار تنطلق من انخفاض عدد المنتحرين فى روسيا ذلك الانخفاض المدهش، فالحياة فى نظر كريليوف ماهى إلا عذاب مطلق ورعب بلا قرار، والإنسان يتمزق بين عذابات الحياة ورعبه من الموت، وكريليوف يرى أن الإنسان لا يكره الموت لأنه يحب الحياة ، لكنه يحتمل الحياة لأنه يخاف من الموت، حتى هنا وأطروحة كريليوف الشقى لا تخلو من صحة ما، بعدها يصل كريليوف إلى جوهر نظريته الكئيبة ، وهو بالمناسبة يصرح علنا «أنه لا يضحك ابدا» ، فإذا ما نجح الإنسان فى القضاء على الرعب من الموت ، سيتحول الى اله، هذا هو الإنسان الذى تنشده الإنسانية، السوبرمان الجديد، الذى يواجه الموت، دونما خوف وعندما يعارضه أحدهم قائلا ذلك الاعتراض الجوهرى:

– لكن ذلك الإنسان غالبا لن يجد الوقت الكافى للشعور بألوهيته، إذ سيموت على الفور.

فيجمجم كريليوف غاضبا كى لا تنهار نظريته العجيبة، فيصيح:

«الحياة ألم، الحياة رعب، كل شىء الآن ليس إلا عذابا ورعبا، والإنسان

الذى سيقتل نفسه من أجل أن يقتل الرعب، سيتحول فى اللحظة نفسها الى إله».

(٣)

والخلية الثورية فى رواية الشياطين ، تطلب من كريليوف بحكم الرفقة القديمة، أن يؤجل تحويل نفسه إلى إله يقصدون انتحاره حتى يحين الوقت المناسب لهم. إذ ستقوم الخلية بعمليات قتل وبتخريب مصانع ومؤسسات وستشتعل الحرائق . لتقويض السلطة الرجعية ، ولكى تشتعل روسيا كلها معلنة موت الإله الروسى القديم، فإذا ما ألقت السلطات بالقبض عليهم. قدموا اعترافا من كريليوف بأنه المسئول عن كل تلك الجرائم.

ويصحبنا ديستويفسكى العظيم إلى اجتماع الخلية الثورية والاجتماع سرى بطبيعة الحال، ويضم أفرادا غاية فى الغرابة، فأحدهم أقام علاقة أثمة مع زوجة أحد الرفاق، والرفيق المطعون فى شرفه كى لا يبدو رجعيا لايملك الاعتراض وعندما تخبره الزوجة الخائنة أنها اختارت عشيقا لتقيم معه علاقة «زواج حر». فيقول لها الزوج المطعون فى شرفه:

«قبل الآن كنت أحبك فقط.. أما الآن فأنا أحبك وأحترمك».

هذا الزوج نفسه لم يستطع أن يتحمل ليبرالية زوجته طويلا. فإذا به ذات مساء، وفى حفلة راقصة جمعت الزوج والزوجة والعشيق، فإذا بالزوج يفقد صوابه، وبدون سابق انذار، يجذب العشيق من شعره بكل قوته، ويعضه بالأسنان غضا جنونيا وهو يصرخ ويعول فيه. ثم ينهار باكيا منتحبا.

وبعد لغط عظيم ، يبدأ الاجتماع بنظرية سيطرحها شيجالوف على المجتمعين، ويصف لنا ديستويسفكى الرائع شيجالوف بقوله «لم أر فى حياتى وجها كهذا الوجه عبوسا وتجهما بل وحدادا، كأنه يتوقع خراب الكون ودمار العالم لا فى وقت قريب أو بعيد، ووفقا لنبوءات قد تتحقق أو لا تتحقق، بل فى وقت محدد معين، بعد غدا مثلا. فى الساعة العاشرة وفى الدقيقة الخامسة والعشرين مساء».

يبدأ شيجالوف اطروحته لتنظيم مستقبل العالم (!!) قائلا بأن أفلاطون وروسو وفورييه ليسوا إلا أعمدة من الألمونيوم ، فهم يصلحون للعصافير لا للبشر، ولما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديدا دقيقا، يجب أن أعرض عليكم مذهبى خلال عشرة سهرات على الأقل، وفقا لعدد فصول الكتاب، هذا مع الايجاز

الشديد، بالإضافة إلى الكثير من الإيضاحات الشفهية.

ويعترف شيجالوف صراحة أن مذهبه لتنظيم الإنسانية لم يكتمل، وأنه «تاه فى شعاب المقدمات» وأن نتائجه جاءت متناقضة تناقضا تاما مع الفكرة الأساسية التى انطلق منها شيجالوف الكئيب المدهش من ضرورة الحرية المطلقة للبشر، فإذا به يجد نفسه فى الآخر ينتهى بحتمية العبودية المطلقة للبشر (....)

بدأ شيجالوف نظريته بالحرية المطلقة لسعادة البشر، وانتهى بالاستبداد المطلق لسعادة البشر، وإذا كان واضع النظرية نفسه تاه فى المقدمات، فكيف سيفهمها الآخرون. وإذا كان شيجالوف قام بطرح نظريته لتنظيم العالم. فكريليوف صاحب نظرية الإله المنتحر، وضع هو الآخر نظرية لتنظيم أوروبا فقط، فيرى كريليوف أن تنظيم أوروبا تنظيما اجتماعيا، يستوجب قطع رقاب ١٠ ملايين أوروبى، أما الـ ٩٠ مليون الباقية فالنظرية تقضى بتحويلهم الى قطيع...

(٤)

«إنه لعصر عجيب هذا العصر.. إن شيئا جديدا يهم أن يولد، شيئاً لا شبه بينه وبين الهدوء القديم، شيئاً غريب كل الغرابة، وكل الناس يستنشقونه فى كل مكان، حتى فى أرض هذا الإقليم النائى الذى نعيش فيه»

هذه أقوال ديستويفسكى العظيم كما وردت فى الشياطين، وهى كلمات لا تحتاج إلى صقل أو تعليق. فهى نبوءة واضحة صريحة بأن عاصفة هوجاء، مقبلة على روسيا. وفى الشياطين يسخر ديستويفسكى من تور جنيف الذى أعلن إلحاده بالإله وبالشعب الروسى. فى شخصية الكاتب كارمازينوف، فكارمازينوف يتوجه بالسؤال إلى زعيم الخلية فرخوفنسكى قائلا فى توسل:

– متى !؟.. متى سوف تتحقق «مشروعاتكم»!؟

– لا أدرى.

فيلح كارمازينوف سائلا بصوت فيه المزيد من العذوبة واللطف:

– تقريبا.. على وجه التقريب.

فيجيب زعيم الخلية قائلا بمزيد من الفظاظة والاحتقار:

– لديك متسع من الوقت لبيع أرضك، ولديك متسع من الوقت كى تفر بجلدك.

وكان الرجلان لايزال كل منهما ينظر فى عين الآخر، وساد الصمت دقيقة من الوقت، وقال الزعيم الثورى أخيرا:

– سيبدأ الأمر فى شهر مايو، ولن يمر عيد الشفاعة إلا ويكون كل شىء قد انتهى.

فيقول كارمازينوف بلهجة مؤثرة، وهو يشد على يد زائره:

– أشكرك أصدق الشكر.

ولم تقم الثورة إلا بعد ٣٥ عاما من نبوءة ديستويفسكى العظيم، وببصيرته المعصومة عن الخطأ، رأى العاصفة الهوجاء وهى تزلزل روسيا المقدسة، والأجمل أن ستالين عندما أتى إلى الحكم، لم يجد امامه سوى الشيجالوفية. لم يجد ستالين سوى مذهب شيجالوف أشد الناس عبوسا على وجه الأرض، ولم يكتف ستالين بالشيجالوفية ، اذا خلط ستالين الشيجالوفية بمذهب كريليوف ، والذى عجزت بصيرة ماركس الضحلة عن رؤيته ، رأته بصيرة ديستويفسكى فى صفاء تام وتحققت رؤى شيجالوف وكريليوف على يد ستالين، وتحولت روسيا إلى سجن رهيب، وقطعت رقاب الألوف وحولت الشيجالوفية بقية الشعب الروسى إلى قطيع ، محققة بذلك نبوءة ديستويفسكى العظيم.

(٥)

رواية الشياطين بنبوتها المدهشة تثبت أن الفنان العظيم أعمق نظرا وأصفى بصيرة من الأطر الحديدية للفكر الجامد الذى يقولب الحياة برحابتها فى أطر صارمة، وسننتقل الآن إلى بصيرة أخرى أوسع مجالا من رؤية ديستويفسكى إنها بصيرة أوزوالد اشبنجلر صاحب فلسفة المصير برؤاه الشجية، التى لا يرتوى المرء من قراءتها، فإذا كان ديستويفسكى كان يضع آلام روسيا وعذاباتها ومستقبلها نصب عينيه، فرؤية اشبنجلر تشتمل على الآلام الروسية بديستوفسكيها وبلاشفتها ومستقبلهم. وكل ذلك ضمن منظومة هائلة شجية تفسر لنا ذلك اللغز المسمى بتاريخ الجنس البشرى ومستقبله على كوكب الأرض.

والسؤال الذى طرحه اشبنجلر فى سفره الهائل «تدهور الحضارة الغربية» ، وفى اجابته يكمن معنى الحياة نفسها، والسؤال هو : هل هناك منطق ما يحكم تلك الفوضى الدموية الهائلة المسماة بالتاريخ الإنسانى!؟ ولأن التاريخ هو تاريخ الأحياء ، فلابد من الاعتراف أن أسرار التاريخ هى أسرار الحياة نفسها. وفى «تدهور الحضارة الغربية» يطرح اشبنجلر رؤية شعرية شجية للتاريخ البشرى، فالتاريخ عند اشبنجلر بمثابة دراما شجية لحضارات جبارة تبعث فى رقعة من الأرض وفقا لقوانين غامضة، وتظل هذه الحضارة مرتبطة بتربتها طيلة فترة ديمومتها، وتزدهر تلك الحضارات كل واحدة على حدة لتبدع الشعوب واللغات والأديان والفنون والآداب والمعمار.. وبينما تبدو ظاهرة الحضارة فى أوج ازدهارها وشموخها، اذا بالروح الجبارة تنوى

شيئا فشيئا ، وتبدأ عوامل الانحلال الداخلية تهددها من الداخل، وأخطار الخارج تهمهم خارجها، وتجف منابع الدماء فيها وإذا بالحضارة - ذلك الكيان الهائل السامي الذى يرتفع بوجود الإنسان على أرضها تواجه مصيرا محتوما يعرفه كل كائن حى. شأنها فى ذلك شأن الإنسان وشأن الدورات الكونية إذ تنتقل من الربيع بازدهاره الى الصيف بوهجه وبحرارته .. ثم يأتى الخريف حاملا معه نذر الموت، وكما يشيخ الانسان فى شتاء العمر. تبلغ الحضارات الواحدة بعد الاخرى شتاءها المحتوم، والذى لا يفضى الا للفناء.

هذا المصير الأسود كابدته بغداد حينما داهمها الغول، وأقاموا من جماجم مائة ألف من اهلها نصبا تذكاريا لانتصارهم، بعد ازدهار الحضارة الفرعونية واقامة الامبراطورية، إذا بهذا الكيان الهائل تخبو الروح داخله، وإذا بها تفقد الرغبة فى الحياة، وفى الدفاع عن نفسها مستسلمة لقدرها وينتقل الحكم فيها من يد فاتح جرئ الى يد غاز جسور، وروما القديمة عرفت المصير نفسه. حينما اجتاحتها القبائل الجرمانية والوندال، اولئك المجردون من أية قيمة سوى الشجاعة وشدة البأس لقد استسلمت روما الامبراطورية لانها لم تعد تنجب رجالا من عينة بروتوس واكتافيوس وتيوبريوس ويوليوس قيصر. ونبوءة اشبنجلر الكبرى موجودة فى العنوان نفسه Declination of the west وترجمه الأستاذ احمد زكى الشيبانى الى «تدهور الحضارة الغربية» السنوات ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ فى عمر الحضارة الغربية اعتبرها اشبنجلر بمثابة خريفى حضارى كالح وان المصير الذى كابدته بغداد وروما ومنف ستكابده الحضارة الغربية التى سيجتاحها ثناء الموت والفناء.

بخلاف تلك النبوءة الكبرى، سنجد العديد من النبوءات الأخرى المدهشة ، ففى عام ١٩١٨ . وبريطانيا العظمى فى قمة ازدهارها. فهى الامبراطورية التى لم تكن لتغيب شمسها، سجل اشبنجلر ان لا مستقبل سياسى لاوروبا كلها. وأن المستقبل السياسى للغرب سينتقل من لندن وباريس الى واشنطن ، وأن واشنطن وحدها ستحكم العالم. ودور اوربا سوف يتضاءل وستصبح اوربا باكملها وساستها واقتصادها . اشبه بدولة داخل القارة الأمريكية، وما نراه الآن من الهوان البريطاني حيال واشنطن، ودور تونى بلير الذى يلعب دور موظف العلاقات العامة للخارجية الامريكية فى حربها ضد افغانستان . لا يسع المرء سوى الدهشة لرؤية اشبنجلر ذات الصفاء المرعب.

... وفى الكتاب نفسه سنجد اشبنجلر وفقا لمنظومة هائلة لفهم

التاريخ، يتنبأ ان الاشتراكية السوفيتية (هذا الكلام عام ١٩١٨ بعد قيام الثورة البلشفية بعام واحد) ، التى لا تكف عن التنديد بالتوسع الامبريالى للرأسمالية ستندفع السلطة الروسية الثورية الى الاستعمار هى الاخرى، وهذا ما حدث بعد الحرب العالمية، إذ اقتسم الروس غنائم النصر مع الحلفاء، فقامت روسيا باحتلال نصف العالم هى الأخرى، ثم يكمل اشبنجلر نبوءته المدهشة أن الشعب الروسى الذى هب هبة واحدة عام ١٩١٧، وكانت كافية لتقويض القيصرية . ان هذا الشعب نفسه سيهب هبة واحدة أخرى، وستكون كافية للقضاء على السلطة الشيوعية وتحققت نبوءة اشبنجلر، فبينما كانت سلطة الاتحاد السوفيتي تبدو أبدية راسخة، اذا بالعالم كله يستيقظ على شاشات التليفزيون ويلتسين قد اعتلى دبابة ويعلن نهاية الاتحاد السوفييتى، وتلك النبوءات العظيمة التى وردت فى كتاب اشبنجلر عام ١٩١٨ كتبها اشبنجلر وفقا لمنظومة هائلة شجية حافلة بالتحليلات العميقة والمقارنات المدهشة ، ومحاولة كشف الستار عن المعنى والمغزى الأعمق، لكل حوادث التاريخ المهمة مثل المعنى الكامن لظهور بطرس الأكبر على مسرح الاحداث الروسى، وما الذى يمثله ديستويفسكى وتولستوى للشعب الروسى ، وظهور البلاشفة والعلاقة الباطنية بينهم وبين قرامطة البحرين وقيام الثورة الفرنسية وعلاقتها الباطنية بالثورة العباسية وظهور التروبادورز وعلاقتهم بالموشحات الاندلسية العربية.

بعد هذا ألا يحق لنا، نحن قراء اشبنجلر أن لا نعقد المقارنات بين مؤشرات نهاية روما القديمة حينما تحدى اسبارتكوس هيبة الامبراطورية ، وما فعله اسامة بن لادن عندما قام بالدور نفسه فى ١١ سبتمبر.

(٦)

ومن اشبنجلر نعود ثانية الى ديستويفسكي العظيم وتحت أيدينا نبوءة هائلة أخرى، وهى نبوءة تتعلق هذه المرة باليهود. تلك القبيلة المدهشة التى حملت إلهها الدموى "يهوى" على كاهلها طيلة اربعين قرنا من الزمان.

والمدهش ان ديستويفسكى بطاقاته الانسانية الرائعة، التى تجعله يتعاطف مع العصاة والجناة والقتلة وقاطعى الطريق، فى يوميات كاتب، استطاع ديستويفسكى ان ينفذ عميقا، ببصيرته الهائلة الى خطورة اليهود فاليهودية عند ديستويفسكى هى انعدام الرحمة، فلم يأبه لنواح اليهود وعويلهم، وشكاياهم التى لا تنقطع ، فقد فطن مبكرا الى تعصبهم ووحشيتهم وراح يحذر العالم

كله من خطورة المثقف اليهودى الذى يدعى الالحاد، واعلن انه لا يصدق ان هناك يهوديا ملحدا، وكتب بالنص «الويل للإنسانية من المتعلمين اليهود الذين يدعون الالحاد» وحذر ديستويفسكى من اليوم الذى سيسيطر فيه اليهود على العالم. اذ سيسخرون الدنيا كلها لخدمة تعصبهم المتوحش وغطرستهم البغيضة، وتحققت نبوءة ديستويفسكى العظيم، فقد استغل اليهود المتعلمين مناخ الحريات الذى قدمه عصر التنوير الأوروبى وخلال عشرات من الأعوام استطاع اليهود السيطرة على الاقتصاد والسياسة والاعلام وعلى مراكز صنع القرار، وسيطرة اليهود على العالم الآن واضحة وضوح الشمس، ويكفى ما فعلوه مع كلينتون الذى اعتبروه مناوئا لاسرائيل، فكانت فضيحة مونيكا. وما فعلوه مع مارلون براندو حينما صرح ان اليهود مسيطرون على هوليوود فأقاموا عليه الدنيا ولم يقعدوها الا بعد ان اعتذر، وما فعلوه مع مفكر كبير فى حجم جارودى.

وكما قاد اليهود لندن من قبل لاصدار وعد بلفور . هاهى واشنطن فى هذه الأيام تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية ، ليس فى سياستها الوحشية فى فلسطين ، لكن حاخامات الخارجية الامريكية يستعدون لترتيب العالم كله وفقا للاجندة الاسرائيلية وخلال الأعوام العشرة الأخيرة عاث الأمريكان فى الأرض فسادا، وكان للعالم العربى والاسلامى نصيب الاسد فى جرائم امريكا، كان ظهور ابن لادن رد فعل مباشر للوحشية الامريكية اليهودية، وكانت احداث ١١ سبتمبر تلك الاحداث التى ستجر العالم كله الى خراب وهلاك نطالع الآن نذره المشئومة.

وأخيرا .. ننتقل من ديستويفسكى واشبنجلر الى كاتبنا الراحل الكبير فتحى غانم . ففى عام ١٩٧٧ كتب فتحى غانم رائعته الأفيال، متعرضا خلالها لمقتل الشيخ الذهبى على يد جماعة التكفير والهجرة، منبها الى خطورة التركيبة البشرية المذهلة التى نبتت هنا فى مصر، وتمر ٢١ عاما واذا بالعالم كله يفيق منتبها لايمن الظواهرى واسامة بن لادن ، الأبناء الشرعيون لشكرى مصطفى قاتل الشيخ الذهبى وصالح سرية قائد عملية كلية الفنية العسكرية وما فعله بطل فتحى غانم فى الافيال اذ كفر المجتمع وهاجر الى السودان، فعله ايمن الظواهرى.

نبوات هائلة وأدباء عظام، والحياة تسير امام عيونهم بزخمها وبعنفها غير عابئة ، فهم لا يملكون سوى الاقلام وكتابة الافكار ، التى تظل فى النهاية مجرد كلمات وافكار، اذ سرعان ما تتلاشى تحت هدير المدافع! ■

التاريخ والمستقبل

بقلم
د. رءوف عباس

تعانى دراسة التاريخ فى الوطن العربى أزمة منهجية متفاقمة تفوق ما تعانيه العلوم الاجتماعية الأخرى من حيث درجة الخطورة والتأثير على حركة التأريخ عندنا، ويرجع ذلك إلى أمرين: أولهما، تخلف برامج دراسة التاريخ فى الجامعات العربية، واتسامها بالتقليد والجمود، وثانيهما، افتقار المكتبة العربية إلى المؤلفات المنهجية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة وعلم التاريخ خاصة التى تواكب التطور المنهجى على الصعيد الدولى، فما هو متاح من كتابات عربية - فى معظمه - مجرد ترجمات غير دقيقة أحيانا لبعض الكتب الدراسية فى أصول المنهج التى نشرت باللغتين الإنجليزية والفرنسية قبل منتصف القرن العشرين.

وكلها لاتزال تقف طويلا عند تصنيف التاريخ، وهل يعد علما أو فنا أو يجمع بين الاثنين، وتتحدث عن الموضوعية وحياد المؤرخ باعتبارهما شرطين ضروريين للكتابة التاريخية وتضفي عليهما قدرا من (القداسة) التي لا تضع اعتبارا للنسبية، ولما توصل إليه المعنيون بالمنهج من مراجعات أسقطت هالة (القداسة) عنهما، ويقيمون للعبارة الموروثة عن القرن التاسع عشر «لا تاريخ بغير وثائق» معبداً يشتغلون بسدانته، بما يترتب على ذلك من وضع حدود لعمل المؤرخ تبقيه محصورا في دراسة موضوعات تقف عند حد نصف القرن الماضي أو العقود الثلاثة في أحسن الأحوال، رغم تراجع المدارس المنهجية عن تلك المقولات ومراجعتها لمواقفها منها.

أفكار متخلفة

وبينما لايزال طلاب التاريخ بالجامعات العربية يتعلمون من أساتذتهم أن هناك حدودا زمنية صارمة يجب ألا يتجاوزها المؤرخ عند معالجته لموضوع ما، وتتردد أقسام التاريخ كثيراً قبل تسجيل موضوعات لأطروحات الماجستير والدكتوراه يتجاوز حدها الزمنى ربع القرن، ويشيع القول بنظام لتقسيم العمل بين

يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضى والحاضر فتساعده على حل المشكلات الراهنة

الباحثين في التاريخ وزملائهم في ميدان العلوم السياسية، وهى أفكار متخلفة يتعامل معها الأكاديميون العرب تعاملهم مع المسلمات البديهية. بينما تلك حال التاريخ عندنا نجد المؤرخ الإنجليزى إريك هوبسباوم يورد في الكتاب الذى حمل عنوان «في التاريخ» وأودعه خلاصة خبرته المنهجية ونشر عام ١٩٩٧، ولكنه تضمن دراسات كتبها المؤلف قبل نشر الكتاب بنحو العشرين عاما، نجده يورد دراستين تكمل إحداهما الأخرى الأولى بعنوان «التاريخ والمجتمع المعاصر» والأخرى بعنوان «التاريخ والمستقبل»، يذهب فيهما إلى أن ثمة اساءة استخدام يعانى منها التاريخ في المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ في مراحل التعليم العام، حيث تستهدف برامج تدريس التاريخ تكوين المواطن المعتز بقوميته، فيتم التركيز على

الأمجاد التاريخية وحدها، ولا يتم التركيز على تطور المجتمع ذاته باعتباره كائنا عضويا متغيرا فى إطار يجعل الطالب قادرا على فهم أسس بنية المجتمع المعاصر، لذلك يندر أن يستوعب الناس دروس التاريخ التى تساعدهم على البحث عن أصول المشكلات الراهنة وكيفية البحث عن حلول لها. ومن ثم يتوجهون إلى تحليل الأرقام الصماء التى تتعامل معها الحواسب الآلية، بينما يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع، ورؤية لآليات ذلك التطور من منظور تاريخى، أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضى والحاضر، وأن يشخص أمراض الحاضر على ضوء ما عاناه المجتمع فى خبرته التاريخية، وبذلك يساهم - بصورة فعالة - فى المساعدة على حل المشكلات الراهنة.

قدرة المؤرخ على التنبؤ

ويزيد هوبسباوم على ذلك القول بأن المؤرخ يملك القدرة على التنبؤ بما قد تكون عليه الحال بالنسبة للمجتمع فى المستقبل، مستفيدا فى ذلك من دراسته للماضى، وإدراكه لآليات ودوافع التغيير التى لا تملك الحواسب الآلية إدراكها، لأنها تفتقر إلى الأدلة المادية الملموسة. ولكن التنبؤ يقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصى الدور الأكبر فيها، وهنا يستخدم المؤرخ - عند استشرافه المستقبل - منهجين يتصلان ببعضهما البعض: التنبؤ بالاتجاهات العامة من خلال صياغة «النموذج»، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية أو نتائجها عن طريق تحليل الواقع الراهن واستشراف مساره المستقبلى. ويرى هوبسباوم أن التنبؤ بالاتجاهات الاجتماعية، بما فى ذلك اتجاهات حركة القوى الاجتماعية، أيسر من التنبؤ بالأحداث السياسية، لأنه يرتكز على معطيات العلوم الاجتماعية الأخرى التى يحسن المؤرخ استخدام أدواتها المنهجية.

وعلى ضوء ذلك، لم يعد بوسع المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حوله حتى يطويه الزمن ويتقادم به العهد، بعدما أصبح «الماضى» قريبا من «الحاضر» نتيجة سرعة إيقاع التطور فى القرن العشرين، حتى أصبح الأمس القريب «ماضيا» يمكن اخضاعه للدراسة التاريخية استفادة بمعطيات العلوم الاجتماعية، وعلى ضوء ما يتوافر من المصادر المتاحة. فإذا كانت الوثائق لاتزال محبوسة انتظارا لانقضاء فترة السرية، فهناك فيض زاخر من

المصادر التي وفرها تطور أساليب الاتصال والإعلام (أو ما يعرف أحيانا بثورة المعلومات) كالبيانات والتصريحات والتقارير الرسمية المعلنة، والكتب الملونة (البيضاء - الزرقاء - الصفراء.. إلخ) التي تصدرها الحكومات لتحديد مواقف الفرقاء إزاء مختلف القضايا والأزمات. وهناك خارج الأرشيفات الرسمية مصادر تتعلق بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، لا يدخل معظمها في نطاق السرية، مثل : تقارير الهيئات الدولية الرسمية وغير الرسمية، وتقارير منظمات المجتمع المدني المحلية والدولية، وتقارير البنوك وأسواق المال، والمضابط الخاصة بالمجالس النيابية. فمثل هذه المصادر المهمة تجعل دراسة الماضي القريب ممكنة وميسورة، لو استطعنا أن نكوّن الباحث في التاريخ تكوينا مناسبا يؤهله للتعامل مع مصادر غير تقليدية بأدوات منهجية عصرية.

التمرد على التقليد

ورغم أن الاهتمام بدراسة التاريخ المعاصر بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى في الغرب، ظلت الجامعة المصرية - منذ إنشائها - تتمسك بتقاليد المدرسة التاريخية الألمانية، والمدرسة المثالية، والمدرسة الوضعية، تمزج بينها بوعي - أحيانا - وبدون وعي في أغلب الأحوال ، ثم بدأ بعض المؤرخين المصريين والعرب في استخدام المنهج المادي الماركسي عند منتصف ستينيات القرن العشرين بدرجات متفاوتة من الفهم والتوفيق، وإليهم يعزى الفضل في التمرد على التقليد الذي كان راسخا - عندئذ - في الجامعات العربية، الذي كان يتمسك بحاجز الخمسين عاما كحد زمني لايجب تخطيه لدراسة التاريخ، وكأنه سور الصين العظيم أو حائط برلين الشهير، فتجاوزوا هذا الحاجز حتى وصلت به بعض الدراسات إلى عقد واحد من الزمان، وهكذا عالجوا التاريخ المعاصر، ووجهوا تلاميذهم نحو دراسته، وأبدت المجالس الجامعية قدرا من التسامح مع هذه «البدعة» الجديدة، فقبلت تسجيل أطروحات في التاريخ المعاصر في الستينيات بعد ما يزيد على أربعة عقود من بداية دراسة التاريخ المعاصر في الغرب.

ولكن أحداً من المؤرخين المصريين أو العرب لم يجرؤ على ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعي أو الاستشرافي الذي يهتم بدراسة آفاق المستقبل من خلال قراءة متعمقة لواقع المجتمع

الحاضر على ضوء محصلة تجارب الماضي، على نحو ما فعل بول كينيدي الذي نشر عام ١٩٨٨ كتابه الذي أثار - عندئذ - جدلا كبيراً بين الباحثين، وحمل عنوان: «قيام وسقوط القوى الكبرى، التغير الاقتصادي والصراع العسكري من ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠» والذي صدرت منه ثلاثة إصدارات قبل انقضاء عام على إصدارته الأولى .

وبول كينيدي مؤرخ إنجليزي الأصل يعيش ويعمل في الولايات المتحدة الأمريكية (جامعة ييل) ولد عام ١٩٤٥ في شمال إنجلترا وتلقى تعليمه هناك وحصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد، ثم هاجر إلى أمريكا عام ١٩٨٣، ولمع كمؤرخ نشط نشر له أحد عشر كتابا قبل صدور كتابه المثير للجدل «قيام وسقوط القوى الكبرى».

وقد ذهب كينيدي في هذا الكتاب إلى أن القوة النسبية للدول الكبرى لا تبقى على حالها ، ويرجع ذلك إلى اختلاف معدلات النمو في المجتمعات عن بعضها البعض، بقدر ما يرجع إلى التغيرات التكنولوجية والتنظيمية التي تختلف بدورها اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر يعطي لمجتمع مزايا مادية لا يحققها المجتمع الآخر أو المجتمعات الأخرى. وكلما استطاعت قوة كبرى أن تحقق درجة عالية من النمو الاقتصادي تميزها عن غيرها، انعكس ذلك على استراتيجيتها الرامية إلى تأمين وتوسيع نطاق مصالحها لتزيد من ثروتها على حساب الأخرى ومن ثم تنمى قدراتها العسكرية إلى أقصى طاقاتها تحقيقا لهذا الهدف مما يدخلها في صراع مع غيرها يدفعها إلى زيادة قدراتها العسكرية بصورة لا تتوازن مع نموها الاقتصادي مما يؤدي إلى أفولها وصعود غيرها من القوى المنافسة أو البديلة لها.

★ ★ ★

وحاول كينيدي أن يطبق هذه الفرضية على القوى الكبرى التي ظهرت على الساحة الدولية شرقا وغربا منذ مطلع القرن السادس عشر حتى أواخر الحرب الباردة، وانتهى من دراسته إلى نتائج مؤداها أنه ما لم يتغير صراع القوى في عالم ثنائي القطبية (عندئذ) عما كانت عليه في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، فسوف يشهد القرن الحادي والعشرين تحولات مهمة في نصيب القوى الكبرى من الإنتاج الاقتصادي العالمي والانفاق العسكري لصالح دول أخرى غير

القطبين العملاقين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مثل الصين واليابان والاتحاد الأوربي، حيث أصبحت القوى الثلاث الأخيرة تحظى بنصيب كبير من الانتاج الاقتصادي العالمي يفوق نصيب الولايات المتحدة ونصيب الاتحاد السوفييتي مجتمعين، وأن هذه القوى الثلاث تواجه اختيارا صعبا، لأن حفاظها على نموها الاقتصادي ومصالحها الاقتصادية الدولية يقتضي نموا نسبيا في قوتها العسكرية لتحقق لمصالحها الحماية المنشودة، ولكن ذلك - بدوره - يلحق بها ما لحق بالاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة من تحمل تبعات الانفاق العسكري الذي يؤثر سلبا على واقعها الاقتصادي شأنها في ذلك شأن الشيخ الذي يبذل جهدا كبيرا في العمل يفوق قدراته البدنية سرعان ما يقعده الاجهاد، فالتوسع في الانفاق العسكري في زمن أصبحت فيه تكلفة الحروب عالية جدا حتى أن ميزانية القوات الجوية الأمريكية (عام ١٩٨٨) تكفي بالكاد تكلفة طائرة حربية واحدة عام ٢٠٢٠، وبذلك يؤدي صراع التسلح إلى التأثير سلبيا على الاقتصاد بصورة تؤدي إلى الاضمحلال، غير أن تلك القوى لا تملك الفرار مما

التنبؤ يقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصي الدور الأكبر فيها

يفرضه عليها واقعها الذي يلزمها بالابحار «في مجرى الزمن». وانتهى إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تشهد نهاية الابحار في مجرى الزمن ما لم تضع حدا لقوتها العسكرية يتناسب مع قدراتها الاقتصادية، ولما كان الاتحاد السوفييتي طرفا مقابلا في صراع القوى مع الولايات المتحدة، فهو يواجه نفس المصير.

كتاب مثير للجدل

لقد أثار كتاب بول كينيدي «قيام وسقوط القوى الكبرى» جدلا واسعا في الأوساط الأكاديمية الدولية، وخاصة أن الاتحاد السوفييتي تفكك عقب صدور الكتاب بعام واحد، ولعل مخططي الاستراتيجية الأمريكية استفادوا من الرؤية المستقبلية التي قدمها هذا المؤرخ في كتابه المثير للجدل، بالعمل على اجهاض النمو المتصاعد للاقتصاد الآسيوي، والسعي لحل أزمة الاقتصاد

الأمريكي عن طريق الهيمنة على المراكز الحيوية في العالم، ولكن ذلك يتطلب المزيد من القوة العسكرية وتطوير الأسلحة غير التقليدية مما يستنزف طاقة الاقتصاد الأمريكي، فهل تشهد العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين تفسخ أمريكا كما شهد العقد قبل الأخير من القرن العشرين تفسخ الاتحاد السوفييتي؟!

لعل كتاب بول كينيدى الذى صدر بعد خمس سنوات من كتابه المثير للجدل (عام ١٩٩٣) وحمل عنوان «الاستعداد للقرن الحادى والعشرين» يقدم إجابة على هذا السؤال . فقد بدأه بتأكيد مقولة أن لكل قرن ظروفه الموضوعية والبيئية التى تجعل مجرى تاريخه مختلفا عن غيره، ومن ثم فإن إيقاع التغير السريع الذى شهده العالم فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين يقتضى أن نقف أمام «قوى التغيير التى تؤثر على الأحداث الدولية» فالنمو الاقتصادي والتطور التكنولوجي في القرن العشرين يخلق نوعا جديدا من التحدى يحقق فيه الذين يدركون أهمية تحقيق النجاح مكاسبهم على حساب خسائر أولئك الذين لا يدركون ذلك، وركز دراسته فى هذا الكتاب على الظروف الدولية التي تواجه العالم في القرن الحادى والعشرين مثل: مشكلات البيئة، والانفجار السكاني، والتقدم التكنولوجي وأثر ذلك على الواقع الاجتماعي والقيم الثقافية ، وقسم الكتاب إلى بابين أحدهما يبسط هذه المشكلات بشكل عام والآخر يتناول دراسة حالات كل من اليابان والدول النامية، وبلاد الاتحاد السوفييتي السابق، وأوربا، ثم أخيرا الولايات المتحدة الذى حمل الفصل الخاص بها عنوان «المأزق الأمريكي» ناقش الواقع الأمريكي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا موضحا الفرق الكبير بين ما حققته اليابان والصين وكوريا الجنوبية وأوربا وبين تدهور الأحوال فى الولايات المتحدة التى لا يجاريها أحد فى قوتها العسكرية وخاصة الأسلحة المتطورة وأسلحة الدمار الشامل، مما يجعل هناك «مأزقا» تعيشه أمريكا وهى تتأهب للقرن الحادى والعشرين مما يعرضها لحالة «انحطاط نسبى» ويجعل القرن الحادى والعشرين «قرن آسيا» وقد توصل كينيدى إلى هذه النتيجة من تحليل للوضع الاقتصادى ومستوى المعيشة وظروف البيئة ، وتوقعات التطور السكانى، وأحوال التعليم

مقارنة بما يتكلفه الانفاق العسكرى .

المستقبل والتنبؤ

لقد حاولنا فيما تقدم أن نقدم نموذجا لدراسة التاريخ الاستشرافى أو الاستطلاعى الذى يقدم فيه المؤرخ رؤية للمستقبل تقوم على التنبؤ القائم على أسس منهجية من واقع التجربة التاريخية ومن منظورها، وليس من قبيل الحدس والتخمين، ولعل ما أصاب الاقتصاد الأمريكى من أزمة ترددت أصداؤها فى الأسواق المالية العالمية بعد أحداث (١١ سبتمبر) تبين أن دراسة كينيدى الاستشرافية فى كتابيه، قامت على أساس منهجى لا يخلو من الدقة، وأن التحليل الذى قدمه فى الكتابين يقف على أقدام راسخة.

ولا شك أن الدراسات التاريخية فى العالم العربى فى حاجة ماسة لا لمجرد التعرف على مناهج جديدة فى البحث التاريخى طال أمد إغفالنا لها، ولكن نحن فى حاجة إلى استيعاب تلك المناهج وتطبيقها على الدراسات التى تجرى فى جامعاتنا، ونظرة إلى ما تخرجه المطابع من كتب التاريخ، وما تجيزه الجامعات من أطروحات للماجستير والدكتوراه، تكشف لنا عن قصور شديد عندنا فى التدريب والإعداد المنهجى للباحثين، إذ يغلب على الكثير من الكتابات التاريخية «القص التاريخى» والسرد الممل، ولا يكاد القارىء لهذا النوع من الدراسات أن يقف على نتائج محددة بعد طول عناء.

★★★

ولعل عدم الاهتمام عندنا بالتاريخ الاستشرافى الذى يهتم بالتنبؤ بالمستقبل على أسس منهجية يعود إلى الميل العام عند الأكاديميين والمثقفين العرب لتهيب طرق ميادين جديدة للدراسة، والنظر إلى هذا النوع من الدراسات بشىء من الاستخفاف الناتج عن القصور الشديد فى تكوين المؤرخ العربى ، ومحدودية ثقافته المنهجية، بمعنى عدم متابعته لما يجرى فى حقل تخصصه على الساحة الدولية (إلا نفر قليل لا يمثلون نقيضا لهذه الظاهرة السلبية)، ومن ثم قلة حيلته، وعجزه عن ارتياد مجال التاريخ الاستشرافى الذى يتطلب معرفة بالعلوم الإنسانية وطرق البحث فيها، وإلى تدريب طويل على استخدام الأدوات المنهجية فى العلوم البينية على وجه الخصوص. ■

النبوءة في الفلسفة


أفلاطون


آدم سميث

بقلم
د. صلاح قنصوة

ريما انطوى لفظ «نبوءة» بمعنى الإخبار عن شيء قبل وقوعه، على دلالة غيبية حيث يرتبط بالنبوة، كما يقترن بما يغمغم به الكاهن أو العراف في الزمن القديم. فإذا ما نضونا عنه غلالته الدينية والغيبية، استقر له دوره المعرفي الذي يفترش ساحة واسعة من المجالات المنوعة التي تتباين أهدافها، وأساليب إجرائها، وتتفاوت فيما بينها في طرق تحصيل المعرفة.

ومادام العلم، بمعناه المعاصر، هو الذي يتفق الجميع، على اختلاف نزعاتهم، على ما يفضي إليه من تنبؤات، جاز لنا أن نقيس عليه سائر المجالات، ونقارنها به. فإلى جانب العلم، نجد أن بعض أسلافه القدامى لاتزال تنازعه في تحقيق أهدافه المعرفية مثل التنجيم والعرافة، والفراسة، والأسطورة، والسيمياء (أي علم أسرار الحروف) وهي ما يمكن أن نصفه «بالمضاد للعلم».

وهناك إلى جانبهما ما لا ينافس العلم في ذلك الهدف مثل الدين والفلسفة والفن، وهو ما يمكن تسميته «بالمختلف عن العلم».

فأما المجالات المضادة للعلم فتتفق معه في أهدافه لأنها كانت تنشد فهم ظواهر الطبيعة توطئة للتحكم فيها. غير

أن أسلوبها في إثبات مزاعمها لم يكن مما يقبل الفصل في صحتها أو كذبها لدى الذين لا يشتغلون بها أو يؤمنون بصحتها. أي أنها افتقدت «الموضوعية العلمية» التي تعني ما يمكن الاشتراك في انجازه وسلوك نفس الطريق لبلوغ نتائجه. أو هي ما يؤسس خلال العمل المتفق عليه بين الباحثين مهما اختلفت عقائدهم أو ولاءاتهم . ومن ثم فهي تعني ما يتيح الاتفاق على الخطوات والاجراءات التي تعالج بها الموضوعات أو المشكلات بحيث تؤدي إلى الحسم أو الفصل بين ما هو صادق أو كاذب فيما ينشأ عنه الخلاف بين الباحثين.

وبغياب تلك الموضوعية لابد أن يتقدم العلم على حساب أسلافه إذا ما أقدموا على منازعته، مواصلاً نزع ملكية تلك المجالات، وابطال نفوذها.

ويختلف الأمر عما هو مستقل أو مختلف عن العلم، كالدين والفلسفة والفن، فهو لا يتفق مع العلم في هدفه الخاص، ولا منهجه الموضوعي، وبالتالي فلا ينافسه أو يفرض علينا الاختيار بينه وبين العلم.

إلا أن تلك المجالات، رغم استقلالها، ليست منعزلة أو منقطعة الصلة بالعلم. لأنها تحث عليه، وتستخدمه، ولكن على النحو الذي تختلف فيه عن البحث العلمي الخالص في هدفه ومنهجه. فالدين ، مثلا، هداية وإرشاد، والفن ابداع وامتاع.

ومهما يتقدم العلم، فلن تجور حدوده على مناطق نفوذ تلك المجالات المستقلة.. ومن هنا تختلف صلة العلم بها عن صلته بما هو مضاد للعلم.

وعود الفلسفة وآفاقها

أما الفلسفة ، فربما تكون المجال الوحيد من مجالات الفكر الإنساني الذي لا يكف عن طرح السؤال عن مهمته وتحديد تخومه. بل لاتزال مشروعية قيامها ودورها محلا للبحث والشك. ورغم أنها «أم العلوم»، كما هو مأثور مشهور، أي أنها الرحم الذي تخلقت فيه أجنة العلوم التي ما لبثت أن خرجت منها واستقلت عنها ، رغم ذلك، فإن بعض الفلسفات لايزال يستمتع بثمرات إرث قديم خلفته المجالات المضادة للعلم وهي التي كانت أسلافه. فثمة إهابة بالحدس، والأسطورة، والامعان في الخيال.

فالفلسفة نظرة كلية شاملة، وموقف أو اتجاه عام. وهي ليست وعاء مستوعبا للعلوم، أو حزمة من المعارف القديمة ما لبث أن انفرط عقدها إلى مجموعة من العلوم المتخصصة، كما أنها ليست علماً بين العلوم، وإلا حكمنا بإلغائها وحجب الاعتراف بها، إذا ما خطر للفلسفة أن تقدم باسمها شيئاً من المعرفة الدقيقة، فلن يكون حظها أوفر مما يكسبه العطار في منافسته للصيدلي، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب!

ولكن يحسن بنا أن نعترف بأن الفلسفة كانت تقوم بكل ذلك ، ولم يكن

ثمة فارق بين لفظتي فيلسوف وعالم، حتى استقلت العلوم، على نحو صريح، في منتصف القرن التاسع عشر. فعندئذ استقلت الفلسفة بموضوعاتها الخاصة مثل الوجود، والمعرفة، والقيم، والواقع، والإنسان، وهي قضايا لا تصلح موضوعا للعلوم المتخصصة. وإذا كان في وسع العلوم أن تقول شيئا في كافة موضوعات المعرفة، فإنها تقف عند تخصصاتها لا تعدوها، كل عند موضوع معين. ولابد أن نكون في حاجة إلى من يضم شتات تلك الموضوعات جميعا في وحدة أو موضوع واحد، يتخطى به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات، ويسد الفجوات.

وليس من شأن العلوم أن تقيم الحدود أو تزيلها أمام تطلعات الإنسان نحو معرفة العالم الذي يحدق به من كل جانب. كما لا تعين، بكل تخصصاتها، ما ينبغي للإنسان الفرد أن يتخذه من موقف أو قرار إزاء مشكلات. ولكن الفلسفة هي التي تضطلع بما لا شأن للعلم بأدائه.

وتيسر لنا الفلسفة استشراف الأهداف البعيدة للإنسانية، كما تحفزنا إلى المساهمة في تحقيقها. والأوضاع المتجددة التي يواجهها الإنسان لا يمكن أن تنتظر حتى تفرغ العلوم المختلفة من مسائلها لكي يتقدم لها الإنسان بالحل. فمهمة الفلسفة هي استيعاب أو استرداد ما هو عيني واقعي مباشر، ولكن عن طريق ما هو مجرد، وكلي، وعام.

ولذلك تختلف الفلسفة، وتبتعد عن العلم بقدر ما تقترب من الدين في انطوائها على الدعوة إلى ما ينبغي أن يكون. أو بعبارة أخرى: ماذا ينبغي أن أعرف، وماذا ينبغي أن أفعل. ويتضمن ذلك تصوراً لما يكون عليه الواقع، وما يكون عليه التاريخ.

ولا يظل النسق أو المذهب الفلسفي مغلقاً على نفسه، بل ثمة أفق متحرك أمام الفيلسوف هو الذي تتحدد المشكلات الفلسفية وفقاً لحركته. فالمشروعية الفلسفية للمشكلات تتحول وتتجدد دوما. والمشكلة، أية مشكلة، «تصير» مشكلة فلسفة لأن طائفة من الأسئلة لاتزال تتجمع وتتشابك ملحة في طلب الإجابة أو الحل. ولا ريب أن هذه الأسئلة تعبير عن حاجات ومطالب عملية وفكرية حثت عليها أو أنتجتها أوضاع ثقافية، مادية وروحية جديدة، بينما تنتزع المشروعية عن موضوعات أخرى كانت فلسفية في الزمن السابق لاندراجها اليوم في موضوعات العلم الطبيعي أو الاجتماعي، وتصوغ الفلسفة آراءها فيما يشبه «الافتراضات» الواسعة، وليس «الفروض»، لأنها لا تقبل التحقق من صحتها أو كذبها موضوعياً، وذلك لاتساع موضوع الافتراضات الفلسفية. فكل عبارة عامة لا تتعلق مباشرة بتخصص معين أو علم بعينه، هي عبارة فلسفية مهما يبدو من سذاجتها أو

الاعتياد عليها.. وهذا هو ما يسمى بالتفلسف الشائع أو الدارج الذى نزاوله جميعاً دون وعى أو تصريح. غير أن الفلسفة الرفيعة المستوى التى تقبل الدرس والفحص تلتزم بشرطين آخرين فضلاً عن عمومية العبارات أو الأحكام، وهما: الاتساق، أى الخلو من التناقض فى تلك القضايا الفلسفية، والنسقية، أى قبول القضايا للاندماج مع غيرها فى نسق، أى مذهب ، هو الذى يحدد علاقات معينة بين عناصره ووحداته.

والفلسفة منحازة ، غير محايدة بخلاف العلم، فهى موقف إنسانى من العالم، ومن العصر، والمجتمع، يستوعب كل جوانب الإنسان. وكل مشكلة تصلح أن تكون مادة للفلسفة، على شريطة أن تدرس فى شموليتها، وعلى أساس من نسق متكامل فى ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الإنسانية، وهناك من الفلسفات ما تبرر واقعها، أو تتحسر على ماض ذهب، أو تتمرد على هذا وذاك ابتغاء بناء مستقبل جديد . وهى فى تلك المواقف المتباينة تجعل الناس على وعى بمسئولياتهم الأساسية، وآثارها المترتبة عليها . ولا يعنى ذلك القول بأن الحقيقة موزعة على المشاع بين مختلف المذاهب الفلسفية ، أو أن أحدها، على الأقل ، هو المذهب الصحيح، لأن الحكم عليها ليس من نسيج الحكم على القضايا العلمية التى تتيح إمكان التحقق من صحتها أو كذبها بمقتضى ما تطرحه من فروض.

تنبؤ مختلف

ولذلك يختلف التنبؤ فى الفلسفة عن نظيره فى العلم. فيعد التنبؤ العلمى الوظيفة أو المهمة ، أو الهدف الذى لابد أن ينجز إذا ما كان المشروع العلمى ناجحا صحيحاً. فهو ليس عملية أو اجراء معيناً يتطلب شروطاً مضافة إلى شروط عمليات الوصف والتفسير العلمية، لأنه الحصاد الذى نترقبه من التفسير السابق. وهو إذن لا يعنى سوى أن تفسيرنا السابق للظاهرة هو تفسير صادق صحيح. ففى الحالين، أى التفسير والتنبؤ، لابد أن تتاح لنا نظرية أو قانوناً مثبتاً من قبل، كما يتجمع عدد من الوقائع التى يمكن أن نبدأ بها. فنستنتج من النظرية أو القانون، ومن الوقائع، واقعة جديدة «بالنسبة لنا»، وهى حدث «لم يكن قد وقع من قبل». هذا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لمنطق الاستدلال العلمى، فليس هناك فرق على الإطلاق. فهذا الفرق يعتمد على المصادفة فيما إذا جرى الاستنتاج بحقيقة جديدة «قبل» الحادث، وذلك فى حالة التنبؤ، أو «بعد» وقوعه فى حالة التفسير. وموجز القول أن التنبؤ العلمى هو تفسير مسقط على المستقبل.

أما فى الفلسفة ، فلا نجد ذلك المتصل الواحد الذى يؤدى فيه تفسير الوقائع إلى التنبؤ بحدوثها، لأن الفلسفة لا تتعامل مع «الوقائع المفردة والوحدات التحليلية»، كما يصنع العلم، بل تتعامل مع

«مواقف» تتشابك فيها العلاقات بينها، وتختلط بغيرها. والمواقف لا تتكرر لأنها تشكيلة مؤلفة من العناصر والعلاقات في مكان معين وزمان محدد. وتختلف فيها مواقع البشر وأفعالهم في مكان دون آخر، وزمان غير الزمان.

ولئن خضعت المفردات الوقائعية والوحدات التحليلية في العلم للإطراد وانتظام الوقوع، فإن المواقف بحكم تآليفها وتراكيبها المختلفة لا تلتزم ذلك الإطراد حتى تعاملنا معها ككلية شاملة، رغم انصياع ما انطوت عليه من مفردات أو وحدات لمسار قابل للتنبؤ إذا ما درسناها كلاً على حدة.

ومن هنا تختلف النبوءة المتوقعة من الفلسفة عن النبوءة العلمية، فهي بالأحرى ارتياد لآفاق جديدة واسعة، واستشراف للمستقبل لأنها تطل من شرفة عالية على تفاصيل متناثرة في ساحة مترامية الأطراف.

من بين هذه «النبوءات» فكرة «الكوسموبوليتانية» أي المدينة (أي الدولة) الكونية كما حاول أن يطبقها الأسكندر الأكبر تلميذ أرسطو، وأوشكت على التحقق، ولكن على نحو آخر فيما يسمى «بالعولمة»، وفيما وصفه «مارشال ماكلوين» بالقرية العالمية.

كما يبدو أن الدولة في طريقها إلى الزوال كما تنبأ «ماركس» ، ولكن على خلاف ما اقترحه من تفسير بوصفها أدوات القمع وأجهزته للطبقة الرأسمالية، وبزوال الصراع الطبقي وتحقيق الشيوعية ينتهي دور الدولة. غير أنها لن تزول بزوال الرأسمالية، بل لمزيد من تسلط الرأسمالية في صورتها الجديدة للشركات متعدية القوميات.

ومن هذه النبوءات التي أوشكت على التحقق الاتفاق على لغة عالمية مشتركة. فقد تنبأ بها «ليبنتسي» كلغة رياضية عامة مشتركة يصير التفكير بمقتضاها نوعاً من الحساب . كما قدم «بيرسي» «السيميوطيقا» بوصفها المنطق العام واللغة المشتركة لكل صنوف الفكر والسلوك. وها نحن اليوم نمارس شيئاً قريباً منها عندما نستخدم الكمبيوتر بلغاته الرياضية المبسطة.

وعندما ألف «آدم سميث» كتابه «ثروة الأمم»، الذي أصبح به أباً للاقتصاد كان يعده امتداداً لدعوته وفلسفته الأخلاقية، فقد كان أستاذاً للمنطق والأخلاق بجامعة جلاسجو. وقد أقامته على تصور أخلاقي. فلم يعد البحث عن الربح عملاً أنانيا، بل مساهمة في تحقيق المصلحة العامة عن طريق «اليد الخفية» للنظام الطبيعي الذي يفضي إلى التآزر بين المصلحة الخاصة والعامة وهو صاحب نظرية اقتصاد السوق القائم على حرية التبادل والتجارة. ولذلك عارض سياسة القيود الجمركية من أجل التقدم . وهو ما نجده الآن متحققاً في اتفاقيات الجات التي ربما نعتبرها

تحقيقاً لنبوءة الفيلسوف آدم سميث عام ١٧٦٦.

اليوتوبيا وعلم المستقبل (أو المستقبليات)

رسم كثير من الفلاسفة تخطيطا لمدن أو أمكنة يحققون فيها تصوراتهم وآمالهم ومشروعاتهم من أجل حياة إنسانية أفضل.

وأشهر تلك اليوتوبيات ما قدمه «توماس مور» عام ١٥١٦، ولقد تحقق منها الكثير مما تخيله . فقد أقامها مور على قوانين تفصح عن العقل الإنسانى الحر دون عون أو إرشاد إلهى. وجعل ممارسة تحسين النسل مستندة إلى فحوص تسبق الزواج، كما يسر الحصول على الطلاق، وفصّل فى التربية، والمسئولية الاجتماعية وانحراف الأحداث وعقاب الجناة.

وكتب فرنسيس بيكون أطلانطيس الجديدة، وتحدث عن دار سليمان للعلماء والباحثين، وقد كانت نبوءته أسرع إلى التحقق بقيام الجمعية الملكية التى تعد أول أكاديمية علمية ثم أعقبتها الأكاديمية الفرنسية وتوالت بعدها الأكاديميات فى سائر بلدان العالم.

وتتفق معظم اليوتوبيات ابتداءً من جمهورية أفلاطون حتى «عالم شجاع جديد» «لألدس هكسلى» فى أنها، إلى جانب توفير حياة مادية خالية من العوز والحاجة، تقوم على إقبال الناس على التسليم بفلسفة سياسية موحدة بحيث تصب عقولهم فى قالب واحد، وإن كان ذلك متعذراً أو مستحيلاً فى الماضى، فقد أصبح متيسراً اليوم فى جميع أقطار العالم بوسائل الإعلام والاتصال والسماوات المفتوحة لخلق اتساق فى عادات الناس وتنميط أذواقهم وأفكارهم. وهذه نبوءة أخرى تكاد تتحقق.

وأغلب الظن أن علوم المستقبل هى نفسها فصيل حديث من اليوتوبيا. والفارق بينهما أن اليوتوبيا التقليدية تفترض وجود مجتمع مستقر، وبيئة لا تتغير. كما أن كُتّاب المستقبليات من فلاسفة اليوم مزودون بقاعدة عريضة من المعلومات المنوعة التى تيسر لهم كشف الطريق بأكثر مما كان يصنع السابقون.

فهى فى نهاية الأمر يوتوبيا قد تخلصت من القدر الذى كان يشوب اليوتوبيات القديمة مما يسمى «بالخيال العلمى». وليس على من بأس إذا اعتقدت أن هذا الصنف من الكتابات هو فرع جديد من فروع الفلسفة الراهنة، أو هو ممارسة للدرس الفلسفى الذى يعمد إلى الربط بين نثار الشتات العظيم من المعلومات المتفرقة، والصحيحة علميا، ليستخلص منها تأليفاً جديداً. وعلامتها الفلسفية هى أننا نجد تباينا واضحاً، وتفاوتاً بارزاً فى الرؤى المختلفة لدى المشتغلين بهذه المستقبليات. ■



النبوءة
جزء خاص

الهلال ١٤٢

حلم أم كابوس

أدب النبوءة الإنجليزى فى القرن العشرين

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

كان اللاتين الأقدمون يطلقون على الشاعر أو المنشد لقب «Vates» بمعنى المتنبيء أو القادر على رؤية الغيب، وقد عزى إلى الشاعر فرجيل قدرات النبوءة لأنه فى أنشودته الرعوية الرابعة تنبأ بمولد صبى يجلب معه السلام، ويعيد العصر الذهبى إلى الأرض التى مزقتها الحروب والمحن، فتتصالح الأضداد، ويجلس الأسد والحمل جنبا إلى جنب، جاء ذلك فى قصيدة يهنىء بها صديقه يوليو - الذى منح حديثا لقب قنصل - بمولد أو توقع مولد طفل لهذا الأخير:

«الآن أقبل آخر عصر فى أغنية كوماى، وها هو ذا الخط العظيم من القرون يبدأ من جديد .. الآن تعود العذراء، ويعود حكم زحل..

سيؤتى هبة الحياة القدسية، وسيرى الأبطال ممتزجين بالآلهة، وسيرى - هو ذاته - بينهم، وسيهز عالماً تكون فضائل أبيه قد أعادت إليه السلام.. سيموت الثعبان، ويموت بنات السم الزائف، وتنمو توابل آشور فى كل تربة»..

وقد فسر آباء الكنيسة وفلاسفة المسيحية - كالقديس أوغسطين - هذه الأبيات المكتوبة فى عام ٤٠ ق.م. بأنها تتنبأ بمولد السيد المسيح، ومن ثم اتخذ دانتى فى كوميدياه الإلهية من فرجيل مرشدا له باعتباره إرهاصا بالدين الجديد.

وعلى امتداد القرون استمرت هذه النظرة إلى الأديب على أنه راء تخترق بصيرته سدوف المجهول وتستشرف آفاق المستقبل، فوجدنا فى القرن التاسع عشر الشاعر الملعون رنبو يكتب فى ١٨٧١ رسالتين تقدمان رؤيته لما ينبغى أن يكون عليه شعر المستقبل، ويلخص الدكتور عبدالغفار مكاوى مضمونهما بقوله:

«إن الشاعر ينبغى أن يجعل من نفسه رائيا أو بصيرا.. ولكن كيف يصبح الشاعر كذلك؟ كيف يتسنى له أن يستحضر الرؤى؟ يجيب رامبو إجابته المشهورة: بإحداث بلبلة متصلة حادة فى حواسه .. بالانغماس «الديونيزي» المقصود فى كل تجربة حسية ووجدانية ممكنة. وما غايته من بلبلة الحواس وتعمد تشويهها؟ الغاية هى معرفة الحقيقة الجوهرية الكامنة وراء الظواهر الخارجية والتعبير عنها.

وفى القرن العشرين وجدنا من شعراء العالم الجديد من يعيد صياغة هذا المفهوم. فعند الشاعر والناقد الأمريكى إزرا باوند «إن الفنانين هم

قرون استشعار الجنس البشري». ويضيف شاعر آخر - أرشيبولد ماكليش - في كتابه «الشعر والخبرة»: «على الشعر أن يصدع بالنبوءة». ومن شعراء مدرسة أبولو، كعلي محمود طه، من كان يصف الشاعر بأنه يهبط الأرض كالشعاع السني، بعصا ساحر وقلب نبي.

الأديب إذن، بما أوتي من عيان داخلي ثاقب، وحس مرهف بالواقع، وقدرة على مجاوزة ما هو كائن إلى ما قد يكون أو ما ينبغي أن يكون، قادرا على تلمس احتمالات المستقبل، وتحسس جوانبه التي مازالت في طي الغيب، بل هو قادر على استباق مكتشفات العلم وإعادة تركيب الواقع في صيغ جديدة: جذورها - ولا ريب - ضاربة فيما يقع تحت نطاق خبرته الحسية، ولكن أغصانها تمتد في المستقبل لترسم أفقا جديدا بل آفاق تجاوز كل التصورات.

يتماس أدب النبوءة وآداب أخرى تلاقيه في أمور وتفترق عنه في أخرى، إنه يناصي أدب الأحلام ومن أمثلته كتاب «أحلام الأعلام» للفيلسوف البريطاني برتراندرسل حيث يتخيل المؤلف أحلام المحللين النفسيين، والميتافيزيقيين، والوجوديين، وعلماء الرياضة، وكبار الساسة كستالين وإيزنهاور، وإن وجب أن نضيف أن رسل - على علو كعبه في الفلسفة والمنطق الرياضي وحصوله على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠ لم يكن بالأديب الملهم، ولا تعدو أحلامه هذه أن تكون أشبه بعظمة جافة لا دماء فيها ولا لحم ولا شحم.

أدب النبوءة و الخيال العلمي

ويلاقي أدب النبوءة - من بعض الزوايا - قصص الخيال العلمي الذي ازدهر في القرن العشرين بعد أن مهد له إدجار وجول فيرون وهـ. ج. ويلز في أواخر القرن التاسع عشر، ونشأ في كنف اختراق العلماء حاجز الفضاء، وغوصهم في أعماق المحيطات وتوغلهم في قشرة الأرض، ولكن هذا النوع من الأدب يظل - في تقديري - أدبا صبيانيا أقرب إلى خيالات المراهقين ومغامرات الصبية، شأنه في ذلك شأن القصص البوليسي وروايات المغامرة والبطولة، فكأنما مؤلفوه قد توقف نموهم النفسي عند مرحلة عمرية بعينها، لايعدونها إلى أطوار النضج والاكتمال.

كذلك يقترب أدب النبوءة من أدب الفانتازيا وهو - في تعريف الناقد ن مان لاف - مايستثير العجب والدهشة، ويشتمل على عنصر خارق للطبيعة أو مستحيل، ويتضمن كائنات أو موضوعات لايلبث القارىء أن يؤمن بصدقها، ممارسا في ذلك ما سماه كولودج: تعليق الإنكار، أو مجاراة الكاتب في خياله، ومن أمثلة هذا الأدب الفانتازى روايات «أطفال الماء» لتشارلز كنجزلي، و«رب الخواتم» لـ ج.ر. تولكين، وثلاثية تيتوس لمرفين بيك.

لكن أقرب ألوان الأدب إلى أدب النبوءة هو أدب اليوتوبيا أو الحلم بمدن فاضلة من قبيل تلك التي حدثنا عنها أفلاطون في جمهوريته، وكامبانللا في مدينة الشمس، وتوماس مور في يوتوبياه، وهي أحلام لاتلبث - كما سنرى - أن تتحول في قرننا العشرين إلى كوابيس وذلك تحت وطأة الجشع المركوز في نفس الإنسان، والقسوة الوحشية التي لاتعدو أن تتخذ من المدنية لها ستارا، وطغيان الآلة التي تخرج عن طوق صانعها وتسير في طريقها الخاص، وانقطاع الصلة بين الانسان والطبيعة، وتشيؤ الكائن الإنساني، وحلول غرائز العنف والجنس محل عواطف الرحمة والمحبة والمودة،

وسأتخذ من بعض نماذج الأدب الإنجليزى الحديث - شعرا وقصة ومسرحا - برهانا على ما أقول.

حرب العوالم

هذه النماذج المختارة هى: رواية «حرب العوالم» لمؤلفها هـ.ج. ويلز، وقصيدة «المجىء الثانى» للشاعر الإيرلندى و.ب.بيتس، ومسرحية «العودة إلى متوشالح» للكاتب المسرحى الأيرلندى برناردشو، ورواية «العالم الطريف» لأولدس هكسلى، ورواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، ورواية «البرتقالة الآلية» لأنطونى بيرجس.

كتب هـ.ج. ويلز عددا من الرومانثات (الرومانسيات) العلمية التى يستخدم فيها اهتمامه بالعلم (وإن يكن قد ظل عالما هاويا لا محترفا) ومواكبته لأحدث تطوراته فى التنبؤ بما ستكون عليه صورة الأشياء فى المستقبل، واحتمالات تغير الطبيعة البشرية - كما نعرفها - نتيجة لذلك، من هذه الرومانثات: آلة الزمن (١٨٩٥) حرب العوالم (١٨٩٨) أول رجال على القمر (١٩٠١) أيام النجم المذنب (١٩٠٦)، وسنتوقف، هنا عند ثانية هذه الروايات: حرب العوالم.

تتخيل الرواية غزوا قام به المريخ لإنجلترا مع وصف واقعى دقيق للندن والمقاطعات المحيطة بها فى تسعينيات القرن التاسع عشر، حتى ليقول الناقد المعاصر برنارد برجونزى: «يخلق بالمرء أن يقرأ الفصول الافتتاحية من «حرب العوالم وخريطة غربى مقاطعة سرى بالقرب منه». والرواية - كسائر أعمال فى هذا الجنس الأدبى - خرافة، fable أيديولوجية تصور بلادة ساكنى الضواحى إزاء الخطر، وافتقار الدفاعات العسكرية البريطانية إلى الكفاءة فى وجه أسلحة المريخيين من دخان أسود وأشعة حرارية.

إن غزو المريخيين لانجلترا أشبه بغزو المستعمر الأوروبى لجزيرة تسمانيا، وبذلك يغدو ممثلو الإمبريالية هم الآن ضحاياها، ويعامل المريخيون البشر كما عامل البشر طويلا أنواع الحيوان: النسناس والبيسون (الثور الأمريكى) والأبقار والأرانب والجرذان والنمل، لقد أزيح الإنسان الأوروبى عن عرشه، وحل محله جنس آخر أقوى وأذكى، وتبخرت ثقة العصر الفيكتورى فى تقدمه وصناعته وتجارته وفتوحاته وراء البحار واكتشافاته العلمية، ويبلغ إذلال البشر غايته عندما لا يخلصهم من المريخيين سوى أضأل الكائنات الأرضية حتى أنها لاترى إلاّ بمجهر: البكتريا العضوية الضئيلة التى لايكاد الإنسان فى لحظات قوته وزهوه - يحس حتى بمجرد وجودها (انظر كتاب باتريك بارندرو. عن ويلز).

نبوءة من طرق جديدة

ويلاحظ بارند فى كتاب آخر له نقل إلى العربية - «ظلال المستقبل» - أن ويلز «طور وسبر الإمكانات الأدبية للنبوءة من طرق جديدة» مميزا بين مواعظ الفكر التبشيرى وكتابة القصة التنبوية، فويلز - من حيث هو متنبىء - يقيم تصوراته للمستقبل على أساس من منجزات العلم فى الواقع، ولا يطلق العنان للخيال إلا بعد إخضاعه لنظام عقلى صارم بحيث تكون نتائجه مترتبة على مقدماته.

لقد كانت تفاؤلية ويلز (وهى فى هذا تشبه تفاؤلية برناردشو) تنطوى فى أعماقها على تشاؤمية عميقة، فهو لايثق بحكمة الجنس البشرى، ويخشى أن يدمر نفسه بنفسه، أو أن يقوده غروره إلى الرضا عن الذات بما يعميه عن الأخطار المحدقة به، سواء جاءت هذه الأخطار من الأرض ذاتها أو من خارج الفضاء، إن عالمنا هو «بار العميان» (عنوان رواية

آخرى لويلز) والجانب الدميم من الطبيعة البشرية - وهو الذى يظل محجوبا عادة فى أوقات الرخاء - سرعان ما يسفر عن وجهه فى أزمنة الشدة، كما نرى فى تضارب راوى «حرب العوالم» والكاهن نزاعا على المؤن الغذائية الآخذة فى التناقص على نحو سريع، فالإنسان - عند الأزمات - يرتد إلى أصوله الحيوانية، وهى نظرة إلى الجنس البشرى تذكرنا برواية سويفت - الكاره الأكبر للبشرية والمشمئز من مجرد رائحتها - صاحب «رحلات جلفر» حيث جنس الياهو القروى القذر يرمز إلى الإنسان كما هو الآن فى مواجهة الجياد النبيلة العاقلة التى ترمز إلى الإنسان كما ينبغى أن يكون.

المجىء الثانى

من منظور فكرى مغاير يكتب و.ب.ييتس قصيدة عنوانها «عودة المسيح» (حرفيا: المجىء الثانى) فى ديوانه «مايكل روبرتس والراقصة» (١٩٢٠)، وهذا نص القصيدة بترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوى:

إن الصقر يدور ويدور فى المدار المتسع أبدا
فلا يسمع صوت الصقار،
تنحل الأشياء وتسقط، فالمركز لم يعد قادرا على الصمود
لقد أطلقت الفوضى التامة على العالم
وانسابت الأمواج التى أظلمتها الدماء، وفى كل مكان
يهوى حفل البراءة ليموت غريقا
إن أفضل الناس يعوزهم الإيمان، بينما أسوأهم
يجيشون بعنف العاطفة
يقينا أن رؤية ما قريبة منا
من اليقين أن «عودة المسيح» قريبة منا
«عودة المسيح»! لم أكد أفوه بهذين اللفظين
وإذا بصورة هائلة لروح العالم
يضطرب لها بصرى: ففى مكان ما فى رمال الصحراء
هيكل له جسم أسد ورأس إنسان
وفى عينيه نظرة قاسية قسوة الشمس لاتعبير فيها
قد أخذ يحرك فخذيه ببطء، بينما من حواليه
تتراقص الظلال التى تسقطها طيور الصحراء الغضبى،
إن الظلام يهوى ثانية، ولكنى الآن أعرف.
أن عشرين قرنا من السبات الحجرى
قد أقلقها كابوس سببه مهد يهتز:
أى حيوان جلف هذا الذى حان حينه أخيرا
فتحرك متكاسلا صوب «بيت لحم» بغية الميلاد؟

تستوحى هذه القصيدة الرؤيوية الاعتقاد المسيحى بأن المسيح سيعود إلى الأرض مبتدئا ألفية جديدة تسبق يوم النشور، أو هى بالأحرى تنبؤ بانتهاء حقبة الثقافة المسيحية الأوربية، وتقدم قوة جديدة خارقة للطبيعة يمكن أن ندعوها حقبة مابعد المسيحية، تتمثل فى إله مدمر جبار.

وعلى حين بدأت الحقبة المسيحية بمولد طفل إلهى فى مزود للبقر فى بيت لحم، تبدأ هذه الحقبة الجديدة بهولة أشبه بأبى الهول، وقد اقترن قدومها بتداعى المركز وانطلاق الفوضى الشاملة من عقالها وانبجاس فيضان من الدماء فى غمرة مذابح القرن العشرين، والقصيدة، كما يقول الدكتور محمد مصطفى بدوى، صرخة من أعماق

الشاعر ضد مادية حضارة منحلة، ضد الابتذال والقيم البرجوازية والعنف والجمود الروحي»

العودة إلى متوشالح

يقدم برنارد شو - وقد تحول الآن عن اهتماماته الإجتماعية والسياسية المباشرة إلى قضايا ميتافيزيقية أبعد مدى وأعمق غورا - مسرحية «العودة إلى متوشالح» (١٩٢١) (متوشالح رجل تذكر التوراة أنه عمر ٩٦٩ سنة) لكي يعبر - من خلال من يسميهم الأقدمين - عن طموح أفلاطون إلى طرح أغلال البدن جانبا، والحلم الطوبوي بجنس من البشر بلغ من النضج مايجعله يسوس أموره في ضوء العقل (في الجزء الثالث من المسرحية نرى انجلترا في عام ٢١٧٠ وقد تخلصت من حكم الإنجليز غير الأكفاء، وغدا يدير حكومتها زنجيات وصينيون متعلمون) (أنظر كتاب أجبز عن شو).

«العودة إلى متوشالح» أسطورة عن التطور الخلاق (ظل شو دائما مناهضا لدارون) ومحاولة لكتابة تاريخ مقدس جديد يلائم العصر الحديث، وإقامة ديانة علمية تنهض على الاعتقاد بأن الكون صنع ذاته من لاشيء، ومن ثم كان بوسع الإنسان أن يصنع ذاته مما هو عليه، إذ يرقى في مدارج التطور، إن الأمل الوحيد للإنسان إذا أراد أن يظل باقيا على الأرض هو أن يجاوز ذاته، ويخلق إنسانا جديدا، ومعنى هذا أن يكون التطور واعيا وليس - كما هو الحال عند دارون - عملية بيولوجية لا واعية، على المرء أن يسعى إلى تحقيق كماله وأن يساعد نفسه على بلوغ هذه الغاية، ولئن ظل الإنسان في مكانه، فسيأتي جنس آخر أصلح للبقاء يحل محله، فلنصمم إذن على أن نعيش، وأن نعيش عمرا أطول، حتى



دانتي



علي محمود طه

نتمكن من أن ننجز أمورا أكثر، هذه هي رسالة المسرحية كما يراها الناقد ب.بيردوم صاحب كتاب «مرشد إلى مسرحيات برناردشو».

تنتقل المسرحية في الزمان والمكان بما يلائم اهتماماتها الكونية ما بين جنة عدن حيث نرى آدم وحواء والحية (الشيطان متنكرا)، وسنوات مابعد الحرب العالمية الأولى ثم نشب إلى عام ٢١٧٠ (عنوان هذا الجزء «الشيء يحدث») وقد تمكن الإنسان فعلا من إطالة عمره، ومنه إلى عام ٣٠٠٠ حيث نلتقي على شاطئ خليج جولداي بأيرلندا بسيد مسن جاء ليلقي نظرة على موطن أجداده، ولعله يمثله شو ذاته، أما الجزء الخامس والأخير من المسرحية، ويحمل عنوانا أبعد مايمكن الفكر أن يصل اليه، فتدور أحداثه في عام ٣١٩٢٠ وفيه غدا الناس يولدون مكتملي النمو من بيضات، ليس ثمة طفولة (يكره شو مرحلة الطفولة) وإنما يظهر الشبان والشابات على سطح الأرض في سن الثامنة عشرة تقريبا، وقد اكتمل وعيهم وحسهم الأخلاقي وذكاؤهم قبل الخروج من البيضة! ولا يموتون إلا بمحض المصادفة، أو نتيجة حوادث تقع لهم.

وقد اكتشف أحد الفنانين الشبان كيف يصنع كائنات بشرية، ولكن هذه الكائنات المصنوعة لاتعدو أن تكون مخلوقات آلية لاتستجيب إلا لمنبهات من الخارج، ومن ثم لايلقى اختراعه ترحيبا.

مسرحية مثيرة للفكر

ويرمى الأقدمون - أو المسنون - فى المسرحية إلى التخلص من البدن ومن الأوهام التى مازالت تغمر رءوس ساكنى الأبدان، وفى نهاية المسرحية، فى غمرة ظلام، يعاود آدم وحواء وقايين والحية الظهور على شكل ظلال ومعهم ليليث - زوجة آدم الأولى فيما تزعم بعض المرويات - التى تتنبأ بأن أبناءها سيعمرون أرجاء الكون. هكذا يحاول شو - من خلال إطار أسطورى - أن يتحرر من قيود العالم الطبيعى، عالم الحواس، ليس طول العمر عنده هدفا فى حد ذاته، وإنما اعتباره وسيلة لتجاوز حقبتنا الحالية التى تغلب عليها أهداف قصيرة النظر (نتيجة لقصر الحياة) وتفتقر إلى الإيمان بمستقبل للبشرية، ويتهددها خوف الفناء بفعل جائحة طبيعية أو كارثة من صنع الإنسان.

العالم الطريف

أخلت تفاؤلية القرن التاسع عشر السبيل لتشاؤم القرن العشرين وهو ما يتجلى، على أسطع الأنحاء، فى أعمال ألدس هكسلى وجورج أورويل وأنطونى بيرجس حيث العلم قد تحول إلى كابوس، وإمكانات الخطر قد خرجت من حيز القوة إلى حيز الفعل، وحيث الإنسان قد فقد جذوره فى الطبيعة وأصبح كائنا آليا تسيره المنبهات وردود الأفعال والانعكاسات الشرطية، ولم يعد تراث الماضى - من فلسفات وأديان وفنون وقيم أخلاقية - إلا معروضات متحفية جاوزتها التكنولوجيا - بما تستتبعه من قيم براجماتية جديدة، وخلفتها وراءها أشواطا، بحيث لايعيش فى جوها سوى الحالمين الرومانسيين العاجزين عن التكيف مع عالم المستقبل، ومن ثم يتعين بترهم من بدن المجتمع الجديد بترا حاسما لا رحمة فيه لأنهم يمثلون خطرا على أيديولوجيته ويعوقون مساره.

هذا التحول لليوتوبيا utopia إلى يوتوبيا معكوسة أو مقلوبة dystopix هو ما نجده فى رواية «ألدس هكسلى» العالم الطريف (حرفيا: «عالم جديد جميل») (١٩٣٢) وهى رواية أفكار من قبيل ما كان يكتبه توماس لف بيكوك فى قرن ماض، وإن اختلفت البؤرة، حتى لتكاد أجزاء منها أن تصلح، منفصلة، لأن تكون مقالات قصيرة عن الدين والجنس والتطور وغير ذلك من الاهتمامات التى شغلت أبناء العصر الفيكتورى ومن تلوهم.

تجرى رواية هكسلى على سنن رواية «نحن» (١٩٢٦) للروائى الروسى إيفجينى زامياتين من حيث أنها تتخذ من رؤى المستقبل وسيلة لنقد الواقع، وإبراز عيوب الأبنية الاجتماعية القائمة. فنحن هنا فى دولة عالمية فى القرن السابع ب.ف (أى بعد هنرى فورد، قطب الصناعة الأمريكية!) حيث الاستقرار الاجتماعى يقوم على نظام طبقى علمى، فالبشر - إذ يتدرجون من أسمى المثقفين عقلا إلى أدنى عمال الحرف اليدوية - يفقسون من معامل تفريخ وينشأون فى دور حضانة جماعية، ويتعلمون - من خلال أساليب شرطية منهجية - كيف يتقبلون قدرهم الاجتماعى، ويدور حدث الرواية (ولو أنها بلا عقدة فى الحقيقة) حول برنارد ماركس، وهو من فئة أ+ الخارج على السنة وغير السعيد نتيجة لذلك (والسبب، فيما يبدو، أن خللا طرأ على معالجته قبل ولادته). إنه يزور محمية للهمج فى نيومكسيكو ويعود منها إلى لندن مصطحبا أحد هؤلاء الهمج، وفى

مبدأ الأمر ينبهر الهمجى (راجع همجى روسو النبيل) بالعالم الجديد الذى يراه، ولكنه فى النهاية يثور عليه، ويكشف نقاشه مع مصطفى موند - مراقب العالم - عن استحالة التوفيق بين الحرية الفردية، وهذا المجتمع الخالى من المتاعب والقائم على أساس علمى صارم.

ويكاد يجمع كل النقاد المصريين الذين كتبوا عن الرواية على أهميتها من حيث هى نقد للحضارة الصناعية الحديثة وتحذير من أخطار التكنولوجيا التى قد تنطلق من عقالها إنطلاق الشرور من صندوق باندروا، أو كالوحش الذى خرج عن سيطرة صانعه فرانكنشتاين.

فمحمود محمود الذى نقل الرواية إلى العربية وصدرت ترجمته عن دار الكاتب المصرى عام ١٩٤٧ يكتب فى مجلة «تراث الإنسانية» عام ١٩٦٣: «فى هذا الكتاب يعبر هكسلى عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس، ولعله من بين الكتاب الأحياء جميعا (توفى هكسلى فيما بعد عام ١٩٦٣ - م.ش.ف) الكاتب الوحيد الذى يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح، وهو فى هذا الكتاب عالم وشاعر يرسم لنا صورة بشعة يتقزز منها القارىء كما تقزز منها الكاتب».

والدكتور رشاد رشدى فى كتابه «ماهو الأدب» يرى فى الرواية تمردا على «حياة العلم والآلة التى .. جمدت الحياة الحديثة وأحالتها إلى جدب مضجر» ويصف عالم هكسلى الجديد بأنه «عالم غريب يشل العقل الإنسانى والشخصية والابتكار».

والدكتور طه محمود طه فى كتابه «القصة فى الأدب الإنجليزى» يقول: إن الرواية ترينا هكسلى وقد «بدأ يفقد الأمل فى فردوس أرضى لايخلو من القيم


الدوس هكسلى


رشاد رشدى

الروحية».

والدكتور إنجيل بطرس سمعان فى كتابها «دراسات فى الرواية الإنجليزية» تصف عالم الرواية بقولها: «هذا العالم البراق الأجوف الخالى من القيم الإنسانية، لقد اختفى الفن والعلم الحقيقى والدين والحب والحرية - وكل ذلك فى سبيل مايسمى بالاستقرار، أما العلم الذى أبقوا عليه فما هو إلا أداة فى يد أصحاب السلطة لتشكيل الحياة بالشكل الذي يريدونه».

وجدير بالذكر أن هكسلى قد أصدر فى ١٩٥٨ كتابا عنوانه «إعادة زيارة العالم الطريف» حيث أعاد النظر فى تنبوءاته السابقة وعبر عن خشيته من أن يتحقق أسوأها وذلك فى وقت أقرب كثيرا مما كان يتصور وهو يضع كتابه الأول.

١٩٨٤

وتبلغ هذه النبوءات التشاؤمية ذروتها فى رواية جورج أورويل المسماة (١٩٨٤) (١٩٤٩) حيث يواصل أورويل ما بدأه فى رواية «مزرعة الحيوان» (١٩٤٥): الدفاع عن حرية الإنسان فى وجه أنظمة شمولية طاغية يحكمها الأخ الأكبر - زعيم الحزب الحاكم، وهو ضرب من ستالين أو هتلر أو موسولينى مكبر - ورجاله وشرطة الفكر التى تتجسس على حياة الناس وأفعالهم وأفكارهم، وتستخدم لغة جديدة تقوم على لىِّ الحقائق وتكييف معانى الكلمات بما يلائم مصالح الحاكمين: فالحرب تعنى

السلام أو العكس، والجهل معناه القوة، والحرية معناها العبودية، إلخ .. وصديق اليوم هو عدو الأمس، وكلها مناورات سياسية ليست غريبة على من عاصر حربين عالميتين، وحربا أهلية إسبانية، وحربا باردة بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي، وصراعات داخلية بين ستالين وتروتسكي، ومذابح ومحارق في أماكن مختلفة من أوروبا وآسيا وأفريقيا.

مسرح الرواية انجلترا وهي جزء من دولة أوستنيا، وثمة حرب تدور بين دولة إستاسيا ودولة يوراسيا، ويفترض في أوستنيا أن تكون حليفة لإستاسيا، وإن كانت هذه المحالفات يمكن أن تتغير بين يوم وليلة. وهناك «وزارة الحقيقة» تضخ في الشعب أكاذيبها اليومية وتلقنه مايريده الحاكم وتتولى شئون التربية والتعليم وإذاعة الأنباء والفنون. و«وزارة للحب» تحافظ على النظام والقانون، وتراقب السلوك الجنسي للأفراد (الجنس مسموح به في إطار محدد، أما الحب والمودة والارتباط فلا و «وزارة للوفرة» توفر أدنى متطلبات الحياة للمواطنين، و «وزارة سلام» تتولى شئون الحرب.

وبطل الرواية، ونستون سميث، موظف في وزارة الحقيقة، مهمته هي إعادة كتابة التاريخ بما يتماشى وتحولات سياسة الحزب، ورفع أسماء من تمت تصفيتهم من السجلات القديمة، وكأنما لم يكن لهم وجود قط، وإذ تتصاعد الثورة داخل سميث على هذا العالم القائم على القهر والأكاذيب يحتفظ (خلافا للقانون) بمفكرة يدون فيها يومياته وأفكاره ومشاعره، بل يقيم علاقة عاطفية مع فتاة تعمل في إدارة أخرى بالوزارة وترسل له الفتاة ورقة تحمل هذه الكلمة الفظيعة «أحبك» وتتعدد لقاءاتهما الجنسية منذ ذلك الحين، ويضعان خطة للثورة على الحزب، ويسران بذلك إلى زميل لهما يدعى أوبراين وقد استقر في وهمهما أنه يشاركهما آراءهما، ثم يتبين أن أوبراين من أعمدة الحزب وعين على المنشقين عليه، فيقبض على سميث ويضرب ويعذب إلى أن تنهار مقاومته ويتنكر للفتاة التى لاتلبث هى الأخرى أن تتنكر له.

البرتقالة الآلية

وآخر محطة نتوقف عندها هنا هى رواية أنطوني بيرجس «البرتقالة الآلية» (حرفيا: برتقالة بقلب الساعة) (١٩٦٢) التي ترجمها إلى العربية وقدم لها محمود مسعود، وصدرت عن سلسلة «روايات الهلال» في سبتمبر ١٩٨٨.

يقول هارى بلاميرز في كتابه «الأدب الأنجليزى فى القرن العشرين» عن «البرتقالة الآلية»: إنها قصة أورويلية (نسبة إلى جورج أورويل) ضد اليوتوبيا، تنتقد المذهب الإنساني اللبرالي وتعرى نواحي قصوره في وجه قوى العنف والتخريب إنها إسقاط لصورة إنجلترا في المستقبل حيث ألكس، الشخصية الرئيسية، قائد عصابة من المراهقين الجانحين، توقع الرعب في قلوب الناس، بما ترتكب من جرائم السرقة والاغتصاب والتعذيب والقتل، وإذ يلقى القبض على إلكس، ينقل من السجن - في ظل تشريعات ليبرالية إنسانية - إلى مركز معالجة الاستصلاح» حيث يتحول بالوسائل الكيميائية من عقاقير وغيرها إلى كائن محايد وجدانيا، يصاب بالغثيان من جراء الفن والموسيقى والجنس والعنف جميعا. لقد غدا آلة، «برتقالة آلية». إن النزعة الإنسانية اللبرالية والشرط الشمولى هما، على السواء، موضع هجاء بيرجس هنا. ويستخدم ألكس ورفاقه من الجانحين -

بيتر وجورجي، وديم - لغة يدعوها بيرجس «نادسات» و إنها لغة المراهقين في المستقبل، قائمة على جذور سلافية، لغة تتميز بالتفنن، ومن المحقق أن قوة بيرجس تكمن جزئيا في تفنن لفظي ينبع، إلى حد كبير، من قراءته لجويس.

ويقول الناقد البريطاني برنارا برجونزي في «كتابه» موقف الرواية إن الرواية استكشاف لنوع الحياة الروحية الذي من شأنه، في الحقيقة أن يؤدي إلى استحقاق اللعنة. إنها ألمع روايات بيرجس وأكثرها سوادا ومسرحها حاضرة قبيحة في وقت غير محدد من المستقبل حيث عصابات المراهقين تروع السكان، وراوي الرواية، واحد من هؤلاء المراهقين، يتحدث بضمير المتكلم، ويحاكي الكاتب لغته على نحو فائق. إنه متوقف النمو أخلاقيا ولكنه ليس عقليا، فهو يروي قصته بعامية حية تختلط بكلمات روسية، وألكس مجرم مرح، بل إن حالته المعنوية مرتفعة. يرى في الرجال والنساء المسنين - خاصة البورجوازيين منهم - هدفا صالحا لتوجيه ضرباته، وإذا قابل كتبا مزقها، يقيم الفتيات على أساس أحجام نهودهن، ويغتصبهن كلما أمكن، ولا يعزو الكاتب انحرافه - مثلما قد يفعل علماء النفس أو الاجتماع - إلى احتجاج على افتقاره في طفولته إلى الحب والرعاية، أو إلى حرمان ثقافي من فرص التعليم والتربية، أو إلى جس الغربة الذي قد تولده أبنية المجتمع الرأسمالي، إن ألكس لايدع مجالا للشك في أن اختياره للشر إنما هو فعل تحرر روحي متعمد في قلب عالم مؤلف من ممتثلين للقواعد والقوانين إلى حد يجعلهم تحت المستوى الإنساني، ليس ألكس جانحا نمطيا، وإنما قد اختار قدره بكامل وعيه.

هذه إذن صورة المستقبل كما يراها



برتراند رسل



تشارلز ديكنز

بيرجس: مدينة كبيرة يحكمها العنف والجريمة والجنس وإدمان الخمر والمخدرات، ولانحسبه قد بالغ في هذا فإنما نيويورك ولندن وغيرهما من حواضر العالم الغربي تراسل الصورة المرسومة هنا، إن النبوءة قد تحققت، والدهر - كما يقول أبو العلاء - منجز أبدا إبعاده، ومخلف المأمول من وعده.

.. ثم ماذا؟

لاتلوح صورة المستقبل - إذا حكمنا بما أوردناه من أمثلة - مشرقة أو حتى متوازنة من حيث الإيجابيات والسلبيات، على الأقل في نطاق الثقافة الإنجليزية، وما ينسحب عليها ينسحب، إلى حد كبير، على الثقافة الأمريكية، وثقافة غرب أوروبا بعامة، بل والثقافة اليابانية أيضا، إن الرائد لايكذب أهله، وقد كان هؤلاء الأدباء الإنجليز صادقين مع أنفسهم ومع بني جلدتهم، وها هم أولاء يشيرون بأصابع الاتهام إلى الأدواء الثاوية في قلب حضارتهم دعا الروائي الأمريكي هنري ميلر وطنه أمريكا «كابوسا مكيف الهواء»، وكوابيس أغلب الأدباء الذين ذكرناهم لاتكاد تملك حتى هذه الميزة، وإنما هي أشبه ببالوعة كريهة الرائحة، تعيث فيها الصراصير والجرذان وبنات عرس، وتنبعث منها غازات سامة خانقة قادمة من عالم سفلي، فهل يفيق الإنسان الغربي - المغتر بقوته وثروته وتقدمه المادي - قبل أن تحيق به حاقة لاتبقى ولاتذر؟ ■

النبوة

جزء خاص



نجيب محفوظ والنبوءة

بقلم
ابراهيم فتحى

يقال أحياناً على سبيل المزاح إن الحياة تقلد الفن الردىء، فالناس يفهمون واقعهم على أساس نماذج تقدمها أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون وكلمات الأغانى ، ويحاولون السلوك عن طريق تقمص أدوار ينفخ فيها الفن التجاري الرائج . ويدركون معنى الأحداث ويستجيبون لها من خلال التفسيرات السطحية المغرضة التى تحفل بصورها وسائل الإعلام . وليس ذلك صحيحاً بطبيعة الحال فإلى جانب الفن الردىء هناك الفن الرفيع وإلى جانب المتكيفين النقادين هناك الذين يفكرون ويعون وينتقدون وهم جمهور الفن الرفيع .





وروايات نجيب محفوظ وقصصه القصيرة المنتمية إلى الأدب الرفيع لا تقوم بتزييف الواقع المصرى ولاتنزلق على سطحه لتقلده ، بل تكتشف تيارات الأعماق التى قد تختفى عن العيون وترصد مسارها الخبىء وهى تسهم فى تشكيل المصير الإنسانى من خلال شخصيات حية . ومن هنا جاءت قدرة أعمال محفوظ على التنبؤ وعلى تجاوز اللحظة التى تصورها أو التى كتبت فيها .

ولنبدأ برواياته التاريخية المبكرة . ولم تكن إلا فى وجه واحد منها تجسيداً روائيا لبعض مراحل التاريخ الفرعونى يتتبع أحداثه وشخصياته استخلاصاً لدروس تستهدف استعادة المجد القديم . أما فى الحقيقة فقد كانت خيوط تلك الروايات ونسيجها مستمدين من الواقع المعاصر لكتابتها (١٩٣٩ - ١٩٤٤) ولكنها كانت تنظر إلى أبعد من ذلك التاريخ متنبئة بما سيجىء . فمحفوظ كان منذ البداية مؤرخاً سرياً بعيداً عن التاريخ الرسمى ومسلماته، يكتب التاريخ «من أسفل» من صراعات حياة الجماهير الشعبية وإمكانات تلك الحياة ونزوعها إلى التحقق ، إنه عنى برسم ملامح مشتركة بين مصر فى فترة كتابة الروايات ومصر الفرعونية. فقد شغلت الروايات ملابسات الانتقال من مصر ذات الاستقلال الشكلى التى يحتلها الانجليز وتحكمها ملكية مطلقة تركية العنصر إلى مصر الأخرى التى لم تزل وعداً . وفى «كفاح طيبة» يأخذ الهكسوس موقع الانجليز والارستقراطية التركية معاً. فالماضى مصور من شواغل الحاضر وأمنيات المستقبل.

وتومىء الرواية إلى التناقض بين جلود الفلاحين السمر وجلود الهكسوس البيض (مثل الاتراك) ويقول أحمس إن شعاره فى حكم هذا البلد أن تكون مصر للمصريين ، ورائده تطهيره من البيض فلا يحكمه بعد اليوم إلا مصرى، بل إن الرواية تتنبأ بالشعارات التى سترفعها حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على



لسان أحمس: «فالأرض أرض فرعون (الدولة) والفلاحون نوابه في استثمارها لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة، وله مايفيض عن حاجتهم ينفقه في الصالح العام ،والمصريون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله.

تنبؤ بالأهداف

لقد كان استلهام التاريخ الفرعوني يفلت من إسار اللحظة الراهنة ويتطلع إلى المستقبل ويتنبأ بالأهداف التي سيضعها النضال الوطني أمامه.

لذلك قدمت الروايات من ناحية الموضوعات أوجها للواقع المصري الحديث بوصفها تاريخا .. لذلك لم تكن هناك هوة ضخمة بين الروايات التي تسمى تاريخية والروايات التي تسمى واقعية . وتبدو المراحل التاريخية في عالم محفوظ متجانسة موحدة من حيث الأهداف الانسانية. فطبيعة الانسان وطبيعة المجتمع عنده تتغيران دون مساس بجوهرهما الدائم ويستهدفان غايات نهائية في الماضي والحاضر والمستقبل . لذلك يكون التنبؤ ممكناً وبقياس الغائب على الحاضر والماضي فالمراحل التالية من النمو والتطور متضمنة في المراحل السابقة كإمكان لم يتحقق بعد. فليس الواجب الانساني العام إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى وقيم التقدم والعدالة والمعرفة .

فالقضايا الإنسانية والحضارية الأساسية متماثلة في الماضي والحاضر والمستقبل . ونجد الصراع بين الكهنة والدولة في مصر الفرعونية (رادوبيس) ، تتردد أصداؤه بأشكال متغايرة قديماً وحديثاً. فالسلفيون في أرديتهم المختلفة يتحدثون عن العصر الذهبي والمجد القديم وثوابته القيمية ويتنبأ محفوظ في «العائش في الحقيقة» (١٩٨٥) بصورة الدولة الدينية في جميع العصور . إن اخناتون الداعي إلى دين الحب والسلام، وهو الشاعر المتصوف السباق إلى مايشبه التوحيد تؤدي دولته الثيولوجية إلى كارثة رغم إطاحته بمساويء المؤسسة الأمونية الرجعية ورغم نقاء منظومته الفكرية وسمو نواياه فإنه يرعى الهوس العقيدي ويضطهد غير المنقادين ليعمق من حدة الانقسام بين الناس ، ويرفض الدعوة إلى إعلان حرية العبادة (أو حرية التفسير) فهناك قالب ثابت إجباري يحدد كل شيء ويعتبر الخروج عنه هرطقة ومروقا، وهناك تصورات جامدة مقدسة مفروضة على شئون الدولة وطرق الحياة والسلوك.

التنبؤ بالثورة

إن كفاح طيبة تنبأت بثورة على الإحتلال والارستقراطية التركية ثم تأتي الروايات الواقعية بتنبؤاتها . وابتداء من خان الخليلي ١٩٤٥ صورت الروايات

نماذج تواصل البقاء فى المراحل التالية .. وهناك صلة عميقة بين الفساد الاجتماعي والسياسي والسقوط الأخلاقى لنماذج التسلق التى تعاود الظهور أيام الناصرية وأيام السادات فى أقنعة جديدة . وكانت النماذج السياسية الرافضة تنحصر فى اتجاهين أساسيين ، الاتجاه اليسارى والاتجاه السلفى وتمثل حلماً أبدياً بالجنة الأرضية والجنة السماوية . وفى «القاهرة الجديدة» يتوزع تعاطف السرد على الاثنين ، كما ينقدهما معا وإن مالت كفة التعاطف أكثر ناحية اليسارى فهما معا يعاديان الارستقراطية الحاكمة . وكلاهما صادق الإيمان بالمبدأ الذى اختاره مستعد للتضحية فى سبيله . ولكن اليسارى أكثر ظهورا فى الرواية.

ولا ينفر السرد من هذين النموذجين الحديين. إن اليسارى على طه يحب الجمال بنزاهة وإخلاص. يلبس فيتأنق ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع وينفق عن سعة ، وهو غير فقير واشتراكى ، ملحد وشريف، عاشق عذرى ، وهو يهيم بلذات الروح . وليس المجتمع الذى يحلم به خالياً من الشر، فلا خير فى مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال . ولكنه مجتمع يمحو شرورا يراها الناس ضربا من القضاء والقدر وهو شخص إجتماعى محبوب . أما السلفى فهو غير إجتماعى نتيجة مرض عصبى طويل ، جاهل بأصول اللياقة الاجتماعية ونكران لروح الفكاهة يسمونه أحياناً لصراحته الحادة بالمهدى المنتظر ، وإمام الإسلام، ويقولون له قديما أدخل عمرو بن العاص الإسلام فى مصر بدهائه وغدا يخرجه منها مأمون رضوان (السلفى) يثقل دمه

ويرفض السرد إلحاد اليسارى وتزمت السلفى ويرحب بتوفيق بينهما ، بين الدين والعلم وبين الروح والعدالة الاجتماعية ، وكأنه يبشر بما سيجيء بعد ذلك من شعار الاشتراكية العلمية ذات القيم الروحية وفى «بداية ونهاية» نلتقى بذلك الموقف نفسه فى تعاطف السرد مع شخصية «حسين» المضحى من أجل أسرته بطموحه الشخصى، الرافض للأوضاع الظالمة الذى يعمل على ترقية عقله بالثقافة والتأمل يؤمن باشتراكية معتدلة لاتتعارض مع الدين والأسرة والأخلاق . فروايات محفوظ عن النظام القديم تتنبأ بثورة تستهدف امتزاج الدعوة الاشتراكية بالقيم الدينية ولا تتنبأ بانتصار التنظيمات الشيوعية أو التنظيم الإخوانى. وتنتهى «الثلاثية» بالحديث عن الثورة الأبدية وقد كتبها محفوظ قبل أيام من ثورة يوليو.

صدق التوقع

فلم تكن أعماله تتوقع أن يقوم الجيش بالثورة المأمولة، بل كانت تتوقع انتصار الحركة الجماهيرية التى يشارك



فيها الوفد بوطنيته وليبراليته ، والتي ترفع شعارات تمتزج فيها العدالة الاجتماعية بالقيم الدينية . لقد انهى محفوظ كتابة الثلاثية وظل صامتاً حتى عام ١٩٥٧ حينما بدأ العمل في «أولاد حارتنا» التي نشرت مسلسلة عام ١٩٥٩، ورأى أن الثورة واصلت ما كان ينتقده في النظام السياسي قبلها ، وهو الدكتاتورية . فهذه الدكتاتورية تؤثر على الإنجازات الإيجابية تأثيراً سلبياً . وكان هناك انفصال بين السلطة الواقعية ورؤيته فيما يتعلق بالامتيازات وبالقمع والتعذيب . وتصور أولاد حارتنا الصراع بين الأنبياء والفتوات، وكأنها تسأل قادة الثورة أي طريق يريدون أن يختاروا طريق الأنبياء أو الفتوات.

وتصور الرواية أنه بعد الثورة التي قام بها جبل تتغير الأسماء ولكن قوى البغي في الماضي والحاضر متماثلة، فالاستغلال والاستبداد يواصلان العود الأبدي كما تواصله حركة الرفض والاحتجاج ولكن هذا العود ليس رجوعاً إلى نقطة البداية بل يتحقق على مستوى أعلى، فالزمان التاريخي لايسير عند محفوظ في دورات مغلقة متشابهة . فهناك رصيد من التجربة يسمح بدرجة أعمق من الوعي وهناك حاجات جديدة تبرز . إن التصور الأسطوري للجبلاوي فقد مبرر بقاءه ، والعلم ليس روحا مجنحة للمعرفة وتحقيق المعجزات فهو واقع بين براثن أصحاب الامتيازات وأصحاب السلطة القديمة ويصرعون روحه .ولكنه لا يموت فتقاليده باقية ، والناس تحتضنه وتدافع عن رسالته . ويستفحل بطش السلطات بمن يسيرون في طريق العلم استعدادا ليوم الخلاص الموعود « ولكن الناس تحملوا البغي في جلد وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر والليل من نهار ولنرين في حارتنا (مصر/الكون) مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب».

فالعناية الإلهية تظل تسدد خطى مبدأ «التقدم» الكامن في مجرد تعاقب السنين وهو تقدم يرتكز على عدالة متعالية . ومبدأ العدالة لا يتحقق على أيدي دعاته بل يتحقق بأن يظلم الداعين إليه أبشع أنواع الظلم كأنه اللعنة ، فالزمان يمثل الروح الإرتقائية للإنسانية مأخوذة في تجريدها . لذلك تتنبأ الروايات عموماً بمستقبل متفتح على تحقيق الأمنيات .

وتصور اللص والكلاب (١٩٦١) خيانة مبادئ الثورة المعلنة في الممارسات الفعلية ، وقد تنبأت في سنة الاجراءات الاشتراكية بظهور الطبقة الجديدة ممثلة في رءوف علوان ، فالثوريون الجدد بعد اقتطاف فاكهة السلطة يتطلعون إلى امتيازات النظام القديم ، كما تتنبأ الرواية بفشل كل محاولات الإرهاب الفردي

والاغتيالات ضد الرموز المكروهة ، فكل هذه الرصاصات طائشة تقتل الأبرياء .

واقع يؤدي إلي كارثة

وتواصل روايات الستينات قبل الهزيمة تصوير واقع لابد أن يؤدى إلى كارثة وتقترح طرقا للخروج فالسمان والخريف (١٩٦٢) تقترح على الوفدى الذى نحته الثورة جانبا أن يترك تمثال سعد زغلول ليلحق باليسارى حامل الوردة الحمراء . ولكن هذا الاقتراح ظل بعيداً عن التحقق الفعلى ، وفى الشحاذ (١٩٦٥)، فترة حل الحزب الشيوعى والتحالف بين الأفراد اليساريين والسلطة الناصرية تصور الرواية خروج الشيوعى عثمان من السجن ولكنها حينما لم يكن هناك شيوعى واحد سجينا تتنبأ بمطاردة عثمان مرة ثانية وإطلاق الرصاص عليه . ولكن السرد يضع أملا فى علاقة اليسارى ضيق المادية بالشابة التى تدرس الكيمياء وتكتب الشعر الصوفى ، فعلاقتهما مثمرة . ولكن هذا الأمل يظل بعيداً عن التحقق، ويشيع السرد اليسارى إلى السجن رمزا لانحسار دوره . أما ثرثرة فوق النيل ١٩٦٦ فتصور الظل الثقيل للدكتاتورية والفساد على شريحة من المثقفين هربوا إلى العدمية والسلبية وانعدام المسئولية . إن العوامة رمز مجتمع على وشك الغرق النهائى بعد أنواع من الغرق الجزئى فى الفساد والأكاذيب وهناك إيماء مباشر إلى احتراق روما .

وعلى الرغم من ذلك التنبؤ الصارخ ، تتحدث الشخصية الرئيسية فى النهاية عن مسار الانسانية من القرد الذى حرر يديه ونزل إلى الأرض من فوق فردوس الأشجار ممسكا بالأدوات الأولية ناظرا إلى الأمام نحو طريق بلا نهاية ، فليست الكارثة هى الخاتمة فلا يزال مبدأ التقدم ماثلا فى تعاقب السنين .

وتأتى ميرامار (١٩٦٧) لتصور الاتجاهات السياسية المختلفة فى تلك الفترة محيطة الليبرالى الوفدى العجوز بتعاطف ضخم ، فهو يوفق بين مبادىء ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ توفيقاً ذهنياً ، أما الاشتراكى الزائف فيتنبأ له السرد بالانتحار ، ولكن الفلاحة رمز مصر رغم كل ما تعرضت له تؤمن بأنها ستحقق ماتريد فى غد أجمل من الحاضر ، فإن من يعرف من لا يصلحون له يكون قد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود :

ويقع اليسار بين الارتداد والسجن .

وستتوالى روايات مابعد الهزيمة ابتداء من المرايا (١٩٧٢) مصورة واقعاً كئيباً منددة بتعذيب المسجونين السياسيين فى فترة سابقة دون تنبؤ باستمراره بعد ذلك . ولكنها تتنبأ بهجرة أفضل الشباب وانقلاب فى سلم القيم ويعود السلفى إلى الظهور بعد غيابه فى روايات الفترة الناصرية وكأنها تتنبأ



باستفحال أمر هذا التيار بعد أن ينتقل من الجمود إلى التعصب والتطرف والإرهاب في روايات الثمانينات : التنظيم السرى صباح الورد وقشتمر.

حقاً إن رواية «حب تحت المطر» ١٩٧٣ قبل حرب أكتوبر أكدت جو العوامة فى ثرثرة على النيل من عدمية وحسية وعدم مبالاة، فالكثيرون لا يهتمون بالحرب الدائرة على الجبهة، ويريدون الهجرة وينغمسون فى الجنس، والطالبات يقدمن الجنس مقابل سلعاً استهلاكية ، ومع ذلك سنسمع فى النهاية كلمات حماسية من مناضل فلسطينى.

تنبؤ بالصلح مع إسرائيل

وهنا ينبغى أن نقطع التسلسل الزمنى. إن تاريخ كتابة «الكرنك» لا نشرها هو ديسمبر ١٩٧١ قبل المرايا وقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهى تعزف المعزوفة المكررة عن التعذيب والقتل والاغتصاب فى السجن الحربى واهدار كرامة الفرد الانسانى فى دولة تدافع عن قضايا الانسانية فى العالم . ولكننا نلتقى بخالد صفوان ، مدير المخابرات أيام الناصرية يتوب عن ماضيه فى انقلاب غير مبرر ويقدم برنامجاً يتبناه السرد ويتعاطف معه فى الرواية (وتلك نقطة ضعف فنية كبيرة فيها) . إنه برنامج ديموقراطى ضد الدكتاتورية والعنف ويقف مع العلم . ويعرض هذا البرنامج الصلح مع إسرائيل طريقا للخروج من المأزق لقد هزمنا ولسنا مستعدين للحرب إذن فلنتجه نحو حل مغاير . فالصلح والمفاوضات المباشرة مع إسرائيل يتنبأ بهما السرد الروائى المحفوظى. فالواقع المتدهور لا يمنح فرصة لحرب طويلة المدى تنتهى بالنصر، وبدلاً من الطريق السابق علينا أن ننشغل بالتنمية الخاصة والرخاء.

ولكن فى «الباقى من الزمن ساعة» ١٩٨٢، يتدهور البيت ولا تثمر أشجاره بل تذبل ، وحلم تجديد البيت (الذى تسكنه مصر) الذى تعلق بمبادرة السلام لا يتحقق، وبدلا من الآمال يستشرى الإحباط. (قبل اغتيال السادات).

و«يوم قتل الزعيم» أيضاً (١٩٨٥) لا تجعل السلام قريناً للديموقراطية والرخاء وتصور آثام الانفتاح والفساد ولا تتنبأ بعد اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ بانفراج ديموقراطى بل باستفحال التعصب والتطرف عند الذين يريدون أن يرجعونا إلى الوراء . ولكن الرواية كما هى الحال فى عالم محفوظ تحنو على قول شخصية تعرضت لأنواع من المشقة وإحباط الآمال فى عنفوان الشباب «فعمنى ترحيب غامض باحتمالات مجهولة واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق محدودة». ■



شباب امرأة .. تحية كاريوكا وشكرى سرحان

قصة نجيب محفوظ مع السينما

بقلم

مصطفى درويش

فى البدء دب الخلاف بين أدبائنا، حول ظاهرة تحرك الصورة التى سميت فيما بعد بالسينما.

نفر منهم، وكان محافظا، مغاليا فى المحافظة، ارتأى أنها، أى السينما ليست من الفن فى شئ، منقطعة الصلة به، واجترأ أحيانا فاعتبرها ظاهرة معاكسة للثقافة، وذلك بحكم انها تغلب قوانين السوق بأفلامها التى تعمم القبح وتصرف الناس عن الارتواء من ينابيع الفنون المعروفة والراسخة منذ فجر التاريخ.



أحمد مظهر وسعاد حسنى فى مشهد من «القاهرة ٣٠».

وذهب فى اجترائه إلى أبعد من ذلك حين نظر إلى جمهور السينما نظرة فيها كثير من الاستعلاء والاشفاق والرثاء.

ونفر آخر جنح إلى اعتبارها فنا خالصا لا فرق بينه وبين الفنون الستة السابقة عليه إلا بانه أحدثها وأكثرها جسارة واقتحاما.

وذهب به الحماس لها إلى اعتبارها فجر نهضة ثقافية جديدة آخذة فى الانتشار شيئا فشيئا.

أديب رائد

ومن المؤكد أن الأديب الراحل يحيى حقى كان من ذلك النفر الشديد الحماس للسينما بوصفها فنا خالصا ويقينا. أو ما يقرب من اليقين، إنه كان من القلائل الذين وعوا أهميتها، فاعتبروها فنا سابعا ذا مستقبل واعد.

ولا غرابة فى أن يكون صاحب القنديل رائدا فى مجال الوعى بأهمية السينما.

فمما يعرف عنه انه نشأ فى اسرة تعشق السينما رجالا وصبيانا.

لا يخرج حديث مائدة العشاء بين أفرادها عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين فى ايطاليا والمانيا وامريكا، والمقارنة بينهم.

لا اشترك فى الحديث- لصغر سنى - بل تلتقط أذناى منهم كل كلمة تقال واعتنق آراءهم واضحك لضحكهم، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة، كأنه مما رأته عيناى والحق، انه لا يدانيه فى الاهتمام بالسينما سوى نفر جد قليل من ادبائنا على رأسه يقف نجيب محفوظ.

ويعرف عنه ان الفن السابع قد لعب دورا كبيرا فى حياته، بدءا من منتصف اربعينيات القرن العشرين، أى ولما يكن له من العمر سوى خمسة وثلاثين عاما.

اغفال واهمال

والغريب هو جنوح معظم مؤرخى سيرة محفوظ، ودارسى كتاباته وما أكثرهم بعد تتويجه بجائزة نوبل للآداب، جنوحهم إلى اغفال ذلك الدور.

ولعل خير مثل على هذا الاغفال ذلك المجلد الضخم «الرجل والقمة» الهيئة



«ريا وسكينة» كما صورتها السينما

المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ الذى جمع بين دفتيه اثنين واربعين بحثا ودراسة حول ما أبدعه خيال محفوظ على مر خمسة عقود من عمر الزمان.

فأى من تلك الابحاث والدراسات لم يعرض لا من قريب ولا من بعيد لابداعه فى عالم صناعة الاطياف.

وهذا الاغفال المثير للدهشة وللجدل معا له ولا ريب اكثر من سبب وتفسير.

ونظرا لضيق الوقت والمجال لن اقف لا كثيرا ولا قليلا عند ما قد ينهض سبباً أو تفسيراً له فذلك شئ يطول مكتفيا بأن أقول :إن بعضا منها قد يتضح من سياق الحديث عن صلة محفوظ بالعمل السينمائى، متى بدأت وكيف توطدت حتى انتهت بأدبه الروائى متأثرا إلى حد كبير بفن السينما بحيث كاد يدور معه وجودا وعدما، فى بعض الأحيان.

عود إلى الماضى

البداية ترجع إلى ١٩٤٥، ذلك العام الذى القت فيه الحرب العالمية الثانية سلاحها.

ففى أثنائه دبر الدكتور فؤاد نويرة لقاء بين صديقه محفوظ والسينمائى صلاح ابو سيف، كان من ثماره اشتراك الثلاثة فى كتابة سيناريو فيلم مغامرات عنتر وعبلة، الذى جاء عرضه متأخرا بعض الشئ، خلال ١٩٤٨ اى فى تاريخ لاحق لعرض فيلم المنتقم المستوحى من سيناريو كتبه الاثنان محفوظ وابو سيف بعد ان توطدت أواصر صداقة بينهما استمرت حتى جاء الموت الأخير.

فبدءا من ذلك اللقاء السعيد انطلقت موهبة محفوظ السينمائية، متحررة من شرنقة التخلف الفكرى الذى يلفنا بسواد أعتبار الصورة المتحركة اختراعا من فعل الشيطان.

ثمار دانية

فعلى امتداد ثلث قرن، وحتى عام ١٩٧٨ شارك محفوظ فى كتابة العديد من النصوص السينمائية آنا وحده، وآونة مع كوكبة من كتاب القصة السينمائية والسيناريو والحوار، وأخرى مع كوكبة من المخرجين.



مشهد من «قصر الشوق» يجمع بين يحيى شاهين وعبد المنعم ابراهيم

ومن بين الأفلام المستوحاة من تلك النصوص، أنكر على سبيل التمثيل لك يوم يا ظالم، ريا وسكينة، الوحش، جعلونى مجرما، درب المهابيل، شباب امرأة، الفتوة، جميلة، احنا التلامذة، بين السماء والارض، و الناصر صلاح الدين.

ولعله مما يفيد القارئ، ويضعه فى الصورة كما يقال أن أذكر ان أى استطلاع رأى لأفضل مائة فيلم فى تاريخ السينما المصرية، كان لا يخلو من ذكر هذه الافلام الأحد عشر، بل ان بعضها كان يحتل مركز الصدارة بجدارة فى قائمة الافلام التى وقع عليها الاختيار.

من الفرعونية إلى الواقعية

وفى هذا الموضع من الحديث، يجدر بى أن أضع بين يدى القارئ حقيقتين لا تخلوان من دلالة:

أولاهما ان المرحلة من حياة محفوظ التى بدأت بلقائه السعيد مع الفن السابع، متمثلا فى ابى سيف، تلك المرحلة تزامنت مع اصطباغ ادبه بالواقعية، بديلا للفرعونية.

ففيها ابدع رواياته الخمس التى سرعان ما جاءته بالشهرة، وهى القاهرة الجديدة (١٩٤٥) وخان الخليلى (١٩٤٦)، زقاق المدق (١٩٤٧) والسراب (١٩٤٨)، واخيرا بداية ونهاية (١٩٤٩).

وأول ما يسترعى الانتباه فى تلك الروايات انها صورت الحياة تصويرا مشبعا بروح السينما، وذلك بفضل تفاصيل تطل علينا. كما قال بحق صاحب القنديل، فى مؤلفه عطر الاحباب، من خلال ميكروسكوب، كتهاويل لحركة حية، دقيقة، لا ينقطع لها اضطراب، وكأن محفوظ أراد بذلك أن يصور الواقع تصويرا فوتوغرافيا.

انغماس وتفان

أما الحقيقة الثانية فمفادها، انه وعلى امتداد الأعوام الخمسة الأولى من عقد الخمسينات، لم يبدع محفوظ أى عمل روائى، مكتفيا فى تلك الأعوام بتكريس وقته لأمرين:



عمر الشريف وسناء جميل في «بداية ونهاية»

أحدهما الكتابة للسينما، وكان من بين الأفلام المستوحاة من كتاباته في أثناء تلك الأعوام «لك يوم يا ظالم»، «ريا وسكينة» و«درب المهابيل».

والآخر الإعداد لثلاثيته الرائعة «بين القصرين» (١٩٥٦) «قصر الشوق والسكرية» (١٩٥٧) تلك الثلاثية التي جاء ذكرها ضمن أسباب تتويجه بجائزة نوبل للآداب، وذلك قبل ثلاثة عشر عاما.

إقبال منقطع النظير

ومن عجب، إنه، ورغم انغماسه في الكتابة للسينما، إلا أن أيا من أعماله الأدبية لم يجر ترجمته إلى لغة السينما، إلا بعد فوات خمسة عشر عاما، على أول اتصال بينه وبين السينما، واتقاد شرارة الشغف بها في قلبه، وقد بات على أعتاب الخمسين.

وكان ذلك بفضل تصدي «أبوسيف» لإخراج قصته «بداية ونهاية».

وفيما بين تلك البداية ومستهل العقد الأخير من القرن الماضي أنتجت الاستوديوهات المصرية أربعين فيلما، مستوحى من أدب محفوظ، تولى إخراجها مجموعة من أشهر صانعي الأفلام عندنا.

ومن بينهم أذكر على سبيل التمثيل «أبوسيف»، حسن الإمام، كمال الشيخ، حسام الدين مصطفى، حسين كمال، أشرف فهمي، عاطف الطيب، ويوسف شاهين.

ويرجع إقبال السينمائيين على أدب محفوظ، والاغتراف منه على هذا النحو، وهو أمر غير مسبوق في تاريخ السينما المصرية، وربما السينما العالمية، يرجع أساسا إلى امتلاك أدبه أسلوبا منطويا على خصائص سينمائية بحتة، وذلك تحت تأثير إنغماسه في الكتابة للسينما، وتكريسه لها من عمره زهاء خمسة أعوام

والشيء الذي لاشك فيه أن اتقاد شرارة الشغف بالسينما في قلبه، كان لها فعل السحر على أدبه جعلته واضحا كل الوضوح، ومع ذلك مليئا بالأسرار!! ■



من وكالة الغورى إلى عطفة الأزهر

بقلم
عصمت داوستاشى

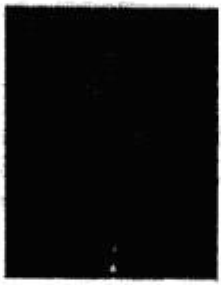
نحن في زمن عجيب.. تنعكس فيه الآيات.. وتعتم فيه المرايا.. ويقوم بالعمل الجماعي فرد واحد.. وبالعمل الفردي جماعة كاملة، وما حدث من إحياء لجمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة.. خير دليل على ذلك.. كمثال لزمن الدون كيشوتية الجديد.. فيتفوق الفرد بأحلامه أيا كانت على أعتى الجماعات والتجمعات أيا كانت قوتها وجبروتها.. فتغيرت مفاهيم ودخلت اصطلاحات جديدة وتعدلت نظم وتبدل العالم من حيث كان طفلا بريئا تلقائيا إلى حيث أصبح شابا يافعا شرسا عدوانيا يحطم كل من يواجهه أو يعارضه.

وهكذا ستحل قوة الفرد أو الأفراد القلائل.. بديلا عن قوة الجماعات والجيوش مهما كان حجمها أو إمكانياتها.

وما حدث هو أن فرداً واحداً استطاع بجهوده وصبره ومثابرته وإصراره أن يعيد في شهور قليلة بناء شيء حيوى بعد أن ظل يبنيه عبر سنوات طويلة، ثم جاء من هدم ما بناه بين ليلة وضحاها.

أما ما أعاد بناءه هذا الفرد.. فهو إحياء جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة.. بعد طردها «طبعا» من وكالة الغورى بحجة ترميمها.. فاستأجر لها مقراً جديداً بجوار الوكالة المنكوبة.. واستطاع أن ينشيء فى هذا المكان الجديد المتواضع ما يشبه نموذجا مصغراً لوكالة الغورى يضم بين جدرانه ورش الحرف المختلفة وإبداعات الحرفيين الذين انهال عليهم الزمن الردىء بالتراب والطمس .. فأحيا هذه المهن التى هاجرت أو «طفشت» أو طردتها وزارة الثقافة من جنتها.. فجمع بين أسطوات يعلمون أجيالاً جديدة وبين فنانين يستلهمون التراث ويبثونه فى تشكيلات متطورة بالتعاون مع الحرفيين.

وهذا فى رأيى الشخصى مغامرة دون كيشوتية اقدم عليها الفنان الناقد عزالدين نجيب بدافع من تاريخه النضالى الطويل الذى علمه ألا يستسلم للواقع الخطأ أو للجبروت الظالم.. فحقق



الفنان عز الدين نجيب

أسطورة لا تستطيع جماعة أيا كانت أن تحققها وفى زمن قياسى.. وجعل قضية الحرف التقليدية والموروث الشعبى والتراثى تنتعش من جديد فى وقت شاء البعض أن يجهضها أو يواريها التراب . ولا أنكر أن بعضاً من الأبطال المعاونين له إلى جانب دعم من هنا وهناك قد حقق لعز الدين نجيب نجاح مسيرته .. إلا أنه كان سيحققها بهذا الدعم أو بدونه .. فدون كيشوت لم يحارب الطاحونة على أنها أعداء.. وإنما أعاد تلميعها وترميمها وأحياها على أنها تراث لابد أن يظل حيا فى وجداننا.

لماذا أصالة من الأساس؟

عندما كان الفنان عزالدين نجيب مديراً للإدارة العامة للحرف التقليدية بوزارة الثقافة ومقرها وكالة الغورى، وجد أنه من الضرورى إنشاء جمعية أهلية تضم حرفيين وفنانين ومثقفين وشخصيات عامة للحفاظ على التراث الفنى وطابع الأصالة فى مجالات الإبداع التشكيلى المختلفة بشقيه



فنان النسيج البدوى عاطف طلبه يوجه المتدربات (امينه ، رضا ، سناء) على أعمال النسيج اليدوى

التقليدى والحديث.. والعمل على تنمية وإنشاء مراكز متخصصة للانتاج فى مجالات الفنون التشكيلية والحرفية وتطوير أذواقها وتشجيع الفنانين والكشف عن الموهوبين وتدريب أجيال جديدة بالتعاون مع الوزارات والأجهزة المختصة .. كذلك تحقيق التواصل بين المشتغلين فى مجالات الفنون التقليدية والتشكيلية والعمل على نشر المنتجات الفنية وإتاحة الفرص أمام الجمهور لاقتنائها من خلال تنظيم المعارض الفنية بالداخل والخارج ونشر الثقافة والوعى الجمالى بكل السبل مثل المطبوعات والنشرات مع الأنشطة الفنية المختلفة.

وهكذا تم إشهار الجمعية بوزارة الشئون الاجتماعية بمقرها بوكالة الغورى والذى مازالت تحتفظ بحقها فيه بعد الانتهاء من ترميم الوكالة .. وزاولت الجمعية نشاطها فى دعم الحرف التقليدية ودعم الحرفيين وتنظيم المعارض لإبداعاتهم فى مصر وأنحاء العالم بدعم وزارة الثقافة وبالتعاون معها فى ظل عمله الوظيفى، إلى أن أحيل للمعاش فى بدايات هذا العام ، وفى توقيت مخطط له لتسليم وكالة الغورى إلى مصيرها الجديد المجهول.. وكأنهم كانوا ينتظرون خروج هذا الفارس من ساحة القتال لإنهاء حالة.. وإحلال حالة أخرى.. بعد إنهاء العمل الإيجابى والفاعليات الجادة لإحياء وانتشار الحرف.. إلى طردهم من الوكالة وتشريدهم فى أماكن أخرى وقطع سبل التواصل بينهم وبين الجماهير.. وحتى بين مصادر رزقهم حين تباع أعمالهم الإبداعية ، لم يستسلم مجلس إدارة الجمعية بقيادته للواقع الجديد وبدأ فى



الفنان غريب خليل يبدى ملاحظاته لهند محمد فى المرسم الحر

تحقيق حلم أكبر وأكثر صعوبة .. وهو تأسيس مقر ومشغل وقاعات عرض جديدة لأنشطة الجمعية.. وهو ما تحقق فى مساء الأحد الموافق ٢٣ سبتمبر ٢٠٠١ فى رقم ٥ عطفة الأزهرى من شارع محمد عبده بمنطقة الأزهر وعلى بعد أمتار قليلة من وكالة الغورى.

أصالة والتوجهات الجديدة

يقول عزالدين نجيب بصدد تجربته الجديدة والرائدة فى إحياء جمعية أصالة فى مقرها الجديد .. «لقد جعلنا هذا التحدى نخوض تجربة جديدة طالما تطلعنا إليها وهى تحقيق التواصل مع الطبقات الشعبية صانعة التراث الحقيقى وصاحبة الحق فيه وفى استمراره على أيديها.

وهكذا نجحت الإدارة المشتركة بين مؤسسة اغاخان الدولية التى تقوم بمشروع التنمية الدرب الأحمر فى إرساء قاعدة جديدة لعمل الجمعية بهذا الحى العريق .. تعد نقلة نوعية لنشاطها .. إضافة إلى ما قامت به من إنجازات، هذه القاعدة تهدف إلى تنشئة أجيال جديدة من المتدربين تواصل مسيرة الأسلاف وتلبى احتياجات واقع متغير».

ومن هنا بدأ مشروع لتدريب مائة شخص على فنون النسيج اليدوى والخيامية والخزف والمشغولات الفنية النسوية إلى جانب تنمية المواهب فى فنون الرسم والتصوير الزيتى من خلال فلسفة تقوم على التفعيل الايجابى لطاقات الشباب والسيدات من أبناء الحى نحو امتلاك المهارات الفنية للنهوض بأوضاعهم الاقتصادية وقدراتهم الثقافية،

وغيـر ذلك من أهداف ذلك المشروع التعليمي الثقافي الاقتصادي بين مؤسسة أغاخان وجمعية أصالة بقيادة ذلك الفارس الفنان عز الدين نجيب ومجموعة من الشباب المكافح والحرفيين الواعين بضرورة العمل والحركة وتنمية مواهبهم وتواصلها وتطورها.

مسابقة للتصميمات المبتكرة

من هنا أعلنت الجمعية «التي يضم مجلس إدارتها سبعة من الفنانين التشكيليين واثنين من الحرفيين» عن مسابقة مستقلة للفنانين والحرفيين معا لانجاز تصميمات فنية مبتكرة.. وهي فكرة طالما راودت عزالدين نجيب منذ كان في وكالة الغوري، لأن فلسفة جمعية أصالة ان يتعاون الفنان الدارس المثقف مع الحرفي الفطري التقليدي في أعمال مشتركة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. ذلك اللغز الذي تتحرك فيه بغموض منذ ان وعينا بمفاهيم التشكيل الجمالي البصري والذي انحصر في نهاية الأمر في لوحات مرسومة، وملونة تعلق على الحوائط.. في هذه المسابقة وضع الفنانون المشاركون تصميمات مبتكرة مستوحاة من التراث ومن الحرف التقليدية وطوروها وأعطوها لحرفيين لتنفيذها بمفاهيم الصنعة وحرفيتها.. وقد شارك في هذه المسابقة الأولى من نوعها في مصر مجموعة كبيرة من المصممين والحرفيين فاز من بينهم ١٤ متسابقا بمجموعة جوائز تبلغ قيمتها اثنى عشر ألفا من الجنيهات على أمل أن تستمر المسابقة وأن تتضاعف الجوائز في الأعوام القادمة.

الذي تحقق.. هل يستمر؟

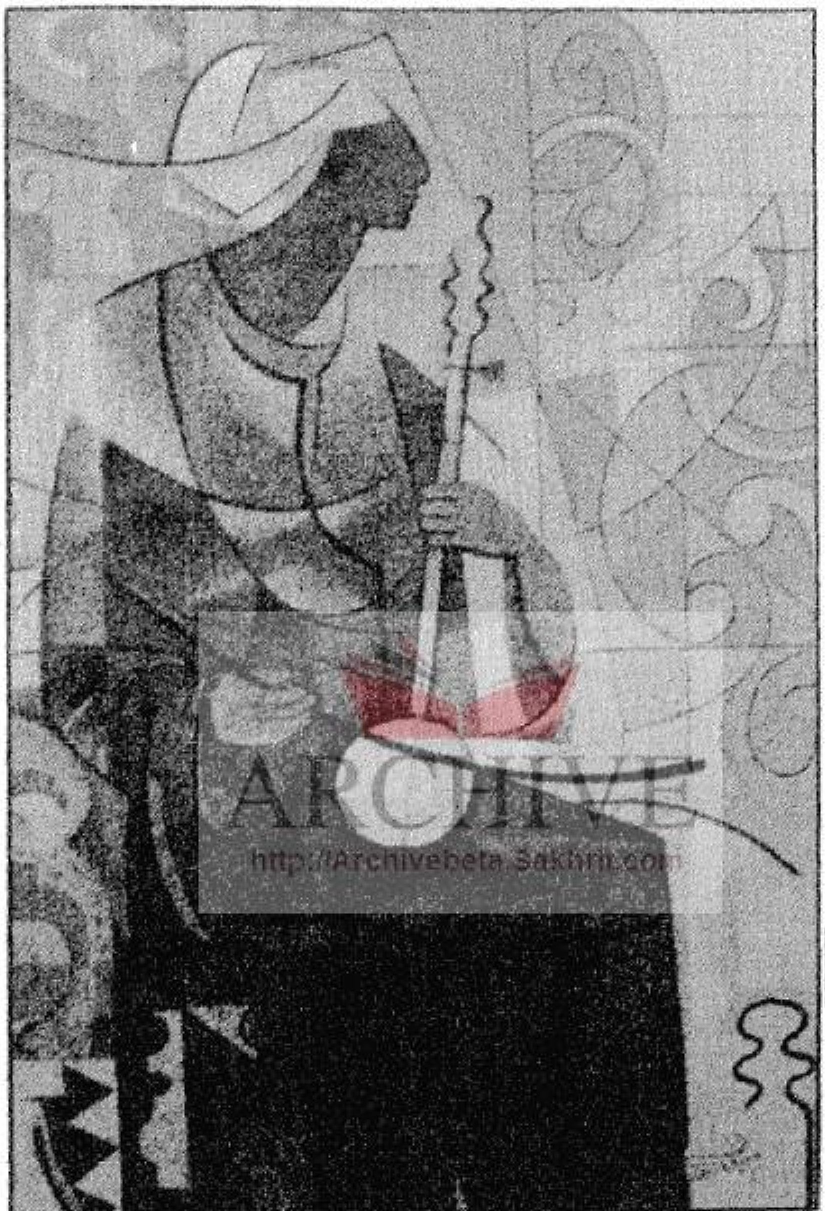
من حضر وشهد حفل افتتاح مقر أصالة الجديد في عطفة الأزهري التي كانت مثل أي عطفة أخرى في مصر. تعاني من مياه المجاري الطافحة والأتربة والأوساخ والإهمال. فوجيء بها وقد أصبحت حارة نظيفة كسيت أرضيتها بالأسفلت لأول مرة. وربما لآخر مرة في تاريخها.. وتوزعت مناضد الحرف ودولاب الفخار في أرجائها وامتزج جمهور أصالة من الفنانين والمثقفين مع الحرفيين وأبناء الحي والمسئولين من محافظة القاهرة بعد اعتذار وزير الثقافة الفنان فاروق حسني عن عدم الحضور لاجتماع طاريء، كما قيل، وكنت أود لو حضر هو والفنان د. أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ليشاهدا هذا العمل العملاق الذي قام على اكتاف مجموعة قليلة من الأفراد، وكأنه يبعث إلى الرأي العام برسالة بليغة ومهمة وهي إمكانية أن تستمر الحرف التقليدية بأبسط الوسائل لأنها، والحق يقال، تعاني الإهمال الكبير والمحنة القاتلة، في وقت تضعها بعض الدول العربية والأجنبية في المرتبة الأولى والأهم في اقتصادياتها وفي مجالاتها الثقافية والتربوية المختلفة وتجعلها سفيراً فوق العادة لها في كل أنحاء العالم.



المشغولات الفنية النسوية بأيدي أعضاء «أصالة»



ابداعات النسيج اليدوى من الفنان عاطف والمتدرب سعيد



إحدى لوحات الفن التشكيلي للفنان رفيق من جمعية أصالة

فأرجو أن تصل الرسالة وألا يكون الرد: بأننا نفعل ونفعل، لأن الواقع يقول بأننا نهدم ونهدم .. ولنكن صادقين مع أنفسنا ونحيي مجهود هذا الفارس صاحب الأحلام التي يحققها على حساب كل ما يخصه.. لصالح إحياء حرف وتقاليد هي في وجداننا وستظل كذلك إلى الأبد.

ونسأله هل ستواصل الاستمرار؟

واسمعه وهو مجهد ومتعب مما بذله ومن معه من المعاونين من جهد :

- نعم لابد من الاستمرار، وإلا ما كان لكل هذا أي معنى ..

خريف شهرزاد

وهكذا واصلت جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة «٢٧٠ عضوا منهم ٢٢٠ فنانا تشكيليا» أنشطتها وفاعلياتها بإقامة صالونها السنوي «الخريف» والذي افتتح بقاعة الهناجر بالأوبرا وضم أعمال الأعضاء في مجالات الفنون التشكيلية والحرفية وحصل على دعم مالي من صندوق التنمية الثقافية ساهم في إنجازاتها المختلفة .. وهذا المعرض انتقل بعد ذلك إلى أتيليه الإسكندرية واستمر طوال شهر رمضان المبارك بدعوة من مجلس إدارة الأتيليه ويعد هذا المعرض بداية لمعرض متجول في المحافظات لإبداعات فناني أصالة من التشكيليين والحرفيين لنشر هذا الوعي وتنشيطه في أرجاء مصر.. بجانب معرض دائم للحرف في



الخيامية احد الفنون التي تحرص «أصالة» على احيائها

قاعة عرض جديدة أنشأتها الجمعية لأعضائها أطلق عليها شهر زاد بحي المعادي .. فهل ستحكي شهر زاد حكاية أصالة وفارسها للأجيال القادمة ؟ وهل سيتحقق الحلم فتغزو الحرف التقليدية المصرية أسواق العالم وتصبح من مصادر الدخل القومي وبالتالي تستوعب أيادي عاملة بأضعاف أضعاف من يمتهنها الآن ومعظمهم متوقف عن العمل وعاطل؟ .. وهل يتحقق حلم مدينة الحرفيين ، ذلك المشروع الضخم الذي تقدم به عز الدين نجيب ووافقت الجهات المعنية على تنفيذه بمدينة الفسطاط ؟ ..

فهل تصبح الأحلام حقيقة ؟.. ■

من ذخائر الكتب العربية

الشامل

في الصناعة الطبية لابن النفيس

بقلم
د. يوسف زيدان

مثل العنقاء حين تنفض عنها غبار القرون ناهضة من سبات طويل ، يطلع إلينا اليوم علاء الدين القرشي (ابن النفيس) بموسوعته الشامل في الصناعة الطبية بعد وفاته بسبعة قرون .

ومثلما تشرع العنقاء أجنحتها الأسطورية الرائعة محلقة في الذرى ، بعدما بعثت من رمادها ؛ يفرد العلاء أجزاء موسوعته الأربعين فيطير مرة ثانية في سماوات العلوم وتاريخها ، بعد قرون من انطمار الكتاب في النسخ الخطية ، وبعد تيه طويل وشتات بين مكتبات الشرق والغرب .





وكأنني الآن بالعلاء القرشي ، يبتسم في عليائه ابتسامة لا تخلو من اعتداد وابتهاج وسخرية ! محدثاً نفسه : ألم أقل للزمان : «لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدى عشرة آلاف سنة، ما وضعتها» ، فلم يصدقني أهل زماني .. فأين هم الآن ؟

وكأنني به .. وقد غلبه الوجد الذى، حسب قول الصوفية ، يكون : عند ذكر مزعج أو خوف مقلق .. أو أسف على فائت ! فإذا بعينيه وقد اكتستا بسحابة أسى ، وبحزن شفيف ، لما ضيعه الزمان من أجزاء موسوعته الأربعين .. ولا يخلو أساه وحزنه ، من أمل ورجاء، في ظهورها يوماً منزوية بين جنبات خزانة خطية عتيقة ، غفل عنها الأحفاد.

أربعون جزءاً من الشامل ضاعت ، وأربعون تخرج اليوم محققة على يد واحد من أحفادك أيها العلاء .. ليس واحداً ، بل هم نفر من أحفادك وجدوك قطعة من ذات مندثرة حق لها أن تبعث، وجدوك ورقة من كتاب الوعي الغائب حق لها أن تنشر وتذاع. فها نحن ننشر الأربعين من الشامل ونصبو لخروج الأربعين الأخرى فلا يبقى الشامل ناقصاً .

يرد العلاء : الشامل لن يكون ناقصا أبداً ! فقد تحسبت لأفعال الزمان ، فجعلت كل جزء من الشامل منفصلا عن بقية الأجزاء ، قائماً بموضوعه ومتصلا - في آن - ببقية الأجزاء مكملا لها حتى إذا ظهر جزء واحد ، دل ظهوره على بقية الأجزاء ، وحدا بكم - من بعدي - إلى التنقيب عنها ، والسعي وراء الاكتمال .

ويضيف العلاء من عليائه :

لنمض ، إذن ، قدما في نشر ما تحت أيدينا من الأجزاء الموجودة ، ولنأمل في العثور على المفقودة ولنجعل غايتنا في ذلك : «نصرة الحق وإعلاء مناره ، وخذلان الباطل وطمس آثاره» كما قلت في ديباجة شرحي على فصول أبقراط ثم أردفت : «وهو

من ذخائر الكتب العربية

أمر التزمناه في كل فن» .. فليكن التزام الأحفاد ، كالتزام الأجداد من قبلهم ولا يروعكم تعاقب الأجيال ، ولا يقعد بكم أنكم في زمن عربي ردىء ، فهذه أمة لن تخلو - أبدا - من قائم بالحجة ، وحامل للمشعل .. وقد دل النظر العقلي، واستقراء أحوال الازمنة ، على أنه : إذا تساوت العقول والهمم ، فمتأخر كل صناعة ، خير من متقدمها .

وتثير كلمات العلاء كوامن النفس ، وتهز القلب والعقل .. بل الكيان كله ، فيأخذني الدهش لحظة فلا أفيق إلا والعلاء يغيب عن تلك الحضرة البرزخية ، وهو يقول بنبرة هادئة ، تفيض رجاء وتحنانا :

أوصيك ، أوصيكم جميعاً ، بأن تقرأوا كتابيا .. لترون كيف كان عقلكم العربي يفكر .. ولا تحذوني حذو التكرار ، فهذا مستحيل لن يكون .. وإنما انظروا كيف كانت كتابة الأولين .. ثم اكتبوا من بعدها كتابة أبهى .. ولتعرفوا الدنيا بما كتبناه .. ولتضعوا الشامل أمام أعين العالمين .. من الدارسين لتاريخ العلوم .. والمهتمين بالتراث العربي / الإسلامي .. والناعين على العقل العربي والثقافة الإسلامية ، أولئك الذين صاروا في يومكم هذا : ناعقين بكل واد .

●●●

تلك هي السطور التي بدأت بها نشرتي المحققة لموسوعة علاء الدين (ابن النفيس) وهي النشرة التي يقوم بإصدارها اليوم ، المجمع الثقافي بأبو ظبي .

قصتي مع الشامل

بدأت في الانشغال بموسوعة (الشامل) منذ أواخر الثمانينيات ، أيام نشرت أربعة كتب لابن النفيس : المختصر في الحديث ، رسالة الأعضاء ، المختار من الأغذية ، شرح فصول أبقراط .. وقضيت النصف الأول من التسعينيات ، في جمع مخطوطات (الشامل) من مكتبات العالم ، وقضيت النصف الثاني من هذا العقد ، في تحقيق النص .

وفي أواخر التسعينات ، التقيت بالاستاذ الشاعر / محمد السويدي (أمين المجمع الثقافي بأبو ظبي) الذي تحمس لإصدار نشرتي المحققة لهذه الموسوعة العلمية في أجزاء تزيد عن الأربعين ، يزيد كل جزء منها عن مائتي وخمسين صفحة (بل يزيد بعض الأجزاء عن ثلاثمائة صفحة!) .

وقد بدأنا نشر (الشامل في الصناعة الطبية) بإصدار كتاب من تأليفي ، بعنوان : علاء الدين (ابن النفيس) القرشي ، إعادة اكتشاف . وهو الكتاب الذي اعتبرته فاتحة واختتاماً ، فهو ختام لسنوات طوال قضيتها في درس العلاء ، ساعياً لاستكشاف صورة هذا الرجل / العلامة ، والتجوال في مفاوز إبداعاته العلمية ، دون النزوع

الاختزالي الذي يلخصه - ويبتسره - في عبارة : مكتشف الدورة الدموية الصغرى .. واعتبرت الكتاب فاتحة لتحقيق موسوعة الشامل التي تعد ، بعد اكتمال صدورها : أضخم كتاب في التراث العلمي العربي ، تخرجه مطابعنا منذ بدء عصر الطباعة .

والشامل بلا منازع هو أكبر موسوعة علمية في تاريخ الطب العربي / الإسلامي ، بل الطب الإنساني بعامة . تحدى بها العلاء القرشي (ابن النفيس) قصر الزمان الإنساني ، ومحدودية القدرة الإنسانية! وقد كان العلاء امتداداً للتقاليد الطبية التي أرساها من قبله أعلام من نوع الرازي وابن سينا وكانت صلته بالأخير أقوى ، وشروحه على مؤلفاته أكثر غير أن إقدامه على تأليف موسوعة بحجم الشامل لا يفسره - فقط - كونه امتداداً لهؤلاء الأطباء العظام ، وإنما لابد من النظر في السياق التاريخي الذي انتمى إليه العلاء ولابد من تفحص اللحظة التاريخية التي عاشها . وفي هذا الإطار نقول :

لما اهتز كرسي الخلافة العباسية تحت وطأة الشيخوخة العباسية ، ومؤامرات القصور ، وتهديدات المغول .. بدأت المجالس العلمية تتسرب من بغداد إلى الشام ومصر . كان ذلك منذ مطلع القرن السابع الهجري ، الذي ولد العلاء في السنة السابعة منه - بقرية القرش القريبة من دمشق - ولما كان العام المشئوم في منتصف هذا القرن ، أعني سنة ٦٥٦ هجرية .. دخل هولاكو بغداد ، فطمس وجهها على نحو ، لم يسمح لها باستعادة دورها من بعد ذلك : أبداً .

وازدهر العلم في الشام ومصر ، غير أن الشام ابتليت آنذاك بالوقوع بين شقي الرحى : المغول .. والصليبيين . ولم يكن الحال في مغرب العالم الإسلامي بأفضل منه في الشام، فقد آذنت شمس الأندلس بالمغيب ، وتهددت بلاد المغرب ووهن منها عظم المجد والسلطان، فصارت نهباً لأطماع - وحملات - الإسبان وأحقادهم التاريخية ، مما دفع ببلاد المغرب إلى ناحية الانزواء الحضاري .

وفي العقود الأخيرة من القرن السابع الهجري ، وجدت القاهرة نفسها وحيدة ، وسط عالم يرتج ؛ فالمشرق الإسلامي - بلاد فارس وما بعدها - لا يزال يترنح من عنف الضربات المغولية ، التي توالت طيلة خمسين سنة ، ابتدأت بخروج جنكيز للثأر من محمد خوارزمشاه ، وانتهت بتأسيس الدولة الإسلامية المغولية على يد بركة خان حفيد جنكيز خان ، زعيم القبيلة الذهبية ، بعد انكسار ابن عمه هولاكو على يديه .. والمغرب الإسلامي كان قد انزوى ، وصار منطقة طرد حضاري واجتماعي ، وفزع منه الناس إلى مصر والشام ، مثلما التجأ العلماء والصوفية ، أمثال : ابن عربي ، التلمساني ، الششتري ، الشاذلي ، المرسي . ومن قبلهم : موسى بن ميمون الطبيب الفيلسوف ، ابن البيطار العشاب المعروف وغيرهما . جاء هؤلاء من المغرب إلى مصر ، من الشام جاءها - في حدود سنة ثلاثين وستمائة - علاء الدين القرشي .

وكان على مصر وهي الحاضرة الإسلامية الوحيدة التي ظلت مزدهرة ، أن تقوم بدور كبير لإنقاذ الكيان الحضاري العربي / الإسلامي ، فتعين عليها عسكريا صد فلول المغول وجحافل الصليبيين . كما تعين عليها سياسياً إحياء الخلافة الإسلامية ،

ولو كان إحياء رمزياً . كما تعين عليها اجتماعياً واقتصاديا أن تستوعب الهجرات الوافدة عليها من المغرب ، ومن العراق والشام .

وأدت مصر ما عليها في ذلك كله ، حتى دخل القرن الثامن الهجرى ، وقد استتب الحال في مصر ، وصارت القاهرة - آنذاك - أهم مركز حضارى في العالم الإسلامي ، وأكثر العواصم العربية أمناً وازدهاراً .. حتى أن ابن خلدون ، كتب - في أواخر القرن الثامن الهجرى - قائلاً إن من أراد أن يرى عز الإسلام فليذهب إلى القاهرة .

وكانت ذاكرة الأمة قد هددها الاندثار ، فقد ضاعت ألوف المخطوطات التي هي كتاب الحضارة ودمرت المكتبات في المشرق والمغرب . وكان المغول والصليبيون يحرصون على طمس التراث العربي / الإسلامي ، بالتخريب وإفناء المخطوطات .. وقد اشتهرت في التاريخ ، واقعة إفراغ هولاكو لمخطوطات بغداد في نهر دجلة ، لغسل ما دونته الأمة ، ومحو ما خلفته القرون .

من هنا ، كان على مصر أن تقوم بدور هائل لحفظ ذاكرة الأمة ، وانقاذ هويتها من الانطماس . فبدأ علماء مصر ، من بعد سقوط بغداد ، في تدوين المطولات والكتب الضخمة والموسوعات - في شتى مجالات العلم - مع أن الملاحظ في كتابات المصريين طيلة القرون السابقة على القرن السابع الهجرى أنها كانت تأتي دوماً ، على هيئة كتب صغار ، ورسائل ، ومساجلات علمية . لكن الحال تغير مع جهود علماء من أمثال علاء الدين القرشي (ابن النفيس) الذى وضع ما يقرب من عشرة شروح على موسوعة ابن سينا (القانون في الطب) بغية إعادة بعثها مرة أخرى إلى أذهان المشتغلين بالطب ، ومن هنا قال ابن فضل الله العمرى ، إن العلاء : هو الذى جسر الناس على قانون ابن سينا .

ومن بعد بعثه للقانون ، يعكف العلاء (ابن النفيس) على تدوين موسوعة الشامل في الصناعة الطبية فيضع المسودات بحيث تأتي في ثلاثمائة مجلد ، بيض منها ثمانين ثم وافته المنية - عن ثمانين سنة - سنة ٦٨٧ هجرية بالقاهرة ، وأهدى المجلدات الثمانين ، بل كل مكتبته وداره وأمواله ، إلى البيمارستان المنصورى بالقاهرة - مستشفى قلاوون حالياً - الذى كان مشرفا عليه، باعتباره أكبر مستشفيات القاهرة آنذاك ، ومحل عمل رئيس أطباء مصر وهو المنصب الذى شغله العلاء (ابن النفيس) حتى وفاته في السنة المذكورة.

وقريب من هذا (النمط) من الكتابة الموسوعية الحافظة للذاكرة ، وفي مجال آخر غير الطب : سوف يضع ابن فضل الله العمرى - المتوفى٧٤٩ هجرية - موسوعته التاريخية (مسالك الأبصار) فيؤرخ لكل شيء : الملوك ، العلماء ، الوقائع ويتحدث

عن كل شيء : الأقاليم ، النبات ، الحيوان .. إلخ . وقد كان ابن فضل الله - مثل العلاء القرشي - من أصل شامي ، ثم توطن في مصر وارتبط بها بقية عمره، حتى أن الناصر محمد بن قلاوون لما أراد أن يعاقبه ، نفاه إلى الشام .. ولما رضى عنه ، بعد حين ؛ أعاده إلى القاهرة !

وفى القرن الثامن الهجرى ، فى القاهرة ؛ سوف يكتب شهاب الدين النويرى المتوفى ٧٣٢ هجرية ، موسوعته الأدبية الهائلة : نهاية الأرب فى فنون الأدب . فيقع كتابه فى ثلاثين مجلداً تشتمل على خمسة فنون ، الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية . الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به . الثالث : فى الحيوان الصامت . الرابع : فى النبات . الخامس : فى التاريخ .. وقد لخص النويرى فى كتابه ، كتباً متوناً من التراث السابق عليه ، منها : إحياء علوم الدين ، اللمعة النورانية ، الملل والنحل ، فقه اللغة ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، القصيدة العبدونية (قصيدة ابن عبدون فى التاريخ) وشرحها لابن بدرون ، مباهج العبر .. بالإضافة إلى ديوان الحماسة لأبى تمام ودواوين الشعراء المتنبى ، البحترى ، البستى ؛ وغيرهم .. وكأنه بذلك ، يبعث هذه المتون للحياة مرة أخرى ، مثلما بعث العلاء قانون ابن سينا ، وجسر الناس عليه .

وفى القرن الثامن نفسه ، عاش فى القاهرة ، وكتب ، واحد من أغزر المؤلفين فى تاريخ الإسلام : ابن حجر العسقلانى . وكلنا نعرف ضخامة وأهمية ، مؤلفاته فى التاريخ وعلوم الدين ، وقد كانت لأعماله أصداء واسعة فى أرجاء الأرض . وقد حكى لنا المقريزى أنه حين انتهى ابن حجر من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) عمل حفلاً خارج سور القاهرة ، أنفقت فيه على الذبائح وحدها ، خمسمائة دينار ! ويوم الحفل وصلت وفود من ملوك الأرض تطلب نسخاً من الكتاب .. وهكذا صارت القاهرة هى المركز الثقافى الأول فى المنطقة الإسلامية الممتدة الأرجاء ، تلبية لحاجة حضارية ملحة ، شارك بالاستجابة لها علماء من كل فن .. كان منهم العلاء القرشى، الذى اشتهر بين معاصرينا بلقب : ابن النفيس.

وأخيرا .. فلابد من إشارة إلى عدم توقف هذا الدور المصرى ، التدوينى الحافظ للذاكرة ؛ عند حدود القرن الثامن الهجرى ، فقد تعداه إلى القرن التاسع الهجرى ، الذى عاش فيه بمصر مؤلف من أغزر المؤلفين مادة - فى التاريخ الإنسانى كله - أعنى به : جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ هجرية . ذلك الرجل كتب فى علوم اللغة المزهر وفى علوم الدين جمع الجوامع وفى التاريخ حسن المحاضرة .. وكلها مجلدات كبار ، وله بجانب ذلك مؤلفات صغار الحجم جاءت على شكل رسائل حافظة للملامح الثقافية فى تفصيلاتها ، وفى طرافتها فكتب : منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف ، در الغمامة فى الطيلسان والعمامة ، الدوران الفلكى على ابن الكركى .. ولم يتحرج ، وهو العالم الجليل عن كتابة أعمال عنوانها : الوشاح فى فوائد النكاح ، الجواهر الثمينة فى فضائل السمينة ، نواضر الأيك فى نوادر الـ (..) !

وهكذا كان السيوطى حلقة من حلقات المشروع المصرى لحفظ ذاكرة الأمة

من ذخائر الكتب العربية

وتدوين ثقافتنا في أجل الصفات وأدق التفصيلات . وهو ما نجح علماء مصر في تحقيقه ، بجهود تأليفية جبارة .. لولاها ، لكان تراثنا قد انطمس .

جاء الشامل إذن ، كحلقة كبرى من حلقات مشروع حضارى كبير تبنته مصر منذ أواسط القرن السابع الهجري ، سعياً لحفظ ذاكرة الامة وتدوين علومها .. ومن هنا ، كان علي العلاء رئيس الأطباء - أن يصوغ المعرفة الطبية في عصره ، صياغتها الأخيرة ، المكتملة ، بعد خمسة قرون من تطور الطب العربى / الإسلامى ، وعلى نحو لم يتم تجاوزه ، ولو بعد قرون من حياة العلاء .

مخطوطات الشامل

استغرقت فى جمع مخطوطات الشامل من مكتبات العالم عشر سنوات .. وكان ظنى المتفائل ، يرجح أن تكون أغلب النسخ الخطية من الكتاب محفوظة بمصر ، خاصة مع ما ذكره ابن فضل الله العمرى من أنه : شاهد المجلدات الثمانين فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة . غير أنها لم تكن سوى أمنية والأمانى كما يقولون : خوادع ! إذ لم يكن بمصر غير جزءين فقط من الكتاب كلاهما محفوظ بدار الكتب المصرية ، التى ذكر فهرسها البدائى المعمول به حالياً خمس مخطوطات من الشامل ثم اتضح لى أن ثلاثة منها ، مصورات . فكان رصيد دار الكتب المصرية من مخطوطات موسوعتنا ، هو الآتى :

١ - مخطوطة رقم ٦٠٥٧ / ل ، ناقصة من أولها وآخرها ، ومنسوبة فى الفهرس لغياث الغيث - وسوف تعود الكلام عنه بعد قليل - وتضم مقدمة الشامل ، والكتب الثلاثة الأولى من الفن الأول .

٢ - مخطوطة رقم ٦٨١ / طب ، بدون تاريخ . وهى تحتوى على الكتاب الثالث والعشرين من الجزء الثانى من الفن الثالث من الشامل وهو كتاب اللام من كتاب الأغذية والأدوية . والمخطوطة أوراقها ١٣٨ ورقة ، الورقة صفحتان .

٣ - مخطوطة رقم ٣/٤ ، طب .

٤ - مخطوطة رقم ٤٢٣ / طب تيمور .

٥ - مخطوطة رقم ٦٢٠ / طب طلعت .

والنسخ الثلاث الأخيرة ، ليست سوى مصورات من كتاب اللام الذى احتوت عليه المخطوطة المحفوظة بالدار تحت رقم ٦٨١ / طب .

ومع أننى قمت بفهرسة عدد كبير من المكتبات الخطية فى مصر ، حتى بلغ عدد ما فهرسته حوالى ١٨,٠٠٠ مخطوطة ، موزعة على تسع مكتبات ؛ غير أننى لم أجد مخطوطة واحدة من الشامل بين هذه الألوف من المخطوطات ، وفي غير مصر وجدت من مخطوطات الشامل ما يلي :

١ – نسخة مخطوطة بمتحف الآثار العامة (بغداد) برقم ١٢٧١ ، تقع فى ١٠٤٥ ورقة (الورقة صفحتان) وتضم هذه المجموعة ما يلى :

* الكتاب السابع من الجزء الثانى من الفن الثالث فى الأدوية والأغذية المفردتين التى تبدأ بحرف الخاء وهو يقع فى ١٠ مقالات وخاتمة .
* الكتاب الثامن فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الدال يقع فى ٦ مقالات وخاتمة .
* الكتاب التاسع فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الذال يقع فى ٣ مقالات .
* الكتاب العاشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الراء يقع فى ١٠ مقالات وخاتمة .
* الكتاب الحادى عشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الزاى يقع فى ١٩ مقالة وخاتمة .
* الكتاب الثانى عشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف السين يقع فى ١٣ مقالة وخاتمة (ناقص من أوله) .
* الكتاب الحادى والعشرون فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف القاف يقع فى ٢٥ مقالة .
* الكتاب الثانى والعشرون فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الكاف يقع فى ٣٠ مقالة .

وفى نهاية الكتاب الأخير ، كتب ناسخ المخطوطة عمر بن أبى بكر البدراوى الشافعى ما نصه : وكان الفراغ منه يوم الاثنين السابع من شهر رجب سنة ثمان وستين وتسعمائة .. ثم تتوالى بعد ذلك بقية الكتب التالية :

* الكتاب الثالث والعشرون : حرف اللام يقع فى ١١ مقالة .
* الكتاب الرابع والعشرون : حرف الميم يقع فى ٢٢ مقالة .
* الكتاب الخامس والعشرون : حرف النون يقع فى ١١ مقالة .
* الكتاب السادس والعشرون : حرف الهاء يقع فى ٣ مقالات .
* الكتاب السابع والعشرون : حرف الواو يقع فى ٥ مقالات .
* الكتاب الثامن والعشرون : حرف الياء يقع فى مقالتين وخاتمة .

.. وبانتهاء كتاب الياء ينتهى : الجزء الثانى من الفن الثالث من كتاب الشامل فى الصناعة الطبية .

٢ – نسخة مخطوطة بمكتبة ليدن (هولندا) برقم Mcccxv III 81 Col وتضم كـتب الأدوية المفـردة من الضـاد إلى العين على المنوال الذى ذكـرناه فى مخطوطة بغداد السابقة .

٣ – نسخة مخطوطة بمكتبة الظاهرية بدمشق ، حاليا : مكتبة الأسد محفوظة تحت رقم ٨٥٤٧ . تقع فى ٣١٩ من القطع الكبير ، وهى مشكولة بالكامل ، وتضم الكتب : من الهمـزة إلى الزاى على المنوال السـابق ذكره . أى أنهـا جزء من الجزء الثانى من الفن الثالث من كتاب الشامل .

من ذخائر الكتب العربية

ومع أن هذه المخطوطة ناقصة من أولها بمقدار عدة أوراق ، إلا أنها عالية الأهمية نظرا لدقتها .. وسوف نصفها بعد قليل ، عند الكلام عن النسخ التى استخرجنا منها هذا الجزء (الأول) من الشامل .

٤ - مجموعة مخطوطة بمكتبة بودليان بأكسفورد تحت أرقام Pococke 292-291-290 مجموع أوراقها ١٦٥٩ ورقة ، مؤرخة بسنة ٩٨٣ هجرية ، وتضم المجموعة : من الكتاب الأول إلى الكتاب الثامن والعشرين من الجزء الثانى من الفن الثالث من الشامل .. وقد اعتمدنا عليها فى التحقيق ، وسوف نصفها بعد قليل .

٥ - مجموعة أخرى بالمكتبة نفسها ، محفوظة تحت أرقام Pococke 248-356-539 وتشمل على ثلاثة كتب من الجزء الرابع من الفن الأول وهى على الترتيب : كتاب أسباب الوجع كتاب النبض كتاب البول ، والمجموعة مؤرخة بسنة ٦٨٧ هجرية ، وهى سنة وفاة علاء الدين (ابن النفيس) .

٦ - مجموعة مخطوطة بمكتبة لاين Lean الطبية ، بجامعة ستانفورد ، تحت رقم Z,276 مؤرخة بسنة ٦٤١ هجرية ، جاء فيها أنها كتبت على المؤلف .. بعد فحص المجموعة، تبين أنها تحتوى على ثلاثة مجلدات ، كالتالى :

* المجلد الأول يحمل العنوان مقال فى النبات ، المجلد الثانى بعد الأربعين من كتاب الشامل وهذه المخطوطة تبدأ بالمقالة الثانية والعشرين فى أحكام البقلة الحمقاء تليها مقالة فى البلسان مما يعنى أنه الجزء الخاص بالأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الباء وبذلك يكون هذا الجزء هو : الكتاب الثانى من الجزء الثانى من الفن الثالث من كتاب الشامل .. وهو كما بدا من العنوان الذى يحمله ، يمثل المجلد ٤٢ من الشامل بحسب هذه النسخة التى كتبت فى حياة مؤلفها .

* المجلد الثانى يحتوى على الكتاب الثالث من الجزء الثانى من الفن الثالث فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف التاء : يليه كتاب الثاء ثم كتاب الحاء .

* المجلد الثالث يبدأ بالنمط الأول من الجزء الثانى من الفن الثانى من كتاب الشامل .. ويتناول هذا النمط : الأصول الكلية فى صناعة الطب .

ونظرا لسوء حالة المجموعة ، فهناك العديد من آثار الترميم والإصلاح بها ويلاحظ أن أحدهم أعاد كتابة الكلمات الباهتة ، والتى كادت تختفى بفعل الزمن .

٧ - نسخة مخطوطة بجامعة كامبردج (إنجلترا) برقم «10، 1546 Or ، تبدأ بالباب التاسع فى علامات البول وهى بدون تاريخ ، ويرجح فهرس المكتبة أن تكون قد كتبت فى القرن الثامن الهجرى .. ونرجح ، نحن ، أنها بخط المؤلف .

•••

كان أول ما صنعته عند البدء فى تحقيق الشامل فى الصناعة الطبية هو رسم شجرة لأقسام الكتاب ، بحسب المخطوطات التى بين أيدينا ، وبحسب ما أشار إليه العلاء فى ثنايا الأجزاء الموجودة .. فظهر أمامنا ما يلى :

الفن الأول من الشامل :

وهو يشتمل على : قواعد الجزء النظرى من الطب . ويقع فى أربعة أجزاء على النحو التالى :

١ - الجزء الأول : فى علم الأمور الطبيعية . ويشتمل على مقدمة وسبعة كتب وهى : كتاب الأركان ، كتاب الأمزجة ، كتاب الرطوبات ، كتاب الأعضاء ، كتاب الأرواح ، كتاب القوى ، كتاب الأفعال .

٢ - الجزء الثانى . فى علم الأمراض .

٣ - الجزء الثالث : فى علم الأسباب .

٤ - الجزء الرابع : فى علم الدلائل . ويشتمل على ثلاثة كتب . الكتاب الأول فى الوجع . الكتاب الثانى فى النبض ؛ ويضم ثلاثة تعاليم : التعلم الأول فى ماهية النبض ، التعليم الثانى فى أجناس النبض ، التعليم الثالث فى أسباب النبض . الكتاب الثالث فى البول .

الفن الثانى من الشامل :

وهو يشتمل على أربعة أجزاء ، الجزء الثانى منها يشتمل على نمطين ، النمط الأول منها يضم ثلاثة كتب ، الكتاب الثالث منها موضوعه (الجراحة) أو : عمل اليد ، ويقع فى ثلاثة تعاليم :

١ - التعليم الأول ، فى الأصول الكلية .

٢ - التعليم الثانى ، فى الآلات .

٣ - التعليم الثالث ، فى أجناس العمل باليد .

وأغلب أجزاء هذا الفن (الثانى مفقودة ، وإن كانت هناك إشارات فى ثنايا كلام العلاء ، تفيد أنه كتبها بالفعل .

الفن الثالث من الشامل :

وهو يشتمل على جزئين ، الأول منها مفقود بالكامل ، والجزء الثانى موجود كاملاً ! وهو الجزء الذى يقع فى ثمانية وعشرين كتاباً ، فى الأدوية المفردة .

●●●

وهكذا تعين البدء بالكتب الثمانية والعشرين ، الكاملة ، التى تمثل الجزء الثانى من الفن الثالث .. وتأجيل الأجزاء الأخرى من الشامل على أمل ظهور المزيد من مخطوطاتها أثناء الفترة التى سيستغرقها نشر الكتب الثمانية والعشرين ومن بعدها الكتب المتفرقة من الفن الأول والثانى : وهى الفترة التى قد تمتد لعامين كاملين . ■

القرصان

قصة : محمد جبريل

رسوم : جميل شفيق



-١-

كنت واحداً من ثلاثة وقفوا على باب المطعم. قبل أن يسوقهم الشاب ذو العصابة السوداء على عينيه إلى الداخل. تظاهرت بالاستياء لأننا أنا وابني – طارق عمري – [illegible] إلى الطاولة التي أجلس فيها [illegible] القرصان يشغل كل الطاولات .

حين أبديت الرغبة في التغيير، قال المهندس في [illegible]

- اذهبي إلى القرصان [illegible]

أضاف الدهشة في ملامحي

- إنه مجرد مطعم

- في المهدية؟

- في المنشير .. على بعد كيلو مترات قليلة ...

تضاءلت بالنظر في المساحة الواسعة أمام المطعم. تحوط البيوت والأشجار بواجهاتها. وخلت إلا من ... سيارات قليلة في الموقف ومجموعات من السياح الأجانب جلسوا على الشاطئ [illegible] أو افترشوا الأرصفة أمام المدخل أشجار [illegible] قصيرة وما يشبه الأزيار الهائلة الحجم الأبواب الزجاجية ونقوش لزيناته على الجدار والنقوش [illegible] الخشب تعبر عن الحياة في البحر: سفن وقراصنة وصيادين وأسماك [illegible] دفعت الباب [illegible] الزحام إلى درابزين في زاوية وتقصي المكان. أدركت معنى التسمية لما رأيت عمال المطعم يرتدون زي القراصنة. ويضعون على الأعين اليسرى عصابات سوداء. وكل المطعم أسماك على الطاولة

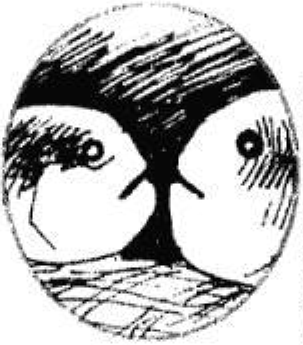
الهائلة المستطيلة، أسماك أعرفها ولا أعرفها، والظلمة الشفيفة يهبها الحياة أضواء خافتة، وتنقل القراصنة بين طاولة الطعام والترابيزات، والأحاديث الهامسة، وأصوات اصطدام الأطباق بالملاعق والسكاكين والشوك ..

هدأت النظرات المتطلعة، وانشغلت بتناول السمك الذى اقترحه الولد القرصان، قبل أن تسبق إشارة الولد قدومكم إلى الطاولة التى كنت أجلس عليها، وحدى ..

رنوت إليك بجانب عينى : هل أنت ؟

التقينا فى الصباح أمام كاونتر الاستعلامات فى فندق توب كابى بيتش تركت مفتاح حجرتى فى الفندق، وكنت تملأ بطاقة الإقامة. شئ ما اجتذبنى فى ملامحك، أو فى نفاذ نظرة عينيك ..

تحدثتم - باختلاط العامية المصرية والتونسية - عن محاضرة فى المكتبة العامة بالمهدية، وندوة فى المندوبية الجهوية للثقافة، وعن وسام أهداه لك محافظ المدينة، وزحام الفنادق، وكتب تبادلتم قراءتها، ورسائل تتوقع وصولها من القاهرة حدست أنك أديب مصرى،



تكتب القصة أو الشعر، اسمك منير. اندغمت فى سمعى بقية الاسم. قدمت إلى تونس والمنستير والمهدية لإلقاء محاضرة، والمشاركة فى ندوات. تشاغلت بتناول الطعام، وإن أصخت سمعى. أسمر البشرة ذو النظارة الشمسية - ناديتماه باسمه مولدى - أظهر التململ، وحرص على الهمس أما أنت والآخر ذو النظارة الطبية والصلع الزاحف على مقدمة الرأس والملامح الباسمة والحقيبة الجلدية التى لاتفارقه - تكرر قولك له : يا دكتور بدوى - فقد انصرفتما إلى الكلام كأنى لا أشارككم الجلوس على الطاولة. أهديته ديواناً شعرياً أو رواية، وأهداك كتاباً عن رواية الأرض. أذكر الاسم لأنى شاهدت الفيلم المأخوذ عنها ..

-٢-

تعددت لقاءاتنا فى مدخل الفندق، فى الصالة الواسعة، فى المطعم . ربما جلست فى ركن الصالة تتصفح الجرائد، أو تقرأ كتاباً نتبادل التحية بهزة الرأس . أطمئن إلى ابتسامتك الهادئة، لكننى أخمن انتظارك لصديقيك أكتفى بإيماءة التحية، وأتجه إلى المطعم، قبل أن أصعد إلى حجرتى أغادرها - فى الصباح - إلى ترميمات قصر الجم ..

-٣-

- صباح الخير ..

أربكتنى المفاجأة، فاكتفيت بهزة من رأسى حدست أنك سبقت صديقيك فى النزول إلى المطعم، أو أنهما لا يحتاجان إليه . وضعت الطبق، فوقه مكعب زبد وقطع جبن وحبات زيتون وعسل نحل وكروسون وشطيرتا خبز. اتجهت ثانية إلى الطاولة الزجاجية المستطيلة عدت بفنجان الشاى بالحليب ..

كانت أول مرة نجلس فيها بعيداً عن مطعم القرصان، أو الحديقة، أو صالة الاستقبال الواسعة، فنكتفى بإيماءة التحية. حاولت - أثق أن هذا ما كان يشغلك - أن أقول

شيئا، فاتحة للحديث بيننا ..

لاحظت كثرة تعاطيّ للأدوية في أثناء تناول الطعام أفتح حقيبة اليد الصغيرة أفتش عن دواء بالذات أنفض الحبة من الشريط ويدي تمتد إلى كوب الماء ..

قلت لنظرة الدهشة :

– مجرد أدوية مهدئة ..

نطقت ملامحك بالإشفاق :

– هل أشار بها الطبيب ؟

– طبعاً .. أعاني تعباً ..

قلت في ملامح الإشفاق :

– تجنبي الإرهاق .. تستغنين عن مشورة الطبيب .. وعن الدواء .

غالبت الارتباك :

– ربما لم أحسن التكلم ..

بدا التقاط طرف الخيط صعباً. مجرد الإيماءة تشير إلى معان غير مقبولة. ما أحياه أعانيه وحدي . حتى الطبيب قدم نصيحته دون أن يشغله ما قبل، ولا ما بعد..

كنت قد عانيت ما لا قبل لي على احتماله لم أرفع إصبعي من فوق جرس العيادة، حتى لا أنكص عائدة . تداخلت الكلمات ومحاولة التعبير بيدي وملامح وجهي ظل الطبيب على صمته حتى لم أعد أجد ما أقوله ..

وهو يتجه ناحيتي نظرة متأملة :

– هل أنت متزوجة ؟

قاومت الانفعال :

– هل هذه مشكلة سيدة متزوجة ؟

هز رأسه دلالة الفهم .

قال :

– لابد إذن من تصحيح الأمور ..

– ماذا تقصد ؟

– الزواج !

أهملت – لتفاهة سبب الطلاق – فكرة الزواج ثانية شغلني التنقل بين مناطق الآثار، وتأمل الحجارة المنقوشة والمقرنصات والمرمر المنحوت والنحاس والحديد المطروق والأجساد المبتورة وارتفاعات الرخام الأبيض والبازلت الأسود ، والتأكد من التواريخ، والإشراف على عمليات الترميم، والنزول على السلالم الدائرية، والسير في موازاة السور القديم، وفي الأقبية والدهاليز والممرات، وفي الشوارع القديمة ..



قلت :

– الزواج مشروع قديم .. مات !

– هذا ما تتصورينه ..

– جئت للعلاج وليس للنصائح الشخصية ..

– نصيحتي هي العلاج

قبل أن أغادر العيادة، اتجهت إلى البهو المفضي إلى المصعد. زادت الرعشة التي تملكت حتى أطراف أصابعي. ضاع السبب تمنيت لو أني أعود إلى البيت . أهملت الاحتفاظ بالمنديل، فمسحت العرق من جبهتي بظاهر كفي . توقعت – إن انتظرت المصعد – نظرات الفضول ، فاتجهت إلى السلم ترددت قليلاً على باب العمارة المطلة على شارع الحبيب بورقيبة. عدلت – بعفوية – ياقة التايير . تذكرت أن النظارة الشمسية مودعة في حقيبة يدي، فداريت تحير نظرتي، وملت من الشارع المجاور للكاتدرائية، أختصر الطريق إلى نهج سيف الدولة ..

قلت :

- هل أنت طبيب ؟

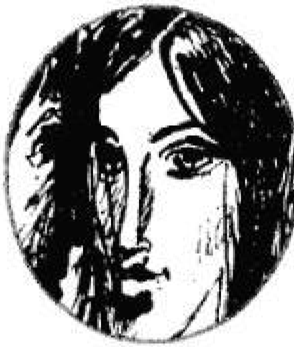
هززت رأسك بالنفي ..

- تصورت أنك كذلك ..

تركنا أقدامنا تجول بنا شوارع المنستير . اخترقنا الأسواق : أبطئ من خطواتي ، فتتأمل الزرابى والصناعات الخشبية والنحاسية ، وصناعة الجلود ، ومنتجات الخزف ، والآلات الموسيقية، والحرير ، والتطريز، ألمح بجانب عيني تأملك للنساء يرتدين الجبة والحائك، والعباءة الصوف . مقبرة الحبيب بورقيبة في نهاية ساحة هائلة مبلطة بالرخام، على جانبيها مئات القبور لمواطنين تونسيين . المبنى الرخامي، والقبة المذهبة، والملاحظات الهامسة، وومضات عدسات التصوير، وتلاوة القرآن من المصحف الكبير المفتوح على حامل ..

شدني اهتمامك بقراءات التاريخ والحكايات القديمة والسير والملاحم وما جرى في البنايات المتهدمة وحياة القصور قبل مئات السنين ومحطات القوافل بين مصر والمغرب والمعارك والدسائس والاغتيالات ..

قلت ونحن ننزل من



الدرجات الرخامية:

- أحب المنستير فأشرف بنفسه على إقامة مقبرته فيها ..

استوقفتك الكلمات :

- هو الذي أشرف على بنائها ..

- كما ترى فهى أفخم من قصور الدنيا ..

أردفت في تنبه :

- ظل يختار الرئيس الأول من المنستير ثلاثين عاما متوالية ..

وأعدت القول :

- كان يحبها !..

- ٤ -

لما دعوتك إلى زيارة مقابر المهدية، فلأنى كنت أثق أنك ستأتي وحدك . صديقاك من المهدية والمنستير. المواقع الأثرية : المقابر والقلاع والروابط والحصون والجوامع والقصور والبنايات القديمة، من مألوف حياتهم اليومية، يرونها، ويترددون عليها .

تنقلنا بين المقابر المطلة على البحر المتوسط . بقايا البوابة الحجرية القديمة كأنها المدخل إلى المدينة، أو المعبر إلى الجانب الآخر من البحر لم أتصور انشغالك بالتفاصيل الصغيرة. هل للصلة - كما قلت - بين أول مدينة فاطمية والغزو الفاطمى لمصر؟.. هذه المقابر أقيمت - بالفعل - على أنقاض أول مدينة للفاطميين. مثلت - لأعوام - خط الدفاع الساحلى عن الإمبراطورية الناشئة ..

اتجهت بنظرتك إلى أفق البحر :

- لو أن جدك رحل مع حملة الفاطميين إلى مصر .. ربما تزوج من مصرية هى جدتى .. وضحكت :

- نحن أقارب إذن ..

غالبت التردد :

- هل عملك أديب ؟

- تقصدين : هل الأدب هو العمل الذى أحيا منه ؟

أومأت برأسى ..

- أنا مهندس كهرباء .. لكننى أكتب القصة ..

ووشى صوتك بالضيق :

- من الصعب فى وطننا العربى أن يحيا المرء من كتابة القصة ..

حدثتنى عن صديقيك :

مولدى فروج طبيب فى المستشفى العام بالمهدية،

وشاعر . محمد البدوى ، أستاذ جامعي وناقد . صداقة الزيارة الأولى كأنها امتداد لصداقة زيارات سابقة. أبديت التأثر لقول مولدى فروج وهو يعتز بقطع إجازته والعودة إلى المستشفى : أوحشنى قول المرضى : الله يرحم والديك '. تكلمت عن إعجاب البدوى بقراءات المصادفة من القاهرة، هى أفضل مما تمتلئ به الدوريات والصحف داريت ابتسامة للرأى الذى نقلته عنه : ينبغى أن نستبدل بمواقع الخريطة الأدبية المصرية مواقع أهم كأنك تحدثنى عن خرائط القلاع والحصون والمقابر والروابط والقصور التاريخية. ما أمارسه ، وأتحدث عنه، فى عملي. ملأت البسمة وجهك لقول الموظف وأنت توقع فى دفتر الزيارات : أنت أول مصرى يزور المتحف زرنا قصر عبيد الله وشواهد قصر القائم بأمر الله والرباط والبرج الأثرى وقصر الجم وحوض المرسى القديم والجامع الكبير ومقامات الأولياء، وبقايا السور البحرى والمدينة العتيقة..

أعدت التسميات

- باب زويلة .. باب النصر .. السقيفة.. تركت هذه الأماكن فى القاهرة..

قلت لك :

- أعرف أن باب زويلة فى القاهرة يقتصر على التسمية .. باب زويلة عندنا يفضى إلى مدينة أكبر من المهدية ..

وأشحت بيدى إلى الوراء :

- المدينة القديمة لم تعد موجودة .. فى موضعها الآن زويلتان حديثتان ..

عندما أمسكت بالعدسة لالتقط لك صورة أمام نافورة المياه فى سقيفة الكحلا، داخلنى إحساس أننى أقف إلى جانبك، فى الصورة نفسها ..

- ٥ -

كيف حدث ما حدث ؟

تصورت - بعد عودتى إلى تونس - أنى نسيت المهدية وفندق توب كابى بيتش ومطعم القرصان والرباط وقصر عبيد الله والمتحف والسقيفة وقصر الجم والمهندسين والعمال وعمليات الترميم ..



كالمفاجأة، كاللقاء المصادفة فى انحناءة طريق، طالعتنى القامة الطويلة والعينان النفاذتان النظرة والصوت الهامس أستعيد لقاءات مقابر المهدية والرباط وقصر الجم والقرصان ومولدى فروج ومحمد البدوى وشوارع المنستير والأسواق القديمة والمقاهى وتلاوة القرآن فى مقبرة الحبيب بورقيبة . أسأل وتجيب . تسأل وأجيب . هذا هو ما أريده. لاصلة لنصيحة الطبيب بما أحياه . أرفض النصيحة لأنى أحب الوردة فى غصن، ولا أحبها فى صورة . أرفض السخف فيما قاله الطبيب . لا تشغلنى الفكرة . تشغلنى المشاعر التى تصخب فى داخلى . أفكر فيك لأن هذا هو ما أريده . أحبك لأنى أحبك . اختزلت المواقف والأشياء والسحن والتصرفات فى عينيك المتمعتين، الباسمتين، وأسئلتك، وإنصاتك الملح، واهتمامك بتلك البدايات فى المهدية، قبل أن تنتقل - بكل حياتها - إلى القاهرة .. ■



عمر الخيام

المفترى عليه!

بقلم :
حسن سليمان

لم يصل أحد من شعراء الشرق أجمع إلى الشهرة التي امتدت منذ وفاة عمر الخيام وحتى الآن قرونا طويلة وشهرة تثير الجدل ، وأظن أنها تلك الموهبة العبقرية التي أوصلته إلى العالمية واستمرارها عبر قرون وقرون ، فكلما مضى الزمن ازدادت شهرته جذوة واشتعالا ، ذلك لأنه كان ذا ثقافة شاملة ، وكانت علاقته أكيدة ووطيدة بوحدة العالم أكثر من بقية الصوفيين ، كذلك فاق باقي الفلاسفة والشعراء الصوفيين القدامى الأفذاذ الذين شغلوا الدنيا بتاريخهم العظيم، وبقوا على الدهر مثار جدل بين الباحثين فى مناهج حياتهم ، وتنوع مذاهبهم ، كابن سيناء ، والفارابى ، وابن عربى ، والمعرى ، والمتنبى ، وابن الفارض .

• عالم في الرياضيات وحجة في علوم الدين
• شعره يعبر عن الحكم والحقائق العلمية



إلا أن شخصية عمر الخيام ورباعياته، انتشرت شهرتها شرقا وغربا ، وتناولها الأدباء على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، ومازالت تتزايد هذه الشهرة كلما درسها أو ترجمها فرد جديد .

إلا أن قلة من المسلمين ينظرون إلى رباعياته المشهورة فقط دون باقى كتبه وعلمه وما وصل إليه فى مجالات كثيرة ، فيروه على أنه شاعر مستهتر فى دينه وخلقه ، شاعر حر النزعة .. اباحي المذهب ، مع أنه ربما كان صوفيا استخدم الخمر والمرأة كرموز مثل صوفيين غيره ، رموز إلى النشوة الإلهية التى تلم بهم ، فتضفى على النشوة الحسية . لكن مهما اختلف الحكم عليه بخلاف هذه القلة من الباحثين فى حياته . وبعد مماته وغيرتهم منه إلا أنه لا يمكن لأحد أن يقلل من موهبته وشاعريته الفذة التى لا تقل جمالا ونضوجا مهما ترجمت إلى لغات العالم أجمع ، فكثير من الشعر العربى حينما يترجم إلى اللغات الأجنبية تضيع موسيقاه النظمية ويفقد جل ومعظم ميزاته.

•••

إن الخيام نشأ فى نيسابور فى القرن الخامس الهجرى نشأة فاضلة حتى هذبته تلك النشأة حتى أصبح حكيما من حكماء الإسلام وفيلسوفا من الفلاسفة الاعلام ، بل أصبح علامة الزمان فى الطبيعة والرياضيات ، وعلم النجوم ، لذا ندبه ملكشاه السلجوقى لتعديل تقويمه السنوى عام ٤٦٧ هجرية ، وفى نفس الوقت كان الإمام عمر الخيام حجة فى الدين والفقه ، بل ويرجع له الفضل الكبير فى وضع أصول قراءة القرآن ، أكثر من هذا كان ضليعا فى اللغة العربية أكثر من باقى الصوفيين ، وشعره ورباعياته نجدها تتعلق أكثرها بالحقائق العلمية والحكمة والأخلاق ، وهذا وصل إليه بعد تجارب فى العلم وتمارين فى الصوفية ، والرباعيات كذلك رغم أنها فى ظاهرها قد تدعو الأشخاص السطحيين إلى التراضى ، إلا أنها تحث الناس على تنزيه النفس الإنسانية بتطهيرها من المؤثرات المادية



، أو الطمع الدنيوى الذى يعوقها عن الاعتقاد الحق والصلة بالواحد الديان.

لقد كان فى عصره أسير المعرفة المطلقة ومقدما دائما ومرموقا أكثر من علماء وقته .

نظر إليه بعين الإجلال والإعظام ، لا سيما عند ملكشاه السلجوقى الذى كان يجلسه فى كرسى خاص جانب عرشه . فهل كان لديه وقت لمعاقرة الخمر والجلوس مع القيان والشواذ .

هذه صفات الخيام التى عرفها وشهد بها تلامذته ومعاصروه ومن قرب عهده من المؤرخين الثقاة ، كالنظامى العروضى ، والإمام جار الله الزمخشرى صاحب الكشاف المتوفى عام ٨٣٨ هـ ، وظهير الدين البيهقى المتوفى عام ٥٤٥ هـ ، وشمس الدين الشهر زورى فى كتابه «تاريخ الحكماء» الذى ألفه بين أعوام ٥٨٦هـ ، ٦١١ هـ ، وابن الأسير المتوفى عام ٦٣٠ هجرية فى كتابه «الكامل» ، والإمام القفطى المتوفى عام ٦٤٦ هجرية ، والقزوينى المتوفى عام ٦٨٢ هـ .

ولم يذكر عنه أحد من هؤلاء الأعلام ، أنه كان ماجنا أو خليعا أو متحللا من قيود الفضيلة ، بل بالعكس أطال كثيرا من خصاله الكريمة الفاضلة .

●●●

وليس الخيام بأول مفترى عليه ، بل له نظائر من العظماء فى كل العصور ، وفى التاريخ القديم والحديث ، وهناك الجم من الشواهد على ذلك ، لكن هذا ليس مجالنا هنا .

وفى الحقيقة إن أغلب أدباء فارس وإيران ، وأكثر شعرائها القدماء كانوا صوفيين ، أو مائلين إلى سلك الصوفية ، ومعظم أشعارهم كانت مشربة من منابع المعرفة والتصوف وقابلة للتأويل ، ذلك فيما ذكروا فيه الخمر أو الساقى أو الناى أو الكأس ، حتى أنهم نبهوا الناس إلى أن هذا المنهج محاولة منهم فى التستر على تدينهم وحذروا الناس من الاعتماد على ظواهر أشعارهم ، حتى أن جمال الدين ابن يوسف بن مؤيد الكنجوى النظامى المتوفى عام ٥٩٦ هـ صرح فى رباعية بأن ما كتبه فى أشعاره من كلمة الخمر ، إنما كان مؤول بالغيبوبة ، ثم أقسم بالله بأنه لم يلوث شفتيه بالخمر طوال حياته ، مؤكدا قسمه قائلا : « إن حلال الله حرام على النظامى (يقصد اسمه) إن كان فمه تلوث بشرب الخمر » .

كذلك نبه هاتف الأصفهانى المتوفى فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، أن ألفاظ الخمر والمحفل والساقى والحبيب ، والمعشوقة والزنار وأمثالها التى تأتى فى كلمات أهل المعرفة الصوفيين وضمن أشعارهم ترمز إلى أسرار خفية تنتهى إلى سر واحد ألا وهو أن الموجود واحد وليس فى الوجود سواه .

لكن النظرة السطحية لشعر الخيام لدى الناس الذين ينظرون إليه على أنه ترغيب إلى السرور وشرب الخمر ، وهى الصفات العامة لشعر الخيام فهم لا يحسون بالموسيقى الباطنية للشعر ، وليس لهم دراية بالمعانى الصوفية .

لقد وصفه معاصروه بأنه قمة الحق ، وهو لقب فارس في عصره يطلق على العظماء للتبجيل وحكيم زمانه ، إنه كان يجالس الملوك كما كان عالما فى الرياضيات والفلك، بل وصل إلى المعادلة التكعيبية فى الجبر وحققها هندسيا ، أى قرب أن يصل إلى البعد الرابع فى الرياضة البحتة ، وهو بجانب ذلك كان عالما فى الفلك والطب والفقه ، وقد عدد رباعياته ، فبعض المؤرخين اعتبرها فى عدد لا يزيد على ثلاثين أو أربعين ذات دلالة مهمة فى النهضة الإسلامية ، وبعضهم زاد إلى ترجمة مئات من الفارسية ، وقلة من المؤرخين أكدت أن عددها يربو عن الألفين أو أكثر ، وهذا يجعلنا ننظر إلى أنه نسج على منوالها من الماجنين كثيرا ، إذ كان المعروف أن عمر الخيام ينسج هذه الرباعيات حينما كانت رأسه تكاد تنفجر من الرياضيات وعلم الفلك ، وهناك من الرباعيات ما يكشف لنا أنه وصل إلى اللانهائيات التى من الصعب أن يصل بها العقل المحدود فى هذا العالم حتى أنه صرح أن الكرة الأرضية كلها ستتلاشى وتصبح دخانا وشهبا يسقط فى هذا الكون .

إن مقولاته ورباعياته تعيننا على معرفة مذهبه الحقيقى لإظهار ما يمكن أن يكون منه صحيحا ، وفى الوقت نفسه ما لا يمكن أن يكون منها صحيحا

●●●

نجد معظم الباحثين من الشرق والغرب قد تعارضوا فى تحديد ماهيته فمنهم من وصف فلسفته قائلا : إنه ابيقورى النزعة والميول ، ومنهم من قال إنه إباحى ومستهتر بتعاليم الإسلام وأحكامه، ومنهم من أسماه وولتر ، ومنهم من وصفه بأنه معرى المذهب ، كما طعن فيه بعض الناس بأنه دهرى ، وزعم البعض أنه تناسخى وظن الكثير أنه باطنى ، وصفوه بالتشاؤم والجبرية ، وادعى آخرون أنه ثائر على كل شئ : الدين والأخلاق والعقل ، لكن ما سنذكره من رباعيات حاولنا أن نصل إليها بسند صحيح لايبقى وراءه أى شك أو تردد وأنه كان ينشأها فى خلوته ، ويكتبها فى عزلته التى نفى نفسه إليها ، لكن أحدا من معاصريه أو تلامذته لم يسمعه ينشدها وفى جانبه غانية من الحسان أو فتى من الغلمان ويترنم بها بين آلات الطرب والخمر .

ورغم عمق فلسفة الخيام وتبحره فى الدين والقراءة والهندسة والفلك والفقه فإنه لا أحد ينكر هذا غير قلة بينما شعره طغى على كل أشعار الصوفية ومقولات الصوفية حتى وصل إلى مستوى ابن عربى وجلال الدين الرومى ، وترجم إلى لغات العالم أجمع ، والمكتبات فى لندن لازالت تطبع رباعياته بواسطة



دور ونشر مختلفة كل سنة .

إن المشكلة التي وقع فيها بعض القراء العرب ترجع إلى اعتمادهم - ليس على الفارسية بل على ترجمة فيتزجرالد الشاعر الانجليزي لتلك الرباعيات التي نشرها في عام ١٨٥٦ م ، ونشرها في الشرق والغرب على أوسع نطاق ، واعتمد معظم أدباء الشرق على هذه الترجمة ، ولم يعرفوا عمر الخيام أبدا سوى على ضوء الرباعيات المترجمة على يد شاعر انجليزي صاغها شعرا ، بل نجد بعضهم قد أخذ منه ونظرها بطريقته الخاصة ، بهذا كاد يضيع المعنى الأصلي منها .

●●●

اسمه عمر وكنيته أبو الفتح ، ولقبه غياث الدين ، ووالده إبراهيم النيسابوري، وشهرته الخيام أو الخيامي لاشتغاله بهذه المهنة ، وأجمع أكثر المؤرخين على أن عمر الخيام ولد في نيسابور من أعمال خرسان في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر وتوفي قبل انتهاء الربع الرابع من القرن الثاني عشر ، لكنه لم يصل إلى سند تاريخي يحدد بالضبط ولادته ووفاته ، إلا أن صاحب «قاموس الإعلام» يقول : إنه توفي عام ٥١٥ هـ ، ويقول البعض : إنه توفي في٥١٧هـ الموافق ١١٢٣ م ، لكن الكل أجزم أنه توفي في نيسابور ودفن في مقبرة إمام زاده محمد المحروق ، وروى أبو الحسن أحمد عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي - وهو من تلامذة عمر الخيام - في كتابه الذي ألفه حوالي سنة ٥٥١ هـ وهو يعد أقدم كتاب تاريخي ، وأوثق سند علمي في موضوع عمر الخيام وحياته .

يقول العروضي في كتابه (على لسان الخيام) : « إن قبري سيكون في موضع تنثر عليه الريح الأزهار في كل ربيع » فاستبعدت نبوته ، ولكني علمت أنه لا يكذب أبدا وأن حدسه لم يخنه ، لأني لما وصلت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ ذهبت إلى ضريحه - كان له حق الاستاذية عليّ - فوجدت ضريحه في جنب سور حديقة ، وأشجار الكمثرى والمشمش بالحديقة قد نثرت عليه أزهارها ، بحيث توارى قبره تحت أوراق الزهور فتذكرت القصة التي سمعتها منه في «بلخ» فبكيت، وكنت لا أجد له نظيرا في تبسيط العلم للقارىء ، اسكنه الله فسيح جناته .

●●●

أما عن وفاته قال شمس الدين محمد ابن محمود الشهر زوري في كتابه «نزهة الأرواح .. وروضة الأفراح» : كان الخيام يتخلل بخلال من الذهب ، وكان يتأمل في كتاب «الإلهيات من الشفاء» (كتاب الشفاء لابن سينا) فلما وصل إلى الواحد والكثير ، وضع الخلال بين الورقتين ، وقام وصلى ثم أوصى ولم يأكل أو يشرب ، سجد وكان يقول في

سجوده : « اللهم إني عرفتك على مبلغ إمكاني فاغفر لي فانت أعلم بأن معرفتي كانت وسيلتي إليك» .

وقد أتى بهذه الحكاية الابرقوهي في كتابه «فردوس التواريخ» وغيره من الكتاب الايرانيين ، وهذه القصة دليل على حسن ختام الخيام النيسابوري .

●●●

نشأ الحكيم الخيام في نيسابور ، وتتلمذ على يد أستاذه الإمام الموفق النيسابوري الذي كان من أجل علماء فارس في عصره .

ويقول بعض الكتاب : إنه قد تتلمذ معه على يد الإمام الموفق أيضا أبو علي حسن بن علي الطوسي وحسن الصباح ، وكانوا أصحابا متحابين يساعد بعضهم بعضا في قراءة الدرس وحفظه ، وقد تعاهدوا جميعا على أن يعاضد بعضهم بعضا ويعينه في شئون حياته بعد فراغهم من دراسة العلوم ، ثم حققت الأيام المقبلة ما ظنوا ، إذ صار حسن الطوسي وزيرا لدى السلطان ألب أرسلان نجل طغرل بك التترى ثم وزيرا عند حفيده ملكشاه السلجوقي . ويقال : إن حسن الطوسي لقب بنظام الملك بعد تعيينه وزيرا وقد توفي سنة ٤٨٥ هـ . لكن كل معاصريه والمؤرخين أصروا إن كانت هذه الرواية صحيحة فالخيام رفض معونة أحد أو يعيش عالة على أحد وأظن إني أصدق هذا فلا يمكن أن يكون هناك بهذا القدر من العلم شحاذ وخصوصا أنه مات فقيرا .

وقد نعى بعض المؤرخين على أن نظام الملك أنجز وعده ووفى بعهده ، إذ استصدر الأمر السلطاني بتعيين حسن الصباح في منصب لدى السلطان ، وكان ذلك نزولا عند طلبه ورغبته .

روى صاحب قاموس الإعلام قصة تعيينه واليا على همدان ، ومما يذكر هنا أن حسن الصباح وضع فيما بعد مذهب القرامطة الباطنية الجهنمية التي كانت بلية عظيمة على الإسلام والمسلمين ، كما أسس الدولة الإسماعيلية التي دامت زهاء مائة وإحدى وسبعين سنة وقد حكمها ثمانية من أولاده ، وتوفي حسن الصباح سنة ٥١٨ هـ أو سنة ٥٢٠ هـ على الاختلاف بين المؤرخين وذلك في قلعة الموت .

وتجدر الاشارة إلى أن مذهب الباطنية كان في عهد الحكيم عمر الخيام ، وقد أخذ في نشر مبادئه في أنحاء إيران ، وذلك عن طريق زعامة حسن الصباح بعد اعتناقه هذا المذهب بمصر وعودته منها ، ولا يزال منذ ذلك العهد حتى عهدنا هذا تنشر مبادئه الهدامة ليس في إيران فحسب ، بل في أرجاء الشرق جمعاء ، ومن المعلوم أن رجال هذا المذهب ودعاته توسلوا بكل وسيلة ممكنة لبث هذه الدعوة وتدعيمها ، وذلك بإنشاء رباعيات تتضمن مبادىء الباطنية ووضعها باسم الحكيم الخيام بعد وفاته ، وإنشادها في محافل العامة ومجالس الناس باسمه . ■

رواية «الجلد» لكورزيو مالابارته:



الامريكيون يأكلون الناس ويدفنون السمك

بقلم
صافى ناز كاظم

فى عام ١٩٥٧ ترجم صلاح عبدالصبور رواية «الجلد» للكاتب الإيطالى «كورزيو مالابارته» ونشرها مسلسلة فى مجلة صباح الخير ، وفى الاحتفال بمرور ٢٠ سنة على رحيل صلاح عبدالصبور و٧٠ سنة على مولده، قام المشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة بإصدار هذه الترجمة فى كتاب مع تقديم لسمير فريد يستغرق ١٥ صفحة، بينما تستغرق الرواية نفسها ٣٥ صفحة فقط من الكتاب.

فهى رواية قصيرة جدا أشبه بشهادة لصحفى إيطالى صحب دخول جيوش الحلفاء تحت قيادة ضابط أمريكى. مدينة نابولى فى سبتمبر ١٩٤٣، بعد استسلام إيطاليا وهزيمة موسولينى فى الحرب العالمية الثانية وفى تعريفه للرواية كتب صلاح عبدالصبور يقول: «هذه الرواية يوميات مدينة أفسدت الحرب حياتها، مدينة كانت تقاتل فى بسالة، فلما دخلها المنتصرون أذلوا شعبها بالجوع والمرض والحطة ، فتردت المدينة فى الدعارة والتسول، والمدينة هى نابولى، أول مدينة إيطالية دخلتها

جيوش الحلفاء في سبتمبر ١٩٤٣، جيوش جائعة للشهوة والمتعة وهي تبحث عن متعتها في كل مكان، وتجعل من كل شبر تنزل فيه ماخورا، ومؤلف هذه الرواية هو كورزيو مالابارته الكاتب الإيطالي الشهير، ولد ١٨٩٨ ومات هذا العام - (١٩٥٧) - وقبل أن يموت كتب إلى البابا يطلب مغفرته على كتابة هذه الرواية الصريحة التي كتبها على صورة فصول مستقلة، تصور حياة مدينته التعسة بعد الحرب، ولكن هذه الفصول جميعها تتكامل في بناء روائي يترك في النفس إحساسا عميقا بكراهية الحرب، الهزيمة فيها والانتصار ومالابارته عرف الحرب معرفة وثيقة، فحين شبت الحرب العالمية الثانية كان يعمل مراسلا لإحدى الصحف في الجبهة الروسية، فلما استسلمت إيطاليا واعتقل موسوليني عاد مالابارته إلى وطنه كضابط إتصال بين حكومة پادوليو وبين قوات الحلفاء التي دخلت إيطاليا لتحررها تحت قيادة الجنرال كلارك الأمريكي، ومن انطباعات تلك الأيام التي صحب فيها الكاتب جيوش الحلفاء، كتب روايته هذه: الجلد».

★★★

إذن فهي يوميات حقيقية لكاتب حقيقي عن تجربة حقيقية، شاهد فيها عن قرب شديد سلوك القوات الأجنبية والأمريكية التي كانت تدعي أن مهمتها «تحرير» إيطاليا. والأسلوب التقريري، غير المزوق، الذي يبدو إخباريا محضا يقدم للقارىء - بلا رتوش - كيف يمكن لجنود الغزو المنتصرة أن تكون نقيضا صارخا لادعاء أنها صاحبة رسالة إنسانية.

ولايمكن في استعراض وعرض هذه «الرواية - اليوميات - الشهادة» أن نلخص أي شيء، لذلك سنضطر أن ننتخب مقتطفات دالة على بشاعة الواقع الذي أراد الكاتب أن يضعه تحت أنظارنا، ربما لكي لايتكرر، ولكي يكشف أكاذيب لافتات «التحرير» و«الإنقاذ» و «المعونة» و «المساعدات» التي تدعيها القوى الدولية حين تتلمظ بالتربص لخدمة مصالحها وشهوتها في السلب والالتهام، ولن يغيب علينا حين نقرأ الرواية أو المقتطفات، التشابه المقيت بين البارحة عام ١٩٤٣ في «تحرير» إيطاليا، واليوم ٢٠٠١ في «تحرير» أفغانستان!.

★★★

«كنت الضابط الإيطالي المرافق لجيش التحرير التابع للحلفاء في نابولي بعد أن استسلمت إيطاليا، وكنت أجوب المدينة يوما مع صديقي الكولونيل الأمريكي جاك هاملتون،

وكان منظرنا بملابسنا النظيفة ووجوهنا التى يبدو عليها أثر الشبع يبدو غريبا بين الأنقاض والجوع وبين أهالى نابولى الممزقى الملابس الذين تنهال على رءوسهم الشتائم بجميع اللغات واللهجات فى جيش التحرير! ورغم الأحوال السيئة التى كان يعيش فى ظلها أهل نابولى، إلا أن أحدا منهم لم يكن يبدو عليه شعور المهزوم فى حرب، فبعد سنوات من الحرب وبعد الاستسلام وبعد دخول جيوش الحلفاء، وبعد هذا المرض الذى يأتى فى أعقاب الحرب، مرض الطاعون، كان أهل نابولى لايحسون أنهم قد خسروا الحرب، وكان هناك مئات من الإيطاليين الذين جندوا مرة ثانية ليحاربوا فى صفوف الحلفاء بعد أن حاربوا إلى جانب الألمان، وكانوا يلبسون ملابس خاكية بريطانية، يغلب على ظنى أنها كانت لجنود قد ماتوا فى ميدان القتال، كان بعضها ملطخا بالدم وبعضها تفوح منه رائحة العرق.. أما أنا فقد كنت ألبس حلة ضابط بريطانى فيها ثلاثة خروق من أثر الرصاص، ربما حاربت هذه الحلة فى العلمين أو على تلال طبرق، وقد ذهبت بهذه الحلة لرؤية مواطنى من الجنود الذين لبسوا الخاكى للمرة الثانية، وصاح فيهم الجاويش حين وصلت: إنتباه! ووقف الجنود صفا واحدا منتظما، ثم نظروا إلى فى عاطفة حارة، كنت أنا الضابط الوحيد من أهل وطنهم الذى رأوه ..

★★★

«.. وخرجت إلى الشارع حيث وجدت صديقى الأمريكى ينتظرنى، وانطلقنا لنكمل جولتنا فى المدينة. كانت هناك جماعات من النساء العاريات المتزينات يتبعن جماعات من الجنود السود الأمريكيين، وكانت النساء يصحن فى الجنود السود: هاللو .. هاللو ياچو! وعلى الرصيف كان يجلس بعض النساء على مقاعد أمام المنازل، وكان البعض الآخر يطل من شبابيك المنازل ..... وأمام صناديق خشبية صغيرة كانت تجلس جماعات من الصبيان، ويدقون بفرشاتهم على الصناديق ويصيحون: مسح أحذية .. مسح أحذية ..... وكان الجنود يتحسسون الصبيان والبنات ..... والنساء يقلن فى صوت هامس للجنود: الولد بدولارين، والبنت بثلاثة، ووجدت فى نفسى رغبة عارمة لكى أسأل صديقى الأمريكى الكولونيل جاك هاملتون: أخبرنى بصراحة، هل تريد بنتا صغيرة بثلاث دولارات ....

...... لم تكن بى رغبة لإغاظة صديقى الأمريكى، فهو ليس مسئولا عن الحرب،

كما أنه من أحسن الأمريكيين الذين رأيتهم، كان يكاد يكون أوروبيا - (!!؟ هذه هي النظرة الأوروبية العميقة للأمريكيين حتى الآن - ص.ك) - ويتكلم الفرنسية بطلاقة، ويحفظ بودلير، ويؤمن بالمحبة المسيحية، ولكن رؤية مواطني أهل نابولي الجميلة بهذه الحال أفقدتني رشدي.

★★★

«... في خلال الأيام القليلة التي مرّت بعد التحرير كانت أسعار الرجال والنساء والأولاد تنخفض بانتظام، بينما ترتفع أسعار الدقيق والسكر والزبد، فمنذ أسبوع كانت الفتاة بين العشرين والخامسة والعشرين تعرض في السوق بعشرة دولارات، أما الآن فقد أصبحت بأربعة فقط، وربما كان انخفاض سعر اللحم البشري في نابولي راجعا لقانون العرض والطلب، فقد تدفقت من جميع أنحاء جنوب إيطاليا خلال الأسبوع مئات من الفتيات، كما عرض في السوق كمية كبيرة من لحوم صقلية البشرية، وفي كل يوم كان يتدفق على الحمير، وعلى عربات الجيب التابعة للحلفاء أطنان أخرى من اللحم البشري، فتيات قرويات فلاحات أغراهن سراب الذهب في نابولي، وهكذا انخفض سعر الإنسان في نابولي، وكاد يخشى من هذه المنافسة على اقتصاد المدينة ..

★★★

«... ولازلت أذكر أن إحدى السفن التي تتبع جيوش التحرير وصلت ذات مساء إلى ميناء نابولي، وبعد ساعات لم تكن الحمولة فقط هي التي تسربت إلى أزقة نابولي، بل لقد اختفت السفينة نفسها ولم يسمع عنها أحد شيئا، وظلت أزقة نابولي تضحك على هذا الحادث أياما ثم نسيته، وزاد انتشار الطاعون، هذا المرض الذي يأتي دائما في أذيال الحرب، وكان الدواء الوحيد الذي اهتدت إليه السلطات البريطانية والأمريكية هو أن تمنع القوات المتحالفة من دخول الأماكن الموبوءة في المدينة، فكنت تجد على الحيطان ممنوع الدخول، وتحتها رسم لعظمتين متقاطعتين في شكل صليب وبينهما جمجمة، وبعد قليل من الوقت أصبحت نابولي كلها مرسومة بهذا الرسم ومكتوبا عليها، ممنوع الدخول، ولما كان من طبيعة الناس جميعا، والجنود أيضا أن يحبوا كل ماهو ممنوع، ولما كان الناس لايعرفون مصدر العدوى، هل هو أهل نابولي، أم جنود جيش التحرير أنفسهم، فإن أحدا من الجنود لم يلق بالا لهذه التحذيرات، وظل اختلاط الجنود الظرفاء بأهل نابولي على أشده،

وكانت نوبة جنونية من السكر والرقص واللعب والضحك والاكل تنتاب جيوش الحلفاء وأهل نابولي، وخاصة النساء، كل ليلة.

★★★

« ... سألني صديقي الضابط الأمريكي ذات مساء ونحن خارجان من أحد المخابز نلتهم بعض الحلوى: - هل رأيت عذراء قط؟، - نعم ولكن عن بعد، - هل رأيت عذراء عارية عن قرب؟، - لا، وصاح بي: إذن اتبعني يا مالا بارته. كنت لا أريد أن أصحبه، فقد كنت واثقا من أنه سيريني شيئا مخجلا منحطا، وأنا لا أريد أن أرى الإنحطاط، ولا أسر برؤية الناس وهم ينحدرون إلى أسفل، واخشى ما أخشاه فى هذه اللحظات أن يلتفت أحد هؤلاء المنحطين إلى ثم يبتسم فى سخرية قائلا : لقد كنت أفضل الحرب على الاستسلام ثم الطاعون، فقبل التحرير كنا نقاتل لكى لانموت، أما الآن فنحن نقاتل لكى نعيش، وهناك فرق عميق بين أن نقاتل لتتفادى الموت وأن تقاتل لتعيش، فالذين يقاتلون لكى لايموتون يحتفظون بكرامتهم ولايجثون على ركبهم، وهم يهربون فى الجبال والغابات، ويعيشون فى الكهوف ويحاربون الغزاة فى ضراوة الذئاب، حربا شريفة وكريمة. والنساء، لايلقين باجسادهن فى السوق السوداء مقابل أحمر الشفاه والجوارب الحريرية والسجائر والخبز، بل يعانين الجوع وقساوته فى صبر وتماسك. لقد كان أهل أوروبا، قبل دخول جيوش الحلفاء من الأمريكيين والإنجليز، يحاربون فى شرف لكى لايموتوا، ولكى يحتفظوا بروحهم سليمة، ولكنهم بعد التحرير يحاربون لكى يعيشوا . ولكى يحتفظوا بأجسامهم لا بأرواحهم لكى يحتفظ كل منهم بجلده وعظمه ولحمه فقط. إنها لم تعد حربا ضد الطغيان، ولا حربا فى سبيل الحرية أو الكرامة الإنسانية أو الشرف، بل هى حرب خسيسة فى سبيل لقمة خبز أو خرقة من الملابس الممزقة أو حزمة من القش ليناموا عليها، ولكى يعيش الإنسان فهو لايتحرج عن شىء، قد يسرق ويغش ويدلس ويقود زوجته، وقد يجثو على ركبتيه ويلعق حذاء كل من يملك لقمة خبز أو قطعة سكر. كانت هذه الخواطر تدور بذهنى وأنا وصديقى الأمريكى ذاهبان لرؤية فتاة لاتزال عذراء، وكان على الباب حفنة من جنود الحلفاء بعضهم أمريكى وبعضهم إنجليزى أو بولندى، ووقفنا

فى الصف فى انتظار دورنا ...

★★★

«.... وقلت لصديقى الأمريكى ونحن خارجان: إن أصحابك يسرهم بلاشك أن تتردى نابولى فى هذه الهوة .... لابد أنكم مزهوون لأنكم قد قهرتم أمة إلى هذا الحد، فبدون هذه المشاهد كيف كنتم ستحسون أنكم منتصرون .... أخبرنى ياصديقى، لو انهزمت أمريكا في الحرب، ألم يكن من المحتمل أن تجلس فتاة من نيويورك أو شيكاجو مكان عذراء نابولى ليتفرج المنتصرون على فرجها مقابل دولار؟ وقاطعنى صائحا ... ولم أعن بمقاطعته، بل استطردت قائلا : إننى أفضل أن أخسر الحرب، وأن أجلس على مثل هذا السرير مثل هذه الفتاة المسكينة، عن أن أمد يدى لامتحن بكارتها لمجرد أن أحقق الإحساس بالنصر والفرحة المجنونة بالسيطرة.

وسألنى الأمريكى، ولكنك جئت أيضا فلماذا صاحبتنى.

وأجبته: لأنى جبان، ولأنى أريد أيضا أن أشعر بالمذلة التى يشعر بها المهزوم.....................................

.... كنت حينئذ أفكر فى أمر الاستسلام الذى أذاعه الملك منذ أسابيع قصيرة: (ياضباط وجنود الجيش الإيطالى، ألقوا بأسلحتكم وراياتكم كالأبطال تحت قدمى أول قادم). وإذا كان هناك مجال للسخرية فى هذا الأمر فهو كلمة (كالأبطال) .. الأبطال يلقون سلاحهم لأول قادم سواء أكان من المنتصرين أم المنهزمين .. وكنا جميعا نفكر كيف يمكننا أن نلقى أعلامنا فى الوحل ببطولة!

★★★

«.... وكنت أفكر أيضا فى كلمة (الإيطاليون الأوغاد) التى سمعتها كثيرا بالإنجليزية والفرنسية .... وفجأة ملأنى السرور لأننا وحدنا دون أمم العالم، الأوغاد والفقراء وأولاد الخنازير كما تقول القوات المتحالفة ....

★★★

«وقال الجاويش الأمريكى : ..... لسنا إيطاليين أوغادا ..... وقلت: لماذا تشتمنى دون سبب ... وصحت به: اسكت! كفى شتائم وقذارات، هل جئت إلى أوروبا لتشتم الناس أم لتحررها من الألمان؟ وأغمض قبضته فى وجهى وقال: كان ينبغى أن يموت أحد الإيطاليين بدلا من هذا الجندى الأمريكى، لماذا لم تخرجوا بمفردكم الألمان من بلادكم ؟ وسألته بدورى: ولماذا لم تظلوا أنتم فى بلادكم؟ كان ينبغى عليكم أن تتركونا نحارب الألمان وحدنا، قال الجاويش الأمريكى: هون

عليك! إنكم جميعا أيها الأوروبيون أشرار، إن الشيء الوحيد الذى يصلحكم هو أن تموتوا جوعا ...... إنكم أمة قذرة، وأجبته فى سخرية: أما أنتم أيها الأمريكيون فأمة من الأبطال، ومع ذلك فقد أمكن لعشرة من الألمان وصف ضابط أو يوقفوكم أمام الخليج ثلاثة شهور.....

★★★

«كان الأمير كانديا، وهو أحد أرستقراطى نابولى قد أقام حفلة عشاء، دعا إليها بعض أصدقائه الأرستقراطيين والكولونيل الأمريكى وأنا، والأمير بهذه المناسبة رجل نبيل حقا، يتمتع بمكانة مرموقة بين مواطنيه، وهذه المكانة قديمة ترجع إلى عام ١٩٣٨ حينما زار هتلر نابولى فرفض الأمير أن يحضر المأدبة التى أقيمت تكريما للفوهرر، وأصدر موسولينى حينئذ أمرا باعتقاله ثم بتحديد إقامته فى قريته، وقد ارتفعت مكانة الأمير حين رفض هذه المرّة أن يشترك فى الوفد الذى أختير لكى يسلم مفاتيح المدينة للجنرال كلارك الأمريكى، وقد قال الأمير إنه ليس من عادة نابولى أن تسلم مفتاحها لمن يغزوها، فلما قيل له إن الأمريكيين محررون لا غزاة، أجاب بقوله: كنت دائما رجلا حرا، والعبيد وحدهم هم الذين ينتظرون من يحررهم .....

★★★

« .... كان الجنرال كلارك الأمريكى قد أقام مأدبة عشاء تحية لمسز فلات، وهى سيدة أمريكية تعمل فى الصليب الأحمر، وتشرف على كثير من أعمال الخير، والجنرال كلارك رجل حازم وجاد، ولكنه يحب أن تزدان مائدته فى كل وليمة يقيمها بصنف غريب من الطعام، ولما كان حوض الأسماك فى نابولى مليئا بالأسماك الغريبة، فقد تعود الجنرال كلما زاره زائر ذو أهمية أن يزين مائدة الطعام بصنف غريب من السمك. وفى تلك المرة نادى الجنرال كلارك طباخه وأمره أن يختار نوعا غريبا من السمك كالعادة ليكون فى وسط المائدة، وقال الطباخ إنه لم يبق فى الحوض - بعد الولائم التى أقامها الجنرال لتشرشل وفشنسكى وغيرهما - إلا عروس البحر، وسأله الجنرال: وهل طعمها لذيذ؟ واجابه الرجل: لذيذ جدا ياسيدى الجنرال.، وجلسنا إلى المائدة فى انتظار الطعام، وتقدم الطباخ والسفرجى فوضعا صحنا كبيرا أمام الجنرال والمسز فلات، ثم تأخرا خطوتين، وما كدنا ننظر فى الصحن حتى شحب

وجهنا، وندت صرخة فزع من شفتى المسز فلات، وتراجع الجنرال فى مقعده ..... كان فى الصحن مايشبه فتاة صغيرة أكبر الشبه، وكانت عيناها مفتوحتين وشفتاها نصف مغلقتين، وكانت بشرتها الداكنة تلمع كما يلمع ثوب المسز فلات الغامق

....

.... وقال الجنرال كلارك فى صوت مرتعش: ولكنها ليست سمكة ... إنها فتاة صغيرة! وقلت : لا .... هى سمكة.

وسألنى الجنرال: هل أنت واثق أنها سمكة؟ .. سمكة حقيقية؟ وأجبته: نعم .. إنها سمكة إنها عروس البحر الشهيرة التى أهديت لملك إيطاليا من بحار الحبشة ... وصاحت مسز فلات: ابعدوا هذا الشىء الفظيع عنى، إنى لم آت إلى أوروبا لأكل الفتيات الصغيرات، وقال الجنرال كلارك : ولكنها سمكة ... ليست فتاة صغيرة...فقد أكد لنا مالبارته أنها سمكة ... وأجابت السيدة الأمريكية فى صوت بارد: إنى لا أصدق تأكيداتك، ولا تأكيدات صديقك مالبارته الإيطالى هذا .... هل جئت إلى أوروبا لأكل لحم الفتيات بالمايونيز؟ أرجوك ارفع هذا الصحن عن المائدة ... وصاح الجنرال كلارك فى الطباخ: إرفع هذه الفتاة ... أقصد هذه السمكة عن المائدة، وفجأة صاح أحد الجالسين على المائدة واسمه الكولونيل براون، وهو من كبار الوعاظ فى الجيش الأمريكى: ينبغى أن ندفنها ... هذه الطفلة المسكينة .. وصاحت مسز فلات: ماذا؟ وقال الواعظ: لقد قلت ندفنها.

وقال الجنرال فى دهشة: ولكنها سمكة ياصاحب القداسة؟ وأجاب الواعظ: أنتم تقولون إنها سمكة.. ولكنها تشبه الفتاة الصغيرة أشد الشبه ومن واجبنا أن ندفن هذه البنت الصغيرة .... من واجبنا كمسيحيين ألسنا مسيحيين؟ وقالت مسز فلات: إنى أميل إلى رأى صاحب القداسة، ووجدت الفرصة سانحة للتدخل، فقلت : ولكن ليس هناك مدافن للسمك فى نابولى ... إن أهل نابولى يأكلون السمك ويدفنون الناس، ولكنهم لايأكلون الناس ويدفنون السمك...»

★★★

لعل المناسبة التى جعلت الشاعر الراحل صلاح عبدالصبور يترجم وينشر هذه الرواية / اليوميات / الشهادة، عام ١٩٥٧، كانت وفاة مؤلفها الإيطالى «كورزيو مالابارته» فى ذلك التاريخ ١٩٥٧، غير أن ضرورة إعادة نشرها والتنويه عنها الآن لها من الأسباب الكثير ... الكثير .. ■



د. حسين مجيب المصري



د. بشر فارس



نقولا يوسف



سيد قطب

كلام عن بعض الأدباء

بقلم:

وديع فلسطين

لن يمل القلم من الحديث عن أصحاب الأقلام الذين تنوسيت منجزاتهم، سواء في حياتهم أو بعد انقضاء رحلة العمر، وأعتقد أن التذكير بهم يكاد يكون فريضة على المخضرمين من أمثالنا الذين أكرمهم الله بالتواصل مع هؤلاء الأعلام، فصار الوفاء لهم دينا في الأعناق يتعين الوفاء به، وهذا حديث عن بعض هؤلاء السادة النجب الذين لم ينالوا حقهم من تقدير الأجيال التى جاءت بعدهم.

الدكتور حسين مجيب المصرى

فى أسبوع واحد تم تكريم أستاذنا العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى فى مؤتمر أدباء الأقاليم الذى عقد فى الفيوم وفى جمعية الشبان المسلمين فى القاهرة، فتحامل المكرم على شيخوخته العسرى، وتلمس طريقه بعدما كُفّ بصره إلى حيث استمع إلى بضع كلمات قيلت فى الإشادة بتاريخه الطويل، فلما عاد إلى بيته محمولا، هاجمته نوبة من مرض السكرى، فسقط مغمى عليه ولم يفق إلا على وقع أقدام الطبيب. ولئن شكرتُ المكرمين جهدهم فى محاولة إنصاف هذا الرجل الضخم بمنجزاته العلمية الرصينة على مدى ستين عاما أخرج فيها أكثر من ستين كتابا باللغات الفارسية والتركية والأردية وثلاثة معاجم، فمازلت أعتقد أن فى عمره فسحة تستحق تكريما من مستوى الجامعات أو المجامع أو الدولة، فهو يستقبل فى ١٩ فبراير المقبل عامه السادس والثمانين، ومازال برغم ظروفه الصحية العاتية يواصل عطاءه، وأحدث ما صدر له (من إملائه) كتاب «القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية».

ومن المفارقات التى تبعث على الأسى الممض، أن هذا العالم الكبير سعت إليه أسباب التقدير والحفاوة من باكستان ومن تركيا ومن إيران بل من باكو فى الجمهوريات الإسلامية الروسية السابقة حيث عرفت الهيئات العلمية قدره فقلدته أعلى أوسمتها، وعقدت على سيرته عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه فى هذه البلدان، فأين مصر من هذا التكريم؟.

والدكتور حسين مجيب المصرى يجيد من اللغات تسعا، وهى الفارسية والتركية القديمة والأردية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية، عدا العربية طبعا، وهو شاعرٌ، فإن ترجم الشعر ترجمه شعرا سواء أكان ذلك بالفارسية أم بالتركية أم بالأردية.

وباعتباره أستاذا عتيقا فى الجامعات المصرية، فقد سرى عليه القانون الجائر الجديد الذى عاقب الاساتذة الذين تجاوزوا الستين والسبعين بإقصائهم عن النشاط الجامعى (ربما لأنهم خرّفوا!!) وقرّر لهم مكافأة لاتزيد على ٢٠٠ جنيه فى الشهر يتقاضى الخدم فى المنازل أكبر منها! .

والغريب أن طلابه السابقين اختيروا أعضاء فى المجامع، أما المصرى فقد قضى عشرين عاما يعمل خبيرا فى لجان مجمع القاهرة دون أن يتأهل لعضويته.

وكان الدكتور المصرى مرشحا لإحدى جوائز الدولة فى العام الماضى، فنال عند الاقتراع الأول ثلاثة أصوات، وفى الاقتراع الثانى صوتين، وذهبت الجوائز إلى مؤلفى الطقاطيق والأغانى الملاح!.

ومن طريف مايروى عن أستاذنا المصرى ، أنه دعى إلى إيران عند احتفال الشاه بمرور ٢٥٠٠ عام على قيام دولته، فألفى نفسه وسط عشرات

كلام عن بعض الأدباء

من الملوك والملكات، ورؤساء الدول الذين لبوا دعوة الشاه إلى هذه الاحتفالات الأسطورية، فداس عفوا على قدم سيدة في هذا الزحام واكتشف أنها ملكة الدنمارك! واصطدم بشخص آخر، فإذا هو رئيس دولة همام! ولولا المنزلة العلمية الرفيعة التي يحتلها الدكتور المصري، لما وجهت إليه دعوة إلى هذا المهرجان الامبراطوري الذي كان كل المدعوين إليه من السادة الحكام في القرن العشرين، ولم يشهد المهرجان من مصر إلا اثنان آخران هما السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ممثلا للرئيس والصحفي أنيس منصور.

ولست بسبيل سرد قائمة بمؤلفات الدكتور حسين مجيب المصري، وحسبي أن أذكر أن له عدة دواوين منشورة، وعشرة كتب عن الشاعر إقبال وآثاره وله مثلها في الأدب المقارن بين اللغات الشرقية الثلاث، كما أنه أشرف على عشرات من رسائل الدكتوراه والماجستير منها رسائل في الجامعة الأزهرية وجامعات الأقاليم.

ألا من سبيل إلى رفع الضيم عن هذا العالم الكبير قبل فوات الأوان؟.

الدكتور بشر فارس

صدر في دمشق كتاب يضم سيرة حياة الأديب الدكتور بشر فارس (١٩٠٦ أو ١٩٠٧ - ١٩٦٣) قام مؤلفه جورج عيسى بجمع طائفة كبيرة من شعره من الصحف والمجلات القديمة، بحيث يمكن اعتبار هذا الكتاب ديوانا للشعر الرمزي الذي كان بشر فارس من أوائل مبدعيه في الأدب العربي.

ينتمي بشر فارس إلى أصول لبنانية ويذهب بعض الباحثين إلى أنه ولد في لبنان في حين يؤكد غيرهم أنه ولد في مصر، وهي التي اختارها موطنا له، وكان يملك مع شقيقه أرضا زراعية أغنته إيراداتها عن طلب الوظائف، وإن كان حاضر في جامعة القاهرة، كما تولّى الإشراف على مجلة «المقتطف» لمدة سنة واحدة لانشغال محررها فؤاد صروف (١٩٠٠ - ١٩٨٥)، بإصدار الطبعة الأولى من مجلة «المختار من ريدرز دايجست»، واستحدث في المجلة بابا عنوانه «باب التعريف والتنقيب» تبارى في الكتابة فيه عدد من كبار النقاد والباحثين.

كان اسم الشاعر عند ولادته «إدوار»، ولكن شيخ العروبة أحمد زكي باشا (١٨٦٠ - ١٩٣٤) نصحه بتغيير هذا الاسم الأعجمي، فاختار اسم «بشر» أما الدكتوراه التي يحملها فهي من جامعة السوربون في باريس وكان موضوع رسالة الدكتوراه «العرْض عند

عرب الجاهلية».

ولبشر فارس عدة مسرحيات باللغتين العربية والفرنسية - وهي بدورها من الأدب الرمز- وقد جرى تمثيلها على المسارح الأوربية في باريس وسالزبورج وفيينا ومونسيتر، أما كتبه المطبوعة ماكان منها باللغة الفرنسية أو العربية فتتناول موضوعات شتى من الأدب والتراث والتصوير والفلسفة والقصص والدين وكذلك علم النبات، مما يشي بالطابع الموسوعي لاهتماماته.

وكان بشر فارس يزورني في مكتبي في «المقطم» ولما اكتشفت أنه يقيم في جوارى زرته في بيته وألفيته يطيل شعره ويرتدي عباءة مغربية، ويتأنق في مظهره ومأكله ومشربه، وكان يعيش بمفرده قبل أن يتزوج من سيدة كان يؤثرها باهتمامه قبل وفاته بفترة قصيرة.

ولأن الشعر الرمزي كان - ولايزال - «عسير الهضم» فقد أثارت قصيدته المنشورة في مجلة «المقتطف» بعنوان «إلى زائرة» اهتماما غير عادى من القراء في مصر ولبنان، إذ تصدى لها حبيب الزحلاوي معلنا في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) عن جائزة قدرها خمسة جنيهات أو مايعادلها بالليرة اللبنانية تمنح لمن يستطيع شرح معميات هذه القصيدة، فانبرى عدد من أصدقاء بشر فارس في مصر ولبنان لشرح القصيدة منهم زكي طليمات (١٨٩٧ - ١٩٨٢) والشيخ عبدالله العلايلي (١٩١٤ - ١٩٩٦) والشاعر اللبناني صلاح الأسير (١٩١٧ - ١٩٧١) والناقد مصطفى عبداللطيف السحرتي (١٩٠٢ - ١٩٨٣)، ومع ذلك لم يفز أحد منهم بالجنيهات الخمسة التي زعم الزحلاوي أنه يرصدها للفائز، فقد كان هدفه غير المعلن هو «الشوشرة» على بشر فارس حتى إنه تلاعب باسمه فسماه «نشر فهارس» في الكتاب الذي أصدره بعنوان «شيوخ الأدب الحديث».

والكتاب الجديد الذي أصدره جورج عيسى هو محاولة جادّة للتنبيه إلى بشر فارس وفهم مذهبه في الرمزية، كما أنه سجل يكاد يكون وافيا لكل مانظمه من شعر في هذا الباب.

ولأن بشر فارس كان ميسور الحال، وكان يطبع كتبه على نفقته الخاصة دون أن يستعين بناشرين، ولأنه لم يرزق بأبناء يهتمون بتراث أبيهم، فقد انتهى العمر الافتراضي لجميع كتبه دون أن تتاح لها فرصة الظهور في طبعات جديدة.

نقولا يوسف

مرت في العام الماضي خمسة وعشرون عاما على وفاة الأديب نقولا يوسف، فهو من مواليد دمياط في ١٢ مارس ١٩٠٤ ولقي وجه ربه في ١٣ أبريل ١٩٧٦.

ونقولا يوسف يستحق أن يطلق عليه

بجدارة لقب «العمدة الأدبى للإسكندرية» فقد اختار الإقامة في الثغر السكندرى بعد تطواف في المدن المصرية معلما في مدارسها ثم ناظرا لها. فعندما تقاعد عن العمل سخر نفسه لخدمة أدباء الثغر والأدباء الذين يترددون على الإسكندرية سواء في فصل الصيف أو في شهور السنة، فهو يستقبلهم ويسعى لدى فرع الإسكندرية لمجلس الفنون والآداب للتوصية بهم، وهو يقوم بدور التعارف بين الأدباء وهو يعرف بإنتاجهم الأدبى في المجلات والصحف وبفضله تواصلت شخصيا مع معظم أدباء الإسكندرية بل مع القاهريين الذين لم أكن قد عرفتهم بعد مثل الأديب إبراهيم المصرى (١٩٠٠ -١٩٧٩) والأديب محمد أمين حسونة (١٩٠٩ - ١٩٥٦) وغيرهما، ومن ناحيتى وصلته بمجلة «الأديب» اللبنانية الفاخرة لمحررها البير أديب (١٩٠٨ - ١٩٨٥) فصار من كتابها الدوبين. هذا إلى مراسلاته الواسعة مع الأدباء في مصر والخارج، ولو جمعت هذه الرسائل الأدبية لأضافت رفدا مهما إلى التاريخ الأدبى.

ولئن كان التخصص الأول لنقولا يوسف هو الأقاصيص، فأصدر منها «دنيا الناس» و «مواكب الناس» إلا أنه استهل نشاطه الأدبى برواية طويلة عنوانها «إلهام» طبعت مرتين. وقام بجمع ديوان أستاذه وصديقه عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) بمعاونة أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي، وكان الشاعر قد نشر في حياته سبعة دواوين، فاستكمل نقولا يوسف الديوان الثامن من قصائد الشاعر المتناثرة في الصحف والمجلات، وجاءت المجموعة الكاملة لشعر شكرى سجلا وافيا لحياته وآثاره الشعرية دون النثرية - وهي كثيرة.

ووفاء من نقولا يوسف لمسقط رأسه دمياط، فقد أصدر كتابا كبيرا عن «أعلام دمياط» فضلا عن مشاركته على مدى سنوات طويلة في الكتابة في جريدة «أخبار دمياط» المحلية، ووفاء منه للإسكندرية التي احضنته منذ ما استقر فيها. فقد أصدر عن أعلامها كتابا كبيرا جعل عنوانه «أعلام من الإسكندرية».

ولأن وفاة نقولا يوسف وقعت في عام ١٩٧٦ في مدينة القاهرة وليس في الإسكندرية فقد تخلف السكندريون عن إقامة حفل تأبين له، وهوما حاول بعض عارفي فضله من السكندريين مؤخرا إحياء ذكراه، فسعوا لدى الجهات الثقافية في تبنى هذه الدعوة مع إعادة طبع كتابه عن أعلام الاسكندرية في وقت تحتفل فيه العاصمة الثانية بافتتاح

مكتبة الاسكندرية، ولكن يبدو أن تعاقب السنين أنسي الناس أفضال هذا الأديب المعطاء.

وكنت أداعبه بقولي إنه شبيه «بالأستاذ الشبراوي» وهو بطل أقصوصة لنقولا يوسف لم تجمع في كتاب مع عشرات من الأقاصيص التي كتبها في سنوات عمره الأخيرة . وهذا الأستاذ الشبراوي كان يجتمع صبيحة كل يوم مع زملائه أرباب المعاشات في مقهاهم المختار، فإذا تخلف واحد منهم فتحوا صفحة الوفيات في الجريدة وقرأوا نعيه، ثم نهضوا لكي يشاركوا في تشييع جنازته، وهكذا أخذ عدد رواد مقهى أرباب المعاشات يتناقص مع مرور الزمن إلى أن جاء اليوم الذي افتقدت فيه البقية الباقية من رواد المقهى زميلهم الأستاذ الشبراوي وعرفوا من صفحة المناعي أنه انتقل إلى رحمة الله، فقاموا يشيعونه إلى مثواه الأخير.

حول رسائل سيد قطب

نشرت زميلتنا العزيزة صافي ناز كاظم - دون تعليق - الرسائل التي كنت أتلقاها من الأديب سيد قطب عندما كان يدرس في الولايات المتحدة في عامي «١٩٥٠و١٩٥١» . وكان سيد قطب يعمل في الإدارة الثقافية لوزارة المعارف العمومية وكان بفضل اشتهاره بأنه ناقد مجلة «الرسالة» يطمح في إعتلاء مناصب أعلى، وإزاء هذه المطامح قرر الوزير (ولعله كان الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهوري باشا) إيفاده إلى الولايات المتحدة في بعثة مفتوحة لايقصد منها الحصول على درجة علمية بقدر ما يراد لطالب البعثة أن يرى الدنيا ويوسع مداركه ويصبح مؤهلا للترقي في معارج الوظيفة الحكومية.

وعندما وصل إلى الولايات المتحدة في سان فرانسيسكو أولا ثم في واشنطن العاصمة، ألقى نفسه في عزلة تكاد تكون تامة عن الحياة الثقافية والفكرية في مصر، فرجاني أن أوافيه بكل ما أعرفه من أخبار الأدب والأدباء في مصر، وهو ماكان من شأنه أن أتحول إلى مايشبه وكالة «رويتر» للأخبار، وفي ذلك الوقت كان زميلنا الصحفي صالح البهنساوي المحرر بجريدة «الأهرام» يصدر مجلة أسبوعية لسباق الخيل اسمها «شيخ الصحافة» وكان يخصص الصفحتين الداخليتين من مجلته لتسجيل أخبار صغيرة ينقلها من الصحف الأخرى بحيث تغني القارىء عن مطالعة عشرات من هذه الصحف . وتبينت أن مجلة «شيخ الصحافة» تغنيني عن موافاة سيد قطب بما يعوزه من أخبار الحياة الأدبية، فصرت أبعث بها إليه أسبوعيا وكان يجد فيها ضالته، ولهذا حرص على شكري على إتحافه بهذه المجلة.

ثم إن سيد قطب ارتأى أن يقوم عند عودته إلى القاهرة بإلقاء سلسلة من المحاضرات عن السياسة التعليمية في

كلام عن بعض الأدباء

مصر في ضوء ما وقف عليه في بعثته المفتوحة في الولايات المتحدة، فكتب إليّ راجيا أن أفاتح أستاذي وصديقي الدكتور حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الأمريكية في أن يخصص منبر قاعة يورت التذكارية الكبيرة لإلقاء هذه المحاضرات فلما فاتحته في هذا الأمر قال لي: تعرف أننا جامعة أجنبية، فإذا أبحنا منابرنا لإلقاء محاضرات تنتقد سياسة وزارة المعارف العمومية فسيكون لذلك أثر غير حميد، وأبدى بالتالي اعتذاره من عدم قبول هذا الاقتراح. وهو ما نقلته إلى سيد قطب الذي أوضح أنه لايستهدف انتقاد السياسة التعليمية، بل إنه حريص على دعوة الدكتور طه حسين بك وزير المعارف العمومية لحضور محاضراته.

أما فيما يتعلق بالرسالة الخاصة بالشاعر محمود أبي الوفا، فقد تركها لدى بواب جريدة «المقطم» لتوصيلها إليّ، وكان قد أرفق بالرسالة كلمة موجهة إلى وزير المعارف العمومية (ولعله كان حسن العشماوي باشا) يناشده فيها تعيين الشاعر في وظيفة استثناء من جميع الإجراءات لأن أوضاعه الصحية فضلا عن تعليمه المتواضع مما يتعذر معه الوفاء «بمسوغات التعيين»، وقد نشرتُ هذه الكلمة في الجريدة بعدما وافق على نشرها رئيس التحرير كريم ثابت بك ومدير الجريدة خليل ثابت بك (وهو والد كريم)، وقد استجاب الوزير لنداء سيد قطب، وأمر بتعيينه مصححا في دار الكتب.

ولما عين الشيخ أمين الخولي (١٨٦٥ - ١٩٦٦) مديرا لدار الكتب، لاحظ أن الشاعر محمود أبا الوفا لاينتظم في الحضور إلى الدار في المواعيد المقررة. فنبه عليه بضرورة الانتظام، وهو ما كان متعذرا عليه بسبب ساقه المبتورة وضعف صحته، وعندئذ قرر فصله من الوظيفة لأنه يخالف النظم الحكومية الصارمة !

وكنت تلقيت من سيد قطب وهو في أمريكا مقالين يعلق فيهما على الأوضاع غير السليمة ومنها الرقابة المفروضة على الرسائل والتي كانت تسري على المراسلات بيننا، فنشرت هذين المقالين في «المقطم» ولكنني لم أحتفظ بصورة منهما ، ويمكن طبعا الرجوع إليهما بالبحث في مجموعة الجريدة التي أرجح أنها محفوظة في دار الكتب.

هذه بعض ملاحظات على الرسائل التي تكرمت زميلتنا العزيزة صافي ناز كاظم بنشرها في « هلال » ديسمبر الماضي، وفيها إيضاح لما قد يغمض فهمه على القراء. ■

التكوين

أنا والطبقة المتوسطة

علاء الديب

تحتاج الكتابة لمجلة «الهلال» العريقة ذات الشأن إلى قدر غير قليل من الشجاعة والثقة فى النفس ،خاصة إذا كانت الكتابة تحت عنوان «التكوين» الذى كتبه أساتذة كبار.

ولد الفقير إلى الله عام ١٩٣٩ مع الحرب العالمية الثانية. وشاء السميع العليم أن يمتد به العمر ليشهد بعينى رأسه على تليفزيون الـ C.N.N طائرات ١١ سبتمبر تخترق نيويورك وواشنطن لكى تعلن بدء طور جديد من المأساة التى نعيشها. كنت أحسب أننى عشت أياماً صعبة الآن أعرف أن القادم أصعب وأفدح. أيامي كانت قدر يغلى فوق نار غيرمقدسة ، لا تنضج ولا تنطفيء، تبقي الغليان مستمرا، حارما الروح من السكينة أو الاتساق أو التناغم.

عذاب «سيزيف» صاحب الصخرة، أم سير على صراط، أم هو مخدر يفضى إلى فوهة بركان، لم يكن الأمر دائما بهذه الفداحة أو الرعب، لكنها لحظات الوعى الشامل المتكررة ، التى يرى الإنسان نفسه فيها، ويرى الواقع المحيط به ، حادا جارحا ويحاول الهرب إلى الأحلام والخيال والأفكار المجنحة لكى تداوى الجروح وتجعل الحياة ممكنة يعزى الإنسان نفسه فيقول : هذه حال الدنيا، وهذا عصر تحولات .. و«خلق الانسان فى كبد» . لكن الفقير لله يفكر أن الانسان رغم كل شيء يستحق أفضل من هذا ، وعليه أن يبقى مستمرا فى البحث عما يستحق . أعتقد أن هذا هو جوهر الرحلة.. أومحيط الدائرة. محاولة لفض اشتباك طال به الأمد بين الذت وصورة الذات.

أحاول باستمرار أن اكتب منذ أكثر من ٤٠ سنة. كل ما كتبت يدخل تحت عنوان «التكوين» لم اكتب إلا عن نفسى فى محاولة للفهم أو التفسير ، أو للقبول .





مع الأحجار في مرسم آدم حنين

لهذا الموضوع الوحيد - الذي هو ذاتي - دائرة أكبر يتحرك فيها هي:

«الطبقة المتوسطة» . الطبقة اللغز في تاريخنا ، أعيش اللغز وأدعي معرفته . هذه الطبقة : صاحبة أكبر إنجازات ، وأفظع جرائم ، صاحبة الحل والربط ، وقليلة الحيلة، صاحبة المثل العليا ، والقيم المزيفة، الخائنة النبيلة .. صانعة العدسات الوحيدة التي أرى بها الواقع والمصير.

●●●

لكل حكاية بداية، وحكايتي تبدأ من البيت في المعادي «مازلت أقيم في البيت الذي ولدت فيه» . المعادي وهي إن كنت لاتعرف «كانت» صاحبة الأرستقراطية، والإنجليز، والباشوات ، وآخر المليونيرات اليهود . فيلات شجية، وشوارع أوربية. لها جمال استعماري عريق. حوالي اثني عشر كيلو مترا تفصلها عن القاهرة كلها كانت مزارع ومشاتل ورد ونخيل حتى دار السلام «دار الطين سابقا.. وحاليا الصين الشعبية» في نهاية الأفق يقع مصنع للحرير .. وآخر للعطور.. ! «يسكن دار السلام الآن في أحياء أغلبها عشوائية أكثر من ٣ ملايين نسمة».

تنقسم المعادي في ذلك الوقت الذي بنى أبي فيه بيته إلى قسمين . «معادي السرايات» و «معادي البلد» . السرايات حيث الأشجار والفيلات والعطر الأوربي الاستعماري العريق .. أما في معادي البلد، فيسكن خدم هؤلاء ، والسوقة «أصحاب السوق حيث لم يكن مسموحا بفتح دكاكين في السرايات». هناك بائعو الخضار، والمقاهي البلدية، وصالونات الحلاقة المتواضعة والمكوجية وماسحو الأحذية.

شركة أراضي الدلتا للمعادي شركة انجليزية ، يديرها ويتولى كل شئونها في ذلك الوقت كونستابل انجليزي «يهودي في الأغلب» مستر ليفي . يشرف على الإدارة المالية ويحصل الفواتير والأقساط. كما يشرف على النظافة ، وعلى سريان ماء النيل في كل القنوات . هو دولة وحده، وسلطة

التكوين

وادارة (لى صديق ظريف يفكر فى كتابة كتاب بعنوان مزايا الاستعمار !).

تبيع الشركة أراضي للبناء ، بتقسيط مريح، وبتقديم قرض للبناء وتسهيلات حقيقية . الأمر الذي دفع بالطبقة المتوسطة إلى غزو المعادي. وجئنا نحن لاننتمى «للسرايات» ولا «للبلد» فى بحرى الضاحية أقامت الطبقة المتوسطة لها عالما، منفصلا ومتصلا ، له قيم وتقاليد ومظاهر مختلفة عن أهل السرايات ، وأبناء البلد. باع والدى ما له من أرض قليلة وجاء مبكرا ، واحدا من غزاة الطبقة المتوسطة لقلعة السرايات حيث الباشوات والإنجليز.

غرس هذا الواقع مبكرا الوعى بالطبقة، وأهميتها ، وصراع وتحالف الطبقات . ظل معى هذا المعنى محيرا مثيرا دائما للتفكير.

●●●

تأثير أبي على حياتي تأثير مبالغ فيه كعقدة أوديب بالنسبة للأمهات. وبما لأنني طفله الأخير «بعد ثلاثة من الصبية وبنتين» مما أتاح لى علاقة قريبة معه وربما لأنه كان شخصية انسانية مميزة . له حضور هادىء مشع لاينسى ، يحضرنى كثيرا ومازلت اشتاق إليه . اسمه «حب الله» ، وله من اسمه عندما يكتب وينطق صحيحا الشيء الكثير. شاعر وفنان متصوف فى روحه وفى طريقة تناوله للأشياء .مهندس زراعى «خريج معهد دمنهور الزراعى العريق». تخصص فى الحدائق والبساتين . واخر



وظيفة شغلها «مدير حدائق القاهرة – وزارة الأشغال» يحب عمله ، ويقدسه «من الأمجاد التي ظل يفخر بها طوال حياته أنه اشترك فى تصميم وتنفيذ ممرات حديقة الحيوان المشغولة «بالزلط الملون» . إلى جانب هذا كان شاعرا هجر الشعر، له بعض أوراق فيها شعر الصبا ، ضاعت فى كراكيب البيت أو اظنه أخفاها أو أحرقها . قرأت معه على سجادة صلاته القرآن بصوته الخاشع الذى لاينسى . وحاولنا قراءة التوراة خاصة الأسفار الأولى. كان يجب «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير» للامام على كرم الله وجه والمتنبى وديوان الحماسة.

عريض الجبهة، كريم القسمات – يكسوه حزن نبيل شفاف كأنه غناء رعاة فى سهول ، ينقل إلى جليسة محبة وسكينة . يردد عندما ينزل عليه المساء فى بيته الجديد الذى ظل طويلا تحت الانشاء، أشعارا يحفظها لعلنى أذكر منها:

كعصفور فى يد طفل يهينها
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها
ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

وكان – رحمه الله – اذا ضحك يشرق وجهه وتدمع عيناه .

●●●

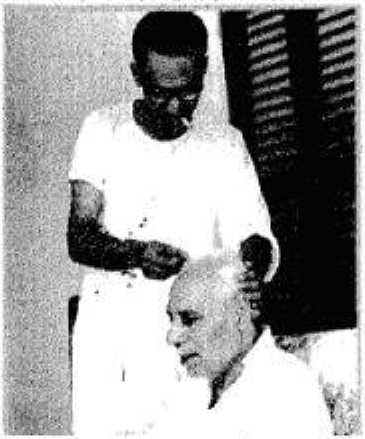
الصفة الأساسية التي لاتكتمل صورته بدونها هى صفة «الديمقراطية» كانت تجعله مختلفا تماما عن رجال عصره وأباء جيله . كانوا من حولنا يمارسون جميعا أنواعا من الديكتاتورية والبطش بالأولاد والزوجات والبنات إلا هو فقد أدار البيت «٨ أفراد» بديمقراطية وتحضر حقيقى ، رغم أنه فلاح من شبراخيت – بحيرة.

●●●

بدر .. شقيق وحبيب

شقيقى الأكبر هو الاستاذ بدر الديب . ومـــا أدراك من هـو بدر الديب . هو بالنسبة لى شقيق وحبيب ومعلم وقدوة وما شئت من صفات عاطفية وعقلية وأخلاقية كانت ومازالت كما بدأت حية، وحقيقية ومركبة إن شئت كأنها علاقة مع النفس .كما كان أبى ديمقراطيا فقد كان بدر هو نموذج «المفكر الحـر» «حلمـه الأوحـد وأسهامه الاكبر فى حياتنا الثقافية».

كنت اسير مـعـه، وحـدنا ، وأنا فى مطلع الصـبى ، وخطر لى أن أسـاله عن معنى كلمة «أيديولوجية» التى كنت أقرأها كثيرا فى الكتب اليسارية، ولا أستطيع أن آمسك بمعنى مـحـدد لهـا . كنت أريد أن أحـصل منه علي مـعنى مـحـدد، أو شـرح قـامـوسى ، فقد كنت ومازالت أعتقد أنه يعـرف كل شىء ، وأنه قـرأ كل شىء . أحالنى بدر ونحن نسير مـعـا نحو محطة القطار الي كتابين أو ثلاثة فى مكتبتـه . أظن أننى لم أقـرأها حـتى الان ، ولكننى اسـتـوعـبت الدرس : أن ابحث انا عن «تعريفى الخاص» أن افكر مستقلا لكى أفـهـم . من بدر الديب تعلمت الكثيـر . تعلمت الشـعـر، وحـفظت مـعـه «نشـيـد الإنشاد الذى لسليمان» – و «الموعظة على الجبل» وقرأت معه بعض اشعار «إليوت» وجلست إلى جواره وهو يكتب مـقـدمـتـه المهمة لديوان «الناس فى بلادى» لصلاح عـبـدالصـبـور . كـان عضـوا فى جمـاعـة للكتـاب والفنانين يجـتـمـعـون فى بيتنا، وهناك رأيتهم جميعا وأنا طفل: توفيق حنا ، مـحـمـود العـالم، يوسف الشـاروني ، مـصطفى سـويـف، منير عـبـدالحـمـيـد ، يوسف الحطاب ، ويهيج نصـار، وأقربهم إلى قلبى كان عباس أحـمـد رحـمـه الله ، صـاحب أجـمـل روايات الأدب المصـرى الحديث .. رواية البلد.



مع أبى فى مرضه الأخير

وضـعـنى بدر على الطريق ، وعلمنى متعة الكتابة ، ومحبة الفلسفة .

●●●

ليس جـديدا أن أصف لك المدارس وكيف كانت ، ولكن مدارس المعادى بالذات كانت تحظى لأسباب طبقية برعاية فائقة فى الدرس والهوايات . وقد جعلتنى البلاغة التى تعلمتها فى البيت «الخطيب الأول» فى المناسـبات المدرسـيـة . ألقى الشـعـر ، بل وتطور الأمر إلى التمثيل فكنت أقوم بالدور الرئيسى بالفصحى والعامية.. وتخصصت فى أداور الريحـانى «أمـشـيـر أفندى فى الفصل الأول من ٣٠ يوم فى السجن» كما تميـزت المدرسـة بتلك الإمكانيـات كـانت تعيش فى جو عـات من الصـراع الطبقى بين أولاد البلد وأولاد السـرايات مع مـا يستـتـبـعـه هذا من اتهـامـات «بالميـاعـة» والشـذوذ من ناحيـة ، وبالفحولة والرجولة من ناحية أخرى ومفاهيم مختلطة متباينة عن الجنس والنساء .

التكوين

انتهت مواهبي في فن التمثيل عندما انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية . وانتهت فترة الزعامة والتميز عندمادخلت إلى الزحام.

●●●

في أولى سنواتي في كلية الحقوق جامعة القاهرة ، ارتبطت بتنظيم سرى لم أستمر فيه طويلا فقد اعتبرت مثقفا يحب الجدل والكلام كما أن أملي أنا كان قد خاب فلم يتح لي التنظيم العمل مع عمال أو فلاحين بل كان الأمر يقتصر على لقاءات . ومنشورات مكررة. أهم ما في هذه التجربة كان لقائي بالسيدة «سعاد» التي كانت مسئولة عن نشاط الحزب في الكلية، كانت أول نموذج التقى به للمرأة الجديدة، المناضلة صاحبة الرأى ، والموقف. صنعت السيدة سعاد أو الرفيقة سعاد معنى خاصا للمرأة الحقيقية الجدعة في حياتي حتى الآن. لا أدري كثيرا عن حياتها الخاصة ولا الخلفية التي جاءت منها، ولكنها لم تكن تحمل زيف المثقفات ولا ادعاء الزعيمات كانت مؤمنة بقضية ، تعيشها في سلوكها وملبسها وطريقة تعاملها مع الناس ، أين ذهبت الرفيقة سعاد وماذا فعلت بها التقلبات والأيام.

انتهت التجربة بسرعة ، ولم يتم اعتقالي والحمد لله.

بقي في حياتي عطر سعاد الحقيقي، وكثير من معاني المعارضة ، والصلابة والشرف.

●●●

بعد ذلك بدأت الأسئلة ، تلد اسئلة . بدلا من حصولي على إجابات بدأت الأشياء التي أملك فيها يقيني تقل، وبدأت اشعر بمشاكل أخرى لانتمائي للطبقة المتوسطة. صارت قيم الطبقة تشكل عائقا في التعبير وعائقا في الاتصال.

يحصل الواحد منا - أبناء الطبقة المتوسطة -- على اكثر من حقه . أنظر إلى العارقين الكادحين حولك. هل تعرف كم يقبضون في آخر النهار؟ وكيف ينامون .وكيف تنام أنت ! فكر في المزايا المجانية الجسيمة التي تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الاطلاق . شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفي لكي يثير دائما نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة في بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت . وعن مصيرها الذي انتهت اليه ، وعن اختلافها عن «الطبقة المتوسطة ودورها مع الثورة الفرنسية. في ضوء هذا الشعور بالذنب الساذج والمستمر تفكر في ذلك التقسيم القديم الذي شق البلد نصفين: التعليم المدني، والتعليم الديني تفكر في العلاقة القديمة مع أوربا، والعلاقة الجديدة مع أمريكا ، تفكر في مشكلة «الذوق المصري العام» مم تكون وإلى ماذا يصير في ظل الغزو المضطرب للقيم والأشكال والمعاني الجديدة . رغم كل ما حل بالطبقة المتوسطة من مآس فهي الوحيدة التي تملك القدرة على التواصل وعلى التعبير . لكنها هي نفسها مضطربة متناقضة تعطى إشارات متباينة لاتزيد حياة الناس إلا ارتباكا.

على من يبحث عن هوية لمصر . أو عن فن لمصر أن يبحث عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التي أخذتها سابقا وحتى الآن.

●●●



تستدعى كلمة التكوين فى ذهنى اماكن .. اولها البيت .. البيت معنى نفتقده كثيرا فى حياتنا الان، كما التبس علينا معنى الوطن.

المكان الثانى هو مكتبة جامعة القاهرة. لا أدرى ماذا جرى للمكان الآن. ولكنه كان مهيبا ، هادئا ، خشبى الجدران نظيفا وهناك قرأت اغلب ما أعرف ، من الصباح حتى الغروب الذى ينزل على حدائق الجامعة «والاورمان» حيث الأشجار العريقة والنخيل السلطانى إلى جوارها يقع بوفيه كلية الاداب «٥٧-٦٠» حيث كان يلتقى كل ما فى البلد من أفكار وتيارات سياسية وثقافية وفنية.

المكان الآخر الفريد فى ذلك الوقت كان «شقة الدقي» شقة غالب هلسا ، الصديق والمعلم الاردنى . شقة غالب هى الأخرى مكان فريد دائم الحضور فى ذهنى. شقة صغيرة بسيطة ، تقع فى دور مسحور فى عمارة تطل على ميدان الدقى، وغالب صديق وأستاذ ، وهو فى نظرى حتى الآن واحد من أهم أصحاب التجارب فى الكتابة الروائية قيمة بعد نجيب محفوظ . تدارست معه كتابة القصة القصيرة، وأقول تدارست لأن واحدة من أهم خصائصه أنه كان يسمع ويسأل ويعلم عن نفس الطريق . هو كان يكتب باستمرار وهو يعيش وهو يأكل وهو يتكلم كاتب لايشغله شيء آخر.

كنا نلتقى كل يوم . أما كل أسبوع فكان يحدث اجتماع لمجموعة من الأصدقاء الكتاب. تكون لى فى هذا الاجتماع مايمكن أن اسميه «الضمير الأدبى والاجتماعي» كانوا مع حفظ المكانة والألقاب: إبراهيم منصور ، محيى الدين محمد ، سليمان فياض، بهاء طاهر ، عبدالمحسن بدر، أبو المعاطى ابو النجا، رجاء النقاش، محمد البساطى، فاروق شوشة. من كل منهم تعلمت ، ومعهم جميعا تكون الذوق والضمير الادبى .مع إبراهيم منصور خاصة تعلمت الترجمة واشتغلنا لشهور فى ترجمة نص بديع لهيمنجواى هو قصة «التلال كفيلة بيضاء» تعلمت من يومها أن الترجمة رغم الدقة والأمانة ..إبداع جديد.

●●●

محظوظ أنا جدا . لم تؤهلنى درجات ليسانس الحقوق لأن التحق بسلك النيابة «الفارق كما يقال دائما نصف درجة» لكننى دخلت إلى بلاط صاحبة الجلالة. دخلت إلى مجلة صباح الخير ، عندما كان يرأس تحريرها ساحر الشطرنج والرواية فتحى غانم «صديق شقيقي بدر الديب» كنت قد كتبت قصة أو قصتين لم يقرأهما أحد سوى صديقى فاروق الشريف ، ولكن الكاتب الكبير عاملنى كأننى شخص مهم . كتبت بابا صغيرا متناثرا فى صفحات المجلة تحت عنوان «جديد» أقدم فيه كتبا وتجارب فنية آخذها من المجلات الأجنبية وكتبت جرائم من الصعيد فى صورة شعر وقصص قصيرة، ورسم لى الفنان جمال كامل موضوعا عن قطار الصعيد ، وموضوعا عن الألغام فى الصحراء الغربية «رسمه الفنان آدم حنين» . دخلت إلى عالم مخصوص من الصحافة يقدر الفن ، ويفهم الأدب كانت الصحافة المصرية بعد التأميم تصارع لكي تبقى بعض تقاليد المهنة وسط تيارات الانتهازية والسطحية وما هو أنكى .. ولأننى محظوظ ، ومختلف الطموح فقد وجدت مكانا منعزلا اكتب فيه تحت عنوان «عصير الكتب» أقترح كتبا للقراءة واعلق عليها بكلمة أوكلمتين. ومع ذلك فقد طردتنى الحكومة من العمل فى بلاط صاحبة الجلالة مرتين بلا اتهام ولا

التكوين

إدانة ولا حقوق أو تعويض .كانت هزيمة يونيو قد علمتني بشكل واضح الفرق بين الأنظمة والأوطان وجاءت تجارب الطرد والإعادة ، بلا سبب وبلا اعتذار لكي تعلمني أن المؤسسات عندنا تفقد معناها وتقاليدها ولايبقى منها إلا الاسم والشكل الخارجي.

حاولت في هذه الأثناء أن أبحث عن عمل في بلاد الخليج . وحصلت على عقد متواضع جدا، وعلى تأشيرة دخول مكتوب عليها .. صالح للعمل في كل الأجواء،وبعد شهرين بالتمام والكمال وجدت على مكتبي خطاب استغناء عن خدماتي لمصلحة العمل والمصلحة العامة. وعدت من مغامرتي الخليجية مدينا «عرفت فيما بعد أن زميلا صحفيا قال لصاحب المال أنني من الشيوعيين الخطرين على الأمن»

وبذلك فشلت أولى وآخر محاولاتي لتحقيق بعض الاستقلال المادي أو تكوين «خميرة» مالية في أي بنك تعفيني من الرحلة الأزلية الأبدية بين أول الشهر وآخره . شيئا فشيئا تسرب إلى داخلي يقين بأننا نعمل عند الحكومة، ولاداعي لادعاءات المثقفين وحرية الأفكار.

حاولت أن أعبر عن هذه التجربة وماأحاط بها في كتاب مر أسميته «وقفة قبل المنحدر» . ولكن بقيت تجربة الأيام الستين رحلتي في الغربة كابوسا إنسانيا وفنيا ، ليس لأنها شيء في ذاته ولكن لأنها فتحت لي مغاليق الظاهرة الرهيبة التي



يعيشها ملايين المصريين الباحثين عن الرزق والمال،متنقلين في انحاء العالم العربي بين المدن والبوادي . متحملين أنواعا غريبة من المعاملة والتعامل مما يصنع ملاحم في العذاب والتصادم والكذب . وجميعنا يبقى كلمة العرب والعروبة كيانا آخر يفقد معناه . ويزداد مستقبله غموضا وارتباكا . نكذب ولانرى ماذا صارت تعني .نكذب ولانتحدث بصراحة، نكذب ونقول إن كل شيء على مايرام.

●●●

لا أدري لماذا تظل الكتابة رغم كل هذا الوقت ، صعبة ، وحالة نادرة؟ كنت أقول لنفسي إنها تحتاج إلى طهارة ووضوء، وأحيانا أقول إنها في حاجة إلى وقاحة وقسوة . اليقين الوحيد الذي يتأكد يوما بعد يوما: أن الكتابة .. الكتابة أمر بطبيعته نادر الحدوث . الحبر المسكوب والكلام المرسل ليس كتابة. الكتابة إضافة وخلق شيء جديد ..الشيء الذي اقوله فيما يشبه اليقين أنك تستطيع عن طريق «الكتابة — الفن» ان تمسك بأشياء، وأفكار أجمل واكثر خيرا وقيمة من الأشياء التي يمكن أن تصل إليها عن طريق العلم أو الفلسفة . في الفن الذي يتحقق عن طريق الكتابة.. حقيقة اكبر وفيه اتصال .

اخترت شكل الرواية القصيرة لكي أحاول الكتابة فيه.

أحب أن أقف عند كلمة «شكل» فهي من الكلمات التي فقدت بالنسبة لي معناها . كان من قبل مهما جدا . وكان يمكن التفكير فيه بشكل مستقل. أو البحث عنه، وتعمد القصد إليه.

فقد الآن معناه ، وتجردت الكتابة . فعل، وحاله ، ولون ونغم . لذلك أقول «الكتابة ..الكتابة» . فى كتاب صغير للكاتب «التشيكى الفرنسى العالمى» كونديرا : اسمه فن الرواية دراسة قريبة إلى قلبى وعقلى عن تاريخ الشكل الروائى، ومعنى الجنس الروائى . وفى قدرة الكاتب الأمريكى هنرى ميلر، الذى يوغل فى وصف الجنس ويستعمل الالفاظ الصريحة لاعضاء الجنس بلاغة عالية وقدرة على تخليص الكتابة من ملايين المخاوف والمحاذير ، وتحليق بها فى عالم أكمل واقعية من الواقع الظاهر . وفى كتابة عبقرى السينما السويدى أنجمار برجمان للروايات وسيناريوهات افلامه التى تعتبر اعمالا أدبية قدرة الاقتصاد والدقة تبلغ حد الإعجاز.

نعم الكتابة .. الكتابة صعبة ونادرة . لو سألتنى ماذا تريد من الكتابة الآن لقلت لك: أريد أن أمسك بلون السماء الزرقاء، أن أنقل تقلب السحاب الأبيض فيها، سابحا فى الزرقة والامتداد، أن اكتب ظل أوراق الشجر على الجدران يرسمها ضوء قمر. أقول : أما قرأت سورة الرحمن!

●●●

اذا كنت تعرف أن الفلسفة ثلاثة علوم : علم الوجود، وعلم المعرفة وعلم الأخلاق فلابد أنك تعرف أن فلسفة الوجود أدخل إلى الدين ، وأن فلسفة المعرفة صارت إلى العلم ، وتبقى لنا علم الأخلاق : مميزا محيرا ومتغيرا . ملغزا مثل الانسان . كأنه الهواء موجود فى أدق تصرف وأصغر اشارة . ومن أصيب مثلى بداء المراقبة ومحاسبة النفس فإنه يجد نفسه غارقا صباح مساء فيه وفى مشاكله . اذا



بيت قديم عائلة جديدة

كانت الأيديولوجيات قد سقطت جميعا. وسيطرت البرجماتية «الفلسفة النفعية الوحيدة المعتمدة فى أمريكا» على العالم كله، وصنعت لهما من الارهاب والتطرف عدوا تحاربه . فهل سقطت ايضا كل المعانى المطلقة . هل سقط العدل والخير والحق والجمال؟

فى رحاب فلسفة الأخلاق، تاريخها وتطورها، أجد السلوى والملاذ.

وأخيرا .. اذا كان المستقبل يدخل تحت باب التكوين فاسمح لى أن أقول إن كل ما أريده فى النهاية أن اكون رجلا صالحا بجد ، وأن أشن حربى الخاصة التى لا هوادة فيها ضد : الكذب والنفاق أبشع خصائص الطبقة المتوسطة. ■

ملاحظة تاريخية

طالعت فى عدد ديسمبر ٢٠٠١ من مجلة الهلال القصيدة التى نشرها الشاعر اللبنانى الأستاذ سليم الرافعي تحت عنوان «عظيم ثقيف» ويعني به سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وكلنا نعلم أن خالدا من مكة وهو من بني مخزوم ووالده الوليد بن المغيرة الذى كان يعرف بسيد قريش ، أما عظيم ثقيف فهو عروة بن مسعود الثقفى ، وقد نزل قول الله عز وجل فى سورة الزخرف (وقالوا لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم) فقال المفسرون إن القريتين هما الطائف ومكة والرجلين هما الوليد بن المغيرة عظيم قريش وعروة بن مسعود الثقفى عظيم) ثقيف التى تسكن الطائف . وقد روى بعض المؤرخين أن خالدا هو الذى هدم الأصنام الخاصة بثقيف ، وهذا لايجعله يحمل وصف «عظيم ثقيف» إذ لا صلة نسبية بينه وبين ثقيف ، ولقب سيف الله المسلول يغنى عن أكبر وصف . وأذكر بهذه المناسبة قول شاعر النيل حافظ إبراهيم فى خالد حين عزله عمر بن الخطاب عن القيادة ولم تحرك بنو مخزوم ساكنا :

يقول :

فأعجب لسيد مخزوم وفارسها
يوم النزال إذا نادى مناديها

يقوده حبشى فى عمامته
ولا تحرك مخزوم عواليها

وللشاعر اللبنانى الكبير أصدق تحياتى .

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين - دقهلية

الحجر

ألق حجر الغضبة ألق
إن الله معك سيلقى

إن رياح الجنة هبت
صوب نارك نحو الشرك

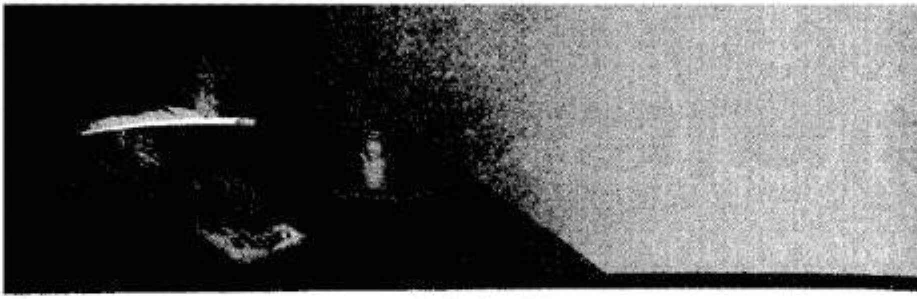
لا تتأخر بل وتقدم
إن الكفر منك سيبكى

كل العالم يعرف أنك
بطل صلب صاحب حق

أجعل أرض القدس قبوراً
للمحتل الغاصب أرضك

إن القدس لأجمل تاج
راح يزين وجه الشرق

أحمد نادى بهلول - أسيوط



الإشادة بالتطوير

وعدت نفسى أن أقتنى عدد الهلال الجديد ، لأتابع جهودكم على هذا الصعيد ،وكنت قد انقطعت فترة عنه بسبب ظروف طرأت . وهكذا أقبلت على قراءة عدد شهر ديسمبر ٢٠٠١ ونحن فى رحاب الشهر الكريم .

أود أن أهنئ« أسرة تحرير المجلة ورئيس تحريرها على هذا العدد . لقد قرأته من الغلاف إلى الغلاف ، وتأملت إخراجه الفنى ، فوجدت «صحبة» تغذى العقل وتمتع العين . وقفت أمام كل موضـوع فيه ، وأمام الموضوعات مجتمعة ، فسرنى إتقان «التوليفة» من جهة ، وما خرجت به من كل موضوع . وتجمع لدى عدد من الأمور تستحق أن يدار حوار حولها . وهذه إحدى وظائف المجلة الثقافية .

أعرب عن تقديرى وأبعث تحياتى وقد ودعنا الشهر الكريم واحتفلنا بعيد الفطر فى ظل ظروف صعبة تحيط بالأمة . وأتطلع إلى فرصة لقاء فى رحاب المجلة بإذن الله .

حفظكم الله والسلام وكل عام وأنتم بخير .

د. أحمد صدقى الدجانى – القاهرة

عروبتنا تناديها

عـــروبتنا تناديها هلمـــوا ... إلى التوحيد فى جمع فضموا

هنا الجـولان فى صبر عميق ... تعانى القيد كم ينهـال هم

تناديكم ألم تقضـوا عـهـودا ... كساها الخير عزا فيه عزم

وذى لبنان في وجع مـــرير ... ترى ينتـابهـا هلع وهدم

بها الزيتون قد أمسى صريعا ... وروض يصطلى نارا ، ويم

وأطفـال العـراق تذوق مـوتا ... فحولهمو نرى الأعداء عموا

وذى بغـداد كم ترنو لمجـد ... يعيد بهاءها مافيه لوم

وفى حـقـد جـماهيرية كم ... تلاقى من جحـود فيه لؤم

فـيـهـا فى طريق الحق نسعى ... فـلا يأتى لنا خسف وشؤم

نضم صفوفنا نختال جمعا ... نعيد لنا حمى الأقصى فنسموا

فـتلقـانا عـروبتنا بفـرح ... وتزدهر الأقاحى ذى وتنمـو

زكريا عبدالمحسن – أسيوط

أين كشاف مجلة الهلال؟

ذهبت إلى قاعة الدوريات بدار الكتب المصرية ، للبحث عن بعض المقالات التي نشرت في أعداد مجلة الهلال في الأربعينيات من القرن العشرين ، ولكني لم أجد كشافا يسهل على مهمتي .

وعندما استفسرت عن ذلك أفادني الموظف المختص بوجود كشاف أصدرته دار الهلال في مجلدين يغطى الفترة من صدور الهلال في سبتمبر ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٣٦ ، فتمنيت أن يصدر كشاف يغطى الفترة التالية لسنة ١٩٣٦ حتى اليوم ، خاصة أن دار الكتب قد أصدرت كشافا في عدة مجلدات عن مجلة الرسالة، يغطى كل فترة صدورها (١٩٣٢ - ١٩٥٢) فإذا علمنا عراقة مجلة الهلال وتاريخها الطويل في خدمة الفكر والثقافة العربية على مدى أكثر من قرن من الزمان ،أدركنا مدى أهمية مثل هذا الكشاف .

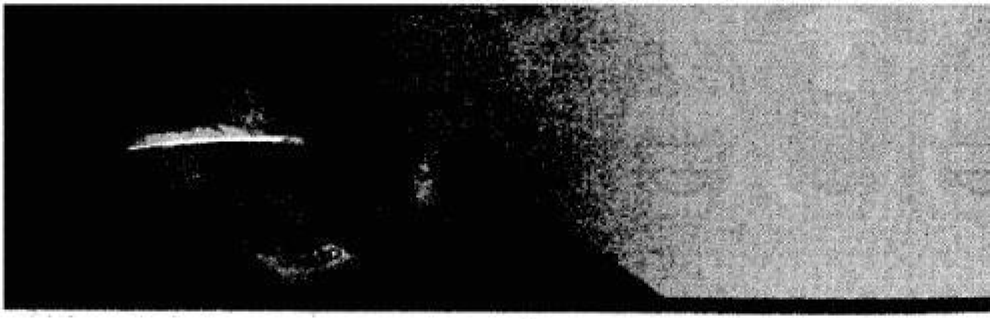
حسام عثمان جودة
القاهرة - مدينة نصر

الهلال : لقد جاءت رسالتك في أوانها، حيث تقوم دار الكتب حاليا بطباعة مجلدين من كشاف الهلال ويصل عدد صفحات كل مجلد ٦٠٠ صفحة ، يغطى الفترة من سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٥٤ وسيصدران قريبا ونأمل أن تتلوه الفترة المتبقية من أعداد الهلال ، وهو جهد عظيم لدار الكتب والوثائق القومية في خدمة الثقافة والأدب بشكل عام .

ماذا تبقى..؟

تبت يداهم ..
أحرقوا أغصان زيتوني ،
وورد حدائقي ،
لكن أرضي لن تبور
حتماً ستنبت ...
في المدى من دمعها
بستان نور !!

يا حفنة الأوغاد
لا تتجبروا .. وتذكروا
أن احتمالي مثل بركان صبور
فالبحر يغلي ، والمرايا
لم تعد فيها الصبايا
ترتدي ثوب الحبور !!
والملح يكسو معطفي



والجرح يسكن ..
فى ثنايا أحرفى
وتمزقت فى عمق ..
شريانى الجذور
ماذا تبقى ...
فى كئوس مرارتى
كيما أثور ؟!

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا - دقهلية

كتاب مهم مطلوب ترجمته

رونالد ستورز الضابط السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى القاهرة كتب مذكرات «بعنوان شرقيات» فى مطلع القرن العشرين ، حول علاقات السفارة البريطانية فى القاهرة بعدد من الساسة المصريين .. فلماذا لا يترجم هذا الكتاب ، لنتعرف على فترة مهمة فى حياة مصر؟!

محمود الصياد -آداب القاهرة - قسم التاريخ

الهلال : نضع هذه الرسالة تحت نظر الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، ونثنى على ما يطلبه القارىء العزيز ... ودار الهلال مستعدة للاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة بترجمته ، وذلك لقيمته التاريخية ، والتى تكشف علاقة السفارة البريطانية فى ذلك الوقت بعدد من السياسيين المصريين.

حزن السماء

الجفون التى كانت تحوى
الدموع الخرساء
الآن تدمع .. تنزف
من شدة البكاء
الأحجار
التى كان الصمت يسكنها
استيقظت لتؤدى دورها
نهضت
أطلقت أقوى ما عند صوتها
من نداء
الأمطار ذات الرخات الرقيقة
التى دائماً ما تزغرد
حزن السماء
جعلها تسقط قطرات
مشتعلة
حتى الأغصان التى كانت خجولة
تملكها العنف
أصبح القهر رفيقاً لها
يا آل إسرائيل

رمضان إبراهيم بشير
قنا - أبودياب شرق

أنت والهلال

تحية للكتاب الذين نحبهم

أقرأ «الهلال» بانتظام ، وأحرص على متابعة كتابها المتميزين الذين يتناولون قضايا ثقافية تنعش ذاكرتنا ، وتعود بنا في أحيان كثيرة إلى الوراء لكي نعرف تاريخنا ، ونتوقف عند محطات مهمة في حياتنا .

كاتب مثل الدكتور مصطفى سويف تمتعني آراؤه ، خاصة مقاله في شهر ديسمبر الماضي ، أيضا ما يكتبه لنا الدكتور محمد رجب البيومي بلغته التي تمتلىء بالجزالة ، وسخريته من أشياء كثيرة لايرضى عنها ونحن معه أيضا ، فضلا عن الكنوز التي ينقب عنها الأستاذ وديع فلسطين ، ونتعرف من خلالها على كتاب أفذاذ يأتي بهم من الماضي ليصبحوا أمامنا شخصيات حية نتعرف على دورها في الحركة الأدبية وفي الثقافة المصرية .

كل ما أتمناه أن يظل هؤلاء الكتاب وغيرهم يواصلون دورهم في الهلال وإمتاعنا بكل مايقدمونه من بحوث ودراسات جادة .

كما نتساءل .. لماذا لايكتب الأستاذ طارق البشري بانتظام وكذلك الدكتور أحمد أبوزيد ؟

مع كل الأمنيات للهلال بمزيد الازدهار في مناسبة مرور عام على تطويرها ، والذي به أصبحت مكتملة سواء في الإخراج والطباعة والتحرير .

محمود إبراهيم حسن

الهلال : نشكر القارىء العزيز ونعده بأن تواصل الهلال مسيرتها التي ينشدها خدمة للثقافة العربية .

قصص قصيرة جداً

١) القرار ..

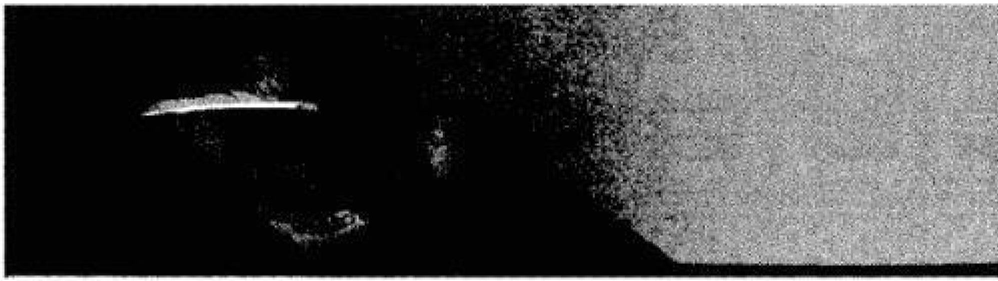
شتم الطالب المدرس .. ثار المدرس .. ضرب الطالب .. ثار الطالب .. جذب المدرس من كرافتته .. ثار المدير .. أمر جميع المدرسين بعدم ارتداء الكرافتات بعد اليوم .

٢) البطل :

تحدتني التي كانت حبيبتي وتحداني الذي كان صاحبي ، وتحدتني التي كانت عائلتي .. عندما رأوني أبتسم ، قالوا لي «لن تستطيع أن تدوس على كل الأحزان» .. فضحكت ساخرا من جهلهم .. أتيت بورقة بيضاء .. كتبت عليها (كل الأحزان) .. وألقيتها على الأرض .. ثم دست عليها بكل قوة .. وأنا أنظر إليهم هازئا .

٣) مصادفة :

لم أزل أفتش عني .. وأسألني في إلحاح .. أين أجدني .. حتى لقيتني بالمصادفة ..



واقفاً قرب منزلى .. مختبئاً منى .. زاهداً فى الحديث معى رافضاً حتى النظر إلىّ .. حاولت إقناعى .. أو تليين رأسى .. ولكنى فشلت .. فتركتنى منفعلاً .. ساخطاً علىّ .. وأنا أنوى ألا أفعلها ثانية أبداً .

حسام مصطفى إبراهيم
نادى أدب شربين

من أنا؟!

هاربان أنا وخيالى
نفر أمام الحقيقة
كلما ابتسمت لجروح الحياة
هدمت
كهوفى العتيقة
مر عام
وآخر ينأى بذاكرتى
يطمس الانفلات
يجتر أنسجتى
فى بلاد سحيقة
إيه .. ياكوكبى
حجرتى ، وفراشى
وبعض الهواجس ..
تشنق أوردتى
فأنا من أنا ؟!
وبلا جسد
لأموت بنفس الطريقة !!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

مسلسل يثير جدلا في الشارع المصري !

لقد أثار المسلسل الذى عرضه التليفزيون فى شهر رمضان «عائلة الحاج متولى» جدلاً واسعاً فى الشارع المصرى لما يطرحه من قصة تاجر توسع فى تجارته فتعددت زوجاته بالتبعية ، وهنا أسجل إعجابى الشديد بمدى إتقان المبدع نور الشريف فى أداء هذا الدور - دور التاجر - وكان من حقه أن ينبرى مدافعاً عن المسلسل فى حوار معه بإحدى الإذاعات الأجنبية .

ولكن هذا المسلسل يطرح أيضاً العديد من الإشكاليات والتساؤلات حول العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة داخل المجتمع المصرى . فهل يروج هذا المسلسل لفكرة تعدد الزوجات للرجل القادر مادياً ؟! وهل هذا النموذج من الرجال هو السائد والذى ينظر للمرأة كلعبة له ؟! ... وهل المسلسل بداية وإيذانا بالعودة إلى عصر الحريم وتكريس للمجتمع الذكورى ؟! وهل يعد المسلسل تحريضا للرجال على تعدد الزوجات وفتح بيوت جديدة لمجرد أنهم قادرون مادياً ؟!... وهل الدعوة إلى تعدد الزوجات حل عملى يطرحه الكاتب مصطفى محرم مؤلف المسلسل لمشكلة ارتفاع معدلات العنوسة لدى الفتيات فى مجتمعنا ؟! .. أليس المسلسل استفزازاً لمشاعر الملايين من الشباب يعانون البطالة وهم غير قادرين على تكوين أسرة سعيدة فى إطار المشروعية الدينية والأخلاقية فيلجأون إلى الطريق الملتوية وكم عانى منها هذا المجتمع وبالتالى فإن شبابنا يكون محاصراً بين ضرورات الاقتصاد والدين ؟! فى نفس الوقت الذى لم يعرض فيه المسلسل لقضية جوهرية للمجتمع وإنما عرض لشريحة صغيرة من شرائح المجتمع لا يأبه بها ولا تضم سوى البعض الذين جعلوا المرأة ملهاة فى حياتهم لا لسبب إلا لأنهم أتخموا بالمال !

إن الدراما التليفزيونية هى وسيلة مهمة لصياغة العقل فى دول العالم الثالث ، واستغلالها بطريقة خاطئة ستؤدى إلى نتائج وخيمة العواقب .

علاء الدين عمرو حمودة

الهلال : وصلتنا عدة رسائل تتناول نفس القضية ، وفى رأينا أن هذا المسلسل لايستحق هذه الضجة وللأسف لم يقدم التليفزيون هذا العام عملا فكريا .. يستفيد منه الملايين سوى حديث الصباح والمساء، وفى ظل المتعة الحسية ضاع وقتهم سدى ، وبدأنا نناقش قضايا بعيدة عما نواجهه من أحداث جسام وقضايا مصيرية !

وداعا حلمي مراد

رحل عن الحياة فى صمت (ديسمبر ٢٠٠١) الأديب المترجم حلمى مراد صاحب سلسلة «كتابى» التى صدرت فى الخمسينات من القرن العشرين لتقديم روائع الأدب العربى والغربى ، وكانت مدرسة أدبية مميزة تتلمذ عليها العديد من الأدبا. ورجال



الفكر ، وكانت ميزتها أنها بسطت روائع الأدب العالمى بصورة محببة وعميقة .

وقد جمع الأديب الراحل بعض ماضمه سلسلة «كتابي» فى عدة كتب أصدرها قبل عدة سنوات تحت عنوان من كنوز التراث منها :

رسالة الغفران - الأمير - العقد الاجتماعى - سالومى - جيوكندا - مدرسة الأرامل - ملكات ونساء - أوديب الملك - مذكرات كازانوفا - ليدى هاملتون - دكتور فاوست ، كما أصدر مجموعة قصصية تحت عنوان «عندما تخون المرأة» .

عبد الله رضوان - الزيتون

ردود سريعة

● عصام الزهيرى (الفيوم) : كتاباتك تبشر بأديب قصاص ، ومطلوب منك مواصلة الإطلاع والكتابة .

● صلاح جميل سعد : غزة - الزيتون : وصلتنا مجموعة من قصصك القصيرة جدا تحت عنوان «صرخة الحياة» قصة معاق - وجوه وميتافيزيقا - عودة - مشاهد من طفولتى ، ولكنها تؤكد إصرارك على طريق الأدب فضلا عن رسائلك العديدة لنا ، وإن كنا نرى أن تصقل موهبتك بالمزيد من القراءة والاطلاع ، خاصة الأدب القصصى حتى تكتمل موهبتك مع العناية باللغة .

● الصديق عادل شافعى الخطيب (القاهرة) - مسرحيتك القصيرة «هروب بن لادن» فكرة طريفة ومعالجة جيدة ولكن المجال لايتسع لنشر المسرحيات .

● مينا عبدالمسيح (القاهرة) شكرا على رسالتك الكريمة ، وهذا الباب غير مختص بما عرضته .

● حسن أبوالغيط : تصلنا العديد من قصائدك ومن بينها قصيدة بعنوان «طالبان» تقول فى بعض أبياتها :

على بؤر الدين جاءوا يدا
بكفر صحيح علا واعتلى
ولن يتركوا فى الدنا بؤرة
لإسلامنا دون أن تنبتلى

فما معنى (بؤر الدين) ومع معنى (بؤرة لإسلامنا) ؟!!!
رجاء مراجعة المعانى جيداً وكذلك الوزن والقافية .

الكلمة الأخيرة



بقلم: حسين أحمد أمين

هي فعلاً كلمتي الأخيرة، أقولها إذ أرقب أحوال العالم العربي اليوم، وإذ أعود بذاكرتي إلى حال الأمة في الشام عشية مقدم الحملة الصليبية الأولى إليه عام ١٠٩٧، وحال الشعب في العراق عشية اجتياح المغول له عام ١٢٥٨، وحال الناس في غرناطة عشية سقوطها على يد مسيحيي أسبانيا عام ١٤٩٢.

بم كان انشغالهم؟ ببيان أغراض العدو ومخططاته واقتراح الوسائل الكفيلة بالتصدي لها؟ بشرح الأسباب التي أدت بالأمة إلى مثل ذلك الحال من الضعف؟ بالدعوة إلى تناسي الخلافات وتوحيد الصفوف من أجل مجابهة الخطر؟

لا بهذا ولا بذاك.. بل إننا لنجد أكبر مفكر إسلامي عام دعوة البابا أربان الثاني إلى شن حرب صليبية ضد المسلمين لاستخلاص الأراضي المقدسة، وهو الإمام الغزالي، منصرفاً إلى تأليف كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي لا يمكن لقارئه أن يخمن من خلال قراءته مجريات الأمور العظيمة التي كانت تحدث وقتها في عالمه الإسلامي.

كان الانشغال الأول، كما هو الحال اليوم، بتكفير المسلمين بعضهم لبعض، بتخوين أبناء الأمة [illegible] أغراض العدو الزاحف إن [illegible] الذي تقاضى سلفاً، أو يتوقع أن يتقاضى لاحقاً أجر خيانته.. إنه العاقل [illegible] الذي يحث في عضد الأمة بالـ[illegible] المدرك واقع الأحوال ومقتضياتها.. بل إنه الفرع المتفائل الذي يدعي موضوعية النظرة، ويبرر موقفه بالتشدق بحتمية التاريخ.

«هذا بالضبط ما تتجلى فيه عبقرية المسلمين والكفاءة الفذة عند العرب: تقطيع بعضنا لأوصال بعض».. وهو رد الفعل المتكرر دوماً كلما داهمنا خطر يهدد كياننا.. والعدو إزاء هذا كله آمن.. يتفرج ويبتسم.. ويخطط.. وينفذ في هدوء مخططاته.. كفاه عالية بيديها الجانبتان: هذا في سبيل وذاك في سبيل.

سقوط بيت المقدس.. سقوط بغداد.. ضياع الأندلس.. واليوم ننتظر سقوط العالم الإسلامي بأسره في قبضة الأمريكيين والإسرائيليين والتحالف الأوروبي. غير أننا نتأمل الوجوه حولنا، ووجوه قومنا نحن، فلا نرى فيها أثراً لقلق أو غمة. كل فرد قد أعد للأمر عدته، ولخلاصه وحده متقفاً، شأن المماليك الذين خرجوا لقاء جيش بونابرت في إمبابة، وقد أتى كل واحد منهم على صهوة جواده بجواهره وثمين مقتنياته، استعداداً للفرار بها إلى مكان آمن متى دارت الدائرة عليه في المعركة


Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة في رصيدك...
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privileges
EGYPTAIR Plus

الهلال

فبراير ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

كامب ديفيد: اليوم الأخير

الجنس على الإنترنت

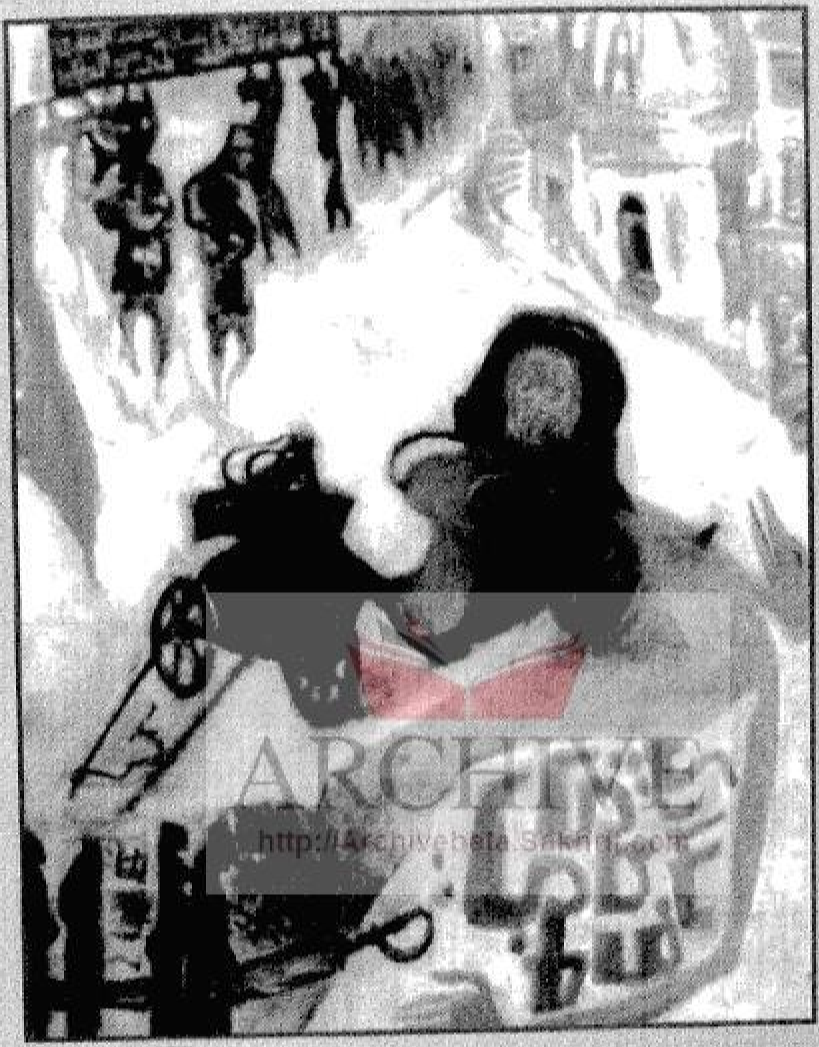
مستقبل الثقافة العربية

جزء خاص



طارق البشري

الإنسان والقاضي والمؤرخ



لوحة : نعى حافظ ابراهيم لمصطفى كامل

للفنان : حامد ندا



لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف للفنان
محمد ابو طالب
رسم الفنان
محمد حجى

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى ١٢ عددا ٢٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٤٠ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

العام العاشر بعد المائة
ذو القعدة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



معرض الكتاب.. إلى أين؟!

بدأت دورة جديدة من معرض القاهرة الدولي للكتاب في السابع عشر من يناير الماضي والذي نعتبره أهم تظاهرة ثقافية عربية تمتزج فيها اهتمامات النخبة مع نبض الشارع المصري.

قبيل المعرض بأيام يبدأ المثقفون سؤالهم التقليدي عن موعده، ويمنون النفس بلقاء مع الجديد من الكتب، ومع أصدقاء عرب وأجانب يحرصون على حضور هذه المناسبة في كل عام.

كانت هذه الدورة هي الرابعة والثلاثون وعدد الدول المشاركة ٩٣ دولة عربية وأجنبية ووصل عدد دور النشر المشتركة ثلاثة آلاف دار نشر وعناوين الكتب إلى أربعة ملايين عنوان.

المحور الأساسي لمعرض هذا العام كان صراع أم حوار حضارات ودعا الدكتور سمير سرحان كل من صمويل هنتجتون صاحب نظرية صراع الحضارات وفرانسيس فوكوياما صاحب مقولة نهاية التاريخ.

والجهد المبذول فيما نراه يبدو كبيرا ولكنه تقليدي، ليس فيه أي جديد فالمحاضرات جاهزة والمحاضرون مستعدون، هم تقريبا نفس الوجوه التي نراها كل عام لدرجة أن كثيرين من المثقفين بدأوا يزهدون حضور هذه الندوات والمشاركة في حوارات لا طائل من ورائها.. اللهم إلا مع عدد من مثقفينا الذين يعدون إعدادا جيدا لندواتهم لكن هل يعلم المسئولون عن معرض الكتاب والذي يعد من أهم المعارض بعد معارض فرانكفورت وبكين والصين هل يعلمون بأن ثورة للمعلومات قد حدثت في العالم، مع دخول الانترنت وثورة المعلومات، بمعنى أن يصبح هناك نظام تعامل خاص مع الكتب عن طريق الكمبيوتر. فمثلا إذا طلب شخص ما رواية ما، فما على المسئول إلا إدخال اسم الرواية أو اسم المؤلف أو دار النشر لكي يعرف هل هذه الرواية موجودة أم لا، ويعرف كذلك أين يقع مكانها وعدد النسخ التي يمتلكها.

وإذا افترضنا أن هذا النظام موجود لدى بعض دور النشر الأجنبية فلماذا ويعد هذا التطور الهام لا يعمم في كل أجنحة المعرض، حفاظا على الجهد والوقت الذي يبذله رواد المعرض؟

ومن يتجول داخل المعرض يكتشف مدى الإهمال في سرايا العرض، ولدى عدد كبير من دور النشر المصرية التي تطبع كتبا مهمة ويحتاج إليها المثقفون فالوقت لا

يهم ومستوى العرض لا يليق بمعرض الكتاب الذى مرت عليه أربع وثلاثون سنة وتوفرت له كل الإمكانيات.

ونتساءل ما الجديد في هذه الدورة؟

والجواب مجموعة من الأنشطة المعادة المكررة وأسماء شعراء وكتاب من الوطن العربى لا يأتون فى أحيان كثيرة وتمر الأمور مرور الكرام بلا كلمة اعتذار فنحن شعب عاطفى ننسى ولا نتوقف كثيرا عند أمور جوهرية تنزعج منها الشعوب التى تعرف النظام وتقدر المسئولية ، فقط سوف نعلن فى نهاية المعرض أن خمسة ملايين زائر أتوا للمعرض وأن كل شئ تمام!!

ودعونا نتوقف عند قضايا جوهرية من بينها تحديد موعد ثابت للمعرض كل عام وهذا ضرورى جدا ، أيضا مناقشة السلبيات التى تحدث وطرحها على الرأى العام ووضع الحلول المناسبة . فنحن نتعامل مع عدد كبير من دور النشر العربية والأجنبية ، هل وفرنا لها التسهيلات فى الجمارك وهل توفر عدد من المسئولين لديهم المرونة بحيث لا تتم مصادرة كتب لا ينبغى مصادرتها ، وهل عرفنا الأسباب الموضوعية لإحجام دور نشر مهمة لم تحضر هذه الدورة وربما ذللنا لها بعض الصعاب التى واجهتها من قبل وهل حركة البيع والشراء تتم كيفما اتفق، وليس هناك رقم دولى للإيداع؟!

لا شك أننا حريصون كل الحرص على نجاح المعرض، ولذا لابد من وضع ضوابط حتى فى الجوائز التى أصبحت تمنح فى كل عام لدور نشر معينة أو لرؤساء تحرير الصحف وهذا فى رأينا خروج عن دور معرض الكتاب . ولذا لابد من تحديد دقيق للجوائز التى تعطى للأدباء والمبدعين وتشكيل لجنة ثابتة من شخصيات ذات مصداقية لتقوم بتحديد الجوائز لمن يستحقها بدلا من العشوائية التى تسود ، فضلا عن ضرورة معرفة أكثر الكتب توزيعا واستطلاع حول نوعية الكتب التى تفضلها الأجيال المختلفة خاصة والمعرض يعد فرصة حقيقية لمعرفة الكثير من الأمور التى تهم حركة النشر.

ونتساءل لماذا لم يعلن أمام الرئيس مبارك عن فوز دار الهلال كأعرق دار صحفية فى مصر ، وكذلك فوز رواية «إمرأة ماء» للأديبة هالة البدرى والتى صدرت عن روايات الهلال عام ٢٠٠١ ، كما أعلن عن فوز كتاب الهلال للمفكر الكبير د. مصطفى سويف «مسيرتى ومصر فى القرن العشرين» فى اليوم الأول لافتتاح المعرض ؟ وفى اليوم التالى ولدى توزيع الجوائز أعلن ذلك وزير الثقافة ، وهذا دليل نسوقه على ضرورة وضع ضوابط ومعايير محددة لإعطاء الجوائز !

مع كل أمنياتنا أن يكون معرض الكتاب واجهة حقيقية للثقافة فى مصر والوطن العربى وأن يكون الالتقاء بالثقافات الأخرى فيه الخير العميم على الإنسانية كلها.

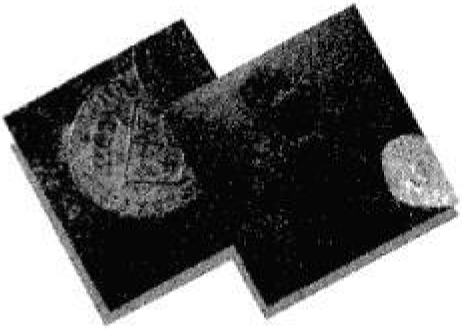
المحـــــــرر


العثور على قارورة دواء
لا تزال على حالتها في
بقايا سفينة قيادة
الاسطول الفرنسي
قصة المدن الغارقة
تحت مياه خليج ابو قير
بقلم
د. رشدى سعيد

أثار إعلان البعثة الفرنسية العاملة فى انتشال آثار ما تحت البحر فى منطقة الإسكندرية عن اكتشاف مدينتى كانوب الشرقية وهيراكليون القديمتين تحت مياه خليج أبوقير فى صيف سنة ٢٠٠٠ الكثير من الاهتمام وتصدر نبأ اكتشافهما الأخبار فى الصحف والإذاعات العالمية .. وكانت هاتان المدينتان، ولأكثر من ثلاثة قرون ونصف وحتى بناء مدينة الإسكندرية فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد، من أهم بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط التى ذاع صيتها بسبب حياتهما الغنية والصاخبة .. وكانت المدينتان إغريقيتين بالكامل تم تأسيسهما فى مبدأ ظهور الإغريق على مسرح السياسة المصرية فى عصر الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين (٦٧٢ - ٥٢٥ قبل الميلاد) والتى بنى ملوكها جيشا من مرتزقة الإغريق الذين استجلبوهم فى أعداد كبيرة وأقاموا لهم المدن والمستوطنات الخاصة بهم.

وأعاد هذا الاكتشاف المدينتين إلى مركز الاهتمام بعد اختفاء دام لأكثر من ١٢٥٠ سنة وهما اللتان كانتا ملء السمع والبصر، فقد طبقت شهرتهما الآفاق وكتب الكثير عن مبانيهما وتفاصيل حياة أهلهما فى العديد من أدبيات العصور القديمة. وزار هيرودوت المؤرخ المشهور مدينة هيراكليون حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد وكتب عن معبدها الضخم المهدى إلى هرقل وعن آثارها الأخرى والتى ضمت معابد لإيزيس وأوزوريس . وفى الأساطير والتراجيديات الاغريقية ذكر لهذه المدينة التى قيل إنها أسست تمجيدا لهرقل ابن كبير الآلهة زوس الذى أوقف أحد فيضانات النيل العالية وأعاده إلى مجراه. أما مدينة كانوب الشرقية فقد تأسست، حسب ماجاء فى هذه الأساطير، بأمر من مينيلاوس ملك إسبرطة الذى كان يزور المدينة مع زوجته هيلينا خلال عودته منتصرا من طروادة تخليدا لذكرى كانوب مدير شئونه الذى كان يصاحبه، ومات خلال الزيارة بلدغة أفعى. وجاء ذكر المدينتين فى الأدبيات المسيحية القديمة فقد كانت المدينتان قائمتين وعامرتين بالكنائس بعد انتشار الديانة المسيحية فى مصر، ووصف سوفرونيوس الدمشقى بطريرك القدس كنائس كانوب الشرقية التى كانت قائمة بجوار البحر فى القرن السابع الميلادى وقت كتابته لرسالته. وقد وجدت البعثة الفرنسية الكثير من هذه الآثار التى ورد ذكرها فى هذه الأدبيات القديمة غارقة تحت البحر.

وكان وجود آثار مدن قديمة تحت سطح البحر المحيط بمدينة الإسكندرية



معروفا منذ وقت طويل وكان السبب وراء غرق هذه الآثار محاطا بالغموض ومثارا للتخمين فلم تكن هناك أية بيانات علمية عن هذه الآثار أو طبيعة الأرضية التى ترسو عليها أو حتى عن تاريخ اختفاء هذه المدن تحت البحر، وكان أكثر المشتغلين بالعلم يخمنون أن غرقها ربما يعود إلى زلزال كبير. وقد رحب المشتغلون بالعلم بمقدم البعثة الفرنسية وأملوا أن تأتى التقنيات الحديثة التى جاءت بها بسبب مقبول ومدعم لسقوط هذه المدن تحت البحر. إلا أن هذا الأمل لم يتحقق .. فقد اختلف العلماء الذين اتيحت لهم فرصة الاطلاع على البيانات العلمية التى جاءت بها البعثة عن سبب هذا السقوط فقد عزز فريق منهم الفكرة السائدة عن أن اختفاء المدينتين تحت البحر حدث بسبب زلزالين أو ثلاثة دمرت المدينتين وخسفتهما تحت البحر. وجاء الاعلان عن هذا السبب مصاحبا لإعلان البعثة عن اكتشافاتها أمام المجتمع العلمى فى الاجتماع السنوى للاتحاد الجيوفيزيقى الذى عقد بمدينة سان فرانسيسكو فى ديسمبر عام ٢٠٠٠، وبعد أقل من ستة أشهر من صدور هذا الاعلان ظهر تفسير آخر لسقوط هاتين المدينتين تحت البحر نشره فى إحدى المجلات العلمية ذائعة الصيت باحث آخر زعم فيه أن سقوط المدينتين حدث بسبب فيضان مهول لنهر النيل حدث فى عام ٧٤٢/٧٤١ ميلادية تحطمت فيه جسور المدينتين اللتين كانتا قد بنيتا عند مصب الفرع الكانوبى لدلتا النيل والذي كان يصب فى خليج أبوقير وقت بنائهما. وقد التقطت الجرائد والإذاعات العالمية الخبر وطيرته إلى أرجاء الأرض على الرغم من الخطأ البالغ الذى وقع فيه كاتبوه كما سنبين فى هذا المقال، وكان الباحث يحاول أن يجد تفسيرا آخر لسقوط المدينتين بعد أن تبين أن تفسير سقوطهما بسبب الزلازل لا يمكن أن يكون صحيحا بعد أن عرف أن تاريخ سقوط المدينتين يعود إلى منتصف القرن الثامن الميلادى وهو وقت لا يعرف أن الزلازل قد طالت منطقة الإسكندرية فيه.

الآثار التى غرقت

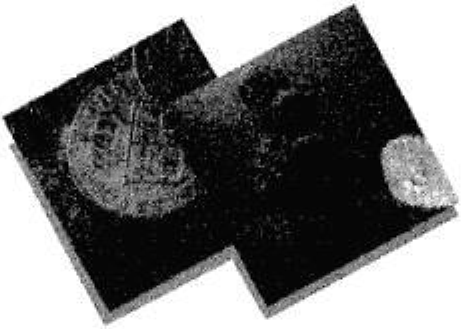
وقبل الدخول في تبيين خطأ هذين التفسيرين لابد من التأكيد على أن وجود آثار مدن اختفت تحت سطح البحر فى بحار منطقة الإسكندرية كان أمرا معروفا وموضوعا لدراسات كثيرة وجادة منذ وقت طويل، ولعل من أول وأهم هذه الدراسات هى تلك التى قام بها العالم المصرى الفذ محمود الفلكي فى ستينيات القرن التاسع عشر والذى دبج بحثا رفيع المستوى عن تاريخ مدينة الإسكندرية القديمة صدر باللغة الفرنسية بأوربا فى سنة ١٨٧٢ تطرق فيه إلى آثار المدن القديمة التى غرقت تحت مياه الميناء الشرقية لمدينة





قطع من الآثار المصرية الغارقة قبل انتشالها

الإسكندرية وتحت مياه خليج أبوقير، وبنى محمود الفلكي بحثه واستنتاجاته عن تاريخ المدينة على عمل حقلي من الطراز الأول رفع فيه خريطة للمدينة بمقياس ١: ٢٠٠٠٠ وعلى دراسة عدد من الآبار التى دقها بمدينة الإسكندرية وعدد من الجسات التى سبر بها غور البحر المحيط بالمدينة. ويعتبر بحث محمود الفلكي عملا أساسيا ومرجعيا على الرغم من مرور ما يقرب عن ١٣٠ سنة على نشره، وقد لفت بحث الفلكى الأنظار إلى آثار الإسكندرية مما دفع الدولة فى أثر ذلك للقيام بجهد منظم للحفاظ عليها وجمعها وإنشاء متحف لها بمدينة الإسكندرية، أما الآثار تحت البحر فقد نالت اهتماما أقل وإن كان لابد لى أن أنوه هنا بجهود جمعية الآثار بالإسكندرية والتى أسسها ورعاها الأمير عمر طوسون وكون بها مجموعة من الغطاسين التى حاولت إنقاذ آثار خليج أبوقير فى ثلاثينات القرن العشرين، إلا أن أعمال هذه المجموعة لم تكن على درجة كبيرة من الحرفية وظلت هذه الآثار متروكة حتى وصول البعثة الفرنسية وفريق الغطس المصاحب لها بقيادة فرانك جوديو فى تسعينات القرن العشرين والذى قام تحت رعاية المجلس الأعلى للآثار بمسح شامل لآثار هذه المدن الغارقة، ونحن مدينون لهذه البعثة لما أضافته من معلومات عن المدن الغارقة تحت بحر الإسكندرية ولما وجدته من مواقع جديدة لم تكن معروفة من قبل وعلى الأخص فى الناحية الغربية من ميناء الإسكندرية، القديمة ولما كشفت عنه من المشغولات



الكثيرة التى وجدتها بين الآثار والتى كان من أهمها مجموعة النقود القديمة التى انتشلت من بين أنقاض مدينتى كانوب الشرقية وهيراكليون الغارقتين تحت مياه خليج أبوقير والتى كان أحدثها تلك التى نقت فى العصر الإسلامى بين سنتى ٧٢٤، ٧٤٣ ميلادية مما أخذ دليلا على أن هاتين المدينتين كانتا قائمتين فوق سطح البحر حتى ذلك التاريخ وأن اختفاءهما لابد أنه حدث بعد هذا التاريخ بقليل.

وكما سبق القول فقد بنيت مدينتا كانوب الشرقية وهيراكليون فى القرن السابع قبل الميلاد وظلت تشكلان الميناءين الرئيسيين لشرق البحر الأبيض المتوسط لثلاثة قرون ونصف القرن وحتى بناء مدينة الإسكندرية عندما تراجعت أهميتهما حتى اختفتا تحت سطح البحر فى منتصف القرن الثامن الميلادى، وقد بنيت المدينتان عند مصب الفرع الكانوبى لدلتا النيل والذي كان يتفرع من فرع رشيد ويمر بمديرية البحيرة حتى يصب فى خليج أبوقير عند نقطة التقائه مع الجسر الذى كان يفصل بحيرة إدكو عن بحيرة أبوقير التى اختفت اليوم تماما بعد أن ردمت وسويت أرضا زراعية منذ وقت طويل، وتوجد آثار هاتين المدينتين اليوم على عمق يتراوح بين ٦ ، ٧ أمتار تحت سطح البحر على مرتفع تحت بحرى يمتد من الغرب إلى الشرق ويقع على بعد ٥ر١ كيلو متر إلى الشرق من رأس أبوقير، وقد كشف المسح تحت البحرى الذى قام به فريق الغطس الفرنسى عن بقايا منشآت الميناءين وأساسات الكثير من المنازل والمعابد والعديد من التماثيل الضخمة لعدد من آلهة المصريين والإغريق هذا بالإضافة إلى الأوانى البرونزية والمصاغ كالأقراط والعقود والعملات الذهبية والمباخر وغير ذلك من المشغولات.

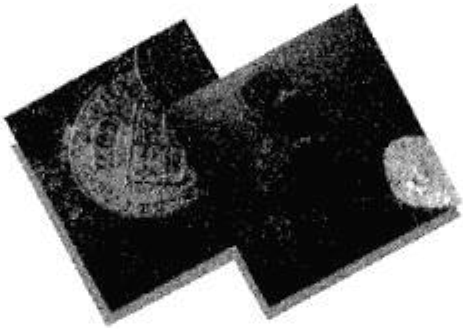
واستخدمت البعثة تقنيات عالية لانتشال بعض هذه الآثار والكشف عن أبعاد هاتين المدينتين وعن طبيعة الأرضية التى بنيتا عليها وقد أعطيت البيانات العلمية التى استخرجت من التقنيات التى استخدمت فى سبر طبيعة أرضية المدينتين إلى أمريكيين من المشتغلين بعلوم الأرض هما عاموس نور ودانيل ستانلى اللذان أعطيا تفسيرين مختلفين عن سبب غرق هاتين المدينتين تحت سطح البحر، أما عاموس نور الأستاذ بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة فقد أرجع هذا الغرق إلى عدد من الزلازل الكبيرة التى اجتاحت المدينتين واسقطتهما تحت سطح البحر، وذكر نور أن مما يؤيد تفسيره فى أن الزلازل هى التى أسقطت المدينتين هو أن أعمدة المعابد الغارقة وجدت مرصوصة فوق قاع البحر فى اتجاه واحد، وبدا للكثيرين أن هذا التفسير يمكن أن يكون



تمثال أبو الهول بوجه بطليموس الثانى عشر بعد الانقاذ

مقبولا فقد عرف أن الإسكندرية قد تأثرت بالزلازل عبر تاريخها وكانت السبب فى سقوط فنار الإسكندرية الشهير والذى يعرف على وجه اليقين أنه سقط بسبب الزلزال المدمر الذى لحق بالمدينة فى سنة ١٣٠٣ ميلادية. إلا أن إرجاع سبب غرق المدينتين تحت سطح البحر إلى الزلازل أصبح غير مقبول بعد أن عرف تاريخ سقوط المدينتين والذى تبين أنه حدث قبل سقوط فنار الإسكندرية بخمسة قرون كاملة وفى زمن لا يعرف أن منطقة الإسكندرية شهدت فيه أى زلزال مؤثر.

أما التفسير الآخر فقد تقدم به الأستاذ دانيل ستانلى الباحث بمعهد سمثونيان بالولايات المتحدة والذى تعرفه الدوائر العلمية فى مصر بسبب تردده الدائم عليها منذ سنوات طويلة وبسبب نشراته الكثيرة التى يكتبها عن بحوثه عن دلتا نهر النيل والتى يقوم بها تحت مظلة العديد من هيئات البحث العلمى المصرية والتى حصل على مساعدتها، وتعرف أبحاث هذا الأستاذ بإخراجها الحسن ولغتها الموحية بالثقة على الرغم من أنها كثيرا ما تعكس نتائج لا تبررها البيانات التى انبنت عليها وإن كانت تجد فى الكثير من الأحيان طريقها للنشر والاعلان الواسع. ولا يختلف تفسيره لغرق المدينتين، والذى نشره فى إحدى أمهات المجلات العلمية فى شهر يوليه سنة ٢٠٠١ عن تفسيراته الأخرى فقد انبنى على استنتاجات لا تدعمها البيانات التى أتاحتها له تقنيات البحث العلمى التى قامت بها البعثة الفرنسية فقد خرج الباحث منها بأن سبب غرق المدينتين يعود إلى فيضان مهول لنهر النيل قوض أسس



المدينتين اللتين كانتا تقعان على مصب هذا النهر فسقطتا تحت البحر، وهو أمر لا يمكن أن يكون قد حدث لسبب بسيط هو أن النيل لم يكن يصل إلى المدينتين عند تاريخ اختفائهما فقد طما الفرع الكانوبى لدلتا النيل وتوقف عن الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط قبل تاريخ هبوط المدينتين تحت سطح البحر بثلاث مائة سنة على الأقل، وقد أخطأ الباحث عندما ذكر أن الفرع الكانوبى بقى نشطا حتى أوائل سنوات الألفية الثانية بعد الميلاد، وهو أمر ليس له سند بما فى ذلك ماجاء فى كتاب الأمير عمر طوسون (فروع الدلتا القديمة) والصادر بالقاهرة فى سنة ١٩٢٢ والذى يذكره الباحث ضمن مراجعه والذى يؤكد وبكل وضوح أن الفرع الكانوبى قد طما فى القرن الرابع الميلادى وأنه لم يكن يصل إلى خليج أبوقير عند وصول الجيش العربى بقيادة عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وأنه لم يرد له ذكرا فى أى من المخطوطات العربية التى كتبت وقت أو بعد دخول العرب فى مصر، ومما يؤكد أن النيل لم يكن يصل إلى أبوقير فى وقت غرق المدينتين هو أن جميع عينات الطمى النيلى التى جمعت من تحت الآثار الغارقة والتى تم تعيين أعمارها بالطرق الراديومترية التى قام بها الباحث نفسه قديمة، ليس بينها واحدة تقل فى عمرها عن سنة ٣٢٠ ميلادية.

وعلى الرغم من أن الباحث لم يذكر فى مراجعه أيا من مؤلفاتى عن نهر النيل إلا أنه نقل عن كتابى الأول الذي صدر فى سنة ١٩٨١ عن مؤسسة شبرنجر بألمانيا أن الفرع الكانوبى كان نشطا حتى أوائل سنوات الألفية الثانية للميلاد وهو الخطأ الذى كنت قد وقعت فيه عندما ساويت تاريخه بتاريخ الفرع البيلوزى الذى كان يصب عند الفرما بصحراء سيناء حتى ذلك التاريخ والذى صححته فى كتابى اللاحق عن نهر النيل والذي صدر بأكسفورد فى سنة ١٩٩٣.

أسباب الغرق

ومن الصعب أن يتصور المرء أن سقوط المدينتين تحت سطح البحر كان بسبب فيضان لنهر النيل حتى ولو قبلنا أن النهر كان لا يزال يصل إليهما، فمثل هذا الحدث الجلل الذى يؤدى إلى سقوط مدينتين كبيرتين تحت البحر لا يمكن أن يكون قد فات المؤرخين ممن عاصروا هذا السقوط المزعوم أو عاشوا بعده ولم يرد ذكر لهذا السقوط فى أى من مؤلفات المؤرخين كما لم يرد ذكر لسقوط أية مدينة أخرى على نهر النيل وقت هذا الفيضان الذى اعتبره الباحث عاليا وكاسحا. وقد رجعت إلى قراءات مقياس الروضة ووجدت أن فيضان سنة ٧٤٢/٧٤١ كان فيضانا أعلى من المتوسط العام الذى كان الناس لا يهابونه بل كانوا يستقبلونه بالبشر لأنه

كان يسبب تعظيم مساحة الأرض القابلة للزراعة بسبب أنه كان يفيض فوق مساحة أكبر من سهل فيضان النهر فى السنوات التى سبقت إدخال نظام الرى المستديم فى مصر فى القرن التاسع عشر، أما الفيضانات العالية التى كان الناس يخشونها فى ذلك الزمان فقد كانت أعلى من منسوب فيضان سنة ٧٤٢/٧٤١ بمتر كامل لأن مثل هذه الفيضانات كانت تطول الجسور والعلوات التى بنيت عليها معظم قرى ومدن مصر وتغرقها أو تلك التي تستمر لمدة أطول من العادة فتفسد الأرض، وقد شهدت مصر مثل هذه الفيضانات فى تردد كبير خلال القرن الرابع عشر الميلادى.

وفى تقديرى أن اختفاء المدينتين لم يأت مفاجأة كما حاول الباحثون السابقون أن يبينوه، سواء عن طريق الزلازل أو الفيضانات الكاسحة ولكنه جاء تدريجيا وعبر القرون الأربعة التى سبقت اختفاءهما والتى شهدت هجرة أهلهما وإهمالهما وتدهور أحوالهما بعد بناء مدينة الإسكندرية فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد وانتقال الثروة والنشاط التجارى لشرق البحر الأبيض المتوسط إليها، ويمكن القول بأن تدهور المدينتين قبل سنوات من بناء مدينة الإسكندرية كان بسبب صعوبة تزويدهما بالماء العذب بعد أن أطما الفرع الكانوبى لدلتا النيل وتوقف وصوله إليهما، ولعل بناء ميناء الإسكندرية الجديدة كان بدافع إيجاد موقع أفضل من حيث التزود بالماء العذب.

كان سقوط مدينتى هيراكليون وكانوب الشرقية بسبب عوامل النحر التى تأتى مع أمواج البحر وتياراته والتى تؤدى إلى تراجع الشواطىء وتآكلها وسقوط الجسور التى ترسو عليها المدن، وفى تقديرى أن هذا التراجع حدث تدريجيا وعبر القرون الأربعة التي تلت هجر المدينتين وإهمالهما وتوقف القيام بأى عمل يمكن أن يوقف هذا التراجع ويحمى المدينتين . وقد أعطيت فى كتابى عن نهر النيل (دار الهلال) أمثلة كثيرة لقلاع ومبان أقيمت على شاطىء البحر فى زمانها وأصبحت اليوم فى قلب البحر، وقد زرت بنفسى إحدى القلاع التى بنيت على شاطىء البحر بجوار مدينة البرلس فى العصر التركى وأصبحت اليوم فى قلب البحر وعلى بعد يزيد على الكيلو متر من الشاطىء الحالى.

وقد يكون السبب الذى أعطيته فى هذا المقال لسقوط هاتين المدينتين تحت البحر تفسيرا لعدم ورود ذكر لسقوطهما فى كتب مؤرخى العرب، فقد كانت المدينتان شبه مهجورتين عند وصول العرب إلى مصر وأخذ حالهما يتدهور تدريجيا شأنهما فى ذلك شأن الكثير من المدن القديمة المهجورة الأخرى حتى اختفائهما تماما دون أن يثير ذلك اهتمام أحد. ■



ضرورة تغيير نظام التعليم للقضاء على الدروس الخصوصية

بقلم

د. شبل بدران

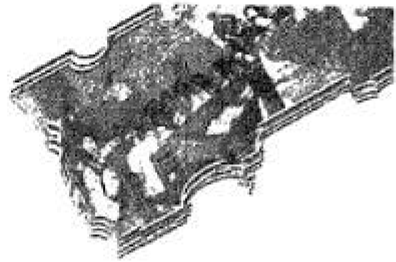
تتعالى بعض الأصوات داخل أروقة البرلمان وفي الصحف والمجلات، تحاول أن تربط بشكل ميكانيكي بين انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية وقانون الثانوية العامة الجديد قبل وبعد الغاء التحسين وتروج لمشروع قانون يبيح للطلاب الجلوس في المنازل وتعاطى الدروس الخصوصية. والزخم الاعلامي الحادث الآن والضجيج السياسي يحاول تزييف الحقائق أمام المواطن دفاعا عن سياسات معينة، ولكن الصورة هي جد مختلفة تماما عما يروج الآن لأسباب سياسية معلومة للجميع..

إن ظاهرة الدروس الخصوصية والتي أفرزها نظامنا التعليمي لم تتبلور وتتجسد الا في حقبة السبعينات، وتحديدا بعد انفتاح سياسة الانفتاح الاقتصادي حيث شهدت حقبة السبعينات بتداعياتها المعروفة لنا جميعا ظهور فئات وشرائح اجتماعية جديدة ارتبطت مصالحها بمصالح النهج الاقتصادي الجديد.. وأخذت هذه الفئات وتلك الشرائح تسعى لايجاد قنوات للتمايز الاجتماعي والسعي لتعليمها وأبنائها في مجالات الحياة المختلفة، وعلى رأسها مجال التعليم.

وقد ترتب على ذلك زيادة عدد المدارس الخاصة من ٦٦٨ مدرسة عام ١٩٧٧/٧٦ الى حوالي ١٢٤٧ مدرسة عام ١٩٨٦/٨٥، ومن ٢٧٢٣ مدرسة عام ٩٢/٩١ الى ٣٩٢١ مدرسة عام ٢٠٠١/٢٠٠٠ بنسبة زيادة قدرها ٤٤٪ كما زادت الفصول بنسبة ٤٣٪ والطلاب بنسبة ٣٦٪ للفترة من ٩١/ ٢٠٠١ وزادت المدارس الرسمية لغات التجريبية بنسبة ١٩٥٪ حيث زادت عدد المدارس من ١٩٥ مدرسة عام ٩٢/٩١ الى ٥٧٥ عام ٢٠٠٠/ ٢٠٠١ كما زاد عدد طلاب التعليم الخاص من ٨٣٧,٧٤٩ عام ٩٢/٩١ الى حوالي ١,٠٩٧,٨٣٦ عام ٩٩/ ٢٠٠٠ بنسبة ٣١٠٤٪ وكذلك عدد المدارس الأجنبية، ناهيك عن مدارس اللغات وجميع أنواع التعليم التي ساهم نظام التعليم في ايجادها وبمسوغات باطلة، استندت الى القدرة المالية للفئات والشرائح الاجتماعية الجديدة بصرف النظر عن القدرة العقلية والمعرفية، ومن هنا انعكست بنية الأوضاع الاجتماعية الجديدة في النظام التعليمي، والذي لم يملك الاستجابة للتغيرات الاجتماعية في الواقع المعاش، وأصبحت كل فئة وجماعة تسعى لايجاد قناة تعليمية لأبنائها بصرف النظر عن القدرات العقلية لهؤلاء الأبناء وتكرست الازدواجية في التعليم المصري بشكل غير مسبوق من قبل.

لماذا انتشرت

كل ذلك أدى بطبيعة الحال الى تزايد وتكريس ظاهرة الدروس الخصوصية خلال عقد السبعينات والثمانينات والتي لم تكن نسمع عنها خلال العقود السابقة، أي أن تفشي ظاهرة الدروس الخصوصية تم



خلال قانون الثانوية العامة القديم وليس الجديد، لأنها ظاهرة ترجع إلى العديد من الاسباب التربوية والمجتمعية والتى ليس منها قانون الثانوية العامة الجديد، ولعل أبرز تلك الاسباب فى انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية ما يلى :

١ ـ اعتبار مجموع الدرجات هو المعيار الوحيد للالتحاق بالتعليم الجامعى والعالى، مما ترتب عليه وجود كليات للقمة تستأثر بالمجموع الاكبر، وصنفت الكليات وأهميتها حسب مجموع الدرجات الذى يؤهل الطلاب للالتحاق بها . وكذلك وجود كليات القاع والتى تقبل هؤلاء الطلاب أصحاب الدرجات المنخفضة، ومن هنا أستأثرت كليات القمة بالمجموع المرتفع والذى يحصل عليه غالبا ابناء الفئات الاجتماعية الميسورة ولم يبق امام أبناء الفقراء سوى الكليات المتواضعة، وأصبح التعليم أداة للتمايز الاجتماعى نتيجة لاعتماده مجموع الدرجات معيارا وحيدا لمواصلة التعليم فى مراحله الاعلى .

٢ ـ ان الاختبارات والامتحانات النهائية تهدف فى التحليل الأخير إلى قياس القدرة الأولية للطلاب، وهى : الحفظ والاسترجاع، ولا تعتمد الامتحانات على تنمية بقية القدرات الأخرى كالفهم والتحليل والتركيب والنقد. ومن هنا لم يعد أمام الطلاب سوى تنمية ذاكرة الحفظ (ثقافة الذاكرة) التى تؤهلهم للحصول على الدرجات الأعلى وتحقيق الحلم فى الالتحاق بكليات القمة .

٣ ـ أن المعارف والعلوم المقدمة للطلاب، معارف وعلوم أحادية التوجه، ولا تسعى إلى الايمان بنسبية المعرفة وتباينها من زمن لآخر، وبذلك اكتسبت المعارف قداسة وهالة جعلت الطلاب يحافظون عليها ويحفظونها عن ظهر قلب بصرف النظر عن مدى صحة تلك المعارف أو مصداقيتها من عدمه .

٤ ـ لم يعتمد نظام التعليم طريقة الحوار والنقد فى اكتساب الطلاب المعارف والعلوم، واعتمد طريقة وحيدة بالية، هى طريقة التلقين والحفظ، فى مواجهة طريقة اكساب الطلاب منهج التفكير العلمى والتفكير النقدى، من هنا فإن نظام التعليم لم يكسب الطلاب طريقة للتفكير أو منهج للتفكير أو طريقة للحصول على المعرفة، وإنما اكسبهم فقط طريقة الحفظ والتلقين، ثقافة الذاكرة فى مواجهة ثقافة الابداع .

٥ ـ ترتب على كل ذلك تعزيز قيمة وأهمية المعلم، بحيث اصبح هو المكون الرئيسى والوحيد فى العملية التعليمية. وأصبح هذا المعلم هو حامل المعرفة وناقلها إلى أذهان الطلاب، فاكتسب ايضا هالة وقدسية تعادل قدسية المعرفة التى يحملها، واصبح هو القادر على تنمية قدرة الحفظ والتلقين لدى الطلاب. ولقد تم ذلك فى ظل مناهج غير مطورة، وأصبح المعلم هو وحده الذى يستطيع عبر لقاءات مع طلابه فى منازلهم ان يجود لديهم قدرة الحفظ وآلية الحصول على الدرجات المرتفعة التى تؤهلهم بدورها للالتحاق بكليات القمة،

فدعم ذلك انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية مع عوامل وأسباب أخرى .

ومع تزايد أعداد الطلاب بجميع مراحل التعليم وقلة الموارد المخصصة للتعليم، ازدادت كثافة الفصول وتعددت فترات الدراسة وأصبحت المدرسة غير قادرة لأسباب غير تربوية وتعليمية على القيام بمهمتها التربوية والتعليمية. ومن هنا فإن مشكلات النظام التعليمي تكمن خارجه وتعود بالدرجة الأولى لأسباب اقتصادية واجتماعية. وظلت الاحوال في تردى مستمر خلال عقد السبعينات والثمانينات، وفي ظل نظام الثانوية العامة القديم، ورغم كثرة التشريعات التى صدرت لمعالجة ذلك الأمر، الا أن الظاهرة ظلت في ازدياد لأننا لم نستطع ان نضع ايدينا على جذور المشكلة الحقيقية.

الواقع التعليمى

ولو حاولنا ان نعقد بعض المقارنات للعقود الثلاثة المنصرفة للتعرف على تطور أعداد الطلاب بمراحل التعليم المختلفة، وكذلك وضع الميزانية العامة للتعليم، وهى كلها جهود حاولت الاصلاح والتغلب على تلك الظاهرة ، سوف نلمس ما يلى :

- بلغ عدد طلاب التعليم الابتدائى عام ١٩٧٥ حوالى ٣.١٢٠.٩٣٦ طالب وطالبة. وازداد هذا العدد فى عام ١٩٨٤/٨٣ حيث بلغ حوالى ٥.٣٤٩.٥٧٩ طالب وطالبة، وتضاعف هذا العدد خلال عام ١٩٩٥/٩٤ حيث بلغ حوالى ٧٣.١٢٠٣٨ اى طلاب التعليم الابتدائى تضاعفوا بنسبة ١٠٠٪ خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد الزيادة حيث وصل الى ٧٢٢٤٩٨٩ طالبا فى عام ٢٠٠٠ .

- كما بلغ عدد طلاب مرحلة التعليم الاعدادى عام ١٩٧٥ حوالى ١.٣٣٩.٠٦٣ وازدادوا ا فى عام ١٩٨٤ حيث بلغوا حوالى ١.٨٩٤.٤١٩، وتضاعفوا فى عام ١٩٩٥/٩٤، حيث بلغوا حوالى ٣.٤٠٩.١٢٧، أى أن طلاب التعليم الاعدادى زادوا بنسبة ٢٠٠٪ خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد فى الزيادة حيث بلغ ٤.٢٤٥.٣٥٦ طالبا فى عام ٢٠٠٠.

- وبلغ طلاب مرحلة التعليم الثانوى العام حوالى ٣٦٨٣١٩ فى عام ١٩٧٥ وارتفع العدد الى حوالى ٥٤٢٢٢٧ فى عام ١٩٨٤/٨٣ وواصل العدد فى الزيادة الى ان بلغ حوالى ٨٤٤٢٥٨ فى عام ١٩٩٥/٩٤. أى أن طلاب التعليم الثانوى العام تضاعفوا مرة ونصف خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد الزيادة حيث بلغ ١.٠٣٩.٩٥٨ طالب فى عام ٢٠٠٠ بنسبة زيادة ٢٥٪ والسؤال الذى يطرح نفسه. هل زادت مخصصات التعليم المالية بنفس نسب الزيادة، وهل تم مواجهة الزيادة بعدد من الأبنية التعليمية التى تستوعب تلك الزيادة؟!

- ولو عقدنا مقارنة للطلاب المقيدين بمراحل التعليم قبل الجامعى بين عام ١٩٩٢/٩١ وعام٩٩/٢٠٠٠ سنجد الآتى : ازدياد عدد طلاب التعليم الابتدائى من حوالى ٦٥٤١٧٢٥ الى حوالى ٧٢٢٤٩٨٩، حيث بلغت الزيادة حوالى ٦٨٣٢٦٤ بنسبة ١٠.٤٤٪. وفى مرحلة التعليم الاعدادى



من ٣٥٩٣٣٦٥ الى ٤٣٤٥٣٥٦ بزيادة مقدارها ٧٥١٩٩١ وبنسبة ٢٠.٩٧٪ وفى مرحلة التعليم الثانوى العام من ٥٧٢٠٣٦ الى حوالى ١٠٣٩٩٥٨ بزيادة مقدارها ٤٦٧٩٣٢ بنسبة ٨١.٨٠٪ وفى التعليم الثانوى الفنى من ١١١٠١٨٤ الى حوالى ١٩١٣٠٢٢ بزيادة مقدارها ٨٠٢٨٣٨ بنسبة ٧٢.٣٢٪ وبلغت الزيادة لطلاب المرحلة الثانوية بانواعها المختلفة من ١١.٨١٧،٣٠٠٠ الى حوالى ١٤٥٢٣٢٥ طالب بزيادة مقدارها ٢.٧٠٦.٠٢٥ بنسبة ١٩.٥٠٪. هذا على مستوى التعليم قبل الجامعى وبدون التعليم الازهرى.

- ولقد بلغ عدد الطلاب المقبولين بالتعليم الجامعى عام ١٩٨٢/٨١ حوالى ٩١٠٤٨ انخفض الى حوالى ٨٤٢٤٠ فى عام ١٩٨٦/٨٥ .

- وتطورت اعداد الطلاب المقبولين بالجامعات من الحاصلين على الثانوية العامة فى السنوات ١٩٩٢/٩١ - ٩٥ /: ١٩٩٦ بالارقام القياسية على اعتبار أن عام ١٩٩٢/٩١ هى سنة الأساس (١٠٠) فلقد بلغ عدد الطلاب حوالى ٧٤٣١٠ عام ١٩٩٢/٩١ ، وازداد إلى حوالى ١١٠٣٢٣ عام ١٩٩٣/٩٢٪ وبلغت الزيادة ١٤٨.٥٪، وازدادت الأعداد إلى حوالى ١٣١٠٠٧ عام ١٩٩٤/٩٣ بزيادة مقدارها ٧٦.٢٪ وواصلت زيادتها حيث بلغت حوالى ١٤٨٣٧٨ عام ١٩٩٥/٩٤ بزيادة مقدارها ١٩٩,٧ ، ووصلت الزيادة الى حوالى ٢٧٨٧٣. فى عام ١٩٩٦/٩٥ بزيادة مقدارها ٣٢٠.١١٪. ولقد انخفض العدد الى حوالى ٢٢١٥٣٠ فى عام ١٩٩٩/٩٨.

ولاشك فى أن تلك الزيادة تعنى بالدرجة الأولى التوسع فى مجال التعليم الجامعى والعالى وهى استجابة للتوسع فى مراحل التعليم السابقة، اى ان السياسة التعليمية خلال عقد التسعينات اخذت على عاتقها مبدأ التوسع فى التعليم تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص وإتاحة التعليم امام الفئات الاجتماعية التى حرمت منه اصلا بحكم وضعها الاجتماعى.

ومع التطورر الكمى الهائل فى عدد طلاب مراحل التعليم المختلفة، الا أن المخصصات المالية المدرجة له لم تستطع ان تحقق الاستيعاب الكامل، حيث بلغت النسبة كمتوسط عام ٨٥٪ وظلت نسبة التسرب فى مرحلة التعليم الاساسى (الابتدائى والاعدادى) تتراوح مابين ١٥ - ٢٠٪. علما بأن ميزانية التعليم زادت بمقدار ٥٠٪ بشكل لم يسبق له مثيل حيث بلغت مخصصات الانفاق على التعليم من الموازنة العامة للدولة ماعدا التعليم الازهرى عام ١٩٩٥/٩٤ حوالى ٧.٩٧٧ مليار جنيه بنسبة ١٣.٧٪ وارتفعت عام ١٩٩٦/٩٥ الى حوالى ١١.٢ مليار جنيه بنسبة ١٥.٦٪ وبلغت اكثر من ١٨ مليارا فى ميزانية ٢٠٠١/٢٠٠٠ .

ولاشك فى ضوء تلك الزيادة الكمية الهائلة لاعداد الطلاب ، والتوسع فيه بشكل

غير مسبوق، أن تصبح المخصصات المالية ـ التمويل ـ فى أمس الحاجة إلى الزيادة لتصل الى حوالى ٢٠٪ على الأقل، وذلك لأن ما ينفق على الفرد فى التعليم فى مرحلة التعليم الاساسى فى مصر حوالى ١٥٠ دولارا مقابل ٢٥٠٠ دولار للفرد فى إسرائيل ويصل خمسة وستة آلاف فى بعض الدول المتقدمة، وأن جملة الانفاق على التعليم من إجمالى الناتج القومى عام ١٩٩٩ فى مصر بلغ حوالى ٦،٥٪، والسعودية حوالى ٨،٩٪، الجزائر حوالى ٨،١٠٪.

ولاشك فى أن التوزيع الحالى للانفاق على التعليم يوضح أنه فى حين أن التعليم قبل الجامعى وهو مسئول عن ٩٠٪ من مجموع الطلاب يتلقى ٧٥٪ من مصادر الانفاق، والتعليم العالى المسئول عن ١٠٪ من الطلاب يتلقى ٢٥٪ من الانفاق الكلى الحالى وتمثل الأجور ٨١٪ من مجموع الانفاق فى التعليم قبل الجامعى و٥٧٪ فى التعليم العالى لعام ١٩٩٧/٩٦ من هنا فإن الأجور تستنزف النصيب الأكبر من مصادر تمويل التعليم .

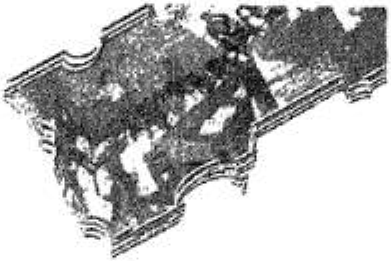
إن زيادة موارد التعليم ورفع ميزانيته هو وحده القادر على القضاء على مشكلات النظام التعليمى وعلى رأسها الدروس الخصوصية وكثافة الفصول وتحسين أحوال المعلم ـ لابد ان ننظر للتعليم فعلا بوصفه قضية أمن قومى لا يقل أهمية عن الاهتمام بالقوات المسلحة واعداد المقاتل الخارجى، نحن فى حاجة الى اعداد المقاتل الداخلى .

لقد كانت حالة الأبنية التعليمية ١٩٨٥ فى وضع لا يمكن معه أن يتم تعليم داخل جدران المدارس، حيث بلغ عدد المدارس حوالى ٢٥٠٠٠ مدرسة منها ٧٧٨٦ مدرسة صالحة للاستخدام و١٠٦٢ مدرسة غير صالحة للاستخدام و٣٦٦٦ مدرسة تحتاج إلى اصلاح . و٤٠٠٠ مدرسة غير مزودة بالكهرباء او الانارة . و٨٤١ مدرسة غير مزودة بمياه الشرب، و٤٠٢ مدرسة تنقصها المرافق. أكثر من نصف عدد المدارس وغالبيتها فى مرحلة التعليم الابتدائى غير صالحة لتلقى دروس العلم، بل ربما غير صالحة للاستخدام الآدمى .

وترتب على ذلك جملة من الاحتياجات من الابنية المدرسية، لكى تتحقق فعالية العملية التعليمية، فكان مطلوبا بناء ٣٦٨٦ مدرسة لمواجهة الزيادة السكانية و٥٤٠٨ مدارس لمواجهة تعدد الفترات الدراسية و١١٩١ مدرسة لمواجهة كثافة الفصول و٥١٨٠ مدرسة لمواجهة عملية الاحلال و٤٤٨٢ مدرسة لمواجهة مشكلة التسرب، وكانت تلك خطة طموح حتى عام ٢٠٠٢، وأخذت الوزارة فى سياستها الجديدة (٩٢ ـ ١٩٩٧) فى بناء ٧٥٠٠ مدرسة بمعدل ١٥٠٠ مدرسة سنويا اعتبارا من عام ١٩٩٣/٩٢ . ولاشك فى ان كل تلك الجهود رهن بتوفير الاعتمادات المالية وزيادة مخصصات التعليم ووضع التعليم على اولويات العمل الوطنى، حتى يتحقق فعلا شعار التعليم: قضية امن قومى .

قضية امن قومى

ان المستهدف من التعليم تحقيق الاستقرار الاجتماعى والمساواة من خلال



تعظيم تكافؤ الفرص في التعليم والحياة، أن الدول الغنية والفقيرة على حد سواء تسعى جاهدة نحو توفير تعليم راق لابنائها بوصفة اداة للحراك الاجتماعي وبوابة الدخول الى عصر المنافسة على جميع الأصعدة. من هنا فإن الدروس الخصوصية تحول دون اتاحة فرص تعليمية لابناء الفقراء لمواصلة تعليم ذي نوعية أفضل، لأن الاغنياء هم وحدهم الذين يحصلون على نوعية افضل من التعليم في المدارس الخاصة والأجنبية الى جانب الدروس الخصوصية، ولاشك في أن ذلك يهدد أمننا القومي في مقتل، فالدراسات تشير الى ارتباط الدروس الخصوصية بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي للأسرة، ففي دراسة ميدانية أجريت عام ١٩٩٨/٩٧ اظهرت نتائجها ما يلي :

- في التعليم الاساسي ٤٥.٨٪ من الفقراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ٦١.٤٪ للفئات الوسطى و٦٤.٦٪ للأغنياء.

- وفي التعليم الثانوي ٦٦.١٪ من الفقراء يأخذون دروس خصوصية مقابل ٨٨.٦٪ للفئات الوسطى و٨٣.٦٪ للأغنياء.

- وفي المعاهد العليا ٥٣.٥٪ من الفقراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ٦٧.٧٪ للفئات الوسطى و٨٥.٧٪ للأغنياء.

- وفي الجامعة ٧.٨٪ من الفقراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ١١.٧٪ للفئات الوسطى و١٦.٢٪ للأغنياء .

ولقد بلغت الجملة ٥١.٣٪ للفقراء في جميع أنواع التعليم مقابل ٦٣.٢٪ الفئات الوسطى و٦٠.٥٪ للأغنياء، ولعل ذلك يؤكد العبء الملقى على كاهل الفقراء في تمويل التعليم بصورة خبيثة ضار للغاية بالعملية التعليمية برمتها وضار بالاستقرار الاجتماعي ومهدد أمننا القومي.

كيفية النهوض بالتعليم

نعتقد أن هذه الظاهرة في حاجة إلى تضافر جميع الجهود الوطنية وليس وزارة التربية والتعليم بمفردها في مواجهة تلك الظاهرة ونطرح بعض الرؤى للمواجهة:

- تحسين أوضاع المعلمين الاقتصادية بما يعينهم على العيش في حياة كريمة، ولو أدى ذلك إلى وجود كادر خاص مثل رجال القضاء والشرطة وأساتذة الجامعات... إلخ.

- تطوير أساليب الامتحانات والتقويم بما يسمح بأعمال العقل النقدي، وجعل التقويم مستمرا، ولعل الوزارة تطرح فكرة الحوار حول استمرارية التقويم على مدار العام الدراسي وليس في نهايته فقط، إلى جانب جعل الأنشطة والممارسات والتكليفات جزءا أصيلا من عملية التقويم، وهي بذلك الفهم المستنير تمسك حقا بتلابيب المشكلة وحلها.

- زيادة عدد مقاعد الدراسة بالتعليم الجامعي والعالي بما يعادل ويكافيء عدد الطلاب الراغبين والقادرين في الالتحاق

بهذا النوع من التعليم، لأنه دون ذلك سيظل الصراع والمنافسة قائما نظرا لقلة عدد الأماكن بالجامعات والتعليم العالى.

ـ زيادة معابر الدخول إلى الجامعة عن طريق تيسير الشروط لطلاب التعليم الثانوى الفنى بأنواعه المختلفة للإلتحاق بالجامعة والتعليم العالى وفق شروط أكثر إنسانية، ولعل الأمل معقود على مؤتمر تطوير التعليم الثانوى الذى تعد له الوزارة الآن.

ـ تحديث وتطوير المفاهيم لدى المستويات الإدارية العليا فى التربية والتعليم بحيث نؤمن معا بخطوات التطوير وأهدافه وفلسفته.

ـ اليوم الدراسى الكامل، بما يسمح للطلاب والمعلمين ممارسة الأنشطة والتدريبات داخل المدرسة، كما يسمح بأن تكون مجموعات التقوية، التى نتحفظ عليها ـ تتم ليس بعد اليوم الدراسى مباشرة ولكن يمكن أن تتم مساء، وأن تتحول المدرسة إلى ساحة للعمل التربوى والثقافى ينشغل فيها المعلم والطالب والإدارة.

- التفكير بشكل جاد فى محاولة إيجاد صيغة للاحتفاظ بالكتاب المدرسى لأكثر من عام ، لأن ذلك سيوفر مليارات الجنيهات تنفق فى طباعة الكتب سنوياً .

- إتاحة القناة التعليمية للفقراء والمحرومين وأن تكون خارج الفضائيات وأن تكون بديلاً عن « الأدلة » التى تقوم بها الوزارة بطباعتها وبيعها سنوياً للطلاب فى إطار منافسة الكتاب الخارجى والاستعاضة عن ذلك بالتدريبات والتمارين فى داخل الكتاب المدرسى نفسه .

ولا شك فى أن هناك جهوداً جادة تبذلها وزارة التعليم آخرها « الإعداد للمؤتمر القومى لتطوير التعليم الثانوى، وكلها جهود سوف يكون لها أكبر الأثر فى تطوير التعليم والدخول به إلى القرن القادم . ولكن نظرا لأن التغيير فى مجال التعليم بطىء المردود ويقاوم من أصحاب المصالح سواء منهم من هم على رأس الجهاز الإدارى البيروقراطى الذى يعوق عملية التطوير دفاعا عن مصالحه ، أم من أصحاب ، مطابع شارع الفجالة والكتب الخارجية ، وكذلك من مافيا الدروس الخصوصية .

إن عملية التعليم ، هى عملية صراع اجتماعى بالأساس بين قوى التغيير والتنوير وقوى التخلف والدفاع عن الأوضاع القائمة تحقيقاً لمصالح اجتماعية وفئوية ضيقة الأفق ، تحاول أن تخنق عملية التطوير وتجعلها عملية فنية يقوم بها الخبراء والمختصون فى حين أن تلك العملية هى جوهر العمل الوطنى ، وذلك للعديد من الظواهر المنتشرة بين شبابنا ، ظواهر عدم الانتماء وطرح الحلول الفردية والخلاص الفردى .

أن التعليم مناط به دور أكبر من إكساب الطلاب معارف وعلوم معينة ، أن له دورا أساسيا فى العمل على التماسك والاستقرار الاجتماعى وتدعيم الهوية الوطنية والثقافية للأمة ، وذلك لن يكون إلا إذا أصبح التعليم فعلا : قضية أمن قومى، وقضية وطنية بالأساس ينشغل بها جميع أبناء الوطن . ■


الجنس على الخط
الصور العارية تقتحم البيوت!
ماذا بعد توافر الإنترنت للجميع؟
بقلم
د. أحمد محمد صالح

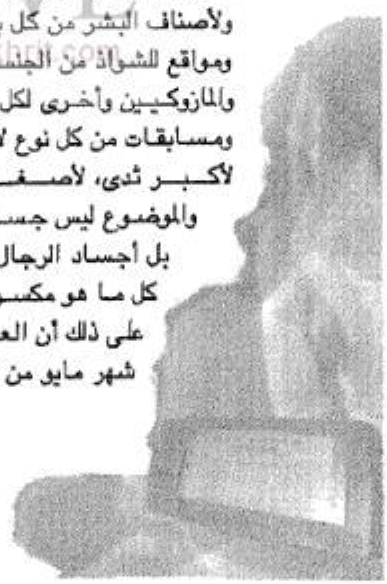
هناك مقولة منتشرة تقول: إنك إذا أردت تأليف كتاب يكون أكثر رواجا لابد أن يحتوى العنوان على كلمات مثل «الجنس والإنترنت»، لذلك قررت اختبار هذه النظرية فى هذا المقال. ويبدو أن تلك الكلمات تلفت انتباه القارئ وتخترق صخب وضجيج أخبار العنف والقتل والدمار التى تعج بها كتابات اليوم! والجنس يطل علينا من كل مكان في الشارع، فى الصحف والمجلات فى أفلام السينما، فى دراما التليفزيون فى أغانى الفيديو كليب، وخصوصا فى الإنترنت وقرأت أن أصحاب مواقع الدعارة والبورنو فى الإنترنت يكسبون أموالا طائلة! وقليل منهم عمل دعاية لنفسه، وأغلبهم يعيشون فى الظل حتى لا يلفتوا إنتباه المنظمات الحكومية، فهم بالتأكيد لا يريدون ذلك! وتجارة الجنس على الإنترنت ناتج عرضي مؤسف لحق الحرية التى تضمنتها الدساتير ومؤسسات المجتمع.

وفى كل مرة تظهر تكنولوجيات جديدة تجد دائما هناك من يوظفها فى توصيل أفكاره الجنسية، ومن يقول دائما إنها فى حاجة إلى تنظيم حتى لا تستغل فى الفحش ومنذ عهد قريب كنت أعبث فى أرشيف أعداد صحيفة مشهورة، لفت نظرى مقال ملخصه يقول إن التقنيات الجديدة تكتسح العالم، وسوف تغير حياة الناس إلى الأبد، فى طريقة عملهم وفى طريقة حياتهم بشرط ألا توظف تلك التكنولوجيات فى أغراض مفسدة لا أخلاقية أو غير شرعية، وإذا حدث سيكون ذلك أحد الاختراقات الأعظم للبشرية.

الجانب المظلم

الكاتب وقت كتابة هذا المقال منذ حوالى ١٠٠ سنة لم يكن يعرف الإنترنت! بل كان يتكلم عن التلغراف والتليفون كتكنولوجيا جديدة وقتها! والتليفون والتلغراف كان لهما تأثير فى حياة البشر أكبر من الإنترنت! لكن عندما يتعلق الأمر بالعمل لبيع الجنس فيجب أن نسلم بانتصارات الإنترنت، لأن الناس اليوم يعيشون فى مجتمعات افتراضية عبر الفضاء الإنترنتى أكثر مما تعيش فى مجتمعات جغرافية وإذا كانت الموجة الأولى من الدعاية والتبشير بالإنترنت لم تتكلم عن جوانبها المظلمة فاليوم نحن فى الموجة الثانية من الدعاية والإعلان عن الإنترنت وموضوعها

الرئيسي جوانب الإنترنت المظلمة، ووسائل الإعلان متلهفة دائما على القصص التى تبين الجانب المظلم من الإنترنت، لكن ما هو الجانب المظلم فى الإنترنت؟ بالنسبة لأغلبية الناس هو الجنس! فعمليات واستفسارات البحث البريئة فى محركات البحث فى الإنترنت عن موضوع جاد يمكن أن تنتهي بمواقع البرونو وتجد أمامك فجأة على الشاشة من يدعوك أن تكمل المشوار معه! وعندما تتعمد أن تكتب كلمة جنس أو مترادفاتها فى أي محرك بحث، تجرى الشاشة أمامك بالآلاف من العناوين والمواقع المهتمة بالجنس، واتذكر أول تجربة لى وجها لوجه مع جنس الإنترنت فوجئت وأنا الشرقى الذى يحمل ثقافة الجنس كطوطوم، بالموقف فالجنس يقدم بالصورة والحركة والصوت وهناك مواقع لكل سن ولكل جنس من البشر، هناك مواقع جنس للشباب والمراهقين من الجنسين، ومواقع أخرى تقدم جنس خاص للسود والبيض والصفر والسمر ولأصناف البشر من كل بلد، ولكل عمر! ومواقع للشواذ من الجنسين والساديين والمازوكيين وأخرى لكل ما هو شاذ! ومسابقات من كل نوع لأجمل ساقين لأكبر ثدي، لأصغر وسط، إلخ.. والموضوع ليس جسد المرأة فقط.. بل أجساد الرجال والأطفال، بل كل ما هو مكسو باللحم ويزيد على ذلك أن العالم ابتلي فى شهر مايو من العام الماضي،



بفيروس كمبيوترى جديد يقوم بتوجيه الأجهزة المصابة به إلى مواقع الفحش، وهى محاولة قام بها أصحاب مواقع الدعارة وتجار الجنس على الإنترنت لزيادة عدد الزوار إلى مواقعهم الاباحية ويظهر الفيروس - واسمه هومبيج - الجديد على هيئة رسالة إليكترونية بريئة تحث قارئها على التوجه إلى صفحة معينة على الانترنت، ولكن ما أن يتم فتح الرسالة حتى يبدأ الفيروس بالعمل فيوجه المتصفح إلى واحد من أربعة مواقع إباحية كما يقوم بتغير الصفحة الرئيسية للمتصفح ويضع واحدا من هذه المواقع محلها، فهى صناعة كاملة للإثارة من صور البرنوجراف والأفلام وتبادل الكلام الجنسى والأصوات المجسمة والموسيقى والأغاني وهناك كتب وألعاب ومعارض ومتاحف للجنس، وهناك أيضا مواقع مخصوصة للأمراء العرب، يقدم فيها كل ما هو غريب فى الجنس، وكانت صدمة شخصية لي! فهناك مؤسسات كاملة متعددة إثارة الغرائز بكل الأشكال من أجل الربح لكن هناك أيضا فى الانترنت كتبا ومقالات ودراسات ومجلات ومواقع جادة علمية تعالج كافة الأبعاد الثقافية والنفسية والاجتماعية للجنس وتقدم نصائح وإرشادات للأسر الشابة الجديدة.

جنس الإنترنت بين العرب والغرب

وفي منطقتنا العربية فى حدود علمي لا توجد دراسات اجتماعية ونفسية

تدرس تأثير جنس الإنترنت على النسق الاجتماعي لكن الباحثين في الغرب اهتموا بتلك الجوانب ولعل نتائج دراساتهم هناك تعطي لنا بعض المؤشرات لعلنا نتفهم أبعاد تلك الظاهرة ففي دراسة مسحية في Denver «دينفر» بالولايات المتحدة الأمريكية نشرت نتائجها في سبتمبر ٢٠٠٠، وأجريت على ٨٥٦ مبحوثا تمت عليهم الاختبارات الطبية اللازمة وجدوا أن الناس الذين يبحثون عن شركاء جنس عن طريق الإنترنت قد يكونون في مجازفة كبيرة! وعرضة للأمراض المنقولة جنسيا بنسبة كبيرة جدا بالمقارنة بأولئك الذين لا يبحثون عن شركاء جنس على الإنترنت وفي ١٩ مارس عام ٢٠٠١ صدر في أمريكا كتاب بعنوان «الفحش العام - حماية الأطفال من فحشي الإنترنت» ومؤلفه Dan Gabriel يقول فيه: قد أصبحت المكتبات العامة ميدانا للقتال على الأدب المكشوف للإنترنت والمحافظين المخلصين في كل مكان أصبحوا يطالبون بالتدخل الفيدرالي لحماية أطفالهم وأن الحرب الثقافية تشتد داخل مكتبات أمريكا حيث تحذر جماعات المحافظين من جنس الإنترنت المنتشر خاصة في المدارس الداخلية، وأن مكتبات المدارس العامة أصبحت مأوى للكلام البذئ الخالي من الخجل خلال خدمة الإنترنت التي تقدمها تلك المكتبات وهو مؤشر لنا في منطقتنا العربية للرقابة على مراكز ومقاهي الإنترنت المنتشرة في البلاد ويقبل عليها الشباب والمراهقين هربا من الرقابة الأسرية خاصة وأن الإنترنت في الغرب بوابة واسعة لتجنيد الأطفال والشباب من الجنسين في أفعال الجنس الشاذة.

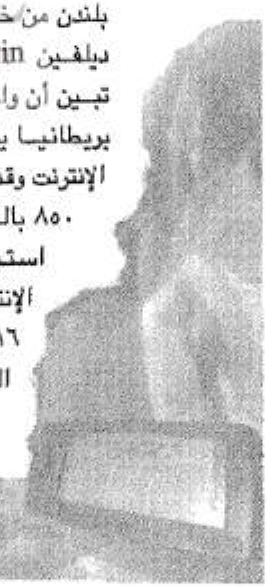
الجنس في المكتبة والمدرسة

وفي دراسة شيقة أخرى جمعت بياناتها من المكتبات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية تبين فيها أن ٢٧٪ من المكتبات التي استجابت للدراسة سجلت فيها ٢٠٦٢ حادثة في سنة واحدة سابقة للبحث تعرض فيها المترددين على المكتبة للأدب المكشوف من خلال خدمة الإنترنت التي تقدمها المكتبات وكان بينها خمس حالات تحرش جنسي للأطفال و١٠٦ حالة لكبار يشاهدون الأدب المكشوف عبر الإنترنت و٤٧٢ حالة من الأطفال يتصلون ويدخلون على الأدب المكشوف في الإنترنت وتقدر حوادث التعرض للأدب المكشوف في الإنترنت عبر المكتبات العامة في الولايات المتحدة ما بين ٤٠٠ ألف و٢ مليون حالة على المستوى القومي، واتضح أن أكثر من ٥٠٪ من فصول المدارس في الولايات المتحدة الأمريكية متصلة بشبكة الويب ٨٢٪ من الآباء في كل الولايات المتحدة الأمريكية أعربوا أنهم يتوقعون أن يصل أطفالهم إلى المواد الممنوعة في الإنترنت رغم كل المحاذير وبرامج الفترة ويعتقد ٥٨٪ من الآباء الذين لا يملكون اتصالا

بالانترنت فى منازلهم أن اعتماد أولادهم على الوصول إلى الإنترنت من خلال المكتبات العامة والمدارس مدخل آمن ونظيف لأطفالهم، ولكنه اعتقاد خاطئ تماما! لأنه ليس سرا أن العالم كله يعرف أن الأطفال حينما يجلسون أمام الإنترنت ويحركون فأرة الكمبيوتر يصبح أمامهم من ٧٢ ألف إلى ١٠٠ ألف موقع جنس وبرنوجراف واضحة تماما وأن تلك المواقع تزيد حوالى ٤ آلاف موقع يوميا و٨٥٪ من تلك المواقع لها طبيعة تجارية حيث تبيع الأدب المكشوف والترفيه الجنسي وهى تمثل ثالث أكبر قطاع مبيعات على الشبكة حيث تقدر بواحد بليون دولار فى نهاية ١٩٩٩.

دراسات ونسب إحصائية

وفى دراسة أخرى قامت بها Net-doctor.co.uk وهى شبكة طبية مستقلة تقدم خدماتها فى الرعاية الصحية على الخط عبر الإنترنت، ونشرت دراستها فى ٢٠ ابريل ٢٠٠١ بلندن من خلال تقرير دكتور ديفيد ديلفين Dr David Delvin حيث تبين أن واحدا من كل خمسة فى بريطانيا يدخلون مواقع الجنس على الإنترنت وقد أجرى البحث بين أكثر من ٨٥٠ بالغا فى بريطانيا من خلال استبيان عبر موقع الشبكة فى الإنترنت وتراوحت أعمارهم من ١٦ - ٨٠ عاما، وأوضحت الدراسة أن ٢٥٪ من الرجال



و١٥٪ من النساء فى المسح ادعوا أنهم يمارسون جنس الإنترنت وبمعنى آخر يمارسون الإستمناء بينما هم على اتصال مع شخص ما على الإنترنت، وتبين أن ٩٠٪ من المستجيبين يصفون أنفسهم بأنهم heterosexual بمعنى يمارسون الجنس مع الجنس المغاير لهم فى النوع، ١٨٪ من الرجال و٤٠٪ من النساء اعترفوا بالتخيل بممارسة الجنس مع شخص من نفس النوع ، و٦٪ من كلا من الذكور والإناث مارسوا الجنس فى الحقيقة مع شخص من نفس النوع. وحوالى ١٦٪ من الرجال و٧٪ من النساء قالوا أنهم مارسوا الجنس فى مجموعة، و١٨٪ من النساء مقابل ١٦٪ من الرجال قالوا بأنهم تمتعوا بنوع الجنس المصحوب بعبودية الضرب والصفع و١٦٪ من النساء مقابل ١٣٪ من الرجال تمتعوا بالضرب على العجز و٨٪ من كلا النوعين اعترفوا بالتأنق فى ملابس داخلية أو خارجية للجنس المعاكس لهم من أجل الاستمتاع بالجنس والدكتور ديفيد ديلفين مستشار الجنس فى NetDoctor.co.uk قال أن هذا المسح يظهر أن الإنترنت لها دور مفيد فى السماح للناس لإستكشاف ومناقشة المناطق التى عادة ما يشعر الناس بالخجل والإحراج من مناقشتها حتى مع الأصدقاء والمقربين منهم، وشركائهم فى الحياة! وللعديد من الناس ، هذه الموضوعات قد تكون مخاوف

وهواجس جنسية ، وادعى أكثر من ربع الرجال والنساء ، أن طريقة تربيتهم وتنشئتهم شجعتهم على الاعتقاد بأن الجنس يعد موضوعا شريرا أو قذرا، وحوالى ٦٠٪ من الرجال والنساء اعترفوا بأنهم يملكون تخيلات جنسية خاصة لا يعترفون بها لشركائهم وتقريبا ثلثي الرجال وثلث من النساء قالوا بأنهم أرادوا ممارسة الجنس مع شخص ما من نوع مختلف عنهم.

مواقع الإنترنت الترفيه

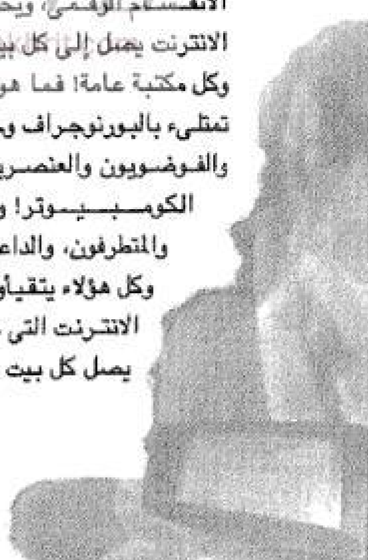
وفى دراسة مسحية على الإنترنت فى كاليفورنيا تشير إلى زيادة وسيطرة أعداد الرجال المستعملين لمواقع الويب الجنسية بدرجة تفوق كثيرا النساء ، لكن كانت المفاجأة أن أعداد الشابات المترددات على المواقع الجنسية فاق كل التوقعات! وكان حوالى ١٣٥٠٠ شخص أجابوا ٤٧ سؤالا صممت لتقصى عاداتهم الجنسية على الإنترنت وكان تسعة وخمسون بالمائة من نساء المسح أعمارهن بين ١٨ و٣٤ واشارت النتائج بأن الناس يتصفحون مواقع جنس الإنترنت للاستجمام أو الترفيه وليس للإرضاء الجنسى. وأن الإنترنت لها الإمكانية لتثوير الجنس، وسيكون لها تأثير رئيسى على الجنس فى المجتمع وقال بعض مستعملى الإنترنت بأنهم يبدون أحرارا أكثر لاستكشاف جنسهم على الإنترنت وقال آخرون لا أحد يعرف أو يحتاج لمعرفة ما تعمله ، لذلك يمكنك أن تشعر بالحرية لما تريد! وزعم البعض قائلا: أنت لست فى دكان دعارة فاسد، ولا أحد يراقبك! أنت فى فضائك الخاص «الخاص جداً»، ولا يستطيع أى قانون مقاضاة الناس لمجرد وجود صور خلاعية من الانترنت فى أجهزة كمبيوتراتهم الموجودة فى منازلهم! واتضح أيضا ارتفاع نسبة ممارسات جنس الانترنت خاصة على شبكة الويب، وان زيادة مواقع الويب الخلاعية وغرف الدردشة الشبقية، قد يخلق جيلا من الناس لا يستطيع السيطرة على دوافعهم الجنسية الجامحة! ويقول سان خوزية «San Jose» من مركز بحوث الزواج والجنس أن هناك حوالى ١٪ من المبحوثين يصرفون أكثر من ١١ ساعة أسبوعيا فى الجنس على الانترنت، وهكذا يمكن أن يصنفوا على أنهم Cy-bersex Compulsives. بمعنى أنهم يملكون دوافع جامحة فى ممارسة جنس فضاء الانترنت، وأشار البحث بأن ٢٠٪ من الرجال و١٢٪ من النساء يدخلون مواقع الجنس فى الانترنت من أماكن عملهم!

وفى انجلترا بالتعاون بين مركز أبحاث الجرائم ضد الأطفال التابع لجامعة نيوها مبشير مع المركز القومى للأطفال المفقودين والمستغلين وضع تقرير عن ضحايا الانترنت، والذى تبين منه أن:

٦٦٪ من الذين عرض عليهم الجنس

كـانوا من الإناث، و ٧٠٪ من الحـوادث وقـعت عندمـا كـان الأطفـال والفتـيـان يستخدمون كومبيوتراتهم المنزلية، و ٦٥٪ من الحـوادث وقـعت لدى الدخـول إلى منتديات الحوار. فيما وقعت ٢٤٪ من الحـوادث بواسطة ارسـال رسـائل سريعة Instant Message، وأخبر ٢٩٪ من الأحـداث صـديقـا لهم أو أخـواتهم بينمـا أبلغ ٢٤٪ منهم آباءهـم بوقـوع الحـوادث، وعـرضت على ٢٥٪ من الأحداث صور جنسية، وأكد التقرير أن تحذير الأطفال بعدم التحادث مع الغرباء لا يعـتـبـر كـافـيـا وينطبق ذلك على المراهقـين، حـيث ظهـر أن ٧٧٪ من الأحـداث الذين عرضت عليهـم عـلاقـة جنسية كانوا من أعمار ١٤ عاماً فاكثر، هناك دراسات كثيرة تكشف أن الاهتمام بجنس الانترنت يتفاوت من مكان لآخر، وأن هناك عـلاقـة بين جنس الانتـرنت وزيادة العنف ضد النساء.

وإذا كان العالم كله يسعى إلى عبور الانقسام الرقمي، ويحاول أن يجعل الانترنت يصل إلى كل بيت وكل مدرسة وكل مكتبة عامة! فما هو تأثيرها؟ وهي تمتلىء بالبورنوجراف وحليقو الرءوس والفوضويون والعنصريون، ولصوص الكومـبـيـوتر! والارهـابيـون، والمتطرفون، والداعرون، والشواذ، وكل هؤلاء يتقيأون أفكارهم في الانترنت التي نسعى إلى أن يصل كل بيت ومدرسة، وكل مكتبة وكل مكان عام! مع العلم أن جميع الحلول التقنية فشلت في منع الوصول الى المواقع غير المرغوبة، وقد نشرت في جـريدة الحـيـاة التي تصـدر في لندن، نتـائج مسح قـامت به الجريدة ونشرت نتائجه في نوفمبر ٢٠٠١، على عينة من المستخدمين السعوديين للشبكة في مقاهي الانترنت التي لا يتجاوز عددها في السعودية ألف مقهى، فرغم الفلاتر والرقـابة على الانتـرنت هناك أوضح الاسـتطلاع أن عـدد السـاعـات التي يقضيها الذكور في استخدام الشبكة يزيد بمعدل الضعفين عنه عند الإناث، وتبين أن استخدامات الإناث للشبكة تنحصر في فترتي العصر وبعد منتصف الليل لعدم وجود رقيب، وأكد ٥٠٪ في المائة من المستخدمين امتلاكهم لأجهزة شخصية في منازلهم إلا أنهم يفضلون استخدام الشبكة من خلال مقـاهي الانترنت المنتشرة بينما ٥٠٪ في المائة يلجأون إليها نظراً لعدم امتلاكهم تلك الاجهزة. أما بالنسبة إلى المواقع التي يتم تصفحها فاتضح أن ٦٠٪ في المائة من الذكور يقتصر استخدامهم في المقاهي على مواقع الدردشة بينما ٨١ في المائة يتفقدون بريدهم الالكتروني و ٢٢ في المائة يقومون بالبحث عن مواقع إباحية جديدة على الشبكة، وبلغت نسبة المحادثة للإناث مائة في المائة، واتضح أن انخفاض أسعار أجهزة الحاسب الشخصي سهل من عملية اقتنائها



خاصة للمراهقين الذين وجدوا في الشبكة ما يرضي طموحهم من إبحار في عالم مملوء بكل ما هو أباحي ومثير.

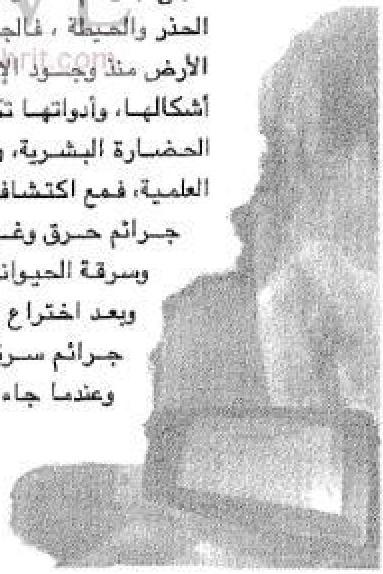
هل الرقابة هي الحل؟

والسؤال الآن هل الرقابة على الانترنت سوف تريحنا من جنس الانترنت؟ أو بمعنى أخر هل تتحسن حياتنا إذا نحن منعنا صور وأفلام الاباحية في الانترنت؟ قبل القرن العشرين كانت النخبة الفنية فقط هي التي تتعرض لصور وأفلام البورونوجراف! ومع ذلك كان العنف والتطرف منتشراً لآلاف السنوات قبل ظهور المطبعة واختراع الكاميرا! واليوم الدول التي تمنع الصور الجنسية والموسيقى الغربية الخليعة مثل بعض الدول الاسلامية والصين تعاني من عدم انسجام اجتماعي وتمييز ضد المرأة، ومنذ آلاف السنين مراهقون تزوجوا ، وحملوا بدون صور جنسية.

والسجل التاريخي للعنف والاعتداء الجنسي والاغتصاب والدعارة منتشر على مر التاريخ قبل اختراع الصور والأفلام ! فالإدعاء بأن المواد الجنسية أكثر انتشاراً وعنفاً اليوم بالمقارنة في أي وقت سابق سؤال عبثي ، وأتذكر هنا مقال للكاتب «خالص جلبي» في جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان «علاقات القوة والجنس» يقول فيه بعد موجة الرهبنة وحبس الغرائز وإكراهات العصر الفيكتوري انتشرت سحب الاباحية والشذوذ الجنسي، وعندما بدأت أفلام (الجنس) Sex في الغرب تفيض بها الرفوف فلا ترى إلا العرى، وانطلقت موجة الستريتيز في الستينات من بريطانيا فزكمت الأنوف وشكلت أشرطة الجنس ٨٠٪ من خزائن النوادي حسب احصائيات مجلة (در شبيجل). وبعد عدة سنوات انكسرت حدتها فتراجعت إلى ٢٠٪ ثم تحولت إلى ظاهرة مخيفة بين (الجمود) و(الانحراف) فالجنس كالسبع الضاري من حرضه وثب عليه فافترسه، ومن رمى له بقطعة لحم اسكت جوعه فأمنه.. هكذا يقول (ابن مسكويه) في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق).

واليوم تتدفق أمواج الإباحية من المحطات الفضائية وتفعل فعلها السمي في العالم العربي، فلا يستطيع منعها إنس ولا جان، فهي تقتحم بيئة عذراء غير مهيأة لهذا النوع من الاجتياح في ظل تابو المجتمع العربي ، الذي يواجه العولمة كمن يحارب الفانتوم بالعصا، ولم تتطور الثقافة الجنسية بين (الإظهار) و(الإخفاء) من فراغ على قاعدة (ارسطو) الذهبية أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين. فمع الإباحية يتحول المجتمع إلى مستنقع يَستحق التدمير. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ومع الكبت تنشأ الأمراض النفسية من الهلوسة الجنسية فيتحول كل النشاط إلى جنس حتى لو

كان ظاهرياً عين التقوى، ويصبح (جسد المرأة) المسرح السياسى لطغيان الرجل وإعلانه الوصاية على كائن متخلف عقليا لا يعرف ما يستر به نفسه. ويعلل (مالك بن نبى) فى كتابه (شروط النهضة) المعركة حول جسد المرأة بالمزيد من تعريتها أو التشدد فى تغطيتها الى الآلية الخفية نفسها من الدافع الجنسى مع أن ظاهر الأمر يوحى بالتناقض بين الفحش والتقوى، لكنه فى حقيقته واحد مثل الفيلم الأسود قبل التحميض والملون لاحقاً، لكن أكثر الناس لا يعلمون، ونزعم هنا إلى أن ما ذهب إليه الكاتب من تأثير المحطات الفضائية ينطبق تماما ويزيد على الانترنت! وأن فيض الجنس فى الانترنت سيصل لمرحلة اشباع يتراجع فيها! ويجب ألا يخيفنا جنس الانترنت، ويجعلنا نحجم عن استخدام هذه الشبكة العالمية الرائعة، بل يجب أن يدفعنا ذلك للتعرف على أنواع جرائم الانترنت، ونأخذ منها الحذر والحيطة ، فالجريمة وجدت على الأرض منذ وجود الإنسان، وتنوعت أشكالها، وأدواتها تكاثرت مع تعقد الحضارة البشرية، وتزايد الابتكارات العلمية، فمع اكتشاف الزراعة ظهرت جرائم حرق وغرق المزروعات ، وسرقة الحيوانات وتسميمها ، وبعد اختراع السيارة، ظهرت جرائم سرقة السيارات، وعندما جاء التليفون، ظهرت جرائم الخداع والمضايقات عبر الهاتف



نشاطات اجرامية

وبعد اختراع الطائرة ، ظهرت جرائم اختطاف الطائرات.. ومع ظهور « شبكة الانترنت» ونموها السريع وانغماس عشرات الملايين فى نشاطاتها المعلوماتية والتجارية والترفيهية، وجه البعض نشاطاتهم الاجرامية إلى هذه الشبكة العالمية، وهو أمر طبيعي! فالجريمة موجودة في أى مجتمع، مهما كان صغيراً، فما بالك بمجتمع الانترنت الذى تجاوز عدد مواطنيه مئات الملايين. والجرائم التى تدور عبر الشبكة متنوعة، وتتراوح بين الجنح الصغيرة والجرائم الخطيرة، منها الاحتيال، نظراً لسرعة وسهولة ارسال الرسائل بواسطته إلى عدد كبير من الناس، ويوميا استقبل عشرات الرسائل الالكترونية التى تعد بتحقيق ثروة كبيرة خلال أسابيع قليلة، وما عليك سوى التضحية بحفنة دولارات! وهذا الخطر المتنامى من الجرائم عبر الانترنت، بدأ يلفت الانتباه فى العواصم العالمية، وعملت حكومات العالم على سن القوانين التى تحمى الناس من جرائم الانترنت وسعى المصممون إلى تصميم برامج فلترة وترشيح للانترنت من تلك المواقع، ووضعت لوائح للانترنت تقاضى بها المبتدئين وفاقدى الحياء، لكن هناك فى نفس الوقت من يحذر من إمكانية ضياع

الحرية التى تتمتع بها شبكة الانترنت، الأمر الذى يهدد بتحويلها إلى واحدة من أكثر وسائل النشر تقييداً، ففى الوقت الحالى يتعرض كل مستخدم للانترنت للكثير من المواقع ذات المضامين المتطرفة أو الخارجة عن قواعد الذوق العام وتتنوع هذه المواقع ما بين تلك التى تنشر مواد جنسية أو آراء عنصرية، وقد حدث أن استخدم بعض المجرمين الانترنت لنشر تبريراتهم لجرائمهم والإشكالية التى تواجه الحكومات فى شتى أرجاء العالم الآن هى إمكانية وكيفية حماية عامة الناس، والأطفال بصفة خاصة من مخاطر الانترنت، دون المساس بحرية النشر والابداع المكفولتين فيها حاليا، ويطرح كتاب صدر مؤخراً للصحفى البريطانى ألان ترافيس استعراضا لتاريخ الرقابة فى بريطانيا ونظرة متشائمة لمستقبل الانترنت إذ أعرب المؤلف عن اعتقاده بأن الزوال هو مصير ما تتمتع به شبكة الانترنت من حرية جعلت منها حتى الآن وسيطا لم يسبق له مثيل لنقل المعلومات إلى أى مكان فى العالم وذكر الكاتب أن موقف الحكومة البريطانية فى هذا الصدد يقوم على وجوب عدم استثناء الانترنت من قوانين النشر والبث المعمول بها فى وسائل الثقافة والاعلام التقليدية، لكنه أشار إلى أن المشكلة تكمن فى تلك القوانين ذاتها التى تسودها فوضى عارمة، فبعضها يرجع تاريخ صدوره إلى أكثر من مائة عام، كما أنها تحمل تعريفات متناقضة لما يتنافى مع الذوق والأدب العامين ويوضح الكتاب أنه لم تكن هناك صعوبة فى الماضى فى تطبيق قوانين النشر نظراً لأنها كانت تتعامل مع أشياء ملموسة فإذا كان الأمر يتعلق بكتب أو مجلات أو أفلام خارجة. حظر نشرها وتداولها لكن الأمر ليس بهذه البساطة فى الانترنت وحذر الكاتب من أن الفشل فى ايجاد القوانين الصالحة للتطبيق على الانترنت سيؤذن بنهايتها وضياع كل ما تتمتع به من سمات فريدة وسيفتح المجال لوقوع الكثير من المظالم ورغم اعترافه بأن المهمة عسيرة للغاية، فإن الكاتب اقترح المزج بين استخدام سلاح الحظر ضد المواقع التى لا يختلف على خطورتها، كتلك التى تسعى لاستغلال الأطفال جنسيا، وفى نفس الوقت إعطاء الآباء والأمهات الأدوات التى تسمح لهم بفرض المزيد من القيود على ما ينهله أبناؤهم وبناتهم من الانترنت، ويذكر أن رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير كان قد صرح بأنه يفضل أن تكون، الرقابة على الانترنت مسئولية الآباء والأمهات بدلا من أن تكون مهمة الحكومة. ■



مراد غالب يتذكر

بقلم
د. رءوف عباس

• حكاية اختراق الموساد للمخابرات الروسية

الدكتور مراد غالب نجم تألق فى سماء الدبلوماسية المصرية مع ثورة يوليو ١٩٥٢، ويعد من أبرز خبراء العالم بشئون الاتحاد السوفيتى، فقد خدم بسفارتنا بموسكو أربعة عشر عاما، كان فى معظمها سفيرا، اقترب خلالها من دائرة صنع القرار فى الاتحاد السوفيتى، وربطته روابط الصداقة بقادة الاتحاد وخاصة خروشوف، كما اقترب - أيضا - من دائرة صنع القرار فى بلاده. فى مكتب الرئيس جمال عبدالناصر وفى وزارة الخارجية، وقد عده الجميع «رجل عبدالناصر» وهى حقيقة يعتز بها ولاينكرها، ولاشك أن رجلا مثله لديه الكثير من المعلومات عن الحوادث التى شارك فيها والتى شهدها، ومن هنا تأتى أهمية الكتاب الذى صدر أخيرا متضمنا ذكرياته.



مراد غالب مع الرئيس جمال عبد الناصر

• عندما وجد مراد غالب نفسه طرفا فى لعبة الصراع

ورغم هذا الدور البارز الذى لعبه مراد غالب فى السياسة المصرية زمن الحرب الباردة، لم يفكر الرجل فى أن يدون مذكراته عن عمله بحجة أن ما قد يذكره ربما يسبب ضيقا لبعض الشخصيات التى قد يأتى على ذكرها، وهو الطبيب الذى يداوى الجراح ولاينكأها، حتى استطاع الكاتب الاستاذ عاطف الغمرى أن يقنعه بأن يروى له ذكرياته فى جلسات عقدها معه على مدى شهرين، كان عاطف الغمرى فيها مستمعا، يتوقف أحيانا عند بعض الأمور، يناقشه فيها، حرص على أن يسجلها فى المقدمة التى كتبها للكتاب الذى صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر بعنوان: «مع عبدالناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب»، عارضا - بأمانة - لإجابات مراد غالب على ما طرحه عليه من تساؤلات.

وقد جاء الكتاب خلوا من الحديث المستفيض عن فترة التكوين: الطفولة

مراد غالب يتذكر

والصبا، وظروف النشأة رغم أهميتها القصوى في تشكيل الشخصية، سوى معلومات مقتضبة، ذكرها مراد غالب في معرض تأصيل علاقته بالضباط الأحرار. تعرف من تلك المعلومات أنه ولد بحي الصليبة بالقاهرة عام ١٩٢٢ لأسرة لم يذكر عنها شيئا، انتقلت للاقامة في حي مصر الجديدة بعد مولده بعامين، وقد ربطته أيام الدراسة بمدرسة مصر الجديدة الابتدائية صداقة حميمة بثلاثة زملاء أصبحوا - فيما بعد - من الضباط الأحرار، هم: كمال رفعت، وحسن التهامي، وصلاح دسوقي، وامتدت الصداقة عبر المرحلة الثانوية بمدرسة القبة الثانوية، ثم تفرقت بهم سبل الدراسة فتوجه مراد غالب إلى دراسة الطب، بينما أصبح أصدقاؤه الثلاثة ضباطا ربطتهم ظروف العمل الوطني بعضوية خلية سرية جعلتهم على صلة حميمة بالفريق عزيز المصري، ومن هنا جاءت صلات مراد غالب بالضباط الأحرار، وبزعيمهم جمال عبدالناصر.

الخلفية السياسية

ويروى لنا مراد غالب كيف بدأ وعيه السياسي يتفتح كأحد المعجبين بالوفد في إطار ذكريات ثورة ١٩١٩، وكفاح الوفد بزعامة مصطفي النحاس للمطالبة بالحقوق الدستورية للازمة، غير أنه تأثر بما كان يبثه ناظر المدرسة الإبتدائية في تلاميذه من إعجاب أسطوري بالألمان، باعتبارهم العدو اللدود للإنجليز، الذين قد يساعدون مصر علي التخلص منهم، كما أعجب بمصر الفتاة وزعيمها أحمد حسين، واهتم بالتعرف على الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية تحت تأثير الإعجاب بما حققه الإتحاد السوفييتي من انتصارات، ولكن مراد غالب حرص على ألا يرتبط بأي حزب بروابط تنظيمية، فهو يريد أن يكون له تفكيره وموقفه المستقل، أقرب مايكون إلى الليبرالية.

بهذه الخلفية السياسية بدأ مراد غالب عمله الدبلوماسي في ظروف بالغة الطرافة، فقد كان مدرسا للطب بجامعة الاسكندرية عند قيام الثورة، ونظرا لصلاته الحميمة بالفريق عزيز المصري، أصر الأخير عندما عرض عليه عبدالناصر منصب السفير في ألمانيا (١٩٥٣)، أن يكون في صحبته أصدقاؤه الأربعة من الشباب: كمال رفعت، حسن التهامي، صلاح دسوقي، مراد غالب فاعتذر له عبدالناصر عن عدم امكانية الاستغناء عن

الضباط الثلاثة في هذه الظروف، وكلف مراد غالب بهذه المهمة، فنقل من الجامعة ليشغل وظيفة السكرتير الثانى بالخارجية حتى يعمل مع عزيز المصرى فى ألمانيا، ولكن العلاقات مع ألمانيا قطعت بسبب مسألة التعويضات التى قدمتها لاسرائيل، فتغيرت السفارة التى أرسل إليها عزيز المصرى فأصبحت موسكو بدلا من بون، وهكذا بدأ مراد غالب عمله الدبلوماسى بالاتحاد السوفييتى، فتعلم اللغة الروسية ليتعرف على البلد وأهله وثقافته حتى يخدم بلاده - فى موقعه - على خير وجه.

مهمته الأولى بموسكو

كان عبدالناصر قد طلب منه استكشاف الاتحاد السوفييتى والنظام السوفييتى وكيفية الاستفادة منه فى صراع حيوى وخطير مع الغرب، ومدى إمكانية مده لمصر بالبترول فى حالة قيام الانجليز بقطع امدادات بترول خليج السويس، ومدى إمكانية شرائهم للقطن المصرى فى حالة تعرضنا للمقاطعة الغربية وأخيرا مدى إمكانية تقديم السلاح لمصر، ومهام كهذه كانت تتطلب معرفة جيدة بالاتحاد السوفييتى، حرص مراد غالب أن يعد نفسه لها خير إعداد.

وانتهت مهمة مراد غالب فى موسكو فى فبراير ١٩٥٧، ليعمل فى رئاسة الجمهورية فى لجنة خاصة رأسها حسين ذو الفقار صبرى كانت تتولى دراسة القضايا المهمة، وبعد مناقشات مستفيضة تسجل فى مضابطها، ترفع توصياتها لرئيس الجمهورية، وغالبا ماكان رأى هذه اللجنة يرجح رأى الوزارات المعنية وخاصة الخارجية، وقد سميت هذه اللجنة «لجنة الرئاسة»، ويشير مراد غالب إلى مهام المكاتب الأخرى بالرئاسة مثل مكتب الشئون العربية برئاسة كمال رفعت، ومكتب الشئون الإفريقية برئاسة محمد فايق، وكانت هذه المكاتب تمد الرئيس بالمعلومات إضافة إلى تقارير المخابرات، ومتابعة عبدالناصر للإذاعات، أما محمد حسنين هيكل فكان أحد المصادر المهمة للمعلومات عن الغرب وأمريكا خاصة، وكان تعامله مع الرئيس مباشرة.

ومن خلال وجود مراد غالب عضوا بلجنة الرئاسة، كان الاحتكاك الأول مع المشير عبدالحكيم عامر، عندما أسند الرئيس إلى لجنة الرئاسة تقييم تجربة حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثى) وخاصة أوجه القصور التى شابت أداء القوات المصلحة، وانتهت اللجنة من دراستها الى نتيجة مؤداها أن الحرب القادمة مع اسرائيل ستكون جوية، لسلاح الطيران فيها دور حاسم، وأن الأسلحة الأخرى

مراد غالب يتذكر

سيكون الغرض منها السيطرة الميدانية واحتلال الأرض تحت الغطاء الجوى، فغضب المشير عندما أبلغ بتوصيات اللجنة وعده تدخلا فى شئون الجيش، وكان من بين القضايا التى درستها لجنة الرئاسة «الوحدة مع سوريا، وثورة العراق عام ١٩٥٨، والتدخل الإنجليزى فى الأردن والأمريكى فى لبنان».

وفى عام ١٩٦٠ عين مراد غالب سفيرا لمصر فى الكونجو، حيث عصار أزمته السياسية، ولعب دورا مهما فيها، إذا كان مصدر الصلة الوحيد مع لومومبا فى مخبأه، وقام بتهريب زوجة لومومبا وأولاده إلى القاهرة، ولكن مقتل لومومبا، وتولى موبوتو مقاليد الأمور غلّب كفة المصالح الاستعمارية، فتم طرد السفير مراد غالب ورجاله وأغلقت السفارة المصرية، والمعلومات التى يوردها مراد غالب عن الكونجو على درجة كبيرة من الأهمية.

بين عبدالناصر وعامر

ومرة أخرى، يجد مراد غالب نفسه – دون أن يدرى – طرفا فى لعبة الصراع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، فقد أعدت وزارة الخارجية العدة لإيفاده إلى نيويورك رئيسا للوفد المصرى للأمم المتحدة، ومهدت لذلك فى أوائل ١٩٦١ بإرسال كل الطاقم الذي كان يعمل معه بسفارة مصر بالكونجو إلى نيويورك، ولكنه فوجئ باختيار عبدالناصر له سفيرا فى موسكو بدلا من نور الدين قرة مرشح المشير لهذا المنصب، ومن ثم عامله المشير – فى زياراته لموسكو – بتحفظ باعتباره «رجل عبدالناصر» غير أن مراد غالب استطاع أن يذيب الجليد بينه وبين المشير، وأن يكسب ثقته.

سفيرا فى موسكو

وكان وجود مراد غالب سفيرا فى موسكو اختيارا موفقا، فقد استطاع أن يوحِّد عمل المكاتب المصرية المختلفة فى موسكو تحت رئاسة السفير بعد أن كان كل منها يعمل بمعزل عن السفارة، وكان ذلك موضع انتقاد السوفييت، وأصبح السفير قناة الاتصال الوحيدة بين الرئيس عبدالناصر والقيادة السوفيتية.

واستفادت مصر من صداقة مراد غالب لخروشوف استفادة كبيرة، فقد استطاع أن يزيل سوء التفاهم بين عبدالناصر وخروشوف خلال زيارة خروشوف لمصر (مايو ١٩٦٤) للمشاركة فى احتفالات السد العالى، وقد أورد فى



مع السادات أثناء زيارة الكرملين

الكتاب الانتقادات التى وجهها خروشوف لتجربة التنمية فى مصر، وما قدمه من نصائح فى هذا الخصوص، وحرصه على تأكيد أن الاتحاد السوفييتى لايود التدخل فى شئون مصر، فاختيار الطريق الذى تسلكه من شأنها وحدها.

وقد كان خروشوف متفهما لظروف مصر، مقدرا لعبدالناصر، مجيبا لطلبات المساعدات التى تلقاها من مصر، متجاوزا فى ذلك صلاحياته، ويذكر مراد غالب أن من الأمور التى حوسب عليها خروشوف أمام اللجنة المركزية، وكانت من بين أسباب عزله فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٤، إسرافه فى تقديم المساعدات لمصر وكوبا.

ورغم حساسية موقف مراد غالب باعتباره صديقا حميما لخروشوف، استطاع أن يكسب ثقة القيادة الجديدة فاستمر فى عمله بنجاح، وأكدت القيادة السوفيتية حرصها على دعم مصر ومساعدتها.

أسرار حرب ٦٧

ويلقى مراد غالب أضواء على حرب يونيو ١٩٦٧ من الجانب الذى عمل معه، أى الجانب السوفييتى، فيتحدث عن خطة الخداع الاستراتيجى التى استخدمتها إسرائيل، من خلال اقناع الروس بأن هناك حشودا اسرائيلية على حدود سوريا، ويرجع مراد غالب ذلك إلى امكانية وجود اختراق اسرائيلى للمخابرات الروسية، وكذلك الدور الذى لعبه الروس

مراد غالب يتذكر

فى نصيحة مصر بأن تتجنب القيام بالضربة الأولى (بناء على طلب الرئيس الأمريكى)، وقد استنتج مراد غالب من قدوم الملك حسين (ملك الأردن) المفاجىء إلى مصر، وطلبه من عبدالناصر تعيين قائد مصرى للجبهة الأردنية (٣٠ مايو)، أنه كان ضالعا فى خطة التمويه الاستراتيجى لتوريط عبدالناصر فى حرب قد يترتب عليها تصفية نظامه.

ونظرة من الجانب الآخر - الذى لم يره مراد غالب - جانب حلف الأطلنطى، تكشف وثائق الحلف أن اجتماعا خاصا عقد على المستوى الوزارى عام ١٩٦٤، بناء على طلب تركيا، لوضع خطة التخلص من عبدالناصر ونظامه عن طريق الحاق هزيمة مهينة له، تستخدم فيها اسرائيل، من خلال خطة خداع استراتيجي محكمة، ووزعت الأدوار (على مايبدو) بين أعضاء الحلف (ومن بينهم الولايات المتحدة الأمريكية) وأصدقاء الغرب فى المنطقة، وفى مقدمتهم الملك حسين.

ولعل أهم مافى الكتاب حديثه (بالغ الاقتضاب) عن موقف السوفييت من هزيمة ١٩٦٧، وخاصة أنهم استخدموا فى خطة الخداع الاستراتيجى، ورأيهم فى كيفية تناول الكارثة التى ترتبت على الهزيمة، فيتحدث عن تردد السوفييت فى مد مصر بالأسلحة الهجومية ذات الآثار الفعالة لموازنة مالدى اسرائيل من نظائر لتلك الأسلحة، وكيف اضطر السوفييت - أمام تهديد عبدالناصر، بالاستقالة من منصبه - إلى قبول مد مصر بنظام للدفاع الجوى أدى إلى إنهاء الهجمات الإسرائيلية على العمق المصرى فى حرب الاستنزاف، وحسن وضع مصر فيها، وكذلك أشار مراد غالب إلى الدور الذى لعبه السوفييت فى إعادة بناء القوات المسلحة من خلال الخبراء السوفييت، وما كان لحرب الاستنزاف من أثر إيجابى لتدريب القادة والضباط على الحرب الفعلية، فكان له مردوده الإيجابى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

ولو كان مراد غالب قد إهتم بكتابة مذكرات حقيقية مستفيضة وليس مجرد ذكريات يرويها على الغير، لقدم لنا مذكرات بالغة القيمة، تتناول بتفصيل أعمق الموقف السوفييتى من حرب يونيو، وحرب الاستنزاف، وما تصوروه سبيلا لحل مايسمى بمشكلة الشرق الأوسط، ولاشك أن لدى مراد غالب معلومات بالغة الأهمية كان عليه أن يسجلها للتاريخ،

فلديه وحده الإجابة عن عشرات التساؤلات المتعلقة بهذا الجانب من العلاقات المصرية - السوفييتية.

وكان حديث مراد غالب عن الأيام الأخيرة لعبدالناصر مؤثرا فقد كان الرجل يعانى من مرض السكر الخبيث الذى كانت له آثاره الخطيرة على الأوعية الدموية والقلب، ورغم ذلك كان يعمل الساعات الطويلة فى جو دولى وإقليمى بالغ التوتر، وكان الروس ينصحون مراد غالب بأن يكاشفه بحقيقة مرضه حتى يتخفف من الأعباء ويتجنب التوتر، والأضواء المحدودة الخافتة التى ألقاها مراد غالب على شخصية عبدالناصر، بالغة الأهمية، فهو يشير إلى أسلوب الرجل فى العمل، وحرصه على جمع مقاليد السلطة فى يده حتى يحقق أحلامه فى بناء دولة قوية متحضرة، وأشار إلى موقفه من القوى الكبرى، فرغم ميله إلى الغرب اضطر إلى التعامل مع السوفييت لمصلحة مصر الوطنية ودعما لاستقلالها الوطنى، وهنا أيضا لم يوف غالب هذا الجانب حقه رغم مالديه من معلومات كثيرة ومهمة عنه.

فترة حكم السادات

ويروى لنا مراد غالب ما أصاب السوفييت من حيرة وهم يراقبون الأمور فى مصر بعد رحيل عبدالناصر، وخاصة عندما علموا أن هناك من يدعون فى مجلس الأمن القومى إلى عدم تجديد مبادرة روجرز، ومعنى ذلك العودة إلى الأعمال العسكرية ضد إسرائيل فى وقت لم يتم فيه بعد تكوين الأطقم المصرية التى تعمل على حائط الصواريخ وشبكة الدفاع الجوى، كما أنزعج السوفييت لما طرحه السادات من فكرة الانسحاب الإسرائيلى ١٢ كيلومتر شرق القناة على أن يتم تطهير القناة وفتحها للملاحة، ثم التفاوض حول السلام، لأن هذا العرض، لو قبلته إسرائيل سوف يؤدى إلى تثبيت أقدام اسرائيل فى سيناء مع طول فترة تطهير القناة، وطول أمد المفاوضات، ولم يرتح الروس إلا عندما رفض الأمريكان والاسرائيليون اقتراح السادات، كذلك أزعجهم تصفية السادات لرجال عبدالناصر (١٥ مايو)، وهنا يقدم مراد غالب شهادة مهمة فى حق من سماهم «رجال عبدالناصر».. وما أسمتهم دعاية السادات «مراكز القوى»، فذكر أنهم جميعا كانوا على درجة عالية من الوطنية والتفانى فى أداء مهامهم، وأن ولاءهم كان لمصر وعبدالناصر، ونفى أى شبهة قيام علاقة خاصة بين أى منهم والسوفييت، وأرجع الأزمة التى وقعت بينهم والسادات إلى أنهم كانوا منفذين للأوامر من الطراز

مراد غالب يتذكر

الأول، يفعلون بدقة ما يؤمرون به، ولم يتم تدريبهم على اتخاذ المبادرة، والرؤية الخاصة، وقد أربكهم رحيل عبدالناصر وجعلهم يتخبطون فى التعامل مع السادات، وعندما أقال على صبرى، لم يجدوا سوى سبيل التصرف السلبى بتقديم الاستقالات ظنا منهم أن ذلك سيؤدى إلى نوع من الشلل للأجهزة المهمة التى كانت تحت إمرتهم، فعصف بهم السادات.

كان هذا هو التحليل الذى قدمه مراد غالب لجروميكو عندما أبدى له مخاوفه من الاتجاه اليمينى للقيادة الجديدة فى مصر، وكان غالب على يقين - بينه وبين نفسه - أن السادات سيسلك طريقا مختلفا، لاعتقاده أن أمريكا ستحل له القضية. ولكن السوفييت كانوا يتوجسون خيفة من السادات، فأصروا على أن يوقع معهم معاهدة صداقة وتعاون. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على توقيع المعاهدة، فوجىء مراد غالب بتعيينه وزير دولة للشئون الخارجية، وفهم من ذلك أن السادات يريد إبعاده عن موسكو، تمهيدا لبداية سياسة جديدة تماما، وقد تحقق ظنه، فقد بدأ السادات يصدر من الاشارات ما ينم عن ضيقه بالسوفييت، وأحس أن هيكل وكان وزيرا للاعلام، يلعب دورا مهما فى الاتصال بالسفراء الغربيين والمشرف على المصالح الامريكية، وأحس من مقابلات الأخير له أنه يريد التعرف على اتجاهات وزير خارجية عاش فى موسكو سفيرا لعشر سنوات، وقد تولى مراد غالب بناء على اقتراح السادات ومساعديه إجراء اتصال غير رسمى مع الاسرائيليين فى الأمم المتحدة لم يسفر عن نتيجة كما كلفه السادات بعد أن ظل بلا عمل نحو ثمانية أشهر بالسفر الى العراق والكويت وسيطا فى النزاع بين البلدين.

وأثناء وجوده ببغداد، أصدر السادات قرارا بتعيينه وزيرا للإعلام خلفا لهيكل، ثم سحبت بعض اختصاصاته وأعطيت لعبد القادر حاتم، مما جعله يشعر بالضيق، ويحيل كل ما اتصل بالاعلام الى حاتم، وشرح الظروف التى عينه فيها السادات وزيرا للوحدة مع ليبيا فى مجلس الوزراء الليبى، وذهب لاستلام عمله فى ليبيا يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكأن السادات سعى لإبعاده عن مصر عند قيام الحرب.

وقد روى مراد غالب ما حدث فى حرب أكتوبر وما صحبها من جهود دبلوماسية،



مع المشير عبد الحكيم عامر و إلكسى كاسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى

وأخيرا عينه السادات سفيرا، فى يوجوسلافيا عام ١٩٧٤، ويبن كيف قدم استقالته بعد الإعلان عن زيارة السادات للقدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧.

وختم مراد غالب كتابه بالقاء نظرة على رئاسة الجمهورية فى عهد السادات فتحدث عن رجال السادات الجدد، وعن اصرار الفريق صادق فى كل الاجتماعات على إخراج الخبراء السوفييت من مصر، وأشار الى أنه كان هناك اتفاق بين تيتو وعبدالناصر بالنسبة للوجود السوفييتى فى مصر، يعطى الرئيس اليوغوسلافى الحق فى الاتصال بالرئيس الأمريكى لإقناعه بمقايضة الوجود العسكرى السوفييتى وانهائه فى مقابل انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧، غير أن هذا الاتفاق لم يجرب.

وحديث مراد غالب عن «رجال السادات» على اقتضابه الشديد بالغ الأهمية، وخاصة حديثه عن أسلوب عمل السادات، وكنا ننتظر منه أن يستفيض فى ذلك الحديث. وعلى كل فهذه «الذكريات» بالغة الأهمية، لعلها تقنع مراد غالب بأهمية كتابة «مذكرات» يعتمد فى كتابتها على أوراقه الخاصة (ولا شك أن لديه منها ما يكفى لذلك) خدمة لتاريخ الوطن الذى خدمه بإخلاص. ■

تواصل الأجيال .. كيف؟!

الثقة صمام أمن ضرورى للتواصل بديلا للقطيعة

بقلم
د. محمود الربيعى

●● تعكس الثقافة العربية - منذ كانت - حسا عميقا بالتقاليد الراسخة لانتقال المعرفة بين الأجيال. وقد تجلى ذلك واضحا فى رعاية نص القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ونصوص الشعر العربى. واستقرت هذه التقاليد فى تسجيل النص القرآنى تدوينا بأقلام كتاب الوحى، وحفظا فى صدور أجيال الحفظة والرواة؛ فكان إذا غاب منهم واحد بالموت، شهادة أو حتف أنفه، سبب ذلك فزعا شديدا ترتب عليه العمل فورا على سد ذلك النقص. وكذلك استقرت هذه التقاليد فى رواية الحديث الشريف، وتحرير سنده ومتنه، وذلك على نحو رفيع من الضبط والدقة، مما نجده واضحا فى مصطلح الحديث، وبخاصة فى جانب الجرح والتعديل. أما الشعر - ديوان العرب - فيكفى أن نقول إن كل شاعر اتخذ من البداية راوية له كان هو نفسه شاعراً، ثم تتابعت سلسلة الرواة فى نظام متين ●●

فقد كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر، والحطيئة راوية زهير، وجميل بثينة راوية الحطيئة، وكثير عزة راوية جميل. فلما اتسعت دائرة التدوين أحيط الشعر بالرعاية ذاتها التي أحيط بها الحديث الشريف، من تحرى الدقة والضبط في «سنده ومتنه»، ومن ثم ظفر انتقاله في الأجيال بحرمة تلحقه بالنصوص المقدسة.



طه حسين

قضية الشعر الجاهلي

لذا لم يكن عجيبا أن تحدث نظرية طه حسين المعروفة في انتحال الشعر الجاهلي، والشك في توثيقه، صدمة ثقافية هائلة في أوساط الدارسين، والرأي العام على السواء. أما الدارسون، العارفون بالتراث وطرائق انتقاله في الزمن من جيل إلى جيل، فقد هب أكثرهم يدافع عن «مصداقية» الشعر الجاهلي، وكتب بعضهم في ذلك كتبا كاملة فندت في جدية بالغة حجج طه حسين في الموضوع، ومنهم الخضر حسين، وفريد وجدي، وجاد المولى، وأما الذين لا يمتلكون القدرة على المحاجة فقد تصدوا لدفع الصدمة عنهم على طريقتهم فأثاروا الأمر في «البرلمان»، وأبلغوا النائب العام. وفي تقرير النيابة - الذي انتهى بحفظ الموضوع - عرض بديع للنقاط التي أثارت الرأي العام، ومنهج تحليلي رفيع في القبول والرد، يصح أن يوضع من جديد أمام الرأي العام بصفته نموذجا يحتذى في أدب البحث والمناظرة.

والملاحظ أن ما قدمه طه حسين من فكرة الشك في صحة نسبة الشعر الجاهلي - مع أنه كان بمثابة حجر كبير ألقي في بركة الدراسات الأدبية الآسنة - لم يحول مجرى هذه الدراسة في طريق المنهج الذي اقترحه كتاب الشعر الجاهلي، وبقيت النصوص الشعرية، التي يفترض أنها منحولة طبقا لنظرية طه حسين، هي النصوص ذاتها التي يرجع إليها أشد المعجبين بهذه النظرية بصفتها هي نصوص الشعر الجاهلي. ومعنى هذا أن تأييد طه حسين انصب على أسلوبه الجرىء في نقد تراث الماضي، وجسارته الواضحة في تحدي الرأي العام والأدبي، ولكنه لم يمتد إلى تأييده في مضمون ما دعا إليه. ولم نلحظ أن منهج الشك أصبح سائدا، أو حتى متبعا - فيما تلا دعوة طه حسين من دراسات ومن سنوات، وبقيت «مصداقية» نصوص الشعر الجاهلي لم ينلها خدش، مما يعني بقاء الاعتقاد - بين جمهرة الدارسين - بسلامة الأسلوب المعتمد في نقل وثائق المعرفة عبر الأجيال، وإن لم تبق الأمور بالطبع على ماهي عليه في أسلوب دراسة هذه النصوص، وهذه هي النتيجة الإيجابية لدعوة طه حسين.

ما الذي يمكن أن نستخلصه من ذلك؟ نستخلص أن ضمير الأمة الراسخ، الصامت، المستمر، لم يخالجه شك في سلامة أساليب نقل المعرفة في الثقافة العربية، تلك الثقافة التي تمثل واحدة من أقدم الثقافات الموجودة على ظهر هذه الأرض بتاريخ غير منقطع. وقد كانت هذه الأساليب مرنة عبر التاريخ فطعمت بمناهج مستحدثة أمدتها بها ثقافات الأمم الأخرى، ولكنها لم تفقد إيمانها بهويتها، ولم

تتقبل بسهولة الزوابع الخارجية التى كانت تهب عليها بعنف يهدف إلى اقتلاعها من جذورها. وقد أعطت وأخذت فى كل مراحلها، دون إحساس بالنقص أو إحساس بالتعالى، وأقرت بحاجتها إلى «الجديد»، فاستوعبت قدرا منه مكنها دائما من تجاوز الأزمات، وأكد إيمانها بالتطور.

على هذا النحو المتوازن المرن جرى انتقال المعرفة من جيل إلى جيل فى الثقافة العربية، وتحددت معالم «الاتصال بين الأجيال» على نحو ساده قدر كبير من الإحساس العالى بالانتخاب، والنقد، والقبول والرد، أو الجرح والتعديل، وقد تجلى ذلك فى كتب النقد، والطبقات، والاختيار، والأمالى وغير ذلك، وأصبح مفهوم «الأستاذ» و«التلميذ» هو المحور الذى يرتكز عليه هذا الانتقال، وكانت النتيجة أنه لا يوجد مفهوم معرفى يمكن أن يستقل بذاته استقلالا محضا، أو أن يكون جزيرة معزولة عن غيرها فى محيط المعرفة، وبقيت فكرة الجذور المغيبة فى تربة الماضى ملحوظة فى كل معنى، كما بقيت فكرة الثمرة الملحوظة فى الحاضر ماثلة للعيان، وفكرة التطور المستقبلى موصولة بالحاضر والماضى. وقد جعل ذلك من المعرفة البشرية كيانا واحدا متصلا فى الزمن، يتحرك فى تؤدة - قد لا تدركها العين المجردة - بفضل مجهود الأجيال المتلاحقة فى حقل هذه المعرفة. ومرة أخرى يواجهنا التراث العربى بذلك الإحساس العميق - شبه الصوفى - بحرمة حمل المعرفة، وإيصالها إلى الأجيال القادمة، وذلك بتحرى أقصى قدر من الدقة والتجرد والأمانة فى البحث عن الحقيقة. وفى هذا الجو اكتسبت «الإجازة» التى يمنحها الأستاذ التلميذ نوعا من القدسية التى تعنى انتقال قبس من روح الأستاذ وذهنه إلى التلميذ يصبح به مؤهلا لحمل مسئولية نقل المعرفة إلى جيل جديد. وهذا هو معنى فريضة طلب العلم، والسعى إليه فى شتى أرجاء الأرض، والبذل فى سبيله من كل عزيز: الوقت، والجهد، والمال، والصحة، وأحيانا الحياة ذاتها.

معنى انتقال المعرفة

وما المدارس، والمذاهب، والاتجاهات، إلا صورة موسعة لمعنى انتقال المعرفة عبر الأجيال؛ فهى تعود فى أصلها دائما إلى فكرة جرثومة المعرفة الأم، وتضرب بجذورها الدائمة فى تربة قد تبدو معها للعين العابرة على طرف نقيض. وصحيح أن ميلاد بعض هذه الاتجاهات الجديدة، فى تولدها عن جذورها، ميلاد عسر، وصحيح كذلك أن انشقاق بعضها عن أصولها يشبه انشقاق الابن عن الأسرة، وتركه إياها مغاضبا، وقد يبلغ الأمر حدا لا يتم فيه الانشقاق بصورة سلمية - كما حدث فى اعتزال واصل ابن عطاء حلقة الأشاعرة - إنما يتم بصورة دموية . هذا كله صحيح، والتاريخ يسجله فى كل الثقافات، ولكن المهم أنه لا يوجد منحى، أو اتجاه، أو مذهب، يمكن أن يسجل على نفسه أنه ولد بدون بذرة وضعها أب ، أو رحم امتلكته أم. والصيحات التى نسمعها أحيانا من بعض الشباب من أنهم جيل بلا أساتذة مقبولة من جهة واحدة هى أنها مظهر الحيوية المفرطة التى تفضى إلى الاندفاع، لكنها إذا حملت على محمل الجد خلت من كل ما يدعو إلى الفخر.

إن الاختلاف فى المشرب أمر مشروع، والإعجاب بالأجنبى أمر مشروع مالم يتحول إلى انبهار يطمس معالم الهوية، وإنكار قيمة كل ما لدى الغير لا يمكن أن يكون مشروعا أو مفيدا. والقطيعة التي قد تتضمنها عبارة «جيل بلا أساتذة» قطيعة

مفتعلة، ولا سند لها من منطق ، أو تاريخ، أو مسوغ منهجي. وهي تبلغ ذروة تهافتها حين تتحول إلى نوع من ادعاء الامتياز، واحتكار الحقيقة، ونفى الآخر، كما تبلغ ذروة قسوتها حين تستعين بسلطة زمنية فى فرض لون بعينه من المعرفة، وقهر الآخر، وفي هذه الحالة تكون علامة على تردى المعرفة، ودخولها نفقا مظلما، وذلك مهما ارتدت من مسوح التقدم أو التجديد.

إن المعرفة الحقة مرنة بطبيعتها ، وهي تشبه البحيرة العظيمة التي تتسع لكل طالب صيد. وهي تزدهر بتعدد وجهات النظر، وتحيا بتقليب الأمور على كل وجوهها، واعتبار كل «البدائل» الممكنة، كما أنها تموت باعتناق الرأى الواحد، واعتباره المظهر الأوحد للحقيقة؛ ففى هذا موت الحقيقة، بل وأد الحقيقة. ولا أعرف حالة واحدة جديرة بالاعتبار نودى فيها بالقطيعة بين الأجيال، وأعرف أن التواصل بين الأجيال هو السبيل الوحيد لاستمرار نعمة المعرفة، وذلك لأن استمرار المعرفة يعنى استمرار الحضارة، وعلى ذلك فعبارة الاتصال بين الأجيال عبارة صحيحة، وينبغى أن تظل جزءا من اللغة الحية الماثلة في الأذهان، وألا تتحول فى أية مرحلة من مراحل التطور إلى عبارة منبوذة ، أو إلى «اكليشيه» مفرغ من المعنى. وعلى ذلك يجب أن نلح أبدا على هذه العبارة، وأن نستخدمها فى سياقات مختلفة، ونشقق الدلالات المتصلة بها على نحو يجعل منها دائما محورا مركزيا يدور حوله عشاق المعرفة في التراث، ملتحمين بعشاق المعرفة فى إنجازات الحاضر، وملتحمين كذلك بعشاق البحث فى علوم المستقبل، بحيث نحصل فى النهاية على فيلق علمي متعاون يكون بالخيال الخلاق من صورة الماضى والحاضر صورة المستقبل؛ ذلك أن امتلاك اليوم والغد لا يمكن أن يتم بفقدان الأمس.

التواصل لا القطيعة

وعبارة «القطيعة المعرفية» عبارة خداعة حين تستخدم في مجال الإنسانيات، وهي لا يمكن أن تحمل «مصداقية» فى مجال الوجدان البشرى، أو حركة المجتمع، أو العاطفة الإنسانية، وإن حملت بعض المعنى فى مجال العلم التجريبى، الذى تنسخ بعض نظرياته بعضا، أما في مجال الإنسانيات فقد تطغى ملامح معينة لفكر ما على ملامح فكر آخر فى بعض الأوقات، وقد تتغير زوايا الرؤية إلى الأمور من طرف إلى طرف، ولكن التجربة البشرية السالفة، أو الكائنة، لا يمكن إغفالها بجرة قلم، ولا يمكن أن تنشأ قيم معرفية جديدة تماما لتحل - فى التو واللحظة - مكان قيم أخرى. ومن ناحية أخرى، إذا ألغينا الآخر حق علينا - إنصافا - أن نقبل أن يلغينا الآخر، وإذا ألغانا الآخر وألغيناه فأى تخريب يمكن أن يحل بالبشرية؟ إنما يكون الصواب - بدلا عن ذلك - أن نبحث عن صيغة ملائمة نرتضيها قاعدة صلبة نرسى عليها فكرة «التواصل»، لا التدابر ولا التقاطع، بين الأجيال، وذلك هو التحدى الحقيقى الذى يواجهه كل مكترث باستمرار المعرفة الإنسانية الحقة، وبخاصة فى ضوء ما نعانيه من هجمات التمزق الشرسة محليا وعالميا . وبدون الوقوع على مثل تلك الصيغة يصبح الحوار المثمر بين الأجيال عسيرا حقا.

وعلى ذلك يكون التواصل بين الأجيال هو الأمر الطبيعي، وعكسه هو غير الطبيعي، وما علينا إلا أن نوفر له الظروف كاملة ليؤتى ثماره كاملة. واستمرار العنصر البشرى - وعدم انقراضه - حتى الآن هو دليلنا على أن التعاون بين

الأجيال - لا الصراع ولا التقاطع - هو العنصر السائد، وغيره هو العنصر المتنحي، وعلينا أن نجاهد في أن نجعل عناصر التقاطع متنحية دائماً. وفي مقدمة الظروف التي ينبغي توافرها في هذا الصدد تبادل الثقة بين الأجيال على أساس من الاحترام والتكافؤ والعدل، وغني عن البيان أن فترة التكوين الجامعي للشباب هي المرحلة التي يمكن فيها تحقيق أفضل النتائج في هذا الأمر. وقد عملت في هذا المجال طول حياتي، ورأيت كيف كان عليه الحال، وكيف آل إليه، وأرى أن منهج إيصال المعرفة إلى الجيل الجديد، وكيفية الاحتكاك به، وأسلوب معاملته علميا، من شأنه أن يحدث آثارا بالغة. وعندي مقترح محدد أتقدم به في مجال التعليم الجامعي:

أقترح أن تتبنى جامعاتنا نظام «الساعات المعتمدة» في تدريس مناهجها عوض النظام السائد حاليا، وسأقدم هنا فقرة أو اثنتين أتحدث فيهما عن هذا النظام وفوائده: وأول ما أقوله إن هذا النظام أصبح معمولا به في معظم جامعات العالم - شرقا وغربا - وهو قريب في جوهره من نظام «الإجازة» الذي كان معمولا به في نظام التعليم العربي والإسلامي في عصور الدولة الزاهرة، وذلك قبل أن تنحل عرى تلك الدولة. وجوهره - في شكله الحديث - توفير قاعدة علمية واحدة CORE مشتركة لجميع الطلاب، وذلك قبل أن ينشعبوا فيما يسمى مواد التخصص، يلمون فيها بالخطوط الرئيسية لأطراف من ألوان المعرفة، أدبية وعلمية، فإذا تم لهم ذلك التكوين المشترك القائم في أصله على أن يختار الطالب أستاذه من بين أساتذة عدة يدرسون مادة بعينها، ويختار ما يشاء من مواد ضمن إطار مصمم على نحو يحقق الغرض. فإذا انتهى من هذه المرحلة العامة انخرط في مواد تخصصه، ولكن بالأسلوب ذاته الذي يوفر له اختياره أستاذه من بين جملة أساتذة، ومواده من بين جملة مواد محققة للغرض. وفي كل ذلك يتقاسم الأستاذ والطالب المسئولية على نحو متوازن؛ فللطالب أن يعرف تفاصيل المادة التي سيدرسها سلفا، كما أن له أن يعرف القواعد التي سيقدر الأستاذ مجهوده على أساسها، وله أن يعرف كذلك حتى بعد إعلان نتيجته لماذا كانت نتيجة كذلك، وله - في آخر كل فصل دراسي - أن يجيب على أسئلة مصممة خصيصا لبيان رأيه في مدى تحقيق المادة غايتها، وكيفية التطور بها وعلى الأستاذ أن ينفذ المنهج على الوجه الذي يراه ملائما، وأن يقدر مجهود الطالب بالحق والعدل، وأن يعرض عليه هذا التقدير.

تلك هي النقاط الجوهرية في النظام، وهو يسهم عندي في بناء الثقة المرجوة بين أجيال الأساتذة وأجيال الطلاب في شريحة كبرى من شرائح نقل المعرفة في المجتمع، وفي خلية حيوية من خلايا هذا المجتمع. إنه يزيل الغشاوة عن عين الأستاذ الذي يتصور أن سلطانه في نقل المعرفة سلطان مطلق، كما يزيل الغشاوة عن عين الطالب الذي يتصور أنه ضحية قرارات علوية يعوزها الإنصاف. وهو يقوم على «الشفافية» المطلقة؛ فعمل الطالب معروض أمام الأستاذ دون سرية، وعمل الأستاذ معروض أمام الطالب دون سرية. وأنا أعلم قبل غيري أن تطبيق مثل هذا النظام لدينا قد تكون له ضحايا في مراحله الأولى، ولكنني على يقين من أن فوائده ترجح أضراره بكثير، ويقع في مقدمة فوائده ما أحاول توضيحه من ضرورة إرساء الثقة بين الأجيال؛ ذلك أن أجيال الشباب إذا اطمأنت إلى أنها شريكة في صنع حاضرها، ومن ثم مستقبلها، تعلمت كيف تكون حريصة عليه، وإذا علمت أجيال الأساتذة - من

جانب آخر - أن لها شريكا طبيعيا له كلمة فى الموضوع تخلت عن الشعور بالسلطة المطلقة، وراعت التجويد فى عملها الذى يوضع موضع «الاستفتاء» فى كل مرة يؤدى فيه. ثم إن إرساء الثقة من شأنه أن يتحقق فى جميع الأحوال بالعلنية لا بالسرية، فالسرية - والشواهد كثيرة - لا تحقق حتى هدفها الحرفى القريب وهو عدم الإفشاء، وهى لا يمكن أن تحقق - فى المدى الأبعد - العدل، أو الإنصاف، أو الموضوعية.

وصحيح أننا نعانى - فى تكوين الأجيال - من تركات مثقلة، ولكننا ينبغى رغم كل الصعوبات أن نمضى فيه قدما؛ ذلك لأن تكوين الأجيال على نحو صحيح يكاد يكون هو النافذة الوحيدة التى ندخل من خلالها إلى كل أهداف الوطن الأخرى، وإذا لم ننجح فى إحداث إنجاز ذى شأن فى هذه الناحية فلا عبرة بالحديث عن أية إنجازات فى مجالات أخرى - حقيقية أو متوهمة.

تواصل الأجيال

وثمة أسئلة أخرى أريد أن أطرحها فى موضوع «تواصل الأجيال» بعضها كالدواء المر الذى لا مفر من تعاطيه: ما الذى يريده الجيل السابق من الجيل اللاحق؟ وما الذى يريده الجيل اللاحق من الجيل السابق؟ وكيف يريان الصيغة التى ينبغى أن تكون عليها العلاقة بينهما؟ أيرى الجيل السابق أن على الجيل اللاحق أن يسمع ويطيع حتى ولو شعر أنه مسخر لغايات الجيل السابق ومنافعه؟ أو تراه على استعداد لأن يقبل أن تقوم العلاقة بينهما على النفع المتبادل؟ ومن ناحية أخرى: أيريد الجيل اللاحق من الجيل السابق أن يقف نفسه وإمكاناته التى أفنى فيها حياته على تكوين هذا الجيل اللاحق؟ أو تراه يرضى بنوع من التعايش السلمى الذى تقتسم فيه فرص الحياة؟ أما أنا فأرى أنه لا تضمن لنا صيغة واحدة من الصيغ السابقة الوصول بغايات الوطن إلى بر الأمان، وإن كنت لا أنكر أنها صيغ شائعة فى المجتمع.

إن عقيدتى الثابتة هى أننا لا نعيش فى غابة يتربص كل منا فيها بالآخر، أو يأكل القوى الضعيف، وفكرة الصراع لم تصمد طويلا فى تاريخ النظرية المعرفية فى العالم. ومن ناحية أخرى نحن لسنا ملائكة نعيش بغير مطالب أنانية. وعلى ذلك ففكرة «المنفعة» لا يصح أن تكون فكرة مركزية، وإنما ينبغى أن يدفع بها إلى هامشها الضيق حيث ينبغى أن تكون، وذلك لإتاحة الفرصة للفكرة الأخرى التى ينبغى أن تعود لتحتل مكانتها المركزية وهى فكرة «الواجب» . وأقول هذا بناء على تصورى أن معنى الواجب المجرد لا يزال يعيش بيننا، أما إذا كان هذا المعنى قد غاب عن وجدان الجماعة - فى غفلة من الزمن - فإن أى كلام يقال فى موضوع «تواصل الأجيال» يصبح ولا معنى له.

من شأن الإحساس بمعنى الواجب المجرد فى نفوس الأجيال المتعاقبة أن يرسى فى تلك النفوس مشاعر «المودة» و«الاحترام» نحو الآخر، وهما بدورهما ينبغى أن تكونا كلمتين غير منقرضتين، أو فى طريقهما إلى الانقراض. وفى وجود المودة تنتعش الرغبة، وفى وجود الرغبة تقوى القدرة على البحث عن وسائل جديدة لتحسين الأداء ، وتحسين التلقى. وانظر كيف بنيت فكرة «الحب الأفلاطونى» على معنى العلاقة المثالية الشريفة بين الأستاذ والتلميذ - إذ أساسها المعرفة - وهى فكرة لا

نئب لها فيما لطختها بها النميمة الاجتماعية من ظلال الشذوذ، ثم ما ألحقتها بها الأفكار الغربية من تربص المعلم والمتعلم ببعضهما في معاهد العلم، على نحو عاق تدفق المعرفة بين الأجيال على نحو سليم.

ونحن إذا وسعنا دائرة الرؤية في أمر «تواصل الأجيال»، وخرجنا إلى دائرة المجتمع برمته، بقيت الثقة الواجب توفرها بين الأجيال صمام أمن لا بديل عنه؛ فعلى الثقة يقوم كل عمل معرفي مثمر تقوم به الأجيال - التي هي مجرد مجموعات من البشر - ليصل نفعه في نهاية الأمر إلى الشخصية الاعتبارية التي تفوق كل مجموعات بشرية مهما كان شأنها، وهي شخصية الوطن. وأكرر أنه ليس عدلا أن تسود - والهدف هذا - عبارات منفرة من مثل «جيل بلا أساتذة»، و«القطيعة المعرفية»، أو أن يبدو جيل واحد سادا الطريق على الأجيال الأخرى، فيفقدها أي أمل في أداء دور كامل، تشب فيه عن الطوق، وتأخذ مصيرها بيديها، وتحمل مسئوليتها كاملة.

وتجربتي الشخصية - مع ذلك - تؤكد لي أنه في نهاية الأمر لا يصح إلا الصحيح؛ فقد قضيت حياتي العلمية على مدى أربعين عاما مشغولا بنقل المعرفة إلى أجيال الشباب ، وتعاملت مع من كان، عند بدايتي، في العشرين - وبدون التخرج - فأصبح الآن يناهز الستين، وأستاذا كامل الأستاذية . وكان مبدئي الذي لم أحد عنه أن العلم شركة ومسئولية لا تقبل أن يزايد فيها أحد على أحد، ولم أستخدم الصدمة، أو مبضع الجراح، أو حتى وخز الإبر، إلا في حالات قليلة جدا، وكنت حريصا على أن يتعلم كل المشي معتمدا على ساقيه أكثر مما يتعلمه معتمدا على كتف أخيه الأكبر، كما كنت - في مجال التكوين الثقافي - حريصا على قطع الحبل السري للمولود - تلميذي - فور استوائه مخلوقا كاملا يتغذى على أجهزته الخاصة.

وأشهد أن الغالبية العظمى من الأجيال التي تعاملت معها - داخل الوطن وخارجه - فهمت عني، وفهمت عنها، وأعطتني حقي، وأعطيتها حقا، كما أشهد أن طائفة محدودة حاولت أن تحقق لنفسها من ورائي أغراضا نفعية، ولما كنت محدود الصلات الاجتماعية، ومن ثم قليل التأثير فيما يتصل بالمنافع، فقد انصرفت عني هذه الفئة، مبكرة في الأغلب الأعم، ومتأخرة فيما ندر، ومن الواضح أنها انصرفت عني غير أسفة حين وجدت منافعها في مواقع أخرى، ومن الطبيعي أن أبادلها «غياب أسف» «بغياب أسف».

وأقول إن علو صوت هذه الأقلية ، وصخبها المحسوس في الحياة العامة، واتجاهاتها النفعية البادية، لا يمكن أن يغير من حقيقة الأمر شيئا، وحقيقة الأمر أن «تواصل الأجيال» - على قاعدة صحيحة - ثابت ومستقر، وإن كانت حركته صامتة أحيانا، وبطيئة على نحو يثير الضجر. وتنهض قاعدته الصحيحة على الفهم المتبادل، والمودة، وتعديل المسارات والاتجاهات، بما ينفع قضية انتقال المعرفة، وتحقيق الغايات الكبرى للثقافة، ومع ذلك فبقاء هذه القاعدة محتاج إلى جهود لا تعرف فروغ الصبر، أو انتظار الجائزة، أو اهتزاز اليقين. ■

أقوال معاصرة

•« إذا جرى قمع المعارضة والتفكير سادت فى المجتمع خيبة الأمل واللامبالاة » .

الرئيس الإيرانى محمد خاتمى



محمد خاتمى

•« لقد أسأنا إلى الإسلام على نحو جنح بشعوب العالم إلى اعتباره مرادفا للأمية والتخلف والتعصب » .

الرئيس الباكستانى الجنرال برفيزمشرف

•« المواطن الأمريكي يؤمن بشيئين الأول أن السياسيين فاسدون ، والثانى أنه لا دخان بدون نار » .

لارى سباتـو
أستاذ العلوم السياسية بجامعة ميرچينيا

•« لا خيار لنا إما أن نكون حديثين ، أو لا نكون » .

المفكر التونسى العفيف الأخضر



سليمان فياض

•« الكاتب إذا كان جادا ومستمرا فى الانتاج ، لابد فى النهاية من أن يكون نفسه » .

الأديب المصرى سليمان فياض

•« ظاهرة الارهاب والتطـرف وليـدة خلل مجتمعى » .

د . عبدالحميـد الأنصـارى
عميد كلية الشريعة والقانون فى جامعة قطر

•« الإرهاب النووي جدى ، ولم تعد هناك منطقة آمنة » .

د . محمـد البرادعـى
رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية



آلان ديلون

•« لم يعد ممكنا الاعتماد على الحسابات العقلانية الاعتيادية فى زمن غير عادى » .

المفكر البحراني محمد جابر الأنصارى

•« بعد كل هذا المجد ، يجب أن نعرف اختيار تاريخ الانسحاب » .

النجم الفرنسى آلان ديلون
بمناسبة اعتزاله التمثيل



بقلم
د. محمد رجب البيومي

بعض الناس يفاجئك بالتكذيب القاطع حين تروى خبراً غريبا لم يألفه ، كأنه أدرك ما فى الكون من أسرار ، وأحاط بكل شئ علما ، فإذا قلت له إن الذى روى الخبر صادق ، لا مصلحة له فى الكذب ، وأن أمثال ما رواه سجله نفر من العلماء فى ذكرياتهم ومشاهدهم ، وقدمت له ما ثبت ذلك رماك بالبله ، وترفع عن مجاراتك فى الحديث، وله حينئذ تعاظم فى نفسه تكاد به تنتفخ أوداجه غرورا ، ولابد من الصبر حينئذ .


محمد توفيق دياب


فكرى أباظة


أوليفر لودج

روت جريدة الميدان بتاريخ ٢٠٠١/١٢/١١ حديثا غريبا لسيدة فاضلة بذاته بقولها « أنا امرأة فى الأربعين من عمرى لدى طاقات خارقة باستطاعتى أن استشعر الأحداث قبل وقوعها بوقت كاف يبدأ من ثلاثة أيام فأرى فيلما واقعيا للأحداث يمر أمام عينى. كما أن فى استطاعتى أن أرى ما يجرى فى بلاد بعيدة لم أزرها ولم أسمع عنها ، لكن نشرات الأخبار تؤكد حدسى ، وأنا أحكى كل ما يثير وجدانى لزوجى الذى ينتظر معى وقوع الحدث حتى يقع ، خذ مثلا أنى أتوقع الزلازل قبل وقوعها ، والكوارث والأحداث السياسية الخطيرة ، ثم مضت السيدة فى رواية أشياء أخرى مماثلة ، وكلها تدل على انفصال روحها أثناء النوم لمشاهدة غرائب لا أطيل فى الحديث عنها ، وقد احتفظت بالجريدة فلعلى أتعرض للباقيات من الخوارق فى حديث قادم ، وحسب القارئ أن يكتفى بهذه الشذرات !

إن كتبا روحية كثيرة - شرقا وغربا - تزدحم بخوارق مثل ما تقدم ، وقد خضعت للبحث فى جمعيات روحية لها أعضاؤها المتخصصون من كبار أساتذة الطبيعة والعلوم فى كبريات الكليات الأوربية والأمريكية ، ولا أريد أن أتخم المقال ببعض ما ينفع فى تأييد دعوى السيدة الفاضلة ، ولكنى أنقل عن كبار الأعلام فى مصر وأوربا ممن لا نشك فى صدقهم الواقعى ما يثبت هذه الأحداث ، وقد ذكر الأستاذ الدكتور رءوف عبيد وكيل كلية الحقوق الأسبق فى بعض مؤلفاته الروحية ذات العمق النافذ أن «الموقف الصحيح للعقل - إزاء ما يروى من هذه الأحداث - هو أنه لا ينبغى الانقياد السهل لكل المزاعم والأقوال ، ولا المكابرة الممقوتة فى الحقائق الثابتة ، فأى من الموقفين ضار بصاحبه لأنه يباعد بينه وبين الارتباط بالحقائق » ذكر الدكتور رءوف هذا فى مقدمة الكتاب الذى ترجمه عن (هاين

سوافر) نقيب الصحافة البريطانية تحت عنوان : (قصتى العظمى) ويدور حول انقسام بعض الأرواح إلى آفاق مترامية ثبتت خلود الروح وعدم فنائها ، والدكتور رءوف قد دعا إلى الاتئاد فى الحكم فلا نكذب دون دليل ولا نصدق دون دليل . وهذا أعقل ما يقال .

وسبيلى الآن أن أنقل بعض ما قاله فى مصر نفر من كبار الكتّاب تسجيلا لخوارق وقعت لهم ، ولم يشكوا فى وقوعها ، لأنهم الذين لابسوها ملابسة حقيقية ، وهى خوارق يقف العقل حائرا أمامها ، ويجب على ذوى الفكر المحايد أن يجمعوا أمثالها لتنتهى الجزئيات المتناثرة إلى كليات عامة ، أو على الأقل يشترك المهتمون بهذه البحوث فى شتى نواحى العالم فى تحليلها الدقيق ، فقد يصلون إلى قول سديد ، ثم أعقب ببعض ما ذاع فى الغرب وتعارفه الدارسون .

أحلام توفيق دياب

يقول الكاتب الكبير الاستاذ محمد توفيق دياب ، من مقال نشره بمجلة الهلال الجزء الخامس من السنة الخامسة والخمسين تحت عنوان (الملأ الأعلى) :

« فى ذات ليلة رأيت فيما يرى النائم حلما مزعجا ، رأيت خادما فى بيتنا فى



القرية ، واقفة ببابه ترسل صوتها منتحبة باكية ، وأقبلت أسألها مالك يا فلانة ، قالت : سيدتى سيدتى تحتضر :

ولم يكن عهدى بالسيدة أنها مريضة ، فدخلت ، وإذا الحجرة عن يسارى ، يقف ببابها فلان وفلان من أعضاء الأسرة مشفقين ، ثم أدخل فأجد السيدة على فراشها قاربت الرحيل ، وإلى جانبها طبيب المركز فلان وسيدات من الأخوات والقريبات . فتفتح المودعة عينيها فاذا رأتنى تمتمت بدعوات طيبات ثم تغيب ، وبينما نحن فى ذلك إذا صيحات من الحجرة المقابلة ، فأقصد إليها ، فإذا شقيقة السيدة المحتضرة قد أغمى عليها من وقع مصابها فى أختها ، فنحملها إلى دارها ضارعين إلى الله أن يجنبنا موت شقيقتين فى ساعة واحدة .

كان ذلك حلم حالم ، سوى أنى بعد يومين دعيت من عزلتى فى الحقل إلى بيتنا فى القرية ، وإذا الصائحة النائحة هى الصائحة النائحة باسمها وعينها ، وإذا القريبان الواقفان بالباب هما فلان وفلان ، وإذا المشهد كله هو المشهد كأنما كان صورة بالآلة الفوتوغرافية ، فالسيدة المحتضرة ، والطبيب بعينه ، والسيدات بأعينهن ، وإذا الصيحة المرسلة من الغرفة المقابلة ، وإذا الشقيقة التى

صرعتها الغشية ، وإذا بنا نحملها ، ونضرّع إلى الله أن يقينا من مأتم مزدوج

ثم يقول الأستاذ محمد توفيق دياب «ماهذا ، كيف يفسره ، العلم ، أهى مشاغل النهار تخالط أحلامنا بالليل » !

لم أعلم قط أن بهذه السيدة مرضاً أو شيئاً يشبه المرض ، إنه غيب محض ، وغيب تحقق فى الواقع المشهود كما رأته عين النائم ، كأنها آلة مصورة لم تفتها كبيرة أو صغيرة من جملة أو تفصيل ، تفسير ذلك هو صلتنا بالملأ الأعلى » .

وقد أحدث هذا المقال أثره فى نفوس القراء ، فبعث سائل عراقى إلى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يسأله عن رأيه فيما كتب الأستاذ دياب مستشهدا بأمر مشابه ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى فى كتابه (الأرواح) وبحادث وقع له ينتمى إلى هذا الاتجاه ، وقد سارع الأستاذ عباس محمود العقاد بالرد على صفحات مجلة الرسالة (العدد ٧٥٧) بتاريخ ١٩٤٨/١/٥) فقال :

تفسير العقاد

« شئ واحد يمكن أن يقال على سبيل التحقيق فى الجواب ، وهو أن الجزم بنفى هذه الروايات على اعتبار أنها مستحيلة الوقوع ، إنما يكون نفياً باطلاً ، لا يعتمد على سند من العلم ، ولا من البراهين المنطقية ، فوقوع الأنباء على هذه الصورة ليس بالمستحيل ، ومن قال باستحالته وجب أن يثبت أنه على علم تام ، بأسباب الاتصال بين كل نفس ونفس ، وكل مادة ومادة ، أو كل نفس ومادة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . وليس فى وسع أحد أن يزعم أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين مادة ومادة فى عالم المكان ، ودع عنك صلات العقول والنفوس التى لا تقع تحت حصر ، ولا يحيط بها البيان !

وساق العقاد حديثا عما فى الفضاء الشاسع من أشعة النور التى لا تراها العين وتنفذ فى المعادن الصلاب وتؤثر فى الأحياء والأشياء ولا ترى ، إلى أن قال :

« إن الذى يزعم لنا أن أسباب الاتصال بين نفس ونفس أو بين عقل وعقل محصورة محدودة يمتنع ما عداها فهو مدع بما ليس فى علمه ، ولا فى علم أحد من البشر ، ويلزمه دليل ما يدعيه ، ولا دليل هناك .

فكرى أباظة

إن ماورواه الأستاذ محمد توفيق دياب يتعلق بالتنبؤ عن أمر سيقع ، وقد وقع فعلا ، ولدينا قصة أخرى رواها الأستاذ فكرى أباظة فى كتابه : (حواديت) ص ١٥١ تتعلق بالحديث عن أمر وقع ، وغاب دليله ثم جاءت روح لتخبر عنه ! فماذا قال الأستاذ فكرى أباظة ؟

قال :

« فى سنة ١٩٢٠ عاد صديقى وقريبى

الدكتور سليمان حسين أباظة من أمريكا بعد أن أتم دراسته وكان قد كلفني بأن أحضر عنه في استئناف حكم برفض دعواه عن ملكيته لخمسة فدادين ، وأخبرني بأنه لما كان في أمريكا ، من جلسات تحضير الأرواح ، وفجأة سمع الحاضرون روحا تتكلم باللغة العربية ، فدهشوا جميعا ، فقال لهم الدكتور سليمان إن هذه اللغة لغتي ، والصوت صوت المرحوم والدي ، وصمت الجميع ، وأتمت الروح حديثها قائلة للدكتور سليمان « مستند قضية الفدادين الخمسة التي خسرتها موجود في درج المكتب القديم ، الموجود في حوش المنزل بالقرية ، فاكسر الدرج الصغير الذي على اليسار لتجد المستند » ، وفعلا بعد عودته مباشرة كسر الدرج ، ووجد المستند ، وقدمناه لمحكمة الاستئناف وربحنا القضية » .



لا أظن الأستاذ فكري قد اخترع هذه المسألة ، حين حددها بالاسم والمكان والتاريخ ، فلم يكن الرجل داعية لتحضير الأرواح ، ولا عرف عنه أنه شغل نفسه بمسائل العالم الآخر المستكن في ألفاف الغيب ، ولعله شك في الأمر مبدئيا حين حدثه به ابن عمه ، وعده حديث خرافة ، ثم فوجئ بوجود المستند بعد أن كسر الدرج ، فبعد ذلك مفاجأة تستحق التسجيل ، وتبعث على التحليل !

وصية تنفذ بعد الموت

وهل يوصي الميت بشيء بعد انتقاله إلى عالم الغيب ، ثم يصل أمر الوصية إلى الخليفة الراشد ، فيقوم بتنفيذها على الفور ؟ هذا ما تحدثت به كتب التاريخ حين ذكر هذه النادرة .

جاء في كتب التاريخ أن ثابت بن قيس رضي الله عنه كان من الذين اشتركوا في حرب اليمامة وقد قتل شهيداً . وعليه درع ثمينة ورثها من أبيه ، فمر به وهو طريح قتيل رجل من الضاحية فانتزع الدرع ومضى ، ولكن بلال بن رباح رأى في منامه ثابت بن قيس فقال له : يا بلال إني أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حلم فلا تفعل شيئاً ! إني لما قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد ، وعلى درعي فأخذها ، ثم انكفأ إلى منزله ، فوضعها تحت برمة ، وجعل على البرمة رحلاً ، وخباؤه في أقصى العسكر ، وإلى جانبه فرس يمرح في حبل طويل ، فأت خالد بن الوليد - وكان قائد الجيش - فليبعث إليَّ درعي فليأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره، أن عليَّ من الدين كذا ، ولي من الدين

كذا، وسعد ومبارك غلاماى حران ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، فلما أصبح بلال رحمه الله أتى خالدا فأخبره بما رأى ، فبعث خالد نفراً إلى الدرع فوجدها كما قال ، فلما قدم بلال إلى المدينة ، أتى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فأخبره بوصية ثابت بن قيس رحمه الله فأجازها جميعها ، فلا نعلم أحدا من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته على هذا الوجه إلا ثابت بن قيس !

لقد استشهد ثابت بن قيس رحمه الله! ولكن بعد استشهاده رأى الأعرابى النجدى ، وهو ينتزع الدرع من فوق صدره وتابعته حتى ذهب إلى خبائه ، ودس الدرع فى مكان غطاه بالرحل كيلا يلتفت إليه أحد ، وعز على الشهيد أن يسلب هكذا ، فاصطفت روحه بلالا وخف إليه فى منامه ليعلمه بما كان ، وليوصى بعتق غلاميه سعد ومبارك ، وقد خشى ثابت أن يهمل بلال أمره ، معتقدا أن ماجرى حلم لا ظل له من الحقيقة ، فأكد وكرر ، ثم كانت المفاجأة لبلال حين تحقق الحلم ، فأخذت الدرع ، ولعل خالد بن الوليد كان أكثر عجبا ، كما عرف أبو بكر أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فبادر بتنفيذ وصية الميت ! وقد كانت الدلائل على صدقه ، فليس هنا مجال للتشكك والارتياب !

تفسير السير أوليفر لودج

علامة انجليزى تصدر علوم الطبيعة فى عصره ، وشغل مناصب علمية رفيعة حيث قضى مدة طويلة مديرا لجامعة برمنجهام ، ورئيسا للمجمع العلمى البريطانى ، ولجمعية رونتجن ، ولجمعية الراديو ، وله فى البحوث الروحية فتوحات باهرة من أهمها الحديث عن الأثير بالذات، إذا أوضح أثره فى العالم المادى بإفاضة وإباع ، لينتقل إلى العالم الروحى ، وقد قرر أن الجسم البشرى المادى ككل جسم مادي يتألف من كهارب بينها فراغ شاسع بالنسبة لحجومها المتناهية فى الصغر ، وإذن فالفراغ الجسمى يملؤه الأثير ، وهو الثوب الحقيقى لعنصر الحياة الذى يميزنا عن الجماد ، والذى نسميه الروح ، أما الذرات المادية فمجرد آلة تمكننا للعيش برهة فى عالم المادة ، فنحن لا نمس الأشياء إلا عن طريق الأثير ، وكذلك لا نسمع ولا نرى بدونه ، وهو الذى يحرك ذرات المادة التي يتألف منها أعضاؤنا الظاهرة ، وإذا كانت الحياة فى الجسم الإنسانى من خواص الأثير فلابد من بقائها إذا فنيت أعضاء الجسم ، فالموت هو طرح ذرات المادة ، أما الأثير وهو الروح فيرتقي تاركا الجسم، لابساً ثوبا شفافا لا يحجبه عن عيوننا وحواسنا إلا

عجز هذه الحواس عن رؤيته

ثم يقول أوليفرلودج : « إن بقاء ذاتية الفرد بعد موته هو عندى حقيقة قام عليها الدليل الحسى ، وقد سمى كتابه «خلود النفس » ليؤكد خلود الروح بعد انتقالها ، أما الدليل الحسي فقد تأكد له فيما قام به من جلسات روحية استحضرت روح ابنه ريموند الذى قتل فى الحرب ، وقد ناجاه فى مجلد كبير أوضح فيه ما تبينه من حالته ، وقال عن الأرواح إن لها أجساما غير عادية ، وأصحابها مسرورون ولا يحبون العودة إلى الأرض مهما مهد لهم الطريق ، وأنهم معنا وأكثر دخولا وخروجا حولنا على نحو لا نتصوره ، وكل ما هنالك أنهم لا يقعون تحت حواسنا !

إن هذا الكلام نفسه قد قاله من باحثى الروحية فى مصر أعلام كبار منهم محمد فريد وجدى وطنطاوى جوهرى وأحمد فهمى أبو الخير ، وعلى عبد الجليل راضى ورءوف عبيد ، ولكل منهم قدره المشهود فى عالم الفكر ، فقوبل لدى قوم بالإنكار العابث ، ولكن الذين خالفوا السير أوليفرلودج من مواطنيه قد عرفوا قدره ، ولم يكذبوه فيما قرره من أحاديثه



الروحية مع ولده الراحل ، ولكنهم قرروا أنهم لا يبدون الموافقة التامة إلا إذا شاهدوا ما شاهد ، والاتصال بالأرواح تحتاج إلى موهبة لا تتيسر لكل إنسان ، فهو كالشعر أو الغناء يختص بهما من يملك موهبتهما ، ولا يعيب الإنسان ألا يكون شاعرا أو مطربا ، وإنما يعيبه أن ينكر الشعر لأنه غير شاعر ، والغناء لأنه غير موهوب ، يقول السير أوليفرلودج إجابة لمن سأله : كيف عرفت أن هؤلاء الراحلين لا يزالون باقين ؟ يقول : إنى أتصل بهم ، وأنت لا تستطيع أن تشك فى وجود من تحادثهم بالتليفون اللاسلكى وهم بعيدون عنك فكذلك لا أشك ، فالحياة لا تفنى ، ولكنها تتخذ مظاهر مختلفة !! يخيل إلىّ أن مقتل ولده ريموند كان الحافز الأول لاتجاه هذا العالم الطبيعى العريق ، فلم يهدأ بالا حتى عرف مكانه وحادثه ! فليتنا نعرف ، وقد قرر فى بعض ما كتب أن الروح الإنسانية موجودة فى الفضاء قبل أن تتصل بالجسم فى بطن الأم ، وحين يأتى الأجل تطير من الجسم إلى حيث كانت فهى منفصلة عنه تماماً ، لا تموت بموته، ولعل هذا ما قرره ابن سينا

في قصيدته عن الروح ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنع

إلى أن قال :

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
أخذت تغرد فوق ذروة شاهق
والعلم يرفع كل من لم يرفع

إنها باب للأمل

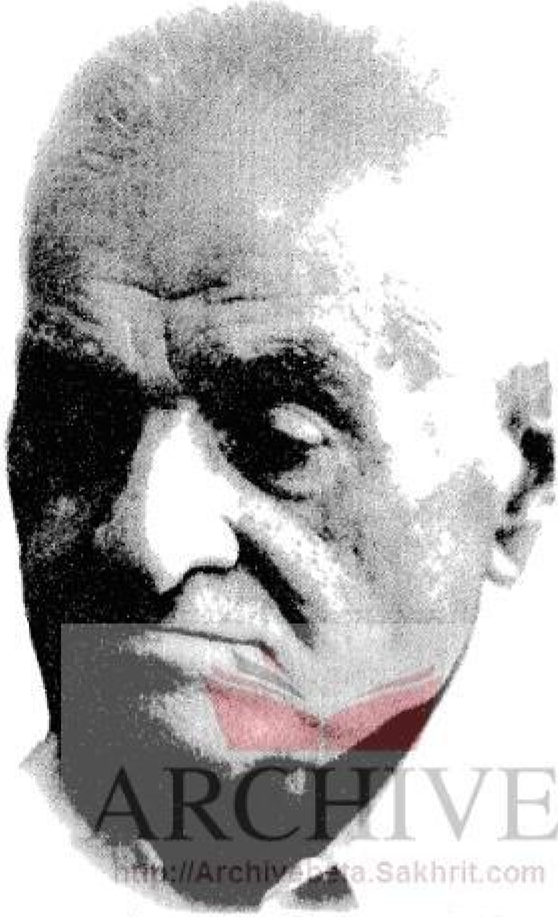
القاضي الكبير (والترا بلياد) شغل نفسه بدراسة أحوال النفس بعد الرحيل ، وكتب في هذا المجال مؤلفا شهيراً ، وقد رحلت زوجته قبله ، فكان يستدعي روحها وترد عما يسأل بلهجتها المعروفة في الحياة ، وفي إحدى جلساته الروحية معها ، اقتحمت روح تطلب الإذن بالكلام ، فأجابتها ، فقالت إنها روح شاب اسمه (أرثرايم) قد مات بذات الرئة منذ ثلاثة سنوات ، وكان يسكن في منزل رقم ١٨ بشارع كلايف رود » وله حبيبة تسكن في رقم ٢٢٩ بشارع فلينت ستريت » وهو يرجو أن تعلم أمه وحبيبته أنه ليس بميت، ويبلغهما سلام الحب والشوق » .

وقام القاضي برحلة إلى المنزل وعلم أن صاحبته قد انتقلت إلى مكان غير معروف ، فذهب إلى منزل الحبيبة ، وفاجأها بسؤاله : أتعرفين شخصا اسمه (أرثرايم) فبكت وقالت كان حبيبي ومات منذ ثلاث سنوات ، ثم أرشدته إلى منزل والد حبيبها فسأله عنه وأجاب بكل ما أكد كلام الروح ، وأفاض المؤلف في حديث عن المستشفى الذي كان يعالج به الراحل قبل موته ، كما أخبره والده كيف فحص الكشوف الخاصة بالراحلين في التاريخ نفسه ، حتى رأى اسمه وقد كتب أمامه (العمر ٢٣ سنة ، المرض ذات الرئة ، تاريخ الوفاة ١٩٢٠/٩/٢١) .

وكتاب القاضي كما يقول من قرؤه حافل بمثل هذه الطرائف ، وإنها لطرائف حقاً .

وختاماً لا أدري لماذا يتصدى المفكرون لهذه الحقائق لتهجين القائلين ، ورميهم بالادعاء ، دون المجادلة بالتي هي أحسن ، ولماذا يوصدون باباً للأمل في نفس أم تشتهي أن ترى ابنها الراحل ، أو حبيب يود لو التقى بمعشوقته مرة ثانية ! وليس لديهم من دلائل الإنكار ما يصفع هذه الحقائق ويردها على أعقابها كما يقول الأستاذ العقاد ! وأقل ما يرجى منهم دون لوم أن يقفوا موقف الشك فلا يجزموا بالنفي القاطع ، وأن يتساءلوا مع الشاعر الملتاع حين قال :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا
أين تولت بأهلها السفن ؟



٦٠

الهلال

ذو القعدة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

فكري أباظة

وأوراق مطوية من تاريخ الصحافة

بقلم

مصطفى نبيل

تمر هذا الشهر الذكرى الثانية عشرة لرحيل أحد فرسان الكلمة، الكاتب الكبير فكرى أباظة، الذى أثرى الحياة السياسية والصحفية بمواقفه وكتاباته، ورحل عن دنيانا فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٩ . وولد سنة ١٨٩٨ .
وحياة فكرى أباظة ملحمة إنسانية غنية تمثل عصراً بأكمله، كتب عنه الكثيرون وسوف يطول الحديث عن دوره الوطنى.
وليس هذا تاريخا لحياة فكرى أباظة، ولا سردا لمؤلفاته العديدة أو مقالاته الكثيرة، ولا استعراض مواقفه فى البرلمان.
وإنما رواية بعض ما عايشته معه عن قرب، خلال فترة عملى فى دار الهلال، التى بدأت عام ١٩٦٤ واستمرت حتى رحيله.

تذكرني كتابات أحمد رجب ومحمود السعدني بكتابات فكري أباظة، فمازالت مدرسته الساخرة قائمة فى الصحافة المصرية، وأسلوبه الخاص الذى لايتورع عن السخرية حتى من ذاته، وخرج من لهيب ثورة ١٩١٩ بطريقة مبتكرة للكتابة الصحفية.. فهو محب للحياة وعاشق للوطن، كتب عن ثورة ١٩ كتابه «الضاحك الباكى»، الذي يعتبر مرجعا لايمكن الاستغناء عنه لفهم الكثير من أبعاد وأحداث الثورة.

وجاء ظهور كل من فكري أباظة ومحمد التابعي إيذانا بظهور مدارس صحفية جديدة، تحل محل الشوام والأجانب ، تألقا معا وتميز كل منهما بأسلوبه الخاص بعد الإفاقة من آثار هزيمة يوليو ١٨٨٢ ودخول الإحتلال الإنجليزى، وخرجا معا من عباءة الطبقة الوسطي، وعبرا عن نموها وطموحها، مزودين بالمعرفة الشاملة ويعرف كل منهما عدة لغات فكانا الأكثر رواجا..

كان باعة الصحف ينادون «مصور فكري أباظة»، فمن يريد أن يعرف روح مصر ومفرداتها فعليه قراءة كتابات فكري أباظة والتى كانت حربا ضد الظلم والجهالة، يقف دائما إلى جانب التطور وهو صاحب الرأى المتجدد والشخصية الجامعة.

بين الصحافة والسياسة

وهو فنان ساحر، ابن بلد محب للناس والحياة.. ويجمع فكرى أباظة بين الصحافة والسياسة، ولم تفته دورة برلمانية منذ سنة ١٩٢٩ وحتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢، وهو أحد قيادات الحزب الوطني، حزب مصطفى كامل الذي كان بمثابة ضمير الحركة الوطنية يقف فى صف المعارضة على طول الخط، وهو من أبرع المتحدثين الذين عرفتهم المجالس النيابية المصرية، وصاحب الكلمة والموقف الوطني في كل أزمة تواجهها البلاد، ورغم حملاته فى مواجهة الإنجليز والسراى والحكومة، ورغم وقوفه إلى جانب المقهورين والضعفاء، احتل مكانا بارزا فى المؤسسة السياسية أى النظام السابق على ثورة يوليو.

حرصت على إعادة قراءة فكرى أباظة، عندما عملت معه فى المصور، ولم أكتف بمعرفتى السابقة، سواء فى احتفالات المدرسة السعيدية التى كان يحرص على حضورها، أو نشاطه المستمر فى النادى الأهلى، وهما أكثر المؤسسات تعبيرا عن الطبقة الوسطى، ولم أكتف أيضا بالانطباعات السريعة أو القراءة العابرة.

ولاحظت التغيرات التي ظهرت على أعماله، فهو ابن ثورة ١٩١٩ واستمر كاتبا يحرض على الثورة في مرحلة الشباب وحتى قيام الحرب العالمية الثانية، كان خلالها شجاعا لايهادن، حربا على المحتل وعملائه، رفض تصريح ٤ فبراير ورفض معاهدة ١٩٣٦ ونادى بالكفاح المسلح، وناقدا للأحزاب السياسية وبرفض التناحر الحزبي، في أسلوب سهل وغني العاطفة الصادقة، وبعدها أصبح عضوا دائما في البرلمان وعرض عليه الاشتراك في الوزارة أكثر من مرة وحصل على لقب البكوية والباشوية، فأصبح أكثر جدية وإن لم تخل كتاباته من السخرية.

فكري أباظة برلمانيا

يروي بقلمه الرشيق أول معركة انتخابية يخوضها للدخول إلى البرلمان بعد إعلان دستور ١٩٢٣، وهي المعركة التي خسرها نتيجة الحملة التي شنها على حزب الوفد، وخطب في هذه المعركة القمص سرجيوس ضده قائلا «بلاش هلس، انتم عاوزين تنتخبوا كشكش بك» ويدخل البرلمان!... وبعدها تم الاتفاق مع الوفد على أن يترك له دائرته ولايرشح أمامه أحدا من حزب الوفد.

وفي البرلمان، كانت له صولات وجولات، يقف إلى جانب الحق، وإذا تكلم أنصت الجميع، وقف مؤيدا تعليم الفتيات في الجامعة، ودافع عن استقلال الجامعة وحريتها، ووقف إلى جانب د. طه حسين في معركة «الشعر الجاهلي».

ويحكي كيف أيده الوفد فعندما هاجم سعد وحزب الوفد في إحدى اجتماعات الحزب الوطني، سعى النواب الوفديون للرد عليه داخل البرلمان، فمنعهم سعد زغلول رئيس المجلس قائلا : ماقيل خارج البرلمان يرد عليه خارج البرلمان.

وعندما ذهب فكري أباظة يعتذر لسعد قال بأسلوبه الفكه: أنا شاب ناشيء، أريد الشهرة، ويعرف الناس أني شجاع، قلت: أطعن في أكبر شخصية وأنت ياسيدي «جبل»، جبل من المجد والقوة والنفوذ لايتزحزح ولايتزعزع، ويكمل القصة بقوله:.. «وقهقه الرجل العظيم قهقهة عالية، وقال: ياإبني وبحتتي، إطعن في سعد زغلول ماشاء لك الطعن..»

وهنا يظهر جانب من أسلوبه هاجم ثم جامل، وكان مع أشد المعارك سخونة لايتخلى عن روحه المرحة الساخرة المحبة للحياة.

وعندما تعاقد مع المصور كرئيس للتحرير، قفز بمجلة المصور قفزة كبيرة، وجعلها أهم مجلة أسبوعية .. وجعلها شيقة جذابة، تخاطب كل الأجيال، واهتم بالبعد الإجتماعي، وشن حملة شعواء على سوء السلوك وأفرد بابا بعنوان مناظر مؤذية، «وآخر نكتة» و «الملحوس» و«الجاسوسة الحسناء».

يذكر عن الصحافة في أكتوبر ١٩٢٥، الصحافة أمس كانت مهمشة قلقة، أما اليوم فاللغة سليمة صحيحة راسخة فبالأمس كان أسلوب الصحافة وضيعا ركيكا يحتاج إلى عمليات ترميم وتعمير، أما اليوم فالأسلوب منسجم واضح كله ذوق سليم، لاينفر منه الطبع... وكانت الموضوعات أمس سخيفة جوفاء، أما اليوم فقيمة مفعمة بالآراء والابتكارات والاستنتاجات».

الإذاعي الأول

وأذكر أول مرة سمعت باسم فكري أباظة، سمعته من جدتي التي تحرص على سماع حديثه الذي يلقيه أسبوعيا في الإذاعة، وكان حديثه شائقا جذابا يصل حديثه

إلى قلوب المستمعين، يخاطب خالتي «خضرة» وسوسو وتوتو وزيزى ، يقترب من واقع الناس، وقضاياهم حتى أن البعض كان يترك عمله لكي يستمع إلى فكرى أباظة، فبعد قيام الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤، كان أول من دعي إلى الحديث فيها، وأختير بعدها لإذاعة تفاصيل دورة برلين الأوليمبية سنة ١٩٣٦، ويروى عنها قائلا .. «كنت دائما - ولا أزال - من المعجبين بالزعيم، الألمانى هتلر، كنت أختاره ضمن ثلاثة زعماء، هو الأول والثاني مصطفى كمال أتاتورك الزعيم التركي، والثالث موسوليني الزعيم الإيطالي، كل منهم ديكتاتور، وأول درس تلقيناه في كلية الحقوق هو أن أصلح نظم الحكم النظام الديكتاتورى أى حكم الفرد الصالح(!).

(تردد هذا الرأى فى الثلاثينات وتأثرت قطاعات من الحركة الوطنية بكل من تجربة إيطاليا وألمانيا)، ويكمل فكرى أباظة حديثه قائلا.. «وبعد انتهاء الأولمبياد دعانا هتلر إلى حفل بسيط، وأهدى كل واحد من المذيعين ميدالية تمثل تقدير الدولة الألمانية، وخلال هذه الأولمبياد حصل خضر التونى على الميدالية الذهبية فى حمل الأثقال.

الباشا في المبرة!

كان «الباشا» وهذا ماكان يطلق عليه في دار الهلال، يرأس إجتماعات تحرير المصور ويدير الاجتماع ويعلق على الاقتراحات بخفة دم ولما حية واضحة، ويحكى بعد نهاية الاجتماع ذكرياته ونوادره وعلاقاته بالنساء الجميلات الفاتنات، ولم تكن تربطنى به سوى علاقة العمل، حتى توثقت علاقتنا عندما كان فى مستشفى المبرة، يرقد على ظهره معصوب العينين عقب عملية جراحية في مايو ١٩٦٥، وتصادف أن وضعت زوجتى ابنتى هند فى المستشفى نفسها، وكنت أمضى فى المستشفى وقتا طويلا، أقضى معظمه مع «الباشا» فى غرفته، وخاصة بعد أن أحزنتنى وحدته وندرة زواره.

وتقاربنا رغم فارق السن، لكننى كقارئ للصحف القديمة، ساعدنى ذلك على سد الفجوة، فكان يتحدث عن أشخاص يجدنى أعرفهم، ويندهش حين يجدنى قرأت الكثير من كتاباته، وأخذت أطرح عليه الأسئلة حول السياسة. والصحافة، وكان أكثر مايعتز به موقفه من الصحفيين، فعندما قبض على محمد التابعى فى قضية نشر فى روزاليوسف، ذهب للعمل بدلا منه وحتى خروجه من السجن، ووقف إلى جانب محمود أبو الفتح وشهد لصالحه في محكمة الشعب.

ومما أذكره حكايته عن إصابة عينه اليمنى فى مباراة كرة السلة سنة ١٩٤٧، ومن أيامها وهو يعانى ولم تنجح عمليات ثلاث أجراها، وتنقل بين أطباء العيون فى معظم عواصم العالم، ودخل مستشفى «باركير» الطبيب العالمي في برشلونة، وأجرى عمليات الشبكية والكتراكت في العينين، وهذا أحد نتائج ماكنت أقرأه من البروفات التى أراجعها، ويتحسر أنه فقد أعظم متع الحياة وهى متعة «القراءة»، وكان لديه شعور عميق بالمرارة الممزوجة بالسخرية، ورأيت الوجه الغاضب، المختلف عن الوجه الضاحك الذى كان يظهر به ، مرارة من تبدل الزمان، فبعد أن كان ملء السمع والبصر، يرقد وحيدا لازوجة ولا ولد، ويبدى ندمه الشديد على أنه لم يتزوج، ويعيد ذلك إلى غريزة الضعف والتردد التى كثيرا ماتملكته، ويحذر الأجيال الجديدة أن لاينتظروا إلى مابعد الثلاثين حتى يتجنبوا مصيره، وهو يعيش وحيدا في شقته بعمارة الإيموبيليا!.

وأخذت علاقتى به تتوثق، وكان يبدى رضاه على بعض ما أقوم به، حتى جاء يوم، فى فبراير ١٩٧٣، ووقع مع أعضاء مجلس إدارة دار الهلال، قرار فصلى من دار



لقاء باسم بين فكرى أباظة و السيدة أم كلثوم والملحن محمد القصبجى



فكرى أباظة فى جلسة بأحد النوادى

الهلال.!، فكيف كان ذلك؟!.

الفصل والمنع من الكتابة

نشرت في الصفحة الأولى من جريدة الأهرام يوم ٤ فبراير ١٩٧٣ قائمة بأسماء عدد من الصحفيين تم فصلهم من التنظيم السياسي، وكنت واحدا منهم، وأفتى كهنة النظام أيامها، أن ذلك يعني سحب ترخيص العمل بالصحافة، وحدث ذلك بعد أزمة حادة بين السلطة والكتاب، في فترة اتسمت بالتوتر والقلق بسبب استمرار الاحتلال الإسرائيلي لسيناء، ونتيجة الوعود التي لاتتحقق، واشتد إحساس كل فرد بضرورة أن يؤدي واجبه كاملا، وكنت سكرتيرا مساعداً لمجلس نقابة الصحفيين.

ودعى مجلس نقابة الصحفيين إلى جمعية عمومية، طالب خلالها الصحفيين بضرورة إلغاء الرقابة على الصحف، وناشد الحكومة بعدم إستخدام الأساليب البوليسية في التعامل مع القوى السياسية، ونادى بإجراء حوار تجنبا للصدام، وجاء ذلك عقب الاعتقالات الواسعة لطلبة الجامعة.

وتم نقل وفصل مايزيد على ١٢٠ كاتبا وصحفيا.

وسارع مجلس إدارة دار الهلال بإصدار قرار فصل من جاءت اسماؤهم في قائمة لجنة النظام، وبالفعل صدر قرار المجلس بفصل كل من : د.علي الراعي وصافي ناز كاظم وكمال سعد ومصطفى نبيل، وكانت دار الهلال المؤسسة الوحيدة التي سارعت بفصل العاملين بها.

وذهبت للقاء الباشا، وقلت له: لايهمني جميع أعضاء مجلس الإدارة، ولكن ما استوقفني توقيعك على القرار، فهل استحق الفصل لأني صدقت ما قرأته في كتابك «الضاحك الباكي»، والذي أكدت فيه إن الإنسان موقف، وأن قيمته في الدفاع عن موقفه، وأتساءل، وأنت النقابي القديم، ما الذي كان على أن أفعل، هل كان على أن أطالب باستمرار الرقابة على الصحف، أو أحرض السلطات على التنكيل بالطلبة؟.. وهل فيما قمت به مايخالف القانون؟!

وظهر التأثر الشديد على الرجل، وقام من مكتبه وجلس إلى جواري وربت على كتفي وقال : يا ابني فكري أباظة الذي كتب «الضاحك الباكي» أنتهي من زمان»، وأضاف «لقد انتهيت يوم فصلت بسبب مقال كتبته، وكان شرط عودتي الاعتذار العلني، شربت مدة عشرة أشهر بعد إعفائي من كافة مناصبي..».

وفي مساء نفس اليوم عقد الرئيس السادات لقاء مع رؤساء تحرير الصحف وحضره «الباشا» وطلب إليه أن يلقي كلمة باعتباره شيخ الصحفيين، فإذا به يفاجيء الجميع، بأن يطلب من الرئيس أن يعفو عن أبنائه من الصحفيين وساد القاعة صمت عميق.

وبعدها ألغي قرار الفصل، واكتفى بالمنع من النشر، ثم عدنا إلى عملنا قبل حرب أكتوبر مباشرة..

فما هي حكاية إعفاء فكري أباظة الذي أعقبها إعتذاره؟!

ولماذا أصبح فكري أباظة قبل الفصل غيره بعد العودة رئيسا للتحرير إلى جانب علي أمين؟

فكري أباظة ويوليو

إن ماتعرض له فكري أباظة جانب مما واجه نجوم الصحافة والسياسة في مواجهة

التغيرات السريعة المتلاحقة التى حدثت، فها هو ينطلق مغردا بعد ثورة ١٩١٩، بقى فى المعارضة رغم أن معظم أبناء عائلته ينتمون إلى حزب الأحرار الدستوريين، وتولوا الوزارات وهو الذى يفوقهم براعة وثقافة، وقام بدوره الوطنى عندما كانت الأوضاع تسمح للكاتب أن يتحرك بين مثلث الحكم المتمثل فى السراى والإنجليز وحزب الأغلبية، وجاءت ثورة يوليو وفرضت الكثير من القيود فى ظل أوضاع استثنائية من أجل تحقيق التغيير المنشود، وكان ضحايا الصحافة أقل بكثير من ضحايا السياسة، فاستمر كل من محمد التابعى وعلى ومصطفى أمين يتربعون على عرش صاحبة الجلالة، وأبعد وحوكم أحمد وحسين أبو الفتح وغاب وراء الأسوار أبو الخير نجيب، واستمر فى الحياة العامة عدد كبير من المثقفين أبرزهم الدكتور طه حسين، وتوارى عدد آخر مثل د. محمد حسين هيكل بسبب دوره السياسى كرئيس لحزب الأحرار الدستوريين.

وأفلت فكرى أباظة من الصدام الذى وقع بين الثورة والنظام السابق عليها، وبدأت التناقضات بعد تأميم الصحافة، ولم يعد مقبولا أن يتناول الكتاب جمال عبدالناصر كما كانوا يتناولون السياسيين القدامى، وأصبح من العسير على أحد رموز الماضى الاستمرار بنفس نفوذه وتأثيره، فجاءت الثورة واندفاع رجالها، مثل تدفق المياه المحجوزة طويلا وراء السد، تحقق الأحلام التى طال انتظارها.

وإذا قلبنا وأعدنا قراءة بعض كتاباته حتى نتبين الفجوة التى أخذت تتسع بينه وبين الثورة.

ويكتب فكرى أباظة مثالا عن قائد الثورة جمال عبدالناصر فى ديسمبر ١٩٥٤و يكتب.. «هو نفسه – أى عبدالناصر – يعترف أنه «لغز»، فالرجل الذى تدرب على ذلك الأسلوب فى ذلك الزمان الطويل، لم يتكلف ولم يتصنع وإنما تطبع، وهو يضيف لسليقته وغريزته نزعة البعد عن الناس، وإلى تفادى الاختلاط بالناس، أنه أميل إلى العزلة، وإلى أن ينطوى على نفسه وعلى واجبه القادح..» ويضيف.. «الحائل بيننا وبينه .. يشترى الحكام فى الشرق محبة الطوائف والجماهير بالثمن الفادح ولو كان ذلك الثمن على حساب المصلحة العامة، ومع ذلك فإن المصلحة العامة تقول: لابد مما ليس منه، وما باليد حيلة .. قال كثيرون من المقدرين لهذا الرجل إننا نحبه، ونود أن نراه، ولكن الحائل، الحائل، وهو الذى حارت البرية فيه .. وأنا نفسى كنت أحس «الحائل» فى كل مقابلة عابرة، وكنت أسائل نفسى .. أهى خشية أم عدم طمأنينة..؟ أم وهم..؟ أم لجرح شخصى أصابنى فلون شعرى بلون غير لون الرجل، قد يكون بعض هذا صحيحا، ومن منا لم تصبه الثورة فى شخصه أو أقاربه أو ماله أو حزبه أو فى رتبته أو مكانته .. من منا؟ السياسيون الحزبيون؟.

أصحاب الطين، أصحاب المؤسسات والشركات..؟ أرباب الرتب؟ الموظفون.. من منا.؟.. شجعنى ظرفه على أن أطالبه بأن يتصل بالناس.

وقلت له صراحة: أخذتم من الإقطاعيين أطيانهم للمصلحة العامة فماذا فعلوا؟ لم يفعلوا شيئا، سلكوا سلوك المواطن فلم يعكروا صفو الثورة ولم يضعوا فى سبيلها العراقيل.

وأطحتم بالسياسيين والحزبيين المسئولين فى سبيل المصلحة العامة، فرضوا بحكمكم أو بحكم القدر، أو بحكم المقدر ولم يفعلوا شيئا.

هؤلاء وأولئك تقتضى وظيفة الحاكم أن يضمد جروحهم ولو بكلمة.. ولو بالاستماع

إلى مافي نفوسهم: تظلما؟ أو استدراكا أو إيضاحا».
ولا أتصور أن هذا الكلام يروق رجال الحكم الجدد.
وتأخذ الفجوة فى الاتساع .. ويكتب مقالا آخر بعنوان «جمال كما عرفته» كنت فى الخارج يوم قامت الثورة، وأسرعت بالعودة متخيلا أنى سآخذ مكانى منها.. لم يجمع بينى وبينه فى حياتى المضطربة ندوة ، ولا مجلس أنس واحد، ولا حزب واحد ولا حانة واحدة ولا ناد واحد، هو مستقيم وأنا غير ذلك، ولهذا عز اللقاء. ويضيف .«فى السنة التالية بعد عودتى من أوروبا (١٩٥٣)، زارنى أحد أصدقائى، وقال: إن جمال يود أن تتناول عنده فنجان قهوة، وذهبت فوجدت فى صالونه الصغير المتواضع عددا من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعض زعماء الأحزاب، وكان موضوع البحث، العلاقة مع الإنجليز .. وكنت بجواره فلكزنى بركبته وقال لى: ماتقول لنا شوية عن الحياد اللى دوشتنا به». ويختم مقاله.. جمال عبدالناصر هاو من هواة المفاجآت، وقد قيل لى أنها غريزة كل ديكتاتور، ولكنه يمقت كل المقت أن يقال عنه أنه ديكتاتور، ففى مقابلة أخرى ألح على أن الغى عنه هذا اللقب .. وقد كتبت ما أملانى، وظل الناس - من يومها - فى دهشة، يتساءلون إذن ماذا يكون هو؟ لم أعرف كيف أجاوب..».

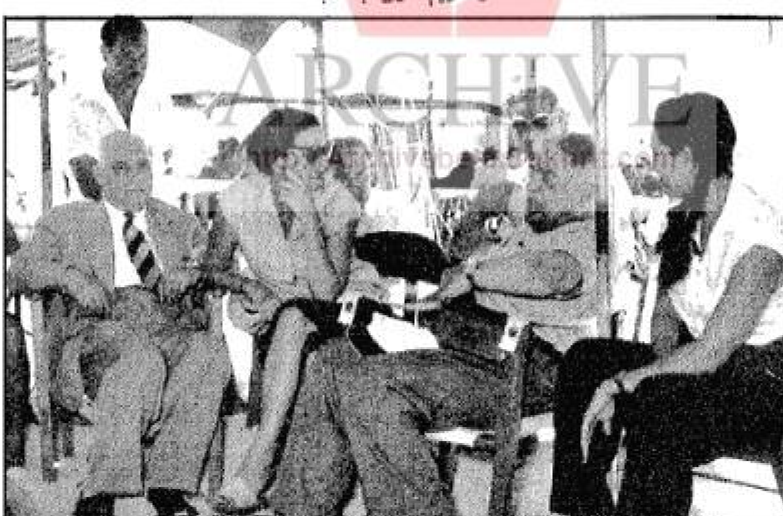
الحالة ج

وهكذا أخذت الفجوة في الاتساع حتى وقعت الواقعة التي وقعت بسبب مقال تحت عنوان «الحالة ج» والذى نشر فى المصور فى ١٨ أغسطس ١٩٦١، والذى أدى إلى إعفائه من العمل، قدم فى المقال اقتراحات لكى يزول التوتر من العالم، وتختفى المنازعات والحروب، وجاء فيه بالنص الفقرة التالية.. «أما بالنسبة للشرق الأدنى فاقترح اتفاق حياد منظمة الشرق الأدنى وجميع الدول المتفهمة إلى الجامعة العربية، وينشأ بعد هذا الإتفاق إتحاد فيدرالى بين الدول العربية، يكون إختصاصه قاصرا على توحيد الجيوش الحيادية العربية وسياستها الخارجية، على أن تدمج فلسطين بأسرها فى هذه الدول، وتشمل إسرائيل بعد أن تزول صفتها الدينية، ويصبح الإسرائيليون من رعايا هذا الإتحاد الذى يكفل لكل الأقليات حقوقها كاملة حسب التقاليد الدولية المتبعة».

وقد اعتبر هذا النص دعوة للصلح مع اسرائيل، ويظهر مدى الفجوة القائمة بين القدرة والرغبة.
وخرجت الأهرام بعدها فى صفحتها الأولى تعلن .. «إعفاء فكرى أباظة، أصدر أمس الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعفاء السيد محمد فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور.
وعقب مصدر مسئول على المقال الذى نشره فكرى أباظة فى مجلة المصور، وطالب فيه الدول الكبرى بانشاء إتحاد فيدرالى من الدول العربية، على أن تندمج فلسطين بأسرها فى هذه المجموعة وتشمل اسرائيل بقوله.. إن هذا الاتجاه يحمل معانى عديدة لا يمكن السكوت عليها، فهو ينطوى على دعوة أن تتجمع الدول الكبرى وتفرض على الدول العربية إتحاداً بينهما، كما ينطوى على دعوة للدول الكبرى بأن تفرض دمج اسرائيل فى اتحاد عربى، كما ينطوى على معنى التشكيك فى الموقف العربى تجاه اسرائيل الذى هو موقف عربى أجمعت عليه الامة العربية، ولا يملك أن يخرج عليه أى فرد من أفرادها.»



حفل تكريم فكرى أباظة باشا



فكرى اباظه فى جلسة مرحة بعرسى مطروح مع المهندس أحمد عبود وبعض المصطافات

وانتقلت بعد ذلك مسئولية دار الهلال إلى مصطفى وعلى أمين، ورفع اسم فكرى أباظة لأول مرة منذ عام ١٩٣٤ من المصور كرئيس للتحرير..

عفو واعتذار

وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٦١، أى قبل مضى شهرين من القرار الأول جاء فى الصفحة الأولى من الأهرام، صورة فكرى أيام ومقال يعتذر فيه على ما بدر منه يقول: كان «أوجب» أن أقدم هذا الإيضاح لصاحب الشأن – أولا – وهو سيادة الرئيس ولقد فعلت.

الرجل العظيم الذى أعفى المحكوم عليهم بالاعدام من الإعدام، والذى أعفى الذين تآمروا على حياته من الأشغال الشاقة المؤبده، والذى أعفى المحرومين بأحكام من حقوقهم السياسية من هذا الحرمان، ورد إليهم أعتبارهم الشخصى والسياسى (أى هل من المعقول أن أخالفه)، هذا الرجل لا يعز عليه أن يعفى فكرى أباظة لا من الأعفاء، وإنما من حيثيات الإعفاء إذا شاء الله، فشاء.

لا يمكن بحاله أن يختفى قلم فكرى أباظة فى عهد جمال عبد الناصر.

ولا بد أن يجد طريقه فى أى ميدان ليستأنف جهاده وكفاحه فى سبيل هذه الثورة وفى سبيل زعيمها وقائدها والمسئول الأول عن الوطن العربى الكبير الواسع المساحة، والفادح الأرجاء، بقى واجبى نحو قرائى بعد أن أديت واجبى نحو سيادة الرئيس والايضاح الذى أنشده هو قضية معركة عنيفة بين ضميرى وقلمى، فتنه أهلية داخل كيانى الهزيل الضئيل.

قال ضميرى لقلمى: أنت لم تحسن ترجمة ما دار فى خلدك أو لم تسجل بعبارة أصرح وأفصح ما أمليت إملاء، لعلك قد هرمت أو شخت أو تعثرت بحكم أرزل العمر وهو ما أنت فيه، وقال قلمى لضميرى: إن الأقلام لا تشيخ وقد تتعثر، لاتتبدل ولاتتغير، ولقد محوت اسرائيل محوا من خريطة العالم، وحطمت دولتها تحطيما وأعدت الأرض التى بنستها إلى الكيان الفلسطينى العربى الكبير، ثم جعلت مخلفاته المتناثرة من الآدميين رعايا للأمة العربية الكبرى فى الاتحاد الفيدرالى الذى ينبثق من إرادتها هى كما هو ظاهر من النص الجلى الصريح اللهم إلا إذا كان الحظ التعس قد نكب عبارتى بالغموض، وهذا قدر لا حيله لى فى هذا القدر «ثم يقول على نفسه..» إن صاحبى وصاحبكم ليس بالجاحد، فلقد أكرمه وكرمه الرئيس فأمر الرقباء – فى عهد الرقابة – بأن لا ير اقبوا ما يكتبه وزميله التابعى، وحين كان الرئيس فى الاتحاد السوفييتى أتاح له الكلام فى حفلة كبرى بدل نائب الرئيس فكرم معه الصحافة والصحفيين، وهتف أحد الدبلوماسيين الشيوعيين حين حملت على صاحبكم، تتهمه بالارتشاء من الأمريكان،.. وأكرمه وكرمه حين شرفه برئاسة مجلس إدارة أقدم دارين وهما الأهرام ودار الهلال وحين منحه وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، مصحوباً ببراءة ووثيقة بها كل التقدير والتكريم.

ولم يعد فكرى أباظة للكتابة فى المصور إلا بعد ستة أشهر وتسعة عشر يوماً من نشر هذا الإعتذر فى الأهرام.

رحم الله الرجل الذى أضحك كثيراً وبكى كثيراً..

ففى المناسبات الكبرى كان دائما يعلو على الخلاف. ■

الاستشراق الفنى

فى مصر

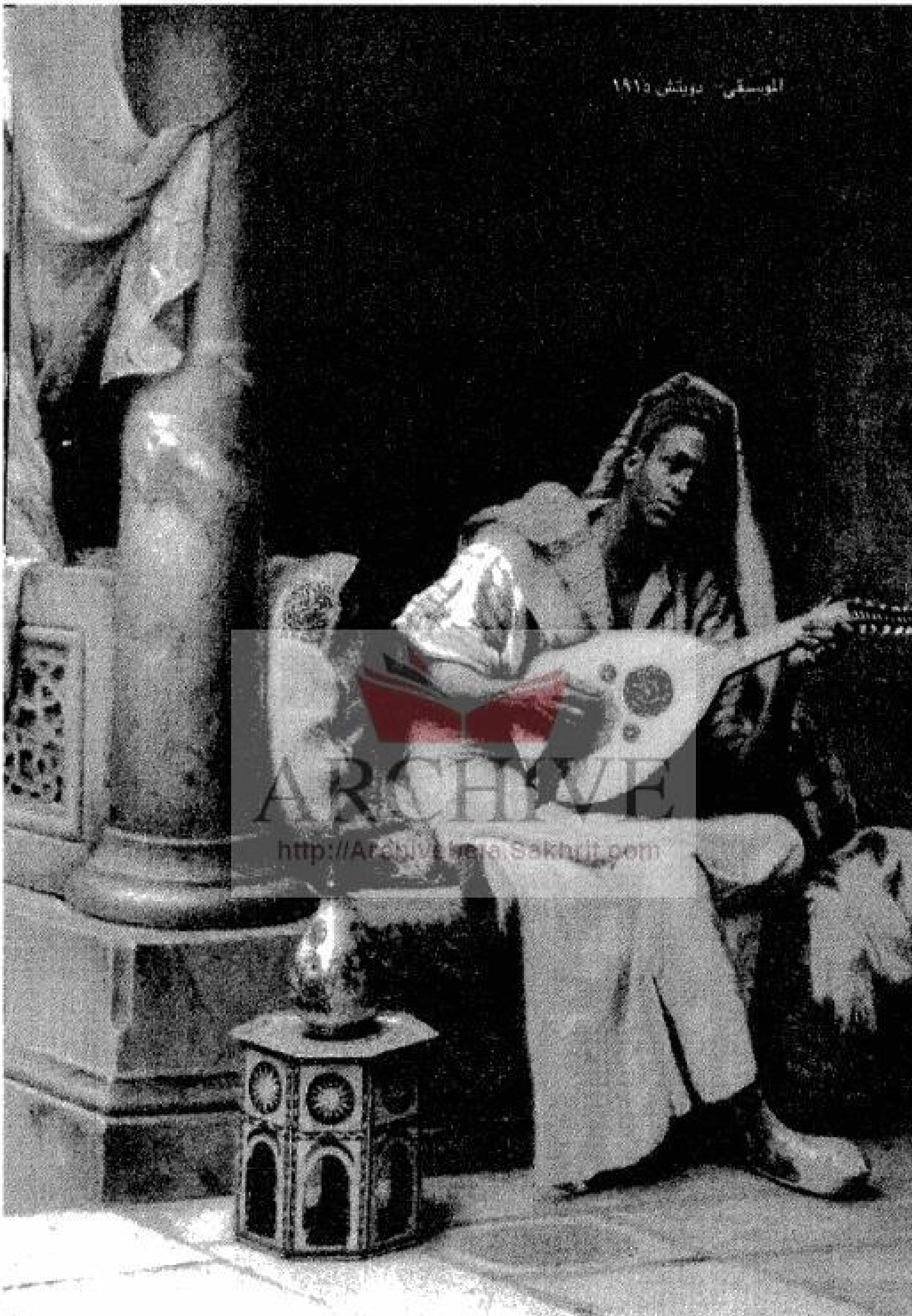
خيال غربى وفردوس مفقود

خرج من عباءة المبالغة الرومانسية وعبر بصدق عن مرحلته الفنية

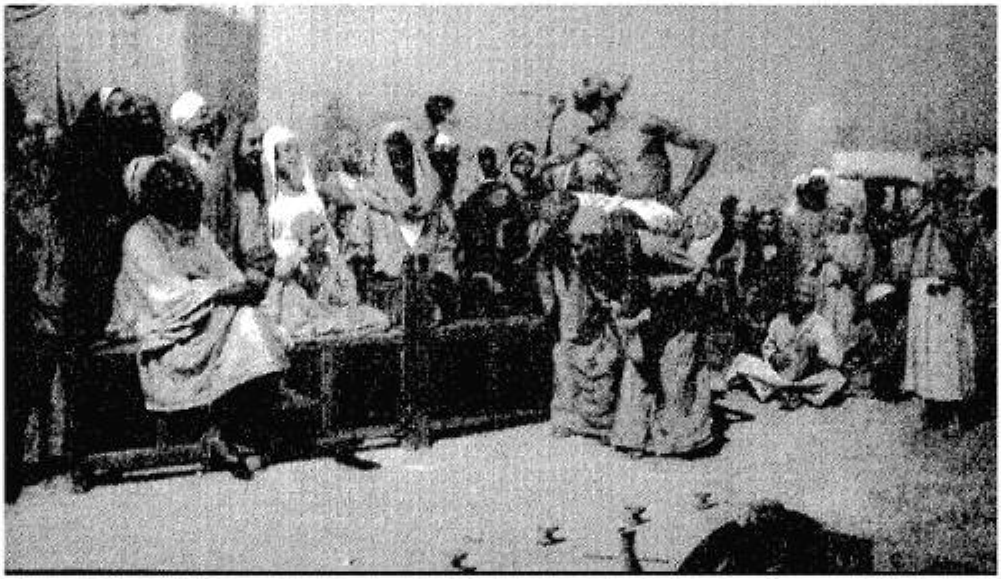
بقلم
د. محمد المهدى

- **خرج من عباءة المبالغة الرومانسية، وعبر بصدق عن مرحلته الفنية**
- **ماشيرو.. بوهيمى فرنسى حضر مع السان سيمونيه وهام بحياة الريف المصرية**
- **بيلى: الارتباط مدهش بين سماء بنفسجية، ورمال ذهبية، وبحر تركوازى**

صدر العدد الأخير من مجلة (فنون الشرق) Arts, D'orient التى تصدر فى باريس لتحدثنا عن عودة الاستشراق الفنى قويا الى صالات العرض، وعن ارتفاع أسعار لوحاته، ضمت القائمة ١٩٢ فنانا من جنسيات أوروبية وأمريكية متعددة، تناولت أعمالهم مناظر من (استانبول) و (مرمرة) و(البسفور) و(المغرب) و(الجزائر) و(تونس) و(مصر) و(لبنان) و(اسبانيا الأندلسية)، فضلا عن مناظر من الآثار اليونانية، ومن (غانا) و(نيجيريا) و(تشاد) .



الموسيقي - دويتش ١٩١٥



الحاوي في القاهرة – فرانس كوسلر ١٨٩٨

الاستشراق الفني (موضة) هذا الزمان، يتردد كثيرا هذا القول، وترديده لم يأت وليد المصادفة بعد فترة من الإهمال، لقد تصاعدت الموجة في العقدين الأخيرين، وكان مظهرها إقامة العديد من المعارض، وكتابة النقاد، وحماس الرواد، أو الهواة .. وربح التجار.

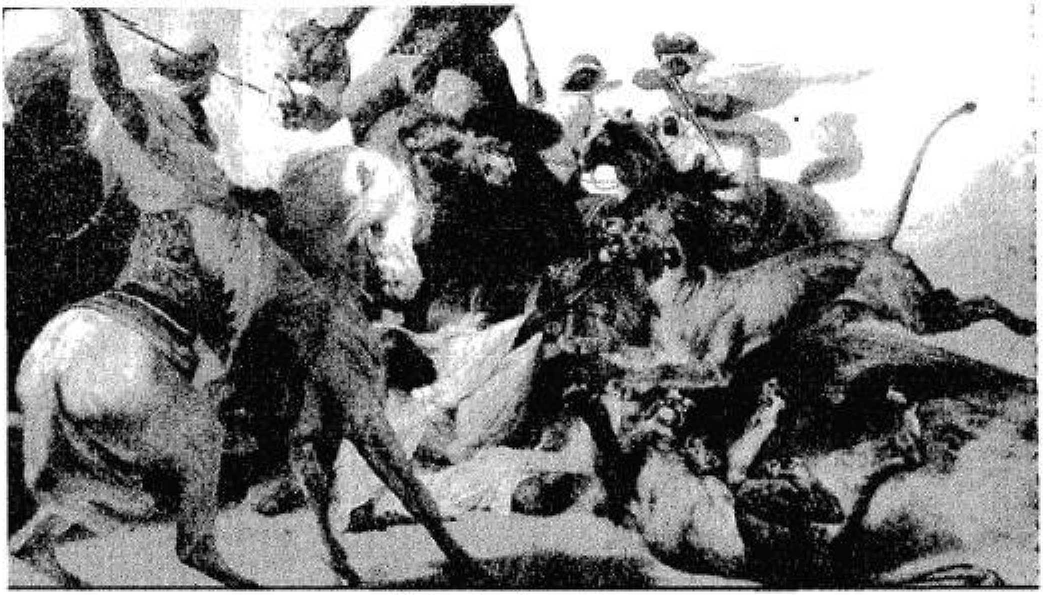
ومن يعرف القاهرة لابد أن يعرف ميدان السيدة زينب، تتفرع من الميدان حارة صغيرة تسمى حارة (السنارى أو مونج سابقا). في داخلها مقر صغير للفنون يسمى بيت السنارى، و(مونج) هو أحد علماء الحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ ورحلت عام ١٨٠١، وتستعاد الآن ذكرى نهايتها بين مرها وحلوها.

عن بيت السنارى يقول المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى (وأفردوا لجماعة منهم – يقصد أعضاء الحملة – بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شيء، ومنهم (أريجو).

بداية الاستشراق الفني

وإذا كان (جرو Gros) الفرنسى يعد بلوحته (معركة ابى قير) عام ١٨٠٦ هو البادىء بالاستشراق الفنى الفرنسى فى مصر، فإن الفنان سولت Salt الإنجليزى يعد البادىء بالاستشراق الفنى الإنجليزى المرتبط بمصر، وإن كان الفارق بينهما كبيرا، فالفنان (جرو) كانت مكانته وإمكانياته الفنية أكثر بكثير من (سولت) الذى انشغل بالتنقيب عن الآثار المصرية.

ففى عام ١٨٠٦ زار (هنرى سولت) مصر ورسم عدة تخطيطات مبدئية للقاهرة، وطمعا فى الثروة سعى لأن يعين قنصلا فى مصر حتى تتاح له فرصة التنقيب عن الآثار بحرية خدمة لأحد أثرياء الإنجليز وفى عام ١٨١٧م زار مصر بدعوة من حاكمها محمد على المهندس الفنان باسكال كوست Passcle,cost ليؤسس مصنعا للبارود والمفرقعات، وليشرف على إنشاء عديد من المرافق مع



صيد الأسود- هوارس فرنيه ١٨٢٦

مجموعة من المهندسين الفرنسيين وقضى في مصر عشرة أعوام، سجل خلالها عددا من اللوحات المحفورة والرسوم الملونة التي تميزت بدقة التفاصيل والألوان، وأنجز كتابه الضخم (العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة ١٨٣٧/١٨٣٩).

دور مهم لإدوارد لين

وبين عامي ١٨٢٥ و ١٨٤٢ كانت زيارة وإقامة العالم الفنان الإنجليزي إدوارد وليم لين Edwardw.lane لمصر ثلاث مرات (١٨٢٥/١٨٣٣/١٨٤٢). توفر على دراسة أهل القاهرة، وسجل مشاهداته بالنص والرسم في مؤلفه الأول وصف مصر (غير كتاب الحملة الفرنسية) الذي لايزال مخطوطا لم ينشر، ثم كان مؤلفه الثاني الواسع الانتشار (المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم MAN-NERS,AND,CUSTOMS,OF MODERN EGYPTIANS.) ويضم ١٠٤ من رسومه تتراوح بين مجرد التسجيل، وبين الاستلهام الذكي من العمارة القاهرية والحياة اليومية. وكانت الرحلة الثالثة لإعداد كتابة (المعجم العربي) ARABIC,LEXICON وتوفي قبل إنجازه عام ١٨٧٦.

وإذا كان (لين) قد قصر دراساته على القاهرة وطبقتها البرجوازية، فإن الفنان (روبرت هاي) ROBERT, HAY قد فضل الحضارة المصرية القديمة، وكان (هاي) قد تولى أمر بعثة علمية جاءت إلى مصر في عام ١٨٢٨ إلى عام ١٨٣٦، أتقن أعضاؤها اللغة العربية وعاشوا مع (هاي) وزوجته في إحدى مقابر (طيبة)، ونشر (هاي)بعد عودته لبلده كتاب (صور من القاهرة) ILLUSTRATIONS, OF, CAIRO يحوي ما انتجه من لوحات خلال فترة إقامته في مصر.

وجمع الفنان والعالم الفرنسي بريس دافين PRESSE, DAVENNES بين عشقه للآثار المصرية، والآثار الإسلامية، ومظاهر الحياة اليومية في زمانه. جاء مصر عام ١٨٢٩ ليعمل



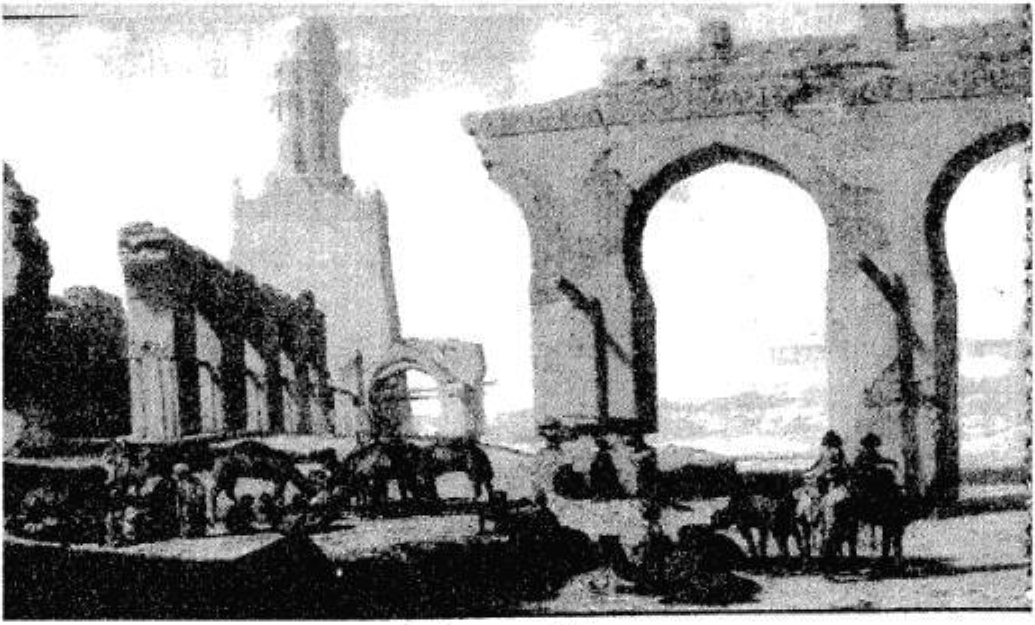
الفيوم — جان ليون جيروم

مهندسا معماريا، في خدمة ابراهيم باشا، ولكن تعلقه بالآثار والفنون والحياة الشعبية جعله يتمرد على سلطة محمد على مدافعا عن أهل البلد، وقد تعرض للمضايقة والمطاردة، ولكنه ظل متمسكا بموقفه، ثم استقال من عمله عام ١٨٣٧. أتقن العربية والعامية المصرية، لبس الزى الشعبى وتسمى باسم إدريس أفندى وتفرغ لابحاثه وفنونه. ويقول عنه الموسوعى الدكتور ثروت عكاشه : «وحتى ظهور بريس دافين كان الفن الفرعونى فى نظر المهتمين من الغربيين مجرد فن هندسى معمارى مشكل من خطوط وكتل ذات ابعاد ومقاييس وحسب، كما جاءت رسوم شامبليون وأعوانه برغم دقتها جامدة، غير أن هذا الفن مالبث حين مسه (دفين) بريشته الساحرة أن رف بالحياة النابضة، ودفء الجاذبية المشبوبة».

مستشرقون عشقوا مصر

ومن الفنانين المستشرقين الذين صحبوا البارونات أصحاب المشاريع فى مصر آنذاك الفنان الفرنسى (أدريان دوزا) ADRIEN,DAUZATS، ولد عام ١٨٠٤. وفى عام ١٨٢٨ شارك البارون (تيلور) لزمن طويل مشاريعه الفنية، وصحبه الى الشرق الأدنى فى مهمة رسمية، وهى وصوله لاتفاق مع محمد على لشحن مسلة الأقصر إلى فرنسا. وخلال ستة أشهر من ابريل حتى أكتوبر عام ١٨٣٠ تحددت ميول الفنان بعد اقامته فى القاهرة، وفى وادى النيل، وفى صحراء سيناء، اخذته على وجه الخصوص الرسوم التأثيرية فى (دير سانت كاترين)، وفى شهر يوليو رحل إلى فلسطين ثم سوريا حيث زار يافا، والقدس، ودمشق، والبتراء، وبعلبك. ونشر (دوزا) عام ١٨٣٩ وصفا لرحلته (خمسة عشر يوما فى سيناء) بالاشتراك مع (الكسندر ديما الأب).

وصحب الفنان الفرنسى بروسبيه ماريا (ولد عام ١٨١١) PROSPER,MARILHAT البارون (فون هيجل) فى رحلة الى الشرق الأدنى، رحلا فى أبريل عام ١٨٣١ إلى اليونان



مسجد الحاكم - بروسبيرماريا

ومنها إلى مصر. قام بروسبيه برحلة صحراوية الى سوريا ولبنان وفلسطين، وانتهى إلى (يافا) عائدا إلى مصر حيث انجز دراساته الفنية للعديد من القوافل، والمخيمات فى الفضاء الواسع الموحش بالصحراء، ولما كان قد أخذه عشق مصر فقد رفض الرحيل إلى الهند مع البارون. بدا له تشابها بين المنحوتات المصرية ووجوه السكان، وفي عام ١٨٢٢ رحل الى الإسكندرية حيث رسم العديد من البورتريهات كما رسم أيضا محمد علي، والأثرى الفنان بريس دافين، ورحل إلى الاقصر لرصد ورسم ترحيل مسلة الاقصر إلى فرنسا.

السان سيمون في مصر

لم يكن الحضور لمصر اعجابا بحضارتها وفنونها مقصورا على الأفراد، فقد توجهت إليها بعض التيارات الثقافية الغربية، كان على رأسها فى الربع الأول من القرن ١٩ أعضاء الحركة (السان سيمونيه) SAINT, SIMONIENS فى فرنسا، كان سان سيمون، الذى ولد عام ١٧٦٠، أول داعية في الغرب لإنشاء علم الاجتماع الحديث، سعى الى أن تقوم السياسة على الأخلاق، نادى بتغيير الملكية الوراثية، وفرض سيطرة الدولة على وسائل الانتاج، وصاغ خليفته الأب (انفانتان) LE,PERE,ENFATIN مذهب (السان سيمونيه) مع أنصاره الذين استهوتهم مصر بماضيها العريق، وصلت مجموعة منهم عددها ٥٠ رجلا من المهندسين والفنانين والكتاب على رأسهم (انفانتان) إلى مصر عام ١٨٣٣، كان بينهم الموسيقى (فيليسيان) والنحات (الريك)، والفنان (فيليب جوزيف ماشيرو).

توفى (الريك) في مصر، وعاد (فيليسيان) إلى فرنسا، وآثر ماشيرو البقاء فى مصر، كان شخصية فريدة، وصل الاسكندرية فى سن الثانية والثلاثين ممتلئا حيوية... غزير الشعر، بوهيمى الطبع، خصب الخيال متعدد المواهب، رساما



الأزهر – لودفيج دويتش ١٨٩٠

مبدعا، موسيقيا بارعا، ممثلا موهوبا، وكاريكاتوريا لايبارى، أثارت دعوة (السيمونية) حماسته، ومالبث أن أصبح النديم الفكه، والطفل المدلل للجالية الفرنسية بالقاهرة، أحبه سليمان باشا وألحقه بالعمل فى صحبته فكان (ماشيرو) يرسم فى كل مكان فوق حوائط قصر سليمان باشا، أو فى الأماكن ذات الطراز العربى، يرسم لوحات الريف حول الأقصر مستلهما من كتاب (وصف مصر) ، ومما تقع عليه عينيه.

ولعل من أشهر الفنانين الإنجليز الذين تركوا كما كبيرا من الرسوم الجميلة الفنان دافيد روبرتس DA-VIDROBERTS الذى زار مصر عام ١٨٣٧ ووضع كتابه (الأراضى المقدسة ومصر والنوبة) ضمنه مجلدات ثلاثة فضلا عن مجلده عن القاهرة، اكتسبت العمارة الإسلامية والتى كانت شبه مجهولة فى الغرب بعدا جديدا بفضل رسومه لمساجد القاهرة، خاصة مسجد السلطان حسن، أما رسومه للآثار الفرعونية فقد تفردت برؤيته الخاصة، تكشف براعته فى التكوين ضخامة وعظمة المعابد المصرية تراها تهيم فى عالم الظل والضوء، وتبدو فلسفتها عميقة المعنى لصغر حجم العنصر البشرى وسط الأوابد الهائلة، تأمل فى ذلك لوحاته التى شاعت فى الأسواق منذ زمن بعيد .. معبد ادفو، أو معبد دندرة، أو أطلال معبدي الأقصر.

وبعد عدة سنوات من زيارة روبرتس كانت رحلة الفنان الإنجليزي (جون فردريك لويس JOHN, FREDERICK, LEWIS) للقاهرة عام ١٨٤١ اهتمامه بالشرق كان يختلف عن اهتمام روبرتس ارتدى ثياب الاتراك، وعاش فى خيالات خاصة تخلقها غيوم (الشبك) وأبخرة المخدرات وسط أثاث وديكورات تركية، وقد تخصص فى رسوم طرقات القاهرة والحياة الخاصة ببراعة لونية وتقنية عالية، وعندما عاد إلى لندن فى عام ١٨٥١ كان حريصا على أصطحاب مخططات ، ونماذج أستشراقية أفادته فى إنتاج العديد



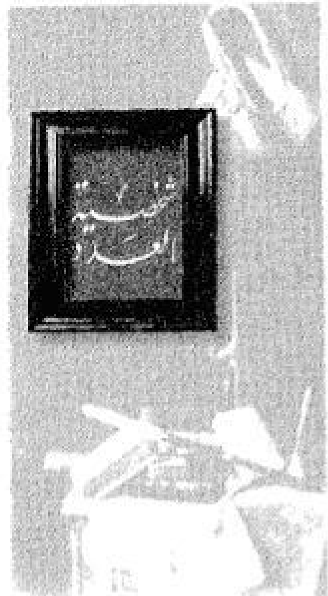
وجبة وسط اليوم في القاهرة – جان فردريك لويس ١٨٧٥ م

من اللوحات التي درت عليه أرباحا كبيرة.

بين التأثيرية والواقعية

ومن الفنانين المستشرقين الفرنسيين أصحاب النفوذ والمكانة السياسية في فرنسا الفنان (هوراس فرنيه) HOR-ACE,VERNET الذي زار مصر في الأربعينات من القرن ١٩، وتخصص في رسم الخيول، أما الفنان الفرنسي (نارسيس برشير) NAR-CISSE,BERCHERE الذي زار مصر عام ١٨٥٦ فقد كان أحد أقطاب مدرسة (الباربيزون) التي مهدت للمدرسة التأثيرية بما لها من مكانة كبيرة في تاريخ الفن واقترب من طبيعة هذه المدرسة أيضا الفنان الفرنسي (ليون بيلي) LEON,BELLY . الذي اشتهر بلوحته (حجاج في طريقهم إلي مكة) التي رسمها في مصر عام ١٨٦١. أعماله في صحراء سيناء تبدو خالية من الأشخاص، جوها غريب ساحر تكشف في تفرد حركات أرض جدباء في القاهرة كتب لوالدته يقول: (لون وشكل الأرض لهما جمال خارق، ولايوجد مايعطيك فكرة عن روعة اللون، الارتباط مدهش بين السماء التي تبدو شبه بنفسجية، وبين الرمال الممتزجة بالأحمر الذهبي، وبين بحر تركوازي).

وكشفت البحوث أخيرا عن الفنان النمساوي، (لودفيج دويتش) LOD-VIG, DUISH درس الفن في فرنسا، وتخصص في رسم الموضوعات التاريخية، زار مصر عدة مرات عامي ١٨٨٦ و ١٨٩٠، تميزت أعماله بدقة متناهية ونصاعة مشرقة الألوان، يقترب من التفاصيل كأنه يراها تحت مجهر، ويبتعد عنها بتوازن في التكوين كأنه يصورها بعين الكاميرا أثار الانتباه بهذه الدقة في معرض باريس الدولي عام ١٩٠٠ وحصل على الميدالية الذهبية، عن لوحاته في القاهرة (مقبرة السلطان)، و(رقصات نوبية)، (الصبية المحظية)، (الأزهر) و(حارس القصر)، وله لوحة كبيرة (٨٥ر٢×٩٥ر٢) تصور (موكب المحمل في القاهرة). ■

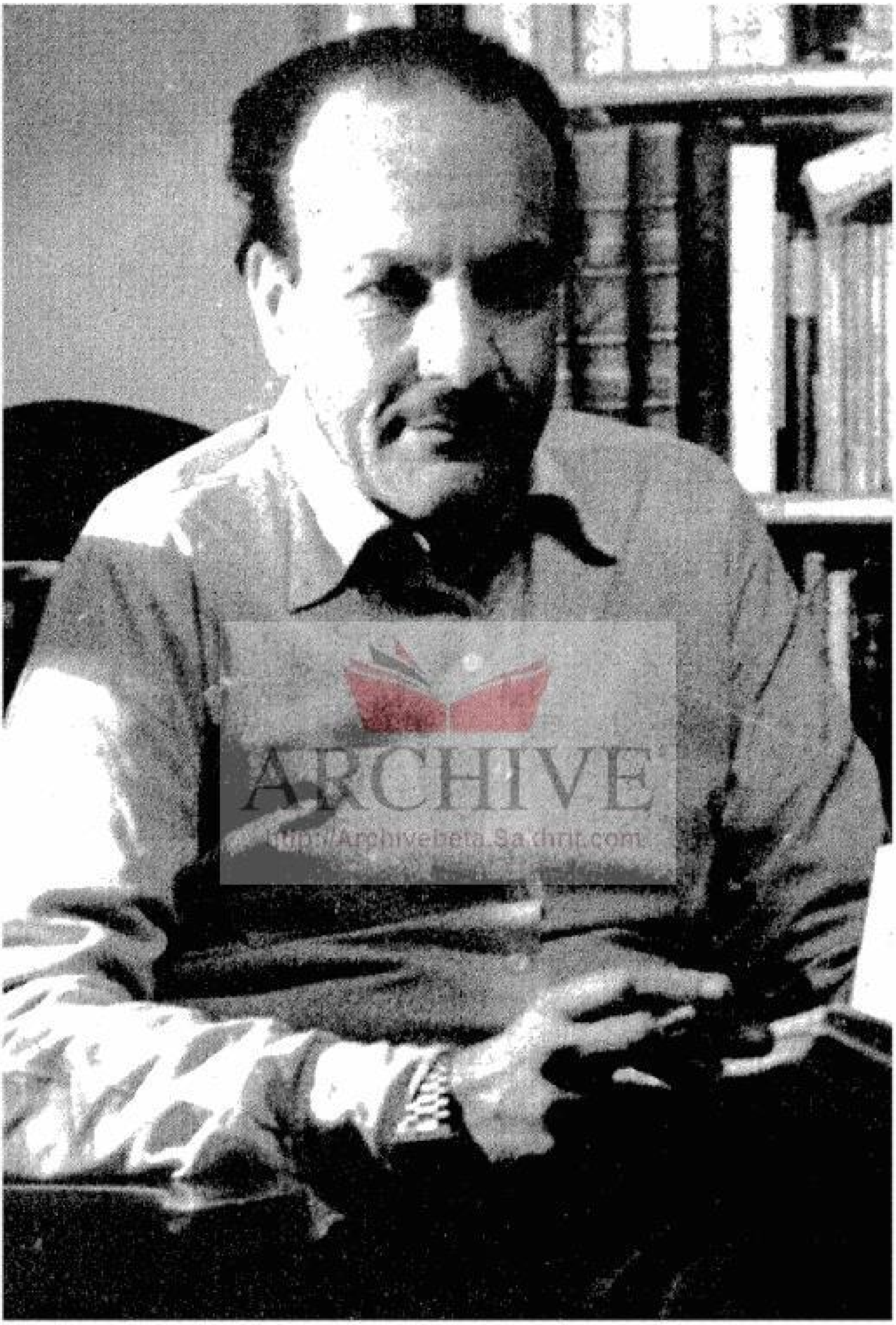


طارق البشري

الإنسان والقاضي والمؤرخ

بقلم
د. قاسم عبده قاسم

هناك نوع من البشر - نادر ندرة المعادن النفيسة - تلقاه فتشعر أنك لقيت الإنسان النموذج والقدوة، فيه من الخير الكثير، حسن الخلق والقدرة على التأثير الإيجابي، هاديء الطبع، مرتب العقل صافي الذهن، قادر على أن يكون عادلا في سلوكه وفي آرائه وفي معتقداته، وأظن أن المستشار طارق البشري واحد من هذا النوع الإنساني النادر، إذ إنه جمع في شخصه بين دماثة الخلق الإنساني، وحكمة القاضي وصبره وعدله، وموضوعية المؤرخ وعقلانيته وحياده.





شخصية العدد

عرفت «طارق البشرى» الإنسان منذ أكثر من عقدين من الزمان، وكلما عرفته أكثر زادت علاقتى به قوة وعمقا، وزاد وقعه فى نفسى مهابة وحبا وتقديرا، إذ إن طارق البشرى الإنسان يأخذ بمجامع قلبك وعقلك، بهدوئه وصوته الخفيض وابتسامته الطيبة الحانية حتى وإن كان الرجل مشتركا فى نقاش محتدم. كما أن تواضعه الجم يجعلك تشعر بمعنى عبارة «تواضع العلماء»، فهو من العارفين ومن المفكرين المبدعين ومن المثقفين «الإيجابيين» الذين يسهمون بالفكرة والقول والعمل فى محاولة إخراج الأمة من أزمتها التى طالت واستفحلت، ومع هذا التواضع الجم فهو شديد الكبرياء فيما يتعلق بحقه فى طرح آرائه دونما صخب أو ضجيج ، وهو قادر على أن يجعل الاحترام قرين التواضع عندما يكتب أو يتكلم، فإذا تكلم أنصت الآخرون بدافع من إحساسهم بقيمة هذا الكلام، وعباراته موجزة بليغة تلخص عبارة قالها أحد فلاسفة المسلمين «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة». وطارق البشرى يعرف قيمة الكلمة ويصون أمانتها، فلا يضع كلمة فى غير موضعها حتى فى مجالس الود والأخوة. وربما يكون السبب فى ذلك راجعا الى نشأته الطيبة فى بيت من بيوتات العلم والأدب والفكر التى أسهمت فى تنوير العقل المصرى خلال القرن العشرين، وربما يكون سبب ذلك راجعا إلى عمله فى مجال الحقوق والقانون والقضاء، وربما يكون ذلك راجعا إلى أن الله قد اختصه بالحكمة والعقل والإحساس بالعدل، وربما يكون السبب جماع كل هذه الأسباب.

● هناك أهمية لأن يكون المفكر إنسانيا فى نزعته بمعنى أن يكون الإنسان محور اهتمامه.

فكر هادئ رزين

تشعر وأنت تتعامل مع طارق البشرى الإنسان بأريج الود فواحا من حولك، وتأخذك طمأنينة هادئة ربما تكون مستمدة من هدوئه وطيبة ملامح وجهه. ومن المثير للدهشة أنك حين تقرأ مايكتبه – سواء فى كتبه التى تركت بصمات واضحة فى تاريخنا الثقافى المعاصر أو فى مقالاته ودراساته التى ينشرها بين الحين والحين – تشعر بالطمأنينة نفسها وتحس الهدوء نفسه وأنت تتابع سطور ماكتب، فليس ثمة إرهاق ولاغموض، وحين تفرغ من قراءة ماكتب تشعر بأن هذه السطور الهادئة تحمل فكرا عانى صاحبه الكثير حتى يقدمه بهذه الصورة الهادئة الرزينة، وتشعر بأن أفكاره أحكام قضائية عادلة نطق بها قاض بذل الكثير من الجهد وعانى من المشقة حتى يهتدى إليها ويطمئن إلى صحتها، وقد تختلف معه فى بعض – أو كل مايقول – ولكنك لابد وأن تحترم مايقول . ومن ناحية أخرى، تجد أنك أمام مفكر يعرف الكثير ولايقول إلا بعض

مايعرف، وربما يكون قد آثر ألا يقدم كل ما يعرف سوى بعد أن يستوثق من صحة مايعرف . وعلى الفور تتراءى أمام من يقرأ لطارق البشرى صورة أخرى مناقضة - ربما بحكم المقارنة التلقائية - لذلك النفر من الناس الذى نظن أنه يعرف كثيرا، فيتكلم أو يكتب كثيرا ويكتشف الناس أن زاده من العلم شحيح ضئيل.

واحد من صناع الثقافة

وطارق البشرى الإنسان مفكر تحتاج أمتنا إلى كثير مثله، فنحن نرى حارقى البخور الثقافى يملأون الدنيا ضجة «وجعجعة بلا طحن» ومدعى الثقافة يلوثون الفضاء الفكرى بنوع من الكلام أشبه بالهذيان ويسودون صفحات تشعر بعد قراءتها - إذا استطعت - أنه كان من الأفضل أن تبقى هذه الصفحات على بياضها.

ولا وجه هنا للمقارنة، ولا صحة لها ، ولكن الأشياء بضدها تُعرف، وكذلك أصحاب الفكر وصنّاع الثقافة ومروجو العلم. وطارق البشرى واحد من هؤلاء الذين تحتاجهم أمتنا بشدة وتتطلع إليهم بأمل . إن الخروج من أزمتنا الراهنة، والتغلب على ورطتنا الحضارية لايمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأذهان مهيأة، والإرادة منعقدة على الخروج، إذ إن كل مايقوم به الإنسان - فردا وجماعة - من أعمال سلبية أو ايجابية، يولد فى عقول البشر أولا، ثم يخرج إلى أرض الواقع بعد ذلك، يستوى فى ذلك الحرب أو السلام، التقدم أو القعود والاستسلام، النضال أو النكوص، فى مجالات الفكر والتعليم، كما فى مجالات الزراعة والتصنيع، مرورا بما بين هذه وتلك من مجالات تشمل شتى نواحى الحياة، ومن هنا كانت طفرات التقدم فى تاريخ الأمم الإنسانية مسبوقة بجهود كوكبة من المفكرين والمخترعين تطرح الأفكار والتصورات والحلول لمشكلات مجتمعاتها، وتوظف العقل والفكر والجهد للخروج إلى رحابة التقدم والازدهار، ولم يحدث أبدا - ولن يحدث أبدا - أن تتقدم الأمم والمجتمعات الإنسانية بالمال «أنظر ماحدث للعالم العربى على الرغم من الطفرة المالية الهائلة التى بدأت فى سبعينيات القرن العشرين» أو بالتركيز على الجوانب المادية مثل التصنيع وبناء القوة العسكرية أو المادية بقيادة حاكم فرد أو نخبة حاكمة «انظر ماحدث فى الاتحاد السوفيتى» . ذلك أن الإنسان يحتاج إلى أن يشعر بإنسانيته، وأن ينعم بحريته، حتى يسهم فى ذلك البناء المادى ويحافظ عليه، ويدعم تقدمه وازدهاره ، فالإنسان هو مركز الكون وهو الذى يكسب هذا الوجود أهميته، ويمنحه جدواه وحيويته .

من هنا تبدو أهمية أن يكون المفكر إنسانيا فى نزعته ، بمعنى أن يكون الإنسان محور اهتمامه وهمه، ومن هنا يكتسى الفكر الإنسانى أهميته، ومن هنا أيضا تتجلى الحاجة إلى المفكرين الإنسانيين من أمثال طارق البشرى.

القاضى والقانونى

أما طارق البشرى القاضى، فإن سجله الناصع طوال ولايته القضائية



شخصية العدد

كان محل تقدير الذين زاملوه والذين عملوا معه، أو عمل معهم منذ دخل إلى رحاب هذه المهنة الجليلة الخطيرة. وإذا كانت المجتمعات لاتقوم سوى باحترام قيمة العلم وقيمة العدل، فإن القاضي الذى يسعى إلى تحقيق العدل جدير بالاحترام والتبجيل فى كل عصر وفى كل أمة، وقد احتل القضاء فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية مكانة سامية كان بها جديرا، وظل القضاء من الصروح القوية التى قامت عليها هذه الحضارة التى لم تشهد الإنسانية لها شبيها أو مثيلا. وحفلت صفحات المصادر التاريخية بصور وأمثلة عديدة عن تلك المكانة التى استحقها القضاة الذين حرصوا على أداء رسالتهم بقدر ماتسمح الطبيعة البشرية، وليس بقدر ماسمح لهم الحكام أو الظروف السياسية. ولما نجحت الدولة - فى بعض البلاد الإسلامية - بتدجين القضاء، تصدع ركن مهم من أركان الحضارة العربية الإسلامية وبدأت رحلة الغروب والأفول التى نعانى منها حتى اليوم.

ولأن طارق البشرى - القاضى - واحدا من نماذج مشرقة سطعت فى سماء نظامنا القانونى والقضائى، فقد استحق تقدير كل من اقتربوا منه فى هذا المجال. وقد سمعت، وقرأت، الكثير عن هذا الجانب فى مناسبة تكريم هذا القاضى الجليل بمناسبة انتهاء ولايته القضائية بعد أن سجل لنفسه مكانة سامية تحدث عنها من يعرفون طارق البشرى القاضى والمستشار وربما يكون مناسبا أن اقتبس بعض الكلمات الدكتور أحمد كمال أبو المجد عن طارق البشرى القاضى : «... وجدت فيه مثلا ندرت فى القضاء، نعم القضاء فى كل عصر هامة عالية، وقيمة كريمة، ولكن بعض جوانب هذه القيم الرفيعة تتآكل فى حياتنا كما تتآكل قيم أخرى عزيزة وكريمة، حتى يوشك الجيل الجديد ألا يتعرف على هذه القيم .. الذى أعرفه حق المعرفة أن المستشار البشرى كان فى حياته القضائية - دائما - مثالا كريما طيبا، وهو أمر يحترمه ويعرفه المشتغلون بالقضاء .. الشخص المحترم يكون قاضيا محترما ..».

ويقول المستشار الدكتور فاروق عبدالبر، فى كلمة ألقاها فى اجتماع الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة بتاريخ ١٩٩٨/٦/١٧م «وهو آخر اجتماع رأسه المستشار طارق البشرى قبل انتهاء ولايته القضائية» : «... أما عن طارق البشرى القانونى والقاضى، فهو فى هذا متفرد ومتميز، والقانونى المتفرد والقاضى المتميز هو صاحب العقل القانونى الصافى، والمنطق السليم والذهن المرتب، والأسلوب الرفيع، واللغة الرصينة، والتقدير الحسن، والصبر فى الحوار، والجلد على العمل، والثقافة العميقة، والباع

● اعتنق قيم العلم والفكر، والحق، والعدل وهى قيم تستند إلى عقائد الإسلام وشرائعه

العريض فى فهم القانون وتفسيره وتأويله، وهو كذلك صاحب الرؤية الشاملة لمشاكل بلده والربط بينها وبين مايبديه من آراء، ومايتنهى إليه من أحكام فى حدود مايقضى به القانون بالطبع ودون خروج عليه بالتأكيد، وهو كذلك صاحب الموقف الشجاع والصلب فى القضايا المهمة التى يمكن أن تعرض عليه ليقول فيها رأيه. أو يقضى فيها بحكمه» .

هذان الاقتباسان يحملان شهادتين جامعتين عن طارق البشرى القاضى كانت إحداهما من رجل زامله لحظة دخوله السلك القضائى، والثانية من رجل عمل معه وزامله فى مجلس الدولة، وتجمع الشهادتان الكثير من الخصائص المميزة للقاضى طارق البشرى، كما أنهما تمثلان خلاصة رأى كل من اقترب من القاضى المفكر الذى جمع فى شخصه بين العلم والعدل.

ولاريب فى أن شهادة أهل القانون والقضاء تَجُبّ أى كلام آخر يمكن أن أكتبه عن شخصية القاضى فى طارق البشرى، ولعل تفسير هذا الاجماع على تفرد «طارق البشرى» القاضى وتميزه يكمن فيما قاله طارق البشرى نفسه:

«... والحقيقة عندما بدأت عملى، وأنا صغير فى العشرين من عمرى، لم أكن أعرف ماسأصنع بنفسى، وهل سأستطيع أن أكون شخصا جيدا فى مهنة القانون أم لا؟ وبدأت أعمل واكتشف نفسى من خلال العمل، وعلى مدى عامين وجدت أننى قادر على عمل شيء جيد، ولا أنسى اليوم الذى خرجت فيه بين فترة العمل الصباحية والفترة المسائية - وكنت فى الثانية والعشرين - ومشيت من ميدان عابدين حتى وصلت إلى مسجد السادة المالكية حيث جدى الشيخ البشرى مدفون هناك وصليت ركعتين، وجلست وعاهدت الله سبحانه وتعالى بما قرأته عن سيدنا موسى فى القرآن «رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين» وبقيت فيما أتصور على هذا الوعد، أحاول جاهدا أن أوفيه، وقلقى كله ألا أكون قد وفيته حتى جاءت ساعة الخروج من العمل القضائى وذهبت أنا وزوجتى نؤدى العمرة، لم أفعل شيئا هناك بعد أداء العمرة سوى أن أشكر الله سبحانه وتعالى على أنه لم يمتحنى امتحانا صعبا أخرج فيه من عهدى، ورعانى الله بهذا وأكرمنى إلى اليوم».

أتصور أن أى إنسان يأخذ نفسه بمثل هذه الطريقة «تحديد منهاج لأداء الواجب، ومراقبة النفس وحسابها، والسعى إلى كسب الرضا الذاتى ورضاء الله سبحانه وتعالى» ويمثل هذا العدل، لابد وأن ينجح أيا كان مجال عمله «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وهكذا تمكن طارق البشرى من أن يحدد لنفسه هدفا أخلاقيا نبيلا «فلن أكون ظهيرا للمجرمين» (والحق أنه لم يكن أبدا) ولم يحدد هدفا ماليا أو وظيفيا، ولأنه نجح فى الوفاء بعهده الأخلاقى لله سبحانه وتعالى، فقد حاز مكانة رفيعة فى أمته يستحقها عن جدارة.

لقد اعتنق طارق البشرى القاضى قيم العلم والفكر، والحق والعدل، وهى قيم تستند إلى عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه «ولئن كانت هذه القيم



شخصية العدد

توجبها آيات الذكر الحكيم وصحاح الأحاديث النبوية - وقد قام على أساسها ماضي الأمة العظيم - إلا أنها تكاد في زماننا هذا أن تصبح غريبة ونادرة» على حد تعبير المستشار عثمان حسين.

طارق البشري، مؤرخا

يبدو طارق البشرى المؤرخ طرازا فريدا، ونمطا متميزا من المؤرخين. إذ إن هذا القاضي المؤرخ أو المؤرخ القاضي، قد جمع من الخصائص الشخصية والخبرات والقدرات المكتسبة ماجعله «قارئا» فاهما للتاريخ، وعلى الرغم من أنه لاينبغى تقسيم المؤرخين الى فئات أو أنماط - لأن كل مؤرخ نمط متمايز قائم بذاته شأن أى شاعر أو فنان أو فيلسوف - فإن وصفنا طارق البشرى بأنه القاضي، المؤرخ، أو المؤرخ القاضي، لايعنى أننا نضعه ضمن فئة من المؤرخين ينطبق عليهم هذا الوصف، وإنما قصدنا أن نبين أن الرجل يتعامل مع دراسة التاريخ بحكمة القاضى وتأنيه ورويته وعدله، ويتمثل هذا كله فى أنه استطاع أن يعيد قراءة «تاريخ الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢» الذى نشره سنة ١٩٧٢م ومرة ثانية سنة ١٩٨٣م، بعيون القاضى الذى اكتشف جوانب جديدة من الحقيقة التاريخية، فآثر أن يقوم هو نفسه «باستئناف» أو «نقض» أحكامه السابقة، ولأن الدراسات التاريخية تتقدم - عادة - بإعادة النظر فى القراءات التى قام بها السابقون للتاريخ، فإن المؤرخين يقومون فى كل جيل بإعادة قراءة التاريخ بحثا عن جوانب جديدة، أو سعيا وراء الكشف عن منظور جديد يقربنا من الحقيقة بدرجة أكبر، ونادرا مايحدث أن يقوم مؤرخ بقراءة جديدة تحاول إعادة النظر فى قراءة سابقة قام بها هو نفسه، ومن هنا تأتى أهمية طارق البشرى المؤرخ.

● يتعامل البشرى مع دراسة التاريخ بحكمة القاضى وتأنيه ورويته وعدله

هناك عدة كتب كتبها طارق البشرى فى التاريخ بشكل مباشر أهمها، كتاب «تاريخ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢م» الذى كتبه مؤرخنا مرتين راجع فى ثانيتهما أفكاره وآراءه وأحكامه التاريخية و«المسلمون والأقباط فى إطار الحركة الوطنية» و«سعد زغلول يفاوض الاستعمار» و«شخصيات تاريخية».، وكتب أخرى جمعت بين دراسة التاريخ والفكر السياسى مثل «الديمقراطية والناصرية» و«الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو» و«شخصيات تاريخية» و«الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر» وثمة كتابات أخرى فى موضوعات أخرى تجلى فيها المؤرخ المفكر طارق البشرى. فليس بوسعنا أن نقدم تحليلا نقديا لكتابات المؤرخ طارق البشرى فى هذه الصفحات المحدودة، بيد أننا يمكن أن نقدم المؤرخ من خلال أفكاره وآرائه

وأسلوبه فى قراءة التاريخ .

قارئ جيد للتاريخ المصرى

بداية يجب أن نُعرّف الوظيفة الثقافية الاجتماعية للتاريخ فى عالم اليوم، ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نُقيِّم المكانة التى يحتلها طارق البشرى فى فضاء الدراسات التاريخية فى مصر والعالم العربى ، فقد مضى زمن كانت مهمة التاريخ فيه أن يحكى «ماذا» حدث، ومن ثم كان المؤرخ يقوم بوظيفة الإخبارى فيجمع أخبار الحوادث التاريخية ليحكى «ماذا» حدث فى حوليات تدون على مر السنين، والأشهر، والأيام، أو فى «سيرة» أو مجموعة «سير» للملوك والخلفاء والسلاطين والحكام، أو فى شكل كتاب أو «رسالة» ذات موضوع واحد .. وما إلى ذلك من أشكال الكتابة التاريخية التى عرفها الإنسان فى مختلف الجماعات البشرية وفى إطار مختلف الحضارات الإنسانية ، وكانت تلك الوظيفة الثقافية الاجتماعية للتاريخ تجد مشروعيتها من خلال الحقيقة القائلة بأن جزءا من مهمة المؤرخ كان حفظ المعلومات ذات الأهمية بالنسبة للجماعة البشرية التى يعيش فى رحابها، ومع تطور وسائل الإعلام ووسائل الحفظ الرسمية وغير الرسمية حتى وصلت إلى الذاكرة الإلكترونية ذات القدرة الهائلة على الحفظ والتصنيف خرج المؤرخ من عباءة الإخبارى والجامع، والمدون، وتحولت مهمته من راو يحكى لنا «ماذا» حدث إلى مفكر يفسر لنا «لماذا» حدث ماحدث. ومع التطور الهائل الذى تحقق فى مجال الدراسات التاريخية لم يعد مقبولا أن يحكى المؤرخ قصة الماضى، وإنما صار من أهم شروط المؤرخ أن يوظف معرفة الماضى فى خدمة حاضر الجماعة الإنسانية ومستقبلها، ولأن التاريخ صار علما يرتبط بالماضى فى موضوعه فقط، ويرتبط بالحاضر والمستقبل فى هدفه ووظيفته، فإن «كتابة التاريخ» دون «قراءته» تصبح نوعا من العبث «فكتابة التاريخ» ليست سوى جمع الأحداث التاريخية ورصها فى سياق زمنى يرتبط بمسرح جغرافى دونما تحليل أو محاولة الفهم «وهو نمط من الكتابة التاريخية لايزال سائدا فى العالم العربى مع الأسف» أما «قراءة التاريخ» فهى محاولة لتسليط الضوء على عناصر بعينها فى النسيج التاريخى للجماعة الإنسانية ومحاولة استخدامها لصالح الأهداف التى تسعى إليها هذه الجماعة فى حاضرها ومستقبلها.

وطارق البشرى «قارئ» جيد للتاريخ المصرى، وكانت «قراءته» لتاريخ وطنه وأمته نابعة من سؤال مندهش ألح عليه وعلى أبناء جيله وعلى أبناء أجيال أخرى فى مصر والوطن العربى، حول مصير الأمة، والأزمة التى أخذت بخناقها، ومايكتنفها من تأثيرات سلبية غشيت جميع جوانب الحياة المعاصرة فى العالم العربى عامة وفى مصر خاصة، ولم يكن المؤرخ طارق البشرى ليكتفى بالرصد والمشاهدة والتدوين، بل إنه حاول أن يعيد قراءة التاريخ بحثا عن حل أو حلول، فكسبت الدراسات التاريخية فى الوطن العربى مؤرخا فاهما لوظيفة التاريخ، ودوره فى رفع الغمة عن هذه الأمة. ودليلنا على هذا كلمات



شخصية العدد

طارق البشرى نفسه التى كتبها فى مقدمة كتابه «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» إذ يقول «... شغلنى موضوع هذه الدراسة فى أعقاب عدوان ١٩٦٧م، وبدا مع الوقت أن الهزيمة مما قد يتصور معه أن تترك ظلالها على قوة التماسك فى المجتمع المصرى، وأن تفت من صلابته، وليس خطر الهزيمة فى أنها تشكل تراجعا عن موقع ما، ولكن خطرها الأشد أنها قد تخلخل الثقة فى المسلمات وتزعزع الثوابت فى العقول والقلوب.. امتلاك الذات هو حصن الأمان، وهو العدة فى أى مواجهة....».

هنا تتجلى قدرة المؤرخ على فهم وظيفة التاريخ، وقدرته على «قراءة» التاريخ لصالح الأمة. ولايعنى هذا أننا سوف نواجه «قراءة» منحازة للتاريخ المصرى، بل إن العكس هو الصحيح تماما. نحن أمام قراءة موضوعية تسلط الضوء على حقائق التاريخ المصرى لصالح المجتمع المصرى، وتبرز ما أسماه طارق البشرى «المسلمات والثوابت فى العقول والقلوب....» ومن ناحية أخرى يدرك طارق البشرى تماما أن الدراسة التاريخية قراءة جديدة، ومتجددة، للتاريخ لأن «.. العملية التاريخية واقع يحتمل التغيير من طرفيه .. المادة التاريخية .. والكاتب» - على حد تعبير طارق البشرى نفسه.

أما عن أسلوب طارق البشرى فى البحث التاريخى، فإن ماكتبه يشهد بأن شخصية القاضى فى الرجل قد أفادت شخصية المؤرخ كثيرا .. فقد ألزم نفسه بالصرامة المنهجية، ودقة البحث والتحرى والتحقيق، كما عكست خبرته القانونية ما تتميز به كتاباته من براعة المقارنة والقدرة على الاستنباط . كما امتازت رؤيته ومنظوره التاريخى بالقدرة على استخدام الأساليب التحليلية، وحين كتب ماتوصل إليه من خلال قراءته كتب بلغة مؤرخ فاهم.

والحقيقة التى يشعر بها من يقرأ كتابات المستشار طارق البشرى التاريخية يشعر بأنه أمام مؤرخ حق، شأنه شأن الشاعر والفنان والفيلسوف يجسد طبعة خاصة جدا من البشر، وهبه الله القدرة على النظر والتدبر والتأمل، كما وهبه ملكة التخيل والفهم من ناحية، كما أكسبته خبراته الإنسانية والقضائية قدرة على إدراك مكونات الحاضر وإمكانات المستقبل من خلال دراسة الماضى من ناحية ثانية، واكتسب من إنسانيته القدرة على استيعاب أهمية الإنسان باعتباره محور الكون والوجود من ناحية ثالثة. ■

● جمع طارق البشرى فى شخصه بين العلم والعدل وكان واحد من نماذج مشرقة سطعت فى نظامنا القانونى والقضائى



كارتر يتوسط السادات وبيجن أثناء توقيع اتفاقية كامب ديفيد

كامب ديفيد اليوم الأخير

بقلم
د. نبيل العربى

قرأت بمزيد من الاهتمام وبعظيم التقدير المقال الذى كتبه صديق العمر السفير أمين يسرى فى عدد الهلال الصادر فى ديسمبر ٢٠٠١ ، وابدأ بالقول إنه تفضل وأسبغ على العديد من حميد السجايا ومكارم الأخلاق التى لا إستحقها ، وكان كريما كعادته، ومع ذلك أطلب الإذن فى أن أتوقف وأتأمل مقولته بأننى مسئول عن عدم شرح خبايا بعض الأحداث التاريخية

المهمة التى شاركت فيها بحكم منصبى كمدير للإدارة القانونية بوزارة الخارجية - وإشاراته إلى مباحثات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ . وقد سبق أن أطلعت على كتب ومقالات كثيرة لمصريين وإسرائيليين وأمريكيين تناولت ما دار فى مباحثات كامب ديفيد. وبالرغم من أن بعض هذه الكتابات تعرض لذكر اسمى فى إطار غير دقيق يجانب أحيانا الصواب لعدم تقديم صورة متكاملة لما دار فى هذه المباحثات، إلا أننى ولمدة تقارب ربع قرن تعمدت عدم الرد وعدم الشرح، وقد اتخذت هذا الموقف طوال هذه السنين لعدة أسباب قد يكون اهمها أن التعرض لجانب واحد أو لجزئية صغيرة من منظور شخصى لن يعطى الصورة متكاملة، وأنه إذا كان لابد من الكتابة بصورة شاملة لأحداث معينة، فإن هذا يستلزم بحثا إكاديميا تتوافر له المستندات ذات الصلة كلها، وهذا ليس متوافرا لى حاليا بعد أن تركت عام ١٩٩٩ الخدمة فى وزارة الخارجية، بالإضافة إلى ما تقدم فإننى لا أعتبر أنه تتوافر لدى مؤهلات وحياد المؤرخ.

كما أن الكتابة فى مثل هذه الأحداث السياسية المهمة كانت ستؤدى بالضرورة إلى كشف أمور وأسرار يصعب على شخص عمل طوال حياته فى وزارة الخارجية وانما فى مناخ يسعى دائما إلى حماية أسرار الدولة أن يتحدث عنها علانية وبحرية تامة بالإضافة إلى كل ذلك لا اعتبر إننى - بحكم مشاركتى فى هذه الأحداث - أستطيع أن أبدى آراء مجردة بموضوعية تامة. لكل هذه الأسباب فضلت طوال هذه السنوات أن التزم الصمت.

مبرر خروجى عن الصمت

ولكن بعد أن قرأت مقال السفير أمين يسرى، وأعدت قراءته عدة مرات ووجدت فيه إشارات إلى أن لقائى بالرئيس السادات كان بالنيابة عن أعضاء الوفد وأن الرئيس السادات «انفجر غاضبا» عندما استمع إلى الآراء والملاحظات التى ذكرتها دون إشارة إلى طبيعة هذه الملاحظات، بدأت تساورنى الشكوك فى صحة الموقف الذى التزمت به لما يقرب من ربع قرن. وبعد أن تشاورت مع السفير أمين يسرى وتبادلنا وجهات النظر وجدت من المناسب - بعد تردد شديد - أن أتناول جانبا مما دار

فى اليوم الأخير من مباحثات كامب ديفيد يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ - وأسارع إلى القول إننى أقدم على هذه الخطوة لمجرد تسجيل وإيضاح ملابسات وأبعاد ما شاهدته بنفسى وشاركت فيه وذلك من منظور شخصى ولا يعتبر ذلك فى نظرى تسجيلا تاريخيا متكاملا لكل ما حدث.

من وجهة نظرى تبدأ أحداث اليوم الأخير الموافق الأحد ١٧ سبتمبر يتلقى الوفد المصرى عدة أوراق أمريكية تحوى إطارا للسلام فى الشرق الأوسط وإطار اتفاق لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل ثم مشروع خطابات يتم تبادلها بين الرئيس السادات والرئيس كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلى حول القدس والمستوطنات وحول الضفة الغربية وغزة. وبالرغم من أن المطلب المصرى الرئيسى - الذى لا يمكن قبول النيل منه أو المساس به - الخاص بالانسحاب من جميع الأراضى المصرية إلى حدود مصر الدولية كان منصوصا عليه بوضوح إلا أنه كانت هناك نقاط عديدة أعربت مصر عدة مرات عن معارضتها لها. وحتى تتضح الصورة أجد من الضرورة الإشارة إلى ما يلى:

نقطتان لابد من ذكرهما

١ - كان الوفد الأمريكى قد قرر قبل بدء المباحثات أن يكون التفاوض عن طريقه بحيث يجتمع مع الوفد المصرى ويستمع إلى ما لديه من آراء ويناقشها ثم يجتمع مع الوفد الإسرائيلى لنفس الغرض ثم يتقدم للطرفين بمقترحات أمريكية. بمعنى أن الوفدين المصرى والإسرائيلى لم يجتمعا معا فى مفاوضات مباشرة خلال مباحثات كامب ديفيد وذلك لأن الولايات المتحدة وجدت أن أسلوب التفاوض المباشر بين الوفود سواء فى اللجنتين السياسية أو العسكرية اللتين أعقبتا مؤتمر مينا هاوس فى ديسمبر ١٩٧٧ أو فى اجتماع لانكستر هاوس فى بريطانيا فى يوليو ١٩٧٨ قد فشل فشلا ذريعا فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين. واستمر أسلوب التفاوض المباشر لمدة أكثر من أسبوع فى كامب ديفيد إلى أن تبين الرئيس كارتر أنه لا فائدة ترجى من التفاوض بين الوفود وقرر أن يتم التفاوض بين الرئيس السادات ومناحم بيجين مباشرة على أن يستعين كل منهما بعضو واحد من الوفد. فاختار الرئيس السادات السفير أسامة الباز ووقع اختيار بيجين على باراك المستشار القانونى للحكومة.. بذلك يمكن القول إن وفد المفاوضات - الذى كانت الولايات المتحدة تتهمه دائما بالتشدد فى المواقف التى يتخذها - قد استبعد تماما من المشاركة فى التفاوض خلال الأيام الأخيرة.

٢ - أن الوفد المصرى كان قد تلقى

قبل خمسة أو ستة أيام ورقة أمريكية. وعقد الوزير محمد إبراهيم كامل اجتماعا شارك فيه جميع أعضاء الوفد وأبديت آراء مختلفة حول هذه الورقة وفي نهاية الاجتماع طلب منى الوزير محمد إبراهيم كامل تلخيص الاعتراضات السبعة الرئيسية كتابة لعرضها على الرئيس السادات. وطلب من السفير أسامة الباز ومنى الذهاب معه لمقابلة الرئيس وعرض هذه الاعتراضات عليه. وعندما قابلنا الرئيس السادات اقترح وزير الخارجية عليه أن يطلع على الورقة الأمريكية فرفض أن يقرأها بنفسه وفضل أن يستمع فطلب منى وزير الخارجية أن أقرأ الورقة الأمريكية ثم أقرأ الاعتراضات السبعة التى أستقر عليها الوفد المصرى. واستمع الرئيس السادات بإمعان ثم وجه كلامه إلى وزير الخارجية قائلا هذا كل ما لديكم يا محمد؟. «لقد فاتكم أهم نقطة وأشار سيادته إلى أن الورقة الأمريكية تنص على أن يكون الانسحاب المرحلى الإسرائيلى إلى نقطة بالقرب من العريش دون تحديد موقعها بالضبط، وطلب ضرورة تحديد النقطة بدقة ثم نظر لى وطلب منى إضافة هذه النقطة إلى الورقة التى قرأت منها وإعادة كتابة النقاط الثمانى - بمعنى أنه وافق على جميع الاعتراضات التى قدمت إليه - وإعداد رسالة بالإنجليزية من الرئيس السادات إلى وزير الخارجية فانس وأن أذهب وأسلمها إلى فانس. وقمت بالفعل بهذه المهمة بناء على تعليمات الرئيس السادات.

أمريكا تقرر .. ولا تعقيب!

وأخذاً فى الاعتبار لهذه الخلفية جاء نص الأوارق الأمريكية بمثابة مفاجأة تامة للوفد المصرى لأنها تحوى أمورا سبق أن رفضها الرئيس السادات - وبعد قراءة متأنية وتبادل وجهات النظر مع باقى أعضاء الوفد كان واضحا أنه يلزم إدخال بعض التعديلات على الورقة الأمريكية. ولكن فى نفس الوقت كانت جميع المؤشرات تؤكد أن الولايات المتحدة قد استقر رأيها على أن المباحثات قد وصلت إلى نهاية المطاف وتحدد موعد مساء اليوم نفسه للتوقيع فى البيت الأبيض بحيث يصبح أى مسعى لإدخال تعديلات جوهرية غير واقعى ولن يكتب له النجاح. وبعد مزيد من القراءة والتشاور مع أعضاء الوفد ومراجعة الضمير فى ضوء مسئولياتى كمدير للإدارة القانونية والمعاهدات فى وزارة الخارجية كان لابد فى هذه المرحلة من التركيز على الجوهر وترك التفاصيل وكانت هناك ثلاثة أمور اعتبرتها أساسية وحيوية:

الأول : أن الورقة الخاصة بالانسحاب من سيناء فى مجملها تعتبر مقبولة لأنها تؤدى إلى انسحاب إسرائيل من سيناء، ولكن ربط إزالة المستوطنات الإسرائيلية بموافقة لاحقة من الكنيست الإسرائيلى فى طياتها بذور تحلل إسرائيل من الالتزام بإزالة هذه

المستوطنات لذلك يجب أن يكون هذا الالتزام الإسرائيلي واضحا صريحا لا لف أو دوران بشأنه. ومن الواضح أن تأكيد الانسحاب من سيناء يمثل مكسبا حقيقيا لا يجوز بأي حال من الأحوال تعريضه للخطر بسبب تصميم بيجين على طرح موضوع ازالة المستوطنات على الكنيست لأنه لا يملك سياسيا اتخاذ مثل هذا القرار الذى له انعكاسات وآثار بعيدة المدى على الصهيونية دون الرجوع إلى ممثلى الشعب الإسرائيلي. وقد يقول قائل إن تصميم بيجين كان لا يعدو أن يكون تمثيلية إسرائيلية لتأكيد أن إسرائيل دولة ديمقراطية. وأيا كان الوضع كان يفرض معالجة الأمر بحكمة للخروج من هذا المأزق. كان رأيي أن يتم التوقيع في البيت الأبيض على الشق المصرى بالحروف الأولى بحيث يعتمد النص أمام العالم ويشهد الرئيس الأمريكي على ذلك ثم بعد اعتماد الكنيست لموضوع إزالة المستوطنات يتم التوقيع النهائي، وهذا الأسلوب يحمى مصر من مغبة أن يكون رئيسها قد وقع بصفة نهائية على الوثيقة ثم يرفض الكنيست بعد ذلك إزالة المستوطنات.

الثاني: أما الموضوع الرئيسى الثاني الذى كان يستحق إعادة نظر شاملة سواء فى التوجه العام أو فى الصياغة التى جاءت فى الورقة الأمريكية فقد كان الشق الفلسطينى أو ما أطلق عليه الإطار الخاص بالضفة الغربية وغزة وكان يثير العديد من المشاكل ويكفى فى هذا السياق أن أشير بإيجاز إلى مشكلات ثلاث لها أبعاد سياسية وقانونية واسعة:

الأولى: أن هذا الإطار لا يعكس الموقف الفلسطينى الذى يطالب – وعن حق ثابت – بتقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة – وهو موقف تؤيده كل الدول العربية بما فيها مصر – نعم كانت هناك إشارات إلى تقرير المصير ولكنها إشارات قاصرة لأنها تنص على أن للفلسطينيين الحق فى المشاركة فى تقرير مصيرهم عن طريق المشاركة فى محادثات أطلق عليها محادثات «الحكم الذاتى» ولكن لم يتحدد الهدف النهائى من هذه المحادثات، كما أن الإشارة إلى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ جاءت غامضة واقتصرت على النص على أن الهدف من مفاوضات الحكم الذاتى ليس تنفيذ القرار ٢٤٢ ولكن أنها سوف ترتكز على المبادىء التى قام عليها القرار. ومن المعروف أن إسرائيل تتمسك بأن القرار لا يؤدى إلى انسحابها من كل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧. بمعنى أن إطار كامب ديفيد أطلق مفهوم الحل التدريجى على مراحل ولكن لم يتطرق إلى طبيعة وأبعاد المرحلة النهائية وترك الباب مفتوحا لحسن نوايا

حكومة إسرائيل. وكما هو معروف باءت محادثات «الحكم الذاتي» بالفشل الذريع وتوقف عام ١٩٨٢ بعد ما يقرب من عامين. بالإضافة إلى أن جميع الالتزامات التي تعهد بها مناحم بيجين في هذا الخصوص نكثها وعدل عنها، وهو ما دعا كلا من عزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلي وموسى دايان وزير الخارجية إلى الانسحاب رسميا من وفد المفاوضات بل من الحكومة برمتها تأكيدا لما أعلناه وقتئذ من أن التعليمات التي أصدرها بيجين لوفد المفاوضات تتعارض مع التعهدات الإسرائيلية في كامب ديفيد.

الثانية: قد تبدو لأول وهلة أنها مسألة ذات طابع قانوني، ولكنها في الواقع تمس أبعادا سياسية في غاية الأهمية. وتكمن المشكلة في أن طرفي الإطار المقترح هما مصر وإسرائيل ولكن الإطار يحتوي على التزامات عديدة تقع على عاتق منظمة التحرير الفلسطينية والأردن وكلاهما ليس طرفا في هذا الاتفاق. والقاعدة العامة في القانون الدولي - كما وردت في المادة ٣٥ من اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات - تقضي بأن الالتزامات النابعة من أحكام الاتفاقيات لا تتحملها الأطراف غير المشاركة في هذه الاتفاقيات إلا برضاها وبنص مكتوب . اي أن كل ما جاء في الإطار الفلسطيني من التزامات وتصور عام للمراحل المختلفة، ودور الأردن غير ملزم للفلسطينيين والحكومة الأردنية .

وخلاصة القول أن مصر لا تملك صلاحيات قانونية أو سياسية لتقديم تعهدات باسم الفلسطينيين أو باسم الأردن. ولذلك فالأفضل سياسيا وتطبيقا لقواعد القانون الدولي ألا يتم توقيع مصر على هذا الإطار قبل إجراء مشاورات مع الأردن ومع منظمة التحرير الفلسطينية للتحقق بدقة من موقفهما إزاء الالتزامات الواردة في هذا الإطار.

أما الموضوع الرئيسي الثالث فكان يتعلق بمشكلة القدس وعلى وجه التحديد أسلوب عرض الموقف الأمريكي من الاختلاف بين الطرفين المصري والإسرائيلي فموقف مصر معروف والكتاب المقترح أن يوجهه الرئيس السادات يعكس هذا الموقف . كما أن موقف إسرائيل معروف أيضا لم يتغير. ولكن من غير المعقول ومن غير المقبول أن يوجه الرئيس كارتر كتابا إلى الرئيس السادات وإلى رئيس وزراء إسرائيل يقول فيه إن موقف الولايات المتحدة من موضوع القدس هو نفس الموقف الذي عبر عنه السفير الأمريكي جولدبرج في الجمعية العامة عام ١٩٦٧ والسفير الأمريكي يوست في مجلس الأمن عام ١٩٦٩. وذلك لأن رئيس الولايات المتحدة هو أعلى سلطة في البلاد ولا يستقيم أن يعبر عن الموقف الأمريكي بهذا الأسلوب. وبما أن الموقف الأمريكي الثابت من المركز القانوني للقدس حتى ذلك الوقت كان يتمثل في

رفض ضم إسرائيل للقدس الشرقية ومعارضة جميع الإجراءات الانفرادية الإسرائيلية، فالتفسير الوحيد للكتاب المقترح أن يوجهه الرئيس كارتر هو أنه يمالىء الموقف الإسرائيلي لأنه أصبح لا يستطيع أن يجاهر كتابه في وثيقة تاريخية بموقف حكومته المعارض لموقف إسرائيل. ولابد أن إسرائيل قد مارست ضغوطا مكثفة عليه وبالتالى علينا محاولة ممارسة ضغوط مقابلة حتى يحترم صلاحياته ومسئولياته كرئيس دولة ويعبر بنفسه عن موقف بلاده، بمعنى أن مصر لا تسعى لتغيير موقف الولايات المتحدة الرسمي، ولكن تطالبها بالإعلان صراحة عن هذا الموقف حتى لا يبدأ الموقف الأمريكي في التدهور التدريجي تجاه المركز القانوني للقدس وهو ما حدث بالفعل خلال السنوات التالية.

استقالة وزير الخارجية

ذهبت بعد ذلك لمقابلة وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل واقترحت عليه الذهاب إلى الرئيس السادات وعرض النقاط الثلاث السابق الإشارة إليها. وبعد أن أبدى وزير الخارجية اقتناعه التام بأهمية عرض هذه الموضوعات على رئيس الجمهورية ذكر - وكان واضحا لى أنه فى حالة حرج شديد - أنه لا يستطيع القيام بهذه المهمة. ولم يذكر وزير الخارجية فى حديثه معى أنه اختلف مع الرئيس السادات وأنه قد قدم استقالته فى اليوم السابق. وكنت قد عرفت بهذه الاستقالة - التى كان قد تقرر عدم إعلانها - من مدير مكتبه السفير أحمد ماهر السيد - وزير الخارجية الحالى - الذى أخبرنى بتفاصيل المقابلة بين الرئيس ووزير الخارجية بصفة شخصية.

ولما ألححت على الوزير بضرورة عرض هذه الموضوعات على الرئيس السادات وأشرت إلى أننى أعتبر أنه بحكم منصبى كمدير للإدارة القانونية والمعاهدات فإننى مسئول عن أى اتفاقيات نبرمها، واستأذنه فى أن أحاول مقابلة رئيس الجمهورية وسوف أطلب من باقى أعضاء الوفد الذهاب معى فشجعنى على ذلك.

لقاء مع السادات

دار هذا الحديث فى الشاليه الذى كان يقيم فيه كل من الوزير محمد إبراهيم والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية. وبعد حديثى مع وزير الخارجية أعلنت أمام أعضاء الوفد سواء من الخارجية أو من الرئاسة أننى سوف أسعى لمقابلة رئيس الجمهورية ولم يعلق أحد، فذهبت بمفردى إلى الشاليه الذى كان يقيم فيه الرئيس السادات ووجدته واقفا فى الشرفة مع رئيس وزراء إسرائيل والمستشار القانونى للحكومة باراك،

وانتظرت أمام الشرفة حوالي عشر دقائق. وبعد مغادرة بيجين أشار إلى الرئيس السادات بالدخول واستفسر عما أريد فأجبت بأننا تسلمنا الورقة الأمريكية ولدى بعض أمور مهمة أرغب فى عرضها على سيادته. دعانى الرئيس السادات إلى الدخول وتركنى بضع دقائق ثم عاد وذكر أنه سيتناول وجبة خفيفة من زبادى وعسل وعرض على أن أشاركه فشكرته واعتذرت. ولا أبالغ إذا قلت إنه بالرغم من مضى ما يقرب من ربع قرن على المقابلة إلا أننى مازلت أشعر بالاضطراب والتوتر كلما تذكرت أحداثها. فليس سهلا الذهاب إلى رئيس جمهورية وإبداء اعتراضات على مسائل على درجة عالية من الحساسية والأهمية.

سأحاول الآن لأول مرة نقل ما دار من حديث بأمانة تامة وموضوعية كاملة طبقا لذاكرتى وما لدى من أوراق قليلة سطرتها فى حينه. ما حدث هو أنه بعد أن عرضت الأمور الثلاثة السابق الإشارة إليها بإسهاب أنهيت حديثى بأن ذكرت أنه:

١ - بالنسبة للشق المصرى لرئيس الجمهورية كامل الصلاحية للتوقيع ولكنى اقترح التوقيع بالأحرف الأولى فقط فى الوقت الحالى.

٢ - بالنسبة للشق الفلسطينى لا تملك مصر صلاحية التعهد باسم الفلسطينيين أو باسم الأردن ويجدر التشاور معهم قبل الإقدام على أية خطوة لأن الإطار الفلسطينى أقل مما يطالب به الفلسطينيون وفيه إجحاف بين لحقوقهم.

٣ - الخطابات المقترح تبادلها حول القدس سوف تؤدى إلى اهتزاز الموقف الأمريكى لصالح إسرائيل وبالتالى لا جدوى من تبادلها.

غابة السادات وأشجار الخارجية

استمع الرئيس السادات بإمعان ولم يقاطعنى ثم صمت لفترة ونظر إلى وقال أنت لست رجل دولة You are Not astatesman فرددت بأننى سمحت لنفسى بالحديث بوصفى فنيا Technician مسئولا عن الجوانب القانونية فى وزارة الخارجية.

صمت الرئيس السادات مرة أخرى ثم قال إن كل موظفى وزارة الخارجية لا يفهمون سياسته وأنهم ينظرون فقط إلى الأشجار ولا يرون الغابة بجميع أطرافها وأنهم - بما فى ذلك وزير الخارجية - لا يعون قدر التعهدات التى قدمها الرئيس كارتر أقوى رجل فى العالم، وأنه بالرغم من الصياغات والتفصيلات التى أبديت اعتراضات بشأنها فإن المهم فى نظره هو تأييد الولايات المتحدة وفى تقديره فإن هذا التأييد قد أصبح فى حكم المؤكد بعد تعهدات كارتر. وقد كرر الرئيس السادات الإشارة إلى تعهدات «كارتر» عدة مرات دون أن يفصح عن فحوى ومضمون هذه التعهدات.

وكان الرئيس السادات هادئا ولم

ينفجر غاضبا أو يثور أو يرفع صوته طوال هذا الحديث ولكنه صمت لفترة طويلة نسبيا حاولت خلالها أن استأذن في الانصراف ولكنه رفض وأبقاني معه.

ثم فجأة نظر إلى والغضب الشديد يتطاير من عينيه وقال عديلك - يقصد الأستاذ محمد حسنين هيكل - «عاوز يعمل انقلاب ضدي» فأجبت بأن ذلك مستحيل لأنه لا علاقة للأستاذ هيكل بالقوات المسلحة. فضحك الرئيس السادات بصوت عال جدا وقال «لا مش عن طريق الجيش بل عن طريق المراسلين الأجانب» . وكررها عدة مرات ثم توقف ونظر إلى مرة أخرى بغضب شديد وحملنى رسالة معينة إلى الأستاذ هيكل لا أسمح لنفسى - على الرغم من مرور هذه السنوات بالإفصاح عنها.

حاولت بعد ذلك الاستئذان مرة أخرى ولكنه رفض وفى هذه الأثناء دخل سكرتيره الخاص السيد فوزى عبدالحافظ معلنا أن عزرا وايزمان وزير دفاع إسرائيل قد وصل فاستأذنت من الرئيس فى الانصراف ولكنه رفض مرة أخرى.

ثم دخل وايزمان وعانق الرئيس السادات وتحدث بالإنجليزية مع ترديد بعض كلمات عربية كرر فيها كلمة يا ريس عدة مرات وأخذنى الرئيس السادات من يدي وقال لوايزمان هل تعرف نبيل العربي؟.. فرد وايزمان أنه يعرفنى جيدا وأننى سببت له مشاكل كثيرة بل وصداعا خلال المحادثات العسكرية التى كنت خلالها مستشارا للمشير محمد عبدالغنى الجمسى وكان وايزمان يرأس الوفد الإسرائيلى.

وجدت الفرصة مناسبة للمغادرة ولم يمانع الرئيس السادات هذه المرة وخرجت من الحجرة مع السيد فوزى عبدالحافظ وذهبت إلى الوزير محمد إبراهيم كامل وأبلغته بما دار فى الحديث باستثناء الرسالة الخاصة بالأستاذ هيكل وبالطبع كنت مضطربا وأعانى من حالة شديدة من الإحباط لأننى فشلت فى إقناع الرئيس السادات بوجهة نظرى فيما عرضت عليه من موضوعات.

وللتاريخ أقول

يهمنى قبل أن اختم ان ابرز نقطتين:

الأولى : أن الرئيس السادات استمع لكل الملاحظات وأمعن التفكير حولها ولكنه لم يقتنع بها، وفى نفس الوقت تقضى الأمانة أن اسجل للتاريخ انه لم يغضب لأن مدير الإدارة القانونية فى الخارجية أثار معه هذه الموضوعات الحساسة ولم يتخذ سيادته ضدى أى إجراء بالرغم من أننى علمت أنه عندما قص ما دار على بعض الصحفيين أثاروه بل حرضوه على توقيع عقاب عليّ لما تجرأت وعرضته عليه. ولكنه لم يفعل ذلك

ولم يبد في العديد من المناسبات العامة التي قابلته فيها بعد ذلك أي ضيق للموقف الذي اتخذته في كامب ديفيد. صحيح أن هذه المناسبات كانت لا تعدو أن تكون مجرد مصافحة أثناء تردده على الولايات المتحدة سواء في واشنطن أو نيويورك في الوقت الذي كنت فيه مندوبا مناوبا لمصر لدى الأمم المتحدة. وعندما عينت عام ١٩٨١ سفيرا لمصر في الهند وقبل سفرى لتسلم مهام منصبي في نيودلهي طلبت موعدا مع رئيس الجمهورية وتحدد الموعد بالفعل صباح ٧ أكتوبر ١٩٨١ .. وبالطبع لم يتم اللقاء.

وقد يكون من المناسب أن أشير هنا إلى أن الدكتور بطرس غالى ابلغني في اكتوبر ١٩٧٩ ستة شهور بعد توقيع معاهدة السلام. ان الرئيس السادات بعد عودته من كامب ديفيد استدعاه وطلب منه ألا اشارك في أي محادثات مع إسرائيل بعد ذلك، ولكن يشاء القدر أن أتولى موضوع التحكيم حول طابا وأن استمر في التفاوض مع إسرائيل حتى ٢٦ فبراير ١٩٨٩ عندما وقعت نيابة عن مصر على اتفاق انسحاب إسرائيل من طابا ومن باقى الأراضي التي احتلتها إسرائيل في سيناء.

الثانية : أن جميع أعضاء الوفد المصرى وإن لم نذهب معا لمقابلة الرئيس إلا أن الجميع كانت تنتابهم حالة من الإحباط الشديد الأمر الذى انعكس في اتخاذ موقف جماعى في مساء نفس اليوم بمقاطعة حفل التوقيع الذى أقيم في البيت الأبيض. ولاشك ان اتخاذ مثل هذا الموقف الذى يتسم بالشجاعة يجب أن يسجل لأعضاء الوفد جميعا كما تجدر في نفس الوقت الإشادة بحكمة الرئيس السادات وبعد نظره، فقد تقبل المقاطعة الجماعية لحفل التوقيع بهدوء بالرغم من أن وسائل الإعلام الإسرائيلية والأمريكية قامت بعملية تشويش وصوروا المقاطعة بأنها استقالة جماعية لوفد المفاوضات المصرى. والتاريخ يجب أن يسجل أن الرئيس السادات لم يتخذ أى إجراءات عقابية ضد أى من أعضاء الوفد.

ما تقدم جزء يسير جدا مما عايشته في فترة كامب ديفيد وغيرها، وما أخرجنى عن مبدأ الصمت الذى التزمته الا المقالة التي كتبها الصديق وما دار من مناقشات بيننا مازالت مستمرة حول كتابة الدبلوماسى لمذكراته وهى مناقشة في رأيى يجب ألا تقتصر علينا بل حرى بكل دبلوماسى وكل مؤرخ وكل مثقف ان يشارك فيها الرسم الحدود الفاصلة بين حق التاريخ علينا وحدود الوظيفة ومسئولياتها. ■

هوامش

(١) محادثات الحكم الذاتى (وله الحمد) هي المحادثات المصرية الإسرائيلية التى لم اشارك فيها.

(٢) لم يذكر الوزير محمد إبراهيم كامل في كتابه عند الإشارة إلى مقابلتي مع الرئيس السادات سوى موضوع القدس.



كتاب في الكراهية

بقلم
طارق البشرى

الأقباط.. الوجه الآخر

بقلم
عمرو عبد المنعم حموده

الاقباط في مصر شركاء في الوطن والتاريخ والقدر والمصير في إطار الجماعة الوطنية التى تبلورت على مر عصور التاريخ. حقيقة تاريخية واجتماعية غير قابلة لإثبات العكس، ولكن المستشار طارق البشري عندما عرض لكتاب الراهب القمص انطونيوس الأنطوني «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها»، في مقاله كتاب في الكراهية في عدد يوليو ٢٠٠١ من مجلة الهلال، عندما عالج المستشار البشرى هذا الكتاب بالعرض والتحليل أثار قضية مفرطة في الحساسية ، وهي أن اقباط مصر - ومن وجهة نظر مؤلف الكتاب - ومنذ الفتح العربى الاسلامى لمصر سنة ٦٤٠م وإلى الآن مضطهدون ..

وفي كل فقرة من فقرات الكتاب لاحديث له إلا عن الاضطهاد والظلم والكوارث التي تلحق بالأقباط .. وان كل قضايا المجتمع ووقائع التاريخ وعذابات البشر من الأقباط علي مر الحقب والدهور حولها المؤلف إلي أفعال موجهة من المسلمين حكاما ومحكومين إليهم.

والنغمة نفسها تتردد في كتاب «أقباط مصر بين الماضي والحاضر» للقس داود عزيز حيث يصف عهود الحكم العربى الإسلامى بأنها تلك العهود المظلمة التى سلبت كل معنى للحرية للمسيحيين فى مصر والتي استبد بهم الحكام وأذاقوهم ألوانا من العذاب، وميزوا بينهم وبين المسلمين، وفرضوا عليهم ترك لغتهم الأصلية – اللغة القبطية – وعدم المجاهرة بها، وهذه الكتابات وغيرها من كهنة الكنيسة القبطية إنما تحدث اضرارا جسيمة بالوطنية المصرية والكنيسة القبطية والتاريخ لمصر والمصريين ، ولا تخدم بأى حال من الأحوال قضية الوحدة الوطنية.

فن صناعة الخصم

وينتمي مؤلفا الكتابين من واقع ما كتبا إلى الاتجاه الدينى المحافظ والمتطرف، وقيم المحافظة تبدو ظاهرة فى صورة التمسك المتشدد بالافكار والآراء القبلية، والتيار المحافظ يعبر غالبا عن محاولة الدفاع عن الذات والمحافظة على الوضع النسبى الآنى أو محاولة استعادة وضع سابق دون النظر إلى الثوابت والمتغيرات لكل مرحلة من مراحل التاريخ أو عصوره، وهذان الكتابان وغيرهما من الكتابات القبطية إنما يدخلان فى نطاق مايمكن أن يطلق عليه فن صناعة الخصم، بمعنى أن هذه الكتابات تحول الاقباط من شركاء فى التاريخ والأرض والقدر والمصير إلى خصوم لإخوانهم المواطنين.

وبالقدر نفسه من الواقعية والموضوعية فإن القصص والروايات التى تحفل بها الكتب القبطية عن اضطهاد الاقباط منذ الفتح العربى الإسلامى انما هى روايات موظفة تاريخيا بهدف تعميق الحواجز النفسية والاجتماعية بين الاقباط من جهة واخوانهم المسلمين من جهة أخرى، وتسعى إلى تكريس سيكولوجية خاصة لدى الاقباط بما تعنيه من التمسك بالتقاليد القبطية العريقة والمحافظة عليها، ومحاولة بعث اللغة القبطية، ومن حسن الحظ

أن كل هذه المحاولات تتحطم على صخرة الحقيقة وهي أن اقباط مصر ليسوا أقلية بل هم في حقيقة أمرهم جزء لايتجزأ من النسيج الوطني المصري، وهذا الجزء مؤثر وفعال ونشط ومشارك في المجتمع المصري تاريخيا.

ومن حيث المنهج في هذه الكتب تظهر في المعالجة التاريخية للموضوع محل الدراسة ظاهرة النزعة إلى التعميم وتعني أن يميل البعض من الباحثين إلى أن يجعلوا من ملاحظة خاصة بحالة معينة مبدأ عاما يطبق ويسري في جميع الحالات .. أي أن الباحث يقوم بعملية استقراء ناقص وصولا إلى حكم عام، وهذا من أهم الاسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الخطأ.

حقيقة الاضطهاد التاريخي

لكن ما حقيقة الاضطهاد التاريخي الذي عاني منه الاقباط منذ الفتح العربي الإسلامي لمصر المسيحية سنة ٦٤٠م ؟ . هناك شبه اجماع بين الباحثين والمؤرخين على أن ثمة كثيرا من النصوص والوقائع التي يمكن إيرادها دلالة على التعامل السمح للنظم الاسلامية مع الاقباط، وكان منهم الوزراء والرؤساء في الإدارة المصرية، فبعد الفتح العربي الاسلامي لمصر ولأول مرة منذ زمن طويل أصبح للمصريين الاقباط دور في إدارة بلادهم رغم انعقاد السيادة لحكام جدد، فقد استخدم العرب الفاتحون القبط في كثير من الوظائف والشئون العامة وبخاصة في جمع الضرائب والاعمال الحسابية، وأحلوهم في إدارة بلادهم محل الروم الذين غادروا البلاد تباعا، وابقوا من كان منهم في وظائف عامة قبل الفتح العربي في نفس وظائفهم وأعمالهم، فكان منهم حكام للكور ورؤساء للدواوين بالإضافة إلى شتى الوظائف الصغيرة، ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استبقاه المسلمون في عمله كحاكم للمنطقة الشمالية، وآخر يدعى شنودة وكلت إليه حكومة الريف، وثالث تولى حكومة الفيوم، وكان بالحكومة المركزية في الفسطاط كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى، ويرز في عهد مروان ابن الحكم كاتب قبطي يدعى اثناسيوس الرهاوي بلغ درجة الرئاسة على ديوان الاسكندرية وتلقب في المكاتبات الرسمية بلقب الكاتب الأفخم .. وفي عهد عبدالعزيز بن مروان كان والي الصعيد قبطيا

اسمه بطرس وحاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس.

سياسة غير مستقرة

ودراسة تاريخ مصر الإسلامي توضح أن سياسة الطبقة المسلمة الحاكمة تجاه الاقباط لم تكن مستقرة، وبالتالي كانت السياسات والاتجاهات والقرارات معرضة للتغيير في أحوال كثيرة طبقا للطبيعة الشخصية والمزاج السياسي للحاكم، وكانت معاملة الأقباط قبل الفاطميين عرضة للتقلبات السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة، وكانت معاملة بعض الحكام للاقباط خشنة وقاسية، ولم تكن هذه المعاملة بسبب التحيز الديني فقط ولكن بسبب الضغوط المالية كذلك، فمعاملة الحكام لهم تحكمها في الدرجة الأولى حاجة هؤلاء الحكام للأموال، ومن أجل الحصول على ذلك اضطروا إلى تنفيذ سياساتهم لجمع الضرائب والجزية.

وإذا كانت قد مرت على مصر فترات اضطهاد لسبب أو لآخر - كما يقرر الدكتور ميلاد حنا في كتابه الأعمدة السبعة للشخصية المصرية - فالملاحظ هو أن الاضطهاد لم يكن مقصورا علي الاقباط، وإنما كان عاما وشاملا للمصريين جميعا، وفي فترات الرخاء والأمن والأمان كان الاضطهاد على الاقباط غير واضح، وملحوظ، بل كانوا ينعمون بحرياتهم في ممارسة طقوس ديانتهم في وقت لم يكن فيه أمر حقوق الانسان مطروحا أو معروفا.

المسلمون حماة المسيحيين

وفي فترات الثورات والمحن والقلاقل السياسية والاجتماعية، كان الأقباط والمسيحيون محل حماية وعطف وتقدير من إخوانهم المسلمين، فيذكر لنا إلياس زاخوره - وهو كاتب ومؤرخ وصحفي مسيحي في القرن التاسع عشر - في كتابه «مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر» جـ١ سنة ١٨٩٧ ص ٤٨٣ في ترجمة محمد بك حمودة من الغربية أنه «لما شبت نيران الثورة العرابية أتى منزله نحو الخمسين نفساً من المسيحيين المقيمين بطنطا لسبب الخوف والقلق الذي حصل وقتئذ فأكرمهم، وسكن روعهم، وعاملهم احسن معاملة، وبقوا في ضيافته لبعد اخماد الثورة العرابية». ونسج على منواله أحمد باشا المنشاوي من أعيان الغربية واقطاب طنطا في القرن التاسع عشر في حماية الاقباط والمسيحيين ورعاية شئونهم والوقوف إلى جانبهم .. وقد برهن المسلمون على طول عصور

التاريخ أنهم حماة المسيحيين .

رسالة حب وسلام

وإذا كان المستشار طارق البشرى قد عرض بالتحليل والنقد كتابا فى الكراهية، فنحن بدورنا نشير للوجه الآخر كتابا فى المحبة والسلام والوئام والوحدة الوطنية، هذا الكتاب هو كتاب الاقباط وطنية وتاريخ للقمص بولس باسيلي، وقد صدر فى طبعته الأولي ١٩٨٧ ، وطبعته الثالثة ١٩٩٩ بتقديم ثلاثة من عمالقة الفكر قداسة البابا شنودة الثالث، والاستاذ ثروت اباظة، والمرحوم الاستاذ وحيد رأفت ويعرض القمص بولس باسيلى فى كتابه لتاريخ الاقباط ومسيرتهم عبر التاريخ ، وينقل لنا صورا حية ونابضة للتعايش السلمى الأخوى بين المسلمين والأقباط.. تلك الروح التى عاشها المصريون جميعا قرابة أربعة عشر قرنا متجاوزين فيها كل الخلافات .. وهذا التعايش هو الذى ينبغى أن نحرص عليه دواما .. ففى ذلك حياتنا واستقرارنا أمننا وأماننا، بل وفى ذلك انتصارنا على خصومنا واعدائنا. ويقول المؤلف القمص بولس باسيلي إن هذا الكتاب يجيب بدقة عن هذا السؤال: من هم الاقباط ؟ وما تاريخهم؟ وما نصيبهم من الوطن والوطنية؟ ما أصلهم ؟ وفصلهم ؟ ورأى الشرق والغرب فيهم ؟، ويستطرد إلى القول طرقنا عدة موضوعات : بدأنا بالعلاقات القوية بين المسلمين والأقباط عبر التاريخ الطويل ، وعرضنا للمواقف التاريخية لبابوات الاقباط ، ودور الكنيسة الأولى وموقفها من السلطة منذ فجر التاريخ حتى هذا العصر، كما سجلنا أيضا اراء حوالى السبعين من عمالقة الفكر من مسلمين ومسيحيين يشيدون بوطنية الاقباط، ومواقفهم التاريخية عبر العصور المختلفة، كما يقدمون اقتراحاتهم الفعالة لدعم الوحدة الوطنية، والرسالة التى يبعثها القمص بولس باسيلى من خلال صفحات كتابه إلى كل مصرى رسالة حب وسلام بين المسيحية والاسلام من قلب يفيض بحب الوطن إلى إخوانه من شباب مصر، من كل الأديان، ومن كل المذاهب والمعتقدات .. وبعد قراءة كتاب الاقباط: وطنية وتاريخ للقمص بولس باسيلي يتشكل وعي القارىء شعوريا ولاشعوريا، فكريا ووجدانيا بضرورة الوحدة الوطنية إطارا قويا وراسخا وعميقا على أرض الوطن لتضم المسلمين والاقباط معا لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل. ■

مستقبل الثقافة العربية



جزء خاص

حول مؤتمر المثقفين

حتى يخرج المثقفون من النفق المظلم !

هذا المقال، لم يكتبه كاتب واحد، بل شارك فيه خمسة من الكتاب، فى جلسة نقاش طويلة، ضمت كلا من إبراهيم أصلان وإبراهيم منصور وجميل عطية وجمال الغيطانى ومحمد البساطى. ننشرها كبداية لحوار حول مستقبل الثقافة فى مصر .

يجرى الآن الإعداد لما يسمى بمؤتمر المثقفين بواسطة الأجهزة التابعة لوزارة الثقافة . ويثير هذا المؤتمر ملاحظات نرى من موقع الحرص على سلامة الحركة الثقافية ضرورة إبدائها، وأيضا التأكيد على عدة حقائق جلية ، واضحة، إذ تعانى الثقافة المصرية من مشاكل حادة أدت إلى آثار سلبية شملت جميع روافدها. في حركة النشر، فى السينما، فى المسرح، فى الآثار، فى المناخ المتعلق بحرية التعبير. تلك الأوضاع التى أدت إلى تراجع قيمة الثقافة. وهذا الخواء الذى يهدد روح الوطن فى حاجة إلى مناقشة حقيقية عميقة، للوقوف على الأسباب ومدى التدهور، وصياغة رؤية ايجابية لعلاج القصور، هذه المناقشة نرى أن تتم من خلال المثقفين أنفسهم وليس من خلال أجهزة الوزارة. إذ كيف يمضى محاسبة سياسات أدت إلى الأوضاع السلبية الحالية من خلال أجهزة معظمها مسئول عن تلك السياسات.

من خلال التاريخ القريب والبعيد للحركة الثقافية يمكن أن نستنتج ما يمكن أن

تنتهي إليه هذه المؤتمرات التي تقيمها الأجهزة الحكومية، ولنتذكر أنه في عام تسعة وستين من القرن الماضي وبعد هزيمة يونيو نجح المثقفون في إقامة مؤتمرهم بالزقازيق، وجاء ذلك في اطار ردة فعل شاملة قام بها المثقفون للرد الروحي علي الهزيمة ورفض الإستسلام.

خلال هذا المؤتمر اتخذت عدة توصيات مهمة حول إلغاء الرقابة. ودعم الحريات، وانشاء اتحاد للشباب المصريين، وسرعان ما بدأت الأجهزة الحكومية. خاصة العاملة في الشأن الثقافي بالالتفاف حول التوصيات المتخذة، خاصة فيما يتعلق باتحاد الشباب، وقام بالفعل اتحاد الكُتاب، بالتصور الذي أرادته أجهزة وزارة الثقافة في ذلك الحين، وانتهى إلى ما انتهى اليه الآن. وفي عام ألفين. طرحت حركة المثقفين المستقلين فكرة عقد مؤتمر لمناقشة أحوال الثقافة المصرية، وبسرعة بادرت الوزارة إلى طرح فكرة هذا المؤتمر الذي تأجل عدة مرات. وتتردد الأخبار الآن عن نية عقده في مارس أو أبريل من هذا العام.

نذكر بالمؤتمرات النوعية التي بادرت الوزارة إلى عقدها لحل مشاكل السينما والمسرح، تلك الروافد الأساسية في الثقافة المصرية ودورها. ومضت السنوات بعد عقد هذه المؤتمرات وها نحن نرى احتضار المسرح المصري، وتضاؤل السينما المصرية كما وكيفا، أما المهرجانات التي أصبحت سمة بارزة لأنشطة الوزارة خلال الخمسة عشر عاماً الماضية فقد اتسم معظمها بالسطحية ولم يعد أحد - حتى من المشاركين فيها - يأخذها مأخذ الجد.

يتسم المناخ الثقافي بركود هائل الآن، وحالة عميقة من الإحباط، وانسداد أبواب الأمل في وجوه المبدعين الشبان، كما أن معدلات القراءة تشير إلى تراجع مخيف رغم وجود بعض المشروعات التي تحظى برعاية على أعلى مستوى، مثل مشروع مكتبة الأسرة الذي كان من الممكن أن يؤتي ثماراً أفضل، لو توافرت له الادارة الجيدة، وانتفى منه عنصر المجاملة الذي أصبح غالباً على الكثير من إصداراته».

سياسة الاحتواء

إن المنتظر من وزارة الثقافة رسم سياسات لتهيئة المناخ الأفضل للعمل الثقافي. والذي يمكن المبدعين من التطوير. والتعبير عن أنفسهم . لكننا نواجه وضعاً غريبا في السنوات الأخيرة إذ حلت الوزارة محل الثقافة. ولم يعد المسئول الأول عنها يخفي هدفه الرئيسي ، أي احتواء المثقفين، كما أنه لا يدخر وسعاً في سلوك كل الوسائل للدفاع عن سياسات في مواجهة الانتقادات المشروعة . وهذا المؤتمر المزمع عقده يأتي في سياق الدفاع عن هذه السياسة وتبريرها أو اظهار التأييد من جماعات المثقفين.

محنة الآثار

نشير أيضا إلى وضع الآثار في مصر التي تضم ثلثي آثار العالم. لقد تم تفكيك الهيئة المصرية للآثار والتي كانت تتمتع باستقلال نسبي، ويديرها علماء متخصصون، واستبدلت بكيان هلامي هو المجلس الأعلى للآثار الذي يرأسه الوزير ويحتفظ بمعظم الاختصاصات. والمتابعون لما يتعلق بالآثار المصرية يدركهم قلق

شديد، ليس فقط من المصريين ولكن من العلماء المتخصصين من مختلف الجنسيات. وأدت السرعة فى الترميمات والأخطاء إلى إخراج أثر عريق ، فريد، نقصد المسجد الأزهر من قائمة الآثار التى يعترف بها اليونسكو، كما تسود الآن نظرة سياحية وليست ثقافية إلى الآثار، إن الآثار شأن يهم المصريين كلهم، والعالم كله . وليس من قبيل المبالغة المطالبة بوزارة متخصصة للآثار فى بلد يضم ثلثى آثار العالم من مختلف العصور، فهل يمكن لمؤتمر تنظمه الوزارة التى وصلت بآثار مصر إلى أحوالها الحالية والتى جعلتها موضوعا سلبيا في وسائل الاعلام الأجنبية المتخصصة والعامة أن يتعرض لمثل هذه القضية؟

حرية التعبير

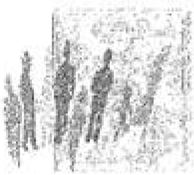
لابد من الإشارة إلى المناخ السلبى، السيىء لحرية التعبير فى مصر الآن، وللأسف كان من المفروض أن تدافع الوزارة عن حرية التعبير. لكن ما رأيناه من سلوك نابع من الوزارة يدعو إلى الأسف، فبدلا من أن تكون عونا وحصنا للدفاع عن حرية التعبير رأيناها سيفاً مصلتاً ضد الحرية، وهذا ما اتضح خلال أزمة الروايات الثلاث الشهيرة. وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من تنحية قيادات هيئة قصور الثقافة. واستقالة الأدباء المشرفين على سلاسل الهيئة، ومصادرة الكتب، بما فى ذلك ديوان أبو نواس الذي سبق طبعه فى مصر عام ١٩٥٨ ، ولم تستطع الوزارة الحالية طرحه للتوزيع العام، كما فرضت رقابة على أعمال المبدعين الشباب، مما سيكون له عواقب سلبية، هل يمكن لهؤلاء أن يعقدوا مؤتمرا يناقش فيه المثقفون حرية التعبير وتراجعها فى مصر؟

ما يجب التأكيد عليه. استقلالية المثقفين، هذا ما يجب العمل من أجله. وهذا ما يضمن حرية حركتهم، بما يمكنهم من الدفاع عن خير الوطن، وما يتصل به من حقائق عميقة بمنحى من تقلبات السياسة وتحفظاتها وألاعيبها.

المطلوب استقلالية المثقفين

استقلالية المثقفين تمكنهم من التعبير عن مواقفهم، وعن ضمير الوطن، فمشاكلهم هى مشاكل الوطن، ورؤاهم كذلك، وباستمرار كانوا فى الطليعة، وعرف الكثيرون منهم أشكالا شتى من التشريد والنفى والاضطهاد النفسى والبدنى، فهل المطلوب لأصحاب هذا التراث كله أن يصبحوا مجرد وسيلة لاصدار وثيقة تؤيد سياسات نرى أنها خاطئة؟! لن يؤدى هذا المؤتمر الا لمزيد من تكريس تبعية المثقفين للحكومة، وخطوة فى المحاولات المستمرة لاحتوائهم، لذلك نقول إنه إذا كان ولابد من مؤتمر للمثقفين، فليعقد من خلال المثقفين أنفسهم من خلال اللجان الثقافية فى هيئات تحققت فيها النزاهة خلال العملية الانتخابية مثل الصحفيين والمحامين والمهندسين، والجمعيات الأدبية والثقافية ، وبالطبع اتحاد الكتاب، اضافة إلى الشخصيات العامة المستقلة، أما أن مؤتمر يعقد من خلال أى جهة حكومية للمثقفين فلن يؤدى إلا إلى مزيد من الآثار السلبية على ثقافتنا التى نرى أنها تمر فعلا بأزمة عميقة.

● إبراهيم اصلان – إبراهيم منصور – جميل عطية جمال الغيطانى – محمد البساطى



قبل عقد مؤتمر عام للثقافة والمثقفين

أماني عبد الحميد

- **مطلوب استراتيجية ثقافية تواجه تحديات عصر التحولات**
- **دعم الشباب كخطوة نحو تجديد الفكر الثقافي في مصر**
- **هموم الثقافة والمثقفين وحتى لا نفقد الرؤية الشاملة**

البحر بزرقته لا يختلف حوله اثنان . لكن الغوص داخل أعماقه يجعل الأمر مختلفاً تماما .. فالحياة الكامنة داخله تموج بصراعات بعيدة كل البعد عن سطحه الهاديء وزرقته البراقة .. حتي لا يتحول مؤتمر الثقافة والمثقفين المحتمل عقده خلال الشهر الحالي إلي مكلمة ثقافية تحمل سمات السطح الهاديء .. علينا أولا الغوص في أعماق الواقع الثقافي المصري . لنلمس الجوانب الخفية لأحوال الثقافة والمثقفين والتي تعج بصراعات وتباينات فكرية وثقافية متعددة .

حين نتحدث عن الثقافة فى مصر فإن الأمر يتطلب حديثا طويلا ومتعمقا عن حقيقة الواقع الثقافى بما فيه من مشكلات يواجهها ، خاصة وسط عالم متغير وعصر متحول .. فمن الضرورى قشع الضباب عن عيوننا ، لتتضح الرؤية المستقبلية ، ولا تتضح الرؤية إلا إذا وقفنا على عدد من المفاهيم لمعرفة المعنى الحقيقي لها بما يتناسب والعصر الذى نعيشه . فمن هو المثقف ؟ وما هو مفهوم الثقافة ؟ وما هى حقيقة الهموم الثقافية ، وما هى ملامح استراتيجية الثقافة الملائمة لعصر التحولات الجديد ؟ تساؤلات كثيرة لا تزال مطروحة أمام مؤتمر الثقافة والمثقفين المنتظر .

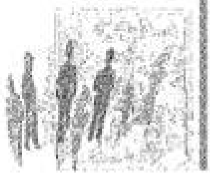
مؤتمر للثقافة وليس للمثقفين !

من أجل وضع استراتيجية للثقافة فى مصر ، قررت وزارة الثقافة عقد مؤتمر عام للثقافة والمثقفين . وبرغم ذلك جاءت تصريحات السيد فاروق حسنى وزير الثقافة لمجلة الهلال مثيرة للقلق . حيث أكد أن الهدف الأساسى للمؤتمر هو تفعيل العمل الثقافى حتى تقتحم مصر الألفية الثالثة . لكنه اعترض بشدة على اقتران اسم المثقفين بالمؤتمر . موضحاً أن المؤتمر هو «مؤتمر للثقافة المصرية وليس للمثقفين» وطالبهم بالسعى من جانبهم كما تسعى الوزارة من جانبها .

أثارت محاولات الوزير لإبعاد المثقفين بصراعاتهم ومشكلاتهم عن فعاليات المؤتمر القلق فى نفوسنا فهناك نقطة مهمة نود أن نوضحها ، تتلخص فى أن كل خطوة أو حركة ثقافية تدعو إليها وزارة الثقافة ، وتحارب من أجلها لن تتحقق إذا لم يكن لديها جمهور من الحاضرين المهتمين بقضيتهم، فالمثقفون هم الجمهور الذى سيحقق أهداف المؤتمر . فإن أمر استبعادهم عن مؤتمر الثقافة أمر غير منطقى ، وكأننا نفرغ الكأس من محتواها ، فأى محاولة لتحديد أولويات استراتيجية للثقافة فى مصر بدون مثقفين ، هى محاولة لا يمكن تصورها ، كما أن التقليل من دور المثقفين ورجال الفكر بمختلف اتجاهاتهم «خاصة من هم خارج السلطة» وفصلهم عن أداء دور ايجابى هو فصل تعسفى . كما أن المثقف قد لعب دورا مهما فى التعبير عن قضايا عصره ومشاكل مجتمعه ، فهو مرآة تعكس الواقع على مدى التاريخ .

هموم ثقافية

قبل أن نقرر عقد مؤتمر للثقافة والمثقفين فى مصر علينا أولا التعرف على الحياة الثقافية .. حيث تمر بعدد من الأزمات العصيبة . صحيح أنها أزمات ليست وليدة اليوم ولا الأمس القريب .. إنما ضاعفت منها الأعوام المتعاقبة من تأزمها . وأضافت إليها أبعادا جديدة .. فلا تزال بعض النظم والقوالب الجامدة والعتيقة تسيطر على تطورها . ولا تزال العلاقة بين المثقفين والسلطة علاقة تشوبها الكثير من مظاهر الشد والجذب ومثال ذلك ما يوضحه الكاتب أحمد بهاء الدين فى كتابه «المثقفون والسلطة فى عالمنا العربى» بأن علاقة المثقف بالسلطة علاقة يحكمها الشك ، وعدم الثقة وأحيانا يحكمها التناقض والعداء . وهو أمر أعتقد أنه صعد شعور الضعف والانكسار والانعزال ورسخه فى نفوس المثقفين مما أثر على دور المثقف فى طرح قضايا عصره الحقيقية والمصيرية . ويصفهم «بهاء الدين» بأننا نراهم هائمين على وجوههم ، بضمائر مثقلة ، وآمال محبطة ونفوس جريحة ، غير راضين عن أنفسهم



أكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم» ولا أعلم هل هذا يرجع إلى ضعف دورهم فى التعبير عن مشاكل مجتمعم ؟ أم يرجع إلى افتقاد المجتمع بمختلف طبقاته وفئاته للرؤى ووجهات النظر الثاقبة التى تحلل الواقع وتستشرف المستقبل ؟ أم ماذا ؟

ويمكننا أن نلمس أحد جوانب تازم الحياة الثقافية من خلال الأزمات التى تعصف بالكتب والمجلات الثقافية فى مصر ، وتقتلها واحدة تلو الأخرى . إما بالغلق لضعف الإمكانيات المادية أو بالهجر فلا يقرأها أحد أو بالتسطيح حتى تلبى رغبات الزبون !

علاوة على هذا . يعانى مجتمعنا من نقمة أصابت أفراده وهى الأمية الثقافية . فلم يعد خريج الجامعة ذلك الأفندى صاحب العلم والأدب والثقافة كما كان الحال منذ افتتاح جامعة فؤاد الأول .. بل أصبح خريج الجامعة شخصاً ضعيفاً فى تخصص دراسته ، هزيل الفكر، ثقافته سطحية ، فبعد أن كنا نعانى من أمية القراءة والكتابة أصبحنا نعانى بالإضافة إلى ذلك أمية ثقافية تضم خريجى الجامعات وما أكثرهم ، وهو أمر بالغ الخطورة .. فالثقافة هى اشعاع يدفعنا نحو الارتقاء بسلوكنا وبفكرنا بنفوسنا . ولا يمكن بأية حال أن نفصلها عن التعليم ، فلا تعليم بلا ثقافة . «فإذا كان التعليم هو التدريب على المهارات سواء اليدوية أو العقلية فالثقافة هى تدريب العقل نفسه على السيطرة على تلك المهارات فالثقافة ليست ترفا ولكنها ضرورة بشرية تماما مثل الخبز والحرية كما يرى يوسف ادريس فى كتابة «أهمية أن نتثقف» .

ومن ناحية أخرى نجد الأزمة الاقتصادية قد عمقت أزمة الثقافة ، فتحول المثقفون والقائمون على العمل الثقافى إلى ساعين للرزق .. فالأوضاع المادية متدهورة والمجتمع يعانى من اختناق اقتصادى . وأصبح المثقف غائبا ومثقلا بهمومه المادية . خاصة أن الثقافة ليست السلعة الرائجة فى هذا الزمان . حتى تحولت العديد من المظاهر الثقافية إلى محاولات ترويجية ، ويكفينا ما نراه من تظاهرة خادعة خلال انعقاد معرض الكتاب من كل عام، احتشاد جماهيرى لا يتكرر سوى مرة واحدة كل عام . وبعد انقضائه يعود الفرد الى عالمه الخاص بعيدا عن الكتب والثقافة بحثا عن الرزق.

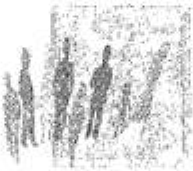
عصر متحول

وبالطبع ، فإن الأوضاع السياسية الدولية الراهنة قد فرضت بقوة مفاهيم جديدة عن العدالة والحق والقصاص، حتى أن مفهوم الحضارة أصبح معرضا

للتغيير.. فما هو حضارى وماهو غير حضارى أصبح قيد جدال .

كل هذه الصراعات والأزمات يشتد سعيرها فى وقت لا يزال مجتمعنا الثقافى يحكمه ويسيّر خطاه مجموعة من الشيوخ تعدوا سن المعاش بكثير.. وبالطبع لا تزال أفكار وأطروحات القرن الماضى تحكمهم .. فلم يدركوا حتى الآن اننا نعيش عصرا متحولا. كل مافيه جديد ومختلف عما اعتاد عليه شيوخنا.. عصر تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية غاية فى الغرابة.. وهى تحولات بعيدة كل البعد عن نداءات التنوير التى انطلقت مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وبعيدا عن صراعات التيارات السياسية والفكرية خلال فترة الأربعينيات وبعيدا عن شعارات حقبة الستينات الملتهبة الحماسية، وبعيدا عن سياسات السبعينيات الانفتاحية .. بل أصبحت بعيدة أيضا عما كان العالم يردده قبيل أحداث الحادي عشر من سبتمبر.. فالأوضاع أصبحت مختلفة بشكل مخيف. وينطبق عليها الصورة التي رسمها «كافكا» عن انسان يعيش وسط عالم متغير .. «ماذا يحدث عندما يستيقظ انسان ما ليجد نفسه خنفسا ضخما مختلفا عما اعتاد عليه .. لماذا يفعل؟ كيف يسير وما النهج الذى يتبعه؟. هل يتبع معايير سلوكه القديمة عندما كان انسانا؟ ام يحاول أن يتعايش مع أوضاعه الجديدة.. يتعرف على معايير تتناسب وحياته الجديدة. حتى لايضل الطريق وتدهسه الأقدام» إنها صورة بليغة تجعلنا ندرك أن العالم حولنا فى حالة مخاض عسيرة ، وفى حالة صراع بين كل ماهو ثابت وماهو متغير .. ويدفعنا أولا إلى تحديد معايير الثبات والتغير لدينا .. وبالطبع لا يمكننا ان نحدد ذلك برؤى الماضى وخبراته فقط. فكما يقول د. زكى نجيب محمود فى كتابه تجديد الفكر العربى.. «محال لغدنا أن يحاكى أمسنا». فينبغى علينا أن نجدد فكرنا وثقافتنا .. وأعتقد أن عملية دعم شباب المثقفين يجب أن تكون الخطوة الأولى فى سبيل ذلك.. فهم الأحق بالدفعة الأولى والدعم الأقوى. فهم أمل الغد ومفتاح الحياة القادمة. بل إن قليلا من التشجيع لما يملكه الشباب من طاقة وتدفق سيجعلهم قادرين على رسم صورة المستقبل بشكل أوضح. فلم تعد خبرات الماضى تفيد كثيرا فى وقتنا الراهن . «فلم تعد خبراتهم بالماضى تفيدنا حتى وإن امتعتنا ذكرياتها» كما يقول د. زكى نجيب محمود. فإذا كان الشيوخ هم جذور شجرتنا فان الشباب هم أغصانها اليانعة ، والتى تحتاج إلى رعاية حتى تتحول الى ثمار تقطفها الأجيال التى ستولد بعدهم .

فحتى لا تصبح الرؤية ضبابية خادعة تختفى أمامها تفاصيل الرؤية الشاملة. وحتى لا نفقد الثقة فيما نعتقد ونؤمن. وحتى لا ينعزل المثقف الشاب الذى يقدر بجرأة على أن يعلق الجرس فى رقبة القط، ويشارك بايجابية فى ايضاح الأمور بعيدا عن صخب الشعارات، وحتى لا نفقد ماهو حقيقى ونتمسك بكل ماهو زائف.. نطالب وزارة الثقافة باتاحة الفرصة كاملة لجموع المثقفين بالقيام بالدور النقدى بفاعلية لا مجرد تابعين، إنما عاملين فاعلين فى وضع استراتيجية للثقافة فى مصر . ■



مستقبل الثقافة العربية

جزء خاص

معنى الثقافة

نقد ذاتي فات أوانه!

بقلم
د. صلاح قنصوه

ربما نكرر أمراً بديهياً إذا ما ذكرنا أن الثقافة ليست صفقة واحدة كما لو كانت كلا متجانسا يشارك فيه المواطنون أو أعضاء المجتمع كله، ويتقاسمه الأفراد بحسب أنصبتهم الشرعية. كما أنها لا تثبت على صورة أو صيغة واحدة، بل تتغير وتتبدل بحيث تتعاقب على المجتمع أو الأمة ثقافات مختلفة.

ولا تقتصر الثقافة على دلالتها التي تحظى بالشهرة والذيوع بوصفها الاستنارة العقلية، وسعة الإطلاع، وتذوق الفنون على النحو الذي ترعاه به وزارة الثقافة ومؤسساتها. فهي تتضمن على هذا الوجه الصور المرهفة للوعي الاجتماعي المنعكسة على المرايا المصقولة لأدوات التعبير والابداع، ومن ثم يطلق على منتجها ومستهلكها اسم المثقف، ويستقل بذلك عن مطالب المهنة أو الحرفة التي تتيح الارتزاق منها عن طريق إعداد سابق محدد الإجراءات والخطوات، فعندئذ لا يعبر المثقف عن مطالبه الشخصية أو المهنية، بل يتجاوزها إلى التعبير عن القضايا العامة، لأن المفترض فيه أنه «يعبر» عن الجميع، في نفس الوقت الذي «يخاطب» فيه الجميع

دون تخصص، طالما كانت ساحته التي يعمل في نطاقها، وأدواته التي يستعملها هي وسائل النشر والإعلام.

فهنا نطرح قضية الالتزام أو الانفصال، ونناقش ، مثلا، مسائل المثقف العضوى الذي يعكس الحياة الاجتماعية انعكاساً مباشراً، أو المثقف المنعزل أو المغترب، وذلك من خلال المواقف التي يتخذها، كما تثار المسائل المتعلقة بالأيديولوچيات .

أما الثقافة بمعناها الذي ينتسب إلى مفاهيم العلوم الاجتماعية، فيجمع إلى ما سبق، كل ما يصوغ الرصيد الكلى للعمل الإنساني ومنتجاته الاجتماعية، في مقابل ما ينقل عبر الوراثة البيولوجية، فهي مجموع الأنشطة أو الفاعليات الإنسانية التي تتجلى في السلوك العملى والعقلى معاً وهو سلوك قابل للتعلم والتداول من ثنايا النظم والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والعقائدية والفنية إلخ. وإذا ما زودت الطبيعة الإنسان بالمواد الأولية، فإن الثقافة هي التي تحدد أسلوب استثمارها لخدمة حاجاته ومطالبه، وتعد الجوانب البيولوجية في الإنسان جزءا من خام الطبيعة التي تضع الثقافة أساليب أدائها ومعاييرها.

ويضم هذا الأسلوب في المعيشة العادات والمعتقدات والمهارات، كما ينطوى على البواعث والأهداف التي تحث على المشاركة في إنشاء النظم والمؤسسات ، المادية وغير المادية على السواء ، وبينما تحكم القوانين الطبيعة، تسود القيم والمعايير عالم الإنسان، أي ثقافته.

فللثقافة إذن جانبان، روحي أو غير مادي ، وهي القيم والمعايير والاعتقادات والتقاليد، ويمثل الجانب المادي التجسيد المحسوس للجانب المعنوي على نحو ما يتبدى في أدوات وتقنيات ومنشآت، وهذا هو ما يسمى بالحضارة ، شريطة أن تستقر الثقافة في موطن محدد لا يرتحل منه أصحابه أو يتحولون.

١ - الثقافة والحضارة

ولكن لماذا نقنع اليوم بتوصيف الثقافة وفقاً للجانب غير المادي، المعنوي، الروحي، ولا يشغلنا الجانب المادي كثيراً، بل نكاد نغفله ونهمله تماماً ؟؟

كانت الحضارات، أي الجانب المادي من الثقافة، قديما جزءا لصيقا بها بحيث كان من الممكن أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات وثقافاتها في العصور القديمة والوسطى عندما كانت المسافات بعيدة، والتبادل محدوداً بحيث تسمت الحضارات، على الأغلب، بموطنها الجغرافي أو العرقي أو القومي. وعندما توسع التبادل بين المجتمعات في الجانب المادي من الثقافة، أي الحضارة، ازداد انفصال الحضارة عن الجانب الروحي الذي ظل فيه التبادل بين المجتمعات محدوداً، ومن ثم صارت الثقافة عنوانا لهذا الجانب غير المادي، وحينئذ بات من الميسور أن تشترك ثقافات متعددة في حضارة واحدة، بعد أن كانت الحضارة في القديم جزءا لا ينفصل عن الثقافة وعسانا نكسب مزيداً من التأييد لذلك الرأي إذا ما تذكرنا أن لفظ حضارة هو بعينه ما يؤديه لفظا مدنية، وتمدين في كل اللغات .

فلسهولة التبادل المادى بين المجتمعات المختلفة، وتعذر ذلك فى الجانب الروحى، اقتصرت الثقافة على ذلك الجانب المعنوى بحيث تكون لها خصوصيتها داخل الحضارة المشتركة.

٢ - مستويات الثقافة وطباقاتها

فإذا ما فحصنا الثقافة فى أى مجتمع أو أمة من الأمم، نجدها ذات مستويات أو طباقات ثلاثة. الأول هو ما يمكن تسميته بثقافة الجلد، فجلدة المرء عشيرته، وأجلاده أعضاؤه وجوارحه، وهى التى تتحدد بالعرق والدين واللغة بدرجات متفاوتة، وهى المرحلة الأولى فى بداية محاولات الإنسان للسيطرة على الطبيعة توطئة للسيطرة على غيره من البشر، عندما كان لا يفرق بين فرديته وبين انتمائه لجماعة أو بدنة معينة، ولكنها ماتزال تمارس نفوذها دون اختيار أو تمحيص بحرية المرأة على صعيد الوعى والانتباه. وهو تحيز خفى يكمن تحت السطح، وقد ينفجر كالبركان فى مواقف معينة لأنها تعبر عن الأغوار السحيقة للمرء التى تقذف حممها عندما تحين لحظة ضعف فى السطح الخارجى عند مواجهة احتلال أجنبى، أو مشكلات حدود، أو حرب أهلية.

وعندما تواجه الأمة حالات من الهزيمة والانكسار، أو التبعية والانحسار، وتشعر بأن ماراكمته فوق جلدها الثقافى من قيم ومعايير، أو مواقف وأوضاع معاصرة لم يعد يسعفها فى التصدى للتهديد الداخلى أو الخارجى على السواء، عندئذ يلتهب جلدها الثقافى الذى لم تعد تحميه أردية الثقافة المعاصرة.

والطباق الثانى من الثقافة هو الذى يمكن تسميته «بالمشترك أو المتصل القومى» وهو الذى يستمر ويواصل نفوذه عبر تلك الجوانب التى تتجمع وتترسب عن الثقافات المتعاقبة، وتتشابك معاً لتبقى حية مؤثرة ونقصد به مجموع الجوانب المشاع لدى أعضاء الأمة رغم اختلافهم وتفاوتهم، وهو بمثابة مجرى جوفى أو تيار تحتى متدفق دون وعى أو تدبر فى أغلب الأحيان. ويتألف من رواسب ثقافية ذات روافد متعددة، فقد تختفى العقائد القديمة ولكنها لا تكف تماماً عن مزاولة تأثيرها.

أما الطباق الأخير، فهو الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة، ورغم صبغتها الخاصة الغالبة التى تميزها عن غيرها من الثقافات، إلا أنها ليست متجانسة لأن الصبغة السائدة هى التى تعبر عن توجهات الفئات المسيطرة ومصالحها. ولذلك نجد داخلها «أقاليم» زمنية متفاوتة رغم العصر الواحد الذى يحتويها. فالثقافة صيغة من صيغ الفكر والسلوك، وأسلوب للاستجابة للعالم والتأثير فيه. ومن ثم قد يستعار ذلك الأسلوب أو تلك الصيغة من ثقافة مرحلة سابقة، وتتصادم الأقاليم الزمنية فى سعى كل منها إلى تخليد رؤيته الخاصة للعالم والانتصار لها، وعلى هذا النحو، تكون الثقافة متخلفة إذا ما تشبثت بجمود آلية التذكر التى تؤدى إلى الضيق والتقلص، وتكون متقدمة إذا ما تفتحت امكاناتها للتوسع والامتداد، فهناك بعض جوانب المجتمع الذى بدأ مستقبله أو غده، وهناك من لم يبلغ أمسه بعد. ويختلف الجميع ويتفاوتون فى استجاباتهم للمتغيرات العالمية التى تتجاوز حدود مجتمعهم.

ونظراً لسيادة آليات السوق الرأسمالية العالمية ، وتغلغل وسائل الإعلام فى كل مكان، فلابد أن نتوقع نفوذاً لأنماط عالمية مشتركة من الفكر والسلوك، وهي الأنماط التى يفرضها أصحاب المصالح العالمية كما تتمثل فى الشركات العابرة للقارات ، وتلح تلك الفئات العالمية على ترسيخ الاعتقاد ، أو الوهن ، بوجود ثقافة إنسانية واحدة، ولا أقول حضارة إنسانية ، واحدة ، فهى أمر وارد.

وعلى أية حال، فإن الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة هى أضعف طباقات الثقافة التي يمكن أن تعصف بها ثقافة الجلد ، كما يحدث الآن فى معظم أنحاء العالم ، وذلك مع انهيار الاعتقاد أو اليقين فى صحة قيم الثقافة العالمية ومثلها العليا.

٢ - عندما يلتهب الجلد الثقافي عندنا

ويؤدى مجمل ثقافة الجلد إلى تحويل التاريخ الفعلى إلى أسطورة تتسلل إلى معظم ما نتداوله أو نتناقله من آراء ومواقف . بل يتسرب إلى منهجنا فى توصيف ما يواجهنا من متغيرات وتفسيرها، فيودى بمصداقيتنا وجديتنا فى اتخاذ مبادرات حقيقية.

ومن أبرز قسمات الأسطورة التشخيص الدرامي، والتصنيف الثنائى للمتغيرات التى تنفخ فيها الروح، وتتحول إلى كائنات حية أو شخصيات تحب وتكره، ترضى فتغدق وتغضب فتنتقم. وأبرز هذه الكيانات الموهومة التى ابتذلت من كثرة الاستخدام ما يقال عنه «الأنا والآخر»، ويعد هذا امتداداً لنزعة أسطورية قديمة هى «الاحيائية» (الأنيميزم) التى تتعامل مع الظواهر الطبيعية كأشخاص لها نواياها وحيلها. وهنا تسود الفكرة الساذجة للمؤامرة وليس الفكرة المقبولة عن المؤامرة بمعنى استراتيجية الخصم وخططه التى يمكن معرفتها من خلال تقاريره وممارساته المعلنة، أما المعنى الساذج الذى نستريح إليه فهو أنها خفية مستترة وتحاك خيوطها فى الظلام ، وبالتالى فلسنا فى حاجة إلى التحليل الموضوعى للبيانات والمعلومات التى تؤدى إلى الفهم واتخاذ موقف إزاءها.

وأغلب الظن أن أسطورة الأنا – الآخر اعتناق غير واع لنسخة مهذبة من ثقافة اليهود التى تقسم البشر إلى إسرائيل والأغيار أو الأمم . وقد نقلبها ضدهم، ونحن فى غفلة لتلمذتنا البليدة عليهم، فنفسر كل شيء، كما سبق هتلر إلى ذلك فى كتابه «كفاحى» بمؤامرة اليهود لصنع الشر فى العالم، ومن أنواعه الماركسية والشيوعية ، وربما نعتمد فى ذلك على اكتشاف الأدلة فى كتاب زائف هو «بروتوكولات حكماء صهيون».

بل إننا نصنع ذلك أيضا فيما نسميه «الغرب» ، فهو الشيطان المريد الذى يكفينا مئونة الفهم أو المبادرة، فقد تحددت الأمور، وصنفت سلفاً، وليست فى حاجة إلى مزيد من التحليل أو التفعيل .

فالغرب أصبح شخصا واحداً، رغم كل تنويعاته، وله دور واحد فى هذه الدراما

بوصفه البطل المضاد ، على أن نختار لأنفسنا دور البطل التراجيدى الذى تنزل عليه المصائب من هذا البطل الشرير، وهنا تختلف فصائل الرواة فيجعل البطل الأقطار العربية، بينما يختار الآخرون دور الإسلام أو المسلمين ، وبعدها ترسم حبكة الصراع بين الشخصيتين .

غير أننا ولأول مرة فى التاريخ المعاصر استطعنا أن نؤثر فى الإعلام الغربى أو العالمى ، ففرضنا عليه تسويق مسلسلنا الدرامى : «الإسلام والغرب»، إلا أنه انقلب سريعاً بعد أحداث ١١ سبتمبر وغزو أفغانستان إلى مسلسل هزلى حيث نحشد قوانا الثقافية والإعلامية وكذلك السياسية «لتحسين صورة الإسلام» لدى الغرب، ونتزاحم بالمناكب لتقديم «صحيح الإسلام» الذى أفسده إسلام القلة المنحرفة . فنحن إذن ندفع ثمنا باهظاً، وأحسب أنه سيذهب هدراً لما سبق أن اقترفناه، عن جهل وسوء تقدير، عندما انخرطنا منذ فترة عقم طويلة فى اصطناع صراع درامى بين الإسلام والغرب. وتحدثنا عن حضارة الإسلام وحضارة الغرب بطريقة الطيب والشرير، عسكر وحرامية، الروح والمادة ، الرحمن والشيطان فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر والعياذ بالله، إلى آخر الثنائيات المأثورة .

والواقع أننا لم نحترم قواعد اللعبة، أو نلتزم بجدول أعمال الحوار . فنتحدث عن النصوص، فى نفس اللحظة التى نتحدث فيها عن البشر المسلمين بعد وفاة الرسول. وننتقى من الوقائع والحكايات ما يروقنا. لم نفرق بين الدين الإسلامى وبين أعمال وأقوال الحكام المسلمين، وهذا خلط لا يخضع للمنطق أو يسلم إلى نتيجة محددة. لا نعرف عمن ندافع، عن الدين كعقيدة وشريعة كما تجلوها النصوص التى أعلن الرسول فى خطبة الوداع أنها اكتملت: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »، أو عمّن أتوا من بعده فأصابوا أو أخطأوا، عدلوا، أو ظلموا، ونجعل من أفعالهم وأقوالهم امتداداً لوحى السماء. هل الأمر من الغموض والالتباس بحيث لا نستطيع أن نميز أو نقارن بين دين الإسلام، وحضارة من الحضارات. فليس الدين حضارة، إن شئنا دقة المعنى العلمى، لأن الحضارة من صنع البشر. فالخلط بينهما يسلمنا دون وعى إلى نوع آخر من الصهيونية التى تجمع الدين والأمة بمعنى البشر أو الأمة. الحضارة الإسلامية حضارة مسلمين وشارك فيها غير المسلمين، ولا يصح أن تضاف أو تنسب إلى دين الإسلام بأمجادها أو نقائصها . فالمسلم يمكن أن ينتمى إلى حضارات مختلفة، ولا يفقد إيمانه إذا كان فى حضارة هندية، أو أوربية أو أمريكية.

كما لا ينبغى أن نخلط بين الدلالات المختلفة «للأمة» فنعاملها جميعاً بمقياس واحد، فنخلط بين الأوراق مما يؤدى بنا إلى أتعس النتائج.

فالأمة فى النص الدينى لا تعنى الأمة بالمعنى السياسى القومى الحديث، بل تعنى جماعة المؤمنين بالمعتقد الواحد، كما تعنى المذهب فى القرآن الكريم: «إنا وجدنا آباءنا على أمة»، وهى التى تقابل «كنيسة» فى المسيحية التى تعنى بالسريانية

الجمعية والمجمع والاجتماع كما هي في العبرية تعني الجمعية العامة التي هي «الكنيست». وكلمة كنيسة لم تكن تعني أصلاً محل الاجتماع، بل جماعة المعتقد الواحد، أو أمة المؤمنين.

ولكننا سرعان ما نخلط بين الدولة الإيمانية والدولة السياسية ، فنجعل من أمة الإسلام أمة بالمعنى الحديث الذي كان يقابله في النصوص القديمة قوم، وأقوام. وهنا تُخترع «أمة» عند احتدام الصدام باستعارة تراث ، ولملمة تقاليد من هنا وهناك، ورصها ورصفها جنبا إلى جنب، ونتوهم بذلك أننا أحسنا صنعاً. حتى تأتى الطامة، فتدفع ثمن التفاخر والتهجم والتطاول الذي لم نكن نملك ثمن الدفاع عنه، ولم نملك أصلا مقومات الواقعية . فيتهاوى الصرح الذي شيدناه من قصاصات وأقاصيص، وكنا نحتمي من خلفه، أو نتوهمه سلاحاً باتراً، ولكنه ما لبث أن انقلب علينا ووجه لصدورنا ليدفعنا إلى موضوع الدفاع وظهورنا إلى الحائط. وكأننا نصرخ من خلف القضبان في محكمة أفلام سينمائية قديمة: مظلوم ياحضرة القاضي، أنا متسامح ، أنا أقبل الآخر، أنا أدعو إلى التعددية وحقوق الإنســــان، أنا ديموقراطي يا بيه!!

٤ - حقيقة الإسلام وحقيقة الغرب

ليس الدين «في ذاته» العامل الوحيد أو الحاسم لقيام الحضارة الإسلامية، وإلا لكانت مكة والمدينة هي النموذج المثالي لهذه الحضارة ، ولكن ثمة عوامل موضوعية أخرى صنعتها ، وإلا لكان تدهور هذه الحضارة في القرون التالية سببه الردة على هذا الدين. وكثيراً ما نفخر بفتح الأندلس كعلامة على الأثر الديني، ولكننا نعرف أن هارون الرشيد، في قمة ازدهار الحضارة الإسلامية، كان يستميل «شارلمان» إمبراطور الفرنجة ليكون حليفا له ضد حكام الأندلس المسلمين الأمويين. فالمسألة لا ترد إلى الدين. كما أن فتح العثمانيين مصر وبلاد العرب لم يكن دفاعاً عن الإسلام ، وإليهم يعود التصور الغربي المغلوط عن الإسلام والمسلمين أثناء احتلالهم لأجزاء واسعة من أوروبا حتى القرن التاسع عشر. بينما الحقيقة أننا أكتوينا أيضاً نحن المسلمين العرب بغلظتهم وجهلهم وتخلفهم .

ولقد أدت عوامل موضوعية ، يمكن أن تخضع لبحث علوم السياسة والاقتصاد، إلى تخلف شرق أوربا، وكذلك أقطار الشرق العربي، والفارسي والهندي، والصيني، وجنوب البحر المتوسط. وذلك في الوقت الذي شرع فيه ما يسمى بالغرب الأوربي بالنهوض من عصوره الوسطى بنشأة الرأسمالية التي سبق أن ساهمت فيها الحضارة العربية الإسلامية بما يسميه «راندال» «روح بيكون» التي تطمح إلى توسيع حكم الإنسان وسيطرته على الطبيعة، وعاونها على ذلك تعدد مراكز الحوار في صقلية والأندلس ونشاط حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، ولم يكن نداء العودة إلى الآداب القديمة الإغريقية والرومانية، احياءً عنصريا- لأسلاف مزعومية لأنها لم تكن عودة إلى النصوص ، بل كانت استجابة مباشرة لما اتسمت به تلك

التقاليد القديمة من قبول صراع للحياة، واختيار نقدى لكافة المشكلات السياسية والأخلاقية، والاجتماعية ، وجسارة فكرية حازمة فى البحث ، واستعداد للمضى إلى الحد الذى يفرضه الحوار ، ولم يكن ذلك متاحاً إلا بعد أن انجلى الحوار الموضوعى مع الشرق على ساحة مادية وفكرية جديدة جرى فيها التبادل بين السلع التجارية والمنجزات الفكرية مما غيّر من علاقة الفئات الاجتماعية بعضها بالبعض الآخر وأنشأ فئات بورجوازية جديدة تتخذ منه العودة إلى الآداب القديمة ذريعة وقناعاً يغلف تمردها، وتحول قيمها ، ووعيها الجديد للإنسان، ومهما يكن من أمر ، فإن الحركات الكلاسيكية، والعلمية والاصلاحية والدينية كانت روافد صبت فى مجرى واحد شقه من قبل الحوار والتفاعل السابق بين الشرق والغرب.

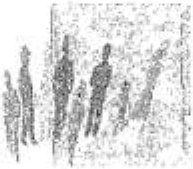
ولكن ما لبث أن تسارع إيقاع التقدم للانجاز الغربى الذى اندفع بصحوة الشخصية الفردية، وتكون الدولة القومية وحفزته القيم الرأسمالية من حرية المنافسة والرغبة المحمومة فى الفتح والغزو ، ورغم أن هذا المنحى الجديد يقوم على الفردية والعصامية إلا أنه كان يستهدف العالمية لأنها المجال الفسيح الطموح للكشف، والتملك، والغزو، أى الاستعمار بعبارة موجزة، وبذلك أصبحت الظاهرة التى نشأت فى الغرب منذ عصر النهضة لأسباب موضوعية وليست دينية، ظاهرة إنسانية عالمية ولا ينبغى أن يستفز ذلك مشاعرنا، فالدين المسيحى الذى يدين به الغرب صادر من شرقنا، إلى جانب كثير من الانجازات الأخرى التى يعترف بها المفكرون الغربيون دون غضاضة.

ولقد علمتنا الحضارة الإسلامية العربية إبان صعودها أن صحة الفكرة ، أو كفاءة الانجاز لا تقاس جدارتهما بمسقط رأسيهما، بل بما تجلبه من مصالح ومنافع . كما أن الدين، بحكم تعريفه دعوة عالمية لا فرق فيها بين عربى وعجمى.

وعلى أية حال، علينا أن ندخل إلى المنافسة التى تتطلبها الرأسمالية فى كل تطوراتها . والأمل الوحيد فى البقاء على قيد الحياة هو أن نصنع رأسماليتنا القادرة على فك قيود التبعية وعلى هذا النحو سيكون الصراع أو الصدام أو المنافسة ، كشأنه فى جميع الأزمان، بين مستويات مختلفة من النمو أو التخلف.

ولا مبرر للخشية على عقائدنا، إلا إذا كان البعض يراها شيئا ماديا لا يستطيع الصمود إلا إذا حفظناه فى حرز مكين.

ونحن مدعوون للمشاركة فى الحضارة العالمية، ولا أقول الثقافة العالمية، عن طريق المنافسة وفقاً لشروط اللعبة وقواعدها. كما لا ينبغى أن نتصايح خوفاً على هويتنا، لأن الهوية هى ما نصنعه بالفعل، أو نبدعه، وليست بطاقة شخصية، أو حجة ملكية قديمة نخشى عليها من الضياع إذا ما شاركنا فى مباريات الحضارة العالمية. ■



نكتب كثيراً .. ونقرأ قليلاً

بقلم
جميل مطر

يؤرقهم التقصير فى قراءة الكتب . وفى الشهور الأخيرة زادت الشكوى وازداد الأرق ، وصاحبه عند الكثيرين ضيق شديد . صار الناس يجدون صعوبة شديدة فى توفير الوقت المناسب ، والكافى ، لقراءة الإصدارات الحديثة من كتب جديدة أو قديمة على حد سواء . وازداد الضيق . مصحوباً هو الآخر بشىء من الخجل ، حين وجد البعض نفسه ، وأنا منه ، ممتنعاً عن المجاهرة بهذا التقصير فى القراءة أمام أصدقاء وزملاء . واستمر يلازمنى الخجل حتى وقع فى يدى مقال بقلم أحد كبار مثقفى الغرب ، وهو نفسه أحد أهم المعلقين على الكتب .

قال فى المقال ، ما كان يقوله كثيرون - بضيق - لأنفسهم ، ويخجلون من قوله أمام أصدقائهم أو يكتبونه فيقرأه غيرهم . اشتكى الكاتب - كما اشتكى بعض ممن أعرفهم - من الضغط العصبى الرهيب الذى يتعرض له منذ مدة غير قصيرة بسبب البحث الدائب بين الكتب لاختيار الكتاب الأمثل للقراءة خلال مساحة من الوقت تتنافس عليها عشرات الكتب والصحف والمجلات وصفحات

المعلومات والتحليلات التى تختزنها شبكة الإنترنت وتضعها رهن إشارة من يقرأ .
قال لى أحدهم : إنه لايذكر أنه فى يوم من الأيام، وعلى امتداد سنوات طويلة ، اختلى بنفسه ليحسب ويسأل إن كانت الأعوام القادمة ، مهما امتدت ، كافية لقراءة ما تراكم فى مكتبه ومكتبته من كتب تنتظر دورها للقراءة .

تمتد اليد إلى كتاب بعد أن يكون الفرد منا قد وضع نفسه فى وضع الاستعداد للقراءة ، الوضع نفسه الذى تعود عليه لعشرات السنين . وبينما اليد ممدودة ولم تلمس بعد الكتاب ينتابه فجأة، وفى كل مرة ، شعور بأن الكتاب الذى يكاد يكون بين يديه ليس هو الكتاب الأشد إلحاحاً للقراءة . وتنسحب اليد الممدودة مترددة وتتوجه نحو كتاب آخر وتسحبه ثم تعيده وتذهب إلى غيره .. صارت كل الكتب الجاهزة للقراءة دون مستوى الإلحاح . أو كلها شديدة الإلحاح وهذا فى حد ذاته تطور جديد

قال الكاتب الأشهر ووجدت نفسى أردد ما قال ويقوله كثيرون :: إن عشرات الكتب متكومة حول فراشه ومكتبه ومقعده الوثير ، أغلبها نصف أو ربع مقروء ، وبعضها لم تلمس صفحاته أصابع أحد . وفى أماكن أخرى أو فى الأماكن نفسها ، تتراكم المجلات ، بعضها مضى على صدوره أسابيع . والمجلات - عند بعض الناس - أشد إيلاماً من الكتب ، فالتاريخ المسجل عليها لايمهل ولا يغفر . هذا التاريخ يثير فى النفس شعوراً بالذنب وتأنيب الضمير يتحول بعد قليل إلى جلد للذات ثم عقاب . وعادة يكون العقاب الامتناع عن قراءة الإصدار الجديد للمجلة قبل الانتهاء من قراءة إصداراتها المتراكمة بغير قراءة ، أو بنصف قراءة ، أو بربع قراءة . فينضم الإصدار الجديد إلى القديم . لا هذا قرىء ولا ذاك .

الجديد أشد إلحاحاً

كم سفرة سافرناها وفى صحبتنا كتاب يخفف من ضجر الانتظار فى المطار ويسلينا فى وحدتنا فى الغربة ويحمينا من فضول جليس الطائرة وثرثرته ويستعجل لنا النوم فى فراش غريب ، وعدنا والكتاب غير مقروء أو نصف مقروء ، ولكننا عدنا ومعنا كتب أخرى اشتريناها أو استعرناها أو حصلنا عليها هدايا من مؤلفيها أو ناشريها . ويزداد الضيق . فكل كتاب جديد تذكير بكتب سبقته وبقيت تنتظر دورها . ولم يأت دورها ، وقد لا يأتى . فالجديد دائماً أشد إلحاحاً . والجديد يحجب القديم ظلماً وجوراً قبل أن يأتى دور انسحابه تحت ضغط ودفع مقال فى مجلة ، أو تحليل



إلكترونى ، أو ندوة تستغرق أياماً يناقش المشاركون فيها أوراقاً ودراسات أكثرها محروم من معلومات وتحليلات لم تصل إلى علم مؤلف الورقة أو كاتب الدراسة ، لأنها موجودة فى كتاب جديد ، وهو مثل غيره كل كتبه الجديدة غير مقروءة أو نصف مقروءة ، ومتكومة فى ركن فى غرفة أو مصفوفة على رف فى مكتبه .

نقول مشكلتنا الوقت . وأظن أن مشكلتنا أننا لا نيأس . نعود من المكتب فى المساء نحمل كتباً ومجلات وصور مقالات وأوراق عمل ، ولا شك لدينا عندما اخترناها وجمعناها وحزمناها فى حقيبة اليد أننا سنجد الوقت لنقرأها . ونجلس أمام التليفزيون مشدودين إلى أحداث نتأثر بها ولا نؤثر فيها . فنغضب وننفعل ، وتشتعل رغبة الكتابة فتنطفىء الحاجة إلى القراءة ، أو ينفد الوقت اللازم لها . وفى صباح اليوم التالى نعود بأحمال الليلة السابقة مضافاً إليها كتب شديدة الإلحاح، ثم نعود بها هى نفسها فى آخر اليوم وقد صارت أقل إلحاحاً . ويتحول الوضع فيصير حالة مزعجة . إذ تتضاعف الخشية من أن يستمر إلحاح الكتابة يطارد القراءة فيطردها . هكذا يبدأ عادة الهبوط فى مستوى الكاتب . إن أول من يعرف بالهبوط الكاتب نفسه . قد يخفيه عن الآخرين لبعض الوقت ، ولكنه لن يخفيه عن نفسه فى أى وقت ، فيتفاقم الأرق ، ويزداد الضيق ، ويشتد ثقل الضغط العصبى . وآثاره كثيرة ، وبعضها وخيم

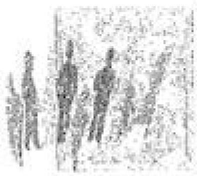
يقال فى تبرير أو تفسير هذه الحالة التى يشكو منها الكاتبون والقارئون ، أنهم كانوا فى الزمن السالف ، يقرأون ليزدادوا حكمة ، وليفهموا ما يصعب عليهم فهمه من أمور الدنيا ، وليعرفوا بعض أسرارها وخفاياها ، وليحكموا وينقدوا بالحق والمعرفة . الآن يقرأون ليزداد عند كل واحد منهم حجم المعلومات السيارة ، أى معلومات اليوم ، وقد صارت غزيرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى تاريخ القراءة والكتابة . وأضافت تعقيداً إلى وضع هو فى الأصل شديد التعقيد . فالقارىء المتردد أصلا بين الكتب الأشد إلحاحا والمقالات المتنافسة امتيازاً فى التحليل أو المعلومات عليه أن يقضى معظم وقته باحثا بين أكوام وأكوام من المعلومات عن المعلومة الأكثر

جدوى . وبعد البحث والكتابة يعود الكاتب متجدد الأمل إلى القراءة ويستأنف حل معضلة الاختيار بين كتب جديدة لم تقرأ ، وكتب غير جديدة قرىء نصفها ، ومجلات مؤجلة قراءتها .

المشكلة معقدة

ولعلنا إن تأملنا بعمق فى أحوالنا ، نكتشف أن الأكثرية بين الكاتبين صارت أقل ميلا إلى الاختلاط . قرأت أن فى الغرب مشكلة تتفاقم . إذ يعزف الناس أكثر فأكثر عن ممارسة حياة اجتماعية نشيطة ، كما كان العهد بهم قبل أن تهيمن شاشة التليفزيون وتفرض إرادتها عليهم ، وقبل أن تتوحش أساليب الرأسمالية الجديدة فتفرض على أصحاب الياقات البيضاء ، وهم طبقتها العاملة الجديدة ، العمل أكثر من أثنتى عشرة ساعة فى اليوم . فهؤلاء يعودون الآن إلى بيوتهم منهكى القوة والعزيمة ، جاهزين للاستسلام لأى إغراء كسول ، مثل مشاهدة التليفزيون أو ملاعبة الكمبيوتر . كان الشائع أن الشخص النشيط اجتماعيا ، ومثله الأشخاص كثيرو الاختلاط ومتعددو الشلل والتردد على المنتديات والنوادى والمحاضرات العامة ، هم أكثر الناس إقبالا على القراءة . فحصيلة القراءة بالنسبة لبعض هؤلاء ضرورة حيوية ، ليس فقط لأنها زاد المناقشات وأداة التميز ولكن أيضا لأنها رصيد مكانة وعلامة حضور . حتى هؤلاء يشتكون . فما يدور من نقاش داخل معظم حلقات السهر وداخل الشلل فى النوادى والمنتديات يتصنف فى نوعين ، نوع خطابى انفعالى غاضب على أمريكا وإسرائيل والأنظمة الحاكمة والحالة الاقتصادية ، ونوع منتقد بعنف للمستوى الهابط فى الأغنية والمسرح والسينما والتليفزيون والصحافة .. وكذلك فيما ينشر من كتب ومقالات ، أى فيما يكتب . ويتوصلون فى النهاية إلى النتيجة الحتمية لهذا الوضع المتردى وهى التوقف عن القراءة .

المشكلة فعلاً معقدة . والمسئولية تقع على أكتاف أطراف متعددة . بيئة ثقافية عامة لا تتحدى الكاتب ليتميز ويجود ويبدع ، كاتبون انشغلوا بالكتابة عن القراءة لأسباب مفهومة ، وقراء لايجدون فيما يكتب ما ينشط حوافز القراءة لديهم، وناشرون خرج أغلبهم عن قواعد النشر وأخلاقياته . ونظام تعليمى لايعلم القراءة ومجتمع يعتمد السهل الممكن ويشجع عليه بينما القراءة الجيدة فى كثير من جوانبها سهل ممتنع . ■



مستقبل الثقافة العربية

جزء خاص

التيارات الثقافية المصرية

بقلم
ابراهيم فتحي

تبدو التيارات الثقافية في واقعنا مرتدية ثياب التنكر ، وفى الندوات والمؤتمرات تتجاور الاتجاهات الفكرية ولا تتصارع . اليسار الثقافى يداعب الليبرالية وكلاهما يغازل ، صحيح الإسلام ، فالأصالة فى أحضان المعاصرة، والحداثة الشكلانية فى خدمة التوجهات الرسمية . وفى المشهد الثقافى تم تعيين ممثلين معتمدين للاتجاهات المعتمدة داخل الحدود المأمونة ، وكانت نسب التمثيل بين الاتجاهات المختلفة ،وهى مرتدية القمصان المنشاة وأربطة الرقبة، خاضعة لديكور تعددية لا وظيفة فكرية حقيقية لها . فالتعددية الثقافية الحقيقية لا تستهدف مظاهر التنفيس بل الكشف عن إمكانات الموقف النقدى الجذرى للواقع الراهن فى تجلياته المختلفة بين قوى اجتماعية حية تناهض التخلف والتبعية .

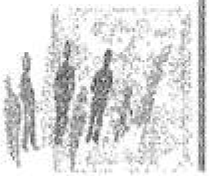
ولنأخذ أعلى الأصوات فى المشهد الثقافى ، وهو صوت الحداثة الليبرالية متعددة السياسات فى الظاهر . فبعد انحسار الحياة الحزبية السياسية تحت وطأة حالة الطوارئ فى الواقع ، وسجن الأحزاب الكثيرة التى لا تعرف أغلبية الشعب المصرى أسماءها فى مقراتها ، وتحريم النشاط السياسى فى الشارع ومواقع العمل والجامعات، ومزاولة الحزب المهيمن دور الحزب الواحد عمليا أخذت الاتجاهات الثقافية مكان الاتجاهات السياسية المتمثلة فى أحزاب . ومن أبرز هذه الاتجاهات الاتجاه الحداثى . وهو يرى أن اللحاق بالبلاد المتقدمة بمحاكاتها فى الاقتصاد والفكر وأشكال

التنظيم هو طريق الخلاص . وهذا الاتجاه فى الفلسفة والنقد والشعر والرواية والمسرح والسينما والفن التشكيلى يعلن فى صخب أن كوكب الأرض قد توحد وأن الحرب الباردة قد انتهت بسيادة الفكر الليبرالى الرأسمالى العلمانى التنويرى وهو فكر يحلق فوق القوميات وحدودها ولا يمكن أن يتحول إلى معتقد . ولذلك يعلن بعض ممثلى هذا الفكر سقوط الايديولوجيات والقوميات والمطابقة بين الرأسمالية والحضارة الإنسانية ، ونهاية أى نضال يتجاوز الرأسمالية . ويرى بعض أنصار اليسار الثقافى بنزعاتهم المتعددة أن هذه الحداثة الكوكبية أو العولمة معتقد أيديولوجى يزور الواقع العالمى ويزيفه . إنها تتواطأ مع قمع الرأسمالية العالمية لشعوب الجنوب الذين فرضت عليهم الاستغلال والنهب والتخلف والأنظمة الرجعية . وتعمد هذه الحداثة إلى اعتبار الفرد البورجوازى ممثل الانسانية ، وتعمى عن أغلبية البشر، كما تعمى عن وقوع العلم كقوة انتاجية بين براثن الاحتكارات الرأسمالية . وعن الهيمنة الأمريكية داخل العولمة . وأحد ممثيها يصور النضال الفلسطينى لتحرير الأرض على أنه شئ تجاوزه الزمن فما من مكان للاستقلال بل لتبادل الاعتماد ، وما من مكان للقومية ولدولتها فى زمن الكوكبة مغمضا العين عن عسكرة هذه الكوكبة (العولمة) وانفاق آلاف المليارات على التسلح الأمريكى ، والسطو الاسرائيلى المسلح مستهدفا اقامة دولة استعمارية كبرى .

الحداثة والأيديولوجية

ولا يجمع أنصار حزب الحداثة الثقافية الليبرالية على هذا الموقف المتطرف وإن أفسحوا لممثليه مكانا وثيرا فى تحقيق توافق سطحى ضد الأصولية الدينية لا يقتصر عليهم . ولن نعدم حتى بين ممثلى اليسار الثقافى الذين يقيمون تزاوجا بين الماركسية والليبرالية أصواتا تشيد بأفكار هذا الاتجاه فى رفضه للجمود السلفى وإن اختلفت معه فى السياسة .

ولكن النقطة الجوهرية فى هذه الحداثة الثقافية بفروعها المختلفة من نقد جديد وبنيوية وحساسية جديدة هى إقامة سور صينى بين « الجماليات » واللغة من ناحية وبين الجهد الابداعى التحويلى للانسان فى الواقع كشفا وتغييرا من جهة أخرى وتنصب اللعنات على كلمتين هما السياسة والايديولوجية، والسياسة المرفوضة هنا هى سياسة اليسار القومى والاشتراكى أو أى سياسة لتشكيل المصير الانسانى فهى فى زعمهم تعتمد على معايير مسبقة . والحداثيون يعادون كلمة ايديولوجية أشد العداء وهى تعنى عندهم أى أفكار مناهضة للأمر الواقع ، فالرأسمالية والسلطة



عندهم بلا ايديولوجية . وفى مواجهة ذلك يقول رولان بارت إن الخطيئة العظمى فى النقد ليست الايديولوجية بل الصمت الذى بواسطته يوضع على الايديولوجية قناع يحجبها . إن ايديولوجية ما ماثلة بالضرورة على نحو مضمر فى كل عمل أدبى وفى كل ممارسة نقدية ، فهى شبكة من مصادرات وبديهيات وتصورات وأخيلة تتعلق بالوضع البشرى والعلاقات الانسانية المتصارعة ونسق القيم الأخلاقية والجمالية من زاوية شريحة طبقية معينة . فهناك ايديولوجيات بورجوازية وايديولوجيات شعبية . والأولى تأتى خفية كالشيطان الرجيم تنكر دائما أنها ايديولوجية فهى تدعى أنها تنطق باسم طبيعة الأشياء ، وأنها بديهية نابعة من التجربة الحية المعاشة . وحين يتحدث الشكلانيون عن جماليات مطلقة جوهرية لا زمنية فإنهم يصدرون عن ايديولوجية محددة ترجع إلى مقولات كانط. فالعمل الفنى عنده له وحدته وطبيعته الداخلية التى تؤلف كلا موحدا (بنية) وفى هذا تكمن جماليته . وهذه الخاصية الشكلية كأنها نوعية كيميائية مستقلة عن أى مضمون اجتماعى . وهى تبدو فى حالتها النقية الخالصة حين يتلاشى المضمون فى الفن الزخرفى والأرابيسك . ويرى هنرى لوفافر أن تلك الجمالية الشكلية عن التناسق والانسجام فى الكل الفنى تنتمى إلى الايديولوجية البورجوازية . وهى تصور المجتمع ـ مجتمعها ـ كأنه كل متناسق من إرادات فردية حرة تتخذ ذاتها غاية فى ذاتها وتترابط فى عقود تعتمد على الشكلية القانونية المجردة ، على الرغم من اختلاف الأوضاع الفعلية للأفراد المتعاقدين . ويذهب آخرون إلى أن البنيوية تنطوى على ايديولوجية الفئات التكنوقراطية البورجوازية التى تريد تثبيت الواقع الراهن خارج الحركة التاريخية وتجميد التناقضات الاجتماعية وفرض توازن وتناسق داخلى عليها . ويؤكد بعض نقاد البنيوية شكلانيتها ، فمهمة الناقد ليست اختبار مدى مصداقية الكاتب بالنسبة لعلاقته بالمجتمع ، إنما أصبحت مهمته أن يختبر لغة الكتابة الأدبية ليرى مدى تماسكها وتنظيمها المنطقى والرمزى ومدى قوتها أو ضعفها بغض النظر عن الحقيقة التى تزعم أنها تعكسها أو تعرضها ، وليس مستغربا أن يكون بعض الحداثيين الشكلانيين الذين يسجنون «الجماليات» فى نطاق التقنيات الجاهزة وكتالوجات تشغيلها ، ويفصلونها

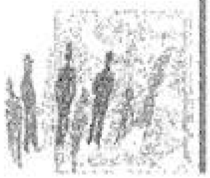
عن قيم ازدهار الثروة الانسانية الحسية والانفعالية والادراكية فى نضال البشر من أجل الحرية فريقا بيروقراطيا جاهزا لخدمة الأمر الواقع فى كل العصور وفى كل البلاد العربية .

حداثات متعددة

ولكن الحداثة ليست قالبا واحدا فهناك حداثات متعددة ، وخاصة فى مجال الابداع ، وفى الوعى الذاتى للمبدعين بإنتاجهم بعيدا عن الوصاية الأبوية الحداثية التى فرضتها أجهزة السبعينيات على المثقفين « الأراذل » ، فى محاولة لاحتواء جزء مهم من المثقفين وتحويلهم إلى أدوات تقنية فى خدمة السلطة أو فى خدمة الأبواق الدعائية اللفظية . وكان عدو الحداثة الشكلانية دائما هو اليسار الثقافى القومى والاشتراكى . فأنصارها يصورون فترة الستينيات على أنها فترة الانغلاق الايديولوجى والفكر الواحد . ولكننا عشنا تلك الفترة التى سجنت الشيوعيين والإخوان المسلمين لأسباب تتعلق بالسياسة العملية كما حلت الأحزاب ولكنها فى المجال الثقافى وضعت فى الواجهة يوسف السباعى وسهير القلماوى ويحيى حقى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وطه حسين وزكى نجيب محمود ولويس عوض ويوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوى ويشن الحداثيون الحملات على تلك الفترة لتجميل ما تلاها من إجراءات قمعية للثقافة . وتنتشر خرافة تدعى أن الواقعية الاشتراكية كانت المعيار السائد فى تلك الفترة على الرغم من أن الابداع العربى والابداع المترجم عرف فيها كل المدارس الوجودية والوصفية المنطقية ومسرح اللامعقول والرومانسية ...الخ . وكانت الأسماء اللامعة فى الرواية هى أسماء احسان عبدالقدوس وأمين يوسف غراب وابراهيم الوردانى . وكان الشعراء البارزون صلاح عبدالصبور وصالح جودت وأحمد رامى .

الثقافة والرقابة

وكانت هناك رقابة سياسية بطبيعة الحال وليست رقابة ايديولوجية مذهبية . وجاءت الرقابة الخانقة مع سلطة مايو ١٩٧١ وبدأت مطاردة الساحرات وهجرة المثقفين إلى الخارج . وقد طرد الدكتور رشاد رشدى من الأكاديمية كل ما يشتم منه رائحة اليسار ، ابتداء من أساتذة البالية الروسى إلى أمثال نجيب سرور ، وكان قد سبق لهذا الرائد الحداثى أن أعلن عن منع دراسة الأدب الأمريكى فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة بعد هزيمة ٦٧ تضامنا مع موجة العداء لأمريكا . وقد أغلقت المجلات الثقافية (الشعر والمجلة والكاتب والطليعة) وتم تطهير



البرنامج الثانى من أمثال بهاء طاهر، ومنعت إذاعة أى شئ عن الكتاب الروس الكلاسيك ، تشيخوف ودوستويفسكي ومسحت شرائط موسيقى العباقرة الروس .

وفى هذا المناخ ارتفع صوت الحداثة الثقافية لأسباب مختلفة فلم تكن ظاهرة متجانسة ، ولكن بعض ممثليها كانوا يقدمون أنفسهم فى عدوانية فجة بدائل لليسار الثقافى ، وأعلنوا فى وقت مبكر موت الواقعية والمنهج الاجتماعى ، ورفض المضمون ووظفوا ربة الجمال خادمة لسياسة دميمة هى انسحاب المثقفين من الفاعلية النقدية ومن ناحية أخرى عمدت سياسة أزهى عصور الحرية على توظيف الاتجاهات السلفية لمحاربة اليسار الثقافى الكافر العميل والماضى الناصرى الشمولى. ولقد جرت مياه كثيرة فى الحياة السياسية أدت إلى فشل هذه التوجهات «الثقافية» وقامت السلطة فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ باعتقال وتلويث سمعة كل رموز الثقافة المصرية من جميع التيارات .

وبعد ذلك تأتى فترة المصالحة بعد لجوء قسم من التيار الأصولى إلى الإرهاب المسلح وترويع السلطة والمجتمع ، وحدث مايشبه التوافق بين التيارات الثقافية المختلفة والسياسة الرسمية من أجل محاربة الجذور الفكرية للإرهاب واتجهت الحداثة مع اليسار معاً داخل نزعة تنويرية عقلانية . ولكن البيروقراطية الثقافية والاعلامية والتعليمية كانت تقود فى اتجاه تنوير علوى ينأى تماما عن أن يكون مقدمة لفاعلية جماهيرية تهدف إلى التغيير فى هياكل التخلف والتبعية .

وهذا الاتجاه كان يفسح المجال لتيار دينى أصولى معتدل يساند السلطة . فالتيار الدينى لا يعارض الحكومة من ناحية الأساس الاقتصادى ويقف معها فى معاداة الاشتراكية ولكنه يحارب ما يسميه العلمانية . والاسلام السياسى فى مصر يلقى معارضة من الحكومة فى محاولته الوثوب على السلطة مستغلا شعبيته وجذوره فى الوجدان الدينى العميق . وهى تضرب أشكاله التنظيمية المستقلة السرية والعلنية ولكنها تستفيد من بعض ممثلى هذا التيار فى نشر أفكار تدعم شرعية النظام وتوجه المعارضة إلى مسائل تتعلق بالمظهر الخارجى للثياب وبعض المسائل الأخلاقية السطحية والطقوس .

وهؤلاء « الإسلاميون » يلعبون دور الرقيب على الفكر وتقييد حرية المرأة ، وهم يوجهون معارضتهم إلى عدو غير محدد المعالم هو « العلمانيون » ، وهو يشمل المفكرين العقلانيين وأصحاب الأذهان المتفتحة المتسائلة والمدافعين عن بدائل سياسية أكثر ديموقراطية .

وأنهم يريدون فرض وصاية من جانب تفسيرهم الخاص للدين على كل شئ حتى على العلوم الطبيعية والاجتماعية والإبداع الفني . ولكن هؤلاء جميعا يمهدون الأرض والأذهان لتأسيس سلطة تدعى أنها إسلامية دون برنامج محدد ، ترفض حضارة العصر (باستثناء التكنولوجيا) ، وتقيم حضارة وهمية على أساس تفسير ضيق لبعض النصوص والسوابق منتزعة من سياقها التاريخي . ومن الملاحظ أن بعض هؤلاء اعتبر المشروع القومى للترجمة دولة إلحادية ، وتوجه بعض آخر إلى رئيس الجمهورية مطالبا بإقالة مسئول ثقافى لأنه « سمع » نكتة قالها المسئول فى رحلة أمام تمثال لإله يابانى ، محذرا الرئيس من يوم الحساب !!

اليسار الثقافي المعدل

ونأتى إلى اليسار الثقافى وهو مازال فى مرحلة إعادة النظر فى ضوء خبرة الهزائم السابقة وتشويه أجهزة الإعلام لتاريخه . وهناك نزعة توفيقية داخله تحتضن الشائع والرائج ، وتخلط بين الديموقراطية والليبرالية . ولكنه من ناحية أخرى يقدم تأملات إصلاحية محتواة داخل الوضع الثقافى العام دون أن يطرح منهجا أو نظرية كلية . وبعض مثقفى اليسار أعلنوا توبتهم على أيدى الإعلام النفطى أو التليفزيونى أو الترفيهى متبنين النموذج الأمريكى فى ديموقراطيته « العريقة» وحملوا « الطبلة» وراء الراقصات والممثلات ومشاهير أوقات الاسترخاء والفراغ لتوسيع نطاق الثقافة الجماهيرية . وهذا اليسار « المعدل » يقيم العلاقات مع نجوم الاتجاه الأصولى الرسمى ومع « مفكرى » اللاقومية والعولمة والتطبيع على السواء مبتعدا عن أى مواجهة نقدية حقيقية بين التيارات المختلفة . والنموذج المفضل هو إثارية برج بابل .

وفى الختام يتعذر الآن الوصول إلى توافق ثقافى حقيقى بين الحابل والنابل فى وضع يحول دون وجود فاعلية جماهيرية عملية للاتجاهات الثقافية التى تهدف إلى تغيير الواقع والوعى والذوق . ■

الفلكلور

وأغانى الحج

بقلم

د. أحمد مرسى

يعد المعتقد الدينى واحدا من أهم الروابط الأساسية التى تربط بين الأفراد فى المجتمعات الشعبية ، وتؤكد من انتمائهم ، وتجمع بينهم . والمجتمع الشعبى يختلف فى ذلك عن المجتمعات التى بلغت شأوا كبيرا من التمدن ، مما أفسح المجال أمامها لكى تغير من طبيعة العلاقات التى تحتل عندها مرتبة متقدمة ، وتعدل من شكل انتماء الأفراد إلى هذه المجتمعات ، عندما يضعف أثر الدين على النظام الاجتماعى فى المجتمعات الأخيرة ، ويرتد دوره خطوات إلى الوراء . والحقيقة أن ذلك لا يعنى أن الدور الروحى للدين لم يعد قائما ، ولكنه يعنى أن التخصص الناشئ عن الحياة الحديثة ، والعلم الذى يتنامى دوره يوما بعد يوم ، وتقسيم العمل وتوزيعه الذى تقوم عليه الحياة المدنية ، قد حل محل بعض المناطق الأساسية التى كان النشاط الدينى يعمل فيها . أما المجتمعات الشعبية فإنها مازالت تحتفظ للمعتقد الدينى بمكانته اللائقة به من نفسها وعقلها وسلوكها ؛ ذلك أنه بالنسبة لها أحد الأساليب التى تفسر بها كثيرا من أمور حياة أفرادها ، وموتهم ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض.

المحمل .. أو الاحتفال
بكسوة الكعبة قبل سفرها
الى الاراضى المقدسة



فالإنسان فى المجتمعات الشعبية يعتقد أنه عن طريق الدين يمكنه أن يفهم العالم من حوله ، ذلك العالم الذى يحفل بالكثير من الغموض الذى يقف الفرد أمامه عاجزا، إذ يمده بإجابات شافية مقنعة . لكثير مما لا يستطيع فهمه أو تعليله ، مما يشيع قدرا كبيرا من الطمأنينة والسعادة والرضا ، يجعله قادرا على الاستمرار فى حياته، والنهوض بأعبائها . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى تجعل المصريين عامة يولون المناسبات الدينية اهتماما كبيرا ، وعناية خاصة ، تتمثل في احتفالاتهم بهذه المناسبات . ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى ما يوليه المصريون للاحتفال بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم من اهتمام واستعداد خاص، هذا بالاضافة إلى عنايتهم بموالد أولياء الله الصالحين والقديسين الذين تنتشر أضرحتهم فى كل أرجاء مصر – قراها ومدنها .

وتدور معظم الأغانى الشعبية الدينية المصرية حول ما يعتنقه المصريون من معتقدات ترتبط بالدين عامة ، وبالنبى صلى الله عليه وسلم خاصة . وفى كل المناسبات الدينية ، سواء كان صاحب المناسبة هو النبى صلى الله عليه وسلم ، أو وليا من أولياء الله الصالحين ، أو الحج إلى بيت الله الحرام ، فلابد أن يجد الإنسان مدحا للنبى وتغنيا بفضله ، والاستغاثة به ، والشوق إلى زيارته .

وتحتل الأغانى التى تغنى عند الاستعداد لأداء فريضة الحج ، وعند العودة بعد أداء الفريضة مكانا متميزا فى وجدان الناس ، خاصة النسوة اللائى يغنين لذويهن وأقاربهن أو جيرانهن فى هذه المناسبة .

وتختلف أغانى الحج فى شكلها وأسلوبها ، وفى لحنها وأدائها عن كثير من الأغانى الشعبية الأخرى خاصة تلك التى تغنى فى وداع الحاج .. فهى أولا مكونة من مقطوعات صغيرة فى العادة ، وهى تؤدى أداء يغلب عليه البطء والشجن ثانيا ، ويعتمد على تنغيم الصوت وتلوينه كما لا يغنيها إلا النساء . وربما يرجع هذا البطء والشجن إلى ارتباط هذه الأغانى بالوداع ، ومن ثم يطلقون عليها «حنون الحجاج» أو تحنين الحجاج ، وتغنى للحاج قبل سفره ، لاستثارة حنينه إلى أهله كى يعود إليهم بعد أداء الفريضة ، اعتقادا منهن – أو من المجتمع الشعبى كله – أن الحاج سيفضل صحبة النبى صلى الله عليه وسلم على العودة إلى أهله وذويه ومن ثم فهن يتوسلن إليه أن يعود حتى لا يحرم أولاده ومن يحبونه منه ، إذ أنهم جميعا ينتظرونه فى شوق ولهفة كى يعود بعد أن استجاب لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، تاركا كل شئ ، حبا له ، ورغبة فى زيارته ، وتقربا منه ، وهو ما يعبر عنه هذا الموال :

لما دعانى النبى أنا فت أشغالى (١)
وقلت يا سادتى مدح النبى غالى
أنا كل ما أمدح فى النبى يزيد رسمالى (٢)
أنا مدحت النبى والمصطفى خالى

ويتحدث موال آخر عن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم للحاج ، الذى قام مبكرا، ليلبى الدعوة ، فوجد أن كثيرين غيره قد سبقوه إلى اللقاء ، واصطفوا هناك لنفس الغرض الذى هفا قلبه إليه :

حج مبرور وذنب مغفور .. تصوير لفرحة الحاج وأهله فى المجتمع الشعبى من خلال الكلمات والنقوش


وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من
وذنب
مغفور

يا ساكن الشرق أنا قلبى ليمك مال (٣)
شوقتني يا بن رامه أنا لم معايا مال (٤)
يا رب أزور الحبيب على جوزين جمال (٥)
وأشاهد المصطفى اللى الحجر له لان (٦)

ويمكن لنا أن نكون صورة تكاد تكون كاملة لما يرتبط بالحج من مظاهر، تبدأ أولا باحساس الحاج بالرغبة الملحة فى نفسه لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم، معتقدا أنه قد دعاه إليه كما يشير إلى ذلك النصان السابقان. ولا يملك الحاج إزاء هذه الدعوة الكريمة إلا أن يستجيب لها، فيبدأ فى الاستعداد للرحلة المرتقبة، ومن ثم يوصى أهله بأولاده الذين سيتركهم وراءه مع ما يسببه له ذلك من ألم، إلا أن كل شئ يهون ويمكن تحمله، حبا فى النبى صلى الله عليه وسلم :

ويا ولاد بلدى .. الوداد الوداد ..
ويا ولاد بلدى .. ما باقى إلا السفر ..
واحمل بزادى .. والوصاية الكتيرة ..
حداكم ولادى .. كله فى حب النبى .. (٧)

وليست هذه هى الوصية الوحيدة التى يوصى بها الحاج أهله وذويه، فهو يوصى أولاده أن يغنوا له أو «يحننوه» كى يعود إليهم، خوفا من أن يشمت فيه أعداؤه.

وإذا ان طال غيابى .. حننى يا بنتى ..
وإذا ان طال غيابى .. واطلعى مقعدى .. (٨)
وان شميتى غيابى .. واطلقى جوز حنون .. (٩)
على كيد الأعادى .. محبة فى النبى ..

فكما تصور الأغنية فإن النصيحة - أو الطلب - موجهة من الأب / الحاج أو من الأم / الحاجة إلى الابنة. وهذه النصيحة تلفت النظر إلى حقيقة مهمة، وهى أن هذه الأغانى أو «الحنون» لا تطلب إلا من النساء، ومن ثم فإن الرجال لا يغنون مثل هذه الأغانى. وعندما يحين موعد الرحيل فالأهل يرجون للحاج السلامة فى الرحلة، ويطلبون منه أن يطمئنهم عند وصوله كى تهدأ نفوسهم :

وعلى الله السلامة .. سافر ولا تبعد ..
على الله السلامة .. يا نجوم السما ..
ويا دقيق علامة .. وابعتوا لنا السلام .. (١٠)
على جناح يمامة .. بانكم طيبين .. رايحين تزوروا النبى ..

ومتى انتهى الحاج من الاستعداد للسفر، وودع أهله وأبناءه، أتوا له بجمله الذى سيركبه فى رحلته الشاقة إلى حيث سيسعد بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم :

على باب حارتهم .. بركوا له الجمل ..
على باب حارتهم .. يركب المحترم
ومعاه زميله .. رايحين يزوروا النبى ..

وتصور الأغنية وهم يركبون الجمال فى رحلتهم إلى بيت الله الحرام، وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام، لا يلقون بالا، ولا يهتمون بشئ إلا ترقب الوصول



الكعبة المشرفة حلم الحاج مهما كانت الرحلة شاقة

إلى هدفهم ، وتحقيقه .

إن الشال الذى يلف به الحاج رأسه أو يضعه على كتفه قد شبك فى عصاه التى يقود بها الجمل ، لكنه فى تلهفه وانشغاله لا يهتم بذلك ، فيخلصه له الجمال :

شبك فى الجريدة .. شال الحاج محمد ..
شبك فى الجريدة .. خلصوا يا جمال ..
بلادى بعيدة .. جاى أزور النبى ..

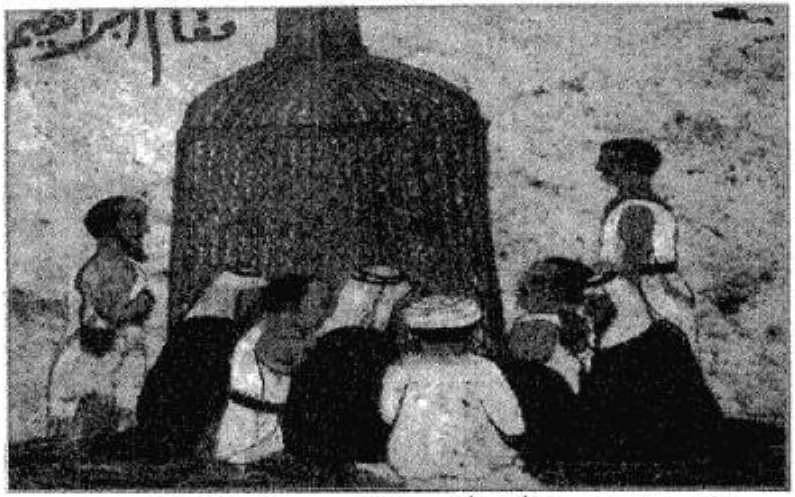
ويبدو أن الجمل لم يكن وحده وسيلتهم فى الرحلة ، وإنما كان هناك «بابور البحر» ، أو السفينة وسيلة أخرى يستخدمونها فى السفر ، فتتحدث الأغنية إلى «البابور» (السفينة) كى يكون رفيقا بهم ، حنونا عليهم :

وخدهم براحة .. يا بابور يا بابور .. (١١)
وخدهم براحة .. دول شبابات صغار .. (١٢)
وجولك فراحة .. لاجل يزوروا النبى .. (١٣)

وهكذا نرى أن الأغانى قد احتفظت بالوسيلتين معا ، الجمل والسفينة ، وإن كان الجمل وسيلة أقدم بالتأكيد . ولقد ظل للجمل .. أهميته فى رحلة الحج حتى نهايات الأربعينيات من القرن الماضى ، قبل أن تتغير الظروف السياسية فى المنطقة، ثم الطائرات . ولذلك فقد كانت الرحلة شاقة عسيرة ، يحفها الكثير من المصاعب والمخاطر ، مما صورته الأغانى أصدق تصوير :

من الشرق طلوا .. زوارك يا نبى .. (١٤)
ومن الغرب طلوا .. زوارك يا نبى ..
وم المشى كلوا .. محبة فى النبى ..

موج البحر عكر .. ما تخافوش يا حجاج .. (١٥)
دا ريس مبكر .. رايحين نزور النبى .. (١٦)
وعلى الرغم من المشقة والتعب اللذين يشعر بهما الحاج ، والصعوبات التى يلقاها أثناء الرحلة ، إلا أن هذه الأغانى تصور الحاج قويا فرحا ، لا يخشى شيئا ، ولا يشعر بالضيق ، بل إنه فرح مستبشر ، لا يعنيه إلا الوصول إلى حيث يريد ، فكل شئ يهون فى حب المصطفى صلى الله عليه وسلم .
سمعته بيغنى .. تحت ضل القلوع ..
سمعته بيغنى .. من بين الضلوع .. (١٧)
وشاله المحنى .. محبة فى النبى .
كما تصور الأغانى فرحة الحاج بالوصول ، وما يستشعره من سعادة ، وما يلقاه من ترحاب جزاء ما تحمله من معاناة ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم سعيد بلقائهم .
عدد ما مشيتوا .. مرحبا مرحبا ..
عدد ما مشيتوا .. وودعتوا البلاد ..
وراكم وجيتوا .. كن سعيد يا نبى .. (١٨)
والحرم سوف يفتح له لكى يصلى فيه ، ذلك أن هذا أحد آماله التى سعى إلى تحقيقها :
وافتحوا له الحرم .. يصلى فى ريحه .. (١٩)
دى الصلاة صنعته .. وصنعة جدوده .. محبة فى النبى ..
وينتهى أداء الفريضة أو الزيارة عند عتبة النبى ، ولها صورة خاصة فى المخيلة الشعبية ، فهى ليست عتبة عادية ، ولكنها عتبة من أنقى أنواع الفضة ، لم يبنها بناءون عاديون ، وإنما اشترك فيها الملوك والأمراء .
بنوها الطواشى .. عتبة المصطفى ..
بنوها الطواشى .. كملوها الملوك .. (٢٠)
بفضة شواشى .. محبة فى النبى .. (٢١)
ولكن يبدو أن مجاورة النبى قد راقت للحجاج ، وصادفت هوى فى أنفسهم فلم يسرعوا بالعودة كما وعدوا أهلهم ، فيلبى أولئك النصيحة ، ويطلقون حنونهم ليصل إلى سمع ذويهم كى ترق قلوبهم ، فيحنون للعودة تقول الفتاة مستعطفة أباها :
بابا وصى خليلك .. بنت الحجيج بتقول .. (٢٢)
بابا وصى خليلك .. يوم العيد الكبير ..
مين يصرف مشيلك .. كله فى حب النبى ..
فهى هنا تستعطف أباها أن يعود ، فليس هناك من يحل محله ، أو يقوم مقامه فى أداء واجباته نحوها ، وليست الفتاة التى تمثل أسرتها وأخوتها هى وحدها التى ترجو عودة الحاج بل إن الأغانى تصور دار الحاج الكبيرة التى ينتظره فيها المهنئون بالعودة من كبار الناس وعلية القوم :
وفى الوسط عمدة .. دى دارك وسيعة .. (٢٣)



احتل «مقام ابراهيم» مكاناً متميزاً في وجدان الناس، عبروا عنه خلال أغنياتهم ورسومهم

وفى الوسط عمدة .. والخيول داخلة ..
باشوات وعمدة .. كله فى حب النبى .. (٢٤)

ويحس الحاج بلوعة أهله لفراقه التى حملها إليه «حنونهم» ، الذى أوصاهم بأن «يطلقوه» متى شعروا بغيابه ، وهذه الأغنية تصور حنين الأخت إلى أخيها ، وإشفاقها عليه مما يلاقيه من عطش ، وما يتصبب منه من عرق :

يا خويا شقيقى .. يا حنونى عليك ..
يا خويا شقيقى .. وإن عطش فى الجبال ..
روتيه بريقى .. محبة فى النبى ..

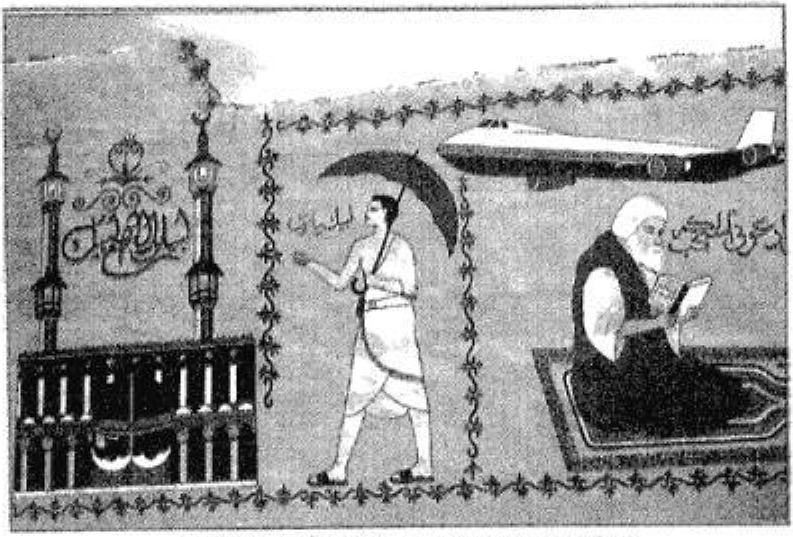
فيستجيب قلب الحاج لنداء الأهل ، بعد أن استمتع بلقاء النبى ، وزيارته ، وأداء الفريضة ، وكما أوصت الأغانى بهم السفينة فى رحلة الذهاب ، قبل الزيارة توصى عليهم أيضا فى رحلة العودة ، وهى تصور أيضا فرحة الحاج بعودته ، فقد أرسل من يبشر أهله بقدومه ، ويطلب إليهم أن يعدوا الزينات .

وروح بلادى .. يا بشير الهنا ..
وروح بلادى .. وبشر بالسندس ..
وبشر بالسندس .. قول لاخويا العزيز ..
يبيض وينقش .. بعد زيارة النبى ..

ويذهب الأهل للقاء الحاج أو الحاجة عند عودتهم سالمين ، بعد غيبة طالت ، وأهاجت الشوق فى القلوب وتصف هذه الأغنية الحاجة ، بعد وصولها ، وهى تنزل من على سلم السفينة ، وقد أشرق وجهها بالنور الذى يشع لبضئ المكان :

يا حاجة يا بطة .. رايحة فين يا حاجة ..

يا حاجة يا بطة .. نزلتك م البابور .. (٢٥)
تزيني المحطة .. بعد زيارة النبي ..
ولا تشبه العربة التي سوف تقل الحجاج بعد عودتهم ، غيرها من العربات ، وإنما هي عربة خاصة زينت بالرسوم المختلفة إحتفالا بعودتهم :
عليها العصافير .. عربية الحجاج ..
عليها العصافير .. بتوحد ربها ..
على الله التساهيل .. بعد زيارة النبي ..
وهكذا ، ينتهي أداء فريضة دينية من فرائض الإسلام الأساسية يحتفل بها المسلمون جميعا في مصر وفي غير مصر ، والاحتفال بها ، يتخذ مظاهر عدة ، تعرفها المجتمعات الشعبية من غناء في الوداع عند الرحيل ، والاستقبال عند العودة، وفي نقش الجدران ، والأبواب بمختلف الرسوم من طيور ، واسماك ، ونبات ، وسفن، وجمال ، إلى غير ذلك من نقوش شعبية ، يحرص عليها الناس كثيرا ، وقلما يجد الإنسان بيت حاج في ريفنا أو قرانا أو حتى الأحياء الشعبية في مدننا ، لا تزدان واجهته بعبارات : «لا إله إلا الله .. محمد رسول الله» ، «حج مبرور وذنب مغفور» ، إلى جانب الرسوم المختلفة التي تتخذ مما يراه الحاج في رحلته موضوعا لها . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسوم والنقوش تحتاج وحدها إلى دراسة أخرى يقوم بها أحد المتخصصين لتكون حلقة تنضم إلى غيرها من الحلقات ، في تكوين صورة كاملة للمجتمع الشعبي من خلال ما يبدعه من كلمة ، أو حركة ، أو نقش .
وكما سبق أن ذكرنا فإن هذه الأغاني لا تغنيها إلا النساء ، وتغني كل امرأتين عادة معا ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه لابد من ذلك ، وإنما هو عرف يكاد يكون سائدا .. وإن كان ذلك لا يمنع أيضا من أن تغني امرأة بمفردها ، وخاصة إذا لم تجد زميلة ثانية تشاركها الغناء ، والأمر كله متوقف على حفظ الزميلة ، ومعرفتها بما تغنيه زميلتها الأخرى ، وقد شهد الباحث كلا من الظاهرتين عند تسجيله هذه الأغاني ، فعندما أحست المغنية بأن زميلتها التي تشترك معها في الغناء لا تحفظ جيدا ، ولا تستطيع أن تجاريها في غنائها ، طلبت منها السكوت ، واستمرت بمفردها ، وفي مرة أخرى اشتركت امرأتان معا في الغناء . وتبدو ظاهرة الاشتراك في الغناء هذه صعبة التعليل إلى حد ما . ويمكن أن نفترض لذلك أحد فرضين ، أو الاثنين معا ، فهذه الأغاني لا توجد بها «المقطوعة أو اللازمة» التي تكررها الجماعة وراء المغني أو المغنية ، ومن ثم فإن الاشتراك الجماعي في الأداء ، هنا ، يكاد يكون مفتقدا ، أو هو كذلك بالفعل ، فكان لابد من أن يوجد أسلوب آخر غير أسلوب الترديد المعروف في الأغنية الشعبية العادية ، وعلى ذلك ، يكون اشتراك المرأتين في الغناء إنما هو استمرار لإحدى خصائص الأغنية الشعبية ، وهي المشاركة الجماعية في غنائها . ومن ناحية أخرى ، فإن اشتراك امرأتين في أداء تلك الأغاني يجعل لها وقعا مختلفا على الأذن والنفس ، مما لو غنتها واحدة بمفردها ، ومن ثم ، يمكن القول أن سبب تلك الظاهرة هو محاولة المغنيات أن يضفين على غنائهن لونا معينا من التأثير ، وقد لاحظ الباحث أن الناس غالبا ما يحبذون اشتراك امرأتين في الأداء، ولم يكن عندهم من تعليل لهذا



بعد أداء المناسك يعود الحاج إلى أهله وقد أشرق وجهه بالنور

التفضيل إلا أن ذلك يضفي على الغناء رونقا وطلاوة ، فيصبح أكثر جودة ، وقدرة على التأثير مما لو غنته واحدة بمفردها ، وكانت العبارة التى سمعها الكاتب إجابة عن سؤاله الخاص بتلك الظاهرة «أصل كده أحسن ، عشان الغنا (الغناء) يبقى حلو» .

وكما تصحب الأغنية الحاج قبل سفره ، وأثناء سفره ، فانها تصحبه أيضا عند عودته ، إذ تستقبله بعد أن ينتهى من أداء فريضة الحج ، مرحبة به ، فرحة بمقدمه ، مستبشرة بعودته ، مصورة فرحة أهله ، وسعادة أبنائه وأهله وأصدقائه فتقول الأغنية :

طرف شال الحجيج .. أبيض م العلامة
وأبيض من لبن الحليب .. يا حاج يوم السلامة
يا طرف شال الحجيج .. أبيض م القلوع
وأبيض من لبن الحليب .. يا حاج يوم الرجوع
وآدينى باقولها لك .. يوم السلامة مكتوبة لك
عند النبى انفقت مالك .. وحجيت ورجعت لعيالك

ولكن أغنية الاستقبال تختلف عن أغنية التوديع من ناحية الجو العام الذى يسيطر على كل منهما ، فبينما يسيطر على الأولى جو من الحزن الذى يعد نتيجة طبيعية للاحساس بالفراق والغياب فان الثانية يشيع فيها جو البهجة والفرحة المقترنة بسلامة العودة ، وحرارة الاستقبال .. إلخ .

وهكذا تسهم الأغنية الشعبية إلى جانب المظاهر الأخرى التى ترتبط بمناسبة الحج - كالرسوم التى ترسم على واجهة البيت فى مثل هذه المناسبة - فى التعبير عن أحاسيس الناس ومشاعرهم ومعتقداتهم المرتبطة بها ، وفى اعطاء المناسبة شكلها الخاص الذى يميزها عن غيرها من المناسبات الدينية عامة . ■

من ذخائر الكتب العربية

السير الكبير

وعلاقة المسلمين بغيرهم للإمام محمد بن الحسن الشيباني

بقلم
د. محمد الدسوقي

يعد كتاب «السير الكبير» أول دراسة علمية شاملة للأحكام الفقهية الخاصة بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم في السلم والحرب مع أدلتها من الآثار والأخبار.

وكلمة سير جمع سيرة، وبها سمى الإمام محمد «ت: ١٨٩ هـ» كتابين له هما : السير الصغير والسير الكبير، لأنه بين فيهما سيرة المسلمين في المعاملة مع غيرهم، وليس ما ذهب إليه البعض من أن السير يقصد بها المغازي صحيحا على اطلاقه فقد قال السرخسي «ت : ٤٩٠ هـ» في أول شرحه للسير الصغير: إعلم أن السير جمع سيرة، وبه سمي هذا الكتاب، لأنه بين فيه سيرة المسلمين في المعاملة مع المشركين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ومع المرتدين الذين هم أخبث الكفار بالإنكار بعد الإقرار، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين.



ويدل هذا النص على أن مفهوم كلمة سير لدى الإمام محمد غير مقصور على المغازى، ولكنه يشمل كل ما يتصل بعلاقة المسلمين مع غيرهم فى السلم والحرب، فى دار الإسلام وخارجها.

والكتابان مع هذا يشتملان على طائفة غير قليلة من المسائل الفقهية - وردت استطرادا - فى العبادات والمعاملات.

وقد ألف محمد السير الصغير أولا، وفى هذا الكتاب لا يروى إلا عن أبى حنيفة «ت : ١٥٠ هـ» وهناك احتمال أن يكون قد أخذ عن شيخه الأول فى حلقته بعض ما رواه عنه، فقد ولد الإمام محمد سنة ١٣١ هـ أو أوائل سنة ١٣٢ هـ بمدينة واسط بالعراق، ونشأ بالكوفة، وكانت إذ ذاك كما قال عنها الإمام أبو حنيفة: «مدينة العلم» ، وقد جلس محمد فى حلقة هذا الإمام نحو أربع سنوات كانت بمثابة البذرة الصالحة التى صادفت تربة جيدة، فنمت وازدهرت وجادت بالخير العميم.

أما البعض الآخر مما رواه محمد فى السير الصغير فقد أخذه عن شيخه الثانى أبى يوسف «ت : ١٨٢ هـ».

موجز للأحكام

وهذا الكتاب كما يدل عليه اسمه موجز وغير شامل للأحكام التى تنظم سيرة المسلمين مع غيرهم، ولكن السير الكبير موسوعة فى أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم. وهو من أواخر مؤلفات الإمام محمد.

وأصل كل من السير الصغير والكبير لم يصل إلينا، وإنما وصلتنا شروح كثيرة لهما أهمها شرح الإمام السرخسى، وقد ورد شرح السير الصغير فى الجزء العاشر من المبسوط، على حين ورد شرح السير الكبير فى دراسة مستقلة، طبعت بالهند فى حيدر أباد سنة ١٣٣٦ هـ، فى أربعة أجزاء وظهرت طبعة حديثة لهذا الشرح أصدرها معهد المخطوطات بالجامعة العربية بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.

وكانت جامعة القاهرة قد أخرجت الجزء الأول من هذا الشرح بتحقيق الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة ، والأستاذ الدكتور مصطفى زيد - رحمهما الله - غير أنها لم تواصل بعد هذا الجزء المضى فى إصدار بقية أجزاء الكتاب.

وإذا كان الإمام محمد قد عالج بعض مسائل السير فى كتاب الأصل فإن علاقة المسلمين مع غيرهم من الدول المجاورة، وبخاصة من الروم البيزنطيين، فقد دأب هؤلاء على نقض العهود والإغارة على الثغور الإسلامية، وكانت الحروب سجالا فى بعض المعارك بين العرب والروم، ولكن العرب فى النهاية كانت لهم الغلبة والظهور، وحملوا أعداءهم على الإذعان لشروطهم - هذه العلاقة أملت عليه أن يخص هذا الموضوع بكتاب مستقل، فكتب السير الصغير أولا، بيد أنه لم يستوعب فيه أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم، ثم فصل الكلام وأفاض فى السير الكبير، فجاء شاملا ضخما، وجاء عملا فريدا فى بابه، لم يؤلف فقيه غير الإمام محمد مثله فى موضوعه سواء الذين تقدموا عليه أو الذين تأخروا عنه.

وليس معنى هذا أن الإمام محمدا اخترع كتابه اختراعا، فالمعروف أن بعض

الفقهاء الذين تتلمذ لهم محمد تحدثوا عن السير كالإمام، أبي حنيفة والإمام الأوزاعي «ت : ١٥٧ هـ» والإمام أبي يوسف، ولكن كل ما جاء عن هؤلاء الأئمة، في هذا الموضوع كان يدور في نطاق محدود من القضايا ، وكان أشبه بالمحاولات الأولى بالنسبة للبحث الشامل المفصل الذي كتبه الإمام محمد فاستحق أن يكون - عن جدارة - رائد التفكير في القانون الدولي في العالم كله.

مادة الكتاب

لقد استقى الإمام محمد مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدثين ، وكانت هذه المادة الأساس الذي أقام عليه هذا الإمام عمله المبتكر الرائع الذي يشهد له بغزارة العلم ، وعمق التفكير، وشمول النظرة ودقة التفصيل والتبويب، والتفريع.

ونظرة سريعة إلى أمهات المسائل التي تحدث عنها من سبق محمدا من العلماء وما عرض له في كتابه تكشف لنا كيف أن كتاب السير الكبير عمل تفخر به المكتبة الإسلامية ، لأنه تناول في شمول دقيق أصول العلاقات الدولية في ضوء الشريعة الإسلامية الغراء.

إن كتاب سير الأوزاعي الذي رواه الإمام الشافعي «ت : ٢٠٤ هـ» في كتاب الأم، والرد عليه للإمام أبي يوسف بعد أن أسبق من كتاب السير الكبير، ولكنهما يتحدثان عن عدد قليل جدا من المسائل هي: الغنيمة وقسمتها والسرقة منها، إقامة الحدود في دار الحرب، وبعض أحوال المسلم إذا دخل هذه الدار، وأحوال المستأمن إذا دخل دار الإسلام ، وأسر الصبي، والمدبرة وأم الولد.

وأما المسائل التي اشتمل عليها كتاب السير الكبير فكثيرة جدا. ولا مجال لذكر عناوين هذه المسائل ، فهي تستغرق وحدها أكثر من خمس صفحات، ومن ثم أقصر الحديث عنها. بإجمال من خلال العناوين العامة لأبواب ذلك الكتاب وهي كما يلي:

مضمون الكتاب

بدأ كتاب السير الكبير بالحديث عن فضيلة الرباط وكأنه بهذه البداية يبين أهمية الاستعداد الدائم لتأمين طريق الدعوة إلى الإسلام ، ولرد كل اعتداء يقع على ديار المسلمين، وتطبيق الأمر الإلهي في قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم «الانفال / ٦٠».

ثم انتقل إلى وصايا الأمراء إذا بعثوا جيشا أو سرية ، ووجوب تعيين أمير الجيش والشروط الواجب توافرها فيه، وما يجب عليه نحو الجند، وما يجب على هؤلاء نحوه.

وتحدث بعد هذا عن أفضل أوقات التحرك للجهاد وألوان الألوية والدعاء عند القتال، وبركة الخيل وما يصلح منها للجهاد، وكراهية اتخاذ الجرس ورفع الصوت في الحروب وأشار الى القتال في الأشهر الحرم.

وعقد بابا عن هجرة الأعراب، وصلة المشرك ، وقبول هداياه في الحرب، ومن قاتل فأصاب نفسه وقتل ذي الرحم المحرم، وما جرى للمسلمين في غزوة حنين، والحرب خدعة والفرار من الزحف، ومن أسلم في دار الحرب، والمعاهدين، ودخول المشركين المسجد، وآنيتهم وذبائحهم وطعامهم.

وأفرد بابا عن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم

على الله، وبين أنه خاص بالمشركين وعبدة الأوثان . ثم تكلم عن الجهاد مع الأمراء، ومن يحل له الخمس والصدقة وما يجب من طاعة الوالي وما لا يجب ، وقتال النساء مع الرجال وشهودهن الحرب، والجهاد ما يسع منه وما لا يسع، وصلاة الخوف، والشهيد وما يصنع به، وأفاض القول بعد هذا عن كل ما يتعلق بالأمان.

وتحدث عن الأنفال والغنيمة حديثا جامعا تناول قضايا ومسائل جمة، منها النفل وما كان للنبي خالصا، والنفل في دار الحرب، ما يبطل فيه النفل وما لا يبطل، النفل المجهول، كيفية قسمة الغنيمة وبيان من يستحقها ممن جاء بعد الإصابة، قسمة الغنائم التي وقع فيها الخطأ وفضول الغنائم والشركة في الغنيمة، وباب من الشهادات في الغنائم والفيء .. الخ.

مسائل فقهية متعددة

وعرض بعد هذا لمسائل تدور حول الفداء وبعض أصول الحرب وسريان أحكام الإسلام في غير داره وسوى ذلك من المسائل الفقهية، ومن تلك المسائل باب من الفداء فيما يصلح وما لا يصلح، وباب من الفداء الذي يرجع الى أهله إذا ظهر عليه المسلمون والذي لا يرجع. والوكالة في الفداء في العبد المأسور، ومن يكره قتله من أهل الحرب ومن لا يكره، وما يحل للمسلم الأسير في أيدي أهل الحرب أن يجيبهم إليه، وما يحل للمسلمين أن يفعلوه بالعدو وما لا يحل .. الخ.

ثم ذكر أحكام الموادعة وأهل الذمة والمستأمنين والمرتدين، وبعض أحكام الإسلام في دار الحرب، ومن هذه الأحكام، باب الموادعة، والموادعة مما يصالح عليه المسلمون المشركين فيسعهم قتالهم بعده أو لا يسعهم ، وفداء المشركين في الموادعة ، والشروط في الموادعة وغيرها ، والحدود في دار الحرب، وما يجب للمستأمن وأهل الذمة ، وما يصدق فيه الرجل من الردة فلا تبين منه امرأته، وما لا يصدق . والكفالة بالمستأمين والأسير في دار الحرب، ومن أسلم على شيء فهو له ويكون محرزا له، والوصية في سبيل الله ، والحبس في سبيل الله والحبس في الحياة والصحة.

ويختم الإمام محمد كتابه بأبواب في العشور والجزية والخراج، وما يجب قبل الحرب من الدعاء إلى الإسلام وإسلام بعض الأسرى، وما ينبغي للمسلمين نصرته ومن يبدأون.

هذه أهم عناوين وموضوعات كتاب السير الكبير، وهي تؤكد أن الإمام محمدا درس علاقة المسلمين مع غيرهم على نحو لم يسبق به. فما كتبه الأوزاعي وأبو يوسف، وما روى عن أبي حنيفة قدر ضئيل بالنسبة لما تناوله الإمام محمد في كتابه.

موضوعات كتاب السير

إن موضوعات كتاب السير بدأت بالحديث عن أهمية الاستعداد للجهاد . ثم تحدثت عن أصول الحرب وغايتها في الإسلام وآثارها من الغنائم والأسرى، وعلاقة المسلمين مع غيرهم من أهل الذمة والموادعين والحربيين ونقض المعاهدات، وجرائم الحرب.. وحقوق الرسل، وسريان الأحكام بالنسبة للمسلمين وسواهم في دار الإسلام ودار الحرب، وهي بهذه الصورة تخضع لمنهج فكري مترابط .، يسلم كل موضوع فيه إلى

الذى يليه، وإن وردت فى أثناء ذلك إشارات الى بعض المسائل الفقهية.

وإذا كان ما أومئت إليه آنفا عن كتاب السير ليس إلا تعريفا عاما بموضوع هذا الكتاب، وإذا كان تفصيل القول فى كل القضايا والمسائل التى تتعلق بهذا الموضوع لا سبيل إليها بكثرتها من جهة، ولأن هذا التفصيل يفتقر الى دراسة شاملة من جهة أخرى - فيمكن الاجتزاء بالاشارة الى طرف من آراء الإمام محمد في الموادعة، أى المصالحة والمهادنة بين المسلمين وأعدائهم ، ولعل فى هذا تعبيرا عن سائر ما اشتمل عليه كتاب السير من قضايا من حيث منهج محمد وفكره ، وأنه بما قدم كان الرائد الأول فى الدراسات الدولية، وبيان فضل الإسلام فى ارساء قواعد العدالة والمساواة واحترام آدمية الإنسان وكرامته دون اعتبار لجنسه أو عقيدته.

يرى الإمام محمد أن الموادعين إذا شرطوا فى أصل الموادعة أنهم إن غدروا فقتلوا رهن المسلمين فدماء رهنهم لنا حلال، ثم قتلواهم رهننا فإن دماء رهنهم لا تحل لنا «شرح السير حـ ٤ صـ ٤٣ ط الهند».

ومع أن قول الله تعالى : «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » «النحل / ١٢٦» قد يبيح قتل رهن الموادعين إذا قتلوا رهننا. بيد أن محمدا يذهب إلى أن رهن الموادعين أصبحوا بدخولهم دارنا ذمة، لهم حرمة المسلمين في حقن الدماء إلا بحق، وهم لم يقتلوا بأنفسهم أحدا من رهننا، وعلى الحاكم المسلم أن ينتصف لهؤلاء المظلومين ممن اعتدوا عليهم.

الرهن ونقض العهد

وكما لا يجوز قتل الرهن فى هذه الحالة ، لا تجوز الإساءة إلى الرسل، فهم فى حماية المسلمين إلى أن يعودوا إلى بلادهم.

وعن نقض العهد بين المسلمين وغيرهم يقول الإمام محمد :و لو بدا للإمام «أى ولى الأمر» بعد الموادعة أن القتال خير فبعث إلى ملكهم ينبذ إليه فقد صار ذلك نقضا، ثم يستطرد فيقول: ولكن لا ينبغى للمسلمين أن يغيروا عليهم، وعلى أطراف مملكتهم حتى يمضى من الوقت مقدار ما يبعث الملك إلى ذلك الموضع من ينذرهم لأنا نعلم أن ملكهم بعدما وصل الخبر إليه لا يتمكن من ايصال ذلك إلى أطراف مملكته إلا بمدة فلا يتم النبذ فى حقهم حتى تمضى تلك المدة.

وبعد مضى المدة لا بأس بالإغارة عليهم وإن لم يعلم المسلمون أن الخبر أتاهم. لأنه ليس على المسلمين إعلامهم، ولكن إن علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر فالمستحب لهم ألا يغيروا عليهم حتى يعلموهم ، لأن هذا شبيه بالخديعة، وكما يحق على المسلمين التحرز عن الخديعة يحق عليهم التحرز عما يشبه الخديعة (شرح السير حـ ٤ ص ٧ ط الهند).

فهل عرفت القوانين الوضعية مثل هذه المبادىء السامية وهل يراعى إنسان المدنية المعاصرة فى حروبه المدمرة شيئا منها أو أنه يفخر بإبادة الضعفاء والأبرياء وأخذ الآمنين وغير المحاربين على غرة خديعة ومكرا؟

فإن كان نقض العهد من قبل الأعداء فلا بأس على المسلمين أن يغيروا على أطرافهم، وإن علموا أن الخبر لم يصل إليهم، ويستدرك الإمام محمد قائلا: ومع هذا فإن أحاط العلم لأهل ناحية من المسلمين بأن ذلك الخبر لم يصل إلى أهل ناحيتهم فليس ينبغى أن يقاتلوهم حتى ينبذوا إليهم، وهذا على سبيل الاستحسان. «المصدر

مذاهب الأدب العربية

منابع الإيمان الصحيح

ذروة فى التفكير الإنسانى الخالص الذى يستمد منابعه من الإيمان الصحيح والخلق الكامل، والورع الصادق، والضمير الحى والعدالة الرحيمة، والاخوة الإنسانية الكريمة، ما أحوج البشرية اليوم إليه. فإنها على الرغم مما حققت فى مجال العلم والحضارة . فقيرة أشد الفقر الى هذا اللون من التفكير الذى يعيد إليها انسانيتها وأمنها واستقرارها.

وإذا كان الإمام محمد الفقيه الوحيد الذى كتب عن أصول العلاقات الدولية فى الإسلام فى تفصيل وشمول لم يسبق به فانه بهذا عد مؤسسا للفكر القانونى الدولى فى الإسلام ، ولأنه سبق جروتيوس الهولندى الذى يعد لدى الاوروبيين مؤسس القانون الدولى بأكثر من ثمانمائة عام، فقد هلك جروتيوس سنة ١٦٤٥ م على حين مات محمد سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤ م فإن الإمام الشيبانى من ثم يعد مؤسسا للقانون الدولى فى العالم كله.

ويرى البعض أن جروتيوس ربما قرأ كتاب السير الكبير، وأنه نقل المبادىء الأساسية التى كتبها الإمام ابن الحسن فى العلاقات الدولية ثم نسبها جروتيوس الى نفسه، وسواء كان هذا الفقيه الهولندى قد قرأ كتاب السير.وانتهج نهجه ونقل مبادئه ، أو أنه لم يقرأ هذا الكتاب ولم يعرف عنه شيئا فإن الإمام الشيبانى سبق جروتيوس بفترة زمنية طويلة، واعتمد فى كتابه على المصادر الأصلية للشريعة الإسلامية وتحدث فى أمور وقضايا لم يتحدث عنها غيره من الفقهاء المسلمين أو سواهم إلا فى العصر الحديث ، ولكن جروتيوس اعتمد فى كتابه على القانون الطبيعى، فكان الشيبانى لهذا مؤسسا للقانون الدولى فى العالم كله بلا جدال.

تدوين الفقه الاسلامي

وليس فضل الشيبانى أنه أول من كتب فى العلاقات الدولية فحسب ، وإنما يظهر فضله أيضا فى مجال الفكر القانونى أن القانون الدولى المعاصر لم يأت بجديد بالنسبة لما كتبه الإمام محمد، كما كان لهذا الإمام فضل آخر، فهو أول من دون الفقه على منهج لم يسبق به، وأول من كتب فى الفقه المقارن، وكان تدوين محمد للفقه النور الذى اضاء الطريق لتدوين الفقه الإسلامى كله.

والإمام محمد مع هذا كان مجتهدا مطلقا، فقد توافرت له كل أسباب هذا الاجتهاد، ودلت آراؤه على أنه فى منزلة أئمة المذاهب المشهورة وغيرها اجتهادا فى الأصول والفروع.

وقد تنبه إلى دور الإمام محمد فى مجال الدراسات القانونية الدولية فقهاء القانون فى فرنسا ، وأنشأوا فى سنة ١٩٣٢ جمعية الشيبانى للقانون الدولى، ثم حذا حذوهم فقهاء ألمانيا فأسست فى غوتنجن جمعية الشيبانى للقانون الدولى، وضمت هذه الجمعية علماء القانون الدولى والمشتغلين به فى مختلف أنحاء العالم، وانتخب رئيسا لها الفقيه المصرى الكبير عبدالحميد بدوى «ت : ١٩٦٥» رحمه الله.

وقد كتبت هذه الجمعية رسالة صغيرة للتعريف بها والغرض من إنشائها والدعوة

إلى مساعدتها. وأرسلتها إلى الجامعات والهيئات العلمية فى العالم كله وجاء فى هذه الرسالة ما يلي:

«عرف الباحثون الأوروبيون اسم الفقيه المسلم الإمام محمد بن الحسن الشيباني والذي عاش بين سنتي ١٣٢ – ١٨٩ هـ من مؤلفه كتاب السير الكبير بعد أن طبعت ترجمته إلى التركية لأول مرة عام ١٨٢٥ م. ولم يتردد المؤرخ النمسوى الذائع الصيت «هامرفون برجستال» إذ ذاك أن يلقبه باسم «هوجو جروتيوس المسلمين» وأن كل من يدرك مقدار الاكبار الذى يكنه علماء القانون فى أوروبا للعلامة هوجو جورتيوس» بوصفه أبا القانون الدولى ليستطيع ان يتبين مدى المكانة العالية التى يضع فيها هذا التعبير مولفات الإمام محمد الشيباني. وقد زادت الدراسات الحديثة فى الفقه الإسلامي شهادة العلامة النمسوى الكبير تأييدا ودلت على أن الإمام الشيبانى خليق بأن يأخذ مكانه الحق بين رواد القانون الدولى العالميين، على أن هذه الدراسات لم تستطع أن تجذب اهتمام جمهور كبير من المشتغلين بالقانون.

لذلك رأت طائفة ممن تبينوا هذا الأمر أن من المستصوب، بل لهو من الضرورى أن تعمل على تأسيس جمعية الشيباني للقانون الدولى وقد قصد بفكرة الجمعية أن تكون على غرار «جمعية جروتيوس» البريطانية ذات الشهرة العالمية.

وأشارت رسالة جمعية الشيباني الى التعريف بها وأغراضها ، وطلب الاهتمام بها ومعاونتها على ما قصدت إليه بكل الوسائل ، ومنها ترجمة مؤلفات الشيباني وغيره من فقهاء المسلمين التى تناولت الحديث عن العلاقات الدولية إلى اللغات الأخرى بغية استكمال المؤلفات الرئيسية فى الموضوع، وتشجيع القيام ببحوث فى التعاليم الإسلامية والفقه الإسلامي فى القانون الدولى والعمل على نشرها لفائدة أكبر قدر ممكن من القراء فى جميع أرجاء العالم.

وهذه الجمعية وإن وضعت الشيباني بالنسبة المسلمين فى مرتبة «جروتيوس» بالنسبة للاوروبيين فى مجال الكتابة عن العلاقات الدولية فإنها جديرة بالثناء لاهتمامها بالإمام الشيباني اهتماما يليق به، وكان يجب أن ينتبه اليه من قبل . ولكن الواقع أنها مسئولية فقهاء المسلمين الذين لم يقوموا بواجبهم نحو أسلافهم.

إن كتاب السير عده هارون الرشيد فخرا لعصره، وهو كذلك فما عرف هذا العصر فى العالم كله أثرا علميا خاصا بالعلاقات الدولية مثل هذا الكتاب. وما عرف غير هذا العصر أيضا فى تراثنا الفقهي كتابا يضارعه. وكل ما جاء فى كتب الفقه بعد الإمام محمد فصول موجزة تحت عنوان «السير أو الجهاد»، وتتناول غالبا احكام الغنائم، والأسلاب وبعض أحكام الشهداء والأسرى، ولذلك ظل كتاب السير الأثر العلمى الوحيد في تراثنا الفقهي الذى درس فى شمول وتفصيل أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب.

وزبدة القول أن الإمام الشيباني أحد رواد الفكر القانونى الدولى فى العالم إن لم يكن رائده الأول بلا خلاف، وإن كتاب السير الكبير أصبح كتابا عالميا وبخاصة بعد أن ترجمته أخيرا منظمة اليونسكو إلى اللغة الفرنسية، وهذا فخر للثقافة الإسلامية وآية على أن رسالة الإسلام هى رسالة العلم والحضارة والإنسانية والفضيلة، فما الشيباني وغيره من القمم الفكرية فى تاريخنا إلا ثمرة من ثمرات هذا الدين القويم الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. ■



(١) أرجوحة ومعزف

عاد المقاتل القديم
مقلبا عينيه في السماء باحثا
عن نجمة الصباح
فحدثته نجمة المساء
عن الضحايا الأبرياء
فمن لتجهاد
وكان سيفه الحنان
ورمحه اليقين
الفارس المقاتل القديم عاد
محتضنا أرجوحة
لطائر طفل يتيم
ومعزفا لشاعر وحيد
ومبضعا يأسو به الجراح

(٢) ليزهر التراب

أتنبزك السابح في بحيرة
السديم
يقلب العينين في ترابنا الموبوء
بالآدمي المستخف بالسماء
ترابنا العقيم
فيرتمي بسهمه الناري
في كبد الظلماء
ليولد ابن الأرض من جديد
ويرتوي من السماء
ليزهر التراب



أم كلثوم بين عهدين

بقلم
د. نبيل حنفى محمود



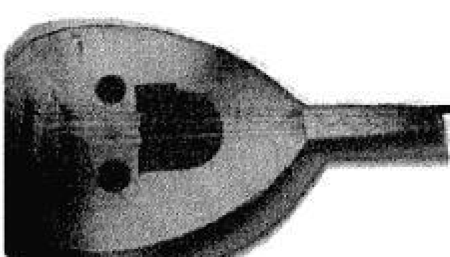
ناقش الأستاذ سعيد عكاشة فى مقاله «السياسى والفنان: عبدالناصر وأم كلثوم» فى عدد نوفمبر ٢٠٠١ من «الهلال» مجمل علاقة أم كلثوم بعبدالناصر، وتركز المقال حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء ومنع إذاعة أغانيها من الإذاعة فى بداية الثورة.

وهو ما استند فيه كاتب المقال علي روايات أربع عن منع أم كلثوم من الغناء بعد نجاح الثورة ، كانت الروايات الأربع – طبقا لترتيب عرضها في المقال – لكل من: الكاتب حلمي سالم – د. رتيبة الحفني – السيد محمد أحمد (سكرتير الرئيس عبدالناصر) والباحث الفرنسي فيليب فيجرو، ثم خلص الأستاذ سعيد عكاشة بعد عرض الروايات الأربع إلي «أنها جميعا لا تحدد تاريخا دقيقاً لقرار المنع. كما أنها تتضارب حول مصدر القرار» لقد افتقرت الروايات الأربع إلي التوثيق .. لذلك حدث التضارب وافتقدت الدقة.

إن الفترة التى قيل أن أم كلثوم قد منعت من الغناء فيها.. كانت فاصلا بين عهدين، لذا ... فإن إستعادة ما حدث خلال تلك الفترة من خلال الوثائق بعد الوسيلة الحقيقية المتاحة أمام الباحث الآن لمعرفة حقيقة ماحدث. أيضا.. فإن الرجوع قليلا إلى بداية عهد فاروق.. سوف يعمل على جلاء الكثير من الأمور والوقائع التى حدثت فى الشهور التالية لنجاح الثورة.

أم كلثوم فى العهد الملكى

قاسمت أم كلثوم محمد عبدالوهاب قمة الغناء المصري بعد نزوحها إلي القاهرة فى عام ١٩٢٣، وعندمت باشر الملك فاروق سلطاته الدستورية بعد أدائه اليمين أمام البرلمان فى يوم الخميس ١٩٣٧/٧/٢٩.. كانت أم كلثوم قد قطعت شوطاً كبيرا فى سعيها لأن تصبح مطربة العرب الأولى، فقد تغنت خلال الفترة من عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٣٧ بالعديد من ألحان كبار الملحنين كالشيخ أبو العلا محمد والدكتور أحمد صبرى النجريدى والشيخ زكريا أحمد والموسيقار محمد القصبجى وأخيرا الموسيقار رياض السنباطى، ساهمت تلك الألحان بالإضافة إلى فيلمين غنائيين هما وداد (١٩٣٥) ونشيد الأمل (١٩٣٦) – فضلا عن العديد من الحفلات بالقاهرة والأقاليم – فى دعم موقع أم كلثوم عند قمة الغناء بمصر، لذلك لم يكن غريبا أن تذهب أم كلثوم فى مساء يوم أداء الملك فاروق لليمين الدستورية إلى سراى عابدين لتغنى لفاروق ووزرائه وحاشيته قصيدة أحمد شوقى «عيد الدهر» التى لحنها رياض السنباطى كما نوهت عن ذلك مجلة «الراديو المصرى» بعددها رقم (١٢٣) والصادر فى ١٩٣٧/٧/٢٤، ثم توالت مشاركات أم كلثوم فى مناسبات القصر المختلفة مثل عيد ميلاد الملك (١١ فبراير من كل عام) وعيد الجلوس الملكى (٦ مايو من كل عام)، تلك المشاركات التى أعدّت لها أم كلثوم الأغنيات الخاصة لها جنبا إلى جنب مع أغنياتها الإذاعية والسينمائية، قدمت أم كلثوم الأغنيات التالية فى مناسبات ملكية مختلفة: (عيد الدهر – ١٩٣٧) – (يامليك النيل – ١٩٣٧) – (يا ربوع النيل – ١٩٣٨) – (يا بهجة الروح – ١٩٤٠) – (لاح نور الفجر – ١٩٤٢١) – (يامليكى –



١٩٤٣) – (أوان الورد – ١٩٤٥) و(مولد الفاروق – ١٩٤٦)» ، هذا فضلا عن ثلاثة أناشيد قدمتها الإذاعة فى برنامج يوم الأحد ٦ مايو من عام ١٩٥١ بمناسبة العيدين السعيدين (عيد الجلوس الملكى وزفاف ناريمان صادق إلى فاروق) ونوهت عنها بالعدد رقم (٨٤٢) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادر فى ١٩٥١/٥/٥، والأناشيد الثلاثة هى: «نشيد الشباب» من نظم أحمد رامى وتلحين رياض السنباطى – «نشيد النصر» و«نشيد حفظ الله الملك» والنشيدان الأخيران لم تشر المجلة إلى أسماء مؤلفيهما وملحنيهما.

لقد دعمت تلك المساهمات من مكانة أم كلثوم فى القصر الملكى، حتى أنها أحيت العديد من مناسبات القصر دون مشاركة من أى من مطربى أو مطربات الصف الأول وقتها، من ذلك أنها أحيت حفل زفاف الأميرة فوزية (شقيقة فاروق) إلى ولى عهد إيران الأمير شاهبور محمد رضا (الإمبراطور محمد رضا بهلوى فيما بعد)، وهو الحفل الذى أقامته الملكة نازلى بسراى القبة فى مساء الجمعة ١٩٣٩/٣/٣١ وشاركت أم كلثوم فى إحيائه الراقصة بديعة مصابنى، وها هى مجلة «الصباح» تقدم فى عددها رقم (٦٥٤) الصادر فى ١٩٣٩/٤/٧ وصفاً لغناء أم كلثوم فى تلك الليلة فتقول: «وجعلت الآنسة أم كلثوم تزف العروسين بنشيد الزفة المصرى الذى أُعدَّ خصيصا لهذه المناسبة، فكان فى قوله ولحنه وحنانه



صورة نادرة لأم كلثوم فى شبابها

مليئا بالروح القومية فياضا باللون الشرقى الجميل، ثم قامت السيدة بديعة مصابنى برقصة ريفية بارعة مع ست راقصات مصحوبة بالغناء الريفى الجميل، ثم عادت الآنسة أم كلثوم فغنت أغنية ساحرة من صوتها الأخاذ، وعادت السيدة بديعة فرقصت بصحبة فرقتها رقصة شرقية جميلة مصحوبة بالغناء، وقامت عقب ذلك الآنسة أم كلثوم بغناء دور كان له أجمل وقع فى النفوس لمناسبته الجميلة وهو دور (على بلدى المحبوب ودينى)».

قصة نيشان الكمال

لم تتخلف أم كلثوم عن إحياء أى من المناسبات الملكية فى عهد فاروق، لذلك لم يكن غريباً أن يقوم فاروق بتكريمها فى إحدى حفلاتها الملكية، كان ذلك فى عام ١٩٤٥.. حينما قدمت أم كلثوم ثلاث حفلات فى شهرى مايو ويونيو بمناسبة عيد الجلوس الملكى، قدمت أم كلثوم فى مساء الأحد ٦ مايو حفلها الأول بدار الأوبرا الملكية والذى نقلته الإذاعة وقتها، ليلتها غنت أم كلثوم أغنيتها الجديدة «فى أوان الورد» التى كتبها بيرم التونسى ولحنها زكريا أحمد، وقد قامت مجلة «الراديو المصرى» بنشر نصّ الأغنية الكامل فى عددها رقم (٥٢٩) والصادر فى ٥/٥/٩٤٥، وكان ختام الأغنية البيتين التاليين:

أعياد فى كل مكان
بيك يا فاوق تزدان
متجمعة فى أوان
فيه الوجود فرحان
فى أوان الورد

حضر الملك فاروق حفل أم كلثوم الثالث فى مساء الخميس ٢٨ يونيو ١٩٤٥ بحديقة النادى الأهلى، ليلتها تعرفت أم كلثوم فى كلمات أغنية «ياليلة العيد» – التى بدأت بها الحفل – لتحول ضمير المخاطب من أنثى (أى ليلة العيد) إلى مذكر (وهو الملك) . كان تصرف أم كلثوم فى كلمات الأغنية أكثر من معجز مما بهر الجمهور الذى علا تصفيقه وهتافه عندما رددت المقطع الأخير الذى تقول فيه:

يانيلنا ميّتك سكر
وزرعك فى الغيطان نوّر
يعيش فاروق ويتهنىَ
ونحييله ليالى العيد

ثم اختتمت أم كلثوم وصلتها الأولى من حفل النادى الأهلى بمقطع من أغنيتها «يا مليكى» التى تغير اسمها ليصبح فيما بعد «حبيبى يسعد أوقاته»، وبعد أن أنهت أم كلثوم وصلتها الأولى.. ذهبت لمصافحة فاروق ولتفاجأ بمنحها «نيشان الكمال» الذى حملته قبلها الملكة فريدة وأميرات الأسرة المالكة، وكانت آخر من تقلدت هذا النيشان من يد فاروق هى زوجته الثانية ناريمان صادق عندما وصل موكب زفافها إلى قصر عابدين فى مساء الأحد ٦ مايو ١٩٥١.

بعد عهدين

لم ينل محمد عبد الوهاب مثل أو بعض ما نالته أم كلثوم من تكريم ملكى، وذلك بالرغم مما قدم لفاروق من أغنيات.. جاء أغلبها معاصرا لمنتصف الأربعينات وفى فترة مقاربة لحصول أم كلثوم على نيشان الكمال، وعندما ملأ اليأس قلب عبدالوهاب من تحقيق أمنيته فى الحصول على لقب ملكى.. فإنه إستعان ببعض أصدقائه من الباشوات لنقل أمنيته إلى مسامع فاروق، فعاد إليه أصدقاؤه برفض القصر الذى يرى البعض له عديدا من الأسباب، ولعل أقرب هذه الأسباب إلى



المنطق ما ذكره الصحافى ورجل البلاط كريم ثابت في الجزء الثانى من مذكراته التى نشرها فى عام ٢٠٠٠ بعنوان «مذكرات كريم ثابت - عشر سنوات مع فاروق» ، يقول كريم ثابت: «فقد كان (أى فاروق) ينفر نفوراً شديداً من كل من يظهر تلهفا على رتبة أو نيشان، ويجد لذة خاصة في تسويف تحقيق أمنيته»، وأيا ما كان السبب.. فإن الرسالة الملكية وصلت إلى عبدالوهاب الذكى فاستوعبها وتعامل معها بالانقطاع تماما عن الغناء لفاروق بعد شهر فبراير من عام ١٩٤٦، وهو الشهر الذى قدم فيه خامس وآخر أغنياته لفاروق وهى «أنشودة التاجين».

لم تكن خسارة عبدالوهاب كاملة من جراء عدم حصوله على لقب البكوية الذى كان يطمح إليه، ولكنه حقق بعض المكاسب من غنائه للملك.. والتى كان اختياره مع أم كلثوم لعضوية لجنة برامج الإذاعة هو أهمها على الإطلاق، فمن خلال هذه العضوية .. تمكن النجمان الكبيران من موقع الصدارة فى عالم الغناء المصرى وأصبح فى مقدورهما إزاحة الكثير من المنافسين لهما، وهو ما فعلته أم كلثوم بالضبط عندما تصدت فى منتصف عام ١٩٤٦ لمنع مطربى الصف الأول من أبناء الشام كفريد الأطرش ونور الهدى ونادرة من إذاعة أغنياتهم الجديدة من الإذاعة المصرية، وقد استرعى هذا المنع انتباه مجلة «روزاليوسف» فكتبت عنه فى عددها رقم (٩٣٥) الصادر فى ١٩٤٦/٥/١٥ تقول: «بين المطربة أم كلثوم وبين لجنة تنظيم البرامج بمحطة الإذاعة خلاف قديم يتجدد من حين لآخر، فإن أعضاء اللجنة يؤمنون بأن الميكرفون ملك لجميع الفنانين، والآنسة المطربة تقول بل هو ملك للمصريين وحدهم ، وهى تستشهد على تأييد وجهة نظرها باللائحة الداخلية لمحطة إذاعة فى قطر شقيق (وهى محطة راديو الشرق ببيروت) لا تسمح بالتعاقد مع الأجانب ومنهم المصريون»، ثم تمكنت أم كلثوم من تسجيل نقطة اضافية فى سجل مكاسبها من عهد فاروق.. وذلك عندما امتنعت فى توقيت مقارب لمنحها نيشان الكمال عن الغناء بالإذاعة حتى يتم رفع أجرها عن الحفلة الواحدة من ١٧٥ جنيه إلى ٣٦٠ جنيها! بالتمام والكمال، هذا الامتناع الذى كان موضوع مقال الافتتاح للعدد (٦٦٧) من مجلة «الراديو والبعكوكة» الصادر فى ١٩٤٥/٤/١ وجاء بعنوان «أم كلثوم أيضا...!».

قضايا تحرير الوطن

انقسم المصريون فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمر الملكية إلى فئتين .. أغلبية وأقلية ، اهتمت الأغلبية التى ضمت سواد الشعب بقضايا تحرير الوطن والمواطن ، وقادت طلائعها الكفاح المسلح فى منطقة القناة ضد قوات الاحتلال البريطانى ، فسقط منهم الشهداء بالعشرات خلال تلك الأعوام الثلاثة وهو ما سجله مؤرخ الحركة القومية المصرية عبدالرحمن الرافعى فى كتابه «مقدمات ثورة ٢٣ يوليو» ، وفى



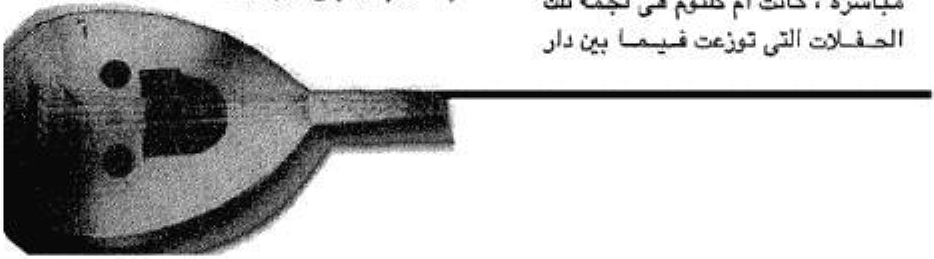
محمد عبد الوهاب

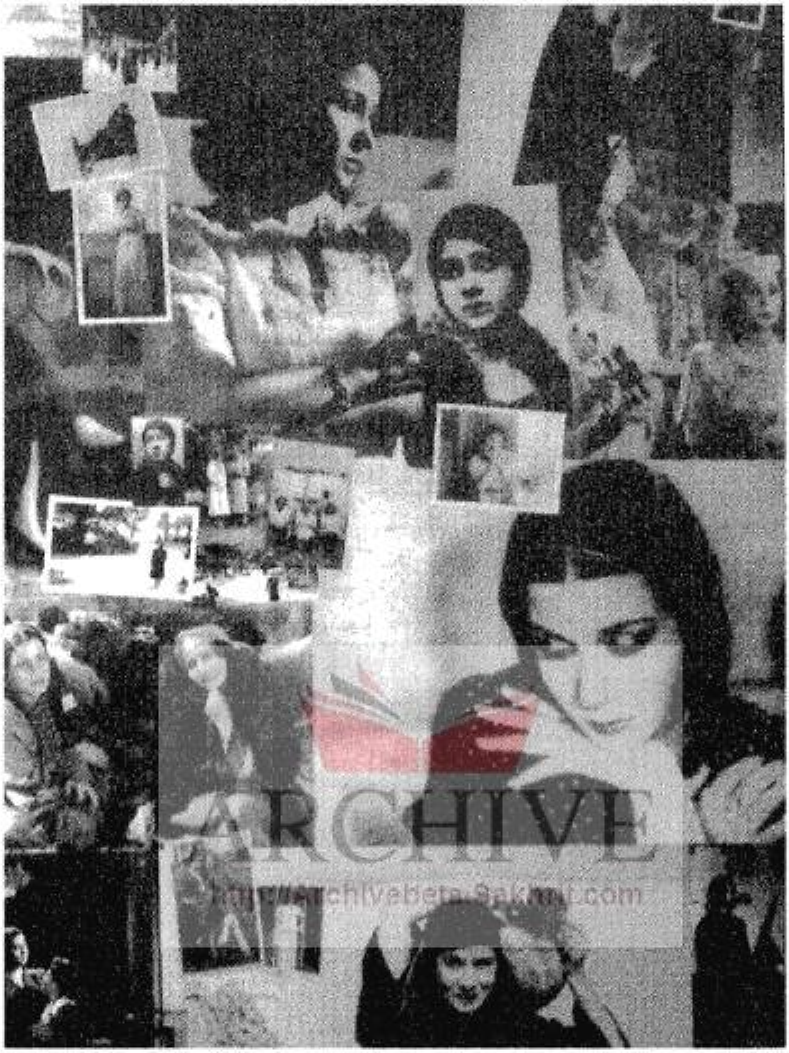


الشيخ ابو العلا محمد

نفس الوقت ... أفرزت الأغلبية أيضا العديد من التنظيمات السرية التى كانت تعمل تحت الأرض وضد النظام الملكى القائم ، ويأتى على رأس هذه التنظيمات ... تنظيم الضباط الأحرار الذى ولد أثناء معارك الجيش على أرض فلسطين . أما الأقلية ... وتأتى من طليعتها الاسرة الحاكمة وما حولها من كبار الأعيان والملاك ... فانها كانت تمارس آنذاك لهوها وتعيش حياتها المرفهة من منتجعاتها المعروفة وبمعزل عن الشعب وقضاياه ، فبينما كان الشهداء من طليعة الأغلبية يتساقطون على طول القناة ... كانت احتفالات القصر تمضى على وتيرتها المعتادة : عيد ميلاد الملك فى شهر فبراير وعيد الجلوس الملكى فى شهر مايو .... وذلك إضافة إلى ما يستجد من مناسبات كالزواج وميلاد الأبناء ، فى كل تلك المناسبات ... كانت الاذاعة - التى دانت للقصر بالولاء منذ إنشائها فى عام ١٩٣٤ - تقوم بواجبها فى إعداد البرامج الخاصة ونقل الحفلات الخارجية من مواقع إقامتها وعلى الهواء مباشرة ، كانت أم كلثوم هى نجمة تلك الحفلات التى توزعت فيما بين دار الاوبرا الملكية ونادى ضباط الجيش بالزمالك ، ففى السابع عشر من شهر فبراير عام ١٩٥٠ ... صدر العدد رقم (٧٧٩) من مجلة «الإذاعة المصرية» يحمل صورة أم كلثوم على غلافه وقد كتب التعليق التالى تحتها : «الآنسة أم كلثوم * كانت بهجة العيد الملكى السعيد . فقد سمعتموها ثلاث مرات فى اسبوعين» .

أحيت أم كلثوم فى عام ١٩٥١ آخر حفلاتها الملكية ، كانت أولى الحفلات بمناسبة عيد ميلاد فاروق وأحيتها أم كلثوم فى نادى ضباط الجيش ، وقد قدمت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٢٦) الصادر فى أول مارس ١٩٥١ صورة لأم كلثوم وهى تجلس بين مجموعة من ضباط الجيش المصرى أثناء هذا الحفل ، فى شهر مايو ... شاء فاروق أن يجعل عيد الجلوس الملكى لهذا العام عيدين ، وذلك بأن جعل عقد قران وزفاف زوجته الثانية ناريمان صادق فى يوم الأحد ٦ مايو وهو الموافق لاعتلائه العرش بعد وفاة والده الملك فؤاد الأول فى ١٩٣٦/٤/٢٨ ، «قامت القوات المسلحة بدور كبير فى الاحتفالات الرائعة «للعيدين السعيدين طوال يوم الأحد ٦ مايو كما ذكرت مجلة «الإذاعة المصرية» فى تحقيق بعنوان «الجيش فى أعياد قائده الأعلى» بعددها رقم (٨٤٣) الصادر فى ١٩٥١/٥/١٢ ، يبقى أن نشير هنا إلى أنه لم يشهد عام ١٩٥٢ أى احتفالات ملكية فيما يبدو أنها كانت إشارة إلهية إلى قرب زوال هذا الملك





لقطات متنوعة لأم كلثوم ومشاهد من أفلامها

تم العدد ١٤٢٣هـ - فبراير ٢٠٠٢م

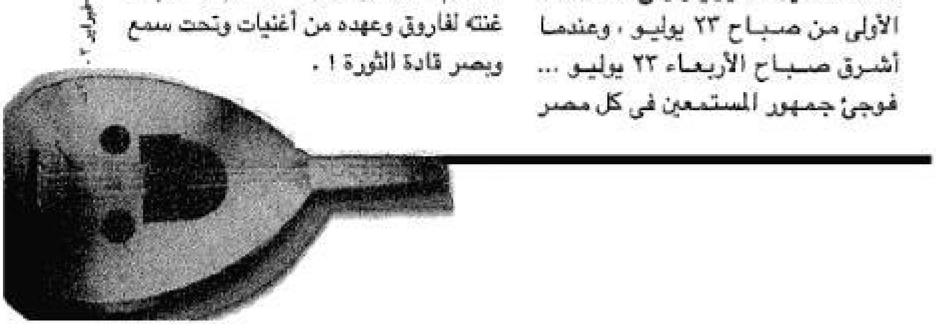
، كان ذلك بسبب إعلان الأحكام العرفية فى البلاد بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير والذى جاء تاليا لمذبحة جنود البوليس بمدينة الاسماعيلية فى يوم ٢٥ يناير .

هكذا كانت أم كلثوم تحيي مناسبات القصر بشدوها المعجز ... بينما الأقلية من ضباط الجيش ونخبة المجتمع يهتفون للملك ونظامه ، وفى نفس الوقت ... كانت اجتماعات الضباط الأحرار ومنشوراتهم تتوالى تبشر بميلاد قادم لعهد جديد ، لكن الأمر كان مختلفا مع محمد عبدالوهاب ،

فبعد أن أقلع عن الغناء للملك منذ عام ١٩٤٦ ... فإن مظاهر فساد العهد لم تكن لتخفى عليه ، فكان أن إلتقى بالشاعر كامل الشناوى الذى أعطاه قصيدة كتبها وتبدأ بشطر بيت يقول : «أنت فى صمتك مرغم» ، أعجب عبدالوهاب بالقصيدة ... وكان واضحا أن كامل الشناوى قد نظمها لمهاجمة الملك وتمجيد كفاح الشعب ، وعندما فرغ عبدالوهاب من تلحين القصيدة ... فإن رقابة العهد الملكى بالإذاعة قامت بمنع تسجيل النشيد الجديد لعبدالوهاب الذى كان واضحا أنه موجه لاثارة الشعب ضد الملك ونظامه .

العهد الجديد

فجر القائمقام (العقيد) يوسف صديق الشرارة الأولى لثورة ٢٣ يوليو .... عندما تحرك بمقدمة الكتيبة الأولى مدافع ماكينة قبل ساعة من ميعاد إنطلاق الثورة ، حدث ذلك فى تمام الساعة الثانية عشر من مساء يوم ٢٢ يوليو عندما قام يوسف صديق وجنوده بالاستيلاء على مقر القيادة العامة للجيش بكوبرى القبة ، وليتمكن من الايقاع بقادة الجيش المجتمعين ليلتها لاتخاذ الترتيبات اللازمة لاجهاض الانقلاب القادم ، كان مبنى الإذاعة فى مقدمة المواقع التى توجهت إليها طلائع قوات الثورة للاستيلاء عليها بعد منتصف ليل ٢٢ يوليو وفى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ، وعندما أشرق صباح الأربعاء ٢٣ يوليو ... فوجئ جمهور المستمعين فى كل مصر بصوت المذيع جلال معوض يقرأ عليهم أول بيان للثورة من اللواء محمد نجيب القائد العام للجيش ، توجه محمد نجيب إلى مبنى الإذاعة يوم الخميس ٢٤ يوليو وبصحبته أنور السادات وبعض الضباط الأحرار ، التقى نجيب وصحبه هناك بمحمد فتحى وكيل الإذاعة المبعد ... حيث كلفه نجيب بتولى شئون الإذاعة وقيادة التغيير المطلوب لتكون الإذاعة صوت العهد الجديد، وقد قدمت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٥٢) الصادر فى ١٩٥٢/٨/٥ صورة هذا اللقاء من باب «أخبار مصورة» الذى شغل الصفحات الثامنة والتاسعة من العدد ، جاءت صورة لقاء اللواء محمد نجيب بمستشار الإذاعة الجديد فى أعلى يمين الصفحة التاسعة ، ثم وضعت المجلة تحت صورة هذا اللقاء صورة لأم كلثوم وهى تقف بجوار جهاز التسجيل وأسفل الصورة تعليق بعنوان «تطهير» جاء فيه : «توجهت الآنسة أم كلثوم فى الاسبوع الماضى إلى محطة الإذاعة لتشرف بنفسها على تنقية بعض الأغانى من فقرات خاصة بالعهد الماضى، ولانتزاع هذه الفقرات من التسجيلات حتى يمكن إذاعتها نقية خالصة ليسمعها شعب حر كريم» ، هكذا ذهبت أم كلثوم إلى الإذاعة - فى نفس الاسبوع الذى ذهب فيه قائد الثورة ليرتب أمور جهاز الإعلام الأول فى الدولة - لتقوم باعدام ما غنته لفاروق وعهده من أغنيات وتحت سمع وبصر قادة الثورة ! .



أين المنع ؟

لم يكن لدى الإذاعة عند قيام الثورة أغنيات تناسب العهد الجديد ، وقتها تذكر القائمون على أمور الإذاعة ذلك النشيد الذى منعته رقابة العهد الملكى لعبدالوهاب، فكان أن ذهب عبدالوهاب إلى الإذاعة يوم الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢ ليسجل نشيده الممنوع مع فرقة موسيقية ضمت أكثر من خمسين عازفا بعضهم من فرق موسيقات الجيش ، حمل النشيد الجديد اسم «نشيد الحرية» بعد أن أبدل كامل الشناوى شطر البيت الأول الذي يقول : «انت فى صمتك مرغم» ليصبح مغازلة واضحة للنظام الجديد «كنت فى صمتك مرغم» ، وانطلق النشيد ليسمعه الناس مرات متعددة فى اليوم الواحد ، وهذا هو ما جعل ما يذاع لعبدالوهاب من أغنيات فى تلك الأيام يفوق ما يذاع لأم كلثوم ، إن مراجعة ما قدمته الإذاعة من أغان لمطربى الصف الأول فى الفترة التالية لقيام الثورة سوف يساعد فى فهم كثير من الأمور التى حدثت آنذاك وفى بيان حقيقة حكاية منع أغنيات أم كلثوم من أن تذاع بالاذاعة فى أول عهد الثورة ، ففى العدد رقم (٩١١) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادر فى ١٩٥٢/٨/٣٠ يوضح إحصاء ما تم إذاعته من أغان لكبار مطربى العهد خلال الاسبوع من



محمود الشريف



أحمد شوقى

١٩٥٢/٨/٣٠ وحتى ١٩٥٢/٩/٥ أن ما أذيع لأم كلثوم كان ١٦ أغنية وما أذيع لمحمد عبدالوهاب بلغ ٢٤ أغنية .... فى حين أن ما أذيع لفريد الأطرش كان أغنية واحدة ! ، وفى العدد (٩١٣) من المجلة ... بلغ عدد الاغنيات المذاعة لأم كلثوم - فى الاسبوع الذى يبدأ فى ١٩٥٢/٩/١٣ وينتهى فى ١٩٥٢/٩/١٩ - ٢٠ أغنية فى مقابل ٢٨ أغنية لمحمد عبدالوهاب و٤ أغنيات لفريد الأطرش ، إن متابعة ما تلا ذلك من أعداد مجلة «الإذاعة المصرية» - والتى تعد السجل الدقيق لما تقدمه الإذاعة - خلال عامى ١٩٥٢ و١٩٥٣ ... يؤكد أن ما قيل عن منع أم كلثوم من الغناء فى بداية الثورة لم يكن صحيحا بالمرة وأنه لا يعدو أن يكون شائعة رددها البعض للتأثير على قادة الثورة ولفت أنظارهم إلى غنائيات أم كلثوم فى العهد الملكى ، تلك الغنائيات التى تبددت كأن لم تكن ... وأمحيت بيد صاحبتها وتحت عين قادة الثورة وبمباركتهم ، إن الخسارة الوحيدة التى لحقت بأم كلثوم بعد قيام الثورة ...



أحمد رامى

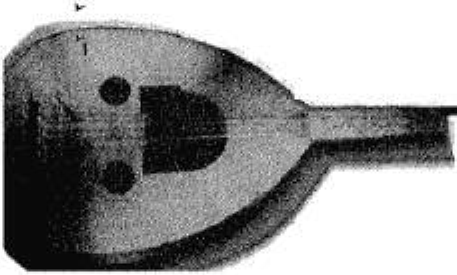


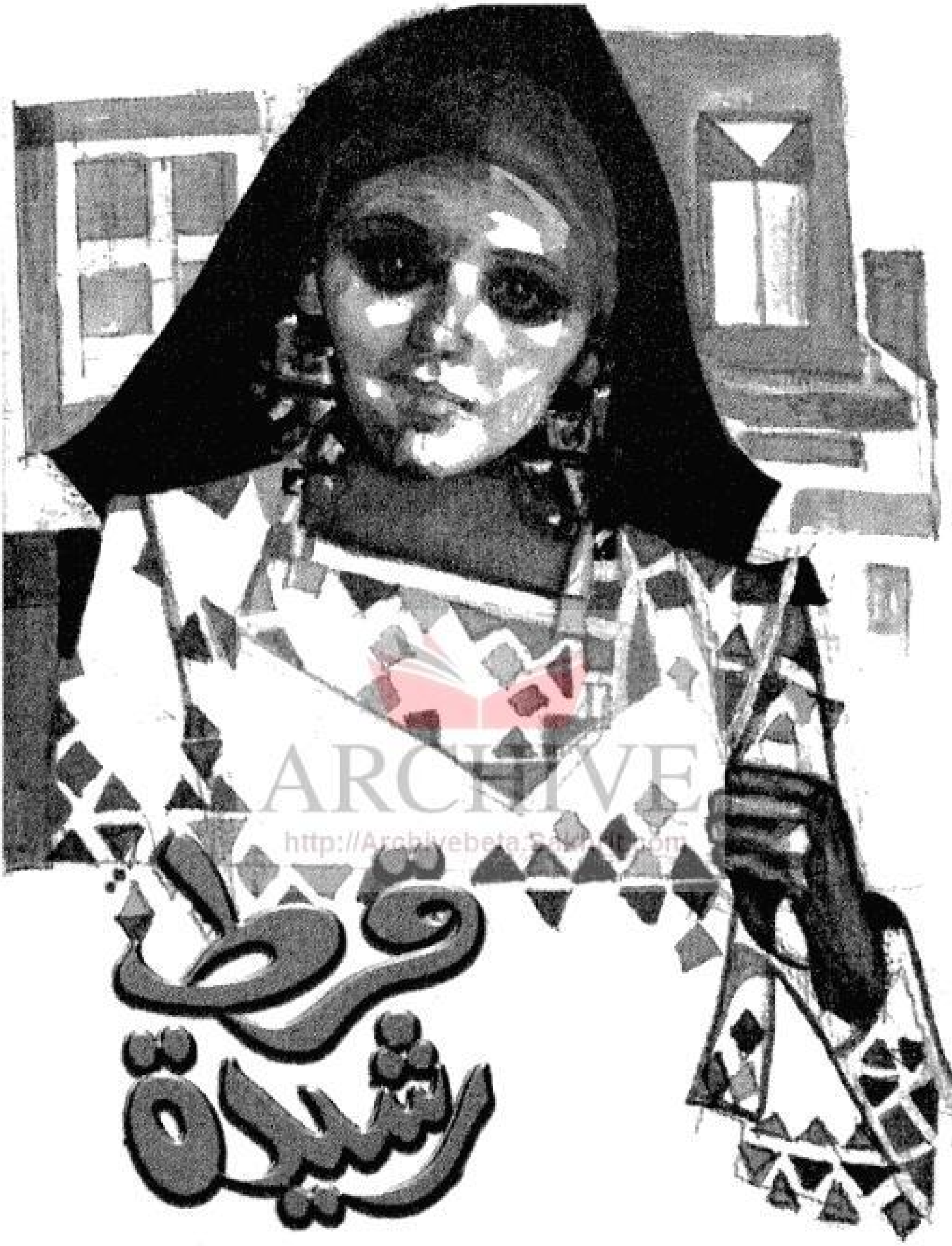
رياض السنباطى

كانت خسارة مادية فقط ، فقد نشرت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٥٦) الصادر فى ١٩٥٢/٨/٢٦ خبرا تحت عنوان «التطهير فى الإذاعة» بالصفحة التاسعة والثلاثين يقول : «إعادة النظر فى عقدى أم كلثوم وعبدالوهاب وتخفيض أجرهما إلى الحد المناسب لميزانية الإذاعة» ، أى أن ما أخذته أم كلثوم فى عام ١٩٤٥ من زيادة فى الأجر بالامتناع عن الغناء وبحكم ما كان لها من منزلة بالاذاعة ... استعاده النظام الجديد ، لكن خسارة الجمهور والتاريخ فى فقد أغنيات أم كلثوم الملكية هى التى لا تعوض ، فبفقد هذه الأغنيات ... ضاعت مرحلة مهمة من مراحل تطور غناء أم كلثوم وتبددت من التاريخ حقبة كاملة من الغناء المرتبط بالسياسة .

تحول الغناء

استدركت أم كلثوم أمرها سريعا مع النظام الجديد ... وصححت كثيرا مما لحق باسمها فى العهد الملكى عندما غنت ثانى أناشيد الثورة ، فقد سبق فريد الأطرش الجميع حينما لحن وغنى نشيد الثورة الأول «يا شباب آن الأوان» من كلمات بيرم التونسى ومأمون الشناوى وليقدمه لأول مرة من الإذاعة فى مساء السبت ١٩٥٢/٩/٢٧ ، أما نشيد الثورة الثانى فقد كان بصوت أم كلثوم وهى قصيدة «صوت الوطن» التى نظمها أحمد رامى ولحنها رياض السنباطى ، أذيعت قصيدة «صوت الوطن» لأول مرة بالاذاعة مساء الأحد ١٩٥٢/١٠/١٩ كما ذكرت مجلة «الإذاعة المصرية» بعددها رقم (٩١٨) الذى صدر فى ١٩٥٢/١٠/١٨ ، لكن الأمر بالنسبة لمحمد عبدالوهاب استغرق كثيرا من الوقت ... ربما ليستوثق وليفحص ويمحص كعادته وليخرج فى النهاية بنشيده الأول للعهد الجديد وهو «نشيد الوادى» الذى وضع كلماته مأمون الشناوى وسجله عبدالوهاب للإذاعة وعلى شريط سينمائى عرض بجميع دور السينما فى عيد الثورة ، وهكذا بدأ الثلاثة الكبار الغناء للعهد الجديد ... ولتجيئ بعدها كل الأصوات الموجودة آنذاك وأصوات جديدة فى مقدمتها عبدالحليم حافظ - الذى أصبح مطرب العهد الجديد فيما بعد - لتغنى للثورة ... وليتحول الغناء الوطنى من الملك إلى الثورة . ■





قصة : محمد كرزون • بريشة : سميحه حسنين

لم يكن صباحاً عادياً ذلك الذى شاع فيه خبر موت رشيدة فى القرية، فهى امرأة إن لم تكن دخلت كلّ بيت، فعلى الأقل كانت حديث كلّ البيوت.. أما الأطفال، فمناهم أن يذهبوا إليها فى بيتها، ليطلبوا منها الكشف عن أذنها المشرومة، فتتمنع فى البداية، ثم ما تلبث أن تحسر المنديل عن رأسها قليلاً لتريهم أذنها اليمنى وقد استطالت.. وهى لاتنسى أن تقدم للأطفال الزائرين السكاكر وبعض المأكولات الخفيفة مما يتيسر لها.

وحكاية أذنها بالأمس كانت حقيقة، وأما اليوم - بعد أن ماتت - فقد صارت أقرب إلى الأسطورة.. يذكر أهل القرية جيداً منذ خمس وعشرين سنة أو أكثر، عندما كانت رشيدة فى الثلاثين من عمرها، حديث أبى فارس معها، عندما جاء يشكو لها مرض ولده الوحيد فارس، وقال لها إنه قد تركه فى مستشفى المدينة، وأنهم طلبوا منه



دماً.. فقالت رشيدة: خذوا ما تشاؤون من دمي.. وعندما أكد لها أبو فارس أن دمها لا يصلح، فكت قرطها من أذنها اليسرى، ثم همت تفكه من أذنها اليمنى، فلم تسعفها يداها المرتعشة حزناً على فارس، فشدت القرط من أذنها، فشرمتها.. فأخذه أبوه فارس..

تبين أن الحكاية لم تكن مرض فارس، ولم تكن المشكلة حاجة إلى دم، ففارس كان فى المدينة فعلاً، ولكن من غير مرض، الحكاية هى أن أبا فارس كان يرغب فى شراء زوج حمام نادر، وليس معه ما يكفى..

قرط رشيدة لم يكن فى الحقيقة قرطها وحدها، كان قرط أم جدتها، هو من الذهب العتيق، ومزدان بأحجار كريمة.. هذا القرط اشتهر بالرهن، فكلما شعر إنسان فى القرية بضيق مادى كان يلجأ إلى جدة رشيدة، لترهن له قرطها، ليفك أزمته.. وتتفرج الأزمة، ويصبح المعسر موسراً، ولكنه ينسى حكاية رهن قرط الحاجة رشيدة الكبرى، التى كانت - رحمها الله - على يقين من تصرف الناس معها على هذا النحو، ولذلك كانت تجمع بيض دجاجاتها، وتبيع ما يزيد عن حاجتها منه، وتحيك شالات من صوف أو من قطن، وتبيعها، وتجمع المبلغ، وتفك رهنية قرطها..

ولك أن تتخيل نفسية المرتهن، وهو يتسلم المبلغ، إنه يعد، ويعيد العد، ويدقق، لعل المبلغ يكون ناقصاً، لا لشئ سوى لأنه يريد أن يستبقى القرط عنده أكبر مدة ممكنة.. فقد شاع اعتقاد أن هذا القرط بالذات يجلب الرزق لمن يكون فى حوزته.

وتتكرر العملية مع رجال القرية ونسائها، فهذا يريد أن يشتري بغلة بعد أن وهنت بغلته المسنة، وتلك ترغب أن تزوج ابنها على حياة عينها، وذاك يريد أن ينزل إلى المدينة ليتعرف إليها.. وتتفتق عبقريات أهل القرية عن حاجات ورغبات، والقرط يرتهن، ثم يفك رهنه.. وعندما آل إلى رشيدة الحفيدة لم تكن تريد أن تبطل سنة أمها وجدتها وأم جدتها.. ورغم أنها كانت موسرة في أول أمرها، فقد كانت تحب أن ترهنه، لعلها تجلب البركة على المرتهن..

لم يكن قرط رشيدة وحده القابل للرهن، فهي ترهن حتى سجادتها العجمية، ولكن لا تقبل أن ترهن قدرها الكبير، فماذا تفعل إذا فوجئت بزيارة غير متوقعة لأكثر من عائلة من إحدى القرى المجاورة؟!

عمدت إلى شراء قرط جديد، وراحت تخبئه في علبته، فهو لا يرى النور إلا قليلاً عندما تتفقده وهي منفردة.. إنها تخبئه



لابنتها التي لم تأت.. فقد كانت الغصة الكبيرة لها أنها لم تنجب، وكانت تتساءل في نفسها: والدة جدتي أنجبت بنتاً وحيدة هي جدتي، وجدتي أنجبت ثلاثة أطفال لم يعش لها منهم سوى والدتي، وأنا وحيدة أمي.. هل كن مريضات بمرض ما، وترسبت كل آثار المرض فيّ؟؟ ثم كانت تعزي نفسها وتقول: لا يابنت! ألا ترين بنات القرية.. إنهن كلهن ينادينك (أمي).. أنت أم حقيقية وإن لم تنجبي..

وقد تركت رشيدة القرط الجديد احتياطاً لعلها في يوم من الأيام تجبر على بيع القرط القديم، أو لا يعود من المدينة، فماذا تفعل؟ وماذا سترهن بعدها؟

ويقع المحظور، وتصل الحالة برشيدة إلى حد أنها يئست من أبي فارس أن يعيد إليها القرط.. هي لم تتأثر بشيء بقدر ما تأثرت بأن أذنها لم تعد تستطيع أن تعلق بها قرطاً، والقرط في أذنها - في حد ذاته - دليل بركة.. لا القرط القديم عاد، ولا الجديد ينفع في التئام شحمة أذنها المتدلية .. آه يا رشيدة!

مضت سنون، وأبو فارس يتناسى القرط.. ويتناسى رشيدة.. مواسم الخير تتلاحق، والأرزاق تتدفق عليه وعلى القرية جميعاً.. ووعده بإعادة القرط ذهب أدراج الرياح.. صحيح أنه باعه - كما أشيع في القرية - إلا أنه من المهم أن يزور رشيدة ليخفف من معاناتها بعد أن فقدت زوجها مبكراً، ويحمل بيده شيئاً من الخيرات وبعض الدراهم، فرشيدة اليوم غير رشيدة بالأمس.. وهي تكابر.. تتظاهر بالسعة.. ولكنها تهزل.. المرض يأكل جسمها أكلاً، وربما

الجوع معه، والمكابرة تتعاظم..

رشيدة بحاجة إلى غذاء.. إلى أى إدام.. أهل القرية كلهم ينظرون إلى أذنيها.. لعلهم يرون قرطاً جديداً، فترهنه لأحدهم.. أذنا رشيدة مجردتان من أى حلي.. وجسدها يزداد نحولاً.. أرزاق كثيرة ضاعت أو أهديت أو تبددت.. ولم يبق لها سوى جارتها أم صالح.. التى تؤوى لها ثلاث غنمات وعنزة، فتنفعها بحليبها، ولا تنسى أن تحسب حسابها بخبز طازج كلما عجنت وخبزت..

العمر يتقدم برشيدة، وكذلك المرض، وتذهب إلى صندوقها، فتخرج منه القرط الجديد الذى ادخرته ليوم كهذا، وتقرر أن تذهب إلى المدينة لتبيعه وترى طبيباً يرى حالتها ويكشف عن سبب وهنها وضعفها..

تصادف أن كانت رشيدة فى الحافلة نفسها التى يستقلها أبو فارس.. ولكنها لم تنتبه لوجوده.. فكت صرة صغيرة، وأمسكت بالقرط الجديد تقلبه، فلمع بريقه، وجذب نظر أبى فارس.. اقترب منها بهدوء دون أن تنتبه لحركته.. ربت على كتفها، ففزعت.. قال لها بابتسامة باردة:

- قرط؟! ومابنفعك القرط وأذنك مشرومة؟!

لفت رشيدة صرتها، ولم تجبه، وتململت على بعضها.. أما أبو فارس، فقد أغراه القرط فى أن يقدم اقتراحاً لها:

- رشيدة ! أنت تحبين أهل القرية جميعاً.. وفارس مثل ابنك.. بل هو ابنك حقاً.. ما رأيك لو ترهنين القرط؟ فحفيدى - ابن فارس - مقبل على الزواج! نفرح وتفرحين معنا..

فلتت من رشيدة كلمات لم تدر كيف



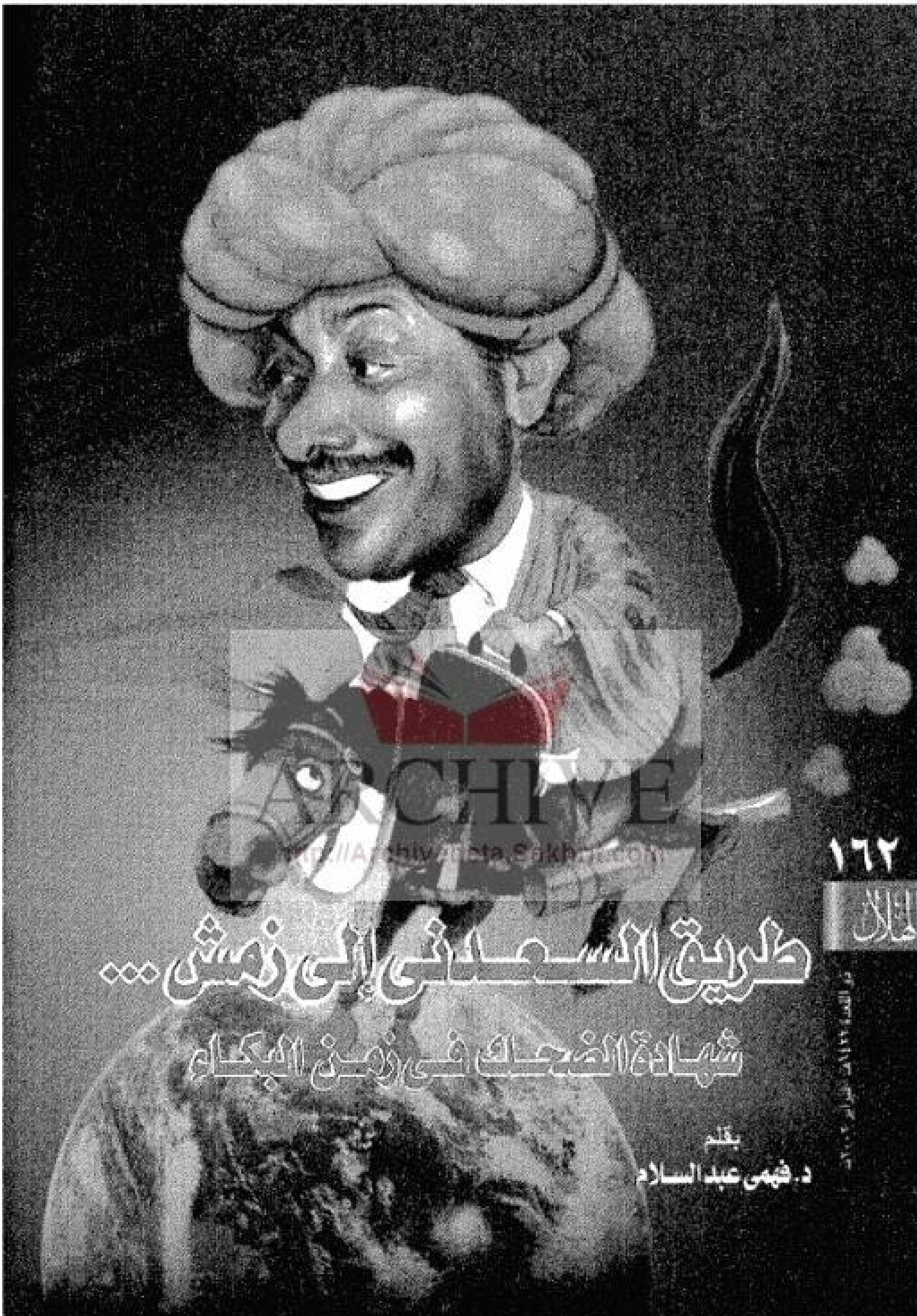
خرجت، قالت له:

- أما زال الدم الذى اشتريته بثمن القرط العتيق يجرى فى عروق فارس؟ أم أنت الذى تحتاج إلى دم جديد؟! هل نشف دمك؟!

ابتعد أبو فارس عنها بعد أن قطب حاجبيه.. لامت رشيدة نفسها على طريقة ردها.. أغمضت عينيها.. أسندت رأسها إلى مسند المقعد الذى أمامها.. اعتصرت عينيها.. بللت الدموع حجرها.. شهقت.. ارتمت على أرض الحافلة.. وفارقت الحياة..

عندما أعيدت رشيدة إلى بيتها سارعت أم صالح لتعلن للناس أن وصية رشيدة أن يباع القرط الجديد لينفق ثمنه على دفنها.. ولم تدر أن رشيدة قد عادت وقد فارقها القرط كما فارقتها الروح..

ومازال الناس يبحثون عن قرط رشيدة ليعيدوا البركة إلى القرية.. تلك القرية التى فقدت قرط رشيدة العتيق.. وأضاعت قرطها الجديد.. ■


١٦٢
الهلال
طريق السعدنى إلى زمش...
شهادة الضحك فى زمن البكاء
بقلم
د. فهمى عبد السلام

«وبعد معركة السبارس الكبرى أثبتت التجربة أن الخط السياسى للولد أحمد شوقى الصاعقة هو الخط السياسى السليم»

محمود السعدني

قضى السعدنى كاتبنا الساخر الكبير السنوات من مطلع سنة ١٩٥٩ حتى ١٩٦١ معتقلاً بتهمة الشيوعية ، وتم القبض عليه ضمن التجريدة الكبيرة التى قامت بها سلطات ذلك الزمان على الشيوعيين ، ولم يكن السعدنى شيوعياً فى يوم من الأيام ، ومع هذا وجد السعدنى نفسه معتقلاً مع الآلاف منهم ، وكان من المحتم أن يتم الصدام بين عتاة «الحنجورى» وبين السعدنى الفنان الساخر ابن البلد المحب للناس وللحياة ، فانهالوا عليه بالاتهامات ، التى تراوحت بين « كاتب البورجوازية الصغير » و« الفوضوى» وبالعمالة للأجهزة ولوكالات المخابرات المركزية ، وأوسعوه اتهاما ، فأوسعهم السعدنى تريقة وسخرية ومقالب وتشنيعا ... رافعا شعار أن التنكيت والتشنيع على الكيف ..

وفى « الطريق إلى زمش» ، ذلك العمل الساحر الجميل الصادر سنة ١٩٩٣ ، يحكى السعدنى بقلمه الساخر عن العامين اللذين قضاهما فى المعتقلات ، عامين من الضرب والإذلال والإهانات والجوع والحفاء وتحليلات الزعماء الحنفشاريين وغباوة حراس السجن وضعف عقل الرفاق ، وخلال كل تلك المحن يلتقط كاتبنا مواطن الضحك فى قلب المأساة ، فيجعل القارىء يضحك من الأعماق ، والجميل أن الضحك يأتى وكأنه البكاء .. كما يقول المتنبى العظيم .

يضحكنا السعدنى عما فعله بأحد قيادات الحركة الشيوعية ، بعد أن استقر بهم المطاف فى معتقل الواحات ، اكتشف السعدنى أن لليهود سطوة كبيرة فى الحركة الشيوعية ، وأن عددا كبيرا منهم غير ديانته إلى الإسلام ، وتسمى باسم مصرى ، كى لا يتسببوا فى حرج لمنظماتهم بعد قيام إسرائيل .

الزعيم المحنبط

أحمد صادق سعد كان واحداً من هذه الفئة ، والذى لفت نظر السعدنى إلى صادق سعد هو غرابة هيئته وسلوكه ، فقد لاحظ السعدنى ، أن صادق سعد يقف فى حوش المعتقل يلف ويدور حول نفسه ، ويرتدى شورتاً وقميصاً مفتوحاً حتى بطنه ، والسيجارة تتدلى من شفتيه، ولا يتحدث إلى أحد المعتقلين، وأن علامات السعادة لا تبدو على وجهه إلا إذا تحدث بالفرنسية ، وقرر السعدنى الخفيف الظل أن يعابث الزعيم « المحنبط» ..

ذات صباح وصادق سعد يقف فى الحوش كالعادة فعاجله السعدنى بتحية الصباح قائلاً .. «بونجور» فتخلى صادق سعد عن ترفعه التاريخى وهات يارطانة بالفرنسية ، ولم تكن حصيلة السعدنى من كلمات اللغة الفرنسية تزيد على كلمتى «بونچور» و« وى» ، فراح صادق سعد يرطن والسعدنى يتظاهر بالفهم ويقول «وى» ، ويبدو أن صادق سعد ألقى على السعدنى بسؤال وكان ينتظر إجابة ، ولما جاءت إجابة السعدنى بكلمة « وى» فظن الزعيم المتعجرف أن السعدنى عابث ، فغضب غضباً شديداً ، فضحك السعدنى عند افتضاح جهله الفرنسى ، الأمر الذى أحنق صادق سعد المزيد من الحنق .

وتصادف هذا الموقف مع مرور إبراهيم العطار ، صول الطيران ابن البلد المرح وعضو زمش ، وحاول العطار أن يطيب خاطر صادق سعد ، فما كان من صادق سعد إلا أنه انهال على العطار بوابل من الشتائم واللعنات ، ويحكى لنا السعدنى كيف تحالف ـ السعدنى والعطار ـ ضد صادق سعد ، إذ راحا بعد هذه الواقعة يلاحقانه فى وقفته التاريخية فى حوش المعتقل بالتنكيت والقفشات والتعليقات المضحكة ، وصادق سعد متشبث بعظمة وترفع لا يتنازل حتى ويلقى عليهما بنظرة واحدة .

وبعد أسبوع واحد من حملة السعدنى المشاكس والعطار المرح على صادق سعد ، جاء زميل ليقضى السهرة فى زنزانة السعدنى والعطار ، اللذين تصورا أن الزيارة دافعها الصداقة ، وفى منتصف

الليل أفصح الزميل عن سر الزيارة ، إذ نظر الزميل إلى السعدني وقال وقد اتخذت ملامح وجهه تعبيرات كبار المسئولين الذين يحملون على أكتافهم هموم البشر :

ـ اسمع يا سعدني .. انت وإبراهيم العطار بتنكتوا على صادق سعد ... لعلمكم أن صادق سعد علامة في الحركة الشيوعية المصرية .. ولعلمكم كمان أن الشيوعيين لما دخلوا شنغهاي علقوا اللي زيكم في المشانق ..!!.

ضحك السعدني وقال للزميل المخدوع في أشياء كثيرة أقلها مسألة صادق سعد.

ـ لما تدخلوا القاهرة يحلها ألف حلال بإذن الله .. ادخلوا أنتم وحاتفرج ساعتها.

كان السعدني واثقاً أن الشيوعيين لن يدخلوا القاهرة ظافرين ، ولو خرجوا من المعتقل فحسب فهذه نعمة كبيرة من رب العرش العظيم ، والجميل أن الزميل الذي جاء لترويعهما من مغبة التريقة على قيادة تاريخية، لم تمر عدة شهور إلا وجاء حاملا متاعه القليل إلى زنزانة السعدني والعطار ، منضما إلى تنظيم زمش .

بين الزميل والرفيق

لما وجد السعدني أن المنظمات الشيوعية قد اتخذت لنفسها أسماء عجيبة. مثل «ط ش» و«وش» و«دش»، وهي الحروف الأولى لكلمات كبيرة لا تتناسب مع بؤس وضعهم من جوع وإذلال وتعذيب، فـ «طش» هي طليعة الشيوعيين.. و«وش» هي وحدة الشيوعيين، قرر السعدني تكوين تنظيم خاص به، يضم إليه أولاد البلد والعقلاء ممن يكابدون من الزعامات التاريخية، وعلى غرار «وش» و«طش» .. الى آخره، اطلق السعدني على حزبه الأغر اسم «زمش» وهي اختصار لثلاث كلمات لا علاقة لها بنضال أو بمواقف تاريخية كبيرة، فـ «زمش» هي الحروف الأولى لـ «زى ما انت شايف» ..

كان السعدني هو «خروشوف» «زمش»، وكان ابراهيم العطار هو اللجنة المركزية، واعتاد العطار ان يخرج كل صباح إلى أطراف الصحراء، ليشاهد بنفسه قوافل السيارات التى ستأتي حاملة أمر الافراج عن المعتقلين، وكل صباح يخرج العطار ينتظر قوافل الافراج ويعود، ولا يكل العطار من هذه الرحلة الصباحية ولا يعدم الأمل، وانضم السعدني الى العطار، وبعدها انضم اليهما عدد من الرفاق في زمش، وكان هذا السلوك الطبيعي لأناس مساكين يحلمون بالحرية ، يثير حفيظة غلاة «الحنجورى» الذين كانوا ينظرون إلى سلوك قافلة الإفراج باحتقار شديد .

وبينما كانت قافلة الإفراج عائدة من رحلتها الصباحية كالعادة ، قابلهم الزميل ضياء ... كان الرفيق ضياء عضو لجنة منطقة بالحزب الشيوعي المصرى ، وكان

هذا الرفيق يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الحزب الشيوعي المصرى كان مستهدفا من كل أجهزة المخابرات على مستوى العالم، وكان واثقاً أن الـC.I.A والمباحث الفيدرالية والمكتب الثانى الفرنسي وأجهزة المخابرات للأنظمة العربية لا هم لها إلا أن تتابع خطوات الرفيق ضياء وأن تحاصره تمهيداً لتصفيته جسدياً ، باعتباره عقبة كئود ضد مخططاتها ، فإذا ما تم لها ذلك وانتهت منه ، خلا لها الجو لكى تحكم قبضتها على المنطقة العربية بأسرها فى غياب الرفيق ضياء .

كان الرفيق ضياء شأن كل « القتلة » فى الحزب الشيوعى المصرى - وهذا هو تعبير السعدنى نفسه - ينظرون إلى مسلك العطار باحتقار شديد ، وبينما كانت قافلة الإفراج عائدة ذات صباح ، التقت بالزميل ضياء الذى كان كئيباً متشائماً ، وكان ضياء المعتم النفس يقوم بجولته المعتادة متجهم الوجه كالعادة مكفهر السحنة وهو ينفخ بشدة فسألهم متهكماً .

- الإفراج وصل ؟!..

فرد عليه إبراهيم العطار .

- بكره الصبح إن شاء الله ..

- إبقى قابلنى إذا بكره ده جه ..

ووجدها السعدنى فرصة للجلوس مع الرفيق القرفان من الدنيا والناس ، فقال لهم ضياء أن الفرق بينه وبينهم أنه يرى الأمور بوضوح ، وأن المصير واضح أمام عينيه ، فالحقيقة أن الحركة الشيوعية تخوض المعركة الأخيرة ضد الرجعية والفاشية ، والمعركة ستنتهى قريباً جداً بشنق كل القوى التقدمية واليسارية ، وبينما تنتظرون الإفراج فالإعدام ينتظركم بأسرع مما تتوقعون .

وحينما حاول إبراهيم العطار التخفيف من سوداوية الرفيق ضياء ، نهره ضياء قائلاً :

- انت بالذات ستكون فى أول دفعة تواجه الإعدام ، وسأرثى لتفاؤلك وأنت معلق على حبل المشنقة ... يضحكنا السعدنى على الرفيق ضياء بنفسه المشرقة ونفسه السمحة وقلبه الذى مثل الفلة البيضاء ، فأطلق عليه السعدنى لقب «ضياء إعدام» ، ورد ضياء إعدام على اللقب بإطلاق لقب إفراج على إبراهيم العطار الذى صار ... إبراهيم إفراج ..

وليمة تعذيب

.... فى الشهور الأولى للحبسة طابت الأمور فى معتقل الواحات ، وأصبح حزب زمش يضم ٢٥ عضواً وعاطفاً وضم خيار المثقفين الهاربين من جحيم الزعامات التاريخية ، كان منهم د . عبدالرازق حسن وعلى الشلقانى والمناسترلى وغيرهم ... وقررت إدارة المعتقل السماح بإقامة حياة عامة للمعتقلين ، وكان حزب زمش

أغنى تنظيمات المعتقل ، وطلب الحزب الشيوعي المصرى الانضمام إلى الحياة العامة ، وقرر السعدنى، خروشوف زمش، قبول انضمام « المصرى » إلى الحياة العامة ، باعتبار أنه إذا كان حزب زمش يختلف مع الشيوعى المصرى في الموقف السياسي ، إلا أن زمش لن يختلف مع المصرى في الشاى والسكر والدخان ، وتم شراء المواد الغذائية ، وتم تعيين السعدنى مشرفاً عاماً على الحياة العامة ، وتم جلب الشاى والسكر والمعلبات والخضراوات والتفاح والكمثرى وتم تخزينها في غرفة مفتاحها مع السعدنى ، ولم يتبق سوى توزيع الطعام وفقاً لأعداد كل منظمة ، وظن السعدنى أن الموضوع بسيط ، فعلى كل تنظيم أن يبعث بأحد المندوبين لأخذ نصيب التنظيم ، وبدأ اجتماع ممثلى المنظمات وطلب الزميل سيد عبدالله من « طش» الكلمة . وتحدث سيد عبدالله في حماس وثقة ، وطلب أن يلفت نظر الرفاق إلى الأخطاء التاريخية التى حدثت فى الحياة العامة فى معتقل الأوردى ، حينما تولى الرفيق حسان من « دش » عملية التوزيع ، فلم يمنح « طش » إلا النذر اليسير من السلامون والطماطم، الأمر الذى أدى إلى كوارث تاريخية أدت إلى مصرع مناضلين أصحاب تاريخ مضيء .



وطلب زميل آخر نقطة نظام فأعطاه السعدنى الكلمة . كان الزميل من «طش»، وراح الزميل يندد بالمغالطات التاريخية لمندوب «وش» ، متبهاً إلى أن هناك مؤامرة على «دش » ليس فقط من الخارج ، لكن المؤامرة هذه المرة تأتى من منظمات ترتدى عباءة الماركسية لتخريب الحركة كلها ، فقام سيد عبدالله وطلب حق التعقيب ، فسمح السعدنى له ، فقال سيد عبدالله ... فى الواقع .

وراح السعدنى فى سبات عميق فبحراً من الكلام ثم الكلام ثم الكلام ، واستيقظ ليجد أن الشمس قد غربت وأن الاجتماع انتهى ، وعندما سألهم عن النتائج ، قالوا له إنهم لم يصلوا إلى أى شيء ، وأنهم سيواصلون النقاش باكر بإذن الله ...

.. أسبوع كامل والرفاق يجتمعون من الصباح الباكر حتى المساء ، وهات ياتنظير وهات ياخطب وهات ياسرد تاريخي لجرائم تاريخية موثقة ودامغة ، لما جرى للزميل على وزة فى معتقل الزيتون ، وعن المصير الهباب الذى انتهى إليه الزميل عبده زقلط فى معتقل روض الفرج، تلك الجرائم التاريخية الرهيبة التى لن يغفرها التاريخ ، والتى نتجت عن سوء الحياة العامة فى تلك المعتقلات ، وفاض الكيل بالسعدنى فقال لهم :

ـ يازملا ... سنجتمع هنا غداً وإذا لم

تصلوا إلى اتفاق سينسحب تنظيم «زمش» من الحياة العامة لكن ذلك الاجتماع لم يتم، والذى حدث أن إدارة السجن غيرت معاملتها فجأة، وجاءت فرقة إسماعيل همت للتعذيب، وتم تعرية المعتقلين، وكانت الأوامر تصدر إلى العسكر والتى سمعها السعدنى من خلف الأبواب :

ـ ابعد عن الراس والبطن وتضرب بكل قوتك ..

كانت ليلة سوداء أسود من قلب الكافر على حد تعبير السعدنى، ضرب وحشى بالأقدام وبالهراوات، وتحول البعض إلى «كفتة» بشرية، وغنى عن القول أن الأطعمة تمت مصادرتها، وتوجه السعدنى الظريف خروشوف زمش بالدعوات على أهل الحنجورى، فبدلا من أن يقسموا الكمثرى والتفاح والسلامون والحلاوة والبلوبيف، ويأكلوا مثل خلق الله، فضلوا التنظير والسرد التاريخى لتوضيح أبعاد المؤامرات الدولية على الرفيق على وزه والرفيق عبده زقلط .

قرار «زمش» التاريخى

كان السعدنى يسير فى حوش المعتقل بعد العلقة الرهيبة ومعنوياته فى الحضيض، ولمح أحد الزملاء الذى كان يبكى، فواساه السعدنى بكلمات من نوع شدة وتزول ولا يهمك يا زميل، فإذا بالزميل الباكى يقول :

« أنا مش بعيط على نفسى ... أنا بعيط على الزملا » .

فقال له السعدنى :

ـ أنا بقى بعيط على نفسى يازميل ... وكفاية نصب بقى ..



البكاء من تأثير الضرب الوحشى والإهانة التى تلحق بالإنسان من جراء القمع البدنى ضعف إنسانى مقبول ومبرر، وأى شعور آخر ادعاء كاذب ونصب لم يقبله السعدنى، الذى يحكى لنا عشية العلقة، كيف رأى شخصاً ضعيف الجسد جداً يسير فى الحوش، ولا يستر هيكله العظمى سوى الهلاهيل الرثة وحافى القدمين، ومضروبا ضرب الإبل، ومع ذلك كان يسير فى الحوش وكأنه ستالين يتفقد القوات الحمراء ساعة النصر، وعندما سأل السعدنى عنه، علم أنه معلم إلزامى وزعيم كبير يعتقد فى نفسه أنه ستالين جديد .

... وبعد أن أعلنت إدارة المعتقل سياسة العصا الغليظة، كابد المعتقلون محناً جديدة تتعلق بالطعام والشاى والسكر، ومن شدة الجوع أكلوا نباتاً شيطانياً فى الصحراء بنهم شديد، واتضح فوراً أنه نبات الخروع، وكاد

الرفاق يهلكون ، وفوق محنة الجوع كابد السعدنى خروشوف حزب زمش محنة الحرمان الشديد ، وذات صباح حارق من صباحات شهر أغسطس، وصحراء الواحات كأنها جهنم الحمراء ، قرر السعدنى أن تحل مشكلة السجائر ، معتمدة فى ذلك على غطاء فكرى سابق للزميل أحمد شوقى عبدالهادى الشهير بشوقى الصاعقة ..

... ولابد أن نقف قليلاً عند أحمد شوقى الصاعقة أحد أعمدة حزب زمش ، المرة الأولى التى رأى خلالها السعدنى الزميل شوقى الصاعقة كانت خلال الأيام الأولى للحبسة ، وكانا ضمن أربعة ضمتهم زنزانة واحدة فى سجن القلعة ، وكان أحمد رشدى صالح ضمن هؤلاء الأربعة ، ولاحظ السعدنى وجود شاب طويل بدرجة ملحوظة يبكى باستمرار وبصوت عال الأمر الذى أحنق أحمد رشدى صالح فقال له فى غضب :

ـ يا بنى عيب عليك تبقى راجل طويل عريض كده وتقعد تعيط .

فلوى الشاب الطويل عنقه نحوهما وقال لرشدى صالح :

ـ والله يا سعادة البيه أنا ما عملت أى حاجة .

فرد عليه رشدى صالح غاضباً .

ـ انت بتقول لى أنا ... ، إبقى قول لهم لما يسألوك ودلوقتى بطل عياط وبلاش توجع دماغنا إحنا مش ناقصينك .

وكف الشاب عن البكاء ومسح دموعه بطرف جلبابه ، ثم التفت إلى رشدى صالح وقال :

ـ إحنا حانخرج امتى يا سعادة البيه

فرد عليه رشدى صالح غاضباً .

ـ هو إحنا دخلنا لسة لما نخرج .. استنى لما ندخل وبعدين اسألهم .

وفى المرة الثانية التى رأى السعدنى شوقى الصاعقة كانت بعد فترة ، ورآه السعدنى فى وضع مختلف ، إذ كان يرتدى بنطلون شورت وفانلة مثل لاعبى الكرة ويحمل براداً كبيراً ، ويزعق بأعلى صوت قائلاً :

« حد عايز شاى يا زملا » .

وظن السعدنى أنه ابن بلد كريم ويحبوح يسقى الزملاء الشاى على حسابه، لكنه اكتشف أن صاحبنا يبيع الشاى مقابل السجائر ، واستدرجه السعدنى فحكى له قصته ، لم يكن الصاعقة علاقة بالشيوعية ولا بغيرها ، فهو ابن ناظر مدرسة أولية ، ويعمل فى مديرية التحرير ويسكن فى قرية منيل شيحة بالجيزة ، وأنه كان يستضيف زملاءه فى العمل فى بيته ، وكانت سعادته بزياراتهم عظيمة لأنهم كانوا يحملون معهم الدخان المعسل والحشيش ، وتكررت الزيارات وكانوا أثناء القعدة يتحدثون عن حزبهم وضرورة النضال ضد الفاشية ، ولم يجد شوقى الصاعقة

فى هذه الأحاديث ما يلفت النظر، فالمهم أن الجوزة شـغـالة والنـار لا تنطفئ وبراد الشاى شغال ، فتم القبض عليه باعتباره شيوعياً !! ووجد نفسه داخل المعتقل مثل الأطرش فى الزفة، وبعد أن يأس من الإفراج، أصبح لاهم له سوى السجائر ، وبدأ الصاعقة يلم أعقاب السجائر ويعيد لفها ويدخنها ، وقرر السعدنى ضم الزميل شوقى إلى حزب زمش ..

... واتخذت قيادة زمش (السعدنى ـ العطار) فى ذلك الصبـاح ، قـرارها التاريخى بلم أعقاب السجائر وإعادة تصنيعها للقضاء على حرمان أعضاء التنظيم ، وأبلى حزب زمش بلاءً حسناً فى موقعة السبارس ، وكان أكثر الرفاق إخلاصاً فى المهمة الحزبية هو الرفيق شوقى ، الذى اكتسب اسم الصاعقة خلال تلك المعركة التاريخية، لأنه كان ينقض على عقب السيجارة مثل الصاعقة، ولا يصده عن ذلك صفعات العساكر أو شلاليت البيه المأمور، وبعد خمسة أيام من القرار التاريخى، كانت حصيلة أعضاء زمش قيادة وشغيلة أكثر من ٥٠ عقبا فى اليوم الواحد .

وفوجئ زعيم زمش بحضور اثنين من غلاة الحنجورى من أجل حوار مهم وخطير مع زمش، وقال الزعيمان كلاما كبيرا عن الظرف التاريخى للاعتقال، وصراع الإرادات بين ادارة المعتقل وبين المعتقلين والمطلوب بعد كل هذه المقدمات هو أن يكف أعضاء زمش عن لم الأعقاب لأن هذا السلوك يسىء إلى الحركة كلها.

ـ أنت كاتب معروف ومن الواجب ان تكف عن التدخين اذا كان التدخين عن هذا الطريق .

هكذا قال السيد الحنجورى فى أهمية ورصانة شديدتين فعاجله السعدنى قائلا :

ـ أنا كاتب معروف وأرغب رغبة شديدة فى تدخين السجائر وليس هناك سبيل إلى تدخينها إلا عن هذا الطريق، كما أنك انت الآن أيها الرفيق تدخن هذه السيجارة التى أخذتها منى وهى من نفس الطريق وزميلك ايضا شفط عدة أنفاس عميقة عن هذا الطريق .

فضحك الرفيق خجلا وقال انت كل حاجة تقلبها هزار .

.. وفى اليوم التالى حضر الرفيقان ومعهم رفيقان آخران ، وكل يوم يزداد عدد الرفاق حتى وصلوا الى عشرة رفاق، حضروا ليقنعوا زمش أن تكف عن لم السبارس، وأثناء الاجتماعات كان الرفاق إياهم يدخنون سجائر زمش فى شراهة، حتى أن شوقى الصاعقة كان يتعمد أن يملأ سجائرهم بالتراب وبالقش، ومع هذا كانوا يدخنونها بشراهة، ولم تأبه زمش، واستمرت فى سياسة لم الأعقاب وكان الفضل الأكبر فى هذا لمحب الدخان

وعاشقه الأول شوقى الصاعقة، الذى بلغت درجة تهافته على التدخين، أن حدثت كبسة واضطر أعضاء زمش إلى إلقاء حصيلة اليوم فى جردل البول، وبعد انتهاء الكبسة وفى حلكة الليل، استيقظ السعدنى ليجد الصاعقة مشغولا بتجفيف السجائر وإعادة صناعتها ، ولما نهره السعدني قائلا له دى ريحتها بول، قال الصاعقة وايه يعنى ماحنا شربنا البول نفسه.

المهم أن الرفاق لم يعد أحد منهم يأتى الى قيادات زمش، فقد حذت بقية الأحزاب حذو زمش، وأمرت أعضاءها بلم الأعقاب، وأثبتت التجربة أن الخط السياسى لعاشق الدخان أحمد شوقى الصاعقة ، كان الخط السياسى السليم

السعدنى ورؤيته الثاقبة

.. رغم كل نوادر ساخرنا الكبير محمود السعدنى، إلا أنه بفطرة ابن البلد الأصيلة فطن إلى بيت الداء، ولم تنطل عليه شعارات الحنجورى، وأدرك ان كارثة التنظيمات الشيوعية المصرية كانت فى نشأتها ، هذا التيار السياسى الذى كان له وجود فى الساحة المصرية، وضم اليه العديد من اللآلئ الحقيقية ممثلة فى عشرات الموهوبين، هذا التيار كان محكوما عليه بالضياع، اذ قام بالإنشاء مجموعة من اليهود الخواجات



القادمين من وراء البحر، فكان لابد أن يظل غريبا وان يستمر غريبا وان ينتهى غريبا . وتحت عباءة السرية تسرب المئات من الجهلاء والصياع، ووجد بعض أصحاب العاهات النفسية فرصتهم للسيطرة والقيادة ، وراحوا يفكون عقدهم بالسيطرة على كل هذا الطابور الطويل من الموهوبين والمخلصين والشرفاء .

فما أعظم التضحيات وما أبخس النتائج، دفع الشيوعيون المصريون دم القلب من أجل الحصول على لاشىء ويددوا العمر من أجل تحقيق لا شىء وخرج الجميع من المولد بلا حمص، واكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم لم يكونوا فى المولد، بل كانوا فى سوق لم يستفد منها سوى الانتهازيين، حيث أصبح البعض منهم دكاترة وأغلبهم حصل عليها من المنطقة الحرة فى مطار تشيكوسلوفاكيا وبعضهم حصل عليها من سوبر ماركت فى هولندا.. وكان الثمن ضياع عشرات ومئات من المواهب المصرية الحقيقية.

.. تحية إلى كاتبنا الساخر العظيم محمود السعدنى الذى ابدع زمش ورأى الحقيقة «سوداء بلون تراب الوطن» كما يقول شاعرنا الراحل الكبير أمل دنقل، وأمد الله فى عمر كاتبنا الكبير محمود السعدنى . ■





نقطة النور والبحث عن السلام المستحيل

بقلم
د. صبري حافظ

تمثل رواية بهاء طاهر الجديدة (نقطة النور) نقلة نوعية في كتابة هذا الكاتب القدير، تستحق من النقد التريث عندها قليلا، فقد أنفق الكاتب خمس سنوات من العمل المتواصل الدءوب في كتابة هذه الرواية المهمة. لذلك على النقد محاولة التعرف على طبيعة ما تقطع مع إنتاجه السابق، ونوعية ما تصل معه، فهي برغم تشكيلها لنقلة مهمة في كتابته، فإنها في الوقت نفسه ذات صلة وثيقة بعالم هذا الكاتب الحميم، وخاصة مع قصة العنوان في مجموعته القصصية (أنا الملك جئت). لأن البحث في هذه الرواية الجديدة، بحث عن الذات في ألقها الصافي النقي، وعن سلامها الداخلي العميم، بقدر ما هو بحث عن العدل بمعنييه الميتافيزيقي والاجتماعي معا. فالمعنى الميتافيزيقي هو الذي يشد الرواية إلى قصتي (أنا الملك جئت) و(سأعطيك بركة) وبعض قصص (ذهبت إلى شلال) بينما يشدها المعنى الاجتماعي إلى (شرق النخيل) و(قالت ضحى) و(خالتي صفية والدير).

وإذا كانت هذه الروايات الثلاث ومعها روايته الأخيرة (الحب فى المنفى)، قد اهتمت بقضايا الواقع الاجتماعى والسياسى ورصدت تغيرات الواقع المصرى من الستينات وحتى الثمانينات، وجسدت ما اعترى الشخصية المصرية من تحولات تحت وقع معاول التغيير أو التقويض الذى انقض على المجتمع المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧، وتواصلت ضرباته المصمية حتى الآن، فإن هذه الرواية الجديدة تهتم هى الأخرى . بوقع هذه الضربات على الإنسان المصرى فى العقود الثلاثة الممتدة من السبعينات وحتى التسعينات مع اختلاف جوهرى هو خفوت حدة الدراما التى تتوهج فى (قالت ضحى) و (خالتى صفية والدير) و (الحب فى المنفى).

وخفوت حدة الدراما فى هذه الرواية الجديدة، والذى صاحبه إيقاع هادئ رصين ، إيقاع يوشك أن يطرح نفسه فى النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة، ليس مجرد خاصية فنية تتسم بها هذه الرواية دون بقية الروايات ، ولكنه فى الوقت نفسه المعادل الروائى لما انتاب الواقع المصرى فى الفترة التى تتناولها الرواية من تغيرات مزلزلة. فبهاء طاهر فيما يبدو شديد الوعى ، وبشكل حدسى خالص ، بما يدعوه النقد الأدبى الحديث بـ «محتوى الشكل»، أى أن للشكل الروائى، وكل ما يتعلق به من تقنيات سردية، محتواه الدلالى الذى لاينفصل بأى حال من الأحوال عما كان يدعوه النقد الأدبى فى الخمسينات بالمضمون.

جسدت الرواية التحولات الاجتماعية الصادمة لمرحلة التسعينيات فى مصر

بل هو المضمون الأهم فى التحليل النصى للعمل الروائى، لأنه المضمون الذى يصوغ بنية العمل ويشكلها فقد تجاوز النقد الحديث القول بالعلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، إلى القول بأن للشكل نفسه، مصادراته، والمسكوت عنه فيه . فهو أهم ما فى العمل الأدبى، وهو ما يميزه عن غيره من صيغ التعبير المختلفة .

أخطر منطلقات الرواية

ولذلك جاء اختياره لشكل هذه الرواية كاختيار لموضوعها وعالمها ورؤاها. لأن محتوى الشكل هو ما يصوغ لنا تلك النقلة النوعية التى تحدثت عنها فى مطلع هذا المقال، لأنه ينطوى على أخطر منطلقات هذه الرواية، وأهم ما تطرحه من قضايا. فقد جسد هذا الشكل بصوته الروائى الخافت، ومروره العفوى المراوغ على التحولات الاجتماعية الصادمة، أو حتى سكوته العمدى عنها، ما يمكن دعوته بالبنية الجوهرية لمرحلة التسعينات المصرية. بنية يبدو فيها أن صوت التطورات الدرامية بالغ الخفوت، ويمكن غض الطرف عنه، وأن كل ما يحدث لايستحق الاهتمام به، ولكن هذه البنية المراوغة ذاتها تخفى تغيرات مزلزلة للقيم

والعلاقات على السواء ، وتتستر على داء
اجتماعي وأخلاقي وبيل لابراء منه،
وتكتب لنا التردى والتداعي والدمار
تحت قشرة العادي والمألوف في حياة
هذه الأسرة الشعبية البسيطة. وما يدعم
هذا التأويل لمحتوى الشكل فى الرواية
عندي هو العلاقة المعقدة بين زمن السرد
والمجال الزمنى الذى يغطيه هذا السرد.
فزمن السرد هو الزمن الذى اختارت
الرواية أن تدور أحداثها الأساسية فيه،
وهو الفترة الممتدة من عام ١٩٧٥ وحتى
التسعينات وتداعى بيت الأسرة الآيل
للسقوط منذ زمن وإخلاؤه. أما المجال
الزمنى الذى يغطيه هذا السرد، فيشمل
حياة بطلها الرئيسى «توفيق السعدى»
كلها. أى يشمل القرن العشرين بأكمله،
وما انتاب الإنسان المصرى والحياة
الاجتماعية المصرية فيه من تحولات.
فنحن نعرف أنه قد ولد فى أول سنة من
القرن، وقدر عليه أن يحمله على كتفيه
حتى اقترب القرن من نهايته، ونعرف
تفاصيل حياته شابا، وما جرى لابنه
وحفيديه من بعده. لكن أهم ما يدعم هذا
التأويل عندى هو الدلالة الاستعارية
والروائية لما جرى للبيت الذى ورثه
«توفيق السعدى» عن أبيه، وحاول ترميمه
حينما بدأت الصدوع تظهر فيه. ولكن
هذا الترميم الذى دار – لدلالة التوقيت
الزمنى المهمة – فى زمن الانفتاح ،
أساء للمبنى ولم يشد أزره، فكان من
الطبيعى أن ينهار البيت كله، وأن
تتقاسم أرضه أهواء الطامعين. وتصدع
البيت وتهدمه علامة روائية بالغة الأهمية،
علينا ألا نغفل عن ظهور صدوعها الأولى



فى القسم الأول من
الرواية ، وبلوغ هذه
الصدوع، بعد محاولة
الترميم الغريبة،
مداها فى قسمها
الأخير، بإجبار
الحكومة السكان على
إخلاء العقار وهدمه .

علاقة جدلية

وعلاوة على هذه العلاقة الجدلية المهمة
بين زمن السرد فى الرواية، وتركزه فى
القاهرة وفى حى السيدة زينب الشعبى
الذى يقع فيه بيت الأسرة الأساسية فيها،
والمجال الزمنى الأوسع الذى يغطيه
سردها ، وينتقل معه فى مجال جغرافى
يمتد من أسيوط فى الصعيد حتى
المنصورة فى الوجه البحرى، هناك أيضا
هذا المجال القيمي الأوسع الذى يطرح قيم
عالم قديم فى مواجهة قيم العالم الجديد
الذى انبثق بعد الانفتاح فى مصر، وانتهى
بفرقعة انهيار البيت الكبير كله. وتقدم
الرواية فى هذا المجال مجموعة من
التنويعات المتعددة على هذا الجدل أو
الصراع بين العالمين. إذ يقدم لنا «فراج»
مسيرة مجموعة القيم القديمة التى شاركت
فى تكوين حلم الشباب بمستقبل أفضل
بعد حرب أكتوبر، وما جرى لهذا الحلم،
وما ينطوى عليه من قيم من تبديل. بينما
يقدم لنا الدكتور شوكت، وقصته مع
ماضيه وزوجته تنويعا آخر على مسيرة
عدد من القيم القديمة وتحولاتها فى عصر
الانفتاح وما جره على الواقع المصرى من
«سداح مداح» .أما قصة «سالم» و«لبنى»
فإنها توشك أن تجسد لنا وقع هذا
الصراع بين عالمى القيم على الجيل الجديد

الذى شب عن الطوق فى هذه الفترة بل توشك الرواية كلها، فى مستوى من مستويات التأويل، أن تكون ساحة للصراع بين هذين العالمين القيميين، أو بالأحرى سيرة للضربات الموجعة والقاصمة التى تلقاها عالم القيم القديم صاغرا، وصامتا ، ومذعنا فى آن. وهى سيرة تكشف عجز هذا العالم وقلة حيلته، بطريقة دفعت الروائى إلى خلق هذا السعى الروحى الحثيث فى الرواية وكأنه نوع من التشبث بشئ خفى قد يخفف وقع معاول الهدم على عالم القيم القديمة، قبل أن تقع على البيت القديم نفسه، وقد يعلل النفس بأن ثمة خلاصا من هذا الواقع الكابوسى المبهظ الذى يأكل مع ضربات الانفتاح كل أمل فى الخلاص الفردى أو الروحى .

هذا كله يدعم القول بأهمية محتوى الشكل فى هذه الرواية الجديدة الجميلة، لأنها وقد لجأت إلى هذه الصيغة الروائية التى تبدو لأول وهلة وكأنها مجرد صيغة تقليدية بالغة الهدوء، تؤكد لنا أن هذه هى الصيغة المراوغة التى يتبدى عليها الواقع التسعينى فى مصر، وهو واقع خال شكليا من الدراما، تدور فيه الأحداث وكأنها تفاصيل لا أهمية لها، هى مجرد صيغة مراوغة لابد لنا من تدقيق النظر فيما تخفيه، أكثر من الاهتمام بما تبرزه لأن المسكوت عنه فى هذه الصيغة هو الأمر الفادح الذى يستحق كل اهتمام. ولأن الواقع المصرى فى التسعينات ينطوى بحق على مجموعة من التغيرات المزلزلة، والتى تمررها عملية خفوت الصوت ذاتها، أو تطلسمها وتصرف النظر عن التفكير فيها. وهذا نفسه ما يحتاجه القارئ مع هذه الرواية الجديدة . وأول ما يلفت نظرنا إلى هذا الجانب المراوغ فى الرواية هو الإهداء «فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير يحيى حقى، رحمه الله ، اتنسم عطر الأحباب» فقد كان يحيى حقى شديد الحرص على مناسبة القول للغرض، وملاءمة الشكل للمعنى، ودقة التعبير ووضوح القصد . وهذه كلها من سمات السرد فى هذه الرواية الجديدة، لأن الرواية تبدأ بداية تقريرية هادئة :«عاش سالم منذ طفولته فى رعاية جده الباشكاتب» وتدور فيها أكثر الأحداث درامية دون أن يطرف للسرد جفن فيها، وكأن لاشئ ذا بال يحدث فيه .

مراحل ثلاث

لكننا ما أن نقرأ الرواية ، ونتأمل العلاقة بين أقسامها الثلاثة، وهى فى الوقت نفسه علاقة بين مراحل ثلاث من حياة شخصياتها، ومن حياة مصر معها، حتى نكتشف ما وراء هذا السطح الهادئ من تغيرات ودلالات وحتى ندرك أن ذاكرة النص الداخلية هى ذاكرة مطمورة فى طوايا النسيان كذاكرة واقعنا التاريخية ذاتها. مطمورة، ولكنها موجودة إذا ما حفرت وراء قشرة هذا الواقع السطحية واستنقذتها من طوايا النسيان. ويقدم لنا القسم الأول من هذه الرواية والمعنون «سالم» قصة هذا الحفيد سالم، الذى تخلى أبوه عن مسئوليته عنه لجده «توفيق» حتى يرعاه، فى نوع من تخلى جيل كامل عن مسئوليته حيال الواقع وحيال أبنائه فيه ومنه. جيل لم تتح له فرصة النضج، حرم من شبابه واكتهل دون أن يمر بمرحلة الشباب أو يعرف

عنفوانه. يبدأ بتناول وعيه بالبيت، أى بالمكان الذى نشأ «سالم» فيه، بعمارته وجغرافياه معا. ثم ينتقل إلى حى السيدة زينب الذى يقع فيه البيت، ومسجد السيدة زينب الذى يصحب إليه الجد حفيده كل جمعة للصلاة ، ويعود بعدها محملا ببعض المشتريات لحفيدته «فوزية» وببعض الحكايات عن الباشمحضر «السيد السنانيرى» وكراماته التى عرف بسببها باسم «أبو خطوة». فنحن هنا بإزاء نص يتابع خطى نص يحيى حقى الجميل (قنديل أم هاشم) فى التعرف على هذا الميدان نفسه وأحلام شبانه، ولكن بعد انصرام عقود طويلة على رؤى النص الأول واستقصاءاته .

وكما حرص الجد فى (قنديل أم هاشم) على أن ينال أبناؤه وأحفاده البركة «أم العواجز» وأن يزدهر مستقبلهم تحت رعايتها حرص «توفيق» الباشكاتب على أن يجلب لحفيده «سالم» حجاب «السنانيرى»، وأن يتنبأ له بمستقبل باهر. وساعده على تحقيق هذا المستقبل بأن اهتم بدروسه وذاكر معه حتى وصل «سالم» إلى نهاية المرحلة الثانوية عام ١٩٧٥. أى أنه بلغ بدايات وعيه مع بداية مرحلة الانفتاح الساداتية. صحيح أن الرواية تشير عرضا إلى تاريخ وصوله إلى الثانوية العامة، ولكنها لا تشير من قريب أو بعيد للسادات أو لانفتاحه المشئوم. لأنها تحرص على أن تجسد كيف أثر هذا الانفتاح على أسرة «توفيق» الباشكاتب، دون أن تتحدث مباشرة عنه. ترصد تفاصيل هذا الانفتاح فى حديث «جابر» نادل المقهى



عن تجارة الشنطة وتجارة الدولارات، وفى استجابته المغايرة لاستجابة الباشكاتب للخطاب الذى جاء من تنظيم الحى بأن شرخا قد ظهر فى جانب البيت «غيرك يا أستاذ يدفع أموالا لكى يحصل على هذا الخطاب» (ص ٥٦). فقد كان هذا هو زمن سعار بناء عمارات التمليك ، وهدم عمارات الإيجار التى لا تغطى تكاليف تسييرها. فالباشكاتب بنفسه يدرك أنه «لايكاد يتبقى من إيجار مساكنه شئ بعد دفع العوائد وإنارة السلم ومرتب البواب» (ص ٤٩) ولكن هناك أيضا جانبا آخر تكشفه لنا آليات العلاقة داخل الأسرة. وكأن الجد بحرصه على تعليم حفيده، أو على نجاح الحفيد فى التعليم، يريد أن يعوض إخفاقه مع ابنه «شعبان السعدى» الذى لم يتقدم فى تعليمه بعد السنة الأولى الثانوية، فاضطر الجد إلى أن يوجهه للتجارة ، وأن يفتح له دكان «مانيفاتورة» ، لكنه لم يفلح كثيرا فى التجارة ، وظلت أحواله المادية متعثرة طوال حياته .

رواية التربية القمعية

وترسم لنا الرواية تفاصيل السياق الذى نشأ فيه «سالم» فبعد المكان والزمان نتعرف على موت أمه المبكر وهو فى الثالثة من عمره، وقيام شقيقته «فوزية» التى تكبره بأربع سنوات فقط بدور الأم بالنسبة له، وللأسرة كلها. وحالة الحصار التى يعيش فيها وقد

أجبره أبوه بالضرب القاسي، خوفا عليه لجماله، على أن يتجنب اللعب مع أبناء الحارة. وما سببته الوحدة له من حالات «بذاءة» تأتيه دون سيطرة منه عليها فينطلق لسانه بأبشع سباب لكل من حوله. وحينما أخذه أبوه وعرضه على طبيب، وفحصه هذا الطبيب بعناية وعرف سياق حياته كلها قال لأبيه فيما يشبه التأنيب ما هى المشكلة ؟ فشرح له «شعبان» حكاية النوبتين والشتائم التى يطلقها، فرد الطبيب: «والله أنا شخصيا أفعل ذلك فى سرى طوال اليوم. وليتنى أبوح بهذه الشتائم مثل ابنك. ما أكثر من يستحقونها » (ص ٢٤) ولم يقتنع الأب بهذا الرد، ولا بتشخيص الطبيب الأمين وعرض ابنه على طبيب آخر، تلاعب به، وطلب رسما للمخ، ووصف له أدوية كثيرة ومكلفة كادت تقضى عليه وقال لجده بصوت واهن وقد أوشكت الأدوية أن تودى به « قل لى ياجدى، هل أنا مجنون» فرد عليه «لا ياولدى بل نحن المجانين» (ص ٣٦) وهو رد دال على أكثر من مستوى، لأن تنفيس الصبى عن نفسه فى واقع يستحق الشتم، اعتبر جنونا أو مرضا يستلزم العلاج. وكأن الرواية هى رواية التربية القمعية التى تخضع الجميع للسكوت إزاء ما يجب أن ينطلقوا فى وجهه بأبشع السباب وأحط التهم. وكأنها فى الوقت نفسه تسعى لتفكيك آليات هذا الخنوع المصرى إزاء واقع يؤدى فى بلدان أخرى إلى الثورة العارمة عليه، كما حدث فى الفليبين أو فى إندونيسيا

وكلما تقدم بنا السرد، أدركنا أن هذا الواقع الذى تخلق فى مصر منذ

هناك علاقة جدلية مهمه بين زمن السرد فى الرواية والمجال الزمنى الاوسع الذى يغطيه سردها

صبا «سالم» المبكر ، واستشرى مع مراهقته وشبابه واقع يستحق - كما قال الطبيب - أقذع الشتائم. وحتى يدرك القارئ بنفسه أن هذا الواقع يستحق بحق أقذع الشتائم، يقدم السرد خيطا روائيا آخر إلى جانب خيط «سالم» ذاك ، وهو خيط أخته فوزية فقد كانت «فوزية» جميلة هى الأخرى يلاحقها، لجمالها الجميع. فأصر الأب على إخراجها من المدرسة وهى فى بداية المرحلة الثانوية بالرغم من معارضة الجد، ومن إصراره على أن إكمال دراستها الثانوية على الأقل قبل إخراجها من المدرسة، لأن الشهادة سلاح فى يدها ينفعها فى المستقبل ، ولكن دون جدوى . وقد نشأت علاقة ما بينها وبين جارها «فراج» الذى جاء لخطبتها، بعدما انتهى من دراسته وحصل على بكالوريوس التجارة، وعين فى إحدى شركات القطاع العام. وأصر الأب بحماقته على رفضه ولكن الجد - وقد اكتشف أن فوزية على علاقة بفراج - تدخل بحصافته لإتمام الزواج، وللتغطية على «غلطة» حفيدته، التى ما أن عرف بها أبوها حتى انفجر فى وجه الباشكاتب «أنت أفسدت حياتى يا أبى. أخذت منى أولادى وضيعتهم كما ضيعتنى »

(ص٣٢) فليس ثمة فى هذه الرواية شخص يستطيع أن يتنصل من المسئولية، أو يتهرب من تقريع أسئلتها الملحاحة. ولحسن حظ «فوزية» لم يتنصل «فراج» من مسئولية ما فعل بها وجاء لخطبتها من أسرتها. فقد كان «فراج» بحق شابا مثاليا من زمن آخر ينتمى إلى منظومة القيم القديمة التى بادت. نتعرف معه على لغة قديمة لاتدرك أنها قد فقدت مصداقيتها وفاعليتها فى بدايات الزمن السبعينى الذى لم يكشف عن أنيابه بعد. «أنا إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركونى فى تفاؤلى وستكون ابتنكم فى عينى» . (ص ٢٩)

علاقة جذرية عميقة

وقد تشبث «فراج» بتفاؤله حتى دمره الواقع المزلزل، ودمر معه «فوزية» الجميلة، فقد بنى مستقبله على موجة التفاؤل العارمة التى اندلعت بعد حرب أكتوبر، وصدق وهمها الشبان قبل غيرهم. ولكنه لم يتنبأ أبدا بأن هذا التفاؤل سوف يلتهم أول ما يلتهم المتفائلين أنفسهم. لذلك وقع فراج فى براثن هذا التفاؤل ولم يبارحه لأمد غير قصير. وأخذت حياته تتسرب من بين أصابعه ، وتزداد مع الأيام سوءا وتعقيدا . فقد «بنى مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر فى بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت فى رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيد مرتبه. يقضى فى عمله ساعات أكثر من زملائه لكى يزيد الإنتاج، ولكن سواء زاد إنتاج المصنع أو قل فسيظل مرتبه كما هو لايزيد ولا ينقص «ص ٤٩ » لكن ما بدأ يعقد حياة «فراج» ليس أنه أنجب طفلا، وزادت عليه المطالب والأعباء



فحسب، ولكن أن قيمة مرتبه الذى لايزيد ولا ينقص أخذت فى التآكل مع ارتفاع الأسعار. «ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب ؟ كيف تكفى المرتبات الناس مع هذا الغلاء » (ص ٦٩) وبدأت حياته مع «فوزية» فى التدهور بالتدريج .

وإذا كان القسم الأول من الرواية هو قسم «سالم» وقسم العلاقة الجذرية الحميمة بينه وبين جده الباشكاتب ، وأخته «فوزية» فإنه فى الوقت نفسه هو قسم حياة الباشكاتب مع زوجته «سمية» وما عاشه معها من سعادة غامرة، وفرح حقيقى انصرما بموتها المبكر. وهو فى الوقت نفسه قسم علاقته مع ابنه «شعبان» وإخفاقه فى تعليم هذا الإبن، أو حتى فى إسعادة. فقد زوجه من «سعاد» الجميلة الوديعة التى انجبت له «فوزية» و «سالم» ولكنه قتلها بإهماله أو سذاجته، أو بغبائه ومع ذلك ظل هناك فى داخل الإبن نوع من الإحساس بأن الأب هو الذى أفسد حياته. بينما يشاغل الجد إحساس مماثل بأن ابنه هو الذى نغص حياته وبأنه فعل كل شئ من أجله دون جدوى. وهذا المناخ الغريب الذى ملأ البيت هو المسئول عما انتاب «سالم» من اضطراب ، وما يأتيه من نوبات ولذلك ليس غريبا أن ينفجر «سالم» فى جده مرة، كما انفجر شعبان فيه «لاتكذب ياجدى، لماذا يهرب أبى منى، لماذا يهرب من كل إنسان. من فوزية

ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب لماذا لايزوره أحد، ولا يزور هو أحدا ؟ لماذا يحول وجهه بعيدا كلما كلمته أنا ؟ ولماذا ينظر فى الأرض حين تكلمه أنت ؟ ما الذى فعله أبى ؟ أبى فعل شيئا يخفيه هو، وتخفيه أنت أبى لايحبنا كان يريد أن يضعنى منذ زمن مع المجانين وزوج فوزية لرجل فلاح فى الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها، ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولا تحبه لاتكذب ياجدى أنت لاتحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه. ولهذا لا يأتيه زبائن فى المحل، ولهذا يعاقبه ربنا» (ص ٤٣). هذه الأسئلة المؤرقة تكشف عن خلل دفين فى علاقات هذه الأسرة التى تبدو وكأنها أسرة بالغة التماسك، ولكن بنيتها تعانى من الصدوع والشروخ تماما كالبيت الذى تقيم فيه .

روافد الحبكة القصصية

بعد أن قدم لنا بهاء طاهر فى الفصول الأولى من روايته أسرة بطلها الشاب «سالم» وجده «توفيق الباشكاتب» يلجأ فى بقية فصول القسم الأول، وفى القسمين التاليين من الرواية «لبنى» و«الباشكاتب» إلى تقنية التضافر والتفاعل بين خيوط الرواية المختلفة لأن بهاء طاهر مولع بهذا النوع من التقنيات ، وبأن يكون للحبكة الرئيسية فى الرواية مجموعة من الروافد أو الحبكات الثانوية التى توسع من أفق المعنى فيها، وتعمق دلالاته. فهناك خيط قصة «سالم» و«لبنى» وقصة هذا الجيل السبعينى الذى ذهب إلى الجامعة فى النصف الثانى من السبعينات وعاش بقية مرحلة السادات فيها وما تعانى منه من اضطرابات ما لبثت أن انفجرت فى انتفاضة يناير الشهيرة عام ١٩٧٧.

وهناك كذلك خيط أخته «فوزية» وزوجها «فراج» الذى ينتمى إلى آخر دفعة من جيل الستينات، أو أول دفعة من جيل السبعينات، تلك الشريحة التى ذهب شبابها إلى المعهد الاشتراكى بعد الهزيمة، وتفاءلوا بحلم التحرير والتغيير ، ثم عصفت بهم تحولات السبعينات الانفتاحية، ودمرت أملهم فى حياة بسيطة كريمة ، وهم لايزالون فى مطلع الشباب . وشهد كيف أن تسارع معدلات التضخم يضرب أسرته الصغيرة بقسوة .

تقول زوجته قبل انتفاضة يناير بشهور: «المرتب الذى كان يكفى تماما قبل سنتين ، أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة فى البيت ، ورغم ما يعطيه لها جدها» (ص ٩٩) .وهناك أخيرا قصة الجيل الأول : جيل الجد، الذى ولد مع بداية القرن، وجيل ابنه «شعبان» الذى خاب فى التعليم، وهو الجيل الذى نتعرف على تنويعين متهمين له فى شخصيتى الدكتور «شوكت» والد «لبنى» والدكتورة «صفاء والدتها» وهذا الجيل الذى يبدو وكأنه جيل غير رئيسى فى الرواية هو الجيل الذى تحرص الرواية على أن تقدم لنا ثلاث تنويعات مختلفة عليه . «صفاء» بنت الطبقة الارستوقراطية و«شعبان» ابن الطبقات الشعبية ، و«شوكت» الذى ناضل من أجل هذه الطبقات الشعبية ودفع الثمن، ثم تحول مع من تحولوا أو تنصلوا من تاريخهم القديم ، بعدما انتابهم اليأس،

ودمرت المؤسسة حلمهم وأملهم بالتغيير بتكريس تغييرها المقلوب ومع تحولات كل هذه الشخصيات والأجيال. هذه الخيوط كلها تتطور فى الرواية فى نوع من التوازى والتفاعل المستمر حتى نهاية الرواية . إذا كانت الرواية قد قدمت ثلاث تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل الأربعينات : شوكت وصفاء وشعبان وعدداً من شخصيات الجيل السابق عليهم : «الباشكاتب» و«نازلى» هانم و«أبو خطوة» وبعض سكان بيت السيدة زينب ، فإن مدار اهتمامها الأول هو جيل السبعينات الذى ينتمى إليه «سالم» و«لبنى» وحتى فوزية إلى حد كبير، بالإضافة إلى «دعاء» و«مرتضى»

وهو الجيل الذى ينتمى إليه «فراج» كذلك، لأن الزمن الذى عاشه قبل هذه الحقبة ، وشارك فى صياغة منظومته القيمية يبدو فى الرواية وكأنه زمن ناء بعيد. زمن كانت فيه القيم الإنسانية البسيطة مثل الأمانة والصدق والمثابرة فى العمل واحترام المعرفة باعتبارها السبيل للترقى الاجتماعى مكانتها المحترمة فى المجتمع ثم انقلب ميزان القيم، واحتلت أعلى المكانات فيه قيم الفهلوة والانتهازية والرشوة والثراء الحرام. وهذا الانقلاب ذاته هو الذى دفع عددا كبيرا من جيل «فراج» إلى البحث عن خلاص « الإسلام»..

انقلاب ميزان القيم

لكن الرواية لا تفصح لنا عن حقيقة هذا الخلل والانقلاب، وإنما تترك لنا استنتاجه بأنفسنا. تعرض علينا بعض



تجليات هذا الخلل أو سياقاته العامة أولا ثم تركز على تجلياتها فى الأسرة. ولاتفعل ذلك بشكل عمدى، وإنما عفوا فالجد يكشف لحفيده «سالم» عن السياق العام من خلال القضايا التى احتفظ بملفاتها، وكان ينوى أن يؤلف كتابا عنها. وهى كلها قضايا لأناس ارتكبوا جرائم كبيرة دون أن يكون لأى منهم سوابق، أو يتسم أى منهم بميول إجرامية من أى نوع. ويدور نقاش دال بين الجد وحفيده، يطرح فيه الجد عددا من الأسئلة المهمة : « ما الذى يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق، ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟ لماذا إذن يغيب العقل، وتسيطر التفاهة ؟ » وهما سؤالان بالغا الأهمية، بل من الأسئلة المفتاحية فى الرواية كلها . فإذا كان ما أثار السؤالين هو محاولة النص موضعة الخلل الذى انتاب الأسرة فى سياق أوسع تنتشر فيه جرائم تحدث كلها فى غياب العقل وسيطرة التفاهة، فإن الرواية مشغولة كذلك بتناول تجليات هذا كله داخل الأسرة وانعكاساته عليها .

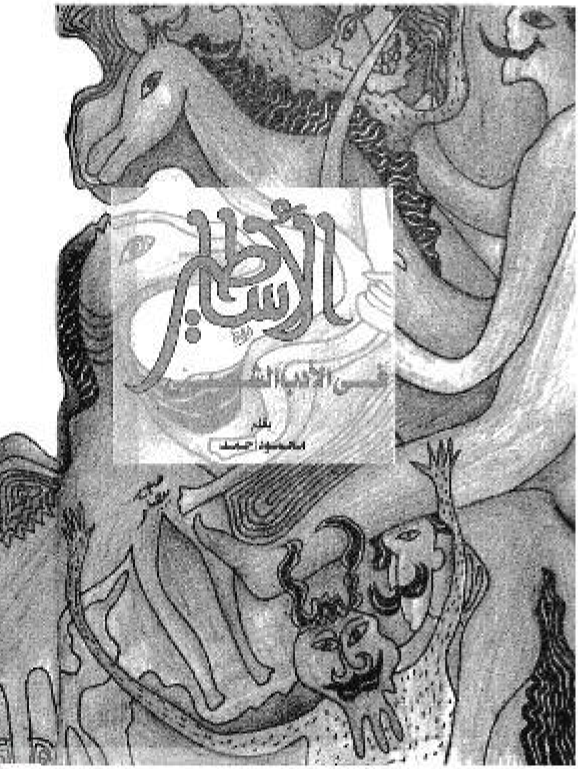
وكان من الطبيعى وقد انتهى القسم الأول «سالم» بقصة الحب هذه أن يكون القسم الثانى هو قسم «لبنى» حبيبته، أصلها وفصلها إذ ندلف معها بعد نعمة تعرفها على «سالم» وما جرى فى يوم التعارف الأول ذاك إلى بيتها، ونبدأ فى معرفة قصتها. وفى قصتها شئ من قصة

«سالم» وكأنهما معا أبناء جيل فقد الآباء، وعليه أن يختار مسيرته وحده دونهما، وأن يعاني آلام هذه المسيرة الصعبة وحده، وكأن الرواية تنطلق من أن قدر جيل السبعينات المصرى وأزمته معا هو أن يعيش هذا اليتم الحاد المروع، فإذا كان سالم قد فقد أمه بالموت وهو لايزال طفلا، وفقد أباه بتلك اللعنة الغريبة التى لايدرى كنهها، والتى تجعله غائبا حاضرا فى النص. فإن «لبنى» هى الأخرى قد فقدت أبويها برغم أنهما لايزالان على قيد الحياة. فقدت أبوة أبيها الطبيب الكبير الناجح الدكتور «شوكت» الذى يوفر لها كل شئ إلا الأبوة ذاتها، منذ أن انفصل عن زوجته الدكتورة «صفاء» بالطلاق وحرمها من ابنتها التى كانت لاتزال فى العاشرة من عمرها، وحرم ابنتها من الأمومة التى هو الآن - يوم لقائها المشهود بـ«سالم» ووقوعهما معا فى الحب - فى أمس الحاجة إليها كى تعترف لها بأنها تحب، وتشاركها لحظة سعادتها الغامرة تلك. لكن فقدان «لبنى» لأبويها وهما على قيد الحياة له دلالات أخرى غير تلك التى نستخلصها من فقدان «سالم» لأبويه. لأنه يلخص لنا ملامح مأساة لبنى، ومأساة جيلها كله. جيل تيتم معنويا وسياسيا وحضاريا بعد رحيل عبد الناصر، كما تيتم نفسيا وأبواه على قيد الحياة.

أم علينا أن نقول إنه جيل مغتصب ومستباح كله، لأن الوطن نفسه قد استبيح. فقصة اغتصاب «لبنى» وهى فى السادسة عشرة من عمرها، ليست

كان خفوت حدة الدراما فى هذه الرواية، هو المعادل الموضوعى لما انتاب الواقع المصرى فى تلك الحقبة من تغيرات مزلزلة

مجرد قصة عادية من عشرات القصص المماثلة التى تتكرر مع هذا الجيل، ولكنها قصة دالة على هذا الاغتصاب النفسى واليتم المعنوى معا، وستكتمل دلالات هذه القصة المؤلمة قرب نهاية الرواية عندما يوشك أبوها، فى نوبة سكر، أن يقدم على فعل مشابه. وربما كان هذا المزيج من الخوف والإحساس باليتم هو الذى دفعها إلى الاشتغال بالسياسة، على طريقة جيل السبعينات ومجلات الحائط فى الجامعة. وهو الذى ملأ الرواية بعد ذلك المنعطف الحاد الذى ينتهى بسجن لبنى وسفرها للخارج بتلك الكوابيس النفسية التى تتواقت فى الرواية مع كوابيس أخرى سياسية، تساهم بطريقتها الخاصة فى تصاعد حدة كريشيندو الأحداث الذى ينتهى بموت الجد وانهيار البيت الذى ظهرت فى جدرانه الصدوع منذ بداية الرواية وأصبح أيلا للسقوط مع نهايتها. وكأن الرواية تحذر من هذا الانهيار الحثيث، وتدق أجراس الخطر بشأنه. فهل هناك من يستمع لتحذيرات زرقاء اليمامة قبل أن يفوت الأوان؟ ■



الأساطير في الأدب الشعبي

بقلم محمود حامد

عرف الأدب العربي «الأسطورة» منذ زمن بعيد. وليس المقصود هنا الأدب «الشعبي» الذي ملأه الخيال بحكايات وخرافات الجن والعفاريت والعمالقة والملوك والجواري، كما تجسدت في «السيرة الهلالية» - على سبيل المثال - أو حتى في قصص «ألف ليلة وليلة» المغرقة في الخيال والركيكة في الصياغة رغم أنها بهرت أجيالا كثيرة - في الغرب خصوصا - بما حوت من خرافات وخوارق عجيبة.

إنما المقصود هنا هو تلك الأساطير التي عبر عنها أدب عربي رصين، شعرا أو نثرا، والتي ذاع بعضها وظل بعضها الآخر منسيا في جوف المخطوطات وكتب التراث، ولم تلق ما يكفي من اهتمامات الباحثين. فهذا نوع من التراث الذي يحقق «متعة» كإنتاج أدبي، إلى جانب أنه يعبر عن روح العصر ويعكس صورة للتفكير الذي كان سائدا في زمن ما.

ومن الواضح أن هذا النوع من الأساطير قد عرفه العرب القدماء منذ ما قبل ظهور الإسلام بوقت طويل، ثم ازدهر البعض منها في عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، حتى اختفى منذ بدأ يخبو وهج هذه الحضارة وتراجع. ولكن الذاكرة العربية القادرة على النقل عن طريق «الرواية» عبر العصور، استطاعت أن تحفظ لنا بعض هذه الأساطير التي أنتجها الخيال العربي في العصور المبكرة، خاصة ما احتوى منها على حكم أو أمثال صيغت شعرا ونثرا.

ولعل الفرق الأساسي الذي يميز الأساطير الأدبية عن حكايات وخرافات الأدب الشعبي - بالإضافة إلى اللغة الرصينة والأسلوب الرفيع - هو أن أساطير الأدب خلفت تراثا من الأثر والشعر، في صورة حكم وأمثال على ألسنة الشخوص، ظل الناس يرددونها حتى اليوم.

جهيلة... قاطع طريق

لعل من أشهر ما [illegible] لنا الرواية العربية في هذا السياق القول [illegible] الذي لا يزال يردده الناس حتى يومنا هذا وهو أن «عند جهينة الخبر اليقين». [illegible] جهينة هنا شخصية شبابية على الأرجح لم يكن لها وجود... والحكاية التي احتفظت لنا بها حكاية التي تعود إلى عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية، في أنه لم يكن سوى لص وقاطع طريق!

وتروي الأسطورة، التي ربما انطوت على أصل من الحقيقة [illegible]، أن جهينة التقى مع صعلوك آخر مثله من الأعراب [illegible] على أن يجمعا معا لاعتراض المسافرين وسلب أموالهم. وحدث أن [illegible] وتغير [illegible] على صاحبه فقتله ثم ملك [illegible] الصحراء، وانقلب [illegible] بعد ذلك إلى قومه، فلولا امرأة [illegible] زوجها في الأحياء - ومنها [illegible] وأخر [illegible] -

الناس فسألها : ومن أنت ؟ قالت : صخرة .. امرأة الحصين . قال : أنا قتلته . قالت : كذبت، ما مثلك يقتل مثله . أما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا ! فانصرف عنها إلى حيه، ثم وقف حيث يسمعه الناس فقال :

وكم من ضيغم ورد هموس
أبي شبلين مسكنه العرين
علوت بياض مفرقه بعضب
فأضحى في الفلاة له سكون
وأضحت عرسه ولها عليه
بعيد هدوء ليلتها رنين
وكم من فارس لا تزدريه
إذا شخصت بموقعه العيون
كصخرة إذ تسائل في «مراح»
و«أنمار»، وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب
وعند جهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلا عنه فعندي
لصاحبه البيان المستبين

الملكة زنوبيا .. والأمثال

ومن الأساطير التى تناقلها الرواة العرب القدامي، أسطورة الملكة زنوبيا أو «الزباء» ملكة تدمر التي يقال: إنها فاقت أهل زمانها عزما وحكمة وقوة . ولا تزال أطلال مدينة تدمر باقية حتى اليوم، تحتضنها الصحراء السورية وتجتذب المئات من السائحين، ولكن ما يروى عن الملكة الأسطورية زنوبيا بقى دائما نوعا من التراث الذى يحوطه الغموض وتختلط فيه الحقيقة بالخيال . ولعل أبرز الخطوط التى تنسج الأسطورة يتمثل فى قولهم: إن الملكة التى أخذها غرور القوة وحب التوسع أرادت أن تضم إليها ملك جار لها يدعى حذيفة، فاحتالت حتى أغرته بأن يسير إليها فيتزوجها - وهى التى اشتهرت بحسنها أيضا - ويضم ملكها إلى ملكه . وزين الطمع لحذيفة أن يستجيب لعرض ملكة تدمر، رغم نصح مستشاره المخلص، واسمه «قصير»، والذى لم يجد فى النهاية سوى أن ينصحه بأن يبقى إلى جواره حصانه الملقب بـ «العصا»، وقال له : إذا استقبلك جنودها مواجهة فهو خير، أما إذا أحاطوك من الجانبين والخلف فهو الغدر .. فاركب العصا فإنها لا يشق غبارها . فذهب قوله مثلا .

ثم إن جنود الزباء أسروا حذيفة وحملوه إليها فسألته متهكمة : أشوار عروس ترى ؟ فذهب قولها مثلا، ثم أمرت به فقطعت شرايينه ووضعت تحت يديه وعاء يتساقط فيه دمه . فلما ضعفت يداه سقطتا إلى جانبه وسقطت قطرات من دمه على الأرض فصاحت زنوبيا بخدمها : ويلكم .. تضيعون دم الملك ؟ فقال وهو يحتضر «دعوا دما ضيعه أهله» فذهبت مثلا . ولكن القصة - أو الأسطورة - لا تنتهى إلا بانتقام الملك عمرو، ابن أخت حذيفة، من الملكة زنوبيا حيث احتال - بمساعدة «قصير» - فاقتحم تدمر فى قافلة جمال جعل جنودها فى «جوالق» علقها بها، ولم يغن الحذر زنوبيا فانطلت الخدعة عليها حتى اقتحم عمرو غرفة عرشها ولكنها سارعت، قبل أن يقتلها بسيفه فامتصت سما كانت قد أعدته فى خاتم بإصبعها، قائلة : بيدى .. لا بيد عمرو ! فذهبت قولتها مثلا كذلك .

ولا شئ يثبت أن القصة كلها لا تعدو أن تكون أسطورة نسجها الخيال، قدر ما تثبته هذه





الأمثال التى لا تحصى والتى امتلأت بها روايات الرواة وتناقلتها عبر السنين (فضلا عن استحالة إثبات الوقائع تاريخيا) . ومن هذه الأمثال، التى يتعذر تصور أن تخرج هكذا تلقائيا وتجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية، ما يلى :

ببقة خلفت الرأى (وينسب إلى «قصير» عندما رفض جذيمة الاستماع لنصحه) .

لا يطاع لقصير أمر .

أركب العصا، فإنه لا يشق غبارها .

ويل أمه حزما على متن العصا .

دعوا دما ضيعه أهله .

لأمر ما جدع قصير أنفه (قول لقصير بعد أن طلب إلى عمرو أن يجلده ويجدع أنفه ضمن خطة لخداع زنوبيا) .

شر فى الجوالق .

بيدى .. لابيد عمرو .

وغيرها كثير !!

حاشر الكواهن والكهان !

أحيانا، كانت الأساطير فى أدب العرب تصدر عن عاطفة دينية، فكان الدين ملهما لأساطير أذكتها الرغبة فى تسخير «الغيبيات» - إن صح التعبير - عن طريق ابتكار قصص وروايات تخدم العقيدة على نحو أو آخر . ولا يختلف العرب فى هذا عن المجتمعات والشعوب الأخرى التى أفرزت أساطير دينية، اللهم إلا فى أنها عند العرب ربما كانت أندر مما كانت عند غيرهم .

من هذه الأساطير التى سجلها الأدب العربى، أسطورة عن شخصية - وهمية على الأرجح - لملك عاش فى أيام الجاهلية يدعى «مرثد بن عبدكلال» . (وكلمة «مرثد»، بالمناسبة، تعنى أيضا السيد أو الزعيم) . وينسب الرواة هذه القصة لعصر ما قبل الإسلام، واستخدموها على أنها كانت . إرهاصا أو تنبؤا بظهور النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كان قدر «الخيال» وحبكة التأليف فيما رووه يقطع بأنها لابد من أن تكون قد خرجت إلى الوجود بعد أن كان الدين الحق قد ظهر وانتشر . وقد سجل مؤلف معروف هو «خير البشر .. بخير البشر» هذه القصة التى تناقلها الرواة، ورواها صاحب الكتاب وهو «محمد بن ظافر» على النحو التالى :

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزوة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء واشتد سروره بهم . فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى فى المنام رؤيا أخافته وأذعرته وأهالته وهو نائم، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئا . وثبت فى نفسه ارتياعه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن . ثم إنه حشر الكهان، فكان يخلو بكل كاهن ثم يقول له أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه . فيجيب الكاهن بأن لا علم عندى . حتى لم يدع كاهنا علمه إلا كان إليه منه ذلك . فتضاعف قلقه، وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه، لأن أتباع الكواهن من الجن ألطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان فلم يجد عند واحدة علما مما أراد علمه .

ولما يئس من طلبته سلا عنها . ثم إنه بعد ذلك خرج يتصيد، فأوغل فى طلب الصيد وانفرد عن أصحابه، ورفعت إليه أبيات (بيوت) فى ذرى الجبل، وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت له عجوز فقالت له : انزل على الرحب والسعة والأمن والدعة، والجفنة المدعدعة (أى القصعة المليئة بالطعام) والعلبة المترعة . فنزل عن جواده ودخل البيت . فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح (النسيم) نام فلم يستيقظ حتى تصرم

الهجير . فجلس يمسح عينيه، فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قواما ولا جمالا، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك الهمام . هل لك في الطعام ؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما عرف أنها عرفته، وتصامم على كلمتها فقالت له : لا حذر، فداك البشر، فجدك الأكبر، وحظنا بك هو الأوفر ! ثم قربت إليه ثريدا وقديدا وحيسا، وقامت تذب عنه حتى انتهى من أكله، ثم سقته لبنا صريفا وضريبا فشرب ما شاء . وجعل يتأملها مقبلة مدبرة، فملأت عينيه حسنا وقلبه هوى، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفيراء . فقال لها : يا عفيراء، من الذي دعوت بالملك الهمام ؟ قالت : مرئد عظيم الشان، حاشر الكواهن والكهان، لمعضلة بعد عنها الجان . فقال : يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك . إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام . قال الملك : أصبت يا عفيراء، فما تلك الرؤيا ؟

قالت : رأيت أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعت فيما أنت سامع، دعاء ذي جرس صادع : هلموا إلى المشارع . فروى جارع، وغرق كارع .

فقال الملك : أجل، هذه رؤياي ! فما تأويلها يا عفيراء ؟

قالت : الأعاصير الزوابع .. ملوك تبابع . والنهر علم واسع، والداعي نبي شافع، والجارع ولي تابع، والكارع عدو منازع . قال الملك : يا عفيراء، أسلم هذا النبي أم حرب ؟ فقالت : أقسم برافع السماء، ومنزل الماء من العماء، إنه لمطل الدماء، ومنطق العقائل نطق الإماء . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام . فقال يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمن أعضاده ؟ فقالت : أعضاده غطاريف يمانيون، طائرهم به ميمون، يغزيهم فيغزون، ويدمث بهم الحزون، وإلى نصره يعتزون .

فأطرق ملك يؤامر نفسه في خطبتها . فقالت : أبيت اللعن، أيها الملك . إن تابعي غيور، ولأمري صبور، وناكحي مثبور، والكلف بي ثبور .

فنهض الملك، وجال في صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء !

شعر .. في الأساطير

هناك ، أيضا ، أساطير يبدو أنها نسجت بسبب بيت شعر شهير ولكن صاحبه مجهول، فحاولت أن تبتكر له مصدرا .. أو ربما تكون الأسطورة قد تكونت في شكلها الأدبي فانبثق من سياقها بيت من الشعر أو أبيات ذاعت بعد ذلك بين الناس . ولعل من أوضح أمثلة هذا النوع من أدب الأساطير العربية، ما ينسب إلى القاضي يحيى بن أكثم، الذي عاصر الخليفة العباسي هارون الرشيد وكان من جلسائه والمقربين إليه .

طبقا للرواية المنقولة عن القاضي يحيى أنه قال : دخلت على الرشيد يوما وهو مطرق مفكر فلما رآني قال : يا يحيى، أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين، إن لهذا البيت قصة عجيبة يرويها الرواة . قال : أخبرني عن هذه القصة يا يحيى . فقلت :

يروى أن رجلا من أهل العراق خرج قاصدا الشام، وكان صاحب تجارة عريضة، فالتحق بقافلة كبيرة جعل فيها الكثير من أغراض تجارته . وحكى الرجل ما وقع له، فقال : بعد أن سارت القافلة أياما، روعنا ذات نهار بتوقف القافلة عن المسير، وسمعنا ضجة كبيرة صادرة من مقدم الركب . فانطلقنا إلى هناك فما راعنا إلا شجاع (المقصود وحش أو مخلوق غريب مفترس) يعترض سبيل القافلة، كان عاريا ضخم الجسم، أسود اللون، وكان فاغرا فاه والناس يتدافعون بعيدا عنه وهم في خوف عظيم، وألهمت بأن هذا المخلوق لابد وأن يكون ظمآنا





أرمضه هجير الصحراء، ووجدت غير بعيد منى «قربة» ماء، فأخذتها فجعلت فتحتها فى فمه، فما فتئ يشرب حتى أفرغها . وانصرف بعد ذلك عنا واختفى فى رمال الصحراء . ثم ما لبثت القافلة أن استأنفت المسير ماضية إلى غايتها .

وقال التاجر : وما مر يوم أو بعض يوم فخرجت لقضاء حاجة غير بعيد عن مضارب القافلة وقد جن الليل . وطاب لى المكان ونسمات الليل فأخذنى النوم ولم أنتبه إلا والقافلة قد انطلقت وخلفتنى فى هذا المكان القفر . وانتابنى خوف عظيم، ولم أهتد إلى وسيلة للخروج من هذا الكرب الذى ألم بى . فبينما أنا فى هذا الموقف الصعب، إذا بى أبصر غير بعيد منى بكرا (جملا فتيا) وإذا بصوت يقول :

يا أيها الرجل المضل مركبه
ماله من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا فاركبه
وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه
عند الصباح فى الفلا تسيبه

قال : فركبت، فانطلق البكر بى سريعا، فما لبثت أن التحقت بالقافلة، فيممت شطر مكانى منها وتوجهت إلى البكر الذى حملنى منشدا :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب
ومن هموم تضل المدلج الهادى
ألا تخبرنى، بالله خالقنا
من ذا الذى جاء بالمعروف فى الوادى
وارجع حميدا قد أوليتنا مننا
بوركت من ذى سنام رائح غادى

فما راعنى إلا أن جاوبنى البكر منشدا :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا
والله يكشف ضر الحائر الصادى
فجدت بالماء لما ضن حامله
تكرما منك، لم تسمح بإنكادى
فالخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك منى لا أضن به
فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

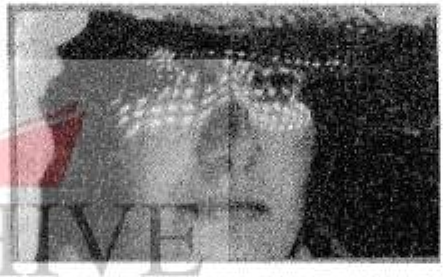
وربما تحمل هذه الأسطورة الصغيرة إرهاصات ما ورد فيما بعد فى حكايات وخرافات «ألف ليلة وليلة»، وإن تكن أساطير الأدب الشعبى التى أعقبت ذلك قد خلت - على نحو ما أشرنا - من ذلك الإبداع الشعرى أو النثرى الذى يرقى بها إلى مستوى الأدب العربى .

وفى كل الأحوال، فلاشك فى أن هذا الجانب من أدب العرب يستحق التفاتا واهتماما من الدارسين المتخصصين القادرين على أن يكشفوا لنا، بصورة أفضل، ما له من أبعاد وأعماق وما يحمله من مغزى ودلالات. ■

السينما بين قندهار والطاحونة الحمراء



صور من قندهار



بقلم
مصطفى درويش

قندهار إسم فيلم إبدعة خيال محسن مخملباف المخرج الإيرانى الذائع الصيت.

وفيلمه لا يعرض لا من قريب ولا من بعيد للحرب المشتعلة نيرانها الان على ارض افغانستان.

فتاريخ ابداعة له يرجع الى العام الأخير من القرن العشرين.

وأول عرض له كان ضمن الافلام المشاركة فى المسابقة الرسمية بمهرجان كان الاخير، وبالتحديد يوم الجمعة الموافق الحادى عشر من شهر مايو السابق، اى قبل فاجعة الحادى عشر من سبتمبر (ايلول الاسود) باربعة شهور بالتمام



كيدمان ترقص وتغني
في «الطاحونة الحمراء»

اما الطاحونة الحمراء، فثالث وآخر فيلم لباز لورمان، ذلك المخرج الاسترالي الواسع الخيال، والذى سبق وان ادهشنا، قبل خمسة اعوام، بمسرحية روميو وجولييت وقد ترجمها الى لغتي السينما والموسيقى معا.

ولأن الفيلم بأحداثة انما يدور وجودا وعدما حول المولان روج، الملهى الباريسى الشهير، وذلك قبل قرن من عمر الزمان، فهو بدوره منبت الصلة بالحرب ضد تنظيم القاعدة، ونظام طالبان وظاهريا، فليس ثمة شيء مشترك بين الفيلمين الايراني والاسترالي.

عالم واحد

فعالم مدينة قندهار البائس في هذه الايام السوداء غير عالم باريس بطاحونتها الحمراء، حيث كان اثرياء مدينة النور، يلهون ويلعبون. غافلين عن عبث الاقدار.

ومع ذلك، فالعالمان متداخلان، متكاملان، غنى احدهما لفقر الآخر، رغم اختلاف المكان والزمان.

وايا ما كان الامر في هذا، فالجمع بينهما في صعيد واحد انما يرجع الى احتلال قندهار المركز الاول والطاحونة الحمراء المركز الثاني في قائمة افضل عشرة افلام من بين جميع ما جرى عرضه في الولايات المتحدة، خلال العام الاول من القرن الحادى والعشرين، تلك القائمة التي قام الناقد الامريكي ريتشارد كورليس، كعادته في نهاية كل عام، باختيار افلامها ونشرها في العدد السنوى الاخير من مجلة تايم الواسعة الانتشار.

وهنا ، قد يكون من المفيد ان اذكر أن قندهار لم يكلف صاحبه الا اقل القليل من المال.

كل ما كان عليه، هو ركوب مشاق السفر الى حدود ايران الشرقية، حيث الآلاف المؤلفة من اللاجئين الافغان.

في حين ان الطاحونة الحمراء كلف اصحابه عشرات الملايين من عزيز الدولارات.

وقلة ما صرف على انتاج قندهار ، انما يرجع الى انه اقرب الى تسجيل واقع حي، منه الى اى شيء اخر.

اسطورة قندهار

فضلا عن عدم لجوء صاحبه الى نظام النجوم وحكايته، والحق يقال ، اقرب الى الاساطير بدأت بخبر سمعته «نيلوفير بازيرا، وهى امراة افغانية ، هربت مع اسرتها الى كندا «١٩٨٩» والخبر مفاده باختصار ان صديقتها التى لاتزال تعيش في جحيم قندهار تحت نير طالبان ، على وشك الانتحار.

واذ سبق لمخبلباف ان اخرج فيلما اسمه «راكب الدراجة» (١٩٨٨) عن محنة اللاجئين الافغان، المقيمين في خيام، على حدود ايران، فقد سعت

بازيرا الى الالتقاء به، من اجل اقناعه بمرافقتها الى قندهار بهدف البحث عن صديقتها والحيلولة، حال العثور عليها، بينها وبين الانتحار.

وعند الالتقاء به عرفت منه، انه فى اثناء قيامه بتصوير فيلمه «راكب الدراجة» ، حاول دون جدوى عبور الحدود الى افغانستان.

وهكذا عادت من حيث اتت، دون ان تصل الى صديقتها فى قندهار.

المفاجأة السعيدة

وتمر الايام، وبعد عامين ، اتصل بها هاتفيا، ليخبرها عن عزمه اخراج فيلم تدور احداثه حول القصة التى حكتها له، مع ادخال بعض التغيير عليها، بحيث تتحول الصديقة الى شقيقة صغرى، انتوت الانتحار مع اللحظات الاخيرة من القرن العشرين.

وعلاوة على هذه المفاجأة ، عرض عليها ان تلعب فى الفيلم دورها فى الحياة ، ولكن تحت اسم اخر، هو نافاس.

وما ان قبلت عرضه، حتى بدأ التصوير فى نوفمبر من عام الفين.

وبطبيعة الحال، لم يجر تصوير رحلتها الى قندهار على ارض افغانستان . فذلك امر مستحيل ، وانما جرى التصوير على الحدود بين امارة أفغانستان وجمهورية ايران.

محنة شعب

ولن اعرض للفيلم ومشاهده التى تعد آيه من ايات الجمال . فذلك امر يطول.

وانما اكتفى بان اشير الى مشهد واحد لانه اشد مشاهد الفيلم ايلاما.

انه مشهد الرجال الافغان . ضحايا الالغام، وكل واحد منهم يجرى مستندا الى عكازين، من اجل الامساك باحدى الارجل الصناعية، التى تقوم بالقائها طائرة مروحية محلقة فى السماء.

وذلك المشهد الفريد ليس غريبا على سينما تعتبر وبحق السينما الوحيدة فى شرقنا، المعاصرة بجدارة العصر.

العصر الجميل

والآن الى الفيلم الثانى الطاحونة الحمراء لاقول انه عمل سينمائى فوار بالابتكار، تزاوج فيه القديم بالجديد فى كل شيء، تصميم الملابس الرقصات، اسلوب الحكى والاداء.

وكل ذلك من خلال ايقاع سريع، لاهث ، مساير لروح العصر الحديث، وذلك رغم ان احداث الفيلم تدور فى زمن موغل فى القدم، قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التى حصدت الارواح بالملايين.

ففى الاعوام السابقة على تلك الحرب عاشت اوروبا ، عصرا نعمت فيه بالرخاء والسلام.

وروح ذلك العصر العابث، اللاهى، عبر

عنها سيناريو الفيلم الذى كتبه المخرج «لورمان» مع «كريج بيرس» بالحصر لها. على سبيل الرمز فى ملهى الطاحونة الحمراء.

اللهو والحب

ففى ذلك الملهى الموجود حتى يومنا هذا، فى حى مونمارتر، والذى خلده الفنان التشكيلى، ذو القامة القصيرة «تولوز لوتريك»، بما ابدعته ريشته من لوحات صاخبة، زاعقة الالوان.

كان اثرياء فرنسا يقضون لياليهم الحمراء، مع الغيد الحسان.

والفيلم يبدأ بهن فى مشهد مذهل، وهن يغنين «الليدى مربى» ويرقصن الكان كان، وصاحب الملهى «زيدلر» يقودهم. وسط حشد من رواد الملهى، بارديتهم الرسمية، وقبعاتهم الطويلة السوداء، وهم بدورهم يشاركون فى الغناء.

ومع هذه البداية المذهلة حقا، بتموج شخوصها والوانها، يدخل كريستيان الشاعر الانجليزى الشاب، ويلعب دوره النجم الانجليزى ايوان ماكرجر، يدخل عالم الطاحونة الحمراء، حيث ترقص وتغنى درة الملهى، وتؤدى دورها النجمة الاسترالية «نيكول كيدمان».

حب من أول نظرة

وفى هذا الجو المشحون بالاغراء والرغبة والاشتهاء يلتقى الاثنان. وهما على طرفى نقيض

هو شاعر رقيق، بالحب وحده. يعيش راضيا سعيدا.

وهى غانية لاهية، الماس صديقها الوحيد. بسحره تتلوى وتتغنى كل مساء.

والحق، ان لقاءهما جاء مصادفة فقد ظنته عندما دق باب غرفتها، انه الدوق صاحب الملايين.

وانه فيما لو اعطته جسدها، سيجعل منها نجمة مسرح، معبودة الجماهير.

فلما تبين لها انها اخطأت، وان من استقبلته هاشة باشة، ليس الا شاعرا فقيرا مغمورا، حاولت التخلص منه، حتى تفسح الطريق للدوق المليونير، ولكن بعد فوات الاوان.

فكلمات قصيدة الشعر التى اسمعها اياها، وهى كلمات تشع حبا، مست اوتار قلبها، المحروم من الحب، بحكم مهنتها التى لا تقيم وزنا للعواطف.

ومن اجل الماس تدوس عليها بالاقدام ومع وقوعها رغم انفها فى حب كريستيان يبدأ الصراع بين الثلاثة الشاعر والغانية والدوق صاحب المال.

الموت حبا

وطبعا ينتصر الحب، وان كانت الاحداث تنتهى بساتين مريضة بالسل، مفارقة الحياة.

وقصة الاثنين، وتضحية ساتين من اجل حبيبها ثم موتها فى نهاية المطاف، انما تذكرنا بغادة الكاميليا التى ترجمها



الطريق الى قندهار

الموسيقار الايطالي، جوسيبي فيردي الى لغة الاوبرا.

ثم ترجمها المخرج الامريكي جورج كوكور الى لغة السينما، فى فيلم تقمصت فيه النجمة جريتا جاربو شخصية الغانية مارجريت جوتييه التى ماتت مضحية بحبها من اجل من اعطته قلبها «ارمان دوفال» ولورمان وان كان متأثرا فى رائعته بغادة الكاميليا الا انه تأثر باعمال فنية اخرى، من بينها اذكر على سبيل التمثيل اوبرا البوهيمية للموسيقار الايطالى جياكومو بوتشيني . وفيلم الملاك الازرق الذى جعل من مارلين ديترش نجمة لايضارعها فى الشهرة، بين الالمان سوى ادولف هتلر.

وختاما . يبقى لى ان اقول انه رغم اختلاف عالمى قندهار والطاحونة الحمراء، فكلاهما متعة للعقل والحواس معا. ■



أمومة للفنان عبد الرحمن النشار



تضاريس مصرية - وفيق المنذر

كشوف مستعادة من خزائن السنين

بقلم
عز الدين نجيب

على مدار الشهور الثلاثة الأخيرة من العام الذى انطوى، لم تخل قاعة واحدة من قاعات العرض بالقاهرة - حكومية أو أهلية - من المعارض الفردية أو الجماعية، وبلغت كثافتها درجة يصعب معها على المتابع ملاحقتها، حتى وإن كانت أماكنها تتمركز فى منطقتين متقاربتين .. بين وسط العاصمة وحى الزمالك والجزيرة، ومع ذلك كان العثور على عمل جديد ومبهر من بينها فى غاية الندرة، وأظن أن ساحة الفنون التشكيلية ليست - فى ذلك - إستثناء بين بقية الفنون والآداب .. سواء كانت السينما أو المسرح أو الرواية أو القصة: كثير من الأعمال، قليل من الإبهار!



الطائر الأسطوري
١٩٦٧

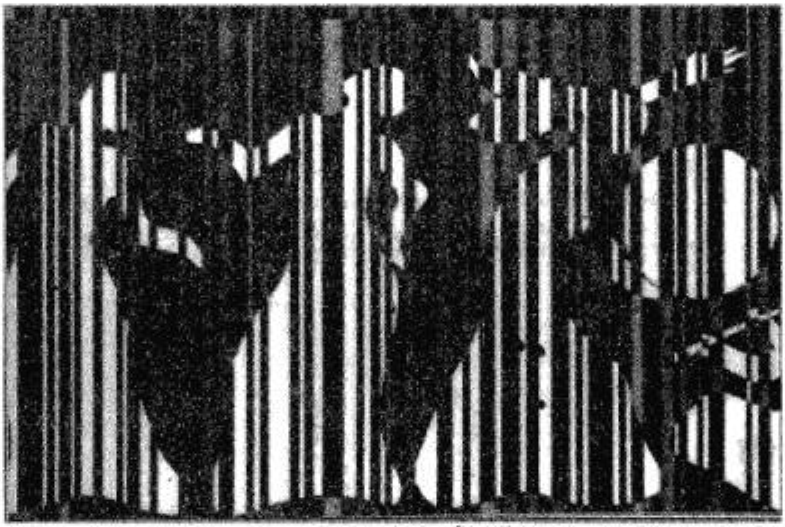
بيد أن الأمر في الفنون التشكيلية يتفرد بسمة خاصة، وهي أن غالبية المعروضات يعود إنتاجها إلى سنوات بعيدة في الماضي، بعضها يرجع إلى أربعين عاما، وقد استعادها الفنانون من قاع الذاكرة أو من أعماق خزائنهم، ومنها من غاب أصحابها عن عالمنا منذ زمن طال أو قصر، مثل معرض الفنانين الجزار وندا، ومعرض الفنان عبدالرحمن النشار.

وباستثناء هذين المعرضين، اللذين لم يكن لأصحابهما الراحلين خيار في إقامتهما، يحار المرء في تفسير هذه الظاهرة «الاستعادية»، فمن المفترض أن الفنان لايسترجع محطاته الفنية القديمة أمام الجمهور، إلا عندما يشعر أنه استكمل مشروعه الإبداعي حتى محطته الأخيرة، أو أنه يريد أن يؤكد استمراريته على خط قديم برؤية جديدة معاصرة، أو أن يقيم نوعا من المتوازيات أو المتقابلات بين تجارب فنية معينة في مشواره الفني، أما هذه المعارض فتبدو - في غالبيتها - كنوع من حنين أصحابها إلى الماضي بعد أن دخلوا مرحلة الشيخوخة أو هم في الطريق إليها، فكأنما يؤكدون، باسترجاعها، ريادتهم المبكرة لتجارب الحداثة، أو ارتيادهم لمنابع الأصالة، وقد تزايدت الحاجة اليوم إلى بعثها إلى الحياة في سياق التحولات الكاسحة للقيم الجوهرية، حتى انتهى الأمر بالحركة الفنية إلى أن تكون ساحة تعمها الفوضى وتفتقد الهوية ويختلط فيها الحابل بالنابل!

النشار.. ومرحلة مجهولة!

وإذا كان معرض الجزار وندا - الذي أقيم بقاعة سفرخان في شهر ديسمبر - لم يحمل جديدا بالنسبة لعشاقهما، أكثر من تنشيط الذاكرة حول إضافاتهما الإبداعية الخالدة منذ الأربعينيات، وتعميق قيم الأصالة والجذور الشعبية لدى أجيال جديدة تفتقر إلى ما يربطها بهذه القيم والجذور، فإن معرض الفنان عبدالرحمن النشار (١٩٣٣ - ١٩٩٩) بقاعة الزمالك (أواخر ديسمبر وأوائل يناير) ضم مجموعة جديدة من اللوحات لم يسبق عرضها، وشكلت مفاجأة حقيقية حتى لأقرب المقربين للفنان الراحل، خاصة بعد أن أقامت أسرته متحفا لتراثه الفني - على طريق القاهرة - الأسكندرية - ضم جميع ماتركه من أعمال فنية، والأكثر إثارة للدهشة أن مجموعة اللوحات التي عرضت بقاعة الزمالك تبدو نقيضا للرؤية الفنية المعتادة التي تميز بها أسلوبه على امتداد رحلته الإبداعية، القائمة على البناء الهندسي الصارم، والعقلانية التي تمسك بزمام اللوحة وتقودها في نسق جمالي محكم غير بعيد عن النسق الزخرفي، عبر متواليات رياضية تعتمد على أشكال هندسية وتتخللها تكوينات عضوية محسوبة لاتخل بذهنية هذا النسق.

أما اللوحات الجديدة فتمثل اكتشافا نادرا لوجه آخر للفنان، فقد عثرت عليها زوجته الفنانة زينب السجيني مصادفة، وتصل إلى حوالي ثلاثين لوحة بأحجام صغيرة وبألوان مائية وزيتية وأحبار، وأغلبها مرسومة على الورق.. إنه هنا يكسر أي نظام هندسي، ويستبعد أي سيطرة للعقل والقيادة الذهنية، كما يستبعد جميع الأشكال الهندسية والطابع الزخرفي المبهر الذي عرف به، مطلقا الفنان لشحنة نفسية ودرامية جياشة، لتتدفق بمنتهى التلقائية والعفوية على سطح الورق، والعنصر الرئيسي للتكوين هو الإنسان بوجهه أو جسمه، يشد الانتباه بملامسه الخشنة على السطح إلى حد التجريح والتوتر، وتسود الألوان قتامة طينية، مضفية سحابة من الحزن ودرجة من الغموض المأساوي، ساعد عليها الاقتصار على ألوان مثل الأسود والبني المحروق والأزرق النيلي، مايوحي بأن اللوحات تكتم شحنة متفجرة أو نزيفا مؤلما، ويتجلى ذلك في الومضات الضوئية المشعة من بين



الزار (أوب آرت) - محمد صبرى

الكتل الكثيفة المعتمة التى تاهت معالمها الإنسانية.

وإذا علمنا بأن هذه الأعمال تعود إلى فترة الستينات، تكشف لنا أنها تعكس مدى القلق النفسى والحيرة الإبداعية التى كان يعيشها النشار آنذاك بحثا عن طريق، وقد تملكته حالة من التمرد على الواقعية والتشخيصية، وأراد الخروج منها دون أن يعرف إلى أين ، غير أن عددا من هذه اللوحات يشير تاريخ إنتاجها إلى سنوات ٦٧ وما بعدها، وتعكس حسا هائلا بالفجيعة وعتامة الرؤية، ما يوحى بأنها انعكاس لحالة الهزيمة التى عاشها الوطن بعد عام ٦٧، وقد يكون إهمال النشار لهذه اللوحات بعدم عرضها أو حتى إخبار زوجته بوجودها، إيماء إلى أنه اسقطها من ذاكرته، ربما رغبة منه فى نسيان تلك الحالة وإصرارا على تجاوزها بإرادة عقلانية، ظهرت تجلياتها فى أعماله الفنية التالية .. لكنها - على أية حال - تجربة إنسانية وجمالية بالغة الأهمية فى التعرف على تلك الموهبة المتعددة الوجوه.

حسن سليمان.. تجريبيا!

وقبل شهرين فاجأنا الفنان الكبير حسن سليمان (١٩٢٨) بكشف مماثل لكشف المرحوم النشار، حين أقام بقاعة «مشربية» معرضا يقوم بأكمله على أسلوب الكولاج، بلصق قصاصات ملونة من الورق للحصول على تكوينات تجريدية دون استخدام الريشة أو الفرشاة، والمدهش أن تاريخ إنتاج هذه اللوحات يعود - أيضا - إلى سنوات الستينات، وأنها لم يسبق عرضها، وإن كان بعضها قد استخدم كأغلفة لمجلة الكاتب آنذاك.

إنها تجربة أشبه بالتجارب المعملية التى يمارسها الفنان كنوع من البحث الجمالى المتحرر من حسابات العرض والطلب وتعليقات النقاد والمترصدين، أى أنه يمارسها لنفسه وليس لعرضها على الناس، وهى تنم عن رغبة دفينة داخل الفنان لممارسة التجريد، نقيضا لما اشتهر به طوال مشواره الفنى، من نزعة واقعية وملامسة حية لملامح الطبيعة والبيئة المصرية، إلى حد محاكاتها لدرجة تقترب

كشوف مستعادة من خزائن السنين

أحيانا من الفوتوغرافية .. ومع ذلك .. فإن المتأمل لمجمل التجربة الفنية لحسن سليمان يلاحظ أنها تنطوي على نزعة تجريدية مكبوتة، تشي بها تلك العلاقات البنائية المتوازنة لعناصره الواقعية، من خلال الخط والكتلة والمساحة واللون، لاسيما في لوحات «الطبيعة الصامتة» التي يرسم فيها الأواني الفخارية والزجاجات الفارغة والزهور والنباتات والأسلاك والأقمشة فوق المناضد .. إلى غير ذلك .. لكنه كان يضفي عليها جوا من الغموض الشجري والتأمل الفلسفي الذي يقود في النهاية إلى الحس بجمال الشكل المطلق في حد ذاته، وهو جوهر النظرية التجريدية.

وفي أعماله «الكولاجية» يستبعد تماما أية عناصر تمثيلية، ويكتفي بشرائح هندسية أو عشوائية الأشكال، يقوم بتوزيعها على الورق بنظرة عقلانية وحسية معا، تحقق نوعا من التوازن المرهف والاختزال الشديد للعناصر المتجاورة، ومن التناغم الخطي واللوني، حتى ولو استبقى لون الورق القديم بآثار التمزق البادية في حوافه.

ويظل السؤال هو: ما الذي جعل الفنان يسجن هذه اللوحات أربعين عاما، وما الذي تغير في قناعاته ليفرج عنها اليوم؟.

مصطفى عبدالمعطى.. وأشياء!

وبما أننا نختتم عام ٢٠٠١ بكشوف منسية من عالم الستينات ، فقد فاجأنا الفنان الكبير مصطفى عبدالمعطى أيضا (١٩٣٨) بمعرض في مركز الجزيرة للفنون يقتصر على لوحات زيتية لم يسبق عرضها من أعماله الأولى منذ أوائل الستينات حتى أواخرها، من بينها تجاربه المبكرة لارتياد عالم التجريد، ثم مجموعته التعبيرية الرمزية التي يزاوج فيها بين التشخيص والتجريد، مستخدما بعض مظاهر وجماليات من واقع البيئة المصرية، ثم مجموعة ثالثة يعبر من خلالها عن هزيمة ٦٧ بكل مأساويتها ووقوع الانسان خلالها في هاوية التمزق واليأس، وأخيرا مجموعة مناظر كفر الشيخ التي رسمها برؤية واقعية من منطقتي «بلطيم والبرلس» عام ١٩٦٨ مع زميليه الفنان الراحل سعيد العدوي والفنان محمود عبدالله ، أثناء فترة إشرافي على قصر الثقافة بكفر الشيخ، حيث قمت - بالتعاون مع المحافظة - باستضافة جماعة التجريبيين، التي كانت تضم الفنانين الثلاثة، للقيام بمشروع لاستلهام ملامح البيئة في المحافظة، تأكيدا للتواصل بين الفنان والمجتمع الذي كان جيلنا يتطلع إليه آنذاك.

وقد نجد أن مناخ ٦٧ بكل ثقله ومرارته في النفوس قد خيم حتى على رؤيته لمناظر كفر الشيخ، بالرغم مما ترشح به من أطياف شاعرية وإيقاعات غنائية عذبة، تختلف كليا من إيقاعاته التجريدية السابقة عليها واللاحقة لها، بما فيها من جهامة وذهنية وجفاف، لقد عكست هذه المناظر احترام الفنان لعلاقات الواقع الخارجية واهتمامه بتسجيلها.. على عكس ما عرف به كفنان تجريدي في مراحله التالية، لكنه يضفي على هذه الملامح الواقعية حسا شاعريا وتآليفا بصريا قد لايتوافر في عالم الواقع .. إن الإيقاعات القوسية للخطوط التي تتسم بالانحناءات العضوية لملامح العمارة البيئية تتحول إلى مايوحي بأجسام بشرية تنساب في ليونة وحنان، وتكتسي بلون من الإشراق الروحي رغم غلبة الدرجات الرمادية الحزينة، ونلاحظ في أعمال الستينات المبكرة لمصطفى عبدالمعطى - أوائل الستينات - درجة عالية من النضج في فهم الحداثة الأوروبية، وفي كيفية الاستفادة منها دون محاكاتها، ولعلها درس عميق الدلالة للأجيال الجديدة من الفنانين في كيفية هضم المؤثرات

الفنيـة الوافـدة بنفس القـدرة على هضم الموروث الثقافى بامتداداته الحضارية والبيئية.

وفيق المنذر.. ومعزوفة المرأة

وعلى نفس الخط الاستعادى لأنغام الستينات، أقام الفنان الكبير وفيق المنذر (١٩٣٦) معرضا بقاعة الفنون التشكيلية بدار الأوبرا، لنماذج متعاقبة فى رحلته الممتدة منذ الستينات، وربما كان المنذر أحد الأصوات التشكيلية النادرة فى وفائه الذى لا يتأرجح لموروثنا الثقافى، ولمنابع الخصوبة الحضارية بتجلياتها المتتالية، من الفن المصرى القديم إلى القبطى فالاسلامى فالشعبى، وقد جدل ذلك كله فى ضفيرة متلاحمة مع رؤيته الخاصة، التى لم ينعزل فيها عن تيارات الحداثة فى الفنون الغربية المعاصرة، من التكعيبية والسريالية والتجريدية، وربما جاز لنا مقارنة تجريبية - مع الفارق - بتجربة الموسيقار الرائد أبو بكر خيرت، فى «متتالياته الشعبية» المبنية على القالب الأوركسترالى الغربى، بالتوزيع الهارمونى والبوليفونى للأنغام والحركات والآلات الموسيقية، فى تصاعد «الميلودى» فى تجليات ايقاعية من وحى الأنغام الشرقية.

غير أن حظ وفيق المنذر لايقارن - مع الأسف - بحظ أبو بكر خيرت، الذى وجد من يحتضنه ويشجعه فى الستينات، خاصة الدكتور ثروت عكاشة، أما مجال الفن التشكيلى فقد هيمنت عليه - على مدار العقود الماضية منذ السبعينيات - منظومة الفكر الحداثى الشكلى من منظور غربى بحت، ما أدى إلى ماتعانيه من تبعية الحركة التشكيلية فى مجملها لذلك التوجه الغربى، وتهميش لأصحاب التيار الذى يتمسك بالهوية المصرية والعربية، مستمرا فى استلهام خصائصها من بدائع تراثها الحضارى أو تجليات بيئتها الطبيعية والشعبية.

ويتخذ المنذر من جسم المرأة آلته الموسيقية التى يعزف عليها ألحانه التى يتماوج خلالها الإيقاع الشعبى التطريبى مع نبض الأنوثة والخصوبة، ليتصاعد إلى الدلالة المطلقة للرمز بعيدا عن التقرير والوصف، واستعان بخامة «الجرانيوليت» المعمرة، وهى حبيبات رملية ملونة تستخدم فى تكسية الجدران، لإيجاد أسطح فنية ذات ملمس جدارى، محققا بها فرادة تقنية بين الفنانين المصريين، وبصمة فنية لم تتكرر.

داوستاشى.. ومخلوقات الفنجان

أما الفنان السكندرى عصمت داوستاشى (١٩٤٣) فإنه قرر أن يبدأ - بمعرضه الذى أقامه بقاعة المركز المصرى للتعاون الدولى فى أواخر ديسمبر - سلسلة معارض استرجاعية متتالية لمختارات من أعماله السابقة، بحيث يتزامن آخر معرض من هذه السلسلة - والذى سيضم أعماله التى عرضها فى أول معرض فى حياته عام ٦٢ - مع بلوغه سن الستين من عمره فى مارس ٢٠٠٣ وهو سن الإحالة إلى المعاش .. حسبما كتب فى كتالوج معرضه!.

إنها إذن عودة بنظام وثبات إلى الخلف وليس دفعة إلى الأمام، وكأن الفنان قد قرر ركوب «آلة الزمن» كما حدث فى الرواية الشهيرة بهذا الاسم!.. لكنه يبرر ذلك بقوله: قد يكون سنى حينذاك هو السن المناسب لبداية جديدة أو لاسترجاع ما أنجزته من أعمال وإتاحة الفرصة لجيل من الفنانين الشباب لم يشاهدوا هذه الأعمال من قبل ولم يتعرفوا على بدايتى الفنية!

أى إحساس بالشيخوخة المبكرة - أو بالإحباط إن شئنا الدقة - أكثر من ذلك! - لكن علينا ألا نصدق قرار عصمت هذا، لسبب بسيط: وهو أنه سبق أن أعلن مرارا، قرارات تقترب من ذلك، مثل أن يكون معرضه الأخير آخر المعارض التى يقيمها، ويأتى ذلك تعبيرا

أنيا عن إحباطه الشديد بما يلقاه الفنان من إهمال وتهميش ولا مبالاة، وعادة مايكون جادا مخلصا في قراره، لكنك تجده في التوقيت نفسه من العام التالي يقيم معرضا جديدا بمجموعة مثيرة من أعماله تكلف إنتاجها مبالغ طائلة!.. والغريب أنه يفعل ذلك وهو يعرف مقدما أنه لن يباع منها شيء يعوض ولو جزءا يسيرا مما أنفقه .. ثم يقرر من جديد اعتزاله الفن .. لكن هل بوسع العاشق أن يجتث قلبه لو عذبته المعشوقة؟.. وهل بوسع الشجرة المثمرة أن تكف عن طرح الثمار في موعدها كل عام، حتى ولو كان غذاؤها من الماء والهواء مجرد «شمة» منهما كل حين؟!.

أما عن معرضه (الجديد - القديم) فإنه يتضمن تجربته المثيرة عن «خيالات فنجان القهوة»، حيث سبق أن عرضها عام ٢٠٠٠ بقاعة اخناتون ، وفيها يستقرىء بقايا الفنجان، برؤية خيالية تستوحي التضاريس العشوائية لرواسب القهوة،. بما تحمله من إيحاءات وتنبؤات اعتاد كثير من الناس تصديقها، غير أن الفنان هنا يتخذ من هذه التضاريس مجرد ذريعة لخلق عالم جديد مسموح فيه بمطلق الحرية للتلاعب بالأشكال والكائنات والمخلوقات التي يبدعها من خياله دون رقيب، وأن يقول من خلالها ما شاء، وكيفما شاء، حول معنى الحياة وتقلبات المجتمع والعصر، بما وصلت إليه من جنون وعبث مطلق دون أن يضع نفسه تحت أي خانة في المدارس الأوروبية، مثل السريالية أو الوحشية، أو مابعد الحداثية، وما إلى ذلك من التصنيفات سابقة التجهيز.

إن مصفوفاته التي تتجسد كطقس سحري، وتندفع في حركة لاتهدأ، تحقق - برغم عشوائيتها - نوعا من السيطرة على الفراغ، ومن ثم على الحيز المتاح للإنسان في الوجود، وهي لذلك لوحات يتماهى فيها الوجودي مع الاحتفالي، متعديا حدود المدرك البصري، إلى حالة من المشاركة المهرجانية الشعبية، ومن التوازن النفسي في آن. في عالم يطرح على الإنسان أسئلة مستحيلة، تفوق قدرة الإجابات التقليدية على حلها!

محمد صبري.. العدسة أم الريشة؟

في عام ١٩٨٨ بزغ على الساحة التشكيلية وجه جديد - قديم، بمعرض غير مألوف ، ريشته هي عدسة الكاميرا ، وعدسته هي عين الفنان التي تؤلف التكوين قبل عين الآلة، ولا يكتفي صاحبها بما يسمى (الكادر الفني) أو اللقطة المبتكرة، التي تستعين بالأضواء والظلال غرابة المنظور وغموض التكوين، بل يحرف الأشكال الواقعية ويعيد صياغتها بمنظور تشكيلي بحت، ثم يتمادى صاحب الرؤية التجريدية أو الخيالات السحرية.

كان «صبري» قد اشتهر كمصور صحفي متميز، ورئيس قسم التصوير بدار الهلال منذ عام ١٩٤٨ ، لكن موهبته كانت تتجاوز إمكانات التخصص المهني، فراح يستكمل بريشته وفرشاته مالا تسعفه العدسة على تحقيقه، متلاعبا بالحركة البصرية للخطوط المتوازية أو المتشابكة أو المتقاطعة، فيما يعرف بفن خداع البصر (أب - أوب آرت) ، مثيرا حالة من الزغللة البصرية أو المراوغة في الإمساك بالعناصر التشخيصية أو التجريدية التي تشكلها هذه الخطوط والشرائح الخطية والضوئية لأنها في حالة حركة لا تهدأ. وهو فن نجد جذوره في فنون الزخرفة الإسلامية، وقد نجح في تطويره والانطلاق به إلى رؤى عصرية مبهرة، وفي توظيفه في أغراض نفعية عديدة، الفنان الفرنسي (مجري الأصل) فازاريللي.

وكثيرا مالجأ صبري إلى المزج بين العمل الفوتوغرافي والرسم بالريشة أو الفرشاة والألوان المائية وغيرها صيغا تعبيرية وتشخيصية من خلال رسم البورتيريه أو المنظر الطبيعي ، مستغلا تشرب الورق للماء



آنية زهور للفنان عبد القادر مختار

ونشع الألوان وانتشارها فوقه بشكل عشوائي، لكنه يظل تحت السيطرة، مما يضفي عليه حالة شعرية مبهمة أو جرأة تقنية في استخدام الألوان الصريحة وضربات الفرشاة القوية، ووفق إحساسه الذي تضيف إليه روح الهواية مزيدا من الجرأة المتحررة من قيود الأكاديمية والمحترفين.

وما هو يقدم لنا معرضه الاستعادي كنتاج لمسيرته الفنية الممتدة.

عبدالقادر مختار.. وحصاد العمر

آخر المعارض الاستعادية - كحصاد لمشوار العمر - أقيم بقاعة المركز المصرى للتبادل الثقافي الدولي في يناير الماضي للنحات د.عبدالقادر مختار (١٩٢٢)، الذي لايخفى على أحد دوره الدؤوب في العمل من خلال المناصب الوظيفية أو الجمعيات الأهلية أو نقابة التشكيليين لتحقيق أهداف الفنان المصرى ووجوده في المجتمع وتبنى مصالحه لذلك فإن حضوره المستمر في الحركة التشكيلية يتحقق من خلال عطاء لايكل في خدمة المجموع، على حساب فنه في أغلب الأحيان.

وقد برع الفنان مختار في نحت البورتريه، وأجمل بورتريهاته ما أنجزه مرارا للسيدة الأسبانية روزا ماريا، حيث تبدو لنا مزهوة بجمالها شامخة في كبرياء، وهى تضم وشاحها على صدرها وتمسك بأناملها وردة فوق إحدى أذنيها .. وقد صنعه من الخشب وقام بتلوينه بألوان طبيعية معمرة، (لون البشرة، ولون الفستان ولون الوشاح ولون العينين)، وكان ذلك هو أول تمثال ملون يعرض في مصر، مما أثار دهشة الكثيرين ، نظرا لأننا اعتدنا على رؤية أعمال النحت الأثرية والمعاصرة بلون الخامة الطبيعية، مع أن النحت المصرى القديم كان في الأصل ملونا بألوان زاهية، لكنها تلاشت بفعل العوامل الجوية، وقد أصبح تلوين التماثيل أمرا معتادا في العالم اليوم.

وإلى جانب تماثيل البورتريه النسائية عرض الفنان تمثال لامرأة عارية تقف في شموخ واعتزاز وحمل عنوان «النيل» وقد بدأه عام ١٩٤٨ ولم يكتمل إلا أخيرا، وفيه التزم بالقواعد والأكاديمية وإن بدا اللون الزهرى الذى طلى به فاقعا لايتناسب مع جلال الفكرة.

على أن أغلب الأعمال المعروضة كان من التصوير الزيتي، خاصة في مجال المناظر الطبيعية ووجوه الأشخاص والطبيعة الصامتة، وتتسم بحس لونى طازج وتباين صريح بين الأضواء والظلال من منظور تسجيلي يسعى لإثارة البهجة، خاصة في تكوينات الطبيعة الصامتة من زهور الأوركيد.

وأظن أن «حصاد العمر» من الأعمال الإبداعية للفنان عبدالقادر مختار ، كان جديرا بأن يكون أضعاف ماضمنه المعرض كما وكيفا لو لم تكن الوظيفة والعمل العام قد سرقا من عمره الكثير! ■



المسرح الأمريكى

والخوف من (الخفى) الذى لا يرحم

بقلم
د. حسن عطيه

رغم أن النص الدرامى الذى تعنونه الترجمة ب (تخيلات مالدا . مفارقة الكاتب أو الأرنب الآلى) للكاتب «مايكل فينجولد» ليس هو النص الأول والأهم الذى تضمه مجموعة النصوص المنشورة ضمن إصدارات الدورة الأخيرة لمهرجان المسرح التجريبى ، فى كتاب بعنوان (أفضل المسرحيات الأمريكية القصيرة) ، والذى أشرف على تحريره «هوارد شتين» و«جلين أيونج» فى سلسلة منشوراتهما السنوية ، معا أو كلا على حدة ، عن أفضل المسرحيات القصيرة التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى عام فنى (موسم مسرحى) ،إلا أنه يعد النص المفتاح الذى يتيح لنا الدخول لعالم هذه النصوص المجمعة فى أواسط التسعينات من القرن الماضى (٩٥ - ١٩٩٦) ، والتى تحتوى على اثنى عشر نصا دراميا لكتاب أمريكيين أو أوربيين تركوا أوطانهم ليعيشوا ببلد العم سام .

ورغم أن وقائع الحدث الدرامي لهذا النص تدور في فرنسا عام ١٨٩٥ ، داخل أبهاء مسرح باريسي ، وفي نهاية إحدى ليالي عرض مسرحية لكاتب مجدد في الكتابة المسرحية هو السيد «أورفين» ، يقابل عقبها بمجتمع كامل رافض لرؤيته الجديدة لفن المسرح ، خاصة في مجال المسرحية القصيرة ، يتمثل ذلك المجتمع في مخرج العرض وممثلته الأولى ومشاهدة عاشقة لفن المسرح وأستاذ في علم الجمال ، يبدو أنه يمثل الطرف الخامس في عملية العرض المسرحي ، وهو النقد ، وهو قادم للمسرح بعد أن عقد صفقة مع ورثة الكاتب التقليدي «أوجيه» للفرقة التي تقدم العرض الجديد ، ونحن نتعرف على زمان ومكان سريان حدث المسرحية الدرامي ، من خلال الإرشادات المسرحية المتصدرة للنص ، والتي توجه نظر المخرج ومصمم السينوجرافيا للإطارين الزماني والمكاني اللذين تدور فيهما وقائع الحدث الدرامي للمسرحية ، لكي يصيغا الأجواء التاريخية والجغرافية لعرضهما ، كما توجه في ذات الوقت نظر قارئ النص بين دفتي الكتاب لهما ، وتساعده على تخيل تلك الأجواء التي تدور فيها وقائع المسرحية التي يقرأها ، باعتبارها نصا موازيا للنص الحواري ، يساعد المخيلة على خلق الصورة المسرحية.

رغم أن تلك الوقائع تدور ، كما يشير



لافون موللر

لنا النص ، قبل مائة عام كاملة من زمن كتابته وتقديمه ، إلا إنها تشير بوضوح للزمن الحاضر الذي لايستطيع المسرح الهرب منه ، باعتبار أن المسرح هو فن تجسيد الوقائع في الزمن الحاضر ، كما تشير لموقف الكاتب من رؤى مسرحية يرى أن تطور الفن المسرحي ، وظهور نظريات نقدية حديثة وحداثية خلال ذلك القرن الأخير ، قد أدى لتجاوزها ولطرح مفاهيم جديدة للكتابة الدرامية للمسرح ، يعبر عنها كاتب المسرحية الداخلية السيد «أورفين» ، مقابل مجتمع فني مازال متعلقا بمسرح تقليدي .

المسرحية المحكمة الصنع

يختار مؤلف النص الأول «فينجولد» عن عمد الكاتب الفرنسي «سكريب» ليكون ممثلا لذلك الاتجاه الذي يرفضه في الكتابة للمسرح ، والقائم على البناء الدرامي المحكم الصنع ، والمعبر عنه على لسان المشاهدة المؤيدة لطريقة سكريب المسرحية ، والتي ترى أن العمل المنشود لابد وأن يحتوي على «شخصية محورية واقعة بين اختيارين لايمكن الدفاع عن



أيهما» ، تقابلها شخصية مناوئة هي «الخصم البارع الذي يصد كل محاولات الشخصية المحورية للهروب من هذا الموقف» ، بينما يرى هو أن العالم قد تغير ولم يعد محكم البناء ، ولذلك فمن الصعب التعبير عما هو مخلخل البناء في الحياة بعمل فني محكم البناء ، ويقف برؤيته الجديدة ضد المشاهدة التقليدية التي تعودت على تعريض ذاتها لأنماط معينة من الكتابة المسرحية ، لاتهز مفاهيمها التقليدية للمسرح ، كما يقف بذات الرؤية ضد ممثلة مسرحيته ، التي ترى أن نصه لم يمنحها الفرصة الكافية للظهور على المسرح ، وتبديل ملابسها في كل مرة تظهر فيها ، وتغيير طبقات صوتها وفقا لتباين الانفعالات في اللحظة الواحدة ، فضلا عن وقوفه ضد المخرج صاحب الفرقة الذي يعرف أو يتصور أنه يعرف مايريد جمهوره ، ويعيد كتابة المسرحيات المتداولة لتبدو أكثر معاصرة ، دون أي تغيير في منطقها العام ، ويدعم المخرج أستاذ في علم الجمال يؤيد رؤيته هذه ، دون أن يعارض رؤية الكاتب الجديدة ، معلنا أنه «يجب للماضي أن يأخذ فرصته ياسيدي قبل أن يكتسحه الجديد» ، ويقبل الكاتب في النهاية أن يكون أرنبا آليا ، يتحرك ويقفز وفق ما يمليه عليه المجتمع المحيط به ، فذلك هو قدره في مجتمع فني متخثر ، وبذلك يوافق على أن يقوم بإعادة كتابة مسرحية لزميل «سكريب» في كتابة المسرحية المحكمة الصنع ، وهو الكاتب الفرنسي «أوجيه» ، لترضى المخرج والممثلة وذائقة الجمهور المشاهد .

التفتت في مواجهة التماسك

مما لاشك فيه أن شخصية الكاتب المسرحي (المتخيل) «أورفين» هي الصوت المتحدث فكريا داخل العمل الدرامي باسم مؤلفه (الحقيقي) «فينجولد» ، والذي يطرح بصفته الصراع الدائم والقائم منذ سنوات بين صيغ مسرحية كلاسيكية البناء ، وصيغ أخرى حداثية البناء ، تعبر كل منهما عن رؤية مخالفة لفن المسرح.

ويحتوي الكتاب الذي بين أيدينا على نماذج دالة لكل منهما ، فمن يوصف بأنه كلاسيكي متعلق بأذيال الماضي وأنماطه في الكتابة والعرض المسرحي ، هو من يرى في المسرح نهجا لإعادة بناء العالم المفتت في أبنية فنية متماسكة ، تستهدف دفع المتلقي إما لاكتشاف أن المسافة بين التفتت والتماسك مجرد مسافة أخلاقية بسيطة من السهل تداركها ليتماسك الواقع ، فيرسم ماهو قائم، أو ليدرك ذلك المتلقي أن تلك المسافة هائلة ، ولا مناص من الثورة على الواقع وإعادة بنائه اجتماعيا وفلسفيا وجماليا .

بينما يرى المنعوت بصفات التجدد

والحداثة وربما التجريبية ، أن العالم مفتت ، ولا سبيل أمام الفنان غير التعبير عن هذا التفتت في أبنية فنية مفتتة ، مثلما فعل مسرح العبث ومن سار على دربهم ، فاللغة الواقعية لم تعد لغة تواصل بين البشر، فليتحدث المسرح إذن بلغة ممزقة ، ويفضل ألا يتحدث المسرح بلغة منطوقة نهائيا ، تاركا للجسد حرية التعبير عن نفسه بحرية كاملة ، باعتبار أن الجسد هو مانح الوجود لماهيته، وأن الشكل له القدح المعلى على المضمون والرسالة الاجتماعية للفن .

المفارقة في مسرحية «فينجولد» المسماة (تخيلات مالدا .. مفارقة الكاتب ...) أنها تقف ضد المسرحية المبنية الصنع ، في الوقت الذي تصاغ فيه في بناء محكم، يدور حول موقف محدد لـ «شخصية محورية» هي الكاتب المسرحي «أورفين»، تجد نفسها «واقعة بين اختيارين» إما أن تستمر في الكتابة للمسرح وفق ما تراه فلا تجد من يقدم عملها للعالم، أو أن تعمل لدى الفرقة المسرحية، تكتب أو تعد لها نصوصا وفق ما تراه هي، حتى تحقق لنفسها الوجود ولقوة خصمها من جهة ، وحاجتها للوجود من جهة أخرى ، توافق على الكتابة كما يريد لها المجتمع أن يكتب ، متحولة بذلك من حالة الرفض لحالة الهزيمة ، ساقطة من علياء الشعور بالتميز لهوة الامتثال لما يريده الغير .



مارلين مونرو

كل ذلك في إطار نص درامي كلاسيكي البناء مما يخلق المفارقة بين ما يدعو إليه النص وبنائه الدرامي ، أما المفارقة الثانية فتكمن في الترجمة العربية ، فالجزء الثاني من العنوان يحمل الجملة التالية بالإنجليزية Scribe's paradox وهي تعني مفارقة سكريب ، أو إذا شئنا الدقة المفارقة السكريبية ، حيث أن لفظة Scribe هنا لاتعني الكاتب أو الناسخ في اللغة الانجليزية ، وإنما نسبة لشخصية الكاتب الفرنسي الشهير «أوجست - أيوجين سكريب» (١٧٩١ - ١٨٦١) ، المشار إليه في النص الدرامي، والذي كتب وحده أو مع آخرين مايقرب من ٣٥٠ عملا مسرحيا محكم البناء ، والمفارقة السكريبية هنا واضحة في ذلك التناقض بين مايدعو إليه مؤلف النص الدرامي ، على لسان شخصيته الأولى ، والبناء الفني المصاغة به رؤيته جماليا ، فمن يرفض طريقة «سكريب» في الكتابة يكتب بها ، بل ويجعل بطله المتمرد يقبل بها ، ولو على مضض ، في نهاية مسرحيته .

هذا النص المفتاح يفتح لنا أبواب ذلك



المختار من أفضل المسرحيات الأمريكية القصيرة خلال موسم ٩٥ / ١٩٩٦ ، وفقا لرؤية كل من الناقدين المحررين «هوارد شتين» و«جلين أيونج» ، والبادىء بالنص ذى الصياغة العبثية (غرف قياس الملابس)، والمنتهي بالنص السوريالى الرؤية والبناء (صندوق خشب الصندل) ، ومحتويا على أكثر من عمل يميل نحو البناء المحكم الصياغة ، والأبنية المفتتة والمحطمة لأية صياغة متماسكة . ففى مسرحية (غرف قياس الملابس) للكاتبة «سوزان سينومان» تتقاطع فيها الحوارات بين ثلاثة مجموعات من النساء ، تلتقى كل اثنتين منها فى غرفة من غرف (البروفة) بمحل ملابس صغير ، تتحادثان فيما بينهما على حدة ، غير أن الحوارات التى تبدأ عادية بين النسوة الثلاث ، تصل لحدتها مع نهاية المسرحية ، كاشفة فى تقاطعها عن ذلك الانهيار الأخلاقى الذى يعاني منه المجتمع الأمريكى .

يوم القديس

لاتوجد فى مسرحية (مذبحة عيد الحب) لـ «ألان نيه» أية مذبحة بالمعنى المعروف ، وإنما هى صورة استعارية لما وصل إليه حال رجل وامرأة وقعا يوما فى الحب، وهاهما قد جاءا يوم عيد الحب المقترن بذكرى القديس فالنتين ، ليفترقا بعد أن وجدت المرأة رجلا آخر عشقته ، غير أن المسرحية تنتهى وهما فى حالة ثبات وعدم القدرة على الحركة وتحقيق الانفصال ، رغم إعلانهما ضرورة التحرك فى اتجاهين مختلفين ، لقد توقف الزمن رغم تغير العالم ، وأسدل الستار على نهاية لا نعرف إذا كانت ستتم بالانفصال أو العودة للحب القديم .

صورة استعارية أخرى ، صاغها الكاتب «لافون موللر» فى أطول المسرحيات القصيرة فى هذه المجموعة، والتى تحمل عنوان (الحالمون الأمريكيون)، وتفترض لقاء تم بجناح خاص بأحد فنادق واشنطن ، صباح الأول من أغسطس عام ١٩٦٢ ، أى قبل أربعة أيام فقط من انتحار نجمة الإغراء الأمريكية الشهيرة «مارلين مونرو» ، بتناولها كمية كبيرة من الأدوية المنومة ، مساء الخامس من ذاك الشهر الجارى ، ورحلت عن العالم عن عمر يتجاوز ٣٦ عاما بشهرين فحسب (مواليد ١٩٢٦/٦/١) ، ويتصور الكاتب المسرحى أن هذا اللقاء قد تم بين النجمة المزواجة والمعشوقة من آلاف الأشخاص ، بمن فيهم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية «جون كنيدى» ، وطرف اللقاء الآخر هو الكاتب والمؤرخ والشاعر الأمريكى ذو الأصل الاسكندنافى «كارل ساندبرج» وقد بلغ من العمر عتيا (١٨٧٨ - ١٩٦٧) ، حيث يبرز أمامنا وقد تجاوز الثمانين من عمره (أزيد من ٧٠ عاما . كما تقول

إرشادات النص) ، ويتداخل الحوار بينهما بجمل مبتورة وعبارات ملغزة ، نرجو ألا تكون الترجمة هي السبب ، ويكشفان معا حقيقة هذا المجتمع المتكون في الستينيات ، والمتبلورة ملامحه أواسط التسعينيات ، هي كنجمة صنعها الحلم الأمريكي وماتت وحيدة ، وهو كشاعر تفاءل بمستقبل بلاده ، دون أن يدرك مدى الغربة التي يعيشها كل مواطن من بني وطنه ، ومدى العاطفة المزدوجة التي تخلقها هذه البلاد وسط العالم . فالكل يعشقها ويكرهها في الوقت ذاته : هي المدينة الفاضلة المنشودة ، وهي الغول القابع خلف المحيط يتأهب دائما لالتهام من يفكر في التمرد على ناموسه الأعلى ، أو يقترب من كهوفه الأسمنتية.

بالمقابل يبني الكاتب «ماك ولمان» مسرحيته (صندوق خشب الصندل) بناء سورياليا ، تتداخل فيه الأصوات الحية بالأصوات المسجلة ، وتتحاور فيه شخصيات موتورة وأخرى مريضة بداء البكم ، وتدور وقائعه في صحراء ممطرة بجنوب بروكلين ، ويحتوي الصندوق الخشبي القابع وسط فضاء المسرح تذكرات أستاذة التغيير الجامعية عن مآسي العالم في حروبه المتعددة على مر التاريخ ، ويهاجم الجميع شخصية خفية ، يدمر معنوياتهم ، ويجعلهم غير قادرين على التمييز بين الصدق والكذب ، وغير ممسكين بعدوهم الحقيقي ، فهو مجرد (خفي) مطارد لهم ، وممسك حناجرهم



جون كيندى



موليير

عن التعبير بالكلمات عما يشعرون به .

قد يبدو هذا التفسير الأخير ، متأثرا بأحداث الواقع التي هزت الولايات المتحدة الأمريكية والعالم صباح الثلاثاء الأسود من الحادي عشر من سبتمبر الدموي ، غير أنه تفسير مقبول من داخل المسرحية ذاتها . فالحديث عن (الخفي) متكرر في حديث الشخصيات ، فالطالبة «مارشا» تعلن في مفتتح المسرحية أنها فقدت صوتها «في التاسع من نوفمبر ١٩٩٣ كنتيجة لتمثيل الخفي» ، هذا الخفي الذي تتجلى إرادته في كل مكان آتي ، بل وقد كانت له تجلياته في التاريخ ، فبفضل «تتبؤ الخفي تباد كل القوات الصربية لتفتح الطريق للقيادة التركية على المنطقة (كوسوفا) لنصف ألفية» ، وتعريف الخفي المعلن لايتعدى كونه مجرد «تصميم غير إنساني ، وبالتالي لا اسم له ، بالإضافة إلى أن معرفة غموضه شيء قابل للخطأ» ، لذلك أسمته الولايات المتحدة حينما هاجمها مؤخرا بشكل فعلي بـ (الإرهاب) ، دون أن تمنحه تحديدا لمفهومه جامعا مانعا كما يقول المناطقة ، ومن ثم راحت

تضرب هنا وهناك، بحثا عن هذا (الخفى) الذى تسلل للمجتمع الأمريكى، منذ أن تعملق القطب الأوحد وصار وحشا فى غابة من الحيوانات الصغيرة، إلا أن الغابة يكتنفها الغموض والظلمة، وتتيح الرؤية السوريالية للعالم تجسيد هذا الغموض فى كائنات خرافية كالرخ والعنقاء وسكان الفضاء وملامحهم غير البشرية.

كاتب والكاتب

إذا كانت الترجمة التى قامت بها كل من «عبير محب نعمة الله» وحدها أو مع «هبة نبيل»، فثمة تباين بين الغلافين الخارجى والداخلى، قد احتارت فى ترجمة Scribe، فترجمته مرة على أنه كلمة انجليزية تعنى الكاتب، فى عنوان المسرحية، ثم ترجمته مرة أخرى على أنه اسم للكاتب الفرنسى المعروف داخل متن النص نفسه، وإذا ما تغاضينا عن الأخطاء المطبعية التى تشوه ثوب هذا المشروع الضخم، فإن الترجمة قد وقعت أيضا فى بعض الأخطاء سواء فى ترجمة أسماء المسرحيات، ذات الشهرة فى الترجمات العربية السابقة مثل مسرحية موليير ذائعة الصوت (البورجوازى النبيل)، والتى قدمتها الترجمة باسم (البرجوازى المهذب) وهو معنى بعيد كل البعد عن سخرية موليير من هذا البورجوازى الصاعد المتعلق بأهداب نبلاء الطبقة الأرستقراطية.

أو سواء فى تعريب الاسماء بدلا من ترجمتها، مثل تعريب عنوان مسرحية ماكس فريش المترجمة للعربية من قبل، باستخدام كلمة (فيربجز) بدلا من العنوان المعروفة به (مشعلو الحرائق)، وهى الترجمة الصحيحة لكلمة Firebugs المثبتة فى الكتاب، والأنكى من هذا ذكر اسم Dumas Fils على أنه «دامس فى»، وهو اسم الكاتب الفرنسى «الكسندر ديماس الابن» (١٨٢٤ - ١٨٩٥) وهو الابن غير الشرعى أو الطبيعى للكاتب الشهير أيضا «الكسندر دوماس الأب»، وهو صاحب الرواية الشهيرة (غادة الكاميليا) والتى أعدها أيضا للمسرح، واقتبستها السينما المصرية فى العديد من أفلامها الميلودرامية.

هذا إلى جانب ذكر الترجمة لمصطلحات لا علاقة لها بالمسرح، مثل إرفاقها لمسرحية (عندما تتشاجر السيدات) التى كتبها «سكريب» عام ١٨٥١، وترجمها «فينجولد»، مؤلف مسرحية (مفارقة سكريب)، إرفاقها بكلمة سيناريو، وهو مصطلح علاقته الأساسية بالسينما، ولا محل له هنا، ليسبق مصطلح (مسرحية)، خاصة إذا كانت لسكريب.

تاء المؤنث

أما الحيرة مع تاء التأنيث فهى متكررة ، بسبب غياب تلك التاء الملعونة من الأفعال الانجليزية ، فيحتار القارىء هل الشخص المتحدث عنه ذكر أم أنثى ، ومثالنا هنا رابض فى ص ١٧١ ، وذلك فى مجال التعريف بصاحب مسرحية (مذبحة عيد الحب) ، حيث يتم استخدام الأفعال التالية فى صفحة واحدة : كتبت «آلان نيه» .. ومن أعماله .. اعتبرت مسرحيته .. كتبت للتليفزيون .. نال فيلمه .. وأما عن أعماله .. ولقد تخرجت فى مدرسة .. فلا يعرف القارىء هل «آلان نيه» هذا كاتب أم كاتبة ؟ ويتكرر ذلك فى أكثر من مكان آخر ، ففى مسرحية (الحالمون الأمريكيون) يغنى «كارل ساندبرج» للنجمة «مارلين مونرو» ، مستخدما اسمها الحقيقى «نورماجين» (وليس نورهاجين كما ثبت بالكتاب ، ونظن أنه خطأ مطبعى) ، فيذكرها على أنها رجل لا أنثى قائلا ص٢٩٩ «ألا تريد أن تترك هذا الفاسد يانورما ؟» ، وصحتها بالطبع «ألا تريدين أن تتركى ...» ، فالحديث عن امرأة لا عن رجل ، وفى نفس المسرحية أيضا تسأل مارلين رفيقها الرجل كارل «أتقصدين المعجبين ؟» ص٣٠٩ !!

نختتم ملاحظاتنا على الترجمة بملاحظة المترادفات ، وهى مشكلة ندرك أن المترجم (بكسر الجيم) يقف أمامها كثيرا فى بداية دخوله للعمل المترجم (بفتح الجيم) ، إلى أن يستقر على الكلمة الصحيحة من بين المترادفات والظلال المتعددة للكلمة الواحدة ، ولكن أن يثبت المترجم الكلمة ومترادفها بين قوسين فى نفس ترجمته ، فهو أمر بحاجة لمراجعة ، خاصة إذا كانت هذه المترادفات عادية ، مثل ذكر الترجمة للكلمات التالية ومترادفاتها بين قوسين : لا أرفض ذلك (سعيدة بذلك) ص٥٣ ، وإذا (استكملت) أصررت على ص٩٠ ، زملائه (أقرانه) ص١٧٥ ، إننى لن أتركك (أتخلى عنك) ص١٩٠ ، ومع ذلك فنحن لا نبخس الترجمة حقها ، ولا نبخس هذا المشروع الضخم حقه فى تقديم ذلك العالم الزاخر بالمتغيرات ، ووضع أحدث تيارات الفكر والفن العالميين بين يدى القارىء والفنان العربيين ، كى نعرف ونتثقف ونعمل على تغيير واقعنا الفنى إلى ماهو أفضل . ■



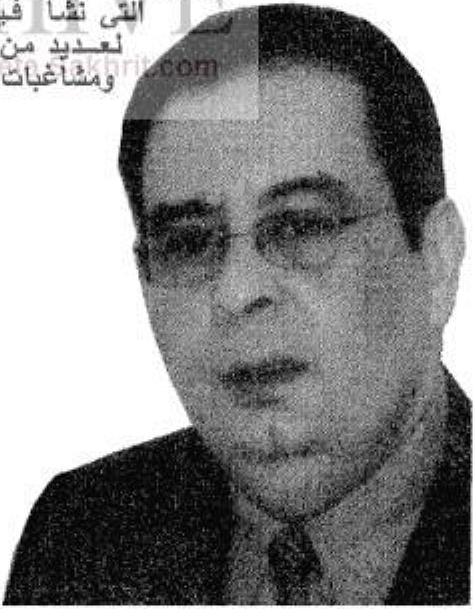
الكسندر ديماس

سمعت "تائية" ابن الفارض فحدث انقلاب في حياتي

د. يوسف زيدان

يجرى على ألسنة عامة الناس فى بلادنا، مثل «سائر» يقول «يعملها الصغار ويقع فيها الكبار» وهو أمر كثير الانطباق على الوقائع. ولكن (الواقعة) الأولى فى حياتى، إنطبق فيها عكس هذا المثل السائر، فقد فعلها جداى: جدى لأبى، وجدى لأمى. كانا يختلفان كل الاختلاف، مع أنهما - كلاهما - صعيديان.. لكن جدي لأبى (الحاج أحمد أمين) كان يعيش بالصعيد ببلدة العوامية (سوهاج) وسط أرضه الواسعة وأسرته الثرية - قبل قوانين الإصلاح الزراعى - متكئاً بجسمه الضخم على سمعة عائلته ومكانة والده وأعمامه.. أما جدى لأمى فأصله من بلدة (طهطا) لكنه رحل عنها فى شبابه واستوطن الإسكندرية، هرباً من ضيق العيش وتواضع البيت بالصعيد، وصار صاحب مقهى فى مدخل غيط العنب (المنطقة التى نشأ فيها إدوار الخراط، وجعلها مسرحا لعديد من أعماله) وكانت لديه تجارة ومشاغبات معروفة.

◆



وبعد زواج أبى وأمى بقليل، اختلف الجدان.. كان كلاهما جباراً على طريقته، وكانت النتيجة أننى بعد شهور من مولدى فى سوهاج (سنة ١٩٥٨) أخذتنى جدتى لأمى لأعيش فى الإسكندرية.. وبعدها بعام ونصف، لحقت بى أمى وفى بطنها طفل هو الآن أخى الصغير (لم يعد اليوم صغيراً)..



مع محمد السويدى «أمين المجمع الثقافى بأبو ظبى» يوم توقيع عقد نشر موسوعة الشامل «أبو ظبى ١٩٩٩»



يوسف زيدان فى سن الخامسة

وفى الصعيد استكمل ابى مسيرة حياته.

«فعلها الكبار، ووقع فيها الصغار»..

ونشأت فى الإسكندرية دون أن أزور أسرتى بالصعيد، إلا بعد دخولى جامعة الإسكندرية، تحقيقا لوعيد جدى لأبى، الذى تحدى جدى لأبى فى أن يوصلنى للمرحلة الجامعية، وكان الأخير يسخر منه، ويستبعد نجاحه فى ذلك.. بيد أنه نجح، ودخلت الجامعة، فجاء أبى ليصحبنى إلى الصعيد (وهى رحلة استمرت ثمانية وعشرين يوماً، تعمد أبى فيها أن أزور خلالها جميع الأولياء من الأسكندرية إلى سوهاج)

التصوف

كان والدى (محمد المدنى) قد صار فى زمن نشأتى بالإسكندرية صوفياً - بالمناسبة، هو يعرف بين أهله بالمدنى، لأنى كان أكثر أفراد عائلة (زيدان) تمدناً ورفاهية، وكذلك كان جدى يعرف بلقب (أمين) لأنه كان يتولى ثروة العائلة غير المخصصة، وهى الأراضى والأموال المعروفة باسم (الروك).. ولأنه ابنه (البكر) فقد نشأ أبى مرفها فى حضن أبيه، عاش حياة ممتلئة بكل معانى الحياة، وفجأة، ترك كل شىء وصار صوفياً.

كان لدخول أبى غمار التصوف قصة عجيبة غرائبية.. لو حكيتها هنا، لتحير كثيرون.

فلنتمثل بما قاله (أبو حامد الغزالى) يوم سئل عن سر دخوله للتصوف، فقال شعراً:

التكوين



مع الأمير عبد الله ولى عهد السعودية فى زيارته لمكتبة الإسكندرية - يونيو ٢٠٠١

قد كان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر.

آخر العالم

كنت أعانى الوحدة القاسية فى طفولتى، وضقت ذات يوم بوحدتى وبالحصار الصارم الذى يفرضه علىّ جدى لأمى.. فغافلت الجميع وتسللت إلى منطقة (غيط العنب) وظللت مصمماً على أن أصل إلى نهاية الكون - كان سنى آنذاك سبعة أعوام - وفى أوان المغرب وصلت إلى مبتغاى الذى ظننته وقتها آخر العمران البشرى: سور مهول، يمتد إلى ما لا نهاية فى آخر منطقة غيط العنب (أعرف الآن أنه سور شركة الغزل والنسيج).. وأيقنت من وقتها، أن الإنسان إذا واصل سعيه دون كلل، فلابد له أن يصل!

كنت قد ألحقت بمدرسة خاصة، وفى إجازة الصيف التى من المفترض أن أدخل بعدها الصف الثالث الابتدائى.. أخرجت من المدرسة (غالبا لأسباب مالية) وألحقت بمدرسة حكومية، لأعود طبقاً للتقسيم العمرى، إلى الصف الأول الابتدائى بمدرسة راغب الإبتدائية.. كانت مدرسة جميلة (صارت بعد ثلاثين سنة مدرسة لغات نموذجية!) بيد أن التلاميذ فى أيامهم الأولى كانوا يبكون لفراق أهلهم.. فأتعجب من بكائهم، ثم كانوا يكلفونهم بعد ذلك بواجبات منزلية، أتعجب من تفاهتها.

وهكذا لم أتأقلم مع أقرانى بالمدرسة الإبتدائية، كنت أرى نفسي أكبر (مع أنهم فى سنى) لاسيما بعدما صارت القراءة هى شاغلى الأول - بل والأخير - فاتسع الوعي وضاقت العبارة وثقل الكلام مع أهل الزمان.. (كتب المدرسون فى تقريرهم المدرسي، أننى تلميذ هادىء، لا يحب الكلام واللعب، ويهوى القراءة).

نقلنى خالى (فتحى هاشم) إلى أفق القراءة الواسع، ويوم ذهب بى إلى قصر ثقافة الحرية (الذى صار يسمى اليوم : مركز الإبداع!)، كنت آنذاك فى الحادية عشرة من عمرى.. التهمت مكتبة الأطفال فى شهرين، وصرت أتسلل إلى مكتبة الكبار، لأقرأ ما كنت أظن أنه : الكتب الحقيقية.

الحب الأول

على مشارف الثانية عشرة من عمرى، كانت موظفة مكتبة قصر ثقافة الحرية تخرجنى من القاعة المخصصة للكبار (مراعاة للسن) فأعود فى اليوم التالى متسللاً.. فتخرجنى.. فأعود.

وذات يوم، اغتاظت منى الموظفة، فجرتنى إلى مديرة القصر لتطلب منها عدم السماح بدخولى القصر نهائيا، وحكت لها ما جرى من تسللاتى السابقة.. كانت المديرة فى حدود الثلاثين من عمرها اليانع تشع بهاء لم ينل منه الفستان الأســـود الذى ترتديه.. نظرت المديرة ناحيتى - بعين رأيتها وقتها بحراً من عسل الجنة - ثم ابتسمت .. فانطلقت أغنيات من خلف الكون، وشعرت بأن الأشياء تلاشت من حولى، وراحت روحى فى سكرة عجيبة، وكأننى غارق فى بحار من اللون المتماوج، المشع.. أفقت حين توجهت بكلامها إلىّ مستفسرة عن الموضوع، رجوتها - بكلمات لا أذكرها الآن - أن تسمح بدخولى مكتبة الكبار.. فوافقت، ودعتنى لحضور ندوة فى اليوم التالى لمناقشة رواية (دافيد كوبرفيلد) فقرأت الرواية فى النهار، وشاركت الكبار فى مناقشتها فى المساء.. فأعطتنى المديرة فى نهاية الندوة قلماً بديعاً، مزخرفاً هدية من القصر.

فى طريق رجوعى، التقط نشال القلم من جيبى.. وكانت المديرة قد انتشلت قلبى من بين الضلوع، وصرت أهيم بها. وكان هيامى عبارة عن نظرة ألقيها كل يوم عليها - من حيث لا ترانى هى - حين أمر على باب مكتبها فى مدخل الدور العلوى لقصر الثقافة..

واستمرت قصة الحب العنيفة هذه لعامين أو ثلاثة، لم أتحدث فيهما مرة واحدة مع المحبوبة الرائعة! وكنت قد التحقت بمدرسة العطارين الإعدادية، ولم تعد مكتبة قصر الثقافة تكفينى . فعرفت طريقى إلى ميدان المحطة.

تجار الكتب

كان بميدان المحطة الفسيح، جانب يحتله مجموعة من تجار الكتب الذين



مع عزيز خوجاييف رئيس أكاديمية بناء الدولة بأوزبكستان والدكتور زاهد الله منوروف
رئيس الصندوق الدولي للإمام البخاري - طشقند ١٩٩٨

يشكلون معاً، شيئاً شبيها بما كان يعرف في القاهرة بسور الأزبكية (أقصد سور الكتب الذى صار اليوم بوتيكات) وكان ثمن الكتاب الواحد خمسة وسبعين قرشاً، وعند إعادته بعد أيام ينقص عشرة قروش هى ثمن قراءته.

.. حين أجلس هذه الأيام لمفاوضة دور النشر الكبرى، للحصول على مجموعات كتب لمكتبة الإسكندرية (التى أعمل بها حالياً مديراً للتزويد، ومديرا لإدارة المخطوطات والكتب النادرة) أتذكر مفاوضاتى الأولى مع تجار الكتب بميدان المحطة، وسعادتى يوم وصلت معهم لاتفاق بأن سعر قراءة الكتاب الكبير (أو الكتابين الصغيرين) هو خمسة قروش فقط، لا عشرة.

وأودعت لدى كل تاجر خمسة وسبعين قرشاً، وصرت آخذ الكتاب فأقرأه، وأعود به وبخمسة قروش لآخذ كتاباً جديداً، ولما اتسع الاتفاق، كنت آخذ كتابين فى اليوم الواحد، وأقرأهما فى حديقة ميدان المحطة، وأعود فى المساء، متفكرا فيما قرأته طوال اليوم.

بعدها التحقت بمدرسة العباسية الثانوية، وكنت كثير الهروب من المدرسة للبقاء فى مكتبة بلدية الإسكندرية أطول فترة ممكنة.. صرت استهين بالمقررات الدراسية، وأهيم بالمكتبات والكتب..





صورة تجمع يوسف زيدان مع الفريق الذى عمل معه فى فهرسة المخطوطات بمكتبة الاسكندرية

خاصة كتب الفلسفة.. خاصة نيتشه.

لازلت أحفظ صفحات من كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) الذى قرأته فى أيام المدرسة الثانوية، وكنت آنذاك اعتبره: أهم كتاب فى تاريخ الإنسانية! وكانت أغلب قراءاتى الأخرى: يونانية قديمة، أو غربية حديثة.. وكتب أكره الصوفية، واعتبرهم شيئا لا لزوم له فى العالم أو التاريخ.

ابن الفارض

حين جاء أبى ليصحبنى فى زيارتى الأول للصعيد، كان أول شيخ زرناه، يعيش فى الإسكندرية (اسمه عبد الحليم).. وكان يعيش على سطح منزل جميل بمنطقة كليو باترا.. حدّق فىّ الرجل وقال ما معناه: سوف تصبح سفيراً، حين تعرف سر النون!! قلت له بحدة: فى العام الدراسى القادم ساكون فى كلية الآداب، وهى لا تخرج سفراء، وليس هناك شىء اسمه (سر النون) حتى أعرفه.

حين وصلت إلى الصعيد فى هذه الزيارة الأولى، التقيت بشيخ آخر من بلدتنا، اسمه أيضا عبد الحليم (ودنان) فسألنى عن زيارتى للشيخ عبد الحليم فى الأسكندرية، فقلت له إنه محض رجل جاهل مشعوذ، فقال عبد الحليم ودنان: بل أنت الجاهل!.. ولما حكيت له ما قال لى الشيخ عبد الحليم السكندرى، صاح عبد الحليم ودنان: لقد صدق، ولكنك لا تعرف أن السفير هو حامل (السِفْر) أى الكتاب، ولسوف تكون سفيراً بمعنى أنك ستبقى دوما مشغولاً بالكتب.

ولم يوضح لى عبد الحليم ودنان، ما هو سر النون.. وهو الذى عانيت معرفته وعاينته بعد ذلك بسنوات!

فى زيارتى التالية للصعيد، بعد عام كامل، كنت فى حدود التاسعة عشرة عاما من عمري.. وكان أحد أعمامى (ابن عم والدى فى الواقع) له أخوال من العرب (البدو) الساكنين بسفح الجبل، وكان هو شخصية بديعة: صوفي، متيم بابن الفارض، مزواج (كان يقول إن المرأة أبدع كائن خلقه الله).. دعانى لزيارة أخواله والافطار عندهم في شهر رمضان فذهبنا، وآونة المساء، سمعت فى حضن الجبل صوت منشد أسطورى اسمه ياسين التهامى (صار الآن معروفاً) يتغنى بقصيدة ابن الفارض و التائية الكبرى، فحدث انقلاب فى دولة أفكارى، والتهمت من بعدها تراث الصوفية، وتخصصت فى دراستها.. وكان أول كتبى المنشورة، هو تحقيق (المقدمة فى التصوف) لأبى عبد الرحمن السلمى، انتهيت منه حين كنت فى السنة الرابعة بقسم الفلسفة بآداب الإسكندرية، نشرته بعد تخرجي بخمسة أعوام، وكان التصوف موضوع الرسالتين اللتين حصلت بهما على درجتى الماجستير والدكتوراة.. كانت الرسالة الأولى عن عبد الكريم الجيلى وقصيدة الصوفية الطويلة، (النادرات العينية) وكانت رسالة الدكتوراة تحقيقا لديوان عبد القادر الجيلانى ودراسة لطريقته الصوفية.

وتوالت من بعد ذلك كتبى فى التصوف، تحقيقاً ودراسة حتى تجاوزت العشرين كتاباً.

ابن النفيس

فى أواسط الثمانينيات انجذبت بقوة لدراسة تاريخ العلوم، كنت أرى فيه جانباً مقابلاً لتاريخ التصوف، فأردت أن أجمع بين الجانبين لأرى التجلى الكامل للعقلية العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل.. وأثار ابن النفيس اهتمامى بشكل بارز، فأصدرت عنه أربعة كتب نالت عام ١٩٩٤ جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية/ مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، فى مجال الفقه الطبى وتحقيق التراث وفق أصول فن التحقيق.. وبعدها بعام، نالت كتبى فى مجال التصوف، جائزة عبد الحميد شومان للعلماء العرب الشبان (الأردن).

وكان يراودنى دوماً، حلم عريض طالما بدا لى بعيد المنال.. هو تحقيق كتاب الشامل فى الصناعة الطبية لابن النفيس، وهو أضخم عمل فى التراث العلمى الانسانى يكتبه شخص واحد (يقع كاملاً فى ثمانين مجلداً).

وهأنذا عاكف منذ أواسط التسعينيات على نشر الشامل وانتهيت هذه الأيام من الجزء الرابع والعشرين منه.. ولا يزال



يوم تكريم يوسف زيدان من جامعة الإسكندرية - يوليو ١٩٩٦

أمامي عامان للانتهاء من نشر الكتاب الذى (تطوع) لطباعته المجمع الثقافى بأبو ظبى..وهو المؤسسة الثقافية الرائدة التى يديرها الشاعر المثقف: محمد السويدى.

التواصل التراثى

يرى كثيرون أننى مجنون بالتراث والمخطوطات، وبعضهم يعبر عن ذلك بصورة مهذبة فيقول: عاشق المخطوطات (وهو عنوان كتاب صدر أخيراً عن أعمالى التراثية) والمتخصصون فى المجالات التراثية ينظرون بشىء من التقدير لأعمالى (فهرسة ١٨,٠٠٠ مخطوطة ونشر أكثر من أربعين كتاباً) لكنهم لا يعلمون كيف بدأ انشغالى التراثى، منطلقا من صالات المزادات!.

العطارين.. منطقة عتيقة بالإسكندرية، شهيرة، وفيها المسجد الذى كان أبو العباس المرسى يلقى فيه دروسه.. وهذه المنطقة تمتلىء بمحلات العاديات والتحف الأثرية، وفيها صالات (ودكاكين صغيرة) للمزادات.. ولأنها قريبة من المنطقة التى نشأت فيها كنت كثير الشغف بالتجول فيها أيام صباى، ولما صارت عندى (ميزانية) كنت التقط بعض الأشياء القديمة، بسعر رخيص جدا، وأعكف على إصلاحها وتلميعها وإعادتها لرونقها الأول.. كنت أجد فى هذه الهواية سعادة بالغة.

حين أتأمل اليوم سعادتى بعمليات (الإحياء التراثى) تحقيقاً ونشراً وفهرسة، أتذكر هواياتى القديمة!. ■

أنت والهلال

د. مصطفى سويف و « الهلال »

شعرت بالسعادة والدكتور مصطفى سويف يحصل على جائزة هذا العام من معرض الكتاب عن كتابه المهم « مسيرتي ومصر في القرن العشرين » ، خاصة وهو يطل علينا في بداية كل شـهـر بمقـال أحس وأنا أقـرؤه بمدى صـدق الرجل ، وموضوعيته في الكتابة، وبعده عن النفاق الاجتماعي الذي يلازم البعض، ويؤثرون الذات على هذا الوطن ، الذي يحتاج إلى موضوعية العلماء، وكبار المفكرين في تناولهم للقضايا المهمة، والتي تضئ الطريق إلى الأجيال في المستقبل ومن حسن الحظ أن كُتّابا في « الهلال » قد وهبوا أنفسهم للكلمة الصادقة نذكر منهم الرائد الكبير الراحل الدكتور شكري عياد، والذي لم يخل عدد من اسمه حتى وفاته ، مؤثرا « الهلال » على غيرها برغم الإغراءات المادية وغيرها ، نظرا لإيمانه بالدور الثقافي الكبير لمجلتنـا الأثرة ، ود . سويف واحدا من هؤلاء المفكرين الكبار الشامخين .

فله كل التهنئة وأمد الله في عمره ، يؤدي دوراً فكرياً متميزاً من أجل وطنه .

محمود صالح العدل
القاهرة - الزيتون

■ **الهلال بدورها تهنئ العالم الكبير د . مصطفى سويف على عطائه وجهده الكبير في مسيرتنا الثقافية .**

جاء العيد

وجاء العيد يا خولة
وعيد كل أقرانك وخلانك
وشم العطر إخوانك
بكل دروبنا والسوق
وكل بلادنا تفرح
ففي طنجة ، وفي درنة، وفي
أزمـيـر، وفي اسطنبـول ، وفي
دمياط وفي أسيوط، وفي تونس ،
وفي جـابس وفي الدمـام
والإحسـاء ، وفي الفيحـاء
والحسكة ودير الزور ومسراطة .
مآذننا تكبر في صباح العيد
ونلبس ثوبها للعيد
وتنضى عن عن فتاها النوم
ليفرح في صباح العيد
ولكن كيف صبحكم صباح
يا خولة
برام الله وبالمجـدل ، وفي



بيسان
وفي يافا ، وفي غزة وخان يونس
وفي جنين وفي نابلس وبيت ساحور؟
وكيف العيد في الأقصى؟
وكل زهورنا تفتحت بلون الدم
قد سقيت بنهر الدم
وصبحها صباح العيد فوق مقابر
الشهداء
في الرملة وفي حيفا وطولكرم
وضمخها عبير الجنة القادم من الأكفان
وبعد العيد يا خولة سياتي العيد يا خولة من الطوفان

د . حسنة عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

الملاك الأبيض «قصة قصيرة»

كنت أصل آخر خيط في سجادة الليل بأول خيط في سجادة النهار .. أرسم ملاكا أبيضا.. أحدثه « أنت صديقي » .. ويمر الرجال كعادتهم .. تبهرهم لوحتي .. يقولون شيئا ما عن عبقريتي .. ويصر أحدهم أن يشتريها بشيك على بياض.. في داخلي يقيمون فرحا لا ينفض عنازه أبدا بإصرارهم .. يقول لي أنه سيرسل برقية عاجلة لاستدعاء الموت .. إذا لم يحصل عليها .. يدخل يده المكتنزة .. في جيب سترته الغالية .. يخرج دفتره السحرى .. ويحرر الشيك فورا .. أمد يدى لألتقطه .. ينظر إلى الملاك الأبيض نظرة عتاب صامتة .. تنحدر على وجنتيه لآلئ الدمع أرتجف... أتردد .. يلح الرجل أن أتزل له عن اللوحة .. يشاركه رفاقه عندما يلتفون حولى في شكل نصف دائرة تضيق باستمرار .. اختنق .. تأتي طيور من بعيد .. وتحوم حول الصورة .. الملاك يلقى علينا آخر النظرات .. يفرد جناحيه فجأة ويرحل مع سرب الطيور .. مخلفا وراءه اللوحة .. وقد أصبحت ناصعة البياض .. وعلى أصابعي .. دمعة من دموعه .

حسام مصطفى إبراهيم
نادى أدب شربين

ملاحظة تاريخية

قرأت في مجلة الهلال عدد يناير ٢٠٠٢ كلمة جليلة للسيد فرج مجاهد عبدالوهاب تحت عنوان (ملاحظة تاريخية) أضاء فيها عتمة حول قصيدتي (عظيم ثقيف) المنشورة في عدد ديسمبر ٢٠٠١ وأود هنا أن أشير إلى بؤرة في تفكيري وفي وجداني احتضن فيها تاريخ العالم العربي خاصة واعتز باستعادة نبوة لم يصرح بها أحد فأنا أذهب إلى أن حضارتنا مدينة لنبوة السيف الخالدي مثلما هي مدينة لنبوة محمد بن عبد الله .. وانني تدخلت في تفسير الآية . ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ فاستبعدت الوليد بن المغيرة رغم إقراري بعظمته ووضعت خالد بن الوليد في المكان الخالي متجاوزاً آراء جميع المفسرين الذين وضعوا فيه عروة بن مسعود .

فلو جرت الأمور كما يتوقع كاتب هذه السطور لكان خالد بن الوليد هو المناظر الوحيد وهو عظيم ثقيف الحقيقي محاذياً أبا الطيب المتنبي القائل :

لقد رجعت وأقلامي قوائل لي

المجد للسيف ليس المجد للقلم

وشكرا لمجلة الهلال التي اتسع صدرها واستنار فكرها .

سليم الرافعي - لبنان - طرابلس

إلى صغيرتي

إذا ما غرد العصفور نشواناً بلا خمر

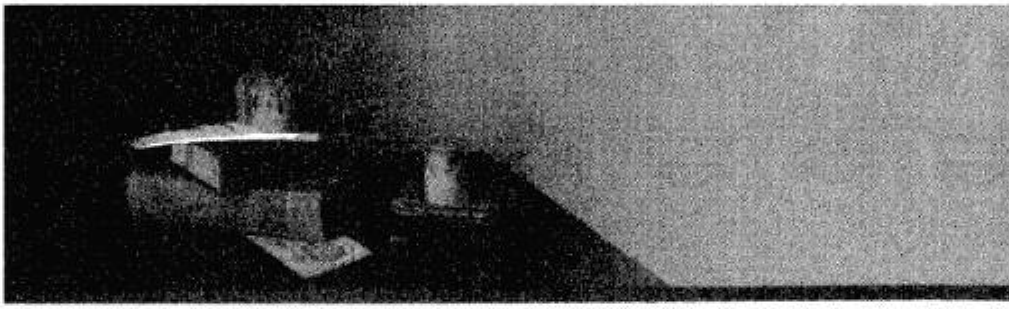
وعانق في الفضا فرحاً	وليد النور في الفجر
رأيتك في مخيلتي	كأطياف المنى تسري
تعابثني فتشجيني	وتسألني فما أدري
تداعب في براءتها	خطوط الشيب في صدري
وتنشر حولها عبقاً	كروح المسك والزهر

* * *

إذا ما أقبل الليل	وذابت فضة القمر
وكابد وحدتي ناي	بصوت ساحر عطر

رأيت النور في عينيك مثل الضوء في السحر

يؤانس مهجة حيرى	ويهديها لدى السفر
بصوت ناعم النبرات	معزوفا بلا وتر
كأنك - والدجى قدري -	أنيس يقتفي أثري



* * *

كأن النور في سفر — فما أدناه إلاك
وطهر الماء ما يبقى — بهذا الكون لولاك
أريج العطر مبعثه — ثنايا من ثناياك
وزهر الروض في شغف — لكي يحظى بمرآك
دعوت الله مبتهلا — ليحرسك ويرعاك
ويجعل خير أيامي — قبيل لقاه رؤياك

مهندس/ محمد محمد أبو خشبة
دسوق

الهلال والألفية الثالثة

آمنت مجلة الهلال منار الفكر العربي - ولا تزال تؤكد بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضي إيمانها - بأن لأمتنا العربية والإسلامية بحضارتها ، ورسالتها الإنسانية المتميزة، وأن طابعها يحمل مزيجا خاصا من الأصالة والعروبة والإسلام، كما أرسى الهلال من خلال صفحاته مبدأ حوار الحضارات وليس الصدام فيما بينها، على جانب آخر فقد حملت صفحات « الهلال » خصائص الأمة العربية والإسلامية

ومن يراجع ويطالع مجلدات « الهلال » في مسيرته التاريخية الطويلة يجد أعداداً عن « العرب والإسلام في العصر الحديث » عام ١٩٣٩ و« العرب والإسلام في القرن العشرين » يناير ١٩٥٥ ، و« نحن والغرب » يناير ١٩٥٦ و« أمتنا العربية » ١٩٥٧ ، ولم يقتصر الأمر على هذه الأعداد الممتازة بل امتدت معالجة موضوعات العرب والإسلام إلى الأعداد العادية من الهلال» .

ومن حق قراء « الهلال » عليه في مستهل الألفية الثالثة وبعد أحداث ١١ سبتمبر ، أن يكون بين أيديهم عدد ممتاز عن «العرب والإسلام في القرن الحادي والعشرين» يحشد له أعلامه وكتابه ويستكتب غيرهم من أمثال الأساتذة محمد حسنين هيكل والسيد ياسين والدكاترة حسن حنفي وفؤاد زكريا وعاطف العراقي ، وميلاد حنا ، وأنور عبدالله ، وعواطف عبدالرحمن وأخيراً المفكر المغربي محمد عابد الجابري .

علاء الدين عمرو حمودة

■ **الهلال : نشكر للقارئ متابعته المستمرة لدور الهلال الثقافي ونشير إلى أنه منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تتوقف « الهلال » عن متابعة هذا الحدث إسلاميا وعربيا وعالميا وعموما ففكرة إصدار عدد خاص كما أشار محل نظر واهتمام .**

قلب لا يهدأ

مسافر فى عيون الغيد أزمانا
أجوب فى سحرها الفتان نشوانا
أذوب فى المقلة السوداء ترمقنى
بنظرة صار منها القلب هيمانا
لا يستطيع سوى كتمان لوعته
حتى يصادف فى الدروب سلوانا

* * *

يا زهرة سكنت فى عمق أوردتى
قد عيل صبرى وأض الصمت اعلانا
واخضوضرت نفحات الحب تغمرنى
فتملأ النفس أشجاناً وألحانا
لو تعلمين بما ألقاه من ألم
فى كل يوم يذوب القلب كتمانا ؟!
حتى الطيور على الأغصان ترقبنى
أكفكف الدمع فى الأغوار هتانا
يا نهلة من رياض الخلد قد سكبت
كأنها كوثر ينساب ريانا

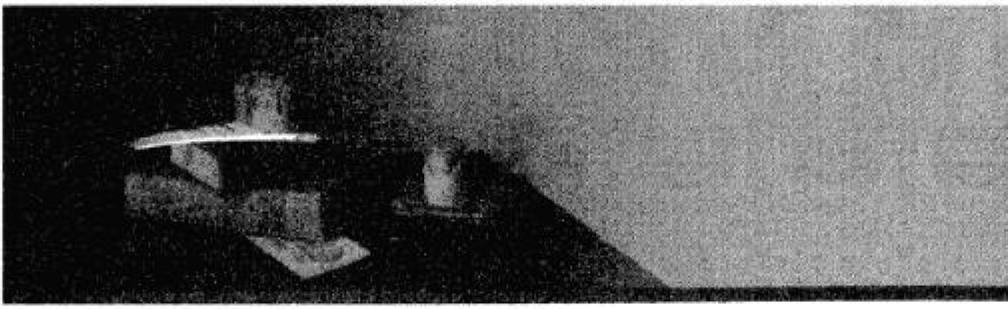
حاتم عبدالمحسن غيث

(١) أض : أى تحول مثل آض الماء ثلجاً .

رسالة من قاصة

وصلت رسالة من القاصة سحر خليفة من الأردن تقول فيها : لدى رواية جديدة لم تنشر ، فهل أجد متسعا لنشرها فى سلسلة روايات الهلال .. وأكون سعيدة إذا وصلنى رد يؤيد وصول رسالتى .

■ **الهلال : تعذر الرد لأن رقم الفاكس لا يجيب .. ورجاء إرسال الرواية وشكرا ..**



خذ جنتيك..

خذْ جنتيكَ وخلّنى وجهنى
وتخلَّ عن حبِّى فلست بمرُغم

خذ جنتيك وحور عينك والمنى
طلّقت توا كل عيش مُنْعَم

فاقطع سيول الفضل، لست برازق
إنى لجمعك أبق لا أنتمى

لى دوحة فى ظلها تحلو الحياة
وتزهر البسمات بعد تلجم

فالله أبدلنى بكوخ دافئ
مأوى القلوب .. إله يأوى المحتمى

وإذا الهجير تأوهت نفحاته
فظلال كوخى كالأب المتبسم

وزعت فوق جبينه ريحانة
فعبيرها لحن يثير ترنمى

دعنى لأكدح كى أنال لقيمة
عرق يخضبها ، ويحلو مطعمى

وأحب ربى فالنعيم بقربه
والحمد رعرع فى الفؤاد وفى فمى

عبدالرحمن حمزة - طنطا - دقهلية

توفير الوثائق التاريخية للباحثين

طالعت باهتمام مقال « الحرس الحديدى وثورة يوليو » للدكتور عاصم الدسوقى والذى نشر فى العدد الماضى ، وكشف فيه كاتبه النقاب عن قضية قديمة جديدة هى قضية الحرس الحديدى التى لها ارتباط وثيق بالنظم السائدة مثل النازية التى ساندت الديكتاتوريات الحاكمة فى ألمانيا ممثلة فى (هتلر) وفى ايطاليا ممثلة فى (موسولينى) - الفاشية وأيا كانت جماعات الاغتيال ، فهى ترتكز على مبدأ قلب نظام الحكم .

وما أعجبنى فى المقال هو ما أشار إليه د . عاصم من خطر الاعتماد على الذاكرة فى كتابة التاريخ ، وضرورة توفر الوثائق الرسمية المعتمدة ، ولذا فإننى أهيب بالقائمين فى دار القضاء العالى ، وخاصة فى الأرشيف بالسماح للباحثين والمؤرخين بالاطلاع على قضايا الاغتيالات السياسية والحرس الحديدى ، للوقوف على الحقيقة بموضوعية وشكل أفضل من الاجتهاد ، وتلك هى السمة الأساسية للمؤرخ .

د . صموئيل لبيب سيحه - المنيا

الطبع والتطبع

إن طباع الانسان وسلوكه وعاداته الموروثة والمكتسبة بحر واسع أجريت فيه العديد من الأبحاث والدراسات ولم يكن العرب الأقدمون أقل شأنا من معاصريهم الذين بحثوا في أسرار طباع وسلوكيات البشر فقد حفل تراثهم العربي الأدبي شعرا ونثرا بطبائع السلوك الانساني فطريا كان أو مكتسبا يقول الشاعر :

كل امرئ راجع يوما لشيمته
وإن تخلق أخلاقا إلى حين

وقال آخر :

إذا كانت الطباع طباع سوء
فليس بنافع أدب ولا أديب

ومن الحكايات التي رواها الأصمعي عن طباع الناس وسلوكهم أن رجلا يدعى عثمان بن سليمان خرج مع جماعة من أهل البصرة إلى حي من أحياء بني مازن فمروا على بيت من بيوتها يقف على بابه رجل وامرأة فألقوا عليهما السلام ثم قالوا لهما : نريد مكانا نبيت فيه ليلتنا قال الرجل : ما عندنا مكان لكم فقالت له المرأة : أتقول هذا لضيفان حلوا بنا ووجب حقهم علينا ثم طلبت منهم الدخول وقامت بضيافتهم على أكمل وجه وفي الصباح غادروا البيت وواصلوا سيرهم .

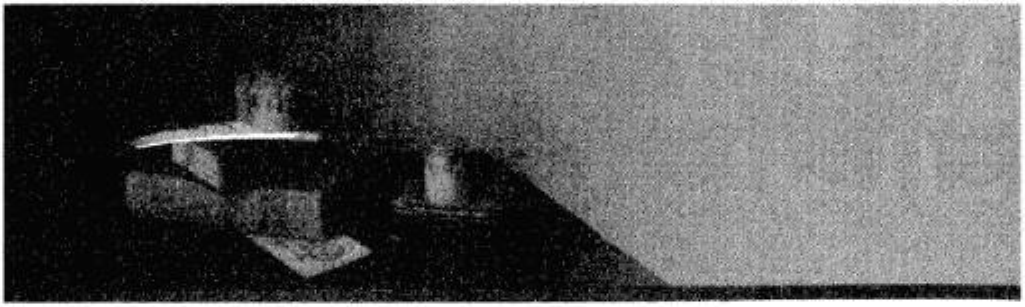
وفي حي آخر مروا على بيت يقف على بابه رجل وامرأة فطلبوا منهما استضافتهم حتى الصباح فرحب بهم الرجل بعكس المرأة التي أبدت ضيقا وتبرما ولما نزلوا بالبيت حكوا للرجل ما حدث مع الرجل والمرأة اللذين نزلا عندهما بالأمس بحي بني مازن فقال لهم الرجل : أن تلك المرأة التي رحبت بكم هي شقيقتي إما زوجها الذي تبرم منكم فهو شقيق زوجتي هذه وأننا نحمد الله الذي أنعم علينا بأخلاق الكرماء .

إن للعرب كلام بليغ وأقوال مأثورة في الطبائع والسلوك وما يترتب عليها من آثار في حياتهم فالخلق الطيب يجزي صاحبه إحسانا بينما تكفي المسئ اساءته يقول شاعرهم :

دع المرء لا تجزيه عن سوء فعله
سيكفيه ما فيه وما هو فاعل

ومن أقوالهم : اللسان سيف قاطع لا تأمن حده والكلام سهم نافذ لا تملك رده ، وقالوا : عود نفسك الجميل تجمل وإياك وفضول الكلام فإنها تظهر من عيوبك ما بطن وتحرك من عدوك ما سكن.

محمد أمين عيسوي - الاسماعيلية



مع الأصدقاء

● محمد هشام عبيه : نادى أدب ـ شربين ـ أرسل لنا قصة قصيرة جدا.. بعنوان « مقايضة » .

● محمد عبدالعاطى أحمد ـ قنا ـ الخطارة

وصلت مساهمتك « عصفور فى مهب الريح» وهى جيدة نرجو أن ننشرها فى عدد قادم .

● مينا يسى عبدالمسيح ـ العتبة

ـ رسائلك تصل إلينا ، وتتحدث عن ضرورة النهوض باللغة العربية ، خاصة فى مجال الترجمة ، نحن نحرص على ذلك فى كل ما نقدم من أعمال سواء فى الهلال أو رواية الهلال أو كتاب الهلال ..

وإذا كانت لديك اقتراحات ، برجاء إيجازها وتوضيحها فى رسائلك إلينا ، فما تكتبه لا يوضح ما تريده !

● رمضان ابراهيم بشير ـ قنا أبو دياب ـ شرق

لا شكر على واجب ، ومساهمتك بعنوان : « إلى إيمان حجو » جيدة ومن أبياتها

تسلقت عيدان الرند
وأشجار الأرجوان
لأبحث عنك
زرت جميع الأوطان
وسألت الأحجار
لأعرف من أنت !

● محمود المصلى ـ شربين

شكرا على هذا المدح الرقيق ، فالهلال تؤدى دورها الثقافى باعتبارها المجلة الثقافية الأولى فى الوطن العربى وقد وصلتنا قصائدك الثلاث

● فوزى أحمد ـ منوف

بدايتك الشعرية مبشرة بالخير ، وحاول ، ففى « طائر الفجر » فكرتك جيدة ، أما « البلبل الشريد » فهى عبارة عن رص كلام على شكل كلام مرسل ، وهذا ليس بشعر .

الكلمة الأخيرة

كاتبتي المفضلة



بقلم: صافي ناز كاظم

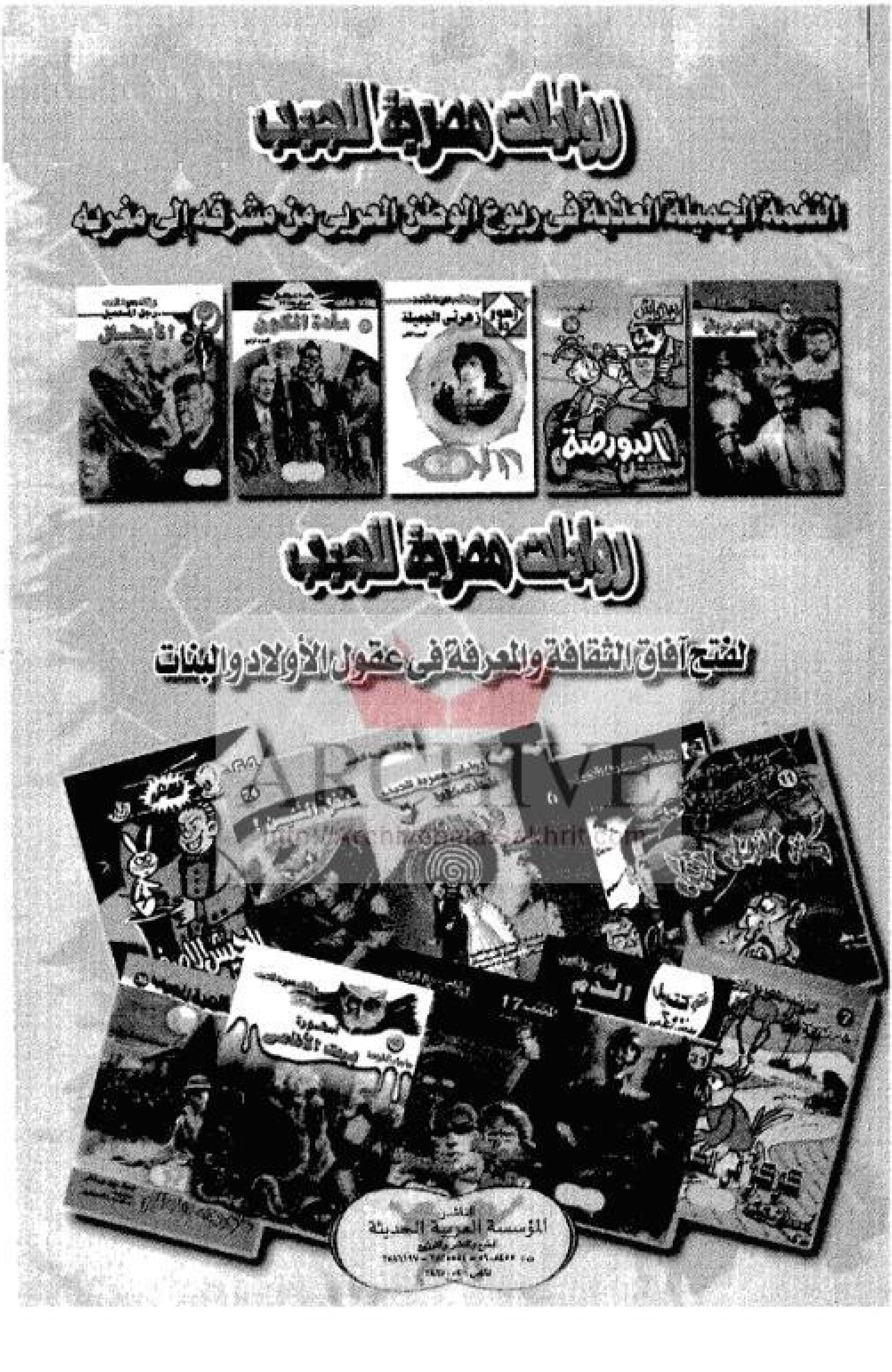
● أكثر من نصف قرنٍ قد مرَّ منذ إمساكي بالقلم، أكتب عام ١٩٥١ ما أتصوره شعراً، وأنا في بداية سنوات دراستي الثانوية، ولم أبلغ الرابعة عشرة. على مشوار نصف قرن كانت «الكتابة» هي غايتي، التي بذلت وأبذل الجهد لإجادتها وصقلها ومعرفة أسرارها، لأبلغ بها ومعها وفيها فائدتي وجدوى وجودي على هذه الأرض.

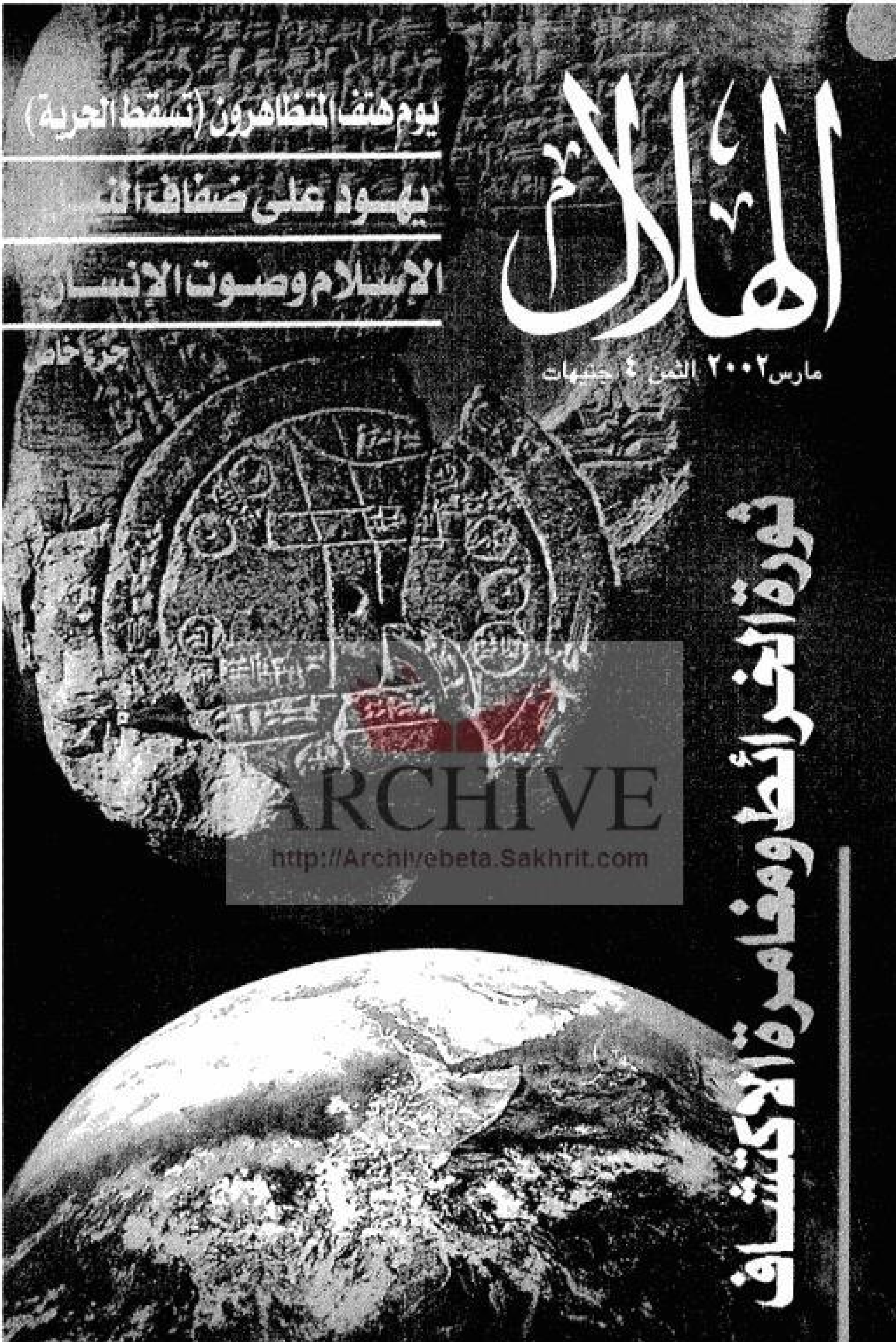
أصل «الكتابة» طاقة تعبير كامنة في الصدر أبحث لها عن صياغة تلقفها كالوليد الناطق في المهد يقول إني عبدالله، في كل مرة، استعد لهذه الصياغة، أتبرأ من حولي ومن قوتي وأدعو ربي وأنا ساجدة راجية: ألوذ بحولك وقوتك، فأعني على القول بحلاوة فلا حول ولا قوة إلا بك.

قبل «الكتابة» أنا متورطة في الوعد بها وأكاد أتعهد بألا أعود لمثلها، بعد «الكتابة» أنا سعيدة فرحة كأنني قد ربحت ما لم أكن أتوقع، وهذا ما أسميته مرة علاقة «حب / كراهية» بالكتابة حين يمر زمن على ما قد كتبت وأعود لقراءته أندهش بحق: أنا كتبت هذا؟ وأجدني فأنا غير التي كتبت، وأجدني شديدة الإعجاب بها، ولولا أنني على يقين أنها أنا لأعلنت «أنها» كاتبتي المفضلة. لا أقصد «أنها» كاتبتي الوحيدة، فأنا وراء كل «كتابة» معتني بها، طلية، وعذبة، وتقول للناس خيرا، لكنني أفرح حين أجد أنني في ركب هؤلاء، الذين أعتنوا وأجادوا، وأحمد الله على ذلك كثيرا حتى يصل بي الحمد إلى البكاء.

حين أختار لكتابتي عنوان «تاكسي الكلام»، أعني تحرري من أي مركبة لا توصلني إلى مشواري، إلى هدفي: ميدان التحرير من فضلك، لا؟ شكرا. أنتظر حتى أجد من يوافق على أخذ كلامي إلى جهتي المطلوبة ليس لدي سيارة أمتلكها وتمتلكني، أستخدم سيارات التاكسي بالاتفاق المشترك: التاكسي حر، وأنا حرة وهكذا كلامي أنشره بالاتفاق المشترك، كل «كتابة» لي تم نشرها في صحف ومجلات مختلفة وفقا لحرية كل من نشرها، وتحقيقا لحريتي في «الكلام»، وبين الكاتب والناشر يفتح الله، والاحتكار ممنوع والزعل مرفوع!.


مصر للطيران
EGYPTAIR
أفتتاح مجمع بضائع العاشر
لخدمة المصدرين بالعاشر من رمضان
CARGO
• مخازن للبضائع و الكيماويات مساحتها ١٧١٨ م٢
• ثلاجات مساحتها ٥٨ م٢ من ١٠٠ حتى ٢٠ درجة مئوية
• رصيف تحميل و تفريغ بطول ٦٣ متر و عرض ٧.٦ م
• مكتب مبيعات للبضائع - مكتب مبيعات تذاكر
• أسطول من السيارات للنقل من مجمع بضائع العاشر من رمضان إلى مجمع بضائع ميناء القاهرة الجوى
• مخازن للشحنات الثمينة - موازين إليكترونية
• كافتريا • تكييف مركزى • خدمة اتصالات داخلية و خارجية
للاستعلام:
ت: ٠١٥/٤١٠٩٢٦ - ٠١٥/٤١٠٩٢٧ فاكس: ٠١٥/٤١٠٩٢٣


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
مارس ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
يوم هتف المتظاهرون (تسقط الحرية)
يهود على ضفاف
الإسلام وصوت الا
ثورة الخرائط ومغامرة الاكتشاف



لوحة وفنان

فتاة جالسة

للفنان «بابلو بيكاسو» - ١٩٧٠ - المتحف القومي - واشنطن



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الالكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير
محمد أبو طالب المستشار الفني
عاطف مصطفى مدير التحرير
محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد ابو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما او بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية: ٥٠ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا: ٣٠ دولارا. باقي دول العالم: ٤٠ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤١٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



العام العاشر بعد المائة
ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

زمن الرواية:

شخصيات لا تنسى

الأبواب الثابتة



مجد الاستشهاد

* يوم الأحد ٢٧ يناير ٢٠٠٢ انضمت الشابة الوسيمة وفاء إدريس إلى قافلة الشهداء في عملية نفذتها في أكثر تجمعات المحتل الصهيوني ازدحاما في شارع يافا بقلب القدس . لم تكن وفاء إدريس الاستشهادية الأولى ، ولن تكون الأخيرة ، في موكب المرابطين حراس الأرض المباركة . يهيش الباطل ويغتر ، ويفرد جناحيه الخفافيش ، يحاول أن يغطي عين الشمس ، لكنها محاولات ، تقف أمامها سنة الله الخالدة : « إن الباطل كان زهوقا » . وعد الله أن يقذف بالحق على الباطل فيزهقه ، إن الله لا يخلف وعده . مع البطش والجور دائما تنبثق الروح الاستشهادية لتجابه بحب العدل والإنسان قوة الظالمين المغترين بأسلحة الخسة وقانون الوحشية .

في الوقت الذي كانت وفاء إدريس تعد عدتها فيه لفدائها الجميل ، كانت هناك الأصوات المثبطة ، من بين ظهرانينا ، تحاول أن ترتفع لتؤسس بهمهماتها منطق المهزومين قائلة بلا حياء : إن العمليات الاستشهادية يجب أن تتوقف، لأن مردودها صار بلا جدوى ، أو كما قال أحدهم في إحدى الصحف : « ... ولا يبقى غير العنف الفردي والعمليات الاستشهادية وهي التي توقع خسارة معنوية أشد بالشعب الفلسطيني في نظر القوى الدولية التي يعتبرها إرهابا وخاصة بعد ١١ سبتمبر إلي أن قال : « ومن حق الشعب الفلسطيني أن يقاوم بالبندقية ولكن إطلاق الرصاص والقنابل ردا على ممارسات نظام الاحتلال لم يعد يأتي بمردود إيجابي،بل صار ضرره أكثر من نفعه ، وهناك آليات نضال بالغة البساطة أعلى مردودية وأوفر قيمة وأقل كلفة .. السر وراء انتصار شعب جنوب إفريقيا .. الأغنية والرقصة ... أما الشعب الفلسطيني فقد بالغ تقليديا في تقدير قيمة البندقية والقنبلة وأن الأوان أن



الشهيدة سناء محيدلي



الشهيدة وفاء ادريس

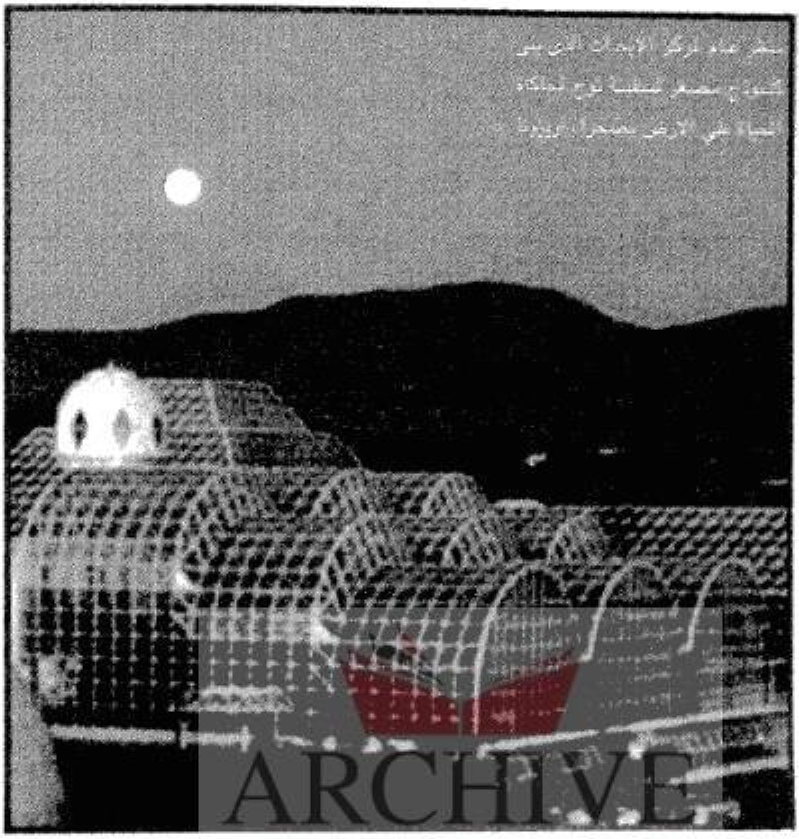
يتقن إطلاق النشيد والأغنية فى وجه نظام الاحتلال، لكم أن تتصوروا إلى أى مدى وصل انسحاق الروح عند هذا الكاتب وجوقة المنشدين من أمثاله .

قبل شهر واحد من استشهاد وفاء إدريس كان هذا الصوت الاستخزائى ينقنق . والحمد لله أنها كانت مشغولة بتضميد جراح أطفال فلسطين ومواساتهم ، وملاطفة آلامهم فلم تقرأ مثل هذا العفن لمن يريدون أن يشيعوا بيننا الاستسلام تحت أقدام القتلة نغنى ونرقص !

قامت وفاء إدريس لتنسج مع الناسجين مجد الاستشهاد، ليشفى الله صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

تحية لوفاء إدريس ، ومن قبلها سناء محيدلى التى قامت بعمليتها الاستشهادية فى لبنان ضد قوات الاحتلال الصهيونى فى التاسع من ابريل عام ١٩٨٥، ومعهما السائرات ، فى الزمن الصعب ، خلف خولة بنت الأزور ، وأم حرام ، وخلف قافلة الشهداء من الشيوخ والشباب والصبية والأطفال والرضع ، الذين تركوا كل شئ ليعطوا كل شئ ، وينبثقون من يأسنا روحا منتصرة ، ونوار أمل دائم الاخضرار .

المحــــــرر



٨
الهلال
ذو الحجة ١٤٢٢هـ مارس ٢٠٠٢م

الكتابة بلا ورق

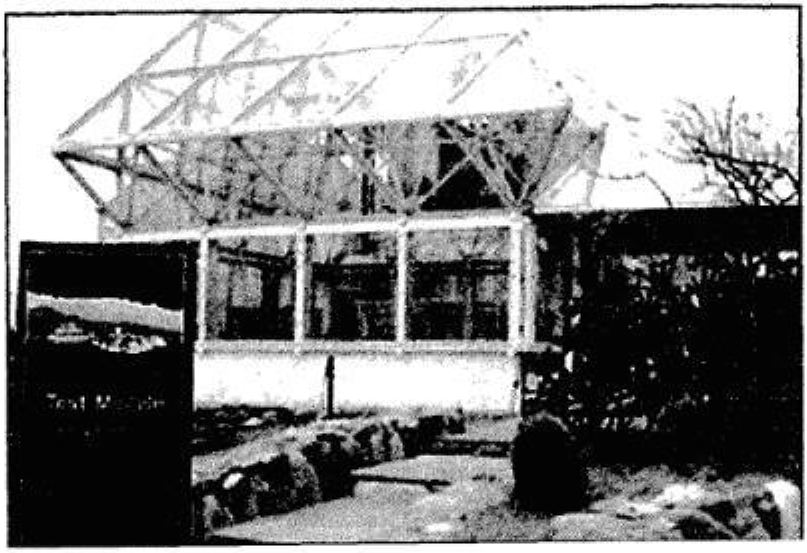
بقلم
د. أحمد محمد صالح

من اكبر الأوهام التى نعيشها فى العصر الرقمى، هو تخيل الحياة بدون ورق! فماذا تقول عن التجربة التى حدثت فى ولاية أريزونا بالولايات المتحدة الامريكية؟! حيث وافق ٨ اشخاص على العيش فى سفينة زجاجية لمدة سنتين بدون اى نوع من الأوراق؟! فى تجربة علمية فريدة حيث جمعت أكثر من ٤٠٠٠ نوع من النباتات والحيوانات، تقريبا من حوالى ٤٠ دولة حول الكرة الأرضية، ووضعت فى مساحة ٣,١٥ فدان، واحيطت تلك المساحة بالزجاج، لتمثل تجاوزا صوبة زجاجية كبيرة، داخلها نماذج من جميع الكائنات الحية على وجه الأرض مثل سفينة نوح! تجربة علمية مشهورة. يطلق عليها Bioaphene1.2 المحيط الحيوى ١ و ٢ وهو هيكل ضخم من الزجاج، ثبت فى الجبال بجانب مدينة توسن بولاية اريزونا، بالولايات المتحدة الامريكية، بإشراف جامعة كولمبيا وتطوع ٨ اشخاص لمدة سنتين (١٩٩١ - ١٩٩٣) للعيش وإدارة هذه السفينة الزجاجية الضخمة المبنية على الأرض! كجزء من مشروع كبير صمم لمساعدتنا فى فهم ايكولوجية الأرض. والمشروع العلمى Biospherez, Bio-sphere,iبنى كنموذج مصغر لمحاكاة الحياة على الأرض، ويمكن العلماء من اجراء التجارب، وتعقب التفاعلات بين الانسان والارض والنظم البينية للماء والهواء، ويقدم المزيد من تفاصيل تلك التفاعلات!

وكان من ضمن اهداف المشروع، ملاحظة كيف يمكن للاشخاص الثمانية الذين عاشوا لمدة سنتين فى تلك المركبة الزجاجية، أن يعيشوا حياة المعلومات الإلكترونية المكثفة، ويستغنوا تماما عن الورق؟! فهم الناس الوحيدون فى العالم حتى الآن الذين حاولوا أن يعيشوا الوجود الإلكترونى كاملا! بالتاكيد هناك الكثير من الناس قد تكلموا عن الحياة الإليكترونية، والكثير أيضا قد تعهد والتزم بتقليل استهلاكهم من الورق وإعادة تصنيع ما يستعملونه! لكن على حد علمى المتطوعون الثمانية فى تلك التجربة هم الوحيدون فىّ العالم الذين عاشوا وهم الحياة بدون ورق لمدة سنتين! ففى سبتمبر ١٩٩٢، وعندما سار المتطوعون الثمانية إلى خارج بيت زجاجهم الكبير، أحاطت بهم الأسئلة عن معقولية وجدوى الحياة بدون الورق!! وكانت إجابتهم الدائمة: ان الحياة الإلكترونية بدون ورق، هى فقط ممكنة!

حياة إلكترونية

ورصت فى المركبة الزجاجية المحكمة الإغلاق بحجم باخرة كبيرة فى محيط، سبعة نظم بيئية صغيرة وكثيفة ومضغوطة وتتراوح من غابات استوائية حقيقية إلى بحيرات شعاب مرجانية صغيرة. ورصت فيها أيضا بعض من النظم الميكانيكية الأكثر تعقيدا، التى بنيت من أجل الهواء والماء، الحرارة، الكهرباء والمعلومات داخل السفينة الزجاجية، لتسهيل عمل المتطوعين أثناء مهمتهم بالداخل، حيث ينتظر منهم أن يرفعوا طعامهم الخاص إلى داخل السفينة! وإزالة الأعشاب الضارة من المساحات البرية! والاحتفاظ بكل الماكينات تجرى فى عملها، وكتابة البحوث العلمية عن ملاحظاتهم! ولعمل هذا، كانوا يقومون يوميا بمعالجة كتل ضخمة من المعلومات، ومراجعة وتقييم وضع ٦٠ موتورا، و ٥٠ ميلا من الكابلات و١٠٠ مضخة وآلاف من الصمامات الالكترونية، كانوا طوال الـ ٢٤ ساعة فى اتصالات بالراديو مع بعضهم البعض داخل السفينة الكبيرة ومع زملائهم فى المراقبة الأرضية تبعد حوالى ٣٠٠ قدم. وسجلوا كل ذرة من الطعام حصدت، وكم وزنها وكم أكل منها. وأيضا كمية السعرات التى احتوتها، وكم منها عاد للاستعمال كسماد! وكانوا دائما فى حلقات دراسية عبر مؤتمرات الفيديو، من خلال نظام اتصال الكترونى مفتوح حول العالم. تبادلوا بياناتهم المناخية مع العلماء بالخارج ونظموا ست ورش علمية كاملة مع هؤلاء العلماء المشاركين عن بعد. وسجلوا كميات استعمالهم للماء وأين ذهبت تلك الكميات، قاسوا نمو النباتات ورسموا خريطة للحركة النوعية للنباتات والحيوانات داخل السفينة، تلقوا فاكسات الكترونية لآخر الاخبار، حصلوا على تليفزيون الكابل، عملوا فى الصحف العلمية لينشروا ابحاثهم عن تجربتهم داخل السفينة! وأكملوها وراجعوها مع علماء من خارج السفينة، واستعانوا باقتباسات من اوراق بحثية لآخرين خارج السفينة. هم أرسلوا وتلقوا مجلدات البريد الإلكترونى الداخلى بخصوص الإدارة اليومية لمشروعهم. وقليل منهم جازف فى الدخول إلى سحابة الانترنت للبحث عن المعلومات والتواصل مع الرفقة، علاوة على التعليق على قوائم الأعداد المطردة الإضافية



أول معمل تم بناؤه في صحراء اريزونا ١٩٩١ ليكون نواة لمركز سفينة التجارب العملاق

لرسائل البريد الإلكتروني. وكان نصف هؤلاء المتطوعين متورطا ومنغمسا في ادارة اعماله خارج المركبة أثناء وجوده بالداخل، والنصف الثاني أيضا كان يتابع قراءاته للحصول على الدرجات الاكاديمية المتقدمة اثناء وجوده لمدة سنتين داخل سفينة نوح وهو بعيد تماما عن الورق. وهؤلاء الناس لم يكونوا ابدا كسالى رقميين ! كما تبدو الصورة.

وكان هؤلاء المتطوعين يطلقون على تلك المركبة موطن الانسان، وكان هذا الموطن فسيحا بشكل مذهل، وعصريا جدا فيه احدث التكنولوجيات ! فهم يستمتعون بحجرة اجتماع كبيرة جدا وغرفة طعام، ومنطقة للمطبخ، وزودوا بسجادة فخمة لها ملمس القطيفة ورائحة اللافندر الفخمة ولمسات ديكور فخمة وعصرية ، كان هناك تليفون مخفى فى كل ركن. بالطبع كانت هناك تليفونات اختبأت تماما خلال المكان كله حتى فى المساحات البرية! داخل كل شقة كان يوجد كمبيوتر بمودم ، وأيضا سرير، فراغ للتخزين، تليفون والتليفزيون، وكان لدى كل متطوع كمبيوتر أيضا فى مقر عمله وتحت يده! برغم من ان كلا منهم حمل معه داخل المركبة الكمبيوتر المحمول الخاص به. ولكنهم لم يستعملوها، بل عالجوا كميات المعلومات الوفيرة التى حصلوا عليها من خلال اجهزة الكمبيوتر الشخصية المتراصة على المناضد داخل البيت الزجاجي، ولم يتوفر لديهم مساعدون رقميون فى مهماتهم الرقمية الروتينية اليومية! وكان امامهم الكثير من المهمات اليدوية أيضا ! مثل قراءة المعلومات المتحصل عليها بأصواتهم لإدخالها في الحاسب ! وجمع المحاصيل. وإزالة الحشائش! وإضافة السماد، وتصنيف النباتات.. الخ العمليات الزراعية! وتوصيل البيانات بالراديو

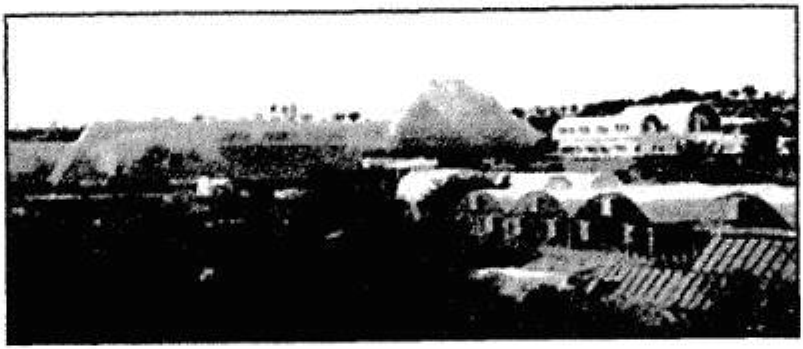
لزملائهم في خارج البيت الزجاجي، وكثيرا جدا من العمليات اليدوية! وبالرغم من انهم تمكنوا من أن يتخلوا عن الورق في الحمام! إلا ان الواقع كانت الحياة داخل المركبة غير إلكترونية تماما. وغير ورقية بالكامل!! فهناك دفتر الملاحظات الذى استعمل لتدوين البيانات والملاحظات السريعة بالقلم الرصاص، كانت هناك صعوبة شديدة في عدم الاعتماد على تلك النوتة الورقية الصغيرة! كان لديهم أيضا مكتبة كتب مثل التي نجدها في المنازل، وفيما عدا تلك المظاهر الورقية، كانت المركبة تعج بالمعلومات الالكترونية ، فقد تلقت المركبة الزجاجية اجمالي حوالي عشر آلاف فاكس (١٠٠٠٠ فاكس» ، لم تر هذه الفاكسات الورق ابدا، فكانت تظهر على شاشات الكمبيوتر ويتم التعامل معها الكترونيا ، الا بعضها كانت تستدعي الظروف الجانبية صورة ورقية من الفاكس!

المفارقة الورقية

والمحيط الحيوى ١ و٢ هو تجربة رائعة لتحديد ماذا يمكن ان نتعلم من الاعتماد على النفس، داخل نظام مغلق مكتفيا ذاتيا داخليا، ولا شيء من الخارج ، باستثناء الطاقة والمعلومات ، لكن في السنة الثانية لبعثة المتطوعين، لجنة المحيط الحيوى الاستشارية العلمية أوصت العلماء أن يرخوا قواعد استيرادهم الصارمة ويسمحوا لبعض الورق في زجاجة ، طالما سجلت المادة على هذه الأوراق! وعند الطلب، يمكن أن تدخل المركبة المطبوعات الطبية، للاطلاع على شروط الحياة مع الأوكسجين المنخفض بالداخل وقراءة ابحاثهم المنشورة في الصحف العلمية، ومراجعة الرسوم البيانية في أوراقهم العلمية! هذه هي المطبوعات التي وصلت داخل المركبة، والتي لم يصلها ابدا دليل للبرامج التليفزيونية، وكانت اجهزتهم مضبوطة دائما على محطة «سي. ان. ان» الاخبارية ، وتوفر لهم مركزا لخدمة عرض افلام الفيديو عند الطلب وخاصة في مساء ايام السبت، وأصاب اليأس المتطوعين من الحصول على كتاب كامل او صورة ورقية من فاكس او نص ورقى للرسالة الإلكترونية ، واصبحوا يشعرون بالضيق الشديد من صعوبة قراءة كتاب على شاشة الكمبيوتر من صغر الشاشة، والوقت الطويل المطلوب للجلوس امام الشاشة لمتابعة قراءة الكتاب وثبط حماسهم للكتب الإليكترونية!

والنقطة الرئيسية التي تاكدت في تلك التجربة أن كل النظم البيئية والكائنات الحية داخل تلك السفينة الزجاجية الكبيرة لا يمكن ان تعيش بمفردها وتستمر في عزلة عن بقية النظم والكائنات.

واحدة من المتطوعين هي ليندا لياي، قالت: إنها حاولت ان تنمي فيها عادة الإستغناء عن الورق، والعيش حياة إلكترونية كاملة ولكنها اكتشفت أن العيشة الإلكترونية الكاملة داخل سفينة التجارب تتطلب الكثير من الناس خارج السفينة يعملون الكترونيا ايضا وبدون ورق! وأنه لا يمكن حقيقة ان نعيش بمعزل عن الورق او نعيش في جزيرة تسيطر عليها الحياة الإلكترونية الكاملة، وشرحت ليندا أنها كان يمكنها فقط أن تكتب للآخرين عبر البريد الإلكتروني أو فاكس الكمبيوتر، لكن كان الكثير من



مركز سفينة التجارب في صورة اخذت في فبراير ٢٠٠٠ وتظهر زيادة عدد المعامل البحثية

المستلمين للرسائل لبندا يملكون فقط ماكينات الفاكس الورقية، وهكذا تولدت أوراق أكثر بما هي مرغوبة! وتجربتي الشخصية ايضا في الكتابة لمجلة الهلال طوال العام الماضي كانت تحمل نفس المفارقة الورقية! فقد تعودت منذ سنوات ان اسجل افكاري واكتب ابحاثي ومقالاتي مباشرة على الكمبيوتر. ثم ارسل المقال من الكمبيوتر خلال كارت المودم والفاكس الى إدارة تحرير مجلة الهلال التي تستقبله على فاكس ورقي، ويتم مراجعة المقال واخراجه ويعد مرة أخرى في صورة إلكترونية ضمن الإعداد الإلكتروني للمجلة! وفعلا لا املك صورة ورقية لمقالاتي، الا في حالتها الورقية الأخيرة المنشورة في مجلة الهلال. ونرجع مرة ثانية لسفينة نوح الزجاجية، التي عاش فيها ٨ من المتطوعين حياة بلا اوراق، لدرجة ان الخطابات الورقية البريدية التي كانت تصلهم، كانت تفتح اولا خارج السفينة ثم تمسح الكترونيا ، وترسل بالفاكس عبر الكمبيوتر الى داخل السفينة، وإذا كانت كلمات الخطاب قصيرة كانت تقرأ عبر التليفون! أو من خلال زجاج نوافذ السفينة! كل هذه الأنشطة كانت تستهلك معظم الوقت، ورغم تلك الجهود كان ينتظر المتطوعين ١٢ صندوق بريد مليئة بالخطابات الورقية في انتظار دورها حتى تدخل في صورة الكترونية. وكانت الشكوى الأولى لكل المتطوعين هي صعوبة الحياة داخل السفينة بدون ورق، وكانوا لا يستطيعون ان يجدوا بياناتهم بعد ان تكون حفظت في ملفات الكترونية ، وبعد سنتين كان لكل متطوع ملف حجمه حوالى ٤ جيجابايت يحتوى على جميع بياناته الشخصية، وتلك المرتبطة بأبحاثه وأعماله داخل السفينة طوال السنتين، وهي ملفات يمكن ان تفقد وتهدر بسهولة نتيجة فيرس مثلا أو عطب فيزيقي في الهارديسك! والورق ايضا يمكن ان يتلف طبعا! لكن الصورة البصرية المحدودة للورق على المكتب او الرف يجعل من السهل استعادته!

وفي ٦ مارس ١٩٩٤ دخل السفينة طاقم ثان لستة متطوعين عاشوا عشرة شهور حياة إلكترونية بدون اوراق، وهم يجرون تجربة مع واحد او اثنين من الكمبيوترات المحمولة المزودة بسعة

ذاكرة ومساحة تخزين اكبر ومزودة بكاميرات فيديو قابلة للسيطرة. وأكد طاقم السفينة الأول ٨٠ متطوعين، أنهم أنجزوا مهامهم البحثية وعاشوا داخل مركبة التجارب بطريقة الكترونية تماما وبدون ورق وشعروا بالارتياح بنسبة ٨٠٪ من هذه الطريقة الالكترونية. ولكنهم كانوا يشعرون بالضيق في اول التجربة. وانهم تعايشوا مع قراءة كل شيء إلكترونيا! واستمتعوا بتحويل البيانات الى صورة رقيمة، وأحبوا فورية البريد الالكتروني، وانضمام القنوات الاذاعية والفيديو في كابل واحد ، ولكنهم افتقدوا الصحف والمجلات الورقية! وكان طلبهم الأساسي تحسين مولدات الطاقة التي تعمل يدويا وتنسيق مساحات تخزين البيانات والمعلومات إلكترونيا لتسهيل استرجاعها. ولكنهم لم يتوصلوا ابدا إلى طريقة شرعية وقانونية لإنشاء فورمات إلكترونية لتوقعاتهم تماثل حالتها الورقية!

الورق يستمر هو الافضل

ونعرف أن الرؤية التي بشرت بفكرة مكتب بلا أوراق ظهرت مبكرا في أوائل عام ١٩٨٠ . ومع زيادة هجرة الورق كان يتوقع زيادة مبيعات الطابعات بالمقارنة بالطابعة الليزر، لكن حدث العكس زادت مبيعات الطابعة الليزر بانتظام سريع، ومن الخداع ان نعتقد ان فكرة المكتب بلا اوراق هي الطابعة الليزر! فهذا التصور القاطع غير حقيقي، لأن الناس تحب الورق، ويستمتعون بمظهره وملمسه بنفس الطريقة العاطفية التي تحب بها، وترتبط بها مع القطط والكلاب. فالطابعة الليزر لا تمتلك الشعبية.

ومجلة الهلال مثلا منذ اكثر من عام وهي تطبع في ألوان زاهية، ونوعية افضل من الورق، وفي غلاف جذاب، بالرغم من ان بعض الناس يرجئون قراءة الصفحات الملونة! ولأن الناس أحيانا مثل الكتب والوثائق الأخرى التي طبعت برقة ولطف على ورق ناعم الملمس، واحيانا اخرى مثل الكتب التي طبعت على ورق خشن عادي المظهر، فقد يكون جوهر ومضمون الثانية افضل كثيرا من جوهر ومضمون الأولى، لكن لا ينبغي ان نتجاهل الصفات الحسية للورق العالي الجودة.

ودراسات كثيرة، وجدت أن ناسا كثيرين ينشغلون بالأنشطة المركبة - مثل التعليق على وثائق ومقارنتها، على سبيل المثال، عندما يقارن محرر نسختين او اصدارين لبحث او مقالة او فصل من كتاب للرؤية ماذا حدث من تغييرات ، أو دمجهم في مقال طويل ، نجد من الصعوبة بمكان ان نفعل نفس الأشياء من خلال شاشات الكمبيوتر، فشاشات الكمبيوتر ١٤ و ١٥ بوصة حتى الـ ١٧ بوصة، محدودتين للغاية للقيام بتلك الاعمال المركبة مثل مقارنة مخطوطتين بطول الصفحة بوضعهم جنبا الى جنب، لأن هذا يحتاج على الأقل إلى شاشة ٢٤ بوصة، ثمنها لوحدها حوالي ١٥٠٠ دولار، وهو سعر غالٍ جدا لمعظم المكاتب، وبينما تتناقص باستمرار كلفة وثمن اغلبية الشاشات الكبيرة في العقد القادم، الا ان الورق يصبح هو الأفضل، بل إن الورق يملك فضائل أخرى. خاصة مع الذين يعملون مع اب الوثائق المتعددة، ويحتاجون إلى عمل تعليقات سريعة ورسوم بيانية سيجدون في الأمر صعوبة شديدة مع برامج معالجات الكلام حتى لو كان برنامجا ممتازا مثل برنامج

WORD لكن فى إمكانهم ان يحملوا اوراقهم معهم إلى الاماكن المختلفة، ليكملوا تعليقاتهم عليها او قراءتها ، فالورق بسيط جدا وماهر جدا، ومتعدد الفضائل والمزايا. لذلك تنصح الدراسات الحديثة الحكومات بعدم التخلص من وثائقها الورقية بعد تحويلها الى الصورة الاليكترونية لسبب بسيط للغاية هو ان النظم الالكترونية معرضة دائما للانهيار والاقتحام والسرقة من خلال فيروسات الكمبيوتر والانترنت ومهاجمة واغتصاب المواقع المختلفة. لذلك نزعم أن عمر الورق اطول!

وفى بعض النظم، مثل نظام حجز شركات الطيران، فالحركة وتحويلها إلى نظم إلكترونية كانت عملية جدا، لأنه يقلل التكاليف التشغيلية فى إعادة إصدار تذاكر جديدة والتقليل من الملاحظات الإضافية على تذاكرهم ، وعلى النقيض من ذلك. الناس الذين يعملون عملا تحليليا مع أب المخطوطات قد وجدوا الورق هو الوسيلة المفيدة والمعمرة جدا. لعدة أسباب منها ما ذكرناه من ان الورق يمكن ويسهل عمل المقارنات مع رب الوثائق جنبا الى جنب. هو قضية جزئية وايضا قضية القابلية للحركة التى يتمتع بها الورق قضية جزئية ايضا، فالورق ممكن ان يتحرك وينتقل على اى جزء من المكتب، ويمكن ان ينزع من مكانه بسهولة وبسرعة بدون الحاجة الى تشغيل جهاز الكمبيوتر للتعامل مع الوثيقة.

ويلعب الورق أدوارا مهمة فى بعض الأماكن التى نعتقد انه لا يمكن ان يستعمل فيها، والمثال الممتع فى نظم المراقبة الجوية المدنية، حيث تظهر نسخة الفيلم للمراقبين الجويين، الذين يحدقون فى النقاط الخضراء الفاتحة، والتى تمثل

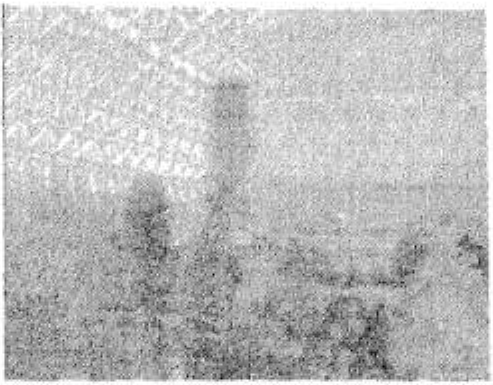


أحد الباحثين المتطوعين يقوم بمهامه اليومية داخل المركز

الطائرات اثناء الطيران فى مسارها عن خلال نظام إلكترونى كامل، لا يمكن ان تتخيل ان الورق له مكان فيها، ولكن هولاء المراقبين الجويين ايضا ينقلون الحياة الحقيقية التى تعتمد على عروض الكمبيوتر ، ويتابعون الطائرات التى يتابعوها على قطع ورق صغيرة مسجل عليها الأرقام القياسية للرحلة واتجاهها وسرعتها وأشياء اخرى، ويحركون تلك الاوراق التى تمثل الطائرات، من مجال جوى الى آخر وفقا لمسار الرحلة.

الورق الإلكتروني!

فى أواسط الثمانينات، ومع انتشار تطبيقات عصر المعلومات، قال الكاتب الفرنسى جورج ستاينر فى جريدة الديلى ميل: إن «عصر الكتاب انتهى تقريبا»! ومع أن السنوات الماضية، هزمت هذه



حوالي ٤٠٠٠ نوع من النباتات والحيوانات جمعت من ٤٠ دولة مختلفة في مساحة ٣,١٥ فدان هي مساحة المركز

المقولة بالضربة القاضية، الا أن أمثال هذه النبوءة ظلت متداولة بصور مختلفة!

إن الكلام الملون على صفحات الكتب، أو فوق جدران المعابد، او على اوراق البردى، يتدرج بشكل او بآخر في إطار المعرفة الانسانية فقبل الكمبيوتر، كان الورق أو الكتاب أهم وعاء للمعرفة التي جمعها البشر، وسجلوها على مدار تاريخهم الطويل. ولما جاء الكمبيوتر ومن بعده شبكة الانترنت راح الكتاب يبحث لنفسه عن مكان على مواقع هذه الشبكة، وحتى يجد هذا المكان، كان لابد ان يغير بعضا من ثيابه التقليدية فيتخلى عن احبار المطابع وأوراقها، ويستبدلها باشارات الكترونية تحفظ على اقراص ممغنطة، وتعرض على شاشات منيرة وقد نقلت الانترنت الكتب من الشكل الورقى التقليدى الذى نجده فى المكاتب إلى صفحات نقرؤها على شاشة الكمبيوتر.

ولا تعتبر هجرة الكتب إلى الانترنت تحولا نهائيا من الورق إلى الإشارات الإلكترونية، كما توقع البعض، فالكتاب المطبوع لم يفقد شيئا من أهميته او سعة انتشاره بل صار له أكثر من شكل او ثوب. فبدلا من حصر القراءة فى صفحات الكتب الورقية، اصبح بإمكاننا القراءة من شاشة الكمبيوتر مع التحفظات الكثيرة على صعوبة ذلك! وعلى الرغم من ان هجرة الكتب الى الانترنت لازالت فى مهدها الا ان الكم الذى انتقل حتى الان بالغ الضخامة، وأبلغ دليل على ذلك ان موقعا واحد يديره شخص واحد (Books Pagethe online)يضم اكثر من ٥٠٠٠ كتاب، ويعرض العديد من الاعمال الكلاسيكية الضخمة، مثل الحرب والسلام و«اناكارنيننا» والجريمة والعقاب والاخوة كرامازوف وقصة مدينتين. وحتى ندرك مدى ضخامة هذه الاعمال علينا ان نتذكر ان رواية الحرب والسلام لا تعتبر فى تقدير العديد من النقاد اهم روايات الأدب الواقعى على الاطلاق. ولكنها من اضخم الروايات حجما ايضا. اذا يزيد عدد صفحاتها فى سلسلة مطبوعات Penguin المعروفة بصغر حجم الخط وضيق المسافة بين السطور على ١٠٠٠ صفحة، وهذا يعنى ان الكتب الموجودة على الانترنت ليست بالاعمال الصغيرة او الهامشية، ولكنها نخبة من اهم منتجات الفكر الانسانى.

منافس خطير

ويبدو أن الورق فى شكله التقليدى المعروف، وبعد ان صمد عبر القرون والأزمنة سيكون قريبا على موعد مع منافس خطير، ومتطور، هذا المنافس هو الورق الالكترونى، فمن المعروف لدى المهتمين ان الورق الالكترونى ظل لنحو عقدين الهدف الصعب والأكثر تطلعا لدى

العلماء لكن الكشوف الجديدة وضعت هذا الحلم قريبا من الواقع اكثر من اى وقت مضى، ومعروف أيضا أن الورق وقف امام كل التحديات التى واجهها فيما له علاقة بالاتصالات ولقرون طويلة، فبرغم كل وسائل الاتصال الحديثة ظل الورق الوسيلة الاثيرة عند الكثيرين فى نقل المعلومات والمعرفة بشتى اشكالها ومن جميع مشاربها ومصادرها. وفى تقرير علمى نشرته وكالات الأنباء العالمية منذ فترة يذكر فيه ان التقدم العلمى والتكنولوجى الكبير فى وسائل وميادين الاتصالات، الذى ميز العقدين الماضيين، كان دافعا لبحث علمى دءوب عن بديل الكترونى للورق والحبر التقليديين، وهذا البديل بات اقرب للواقع منه للحلم، فقد تمكنت شركتان امريكيتان من إيجاد وسيلة لتصنيع الورق الالكترونى تمثلت فى كبسولات صغيرة جدا مليئة بسائل غامق اللون وجزيئات بيضاء والفكرة تقوم على إطلاق شحنة كهربية تتسبب فى تحريك الجزيئات من جهة من الكبسولة الى الجهة الاخرى، وبالتالى تكوين بقعتين واحدة غامقة أو سوداء شبيهة بالحبر العادى والأخرى بيضاء ويقول الدكتور بول درازيتش فى تصريح لـ «بى بى سى» اونلاى ان التكنولوجيا الجديدة تتمتع بثلاثة عناصر تعتبر فريدة من نوعها من حيث الخصائص العلمية، فهناك الحبر الالكترونى وهو العنصر الذى يضىء بلونين غامق أو أسود وآخر فاتح قريب من البياض، وهناك الالكترونيات البلاستيكية التى تتحكم فى الحبر الالكترونى والتى لها القدرة على تكوين الاشكال والتعرف عليها، وهناك ثالثا نتائجهما وهى لوحة الكتابة الالكترونية المرنة، ومن المتوقع ان تكون أولى تطبيقات هذا الانجاز



مجموعة من معامل الابحاث الموجودة بالمركز

التكنولوجى المهم تطوير اشارات الكترونية متعددة الاغراض منها مثلا لوحات عرض كتابات ورسوم يمكن التحكم بها من بعد» ويقول جون سيلى براون كبير العلماء فى شركة زيروكس الأمريكية الضخمة لتكنولوجيا الطباعة ان هذا الانجاز يعتبر البداية فى مشوار طويل سيشهد تطورا كبيرا فى هذا الميدان، ويشير هذا العالم إلى إمكانية كتابة كتاب كامل على لوحة الكترونية واحدة بفضل التكنولوجيا الجديدة.

الا ان عالم النشر والطباعة غير متوافق حول موضوع الورق، والحبر الالكترونى بل إن حتى شركات النشر الكبرى والقريبة، من التطورات التكنولوجية فى هذا الميدان تنصح بالتروى وعدم اطلاق الاحكام، ايجابيا ام سلبيا بسرعة وعجلة الا ان نجاح تطبيقات هذه التكنولوجيا من عدمه يبقى محكوما ومحصورا فى انتشار هذه التكنولوجيا واستخدامها على نحو واسع كبديل للورق التقليدى فى المستقبل. ■

انتفاضة الحرامية

بين الاختمار والانفجار

بقلم
د. مصطفى سويف

تراوحت خطى السبعينيات المتأخرة على الصعيد المصرى والعالمى بين فترات تحمل فى طياتها اختمارات منذرة، ولحظات تعلن أنباء انفجارات مدمرة. والمثير للتأمل حقا أن فترات الاختمار كانت تقدم الشواهد التى تشهد على تردى الأوضاع وتنبئ بسوء المآل، ولكن زعماء ذلك الزمان كانوا يقرأون تلك الشواهد على أنها مجرد مثيرات للغضب لاعلى أنها رسائل ذات معنى، فهى تحض على القراءة المتأنية للواقع، وإعادة النظر فيما درجوا هم «الزعماء» على التسليم به، سواء فيما يتعلق بحجم قدراتهم، أو بحدود الصبر لدى شعوبهم؛ وتحض كذلك على إعمال الفكر الخلاق فى إرساء دعائم أكفأ الحلول المناسبة لمعطيات الواقع ومطالبه، ثم على إقرار مسلمات جديدة تساعدهم وتساعد مواطنيهم على إطلاق الأفعال الصادقة، وكبح جماح الخيالات المضللة الكاذبة.



صوره للدمار من احداث ١٨ - ١٩ يناير

كان العام السابع والسبعون عاما عاصفا فى بدايته، حزينا فى وسطه، كئيبا فى نهايته، فى مصر اندلعت أحداث ١٨ و ١٩ يناير فى شكل انتفاضة بالغة العنف شديدة الاتساع، كان دليل عنفها ما أوردته وكالات الأنباء الأجنبية حينئذ من أن المصادمات بين الجماهير وقوات الأمن أسفرت عن عدد من القتلى يفوق الأربعين قتيلا . ومن الجرحى يزيد على الستمائة جريح، وكان دليل اتساعها أنها طالت جميع المحافظات فى الجمهورية. وكان هذا انفجارا جاء فى أعقاب اختمار بدأ مع بدء عهد الانفتاح (منذ صدور قانون ٤٣ لسنة ٧٤)، وظلت تصدر عنه نذر كثيرة كانت كفيلة (لو أنها قرئت على وجهها الصحيح) أن توفر على الجميع مشاق المواجهات الدامية. وكان أوضح هذه النذر وأفصحها لسانا تظاهرات العمال فى المحلة الكبرى سنة ١٩٧٥. لكن من بيدهم الأمر قرأوا هذه النذر على أنها مجرد مثيرات للغضب! وعندما وقع الانفجار الكبير فى ١٨ و ١٩ يناير ٧٧ عبر الرئيس السادات عن غضبه الشديد بقوله «إنها انتفاضة حرامية». وكان هذا القول بمثابة تشخيص يتفق تماما مع الطبيعة

القمعية للعلاج الفورى الذى أمر به وجرى تنفيذه. ومع ذلك فقد جرى تطبيق علاج آخر في الوقت نفسه يناقض روح العلاج الأول وينفيها ، وذلك بإعادة العمل بالدعم الحكومى للسلع الضرورية، وهو ما كانت الحكومة تنوى إلغاءه (بدءا من يوم ١٧ يناير السابق مباشرة على انتفاضة الحرامية) . وأثار هذا التناقض سؤلا ظل يراوح ذهني من حين لآخر، لماذا إذن الغضب على الناس ووصفهم بالحرامية؟ ولماذا القمع واسع النطاق بعد ذلك؟

وتأملت هذه الأحداث جميعا وما بينها من تفاوتات صارخة، وقرأت فيها معانى متعددة: فالناس ليسوا غافلين أبدا عما يجرى ويتناثر حولهم من أفعال وأقوال استفزازية، ووسيلتهم الرئيسية للتعامل معها هى التسجيل والتخزين «لا النسيان».

ولأن تخزين المواد الملتهبة ينطوى على كثير من المشقة ويولد في النفوس كثيرا من التوترات مختلفة المضامين فلابد لهم من تشغيل منابع الصبر في نفوسهم بأقصى طاقتها لترويض هذه التوترات ما أمكن «على طريقة اللهم طولك ياروح». وقد أتقن الناس هذه العملية من طول الممارسة «على امتداد قرون وقرون» وترتبت على هذا الاتقان نتائج بعضها حميد وبعضها خبيث، فقد كانوا بهذا الاتقان يحمون أنفسهم (في المدى القصير) من بطش الحكام الذين كانوا غالبا مستبدين ، لكن هذا الاحتماء نفسه كان وبالا عليهم «على المدى الطويل»، لأن الحكام كانوا غالبا يقرأونه باعتباره غفلة أو تبلدا فيغريهم ذلك بأن يزيدوا من ضغوطهم.

ولما كان المحكومون هم أنفسهم لا يستطيعون مواصلة الصبر إلى مالا نهاية فقد كانوا إذا استنزفت موارد صبرهم ينفجرون في هبة هوجاء تفوق تكلفتها غالبا حجم عائدها. وفى حدود فهمى هذا بالضبط ما حدث فى هبة يناير ٧٧؛ فقد وقع فيها كثير من الاعتداءات على أناس أبرياء ، ووقع فيها كثير من الدمار على ممتلكات عامة وخاصة هى في نهاية الأمر محسوبة على أموال الشعب وأقواته.. على أى حال، هذه كانت افتتاحية عام ٧٧ في مصر.

ولم تكن الخاتمة أسعد حالا من الافتتاحية؛ فقد كان يوم ١٩ نوفمبر يوما مشهودا، إذ وقف الرئيس السادات فى ذلك اليوم يلقى خطابا داخل الكنيست الإسرائيلي، وحمل هذا الخطاب الى العالم رسالتين إحداهما

صريحة والأخرى ضمنية، فأما الصريحة فكانت تؤكد أن مصر جادة فى طلب السلام، وأما الضمنية فكانت تشى بأن مصر مستعدة لعقد صلح منفرد مع إسرائيل. وبعد أسبوعين أعلنت الدول العربية عن مقاطعتها مصر. وفى منتصف ديسمبر أعلنت حكومة السادات عن افتتاح مؤتمر فى القاهرة يضم مصر وإسرائيل والولايات المتحدة ، والأمم المتحدة، وذلك للبدء فى محادثات السلام.

فى تلك الأيام لم أقابل أحدا إلا وجدته يعبر عن شعور بالصدمة.. وفى سبتمبر ٧٨ «أى بعد تسعة شهور فقط» تم التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية كامب ديفيد؛ وقعها السادات، ومناحم بيجن، وكارتر. وبعد شهر واحد بدأت مباحثات إقرار السلام النهائى بين مصر وإسرائيل فى واشنطن . وفى مارس ٧٩ تم التوقيع النهائى على اتفاقية كامب ديفيد. وفى ديسمبر من العام نفسه كوفىء السادات على أفعاله هذه بمنحه جائزة نوبل للسلام مناصفة بينه وبين بيجن. وفى فبراير ١٩٨٠ أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل. وعلى امتداد هذه الفترة، منذ خطاب الكنيست وحتى إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين كان اختمار جديد يتخلق، وكانت تصدر عن هذا الاختمار علامات ونذر، لكن أحدا ممن يعنيهم أمر الحكم لم يقرأها على وجهها الصحيح!

الأحداث على هذا النحو.. لماذا؟

بغض النظر عن توجهات الرفض والاستنكار لهذا المسلسل، وقد كانت تملأ نفسى حينئذ . شأنى فى ذلك شأن كثير من المواطنين، فقد كنت حريصا على أن أفهم منطق اللعبة السياسية ، وأن أفهمها فى حدود المعلومات المتاحة لى. دون أن أشتط فى صياغة افتراضات لا قبل لى بالبرهنة على صحتها. كان سؤالى الأساسى هو أين: يلتقى الخاص «شخص السادات وأسلوبه» بالعام «الذى هو الأحداث السياسية» فى ديناميات هذا المسلسل؟ وكنت ومازلت مقتنعا بأن أحداث التاريخ لا يمكن أن يكتمل فهمها وتفسيرها دون ذكر للدور الذى يقوم به القائد أو الزعيم.

كانت إحدى الخصال الواسمة للرئيس السادات نزوعه إلى المغامرة إلى الحد الذى قد يصل إلى الإخلال بحسابات المكسب والخسارة ، وكانت لديه خصلة أخرى هى التعجل فى التنفيذ «خاصة بعد مرحلة اتخاذ

القرار» ، وخصلة ثالثة هى شدة الاهتمام بصورته كما تنطبع لدى الآخرين. وخصال أخرى أحصيتها فى مقال سابق، كانت هذه الخصال بمثابة مفاتيح تيسر الولوج إلى شخصيته الفاعلة، ومنها إلى أسلوبه فى تشكيل الدور الذى أسند إليه أن يؤديه فى المسرحية السياسية، وكانت المرحلة التاريخية التى حكم البلاد فيها جزءا من حقبة الحرب الباردة حيث اللاعبون جميعا يرتضون تسريع الأحداث «السريعة أو الكريجة». فهل كنا هنا بصدد لقاء تاريخى بين خصال الرئيس والخصال الواسمة للحقبة التاريخية المساوقة؟ ولا يجوز أن ننسى هنا أن المفاوضين الغربيين يعتمدون كثيرا على مشورة الخبراء النفسيين (كجزء من تطبيقات العلوم النفسية فى أمور السياسة) ، يبدو لى هذا التصور لمجريات الأمور فى ذلك الوقت تصورا معقولا، خاصة أنه لا يستبعد بالضرورة عناصر أخرى شاركت بأوزان لا سبيل إلى تجاهلها فى تحديد المحصلة النهائية للحركة، أعنى الانحياز الأيديولوجى المسبق لدى السادات ضد كل ما ومن يتصور أن ينتمى إلى اليسار، والغالب أن هذا كان له وزن ملحوظ فى اختياره الانحياز إلى جانب الحل الأمريكى أيام كان لمصر أن تختار بين الحل الأمريكى والحل السوفييتى عقب توقف القتال مباشرة. وأخيرا وليس آخرا كانت هناك ضغوط المفاوض الأمريكى (الوسيط غير النزيه) وقد وظف فيها باقتدار كل ما يتصل بضائقتنا الاقتصادية.

العالم من حولنا

فى تلك الفترة نفسها كان العالم يغلى من حولنا، وكانت أحداث الغليان مليئة بما يحض على التعلم والاعتبار؛ فى أفريقيا اندلعت الثورة فى أحد أقاليم الكونغو «زائير حاليا» ، وكانت تستهدف الإطاحة بحكم موبوتو ورجاله. حدث ذلك فى مارس ٧٧. وسرعان ما ووجهت هذه الثورة على أنها فصل من فصول الحرب الباردة؛ فعبرت الحدود قوات من أنجولا «المحسوبة على السوفييت» لمساعدة الثوار، واستنجد موبوتو بفرنسا وبلجيكا فأرسلتا قوات من المظليين وأومأت فرنسا الى المغرب وأرسل هذا ألف جندى مغربى. وقرأت أخبار هذه الأحداث وأنا فى الخارج «فى إحدى سفراتى باسم هيئة الصحة العالمية»، وقرأت كذلك أن رئيس مصر عرض على فرنسا أن يرسل مساعدة عسكرية، هو أيضا، ولكن لأمر ما لم

ترحب فرنسا بهذا العرض. وفى مايو تم إخماد الثورة. وفى جنوب أفريقيا كان الحكم العنصرى الأبيض يشدد من إجراءات القهر على الشعب الأسود، فقرر أن يصادر جريدتين للسود، وأن يغلق ١٨ تنظيما مدنيا عرفت بتصديها لمقاومة مظالم البيض.

وجاء عام ٧٨ فازداد نطاق الثورات الشعبية اتساعا، وازدادت قسوة إجراءات الحكام ضد هذه الثورات: فى إيران ، وفى أمريكا الجنوبية وفى الصومال، وفى فلسطين، ففى إيران شبت الثورة فى يناير ولم يخمد لهيبها حتى يناير التالى ٧٩ حين انهار حكم الشاه وعاد الإمام الخوميني من منفاه ليتولى السلطة هو ورجاله. وحاولت أمريكا مساندة الشاه بما أمكنها من سلطان وحيلة، ولكنها عجزت واحترقت أصابعها بالنيران المتأججة، وعندما توقفت عن الاسترسال فى المساندة نبذت الشاه نبذ النواة حتى لقد بخلت عليه بحق اللجوء اليها. وعندئذ تصدى الرئيس السادات لكى يؤويه فى مصر، وقرأت فى قراره هذا قدرا كبيرا من الاستفزاز لمشاعر المصريين الذين كانوا لا يخفون تعاطفهم مع الثوار الإيرانيين، وقرأت فيه كذلك خطأ من أخطائه الكبيرة التى لم يكن يفسرها فى رأيى سوى خصلة المغامرة سيئة الحساب ضمن خصال شخصيته. وفى أمريكا الجنوبية بدأ سعار الثورة فى نيكاراجوا يشتد ضد حكم طاغية آخر يدعى سوموزا ، وكان كذلك من الزعماء الذين يحتضنهم الغرب «مثل موبوتو وشاه إيران» ، وبدأنا نتابع تحركات الثوار من خلال تنظيمهم العسكرى، وكان يدعى الساندانستا. وفى أثيوبيا كان منجستو هيلا مريام قد استولى على الحكم من الإمبراطور هيلا سيلاسى، وبدلا من أن يلتفت إلى إصلاح ما أفسده الامبراطور من أمور شعبه استدار الى الصومال المجاور وبدأ يزحف للاستيلاء على أحد أقاليمه «الأوجادين» وانخرط الصوماليون فى الدفاع عن وطنهم. وفى فلسطين سيرت إسرائيل قوة قوامها ثلاثون الف جندى ضد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى جنوب لبنان ثم خرجت من هناك فى يونيو بعد أن قتلت من قتلت وخطفت من خطفت، ودمرت ماشاءت أن تدمر. وبعد شهرين أرسلت من قام بتفجير مجمع سكنى للفلسطينيين فى بيروت، وأسفر ذلك عن ١٧٥ قتيلا.

ثم جاء عام ٧٩، وفى ذاكرتى أن

أهم أحداثه كان قيام الدولة الإسلامية في إيران. ولأمر ما قرر بابا الفاتيكان «وهو البابا الحالي» أن يزور بولنده مسقط رأسه. وأنا لا أزال أذكر هذه الزيارة لأن الحكم الاشتراكي فيها كان قد بدأ يترنح تحت ضغوط منظمة غير حكومية كان اسمها منظمة تضامن، وانبرت هذه المنظمة تدبر للبابا استقبالات شعبية حافلة حيثما حل، وكان هذا لحساب الغرب الذى استقبل البابا بعد ذلك بثلاثة شهور فقط فى البيت الأبيض زائرا لجيمى كارتر.

وفى تلك الفترة نفسها توالت الانقلابات فى أفغانستان، وترددت فى هذا الشأن أسماء تاراكى، وحفيظ الله أمين، ثم كارمل كقادة لهذه الانقلابات، ودعا هذا الأخير السوفييت إلى التدخل لحمايته وحماية حركته التى ادعى أنها اشتراكية، وزحف الجيش السوفييتى على كابول فى ديسمبر ٧٩. واندلعت تظاهرات الطلبة الأفغان ضد هذا الغزو وكانت نتيجة التصادم خمسمائة قتيل حسب الروايات الغربية.

هكذا كانت الاختمارات والانفجارات تتوالى على دول العالم من حولنا، وكانت تدار غالبا «سواء من قبل الزعماء المحليين أو من جانب رؤساء الدول الكبرى» باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الحرب الباردة بين الغرب والاتحاد السوفييتى، وهكذا ضاع حق الهوية الوطنية أو كاد، وكأنما الموجود على سطح الكرة الأرضية دولتان لا ثالث لهما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى.

بعض من السيرة فى خضم المسيرة:

سيطرت على مخيلتى فى تلك الأيام، أيام ١٨ و ١٩ يناير ٧٧ صورة بين الحلم والكابوس، رأيتنى من خلالها أسبح طوال الوقت فى بحر ثائر، وينصرف معظم جهدى إلى محاولة أن أبقى رأسى فوق سطح الماء، لا أريد أن أغرق، وأحاول فى الوقت نفسه أن أواصل الوعى بالذات وهى تباشر البحث العلمى من ناحية وتعليم الطلاب من ناحية أخرى. كنت أحاول مخلصا ان أحيى حياة البحث العلمى الجاد، تلقيا وإبداعا، ولم أكن مستعدا فى سبيل ذلك أن أغفل عما يدور حولى فى مصر وفى العالم. وكانت كل من المحاولتين تجتذبنى بعيدا عن الأخرى. وكان مسعاى دائما ينصرف إلى العثور على النقطة الحرجة التى يتحقق عندها التوازن

الأمثل بينهما، وكنت قلما أرضى عن حصاد هذا المسعى، ومن ثم كنت أواصل السير.

فى أبريل ٧٧ دعيت باسم «المجلس العالمى لبحوث الكحوليات والإدمان» الى اجتماع يعقد فى لوزان بسويسرا، هدفه التخطيط لإجراء بحث حضارى مقارن تحت اشرافى حول تعاطى القنب «الحشيش» فى اربع دول افريقية «نيجيريا وزامبيا وكينيا، وموريشيوش»، على ان تتبع فيه الخطوات التى خطوناها فى إجراء البحث المصرى الذى كنا قد اجريناه على هذا التعاطى ونشرنا معظم نتائجه فى دوريات التخصص فى الخارج، وقبلت المهمة وسعدت بها، ولم افكر كثيرا فيما سالقاه فى سبيل انجازها من مشقة. وفى ذلك الوقت نفسه بلغنى ان أستاذين من جامعة فلوريدا (فى الولايات المتحدة) هما فلتشر وزاتس كتبا نقدا لبعض الجوانب المنهجية لبحثنا المصرى وأرسلاه للنشر فى دورية متخصصة وخاطبتنى الدورية فى أن من حقى أن أرد على هذا النقد إذا أردت، وأرسلت لى نسخة من النقد، على وعد أن تنشر النقد والرد فى عدد واحد معا. وكان طبيعيا أن أرد. وفى ذلك الوقت شغلنى شاغل اعتبرته ذا أهمية خاصة فى حسن الأداء لدورى الجامعى، وهو إصدار كتاب للتعريف بعلم النفس العيادى المعاصر فى شقيه القياسى- التشخيصى والعلاج، يشارك فيه تلامذتى بفصول مترجمة عن مصادر إنجليزية رفيعة المستوى، وأشارك فيه بمراجعة الترجمة وكتابة فصل أو فصلين تأليفا. ولكى تزداد المشقة على نفسى أضعافا مضاعفة تزامن كل هذا مع بدء صراع جانبى بينى من ناحية «كرئيس لقسم علم النفس» وتلامذتى الذين شبوا عن الطوق وأصبحوا زملاء لى فى إدارة شئون القسم من ناحية أخرى. هم يطلبون الإذن بالسفر فى إعارات إلى البلاد النفطية وأنا أعارض مطلبهم هذا رغم يقينى بأن شح المرتبات فى الجامعة والأزمة الاقتصادية التى تطحننا جميعا كلها عوامل تفسر طلبهم وتكاد تبرره، ولكنى كنت أقول فى حواراتى مع نفسى : ومن الذى يبقى فى القسم للتدريس لأبنائنا فى مصر؟ ولماذا أنشأنا القسم أصلا؟ ولماذا لا يقبلون التضحية؟ ومع ذلك فقد كنت مقتنعا باحتياجهم المادى، وكنت على هذا النحو أسلك وكأننى قد كتب على أن أعيش هذا الصراع الذى يرجع فى جذره العميق إلى اوضاع

فى الدولة وفى العالم من حولنا ظلمتنا جميعا.

وفى عام ٧٩/٧٨ طلب إلى ان ألقى سلسلة من المحاضرات فى علم النفس العصبى على طلاب الدراسات العليا فى قسم الأمراض العصبية بكلية الطب . وكانت لى مطالعاتى من قبل فى هذا الفرع شديد التخصص، وكانت مطالعاتى هذه تمتعنى أشد الامتاع، فقد كنت من خلالها أشعر بأننى أنظر بالمجهر فى واحد من أعمق الجذور التى تمتد تحت الوظائف النفسية «كاللغة والذاكرة والانفعال»، وكان هذا الشعور يجلب لى معه نسمة من التاريخ الحديث للعلوم النفسية، وكانت النسمة تحمل معها ذكرى واحد من أكبر علماء النفس عاش فى منتصف القرن التاسع عشر، هو فخنر الذى صاغ القانون الأساسى المنظم للعلاقة الكمية بين تغيرات شدة الإحساس وتغيرات شدة المثير الفيزيقى لهذا الاحساس، وكان يحلم وهو يكتشف هذا القانون بأنه فى الطريق إلى إلقاء الضوء على طبيعة الصلة بين المادى والروحى فى حياتنا. كل هذا وأكثر كان يتداعى فى خاطرى وأنا أقرأ طلبا للمتعة فى مكتشفات علم النفس العصبى، ولكن أن تقرأ طلبا للمتعة شىء وأن تقرأ لإعداد محاضراتك شىء آخر. ومع ذلك فقد قبلت الدعوة التى وجهت إلى من قسم الأمراض العصبية بكل ما تضيفه من ثقل إلى أعبائى. وقبلت فى ذلك الوقت أن آخذ على عاتقى مهام كثيرة أخرى لا مجال لتفصيل القول فيها هنا، ولكنى آتى على ذكرها الآن لأنقل للقارىء جزءا من الصورة الحية لمعاناة من أراد أداء الدور الموكول إليه بأمانة كباحث ومعلم، ولم يلهه ذلك عن دوام شحذ الوعى بما يدور حوله فى العالم، راصدا ذلك كله من خلال مرصده القائم فى واحد من المجتمعات النامية.

★ ★ ★

هكذا جاءت بعض معالم السيرة؛ وأنا الآن أنظر إليها على خلفية مسيرة العالم ومصر من حولى، فأرصد نوعا من التناغم بين موجات الاختمارات والانفجارات فى العوالم الثلاثة. ولا أستطيع أن أصف هذا التناغم بأنه خير أو شر، ولكنى أجد الشجاعة فى نفسى لكى أصفه بأنه شديد الإرهاق، وأتجرأ بعد ذلك فآمل فى مستقبل يقوم التناغم فيه على إيقاع أفضل. ■

أقوال معاصرة

● «عندي أفكاري الخاصة، أفكار قوية إلا أنني لا أتفق معها دائما»

الرئيس الأمريكي جورج ووكر بوش



جورج بوش

● «نجاح امرأة واحدة هو نجاح لكل النساء»

بنظير بوتو رئيس الوزراء الباكستانية السابقة



بنظير بوتو

● «لاسببا منطقيا يجعلنا نتوقع أن يساعدنا الرئيس بوش إذا كنا لا نساعد أنفسنا ، ولا نستطيع ردعه»

الصحفى اللبنانى جهاد الخازن

● «الهدف الأول والأكثر أهمية لكل معارضة حقيقية هو استنهاض البشر لتمكينهم من استعادة طاقاتهم الخلاقة»

الشاعر السورى أدونيس

● «تقديس الوقت قيمة حضارية تكتسب من الاحترام المتأصل للآخرين»

الناقد والشاعر د. عبدالقادر القط



د. عبد القادر القط

● «الدروس الخصوصية هي ابن المجتمع»

د. حسين كامل بهاء الدين
وزير التربية والتعليم

● «التمرد متعتي!»

الأميرة مارجريت روز شقيقة ملكة بريطانيا

● «الأمم التى لا تتعظ بتجاربها، ولا تعتبر باخطائها كتب عليها أن تكرر ذات الاخطاء، بثمن أكثر فداحة»

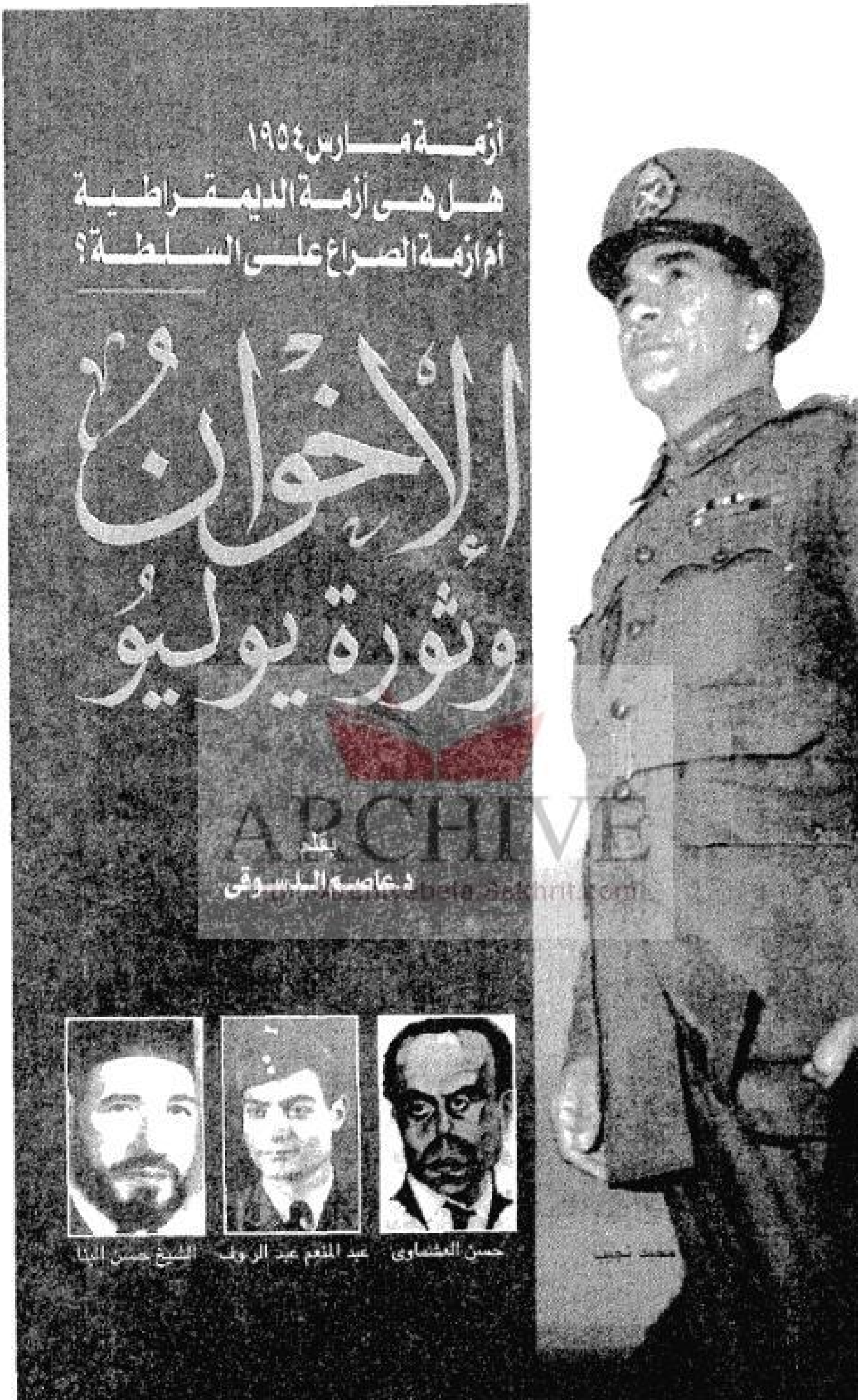
الكاتب السودانى محمد إبراهيم الشوش

● «من الخطأ التسرع بالحكم على إنسان بالردة، ما لم يعلن ذلك صراحة»

د. نصر فريد واصل
مفتى الديار المصرية



د. نصر فريد واصل


أزمة مارس ١٩٥٤
هل هى أزمة الديمقراطية
أم أزمة الصراع على السلطة؟
الإخوان
وثورة يوليو
بقلم
د. عاصم الدسوقى
حسن العشماوى
عبد المنعم عبد الرءوف
الشيخ حسن البنا



عندما أصدر مجلس قيادة الثورة بيانا في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ بقبول استقالة اللواء محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها (رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة ومجلس قيادة الثورة) تأكد ما يتردد في الدوائر الخاصة من أن ثمة خلافاً قائماً بين نجيب وعبد الناصر منذ مطلع يناير ١٩٥٣ حول إدارة الأمور وخاصة بعد إلغاء الأحزاب السياسية، وهو خلاف بدأ صامتا دون مواجهة مباشرة وإن كان كل طرف يرقب الآخر ويرتب للأمر عدته حتي انفجر الموقف بقبول الاستقالة بعد ثلاثة أيام من تقديمها انقضت في التشاور بين الفرقاء حول كيفية التصرف وكيفية إعلانها للناس.

وبينما كان البيان الرسمي بقبول الاستقالة يؤكد أن سبب الخلاف يرجع إلي رغبة نجيب في الانفراد بالسلطة كانت أحاديث الصالونات التي انتقلت إلي الشارع تؤكد العكس وأن نجيب يطالب بترك الحكم لرجال السياسة وعودة الحياة النيابية، فأصبح نجيب رمزا للديموقراطية وناصر رمزا للدكتاتورية!!، وشاع بين جمهرة المثقفين أن أزمة مارس ١٩٥٤ هي أزمة الديموقراطية بدلا من أن تكون أزمة الصراع علي السلطة...

جمال عبد الناصر



أحد اجتماعات الإخوان المسلمين

أما طرفا الأزمة الرئيسيين فإنهما محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنصار كل منهما، لكن الإخوان المسلمين كانوا قاسما مشتركا بينهما فكل من الطرفين أراد أن يستخدم الجماعة لصالحه في المعركة نظرا لما تمثله من قاعدة شعبية، والجماعة نفسها أرادت أن تلعب بهما حتى يصفي كل منهما الآخر ويخلص له الحكم. وعلى هذا فمن الممكن اكتشاف حقائق الموقف من خلال متابعة سيناريو علاقة الإخوان المسلمين بتنظيم الضباط الأحرار ثم موقفهم من الثورة بعد ٢٣ يوليو ووضع محمد نجيب في الأزمة...

كانت علاقة التنظيم بالإخوان أقوى من علاقته بالتجمعات السياسية الأخرى إذ كان عدد كبير من الضباط أعضاء في الجماعة أو ينتمون إلى فكرها على أقل تقدير. وعلى هذا قام جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بإبلاغ كل من حسن العشماوي وصالح أبو رقيق (عضوا مكتب الإرشاد) بموعد الثورة، ورغم هذه العلاقة الخاصة إلا أن عبد الناصر رفض أن يكون التنظيم تابعا للجماعة، ولهذا تم فصل عبد المنعم عبد الرءوف من التنظيم في مطلع ١٩٥٢ لأنه كان يعمل على تجنيد ضباط الجيش للجماعة وليس للضباط الأحرار.

موقف الإخوان من الثورة

وفي صباح ٢٣ يوليو تم استدعاء حسن العشماوي الى مقر قيادة الثورة في كوبري القبة وطلب منه أن يصدر المرشد العام بيانا بتأييد الثورة لكن المرشد بقي بالاسكندرية في مصيفه ولم



الشيخ أحمد حسن الباقورى يصافح جمال سالم وجمال عبد الناصر ويظهر السادات وعبد الحكيم عامر وعدد من اعضاء مجلس قيادة الثورة - ١٩٥٥

يحضر للقاهرة إلا بعد مغادرة الملك البلاد وأصدر بيانا مقتضبا طلب بعده أن يقابل أحد رجال الثورة فقابله عبد الناصر فى منزل صالح أبو رقيق. وفى اللقاء طلب المرشد تطبيق أحكام القرآن فقال ناصر أن الثورة قامت حربا على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى وهى بذلك ليست إلا تطبيقا لتعاليم القرآن فانتقل المرشد الى مشروع الاصلاح الزراعى وكان مطروحا للمناقشة فى الصحف وقال أن رأيه أن يكون الحد الأقصى للملكية الزراعية ٥٠٠ فدان فرد عبد الناصر بأن مجلس قيادة الثورة مصمم على الـ ٢٠٠ فدان كحد أقصى. وهنا انتقل المرشد لنقطة أخرى يبدو أنها بيت القصيد من اللقاء إذ اشترط لتأييد الثورة أن يعرض الضباط على الجماعة أى قرار قبل أن يصدر، فما كان من عبد الناصر إلا أن قال : إن الثورة قامت دون وصاية ولا تقبل بحال أن توضع تحت وصاية أحد، فكان هذا اللقاء بداية تجمع السحب السوداء فى أفق العلاقة بين الطرفين.

ولما تقرر أن يؤلف محمد نجيب الوزارة فى ٧ سبتمبر ١٩٥٢ بعد استقالة على ماهر لعدم موافقته على الإصلاح الزراعى تقرر رغم الموقف السابق إشراك الإخوان المسلمين فى الوزاة بثلاثة أعضاء. غير أن الجماعة اختلفت فيما بينها حول الترشيح وترددت بعض أسماء مثل أحمد حسنى وكيل وزارة العدل ومحمد كمال الديب محافظ الإسكندرية (ترشيح المرشد شخصيا)، ومنير الدله وحسن العشماوى (ترشيح مكتب

الارشاد). غير أن مجلس قيادة الثورة اختار الشيخ الباقوري فاقدم المرشد العام على فصله من الجماعة فازدادت النار تحت الرماد.

بدايات الصدام

ورغم هذا عندما ألغيت الأحزاب السياسية (١٧ يناير ١٩٥٣) تم استثناء جماعة الإخوان المسلمين ربما لأنها لم تكن حزبا سياسيا برلمانيا بالمعنى المصطلح عليه في مصر منذ دستور ١٩٢٣، وربما أكتسابا لشعبيتهم. وفي اليوم التالي طلب صلاح شادي (ضابط شرطة إخواني) ومنير الدله من جمال عبدالناصر إشراك الإخوان في الوزارة أو تكوين لجنة إخوانية تعرض عليها القوانين قبل صدورها، وهو نفس العرض الذي سبق أن قدمه المرشد قبل ذلك، فرفض جمال مرة أخرى لذات السبب.

ولم تيئس الجماعة فنراها تتقدم لوزارة الداخلية بطلب لإعادة تكوينها حزبا سياسيا فرفض الطلب لأنه لا يستقيم مع إلغاء الأحزاب السياسية. فلما علم المرشد العام بنية الثورة نحو تكوين هيئة التحرير لملء الفراغ السياسي الناجم عن الأحزاب نراه يحاول إثناء جمال عبد الناصر عن هذه الخطوة قائلا : إن الجماعة كفيلة بملء الفراغ، فرد جمال بأن في البلاد من لا يرغب في الانضمام للجماعة وهي إشارة غير مباشرة الى المسيحيين المصريين، فبدأ المرشد في محاربة التنظيم السياسي الجديد بل وفي التحرك ضد الثورة حتى ولو كان هذا على حساب المصالح الاستراتيجية الكبرى للبلاد.

وكانت حكومة الثورة قد شرعت في التفاوض مع الانجليز لتحقيق الجلاء، ورأت الادارة البريطانية الاتصال بالجماعة لعجم عود الثور في المفاوضات، وتم الاتصال بوساطة محمد سالم الموظف بشركة النقل والهندسة وفي منزله بحضور منير الدله وصالح أبو رقيق والمستشار الشرقي للسفارة (ايفانز) وتكرر الاتصال يوم ١٠ يناير ١٩٥٤ في منزل الوزير المفوض بالسفارة (كريزويل) وفي هذه المرة بحضور حسن العشماوي وشقيق حرم منير الدله. وفيما بعد قال انتوني إيدن «إن حسن الهضيبي كان حريصا على حسن العلاقات معنا».

وفي أوائل يونيه ١٩٥٣ بدأ الإخوان خطة تشكيل تنظيم سري إخواني بين ضباط الجيش والبوليس فاتصل عبد الناصر بالمرشد العام معاتبا لعله يدرك أن نشاطه تحت المراقبة لكن المرشد لم يتراجع.

بين عبد الناصر ونجيب

وفي ذلك المنعطف من مأزق العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر أواخر ١٩٥٣ كان محمد نجيب يدخل هو الآخر في مأزق علاقته مع عبد الناصر بعد تراكم مجموعة مواقف فالتقى الطرفان في العداء لعبد الناصر وإن اختلفت الأسباب...

والحاصل أنه في اليوم التالي لتنازل الملك فاروق عن العرش ومغادرته البلاد (٢٧ يولية) قدم عبد الناصر استقالته من رئاسة اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار على أساس أن التنظيم انتهى دوره بالاستيلاء على السلطة. لكن أعيد انتخابه رئيسا وعرفت اللجنة منذ ذلك الحين بمجلس قيادة الثورة. فلما انضم محمد



جمال سالم يستجوب ابراهيم الطيب فى قضية الاخوان المسلمين - ١٩٥٤

نجيب إلى المجلس يوم ٢٥ أغسطس تنازل عبد الناصر عن رئاسته باعتباره القائد الذى أعلنت الثورة باسمه للجماهير. وعندما أصبح رئيسا للوزارة (٧ سبتمبر) احتفظ لنفسه بوزارة الحربية وبالقيادة العامة للقوات المسلحة فضلا عن رئاسة مجلس قيادة الثورة. ورغم هذا كان يشعر بأنه لايسيطر على الموقف وأن مقاليد الأمور فى النهاية في يد عبد الناصر الذى يحرك مجلس القيادة، ومن ثم طلب أن يكون له حق الاعتراض على أى قرار يجمع عليه المجلس فلم يتمكن لأن لائحة المجلس تقضى أخذ القرار بالأغلبية.. أى أنه كان يطلب سلطة فردية مطلقة تتجاوز المجلس الذى لم ينضم إليه إلا متأخرا!!. وللخلاص من هذا المأزق أوحى له المقربون وقد أصبح رئيسا للجمهورية (٢٨ يونية ١٩٥٣) أن يتصل بالإخوان المسلمين للتخلص من ناصر. وكان وسيطه فى هذا الاتصال قائد حرسه الخاص اليوزباشي محمد رياض الذى قابل حسن العشماوي ومنير الدله عدة مرات فى ديسمبر ١٩٥٣.

والحال كذلك لابد وأن يشعر الإخوان بأهميتهم.. فعبد الناصر حريص على خطب ودهم، والانجليز يتصلون بهم، وها هو محمد نجيب يتصل بهم أيضا، ومن ثم لخص الإخوان طلباتهم للوسيط (محمد رياض) وتتمثل في تشكيل وزارة يرضى عنها الإخوان وعدم عودة الأحزاب السياسية. لكن نجيب لم يكن يملك القوة التى تمكنه من تنفيذ هذه الشروط حتى ولو كانت على هواه.

واستمر الصراع قائما وانقضى عام

١٩٥٣ وفي ١٢ يناير ١٩٥٤ احتفل طلاب جامعتي القاهرة والاسكندرية بذكرى شهداء الحركة الفدائية في مدن قناة السويس فانتهز الإخوان الفرصة وأحضروا معهم زعيم حركة فدائيان اسلام الايرانية (نواب صفوى) وسيطروا على الميكروفون واشتبكوا مع الطلاب بالكرابيج والعصي فتقرر حل الجماعة بعد ذلك بيومين (١٤ يناير). وهنا لجأ الإخوان الى محمد نجيب لالغاء القرار فلم يستطع شيئا بل لقد اضطر للتوقيع على قرار الحل باعتباره رئيسا للجمهورية. وبادر جمال عبد الناصر في خطوة محسوبة بزيارة قبر حسن البنا ومعه صلاح سالم والشيخ الباقورى بمناسبة الذكرى الخامسة لاستشهاد البنا (١٢ فبراير ١٩٥٤).

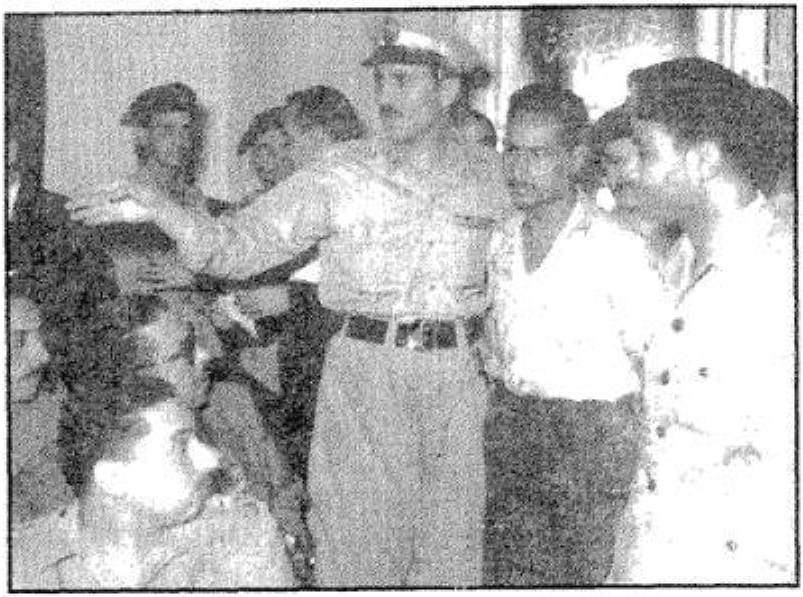
الصراع يتنامى

بعد حل جماعة الإخوان المسلمين تدهورت العلاقة بين نجيب وناصر بشكل حاد وأراد نجيب أن يستخدم سلطاته الرئاسية لحسم الصراع فلم ينجح نظرا لتكتل الغالبية العظمى من مجلس قيادة الثورة وراء ناصر ربما لأن الجميع يعلمون أن ناصر هو قائد الثورة وليس محمد نجيب. أخذ نجيب يقلل من حضوره لمكتبه ومن لقاءاته المباشرة مع ناصر ويعتكف بمنزله أياما متتالية. وفكر عبد الناصر كما يقول انتونى ناتنج في أن يقدم المجلس استقالة جماعية بهدف إحراج محمد نجيب لكن اقتراحه لم يلق قبولا لأن المجلس لا يتمتع بالشعبية التي تمكنه من القيام بمغامرة من هذا النوع. والحاصل أن نجيب هو الذى قدم استقالته في ٢٢ فبراير ربما ليحرج المجلس لكن الاستقالة قبلت في ٢٥ فبراير وتولى ناصر رئاسة الوزارة وظل منصب رئاسة الجمهورية شاغرا. وتجمع مختلف الروايات على أن خالد محيي الدين اعترض على قبول الاستقالة لأنه كان يرى في تمسك نجيب بعودة الحياة الحزبية فرصة لليسار المنتمى. وقد اعترض معه جمال سالم في رواية ناتنج، وعبد اللطيف البغدادى في رواية أحمد حمروش.

على كل حال فبين إعلان قبول الاستقالة (٢٥ فبراير) وإعلان عودة نجيب في مساء ٢٧ فبراير كان الصراع على أشده بين فصائل الثوار، وتفنن كل منهما في اصطناع أساليب المواجهة والمناورة، وعاش الجميع بأعصاب مشدودة طوال ثلاثة أيام ليل نهار..

جاء أقوى رد فعل لاستقالة نجيب من سلاح الفرسان حيث خالد محيي الدين القريب من نجيب ورغم أن اليوم التالي للاستقالة كان يوم جمعة (٢٦ فبراير) إلا أن إجتماعا تم في سلاح الفرسان بناء على دعوة لا تفصح المراجع عن صاحبها. ولم يحضر الاجتماع خالد محيي الدين وحضره حسين الشافعي فطالبه الضباط بعودة نجيب وإقرار الديموقراطية وتحديد موعد لعودة الجيش للثكنات، وهي نفس مطالب نجيب - خالد. ثم حضر عبد الناصر جزء من المناقشات التي طالت التصرفات الشخصية لبعض الضباط فطلب من المجتمعين الانتظار حتى يعرض الأمر على مجلس قيادة الثورة.

وفي مبنى القيادة حضر خالد محيي الدين بعد خروجه من حفلة سواريه بالسينما وهذا وحده يفسر موقفه من البداية حيث لم يحضر الاجتماع وذهب



محمود عبد اللطيف المتهم بإطلاق الرصاص علي عبد الناصر في حادث المنشية بالاسكندرية

الى السينما فى المساء حتى لا تنصرف اليه الشبهات. واقترح ناصر الذى أدرك مرامي محور(نجيب - خالد) أن يتولى خالد محيى الدين رئاسة الوزارة وأن يعمل بسرعة على عودة الحياة الدستورية. لكن خالد اعترض ليس على المبدأ وإنما لأنه بهذا سيكون وحيدا فى الساحة، فاقنعه المجلس بأن عبد الحكيم عامر سوف يكون معه لبعض الوقت، فوافق خالد، وحذره كمال الدين حسين من العمل على تحويل البلد الى الشيوعية.

وعلى هذا عاد جمال مصطحبا خالد الى سلاح الفرسان وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا من فجر يوم السبت ١٧ فبراير وأعلن لهم أن الموافقة تمت على حل مجلس القيادة وعلى عودة نجيب رئيسا للجمهورية، وعلى تكليف خالد بتشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر تجرى انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور دائم، وعودة أعضاء مجلس قيادة الثورة الى الثكنات.. وهنا ضجت القاعة بالتصفيق وتوجه خالد مغتبطا الى نجيب لابلاغه بالقرار فرحب ترحيبا شديدا.

ولكن لما عاد خالد لمبنى القيادة بعد إبلاغ نجيب وجد أن معالم الصورة تتغير فقد لعب الآخرون دورهم فنجد أن ضباط الصف الثاني المحيطين بمبنى مجلس القيادة يرفضون الاستجابة لقرارات العودة الى الثكنات وحاولوا ضرب خالد محيى الدين، وحالوا دون تسليم بيان القرارات الجديدة الى مندوب الاذاعة الذى كان قد حضر الساعة السابعة والنصف صباحاً. كما رفض ضباط المدفعية القرارات وحركوا

المدفعية المضادة للدبابات وحاصروا سلاح الفرسان، وأخرج سلاح الطيران بتوجيه على صبرى ووجيه أباظة طائرات حلقت فوق سلاح الفرسان، وطالب آخرون باعتقال خالد ومحاكمته، وقام كمال رفعت باعتقال محمد نجيب ووضعه فى ميس المدفعية بألماظة فغضب عبد الحكيم عامر وأعاده الى منزله، وتم اعتقال ضباط الفرسان أنصار نجيب وتقررت محاكمتهم.

وهكذا أصبح الموقف ينذر بمعارك طاحنة بين الفصائل العسكرية: الفرسان مع نجيب فيما عدا حسين الشافعى، والمدفعية والمشاة والطيران مع ناصر، وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت (٢٧ فبراير) كان الإرهاق قد استبد بالجميع فرأوا رفع الجلسة للراحة أربع ساعات وانصرف الجميع الى منازلهم ويقى عبد الناصر مفوضا بالتصرف إذا ساءت الأمور لحين عودتهم وفى تلك الأثناء انطلقت مظاهرات فى الشوارع تهتف: لا ثورة بلا نجيب.. الى السجن يا جمال.. الى السجن يا صلاح. وشهد صلاح سالم المتظاهرين أثناء عودته إلى مبنى القيادة قبل انتهاء وقت الراحة وأخبر عبد الناصر الذى تصرف بسرعة بمقتضى التفويض وقرر عودة نجيب لامتصاص الغضب وتفويت الفرصة على مخطط تصفية الثورة والإطاحة برجالها.

وفوجىء أعضاء المجلس وهم فى منازلهم للراحة بإذاعة نبأ عودة نجيب فى الساعة السادسة.

ولم تكن عودة نجيب نهاية للتوتر بل كانت بداية لجولة أخرى من الصراع والضرب تحت الحزام بين الطرفين. ففى



سيد قطب أثناء نقله للمحاكمة

اليوم التالى لعودته (٢٨ فبراير) تدفقت المظاهرات الى قصر عابدين من جامعة القاهرة تردد هتافات عدائية ضد الثورة تزعمها الإخوان المسلمون واصطدمت بالبوليس وخرج نجيب الى الشرفة واستدعى عبد القادر عودة من زعماء الإخوان الى الشرفة بجواره لتهدئة المتظاهرين.

وفى أول مارس ذهب نجيب الى السودان للمشاركة فى افتتاح البرلمان السودانى فأسرع ناصر باعتباره رئيساً للوزارة باعتقال الذين اشتركوا فى مظاهرات عابدين (بلغ عددهم ١١٨) أغلبهم من الإخوان يليهم جماعة أحمد حسين (الحزب الاشتراكى) ثم الوفد والشيوعيين.

وعندما عاد نجيب من السودان غضب



عناق بين الباقوري و محمد نجيب

من قيام ناصر بحملة الاعتقالات وطلب أن يتولى رئاسة الوزارة مرة أخرى فاضطر ناصر للموافقة وعاد نائبا لرئيس الوزراء.

وتسارعت الحوادث.. وأخذ نجيب يطالب بتطبيق الشروط التي قبل العودة على أساسها (وهي مطالب سلاح الفرسان كما سبقت الإشارة). وهكذا وفي يوم ٥ مارس صدرت القرارات الشهيرة: انتخاب لجنة لوضع الدستور وبموجبه يعاد تشكيل الأحزاب ويكون لمجلس قيادة الثورة سلطة سيادية. ووافق نجيب على هذه القرارات بعد مقابلة خالد محيي الدين له لمدة ثلاث دقائق.

وبعد إعلان القرارات انفتح باب الهجوم على الضباط الأحرار وخاصة بعد إلغاء الرقابة على الصحف في ٦ مارس مرددة كلام نجيب وكان قد خطب في نادي الضباط في ٤ مارس مطالبا العسكريين بترك السياسة للمدنيين. وطالب الوفد بعودة الحياة النيابية، وعلى ماهر يصرح بأنه ينبغي أن تنضم مصر للغرب، ومحمد صلاح الدين الذي كان قد قبل أن يكون سكرتيرا عاما لهيئة التحرير يتصل بإبراهيم الطحاوي (هيئة التحرير) ويقترح عليه انضمام رجال الثورة الى الوفد وأن يكون ناصر سكرتيرا عاما للوفد، ويوسف صديق وكان قد هرب من تحديد اقامته ببني سويف تنشر له جريدة المصري رسالة يقترح فيها تشكيل وزارة إئتلافية من الوفد والإخوان والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة وحيد رأفت، والهضيبي يقيم دعوى أمام مجلس الدولة على وزارة الداخلية لالغاء قرار حل الجماعة.

وتصرف عبدالناصر بسرعة، فكان وراء انفجار أربع قنابل في أنحاء متفرقة من القاهرة (١٩ مارس) وفق رواية البغدادي حتى يضطرب الموقف من جديد ولايشعر الناس بالأمان مع تنفيذ قرارات ٥ مارس، وهذه الظروف التي اجتمع فيها مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس وتقرر فيه : حل مجلس قيادة الثورة بعد فترة انتقال أربعة أشهر (أي يوم ٢٤ يوليه ١٩٥٤)، وعودة الأحزاب السياسية، وألا يشكل الضباط حزبا سياسيا، وأن تنتخب جمعية تأسيسية يكون لها سلطة المجلس النيابي تقوم بانتخاب رئيس الجمهورية، وكان البغدادي قد اقترح في اجتماع ٢٥ مارس إلغاء قرارات ٥ مارس لكن خالد محيي الدين تمسك بها واقترح — من

باب مراوغة ناصر - تشكيل جديد لنظام ديمقراطي يحرم بمقتضاه من حق الترشيح للجمعية التأسيسية للنواب الذين أيدوا من قبل القوانين المقيدة للحريات، والذين رفضوا دفع ضريبة الأطيان، ورؤساء الأحزاب ، وكذا الخاضعين للإصلاح الزراعي. لكن عبد الناصر لم ينخدع باقتراح خالد وأدار المناقشة حول أحد اختيارين: إما إلغاء قرارات ٥ مارس، وإما رفع كافة القيود عن عودة الأحزاب والإفراج عن كل المعتقلين، وبعد مناقشات دامت خمس ساعات صدرت القرارات.

كان أول المفرج عنهم حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان الذى زار عبدالناصر في نفس اليوم (٢٥ مارس) حيث أبدى انزعاجه من قرارات ٢٥ مارس بعودة الأحزاب فيصدر بيانا في ٢٧ مارس يعلن أن الجماعة لن تطالب بتأليف حزب سياسي ولكن فيما يتعلق بعودة الأحزاب «فإن أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى فإننا لن نسكت على هذا». ويتحرك عبدالناصر بسرعة فيقوم بإبعاد الضباط الذين أظهروا تعاطفا مع الأحزاب، ويفرج عن الضباط الأحرار الذين سبق اعتقالهم ويزور حسن الهضيبي ويتفق معه على عودة الجماعة لنشاطها، ثم يحدث إضراب عمال النقل في ٢٧ مارس تأييدا للثورة، وكان هذا الإضراب أصلا من تنظيم محمد نجيب - خالد بمساعدة يوسف صديق الذى استدعى قريبه صاوى أحمد صاوى رئيس اتحاد عمال النقل المشترك ومحمدى عبدالقادر سكرتير الاتحاد حيث تم الاتفاق في منزل نجيب مقابل مبلغ من المال على أن يقود صاوى الإضراب والاعتصام لاجبار الضباط على العودة إلى الثكنات دون انتظار ليوم ٢٤ يوليه ١٩٥٤ المحدد طبقا لقرارات ٢٥ مارس. غير أن صاوى ومحمدى غادرا منزل نجيب الى هيئة التحرير مباشرة وقابلا ابراهيم الطحاوى وأحمد طعيمة (مسئول العمال في الهيئة) وأبلغاهما بمضمون لقائهما مع نجيب، وتم الاتفاق على القيام بالاضراب مقابل مبلغ من المال أيضا مع تحويل الهتاف المتفق عليه مع نجيب الى المطالبة ببقاء مجلس الثورة وليس عودة الضباط الى الثكنات وقد كان.

وفي نفس يوم الإضراب اجتمع ضباط الجيش من جميع الأسلحة في ثكناتهم للتداول في الموقف وانتهوا إلى أن الثورة مهددة إذا نفذت قرارات مارس فقرروا الاعتصام، وفي يوم ٢٩ مارس وبعد ثلاثة



خالد محيى الدين



يوسف صديق



حسن الهضيبي

أيام من الاضراب تقرر إرجاء تنفيذ قرارات مارس حتى نهاية فترة الانتقال المقررة سلفا (يناير ١٩٥٦) وتشكيل مجلس وطنى يراعي فيه التمثيل النسبى لفئات الشعب وطوائفه وانتهى الاضراب يوم ٣٠ مارس.

حسم الصراع

وخرج عبدالناصر من الأزمة منتصرا إذ عاد رئيسا للوزراء وأخذ يتابع الأمور حتى تستقر نهائيا فى يده ولاتقوم لعناصر الثورة المضادة قومة أخرى فتراه يقوم باعتقال مجموعة من الضباط بقيادة أحمد المصرى كانت تسعى لإحداث فتنة داخل الجيش، ويقدم المسئولين عن الفساد السياسى فى العهد الملكى للمحاكمة (٥ أبريل) ويقرر حرمان الوزراء الذين تولوا وزارات من ٦ فبراير ١٩٤٢ - ٢٣ يولية ١٩٥٢ من مباشرة الحقوق السياسية، ويحل مجلس نقابة الصحفيين (٥ أبريل)، وفى سبتمبر ١٩٥٤ يحاكم اليوزباشى مصطفى كمال صدقى رجل الحرس الحديدى الملكى السابق لمؤامرته لقلب نظام الحكم، ثم يطلق الرصاص على جمال عبدالناصر فى ميدان المنشية (٢٦ يناير) فتكون فرصته للتخلص من الإخوان المسلمين وتنتهى مرحلة توظيفهم بين المتصارعين.

وكانت هذه الإجراءات كفيلة بتجميد نشاط محمد نجيب إذ أصبح وحيدا دون معاونين وبعد توقيع اتفاقية الجلاء (١٩ أكتوبر) لم يعد هناك مايدعو للإبقاء على محمد نجيب فتقرر إعفائه من جميع مناصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ وتحديد إقامته وخلصت الثورة لأصحابها الحقيقيين بعد شهور من المرارة والعنت.



أحمد حسين

وبعد كل هذا .. هل كان على ثوار يوليو أن يعودوا الى الثكنات العسكرية وأن يضعوا رقابهم فى حبل المشنقة بعد أن نجحوا فيما عجزت عن تحقيقه كافة القوى السياسية فى مصر منذ ثورة عرابى ١٨٨١؟.

وهل أخطأ عبدالناصر عندما فكر فى تقديم رتبة عسكرية كبيرة واجهة للضباط الأحرار (محمد نجيب) لتصبح محورا تلتف حوله القوى السياسية القديمة لضرب الثورة التى صنعته هو...؟؟

وهل أخطأ عبدالناصر فى مغازلة الشارع الإسلامى باستثناء الإخوان المسلمين من قرار حل الأحزاب فشعروا بتميزهم وبدأوا فى فرض شروطهم لتأييد الحكم وإلا..

وما هى الثورة التى قامت فى أى بلد فى العالم وقبلت فى شهورها الأولى المشاركة السياسية من عناصر قامت ضدها حتى تقيم هذه العناصر ومن لف لفهم في مارس من كل عام مأتما لموت الديمقراطية!!. ■

حضارة الإسلام

في دار السلام

بقلم

د. محمد رجب البيومي

من حق هذا الكتاب أن يتكرر طبعه عدة مرات، لتقرأه الأجيال المتتابعة متمتعة بسهولة سرده، وروعة خياله، وجمال حقائقه. وكانت وزارة المعارف المصرية قد طبعته عدة طبعات منذ ستين عاما ووزعته على طلاب المدارس الثانوية فأثمر غايته في ارتشاف أحداث التاريخ من كؤوس عذبة سائغة، وأذكر أنى قرأته فى مطلع الدراسة بالقسم الثانوى فجذبنى إلى قراءة التاريخ، ووضع فى نفسى بذرة التطلع إلى معرفة الحضارة الإسلامية فى عهدها الزاهر، ومؤلفه شاب لبنانى هو جميل نخلة المدور لم يقدر له أن ينعم بالحياة طويلا، ولكنه جاء مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وعاصر ظهور مجلة المقتطف فأخذ ينشر فيها بحوثا تاريخية عن العراق فى القديم الغابر قبل الإسلام ثم عن بغداد فى عهدها الزاهر أيام المنصور فالمهدى فالرشيد، وكان النهج الروائى الذى سلكه فى تدبيج تاريخ هذه الحضارة مدعاة انجذاب للقراء فتتبعوا ما بدأ المؤلف بنشره فى المقتطف.



ثم ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٨٩ فصادفت احتفال الصفوة من الكتاب ، ورأى في بعض حقائقها أحد الفضلاء ما يستدعى النقد فنشر مقالا ضافيا عن الكتاب في جريدة المؤيد ، بدأه بالثناء على الكاتب الشاب، وحسن تأليفه وسعة اطلاعه ثم عقب بما رآه من مسائل النقد ، فاهتم المؤلف بما قال ناقده . وعمل في الطبعة الثانية على تصحيح الأخطاء غير المقصودة ، وقال في مقدمة هذه الطبعة :

«وقد بدا لبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت عولت عليها، وتحريف في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عهده إلى السند الذى أخذت عنه . فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشئ من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقد ، وإنى أشكر إدارة جريدة المؤيد التى ساعدتنى في مراجعاتى لما ورد فى هذه الرسائل . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعامتهم ، فجاء والحمد لله بعد هذا كله عمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس كما يقتنى لتنزيه النفس» .

بغداد في مرآة رحالة

والكتاب طريف جدا فى اتجاهه لم يسبقه أحد في منحاه ممن ألفوا باللغة العربية ، حيث تخيل المؤلف رحالة فارسيا قدم من موطنه إلى بغداد في عهد المنصور ثم عاصر بغداد في عهدها الزاهر مشاهدا أعمال المهدى والهادى والرشيد ، وما جد من تطور حضارى وعلمى في العمران والأدب والفن والازدهار السياسى والاجتماعى ، وصاغ ذلك في رسائل عشرا فحسب ، ففى الرسالة الأولى تحدث عن سبب قدومه للعراق . وسروره بمشاهدة بغداد ، ومجالسة علمائها مع إلمام شاف بعرب البادية ، ونتف من أخبارهم ، وذكر للبصرة التى زارها ووصفها كما رآها ، وفى الرسالتين الثانية والثالثة ورد حديث عن لقائه أمير المؤمنين في بعض المساجد ونزوله ضيفا على قاضى الشريعة أبى يوسف مع ذكر ما شاهده من محاسن الزوراء (بغداد) وبلوغ أهلها من السعة ما لم تبلغه أمة من قبل، وإلمامه بشذور وافية عن المنصور وأبى مسلم مع حديث عن الفتوح الإسلامية التى قامت على العدل المطلق تنفيذا لشريعة الإسلام حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وقد اتسع القول للقاء ولى العهد المهدى ، وتأديب ولديه موسى وهارون على أيدى كبار العلماء في الدولة، وركوب الخليفة إلى الحج ومن صحب موكبه من الشعراء والأمراء ، أما الرسالة الرابعة فشملت تولية المهدى بعد وفاة أبيه مع إفاضة في وصف شمائله ، ومناصرته

للعلم . ومجالسه الحافلة بالأدب والشعر وولوعه بالصيد وسياسته مع أهل البيت وفتنة المقنع الخراساني .. وتوالت الرسائل على هذا النمط ، فتحدثت الرسالة الخامسة عن البرامكة بإفاضة . وعن ترف البغداديين واستمتاعهم بطيبات العيش ، ولقاء هارون الرشيد وكيف ازدانت دولته بالعلم والأدب والغناء ، كما أشارت الرسالة السادسة إلى بيت الرشيد وترفه وتعلقه بالمأمون ، وجمال البرامكة في الكرم والعفو ، وعمران بيت المال ، وطرف حلوة عن مجالس الغناء، أما الرسالة السابعة فخاصة بآداب العرب وعلومهم وفنونهم وما ازدهر في فروع الطب والتنجيم واللغة والنحو ، مع موازنة رائعة بين الشعر في البداوة والحضارة . وأدب السير والحكايات ، وتختلف الرسالة الثامنة عما قبلها في مناخها الجغرافي حيث تهيأ الرحالة إلى زيارة قيصر ببلاد الروم رسولا للرشيد ، فمر بالكوفة وبلاد الشام. ووصف دمشق فأحسن الوصف ومر ببعلبك وبيروت حتى مثل بين يدى القيصر ففسح المجال لحديث عن عاصمته وحضارتها ، ورجع من طريق آخر في الرسالة التاسعة ليذكر أحوال تونس والاسكندرية والأهرام وعيذاب ثم يشخص إلى مكة حاجا ليصف ما بها من المشاعر. وختمت الرسالة العاشرة بالحديث عن مأساة البرامكة، والرحالة الفارسى ذو هوى شديد بهم فأكثر من التفجع عليهم وذكر محاسنهم ! وحديثه عن نكبتهم الفاجعة من أحر فصول الكتاب وأشجاها وأعلقها بالفؤاد .

مبتكر جذاب

وهذه المعاني جميعها وردت في سياق ممتع جذاب ، لأنها مذكرات رحالة معاصر يصف ما شاهد بأسلوب قصصي رائق ، وإذا استطرد من قول إلى قول بسط من التمهيد ما يجعل القارئ غير ملتفت إلى اختلاف الموضوع ، وهذا النسق القصصي في التاريخ نهج يخالف الرواية التاريخية الإسلامية التى ابتدعها جرجي زيدان فيما بعد؛ لأن صاحب الهلال يأتي بقصة ذات أشخاص خيالية وواقعية معا ، ليهيئ الحدث التاريخي في صورة زاهية تشمله محاطا ببعض ما لا يمت إليه حقيقة حتى تتم الحبكة القصصية، وهو منحى ابتدعه ولتر سكوت الانجليزي وتابعه اسكندر دوماس الذى جعل حقائق التاريخ أساطير خيالية وقال في صراحة مالي وللتاريخ ! أنا أتخذ منه مشجبا لأعلق عليه أفكاري ! وهذا القول الذى ينفى الصلة بالتاريخ الحقيقي يباعد بينه وبين الواقع ، ولا أقول إن جرجي زيدان قد أساء إلى التاريخ كما يحاول بعض المتشددين أن يقرر ذلك ، بل أقول إن الكاتب الكبير مؤلف مجتهد ، وما نسب إليه من الأخطاء نجد نظيره في قصص تاريخية كتبها مسلمون متشددون، ولم نتهمهم بسوء القصد ، وما أذكره الآن من بعد جميل نخلة المدور صاحب حضارة الإسلام وتجافيه عن المنحى القصصي الذى ابتدعه ولترسكوت ومن تلاه يجعل كتابه مصدرا تاريخيا مأمونا لأنه ألحق كل نص بمصدره القديم ، وهي قدرة

فائقة تتطلب صبرا لا حد له ، حيث تجد في الصفحة الواحدة أكثر من عشرة مصادر، وقد تجد أحيانا فى السطر الواحد مرجعين ، وصياغة هذه النقول فى مشاهد يذكرها رحالة متخيل تدل على اقتدار فائق، والرجل ليس بمسبوق باتجاهه في الأدب العربى ، وإن كان مسبوقا ببعض مؤلفي الغرب ، محتذيا نهجهم فيما ابتدع، إذ من المعروف أن المسيو برتلمى أحد أدباء فرنسا في القرن الثامن عشر قد ألف رحلة خيالية تاريخية ، جعل فيها من يسمى (أناكرسيس) يرحل إلى اليونان قبل وفاة الاسكندر الأكبر المقدونى ليصف ما يراه من عوائدهم وتقاليدهم وعلومهم ، وهو فى ذلك تابع للكاتب الفرنسى (فنيلون) حين نحا هذا المنحى المبتكر ، فى إرسال وافد إلى التاريخ القديم كي يروى ما ادعى أنه شاهده مشاهدة العيان ، وذلك فى روايته الشهيرة (تليماك) وكان ذلك فى القرن السابع عشر ! وقد كان المؤلف جميل المدور يتقن الفرنسية . فمن الطبيعي أن يقرأ ما كتب بها ويتأثر به ، ثم يكون السابق في مجال التأليف العربى الذى ينحو هذا المنحى المفيد ، وقد قال عن كتابه (هذه رسائل وصفت فيها عصرا من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسي طوفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة، وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد) .

شخصيات بغدادية

وقارئ هذه الرحلة يلم بكثير من أخبار المشهورين والمغمورين أيضا من الحكام والشعراء والندماء والعلماء والمطربين والمطربات ، بحيث يستطيع أن يجمع ما كتب عن المهدى أو الرشيد أو جعفر البرمكي أو حاشية هؤلاء من الشعراء والندماء ليؤلف عن كل واحد منهم فصلا بديعا ، ولى أن أختار شخصية تحدث عنها الرحالة فى أكثر من موضع لتكون مثالا تطبيقيا لما أريد ، هذه الشخصية هى شخصية القاضى أبى يوسف ، إذ جلا المؤلف كثيرا من مواقفه فى فصول متتابعة . يقرؤها الدارس فيعرف الكثير عنه تاريخيا ويرى من أخباره ما قد تتعذر عليه قراءته فى مرجع قديم! وقد أحسن افتتاح الكتاب بذكره حين قال فى مطلع كتابه «أتيت مدينة السلام فى السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأتخرج فى الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن ابراهيم بن خنيس الانصارى وكان خليلا لأبى رحمه الله ، على صفاء بينهما لم يكن بين إثنين» . وفى الرسالة نفسها بعد أربع وعشرين صفحة قال عن الرجل :

«فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذى أبى يوسف ، ومنزله على نهر عيسى فى قنطرة الزياتين بمقربة من دور الخلافة فتلقانى بالبشاشة والايناس ، وأبى إلا ضيافتي عنده في جناح أفرده لى ، من داره ، وهو يؤملنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة

الدولة . إذ لا يعدم قومنا محلا في مراتبها ، والوزارة في يد خالد بن برمك أميرنا، وإني إلى هذا اليوم أتخرج في الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال ...» .

هذا تعريف أولي بأبي يوسف ، وهو كما ذكر الرحالة ذو جاه في الدولة ، ولديه من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال ، وبعد سبع عشرة صفحة ، مهد للحديث عن طرفة فقهية لأبي يوسف فذكر أنه كان مع فقيه الإسلام في مجلسه ، فدخل رسول ولي العهد إليه فتخوف إذ جاء على غير موعد ، فطمأنه الرسول إلى أن المسألة فتوى في معضلة، هي أن الأمير قد اختلف مع زوجته في أمر وأدركه الغضب، فقال لها أنت طالق ثلاثا إن بت الليلة في مملكة أبي ، ثم سكن غضبه فندم على تسرعه ، ودعا الفقهاء فلم يجد لديهم حلا . فبعثني إليك ، يقول المؤلف وهو الرحالة عن نفسه :

«وكنت في ذلك الوقت أجيل الفكرة في أمر الخيزران زوجة الأمير ، وأذكر مآثرها في الدولة وذلك المسجد الذي زينت به الزوراء ، فقلت لأبي يوسف إن المساجد بيوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل في ملك أحد ، فلوبات الأمير فيها الليلة ما حسبته يبيت في مملكة أبيه . فماكدت أنتهي من كلامي حتى كاد (أبو يوسف) ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن إعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل ، فأما إذا ابتدعت هذا الرأي الميمون فعلى عهد الله لأذكرنك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير» .

فهذا خبر ثان ، عن أبي يوسف ، والرواية التاريخية تنسب الحل لأبي يوسف، ولكن الرحالة قد جعله من ابتكاره ، إذ تقدم به لأبي يوسف فحاز إعجابه، وهو لا يغير الواقع لأن الرحالة شخص متخيل أراد أن يكون ذا فضل علمي ليمهد بفتواه مكانة له في الدولة المزدهرة ، وقد كان . ثم تحدث عنه بعد اثنتي عشرة صفحة حديثا يدل على ارتفاع منزلة أبي يوسف في الدولة إذ كان لسان الشريعة بمعنى أنه مفت وقاض ولكنه ينكر على المنصور ما يقترفه من مظالم ، وأشار أبو يوسف إلى رؤيا منامية رأتها والدة المنصور ، فعرفت أنه سيكون ذا شأن عظيم ، رأت ذلك قبل أن تسقط الدولة الأموية ، ويتهيأ الأمر لبني العباس ، وصدقت الرؤيا .

أما شأن أبي يوسف وإقبال الدنيا عليه بعد أن صار المهدي أمير المؤمنين فقد أحسن الرحالة وصفه ، وكان مما قال: «ثم إني قصدت باب فقيه الاسلام ، وقد اتخذه المهدي رحمه الله قاضي قضاة المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادي والرشيد من بعده ، حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف من ناحية الكرخ الدار التي

لم ير مثلها إلا ملك أو أمير ، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمراء عليه المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة قد حفها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها لون شعارهم .. فكان للقانا موقف يستبكي الحمام لفرط ما بنا من الأشواق (يتأمل القارئ هذا التعبير) وصرفت اليوم بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت فيها منفصلا عن دار السلام ، لأن القضاة يرد عليهم من طرائف الأخبار ما لا يرد على غيرهم ولاسيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريره بجانبه ، ويقوم له إذا دخل عليه، ولا يقلد القضاء ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به» .

هذا موجز حديث أبي يوسف في الكتاب ، وأبو يوسف بعد ليس خليفة ولا أميرا ولا وزيرا ولا قائد جيش ! فإذا تحدث المؤلف عن كل هؤلاء بأسلوبه الممتع وأضاف إليهم أحاديث الأدباء والشعراء والندماء والعلماء والمؤلفين ، فما أظن كتابا مثله يبلغ مبلغه التأثيري في عدد محدود من الصفحات ! وفي كتاب واحد !

عن نكبة البرامكة

ومن أجمل ما جاء في الكتاب ، وأشجاه للنفس حديثه عن نكبة البرامكة ، حيث تقدم هذا الحديث فصل قوي عن سلطان البرامكة ، بين مبلغ نفوذهم في الدولة ، وانجذاب الشعراء وذوي الحاجات إلى ساحاتهم العامرة ، وما بذلوه من همة عالية في شئون الدولة والقيام بها على أتم الوجوه ، ولكن الوشاة قد أتقنوا السعاية فأوغروا صدر الرشيد وبعثوا الشعراء على صياغة ما يملأ الصدر حسدا وحفيظة، وقد سجل ذلك المؤلف موضحا أثر الفضل بن الربيع وغيره في هذه النمائم القاتلة ، وجاءت الرسالة العاشرة لتصور المأساة في أفدح صورها وقد بدأها المؤلف بقول الشاعر :

أصبت بسـادة كانوا عيونا

بهم نسقى إذا انقطع الغمام

ثم تلاه حديث عن وقوع التواني في الدولة بعد مصرع البرامكة ، وما تحدث به الجمهور عن استيائه في قصص تروى وأشعار تعلق على الجدران ، ورقاع ترمى في الطرق ليقرأها العابرون ، وينتهي أمرها إلى الرشيد فيفزع ، حتى أمر بمنع الشعراء عن رثائهم ، وجعل القتل عقوبة المخالف ، وأرسل الحراس لينزعوا الرقاع التي تعلق ليلا في الأسواق ولكن ذلك كله لم يمنع حديث الناس في الحاضر . ولا مضاعفة هذه الأحاديث في المستقبل حتى ملأت الأسفار . وحديث الرحالة عن أسباب النكبة يظهر تعاطفه الشديد مع القوم ، وما رواه من القصص مؤثر صائب، ويصلح أن يكون عنصر قصة مستقلة يؤلفها فنان قدير ..

هذا ، وقد ذهب هذا الكتاب دون أن يقدر أحد على احتذائه في منحاه التصويري

بالقدر الذي يجعله موضع الموازنة الدقيقة بين عملين متناظرين ، لأن الكاتب الكبير الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي رحمه الله ، أراد أن يتحدث عن حضارة العرب في الأندلس بعهد الناصر على النحو الذي تحدث به جميل المدور عن حضارة الإسلام في دار السلام ، فتخيل رحالة يركب السفينة من الاسكندرية حتى يصل إلى الأندلس ويتحدث عما شاهد ، وكان معه من المسافرين أبو علي القالي وأبو الحسن الانطاكي وابن حوقل ، حتى وصلت السفينة إلى المرية ومنها إلى قرطبة . إذ ألفها وأحبها وصور حضارتها العمرانية ومن قابل بها من العلماء والشعراء .. والبرقوقي مشكور فقد اجتهد قدر ما يستطيع ، ولي عن رحلته حديث في الجزء الأول من كتاب دراسات أدبية» بعد أن ذكرت موجزا لحضارة الإسلام التي كتبها المدور ، وإذا كان البرقوقي قد تخلف عن صاحبه ، فله السبق في تأليف أخرى حازت الإعجاب .

إن حضارة الإسلام كتاب تاريخ وأدب وفن وحضارة ، فهل نجد من يطبعه اليوم ليقرأه الجيل الجديد ؟.. ■

جميل نخلة المدوّر

- ولد في بيروت سنة ١٨٦٢ م.
- أتقن العربية والفرنسية وألف بهما معا.
- نال تقدير الصفوة من الكبار وكافأه السلطان عبد الحميد بجائزة مالية كبرى بعد ظهور كتابه (حضارة الإسلام في دار السلام) .
- انتقل إلى القاهرة وحرر في المؤيد والمقتطف ومجلة الجنان.
- توفي بالقاهرة سنة ١٩٠٧ م.
- من مؤلفاته :

أ - تاريخ بابل وآشور.

ب - ترجمة رواية (أتالا) لشاتوبريان.

جـ - ترجمة كتاب (التاريخ القديم) لباحث فرنسي.

د - حضارة الإسلام في دار السلام.

- قال عنه صاحب الهلال (جرجي زيدان) إنه خدم آداب هذا اللسان خدمة جليلة يذكرها له التاريخ.





علاء الأسواني

عمارة يعقوبيان

رواية جديدة بديعة

بقلم
د. جلال أمين

فى رواية علاء الأسوانى الجديدة والبديعة (عمارة يعقوبيان - دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢) والتى صدرت منذ أيام قليلة أربع قصص متوازية: قصة طه الشاذلى ابن البواب مع خطيبته بثينة، وقصة زكى بك الدسوقى، سليل الأسرة الوفدية العريقة، مع أخته دولت، وقصة حاتم رشيد، الصحفى اللامع والشاذ جنسيا مع صديقه الصعيدى عبدربه، ثم قصة الحاج عزام الذى بدأ حياته ماسحا للأحذية ثم صار أحد أكبر أثرياء مصر وعضوا فى مجلس الشعب ولا زال يطمح فى المزيد .

الجميع يسكنون عمارة يعقوبيان فى وسط القاهرة، إما فى إحدى شققها الفاخرة، أو فى إحدى غرفها فوق السطوح. والمؤلف يتنقل من قصة لأخرى، يترك احدى القصص الأربع فجأة، وأنت فى أشد الشوق الى معرفة بقيتها، ليواصل أحداث قصة أخرى.. ثم يعود لمواصلة الأولى وهكذا.

عنصر التشويق إذن موجود من أول صفحة ولا ينتهى الا بانتهاء الرواية. بل ولا ينتهى حتى بانتهائها. اذ يترك المؤلف بعض القصص مفتوحة لأكثر من احتمال، اعتقادا منه، وأظنه على حق، بأنه قد حكى من كل قصة من القصص

ما يكفي لتمكين القارئ من تخمين ما سيحدث. وحتى اذا اختلفت بعض التخمينات فليس لهذا الاختلاف أهمية في الحقيقة. فمغزى الرواية في جميع الأحوال واضح وضوحا كافيا .

سألت نفسي بعد أن قرأت من الرواية اكثر من نصفها. كيف استطاع المؤلف ان يحتفظ للرواية بوحدتها، بحيث يشعر القارئ بأنه يقرأ قصة واحدة لا أربع قصص، مع أن شخصيات كل قصة لا تتداخل بالمرة مع شخصيات القصص الأخرى، باستثناء شخصية بثينة التي تدخل في قصة طه الشاذلي ، باعتبارها خطيبته وحبيبته، ثم تدخل في قصة زكي بك الدسوقي في صورة سكرتيرته ثم عشيقته؟ باستثناء شخصية بثينة، كل من القصص الأربع مستقلة تماما عن بقية القصص. صحيح أن كل الشخصيات تسكن عمارة يعقوبيان، ولكن هذا الاشتراك في سكنى عمارة واحدة لا يؤثر إلا تأثيرا طفيفا للغاية على مسار أي قصة منها. ومع ذلك فالقارئ يقرأ القصص الأربع كما لو كان يقرأ قصة واحدة، وهو اذ يترك احداها ليواصل احداث قصة اخرى، لا يكون كمن ترك كتابا قبل أن يتمه ليقرأ في كتاب آخر. القصص اربع ولكن الرواية واحدة وكأننا بصدد عدة أعضاء من نفس الجسم.

كانت الاجابة التي ارتحت اليها لتفسير هذه الوحدة في الرواية رغم تعدد القصص، هي أن القصص كلها واحدة في الهمّ. المأساة واحدة وان كانت تتخذ صورا مختلفة، والسبب الأصلي لمأساة كل من أبطالها يكاد يكون هو دائما نفس السبب . ومن ثم فأنت اذ تنتقل من قصة لأخرى لا تغادر المأساة، وكل من القصص تدعم وتؤكد فهمك لذلك السبب الكامن وراءها جميعا .

قد تقول ما وجه الشبه بين مشكلة زكي بك الدسوقي، الرجل الثري الذي يحاول قتل الفراغ بمضاجعة النساء، وبين مشكلة طه الشاذلي ابن البواب الفقير الذي يفشل في دخول كلية الشرطة أو بين هذه وتلك وبين مشكلة الحاج عزام الذي يحاول ان يشبع نهما لا نهاية له الى المزيد ثم المزيد من المال والنفوذ؟ وأخيرا ما الشبه بين هذه المشكلات الثلاث ومشكلة حاتم رشاد التي تنحصر في محاولة الاحتفاظ بعشيق دائم له ؟

نهاية مأساوية

يتبين وجه الشبه، والعلاقة الوثيقة بين المشكلات الأربع، متى بينا السبب الذي افشل محاولات الجميع لحل مشكلاتهم، فاذا به سبب واحد. السبب الذي حرم طه الشاذلي من دخول كلية الشرطة، ثم حرمه من محبوبته وخطيبته الجميلة بثينة، ثم دفع به الى الانضمام الى جماعة من الجماعات المتطرفة، ثم انتهى به نهاية مأساوية، هذا السبب هو نفسه الذي خرّب علاقة زكي بك الدسوقي بعشيقته ومحبوبته القديمة دولت، الى ان أصبحت أقرب الى علاقة سلب ونهب وانتهت بهما الى اقسام البوليس والمحاكم. وهو نفس السبب الذي أفسد حياة عبدربه، الصعيدي الطيب والمحب لزوجته وابنه، وانتهى به الى ارتكاب جريمة قتل حاتم

رشيد ، او ما يبدو انه كذلك، واخيرا فان نفس هذا السبب هو الذى افسد حياة الشابة الجميلة سعاد مرتين، مرة عندما فقدت زوجها الذى سافر الى العراق بحثا عن عمل، ومرة عندما اعتدى عليها الحاج عزام اعتداء وحشيا ثم طلقها وطردها شر طردة.

السبب واحد، وسوف يكتشفه القارئ بسهولة، ولكن الذى سوف يدفعه بلاشك الى الكثير من التفكير هو ان هذا السبب الواحد الذى يكمن وراء هذه المآسى الأربع هو نفسه الذى يكمن وراء المأساة المصرية بصفة عامة.

رواية سياسية

بهذا المعنى اذن تتحول رواية علاء الأسوانى الى رواية سياسية بامتياز. صحيح أن من الممكن للقارئ الاستمتاع بها حتى ولو لم يكن لديه أدنى اهتمام بالسياسة، ولم يكن له اى قدر من الوعى السياسى أو المعرفة بما يدور فى الحياة اليومية للمصريين، ولكن علاء الأسوانى يعرف ويفهم ما يدور فى الحياة اليومية للمصريين بدرجة مبهرة حقا وداعية للاعجاب، كما أن وعيه السياسى، كما يظهر بجلاء، على أعلى درجة من الحدة والذكاء، وهذا هو الذى يجعل من قراءة هذه الرواية للمهتمين بالحياة السياسية والاجتماعية المصرية، متعة فكرية اضافية ومصدرا للتفكير الخصب فى الاحوال المصرية.

ولكنى أريد بالاضافة الى ذلك أن ألفت نظر القارئ الى فضيلة أخرى رائعة تتحلى به الرواية ، ولا تتوفر فى بعض من أكثر الروايات جمالا وجاذبية، مصرية أو اجنبية، واقصد بها نجاح الكاتب فى أن يبين بقدر عال من الوضوح، الظروف التى دفعت كل شخصية من شخصيات الرواية الى التصرف على النحو الذى تصرفت به. مهما بدا هذا التصرف غريبا، او شاذا، او ممتعا فى لا أخلاقيته أو اجرامه، فاذا بك، وقد عرفت هذه الظروف وماولدته من مشاعر، تصبح قريبا جدا من الصفح والعفو .

فلا يكاد يبقى شخص واحد من أشخاص الرواية لا يحظى من القارئ بالعطف، مهما كانت درجة القسوة او الغرابة فيما ارتكبوه من أعمال. والرواية بهذا تحقق نجاحا آخر يضاف الى نجاحها فى وصف الحالة المصرية. فهى بهذا تقترب اقترابا مثيرا للاعجاب من أن تكون وصفا للحالة الانسانية بوجه عام. ومن ثم يجد القارئ انه قد حظى بكسب اضافى من قراءته للرواية، لا صلة له بمصر بالذات، ولكنه وثيق الصلة بالانسان فى اى مكان، وهكذا تصبح عمارة يعقوبيان أكثر من مجرد عمارة فى وسط القاهرة، تتكون من بعض الشقق الفاخرة وغرف فوق السطح، بل تصبح أقرب الى نموذج لأى عمارة، تبنيها اى جماعة من الناس، أيا كانت اجناسهم والوانهم، ليلتقوا فيها بمن يحبون، فيقضون فيها بعض اللحظات السعيدة القصيرة، ويطلقون فيها بعض الضحكات، قبل ان يذرفوا فيها الكثير من الدموع. ■


رائحة الزهرة
تجربة مثيرة لإنتاج القمح في المياه المالحة
بقلم:
د. أحمد مستجير

كانت لنا فى سالف الأيام بأواسط الخمسينات حديقة رائعة، بكليتنا الحبيبة، كلية الزراعة بالجيزة، شهدت هذه الحديقة المائية بعضا من أحلى أيام حياتنا نحن الطلبة. «كانت لنا .. ياليتها دامت لنا!»، كانت الحديقة جميلة وكان الزمان جميلا، أذكر الحديقة دائما عندما أجلس لأشاهد سعد عبدالوهاب فى فيلم من أفلامه وهو يغني في طرقاتها، ثم جارت الأيام عليها، مثلما جارت علينا، تحولت إلى ركام، جفت البحيرة الصغيرة فيها وماتت نباتاتها، وغدت كوما من القمامة ينمو عاما بعد عام!

- **الفدان يحقق أربعة عشر إردبا من القمح**
- **الاستنساخ بالبذور.. عصر جديد وثورة فى تربية النبات**
- **لماذا تحاول الشركات العملاقة الوقوف ضد التقنيات الحديثة للاستنساخ بالبذور**
- **من لا يملك طعامه لا يملك حريته وحريتنا الحقيقية تتركز فى زيادة الإنتاج الزراعى وغزو الصحراء.**

ثم حدث أن انتخبت عميدا للكلية، وفى ظرف أسبوع كنت أسعى أحاول أن أعيد إليها وجهها الصبوح القديم، أن أعيدها إلى شبابها وأعيد معها شبابى، أزلنا ركام السنين وعثرنا تحت الأنقاض على الجسور الخشبية الصغيرة القديمة ، بعد شهور قليلة كانت البحيرة بالحديقة وقد امتلأت بالماء ونباتات البردى، وكانت أرض الحديقة تضج بالأزهار من كل لون. كنت أزور الحديقة وأمكث بها طويلا كل يوم جمعة، وفى ذات جمعة بعد حلول الصيف كنت واقفا فوق الجسر الخشبى الصغير على البحيرة أتأمل الماء وأزهار البردى، فتنشقت رائحة جميلة. ترتبط حاسة الشم ارتباطا وثيقا بالذاكرة، تلفتُّ، هذه الرائحة الحلوة الخفيفة الساحرة أعرفها من زمان، أعرفها ويخيل إلىَّ أنها تعرفني، لقد حفرت فى ذاكرتى بصمة لاتضيع، أخذت بأنفى أتشمم الطريق أبحث عن مصدر هذا العطر، ووجدته، يالله، كانت هناك قرب

بسور الحديقة شجيرة «عُليق رانجون» (كوسكوالس إنديكا Quisqyalis indica) - أورقت وأزهرت عناقيد أزهارها الأنبوبية القرنفلية الرائعة، من يصدق؟! شجيرة تبقى صامدة جذورها تتحدى الإهمال والعطش أكثر من ثلاث عشرة سنة، ثم تعود إليها الحياة فجأة بعد أن تسربت إليها من تحت الأرض مياه البحيرة!

دبت الحياة فى هذا النبات المتسلق، ولم يجد ما يستند إليه ليعلو فافترش الأرض، وقفت أمام النبات فرحا مذهولا، طافت برأسى فكرة فطفرت من عينى دمعة، قلت إن هذه هى مصر. تغفو وتغفو حتى لتبدو وكأنها قد ماتت، وتستمر تستمر فى سباتها. ثم إذا بها فجأة تنهض، تورق وتزهر، وتملأ الدنيا - ثانية - عبقا وعطرا، جمالا وخيرا!.

تهجين غريب

فى تلك السنين، أيام عمادتى للكلية، طرأت بذهنى فكرة تجربة كانت تبدو غريبة، نستخدم فيها تقنية تعرف باسم التهجين الخضرى، تدمج فيها بالمعمل خلايا من أنسجة جنسين نباتيين مختلفين لتنتج خلايا هجينة، تربى حتى تصبح نباتات كاملة تحمل جينومى النباتين سويا، كانت فكرتى هى أن نهجن خلايا نبات الأرز خضريا بخلايا نبات الغاب (البوص) الذى ينمو فى الماء المالح قرب مدخل مدينة الإسكندرية (وكلا النباتين من نفس العائلة النجيلية) - ثم أن ننمى الخلايا حتى تصبح نباتات كاملة تنقل إلى التربة حيث ننتخب بينها بريها بماء البحر فى الأصص بالصوبة: ما لايتحمل منها الملوحة سيموت، أما ما يتحملها فسيبقى ويثمر ومنه نختار ما يعطى البذور الأقرب إلى بذور الأرز، بهذه الطريقة نثبت بالهجين الخضرى جين، أو جينات ، تحمل الملوحة، دون حتى أن نحددها أو نعرف تفاصيل مواقعها وتركيبها الجزيئى.

كان ثمة مدرس قد عاد حديثا من بعثة بانجلترا وقد تدرب على هذه التقنية: الدكتور أسامة الشيحى، قبل الرجل أن يبدأ معى التجربة، فى أواخر الثمانينات، تمكن من التهجين الخضرى بين النباتين، ومن إنتاج الهجن وزراعتها فى الأصص حتى أثمرت صورا وأشكالا عديدة من الحبوب، نجح التهجين بشكل مذهل، كانت الهجن أكبر وأقوى من نباتات الأرز والغاب، وكانت سنابلها غريبة متنوعة، اقترح اسامة أن نضيف القمح أيضا، فأضفناه لنهجنه خضريا بالغاب، تحمس للتجربة الدكتور يوسف والى بعد أن شاهد سنابل الهجن، وعركها بأصابعه ليتأكد من أنها تحمل حبوبا، لم يصدق ما رآه (على ما أعتقد) ولكنه وفر لنا التمويل الكافى، بعد عشر سنين كنا قد انتجنا اثنتى عشرة سلالة من هجن الأرز الخضرية وثمانى سلالات من هجن القمح، كلها تتحمل الملوحة: كان من بينها سلالة أرز

أنتجت في الموسم الماضي (صيف ٢٠٠١) أكثر من أربعة أطنان للفدان في أرض تقترب ملوحتها من ملوحة مياه البحر (وماتت فيها كل نباتات الأرز الطبيعية التي زرعت للمقارنة)، ومنها سلالة قمح أعطت ١٤ أردبا للفدان (عام ٢٠٠١) استخدام التقنيات الحيوية الجديدة التي تظهر بالغرب في حل مشاكلنا الزراعية الحقيقية أمر ممكن ومثمر، إنما نحتاج أولا إلى تحديد المشاكل الملحة وتحديد التقنيات التي تصلح لحلها، ثم المبادرة، للحل بالفكر والمثابرة والإيمان... والتمويل.

جين ينقذ فلاحي العالم الثالث

هللنا كثيرا للبيوتكنولوجيا الحديثة، ففيها تكمن بذور ثورة خضراء جديدة، البيوتكنولوجيا المرتكزة على علم الوراثة الجزيئية قد مكنت العلماء من «هندسة» نباتات محاصيل تحمل جينات صفات مفيدة، جديدة عليها تماما، جينات لمقاومة الحشرات مثلا، أو لمقاومة مبيدات الأعشاب أو لتغيير تركيب البروتينات والزيوت النباتية. مازلنا هنا في مصر نتلمس طريقنا للولوج إلى هذه الساحة الجديدة، لكن مثل هذه التقنيات توفر أيضا إمكانات أخطر بكثير من كل هذا: تحوير نظام تكاثر النبات بحيث يستطيع أن يستنسخ نفسه بالبذور، ومثل هذا التحوير يفتح الباب لثورة في الزراعة تفوق الخيال!.

التكاثر الجنسي هو الأكثر شيوعا في النباتات الزهرية، ويتم بإخصاب حبة لقاح لبويضة زهرة . تحمل حبة اللقاح نصف الطاقم الوراثي للنبات ومثلها أيضا البويضة، واجتماعهما عند الإخصاب يعطي جنينا يحمل الطاقم الكامل الذي يكون مزيجا متفردا من جينات الأب وجينات الأم. وهناك نباتات كثيرة تتكاثر لاجنسيا (أي بالاستنساخ)، بالعقل مثلا أو بالدرنات أو بالفسائل (كالعنب والبطاطس والنخيل) ويحمل فيها «النسل» نسخا مطابقة تماما للطاقم الوراثي للنبات الأصلي الذي استزرعت عقله أو درناته أو فسائله - لايحدث هنا مزج في النسل بين جينات أبوين.

ثمة نوع غريب من التكاثر اللاجنسي يقوم فيه النبات بإنتاج بذور خصبة تحمل طاقمه الوراثي نفسه بالكامل، دون أن تتركه مادة وراثية من حبة لقاح، يسمى هذا النوع من التكاثر باسم «الاستنساخ بالبذور» أو «الأبومكسية»، هذا النوع من التكاثر معروف ويحدث طبيعيا في نحو ٤٠٠ نوع من النباتات - منها المانجو والموالح - لكنه غير موجود في نباتات محاصيل الحقل المهمة، وإن وجد في بعض أقاربها.

ولقد اتضح أن الاستنساخ بالبذور صفة وراثية، يمكن إذا استطعنا أن نتوصل إلى الجين أو الجينات المسببة لها، أن ننقلها إلى مختلف نباتات

المحاصيل الاقتصادية، فندخل بذلك فى عصر جديد للإبداع فى تربية النبات، عصر تتقزم فيه النتائج الباهرة للثورة الخضراء الأولى التى تمت فى ستينات وسبعينات القرن العشرين، عصر لايختلف فى ثوريته كثيرا عن عصر «الكمبيوتر الشخصى» الذى بدأ فى أواخر سبعينات ذلك القرن.

ربما اتضحت أهمية الاستنساخ بالبذور فى الفقرة الأولى من البيان الصادر عن مؤتمر بيلاجيو (بإيطاليا) الذى عقد فى الفترة من ٢٧ أبريل إلى ١ مايو ١٩٩٨ وخصص لقضية الأبومكسية.. تقول الفقرة:

«يشير التقدم الحديث فى بيولوجيا النبات إلى أنه قد يكون من الممكن قريبا تطوير سلالات من نباتات المحاصيل تعطى بذورا دون اللجوء إلى الإخصاب الجنسى، فى عملية تسمى الأبومكسية (أو الاستنساخ بالبذور)، وهذه العملية طريقة لاجنسية طبيعية لتكاثر النبات، ينتج عنها نسل يطابق النبات الأم وراثيا. تعد الأبومكسية بتثوير تربية النبات، إذ توفر نظاما لتحسين المحاصيل يسمح للسلالات المرغوبة - حتى الهجين منها - بأن تكون صادقة التوالد، وهذه القدرة ستجعل التربية وإنتاج البذور أكثر كفاءة، إنها تتيح لمربى النبات الفرصة كى يطور، وبسرعة، سلالات تلائم الظروف المحلية، باستخدام - ومن ثم حفظ - تنوع وراثى أكبر. ستسمح الأبومكسية أيضا لفقراء الفلاحين بأن يعيدوا زراعة البذور التى ينتجونها من السلالات المرباة محليا، عاما وراء عام، وهذه استراتيجية مستحيلة بالنسبة للسلالات المتاحة اليوم من السلالات الهجينة».

محاصيل الغذاء، إذا أضيف إليها جين أو جينات الأبومكسية، ستحرر الفلاح بالدول النامية من أن يشترى بذورا هجينة جديدة فى كل موسم.، ستمكنه من أن يعيد زراعة ما ينتجه من بذور الذرة الهجين دون أن يتدهور محصولها، ومن ثم لن تتحمس شركات البذور لهذه التقنية، ثم إنا نستطيع بالابومكسية أن نكيف النبات ليلائم البيئة المحلية - أى بيئة محلية - بدلا من أن نكيف البيئة لتلائم النبات عن طريق المعاملات الزراعية المكثفة من أسمدة ومبيدات وغيرها. سيتمكن المربى من أن ينتج من القمح المحصول الزراعى سلالات تلائم خاصة كل مركز أو محافظة.. وستصبح كل سلالة «صادقة التوالد» على الفورحتى لو كان تركيبها الوراثى خليطا.

تخوف المؤتمرون فى بيلاجيو من أن الاتجاه السائد فى حقل البيوتكنولوجيا سيؤدى إلى أن تحتكر الشركات العملاقة هذه التقنية - ببراءات الاختراع - فيحرم منها فقراء الفلاحين بالعالم الثالث الذين هم فى أمس الحاجة إليها، وأوصوا بضرورة تطوير نظم جديدة للبراءات تحمى العالم

الثالث.

والواقع أن التقدم نحو عزل الجين (أو الجينات) المسئولة عن الأبومكسية لايزال بطيئا - فشركات البذور العملاقة لاتولى الموضوع ما يستحقه من الاهتمام، لكن هذا بدوره يعنى أن الطريق لا يزال مفتوحا أمام علمائنا للعمل الجاد في هذا المجال، والإسهام فى هذه الثورة الجديدة - ثورة التكاثر اللاجنسى للنبات - التى لاتزال فى بداياتها والتى ستشكل إن عاجلا أو آجلا صورة مستقبل الغذاء فى عالمنا.

ولقد طالت ثورة التكاثر اللاجنسى الحيوان أيضا، نجحت هذه التقنية باستنساخ النعجة دوللى والنشر عنها فى فبراير ١٩٩٧، وهذه التقنية - عندما يتم إتقانها - ستقدم عونا هائلا للتحسين الوراثى للحيوان - لاسيما حيوانات اللبن، واللبن أهم منتج حيوانى خصوصا فى مصر، وهذه قضية يجب أن نوليها عناية خاصة، فنبدأ فى إنشاء مدرسة علمية مصرية فى هذا المجال الجديد الواعد.

مشروع قومى

تصبح التقنيات الغربية تقنياتنا إذا نحن تفهمناها وتمكنا منها وطوعناها لصالحنا، ولقد غدا من الضرورى الملح أن نستخدم العلم وأدواته حتى نخرج من النفق المظلم الذى وقعنا فيه. الكثيرون من أنصاف المتعلمين وأشباه العلماء يتسببون - عامدين أو غافلين - فى تخويف الناس من العلم ونتائجه، الإعلام لدينا يساهم هو الآخر فى بث الرعب فى قلوب الناس من علوم الغرب، العلوم التى تستخدم هناك فى صناعة التقدم، السكان يتزايدون، أزمة المياه تهددنا، التصحر وتملح الأرض وتطبيلها يعتم الصورة - والنتيجة : انخفاض نصيب الفرد من المنتجات الزراعية، «ومن لايملك طعامه لايملك حريته»، حريتنا الحقيقية تتجذر أولا فى الإنتاج الزراعى، لابد أن نغزو الصحراء وأن نخضر شواطئنا وأراضينا المالحة، أن نمضى إليها ومعنا العدة العلمية لاستغلالها : وعدتنا الأولى هى علوم الوراثة الحديثة، سيقع القدر الأكبر من المهمة على أكتاف مربى النبات: لابد أن تتكاتف كل الجهود الآن لإنتاج سلالات من المحاصيل الاقتصادية الأساسية تقاوم الملوحة والجفاف، هذا مشروع قومى بالمعنى الحرفى، يلزم أن نتبناه وأن نموله، فما عاد وقت للانتظار.

تلك الرائحة

منذ أيام استمعت إلى استاذنا الدكتور رشدى سعيد فى محاضرة رائعة كانت عن المياه الجوفية فى مصر وأزمة المياه، كان لما سمعته أن يصيب المرء بالاكتئاب والخوف، لكنى خرجت من المحاضرة أشم فى الجو عبير زهرة لا أراها! ■



دير الأنبا بشوى بوادى النطرون

ندوة عن وادى النطرون:

ضرورة إنشاء قسم لعلم القبطيات

بقلم
د. رشدى سعيد

هذا مقال أنقل فيه إلى القارىء وقائع ندوة وادى النطرون التى عقدت بين الثانى والخامس من شهر فبراير سنة ٢٠٠٢ بدير الأنبا بشوى بوادى النطرون لدراسة الدور الذى لعبته أديرة هذا الوادى فى تاريخ الرهبنة القبطية، وبعض ملاحظاتى عنها. وقد أقيمت هذه الندوة تحت رعاية قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الأقباط وبحضور عدد كبير من المهتمين بهذه الدراسات والذين كان فى مقدمتهم الأستاذ الدكتور جاب الله أحمد جاب الله أمين عام المجلس الأعلى للآثار. وألقى قداسة البابا محاضرة ارتجلها باللغة الإنجليزية استغرقت ساعة كاملة تكلم فيها عن الدور المحورى الذى تلعبه الرهبنة فى حياة الكنيسة القبطية وأبعاد حركة «البعث» التى تشهدها اليوم، وما تقوم به هذه الحركة من إعادة الروح لكثير من الأديرة المهجورة أو لبناء الجديد منها وخاصة فى خارج مصر بأفريقيا واستراليا وأوربا وأمريكا.

ونظمت الندوة جمعية القديس مرقص لدراسة التاريخ القبطى التى يقع مقرها بمدينة كليفلاند بالولايات المتحدة والتى تضم أعضاء كثيرين ممن يهتمون بهذه الدراسات بمصر والولايات المتحدة وجميع أنحاء العالم - ويرأس هذه الجمعية الدكتور فوزى اسطفانوس الطبيب المعروف بمستشفى كليفلاند الشهير الذى قام وبمساعدة لجنة منظمة رأسها نائب رئيس الجمعية الأستاذ إيليا ثروت باسيلى من القاهرة، وعدد من المهتمين بالدراسات القبطية يتقدمهم الأستاذ الدكتور جودت جبرة أمين المتحف القبطى السابق والأستاذ الزائر بجامعات ألمانيا والولايات المتحدة بتنظيم هذه الندوة وإعداد برامجها ودعوة المحاضرين إليها. وكذلك ترتيب إقامة المدعوين بالدير فى استراحاته الجديدة والمريحة.

وشارك فى الندوة أكثر من عشرين أستاذا متخصصا فى علم القبطيات وهو العلم الذى تأسس كعلم مستقل فى سنة ١٩٧٠ بعد انفصاله عن علم

المصريات وأصبحت له كراسى متخصصة فى معظم الجامعات المتقدمة، وافتتح الاستاذ مارتن كداوزى عميد دراسات هذا العلم الندوة بعرض عن أهمية وادى النطرون لعلم القبطيات قرأه بالنيابة عنه الاستاذ الدكتور سيجفريد - ويشتر بسبب إصابته بمرض مفاجىء، وقد توالت بعد هذه المحاضرة الأبحاث التى ألقاها نخبة من العلماء المتخصصين قد يكون من المفيد إيراد عناوينها لتبيين تعددها ومدى أبعادها.

– يوهانس دن هاير : وادى النطرون وتاريخ البطارقة.

– تيموثى فيفيان : تاريخ الرهبنة القبطية بوادى النطرون.

– سيجفريد ريشتر : وادى النطرون والأدب القبطى القديم

– رشدى سعيد : جيولوجية وادى النطرون.

– باستيان فان إلدرن : الآثار القبطية فى وادى النطرون.

– بيتر جروسمان : العمارة فى وادى النطرون

– خليل سمير : وادى النطرون والأدب القبطى باللغة العربية.

– اليزابيث بولمان : الرهبان بالبحر الأحمر : حالة دير القديس انطونيوس.

– لوسى أن هنت : الفن فى وادى النطرون

– كارل إنيمى : اكتشافات جديدة لصور حائطية بدير السريان.

– مات إموزيل : الأعمال الجصية بدير السريان.

– سوزان هوداك : الزينة فى الأعمال الفنية بوادى النطرون

– كارل هاينز برون : الاثنيات المتعددة فى وادى النطرون

– جاك درفليت : النقوش القبطية واليونانية بوادى النطرون

– إيوا بارندوفسكا : نتائج أعمال الترميم بدير السريان.

– سوزانا سكالوفا: الأصل القبطى لصور الأوجه البيزنطية بوادى النطرون

– لوكاس فان رومباى : العلاقة بين الكنيستين السريانية والارثوذكسية والقبطية الارثوذكسية فى ضوء الأبحاث الجديدة بدير السريان.

– سمير شاكر : استمرارية الفن القبطى.

– أوجو زانيتى : قداس الكنيسة القبطية.

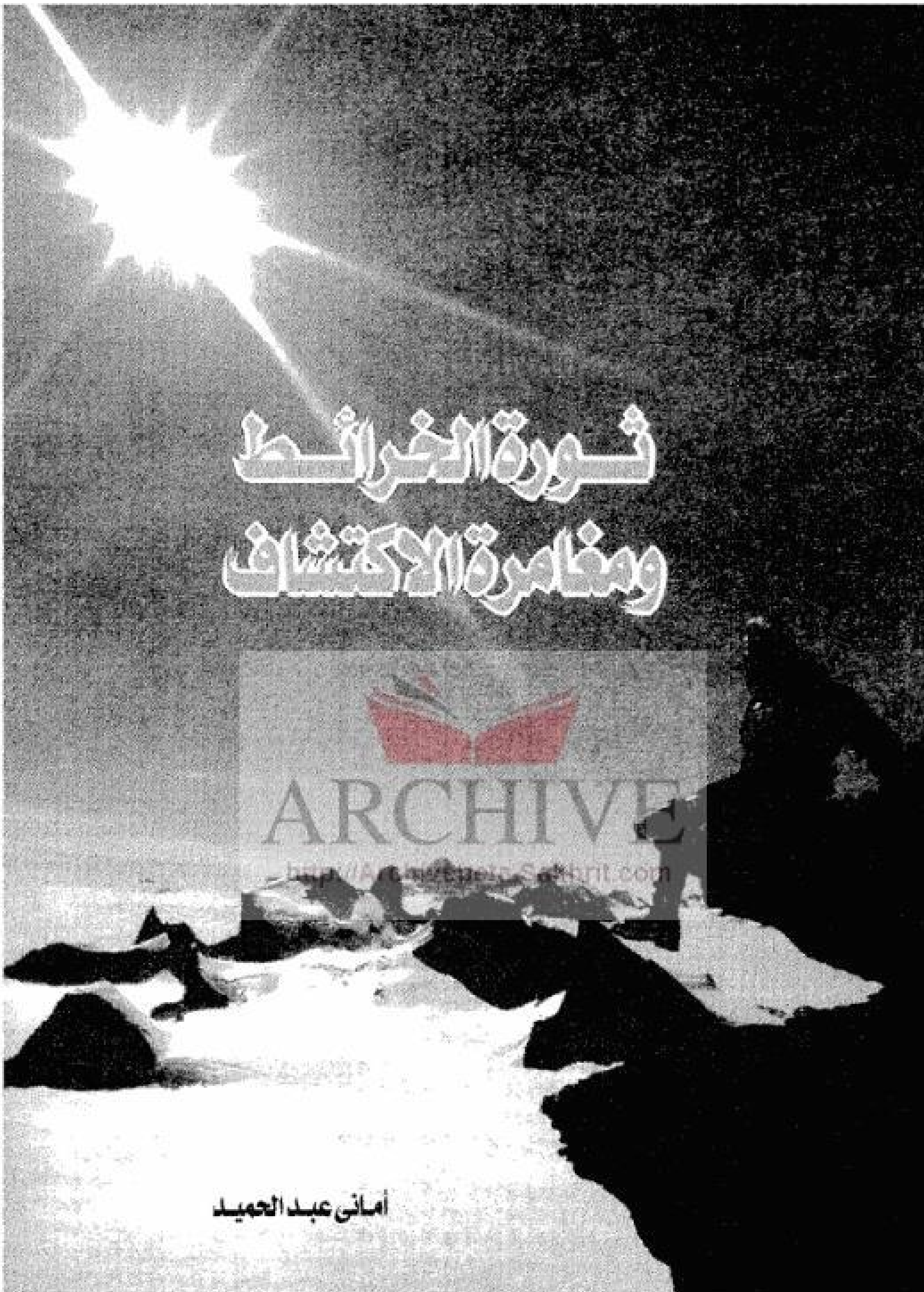
– يوحنا نسيم يوسف : إعداد الزيت المقدس بوادى النطرون

هذا وقد تخلل برنامج الندوة وخلال ساعات الظهيرة أو قبل انعقاد الندوات زيارات لأديرة وادى النطرون أبو مقار والبراموس، والسريان وبيشوى كما تمت زيارة وادى أبومينا الواقع بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط عقب الندوة مباشرة ، كما حضر المؤتمرون قداسا باللغة القبطية يوم الأحد بالكنيسة الأثرية بدير أنبا بشوى كما قاموا بزيارة الحفائر التى تمت فى مواقع بعض الأديرة المهجورة بالوادى.

وكانت الأبحاث الملقاه رفيعة المستوى وكاشفة للكثير من وقائع تاريخ أديرة وادى النطرون وتنظيم عمارتها وما تحتويه من مخطوطات وأيقونات وما تحمله حوائطها من نقوش وصور وأعمال بالجص. وكذلك عن الدور المهم الذى لعبته هذه الأديرة فى تاريخ الكنيسة القبطية وعلاقاتها مع الكنائس الأخرى.

وقد انتابنى الحزن وأنا استمع إلى محاضرة الاستاذ كراوزى التى استعرض فيها نشأة وتاريخ وحالة دراسة علم القبطيات والتى لم يجىء فيها ذكر لأى جامعة مصرية بها قسم مخصص لدراسات هذا العلم – كما انتابتنى الدهشة بسبب قائمة الباحثين الطويلة ممن ألقوا البحوث بالندوة والتى كادت أن تخلو من اسم عالم مصرى متخصص فى هذه الدراسات – وحتى قلائل المصريين بالقائمة فإنهم يقيمون بخارج البلاد.

وإذا أردنا أن نعمق فهمنا للآخر وأن نجعل من الأقباط ما يقوله الاستاذ عمرو عبدالمنعم حمودة فى مقدمة مقاله بهلال فبراير سنة ٢٠٠٢ (الأقباط.. الوجه الآخر) «شركاء فى الوطن والتاريخ والقدر والمصير فى إطار الجماعة الوطنية التى تبلورت على مر عصور التاريخ ، حقيقة تاريخية واجتماعية غير قابلة لاثبات العكس» فليس أقل من أن نعرف تاريخهم وأن نهتم به فلعله هو والمستشار طارق البشرى الداعية الأول للوحدة الوطنية وحامل المقولات المماثلة أن يشاركانى فى المطالبة بأن تقوم الجامعة المصرية بإنشاء قسم لعلم القبطيات. ■


ثورة الخرائط
ومغامرة الاكتشاف
أمانى عبد الحميد



نقش على الحجر لخريطة للعالم القديم كما تخيله البابليون في ٦٠٠ ق.م ، حيث جعلوا بابل مركزا للعالم . وهي اقدم خريطة للعالم وتوجد في المتحف البريطاني

• صور الأقمار الصناعية تغير جغرافية العالم
• أين روح المغامرة ونشوة الاكتشاف؟



هل انتهى بالفعل عصر الاكتشافات؟.. هل تحول علم الجغرافيا إلى علم قديم غير مثير للشغف بعدما فقد دوافع البحث عن حدود المجهول؟.. وخاصة بعد التصوير من الأقمار الصناعية..؟ وهل أصبح علم الخرائط من العلوم المتحفية خاصة وأن خرائطنا لم تعد تحوي أية مساحات مظلمة فارغة .

مع تطور البحث العلمي تقلص حجم العالم حتى أصبح يحتل مساحة صغيرة على مسطح خريطة . بشكل كشف لنا عن مدى ترابطنا المحتوم. فطالما تجمعنا الكرة الأرضية وذلك الكون الفسيح فمصيرنا واحد وطريقنا معلوم بفضل علم الجغرافيا والكارتوجرافيا.. ولكن هل دخل علم الجغرافيا عصراً جديداً بعيداً عن كشوف البقاع المجهولة؟ أم أننا قد بدأنا عصرا في الاكتشافات ذا نوع خاص.. عصرا لاكتشاف قدرة الذات على إثبات الصعاب من أجل تلمس مواطن جمال الأمكنة وتفردها .

حلم اكتشاف المجهول

في وقتنا الحديث لم تعد رؤى علماء الخرائط تقوم على تحديد ماذا يمكن للعين البشرية أن ترى.. بل تحول مفهوم إعداد الخرائط ليصل إلى ارتفاعات شاهقة بعيدة عن أعشاش الطيور وبعيدة عن قمم الجبال وبعيدة عن فلك الطائرات.. ارتفاعات تعلو مدارات الكواكب.. فالردار وأشعة الميكروويف وموجات الراديو والسونار قد كونت صوراً لما يحتويه السطح الذي نراه لتصبح لدينا أول خريطة للأرض المبسوطة، ولقاع البحار ولقمم الجبال، وللغيوم السابحة في السماء، بل إنها استطاعت أن تكشف النقاب عن مجاري المياه القديمة المدفونة في أعماق الصحاري، وتكشف لعلماء الآثار مواقع قيام الحضارات القديمة فأصبحت لدينا خرائط تضم الكثير من المعلومات عن الأرض أكثر مما تخيله عقل الإنسان، ولكن مع هذا التطور المذهل تظل روح المغامرة والاكتشاف التي تملأ النفس البشرية هي أساس كل الاختراعات والأصل الكامن وراء علم الجغرافيا والخرائط.وجوه التاريخ

هناك مقولة شهيرة للمؤرخ «ويل ديورانت» يقول فيها «الخرائط كالوجوه تحمل ملامح التاريخ» فالخريطة تصف بدقة الخصائص السطحية لوجه الأرض بشكل يجعلها مرئية ، تماماً كالوجه يحمل ملامح الإنسان ليميزه عن الآخرين. فهي تبين المواقع والأبعاد والاتجاهات عن طريق رسم الحيز الجغرافي. لذا أجمع العلماء على اعتبار علم الكارتوجرافي أو علم الخرائط علما يجمع المعطيات والوقائع وفناً لاظهار المعلومات بشكل دقيق وواضح، كل ذلك من خلال رسم سطح الأرض الكروية على المساحة المسطحة للخريطة، باستخدام نوع من التوازن ليظهر التمثيل الحقيقي للعالم، وهنا نعود لمقولة «ديورانت» كيف يمكن أن تكون الخريطة وجها يحمل ملامح التاريخ، فهي طبقا لتعريف العلماء وجه يحمل ملامح الأرض وتضاريسها، أي وجه للجغرافيا وليس التاريخ، وأعتقد أن المسألة تتضح إذا تأملنا التطور التاريخي لعلم الخرائط.. فمع مرور السنوات منذ الحضارات

ديورانت: الخرائط كالوجوه تحمل ملامح التاريخ



مقطع من خريطة لمصر - ١٧٨٠

القديمة وحتى وقتنا الحالي مر علم الخرائط بمراحل متعددة.. كل مرحلة منها تحمل ملامح تاريخ عصر ما أو حضارة ما. لذا كان التطور لا يدل على علم الخرائط ولا علم الجغرافيا فقط إنما كان يحمل معه التطور التاريخي لحضارات البشرية ولمفاهيم ومعتقدات الإنسان.

فى الألفية الأولى التى عاشها الإنسان على سطح الأرض أو حتى ما قبل الميلاد ظل يسعى حثيثاً لاكتشاف ذلك الكون الفسيح.. فكان المجهول يتربص به خلف الأفق.. وظل حلم اكتشاف حدود عالمه يداعب خياله.. ومع بداية الألفية الثانية بدأت محاولاته فى تحقيق الحلم عن طريق اكتشاف الأراضى البعيدة من حوله شيئاً فشيئاً وفى كل عام تتسع خريطته لتشمل أرضاً جديدة.. أو شاطىء بحر رست عنده سفنه أو حتى ملامح بشر تختلف عن ملامحه.. كل ذلك يرصده ويحفظ تطوره علم الخرائط كل منها تحمل ملامح تصور الإنسان للعالم من حوله، وفى عام ١٤٩٣ ميلادية كتب بيتر مارثر يقول «إنه أمر غريب.. على اتساع الأرض من حولنا .. لم نتمكن سوى من السفر والتعرف على نصفها فقط..» وأصبح الكون يثير فينا الفضول والشغف والتحسر على مضى الوقت دونما اكتشافه. فالتعرف على المسالك والطرق والتضاريس الأرضية، والأجرام والشمس والمجرات من الخيالات التى داعبت تفكير علماء الجغرافيا والفلك والتنجيم.

ومع الألفية الثالثة أصبح العالم والكون على اتساعه مجرد معلومات ورسوم وخطوط على صفحة خريطة أو على صورة من الصور التى تبثها الأقمار الاصطناعية، فالمعلومات متاحة.. وشاشات الكمبيوتر تواصل تقديم كل ما هو مطلوب معرفته، فلم يعد شىء مجهول، ولا نقطة ظلام تشين خرائطنا.. «فلم يعد هناك مساحات فارغة تحتوى عليها خرائطنا» كما يقول جوزيف كونراد، فقد انتهت أساطير السحر والغموض حول أراضى المجهول.. فالأرض مكتشفة حتى

الأعماق.. والسطح بما يحويه من جبال وأنهار ورمال.. والسماء بما تحمله من غيوم ونجوم بل حتى المجرات بما قد تنطوي عليه من حيوات أخرى بعيدة.

الأمكنة بعيون مختلفة

ولكن هل هذا يعني بالضرورة أن نفقد الشعور بأهمية مواصلة الاكتشاف..؟ فإذا كان «كريستوفر كولمبوس» قد غامر وأبحر عبر بحر الظلمات طمعا في الوصول إلى الهند أرض الثروات، واستطاع اكتشاف الأرض الجديدة.. فإن الشعور الذي تملكه هو الشعور بنشوة الاكتشاف.. فهل هذا يعني أنه ليس من حقنا اليوم الشعور بتلك النشوة خاصة بعد انتهاء عصر الكشوف الجغرافية.. أعتقد أن الكثير من المغامرين والمكتشفين الجدد استطاعوا الاستمتاع بنشوة الاكتشاف ولكن بأسلوب ورؤية مختلفة وكما يقول ت. س. أليوت:

يجب ألا نتوقف عن الاكتشاف
فنهاية كل اكتشافاتنا
تقودنا نحو نقطة بداياتنا
لنتعرف على المكان لأول مرة

فنحن لا نذهب إلى أماكن جديدة ولكننا نراها بعيون مختلفة، هكذا قال مارسيل بروست عندما كتب ذكرياته داخل أدغال نهر الأمازون فما معنى أن نفتح ورقة مطوية عليها من الخطوط والرسومات التي تدل على أنها خريطة لنهر الأمازون.. يبدو على صفحتها مسار النهر وضفتيه والأدغال المحيطة به.. ما معنى ذلك؟

في الماضي كان رسم تلك الخرائط إعجازا لا يضاهيه إعجاز.. أما اليوم فإن وصف شعورنا ونحن وسط أدغال الأمازون بالفعل لا تستطيع الخريطة رصده. فالنهر ليس ذلك المجرى المرسوم فوق مسطح الخريطة، لكنه مجرى مفعم بالحياة لا تكشف عنها الرسوم. بل اكتشافه عن حق يتم عن طريق المعايشة البيئية لأشكال الحياة اليومية للسكان الأصليين، وملاحظة علاقات الأشجار بعضها البعض، والإنصات لتزاوج أصوات الحيوانات والطيور وقت الصباح، وصوت المياه وهي تتدفق بهمة وقت الغروب، إنها علاقات بيئية متعمقة لا تكشف عنها الخرائط، بل الإنسان المكتشف الذي يطغى عليه فضول المعرفة.

الإدريسي: أول جغرافي عربي يقدم خريطة تشمل كل أقطار المعمورة

وعندما تتلبس روح المغامرة الإنسان، فهي كفيلة أن تجعل منه بطلا تتحاكا عنه كتب الجغرافيا، «فجورج ليف مالوري» بطل اشتهر بتسلقه لجبال الألب الأوربية، لكن روح المغامرة دفعته إلى تسلق قمة «إيفريست» عام ١٩٢٤ لا لاكتشافها ولكن «لأنها تكمن هناك» تحتاج لمن يشعر بها ويحتاج للشعور بالكمال والرضا لتسلقها،



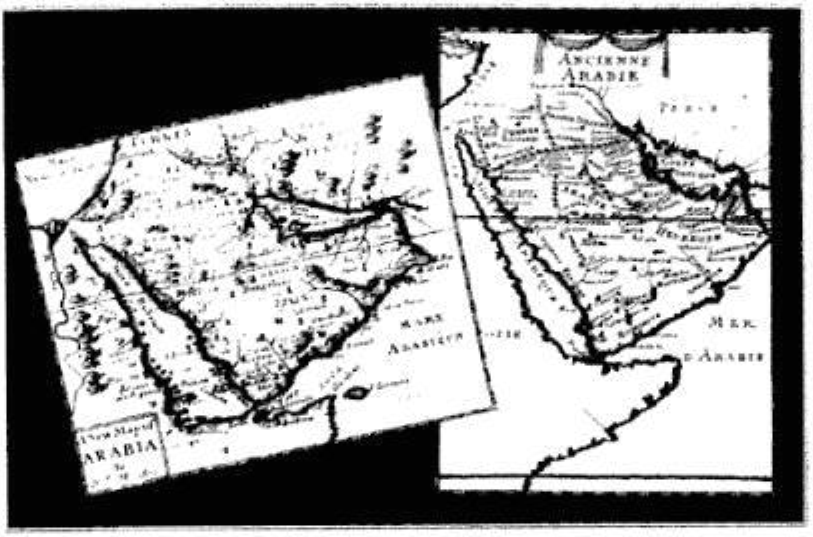
خريطة آسيا وأفريقيا ١٦٥١

صحيح أنه اختفى فوقها لكن العالم لايزال يذكر رغبته في الاكتشاف.

كذلك «جون كراكوور» الذي قرر عام ١٩٩٦ الذهاب إلى أبعد بقاع الأرض، إلى القارة الجنوبية «انتراكتيكا» لا لشيء سوى الوقوف فوق قمة «كوين مودلاند» ليتأمل شروق الشمس من فوقها، عندما تداعب أشعتها الفراغ الشاهق البياض، والذي لا يقطع نقاءه سوى قمم الجبال الصخرية، لم تستطع صعاب الطريق إلى القمة أن تهزم شعوره بجمال المكان أو تثنيه عن مواصلة طريقه لاكتشاف ملامح مولد يوم جديد من فوق قمة الجبل.

ومن أعالي قمم الجبال إلى أعماق البحار.. فإذا كان الوقوف على القمة له بهاؤه، فإن الغوص نحو الأعماق له رونقه أيضا داخل نفس الإنسان المكتشف.

«جاك إيف كوستو» قرر الغوص في أعماق البحار فقط للاستمتاع بجمال سكونه ورصد أشكال الحياة داخله.. فما هو يكتشف «كهوف بالهامين» بل ويسعى إلى تأمل «القروش النائمة»، ويرى أن «الإخوان رايت» حلما بالطيران كالطيور لكنه كان يحلم بالسباحة وسط الأسماك فالعالم بصخبه لا يستهويه، إنما العالم الصامت القابع تحت الماء هو ما يصبو للعيش داخله، فالسباحة تجعله يتخلص من عبء الوزن والأحمال، وإن كان «كوستو» يرى أن الطيران يحتاج إلى أجنحة ولكن السباحة لا تحتاج إلا إلى الانسياب وسط الموج، وكان إلحاح



من اليمين خريطة فرنسية لشبة الجزيرة العربية ١٦٩٣ والى اليسار خريطة انجليزية -١٦٨٠

«كوستو» على الغوص قد فتح المجال أمام العديد من الغواصين لمجاراته، لكن يبقى مذاق المرة الأولى من نصيبه.

ماذا يعني ذلك لايعني سوى حب الاكتشاف والرغبة في ملامسة الواقع على أرض الواقع، لا على الخرائط فقط، إنها نماذج تدل على انتصار الروح الإنسانية، الروح التى لا تهدأ وتيرتها ولا تستكين، فهى فى حالة صراع دائم، ودأب متواصل من أجل معرفة المجهول وسبر أغواره، فدائما هناك مجهول ما ينتظر من يكتشفه، وهو الدافع المحرك للبشر لبذل المزيد من الجهود.. فإذا نظرنا إلى تطور علم الخرائط لوجدنا ذلك المجهول يهيمن على تصورات العلماء، وهنا تصدق مرة أخرى مقولة «ديورانت» فيبدو وجه التاريخ جليا.

أقدم خريطة معروفة العالم هى التى وصلت إلينا من العهد البابلي والتى تعود إلى عام ٦٠٠ قبل الميلاد وتصور الأرض على هيئة دائرة يحيط بها الأوقيانوس السماوى الذى يدور فى دائرة أخرى حول الأرض، وقد سمي «بالنهر الحاد» ووسط الدائرة رسمت بابل كمركز للعالم والخريطة الطينية موجودة في المتحف البريطاني، ويتضح لنا أن الأساليب البابلية فى رسم الخرائط ظلت مقلدة حتى القرن السادس عشر الميلادى، بجعل مركز العالم عند البلد الذى وضعت الخريطة، فاليونانيون جعلوا «الألبوس» مركز الأرض، والرومان روما، والمصريون طيبة، وفى العصور المسيحية صنع «ماريو سانودو» خريطة عام ١٣٢١م على هيئة دائرة مركزها «أورشليم» وجعل





خريطة العالم كما عرفه قدماء اليونان ٥١٧ ق.م

خريطة مارينو سنودو للعالم ١٣٢١ م

الشرق بدل الشمال، لكي تصبح أورشليم تواجه الشرق موضع الجنة، كما جعل الجغرافيون المسلمون مكة المكرمة مركزا للعالم، فالكعبة تتجه أركانها إلى الجهات الأصلية.

وأثناء عصر الفلاسفة اليونانيين تطورت الكارتوجرافيا بشكل مذهل، فقد لعب الفلاسفة دورا في حل غموض شكل الأرض وتحديد مواقع البحار والقارات، ثم كيفية ثبوت الأرض في الفراغ، وإقرار سكونها أو دورانها وعلاقتها بالأجرام السماوية ، وتعتبر أشعار هوميروس في الإلياذة وكتابات هزيود من أقدم المعارف الإغريقية الجغرافية والتي ترجع إلى حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.

ومع أوائل القرن السادس قبل الميلاد ظهر عدد من أشهر الفلاسفة في مدينة «ميلتوس» الإغريقية، منهم «طاليس» مؤسس الفلسفة الطبيعية الذى حاول البحث عن تعليل طبيعة وضع الكون، ثم ظهر بعده الفيلسوف الرياضي «فيثاغورس» أول من قال بكروية الأرض، وأيده من بعده أفلاطون وأرسطو خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ثم جاء الفيلسوف «هرقليس» ليقول بأن الكرة الأرضية تدور حول نفسها، وظل الفلاسفة من بعده يرددون ما تصوره الفلاسفة اليونان للأرض والعالم حتى ظهر الفلكي «أرسطرخس» في القرن الثالث قبل الميلاد فارتأى أن الشمس ثابتة لا تدور، إنما الأرض هي التي تدور حول الشمس.

وفي النصف الثاني للقرن الرابع قبل الميلاد، انتقل مركز البحوث اليونانية من «مليتوس» إلى «الإسكندرية» في أعقاب إقامة المتحف العلمي ومكتبة الإسكندرية الشهيرة على يد بطليموس الثاني نصير العلم والفنون، فحدث انقلاب حقيقي في

تاريخ الحركة العلمية، فظهر أبرز علماء المكتبة «ايراتوستين» أمين عام المكتبة والذي أيد نظرية كروية الأرض.

وهو أول من قدر في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حجم الكرة الأرضية، وبلغ قياسه أعلى مستوى من الدقة وأقرب الأرقام التي توصل إليها العلماء في عصره، كما وضع أول خريطة للعالم معروفة على شكل مستطيل متوازي الأضلاع، وهي أول خريطة تستخدم خطوط الطول والعرض .

ثم أتى من بعده بطليموس السكندري الذي ترك علامات تعد أسس علم الكارتوجرافيا من خلال كتابين «المجسطي» و«الجغرافيا» ويعتبر الكتاب الثاني أطلسا عاماً للعالم لما يحتويه من وصف منظم للعالم، وطرق رسم الخرائط، والجغرافيا الرياضية وطرق عمل الأرصاد الفلكية .

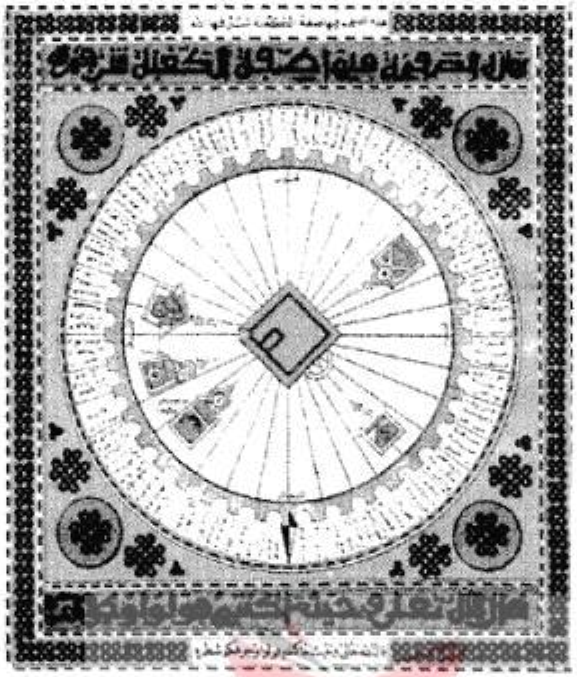
ورغم التقدم في الدراسات القديمة لعلم الجغرافيا والفلك إلا أنها أخذت تتدهور في عصر الرومان حيث ساد الجمود فترات طويلة حتى ظهر العرب كما كانت مستوى الخرائط الأوروبية في حالة انحطاط خلال القرون الوسطى نتيجة تأثير الكنيسة المسيحية، حيث أبسطت الجهود المبذولة في مجال علم الكارتوجرافيا وما يتصل بالتطورات الفلكية بما يتلاءم وتعاليم الكتاب المقدس، فظهرت خرائط «سانت بيرس» الراهب الذي حاول تقسيم العالم بطريقة كارتوجرافية بين الحواريين الاثنى عشر ، كذلك خريطة «مارينو سنودو» التي سبق ذكرها.

العرب والشغف بالأسفار

وقد شهد علم الجغرافيا وعلم الكارتوجرافيا تطورات متلاحقة بعد بدايات ظهور الحضارة الإسلامية، فيذكر المستشرق الروسي «كراتشكوفسكي» في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» أن العرب قد بذلوا أقصى الجهود في تحقيقاتهم الجغرافية في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي والذي يمثل فترة الانبثاق والانبعاث، إذ تم فيه التعرف على مصنفات بطليموس، وأدى هذا بدوره إلى ظهور الترجمات التي بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية، كما تشكلت الأنماط الأخرى المتعددة للجغرافيا الوصفية وهي التي أطلق عليها البلدان أو المسالك والممالك، ويرى أن أهم ما اتصفت به الجغرافيا العربية أنها تقوم على أساس المشاهدة الفعلية.. فشغف العرب بالأسفار والجولات إلى مختلف بقاع العالم، وكان أول كتاب ظهر في الإسلام عن موضوع أخبار البلدان والأقاليم هو كتاب هشام الكلبي



خريطة العالم كما تصورها الادريسي الجغرافي العربي



مكة المكرمة مركز العالم الإسلامي كما تصورها الصفاقسي عام ١٥٥١

المتوفى (٢٠٦ هـ - ٨٢١م)، حيث وضع كتابين «البلدان الكبيرة» و«البلدان الصغيرة»، ظهر بعده كتاب اليعقوبي الشهير بعنوان «البلدان» الذي كتبه في عام ٢٦٦ هـ . والذي انتهج فيه نهجاً خاصاً على أسس الجغرافيا المدنية

ويستند «كراتشكوفسكي» بمدى اسهام الجغرافيين العرب في رسم صور للعالم عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم. فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها. وعرفوا النصف الجنوبي من آسيا كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمال وساحل أفريقيا الشرقي إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدي

وترك العرب وصفا مفصلاً لجميع البلدان في اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة والمناطق المزروعة والصحاري وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضا الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم القديم كما وصلت رحلاتهم البحرية إلى زنزبار ومدغشقر في أفريقيا.

ويعد العلماء القرن الرابع الهجري

(العاشر الميلادي) ممثلا لعصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية والذي سمي بعصر البعث الاسلامي. واستطاع «ميللر» أن يجمع حوالي ٢٧٥ خريطة للعالم الاسلامي فقط وجمعها في «أطلس الاسلام» باستثناء خرائط الادريسي التي مثلت مدرسة جغرافية قائمة بذاتها.

وبل أهتم العرب برسم الكرة السماوية التي كانوا يثبتون عليها مواقع النجوم من القبة السماوية. وأول صورة للسماء صُنعت في زمن الأمويين. كما اعتادوا استخدام الألوان في رسم خرائطهم.

وأهم علماء الجغرافيا الذين لمعوا في الحضارة الإسلامية هو الإدريسي «مؤسس المدرسة العربية النورماندية» لارتباطه بملك صقلية رجار الثاني فلأول مرة في تاريخ الجغرافيا يتقدم جغرافي عربي بمصنف يشمل جميع أقطار المعمورة ومن ضمنها شمال أوروبا وبلاد الأفرنج بعد أن كانت أعمال الجغرافيين العرب مقتصرة على العالم الإسلامي فقط. نحت على كرة فضية صورة العالم المعمور.

ومع حلول عصر النهضة نجد أن الكشوف الجغرافية في العالم الجديد قد لعبت دوراً رئيسيا في تقدم علم الكارتوجرافيا عند الأوروبيين. فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، شهدت كل من روما والبندقية في بادىء الأمر حركة لصناعة الخرائط لكل أجزاء العالم المعروف، ثم فقدت إيطاليا مركزها الجغرافي. فتحولت الحركة إلي شمال أوروبا. وظهرت في هولندا خلال الفترة ما بين ١٥٧٠- ١٦٧٠ ميلادية مجموعة من أكبر صناع الخرائط في العالم، بل يعتبر عام ١٥٧٠ نقطة تحول، حيث أنتج «اورتيليوس» الكارتوجرافي الهولندي أول طبعة في أطلسه، واحتوى الأطلس على حوالي ٧٠ خريطة أول الأمر ثم أضاف إليها عدة خرائط بعد ذلك.

ولم يلبث أن أقدم «مركاتوري» على اصدار أطلس العظيم لتظهر كلمة أطلس لأول مرة في أوربا نسبة إلى «أطلس» ملك مراكش. بعدما نشر عدة خرائط أهمها خريطة لفلسطين عام ١٥٣٧م ولأوروبا عام ١٥٥٤م ولبريطانيا عام ١٥٦٤م ثم خريطة للعالم عام ١٥٦٩م ثم نشر خرائط بطليموس عام ١٥٧٨م.

خلال تلك الفترة ظهرت مجموعة من الخرائط على شكل أطلس وضمها أحمد بن محمد الشرفي الصفاقسي التونسي عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م أى قبل أرتيليوس بحوالي عشرين عام.

الأرض وعين الطائر

في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ظهر اثنان من علماء الكارتوجرافيا جاك وجين فرانسوا كازيني اعتمدا على ما يمكن لأعينهما أن تراه عبر انحناء سطح الأرض فوق بلدهما فرنسا. قاما برسم خريطة دقيقة للأراضي الفرنسية كأول خريطة يتم رسمها لبلد أوروبي بالطرق العلمية. شملت الخريطة الطرق والأنهار والقنوات والمدن والبحيرات والخلجان



صورة رقمية لدلتا النيل والمصب في البحر المتوسط كما التقطتها وكالة ناسا لأبحاث الفضاء

والقصور حتى طواحين الهواء في الريف. قاما بنشرها عام ١٧٩٣ في خضم اشتعال الثورة الفرنسية، ولم تجد استحساناً من قبل الملك لويس الرابع عشر، الذي استنكر فعلتهما واتهمهم بأنهم أظهرا بلده بصورة أصغر بكثير مما تبدو عليه.. «إن عملكم قد كلفني جزءا كبيرا من دولتي..»

وتوالت المحاولات من بعدها لترتفع أعيننا شيئاً فشيئاً حتى اشتعال الحرب العالمية الأولى. حدث اندماج بين اختراعي الطيران والتصوير الفوتوجرافي. مما ساعد علي تطور علم الخرائط بشكل أسرع ويفوق شجاعة كل الرحالة. وصل التطور إلى حد الثورة خلال فترة الحرب الباردة لحرص أطرافها علي استحداث التكنولوجيا المستعملة في اكتشاف تحركات الطرف الآخر، أي أن التطور كان للأغراض العسكرية في الأساس. ورغم ذلك استطاع صناع الخرائط الاستفادة من سعير المنافسة لصالحهم. فتمكنوا من رسم قياس وصورة أكثر دقة للعالم في ساعات بعدما كانوا لا يقدرون على ذلك خلال أسابيع أو سنين ، واليوم فإن أي من المكتشفين الرحالة لا يطرقون أرضا إلا وقد تزودوا بكافة الأجهزة والأدوات الالكترونية لتربطهم في الوقت نفسه بما يقرب من أربع أو خمس من الأقمار الإصطناعية من نوع «جي. بي إس» التي تعمل بنظام تحديد المواقع الكونية والتي تديرها ويقوم بتطويرها وزارة الدفاع الأمريكية. وهذا النظام القمري لديه القدرة على تحديد أهداف الصواريخ ويحافظ على تتبع القوات العسكرية والسفن الحربية لمسافة تصل إلى ياردات قليلة. لذا تزايد استخدام المكتشفون الجدد له خاصة في تعريفهم بموقعهم بالنسبة للعالم.

وفي عام ١٩٩٥ كان لنظام «التحكم عن بُعد» أو استخدام كما يطلق عليه «الريموت كنترول» دور كبير في اكتشاف مزيد من الأراضي المجهولة - فقد تمكن كل من ديفيد ساندور من جامعة كاليفورنيا وولتر سميث من الإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوى من بينهم خريطة بالغة الدقة والشمول لأرضية المحيط لاستخدامها في

الأغراض غير العسكرية. عن طريق قيام سفن أبحاث باستخدام الموجات الصوتية والقراءات الواردة من الاقمار الصناعية التي ترسم تفاصيل توبوجرافية قاع المحيط ولمدة سنوات طويلة. واستطاعا تحديد أماكن الجرف المرتفعة والمنحدرات العميقة.. مع رصد حركة القارات ومدى تحرك القشرة الأرضية.

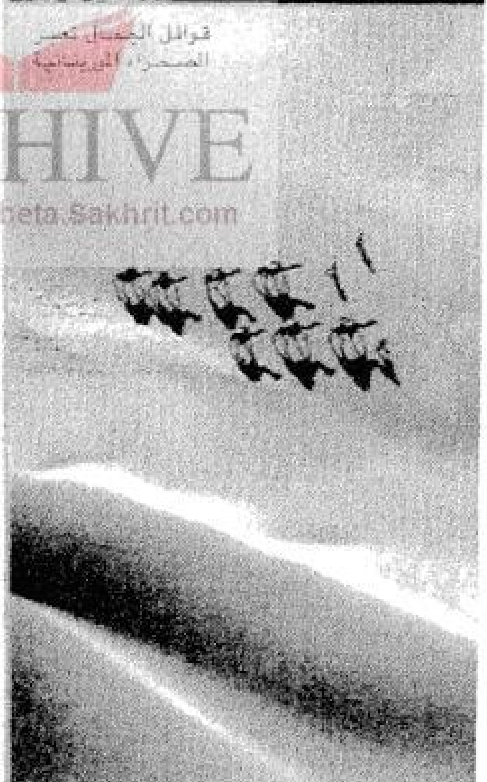
عالم بلا حدود

ومع تطور البحث العلمي تمكن العلماء من استحداث نظام للأشعة متعددة الأطياف تستطيع أن تحدد الطاقة الاشعاعية ذات الألوان المتعددة سواء المرئية أو الغير مرئية التحت حمراء المنعكسة من سطح الكرة الأرضية. والباحثون استطاعوا أن يترجموا دلالات تلك الأطياف لتساعدهم على دراسة الحالة الصحية للمحاصيل والأشجار على سبيل المثال. أو معرفة مستويات التلوث في نهر ما، أو مدى انتشار العوالق أو الكائنات النباتية والحيوانية الصغيرة في البحار، أو اكتشاف خطوط الصدوع في القشرة الأرضية المسببة لزلازل. أو حتى مواقع المياه الجوفية المحتملة. ونتيجة لذلك مقدرة جديدة يمتلكها الباحثون تمكنهم من انتاج خرائط متجددة كل يوم طبقا لتغير الظروف والأسباب والأغراض منها.

ومع مزيد من التقدم أصبحت الكرة الأرضية أصغر من امكانيات علماء الخرائط والجغرافيا الجبارة، وتحول الكون باكمله وعلى اتساعه ينتظر مواهب صناع الخرائط من أجل اكتشاف العلاقات الفضائية الكونية. ودخل بذلك علم



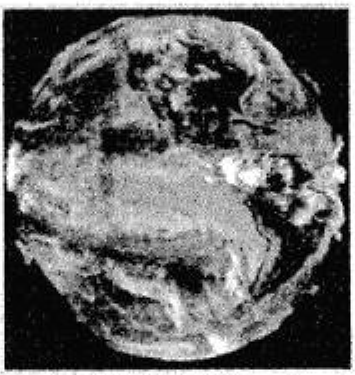
كهوف بطعامن التي اكتشفها جاك ايف كوستو في رحلاته في الأعماق



قوافل الجمال تعبر الصحراء الموريتانية

الكارتوجرافيا في مواجهة كونية بعيدا عن اطار كرتنا الأرضية الصغيرة.. ويذكر أن أحد رواد مركبة الفضاء الأمريكية «أبوللو» تحدث ضاحكاً خلال رحلة دورانه حول القمر عام ١٩٦٩ يقول «لقد خرجنا بعيداً عن إطار الخريطة لذى ماذا سنجد هناك» لكن اليوم الأمر اختلف تماماً. ومع استخدام التلسكوب والفوتوجرافية والاعتماد علي الريبوت الفضائي أصبح لدينا كارتوجرافيا كونية تتعمق داخل الكون بهدف إعداد خريطة على سبيل المثال لنطاق التفاعلات غير المرئية بين المريخ والأرض. ويتحول الكون على اتساعه إلى مجرد مجرات كما يقول عنها جون هوتشرا «المجرات مثل الجزر الصغيرة والتجمعات الضخمة منها تحاصرها البحار وسط فضاء فارغ».

وهذا يقودنا إلي تساؤل غريب، ما هو الغرض من كل تلك الخرائط؟ هل الغرض هو رسم نموذج مصغر للكون فقط. هناك نظرية معارضة ترى أن الكون بما فيه من مجرات غير قابل للنظامية. أي هل ستتمكن الخرائط من وضع نظام خاص يربط بين المجرات التي تمتد إلى ما يقرب من نصف بليون سنة ضوئية عبر الفضاء. إنه أمر يثير استعجاب علماء الفلك. كونه يخلق حائطا ضخما ليعلن عنده نهاية العالم اللامتناهي.



الصور التي تلتقطها الاقمار الصناعية ساعدت العلماء كثيرا على فهم طبيعة العالم الذي نعيشه

وترى عالمة الفيزياء الفلكية مارجريت جلير أن البابليين برغم نقص المعلومات والأبحاث تمكنوا من رسم خريطة للعالم القديم المعلوم لديهم فقط. لذا فإن أي تليسكوب مهما بلغ في التقدم سيعطينا صورة محدودة للفضاء، لكنها تتنبأ بأن عمليات صنع الخرائط الكونية اليوم أصبحت أقرب إلى محاولة تصوير العالم أجمعه من منطلق أبحاث جزيرة «رودي» لكن بعد مضي قرن من الزمان من الممكن أن يتم رسم العالم المنظور على خرائط».

وتعود مرة أخرى التساؤلات لتطرح نفسها .. هل انتهى عصر الاكتشاف؟ أم أننا أمام عصر اكتشاف من نوع خاص.. فلاتزال هناك أماكن أعلى مستوى من قدرة عقل الانسان على تخيلها حتى الآن.. وكأننا نعود مرة أخرى إلى نقطة بداياتنا كما يقول «إليوت» فلايزال المجهول قابعا ينتظر من يكتشفه. وبرغم ما توصلنا إليه فنهاية اكتشافاتنا هي نقطة لبدء أكتشافات جديدة، وكأننا نرى المكان للمرة الأولى..

■

الإسلام
وصوت الإنسان
جزء خاص



٧٠

زمن المصالح لا زمن الحضارات

العباءة والصاروخ

هل تستطيع البشرية تجاوز أزمتها..؟

بقلم
مصطفى نبيل

ذو الحجة ١٤٢٢هـ مارس ٢٠٠٢م

على كل من يقف دفاعاً عن الإنسان، وكل من يتمسك بما حققته البشرية من تقدم، أن يدافع عن مجموعة القيم المعرضة للانهيار، وسط الصراع الذى يشهده العالم.

هذا الصراع الذى غابت منه الحكمة وتفجرت فيه غريزة الانتقام.

بات الخطر يتهدد البشرية، مخاطر قديمة وأخرى جديدة، ولم يعد الخطر مقصوراً على بلد واحد أو قارة بعينها بل أصبح عابراً للقارات، وإذا كانت المخاطر القديمة هى نقص الموارد وزيادة السكان، فالمخاطر الجديدة تتمثل فى مثلث الخطر، الإرهاب والجريمة المنظمة وتلوث البيئة، وبدلاً من أن تتضافر جهود البشر من أجل مواجهة جميع هذه المخاطر. اشتعلت حرب مفتوحة هى - فى الواقع - لا تختلف كثيراً عن الإرهاب، ويكفى أنها لا تفرق بين الشعب وحكامه، أو بين الشعب وطالبان وتنظيم القاعدة، وهى مثله تقتل نساء وأطفالاً أبرياء.

وغاب عن بال مشعلى الحروب هؤلاء، المخاطر الحقيقية التى حذر منها الباحثون والعلماء، الذين حذروا من قيام مجموعات صغيرة عالية الكفاءة، يستخدمون الأسلحة البيولوجية والكيماوية، التى جعلتها ثورة المعلومات تحت أنامل من يطلبها على الانترنت، عندما تواجه البشرية تحالف الشر والعبقرية، واتفاق التعصب والتقنية.

ووقف عندما وقعت الواقعة وأصيب البنتاجون ومركز التجارة العالمى على مفترق طرق، فإما العمل على القضاء على القهر والظلم الذى يمد مثلث الشر بالحياة، وإما طريق الحروب وتفجير طاقة التدمير لدى البشر.

ويخبرنا الكاتب الأمريكى ألفين توفلر قبل أحداث ١١ سبتمبر مدى عمق الخطر الذى يمثله الإرهاب، وعدم جدوى استخدام العنف للقضاء عليه، يقول.. «أكتب من أجل كل أبرياء العالم، الذين سيقتلون دون ذنب جنوه وبأسباب لا يعرفونها ولا يفهمونها.. فلا يمكن أن تنقذ البشرية من



الفين توفلر



صموئيل هنتنجتون

الإرهاب المسلح بالتقنية، إلا إذا قضينا على الجوع وعالجنا التلوث وقدمنا تكنولوجيا نظيفة تخدم البشرية.. وعندما يقبل أبناء القرن الجديد التنوع بكل صوره، تعود الثقافات والحضارات، واختلاف العادات والتقاليد للشعوب، فهذا التعدد والاختلاف هو سمة العصر الجديد، وهو الذى يساهم فى تشكيل ملامح المستقبل» ويؤكد.. «إن طريقة معالجتنا للعنف هى التى ستحدد مصير الأجيال المقبلة، وهل سيحيا أبناؤنا أم يموتون ضحايا..».

ويدرك الكاتب أن الإرهاب يعنى خللا فى المجتمع أو فى العالم، وأن ما أحدثته ثورة الاتصالات من تحول فى الثروة وفى السلطة بعد أن غلبت قوى اجتماعية جديدة قوى قائمة .. مما يشيع العنف، يذكر فى كتابه تحول السلطة.. «أى نظام يقوم على التوافق بين الطريقة التى ينتج بها الشعب وبين ثروته، والطريقة التى يحكم بها نفسه، فإذا تنافر النظام السياسى مع النظام الاقتصادى، فلابد أن يسعى أحدهما لتحطيم الآخر..» ويقول أيضا.. «يدور الصراع بين القديم والجديد تحت مسميات شتى، مثل القومية والدين، وهو جزء من صراع تاريخى قائم، يتجدد من أجل إعادة بناء المؤسسات حتى تتوافق مع الاقتصاد الثورى الجديد.. والعدد الكبير من المشكلات المتراكمة التى تواجهها المجتمعات الصناعية هى فى حقيقتها أعراض هذا الصراع. خاصة عندما تكون هذه الأزمات غير قابلة للحل فى إطار المؤسسات القائمة – ومازال الكلام للكاتب – تؤكد ثورات العالم ذلك وهى الثورات الثلاث المتباينة، الأولى الزراعية ورمزها «الفأس» والثانية الصناعية ورمزها

«خط التجميع الصناعي»، والثالثة الاتصالات ورمزها «الكمبيوتر» أى الإيذان بانتهاء عصر الصناعة وقيام عصر المعلومات الذى من الطبيعى أن تصاحبه معاناة ومخاض كبير.. فعند الانتقال من الزراعة إلى الصناعة ، فقدت ارستقراطية الريف مكانتها وتحولت قصورها إلى متاحف، واليوم تتزعزع كل أعمدة نظام السلطة القديم بعد ظهور نظام جديد لإنتاج الثروة»، ويتنبأ قائلا.. «وهذه مقدمة لمعارك طاحنة تأخذ صورا متعددة، فالانتقال من اقتصاد المصانع القديمة إلى اقتصاد الكمبيوتر يتطلب انتقالاً واسعاً للسلطة من ظهور المال، فوق الرمزى، والذى يظهر من الثروة التى حققها مثلا «بيل جيتس» من صناعة برامج الكمبيوتر، وتظهر أيضا من قائمة أغنى عشرة ملياردير ات فى أمريكا، سبعة منهم كونوا ثرواتهم من وسائل الاتصال أو فى مجال الخدمات والبرامج بدلاً من الإنتاج الصناعي، وعندما تحولت النقود إلى نبضات الكترونية».

وبالفعل .. شهد العالم العنف والثورات وظهور الحركات الإرهابية ، وما يسمى بحركات الفوضوية، خلال التغيرات الجذرية والتى كانت إيذانا بظهور أوضاع اجتماعية جديدة.. والتى كانت تقتصر على أوربا والتى امتدت اليوم لتشمل الكوكب كله.

السيف أم غصن الزيتون؟

وتتداخل الصراعات المحلية مع تلك العالمية ، ويمكن التأكيد على أن الصراعات الدولية تقوم على الاعتبارات الاستراتيجية وليست المعتقدات الدينية، وإن كان حسن وفن إدارة الصراع يقتضى تفسيره بعناصر ثقافية أحيانا وحضارية أحيانا أخرى أو لأسباب عقائدية لمجرد الاستهلاك سواء الداخلى أو الدولى.

أقول هذا رداً على هنتنجتون صاحب نظرية صدام الحضارات، والذى كتبت الكثير من الصفحات فى نقد نظريته، والحقيقة أننا لسنا أمام نظرية متكاملة، ولا جدوى من مناقشة ما هى نظريته من ضعف ، ولا جدوى أيضاً من التأكيد على أن معظم الحروب التى اشتعلت فى القرن العشرين كانت داخل الحضارة الغربية الواحدة، ولا جدوى أيضا من التأكيد على أن «قوس الأزمات» أو

«المنطقة الحرجة» الذى يضم العالم الإسلامى، لا يتمتع بالضرورة بالتوافق السياسى أو الاجتماعى، بل فسيفساء من عدة تجمعات قومية أو دينية أو إثنية تتفق أحياناً، وكثيراً ما تتصارع، ولا معنى أيضا للأبحاث والدراسات الأكاديمية التى تصدت لهذه النظرية، ولا جدوى من مناقشة الفروق بين الثقافة والحضارة ولا معنى للقول.. «إن الحضارات لا تسيطر على الدول بل الدول هى التى تسيطر على الحضارات».

فنحن إزاء برنامج عمل أمريكى، وكأن ما يجرى بعد ١١ سبتمبر هو تنفيذ لهذا البرنامج ، فمجلس الأمن القومى الأمريكى هو الذى كلف هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد للقيام بهذه الدراسة، وعنوان المشروع البحثى الذى كلف به هو «الظروف الأمنية المتغيرة والمصالح القومية الأمريكية».

ولا معنى لاستدعاء التاريخ لاثبات قيام الحرب بسبب المصالح فقد شهد العالم صراعات قومية وأخرى طبقية، وصراعات استعمارية بين المركز والأطراف، أو بين قوى محلية وأخرى كونية.

فمثلا إذا استعرضنا السياسة الخارجية المصرية، نجد أن لمصر علاقات وثيقة بكل من الصين والهند رغم نزاعها مع باكستان، وتقف إلى جانب وحدة جزيرة قبرص، ووقفت فى الماضى ضد الحلف الإسلامى الذى كان يضم العراق وإيران وباكستان علاوة على كل من بريطانيا وأمريكا.

ألا يلفت النظر طبيعة التحالفات المؤقتة ذات الأهداف المحددة، والتى تقوم على تخوم العالم الإسلامى تلك الكتلة الحرجة فى قوس الأزمات، التى انضمت إليه كلا من روسيا والصين، وأيدت أمريكا الهند فى صراعها مع الباكستان، رغم ما قدمته الباكستان لأمريكا خلال حربها فى أفغانستان، وتحالفت مع كل من كينيا وأثيوبيا ضد الصومال، والأدهى ما شهدناه من تغيرات كبيرة فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى، والوقوف مع الصهيونية صاحبة أكبر سجل إرهابى شهده التاريخ، وضد حق الشعب الفلسطينى فى تحرير أرضه، بل وتخلت عن الكثير من مواقف التأييد السابقة، واعتبرت كل من حماس والجهاد والجبهة الشعبية

منظمات إرهابية، وفي الوقت نفسه تعتبر حركة «جون جرنج» التي تحمل السلاح في جنوب السودان حركة تحرر وطني!!

ولم تلتفت إلى الجماعات الإرهابية في كل من أمريكا اللاتينية ولا إلى جماعة الباسك في إسبانيا، ولا الشين بيت في ايرلندا، ولا منظمة ١٧ نوفمبر في اليونان، ولا جماعة الحقيقة السامية في اليابان، ولا جبهة نمور التاميل في سيريلانكا، وإرهاب أطول وأقدم عمراً داخل الولايات المتحدة ذاتها.

واعتبرت حماس والجهاد حركات إرهابية لأنها حركات ذات بعد ديني، وتتجاهل مثلا ما جرى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما لجأ الجميع إلى الله، وتوجه الشعب السوفيتي إلى الكنائس وهو الشعب الذي أعلن إيمانه بالمادية الجدلية.

الإسلام والكونفوشيوسية

ومما يلفت النظر ما يدعيه صاحب نظرية صدام الحضارات من أن الصدام سيتم بين الحضارة الغربية في مواجهة تحالف بين الإسلام والكونفوشيوسية، ويسعى إلى اجهاض أى احتمال تعاون بين الكتلة الحرجة وبين الصين تلك القوة الجديدة البازغة.

يقول هنتجتون.. «ليست الأصولية الإسلامية هي المشكلة المهمة بالنسبة للغرب بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته.. ويضيف.. «وهم أكثر تورطا في العنف من أي حضارة أخرى، فللإسلام حدود دموية»!!

وربما يهدف برنامج العمل الأمريكي، أقصد نظرية هنتنجتون، إلى خلق عدو، فصناعة العدو تساعد في ضخ الأموال في آلة الحرب الضخمة، وفكرة صناعة العدو فكرة غربية وغير إنسانية، وبدلاً من العمل على تنمية العالم وإحداث التوازن بين المركز والأطراف، بعد نهاية الحرب الباردة، تبحث أمريكا عن عدو، رغم إنها إذا ضخت الأموال التي تذهب إلى العتاد الحربي في تنمية العالم، لبعد شبح الحرب والإرهاب معاً، وتلاشت احتمالات الصراع، وألغيت الفجوة بين المركز والأطراف، وقضى على القهر والفقر، ونعمت البشرية بوحدتها.

ويفسر البعض برنامج العمل

الأمريكي، برغبة الولايات المتحدة في الحفاظ على مركزها كأقوى دولة في العالم اقتصاديا وعسكريا، في العصر الراهن. ولكي تحافظ على تفوقها عليها أن تحسم الأمر في تلك الكتلة الحرجة التي لم تحسم أمورها بعد!

الجاني والضحية!

عند استخدام العنف ضد الإنسان، لا تنهار الضحية وحدها، وإنما يسقط الجاني والضحية معاً، ويدفعون غاليا معاً.

فعندما أعلن بوش الابن الحرب المفتوحة، أخذت تتهدد وتتآكل الكثير من الانجازات الأمريكية التي تميز الحياة الأمريكية، وأخذت تنتهك العديد من مبادىء حقوق الإنسان، والذي أعلنه «اليانور روزفلت» عقب الحرب العالمية الثانية، والذي جاء حصيلة جهد بشري ونضال أجيال وراء أجيال للارتقاء بالإنسان.

فما يجرى اليوم يمس القيم الرئيسية التي تقوم عليها الولايات المتحدة الأمريكية التي تضم أعراقا مختلفة، وأديانا متعددة يضمها جميعاً حقوق المواطنة الأمريكية، فهي أمة من المهاجرين، وإن اتخاذ أي موقف ضد دين أو عرق يهدد تماسكها الداخلي، وهي قضية حيوية تتعلق بالمستقبل، فقد مر التاريخ الأمريكي بمرحلتين، المرحلة الأولى تقوم على فكرة أن المجتمع الأمريكي «سبيكة» واحدة، صنعتها القيم المشتركة والمواطنة، وعندما برزت جماعات تتمسك بلغتها أو تقاليدها، تخلت أمريكا عن فكرة السبيكة، وتحدثت عن طبق السلاطة الذي يضم أنواعاً مختلفة من الخضراوات والتي تصنع معاً طبقاً واحداً.

لذلك لم يعد مقبولاً فكرة سيطرة الواسب أي الأنجلوسكسون على الحياة السياسية والاقتصادية في أمريكا.

وأخذت تهتز وتتهاوى أعمدة النظام الأمريكي القائم على الحرية، وتعرضت حرية التعبير للخطر، واختلط الأمر بين الإعلام الذي يزيد معرفة المتلقي وبين الدعاية والتلاعب بالعقول، أي بين الدعاية وبين التحليل الموضوعي، خاصة أن الإعلام الأمريكي الذي يقوم على الصور والانطباعات أكثر من الكلمات والأفكار.

وكتب «تيري اجيلتون».. «إنهم يستخدمون الأزمة كذريعة لكي

يدوسوا على حريتنا المدنية، لقد أصبحت الولايات المتحدة عقب التشريعات الأخيرة دولة الحزب الواحد».

وبدلاً من أن تتمتع البشرية بالانجازات الكبيرة للتقدم التقنى الذى حققته أمريكا، أظهرت أمريكا وجهها القبيح المتمثل فى تساقط القنابل وإطلاق الصواريخ.

ووضعت القيود على حركة المراسلين العسكريين خلال الحرب ضد الإرهاب، واختفت الشفافية، ولا يمكن أن يرى المواطن سوى ما تريد له الإدارة أن يراه، واختفى حق المتهم فى محاكمة عادلة، واختل حق الملكية المصان عندما صودرت الأموال دون حكم قضائى، وتراجعت حرية السوق عندما وضعت القيود على حركة الأموال، واختفى الحق فى الحصول على المعلومات!

ولم تتمكن ثورة المعلومات بكل ما أنجزته من أن توفر المعلومات والحقائق لمن يطلبها، وعقب توارى الحرية اختفت الخصوصية، وأصبح من حق الإدارة التنصت على محادثات الأفراد ومراقبة رسائلهم بلا أمر قضائى.

وأصرت السياسة الأمريكية على معاملة أسرى الحرب خارج اتفاقيات جنيف، ونقلتهم إلى قاعدة عسكرية أمريكية متجاوزة سيادة دولة هى كوبا.

وجاءت أحداث سبتمبر لكى تقدم فرصة تصفية الوحش الذى سبق وقامت المخابرات المركزية بتدريبه وتسليحه واستخدمته فى جعل أفغانستان فيتنام السوفييت، وبعد أن أنهى مهمته فى ظل التحالف المزعوم بين الأديان ضد الإلحاد!.

ويقول الكاتب الأمريكى فريدريك جيمسون .. «إن بن لادن صناعة أمريكية، وأحد نتائج الحرب الباردة..، وما يحدث ليس إلا نوع من الرد الجدلى، وبالتالى لا يجوز أن تدهشنا ردود الفعل».

وهو ذاته الذى حدث من قبل عندما شجعت الولايات المتحدة العراق فى شن الحرب على إيران، وأمدته بالعتاد، وبعد نهاية الحرب كان من الضرورى تصفية القوة العسكرية للعراق والتى ساهمت فى قيامها.

وبهذا يتأكد أننا فى زمن السوق لا عصر العقائد، زمن المصالح لا زمن الحضارات. ■

من الاستشراق إلى الاستغراب

وبالعكس

بقلم
جميل مطر

في ١١ سبتمبر كانت البداية . في ١١ سبتمبر كانت النهاية. العالم بعد ١١ سبتمبر غير العالم قبل ١١ سبتمبر. الغرب يكتشف الإسلام يوم ١١ سبتمبر. الإسلام بعد ١١ سبتمبر لن يكون مثل الإسلام قبل ١١ سبتمبر.. هذه العناوين وغيرها بالعشرات تزدحم بها منذ ١١ سبتمبر مئات أو آلاف الصفحات المكتوبة، كما تزدحم بها الشاشات المرئية والإذاعات المسموعة. أقل التحليلات جاد ومتعمق وأكثرها غوغائي يتبادل الحجج قديمها وحديثها أو يتبادل النعوت، وبعضها عنصري أو يستهدف الرأي العام في كافة الجهات لشحنه استعداداً لحرب طويلة، أو لإبعاد شبح هذه الحرب.



يخيل للمتابع أن قطاعات واسعة من المفكرين في الشرق والغرب وجدوا في ١١ سبتمبر ضالتهم المفقودة، أما الضالة الضائعة فكانت أي قضية أو قضايا يمكن أن تشد المفكرين في كل مكان إلى الاهتمام بها. كادت العولمة تحتل الموقع الرئيسي في اهتمامات الفكر العالمي لولا أنها لم تشبع كاتبا ولا أشبعت جمهورا. وحاول قطاع آخر، ولعله فرع في نفس القطاع، من المفكرين الانشغال بقضية صدام الحضارات وحوارها وانتصار الغرب وصولا إلى خط النهاية، أي نهاية التاريخ، مخلفا وراءه أو متناسيا تجارب وحضارات أمم كثيرة ليجمعها المؤرخون في سجلات ومجلدات أو ليلقوا بها في سلة مهملات التاريخ ونفاياته.

وجاء ١١ سبتمبر وانقضى. وبدأت الحرب ضد الإرهاب، ومعها بدأ تهافت مفكرين في الغرب على قراءة الإسلام والكتابة عنه. معظم الكتابات المبكرة كتبها انتهازيون لهم مصالح تخدمها تعبئة الرأي العام الغربي ضد المسلمين والعرب أو ضد «الأجانب عموما والمهاجرين خصوصا»، وتراجعت، أو انحسرت، مقالات المتخصصين بالعلم والمعرفة في الإسلام عقيدة وتاريخا، وانطلقت حملة التشهير ببعض هؤلاء بحجة أنهم تسببوا في تخدير أجهزة صنع السياسة في الغرب، فلم تعد ترى الخطر الإسلامي، أو أخفوا عنها حقيقة أنه دين يفرخ إرهابيين ولا يحمل أي خير للإنسانية والسلام والرخاء. ثم تأكد الحجم الكبير لهذه الحملة وتأكدت خطورتها عندما انعقد المؤتمر السنوي لرابطة دراسات الشرق الأوسط، وهي الرابطة التي تحتضن آلاف الأكاديميين المهتمين بالشرق الأوسط والمتخصصين في قضاياه وعقائده وتاريخه وأعراق شعوبه.

وتعاقبت المقالات المثيرة للصدام الحضاري بعد أن وقع اصطدام الطائرة بالبرجين. فكتب هوروتيز في جريدة «وول ستريت جورنال» مقالا جعل هدفه الدعوة إلى «إنقاذ المسيحيين من ظلم المسلمين»، واختار بخبث ومكر شديدين شعار «المسيحيون هم يهود القرن الحادي والعشرين» وبلغ المقال درجة من الاستفزاز جعلت كاتبا صهيونيا آخر أكثر شهرة وهو «أبي روزنتال» يعلق على المقال بقوله «لقد أيقظني صراخ هوروتيز».

وعلى الجانب الآخر، أي في الشرق، انشغل الكل، سياسيون ومفكرون بالوجه الآخر لهذه الحملة، أي بصورة الإسلام عند الغرب، وتنافس المتنافسون شماتة في التيارات الدينية أو رغبة في دفع عجلة إصلاح الدين أو جلدا للذات بادعاء أننا سلالة حضارة دنيا وفاسدة ومتخلفة وأن الغرب متفوق أخلاقيا وحضاريا وأننا في حاجة فعلية إلى غزوة إمبراطورية



أخرى على نسق الحملة الفرنسية على مصر التي وقعت في أواخر القرن الثامن عشر. وأذكر أنني علقت في محاضرة على هذه الحملة من المقالات والتصريحات والندوات المهتمة بتحسين الصورة فقلت إنه لو استمرت هذه الحملة فسنكون قد ابتدعنا تخصصاً جديداً، ألا وهو الاستغراب . قصدت وقتها أننا - أي قادة ومفكري عالم الشرق الإسلامي - سننشغل بمهمة تحسين صورتنا عند الغرب إلى الحد الذي قد يدفعنا إلى بذل محاولة جديدة لفهم «هذا» الغرب، ثم التعمق فيه وصولاً إلى أقصى أعماقه لكي يرانا كما نريده أن يرانا، وفي النهاية يرضى عنا. لن يكون هدف الاستغراب تقليد الغرب وهو الأمر الذي حاوله كثيرون في كافة النخب السياسية والثقافية العربية والإسلامية وفشلوا أو نجحوا «فرديا» بدرجات متفاوتة. ولن يكون الهدف «تشريح» الغرب بغرض التعرف على مفاصله ومفاتيحه للولوج من أجل الاندماج أو الذوبان فيه. الهدف - في رأيي - سيكون محاولة جديدة للتعرف على بعض العقد المستعصية التي تحول دون رضاء الغرب عنا.. والغرض من هذه المحاولة في النهاية هو إيهام الغرب بأننا طيعون في الغالب، مسالمون في الواقع. إن كرهناه أحيانا فبسبب سياساته. نريد أن نكون على صورته، بشرط ألا نتخلى عن الجوهر فينا والأصول والتراث والتاريخ والهوية وأشياء أخرى لا نريد أن نفقدها. بمعنى آخر، نبقى على حالنا ولكن تتغير صورتنا، هذا هو جوهر «الاستغراب» حسب رؤيتي. سيكون التركيز على تغيير الصورة، بينما دوائر في الغرب تريد تغيير الأصل كشرط لتغيير الصورة.

وفي عدد منتصف يناير من مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» وهي واحدة من أهم المجلات الامريكية التي تعنى بالشئون الثقافية، كتب إيان بوروما وأفيشاي مارجاليت مقالا تحت عنوان «الاستغراب»، أعتقد أنه من أهم ما كتب في الدوريات الغربية منذ تدمير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك والاصطدام بأحد أضلاع البنتاجون في واشنطن، ويقدم الكاتبان في المقال تعريفا للاستغراب يختلف عن تعريفي له. فالاستغراب بالنسبة لهما يعني العداء للغرب. وفي ظني أن هذا التعريف يشي بالفهم الذي يحمله الكاتبان للاستشراق ، وهو أن الاستشراق يعني الكراهية للشرق، وبمعنى أدق الإسلام والمسلمين.

وبناء على هذا التعريف يعتبر الكاتبان أن أصول الاستغراب موجودة في الفكر الغربي ذاته. والدليل الذي يقدمانه هو أن النازية كانت أحد أهم مظاهر الاستغراب، أي العداء للغرب ومبادئه، فقد تصور النازيون أن الغرب يسيطر عليه اليهود، بل وأن بريطانيا وفرنسا وأمريكا تحديداً قد تهودت وهو الرأي الذي اعتنقه وبشر به هيوستون ستيورات شامبرلين الأب الروحي للنازية. ويستطرد الكاتبان متعقبين أصول الاستغراب فيكتبان عن الفيلسوف أوزوالد سبنجلر الذي حذر في عام ١٩٣٣ من أن التهديد للغرب، سيأتي يوما من الشعوب الملونة. وتنبأ بانتفاضات شديدة في المستعمرات الأوروبية في آسيا وافريقيا، وباستعادة الروس أسيويتهم التي فقدوها منذ قرون، وبالخطر الأصفر الزاحف نحو الغرب. وتنبأ أيضا بأن العنصر الأبيض سيصبح أقلية في الدول الأوروبية. ولعل أهم ما خلفه سبنجلر من رؤى متشائمة عن الغرب تلك الرؤية التي تتوقع هزيمة الغرب على أيدي الشعوب الملونة، فالغرب سينهزم لأن الإنسان

الأبيض - أصبح رخواً ومنحرفا ومدمنا للراحة والأمان». ثم سجل سبنجلر عبارته الشهيرة «موسيقى الجاز ورقصات الزنوج هما المارش الجنائزى لحضارة عظيمة».

وقبل أن يصل الكاتبان إلى الحديث عن موضوعات مثل عقيدة الموت إشارة إلى رغبة بعض المتطرفين الإقدام على الانتحار وتحليل دوافعها، ومثل الأفكار الشائعة عن الشرقيين والغربيين ، ومثل تفاقم الأصولية الدينية فى الولايات المتحدة ومثل مفهوم الجهاد وبن لادن وعلاقة الأصوليات بمفهوم الرجولة، يعرض الكاتبان وجهة نظرهما فى أصول الاستغراب، أى العداء للغرب، وجذوره، ويركزان على أمريكا تحديدا، ليس فقط باعتبارها الرمز الجديد للغرب، ولكن أيضا باعتبار ان قطاعات كثيرة فى الغرب نفسه تعتقد أنها سبب المشكلات الراهنة فى الحضارة الغربية وبخاصة فسادها وانحرافها، ويتصور الكاتبان أن الاستغراب بهذا المعنى، أى بمعنى الكراهية للغرب عموما والولايات المتحدة خصوصاً، يعتمد على عناصر أربعة، كلها معا وكل منها منفرداً يستحق التوقف عنده قليلا.

يطرح «أيان بوروما» و«أفيشاى مارجاليت» فى مقالهما عن الاستغراب فكرة أن المدينة والعقل والبورجوازية والنسوية عناصر أربعة شكلت أسس الكراهية للغرب، أى شكلت أسس مفهوم الاستغراب، ويفسران فكرتهما بفكرة ليست أقل غرابة، يقولان إن هذه العناصر الأربعة تشترك فى مقومات معينة هى الغطرسة، والوهن والشره والانحلال والانحطاط. وأن جميع هذه المقومات هى صفات الغرب، وبتحديد أكثر هى صفات أمريكا.

نأخذ المدينة مثلا . يقال إن المدينة لها تقاليد وتمارس سلوكيات معينة يفرخها


بوش الابن


بن لادن

انشغال سكان المدينة بالتجارة، ويفرخها أيضا الاختلاط الوثيق بين الأعراق التى تعيش فيها فى تلاصق شديد. وفى المدينة، أو بسببها، يمارسون الحرية فى الفن والكتابة والجنس. وفيها كذلك الراحة والأمان والثروة والقوة والنفوذ. وليس غريبا ان تكون كل هذه المواصفات مكروهة لدى حكام اشتهروا بحب السيطرة وباشتهاء الحكم والسلطة والاستبداد فى الرأى. من هؤلاء الزعيم الصينى الأسبق «ماوتسى تونج» وحاكم كامبوديا الرهيب «بول بوت» ودكتاتور ألمانيا النازية أدولف هتلر وقادة اليابان فى العهد الفاشى. وبالفعل يلاحظ أنهم جميعا، وبدون استثناء، مجدوا الفلاح وأسبغوا عليه صفات من نوع البسيط والمؤمن وطاهر القلب. تحدثوا جميعهم عن هذا الانسان البرىء الذى لم تفسده المدينة، والمرتبط بالأرض والوفى لعمله والمطيع للسلطة، وأستطيع شخصيا أن أتفهم هذه الفكرة، بل وأجدها بالفعل فكرة تستحق المناقشة، خاصة أنها منتشرة بين عدد كبير من المفكرين العرب وأغلبهم نشأ فى مجتمعات زراعية أو تقليدية ، وبعضهم تغنى فى مرحلة من حياته بمزايا أهل الريف وخصالهم الحميدة التى يفتقدها سكان المدن، وكثير منهم يحن فى ساعات الضعف والمرض

والوحدة إلى أيام الريف.

إلا أن خصالاً ريفية حميدة إن يولغ في تمجيدها وإن بعثت لدوافع سياسية قد تصبح سببا في انحسار النمو الاقتصادي، أو تؤدي إلى انتعاش الأمية وإهمال الصحة والتراخي في العمل وتراجع الانتاجية. هذا على الأقل ما يقوله أنصار التحديث والتصنيع ودعاة الاندماج السريع في ثورة المعلومات والاتصالات. يقف هؤلاء في واقع الأمر في موقع، يكاد يكون نقيضا لموقف الاديان السماوية، من المدينة، وأهلها وسلوكياتها وتقاليدها. فالمعروف أن الأديان الثلاثة نددت بحضارة بابل، باعتبارها حضارة «الدولة المدينة» التي تحدت إرادة الله.

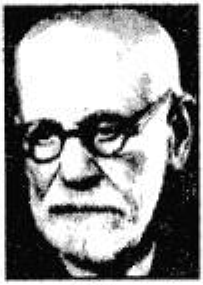
ولم يكن فرعون مصر مرضيا عنه في أي من الاديان الثلاثة، وقد يكون من المصادفات المثيرة أن يكتب محللون تعليقا على أحداث ١١ سبتمبر فيشبهون برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك ببرج بابل الذي انهالت عليه اللعنات من كافة الاديان باعتباره رمز الفسق والاستبداد والفجور، وإن كان أغلب المحللين تحدثوا عن برجي نيويورك كرمز اختارته قيادات تنظيم القاعدة لطغيان النظام الرأسمالي «الغربي» أي لطغيان المدينة العصرية، ولا تخفى بعض كتابات الأصوليين رأيهم في المدينة، فالمدينة مدرسة للنفاق حيث يتجاوز الخاص والعام وينفتحان على بعضهما بدون حدود أو قيود. وفي المدينة «المظاهر جميعها كاذبة خارج البيوت. والحقيقة كلها عفنة داخل البيوت». والمدينة، في النهاية، هي الغرب أي هي أمريكا.

●●●

ويستخدم الكاتبان مبالغة أشد في الكتابة عن كراهية أعداء الغرب للعلم، فالعداء للغرب متجذر في ثقافة الغرب ذاته قبل أن يظهر في ثقافات أخرى. ويجدان في التاريخ المعاصر أمثلة متعددة تؤكد «غربية» العداء للغرب. فكثير من فلاسفة الغرب ربطوا بين العلم واليهود، حتى أنهم وصفوا بعض المذاهب والمدارس العلمية بانتمائها إلى «العلم اليهودي» وكانت الداروينية بالنسبة لهم نموذجا آخر من نماذج العلم اليهودي. آخرون يضعون سيجموند فرويد ونظرياته وتراثه تحت عنوان العلم اليهودي. لقد اعتبرت هذه المدارس أن كل ما هو تجريبي أو إمبريقي مؤامرة على العلم الذي يجب ان يلتزم المبادىء الروحية. واعتبرت أيضا أن الألمان لم يصلوا إلى الدرجة الراقية من فهم الأمور وطبائع الأشياء إلا من خلال غريزة خلاقة تدفعهم إلى حب الطبيعة. لم يصلوا إلى ما وصلوا عن طريق الامبريقية وإخضاع كل فرضية للعقل، كما يدعى أنصار العلم.

من هذا المدخل يصل الكاتبان «مارجليت» و«بوروما» إلى هدفهما. فالضعفاء في عالم اليوم يستلهمون المبادىء الروحية ويعتمدون عليها. لا حياة، ولا تقدم في هذه الحياة، إلا بالإيمان، وبهذه المبادىء الروحية وبالإيمان وليس بأي وسيلة أخرى يتحقق الانتصار فبقوة الإيمان تقوى الإرادة وتزداد الثقة بالنفس. وبالإرادة المستقلة القوية والثقة بالنفس يمكن بسهولة الانتصار على القنبلة النووية وعلى كل منتجات العلم الحديث والتكنولوجيا العصرية. من هنا نشأت الفكرة التي اعتنقها المتشددون الإسلاميون والتي تعتبر الغرب ضعيفا أو نمراً من ورق لأنه بلا روح، والغربيون لا قلب عندهم ولا يشعرون كما نشعر. الغربيون باردون بلا أحاسيس.. لا يعرفون الحب الحقيقي ولا دفء في علاقاتهم الانسانية. ويصل

المؤلفان بهذا الاستطراد إلى أن الاسلاميين المتشددين كانوا يهدفون إلى توحيد العالم تحت «سقف سلام واحد.. بمجرد أن يستكملوا عمليات القضاء على أعداء الله وأبراجهم..» وعلى كل حال لم يكن الإسلاميون المتطرفون وحدهم الذين وضعوا نصب أعينهم هدف توحيد العالم تحت سقف سلام واحد.. فاليابانيون قبل الحرب العالمية الثانية تحدثوا عن هذا العالم الموحد وقرروا إقامته ولو بالقوة. كذلك فعلت كنائس أوروبا الكاثوليكية فى أكثر من مرحلة من مراحل تطور المسيحية، وما تعبيرات السلام السماوى والعدالة المقدسة التى استعملها جورج بوش ببعيدة عن التعبيرات التى استعملها المنظرون للنازية الألمانية، أو ببعيدة جدا عن تصريح جيرى فالويل الأصولى المسيحى الأمريكى عقب أحداث سبتمبر الذى قال فيه إن كارثة نيويورك ليست سوى عقاب من الله على شرورنا. وما أشبه كل هذه «المطلقات» بكتابات المفكر الالمانى الذى كتب عن الحرب العالمية الأولى، وهى الحرب التى نشبت بين غربيين، بأنها فى الحقيقة كانت حربا بين العقل (ويقصد الغرب كله) وبين الروح (ويقصد ألمانيا). لم يوضح الكاتبان قصدهما من هذه المقارنات وإن كانا يلمحان إلى أن الحرب ضد الإرهاب تتدهور يوما بعد يوم لتصبح حربا بين العلم والروح، أو بين العقل والدين، أو بين حضارة باردة جافة وحضارات دافئة، ولم يوضحا إن كانت إشارتهما الى العدالة المقدسة تعنى أن حرب بوش ضد الإرهاب نموذج آخر من ادعاءات متكررة من نظم إمبراطورية أو فاشية أو دينية بهدف فرض الهيمنة على كل البشر وتوحيد العالم. فالرئيس بوش ومعظم الفكر السياسى الامريكى المعاصر لا


سيجموند فرويد


ادولف هتلر

يخفيان نية أمريكا ورغبتها فى إقامة عالم يعتنق بأجمعه، أى يتوحد خلف، مبادىء اقتصاد السوق وحرية التجارة وتقديس الفردية، والحرية والعدالة الابدية.

ولا يتوقف الكاتبان عند هذين الخصمين: فالمدينة والعلم دعامتان بين أربع دعائم تقوم عليها جميعا نظريتهما فى الاستغراب ، أما الاثنتان الأخريان فهما البورجوازية والنسوية، أى حركة تحرير المرأة.

●●●

فى المقال الذى كتبه افيشاى مارجاليت وايان بوروما تحت عنوان «الاستغراب» ونشرته مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس، مبالغات كثيرة ولكن فيه أيضا ذكاء فى العرض، وقدرة لا بأس بها على تحليل الواقع الاجتماعى العالمى. إن صح التعبير. فقد اختار الكاتبان أربعة عناصر للاستغراب، أى الكراهية للغرب. واعتبراها ظواهر وإن كانت غربية الاصل، تشكل فى مجموعها حال العداء للغرب المنتشرة بين الشعوب الشرقية وبخاصة الاسلامية. أما العناصر، أو الظواهر فهى الكراهية للمدينة وما تمثله، والكراهية للعلم ومايمثله، وهما العنصران اللذان قدمناهما بايجاز فى الجزءين الأولين من هذا العرض. العنصران الأخران هما الكراهية للبرجوازية

والكراهية للنسوية، أي لحركات تحرير المرأة، وهذان سنأتي إليهما في السطور القليلة التالية.

يلخص الكاتبان الكراهية البرجوازية، كشعور طاغ في ثقافات بعينها أو بين مذاهب وجماعات وأفراد معينين، بمبالغة أخرى شديدة . يقولان ما معناه إن الكراهية للبرجوازية، أي للطبقة الوسطى، تزداد في الثقافات التي تمجد شخصية البطل فتجعله مفتاح النصر والاستقلال والكرامة . هذا البطل - كالتراث المحيط به - يكره ممثل الطبقة الوسطى، فهو يكره الموظف الذي يجلس إلى مكتب، ويكره ابن المدينة، ويكره المثقف ورجل الأعمال. كل هؤلاء كانوا في مركز التجارة العالمي يوم ١١ سبتمبر، وكل هؤلاء يرتادون هذين البرجين معظم الوقت. إن البطل كشخص، يسعى إلى الموت بينما البرجوازي يبحث عن الأمن، البطل يهتم بحصر الضحايا من الأعداء والبرجوازي يعد النقود وينشغل بالحياة ومتعها.

ويستغرق الكاتبان في المبالغة، فينقلان عن اسامة بن لادن إجابته عن استفسار وجه اليه في عام ١٩٩٨ عما إذا كان يخشى الخيانة من رفاقه، قال «هؤلاء الرجال من حولي تخلوا عن مباهج الحياة وجاءوا للجهاد». ويصل الكاتبان من هذه الاجابة إلى نتيجة لا أظن أن بن لادن كان يقصدها، وهي أن الخيانة لا توجد إلا حيث توجد مباهج ومتعة، وهذه لا توجد إلا في الأوساط البورجوازية. وينتقل الكاتبان الى مفهوم الاستشهاد أو الموت الانتحاري باعتباره ركنا من أركان ثقافة البطولة والابطال المعادية لثقافة البرجوازية ، أي للغرب، فينقلان عن مفكر عاش بدايات القرن العشرين واسمه «تيودور كورنر» قوله «إن السعادة توجد فقط في الموت الانتحاري» ، وصارت بعده اسلوبا من أساليب الحرب استخدمها الالمان في الحرب العالمية الأولى. ثم ينقل الكاتبان عن صحيفة بريطانية تصريحا لمجاهد أفغاني جاء فيه أن «الامريكين يحبون البيبسي كولا ونحن نحب الموت». بهذه الخلاصات السريعة وبغيرها يضع الكاتبان ثقافات بأكملها في مواجهة ثقافات أخرى. وهنا يكمن خطر الاستطراد بالمبالغات أو التعميمات. فالتضحية بالنفس، بمعنى الاستشهاد، ليست مقصورة على الحرب ضد الغرب، وهي ليست الشرف الاعظم في هذه الحرب دون غيرها، لأن الجندي في أي حرب يضحي بحياته، وموته فيها من دون انتحار أو استشهاد هو أيضا من نوع الشرف الاعظم في حرب يشترك فيها رجال ونساء أقسموا على تحقيق أهدافهم، وأهداف أممهم أو جماعاتهم.

وبالقليل جدا من العمق والتأمل يخلص الكاتبان إلى أن عقيدة الموت الانتحاري تغذيها عوامل متعددة هي الكراهية للراحة التي يعيش فيها البرجوازي، والكراهية للعجز والتهميش والاستبعاد وتشويه السمعة، ويغذيها وجود مثقفين بلا عمل أو غير معترف بدورهم في مجتمعاتهم وطلاب فن فاشلين يعيشون في مدن غاصة بالمتاحف والتماثيل والإبداعات الفنية . يغذيها أيضا أشخاص عاديون جدا منتشرون بوفرة في شوارع المدن المزدحمة وشبان في دول فقيرة يشعرون أن الغرب يسخر منهم ومن بلادهم وثقافاتهم وعقائدهم . بل إن هؤلاء الأشخاص العاديين جدا نجدهم الآن بوفرة في المجتمعات الليبرالية . فالليبرالية يفهمونها أحيانا في الغرب على أنها حرية الإنسان في أن يكون إنسانا تافها . ولا خلاص من هذه التفاهة إلا بقتل النفس . وقد سبق

الغرب غيره من الحضارات في تبرير قتل النفس . كانت النازية مثلا تمجد المواطن العظيم الذى يضحى بحياته فى سبيل جماعة أكبر غرضها أن تكون عظيمة ويقودها رجل عظيم ، هو فى نظر نفسه وبعض الناس أو أغلبهم ظل الله على الأرض .

ويقترب المقال من نهايته حين ينتقل إلى محاولة من الكاتبين لإقناع القارئ بأن هؤلاء الذين يكرهون الغرب هم في الحقيقة كارهون للمرأة، أو بكلمات أدق ، كارهون لحركة تحرير المرأة التى نشأت فى الغرب . هنا أيضا ، كما يعتقد المؤلفان ، بدأت الكراهية في الغرب نفسه حين رفعت الحركة النازية شعار « ضرورة تحرير المرأة من حركة تحرير المرأة» ، وشعار أن « مكان المرأة بيتها » ، وشعار « وظيفة المرأة تربية رجال أبطال». ويضيفان ، كالعادة ، قصة المرأة فى اليابان وفرحتها بانتصار أمريكا واحتلالها اليابان . فالمرأة اليابانية مدينة بحريتها ومشاركتها فى المجتمع للجيش الأمريكى الذى أعد قبل غزوه اليابان خطة لوضع دستور جديد يضمن تحرير المرأة اليابانية بعد طول قمع وكبت . وقد لا يعرف الكثيرون أن الشخص الذى كتب هذا النص الذى حرر المرأة اليابانية اجتمعت فيه كل عناصر الكراهية للغرب حسب مفهوم الكاتبين ، فقد كتبته امرأة ، وهذه المرأة أوروبية أى غربية ، وهى أيضا يهودية ، ثم أنها متعلمة.

أظن أن القارئ يشاركنى الرأى أن هذه الملاحظة التى أوردها الكاتبان مارجاليت وبوروما لا تخلو من سخف . ولكنها رغم ذلك ليست أقل سخفا من ملاحظة أخرى لهما تقول إن إثارة المرأة للرجل جنسيا عمل مكروه فى معظم الثقافات الشرقية ، لأن الإثارة الوحيدة التى يمكن أن تحرك شيئا فى رجل يعيش بين شعب مضطهد ومكبوت ومفروض عليه الذل هى الموت استشهادا . ويزداد الاقتراب من السخف عندما نقرأ للكاتبين وهما يقرران أن صورة المرأة شبه العارية فى الإعلانات التجارية لا تختلف كثيرا عن صورة برجى مركز التجارة العالمى فى جزيرة مانهاتان بنيويورك . فالمرأة العارية والبرجان دافعان للحيرة والارتباك»

●●●

ويعرض الكاتبان أوجه التشابه بين «الثوريين الإسلاميين» والحركات الغربية المعادية للغرب . ثم ينتهيان إلى تعليقات بعضها يستحق التوقف عنده . يقولان مثلا إن هدف الثوريين الإسلاميين إقامة عالم موحد تحت راية الشريعة الإسلامية التى سيتولى مهمة تفسيرها علماء اشتركوا فى الجهاد ، أى اشتركوا فى الثورة . ثم يقارنان بين آية الله الخمينى وأسامة بن لادن . الأول كان ستالينى التوجه لأنه اعتنق مبدأ الثورة فى بلد واحد، بينما أسامة بن لادن تروتسكى الميول لأنه أراد أن يجعل أفغانستان قاعدة لنشر الثورة فى العالم .

رغم كل ما احتواه المقال من مبالغات فى رصد الأمور وشطط فى تحليلها وميل إلى التدليل بأمثلة خفيفة وأحيانا سخيفة ، انتهى المقال نهاية ذكية . فقد وجه إيان بوروما وأفيشاي مارجاليت تحذيرا قاطعا من أن يخضع المفكرون فى عالم الشرق لإغراء الرد على ظاهرة الاستغراب ، أى كراهية الغرب ، بالعودة إلى الاستشراق ... وفى ظني جاء تحذيرهما متأخرا . ■

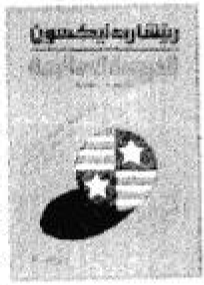
الاسلام
وصوت الانسان
جزء خاص

الإسلام والغرب

رؤية الآخر للآخر..

بقلم
د. عمر الفاروق

فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize The Moment يشير نيكسون R. Nixon إلى نظرتين متناقضتين للإسلام ربما تعكسان محصلة رؤية الحضارة الغربية إليه .. بعد هذه القرون الطويلة من العلاقات والتغيرات ، وذلك منذ حركة الفتوح الإسلامية وحتى الآن ، وترد النظرة الأولى من الترجمة العربية للكتاب (دار الهلال ، ١٩٩٢ ، ص١٣٥) فى سياق تقديره لرؤية شعبه إلى الإسلام .. (.. يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين ، وليس هناك أسوأ من هذه الصورة فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى ..) ، ويعبر عن مخاوفه وتوقعاته (.. يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين .. دار الإسلام ودار الحرب ، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، ولن يتحقق هذا الكابوس .. فإن المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم أن يكونوا كتلة واحدة) ..

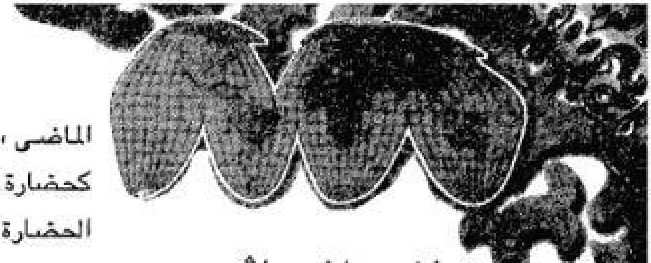


ويضيف «نيكسون» في موضعين آخرين من الكتاب (.. إن التعامل مع العالم الإسلامى وضعه موضع الشخص الذى فى حفرة ضيقة، ومعه مجموعة من الثعابين السامة. تحمل فى سمها أيديولوجيات متصارعة وقوميات متعارضة، ويمكن تصنيف الحركات السياسية فى العالم الإسلامى إلى ثلاث مجموعات رئيسية .. (هم الأصوليون والرجعيون والتقدميون)، وتكشف هذه النظرة السلبية عن ظلال بعض ما استقر فى الذهن الغربى عن المسلمين (غير متحضرين أو منطقيين بل وأيضا دمويون)، وعن مخاوفه من الإسلام (حين يصبح قوة جيوبولتيكية ..) فذلك أشبه بالكابوس المروع، وعن نزعة تحريضية تجاه هذه القوة المتوقعة بحكم الثروة والنمو السكانى .. وذلك توقيا لشرورها المؤكدة تجاه غير المسلمين (فى دار الحرب) .. حيث أن التعامل معها يضع الغرب فى (حفرة ضيقة ومعه مجموعة من الثعابين السامة ..)، وليس من العسير تفنيد مثل هذه النظرة من بعد تمحيصها، غير أن ذلك قد لايؤدى إلى انتزاعها من ذهن من يرونها فى الغرب، لأن استمرارها ليس ضد الإسلام فقط بل وأساسا فى مصلحة الغرب باعتباره ينزع إلى هيمنة حضارته عالميا .. ووضع يده على مصادر الثروة عند غيرها ويمثل العالم الإسلامى حضارة مغايرة ينبغى تسويتها تماما فى إطار أهدافه النهائية نحو الهيمنة الشاملة على العالم بأكمله .

وكما سبق فإن رؤية الغرب للإسلام تتضمن أيضا شقا مناقضا، ليس من اليسير تحديد درجة عمقه ومدى انتشاره تتمثل فى نظرة إيجابية تتردد فى الكتاب المذكور .. يمكن تجميعها من صفحاته كما يلى:

ازدهار الإسلام

- إن العالم الإسلامى هو حضارة مهمة، تبحث عن شخصيتها التاريخية.
- بينما كانت أوربا ترتع فى غياهب العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها، لقد أسهم الإسلام كثيرا فى تقدم العلم والطب والفلسفة، ويذكر «ديورانت» فى كتابه «عصر الإيمان» Theage of faith أن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة فى كل المجالات، وعندما ظهر النوابغ والعلماء فى عصر النهضة الأوربية، فإن



الإسلام والغرب

تقدمهم كان راجعا إلى إنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامى .

- قليل من الأمريكيين يدركون مدى عراقة العالم الإسلامى ، إنهم يذكرون فقط أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامي فى آسيا وأفريقيا وحتى أوربا ، وينظرون بارتياح إلى الصراعات الدينية بالمنطقة ، لقد تناسى هؤلاء أن الإسلام لايقر الإرهاب ، وأنه لم تمض إلا ثلاثة قرون منذ آخر حرب دينية فى أوربا .

- تبين الإنجازات الحضارية للإسلام ما كان عليه العالم الإسلامى فى الماضى ، وكذلك يبين مايمكن أن يكون عليه المستقبل .. إذا توقفت الحروب المميتة وعدم الاستقرار السياسي وعلينا أن نرسم سياسة طويلة المدى إلى توجيه العالم الإسلامي الوجهة الصحيحة التى تتدفق مع تاريخه وحضارته السابقة .

وتكشف عبارات النظرة الثانية .. عن تقدير جزيل لحضارة الإسلام فى الماضى ، وتدليل قاطع على دورها كحضارة تاريخية لها إسهاماتها فى بنية الحضارة الإنسانية العامة ، ويقترن ذلك بنظرة منكرة للعالم الإسلامى فى الحاضر ، وتحدد توصيته الأخيرة نقطة التناقض العميقة - إذا بينما الإسلام (حضارة مهمة تبحث عن شخصيتها التاريخية ..) فإن علي الغرب أن يرسم له سياساته ، دون أن يوضح كيف يمكن لحضارة ما أن تقود حضارة مغايرة إلى اكتشاف ذاتها ؟، وهل يعنى ذلك - أيضا - إعاقة سعيها لتحقيق ذلك بجهودها الخاصة ؟

ويشحن التاريخ التساؤل السابق بالوقائع الدالة ، بل ربما تكمن إجابته بعيداً مع حركة الفتوح الإسلامية الكبرى، وتتوزع على طول القرون اللاحقة .. وحتى الوقت الحاضر ذلك أن هذه الحركة لم تقتطع من أوربا البيزنطية جانباً كبيرا من إمبراطوريتها وحسب .. وكونت منها القسم الغربى من العالم الإسلامى ، بل وأودت تماما بالمشروع الأوربى المبكر للسيطرة على التجارة العالمية .. وعلى جملة المناطق المنتجة فى العالم القديم .. ومعه كل طرق التبادل ، وتتفق الآراء على أن أوربا قد أوغلت فى عصورها الوسطى .. بعد هذه الارتدادة التى أصابتها تجاه الدولة الإسلامية ، غير أن أوربا لم تفرط

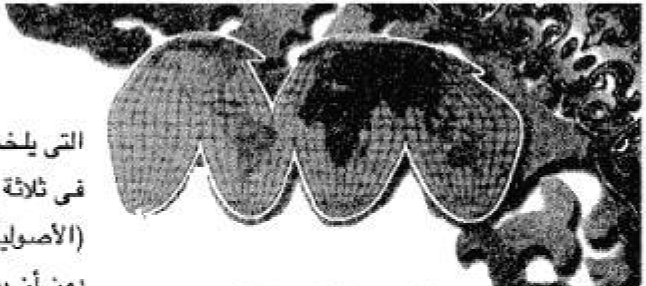
فى حلمها الرومانى .. لاستعادة وحدتها والعودة إلى هيمنتها على العالم ، كما إنها لم تنس أن الشام ومصر وشمال أفريقيا .. كانت يوما أوربية .. أو أوربا الصغيرة كما كانت تسميها .

وعلى الجانب الآخر .. فقد واصلت الحضارة الإسلامية انتشارها الفائق ، وأطبقت على أوربا من وتريها الغربى (البرانس) والشرقى (القسطنطينية) ، غير أنها توقفت عند بوابة فيينا شرقا ، وعند تور غربا ، ولن تكمل مشروعها بالإحاطة بأوربا ، ورغم ارتداداتها المستمرة فقد خلفت ميراثا من الخوف والرهبة .. بقى يتوغل فى الثقافة الأوروبية تدل عليها ملاحم العصور الوسطى ، ورغم تصديها إبان السلطنة المملوكية للجحافل المغولية البرية من ناحية ، وللموجات الصليبية البحرية من ناحية أخرى ، فقد أصابتها الكشوف الجغرافية بضربة فى الصميم ، حطمت بها اقتصادها وأسرت طرقها التجارية ، وأسلمتها لقمة سائغة للدولة العثمانية ، دخلت معها الحضارة الإسلامية عصورها الوسطى .. بمثابة المقابل التاريخى لما أصاب الحضارة الرومانية مع حركة الفتوح الإسلامية ، واستعادت أوربا حلمها مع حركة الاستعمار العالمى طوال القرون التالية ، هذه التى نالت بها من أسباب التقدم بقدر ما أخذت من العالم الإسلامى وغيره ، واتسعت الهوة مع الثورات التجارية والصناعية والعلمية التى مولتها حركة الاستعمار وإضافة العالم الجديد إلى الحضارة الغربية ، وتراكمت مع وقائع القرن العشرين وحروبه والصراع مع الاستعمار من أجل التحرير

التحيز المطلق للصهيونية

وتواصل استنزاف موارد العالم الإسلامى من النفط وغيره .. وأضافت إلى هذا الميراث الطويل المرير .. ما ضاعف من جبهات التوتر والريبة والخوف بين العالم الإسلامى والحضارة الغربية ، وخاصة من حيث نظرة الأخيرة المتعالية ، وتحيزها المطلق للصهيونية ، وتواصل استنزافها لموارده والتلاعب باقتصادياته دون رحمة ، بما قد يدفع إلى هذا التساؤل الثانى .. ماهو احتمال استعادة الحضارة الإسلامية لمقومات وإمكانيات النهضة ؟ وماهى فرصتها للثبات أمام الآخر .. أى الحضارة الغربية ؟

وقد تعددت الإجابات عن هذين السؤالين ، متراوحة بين أقصى الثقة فى الإسلام وقدرته على الصمود والاستمرار بل والانتصار ، وبين فقدان الثقة والتوقع بإنتهائه والذوبان فى حضارة الآخر .. فى نهاية المطاف ، كما طرحت الاجتهادات



الإسلام والغرب

والعشرات من محاولات العلاج واقتراحات التوفيق والحلول الوسطى فى إطار السلم أو الصراع ، مشحونة بما استجد من عوامل الصراع والمنافسة مع الصحوة الشامية للتواصل مع الحضارة الأوروبية ، ثم مع صدمة الحملة الفرنسية ، وما أعقبها من يقظة ثم نهضة شبه شاملة فى أنحاء مصر التى غدت بمثابة الجسر بين أوربا والعالم العربى ، ثم كمنارة للحضارة الإسلامية تشع إلى أفريقيا وآسيا وبقية أنحاء العالم ، وأفضت هذه العملية التفاعلية المتشابكة - مع البعثات والترجمة والصحف والحج - إلى تكوين جبهات عديدة متناقضة فى العالم الإسلامى ، بمثابة أصول ما تكون بعد ذلك من أحزاب وتجمعات تشكل جذور الحركات الإسلامية السياسية المعاصرة ، ويمكن لمن يراجع خريطة العالم الإسلامى السياسية والمذهبية .. منذ القرن التاسع عشر .. أن يتحقق من مقدار التمزق والتشرذم فى أنحائه الشاسعة ، هذه التى يلخصها نيكسون - كما سبق - فى ثلاثة إتجاهات أساسية هى (الأصولية ، الرجعية ، التقدمية ..) .. ، دون أن يورد ما يعنيه كل منها وما ينطوى تحته ، كما لم يوضح أو يوحد أسس هذا التصنيف ، غير أنه يوظفها فى تقديم توصياته للغرب .. ويرشده إلى سبيل الهيمنة على العالم الإسلامى .

مشروعات الإحياء الإسلامى

ويدل تحليل الواقع السياسى والفكرى هذا العالم طوال القرن العشرين ، على تسيد عدد من مشروعات النهضة من وجهات نظر متباينة ، يدور بعضها حول إمكانات التصدى للحضارة الغربية ومقاومة قوتها الامتصاصية الجاذبة ، ويركز العديد منها حول مشروعات الإحياء الإسلامى فى شتى المجالات ، مستلهما إمكاناته ، هذه التى أفصحت عن نفسها طوال قرون الازدهار الإسلامى الزاهرة ، ويتوجه بعضها نحو وضع صياغات توفيقية بين الحضارتين ، تستثمر بها الحضارة الإسلامية قدرتها التاريخية على التفاعل والاقتباس والترجمة ، تمهيدا لانتقالها إلى مرحلة الإبداع الحضارى الخاصة بها ، ويقتصر ذلك بطبيعته على الجوانب المادية من الحضارة الأخرى ..

والاستمساك بالعروة الثقافية الإسلامية الخالصة ، وربما يكون مفيدا الاستشهاد بنصوص معينة تعين فى توضيح هذه الإتجاهات الفكرية الزاخرة بتياراتها .

يطرح د/ شوقي ضيف فى كتابه (عالمية الإسلام) .. ما يشبه بيانا عن جدارة الحضارة الإسلامية المطلقة ، وعن قدرتها الاحتوائية للحضارات الأخرى ، وإمكاناتها لاستيعاب الثقافات المغايرة ، ويشير فى ملحوظة لامعة إلى قدراتها الملحوظة على الإقناع والانتشار معا ، أى إقناع الأفراد بين فقراء العالم ومن الجماعات الوثنية التى تعيش فى المستعمرات الأوربية السابقة .. وتحمل لها ولثقافاتها قدرا كبيرا من الرفض والكراهية ، وكذلك طاقتها الانتشارية بين الثقافات المتباينة ، وتتمثل هذه القدرة الإقناعية والانتشارية فى منظومة من الخصائص المتآلفة ، دلل عليها فى كتابه المذكور بأمثلة من القرآن والسنة ، وشواهد من تاريخ ونظم الحكم والقوانين الإسلامية .. وهذه بعض عناصر ما أورده:

- إعلاء الإسلام لمبادىء المساواة والعدالة بين البشر .

- الأحترام التام للحريات .. وخاصة الدينية ورفضه بالإكراه بأى صورة من الصور .

- تمجيد العقل والعلم .. وتقبل الثقافات المغايرة ، وطلب البرهان . والحجة دائماً .

- كراهة الاستبداد ، والتأكيد على الشورى فيما بينهم .

- نبذ الاستغلال والحض على العمل .

- الدعوى الدائمة للقيم العليا والخير والحق ومكارم الأخلاق السامية .

- الدين المعاملة والدعوى الدائمة للتسامح والغفران بين الكثير .

وغير ذلك من الفضائل والأحكام المنبثقة من عمق النفس الإنسانية ، متوافقة مع احتياجاته ومفتقة لقدراته ، بما يشكل وحدة عضوية بين النفس والسلوك والمجتمع .. يستحيل فصمها لما تشيعه من سكينة ومحبة سابغة ، وإذا كان الواقع يفتقد هذه الصورة المثالية .. فلأنه لم يقطع فى شوط الإيمان سوى خطوات ، أو لأنه تعرض لمؤثرات من خارج ثقافته .. أوهنت من تجربته الخاصة على مر السنين ، وهكذا .. فإن هذا الاتجاه يعتنق مفاهيم تمجيد الإسلام وإثبات جدارته أمام الحضارات المغايرة .. بل وجاذبيته العالية للأفراد مقترنة بقدرته على الانتشار ، غير أنه لا يرفض غيره



ولا يتخذ منه موقف العداء بلا سبب .

قدرة الإسلام العقائدية

ويقدم المفكر «زكى نجيب محمود» .. مجموعة أخرى من الآراء والمفاهيم ، تتفق مع السابقة من حيث إيمانها بقدرة الإسلام العقائدية ، وتختلف عنها من حيث التأكيد على افتقاده لآليات التقدم المادى منذ عدة قرون ، مستندة فى ذلك إلى أدلتها عن الهوة الحضارية التقنية بين الغرب والعالم الإسلامى ، وأن السبيل إلى تجاوز هذه الهوة إنما تمثل فى التفاعل الهادىء القوى بين الحضارتين ، والإقرار بجدارة الحضارة الغربية وآلياتها فى تحديث جوانب الحياة العملية ونوعيتها بين المجتمع والأفراد ، وتجمع كتابه «قيم من التراث» .. مجموعة من مقالاته المعبرة بجلاء عن هذا الاتجاه (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩) ، ومن أهمها مما يمكن الرجوع إليه ..

● ذلك دور المسلمين (ص ص ١٢٤ – ١٣٢) .

● نعم .. أسلامنا يكفينا ولكن كيف ؟ (ص ص ١٣٣ – ١٤٢) .

● نمل ونحل (ص ١٧٥ – ١٨٣).

وغيرها أيضا مما يتناثر فى هذا الكتاب وغيره ، باعتبار الموضوع من أهم ما شغل المفكر الكبير ، ومن ثم لا تنقطع إشاراته إليه فى معظم ما كتبه وما يتحدث فيه ، ففى مقالاته «ذلك دور الإسلام» .. يقرر بوضوح (.. وهو ما أكرر القول فيما لابد أن يضيفه المسلمون إلى حضارة هذا العصر ، فيكمل بهم ويكتمل به ، وهو أن يكون للحياة الدنيا هدفها ، تلك الحياة الدنيا لابد أن نجعلها حياة مليئة بكل ما انتجه العقل البشرى من علوم وأجهزة وآلات ، ونبذه دعوى العودة للوراء ، حيث لا علوم ولا صناعة ولا أجهزة ولا آلات ، ولن يحدث لهم عندئذ إلا أن تزداد حاجاتهم إلى الاعتماد على الغرب فى كل ما ينتجه من علم وما يصنعه من آلات (ص ١٢٧ – ١٢٨) .

● وفى مقالته «نعم .. إسلامنا يكفينا ولكن كيف ؟» .. يقرر (.. نعم إسلامنا يكفينا إذا نحن عشنا به حياة المسلمين ، وهى حضارة ما ترفض شيئا من دعائم الحضارة الراهنة ، بل هى تضيف كل تلك الدعائم إلى ما عندها موروثا عن السابقين، ص ١٤٢) ، وفى مقالة (نمل

ونحل) يوفق بين الحضارتين .. (.. لا بأس فى أن نصغى بآذان مرهفة كما قاله أسلافنا ، وما قاله الغرب من أسلافه إلى معاصريه ، ولكن البأس هنا فى أن نقف من ذلك المصدرين موقف النمل فى الجمع والتخزين وكفى ، إذ يبقى بعد ذلك دور النحل فى التمثيل والتحويل ، ص ١٨٢) .

وهكذا يمثل هذا المفكر هذه الجبهة العريضة الداعية إلى التفاعل بين الحضارتين وإلى إقرار الحضارة الإسلامية بتفوق الحضارة الغربية فى الصناعة والعلوم ، إقرار يتمثل من أن تنهل من علومها وأن تستزيد بلا حرج .. كما فعلت من قبل الحضارة الغربية مع الحضارة الإسلامية قبل تدهورها ، ولكن هل يمكن أن يكون هناك تفاعل مع الجانب المادى من الحضارة الغربية وحده ؟.. أم أن هذا الجانب مشحون بقيم الغرب وثقافته وروحه وأساليب حياته .. مما قد يستحيل معه الفصل بين الجانبين ؟

تقدير الحضارة الإسلامية

وهكذا إذا كانت الشعوب الإسلامية تعبر عن تقديرها للحضارة الغربية .. من حيث تجلياتها المادية المتفوقة ، فإن الأخيرة غالباً ما تكن تقديرها للحضارة الإسلامية .. ولكن فى الماضى ، وتزايد منذ القرن التاسع عشر .. عدد الدول الإسلامية التى طبقت العديد من فلسفات الحضارة الغربية .. فى الحكم والديموقراطية والسياسة وغير ذلك من الجوانب ، كما طبقت أساليبها فى الاقتصاد والقوانين العامة ، بل وتقاربت إلى حد ملحوظ .. ممارسات الحياة اليومية والطعام والترفيه والملابس ، ولم تتأخر ردة الفعل المضادة .. وتمثلت مبكر فى حركات الإصلاح الدينى فى نجد والسودان وليبيا ومصر والجزائر ، وخاضت تجربتها التطورية وشكلت فى بعض الدول أحزاباً ، وتبلورت أشد اتجاهاتها تطرفاً فى رفض الحضارة الغربية برمتها .. والعودة السلفية الكاملة إلى الماضى ، عودة امتدت إلى الممارسات اليومية والعادات والكلمات المتبادلة والمناسبات الخاصة ، ولوحظ انتشارها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى الواسع، وبنفس الروح والطريقة من أندونيسيا إلى مراكش ، ووجدت هذه الحركات والأحزاب أمامها من القضايا ما تكسب به المزيد من الشارع الإسلامى ، وخاصة قضايا الثروة والعدالة ، والاستبداد ونظم الحكم ، واستعادة الشخصية التاريخية فى مقابل الارتماء فى أحضان الآخر ، وقد رصدت أجهزة الغرب هذه التطورات منذ وقت



صبكر (انظر كتاب اكتشاف جزيرة العرب، لجاكلين بيرين ، بيروت ١٩٦٣) ، واستثمرته غالباً بشكل فادح ، وذلك منذ تقسيم شبه القارة الهندية بين المسلمين والهندوس عقب استقلالها سنة ١٩٤٧ ، وتكرر ذلك بشكل متواتر ، ومنذ وضع الغرب أصابعه على أعصاب التمزق المذهبي المريضة .. وهي تضغط عليها بقوة أو رفق حسب المواقف ، وتمكنت من غرس الدولة الصهيونية في قلب العالم الإسلامي .. لتصيبه بتقيح مزمن .. كانت تعرف مقدماً مضاعفاته ، واستثمرت عوائده لحسابها بلا هوادة ، واشتدت الحمولة وتقيحت الضغينة .. ووصلت المواقف إلى أطرافها القصوى .. وتبادلت أشد الضربات عتواً في شتى أنحاء العالم، ويمكن توصيف الموقف الراهن لكل من الغرب والإسلام .. بأنه يعبر عن أعقد درجات الشك والريبة ، هذه التي توظف أحداث التاريخ كله من الماضي إلى الحاضر ، وينظر الغرب إلى الحركات السياسية الإسلامية المتطرفة .. باعتبارها تعبر عن أوضاع جوهرية في الدول الإسلامية وعن حقائق مقررة في الدين الإسلامي ، ويحدد الاستشهاد والجهاد كرموز لأخطار مستقبلية تهدد مصيره .. ولا يمكنه أن يقبل بأقل من استئصالها ، وذلك ربما كعمليات تمهيدية للعولمة الحضارية .. التي تعمل لحساب الحضارة الغربية في النهاية ، وفي المقابل .. تتغلب تيارات التشدد ورفض الآخر تماماً في العالم الإسلامي ، مستندة إلى بشاعة الاستعمار الاقتصادي ونهب النفط والقرحة الإسرائيلية وحبائل العولمة والازدراء المستتر والمعلن للثقافة الإسلامية ، وغير ذلك من سراديب المداورة والدهاء والنفاق السياسي ، وهكذا فإن الحضارة الإسلامية لا تدرأ عن ذاتها أخطاراً طارئة .. بل إن الحضارة الغربية تهدد وجودها تماماً دون أن تخفي نواياها .. فما احتمالات الوفاق الحضاري بينهما في خضم الصراع الجاري ؟

صياغات التوفيق

الواقع أنه بينما كانت الدول الإسلامية تطرح صياغات التوفيق .. بدرجات متعددة من الاقتراب والتباعد ، وصلت إلى حد انسلاخ «تركيا مثلا عن العالم الإسلامي ، فإن الغرب لم يقابل ذلك إلا بالمؤتمرات والإعلانات الفضفاضة ، وظهر

واثقاً تماماً من فوزه النهائي ، بل ووظف متغيرات الصراع لحسابه ، وبدا قادراً على اعتصار نتائجه الاقتصادية لصلحته .. في حالتي السلم والحرب وما بينهما من حالات عديدة ، معتمداً على طبيعة اقتصادية وعلوم تكنولوجية ومرونة سياساته ، ومكنته الأوضاع السياسية والطائفية والمذهبية في العالم الإسلامي .. من الإحاطة والإمساك بتلابيبه واختراقه بل وانتصاره ، ومن هنا فإن إنكار حالة الصراع بين الحضارتين يبتعد عن الواقع كلية .. بل إنه في صالح الحضارة الغربية بشكل نهائي . فهو ينكرها أيضاً بشتى ضروب النفاق والدهاء والفكر السياسي ، وسيلة مع أخريات لتنويم العالم الإسلامي ، بينما يغمره باختراعاته ومبتكراته واتصالاته ، ورغم ذلك فإن الإسلام كنواة يبدى قدرة مدهشة على المقاومة .. ويبقى دائماً جذاباً ، بمثابة العقل الصامد لهذه الحضارة ، وخاصة حين تشع بتجلياتها المتسمة بالتفتح والسماحة والتطلع والتفاعل وتقبل الآخر ، وتساند هذه النواة تجربة معاصرة لاتنكر لمعظم دول العالم الإسلامي ، ولكل منها تجربتها الخاصة في مجال التقدم في مضمار الحضارة المعاصرة بمجالاتها العديدة ، وهي تجارب لاينقصها سوى الاحتشاد والامتزاج في وعاء تنظيمي مناسب ، وهي لم تفقد جوهرها الإسلامي .. مهما أخذت من أساليب الحضارة الحديثة .. التي هي في نسبة منها إنجاز إسلامي ، ومن بعد ذلك تأتي حلقة الموارد الاقتصادية والبشرية والثقافية والفنية والعلمية والتقنية وغير ذلك ، وهي أيضا مما لايمكن إهمال حساباته ، وتضيف نوعياً إلى رصيد الحضارة الإسلامية المعاصر ، ومن يراجع تقارير الأمم المتحدة .. سيتبين بسهولة حجم هذا الرصيد .. خاصة إذا جمعت لكل الدول الإسلامية كوحدة جغرافية وثقافية متصلة .. تشغل معظم العالم ، ومرة أخرى فالصورة ليست في الخاتمة قاتمة على العالم الإسلامي ، ويمكن أن يشحذها الاتفاق على أن هذه الحضارة الإسلامية تخوض بالفعل صراعاً حضارياً للمحافظة على وجودها ، ولكنه ليس صراعاً عسكرياً أو حربياً أو إرهابيا أو دموياً .. إطلاقاً ، فهذه جميعها مما تصب معطياته في بنية الحضارة الغربية .. ويميت خلايا النمو في الحضارة الإسلامية ، نعم .. الإسلام في حالة صراع حضاري سلمي مع الآخر ، فإذا صحت الرؤية والاتجاهات .. فإن الأفكار لن تلبث أن تتولد وتتوالى . ■



الحرب ضد مبدأ المساواة

بقلم
عبد الرحمن شاكر

من أتيح له أن يشاهد صور المظاهرة التى وقعت فى مدينة نيويورك فى أوائل فبراير المنصرم، إمام مقر اجتماع منتدى «دافوس» الاقتصادى، وأذاعتها شاشات التليفزيون فى نشرات الأخبار، يلمح أمورا جديدة أضافتها اللافتات التى كان يحملها المشاركون فى المظاهرة، خلاف المطالبة بحل المشاكل الاقتصادية البحتة، مثل مشكلة البطالة التى تسود مختلف المجتمعات وعلى رأسها البلدان الصناعية المتقدمة صاحبة هذا «المنتدى»، والتى تقع أمثال تلك المظاهرات فى مدنها، سواء فى أمريكا أو أوروبا أو كندا.. إلخ وتتحول أحيانا إلى مصادمات عنيفة كما حدث فى لندن منذ سنوات قليلة، وقد تشمل تلك المطالب الاقتصادية - الدعوة إلى القضاء على الفقر عامة، بما فى ذلك إلغاء الديون التى تثقل كاهل البلدان النامية.

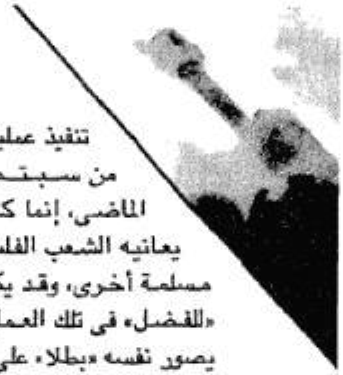
الأمور التى استجدت فى مظاهرة نيويورك الأخيرة، هى من صنع أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١. وكانت أبراج مركز التجارة العالمى فى نيويورك هى أبرز ضحاياها، كانت اللافتات التى يحملها المتظاهرون، الذين لم يكن من بينهم أحد من العرب، تنادى بوقف الحرب فى أفغانستان، وسحب القوات الأمريكية منها، والكف عن التهديد بضرب العراق أو الصومال أو سواهما من البلدان التى ترشحها الإدارة الأمريكية لمد الحرب إليها، أو عليها، بدعوى أنها ضالعة فى أعمال «الإرهاب» أو تسانده بشكل أو بآخر، وأيضا كانت بعض اللافتات تنادى بالكف عن تقديم المساعدات إلى إسرائيل، وبحماية الفلسطينيين، وكذلك الكف عن العنصرية.

إن تلك المظاهرة، وسابقاتها فى المدن الأمريكية والأوروبية هى على نحو أو آخر «يسارية المحتوى» حيث تواجه سياسة اليمين الرأسمالى المتطرف وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وغير بعيد أن تكون يسارية التنظيم والقيادة، ولقد نذكر أن الأحزاب الشيوعية فى البلدان الآسيوية المجاورة لأفغانستان قد نظمت مظاهرات عارمة احتجاجا على الحرب التى شنتها الولايات المتحدة الأمريكية عليها بدءاً من السابع من أكتوبر من العام الماضى بما فيها الحزب الشيوعى الهندى، والماليزى، والأندونيسى، فضلا عن مظاهرات «الإسلاميين» فى بعض تلك البلدان بما فيها باكستان.

المغزى والدلالة

إن الذين تظاهروا على هذا النحو ورفعوا أمثال تلك اللافتات يدل موقفهم على أنهم لم يبلعوا «الطعم» الأمريكى، بدعوى أن ذلك إنما كان للقضاء على الإرهاب، بما فى ذلك العدوان الفاجر المستمر الذى تمارسه الدولة الصهيونية فى فلسطين بمباركة وتأييد شديد الصفاقة من حليفها «الاستراتيجى» الولايات المتحدة، والذى اشتد أواره - أى ذلك العدوان - بعد الحملة الأمريكية فى أفغانستان، وتصل الأمور إلى حد دفع المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وعند محاولة تنكيرها بأن هناك فرقا ما بين الأعمال الإرهابية ومقاومة الشعوب التى تعانى من الاحتلال والاضطهاد والحصار والتجويع والفتك بأبشع الأسلحة الأمريكية، تقول «كوندا ليزارايس» مستشارة الأمن القومى الأمريكية مغضبة فى لقاء تليفزيونى معها: ليس هناك إرهاب حميد وآخر ذميم، وإنما كله إرهاب! ويتبعها فى ذلك للأسف الشديد بعض المغلوبين على أمرهم فى بلدنا!!

وطبيعى أن ينطوى هذا الموقف الشنيع من الظلم الفادح الواقع على الشعب الفلسطينى على تجاهل ما ذهب إليه المتهم الأول بالإرهاب، والمطلوب الأول فى الحملة عليه، أسامة بن لادن، فى بعض ما نسب إليه من أقوال أذيعت تسجيلات لها بالصوت والصورة على شاشات التليفزيون، من أن إقدامه هو وأتباعه على



تنفيذ عمليات الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى، إنما كان انتقاما لما يعانيه الشعب الفلسطينى، وشعوب مسلمة أخرى، وقد يكون مجرد مدع «للفضل» فى تلك العمليات محاولا أن يصور نفسه «بطلا» على نحو آخر ! على أنه من المؤكد أن كثيرين غيره قد داخلتهم الشماتة فيما أصاب الأمريكان بسبب تأييدهم الإجرامى للفحش الصهيونى فى فلسطين.

لقد وقع الظن عند كثير من الناس فى بلادنا أن الولايات المتحدة بعدما أصابها فى تلك الأحداث، سوف تتبع سياسة خارجية أكثر اعتدالا، أو عدالة، وخاصة إزاء القضية الفلسطينية، ولكن ظهر أن العكس هو الصحيح، وأنها قد تمادت فى تعزيز العدوان الصهيونى إلى حد غير مسبوق، وأصبحت شريكا ظاهرا له، على نحو ينفى عنها كل صفة يخلعها عليها تعبير «أحد راعيى عملية السلام» (!) إن لم يكن الراعى الأوحد لها! وهى والغة على هذا النحو فى الدم الفلسطينى بأشد من ولوغ كلبها الصهيونى شارون!

وذهب بعض المحللين إلى وجود شركاء فى ذلك العمل «التكنولوجى» البالغ التعقيد من منظمات أمريكية أو حتى أجهزة «استخباراتية» بها، أما أن عربا من تنظيم القاعدة كانوا ضالعين فى هذا العمل الاجرامى، فإن عناصر هذا التنظيم بمن فيهم قائده أسامة بن لادن، كانوا حلفاء للمخابرات المركزية الأمريكية، وكانت هى التى نظمتهم وسلحتهم ودربتهم، أيام كانت تحارب بهم ومعهم الشيوعية والغزو السوفييتى لأفغانستان، واستخدام بعضهم حاليا فى مثل هذا العمل أو اغرائهم به أو تسهيله لهم، غير بعيد أو مستبعد.

العدو البديل

بعد انتهاء الحرب الباردة ما بين المعسكرين الدوليين، على نحو أو آخر، كان من المنتظر أو المأمول، عند كثير من المراقبين، أن تستخدم الطاقات العلمية والاقتصادية الجبارة، التى كانت تستنزف من جانب كلا المعسكرين فى سباق التسلح، لتحقيق أغراض أخرى سلمية، من بينها رفع مستوى الشعوب المتخلفة، وانقاذها من وهدة الفقر المدقع، ومساعدتها على بناء اقتصادها من جديد، وكذلك علاج الأمراض، وعلاج ظواهر التلوث البيئى، من نوع ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، ونضوب الموارد وانقراض الأنواع.. إلخ، فضلا عن البحث عن حلول عقلانية لمشكلة البطالة التى ازدادت وتزداد تفشيا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ذاتها بسبب الثورة التكنولوجية، التى يترتب عليها الاستغناء عن كثير من الأيدى العاملة اعتمادا على «الروبوت» من مختلف الأنواع، فى القيام بما كان يقوم به الأفراد.

كانت أمثال تلك الحلول، سوف تتخذ طابعا «اشتراكيا» فى واقع الأمر، على نحو ما دعت إليه لجنة الأمم المتحدة للبيئة والتنمية برئاسة «جروهارلم برونتلاند» رئيسة وزراء النرويج السابقة، والذى ضمنته تقريرا ضافيا، طبع فى كتاب

ترجم إلى العربية ، بعنوان ذى دلالة، وهو «مستقبلنا المشترك»!

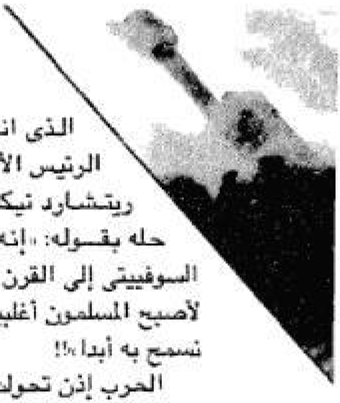
كيف إذن كان يمكن أن تطبق الرأسمالية المنتصرة فى الحرب الباردة، انتصارا ساحقا على المعسكر الاشتراكى أدى إلى تفككه وسقوط نظامه السياسى والاقتصادى، برنامجا يوصف، أو يمكن وصفه بأنه «اشتراكى»، ليس على المستوى المحلى، بل على المستوى العالمى!!

إن تنفيذ مثل هذا البرنامج، كان سوف يعنى انتصارا للماركسية فى صورتها الأصلية، التى صاغها «كارل ماركس» ذاته مع رفيق دربه «فردريك انجلز»، من أن الاشتراكية سوف تكون ثمرة لبلوغ النمو الاقتصادى والصناعى فى ظل المنجزات العلمية للرأسمالية أقصى مداه، وذلك بخلاف الصورة التى تحققت فى الواقع خلال القرن العشرين، من قيام «الثورة الاشتراكية» فى روسيا المتخلفة بقيادة لينين، وامتدادها إلى مجتمعات مشابهة - معظمها - لروسيا فى تخلفها ، وقد نجحت روسيا بفضل تلك الثورة فى إعادة بناء اقتصادها وتحقيق قدر هائل من النمو العلمى والصناعى، ولكن الحروب المتكررة التى فرضتها عليها الدول الرأسمالية، بدءا من حروب التدخل بعد الثورة مباشرة ، إلى الحرب العالمية الثانية التى شن فيها هتلر هجومه الساحق عليها، إلى الحرب الباردة - والتى كانت تسخن أحيانا على الأطراف - بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.. كل تلك الحروب جعلت معظم النمو الاقتصادى والصناعى أساسا يتوجه فى روسيا و«إمبراطوريتها» التى صارت تعرف باسم «الاتحاد السوفييتى» إلى صناعة السلاح، مما حرم شعوب هذا الاتحاد من التمتع بثمار ما حققوه من تقدم علمي وصناعي، وجعل الاشتراكية تبدو - رغم ما ضمنته من أمن اجتماعى - مساواة كئيبة في الفقر، فيما عدا ما تنعم به قلة ضئيلة من الحاكمين من امتيازات! وترتب على ذلك أن سادت الديكتاتورية حقبة طويلة أكثر مما تحتاج إليه أية ثورة للدفاع عن كيانها، بما في ذلك فترة «الإرهاب» التي هيمنت زمنا على مقدرات الثورة الفرنسية.

لاحظ هنا أن الإرهاب هو صفة اتسمت بها فترة من تاريخ واحدة من أعرق دول الغرب «الديمقراطية»، ولم يكن ظاهرة إسلامية كما تحاول تصويره اليوم الدعاية الأمريكو - صهيونية!

من حرب على الشيوعية إلى حرب على الإسلام

ولكن بعد أن بدأ جورباتشوف فى منتصف الثمانينات من القرن العشرين فى التحول إلى الديمقراطية وإنهاء الحرب الباردة، بما فى ذلك الانسحاب من أفغانستان وشرق أوروبا والسماح بإعادة توحيد ألمانيا، سعى الغرب إلى دفع الموجة فى اتجاه اليمين المطلق بإسقاط الاشتراكية وتفكيك الاتحاد السوفييتى بحيث فقد جورباتشوف منصبه كرئيس لذلك الاتحاد، ورحب الغرب بمجيء يلتسين كرئيس لروسيا ومهندس لحل الاتحاد وتحول روسيا إلى الرأسمالية، على نحو أدى إلى مزيد من تقويض اقتصادها، واقتصاد الجمهوريات الأخرى فى الاتحاد



الذى انحل، والذى دافع الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون عن ضرورة حله بقوله: «إنه لو بقى الاتحاد السوفييتى إلى القرن الحادى والعشرين لأصبح المسلمون أغلبية فيه، وهذا ما لن نسمح به أبدا»!!

الحرب إذن تحولت - بقدرة قادر - من حرب على الشيوعية إلى حرب على الإسلام، وأصبحت الحيلولة دون أن يصبح المسلمون أغلبية فى الاتحاد السوفييتى السابق لا تقل أهمية عن القضاء على الشيوعية فيه وفى سواه!

وتقدم الكاتب اليهودى الأمريكى صموئيل هينتجتون بنظرية صراع الحضارات التى حلت كل الحرب الباردة ، حيث أصبح الإسلام - مضافا إليه الكونفوشيوسية - هو العدو الجديد للغرب - الذى يسعى إلى القضاء على الحضارة الغربية وقيمها كما كانت تسعى الشيوعية من قبل!

أما تلك القيم التى يخشى عليها من الإسلام فهى الديمقراطية، واقتصاد السوق، والنزعة الفردية!

ويتجاهل صاحب هذه النظرية أن مبدأ الشورى فى الإسلام قد سبق الديمقراطية المعاصرة فى الغرب بزمن طويل، وأن المجتمعات الإسلامية بعد تعرفها إلى الديموقراطية المعاصرة قد أصبحت كلها تتوق إليها بما فيها الإمبراطورية العثمانية فى أواخر أيامها، وأن الذى حال دون تحققها فيها أو اكتمالها هو الاستعمار الغربى والنظم التى احتضنتها.

أما عن اقتصاد السوق فإن الفكر الإسلامى بصدده لا يرى أن تكون قوانين السوق حائلا دون التكافل الاجتماعى وهذا مما يتفق فيه الإسلام مع النزعة الاشتراكية ، كما يتفق فى أمور أخرى فى مقدمتها المساواة ما بين أجناس البشر ورفض أية صورة من صور العنصرية .

ولكن الفكر الأمريكوصهيونى لايزال يرى أن هناك أجناسا من حقها السيطرة، وأخرى من حقها الاضطهاد، كما هو ظاهر الآن فى فلسطين!

وعلى كل فقد شهد هينتجتون ذاته فى مقال أخير له نشرته صحيفة الأهرام فى أوائل هذا العام، عن «حروب المسلمين»، بأن من أسباب كثرة تلك الحروب أن عددا من المجتمعات الإسلامية تقع تحت سيطرة دول أخرى تضطهد أفراد تلك المجتمعات، وتلك الدول هى إسرائيل التى تحتل أرض الفلسطينيين ، وروسيا التى تحتل أرض المسلمين فى الشيشان، والهند التى تحتل أرضهم فى كشمير.

إن الفكر الأمريكى - صهيونى ، إنما يحارب فى واقع الأمر مبادىء المساواة، سواء دعا إليها فكر دينى كالإسلام، أو علمانى كالماركسية، وبدلا من صنع مستقبل أفضل للبشرية ، يظل نزيف الموارد الاقتصادية والعلمية فى إنتاج الأسلحة واستهلاكها، لكى تضخ مليارات الدولارات فى جيوب مصاصى دماء البشر ! فضلا عن أهداف أخرى تصنعها أطماع الرأسمالية المتوحشة، مثل بترول بحر قزوين وتهديد الصين الناهضة قبل أن تصبح هى القوة الأولى فى العالم.

ولكن داخل الولايات المتحدة ذاتها هناك من أصبح يدرك حقيقة الأمور، واقرأ فى أول المقال عن مظاهرة نيويورك! ■

كتاب الهلال

الإنترنت وتداعياته الاجتماعية والسياسية

للدكتور
أحمد محمد صالح

يصدر ٥ مارس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

١٠٥

ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

قبض الريح

بقلم
على الشوباشى

تصدر ١٥ مارس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

أين صوت الإنسان؟!

بقلم
د. محمد المهدى

طاهر بن جلون





جبرييل جارثيا ماركيز

شاءت ظروف العمل فى فترة من حياتى أن يكون مكتبى قريبا من نادى (ريال مدريد) بمدينة (مدريد). صوت الجماهير كان يعلو. يخفق كقلب مدينة يعانى ضربات غير منتظمة. دوى هائل لو واجه (نيرون) لسقطت وجلا من يده الشعلة التى أحرق بها روما .. ولو قابل (هولاكو) لاخترقت سهام الرعب قلوب رجاله الحديدية. لكن فى مدريد كان الصوت مجرد ضجيج هائل.. مجموعة آلات بشرية يمكن لمصنع صلب أو معمل تكرير بترول أن يحدث ما هو أقوى منه بكثير. يمكن نسفه بعود ثقاب صغير. ستبقى فقط مشكلة إطفاء بقاياه، أو جمع أشلائه وجثثه لعدة أيام .. إنه مجرد معلب صوتى ... والمأساة أنه معلب بشرى.

قديما زحفت آلاف الأصوات البشرية تبنى فى صوت مدو الأقصر، والكرنك، وأبو سمبل. أقامت مدينة (خورسباد) وبوابة عشتار والزاقورات. نحتت فى قلب الصخر القصور والمعابد فى (تدمر) والسد العتيق فى (مأرب). تداخلت أصوات الخضوع مع أصوات القدسية، والبراعة، والابداع.

أقامت جماهير اليونان معبد (البارتينون) فى أثينا، وجماهير الرومان (البانتيون) فى روما. دكت أصوات القتال البحر الأبيض فى معركة (اكتيوم) بين الشرق والغرب عام ٣١ ق. م، واقتربت من زمان الكورال السماوى الذى تردد على الأرض المقدسة فى بيت المقدس.. صوت الجماهير تسبح بحمد الله، ولكنها تعود للتناثر فى أرجاء الأرض.

ويشير المايسترو القدير إلى هذه البقعة النائية بواد غير ذى زرع ليخرج الايقاع هادئا. ثم هادرا يعيد توازن الصوت البشرى. يتكسر أحيانا عند دار (عثمان)، أو خارج مدينة (كربلاء)، ولكنه يعود ليتكتل. يدفع بوابة (السقوط) عند الاندلس، وبوابة بيزنطة عند القسطنطينية. يبنى ويبدع من فنون الجماهير ما يبهر ويبقى .

وتبهت السطور الفردية إلى حين .

وفى ذروة ونشوة الصوت الجماهيرى الزاحف بدأت بشائر (الفونوغراف) مرتعشا، ثم التليفون هامسا، ثم الراديو والسينما والتليفزيون صارخا، تضاعفت الاصوات، وتضخمت الالكترونيات. صار الجهاز الصغير يعادل آلاف الأصوات التى عبرت مع الاسكندر من الغرب الى الشرق. أو آلاف الأصوات التى رفعت (نيرون) و(قيصر) إلى القمة. أو ملايين الاصوات التى اتسع قوس صداها مع صوت الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو الاصوات التى تبتلت وراء (غاندى)، أو تقدمت صوت (ماوتسى تونج)، او سكرت وراء (هتلر)، أو تأججت أملا فى النصر وراء عبدالناصر.

الصوت المعلب

وعندما يتأمل الجيل الجديد ما سجلته الصورة الثابتة او المتحركة للصوت الخافت او الواضح لبقايا عصر الصوت البشرى، يعجبون من هذه الضجة، وفى داخلهم تساؤل مريب حول الصوت البشرى. كيف حركت هذه الآلاف الأحداث؟ كيف قادتها إلى الانقلاب أو الانفلات ، او النصر او الهزيمة؟ وما هذا المخدر العجيب الذى سرى فى شرايين الجماعة فأفقدهم الوعى وأفلت قوة حناجرهم؟

والجيل الجديد معه حق فكل ما عاصروه من أحداث لم يحدث أن تحرك بتحرك الجماعة او بتحرك الصوت البشرى..

الصوت البشرى فى أحسن الاحوال تهذب. أو هكذا قيل!

علبوه فى البرلمانات أو المجالس الشعبية. نظموا دوراته، وكلماته ، ونسقوها بأرقام وإحصائيات. ألزموه بمراقبة مطرقة الرئيس، وألزموه بزمن ودور ونصيب متساو.

الصوت البشرى (ورقوه). اى حولوه الى أوراق مطبوعة من صحف، ومجلات، وكتب، ونشرات . وكتيبات. فقد تلقائيته، وتعلم اصول الصرف والنحو، صرف أموره، والاتجاه نحو مصالحه الخاصة .

الصوت البشرى (زينوه) بالصور التليفزيونية، والحواجز الاسمنتية، والحديدية، وفقرات الموسيقى الاذاعية.

الصوت البشرى (كوروه)، اطلقوه فى سديم الملاعب المفتوحة الشعبية، او نسقوه فى الملاعب المغلقة الارستقراطية.

الصوت الفنان

ويصعب على الجيل الجديد تصور رهبة الجماهير التى ارست قواعد تاريخية على حدود الحضارة. وحدود المدينة، وداخل (الانفتياتر) أو السقيفة، أو الأزقة، أو الحارات، أو المتاريس، أو الساحات، أو الميادين.

أين ذلك من فن الصور المرئية، من فن الصندوق الساحر . من فن الوهم الخالى من الملمس البشرى. من مجرد صدق طرف، وتصديق الطرف الآخر. وحينما ضاق الفنان التشكيلى من عزلة (الاطار) داخل اللوحة الفرد، حينما اقتحم صندوق المسرح. حينما دخل حياة الجمهور بالمستنسخات . حينما حطم الحاجز بين اللوحة والتمثال. حينما تمرد على التصاقه

الدائم بالحائط والعيون معلقة او محدقة فى فهم، أو ادعاء، أو بلاهة. حينما بدأ عهد الفنون التطبيقية.. فنون الساحات، و(البرفورمانس) والليزر، والاوابد، والبيئة.

حينما جرت كل هذه الاضافات والتطورات، كان زمان الصوت البشرى الخافت قد بدأ. غطت عليه أصوات الانتاج الضخم، واقتصاديات السوق والمعلوماتية، والعولة والاعلام والاعلان. الاضواء والالوان والخداع البصرى، والوهم الالكتروني .

حينما بدأ الفن يحطم الحاجز بينه وبين الجمهور، كان الجمهور نفسه يفر من الميدان والطرقات والتجمعات، ينسحب إلى بيته، لا يجد فرصة للهمس فما بالك بالكلام.

الصوت البشرى غائب فى زمان الوحدة، أو العزلة. خافت، غائم وسط أبخرة ضجيج هائل قد يصدر من جهاز بحجم علبة الكبريت. او ضجيج مكتوم يصدر من جهاز يسمى الانترنت .

وحينما بدأت السريالية بعد الحرب العالمية الاولى دعوتها الادبية فى العودة الى العقل الباطن، كانت فى الحقيقة تغوص فى دوامة العزلة كنوع من الحزن الدرامى السوداوى لغياب الصوت البشرى. وحينما بدأت الوجودية (السارتريه) تنادى بعد الحرب العالمية الثانية بالحواجز بين الناس، وكتبت مسرحية (الجلسة السرية)، كانت نوعا من الحزن المقهور على غياب الصوت البشرى. وحينما استمع (هيربرت ماركوز) الى صوت الشباب يدوى فى أروقة الجامعات استيقظ فى منطقه الفلسفى الأمل، ردد مبشرا بعودة الصوت البشرى على يد هؤلاء الأحرار من سطوة رأس المال. لم تصمد الدعوة فقد ضاعت أصوات الطلبة أمام الهراوات، والأقنعة، والغازات، والدروع، ومسخ العقول او شراء بعضها قبل الأوان .

وحينما بدأ الفيلسوف الفرنسى (روجيه جارودى) دعوته لحوار الحضارات وقبل اعتناقه الاسلام فى السبعينات من القرن الماضى. كان (هنتنجتون) يحضر لفلسفة صراع الحضارات فى التسعينات.

الصوت الادبي

ونأخذ مثالين أدبيين لزمان العزلة، أو زمان حشرجة الصوت البشرى، أحدهما عمل ادبى من الشرق العربى (اقصى درجات العزلة)، والآخر من الغرب القريب من العالم الثالث (مائة عام من العزلة) .

رواية (أقصى درجات العزلة) للكاتب المغربى (طاهر بن جلون) تصور طبيبا مغربيا فى فرنسا يتولى فحص حالات بعض العمال المهاجرين من شمال افريقيا بعد اصابتهم بأمراض جنسية ونفسية نتيجة لحالة العزلة، والوحدة، واجترار الجسد، أو النفس، النموذج الذى تقدمه الرواية (التقريز) فرغ من عقيدة قوية تعصمه او تصرفه عن التفكير فى الجنس، وفرغ من النضال الاجتماعى او السياسى.دائرة استهلاكية لا تتوقف. هناك من ينتج وهناك من يستهلك. وهو جزء من جهاز الانتاج بلا توقف. لقد صار هو نفسه مادة استهلاكية .. يعمل ليأكل ويرسل لأولاده ليأكلوا .

ضياع استهلاكى دون تنهد. خندق

عميق. وقدرته الغريزية الباقية التي تصور أنها بحكم تقاليده وتصوره الخاطئ لعقيدته، تستطيع أن تثبت وجوده.. ضعفت. هزمت. انسحبت. غاضت. دفنت ودفنت معها سلالته، فماذا يبقى له سوى العزلة.

وقارن هذه الحالة بحالة الشاب في جيل النضال الجماهيري في حرب الجزائر. الجماعات والجماهير تصرخ متماسكة. كورال من ملايين الاصوات يهز الساحل الافريقي والاوروبي. كنا نشعر بالصوت يصلنا وإن لم نسمعه، يرتفع عاليا كأنه هارمونية أوبرالية من صنع أساطير (فاجنر) الثائر الساحر، الباحث عن قوة الجماعة وتفرد الفرد. قوة صوت الجماهير تطمئن عزف الفرد المنفرد. لاوجود للعزلة، ولا وجود ايضا للغرور او الاستعلاء. ويقول (بن جلون) في نهاية تقريره الروائي.. ان المريض اليائس المعزول يقيم محاكمتين. الأولى لأرض المنفى نموذج السيطرة الاقتصادية الظالمة (ومن يشك ان وراء هذه الوجوه التي بالكاد نلحظها تجرى محاكمة ظالمة؟). والثانية للطب الغربي الذي عجز عن شفائه.

والعزلة الصوتية الثانية في رواية (مائة عام من العزلة) التي كتبها (جبريل جارسيا ماركيز). قرية (ماكدوندو) في كولومبيا اقيمت بجهد الاب (خوسيه اركاديا ديا) وزوجته (اورسولا). تتوالى السلالة المترابطة. لا تنتج الا (اركاديو) صغير. او (اورليانو صغير). تتشابك الأحداث. تدخل في عالم من الاساطير، والأحاجي والألغاز. تتراوح بين (اليوتوبيا) والصور الممسوخة. يظهر الجيل الليبرالي، ويصل الامريكي للقرية مع استثماراته. يصل القطار، ويربط القرية بالعالم. ينفرط عقد العائلة، وتظل الأم الوحيدة المحافظة على ترابط السلالة لأكثر من مائة عام. يكون هناك من أعدم ومن أبيد، ومن جن، ومن قتل، ومن اختفى، ومن ارتكبت الخطيئة ودخلت الدير، ومن رحل الى (روما) للمغامرة، ومن رحلت لـ (بروكسل) للدراسة. تعود السلالة. تحاول ان تترابط بعد أن سحبت من القرية أنفاس العصر الحديث، ولكنها لا تجد سوى علاقة غير شرعية بين الإبن وخالته.

وينتهي (ماركيز) من روايته قائلا (لأن السلالات الملعونة بلعنة مائة عام من العزلة ليست لها فرصة ثانية على ظهر البسيطة). واذن إنها لعنة هذا الزمان. زمان يفرط عقد الجماعة، يبح صوتها. واذا ما حاولت كتابة (نوتتها) من جديد تخرج مشوهة نشازا. عمل لا يخرج من صوت الجماعة، ولا يجد بالتالي أذنا للجماعة.

وتأمل هذه الحبات المبعثرة على سطح هذه (البلية الزرقاء).. على سطح الارض، سترى الغربة، والصوت المخنوق، والصوت الأخرس، والصوت المكتوم، في عيون المعزولين في اوروبا، وامريكا، واستراليا. في عيون القادمين من جنوب شرق آسيا والهند. في عيون أقرب الينا. عيون ابن البلد، ورام الله، والقدس. وصعيد مصر.

انها تذكره بأيام العزلة في بحر الظلمات بأقصى درجات العزلة، وآلاف السنين المقبلة من العزلة. إنها جماعات كتم صوتها البشري في أرضها. وخارج أرضها قبل حتى ان تنطق كلمة (الآهة) الموجوعة.

سيداتي، سادتي.. انعي لكم الصوت البشري. ■

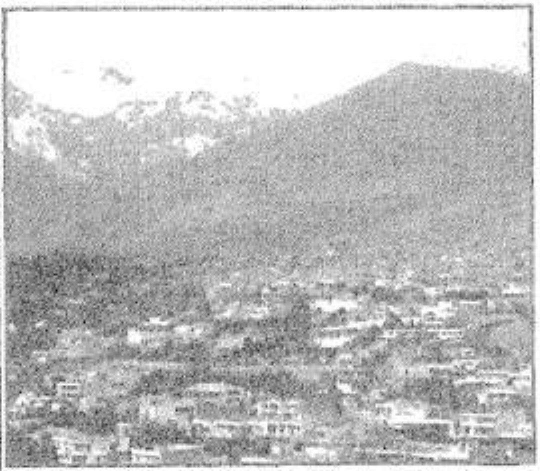
أيام في طهران

الانتقال «الصعب» من الثورة إلى العولمة!

بقلم
محمود أحمد

تغير وجه الحياة في إيران منذ قيام الثورة، قبل ثلاثة وعشرين عاما، ولايزال التغيير مستمرا، اليوم يبدو وكأن دهرا قد انقضي منذ طرد الشاه محمد رضا بهلوي واستيلاء آيات الله علي الحكم، حتي أن قصصا كالأساطير قد بدأت تتوالد في الشارع الإيراني، عن الإمبراطور السابق، فقال لنا سائق سيارة «تاكسي» رفيق الحال إن بهلوي - هذا الذي نعرف أنه مات بالسرطان ودفن في مصر - قد قضي عليه في انفجار قنبلة زرعت له وقتلت معه سبعمائة شخص من أتباعه!

لا أحد في إيران اليوم يصدق، أو يتصور، أن أيام الشاه والحكم الملكي يمكن أن تعود، هذا عصر انقضى وطويت صفحته، ولكن أيام اندلاع الثورة، بلهيبها اللافح، تبدو هي أيضا بعيدة .. رغم أن رموز الثورة مازالت هي التي تحكم، صحيح أن «نهج» الجمهورية الإسلامية هو الذي يسيطر على مقاليد الأمور في هذا البلد الكبير المهم، الذي يبلغ تعداد شعبه ٦٨ مليونا من البشر ويقع في منطقة تماس مباشر مع العالم العربي .. ولكن الصحيح أيضا أن الشارع الإيراني قد اختلف كثيرا عما كان عليه عندما



طهران .. العاصمة الإيرانية.. تطل عليها الجبال التي تغطيها الثلوج شتاء



السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

اندفعت مجموعة من الشباب الثورى إلى مبنى السفارة الأمريكية فاحتلته، فى عملية فريدة أفرزها عنفوان الثورة فى بداياتها، وكانت لها تداعياتها التى لاتزال تؤثر على إيران حتى اليوم .

اختلف الشارع الإيرانى، وتقلص دور الحرس الثورى، حتى أن بعض زعماء المجموعات التى احتلت السفارة الأمريكية قبل نحو عشرين عاما قد أصبحوا اليوم - كما قيل لنا - من رموز التيار الإصلاحى الذى يعمل على انتهاج سياسات واقعية، أو حتى «براجماتية» فى مختلف المجالات.

بل إن بعض «المظاهر» التى رافقت الجمهورية الإسلامية، سواء فى حركة الحياة اليومية أو فى العادات الاجتماعية «احتفالات الأعراس وما إلى ذلك» أو حتى فى سلوك الناس وتصرفاتهم وملابسهم مثلا، يكاد يختفى «الشادور» الذى كان لزاما على النساء الاختباء داخله، فى مطلع أيام الثورة، ولم يعد الشباب الثورى المتشدد يطارد المتهاونات فى التقيد بالزى «الإسلامى» وأصبح «الإيشارب» ، الذى تختفى أطرافه تحت «ياقة» معطف أنيق - محبوك أحيانا - وفى حالات كثيرة، قد ينزلق «الإيشارب» إلى الوراء ليظهر جزءا من الشعر اللامع والمعتنى به، أيضا، عادت الفتيات، وبعض السيدات فى أواسط العمر، إلى استعمال أدوات التجميل لتظهر الوجوه، الجميلة أصلا، أكثر طلاوة ونضارة وبشاشة، أما الشباب، فلم يعودوا يتمسكون كثيرا بإطلاق اللحى، فإن فعلوا، فإنهم «يهذبونها» حتى لتبدو أقرب إلى «الموضة».

لغة السينما

هناك، أيضا، اهتمام واضح بالفنون عموما، بعض ألوان هذه الفنون حقق

ازدهارا بينا .. خاصة فن «السينما» الذى أتاحت لنا المصادفة متابعة نماذج قليلة، ولكنها كافية منه، دعينا إلى حضور عرض خاص لفيلم سينمائى عن السيدة مريم يحمل اسم «القديسة مريم المباركة The blessed Saint Mary ، وهو إنتاج ضخم يروى، بالكاميرا، مايشبه ترجمة حرفية لقصة السيدة مريم كما وردت فى القرآن الكريم، وذكرنا الفيلم بالاهتمام الذى أصبحت السينما الإيرانية تحظى به فى المحافل الدولية، رغم أن المخرج السورى «محمد ملص» الذى كان معنا أثناء مشاهدة الفيلم - أعرب عن رأى بأن مخرجته «شهريار بهرانى» قد اعتمدت أسلوبا أقرب إلى الأفلام التليفزيونية منه إلى لغة السينما، وبعد العرض، التقينا مصادفة بمنتج الفيلم، «محسن على أكبرى» الذى قال لنا إنه أنتج أيضا فيلما عن «أهل الكهف» وأنه يحضر حاليا لإنتاج فيلم ثالث بعنوان «موسى .. كليم الله» وقد طلب إلينا من السلطات المصرية لتصوير جانب من مشاهده فى سيناء.

زيارتنا هذه إلى طهران فى الأسبوع الأخير من يناير الماضى، جاءت فى عز فصل الشتاء، كانت الثلوج تجلل قمم الجبال المطلة على العاصمة الإيرانية، فى حين كانت آثار ثلوج لاتزال تغطى جوانب الشوارع والساحات التى بدت لنا نظيفة ولكنها تعانى من ازدحام خانق فى المرور، خاصة فى ساعات الذروة، أما الذى لاتخطئه العين، فهو إمارات ومظاهرات المعاناة الاقتصادية التى ينوء بها كاهل الشعب الإيرانى، والناجمة أساسا عن الحصار الاقتصادى الطويل الذى قادته الولايات المتحدة ضد إيران منذ قيام «الجمهورية الإسلامية» ونتيجة أيضا للحرب الطاحنة مع العراق، فى الثمانينات، والتى دفعت إيران الى خوضها، نعلم، إثر وصولنا، أن قيمة الدولار الأمريكى تصل الى ثلاثة آلاف ريال إيرانى، وأن علينا أن ندفع عشرة آلاف ريال ثمنا لفنجان من الشاى أو القهوة!

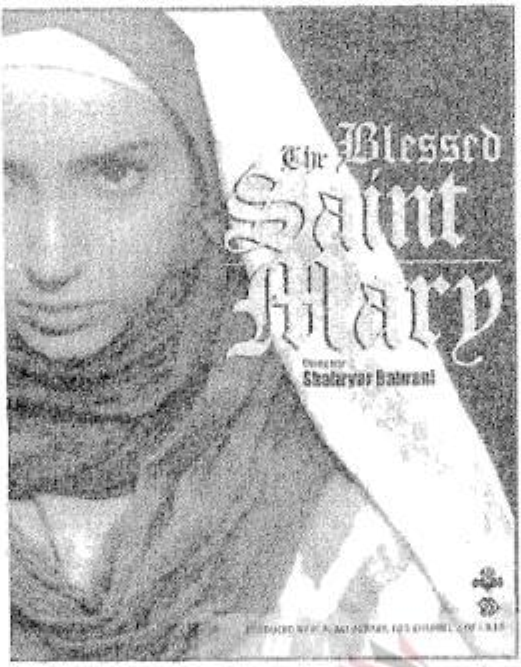
فلسطين .. فى الوجدان

هدف الزيارة، أو مناسبتها كانت المشاركة فى مؤتمر للإعلاميين من الدول الإسلامية لبحث سبل دعم الانتفاضة الفلسطينية ، ومنذ الوهلة الأولى، تجلت الأهمية الكبيرة التى توليها إيران للمؤتمر، والتى انعكست فى الترتيبات التى اتخذت استعدادا لعقده والتغطية الإعلامية الواسعة التى توفرت له، ثم تأكدت بحرص أعلى قيادات فى الدولة على الحضور الى قاعة المؤتمر والتحدث أمامه، تقريبا كل القيادات: شارك رئيس الجمهورية محمد خاتمى فى الجلسة الافتتاحية وألقى كلمة أمام المؤتمر، ثم جاء تباعا كل من آية الله محمود هاشمى شاهرودى رأس السلطة القضائية، وآية الله هاشمى رفسنجانى رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام «أحد المجالس الثلاثة التى تتكون منها السلطة التشريعية» وآية الله مهدى كروبى رئيس مجلس الشورى.

ولكن هذه الأهمية الكبيرة التى تنالها القضية الفلسطينية فى إيران لاتعبر عنها

فقط مواقف القيادات، أو الكلمات التى يلقونها فى مثل هذه المناسبات أو البيانات التى تصدر عن مؤتمرات «كهذا الذى عقد فى نهاية يناير وأكد أنها «القضية المركزية الجامعة لتضامن الأمة العربية والإسلامية» وإنما هى أهمية تحتل مكانا فى وجدان الشعب الإيرانى الذى ينفعل معها أيضا انفعالا عاطفيا ظاهرا، وقد عبر هذا الانفعال عن نفسه بصور شتى، خلال فترة انعقاد المؤتمر ولكن بعيدا عن أروقته، على صفحات الصحف وبرامج التليفزيون التى استضاف أحدها وهو برنامج «صباح الخير يا إيران» (صبح بخير .. إيران) شخصيات عدة للتحدث عن الانتفاضة الفلسطينية بمناسبة انعقاد المؤتمر، هذا إلى جانب ما تبين لنا من وجود إذاعة خاصة لفلسطين، ومطبوعات عديدة دورية - شهرية أو فصلية - مخصصة لنشر مواد عن القضية الفلسطينية.

على أن الرأى العام الإيرانى يدرك أن هذا الموقف الملتزم إزاء القضية الفلسطينية وموقف إيران عموما من مشكلة الشرق الأوسط، يعد أحد نقاط الخلاف - أو التناطح الرئيسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هناك أيضا إحساسا كامنا بأن حل هذا الخلاف ، مع افتراض إمكانية التوصل إليه، لن يكفى لإعادة العلاقات الطبيعية بين واشنطن وطهران، وربما لهذا السبب لم تكتسب اهتماما كافيا تلك الأصوات، من جانب اليسار الاصلاحى، التى تدعو إلى تغيير موقف إيران إزاء قضية الشرق الأوسط، وإلى انتهاج سياسات



أصبحت السينما الايرانية تحظى بالاهتمام فى المحافل الدولية

أكثر «واقعية» و«براجماتية» تراعى مصلحة إيران على المدى الطويل.

يقول هؤلاء : إن الطريق إلى المستقبل شاق وعسير، وأن إيران لن تستطيع أن تتجنب الخيار المحتوم للانتقال من حالة «الثورة» إلى التأقلم مع «العولمة» وإنه إذا كان لزاما أن تتغير بعض المواقف والسياسات، فإنه ينبغى على إيران أن تضع ذلك فى اعتبارها حتى يتم ذلك الانتقال وفقا لأفضل شروط .. بدلا من الخضوع - بدرجة أو بأخرى - لما سيفرضه المد الآتى من الخارج!

لقاء .. مع القائد

جاء اللقاء مع القائد آية الله على

خامنئي.. وهو مرشد الثورة ورأس السلطة في النظام الحاكم في إيران .. بما يشبه المصادفة، كان المؤتمر الإعلامي لدعم الانتفاضة الفلسطينية قد أوشك على أن يختتم أعماله، وكان أعضاؤه قد استمعوا إلى أهم قيادات ورموز النظام: خاتمي وشاهرودي ورفسنجاني وكروبي، أما القائد الأعلى، المرشد، السيد علي خامنئي، فلم يحضر إلى المؤتمر وإنما ذهب المؤتمر إليه. وربما لم يكن هذا اللقاء مقررا أصلا .. ولكن الذي حدث أن خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش أمام الكونجرس عن «حالة الاتحاد» والذي اطلق خلاله أوصافا واتهامات عنيفة ضد إيران ، «وهي ثلاثة اتهامات رئيسية : أنها محور للشر، وأنها تأوي الإرهاب، ثم أنها تسعى لامتلاك أسلحة الدمار الشامل» كان قد صادف آخر أيام المؤتمر وأحدث صدمة - وغضبا جامحا - في الأوساط الإيرانية.. وخاصة بين القيادات العليا وبدا وكأن ردا على أعلى مستوى يجب أن يصدر عن إيران .. ولم يكن هناك أفضل من أن يتم ذلك من خلال ترتيب لقاء يتحدث فيه إلى أعضاء المؤتمر الإعلامي لدعم الانتفاضة الذي كان لايزال منعقدا في طهران.

وهكذا أعلن رئيس المؤتمر «علي لاريجاني» وهو رئيس هيئة الإذاعة والتليفزيون الإيرانية التي تتبع القائد مباشرة، في الجلسة الختامية، أن طلبا كان قد قدم للقاء القائد مع أعضاء المؤتمر .. وأن الرد جاء بالقبول، ومن ثم فإن اللقاء سيعقد في صباح اليوم التالي .. وكان ذهابنا إلى هذا اللقاء - نحن أعضاء المؤتمر - تجربة فريدة في حد ذاتها.

اتخذنا أماكننا في السيارات والحافلات التي أعدت لتنقلنا إلى مقر القائد الإيراني، في التاسعة صباحا، بينما كانت تعج في المكان حركة تؤكد أن «هاجس الأمن» يسيطر على الجميع.

واصطف أمام «موكبنا» صف طويل من سيارات الشرطة والمراسم التي لاتكف أضواؤها الحمراء والصفراء عن الوميض، واستغرق المرافقون ورجال الأمن وقتا طويلا في ترتيب الموكب والاطمئنان على إجراءات الأمن والسلامة.

وحين انطلق الموكب، أخيرا، تبين لنا أن الشوارع قد أخليت أمامنا، وإن كانت السيارات قد مضت وئيدة السرعة على أربعين أو خمسين كيلو مترا في الساعة، ميممة شطر الحي الذي يسكنه الإمام في طهران.

انحرف الموكب الى شارع يحمل اسم «فلسطين» وسرعان ماوصلنا إلى بوابة حديدية تسد الطريق فتوقف الركب، بعد وقت قصير، تبينا أن البوابة جزء من سور غير منتظم يطوق قسما من الحي الذي وصلنا إليه، وأن البنايات الواقعة «داخل» السور - والتي لايميزها شيء عن باقي البنايات المجاورة - تشكل في مجموعها مقر الإمام المرشد، ولكن، وقبل مغادرة السيارات، وزعت علينا أكياس من النايلون الشفاف.. وطلب إلينا أن يودع كل منا الكيس الذي اعطي له جميع الأشياء التي توضع في الجيوب أو تحملها الأيدي.. وشمل ذلك : ساعات اليد،

والهواتف النقالة، والمحافظ، والنظارات الشمسية أو أية نظارات غير المستخدمة على العيون، والخواتم (بما فيها «دبلة» الزواج)، والكاميرات .. الخ، وكان على كل منا أن «يربط» الكيس الخاص به وأن يتركه على مقعده في السيارة.

كان علينا ، بعد ذلك ، المرور من خلال أكثر من بوابة، والاستسلام لإجراءات تفتيش ذاتي، قبل أن نصل إلى مبنى منخفض لايتميز عما حوله من مبان.. اللهم إلا بواجهته الأسمنتية غير المطلية بأي لون، وأدركنا أن المبنى يضم قاعة استقبال يلتقي فيها المرشد بضيوفه، وعند الباب ، وجدنا عددا قليلا من الأحذية بالخارج، مما أوحى بوجود عدد قليل من الأشخاص بالداخل، واجتزنا ممرا صغيرا تحفة جدران عارية، ويفضي إلى «القاعة» التي لاتختلف عن «مندرة» متوسطة الحجم في منزل ريفي، وعلى امتداد جدران القاعة، صفت على الأرض وسائد من الأسفنج المبطن بقماش رخيص ومساند مماثلة لتحمي ظهور الجالسين من برودة الجدران، أما أرضية القاعة، فقد غطيت بنوع من «الموكيت» المتواضع للغاية، بينما أضاءت القاعة مصابيح من «الفلورسنت» عارية من أي غطاء أو زينة.

وبدا لنا الزهد والتقشف مقصودا .. ومبالغا فيه!

كان هناك مسند إضافي يكسوه قماش أبيض يتصدر جدار القاعة إلى يسار الداخل، تعلوه صورة للإمام الراحل آية الله خميني، وأدركنا أن هذا هو المكان المعد لجلوس المرشد. واتخذ



القائد الأعلى المرشد آية الله علي خامنئي ، والصورة من التليفزيون فلم يكن مسموحا بدخول الكاميرات الى مقره

شخص وديع المحيا مجلسه بالقرب من هذا الموضع، مما أوحى بأنه لابد أن يكون من الشخصيات المقربة من القائد، وهو ماثبت لنا بالفعل، فعندما تفرسنا في قسماته تعرفنا فيه على وزير الخارجية السابق علي أكبر ولايتي ! وبعد فترة انتظار قصيرة، دخل المرشد القائد علي خامنئي إلى القاعة التي افترش أعضاء المؤتمر أرضيتها بالكامل تقريبا، لايفصل صفهم الأول عن المكان الذي تربع فيه القائد في صدر المكان إلا مسافة قصيرة.

محاورة «الشيطان الأكبر»

لم نستطع تقدير الوقت الذي استغرقه حديث آية الله علي خامنئي إلينا .. بسبب افتقارنا الى ساعات اليد من ناحية، ولأن الحديث شدنا بسخونته من ناحية أخرى فلم نشعر بمرور الوقت. كان المرشد



شارع فى طهران : الاشجار لا تزال عارية فالشتاء يخيم على العاصمة الايرانية ولابد من انتظار الربيع

غاضبا، بسبب مابدر من الرئيس الأمريكي في حق إيران، وانعكس غضبه في التعبيرات التى استخدمها ردا على الاتهامات الأمريكية، وهى تعبيرات كانت قد اختفت من الخطاب السياسي الإيرانى مثل وصف الولايات المتحدة بأنها «الشيطان الأكبر» وغير ذلك من كلمات حادة وقارصة.

وقد أدركنا، بعد وقت قصير، أن وراء الغضب الإيرانى ماهو أكثر من مجرد الانفعال الذى سببته إهانات الرئيس الأمريكى واتهاماته. فقبلها، بدت الأمور وكأنها تسير فى اتجاه ايجابى بالنسبة للعلاقات الأمريكية الإيرانية .. إلى حد أن مصافحة شهيرة جرت بين وزيرى خارجية البلدين فى أروقة الأمم المتحدة، وذلك لأول مرة منذ عشرين عاما، كذلك اعتبرت طهران أن من المؤشرات الإيجابية فى العلاقات أنه سمح لمندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة أن يخرج من نيويورك، لأول مرة أيضا منذ قطع العلاقات بين البلدين، وأن يذهب إلى واشنطن حيث كان أحد أعضاء الكونجرس قد حدد له موعدا للالتقاء به، وقد كانت طهران فى حاجة إلى «تطوير» هذا الاتجاه لكى تفك نهائيا قيود الحصار والمقاطعة المفروضة عليها منذ عقدين من الزمان، صحيح أنها كانت قد استطاعت – خصوصا منذ مجىء الرئيس محمد خاتمى – إعادة العلاقات مع قوى دولية وإقليمية مهمة بالنسبة لها فى الخليج وأوروبا وغيرها، ولكن بقيت العلاقات المقطوعة مع واشنطن، والقوانين التى تصر الولايات المتحدة فى استمرارها، تحول دون تعاون الشركات الأمريكية العملاقة فى العمل مع إيران فى مجال



الشادور.. بدأ يختفي تدريجيا .. وتحل محله ملابس «مألوفة» أكثر

إنتاج النفط، وتتضح أهمية مشاركة هذه الشركات إذا أخذنا في الاعتبار حقيقة أن حقول النفط الإيرانية لم تشهد أي تطوير ولم تعرف أي نوع من التكنولوجيا الحديثة التي استخدمت في هذا المجال منذ عشرين عاما .. وإلى الحد الذي أصبحت فيه هذه الآبار في حاجة الى استثمارات هائلة لتطويرها، وهي استثمارات لاتقدر عليها إلا البيوت العالمية العملاقة والتي يقدرها بعض الخبراء بما يناهز - أو يزيد - على المائة مليار دولار!

من هنا كانت الحدة الإيرانية تعبيرا ليس فقط عن الغضب .. وإنما أيضا بسبب الصدمة وخيبة الأمل لهذا التراجع الذي اعتبرت طهران أنه لامبرر له .. ولم تخف مصادر إيرانية شعورها بأن هذا «التخريب» لابد أن تكون وراءه أصابع إسرائيلية.

ومع ذلك فإن أحداً لايتوقع مواجهة - الآن - مع الولايات المتحدة أو ضربة أمريكية مفاجئة.

وفي كل الأحوال ، فإن الحياة ستمضي .. وسيستمر التغيير .. وكثيرون في إيران هم الذين يراهنون على المستقبل .. ويقولون إنه إذا كانت إيران قد استطاعت أن تحقق نموا يصل إلى خمسة في المائة سنويا، خلال الفترة الماضية، رغم الحصار والعقوبات، فإن في قدرة البلاد بعد انتهاء الأزمات والتقلصات الحالية - أن تحقق انطلاقة تنهي الاختناق الاقتصادي والمعاناة التي لاتزال ترهق كواهل الناس .

فإذا كان وجه الحياة في إيران قد تغير حقا بعد ثلاثة وعشرين عاما من قيام الثورة، فمن المؤكد أن ماسيكون عليه البلد بعد عشرين عاما أخرى سيكون أشد اختلافا عما نراه اليوم! ■



الرسائل

قصة قصيرة

بقلم
حسب الله يحيى
بغداد

... في المساء العميق اعتاد ... أوقاته للمذياع، يعطي له ... ل الإصغاء. فيما ينصرف ... لتنظيم كتبه وأوراقه ... رسائل القديمة التي كان قد تسلمها في أزمنة مختلفة وقد تراكم عليها التراب ونسجت عليها خيوط العناكب. كان يحس أن الوقت يمر سريعاً.. سريعاً وليس بمقدوره أن يلحق به. وكان يعتقد أنه سيجد الوقت مبذولاً أمامه بعد حصوله على التقاعد من وظيفته التي مضى على استمراره فيها أكثر من ثلاثة عقود.. إلا أن الوقت مازال يعجل بمسيرته.. لذلك فضل أن يستثمر أوقات نشرات الأخبار والتقارير، بينما ينصرف لتنظيم غرفته المكتظة بالأوراق والكتب والمجلات، والتي يجد أنها قد تحولت إلى عبء على عينيه وذاكرته، كما لم يعد بمقدوره العثور على كتاب أو صورة أو مجلة.. يعرف جيداً أنها موجودة في مكتبته.. كما واجه الفشل والعتاب من أصدقائه وهو

يعدهم بكتاب ما، موجود لديه، لكنه لا يعرف موقعه، ولا كيف يجده بين مئات الكتب التي تضمها مكتبته.

كانت هذه الغرفة، هي مكانه الأثير وعالمه السحري وموطن كل أسراره. وخصوصياته وبوحه الذي لا يمكن أن يخرج من باب أو شباك.. هذا هو المكان السري الوحيد الذي يطمئن إليه ويحتمل شئونه وشجونه.

كان يفرحه أن يعثر على كتاب ظل يبحث عنه من قبل دون جدوى.. حتى يشترى نسخة ثانية منه.. فيطمئن ، وقد لا يجد نسخة أخرى ولا طبعة أخرى من كتاب يحتاج إليه.. ويعلم أنه ينام بين هذا الجمع من الكتب.. دون أن يعلن عن نفسه. أو يستيقظ من نومه وعزلته وسكونه.. وهو الذي كان يرى فيه الصديق الأثير الذي يقصده متى يشاء، ويتركه متى أراد.. لكن هذا الصديق الحميم بات يفضل التخفي عن عينيه، والابتعاد عن أحلامه عند الحاجة ، وإهماله عندما لا تكون هناك حاجة إليه.

أحس.. بمسئوليته وبأن صديقه الكتاب له



الحق في اتخاذ قراره بالتخفي، وحتى يعالج هذا الجفاء وهذا الاهمال المقصود أو غير المقصود ، رأى أن يغتنم الوقت ويتوجه لإزالة الغبار عن صديقه الكتاب وأن يضعه في المكان الذي يليق به، حتى إذا ما ناداه، أشار الصديق الحميم إلى وجوده بكل هدوء وسرور واحترام .. وصار بين يديه وتحت أنظاره.

في المساء العميق.. كان صوت المذياع يعلن عن حروب وفيضانات وزلازل وحرائق وتظاهرات.. وأحداث هنا وهناك، كان العالم ساخناً..

وتموز يلتهب والمروحة السقفية تبدو متعبة وهي تواصل الدوران ليلاً ونهاراً في عمل متواصل.. كأنها قد أصيبت بالصداع، وبدت منهكة تئن من علة أصابتها.. أشفق عليها ، جعلها تستريح، تهدأ ولو لوقت قصير.. فللآلة روح حيّة ينبغي أن نحترمها ونعاملها بحنية.. حتى تبادلنا الحنان وترأف بنا وتعرف حاجتنا الماسة إليها.

هكذا كان يخاطب نفسه ومروحته السقفية التي علاها الغبار والاهمال منذ سنوات طويلة.. لم يعد يعرف كم بلغ عددها.

صوت المذياع يحاصره بالأحداث الآنية الساخنة، والصور والرسائل والكتب.. تعيده إلى ماضٍ أقل هدوءاً ، أقل.. أقل إثارة للمشكلات ، وأحياناً.. أجمل وأكثر بهجة، أكثر استعادة للذكرى، إكثر إثارة للمشاعر والأحاسيس، أكثر إدراكاً وإنتباهاً على إيقاظ ما كان منسيا ومغيبا وبعيدا.. بعيدا جداً عن الذاكرة التي خيم عليها النسيان.. كما تراب القبور المنسية.

في هذه الأثناء ، إلتمت كل حواسه.. نظراته وقعت على خط ألفه جيداً، فتلمس الحروف، كأنما يبحث فيها عن حياة، عن حركة

مـا، أصـابعـه راحت ترتجف.. وسريعاً فتحت غلاف الرسـالة، وراحت الذاكرة تستعيد أيامها الأسعد من السعيدة .

رآها بين السطور ، في قلب الكلمـات، في صميم الحروف.. وقد تحولت إلى كائنات حيّة حيّية ، تسأله بخجل، تناديه بألم وانكسـار ورغبات مكتومة، تهتف به ، تراه، تستنطق الخفي والسـاكن والمعتم والمجهول والغريب في حياته.. وتتجاوز مسافات الأزمنة والأمكنة، وتصغي إلى صمته.. صمت ميت أكلته الأيام وحولته إلى كائن هش، تضاءلت فيه ومضات الحياة، حتى بات لا يدرك الوقت ولا يميز بين الليل والنهار، وبات كل شيء حـوله يختنق حدّ الفناء.

خجل من مظهره، من شيخوخته وعجزه ومرضه، خجل من هذا الانطفاء الكلي الذي بات يهدد حياته ويحولها إلى مجرد زمن يستعيد نفسه، فيما تستعيد أوجاعه دقاتها في رأسه وحواسه والاختناق في صدره.. حتى بات يتوسل الأماني أن تمن عليه بالنهاية.. النهاية الأبد،

لكنه يخشى أن يبوح بهذه الأمنية التي باتت تشغله في كل الأوقات، حتى لا يكون نقيضاً مع نفسه، مع أحاديثه إلى أولاده وزوجته وهو يزرع فيهم الآمال الكبيرة.

هذه الرسالة، أيقظت الماضي كله، أخرجت السنوات العتيقة وأزالت عنها التراب وجعلتها تتنفس الذكـريات بالهدوء.. الهدوء السعيد الذي توسمت به، قالت رسالة الماضي.. إنها تحبه، وتراه أفضل الناس وأصدقهم وأكثرهم قرباً إلى نفسـها وقلبها وذاكرتها.. ولا يشغلها شيء مثل رؤيته والجلوس أمامه تحدق في عينيه، وهمس كلماته.

وكان يقول لها: إنه يحبها، وحبه امتلاك، وامتلاكه يعني الذوبان فيه.. يحفظها في مكان



سري.. وليس لأحد قدرة على اكتشاف وجودها في داخله.. كتاب سري.. ليس بوسع أحد أن يقبض عليه متلبساً بالحصول عليه وقراءته.. فما فعله.. كان أن حفظ الكتاب كلية وبات من المستحيل أخذه بجريمة قراءة كتاب ممنوع.

سألته مرة : هل أساوي كتاباً عندك؟

أجابها: - وهل يساوي الكتاب أحداً سواك؟

وراح يقـرأ في العتمة.. بعد أن عم الظلام، وحلّ التوقيت المبرمج وغير المبرمج.

- لا يعرف - لقطع التيار الكهربائي.

نادته الزوجة، ناداه أولاده واحداً بعد الآخر، لم يكن على دراية بالأصوات، وظل يقرأ رسائل حفظها وكتباً سجينة، فتحت نوافذها وراحت تبصره..

حسبوه نام من تعب، فلم يفضلوا إيقاظه، وحسب أن الظلام ستاد يحميه من الرصد والانتباهات والأسئلة والفضول.. واحتفظ بهدوئه.

أسعدته العتمة لأول مرة.. فيما كان يوظف

أوقات انقطاع التيار الكهربائي للحديث إلى عائلته في موضوعات كثيرة.. حد الملل، حدّ أن يبادر أحد أبنائه أو زوجته بتنبيهه: لقد حدثتنا بهذا الموضوع.

.. وهو ، هو، حتى الآن ليس بوسعه أن يقول هذا لأحد.. ستون عاماً ومازال الخجل قرين نفسه وحياته وانطباعات وجهه وستون عاما وفيه الكثير .. الكثير من الخجل على طي صفحة من كتاب، أو إسكات حروف سمح لها بالحديث بعد أن أخرجها من مغلفها.. ذلك أن الكتب والرسائل، كائنات صديقة وحميمة.. ليس من السهل إسكاتها.. بسبب غير مقبول يتعلق بالظلام.. أليس بمقدور الأصدقاء أن يتكلموا في قلب الظلام، فيشع القلب ويتبدد الظلام..؟

ما كان بوسعه أن يسكت صوتها، أن يضيّع وجودها.. وهو الذي افتقده أعواماً طويلة حسبها الدهر كله، حسبها الأمل.. الأمل المستحيل الذي خرج عن استحالته وجاء إليه في مساء أجمل بكثير مهما كان يرتجيه.



كانت صاحبة الرسالة تمنى نفسها بلقائه، وكان هو.. يمني نفسه بلقاء هو الحياة كلها.. مجتمعة.. والافتراق هو المستحيل.

حدثته عن قرنفلة تزين الزمان والمكان ويستحيل عليها العطر.

حدثها عن الكتب الأثيرة التي تملأ الكون فكراً وإبداعاً وتستحيل على عيون تتوق إليها.. كما الهواء، كما الماء ، كما الحياة.

قالت .. كيف تضم الأشياء التي نحبها إلينا.. هل سيظل هذا.. الصعب في حياتنا ، هل سنبقى نتمنى فحسب..؟

قال.. كل الأسئلة تستغيث، وهي تبحث عن أجوبة.. كما الطير يبحث عن جناحين يريد أن يطير بهما.. فإذا الريح العصية ، وأهداف الصياد بالمرصاد.

كان به شغف كبير إلى الحديث طويلاً، إلى رسالة تملأ كل فضاءات غرفته بعد أن سكت المذياع، وسكتت معه أنباء الكوارث والحروب.. وحل صوت الحشرات الطيارة والقفازة والزاحفة.. كل تجد حريتها في الظلام.. وهو ، هو الكائن الضوئي الوحيد الذي بات يهمس إلى نفسه في العتمة.

ظل يقرأ بصوت خافت مهموس، كل رسائلها التي حفظها وجعلها في خزانة ذاكرته وليس بوسع أحد اكتشاف وجودها سواه.

وراح يتوسل الظلام أن يبقى حتى يخرج المخبأ، حتى يعلن المخبأ عن نفسه، متى تكون النفس بكامل بهائها وفرحتها وهي تلتقيه في هذا المكان الأثير.. لكنه أثير فجأة، جفّل .. كأنما مسه جمر.. فاكتوى وهو يسأل:

- هل كان عليه أن يكشف عن جنته السرية، عن فردوسه النادر أمام كل هذا الجمع من الأصدقاء الذين يكن لهم الاحترام ويجمعه بهم ساعاته الأجمل..؟

.. أحسها تبتسم، تساءل.. أكانت تشك في

سريته وإخلاصه وكتمانه؟ دهش من ابتسامتها.. توسل إليها أن تفصح .. توسل الاطمئنان أن يقول له شيئاً، توسل الوقت أن يستعاد، أن يرجع إلى شبابه، توسل العطر أن يقترن بألوان القرنفل، والكتب أن تثق بالعيون.. وهي أن تراه كما يراها.. بعيون مفتوحة على الصدق.. وأن يظل يقرأ رسائلها ويحس لمسات أصابعها على الورق.. وعيونها .. العالم الذى يرى على الورق، وعلى الورق السعيد بلمساتها، وعلى الحروف تزهر في مداد لا يجف.

وتوسل.. ثانية إلى دمه أن يكون بين أصابعها.. حبراً تكتب به رسالة حب إليه، فتعيد إليه دمه، رشاقة دمه الذى يئن من جفاء، ويختنق بثاني أوكسيد الكاربون .. بعد غيابها الذي لم يكن يصدقه أبداً.

.. وجاء صوت الصراصير مزعجاً، يغتال الصمت الجميل الذى كان يحتفل به وهو.. بين الكتب والرسائل والأشواق والآمال.



كان به عطش ملّح على اللقاء بها، على أن تكون قريبة منه، في همس ناعم سرى.. ليس لأحد فيه نصيب وليس للعالم كله شأن بهذه الأسرار المهموسة التى تقول الكثير وتعني الكثير وتتجمل بما لا تتجمل به كل الحدائق وكل الفاتنات.. سمع دقات على الباب، أهملها.

سمع الإهمال الدقات، فأراد أن يتمرد على هدوئه، والإعلان عن نفسه، فكتمه، أحس الاهمال بالاختناق.. وتحرك معلنا عن حضوره.

- أبى.. هل كنت نائماً، ناديناك كثيراً.. لكنك لم تجب، حسبناك نائماً، فلم نكن نريد ازعاجك.

خاطب الابن الصغير .. الأقرب إلى مشاعره.

- أبي .. جاء الكهرباء منذ زمن.. عندما كنت نائماً.

قال :

- من أرسل في طلب الكهرباء، أرجوك.. أرجوك يا ولدى العزيز، دعه يذهب، لست بحاجة إليه.

- بابا .. منذ متى أحببت الظلام؟

قال : لست أحب هذا الكهرباء الصناعي.. أنا، أنا ضوئي الخاص بي.

- بابا .. لماذا لا تشاركنا به.. أنت تحبنا.. شاركنا به.

قال : كهربائي.. يابني، لا يضيء إلا لي، لي فقط.

- نحن لم نره ولو مرة واحدة..!

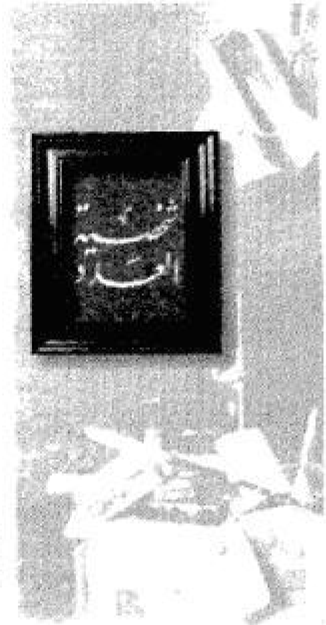
قال : ضوئي لا يراه سواي.

.. وخرج الصغير هاتفاً.. ماما، أبي، أبي.. إما أن يكون قد جن، أو هو.. هو المسئول عن إشعال أو إطفاء الكهرباء.

عجبت الأم.. هتف الأب.. لا.. لا، إنما هناك ضوء في أعماقي أراه ويراني.. ضوؤه من قلبي، وقوده من أشواقي.

وقف أفراد العائلة.. وهم في دهشة ينظرون إلى رجل كانوا يعرفونه.

■



عبد العظيم أنيس

وثلاثية

العلم والفكر والنقد الادبى

بقلم
محمد دكروب
بيروت

عندما جاءنا عبدالعظيم أنيس إلى بيروت، عام ١٩٥٤، شبه مبعد عن مصر - بعد أن طرد، هو وخمسون من أساتذة الجامعات المصرية - كان يحمل لى مفاجأة مذهلة.

كان، بالنسبة لنا في ذلك الحين، ناقدا أدبيا، من رواد المعركة ضد القديم، خاض (هو ومحمود أمين العالم، وآخرون) معركة من أجل أدب جديد، تحت شعار «الأدب في سبيل الحياة»، فترامى إلينا، في بيروت، صليل المعركة القاهرية بين أصحاب الجديد هؤلاء وبين المنادين بالقديم (ومنهم طه حسين، والعقاد..)، فشمرنا في بيروت عن سواعدنا، وخضنا المعركة تضامنا مع رفاقنا التقدميين، حملة لواء الجديد في مصر، ضد طه حسين بالذات الذى سبق أن اكتسبنا ثقافتنا الحديثة على كتاباته التنويرية، التقدمية .. فتغافلنا عن هذه الحقيقة، وقلنا: كان الرجل تقدميا، ثم تحول - ربما - إلى مسار آخر!!



قلت له :

– ففي أيّ ميدان، من ميادين الثقافة في بيروت تريد العمل ياعبدالعظيم؟

قال بهدوء بديهي :

– في ميدان تخصصي .. العلم.

– تقصد علم الأدب؟

– بل أقصد : تخصصي العلمي.

ألا تعرف أن تخصصي هو : الإحصاء الرياضي؟

(من خلال كتاباته المعروفة، حتى ذلك العام، لم يكن قد أتيح لنا أن نتكهن بمعرفة أن تخصصه علمي فكتاباته التي عرفناها في النقد الأدبي، والدراسة الأدبية، وأحيانا في السياسة والفكر السياسي..).

ففاجئني بقوله :

– جئت أدّرس الرياضيات العليا، وألقي محاضرات علمية في الإحصاء الرياضي، في «معهد الإحصاء الدولي» فرع بيروت .

فهل تغيّرت نظرتي إليه وصارت إلى الاتجاه الأكثر وقارا؟.

شخصية تميل للبساطة

«نعم .. ولا» فقد ملأتني هذه الحقيقة العلمية لعبد العظيم .. شعرت باعتزاز عميق تجاه هذا الصديق العالم/ الناقد، ولكن شخصية عبدالعظيم كانت تميل إلى البساطة والمرح وخفة الروح والإنسان الذي يعرف كيف يقهقه.. ولم تكن هذه – في ذهني – صورة «العالم» من خلال سلوكيات بعض أساتذة الرياضيات «العلماء»!!

ولكن التساؤلات التي طرحت نفسها أمامي هي: من أين جاء هذا العالم الى النقد الأدبي، أو : من أين جاء هذا الناقد إلى العلم؟ ثم : ماهي العلاقة، وكيف يتجلى التفاعل؟

قال عبدالعظيم أنيس: «لقد واجهت مشكلة عسيرة، عام ١٩٢٩، إثر حصولي على شهادة الثقافة العامة، إذ كان عليّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب، علوم، رياضيات) فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا للرياضيات، ومتفوقا فيها .. ولكن نظام التعليم في جامعاتنا لم يكن يسمح بالجمع بينهما».. فما العمل؟ – («التكوين»، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٩٨، ص ١٠١ – ١٠٢).



وقد استطاع أخوه، إبراهيم أنيس، أن يقنعه بالدخول إلى كلية العلوم لدراسة الرياضيات، «وقال له إن بمقدوره دراسة الأدب والفلسفة وحده، خلال أشهر الصيف، وبأية وسائل متاحة .. وهكذا كان.

ثم يقول عبدالعظيم : إنه دخل قسم الرياضيات في كلية العلوم، ولم يندم على ذلك أبداً .. ويشير إلى جماليات الرياضيات فيروى أنه في مرحلة المراهقة والنزعات الأفلاطونية، وعالم المثل، بدت له العلوم الرياضية البحتة لا التطبيقية، ذات جمال خاص، وما يذهله حسب قوله، هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت كأنها مستقلة عن أي خبرة، «إنه عالم المثل إذن، كما يقول أفلاطون».

.. هكذا إذن ، جاء عبدالعظيم، إلى العلم، متخصصا فى الإحصاء الرياضى لكنه - كما قال - كان محبا للغة العربية والأدب والفلسفة .. فرأى أن لابد أن يجد طريقة أيضا إلى الكتابة الأدبية أو النقد الأدبى، وتشاء الأحداث أن يبرز اسم عبدالعظيم أنيس، ناقدا أدبيا، مع بداية الخمسينات، فى ظروف معركة أدبية وصفت بأنها «بين شيوخ الأدب وشبابه» .. وتشاء الإرادة أن تكون هذه الكتابات فى النقد الأدبى «تمرينا عاما» لكتابات لاحقة، فى مسارات العلم والعلماء، تأخذ الكتابة النقدية بعض طرائقها وأساليبها.

● كتاباته تثير التفكير والتأمل

رؤية مستقبلية

ففى كتاباته النقدية ، وبالأخص فى كتابه المشترك مع محمود أمين العالم «فى الثقافة المصرية» الصادر عام ١٩٥٥، تبين الناقدان برؤيتهما إلى العمل الأدبى عبر علاقاته بالمهاد الاجتماعى، والبحث فى مدى حضور الأوضاع الاجتماعية والصراعات الاجتماعية فى العمل الأدبى، تحكمهما رؤية مستقبلية إلى الحركة الاجتماعية، وحرص على مدى حضور هذه الرؤية المستقبلية فى قلب العمل الأدبى الروائى وعبر شخصياته.

وربما كانت رؤيتهما - فى تلك المرحلة - إلى الحركة الاجتماعية أعمق وأكثر اتساعا ومرونة من رؤيتهما إلى بنائيات العمل الأدبى، وهذا أمر مفهوم، تاريخيا، وفى سياق أن تلك الكتابات حملت : جديد الريادة وعيوب الريادة معا.

وليس هذا موضوعنا هنا على أننى أحب أن نرى معا : مدى حضور الكتابة النقدية الأدبية فى الكتابة العلمية (أو فى الكتابة عن



شخصية العدد

مسارات العلم والعلماء) التي مارسها عبدالعظيم أنيس لاحقا، وجمع بعض كتاباته هذه في كتاب قيم وجميل صدر عام ١٩٨٣، عن «مؤسسة الأبحاث العربية»، تحت عنوان «علماء وأدباء ومفكرون».

ففي هذا الكتاب استخدم عبدالعظيم المنهج نفسه، مع نضج أعمق في استيعابه واستخدامه، واستفاد من الأسلوب مع اهتمام أكثر بجمالية التركيب البنائي للكتابة العلمية، وابتكار طرائق لتوصيلها إلى الناس، غير العلماء، من القراء.

بين العلم والأدب

فلم يكن أنيس يضع سورا صينيا بين تكوينه العلمي وتكوينه الثقافي الأدبي السياسي، فكان يحرص، وهو العالم، أن يستزيد من ثقافته العامة الأدبية الفلسفية الفنية الموسيقية، ويختزن الخبرات من نشاطه السياسي العام فكانت ثقافته العامة العلمية الأدبية متدامجة مع نشاطه السياسي العملي، والكفاحي، ومع ضرورات الوصول - في الكتابة التعميمية .. إلى الطرف الآخر : الناس.

وقد أفادته الكتابة الأدبية كثيرا في مجاله العلمي هذا.

★★★

يبدأ عبدالعظيم كتابه «علماء وأدباء ومفكرون» بمقالة تحت عنوان : «إحياء التراث العلمي العربي»، وفيها يبدو واضحا تأثره المنهجي بما كان اتخذه في دراساته الأدبية من رؤية إلى علاقات العمل الأدبي بالحركة الاجتماعية وبالزمن، وكأنه بمقالته هذه يعيد صياغة أسسه تلك ليدرس في ضوئها ما سيأتي من دراسات علمية.

يلاحظ عبدالعظيم، في مقالته، أن المنهج الذي اعتمد في أكثر الدراسات العربية حول تراثنا العلمي العربي هو منهج أحادي الجانب، يركز على الإنجازات العلمية بحدّ ذاتها، دون اهتمام كاف بتوضيح وتقدير الصلة بين هذه الإنجازات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمعات العربية آنذاك، أو دون اهتمام على الإطلاق بأثر التيارات الفكرية والفلسفية المختلفة في إنجازاتنا العلمية، ولا التأثير العسكي للعلم العربي في هذه التيارات الفكرية والفلسفية (راجع ص : ١٧).

ويرى أنيس، من الناحية المنهجية: أن كل دراسة عن العلم

العـربى وتراثه مطالبـة بأن تضع هذا التـراث ضـمن إطاره الاقتصادى السياسى الاجتماعى والفكرى العام، وأن تشير خاصة إلى الاضافات الجديدة التى راكمتها اكتشافات هذا العالم أو ذاك الى التراث العلمى العربى والإنسانى الواسع .. وأن تضىء التفاعل المتبادل بين هذه العوامل المختلفة.

● وفى هذا السياق المنهجى يكتب أنيس دراسة ممتعة عن عالم البصريات العربى ابن الهيثم (الذى عاش قبل ألف عام من أيامنا هذه) فيصوره ضمن أحداث عصره، وكيف أنه أعلن وهو فى العراق، أن من الممكن عمل شىء ما على النيل، يشبه السد، بحيث تستفيد مصر من أيام الزيادة أو النقص فى مياهه.. فاستقدمه الحاكم بأمر الله إلى القاهرة، فتفحص هذا العالم مجرى النيل فى عدة مناطق، فوجد أن ما وصفوه له هو غير ما رآه على الأرض .. فألحقه الحاكم بوظيفة ما. وكان العصر عصر تدهور سياسى وفكرى واحتدام صراعات وتزايد فقر، فامتلأت القصور بالمؤامرات مما يحبط أى إبداع فى مجالات الثقافة كما فى مجالات العلم .. وفكر ابن الهيثم أن يبتعد عن هذا الجحيم التآمرى، بأن يبتكر طريقة - نضالية - تخرجه من ظروف عصره وتجعله هو وأبحاثه العلمية فى مأمن من الوشاة والحساد والمتآمرين . فادعى الجنون، واعتزل، وأنتج فى عزلته الجنونية هذه آثارا مارست تأثيرا هائلا فى علم البصريات فى أنحاء أوروبا لمدى قرون، أهم هذه الآثار كتابه الشهير «المناظر» وأبحاثه فى تركيب العين.

● كيف استفاد من دراسته العلمية فى كتاباته السياسية والأدبية؟

ويقرر العالم عبدالعظيم أنيس أن «ليس هناك أدنى شك حول الأهمية البالغة لكتاب ابن الهيثم، «المناظر» وحول الأثر البالغ المدى الذى تركه هذا الكتاب على العلم الأوربى فى عصر النهضة، وعلى تطور فن الرسم الأوربى بما قدمه من مفهوم المنظور». (ص ٢٧) ويورد قولا للعالم البريطانى، من أصل بولونى، ج.برونوفسكى، يضىء فيه جانبا من جديد ابن الهيثم وإضافته، حيث يقول:

- «لقد ظن اليونانيون أن الضوء ينطلق من العين إلى الأجسام، ولكن ابن الهيثم أدرك لأول مرة أننا نرى الجسم لأن كل نقطة عليه ترسل شعاعا إلى العين وتعكسه فيها» - (ص: ٢٤).

وهذا الكشف مارس تأثيره الكبير فى تطور علم البصريات، والفلك، وفى فنون الرسم أيضا.

نظرية ابن الهيثم

ويوافق عبدالعظيم أنيس القائلين بأن ابن الهيثم «كان من فرقة



الواقعيين من العلماء الذين يصح أن نجمل مذهبهم فى أنهم يرون العالم الطبيعى موجودا فى ذاته وجودا عينيا، خارج الذهن أو العقل، وأن الحواس أدوات إدراكه» (ص :٣١).. وهذه الرؤية لاتنحصر فى أنها مقولة علمية، بل هى مفهوم فلسفى ثارت حوله مجادلات بشأن الفهم الفلسفى، المادى أو المثالى، للكون ولحركة العالم، وهذه الرؤية مرتبطة بكشف ابن الهيثم حول أن صورة الأشياء ليست نتاج ضوء من العين إلي هذه الأشياء بل بالعكس هى إشعاعات من الأشياء الى العين.

ربما أطلنا فى هذا المثال لنوضح مدى استفادة الكتابة فى العلوم من طرائق الكتابة فى النقد الأدبى، كما فى منهج النظر نفسه إلي مكان النتاج الأدبى والعلمى فى حركة المجتمع والكون.

● واستفاد عبدالعظيم، أسلوبيا، فى الكتابة الأدبية فطلع علينا بالأسلوب المشوق فى سرد حكايات العلماء وفى عرض نتائج أبحاثهم واكتشافاتهم العلمية، هكذا مثلا، فى مقالته المشوقة عن العالم الفرنسى افرست جالوا، يبدأ فى العنوان: «عندما تجتمع العبقرية والنضال السياسى وسوء الحظ؟» .. ثم يتابع: «افرست جالوا، واحد من أعظم من أنجبت أوروبا - وفرنسا بالذات - فى علم الجبر فى القرن التاسع عشر. عاش حياة أغرب من الخيال، ومات فى الحادية والعشرين مقتولا بصورة تفوق خيال السينمائيين» - (ص:٧١)، ثم يخبرنا أن جالوا لم يترك وراءه غير ستين صفحة .. «ولكن هذه الصفحات الستين ظلت تشغل أذهان الرياضيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاته».

هذه البداية للمقالة تثير عند القارىء العديد من التساؤلات، والتشوق إلى التعرف على إجاباتها خلال القراءة:

- كيف صار جالوا من أعظم من أنجبت أوروبا فى علم الجبر وهو قد مات فى الحادية والعشرين من العمر؟. وما هى الحياة الأغرب من الخيال التى عاشها؟.. وما هى وقائع مقتله التى تفوق خيال السينمائيين؟ وماهى طبيعة النضال السياسى الذى خاضه؟.. وما هو مضمون هذه الصفحات الستين، فقط التى تركها فشغلت أذهان الرياضيين وقدمت إسهاما كبيرا فى تقدم العلوم الرياضية فى العالم؟.

فى المقالة هذه، التى تشبه القصة فى تركيبها المشوق وسلاسة كتابتها، والتى يتضح فيها مدى استفادة الكتابة العلمية من طرائق

الكتابة الأدبية، إجابات عن هذه التساؤلات، وأكثر.

جوته .. وعلم الألوان

● وهل تعرف أن الشاعر الألمانى الكبير جوته جرب أن يصير عالما؟

- يروى عبدالعظيم أن الشاعر العظيم بهرته ألوان الريف الإيطالى، وتراكيب ألوان الرسامين الكبار، في اللوحات الفنية، فأراد أن يصل إلى سرّ الألوان ، علميا فأنشأ كتابا ضخما بعنوان «نظرية الألوان»، ليس المهم أن نظريته العلمية كانت خاطئة، بل كما بيّن أنيس، هو رؤيته إلى مسألة التفاعل بين العلم والفن، وهل هي حقيقية ؟.

عنوان المقالة هو «جوته، شاعر عظيم وعالم فاشل».. وفي المقالة حديث عن الجانبين، وخاصة الجانب «التعلمي» فى نتاج الشاعر .. وفي مسرحيته العظيمة «فاوست» مناقشات علمية فنية مؤداها أن حقيقة الحياة هى فى الفن هى فى الذات، وليس فى الموضوع!.

ولكن عبدالعظيم يختلف هنا عن جوته ومعه، من حيث رؤيته أن التفاعل هو أساس الحركة، والحياة، ويشير أنيس إلى ذاك الانقسام بين تصورين متناقضين لايزالان يحومان حولنا حتى اليوم: «التصور الميكانيكي للكون الذى تعود جذوره إلى نيوتن، والتصور العضوى للكون الذى تعود جذوره إلى «أرسطو» (ص: ١٥٧).

● مدى حضور الكتابة النقدية الأدبية فى كتاباته العلمية

● ويشير عبدالعظيم ، في مقالته «جاليلو : الحقيقة والرمز» إلى تداخل آخر بين الأدب والعلم، وذلك لدى الكتابة عن مأساة جاليلو وقضيته: هل جاليلو بطل أم متخاذل فى مقاومته محكمة الكنيسة ثم خضوعه لها؟.. وهل هو بطل من أبطال التقدم أم هو - في موقفه - من معرقلى حركة هذا التقدم؟.

ويروى أنيس كيف كان المسرحى الألمانى برتولد برخت يغير ويطور فى مسرحيته عن جاليلو وموقفه حسب تحولات العلم فى عصره، ومسئوليات العلماء فى العالم وعنه .. فليس من وجهة واحدة للعلم ولا من وجه واحد أو موقف واحد للعلماء . وإذا كان العلم، بذاته ، يحمل التقدم، فإن اليد التى تستخدمه هى التى توجهه نحو التقدم أو نحو التدمير، وتظل على العلماء مسئولية أخلاقية. من حيث مواقفهم وواجبهم فى إدانة الاستخدام التدميرى لنتائج أبحاثهم، أو عرقلة هذا الاستخدام.

● وتتكرر مأساة محاكمة جاليلو، فى ظروف عصرنا، مع محاكمة العالم الأمريكى روبرت أوبنهايمر، فهو كان العالم الأول



والأساسي في صنع القنبلة الذرية، ولكنه، بعد تأمله في النتائج المأساوية لإلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، وبعد انتهاء الحرب العالمية، رفض أن يشارك في صنع القنبلة الهيدروجينية، ووقف ضد انتاجها .. فكان أن قدم إلى المحاكمة أمام مجلس الشيوخ الأمريكي بدعوى أنه كان، في السابق، منتميا إلى منظمات يسارية، ولهذا فإنه يقف الآن ضد انتاج القنبلة الهيدروجينية، أما هو فلم ينكر انتماءاته، وأعلن كذلك أن المسئولين عنه جميعا، كانوا يعرفون هذا، عندما وصفوه بأنه «أبو القنبلة الذرية»!.. ولكن أوبنهايمر تردد في أواخر وقائع المحاكمة!.. ويعبر عبدالعظيم عن عدم تأييده هذا الموقف، وكأنه - هنا - يحدد موقفا لم يحدده صراحة من موقف جاليلو، فأشار إلى أن أوبنهايمر الذي وقف ضد انتاج القنبلة الهيدروجينية لم يكن موقفه خلال المحاكمة بهذا الوضوح، لقد اختار أن يتردد ويتذبذب في ردوده عن أسئلة اللجنة ولم ينفعه هذا التردد كثيرا لأن اللجنة أدانته في نهاية الأمر» (ص: ٩٧)، وقال عبدالعظيم إن اوبنهايمر فقد شجاعته في اللحظة التاريخية الحاسمة، أي أنه لم يدافع بصلابة وحتى النهاية عن موقفه وعن رأيه السياسي الذي لم يتنكر له ولم يسبق يوما أن تنكر له في حياته!.

هنا تتداخل المواقف العلمية بالمواقف الفكرية والإنسانية، ويصير الفكر عنصر إدانة إنسانية للاستخدام التدميري لإنجازات العلم.

● ولا بأس من أن نشير هنا إلى الموقف الانساني، والرفاقي، من العلم يمارسه عبدالعظيم نفسه داخل السجن، وهذا الموقف يحدثنا عنه الاستاذ محمد سيد أحمد، في مقالة له نشرها في جريدة «أخبار الأدب» (٨يوليو ٢٠٠١)، وهذا الموقف يكشف العمق الإنساني، والمعرفي لفهم عبدالعظيم أنيس لدور العلم، وإشاعته، ولو داخل السجون، يقول محمد سيد أحمد:

- «إن علاقتي بعبد العظيم توطدت بالذات بعد دخولنا سجن الواحات، مجموعة مناضلين، عام ١٩٥٩ وتعايشنا في زنزانة واحدة لفترات طويلة، كان عبدالعظيم يعطي لي دروسا في علم الإحصاء، وفي مجالات أخرى من الرياضيات العليا وكنا في ظروف كثيرة، لانملك ورقا ولا كتبا على وجه الإطلاق، فكنا نستخدم مسامير للكتابة على الحائط أو طباشير لفرش المعادلات

الرياضية المعقدة.. وكان هو يعيد اختراع النظريات التى كان يدرسها لى ابتداء من بدايتها ثم من نهايتها ثم تكملة قوام النظرية بالذاكرة، بدون وجود مرجع يعود إليه وظللت هكذا أتتلمذ على عبدالعظيم طوال سنوات السجن».

* * *

فى شخصية عبدالعظيم يتدامج العلم بالفكر، بالنقد الأدبى بالموقف السياسى النضالى، طوال مسيرته العلمية - السياسية.

وقد رأينا كيف أن كتابته عن العلم والعلماء أخذت الكثير من طرائق النقد الأدبى والقص الأدبى المشوق .. وفى حين لايغيب الأدب والأعمال الأدبية الفنية عن كتاباته العلمية، لايغيب أيضا المثال العلمى عن تجديد وتجدد الموقف السياسى.

فعندما سئل عبدالعظيم عن موقعه من الماركسية وموقع الماركسية من فكره، بعد انهيارات الاتحاد السوفييتى ومعسكر البلدان الاشتراكية والتصدع التراجيدى فى العديد من الحركات الماركسية فى العالم قال قولة الكاتب، والسياسى، والمناضل، والعالم والمنتقد، معا:

- «برغم الانهيارات التى وقعت، فأنا لا أزال على قناعتى - بشكل عام - بالماركسية، ولا أزال أعتبر نفسى ماركسيا، ولكن حينما نتأمل ماضينا الطويل سنجد أننا عاملنا الماركسية بشكل دوجمانى، كنظرية جاهزة، فيها إجابة على كل الأشياء وحلول لكل المشكلات، بحيث لم ننظر إلى هذه النظرية كمقدمات قابلة للتطوير والإضافة والتعديل، ولم ننظر إلى نسبية كثير من قوانينها».

● كيف يمكن إحياء التراث العلمى العربى؟

ويشرح هذا الموقف الفكرى النضالى بمثال من النسبية والتحولات فى ميدان العلوم :

« .. وأنا أشبه هذه المسألة دائما بقوانين نيوتن الثلاثة، ونسبية هذه القوانين بعد ظهور النظرية النسبية لاينشتين فالنسبية لم تلغ قوانين نيوتن، ولكن أظهرت محدوديتها وبينت الشروط التى ينبغى توافرها ليتتابع التقدم، لكن نجد أنه حتى الآن لاتزال قوانين نيوتن مفيدة فيما يتعلق بعلم الصواريخ، بحيث يمكن اعتبار علم الصواريخ تطويرا لقوانين نيوتن» - (مجلة «أدب ونقد»: «هكذا تكلم عبدالعظيم أنيس » أغسطس/ آب ١٩٩٢ ، ص: ٢٧ - ٢٨).

ولعلنا، بهذا كله، قد قاربنا ذاك التعدد والوحدة، والتجدد والتطور والتطوير .. وتكامل ثلاثية: العلم والفكر والأدب فى شخصية عبدالعظيم أنيس نفسها ■.

حرب النجوم بدأت في الميعاد

بقلم
مصطفى درويش

لا أقصد بحرب النجوم تلك الحرب التي دعا إليها رئيس الولايات المتحدة الأسبق رونالد ريجان، والآن ، وبعد ربع قرن من عمر الزمان يخطط لها الرئيس جورج ووكر بوش، ويعد لشنها ما استطاع من بلايين الدولارات، ومن حشد للرأي العام.

وإنما أقصد حربا من نوع آخر، لا ولن ينطلق فيها صاروخ واحد، ولا ولن تراق فيها نقطة دماء واحدة، أنها تلك الحرب التي تنشب، مع بداية كل عام، في رحاب هوليوود، من أجل الفوز بجوائز أوسكار.



ويرجع تاريخها إلى شهر مايو من العام الأخير من عقد عشرينات القرن العشرين.

أما مكانها فشارع هوليوود الذي يعدّ واحدا من أشهر شوارع مدينة الملائكة - لوس انجلوس، يقصده ملايين السواح من مشارق الأرض ومغاربها.

وأغلب الظن أن لا أحد سار فيه إلا

بينيلوب كروز ساحرة فيلمها مخيب للآمال



نيكول كيدمان نجمة الطاحونة الحمراء



ويل سميث متقمصا دور محمد على كلاى

ومرّ أمام المسرح الصينى، حيث تجرى عروض أهم أفلام مصنع الاحلام. ليلقى نظرة على واجهته، ونظرات على أقدام مشاهير النجوم مبصومة على رصيفه، بدءا من فاتنة السينما الصامتة جلوريا سوانسون، وحتى يومنا هذا.

وعلى رصيف الجانب الآخر من الشارع والمواجه لذلك المسرح العتيق، يوجد فندق روزفلت، حيث جرى أول حفل توزيع لجوائز أوسكار.

القديم والجديد

وكان، والحق يقال، حفلا متواضعا، لم يحضره سوى مائتى مدعو، فى اثنائه تم توزيع تماثيل أوسكار الذهبية على الفائزين، وذلك خلال مدة لم تدم سوى دقائق معدودات «يقال خمس دقائق».

وعلى كل، فبعد ثلاثة أسابيع، وبضعة أيام (٢٤ مارس) سيجرى توزيع تلك التماثيل على الفائزين فى مسرح جديد (كوداك) رائع المعمار، سعته ثلاثة آلاف مقعد، وازدادوا ثلاثمائة والغريب، أنه وإلى حين ساعة اعلان الترشيحات لجوائز أوسكار (١٢ فبراير) فى مبنى ذلك المسرح، وسط اجراءات أمن مشددة، لم يكن ثمة اجماع، ولا حتى شبه اجماع، حول الأعمال السينمائية المؤهلة للفوز بأوسكار أفضل فيلم.

وهذا الغياب للوضوح، وما صاحبه من انعدام اليقين أمر جديد، ومثير للدهشة، لانه مخالف لما كان عليه الحال، فيما سبق من أعوام، خاصة العامين الأخرين من القرن العشرين.

لا شيء أكيد

فقريبا من نهايتهما كان فوز كل من فيلمى الجمال الأمريكى والمصارع، أمرا أقرب إلى اليقين.

وعن هذه الظاهرة، جاء على لسان «مايكيل شامبرج» منتج فيلم «إيرين

بروكوفيتش» الفائز، قبل عام، بأكثر من جائزة أوسكار، أنه لاشيء أكيد.

فباستثناء «عقل جميل» و«لورد الخواتم» ليس ثمة اجماع، حتى حول الأفلام المؤهلة للترشيح لا للفوز بجوائز أوسكار.

وعادة، عندما يقترب العام من شهره الأخير نسمع أصواتا متفائلة تقول «لا تقلقوا . ثمة بضعة أفلام عظيمة في طريقها لدور العرض خلال شهر ديسمبر، الأمر الذى سيتيح فرصة للاختيار من بينها، على نحو ما يحدث دوما فيما سبق من أعوام.

غير أنه، ولأمر ما ، طال الانتظار حتى لفظ ديسمبر أنفاسه الأخيرة، دون أن يحدث شيء من هذا القبيل.

فما أكثر أفلام نهاية العام التى كان متوقعا لها المشاركة فى سباق الأوسكار، غير أنها جاءت مخيبة لكل التوقعات.

خيبة الأمل

ومن بينها، على سبيل التمثيل، فيلم «الماجيستيك» اخراج فرانك دارابونت، وتمثيل جيم كارى، ذلك النجم الذي ارتفع أجره عن الفيلم الواحد إلي عشرين مليون من عزيز الدولارات.

وسماء الفانيليا، إخراج كاميرون كراو، وتمثيل توم كروز مع الفاتنة الاسبانية بينولوب كروز فكلاهما فشل فشلا ذريعا فى إثارة حماس النقاد، على نحو يجنح بهم إلي ترشيحه للأوسكار، ولا أقول للفوز بها.

وفي تعليق على جو البلبلة هذا ذكر «بيتر بارت» محرر جريدة «فارايتى» اليومية أنه لا يتذكر سباقا في مضمار الأوسكار شاب نتيجته مثل هذا الغموض السائد فى هذه الأيام.

فثمة مجموعة من الأفلام لها مؤيدوها المتحمسون لها أشد حماس مثل :

«عقل جميل» للمخرج «رون هوارد» و«الطاحونة الحمراء» للمخرج «باز لورمان» و«سقوط الصقر الاسود» للمخرج «ريدلي سكوت» و«لورد الخواتم» للمخرج «بيتر جاكسون». و«فى حجرة النوم» للمخرج «تود فيلد» و«جوسفورد بارك» للمخرج «روبرت التمان»، و«اميلي» للمخرج «جان بيير جينيه» و«علي» للمخرج «مايكل مان» و«مذكرة» للمخرج «كريستوفر نولان».

برج بابل

وبقدر ما تحمس البعض لهذه الأفلام، بقدر ما تحمس البعض الآخر ضدها، منكراً عليها الحق حتى فى الترشيح للأوسكار.

فمثلا لورد الخواتم فيلم طويل أكثر من اللازم وعقل جميل فيلم درامي، عاطفى لم يأت، بجديد والطاحونة الحمراء فيلم صاخب، أراد أن يقول الكثير، فلم يقل شيئا.

وفى حجرة النوم فيلم جاد، حاد وايميلى لا هو جاد، ولا هو حاد: على نحو يشفى الغليل.

وحتى اتحادات النقاد التى كانت جوائزها مؤشرا جيدا فى الأعوام السابقة، وذلك لانها، فى نهاية المطاف، كانت تستقر على فيلم أو فيلمين! حتى هذه الاتحادات، اختلفت فيما بينها اختلافا شديدا

انتهاء عصر الاجماع

فمثلا جنحت مجموعة ناشونال بورد أوف ريفيو إلى منح جائزة أحسن فيلم للطاحونة الحمراء.

فى حين جنح نقاد نيويورك إلى منح تلك الجائزة إلى فيلم الطريق إلى مولهولاند.

وجنح نقاد لوس أنجلوس إلى منحها لفيلم فى حجرة النوم.

أما نقاد كورونتو فمنحوها لفيلم مذكرة

فى حين جنح نقاد سان دييجو إلى منحها لفيلم عالم الاشباح للمخرج تير زفيجوف.

وكان طبيعيا أن ينعكس أمر هذه البلبلة على الترشيحات لجوائز أوسكار التى جرى الاعلان عنها قبل ثلاثة أسابيع الا قليلا.

أهم الأفلام

حقا فاز لورد الخواتم وعقل جميل بنصيب الأسد من تلك الترشيحات.

الأول بثلاثة عشر ترشيحا والثانى بثمانية، من بينها الترشيح لأوسكار أفضل فيلم ومخرج، علاوة علي ترشيح نجمى عقل جميل «راسل كراو» و«جينفر كونوللي» لاوسكارى أفضل ممثل رئيسى وممثلة مساعدة.

وحقا جرى ترشيح كل من جوسفورد بارك وفي غرفة النوم والطاحونة الحمراء لأوسكار أفضل فيلم، فضلا عن جوائز أخرى، من بينها جائزة أفضل إخراج



جينفر كونيللى
زوجة فى عقل جميل

لروبرت التمان صاحب الفيلم الأول، وجائزتي أفضل ممثلة رئيسية لبطلتي الفيلمين الثاني والثالث وهما سيسي سباسيك ونيكول كيدمان .

كما جرى ترشيح الفيلم الفرنسي «إيميلي» ، لجائزة أفضل فيلم أجنبي، فضلا عن أربع جوائز أخرى، الأمر الذي يرجح معه، خروجه من مضمار الصراع مع الأفلام الأجنبية الأخرى المنافسة له، متوجا بالأوسكار.

اهدار التقاليد

ومع ذلك، فتلك الترشيحات، جاءت مشوبة بعيب، أراه جسيما.

فالمعتاد أن الفيلم المرشح للجائزة يجرى ترشيح مخرجه معه، وذلك بحكم أنه مبدعه، وإليه يرجع الفضل أولا وأخيرا في تأهيله لأوسكار.

غير أن تود فيلد مخرج في غرفة النوم، وباز لورمان مخرج الطاحونة الحمراء، كلاهما لم يجر ترشيحه للأوسكار وبدلا منهما جرى ترشيح كل من «دافيد لينش» و«ريدلي سكوت»، الأول عن فيلمه الطريق إلى مولهولاند والثاني عن سقوط الصقر الأسود، ذلك الفيلم الذي تدور أحداثه حول مقتل بضعة جنود من القوات الخاصة الأمريكية، وسحل جثثهم في شوارع موقاديشو عاصمة الصومال.

ومما يعرف عن سكوت أن فيلمه فاز، قبل عام بالعديد من جوائز أوسكار، وكان من بينها أوسكار أفضل فيلم.

ورغم ذلك حرم من أوسكار الإخراج التي فاز بها، بدلا منه، ستيفن سوبر برج عن فيلمه إيرين بروكوفيتش.

وفي ظني أنه سيتوج بها، بعد بضعة أيام، تعويضا له عن ذلك الحرمان ، وما صاحبه من إحباط، وتشجيعا لغيره من صانعي الأفلام على إخراج أفلام حربية، كبعث في الشعب الأمريكي روح البذل والفداء

وأخيرا ، يبقى لي أن أقول أنه ولأول مرة في تاريخ أوسكار، جرى ترشيح ثلاثة من نجوم هوليوود السود إلى جوائز أوسكار أفضل ممثل وممثلة رئيسية.

والثلاثة هم «دنزل واشنطن» عن أدائه في فيلم «يوم التدريب» لدور مخبر مهمته ضبط العصابات المهربة للمخدرات.

و«ويل سميث» عن تقمصه في فيلم «علي» لشخصية «علي كلاي» الملاكم الشهير.

و«هالي بيري» عن أدائها في فيلم «كرة الوحش» لدور أم ملتاعة، ضائعة في مجتمع مريض بداء العنصرية البغيض.

وليس من شك أن ترشيح الثلاثة خطوة على الطريق من أجل تحقيق المساواة بين السود والبيض في بلاد العم سام!! ■



عاش فريد عبدالكريم حياته لمصر، وظل عمره لا يهتف إلا باسم مصر، ونذر جهده ووقته وعمره فداءً لمصر ولأبناء مصر.. وإذ غادرنا إلى رحمة الله فلا يسعنا إلا أن نسجل له بعضاً من مآثره، ولمعاً من صفاته، وجوانب من سيرته العطرة الذكية.

في رثاء فريد عبدالكريم

شعر: د. أحمد السيد عوضين

سأكف دمعي .. لن أكون الباكيا
وأكف شعري أن يكون الراثياً
رغم افتقادي من ظللت مصاحبا
عمري الطويل .. يفيض حباً صافيا
بالخير يلقاني .. تهلل باسما
حبا وودا .. ثم قلباً حانيا
يسع الوجود بحبه حتى الذي
عاداه.. أو جافى جفاء مقذيا
مستغفراً لعداته : من أذنبوا
في حقه ذنباً كبيراً عاتياً
ظل النبيل ومن تباعد نافراً
عما يراه الغير مجداً باقياً

لو كان يطلبها المناصب رفعة
ما كان أكثرها عطاء مجزيا

لو كان يرجوها الحياة يسيرة
لأنته تسعى سعيها المتدانياً

لو كان ينشد كل جاه باذخ
ما كان أقربه يجيء الساعياً

لكن فريداً لم يكن ذاك الذى
يرجو الحياة تسير سيراً هانياً

ما كان يقبل أن يكون مناله
إلا جلاء الحق يشرق زاهيا

إلا السمو لمصرنا فى خطوها
نحو العروبة.. ثم مجداً عالياً

كان التوحد والتآخى لا يرى
إلاه نهجاً يستقيم أمانياً

لم يبك يوما رغم قهر ظالم
فالغد يأتى .. مشرقاً متسامياً

بالعزم نبلغ ما نراه متباعداً
بالجهد نقهر ما يكون العاصياً

يتوحد الفرقاء .. يضحى جمعهم
جيشاً ينال النصر نيلاً وافياً

ويحرر القدس الحبيبة .. قدسنا
مسرى الرسول محمد .. إذ أسرياً

ذاك المكان .. مبارك ما حوله
وهو الملاذ لمن أتاه مصليا

يا قدس أنى لى الحياة كريمة
والشر يعبث فى حماك مرابياً

ما أرتجى إلا أحرر قدسنا
وأطهر الأرض الحبيبة أرضياً

هذا نداؤك يا فريد مردداً
سيظل صوت الحق دوماً عالياً

وعلى الطغاة تدور دورة قاهر
يقضى بنصر الحق نصراً باقياً

ويذل من يطغى وإن بلغ المدى
ويعيد ما سلب الطغاة تعدياً

* * *

أفــريد مــا بعــدت رؤاك لم تزل
فينا الشعاع بل الضياء الهاديا

للحب تدعــو من فــؤاد خــيــر
كــان السمــاحة للأحبة راعيــاً

عرفتك قاعات القضاء مدافعاً
عن كل مظلوم تنادى شــاكـيــاً

يعلو دفاعك للحقيقة منصفاً
وتروم إنصــافــاً يظل البــاقــيـا

مــا قلت إلا مــا تراه حـقـيـقـة
مــا كنت إلا صــادقــاً ومــوفــيـا

وإذا جلست محاضراً ومدرساً
فــالعلم ترسله شـعـاعـا صــافـيـا

تهدى النفوس لخيرها ولحبها
وتشــيـع نوراً مــا يزال الســاريا

* * *

وعـرفت ربك مـؤمناً متـعـمـقـاً
مـا عـشت إلا زاهداً متـأسـيـاً

بمحـمـد وصـحـابه كـانوا له
سنداً وعـونا ثم حـبـاً وافـيـا

علمـتنا صـدق الأخـوة والوفـا
والحب والإخلاص نهجاً سامياً

علمـتنا أن الرجـال عـزيمـة
أن الحـيـاة تروم جـهـداً معطيـاً

أن العـروبة مـجـدنا ومـلاذنا
ولواؤها فـخـر يرفـرف عـاليـاً

أفـريد أوفـيت العـروبة حـقـهـا
فـاليـوم تهنأ فى منامك راضـيـاً

ندعـو جـمـيـعـاً للفـريد برحـمـة
عاش الحياة مجاهداً و مضحياً

وجــزاؤه إن شـــاء ربى وافـــر
فى الخلد يلقى كل فضل راضياً

من ذخائر الكتب العربية

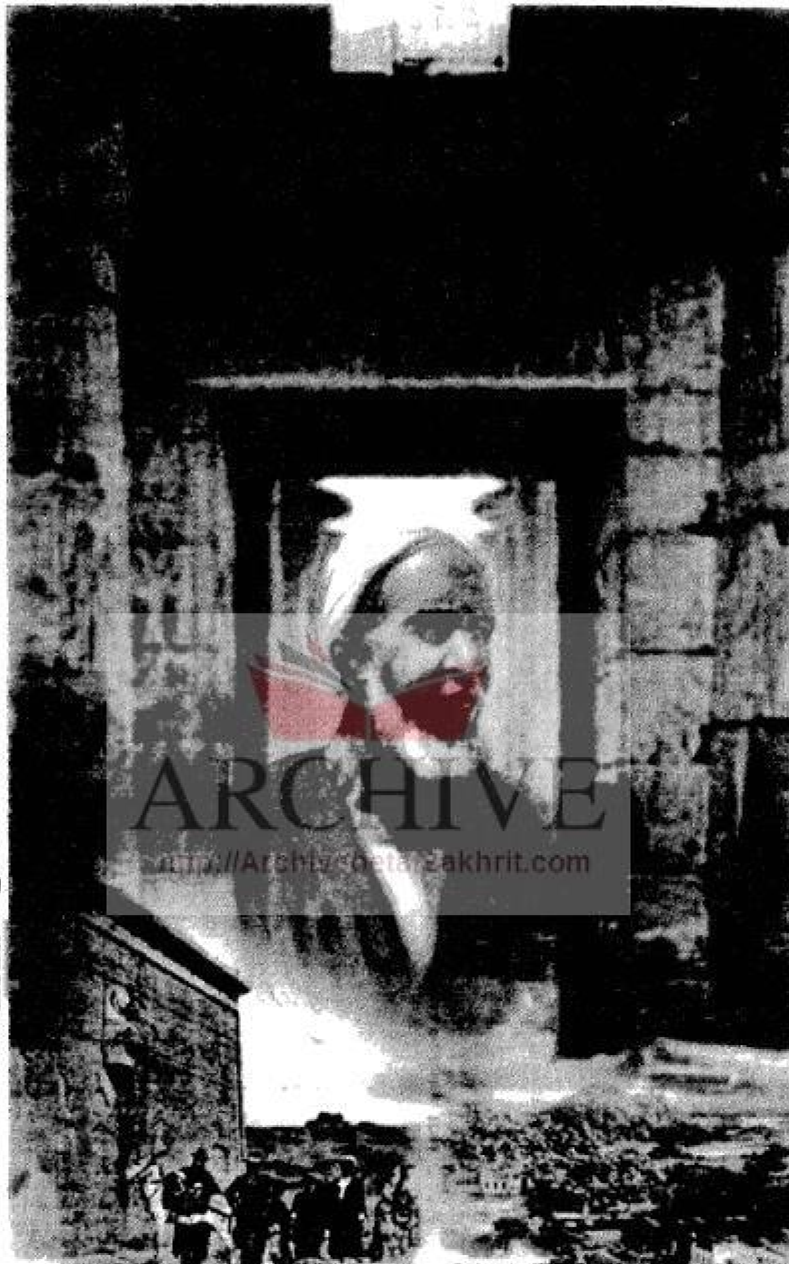
المواعظ والاعتبار

في ذكر الخطط والآثار

للمقريزي

بقلم
د. أيمن فؤاد سيد

كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» المعروف بـ «الخطط» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، شيخ مؤرخي مصر الإسلامية المتوفي سنة ٨٤٥ هـ - ١٤٤٢م، هو بإجماع آراء الباحثين أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، فهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا ويقدم لنا - اعتمادا علي المصادر الأصلية - عرضا شاملا لتاريخ مصر الإسلامية ولتأسيس ونمو عواصم مصر منذ الفتح الإسلامي حتي القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، ويعد اليوم مصدرا لا غني عنه للمشتغلين بدراسة آثار مصر الإسلامية، فيوفر لنا الكتاب قائمة تفصيلية وأوصافا دقيقة للقصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات والأخطاط والدور والحمامات والقياسر والخانات والأسواق والوكالات التي وجدت في عاصمة مصر خلال تسعة قرون. وترتكز هذه القائمة في الأساس علي الملاحظات الشخصية للمقريزي وعلي مصادر لم تصل إلينا، فحفظ لنا المقريزي بذلك نقولا ذات شأن للمؤلفين القدماء الذين فقدت مؤلفاتهم اليوم.



١٤٣

الهلال

ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

ويدل على الأهمية الكبرى التي منحها المؤلفون والكتاب العرب لهذا الكتاب احتفاظ مكتبات العالم بعدد كبير من مخطوطاته تعدت المائة وسبعين مخطوطة بينها خمس وثلاثون مخطوطة في مكتبات استانبول وحدها، وهو رقم يفوق بكثير مخطوطات أي كتاب عربي آخر. وذلك بالرغم من أن مصحح طبعة بولاق من الكتاب - وهي الطبعة التي عليها اعتماد الباحثين إلى الآن - يذكر أن نسخ الكتاب عزيزة في الديار المصرية وهي مع قلتها مليئة «بالتحريف الفاحش والسّقط المتفاحش والغلط المخل والخطأ المضجر».

ولم تغب أهمية هذا الكتاب عن الباحثين في القرن التاسع عشر وتعدت شهرته أوساط المشتغلين بالدراسات الشرقية. وكان احتفاظ المكتبة الوطنية في باريس بعدد كبير من مخطوطات «الخطط» سببا في لفت انتباه المستشرقين له فرجعوا إليه واقتبسوا منه نقولا مطولة فيما كتبوه عن تاريخ مصر الإسلامية وعلى الأخص لويس لانجليه Louis Langles وسلفستر دي ساسي Silvestre deSacy عند نشره لرحلة عبداللطيف البغدادي وفي كتابه Chrestomathie arabe وإيتيان كاترمير Etienne Quattremere وفردينانـد ويستنفلد Ferdinand Wustenfeld.

مقدمة المحقق

وفي مصر كان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي أخرجتها مطبعة بولاق التي أصدرت طبعة كاملة له في سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣م، وهي نشرة لاتستحق دائما ثقة كاملة برغم الجهد الواضح الذي بذله مصححها الشيخ محمد عبد الرحمن قطة العدوي المتوفى سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م، فنحن لا نعرف الأصول التي اعتمدت عليها مثل بقية الكتب التي أخرجتها مطبعة بولاق القديمة، وجاءت مليئة بالأخطاء والتصحيف والسقط الذي وجد في أصولها المعتمد عليها والتي حاول مصححها تصويبه قدر الطاقة أو الإشارة إليه. ومع ذلك فما تزال هذه النشرة هي الأساس الذي تعتمد عليه كل الدراسات التي تتناول تاريخ عواصم مصر الإسلامية، وخططها ومعالمها الأثرية في غياب أية نشرة أخرى محققة للكتاب.

وقد اعتمدت على طبعة بولاق طبعات أخرى للكتاب أضافت أوهاما وسقطا كثيرا وأخطاء طباعية إلى طبعة بولاق، وهي بذلك لاتشجع على مراجعتها بسبب إخراجها السيء يضاف إلى ذلك نقص الترتيب لدى المقريزي نفسه في تنظيم كتابه، فللبحث عن معلومات عن أثر معين فإننا نضطر إلى مراجعة كل الكتاب حيث يتناول المقريزي

المعلم الواحد في أماكن عديدة مختلفة وأحيانا بطريقة متعارضة أو يشوبها الغموض . فبسبب ضخامة الكتاب وطول الفترة التي يعالجها وتنوع المصادر التي اعتمد عليها مؤلفه نلمس دوما غياب التناسق والتسلسل المنطقي بين فصول كتابه، الأمر الذي يجعل الاستفادة من الكتاب في غياب كشاف تحليلي مفصل لموضوعاته وأعلامه ومواضعه ومصطلحاته أمرا عسيرا، ورغم الحاجة الملحة لهذا الفهرس فإنه سيظل دون فائدة كبيرة في غياب نشرة علمية مصححة للكتاب.

وقد بلغ فن التأليف في الخطط ذروته مع كتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزي الذي يعد أكبر ممثل لنمط التأليف في الخطط، فحقيقة الأمر أنه لايوجد أي كتاب - باعتبار أهميته - يمكن أن يوضع إلى جانب كتاب خطط المقريزي الذي يحتل مكان الصدارة بين بقية مؤلفاته.

الكتاب ومنهجه

أوضح المقريزي في مقدمته بجلاء كاف مفهومه للتاريخ وآراءه الشخصية حول مصنفه، وغرضه من تأليف الكتاب والأهداف التي وضعها نصب عينيه، ثم مضمون الكتاب ومنهجه في كتابته، غير أن المقريزي لم يوفق كل التوفيق في تحقيق هدفه فيوجد لديه اختلاف كبير بين النظرية والتطبيق كما هو الحال عند شيخه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة وكتابه في التاريخ.

فمحتويات الكتاب تختلف بعض الشيء خاصة قرب نهايته عن خطة المؤلف كما وردت في المقدمة. فيذكر المقريزي أنه رتب كتابه على سبعة أجزاء: أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها، وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها، ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدرك عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال، وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها، وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر، وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء عدة أقسام.

وقد التزم المقريزي تماما بالأجزاء الأربعة الأولى التي ذكرها في مقدمته، حيث ضمن المجلد الأول من الكتاب - الذي ننشره اليوم - الجزءين الأول والثاني: «أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها» و«مدن مصر وأجناس أهلها» الذي ذيله بفصل تناول فيه «تاريخ الخليقة والتواريخ التي كانت للأمم قبل تاريخ القبط» وفصل مهم عن تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية يستكمل فيه الحديث عن الفصل الذي عقده في الجزء الأول حول «خراج مصر في الإسلام» وضمن المجلد الثاني الجزءين الثالث والرابع الذي تناول فيه «أخبار

من ذخائر الكتب العربية

فسطاط مصر ومن ملكها» و«أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار» ، وتناول في المجلد الثالث الجزء الخامس المشتمل على ذكر حارات القاهرة وما بها من دور وحمامات وخانات وفنادق وخوخ .. إلخ، والجزء السادس المشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها.

ولكن المجلد الرابع – وهو أكثر أجزاء الكتاب استخداما من الآثاريين – لم يشتمل على الجزء السابع الذى كان سيتضمن الحديث عن «الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر» والذى أحال إليه القارئ في مواضع كثيرة من كتابه، فهذا الجزء لا وجود له ألبتة في نص كتاب «المواعظ والاعتبار» الذى وصل إلينا، ومن ثم فيجب الافتراض أن المقريزى عدل عن عزمه عن معالجة هذا القسم بعد الإشارة إليه في المقدمة، وربما وجد في رسالته «إغاثة الأمة» التى ألفها سنة ٨٠٨هـ، ما يسد به هذا الباب، واستعاض المقريزى عن ذلك بالحديث عن المساجد الجامعة والمدارس والخوانق والزوايا والمشاهد والمقابر والقرافة، الذى يبدو كأنه تتمة للجزء الخامس ، ويتخلل ذلك مقالات مطولة عن «المحاريب بمصر وسبب اختلافها» و«مذاهب أهل مصر ونحلهم» و«ذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها» و«عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية» وأخيرا اختتم الكتاب بفصول تناول فيها تاريخ اليهود والقبط وفرقهم واختلاف مذاهبهم مع تعداد أديرتهم وكنائسهم».

وعدم التزام المقريزى بما جاء في مقدمته يقف دليلا على أنه لم ينقح هذه المقدمة، كما أن مراجعة الكتاب توضح لنا أن المقريزى لم ينقح فقط مقدمته بل إنه لم يعاود النظر نهائيا في كتابه، فهو لم يمحص مادته في كثير من الأحيان بما فيه الكفاية بحيث يبدو كتابه أشبه بمجموعة من المقالات والمواد المتفرقة في تاريخ مصر وطبوغرافية مدينة القاهرة يختلط فيها التاريخ بعلم الآثار، أكثر منه مصنفا متماسكا بحيث لايمكن أحيانا – كما يقول جست Guest – معرفة ما إذا كان الكتاب مؤلفا في التاريخ أم مصنفا في الطبوغرافيا أو فن الخطط.

ولكن ما لايختلف عليه أحد هو تنوع وتعدد المصادر التى اعتمد عليها المقريزى ومعرفته الواسعة بمصادر معلوماته حتى أن جانبا كبيرا من المادة التى حفظها لنا كان في حكم المفقود لولا نقله لها، فأنقذ بذلك من الضياع جزءا كبيرا من تاريخ مصر كان سيظل بدونه مجهولا لنا.

وتعد الأجزاء التى وصف فيها المقريزى نظام الخراج وجبى الضرائب ونظام الإقطاع ، وجميع الجزء الخاص بالفاطميين وتأسيس القاهرة، أكثر أجزاء كتاب «المواعظ والاعتبار» قيمة وأصالة. وإلى جانب ذلك يعد المقريزى أهم مؤرخ مصرى أرخ للفاطميين، فقد كان يرى أن كتابة تاريخ مصر دون وضع الفاطميين فى موقعهم الصحيح فى هذا التاريخ غير ممكن، فهم مؤسسو القاهرة وهم الذين أعطوا لمصر مكانتها الاستراتيجية المهمة فى المنطقة لذلك فقد شغل حديثه عن الفاطميين وتاريخ القاهرة فى زمنهم نحو ربع كتابه. ومن الغريب أن وصف المقريزى لقلعة الجبل العاصمة التى أقام بها الأيوبيون ثم ورثها عنهم خلفاؤهم سلاطين المماليك سادة مصر فى وقته، لايرقى فى قيمته ومصادره إلى الوصف الذى يقدمه المقريزى للقاهرة فى زمن الفاطميين.

وأشار المقريزى فى مقدمة «الخطط» إلى المنهج الذى اعتمد عليه فى جمع مادة كتابه وهو «النقل» من الكتب المصنفة فى العلوم وهو مانطلق عليه اليوم المصادر الأدبية، و«الرواية» عمن أدرك من مشيخة العلم وجلة الناس، وأخيرا «المشاهدة» لما عاينه ورآه، أى المعلومات المبنية على اختباره الشخصى ومشاهداته. وعند كلامه عن أسلوبه التاريخى الذى اتبعه يقول: «فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته.. وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشائخ فإنى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى إلا أن يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقل مايتفق مثل ذلك. وأما ماشاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين».

مشكلة تحرير الكتاب

اتفق جميع الباحثين الذين درسوا كتاب «خطط» المقريزى بما لايدع مجالا للخلاف على القيمة الكبيرة للكتاب بالنسبة للمادة التى يحويها بين دفتيه، فقد استطاع المقريزى على امتداد صفحات هذا الكتاب أن يرجع إلى جميع المصادر السابقة عليه والتى فقد أكثر من ثلاثة أرباعها اليوم، والتى ينقل عنها فى العادة بدقة، ولكن فى حدود المنهج الذى سار عليه المؤلفون القدماء. غير أننا إذا فحصنا هذه المسألة عن كثب، كما يقول كراتشكوفسكى، فسنصطدم بصورة جدية بمشكلة عويصة تتعلق بأمانة المقريزى فى استخدامه لمصادره إذ يقع عليه عبء الاتهام بالسرقة الأدبية، الذى وجهه إليه معاصره المؤرخ الناقد شمس الدين السخاوى، ومن الباحثين المعاصرين جاستون فييت الذى اتهم المقريزى بأنه أعمل يد النهب فى كتاب «ولاة مصر» للكندى، وكاتب هذه السطور حيث لاحظت عندما نشرت ممالك مصر والشام والحجاز واليمن من كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل

الله العمرى أن المقريزى نقل كل وصف ابن فضل الله العمرى لقلعة الجبل دون أن يشير إليه فى أى موضع من كتابه. ومع ذلك فإننا فى الحالات التى تمكنا فيها من تحقيق رواية المقريزى فى أصولها تبين لنا أن المقريزى أهل للثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليه اعتمادا كاملا حتى فى الحالات التى نجهل فيها جهلا تاما المصادر التى استقى منها مادته.

إن عدد المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى تأليف كتابه «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» هائل حقا، ويوضح لنا أن المقريزى اعتمد على مكتبة غنية بالمصادر المتنوعة، وأن مكتبات مدارس القاهرة - التى كان يتردد عليها المقريزى - كانت تمثل ثروة ضخمة من مؤلفات علماء المسلمين السابقين. فقد كانت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك هى مركز الجذب الثقافى والعلمى للعالم الإسلامى، بعد سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م ، وانتقل إليها القسم الأكبر من المؤلفات التى نجت من كارثة اجتياح المغول لمقر الخلافة الإسلامية فى بغداد، وتوزع القسم الآخر من هذه الكتب على مكتبات بلاد الشام وعلى الأخص حلب ودمشق، وعلى ذلك فإنه بعد أقل من قرن من وفاة المقريزى ومع الفتح العثمانى لبلاد الشام ومصر، انتقل القسم الأكبر من هذه الكتب إلى دار الخلافة الجديدة فى استانبول ومن بينها أصول المقريزى نفسه التى كتبها بخطه أو التى نقلت من خطه.

وفى دراسة رائدة عن النقوش التاريخية الموجودة على العمائر الدينية والحربية والمدنية فى مصر الإسلامية صدرت عام ١٨٩١م، أشار عالم الكتابات الأثرية السويسرى ماكس فان برشم «١٨٦٣ - ١٩٢١» إلى الأهمية التى يمكن أن تعود بها دراسة عن مصادر المقريزى فى الخطط، وأكد على ذلك أيضا المستشرق الروسى إغناطيوس كراتشكوفسكى «١٨٨٣ - ١٩٥١م» الذى أشار فى كتابه الرائد «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» إلى أن دراسة مصادر المقريزى فى «الخطط» تحتاج إلى بحث خاص لن يخلو من الأهمية.

وفى سنة ١٩٠٢م كتب المستشرق الإنجليزى روفن جست Rueven Guest مقالا مسهبا عدد فيه عناوين مصادر المقريزى فى «الخطط» اعتمادا على طبعة بولاق، وهو لايزعم أن القائمة التى أعدها قائمة تامة، خاصة أن طبعة بولاق التى اعتمد عليها لاتحوى أية كشافات كما أنها تشتمل على أكثر من ألف صفحة، مسطرة كل صفحة ٣٩ سطرا. وقد وفر هذا العمل دون شك جهدا كبيرا على المهتمين بهذا الموضوع فى

غياب كشاف تحليلي للكتاب، ولكنه لم يلب رغبة ماكس فان برشم أو أمنية كراتشكوفسكي. بعد ذلك في تخصيص بحث لدراسة مصادر المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار».

ووعد جاستون فييت في مقدمة نشرته الجزئية للخطط بأنه سينشر في مجلد مستقل دراسة عن حياة المقريزي سيدرس فيها بالتفصيل على الأخص مصادر الخطط.

وعلى ذلك ظلت مصادر المقريزي التي اعتمد عليها في كتابة كتابه الضخم «المواعظ والاعتبار» تفتقر إلى هذه الدراسة.

وقد استطاع المقريزي فيما يتعلق بنقاط معينة «أخبار النوبة - الأهرام - أقسام مال مصر - الملوك المصريون القدماء - الدعوة الفاطمية - المواكب الاحتفالية عند الفاطميين...» أن يحصل على مواد ذات قيمة كبرى تقتصر معرفتنا بها في أحايين كثيرة على ماحفظه لنا هو منها.

وقد نقل المقريزي نصوصا كاملة لمؤلفين قدماء، ففي عصر الكتاب المخطوط لم تكن أمام المؤلفين عند استخدام مصادر قديمة طريقة أخرى سوى نقل نصها كاملا، فلم يجدوا طريقة مناسبة لإطلاع القارئ على المصدر الذي أخذوا عنه أو للإشارة إلى نصوص سبق ذكرها في الكتاب أو إلى صفحات سابقة، إلا تضمين هذه النصوص مرة أخرى، فلم يكن المؤلفون القدماء متأكدين دائما من أن الكتب التي ينقلون عنها ميسورة دائما لهؤلاء القراء.

وتبعا لذلك فإن بعض أقسام كتاب «الخطط» تمثل نقلا صريحا عن مؤلفين آخرين قد يستغرق أحيانا صفحات، مثلما فعل مع ابن عبدالحكم والكندي وابن وصيف شاه وعلي بن رضوان والبيروني وابن المأمون وابن الطوير وابن المتوج، غير أن هذه المواد المنقولة قد تم التأليف بينها بصورة لاتخلو من المهارة والإبداع، واستخرجت من عدد هائل من الآثار الأدبية فقد بعضها تماما بالنسبة لنا مثل مؤلفات : القضاعي وابن المأمون وابن الطوير والمسبحي والقاضي الفاضل وابن أبي طي وابن المتوج واليوسفي وغيرها كثير، وهو لايهمل في العادة الإشارة إلى مؤلفيها، ويستثنى من ذلك المؤلفين قريبي العهد من المقريزي الذين نقل عنهم نقولا مطولة دون أدنى إشارة إليهم مثل : ابن فضل الله العمري والنويري والصفدي وابن الفرات، وربما كذلك ابن دقماق والأوحدي، وخير مثال على مهارة المقريزي في استخدام مصادره والتوفيق بينها الفصل الذي أفرده لأهرامات مصر حيث يشير فيه المقريزي الى أكثر من عشرين مؤلفا بخلاف من استشهد بهم من الشعراء. ■

تجليات الوطن

عبر شطحات الروح .. وسريان النيل

بقلم
عز الدين نجيب

مازال صوت الانتماء فى الفن المصرى المعاصر قادرا على مواجهة صوت الاغتراب، ومازالت ملكات المبدعين المصريين قادرة على ابتكار رؤى حداثية تجدد دماء الحركة الفنية، منبثقة من شطحات الروح الشعبية وتجليات التراث الحضارى وزخم التاريخ، صانعة خريطة جمالية للوطن، من منظور منفتح على انجازات الفن الحديث فى العالم، لكنه يظل موصولا بشرايين الانسان والمجتمع، ومحتفظا «ببطاقته الشخصية» فى أى محفل يحل به، ومازالت بعض رموز النهضة الفنية الحديثة منذ أواسط القرن الماضى حاضرة بيننا، تملأ فضاءات المعارض الجديدة بإبداعات طازجة، عبقة بحس الفطرة والهوية، سارية كسريان النيل فى أوصال وادى الفن، فتكسبه طاقة متجددة للتواصل والكشف الابداعى عن جماليات الوطن والإنسان! .

هذا ماتعكسه - بدرجات متفاوتة وبأنغام مختلفة - مجموعة من المعارض أقيمت خلال الشهر الماضى بالقاهرة، وكان للفنانات موقع الصدارة فيها .



الام - زينب السجيني

جاذبية سرى

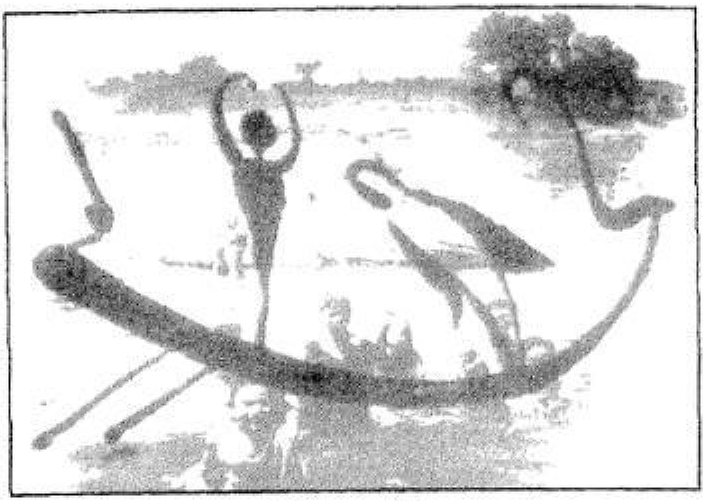
كان معرض التصوير الزيتي للفنانة جاذبية سرى (خريجة ١٩٤٨) بقاعة سفرخان بالزمالك حلقة جديدة في سلسلة تجلياتها الابداعية المتمردة على القالب أو النموذج، حتى على ماتصنعه بنفسها .. لقد بدت خلال معارضها في العشر سنوات الماضية نزعة قوية للعودة الى الطبيعة، من البحر إلى الصحراء ومابينهما، وباستثناء بعض المعارض التي تضمنت رسومها السريعة بالخطوط أو بالألوان المائية عن مشاهد الحياة اليومية بما فيها الإنسان والحيوان والنبات، فإن السمة المسيطرة على معارضها خلال تلك السنوات هي التجريب الفني الذي يتاخم التجريد المطلق، بما يجعل ملامح الطبيعة مجرد ذريعة أو عناصر مساعدة لتحقيق قيم الشكل البحت، وفي بحثها (التجريبي، التجريدي) كان البناء الفني للوحاتها محل صراع بين الشحنة الانفعالية المباشرة التي تسقطها بحس عفوي يتجلى عبر السطوح المتوترة بالملامس الخشنة والسيولة اللونية والتجريح بالسكين، وبين النزعة العقلانية المهندسة عبر مساحات وخطوط وشرائط لونية مجردة تقسم فضاء اللوحة طولا أو عرضا، بالنظر إلى شخصية جاذبية، الميالة بطبعها إلى الحرية والتلقائية، بعيدا عن قيود التنظيم والمنطق، فإن استخدامها تلك الحلول الهندسية المجردة كان يبدو كنوع من الكبح الذاتي لشطح انفعالها المحموم، وبدون أن تدري كانت الخصائص المصرية الأصيلة التي تميزت بها أعمالها خلال مراحلها السابقة تذوى وتتراجع لتحل محلها رؤى الحداثة بمفهومها الغربي أو العالمي بغير حدود.

لكنها في معرضها الجديد تعود - بدرجة كبيرة - إلى عالمها الحميم، مفسحة للإنسان مكان البطولة في لوحاتها، وقد تبلور في كتل متحاورة، عبر ثنائيات أو ثلاثيات أو مجموعات متراصة أو متناغمة، ولاتهتم في بنائها بالتفاصيل التشريحية والجزئيات الواقعية، أو بإيجاد حركة عضوية، بل ينصب اهتمامها على حركة الخطوط والمساحات والبقع اللونية بعلاقاتها الديناميكية، ويبقى الانسان متراوحا بين التجسيد والتجريد، بين الواقع والرمز، مضفيا إرهاصا بالتواصل الأسرى الحميم، وبالتماهي مع المحيط الكوني المطلق عبر مساحات من الأزرق التركوازي المصفى أو الأحمر القرمزي المتوهج، أو فوق مزيج مركب من ألوان شتى ذات ملامس متداخلة من العجائن اللونية والكشط، والتجريح، وقد تقترب الفنانة من بعض المظاهر الواقعية مثل القوارب والأسماك والنخيل، لكنها تظل في إطار الرموز المجردة التي تتجه نحو المطلق بعيدا عن محدودية الزمان أو المكان، لتفسح المجال للمشاهد الى التأمل الفلسفي وليس إلى المعاينة الواقعية.

بهذه الشفافية والجدية - التي لم تتخل عن حس الطفولة بداخلها - تتهيء جاذبية للاحتفال بعيد ميلادها الماسي، بعد أن توجت منذ عامين بجائزة الدولة التقديرية في الفن، وتجاوزت أعمالها حدود الوطن إلى شتى المحافل الدولية وحصلت على الزمالة مع العديد من الهيئات والمؤسسات الكبرى للفن في العالم.

مريم عبدالعليم

قدر لبنت الاسكندرية - خريجة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٥٤، والمدرسة ثم الاستاذة بكلية فنون الاسكندرية منذ عام ١٩٥٨ حتى الآن بعد عودتها من بعثتها الدراسية في الولايات المتحدة الأمريكية - أن تكون أول فنانة مصرية تحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٤، جنبا إلى جنب مع رواد الفن المصرى المعاصر، وبهذا فتحت مريم عبدالعليم الطريق أمام بنات جنسها من الفنانات للحصول على هذا التقدير الرفيع،



النيل - محمد عبلة

وساعدت على رفع الغبن عن كثيرات منهن على امتداد القرن الماضي، مثل عفت ناجي ومرجريت نخلة وكوكب يوسف وزينب عبده وانجي أفلاطون وتحية حليم وزينب عبدالحميد، برغم ما أثبتته من ريادة إبداعية لاتقل عن ريادة زملائهن الفنانين الرجال في مصر، كما قدر لها أن تكون أول فنانة مصرية تتخصص في فن الجرافيك (الطباعة الفنية لمستنسخات أصلية عن طريق الحفر على ألواح الزنك وغيرها)، بعد دراستها بجامعة جنوب كاليفورنيا لهذا المجال عام ١٩٥٧، لتتخرج على يديها أجيال تلو أجيال من الفنانين، أصبح الكثير منهم أساتذة للفن في الكلية نفسها، حيث يواصلون رسالتها حتى اليوم.

ونظرا لطبيعتها الصوفية العازفة عن الأضواء والدعاية، فقد ظلت طويلا خارج دائرة الإعلام والاحتفاليات، بل خارج دائرة المعارض القاهرية، التي يبدو ماعداها هوامش إقليمية لايسمع بها أحد، لذلك جاء معرضها الشامل لسيرتها الممتدة لأكثر من أربعين عاما، الذي أقيم في فبراير الماضي بمجمع الفنون بالزمالك، حدثا فنيا مهما أتاح لجمهور الفن أن يتعرف على إبداعها المتجدد، خاصة مراحلها الفنية الأولى منذ أواخر الخمسينيات ثم الستينيات وما تلاها، وأن يرى إلى أي حد كانت هذه المسيرة مواكبة ومتعانقة مع قضايا الوطن وحركة المجتمع المصري صعودا وهبوطا، كضمير حي يستخلص القيم وروح الأحداث والتحولات المصيرية لهذا الوطن وإنسانه عبر ذرى الانتصار ومهاوي الهزيمة.

غير أنك لن تجد شيئا من ذلك كله بشكل مباشر أو انعكاسا ميكانيكيا كالترجمة الوثائقية أو المغازلة السطحية لقشرة الوعي لدى المشاهد، بل على العكس تماما، فسوف تجد في لوحاتها «الرؤية الموازية» للواقع عبر لغة الشكل التي تتماهى مع السحر والأسطورة ومخزون الثقافة الشعبية، وأيضا مع الرمز المفتوح الذي يتجاوز الآني والمرحلي والمتعين، محلقا نحو المطلق والكوني والروحي عبر حدود الزمان والمكان.

هكذا نجد في لوحاتها - أوائل الستينيات - تلك التكوينات المنفتحة الحدود فوق الخلفيات البيضاء، بتشكيل يتردد فيه شكل الدائرة الأقرب إلى العجلة، تعبيراً عن ديناميكية البناء والانتاج والتعمير، في مقابل الشكل الهرمي تعبيرا عن ثوابت التاريخ والقيم، في جدلية متضافرة لا انفصام لها، كما نجد البنية التحتية للوحة مزيجا متداخلا من أشكال الحروف والنباتات والطيور والوجوه، وكأنها مجموع آلات الأوركسترا تعزف في هارمونية جياشة «لحسن القرار» الموازي «للحن الميلودي» الأساسي في المقدمة. وفي سنوات الانكسار بعد هزيمة ٦٧، نجد أشكالا تزداد اقترابا من التجريد والمراثي الحزينة، عبر كتل تتفتت ثم تعود لتتجمع، وتنهار لتعود فتتصاعد!

وتنتقل مريم في مراحلها الأخيرة إلى حالة من البوح الصوفي بألحان غنائية صداحة بذكر الله، مستخدمة حروفا وآيات من كتاب الله الحكيم، وطيورا وتوريقات فردوسية ميادة تحف بها إيقاعات تطريبية من حروف وزخارف متماوجة، وكثيرا مايفيض بها الشوق إلى قبر الرسول الكريم «صلى الله عليه وسلم»، فترسم الكعبة المشرفة وأفواج الحجيج وأعمدة المسجد الحرام، تتخلل ذلك كله التسابيح والآيات القرآنية في نسيج روحاني محكم.

غير أن ذلك كله لم يحجب عن لوحاتها قط تلك الروح الفطرية الطفولية التي ميزت عالمها عبر مراحلها المتصلة، كما لم يأخذها إغراء مهاراتها التقنية المميزة في الجرافيك - مثل التحسيس الفوتوغرافي على قوالب الحفر وتداخل الخامات والتقنيات - إلى استعراضات الشكل التجريدي الذي تملك ناصيته ببلاغة واقتدار، بعيدا عن رؤاها التعبيرية النابعة من صميم الوجدان المصري وموروثه الفولكلوري والبصري، فظلت رحلتها الفنية تتسم بنفس البساطة والتلقائية الصادقة، تعبيرا عن نبض الوطن

زينب السجيني

وإذا كانت الفنانتان جاذبية ومريم تنتميان إلى جيل الخمسينيات، فإن الفنانة المصورة زينب السجيني - التي أقامت معرضها الجديد خلال الشهر الماضي أيضا بقاعة الزمالك - تنتمي إلى الجيل اللاحق لهما مباشرة في الستينات، ومثلهما تخرجت هي أيضا من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة وعملت بالتدريس بكلية التربية الفنية، فتركت بصماتها على أجيال الخريجين على امتداد الأجيال، وقد نشأت في أسرة فنية أصيلة، بدءا من عمها رائد النحت المعاصر جمال السجيني، حتى زوجها الفنان الراحل عبدالرحمن النشار، فتحققت من خلال هذا المثلث الإبداعي حالة نموذجية من التواصل الفكري والروحي والجمالي، مع احتفاظ كل منهم بملامح شخصيته المتميزة.

ظلت زينب السجيني على وفائها المتصل لعالم الطفولة والأسرة في البيئة الشعبية، إنك نادرا ما تجد في مجمل الرحلة الفنية لأحد الفنانين مثل هذا الإلتصاق بحدود العالم الذي اختاره منذ بدء رحلته مثلما تجده عند زينب، وهو مايعكس قدرا عاليا من الصدق الموضوعي والفني في آن واحد، مع النفس ومع العالم الحميم الذي تشكل به وجدانها، وقد أخذها ذلك الصدق نحو عالم مشابه ومواز لعالمها، وهو التصوير المصري القديم على جدران المقابر والمعابد، حتى لتبدو لنا وكأنها تطل علينا بلوحاتها عبر آلاف السنين، بتلك النكهة المصرية العتيقة، والخطوط الانسيابية المتماوجة والمترابطة في نسيج لاينفصم، والألوان الجدارية الطينية المعجونة بطمي النيل، وفوق ذلك كله: بتلك المسحة الحزينة في العيون الواسعة المسحوبة والوجوه البنية الشاحبة والبسمة الغامضة المؤيدة متسامية



الفرح – نبيل لحود

فوق الأحزان، فتتبدى بغتة تحقُّها الأسرار!.

وفى خضم التيارات الفنية الحديثة التى تكتسح الحركة الفنية بمصر منذ أربعينيات القرن الماضى، ظلت زينب تستمسك بعالمها الإنسانى الحميم، جاعلة من احتضان الطفولة البائسة وتماسك الأسرة الفقيرة حصن أمان ومنصة إقلاع إلى عالم الحرية والتحقق الإنسانى بعيدا عن قهر الواقع الطبقى وظلم المجتمع، ولم يأت ذلك من منطلق الشعار أو الوعظ أو الاستدرار العاطفى الفج، بل من منطلق عاطفة أخوة حقيقية داخل الفنانة لهؤلاء الفقراء، ووعى فكرى نضج على نيران حقبة الستينات، وانتماء فكرى إلى قناعات الفنان الراحل جمال السجينى، الذى آمن دائما بدور الفن فى المجتمع وبالتعبير عن قضاياه وبالانحياز للمغبونين.

ولم يفارق الفنانة زينب هاجس البحث والتجريب الفنى سعيا إلى التجديد، وحاولت – فى مرحلة سابقة – استخدام الأشكال الهندسية البارزة فوق سطح اللوحة تأثرا بالتجريد الإسلامى وبزوجها الراحل عبدالرحمن النشار، لكنها سرعان ما عادت إلى عالمها الحميم، حيث شعرت باختلاف مزاجها عن عالم التجريدات الهندسية، بيد أنها، فى الوقت ذاته، ظلت تسعى لتطوير رؤيتها الخاصة بنزعة تعبيرية، أخذتها – فى مرحلة ما – إلى عالم ميتافيزيقى حتى تخوم السريالية، ومرة أخرى عادت إلى حضن عالمها القديم، الذى قدمت لنا بعضا من تجلياته فى معرضها الأخير، كلحن فطرى حزين على الرباب، يمسح عن النفس المكروبة أساها، وربما يثير فيها أيضا المزيد من الأسى!.

النهر .. والبحيرة :

تجربة جديدة شهدتها قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك فى الشهر الماضى، بطلاها فنانان من جيل الثمانينيات، أقاما معرضا مشتركا لم يخططا له .. إنهما صديقان وزميلا دراسة وخريجا دفعتين متتاليتين بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية عامى ٧٦، ١٩٧٧، هما المصور محمد عبلة والجرافيكى عبدالوهاب عبدالمحسن، لكن

الفكرة اكتملت لدى كل منهما بعيدا عن الآخر، ثم التقيا أخيرا على الإشتراك في معرض واحد، أو بالأحرى في معرضين منفصلين متصلين بقاعة واحدة .

الفنان محمد عبله يعيش منذ تخرجه وهو يحلم بالنيل : المعنى والرمز والقيمة والحياة فوق مياهه وفي أعماقه وعلى شاطئيه، حتى انتهى به الأمر أخيرا إلى اقامة مرسمه الخاص على جزيرة «بين البحرين» بالقاهرة، محاط بالمياه من كل جانب ، معايشا للصيادين وقوارب النقل بين شاطئيه، وللفلاحين وصناع الطوب، ومتأملا علاقة الناس بالنيل عبر هذا كله، مما أتاح له رسم مئات الاسكتشات التي أيقظت بداخله الحنين القديم إلى ذكريات الماضي، عام ١٩٧٧، حيث كان مشروع تخرجه عن نفس الموضوع.

وهاهو يعود إلى أحضان النيل والكادحين على شاطئيه وفوق مياهه، رغم تغير المكان والناس والألوان، غير أن عشقه لهذا العالم كان أكبر من أن يشبعه الرسم وحده، لجأ إلى العدسة الفوتوغرافية يصور بها مئات الصور التي حاول من خلالها إيجاد علاقات مع مايرسمه، حتى وصل إلى مرحلة المزج بين الصورة الفوتوغرافية والرسم الذي يضيفه إليها أو العكس حين يطعم اللوحة المرسومة بمقاطع فوتوغرافية وذلك ليس جديدا في الفن على أية حال، فإن اتجاهات «مابعد الحداثة» في دول الغرب لجأت إليه كثيرا لتأكيد الواقعية إلى درجة الحقيقة، سعيا إلى كسر المألوف وصدم الذوق البرجوازي، وكانت الخبرات السابقة لمحمد عبلة حافلة بمثل هذه التجارب، إلى حد استخدام مجسمات حقيقية من مخلفات قاع النيل - بكل عشوائيتها - في أعمال فنية مركبة، حصل عن بعضها على جائزة بينالي الاسكندرية الدولي منذ عدة دورات، وطاف ببعضها الآن عددا من الدول الأوربية.

وفي أعمال معرضه الأخير يلعب محمد عبله على الوتيرة نفسها، مازجا بين مقتطفات الصور الوثائقية «الكولاج» وبين أرضية الصورة الفوتوغرافية وبين الرسوم الملونة أو المنفذة بالأسود وحده، متخذا من القارب الفرعوني والمجداف والطفل عناصر مشتركة في أغلب اللوحات، إلى جانب رسوم لبعض الحيوانات والطيور والأسماك والأشجار والوجوه، مبتكرا شكلا من أشكال السياحة من الزمان والمكان إلى اللازمان واللامكان، حيث تصبح الرحلة سرمدية مثلما كانت مراكب الشمس بالنسبة للمصرى القديم، ولابأس من أن يضيف الفنان بعدا سياسيا كالعولمة، من خلال صور الدولار التي يطبعها على صفحة النيل، فكأنما تحول النهر أيضا إلى قناة تصب خيراتها، في بحر العولمة الأمريكية!.

أما عبدالوهاب عبدالمحسن فكان موضوع بحثه الجرافيكي هو بحيرة البرلس قرب مدينته كفر الشيخ، ظل يعزف باللون الأسود وحده على لوحاته المحفورة على ألواح الخشب معزوفات تشكيلية بمهارة وتمكن ، فتنعكس التماعات الماء تحت أشعة الشمس أو القمر، وتنوعها في إيقاعات بصرية أخاذة، أو توحي بتضاريس جغرافية وطبقات جيولوجية تنتمي إلى عالم مخادع كسطح كوكب مجهول .. ولايكاد المشاهد يفلت من إحساس مخامر بجفاف البحيرة ونضوب مائها الذي يخلف مكانه تلك التضاريس والطبقات الجيولوجية وينبيء بكارثة مدمرة، ولعل اللوحة الدالة بقوة على المعنى هي تلك التي يتجمع فوق نصفها الأسفل سرب من طيور أبي قردان واقفة على امتداد أرض البحيرة التي جفت، منكمشة على نفسها في حالة أشبه بانتظار الهلاك!

وكانت استعانة عبدالمحسن بالتصوير الفوتوغرافي من خلال فكرة مختلفة عن



الرسم، حيث قام بتصوير فيلم فيديو لعالم البحيرة فى أوقات اليوم المختلفة بحس أقرب إلى التجريد، مع حركة الكاميرا بإيقاعات سريعة، مقابلة لحركة المياه والشاطىء والأسماك والأرض المشققة المتعطشة للماء، بغير طائل، وقام بعرض الفيلم الذى لايستغرق أكثر من ثلاث دقائق ونصف على شاشة هائلة بإحدى صالات المعرض، ولعل أجمل ماتضمنه الفيلم مشهد سمكة كبيرة من سمك «القرموط» تتابعها الكاميرا وهى تسبح فى انسيابية مراوغة، ثم فجأة نراها وهى تزحف على الشاطىء الطيني باحثة عن ملاذ مستحيل فى الماء، وأخيرا نراها وقد استسلمت لقدرها وعينها تنظر فى توسل واستغاثة يائسة، فيما تنبض بحركة الشهيق والزفير قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولايستطيع المشاهد أن ينسى أبدا هذه النظرة، التى تبدو شبيهة بعيون البشر!.

إن ذلك أحد مظاهر فن «مابعد الحداثة» الذى نجح فى توظيف مختلف الفنون والوسائل البصرية والسمعية لخدمة العمل التشكيلى، لكن يظل أنجح ما حققه عبدالمحسن فى معرضه هو التقنية العالية فى الحفر على الخشب، بما وصل إليه من تنوع إيقاعى ووميض متذبذب بإيماءات الشعر.

فن الفطرة

فى قاعة مركز الهناجر للفنون كان المعرض الثانى للفنان نبيل لحود، الذى تفتحت موهبته بعيدا عن الأكاديميات والمدارس الغربية، لينضم إلى ركب الفنانين الذين نجوا من الفطرة الشعبية بتقاليدها الساذجة المتوارثة، حيث نشعر بعمق الوشائج بينه وبين فنانين كبار من الراحلين أمثال سيد عبدالرسول وكمال يكنور، ومن المعاصرين أمثال على دسوقى وصلاح عنانى، لكن مايغذى فطرته بشكل مباشر هو الفنان الشعبى المجهول الذى يزين واجهات البيوت الريفية والشعبية برسوم الحج، ويرسم السير الشعبية ورسوم الوشم فى الأسواق.

هذه موهبة خام متدفقة بالعطاء الخصب، تبحث عمن يحتضنها ويشجعها وينقذها من التقليد والتكرار، لأنه بالقطع ليس فنانا شعبيا (بمفهوم الفلكلور) حتى يترك على سجيته وفق التقاليد المتوارثة لهذا الفن، بل هو رجل جامعى يعيش بقيم العصر وإيقاعه المتطور، فقط هو يفتقد البوصلة التى تقوده إلى الطريق الصحيح المناسب لموهبته وسط شبكة معقدة من اتجاهات الفن الحديث، ومن ثم فإن مايحتاجه هو الوقوف على أول الطريق الذى يسمح له بالحفاظ على روحه الفطرية وأصالته الشعبية، ويكسبه فى ذات الوقت الخبرة الضرورية للولوج إلى عالم الفن الحديث كنوع من الصقل والانفتاح على متغيرات العصر.

الجسد.. سلعة!

من قديم الأزل كانت المرأة - روحا وجسدا - أغزر نبع لإلهام المبدعين، وأرفع نموذج للجمال، ومنذ رسم بابلو بيكاسو لوحته الشهيرة «فتيات أفينيون» ١٩٠٧ فى بداية عهده بالأسلوب التكعيبى، انقلبت كل الموازين، حيث أصبح جسد المرأة مجرد شكل فنى يجرب الفنان من خلاله الأساليب الحديثة، مثل التكعيبية والتجريدية، ويستوى فى ذلك مع أى كائن آخر أو حتى إناء، حتى أصبح فى النهاية بلا ضرورة للفنان إلا فى مرحلة الدراسة الأكاديمية من خلال «الموديل».

وفى مصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية، تكفلت العقليات الجامدة والمحافظة منذ السبعينيات بإلغاء «الموديل» أو مادة «الطبيعة الحية» من مناهج الدراسة بأكاديميات الفنون، بالرغم من ضرورتها المنهجية لطالب الفن شأنه شأن طالب الطب فى محاضرات التشريح، ويشب الطالب منذ جلسته الأولى أمام الموديل على احترام جسد المرأة، كجزء من احترامه لقيمة العلم



كولاج من الورق - عزة عبد المنعم مشالي

والفن فى آن واحد، متحررا من أية نزعات غريزية تجاهه، وبإلغاء هذه المادة عادت الصورة الحسية الفجة عن المرأة إلى خيال الطالب، فوق ما أدى إليه هذا الإلغاء من ضعف شديد فى الخبرات الأكاديمية لدى طلبة الفن في العقود الأخيرة.

لكن قوانين المجتمع الرأسمالى فى دول الغرب - التى انطلقت منها إلى الدول التابعة لها اقتصاديا وفكريا - كانت تعمل بدأب على توظيف جسد المرأة لأغراض نفعية تخدم المؤسسات التجارية والاستهلاكية، من خلال الإعلانات المطبوعة أو المرئية على الشاشة. ونجحت فعلا في تحويله إلى أداة لترويج كل أنواع السلع، ومنها انتقلت إلى جعله أداة فى أفلام الإثارة وأغانى الفيديو كليب، الأمر الذى انتهى إلى «تسليع» جسد المرأة، بما يتضمنه ذلك من امتهان لكيانها وكرامتها وعقلها ومشاعرها، مما انعكس بالضرورة على احترام الرجل لها، وأثر سلبا على قدر التكافؤ الفكرى بينها وبينه، حيث انتقل استغلال المرأة لجسدها من مجرد الحاجة الاقتصادية التى تدفعها لذلك إلى قبولها للمبدأ ذاته، بل والسعي وراءه تحت إغراءات المال والشهرة والترف، وهكذا انهارت قيمة الجمال الأنثوى الذي يحتل مكانه في متاحف الفن ومراسم المبدعين، وارتفعت قيمة الجسد الأنثوى كأداة لترويج سلعة، أو كوسيلة لاستثارة الشهوات .

من هذا المنطلق جاء معرض الفنانة الشابة عزة مشالى فى الشهر الماضى بمركز الجزيرة للفنون، حيث عرضت - مستخدمة أسلوب «الكولاج» مع تقنيات فنية أخرى - مجموعة من اللوحات تصور كيفية استغلال جسد المرأة عبر رسائل الإعلان والفيديو كليب، وكان بإمكانها - لو أرادت - أن ترسم نماذجها الأنثوية بدلا من اقتطاعها من مطبوعات منشورة، بحكم كونها دارسة أكاديمية تجيد الرسم، لكنها فضلت تقنية «الكولاج»، تحقيقا لمصداقية هدفها من المعرض، كي يبدو الجسد - السلعة كما يجرى فعلا استغلاله في الواقع .. ولأنها تدرك أنها تقدم - قبل كل شيء وبعده - عملا فنيا وليس مجرد فكرة قامت برسمها بخامات مختلفة، مثل الألوان المائية والشمعية والزيتية والأحبار والأكاسيد، مضفية عليها حسا عفويا متوترا عبر الملابس الخشنة المتآكلة، وكثيرا ما عمدت إلى إحداث المفارقة بين الشكل الأمامى «المجسد فوتوغرافيا» وبين الأرضيات التحتية المتآكلة بألوانها المتداخلة، للوصول إلى أقصى درجة من التأثير الفنى والتعبيرى، في الوقت الذى حرصت على وحدة التكوين وتوافق العلاقات النغمية، بما يمنح اللوحة جدارة العمل الفني.

إن عزة مشالى ليست فقط موهبة واعدة بما تملكه من تمكن تقنى فى أسلوب الكولاج، بل كذلك من وعى فكرى أهلها لتوظيف موهبتها كقوة تضاف إلى تيار النضال من أجل تحرير المرأة من مستنقع التسليع، فى عصر يضع المادة فوق كل قيمة. ■



قصة موسيقى الجاز الإفريقى فى أمـــريكا

بقلم
فرج العنترى

إن الإستمتاع الثقافى إلى أصالة موسيقى الجاز الأفريقى بعد الاحاطة التاريخية عن امتحان الأمريكيين البيض له بوضع اليد، والمتم أساسا بتدابير العمليات العدوانية لاختطاف خلق الله الأفريقيين من أوطانهم وشحنهم بسعر أسواق النخاسين إلى أراضى «الدنيا الجديدة» لاستعبادهم القهرى إنما يكشف لوعى المستمع عن صراحة المضمون للأسلوبين الرئيسيين فى هذا النوع من الموسيقى: أولهما الأسلوب المعروف حاليا بمصطلح «الراجتايم» Ragtime والمتميز بإطلاق زمجرات من اصطخاب النغم الزاعق والمتمزق إربا Rags فيعطى الانطباع أكثر مما يعطى بأن كبت القهر قد ولد انفجاره الزاعق بمعزوفات قوم طالتهم كل عذابات القهر بدون أى مبرر مشروع!!.

وأما الأسلوب الثانى الذى يأخذ دوره مصطلح «البلوز» Blues وتسبحات الروحانيات Spirituals لمجرد استرحامات منلوية من وداعة الضراعة التى أنشدها المعذبون فى الأرض أن يرسموها فى بريد السموات الزرقاء Blues بمثابة المرشحات إلى الطاف رب العباد ليقضى بعدالته فى جرائم ظلم الإنسان الأبيض للإنسان الأسود!!

(١)

والواقع المنصفى أن دلالات التعبير فى أسلوبى «الراجتايم» و«البلوز» بأصالة الجاز الأفريقى - وليس الأمريكى المنتحل!! - تنبثق تلقائيا من آثار الوقائع السوداء لفترة تاريخية بشعة، كانت قد بدأت من منتصف القرن السادس عشر واستمرت أو كادت فى القرن التاسع عشر، ويعتبرها المؤرخون بحق من أشنع فترات التاريخ الإنسانى بسبب طوفان الأحزان التى أصابت أفريقيا بهجمات على أهاليها لأجل بجاحة وفظاعة المتاجرة بهم فى أسواق النخاسة الأوروبية والأمريكية على السن والربح الاستثمارى والاستعمارى، وهنا إذن أيها السادة والسيدات والآنسات نراجعة كتاب اليوم عن «جذور قصة الأسود والأبيض» فى العدد ١٢٦ لشهر يونيو سنة ١٩٧٧، وكتاب الهلال عن «تجارة الرق والرقيق» فى العدد ٣٦٢ لشهر فبراير سنة ١٩٨١ واسكبوا أحاسيسكم إزاء ما به من الوقائع.

(٢)

والثابت أيضا أن النشاط البرتغالى كان قد استنفع شهوة النخاسة فى كل من الهولانديين والفرنسيين، والدانماركيين والبريطانيين فاحترفوه واجتهدوا فيه، غير أن بريطانيا بحسب ما رصدته المراجع كانت هى التى تفوقت نخاستها على الجميع خطفا وتسويقا. وحتى صار من نبلائها المشهورين فى هذا المجال السير جون هوكنز ١٥٣٢ - ١٥٩٥ الذى كرمته الملكة اليزابيث





الأولى «١٥٥٨ – ١٦٠٣» بدرع عليه نقش لصورة زنجي مصفد في الأغلال، فتلقاه بالزهو واتخذه شعارا ارستقراطيا لعائلته، وحقيقة أنه كان قرصانا دائم الطواف بسفينته دون كلل أو ملل في عمليات خطف العبيد من منطقة سواحل أفريقيا الغربية، وبيعهم لأصحاب مزارع الإمبراطورية الاسبانية التي كانت حينذاك أهم أسواق أوربا لتصريف شحنات «السلع البشرية» المربحة للانجليز!!

ومع ما تقدم فلقد كان من اللازم أن يتجهز في العالم الجديد المعروف حاليا بالولايات المتحدة الأمريكية – أوسع أسواق النخاسة لاستقبال وتصريف شحنات الرقيق الأفريقي، تبعا لأن أوائل المهاجرين الأوربيين إلى متسعات «الدنيا الجديدة» كانوا قد عاينوا فيها مساحات من آلاف الأميال المربعة الصالحة للزراعة، ثم اتضح لإمكاناتهم أنه لا طاقة لخبرات اياديهم البيضاء الطرية بقدرات العمل على استزراعها، وبالتالي فما كادت اول سفينة للنخاسة ترسو بحمولتها الافريقية على الساحل الأمريكي في سنة ١٦١٩، حتى بيعت كل شحنتها فورا لأصحاب مزارع الدخان في ولاية فيرجينيا بالثمن المجزي. ثم كان نجاح هذه الصفقة حافزا الى فتح سوق امريكية للرق في ظل الراية الاستعمارية الانجليزية الحاكمة، وأصبح السوق المركزي في أمريكا الشمالية فعالا في استيعاب اكبر الشحنات. ثم عمدت يومئذ كل من الدول الانجليزية والفرنسية والبرتغالية والدانماركية على انشاء شركات رأسمالية في انشطة اجتلاب الرقيق من سواحل أفريقيا الغربية وتصريفه في مختلف الاسواق بموافقة حكوماتها وتصديق برلماناتها. وتم بالفعل إنشاء مجموعة الشركات التي توافرت على دوام امداد وتموين ولايات الجنوب الأربع بالعبيد، وهي ولايات الألا باما، وتنيسي، ولويزيانا، وجورجيا. وأصبحت ميناء شارلستون في ساحل كارولينا الشمالية أهم المواقع الأمريكية وأضخمها في استقبال وتصريف الرقيق. كما أصبح ميسورا لكل السادة أصحاب مزارع القطن والدخان ان يبتاعوا كفاياتهم من أيدي العبيد العاملة، وأن يقيدوا أفرادها في بعضهم البعض بالحبال اتقاء الهروب، وأن يسوقوهم سوق القطيع الى اكواخ إقامتهم الحقيرة، ثم يعاودون سوقهم في كل صباح مبكر إلى مزارع الشغل الشاق بلسعات السياط لتنشيط العمل في لظى الشمس الحارقة حتى المغارب، وعندئذ يتوقف العمل وتعود القطعان إلى حظيرة

نومهم. فيتأتى لهم فى ليلهم بعد التقاط أنفاسهم وتناول ما تيسر لطعامهم أن يطلقوا مزامير حناجرهم بنوع التراتيل المكسورة فى خاطر تنغيمها بمشاعر قهرهم وانسحاقهم فى اغترابهم البعيد جدا عن احضان وطنهم الام فى العبارة I want go to mammy، مع لوازمها من التطبيل على اى وعاء او صفيحة. وباستنغامهم لأوتار يربطون أطرافها على جانبى تجويفات علب التبغ. وتستمر هكذا توقيعاتهم تصحب بكائيات حناجرهم ونبر أوتارهم حتى يحتويهم النعاس إن استطاع!! .

(٣)

غير أنه مع بدايات القرن التاسع عشر ظهرت دعوة جديدة فى ولايات الشمال بوجوب القضاء على عمليات الرق والاسترقاق ، لا عن صحوة ضمير، وانما نتيجة لما ثبت من كفاية الموجودين فعلا من العبيد، ومن الاطمئنان على أن معدل التناسل الطبيعى بين الزنوج الموجودين كفيل بسد أية احتياجات فى المستقبل. وقد اجتهدت بريطانيا بدورها فى تأييد هذه الدعوة بسبب نضوب عبيد الخطف بمنطقة الساحل الغربى الافريقية، فضلا عن انها قد فقدت مستعمراتها فى العالم الجديد بالطرد النهائى منها، مما لم تعد بها حاجة إلى ايدى العبيد العاملة. وتوالت الايجابيات بأن حررت امريكا الشمالية كل فائض الرق لديها والعمل على اعادتهم الى موطنهم فى غرب افريقيا سنة ١٨٢٢، بعد أن شيدت لإقامتهم مدينة منروفيا التى اخذت تتوسع اكثر فاكثر لاستيعاب وفود المعتوقين وهذا عدا إضافات المساحات المتزايدة بالمنطقة حتى صارت بالفعل جمهورية للتحرير التى حملت فعلا جدارة التسمية بكونها جمهورية ليبيريا Li-beria of Republic ثم تدعم تزايد الايجابيات فى الشمال الأمريكى بإنشاء جمعيات لتحرير العبيد، وبعقد المؤتمرات لنفس الهدف، وبظهور الأعمال الادبية الفعالة لنفر من الكتاب أمثال رالف امرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) والكاتبة هاريت بيتشرسو «١٨١٢ - ١٨٩٦» التى اجادت تصوير معيشة السود فى قصتها المشهورة «كوخ العم سام» وبإنشاء الحزب الجمهورى الداعى الى وجوب تحرير العبيد برئاسة ابراهام لنكولن محرر العبيد فى مواجهة حزب ولايات الجنوب المعارض، برئاسة جفرسون دافيس، ثم بفوز ابراهام لنكولن فى الانتخابات العامة برئاسة الولايات المتحدة ، وتوكيده فى أول خطبة بالكونجرس على وجوب إلغاء الرق مما أثار ولايات الجنوب التى أعلنت انفصالها التام عن الشمال، فقامت الحرب الأهلية المشهورة التى استمرت اربع سنوات «١٨٦١ - ١٨٦٥» وانتهت بانتصار جيش الشمال واستسلام كل الجنوب لحكومة السلطة الفيدرالية، وبحيث قام الكونجرس فى سنة ١٨٦٦ بعد حادث اغتيال ابراهام



لنكولن فى سنة ١٨٦٥ بالتصديق على قانون الحقوق المدنية للسود، وإقرار المساواة بين مواطنى الولايات المتحدة.

(٤)

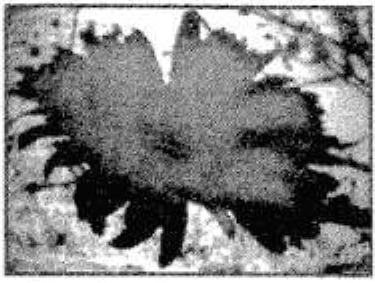
وفى ظل المساواة ورعايتها القانونية أمكن ان يشق نفر من الأفريقيين اصلا طريق جدارتهم إلى الثراء بانشاء المصانع والمتاجر ، وبأن يلمع منهم المشاهير الكبار الذين قدموا لمجتمعهم الأمريكي أجل الخدمات أمثال: جورج واشنطون كارفر الذى قام بعدة ابحاث فى علاج امراض النباتات مما ضاعف من محاصيل ولايات الجنوب التى لم تكن فى صف تحرير العبيد أبدا، والدكتور رالف بانش الذى تولى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وأندرو يانج سفير الولايات المتحدة فى هيئة الأمم، وبجانبهما غالبية ابطال الدورات الأوليمبية ومنهم البطل محمد على كلاى وفى الموسيقى فنان الجاز العالمى ارمسترونج.

ولا يتبقى امامنا إلا موضوع نشأة الجاز فى أمريكا وتنميته لتسعفنا مفكرة الدكتور حسين فوزى الموسيقية فى عدد اهرام ٤ يوليو سنة ١٩٧٧ بأن السود فور أن تحرروا، انفصلوا عن سادتهم وابتدأوا يوجهون سعى عيشهم الى العمل الموسيقى الحر بما يمتلكون من موروثات الطقوس الافريقية وفلكورياتها وانهم سافروا الى مدينة نيوأورليانز الموسيقية اصلا، والتى تعتبر من مدن ولاية لويزيانا التى كانت مستعمرة فرنسية ثم باعها القنصل الأول نابليون بونابرت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٠٣ ويعرف اهلها بأنهم الكوريول أو الفرنسيون الخلص الذين ولدوا بمستعمرات فرنسا فى «العالم الجديد» وفى مدينة نيواورليانز الموسيقية، التى تتكلم الفرنسية دون سواها، ويعتبرها التاريخ الفنى متبت الظهور والتنمية لموسيقى الجاز . اكتسب اداء موسيقى السود تسمية الجاز Jazz لاول مرة من المصدر اللغوى الفرنسى Jaser بمعنى الثرثرة أو الدردشة وهى التسمية التلقائية التى عبرت تماما عن اسلوب الأداء الأفريقى للموسيقى الذى يتحرر فيه كل عضو مشارك من قيود التكرار الحرفى للحن المعين . وانما له كامل الحرية عندما يأتى عليه دور الاداء فى اضافة كل ما يروق له من ألوان ارتجالاته الذاتية، فيدرك السامعون مبلغ حذقه الخاص فى ابداعه الخاص لدردشة اداء اللحن، وبهذه الارتجالات الذاتية والتلقائية تولد الجاز على يد العتقاء الافريقيين فى مدينة نيوأورليانز باستخدامهم لآلتى البانجو والجيتار، ولما

اكتشفوا ان هذه المدينة غنية بآلات النفخ النحاسية والخشبية تبعا لأنها كانت متخصصة من قديم فى تصنيعها. وان اسواقها عامرة بآلات النفخ «النصف عمر» ذات الاثمان الميسورة لهم، تألفت منهم ايضا فرق موسيقية على آلات النفخ. وقامت بسد خدمات المدينة من موسيقى المواكب. والاعياد القومية، والسيرك وحلقات الرقص، والنزهات الخلوية، وحتى لتشييع الجنازات، كما امكن لهذه الفرق ان تجد لها مكانا على الوابورات البخارية التى كانت تمخر عباب نهر المسيسبى جيئة وذهابا. من مصبه حتى التقائه بروافده فى امريكا الوسطى، وبذلك تحرك نجاح فرق السود بآلات جديدة غير البانجو والجيتار، وراج اداؤهم بها رغم انهم لم يتلقوا دروسا نظامية على آلات النفخ التى استجدت عليهم من السكسفون والكلارينت. والكورنيت والترومبة. والترومبون. والباص. وكانوا لا يعرفون شيئا عن قراءة وكتابة الموسيقى، وانما ظل كل ادائهم الإعجازى قائما على التجربة والتمرس بالحفظ والسماع حتى نجحوا فى عمليات نقل الاغانى الشعبية على تلك الآلات التى تفننوا فى التلاعب بألحانها عن طريق اسلوب ارتجالهم الخاص، وابداعهم للتلوينات الصوتية التى استولدوها بحذق تعامل شفاههم مع مباسم النفخ، وكان ان انتهى بهم الأمر الى ادخال آلة البيانو - «الكلى الاحترام فى مفكرة الدكتور حسين فوزى» الى حلبة اداء موسيقى الجاز فى تركيبات موسيقية، من زعقات التصادم. أو بالترنح التوقيعى Symcopation الذى يوقع الاضطراب فى التدفق الطبيعى لنبرات التمبو، وبالثبات بقرار الايقاع الهارمونى مع تمزيق اللحن العلوى إربا إربا. ويمثل هذه الخصائص التحررية تشجع افريقيو نيوأورليانز القدامى ومن تبعهم من البيض على جرأة التقدم بأدائهم الى حلقات المباريات عن ثقة واطمئنان.

★★★

والآن، فإنه بعد قراءة هذه القصة عن موسيقى الجاز الافريقى فى أمريكا، وبعد الاحاطة بكل ما حدث فى مؤتمر دربن لحقوق الانسان ومناهضة العنصرية ألا تتولد شدة النزوع إلى حث اشقائنا الافارقة على المطالبة بكامل حقوق افريقيتهم فى شتى استثمارات البيض الاوروأمريكيين لفنون الجاز بدءا من يوم استزراعه فى مدينة نيواورليانز سنة ١٨٦٦ حتى الآن وبعد الآن وايضا وبكل جهود الاصرار على مقاضاة جميع الدول التى شاركت فى جرائم خطف وبيع واسترقاق الجدود الافريقيين فى الاشغال الشاقة المؤبدة لمدة ثلاثة قرون فى اراضى جنوب امريكا، بطلب التعويض المتكافىء والشافى. ■



الفنان محمد صبرى فى معرضه الشامل

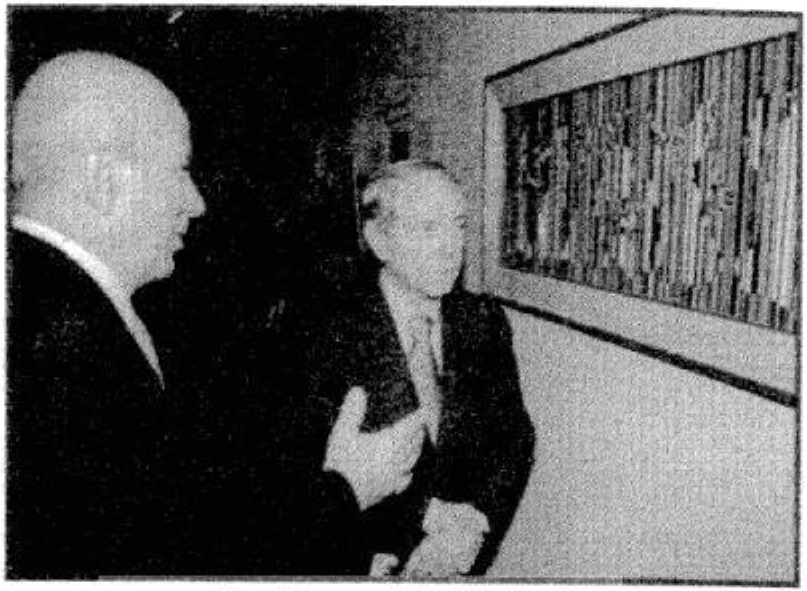
من الرسم بالكاميرا إلى التعبيرية والفن البصرى

صلاح بيصار

استطاع الفنان محمد صبرى طوال رحلته مع الإبداع التشكيلى والتى تمتد لأكثر من خمسين عاماً أن يسقط الحاجز بين الفوتوغرافيا والرسم.. فلقد حول الكاميرا إلى أداة تشكيلية يجوب بها آفاق التعبير.. تلك الآفاق التى تخرج بالكادر التسجيلى واللقطة من الطبيعة إلى عالم يموج بالأضواء والظلال والملامس والغموض المتناغم وسحر العناصر..

ولقد جاء معرضه الشامل والذى أقيم بقاعة الأوبرا للفن التشكيلى فى سيمفونية بصرية طويلة انسابت فى ثلاث نغمات.. فى رشاقة وحيوية من الرسم بالكاميرا إلى التصوير بالألوان المائية والجواش وامتزج فن لوحة المعمل بفن الرسم فى مساحات من المشاعر والأحاسيس..

فى لوحات الفوتوغرافيا سيطر صبرى على عين الكاميرا فتحول الواقع مع أحكام زوايا التصوير وتحريف نقط التركيز فى العدسة إلى إيماءات شاعرية وموسيقية تتلامس مع مدارس واتجاهات الفن الحديث من الانطباعية التى تحتشد باللمسات اللونية القصيرة وارتعاشات الضوء إلى التجريد الذى يفكك الطبيعة ويختزل المرئيات ويخرجها من اطارها الضيق.. ومن هنا يتغير الزمان والمكان



الدكتور اسامة الباز مع الفنان محمد صبري في معرضه



المراكب الشراعية بين الروح والصورة وقت الغروب



هكذا تتحول الفوتوغرافيا داخل المعمل إلي ايقاع يتدرج من الابيض والاسود إلي اللون



غربة الانسان في حضن الكون من الجزر إلى المد

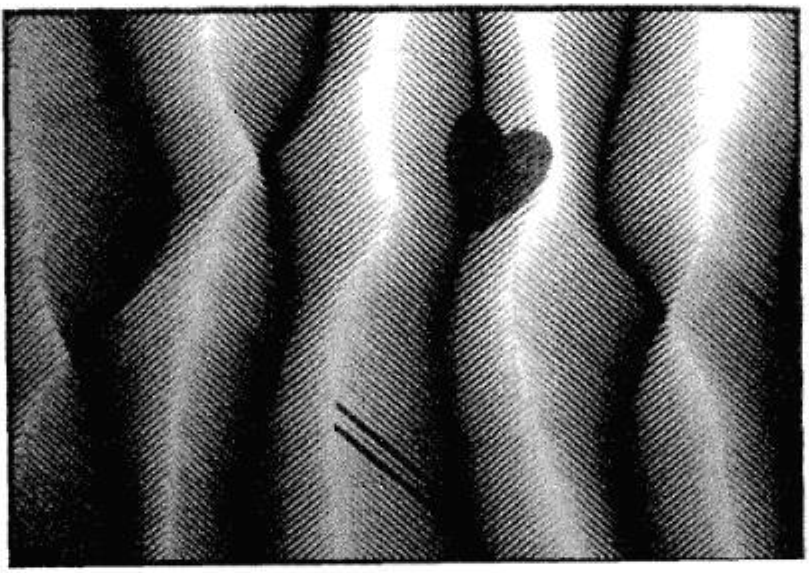
في أعماله ويتحول المنظر الواقعي إلى رموز ومسحات تعبيرية فيطل الوجه الإنساني عميقا من بؤرة في اللوحة ثم يتلاشى وتتوه ملامحه وتتداخل في الخلفية مسكونة بالهمس الشاعري والسطوع اللوني..

ومحمد صبري يستخدم العديد من الوسائط والمؤثرات الشكلية داخل المعمل كالمرشحات والفلاتر والملامس المختلفة مع حواجز الزجاج المبلل وانعكاسات الفانوس السحري.. وكل هذا ينقلنا من لحظة تعبيرية إلى أخرى كما في لوحات الزهور التي يتحاور فيها الورد البلدي ويغني عصفور الجنة وينتشي عصار الشمس مسكونا بهمس الضوء الشارد في لحظات الغروب..

وفي مجموعة الجسد العاري يختزل الفنان صبري مناطق الإثارة والأنوثة في المرأة ويحولها إلى دنيا من التعبير تنتقي فيها قوة الجسد برغباته العارية من خلال الشرائط والملامس المتنوعة والتباين اللوني والسطوح الخشنة وتتجمع قوة أخرى جديدة من الشجن والدفء والحزن الشفيف والمشاعر الجياشة..

وهو يقدم تكنيكا جديدا من التصوير من خلال بعض الوجوه الإنسانية لمشاهير مثل صلاح جاهين وحسن يوسف في خطوات تتم داخل المعمل يتخلص فيها من التفاصيل الزائدة ويتحول التدرج الضوئي إلى تباين من الأبيض والأسود مع اللون ولا يبقى من الصورة إلا روح الشخصية وأعماقها الداخلية.

وبالألوان المائية وألوان الجواش تطل مجموعة من الوجوه لبنت البلد والمرأة



بين الايقـــاع الهندسي والعـــضـــوي تتـــألق أعـــمـــال الفنان صـــبـــري في الفن البـــصـــري

العصرية مسكونة بالتوتر الدرامى مع قوة التعبير ينساب فيها اللون كالنوافير يعكس ملامح من الشفافية المؤلفة بالغموض والأسرار..

ولقد جاءت النغمة الثالثة فى سيمفونية صبرى تلخيصا شديدا وتكثيفا لعالمه من تلك الأعمال التى تنتمى «للأب أرت» أو من الخداع البصرى وهو من يعمد إلى الإيهام أو الخداع البصرى اعتمادا على المنظور الحسى الذى يظهر نتيجة إحكام التنظيم الهندسى حينما تتدرج بعض الأشكال الهندسية فى الصغر وينتظم غيرها بالعكس ويتولد نتيجة هذا التنظيم إحساس عام بالحركة ولقد كان الفنان المجرى فازا نيلى من رواد هذا الاتجاه حيث جعل مجال الابصار فى أعماله اطار للتراسل بين المبدع والمتلقى من أجل إثارة العين دفعة واحدة.. لكن فناننا صبرى أضاف إلى المتعة البصرية المجردة لهذا الفن مضمونا إنسانيا وتعبيريا حين مزج الشكل الهندسى بعناصر عضوية فى لوحاته كما فى تلك اللوحات التى امتزجت فيها الزهور بالهندسيات.. والتى تألف فيها القمر والشمس مع الانكسارات الضوئية.. مع تلك التعبيرات الإنسانية للوجوه المبتهلة والمتحفزة والمطلقة والتى تحلقت حولها التناميات الهندسية.. فى ايقاع رياضى بليغ.. جاءت كلها أشبه بسحر المشربية التى تجمع بين الروح والصورة أوبين النظم الهندسى وتجليات المعنى..

تحية إلى الزميل والفنان الكبير محمد صبرى بعمق مساحات التعبير التى تنوعت فى معرضه الشامل. ■


كتاب جديد
يهود
على ضفاف النيل
بقلم
سامى محمد عبد الحميد

صدر فى باريس عام ١٩٩٠ كتاب عنوانه «تاريخ يهود النيل» وهو مجموعة من البحوث جمعها وأشرف عليها جاك حسون وهو يهودى مصرى ولد فى الاسكندرية فى عام ١٩٣٦ ويطلق على نفسه اسم يعقوب بن داود. وقد أصدرحسون عدة كتب عن يهود مصر.



ويشير حسون إلى أن ملامح شخصية يهود مصر لم تكن ثابتة لأنها كانت عرضة للتقلبات مثل مصر نفسها التى استوعبت الثقافات وامتصت الغزوات. ويهدى حسون هذا الكتاب إلى الذين يجهلون تاريخ الطائفة اليهودية فى مصر ويشكر عدة شخصيات منها جيمس حكيم «الذى كان قاضيا فى المحكمة الحاخامية العليا فى القاهرة» وأعضاء رابطة إنقاذ التراث الثقافى ليهود مصر.

● لماذا تم تحريف التوراة في عصر البطالمة؟

● كان المستوى الروحي لليهود في مصر راقيا بعد الفتح العربي

ويأتى أول أبواب الكتاب، الذى يعالج تاريخ اليهود فى مصر منذ البداية حتى الفتح العربى لمصر، تحت عنوان «ازدهار يونانى وبؤس رومانى» وهو بقلم چوزيف ميليز مودرزيوفسكى أستاذ التاريخ القديم فى جامعة السوربون وهو من أصل بولندى.

وتأتى المرحلة الثالثة التى تمتد نحو خمسة قرون وذلك منذ سحق الثورة اليهودية فى عام ١١٧م حتى الفتح العربى لمصر فى عام ٦٤١/٦٤٢م.

بداية الهجرة إلى مصر

ويقول مودرز يوفسكى : إن بداية هجرة اليهود إلى مصر ربما ترجع إلى عهد سقوط مملكة يهودا واستيلاء «نبوخذ نصر» على القدس والمنفى البابلى. ويرى الباحث أنه كان هناك يهود فى مصر قبل استيلاء قمبيز عليها فى سنة ٥٢٥ ق.م لكنه يرجح أن البداية الحقيقية للهجرة اليهودية تزامنت مع تدمير مملكة يهودا فى يوليو ٥٨٧ ق.م. مما دفع النبى إرميا ومجموعة من الضباط اليهود للهجرة إلى

مصر ويشير سفر إرميا إلى عدة أماكن فى مصر أقامت فيها جاليات يهودية، لكن أشهر هذه الأماكن هو «جزيرة فيلة» التى تتوافر عن جاليتها اليهودية معلومات وافية بفضل مجموعة من الوثائق الآرامية التى جمعها بيير جريلو فى كتاب صدر بالفرنسية فى عام ١٩٧٢ تحت عنوان «الأدب القديم فى الشرق الأوسط».

وقد اختفى أثر المرتزقة اليهود فى «فيلة» مع الفتح المقدونى لمصر على يد الإسكندر الأكبر الذى خلفه البطالمة فى حكمها.

وقد أصبحت هجرة اليهود إلى مصر أمراميسورا لأن فلسطين كانت منذ عام

اسرة يهودية عاشت فى مصر عام ١٩٢٢



٣٠١ حتى عام ١٩٨ ق.م من أراضى البطالمة، وتم تنظيم شئون الطائفة بقيادة زعماء روحيين فى عهد بطليموس الأول ولكن اليهود لم يتمتعوا بنظام يشبه الحكم الذاتى إلا فى عهد بطليموس السادس فيلوميتور الذى كان محبا لليهود.

وفى القرن الثانى قبل الميلاد أنشأ الكاهن أونيا الرابع جالية عسكرية يهودية فى ليونتوبوليس (تل اليهودية) قرب ممفيس حيث حصل على إذن بإقامة هيكل هناك مشابه لهيكل أورشليم رغم أن ذلك مخالف لما عرف بشريعة وحدة الهيكل التى تنص على وجود هيكل واحد لليهود ولكن ذلك لم يحدث حيث كان هناك أيضاً هيكل السامريين فى جرزيم قرب نابلس.

وقد قامت بعثة فرنسية بالتنقيب عن هيكل أونيا وأصدرت عن ذلك بحثا عنوانه «هيكل أونيا ومعسكر الهكسوس فى تل اليهودية» ونشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية فى القاهرة هذا البحث عام ١٩٣٥.

تحريف التوراة

ورغم الحرية التى نالها اليهود فى عهد البطالمة حيث اعترف النظام القضائى رسميا بالتوراة فإن ذلك لم يمنع اليهود من اتباع القانون اليونانى العام حيث مارسوا الربا رغم تحريمه فى

التوراة بين اليهود.

وهناك حدث يستحق الذكر هنا لأن التوراة ترجمت إلى اليونانية فى عهد البطالمة وأطلق عليها اسم «التوراة السبعينية» لاشتراك نحو سبعين عالما فى ترجمتها وذلك بتأييد بطليموس الثانى.، ولكن اليهود تجنبوا كل ما يمكن أن يسئ لليونان مما دفعهم إلى بعض التحريف فى كتابهم الدينى المقدس وهم واعون بذلك. فقد تحايلوا على ذكر كلمة «أرنب» وهو حيوان نجس فى اليهودية وذلك لقربه من كلمة لاجوس التى ينتسب إليها البطالمة وتعرف بها أسرتهم.

كما أنهم استخدموا اسمه تعالى «الله» بصيغة الجمع فى سفر الخروج حيث أصبح «إيلوهيم» فى الآية القائلة بعد تحريفها «لن تسب الآلهة» وكأن ذلك دعوة إلى عدم انتقاد تعدد الآلهة عند اليونان.

وقد أشار إلى هذا التحريف بوضوح لا لبس فيه التلمود الأورشليمى.

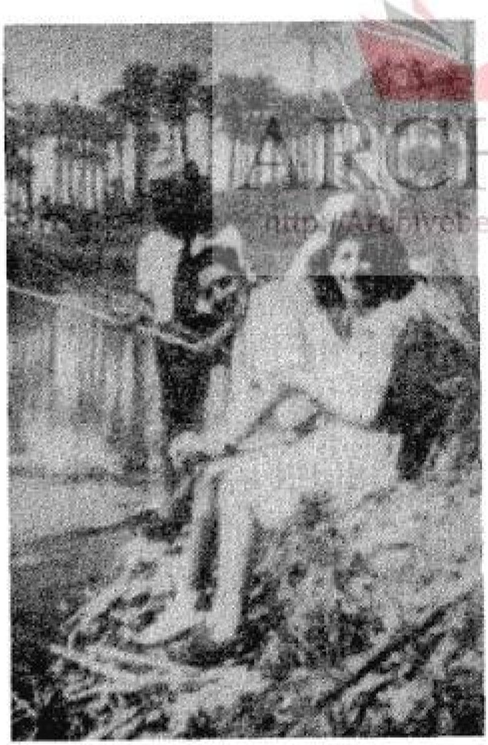
وهناك حادثة مهمة أشار إليها الكاتب وهى اشتراك يهودى من عائلة غنية فى الاسكندرية فى حصار أورشليم وتدمير الهيكل مع تيتوس عام ٧٠م وهذا اليهودى هو تيبريوس جوليوس إسكندر وكان أبوه أخا للفيلسوف فيلون. وكان نيرون قد عين تيبريوس حاكما على مصر فى عام ٦٦م كما أصبح الشخصية الثانية فى الأمبراطورية الرومانية عام ٧١م. وقد أمر تيبريوس الجنود الرومان بقتل اليهود ونهب أموالهم وهدم بيوتهم.

وكان تيبريوس مستشارا لتيتوس ورئيسا لأركانه. ويختتم مودرزيوفسكى بحثه بالحديث عن فتح عمرو بن العاص لمصر حيث لم يقاومه الشعب الذى كان يعادى بيزنطة منذ أمد طويل.

اليهود والفتح العربي

وفى بحث عن اليهود فى مصر منذ الفتح العربى حتى حملة بونابرت قال الفريد موراببا (المولود فى القاهرة ١٩٢١) إن الفتح العربى كان تحولا فى تاريخ مصر وتاريخ اليهود فيها مشيرا إلى أن المستوى الروحى ليهود مصر كان

هكذا عاش اليهود فى مصر



راقيا ودليل ذلك أن سعديا الفيومي بكل معارفه تعلم كل شئ في مصر خاصة في الفيوم. وقد ظهر سعديا في نهاية القرن التاسع للميلاد وتأثر كثيراً بالمعتزلة وكان عدواً لطائفة القرائين مما جعله يضطر للهرب من مسقط رأسه بسبب قوتهم حيث عاش في سوريا ثم كان رئيسا لأكاديمية بابل وهو أول من ترجم التوراة إلى العربية، ويعتبر أول من مهد الطريق للفكر الفلسفي لدى اليهود في القرون الوسطى كما وفق بين الثقافة اليونانية والروح اليهودي ولذلك يعتبر بمثابة فيلون الثاني ومبشرا بموسى بن ميمون وهو حلقة مهمة بين هاتين القمتين وقد عاش الثلاثة في مصر، وأشار مورابيا إلى دور الوزير الخطير يعقوب بن كلس (الذى كان يهوديا وأسلم) في العهد الفاطمي حيث عمل على أن ينشر الأزهر العقائد الإسماعيلية.

اليهود في عهد الفاطميين

وتحدث مورابيا عن تأثر اليهود بانقسام العالم الإسلامي حيث استقل يهود مصر في العهد الفاطمي عن أكاديمية بابل. وكا يهود مصر أكثر الطوائف اليهودية ازدهارا حيث أنهم وفروا الحاجات المادية لأكاديميات بابل وفلسطين وأصبحت مصر، كما قال، مركز إشعاع ليهود الشرق.

وقد ازدهر النشاط التجارى الدولى في مصر الفاطمية، وكان لليهود دوركبير

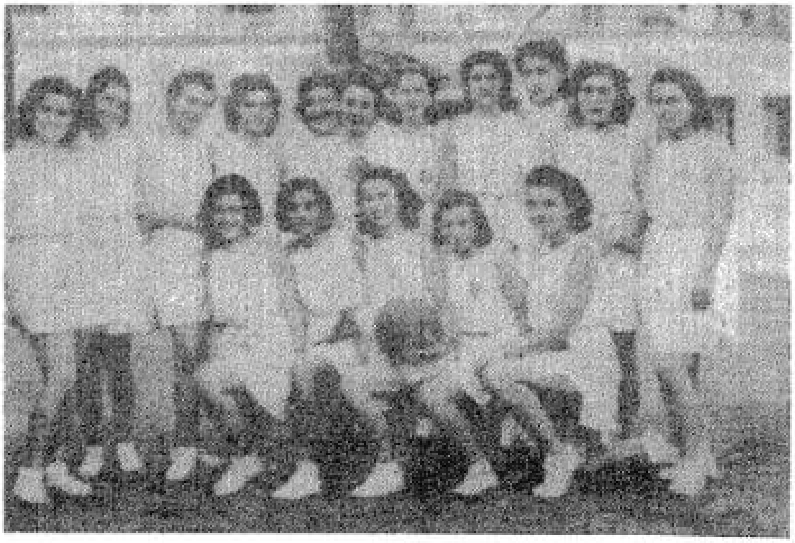


حوش عائلة ايميل داود عدس

في تجارة الترانزيت عبر مصر لأن الفاطميين لم يفرضوا ضرائب باهظة على التجار غير المسلمين. واحترم الفاطميون الاستقلال الداخلي لليهود حتى أن جويتن وصف نظام الطائفة بأنه ديمقراطية دينية في العصر الوسيط. بل إن بعض اليهود، رغم نظر معظم القضايا أمام المحكمة الحاخامية، كانوا يفضلون اللجوء إلى القاضي المسلم في المنازعات التجارية.

وهناك الفيلسوف موسى بن ميمون الذى عاش في عصر صلاح الدين الأيوبي وكان موسوعيا حيث قدم مزيجا من الروح العلمية اليونانية (خاصة عند أرسطو) والروح اليهودية الربانية.

وفي بحث عن يهود مصر في مواجهة



فريق «المكابي» لكرة السلة أنسات

الحداثة ترى جودرون كرامر وألفريد موراييا أن عهد محمد على شهد تحولات كبيرة ومهمة فى البنية الاجتماعية والاقتصادية وأنه يمكن تمثيل حياة يهود مصر فى القرنين الأخيرين فى منحنى صاعد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى يصل إلى الذروة فى السنوات من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠.

وقد اعتنق بعض اليهود الكاثوليكية فى تلك الفترة مما أدى إلى إنشاء مدارس يهودية على مستوى عال لمواجهة تأثير المدارس المسيحية.

بين الصهيونية والشيوعية

وفيما يتعلق بالصهيونية فإنها بدأت فى مصر لدى اليهود الأشكناز الذين هاجروا حديثا إليها ولكن اليهود الشرقيين لم يلتفتوا كثيرا إليها.

وتحدث الباحثان عن دور مجلة المنار وصاحبها رشيد رضا الذى غير فكره من النظرية الإسلامية الموالية لتركيا إلى نزعة عربية دينية تمهد السبيل إلى المصالحة بين العروبة والإسلام.

وعلق الباحثان على العلاقة بين الشيوعية والصهيونية حيث كان الاتحاد السوفيتى أول دولة كبرى تعترف باسرائيل وكان الشيوعيون المصريون يعتبرون الصراع العربى الإسرائيلى صراعا طبقيا وليس تسللا لشعب أجنبى



صورة تجمع بعض العاملات في المركز الاجتماعي الاسرائيلي في حارة اليهود بالقاهرة



مدرسة ليسيه سيورتنج اليهودية - ١٩٣٦



راقية ابراهيم



يعقوب صنوع



هنري كورييل



مسيو سكاكي

إلى الأرض العربية.

طائفة القرائين

وفي بحث مهم عن طائفة «القرائين» أوضح جاك حسون أن هذه الطائفة ظهرت في القرن التاسع وأنهم كانوا أغلبية في مصر بعد أن هاجروا إليها من القدس والرملة إبان الحروب الصليبية.

وقد تدهورت أحوال القرائين بعد وصول موسى بن ميمون ويهود الأندلس إلى مصر. فقد انطوى القراءون على أنفسهم بسبب عداء الربانيين واقتصرت علاقاتهم الخارجية على القرائين في القسطنطينية والقرم. وهناك اليوم ٣٠ ألفا من القرائين في القرم وليتوانيا وإسرائيل وتركيا.

ويتمسك القراءون بالكتب المقدسة ويرفضون التراث الشفهي وقد أخطأ البعض وظن أنهم نحلة صدوقية جديدة رغم أن القرائين يعتبرون الصدوقيين كفارا لإنكارهم خلود الروح.

وقد انبثقت طائفة القرائين من الفريسيين وانقسمت إلى جماعات شتى إلى أن قام بتوحيدها في القرن العاشر يعقوب أبو يوسف القرقشاني، ويرفض القراءون فتوى الربانيين بتحريم أكل اللحم واللبن معا وهو تفسير حرفي للآية «لاتطبخ الجدي بلبن أمه» حيث يرى القراءون أن هذه الآية تنهى عن القسوة.

وهناك شخصية مهمة كان لها تأثير كبير في قوة القرائين وهو عنان بن داود الذي قاد أخطر ثورة ضد سلطة التلمود وذلك في بغداد حيث أسس هذا المذهب الجديد. وقد رفض عنان سلطة التلمود لكنه يقبل التوراة كمرجع أعلى ويرى معظم أتباعه أن المسيح عليه السلام معلم ونبي وأنه لم يأت لتأسيس دين جديد ولكن لإعادة سلطة التوراة بعد القيود التي فرضها الحاخامات ويقول أبرام ليون في كتابه «تاريخ اليهود» إن خطر القرائين ظل في ازدياد حتى ظهور سعديا الفيومي الداعية القوي لليهودية التلمودية. ■



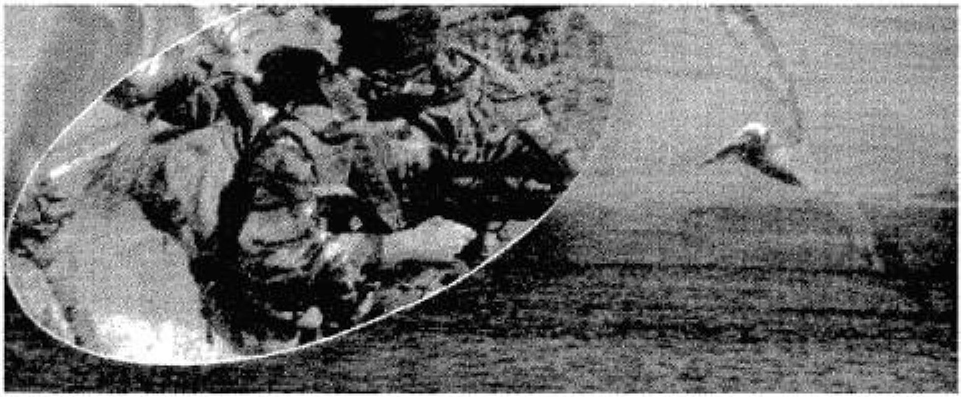
ماذا جرى للعاشقين؟

شعر: جلال عابدين

وتسألين : ماذا جرى للعاشقين !!!
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين !!!
الأغنيات تحجرت فى حلقنا
كل البلابل هاجرت من حينا
وكأن لغة بيننا سقطت
ودار الحب فى فلك حزين
ما عاد قلبى ذلك الطفل الذى ..
قد كنت يوما تعشقين
ما عدت أنت بعشب صدرى تسكنين
لا ولا أنت .. كما كنت .. بحبك تمطرين ..
تحاورين .. تشاورين .. الآن أنت تناورين
كل الخيوط تشابكت فى كفنا
وتمزق الحلم الذى ما بيننا
وكأننا نحيا جميعا .. مرغمين
وبعد ذلك تسألين ..
ماذا جرى للعاشقين
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين !!!

***

هل تعلمين ؟
فيروزة العينين ضاعت من سنين
ما عدت أسبح فيهما .. ولا أحن إليهما ..



وأغازل الوطن الذى ..
قد نام فى عينيك آلاف السنين
أنا لست أدرى ما الذى ..
قد حاصر الأحلام فينا ..
ومن استباح بأن يدوس الياسمين
وبعد ذلك تسألين ..
ماذا جرى للعاشقين
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين ؟!!!

***

وتسألين :
لم البلابل هاجرت
ولم القنابل أصبحت
إفطارنا اليومى فى الزمن الحزين
ما عادت الأطيار تحترف الغناء
ما عادت الأزهار ترقص بالحنين
ولم المساء نرى به ..
وجها يعاتبنا ويسألنا
لكى ننجيه من موت مهين
ولم الرجال تبيعه وتبيعنا بفطيرة للعابرين
وبعد ذلك تسألين : ماذا جرى للعاشقين ؟!!!
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين ؟!!!

القصة والرواية

الرواية ديوان العرب

فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بقلم
أحمد حسين الطماوى



جرجى زيدان



محمود تيمور



يعقوب صروف

القصة العربية العصرية ، فى طورها الأول ، أهديت إلى الملوك والأمراء ، وباركها رجال الدين ، وعملت الدوريات المختلفة على إذاعتها ، ودارت حولها المعارك الأدبية ، واهتم بها النقاد وتتبعوها، وأدركوا حساسيتها وهى تتجول بين الناس تلاحظ وتلاحق وتستكشف التجارب وتتبناها ، ثم وهى تتنقل بين الجماعات تستغويهم وتغريهم بموضوعاتها ، وتبين للأدباء أنها جديرة بالدرس والفحص ، فبحثوا فى أركانها ، ووجهوها بنظراتهم النقدية ، وحاولوا وضع قواعد ومصطلحات لها فى جو مهد لها سبل الرقى . وإذا لم يكن النقد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بلغ الكمال ، فإن القصة كذلك لم تصل إلى درجة الاتقان.



والقضية التي نناقشها أثارها عدد غير قليل من أدبائنا ونقادنا المعاصرين الذين ذهبوا إلى أن القصة في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين كانت ذليلة محتقرة ، وساحتها النقدية مجدبة ، ومن هذا قول محمود تيمور : « لم يكن للقصة في مطلع هذا القرن (يعني القرن العشرين) شأن يذكر إذ كانت على ندرتها لا تلقي من الحفاوة ما هي أهله» (نقلا عن كتاب عالم تيمور القصصي لفتحي الإبياري ص ٥٦) . ويقول د. محمد يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث» ص ٣٤ « كان الأدباء يحتقرون كتاب القصة ، ويعدونهم فئة متخلفة من ذوي المواهب الهزيلة . وقد حدثني قاص من الرواد (هو كرم ملحم كرم) أنه بدأ كتابة القصة سنة ١٩٢٨ حين كان الأدباء لا يعترفون للقصة بكيان أدبي ويعدون كاتبها متطفلا على موائد الأدب لا يستحق أكثر من الإهمال والاحتقار » . ويكرر د. سيد حامد النساج الكلام السالف في كتابه « القصة القصيرة .. » ص ٢٨ فيقول : « لم يكن للقصة القصيرة قبيل مطلع القرن العشرين في مصر شأن يذكر فقد ذهب الكتاب في تجاهلهم لها حدا جعلهم يعتبرون كاتبها متطفلا على موائد الأدب لايستحق أكثر من الإهمال والاحتقار » . ويرى عباس خضر في كتابه «القصة القصيرة ..» ص ٤٤ : أنه « لم يكن أحد يعد القصص من الأدب في شيء . فضلا عن أن تكون موضع الاهتمام والنقد» وفي عام ١٩٩٩ صدرت الأعمال القصصية الكاملة لمحمود طاهر لاشين ، وجاء في تقديم د. صبري حافظ لها ص ٢٠ « لقد حارب طاهر لاشين ببسالة في ميدان كان مجرد الانتساب إليه نوعا من العار» ولاشين من أعلام المدرسة الحديثة في القصة ونشر أول قصص له «سخرية الناي» عام ١٩٢٦ وهناك أقوال أخرى تدور في هذا المدار ، وما أوردناه يمثلها ، وهي أقوال كونت فيما بينها مقولة استقرت في الوجدان الأدبي قوامها أن الأدباء منذ أواخر القرن ١٩ وحتى عشرينيات القرن العشرين كانوا يحتقرون القصة ، وهو رأي إن لم يكن خاطئا ففيه مغالاة .

ويردد بعض المهتمين بالقصة أقوالا مناهضة لها ، منها أقوال ليعقوب صروف وأحمد فتحي زغلول ونفر آخرين مفادها أن الروايات «الحبية» تقلق



الشبان ، وتلين عزمهم ، وتصرفهم عن متابعة الكتب العلمية ، بل إن جرجي زيدان كان يخشى على منزلة الهلال العلمية من الروايات . ولكن لا يفهم من أقوال صروف وزيدان أنهما ضد القصة على الإطلاق ، وإنما ضد القصة المثيرة ، ومهما يكن من أمر فإنهما يحسبان للقصة لا عليها بما ترجماه من قصص وكتباه من نقد قصصي ، وأبدعاه من قصص طويلة أطلق عليها روايات ، فلصروف قصص مثل « فتاة مصر» و «فتاة الفيوم» ولزيدان رواياته المشهورة ، مما يجعلهما من أنصار القصة .

القصة وأعلام العصر

وقد فطن عدد غير قليل من رجال الدين والكتاب المستنيرين فى القرن ١٩ إلى دور القصة فى الإصلاح الاجتماعى فشجعوها ، وقد ذكر العقاد فى كتابه «بين الكتب والناس» أن جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ – ١٨٩٧) عندما اطلع على مجموعة قصص «مغامرات حاجى بابا» الأصفهانى أمر بترجمتها إلى الفارسية «لأنه فطن فى زمانه لفعل القصة الاجتماعية فى تنبيه الشعوب الغافلة» . ولو كان الأفغانى فى مصر لأشار بترجمتها إلى العربية فرأيه فى القصة لن يتغير .

وعلى درب الأفغانى سار الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) . فقد كتب مقالا فى الوقائع عام ١٨٨١ اعتبر فيه القصص من كتب الأدب التى « يبحث فيها عن تنوير الأفكار» وقرنها بكتب الأخلاق والتاريخ وعرّفها قائلا : «وكتب الرومانيات وهى المخترعة لقصد جليل كتعليم الأدب ، وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ككتاب كليلة ودمنة .. والتليماك..» والرومانيات هى القصص ، والتليماك رواية لفينلون . وبالرغم من أن الشيخ محمد عبده كتب ذلك بعيد نشأة القصة فإنه يقول عن الرومان « ويكثر فى أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته» ففضلا عن تيقظ وعى الإمام، فإنه يظهر أنها موضع درس ورعاية، وقيل إن الإمام كان يحث البعض على كتابة القصة ويراها نافعة فى الإصلاح الاجتماعى .

ومن بين المجلات المبكرة التى أولت القصة عنايتها مجلة «الآداب» فلعل صاحبها الشيخ على يوسف (١٨٦٣ – ١٩١٣) أدرك أن الثقافة القصصية إحدى وسائل النهضة فنشرت مجلته قصصا فرنسية مترجمة منها قصة «رحلة الثلاث ذبابات » وهى رمزية، وأخرى للفيلسوف بوفون وامتدت ترجمة قصتى «ميروب» و«الجاهل المتطبب» ، وإذا كان الشيخ على لا يعرف لغات أجنبية فالراجح أن محمد مسعود الذى كان يعمل معه

هو الذي ترجم . وما يعنينا أن مجلة تحمل اسم على يوسف وتشيد بالقصة وتنشرها ، تظهر مدى قناعة الرجل بالفن القصصي (الآداب ١٨٨٩) .



محمد فريد وجدى



أحمد شوقى

وقد عزز جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) موقف القصة لا برواياته فحسب وإنما بنُبَذ كتبها عن حوالي مائتي قصة ، وبانتقاداته العديدة ، ولعله أول من دون للروايات تاريخا نقديا تفسيريا شبه واف ، تناول فيه القصص منذ أقدم العصور وعبر بيئات مختلفة (الهلال ١٩٠٧) واهتمام زيدان بهذا التاريخ يبين أن الفن القصصي عندنا صار جنسا أدبيا مستقرا .

ويحدثنا محمد فريد وجدي (١٨٧٦ - ١٩٥٤) عن الروايات ، من خلال تعليقه على رواية « آيات العبر » لأحمد فهمي فيقول : يوجد عندنا كتّاب « يرفعون بناء هذا الفن الجليل الذي صار الآن في أوربا أكثر وسيلة لبث الفضائل وصد الرذائل ، وقد أدرك القوم هناك مبلغ تأثير الحقائق على النفوس إذا أتت من طريق خيالي ، فانكبوا على مطالعة ما تجود به قرائح كتابهم » (مجلة الحياة ١٩٠٠) وجميل منه أن يعتبر القصص فنا جليلا له هيبة ووقار، ويعد من وسائل الإصلاح، ويدرك تأثير الواقع على الناس إذا ترجمه الخيال، وهو تقدير للقصة وفهم لرسالتها

وهكذا نظر رجال الدين وغيرهم إلى القصة باعتبارها صورة مهمة من صور الثقافة العصرية ووسيلة للإصلاح .

كتابان متخصصان

ويبدو أن القصة في أواخر القرن ١٩ استهوت كثيرين ، ولاءمت أمزجتهم مما أدى بالبعض إلى وضع كتب كاملة لاستقصاء أبعادها . ففي عام ١٨٩٤ ألف حكمت شريف كتابا دعاه «كليمات في علم الروايات» ذكرته مجلة الهلال في حينه ، وأشارت إليه مجلة «التقدم» (١٨٩٤) وبينت ما أورده المؤلف من « مزايا الروايات ، وعدد المبادىء التي ينبغي على المؤلفين التمسك بها ، وختمها بإيراد بعض أسماء من اشتهروا بتأليف الروايات في وقتنا الحالي» . ومع حكمت شريف الحق في إطلاق «علم الروايات » على هذا الجنس الأدبي ، فلم تعد الرواية فنا فقط ، وإنما هي فن ، ونقد ، وتاريخ الروايات ، وتاريخ النقد الروائي . وإذا كنت لم أوفق إلى العثور على هذا الكتاب ، فإن وضع كتاب عن الروايات داخل القرن ١٩ له دلالة على مدى



الاهتمام بها ، ودليل على أن القصة انتقلت من دور التقريظ السريع إلى دائرة البحث والدرس .

وفى عام١٨٩٩ صدرت رواية «عذراء قريش» لجرجى زيدان ، وقد أوسعتها «الموسوعات» نقدا وذما لما اشتملت عليه من أخطاء . وفى هذا الجو أصدر «يوسف طبشى» كتابا سماه «البرهان فى انتقاد عذراء قريش» وهو أول كتاب كامل يتخصص فى نقد قصة . ويوسف طبشى يبدو أنه كان معنيا بنقد الروايات ، فقد عثرت على مقال له فى مجلة «الثريا» (١٨٩٧) ينتقد فيه رواية «سمير العشاق» . وكان من جملة آرائه أن الرواية «من أجمل الفنون وأوعرها وأوسعها» . وهذان الكتابان يشيران إلى أن نقاداً أو دارسين خصوا القصة باهتمام ملحوظ .

القصة بحث وتنبؤ وخيال

وكانت القصص التى صدرت فى ذلك الزمن «خليطا من القص التاريخى والاجتماعى والخيالى والغرامى إلى جانب قصص المغامرات والتسلية ، وكثير من هذه القصص لا تساعد على النهوض الاجتماعى والرقى الثقافى . ومن هنا انطلقت صيحات تنادى بالواقعية ، والواقعية هى الفن الذى يتناول الأنماط البشرية ، والنماذج الإنسانية ، ويعكس روح العصر ، ويصور البيئة ، وكل هذا يحتاج إلى استقراء وبحث ، وقوة لمح لتتبدى الحقائق على طبيعتها . ومن هنا رأى فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) أن أنفع الروايات للشرقيين هى الروايات الاجتماعية ، وأثنى يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) على قصص زولا وتولستوى الأمر الذى يفيد تحبيذ الواقعية . ولكن الواقعية ليست ما ذكرناه فقط ، فتمثيل الواقع غير كاف لخلق القصة ، وإنما لابد أن يصطبغ القص بالصبغة الفنية ، وذلك عن طريق تتابع الصور الكاشفة عن عناصر الواقع الخفية والظاهرة . لذلك أخذ الكتّاب يضربون أمثالاً للفن الواقعى، فتحدث روحى الخالدى عن إميل زولا إمام الواقعية ، حسب رأيه، والذى «صور فى الأدب حقيقة كل ما بحث فيه .. ومثله تمثيلا حقيقيا .. بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضر فى باريس وجعل القارئ يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلا عما يسمعه من جلبة البائعين والمشترين ، ويراه من السلع والمركبات وانهماك الغادى والبادى فى الأخذ والعطاء» . ويستوفى الخالدى فى موضع آخر فكرته عن القصة بما ترجمه عن «هيجو» الذى قال «إن كل اختلاق وكل تنبؤ فى هذه الصناعة ينبغى أن يكون أساسه مبنيا على الدرس والنظر والتفكير والعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح، وكمال الدقة فى

تصوير الأشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقدا خاليا من الغرض ...» والحديث عن المشاهدة والموازنة والقياس والعلم أقرب ما يكون إلى العلم التجريبي. وكأن الخالدي يدعونا من خلال هيجو إلى الواقعية العلمية أو إلى القصة التجريبية . وروحي الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣) عربي من القدس ومن كبار رجال السياسة في الدولة العثمانية ، ونشر مقالات متتابعة في الهلال (١٩٠٢ - ١٩٠٣) عن «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» بدون توقيع ثم جمعت بعد ذلك في كتاب واقتبسنا منه هذه الأقوال .



اميل زولا



تولستوي

وإذا كانت أقوال الخالدي بينت أن القصة درس وبحث وتنبؤ بما سيكون من خلال ما هو كائن ، فإن فرح أنطون يجنح إلى الخيال العلمي ، والتنبؤ بالمخترعات العلمية ، فنراه يتحدث عن القصاص الذين يحاولون «سبق الفكر البشري بما يتصورونه ويصورونه من العوالم الخيالية التي يخلقونها ، فأحيانا يصيبون كما أصاب جول فرن في وصف المناطيد والغواصات قبل اختراعها وأحيانا يخطئون » (الجامعة ١٩٠٢) ولعل هذا فيه دعوة إلى إنشاء قصة الخيال العلمي ، وهذا اللون من القصص يتجاوز الواقع ومحاكاته ، ويطلق قدرات العقل وينشط المخيلة لتمعن في التصورات ، ويتطلع إلى المستقبل لكشف غياهبه ، والتنبؤ بما سيكون عليه . وهذا الطرح الفكري الذي طرحه فرح أنطون يظهر أن النقاد كانوا متطلعين إلى القصة والرقي بها .

معارك نقدية

ولم يكن تعاطف النقاد مع القصة يعني تملق كتابها ، بل كان بينهم نقاش وعراك ، فاتفقوا واختلفوا وأدلوا بآراء مازالت تغري بالمناقشة ، ومن هذا جدال نشب بينهم حول الروايات التاريخية ومدى صدقها وأهميتها ، فقد رأى يعقوب صنوع وفرح أنطون أن الرواية التاريخية تختلط فيها الحقائق بالأوهام ، وتضطرب فيها حوادث التاريخ وتشوش على عقول القراء، وانتقدت «الموسوعات» (١٨٩٩) القصاص الذين يعتمدون على روايات ضعيفة ، وواضح أن هذه الانتقادات موجهة إلى جرجي زيدان الذي رأى أن الرواية التاريخية تعلم الناس التاريخ وتشوقهم إليه ، وأيد أحمد شوقي الرواية التاريخية ورأى في مقدمة روايته « دل وتيمان» أن الرواية التاريخية «واسطتها الحقيقة ونظامها الخلق والتخييل» وهي آراء تطول مناقشتها ومع ذلك فإن الرواية التاريخية إذا اعتمدت على التاريخ وتضاءل



فيها الخيال ، بحيث لم تعد مشوشة على العقول ، فإنها والحالة هذه يكون التاريخ أفضل منها ، أما إذا توسعت في الخيال وتضاءل التاريخ فيها ، فإنها تكون رواية مبتدعة أو شبه مبتدعة ولا يصح أن تكون رواية تاريخية لأن التاريخ لا يبتدع ، وقد تكون مفيدة إذا كانت إسقاطا على عصر المؤلف أو شيئ فيه ، وهي على وجه العموم أقل درجة من الرواية الاجتماعية أو النفسية المتخيلة لاستنادها على حوادث تاريخية .

وهناك روايات هبت عليها عواصف النقد ، مثل رواية «المملوك الشارد» التي انتقدها صروف ورد عليه زيدان (المقتطف ١٨٩٢) ورواية «عذراء الهند» التي أهداها شوقي للخديو عباس ، وانتقدها اليازجي في «البيان» (١٨٩٧) ورد عليه شكيب أرسلان في الأهرام ثم رد نقولا بدران على شكيب (البيان ١٨٩٨) كما انتقدها زيدان في الهلال . وتبادل النقد كل من زيدان والموسوعات (١٨٩٩) حول روايتي عذراء قريش وفتاة غسان ، كما تبادل النقد والرد جرجي زيدان وخليل سعد حول رواية « الأمير مراد» (السنة الأولى من الهلال) ، واعترك صروف وفرح انطون ١٩٠٢ حول ما جاء في رواية للأخير عن التنويم المغناطيسي ، وعندما قرظت مجلة « أنيس الجليس» (١٩٠٤) رواية «قلب الرجل» للبيبة هاشم رد عليها حنا سركيس .. وهذه المعارك مفعمة بطوائف من النظرات النقدية الناهضة ، والخطرات التلقائية الفورية ، وجميعها يدل على انفعال النقاد بالقصص ، على أن الاهتمام بالقصص لم يأت عن طريق النقد فقط ، وإنما كان بالاستحسان أيضا ، ففي سنة ١٩٠١ نشر فرح انطون في مجلته الجامعة ملخصا وافيا لرواية «بولس وفرجيني» فتأثر القراء بها ، ومن بينهم الشعراء أحمد الكاشف وأحمد محرم والمنفلوطي الذين امتدحوها ونظموها شعرا ، والأخير عربها فيما بعد تحت عنوان «الفضيلة - بول وفرجيني» . وهذا يبين مدى تجاوب الأدباء مع القصص .

تقنية القصص ومصطلحاتها

ولما كانت القصة في طور التكوين فإن النقاد تناولوا أبعادا مختلفة فيها تتعلق بتقنيتها وشخوصها وأسلوبها ، فتحدثوا عن تنسيق القصة ووحدة السياق فيها مما يعمل على تماسك وقائعها ، وكان جرجي زيدان يرى أن حوادث الرواية يجب أن تترابط «كالسلسلة لا يمكن الاستغناء عن حلقة واحدة منها بغير أن يختل نظامها،


فرح انطون


عباس العقاد

(الهلال ١٨٩٢) ، ومما يتعلق بهذا السياق وله صلة بالتكنيك طريقة القاص في ترتيب الأحداث . فقد نبه اليازجي إلى أن الافرنج قد يبدأون القصة من أثناء حوادثها ، وربما بدأوها من آخرها (الضياء ١٨٩٩) وهذه الطريقة التى كثيرا ما يستخدمها قصاصنا الآن ، لم أقف عليها فيما قرأت من قصص الفترة التى نتناولها ، وإنما كان القصاص يتبعون طريقة التسلسل الزمنى أى من البداية إلى النهاية ، وليست العبرة بهذه الطريقة أو تلك وإنما بحبكها وسبكها وإيضاح مختلف أبعادها ، على أن القصة التى تتبع طريقة التسلسل الزمنى تجد قراء أكثر لسهولة تتبعها ، كما نبه فرح أنطون وزاكى مابرو إلى أهمية تصوير الشخوص فى ضوء علم النفس (الجامعة ١٩٠٢ /١٩٠٦) وجلاء الشخصيات لا يكون بكثرة الأوصاف الظاهرة فقط وإنما بتصوير العواطف والتغلغل فى عالم الفؤاد لاستكشاف دفائنه وميوله وبواعثه ، ولم يفت النقاد الحديث فى أسلوب الرواية ، فرأوا أن يكون سهلا مع الاختصار المفيد . هذا وغيره مما ذكروه يظهر أن القصة فى نظر النقاد لم تكن ملهاة أدبية .

والمتتبع لدوريات تلك الفترة يدرك بوضوح أن كتابها وضعوا لهذا الفن مصطلحات مازالت مستخدمة ، فقد استعملوا كلمات «رومان» و«قصة» و«رواية» واستخدموا مصطلح «أقاصيص» وورد مصطلح «سرد» فى مقدمة رواية «ذات الخدره التى أهداها مؤلفها سعيد البستانى عام ١٨٨٤ إلى ولى العهد الأمير عباس (الخديو فيما بعد) واستخدم نجيب طراد فى الجامعة ١٩٠٠ «مشاهد . وتشويق» وذكرت الموسوعات مصطلح واقعية عام ١٨٩٩ ، ويرد فرح أنطون مصطلح « سياق» هذا فضلا عن تقسيم الروايات إلى تاريخيـة وواقعية وعلمية وخيالية .. إلى آخره مما يبين جهودهم واجتهاداتهم .

وإذا كان النقد القصصى اليوم أقوى وأكثر مما كان فى الماضى فإن هذا لا يبرر القول أن القصة فى زمن نشأتها لم تكن موضع نقد وعناية ، ومهما كان الناقد حاذقا فإنه لا يصنع قاصا بارعاً . والخلاصة أنه كان هناك قص ، ونقد ، واهتمام ، ولولا كل هذا لتأخر ظهور القصة عندنا عشرات السنين .

■



رشاد رشدي



طه حسين



نجيب محفوظ



محمود تيمور

الرواية ديوان العرب

التجريب

في القصة الحديثة وجذوره التراثية

بقلم
محمد جبريل

المؤلف المصري - في اجتهاد استاذنا د. سيد كريم - هو المؤلف الحقيقي لأشهر الروائع القصصية الخالدة التي لاتزال نسخها تباع بالملايين منسوبة إلي غيره، مثل سندريلا وعلي بابا ومجنون ليلي وشمشون ودليلة والشاطر حسن والسندباد البحري والكونت دي مونت كريستو.. وغيرها.. ويعترف نوثروب فراي بأن حكاية الأخوين هي مصدر قصة يوسف - سماها خرافة - عندما حاولت زوجة الأخ الأكبر ان تراود أخاه الأصغر عن نفسه، فلما رفض إغواءها ، اتهمته عند أخيه بأنه حاول اغتصابها، ويلاحق الأخ أخاه، وتتنامي الحبكة في توالي الأحداث المتسمة بالعجائبية. ويضيف أ. ل. رانيلا أن للعرب الفضل في إبداع الحكايات بوصفها أدباً.. وبهذا ثبتوا شكل القص الخيالي المصور للحياة (الماضي المشترك بين العرب والغرب ٢٥٦) .


يحيى حقي


يوسف ادريس


يوسف الشاروني


فرجينا وولف

لقد واجه الشرق اتهاماً بضعف الخيال، بحيث غاب فن القصة في التراث العربي. القصة - في تقدير المستشرقين، وفي تقدير معظم الباحثين العرب أيضا - فن أوروبي مستورد، يمد جذوره في الثقافة الأوروبية . فهو تقليد ومحاكاة للقصة في الغرب، وليس له أي جذور في التراث العربي الذي يعد تراثا في الدرجة الأولى، فهو مستحدث في الإبدا ع العربي، بل إن محمود تيمور يقرر - في بساطة - أنه لم يعد بيننا خلاف - كذا - على أن الأدب العربي - في عصوره الخالية - لم يسهم في القصة إلا بالنزر اليسير الذي لا يسمن ولا يغني، فالقصة الفنية إذن دخيلة عليه، ناشئة فيه، لا أنساب لها في الشرق، ولا استمداد لها من أدب العرب» (محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح - ٦٤).

والحق أنه من المكابرة الساذجة تصور القص العربي الحديث بعيداً عن تقنيات الغرب، لكن من الخطأ البالغ إهمال تقنيات الحكي العربي في سعينا لتأكيد الهوية القومية لإبداعنا المعاصر، ومن الصعب - في الوقت نفسه - أن ندعي غياب الصلة بين الأشكال القصصية التراثية، والقصة العربية - والقصة بعامة - في أحدث معطياتها، ولعلي أذكر بقول جارثيا ماركيز: «من الطبيعي أن يمعنوا - يقصد الغرب الأوروبي - في قياسنا بالمعايير ذاتها التي يقيسون بها أنفسهم، ولكن عندما نصور وفق نماذج لا تمت إلينا بصلة، فإن ذلك لن يخدم إلا غاية واحدة، هي أن نغدو مجهولين أكثر، وأقل جرأة، وأشد عزلة».

وإذا كان التراث العربي - في تقدير المستشرقين - يفتقر إلى الخيال والنظرة الفلسفية المتكاملة، والحاسة النقدية، وغياب الحس القصصي والدرامي، إلخ، فلعله من المهم أن نشير إلى قول رينان بأن أوروبا امتلأت بقصص لا حصر لها قدم بها الصليبيون من الشرق العربي، إثر عودتهم إلي بلادهم، ويقول ميشيل : «إذا كانت

أوروبا مدينة بديانتها المسيحية لتعاليم المسيح، فإنها مدينة بأدبها القصصى للعرب»، بل إن البارون «كار دى فو» يؤكد أنه ليس هناك أدب سبق الأدب العربى فى ابتداع فن القصة (محمد مفيد الشوباشي : الأدب ومذاهبه - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ ص ٣٠).

إن ضعف الخيال والإسراف فى الخيال اتهامان أملتهما الرغبة فى تحقير الملكات الإبداعية لكتاب الشرق، وأن الشرق سيظل دوماً فى موقف التابع بالنسبة للمتبوع، وهو الغرب الأوروبى.

الغريب أن الذين أفادوا من الخيال العربي، ممثلا فى ألف ليلة وليلة وحى بن يقظان ورسالة الغفران والحكايات والسير والطرف، والأخبار العربية، ينتمون إلى ثقافات أوروبية، أو متأثرة بالثقافات الأوروبية ، والثابت - تاريخيا - أن الرومانس - الحكايات الشعبية الأوروبية - تأثرت فى نشأتها بألف ليلة وليلة.

ثمة رأى أن الرواية والقصة القصيرة والمسرحية لم يعرفها العرب إلا بعد اتصالهم بالأدب الأوروبى ، وقد نقل العديد من الدارسين العرب عن المستشرقين - وكم تظلمنا النقلية!! - ما ذهبوا إليه من أن ما عرفه التراث العربى من الابداع القصصى والروائى والمسرحى، لا يعدو مجموعة من الأخبار والطرائف التى تخلو من الحرفية الفنية كما فى الإبداع الغربى، عمق من المشكلة أن المسرحية والقصة والرواية قد اقتصر تناولها على النقد الأوروبى والدراسات الأوروبية، وهو ما يزال قائما - للأسف - حتى الآن. ومع أن نجيب محفوظ هو أحد الكتاب العالميين - باعتراف نوبل! - فإن كل المراجع النقدية الحديثة - قبل نوبل وبعدها، وحتى الآن - تخلو من عمل له، بل ولا تشير إلى أعماله على أى نحو.

إنهم يناقشون إبداعاتهم باعتبارها هى الإبداع الذى ينبغى تناوله، إنها - مع التقاط شذرات من هنا وهناك - هى الإبداع العالمى إطلاقا.

القص تراث عربي

فى القرآن الكريم يقص الله - سبحانه وتعالى - على رسوله الكريم احسن القصص. وكان العرب يبدعون حكاياتهم أو طرفهم أو نوادرهم بعبارة: قال الراوى، يحكى أن، زعموا أن، كان ما كان، إلخ.. وقد أسهمت ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران

وحى بن يقظان وغيرها، في تطور فن القصة - والرواية طبعا - في الغرب، أديب أمريكا اللاتينية ألفريدو كاردنيا بنيا يجد في ألف ليلة وليلة مخزنا لأكبر عدد من القصص الاسبانية. إنها النبع الثرى المتعدد الروافد للكثير من القصص الواردة فيه - على حد تعبير الكاتب - أى موضوع إلا وتطرقت إليه، بحيث تحولت الكتابات التالية إلى مجرد تقليد، أو نقل غير مبدع، وتبدو إفادة الثقافة المكتوبة بالأسبانية، من الثقافة العربية المعاصرة - إبان حكم المسلمين لشبه الجزيرة الأيبرية - ظاهرة محيرة، مقابلا لاخفاق الثقافة العربية المعاصرة في الإفادة من ذلك التراث، مع أنه يتصل بنحن، وليس بالآخر. إنها ثقافة تعتمد على الدين الإسلامي والتاريخ العربي واللغة العربية، يغيظني - على سبيل المثال - زهو بعض المبدعين بأنهم قد تأثروا بواقعية ماركيز السحرية، بينما أعلن الكاتب الكولومبي أنه قد تأثر بغرائبية ألف ليلة وليلة!..

يقول محمد فهمي عبداللطيف: «كان من الطبيعي أن يتميز القاص المصري في هذا المجتمع الخصيب، وأن يكون محصوله في ذلك وافراً، ونتاجه وافياً.. فكان أبرز وأوفى من أجدى في هذه الناحية، وما ألف ليلة وليلة، وقصة الهلالية، وقصة الظاهر بيبرس، وقصة سيف بن ذي يزن، وغيرها من القصص، إلا من فيض براعة القصاصين المصريين، وقدرتهم على التحليل والافاضة، سواء ما ابتدعوه منها ابتداعا، أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاختراع والاختلاق، وإذا كان هؤلاء القصاصون قد تناولوا ألف ليلة وليلة نصاً عن الفارسية، مدوا في فروعه، وأساسا ارتفعوا ببنائه، فإنهم كذلك في قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخي، وأخذوها مما جرى في رحلة أولئك الأعراب إلى مصر، ثم إلى بلاد افريقية، وما وقع لهم من الحروب والأحداث، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخي إلى ميدان الخيال الفسيح (أبوزيد الهلالي ٥٩).

ما نستطيع الاطمئنان إليه أن القصة العربية لها جذورها الممتدة في تربة التراث.. وهي تختلف - بالتأكيد - عن تربة الترجمة التي أعطت لإبداعنا ثماراً يصعب التقليل من قيمتها.

وإذا كان محمود طاهر لاشين قد أعلن أنه « لا ميراث لقصاصينا في الأدب

العربى (المجلة الجديدة - يونيو ١٩٣١) فإن مجرد التنقيب فى التراث العربى الأدبى القديم، سعياً لاكتشاف شكل فنى يمكن نسبته إلى القصة والرواية، اتساقا مع شكل القصة والرواية الغربية.. ذلك التنقيب لم يكن يخلو من نظرة أحادية متعسفة، فالقصة - فى تقدير هؤلاء، وفى سعيهم لاكتشاف ملامحها فى الأدب العربى القديم، هى القصة فى الغرب من حيث البنية والحبكة والتكثيف وغيرها، وحين اهملت إبداعات الغرب القصصية والروائية تلك الخصائص، فإن محاولاتنا الإبداعية - والنقدية - قد أهملتها كذلك!

القصة بين اليوم والأمس

إذن فالاتهام الذى يواجهه التراث القصصى العربى متمثلا فى القصة والحكاية والنادرة وغيرها، أنه لا يشابه القصة كما نعرفها اليوم هذا الاتهام يحتاج إلى مراجعة شديدة وبالذات فى ضوء اتساع مساحة الأشكال الفنية فى القصة الحديثة بصرف النظر عن الثقافة التى تصدر عنها. والقول بأن زينب هى بداية الرواية المصرية الحديثة يحتاج الآن كذلك إلى مراجعة لا لأن الروايات التى سبقتها حوالى ١٣٠ رواية لم تخضع لتقويم من أى نوع بحيث تستحق زينب الصفة التى وسمها بها يحيى حقى وآخرون، لا لذلك السبب فحسب، وإنما لأن فنية الرواية بالمعنى التقليدى لم تعد واردة وإذا كان من السهل تقبل الرأى بأن الرياح التى تهب من أوروبا حملت - فى أوائل القرن العشرين - بذرة غريبة على المجتمع المصرى، هى بذرة القصة (فجر القصة المصرية - الطبعة الثانية - ٢١) فإن ذلك الرأى يحتاج - فى ضوء المعايير الحالية لفن القصة - إلى إعادة نظر. نعم، كانت القصة بذرة غريبة على المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، القصة بقواعدها الكلاسيكية، بخصائصها المواسانية من بداية ووسط ولحظة تنوير وهى قواعد وخصائص تجاوزتها التيارات والاتجاهات الفنية الحديثة بصورة مؤكدة. لم تعد صرامة البداية والذروة ولحظة التنوير - كما أوردها رشاد رشدى فى كتابه عن فن القصة القصيرة - مطلوبة. ما بعد الحداثة تذهب إلى أن «كل نص جديد إنما يكتب مكان نص أقدم». بل إن بورخيس يحرص على التأكيد أنه لا أحد يمكنه أن يدعى الأصالة فى الأدب كل الكتاب - فى تقديره - ناسخون ومترجمون ومفسرون

للنماذج الأصلية المتوالية بتوالي الإبداعات في توالي العصور.

السؤال الذي يطرح نفسه: كيف تعتمد محاولات توظيف التراث العربي فنا قصصيا، ولا تعتمد التراث العربي نفسه - بكل ما يشتمل عليه من فيض حكائي وأشكال قصصية - فنا قصصيا؟! وعلى سبيل المثال، فهل تختلف مشاهد الواقعية السحرية عن مشهد الباب المغلق؟.. يصر الرجل على فتحه لرؤية ما وراءه. يجد حصانا يفك قيده ويمتطيه. يطير الحصان وينزل به على سطح، ويضرب بذيله فيتلف عينه اليسرى؟! ألا نجد في ذلك المشهد - وسواه - مدخلا لواقعية أمريكا اللاتينية السحرية؟!

لقد لامست تخوم القصة أجناسا أدبية وفنية أخرى واختلطت بها وتشابكت وانتسبت جميعها إلى الإبداع القصصي، بحيث انتفى التحديد الصارم لماهية القصة. بل إن صديقي عبدالله أبو هيف يذهب إلى أن تحديد عناصر القصة لا يعني الركون إلى نظرية الأجناس الأدبية، لأن فن القصة أنجب أجناسا متعددة في القديم والحديث (عبدالله أبو هيف: القصة العربية الحديثة والغرب - منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق - ٣٨) وكما يشير كونديرا، فإن معظم الروايات الحديثة بالمعنى الزمني وليس بمعنى الحداثة تقف خارج دنيا الرواية لقد أفادت الرواية من تقنية المدركات الحسية والبصرية المونتاج والتبئير، والزاوية القريبة، والمزج، والقطع، والتناوب، والاسترجاع، وحذف علامات الترقيم، والاستغناء عن أدوات الواصل، وتبادلت الرواية - والسينما بعامة - التأثر والتأثير. وثمة الاعترافات المصاغة في شكل روائي، والسير الذاتية للمبدعين، والمشكلات والقضايا الأخرى التي تنسب إلى الرواية بالشكل وحده، وثمة القصة المقال، والقصة السرد، والقصة اللوحة والقصة الرسالة، والقصة الخاطرة، والقصة الرحلة، إلخ. وثمة تعاظم دور المتلقي بديلا لسلبية القراءة، وتداخل السرد بالمونولوج الداخلي، والمزج بين الواقع والخيال، والحسية والأسطورية، وأنسنة الحيوان والأشياء. طرأ على نظرية القصة عموما ما بدل من النظرة الثابتة إليها، كالشكلانية والبنيوية والتكوينية واللسانية وغيرها. لذلك فإني أجد فيما بعد الحداثة ما يحمله التراث العربي، فأنسب إلى القصة والرواية ما تناثر في كتب العرب من الخرافة، والتاريخ، والسيرة، والحكاية، والخطابة، والتهذيب،

والشعبية، والخبر، والطرفة، والملحة، والرحلة، والحلم، وغيرها من فنون السرد العربي. «ثمن زوجة» قصة لنجيب محفوظ نشرها ضمن مجموعته همس الجنون تتحدث عن الزوج الذى يضبط زوجته فى موقف الخائنة، ويدبر حيلة يدفع بها الزوجة إلى الانتحار دون أن يكون هو المتسبب بصورة معلنة هذه القصة تذكرنا بحكايات العرب ونوادرهم وأخبارهم القصة لا تستدعى التراث ولا توظفه لكن ملامح التراث تبدو واضحة بما لا يخفى. أنت تستطيع أن تتعرف إلى حيل الأزواج فى كشف خيانات زوجاتهم فى الكثير من حكايات العرب ونوادرهم ولو أننا بدلنا الأسماء والمسميات وتحول البيت إلى خيمة والريال إلى درهم فستطالعنا حكاية ذكية من تراثنا العربي. أذكر بالحكاية التى جاءت فى وفيات الأعيان عن حب أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان وزوجة الخليفة الوليد بن عبدالملك لوضاح اليمن الشاعر وأخفته – ذات يوم – فى صندوق بعد أن دخل عليها الخليفة فجأة. وفطن الوليد ما حدث، فدعا الخدم وأمرهم بحمل الصندوق إلى شفير بئر، ثم قال له: يا صاحب الصندوق، إنه بلغنا شئ، إن كان حقا فقد دفناك ودفنا ذكرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلا فإنما دفنا الخشب، ثم قذف الخدم بالصندوق فى البئر، وأهالوا عليه التراب، وسويت الأرض فما رؤى الوضاح بعد ذلك اليوم، ولا أبصرت أم البنين فى وجه الوليد غضبا، حتى فرق الموت بينهما لقد تعمد كل من الزوج والخليفة ألا يشيرا إلى ذلك الكابوس – بعد انقضائه – بتلميح أو تصريح، ولا ذكره بخير أو شر، ولا أجرى بسببه تحقيقا، ولا أثار عنه سؤالا، وطالع الزوجة بوجه هادئ كأنه شخص آخر غير الزوج المطعون. استعان حمدى فى ثمن زوجة بهدوئه، وخطط للانتقام دون أن يصارح أحدا بما ينوى فعله. وهو ما فعله الخليفة. وكان الريال مساويا للصندوق الذى اختفى فيه الشاب العشيق، وإن اختلفت النهاية بين القصة والحكاية، فقد قتل العشيق فى الحكاية – الأدق أنه قبل القتل! – أى أنه انتحر – بينما انتحرت الزوجة فى القصة (محمد جبريل: عود على بدء – فتوة العطوف لنجيب محفوظ – مكتبة مصر) لا تباين فى دلالات العملين وإن اختلفت فنية التناول.

من الصعب أن ندعى غياب الصلة بين الأشكال القصصية التراثية، والقصة العربية – بل والقصة بعامة – فى أحدث معطياتها. القول بأن الصياغة العربية

تخالف الصياغة التى تضيف إلى فنية القصة - وتمثل فيها بعدا أساسيا.. هذا القول يبدو خافت الصوت إلى حد التلاشى فى ضوء التيارات الفنية الأوروبية الحديثة نفسها، كاللاقصة، واللاحكاية، وتوظيف التراث إلخ. ولعلى أعيد التأكيد على أن القصة الحديثة لم يعد لها إطار ولا مدى محدد. ثمة قصيدة تسرد قصة، وثمة قصة هى أقرب إلى قصيدة النثر، وبعض المقالات تكتمل فيها مقومات القصة القصيرة بل إن بعض قصص بورخيس المتفوقة ليست إلا عروض كتب أو مقالات نقدية، وعلى سبيل المثال فإن إبداعات بورخيس تعاملت مع التراث الإنسانى باعتباره تراثه القومى أعلن أن تراثه هو ثقافة العالم فلا يظل حبيسا داخل الحدود الضيقة لمدينة بذاتها ولا لبلد ذاته، ولا لقارة محددة. إبداعات بورخيس تطالعنا بالكثير من الاقتباسات والمقارنات والإشارات لم يحبس بورخيس قراءاته ولا أفكاره ولا إبداعه فى سجن التراث القومى لبلاده مثلما فعل الأوروبيون انطلق فى كتاباته إلى الآفاق الثقافية الرحبة. استوعب أساطير اسكندنافيا وسير الشرق العربى، وشعر الأنجلو ساكسون وفلسفة الألمان، وأدب العصر الذهبى بأسبانيا، وشعر الإنجليز، وشعر هوميروس ودانتى وضفر فى أعماله آيات القرآن وأحاديث الرسول، وليالى ألف ليلة وليلة والعديد من الطرف والنوادر والحكايات والإشارات الثقافية مما يزخر به التراث العربى الإبداعى العربى، بالإضافة - طبعا - إلى التراث الإبداعى الغربى كنثر ستيفنسون وحكايات الساجا الأيسلندية وغيرها. ثمة تكامل فى إبداع بورخيس بين الشعر والقصة القصيرة والمقال ذلك كله يصب فى بوتقة واحدة، من الصعب أن تميز فيها بين جنس فنى وآخر تداخلت مستويات القص لم يعد الفضاء الروائى أو القصصى ينتهى بتلك الحدود الحاسمة التى كان يشترطها النقد قبل نشوء الاتجاهات الفنية والنقدية الحديثة. تشابكت المسميات والصفات، واختلطت..

باختصار فإنى أومن بالتراث، بوعيه وجدواه، وإمكانية استعادته واستمراره تواصلا مع المعطيات المعاصرة والحديثة وكما يقول أندريه موروا، فإن كل قارئ من قراء القرن العشرين - أضيف: الحادى والعشرين - يعيد - لا إراديا - كتابة روائع القرون الماضية بطريقته الخاصة. ■



شخصيات لا تنسى

محمد فريد أبو حديد

الأديب والإنسان

بقلم
صافي ناز كاظم

في ١٨ مايو القادم تأتي إن شاء الله ذكراك الـ ٣٥. وأنا لست في حاجة إلى مناسبة لكي أذكرك وأحتفل. مستبد بي دائماً، الشوق الهائل للحديث والحوار معك. أضعت ياخالي هذه الفرصة حين كانت مواتية بسبب أنني كنت صغيرة، وكنت أنت مهاباً. أخذ إخوتي هذه الفرصة وكنت أنا الأولي بها.







د. محمد مندور

في طفولتي وصباي ومطلع شبابي، لم أكن شخصية مقتحمة مثل شقيقتي فاطمة التي كنت تحبها وتضحك لطرافة كل ماتقول وتفعل. كنت أتوارى خلفها وأحسد جرأتها على رفع الكلفة معك، وأنت الشقيق لوالدتي، التي لم ترفع هي نفسها الكلفة معك أبداً. كانت تحبك في حب يقترب من التقديس، وتكلمك بأصول جيلها في احترام الأخت الصغرى للشقيق الأكبر. حين أسترجع طفولتي، ومتعة الفسحة في الأعياد وشم النسيم، التي تكون بالذهاب من بيتنا في العباسية إلى بيتك الجميل بضاحية الزيتون، أسترجع شمساً وأريج حديقة. بوابة حديدية مزركشة، وممرات رملية صفراء بين أحواض زرع منسقة، ونخلا، وشجر برتقال، ونارنج، وجوافة، ومانجو، ورائحة تمرحنة، وزهور باسيه، وفم السبع، وقرنفل، وورد، وفل، وياسمين. أشم رائحة خرج نعناع وماء زهر البرتقال، ومربى النارنج صناعة خالتي الكبرى نعيمة هانم، وعجوة مقلية بالزبد، اختصاص جدتي التي تحكي لنا الحكايات الخلابة. نقطف المانجو الخضراء وندفنها في الرمل حتى تنضج سريعاً. ترجو أمي لنبيت حتى نصحو مبكراً في شم النسيم وأنصت لصوت اليمام. في الحديقة نصخب. نحن جميعاً الأطفال أولادك. أحاول أن أتعلم ركوب الدراجة فأنكفيء. أعود. أنكفيء، أعود. لا أتعلمها أبداً، وأنت تضحك مطلا علينا من خلف زجاج نافذة غرفة مكتبك في الطابق الأول الذي نصعد إليه من الحديقة بسلالم رخامية تنتهي إلى «فراندة» فسيحة بها باب يؤدي إلى البهو الرئيسي للطابق، وآخر إلى غرفة مكتبك التي كانت تبدو لي ساحرة بمقاعدها الجلدية الوثيرة بنية اللون ومكتباتها المكدسة التي أعترف لك الآن أنني مازلت أحتفظ ببعض كتبها التي لم أردها بعد استعارتها، وعليها إهداءات أصدقائك إليك التي منها: «اليوم خمر» مسرحية من تأليف محمود تيمور



وإهداؤها يقول : «لصاحب العزة الأستاذ الكبير محمد بك فريد أبو حديد، رمز مودة وإعزاز وإجلال، المخلص محمود تيمور، ١٩٤٩»، و«سلطان الظلام» لتوفيق الحكيم، «إلى صديقي الأستاذ محمد فريد أبو حديد، تحيتي وتقديري، توفيق الحكيم ١٩٤١/٤/٢٠». أسترق النظر إليك وأنت تجلس إلى مكتبك مشغولاً وظهرك إلى النافذة التي كنت تطل منها علينا ونحن نلعب بالحديقة وأمامك تجلس وادعة زوجتك العزيزة، أبلة نفيسة، جبينك يلمع وكشكشات تتجمع عند ركن كل عين. خيوط فضية تبرق في شعرك، شيب غزير قبل الأوان - مثلما كانت أمي تقول عن شيبها وشيبك. صحيح، فلقد كنت وقتها - أعوام الأربعينيات أصغر من عمري أنا الآن، ولا شيب عندي. ألاحظ شبهاً كبيراً بيني وبينك. جانب وجهي عندما أضحك. حاولت ياخالي دائماً أن أتعلم من عينيك كيف أنظر في حق بقوة وجسارة. ياخالي: كيف كيف الحق صعب هكذا؟. أذكر قال لي : الحق صعب ومشواره يستحق الصبر، وليس أمامنا اختيار سواه.

★★★

عدت أراجع روايتك للأطفال «عمرون شاه»، وأنا مازلت أتنفس تلقفي لها ساخنة خارجة لتوها من المطبعة عام ١٩٤٧ وعمري عشر سنوات، ثم زميلتها «كريم الدين البغدادي» من مجموعة «أولادنا» التي كنت تشرف على إصدارها للأولاد والبنات في دار المعارف. أول روايتين عربيتين في أدب الأطفال. «كريم الدين» عند شعب «سفروت»، الجزيرة ذات الحصى الجوهر. «كريم الدين» ينحني إلى الأرض، يمد يده ويقبض قبضة. تضحك «مريوت» ويسخر الحكيم أرمنا : «الإنسان يعجبه الحصى اللامع..» ويخجل «كريم الدين» من طمعه. أكتب إليك من جزيرتي بنيويورك عام ١٩٦٤ : «ياخالي العظيم، لست في جزيرة سفروت، والحصى هنا جواهر لها شكل مختلف: غسالات وثلاجات يحملها العائدون إلى بلادنا التي تمر بأزمة العملة الصعبة..». «كريم الدين» أحمق، فما فائدة ثرائه في بغداده بعد أن انحنى وسخر منه شعب «سفروت»؟.

اخترت لمجموعة أولادنا شعار : «أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض». وكنت أقول : أنا كبد خالي. وجهك دائماً بعيني يضحك خلف زجاج نافذة غرفة مكتبك المطلة على الحديقة. البلح رطب: «ياأولاد شباك الطابق الثاني يدنى أيديكم من البلح». بعد فوزك بجائزة الدولة التقديرية في الأدب لعام ١٩٦٤، تكتب إلى لطيفا حنونا في ١٩٦٤/١١/١٨: «بنتي العزيزة صافي.. بالأمس جاءني تلغراف تهنئتك فشعرت فوراً بأنني برغم عدم كتابتي إليكم لا أزال في فكركم. وقد

كنت أنت وإخـــوتك وأولادى فى ذهنى عندما سئلت بالتليفزيون أمس مساء عن الأمنية التى أحبها بعد أن نلت أكبر جائزة فى الأدب، فقلت : بقيت لى أمنية واحدة، فـقـد كـرمتنى الدولة من أجل مـؤلفـاتى وأتمنى أن تكرم ذكـراى من بعدى حين يقوم أبنائى بأعمال يستحقون من أجلهـا التكريم فـيكون تكريمهم تكريماً لذكراى. لقد كنت أنت مع أبنائى وأنا أقول ذلك. فـأنا أتمنى ياصافى أن تكونى فى وقت من الأوقـات، قـريبـاً ، مـــوضع تكريم الدولة ومـــوضع تكريم المجتمع كله، وأن تكونى عند ذلك مازلت تذكريننى...»

***

ياخالى، كرمتنى الدولة بطريقتها الخاصة حين اعتقلتنى أعوام ١٩٧٣ و١٩٧٥ و١٩٨١ لأننى غـضـبت للحق والحقوق والحرية ، ولأننى فى الصحافة لم أشأ أن أكون أبداً «حمادة الأصفر» نموذج الفساد الذى قدمته فى روايتك الرائعة «أنا الشعب» . أذكرك ياخالى على الدوام لأننى حرصت على تحقيق أمنيتك بأن أكون بذاتى «أنا الشعب»، مع الشـعب وفى خندقه فى السـراء والضراء وحين البأس.

***

كنت حريصة أن يعرف الناس، فى كل وقت وكل مناسبة ، أنك خالى رغم أننى قلت فى رسـالة بعـثـتـهـا إليك ١٩٦٥/١٠/١١ - أثناء إقـامـتى فى نيـويورك : «بغض النظر عن أننى ابنة أختك، أنا من عـشـاق فنك جداً، وليس هناك حرف واحد كتبته حضرتك إلا وقرأته بلذة وتجاوب شديد ، وكـثـيراً مـاتمنيت لو لم تكن خـالى لكى لا أتهم بالتحيز ...»، كانت تلك أمنية عبيطة منى، فما الضرر فى أن أكون متحيزة لمن هو جدير حقا بالانحياز إليه؟ ألا أكون بهذا التحيز الموضوعى أفضل وأشد أمانة ممن لم يخجلوا من التعصب ضدك ولو بخيانة مسئولية النقد وصدق التقييم ودقة الرصد لتاريخ أدبنا العربى فى مسيرته على مدار القرن العشرين؟. كنت قد قـابلت الناقد الدكتور على الراعى فى نيويورك حين مر بها زائراً نهاية عام ١٩٦٥ ، وأهدانى كـتـابه دراسـات فى تاريخ الرواية المصرية ، وحين لم أجد به أى ذكـــر لدورك الرائد فى فن الرواية العربية منذ عام ١٩٢٠، سألته : أين أبو حديد فى كتابك يادكتور على؟، فرد على الفور: لا مكان له فى كتابى فأنا لا أحبه . قلت ببـرود : كـان المفـروض أن يكون عنوان كـتـــابك إذن : تاريخ الرواية للروائيين الذين أحبهم. وفقد على الراعى مصداقيته عندى، ولم تكن كراهيته لك هى الشاهد الوحيد على ضآلته النقدية فلقد ظل إلى نهاية عمره يفتقد العدل فى ميزان أحكامه على الأعمال والعاملين ، ولقد بلغت به الجرأة فى الظلم وهو يكتب



شهادته عن رواد الإذاعة المصرية أن يتجاهل تماماً عبقري الفن الإذاعي على مدار نصف قرن «بابا شارو» محمد محمود شعبان . ووقتها كان بابا شارو يقرأ بالأهرام مايكتبه على الراعي ويصفق تعجباً بيديه قائلاً : هذا الذي مر بالإذاعة كالشبح يتصور أنه يمحوني بعدم ذكر دوري الإذاعي الذي لم ينقطع على مدى نصف قرن؟. لكن هذا التعصب الجائر على الحقيقة والمنهج والالتزام الأمين لم يكن سمة على الراعي وحده، فلقد شمل مع الأسف العديد من رعية الراعي. بل لعل الناقد الدكتور محمد مندور يكون الزعيم المؤصل لهذا التوجه والاتجاه الذي بدا كأنه تعليمات لايجوز للأتباع كسرها . ولقد زودني الباحث المنقب الأمين والناقد العفيف الأستاذ نبيل فرج بصورة من مقال لك - لم أكن قد قرأته من قبل - نشر بجريدة الجمهورية بتاريخ ١٩٦٢/٢/١٠ - (أثناء غيابي في سنواتي بالولايات المتحدة من ١٩٦٠ - ١٩٦٦)، - تحت عنوان : «عافاك الله يادكتور» ، ومعه تنويه الجريدة: «فريد أبو حديد يرد على الدكتور مندور : هاجم الدكتور محمد مندور فكرة منح جائزة الدولة للأستاذ محمد فريد أبو حديد الذي يرد في هذا المقال على الهجوم». وكانت تهمة مندور ضدك أنك من «غير التقدميين»، أو كما عبرت أنت عنها في سماحة وألم : «الطعن ... على العبد الفقير محمد فريد أبو حديد ولا فخر ... أنني قد غلب عليّ الاتجاه التاريخي وأنه لم يتبين لمؤلفاتي هدفا معيناً كالتعبير عن مشكلة تشغل قومي أو مجتمعي أو مشكلة إنسانية عامة نشارك فيها غيرنا من البشر . هذا ماقاله الدكتور الكاتب عني بغير مقدمات ولا مبررات، ولا يرى نفسه مسئولاً عما يكتب ، حتى ليخيل إلى أنه قد نسي الأوضاع الحاضرة وأننا لم نعد في عهد يملك فيه الأفراد صحفهم يصولون فيها ويجولون بغير شعور بالمسئولية أمام الحقائق...»، ويصبر العالم التربوي ، وسعة صدر الحكيم المسئول عن توعية الجاهل والأخذ بيد المتعثر في الفهم، وإرشاد الذي يحكم على مالم يقرأ، لم تجد ياخالي الحبيب بأساً من أن تقول للناقد «الكبير» بصوت يمتلئ بالمودة والرحمة: «عافاك الله يادكتور .... لقد أشاد الدكتور - بحق - بما كان لمجلة الرسالة ووحيها من أثر بالغ في نشر الثقافة ، ولست أفاخر حين أقول إنني كنت من كتاب الرسالة الأوائل منذ نشأتها في لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى آخر عهدها . وقد أغفل الدكتور ذكر مجلة الثقافة ، ولو كان هواه معي لقال عني مثلما قال عن صديقي الأستاذ الزيات، ولم تكن مجلة الثقافة أقل قدراً من الرسالة، فكلتاهما كانت نابعة عن فكرة

واحدة وترمي إلى غرض واحد وهو نشر الثقافة ، وتعبئة شعور أبناء الأمة نحو الحرية بأوسع معانيها ، وإيقاظ الوعي إلى مجد الوطن في ماضيه الكريم، وحفز الهمم إلى الجهاد في سبيل تحقيق مستقبل كريم جدير به . على أنني أتنازل للدكتور مندور عن كل فضل في تحرير الرسالة أو الثقافة ، وأكتفي بتوجيه نظره الكريم إلى مؤلفاتي التي أخشى أن أتهمه بالظلم الفادح لو أنني قلت إنه قرأها ، ولو أنني التمست له العذر بأنه لم يقرأها ، فإن تهمته تكون أشد لأنه يكون في موضع الذي يتحدث عما لايعرف . لقد نشرت في شبابي الأول بعض قصص منها قصة «ابنة المملوك» التاريخية وقد أحييت فيها مهد جهاد شعب مصر في مطالع القرن التاسع عشر، ووجهت الأنظار، لأول مرة فيما أعتقد إلى جهاد شعب مصر على مر الزمن إلى أن هب في ثورته الكبرى ضد الحكم الفرنسي وضد الطغيان التركي بزعامة السيد عمر مكرم. أهذه قصة تاريخية يخشى الدكتور أن تكون غايتي منها مجرد بعث بعض خطابات الماضي؟. إذا كان للدكتور عذر في أنه لم يقرأ تلك القصة لأنها صدرت في وقت لم يدركه - (صدرت رواية ابنة المملوك في طبعتها الأولي عام ١٩٢٦) - فإنه بغير شك أدرك الوقت الذى نشرت فيه كتاب «سيرة صلاح الدين الأيوبي وعصره»، وكتاب «سيرة السيد عمر مكرم». وإنه لمما يرضيني في شيخوختي أن أتذكر ما نالني من الغضب الشديد من طغاة العهد الماضي حين نشرت «سيرة السيد عمر مكرم» لما كان لهذا الكتاب من أثر في إثارة الشعور القومي والاعتزاز بماضي جهاد الأمة المصرية في سبيل الاستقلال والحرية ....

وأعود فأسأل الدكتور هل قرأ قصتي «زنوبيا» ، و«عنترة»، وهل لم يجد فيهما سوى مجرد بعث بعض قطاعات من الماضي؟. هل قرأ قصة «الوعاء المرمري»، وهل وجد في موقف سيف بن ذي يزن ضد الاستعمار وضد استعباد قومه مجرد بعث بعض قطاعات الماضي؟ وأسأله هل قرأ مجموعة القصص التاريخية «مع الزمان» وهل وجدها حقاً بعث بعض قطاعات الماضي؟. ثم مارأيه في قصة «عبد الشيطان» ... ألم ير في هذه القصة شيئاً أو رائحة نزعة تقدمية أو ثقافة ذات نزعة إنسانية عادلة متحررة؟ وأسأل الدكتور هل قرأ القصة ... التي نشرت في سلسلة إقرأ ذات القروش الخمسة؟. ألم يجد مايسترعي نظره في أعيان جامبولاند والأعلام التي كانت تخفق فوق بيوتهم لتدل على قدور الذهب التي يملكونها؟. ألم يجد شيئاً يسترعي نظره في صورة جحا المجاهد في تحرير قومه من طغيان هؤلاء الأعيان .... أخشى أن أقول مايدور في نفسي



فأظلم الدكتور كما ظلمني ، ولكن الظن الذي لا أستطيع إخفاءه هو أن الدكتور كان عند تأليفي لذلك الكتاب أحد الأعيان الذين أغضبتهم .... ثم أسأل بعد ذلك هل قرأ الدكتور قصة «أزهار الشوك» وهي حديثة العهد منا اليوم. ألم يجد فيها مشكلة اجتماعية أو مشكلة إنسانية تحرك النفوس؟.

إنها قصة حديثة لا صلة لها بالتاريخ الذي قد يتعذر إدراك ماتحمل قصصه من المعاني . ولست أحب أن أكون مقصراً في حق الدكتور مندور فإنه ذكر قصتي «أنا الشعب» بكلمة عابرة وهذه لفتة كريمة تستحق مني الشكر على مجرد ذكره لها . غير أني أضيف إليها أنني لي بعدها كتابي «أمتنا العربية» ويستطيع أن يقرأه إذا شاء ، كما أنني ترجمت قصة «ماكبث» في شعر مرسل، وهي ترجمة جديرة بنقده إذا شاء أن يكون جاداً أو كلف نفسه عناء القراءة والفحص والتقييم . لا يادكتور ما هكذا يكون حديث المسئول عما يقول. إنك يادكتور حين تحاول أن تجردني من أن يكون لي في مؤلفاتي اتجاه تقدمي متبلور أو راسخ في فكري وإحساسي، وحين تحاول أن تشك في جهادي الأدبي في سبيل حرية بلادي وقومي، وفي سبيل إعلاء شأن عروبتي منذ أكثر من أربعين عاماً حتى اليوم ، إنك حين تفعل ذلك ترتكب ظلماً فادحاً ، لا في حقي وحدي بل في حق الحقيقة وفي .... وإني أختتم كلمتي إليك بقول الشاعر القديم لرجل أهمل في حق إبله ، كما تهمل أنت في حق قلمك إذ قال:

أوردها سعد وسعد مُشْتَمِلْ

ما هكذا ياسعد تورد الإبل»

***

كان لابد ياخالي أن أستعيد من مقالك هذا المقتطف لأستطعم الذوق في الغضب والدماثة في التصحيح ولفت النظر ، فهذا أنت وهذا أسلوبك : كاتب قريب ، حميم، مبتسم ، دمث الخلق ، حريص أشد الحرص على قارئه، تخاف عليه من السأم ومن الاستفزاز ومن الجهامة ومن الإرهاق في السير الطويل ، ومن مشقة الصعود وعثرات الهبوط . تأخذ قارئك باللين مسحوباً إلى أعلى مع المكسب والانتصار، وتمسكه برفق عند منحدرات الحزن في الخسارة أو الخيبة أو الخيانة. أدواتك الفنية في رواياتك - التي أسميتها في ردك على محمد مندور «قصصا» - الوصف: مشاهد الطبيعة والعمائر والأرض والنفس والناس . ومن ركائزك التحليل : الأخبار والروايات والأحداث ولملمة المعلومة من أصلها وفرمها وإلباسها من الواقع والخيال رداءها الملائم . بلغت ذروتك الفنية في رواياتك «زنوبيا: ملكة تدمر» - (١٩٤٠) - وكانت من أحب مؤلفاتك إليك رغم أنك لم

تزر تدمر لكنك كنت أول من بعث تلك الملكة الباسلة إلى نبض الحياة، (ولقد زرتها أنا عام ١٩٦٩ فى رحلة طريفة مع الشاعرين نجيب سرور وممدوح عدوان)، و«الملك الضليل: امرؤ القيس» - (١٩٤٢) - و«المهلهل سيد ربيعة» - (١٩٤٣) - و«أبو الفوارس : عنترة بن شداد» - (١٩٤٥) - و«أنا الشعب» - (١٩٥٣) - وهى آخر ماكتبت من روايات . غير أننى أحببت روايتك «إبنة المملوك» - (صدرت ١٩٢٦) - ربما لأننى أكاد أميل إلى القطع بأنك قد حققت فيها الريادة فى إنجاز «الرواية العربية الأولى» التى تمثل فيها النضج الفنى والأدبى : بناء ولغة وموضوعاً ورمزاً وهدفا وموقفا شجاعاً. رفعت به السيد عمر مكرم وجهاد الشعب المصرى فوق هامة الداهية محمد على بين سنتى ١٨٠٤ و١٨٠٧.

***

لعلك ياخالى لن تندهش حين تعلم أن مهزلة اختيار «أفضل مائة رواية عربية فى القرن العشرين» قد حافظت على تقليد التعصب والتحزب العقائدى والحزبى والشللى والنفعى ، الذى يبدو أنه قد ترسخ كقاعدة فاسدة لتدمير أى أمل فى بناء حس نقدى سليم ، ولسحب الثقة فى مصداقية أحكام المحكمين ومعايير المعيرين، وعلى ذلك ، يا أيها الأب الحقيقى للريادة الروائية الناضجة فى الأدب العربى، فقد تم اسقاط اسمك الجليل من القائمة التى تدعى التحدث الكاذب بلسان نقاد الأمة وأدبائها . ماذا أقول لك بعد ياسيدى ومعلمى ورائدى يافريد؟ أقول، شاكية إليك ، ياللخجل أم ياللعار، أم أصمت وأضم تلك القائمة المزيفة إلى آلام ونكبات أمتك العربية التى صارت تتعجب لو لم تستقبل يومها بأخبار الكوارث.

***

وجهك رغم كل شىء يطالعنى ضاحكاً يروى من آلام جحا هذا الهم : «.. عرف عجيب ابنى بالنبوغ فى الأدب بين لداته وتمكن منه الوهم فاعتقد أن الله قد وهب له من فضله مالم يهبه لسواه، وكثيراً ما أفضى إلى بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله فتأخذنى الشفقة عليه فأهز رأسى صامتا .... فليمض كما شاء الله له ولا حيلة لى فى صرفه عن وهمه، والزمن وحده كفيل بحل مشكلات الحياة ... ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل تلك الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ، أم لعلها تنبت فى الرؤوس بغير أن يلقى أحد بذورها ، كما تنبت الحشائش على جانبى نهر ماهوش ....»

***

تنصحنى بالضحك، وأنا لأجلك ألتمس الضحك، لأننى عندما أضحك أرى جانب وجهى يشبهك.

***

طيب الله ثراك. ■

شخصيات لا تنسى

حديث مستطرد

مع المؤرخ

عبد الرحمن الرافعي

بقلم

وديع فلسطين

على الرغم من الشهرة الطاغية إلى اليوم التي يتمتع بها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك (١٨٨٩ - ١٩٦٦) بفضل كتبه التاريخية التي تسجل تاريخ مصر منذ العهد الفرعوني وحتى أيام المؤرخ الأخيرة، فما زلت أصادف في صحفنا خلطاً بينه وبين ابن عمه الأديب مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) فتنشر صورة هذا مكان صورة ذاك، والقراء في غالبيتهم إما تنقصهم الدراية، وإما يلاحظون - مثلي - هذا الخطأ ويضيفونه إلى أخطاء كثيرة يقعون عليها في الصحف المنشورة، وقد أيأستهم محاولات تصحيحها!

في شهر سبتمبر ١٩٤٨ أنهينا الندوة الأسبوعية لرابطة الأدباء التي أنشأها الشاعر الدكتور ابراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٢) فكان رئيسها المنتخب وكنت بدوري وكيلها المنتخب منذ إنشائها في عام ١٩٤٥ وإلى أن تركناها في عام ١٩٥٢. وخرجنا من الدار التي كنا نعقد فيها اجتماعات الرابطة في عمارات الخديو بشارع عماد الدين لكي يتوجه كل منا إلى بيته. فالشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨) - ١٩٨٤) كان يقيم وقتها في حي السيدة زينب، والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي (١٩٠٢ -١٩٨٣) كان يقيم في حي

المنيـــرة ، والأديب رضـــوان ابراهيم (١٩١٩ - ١٩٧٥) كان يقيم فى العباسية ، وأنا أقيم فى الجيزة .

وطرأت للصـــيـــرفى والسحرتى فكرة التوجه لزيارة عبد الرحمن الرافعى بك فى مكتبه بشارع عدلى باشا (على ناصية شارع شريف باشا) ، فسـألـتـهـمـا : وهل يبقى فى مكتبه إلى تلك الساعة المتأخرة ؟ فقالا : نعم ، فهو محام ، والمحامون يستقبلون موكليهم فى الأمسيات ، وفيها يعدون أيضا مذكرات دفاعهم فى القـضـايا الموكلين فـيـهـا . وتحفظت من ناحيتى لهذه الزيارة، أولا لأننى لا أعـرف الرافعى بك معرفة تسمح لى بالإقـدام على هذه الزيارة المفاجئة ، وثانياً لأنه ليس هناك موعد مضروب سلفاً كما هو معهود فى مقابلة العظماء ، ولكن الصديقين أكـدا الى أن باب الرافعى بك مفتوح دائماً لنا ولهذا نزوره بلا موعد ، وأنه بحكم متابعته الحثيثة للصحف كمرجع من مراجع التاريخ لا بد أن يكون قد تابع مـقـالات الصدر التى كنت تكتبها يومياً فى جـــريدة «المقطم» . وهى الجريدة الثانية من حيث العمر





عبد الرحمن الرافعي

بعد «الأهرام» .

وإزاء هذا المنطق ، رافقت مجموعة الأصدقاء وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى خشية أن يخلف الواقع ظنوننا ، وعندما دخلنا مكتب الرافعي بك؛ ، استوقفتني الخزانات الضخمة التي تغطى جدرانه ، وفيها مجموعات كاملة مجلدة من جميع الصحف والمجلات المصرية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الماضي ، واستقبلنا شاب كان يعمل محامياً في مكتب الرافعي بك ، وهذا قام بإخطاره بوصولنا ، فرحب بنا ترحيباً كريماً ، وقام الأصدقاء بتقديمي إليه ، فصافحني بحرارة وقال: إنه يعرفني من كتاباتي ، وقضينا في صحبته دقائق جميلة – اشفاقاً على وقته – كان فيها شديد التواضع مفرط الودّ يطفح وجهه بالبشاشة الدائمة ، ويتكلم بصوت خفيض بل هامس ، ولأن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الرافعي بك عن قرب ، فقد حرصت على أن أتأمل ملامحه وسماته ، فهو قصير القامة نسبياً ، في جسمه امتلاء خفيف ، أما رأسه فقد عاف الشعر تماماً وكان يلمع في ضوء المصباح ، وتعلو وجهه حمرة ترجع إلى أصوله الشامية .

وغادرنا المكتب وفي اعتقادي أن هذا اللقاء قد يكون اللقاء الأول والأخير مع هذا الرجل العظيم ولكنني فوجئت في صباح اليوم التالي بزيارة من الشاب الذي يعمل في مكتب الرافعي بك ومعه رزمة كبيرة من مؤلفات الرافعي وضعها على مكتبي قائلاً: إنها هدية من المؤرخ وانصرف . وتبينت أن الرافعي بك اهداني مجموعة كاملة من جميع مؤلفاته التاريخية وطرّز كلا منها بعبارة إهداء كريم واشتركت جميعاً في تذييل إمضائه بتاريخ الإهداء وهو سبتمبر ١٩٤٨ الذي أوردته في صدر هذه الكلمات .

فأحسست بأنني نلت جائزة كبرى سعت إلى من تلقاء نفسها ، دون طلب من ناحيتي ودون منّ من ناحية المُهدي ، وكان طبيعياً أن أزور الرافعي بك شاكراً ، وأن أعقد فصلاً عن هذا المؤرخ العظيم وأن تنشأ بيني وبينه مودة ملهمة زادتها الأيام وثوقاً . وكان كلما أصدر كتاباً جديداً يبعث إلىّ بنسخة منه . وكنت أزوره بلا موعد سابق في مكتبه كلما ألفيت نفسي في وسط القاهرة في الليل، فإذا كان يستقبل زواراً من الموكلين انصرفت ، أما إن كان بمفرده فهذا يشجعني على قضاء دقائق معه .

كان الرافعي يعتمد في تاريخه على الوثائق الرسمية المنشورة في جريدة الوقائع المصرية «وعلى ما يقف عليه من أمور بحكم عضويته في البرلمان ،وعلى ما يطالعه في الصحف ، وعلى ما يصل إلى



مصطفى صادق الرافعي



ابرهيم ناجي

علمه في الحزب الوطني الذي كان عضوا دائماً فيه . ولهذا السبب الأخير كان يتحيز لوجهة نظر الحزب الوطني على الرغم من حرصه على الموضوعية في تسجيل وقائع التاريخ .

وعندما قامت الثورة عَول الرافعي على أن يصدر كتاباً عنها ، وهو ما دعاني إلى زيارته لاستجلاء حقيقة الأمر فقال لي : إنني سجلت تاريخ مصر منذ أيام الفراعنه وحتى عصر الملك فاروق ، ويهمني أن أسجل التاريخ كاملاً إلى يوم وفاتي ، ولهذا شرعت في تأليف كتاب عن ثورة ١٩٥٢ . فقلت له : أخشى ما أخشاه أن يتعرض الرقيب - وقد بلوت شره في الصحافة - لكتابك ، فالثورة مازالت تتفاعل وتضطرب ولم تصبح بعد تاريخاً نهائياً تعرف أوائله ونهاياته ، وهي تحيط نفسها بأسرار ولا تكشف الا عن القليل من مداولات مجلسها ، وليس يخاف عليك أن أخبار المنازعات بين أعضائها تطفو على السطح برغم محاولة كتمانها . وقلت له : لعل من الحكمة عدم التسرع في كتابة تاريخ مازال في مرحلة الصنع ، ومازالت وقائعه في طي الكتمان . فقال: إنه سيسجل التاريخ من واقع البلاغات الرسمية والقرارات التي صدرت والأحداث التي مرت بها الثورة ، وإنه واثق من أن لديه ما يكفي من المعلومات المنشورة لتأليف هذا الكتاب .

والذي حدث بعد ذلك ، كما رواه لي الرافعي بنفسه ، أن الرقابة اعترضت على الكتاب لأنه سجل دور الرئيس محمد نجيب في انجاح الثورة وقيادتها وهي حقيقة تاريخية لا سبيل إلى إنكارها . وبرغم ذلك أصرت الرقابة على حذف كل ما يتعلق بمحمد نجيب ، بما في ذلك البلاغات الرسمية التي صدرت عنه وباسمه وبتوقيعه ، مما يجرد الكتاب من صفته التاريخية الموثقة ويجعله مجرد نشرة دعاية سياسية ، وأخبرني الرافعي بك أنه لجأ إلي الدكتور محمد عبد القادر حاتم الذي كان مسئولا عن الرقابة ، وبعد أخذ ورد طويلين وافق على الا يذكر اسم محمد نجيب في الكتاب إلا مرة واحدة ! وقال لي الرافعي إن هذه هي المرة الأولى

في حياته التي تتدخل فيها الرقابة في عمله التاريخي . فقد سجل سيرة أحمد عرابي باشا الذي ثار على الخديو ونشر هذه السيرة في عهد الملكية فلم يتعرض لها قلم رقيب . وقال: إنه ندم على تأليف كتابه عن ثورة ١٩٥٢ لأن قارئه لن يعرف أن العبث الرقابي هو الذي جرده من الموضوعية .

كان عبد الرحمن الرافعي بك عضواً في لجنة التاريخ الملحقة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مع زملاء له منهم شفيق غربال بك (١٨٩٤ - ١٩٦١) ومحمد عبد الله عنان (١٨٩٨ - ١٩٨٦) وغيرهما . وفي اجتماع من اجتماعات اللجنة فوجيء الحاضرون وكلهم أساتذة كبار صدرت لهم مدونات تاريخية ، بأن الدكتور محمد أنيس (١٩٢١ - ١٩٨٦) طلب الكلمة لكي يقول إن كل التاريخ المصري المنشور تاريخ مضلل ويجب إهماله تماماً لأنه سجل تاريخ مصر من وجهة نظر الحكام والحكومات .

في حين أن التاريخ الصحيح هو الذي يسجل من وجهة نظر الشعب ، وطالب بإعادة كتابة التاريخ وفقاً لهذه النظرية الشعبية ! فما كان من الرافعي بك إلا أن قال - كما أخبرني بذلك - لقد



كتبنا التاريخ وفقا لرؤيتنا ومناهجنا الخاصة ، فإن لم يعجبك ذلك فاكتب تاريخك كما يحلو لك ، أما نحن فمتمسكون بكل كلمة كتبناها ونشرناها في كتبنا . وأيقن أعضاء لجنة التاريخ أن من العبث الدفاع عن مدى نزاهتهم وتجردهم في كتابة التاريخ ، وأن من الأحجى الاستقالة من هذه اللجنة التي فقدت مسوغات بقائها . فاستقال الأعضاء جميعاً ما عدا الدكتور محمد أنيس !

كانت سن عبد الرحمن الرافعي بك قد علت وصحته اعتلت ولا سيما لأن قدمه زلت وتعرض لكسور مركبة في ساقيه ألزمته الفراش طويلاً ، ولم يعد بالتالي قادراً على مزاولة مهنة المحاماة إلى آخر العمر كما كان يتمنى ، فأغلق مكتبه ، ونقل مجموعات الصحف إلى «بدروم» منزله ، ودبر للمحامي الذي كان يعمل عنده والذي تزوج ابنته كريمة - واسمه حلمي السباعي شاهين (ت ١٩٩٠) - عملاً في هيئة قضايا الحكومة وفيها ترقى وأصبح مستشاراً . وعندما توفي الرافعي بك جرى دفنه مع الزعيم مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨) الرئيس الأول للحزب الوطني في مقبرته بالقلعة بناء على رغبته ، وهي رغبة ساعد على تحقيقها فتحي رضوان (١٩١١ - ١٩٨٨) .

كان الرافعي بك يقيم في الفيلا رقم ٥ بشارع أمين الرافعي بك (١٨٨٦ -



شفيق غربال باشا



حامد جوهر

١٩٢٧) وهو شقيقه وصاحب جريدة «الأخبار» التى عطلها حتى لا ينشر فيها نبأ إعلان الحماية على مصر . وكانت الفيلا التى يقيم فيها الرافعى بك قد تقادم عليها العهد وفقدت رونقها القديم فطمع فيها الطامعون بعد وفاته على أمل أن يهدموها ويشيدوا مكانها مبان حديثة فى حى الدقى . وقد أخبرنى المستشار حلمى شاهين أنه تلقى عرضاً عن طريق وسيط لشراء هذه الفيلا فلما اكتشف أن المشترى هو السفارة الاسرائيلية رفض هذا العرض دون الدخول فى التفاصيل . وانتهى الأمر بأن بيعت الفيلا وهدمت وأقيمت مكانها عمارة شاهقة تقوم شاهداً على أن المال يكتسح أمامه المعالم التاريخية بكل قسوة .

وذات يوم اتصل بى المستشار حلمى شاهين وأخبرنى أن الرئيس أنور السادات أصدر أمره إلى أنيس منصور رئيس دار المعارف بأن يعيد نشر جميع مؤلفات الرافعى . وقامت الدار بناء على ذلك بالتعاقد مع حلمى شاهين على نشر ١٧ كتاباً للرافعى بك . ورجانى حلمى شاهين أن نقتسم العمل فى مراجعة تجارب هذه الكتب ، ولكننى قلت له إننى وإن كنت أرحب بالقيام بهذا العمل وفاء للرافعى بك إلا أننى أستصوب أن تطلب من دار المعارف تصوير الكتب بالحالة التى خرجت بها فى حياة مؤلفها حتى لا تتعرض للتشويه ، سواء بحذف الألقاب الرسمية ، أو بطمس بعض الأسماء أو بتغيير بعض الوقائع ، فأعجبته الفكرة ، وأصر على أن يتم تصوير الكتب طبق الأصل على أن يصدر كل كتاب بمقدمة لحلمى شاهين . وقد كان .

كنت ذات مرة فى زيارة الدكتور عبد اللطيف حمزة (١٩٠٧ - ١٩٧١) عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة فى منزله بمصر الجديدة ، فوجدته جالساً وأمامه مجلد ضخم لجريدة «الأخبار» التى كان يصدرها أمين الرافعى بك ، وأخبرنى أنه يعد كتاباً عن هذا الصحفى الكبير وأنه استعار مجلدات الجريدة من عبد الرحمن الرافعى بك .

ليس مقصدى بهذه الكلمات أن أؤرخ لعبد الرحمن الرافعى بك ولمواقفه



عبد الرحمن الرافعي

السياسية في البرلمان، أو لعمله عندما اختير وزيراً للتموين في حكومة حسين سري باشا أو دوره في تنظيم نقابة المحامين عندما عين نقيباً للمحامين، ولاسرد مؤلفاته الكثيرة التي كان من ضمنها كتاب أدبي جميل عن «شعراء الوطنية»، وإنما أردت أن أورد بعض ما عرفته عن هذا الرجل العظيم عن قرب على مدى ثمانية عشر عاماً. وهو قد سجل تاريخ مصر، فمن يسجل تاريخه هو؟ أما مكتبته الخاصة بكل ما كانت تضمه من المجموعات الكاملة للصحف والمجلات فلا أدري مصيرها.

المكتبات الخاصة

وسوقنا موضوع المكتبات الخاصة إلى طرح هذه القضية التي يبدو أنها غير ذات بال: فكثيرون من الأدباء والعلماء يقتنون مكتبات خاصة جمعوا مفرداتها على مدى العمر، وهي تمثل اهتماماتهم الشخصية وربما هواياتهم أيضاً. فعالم البحار الدكتور حامد جوهر (١٩٠٧ - ١٩٩٣) الذي قضى كل عمره في دراسة الكائنات التي تعيش في البحار، وإليه يرجع الفضل في إقامة محطة الأحياء المائية في الغردقة حيث قضى سنوات طويلة من عمره.. هذا العالم الخبير الفذ كان يقتني مكتبة متخصصة في علم الأحياء المائية قد لا يكون لها مثيل في مصر. فأين ذهبت هذه المكتبة بعد وفاته، ولا سيما لأنه عاش عزباً ولم يتزوج ولا كان له أولاد يحافظون عليها؟

وكان المؤرخ الكبير محمد صبري السوربوني (١٨٩٤ - ١٩٧٨) يقتني مكتبة ضخمة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية تضم كتباً تاريخية نادرة وكتباً من التراث العربي لاهتمامه بالشوامخ من الأدباء والشعراء وكتباً في الفنون العالمية فيها صور ملونة لأعمال معظم الرواد الكبار من الفنانين في العالم. وقد قام الدكتور السوربوني بطبع فهرس شامل لمقتنياته باللغة الفرنسية من قبيل حصر مفردات مكتبته. وقد أخبرني أنه فكر في بيعها في حياته لأن نجليه من زوجته الفرنسية هاجرا إلى الخارج، ولأن ابنته المتزوجة لا تهتم بالكتب، ولكنه لم يوفق إلى جهة علمية تشتري هذه المكتبة النادرة. ومن هنا صار يتنازل عن أي كتاب يهم باحثاً مادام سينقده ثمنه. وبعد وفاته، كانت المكتبة مازالت تحتل معظم غرف منزله في مصر الجديدة، ولا أدري بعد هذه السنوات ما هو مصيرها.

وكان عالم المخطوطات محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) يقتني مكتبة عامرة بالمخطوطات القديمة ما نشر منها وما بقي مخطوطاً. وقد عرفت فيما بعد أن هذه المكتبة آلت إلى جهة علمية في المملكة



د. محمد صبري السوربوني

العربية السعودية أسوة بمكتبات أخرى خاصة «هاجرت» بدورها إلى بلدان الخليج .

وكان العلامة السوري الأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ - ١٩٦٨) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق قد أوصى بعد وفاته بأن تؤول مكتبته إهداء إلى المكتبة الظاهرية التابعة للمجمع ، ومع إنشاء مكتبة الأسد في دمشق ، آلت جميع مخطوطات المكتبة الظاهرية إليها .

أما العلامة كريزويل الذي توفي عن ٩٤ عاماً في عام ١٩٧٤ ، فقد عقد اتفاقاً مع الجامعة الأمريكية التي كان أستاذاً للفنون الإسلامية فيها بمقتضاه تؤول مكتبته الخاصة المحتوية على نفائس الكتب المصورة عن الآثار الإسلامية في العالم إلى الجامعة مقابل استمراره في العمل وتقاضيه راتبه إلى آخر يوم في حياته ، وباتت هذه المكتبة تحتل ركناً خاصاً في الجامعة لأنها تمثل إضافة حقيقية إلى الكتب النادرة التي لا تقدر قيمتها بثمن .

ولست بسبيل حصر جميع المكتبات الخاصة التي كان الأدباء والعلماء الراحلون يقتنونها ، ولا سبيل لي لاستقصاء مصائرها . وإن كنت أعرف عن ثقة أن عدداً غير قليل منها بيع إلى الأثرياء العرب في صفقات الغبن طابعها العام ، ولعل هذا المصير نفسه ينتظر ما بقي من مكتبات خاصة لدى المخضرمين من رجال العلم والأدب .

صحيح أن عدداً من المكتبات الخاصة أهدي أخيرا إلى مكتبة الاسكندرية بعدما أعيد إنشاؤها ، ولكن فكرة «الإهداء» مازالت غريبة بالنسبة لورثة الأدباء والعلماء الذين تمثل هذه المكتبات التركة الوحيدة التي خلفها الراحلون ، ومن ثم يتعين استغلالها تجارياً في سوق للكتب غلت أثمانها وندرت كتبها القديمة . والمشترون هم في الأغلب الأعم إما من الوراقين الذين يشترون المكتبات جملة ويبيعونها بالقطاعي ، وإما من الأثرياء العرب الذين يملكون المال ويستخدمون الكتب في بعض الحالات «كديكور» يزينون به حجرات بيوتهم .

ووزارة الثقافة مبتوتة الصلة حالياً بهذه القضية ، ولعلها لا تشغلها أصلا ، أما الجامعات التي ترحب طبعاً باقتناء هذه المكتبات ، فإن كانت إهداء فأهلاً بها ، أما إن كانت بيعا فإن ميزانياتها تضيق عن الوفاء بما هو مطلوب .

وقصاراي هنا أن أعرض القضية مقراً بأنني لا أملك توصيات عملية أسوقها في هذا المقام . ■

التكوين

مهمة فك ألغاز الكون في بضعة أسطر

محمد إبراهيم شوشة

عن التكوين يقول الخالق جل جلاله : «فلينظر الانسان مم خلق. خلق من ماء دافق»، وقد وصف هذا الماء بأنه مهين. وقال تعالى «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين». وفصل القرآن الكريم مدارج هذا التكوين من تراب ونطفة وعلقة ومضغة حتى اصبح خلقا سويا. ذلك جانب من التكوين البيولوجي الذي يشمل جميع البشر واكثر الحيوان. والذي لا نستطيع ان نضيف إليه شيئا. لكن للانسان تكوينا آخر فسره القرآن الكريم بقوله : «وقد علمناه من لدنا علما»، وقوله «وعلم آدم الاسماء كلها»، وقوله «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم»، وقوله «يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ماشاء ركبك»، هذا الجانب من التكوين هو الذي يرقى بالانسان الى أن يكون على صورة خالقه مجازا، وأن يستخلفه الله على أرضه، ويأمر الملائكة بالسجود له لأنه يعلم مالا يعلمون .



ولست أدري أي غرور أو جهل بحقيقة نفسي ذلك الذي جعلني أقبل تكليفا بالكتابة عن تكويني. وذلك كمن يقبل مهمة فك ألغاز الكون في بضعة أسطر.

***

أستطيع بالطبع أن أحوم حول الحمى وأوهم القارئ أنني أعرف العوامل التي

ساعدت في هذا التكوين. أستطيع أن أحدثه عن أشياء كثيرة في حياتي وأحكي له عن تجارب قد يراها ممتعة، وقد لا يراها كذلك. وكلها لا دخل لها الا ظاهريا في قصة تكويني الحقيقية .

***

أستطيع أن أبدأ بالحديث عن مولدي في السادس والعشرين من يناير في عام لم يعد يسعدني ذكره، في مدينة عطبرة في شمال السودان، مدينة الحديد والنار وبلد المائة ألف راكب دراجة - كان خالي «ابو عجل» أولهم - وموطن السكك الحديدية التي كانت - قبل أن يشتبك النميري مع عمالها - شريان الحياة والتواصل في السودان. وعن أبي شيخ المدينة الذي وهب حياته لخدمة سكانها، وعن أحكامه التي كانت تسبر غور الحياة باكثر مما تعلمناه انا وأخواي في جامعة لندن. عن اختياره زوجة تصغره كثيرا وتختلف عنه في كل شيء وكان حبها لنا بمثابة الحلول في ذواتنا، عن حبه الخارق لها والذي كتمه طوال رفقته معها ولم يعبر عنه الا يوم أن ماتت، وعن دموعه الغزيرة في حجرة نائية كأنما يضن بها أن يراها الناس .

***

أستطيع أن أحدثكم في شيء من الاعتزاز أو الغرور إن شئت عن ميولي نحو الكتابة في سن مبكرة. عن المسرحية التي كتبتها وأنا في الحادية عشرة ومثلت على مسرح المدينة. وأن أروي لكم قصة أخي الذي سبقني إلى الحياة، وكان بشقاوته وتحديه لكل النظم وعناده في مواجهة التهديدات والشتائم، الدرع الذي حماني من غضب الوالد. اذ جعلني - مهما فعلت - أبدو ملاكا بالمقارنة به . أراد له أبي أن يكون طبق الأصل منه كما يأمل أغلب الآباء في إبكار ابنائهم. كان يريده أن يكون إداريا مثل المفتشين الانجليز الذين عمل معهم وأعجب بهم . فلما فشلت التجربة لم يحاول أبي أن يطبقها عليّ .

ونجوت باسطواناتي الغربية وأم كلثوم وعبدالوهاب. وكان أبي يراني منبطحا على الأرض وأصوات ايرثا كت ودوريس داي وفرانك سناترا تملأ الحجرة فيهز رأسه عجبا لهذا المخلوق الغريب الذي حط في داره، وأحسبه كان يجد في ذلك متعة خفية. وكأنما أراد القدر أن يعوضه فوجد ضالته في أخي الأصغر الذي اختار الحقوق وتخرج قاضيا وأصبح بعد أعوام قليلة يصدر أحكاما تصل إلى حد الإعدام وكان أبي يحمل قصاصات من هذه الأحكام ليطلعها فخورا على أصحابه وجلسائه، إذ لم يجد في عملي كأستاذ جامعي أو في عمل أخي الأكبر كرجل اقتصاد متميز ما يمنحه الرضا. ولم يجد في مناكفاتي الصحفية في قضايا الفكر والأدب والتحديث والأصالة والتراث ما يثير اهتمامه .

***

وأستطيع في هذا المجال أن أتوسع في الحديث عن ميولي الفكرية والأدبية منذ الصغر، ربما لأنني لم أكن أملك القدرة الجسدية لأشارك أقراني في لعبة كرة القدم

وغيرها من لعب الأطفال في الشارع. لم أكن أحسن اللعب وكنت أتحاشى العراك، وكانا متلازمين، فآثرت أن اختبىء في المنزل بما أحصل عليه من كتب وصحف. وكان طريقي إلى القراءة روايات جرجي زيدان مؤسس مجلة الهلال. إذ كنت ألتهم سلسلة رواياته التاريخية: «١٧ رمضان» و«فتاة القيروان» وغيرها حين كان أقراني يتهجون قصص الغول وفاطمة السمحة. وكنت أختبىء حتى لا تقطع قراءاتي دعوة لغداء أو عشاء أو مرسال. وكنت أعجب لذلك النسج المحكم بين الخيال الروائي وأحداث التاريخ، وذلك قبل أن أدرك أن أغلب أحداث تاريخنا روايات خيالية أبدع في نسجها الرواة. واعتبرها من تلاهم تاريخا موثقا يحتكمون إليه ويبنون عليه تحليلاتهم وأحكامهم.

***

وعرفت في خلوتي طه حسين. لم أعن كثيرا بآرائه النقدية أو أسلوبه المتفرد، ولكنني أحببت قصصه، وأحسست بمعاناته صبيا فاقد البصر في «الأيام» وكنت أعصب عيني بعصابة سوداء وأتجول في أنحاء المنزل وكان ذلك يغيظ أخي الأكبر، وخاصة حين أذكره بمعاناة طه حسين من الخبز الأسود في الأزهر، حين كان يشكو من الطعام. ولقد بكيت مع منادي في رواية «دعاء الكروان» وعمها القاسي لسبب لم اتبينه حينذاك يقودها الى حتفها وتخيلت آمنة في صورة فاتن حمامة وشاء القدر أن تمثل دورها بالفعل.

لكن الشخص الذي أحببت أن أكونه فهو عباس محمود العقاد. قرأت «سارة» مرات ومرات وكنت في كل مرة ازداد اعجابا بهذه الفتاة الغامضة المثيرة. ومن سوء حظي انني لم أكن قد قرأت لأحمد شوقي بامعان فعرفته من خلال نقد العقاد له في «الديوان» ولقد اعجبتني تلك العاطفة الجياشة في نقده. لا أحب النقد العلمي الموضوعي الفاتر. النقد المختلط بالعاطفة يتشكل ادبا عظيما مستقلا بذاته ـ وكنت أكرر في نفسي بعض انفعالات العقاد: «اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعدد اشكالها والوانها».

وأحببت توفيق الحكيم وعشت بكل وجداني مع أهل الكهف. وقبل أن اتذوق مرارة الكهولة والشيخوخة تأثرت بتضرع مشلينيا وهو يتحدث إلى بريسكا: «بيني وبينك خطوة، بيني وبينك شبه ليلة، فإذ الخطوة بحار لا نهاية لها، وإذ الليلة أجيال وأمد يدي وأنا أراك حية جميلة أمامي فيحول بيننا كائن هائل جبار هو التاريخ». وعندما توليت رئاسة تحرير مجلة الدوحة كان أول شيء فعلته أن طلبت من توفيق الحكيم أن يكتب لها مسرحية بمكافأة باهظة احتاجت موافقة الوزير. فأرسل لنا ـ غفر الله له ـ مسرحية كان قد نشرها في الثلاثينات.

وفي تلك الخلوة نمى عندي عشق للصحافة المصرية اذا لم تكن الصحافة السودانية قد أصبح لها شأن. وقد رضي

ابى بعد الحاج منى أن يشترك لى فى المصور والاثنين وآخر ساعة واخبار اليوم، إذ كان ابى يرى ان الاشتراك فى هذه الصحف ليس من مستوى صبى فى الحادية عشرة من عمره. وكان يرانى عائدا من محلات بيع الصحف كل ثلاثاء اتأبط هذه الصحف وأنا فى حالة انتشاء فيهز رأسه عجبا من هذا المخلوق العجيب الذى يسمع أغانى الفرنجة ويقرأ صحفا أعلى من مستواه .

وقد عرفت مبكرا محمد التابعى ومصطفى وعلى أمين. كان محمد التابعى ينقلنى الى عالم سحرى بحكاياته الغرامية الشيقة مع مادلين وسيمون فى الشانزليزيه وعلى ضفاف السين والحى اللاتينى وسنت جيرمان فيسبح خيالى بعيدا عن عطبرة وعواصفها الرملية وورشها ومصانعها ومداخنها الى عالم أصبحت كل يوم أكثر اصرارا على بلوغه ذات يوم. وكنت اتابع فى شغف معارك التوأمين مع النحاس باشا وحكاية ٢٤ فبراير وسير مايلز لامبسون. كنت فى عالم وكان اقرانى الصغار فى عالم اخر تماما.

***

وقد كان انتقالى من عطبرة الى مدرسة وادى سيدنا الثانوية فى أم درمان وسط السودان والعاصمة الوطنية للسودان بمثابة انتقال لعالم جديد ومؤثرات جديدة. فى عطبرة لم تكن تصلنا صحف سودانية ومايصلنا لم يكن يرضى طموحنا. وكان صوت الاذاعة السودانية خافتا. وفى أم درمان تعرفت عن كثب على الابداع السودانى فى مجال الفن والأدب. فجأة دخل دنيانا فنانو السودان حسن عطية واحمد المصطفى وابراهيم الكاشف وعثمان حسين .

***

وعلى امتداد الدراسة بين ثانوية وادى سيدنا وكلية الخرطوم الجامعية برزت لنا وجوه الأدب السودانى بدءا بشعراء التقليد عبدالله البنا وعبدالله عبدالرحمن ومحمد سعيد العباسى وحركة التجديد التى قادها حمزة الملك طنبل ناقدا وشاعرا، والمدرسة الرومانسية التى حمل لواءها كتاب مجلتى النهضة والفجر وبرز من شعرائها محمد احمد محجوب والتجانى يوسف بشير. ثم ظهور مدرسة الواقعية الاشتراكية على يد محمد الفيتورى ومحى الدين فارس وتاج السر الحسن وما تلى ذلك من تيارات حديثة على يد محمد المهدى مجذوب وصلاح احمد ابراهيم وغيرهم. وقد هيأ القدر للسودان فى هذه الفترة أربعة علماء أدباء كان لهم أعظم الأثر فى بعث الاهتمام بتراث الأدب السودانى وتشجيع المبدعين وهم الدكاترة محمد النورى وعبدالمجيد عابدين وعبدالعزيز اسحق من مصر والدكتور احسان عباس من فلسطين

●●●

وكانت فترة الخمسينات واوائل الستينات فترة خصبة فى كل مناحى الحياة الفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية فى السودان. نشطت مهرجانات الأدب فى الجامعة ودار الثقافة والدور الثقافية

والرياضية، وشهد السودان نهضة كبرى في مجال الفن التشكيلي قل نظيرها في العالم العربي وافريقيا وتكونت اروع فرقة للفنون الشعبية وفرقة الاكروبات وأنشيء معهد السينما والمسرح واستقطب خيرة المبدعين .

كان ثمة تفاؤل يملأ الأفق. وفي قمة هذه الفترة الخصبة انتزعت لاواصل دراستى في جامعة لندن. وفي لندن توثقت صلتي بقريبي وصديقي الروائي الطيب صالح وشاركته السكن وكان وقتها يرأس قسم الدراما والمنوعات. وعن طريقه كتبت عدة مسرحيات ومسلسلات وتعرفت الى عدد كبير من الكتاب والفنانين من كل انحاء العالم العربي.

***

بعد ذلك تسارعت خطوات الحياة وتلاحقت المحطات، عدت استاذا في جامعة الخرطوم واخترت تدريس الأدب الحديث والأدب الأموي لأنني وجدت متعة في تدريس عمر بن ابي ربيعة وفهمت غزله مظهرا لتحدي التقاليد الادبية والاجتماعية في عصره، وليست قضية إباحية او تحويل العاشق الى معشوق، ولا هي قضية ارتكاب المعصية، او التعفف عنها. وعملت في اليونسكو في مشروع التعاون الجامعي في افريقيا. وانخلع قلبي وانا اتنقل بين فريتاون ومنروفيا وخماسي واكرا وابيدان وليفوس في طائرات صغيرة وسط عواصف استوائية يزمجر فيها الرعد ويدخل البرق من كل ابوابها. وبين كل ذلك رأيت الوانا من الجمال الفطري وصنوفا من الاهمال والتسيب والتخلف. وحاضرت لطلبة الدراسات العربية العليا في القاهرة عن الشعر السوداني الحديث. وترجمت بايجاز مع استاذي الدكتور احسان عباس كتاب «الشعر كيف نفهمه ونتذوقه» لمؤسسة فرانكلين - نيويورك - بيروت . وكنت للأستاذ احسان نصيرا في معاركه الادبية والأكاديمية . ودخلت في معركة طويلة مع رئيس شعبة اللغة العربية وعميد كلية الآداب، وانتقلت لأنشيء دار جامعة الخرطوم للتأليف والنشر واصبحت في سن صغيرة نسبيا عميدا لكلية الآداب. ثم مستشارا ثقافيا في لندن. وكانت تلك أحلى الأيام واتعسها . ومن هناك انتقلت الى دولة قطر رئيسا لتحرير مجلة الدوحة. اعطيتها قلبي وجندت لها كل قدراتي. كانت بالنسبة لي اكثر من وظيفة لكن ذلك كله لم يشفع لي. اردتها ان تكون منبرا ومنارة للفكر العربي القومي المستنير لكن النعرة الاقليمية جرفتني وجرفتها. وقيل إنني حولتها الى مجلة مصرية سودانية وذلك لأنني اردت ان يكون مقياس النشر والابداع لا مكان الميلاد. وعدت إلى لندن مستشارا لتحرير مجلة اسبوعية اسمها المسلمون. وكانت سنة تعيسة. حسبتها مجلة تتناول قضايا المسلمين - كما قيل لدي في البداية - فاذا بها تتحول الى مجلة فقهية ضيقة الافق، تجيب عن اسئلة تأتيها من اعماق الكهوف والجهالة. وكان لابد ان

يتوقف الزمن او تتوقف المجلة. وتوقفت المجلة بصورة سرية تآمرية لم اشهدها لحسن الحظ إذ كنت طريح الفراش لإجراء عملية جراحية. ورجعت كما بدأت استاذا جامعيا هذه المرة فى اقصى بقاع الارض على الساحل الغربى من كندا.

***

كل هذه محطات مهمة فى مسيرة حياتى اكتسبت منها دروسا وعبرا وأجد فى استرجاعها مزيجا من الألم والحزن والفرح الغامر والضحك الذى يملأ كيانى واستطيع أن احدثكم عنها فى مجلدات، ولكن هل تكشف لكم عن تكوينى وهل لعبت دوراً فى هذا التكوين، وبأى صورة وفى اى اتجاه؟ ذلك مالا استطيع أن أجزم به. فقد تمر التجارب الكبرى التى شغلت الحياة سنين فلا تترك فى تكوين الانسان اثرا، وتمر لحظة عابرة وتترك بصماتها الأبدية فى سيرته. المحطات الكبرى قد تكون معالم مهمة فى بيانات الانسان الذاتية حين يتقدم لوظيفة، ولكن اللحظات العابرة هى التى تمثل لبنات فى تكوين الانسان : وقفة معها فى إحدى السفن الراسية على نهر التايمز وكلاهما يسبح فى عينى الاخر، ثلاثة أصدقاء يفترشون الارض وحولهم قصاصات من الصور والرسوم والأوراق المطبوعة فى أحد المبانى العالية فى مدينة الدوحة فى الساعات الأولى من الصباح وقد انصهرت انفسهم فى انسان واحد، وجهها الذى فر الدم منه وهى تستمع إليه وهو يحاول بكل ما أوتى من قدرة على الكذب ليبرر لها نية هجرها ويعدها بصداقة بديلة يعرف أنها لن تكون، صورتها الجميلة بعيدا فى أعماق الذاكرة تبثه غرامها وتقترب من وجهه حتى ليكاد يحس بقلبه فى حلقه تحسب ان فارق السن بينهما يمنحها الحق فى التسلى بحبه الطفولى، وجه طفلته الباكية تجرى بجانبه وتتضرع إليه ألا يرحل.

ملايين اللحظات التى تمنحنا حبا او تبعث فينا اليأس والحنية والحزن، ملايين لا يستطيع ان يحصيها ولايستطيع ان يحصرها فى هذا الحيز الضيق او فى اى حيز.

***

لقد قرأت واستمعت لألوف الكتّاب وطربت ومللت وشهدت الوف الفنانين الكبار والصغار ولكننى لا أستطيع ان امسك بتلابيب احدهم واقول: إننى تأثرت به.

كل الذين قرأت لهم واستمعت، وكل الذين سعدت بصحبتهم وشقيت، وكل الذين أسأت إليهم بعلم وبغير علم، وكل المحطات التى مررت بها وتوقفت عندها زمنا يطول ويقصر. وكل التجارب التى مرت بى. تسربت داخل وجدانى وتحولت خلقا جديدا لتكون هذا الانسان الذى يحاول جاهدا وغرورا ان يكشف عن عوامل تكوين إنسان هو اكثر خلق الله تعقيدا. ■

محمود السعدني من ظرفاء العصر

تناولت الهلال شخصية محمود السعدني من خلال كتابه وهو شخصية تأسر القلوب من خلال كتاباته الساخرة ومازال عطاؤه مستمرا يثرى هذا اللون من الكتابات .

والسعدنى هو وأحمد رجب يعدان استمرارا لفكرى أباظة ومحمد عفيفى وعبد الحميد الديب وعبدالعزيز البشرى وعدد كبير من الظرفاء الذين عبروا أحسن تعبير عن روح مصر الضاحكة والساخرة من كل ماحوله.

إبراهيم مندور

أسيوط - البدارى

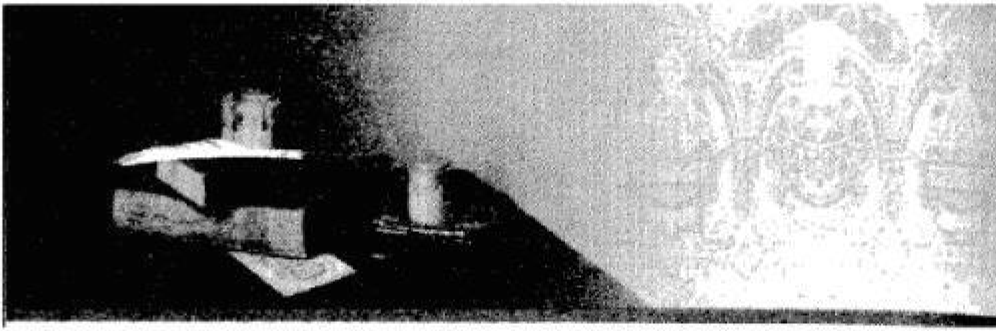
الجد والهزل

●● تقديراً منى للمرتبة الرفيعة لمجلة الهلال التى تمتلك سحراً خاصاً لدى كل مثقف عربى، أكتب هذه الملاحظات الموجزة عن الموضوع الذى نشر بقلم د. فهمى عبدالسلام «طريق السعدنى إلى زمش»، والذى يتضمن تعريضاً فظاً وغير مقبول بمجموعة من خيرة أبناء هذا الوطن، الذين قد نختلف أو نتفق مع مواقفكم الايديولوجية، ولكن محال أن ننسى ما قدموه لمصر من تضحيات ومواقف وإبداعات ثقافية وفكرية وفنية، وقدموا معها حياتهم كلها دفاعاً عن الديمقراطية.. وعن وطن يقوم على أساس من العدل والحق والمساواة.

وما أفزعنى هو استخدام «الكوميديا» كمادة للتحليل السياسى، أو إن شئنا الدقة لتصفية حسابات سياسية أو فكرية.

والأخ الكبير الأستاذ محمود السعدنى إذ كتب كتابه «الطريق إلى زمش» لم يكن يقصد إدانة تيار بعينه، ولا حتى أفكاراً أو ممارسات بذاتها.. ولعله كان يقصد فيما يقصد تصفية حسابات شخصية مع أناس لا يتفق مع أفكارهم أو مواقفهم أو قدرتهم على احتمال العذاب والتعذيب أو حتى التمتع بكبرياء مواجهة الخصم المتمثل فى إدارة للسجن غاشمة تريد من الجميع ما لا يقل عن الانحناء والانكسار.

ولعل الأستاذ السعدنى كان يرى فى هذا النوع من المواقف تشدداً، ولعله صادف من كان يتشدد فى غير اتساق أو غير تفهم، ولعله كان فقط مشتاقاً للحرية، ذلك الشوق



الذى عبرت عنه مجموعة كانت هى أيضاً «زمش» وتريد الحرية بأى ثمن وأسميت «فرقة السلك» والتى كانت دوماً فى انتظار «جودو» أى الافراج الذى لا يأتى.. أو بالدقة أتى متأخراً بعض الشئ، وبعد أن تتالت مواقف أوحت للإدارة.. أن هؤلاء الزملاء لا علاقة لهم بما يجرى أو بما يجب أن يجرى.

فالضعف فى هذه الاجواء كفيروس الانفلونزا يعدى.. وينتقل سريعاً.. ولهذا كان الآخرون يتشددون - ربما بمبالغة - فى مواجهة مواقف تستجدى الافراج بأى ثمن.

على أية حال لقد قرأت كتاب الأخ الكبير الأستاذ محمود السعدنى، وأخذته مأخذ الفكاهة المسلية، ولعلى ضحكت أيضاً، لكن لا أنا ولا الأستاذ محمود السعدنى - فيما أعتقد - كنا نتصور أن يأتى الدكتور فهمى عبدالسلام ليتخذ من الفكاهة مرجعاً فكرياً وسياسياً، لأننا إن فتحنا هذا الباب فسوف نجد من يأتى ليتخذ من أفلام إسماعيل ياسين فى الجيش، وفى الطيران، وفى الاسطول مرجعاً لدراسة تاريخ قواتنا المسلحة..

د. رفعت السعيد

شكراً للقراء

ارتفع توزيع عدد فبراير بنسبة ٦٠٪ من التوزيع مما يجعلنا نثق أن التجديد الذى تم فى الهلال منذ يناير ٢٠٠١ استقبل استقبالا حسنا من القراء، وسيزيد ذلك من مسئولية أسرة التحرير والتزامها أمام القارىء ، وضرورة بذل مزيد من الجهد.

إن كل ما يحققه الهلال من التقدم ، مجرد خطوة على الطريق.

الهلال

ضرورة أن تسود المحبة بين أبناء الشعب

تناول كاتبان بالنقد كتاب «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها» ، وهما الأستاذ طارق البشرى، وعمرو حمودة وذلك حفزنى للبحث عن هذا الكتاب لكى أطلع على ماجاء به ، وربما استشعر طارق البشرى التوجس والقلق إبان قراءته لذلك الكتاب الذى يدعو من وجهة نظره إلى الكراهية، لكننى حينما طالعت الكتاب وجدته يدعو

إلى الوحدة الوطنية والتصدى للاستعمار بكل أشكاله ، فضلا عن أن ماجاء بالكتاب كان سردا للحوادث التاريخية ، وليس تاريخاً بالمعنى المألوف ومن ناحية أخرى قرأت تعقيباً آخر لميخائيل بهيج مرقص فى هلال ديسمبر ٢٠٠١ تحت عنوان «تعقيب على مقال كتاب في الكراهية!» وأثنى على مؤلف الكتاب لكونه - الأستاذ ميخائيل - شاعرا ينفعل بالأحداث ، منساقا للعاطفة، وقال إن الحوادث فيها حلوها ومرها، لكنه يتفق مع وجهة نظرى التاريخية ، حيث أطلق على الكتاب أنه سرد تاريخي وعلى أية حال فقد تناول الأستاذ عمرو حمودة فى تعليقه فى الهلال العدد الماضى بعض النقاط من بينها اتهام القس داود عزيز فى كتابه «أقباط مصر بين الماضى والحاضر» بصفات بعيدة عن الواقع مما لايخدم بشكل أو بآخر قضية الوحدة الوطنية ، بل إنه قال إن رجال الدين متشددون ، وهذا غير صحيح خاصة إذا علمنا أن رجال الدين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكنه عاد وأثنى على رجال الدين الأقباط، ونوه فى ختام مقاله إلى كتاب القمص بولس باسيلى «الأقباط وطنية وتاريخ» وأنه كتاب محبة وسلام ووحدة وطنية ، وأنا هنا أؤكد على أن من ينقد عليه أن يكون نقده بناء موضوعيا ، وأن تكون لدى الناقد الشجاعة الأدبية للوقوف موقف الحق واعتدال واحترام وجهات النظر.

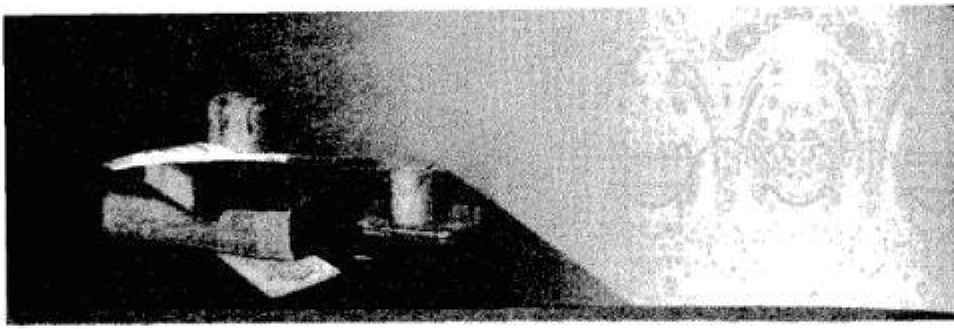
د. صمويل لبيب سيحة
المنيا

● **الهلال** : تؤكد على مايقوله القارىء العزيز الباحث صمويل لبيب سيحه على ضرورة بث الوئام بين الأقباط والمسلمين فى مصر وتوحيد كلمتهم وينبغى أن تسود المحبة بين أبناء مصر جميعاً.

نبيل العربي وكشف أسرار المفاوضات

المقال الذى كتبه الدكتور نبيل العربى القاضى بمحكمة العدل الدولية فى العدد الماضى من الهلال مهم جداً، حيث يكشف لأول مرة جانباً من أسرار المفاوضات مع إسرائيل.

والغريب أنه مازال عدد كبير من السياسيين العرب الذين شاركوا فى أحداث تاريخية ، لم يبح أى منهم بما جرى فى هذه الأحداث.



إن ماشاهدوه ليس ملكاً لهم ، ولكنه ملك للأمة العربية بأكملها ، وننتظر أن نقرأ على صفحات الهلال جوانب مهمة كالتي كتبها نبيل العربي عن هؤلاء السياسيين.

محمد الحسن
الرباط

يوسف السباعي
في ذكراه

تمر الذكرى الرابعة والعشرون على رحيل الأديب يوسف السباعي ، والذى ولد فى ١٠ يونيه ١٩١٧ بالقاهرة .

بدأ الكتابة عام ١٩٣٣، ونشرت له أول قصة فى مجلتى وهو طالب بالمدرسة الثانوية، وتخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٧، وعين ضابطا بسلاح الفرسان إلى جانب عمله بالقوات المسلحة ولعشقه للأدب فقد أسهم فى إنشاء نادى القصة وجمعية الأدباء، واتحاد الأدباء، كما رأس تحرير عدة مجلات، وكتب فيها قصصه وعين أيضاً رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال، ثم وزيرا للثقافة والإعلام فرئيساً لمجلس إدارة الأهرام.

له ٥٢ كتاباً متنوعاً من بينها ٢١ مجموعة قصصية وله ١٤ رواية و٨ كتب تضم مقالاته فضلاً عن أربع مسرحيات وله كتاب فى أدب الرحلات ، وقد تحولت بعض كتبه الروائية إلى أفلام منها «انى راحلة – نادية – جفت الدموع– أرض النفاق – رد قلبى – بين الأطلال».

أثناء انعقاد مجلس التضامن الافريقى الآسيوى بنيقوسيا بقبرص اغتيل يوسف السباعى، وهو يدافع عن القضية الفلسطينية.

رجب عبد الحكيم بيومى
القاهرة – المعصرة

أنت والهلال

القدس

القدس دار للفخار وتاريخها شمس النهار
القدس قلب المسلمين بل إنها أسمى وقار
القدس فيض العارفين شعارها أجمل شعار
بالحق يسطع بيننا فيضيء فينا بانبهار
الظلم آن له الرحيل ويجيء فجر الانتصار
وسيذهب الأعداء من أرض العروبة فى انكسار
وسينشر الإسلام نوراً للبلاد كما النهار
والعدل يملأ كوننا والظلم ضاق به الحصار
والناس تطرب حولك ياقدس يا أحلى مزار
يا راية ظلت ترفرف فى سمو وازدهار
ياقدس أنت ظلالنا طاب لنا فيك السمار

أحمد نادي بهلول
عضو جماعة الأدب العربي - الاسكندرية

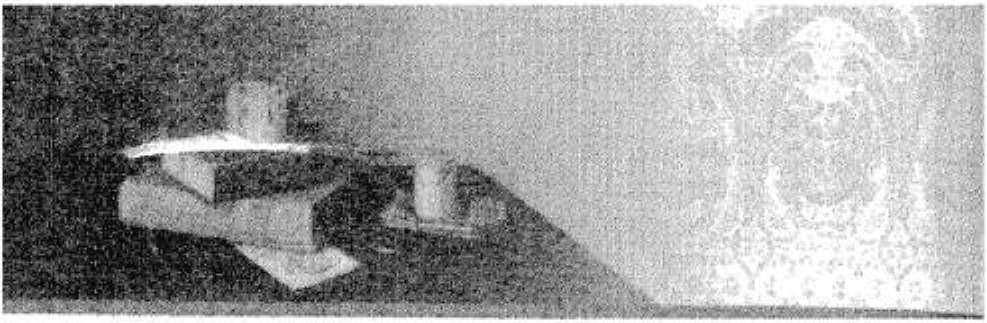
السادات ملك للتاريخ

الصديق المغربى مصطفى الطريبق وصلتنا منه رسالة تحت عنوان «السادات الشخصية والصورة» والتى حاول فيها تحليل شخصية الرئيس السادات ، وذلك على ضوء المقال الذى نشره الدكتور مصطفى سويف فى عدد يناير ٢٠٠٢.

وإذا كان د. مصطفى سويف قد حلل شخصية أنور السادات من خلال استعمال طريقة علم نفسية الجماهير كما فعل الكاتب الفرنسى «جوستاف لوبون» فإنه إنما فعل ذلك من منطلق كونه عالما وأديبا متخصصاً له وجهة نظر خاصة يؤمن بها..

لكن يبقى السادات فى نهاية الأمر ملكا للتاريخ كغيره من زعماء وقادة العالم شخصية مثيرة للجدل بين مؤيد ومعارض ، وبين ظالم ومنصف ، وهكذا فإن التاريخ يبقى دائماً هو الذى يقول كلمته الأخيرة .

الهلال



حسن الخلق

قال عز وجل لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام «وإنك لعلى خلق عظيم»، وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان الرسول خلقه القرآن ، ويقول عز وجل «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين». صدق الله العظيم.

سأل أحدهم الرسول عليه السلام عن حسن الخلق فقال له : حسن الخلق أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ثم قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال : ان أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق ، قال رجل للرسول عليه السلام :

أوصنى قال له : اتق الله حيثما كنت قال الرجل : زدنى قال الرسول : أتبع السيئة الحسنة تمحها قال الرجل : زدنى قال الرسول : خالق الناس بخلق حسن صدق رسول الله .

هذا عن حسن الخلق أما سوء الخلق فيأتى على رأسه الكبر وقد عد الجاحظ المتكبرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ومن العرب بنى جعفر وبنى عدى أما الأكاسرة فكانوا يعدون انفسهم أربابا وغيرهم من الناس عبيدا يقول عز وجل فى فرعون الذى طغى وتجبر «ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون» .. يقول أحد العارفين : لايتكبر إلا كل وضيع ولا يتواضع إلا كل رفيع ويقول عليه الصلاة والسلام: ثلاثة مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الموسيقي والغناء - في مصر

استمتعت بقراءة مقال الدكتور نبيل حنفى والذى تناول فيه جوانب من حياة أم كلثوم ، بل إنه أنصفها فى مشوارها الفنى وردا على مقال سابق نشر فى الهلال.

فلماذا لا يكتب بانتظام عن تاريخ الموسيقى والغناء فى مصر؟..

سهام رستم
الزقازيق

قصة قصيرة

خدمة عامة

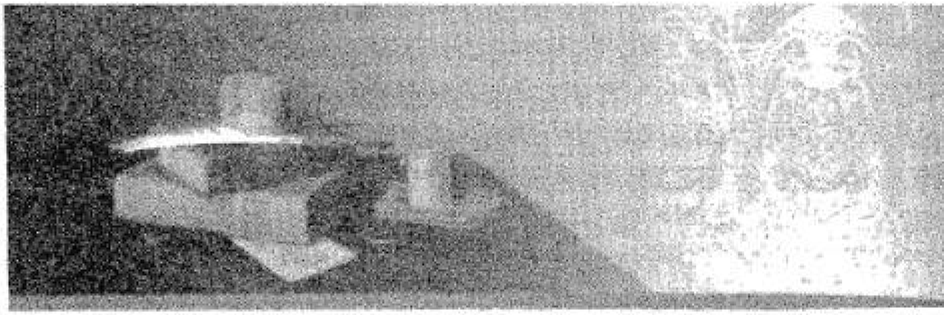
كانت جالسة محنية الرأس على ملف تعد أوراقه للعرض .. عندما جاءها صوته: صباح الخير .. ردت دون أن ترفع رأسها .. توقعت أن يترك الحجرة.. لكن صوته عاد يسأل بلطف كاذب : ماذا تأكلين هذا الصباح ..؟ رفعت رأسها عن الأوراق فواجهت عينيه الوقحتين وابتسامته اللزجة .. كانت فعلا تمضغ شيئاً فى فمها.

مدت يدها بعصبية وأخرجت من درج المكتب «باكو» لبان رمت به على سطح المكتب .وعادت إلى أوراقها .فجاءها صوته خشنا ومهدداً .. أنا لا أريد من هذا .. نظرت إليه فى غيظ .. فابتسم لها ابتسامة ماجنة وأشار إلى فمها : أنا أريد التى فى فمك .. بصقت اللبانة في سلة المهملات وقالت متحدية : اتفضل خدها ... كانت تتمنى أن تبصقها في وجهه .. لولا أنها تعرف أنه شخص شرير وأحمق .. وأنها وحدها فى الحجرة والمدير العام فى جولة تفتيشية!

....

انحنى هو على سلة المهملات والتقط اللبانة بأطراف أصابعه .. مسددا لها نظرات نارية وبصوت غليظ مهين قال لها ياآنسة .. الموظفة المحترمة التى تعمل فى مكتب محترم لاتمضغ اللبان أثناء تأدية عملها .. عيب ياآنسة أنت تعملين فى مكتب المدير العام ولست فى كازينو ... ثم رمى اللبانة فى وجهها .. وخرج.

فى اليوم التالى دخلت مكتب المدير العام تشتكى له .. وتحكى كل ماحدث ... استمع إليها المدير فى اهتمام شديد .. وقال غاضبا : كيف يحدث هذا فى مكتبى..؟ .. أرجوك ياسحر اقفلى باب المكتب وأضيئى اللمبة الحمراء فأنا لا أريد أن يدخل أحد ويسمع هذا الكلام القذر .... لاحظ المدير العام أن الدموع تلمع فى عينى سحر .. فربت بيده على خدها في أبوة ومسح على شعرها فى حنان .. وجذبها برفق وأجلسها على ركبتيه .. قال لها : ياسحر يابنتى أنت تعرفين أن هذا الولد المجنون ابن أختى وكلها شهر وتنتهى سنة الخدمة العامة التى يقضيها معنا فى المصلحة .تحمليه من أجل خاطرى ... وأنا من ناحيتى سأقطع لك رقبته ... سألها فى قلق



وهو ينظر ناحية باب المكتب أنت متأكدة أنك أضأت اللمبة الحمراء..؟... فلما أحنت رأسها بالإيجاب وهى تبتسم له ..مال عليها يقبلها!

وائل قنصوه

بالمركز القومى للسينما - القاهرة

إلي الأصدقاء

●● الصديق : رمضان إبراهيم بشير - أبو دياب شرق - قنا أرسلت لنا تطلب نشر قصة لك ، بعد أن نشرنا لك بعض انتاجك في الشعر .ومستحيل أيها الصديق الجمع بين الموهبتين في آن واحد وأنت في بداية الطريق اهتم بقراءاتك لكي تكون لديك أدوات الكتابة ، بدلاً من ضياع جهودك هنا وهناك!

●● الصديقة : ياسنت محمد إبراهيم هاشم - كلية العلوم عين شمس «موج الحب» وكما أطلقت عليها من الشعر الغنائى وتقولين فى مطلعها:

كالموج يقذفني يصفعني من موجة الحب إلى موجة الحرمان. يحتاج إلى التأنى فى الكتابة والاهتمام بالوزن والموسيقى.

●● الجمعية المصرية للنقد الأدبى حددت البرنامج الأول للندوات والمحاضرات لموسم ٢٠٠٢، وذلك بمقر جمعية محبى الفنون الجميلة - جاردن سيتى - ٢ ش أحمد باشا خلف فندق النيل من جهة الكورنيش البرنامج فى شهرى مارس وابريل كالتالى :

الموضوع المقدم عنوانه تجربتى فى الكتابة الروائية : شهادات.

يوم ٣/٣ «هالة البدرى - خيرى عبد الجواد» تقديم د. حامد أبو أحمد.

يوم ٣/١٠ (صنع الله إبراهيم - إبراهيم أصلان) تقديم د. منى طلبه.

يوم ٣/١٧ (خيرى شلبى - إبراهيم عبدالمجيد) تقديم عصام بهى .

يوم ٣/٢٤ (سلوى بكر - محمد المخزنجي) تقديم حسنة عبدالسميع.

يوم ٣/٣١ (حافظ رجب - محمد البساطى) تقديم محمد الشحات.

● ونتقدم بالشكر للأصدقاء الذين وصلت مساهماتهم للباب ولم تنشر فى هذا العدد، آملين نشرها فى الأعداد التالية ■

أفلاطون فى معرض الكتاب



بقلم: د. أنور عبدالملك

من قال «بلاش فلسفة»؟ والحق أننا في قلب أجواء الفلسفة هذه الأيام، هذا، مثلا أفلاطون «٣٤٨- ٤٢٨ ق.م.» أستاذ الفكر الجدلي في القدم، يسعى في محاوراته، وخاصة في محاورة «الجمهورية» أن يحدد معالم المدينة الفاضلة، الجدل يدور بينه ورواده، طريق التنقيب عن الحقيقة دوما بعيدا بعيد عن «مكانك سر» إلى أن يأتي إلى الحل المنشود في الجزء الخامس من هذا العمل الكبير. يقول بالحرف الواحد : «أما أن يصبح الفلاسفة ملوكا في الدول، وإما أن يصبح أولئك الذين نطلق عليهم تسمية ملوك وأمراء فلاسفة، على وجه حقيقي وكما يجب»، ويضيف أنه مالم يحدث هذا الانصهار، «لن يمكن وضع حد للآلام التي تعانيها الدول، ولا كما أعتقد لآلام الجنس البشري».

تساءلت : هل ترى هذا هو مقصد المشرفين على المعرض الدولي للكتاب، هذه المناسبة المرموقة التي نسعد ونفخر بها في شتاء كل عام على أرض المحروسة بفضل ريادة الكاتب الأستاذ الدكتور سمير سرحان، وإلا فكيف يمكن أن نفسر أن سلسلة «لقاءات فكرية» تقتصر كليا، أو تكاد، على أصدقائنا السادة الوزراء وكبار المسئولين في الدولة؟ إلى حد أن البعض يتساءل : هل تمت رسالة أفلاطون، وأصبح الحكام هم المفكرون المرموقون؟ وإن كان الأمر كذلك : فأين ترى مكانة المفكرين الذين يتخصصون في صياغة المنظومات الفكرية والمفاهيم والنظريات الجديدة، وهم قلة على كل حال؟

من الذي يمنع، ترى أن تتسع بنوعين من «اللقاءات»، سلسلة «لقاءات فكرية»، وكذا سلسلة «لقاءات مع مسئولين» قد يكون المفكر مرشحا لمسئولية أو فاتته الفرصة السانحة، أو تم تهميشه أو تغييبه، ولكنه لايزال من صلب أسرة المفكرين المصريين، وكذا، ومن ناحية أخرى، من الممكن، ومن المستحب، أن يكون المسئول في شئون الحكم ومؤسساته مفكرا بل وفيلسوفا، ولكنما غالبية المفكرين هم من هذه الفئة، أيا كان حظهم السياسي، وكذا فإن غالبية المسئولين عن الشئون العامة هم كذلك، وإن كان من بينهم والحمد لله من يصبو إلى مكانة المفكر.

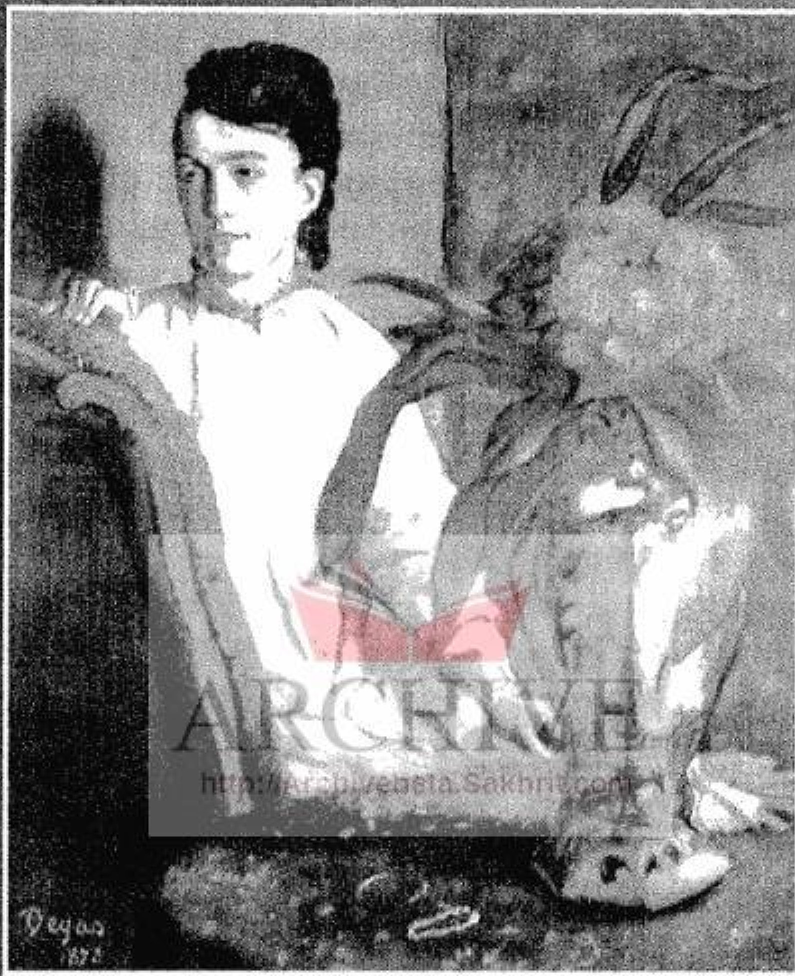
المهم أن يتاح للعقل المصري والوجدان أن يلتقي يوما بعد يوم خلال أسبوع المعرض بلفيف من أبناء الوطن وبناته الذين ينحتون الصخر، ويسعون إلى تطوير المعارف ورفع مستوى العلم والمعرفة، وذلك على تنوع مدارسهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية وكذا أعمارهم.

دعوة أفلاطون مازالت تتحدى ركود الحياة العامة وسطحية الحياة الفكرية، في عصر تسود فيه قيم السوق الكوكبية، عند هذا الحد، يصبح التساؤل : كيف يمكن الارتقاء بمستوى العمل والفكر، الفكر والعمل، اللهم إلا بالاجتهاد للجمع بينهما في طاقم متكامل، ولانقول متجانس بدءا من مشروع قومي حضاري يلهب قلوب الجميع؟



Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة في رصيدك...
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privileges
إشترك الآن في برنامج المسافر الدائم لمصر للطيران لتتمتع بالخدمة الخاصة والوزن الإضافي للأمتعة والرحلات المجانية وتعلية درجة السفر والعديد من المزايا الأخرى
For further information, please contact the Customer Affairs Department at tel. 6964394 thru 99, fax 6349727 or e-mail customeraff@egyptair.com.eg
Visit our website www.egyptplus.com.eg
EGYPTAIR Plus


الهلال
السعدنى .. ومدافع الحنجورى
جريمة من العصر الحجرى
١٤٢٣ عام هجرى جديد
جزء خاص
أبريل ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
أسرار الأميرة
التى قهرت الرجال





سيدة بجانب الزهور
للفنان الفرنسي : ديجا
• متحف اللوفر - باريس

الهلال

مجلة شهرية للثقافة تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
الكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٤٨ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير
محمد أبو طالب — المستشار الفني
عاطف مصطفى — مدير التحرير
محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١.٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وافريقيا ٢٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٤٢٣ عام هجري جديد (جزء خاص)

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

الملكية الفكرية

تهب من جديد رياح استعمارية عاتية.

تهب أحيانا بحجة ضرورة أن تتبع الأطراف المركز ، والمركز هو الغرب الصناعي ، وتهب أحيانا أخرى على أساس التسليم بهيمنة الأقوى، مما يعني أن يقبل الضعيف صاغراً ما يمليه عليه القوى ، وتارة تقوم علي أساس من احتياج دول العالم الثالث إلى انجازات التكنولوجيا، وهناك شروط يجب أن تلبى حتى تحصل على منجزات العلم وثورة المعلومات.

وتحارب ـ هذه الرياح ـ التلوث الناتج من الصناعة التقليدية في دول العالم الثالث، بعد انتقال الدول الصناعية إلى مرحلة ما بعد الصناعة وتسقط قيود الحماية حتى يصبح العالم كله سوقا لمنتجاتها، وتظل الفجوة الحضارية والإنتاجية قائمة بين الشمال والجنوب ، وذلك تحت مسميات متعددة سواء «الجات» أو «منظمة التجارة العالمية» أو العولمة...

ألم تقم الموجة الاستعمارية السابقة على أساس ادعاء نشر حضارة الرجل الأبيض؟! وسارت جحافل قوات الاستعمار خلف أعلام تحرير العبيد تارة، وانتشال الشعوب البربرية من وهدة التخلف تارة أخرى؟!

وأيامها فرضت حرية المرور في الممرات المائية الدولية.

●●●

واليوم تتحقق إحدى صور الهيمنة عن طريق حقوق الملكية الفكرية، التي يمارس باسمها أبشع أنواع الاستغلال، والحيلولة دون انتقال المعرفة الانسانية إلى من يحتاجها، وهى إحدى صور الكيل بمكيالين، وينقل ما لدينا دون أدنى اكتراث بحقوق الملكية الفكرية، وصادفت في باريس العديد من الأعمال الأدبية المترجمة إلى الفرنسية التي لم يحصل ناشرها على حق نشرها، ويحضرني هنا مثل كثيراً ما يردده د. أحمد مستجير والخاص بحقوق الملكية الفكرية بالنسبة للآثار المصرية المعروضة في معظم متاحف العالم، والتي تتقاضى عنها تلك المتاحف الأموال الطائلة، ولن نتحدث هنا عن الاضافات العلمية والحضارية إلى التراث العالمي سواء من الحضارة الفرعونية أو العربية الإسلامية أو الصين أو الهند.

فهل يحق للصين مثلا أن تحصل على حقوق الملكية الفكرية لكل كتاب يصدر وهى صاحبة فكرة المطبعة ؟!

إن الاتفاقية الخاصة بالملكية الفكرية (التربس) التي تشرف على تطبيقها منظمة «الوايبو»، تمثل عائقاً أمام انتقال صناعة البرمجيات والدواء، خاصة بعد أن تابعنا

الاحتجاج الأمريكي على تخفيض سعر الدواء في جنوب أفريقيا!

●●●

أقول .. تهب رياح استعمارية عاتية..

ففى الماضى كانت الدول تسعى إلى نشر ثقافتها، وتقديم مؤلفيها، ونقل الأعمال الأدبية إلى اللغات الأخرى، وهو ما كانت تقوم به المراكز الثقافية الأجنبية، والتي تحولت مهمتها إلى ملاحقة تلك الأعمال، متجاهلين الفروق الضخمة في مستويات المعيشة ، والفجوة الكبيرة في أرقام التوزيع عندنا وعندهم.

وعندما نشرت «روايات الهلال» ، رواية «جبل الروح» للكاتب الصينى جاوزنج جيان (فرنسى من أصل صينى) والحائز على جائزة نوبل سنة ٢٠٠٠ ، وأبدينا رغبتنا فى نشر الرواية ، واستعدادنا لدفع حقوق الملكية الفكرية للناشر الفرنسى . وعندما التقيت بمسيو بول فورنيل الملحق الثقافى فى مكتبه بالمركز الثقافى الفرنسى ، تعامل معى بغطرسة وعنجهية استعمارية غير مقبولة، وتخيل نفسه أحد المستوطنين الفرنسيين بالجزائر أيام الاستعمار ، ورغم أنه لم يكن بيننا خلاف موضوعى ، لمست الروح الاستعمارية التى يتعامل بها، وأظن أنه أسلوب جديد جاء بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضى.

●●●

وتهب الروح الاستعمارية البالية ، فى حكاية فرديناند دى ليسبس ، حيث تثور بين وقت وآخر صيحات تطالب بإعادة تمثاله إلى مدخل قناة السويس، وكلما تخفت هذه الأصوات تعود إلى الصياح فى جديد ، وتتعدد المبررات والذرائع ، مرة من أجل رواج السياحة ، ومرة أخرى من أجل علاقة أفضل مع فرنسا ومرة ثالثة بادعاء عدم المساس بالتاريخ .

وتظهر السفارة الفرنسية استعدادها تقديم مساعدات مالية وفنية من أجل اعادة احتلال التمثال مدخل قناة السويس.

وتتجاهل هذه المحاولات الحقيقة التاريخية ، فتمثال ديلسبس رمز استعمارى أسقطه الشعب أو بالأحرى من قبل القوات الفرنسية والبريطانية خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، فبعد العدوان أسقطت الجماهير الساخطة تمثال دى ليسبس باعتباره رمزا استعماريا وهو الذى حكمت عليه المحكمة الفرنسية بالنصب ووضع خلف القضبان بعد إدانته ، وإذا كانت القناة مشروعا مهما، إلا أن شروط امتيازها كانت مجحفة بالنسبة لمصر، يقول المؤرخ البريطانى إدوارد فيرى .. «لم يحدث أبداً أن منح امتياز يكفل مزايا كتلك التى منحت لامتياز قناة السويس، ويلقى العبء كله على من أصدر الامتياز «الوالى سعيد باشا!!»

ويقول التاريخ أيضا، إن ديلسبس قد قام بدور شرير خلال الغزو البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ عندما تعهد لعرابى بمنع البوارج البريطانية من دخول قناة السويس ، وتصديق ذلك هو الثغرة التى هزمت من خلالها قوات عرابى فى التل الكبير ، وكما أقيم تمثال ديلسبس فى العصر الاستعمارى قام الشعب بإسقاطه بعد الاستقلال .

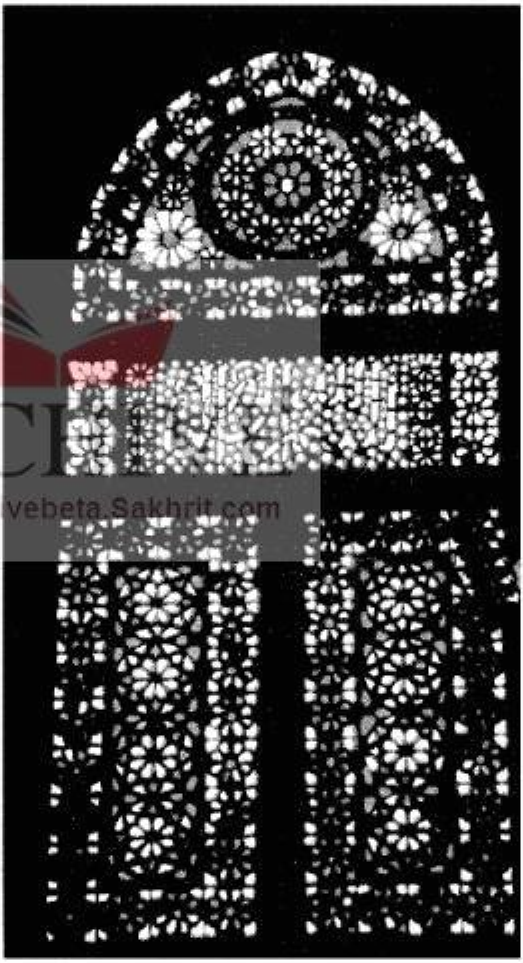
أما ما يقال عن العلاقات مع فرنسا ، فعودة تمثال ديلسبس فى مدخل قناة السويس يعطى مغزى مناقضا لحسن العلاقات ، فهو لايرمز للتعاون، ولايمثل وجه فرنسا الحضارى ولا الثقافى .

ويبقى الدور على عاتق أهل مصر فى إنجاز النهضة، وتحقيق القوة والمنعة .

المحـــرر

ترميم القاهرة التاريخية

بقلم
كارولين ويليامز
سكرتيرة لجنة الحفاظ على آثار القاهرة الإسلامية بأمريكا



الزجاج المعشق بمسجد قايتباي

● مشكلات الترميم، وكيفية الخروج من الدائرة المفرغة؟
● هذا هو المفتاح السحري لحل مشكلات القاهرة القديمة

كان للتراث الحضارى الإسلامى أثره الكبير فى تشكيل مدينة القاهرة حيث تمثل القاهرة القديمة بآثارها الفريدة نموذجا عربيا إسلاميا وإنسانيا ذا خصائص متفردة.

ولما كانت هناك أهمية خاصة للبعد الحضارى والبعد البيئى فى تشكيل عمران وحضارة المدن فإن القاهرة القديمة بما تضمه من كثير من العمارة المدنية والدينية والحربية تعد من أبرز المدن التاريخية ذات التراث الحضارى الإنسانى الذى يجب الحفاظ عليه وحمايته من عوادى الزمن، ومن أخطاء البشر.

وسأروى هنا تجربتى الخاصة مع تراث هذه المدينة المعمارى، ورؤيتى لحماية هذا التراث والحفاظ عليه، ففى منتصف الستينيات من القرن العشرين عندما كنت أدرس العمارة والفنون الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كانت هناك خرائط قليلة وكتب إرشادية يمكن الاستعانة بها للتعرف على شوارع القاهرة وحواريها ودروبها العديدة.

وكانت الخريطة الوحيدة المتوفرة هى تلك التى نشرتها وزارة الأوقاف ملحقة بكتاب من جزء ين بعنوان «آثار القاهرة» تشمل ٦٠٠ أثر تاريخى إسلامى، كنا نعتمد عليها لنتعرف على تلك الآثار فنجوب الدروب والأزقة الضيقة محاولين العثور على المواقع المدونة اسماؤها بالعربية، ولم يستطع أصدقاؤنا من سكان الزمالك أو جاردن سيتى أو حتى سكان تلك الأحياء أن يساعدونا كثيرا، فكان علينا أن نجد الطريق لهذه الآثار بأنفسنا.

وبهذه الطريقة الفريدة استطعنا أن نتعرف على القاهرة القديمة بتراثها المعمارى الرائع وبسكانها البسطاء الذين لايقلون روعة وودا.

دليل باركر

وكان أحد المهتمين بآثار القاهرة الإسلامية ريتشارد باركر أحد الدبلوماسيين بالسفارة الأمريكية بالقاهرة يؤمئذ، الذى وضع دليلا إرشاديا لهذه الآثار عام ١٩٧٤ وبه



بعض المناطق الفقيرة بالقاهرة التاريخية

ثمانية طرق لمشاهدة آثار القاهرة القديمة عبر أزقتها ودروبها ومسالكها الممتعة.

وبعد عدة سنوات عدت للقاهرة مرة أخرى (١٩٨١ - ١٩٨٣) طلب منى باركر، (وكان يشغل وقتها منصب سفير الولايات المتحدة بالمغرب) أن أصدر طبعة جديدة حديثة من دليله فقمت بالعديد من الإضافات سواء بالنسبة للطرق أو الآثار العديدة الأخرى، فظهرت الطبعة الجديدة المنقحة من الدليل عام ١٩٨٥ بعنوان «آثار القاهرة دليل عملى» كما صدرت الطبعة الرابعة عام ١٩٩٣، وفى فبراير ٢٠٠١ حضرت إلى القاهرة لزيارة آثارها قبل مراجعة الطبعة الخاصة من الكتاب، فقمت بالتجول فى شوارع الصليبة والدرب الأحمر والمعز لدين الله والجمالية وغيرها من معالم القاهرة الإسلامية واكتشفت حقيقة مؤلمة أن هذه الآثار التى ظلت مهملة لعقود طويلة لصالح الآثار الفرعونية قد جرى تجديدها فجأة، فوجدت عشرات العمال يقومون بكشط الأحجار وتنظيف الواجهات ويعيدون بناء الأجزاء الداخلية لهذه الآثار وإعادة تركيب الزجاج المحطم فى الشبابيك وتركيب قطع الرخام فى الأرضيات .

بينما تدور خلاطات الأسمنت بجانب السقالات الخشبية التى يمارسون من فوقها عمليات الترميم.



التصور المقترح للشكل الحضاري لشارع المعز من امام جامع الحاكم بأمرالله بالجمالية

وعندما زرت مسجد عمرو بن العاص بجنوب القاهرة رأيت لافتة كبيرة تعلن عن أعمال الترميم والتجديد التى تقوم بها إحدى شركات المقاولات المحلية، ورأيت فى الداخل رافعة ضخمة «ونش» تتحرك فوق الرءوس وشاهدت أعمدة رخامية جديدة عند المنبر، ولذلك كانت دهشتى مضاعفة وأنا أرى أحد المرشدين السياحيين يشرح لمجموعة من السائحين أن هذا المسجد يعد أقدم مسجد فى أفريقيا ومصر وبالنسبة لى رأيت مسجدا حديثا بفعل أعمال الترميم والتجديد!

وفى الشمال زرت مسجد الظاهر بيبرس فى الحسينية، حيث كانت شركة مقاولات أخرى تعمل على تجديد إيوان القبلة ولكن العمال غفلوا عن قضبان الجص المزخرفة على النوافذ والتى حطمها الأطفال بلعب الكرة فى الشارع.

وبامتداد شارع الصليبة كانت معظم المساجد تقريبا مغلقة أمام الزوار ولكن من خلال النوافذ كنت أرى الداخل وكأنه قد نسف بفعل قنبلة، حيث وجدت الأقواس «الأرش» ترتفع عليها السقالات، والفوضى تحيط بالمكان.

وفى باب زويلة حيث فناء الشيخ المؤيد أقيمت تمديدات جديدة محل الأشجار والطيور والزهور التى كانت تزين الفناء، أما مجموعة السلطان

قلاوون فكانت محاطة بالقماش الأخضر، ومنعت عنها الزيارة.

ترميم أم تدمير؟

ماذا يحدث إذن؟

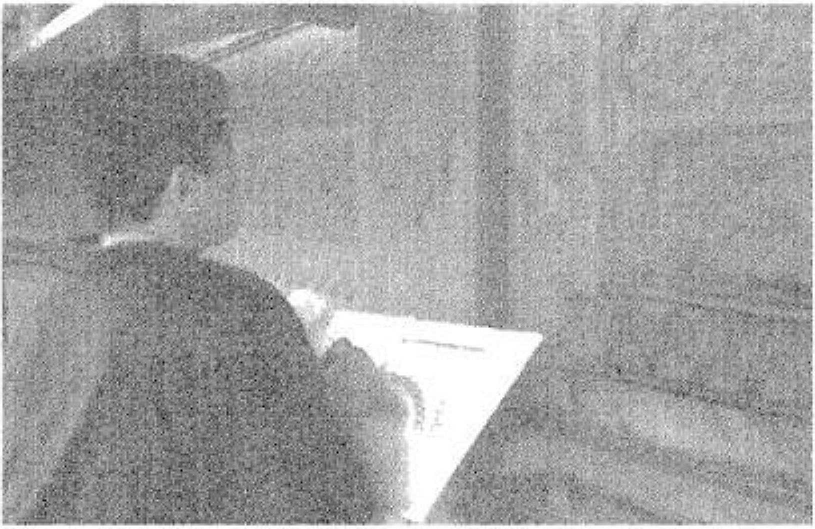
- توجهت بالسؤال لبعض العمال ولبعض أصدقائى بالقاهرة لكنهم لم يعطونى إجابة شافية كل ما عرفته أننى عندما كنت فى القاهرة عام ١٩٩٨ أصدر الرئيس مبارك شخصيا تعليماته ببدء برنامج لترميم آثار القاهرة الفاطمية، وهذا يعنى بالنسبة لى تلك المنطقة الواقعة بين باب الفتوح وباب زويلة إذن لماذا لايعملون فى الفسطاط أو فى شارع الصليبية؟

وأعترف إننى خلال أربعين عاما عرفت فيها القاهرة الإسلامية لم أر من قبل كل هذا النشاط فى الترميم ولا التدمير أيضا!!

وعند عودتى للولايات المتحدة مرة أخرى اتصلت بأصدقائى من محبى تراث القاهرة المعمارى والتاريخى لأسأل عما تقوم به شركات المقاولات من ترميمات بالطريقة العشوائية التى يعملون بها لكن الكثيرين من هؤلاء الأصدقاء الذين زاروا القاهرة أخيرا وعادوا منها لم يعطونى الجواب الشافى، ومنهم الدكتور ناصر الرباط الاستاذ فى معهد ماساشوستس التكنولوجى الذى كتب عدة مقالات فى الصحافة المصرية انتقد فيها أسلوب هذه الشركات العشوائى. ومنهم أيضا د.أندريه ريموند الذى كرمته مصر عام ٢٠٠١ من أجل دراساته المستفيضة لتاريخ القاهرة العثمانية، ومنهم أيضا د.جون رودنبك الذى عاش فى مصر منذ عام ١٩٦٥ ويعرف القاهرة حق المعرفة ألف كتابا أهداه إلى «ليلى ابراهيم» قائلا فيه ربما تكون آخر الأجيال الباقية على قيد الحياة ممن سيتمتعون بمباهج وعجائب «أم الدنيا»!

وحرصا على التراث الانسانى النادر الذى نحبه كل الحب وجهنا بالاشتراك مع ثلاثين خبيرا من مصر والعالم العربى وأوروبا والولايات المتحدة رسالة الى السيدة سوزان مبارك تضمنت كل الملاحظات حول ترميم آثار القاهرة القديمة، والمخاطر التى تترتب على ذلك وفى أغسطس الماضى (٢٠٠١) أرسل المجلس العالمى للتراث التابع لمنظمة اليونسكو بعثة لدراسة مايحدث وكتابة تقرير عنه باعتبار أن مدينة القاهرة مدرجة على قائمة التراث العالمى ولذلك يجب المحافظة على بعض المستويات المحددة لأساليب الترميم التى تقوم بها شركات المقاولات التى انتقدها التقرير.

ووصل الخطاب والتقرير لوزارة الثقافة المصرية فى وقت واحد ودعم



إحدي مراحل التوثيق الأثري والمعماري لواجهة سبيل السلحدار

كل منهما الآخر، وركز الاثنان على النقاط التالية:

١ - إن القواعد العالمية المتعارف عليها لأعمال الترميم تقضى باستخدام أقل قدر من التدخل فى مواد البناء الأصلية، ومطابقة المواد المستخدمة للمواد الأصلية وتسجيل كل الأعمال التى تجرى.

٢ - إن استخدام «أسمنت بورتلاندى» يؤدى إلى أضرار بالغة للآثار.

٣ - إن شركات البناء والمقاولات التى تستخدم أساليب ومواد البناء الحديثة غير مؤهلة للقيام بأعمال الترميم الدقيقة والحساسة.

٤ - إن ارتفاع منسوب المياه الجوفية يهدد بتآكل التراث المعمارى، وهى مشكلة لم يتم التعامل معها حتى الآن بكفاءة وفعالية ولم توضع لها خطة طويلة الأمد للتخلص منها.

وكان رد الفعل الأول لوزارة الثقافة هو اتخاذ موقف الدفاع والتبرير، ولكن بعد إدراكهم للنية المخلصة الصادقة لحرصنا وحبنا لتراث القاهرة الانسانى تفهموا ملاحظاتنا العلمية الموضوعية، ولذلك عقدت الندوة الدولية للترميم والحفاظ على التراث المعمارى للقاهرة الإسلامية (١٥ - ٢٢ فبراير ٢٠٠٢) بمساعدة منظمة اليونسكو، حضرها نخبة من علماء الآثار والمعماريون والمهندسون والمرممون والمؤرخون وخبراء المدن، وذلك للبحث فى أفضل

السبل للحفاظ على هذا التراث المعمارى النادر.

وكانت الخطوة الأولى جولة ميدانية لبعض المواقع المختارة التى تعانى من مشاكل الصيانة والترميم وهى «وكالة الغورى - مسجد ابن طولون - مسجد السلطان الغورى - سبيل قطب - وكالة السلطان قايتباى - بيت الهراوى - بيت السحيمى - سبيل وكتاب مسجد سليمان أغا السلحدار - وكالة عودة باشا» وغيرها ولم يتمكن الخبراء من مشاهدة مايجرى فى مجمع السلطان قلاوون.

تقدم مشجع

والملاحظة الجديرة بالتقدير أنه بعد التحرك الواسع من محبى هذا التراث الإنسانى النادر ومن منظمة اليونسكو فى الفترة من فبراير ٢٠٠١ وحتى أغسطس من نفس العام حتى انعقاد الندوة الدولية فى فبراير ٢٠٠٢ تغير الموقف بصفة عامة الى الأفضل، حيث منع استخدام الأسمنت فى الترميم وتم إبطاء معدل العمل، كما أن التحليل الفنى وتوثيق الأعمال التى تجرى قد ارتفع مستواها عن ذى قبل وتم الإعلان أيضا عن اكتشاف آثار جديدة ومدهشة تكشف جوانب أخرى من تاريخ القاهرة منها أعمال الاستكشاف فى المدرسة الأيوبية ومدرسة الكامل التى بنيت على جزء من القصر الفاطمى الغربى والتى كشفت عن أنابيب توزيع مع المياه ومن العصر العثمانى فى بيت الست وسيلة عثر المستكشفون على سلسلة من خزانات المياه تحت الأسبلة التاريخية فى القاهرة.

ومما يبعث على التفاؤل أن هناك معماريين شبان ومهندسين ومخططين يتميزون بالذكاء والنشاط كان حرصهم كبيرا على تلك الآثار النادرة.

وقد سمعنا من كبير المهندسين فى الصرف الصحى بالغورى عن خطط لوزارة الثقافة المصرية، لإعادة تسكين المواطنين الذين يعيشون فى المنطقة وعن نيتها لعزل مواسير الصرف عن محيط الحى، وإعادة النظر فى مشروع للصوت والضوء نتيجة لتوصية مجلس التراث العالمى التى تهدف إلى التوصل لنظرة متكاملة للمنطقة تشمل البشر أيضا باعتبارهم جزءا أساسيا من الإطار العام للقضية (وللبناء).

مشكلات المرور والصرف

لقد أتاحت الندوة فرصة للحوار ومناقشة مشكلات المنطقة بصراحة ووضوح، منها مثلا خطة تحويل شارع الأزهر (من شارع بورسعيد إلى المنصورية) إلى منطقة للمشاة، تمت مناقشتها بصورة ساخنة أمام محافظ



مئذنة مسجد أيدمر البهلوان في شارع أم الغلام- الجمالية



منطقة بيت السحيمي بعد الترميم

القاهرة باعتبار أنها منطقة تجارية مهمة خاصة لبيع المنسوجات تأتى إليها الفتيات المقبلات على الزواج من كل أنحاء مصر لشراء لوازمهن ولذلك تم التوصل إلى حل وسط معقول مع التجار حيث قرر المحافظ إعادة النظر فى الأمر بشكل متأن وفى الوقت نفسه فإن فكرة زيادة الحركة المرورية الدرب الأحمر عن طريق جعله طريقا رئيسيا للباصات فكرة يجب رفضها لتأثيراتها السلبية على المنطقة .

كما يجب حل مشكلة تسرب المياه الجوفية، حيث أن ٨٠٪ من هذه المياه تأتى من التسرب الحادث من مواسير المياه والصرف الصحى، وتأتى خطورة المشكلة من أن هذه المياه محملة بالاحماض لاحتوائها على مخلفات الصرف فتمتصها الأساسات والجدران فى المبانى الأثرية مما يهددها بخطر بالغ، ومما يزيد من تعقيد المشكلة هو تلك الكثافة السكانية الكبيرة فى تلك المنطقة مما يطرح تساؤلا مهما: لماذا أعطت الأولوية لانفاق ٨٩٠ مليون جنيه مصرى لتمويل نفق شارع الأزهر لمجرد وصل شطرى القاهرة ببعضهما بدلا من تخصيص ٣٠٠ مليون جنيه فقط لتجديد شبكة المياه والصرف الصحى فى المنطقة بما يكفل حماية آثار تلك المنطقة؟.

التنسيق المطلوب

ولذلك فإن ترميم الآثار وخطط

تنمية المدينة التاريخية تتشابك على مستويات عديدة ويجب النظر إليها من كل الجوانب حتى تصبح قضية الحفاظ عليها متكاملة، فمثلا وزارة الثقافة التى تتولى مشروع ترميم القاهرة القديمة ووزارة الأوقاف التى تمتلك ما بين ٩٠ - ٩٥٪ من تلك الآثار ومحافظة القاهرة التى يدخل فى نطاق مسئوليتها هذا المشروع، كل واحدة منها تنظر إلى الأمور من منظورها الخاص بها فقط، لذلك فهناك حاجة ملحة للمزيد من التنسيق والتكامل بين هذه الجهات حتى يمكن إنقاذ القاهرة القديمة .

تنمية البشر قبل ترميم الحجر

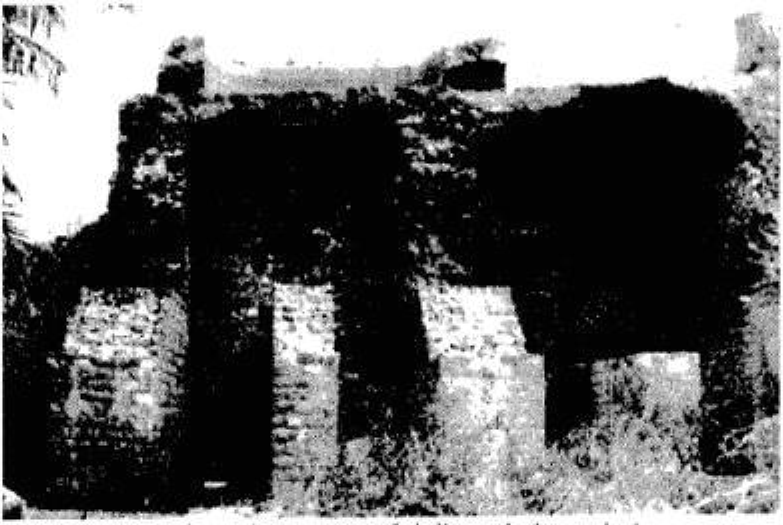
وهناك نقطة مهمة هى كيفية إحياء القاهرة التاريخية وإعادة توطين سكانها، فالمنطقة التاريخية برغم ثرائها الثقافى والمعمارى إلا أنها تعد من أفقر مناطق القاهرة وأكثرها كثافة سكانية وأقل مناطق القاهرة حظا من الخدمات ، ولذلك ركزت عدة جلسات من الندوة على حقيقة أن ترميم الآثار لايمكن نجاحه طالما لم تتغير الظروف البيئية والاجتماعية والثقافية المحيطة إلى الأفضل، وهذا يتفق مع مفهوم الترميم المتعدد الابعاد، والذى يعد تطورا لما كان عليه الترميم من قبل أى ترميم للآثار، الآثار بمعزل عن البيئة العامة المحيطة بها، ولذا فإن من بين المشكلات التى جرت مناقشتها أيضا المنازل المتهدمة فى المنطقة وضرورة توعية سكان تلك المنطقة ببيئتهم التاريخية وهنا يأتى أهمية دور المنظمات الأهلية التى يمكن أن تقدم الدعم المالى والفنى لتنمية المجتمع.

مطلوب الرؤية المتكاملة

ومن هنا يجب الاتفاق حول رؤية

كارولين ويليامز

كارولين ويليامز .. أحد أهم المتخصصين في الفن والعمارة الاسلامية .. حصلت على درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة هارفارد، وتعمل سكرتيرة لجنة الحفاظ على الآثار الإسلامية بالقاهرة و مقرها الولايات المتحدة الأمريكية، من أهم مؤلفاتها كتاب «الآثار الإسلامية للقاهرة - مرشد عملى» وأربعة اشرطة فيديو تصور حالة الآثار الإسلامية بالقاهرة. و في هذا المقال الذى خصت به مجلة الهلال تعبر عن آرائها وانتقاداتها الصريحة حول عمليات الترميم التى تشهدها القاهرة التاريخية اليوم.



انهيار بعض اجزاء مبنى الساقية في قصر محمد علي بشبرا

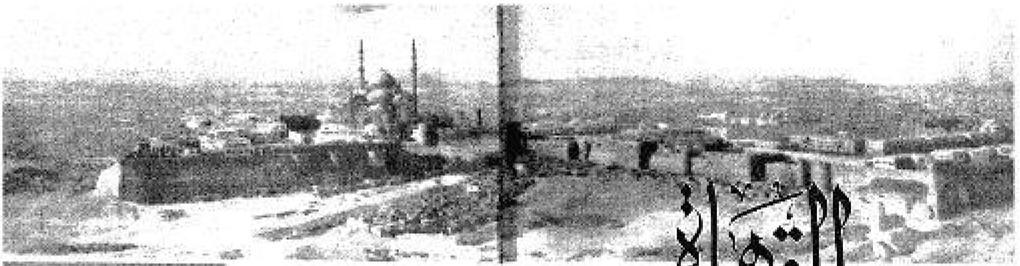
متكاملة للقاهرة التاريخية، ويحث كل النقاط الشائكة مثل: كيف يمكن إعادة استخدام المبانى المرممة؟ ومن يكون له حق الاستفادة من هذا التدخل الموسع؟ هل هم الأشخاص من كل أنحاء العالم الذين يحسنون تقدير القيمة الثقافية والتاريخية للمبانى؟ أم شركات المقاولات التى تقوم بأداء العمل؟ أم السائحون وهل هم العرب أو الأجانب؟

إن مشكلات الترميم التى تواجه القاهرة القديمة هائلة بحق وهى تفوق كثيرا مثيلاتها فى أى دولة عربية أخرى نظرا لتنوعها وتعددها.

وهناك مفتاح سحرى واحد لتستعيد القاهرة القديمة عافيتها وشبابها يكمن فى: التنسيق والتكامل بين الأطراف المختلفة والرؤية الواحدة لشكلاتها ومتاعبها، وبذلك وحده يمكن أن تعود القاهرة القديمة مدينة ألف ليلة وليلة الساحرة التى ظلت دائما تلهمنا وتسحرنا وتثير إعجابنا وحبنا!

إن القاهرة التاريخية تقف على أعتاب عصر جديد وفى هذا المضمار يجب أن يسترشد المسئولون فى مصر بما جاء فى كتاب الله:

«إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين». ■



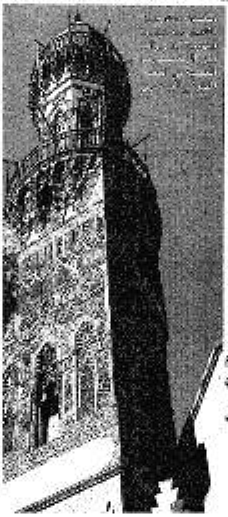
متى تستعيد القاهرة شبابها ؟

أكبر مدن العالم تاريخيا وأكثرها آثارا تحتاج إلى علاج حكيم

أماني عبد الحميد

فلترفعوا أيديكم عن مدينتنا القديمة ، واتحبوها أولاً كما أحببناها . نداء موجه الى كل من يهمه الأمر لإنقاذ آثار مدينتنا القديمة ليتحقق حلم المدينة الإسلامية الساحرة المتكاملة بمساجدها وأسوارها وحماماتها وأسبلتها التى يفرح منها عبق الشرق وسحره .

يعتقد البعض أنه عندما نتحدث عن القاهرة التاريخية أكبر مدن العالم و أغناها آثاراً انما نضع كلاماً لاطائل منه ، أقول لهم إن الأمر يستحق ذلك، نظرا لتزايد موجة الانتقادات والدفاعات وأخطار العشوائيات والتعديات الجائرة وإن كان الخوف يكمن فى أن تتحول مدينتنا إلى مجرد كعكة يتصارع حولها الجميع للفوز بالنصيب الأكبر منها .



• رفض فكرة المتحف المفتوح حتى لا تتحول القاهرة إلى مجرد آثار صماء.

• التخبط وعدم التنسيق الإداري أهم مشكلات ترميم القاهرة.

• الندوة الدولية للحفاظ على القاهرة فرصة للمكاشفة ونقد الذات.

• المبنى الأثري كائن حي عليه أن يتنفس بأهله.

د. جاب الله على جاب الله

• الترميم كعلاج لمريض لا يقوم على إلباسه ملابس مبهجة وإنما معالجة المرض من جذوره.

جيوفانى بوكاردى

• عمليات الترميم محفوفة بالمخاطر نتيجة انعدام التوازن بين الاحتياجات المطلوبة والحفاظ على الأصالة والقيم التراثية.

د. فتحى الوند

وفى هذا الإطار قررت وزارة الثقافة دعوة عدد من الخبراء والمتخصصين فى مجال الحفاظ على المدن التاريخية والعمارة الإسلامية على مستوى العالم كرد فعل دفاعى لمواجهة بعض الانتقادات التى وجهها مجموعة من العلماء وعلى رأسهم كارولين وليامز أحد أهم المتخصصين فى الفن والعمارة الإسلامية عندما أرسلوا خطابا للسيدة سوزان مبارك يطالبونها فيه بضرورة التدخل لإنقاذ آثار القاهرة التاريخية من خطر الترميمات الخاطئة وغير المدروسة والسريعة، وأعتقد أن ذلك الموقف الدفاعى يعد أول انتقاد يوجه لوزارة الثقافة وللمجلس الأعلى للآثار حتى ولو صحت تلك الانتقادات وهى صحيحة ولا أحد يستطيع إنكارها فإنه ليس من الطبيعى أن يكون انعقاد ندوة دولية بمثل تلك الأهمية وذلك الحجم مجرد رد فعل للدفاع عن أنفسنا أو لتبرير خطأ (مقصود أو غير مقصود) وقعنا فيه خاصة أن القاهرة التاريخية ترزح تحت عبء العديد من المشكلات المعقدة والمتشابكة تحتاج إلى تدخل حقيقى وحكيم لعلاجها وكلنا على علم بها وإنكارها والتستر عليها لن يفيدنا وإن كان يضرها .

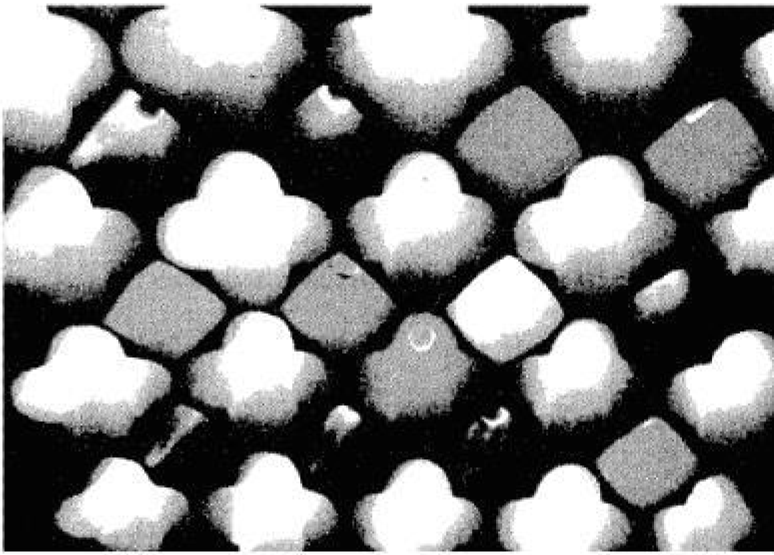
ومن بين تلك الأخطار التى تهددها المياه الجوفية، التلوث البيئى، الزحف العمرانى والكثافة السكانية المرتفعة، نقص العمالة الماهرة والكوادر الفنية المتخصصة فى الترميم والآثار المهددة بالانهيار وعدم التنسيق بين الجهات الحكومية المسئولة عن تلك المشكلات.

وكان من الأجدى أن نعقد تلك الندوة من منطلق الاستفادة الكاملة بخبرات علماء الآثار والمتخصصين سواء فى أساليب وفلسفة الترميم أو فنون العمارة الإسلامية.

حدود القاهرة التاريخية

قبل انعقاد تلك الندوة بدأ يظهر على الساحة الأثرية مصطلح «القاهرة التاريخية» والتخلى عما كان يطلق عليها «القاهرة الإسلامية» ورغم أن المسميات لن تغير من قضية الحفاظ على آثار القاهرة سواء كانت إسلامية أو تاريخية وإنقاذها من الاندثار ولكن الأمر المحير حتى بعد ختام أعمال الندوة هو الحدود الواضحة لمدينة القاهرة التاريخية.. فما هى تلك الحدود ومن أين تبدأ ؟ وأين تنتهى؟

حدد المجلس الأعلى للآثار من خلال كتاب «القاهرة التاريخية» الذى تم إعداده وتوزيعه أثناء انعقاد الندوة وهو عمل ضخم بكل المقاييس ونقطة تحسب لصالح الجهة المسئولة عن إعداده فهو يوثق ويرصد بالكلمة والصورة والرسوم التوضيحية عدد الآثار الموجودة داخل المدينة والحالة التى كانت عليها قبل البدء فى أعمال الترميم وعرض لمنهج وخطط العمل والأساليب المتبعة فى ترميم الآثار والأعمال الفنية والزخرفية داخل مدينة القاهرة وبرغم ذلك لم يقدم الكتاب تحديدا واضحا لمدينة القاهرة التاريخية بل واعترف بصعوبة القيام بذلك حيث يشير الكتاب إلى أن القاهرة التاريخية تحتل ٨٧,٣ كيلو متر مربع من النسيج الحضرى ويبلغ عدد سكانها ٣٨٠٥٠٠ نسمة.. وتضم ٣١٣ أثرا مسجلا يحدها باب الفتوح شمالا وجامع أحمد بن



سقف زجاجي لحمام بمنزل زينب خاتون بعد الترميم

طولون جنوبا وشارع بورسعيد غربا وطريق صلاح سالم شرقا.. ويقر الكتاب بأن الحدين الشمالي والجنوبي يتميزان بالوضوح فهما يتألفان من مبان أثرية ولكن مقدار ما يوجد في المنطقة من محتوى حضاري يتسم بعدم الوضوح ثم يعود ليوضح أن مصطلح القاهرة التاريخية يطلق على الكيان ككل الآثار والمدينة المفعمة بالحياة والسكان الذين تضمهم.

وكانت منظمة اليونسكو قد انتقدت ملف تسجيل القاهرة التاريخية في قائمة التراث العالمي وأكدت من خلال ورقة عمل قدمتها أمام الندوة أن الملف لا يقدم وصفا دقيقا للحدود الطبيعية للمنطقة ولا يشير إلى منطقة فاصلة بعينها فالامتداد الحقيقي للقاهرة لم يتحدد على نحو حتمي مطلق وهو أمر ضروري لإدراك

ضرورة المحافظة على المعالم التاريخية والنسيج الحضاري والحياة الاجتماعية للقاهرة حتى لا تصبح مجرد آثار صماء مغلقة.

د. رونالد لويكوك

القيمة البارزة لتلك المنطقة وليس فقط كونها تضم ٦٠٠ أثر، وأساسا لإنشاء آليات حمائية شاملة وهذا الانتقاد الثاني الذي أوجهه إلى كل الجهات المعنية فهل من المعقول أن تقوم بعمليات ترميم واسعة وبمصادر تمويلية بلغت على حد ذكر الكتاب ٢٤٢ مليون جنيه مصري خصصتها الحكومة المصرية لوزارة الثقافة بغرض ترميم ١٥٠ أثرا من بين ٤٥٠ أثرا تقع في القاهرة التاريخية كما استثمرت اليونسكو حوالي نصف مليون دولار أمريكي منذ تسجيل «القاهرة التاريخية» في قائمة التراث العالمي وحتى

عام ٢٠٠٠ لصرفها على بعثات الخبراء وغيرها فى الأنشطة الخاصة بالقاهرة التاريخية .

كل ذلك ولم نستطع حتى وقتنا هذا تحديد الحدود الفاصلة لما أطلقنا عليه القاهرة التاريخية فهل من الممكن البدء فى مشروعات بمثل تلك الضخامة دون أن يكون لدينا تحديد دقيق لحجم المشروع؟!

وتلك قضية تعنى الجهات المسئولة بالدرجة الأولى ولا تعنينا نحن كمصريين أو كبشر عاديين فالقاهرة بالنسبة لنا رمز المدينة القديمة التى تحوم حولها أحلام شبابنا وعلى أعتابها نسجنا الكثير من الذكريات فهى بالنسبة لنا المكان بما تحويه الكلمة من معان رومانسية لكن بالنسبة لهم فهى مشروع ضخم يتوقف عليه الكثير من النتائج ويتم تنفيذه وفق خطط مدروسة جيدا ومحددة الميزانية!.

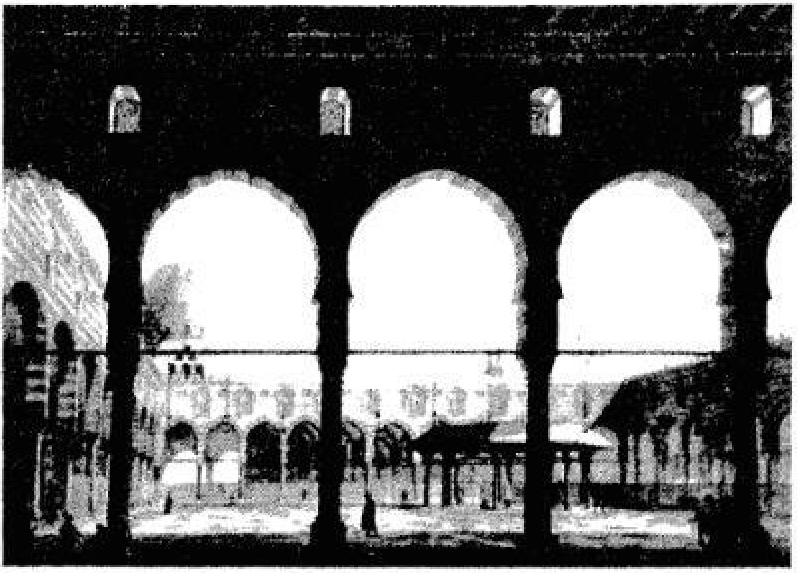
الترميم السريع

لا يخفى على أحد حجم الانتقادات التى يواجهها المسئولون عن ترميم الآثار فى مصر وبرغم أن لفلسفة الترميم مذاهب متعددة وكل حسب البيئة أو المنطقة التى يقع داخلها المبنى الأثرى وقد تناول أحد محاور الندوة أساليب الترميم وكان على رأس المحاضرين فليمنج الوند خبير اليونسكو صاحب التقرير الذى أيد النداء الشهير وأيد جميع الانتقادات التى وجهها العلماء لعمليات الترميم بالقاهرة وكان الوند قد حضر إلى القاهرة للتأكد من صحة ما جاء فى نداء كارولين للسيدة سوزان مبارك وفى أعقاب زيارة لمصر خلال شهر أغسطس عام ٢٠٠١ حذر الوند من التمادى فى إستخدام نفس الأساليب الترميمية المتبعة.

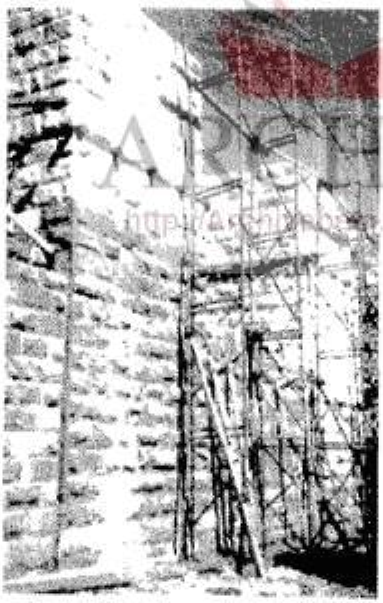
وفى تصريح للهلال حول ما شاهده خلال الزيارة الميدانية التى نظمتها الندوة للخبراء الأجانب أكد «الوند» أن ما يتم إنجازه من أعمال ترميمية يعد جهدا كبيرا على الرغم من وجود بعض التحفظات وكان «الوند» فى تقريره قد حذر من السرعة فى الأداء خاصة أن ما يتم من ترميمات لا يتماشى مع الخبرة الفنية المتاحة وبالتالى فإن عمليات الترميم تكون محفوفة بالمخاطر نتيجة انعدام التوازن بين الاحتياجات المطلوبة وبين الحفاظ على الاصالة والقيم التراثية الفريدة فى جانب آخر.

أيضا كان من أبرز الانتقادات الموجهة لأساليب الترميم المتبعة هى التحفظات الخاصة باستخدام الأسمنت، وتلك قضية تحتاج إلى نقاش طويل.

كذلك التحفظات الخاصة بالإصرار على إعادة بناء أجزاء كبيرة فى المبنى الأثرى حتى يبدو فى أبهى صورة إلى حد يصل إلى المغالاة فى تجديد بعض الآثار على حساب مواقع أخرى يهددها الانهيار التام وتقف فى طابور الانتظار ولا يصلب قوامها سوى بعض السقالات الخشبية، وهذا ما أوضحه الدكتور «رونالد لويكوك» أستاذ العمارة الاسلامية بجامعة كامبردج والخبير باليونسكو.. وأكد للهلال بعد زيارته لجامع أحمد بن طولون وبعدما رأى من أعمال ترميمات داخله «أكثر مما ينبغى وأكثر مما يحتاج إليه الجامع خاصة مع وجود آثار أخرى يهددها الانهيار.



تصور لشكل مسجد السلطان المؤيد شيخ عن بسكال كوست



سور مجرى العيون أثناء الترميم

أوضح الدكتور سعيد ذو الفقار الخبير السابق باليونسكو والبرفيسور بمنظمة الأغاخان للعمارة للهلال «ماذا يمكن أن نرى فى أعمال الترميم لجامع كبير بحجم ابن طولون ليلا على ضوء كشافات الاضاءة، وهو أمر غريب فلماذا كل تلك المغالاة فهى تفقدا الموقع طابعه وملامحه الأثرية المميزة له وتفقده أهم الشروط الأساسية لادراجة ضمن قائمة التراث العالمي.. وهي شروط تتناول أربعة جوانب من الأصالة (أصالة التصميم/ أصالة المواد المستخدمة / أصالة الأيدى العاملة/ أصالة المكان).. وفى حالة افتقاد الأثر للأصالة الأثرية يخرج من قائمة التراث العالمية ويتحول إلى مجرد مبنى جديد ، وهو الأمر الذى حدث مع جامع الأزهر ، والأقمر، والحاكم بأمره وهو ما يحدث الآن فى

جامع المؤيد شيخ .. ونخشى أن يستمر بعد انتهاء أعمال الندوة.

ويكفينا ما ذكره «جيوفاني بوكاردي» الخبير باليونيسكو من مركز التراث العالمي وذلك خلال ورشة العمل التي عقدت ضمن - فعاليات الندوة عن أعمال الترميم لجامع المؤيد شيخ حيث قال :إن الترميم يقوم بدور الطبيب في علاج الأثر.. فعلاج المريض لا يقوم فقط على إلباسه ملابس مبهجة ليبدو بصحة جيدة إنما علينا أولا معالجة المرض من جذوره ليشفى وتلك هي فلسفة الترميم.

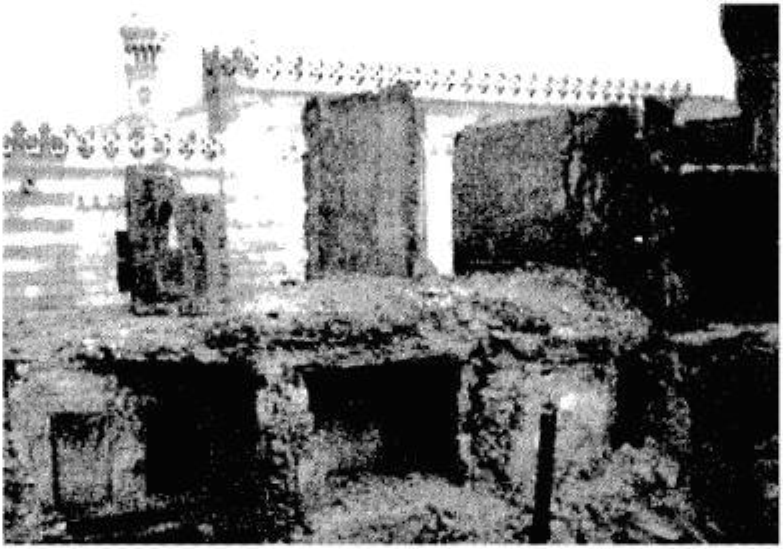
ويؤكد «بوكاردي» أن اللجنة الدولية وضعت حدا أقصى لعمليات التجديد التي تتم للأثر ومثال ذلك ما قامت به طائفة البهرة الهندية في جامع المؤيد والتي أدت إلى تدمير الملامح الأصلية له ليبدو في أبهى صورة.. الأمر الذي أكده الدكتور سعيد ذوالفقار وطالب بضرورة التفريق بين ما تم ترميمه وما تم تجديده أو إعادة بنائه حتى نكون صادقين مع أنفسنا.

وكانت منظمة اليونسكو قد أبدت مخاوف تجاه أعمال الترميم وتدني مستوياتها وإن كانت قد أكدت من خلال تقرير قدمته بعثة تقييم الموقف بعد زيارة القاهرة في أغسطس ٢٠٠١ على المجهود الخارق الذي تبذله مصر من أجل ترميم عدد من الآثار الإسلامية.

متحف مفتوح

واجه مشروع تطوير القاهرة التاريخية انتقادا حول تحويل القاهرة إلى محمية أثرية عبارة عن متحف مفتوح وتصبح خالية في سكانها .. فقد انتقد تقرير «الوند» مفهوم المتاحف المفتوحة الذي عفى عليه الزمان.. «وطالب بتجنبه مؤكداً «أن السياح الوافدين لزيارة القاهرة التاريخية يأتون لمشاهدة مدينة تنبض بالحياة وليس لزيارة متحف مفتوح مما دفع الجهات المصرية إلى التغيير والاهتمام بعلاقة البشر بالأثر ، كما يوضح الدكتور جاب الله على جاب الله الأمين السابق للمجلس الأعلى للآثار «إن المبنى الأثري كائن حي يجب أن يتنفس وعند غلقه يفقد الحياة.. لذا يجب أن يظل المبنى مستخدما حتى لا يفقد الحياة نظراً للعلاقة العميقة بين البشر والأثر!!

لذا فإن القضية هي قضية تنمية الوعي الشعبي والتأهيل الأثري لسكان المناطق الأثرية .. خاصة أن القاهرة مدينة تنبض بالحياة منذ ما يزيد على ألف ومائتي عام.. حافظت خلالها على طابعها الفريد.. الذي لا مثيل له في العالم .. أهلها ظلوا يمارسون حياتهم كالمعتاد ونشاطهم منذ نشأتها .. فلا يزال الحرفيون والصناع والتجار الذين كانوا يعيشون منذ القرن الخامس الهجري حول السوق جنبا إلى جنب الأمراء وعلماء الدين والباحثين في الأزهر .. لذا فإن فكرة افراغ المدينة من أهلها وتحويلها إلى متحف مفتوح فكرة لا تتلاءم مع مدينة الحياة النابضة القاهرة.. ولهذا فإن تنمية وعي السكان بأهمية المكان وبضرورة احترامه والتعامل معه بشكل لائق يكون أفضل وأكثر تأثيرا من تهجير أهلها بعيدا عنها.. حتى لا تصبح مجرد آثار تاريخية صماء مغلقة.. كما يقول د. «لويكوك»



اندثار العديد من العناصر الإنشائية والمعمارية لوكالة قايتباي وتصدع معظم أجزائها

الصراع على الكعكة!

وأخشى أن تتحول قاهرتنا إلى مجرد كعكة يتصارع عليها المتصارعون للفوز بالنصيب الأكبر منها.. ولكن عندما تنهار من شدة الصراع يتنصل كل منهم من المسئولية ويحاول أن يلقيها على غيره.. هذا يحدث منذ زمن طويل بين الجهات والوزارات الحكومية حول القاهرة التاريخية.. فأهم وأعقد المشكلات التى عانت منها ولاتزال سببها التخبط الادارى بين الوزراء، وسوء التنسيق بين القرارات الصادرة ويذكر الدكتور صلاح زكى.. «طوال العشرين عاما الماضية ظل الصراع من أجل إعادة تأهيل القاهرة التاريخية مشتعلا ما بين وزارة الثقافة ومحافظة القاهرة ووزارة الأوقاف ووزارة الاسكان، دون التوصل إلى تسوية لحل المشكلات نظراً لنقص التنسيق بينها».. كما تنتقد اليونسكو عدم اعتماد خطط استراتيجية من قبل الهيئات التشريعية والتنفيذية فى مجال حفظ وإعادة تأهيل المنطقة، وتطالب بضرورة الاهتمام بتحسين القدرات فى مجال التنسيق وأخذ القرار والرصد والمتابعة

ولا أعلم متى ينتهى هذا التخبط ؟ وعدم التنسيق خاصة وحتى لا تتكرر مأساة احتراق المسافرخانة ١٩٩٨، ويظهر لنا أحد المسئولين ليقول « فقدنا كنزاً أثريا مهما»

وينتهى البيان الى هذا الحد!

علينا التفريق بين ما تم ترميمه وما تم تجديده أو إعادة بنائه حتى نكون صادقين مع أنفسنا.

د. سعيد ذو الفقار

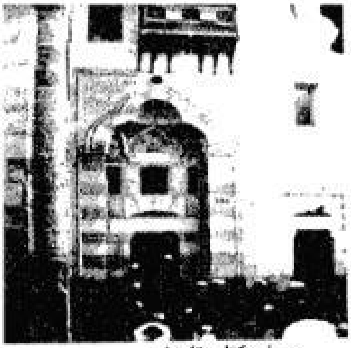


سبيل أبي الإقبال
بشارع الباطنية -الأزهر
قبل الترميم

موقف حساس

ورغم كل الانتقادات السابقة إلا أن هناك نقطة غاية فى الغرابة وحتى بعد انتهاء أعمال الندوة لم أجد لها مبررا، وهى المحاولات الحثيثة لمنع الخبراء من الإدلاء بأية تصريحات صحفية قد تحمل انتقادات لما يتم عمله داخل مشروع تطوير القاهرة وخلال أيام الندوة، كنا لا نشعر سوى أننا أمام مؤتمر أمنى لا مؤتمرا أثريا .. حتى أن الزيارات الميدانية التى قام بها الخبراء لبعض المواقع حرصت الجهة المنظمة للمؤتمر على عدم اصطحاب الصحفيين .. وعند سؤالى للأستاذ أيمن عبدالمنعم المشرف على مشروع تطوير القاهرة التاريخية أكد أنها زيارات مخصصة للخبراء فقط وغير مصرح للصحفيين بمرافقتهم.. ورغم أن قرار استبعاد الصحفيين قرار غريب إلا انه يوحى لنا بعدد من التساؤلات .. فمرافقتنا للخبراء ستزعج من ؟ الخبراء أم وزارة الثقافة ؟ أم أن الطابع الفضولى للصحفيين أمر غير مرغوب فيه؟ كلها مخاوف قد لا يكون لها أساس من الصحة لكن قرار الاستبعاد لا يثير فينا سوى الشكوك .. خاصة وأن عددا من الخبراء لدى سؤالهم عما شاهدوه خلال الزيارة جاءت ردودهم متحفظة نظراً لحساسية موقفهم.. وإن كانوا قد أكدوا أنهم لم يشاهدوا ما يكفى وكانت زيارتهم خاطفة غير متأنية.

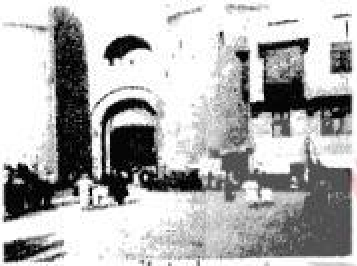
ولدى سؤالى الدكتور «لويكوك» لماذا لم يتطرق لموضوع القاهرة التاريخية فى دراسته التى قدمها امام الندوة حول «تحديات ترميم المدن التاريخية».. اكتفى بالتحدث عن (مدينة مدراس بالهند والمدينة القديمة بصنعاء القدس والمسجد الأقصى ومسجد الصخرة» وأكد لى:



سبيل وكتاب قايتباي



مسجد محمد ابو الدهب



باب زويلة



سور مجري العيون



سبيل زين العابدين

«حضرت إلى القاهرة وغير مصرح لى أن أتحدث عن القاهرة القديمة» كيف يتأتى ذلك والندوة عقدت من أجلها خصيصا كما أبدى كل من كارولين وليامز وفليمنج الوند وجيوفاني بوكاردى تحفظاتهم وإن كانت كارولين قد أبدت استعدادها لارسال مقال الهلال عن مشاهداتها وانطباعاتها ولكن بعد الرحيل عن القاهرة (وهو منشور فى هذا العدد)

لا أعلم لماذا هذا الموقف الغريب أو الموقف الحساس الذى يرى الجميع أنهم يواجهونه خاصة أن توصيات الندوة جاءت لتؤكد جميع الانتقادات السابق ذكرها وطالبت بضرورة الالتزام بها.. أى أن الندوة كانت فرصة ذهبية للصراحة والمكاشفة ولنقد الذات أيضا وأنها نجحت فى وضع أسس استراتيجية ليعمل من خلالها مشروع تطوير القاهرة التاريخية.. وأصبحت الأمور واضحة أمام الجميع.. ورغم جميع الانتقادات التى وجهتها للجهات المسئولة عن تطوير القاهرة إلا أننا لا نستطيع انكار المجهود المبذول فى المنطقة ولكن يجب أن تتكاتف الجهود باخلاص للحفاظ على آثار القاهرة القديمة لتظل كما كانت دائما مدينة ذات سحر خاص بكل تراثها الحضارى الإسلامى المميز.

وفى النهاية لايسعنى سوى القول بأن القاهرة سواء كانت اسلامية أو تاريخية أو كما يريدون هى مدينتنا القديمة - مدينة أحلامنا وذكرياتنا - المكان الذى طالما حلمت بأن أبيت داخل أحد بيوته القديمة وأصلى وسط رواق جامعه الكبير واتسوق من حوانيته واحتسى الشاى الأخضر على مقاهيه العتيقة.. فهو المكان الذى تهفو إلى ظلاله نفسى.. بل واعتقد أن أهلها عندما بنوا ذلك الجامع أو البيت أو الوكالة فى قلب المكان كانوا يحلمون بيوم يقف فيه متأملاً ويقول كان هنا بناءون يحبون الجمال واقتبسوا منه بصيصا يتجملون به.

وأقول لأهلها اليوم فلترفعوا أيديكم عن القاهرة ولتصونوا جمالها وتحافظوا على تراثها .. حتى لا تتحول إلى مجرد كنز يتنافس عليه الطامعون. ■

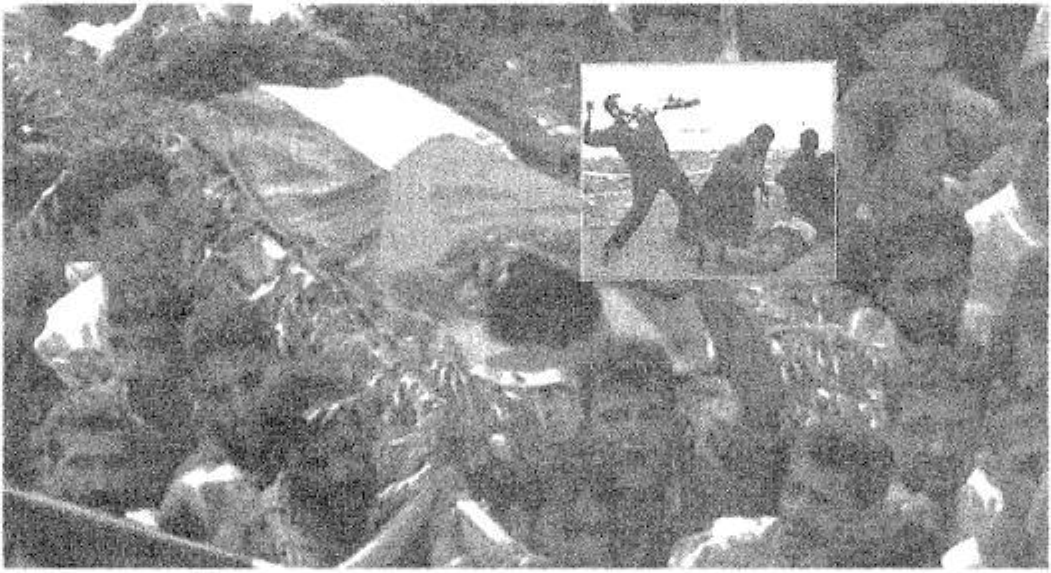


معجزة النضال الفلسطيني

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

عندما بدأت كتابة هذه المقالة منذ أكثر من شهر اخترت أن يكون عنوانها «معضلة النضال الفلسطيني»، وعندما أتممت كتابتها منذ أيام قليلة رأيت أن أغير حرفين فقط من الكلمة الأولى في العنوان، فتصبح «المعضلة» «معجزة»، لأن منطق المقالة يرد أصلاً على أولئك الذين ارتدوا أثواب الحكمة، وأخذوا يدعون الشعب الفلسطيني إلى الهدوء، باعتبار أن استمرار الانتفاضة بات يشكل خطراً حقيقياً على نضال هذا الشعب.

ولقد تكفلت قوى التحرر الفلسطيني في الأسابيع الأخيرة بتقديم أبلغ الردود وأكثرها دلالة على منطق «الخائفين» على مصالح الشعب الفلسطيني، وذلك بإثبات قدرتها على الرد الموجع والمستمر على أعمال القتل والتدمير التي تمارسها دولة الإرهاب «إسرائيل» ضد الشعب الفلسطيني، الأمر الذي أفضى إلى تأكيد إفلاس سياسة شارون - إن كانت له سياسة - عملياً وأخلاقياً.



ويعد هذا الإنجاز لقوى التحرر الفلسطيني من قبيل المعجزات، حيث أنها تعمل في ظل ظروف غير مسبوقة من منظور الغياب شبه الكامل للمساندة المادية من محيطها المباشر، وهو وضع لم تواجهه تجارب تحررية كبرى في فيتنام والجزائر واليمن على سبيل المثال، حيث كانت تتلقى دعماً مؤثراً من ذلك المحيط.

دعوة عربية إلى الهدوء

على الرغم من أن دعوات وقف الانتفاضة أو تهدئتها قد خفت إلى حين - مع النقلة النوعية التي تمت في أداء الانتفاضة - إلا انها مرشحة للعودة في أي لحظة بعد أن نجحت الانتفاضة في فرض نفسها على الساحتين الإسرائيلية والدولية ، مما أعاد التركيز على حديث التسوية ،وبالذات بعد قرار مجلس الأمن الأخير الذى دعا إلى إقامة دولة فلسطينية إلى جوار إسرائيل، وعندما ترتفع وتيرة حديث التسوية ترتفع معها وتيرة المطالبة بوقف الانتفاضة لمنح فرصة للتسوية، ويركز النقاش التالي على الدعوات العربية بإنهاء الانتفاضة - أو الشق المسلح منها على الأقل ، باعتبار أنها - أي تلك الدعوات العربية - أخطر بكثير من غيرها، كونها تصدر عمن يفترض أنهم يقفون مع الفلسطينيين في الموقف نفسه.

ولعل أخطر ما في الدعوات العربية التي ترددت هنا وهناك على الصعيدين الفكري والسياسي أنها قد خرجت من أناس مخلصين للقضية في معظمهم، يعتقدون بحق أن الانتفاضة تواجه مأزقاً خطيراً ، وأنها قد وصلت إلى طريق



مسدود وأن استمرارها على هذا النحو الذى يستخدم فيه المناضلون الكفاح المسلح من أجل استعادة حقوقهم بات عملاً أشبه بالانتحار فى ظل جنون القوة الذى يوجه سياسة شارون وتطورات الموقف الأمريكى الذى بات يعتبر فضائل النضال الفلسطينى المسلح فى عداد التنظيمات الإرهابية ، وهو من ثم اما أن يسكت عن تصرفات شارون ازاءها كحد أدنى أو يدعمه وربما يشاركه فى مرحلة لاحقة فى هذه المواجهة ، وهو خطر لاقبل للفلسطينيين به فى ظل المناخ النفسى والسياسى الذى يسيطر على الولايات المتحدة فى أعقاب أحداث سبتمبر المنصرم.

بناء على ما سبق فإن أصحاب هذه الدعوات يرون أن الطريق الوحيد الباقى أمام الانتفاضة هو أن تتوقف تماماً عن الكفاح المسلح ، وربما وصل البعض إلى تصور أن تتوقف عن كل أنواع الكفاح ، وأن تحاول استثمار ما حققته على مدار مايزيد على العام ووصل مغزاه ورسالته إلى العالم أجمع من أجل التوصل إلى تسوية سياسية تبدأ بتطبيق توصيات تقرير ميتشيل ونقاط تينيت، ثم تتصاعد إلى أن تتوصل إلى تسوية يرى أصحاب هذه الدعوات أنها ممكنة.

هل هذا صحيح؟!

كما سبقت الاشارة فان سمة الإخلاص تميز بالتأكيد نفراً ممن يدعون الفلسطينيين إلى الهدوء، وإلى ركوب قطار التسوية من جديد بعد أن يوقفوا انتفاضتهم، ولهذا فإن مناقشة هؤلاء الآن تبدو من أهم مايمكن لكى تكون الكلمة أمام الكلمة والرأى أمام الرأى فى مسألة تعتبر من أخطر مايمكن لا بالنسبة لحاضر الفلسطينيين ومستقبلهم فحسب وانما بالنسبة لحاضر العرب ومستقبلهم بصفة عامة.

ونبدأ بالقول بأن وقف أعمال الكفاح المسلح عادة يكون فى مقابل ثمرة سياسية، اللهم الا الوقف الاضطرارى الذى يحدث نتيجة هزيمة قاسية على سبيل المثال، وهنا لانكون ازاء مفاوضات حقيقية وانما املاء سياسى يأخذ طابع الاكراه ، فأين هى الثمرة السياسة التى يمكن أن تغرى الفلسطينيين بوقف انتفاضتهم المسلحة؟ لايمكن بطبيعة الحال أن يكون شارون وتركيبة حكومته الحالية مصدرا لهذه الثمرة.

والاتحاد الأوروبى الذى مازال يبدو قليل الحيلة على الرغم من التطورات الايجابية التى طرأت على مواقفه اللفظية، ولذلك فإن من يتحدثون عن وقف الكفاح

المسلح الفلسطيني عليهم أن يضمنوا لنجاح دعوتهم أن يكون هناك عرض سياسي مقبول كنقطة بداية ، وهي مهمة تبدو مستحيلة في ظل حكم شارون والانحياز الأمريكي الأكيد له، وضآلة التأثير الأوروبي حتى الآن. ولا تمثل التصريحات الأمريكية الأخيرة، أو مبادرة الولايات المتحدة بالتقدم بمشروع قرار تبناه مجلس الأمن ينص على انشاء دولة فلسطينية - لاتمثل نقلة نوعية في هذا الصدد تبرر وقف الانتفاضة، فالموقف الأمريكي ليس جديداً، وإن كان الباس ثوب مجلس الأمن يبدو تطوراً مهماً، لكنه لايلغي حقيقة أن الحديث عن دولة فلسطينية بحد ذاته لايضمن عرضاً جاداً للتسوية.

ومن ناحية ثانية فان أحداً لايفهم لماذا لا يكون وقف العنف - سواء كان كفاحاً مشروعاً من الجانب الفلسطيني، أو إرهاباً همجياً من الدولة الإسرائيلية - متبادلاً ؟ أن الحديث عن وقف العنف من جانب واحد هو الجانب الفلسطيني يظهره وكأنه هو المذنب في الموقف الراهن، فضلاً عن أنه يظهره بأنه الأكثر تلهفاً على تسوية بما يزيد من تشدد الطرف الإسرائيلي ازاءه.

وفي الرد الثالث على دعوات «وقف الكفاح المسلح» نقول ان الفلسطينيين ظلوا يعيشون عقوداً دون كفاح مسلح، فلماذا لم يلتفت أحد في الساحة الدولية إلى حقوقهم والتفاوض من أجلها.

وفي الماضي القريب ظلوا يعيشون حالة من الهدوء في أعقاب أوسلو لعدد من السنين فلم تتقدم عملية التسوية؛ بل أخذت في التباطؤ أولا ثم التراجع ثانياً حتى وصلنا إلى تنكر إسرائيل لالتزاماتها في أوسلو . وهي مسألة من أخطر مايمكن بالنسبة للدعوة الراهنة، ونكتفي هنا فقط بالاشارة إلى تراجع نتانياهو ومن بعده باراك عن منطق اوسلو الذي وقعت عليه إسرائيل، والذي كان يقضي بتسوية على مرحلتين انتقالية ونهائية ، وعندما بدأت لحظة الحقيقة تظهر ، وأدرك الإسرائيليون أن تسلم الفلسطينيين لنسبة كبيرة من أراضي الضفة الغربية والقطاع في اطار الحكم الذاتي سوف يقوى من شوكتهم في المفاوضات النهائية سارعوا إلى طلب الربط بين المرحلتين الانتقالية والنهائية، مقضين بذلك وبصفة تامة على جوهر نهج أوسلو الذي أجهز شارون عليه تماماً بعد توليه السلطة. ويعني هذا أنه حتى لو افترضنا جدلاً بأن ثمة أملاً في تسوية تترتب على وقف الفلسطينيين لكفاحهم المسلح ، أو لانتفاضتهم برمتها، فإن مصير هذه التسوية لن يكون أفضل من سابقتها إذا اشتم الإسرائيليون رائحة فائدة - مهما صغرت - يمكن أن تترتب عليها بالنسبة للفلسطينيين.

وتستمد الحجة الرابعة المضادة



لدعوات الهدوء من الخبرات الماضية ، فليس صحيحاً على الاطلاق مايريد البعض أن يوهمنا به بأن المفاوضات لايمكن أن تبدأ الا فى جو من الهدوء التام ، فواقع الأمر أن المفاوضات وبالذات فى المواقف التى تشبه الموقف الراهن فى فلسطين لم تكن تبدأ إلا فى مناخ المواجهة ، وأحياناً فى ذروة العنف ، بل لعل هذه الخاصية كانت بحد ذاتها من أسباب نجاحها بقدر ما تؤكده من توازن نسبى فى القوى، على الأقل بمعنى أن الطرف الأقوى غير قادر على اخضاع الطرف الذى يفترض أنه الأضعف، ولنذكر الأمريكيين بأنهم تفاوضوا مع الفيت كونج فى ظل أقصى درجات العنف، ونشير إلى تفاوض الفرنسيين مع الجزائر فى السنوات الأخيرة لحرب التحرير فى ظل ذروة النضال الجزائرى المسلح ، وكذلك تفاوض البريطانيين مع مصر فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى ظل تصاعد أعمال الفدائيين فى قناة السويس. وفى كافة هذه الأمثلة وغيرها فهم المستعمرون أو قوة الاحتلال الرسالة وادرك عجزه عن الانتصار بالقوة المسلحة وحدها، وضرورة التسليم ولو بحد معقول من الحقوق السياسية للشعوب المناضلة.

شهداء كل يوم!

أما الملاحظة الخامسة على منطق التهدئة فهى تذكرة ببعض أساسيات ادارة الصراع فى العلاقات الدولية، فعادة مايلجأ الطرف الأقوى عسكرياً إلى التهديد لكى يحصد ثمار قوته دون أن يستخدمها . ويقوم منطق التهديد على التخويف، فإن استجاب الخصم كان بها، وعادة مايعيد المهدد (بكسر الدال) حساباته إذا عجز عن تخويف خصمه، ولعل خبرة إسرائيل القريبة فى جنوب لبنان تؤكد لنا هذا المعنى، فكم مرة هددت حزب الله والدولة اللبنانية ذاتها بانزال عقوبات غير مألوفة عليهما، لكن الصمود اللبنانى قطع الطريق على هذه المناورات قبل الانسحاب الإسرائيلى المهين من الجنوب اللبنانى فى عام ٢٠٠٠ وبعده والعجيب أن من يحذرون الانتفاضة من هول ماينتظرها إذا لم توقف الكفاح المسلح ، ينسون أن إسرائيل تستخدم بالفعل أقصى مافى جعبتها من قوة فى مواجهة الشعب الفلسطينى الذى يسقط له شهداء، كل يوم، وينسون كذلك أن تكرار تجربة افغانستان فى فلسطين (بمعنى أن تدك فلسطين كما دكت افغانستان) يبدو

شديد الصعوبة على الأقل لأن افغانستان كان فيها حكم أقلية غريب الأطوار، أما في فلسطين فنحن ازاء شعب يعرف قضيته ويناضل من أجلها، وطليعة مقاتلة تعيش وسط هذا الشعب وتتلقى دعمه وتأييده. ولذلك فإن القضاء على الانتفاضة بنظام «تسليم المفتاح» الذى ابتدعته السياسة الأمريكية ليس أمراً وارداً فيما أظن.

وأخيراً فإن الغريب أن دعوات الهدوء تأتي فى الوقت الذى بدا فيه وكأن الانتفاضة قد بدأت تحدث تغيرات حقيقية داخل إسرائيل وخارجها، ففى إسرائيل يزداد عدد القتلى والجرحى فى كل يوم على الرغم من أشد الأساليب فتكاً التى تستخدم ضد الانتفاضة، وتظهر استطلاعات الرأى العام بداية هبوط شعبية شارون، ويبدأ تمرد ولو محدود وسط ضباط من القوات الاحتياطية الإسرائيلية، وتبدأ من جديد فى سماع صوت حركة السلام الآن فى إسرائيل بعد أن كان صامتاً لشهور عديدة، وتظهر تحولات فى الخطاب السياسى والاعلامى الأوربى، وتغييرات - تكتيكية على الأغلب - فى السياسة الأمريكية. وإذا لم تكن هذه مؤشرات لبداية التأثير فكيف تكون المؤثرات؟ وما هى المصلحة المحددة فى وقف الآلية العربية الوحيدة التى يبدو أنها تؤثر حالياً فى مجريات الصراع العربى - الإسرائيلى لصالح الحقوق العربية.

ما العمل؟

يبدو مما سبق أنه لامناص أمام الشعب الفلسطينى من الاستمرار فى انتفاضته، ومن حسن الحظ أنه قد اختار هذا النهج بالفعل ، وهذا لايعنى بالضرورة أنها يجب أن تستمر على الوتيرة نفسها وبالأساليب نفسها، فقد تتوقف الانتفاضة تكتيكياً إلى حين، وقد تقرر التوقف عن الكفاح المسلح لبعض الوقت إذا طرح عليها عرض سياسى جاد، وقد تقرر تركيز الكفاح المسلح على القوات الإسرائيلية والمستوطنات درءاً للجدل حول مايقال عن آثار سلبية للعمليات الاستشهادية فى الرأى العام العالمى.

لكن هذا كله يجب أن ينبع من قرار فلسطينى واع تشارك فيه كل الفصائل الفلسطينية المؤثرة، لأنها ان لم تشارك سوف يكون القرار الفلسطينى غير قابل للتنفيذ بحكم أنه لا يعبر تعبيرا دقيقاً عن الجسد السياسى الفلسطينى.

ومن ثم يكون فاقداً لأهم عنصر من عناصر قوته، بينما يكون صدور القرارات المتعلقة بمستقبل النضال التحررى الفلسطينى معبراً عن كل فصائل هذا النضال خير ضمان لاستمرار المعجزة الفلسطينية. ■

هموم

المثقف العربى

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

«ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين ، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع» .

رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣)

«ثقافة» و«مثقفون» من أكثر الكلمات رواجا فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة ، ومن أقلها دقة وأشدها غموضا ، شأن مصطلحات فكرية وأدبية كثيرة ، أخذناها من الغرب ، وجاءت ترجمتها حرفية أحيانا ، وغائمة أحيانا أخرى ، فاستخدمها كل فرد كما يحب ويهوى ، وادعاها لنفسه من يستحق .

وأسهم فى هذا الغموض أن تعريفها التراثى غير واضح المعالم ، فهو مأخوذ من تعريف الأدب ، وهو : «الأخذ من كل شئ بطرف ووقفنا بالتعريف العربى عند هذا الحد ، مع أن الأدب والثقافة أمران مختلفان ، الأدب بعض الثقافة ، أما هذه فمرتبطة بتطور الإنسانية عامة ، وهى رمز التحضر ، وتعنى مستوى اجتماعيا متقدما ، يعتمد على الموروث الاجتماعى ، الذى ينتقل من جيل إلى جيل ، ويراد بها فى معناها الدقيق : «مجموعة العلوم والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات والكفاءات والمهارات والانجازات التى حققتها الإنسانية عبر تاريخها إنها باختصار كل ما يرفع من مستوى الحياة، ويعلى من قيمة الفرد .

ولكن الحياة تتطور ، والمشكلات تزداد تعقيدا ، فرأى العلماء أن هذا الفهم قاصر ، لم يعد يوائم الحياة المعاصرة ، فعقدوا عام ١٩٨٢ مؤتمرا فى المكسيك

ضم مئة وثلاثين دولة ، لا أدرى إذا كنا قد اشتركنا فيه أم لا ، ولكنى أثق فى أنه لم يترك أى صدى ، فى أى جانب من جوانب حياتنا ، علمية أم عملية . دار نشاط الدارسين والمحاضرين والعلماء الذين اشتركوا فيه حول «نحو سياسة ثقافية» وانتهى بإعلان وثيقة حملت اسم «بيان المكسيك» ، تضمن ما أراه أكمل تحديد لفكرة الثقافة بمعناها الواسع ، حتى يومنا هذا . يقول البيان :

«الثقافة بمعناها الواسع اليوم ، هى مجموعة الملامح المختلفة ، الروحية والمادية والعملية ، التى تميز مجتمعا أو جماعة ، وتضم إلى جانب الفن والأدب أشكال الحياة ومنظومة القيم والتقاليد والعلوم والعقائد ، وتؤهل الفرد ليفكر بكفاءة فى ذاته ، وفيما حوله ، وتميزه نوعا ، فتجعل منه كائنا إنسانيا عاقلا وناقدا وملتزما أخلاقيا» .

ونأتي إلي ما هو جوهري .. هل لدينا ثقافة ومثقفــون ؟

يبدو السؤال ساذجا ، وربما مضحكا، نعم لدينا صحف ومجلات ومكتبات ومدارس وجامعات ، ومسارح ودور سينما، ونقيم معرضا للكتاب كل عام يستمر أسبوعين ، وعشرات الإذاعات المسموعة والمرئية ، ومع ذلك فإن الإجابة ستكون نفيا قاطعا حين نضع الأمور فى نصابها .

القيم الضائعة

يقال أن الثقافة تصنع التقدم ، وهذا صحيح ، ولكن الذين يرددون هذا الكلام ينسون أن الثقافة بدورها ثمرة تقدم أعظم، نفتقد أسبابه بدرجات متفاوتة ، ويقع خارج نطاق الثقافة نفسها . إن مجتمعنا يعيش لحظات تاريخه الأشد قساوة وحرجا . لقد فقد معنى الحب والولاء ، وحلاوة الصداقة والإخلاص ، وقيمة الوفاء والالتزام ، وانفرط عقد الأسرة ، واختل بناء المجتمع ، وأضحى الفساد يغطى كل شئ ، فى كل المستويات، لا تنزعجوا ، سوف أضرب لكم مثلا من عالمين هما من القداسة بمكان ، ومن الطهارة فى القمة ، أو المفروض أنهما كذلك : الجامعة والقضاء . بعض رجال الجامعة يقف الآن فى قفص العدالة أمام محكمة أمن الدولة متهما بالتزوير ، وبعض رجال الهيئة القضائية دخل السجن مدانا بالرشوة ، والتزوير أنواع والرشوة ألوان ، والراشون مستويات ، وبعض هذا وذاك يفلت من قبضة القانون !

مع عولمة الاقتصاد خضع كل شئ لقانون العرض والطلب ، بما فى ذلك الأفكار والمشاعر ، والأخلاق أيضا ، وعرف مجتمعنا عصابات المافيا الاقتصادية والسياسية ، تغتصب السلطة، وتنهب الثروة ، تتاجر فى النفوذ والرشوة، وتنهب البنوك ، وتثرى عن طريق المشروعات الوهمية ، ولا ترى بأسا فى أن تتجر بالمخدرات ، وأن تروج لتعاطيها ، فى بلد نصف سكانه أو أكثر يعيشون تحت خط الفقر ، ويعانون ألوانا من البؤس والتعاسة قليلة النظير .

وإلى جوار هذا التدهور الاقتصادى امتدت يد خفية آثمة إلى التعليم فخربت كل مستوياته ودرجاته ، وفى لحظة غير مسئولة ، يحار المرء فى معرفة دوافعها وأسبابها ، وسوف يقف التاريخ أمامها طويلا حين يدرس أسباب انهيارنا ، استصدر وزير التعليم العالى والبحث العلمى قانونا صيغ على عجل ، ولم يتضمن غير مادتين ، فصل بمقتضاهما دفعة واحدة أربع مئة أستاذ جامعى ، من شتى التخصصات ،

ومن أفضـل عناصر العلماء بحجة أنهم بلغـوا السـبعين عاما !

وعلى الرغم من كل التـقدم العلمي والتقني الذى بإمكاننا أن نسـتورده ، إذا لم نكن نملكه ، فإن مشكلات الطبقة العاملة وصـغار الفلاحين لم تحل ، وموارد الدولة قليلا ما تستخدم للعناية بمثل هذه المشكلات الاجتماعية ، لأنها تنفق فى مشروعات هولامية أو تتسرب إلى جيوب محترفى السياسة ، والذين بين عشية وضحاها تحولوا إلى مليونيرات ، لا يعرف أحد كيف ؟ ولا يجرؤ إنسان أن يسأل من أين ؟ .

يتعرض الملايين من أبناء الوطن لأمراض لم نعهدها من قبل ، ولأوبئة مجهـولة تتوارد عليه لم يعرفـها فى تاريخه: الفشل الكلوى ، أمراض الكبد ، السرطان ، وغيرها ، ومع كثرتها فإن الجهد الذى يبذل فى مقاومتها محدود ، وبخاصة فى أقاليم جنوب الصعيد ، والمشافى الخاصة ، غير الحكومية ، فوق طاقة الطبقة الوسطى كلها ، فما بالك بالدنيا . والبطالة فاقت كل تصور ، وملايين الأطفال ، ومثلهم من الشباب ، لا سبيل لهم إلى غذاء مناسب ، أو تعليم معاون ، وإنه لعار مخز أن نصف شعبنا تقريبا ، فى بداية الألف الثالثة لا يقرأون ولا يكتبون ، على حين أن دولة مثل كوبا ، كانت فى مثل حالتنا ، استطاعت بعد تحررها أن تقضى على الأمية تماما فى سنوات لا تزيد على عشر .

هذا الواقع المادى المتردى تربة صالحة لجرائم بشعة متنوعة ، لم يكن يعرفها مجتمعنا من قبل ، كالاغتصاب ، والدعارة ، وتجارة الرقيق الأبيض ، وقتل الابن لأبيه ، والزوجة لزوجها ، وهى جرائم تزداد كل يوم اتساعا ، وألفها الناس ، ولم تعد تثير اشمئزازا أو قلقا ، وجاءت مقاومتها بوليسية خالصة ، الاحكام العرفية ، وقوانين الاشتباه ، وملاحقة كل من يعمل على تغيير المجتمع إلى أفضل ، واتهامه بالتآمر ، والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة ، وتغيير الدستور ، وهؤلاء المتهمون الذين يحاكمون على نوايا لا يملك الواحد منهم مجرد سكين يدافع بها عن نفسه ، وكل عدتهم إن صحت التهم الموجهة إليهم ، الكلمة الطيبة الصادقة وإقناع الآخرين بالحسنى .

المجرم الحقيقى

أما المسئول الحقيقى عن الجرائم البشعة التى تقع فعلا كل يوم ، فلا يزال مطلق السراح ، وأعنى به الفقر . على أحد جدران سجن فى أمريكا اللاتينية حفر سجين بأظافره ، هذه الأبيات من الشعر :

فى هذا المكان الملعون
حيث تورق الأحزان
لا يعاقبون الجريمة
وإنما يعذبون الفقراء !

هل يستطيع أحد فى مثل ظروفنا هذه أن يتأمـل أو يتـذوق أو يبدع ؟ كيف يتأتى لكاتب أو شاعر أو عالم أو مفكر أو فنان أن يستثمر مواهبه وإمكاناته وهو يفتقد الأمان بأوسع معانيه ؟ لكى يحقق ما يتمنى يحتاج إلى مناخ مناسب لشخصه

وفي مجتمعه ، وإلى حد أدنى من الظروف التي توفر له حاجاته الضرورية ، كي يعيش آمنا وكريما . وعليه لكي يعول أسرته ، أو نفسه ، أن يقبل أي عمل ، حيث يجب أن يستريح أو ينصرف إلى قراءاته وفكره وإبداعه ، والشريف الكريم المستقل لا يتلقى دعما من أية هيئة ، عامة أو خاصة ، وهو مستغل فيما يتصل بحقوقه الأدبية ، وليس هناك من يدفع عنه تغول الناشرين ، وليس له نقابة معترف بها ، وتدافع عنه ، واتحاد الكتاب على ضعفه وهوانه ، ليس معترفا به نقابة للكتّاب ، أي المثقفين ، وإنما هو مجرد مجتمع بلا فاعلية ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة .

المثقف بين السلبية والتهميش

المثقف الحق في عالمنا العربي – لا في مصر وحدها – هامشي أو مهمش .

هامشي لأنه دائما صاحب موقف ، ومن لا موقف له مجرد منافق يتاجر بالكلام الجميل ، وهذا الموقف يضعه دائما في مواجهة السلطة ، وعدم الرضا عما يحدث حوله ، فهو والمجتمع لا يتفقان غالبا ، لأنه محتج أبدا ، ورافض دائما لكل شئ سئ حوله ، وما أكثر السيئات التي تصطخب بها حياتنا وأفدحها !

ومهمش ، أي متروك ، لأن أغلبية المجتمع تدير له ظهرها ، وتراه وأمثاله مجانين أو متمردين أو مجرمين ، ومرت فترة ، لا أظنها انتهت ، كانت تعتبر كل مثقف لا يسكت عما يرى من فساد شيوعيا ، والآن تغيرت «الاسطوانة» فهي تعتبره إسلاميا ، أو ارهابيا ، أو رجعيا ، أو مخربا ، أو ما شئت من تهم تبدأ بالعزل والتجويع ، وتنتهي بالسجن أو المعتقل .

الهروب إلى الهاوية

إحباط الشباب وإحساسه برفض عالم ينكر عليه كل شئ ، ويدمر أحاسيسه كل يوم ، وعدم ثقته في المستقبل ، يدفعه إلى الهروب من هذا الواقع ، واللجوء إلى عالم المخدرات ، والإغراق في الفجور واللاأخلاق ، وإدمان الأدب الماجن ، وممارسة الجريمة ، وعدم الانتماء ، واللامبالاة ، وكلها اتجاهات ثمرة ما يحيط به ، تمكنت منه ، ونقلته من رفض المجتمع إلى كراهيته وتدميره ، والثقافة خلاصة «الكل» ، ومن ثم فهي تتغذى بكل جوانبه ، الايجابية والسلبية ، فهي كالحياة والموت وجهان لواقع واحد ، فيها خلاصة ما هو سام في حياة الفرد ، إلى جانب سلوكيات وضيعة تخدش سمو الإنسان ، وتجعله مجرد تاجر يعبد المال ، والعظيم ، فردا أو مجتمعا هو من يحسن استغلال الفاضل الجميل ويتمسك به ، وينأى عن الفاسد الوضيع ويستأصله .

أهمية التنمية الثقافية

يبدأون بالتنمية الاقتصادية ، وهو اتجاه صحيح ، لأن الجائع والعاري والمريض والمفلس ومن يسكن الشارع ، لا يتذوق ولا يبدع ولا يبتكر ، وبعدها يجئ الحديث عن التنمية الثقافية على استحياء وهمسا ، وهو أمر خاطئ ، لأن أولية الاقتصاد وثنائية الثقافة لا تعني أن الأول أهم ، لأن التنمية الاقتصادية مجرد وسيلة، على حين أن التنمية الثقافية غاية في ذاتها ، وبدونها يتعثر تقدمنا الاقتصادي والحضاري

والثقافى معا . العلم والتقنية قد يخرجان عن رسالتهما فى خدمة الإنسانية ويستخدمان فى الحرب وقتل الإنسان والحيوان والشجر ، على حين أن غاية الثقافة دائما تحريرها من الجهل والبؤس والرذائل ، وبناء الإنسان عن طريق التربية ، وخلق مجتمع قوى قادر على نبذ الكراهية ، وإشاعة الحب والخير والجمال ، وحين يحقق الفرد هذا المستوى العالى من التربية يمكن أن يفهم المشكلات الاجتماعية على نحو أفضل ، وأن يجعل من الثقافة عنصرا فاعلا ، يوقظ الأحاسيس الأدبية والفنية ، وينمى فى أعماق المواطن حاسة الخلق والابتكار .

إذن ، لخلق تنمية ثقافية ذات عائد لابد أن تسبقها تنمية اقتصادية تقضى على البطالة ، وترفع عن كاهل المواطن شرور الفقر والبؤس ، وتنتشله من هوة العوز والحاجة والمرض ، إلى جانب تربية سياسية صادقة مخلصة ومستقيمة تجعل من الديمقراطية واقعا ملموسا فى شتى جوانب الحياة ، تحترم حرية الفرد وخصوصياته وأمنه وسكنه ، يمارسها الطلاب في الجامعة ، والأساتذة فى إدارتها ، والعمال فى نقاباتهم ، وأن يصبح الوطن كما كان قبل نصف قرن ، يعرف حرية تكوين الأحزاب ، وإصدار الصحف ، والتظاهر والإضراب ، وممارسة ذلك كله دليل صحة وعافية ، وأن تجئ المجالس النيابية والمحلية وليدة انتخابات نزيهة ، نوفر لحريتها كل الضمانات ، مجالس تستطيع أن تراقب السلطة التنفيذية ، وأن تقول كلمتها عالية، وتختفى معها هذه الصورة المشوهة القائمة .

هذا أو الطوفان !

بعد هذا كله ، لا قبله ، تأتى التنمية الثقافية سياسة دولة ، تكمل ما سبق وتحرسه ، وترتفع بمستوى الذوق الجمالى والنتاج الأدبى فى المجتمع، وتكون فى ذاتها نموذجا عاليا للديمقراطية، حيث تتكافأ الفرص وتتلاقى وتتعاون على خلق ثقافة قادرة على الإسهام فى بناء الوطن ، ويتمتع بثمارها الجميع !

واقع المثقف العربى

ليس فى العالم مثقف أتعس من المثقف العربى الحقيقى . وراءه تاريخ حافل ، وورث حضارة عريقة ، ولكنه يعيش واقعا بائسا من كل جوانبه ، وأسوأ ما فيه أن المثقفين فى جملتهم استراحوا إليه ، وألفوه ، ولم يعودوا يرون سكوتهم عارا ، ومجاراته خزيا ، وأصبحوا كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى ، قبل ثلاثة أرباع قرن :

يتلو الرجال عليهم شهواتهم
فالنابهون أشدهم ترتيلا
ويدللون إذا أريد قيادهم
كالبهم تأنس إذ ترى التدليلا

نعم ، هناك عقبات بالغة الصعوبة ، تحجب الحقيقة عن المثقف ، إعلام قوى منظم ، يزيف الحقائق ، ويخدع المواطنين، يكذب عليهم ، أو يصمت ، أو يقول لهم نصف الحقيقة ، يجعل من الغبى قمة الذكاء ، ومن الجهول عالما ، ومن الخامل نشطا ، ومن

الجبان شجاعا ، ومن الخائن بطلا ، ومن الفاسد قدوة ، ويقدم المناضل والرافض والمعارض على أنه مخرب وإرهابى وخارج على القانون ، ويحار المرء بين ما يقرأ ويسمع وما يرى على أرض الواقع. والقنوات الفضائية والإذاعات الخارجية ، على كثرتها وتنوعها وإفلاتها من أى رقابة ، فى أيدى أعدائنا ، غايتها هدم مقوماتنا ، وتفتيت وحدتنا ، وإظلام الطريق أمامنا ، وبث الفرقة بين شعوب أمتنا ، وإشاعة الإحباط واليأس فى نفوس العاملين .

حاجتنا إلى نهضة حقيقية

نحن فى حاجة إلى نهضة حقيقية لا تقوم على مجرد تقليد الغرب ، والاندماج فى منظومته طائعين ، لأن الاكتفاء بنقل المعلومات والتكنولوجيا والتلقى دون الابتكار لا يخلق منا أمة عظيمة ، والاتكاء على السياحة لا يصنع مجدا ، وقصارى ما تنتجه فى نهاية المطاف «طبقة من الخدم » . بعضهم يزهو بأننا اشترينا أقمارا صناعية تدور حول الأرض، ولا أرى فى ذلك أية روعة ، لأن كل من يملك مالا ، والاغنياء كثر ، يستطيع أن يشترى قمرا وأقمارا إذا أراد، وإنما الروعة أن تصنعه كما فعل غيرك . الجدية وحدها والابتكار ، والطهارة في السلوك ، واحترام الذكاء والنبوغ والعقل ، هى التى يمكن أن تعاوننا على أن نجعل مصر الآن ، كما كانت بالأمس ، مركز الإبداع والحضارة والريادة السياسية فى المنطقة .

فى منتصف الأربعينيات من القرن الماضى ، لم تكن دولة مثل باكستان قد وجدت ، ولم تكن الهند قد استقلت ، ولا إيران ، ولا فيتنام الشمالية ولا كوريا الشمالية ، وكان البون شاسعا بيننا وبين هذه الدول فى التعليم والفنى والثقافة ، وكلها أصبحت اليوم قوى ذرية ، أو على أبوابها ، أما نحن .... ؟!

ما الذى انتهى بنا إلى هذا الحال ، وكيف الخروج من هذا التخلف المقيت والتبعية الذليلة ، واللامبالاة القاتلة ؟ نحن فى مركب واحد ، إذا غرق غرقنا جميعا وطريقنا إلى النجاة واحدة لا غيرها : ديمقراطية كاملة غير منقوصة ولا موصوفة نبرأ معها من العفن الذى نعيشه ، وصفوة مثقفة تجمع الخيرين تكون القدوة وتعطى المثل تعاليا وشموخا ونبلا وتضحية وطهارة ، تلتقى بعيدا عن المؤتمرات الرسمية الباذخة الصاخبة ، لا تنتج غير الكلام المنمق الجميل ، تدرس واقعنا العليل فى جدية بموضوعية ، وتقول رأيها صريحا . قد لا يتركونها تفعل ، ولكنها تستطيع لو أرادت وصممت .

وإلا ... فالطوفان أيها الناس ! ■

نحو أحادية القطب

بقلم
د. مصطفى سويف

كان عقد الثمانينيات في حسابات الحركة السياسية الدولية هو الجسر الذي عبر العالم فوقه لينتقل من مرحلة الثنائية القطبية إلى مرحلة أحادية القطب، كان العالم من قبل موزعا بين قطبين متكافئين في القوة الرادعة؛ فتحقق له من ذلك اتزان يقوم أساسا على الردع، ثم أصبح في قبضة القطب الواحد ففقد توازنه، لأن هذا القطب بدأ يتصرف بلا رادع، كأنما أقسم ليفسدن في الأرض حيثما كان له دبيب.



فلول الجيش الروسي تتقهقر: الانسحاب من الأراضي الأفغانية ١٩٨٤

وفي حسابات الحركة السياسية على الصعيد الوطني كان عقد الثمانينيات برزخا للعبور من مرحلة غلب عليها الشطط في الفعل وفي القول معا إلى مرحلة غلب عليها قليل من أفعال الترميم وكثير من الأقوال التي لا تنفع وقد تضر. أما في حسابات الحركة الشخصية فلم ترتسم للثمانينيات عندي وظيفة الممر بقدر ما ارتسمت لها وظيفة المقر وذلك لإقرار ما كان من توجهات للحركة من قبل، وترسيخ هذه التوجهات ، وإكسابها مزيدا من بلاغة الدلالة وعنفوان الزخم.

نحو أحادية القطب

توالت على العالم في أواخر السبعينيات أحداث «كبرى قرأتها في حينها على أنها تعني أساسا تقليم أظافر الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها الخارجية العدوانية.

وكان أهم هذه الأحداث خروجها مهزومة من فيتنام سنة ١٩٧٥، وسقوط حكم الشاه في إيران سنة ١٩٧٩، ثم احتجاز موظفي السفارة الأمريكية في طهران (كرهائن / جواسيس) حتى يناير سنة ١٩٨١، ثم فشل الحكومة الأمريكية (في عهد كارتر) في محاولة اختطاف الرهائن بوساطة مجموعة من الكوماندوز في أبريل سنة ١٩٨٠، إذ تحطمت الطائرات التي كانت تقل الجنود إثر عاصفة عصفت بهم فوق الأراضي الإيرانية فجعلتهم كعصف مأكول. وانتهت بذلك جولة قرأناها كما قرأناها (نحن أبناء الدول المستضعفة) ، لكن الأمريكيين والسوفييت قرأوها باعتبارها

جولة تتبعها جولات فى الصراع المحتدم بينهما.

وفعلا بدأت الجولة الثانية فى هذا الصراع مختلطة بخواتيم الجولة الأولى، ذلك أن الهزائم المتوالية التى حاقت بالولايات المتحدة وسياستها جاءت وفى صحبتها سلسلة من الانقلابات العسكرية توالت واحدا بعد الآخر فى أفغانستان، وقد ادعى معظم قادتها أنهم يتجهون بالبلاد إلى الحكم الاشتراكى، أما أنهم كانوا كذلك بالفعل فهذا أمر لايزال حبيس الوثائق السرية! الشىء المهم أن الاتحاد السوفييتى زلت به قدمه فدخلت قواته أفغانستان فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٧٩، وكان هذا منعطفا مشئوما فى تحديد مستقبل الاتحاد السوفييتى ومستقبل العالم. نرى ذلك الآن بوضوح ونحن ننظر بنظرة استرجاعية، ولكننا لم نره كذلك فى حينه، ندركه الآن على أنه كان بمثابة السطر الأول فى شهادة وفاة الاتحاد السوفييتى، أما وقت وقوعه فلم نزد على أن استنكرناه (أنا ومن كان على شاكلتى) باعتباره مظهرا من مظاهر هيمنة الدول الكبرى على الدول الصغرى، وحكمنا بأن الهيمنة هى الهيمنة، تنوعت الأشكال والجوهر واحد، على أى حال تداعت الأحداث بطول الثمانينيات تنهش فى سمعة الاتحاد السوفييتى وتستنزف طاقته. وكان قد سبق له أن تدخل عسكريا فى المجر سنة ١٩٥٦، وتدخل على هذا النحو كذلك فى تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، وفيما بين التاريخين حاول أن يتدخل بأسلوب مقارب فى كوبا سنة ١٩٦٢، لكن المحاولة اجهضت، وقد خرج من هذه المحاولات الثلاث على اختلاف حظوظها من النجاح سليما معافى كقوة عظمى.

أما فى سنة ١٩٨٠ فقد كان تدخله فى أفغانستان مغامرة سيئة الحساب أدت إلى إنهاء فاعليته، ووجوده كدولة / نظام تسمى الاتحاد السوفييتى بكل ما يعنيه ذلك من حسابات فى سياقات الصراع الدولى.

كيف حدث ما حدث؟ يستطيع القارىء أن يرجع إلى مقال الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل المنشور فى مجلة «وجهات نظر» فى أول فبراير الماضى، فهو يروى بقدر كبير من التفصيل الخلفية التاريخية التى جرى إعدادها بواسطة الأجهزة المخابراتية الأمريكية لتوريط الاتحاد السوفييتى فى أفغانستان. وكيف كثفت هذه الأجهزة مجهوداتها فى النصف الثانى من السبعينيات على إثر الهزيمة المذلة التى خرجت بها الولايات المتحدة من فيتنام، وفعلا كان لها ما أرادت، فدخلت القوات السوفييتية أفغانستان ، وكان الطعم الذى اجتذبها للدخول هو نداء الاستنجاد الذى أصدره واحد من قادة الانقلابات الأفغانية المشبوهة يدعى كارمل. وفى غضون أسبوع واحد من تاريخ دخول تلك القوات كانت الإدارة الأمريكية تنفذ السيناريو الذى أعدته مسبقا وهو استغلال الدين بأقصى

الطاقة لضرب الاتحاد السوفييتي في هذه البقعة من الأرض، لم تفعل ذلك أيام هاجم السوفييت بوادبست في سنة ١٩٥٦، بل استغلت في ذلك الوقت أفكارا تدور حول معاني الحرية السياسية - الاقتصادية والصراعات القومية. وكذلك لم تلجأ إلى سلاح الدين عندما هوجمت تشيكوسلوفاكيا بل لجأت كذلك إلى إزكاء مفاهيم الحرية وصراع القوميات. أما هنا، وحول تخوم الشرق الأوسط فقد انتهت بها حساباتها وتشخيصاتها للمنطقة (حكاما وشعوبا وثقافة) إلى الاقتناع بأن استغلال عامل الدين سيكون هو الأجدى، وفي السبيل إلى تفعيل هذا السلاح أعدت أدوارا محددة لدول العالم العربي والإسلامي وفي مقدمتها باكستان والمملكة العربية السعودية ومصر، واحتفظت لنفسها بمهمة المخرج الذي لا يظهر على المسرح، وقد سلكت الولايات المتحدة في أداء مهمتها مسلك المخرجين الأفذاذ، فهم لا يملون على الممثلين التفصيلات الدقيقة للكيفية التي يؤدون بها أدوارهم، لكن يطلبون إليهم أن يتقمصوا هذه الأدوار كما لو كانوا يعيشونها في الواقع، ويصدقون أنفسهم إذ يعيشونها، وبذلك يتحقق التعاون الأمثل بين المؤدين والمخرج، وعلى عادتي كنت أحاول أن أعي كل صغيرة وكبيرة في هذه المسرحية، وكنت أخرج من تدريبات تنشيط الوعي هذه بمزيد من اليقين بأن هؤلاء المؤدين السياسيين (الكبار منهم والصغار) اختاروا بكامل إرادتهم ألا يديروا مسرحيتهم في هذه البقعة من الأرض على أساس المفاهيم الوطنية القومية لأن نارها قد تحرقهم في المدى القريب، أما إدارتهم إياها على أساس الدين (الإسلامي) في مقابل الإلحاد (السوفييتي) فسوف تؤدي الغرض المطلوب في تلك الآونة (بواكير الثمانينات) وهو الجهاد لكسر شوكة الاتحاد السوفييتي، بغض النظر عما قد يترتب على هذا الأسلوب من آثار جانبية.

وأنظر الآن إلى الخلف لأستحضر هذا الماضي وأعيد قراءته في ضوء الحاضر، وتلح على اسئلة لا حصر لها: لماذا لم يقم أولئك الساسة (والمؤدون منهم خاصة) أي وزن لمفهوم قداسة الدين وما يرتبط بها من مشاعر توجب ألا يعبث به (أعني الدين) في الصراعات الجماعية (أو الفردية أيا كان لونها) وإذا افترضنا أن هذا السؤال غير وارد في لعبة السياسة عموما (أو أنه ساذج في نظر المؤدين السياسيين) فهل يكون غير وارد كذلك انعدام التفكير في الآثار الجانبية المدمرة لاستخدام سلاح الدين في معارك تتغير توجهاتها وشعاراتها ويتغير القائمون عليها من حين لآخر، بينما الدين يتعامل مع الثابت والمطلق؟ وإذا كان للمخرج الكبير أغراضه التي ينفرد بها ولا علاقة لها بالدين (أي دين) من قريب ولا من بعيد أفلم يكن أولى بالمؤدين الصغار أن يبلوروا لأنفسهم ما يفرق بين عالمهم وعالم المخرج الكبير؟

لماذا كان ذلك التوحد مع أغراض المخرج إلى درجة تشبه الفناء فى ذاته؟ وما قول السادة المؤذين فيما يجرى الآن من حولنا بشأن أفغانستان ، مرة أخرى؟ هل يرون فيه بعضا من آثار جانبية لما كان يجرى فى المنطقة نفسها منذ عشرين سنة؟ وهل يلومون أنفسهم على ذلك الماضى غير البعيد حتى نرى فى هذا اللوم بارقة أمل على أنهم قد يفيدون من دروس التاريخ؟ عشرات الأسئلة من هذا القبيل كانت تمر بخاطرى على امتداد العشرين سنة الماضية. وتنبعث مع هذه الأسئلة صور وذكريات مؤسفة لانعكاسات أحداث الثمانينيات هذه على أرضنا المصرية، هنا فى عقر دارنا (فى الشارع ، وفى الجامعات ، وفى أروقة الحكم) ، على أى حال. لست أدعى بطرح هذه الأسئلة أننى كنت أكثر فطنة أو أصدق وطنية من الساسة الذين شاركوا فى دراما الثمانينيات على اختلاف أدوارهم وتباين دلالاتها ، ولكن الفرق الرئيسى فى هذا الشأن هو أننى أسمح لهذه الفئة من الأسئلة أن تراوح ذهنى بين الحين والحين، وآذن لها أن تتوالد وتتكاثر ماشاءت لها معانيها ومراميها ، وهو الأمر الذى يتحاشاه هؤلاء الساسة حتى فى سريرة أنفسهم ، لأنهم أولا وقبل كل شيء يخشونها ، ولأنهم إضافة إلى ذلك يضمرون احتقارا للفكر أيا كان مستواه من البساطة أو التركيب. ويتباهون بأنهم رجال عمل وحسب.

المد الأمريكى والجزر السوفييتى

وتداعت الأحداث العالمية متسارعة على امتداد بواكير الثمانينيات، وكانت على كثرتها تدور حول محور رئيسى واحد، أو هكذا رأيتها ، وكنت أقرأ هذا المحور فأجده يعنى مدا للحسابات الأمريكية وجزرا للحسابات السوفييتية، فقد أعلن ريجان (وكان قد انتخب رئيسا للولايات المتحدة فى نوفمبر سنة ١٩٨٠) موافقته على صنع قنبلة النيوترون (سنة ١٩٨١) ، ثم قررت السوق الأوروبية المشتركة خفض وارداتها من الاتحاد السوفييتى (سنة ١٩٨٢) ، ولم تلبث إيران أن أعلنت عن حل الحزب الشيوعى الإيرانى (سنة ١٩٨٣) واعتقال ١٥٠٠ عضو من أعضائه وكذلك طردت عددا من الدبلوماسيين السوفييت من طهران ، وفى بولندا (أضعف الحلقات الأوروبية الدائرة فى الفلك السوفييتى حينئذ) سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، فقد قام ليش فاليسا (زعيم منظمة تضامن) المعارضة للهيمنة السوفييتية) بزيارة لبابا الفاتيكان (سنة ١٩٨١) ، وأتبع ذلك بعد تسعة أشهر بالدعوة إلى مؤتمر للنقابيين من أعضاء منظمته للنظر فى مزيد من دعم نشاطات المنظمة، وبعد أقل من سنتين قام بابا الفاتيكان بزيارة الى بولندا حيث عقد لقاء خاصا مع ليش فاليسا (١٩٨٣) ، وفى ديسمبر من العام نفسه أعلن فى الغرب عن منح ليش فاليسا جائزة نوبل للسلام. وفى خضم هذه الأحداث التى لاشك فى أنها كانت منهكة للاتحاد السوفييتى ، أصدر

الحزب الشيوعي الإيطالي (وكان أكثر الأحزاب الشيوعية نفوذا في الغرب) انتقادات شديدة اللهجة لما أسماه فشل الاتحاد السوفييتي في إقامة ديمقراطية سياسية وذلك بعد عمر يزيد على السبعين عاما. هكذا جرت أحداث الحرب الباردة بين القوتين العظميين، في أواخر السبعينيات جزر أمريكي صحبة مد سوفييتي، وفي أوائل الثمانينيات جزر سوفييتي صحبة مد أمريكي. ولم تكن الحرب الباردة مجرد أحداث كر وفر تصدر عن الدولتين الكبيرتين. بل كانت إلى جانب ذلك أقوالا يطلقها ساسة كل من القوتين للتهديد أحيانا، ولإنطاق الأحداث بمعاني ودلالات أحيانا أخرى، وقد تخلق من الأحداث والأقوال معا مناخ له سمات بعينها، وكانت أطراف أخرى أصغر حجما وأقل شأنا تستوحي هذا المناخ لتقرر مدى ملاءمته لكي تقوم من جانبها بمغامرة ما استجابة لأطماع خاصة (على طريقة الصيد في الماء العكر) وهكذا انتعشت في تلك الفترة آمال تشكيلة عريضة من ساسة الدول التي كانت تدور في الفلك الأمريكي (تحت أي اسم أو شعار)، فأسهمت كل بنصيبها في إكساب صراعات تلك الفترة ملامحها الدقيقة، في تلك الفترة أعيد تنصيب الجنرال بينوشيه (سنة ١٩٨٠) دكتاتور شيلي المعروف لفترة رئاسة ثانية تمتد ثماني سنوات، وفي إندونيسيا أعيد تنصيب دكتاتور آخر هو الجنرال سوهارتو رئيسا للبلاد، وفي أسبانيا انتعشت آمال حفنة من الضباط لاستعادة عهد فرانكو باستبداده ودمويته فقاموا بمغامرة انقلابية، غير أنها باءت بالفشل. وفي يونيه سنة ١٩٨٢ أقدمت إسرائيل على غزو الجنوب اللبناني بحجة تأمين حدودها الشمالية ضد هجمات الفلسطينيين، وبعد قرابة شهرين من تاريخ الغزو أعلنت الشرطة اللبنانية أن عدد القتلى بلغ في تلك الفترة عشرين ألف قتيل، وفي منتصف فبراير سنة ١٩٨٣ أذاعت وكالات الأنباء أخبار المذابح التي جرت في معسكري صبرا وشاتيلا، واتهمت أرييل شارون بالتدبير لهذا المذابح، وكان عندئذ وزيرا للدفاع في بلده.

هكذا كان المناخ السياسي الدولي في أوائل الثمانينيات، بملامحه الغليظة والدقيقة.

وفي مصر

تشابكت أحداث السياستين الخارجية والداخلية مع الأحداث العالمية في إطار القضية الأفغانية، فقد رحب الرئيس السادات بالتعاون الفعال ضمن حلفاء الولايات المتحدة في الحملة الداعية إلى كسر شوكة الاتحاد السوفييتي، بكل ما يعنيه ذلك الترحيب من بنود معلنة (مثل تكثيف الحملة الدعائية ضد الاتحاد السوفييتي)، أو شبه معلنة (مثل بيع قطع السلاح السوفييتي المكدس في المخازن المصرية إلى الولايات المتحدة). وقد اكتسب هذا الترحيب زخما إضافيا من كون الرئيس

السادات كان يعتزم فى تلك الفترة نفسها تمرير بقية مشروعة لإكمال تفعيل معاهدة الصلح مع إسرائيل فى شبه غفلة من الرأى العام المصرى والعربى، وذلك بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل (فى فبراير سنة ١٩٨٠) ولكن أمل السادات فى غفلة المصريين لم يتحقق، إذ أصبح التبرم المكتوم تبرما صريحا، بين كتابات صحفية ومظاهرات طلابية، وتداعت الأحداث بصورة تنذر بأخطار شديدة، وتعددت أطراف الصراع على الساحة الوطنية، أحدها يعمل باسم الإسلام السياسى، وآخر باسم الكنيسة القبطية، وثالث باسم المعارضة المدنية / الحزبية، ورابع يغرى السادات بأن يظل رئيسا للبلاد، مدى الحياة (انظر الفصل الخامس من «خريف الغضب» للأستاذ هيكل)، وفى سبتمبر سنة ١٩٨١ نشرت جريدة الأهرام أن الحكومة أغلقت خمس صحف، وقبضت على أكثر من خمسمائة شخص من فئات المعارضة المختلفة، وتذكرت عندئذ أحداث سنة ١٩٤٧ عندما أغلق اسماعيل صدقى رئيس الوزراء فى عهد فاروق سبع صحف بجرة قلم، وحدثتنى نفسى قائلة «تنوعت الأسباب والموت واحد»، الحاكم دائما على صواب، والمحكوم هو المخطىء!! وفى ٩ سبتمبر سنة ١٩٨١ وصل عدد المقبوض عليهم إلى ١٥٣٦ شخصا، نشرت أسماؤهم جميعا فى جريدة الأهرام، وأعلن عن نقل ٦٤ عضوا من أعضاء

هيئة التدريس فى الجامعات (عن غير الطريق التأديبى كما نص القانون) إلى وظائف إدارية فى دواوين الحكومة، وتعرفت أسماء الأساتذة الزملاء ووجدت بينهم كثيرين ممن أعرفهم بأشخاصهم، وكانوا من خيرة الأساتذة علما والتزاما: وتعجبت (ولا أزال أتعجب) لمن يتوقعون من الجامعات أى انجاز علمى له وزن رغم أن الجامعات عندنا تعيش فى جو ملؤه العدوان والتهديد بمزيد من العدوان، وتعجبت ولا أزال أتعجب لمن يهاجمون الجامعات لتقصيرها بدلا من أن يهاجموا من دفعوا بها دفعا إلى هذا التقصير، أو على أقل تقدير أن يهاجموا الظروف المادية والمعنوية التى أحيطت بها الجامعات وكأنما يراد لها أن تستمر فى تقصيرها!!

وفى ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ اغتيل الرئيس السادات، وكشفت المحاكمات التى جرت فيما بعد عن أن الاغتيال تم على أيدى مجموعة من الشباب المنتمين الى بعض التنظيمات ذات الشعارات الإسلامية، التنظيمات نفسها التى أصر الرئيس السادات على مساندتها بامتداد معظم سنوات حكمه، رغم المشورة التى قدمها له وزير داخليته اللواء نبوى إسماعيل.

وأجدنى الآن وجها لوجه امام ذاكرتى عن وقائع المحاكمات التى جرت فى محكمة القيم لعصفت السادات، واستغرقت عدة أشهر، وصدرت فيها أحكام إدانة وحيثيات للأحكام لاتزال

تنتظر الكثير من جهود الدارسين من أساتذة التاريخ والسياسة والاجتماع.

أين كنت، وماذا فعلت؟

شغلني في بواكير الثمانينيات عالمي الخاص بما يكفي لدرء خطر التشتيت أو التشوش، ووجدتني كثير الترديد لقول المتنبي:

أقمت بأرض مصر، فلا ورائي
تخب بي الركاب ولا أمامي

وكان همي الأول هو التجويد أكثر من التجديد في أعمالي البحثية والتعليمية فلم أنشيء في تلك الفترة برنامجا يضارع في وزنه «البرنامج الدائم لبحوث تعاطي المخدرات» الذي انشأته في سنة ١٩٧٥ ولا أسست كيانا يضاهي في رسالته قسم علم النفس الذي كنت أسسته سنة ١٩٧٤ ولا أسهمت في تخليق دور جديد لي يعادل في دلالته الدور الذي تخلق لي في هيئة الصحة العالمية في سنة ١٩٧١. لا شيء من هذا القبيل، ولكني انصرفت إلى القيام بأعمال أملاها التوجه إلى تفعيل هذه الكيانات جميعا، والحرص على صيانتها، وأصبح شغلي الشاغل هو التوظيف الأمثل لهذه الكيانات بحيث أضمن لها أن تفصح عن أفضل إمكاناتها.

سافرت في يناير سنة ١٩٨٠ الى مدينة دكار، عاصمة السنغال، وذلك من خلال انتمائي إلى هيئة الصحة العالمية لألقي بحثا في التاريخ من ذلك الشهر حول الأسلوب الكفء لتقدير الآثار السلوكية والصحية والاجتماعية المترتبة على التعاطي والإدمان، وفي مارس سنة ١٩٨١ كنت في طريقي الى تورنتو في كندا للاشتراك في مؤتمر محدود العضوية دعا إليه معهد بحوث الإدمان لتقويم مجموعة الدراسات العلمية التي نشرت في العالم حول تعاطي الحشيش على امتداد السنوات العشر المنقضية منذ سنة ١٩٧٠ ، ومن كندا دعيت إلى هولندا للمشاركة في مؤتمر آخر ينعقد في الخامس من أبريل للنظر في كيفية التناول التشخيصي والعلاجي والتأهيلي لضحايا العنف، وألقيت فيه بحثا حول الخدمات التي يمكن ان يقدمها الأخصائي النفسي العيادي في هذا السياق، وعدت من المؤتمرين لأجد في انتظاري النتائج المبكرة لأول بحث ميداني اجريناه انا وفريق الباحثين العاملين معي باسم البرنامج الدائم لبحوث التعاطي بين تلاميذ المدارس الثانوية (العامة) على مستوى القاهرة الكبرى ، وتناولت تلك النتائج بمزيد من التحليلات الاحصائية ثم بالكتابة عما اسفرت عنه التحليلات من حقائق ، ثم بإرسال المكتوب ليأخذ دوره في النشر في دوريات التخصص، وأتبعت ذلك بتحليل بيانات بحث ميداني آخر كنا قد أجريناه على تلاميذ المدارس الثانوية الفنية لنقارن بين احتمالات التعاطي عند هاتين الفئتين من التلاميذ، وأرسلت هذه الدراسة ايضا بعد أن فرغت من كتابتها لكي تلقى حظها من النشر في احدى الدوريات المتخصصة وفي الحالين حمدت للمركز القومي للبحوث

الاجتماعية والجنائية تمويل البحثين بالصورة التي ارتضيتها.

وعن تلك الفترة ايضا لاتزال ذاكرتي تحتفظ بآثار ممتعة لسلسلتين من المحاضرات كنت ألقيهما . . إحداهما كنت ألقيها على ضباط الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، كنت أتناول فيها بعض نتائج بحوثنا الميدانية التعاطفي عند الشباب المصريين ، وكان أجمل ما يمتعني فيها شعوري بهذا التوظيف المباشر للعلم فيما ينفع العمل. وهو ما كنت احلم به منذ شبابي الباكر ومازلت أسعد به في سنوات الشيخوخة. اما السلسلة الثانية فكانت محاضراتي للطلاب الأطباء في أقسام الأمراض العصبية حول ما يسمى بالتميز الوظيفي في حد شقي المخ. ومصدر متعتي في هذه المحاضرات هو طبيعة الظواهر النفسية العصبية ذاتها التي اتحدث عنها وتبدو لي كل ظاهرة فيها على أنها موطن الجزئية من جزئيات العلاقة المدهشة للصلة بين المادي والمعنوي في الإنسان.

والآن وبعد ان انتهت هذه الجولة، من المؤكد أننا لا نستطيع أن نرى في التاريخ تحركا متجانس الخطى، يبدو لي من مسيرة الأحداث في إطار هذا العرض أن مرحلة أوائل الثمانينيات في القرن العشرين كانت مرحلة مفصلية في تاريخ العالم، وتاريخ مصر. وفي هذا النوع من المراحل تتحمل القيادات مسئوليات جساما فيما يتعلق بمستقبل مجتمعاتهم.

والسؤال الذي يطرحه هذا الكلام مباشرة هو: أكانت هناك حتمية تجعل من زحف الاتحاد السوفييتي على أفغانستان أمرا لافكاك منه؟

وهل كانت هناك حتمية أن يتسابق عدد من القادة العرب في ركاب الولايات المتحدة متبنين هدفها الاستراتيجي وهو القضاء على الاتحاد السوفييتي ، ومباركين أسلوبها التكتيكي في استخدام سلاح الدين (الإسلامي) لتنفيذ المخططات التي رسمتها واشنطن؟ وإذا قدر لنا أن نستغني عن كلمة الحتمية كما ترد في هذا السياق فهل نستطيع أن نضع بديلا عنها تعبيرا اخر هو «سوء الحساب»؟ وهل يمكننا ان ندرك هنا جوهر الفرق بين المفهومين، مفهوم «الحتمية»، ومفهوم «سوء الحساب»؟ وندرك أن الفرق الرئيسي هنا إنما يتمثل في أن مفهوم سوء الحساب يترك الباب مفتوحا لتدخل الإرادة المجتمعية؟ وهل بالإمكان والحال كذلك أن ندرك أن مفهوم الإرادة المجتمعية يسمح بالتفكير في مفهوم الضوابط التي يمكن أن ترشد فاعلية هذه الإرادة؟ وقانا الله شر المغامرات سيئة الحساب، وألهمنا الايمان بالضوابط، ضوابط الفكر والإرادة وألهمنا أولا وقبل كل شيء فضيلة الاستبصار. ■

أقوال معاصرة

● «أمريكا شر لابد منه، وقد استسلمنا لها لأنها الأقوى»!!

الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر
رئيس البرلمان اليمني

● «لا يعني سؤال الرئيس توجيه الاتهام أو التجريم، ما يعنيه هو البحث عن الحقيقة».

روبرت بيرد
عضو مجلس الشيوخ الأمريكي
عن ولاية وست فيرجينيا

● «على الفيلم أن يمتلك الطموح، بأن يتوق إلى أن يكون عملا كوني الطابع، دائم التأثير»

المخرج الايطالي فرانسسكو روزي

● «ليس في وسع ثقافة حقوق الإنسان أن يكتب لها أن تتنفس طبيعيا، دون أوكسجين الأمان»

ماري رينسون
رئيسة جمهورية ايرلندا سابقا
ورئيسة مفوضية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة

● «نعيش زمنا مملوءا بالمخاطر، لكنه في الوقت نفسه لا يخلو من فرص»

فرد هاليدي
باحث بريطاني متخصص
في شئون الشرق الأوسط

● «لا يكمن خطر الرقابة في ممارستها وحدها، يكمن كذلك، وعلى نحو أشد في دلالتها»

الشاعر السوري ادونيس

● «لا مستقبل أمامنا خارج نفوسنا»

الفنان التشكيلي اللبناني
رفيق شرف

● «لابد من إنقاذ المبدعين الذين تطحنهم شروط صحف ومؤسسات، لا ترى في الأديب سوى آلة صماء»

الشاعر البحريني قاسم حداد

● «قطعنا شوطا بعيدا في تناقص التجويد، وتزايد الأردأ في جميع مجالات العمل لدينا»

د. مصطفى سويف
استاذ علم النفس بجامعة القاهرة



روبرت بيرد



ماري روبنسون



ادونيس



د. مصطفى سويف

جـريمة من العصـر الحجـرى

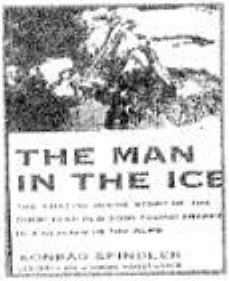
بقلم
د. أحمد مستجير

في عدد شهر نوفمبر ١٩٩٥ من «الهلال» كتبت مقالاً عن «أوتسى : رجل الثلوج» - رجل أطلق عليه اسم أوتسى دُفن في الثلج منذ ٥٣٠٠ عام، وبقيت جثته كاملة ، وبجوارها متعلقاته ، إلى أن عثر عليها في موقعها بوادى أوتس بجبال التيرول يوم ١٨ سبتمبر ١٩٩١ نقلت الجثة إلى ثلاجة بمتحف خاص في إنسبروك بالنمسا ، حيث مكثت حتى أعيد نقلها يوم ١٥ يناير ١٩٩٨ إلى إيطاليا في رحلة تكلفت نحو مليون دولار ، لتستقر في ثلاجة متحف ببلدة بولزانو ، بعد نزاع قانوني طويل بين الدولتين حسم لصالح إيطاليا ، وليطلق عليه الإيطاليون اسما جديداً هو «هيبرناتوس» . قدمت الجثة للعلماء مادة للدراسة غير مسبوقة ، فقد اعتبر أوتسى أفضل عينة لرجل من العصر الحجرى الحديث ، إذ كانت كل أعضائه الداخلية كاملة وأنسجته لا تزال تحتفظ بمائها (على عكس مومياوات مصر) . أجريت دراسات لا حصر لها على الجثة وعلى متعلقات الرجل . ومع تقدم الدراسات تكشفت حقائق جديدة غيرت الكثير مما تصوره العلماء قبلا . ربما كان من حق قارئ «الهلال» أن يعرف السيناريو الجديد لحكايته وقصة موته .



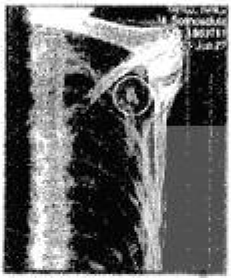
بعد أبحاث استمرت ١٠ سنوات تمكن العلماء من رسم هذه الصورة لوجه أوتسى .

كانت الجثة لرجل طوله ١٥٩ سم ، مات وعمره ٤٦ أو ٤٧ عاماً، وهذا عمر متقدم فعلا بالنسبة لإنسان ذلك العصر الذى كان البشر يتحولون فيه من استخدام الحجر إلى استخدام المعادن . مات الرجل في الربيع (لا الخريف) ، كما تقول نتائج فحص محتويات معدته . كان بمعدته حبوب لقاح شجرة الزان الأبيض ، تزهر هذه الشجرة ما بين شهرى مارس ويونيو ، في مناخ أدفأ كثيرا من المنطقة الجبلية التى عثر عليه به . معنى هذا أن الرجل قد قطع في يومه الأخير ، على قدميه ، رحلة من الوادى إلى أعلى الجبل ، طولها ست ساعات على الأقل . كان الرجل مصاباً باعتلال في المفاصل كما تقول صور الأشعة السينية ، ولم تكن حالته الصحية على ما يرام بالنظر إلى الديدان السوطية التى وجدت بقولونه . تقول نسبة النحاس والزرنيخ في شعره



أنه لابد وإن كان على علاقة بصهر النحاس . ظن العلماء في البداية أنه كان نباتيا ، وذلك بناء على فحص نسبة نظيرى النتروجين (ن ١٤ و ن ١٥) في شعره ، إذ كانت تعادل النسبة المعروفة لدى النباتيين المعاصرين . لكن محتويات الأمعاء أكدت أن الوجبة الأخيرة للرجل كانت تتألف من خبز غير مخمر ، وخضراوات ، ولحم عنز جبلي ، لو كان نباتيا حقا فلابد أنه قد أقلع عن عادته هذه في أواخر أيامه ! كان جسمه يحمل ٤٧ وشماً ، وكانت مواقعها تثير الدهشة ، فالموجود منها على الظهر والرجلين يقع بالتحديد في ، أو قرب ، مواقع الوخز بالإبر التي تستخدم في عصرنا هذا لمعالجة المرض أو تخفيف الألم . حللت عينات من مادته الوراثية واتضح أنها تتوافق تماما مع تتابعات دنا الأوروبيين ، إذ كانت تناظر مثيلاتها في دنا من يحيون اليوم بوادى أوتس ومناطق الألب القريبة .

يقول السيناريو القديم: إن الرجل كان راعياً يحيا في مجتمع زراعي ، وأنه قد هرب من قريته إلى الجبل إثر غارة على قبيلته ، وهناك فاجأته عاصفة ثلجية . أصابه الإرهاق فاتجه إلى أخدود يحميه يقضي فيه ليلته . أكل آخر ما كان معه من زاد ... «الظلام يحل رويدا .. الثلج بالخارج يتساقط بلا انقطاع . البرد يتخلل ملابسه . التعب يرهق أطرافه . كان يعرف أن النوم يعني الموت ، فحاول أن يخرج . تعثر وسقط . تغلبت حاجته إلى النوم على قوة إرادته . تحول لينام على جانبه الأيسر . فقد إحساسه . وضع ذراعه اليسرى أمامه دون أن يدرى .. لم يعد يدرك أنه يتجمد . فلما جاء الصباح كان قد مات . كذا كانت قصة موته كما صورت . ولقد تغيرت هذه القصة الآن .



صورة بالأشعة تبين نصل السهم في جثة أوتسي

فقد اكتشف العلماء أن السبب في موت أوتسي هو أن بعضهم كان يتعقبه ، وأطلق عليه من الخلف سهما أصاب كتفه اليسرى . هشم نصل السهم ، وطوله نحو بوصة ، عظم اللوح ، واخترق الأعصاب ، ودمر الأوعية الدموية الرئيسية . تقول زاوية النصل: إن السهم قد أطلق عليه من أسفل . هرب من مهاجميه وهو يدمى إلى المكان الذى عثر عليه فيه . أصيبت ذراعه اليسرى بالشلل . إنكفأ على وجهه وهو يتألم ليموت ميتة بطيئة رهيبة ، وتدفنه الثلوج خمسة آلاف وثلاثمائة عام .



شخصية العدد

عبد الوهاب المسيرى

الحكمة والعقل الموسوعى..

بقلم
هبة رءوف عزت*

استقال د . عبد الوهاب المسيرى فى عام ١٩٩٠ من جامعة عين شمس ليتفرغ لإنهاء موسوعة عن اليهود واليهودية . وربما يمكننا البدء فى إلقاء الضوء على أهمية د . عبد الوهاب المسيرى كمفكر عربى من هذه اللحظة ، وصلتها بما قبلها وما بعدها . فهى تدل على أن العلم بالنسبة لعبد الوهاب المسيرى ليس وظيفة يتكسب منها ، بل هو رسالة يحملها على كاهله وأمانة يؤديها لأمته ، يدور معها أينما دارت ، والجامعة مسار من مسارات أداء هذه المسئولية ، ولذلك كان عبد الوهاب المسيرى - كما كان جمال حمدان - عقلاً عربياً موسوعياً يصبو للمعرفة والحكمة ، والنفع والخدمة لقضايا أمته .

*مدرس مساعد العلوم السياسية - جامعة القاهرة



والفارق بين العقل المبدع والعقل الوظيفى هو الفارق بين عقل يوظف المؤسسة والأطر العلمية فى الوصول إلى الحكمة والمعرفة ، ولخدمة الإنسانية ، والدفاع عن حقوق الناس ، وتوفير حياة طيبة لهم ؛ فيكون العلم بذلك علماً نافعاً .. وبين عقل آخر يختفى فيه المنظور النقدى وتتلاشى أسئلة الوجود والهوية ، ويصبح فيه العلم حرفة وتحصيله أداة لتحصيل الثروة ، والإنتاج العلمى وسيلة للترقى فى كادر المهنة أو الكادر السياسى ، ويزيد الكم دون زيادة كيفية ، ودون أى أمل فى نقلة معرفية حقيقية تصنع مستقبلاً أفضل للوطن !

البداية : الرومانتيكية الإنسانية

يمكن إجمالاً وصف عبد الوهاب المسيرى بأنه مفكر موسوعى ، لكن الوصف الأدق هو أنه مفكر عربى رومانتيكى . والرومانتيكية هنا ليست طوباوية مفارقة للواقع ، بل هى رؤية تحتفى بقدرة الإنســـان على تجاوز الواقع، إذ يتميز الفكر الإنسانى بالقدرة على التوليد والتحليل والاستشراف ، فلا يكون أسير مادية طبيعية ولا معلوماتية صلبة .

وهذه الرومانتيكية هى خيط ناظم فى فكر عبد الوهاب المسيرى يرصدها المتابع لكتاباته منذ بواكيرها ، فقد كانت معه حين كان ماركسياً ، والماركسية كانت دوماً تستلهم روحاً من العدل المثالى ، ثم حددت موقفه المعرفى / الحضارى الرحب فوق الأرضية الإسلامية ليختلف عن أبناء جيله الذين قاموا بنفس التحول لكنهم وقفوا فى مربع الإسلام السياسى أو كانوا أقرب إليه ، فى حين اختار هو أن يكون إسلامياً .. ورومانتيكياً إنسانياً .

«الرومانتيكية المسيرية» هى التى دفعته منذ البداية إلى معاداة منطق الاستيطان، ليس فقط الاستيطان الصهيونى ، بل الاستيطان الرأسمالى فى جنوب إفريقيا أيام الأبارتهيد ، والاستيطان الأمريكى لمناهج المعرفة وأجندة العقل والثقافة . رومانتيكيته هى التى دفعته للوقوف متأملاً فى الخطاب الصهيونى ليرى فيه شيئاً آخر وراء الصهيونية ، يراه جزءاً من الرأسمالية الإمبريالية وأيضاً لصيقاً بمشروع الحداثة - وليس التنوير - فلسفياً . ويربط المسيرى بين دوائر فكره المختلفة ربطاً مركباً عبر نماذج تحليلية فلا يرى القارىء فى الحقيقة غرابة فى أن يكتب المسيرى فى اليهودية والصهيونية ، وفى الشعر ، وفى رؤى الحداثة ، وفى العلمانية كنموذج معرفى ، وفى التحيز الأكاديمى العلمى الغربى ، وضد نهاية التاريخ ، وفى الخطاب الإسلامى الجديد، وأخيراً يكتب كتباً متميزة للأطفال تنال جوائز قومية .

الأدب : مفتاح البداية

عبد الوهاب المسيرى فى الأصل أستاذ أدب إنجليزى ، كان



• اختار عبد الوهاب المسيرى أن يكون اسلاميا ورومانتيكيا إنســـانيـــا

ومايزال ، لم يتوقف رغم انشغاله بالموسوعات والكتابة فى شتى الموضوعات .

منذ البداية يتضح منحى رومانتيكية عبد الوهاب المسيرى فى اختياره لدراسة الماجستير والدكتوراة ، فهو متخصص فى الأدب الرومانتيكى ، يذهب فى دراساته لبحث كيف تتجلى من خلال كل قصيدة لحظة تاريخية محددة عبر المعنى وآفاق دلالاته ، وحين يدرس القصائد الرومانتيكية الواحدة تلو الأخرى ، فإن هذا يؤدى إلى الإحساس بالتتالى التاريخى . ومن ثم يحاول أن يحل المشكلة المنهجية الكبرى وهى كيفية الانتقال من النموذج الجمالى (الذى يؤكد استقلال القصيدة) إلى النموذج التاريخى (الذى يؤكد كونها جزءاً لا يتجزأ من عملية التتالى التاريخى) . درس قصائد كوليردج وفسرها مخالفاً لتفسيرات النقاد الآخرين ومنطلقاتهم الفلسفية ، ودرس وردز ورث الشاعر البارز ، باحثاً الدلالة الميتافيزيقية لما كتب بعد نهاية قصائده من إضافات شعرية هى «إضافات متأخرة» ، فيقرأ الشعر الغربى بعيون جديدة ترى عبر أدواتها التحليلية ما لا يراه أهلها .

ويجعل هذا خيطاً فى دراساته المتخصصة عبر السنوات ، والتى يتابعها أهل النقد والأدب بتقدير وقد لا يطالعها قارىء المسيرى المطالع لكتاباته المشهورة عن اليهودية والصهيونية ، فيهتم المسيرى فى دراسات وبحوث عديدة بالأمثال الرومانتيكية منذ لحظة ولادتها حتى لحظة احتضارها وموتها ، ويقوده هذا التحليل للغة والمجاز والتجاوز ، ومن هنا كان احتفائه المبكر بشعر المقاومة الفلسطينية ثم رؤيته للنموذج الانتفاضى باعتباره نموذج مقاومة إنسانية ضد السلاح وقوى البطش باعتبار الفلسطينى إنسان ، له ثقافة ولغة وتاريخ وشعر ، يمكنه وهو يجاهد لاسترجاع حقوقه أن يوظف لغته فى التعبير عن معاناته وحبه للحرية لتصبح لغة عالمية نضالية ضد الظلم .

عقلية توليدية ومفاهيم مغايرة

يصلح هذا عنواناً للعديد من إسهامات د . عبد الوهاب المسيرى الفكرية . فالتجاوز الذى آمن به ورؤيته الإنسانية التى تبناها هى التى نقلته من عقلية النماذج المعلوماتية الرصدية للرؤى المعرفية الكبرى ومن هنا انتقاله من المادية إلى رحابة الإنسانية ووعيه بحركة التاريخ .

وبذلك لقد أثمرت رؤيته الإنسانية هذه عدة إسهامات فى المجال الفكرى :

فلسطين .. النموذج الإنسانى

لا تقل كتابات المسيرى عن القضية الفلسطينية أهمية عن كتاباته فى الصهيونية ، ومن أهمها كتاباته عن فلسطين . والرؤية التى طورها المسيرى فى كتابه «الانتفاضة : دراسة فى الإدراك والكرامة» تقدم فلسطين لا كحالة أو قضية وحسب ، بل كنموذج إنسانى فريد للمقاومة له ملامحه وسماته النابعة من العقيدة والخصائص الحضارية فيما أسماه بالنموذج الانتفاضى ، ولأن الانتفاضة ليست مجرد ثورة ضد الاحتلال فهى لا تموت بل تتجدد (وهكذا نشهد - كما توقع المسيرى - تجدد الانتفاضة) والنموذج الانتفاضى ليس لصيقاً بفلسطين وحسب بل هو نموذج إنسانى ضد القوة الاستيطانية يمكن تطويره ليصبح نموذجاً إنسانياً يتحدى حسابات القوة المادية وعقلية الهزيمة والاستسلام.

يخدم المسيرى هذا التصور للطبيعة الإنسانية للنضال الفلسطينى بالإسهام فى

دراسة الشعر الفلسطيني ، ويترجمه للإنجليزية في إصدارات متتالية يمزج فيها رؤى النقد الأدبي بأفكار النقد الحضاري ، ويدرس جماليات المقاومة في المراثي - حب فلسطين - الصمود والمقاومة - الأمل في الانتصار . ويبرز جماليات المقاومة التي تدور حول إشكالية شاعر يبغي تغيير المجتمع وتحطيم الظلم ولكنه في الوقت ذاته يعبر عن نفسه من خلال شكل جمالي إبداعي متسق مع مكنون ذاته .



فيقرأ المسيري ويحلل شعر توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم .. ويرصد هذه الصور والرؤى التي تعبر عن مقاومة وصمود الإنسان الفلسطيني .

ولأن هذه التجارب الإبداعية بالدرجة الأولى تجارب إنسانية تتجاوز الخصوصية الفلسطينية فإن المسيري يحرص على نقلها ويترجمها للإنجليزية كي تصل بلسان آخر إلى بشر آخرين ، وتصبح تعبيراً إنسانياً عن الإنسان الفلسطيني ليتواصل به مع معاناة الشعوب في أي مكان .

وهناك له أيضا مختارات في القصص القصيرة الفلسطينية ترجمها الدكتور المسيري مع ابنته الدكتورة نور المسيري ، والقصص التي تضمها المختارات ليست بالضرورة قصص مقاومة ، فبعضها يتناول إشكاليات إنسانية عامة .

«يتجاوز اهتمام المسيري دائما السياسة إلى الحضارة ، ومن العمارة إلى إدراك قواعد العمران ذاته»

وحين تندلع الانتفاضة الفلسطينية يجد المسيري نفسه مستوعبا تماما في أحداثها ، ومستوعبا تماما لأهمية هذه اللحظة التاريخية في الجهاد الفلسطيني. مما يدعوه إلى ترك مشروعه البحثي الأساسي وهو «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» ليكتب دراسة فريدة عن الانتفاضة هي في تقديري من أهم كتاباته على الإطلاق ، وبدلاً من أن يرصد يومياتها بشكل معلوماتي أخرس ، يستنطق المسيري المعلومات والبيانات والتفاصيل اليومية الصغيرة لتتحدث بلسان إنساني متألق ، ثم يجرد منها رؤية معرفية تكمن وراء كل تفاصيلها هي رؤية للكون والحياة .

الغرب والعالم : لا نهاية للتاريخ

انشغل المسيري في مجال النقد الحضاري بالحضارة الغربية، ومقوماتها، ورأى في المدنية الأمريكية تجليا للحضارة الغربية في مراحل الرأسمالية المتأخرة، وكتب كتابه «الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية» ١٩٧٩ ليقدم رؤية تحليلية لعلاقة الغرب بالعالم انطلاقا من فهم الرؤية الحداثية للعالم والاحتمالات المعادية للإنسان الكامنة فيها والمتجلية في تاريخها وخبرتها ضد الأقليات وتصوراتها للآخر

مبكراً كتب في مراجعة النظرة لأمريكا باعتبارها «الفردوس

الأرضى» ، ومؤخراً أضاف وطور فى كتاب «الغرب والعالم» ، وكان اهتمامه دائماً يتجاوز السياسة إلى الحضارة ومن العمارة إلى إدراك قواعد العمران ذاته ، ولم يكن فى ذلك يمارس نزعة شوفينية تحيزاً لعروبته ، بل نظرة وموقف إنسانى يتفاعل مع الآخر فى سبيل الدفاع عن الإنسان ضد المادية الشرسة ، لذلك كان رمزاً محترماً وصوتاً مسموعاً فى الدوائر الأكاديمية الغربية ، وظل عبر مسيرته قادراً على إقامة جسور إنسانية مع الجميع ، مخالفين فى الرأى فى داخل ثقافته ومناقضيه فى الرؤية خارجها .

وفى كتاباته ينتقد الدكتور المسيرى الرؤية الحداثية للعالم ، لكنه لا يقف على أرضية من يرفضون الغرب ويريدون العودة فى التاريخ للوراء ، ولم يقبل أن يقف على أرضية تلفيقية محايدة تهاجم الغلو والردة الحضارية وتزعم الاستفادة من مكتسبات الحضارة الغربية دون نقد حكيم ، بل هو يقوم عبر نموذجه الواضح لعلاقة الإنسان بالكون ونقده للحلولية والعلمانية المادية بنقد الحداثة تجاوزاً لها لا عداء معها أو حرصاً على موقف المناقض لها ، وبذلك يقدم خطاباً تجديدياً إنسانياً من فوق أرضية الحضارة العربية الإسلامية يمكن بحق وصفه بأنه خطاب إسلامي جديد يرتفع للمقاصد ولا يغرق فى تفاصيل الفقه ، وبذا يكون خطاباً إنسانياً صالحاً للتواصل والتفاعل مع العالم والقوى والتيارات الإنسانية المختلفة المعادية للمادية والمعلوماتية الصلبة . وقد كتب المسيرى ضد فكرة نهاية التاريخ التى تجددت مع كتابات فوكوياما ، ونشر منذ السبعينات رؤيته لتلك الفكرة باعتبارها ضد الإنسان ، وربط مبكراً بين هذه الفكرة ورؤى الصهيونية لانطلاقهما من رؤية امبريالية ، فكتاب «نهاية التاريخ» مقدمة «لدراسة الفكر الصهيونى» صدر للمسيرى عام ١٩٧٢ كدراسة فى فلسفة التاريخ الصهيونى ، تذهب إلى أن الفلسفات المادية تحاول دائما أن تضع نهاية للتاريخ (الزمان والمكان) ، وأن تبدأ من نقطة الصفر ، وهذا ما يصنعه الصهاينة بالنسبة لكل من الفلسطينيين ويهود العالم .

العنصرية والصهيونية

أبرز ذلك كتابات المسيرى حول إعادة صياغة المفاهيم هو وصف «الجماعة اليهودية» باعتبارها جماعة ثقافية واحدة، وهو ما بينه المسيرى أنه أسطورة صهيونية، وبذلك قام بتفكيك وإعادة تركيب الفكر والتاريخ اليهودى فى عدة كتابات حققت تراكما فى هذا المجال وصارت فى أبرز الأدبيات العربية فى موضوعاتها ، وقد ربط هذه الرؤية الكلية بالقضايا السياسية الجارية لفهمها وترشيد إدراكها بشكل يتجاوز المعلوماتية الناقلة الرصدية ، فكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية التى صدرت بالقاهرة ١٩٧٥ عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، بالأهرام كانت بداية كتابته فى هذا المجال ، وسيظل يتابع تأصيل وتطوير أطروحاته بدأب عبر السنوات ، ومنذ عام ١٩٧٦ ربط بين الصهيونية والعنصرية وبين جهاد الشعب الفلسطينى وكفاح شعب جنوب أفريقيا ضد الأبارتهيد ، وما أشد الحاجة الآن لاستعادة هذه الأفكار فى ظل خطط تحويل الاستيطان الصهيونى لفلسطين لمناطق عزل عنصرى جديد . وأدرك عبر البحث الحاجة لكتابة موسوعة ضخمة كمحاولة لتأصيل موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية الأصلية ولتنعكس فيها رؤاه وجهوده فى مسارات مختلفة وتعمقها وتستفيد منها وتغذيها وأبرزها رؤيته للعلمانية كرؤية معرفية وفلسفة حداثية .

وقارن فى كتابات موازية للموسوعة صلة النموذج بالأحداث وتطورها على الأرض

كما في كتابه «هجرة السوفيت» ونقده للرصد المعلوماتي للقضية ، وليتنبأ بأنها ستفكك المجتمع الصهيوني ، ثم كتب حول أهمية فهم إسرائيل من الداخل وتطوير نموذجنا التحليلي وليس استيراده كي نطور قدرتنا التفسيرية وفهمنا لطبيعة العدو وطبيعة القضية والمعركة ، وليس فقط هتافاتنا وجهادنا اللفظي .



تفكيك الإنسان !

حين انتهى الدكتور المسيري من موسوعته ، موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد» ، وجد أنه من المفيد أن يتأمل في إنجازه ، وأن يحاول أن يعلق عليه ويستخلص منه النتائج الفلسفية والمنهجية (وكعادته دائما مع معظم أعماله) يعكف الآن على ما يقرب من أربعة مجلدات يكشف فيها منهجه وأطروحته الأساسية ، وقد لخصها كلها في المجلد الأول من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية الحالية . ويعمل - رغم مرضه - على تطويرها وإصدارها كاملة كعمل مستقل أو كأعمال مستقلة .

«الجماعات الوظيفية» من أبرز المفاهيم الاجتماعية التي أسهم المسيري في تطويرها وتوظيفها في دراسة الظواهر الجديدة

وهو يرى أن «ما بعد الحداثة» العلمانية لا تشكل انحرافا عن الحضارة الغربية وإنما هي كامنة في منظومة الحداثة نفسها وما يسميه «نزعتها التفكيكية» ، لأنها جعلت من قوانين المادة الطبيعية معيارا لكل شئ ، بما في ذلك الظاهرة الإنسانية ، ولكن القانون الطبيعي لا يعترف بأية مطلقات ، إذ أنه يقوم بتفكيك كل شئ بما في ذلك الإنسان . ومع تفكيك كل شئ نصل إلى العدمية الكاملة أو إنكار المركز ، إلهيا كان أم إنسانيا ، وإنكار القيمة ، بل الحقيقة ، ومن ثم المقدرة على الحكم ، أي أننا وصلنا إلى مرحلة ما بعد الحداثة واللاعقلانية المادية ، مما يستلزم تفرقة حاسمة بين بواكير التنوير ومشروع الحداثة .

وهو يطور مفهوم الحلولية أي إنكار المسافة بين الخالق والمخلوق بحيث يصبحان جوهرا واحدا ، فيحرره من المعنى العقيدي ويكسبه دلالة تحليلية في دراسة العلمانية والحداثة ومحاولات التجاوز في تيارات ما بعد الحداثة وتصورها لكونها عجزت عن التحرر من فكرة الإنسان الطبيعي ، فحين يتم تهميش الدين تسود الحتميات وتصفى الثنائيات وتصبح الظواهر ذات بعد واحد ، أي تسود الواحدية (الروحية والمادية) بدلا من الثنائية والجدل والتدافع .

وننتهي إلى سيادة القانون الطبيعي / المادي على رؤى الإنسان .

والفرق بينها وبين العلمانية الجزئية يكمن في أن العلمانية

الجزئية تطالب بفصل الدين عن الدولة وحسب ، وتلزم الصمت بخصوص مفهوم القيم المطلقة والحياة الخاصة والمرجعية النهائية للقرارات السياسية . أما العلمانية الشاملة فهي ليست فصل القيم الدينية عن الدولة وإنما فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية لا عن الدولة وحسب وإنما عن حياة الإنسان العامة والخاصة وعن المرجعية النهائية للدولة ولكل قرارات الإنسان ، أي أنها فصل القيمة عن الحياة . ونتيجة لهذا يظهر العلم المنفصل عن القيمة ، والجسد المنفصل عن القيمة ، والحياة المنفصلة عن القيمة ، وهذه هي العقلانية المادية الكاملة المستحيلة . وإذا كان من الممكن تقبل العلمانية الجزئية ، أي فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد (بالمعنى المباشر والمحدد للكلمة) فالعلمانية الشاملة - أي فصل الدين عن الحياة وربط الإنسان بقوانين الطبيعة المادية وحسب أمر من العسير تقبله لأنها أيديولوجية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم ، ومن ثم فهي لا تتصالح مع الدين ولا مع الإنسان، مسلما كان أم مسيحيا أم يهوديا ، وتحاول أن تختزل حياة الإنسان للبعد المادي وحسب !

بلورة مفهوم الجماعة الوظيفية

من أبرز إسهامات الدكتور المسيرى تطويره لمفاهيم اجتماعية وتوظيفها فى دراسة ظواهر جديدة ، ولعل أبرز هذه المفاهيم هو مفهوم الجماعات الوظيفية ، والذى استخدمه رواد علم الاجتماع فى دراسة جماعات داخل نطاق المجتمع بأدوار وظيفية معينة وقد ترتبط بطبقة أو إثنية ، والجماعة الوظيفية هى جماعة يستوردها المجتمع أو يجندها من داخله ، تعرف فى ضوء وظيفتها لا فى ضوء إنسانيتها الكاملة ، ويوكل المجتمع لهذه الجماعة وظائف لا يضطلع بها عادة أعضاء المجتمع إما لأنها مشينة (البغاء - الربا) أو متميزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة) أو أمنية وعسكرية ، أو لأنها تتطلب الحياد الكامل (التجارة وجمع الضرائب) . ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية ، وهم عادة عناصر حركية لا ارتباط لها ولا انتماء ، تعيش على هامش المجتمع فى حالة اغتراب ويقوم هو بعزلها عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعى .

وقد سحب المسيرى هذا المفهوم على الكيان الصهيونى باعتباره كيانا وظيفيا فى إطار النسق الرأسمالى العالمى لخدمة أهداف استراتيجية فى المنطقة العربية ، معطيا بذلك دلالة عميقة لفلسفة تأسيس الكيان الصهيونى تتجاوز اغتصاب الأرض .

ويطور الدكتور المسيرى فى كتاباته مفهوم الجماعة الوظيفية ويطبقه على تاريخ الجماعات اليهودية ، منطلقا من رأى ماركس وإنجلز وفيبر وسومبارت فى أصول الرأسمالية ، ويطوره ليحلل قضية الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية فيقدم مفهوم «الجماعة الوظيفية» باعتباره أداة تحليلية أكثر تفسيرية وتركيبية من مفهوم «الطبقة» التقليدى .

انى أرى الملك عاريا!

ربما يكون من الغريب فى ظل التفوق العلمى والبحثى فى الغرب أن يقف عقل عربى مستقل ليذهب إلى أن المناهج الغربية مناهج متحيزة لرؤيتها للعالم ولإدارتها للواقع ، وأن لها حدودا فى فهم وتفسير الظاهرة الإنسانية والاجتماعية

ولعل كتاب «التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد» الذى شارك فيه د. عبدالوهاب



المسيرى وحرره فى جزئين يمثل أحد أهم جوانب تميز المسيرى فرغم أنه قام بأعمال فكرية تستلزم جهد جماعة منفردا ، فإنه أيضا حاول أن يجمع عقولا شتى فى قضية التجديد المعرفى الأوسع فى سعى لتأكيد التواصل عبر التخصصات والأقطار والأجيال. ولذلك فإن كتاب التحيز هو أيضا تجربة فكرية وبحثية ثرية لها دلالات فى فهم دور العقل الموسوعى فى التواصل مع الساحة الفكرية والعلمية وإثراءها وعدم الانعزال عنها أو الاكتفاء بالذات أو الانكفاء عليها حتى ولو كانت متميزة، فضلا عن الدعم العلمى والفكرى للأجيال الجديدة لتكتسب الشجاعة والقوة التى تستلزمها العقلية النقدية والحضارية.

سيرته والكتابة للأطفال

عن حياته الفكرية وعن وعيه بضرورة التمييز بين العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، وعلاقة القرية والمدينة فى ظل الحداثة، والصلة بين دراسة الشعر الرومانتيكى و دراسة الصهيونية وتاريخ الأفكار كتب سيرته الذاتية التى تحاول أن تؤرخ لتطوره الفكرى، وتجيب فى الوقت نفسه على هذه الأسئلة. ولذا فقد أطلق عليها عبارة «سيرة غير ذاتية»، فهى سيرة لا تضم حياة فرد بل هى سيرة مفكر عربى إسلامى. ولكنها فى الوقت نفسه تتضمن الحقائق الخاصة بفرد معين له أبعاده الخاصة جدا، ولذا فهى أيضا «سيرة غير موضوعية».

«المسيرى مفكر إنسانى يؤمن بقدرة الإنسان، وتجاوز أفق العقل الإنسانى لقوانين الطبيعة

إن كثيرا من العقول الموسوعية قد تقدم للآخرين معرفة وعلما ، لكنها لا تزودهم بالتجارب الإنسانية والفكرية والفلسفية التى مرت بها، وبذلك لا تقدم خبرة فكرية وبحثية تحقق نقلة وتثرى الدائرة الفكرية وتسجل للأجيال مسيرة العقل الحضارى عبر سيرته، ولعل السير الذاتية الفكرية هى أبرز الأعمال التى تقوم بهذه المهمة، وقد أصدر د. عبد الوهاب المسيرى مؤخرا أيضا سيرته الذاتية بهذا الهدف.

لكن ما الذى يدفع عقل مثل عقل المسيرى لكتابة قصص الأطفال؟ ويحصل عنها على جائزة سوزان مبارك لأدب الطفل؟

الدافع هو رسالة العقل الموسوعى الذى يدرك أن الأمة التى تدافع عن فكر حضارى مستقل وفعل حضارى مستقل لابد أن تتزود بهذه المعرفة القوية على كل المستويات، وأن رسالة العقل الموسوعى هى إبراز جوانب تميز حضارته والمساهمة فى مواجهة تحديات واقعها، فيكتب قصصا للأطفال يضمنها رؤاه الفلسفية وتبرز فيها قدرة القصص على تغيير رؤى العالم، فتخرج سندريللا من أسر العقل الغربى لتتواصل مع حاضرها وتركب مترو الأنفاق،

وترتدى في حفل الأمير زيا أهدته لها زينب «هانم» خاتون لا الساحرة الطيبة، ثم تسافر بعد الزواج للحصول على شهادة الدكتوراه.
إنها حقا قصص مسيرية .. جدا.

المسيرى .. جدو هابو

مازلت أذكر أول مرة التقيت فيها بالدكتور عبد الوهاب المسيرى، كان ذلك فى ١٩٨٩ فى ندوة بمقر حزب العمل ألقاها عن الانتفاضة والنموذج الانتفاضى، بدا لى خطابه مختلفا عن الخطاب السائد على كل الجبهات الفكرية آنذاك، أخذت منه موعدا وزرته، وبدأت معرفتى به كمفكر وتوطدت علاقتى بأسرة الدكتور عبد الوهاب المسيرى بشكل متواز، ولذا فقد شاهدت وعايشت د. عبد الوهاب المسيرى الإنسان والمفكر والأب معا، وعاصرت تبلور أفكاره فى قضايا عديدة، وعاصرت معاناته فى إنهاء موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - معاناته الفكرية النبيلة وأزماته المالية الطاحنة، وعرفت كيف يمكن أن يعانى المفكر الأستاذ لينفق على علمه بدلا من أن يرتزق منه، وتعلمت منه الكثير والكثير، وربما تحديدا لأننى لا تجمعنى به مؤسسة أكاديمية ولا مصالح هيراركية.

علمنى د. المسيرى أن علاقة المفكر بأجيال أصغر ليست علاقة كتاب يستعار أو جلسة فكرية تعقد ، بل علاقة أب بأبنائه.. يشاركهم لحظات حياتهم المختلفة.. حاضرا فى عقد قران، وزائرا بمولد طفل، وفى رمضان يدعو تلامذته للإفطار وتقدم لهم د. هدى حجازى القطائف بالقشدة، أما حين يريد أن يخرج معهم بعيدا عن جدل ونقاشات المطلق والنسبى والجماعات الوظيفية والعلمانية الشاملة.. فإن مركبا فى النيل فى عصر يوم جمعة يحمله فى نزهة هادئة مع تلامذته المقربين وأطفالهم الذين ينادونه : جدو هابو.

غير صحيح ولا دقيق أن يوصف د. عبد الوهاب المسيرى بأنه خبير فى قضايا اليهود والصهيونية وحسب ، أو أستاذ أدب إنجليزى وكاتب موسوعى، لكن المسيرى فى إيجاز : مفكر إنسانى Humanist. وإذا ما نظر المرء لساحة الفكرية فى عالمنا العربى برمته وقام بتصنيف المفكرين عبر توجهاتهم ومدارسهم المختلفة فإن المسيرى يأتى بجدارة على رأس المفكرين الإنسانيين الذين يؤمنون بقدرة الإنسان، وتجاوز أفق العقل الإنسانى لقوانين الطبيعة وحدود الجسد.

والمسيرى مع كونه مفكرا «إنسانيا».. فهو إنسان. وإبداعاته - كما حياته - إنسانية، فرحته بصدور كتاب له لا تقل عن فرحته بنجاح تلميذ من طلابه فى الكتابة والنشر، أو الحصول على درجة علمية ، وقدرته على أن يدفع من حوله إلى الأمام مصدرها أبوة غامرة وتواضع واثق وعطاء مركب، بل يشكر فى فواتح ومقدمات موسوعاته وكتبه تلامذة وباحثين فى نصف عمره لأن أفكارهم كانت «عميقة الأثر على رؤيته واستفاد منها كثيرا».. ثم هو الذى يسأل عندما نمرض، ويتابع حينما نكتب ، ويدعونا للزيارة عندما نغيب وننشغل، بل ويفتح بيته لكى ندعو - نحن تلامذته - إلى ندوة جلسة لا نجد مكانا يستضيفها أو مساحة من القبول الفكرى تحتملها، حتى لو اختلف أو كان له وجهة نظر أخرى؟ ■

دائرة حوار

العبد لله.. ومدافع الحنجورى

بقلم

محمود السعدنى

لست أدرى ما الذى جنيته على وجه التحديد ، لكى أتعرض لكل هذا القصف العنيف الذى يشبه القصف الأمريكى على مخابىء مقاتلى القاعدة ورجال طالبان فى أفغانستان ، ولكن بعض الأنقاض الناتجة عن القصف تؤكد أن السبب هو كتاب للعبد لله صدر منذ سنوات بعنوان (الطريق إلى زمش) وهو كتاب عن فترة قضيتها منذ أكثر من أربعين عاماً فى سجن المحاريق بالواحات الخارجة مع مجموعة من الزملاء. وبالرغم من أن العبد لله لم يكن له صلة بالموضوع الذى كان سبب سجنى إلا أن سلوكى كان نموذجياً إلا من بعض أعمال الشقاوة والشيطنة، وبعض الأعمال التى ترسم البسمة على الوجوه فى جو السجن المتجهم الرهيب . من بين هذه الأعمال تأسيس تنظيم «زمش» وهو اختصار لعبارة (زى مانت شايف) واستطعت أن أفرض تنظيمى على الحياة العامة فى السجن. وأن أتساوى مع التنظيمات الأخرى . وهى تنظيمات طش، اختصار لتنظيم طليعة الشيوعيين، وتنظيم وش.. (اختصار لوحدة الشيوعيين)، وتنظيم حشم يعنى الحزب الشيوعى المصرى. وجاء الكتاب كانطباع فنى لكاتب شعبى وجد نفسه فى هذه المحنة التى لم يخترها ولم يسع إليها. وبالعكس حمل الكتاب احترامى البالغ لعشرات من المعتقلين من بينهم المرحوم مصطفى طيبة والمرحوم محمود المانسترلى والسيد عبد الله بتاع بنى سويف والدكتور حمزة البسيونى بتاع اسكندرية، والصحفى الأديب الفنان صلاح حافظ أحد نجوم الصحافة المصرية والمرحوم لطفى الخولى والمحامى اللامع الأستاذ على الشلقانى والدكتور فايق فريد والأستاذ الكبير أسعد حليم. والغريب أن عدداً من ألمع أعضاء هذه الجماعات كانوا أعضاء فى تنظيم «زمش» ولم يحدث بينى وبينهم إلا كل مودة وكل خير.

ولكن الذى هالنى من عمليات القصف هو مقال الأستاذ الكبير رفعت السعيد القطب السياسى المصرى وأحد زعماء حزب التجمع. ورأى العبد لله أنه لاينتمى بسلوكه إلى قبائل الحنجورى، ولكنه رجل موضوعى لا يكره أصحاب الموهبة ولا يعادى أى فنان. ولا يقع فريسة للعبارات المسكوكة التى نفرت الناس منهم، فهذا رجعى وهذا عميل وهذا من طائفة الكولاك، وهذا برجوازى شريف، وذاك برجوازى من الشواشى العليا للبرجوازية. وذلك لدى اعتقاد أنه كتب مقاله دون أن يقرأ كتابى

ولكنه ربما سمع عن الكتاب من أحد السادة الحنجوريين . وهالنى أنه فسر موقفى من الرفاق بأنه ربما كان غيرة من تشددهم ضد ادارة السجن وممارسات السلطة. وأحب أن أطمئن الأستاذ رفعت أن تشددهم كان في الهايفة. وهل يتصور الأستاذ الكبير رفعت أن غيرتى كانت نتيجة حتمية لتشدد الأستاذ حمدى حمدان عضو اللجنة المركزية والمناضل القديم هذا التشدد الذى دفع الناقد إبراهيم فتحى إلى الاعتداء عليه بالضرب داخل العنبر وأمام جميع النزلاء، مما دفع بالإدارة إلى نقله لعنبر الإخوان المسلمين لحمايته من زملائه الشيوعيين . لو قرأ الأستاذ رفعت كتابى لاكتشف أنه مجرد لوحة فنية لكاتب على باب الله ، لا يهدف إلى تصفية حسابات أو تسديد حسابات، وانما هى مجرد رؤية فنية ساخرة سجلتها على الورق ومضيت فى سلام.

ولكن سؤالى هو .. ما الذى حرك المواجع الآن؟ وما هى الأسباب التى فرضت على المقاتلين اطلاق مدافعهم على مواقع العبد لله؟

هل السبب أن أحد السادة القراء عرض كتابى على صفحات مجلة «الهلال» الغراء. الحقيقة أننى لا أعرف الأستاذ الفاضل ، ولم أتشرف برؤيته، ولم أقرأ ما كتب إلا بعد أن قام الأستاذ مصطفى نبيل بإهدائى نسخة من المجلة عند التقائنا فى حديقة نادى الصيد بالدقى.

على العموم . أشكر الأستاذ رفعت السعيد على مجاملته الرقيقة لوصف كتابى على أنه مثل أفلام إسماعيل ياسين القديمة. وقضى الأستاذ رفعت بأن أفلام إسماعيل ياسين فى الجيش واسماعيل ياسين فى البحرية واسماعيل ياسين فى الطيران وفى البوليس الحربى لاتصلح للحكم على مستوى القوات المسلحة المصرية ، كما لا يصلح كتابى للحكم على الحركة المجيدة للتنظيمات الحنجورية . وأقول للأستاذ رفعت .. أنه لم يبق من أفلام النخبة التى قام ببطولتها أبطال تاريخيون أمثال عباس فارس ومحمود الحكيم وفؤاد شفيق، لم يبق من أفلام هذه المرحلة إلا أفلام إسماعيل ياسين، ولايزال يطلبها ويشاهدها أطفالنا وشبابنا وحتى العجائز منا، ويشرفنى ويسعدنى أن يكون كتابى كأفلام إسماعيل ياسين، وهذا أفضل من تشبيه كتابى بتحليلات الأخ حمدى عبدالجواد!

والعبد لله يتمنى أن يستفيد أفراد قبيلة الحنجورى من الأحداث التى عصفت بهم فى السنوات الأخيرة على المستوى العالمى أو المستوى المحلى.

وأشكر الجميع الذين اهتموا بكتابى (الطريق إلى زمش) بعد مرور أكثر من ٨ سنوات على صدوره، وأتمنى أن تبقى العلاقات بيننا فى اطار الاحترام والمودة . هكذا كانت فى المعتقل وهكذا ينبغى لها أن تدوم، وهذا أفضل لهم ولنا وللجميع! ■

فلسطين الى الحاضر في قضيتي

بقلم

د. عادل أبو زهرة *

يحار المرء عندما يتأمل حال العرب والمسلمين فى كل مكان من هذا العالم المترامى الأطراف، فبينما تتجه الأمم الأخرى بخطوات واسعة نحو نظم الحكم تأخذ بالديمقراطية منهجا لإدارة شئونها العامة والخاصة وتنظم انتخابات تتسم بالنزاهة والشفافية، وتحترم الحكومات فيها القوانين التى تصدرها وتحترم حقوق مواطنيها فى التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة فى صنع القرار، وتحترم الخلاف والاختلاف واعتماد الحوار أسلوبا لإدارة ما بين مواطنيها من تنوع فى الآراء، وبينما تحقق هذه الأمم انجازات متميزة فى مجال إنتاج العلم والمعرفة والتكنولوجيا، وتحسن أحوال العيش لمواطنيها، وتدير مؤسساتها بكفاءة واقتدار، وتهيئ لدى مواطنيها عقليات علمية وتشجعها على النقد والتحليل والاكتشاف والابتكار والإبداع، وتعتنى بالمؤسسات التعليمية عناية بالغة وتشجع وسائل الإعلام على تحفيز مواطنيها على استخدام العقل والمنطق والموضوعية، نجد أن الأنباء التى تخرج يوميا من عالمنا العربى والإسلامى تزرع فى نفوسنا الحسرة واليأس.

* استاذ العلوم السلوكية وخبير في التنمية البشرية – الإسكندرية



ابن رشد

ففى دولة إسلامية تخرج الأنباء عن انتخابات مزيفة ومزورة، وعن قرارات حكومية تحظر على المرأة الخروج من المنزل والذهاب إلى المدارس ومخاطبة أو مخالطة الرجال، ومن دولة عربية أخرى تنقل شبكات التليفزيون العالمية صورة لمجموعة من الرجال تهتف وقد امتلأت وجوههم بزهو الانتصار لأن البرلمان فى هذا البلد صوت ضد إعطاء المرأة الحق فى الترشيح وفى الإدلاء بصوتها فى الانتخابات، كما تنقل وسائل الإعلام من بلد عربى ثرى صورا للنساء وقد اتشحن بالسواد وتغطين من قمة رءوسهن حتى أطراف أصابع أقدامهن بكميات كثيفة من القماش، وفى هذا البلد لا تستطيع المرأة أن تقود سيارة أو تحضر محاضرة علمية يلقيها رجل إلا من وراء ساتر، ومن بلد آخر لا تتوقف الأنباء عن ذبح النساء والأطفال وترجع هذه الأنباء أن الذين يقومون بهذه المجازر جماعات تنسب نفسها للدين، أما عن قضايا تكفير الأدباء والمفكرين والباحثين وإهدار دمائهم فحدث ولا حرج، حيث يساق إلى المحاكم مغنيون وشعراء وقصاصون وروائيون بتهمة الكفر أو الزندقة أو الإساءة للدين أو إنكار بعض ما هو معلوم منه، أما أعجب هذه القضايا فهى التى ترفع على رجل أو امرأة لتفرق بينهما بحجة كفر أو ارتداد أحدهما، يضاف إلى ذلك مصادرة الكتب من كل نوع من الكتب العلمية إلى الأبحاث والأطروحات الجامعية إلى الروايات والقصص ودواوين الشعر وصولا إلى بعض معارض الفن التشكيلى.

الفهم الخاطىء للدين

يضاف إلى ذلك انعدام لغة الحوار الهادىء والرصين بين المختلفين وسيادة لغة الاتهام فى الوطنية أو العقيدة أو الذمة، كل هذا يتم فى الوقت الذى تشكو فيه الأمة من علل كثيرة مثل تدهور حال التعليم وتدهور أحوال البحث العلمى وتدهور الإنتاج كما وكيفا، وتدهور نوعية الحياة التى يحياها المواطنون، وتدهور الثقافة، وسطحية وتفاهة الكثير مما يقدم فى وسائل الإعلام، فنحن لا نسهم إسهاما يذكر تقريبا فى إنتاج العلم أو المعرفة أو التكنولوجيا، ونحيا طوال الوقت على ما يتم إنتاجه من علم ومعرفة وتكنولوجيا تصل إلينا من دول أخرى، ولا نرى أمامنا فى النهاية غير الترويج لفكرة المؤامرة، فالعالم كله يتآمر علينا ويريد أن يوقف تقدمنا وازدهارنا، مع أننا لا نفعل إلا اليسير لنتقدم أو نزدهر، كل ما نفعله أننا نرتد إلى رحم الماضى بكل ما يوفره هذا الارتداد لنا من مشاعر خادعة بالأمن والفخر، وإذا نظرنا حولنا إلى دول بدأت مشروع نهضتها معنا أو بعدنا بكثير وجدناها تتقدم بخطى واسعة على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والعلمية مثل اليابان وسنغافورة وتايوان والصين وتايلاند وكوريا وغيرها من دول جنوب شرق آسيا، هل يعود السبب الرئيسى فى بؤس أحوالنا إلى فهمنا الخاطىء لرسالة الدين، وإقحام الدين فى ميادين يجب ألا نقحمه فيها؟ هل هى حالة الدروشة والتعصب الدينى وضيق الأفق التى انتابتنا

دائرة حوار

منذ حوالي ثلاثين عاما؟ أليس من الواجب أن نعيد الدين إلى مكانته المقدسة ونتوقف عن إقحامه في ميادين السياسة والاقتصاد ونظم الإدارة وميادين العلوم المختلفة.

اليوم الذي تغير فيه العالم

مر كل ذلك بخاطري وأنا أقرأ كتابا شديد الأهمية من تأليف البريطاني جيمس بيرك "James Burke" بعنوان اليوم الذي تغير فيه العالم "The day the Universe "changed ، يتناول فيه أهم المنجزات التي حققتها الحضارات الإنسانية المتعاقبة كالحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية خاصة في بلاد الأندلس وصولاً إلى العصر الحديث، وأكثر ما أثار سعادتي ذلك الجزء الذي تحدث فيه عما أسهم به المسلمون في تقدم البشرية.

لقد قرأت الكتاب بالإنجليزية وبعد أن فرغت منه عثرت على ترجمة ممتازة له إلى العربية قام بها مترجمان متميزان هما السيدة ليلى الجبالي والأستاذ شوقي جلال، فقرأته مرة أخرى.

يقول المؤلف: «ظلت الأندلس على مدى مائتي عام بعد الفتح العربي موطنا نائيا ومنعزلا للإسلام حيث تقع في الغرب الأقصى من مراكز العلم والتجارة في بغداد ودمشق. ثم أخذت الأندلس تزدهر تدريجيا تحت الحكم الإسلامي إلى أن غدت إقليما غنيا. وعندما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى بني أمية في عام ٩٣٢م، أصبحت أسبانيا بعاصمتها قرطبة هي الجوهرة في تاج الإسلام».

يقول المؤلف: «أصبحت الأندلس في ظل الخلافة الأموية، إقليما غنيا راقيا متحضرا.

ويؤكد «جيمس بيرك» أن العرب استخدموا الورق في ذلك الزمان البعيد، وهو مادة لم يكن الغرب قد عرفها بعد. ولما كان استخدام الورق أمرا متاحا، فقد ساعد ذلك على نمو مجتمع متعلم على أعلى مستوى.

وعن تسامح المسلمين مع أهل العقائد الأخرى يقول المؤلف «لقد تميز موقف هذا المجتمع الثري الحضاري ذي الثقافة الرفيعة بالتسامح مع العقائد الأخرى، حيث عاش في ظل حكم الخلفاء المسلمين آلاف اليهود والمسيحيين في سلام وانسجام كاملين، واستخدمت عوائد الأرض لتطوير مستوى الحياة. والأهم من هذا كله، أن الدين والثقافة تعايشا معا في تواؤم، فحيثما وجد الإسلام، وجد معه التعطش إلى المعرفة وتطبيقاتها على شتى مناحي الحياة». أما عن عنايتهم بالفن فيقول «جيمس بيرك» «وفي القرن التاسع عاش في قرطبة الموسيقار والمطرب الكبير "Ziryab" «زرياب» الذي كان رائدا في عزف مؤلفات موسيقية ذات أسلوب متميز هو أسلوب المدينة المنورة، وبغداد، وقد نجح الأمويون في إغراء «زرياب» ليعيش في قرطبة، حيث أصبح فيها رائدا للتقاليع فهو الذي ابتكر فكرة ارتداء الملابس التي تناسب كل فصل من فصول السنة، وتسريحات الشعر المختلفة، وصالونات التجميل، وهو الذي ابتكر نظام تقسيم الوجبات إلى أطباق مختلفة، واستخدام الكؤوس الزجاجية على المائدة بدلا من الأواني المعدنية».

بين المسلمين والغرب

وعندما يقارن بين المسلمين والغرب

يقول «من الناحية الفعلية، كان الخليفة فى قرطبة هو الحاكم المطلق لشمال إسبانيا، حيث كان المسيحيون يعيشون فى قلاعهم المكشوفة فى مدينتى ليون، ونافارى، فى حالة من القذارة والجهل مثلما كان عليه الحال فى بقية شمال أوروبا، وقد اعتاد الخليفة أن يرسل على فترات منتظمة حملات إلى الشمال للتأكد من استقرار الأمن والقيام ببعض المناوشات ونهب ما يقع عليه الاختيار من بلدان الريف، وغالبا ما كانت هذه العملية تنفذ طبقا لجدول زمنى محدد خلال الربيع والخريف. أما خلال فترة هدوء الصيف، فقد اعتاد المسيحيون أن يرسلوا إلى قرطبة طالبين استئجار أطباء الأسنان، ومصففى الشعر، والجراحين، والمهندسين المعماريين، والموسيقيين».

ويضيف «وربما يرجع الفضل للموسيقيين العرب فى نقل الأسلوب العربى فى الوزن الشعرى، والإيقاع الموسيقى إلى أوروبا عبر إقليم «بروفنس» "Provence" جنوب شرق فرنسا، من خلال أغانى الشعراء المتجولين «التروبادور»، ليتغير أسلوب الشعر والموسيقى الأوروبية إلى أسلوب عصرى. وبعد كل هذا الازدهار والتقدم فى الأندلس سقطت قرطبة فى عام ١٠١٣، نتيجة الانشقاقات داخل هيكل السلطة العربية، لتضع نهاية الخلافة الأموية. ومع تلك النهاية تم تدمير المكتبة الكبرى.، وقد سمح الحكام الجدد، وفقا للتقاليد الإسلامية، بتوزيع الكتب مع طلاب العلم فى قرطبة، على المدن الرئيسية فى الإمارات الإسبانية الصغيرة، مثل أشبيلية، وسرقسطة، وفالنشيا، وباراجوز، وغرناطة، ودنيا، وتوليدو. وكان رجال البلاط فى هذه الإمارات يتنافسون على تقديم المساكن والتسهيلات لهؤلاء الطلاب وقد عبر عن هذا الوضع فى القرن الحادى عشر أحد هؤلاء الطلاب واسمه «سيد» كان يعيش فى توليدو، حين كتب يقول «إن الأحوال فى الأندلس مازالت طيبة كما كانت دائما». كان ذلك صحيحا، خاصة فى مدينة توليدو.

«لقد ظلت توليدو على مدى مائتى عام عاصمة - للقوطيين الغربيين - إلى أن سقطت فى يد العرب عام ٧١١. وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها موطن أكبر عدد من السكان اليهود فى أسبانيا، إذ بلغ عددهم، عندما استولى المسيحيون على المدينة، حوالى عشرة آلاف يهودى. وأسهم هؤلاء اليهود والعدد القليل من الطلاب المسيحيين المقيمين فى المدينة بتقديم العون الكبير للسائحين الأكاديميين القادمين من الشمال».

انفجار القنبلة الفكرية

إن هذا الكم الهائل من المعرفة لو أنه هو وحده الذى وصل إلى الأوروبيين اللاتينيين لكان كافيا ليحدث تحولا حاسما، لكن انفجار القنبلة الفكرية التى هزت أوروبا إنما حدث نتيجة للفلسفة التى حملتها معها هذه المعارف. فقد شملت نظرية أرسطو فى المذهب الطبيعى والمنطق الجدلى. وكانت معظم المواد المترجمة عن أصول عربية، وأكبرها عددا من الأعمال المترجمة عن نصوص عربية لمؤلفات علمية يونانية، مع تعليقات ساعدت كثيرا على فهم هذه الموضوعات المتقدمة.

ويؤكد المؤلف أن «موسوعة الشفاء» الشاملة للطبيب الفارسى ابن سينا، كانت فى مقدمة تلك الموضوعات، وهى الموسوعة التى كتبها فى السنوات المبكرة فى القرن

الحادي عشر. كانت موسوعة ابن سينا، أول موسوعة فلسفية تقدم أفكار أرسطو التي صدمت وأثارت الغرب، لأنها وضعت الدين والفلسفة في مركزين متساويين، كمذهبين في تفسير الكون. وقد تعارضت هذه المساواة مع تعاليم الديانة المسيحية، تعلم الغرب من ابن سينا وغيره من المفكرين الآخرين، قوة الجدل السحرية بواسطة القياس المنطقي الذي يحول استخدامه دون الوصول إلى نتائج خاطئة غير منطقية.

أما عن تأثير الفيلسوف «ابن رشد» فيقول المؤلف : إن الصدمة الأخيرة جاءت مع السنوات الأولى من القرن الثالث عشر، فيما شملته من تعليقات الفيلسوف العربي ابن رشد على نظريات أرسطو، وهو الفيلسوف العربي الذي يعرفه الغرب باسم «أفيروس» "Averros" وقام بترجمة هذه التعليقات في إسبانيا «جيرار أوف كريمونا» "Gerard of Cremona" وهو أكثر المترجمين غزارة في الإنتاج، وبفضل هذه الترجمة قدم ابن رشد للغرب أكثر التحليلات وضوحا لفكر أرسطو في صورته الخالصة، وأصبح ابن رشد معروفا بعد ذلك باسم «المعلق»، كما بات مقروءا على أوسع نطاق. وقد أخضع ابن رشد الحقيقة المشاهدة بأكملها إلى ضوء العقل المجرد، فيما انتهي إليه من عملية الخلق قد حدثت قبل الأزل وتبعتها بالحتم أحداث أخرى، لم يتدخل الله في شيء بعد ذلك. ووضع هذا الكنيسة أمام مشكلة كبرى تختص بالعلاقة بين الإرادة الحرة والعناية الإلهية تتناقض مع ما قاله القديس «أوجستين» من أن خلاص الإنسان يتأتى بفضل العناية الإلهية ولكن إذا انتفت الإرادة الحرة انتفت معها خطيئة الإنسان بإرادته.

بين حضارة الأمس وواقعنا الحاضر

هذا هو ما فعله أسلافنا بالأمس، وهذا هو حالنا اليوم، فما الذي جعلهم يحققون كل هذه الانجازات المرموقة في شتى الميادين وجعلنا نعجز عن اللحاق بركب التقدم ونتحول إلى مستهلكين للعلم والمعرفة والتكنولوجيا التي ينتجها غيرنا، في الوقت الذي حققوا هم فيه هذه الانجازات المهمة في مجالات الفلسفة والفكر والعلوم والزراعة والصناعة والفنون مثل الموسيقى والرقص والعمارة والشعر، وبذلوا جهدا كبيرا كي يجعلوا الحياة أكثر بهجة وأكثر إشراقا نجد فرقا كثيرة تعيش بيننا الآن تجد أن البهجة رذيلة وأن الجهامة فضيلة تحرم على الناس الشعر والموسيقى والنحت والتلوين والتمثيل، ويبذلون جهدا فائقا في إثبات أن ربطة العنق التي بها خيوط من حرير قد تكون حراما وأن المرأة إذا تعطرت فهي زانية، وأن السماء قد تنطبق على الأرض إذا تحدث رجل مع امرأة على انفراد أو إذا صافحها أو إذا جلس بجوارها، وأن طلاء الأظافر قد يبطل الوضوء، ونجد فرقا كثيرة من الشباب يحركهم كبار أخذوا على عاتقهم أن يحملوا لافتات ويتحركوا بمنتهى الجدية وكأنهم يؤدون عملا مقدسا ليثبتوا هذه اللافتات على الجدران أو في الميادين العامة أو يلصقوا أوراقا على وسائل النقل العام أو على المحطات وكلها ترى أن أعظم هدف يجب أن تتفرغ له الأمة الإسلامية هو إقناع أو حتى إجبار النساء على وضع قطعة من القماش على رؤوسهن وإخفاء

شعرهن، ولو نجحت أمة الإسلام فى ذلك فسوف نكون قد حققنا أعظم وأنبل أهدافنا، بل سيترتب على ذلك صلاح حال المسلمين، ليس مهما أن نصلح التعليم أو نصلح الإعلام أو نكافح من أجل حرية التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة أو من أجل التنمية والعدل الاجتماعى، ليس مهما أن نجيد أعمال الزراعة والصناعة أو حتى نحترم مواعيدنا، ليس مهما أن ننتج علما أو معرفة، ليس مهما بالمرة أن نغنى أو نعزف أو نرسم أو ننحت أو نمثل أو نبدع فى أى ميدان، ليس مهما بالمرة أن ننشىء دورا للمسرح والسينما والرقص الشعبى أو معاهد للتمثيل أو كليات للفنون الجميلة أو دارا للأوبرا أو ملاعب للرياضة، المهم، والمهم جدا، أن نؤدى الصلاة فى أوقاتها فى عياداتنا ومكاتبنا وفى قاعات محاضراتنا، حتى على مستوى الرياضة ، ليس مهما أن نتدرب تدريبا جيدا وجادا أو أن نجيد خطط اللعب، المهم أن نقرأ الفاتحة قبل بداية المباراة، هل هذا هو التدين؟ أن نؤدى الصلاة فى أوقاتها أو تغطى المرأة شعرها بقطعة من القماش؟ ثم ماذا عن الصدق والأمانة والوفاء والإخلاص وإجادة العمل والإبداع واحترام المواعيد والشجاعة فى قول الحق والاهتمام بالشأن العام والمصلحة العامة، والتعامل بكفاءة واقتدار مع ما يواجهنا من مشكلات ، أليست كل هذه القيم من الإسلام؟ إن الأمة العربية لم تشهد عبر تاريخها الممتد مثل هذه الكثافة فى البث الدينى، فالدين يدرس فى كل مراحل التعليم العام، ويشغل مساحة كبيرة على الخريطة الزمنية لجميع وسائل الإعلام، وتوجد صفحات ثابتة ودائمة فى الصحف السيارة تتحدث عن الدين، ولم تشهد مصر فى تاريخها كله هذا القدر الهائل من دور العبادة التى يتم بناؤها، ويتم قطع برامج الإذاعة والتليفزيون لإذاعة الأذان، وعلى الطرق السريعة والطرق الصحراوية تم تثبيت لافتات مليئة بالوعظ الدينى، وحتى على زجاج السيارات توجد ملصقات دينية، أى أن هناك كثافة بث وإلحاح دينى غير مسبوقة، وبالرغم من ذلك لم تشهد بلادنا تدهورا فى مرافقها وفسادا فى إدارتها وقذارة تمتلىء بها شوارعها وحواريها وأزقتها مثلما تشهده الآن ، انظر إلى كل هؤلاء الذين يترددون بانتظام على دور العبادة ويتعاملون مع خطاب دينى دائم كيف يقودون سياراتهم، كيف يستخرجون رخصا للبناء، راقب القدر الهائل من اللجوء إلى الوساطة والمحسوبية فى الحصول على الوظائف أو الخدمات، اذهب إلى مستشفى كل من فيها يصلى، وربما يحمل سجادة للصلاة، وتأمل نوع الخدمة التى يقدمونها لك فإذا خرجت من هذا المستشفى سليما معافى دون أن تحدث لك كارثة فأنت فى الغالب محظوظ، إذن هذا الذى نراه ليس إيمانا ولا تدينا.

لقد كان أسلافنا متدينين من غير شك ومؤمنين من غير شك، لكن ظل هذا شأن خاص بهم، أما عندما يذهبون إلى المعامل أو قاعات العلم فهم علماء وباحثين مجيدين، وعندما يذهبون إلى الحقول والمصانع فهم زراع مهرة وصناع مهرة، وعندما يعزفون ويغنون ويلونون ويتأنقون فإنهم يفعلون كل ذلك بإتقان ومهارة، أليس من الواجب أن ننظر إلى واقعنا بغضب؟ ■

دائرة حوار

محمد شحرور

دراسة فى فكره

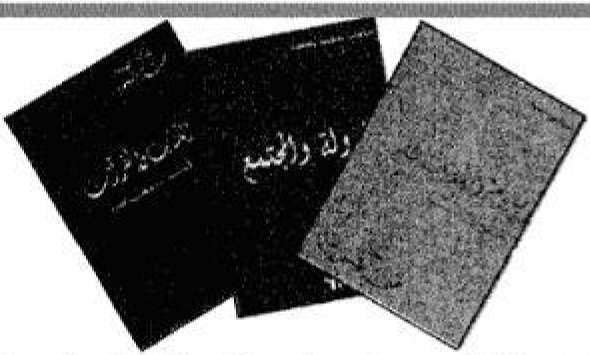
بقلم
د. محمد بلتاجي

منذ شهور قال لى صديقى - وهو يحاورنى - : ماذا تعرف عن شحرور؟ أمسكت بالمعجم الوجيز (لمجمع اللغة العربية) وقرأت فيه : «الشحرور طائر مغرد من فصيلة الشحروريات، ومن الجواثم المشرومات المناقير، ذكره أسود وأنثاه أعلاها أسمر وصدرها إلى حمرة، يصاد ويربى فى أقفاص لحسن صوته»، قال : أنا لا أمزح، والذى أقصده هو الدكتور المهندس محمد شحرور، فما رأيك فيه؟

قلت : أعرف أنه كاتب سورى، يأتى (على وجه العموم) بما يخالف ما عليه جمهور الناس، لكن لم يتح لي أن ألتقى بأفكاره مباشرة بصورة تسمح لى بالحكم عليه، ومن ثم أنا متوقف فى ذلك حتى أقرأه، ولقد سمعت من صديق أنه هو الصاحب الأصلى للنظرية الخائبة عن (أصل الخلق)، وأن صديقنا (اقتبسها) منه!

قال : وما رأيك فى أن أتيح لك هذا؟ ثم شفع ذلك بأن قدم لى سفرا ضخما يزيد على ثمانمائة صفحة بعنوان (الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة).

قلت : وجب!



الكتاب قائم على فرضيات مضطربة وفهم قاصر لفلسفة الدين الإسلامي

وجدت الكتاب مطبوعا بدمشق عام ٢٠٠٠م الطبعة التاسعة، ومهدى إلى أبيه (ديب شحرور) الذى علمه (الفكر النقدى) و(قول الحق) و(حرية التعبير) و(حرية الاختيار) .

وقد قدمه الدكتور جعفر دك الباب بمقدمة عن (المنهج اللغوى فى الكتاب) يذكر فيها أن صديقه الدكتور شحرور فى قراءته المعاصرة للقرآن «توصل إلى نتائج جديدة مغايرة لما هو سائد الآن فى التراث العربى الاسلامى» (ص ١٩) ثم تكلم عن المنهج اللغوى لكتاب شحرور .

النبوة والرسالة

وفى مقدمة المؤلف لكتابه يقول إنه وجد أن هناك ثلاثة أنواع من الآيات فى الكتاب (القرآن). ولم يستطع أن يقوم بهذا التصنيف إلا بعد أن تم له تحديد الفرق بين النبوة والرسالة؛ «فالنبوة هى مجموعة من المعلومات أوحيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبها سمى نبيا؛ أى أن كل الأخبار والمعلومات التى جاءت فى الكتاب هى النبوة .

والرسالة هى مجموعة التشريعات التى جاءت الى النبى بالإضافة الى المعلومات فأصبح بها رسولا. فالنبوة علوم، والرسالة أحكام، أى أن نظرية الوجود الكونى والإنسانى وتفسير التاريخ هى من النبوة، وهى من الآيات المتشابهات .

أما التشريع من إرث وعبادات - ومعها الفرقان العام (الأخلاق) والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات فهو الرسالة أى الآيات المحكمات .

وهناك نوع ثالث من الآيات وهو الآيات الشارحة لمحتوى الكتاب، فهى لا محكمة ولا متشابهة - ولكنها من النبوة حتى تحتوئ على معلومات .

لذا فإن الكتاب من حيث الآيات ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - الآيات المحكمات، وهى التى تمثل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، وقد

أطلق الكتاب عليها مصطلح «أم الكتاب» وهي قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، ماعدا العبادات والأخلاق والحدود .

٢ - الآيات المتشابهات ، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «القرآن والسبع المثاني» وهي القابلة للتأويل، وتخضع للمعرفة النسبية وهي آيات العقيدة .

٣ - آيات لا محكمات ولا متشابهات، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «تفصيل الكتاب» .

ثم قال : ونحن نرى أن التحدي للناس جميعا بالإعجاز إنما وقع في الآيات المتشابهات «القرآن والسبع المثاني» وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات «تفصيل الكتاب» حيث إن هذين البندين يشكلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

هل هناك فرق جوهري؟

وقال: لقد تبين لنا أن هناك فرقا جوهريا بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر، فالقرآن والسبع المثاني هما الآيات المتشابهات ويخضعان للتأويل على مر العصور والدهور، لأن التشابه هو ثبات النص وحركة المحتوى . وقد تم انزال القرآن بشكل متشابه عن قصد، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ممتنعا عن التأويل عن قصد؛ أي أن القرآن يؤوّل ولا يفسّر، وأن كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلي النسبي. وقال : فإذا سأل سائل : هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا ، هي ليست من القرآن «النبوة» ولكنها من أم الكتاب «الرسالة» وهي من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود» راجع «الكتاب والقرآن» ص ٢٧ - ٣٨) .

ثم يعود ليبين معنى ذلك فيورد آيتي الميراث ١١ ، ١٢ من سورة النساء (وفيهما ميراث الأولاد ذكورا وإناثا، والأبوين، والزوج والزوجة، والإخوة والأخوات لأم)، ثم يورد الآيتين التاليتين لهما (النساء ١٣ - ١٤) ويعلق على ما ورد فيهما بقوله «نلاحظ هنا في الآية قوله (تلك حدود الله) وقوله (ويتعد حدوده) فالحركة هنا مسموحة ضمن حدود الله؛ فهذا يعني وجود أكثر من حدين حيث جاءت بصيغة الجمع، والتعدي هنا هو الحركة في اتجاه الحد حتى نصل اليه، فإذا تجاوزناه حصلت حالة التعدي، ولا يعني التعدي (هو) الوقوف على الحد فقط بحيث تمنع الحركة بأي اتجاه» (الكتاب والقرآن ص ٤٥٧، ٤٥٨) ثم يقول : «لنر الآن ماهي الحدود في آية الإرث: الحدود هي : الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى بمعنى أنه مهما بلغ التفاوت في تحمل الأعباء الاقتصادية للأسرة أي أن الرجل مسئول مسئولية كاملة والمرأة لا تتحمل أية مسئولية بمعنى المسئولية الاقتصادية ١٠٠٪ على الرجل وصفر على المرأة، ففي هذه الحالة جاءت حدود الله لتعطينا أن يأخذ الرجل ضعف الأنثى فهنا أعطى الحد الأدنى للأنثى ٣٣،٣٪

والحد الأعلى للذكر ٦٦,٦٪. فإذا أعطينا الذكر ٧٥٪ والأنثى ٢٥٪ نكون قد تجاوزنا حدود الله، أما اذا أعطينا الذكر ٦٠٪ والأنثى ٤٠٪ فلا نكون قد تجاوزنا حدود الله بل بقينا ضمنها .

وبما أن الله أعطانا الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى فيأتي دور الاجتهاد حسب الظروف الموضوعية التاريخية بتقريب الفرق بينهما، وهذا التقريب مسموح به حتى التساوى الكامل فيما بينهما طبقا للحالات الإرثية المنفردة كل على حدة أو طبقا للوضع التاريخي التطورى العام أو طبقا للاثنين معا، وهذا التقريب بينهما يحتاج إلى بيانات مادية احصائية» (الكتاب والقرآن ص ٤٥٨ – ٤٥٩)

فرضيات مضطربة

وكتاب شحرور كله قائم على أنواع من الاضطراب وعدم التعمق في اللغة حيث يترك فيها الإنسان الحق الواضح الأبلج ليدخل بفرضيات مضطربة إلى عوالم من الأوهام ودوائر متتابعة من البطلان، مع ظنه بأنه قد أتى بما عجزت عنه الأجيال السابقة وأنه قد حلّ اللغز الأبدي !

وقد ذكرني مجموع كلامه (الذى أخذنا منه النموذج السابق، وهو كاف في تقرير حالته) بما حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود حين قال : وقد «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده، ثم قال (هذا سبيل الله مستقيما)، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه) ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

(سورة الأنعام١٥٣، والحديث رواه أحمد وابن جرير والنسائي والحاكم وغيرهم) .

ولما سئل ابن مسعود عن الصراط المستقيم الذى ورد فى الآية؟ قال: ماتركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه.. وطرفه (الآخر) فى الجنة (تفسير الطبرى ١٢ / ٢٣٠ وتفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٢)

بيد أن هناك من يريد صرف المسلمين عن هذا الصراط المستقيم بفرضيات واهنة واهية يظهر عوارها وبعدها عن الحق كلما أنعمت النظر بمنهج صحيح اليها .

ولنعد إلى المثال الذى أخذناه من كلام شحرور (وهو يمثل قطاعا متكاملا من فكره، بعيدا عن كل صور التصيد من كلامه، أو اجتزاء بعضه، او تقويله مالم يقله هو بغاية الوضوح والصراحة والبيان.. فمعاذ الله أن نفعل شيئا من ذلك مع شحرور أو غيره، مهما بلغ بنا رفض ما يصدره من نغمات) .

بين النبوة والرسالة

يفرق شحرور أولا بين (النبوة) و(الرسالة) فالنبوة عنده هى مجموعة المعلومات والأخبار التى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بها، وهى من الآيات المتشابهات .

والرسالة هى مجموعة التشريعات من إرث وعبادات وأخلاق ومعاملات وأحوال شخصية ومحرمات، وهى الآيات المحكمات. ويقول شحرور عن هذه الآيات المحكمات إن الكتاب قد أطلق عليها مصطلح (أم الكتاب) «وهى قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، ماعدا العبادات والأخلاق والحدود».

أما القسم الأول (الآيات المتشابهات) فقد أطلق عليها الكتاب مصطلح (القرآن والسبع المثانى) «وهى القابلة للتأويل، وتخضع للمعرفة النسبية، وهى آيات العقيدة» .

وهناك قسم ثالث لهما هو الآيات التى لا هى محكمات ولا هى متشابهات، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح (تفصيل الكتاب).

ويقول شحرور انه يرى أن التحدى للناس جميعا بالإعجاز إنما وقع فى الآيات المتشابهات (القرآن والسبع المثانى) وفى الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات (تفصيل الكتاب) حيث إن هذين القسمين يشكلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ونلاحظ على هذا الكلام ما يلى :

أولا : انه يقسم الكتاب من حيث نوع الآيات الى ثلاثة أقسام :

محكمات، ومتشابهات، ولا محكمات ولا متشابهات، والذى ورد فى القرآن الكريم (وصفا لآياته من حيث الإحكام والتشابه) هو قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (آل عمران ٧) فالقسم الثالث (الذى ابتدعه شحرور، لا سند له من أى نص صحيح!

ثانيا : يزعم شحرور أن القسم الثالث (الذى ابتدعه) هو المخصوص بقوله تعالى (تفصيل الكتاب). والحق أن هذا زعم ممعن فى البطلان؛ لأن الآية التى ورد فيها هذا المصطلح تتكلم عن القرآن كله فتقول (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (يونس ٣٧) وهذا المعنى قد تكرر فى آيات عديدة ، و (الذى بين يديه) و(الكتاب) فى الآية هو ما عند أهل الكتاب من الكتب المتقدمة فهو يهيمن عليها ويبين ما وقع فيها من تحريف ويفصل ماورد فيها من أحكام (ابن كثير ٤ / ٢٠٢) وقد تكرر هذا المعنى فى آيات عديدة تقيم العلاقة بين القرآن الكريم والكتب السابقة المنزلة (مثلا : المائدة ٤٤ – ٤٨).

ثالثا : يفسر شحرور (الآيات المحكمات) بأنها آيات التشريع من إرث وعبادات وأخلاق ومعاملات وأحوال شخصية ومحرمات (وهى قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ماعدا العبادات والأخلاق والحدود» .

ونلاحظ أن تعريف المفسرين على مر العصور للمحكمات أدق وأضبط مما اختاره شحرور فيها، حيث يقول ابن كثير مثلا : إن الآيات المحكمات هن أم الكتاب:

أى بينات واضحة الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس ، وذلك في مقابل المتشابهات أى فيها اشتباه في الدلالة عند كثير من الناس، فمن رد المشتبه الى المحكم فقد اهتدى «ومن عكس انعكس». (تفسير ابن كثير ٢ / ٤) فأين هذا الكلام الواضح الموافق للنص القرآنى مما ذكره شحرور من تلبيس ؟ وما الذى برر له القول بأن الآيات المحكمات خارجة عن التحدى والإعجاز مع تناقض زعمه مع قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (البقرة ٢٣) . فهل هناك أدنى ريب فى أن الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب مما أنزله الله تعالى على عبده صلى الله عليه وسلم؟ وما الذى يؤدى إليه إنكار مئات الآيات فى عقيدة المسلم؟! وما محل ذلك من قوله تعالى (.. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون). (البقرة ٨٥).

رابعا : يقول شحرور إن (الآيات المتشابهات) قد أطلق عليها الكتاب مصطلح (القرآن والسبع المثانى) «وهى القابلة للتأويل وتخضع للمعرفة النسبية ، وهى آيات العقيدة».

وقد ورد مصطلح (السبع المثانى) فى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) (الحجر ٨٧) وهناك شىء من تعدد وجهات النظر بين المفسرين لهذه السبع التى امتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزالها عليه، والراجح عندنا ـ والله تعالى أعلم ـ بأنها السبع الطوال من السور : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس .. وقد روى هذا القول عن ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك.. وغيرهم (مثلا : تفسير ابن كثير٤/٤٦٤).

. وكذلك روى أن سورة الفاتحة هى السبع المثانى والقرآن العظيم (راجع تفسير الطبرى ١٤/ ٣٩، وصحيح البخارى تفسير سورة الحجر) .

لكن شحرور أتى بقول عجيب حين رأى أنها آيات العقيدة، وهى منبثة فى سور كثيرة تجاوز السبع سور، وهى أيضا عشرات الآيات، وربما وصلت عند العد الدقيق إلى المئات، فكيف تكون سبعا؟ وكيف تكون متشابهات؟! فأقوال العلماء الأقدمين إذن ـ بخاصة الصحابة ـ أولى من قوله بالقبول.

ويبدو أن قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى..) «الزمر ٢٣ » وراء تسمية شحرور لهذا القسم بالمتشابه ـ فى مقابلة المحكم ـ ويبدو أنه لم يفهم الفرق بين (المتشابه) بمعنى : الذى يشتبه معناه (وهو الذى فى مقابلة المحكم) «آل عمران ٧» وبين المتشابه الذى يشبه بعضه بعضا كما فى الآية ٢٣ من سورة الزمر لأنه يسير على وتيرة واحدة .

خامسا : أما قول شحرور ان هناك فارقا جوهريا بين (الكتاب) و(القرآن)

و(الفرقان) و(الذكر) فهو قول متكلف ينقضه بعض ما بناه شحرور عليه حين قال : «فإذا سأل سائل : هى آية الإرث من القرآن ؟ فالجواب : لا ، هى ليست من القرآن (النبوة) ولكنها من أم الكتاب «الرسالة» وهى من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود» وهذا - فيما يبدو لى - عبث بالألفاظ المقدسة ، ولقد أجمع المسلمون منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم حتى اليوم - ولا يجمعون على ضلالة إلا فى منطق المجازفين بالباطل ليدحضوا به الحق - على أن (آيات المواريث) الثلاثة وليس آية واحدة كما يقول شحرور فى سورة النساء (وهى الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٧٦) من (القرآن الكريم) ومن (كتاب الله الموحى به) ومن (الذكر الحكيم الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم) ومن (الفرقان الذى نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا) - ليس هذا فحسب، بل هو (الصراط المستقيم) و(حبل الله المتين) و(ميزان الحق) و(شفاء المؤمنين) و(هدى للمتقين) و(النور الشافع لأهله) .. وما شاء الله من أوصاف الحق والعدل والرحمة .. ونعوذ بالله من التفيهق والتكلف والثرثرة بكل باطل لا نفع فيه ولا حقيقة له !

ثم ، لنر ما الذى انتهى اليه شحرور من متتابعاته السابقة : يلاحظ أن آيتى الميراث المتتابعتين ورد بعدهما قوله تعالى (تلك حدود الله) و(يتعد حدوده)، ومن صيغة الجمع فى الحدود يفهم وجود أكثر من حدين فى الآية، ويوظف هذا فيما يريده حيث يقول إن الحدود فى آية الإرث هى : الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى «.. فهنا أعطى الحد الأدنى للأنثى ٣٣.٣٪ والحد الأعلى للذكر ٦٦.٦٪ فإذا أعطينا الذكر ٧٥٪ والأنثى ٢٥٪ نكون قد تجاوزنا حدود الله، أما إذا أعطينا الذكر ٦٠٪ والأنثى ٤٠٪ فلا نكون قد تجاوزنا حدود الله ، بل بقينا ضمنها .

معنى الاجتهاد

وبما أن الله أعطانا الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى فيأتى دور الاجتهاد حسب الظروف الموضوعية التاريخية بتقريب الفرق بينهما، وهذا التقريب مسموح به حتى التساوى الكامل فيما بينهما طبقا للحالات الإرثية المنفردة كل على حدة ، أو طبقا للوضع التاريخى التطورى العام، أو طبقا للاثنين معا.. وهذا التقريب بينهما يحتاج إلى بيانات مادية إحصائية» ..

ولست أعرف كلاما أدخل فى باب الهذيان من هذا ، وذلك لأن التعبير القرآنى فى الحدود بالجمع ورد فى كل سياق للتحذير من تعدى أوامر الله تعالى، بل لم يرد أبدا فيه التعبير بغير الجمع، لا بالمفرد ، ولا بالمثنى«الآيات التي وردت فيها الحدود علي سبيل الحصر : البقرة ١٨٧، ٢٢٩ (أربع مرات)، ٢٣٠ (مرتان)، النساء ١٣، ١٤، ٩٧، ١١٢، المجادلة ٤، الطلاق (مرتان) وكلها بالجمع في كل سياق» ، فلم تنفرد سياقات (الميراث) بالورود بالجمع، بل هو أسلوب قرآنى عام يرد الجمع فيه دائما ليستحضر القارئ

والسامع - في كل سياق للمحرمات - أن حدود الله (جميعها) لا تنتهك ولا تتخطى ! فمال هذا بالفهم الشحروري الباطل بأن التعبير بالجمع يشير إلى وجود أكثر من حدين في ميراث الذكر والأنثى، ويفتح الطريق لما يدعيه من وجوب الاجتهاد - حسب الظروف - لتقريب الفرق بينهما باستحداث أنصبة (حدود) متعددة ! »

ومن الذي أذن بهذا والآية قاطعة صريحة في أن الأنثى تأخذ نصف الرجل ؟

من الذي أدخل في الآية (ظروفا تاريخية) تسمح للمجتهد بأن يغير حكما قطعيا بمحض اجتهاده ونظره؟ وهل هناك تعد لحد الله في الميراث أكثر من هذا حينما يجعل المجتهد (عقله) مهيمنا على النص الشرعي بالتغيير والتعديل والإلغاء؟ وأين السماح بذلك في الآية؟ والله تعالى يقول بأسلوب الحصر البياني المعروف (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا ..) « النور(آية ٥١) » .

درس لفلسفة التوريث الإسلامي

.. وبعد، فهذا قطاع متكامل من كتاب شحرور وفكره، ومن الواضح - من المنطلق الفقهي الصحيح - اضطراب الأبعاد والزوايا والقياسات - في كتابه ، فالكاتب يريد أن يصل منه (بأية ملابسة) إلى أن النص القرآني في آيات المواريث قد أتاح للمجتهد أن يغير ويعدل في نسبة ميراث الأنثى لميراث الذكر حسب مسئوليتها الاقتصادية ، أو طبقا لأوضاع تاريخية أو اجتماعية متغيرة - أو غير ذلك من الاعتبارات - فيغير في تسمية النصوص القرآنية، ويقيم بناء عقليا مضطربا ينتهي منه إلى أن القرآن عقب على آيات الميراث بذكر أنها (حدود الله) بالجمع، فلو اقتصرنا على ميراث الذكر وميراث الأنثى المذكورين في الآية نصا فلن يكون عندنا غير حدين ، فأين الثالث والرابع والخامس.. الخ الذي يطابق إيراد (الحدود) بالجمع؟ ولو رجع إلى استعمال القرآن للفظ الحدود في كل سياق بالجمع وحده، فلعله كان ينتبه إلى تهافت ما انتهى إليه .

ولأن الرجل لا يفهم حكمة الميراث الإسلامي وفلسفته وارتباطه الوثيق بنظام النفقات والنظام الاجتماعي الإسلاميين - فقد صرفت النظر عن إيراد شئ من الدرس الفقهي الذي نقدمه لطلابنا بين يدي تدريس (فلسفة التوريث الإسلامي) وكذلك صرفت النظر عن أن أورد له أكثر من عشرين مسألة فقهية تأخذ الأنثى فيها - بقواعد التوريث الإسلامي نفسه - أكثر مما يأخذه الذكر الذي يماثلها تماما في درجة قرابتهما من الميت .. بل قد تأخذ هي وهو لا يأخذ، فالتعلق بعبارة (للذكر مثل حظ الأنثيين) الواردة في الآيات مرتين في خصوص حالات معينة ، يقطع بما عند شحرور وأمثاله من (علم) بنظام التوريث الإسلامي وفلسفته ، مما نكتفي معه بما سبق من بيان . ■

أسرار الأميرة

التى تحرك الرجال وتصنع الأحداث

بقلم
مصطفى نبيل



الأميرة
نازلي فاضل

الأميرة نازلي فاضل.. هل هي ملاك طاهر، أم شيطان رجيم؟
تركت الأميرة المتمردة نازلي فاضل أثرا كبيرا في حياة مصر في مطلع القرن الماضي، وأثارت ضجة لم يثرها غيرها من أبناء الأسرة العلوية، وهي ابنة الأمير مصطفى فاضل، وأغرب شخصيات أسرة محمد علي، في صالونها تتشكل الوزارات، وتخرج الأفكار والمبادرات، وتكاد تمسك بخيوط اللعبة السياسية، يلجأ إليها كل الأطراف، فهي تملك علاقات وثيقة بالانجليز، وصلات دائمة بالسلطان العثماني.

تعرف الأميرة معرفة شخصية كلا من الملكة فيكتوريا والملك إدوارد، وكذلك السلطان عبدالحميد الذي كثيرا ماالتقي بها في قصره. وتعرف معظم الشخصيات العاملة علي المسرح السياسي، عاشت في لندن وهي صغيرة مصاحبة زوجها السفير العثماني، كما عاشت في إسطنبول في صحبة والدها.

يرى البعض أنها ظلمت ظلما فادحا، ولم يعطها المؤرخون حقها، لا يتذكرها التاريخ ولا يذكرها المؤرخون، وظل دورها مجهولا. ويرى البعض الآخر أنها بريطانية الهوى في الوقت الذي هبت مصر تقاوم فيه الاستعمار البريطاني.

حقا.. إنها أكثر الشخصيات غموضا.. فهي أميرة ولكنها متمردة على الخديو وعلى التقاليد البالية، تحارب تخلف الشرق وبثير غيرتها تقدم الغرب، وربما كان باعث تمردها أن والدها الأمير مصطفى فاضل حفيد محمد على، كان وليا للعهد أيام الخديو إسماعيل باعتباره أكبر أفراد الأسرة العلوية، ونجح اسماعيل فى تغيير نظام ولاية العهد بفرمان مايو ١٨٦٦م، وانتقلت ولاية العهد إلى أكبر أنجاله مثلما وقع مؤخرا فى الأردن، ومازال العمل قائما فى معظم دول الخليج بهذا المبدأ الذى يجعل ولاية العهد لأكبر أفراد الأسرة.

وهذا أدى إلى اتساع الهوة بين إسماعيل ومصطفى فاضل واشتداد الدسائس ورحيل مصطفى فاضل وأسرته من مصر - كما يذكر عبدالرحمن الرافعى - واتخاذ الأستانة وأوروبا مقرا له، وتبخرت أحلام مصطفى فاضل فى الحكم، وتجرعت ابنته المرارة، وأطلق عليه فى تركيا أبو الأحرار لانضمامه إلى أحرار تركيا المقاومين للحكم الاستبدادى.

والأخوان اسماعيل ومصطفى



ولورد كتشنر

أبوهما إبراهيم باشا، ولكنهما من والدتين مختلفتين، وولدا في يومين متقاربين مما أشعل المنافسة بينهما.

وحول مصطفى فاضل قصره إلى مدرسة هي مدرسة الخديوية العسكرية، وهو صاحب أكبر مكتبة خاصة في مصر، والتي أصبحت نواة دار الكتب المصرية، انصرف إلى الفكر والعلم، وأصبح من دعاة الحرية والدستور، وألف مصطفى فاضل في منفاه كتابا عن حكم السلطان عبدالحميد، وذكرت مجلة الاثنين في ١١/١٠/٤٨، أن الأميرة نازلي ترجمته من التركية إلى العربية.

وتوفى الأمير مصطفى فاضل سنة ١٨٧٥م أي قبل الخديو إسماعيل، وأصبح الأمير حليم عم إسماعيل هو الذي يتطلع إلى حكم البلاد. هذه هي الخلفية العائلية للأميرة التي عادت إلى مصر واستقرت فيها عندما كان الخديو عباس حلمي يجلس على العرش، ثم رحلت إلى تونس لزيارة أختها رقية، وتزوجت هناك من خليل أبو حجاب نجل قاضي تونس الذي أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء تونس، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى مصر التي لم تنقطع عن زيارتها.

لغز ستورز!

يروى رونالد ستورز الذي سجل تجربته في مصر في كتابه «شرقيات»، والذي جاء إلى مصر عام ١٩٠٤، حول علاقة الأميرة بالانجليز.. «تبنى الأميرة في اسطنبول السفير البريطاني سير هنري لابارد الذي عاملها كابنته، ووضع أمامها تجربته وخبرته وتعرفت في لندن على الكابتن كيتشنر قبل شهرته وهو ضابط صغير، وعندما جاء إلى القاهرة وعرف الخديو عباس صلتها بكيتشنر أعاد علاقته بالأميرة» ويعترف ستورز أن الجنرال كان يجد متعة خاصة في لقاء الأميرة، وكان يتردد على صالونها قبل كيتشنر اللورد كرومر، ويلتقي عندها بجيل جديد من الساسة والمفكرين الذين يترددون على قصرها، ويكاد يكون صالونها هو أول صالون من نوعه، وهو السابق على صالون الكاتبة الرقيقة مي زيادة، وهو الصالون الذي قضى على التفرقة بين «الحرملك» و«السلاملك»!.

ونلاحظ أنها كانت لها علاقات وثيقة بكرومر الذي وضع معالم سياسة الاحتلال البريطاني في مصر، وكانت أيضا وثيقة بكيتشنر صاحب السياسة البريطانية في الشرق الأوسط! لذا وصفت بأنها بريطانية الهوى، يقول عنها د. السيد الشناوي.. «كان الإنجليز يحترمونها ويقدرونها، ويرون في رواد صالونها خلاصة الفكر الراقي في البلاد!».

ولكن من هو رونالد ستورز الذي قدم جانبا كبيرا من حياة الأميرة؟

شارك في العمل الاستعماري البريطاني على اعتباره متخصصا في المنطقة ويجيد اللغة العربية، وشارك في الإعداد للثورة العربية (الشريف حسين)، وفي التمهيد لاحتلال الصهيونية لفلسطين، وعمل سكرتير كيتشنر للشئون الشرقية، وهو القائل سنة ١٩١٤ «..إن الأفضل لبريطانيا وجود دولة تمثل حاجزا وفاقا



أسرار الأميرة



هنري استنت



سير الدون جورست



اللورد كرومر

وسط البلدان العربية، وتساءل: هل نستطيع خلقها؟!»، ثم أجاب: «لست أدرى إن كان قيام دولة يهودية فكرة جذابة».. وكان هذا النشاط هو التمهيد لوعد بلفور.

وساهم ستورز أيضا فى الخدعة الكبرى التى تسمى سايكس/ بيكو. وهو زميل وصديق لورنس، وتولى بعد دخول القوات البريطانية إلى فلسطين فى الحرب العالمية الأولى رئاسة الإدارة العسكرية المؤقتة فى القدس.

يقول.. «علينا أن نبدو أمام اليهود أننا لا يحركنا العرب، ونبدو للعرب أن اليهود لم يشترونا».

هذا رغم أنه كان يوصف بأنه معاد للسامية! مما يعنى أن قيام إسرائيل بالنسبة للسياسة الاستعمارية عمل سياسى محض.

قناديل بلا نار

وترك لنا ستورز وصفا دقيقا لصالون الأميرة وسجل، وهو رجل المخابرات البريطانية، تفاصيل أول منتدى من نوعه ولا يوجد وصف عربى للمنتدى، يقول: «تدخل قصرها القريب من قصر عابدين، يستقبلك اثنان من الأغوات كل واحد منهما له اسم زهرة أو أحد الأحجار الكريمة، وعندما تمشى من البوابة إلى القصر تمر بين ورود وأشجار وارفة، تشاهد القطط الأميرية وهى تتمطى فى كسل.

وسرعان ما يعلن أحد الأغوات وصولك، ولابد أن تنتظرها ولو مجرد لحظات، وحتى لو كان الموعد محددا سلفا، ثم تطل عليك باسمة متحررة، رائعة الجمال ولها حضور وتأثير طاغ.

غرفة الاستقبال وطرازها المميز بعكسان طبيعة وشخصية الأميرة، المزج بين كل من الطابع الشرقى والغربى، قناديل تضاء بالكهرباء، مقاعد من طراز لويس الخامس عشر إلى جانب زخارف عربية، الصور الشخصية للعائلة المالكة البريطانية إلى جوار صورة السلطان عبدالحميد، صورة اللورد جرنفيل إلى جانب اللورد كرومر، وتزدحم جدران الغرفة الأربعة بالصور، صفحات من المجلات المصورة تروى أحداث العشرين سنة الفائتة».

ويروى ستورز عنها بوصفها صديقة مقربة، اتصلت علاقتهما سبع سنوات، وهى المرأة الوحيدة فى القاهرة التى تستقبل الضيوف من كبار الشخصيات فى صالونها من الأجانب وبينهم

الإنجليز، وتدور المناقشات بالفرنسية أو التركية فليست لغة الأميرة العربية سليمة.

يصفها جمال الدين الأفغاني الثائر من أجل الحرية بقوله: «إنها مثال الجمال والكمال، حضرة البرنسيسة التي لها في قلبي المنزلة الأبهى، والمقام الأسنى..»، وإذا كان رفاعة الطهطاوي قد سافر إلى باريس لكي يقدم إلى قراء العربية النهضة الحديثة، ففي صالون الأميرة جاءت لندن وباريس من خلال زوارها، يتردد على صالونها من المفكرين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وأديب إسحق والمويلحي والشيخ علي يوسف. أفكار متباينة واتفاق على ضرورة الإصلاح، ويتردد على الصالون من السياسيين سعد زغلول، وشريف باشا ورياض باشا وحسين رشدي باشا، كما يتردد على هذا المنتدى اللورد كرومر وستورز وغيرهم، ويزعم ستورز أنها عندما تنفرد به تستمر في الحديث ساعتين متواصلتين ولا تترك لسامعها بضع دقائق.

أول مدرسة بنات

يقول عنها المستشرق البريطاني الفريد بلنت في كتابه «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر»، وهو الذي كرس جهوده للدفاع عن الحركة الوطنية المصرية والدفاع عن الثورة العرابية، عندما يأتي على



أسرار الأميرة

سنة ١٨٨٧ ... «زرت الأميرة نازلي، وهي معجبة بعرابي، وتدافع عنه بصدق، وتأسف لهزيمته، وتردد أنه لو كان مثل محمد علي لأخذ الخديو توفيق وبقية الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم، وناصبت توفيق العداء وأيدت الثورة ورغم ذلك لم تمل الحديث عن نبل أهدافه ونزاهة أغراضه.

وعندما تقلب صفحات تاريخ الثورة العرابية، يفاجئك موقف بعض الأميرات من الثورة، وتجد أن أكثرهن تأييدا لها هي الأميرة إنجي التي بلغ تأييدها للثورة أن طلبت من عرابي أن يتزوجها، وأم عباس الأول – صاحبة سبيل أم عباس – والأميرة جشم آفت صغرى زوجات الخديو إسماعيل، التي أقامت أول مدرسة ثانوية للبنات سنة ١٨٧٦ يتعلم فيها الفتيات بالمجان وتقدم لهن المأكل والملبس مجانا، وهي مدرسة السنية، وتبرعت الأميرة فاطمة اسماعيل بحليها وأرضها للجامعة المصرية.

ويذكر عرابي في مذكراته، تبرع والدة الخديو إسماعيل بجميع خيول عرباتها للعرابيين، واقتدى بها الكثيرون من أفراد الأسرة الخديوية، ونجد جولييت آدم تقول في كتابها ... إنجلترا في مصر. «ليست الأميرات المصريات أقل من الأمراء، فهن متعلمات تعليما أوربيا، وقدمت الأميرة فاطمة إسماعيل أملاكها وجميع حليها للمنفعة العامة، وكذلك فعلت الأميرة قدرية كريمة السلطان حسين كامل والتي كتبت كتابا بالفرنسية عنوانه «رسائل من أنقرة»

أما عن نازلي فاضل فتقول عنها هدى شعراوي «ظهرت الأميرة في أفق الحياة الاجتماعية، وفتحت أبواب دارها لعظماء



ألفريد بلنت فى صورة نادرة

الرجال، وساهمت مساهمة فعالة فى بناء النهضة الحديثة».

عصر السيطرة البريطانية!

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن الأميرة، وحتى نتلمس أبعاد دورها، علينا أن نطل على العصر الذى عاشت فيه، ونرى الخلفية التاريخية التى عاشت فى ظلها، فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عندما دخلت قصر الدوبارة - مقر المعتمد البريطانى - عنصرا فاعلا فى السياسات الداخلية وبدأ الصراع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة، وبدأ انتشار ثقافة جديدة تدعو إلى الحرية وإلى النهضة حيث يلقى مشاهير المفكرين محاضراتهم فى منابر متعددة، ومع انتشار المطابع والكتب والصحف ومع تعدد المسارح والفرق الأجنبية فى دار الأوبرا ألفت الروايات وعربت التمثيليات.

وبدأ الرافد الغربى قويا متدفقا فى ظل السيطرة البريطانية واحتك الشرق بالغرب احتكاكا قويا لا ينقطع وبدأت تقع التغييرات فى النظرة إلى قضايا سياسية واجتماعية، ولعل الضجة التى أثارتها قضية الشيخ على يوسف وزواجه من صفية السادات سنة ١٩٠٤ تعكس حجم ومدى هذه التغييرات وجاءت رواية «زينة» لقوت القلوب الدمرداشية باللغة الفرنسية كصيحة احتجاج على الكثير من الضغوط الاجتماعية.

ونهض الأزهر الشريف من سباته، وأقيمت المدارس والجامعات والجمعيات الأدبية والثقافية، وبدأ الحراك الاجتماعى واتسعت قاعدة الملكية الزراعية لصالح المصريين، وبدأ تمصير الكثير من الوظائف.

وبدأت فى الظهور الكثير من الكتب التى صنعت العقل الجديد للأمة، سواء المؤلفة أو المعربة وسعى كرومر إلى تمصير الوظائف التركية والشركسية، واتجه إلى توسيع الطبقة الوسطى المصرية.

وغدا تقييم المواقف فى هذه المرحلة التاريخية مسألة شديدة التعقيد، لا يصلح لها التبسيط ولا ينفع معها الاختزال أو الأحكام سابقة التجهيز، هذا عندما شعر الكثير من المثقفين بامتلاكهم حرية تزيد على ما كانت عليه يوم انفرد الحاكم بالسلطة، وعاش معظمهم فى تردد وحيرة بين مقاومة الاحتلال أم مقاومة الاستبداد ولم ينته هذا التردد إلا عند الوصول إلى الصيغة التى تطالب بالحرية فى الداخل ضد الاستبداد وفى الخارج ضد

الاستعمار الأجنبي

ولعل صالون الأميرة، من يحضره وما يدور فيه من مناقشات، كان يعبر عن هذه اللحظة التاريخية وعن هذا التضارب.

وفي هذا السياق ساندت الأميرة العديد من رجالات مصر وقياداتها أمثال سعد زغلول والشيخ محمد عبده وقاسم أمين من رجال الفكر وزعماء الإصلاح، وتبلورت في منتداها فكرة الوطنية بديلا عن الملة، أي الوطنية المصرية بديلا عن الرعية العثمانية، وفي منتداها اتفق الجميع على ضرورة أن تحصل المرأة المصرية على حقوقها ومساواتها بالرجل، وفي منتداها تمت مناقشة ضرورة التجديد والاصلاح الديني.

الزعيم والأميرة!

ومن أبرز رواد مقرها زعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول والذي كان محاميا للأميرة، ووكيلا لأعمالها عندما كان يشتغل بالمحاماة بين فبراير ١٨٨٤ وحتى يونيو ١٩٠٢، ويذكر ستورز في «شرقيات» أن الأميرة هي التي نصحت سعد زغلول بضرورة تعلم اللغة الفرنسية والتي بدأ دراستها في صيف ١٨٩٢م، وهي التي زوجته من أم المصريين صفية ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمي في ٦ فبراير ١٨٩٦، وهي أيضا التي قدمته إلى اللورد كرومر ثم رشحته للورد لكي يصبح مستشارا ثم وزيرا للمعارف.. ونجح



أسرار الأميرة

في الحصول على الاجازة من جامعة بارب بدرجة عالية سنة ١٨٩٧.

فهل ما يكتبه ستورز هو مجرد محاولة للإساءة أو التقليل من قيمة قائد ثورة ١٩١٩؟! أم يقدم درسا مفيدا في الواقعية السياسية؟

يقول عباس العقاد في كتابه عن سعد زغلول.. «كان لورد كرومر يعرف سعدا من خلال زياراته للأميرة نازلي فاضل.. ومن المحقق أن لورد كرومر عرف من اللحظة الأولى للقاء سعد أنه يرى رجلا لا كالرجال.. جلس معه ساعة فأدهشه ألا يسمع منه ملقا أو رجاء، وعندما سأله أليست لك حاجة؟ امتعض سعد لهذا السؤال وأجاب: (شكرا ولكن لم أسألك أنت قضاء الحاجات) فأطلق كرومر على جماعة صالون نازلي فاضل فريق (الجيروند) المصري، أي تشبيههم بحزب (الجيروند) في الثورة الفرنسية.

وماذا سجل سعد زغلول في مذكراته حول ما يجري في قصر نازلي فاضل؟ لم يذكر سوى القليل من التفاصيل.. «كنت مدعوا وقاسم أمين عند البرنسيس نازلي (خانم) وتحدثت عن غيرة فتحي زغلول من تعيين سعد وزيرا! وأنه اتهم أخاه سعدا أمام الخديو بأنه يؤلف حزبا وصحيفة وأن فتحي يتكلم في حق سعد في الوكالة البريطانية.. قلت لها: أرجوك أن تستفهمي على تفاصيل ما قال، لأن الدسائس كثيرة في هذا الزمان».

ويذكر خلال يوم آخر عندما كتب إسماعيل أباظة مقالا يهاجمه فيه متنكرا تحت اسم عارف، واتخذ سعد ضده الإجراءات القانونية، تدخلت الأميرة وكيتشنر لكي لا يستمر في إجراءات



فاطمة إسماعيل



الأميرة إنجه

التقاضي .كما يذكر أيضا أن نازلي لفتت انتباه كيتشنر لزيارتي بعد خروجي من وزارة المعارف، وهكذا.

الأميرة والشيخ

أما عن الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، فقد توثقت علاقته بالأميرة بعد عودته من منفاه عام ١٨٨٨ ويقال إنها سعت لدى كل من الخديو توفيق واللورد كرومر من أجل العفو عنه، بعد أن كان أحد المشاركين في الثورة العرابية.

وهناك مقال مهم ومثير كتبه الشيخ مصطفى عبدالرازق يلقي الضوء الساطع حول علاقة الأميرة بالشيخ، والذي نشر في (مجلة الرسالة جـ٧ ص٨ سنة ١٩٥٨) يقول.. «الأميرة نازلي فاضل من أميرات البيت المالك في مصر، تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء، وربيت على النمط الأوروبي، وتثقفت تثقيفا أوربيا وكان أبوها من دعاة الحرية والثائرين في وجه الاستبداد التركي، ثم كانت زوجة السفير العثماني في لندن فاتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية، وجمعت إلى ذلك كله جمالا رائعا وبيانا حلوا ولطفا نسويا فتانا وكانت ساحرة النظرات عذبة الملامح رشيقة القوام ناصعة الجبين ذات ثغر رقيق يفتر عن ابتسامة دائمة فيها معنى الألم العميق والسخرية بالألم، ومعنى العزيمة الماضية ومعنى الرجاء الذي لا يصل إليه اليأس... كان قصر الأميرة ملتقى الكبراء، وقادة الرأي وصفوة أهل العلم والأدب والفن بين أجانب ومصريين... وفي قصرها كانت تحل عظائم الأمور، وتمحص مسائل الإصلاح الاجتماعي وتتدارس طرائف الآداب والعلوم والفنون الجميلة، وفي قصرها كان يشجع أهل المواهب وكان يمهد لنشر الجديد والدعوة إلى الرقي والمدنية، وكان للخلصاء في قصر الأميرة فرص أيضا للتمتع بنعيم الحياة وطيبها.

عرفت الأميرة الشيخ محمد عبده -

ومــازال الكلام للشـيخ مـصطفى عبدالرازق - مستشارا في محكمة الاستئناف وداما صديقين حتى فرق الموت بينهما، خصته بمكانة تجمع بين الحب والإجلال، وكان الشيخ يجد في كنف الأميرة ما يغذي روحه الحساسة وذوقه اللطيف، ويجدد نشاطه للعمل ويرفه عنه في أحمال الوقار ما لا يستطيع أن يرفهه إلا ذكية حسناء، ونشأ الأستاذ على عداوة الانجليز.. أما بعد اتصال الشيخ بالأميرة فقد خفت حملته على إنجلترا، وسمح بصداقته الشخصية للورد كرومر صديق الأميرة دون تفريط في حق بلاده أو عدول عن رأيه السياسي (ويكاد يفصح عن علاقة حب مكتوم بين الأميرة والشيخ). ويعلق د.عثمان أمين على مقال الشيخ مصطفى عبدالرازق قائلا: «لا نبالغ إذا قلنا إن عناية الشيخ بإتقان اللغة الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة التي كانت تتكلم الفرنسية،... فقد تغير الشيخ بعد عودته من باريس وانفصاله عن الأفغاني، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتدرج متوخيا الإصلاح لا عن طريق السياسة والثورة، بل عن طريق التعليم والتربية الاجتماعية والدينية.. ومن يطلع على التقارير السنوية التي قدمها لورد كرومر إلى حكومته يجد فيها ذكرا طيبا للشيخ محمد عبده وتقديرا لأعماله... ولولا كرومر ما بقي محمد عبده في منصب الإفتاء طويلا..»

وجاء في مجلة «حمارة منيتي» لقطة للشيخ محمد عبده جالسا وسط جماعة من الرجال والنساء، وقدمت الصورة إلى اللورد لإقناعه بضرورة التخلي عن الشيخ، وفاجأهم رد اللورد الذي قال: يزورنا الشيخ وتحضر الليدي كرومر مجلسه، فهل هذا يعيبه؟!.

ومن اللافت للنظر أن الأستاذ الإمام وقاسم أمين كليهما اهتم بقضية الاستبداد كأهم أسباب التخلف، الذي يؤدي إلى تراجع واضمحلال المجتمعات ووجه كل منهم هجومه على استبداد حكام أسرة محمد علي وشب نزاع بين محمد عبده والخديو عباس بعد عودة الشيخ من المنفى.

نازلي وقاسم

بعد رد قاسم أمين على كتاب «الدوق داركور» ونشر كتابه «المصريون» بالفرنسية، وهاجم خلاله السيدات الشرقيات السافرات ودافع عن الحجاب، اعتبرت الأميرة نازلي فاضل أنه يعنيها بهجومه، فهي من القلائل اللاتي يظهرن سافرات.

ويؤكد داود بركات في أهرام ٤ مايو ٢٨ وعبدالعزيز البشري في السياسة الأسبوعية ٥ مايو ٢٨، أن الأميرة تصورت أنها المعنية بهجومه. ولم يرق للأميرة موقف قاسم أمين من المرأة وأعلنت أنها تتطلع لإجراء حوار معه، فصحب الشيخ محمد عبده قاسم أمين وذهب إلى مجلسها ودارت مناقشة طويلة حول أفكاره، ويؤكد الكثيرون أنه كتب كتابه «تحرير المرأة» ١٨٩٩ و«المرأة الجديدة» ١٩٠٠ نتيجة تلك المناقشات التي دارت في صالونها، واشترك فيها فارس نمر وسعد زغلول



أسرار الأميرة



قاسم أمين



محمد عبده



محمد فريد

ومحمد المويلحي ومحمد بيرم وغيرهم.

يقول قاسم أمين.. «إنه وجد نفسه أمام امرأة شرقية مثقفة تدافع عن بلدها وتملك الحجة في مواجهة الأجانب في صالونها، واقتنع أنه لا يمكن أن تتحقق النهضة إلا عندما تحصل المرأة على حقوقها المتساوية مع الرجل».

ويبقى السؤال، كيف ولماذا غير رأيه، وجاءت آراؤه في كتابه «تحرير المرأة» مناقضة لكتابه «المصريون»؟ لعله الفارق بين المونولوج والديالوج أي الحوار مع الذات والحوار مع الآخر، يهاجم مع أهله التقاليد البالية وفي مواجهة الأجنبي يفخر بمصريته، ومن يتأمل كتاباته يجد أن الحرية هي القيمة الكبرى التي يدافع عنها، وهي المحرك للنهضة.

ويتناول قاسم أمين قضية الاستبداد سواء استبداد الرجل بالمرأة أو استبداد الحاكم بالمحكوم ويؤكد «الاستبداد أصل كل فساد» ويقول أيضا «في عهد الاستبداد الذي كانت فيه كلمة من محمد علي أو إسماعيل تكفي لإعدام من يغضب عليه عندما كانت فيه حياة الإنسان وحريته وأمواله مهددة بالخطر ولم يكن لأحد مهما كان مقامه ضمانة تحميه، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم..» (كتاب كلمات ص٤٨).

ويرى مع الشيخ محمد عبده أن إصلاح النظام الاجتماعي والتعليمي يسبق العمل السياسي لأنه يرفع من مستوى وعي المواطنين.

محمد فريد ونازلي

يأتي ذكر الأميرة نازلي في مذكرات محمد فريد، صوت آخر لعله الصوت المسكوت عنه أو لعله إحدى نتائج الصراع السياسي القائم أيامها، يقول: «كانت نازلي فاضل من أنصار الإنجليز وعشاقهم وكانت تجاهر بذلك، كان لها شغف خاص بضباط الإنجليز وكانت مشتغلة بالدسائس فكانت تتجسس للسلطان عبدالحميد وللانجليز»، ويقول عن سعد زغلول «كانت له صداقة متينة بالأميرة وكانت له اجتماعات عندها يحضرها قاسم أمين والشيخ محمد عبده وغيرهم، وبسبب هذه الصداقة وبسبب مساعي الأميرة لدى كرومر عين سعد مستشارا في الاستئناف».

تربت تربية أوربية ثم تزوجت خليل



الإمام محمد عبده في الخلدونية عام ١٩٠٣

شريف باشا شقيق سفير الدولة العلية في باريس، وعاشت معه سنين عيشة أوربية بحتة، ولما توفى عادت لمصر. كانت تقابل الرجال على العادة الأوربية وتحيي ليالي موسيقية في دارها، وتكثر من شرب الخمر وخاصة الشمبانيا، كانت تتردد على تونس لزيارة أختها رقية هانم زوجة القائد بن عياد، فتعرفت بالسيد خليل أبو حاجب وتزوجته ولم تعقب، كانت تخالط الصحفيين وتنشر أراءها في الجرائد وكلها ضد المصريين، ونشر هجومها في كتابها مصر الحديثة (لندن ١٩٠٥ لكاتبه أ.ب. جرفيل) ووصفت الشباب المصرى بالسلبية (لعلها تريد إثارة نخوته) ونشرت حديثا في الإجبشيان جازيت سنة ١٩٠٩ قالت فيه: «إن الشباب المصرى لا يستحق ثمن الحبل الذى يشنق به، ونشرت حديثا آخر في البروجريه مجدت فيه الإنجليز!»



أسرار الأميرة

كانت لي بها صلة تعارف بسبب مهنة المحاماة عندما كلفتني بقضايا جدتها لأبيها، ولدى زيارتي لتونس دعتني إلى دارها وأكرمتني وإن كنا على طرفي نقيض في السياسة، وقطعت صلتي بها عندما كان مصطفى كامل في مرضه الأخير، فدعت عليه وتمنت موته فغضبت منها ولم أقابلها بعدها». ويلاحظ أن مصطفى كامل كان في ذلك الوقت صوت الوطنية المصرية الصادق.

اللغز!!

هانحن وصلنا إلى المحطة الأخيرة، حيث أصبح لزاما علينا أن نجيب عن سؤال: هل ما قامت به الأميرة عمالة أم تعامل؟! وها هو محمد فريد يتهمها صراحة بالعمالة لبريطانيا، فهل ذلك نتيجة الخلط بين دور الغرب الثقافى ودوره



سعد زغلول



جشم آفت هانم

الاستعماري؟ ولست في حاجة إلى التأكيد على أن الفكر والثقافة إرث بشري من حق الجميع أن يتمتعوا بنتائجه أما السياسة وما تعبر عنه من مصالح فهي قضية أخرى.

وفي هذا السياق يمكن أن ينشأ فضاء مشترك بين بعض المثقفين وبين قصر الدوبارة، وخاصة أولئك الذين يعملون من أجل القضاء على الاستبداد وحكم الفرد ويسعون إلى بناء المؤسسات وتحديث الإدارة، والذين ينادون بالوطنية بديلا عن الملة أي المصرية بديلا عن العثمانية.

ورغم ذلك تبرز علامات استفهام حول ما يرويه ستورز في مذكراته حول زيارة النائب البريطاني روبرتسون، والذي تجاهل دعوة الأميرة للقاء، وتصورت الأميرة أن ذلك بتحريض من الوطنيين المصريين، فبعثت له رسالة تبدي فيها دهشتها وتقول: «شعورك نحو المصريين أقوى من شعوري نحو الإنجليز» ويعلق ستورز على رسالتها بأنه يحتفظ بصورة منها والتي تقول فيها «لقد حققت بريطانيا العدل والرفاه في مصر» لتقديمها لكل من يشكك في دورنا الايجابي في مصر ومن العبارات التي نتوقف عندها قولها: «إنها تضيق بنا (أي بالانجليز كما جاء في شرقيات ستورز) إذا حاولنا الاتصال أو التفاهم مع التيار المضاد (أي الوطنيين المصريين)!.»

ومن مواقفها المتضاربة أيضا دفاعها عن كيتشنر وهجومها المستمر على جورست، وكراهيتها للخديو توفيق، ووقوفها إلى جانب الخديو عباس، وما سبق ذكره حول دفاعها المستمر عن عرابي وثورته.

ألا تستحق حياة الأميرة الغنية بالأفكار والاتصالات والتي يكتنفها الغموض أن تظهر في فيلم سينمائي، يتناول الغامض والساحر في شخصيتها ويستعرض معالم الحياة المصرية في مطلع هذا القرن.

فليس أكثر حكمة من حكاية تروى جيدا. ■

من أعلام الفن الأوروبى

تيرنر

مصور العواصف والأعاصير

بقلم

د. صبرى منصور



عاصفه ثلجيه

٩٠

الهلال

محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م

إن المتأمل لتاريخ الفن الأوروبى منذ عصر النهضة وحتى اليوم يتوقف مأخوذاً أمام إبداع بعض الفنانين من ذوى المواهب الفنية الفذة، ذات الأوجه المتعددة، والتى تتأبّى على التصنيف ضمن أسلوب فنى بعينه، فهم قادرون بإبداعهم الغريب والشاذ عن السياق المعروف على تخطى الأطر التقليدية السائدة فى أزمانهم، وتدفعهم قوى مجهولة إلى ارتياد آفاق جديدة، والتعبير عن موضوعات مبتكرة، وصياغة أساليب فنية غير مطروقة تكون تمهيداً لمدارس وطرز مازالت فى رحم الغيب.

ومن بين هؤلاء الفنانين المحيِّرين فى تصنيف إبداعهم المصور الإنجليزى وليام تيرنر الذى ولد عام ١٧٧٥ وتوفى عام ١٨٥١، والذى يعتبر من أهم الشخصيات الفنية فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر، كما يعدّ بالنسبة لإنتاجه الفنى المتنوع من أكثر المصورين خصوبة وغزارة، وقد كان له تأثير عظيم على الانطباعيين الفرنسيين والتعبيريين الألمان فيما بعد.



فينيسيا - بزوغ القمر ١٨٤٠

المنظر الطبيعي الأوروبي في القرن الثامن عشر

ولقد كان فن المنظر الطبيعي ضمن الفروع الفنية التي استفادت من حرية الفنان - التي تأكدت خلال القرن التاسع عشر - في اختيار موضوع ومادة تصويره، إذ كان المنظر يعتبر فرعاً صغيراً ومحدوداً إذا قورن ببقية الفروع التي شملت صور الأشخاص والتجمعات البشرية ومناظر الحروب والصيد والطبيعة الصامتة، فكانت لا تؤخذ علي محمل الجد أعمال أولئك الفنانين الذين يصورون مناظر البيوت الريفية أو الحدائق والغابات والأنهار، لكن تلك النظرة قد تغيرت إلي حد كبير من خلال الروح الرومانتيكية في أواخر القرن الثامن عشر، وأخذ فنانون كبار علي عاتقهم مسئولية الإرتقاء بهذا الفن وإكسابه الاحترام والتقدير اللازمين، ومن الغريب أن يتولي إثنان من كبار الفنانين الانجليز من جيل واحد تحقيق هذا الهدف، وقد كان جون كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) واحداً منهما، أما الثاني فكان ويليام تيرنر.

بداية تقليدية

نشأ تيرنر في بيئة متواضعة، وكان والده يعمل حلاقاً وصانعاً للشعر المستعار في كوفنت جاردن، وحينما أظهر تيرنر موهبة مبكرة في فن الرسم ألحقه والده بالأكاديمية الملكية للفنون وهناك لفت الأنظار إلي تميزه وهو لم يتعدَّ الخامسة عشرة من عمره، وحيث قام بدراسات جادة وصارمة، مروراً بكل المراحل التي يمرّ بها أقرانه، مسلحاً نفسه بكل الإمكانيات الفنية اللازمة لمصور محترف. ومنذ عام ١٧٩٥ كان يعرض لوحاته بالمعارض التي تقيمها الأكاديمية بصفة منتظمة حتي أصبح هو نفسه عضواً فيها عام ١٨٠٢.

وجاءت بدايات تيرنر في تناول المنظر الطبيعي متماشية مع التقاليد السائدة في القرن الثامن عشر، والتي كانت تعتمد علي تقديم صورة وصفية للأماكن والمباني، وتدلنا أعماله علي أنه لم يعتمد في إبداعه علي عبقريته وموهبته فقط، وإنما فرض علي نفسه نظاماً في الفن كانت ثمرته قدرة فنية تحتاج في ممارستها إلي مجهود دؤوب، ومازالت المؤثرات التي ابتكرها مثل تصوير الضباب والزبد وحركة المياه المصطخبة عصية علي تحليلنا.

كما كان تيرنر يتمتع بميزة الفضول النهم إلي المعرفة، والتجريب والبحث في حقائق الطبيعة، فلقد واجه أعنف العواصف في عرض البحر، وتحمل المصاعب التي يتحملها أيّ مكتشف، في تصميم علي ملاحظة وتسجيل أكثر الظواهر الطبيعية خفاء وندرة، ولم يحدث أن كرّس إنسان حياته بهذه الصورة من أجل نشاطات مهنته الخالصة.

ولقد ظلّ المنظر الطبيعي الخلوي هو محور اهتمامه الرئيسي، ساهم في ذلك مزاجه الشخصي الذي يتصف بالانعزال والانطوائية والنفور من الناس. وفي البداية



الصيد فى مياه عميقة ١٨١٨



بقايا قلعة فوق صخرة فى مدينة على النهر ١٨٢٧

دعَّم تيرنر نفسه في الرسم بالألوان المائية، وأصبح أعظم أستاذ عرفه العالم في هذا النوع من التصوير، إلا أن ذلك ظلّ بالنسبة له وسيلة لغاية أخري، ومنهجاً للتفسير والاكتشاف قام بدمجه فيما بعد في التصوير بالألوان الزيتية الأكثر عظمة والأعمق قيمة.

ملامح التجديد

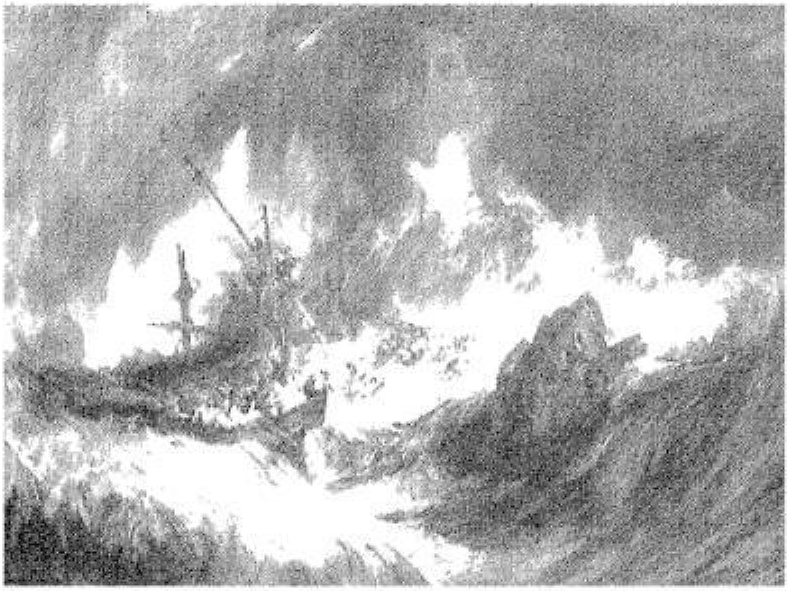
وتيرنر الذي بدأ بأصول أكاديمية في تسجيل الطبيعة، قد اشتهر فيما بعد بالخروج علي تلك التقاليد، وظهر ميله إلي الحسّ الرومانسي والخيال، وذلك ما دفعه نحو تصوير الأطلال والأماكن ذات التاريخ القديم. ولقد استطاع أن يوظف تمكنه من مواده وألوانه ومعرفة أسرارها، وكذلك حصيلة تجريبه للأدوات والتقنيات من أجل تجسيد أفكاره. كما كان يحسن استغلال انتشار الألوان علي سطح اللوحة والتي تحدث مصادفة نتيجة تداخل المياه الملونة مع بعضها البعض، هذا بالإضافة إلي أسلوب الكشط للون وهو مازال ليناً رطباً، كما استطاع تيرنر أن يستخرج من الألوان الزيتية بعض صفات الألوان المائية كالشفافية والصفاء اللوني. وكان يفضل استخدام الألوان الزاهية، ويميل إلي استخدام التضاد اللوني الواضح في بعض أجزاء اللوحة، في حين يسود الأجزاء الأخري درجات لونية متقاربة.

ولقد كانت طريقة تيرنر المميزة في التلوين متأثرة إلي حد كبير بأحدث النظريات العلمية للألوان والظلال، التي طبقها في العديد من أعماله، حيث كان القرن التاسع عشر هو عصر الاهتمامات والاكتشافات العلمية.

من المكون إلي العواصف العاتية

وفي السنوات الأخيرة من حياته، حدث التحول الكبير في فن تيرنر والذي أسفر عن الإضافة الحقيقية له في تاريخ الفن، فقد تحول من تصوير المناظر الطبيعية الوادعة التي تتسم بالرقة ويسودها الهدوء والسلام، إلي فنان له رؤيا تتخطي السائد والمألوف، وتدفعه نحو تصوير قسوة الطبيعة وعنفها، ومنذ حوالي عام ١٨٤٠ - حين رسم الموت والخراب في لوحته «سفينة العبيد» - ساد اللونان الأحمر والأسود الرعدي معظم أعماله اللاحقة. وقد فسر بعض معاصريه ذلك التحول وأرجعوه إلي تكوين شخصيته التي يمثل التشاؤم أحد ملامحها الرئيسية، فقد كان تيرنر يؤمن بأن الإنسان يبدو مثل ذبابة صيف عابرة سريعة الفناء.

منذ ذلك الحين بدأ في تجسيد رؤيته والكشف عنها، وأضحت عواصفه أشدّ دماراً، وشروق الشمس أكثر أثيرية وروحانية، ووظّف استاذيته في صدق الأداء الفني لتصوير أحلامه ورؤاه، تلك الكلمات التي أستخدمت لتوصيف أعمال تيرنر في عصره، وهي كلمات تعدّ مبهمة ومجازية بالنسبة لحسّ القرن التاسع عشر، ولكننا بمعرفتنا الجديدة بالأحلام كمفسر للرغبات المكبوتة، والذكريات



العاصفة ١٨٢٣

الدفينة، نستطيع أن نعيد النظر في أعمال تيرنر لنلاحظ إلي أيّ مدي تمتلك صفات الأحلام . فالمنظور البصري المجنون والمختلف، وذوبان الأشكال واختلاطها، والمنظر الضبابي المبهم، والشعور بعدم الاستقرار وانعدام الإتزان، كل تلك الصور التي عايشها معظمنا في أحلامه قد عايشها تيرنر وهو في حالة الوعي واليقظة.

والغريب أن تيرنر وهو مصور مناظر طبيعية قد استطاع أن يحمّل مناظره رؤيا ذات أبعاد درامية عبّر بها عما يشمله الواقع من أجواء تبدو وكأنها عالم الأحلام، لذلك فإن فنه أشبه ما يكون بالتجليات الصوفية، ورويداً رويداً يختفي الموضوع من صوره الغربية وسط دوامات من الأمواج العاتية، وتهاويل السحب المكفهرة، والأبخرة الكثيفة، تومض من بين ثناياها أضواء غامضة كأنها بسمات برق فاتن الألوان، فقد كانت لديه رؤيا لعالم (فانتازى) ممتلىء بالجمال، وهو ليس عالم الهدوء، وإنما عالم يعجّ بالحركة، وليس تناغمات أو انسجامات لونية بسيطة، وإنما مهرجانات لونية وضوئية مبهرة تخطف الأبصار، وقد حشد تيرنر لوحاته بكل العوامل والتأثيرات التى تجعلها أكثر مفاجأة، وأعمق درامية، مستخدماً كل مهارته ومقدرته الفنية من أجل أن يمنحنا الطبيعة فى أوج عظمتها وجلالها، وعنفها وقسوتها، ونحن أمام أعماله – مثل لوحته الشهيرة عاصفة ثلجية – نكاد نحس بإندفاع الرياح،

وحركة الأمواج وهديرها، كما نشعر أننا صغار أمام قوى عاتية لا يمكننا السيطرة عليها. ونعجب في الوقت نفسه بذلك الفنان الذي امتلك قوى الطبيعة رهن أمره وتحت سيطرته.

ولم يكن النقاد المعاصرون لتيرنر - والذين كانوا يدورون في فلك الكلاسيكية - على استعداد لتقبل نزوته الفنية، ليس فقط للموضوع الغريب غير المطروق، وإنما أيضاً للصياغة التشكيلية ذات الإيقاع الذي يمثل خروجاً على التقاليد المعروفة في التناول الأوروبي لفن المنظر. ومع ذلك فإن تيرنر لم يعدم من الكتاب من استطاع تقبل وتقدير إبداعه في حينه، ومن بين هؤلاء الناقد الفني جون رسكين الذي كتب عن تيرنر: «إنه استثناء من كل القواعد، ولا يمكننا أن نحكم عليه عن طريق مقياس من مقاييس الفن، فبطريقة حماسية متوهجة الروعة، نراه يندفع خلال المناطق الأثيرية من عالم عقله هو، ذلك العقل الذي تسكنه أرواح الأشياء، ولقد ملأ عقله بمواد استخدمها من الدراسة الوثيقة القرب للطبيعة، ثم دراسة التغيرات والمركبات المختلطة، قابضاً على روح الجمال وجوهره».

إرهاصات إنطباعية وتعبيرية

وتبدو أعمال تيرنر على اتصال وثيق بالإنطباعية، وخاصة في لوحاته التي أنجزها بين أعوام ١٨٠٥ - ١٨١٠ في منطقة نهر التيمس، حيث كان يرسم وهو قابع في القارب منهياً لوحاته في الموقع نفسه ، وبدون أن يضيف أية لمسات في مرسمه، وهو ما فعله الإنطباعيون فيما بعد، كما أنه استغنى عن كل ما يشير إلى حكاية مكتفياً بعناصر المشهد الطبيعي الذي يفتقد عناصر الجذب العادية، فهو يخلو من الأشكال ذات الجمال الطبيعي المألوف. ولقد أطلق على تيرنر لقب الأب الروحي للمدرسة الإنطباعية، فقد أثارت أعماله إعجاب وتقدير الإنطباعيين الذين تواجدوا في لندن حوالي عام ١٨٧٠، وكان من بينهم مونيه وبيسارو وسيسلي الذين لفت انتباههم تقنية تيرنر التي تعتمد على ضربات الفرشاة وتحليل الضوء وطريقة تصوير انعكاسات المياه، مما كان له تأثيره على أسلوب المدرسة الجديدة، وعن هذا التأثير كتب المصور الإنطباعي بول سينياك :

«أثناء إقامتهما الطويلة في لندن، اكتشف كلود مونيه وبيسارو تيرنر، ولقد دهشا لسحر ألوانه، وانكبا على دراسة أعماله، وتحليل تقنيته، وأعجبا بالطريقة التي نقل بها الإحساس ببياض الثلج بهذه الروعة، في الوقت الذي فشلا فيه في ذلك، عندما اكتفيا بوضع بقع كبيرة من اللون الفضي والأبيض، موزعة هنا وهناك على السطح المستوي، ثم توفر لهما أن يشاهدا هذه التأثيرات المذهلة التي لم تنجز بالأبيض فقط، بل بعدد من الضربات ذات الألوان المتعددة، وقد وضعت بلمسات دقيقة الواحدة عكس الأخرى لتنتج التأثير المطلوب حينما ترى من على بعد».

ومن المثير عقد مقارنة بين لوحة مونيه



الشمس خلال سحب داكنة ١٨٢٥

الشهيرة «تأثير – أو شروق الشمس» – التى أنجزها عام ١٨٧٢ – ببعض أعمال تيرنر الذى كان قد توفى منذ واحد وعشرين عاماً، فالتشابه يبدو واضحاً للوهلة الأولى، فى أسلوب المعالجة واختيار الألوان، واستخدام الضوء، بل وفى التصميم الفنى نفسه. وربما كان الفرق الوحيد هو أن تيرنر كان يفضل مشهد غروب الشمس وليس منظر بزوغها. أما تلك اللوحات التى أبدعها تيرنر فى سنواته الأخيرة، والتى جسدّ فيها طبيعة البحر الصاخبة، واندفاع الأمواج، وشدة العواصف، وتميزت بعنف وحدة الألوان، فإنها يمكن أن تنتمى إلى الإتجاه التعبيرى، فتلك الشحنة الانفعالية الهائلة التى تشع منها، والمبالغات الدرامية للمظاهر الطبيعية، ولمسات الفرشاة القوية، والاختصارات اللونية، تشى بمشاعر الفنان وأحاسيسه الداخلية، وكل ذلك من الخصائص التى تميزت بها المدرسة التعبيرية التى تبلورت فى أواخر القرن التاسع عشر.

وربما كان تيرنر هو الفنان الوحيد الذى تحول من التغنى بجماليات الشكل الخارجى، إلى التعبير عن قوى روحية، وتجسيد مشاعر إنسانية.. وتلك الرؤية المتفردة أفسحت له مكانة سامية ليس فقط فى الفن الانجليزى، وإنما فى مجمل الإبداع الفنى على مرّ العصور. ■

شعر

أنا الشرق

سليم الرافعي

الغرب من أمسي وما منه مهرب
صمت الزمان الجم يمضي مؤرخا
وهل يحكم الدهر الأبي مسالم
وما في حياة المجد إلا ملاحم
تركت لي أمجاده من سلالة
حضارة هذا الكون فوق رؤوسنا
فلا تنطفي في هالة [illegible]
رأيته صبيا طار في الجو صاعدا
فقلت جذور الشرق [illegible] حضارة
[illegible] أن يبكي طيبها ولا يرى
اليسر من الإيمان أن نحقق العلا
تدفق في [illegible] ورسالة
فهل قبس الغرب التطلع وارتقى
وكانت مفاتيح السماء منيعة
وتلقى بها أيدي الصانع سلمة
[illegible] أنا الشرق الذي كان فاتحا
أنا الشرق فتان الهياكل [illegible]
ملكت بها القلب الملوع [illegible]
أنا الشرق في الأهرام من شرفاتها
أنا الشرق من سيناء أو قلب مكة
[illegible] بالآخ العمران [illegible]
بكى الغرب يوما من جهالة [illegible]
[illegible] عليه حتى [illegible]

أشمعت من يومي وما فيه منصب
صحائفه جبارة حتى [illegible]
بروائع الأشباح الجبال ويرتقي
مخضب .. فالمجد منها مخضب
جداليه تجتاح أو تتوثب
فمن معول العزم المثار تشب
يمزق هذا [illegible] من يتطلب
إلى الملأ الأعلى .. يخلع [illegible]
[illegible] في رحمة [illegible]
سماوات [illegible] وترهب
وهل كان الإيمان إلا التقرب
[illegible] لله يوهب
إلى الله ركبا بالعطاءات [illegible]
[illegible] أضحت تنال [illegible]
[illegible] وتأسرى كل يوم وتجلب
[illegible] بالروح [illegible] ويكتب
من الطين أسمو بها وأهذب
على قلل منها أصلي وأخطب
تطلع إيمان .. وطبع [illegible]
أم القدس أسمو ما أضاء وأعشب
أو ارتاد ملكا في السماء يحجب
[illegible] أضحى الغرب [illegible]
فهل أنا إلا الأخ والأم والأب



حرامية لا كي حي تو

السينما المصرية وتغيير المجتمع المصرى

بقلم
د. جلال أمين



كريم عبد العزيز والطفلة معها في لقطة من الفيلم

خرجت مبتهجا من فيلم «حرامية في كي جي تو» لأكثر من سبب كانت النهاية سعيدة ومقنعة وظريفة في نفس الوقت، إذ تغلبت فيها خفة الدم على أى رومانتيكية مصطنعة ومبالغ فيها ولكن خفة الظل مستمرة فى الفيلم من بدايته الى نهايته ، ليس فقط من جانب كاتب الحوار والممثلين، بل ومن المخرجة ايضا فلا بد أنها هى التى قررت أن تنهى الفيلم لا بصورة عناق بين البطل والبطلة بل بصورة «ماجد الكدوانى» وهو يخلع قميصا بعد آخر دون أى سبب واضح. إلا إخفاء تأثره وفرحته بعودة المياه إلى مجاريها بين صديقه المفضل «كريم عبدالعزيز» ومحبوبته الجميلة «حنان ترك» . ولابد أنها هى التى قررت أن تستخدم موسيقى «درامية» عند لقاء البطل والبطلة لأول مرة معلنة للمشاهدين ان هذه هى البداية لقصة حب عنيفة!

والصورة التى تقدمها المخرجة «ساندرا نشأت» طوال الفيلم، كلها صور جميلة ، فهى بحق لا ترى أى سبب يضطر المخرج إلى تعريض عيون المشاهدين لأى منظر قبيح، وترى أن من واجب المخرج لا أن يهرب من تصوير الحارات والأزقة وسكان الأحياء الفقيرة وأسطح العمارات ويقتصر على تصوير الفيللات الفخمة والحدائق الغناء، بل من واجبه أن يخرج هذا وذاك إخراجا جميلا ترتاح له العين ولا تنفر منه النفس. وهذا هو ما فعلته بالضبط ساندرا نشأت. سواء فى الصور البديعة التى قدمتها لمعابد الأقصر وبحر الأسكندرية، أو لأطفال المدرسة وهم يلعبون فى فنائها، أو

لركاب مترو مصر الجديدة، أو حتى لشقة عازب فقير فى شبرا.

ولكن كانت هناك أسباب أخرى للابتهاج. فها هو ذا أول فيلم يؤلفه ويكتب الحوار والسيناريو فيه شاب لم يتجاوز عمره الثلاثين (بلال فضل) كان لبضع سنوات صحفيا مرموقا، وكاتب مقال سياسى، وثقافى بارع وشديد الحساسية بمشكلات مصر، وبالغ الفصاحة فى التعبير عنها، وها هو الآن يتألق أيضا كمؤلف قصة وكاتب حوار وسيناريو. وها هى شابة مصرية فى نفس السن، أخرجت لنا من قبل فيلمين طويلين جميلين «مبروك وبلبل» و«ليه خليتنى أحبك» وهاهى تخرج لنا بعد وقت قصير فيلما ثالثا لا يقل عنهما جمالا وأكثر منهما ظرفا. وهاهى ذى مجموعة رائعة من الممثلين البارعين، من بينهم طفلة عمرها خمس سنوات «منها عمار» وشبان ظرفاء آخرون لم تلمع أسماؤهم بعد ولكنها لابد أن تلمع فى المستقبل القريب.

***

قصة الفيلم ليست جديدة تماما، ولكن أين هى القصة الجديدة تماما؟ وما أكثر الأفلام الجديدة التى تمتعنا بها رغم أنها تعيد رواية قصة قديمة ولكن بطريقة جديدة تماما. وما أكثر ما جرب المخرجون بل والمؤلفون، موهبتهم بإعادة إخراج وكتابة قصة كتبت وأخرجت عدة مرات من قبل. بل إن من أكثر ما استرعى انتباهى فى هذا الفيلم هو كيف أدى مرور السنين بما حملته من تغيرات فى المجتمع المصرى، إلى تغير طريقة معالجة قصة قديمة تكرر ظهورها فى السينما المصرية . المرة بعد الأخرى، من أيام يوسف وهبى ومحمد عبدالوهاب ونجيب الريحانى فى الثلاثينات والأربعينات ، إلى أفلام سعاد حسنى فى السبعينات إلى هذا الفيلم الجديد فى مطلع القرن الحادى والعشرين.

القصة هى قصة الحب بين طرفين غير متكافئين من الناحية الاجتماعية. شاب غنى يقع فى حب فتاة فقيرة أو بالعكس ، فتاة غنية تقع فى حب شاب فقير، ثم ينتصر الحب بالطبع فى النهاية وإلا خرج الجمهور غاضبا أشد الغضب..

فى هذا الفيلم الجديد (حرامية فى كى جى تو) هناك أيضا «عدم تكافؤ اجتماعى» بين



البطل والبطلة، وإن كان السبب فى عدم التكافؤ فى هذه الحالة مختلفا بعض الشىء عما كان فى الأفلام القديمة، مما يعكس تغيرا مهما من التغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى.

ففى هذا الفيلم الأخير لا يمكن للمشاهد أن يقطع من هو بالضبط الأكثر ثراء الفتاة المدرسة «ريم» أم اللص المحترف «حسن»؟ فلا الملابس التى يرتديها كل منهما ولا طريقة الكلام تفصح عن الطبقة التى ينتمى اليها . بعكس ما كان عليه الحال تمامـــــا أيام يوسف وهبى أو عبدالوهاب أو الريحانى فى الثلاثينيات والأربعينات بل وحتى فى أيام سعاد حسنى فى أول السبعينات فى ذلك الوقت كان لابد أن يفضح الفقير شىء ما فى ملابسه أو فى طريقة كلامه أو سلوكه، أما الطربوش القديم أو البدلة غير المكوية أو القميص ذو الياقة البالية أو الاضطراب عند استخدام الشوكة والسكين أو فى العبارات المستخدمة فى تبادل التحية، الخ، ناهيك عن العجز التام عن استخدام او فهم اى عبارة بلغة أجنبية.

ليس هذا على الإطلاق هو الوضع الآن. فهذا الشاب الوسيم «حسن» الذى أتى من اسرة متواضعة جدا، والذى احترف ابوه السرقة بسبب الفقر، ولم ير قط تورتة أو أشعل شمعة، فى عيد ميلاده. ثم اضطر هو أيضا إلى ممارسة السرقة، تراه الآن فى الطريق أو تسمعه وهو يتكلم فلا تستطيع أن تميزه عن شاب وسيم من أولاد الذوات إلا بصعوبة . بل إن من الطريف حقا أن نقارن بين هذا السارق المحترف «كريم عبدالعزيز» فى هذا الفيلم الأخير، وبين أى مجرم محترف فى أفلامنا القديمة حيث كان يقوم بها ممثلون لهم ملامح إجرامية ولهجة فى الكلام تتمشى مع هذه الملامح ، مثل عبدالفتاح القصرى أو رياض القصبجى ، مما يفصح عن احترافهم للاجرام بمجرد النظر اليهم. صحيح أن كريم عبدالعزيز قد اختير خصيصا لدور السارق المحترف لكى يصبح من الممكن أن يقع فى غرام حنان ترك وأن تقع هى فى غرامه، ولكن الدنيا قد تغيرت أيضا ومعها أشكال المجرمين.

ليس الغنى والفقر إذن هما مصدر عدم التكافؤ الاجتماعى، فى هذا

الفيلم، كما انه ليس عراقة الأسرة من ناحية وقلة عراقتها فى الناحية الأخرى، كما كان الحال في كثير من الأفلام القديمة . فأسرة المدرسة «ريم» لا يبدو عليها أنها متميزة بوجه خاص، لا في الثراء ولا في عراقة النسب، وهى قطعا ليست أسرة إقطاعية كأسرة يوسف وهبى فى «ليلى بنت الفقراء» أو كأسرة ميمى شكيب فى «الدلوعة» أو كأسرة حسين فهمى فى «خللى بالك من زوزو» وإما مصدر عدم التكافؤ هو فقط تلك الطريقة الغريبة التى يحصل بها هذا الشاب الوسيم على المال. صحيح أنه اضطر اضطرارا الى احتراف السرقة، وأنه شاب طيب فى الحقيقة، ولكنه لص محترف على أى حال، والمفروض أن تلفظه الفتاة وأسرتها لفظا بمجرد أن تعرف الحقيقة.

ولكن يبدو أن هذا الأمر قد أصبح من السهل قبوله الآن أكثر بكثير مما كان عليه الحال منذ خمسين أو حتى ثلاثين عاما. فالفيلم يقول لنا إن الفتاة على استعداد تام لأن تصدق أن الفتى سوف يقلع عن حرفة السرقة بسبب وقوعه فى غرامها، وأنه سيبدأ من الآن فصاعدا حياة شريفة . هكذا يقول الفيلم بل ويشير قبل النهاية بقليل الى أن الفتى قد بدأ بالفعل فى ممارسة حياة شريفة صحيح أن عمله لازال هو فتح الخزائن المغلقة ولكنه يفعل ذلك بطريقة شريفة تماما، كما لو حدث وضاعت المفاتيح من صاحبها مثلا. المطلوب من مشاهدى الفيلم أن يتغاضوا عن بعض البعد عن الواقعية فى هذه النطقة فالفيلم لا يقصد أن يكون فيلما واقعيا . بل يتوقع من المشاهد أن يغض النظر عن هذا فى مقابل أشياء أخرى، وأظن أن هذا مقبول تماما . ولكن أظن أن مشاهدى الأفلام فى هذه الأيام مستعدون للتغاضى عن احتراف الشاب للسرقة ووقوع الفتاة فى غرامه بالرغم من ذلك، لسبب آخر غير عدم التزام الفيلم للواقعية التزاما صارما . وهو أن مصدر الحصول على المال لم يعد له نفس الأهمية اليوم مثلما كان له منذ خمسين عاما . فالظاهر أننا جميعا قد أصبحنا أكثر استعدادا اليوم للتغاضى عن سبب الثراء والتركيز بدلا من ذلك على واقعة الثراء نفسها .



وكأن الفيلم يعتمد فى إقناعنا بسهولة قبول المدرسة «ريم» للتاريخ الاجرامى للشاب المحبوب «حسن» على الحقيقة المرة التالية: من هو بالضبط الشخص الشريف مائة بالمائة فى هذه الأيام؟

انظر مثلا إلى المدرسة التى تدرس فيها الآنسة ريم، إنها تطالب أولياء أمور التلاميذ بألف ومائتى جنيه كل ثلاثة أشهر بالاضافة الى مصاريف اتوبيس المدرسة والزى المدرسى والوجبات.. الخ، وهى لا تظهر أى رحمة مع ذلك الأب الذى جاء يستعطف موظفى الحسابات بالمدرسة ويرجوه تأجيل دفع المصاريف الى أول الشهر التالى، فيرفض الموظف رفضا باتا ويهدده بفصل ابنه من المدرسة نحن نعلم أن فتح مثل هذه المدارس قد أصبح الآن من أكثر أوجه الاستثمار ربحا فى مصر وأن أصحاب هذه المدارس يتمتعون بمركز شبه احتكارى يستطيعون فيه أن يطلبوا من الآباء والامهات الالاف المؤلفة وهؤلاء الآباء والامهات يبدون على استعداد للتضحية بأى شىء فى سبيل تعليم أولادهم، خاصة إذا كان هذا سيجنب أولادهم التعرض لنفس ما تعرضوا هم له فى صباهم. فى مثل هذه الظروف.

من هو بالضبط اللص ومن هو الشريف؟

إذ أين «الشرف» بالضبط فيما يفعله أصحاب هذه المدرسة الخاصة الذين يمتصون دماء أولياء الأمور إلى آخر قطرة؟ وإذا كان اسم الفيلم «حرامية فى كى جى تو».، فهل المقصود بالحرامية. اللص حسن وزملاؤه الذين فتحوا خزينة المدرسة ليلا ونهبوا ما فيها. ولكنهم اعطوا بعض ما نهبوه لأحد أولياء الأمور العاجزين عن دفع المصاريف، هل هؤلاء هم اللصوص المعنيون أم أنهم أصحاب المدرسة نفسها الذين فرضوا هذه الاتاوات ابتداء على أولياء الأمور بزعم أنها «مصاريف الدراسة»؟ من المؤكد إذن أن أمور النزاهة والشرف لم تعد الآن بنفس الدرجة من الوضوح التى كانت عليه أيام الريحانى ويوسف وهبى.

●●●

فى جميع هذه الأفلام ،، القديمة والحديثة، يستعين الطرف المغبون اجتماعيا من أجل الحصول على رضا المحبوب والظفر به فى النهاية . ببعض

الصفات الشخصية أهمها خفة الدم. وهي صفة كانت متوفرة دائما، سواء كان الطرف المغبون اجتماعيا هو نجيب الريحاني أو سعاد حسني أو كريم عبدالعزيز. ولكن يبدو أنه قد حدث أيضا بعض التغير في الصفات الأخرى المطلوبة. لم تكن الوسامة مثلا شرطا مهما في حالة نجيب الريحاني، ولكنها أصبحت مهمة في عصر كريم عبدالعزيز. ناهيك عن شرط إجادة اللعب بكرة القدم وهو الشرط الذى شعر مؤلف أو مخرجة فيلم «حرامية فى كى جى تو» بأهمية توافره . فجعلوه من دواعي الجاذبية في كريم عبدالعزيز فضلا عن انتصاره في خناقة ملاكمة وضرب مع بعض البلطجية. وهي أمور نجحت في جذب حنان ترك اليه وايقاعها في غرامه، ولكنها أي الوسامة والرشاقة واجادة لعب الكرة والملاكمة لم يكن من الممكن أن يتصور أن يعتمد عليه نجيب الريحاني منذ ستين عاما. في الايقاع بميمي شكيب مثلا او ليلى مراد.

•••

الأهم من ذلك كله التغير الملحوظ الذى طرأ على مركز المرأة خلال هذه الستين عاما. كانت المرأة المرغوبة أيام الريحاني وعبدالوهاب ويوسف وهبى ليست فقط امرأة جميلة، بل وأيضا بيضاء البشرة. وتميل الى السمنة تعيش في كنف أبيها وأمها فلا تحتاج الى القيام بأى عمل او وظيفة خارج البيت . بل ولا على الأرجح في داخل البيت أيضا ، لم يكن يضيرها أيضا أن تكون قليلة الكلام . شديدة الحياء، ولا تكاد تجرؤ على النظر إلى وجه حبيبها وهو يكلمها . بل قد يكون هذا كله من دواعي جاذبيتها.

لم يعد الامر كذلك بالمرة. فحنان ترك في هذا الفيلم الأخير فتاة جميلة حقا ولكنها صغيرة الحجم، بالغة النحافة جريئة ومتكلمة لا تفزع من جرأة الشاب كريم عبدالعزيز في مغازلتها ولو أمام أسرتها وأمام ابن خالتها الذي يريد الزواج منها. بل تشجعه على المزيد من الجرأة، ولا تبذل اى جهد لاخفاء عاطفتها نحوه. وهى فوق هذا كله موظفة كادحة تستيقظ في الصباح لتركب المترو الى المدرسة وتعود منهكة في أخر النهاية، وحيث أنها امرأة تكسب قوتها



يعرق جبينها فقد حققت درجة لا يستهان بها من الاستقلال فى مواجهة اسرتها فلا تسمح لاحد بأن يصدر اليها الأوامر. أو انه يرغمها على شىء لا تريده

انظر مثلا كيف تصرفت عندما عادت من المدرسة بعد يوم عمل طويل فوجدت أن أمها قد دعت ابن خالتها المغرم بها الى الغداء مع الاسرة بينما هى لا تشعر نحوه بأى مودة ولا يميل قلبها الا الى ذلك الشاب، اللص الوسيم، فإذا بها تقول انها تشعر بالتعب وسوف تدخل لتنام، وتترك ابن خالتها ليتناول الغداء مع أبيها وأمها بينما هو لم يأت الا من أجلها. لم يكن من السهل أن نتصور منذ ستين او خمسين عاما ان تتصرف ليلى مراد او فاتن حمامة مثل هذا التصرف، بل ولا حتى سعاد حسنى منذ ثلاثين عاما.

أما حنان ترك فلا تجد اى غضاضة فيه، ويضطر الأب والأم وابن الخالة الى قبوله صاغرين.

بل حتى فى معاملة محبوبها الشاب الوسيم كريم عبدالعزيز ، تجد حنان ترك تصرخ فيه غاضبة لأنه تأخر نصف ساعة عن موعد خروج المدرسة فاضطرت الطفلة التى أتى لاستلامها وهى بنت صديقه «اللص المسجون» الى الوقوف فى الشارع لانتظاره وتأمر حنان ترك كريم عبدالعزيز بأصرح عبارة بألا يتأخر دقيقة واحدة بعد هذا اليوم فيقبل الرجل أوامرها صاغرا.

نعم المرأة متحررة فى فيلم «ساندرا نشأت» وبلال فضل ولكنها ليست مبتذلة ومن ثم فالمؤلف والمخرجة يذكراننا بأن من الممكن جدا أن ننتج فيلما لطيفا ومبهجا للغاية ومشوقا ومثيراً دون أن يبتذل جسد رجل أو امرأة.

فى حديث لساندرا نشأت بعد الفيلم سئلت عن خلو الفيلم تماما من القبلات، فأجابت بأنه كان من الممكن أن ينتهى الفيلم بقبلة ولكنها رأت أن نهاية أخرى قد تكون أكثر جمالا وتأثيرا . وقد صدق ظنها.

ها هو ذا إذن سبب آخر للابتهاج بهذا الفيلم فهو يعكس الظن الشائع بأن مركز المرأة المصرية فى المجتمع آخذ فى التدهور ، يقدم اكثر من دليل على ما حققته المرأة المصرية من تقدم، بما فى ذلك قيام امرأة مصرية فى مقتبل العمر بإخراج هذا الفيلم الجيد. ■

عناصر الفاجعة فى الملك لير

بقلم
صافى ناز كاظم



شكسبير



يحيى الفخراني



أحمد عبد الحليم



سوسن بدر

لم يعد لدينا ما يمكن أن نسميه «الموسم المسرحى»، لكن هناك تلك «الطفرات» المسرحية التى لن تعدم أن تجد لها جمهورا يملأ فيها مقاعد المتفرجين، ولاشك أن عرض مسرحية «الملك لير» على خشبة القومى، هو واحد من تلك «الطفرات» التى اجتذبت شوق الناس إلى مهرب ثقافى، يأخذهم من «غم» النشرات الإخبارية دون أن يوقعهم فى «إثم» الترفيه غير اللائق، بهذه اللحظة غير المنطقية فى تاريخنا.



مشهد من العرض المسرحي

«حماقة التبديد + شهوة السلطة + جوع الرغبة مع جمود المنطق عند الأشقياء»

ورغم الزحام الذى تكدس لمشاهدة «الملك لير» فإنه لم يكن كافيا لإقناع إدارة المسرح، أو إدارة العرض المسرحي، بضرورة طبع البرنامج التقليدي، الذي يتم توزيعه عادة مع كل حفل، للتعريف بالفنانين والفنيين وبقية فريق العمل الذي تحمل مسئولية الإخراج والتقديم والإنجاح أو الإفشال لهذا «المنتج الثقافي» - ومعذرة لجفاف المصطلح - ومع ذلك فلا بأس في هذا الإهمال إذا كان يعكس رضاء المشاركين في العمل وزهدهم في التوقيع بأسمائهم بعد جهد كل ليلة عرض، صحيح أن بعض الأسماء معروفة، وصحيح أن «أفيشات» العرض منصوبة في حوش المسرح لمن يريد أن يدوّن ما غاب عن ذاكرته البصرية، لكن صحيح كذلك ألا نهتم بالتدوين من لوحة الإعلانات تضامنا مع ذلك الزهد المشار إليه.

يبقى أن العرض من تأليف وليام شيكسبير، والترجمة لفاطمة موسى،

الملك لير

والإخراج لأحمد عبدالحليم، والبطولة ليحيى الفخراني وأشرف عبدالغفور وأحمد سلامة ولطفي لبيب وسوسن بدر وسلوى محمد علي وريهام أشرف عبدالغفور، ومعذرة - مرة أخرى - فهذا مبلغي من العلم والذاكرة وجهد سؤالي هذا وذاك.

***

قدم وليام شيكسبير عرض مسرحيته «الملك لير» عام ١٦٠٥ تقريبا، وجعل مكانها بريطانيا في زمنها الوثني قبل المسيحية، فهي مسرحية تبلغ من العمر أربعة قرون، ويعتبرها بعض النقاد أكثر مسرحيات شيكسبير، الفاجعات، جفافا ومرارة، ورآها مسرحي إنجليزي، من جيل الستينيات، اسمه إدوارد بوند .. محورا يستحق إعادة التأمل لإدانة العنف في المجتمع الغربي والعالم والتحذير من استفحاله، فقدم مسرحيته بعنوان «لير» - فقط دون لقب ملك عام ١٩٧١.

كعادته مع معظم فواجعه، بنى شيكسبير «الملك لير» معتمدا على روايات وحكايات قديمة، بعضها له أساس تاريخي وواقع من الحقيقة إلا أنها في حالة «الملك لير» تكاد تكون أسطورية صرفة، فقد كانت هناك قصة «ليرLear» ملك بريطانيا القديمة برواياتها الشعبية المتعددة، وكانت هناك مسرحية بعنوان «الملك لير Leir» بهجاء مختلف لاسم لير - وأخذ شيكسبير قصة «جلوستر» وأبنائه من مصدر آخر منفصل ونسج من القصتين، مع إضافاته الضرورية من الشخصيات والحبكة والأحداث، ليخرج بمسرحية يمكن أن تجتذب جمهوره اللندني في زمانه - حوالى ١٦٠٥ - يبرز فيها لمشاهديه أن عناصر الفاجعة التي تسببت في تدمير الملك لير القديم، وتدمير مملكته بالتالي، يمكن حين تستعاد أن يتجدد خطرها مهددا بلاده بالكوارث نفسها التي قيل إنها حدثت في الزمن البعيد.

الخطوط الرئيسية في «الملك لير» تبدأ بنزوة ملك عجوز متكبر وعنيد وأناني وكسول، طرأ له أن يكسب مذاق العسل دون هم إبر النحل فقرر أن يتخفف من أعباء مسئولياته الملكية ويقسم مملكته الشاسعة على بناته الثلاثة مع احتفاظه بالتاج ولقب الملك ووجاهة المنصب وفخامة اللقب وحاشية من مائة فارس تصاحبه في استمتاعه الحر في الذهاب والرواح، لكنه اشترط قبل توزيع تركته - أو تبديد مملكته - أن تعبر كل ابنة عن كم الحب الذي تحسه

نحوه، وسوف تحظى بالنصيب الأكبر أكثرهن حبا له، وفي تلك اللحظة من الحماقة والغرور والأنانية، لايستطيع الملك العجوز أن يفرق بين المداهنة والنفاق المنمق بالكلمات المعسولة والمزركشة بالمبالغات الكاذبة، وبين الحب المخلص الذي قد لايجيد تجسيد الإحساس العظيم في تعبير لفظي خلاب، وبهذا يكون الملك لير قد فتح الباب على مصراعيه لتقع مملكته، بعد تمزيقها، في براثن الداهيتين البارعتين في ادعاء الحب، وصولا إلى تحقيق أهدافهما في إشباع شهوة السلطة المسيطرة عليهما، فتأخذ الابنة الكبرى «جورنيل» والابنة الوسطى «ريجان» نصيبهما الكبير بالإضافة إلى اقتسام نصيب أختهما الصغرى الطيبة الصادقة التقية «كورديليا» التي، حين سألها أبوها ماذا تقولين عن حبك لي، قالت: «لاشيء»، لأنها كرهت ابتذال مشاعرها في كلمات رغم حبها العميق الأمين الذي تكنه لوالدها، فعصف به الغضب الحارق ودفعه إلى التبرؤ منها وحرمانها من «كل شيء» أمام كلمتها «لاشيء»، وهكذا من البداية اجتمعت ثلاثة من عناصر الفاجعة المحتومة، أولها: حماقة التبديد عند الملك - الذي تصرف بغطرسة الإقطاعي - فلم ير في مسئولية الملك سوى التملك لا «الرعاية»، ولم يدرك وهدة التمزيق والتمزق والانقسام وفتنة التناحر والأطماع التي قاد إليها البلاد، وثانيها: شهوة السلطة التي أضرمت نوازع الفساد في البنتين وحولتهما إلى حيتين سامتين تبخان الشراسة والجحود في الوالد الملك وتجعلانه ملكا «سابقا» مجردا من حقوقه البسيطة التي احتفظ بها لنفسه، بعد أن حنثتا بالوعد والعهد وتنصلتا من حبه والشفقة عليه، إلى أن وقعتا في جوع الرغبة فأطبقت عليهما المصيدة باب هلاكهما، وثالثها: جمود المنطق عند الفتاة «التقية»، التي لم تعرف الفرق بين «النفاق» و «الكياسة»، فهي «التقية» كان عليها أن تكون «فطنة» تقدم بحلاوة «الصدق» صياغة «الأمانة» التي يستدل منها الأب على حبها المخلص له، فمن غير الصحيح أن «الإخلاص» لا لسان له، وأن «الكلمات» لاتجيد توصيل رسائل الحق، لقد كانت كورديليا «طرويشة» أي سمجة الرد، غبية الوعي، مثل أوفيليا في مسرحية هاملت، فعلى الرغم من معرفتها فساد ودهاء وكذب الأختين، فإنها لم تقدم من جانبها التحدي والمقاومة وواجب «التقي» لمجابهة قوى الفساد وإحباط مخططاته وكشف أكاذيبه، هذه العناصر مجتمعة قدمها شيكسبير في «الملك لير» لنراها،

ونعرف أنها متى اجتمعت، في أي زمان أو مكان، لابد أن ينتج من تفاعلها كل الفواجع والمآسي وخيبة الأمل والخذلان والإرهاق إلى حد الجنون، التي رأيناها تأخذ مجراها ومسارها ومشاهدها في مسرحية «الملك لير».

في خط مواز لـ «حماقة الملك لير»، كانت هناك «رذيلة جلوستر»، الذي أنجب ابنا من علاقة زانية لم يخف إعجابه والتباهي بها، وإن ظل يفضل ابن الزواج «ادجار» على غير الشرعي «إدموند»، مما أوغر صدر «إدموند» الذي قرر أن يستفيد من منبته الفاسد ويستخرج منه كل شياطين الفحش، يستلهم منها أفكار الوقيعة والدسيسة وألاعيب الخبث وحيله لارتقاء السلم نحو الاستحواذ على قوة السلطة، وليكون الصائد لجوع الرغبة عند الأختين «جورنيل» و«ريجان»، ليسلبهما الممتلكات بعد أن أوصدتا أبوابهما أمام والدهما الملك العجوز، الذي هام في العراء شريدا مصعوقا بمفاجآت الجحود، حتى يبدو مع الغضب والمرارة واليأس مندوها إلى الجنون. يكاد يفقد «الملك لير» عقله، ويفقد «جلوستر» عينيه بفعل التنكيل الذي عاقبه به زوج «ريجان»، ابنة الملك لير، نتيجة لإفشاء «إدموند» ابنه سره في نيته تقديم المساعدة للملك.

ويقدم شيكسبير هنا الحكمة الإيمانية الخالدة بأن الأعمى ليس أعمى البصر بل البصيرة، وهكذا حين يفقد جلوستر عينيه يكون بإمكانه رؤية الحقيقة، التي لم يتمكن من رؤيتها وهو سليم العينين، ألا وهي أن ابنه «الحلال» هو المنقذ من يأسه وانتحاره، حين أورده ابنه «الحرام» إلى المهانة والضياع ومهالك القتل. ونرى كذلك الملك لير يبرأ من حماقته وغروره وأنانيته، وفي خضم الجنون يكتشف إنسانيته وينطق بالحكمة!.

لقد عانى «الملك لير» وحليفه «جلوستر» من الشر والأشرار إلى حد الدمار البدني والمادي، ولكن في لحظات الدمار البدني تولد دائما، وياللعجب، اليقظة الروحية.

***

هل أظهرت خشبة المسرح القومي كل هذا الذي تداعى في ذهني وأنا في طريق العودة من ميدان العتبة إلى بيتي قرب ميدان العباسية؟

الذي أدريه أنني لم أصب بالملل،

وأن يحيى الفخراني قدم بإمكانياته البدنية وقصوره في نطق اللغة العربية كل «التهتهة» المطلوبة، لإبراز وإتقان تصوير شخصية الملك الأحمق «لير»، وأن «أحمد سلامة»، الذي لم يعجبني أبدا في أدواره التليفزيونية، كان ندا متفوقا لكل الممثلين العالميين الذين قدموا شخصية الابن غير الشرعي «إدموند»، سواء على المسرح أو في السينما، وأن «سوسن بدر» في أداء الابنة الكبرى «جورنيل» تؤكد موهبتها المؤكدة، وأن «سلوى محمد علي»، التي تصورتها منذ سنوات لن تفلح في فن التمثيل، فلحت جدا في أداء «ريجان» والحمد لله، أما «ريهام أشرف عبدالغفور»، التي قدمت «كورديليا»، فقد نجحت تماما وهي صامتة ورسبت تماما كلما خرج صوتها ملسوعا مخدوشا متعثرا، وياليت والدها الفنان القدير «أشرف عبدالغفور» يأخذها تحت جناحه ويعلمها أسرار النطق ومخارج اللفظ التي كان فيها استاذا وهو يؤدي هادئا آلام جلوسستر المبرحة، وقد توافق لطفي لبيب شكلا وروحا مع دور «المهرج».. الذي يقدمه شيكسبير معادلا لدور الجوقة - أي الكورس - في المسرح اليوناني، ولقد كان «أحمد عبدالحليم» ذكيا حين ترجم كلام «المهرج» إلى الشعر العامي وأسند مهمة هذا التحويل إلى «أحمد فؤاد نجم»، فهذه هي اللغة التي يطلبها شيكسبير عادة لاستكمال ملامح شخصيات المهرج، وحفار القبور، والبواب، والعامة في مسرحه على وجه العموم، تحية للذي أدى دور «إدجار» و«كنت» و«أوزوالد» الخادم الذي دفع حياته ثمنا لإطاعة الشر وأمر الفاسدين.

***

قدم المخرج أحمد عبدالحليم عرضا ناجحا في نقل الابتكارات المسرحية السائدة، لولا الزيادة المجوجة في توظيف لوحات الباليه التي بدت عمالة فوق الحاجة، خاصة مدخل الافتتاح وأنصحه بالحذف إلا في مشهد تصوير العاصفة، وتلخيص حالة الهرج والفوضى والتشرد التي ترنح «الملك لير» في أرجائها.

وعلى كل حال فإن هذا العرض المليء بالحيوية والمعاني ، والذي يحتفل، ونحتفل معه، بذكرى مولد شيكسبير ٢٣ ابريل ١٥٦٤، وذكرى رحيلة ٢٣ ابريل ذاته، ١٦١٦، أعتبره اعتذارا مقبولا من المسرح القومي عن عرضه الناجح الساقط، الذي كان عنوانه «الناس اللي في التالت». ■

من أعمال الفنان حلمي التوني



جولة المعارض

الإبداع ... ابن الوطن والتراث

بقلم
عز الدين نجيب

باستثناء المعرض المشترك للفنانين الزوجين إسماعيل وتمام شموط، اللذين حملا لوحاتهما الجدارية الضخمة من وطنهما الصامد فلسطين وعرضاها على جمهور القاهرة بقاعة الأفق التابعة لقطاع الفنون التشكيلية في فبراير الماضي، والمعرض الجماعي لفناني مدينة جدة الذي أقيم بقاعة قصر الفنون بالأوبرا أوائل شهر مارس الماضي،لم تر القاهرة على امتداد الموسم الفني وجودا عربيا للفن التشكيلي في مصر، غير معرض خاص للفنان السوري صخر فرزات أقيم منذ شهور بمركز الجزيرة للفنون،وهو ما يعكس غياب أى سياسة فنية عربية على أرض مصر، ترصف طريقا منتظما للتواصل والتفاعل بين الحركات الفنية العربية - ومصر في القلب منها - أملا في الانتقال من الشعار إلى الواقع، حول تعميق الخصوصية العربية والقواسم الثقافية المشتركة، خاصة في ظل البداية العاصفة لسنوات هذا القرن، التي تنبيء باكتساح أمواج العولمة لشواطئنا، فلا يبقى لنا ما ندافع به عن أنفسنا فيما لو استسلمت قلعة الإبداع!



بائع العرقسوس - محمد علي



بذر البذور - حامد عويس

وكان معرض «الزوجين شموط» مبادرة فريدة واستثنائية لتقديم صورة تاريخية وحديثة لفلسطين، أو لنقل إنه «شهادة ذاتية» على الوطن الذبيح، الذى أصبح وجبة ممزوجة بالدم على موائد عشائنا اليومى من خلال شاشات التليفزيون، أو حلقات تحكى ملحمة مقاومة أسطورية لشعب قرر ألا يُذل أو يموت، وإن مات فليمت شامخا يواجه الدبابة بالحجر، وينسف بقنابل الأجساد - التى ما عاد يملك غيرها - قشرة الثقة الزائفة للعدو المسعور للدم، ومعها قشرة الهوان العربى، فيترك العدو عاريا مرتعبا يائسا، وتحت يده أزرار ترسانة الأسلحة الأمريكية بكل ما فيها من آلات الدمار البشعة، الموجهة بالكمبيوتر لتمارس طقوس الإبادة الجماعية كل يوم لشعب أعزل، فلا تمنحه أملا فى إحراز أى نصر، كما يترك - بهذه القنابل البشرية - حكوماتنا العربية متوجة بالخزى، فيما تمضغ الشعوب قهرها وعجزها أمام الأسوار المكهربة التى تضعها الأنظمة فى طريقها لمنعها من التضامن والمشاركة، أو حتى الاحتجاج!

شهادة «الفنانين شموط» تقدم سردا روائيا - بلغة التشكيل - لحياة كل منهما بين مدينتى «اللد» مسقط رأس إسماعيل، و«يافا» مسقط رأس تمام، أو إن شئنا الدقة.. هى محاولة لاسترجاع الزمن الذى عاشاه هناك فى طفولتهما وشبابهما قبل أن يقتلعا من فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨. والتجربة بدأت عام ١٩٩٧ عندما قاما بزيارة أرض فلسطين لأول مرة بعد غربة ٥٠ عاما متصلة ذاقا خلالها مرارة الشتات والغربة خارج الوطن، وخلال هذه

الزيارة طافا بكل مراتع الصبا، ومنها انتقلا إلى كل أنحاء البلاد، وتدفقت الأحاسيس والذكريات، وتجددت صور الأحداث التي عاشاها على أرض الوطن بين الآلام والأحلام، بين القنوط والتمسك بالحياة، ليعودا فيترجمانها بالألوان والخطوط والمساحات عبر ١٩ لوحة.

يقول الفنانان في مقدمة دليل المعرض: «منذ ذلك الحين بدأنا العمل في لوحات الجداريات ذات المساحات الكبيرة (٢٠٠ X ١٦٥ سم) والتي نعرضها في معرض «السيرة والمسيرة».. ولأن الحقيقة لا تموت، ولأن كل جيل قادم هو الامتداد الطبيعي لجذوره، ولأننا ربما خشينا ان تتمرد أدواتنا على مشاعرنا وقدراتنا، أو أن يغشى صورة هذه القضية الإنسانية ضباب العمر والزمن، رأينا أن نعيد رسمها، وتصويرها بتجربتنا الحياتية والفنية الطويلة والفنية، كي تظل صورتها، صورة ذلك الوطن، شعبا وأرضا، حية أمام أعين الأجيال القادمة وأمام ضمائر الناس في كل مكان».

تتدرج (السيرة - المسيرة) بدءاً من لوحة «الربيع الذي كان» وسط بهجة الحياة والطبيعة والغناء للحصاد، إلى لوحة «الاقتلاع من اللد والرملة» في جموع غفيرة تساق بسناكي البنادق، إلى لوحة «العطش على طريق التيه»، تلك التجربة الواقعية عن حرمان الجموع - بما فيها الأطفال - من الماء تحت صهد الحر وهم محاطون بالمسلحين الصهاينة، حتى ضاع اطفال صغار ومنهم شقيق إسماعيل، وسقط مرضى ومسنون وسيدات حوامل، إلى لوحة «فلسطينيون لاجئون»، حيث التكديس غير الآدمي بالمخيمات في خان يونس، بعد خوض الرحلة الخطرة طوال أسبوعين، إلى لوحة «الكابوس والحلم» حيث البحث عن الخلاص بالانعتاق من المخيم للدراسة بالقاهرة، وقد اصبحت الحلم والسلاح الوحيد الباقي لجموع اللاجئين ، ومنها إلى الاقطار العربية الأخرى سعيا وراء العمل. (وقد التقى إسماعيل وتمام في القاهرة خلال دراسته بكلية الفنون الجميلة (١٩٥٠ - ١٩٥٤)، وكانت هي تدرس بالمعهد العالي للفنون الجميلة بالقاهرة والمعهد العالي للمعلمات (١٩٥٣ - ١٩٥٧)، وسافر بعد ذلك إلى روما حيث استكمل دراسته بأكاديمية الفنون هناك وتخرج عام ١٩٥٦ ، ثم تزوج من زميلته تمام ١٩٥٩، وتوحدت منذ ذلك الحين مسيرتهما في الحياة والفن.

وتتوالى اللوحات التي تعبر عن إرادة الحياة واستمرار المسيرة، حيث تتواصل الحياة الشعبية الفلسطينية بأفراحها وأحزانها صامدة ضد القهر والحصار والتنكيل والشتات، ثم تنطلق حركة المقاومة أوائل الستينات ويتكرر عرس الدم للشهداء، ويشب حريق الانتفاضة الأولى ثم الثانية، كجيوش النمل المسلح بالحجارة والمدرع بصدور

الشباب وقنابل الأجساد .. هكذا تتلاحق ألحان هذه السيمفونية التشكيلية المليئة بحشود البشر وآلاف التفاصيل الواقعية، وبقدر ما تخوض فى أنهار الدم فهى مسربلة فى أطياف حلمها بزفاف عروس الانتصار، وذلك هو اللحن الأخير فى سيمفونية إسماعيل شموط، التى التزم فيها بالأسلوب الواقعى التسجيلى بحس انطباعى وملحمى جياش دون أن يسقط فى الشكل الدعائى الفج برغم مباشرته، فالفنان هنا نبض شعبه وضميره وعيونه التى يرى بها ، مما لا يدع مجالا للنقد «الاستطيقى» أو لإرجاع التجربة إلى مرجعيات الفنون الحديثة فى الغرب، فلكل مقام مقال.

ولعل تجربة تمام شموط فى لوحاتها الجدارية الثمانية أكثر شاعرية فى استرجاع الذكريات واستخدام الرؤى والتشكيلات والألوان، متراوحة بين الواقع والخيال، مع درجة عالية من نقاء اللون وتماسك التكوين وأسطورية الرموز، خاصة رمز الحصان الأبيض والبحر والجبل والسفينة التى تظل شاهداً على الزمن الجميل وأملا فى السفر والخلاص، ولذلك فإن لوحاتها تتجاوز الاحداث والوقائع والقضية، إلى آفاق إنسانية شاملة تتعايش مع كل زمان ومكان.

سهير عثمان

على صعيد المعارض المصرية كانت جميع القاعات الحكومية والأهلية تتنافس بإبداعات الفنانين من مختلف الأجيال



تشكيل – سحر الأمير

والاتجاهات والمستويات.

فى قاعة الفنون التشكيلية بدار الأوبرا كان معرض الفنانة سهير عثمان (الأستاذة بكلية الفنون التطبيقية) يجمع بين خبرات ومجالات فنية متعددة ، بين الجرافيك والرسم والباتيك والسجاد والكليم، لكن ثمة ما يجمع بين نتاج هذه المجالات جميعا ويشكل منها رؤية عامة أو عالما متميزا لم يبدأ فى الظهور عبر هذا المعرض فحسب، بل ظهر منذ سنوات طويلة فى معارضها السابقة، إلا أنه ازداد تبلورا فى معرضها الأخير، وهو الدخول إلى الحداثة من مدخل التراث أو العكس، فنحن هنا أمام لوحه معاصرة تماما، تستخدم فيها كل بلاغة العناصر التشكيلية المجردة فى البناء الفنى، من علاقات خطية وملمسية وتلوينية، وهى لوحة لا تتكىء على الموضوع بل تنشد «المفهوم» أو الحالة

الوجدانية المطلقة، مثل النشوة أو الحلم أو التسامي أو التواصل، وقد توظف - في سبيل تحقيق هذه الحالة - وحدات من التراث الإسلامي أو الشعبي أو الفرعوني، لكنها ليست غايات بل ذرائع أو أصوات إيقاعية متنوعة تتواتر أو تتداخل أو تتعارض، ثم إنها تنتقل من المألوف إلى الغرائبي، ومن المصطلح عليه إلى المفارق والمتصادم مع الخبرة المتوارثة، سواء كانت هذه الخبرة مستمدة من التراث أو من تشكيلات الخيال.

وإذا كانت سهير عثمان قد استقرت طويلا في عالم التجريد من منظور التراث الإسلامي الزخرفي، وشكلت من خلاله أعذب الأنغام بإيقاعات شرقية تحفل بالتجريدات الهندسية والتريديات النباتية والحروفية والتنويعات النجمية والقوسية، فإنها في معرضها الجديد تتواصل مع التراث الفرعوني من زاوية إخناتونية، فتستوحي الفلسفة الصوفية لهذا الفيلسوف الزاهد اخناتون من خلال الأذرع والأكف والأصابع الضارعة نحو أشعة الضياء الأعظم، لكنها تعمل على تكرار حركة هذه الأعضاء في ترديد متتابع يشبه ترديد الوحدات الاسلامية، ولا عجب فإن الحس الصوفي قاسم مشترك بين الفلسفتين في تماهي الذات مع جوهر الوجود.

غير أن المعاني السامية وحدها لا تصنع فنا عظيما، والعبرة بالأسلوب ومدى التجديد والإجادة فيه وهذا ما نلمسه في تجربة سهير من خبرة عالية خاصة في الطباعة الجرافيكية التي تحقق من خلالها سطحا بالغ الثراء والخصوصية عبر الذبذبات الخطية واللونية، وهو سطح يكاد يقنعنا بملامس الآثار القديمة وعبقها، في الوقت الذي نستشعر انتماء التجربة إلى ابداع الفنانة وروح العصر.

حامد عويس

وفي قاعة الزمالك أقيم في الشهر الماضي المعرض الاستعادي للفنان الكبير محمد حامد عويس (١٩١٩)، وعرضت من خلاله جميع مراحل تجربة الفنان منذ الأربعينيات حتى عام ٢٠٠٠، وهو جهد كبير ومحترم لم تقم به الدولة التي حصل عويس على جائزتها التقديرية في الفن، لأن (الجهة المختصة) لا تملك أي سياسة تقوم عليها المعارض، بل تترك الأمور لهوى القائمين على كل قاعة من قاعات وزارة الثقافة، فهي ليست أكثر من «جاليريهات خاصة» وان حملت شعار القطاع الحكومي!

إن محمد حامد عويس يمثل أكثر من قيمة ريادية في حركتنا الفنية المعاصرة فهو أحد أبرز المؤسسين لجماعة الفن الحديث عام ١٩٤٦ مع رواد عظام آخرين مثل السجيني وحمودة وزينب عبدالحميد والخادم وجاذبية، ومن ثم فإنه كان صاحب اتجاه فني يؤكد على قيمة الالتزام الثوري للفنان كطليعة للمجتمع لا يكتفي



سيناء يافا – تمام شموط

بإشباع ذاته أو ذوق النخبة الفوقية، بل ينطلق من إحساس بالمسئولية تجاه مجتمعه لتثقيفه وتثويره والنهوض به، ويتواكب إيقاعه الابداعى مع ايقاع ونبض المجتمع وما يتعرض له من أحداث ومتغيرات .

ولقد أثبت عويس ان كل هذه المعانى يمكن أن تتحقق دون التنازل عن القيم الجمالية الرفيعة، المسألة فقط تتوقف على اتجاه المؤشر عند البحث عن هذه القيم، هل يتجه إلى الغرب وتقتفى أثر الحركات الفنية فيه، بغض النظر عن اختلاف الظروف الثقافية والحضارية والمجتمعية والمزاجية للأمة بين واقعها وواقع الغرب؟.. أم يتجه إلى الجذور الثقافية للأمة وإلى العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر (الغربى)؟ بمعنى أن تكون العلاقة بينهما ندية وناقدة، وليست دونية وناقلة؟

هكذا نجد لوحات عويس عن الفلاحين والصيادين والبنائين وبنات بحرى وبنات الجامعة ورواد المقاهى وعمال الدريسة ووردية الليل، كما نجد لوحات السد العالى وقناة السويس و«حماة الحياة» بعد نكسة ٦٧، و«خط بارليف» و«النفق الفلسطينى»، و«نصب الحرية» عن الإمبريالية الامريكية ...إلخ.

نجدها جميعا أعمالا تتجاوز أغراض المناسبات التي أنجزت بدافع منها، لتصبح أقمارا ذات مجرات مستقلة، تدور فى الفضاء بقوة الدوران الذاتية بعد انفصالها عن الصاروخ الذى انطلقت منه، ثم عن مجال الجاذبية الزمانية والمكانية، ولتتخذ مكانتها الراسخة في ذاكرتنا القومية بقدر ما اتخذت مكانتها فى متاحف العالم ، حيث فاز عويس بجائزة جوجنهايم الدولية بنيويورك ١٩٥٦ عن لوحة عمال الدريسة ، واقتنيت أعماله فى متاحف برلين وموسكو ودرسدن ومدريد، وكتب عنه بحماس فى مطبوعات هذه المتاحف.

ولن يتوقف التاريخ طويلا أمام تصنيفات بعض النقاد والفنانين لأعماله فى خانات مثل الواقعية الاشتراكية أو الواقعية الرمزية أو الملحمية الأسطورية أو .. أو.. ولن يتوقف طويلا كذلك أمام الادعاء بذهاب أوان هذه الأساليب فى مسيرة الحداثة وما بعد الحداثة .. وإلا لكانت مثل هذه التصنيفات والاحكام قد حالت دون حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الأدب .. ذلك أن القيمة الحقيقية تقاس بمدى الأصالة فى إبداعية الفنان الفرد وفى تمثيله للجماعة الانسانية فى الوقت ذاته ، ضمن سياقه الثقافى والحضارى

الخاص، كما تقاس بكيفية استلهام هذا السياق والإضافة إليه بحس يقظ لقيم الجمال البحت ، ولفلسفة الحضارة والوجود، ولحركة المتغيرات من حوله وفي العالم!..

●●●

حلمي التوني

مرة أخرى ، وفي نفس المكان (قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك) ونفس الزمان (شهر مارس) ، أقام الفنان الكبير حلمي التوني معرضه السنوي في التصوير الزيتي ، وكعادته في كل معارضه اختار عنوانا شاملا للوحات المعرض ، فكان هذا العام هو : المشهد الريفي المصري ، أما بطله الحقيقي فهو الفلاحة ، غير أننا مضطرون للتحفظ على إضافة كلمة «المصرية» إليها كما أراد لها أن تكون !

إن التجربة الفنية الممتدة للتوني عبر معارضه المتعاقبة - خاصة في التسعينيات - في الغوص في التراث الشعبي بحثا عن جذور ولآلئ وسمات يعمل على إعادة إنتاجها لتتواصل مع لغة العصر وتثرى لوحته الحديثة بملامح الأصالة، وفوق ذلك لتكون اللوحة موقفا ثقافيا وفكريا من الواقع قد يتاخم الموقف السياسي .

من هنا فإنه فنان مهموم بقضية الأصالة من منظور مختلف عن أولئك الباحثين عن الحلية الزخرفية الخارجية في التراث بحس سياحي تزييني ، منظور يقوم على الوحدة العضوية للحلقات الحضارية الممتدة في الواقع المصري، ويقوى الذاكرة الاختزالية للرموز والأخيلة الشعبية كدالات بصرية واثنوجرافية على الشخصية المصرية في تجلياتها المختلفة عبر الأزمان ، لكنه لم يعمد إلى «تأبيد» هذه الرموز والسمات بشكل مثالي «بالمفهوم الفلسفي الميتافيزيقي للمثالية»، يضفي جمالا زائفا على الواقع، وينتهي في الأخير إلى معايير لوحة السوق التجارية ، بل كان يضعها في علاقة جدلية متفاعلة مع الواقع، أو في إسقاطات رمزية عليه ، من منطلق تقدمي ومجتمعي بالطبع ، أو على الأقل فإنه كان يحرص على السمت الفطري السائج في الفلكلور ، بما يحيل ذاكرة المشاهد إلى المخزون الجمعي للتراث ، ليقيم من خلال لوحته الجديدة حوارا مع رموز الجماعة الشعبية كإنجاز له ظروفه «الآنية» .

فهل جاء معرضه الأخير على نفس هذا المنهج فكريا وجماليا؟.. أخشى أن يكون الجواب بالنفي .. لقد استمرأ حلمي التوني لعبة استدعاء نفس العناصر الفلكلورية بتنويعات سبق أن استنفدها في معارضه السابقة ، ولم تعد تضيف جديدا على مفهوم العلاقة بالتراث ، بمعنى آخر أنه اتخذ موقفا سكونيا ثابتا في التعامل مع مظاهره الخارجية ، وبات معنيا بالصورة الخارجية المحسنة للمرأة في المفهوم الاستشراقي للريف المصري ، فإذا به يتاخم الحدود الحرجة للوحة التجارية ،

التى اجتذبت زبائنها بسهولة وبسرعة فائقة منذ الساعات الأولى لافتتاح المعرض ... ولقد حرص الفنان أحمد فؤاد سليم فى تقديمه لدليل المعرض على تأكيد هذا المغزى وهو يصف نموذج المرأة الريفية فى لوحات التونى بأنها : «.... دائما تنطوى على الصحة، والعافية ، والشباب، والرشاقة، والحنو ، والشعر ، جميلة تبدو كمثل نبيلة شرقية (....) فهى مصرية مكتحلة العينين (....) وهى ناهدة

ذات خصر يكشف عن قيمة «النسب الذهبية» فى بنيات قوامها ...إلخ» .

ولم يكن رأى الفنان «سليم» نابعا من خياله ، بل من قراءة واعية للمنهج المثالى الميتافيزيقى الذى يؤيد فيه التونى نموذج المرأة ويعزله عن أرض الواقع ، حتى أنه ينتهى إلى أنه «يتطرق إلى خصوصية التجربة الفنية دون أن يلقى بالا إلى «الواقعى» ، فهو يتأمل الفكرة التصويرية باعتبارها (نتاج) فى العقل- على حد تعبير «سليم» - دون أن يحفل بتلك «الصلة» المحتملة أو الممكنة بين الجمالى وبين الاجتماعى» .

ولست أناقش التونى فى رأى سليم بالطبع ، فربما يكون له رأى مختلف ، لكن واقع اللوحات يثبت فى الحقيقة هذا الرأى، فإننا إزاء «حلاوة» نموذجية تصل حد التزويق أو الماكياج الكامل لوجه الفلاحة حاملة الجرة، وهو ما مانراه أيضا فى الزخارف التفصيلية المتقنة لأزياء الفلاحات المحبوكة حول قدودهن



الفلاحة - حلمي التوني

المياسة ، مما يجعلهن أشبه بعارضات الأزياء ، فيما تظهر التحريفات الأسلوبية فى نسب الأشخاص والخطوط السوداء التى تحددها ، كمحاولة لانتحال الركاكة المعهودة فى رسوم الفلكلور ، لكنها هنا بغير نسق فكرى مترابط يبرره .

ومن ثم فإن التونى بمعرضه الجديد ينتقل إلى أرض مثالية خارج الزمان والمكان ، فيما يظل رافعا شعار الأسى المنطلق من أرض الواقع عن الريف والشعب والتقدم ، وكأن المعرض فى النهاية يحاول أن يرضى كل الأذواق والأوجه ، بين الواقعى والتراثى والمثالى

، لكنه في الحقيقة قد يكسب شيئين: هما بيع كل اللوحات ، وتثبيت النموذج الفنى الذى يحقق هذا الفرض، فيما قد يخسر شيئا ثالثا : هو صفة الباحث المهموم بقضية الأصالة والتقدم .

لكن يقيني أن حلمى التونى - بمنابعه الفكرية العميقة ووعيه بحركة المتغيرات وبجدلية العلاقة بين الواقع والرمز والمأثور - سوف يستعيد في معرضه القادم جسارته المعهودة لاكتشاف منابع جديدة للنهر ، عند المرتفعات البعيدة .

●●●

محمد على

تصادف أن يقام معرض الفنان الفطرى محمد على بأتيليه القاهرة في نفس الفترة التى أقيم فيها معرض حلمى التونى بمجمع الفنون ، وقد أجد من المفيد إجراء مقابلة (وليست مقارنة) بين المعرضين ، فنقطة الانطلاق واحدة بينهما من حيث الموضوع ؛ وهى الحياة الشعبية وأيضا من حيث استلهامها فنيا ، مع اختلاف العناصر الطبيعية والثقافية بين الحياة في الريف والحياة في الحارة القاهرية ... أما الاختلاف الجوهرى فهو بين النظرة المثقفة ، القائمة على «نمذجة» الحياة الشعبية لدى «التونى» وبين النظرة الفطرية التى تعيش هذه الحياة الشعبية وتعبر عنها بحس الفنان الشعبي الأقرب إلى روح الطفل ورؤيته للأشياء كما نجدها عند محمد على، ومع ذلك فإن موهبة هذا الفنان الفطرى موهبة مركبة تتجاوز حدود الفطرة البدائية أو الطفولية ، إلى ما يمكن أن نسميه «الصورة المثقفة» حيث تقوم على الاختيار من عناصر الواقع وعلى الحذف والإضافة والتحوير والتركيب من خلال علاقات خطية ومساحات لونية وإيقاعات نغمية متصاعدة ، فيما تحتفظ بكل براءة الفطرة الشعبية .

وبالرغم من أننا نجد في لوحاته المنفذة بألوان الإكريليك في أحجام متوسطة حالة من الابتهاج بالحياة عبر حلقات الغناء والموسيقى - التى ترسبت في وجدانه بلا شك من خلال معايشته العميقة الممتدة لسنوات طوال مع الفنان الراحل المغنى والملحن الشيخ إمام سنوات الستينات والسبعينات ، وعبر احتفالات بسطاء الشعب ورقصاتهم بالدفوف وغير ذلك ، مما نرى مقابلة الموضوعى والتعبيرى في معرض حلمى التونى ، فإننا لا نجد لدى محمد على تلك النزعة التزيينية للواقع ... إنه فنان لا يكذب ولا يتجمل ، لكنه ببساطة يرسم ما يعرفه ويعيشه ويحس بالحاجة إلى التعبير عنه ، لكنه -(وعلى الرغم من أنه حقق شهرة لا بأس بها في زمن مضى من خلال المناخ السياسى والثقافى آنذاك - قد عاد بلوحاته شبه كاملة العدد بعد انتهاء المعرض على رخص أسعارها ... ذلك لأن من يقتنون الأعمال الفنية اليوم يهمهم قبل كل شئ أن يسألوا :

من هو هذا الفنان ؟.. فهل سمع منهم أحد عن محمد على من قبل ؟!

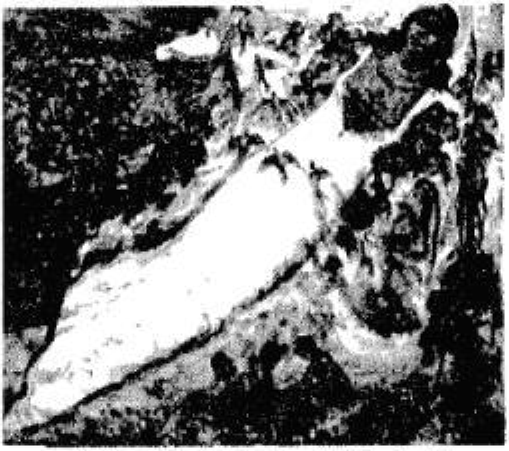
●●●

سحر الأمير

هذه فنانة شابة تقيم معرضها الخاص الثانى بالقاهرة - بمجمع الفنون - فى مارس الماضى ، إنك تشعر أمام لوحاتها ، التى تجمع بين الطباعة الجرافيكية والتصوير ، أنك أمام لقطات من الطائرة لمدينة اسطورية اكتظت شوارعها وميادينها بسكانها الذين هجروا بيوتهم وانطلقوا مهرولين على غير هدى ، فيما تتراءى لك فى أحيان أخرى كتظاهرات الموالد الشعبية أو الطرق الصوفية وقد اختلطت ببيارق هذه الجماعات الدينية وسط زحام هائل من البشر ، حيث تمتزج الكتابات بالناس ، بينما لا نجد فى الحقيقة كتابات أو أناسا ، فهى تشبه حالات من التفجر اللونى والخطى بعشوائية محسوبة مغلفة بجو السحر الإفريقى مع صرخات الرقص المحمومة لجماعات بدائية ...

ومع ذلك فإن كل تلك الانطباعات قد لا يكون لها أى مرجعية لدى الفنانة سحر الأمير ، التى أثبتت حضورها بقوة خلال السنوات الماضية منذ تخرجها فى كلية الفنون الجميلة عام ١٩٩٣ ، فهى تؤكد فى دليل معرضها أنه ترجمة لكلمات ثلاث هى الحركة والخط والمكان .

وقد حصلت سحر الأمير على جائزة الإبداع الفنى للشباب فى شكل منحة دراسية بالأكاديمية المصرية للفنون بروما عام ٩٥ ، وعلى جائزة صالون



الحلم الفلسطيني –اسماعيل شموط

الشباب فى الجرافيك عام ٩٩ ، واشتركت فى العديد من المعارض المحلية والدولية ، بين أوربينو بإيطاليا (التى تعد أشهر مركز لدراسة الجرافيك فى أوربا) وترينالى الحفر الدولى بالقاهرة ١٩٩٧ .. لكن أكثر ما تحقق من خلاله فى السنوات الأخيرة هو رسوم كتب الأطفال ، التى حصلت عن طريقها على عدة جوائز ، منها جائزة سوزان مبارك ١٩٩٦ ، وجائزة اليونسكو ١٩٩٩ .

وأظن أن سحر موهبة مليئة بالوعود ، ونحن ننتظر منها الكثير ، خاصة بعد أن تصفو الرؤية لديها من عشوائية البحث إلى انتظام الطاقة الابداعية فى سياق يتكامل فيه التراث والواقع مع الخيال . ■

عالم الروائية إميلى نوتومب

عندما تتخلص الكاتبة من رواياتها..

بقلم
محمود قاسم

لم تتشكل ظاهرة أدبية عالمية فى العقد الأخير مثلما حدث مع الكاتبة اميلى نوتومب . ليس فقط لأنها بدأت نشاطها الابداعى فى سن مبكرة حيث نشرت روايتها الأولى وهى فى الثالثة والعشرين من العمر ، فضلا عن أنها قامت بتأليف عشر روايات قبل هذه السن لم تتمكن من نشرها .



إميلى نوتومب

فى هذه السن الصغيرة أيضا فازت عن إحدى رواياتها بجائزة الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٩٩ ، وهى رواية «دهشة وارتجافات» ، كما أن ناشرها الفرنسى «البان ميشيل» اعتاد أن يطرح فى كل خريف واحدة من رواياتها الجديدة ، التى تتصدر قوائم المبيعات لعدة أسابيع ، قبل أن تدخل فى المنافسة مع روايات أخرى لعدة أشهر ، مثلما حدث مع روايتها الأخيرة «فضائية العدو» التى صدرت فى خريف عام ٢٠٠١ .

وأميلى نوتومب ليست كاتبة روايات بوليسية ، أو روايات تجسس أو قصص عاطفية ملتهبة ، لكنها أديبة موهوبة، يحتاج القارئ الذى يتابع إبداعها إلى حصيلة واسعة المجال من الثقافة ، والمعرفة ، والا ما استطاع بسهولة متابعة المعانى الخلفية لما فى الرواية .

لذا ، فنحن أمام ظاهرة أدبية موجودة بقوة ، لا تمثل فقط الثقافة الأوربية ، باعتبار أنها بلجيكية الأصل ، وتعيش الآن فى باريس ، ولكن أيضا الثقافة الأسيوية، خاصة اليابان ، حيث قضت السنوات الأولى من حياتها فى اليابان ، ورافقت أباها الدبلوماسى إلى عدة أوطان تابعت ثقافاتها ، وصادقت الأدباء فيها ، وانعكس هذا بوضوح فى كتاباتها ...

الفلسفة قبل الرواية

هى إذن ظاهرة أدبية ، لكننا لا نكاد نعرف عنها شيئا ..

ولدت اميلى فى عام ١٩٦٧ فى مدينة «كوب» اليابانية ، لأب كان سفيرا لبلجيكا باليابان أنذاك، وتبعا لمهنة الأب ، فقد عاشت فى اليابان السنوات الخمس الأولى من حياتها ، مع شقيقتها الوحيدة ، ثم صارت تلميذة فى مدارس حكومية عديدة بكل من «اندونيسيا» و«نيبال»، وذلك تبعا للدول التى عمل فيها الأب سفيرا ، وعندما كبرت الفتاة ، قررت أن تدرس الفلسفة فى جامعة بروكسل، وذلك فى المدينة التى قررت السكن فيها منذ تخرجها من الجامعة حتى الآن .

وقد أتقنت أميلى عدة لغات ، منها بالطبع اليابانية، والانجليزية ولاشك أن دراسة الفلسفة قد تركت أثرها على أعمالها، فأبطالها أصحاب مواقف حقيقية من الحياة، وليسوا مجرد مخلوقات شبحية، ويبدو ذلك واضحا فى شخصية ابيقل فى روايتها «اغتيال»، فهو نموذج الاحدب المشوه، الدميم الذى رأيناه فى رواية «أحدب نوتردام» لفيكتور هيجو ، لكن نوتومب ترى أن أحدب القرن العشرين سيكون عاشقا ، ومثقفا ، ورافضا للإغراء الجنسى من ملكات جمال العالم ، بل سيكون محكما فى المسابقات النهائية لاختيار ، أجمل فتاة فى الكون .

كتبت أميلى نوتومب احدى عشرة رواية ، واحتفظت بها فى أدراجها قبل أن تدفع بروايتها «علم صحة القاتل» عام ١٩٩٢ إلى الناشر ، وقد حققت الرواية مبيعات ضخمة ، واستقبلت أميلى فى الأوساط الثقافية بحفاوة شديدة ، رغم أن البعض أرجع هذا النجاح إلى الكثير من العبارات المكشوفة التى تضمنتها روايتها، مما حدا باميلى إلى أن تبتعد عن هذا

النوع من العبارات في رواياتها التالية ، لتؤكد أن الكلمات المكشوفة لا تصنع وحدها كاتبة جيدة .

ورغم أن الكاتبة تقيم في بلجيكا ، فإن المجلات الأدبية تتعامل معها على أنها كاتبة فرنسية ، ربما لأن ناشرها فرنسي اللغة ، والوطن ، وربما لاقتراب الثقافتين معا ، وهذه ظاهرة عادية تحدث دوما ، ولعل من أبرز الاسماء التى تمثلها الكاتبة فرانسواز ماليه جوريس .

وتقول مجلة «لابوان» في ٣ نوفمبر ٢٠٠٠ : «إننا أمام كاتبة متفردة لاتشبه أحدا من الكتاب الاقدمين أو المعاصرين وان النقاد قد أحنوا رؤوسهم أمام روايتها الأولى الصغيرة ، التى بدت كأنها فيلم سينمائي محكم الانتاج ، بما يعنى أن الجمل والمفردات اللغوية موجودة في أماكنها بشكل محدد تماما .

روايات غريبة الأسماء

ومن المهم أن نستعرض أسماء روايات الكاتبة ، باعتبار أنها المرة الأولى التى تتم فيها الكتابة عنها باللغة العربية ، فبعد روايتها الأولى عام ١٩٩٢ ، نشرت في العام التالي «العاشق الرهينة» ثم رواية «أشياء قابلة للاشتعال» عام ١٩٩٤ ، و«نقد لاذع» عام ١٩٩٥ ، و«الشمال» ١٩٩٦ ، و«اغتيال» في عام ١٩٩٧ ، وفي العام التالي «زئبق» ، وفي عام ١٩٩٩ حصلت



على الجائزة الكبرى للرواية من الاكاديمية الفرنسية عن روايتها «دهشة وارتجافات» ، ثم روايتها «ميتا فيزيقا الانابيب» عام ٢٠٠٠ ، وفي العام التالي كانت روايتها «فضائية العدو» .

واسماء هذه الأعمالة بالغة الغرابة ، وغير تقليدية تماما باللغة الفرنسية ، وتقول الكاتبة «أتعامل كأنني في حفل راقص للروك» ، وتأتي رواياتي، «كأنني أرقص معها» وهي تقوم بترميم رواياتها حسب الرواية الأولى التى ألفتها في حياتها ، بصرف النظر عن النشر ، فهي ترى أنها ألفت أربعا وثلاثين رواية ، في نفس العدد من السنوات ، «عندما أكتب لا أبحث عن النشر، وبعد الانتهاء من الرواية أدفع بها إلى الناشر وكأنني أحاول التخلص منها» .

وعن حياتها اليومية نشرت في مجلة لوبوان تقول : «الحياة اليومية غير موجودة ولو كانت هناك فضيلة ما للوجود، فهي على النحو التالي : استيقظ في بروكسل على الرنين الأول لأصوات الترام في الخامسة والنصف صباحا ، مما يعني أنني قد نمت أطول فترة ممكنة ، وتستيقظ اختي جولييت قبلي بساعتين حيث تنشغل بإعداد الحلويات والطبخ ، وأعد لنفسي لترا من الشاي الداكن ، أحتسيها مرة واحدة، وأجلس أمام أوراقي وأحس أنني اقيم في غواصة أثناء الكتابة ، وبعد ذلك أطالع بريد القراء وأرد على هذه المراسلات ، ثم انزل

إلى شوارع بروكسل للسبر ، أما الموسيقى فلها وقت آخر».

الثرثرة.. تقتل الصمت

وتتعامل أميلى نوتومب مع العالم بمنظور محدد، فرواياتها أقرب إلى المسرحيات ، محددة الشخصيات ، وتبدو كأنها تدور فى حلبات مغلقة وتمتلئ بحس السخرية ، والتهكم المتبادل ، ونحس كأنما هناك غيلان بشرية ، تسعى لانتهاك أجساد الآخرين ، كما يتقابل فى هذه الاعمال مشاهير مع أشخاص يعيشون وراء الغمام ، وغالبا ما تقوم الاشياء المعقدة بخنق البساطة ، وتأتى الثرثرة ، من أجل القضاء على الصمت ، وتحدث مواجهة حاسمة بين الاقوياء ، والابرياء ، باعتبار أن القوة لا يمكن أبدا أن تتسم بالبراءة .

والكاتبة التى نشرت روايتها الأولى وهى فى الخامسة والعشرين من العمر حاولت استجماع بعض تجاربها الشخصية من أجل أن تسكبها فوق الورق. مثلما حدث مع روايتها «دهشة وارتجافات» التى بيع منها قرابة نصف مليون نسخة ، حيث تتحدث عن تجربتها اليابانية والتى سوف تتوقف عندها ، مع رواية «اغتيال» .

وتتعامل الكاتبة مع رواياتها باعتبارها كراسات تدون فيها شابة صغيرة وقائع ما تحب أن تنقله إلى الناس ، فالبطلة فى روايتها «دهشة وارتجافات» تدعى أميلى ، وهى تعمل موظفة فى شركة يابانية ضخمة للمقاولات ، يقع مركزها الرئيسى فى مدينة طوكيو ، وفي يناير عام ١٩٩٠ ، (دائما ما تدور أحداث رواياتها فى يناير) نلتقى بالسيد سايتو ، فى مكان أشبه بالمتاهة ، انه مكان خانق ، وبعد ذلك يبدأ الاثنان فى تبادل رسائل «باردة» لكنها معبرة ، تدعو الفتاة الرجل إلى مباراة فيما بينهما فى الجولف ، وسرعان ما تكتشف زيف المؤسسات الاقتصادية من خلال هذا الرجل ، فالعلاقات فيها كذب ورياء ، وتحس أن البشر ليسوا سوى نسخ كربونية مصورة عن طريق أجهزة تصوير.

وهذا النوع من المجتمع بالغ الغرابة، فالناس يمكنهم أن يتحدثوا فى المراحيض، والأقبية أكثر من الأماكن المفتوحة ، ومع ذلك فمن الأهمية ألا يكف الإنسان عن أن يكون آدميا ، يعرف ملامح الوجوه ويعجب بأصحابها وأن يتحرر فى داخله من عبودياته المتعددة ، ومنها شهوة الجسد ، ولذا، فرغم جمال أبطال رواياته ، خاصة النساء ، فإن الجمال الروحى أشد تأثيرا وبكاء ...

الاغتيال.. والأحدب

ويبدو ذلك واضحا فى الشخصية الرئيسية فى روايتها «اغتيال» فهى بالغة الحسن ، وباهرة لكافة الرجال الذين يحيطون بها، بمن فيهم إبيفان الدميم الذى يحبها ، ويتضح ذلك من المواجهة الأخيرة التى تحدث بين الطرفين، فهى تصدم لأنه واقع فى غرامها ، تحت ادعاء أنه عندما يقع المرء فى العشق ، فعليه أن ينظر إلى أعماق الحبيب ، وليس ظاهره ، فتكون الصدمة أن ايتل تطلب

من الدميم أن يحب دميمة مثله ، وان يكتشف أعماقها .

ورغم الجمال الباهر ، الذي تتمتع به ايتل ، فإنها تبدو بالغة البساطة ، والتلقائية ، وتقع في حب فنان أقل موهبة، وحضورا ، ومنتفخ دون أن يمتلك ما يمكن للمرء أن يستند إليه ، ومثل هذه المرأة الجميلة موجودة في أغلب أعمال الكاتبة .

أما روايتها الأخيرة «فضائية العدو» فتدور في مطار دولي اثناء انتظار القيام برحلة ، من باريس إلى برشلونة ، لكن الرحلة تتأخر ويعاني أنجوست من الاحساس بكونه محبوسا في عالم ضيق لعدة ساعات ، ويلتقي برجل غاضب مثله هو «تكستور تكستل» أو «منسوج النسيج» الذي يدخل في ثرثرة جوفاء مع انجوست . حيث يحكي الأول قصة حياته بتعبيرات غير مألوفة، ويقول إنه ارتكب جريمتين دون أن يكتشف أحد أنه الفاعل . الجريمة الأولى هي اغتصاب امرأة وسط المقابر ، أما الثانية فهي قتل هذه المرأة قبل عشر سنوات ، والتي التقاها مصادفة .

وعلى طريقة الكاتبة فإن انجوست يكتشف أن المرأة القتيلة ليست سوى زوجته، فيطلب من محدثه أن يكف عن الحكي ، وتبدو الكاتبة هنا كأنها تصنع مفرداتها اللغوية الخاصة بها ، وهي مفردات تجعل من الصعب نقلها إلى لغات أخرى ، خاصة اللغات غير اللاتينية ، كأن تقول «أنا هل يكون آخر



..» ، و«الإنسان ، هل يمكن أن يكون عدو نفسه؟» ، أو «لماذا أنا اقتل .. هو؟» ، وكلمة أقتل هنا تتخذ منطوقا لفظيا بما يعني «أنت» عند التلفظ بها ، أو حسب المفرد الخاص بالقواعد «أنا ، أنت ، هو» لذا فإن الكاتبة تبدو كأنها تكتب للفرنسيين في المقام الأول ، وقد أخر هذا ترجمة أعمالها خارج بلادها عدا ايطاليا .

فالقاتل هنا فخور بانه ارتكب الجريمة الكاملة ، بدليل أنه ظل حرا طوال هذه السنوات بعد أن «فعلها» ، ونحن هنا لسنا أمام قصص بوليسية، فالقاتل «تكستور» لا يتقابل مع أنجوست إلا بعد صفحات عديدة من الرواية، وتصوره لنا المؤلفة على أنه مثقف ، يقرأ كافة أعمال المبدعين الكبار في تاريخ البشرية ، من جونه إلى باسكال ، ولواتسون ، وسبينوزا ، فضلا عن قراءته في نظرية الأنانية .

من الواضح أن أميلي نوتومب استفادت كثيرا من دراستها وثقافتها الخاصة ، ورحيلها عبر أماكن عديدة في العالم ، يبدو هذا في رواية «اغتيال» والراوية يصف سيبريا التي يراها من كوة الطائرة ، فالكاتبة تحاول أن تلتقط خيطا ما من خيوط أحد الأعمال القديمة المتميزة لتصبغها بشكل وهوية مختلفين تماما ، فمن كوزيمود في «أحدب نوتردام» في رواية «اغتيال»، إلى «دكتور جيكل ومسترهايد» لستيفنسون في «فضائية العدو».

■

غواية الكتابة

بقلم
د. محسن خضر


صلاح عبد الصبور


نجيب محفوظ


جارثيا ماركيز


جونتر جراس

هل كان صلاح عبدالصبور مراوغاً ومزيفاً للحقيقة عندما ادعى أن الكلمات هى الشيء الأفضل الذى نملكه. يقول في استفهام يفيد التوكيد في مسرحيته الجميلة «مأساة الحلاج»:

هل نملك غير الكلمات؟

هل نملك شيئاً أفضل.

هل تقف الكلمات / الكتابة/ الفكر فى مواجهة الفعل، وبديلاً عنه، وربما معادية له؟

لماذا نكتب؟

لماذا نكتب أو أكتب؟

ينطوى السؤال على مراوغة واضحة، ويكتسي بقناع مصطنع البراءة، ويكشف عن دهشة مخادعة مردها ما يبطن فى توتر مع نقيضه الظاهر.

طرح السؤال فى حد ذاته يبدو وكأنه أمر معطل، أو «ثرثرة لا نعتذر عنها»، كما يعترف محمد مهران السيد فى عنوان ديوانه.

الكاتب الحقيقي لا يسأل نفسه هذا السؤال، بل لا يجد السؤال ثغرة ليتسلل منها إلا فى وقت الأزمة أو زمن المحنة، ربما فى لحظة اهتزاز الثقة بالنفس أو تداعى اليقين يطغى السؤال على نفسه، وإذا كان ستيفان زفايج، ينبه «حذار من الشفقة»، فهل يمكن بالمثل أن نحذر من الأسئلة المعطلة مثل هذا السؤال: لماذا نكتب؟

أنت تكتب لأنه ليس أمامك طريق آخر.

ولا تملك رفاهية السؤال، فأحيانا يكون التساؤل رفاهية، وكل

ما ينتابك ببساطة أنه تسكنك؛ تلك القوة المدهشة على تغيير محيط حيوي : فليكن أنت أو حبيبتك أو قرائك أو أهلك أو شعبك أو العالم بأسره، هذه القوة طماعة متسللة، متسلقة تلفك كثعبان وتسكنك كوطواط وتأتيك كحمى، وهذه القوة هو ما يعنيه الشاعر الإنجليزي كيتس «بشهوة تغيير العالم» أو ما يعنيه ريلكه بالكتابة، فهي «ظهور الكائن الذي يتجلى في بهاء وجوده وقد تطهر من كل ما يحجبه واستقام في حقيقة حضوره المكشوف» حيث الكتابة عنده تتطابق مع المجد وتكافئه.

يقبع بداخلك إحساس أو يراودك وهم أن هناك خللا في الكون، أن هناك اهتزازاً أو تداعياً أو قصوراً في ركن ما في هذا العالم، في طحلب أو ضفدعة، في رفة جناح عصفور أو صهيل حصان، في خطوات متعثرة لمتسكع أو شارد، زفرات مأزوم أو مظلوم أو عاشق أو سجين.

تستمد قيمتك من هذه الحاجة: حاجة إلى شيء أو أمان، أو علاقة، إلى كتابتك، إلى كلماتك، إلى قوتك، إلى تمردك ، إلى قدرتك، وأن تكوينك ، واتزانك لا يكتملان إلا بممارسة هذه القدرة المدهشة على التعبير والإبداع، وهذا ما يعنيه جبرا إبراهيم جبرا بقوله :

«الكتابة عندي هي حياة ودلالة في الحياة، أي أنها العيش بشكل مضاعف وغزير وملح»، ويعبر عنه الكاتب المغربي محمد شكري في وظيفة أقرب إلى كون الكتابة تشبه المتحف أو المسبك في الوقت نفسه، يقول: العالم يفلت منا والفن يحاول القبض على هذا الإفلات، نحن حين نستعيد بالإبداع هذا العالم المنفلت منا فليس هدفنا وضعه في صورة مؤطرة وحفظه كذكرى أن مادته تتحول كأي بعد من ثمن ينصهر وتعاد صياغته على الشكل الملائم لعصرنا وقد يكون تلقيحاً لما سيأتي، ضرورة ورغبة وإغراء.

الكتابة حلم بالتغيير، تجمع بين التلقائية والاختراع، تمتلك الكتابة المبدعة الخصبة هذا السحر، والعذوبة، والشفافية.

الكتابة تحلم مثلنا تماماً، تحلم بماذا؟ لا نعرف ، هل تحلم بإنسان جديد أو عالم جديد؟ هل تحلم بتحريك العالم وإعادة ترتيبه؟.. هل تحلم بفردوس مفقود، بأفق إنساني جديد، وفضاء لا يحده سحاب، وهذا ما يعنيه محمود درويش بقوله:

«لكل شاعر أندلسه، وإلا فكيف تفسر كآبة الشعر، وانبثاقه من وجهتين عن أندلس ممكنة، أندلس تولد من جديد في الروح والقلب».

هذا الحلم التي تمتلكه الكلمات والكتابة ربما هو ما يقصده باشلار بقوله:

«الكلمات تحلم، والحلم يستطيع أن يحصل على تكملته في الآراء».

أو ما يقصده «ماكس جاكوب» باكتشافه المدهش «الشعر ليس سوى حلم مخترع».

ممارسة الكتابة

ممارسة الكتابة من ناحية أخرى – ولا أقول اختيار الكتابة – لأنها قدرية. هي رهان على الشقاء، أو المعاناة قد تصل إلى حد الاستشهاد، إن قدرك أن تعطي دون أن تنتظر المقابل، أن تنخرط في صفوف المعادين لكل سلطة، والخارجين عن كل صف رسمي، أو طاغية، أو حمقاء، أو جاهلة.. وهذا ما يغبه كاتب عربي مثل «يوسف إدريس» بقوله :

«الكتابة فى الواقع تضحية مستمرة، ليس منها أى مكسب، حتى ولو مكسب الشهرة الذى يعتقده بعضهم ويسعى إليه، فإذا لم يوطن الكاتب نفسه حين يمسك القلم ليكون كاتباً أو شاعراً يعطى باستمرار ولا يأخذ شيئاً، فإنه ليس كاتبا أو شاعراً».

وللكتابة سلطة يعرفها كل كاتب، ونقصد تلك الكتابة المبدعة التى تلخبط ذراتك، وتربك مداراتك القديمة المستقرة، وتزحزح صخرة ما نسميه رأس أو عقل، هذه السلطة تهزم مقاومة الكاتب، أو أعراضه، أو تكاسله.

يقول الروائى الكولومبى الشهير «جارثيا ماركيز» عن هذه القوة:

الكتابة لى مثل الأكسجين ضرورية للحياة.. والكتابة هى العمل الوحيد فى العالم الذى أفضله.. لا شىء يمنعنى من الكتابة .. وهذه تحتل تفكيرى كله».

وكأى سلطان أو حاكم، فإن الحاكم يسوس رعيته، يدنى من يدنى، ويصطفى من يريد، ولهذا تختار الكتابة صاحبها أو كاتبها، فهى صاعقة لا تعرف من تختار ومن تترك، وهى تشبه تلك الصاعقة التى أردت ضابطاً مصرياً فى وحدته العسكرية على الحدود الغربية لمصر، اختارته وسط جنوده، لماذا وتركت هؤلاء الجنود العاديين المتعلمين أو الأميين، هذا الضابط الذى كان ينتظر مولوده الأول..؟

هذا الاصطفاء هو فى الواقع إذعان، يشبه عقد الإذعان الذى توقعه بعض دور النشر الحكومية العربية ليتنازل المؤلف الشاب المسكين عن حقوقه كاملة لقاء مكافأة تافهة، ولا يملك إلا الرضوخ للموافقة حتى ترى كلماته النور.

هى تلك السلطة القائمة عندما تختار من تسكنهم وتخلع مزيتها وفضيلتها - وشقائها أيضاً - عليه ..

يصف الكاتب الاسبانى الكبير «أنطونيو جالا» سلطة الكتابة بقوله :

«الكتابة هى التى تختار صاحبها، وتكلفه بالمهمات الشاقة وهى ليست دخيلة عليه، وإنما حاضرة فى تكوينه الشخصى، وفى خصائصها الطبيعية نفسها، وأنا لا أنظر إلى الكتابة على أنها ميدان للتفوق أو التواضع، إنها تحتوينى كما الحياة، أتنفسها وأتواصل معها، وفى الكتابة أعيش الحياة، وأتعرف عليها».

سلطة الكتابة

سلطة الكتابة لا تعنى أنها سلطة فكر تماماً، بل كثيرا ما يجلس الكاتب وليس فى رأسه فكرة واحدة، ولكن لديه الرغبة ، أو تلك الشهوة أن يسطر ويخلق عالماً من الكلمات وقطاراً من المفردات يصل إلى محطة مجهولة، يعترف «نجيب محفوظ» بهذه الحقيقة «فكثيراً ما جلست وأمسكت بالقلم وليس فى رأسى فكرة واحدة»، ويعترف آلان روب جرييه فى بساطة «أنى لا أملك أية فكرة عندما أشرع فى كتابة»، ويصف كيبلغ قطار المفردات هذا، وخواء الأفكار عند البدء:

يحدث أن يكتب كاتب حكاية بدون أن يعرف مغزاها. هكذا يمكن أن ينال عملاً أدبيا قيمته أبعد من قصد الكاتب.. قيمة غريبة عليه».

أما الكاتب اللاتينى المعروف «بورخيس» فيعترف بموقف التابع من سلطة الكتابة، فليس الكاتب حراً بل عبداً تمتلكه الكتابة كسلطة ونفوذ وهيمنة إنه أمر يشبه إلحاح العاشق أو الدائن أو المجند عليك، لا تتملص منه بسهولة مهما حاولت.. فيعترف قائلاً:

«لا أبحث أنا عن الموضوعات! بل هى التى تقوم بمطاردتى، ويحدث أحيانا أن

أطردها، وأكتب حين أحس بضرورة ذلك».

تبدأ اللعبة من قبل سلطة الكتابة، فتكون هي الفاعل، والكاتب المفعول به، ولكن بورخيس ينبه إلى تلك المساحة من الإرادة في القدرة على الاستمرار أو اختيار الأفكار.

ولكن الكاتب البرازيلي «جورجي أمادو» يعارض الرأى السابق، فلا يملك الكاتب ترف التوقف أو الاختيار، إنه الطرف الأضعف أمام سلطة الكتابة التي تجرده من القدرة على المقاومة.. يقول :

«أكتب لضرورة داخلية. حتى لو أردت أن أتوقف عن الكتابة، فلن أستطيع . إن الموضوعات والشخوص والمناخات تفرض نفسها. وتصبح حاجة الجلوس أمام الآلة الكاتبة قاهرة. فالكاتب مترجم نضالات شعبه».

الجملة الأخيرة في عبارة أمادو تشير إلى أكثر من بعد: البعد الاجتماعي للكتابة، التفادى في القدرة على التقاط وترجمة الهواجس والأفكار والهموم بين فرد وآخر، المحيط العام الذي ينشط الكاتب داخله.

ينقلنا الروائي الإيطالي «ايتالو كالفينو» إلى أرض أخرى، إن الكتابة تموت، لأن الكاتب يصادر حياتها، كما صادرت إرادته من قبل، فالكاتب يدفن فكره ويقيم احتفالاً لفكرة أخرى عندما يختارها دون غيرها. يقول كالفينو:

«احتفظ بفكرة في الرأس لسنوات قبل أن أقرر إعطاءها شكلاً على الورق، وأحيانا في إطار هذا التوقع أدع الفكرة تموت.. تموت الفكرة مهما يكن من أمر ، وحتى عندما أقرر الشروع بالكتابة، لا توجد هناك إلا محاولات في طريق الإنجاز، مقاربات، صراع مع وسائل التعبير.. فمن أجل الشروع بكتابة بعض الأشياء .. كنت أبذل مزيداً من الجهد، لأنني أعرف أن هناك ما ينتظرني من تعب وعدم رضى لتكرار الجهود، والتصحيح، وإعادة الكتابة، المهم في الأمر هو العفوية».

الأدب عند كالفينو هو التحدي الوحيد الممكن «معنى للعالم»، والكتابة عند الروائي المصري «فتحي غانم» محاولة لتقديم إجابات غير حاسمة، يقول:

«فلا توجد في اعتقادي إجابات نهائية. لأن الإجابات تتغير باستمرار/ ودائرة الكشف لا نهائية بالنسبة للعقل البشري، إن الله وحده هو الذي يحيط بكل الإجابات، أما البشر فعليهم أن يجوبوا آفاق الكون بحثاً عن إجابات».

وربما كان لدى الكاتب العربي تفسير ميتافيزيقي عن عمله، تعكس المتانة العقيدية لفضائه الثقافي، فأدونيس يقارب إجابة فتحي غانم «أكتب لأصوغ ما قاله الله ولم يكتبه» أي إن كتابتنا فعل إلهي، أو متصل بالإعجاز الإلهي، والكتابة نوع من القداسة الدينية.

وإذا كانت الكتابة «سلطة» و«قوة» و«حالة» فهي «حقيقة» أيضاً، أو واقع، فالكتابة واقع يكتب عن واقع ، قوة تكتب عن قوة فيقول، «ألدوس هكسلي»:

«إن العالم الذي يهتم بالأدب هو العالم الذي يولد فيه البشر، يعيشون ثم يطويهم الموت، إنه العالم الذي يحبون فيه ويكرهون، ويتعرفون على النجاح والإذلال، الأمل واليأس، إنه عالم المسرات والمعاناة، الذي توجد فيه كل أنواع الضغوط الاجتماعية، والنوازع الفردية، عالم الصراع بين العقل والعواطف، وبين الغرائز والأعراف

الاجتماعية، وبين اللغة العامة والأحاسيس، والانطباعات التى لا يمكن إيصالها إلى أحد».

فى حين يذهب البعض إلى أن الكتابة أقرب إلى الوهم «الأدب هو أحد أوهامنا» يعترف محمد شكرى «إذا لم يكن يمسك فى البحث عنها هذا ما قد يغرى به المبدع الحقيقى نفسه وسط الذين فقدوا ثقتهم فى قيمة الأدب ودوره فى تطوير البشر، وفى اتجاه متماس يرى المفكر المغربى عبدالسلام بنعبد العالى أن الكتابة تتصل بالفراغ، ووظيفتها الحفاظ على الفراغ، يقول: ففى بؤسنا الفكرى، هناك دائماً غنى الفكر. ذلك الغنى الذى يجعلنا نحس أن التفكير يعنى دائماً أن نتعلم كيف نفكر أقل مما نفكر، أى أن نفكر فى العوز والفراغ الذى هو الفكر، كى يحافظ على ذلك الفراغ عندما نكتب ونتكلم».

نقطة وصول وهدف محدد

إن الكتابة تمثل الحياة فى أوجهها، والكتابة التى تبغى تغيير العالم قد تركز على نقطة وصول، أو هدف محدد، أو غاية، أو قيمة تنشدها عن غيرها، وتختار فى مقدمة ما تسعى إليه الكتابة.

فإذا كانت الكتابة سلطة، وقوة تجتاح الكاتب وتوجهه عبر ما نسميه الإلهام فإن التشكيل والتدخل الواعى من الكاتب خلال الطريق يعنى أن هناك قصديه توجه السياق، وانحياز يصيغ جمالية الكتابة عن غيرها.. نعم، نكتب أو نموت، ولكن نكتب بقصد أن نحيا حياة أفضل.. هذه الغاية، أو المقصد، أو بؤرة التوجه هى «الحرية» عند الكاتبة الأمريكية الكبيرة «سوزان سونتاغ»، فتقول:

«إن حياة الكاتب هى الصراع والمواجهة، وإن جوهر هذا الصراع وهذه المواجهة هى الحرية».

أما الكاتب فى نظر الروائى الألمانى المعروف «جونتر جراس» فمهمته هى التحذير وقرع الأجراس:

«على الكاتب أن يجابه العقلية السائدة، وأن يحطم الواجهات وأن يبحث عن النور فى عالم تلفه العتمة، يسوده الجور، وأنه على الكاتب أيضاً أن يغمس يديه فى الطين، وفى القاذورات وألا يتأفف من ذلك، وأن ينبه الإنسانية إلى الأخطار قبل فوات الأوان».

أما الكاتب العربى فنجد له أكثر من دافع للكتابة يختلف حسب موقفه السياسى ورؤيته للصراع الاجتماعى، فتوفيق الحكيم بتجريده الذهنى وتأمله المجرد يكتب من أجل هدف ليس بعيداً عن تكوينه لوظيفة الكتابة.. يقول:

«أكتب من أجل هدف واحد: دفع القارىء إلى التفكير».

ولا يفرق «نجيب محفوظ بين الأنا والآخر، فهو يعى أن الكتابة تمثل أو تمتلك المجد بصورة من الصور، وهى تربح كاتبها فى النهاية، ويهدف أن يصل إلى الناس وأن يكشف عن مبادىء ما.. يقول:

«أكتب للمشاركة فى مجد، لأكافأ بالعمل، ولأرى الآخر المبادىء الواجبة أثناء جهد ما. أكتب لأكون مقروءاً ببساطة . اليوم ما لم أعد أميز بين الحياة والكتابة» وهو

يقترب من مفهوم ريلكه للكتابة «الكتابة ظهور الكائن الذى يتجلى فى بهاء وجوده، وقد تطهر من كل ما يحجبه واستقام فى حقيقة حضوره المكشوف» . فالكتابة عند محفوظ وريلكه تنتسب إلى المجد، وهى معطى للمجد وسلطة له.

تقترب وظيفة الكتابة أو عملها فى رؤية نجيب محفوظ من رؤية جبرا إبراهيم جبرا المتقدمة عندما يقول «الكتابة عندى هى حياة ودلالة في الحياة»:

ويعبر الكاتب السعودى د. تركى الحمد عن هذه الصلة والجسور بين الأنا والآخر من خلال عملية الكتابة نتعرف على ماهيتنا، وما هية الآخر، وللكتابة طابعها الوجودى. «نعم إن الكتابة رحلة وجودية نستقصى منها سر العالم من خلال استقصائنا لسر الذات التى هى فى متناول اليد/ ولكنها بعيدة عن اليد فى ذات الوقت. نكتب لأن الكتابة تشعرنا بأنها رابطة خفية المعالم تربطنا كأفراد ببعضنا البعض فتخلق من كلانا واحداً هو الإنسان ففى الكتابة تضيع الفردية وتغرق الذات فى بحر المجموع فتحس أنها ما جاءت عبثاً ولن تذهب عبثاً».

فى الكتابة أمور كثيرة تقولها لنفسك ولكنها تحس أنها ما عادت نفسك أنت كفرد بل تصل إلى إحساس مبهم بأن نفسك استحوذت على جوهر الإنسان فتخاطب الإنسان من خلال خطابك لنفسك . إن فى ذاتك يكمن سر الوجود وكنه الذى مافتىء العاقلون فى هذا العالم يبحثون عنه، فأنت العالم والعالم أنت وكلما عرفت ذاتك أكثر ، أدركت معنى العالم ومعنى الوجود.

انسانية الكتابة

الأدب تعبير عن إنسانية كاتبه، وتعبير عن الإنسانية ، وإذا كان الأدب عاجزاً عن تغيير الواقع، فلا أقل من أن يفسره، وأن يكسبه دلالة، وأن ينير له طريقه، أو ينقل قدمه فى حقل الأشواك بأقل قدر من الوخزات.

الكاتب لا يصنع التاريخ ولكنه ينتسب إليه بالضرورة، وإن كان على الكاتب أن يتوهم أنه يصنع التاريخ ويشارك فى تغيير مسار الإنسانية، وأن يسكنه حزن عظيم لأن التاريخ يحيد عن مساره نحو الظلم والقبح والقهر والتفاهة، وعظم هذه المسئولية تدفع الكاتب الألمانى هاينريش بول لأن يعترف فى تواضع:

«إن على عاتق الأدب المعاصر مسئولية ليس قادراً على الوفاء بها».

أما مارجريت زوراس الكاتبة الفرنسية فتكشف عن سمتين للكتابة، ربما تنفرد بهما، فى واحدة من أجل وأعمق تحليلات عملية الكتابة، حيث تضع يديها على سمة الكتابة وهى التوحش، وفى كتابها الذى يحمل اسم (الكتابة) ترى أن الكاتبة تجعل الإنسان برياً وتلحقه بوحشية ما قبل الحياة، ويعرفها دائماً، وحشية الغابات القديمة قدم الزمن، وحشية الخوف من كل شىء»، متميزة ومشتبكة بالحياة ذاتها، يكون الإنسان ضارياً، لا يمكن لفرد أن يكتب دون قوة الجسد. يجب أن يكون أقوى من ذاته ليقترب من الكتابة فقط، بل المكتوب ، إنها صرخات الحيوانات الليلية، صرخات الجميع، صرخاتكم وصرخاتى، صرخات الكلاب إنها فجاجة عظيمة باعثة على اليأس، فجاجة المجتمع».

والوجود كله عندها فى حالة كتابة، وكل شىء حولنا يكتب، «الذبابة تكتب على الجدران، يمكنها أن تملأ صفحة كاملة، ويوماً ما، ربما خلال قرون مقبلة ، تقرأ بلا

حروف في مكان ما في العالم تؤلف كتب، كل العالم يؤلفها، أؤمن بذلك..».

ولكن الكاتبة التي تغلف الكتابة تعترف في النهاية في حسرة: «يمكن أن أقول ما أريد، لكنني لن أستطيع أبداً أن أعرف لماذا نكتب، وكيف لا نكتب؟».

ينتسب الكاتب إلى التاريخ ولكنه لا يحتويه، إنه يحاول الإنسلاخ عنه، إن التاريخ يحتوينا، ويضمنا إليه، ولكننا اتفقنا على أن الكتابة سلطة كثيراً ما تكون ضد كل سلطة .. ثمة وجود مفارق يعيه الكاتب إلى جانب الوجود التاريخي الذى ينتسب إليه، ويحاذيه.

يركز يوجين يونسكو على مفارقة التاريخ ، في حين يركز ألبير كامي على الضفة التي يقف الكاتب فوقها من نهر التاريخ.. يقول يونسكو:

لقد عشت دائماً وأنا في صراع مع التاريخ الحديث. لقد منعني أن أعيش، أن أعيش بطريقة ما، ذلك أن العيش مع التاريخ هو أيضاً شكل من أشكال العيش. غير أن الوجود بالنسبة لي «ميتافيزيقي» وليس تاريخيا».

فهناك مسافة بين ارتباط الكاتب بالتاريخ، اللا متعين أى الميتافيزيقي عند يونسكو، فالتاريخ يملأ الإنسان، ولكن يونسكو يرى أنه في حاجة إلى شيء آخر يملأه، أما كامي فيفرق في علاقة الكاتب بالتاريخ بين جمهور التاريخ، وبين زبانته، ففي خطابه الذى ألقاه بمناسبة تسلمه جائزة نوبل يرى أن الكاتب منحاز دائماً إلى الضعفاء والمهمشين لا إلى الأبطال:

«الكاتب لا يستطيع اليوم أن يضع نفسه في خدمة أولئك الذين يصنعون التاريخ، وإنما في خدمة أولئك الذين يتعذبون من صنعه. أما في الحالة الأخرى، فإنه يجد نفسه واقفا وحده، مسلوباً منه».

أما رولان بارت فيطفيء المصباح، ويغلق الباب في وجوهنا بانتقاله من الكاتب إلى الكتابة، فلم يعد السؤال اليوم في نظره عن النص والكاتب وإنما عن الكتابة والقراءة، واحتل مفهوم القراءة مكان الصدارة «الكتابة تدمير لكل صوت أصلي أو كل نقطة أصل، وهي المكان المحايد، المركب، السالب، الفضاء، الذى تضيع فيه الهوية المسقطة للقاريء أو الهوية المتخيلة للكاتب».

للكتابة حضورها الذاتي ووجودها الفيزيقي الذى تستقل به في لحظة كتابتها وانتهاء بوجودها الرمزى الذى تحله معانيها ومضامينها كما يرى دريدا، وفيليب سولرز، ولاكان، جوليا كرستيفا. يرى دريدا أن الكتابة لكي تكون كتابة فلابد لها من القدرة على الاستمرار في العقل وتكون مقروءة بصرف النظر عن وجود أو غياب الكاتب، وضياع السلطة الواحدة للمؤلف تطلق سراح الفعل والفعالية، وتكف عن تحويل الكتابة إلى فعل آحادي.

يبقى أن الكتابة سلطة: سلطة تصنع سلطة ، وهاجس يتحول إلى إرادة، ولذا قد يبقى السؤال الذى طرحناه في البداية معطلاً، ومقتحما، وفضولياً، ولكنه في الوقت نفسه مراوغ، وخصب، وحافل بالمزالق، فلنكتب حتى لا ننفجر، وإذا انفجرنا نموت، الكتابة ضد الموت، وليست أبداً رفاهية تحتل الادعاء، والحياة أغلى من أن نهدرها على قارعة الطريق، في رفاهية لا نحتملها، وإذا لن نكتب فقد اخترنا رفاهية الموت، وما أهونها! ■

في ذكراه الخامسة عشرة

أبي.. عبدالرحمن الخميسي

الشاعر والفنان والإنسان

بقلم
أحمد الخميسي

في الأول من أبريل الحالي تحل ذكرى رحيل والدي، الفنان عبدالرحمن الخميسي، الذكرى الخامسة عشرة. ورغم ارتباطي الوثيق بوالدي وحياته، إلا أنني لم أكتب عنه سوى أقل القليل. في كل مرة كنت استغرب ان اكتب عنه، وكل مرة أسأل نفسي: التراب يواري البدن، لكن أليست مشاعر الحب طاقة، والطاقة كغيرها لا تفنى ولا تنشأ من عدم؟ أين تذهب مشاعر الحب هذه؟ هل لها فراغ تسكنه في السماء؟ التراب يواري صندوق الكمان. لكن أين تذهب النغمة؟ يقولون أصبح بوسع العلم أن يستعيد كل الأصوات التي سرت في الهواء ذات يوم. فهل يسترد العلم يوما كل المشاعر الدافئة التي تهيم في الكون؟

أحيانا ينسي الضيف العجول وراءه سيجارة متوهجة عند حافة المطفأة، وقد نسي والدي شعورا في غور نفسي، يتصاعد منه دخان خفيف لا ينتهي، وعندما أكتب عنه أقول: الناس يفتشون عن الدفتر المكتوب، وأنا معلق بين الدفتر، والروح التي خطته، أمشي بين نافذتين مفتوحتين بحثا عن حقيقة موضوعية.



لم يكتب عن والدي إلا القليل، بضع مقالات للدكتور لويس عوض، ومحمد مندور، وعلي الراعي، وسيد حامد النساج، وغيرهم، ومعظمهم تناولوا الخميسي شاعرا، وقصاصا فحسب.

لكن كتاب «عبدالرحمن الخميسي القديس والصعلوك» لمؤلفه الاستاذ الصديق يوسف الشريف، ظهر كطوق نجاة لحياة غارقة، قلقة، وخصبة، وقلما تتكرر، واستحق الكتاب عن جدارة جائزة احد «افضل الكتب للعام السابق في معرض الكتاب» فقد باع كثيرا، وتطرقت إليه أقلام عديدة بالإعجاب.

كان والدي كثيرا ما يردد أمامنا ونحن صغار: «إذا انت أحببت المرء، ولو كان مجرما، فسوف يفتح الحب في نفسه اجمل ما فيها» وكانت له قدرة مذهلة على حب البشر، وعقد الصداقة معهم، حتى انه أحب لفترة طويلة خيال شابة وراء شباك في المنصورة إلى أن اكتشف انها خيال قلة ماء خلف شاش ابيض، وروى بعض من كانوا معه في سجن اسيوط عام ١٩٥٢ ان ثعبانا ظهر له

في الزنزانة، فلم يفزع، وراح يخاطبه بحب واحترام قائلا له : أنا شاعر طيب واسمي عبدالرحمن الخميسي، وأنت ثعبان طيب، تفضل وعش معي إذا اردت، إلا إن كان ابناؤك في انتظارك. ويقول الاستاذ محمد عودة إن الثعبان ظل ينصت لنبرات صوت الخميسي الجهير والخير ساكنا مكانه لحظات، ثم انصرف.



أحكي تلك القصة، لأقول إن الاستاذ يوسف الشريف، قد كتب كتابه بمحبة وتقدير غامرين يذكران بقول الكاتب الروسي انطون تشيخوف.. «الحب مثل الادب، موهبة خاصة»، وأعاد بكتابه الاعتبار إلى دور والدي في الحياة الثقافية والفنية، وصان حياته العاصفة والخصبة من الضياع.

بداية المشوار

ولم يكن أبي سوى ابن فلاح من قرية بالدقهلية هي منية النصر بالقرب من المنصورة . كشفت عن نفسها مبكرا طبيعته المتمردة كفنان، حين حشد وهو صبي في الثالثة عشرة أقرانه في القرية لبناء مسرح من خشب مقابر الأثرياء فيها؟ وهناك بدأ يكتب الشعر، ويرسل قصائده إلى المجلات في القاهرة، ونشرت اولى قصائده في «الرسالة»، وهو في السابعة عشرة. لم يتم تعليمه وانتقل إلى القاهرة عام ١٩٣٦ تاركا خلفه مدرسة القبة الثانوية، وقطعة أرض صغيرة ورثها عن والده، ووصل إلى العاصمة، ليس له في القاهرة احد، ولا صلة، ولا بيت، ولا مال فاتخذ من المقاهي سكنا، ومن أرائك الحدائق العامة سريرا، وله في ذلك قصة قصيرة اسمها «النوم» امتدحها الدكتور علي الراعي كثيرا.

في تلك الفترة، مطلع الاربعينات، كانت مصر تغلي بمختلف التيارات الأدبية والسياسية، وكانت الرومانسية مازالت تمثل كبرى الحركات الشعرية بجماعة «أبولو» وروادها الكبار مثل: علي محمود طه، وابراهيم ناجي، ومحمود حسن اسماعيل، ولحق الخميسي بذلك التيار الجارف فأصبح على حد قول الدكتور لويس عوض، « آخر الرومانسيين الكبار».

ويشير د. لويس في نفس المقال الى قصيدة «ديوان الحب» قائلا إنها: «من أجمل ما قرأت في أية لغة من اللغات في طلب الليل وطلب الموت» .تعلم الشعر على يدي خليل مطران، وانجرفت نفسه إلى فكرة العدالة بفضل سلامة موسى. وظل إلى النهاية يكرر :

«ثلاثة علموني : الفلاحون في قريتي، وخليل مطران، وسلامة موسى» .

في القاهرة، لم يكن الشعر يطعم أحدا، فتقلب الخميسي بين مهن مختلفة: عاملا في محل بقالة، ومصححا في مطبعة، ومعلما في مدرسة، وموظفا في استديو مصر، وفي الليل كان يرتاد

المقاهي ويؤلف الاغاني بأسماء الآخرين مقابل مبلغ زهيد. واعتقد ان حياته بين الفلاحين الفقراء وفي قاع المدينة، قد حددت للأبد انحيازه الصريح إلى الحركة الشعبية.

وسرعان ما فتحت له قصائده التي شدت الانظار اليه ابواب الاذاعة والصحافة، فالتحق بجريدة المصرى لسان حال الوفد حينذاك وصحيفة المعارضة الأوسع انتشارا، وعلى صفحاتها تلاحقت مقالاته عن المكافحين وجمعها في كتاب، واعاد صياغة «ألف ليلة وليلة» وقدم يوسف إدريس الى القراء. وكان الخميسي مع الكثيرين من ابناء جيله ينفخون في شرر الثورة على الملك، والعداء للانجليز، حتى قامت الثورة التى نادى بها، فاعتقلته، لأنه طالب مع الحركة الشعبية باستمرار الحياة البرلمانية على صفحات مجلة الكاتب تحت عنوان «ماذا يريد الشعب؟».

فى السنوات التى غيب السجن فيها والدى، لجأنا إلى بيت جدى، وكنا نسير ونلعب حفاة ونحن صغار، فلما ضقت بذلك وكنت فى التاسعة قلت لوالدتى، وماذا ان كتبت انا المقالات باسم والدى ثم نرسلها إلى الجريدة فنحصل على راتبه؟ وكانت تلزم الصمت، فأتعجب لم لا تقبل اقتراحي؟ ولم أكن اتخيل ان الوضع اكثر تعقدا من خيال الاطفال. وكنت قد نسيت صورة أبى تقريبا، إلى ان خرج من المعتقل فى ديسمبر ١٩٥٦ فوجدته كما وصفه عمنا محمود السعدنى: «نموذجا للفنان، شديد الزهو، شديد البساطة، عظيم الكرم، دائم الفلس، وكان يمشى فى الطريق يتبعه دائما أكثر من شخص بلازمونه كظله، ويطيعون اشارته» ووجدته قويا، يثق ثقة لا حد لها في الحياة، وفى قدرته على التغلب على كل شيء، اقرب ما يكون لما وصفه به يوسف إدريس فى الاهرام.« كان الخميسى قويا، عملاقا مقاتلا إلى ألف عام، وكان فمه مفتوحا على أخره، مستعدا لابتلاع الحياة كلها بكل ما فيها من طعام وشراب وجمال».

وبعد خروجه بنحو عامين، نقلته الحكومة من صحيفة الجمهورية - فيما يشبه العزل السياسى - إلى وزارة التموين، واطلق كامل الشناوى عبارته الشهيرة، «بدأ مكسيم جوركى صانع احذية واصبح كاتبا، اما الحكومة عندنا فتجعل من ادبائنا صناع أحذية».

ونحّى الخميسى قلمه جانبا، وشكل فرقة مسرحية جاب بها المحافظات مؤلفا ومخرجا وممثلا، كما كتب للإذاعة احد اشهر المسلسلات «حسن ونعيمة».. التى تحولت لفيلم واعتبرها النقاد قصة «روميو وجولييت».. المصرية. ثم انتقل الى تعريب الأوبريت الشهيرة «الارملة الطروب».. وهى تجربة لم تتكرر فى تاريخ المسرح الغنائى ثم ألف عددا من الأوبريتات.« مهر العروسة» و«الزفة» لكن القلق الذى يسكنه لم يكن يجعله

يركن إلى فن، أو يستريح إلى محطة، فانتقل الى السينما وقام باخراج وتأليف اربعة افلام، كما مثل دور «الشيخ يوسف» فى فيلم الأرض. وخلال تلك السنوات ترك عددا كبيرا من المجموعات القصصية، وعدة دواوين من الشعر، ثم غادر مصر عام ١٩٧٢ ضمن موجة الهجرة الثقافية التى اعقبت وصول الرئيس السادات الى الحكم، واصدرت الحكومة قرارا بإسقاط حقوقه المدنية، ومصادرة أملاكه، فلما شرعت فى التنفيذ وجدته مدينا لأكشاك السجائر فى شارع عدلى، وميدان طلعت حرب.

دافعت عن قيثارتى

عاش والدى حياته كما يقولون بالطول والعرض، وكنا إذا أفلس نحمد الله، لان معنى ذلك أننا سناكل الكباب فقط، والسر فى ذلك انه كان على علاقة طيبة بعم شعراوى صاحب محل الكباب فى باب اللوق، فكان إذا لم يجد بجيبه مليما، يطلب منه الكباب للافطار والغداء والعشاء، وما ان تظهر النقود حتى نعود بكل اسف إلى ما كنا عليه من بطاطس وفول . ولم يكن والدى يأبه بشىء. وخلال وجوده فى العراق قام صدام حسين - وكان نائبا لرئيس الجمهورية - بإهدائه سيارة، فباعها لما أفلس، فأغضب النائب، والوزراء . وعبر تلك الرحلة الطويلة كانت شجاعة الفنان تتقاطع مع هموم الوطن والشعر، وربما كان ابى ثلاثة أشخاص، وربما كان عشرة أو أكثر



واعتقد انه لم يعرف أبدا حقيقة نفسه مجتمعة، فقد كان كثيرا جدا من البشر، والرغبات، والانفعالات وكان ثراؤه النفسى غير المحدود يحزنه، لانه يعتقد انه نهر بلا ضفاف، عاش الفن كل لحظة من حياته، دون ان يكون واثقا من أن الفن - وهو صميم وجوده - جدير بالتضحية بالحياة، والأرجح انه كان مؤمنا بأنه ما من شىء على وجه الأرض قد يساوى الحياة نفسها التى توهب لنامرة واحدة، وقد ارتبطت الطبيعة الفنية الخصبة لوالدى ارتباطا وثيقا بطبيعته المتمردة كفلاح ومثقف، حتى اصبحت عبارته.. «لم اعزف ألحانى، لكنى دافعت عن قيثارتى» شعارا للكثيرين. وكان يفسر تلك العبارة بقوله: شعرت طيلة عمرى اننى مثل فنان، كلما جلس إلى قيثارته ليعزف لحنا هاجمته الشرطة وقطاع الطرق، فيلوذ بالفرار وهو يحمى قيثارته بيديه، فإذا عاد للجلوس ليرسل ألحانه هاجموه من جديد». وكان بتلك العبارة يوجز إلى حد كبير طبيعة حياته القلقة والمشردة التى لم تمنحه الفرصة للعكوف على شىء باستثناء حياته نفسها التى احال كل لحظة فيها إلى فن وتعبير. واذكر اننا كنا نجلس معه ذات يوم، فراح على مدى ليلة كاملة يحاول أن يحصى عدد ابنائه الذين يحتمل وجودهم فى مصر، وبرلين، وباريس، وغيرها إلى أن اختلطت عليه الاسماء

والعواصم فنهض متذمرا قائلا: «ابحثوا عنهم، اى خميسى تجدونه أخ لكم».

لكن فترة الغربة التى طالت نحو ثلاثة عشر عاما ارهقته، واقتلعته من المقاهى التى احبها، وصحبة الاصدقاء، والمعارك الصحفية، وكنت أراه كثيرا فى سنوات الصقيع فى موسكو، وقد جلس بمفرده الى منضدة تتصدر صالة واسعة يدخن، كأنه يتأمل وحده حصاد حياته، فأقترب منه بهدوء واضع له فى المسجل اغنيات مصرية ريفية الطابع، فيصاب بالذهول كيف خمنت أنه يحن لتلك الاغنيات؟ أجلس معه.. نحتسى الشاى بصمت، ونرسل ببصرنا إلى مساحات الجليد البيضاء المترامية خلف النافذة . كانت الرحلة قد أنهكته فكتب:

كسروا يراعى،
ولكنى حفرت على جدران مصر
أناشيدى بأظفارى
دمى هنالك مكتوب
وإن طمسوا حروفه
أج فى الظلماء كالنار،
وحيث هم صلبونا
كلما بزغت شمس رأى الناس فيها
لون أشعارى

لقد شاهدته وهو يتنقل من مختلف البيوت فى مختلف العواصم، إلى بيوت اخرى ومدن أخرى، من بيروت الى بغداد، ومن بغداد الى باريس، ومنها إلى موسكو، وكان فى كل مرة يقدم فيها على الانتقال من حياة ثابتة إلى المجهول يتحسس شيئا واحدا: علبة السجائر ؟ فى جيبه أم لا؟ كان ذلك كل ما يحمله من بلد لآخر.. وذات ليلة من أواخر شهر مارس، أحس بالتعب الشديد، فجاءت عربة الإسعاف لتنقله إلى المستشفى، بمصباح صغير يشع بالضوء الأحمر فوقها، أخذته ومضت. ومن باب البيت، رأيت مرة واحدة وإلى الابد، ومض اللون الأحمر من المصباح يخفق وراء السيارة ممتدا طويلا على الثلوج البيضاء.

لقد ترك لنا والدى ثروة من الحكايات التى لا تنتهى، والمواقف الشجاعة، وترك لذاكرتنا نموذجا لرجل كان منتشيا بنفسه دوما دون قطرة خمر واحدة، قادرا بخياله على ان يحيل اتعس الاماكن إلى قصور زاهية. وكانت وصيته الأخيرة ان يدفن فى المنصورة تحت شجرة.

قال: احس انني سأعود عصفورا ولهذا تلزمنى شجرة اغنى فوق غصن منها، فغرسنا له شجرة.

اقول ان ما كتب عن أبى قليل، لكن الاستاذ الكاتب الصديق يوسف الشريف، تمكن من استنقاذ شخص أبى، وحياته، حكاياته فى كتابه الممتع: «عبدالرحمن الخميسى القديس والصعلوك.». أطال الله فى عمر يوسف الشريف، الإنسان والكاتب المبدع، محاطا بحب وتقدير كل من عرفه عن قرب أو قرأ له. ■

رحيق الكتب

الكتاب: حرب الجلباب والصاروخ
المؤلف: محمود المراغي
الناشر: دار الشروق



كان مؤلف هذا الكتاب المهم كان يعرف ذلك السيناريو الذي يدور فور صدور وثائق الخارجية الأمريكية حول الإرهاب، وتلك النوايا المبيتة من جانب الولايات المتحدة ضد دول معينة، وجماعات ومنظمات كان في مقدمتها أفغانستان مستهدفة تحديدا أسامة بن لادن وطالبان.. إلى أن وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فاختلف الأمر كما يشير المؤلف في مقدمته للكتاب، وباتت قراءة الوثيقة لازمة، بعد أن تحولت إلى وثيقة اتهام ودليل عمل، وبعد اتخاذ قرار الحرب من قبل الرئيس الأمريكي جورج بوش ضد أفغانستان.

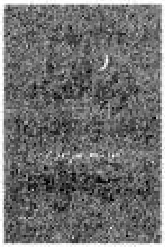
ذهبت أمريكا إلى أفغانستان بجيوشها في الوقت الذي تساءل فيه العالم عن استراتيجية هذه الحرب التي أطلقت عليها واشنطن اسم (حرب الإرهاب) أو حرب (العدالة بلا حدود).

ويؤكد المؤلف أنها (حرب الاستراتيجية المتحركة) فلا المجتمع الدولي يعلم، ولا الإدارة الأمريكية حددت نقطة النهاية..

والكتاب مليء بالتحليلات التي يوردها المؤلف حول العلاقات الدولية بدءا من حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحرب الخليج الثانية التي ارتفع فيها شعار نظام عالمي جديد يستهدف حرية الإنسان وحرية التجارة وحرية تدفق الأموال.

ويجيء نص وثيقة الخارجية الأمريكية والذي يمثل الجزء الأكبر من الكتاب، وليوضح كيف تنظر الولايات المتحدة للعالم بمعاييرها، وعلى ضوء ذلك نرى التهديدات للدول التي تأوي الإرهاب وليحكم القارىء على هذه المعايير!

الكتاب: ذكريات عربي أفغاني
المؤلف: د. أيمن صبري فرج
الناشر: دار الشروق



لم يكد ذكر أفغانستان يهدأ عن التكرار، حتى عاد مجددا ليتصدر المساحة الذهبية في الصفحة الإعلامية، فمنذ ١١ سبتمبر وحتى الآن، وربما لفترة طويلة قادمة ستكون أفغانستان صاحبة هذا الامتياز.

غير أن هذا الوضع كانت له منابته وأسبابه، وهو ما اهتم به هذا الكتاب أو هذه الذكريات «ذكريات عربي أفغاني» على لسان صاحبها دكتور أيمن صبري فرج أو «أبو جعفر المصري القندهاري» الذي يروي تجربة شخصية لمريد من مريدي الجهاد في الصف الأفغاني أثناء الوجود السوفييتي الذي برر اقتحامه لأفغانستان بتدهور الأوضاع الداخلية هناك.

والذكريات في مجملها تروي حكايات الجهاد والصراع بين المجاهدين الذين تنوعت انتماءاتهم بين أفغاني وباكستاني وإيراني ومصري وفلسطيني وليبي وجزائري وبين الجيش السوفييتي، وكيف تلقى هؤلاء المجاهدون تدريبهم على المتاح من أسلحة، وكيف صمد هؤلاء المجاهدون في وجه الآلة العسكرية السوفييتية.

والكتاب يروي أيضا في لمحة تاريخية ما لاقاه الانجليز على يد الأفغان، وكيف سُحقت جيوشهم عام ١٨٤١ ، فتوالت حملاتهم مما ألجأ الأمير «شير علي» إلى طلب المساعدة من الروس فكانت بداية التدخل الروسي في شئون البلاد، وبداية ظهور الجماعات اليسارية أيضا، التي مُنحت سلطات واسعة على يد «محمد داود» مؤسس النظام الجمهوري عام ٧٣، وهو ما استنفر في نفس الوقت الجماعة الاسلامية، ومن هنا كانت بداية الصراع الداخلي ومفرداته، إذ انقسم الفرقاء في داخلهم إلى فصائل متناحرة، وتناوب مقاعد القيادة كل من تراقي، حفيظ الله أمين ثم كارمل، الذي تدخل الروس بذريعة حمايته وحماية حركته التي أعلن أنها اشتراكية.

وأخيرا فإن «الذكريات» مليئة بالدلالات والإشارات من خلال انطباعات صاحبها عن جماعة المجاهدين وحياتهم ومذهبهم الحنفي الذي يرون الإسلام من خلاله. وقوة عزمهم وصمودهم في وجه الغزاة من انجليز وسوفييت والذين ما جاءوا إلا من أجل ثروات ضخمة لشعب فقير أعزل على بقعة من أفضل بقاع الأرض.

الإسلام وخرافة المواجهة
الدين والسياسة في الشرق الأوسط
تأليف: فريد هاليداي
ترجمة: محمد مستجير



يتناول هذا الكتاب «الإسلام وخرافة المواجهة» - والذى وضعه «فريد هاليداى» عملية تأمل طويلة فى الشرق الأوسط المعاصر ، وتفكير فى هذه المنطقة، ورصد فى دراسته انتشار نظرية المؤامرة فى الثقافة والسياسة ودور الدين الإسلامي وصعوبات إقرار الديموقراطية وصياغتها، ومن السهل وضع تحليلات لكل من هذه القضايا تحصر نفسها فى تأثير الإسلام، أو فعل العقل العربي والفارسي أو الدمار الذى جلبته الامبرالية على المنطقة، لكن من الممكن أن توجد تفسيرات أخرى، أقل خصوصية تنطلق من الحقيقة الواضحة، وهى أن كثيرا من الظواهر التى تم تحليلها، تشاهد فى أماكن أخرى من العالم، فالشرق الأوسط ليس فريدا ، فى انتشار الديكتاتوريات، أو فى الدول التى خلقها الاستعمار ، أو فى نظريات المؤامرة فالشرق الأوسط ليس فريداً، ربما إلا فى مضمون الخرافات التى تروج عنه من الداخل والخارج وللأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لشعوب هذه المنطقة، خصوصيتها واختلافاتها ، فيما بينها ، وفيما بين الشرق الأوسط الواحد والعالم الخارجي.

ويؤكد الكاتب هنا على ان مانحتاجه هو دراسة كاملة لمجتمعات ونظم سياسية بعينها ، وللاستخدامات التى اختلفت باختلاف الزمان والمكان، للرموز والمبادىء الإسلامية . فالإسلام كموضوع للدراسة ينبغي أولا أن نذيبه لنجعله شيئاً عينيا فى دراسة أحداث وأوقات وأماكن بعينها.

ويحاول الكاتب الإجابة على كثير من الأسئلة المتشابكة والتى يكثر حولها الجدل، حيث يظهر جدل عقيم وصراع غابت عنه الحكمة، وتفجرت فيه غريزة الانتقام ، وأصبح خطراً يهدد البشرية..

التيارات الإسلامية في مصر ومواقفها تجاه الخارج من النكسة إلى المنصة
تأليف: د. وليد محمود عبدالناصر
تقديم: د. أحمد كمال أبو المجد



هذا الكتاب ليس تاريخاً للإسلام، ولا تحليلاً للإسلام في عقيدته أو شريعته أو ثقافته العامة. وانما هو دراسة علمية وصفية وتحليلية، لمواقف «الأحزاب والجماعات» التي تكونت داخل المجتمع المصري مطالبة بتعديلات جوهرية في مساره الثقافي والسياسي.

تقوم في مجملها على مايراه مؤسسو هذه الجماعات على أنه الفهم السليم أو التصور الصحيح للإسلام، وما يطالب المؤمنين به في حياتهم السياسية وشئونهم الاجتماعية.

وقد اختار الكاتب فترة محددة وموضوعاً محدداً، فالفترة تمتد من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١. أما الموضوع فقد تم تحديده بمواقف أولئك الإسلاميين تجاه الخارج ..

ويتناول الكتاب بالتحليل مواقف الإسلاميين في مصر تجاه الخارج، وتأتي أهمية هذا الكتاب في التعرف على اللغة السياسية التي استخدمتها القوى محل الدراسة خلال الفترة التي حددها الكاتب، في التعبير عن مواقفها تجاه مسائل خارجية.

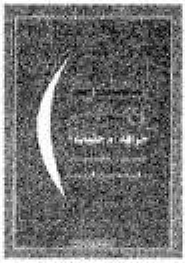
ويؤكد الكتاب أن الذاكرة التاريخية للتيارات الإسلامية اتسمت بالصفة الدينية، واستخدمت تلك التيارات مفاهيم دينية، لها مدلولات دينية وتاريخية في الذاكرة الجماعية للمسلمين، مثل الأمة - الجهاد - الجاهلية.

وتم إعادة تفسير هذه المفاهيم بشكل مستجد وراديكالي. وتم توسيع نطاق تطبيقها لتشمل العالم بأسره، بواسطة المفكر الباكستاني أبي الأعلى المودودي، والمفكر المصري سيد قطب في كتاباته في الستينيات .. بالاضافة إلى بعض منظري، بعض التيارات الإسلامية في مصر خلال الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١.

وحاولت بعض التيارات الإسلامية في مصر خلال هذه الفترة، أن توائم بعض المفاهيم التقليدية مثل «دار الحرب وأهل الكتاب»، مع وقائع سياسية معاصرة، وقد استخدمت أيضاً بشكل انتقائي مفاهيم الجاهلية والحاكمية والجهاد، بعد ماتم اعادة تفسيرها، وتوجيهها إلى منحى راديكالي على المستويين النظري والعملي، كأدوات وصف وتحليل، وتوصية للتابعين لإقامة نظام مثالي..

ولاشك أن هذا الكتاب يساهم في إرساء الأطر العلمية، التي يمكن أن تساهم في دراسة مواقف وآراء الحركات الدينية في مناطق ودول أخرى من العالم تجاه قضايا العلاقات الدولية.

التهديد الإسلامي.. خرافة أم حقيقة؟
تأليف: جون ل. اسبوزيتو
ترجمة: د. قاسم عبده قاسم
دار الشروق



«كأنما خرج الإسلام فجأة من غياهب المجهول ليعلن عن وجوده!.. وكأنما كانت القشرة الغربية التى فرضتها سنوات الاستعمار والتبعية هى الأصل».. يبدأ د. قاسم عبده قاسم مقدمته بتساؤلات أصبحت مطروحة على الساحة الدولية فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر الماضى. كمقدمة لكتاب أثار العديد من السجال والاهتمام، ألفه أحد أهم المتخصصين بتاريخ الإسلام والمسلمين وصاحب آراء عميقة عن حركات الإسلام السياسى المعاصر فى العالم. وتكمن أهمية الكتاب فى تناوله بالتحليل الهيكلى لمعظم الحركات والمنظمات الإسلامية فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب. فترصد أبواب الكتاب محاولات الإصلاحيين والتجديديين لمواجهة المشكلات التى تواجه المسلمين فى العصر الحديث. ويناقش مفهوم «الأصولية» لما قد يتضمنه من مغزى «التهديد الكلى». وفى هذا الصدد يرصد بشكل مستفيض حركات الإصلاح بداية من الوهابية والسنوسية والمهدية مروراً بفكر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا حتى مرحلة التجديد الإسلامى على اعتبار كما يقول «اسبوزيتو» «الاسلام قوة عالمية محتملة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين». وإن كان يرى أن الحديث عن الإحياء الإسلامى قد يكون «مخادعاً»

ويطرح الكتاب عدداً من التساؤلات تدل على القلق المتصاعد فى الغرب إزاء حركة الإحياء الإسلامى وسيادتها فى معظم أرجاء العالم الإسلامى .. فيتساءل «لماذا تمتع بهذا التأثير الواسع المدى؟ وإلى أى مدى يوجد تهديد إسلامى؟». كما يدرس جذور الصراع والتعاون والمواجهة ما بين الإسلام والغرب. كما يحاول أن يتناول الاعتقاد الذى ساد بأن «الحركات الإسلامية أصبحت بديلا حقيقيا للأنظمة الفاسدة المرهقة عديمة الفاعلية». وفى نهاية الكتاب يطرح «اسبوزيتو» التساؤل الشائك مرة أخرى «الإسلام والغرب هل هو صراع حضارات؟، أم أنه يمكن أن تقوم العلاقة بينهما على أساس الفهم والحوار والاعتماد المتبادل؟» ويخلص إلى أن بروز خرافة التهديد الإسلامى كان نتيجة التفكير النمطى الاتباعى. والركون إلى الأنماط الفكرية الجاهزة أو المعلبة بدافع الاستسهال وعدم الرغبة فى التعب والاجتهاد.

وإن كان أهم ماقدمه الكتاب محاولة مؤلفه تصحيح تلك النظرة الغربية التى ترى أن كل ما يخالف الغرب فى رؤاه وأساليبه ونظامه القيمى والأخلاقى متخلف وخطير بالضرورة!!

وقائع سنوات الجهاد
رحلة الأفغان العرب
تأليف: محمد صلاح
دار خلود للنشر

عن رحلة الأفغان العرب الطويلة .. مشاقها ووقائعها وتطورها .. بداية من الأفكار التى جالت بعقول أعضائها وحتى



شرارتها التي امتدت لتشمل بقاعا كثيرة فى العالم ، عن أخطر الإرهابيين المطلوبين فى العالم وعلى رأسهم الدكتور أيمن الظواهرى وأسامة بن لادن، يروى لنا الكاتب محمد صلاح الدراما الأفغانية - العربية منذ بداياتها الأولى .ويحاول أن يقف عند الأسباب والدوافع وملامح التجربة المريرة التى خاضها هؤلاء الشباب أو كما يذكر فى كتابه «خبرة شباب الأمة الإسلامية». «استثارتهم الهمة وأرادوا التضحية من أجل قضية الإسلام..». فيستعرض الكاتب بجرأة شديدة أحاديث وتصريحات أعضاء الحركات الراديكالية الأصولية فى البلاد العربية خاصة فى مصر. ويحكي لنا فى خلال ذلك الأجواء التى سادت فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات عقب وفاة الزعيم جمال عبدالناصر، وينتقل بين محطات رحلتهم الشاقة من بيشاور الباكستانية وحتى الوصول إلى أفغانستان البوتقة التى انصهر فيها الجميع . ونجد بين سطور الكتاب الكثير فى مشاعر الخديعة خاصة وسط تصريحات شباب الرحلة، فكما يقول الكاتب «أمة مضللة من جانب حكوماتها وجماعات ترفع لواء الإسلام ، شارك الطرفان فى تحقيق هدف الأمريكيين ومصالحهم» .

وتكمن أهمية تلك الحوارات الصحفية فى استعراض الأسس الفكرية التى استند إليها الأصوليون المتشددون، لتحويل عملياتهم التى كانت تستهدف أنظمة الحكم فى بلادهم إلى استهداف المصالح الحكومية. والتى فضل الكاتب تسميتها «بالطريق إلى الانتقام». «انتهى الغرض الذى من أجله صُنع الافغان العرب وتخلت أمريكا عنهم فلم تمنحهم أى مكافأة .. وهكذا امتزج الثأر الشخصى لدى الأفغان العرب بما كانوا يعتقدونه من أفكار دينية كلها تصب فى اتجاه تكفير الأمريكيين.....» أى بداية الشعور بالخديعة الأمريكية.

كما رصد الكتاب فصلا كاملا عن شخصية الدكتور أيمن الظواهرى العلامة الفارقة فى التحولات التى طرأت على نشاط وتوجهات الأصوليين الراديكاليين. كما يتحدث باستفاضة عن أسامة بن لادن «الشخص الأكثر خطورة على الأمريكيين» والذى أطلق إعلانه الرسمي «جهاد جديد فى أرض جديدة» لتبدأ بعدها أمريكا سباقها مع الريح للقضاء على «تنظيمه الفضفاض».. ■

١٤٢٣ عام هجري جديد

جزء خاص

هل من جديد عن

الهجرة النبوية

بقلم
د. محمد رجب البيومي

منذ أكثر من عشرين عاما ، كنت أستمع فى أول المحرم إلى حديث إذاعى يلقيه أستاذ كبير الاسم واللقب ، فأفاض فى حديث مؤامرة قريش فى دار الندوة ، وغار ثور ، والعنكبوت والحمام ، وكانت ابنتى الصغيرة وهى بالسنة الثالثة الابتدائية تجلس جوارى ، فسمعتها تصيح كالمندهشة : «بابا ، بابا ! هذا الكلام عرفته فى المدرسة من زمان ! لماذا يقوله هذا الرجل ؟ وهو معروف» !



وسكت لا أدرى بماذا أجيب الفتاة الصغيرة ! على أنى من يومها أخذت حذرى من الحديث عن السيرة النبوية إلا إذا فتح الله على بشيء جديد ، ولا تزال كلمة ابنتى ترن فى أذنى ، كلما حانت مناسبة تتكرر بتوالى الأيام، وأنا أكتب هذا المقال ، محاذراً أن تقرأه ابنتي التى شبت الآن عن الطوق ، فقد تصيح بى صيحتها بالأمس ، بابا ، بابا ، فأكرر السكوت !

على أن حديث السيرة لا يمل ، لا سيما لدى من قرأ مئات الصفحات التي تتحدث عن نبيه ، ويريد أن يعبر عن خواطر تزدحم في صدره ، فقد أرقت ذات ليلة ، وخطرت أطياف الهجرة أمام عينى ، فسبحت فى أمواج دافقة من الذكريات ، وكنت مضطجعا فجلست مستندا إلى الحائط، وقد دارت بذهنى هذه الخوالج ، فسألت نفسى :

لو جاء رب أسرة يملك الأمر والنهى على أولاده الكبار ، فجمعهم ، وقال لهم : اتركوا منازلكم الرحبة الفسيحة فى هذا البلد الآمن ، واتركوا ما لكم من أموال وعقار وأثاث، وارحلوا إلى بلد آخر ليس لكم به أهل ، وما بأيديكم وما تقتاتون به من الطعام ، وما لديكم من مسكن تأوون إليه ، اتركوا هذا البلد سريعا وارحلوا حيث أحدد لكم مكانا



الإقامة الموحش الغريب ، فبماذا كانوا يجيبون ؟

من البدهي أن صيحات التعجب ستعلو ، ثم تليها صرخات الاستنكار ، وسيشكون في عقلية هذا الذي يرميهم في أمواج المحيط ليغرقوا في مائه المواج ، حتى إذا عادوا إلى سكونهم ، تحدث بعضهم إلى بعض قائلين إن الأب يهذي . ولا يملك قدرا من التفكير يحميه من الهذيان . فلنترك المنزل ساعات ، ثم نرجع إليه . فقد يفيق من سكرته ، ويعتاده الصواب .

ثوابت تاريخ الدعوة الإسلامية

ولكن الواقع الثابت في تاريخ الدعوة الإسلامية أن المسلمين قد أمروا بالهجرة ، وترك الأموال والمنازل والمتاجر ومفارقة الأحبة والصحاب إلى بلد لا يعلمون عنه شيئا ، أو لا يكادون يعلمون ، فاستجابوا طائعين وفرحوا مغتبطين ، وسبقوا الرسول إلى المهجر النازح ، وكأنهم يسارعون إلى جنة الفردوس ناعمين مغتبطين.

ولنترك حديث هؤلاء إلى حديث مماثل في مكان آخر ، فنتساءل :

لو جاء رب أسرة ، وجمع أولاده الكبار ، وقال لهم سيفد عليكم قوم لا تعلمون عنهم شيئاً قبل أن يرتحلوا إليكم وسيقتسمون منازلكم ، ويأكلون من زادكم، ويتاجرون في أموالكم ، وسيصيرون ملاكا لأكثر ما في أيديكم ، وعليكم أن تتنازلوا لهم مرحبين عن كل ما يحتاجون إليه مهما عظمت حاجتكم له ، بل لو أراد أحدهم أن يتزوج من نسائكم . وللواحد منكم أكثر من زوجة فليدعها له مغتبطا سعيدا ؟! لو جمع رب الأسرة أولاده وقال لهم ذلك فبماذا يجيبون ؟ أكرر ما قلت من قبل ، فأقول إن صرخات الاستنكار سترتفع ، وإن صيحات التعجب ستعلو ، وسيشكون في عقلية هذا الذي سينغص لهم وجه الحياة ، فتصبح أضيق من سم الخياط ، حتى إذا عاودوا سكونهم تحدث بعضهم إلى بعض قائلين إن الأب يهذي ، ولا يملك قدرا من التفكير يحميه من الهذيان ، فلنترك المنزل ساعات ، ثم نرجع إليه فقد يفيق من سكرته ، ويعتاده الصواب ، ولكن الواقع أن الأنصار قد استقبلوا المهاجرين مرحبين ، وقد قاسموهم الأموال والمتاجر والمنازل والأعمال عن ود عاطف ، وإخلاص مكين ! فماذا نقول في ذلك ؟

نقول في ذلك ما قاله الله عز وجل في كتابه (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ،

وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ٦٢ ، ٦٣ ، الأنفال .

ولأنتقل إلى أمر آخر ، ليس أشد غرابة من سابقه ، ولكنه في وضعه الذى انتهى إليه أمر غير معهود ، ويكاد لا يصدق لولا أنه حق واقع !

الأوس والخزرج على قلب رجل واحد!

أتعلم أن قوما دامت الحروب بينهم سنوات جاوزت المائة ، وكلما مضى جيل ورث عنه جيله اللاحق ما حمل من حقود ناغرة تأكل الأكباد وتحرق الأحشاء ! هذه الحقود التى أرثت حروباً ما تكاد تنطفىء بعد أن تهلك الحرث والنسل حتى تعود ثانية أشد ما تكون ضراماً ، وأهول ما تشتعل حريقا ، حتى إذا بلغ الأمر أشده ، وضاقت الأرض بما تحمل ومن تحمل ، رحل قوم من المتحاربين معاً . لا من فريق دون فريق إلى مكان آخر . وإلى بلد ناء عن موضع الشقاق ، يلتمسون النصرة من أبناء هذا البلد النازح ، وكل راحل يعمل على أن يحوز ثقة هذا البلد البعيد فيمده بالسلاح والعتاد والرجال ، ثم تكون النتيجة أن يتقابل العائدون الملتمسون أسباب النصر ، مع إنسان لا حول له ولا طول من الناحية الحربية ، بل هو محارب من قومه ، يقاطعون أهله ، ويمنعون عنهم الزود حتى يلجئوهم إلى شعاب الجبل وحدهم دون نصير: يقابلون هذا الإنسان الذى لا يملك دفعاً عن أصحابه إذ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة اتقاء لما يلقون من كيد ، وما يتعرضون له من نكال تشيب له رءوس الضعفاء من الأرقاء والمستضعفين، يقابلونه ذات عشية فيتحدث إليهم ويتحدثون إليه، فإذا القوم ينسون ما قدموا إليه من تحالف ، وإذا المحارب منهم يجلس جوار خصمه الألد ليكونوا معاً فى اتجاه واحد ، ثم يتعاهدون على أن يتركوا أسباب الشقاق ، وأن يرجعوا إلى المدينة مع أحد أصحاب هذا الإنسان، الذى اطمأنوا إليه ليهديهم إلى الوفاق، وليجمع المتنابذين على المودة والإخاء ! أتصدق أن قوماً جاءوا متنابذين فرجعوا متحابين ، لا استجابة لأمر رئيس مطاع يملك قوة التنفيذ بأساً وعدة وعزيمة ، بل إذعانا لرجل لا يملك غير المنطق السديد ، والحب الخالص والثقة فى مدد يأتى من السماء لا من الأرض ! وما السماء فى رأى هؤلاء حينئذ ؟ إنها عالم مجهول تحوطه

الأساطير ويكتنفه الضباب فلا يهدى إلى طريق !

هذا الذى لا يصـــدق ، أو لا يكاد يصدق ، صار حقا واقعا ، حين امتدت الحرب بين الأوس والخزرج فى المدينة امتداداً رهيبا ، فحصدت الرءوس ، وأكلت الأموال ، وضاقت الأرض برحبها على المتحاربين ، حتى إذا اشتد الهول ، وعظم استئصال الخطر بما يبثه اليهود من أفانين الشقاق ، وما يحركونه فى التراب من جذوات ما تكاد تنطفىء حتى تشتعل بالإثارة والتأريث ، لجأ نفر من الأوس والخزرج متنابذين متباعدين إلى مكة ليجد كل فريق من قوة قريش ما يؤازره ويحميه! لم يعلموا عن محمد شيئاً ، ولم يفكروا فى الاستعانة به وهو لا يملك من العتاد الحربى قليلاً أو كثيراً ، ولا يحوى من المال ما يهيىء هذا العتاد شراء وتصنيعاً، ولكن الرسول تحدث إليهم ، فكأن نورا ساطعا برق فجأة فى ظلام دامس ، فلفت النفوس إلى مشرق صباح جديد ! فإذا القوم مأخوذون بما يسمعون، وإذا الأنظار تتجه إلى عهد آخر ، غير الذى كانوا ينشدون ، وإذا الأوسى مع الخزرجى على مذهب واحد ، فقد تركا ما بينهما من شقاق ، وتطلبا السلام فى كنف رسول السلام ! فرجعوا إلى المدينة يصحبون معهم مصعب بن عمير ليقرأ عليهم القرآن ولينزل فى الدور هناك بين الملأ ، داراً بعد دار، يرشد ويهدى ، فيجد الاستجابة ، وإذا نشز أحد عن الطريق استمع إلى قرآنه مرة ثانية فاطمأن ، حتى إذا كان العام القادم ، اجتمعت الكلمة على لقاء محمد بمكة ، وعلى إتمام البيعة له إيماناً بقرآنه ، واستمساكاً بالإسلام !

لقد كان المنتظر ممن كان فى موقف محمد ، أن يسارع إلى استهواء القوم بما يبذل من وعود مغرية فى الأمن والسلام ، وسعة الرخاء ، ومنع الحروب ، تلك التى يتوق إليها القوم بعد عناء مرير فى القتال، وبعد أن أكلت الحرب الأهلية ما لديهم من نفائس الأموال، وغوالى الأرواح ، كان المنتظر ممن كان فى موقف محمد أن يفرش الطريق بالورود لهؤلاء الذين قطعوا حياتهم بين الصخور والأشواك ، وأخذوا يتطلعون إلى عيش مريح : ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، لقد علموا من رسول الله أنهم فى سبيل تأييده سيقفون أمام العرب جميعا فى حرب عوان ، وأن قبائل الشرك فى الجزيرة العربية كلها لا فى مكة وحدها ، ستقف

كالبنيان المرصوص أمام دعوة الإسلام ، وأن مجاوريهم من يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع سيجدون فى دعوة الاسلام عدواً قوياً يناهض ما يقترفون من امتصاص الأموال ، واحتكار الضروريات فى الملبس والمأكل ، والسيطرة على أسواق البيع والشراء . ولابد إذن من أن يكونوا طابوراً خامساً عند صدام الشرك بالإسلام تارة ، وأن يكونوا أعداء محاربين فى صفوف الشرك جهاراً دون استحياء تارة أخرى وهم أرباب دين سماوى ، يحارب الشرك فى صميم عقيدته ولكنهم أمام مغريات السيطرة المادية لا كرامة لهم ولا دين ! هذه الأهوال التى تترصد القادمين إلى مكة من بنى الأوس والخزرج كانت كافية أن تصد القوم عن الدخول فى الإسلام، والاستجابة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ! ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ! بل كان الإقبال الحار والترحيب المتزايد والوقوف حشودا متراصة لاستقبال المهاجر النازح ، وكأنه الأمل المرتقب ، والبشير الذى يحمل طوق النجاة !

معجزات الهجرة

قد يقول قائل : ربما كان الوفد اليثربى لا يدرى فى مبدأ أمره شيئاً عما ينتظره من هذه الأهوال ، وإنما هى صعاب تكشفت للأنصار فيما بعد ، بعد أن خاضوا عباب الموج ، وتقاذف بهم اللج فى تياره المواج ! قد يقول قائل ذلك مستغرباً أن يقدم القوم على هذه التضحية الخطيرة ومعهم عقولهم التى تفكر ، وأذهانهم التى تتخيل وتتوقع ، ولكن ما سجلته كتب السيرة عن اجتماع العقبة يرد هذا الوهم بما يقضى عليه دون ارتياب !

لقد تنبه العباس بن عبادة الأنصارى إلى ما سيعقب هذه البيعة من خطر لاحق، فصاح بالقوم بمشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، صاح الرجل بين قومه صارخا : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ! قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، (يريد أنكم تبايعون على حرب الناس جميعا) فإن كنتم ترون أنكم إذا انهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله خزى الدنيا والآخرة ، إن فعلتم وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ، على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فقالوا جميعا :

إنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ما تعهدنا به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم . لكم الجنة ، قالوا أبسط يدك نبايعك فبسط لهم عليه السلام يده فبايعوه !

وإذن فالمسألة كانت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى لبس ، وقد صدق القوم وعدهم ، فصدقهم الله جزاءهم الحميد ، وتحدث عنهم القرآن المجيد فقال « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر آية (٩) .

أليست هذه غريبة ثانية تضاف إلى الغريبة الأولى ؟ فيقعان موقع الدهشة والاستغراب ؟

أما الغريبة الثالثة ! فهي حادث الهجرة النبوية ذاتها وكيف تمت على أحسن وجوهها في ظروف تحتم ألا تتم ، وأن تبوء بالإخفاق تجاه هذه الظروف .

لقد عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متجه إلى يثرب لا محالة ، وأنه إذا أصبح ذا عشيرة وملأ في مهجره، فسيكون قوة عاتية تقف أمام جبروتهم ، وقد تصيبهم بالخذلان ، فصمموا على اغتياله متآمرين ، وفي ليلة تحدد موعدها ، أحاط بمنزله أربعون شابا جلدا لينفذوا ما ائتمروا به ، وكان الإخفاق ذريعاً حين نجا رسول الله ، واتجه إلى أبي بكر فصحبه إلى غار ثور !

هنا تأتي الغريبة المدهشة سافرة بلقاء إنسان يتآمر عليه الجمع الحاشد ، ويرصد لقتله أشداء القوم من الشباب ، ثم يفاجأون برحيله ! ولا يستطيعون أن يبلغوه ؟

لقد ذهب أبو جهل إلى منزل أبي بكر ، ولطم أسماء ابنته في غضب ، حين ذكرت أنها لا تعلم شيئاً من أمر أبيها وصاحبه ، وأخذ يعلن أن مائة ناقة لمن يدل على محمد قبل أن يرتحل إلى المدينة ، أو من يأتي به ميتا ، وهذا أقصى ما يدل على الاهتمام البالغ ، وهم يعرفون كل طريق يؤدي إلى يثرب . فما الذي عاقهم أن يبلغوا ما يقصدون ؟ ولديهم القوة الممثلة في ذوي الخبرة بالمسالك والشعاب، ، وذوي الحرص من شبابهم الغاضب ، المندفع إلى البحث عن المهاجر في كل منفذ من منافذ الأرض ؟ ومعهم الانتهازيون الذين يريدون النياق المائة

بجهد يوم أو يومين!

لقد كان عبد الله بن أبى بكر يخرج من بيته إلى غار ثور يومياً على مدى ثلاث رحلات، فلماذا صرفهم الله عن أن يراقبوا بيت أبى بكر فيتبعوا ابنه وهو ذاهب إلى مثوى أبيه ؟

لقد كانت أسماء تحمل الزاد متجهة إلى غار ثور ، والقوم فى هياجهم يتشممون كل ريح ، ويتفحصون آثار الأقدام فى الرمال ، ويسألون الرائح والغادى فى شعاب الصحراء : هل أبصر محمداً وصاحبه فلا يجدون غير الحسرة والالتياع ! أفما كان لديهم من يفكر فى هذه الفتاة التى خرجت من منزلها ، فيتعقبها مختفيا من خلفها ليعرف أين ينتهى بها المسير ؟ هب أنها كانت تخرج فى الليل بعد العشاء ، فأين هم حينذاك وقد ملأوا دروب الصحراء مجتهدين مكدودين !

لقد كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يتجه إلى الغار كل يوم ، ومعه غنم يرعاها ، ، فإذا اقترب من الغار قدم للصاحبين ما يحمل من لبن وطعام ! أفما كان يعرف هؤلاء المتشنجون المتخبطون ، أن عامرا هو غلام أبى بكر ، وأنه إذا سار فى طريق غير آهل فمن المحتمل أنه يحمل لسيده ما تدره الأغنام من ألبان ليقتات من جوع ، وينهل من ظمأ ! كيف غفل هؤلاء البسلاء عن عبدالله وعن أسماء وعن عامر وهم لا يفتأون بين غدو ورواح باحثين غاضبين ؟

أما وصولهم إلى غار ثور ، وإحجامهم عن فحصه ، وقد انقطعت آثار الأقدام دونه ، فهو أمر لا يدل إلا على غياب الذهن، وشرود العقل ! وتلك هى المعجزة حقا ! فإذا أضفت إليها ما سبق مما أشرت إليه فإن الهجرة لم تكن معجزة واحدة ، بل كانت بضع معجزات !

هذه خواطر متناثرة ، توافدت على نفسى ، حين جلست مفكراً فى حادث الهجرة ، فرأيت أن أسجلها كما تواردت على الخاطر دون ترتيب فنى ، يقدم عنصرا على عنصر ، وقد أرضيت بذلك نفسى المتطلعة إلى الحديث عن رسول الله فى ذكرى يوم الهجرة ، وهو حديث لا يضيف شيئاً إلى مجده الخالد ، ولكنه يكسبنى شرفاً لا يتطاول حين يجول قلمى فى ناحية من نواحى سيرته الشريفة ، فأشعر بغبطة سعيدة شعر بها حسان بن ثابت حين قال :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمد

■

الوسطية الإسلامية

وحركة الإصلاح الفكري والإسلامي

بقلم
طارق البشرى

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» (آية ١٤٣) .

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» (آية ٢٣٨) .

وورد فى سورة المائدة : «فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة» (آية ٨٩) .

وفى سورة القلم : «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون» (آية ٢٨) .

(١)

المعنى اللغوى للوسط ، يقال توسط بينهم بالحق والعدل ، ويقال وسط الرجل أى صار شريفا وحسيبا ، ووسّطه أى جعله نصفين ، والوسط بين الجيد والردىء ، والأوسط هو المعتدل ، ومن أوسط قومه أى من خيارهم ، والواسطة واسطة القلادة أى الجوهرة فى وسطها ، والوسْط ظرف بمعنى بين (يقال جلس وسط قومه) ، الوسط المعتدل أى ما يكتنف أطرافه ولو من غير تساو ، والوسط هو العدل والخير ، أمة وسط أى عدول وأخيار ، الوساطة فى القانون الدولى محاولة حل نزاع بين دولتين .



المعنى الوارد فى القرآن عن الأمة الوسط :

يذكر القرطبى أن الوسط هو العدل، وأصل ذلك أن أحمد الأشياء أوسطها ، وفي الحديث الشريف : أمة وسط أى عدل ، وفي القرآن «قال أوسطهم» أى أعدلهم وخيرهم .. ووسط الوادى خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء ، والوسط مجانبة الغلو والتقصير وأمة الإسلام أمة وسط لأنها لم تغلُ غلو النصارى فى أنبيائهم ولا قصرت تقصير اليهود، واسطة القوم هو خيارهم ، والوسط هو كل مابين شيئين، ، وفى الحديث الشريف «خير الأمور أوسطها» . وقال الإمام على «عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالى وإليه يرتفع النازل» .

وفى تفسير ابن كثير ، «الوسط ها هنا الخيار والأجود ، كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أى خيرها» ، والرسول وسط فى قومه أى أشرفهم نسبا ، ومنه الصلاة الوسطى أى أفضل الصلوات ، والوسط العدل .

وفى تفسير المنار ، أن الوسط هو العدل والخيار ، والزيادة والإفراط أو النقص والتفريط كلاهما ميل عن الجادة ، ومن كان وسطا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب ويرى الثانى ، من جانب ، ولفظ الوسط فيه إشعار بالسببية أى البعد عن الغلو . والأوسط والوسطى هو المتوسط بين شيئين أو أشياء ، ويقول محمد عبده لولا أنهم حددوا الصلاة الوسطى لقلت إنها الصلاة «الفضلى» التى يحضر فيها القلب .

وورد فى ظلال القرآن ، أن الأمة الوسط هى الأمة التى تشهد على الناس جميعا فتقيم بينهم العدل والقسط ، ويذكر أنها وسط بكل معانى الوسط ، سواء بمعنى الحسن والفضل، أو بمعنى الاعتدال والقصد ، أو بالمعنى المادى الحسى ، ويقول «أمة وسط فى التصور والاعتقاد ، لاتغلو فى التجرد الروحى ولا فى الارتكاس المادى ، إنما تتبع الفطرة الممثلة فى روح متلبس بجسد..» ، «أمة وسط فى التفكير والشعور ، لا تجمد على ما علمت ولا تغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق وتقلد تقليد القردة المضحك» «أمة وسط فى التنظيم والتنسيق لاتدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولاتدعها كلها للتشريع والتأديب» «أمة وسط فى الارتباط والعلاقات ، لاتلغى شخصية الفرد ومقوماته ولا تلاشى شخصيته فى

شخصية الجماعة والدولة ، ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته» ، وهى أمة وسط فى المكان، وأمة وسط فى الزمان .

فالوسط إذن ، سواء فى اللغة أو فى الاستخدام القرآنى والدلالات الإسلامية ، يشير إلى قيمة العدل والخير ، كما يشير إلى الاعتدال من حيث هو إمساك بالأعنة ومراعاة الجوانب المختلفة للظواهر وتوثيق العرى ضد الجنوح أو الغلو أو الانفراط ، والتوسط يفيد مراعاة الأطراف . ومن هنا فى ظنى ترد وسطية الإسلام التى قصدتها الآية الكريمة «وكذلك جعلناكم أمة وسطا..».

(٢)

ونحن أمة وسط لأن الإسلام دين وسط ، بمعنى الفضل والخير والعدل ، وبمعنى تماسك الأركان وترابط الأطراف . ولا أريد أن أستطرد فى هذا الأمر ، إنما أشير فقط إلى وضع الديانتين اليهودية والمسيحية قبل الإسلام ، فاليهودية كانت تركز على المبادىء الأولية للسلوك الإنسانى ، من نحو منع القتل ومنع السرقة .. ووضعت بذلك الأسس التشريعية الضابطة لمعاملات الناس وللتنظيم الاجتماعى بينهم ، وكانت تعالج فى ذلك أفعال الناس وتتخذ وسيلة الجزاء العقابى أساسا للمعالجة ، من نحو العين بالعين والسن بالسن ولكن الجزاء القانونى العقابى لايكفى لتحقيق الضبط فى السلوك البشرى ، إنما يلزم تقوية البناء الداخلى للضمير الإنسانى، الذى يوثق أواصر الرحمة والمودة بين الناس ويقوى وسائل الضبط الوجدانى الداخلى .

وقد آلت اليهودية بين اليهود عند ظهور المسيحية ، آلت إلى هذا الوضع غير المتوازن .

ثم جاءت المسيحية لتكمل الناموس بالتركيز على الضمير والوجدان الإنسانى ، ولتقيم بجوار التنظيم القانونى العقابى السائد بين اليهود ، لتقيم تكوينا شعوريا أساسه الرحمة والإيثار والإحسان ، وصرفت غالب جهدها فى إقامة هذا الصرح الشعورى . ولكن المسيحية بين المسيحيين آلت إلى التركيز على هذا الجانب الوجدانى ، وانصرف غالب هم المسيحيين فى بناء الضمير دون التفات كبير إلى الشأن الاجتماعى القانونى العام

ثم يجىء الإسلام بوسطيته ليستوعب كلا الوجهين ، وليؤكد أن صلاح الفرد والجماعة هو فى الجمع بين الطرفين والربط بين الجانبين ، فأقام الرادع الاجتماعى بالقانون وبالعقاب المادى ، وأقام الرادع النفسى بإحياء الضمير بوصفه جهازا للرقابة الذاتية وبإغناء الوجدان البشرى بعواطف المودة والتسامح والإيثار ، فالله سبحانه وتعالى «رب السموات والأرض» ، وهو جل شأنه يأمر«بالعدل والإحسان» ، والمسلم هو من «آمن وعمل الصالحات» ، والعبادة صلاة وصوم وكذلك فعل الخيرات وما ينفع الناس . والمجتمع والفرد متداخلان فى

النظر الإسلامي، والظاهر والباطن مترابطان بالسلوك والنية.

ومن هنا نلحظ الجذر العقدي لوسطية الإسلام، مما عصم الجماعة الإسلامية من بعد، على طول العصور وتعدد القرون، عصمها من الإنشقاق والتصدع، ومما جعل رباط الإسلام شديدا وثيقا يضم هذا القدر الكبيرمن التنوع في المدارس والمذاهب والتشكيلات الاجتماعية والثقافية. وبقى هذا الرباط الوثيق يضم التكوينات الكبرى في الفكر والسياسة لاينفك عنها ولا تنفك عنه، وأعظمها في التاريخ الإسلامي، أهل النص وأهل العقل، وأهل الشريعة وأهل الحقيقة، وأهل السنة وأهل الشيعة.

وأقصد بالرباط الوثيق هنا الإشارة إلى عدد من الظواهر.

أولا: أن الخلاف كان من شأنه أن يستقطب بين طرفيه، ثم يؤدي إلى سيطرة المغالين، وأن يؤدي إلى نوع من الاتهام المتبادل يوجهه كل طرف للآخر بخروجه عن الملة، أي إلى نوع من التكفير المتبادل.

ثانيا: أن مرونة الفكر الإسلامي العقدي، وشمول إحاطته للاحتياجات البشرية والاجتماعية كافة، في صورها الثقافية والفكرية والعلمية والوجدانية، وفي تنوعها الاجتماعي والسياسي عبر الأزمان والعصور وعبر الأمصار والأصقاع، هذا الشمول قد أفسح للعنصرين معا في كل اتجاه بأن يضمهما الإطار الإسلامي ويجد كلاهما فيه مكانا فسيحا للوجود.

ثالثا: أن وجد من كل اتجاه من تقوم دعوته على تأكيد العناصر المشتركة وإعلائها ووضع المناهج التي تمكن من الوجود المتجاور داخل الإطار العام للمفاهيم الإسلامية.

رابعا: أن الخلافات السابقة بقيت في إطار تنوع الآراء والمذاهب داخل الإطار العام للعقيدة الإسلامية.

لذلك لم نر في الإسلام انشقاقات من نوع ماحدث في المسيحية مثلا بين الأرثوذكس اليعاقبة والأرثوذكس المالكانيين أو بين الأرثوذكس بعامة وبين الكاثوليك، أو بين الكاثوليك وبين البروتستانت.

٣

نحن نعرف أن الفقهاء بعد صدر الإسلام - ما لبثوا أن اختلفوا إلى مذهبين أو إلى مدرستين، مدرسة العراق التي سميت بمذهب أهل الرأي، ومدرسة الحجاز التي سميت بمذهب أهل الحديث، وفي كلتا المدرستين وغيرهما كانوا يتجهون إلى جمع المسائل الفرعية وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية.

كان الحديث «الحديث الشريف» قليلا في العراق، فاستكثر أهل العراق من القياس ومهروا فيه وسموا أصحاب الرأي يستخرجون المعاني من النصوص بدقة نظر وبإتقان في تفريع الأحكام. اشتهر منهم إبراهيم النخعي ثم حماد بن أبي سليمان (توفي ١٢٠هـ)، ثم أبوحنيفة

النعمان بن ثابت (توفي ١٥٠هـ) . ومن قبل إبراهيم وجد علقمة بن قيس النخعي (توفي ٦٠هـ) وهو من أصحاب عبدالله بن مسعود .

وكان الحديث كثيرا رواته بين أهل الحجاز والمدينة دار الهجرة ومأوى الكثير من الصحابة ، وحتى من انتقل من الصحابة إلى العراق شغلهم الجهاد وشئون الدولة عن التحديث ، فصار لصحابة الحجاز وجه أثر أقوى في هذا المجال ، وآل ذلك إلى مالك بن أنس الذي توفي في ١٧٩هـ .

ونما الخلاف بين المدرستين ، كل منهما تنكر الأخرى ، ولا تعارضها فقط ولكنها تتميز عنها وتبتعد ، نجد ربيعة الرأي يسأل سعيد بن المسيب عن علة حكم ، فيقول له سعيد «أعراقي أنت ؟» . ورغم أن كلا منهما كان يدرك أن الرأي لايستقيم بغير الحديث ، وأن الحديث لايعرف إلا بالرأي ، فإن أهل الرأي كانوا يفتون ويقضون فيما يمتنع أهل الحديث عن الإفتاء فيه لغياب النص .

وكانت تجري المناظرات بينهم، وأهل الحديث يعيبون على أهل الرأي أنهم لاينصرون السنة وأنهم يأخذون في دينهم بالظن ويقبلون المراسيل والمجاهيل ويرجحون القياس الجلي على خبر الواحد ويقولون إن أول من قاس هو إبليس . وكان أهل الرأي يهزأون من أهل الحديث ويعيبون عليهم فوات الرأي وضعف النظر ويشنعون عليهم بأحاديث وقصص.

كل ذلك ظهر في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وكان من شأنه أن يباعد بين الفريقين ، مع اختلاف ظروف المعيشة واختلاف نوع المشاكل التي ترد مع الوقت ومع توالي الأحداث ووجود الخلافة في العراق ومشاكل الحكم ومشاكل العواصم ، ومع نمو الغربة بالتدريج بين الطرفين، كل ذلك كان من شأنه أن يقوى به التباعد وعدم التفاهم والاستقطاب في هيئة طرفين متوازيين يزداد بعدهما فيصيرا طرفين متقابلين.

ولكن الله سبحانه وتعالي قدّر لمحمد بن إدريس الشافعي أن يوجد في هذه المرحلة (توفي ٢٠٤هـ) . ولد في غزة وعاش من صباه البعيد في مكة ودرس على علمائها الحديث ، ثم تتلمذ على أيدي مالك في المدينة فأفسح له مالك ، وأخذ علم أهل الحديث من منابعه ، وصار منهم ، ثم سار إلى العراق ، وجاور على أيدي فقهاء المدرسة العراقية وأبرزهم وقتها محمد ابن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة ومدون المذهب ، ودرس فقه أهل الرأي ، ثم جادلهم وخرج إلى مصر فأملى مذهبه في صورته الأخيرة، وعلى رأس ذلك «الرسالة» .

ماذا فعل الشافعي ، لم يوفق بين أهل المذهبين بطريق «المصالحة السطحية» ولا بالتقريب بين الأحكام الفرعية ، ولابترجيح البعض منها على البعض من الآخر ، إنما غاص في علم أهل الرأي ليصل إلى الجذور الحاكمة لإعمال الرأي . فقعّد

القـواعـد التي يبنى عليـهـا منهج استخلاص الرأى والاستدلال عليه . كان فقهاء الرأى يقيسون مالم يرد عنه حكم على ما ورد عنه حكم في مسائل الفروع ، فضبط الشافعي منهج القياس من حيث استخلاص علة الحكم والتفريع عليها ، أى رد الحكم الفرعي للأصل المتضمن فيه ثم أنزل حكم الأصل على مسألة فرعية توافرت فيها علة الحكم ، وبحث في كيفية استخراج الدلالات من عبارات النص ، فضلا عن العموم والخصوص والناسخ والمنسوخ وغير ذلك . ولقد تغلغل علم الأصول بين أهل الرأى فأوثق اجتهاداتهم .

وبالنسبة لمعارف أهل الحديث ، فقد غاص فيها أيضا ، ليقعّد القواعد التي ينبني عليها علم التثبت من صواب الأثر والحديث . وهو قد نصر السنة في مواجهة أهل الرأى ولكنه نصرها أيضا بطريق ضبط مناهج التحقق من صحة الحديث والتيقن من صواب الأثر .

وتكلم عن خبر الواحد في الحديث وما يشترط في الراوى وما يفترق به عن الشاهد وما يجتمع به معه . وقد تغلغل علم الأصول وضبط الرواية بين أهل الحديث ما وثق تحقيقاتهم .

وبهذا التقعيد الذى بنى عليه علم الاستدلال عن الرأى وعلم التثبت بالأثر، ترابط الفقه الإسلامى وأحكمت أزمّة ، واعتصم بهذا الوثاق طرفاه - الرأى والأثر - عن أن يجنح كل منهما بعيدا عن الآخر فتتعمق الفرقة وقد تتحقق القطيعة . إنما قربت الشقة بين أهل الحديث وأهل الرأى وصار علم «الاحتكام» قائما لديهما فرسخ أساس الوحدة الإسلامية بترابط الأصول التي يصدر عنها فكر المسلمين.

يعلق الشيخ مصطفى عبدالرازق على جهد الشافعي قائلا «ذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاها جديدا هو اتجاه العقل العلمي الذى لايكاد يعنى بالجزئيات والفروع «إنما يوجه غالب اعتنائه «إلى ربط» الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي» .

ويذكر الفخر الرازى أن الشافعي في علم أصول الفقه ، مثله كمثل أرسطوطاليس في علم المنطق وكمثل الخليل بن أحمد في علم العروض .

ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق رحمه الله «وقد لايكون بعيدا عن غرض الشافعي في وضع أصول الفقه أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ويمهد الوحدة التي دعا إليها الإسلام» .

وليس عجيبا أن يقول عنه ابن حنبل «ما من أحد بيده محبرة أو ورق إلا للشافعي في رقبته منةٌ» .

(٤)

يذكر أبوحامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» أن الفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ممن كثر أتباعهم هم الشافعي ومالك وابن حنبل وأبوحنيفة وسفيان الثورى . ويذكر أن كل واحد من هؤلاء كان يحوز خمسا من الخصال هي ، العبادة والزهد ، والعلم بعلوم الآخرة ،

والفقه في مصالح الخلق في الدنيا ، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى . ثم يقول إن ورثة هؤلاء الفقهاء من تابعيهم اقتصروا على خصلة واحدة هي «الفقه في مصالح الخلق في الدنيا» ، وفرعوا عليها التفاريع وابتعدوا عن الخصال الأربع الأخرى التي لا تصلح إلا للآخرة ، وأسمى هؤلاء «الحدادين» الذين يفترقون عن الملائكة . وقصد بالحدادين أولئك الذين يبالغون في قصر التصور الإسلامي على ضبط القيام بالشعائر وبيان أحكام المعاملات دون الجانب الوجداني التعبدي.

وأن تعبيرى الملائكة والحدادين يكشف عن مقدار التباين الكبير بين الطرفين ، ولا أريد أن استطرد في ذكر ماعسى أن كان يكون عليه الشقاق واتساع الهوة بين من سموا بأهل الشريعة ومن سموا بأهل الحقيقة من المتصوفة وكيف كان يمكن أن تؤول الأمور إلى القطيعة بينهما ، لو سادت لدى «أهل الحقيقة» أفكار الحسين بن منصور الحلاج (المتوفى ٣٠٩هـ) أو السهروردي (المتوفى ٥٨٧هـ) أو محيي الدين بن عربي (المتوفى ٦٣٨هـ) .

ولكن ما صنعه الشافعي بين أهل الحديث وأهل الرأي ، صنعه هنا الجنيد البغدادي (المتوفى في ٢٩٧هـ) بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة . ذلك أنه ضبط مذهب التصوف بقواعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وابتعد عن شبه الغلاة ، وجعل مذهبه سالما من كل مايوجب اعتراض الشرع، وكان يقول «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه فلا يقتدي به» وكان أبعد الحلاج عن حلقته .

ويذكر د. حسن الشافعي أن الجنيد أكسب الصوفية مشروعية الوجود ، أكسبها وصف «المواطنة» ونفى عنها الغلو وأزال التعارض الموهوم بين الشريعة والحقيقة ، واتخذ طابعا سنيا معتدلا وأضعف الاتجاهات العقلية المسرفة مثل الاعتزال والاتجاهات الباطنية مثل التشيع المغالي أو التصوف المنحرف ، وهو يقول أيضا إنه في هذه المرحلة مرحلة الجنيد انتقلوا بأحكام العبادات إلى الاعتناء بأسرارها ، وانتقلوا بالزهد والتقشف إلى الاعتناء بالتربية ، وانتقلوا «بالأخلاق من صبر وشكر وحياء ووفاء وتسليم ورضا» إلى الاعتناء بكيفية اكتساب ذلك .

ثم يظهر أبوحامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥هـ) الذي جمعت حياته بين علم الفلسفة وعلم الكلام وبين أصول الفقه وفقه الفروع ، ثم التصوف ، فاجتمعت له علوم العقل وعلوم الوجدان ووجوه ثقافة المسلمين في أشمل صورها . ولا حاجة بي للحديث عن الغزالي ، إنما أنقل كلمة «شاخت» في كتاب تراث الإسلام ، «يعتبر الغزالي الرجل الذي أسهم بأكبر نصيب في جعل التصوف مقبولا لدى أصحاب السلطة في الإسلام ، والقضاء على كل التشككات والظنون المسبقة حول التصوف عند علماء المسلمين المتشددين في أحكام

الشريعة» .

ثم تظهر جهود عبدالوهاب الشعراني (المتوفى سنة ٩٧٣هـ) ، والشعراني بذل غالب جهده في التوفيق بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وبذل غالب جهوده في إدخال الحقيقة داخل الإطار الشامل للشريعة وأحكامها وقواعدها . بل إنه بذل جهوده ليضع الاختلاف في فروع الأحكام موضع التنوع في الأحكام وليس الاختلاف . فهو ينقل عن سفيان الثوري كراهة سفيان لمقولة «اختلف العلماء» ، ويقول قولوا توسع العلماء ، وينقل عن الشافعي أن أعمال النصين معا أولى من إبعاد أحدهما وينقل الشعراني عن الديريني والجويني وابن جماعة أنهم كانوا يفتون الناس بما يناسب حالهم ، ولا سيما العوام الذين لم يلتزموا مذهبا معينا ولا عرفوا نصوصه ولاقواعده ، ويقول الشعراني «الحق الذي نعتقده أن سائر الأئمة رضي الله عنهم كانوا يفتون كل واحد بما يناسب حاله من تخفيف وتشديد» وانهم» لم يكونوا يعممون القول في كل قوى وضعيف» ثم يجمع الآراء المتباينة في نسق واحد ويخلعها من دائرة الخلاف ويغرسها في مجال التآزر والترابط لقوله «إن مجموع المذاهب هو الشريعة بعينها وأن الشريعة لايكمل العمل بها لمن يتقيد بمذهب واحد» . وأن الآراء في الأحكام تتراوح بين التشديد والتخفيف ولكل من المخاطبين ما يلائم حاله من حيث القوة والضعف ، قوة الجسم واليقين أو ضعف أي منهما . كما حدث في بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، البعض بايع على المنشط والمكره وعلى المعسر والميسر ، والبعض بايع على الصلاة والصوم فقط .

كل ذلك أوثق رباط المسلمين وبدلا من الانقسام والمواجهة جرى التداخل والمعايشة ، وبدلا من الخلاف آل الأمر إلى التنوع . وبلغ الأمر في هذا التداخل والترابط أن وجدنا التصوف يتغلغل في أوساط الحنابلة وهم الأكثر تشددا ومحافظة ، وذلك فيما صنعه عبدالله الأنصاري الهروي (توفي ٤٨١هـ) وما كتبه عن «منازل السائرين الي الحق المبين» وما شرحه من بعد ابن القيم الجوزية في «مدارج السالكين» مما كان له أثره البعيد في فكر السلفيين.

(٥)

موضوع السنة والشيعة كان يمثل أيضا واحدا من أخطر المجالات الثلاثة التي تتهدد المسلمين بالانقسام، وإذا كان كل من مجالات التهديد بالانقسام الفكري والعقدي السابقة، كان يمكن أن يستغل في الصراعات السياسية لتزداد به الهوة ويعمق الخلاف ويؤول الي المحاربة، لولا أن الجهود الفكرية كانت أسرع في رأب الصدع العقدي من أفاعيل صراعات السياسة، إذا كان ذلك كذلك، فإن موضوع الخلاف بين السنة والشيعة كان الجانب السياسي فيه أكثر بروزا فيه لأنه بعض من مكوناته الفكرية، ومن ثم كان الخطر بشأنه أدهى وأخطر.

لقد ظهر هذا الخلاف حول مسألة

الإمامة، وأهل السنة والشيعة وإن اتفقوا على وجوب الإمامة، إلا أن الخلاف ظل قائما حول طريقة الخلافة أو الإمامة، وأهل السنة يقولون باختيار الإمام أو الخليفة، والشيعة يقولون إن الإمامة لاتكون إلا بالنص وهى تجرى فى أهل البيت فقط بالنص عليهم وفقا لأقوال اعتمدوها فى ذلك، ويصاحب هذا الخلاف خلاف آخر يتعلق بالعصمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأهل السنة يقولون بانتهاء العصمة بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام والشيعة يقولون بتوالى العصمة فى أهل البيت فيمن يتولون الإمامة بالنص لاحقا عن سابق.

وكل هذه المسائل لها وجه اتصال بأصول الدين، بل هى ظهرت أول ما ظهرت فى مسائل المتكلمين مما كان من شأنه أن يذكى الخلاف ويعمقه، لولا أن فقهاء السنة ممن كانوا يتحاشون البحث والجدل فى مسائل علم الكلام جذبوا هذه المسائل إلى مجال الفقه، وتعرضوا له فى مباحث أصول الفقه فى موضوع الاجماع بوصفه مصدرا للتشريع الإسلامى وبه جرى الاستناد إلى وجوب الإمامة. وجذبوها أيضا إلى مجال احكام الفروع فى الفقه من حيث البحث فى شروط الإمامة وتوليها وغير ذلك ..

وقد أدى ذلك إلى أمرين هامين، أولهما أن معالجة مسائل الإمامة ضمن فقه الفروع وضمن مسائل أصول الفقه، قد أبعدها عن مجالات أصول الدين بما لها من حساسية خاصة، ومن ثم هدأ الجدال العلمي حولها.

وثانى الأمرين أن ارتباط الأحكام الشرعية الخاصة بالسياسة والحكم، وارتباطها بعلم الفقه كفل لها قدرا من الاستقلال لأن علم الفقه نشأ ونما فى شبه استقلال عن الحكومات، ووقائع أئمة المذاهب، كما هو معروف ومشتهر فى تاريخهم، تكشف ماكانوا يتحلون به من روح الاستقلال، والبعد عن الدعوة السياسية لحكومة معينة أو إلى أمر بعينه، وهكذا نرى أبا حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل، فضلا عن سفيان الثورى، والأوزاعى، وغيرهم.

وإذا كانت سطوة الحكام فى العهود المتأخرة فرضت هيمنتها على علماء فقه ورجال العلم، فإن ذلك عاق العلماء عن متابعة بحوث السياسة والحكم أكثر مما أفسدها وجعلها خادمة لحاكم بعينه أو دولة بعينها، كما أن هذه السطوة لم تستطع أن تتغلغل الى صميم الأسس النظرية ومناهج البحث والتفكير ، لذلك عزفوا عن المتابعة أكثر مما ترددوا فى توليد النظريات والمناهج التبريرية، وبقى لهذا العلم، علم الفقه تطلعه النظرى الى العهد المثالي للخلفاء الراشدين وفيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى يرد إليه كل موقف الشيعة، هذا عن جهود أهل السنة.

ومن الجهة الثانية، جهة الشيعة، يظهر الدور الهام الكبير الذى قام به الإمام جعفر الصادق (توفى سنة ١٤٨هـ) وهو

عند الشيعة الإمام السادس من الأئمة الاثنى عشر، ظهر قبله أبوه محمد الباقر وجده على زين العابدين وقبله الحسين والحسن وعلى رضى الله عنهم، وعرف فقه الشيعة الاثنى عشرية بالفقه الجعفرى، إذ أرسى أسسه المذهبية جعفر الصادق، وجعفر كان من تلامذته أبو حنيفة، وكثير من أئمة السنة يوثقونه والشافعي يقبل روايته للحديث، وكذلك يفعل علماء الجرح والتعديل مثل يحيى بن معين وأبي حاتم والذهبى وابن حنبل، وتتردد احاديثه فى كتب الصحاح.

وجعفر يتقبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير ويصرح بأنه يرجو الله سبحانه أن ينفعه بقرابته من أبى بكر الصديق ويقول «أبو بكر جدى»، يفعل ذلك مثل جده على زين العابدين، وهو بهذا الوضع يُنسب غالب فقه الشيعة إليه، والسنة عندهم تثبت عن طريقه فى الغالب من الأحاديث، وآراء الفقه في أصول الدين وأصول الفقه وفى فروع المعملات العبادات يراها الناس منسوبة إليه فى الغالب الأعم منها.

هكذا يظهر مدى التداخل والبعد عن الشقاق والانكار المتبادل، فى هذا الجانب من جوانب فقه المسلمين وفكرهم، وهكذا عصم الله سبحانه أمته الإسلامية من هذا الانشقاق أن يصل إلى التحارب العقدى أو التكفير المتبادل، وسيطرت الوسطية من خلال فكر جعفر وفكر عمه زيد بن العابدين على الذى كان أقرب إلى فقه السنة، وقدر الله سبحانه وتعالى أن يظهر هذا الفقه ويكتسب مرجعيته التاريخية فى ظرف كانت الدولة الأموية تتهاوى والدولة العباسية لاتزال تحتاج المعين، فلم يتجه بطش الحكام إلى جعفر، وحسب هو امكانات الظرف الذى عاش فيه وقدر مايمكنه أن يغير منه لصقل فكر الشيعة الجعفرية وهم الغالبيةبين الشيعة.

ونحن نعرف من واقع خبرة التاريخ والواقع السياسى أن فترات نهايات العهود وفترات بدايات العهود، هى الأكثر ملاءمة للنشاط الفكرى ولترسيخ الأسس والمبادىء والأصول وإشاعتها، هى خير فترات التمتع بحرية الفكر والحركة وإرساء التقاليد .

(٦)

نلحظ مما سبق أن الفكر الإسلامى قد امتحن على مدى القرون الخمسة الأولى، فى هذه المسائل الكبرى: النص والرأى، الشريعة والحقيقة أى العقل والوجدان، السنة والشيعة، وأنه فى كل هذه الأمور خرج سليما فى شموله وقدرته على استيعاب التعدد، وفى قوة وسطيته على السيطرة على أطرافه وتوثيق العرى، وكان كل من الامتحانات السابقة يتعلق بنوع مخالف للنوعين الآخرين، وأثبت الفكر الاسلامى فى ذلك كله مرونة تحتمل التعدد، كما اثبت قوة وثاق تستوعب الاختلاف.

والسؤال الذى ينطرح الآن، يتعلق بماهية الخلافات الكبرى التى ثارت فى العصر الحديث، وماهى الوسطية المنشودة التى تقدر على لم الأطراف المتخالفة

الوسطية الإسلامية

وضمها في وثاق واحد، ولايعني ذلك الرغبة في الوصول إلى رأى وحيد، فهذا لايبدو أن يتحقق ولا ينفعنا أن يتحقق، إنما يعنى تحويل الاختلاف إلى تباين في الآراء في المسألة المعنية، كما يعنى التعامل بأدوات الجدل والحوار لا بأدوات الصراع والمحاربة، وإذا أمكن بلوغ هذا الوضع، تكون الوسطية الاسلامية قد أثبتت قدرتها على احتضان المذاهب المعاصرة بين المسلمين.

ويبدو لي أن أهم ما يثور بشأنه الخلاف ويستدعى «الوسطية الإسلامية» لترأب الصدع فيه، هو الانفصام الذى ظهر - على مدى القرنين الماضيين، أو بالأحرى - المائة وخمسين سنة الأخيرة - بين أهل المحافظة وأهل التجديد، وكذلك ما ظهر بين أصحاب الإصلاح المؤسسى وأصحاب الإصلاح الفكرى، مما كنت تناولت الحديث عنه فى كتابات أخرى، ولكننى أشير إليه هنا بمناسبة موضوع الوسطية، وأجمل البيان بشأنه.

أما عن موضوع المحافظة والتجديد فى الفكر الإسلامى المعاصر، فأنا أقصد بالفكر الاسلامى المعاصر، التوجهات الفكرية الكبرى التى ظهرت وسادت فى العصر الحديث، أو الخطوط العامة لهذه التوجهات، كما أقصد بالمحافظة هذا الموقف الفكرى الذى يقصر نشاطه على الدفاع عن العقيدة الاسلامية وأحكام الاسلام والقيام على حراستها من التعديل أو التغيير، وأقصد بالتجديد هو التعديل والتحوير في مجمل الأفكار الاسلامية، أو الاجتهادات التى ترد على الفكر الاسلامى متصفة بما يلى:

- انها تقوم مستندة إلى أصول الفكر الإسلامى ومصادره الرئيسية، وهى القرآن والسنة.

- انها تنتج باستخدام مناهج التفسير الأساسية المعتمدة أو السائدة فى هذا الشأن فهى تنشأ من داخل الفكر الاسلامى وتنمو فى أطره وتصوراته وتنتج بمادته وأساليبه فى البحث والاستخلاص.

- انها تستجيب للتحديات السياسية والاجتماعية التي تطرحها ظروف الواقع المعيش على الجماعة المسلمة فى مرحلة تاريخية محددة.

والحاصل أن المحافظة الفكرية الاسلامية صارت من معالم حركة المقاومة الفكرية والسياسية التى تقوم في مواجهة ماتوغل إلى بلادنا من نفوذ الغرب السياسى والاقتصادى والثقافى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم كان للاحتلال العسكرى الغربى لمعظم بلادنا الغربية وخاصة البلاد الواقعة على شواطىء البحر المتوسط، كان لهذا الاحتلال الذى جرى فى السنوات الخمسين الواقعة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، كان لذلك ما اعطى للمحافظة الفكرية وظيفة مقاومة لهذا الغزو على الصعيد الفكرى، واننا لنلمح ايضا ذات الظاهرة إذا نظرنا إلى الفكر المسيحى الشرقى إذ صار دعاة المحافظة فيه من

معالم المقاومة المسيحية الشرقية ضد حركات التبشير المسيحي الغربي التي وفدت إلى بلادنا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وفي الوقت ذاته فإن حركة التجديد الفكري والفقهي الاسلامي كانت لها دواعيها الملحة وذلك ليسعى هذا التجديد إلى أن يفتق في فقه المعاملات الاسلامية مايمكن من الاستجابة الى ما طرأ على الواقع المعيش من تغيرات، وليمكن من الاستجابة إلى ظروف المقاومة السياسية والاقتصادية لما يواجه بلادنا ومجتمعاتنا من مخاطر الخارج، وكان من أهم مايستدعى التجديد في الفقه الاسلامي الجوانب التنظيمية التي احتاجها المجتمع ومؤسسات الدولة لتستوعب حركة البشر المدنية في ظروفها بالغة التعقيد التي طرأت على مدى القرن التاسع عشر، وكذلك التجديد في فقه المعاملات تجديدا يتمشى ويتواكب مع ماجد في البلاد من علوم وصنائع حديثة اقتضت إعادة تنظيم شاملة للمجتمع لجماعاته ولعلاقاته الاقتصادية والانتاجية.

والمشكل الذي طرأ في هذه المرحلة، أو المعضلة التي قامت، هي أن كلا من الاتجاه المحافظ والاتجاه المجدد صارت له وظيفة إيجابية مطلوبة لحفظ الدين والثقافة الوطنية ولحراسة قوى الدعم والتماسك لدى الجماعة، ولكن ايا من التيارين لم يدرك في بدايات هذا القرن أن التيار الآخر مطلوب وان الجماعة بحاجة إليه ولم يعرف أي منهما إلا وظيفته هو دون وظيفة الطرف الآخر، فتصارع التياران وتبدد الكثير من جهودهما في عراك فكري لم تغنم منه إلا المزيد من الضعف والوهن والحيرة التي تورث اللا أدرية.

ونحن نتلمس البحث عن صيغ الوسطية الاسلامية في هذا المجال، الحديث، وأظن أن الجهود التي بذلتها حركة الفكر الإسلامي المواكب للنصف الثاني من القرن العشرين أمكنها أن تضع اسس الوسطية الاسلامية المبتغاة وأن تقترح نقطة التعادل بين المحافظة والتجديد واقصد بهذه الحركة الجيل الذي نرى من علاماته المضيئة في حضارنا الإسلامي المعاصر :فضيلة المرحوم الشيخ محمد الغزالي، وفضيلة الشيخ يوسف القرضاوي أطال الله عمره، وجماعة لا استطيع أن أحصيها عددا من المفكرين الإسلاميين المعاصرين.

لذلك فإننا نلمح معالم الوسطية الاسلامية تتحدد وتتشكل في هذا المجال ونتفاءل بها خيرا.

(٧)

والمجال الثاني الذي يبدو لي مهما في العصر الحديث هو ما ظهر بين أصحاب الإصلاح المؤسسي، وأصحاب الإصلاح الفكري على مدى القرنين الأخيرين.

والحاصل هنا أنه مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وجدت حركتان، في بلادنا الإسلامية، حركة إصلاح ونهوض فكري ظهرت في

أطراف العالم الإسلامي، شرقه وجنوبه وغربه، وهي اتجاهات متعددة ومتنوعة في المذهب والمنشأ ولكنها يجمعها جميعا أنها تعود إلى الأصول الإسلامية الرئيسية وهي القرآن والسنة، وأنها تطرح التعصب المذهبي جانبا، وأنها تتخفف من آثار المبالغات الصوفية بالنسبة للأولياء والتوسل بهم ، وتطرح ما شاع من هذه الآثار.

وفي المرحلة ذاتها كانت الدول الاسلامية تعاني من مخاطر الغزو الأجنبي الوافد من أوربا وقتها، سواء عن طريق الإمبراطورية الروسية التي توغلت في أراضي المسلمين عبر الدولة الفارسية والدولة العثمانية، أو عن طريق الإمبراطورية البريطانية التي توغلت في الهند وسارت منها شمالا تهدد بلاد المسلمين، أو استعمار هولندا لجزر الهند الشرقية في جنوب شرقي آسيا، أو في سعي فرنسا لاحتلال الساحل الأفريقي الشمالي المواجه لفرنسا، أو غير ذلك.

وكل ذلك أيقظ في القادر من حكومات العالم الإسلامي مشاعر الصحوة وطلب التجدد المؤسسي والتنظيمي لابنية الجيش والدولة والإدارة والتعليم من أجل إعادة البناء ومن أجل حشد القوى للتصدي لهذه المخاطر.

ونحن نعلم أن حركات الإصلاح في العادة، إنما تبدأ حركات إصلاح فكرى تتحدد بها التصورات والمشاريع المطلوبة والتي تطرأ الحاجة إليها، ثم بعد أن

الوسطية الإسلامية

يتبنى الفكر الإصلاحي جماعة أو جماعات مؤثرة تتمأسس حركة الإصلاح الفكرى أى تتحول الى التكوين المؤسسي التنظيمي سواء عن طريق جهاز الدولة والحكم أو عن طريق تكوينات تنظيمية سياسية أو اجتماعية جديدة تنشأ انشاء لتحقيق هذه المشروعات ، ثم بعد ذلك يجرى تحقيق الإصلاح في الواقع الاجتماعي السياسي القائم.

ولكن الحادث أن الأمر لدينا في الفترة التي أتحدث عنها لم يجر فقط مغايرا لهذا التسلسل ولكنه جرى بالمخالفة والمعارضة له، فإن الدول التي أجرت حركة الإصلاح المؤسسي في تكويناتها العسكرية والإدارية، وبخاصة في استامبول والقاهرة، كانت تتأيد بقوى المحافظة الفكرية السائدة لديها وتترابط بها، ولذلك فقد وقع الصراع الذى بلغ حد المحاربة في هذا الوقت، بين حركتي الإصلاح المؤسسي والفكرى.

والمشكلة أو المعضلة التي قامت، ان كلتا الحركتين مطلوب وكلتاهما تحتاجه الجماعة في ظرف تاريخي حرج، ولكنهما لم يتعاونا ولم يغذ بعضهما بعضا، إنما تحاربا، وكان من نتائج هذا الوضع أن النظم السائدة والدول الحاكمة على المدى التاريخي الممتد عبر القرن التاسع عشر، افتقدت التصورات الفكرية المرجعية، وهي تقوم بعمليات التجديد التنظيمي والمؤسسي في المجتمع، وصارت فاقدة

المناعة تجاه ما تلبس بنماذج التنظيم الآتية من الغرب من مرجعيات وثقافات وضعية غريبة تتعارض مع المرجعية الإسلامية السائدة لدى الجماعة، ولدى العاملين في الدولة أنفسهم. ومن هنا آل الأمر إلى صراعات فكرية وسياسية ذهبت سجالا، حتى يومنا هذا ولم يظهر بعد إمكان بلوغ الوسطية في هذا المجال.

(٨)

أقول قولي هذا واختم به حديثي، داعيا الله سبحانه أن يوفقنا إلى بلوغ نقطة التوسط ، أي نقطة التوازن في مجال العلاقة بين أصحاب الإصلاح المؤسسي وأصحاب الإصلاح الفكري الإسلامي.

ونحن عندما نتغيا هذه الغاية، إنما نتفاءل خيرا ببلوغها في المستقبل إن شاء الله، فالنسيج الإسلامي في مصادره وأصول شرعيته الأولى، نسيج قوي ومرن، كما أن تجارب تحقيق الوسطية في ظروف الماضي، قدر الله لنا أن تنجح، وأن يقوم بها رجال تركوا لنا مناهج نتعلم منها الكثير على ما مر بنا في هذا الحديث، وأجمل بعضها فيما يلي:

- ان نقيم الوسطية لا بالمصالحة الفجة أو التلفيق الفكري، ولكن نقعد القواعد ونضع المناهج كما فعل الشافعي في شأن تقعيد مناهج استخلاص الرأي و تقعيد مناهج تحقيق النصوص.

- أن ندخل المصالح في إطار النصوص كما صنع الإمام الطوفي، وندخل النصوص في قلب المصالح والمقاصد كما صنع الشاطبي، فلا تكون المصالح والنصوص متعارضة أو متواجهة من خارجها وإنما تكون متداخلة تشكل معاني مشتركة.

- أن نوجب على الجميع الالتزام بالمرجعية الإسلامية ثم نترك له التحرك بين الآراء والمذاهب والاجتهادات في إطار ماتسعه المرجعية الإسلامية وأوامر الدين ونواهيه، كما فعل الجنيد.

- إنه في إطار ما تسعه المرجعية الاسلامية، نحول الخلاف والانقسام إلى تنوع وإلى بدائل، ووجهة نظر تحتمل الصواب والخطأ، مادامت هذه الوجوه من النظر مما تسعه وتحتضنه المرجعية الإسلامية، ومادامت هي وجوه نظر تقر بانتمائها إلى هذه المرجعية ونعتبرها هي الاسلام، فلا يقتصر على بعضها دون البعض، كما ذكرنا بذلك الشعراني.

- ان نترابط بعلاقات الحوار الهادىء البناء الذي يفيد أن تتغذى الآراء المتباينة بعضها ببعض وتغتني بهذا الحوار ولاتتنافى، كما نرى في علاقة جعفر الصادق وابي حنيفة النعمان بن ثابت.

وغير ذلك مما تستدعيه الحاجة الحاضرة من تجارب التاريخ، وما يتفتق عنه الوعي المؤمن المحب لدينه ووطنه.

ألهمنا الله الرشاد .. والحمد لله. ■

من ذخائر الكتب العربية

كتاب

الاعتبار

لأسامة بن منقذ

بقلم
حسين أحمد أمين

فى عدد أول ديسمبر ١٩٨٧ من مجلة «الهلال» نشرت قائمة بما أعتبره أهم مائة كتاب فى التراث العربى القديم، وقلت إن من أهم الأهداف التى يجب أن تتوخاها أية محاولة لإصلاح نظم التربية والتعليم فى العالم العربى، هو أن يسترد شباب أمتنا احترامهم لتراثهم الفكرى، والرغبة فى الاستزادة من الإطلاع عليه، والقدرة على النظر فيه. فلو أن حكومة من حكومات دول النفط العربية تبنت مشروعا كمشروع «Great Books of the Wesern World» (الذى نهضت به دائرة المعارف البريطانية وأصدرته فى أربعة وخمسين مجلدا تضم أعمال مؤلفين من هوميروس إلى فرويد)، وشكلت لجنة من عشرة أو عشرين من العلماء المتبحرين فى التراث العربى، المدركين مع ذلك لطبيعة ذوق شباب أمتنا المعاصر، فانتقت بعد النقاش والفرز وتمحيص الآراء المختلفة أعظم مائة كتاب من المؤلفات العربية منذ امرىء القيس إلى الجبرتى.



واستبعدت من هذه الكتب المائة الغث الكثير الذى تحفل به كتب عظيمة كأغانى أبى الفرج، وأبقت على بعضها الآخر بصورته الكاملة، كمقدمة ابن خلدون، «وحى بن يقظان» لابن طفيل، و«فصل المقال» لابن رشد، ونشرتها فى خمسين أو ستين مجلداً أنيقاً بسعر فى متناول أبنائها، لأسدت بهذا الصنيع خدمة جليلة لأبناء جيلنا والأجيال التالية، إذ تصل بينهم وبين ماضيهم وياحبذا لو تبع ذلك ترجمة كاملة لمجلدات مجموعة «أعظم كتب العالم الغربى» فيجمع شبابنا بين الحُسنَيين، وتكون المجموعتان قد أسهمتا فى إقامة الجسور الفكرية بين الحضارات، فى زمن أصبح من أهم معالمه واحتياجاته ضرورة إحلال الحوار بين الثقافات محل التصارع والتناحر.

واليوم، وبعد مرور أكثر من أربع عشرة سنة على نشرى لهذا الاقتراح الذى لم يستجب له أحد، أتناول بالحديث أحد كتب التراث العربى التى أوردتها قائمتى، وهو «كتاب الاعتبار» الذى ألفه أسامة بن منقذ إبان أشهر حقب الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وأعنى حقبة الحروب الصليبية.

من هو أسامة بن منقذ ؟؟



ولد الأمير أسامة بن منقذ بمدينة شَيْزَر شمالي حماة عام ١٠٩٥م . (أي قبل نشوب الحرب الصليبية الأولى بعامين)، وتوفى فى دمشق عام ١١٨٨ عن ثلاثة وتسعين سنة، بعد استعادة

صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بعام واحد. وهو من عائلة من أشراف الشام، قضى معظم سنى شبابه في بلاط نور الدين محمود بدمشق، وفى قصر الخليفة الفاطمى الحافظ بالقاهرة. وقد مهّد له غرامه بالصيد وبقرض الشعر السبيل إلى التقرب من الملوك والسلاطين المسلمين، بل وكان طيلة حياته على صلات مستمرة بقادة الفرنج وملوكهم، من أمثال بوهيموند وتنكرد وفولك، يخاطمهم حينا، ويصادقهم حينا، ويشترك في الحرب ضدهم، وفى الخروج لصيد الأسود وسائر الوحوش معهم، وقد كان فى صدر شبابه يتصيّد مع عماد الدين زنكى أتابك الموصل وحلب، فلما قتل بات يشترك مع نور الدين بن زنكى فى حملاته ضد الصليبيين، ثم اتصل فى السنوات الأخيرة من حياته بالسلطان صلاح الدين الذى قرّبه وغمره بعطفه.

كان خير مثال للفروسية الإسلامية العربية، فهو الفارس الشهم، الصياد الماهر، المجاهد المقاتل، الأديب الشاعر، والرحالة بين معظم العواصم الإسلامية. سمّاه الذهبيّ «أحد أبطال الإسلام»، ووصفه ابن الأثير بأنه «كان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها»، وتحدث هو عن نفسه فقال: «كم لقيتُ من الأهوال، وتقحمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام».. وهو إلى جانب ذلك يحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر الجاهلى، قوىّ النثر والنظم، قضى عشر سنوات يدرس النحو على يد أبى عبدالله الطُّلَيطلى المشهور بسيبوية زمانه، فضلا عن دراسة القرآن والخط والشعر.. جمع من الكتب ما لا يقل عن أربعة آلاف مجلد من الكتب الثمينة، وانصرف فى السنوات الأخيرة من حياته الطويلة إلى التدريس فى المدرسة الحنفية بدمشق، وإلقاء المحاضرات فى البديع، وتأليف نحو ثلاثة عشر كتابا وصلتنا أسماؤها، وبعضها بين أيدينا، ككتاب «المنازل والديار» و«كتاب العصا» و«لباب الآداب»، وديوان شعره، ثم كتابه الخالد «الاعتبار»، وهو الذى نحن بصدده الآن.

بين أسامة والجبرتى

«كتاب الاعتبار» هو السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ، وهو عبارة عن مذكرات لها أهمية فريدة خاصة بين المصنفات العربية، إذ تقدم لنا صورا قوية حية للعصر الذى عاش فيه أسامة حالتى الحرب والسلم، ولقرن كامل كاد أن يشهده من أوله إلى

آخره، وهو القرن الأول من الحروب الصليبية، وهو يحوى أقاصيص ممتعة، وروايات عن صلاته بالفرنجة أثناء القتال وفى أوقات الهدنة والسلام، على نحو نلمس فيه مشاعر العداء والألفة وحب الاستطلاع جنبا إلى جنب.

لقد خلف لنا كل من أسامة فى «كتاب الاعتبار»، والجبرتى فى «عجائب الآثار» صورتين بالغتى الأهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما. وقد جمع بين الحدثين أنهما يمثلان عدوانين أوروبيين مفاجئين على الشرق، وأن العدوانين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب، على حد سواء، على أوضاع غير مألوفة البتّة فى حياة الطرف الآخر. غير أن القرون السبعة التى تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافاً جوهريا فى خلفيتهما الحضاريتين.

فأما ما شهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية على الشام. وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية فى وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفرقة، واستنزفت طاقاتها الحروب فيما بينها، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى فى مجالات شتى من النظم الحضارية فى الغرب، وكان بوسع أسامة أن ينظر إلى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء، وأن يصفهم بأنهم «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والحَمْل»، وأن يقول إن «كل من هو قريب العهد (منهم) بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين عاشروا المسلمين»، «ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة»، وأن «طبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربى»، و«محاكماتهم غبية غريبة»، وهو مع ذلك يدعو الفرسان الداوية Templars «بأصدقائى»، ونسمع صديقا إفرنجيا له يدعوه «بأخى»، ويرجو أسامة أن يسمح لابنه «مرهف» بأن يرافقه إلى بلاده ليبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل». فيتعجب أسامة من غباء الرجل ومن كلامه الذى «ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابنى لو أسر ما بلغ به الأَسْرُ أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج»!

وأما ما شهده الجبرتى فسنوات الحملة الفرنسية على مصر، وهو فى نظرته إلى الإفرنج وعاداتهم ليس أقل وقارا من أسامة، وليس بأخفّ حدّة فى استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم. غير أننا نتبين مع هذا اختلافا كبيرا بين موقفيهما.. إن كل ما يستنكره الجبرتى من الفرنسيين إن هو ناجم فى رأيه عن «كُفرهم»، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق، بينما يجد وقاره إزاءهم سندا له فى إيمانه بأنه من أهل هذا الدين. أما أسامة، فهو وإن نعت الإفرنج بالكفرة، واستنزل عليهم لعنة الله، فإن وقاره

حيالهم منبثق إلى حد كبير عن تفوّق حضارة قومه.. كان بوسع الجبرتي أن يحتقر إقبال الفرنسيين على شرب الخمر، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلّة حيائهن. غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهائم، أو أن يقول إن محاكماتهم غبية، وطبعهم ساذج. بل أصبح إذا رأى سلعة مصرية جيدة الصنع يقول إن من يشاهدها لا يشك في أنها صنع الإفرنج، وأن من يذهب إلى بلادهم «تهذبت أخلاقه بما أطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة أحكامهم، وكثرة أموالهم، ورفاهيتهم وصنائعهم، وعَدْلهم في رعيتهم مع كفرهم».. لقد شهدت القرون السبعة انقلابا في الأوضاع وتغيّرا في الموازين. وعاد الإفرنج الذين بهرهم في عصر أسامة ما أنجزته حضارة الإسلام، واقتبسوا منها ما راوه جديرا بالاقتباس، عادوا بعد تلك القرون السبعة إلى الشرق، ناظرين إلى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى قبائل البدائيين، أو نظرتهم إلى البهائم .

ثم نعود إلى «كتاب الاعتبار»:

«كتاب الاعتبار»

بعد أن جاوز أسامة بن منقذ التسعين شرع يطل من ذلك العلو الشاهق على ما شهده من أحداث، ومحاولات استقاء الدروس والعبر مما عاصره من تجارب، وهذه هي علّة تسمية الكتاب بـ«كتاب الاعتبار». ولعل أسلوبه الساذج العادي في هذا الكتاب رغم ما تشهد به كتبه الأخرى من رصانة في الأسلوب واللغة، راجع إلى تقدمّه في السن ، فهو يقول :

إذا كتبتُ فخطي جِدُّ مضطربِ
كخطّ مرتعش الكفّين مرتعد
فاعجبْ لضعف يدي عن حَمْلها قلَمًا
من بعد حطْمِ القنا في لَبَّة الأسد !

ومع ذلك، ورغم كثرة كتب السِّير في التراث العربي، وفي عصر أسامة بالذات، ككتاب «الفتح القدسي» للعماد الكاتب، و«النوادر السلطانية» لابن شداد، و«كتاب الروضتين» لأبي شامة، فإنها بأسرها تتضاءل أمام هذه السيرة الذاتية لأسامة. لا نكاد نستثني غير «سيرة المؤيد في الدين بقلمه». غير أنه لابد لنا من أن نقر بأن

السبب الرئيسى فى تمتع سيرة أسامة بما تتمتع به اليوم من حظوة فى الشرق والغرب معا، هو حيوية الصورة التى تقدّمها لذلك اللقاء النادر بين الحضارتين الإسلامية والغربية فى عصر من أهم عصور التاريخ، وطرافة الملامح التى يضيفها على الصورة.

وأسوق هنا مثلين من الكتاب حتى يرى ما أعنيه من لم يكن له حظ قراءته:

ليس لدى الإفرنج غيرة جنسية

ليس عند الإفرنج شيء من النخوة والغيرة.. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته، فيلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه، خلاّها مع المتحدث ومضى!

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له مُعزّ، يقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، فجاء الإفرنجى يوما فوجد رجلا مع امرأته في الفراش.

فقال له : أى شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟

قال : كنتُ تعبان ، فدخلتُ أستريح.

قال : فكيف دخلتَ إلى فراشي؟

قال : وجدتُ فراشا مفروشا فنمتُ فيه.

قال : المرأة نائمة معك.

قال : الفراش لها، أكنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟!

قال الزوج : وحقّ ديني إن عدتَ فعلت هذا تخاصمت أنا وأنت.

فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمّامي (أى خادم بالحمام) يقال له سالم فى حمّام لوالدى رحمه الله . قال :

فتحتُ حمّاما فى معرّة النُّعمان أتعيش منه، فدخل إليها فارس من الإفرنج، (وهم يُنكرون على من يشدّ فى وسطه المئزر فى الحمام). فمدّ يده فجذب مئزرى من وسطى ورماه ، فرآني وأنا قريب عهد بحلْق عانتى، فمد يده إلى عانتى وقال:

– سالم ! جيّد ! وحقّ ديني إعمل لي كذا.

واستلقى على ظهره، وله مثل لحيته فى ذلك الموضع . فحلقته، فمرّ يده عليه وقال :

– سالم ! بحق دينك إعمل للدّاما (والدّاما بلسانهم «الستّ»)، يعنى امرأته.

وقال لغلام له:

- قل للدّاما تجيء.

فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها . وقال:

- إعمل لها كما عملت لي .

فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني، ووهبني حقّ خدمتي!».

عجائب طبّ الفرنجة

«من عجيب طب الإفرنج أن صاحب المُنَيْطرة (بلدة شمالي لبنان) - وهو منهم - كتب إلى عمّي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا عربيا نصرانيا يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلنا له:

- ما أسرع ما داويت المرضى!

قال : أحْضَروا عندي فارسا قد طلعتْ في رجله دُمّلة، وامرأة قد لحقها مرض عقلي. فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وشفيت. وحميتُ المرأة ورطبتُ مزاجها .. ثم جاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم:

- هذا ما يعرف شيئا، يداويهم؟

وقال للفارس : أيمّا أحبّ إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين؟

قال : أعيش برجل واحدة.

قال : أحضروا لي فارسا قويا ، وفأسا قاطعا.

فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة تقطعها.

فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة، فما انقطعت. فضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق، ومات من ساعته.

وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها .

فحلقوه. فأخذ الموسى، وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه، حتى ظهر عظم الرأس، وحكّه بالملح، فماتت في وقتها.

فقلت لهم : بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا : لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه! ■

ملاحظات حول

لن تسقط القدس


شريف الشوباشى


نور الشريف

عندما تلقيت دعوة «هلال الفكر» لأكتب عن مسرحية «لن تسقط القدس» توجست الأمر وخشيت أن أخوض هذه المغامرة التى قد تكون غير محمودة العواقب .. فما أنا بناقد مسرح، فلماذا أتصدى لنقد مسرحية جميع المشتغلين بها زملاء مهنة، وعلى رأسهم فنان كبير تخرج معى فى الدفعة نفسها .. ونحن فى زمن تضيق فيه الصدور بالنقد ولاتتسع حتى لو كان هذا النقد عادلا أو كان موضوعيا..

بقلم
عبد العزيز مخيون

وعـــالم الفن في بلدنا باتت المعايير والأحكام فيه شخصية وليست موضوعية: هذا يحب ذاك وذاك يكره هذا وفلان خفيف الدم والآخر ثقيله وأسلوب المجاملات المزيفة والمصالح المتبادلة هو الذي يسود .. فأخذت أفكر فى الاعتذار نعم أنا لست ناقد مسرح .. ولكن المسرح حرفتى فعدت ألوم نفسى وأقول ماذنب المسرح وماذنب الكلمة فى أن تحبس بين الجوانح . تمنيت العون من الله وقررت أن أقول كلمتى وأرجو أن أوفق فى اختيار الكلمات التى لاتغضب أحداً أو تثير حفيظة زميل عزيز.

ذهبت لمشاهدة «لن تسقط القدس» فى تلك الليلة وكنت قد رأيت فى أنباء ذلك المساء أشلاء الشهيد البطل القنبلة البشرية المباركة التى تفجرت فى حافلة ركاب إسرائيلية .. ورأيت الجنازة



نور الشريف في أحد مشاهد المسرحية

هل يكرر التاريخ نفسه؟.. فقد اختار الكاتب مرحلة سقوط القدس.. ولكن القدس حررها صلاح الدين بعد ذلك

المهيبة لستة من الشهداء الأطفال بينهم زوج المجاهد حسين كويك (منظمة حماس) وأطفاله الثلاثة .. رحمهم الله جميعاً ... ورأيت رجلا يقبل طفلا شهيداً فى الكفن قبيل أن يوسده القبر، فسرت رعدة فى جسدى وتفجرت الدموع فى عينى..

فماذا يمكن أن يقدم لنا الفن بعد كل هذا؟

فى الصباح والمساء تجتاحنا المشاهد الجنائزية للشهداء ونرى رأى العين مذابح شارون واغتيالاته الوحشية لخيرة من أنجبت العروبة فى عصرنا من أبناء .. حتى ليخيل للمرء أنه من كثرة ماشهدنا

من دمـــاء تراق أن مـــلابسنا وأطرافنا أصبحت مبللة بهذا الدم الذكى المراق على أرض فـلـسـطـين الطاهرة .



فـأى فن يعبـر عن هذا أى كلمـات وأى انفعالات وأى حركة وأى موسيقى وغناء وأضـواء وأى حناجر وأى وجدان .. لابد أن تكون كل أدوات التعبير هذه ملتهبة حية صادقة متألمة باكية مجروحة هى الأخرى تنزف وتستصـرخ وتقاوم . أليس كذلك؟

لنكن على مـسـتـوى الحـدث الذى تعـيشـه الأمـة وتراه كل يوم رأى العين على شاشة التلفاز وفى صور الصحف والمجلات .. هذه قضيتنا وهذا مصيرنا ووجودنا نفسه الذى بات مهددا فكيف نعبر عن قدسنا عن أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين .. ها هو بيت المقدس يداس بنعال الصهاينة وتضرم فيه النيران وتسفك فيه الدماء فكيف تعبـرون عن فـجـيـعـة العـصـر أيهـا المسرحيون؟!

المنظر المسرحى

قاعة مسرح الجمهورية الفاخرة وعلى مقاعدها الوثيرة جلس مايقرب من أربعين مـتـفـرجـا يـنـتـظـرون بـداية العـرض الذى تأخـر ربع السـاعـة عن موعده المقرر أملاً فى قـدوم المزيد من المتفرجين ... خشبة المسرح مكشوفة بلا ستار والمتفرجون ينتظرون وينظرون إلى نصف قبة ذهبية تكاد تختفى وراء ثلاثة مستطيلات خشبية بيضاء مشدودة إلى أعلى بالحبال وعندما تتدلى الحبال تنزل المستطيلات الخشبية وتتحول إلى درج يرتفع ليصل إلى القبة وهى بكل تأكيد قبة الصخرة .. ستائر سوداء تحيط بالمنظر من اليمين واليسار والخلف ... وأسفل القبة فراغ مظلم بارتفاع حوالى المتر فى مستوى نظر المتفرج . هذا هو المنظر الواحد الثابت طوال المسرحية والذى يشكل الملمح الرئيسى للرؤية البصرية فى هذا العرض . القبة وملحقاتها من ألواح الخشب والدرج أكلت ، أو سدت مساحة الفراغ فأثرت تأثيرا سلبياً على الأداء الحركى للممثلين، فكيف يتحرك الممثل ويعبر بجسده كيف يستمتع المتفرج برؤية حركة الممثل فى فراغ المسرح وقد سدت أهم وأقوى مناطق الرؤية على الخشبة سدت بكتل صماء وأحيطت الجوانب

بسواد حالك يمنع عين المتفرج من ان تسترسل وتنطلق لترى امتداد المنظر أو لترى تعدد الألوان والأشكال فى الصورة المسرحية .. راحت العلاقة بين الكتلة والفراغ لم يعد هناك فراغ وفقد المنظر المسرحى الواحد الثابت أهم عناصره الجمالية وهى العلاقة الدائمة والمتحركة بين الكتلة والفراغ «الكتلة والفراغ قاعدة أساسية قديمة في جماليات العرض المسرحي».

المهمة الصعبة

أعرف أن مهمة المخرج والممثلين تبدو عسيرة وصعبة مع نص مسرحي كهذا يعانى من ضعف البناء الدرامى وشخصياته غير محددة الأبعاد ولا يحتمل بداخلها صراع قوى .. إلا أن المؤلف أعطانا حالة وعصرا وموقفا : مدينة مقدسة محاصرة وعلى وشك السقوط فى أيدى الأعداء وقائد أعزل مهزوم من داخله يلوذ بالعرافين والمنجمين ويعتمد على جيش بعيد لا يأتي أبداً ، ومجموعة من الجنود يصرون على المقاومة وجموع من الشعب تبحث عن منقذ .

هنا تتضاعف مهمة المخرج والممثل لتجسيد هذه الحالة بعناصر العرض المسرحى .. يعنى يكون الرهان أو الاعتماد على فن العرض وليس على فن النص ، مستفيدا من الواقع الحى المعاصر ومستفيداً من الشحن الاعلامى المستمر في وجدان ووعى المتفرج، وبالطبع سوف تكون أدوات التوصيل الأساسية هى الممثل والمغني ويكونا الممثل والمغنى هما عنصرا التأثير الرئيسان في عملية تعبير مسرحى كهذه يبدأ تأثير الممثل فى المتفرج من لحظة دخوله ويتضاعف هذا التأثير أثناء المشهد ويتأكد عند لحظة خروجه من المشهد هذه الميزة المهمة فى التأثير على المتفرج تلاشت فى هذا العرض فمن أين يدخل الممثل ومن أين يخرج والستارة السوداء تغلف المكان وتحيط بالمنظر كيف يتحدد ويتأكد دخول أو خروج الممثل وليس هناك باب أو طريق أو ممر أو بؤرة ضوئية يبدأ منها الدخول وينتهى إليها الخروج.. وإنما ساحت المسألة فكنا فجأة نرى الممثل يأتى من ظلام أسود أو يدخل من مناطق رؤية ضعيفة فيكون حضوره باهتاً ذلك لانه فقد أهم عنصر في عملية الدخول والخروج (نقطة البداية والانطلاق) وينطبق هذا تماماً على معظم دخلات عفاف راضي.

ولذلك فقدت هذه المسرحية أهم ميزات العرض المسرحى وهى حسن الاستهلال وبراعة التقديم «الدخول والخروج قاعدة

أساسية قديمة من قواعد العمل المسرحي حديث أو قديم، تجريبي أو تقليدي».



خسر الممثل والمخرج معا ما كان يمكن أن تقدمه الأزياء من تأثير وقد أحسن تصميمها وصنعها دكتور محمود مبروك – خسارة هذه الألوان المتناسقة والتصميم المعبر الذى يتميز بالاجتهاد فى الجمع بين تناغم الألوان ومحاولة تصوير العصر والتاريخ ثم الايحاء بملامح الشخصية .. ولنا أن نسأل كيف تكون الأزياء واقعية فى ديكور غير واقعى المسرح فن التجانس والتناغم والانسجام ووحدة عناصر التعبير لاتنافر عناصر التعبير أليس كذلك؟

وإذا ألبسنا الشخصيات هذه الأزياء الرائعة «الكلاسيكية إن جاز التعبير» أما كان ينبغى أن يستتبع هذا الأسلوب فى الأداء التمثيلى، نعم هذا ضرورى .. فالشكل الذى فرضته الأزياء التاريخية يفرض أسلوبا فى الأداء التمثيلى يتجسد في العناية بالإلقاء والاهتمام بالرنين الصوتي والجرس والايقاع .. ولكن على العكس استمعنا إلى إلقاء عادى يقترب من لهجتنا المحلية المعاصرة والمفروض أن نجتهد ونحاول أن نذهب إلى هذا الزمن البعيد ونصور ايقاع الكلام والحديث فيه .. لقد استمعنا إلى ممثلين صوتهم يفتقد الرنين والرخامة وبينهم ممثلون كبار كان النفس لايصل بهم إلى نهاية الجملة .. هذا النوع من المسرح يتطلب «الصوت المتربى» بمعنى تدريب الصوت وتربيته ليكون قادراً على توصيل وأداء الجمل الطويلة وليحسن أداء الفصحى بتوقيع الكلام فأداء العربية الفصحى عملية ليست سهلة يتصدى لها ممثلون مدربون قادرون على ضبط التنفس واستخدام الصوت فى طبقاته المرتفعة والمنخفضة والانتقال بين طبقاته المختلفة فى مرونة وسهولة ويسر أين ذهبت دروس الالقاء فى معهد الفنون المسرحية؟ هل نسينا هذا التراث فى المسرح القومى هل ننسى أحمد علام وحمدى غيث وعبدالله غيث وصلاح سرحان وأنور إسماعيل بل ومازال عندنا أشرف عبد الغفور ومحمد وفيق وغيرهما .. هذا النوع من المسرح يحتاج من الممثل إلى قدرات وامكانات أخرى ليس من بينها النجومية ربما يكون للنجومية سحرها على شاشات السينما

والتليفزيون وربما يكون لها بريقها في بعض المسرحيات المحلية .. ولكن «مسرح القدس» يريد من الممثل بالاضافة لما سبق وذكرنا عن تقنيات الأداء أن ينغمس في القضية ويتبناها روحياً .. لأنني أراه أمامي وعلى بعد متر واحد فأرى خلجاته وقسمات وجهه وألمح بريق عينيه .. فلابد أن أراه صادقاً ينتفض وكأنه يحترق بالكلام المعبر .. مطلوب منه أن يكثف في مشاعره مشاعر وأحاسيس الأمهات الثكلى والجموع الغاضبة في كل مكان من أرض العرب والمسلمين فالخطب جلل والموقف عظيم ليس فيه هزر أو إدعاء وإذا كان هذا المسرح ساحة للتعبير بالصوت وبالفصاحة العربية فهو كذلك ينبغي أن يكون ساحة للتعبير بالجسد الانساني أي بالحركة والإيماءة والاشاحة باللفتة بالهمسة والركوع والنهوض والسقوط، الارتماء، الانكسار، الانكماش الثبات والوقوف .. وكل هذا لم نر شيئاً منه في مشاهد هذه المسرحية التي اختار لها مؤلفها التاريخ إطاراً وحدثا.

لماذا التجهيل؟

فبيت المقدس محاصراً بجيوش الأعداء ولكنه لايذكر أنهم الصليبيون أو الفرنجة أو الأوربيون فما الداعي إلى تجهيل العدو وهو محدد وواضح ومعلوم القصد والأهداف ..

استمر الغزو الصليبي في بلادنا قرنين من الزمان لم يجد فيهما المؤلف إلا لحظات الهزيمة والانكسار ليقدمها لنا اليوم ودماء الشهداء تخضب جبين العروبة والمقاومة الفلسطينية تزداد قوة وبسالة وتقاوم العدو الغاضب بالبنادق وبالصواريخ وبالقنابل البشرية بعد أن كانت المقاومة بالحجارة .. قرنان من المعارك والحصار والكر والفر والقتال والتفاوض والمراوغة ثم النصر المبين لم تر فيهما المسرحية إلا أيام سقوط القدس تحت أقدام الفرنجة ثم زحف القاضي أبي سعد الهروي على بغداد مستجيرا بخليفة المسلمين لنر خيبته وإحباطه وتحطم أماله .. ويا ليتهم أحسنوا تصوير هذه المشاهد أو عبروا عنها بما يليق بهذه اللحظات العصيبة في تاريخنا . وكلها مشاهد فيها الكثير من الهون والثبور وعظائم الأمور ومع الأسف فقد جاء التعبير عن هذا المشهد المعروف في تاريخ العرب هزيلاً ومثيراً للسخرية. ولنطل سوياً على هذه الأيام العصيبة في تاريخ القدس والمسلمين كما يصفها أمين معلوف في

كتابه «الحروب الصليبية كما رآها العرب» ترجمة د. عفيف دمشقية..

بعد حصار دام أربعين يوماً إقتحمت جيوش الفرنج مدينة القدس وعاثوا فيها فسادا وقتلاً وتذبيحاً حتى وصل الدم إلى الركب دون مبالغة فى القول .. وكان مشهد دخول القاضى أبى سعد ديوان الخليفة المستظهر بالله صائحاً حاسرا حليق الرأس علامة على الحداد ومعه حشد كبير من أهل القدس الذين فروا من المذبحة يصرخون ويبكون ويحاول بعض وجهاء البلاد تهدئته ولكنه يزيحهم بحركة من يده تنم عن إزدراء ويتقدم فى عزم وتصميم إلى وسط القاعة فيأخذ فى تبكيت الحاضرين قائلاً : إخوانكم فى الشام لامأوى لهم سوى ظهور الجمال وبطون النسور والعقبان كم من دماء سفكت وكم من نساء أخفين وجوههن بأيديهن حياء وخجلا أيرضى العرب البواسل بالمهانة ويقبل الأعاجم الشجعان بالذل». وإنتاب الحضور جميعاً نشيج ونحيب ويقول المؤرخون عن هذا المشهد «لقد كان خطاباً أبكى العيون وحرك القلوب» ويقول العروى «لم



يسبق قط أن أذل المسلمون هذا الإذلال ولا أن نهبت بلادهم بمثل هذه الوحشية».

وياليتنا رأينا صورة حية لهذا المشهد التاريخى الجلل على خشبة المسرح القومى.

المشهد الأسطوري

إن سقوط القدس فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من شعبان عام ٤٩٢ هـ. ومذبحة المسلمين فى المدينة ونزوح من نجا من القتل إلى دمشق وإنضمام القاضى الهروى إلى الناجين من المذبحة فى مسيرة طويلة إلى بغداد استغرقت أسبوعين تحت شمس الصيف المحرقة مشهد يلهب خيال كل شاعر وفنان حتى لو لم يكن عربيا أو مسلما - وسيبقى هذا المشهد الذى سُفه ورُخص على خشبة المسرح القومى على مر الزمان يحفظ لنا من التداعيات والاسقاطات والعبر الكثير الكثير فهو اليوم يذكرنا بكفر قاسم ودير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا أنه من المشاهد الكامنة فى الوجدان العربى .. وليعذرنى القارىء فلن أقدر على تقديم وصف للصورة الهزيلة التى جاءت لهذا المشهد فى مسرحية «لن تسقط القدس».

ولكن اتساءل ماهى حكاية إفطار القاضى الهروى فى شهر رمضان واستخدامها كحيلة تساعده على الدخول إلى ديوان الخليفة هل هى واقعة مؤكدة تاريخياً أشك فى هذا ! ثم لماذا افتعال هذا التقابل والتعارض بين الصوم والجهاد؟ رجال الخليفة يغضبون ويثورون على القاضى الهروى لمجاهرته بالافطار فى رمضان ولا يغضبون لمذبحة القدس.

خلط ومغالطات

الصوم فريضة والجهاد فريضة فلماذا هذا التعارض المفتعل . وما هو المقصود بفتح نقاش أمام باب الخليفة عن الحسن ابن الصباح والمشاشين ومحاولة الاسقاط على التطرف والمتطرفين فى عصرنا الحالى؟

سقطت القدس فى عام ١٠٩٩ ميلادية وانتهى الحسن بن الصباح فى عام ١٢٥٦ ميلادية فكم عاش الحسن بن الصباح؟ إنه لم يكن موجودا وأرجو أن نراجع معلوماتنا التاريخية فى هذه النقطة وأتساءل لماذا اختار الكاتب أيام الهزيمة والسقوط من ضمن قرنين من الزمان من كفاح العرب والمسلمين لتعرض علينا اليوم وانتفاضة الشعب الفلسطينى تملأ السمع والبصر وفى كل يوم يتساقط الشهداء وفى كل يوم يتلقى العدو ضربات موجعة ويقع منه قتلى وجرحى بالعشرات .. إن هذا الإختيار المتشائم يتناقض مع الشعار الذى ترفعه المسرحية «لن تسقط القدس».

فلنقرأ التاريخ

إذا كنتم تريدون ألا تسقط القدس فتعالوا نقرأ التاريخ بعين متفائلة ملؤها الأمل وملؤها الايمان بنصر الله .. ولتكن مشاهد النصر المبين والفتح العظيم لامشاهد الذل والعار ثم تأخذون أسوأ مافيها وأبأس مافيها وتقدم فى تعبير مسرحى هزيل وركيك أنظروا أيها السادة إلى يوم الجمعة الرابع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ وساحة المسجد الأقصى تغص بالمصلين حيث توافد الناس من كل صقع يحيطون بالسلطان الناصر صلاح الدين تحت قبة الصخرة المقدسة إذ جعله الله تعالى ثانياً لعمر بن الخطاب الفاتح الأول لبيت المقدس .. وجميع الخلق فى غاية السرور والفرح ولما حان وقت الخطبة أشار السلطان إلى القاضى محيى الدين ابن زكى الدين فصعد إلى المنبر وذكر من القرآن الكريم : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» واخذ يتلو آيات الشكر والحمد على هذا النصر المؤزر ثم قال : أحمده على إظفاره

واظهاره واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .. وقال : «أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الاسلام بعد إبتذالها في أيدى المشركين قريباً من مائة عام وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع فيه اسمه وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن إمتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فانه بنى عليه وأنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه وهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ..... إلى آخر هذه الخطبة الرائعة .

هذا هو الكلام وهذه هي المواقف ونحن أحوج ما نكون لأن يسمع ويقال هذا الكلام على كل المنابر والمسارح.

فلنأخذ من التاريخ مايثير الهمم ويشحذ العزائم ويبعث الأمل في النصر فهو نبتة صغيرة ترويها دماء الشهداء



لن تسقط القدس

لتنمو وتكبر ونراه قريباً بإذن الله.

[illegible]

أتعجب كيف استسلم فنان كبير كنور الشريف لهذا العمل كيف ضحى بما يملك من قدرات فنية وامكانات تمثيلية يتمتع بها لماذا نسى المخرج بداخله كنت أتوقع أن أرى منه أداء صوتيا وحركيا يعبر عن الحالة التى أوقد شرارتها هذا النص .. فلو وقف نور بمفرده صائحاً منفعلاً صارخا وارتجل كلاما من عنده منطلقا مما يراه هو كل يوم لكان أقوى وأعظم تأثيراً.

ردد نور مقولة جيدة وردت فى نص المسرحية ونالت استحسان المشاهدين : «من يريد الجهاد حقا فليتقن عمله».

وأجدنى مضطرا للتساؤل إن المسرح جهاد بالكلمة فهل أتقن المسرح عمله فى هذا العرض الذى ينادى بألا تسقط القدس ؟

عفاف راضي

المسرح هو الفن الحي يعيش فيه المتفرج عملية خلق الفن لحظة بلحظة فلماذا لم تغن عفاف غناء حيا على المسرح .. ليتها شدت بهذه الأشعار الرائعة لوفاء وجدى فى غناء حي يتكرر ويتجدد ويثرى

فى كل ليلة إنها لو فعلت هذا لتضاعف تأثير أغانيها مرات ومرات لقد حرم المشاهد من هذه المتعة والأفضل أن تؤخذ هذه الأغانى من هذا العرض وتغنى حية أمام الجمهور أو تسمع على شريط منفصل عن العرض المسرحى ... وأحيى منير الوسيمى على ألحانه هذه .

ورغم أن الممثلين هم ضحايا هذا العمل فيجدر بنا أن نذكر حسب الظهور كلا من حسن العدل الذى إنتقل من شخصية العراف إلى شخصية حاجب الخليفة المرتشى ببراعة واتقان .. وحمادة عبد الحليم الذى برع فى تقمص شخصية المفاوض الصليبى الفرنجى وقدم لنا صورة من استعلاء وعنجهية الغرب .. فى مواجهة العرب ثم عاد وتقمص شخصية الخليفة المستظهر بالله وقدم فيها أداء مختلفا تماما عن الشخصية التى تلبسها فى الفصل الأول .. وكذلك تقف الواثقة منال زكى بخطوة ثابتة وراسخة على المسرح وأداء صوتى رصين تبدو فيه مخارج الألفاظ واضحة وجلية وقد ساعد هذا على توصيل انفعالاتها الصادقة إلى آخر متفرج فى الصالة ..

أشعر أن المجال قد لا يتسع للمزيد ولكن يجب أن أشير إلى اختفاء الجنود الذين أصروا على المقاومة فلم يأت لهم ذكر لماذا ؟ وأقول للمؤلف مادمت تمارس الاسقاط على سلبيات وخزى الحكام العرب وحاشيتهم هذا الخزى والهوان الذى نعرفه جميعا لماذا لم تمارس نفس الاسقاط شهادة للإنتفاضة الفلسطينية وهى تمثل أعظم حدث وأخلص جهاد وأروع استبسال للعرب فى هذا القرن ؟ وتنتهى مسرحية لن تسقط القدس بتحية الجمهور وأسخف تحية .

ليست على مستوى الحدث

لن تسقط القدس مسرحية ليست على مستوى الحدث التاريخى وتجىء تحت مستوى الحدث المعاصر .

لن تسقط القدس كان من المفروض أن تكون صيحة تنطلق من على أكبر وأقدم مسارح الوطن العربى فى القاهرة أكبر العواصم العربية .. تنطلق إلى العالم العربى والإسلامى مدوية .. لكنها جاءت خافتة كلها هزيمة وضعف وانكسار لن تسقط القدس مسرحية تدعى أنها تطلع علينا من التاريخ ولكنها تحيلك رغم أنفك إلى الواقع المعاصر فهل قرأ مؤلفها ومخرجها التاريخ؟

وهل شاهدا الواقع الذى تراه أنت وأراه أنا فى كل صباح ومساء

أشك فى هذا ■

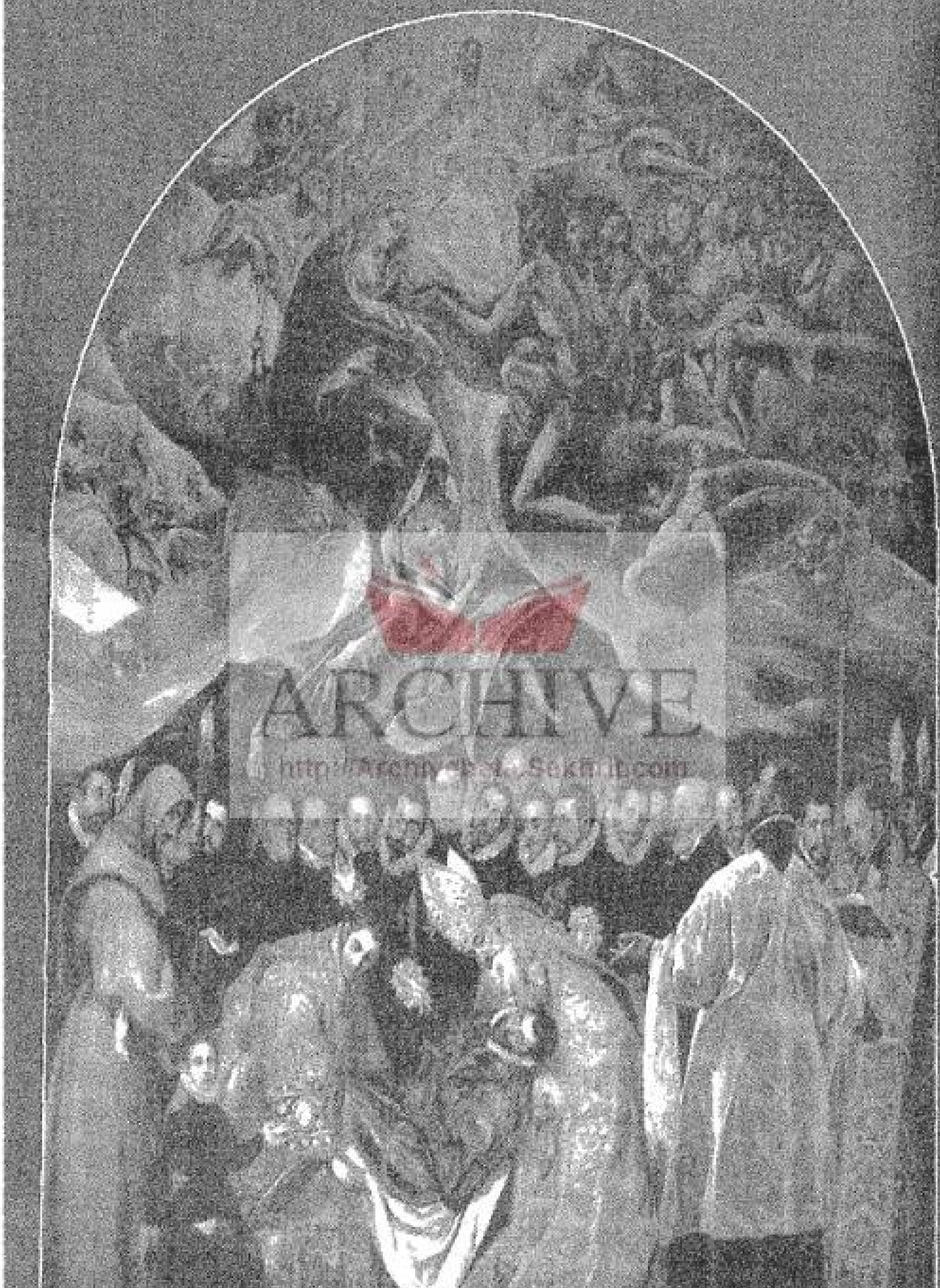
الحنين الى
الأندلس
لم يعد كما كان

بقلم
مصطفى درويش

كان حلما ظل يراودني. منذ صرت شابا، مدركا لدهاء التاريخ، وعبث الأقدار.
أن أزور أندلس اسبانيا، أسترجع الماضي في قرطبة واشبيلية وغرناطة، ومدن أخرى ذات جلال.
أتنفسه في مروج خضر، موشاة بأشجار ثمارها أعناب وزيتون وبرتقال.
وما كنت أدرى ان الحلم لن يتحقق إلا بعد أن تمر الأيام، وتدور أعوام بعد أعوام.
فلم يكتب لي أن أرى بعض ما سمعته وقرأته، وهو كثير عن غرناطة زهرة مدن الاندلس، حيث قصر الحمراء، يعيش اسمه في تاريخ ماتت أيامه، وهو لم يمت.

ومرت عليه القرون، فما زاده القدم إلا حلاوة وطلاوة، وإلا وفاء بحاجات أنفس تواقة لجمال يمس القلب، ويعجز، فلا يفصح عنه اللسان.
لم يكتب لي الاستمتاع بكل هذا الجمال، الا وأنا على مشارف الخمسين، ولا يدوم استمتاعي به إلا بضع ساعات، مختطفة من الزمان.
ولم يكتب لبصري أن يقع على جمال مدينتي قرطبة، واشبيلية، اللتين استوت شهرتهما الواسعة، ورسخت، بعد أن ملأتا الدنيا، وشغلتا الناس زمانا.

لوحة كونت اورجاتر الجريكو



الأولى، بفضل جامعها، الذى بدأ بناؤه عام ١٦٩ هجرية الموافق عام ٧٨٦ ميلادية.

وجرى توسيعه على امتداد مائتي عام والثانية بفضل قصر ملكي، مقر حكامها المسلمين. ويعتبر، والحق يقال آيه من آيات المعمار.

أقول إنه لم يقع بصرى على جمال الجامع والقصر وما حولهما من مبان عتيقة، عربية الطراز، الا والزمان الغادر، يقترب بعمرى من الخامسة والسبعين.

اما كيف تحقق الحلم ، او بمعنى اصح بعضه في زمنين بينهما اكثر من ربع قرن من عمر الزمان، فذلك ما سأحاول ان احكى وقائعه، مراعيا الاختصار الشديد قبل ستة وعشرين عاما، غادرت روما إلى مدريد، في اول زيارة لاسبانيا.

عام الحسم

حدث ذلك في صيف عام فاصل، اتيح فيه للشعب الاسباني ان يتخلص بسلام، من نير الفاشية بالعبور الى نور الديمقراطية، وذلك بفضل اختفاء الجنرال باخاموندى فرانكو (فرانشسكو) بالموت، بعد غيبوبة لم تدم ساعات كالمعتاد، بل دامت شهورا.

ففي ذلك العام، وجدتني، لدهشتي على أرض العاصمة الاسبانية، حيث مكثت بضعة أيام، محققا بذلك رغبة ملحة ، استبدت بي زمنا، ليس بالقصير.

ان تطأ قدماى أرض اسبانيا، في العام نفسه الذى يخلع فيه الشعب عن عنقه نير ديكتاتورية، اعادت جرائمها إلى الأذهان محاكم التفتيش ، وما ارتكبته من جرائم في حق كل ممتنع عن اعتناق الكاثوليكية بدلا من دين الآباء.

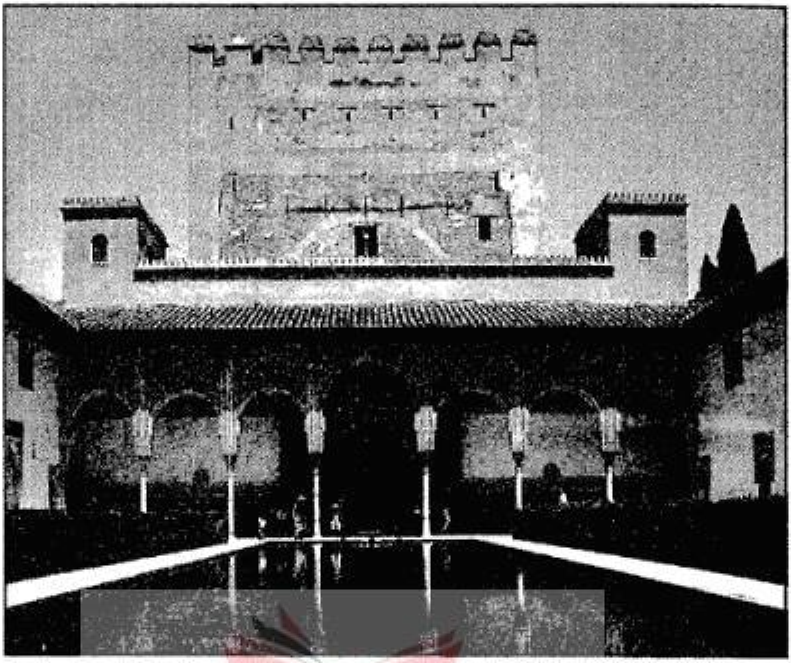
تلك المحاكم التي تم تشكيلها اثر استسلام غرناطة لجيش فيرديناند وايزابيلا الكاثوليكية، ومعه غروب شمس حضارة، كانت ملاذا للعلم والفلسفة ، والتسامح بين الأديان.

ثمار الحرية

ولقد كان من ثمار عودة الحرية والديمقراطية ، التحرر من رق رقابة ، حالت بين الشعب الاسباني وبين مشاهدة أفلام متميزة، اذكر من بينها على سبيل التمثيل، رائعة «ستانلى كوبريك» «البرتقالة الآلية، ورائعة شارلى شابلن «الدكتاتور العظيم».

رقابة ارتأت ان من الحق عليها ان تعاقب الشعب، وذلك بحرمانه من حق الاستمتاع بروائع رائد السريالية في السينما «لويس بونويل» ، ذلك المخرج الاسباني الذى ظل متنقلا بين منافي العالم، قديمه وجديده، الى ان جاءه الموت، بعيدا في المكسيك، بعد موت الجنرال فرانكو، بثمانية اعوام.

وارتأت ان من بين واجباتها حماية الشعب من لوحات وتماثيل بابلو بيكاسو وخوان ميرو، وغيرهما كثير، وذلك لأنه مما يعرف عنهما ان كليهما فنان تشكيلي ، لا يشق له غبار، نشد الحرية لبلده ، ولكل البلاد، ولنفسه، ولكل انسان، انطلق بفن



قصر الحمراء في غرناطة

الرسم والنحت نحو آفاق جديدة، لا تحدها شطآن اتخذ منه اداة لفضح ما في الحياة التي تكر حواليه من فقر، وضحل، وبشاعة وغثيان.

ولشد ما ادهشني، وما كان لي ان اندهش، ان اجد متحف البرادو بمدريد، وهو احد اهم خمسة متاحف في العالم، اجده خاليا من أية لوحة لبيكاسو وميرو، وغيرهما من كبار الفنانين المعادين لحكم فرانكو الاستبدادي الذي استمر اكثر من ثلث قرن بحوالي ستة اعوام.

ربوع الفن

وبطبيعة الحال لم يكن لذلك الوضع الشاذ أن يستمر طويلا فلم تمر سوى بضعة اعوام على اختفاء الدكتاتور، حتى كان قد جرى افتتاح متحفين من مفاخر مدريد الآن، احدهما مركز الفن – الملكة صوفيا، والآخر متحف تيسين، بورنيمنزا ، الذي يجمع بين جدران ادواره الثلاثة حوالي ثمانمائة عمل من روائع الفن التشكيلي اهداها المليونير تيسين وزوجته الفاتنة الى اسبانيا.

ومن بين الاعمال المعروضة في هذين المتحفين، الكبيرين العديد من اللوحات والتماثيل التي ابدعها خيال كل من بيكاسو وميرو، في اثناء القرن العشرين.

أم اللوحات

وواحدة من أهم تلك الاعمال ، واشهرها لوحة جيرنيكا.

وعليها خلد بيكاسو مأساة مدينة وديعة باقليم الباسك اسمها جيرنيكا، سوتها غارات طائرات المانية نازية، لم تدم سوى بضع ساعات (٢٦ ابريل ١٩٣٧).

ومما يعرف عن تلك المأساة انها كانت إيذانا بقرب عاصفة الحرب العالمية المميتة، وما صاحبها من مذابح، أودت بحياة الملايين.

وياله من نشوة، وانا ارى لأول مرة، جيرنيكا، وقد عادت من منفاها فى متحف الفن الحديث بنيويورك إلى وطنها الأم (١٩٨١).

واترك الحديث عن جيرنيكا، ومغامرة رحلتها بين العالمين القديم والجديد، لأعود إلى ايام أول لقاء لى مع اسبانيا، وهى سبعة لاتزيد. لأقول اننى خصصت يوما من بينها لطليطلة، ويوما آخر لغرناطة.

محاكم التفتيش

والمدينة الأولى لا تبعد كثيرا عن مدريد، وهى اول مدينة مهمة يفقدها العرب فى اسبانيا، وكان ذلك اثناء عام ١٠٨٥ ، حين دخلها جيش الفونس السادس ملك كاستيل وليون، منهيا بذلك حكما عربيا مزدهرا استمر حوالى ثلاثمائة عام، إلا قليلا.

ولقد بقيت منذ سقوطها، عاصمة حتى عام ١٥٦١

ومما يقال عن انتقال العاصمة منها الى مدريد ان فيليب الثانى استشار اباه الامبراطور شارل الخامس فى ذلك الامر، فنصحه قائلا.

لو كنت راغبا فى توسيع رقعة ممتلكاتك ، فانتقل بالبلاط الى لشبونه «عاصمة البرتغال».

ولو كنت راغبا فى الاحتفاظ بها، فاستبقه فى طليطلة.

اما اذا كانت رغبتك قد انصرفت الى فقد ممتلكاتك فانتقل ببلاطك الى مدريد!!

وكعادة الأبناء لم ينتصح فيليب.

ومع ذلك ، بقيت طليطلة العاصمة، الدينية حتى يومنا هذا.

فاسقفها كبير اساقفة اسبانيا.

وكاتدرائيتها بفخامتها ونفائسها، ترمز ولاتزال، إلى ما كان للدين من تاثير كبير على الفن، والثقافة .

ولعل خير دليل على ذلك لوحات الفنان «الجريكو» ، الذى غادر وطنه اليونان إلى اسبانيا، حيث استقر فى طليطلة «١٥٧٧» ، لم يفارقها لولعه بها حتى اسلم الروح عام ١٦١٤.

هذا ، وقريبا من الكاتدرائية يوجد عرض لادوات التعذيب التى عانى منها المسلمون واليهود ، لقرون طوال.

فمن طليطلة انطلقت شرارة الاضطهاد الدينى متمثلة فى محاكم تفتيش (١٤٨٠)





تفصيلية من لوحة جيرنيدي أشهر صورة لبيكاسو

جامع قرطبة

، ظلت تنشر الرعب والموت، زهاء ثلاثمائة عام.

وراح ضحية أحكامها الجائرة ملايين الأبرياء ، بين قتيل ومنفي إلى شمال افريقيا.

والآن ترقد طليطلة ناعمة، هادئة ، محاطة بمنعطف لنهر التاج.

واذا كانت طليطلة اول مدينة مهمة فقدها العرب، فغرناطة تعد المدينة الأخيرة.

فبسقوطها ودخول فرديناند وايزابيلا قصر الحمراء فى غرناطة (١٤٩٢)، انطوت صفحة الحكم العربي لاسبانيا .

السلطان الأخير

ولربما خير تعبير عن هذه النهاية الفاجعة المر المعروف بتأوهة المغربي، حيث ينسب الى اخر سلطان حكم غرناطة انه ألقي نظرة اخيرة على قصره، واجهش بالبكاء امام امه التى قالت له.

يحق لك ان تبكي كالنساء ملكا لم تستطع ان تدافع عنه كالرجال.

تذكرت كل هذا، وانا فى قصر الحمراء تصاحبنى الأرواح والاشباح.

وعندما غادرت غرناطة مستقلا القطار إلى مدريد، تمنيت ان اعود.

ولم اكن ادرى أننى سأعود. ■

ذكريات أدبية

بقلم
وديع فلسطين

البقر المحسود

عرفت الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ - ١٩٨٤) المكني بالشاعر القروي بالمراسلة أولا وهو لم يزل في سان باولو بالبرازيل (وقد عرب اسم العاصمة إلي صنبول)، ثم عرفته بالمشافهة عندما زار مصر للمرة الأولي والأخيرة في زمن الوحدة المصرية السورية، ثم بالمراسلة بعد ذلك بعدما استقر في قريته «البربارة» في لبنان. وكان القروي شاعرا عربيا لم تلون الهجرة نصاعته ولا التوت بلسانه حتي أصبح يمثل بحق أعلي المنازل في ديوان العرب. وهو قد حمل منذ يفاعته قضية أمته، فسخر شعره للوطنيات والقوميات حتي وصف نفسه بأنه «بوق العروبة»، وإن كان هذا لم يمنعه من تناول الاغراض المتباينة للشعر.

وعند هجرته إلى البرازيل حيث أقام نصف قرن كامل، افتتح لنفسه مصنعا لربطات العنق (وكان يسميها الأرب) ولكنه كان دخيلا على دنيا الصناعة والتجارة دون خبرة سابقة فأفلس وأغلق مصنعه، فكان لا معدى له عن أن يطلب الرزق كسائر المهجريين بحمل «الكشة» (وهي صندوق يحتوى على عينات من البضائع يجتهد فى بيعها لطالبيها من الزبائن كأى «قومسيونجى») وكان مضطرا إلى السفر مسافات طويلة قاطعا الفيافى والغابات والمستنقعات من مدينة إلى أخرى فى سبيل كسب القوت. وكان فى أثناء رحلاته يرى البقر البرازيلى



رشيد سليم الخورى

سارحا في المروج آمنا على نفسه من غدر السفاكين ، فلم يملك إلا أن يحسد البقر على حريته وأمنه ، وعبر عن ذلك في قصيدة قابل فيها بين البقر والبشر حيث قال :

طوباك سـارحـة في القـفـر طوباك — إن كنت أحسـد مـخلوقـا فـاياك

* * *

الزهر مـثلك في الآفـاق تنتـشر — تغـشى مـروج العلى والليل مـعـتكر
تالله كم يتـمنى عـيشك البـشر — مـاذا تخـافين في البـيداء يا بقـر ؟
إن كنت تخـشين من أنيـاب فـتـاك — طوباك ، فـالجلد غـيـر العـرض طوباك !

* * *

سيري الهوينا معـا في السهل والجبل — الـرزق حولك مـوفور فلا تسلي
ياليت لي في صحـارى الجد والعـمل — بعـض الذى لك مـيسورا على مـهل
إن كنت تشكين من صخر وأشـواك — طوبـاك ، فالقفر غير الفقر طوباك !

* * *

طوباك في الصيف والرمضاء تتقد — والحـر منـه يذوب الجلد والجلد
هذا اللهيب الذى يشوى به الجسد — أشـد منه على أكـبادنا الحسـد
إن كـان منه الذي سـواك نجـاك — طوباك في لفـحة الرمـضاء طوباك !

* * *

تشكين فصل الشتـاء البارد القاسي ؟ — مـاذا أقول أنا في عشرة الناس ؟
نامي على الثلج نامي ، ليس من بـاس — فـالثلج غـيـر فـؤاد دون إحـسـاس
وإن تكن هاطلات الغيث تغشـاك — طوباك ، فالقطر غيـر الدمع طوباك !

* * *

طوباك في مـربع الحـرية الخـصب — بين الأزاهـر والأمـواه والعـشب
لو تعلمين عن الإفـرنج والعـرب — ومـا يلاقـيـه في الأوطان كل أبى
مـا كنت تخـشين من سكين سـفـاك — طـوباك ، فـالموت غـيـر الذل طوباك !

وهكذا طوع الشاعر القروى حياة البقر لخدمة أغراضه القومية والتنديد بالإفرنج الذين مازالوا يسومون العرب ألوانا من الذل والاستغلال والتعالى .

خروف العيد وتوابعه

كان خروف العيد أهم «شخصية» في عيد الأضحي الماضي، حيث تكالب المقتدرون علي شرائه والتضحية به في مناسبة عيد الأضحي المبارك . وكان الخروف - ويسميه إخواننا التوانسة بالكبش - بابا من أبواب الشعر الكثيرة طرقه الشعراء في منظوماتهم، ومثله البقر والأوز وكذلك القطط والكلاب .

ومن المستطرفات الشعرية التي دارت حول خروف العيد ما سجله الشاعر محمد الاسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٧) في ديوانه الضخم راوياً فيه المطارحات الشعرية التي جرت بينه وبين الشعراء محمد عبدالغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وعلي الجندي (١٨٩٨ - ١٩٧٣) والضابط عبدالحميد فهمي مرسي (المتوفي في ٢٩ يوليو ١٩٩١) .

وقد عرفت الأسمر وعبدالغنى والجندى ، ولكن الظروف لم تهيئ لي معرفة رابعهم الضابط .

أما الأسمر فكان أزهريا حافظ على السمت الأزهرى في هندامه ولم يتفرنج كغيره من أبناء الأزهر . وكان زينة المجالس ، بسبب روحه الفكهة وحديثه الشهى وقدرته على استعادة النوادر والمستطرفات من الأدب القديم والحديث . تراه يتصدر ندوة أنطون الجميل باشا (١٨٨٧ - ١٩٤٨) في جريدة الأهرام ، أو في بار الانجلو حيث يجتمع رجال السياسة والأدب والفن ، بل تراه فى بيت الزعيمة النسائية هدى شعراوى (١٨٧٩ - ١٩٤٧) وفي جريدة «الزمان» المسائية التى كان يشرف فيها على الصفحة الأدبية ويشجع ناشئة الأدب ويراعم الشعراء بما يقدمه لهم من الجوائز .

وصفه صديقه محمد عبدالغنى حسن بقوله إن الأسمر هو خير من ينطبق عليه القول الحكيم «تحسبهم أغنياء من التعفف» ، فهو لم يكن غنيا ولكنه كان ذا أنفة وكبرياء ، تحسبه واحدا من الباشوات وهو فى مجلسهم ، وإن كان حظه من الدنيا حظ المدرس ليس إلا . وقد سرنى أن أرى موطنه دمياط يطلق اسمه على مدرسة تصافح المسافر وهو يهم بدخول هذه المدينة التى أنجبت كثيرا من الشعراء .

أما محمد عبدالغنى حسن فقد عرف «بشاعر الأهرام» لأن انطون الجميل باشا كان يحتفى بشعره فى الجريدة ، بل قدم ديوانه الأول «من نبع الحياة» . كان أديبا أصيلا متمكنا ومجمعيا فذا ومفكراً موسوعيا ، تشهد على ذلك كتبه في السيرة الأدبية والنقد الأدبى وتحقيق التراث والدين والترجمة ، وما إليها .

وأما على الجندى فهو درعمي كزميله محمد عبدالغنى حسن ، تولى العمادة فى دار العلوم ، وعرف بأسلوبه العربى البليغ المبين فى كل كتاباته (وقد نشر فصولا كثيرة فى مجلة «الهلال») . وكان يعيش بروحه في العصور الذهبية للأدب واللغة ، فتأثر بها حتى فى عناوين كتبه التى حاكى فيها كتب الأولين ككتابه الجميل «الشذا المؤنس فى الورد والنرجس» . وكان على الجندى قد زار دمشق الفيحاء فى أيام الوحدة المأسوف على شبابها ضمن وفد من الأدباء المصريين ، وهناك نعمت شيخوخته برعاية الشاعرة السورية الحسناء عزيزة هارون (توفيت فى ١٣ فبراير

١٩٨٦) فألهمت خياله شعرا ونثرا مما سجله غب عودته إلى القاهرة في كتاب عنوانه «خمسة أيام في دمشق الفيحاء» ، حفل بآيات التغني بهذه الشاعرة الشقراء ، فانبرى له أحمد رشدي صالح (١٩٢٠ - ١٩٨٠) منتقدا إياه في جريدة «الجمهورية» على اعتبار أن هذا الغزل لا يليق بشيخ جليل مثل على الجندى .


محمد عبد الغنى


علي الجندى

أما الضابط عبدالحميد فهمي مرسي ، فقد كان بدوره شاعرا ، وإن كنت لا أدرى هل جمع شعره في ديوان منشور أو تراخى في ذلك .

وقد تحلق الشعراء الأربعة حول خروف العيد في أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) حيث تفاقم الغلاء وعز على الكثيرين أن يظفروا بهذا الخروف بسبب ضيق ذات اليد وارتفاع سعره .

وكان الشاعر محمد الأسمر يعرف أن لصديقه الضابط عبدالحميد فهمي مرسى ضيعة في المنيا يربي فيها الخراف والماشية ، فهداه تفكيره إلى مناشدة هذا الصديق الأريحي إعارته خروفا له وآخر لعبدالغني وثالثا للجندى يتباهون بها أمام الجيران في العيد ، ثم يردونها إلى صاحبها كأى قرض حسن ! فليس يطلب من خروف العيد إلا أن يثبت وجوده «بالمأماة» فتعرف الدنيا أن صاحب الخروف على يسار ، وليس يهم بعد ذلك أن يذبح هذا الخروف في العلن أو في السر ما دام قد أدى وظيفته التمثيلية أمام الملأ !

فوجه الأسمر رسالة شعرية إلى الضابط عبدالحميد مرسي جاء فيها :

عبدالحميد ، وأنت معوان إذا ... هز الخدين حبال ود خدينه
إن كان «ذو القرنين» عندك حاضرا ... فابعث به لنرى ضياء جبينه
ولكى نشاهد حسنه وجماله ... ونرى اقتدار الله في تكوينه
ولكي يجاوب - لو يمأمئ - مثله ... في بيت جارى - مأمأت قرينه !!
وليعلم الجيران أجمع أننى ... إن جاء عيد لم أضق بشؤونه
ولكى يراه من أساء ظنونه ... بدراهمى ، فأنال حسن ظنونه !!
وليطمئن الدائنون ويعلموا ... أنى امرؤ يقضى جميع ديونه
ولكى يشرفنا بطيب حضوره ... فبه من التشريف كل فنونه
ونرده لك بعد ذلك سالما ... بدمقس فروته ، وعاج قرونه !!
وأنا الأمين عليه وهو بمنزلى ... من كل جزار ، ومن سكينه

يغدو غداة النحر لم يمرر على (سفود) عيد النحر أو (طجينه)

يمسي ويصبح وهو عندي آمن من فلفل الطاهي ومن كمونه

فابعث به عبدالحميد فإنه شيء يرد إليكم في حينه

لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى كبش لك التفويض في تعيينه !!

وبمجرد أن تلقى الشاعر الضابط هذه الرسالة ، كلف قريبا له اسمه عبدالعزيز سلطان بأن يبعث من ضيعته في الصعيد بأربعة خراف توزع بالقسطاس بين الشعراء الثلاثة ، أما الخروف الرابع فهو لصاحب الضيعة الضابط .

وتم شحن الخراف بسكة الحديد ، ووصلت إلى وجهاتها في آخر المطاف . ولكن الشاعر الأسمر رأى أن الخراف هزيلة تشبه الهرة في حين أنه كان يتوقع كبشا مسمنا غزير اللحم والشحم . فبعث إلى صديقه الضابط بقصيدة عتاب جاء فيها :

ويح عبد العزيز أرسل هرات إلينا ، وقال عنها خراف ؟!

لم تمأمئ ، بل نونوت فضحكنا ثم قلنا : ما ذلك الإسراف ؟

أهدايا ، أم تلك بعض الرزايا رب سلم ونج مما نخاف !

* * *

أربع أقبلت ، فقلت خراف ما تراه العيون ، أم أطياف ؟!

كان منها لنا خروف عجيب هو من فرط ضعفه شفاف !

لاح كالوهم ، بل هو الوهم يمشي لا خروف جاءت به الأرياف

هو بين الكباش كبش صناعي وزيف أرقه المزياف

أثرى من عهد يوسف موميا خلفته لنا السنون العجاف !

ليس فيه من الخراف التي نعرف إلا القرون والأظلاف !

كم تمنى أطفالنا أن يروه ورأوه ، فأنكروه وخافوا

* * *

يا صديقي عبدالحميد أهذا ما رجونا ، وعندك الإنصاف ؟!

إن عبدالعزيز مال عن الحق فأين الوفاء والانصاف

كبشه وهو كبشكم حين وافى حار فيه الجزار والعلاف

أبصرته القدور عندي فمالت ضاحكات ، وفرت الأضياف !

خذه عبدالحميد خذه ، وحسبي هبه حكما أما له استئناف ؟!

أما الشاعر عبدالغني حسن ، فقد قنع بحظه المقدور من خروف العيد ، على اعتبار أن أي خروف خير من لا خروف ! فبعث إلى صديقه الضابط بأبيات شكر جاء فيها :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحا … فـإذاك قد بالغت في تسمينه !
اللـه زينـة بكـل جميلة … وجميل صنعك زاد في تزيينه
للأسمر المحبوب فضل وصوله … لا تتخذ لك صاحبا من دونه
هو واحد متفرد في شعره … وجماعة في ظرفه وفنونه !
قد دلني يوما عليك ولم يكن … إلا دليل الخير في تبيينه

أما الشاعر على الجندي ، فقد سكت عن الكلام المباح ، فلا عاتب المهدى ولا شكره على هديته ، وهكذا دخل خروف العيد في ديوان العرب !

والأوز تنضم إلى ديوان العرب

درج الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزنة دار (١٨٨١ - ١٩٥٤) - ويطلقون عليه في بلاده لقب «أمير شعراء الخضراء» - على أن يقتني في بيته أسرابا من الأوز ، يربيها ويحتفى بها على مائدته لأنها طعامه المفضل . فلما تعرض للسجن على أيدى السلطات الفرنسية ، بعث إلى زوجته برسائل يطمئنها على أحواله ويوصيها بما يتراءى له ويشجعها على احتمال لوعة الفراق لأن حياة السجن لن تلبث أن تنقضى . ولم ينس الشاعر أن يوصى زوجته بقطيع الأوز الذى يقتنيه ، ربما لخشيته من أن تنتهز زوجته فرصة غيابه ، وتستأثر بمآدب الأوز لها ولصويحباتها ! فوجه إليها أبياتا قال فيها :

كوني معي قربا وبعدا وإنني … أهوى عفافك ، فالعفاف ردائى
فيك الفضائل كلها جمعت فما … حسناء فيهم شابهت حسنائى
صونى الأوز ، وبشريه بأنني … فى يوم إطلاقى من الطلقاء !

وطبيعي أن إطلاق سراح الأوز لن يعفيه من احتلال مكانه العتيد على موائد أمير شعراء الخضراء !

والقطط والكلاب في ديوان العرب

وقد نظم عدد من الشعراء قصائد في مقتنياتهم الأليفة من القطط والكلاب ، ولاسيما عند فقدها . فقد رثى العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) كلبه «بيجو» ، ورثى أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) قطته ، ورثى الشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ - ١٩٨٤) قطته ، وهى نماذج ثلاثة تغني عن رصد نماذج أخرى كثيرة في دواوين الشعراء. ■


أحمد زكي أبو شادي


حسن كامل الصيرفي

قصة قصيرة

بقلم
مصطفى نصر

أحس ملتون برغبة ملحة في أن يترك لندن، يرتاح من التفكير وقراءة الكتب لبضعة أيام، وقرر فجأة أن يسافر.

زاره في الصباح صديقه كوك. تحدث ملتون معه عن رغبته تلك، فضحك كوك قائلا:

- ملتون العظيم يقول هذا؟!

- نحن معشر الكتاب يأتي علينا وقت نرفض فيه الكتب والكتابة.

ضحك كوك طويلا:

- لو كانت كتاباتي مثلك كنت سترفض مقابلتي؟

- أريد أن أهرب من لندن. من المناقشات والنزاعات.

- وأين تريد أن تذهب؟

- اكسفورد.

صاح كوك فزعا:

- تذهب إلى اكسفورد في هذه الأيام. ألا ترى أنها معقل الملكيين، وأنت معروف بعدائك الملك، ومن أنصار كرومويل الجمهوري.

ضحك ملتون طويلا:

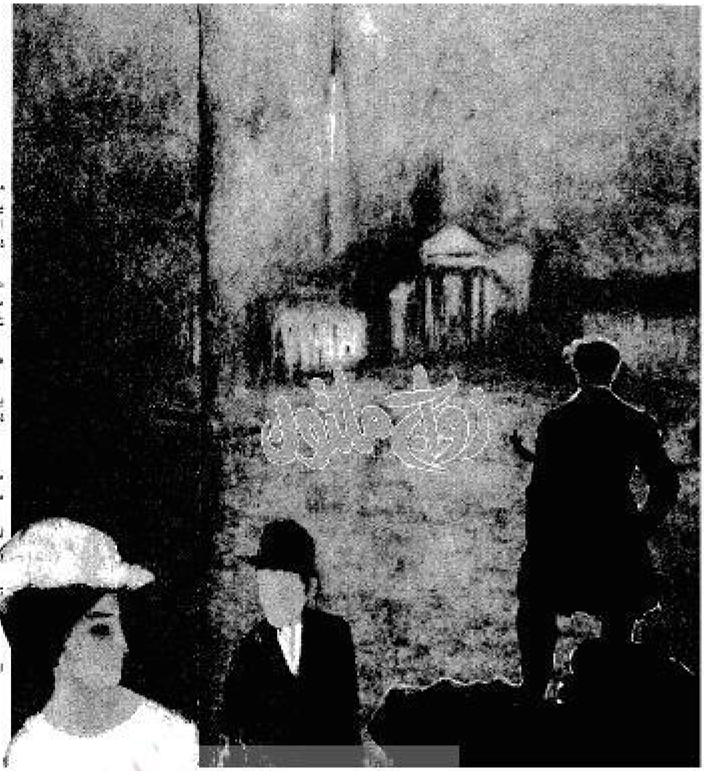
- سأختفي حتى لا يراني أحد.

- ولماذا ستختفي في اكسفورد؟

- اشتقت لجو الريف وهدوئه بعد العناء الذي لاقيته هنا بسبب الحرب الأهلية التي تدور. ومن اكسفورد إلى قرية شتوفر القريبة جدا منها، لمقابلة صديقي القديم ريتشارد باول.

وقف كوك وصاح مندهشا

- لا ياملتون، أنت اليوم غريب جدا ومختلف. ريتشارد باول من أنصار الملك، فـــارلي تكيف



ستتقابلان؟!
رغم ميولنا المختلفة فأنا وهو صديقان. ولى عنده دين حان موعد سداده.

- قل انك افلست وتبحث فى دفاترك القديمة.

- بذلك المبلغ سأقضى عدة أيام فى الريف بعيدا عن الحرب.

***

لم يصدق ريتشارد باول نفسه وهو يرى ملتون أمامه، كيف استطاع ان يصل الى قريته والموالون للملكية فى كل مكان، وقادتهم يعرفونه ولن يتوانوا عن قتله اذا ما راوه .

صاح ريتشارد

- أسرع بالدخول قبل أن يراك أحد .

جاءت زوجة ريتشارد، هى تعرف ملتون جيداً، وكثيراً ما زارها فى بيتها. مارى ابنتهما لم تعرفه أول الأمر فقد مر وقت طويل على آخر مرة رأته فيها ، صاح



ملتون .

- صرت جميلة جدا ياماري، تغيرت .

- وانت ياعم ملتون، شعر رأسك غزاه الشيب.

صاح ريتشارد ضاحكا :

- هو مشغول بلغته اللاتينية وكتبه التى لا يفهمها سوى الجمهوريين امثاله .

ضحك ملتون طويلا:

- الجمهوريون اكثر تفتحا منكم .

- انكم تخالفون شرع الله فى كل ما تدعونه .

لم يعلق ملتون بشىء فقد أخذه جمال مارى. فى عينيها هدوء وسكينة هو فى أشد الحاجة إليهما الآن .

لم تكن الزوجة مرتاحة لهذه الزيارة . فالمنطقة كلها تابعة للملكيين، وجنودهم فى كل مكان منها ، ووجوده سيسبب لهم ضررا لاشك، لذا ، نادت على زوجها وأخبرته بمخاوفها .

فصاح بها .

- ملتون صديقى منذ زمن بعيد، ولابد ان أحسن ضيافته .

- والقرض الذى اقرضك اياه؟

- أتظنينه جاء خصيصا من أجل القرض؟!

- أيجازف ويأتى الى معقل الملكيين اعدائه دون سبب؟

لم يجب ريتشارد بشىء. فصاحت به امرأته :

- ارشد عنه انصار الملك ليقتلوه ونرتاح منه.

صاح ريتشارد غاضبا :

- لا . انه صديق قديم. لا .

- انتظر حتى يطالبك بقيمة القرض،

وانت لا تمتلك منه شيئا.

***

عندما عاد ريتشارد الى صديقه ملتون، وجده يحكي لماري :

ـ تعبت كثيرا حتى وصلت الى هنا. تخفيت حتى لا يعرفني رجال الملك، كما أن الطرق كانت وعرة بسبب الحرب الدائرة الآن .

كانت ماري تضحك سعيدة من حديثه .

ـ لكن عندما رأيتك أحسست بأن التعب لا يساوى شيئا ..

صاح ريتشارد مقاطعا :

اظنك فى حاجة الى الراحة .

ـ لا . انني أريد شيئا آخر .

قال ريتشارد لنفسه : «هاهو ذا يطالب برد قرضه كما قالت زوجتي ، لابد من أن آخذ حيطتي واستعد له»

قال ريتشارد وهو شارد :

ـ أأمر ياملتون .



ـ أريد ان اتزوج ابنتك ماري .

صاح ريتشارد مندهشا: زواج؟!

***

أحس ريتشارد أن صديقه ملتون قد وضعه فى مأزق، فإن لم يوافق على الزواج سيغضب وسيطالب بماله، وريتشارد لا يمتلك منه شيئا الآن. فالحرب أفسدت كل شيء.. الجنود المتحاربة وطئت ارضه الزراعية بأحذيتها الثقيلة، فسوت الزرع بالأرض. وان وافق ريتشارد أغضب ابنته. فملتون اكبر منها بكثير. وتدخلت زوجته فزادت المشكلة تعقيدا، قالت :

ـ انه من اصدقاء كرمويل، ومن الممكن القبض عليه فجأة.

ـ لو حدث هذا ، سيقبضون علينا أيضا لاننا أصهاره .

صاحت ماري وسط دهشة ابيها وامها :

ـ سأتزوجه يا أبى، فانني اود العيش فى لندن .

وانتقلت مارى باول الى لندن بدلا من ان يعود ملتون بنقوده الى لدى ابيها ، عاد بها هي.

كانت سعيدة ، مبهورة بمباني لندن وقصورها الطويلة الواسعة، كما أن ملتون كان حانيا عليها. لم يغضبها قط طوال الشهور القليلة التى عاشتها معه . عيبه الوحيد : اصدقاؤه الذين يأتون اليه كل ليلة. تصنع الشراب لهم، وتتسمع ما يقولون فلا تفهم شيئا، انهم يتحدثون لغة غريبة بعيدة عن الانجليزية، يتناقشون ويحتدون.

حتى تضحك - هي - من تصرفاتهم . أحيانا يكونون وكأنهم يمثلون تمثيلية ساخرة مضحكة.

تسير في الشقة الواسعة . تنتقل بين حجرة وأخرى علهم يخرجون ويعودون الى بيوتهم، ويتركون لها ذلك الشيخ العجوز الذي صار كل ما لها في هذه المدينة الواسعة، لكنهم لا يذهبون بسهولة. كل ليلة تنام قبل أن يذهبوا.

يأتي هو متعبا، يخلع نظارته وخفيه، ويندس بجسده تحت الغطاء بجوارها .

ذات صباح، وضعها ملتون بين يديه الكبيرتين. تابع وجهها الجميل سعيدا. صاحت:

- ملتون ، لقد مللت ، كل ليلة تبتعد عني بأصدقائك وكتبك ولغتك التي لا أعرفها، أريد ان اخرج ، اسهر خارج البيت مثل الأخريات .

ربت على خدها في حنان :

- اهدئي ياماري ، سأخرج معك، لكن ليس الآن . فلدي كتاب مهم لابد من الانتهاء منه خلال ايام .

- وانا . ماذا سأفعل؟!

- سأعلمك اللاتينية ، سأعطيك كتبا تقرئينها.

صاحت غاضبة :

- لا أريد أن اتعلم لغتك. ولا أريد كتبا . كل ما أريده أن أذهب الى بيت أبي في شتوفر .

ضمها ملتون لصدره لتكف عن البكاء :

- اذهبي كما تشائين. على أن تعودي بعد يومين أو



ثلاثة.

•••

وذهبت ماري الى بيت ابيها ولم تعد. ارسل ملتون الى صديقه كوك ، طلب منه ان يذهب ويعود بزوجته من قرية شتوفر ، لأنه مشغول للغاية. فكروميول في أشد الحاجة اليه هذه الأيام.

وذهب كوك الى هناك . لكن ماري أصرت على عدم الذهاب. صاحت غاضبة :

- مللت كتبه والغازه. واصدقاءه. و تدخل ريتشارد والدها :

- ملتون مؤلف كبير ولايستحق منك هذا .

لكن الزوجة صاحت غاضبة :

- دع البنت في حالها . لقد اصفر وجهها ونحل جسدها مما تراه في بيته .

قال كوك :

- ما هكذا يكون الحوار ياسيدتي .

لكن ماري قالت في

وضوح شديد :
- معذرة ياسيد كوك. لن أعود معك، حياة ملتون غير مناسبة لى .

●●●

لكن الأمور تطورت بشكل لم تحسب عائلة ريتشارد حسابه . ولم تظنه سيحدث ابدا. لقد تقوضت الملكية فى انجلترا. وقبض كرومويل على شارل الأول وهو يحاكمه الآن.
بكت المرأة التى كانت متحمسة لعدم عودة ابنتها الى ملتون. صاحت فزعة:
- حياتنا غدت فى خطر.
وقال ريتشارد :
- من الممكن ان يقبضوا علينا. فالكل يتحدث عن أنصار الملك الذين تم القبض عليهم.
قالت الزوجة :
- خاصة لموقفنا من ملتون. فهو مستشار كرومويل الآن .
تبعت مارى ما يحدث فى ضيق فقد سببت لأهلها ضررا



بعدم عودتها الى ملتون. قال ريتشارد :
- ملتون يستطيع حمايتنا .
وأكملت الزوجة :
- ومن السهل ان يقدم صك الدين للسلطات ويطالبنا بسداد قيمته .
قال ريتشارد وهو ينظر الى ابنته :
- والحل؟!
قالت الزوجة فى أسى :
- ان تعود مارى الى ملتون. وان تتحمل لغته اللاتينية واصدقاءه ذوى الوجوه القبيحة.

●●●

بينما كان ملتون في بيته، متدثرا بغطائه الثيل، متابعا صوت الهواء العاصف فى الخارج، وهطول الأمطار الغزيرة، سمع صوت دقات خفيفة على الباب. كان الوقت متأخرا حتى أحس بالقلق. فمن الذى سيزوره في ذلك الوقت المتأخر، والجو العاصف. وجد مارى أمامه. حقيبتها فى يدها وهي ترتعش من البرد. والماء يتساقط من رأسها ووجهها وملابسها .
- مارى. ادخلى . انك ترتعشين .
- جئت مع بعض أهل القرية النازحين الى لندن.
- تفضلى .
تركت حقيبتها على الأرض وأسرعت لتركع على ركبتيها امامه صائحة :
- ليس قبل ان تغفر لى ، جئت مقره بذنبى. اننى لم اقدر قدراتك ومواهبك.
رفعها ملتون عن الأرض:
- اخلعى ملابسك المبتلة واسرعي الى المدفئة وسآتى إليك بملابس أخرى . ■

التكوين

كنت أشعر في مجتمعنا الذكوري أنا مخدوعين من سلالة نسائية

أمينة رشيد



٢٠٦
الهلال
محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م

- حفزتنى حكايات خالتى الى تعلم القراءة بسرعة،
فاصبحت الكتب هى فرحتى وملاذى، ومعلمى وصديقى.

كانت السياسة جزءا من حياة بيتنا، تهم الرجال والنساء معا، وكنت آنذاك أكرهها، تدريجيا تشكل عالمي المستقل ودخلت العمل الوطنى السرى، ثم انقطعت لمدة عن دراستي، وعدت إليها مرة أخرى، تاركة ورائى نضالى وحزن أمى وأبى الذى كان معتقلا فى قضية سياسية، قد يكون سببها أنه زوج لابنة اسماعيل صدقى رئيس وزراء مصر السابق .



أمينة رشيد فى مراحل سنية مختلفة

ولدت في أول يناير عام ١٩٣٨ ونشأت في بيت كبير بحي حلمية الزيتون أصبح الآن «مدرسة أمون». أحتفظ بالكثير من الذكريات الجميلة لهذا البيت، لكن أيضا أكثرها قسوة، ظننت أنني استطعت أن أهرب منه، لكن مع مرور الزمن، أكثر فاكثر، أجده محفورا بداخلي.

كان البيت محاطا بحديقة واسعة مليئة بالشجر العالى وبكل أنواع الزهور، ومغطاة بنجيل كنا نجرى على خضرته ونلعب «الاستغماية» أنا وأمين، ابن خالتى بهية، كانت فوزية أخته، تكبرنا بست سنوات، وأخته الأخرى ملك وأخى اسماعيل، أصغر منا بأربعة أعوام، نتجاهلهم جميعا، أو يتجاهلوننا، ونعتبر



الوالدة خديجة هانم صدقي مع الجد إسماعيل باشا صدقي

بيت حلمية الزيتون خاصة حديقته، مملكتنا الرائعة.

كانت تسكن البيت أسرتان، أو ثلاثة، أمي خديجة وأبي، إبراهيم رشيد، ونحن، خالتي بهية وزوجها وأولادهما، خالتي أمينة المطلقة بمفردها، لكنها كانت بصخبها الدائم ومرحها أحيانا، تكوّن أسرة بأكملها، أو بمعنى أصح تكون عالما له ملامحه المميزة، ففي بداية تكويني كان هذا البيت ، وكانت تلك الأمهات الثلاث: خديجة وأمينة وبهية.

في مجتمعنا الذكوري آنذاك (وربما حتى الآن!) كنت أشعر أننا نعيش منحدرين من سلالة نسائية، فأمي وخالاتي بنات إسماعيل صدقي، وكان هو صاحب بيت حلمية الزيتون، وأعاره لنا، وربما (رمزيا) صاحب مصير كل الذين يعيشون تحت سقفه، ولكن في الواقع كان الثلاثي النسائي يتحكم في كل تفاصيل الحياة، فالرجال يخرجون في الصباح إلى أعمالهم، والنساء أيضا يخرجن إلى ممارستهن للعمل الخيري في «مبرة محمد علي»، أمينة بحماس شديد، وخديجة بوفاء هادئ، وبهية بالتبعية لأخواتها فيما أظن!.

جذور الحزن والشعور بالوحدة

كان البيت منقسما إلى جناحين. جناح «الكبار» حيث يسكن أبي وأمي وخالتي بهية وزوجها، وجناح «الصغار» المخصص لنا ولخالتي أمينة، وربما كانت هذه التقسيمة قد غذت في نفسيتي الحزن



الوالدة خديجة هانم صدقي والوالد ابراهيم بك رشيد

والشعور بالوحدة اللذين لازما طفولتي بأكملها، لم تكن لي علاقة مباشرة مع أمي، كانت شغالة سودانية، دادا زينب، ثم مربية نمساوية، فرولاين منتشي، تشرفان على أموري من تغذية واستحمام إلي دروس المدرسة وبعض النزهات، وكنت أزور أمي في جناح الكبار، مرة أو بالكثير مرتين في اليوم، تقبلني محتفظة بمسافة، تتفحص نظافة ثوبي وكيه، ضفيرة شعري الذي كان ناعما، كستنائي اللون وجميلا، تنظر إلى دفتر درجات الأسبوع، وتفخر بي، إذ كانت في الغالب جيدة، فأشعر أنني لعبة، عروسة كاملة الملامح، أرضي من حولي، ولم يفهم أي منهم كم من الشجن المبكر كنت أخزنه بداخلي.

أما أبي فكان إله طفولتي. لم يكن يهتم بأمور التربية السليمة، بل يسرع إلى جناح الصغار تو عودته من عمله، مشعا فرحة بي، يداه مليئتان بالهدايا والحلويات، يحملني ويحضنني، ثم يتركني محبطة إلى عالمنا من الأطفال والخادمات والمربيات، كانت خالتي بهية الوحيدة التي تأتي لنا بانتظام، تجلس معنا .. وتقرأ لنا قصصا وتحكي الحكايات، لن أنس أبدا هذه اللحظات ولا الفرحة التي دخلت في حياتي من خلال روايات الآخرين، كان ينفتح عالم جديد في خيالي، وربما العالم الحقيقي الذي جعلني أنظر إلى واقعنا على أنه واقع زائف، فاتر وبلا معنى، وحفزتني قصص خالتي بهية إلى تعلم القراءة بسرعة كي

أستطيع القراءة بمفردي، ومنذ هذا الزمن استمرت الكتب فى حياتى فرحتى وملاذى، معلمى وصديقى، لاتتركنى أبدا إلا فى بعض لحظات اليأس المطلق.

أما أمينة فكانت حكاية هى نفسها. تزوجت فى شبابها من أمير ينتمى إلى الأسرة المالكة واكتشفت بعد سنة أو سنتين أنه «مثلى» وتزوجها طمعا لأنها ابنة إسماعيل صدقى. سمعته في يوم يقول لصديق يسأله إذا كان قد وفق فى الزيجة الثرية التى كان يتمناها: غنى إيه؟ قالوا عليه استفاد من بناء كورنيش الإسكندرية واغتنى، لكن دول مجانين وبيرموا فلوسهم من الشبابيك! فطلبت الطلاق وعاشت معنا فى البيت الكبير، كانت جميلة ومندفعة، خفيفة الدم وسليطة اللسان، انغرست فى العمل الخيرى مواجهة كل تفاصيله الإدارية، وإنهاك سفرياته المنتظمة إلى الصعيد، وأحيانا مخاطره! فعندما غزا داء الكوليرا مصر، كانت تجوب قرى الصعيد مع فرقة أطباء وممرضات لتطعيم أهلها بلا أى خوف من العدوى الممكنة، وفى أسيوط أيضا تعرفت على الشاعر عزيز أباظة الذى كان فى هذه الأيام محافظا للمدينة وتزوجته، ورغم أنها كانت «مزعجة» بمعنى من المعانى، إذ كانت تتدخل فى تربيتنا تدخلا صارما مهددة ليبرالية خديجة وبهية، عندما تركتنا لتتزوج بكيت كثيرا!.

صديقتى الرائعة

كانت لى صديقة وراء سور حديقتنا الرائعة لعبت دورا فى كسر الطبقية الشديدة التى كانت تعم حياة البيت الكبير. اسمها «مارى» وكانت ابنة بالتبنى لنجار وخياطة يونيانية بسكنان بجوارنا، وكانت بالفعل جنة حديقتنا محاطة بالبيوت الشعبية، وتقع على شارع اسمه «شارع دار السعادة»، وأشعر أحيانا أن هذا التناقض بين القصر وفقر الجيرة عشش داخلى فى وجع لازمنى منذ الطفولة، وكان بيت النجار فى الحقيقة كوخا. يجمع أفراد الأسرة الثلاثة فى غرفة واحدة بها كل شىء: آلات النجارة وآلة الحياكة والسرير الواسع، كانت روائح كريهة تشارك حياة سكان البيت لم أستطع أن أميز بينها روائح الطبيخ، عن رائحة الملابس العطنة والرطوبة التى كانت تنبثق من الأرض، ولحم قطط ميتة! كانت أمى تسمح لى بزيارة مارى، رغم اعتراض أمينة وصمت بهية، لكن لم يكن لى حق دعوتها فى أعياد ميلادى كما لم يسمح لى بدعوة صديقات المدرسة (مانعرفش أصلهم ولا فصلهم!) كان يدعى أولاد أصدقائهم من الطبقات العليا الذين لم أشعر بأى انتماء إليهم، بينما كنت أحب مارى وكانت





أمينة هانم صدقي وخديجة هانم صدقي في حفلة عيرة محمد علي ديسمبر ١٩٥١

تحبنى.

لم يكن الأمير زوج أمينة الأول مخطئا تماما عندما قال إن أسرتنا ترمى الفلوس من الشبابيك!، كنا ننفق الكثير، على البيت، على أنفسنا وعلى الآخرين (فكان منطق الأسرة ضرورة الاهتمام بالفقراء، رغم تفادى صداقتهم والظهور معهم فى الحياة الاجتماعية) ومع ذلك كانت أمى تخترق أحيانا هذه القاعدة، أتذكر أن جدى أعطى يوما لبناته تذكرة «لوج» فى الأوبرا (لم يكن يحب الخروج مساء) فدعت أمى صديقاتها المتواضعات الأصل. فاحتجت أمينة : إزاى تعزمى أصحابك الجرابيع فى لوج رئيس الوزراء! فكان ردها: لأن أصحابى التانيين بيروحوا الأوبرا عادى لكن دول لأ! وتأثر جدى بهذا الرد البسيط، الصادق، لابنته الكبرى، وربما المفضلة، رغم عشق أمينة له.

ديمقراطية جدى الديكتاتور

وقد تعلمت من جدى الذى عرفته الحياة العامة دكتاتورا طاغيا، بعض الدروس فى الديمقراطية! فكان يجيد العلاقة بنا، نحن الأطفال. لم يهتم بنا كثيرا، لكن عندما ينتبه لوجودنا كان يستطع أن يحدث فينا الإنسان لا الطفل الظريف أو المزعج، كما كانت تفعل اسرتنا فى الحياة اليومية. يكلمنا بمنطق الكبار، يأخذنى إلى الحديقة ويشرح لى طبيعة الشجر والزهور، يأخذنى فى «العزبة»، ونذهب معا لنرى الفلاحات يجمعن العنب فى أقفاص ويشرح لى معانى أغانيهن التى كانت تسعده كثيرا، وعندما سقطت الوزارة

بعد اتفاقية صدقى/ بيفن، وانزعجت من غضب أهلنا، شرح لى بابتسامته الدائمة، أنه قدم لشعبه ما رآه صحيحا، ورفضه الناس، وسوف يعود إلى حياته الهادئة، مستغنيا عن وجع القلب!

وعندما انتمى محمد سيد أحمد (متسو)، ابن خال أمى إلى الحركة الشيوعية، فى فترة اختبائه التى لم يكن أحد يعرف أين كان، سمعت هذا الحديث بينه وبين وحيدة، أم متسو، كانت تبكى، فسألها لماذا. فقالت لخوفها عليه، وأجاب: دا معناه إن ابنك راجل! فاستغربت أن يأتى هذا منه، القامع الأعلى للشيوعيين والمتظاهرين والمناضلين عامة، فأجاب أنا مش شايف إن الشيوعية صالحة لمصر، لكن شابا مستعدا لأن يموت لأفكاره فى سن العشرين، فى يوم هايكون راجل! أما بالنسبة لى، فكان يحبنى حبا خاصا، كان يعجب بحسن أخلاقى، ونجاحى فى الدراسة، يرانى ذكية وجميلة، وفى يوم كنت فى سن العاشرة تقريبا، كان ينظر لى بحزن، فسألته أمينة لماذا، فأجابها: لأنى خايف عليها، هيكلوها! لم يكمل ولم يفهم أحد ما كان يعنى، لكن بعد ذلك بسنوات، عندما انتميت لليسار، وللشيوعية خاصة، رأت أسرتى فى جملة جدى تنبؤا!.

انفصام ثقافى

وكان انفصام آخر يميز أسرتنا وربما طبقة ملاك الأرض بأكملها :

الانفصام اللغوى بين العربية والفرنسية، كانت النساء فى البيت، باستثناء بعض الجمل التى أشرت إليها، وباستثناء الكلام فى السياسة، يتحدثن بالفرنسية وكانت الفرنسية ليست فقط لغة الكلام، بل الثقافة والتاريخ، والموضة والفن، كنت أسمع كل شىء عن مأساة مارى - أنطوانيت ولويس السادس عشر أو عن منفى نابليون فى سانت - هيلانة، ولا أعرف شيئا عن التاريخ العربى، أسمع أغانى إيديث بياف وإيف مونتان، وعندما يسمح لأبى بأن يستمع لأم كلثوم فى سهرة الخميس، كانت النساء لايخفين نفورهن! وحدث أن غنت أم كلثوم فى بيتنا (إذ كانت صديقة للأسرة)، فنامت بهية على كرسيها ولم تفلت من سخرية الست : كده يابهية. أنا أغنى وانت تنامى!.

كانت السياسة جزءا عضويا من حياة بيتنا، تهم الرجال والنساء معا. وكنت آنذاك أكرهها! كنت أسمع أسماء تتكرر - النقراشى، النحاس حافظ عفيفى وغيرهم - تدور حولهم الكثير من الحواديت، وأحيانا المآسى كاغتيال النقراشى، ولم أفهم أبدا ماهى القضية، وبين السياسة والمبرة والسهرات شبه الليلية، فى الخارج أو فى بيتنا، بين النمائم حول حياة السرايا وحياة كبار الأسرة الإقطاعية،



كنت أفتقد دفء الأسرة وحميميتها، وأعتقد من خلال القصص والروايات أنها موجودة عند الفقراء، فمجدت الشعب قبل أن يدخل حياتي أى وعى سياسى، كنت أحلم بكوخ يجمعنى بأم تضمنى وتجفف دموعى، نجلس معا تحت مصباح مائدة الطعام وهى تشرف على واجباتى، وتطهو بيديها حساء الأمسيات الباردة، وأجد نفسى وحيدة فى غرفتى الجميلة ذات الأثاث الفستقى اللون، يسمح لى بالقراءة فى سريرى بعد إطفاء النور عند جميع أطفال البيت، ربما علاجا للفزع الذى كان ينتابنى مع غروب الشمس وتقدم الليل، هل كانت هذه المشاعر أول بذور انتمائى فيما بعد نحو بيئاتنا الشعبية من برجوازية صغيرة وريف، ونفورى حتى الآن من كل مظاهر الوصولية والتسلق الطبقى؟

أتذكر حدثا كان علامة فى طريق ابتعادى التدريجى عن مناخ بيتنا ، سمح لنا نحن الأطفال، أن نشهد من شرفة علوية سهرة موسيقية ليلية أقيمت فى حديقة البيت، كانت فى وسط الحديقة مساحة مبلطة للرقص، وحولها موائد مربعة للجلوس والعشاء وفى الخلفية بوفيه فخم بلاشك، وفجأة رأيت ضمن الراقصين أبى يرقص مع فاتنة شقراء، عارية الظهر فى ثوبها الأنيق. لا أعرف لماذا ذعرت من هذا المشهد، كنت فى الخامسة من عمرى ولا أعرف شيئا عن العلاقات بين الرجل



رحلة الى تركيا في المؤتمر البرلماني مع امينة نيازي

والمرأة، ووجدت نفسى، ووجدنى من حولى، أصرخ وأبكى وأحتج: لماذا يرقص أبى مع هذه الفاتنة، (وفى الغالب يحضنها)، ولا يرقص مع أمى؟ قامت أمى من مائدة كانت جالسة بجوارها، لتأتى وتشرح لى سلوك السهرات الراقصة: لاينبغى أن يرقص الأزواج معا، بل من اللائق أن يدعو كل رجل امرأة أخرى للرقص. لا أظن أننى اقتنعت بهذا المنطق، بل أراحنى صوت أمى الجميل وعيونها عسلية اللون التى كانت تبرق فيها أشعة من الذهب، لم أفهم فى تلك الأيام أنها كانت هى أيضا مغتربة فى سلوك بيئتها، تحب البساطة والتواضع، لكنها لا تريد أبدا الاعتراض على مايحدث حولها وتحاول دائما أن

التكوين

ترضى الجميع.

حادثة أخرى أكثر خطورة أثرت فى كثيرا، كنت فى العاشرة من عمرى، أو حول ذلك بقليل. كان أهلى قد أعطوا فرو لاين متسى مربيتى النمساوية إسورة من الذهب بمناسبة عيد ميلادى، وفى حفلة الغذاء التى أقيمت فى الحديقة أيضا، لعبت متسى بإسورتها مع قط كان يتقافز حولها، ثم استطاع القط أن يخطف الإسورة ويهرب بها. انزعجت متسى وأزعجت الجميع، فشرع الكل فى البحث عن القط الذى اختفى ولم يعد، وكان الشك أن أحد خادمى البيت وجده وسرق الإسورة، ثم أتت الشرطة لتحقق فى الحادث، وجاءت «بكلب البوليس» كلب ضخم وشرس، ورأيت كل خدم البيت، خمسة عشر تقريبا، مصطفين ومقرفصين فى الحديقة، والكلب ينتقل من الواحد إلى الآخر، وأحيانا يمسك بجلبابه ويمزقه، كنت مذهولة، كانت أسرتى فى الغالب طيبة مع الخدم، تسميهم الـ «عيلة»، وتهتم بشؤونهم وشؤون أسرهم، أما هذا المشهد فكم وجدته مهينا ومؤلما! وتحولت القصة بعد ذلك إلى حدث سياسى، إذ تناولته مجلة «روز اليوسف» - فى إطار حملتها ضد النظام - مثلا على بذخ بيت إسماعيل صدقى حيث يعطى الذهب لمربيات الأطفال، وتلعب القطط بالسلاسل الذهبية بينما الفقر يعم البلاد. وأتذكر حتى الآن الكاريكاتور الذى يصور متسى تلاعب القط بالإسورة!.

فترة النضال الوطنى

كانت فى هذه الفترة، بين ١٩٤٧ و١٩٥٢، الحركة الوطنية والاجتماعية، فى أوج عنفوانها، المظاهرات تملأ البلاد وكثيرا ما كانت إدارة مدرسة الليسيه الفرنسية بمصر الجديدة - مدرستى - تعيدنا إلى منازلنا قبل اكتمال اليوم، أسمع الشارع يهتف «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» وأشعر أن أحداثا مهمة تجرى لم أكن أفهم كل دلالاتها، وفى يوم مشمس فى حوش المدرسة، كنت كعادتى منفردة بإحدى صديقاتى - لم أكن أحب الألعاب الجماعية - اقتربت منى مجموعة من التلميذات ورمتنى بالحجارة متهمة جدى بالخيانة، تألمت كثيرا ليس فقط لما جرى، فشعرت بإحساس مبهم بأن التلميذة التى كانت تتصدر المجموعة على حق، وأن صوتها يتماثل مع صوت الشارع منافيا لكل ما كان يقال فى بيتنا، منذ هذا الحدث دخل فى حياتى هذا الشعور بالذنب الذى استمر يلازمنى.

فى هذه الأثناء سقطت وزارة إسماعيل صدقى، وماتت جدتى، وأظهر جدى زوجته الثانية، ثم قرر السكن فى بيت حلمية الزيتون مع سونيا، وبناء عمارة على أرض الزمالك مكان الفيلا التى كان يسكنها مع جدتى، هذا المشروع



الذى كانت ترفضه تماما، بعد سنة من التشتت بين سكننا أنا وأخى مع جدى وزوجته الثانية، بينما استقر أبى وأمى مؤقتا فى فندق «متروبوليتان» (كوزموبوليتان» الآن) انتقلنا إلى الزمالك فى شقة من الشقق التى كرسها جدى لأبنائه وبناته، تركت الحديقة الرائعة وسافر أمين، ابن خالتى، رفيق الطفولة، مع أهله إلى الخارج (كان على مرعى زوج بهية يعمل فى السلك الدبلوماسى)، دخلت فى سن المراهقة، وتغيرت حياتى تماما.

فى الزمالك، من شرفتنا المطلة على النيل، كنت أسمع عن قتال الفدائيين فى منطقة القناة، ومن الزمالك أيضا شهدت لهب حريق القاهرة. بدأت متابعة الأخبار، من بعيد إلى حد ما. فكانت القراءة مازالت تشغل كل أوقات فراغى، أصنع شرنقة تحميني من توترات الخارج والداخل: فى الخارج يشتد الصراع الوطني والطبقى، وفى الداخل يصعد القلق أمام التغيير الحتمي، وتصعد أيضا المشاجرات بين أبي وأمي، هو ينفق بلا مبالاة وهي مسئولة إلى أبعد الحدود، يشترى الملابس والهدايا، وينفق على السهرات، وهي تعيش بين المبرة وأخواتها، تلبس نفس الثوب على مدى الفصول، لاتبكى أبدا، وعندما يقتحمها الحزن، أرى ذقنها ترتعش وعيونها الجميلة ترغرغ بلا دموع.

اليسار كان اختيارى الصعب

تدريجيا تشكل عالمى المستقل،



خديجة هانم اسماعيل صدقي والدة أمينة رشيد

صداقات حميمة فى المدرسة، ثم فى الكلية، ليلى القار وهناء موسى، نهى الروبى، وفيفيان هرارى، ثم سهير عبدالوهاب، رحمها الله، سيزا قاسم ووحيد النقاش، وموازيا لهم انتميت للجزء اليسارى من أسرتى ودخلت فى العمل السرى، أترجم منشورات، أخفى كتبا وكتابات، أشترى تذكرة طائرة لرفيق، سوف يستبدلها فيما بعد للسفر إلى دمشق، أساهم فى إخفاء إنجي أفلاطون، أشعر بفخر وسعادة، إذ كنت أساهم فى بناء عالم جديد وتغيير قيم، أحلم بالمساواة بين البشر، أحب الاستراتيجية وأنفر من التكتيك! وأيضا تنتابني لحظات الرعب، فلا أنسى أبدا شتاء ١٩٥٩ القارس، شتاء اعتقال الشيوعيين وبداية الحملة الوحشية ضد



في الاحتفال بعيد ميلادها العاشر في بيت الزيتون



اليسار، الأتوبيس الفارغ في أنصاف الليالي وأنا أقوم بمهامي السرية ولا أعرف إذا كنت أرتعش من البرد أو الخوف.

عندما قامت حركة الضباط الأحرار - أو ثورة ١٩٥٢ كما سميت - كنت على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية، التي تمت في ١٩٥٤، في بداية ١٩٥٤ أيضا قررت الانتماء إلى الماركسية، منهجا للثورة وللحياة، لم أنم في تلك الليلة - ليلة اختياري هذا! - التي مازلت أتذكر تاريخها : ٣ مارس ١٩٥٤، كانت أوضاع أسرتي قد تدهورت نتيجة للإصلاح الزراعي، وخاصة وضع أبي وأمي، إذ لم تكن لأبي ملكية خاصة أو عمل ثابت مثل زوجي أمينة وبهية، وانقسمت حياتي من جديد إلى نصفين : نصف سعيد بوعد التغيير ونصف يشاهد انهيار من أحبهم، وبصراحة كان التماثي الأساسي للنصف الأول، رغم المثل التي أعطته لي شجاعة أمي وتحملها لكل الظروف السيئة التي مرت بها، ولا أنسى جملتها في وسط معاناتها: إحنا استفدنا كتير والناس في بلدنا مظلومة، هل استفادت الناس حقا بعد ذلك؟

أثناء دراستي الجامعية عشت إحباطا آخر: إلغاء الحريات رغم إنجازات «الثورة» . اشتركت في مظاهرتين في الجامعة، الأولى احتجاجا على إقالة النابلسي، الوزير الوطني في الأردن، والثانية رفضا



امينه رشيد في مدرسة موران الفرنسية بالزمالك ١٩٥٢

لتعذيب المستوطنين الفرنسيين لجميلة بوحريد، المناضلة الجزائرية، كانت حكومتنا مع القضيتين ورغم ذلك قمعت المظاهرتين وفصل بعض قادتها من الجامعة لمدة سنة أو سنتين، لا أتذكر، وعندما حدثت حركة مطاردة اليسار في ١٩٥٩، فقدت ثقتي تماما بثورية النظام التي لم أفهم إنجازاته إلا بعد ذلك بسنوات . عندما حدثت الانهيارات الأخرى.

كيف أنسى وطني ؟

رغم نشاطي الذى استمر سريا ، كنت قد عينت في جامعة القاهرة، مدرسة لغة بقسم اللغة الفرنسية وآدابها الذى مازلت أعمل فيه حتى الآن.

وفى ١٩٦١ حصلت على بعثة للدكتوراه في باريس. انقطعت لمدة عن كل هذا لأندمج في الدراسة، تاركة من ورائي نضالي وحزن أمي وأبي المعتقل في قضية جاسوسية، (وربما كانت تهمته الأساسية أنه زوج لابنة إسماعيل صدقي)، وأخي إسماعيل الذى تحمل بمفرده كل متاعب أبوينا رغم صغر سنه آنذاك، تركت أصحابي، ومازلت أتذكر بكاء سيزا قاسم في المطار وهي تودعني مع مجموعة أصدقاء الدراسة (فالآخرون كانوا في السجون!)، وبعد سنوات من الابتعاد جاءني كارت عتاب من وحيد النقاش . هل نسيت هذا البلد الذى كم كنت تحبينه؟. ولم أبعث له الجواب المخزون في كياني: كيف أنساه، ياوحيد، وهو محفور بداخلي؟. ■

حول الظواهر الخارقة

من الثابت ان الأحلام التنبئوية - والتى اشار الاستاذ الدكتور رجب البيومى إلى بعض امثلتها فى عدد فبراير الماضى أو الاحلام التى تتحقق فى الواقع أو تشير إلى المستقبل القريب أو البعيد بصورة واضحة وقاطعة ترجع إلى قدرة خارقة وموهبة ذاتية تتمثل فى نوع من الشفافية، وتتمثل هذه الشفافية فى قدرة بعض الأشخاص على إدراك الأشياء التى لا يمكن إدراكها بواسطة الأجهزة الحسية العادية، وهذا يمثل بدوره قدرة غير عادية وشفافية يتمتع بها صاحب الحلم.

كما ان تفسير الأحلام التنبئوية من خلال منظور إسلامى إنما يرجع إلى الكشف ويكون بنور يقذفه الله فى القلب أو كما يقول الامام ابو حامد الغزالى: سريان نور الإلهام الذى يكون بعد التسوية، أو بعبارة أخرى رفع الله للحجب عن قلب الإنسان وعقله حتى يكون مستعداً لتلقى الحقائق، وهذا الكشف هو الإدراك الوجدانى المباشر، وعجائب الرؤيا الصادقة ينكشف بها الغيب.

وفى عدد الهلال أكتوبر سنة ١٩٧٥ أجرى الاستاذ عاطف مصطفى تحقيقا صحفيا عن «أحلام تحققت فى حياتهم» مع نخبة من الصحفيين والكتّاب والأدباء: فكرى اباظة، ودكتور إبراهيم بيومى مدكور، وإبراهيم المصرى، وصالح جودت، والدكتور عبدالعزيز كامل، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور رءوف عبيد، وتبين من أحلام هؤلاء الأعلام انها احلام تنبئوية كشفت عن المستقبل وتحققت فى حياة أصحابها.

وفى حياة مفكرنا الكبير عباس محمود العقاد صفحة مطوية عن تجاربه الشخصية فى الإدراك فوق الحسى أو الكشف الصوفى فى حياته الروحية.

ولكن فى كتابى د. عبدالمحسن صالح «الإنسان الحائر بين العلم والخرافة» ود. فؤاد زكريا «التفكير العلمى» نجدهما يحملان حملة شعواء على كل خوارق البشر والعادات وينكران كل الظواهر الخارقة.

عمرو عبدالمنعم حمودة
كفر الزيات - مصر



• مذكرات عربجي لفكري أباظة

بمناسبة مقال «فكرى أباظة».. أوراق مطوية فى تاريخ الصحافة «والمنشور فى هلال فبراير ٢٠٠٢م من هذه الأوراق المطوية، أن كتاب مذكرات عربجي.. والذى قدمه الدكتور محمد رجب البيومى فى عدد يوليو ٢٠٠١ من الهلال.. هو من تأليف فكرى باشا أباظة، وقد نشره بدون توقيعه نرجو لمن لديه أية معلومات موثقة فليرسلها إلى الهلال لنشرها .

السفير شكري فؤاد
القاهرة





• كتاب يتناول فكري أباظة

سعدت كثيرا بما كتب فى هلال فبراير الماضى عن شيخ الصحفيين فكرى باشا أباظة.. وسعدت لعمل رئيس التحرير معه لمدة طويلة بدار الهلال ابتداء من ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٧٩.

ومن حسن حظى أننى أسكن بالقرب من ڤيلا أباظة بمصر الجديدة.. وتمنيت أن تظل على هيئة متحف يضم كل ما يخص هذا الصحفى الكبير.

ولتكريم هذا الرجل نرجو أن يعد كتاب عن حياته وتاريخه الحافل فى الصحافة والبرلمان.

محمد طلعت أبوزيد - القاهرة
مصر الجديدة

• إنشاء قسم لعلم القبطيات بالجامعة

جذب انتباهى مقال د. رشدى سعيد فى هلال مارس الماضى بعنوان «ندوة عن وادى النطرون».. وضرورة إنشاء قسم لعلم القبطيات.. وكانت الهلال قد نشرت مقالا مهما فى

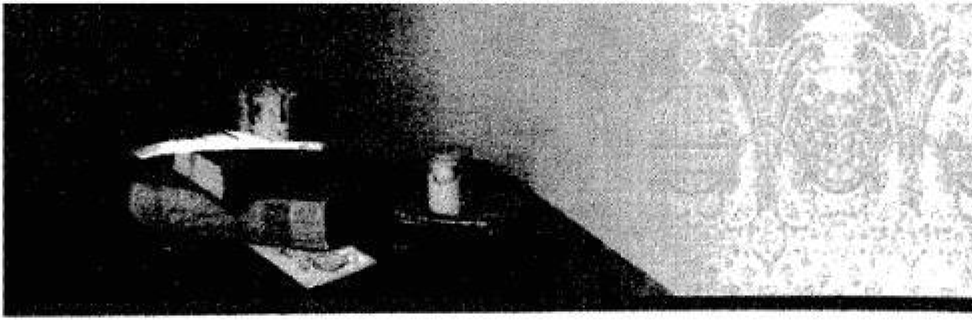
اغسطس ٢٠٠١ عنوانه «وادى النطرون أشهر المعالم المسيحية.. فى مصر والعالم».. والهلال تستحق الشكر لالقائها الضوء على قضايا مهمة حول أديرة وادى النطرون التى حفظت التراث القبطى على مدى سبعة عشر قرنا من الزمان، ومنها انتشرت الرهبانية إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والغرب الأوربى، ودور الرهبان فى نسخ المؤلفات النادرة أو اقتنائها والعناية بالأيقونات والحفاظ عليها، وكذلك المخطوطات باللغة القبطية.

ولذلك فإننى أضم صوتى الى ما أشار اليه د. رشدى سعيد من ضرورة انشاء قسم لعلم القبطيات بالجامعات اللمصرية لكى نهتم بهذا التراث المهم خاصة أن لدينا مناطق منسية لابد من التنقيب والبحث فيها ومن بينها منطقة «البجوات» بالوادى الجديد فى الواحات الخارجة حيث تضم تلك الأماكن العديد من أطلال الكنائس القبطية التى تحوى نقوشا ورسوما رائعة.. وهذه الأماكن تعد مناطق جذب للسياحة.

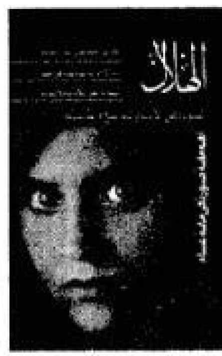
د. صمويل لبيب سيحة
المنيا

«أفغانية تأسر عيون العالم»!

فى عام ١٩٨٥ التقطت عدسة المصور الشهير ستيف ماكورير صورة الطفلة الأفغانية اليتيمة «شربات جولا ١٢ عاما» داخل معسكر «نصير باج» اللاجئين بعد أن راح والداها ضحية الهجوم السوفييتى عام ١٩٨٤، لم يستطع «ماكورير» التخلص من سحر عيونها الخضراء فجال كل مكان للبحث عنها.. ليجدها عام ٢٠٠٢ متزوجة . وأما لأربعة







أطفال فى الثلاثين من عمرها.. ولكن لاتزال عيونها تشع جرأة وتحديا.. وإن كان وجهها قد هرم من هول ما رآه من حروب وأهوال وبؤس

«الهلال» نشرت صورة شربات فى عددها الصادر فى يناير ٢٠٠٢ وها هى تنشر صورتها بعد مرور ١٨ عاما على التشرد والخوف الممزوجين بالتحدى والإصرار على البقاء!

• الشيخ محمد الغزالى

أثناء إلقاء أحد البحوث المهمة فى مهرجان الجنادرية بالسعودية فى ١٠ مارس ١٩٩٦، صعدت روح المفكر الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى.

والشيخ الغزالى ولد فى إحدى قرى القليوبية سنة ١٩١٧م وحفظ القرآن فى سن مبكرة وتخرج فى الأزهر الشريف عام ١٩٤١.

وقد حمل لواء الدفاع عن الإسلام و الإشتغال بقضاياه لما يقرب من

سبعين عاما، ألف فيها حوالى ٥٧ كتابا من أشهرها «قصة السيرة».. «نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم»، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة..

«مشكلات في طريق الحياة الإسلامية»..

كان أبرز ما تناوله الشيخ الغزالى ضرورة إعادة ترتيب للعقل الإنسانى المعاصر حتى يتمكن من تحقيق النظرة الكلية للأشياء، والقدرة على تحديد المشكلات، وتطوير وسائل الدعوة إلى الله بما تقتضيه الحال.

رجب عبدالحكيم
القاهرة - المعصرة



الربيع

تلألأ الضوء فى وجه الزمان وقال ... هذا الربيع كسا الأشجار من حلل

فيهتف الطير فوق الغصن مبتسما ... ويورق الغصن أوراقا من الجنة

ما أبدع الكون والألوان تغمره ... تطيب الكون من تلك العطور فما

ويسمع الطير أوتار أفئدة ... ما أبدع الله فى آلائه حكم

فسبح الله فى أحجاره النمل ... نرى الربيع وقد عمت حدائقنا

ما أروع الحق والايمان ان نظرت ... هذا الربيع القادم الفتان

وألبس الورد ألوانا فألوان ... فتسمع الصوت ألحانا فألحان

كأنهن ياقوتا ومرجان ... والورد صفق مثل الطير فرحان

أمست بقاع إلا فيها ريحان ... ويسمع البحر شكوى فيها ظمآن

كان كل الدنيا تهتف بإيمان ... وقدس الله تحت الماء حيتان

بهجة ونرجس كل فيها وسنبان ... عين الليب بلا زور وبهتان

أحمد نادى عبدالرحمن

تنويه

بورتريه للدكتور محمد شفيق غربال بدلا من الصورة التى نشرت بالعدد الماضى من الهلال خطأ، وكانت للملاكم شفيق غربال..



د.محمد شفيق غربال



الملاكم شفيق غربال

نافذة.. لم تؤرخ حلمى

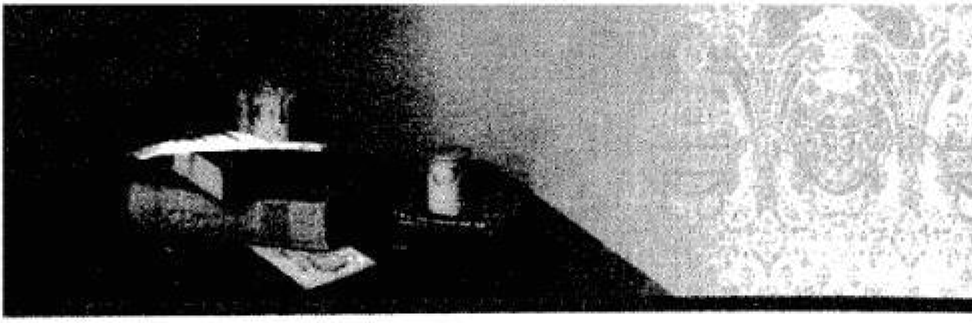
أخبرنى أحد تلاميذ الخنساء:
كنت بسوق (عكاظ)
أبتاع حمامي الزاجل
للغرباء..
كنت وضيعا جداً
أنتعل البؤس..
الفاقة..
أسرق أبيات الشعراء
فرأيت (النابغة الذبيانى)..
يطل علينا
من قبته الحمراء
أقسم للدنيا برب الكعبة
أن الشعر فتاة حسناء
من غازلها بالألفاظ
وأحرق وجدان الشوق..
بترنيم الأشذاء
فسيصبح فى البادية
أمير الصبو..
يزاحم قامات العظماء

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

ذبت اشتياقا

تعال لنرفض هذا الزمان الغضوبا
تعال لننسى المتاعب ننسى الهروبا
وننحــر كل المآسى .. نزيل الكروبا
هواك أنــار الفؤاد أنار الدروبــا
تعـال لنفن اشتياقا إلى أن نــذوبا
نهيم احتراقا ونحيا غراما دءوبــا
ونلثم عطراً جميلاً رقيقاً طروباً

محمود المصلي



إلى الأصدقاء

● مينا عبدالمسيح - العتبة: نريد أن تحدد بوضوح المقصود بنقدك لبعض المترجمين، وخاصة هناك اساتذة جامعيون لهم باع طويل في هذا المجال.. وتشير إلى إخفاقهم في ترجمة بعض الكتب، خاصة من الألمانية إلى العربية.

● عمرو عبدالمنعم حمودة: وصلتنا رسالة غير واضحة عنوانها «الأقباط.. الوجه الآخر».. برجاء إرسال الأصل، حتى يتسنى لنا نشر الرسالة بشكل جيد .

● أبو عربان السيد محمد علي - مدرس ابتدائي - سوهاج - المراغة قرية العمور ننشر له خواطر بعنوان «مشتاق» يقول فيها:

ظمأ البراري يعانقني   صوت الذئاب والأسد يرعبني
لقطرة ماء من يداك   فأين أنت وأين حماك

وبالطبع فالشعر يحتاج إلى قراءة مستمرة وموهبة فضلا عن دراسة لبحور الشعر، ليتمكن الشاعر من تملك ناصية هذا الفن الجميل والصعب جداً!

● كما وصلتنا هذه الأرجوزة من الصديق سعيد عبدالقوى - محمد - بني سويف يقول فيها:

طه عميد الأدب
قد حزت أعلى الرتب
كافحت شر الظلم
بالصبر أو بالدأب
حولت عتم الدجى
نورا لدنيا الأدب

●● أما الصديق صلاح جميل سعد من غزة - فلسطين فيرسل لنا قصصا طويلة، ونطلب إرسال عمل واحد متقن، وأيضا يحدد لنا مطلبا واحداً، أي كتابا معينا وسوف نحاول إرساله على عنوانه:

الكلمة الأخيرة



إنهم يردمون النيل!

بقلم: د. رشدى سعيد

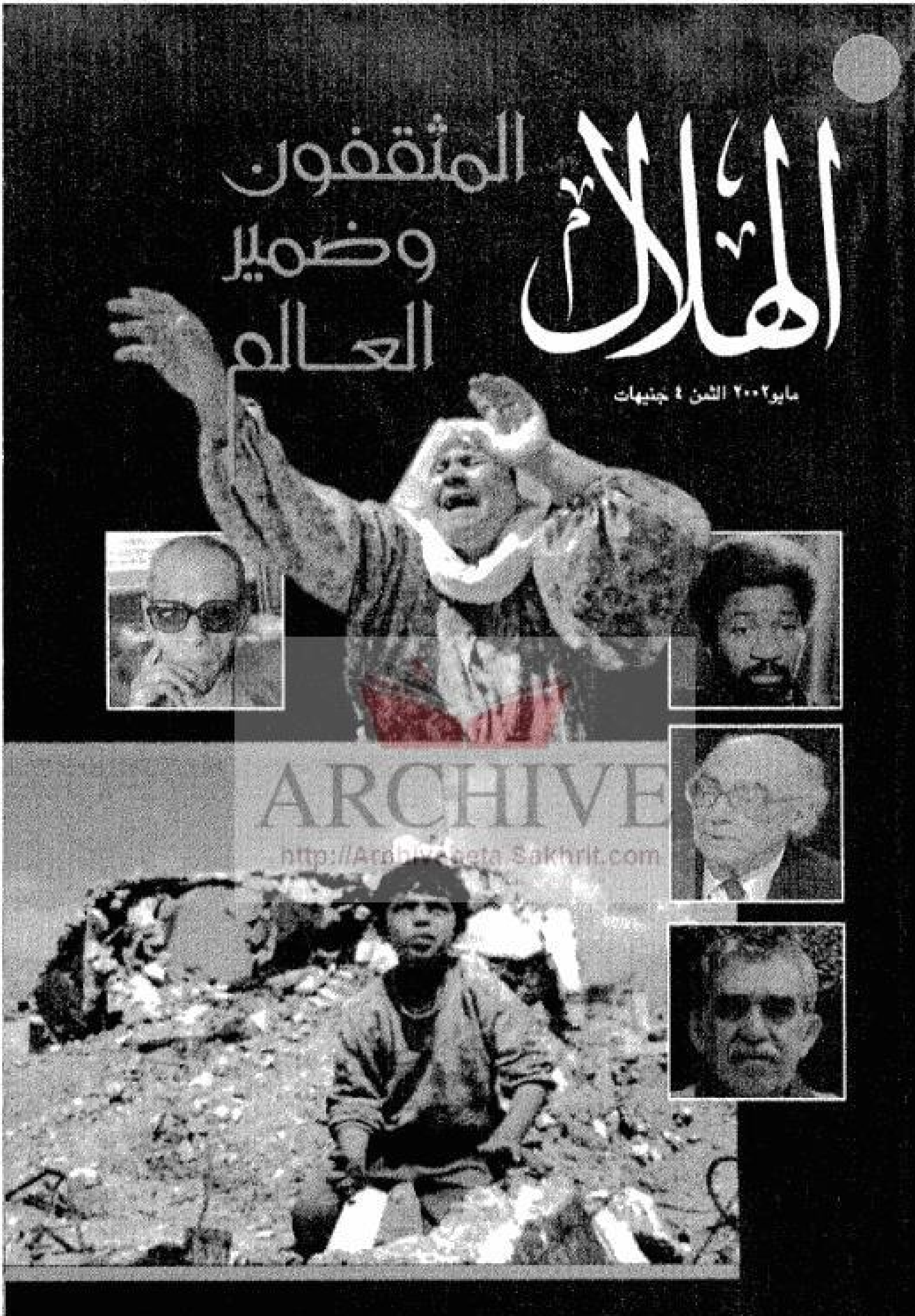
فى جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ أول مارس سنة ٢٠٠٢ تحقيق صحفى مزود بالصور كتبته مرفت الحصرى تحت عنوان «إنهم يردمون النيل» أسمح لنفسى أن أستعيره عنوانا لهذه الكلمة جاء فيه أن وزارة الرى والموارد المائية تقوم بتخليق جزيرة وسط النيل فى منطقة المعادى بجوار القاهرة أمام مبنى المحكمة الدستورية العليا باستخدام أكبر آلات تحريك الأرض لإقامة الأحواض بداخل النهر ثم شفط المياه منها وردمها بعد ذلك وإحاطتها بحائط من الحجر الجيرى وتقوم الوزارة بتخليق هذه الجزيرة لسبب لم تفصح عنه وبهمة كبيرة لم يعلن عن دوافعها وموقع النيل عند هذه المنطقة تعرض لاعتداءات خطيرة فقد تم ردم جزء من شاطئه الشرقى لإقامة مقهى بداخل النيل كما تم بناء هيكل خرسانى بارتفاع دورين شمال هذا المقهى وبداخل النهر يبدو أن استكماله قد أوقف.

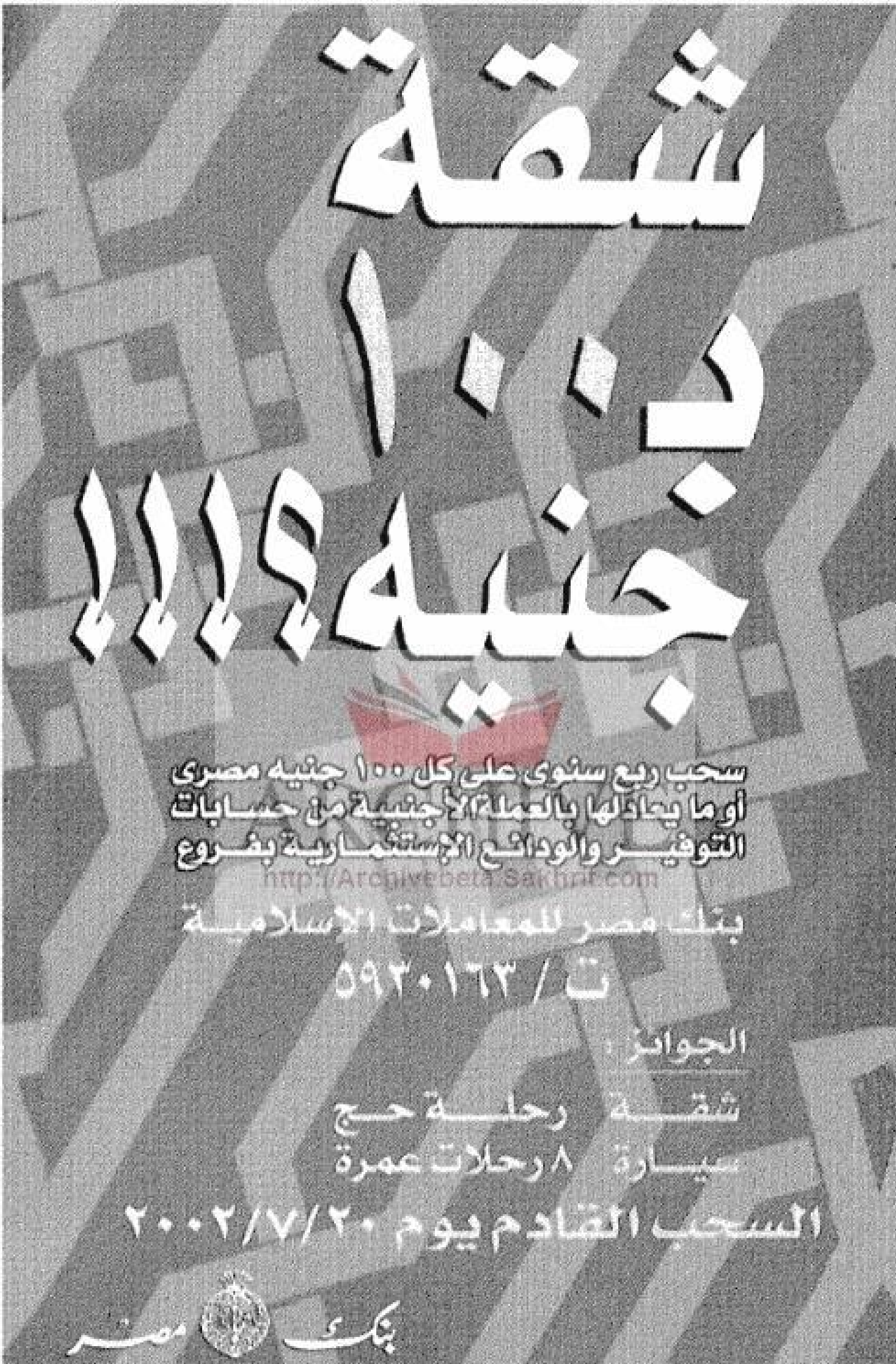
ولم تنشر وزارة الرى خبر بناء هذه الجزيرة كما أنها لم تعط الصحافة أو أى من المهتمين بشئون النيل أو البيئة نتائج دراساتها عن الأسباب التى جعلتها تبنى هذه الجزيرة أو عن آثار بنائها على هيدروجرافية النهر وبيئته إن كانت هناك ثمة دراسات.

ويلفت النظر هنا أن ردم النيل وتقليص مجراه وبناء المنشآت الخرسانية بداخله هو من الأمور الشائعة التى كادت أن تحجب رؤية النهر وأن تمنع الوصول إلى شواطئه وقد خبرت ذلك بنفسى عندما حاول مخرج برنامج «أبناء نهر النيل» الذى تعده وتقدمه الدكتورة أميمة كامل أن يصورنى وخلفى النهر فقد جاب معى النهر على طول مدينة القاهرة فلم نجد مكانا نستطيع فيه الوصول إلى النهر إلا من خلال ممر صغير ترك للوصول إلى مرسى المراكب التى تعبر النيل عند المعادى.

كما يلفت النظر أيضا أن كل هذه التجاوزات المخلة بالقانون وبحقوق الشعب تحدث بواسطة الأجهزة الحكومية أو برضاها وأن أكبرها حدث بجوار مركز شرطة المسطحات المائية التى يفترض أنها وجدت لحماية النهر من التعديات عليه وأنى أترك القارئ لكى يتأمل هذه الحقائق ليشاركنى فى المطالبة بإيقاف هذه الاعتداءات السافرة والتى تنتقص من حق جميع المواطنين فى المشاركة فى هذا النهر الذى يعيشون فى ظله والذى ينبغى أن تكون شواطئه ملكا عاما للجميع!




الهلال
المثقفون وضمير العالم
مايو ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



شقة
بـ ١٠٠
جنيه؟!!!
سحب ربع سنوى على كل ١٠٠ جنيه مصرى
أو ما يعادلها بالعملة الأجنبية من حسابات
التوفير والودائع الإستثمارية بفروع
بنك مصر للمعاملات الإسلامية
ت / ٥٩٣٠١٦٣
الجوائز :
شقة رحلة حج
سيارة ٨ رحلات عمرة
السحب القادم يوم ٢٠٠٢/٧/٢٠
بنك مصر

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤
دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.

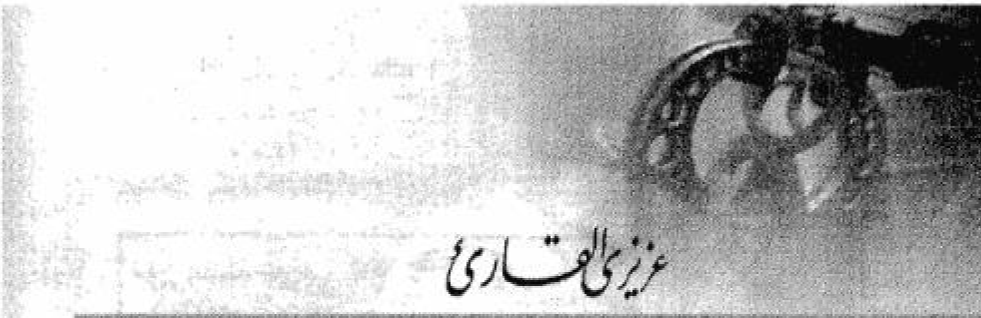
● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة
شهر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

المثقفون وضمير العالم

.. وكأن بداية الألفية الثالثة، جاءت لتنبىء من جديد، وبعد مرور قرن كامل، بأن الصراع العربى الإسرائيلي مازال مستمرا، بل ولن يتوقف .. أشعل الشرارة شارون عندما بدأ بالاعتداء على المسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين، والذى مازال يحاصر كنيسة المهد، المكان المقدس الذى ولد فيه السيد المسيح والتى تحفظ أصداء نشيد الملائكة بيوم ميلاد المسيح.

ومع التصعيد الخطير، وقتل الفلسطينيين الأبرياء، وتدمير الأخضر واليابس لهذا الشعب العربى المسلم، الذى دفع الكثير من أرواح أبنائه، وكأنه كتب عليه البؤس والشقاء على مر التاريخ .. وانطلقت مسيرات المثقفين فى كل أنحاء العالم تعلن الغضب فى بلادنا العربية وفى أوربا.. فى افريقيا وآسيا، وكأن المارد خرج من القمقم يعلن عن رفضه للعنصرية والبربرية والقتل الجماعى، وتدمير مابناه الفلسطينى فى سنوات قليلة، ظن أن الأمن أت وأن حلم الأمان بات قريبا!

وفى الوقت الذى رأينا فيه عرفات رمز نضال الشعب الفلسطينى لايحميه من القوى الغاشمة، سوى إيمان مطلق بقضيته العادلة، وجدران غرفة وحيدة يحتمى فيها هو ونفر من صحبه بلا ماء أو كهرباء أو حتى دواء، جاء المثقفون وأحباء السلام فى العالم يقفون دروعا بشرية أمام الآلة العسكرية التى دمرت مخيم جنين، ودفنت تحت أطلاله المئات من الأطفال والشيوخ والنساء ورجال المقاومة الباسلة، الذين تشبثوا بالأرض حتى آخر طلقة من بنادقهم العتيقة!

.. جاء سوينكا وساراماجو وغيرهما ليعلنوا أمام العالم المتحضر تضامنهم مع شعب يضيع حقه، فى وقت تخلى عنه أقرب الناس إليه، وبرغم الوعود والعهود لم نعد نسمع سوى تصريحات هى أقرب إلى الشجب والاستنكار إياه .. الذى تعودنا عليه - ووعد بمساعدات مادية وعينية تصل بإذن الله حينما توافق إسرائيل على ايصالها للشعب الفلسطينى، وربما بعد موت الأطفال والشيوخ جوعا أو بسبب نقص فى الدواء، أو تركهم ينزفون بعد اطلاق نيران مدافعهم الثقيلة من الدبابات والمجنزرات، وكأن هذا الإنسان الفلسطينى خلق جسمه من فولاذ لاتخترقه سوى مدافع إسرائيل، وصواريخ

تطلقها الأباتشي وإف ١٦ وإف ١٥ وهذه الأسلحة كلها أمريكية الصنع.

وقامت المظاهرات الغاضبة في كل مكان تستنكر تلك الجرائم الوحشية ولكن هل المظاهرات وهل الاستنكار والدعاء في المساجد بأن تنتقم العناية الإلهية من إسرائيل كاف .. والجواب : لا! فإسرائيل لاتخيفها المظاهرات ولا الشعارات ولا الهتاف المنظم والذي هو في الواقع ظاهرة صحية صحونا عليها مؤخرا.

والمطلوب منا هو أن نعلم كيف خططوا لذلك، وماهي نهاية هذا المخطط لإذلال شعب فلسطين، والمحاولات التي نستشعرها باستدراج شعوب بعينها من بينها مصر للدخول في حرب، ولتصبح تلك الدولة التي تدخل معها في حرب هي القضية الأولى التي تشغل العالم، وتصبح قضية فلسطين قضية أخرى .. بل تصبح نسيا منسيا!

لقد بدأ العالم يستشعر أن إسرائيل ليست وحدها وراء مخططها الشيطاني الرهيب، وفي المقابل فنحن كعرب لسنا قلة، فلدينا الرجال الأشداء، ولدينا المال العربي الذي أودعه العرب في بنوكهم يستثمرونه ويسلحون به جيوشهم ونحن لاحول لنا ولاقوة!

ولدينا العقول العربية التي يمكن أن تبتكر، ونصبح في مصاف علمائهم.

إنها حرب طويلة بين العرب وإسرائيل، ربما في بعض الأحيان ليست حربا نظامية، ولكنها حرب تطول العرب في كل مكان، وهنا لابد أن نغير من استراتيجيتنا، ونعي الدرس جيدا، ونعلم أننا هزمناهم في معركة ١٩٧٣ بالعلم وقوة العقيدة.. فما بالنا لو أدركنا بقية منظومة الوحدة والتوحد.

إن المستقبل غامض، لكن يبقى الأمل، وسوف ينتصر الفلسطينيون أصحاب الأرض، كما انتصر أجدادهم من قبل عمر بن الخطاب، وصلاح الدين.. وستظل الحضارة الإسلامية شامخة تعلم هؤلاء النازيين الجدد، أن التاريخ والجغرافيا يقولان إن فلسطين أرض عربية، ولكن بشرط أن نعي الدرس الذي تكشف على الملأ وبشكل سافر ومفضوح، فالهدف ليس فلسطين وحدها، فقد افتضح أمرهم حينما عاودتهم الغطرسة من جديد وبدأوا اطلاق شعارهم الذي كنا نحن قد نسيناه.. «من النيل إلى الفرات» !

الآن اقتربت الساعة ودقت نواقيس الخطر، وبدأوا هم يدقون طبول الحرب وإبادة شعب عربي عزيز علينا، فماذا نحن فاعلون؟!

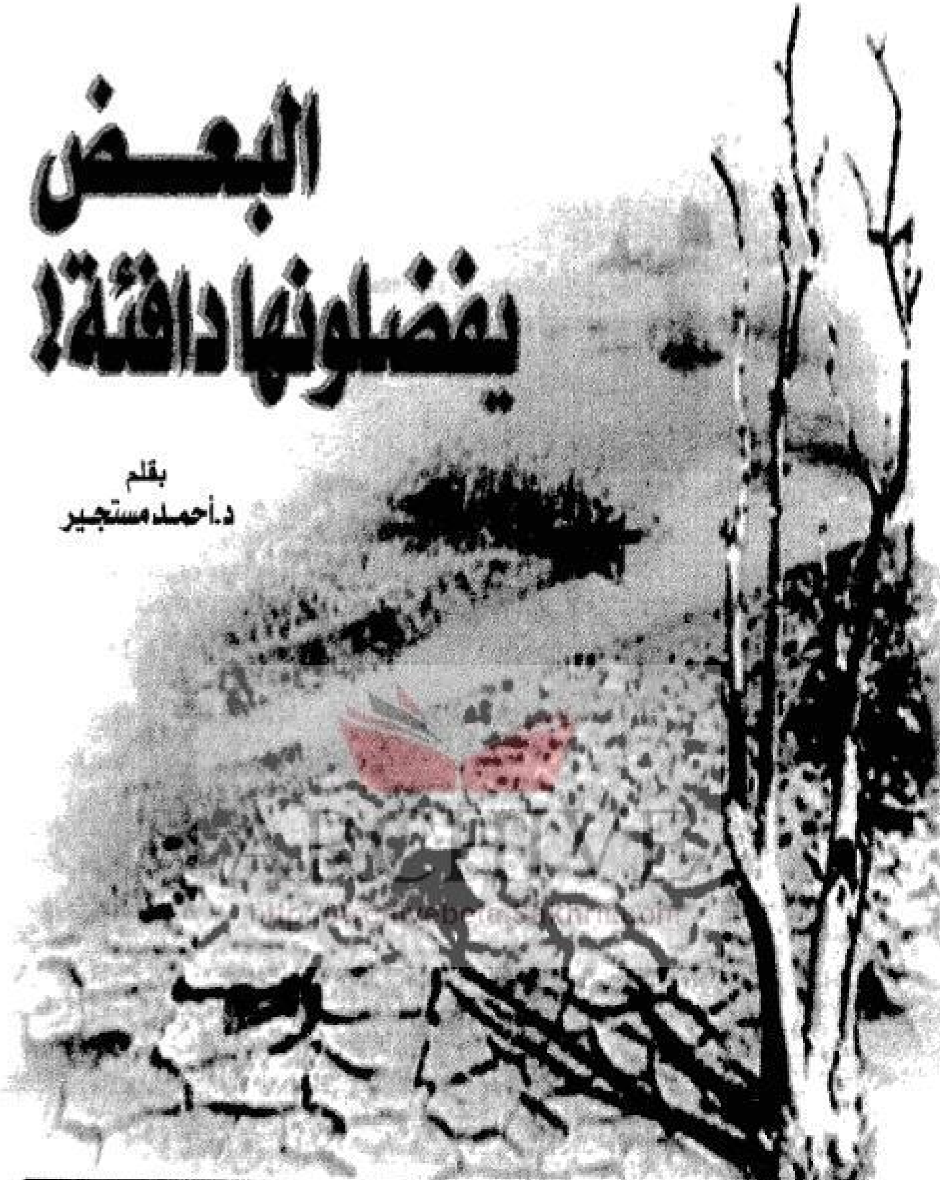
إنها حرب حضارية طويلة المدى أسلحتها العلم والمعرفة والتخطيط السليم، ومن هذا المنطلق ينبغي أن نستثمر موقف المثقفين الشرفاء في العالم الذين وقفوا إلى جانب الحق الفلسطيني وبالنسبة للمثقفين العرب فعليهم دور كبير في مواصلة كشف أبعاد تلك الحرب العدوانية، وشرح قضيتنا العادلة، ومايبنغي أن نقوم به مستقبلا لمواجهة هذا التحدي الذي يهدد كياننا ومستقبلنا، وهويتنا العربية. ويجب استغلال هذه اللحظة التاريخية التي بدأ فيها وجدان وضمير العالم يتحركان ، لتتحول إلى قوة دفع دائمة من أجل حق الإنسان في حياة آمنة لا تهدده الطائرات والمدافع والبوارج .. ومن أجل حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وبناء دولته المستقلة على أرض وطنه.

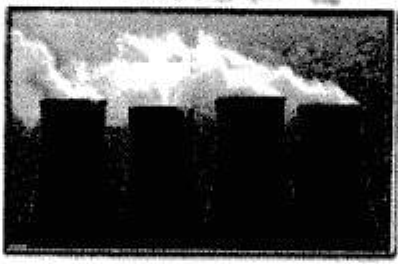
المحـــــرر

البعض يفضلونها دافئة!

بقلم

د. أحمد مستجير







فى مايو ١٩٨٨، وبدعوة من الحكومة الكندية، عُقد فى «تورنتو» مؤتمر تحت عنوان «الجو المتغير»، حضره ممثلون عن ثمان وأربعين دولة، ودعمه برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة لتظهر على الساحة العالمية قضية «ظاهرة الصوبة» فى دوى عظيم لايزال مستمرا حتى اليوم، (الصوبة = المدفأة). إننا نغير الطريقة التى تتفاعل بها الطاقة الشمسية مع الغلاف الجوى للأرض، وخروجها منه، من بين النتائج المتوقعة زيادة حرارة جو الكرة الأرضية وتحول انماط المناخ فى العالم كله - وربما كانت هناك آثار أخرى لم ندركها بعد. انتبه العالم إلى خطر جديد محتمل يهدده كله، مثلما انتبه قبلا عام ١٩٦٢ عندما نشرت راشيل كارسون كتابها الخطير «الربيع الصامت» الذى كشفت فيه عن النتائج المدمرة للاستخدام السفيه لمبيدات الآفات على البيئة وعلى صحة الإنسان وحياته.

توالت المؤتمرات الدولية منذ ذلك الحين تناقش «ظاهرة الصوبة» هذه، وفى يناير ٢٠٠١ أصدرت الهيئة الحكومية الدولية لتغيير المناخ «فى اجتماعها فى شنغهاى بالصين تقريرا يتنبأ بأن متوسط حرارة جو الأرض سيرتفع كثيرا خلال المائة سنة القادمة. قال التقرير إن الإنسان هو المسئول عن التغير فى مناخ الأرض، توقع أن ترتفع الحرارة على عام ٢١٠٠ بمقدار يتراوح مابين ١,٤م و ٥,٧م، لتسبب ارتفاعا فى مستوى سطح البحر يتراوح ما بين ٩سم و ٨٦,٥سم، الأمر الذى سيتسبب فى إغراق مناطق منخفضة كثيفة السكان فى بلاد مثل مصر والصين وبنجلاديش، ثم إن هذا التغير فى المناخ قد يتسبب فى فشل المحاصيل والمجاعة وقد يهدد صحة الإنسان بانتشار أمراض كالملاريا، كما يؤذى الطيور والأسماك والكثير من النظم الإيكولوجية، وقد تمتد بسببه الصحراء لتضم إليها الكثير من أراضى المراعى. كان تقرير شنغهاى أقوى كثيرا من تقرير سابق صدر عام ١٩٩٥، ورأى ثمة «تأثيرا محسوسا» على مناخ الأرض وتنبأ بأن حرارة الجو سترتفع بمقدار ١-٣,٥م. لكن ماهى ظاهرة الصوبة التى ستسبب كل هذه الكوارث؟

ظاهرة الصوبة الطبيعية

لو لم تكن للأرض غلالة من الهواء تغلفها لأصبح متوسط درجة حرارة سطحها - ١٨م، تماما كمتوسط حرارة سطح القمر الذى لاتحيط به مثل هذه الغلالة الهوائية، لكن متوسط حرارة



سطح الأرض هو + ٥١أم، على الرغم من أنها تقع كالقمر على نفس البعد من الشمس: والسبب هو غلالة الهواء وظاهرة الصوبة الطبيعية التي ترفع الحرارة عند سطح الأرض بمقدار يبلغ ٣٣أم، لولا وجود الغلاف الهوائى حول الأرض لغدت كوكبا ثلجيا لايقيم حياة.

تبلغ حرارة الفرن الذرى المسمى الشمس ستة آلاف درجة مئوية. تصدر عن الشمس إشعاعات تتراوح أطوال معظم موجاتها ما بين ٤, ٠و٧, ٠ ميكرومتر ، (والميكرومتر = واحد على مليون من المتر)، وهناك ٧٪ من الموجات اقصر من ٤, ٠ ميكرومتر، أى تقع فى منطقة الأشعة فوق البنفسجية، وهذا القدر من الأشعة يمتص فى الاستراتوسفير فيرفع حرارته، تمر أشعة الشمس خلال الغلاف الجوى للأرض دون أن تمتص. يمتص سطح الأرض والبحر نصف الأشعة الشمسية فيدفأ، بينما ينعكس إلى الفضاء النصف الثانى عن طريق السحب وسطح الأرض نفسه، أو يمتص - كما ذكرنا - فى المنطقة العليا من الاستراتوسفير.

يسخن سطح الأرض بضع عشرات من الدرجات المئوية، وكلما ازدادت حرارة الجسم ازدادت كمية الحرارة التى يشعها، يشع سطح الأرض إذن طاقة ذات موجات حرارية أقل كثافة وأطول كثيرا من موجات أشعة الشمس: موجات تحت حمراء، تقع أطوالها مابين ٤ ميكرومتر و ١٠٠ ميكرومتر، هذه الموجات الطويلة، على عكس موجات الضوء المرئى الآتى من الشمس، يمتصها بالغلاف الجوى للأرض: بخار الماء (ونسبته فى الجو نحو ١٪) وثانى أكسيد الكربون (ونسبته فى الجو ٠٠٣.٠٪) أما الغازات السائدة التى تؤلف معظم الغلاف الجوى (النتروجين ونسبته ٧٧٪ والاكسجين ونسبته ٢١٪) فليس لها إلا أثر ضئيل. يمتص بخار الماء (يد٢أ) وثانى أكسيد الكربون (ك أ٢) الأشعة تحت الحمراء فى شريط موجات تقع أطوالها ما بين ١٣و١٠٠ ميكرومتر، كما يمتص بخار الماء هذه الأشعة أيضا فى شريط أدنى قليلا فى طول الموجة يقع مابين ٤و٧ ميكرومترات. هناك إذن ما بين ٧و١٣ ميكرومترا «نافذة» تسمح لبعض الأشعة تحت الحمراء الهروب.

الأشعة تحت الحمراء التى يمتصها بخار الماء وثانى أكسيد الكربون بالطبقة السفلى من الغلاف الجوى المسماة «الطروبوسفير» تدفئ الهواء، فيشع بدوره حرارة تحت حمراء أيضا، يعود البعض منها إلى الأرض لتدفأ ويتخذ البعض الآخر طريقه ليهرب إلى الفضاء، هذان الغازان يعملان كالملاءة، كمثل زجاج الصوبة الذى يسمح بمرور ضوء الشمس إلى الداخل لكنه يحبس البعض من الحرارة المشعة، فلا تخرج - من هنا جاء اسم «ظاهرة الصوبة» أو «ظاهرة الدفيئة». من هناك أيضا تكون أدفأ طبقات الطروبوسفير هى الطبقة الأقرب إلى سطح الأرض، وتنخفض حرارة الطروبوسفير مع الارتفاع على الرغم من الاقتراب نحو الشمس.

أما فى الاستراتوسفير الذي يعلو الطروبوسفير مباشرة، فيكون الأمر على العكس من ذلك: الطبقة السفلى منه الأقرب إلى الطروبوسفير تكون أبرد من

طبقته العليا، لأن جزيئات الأكسجين والأوزون بهذه الطبقة العليا تمتص الأشعة فوق البنفسجية في ضوء الشمس فتدفأ، أما المنطقة السفلى فتلاصق أعلا الطروبوسفير المنخفض الحرارة فتكون أبرد.

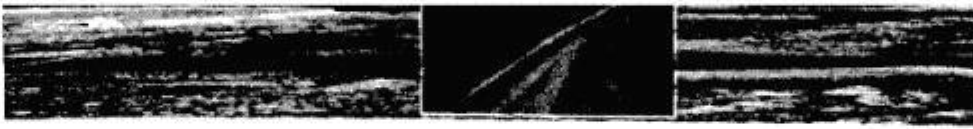
فإذا حفظ الطروبوسفير قرب سطح الأرض كمية من الحرارة أكبر أصبح أعلى الطروبوسفير أبرد، ويكون أسفل الاستراتوسفير أبرد. ظاهرة الصوبة إذن تعني: دفء الطروبوسفير السفلى مع برودة أكبر في الاستراتوسفير الأسفل.

على الرغم من أن حرارة الغلاف الجوى عند سطح الكرة الأرضية يزيد بمقدار ٣٣°م عما تكون عليه دون ظاهرة الصوبة، فإن الحرارة لاتستمر في الارتفاع إلى ما لانهاية إذا ما بقي تركيب الغلاف الجوى ثابتا، إذ ستصل الحرارة بالضرورة إلى نقطة اتزان، طالما بقيت كمية الحرارة الآتية من الشمس ثابتة.

أما إذا تغير تركيب الهواء، قل مثلا بمضاعفة تركيز ثاني أكسيد الكربون فيه، فستتحرك نقطة الاتزان، وتتزايد حرارة الأرض إلى أن تصل إلى نقطة اتزان جديدة، وفي أثناء هذا التحرك نحو ارتفاع الحرارة للوصول إلى نقطة الاتزان الجديدة، تتغير أنماط الرياح والمناخ بطرق شاذة لايمكن التنبؤ بها.

ظاهرة الصوبة البشرية

والذى حدث منذ بدء الثورة الصناعية نحو عام ١٧٨٠ أن أخذ البشر يستخرجون الوقود الحفرى (الفحم والبترول والغاز الطبيعي) من باطن الأرض، ويحرقونه، ومع تسارع عجلة التقديم الصناعى والزراعى تزايدت في الجو بالتدريج تركيزات ثاني أكسيد الكربون وغيره من غازات الصوبة التي ترفع حرارة الهواء (وأهمها الميثان «ك يد٤» وأكسيد النيتروز «ن٢أ»)، لتسبب ما سمي باسم «ظاهرة الصوبة البشرية» - أي ظاهرة الصوبة التي نشأت عن الأنشطة البشرية، اختلف تركيب الغلاف الجوى وبدأ المناخ يتحول إلى نقطة اتزان جديدة: تزايد تركيز ثاني أكسيد الكربون بإحراق الوقود الحفرى والخشب وتحطيم الغابات، كان تركيزه في الجو عام ١٧٥٠ قبل بداية الثورة الصناعية ٢٧٩ جزءا في المليون ووصل عام ٢٠٠٠ إلى ٣٦٦ جزءا في المليون - تزايد تركيز غاز الميثان مع تزايد إحراق الوقود وتحلل المخلفات العضوية وتربية الماشية وزراعة الأرز والتعدين والنمل الأبيض، فارتفع تركيزه من ٧٠٠ جزء من المليون عام ١٧٥٠ إلى ١٧٦٠ جزءا في المليون عام ٢٠٠٠، وتزايد تركيز أكسيد النيتروز في هذه الفترة ذاتها بسبب الأنشطة الزراعية والصناعية وحرق المخلفات الصلبة والوقود الحفرى وإزالة الغابات من ٢٧٠ جزءا في المليون إلى نحو ٣١٦ جزءا في المليون، ثم إن الإنسان قد ابتكر غازات صوبة جديدة لم تكن موجودة، وقام بنشرها في الجو لتضيف إلى الحمل المؤدى إلى رفع الحرارة: ابتكر غازات الكلوروفلوروكربونات، ك ف ك، التي تستخدم في مكيفات الهواء، وفي الايروسولات ومنتجات الرغاوى، تلك الغازات التي أسهمت أيضا في مشكلة بيئية أخرى هي «ثقب الأوزون» تقول نماذج الكمبيوتر إن متوسط فترة بقاء



الميثان في الجو هو ١٠ سنوات، أما أكسيد النيتروز فهو ١٠٠ سنة وتبقى الكلوروفلوروكربونات ٥٠ -١٠٠ سنة، أما ك أ٫ فيصعب تقديره، فإذا علمنا أن مياه المحيط لايمكن أن تمتص أكثر من ٧٠ - ٨٥٪ من ثاني أكسيد الكربون المضاف إلي الجو بالأنشطة البشرية، فسيتضح أن نسبة كبيرة من فائض ك أ٫ ستبقى في الجو لعقود أو قرون بل أن نسبة منه تبلغ ١٥- ٣٠٪ قد تبقى آلاف السنين.

تختلف غازات الصوبة في قدرتها على امتصاص الحرارة من الغلاف الجوي : جزيء الميثان يقتنص من الحرارة ٢١ ضعف ما يقتنصه جزيء ثاني أكسيد الكربون، وجزيء أكسيد النيتروز يقتنص ٢٧٠ ضعفا، والعادة أن تحوى تقديرات انبعاثات غازات الصوبة جميعا إلى ما يعادلها من الكربون.

ولقد تزايد قدر المعلومات التي قدمت صورة واضحة لعالم يدفأ كما ظهر بتقرير ٢٠٠١ للهيئة الحكومية الدولية لتغير المناخ، اتضح أن متوسط درجة حرارة الهواء قرب سطح الأرض والبحر قد ارتفعت خلال القرن العشرين بمقدار ٠,٦ °م، وهذه القيمة تزيد على القيمة التي قدرت سابقا عام ١٩٩٤ بمقدار ٠,١٥ °م لأن حرارة السنين الاضافية (من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٠) كانت مرتفعة نسبيا وبسبب تطوير طرق معالجة البيانات، تأخذ هذه التقديرات في حسابها «آثار الجزيرة الحرارية»، أي الآثار الناجمة عن وضع الكثير من مراصد درجات الحرارة قريبا من المدن حيث تكون أكثر ارتفاعا. والواقع أن معظم التدفئة التي حصلت في القرن العشرين قد جاءت في فترتين من ١٩١٠ حتى ١٩٤٥ ثم من ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٠. كانت التسعينات هي أدفأ عقد، وكان عام ١٩٩٨ هو أدفأ الأعوام منذ ١٨٦١. في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٩٣، ارتفع أدنى معدل لحرارة هواء الليل على اليابسة بمقدار ٠,٢ °م في العقد، مما أطال الموسم الخالي من التثلج في الكثير من مناطق خطوط العرض الوسطى والعليا، وبلغ تزايد حرارة سطح البحر في هذه الفترة نحو نصف نظيره على اليابسة.

تقول بيانات الأقمار الصناعية إن الأغلب أن يكون اتساع الغطاء الثلجي قد انحسر بنسبة ١٠٪ منذ أواخر الستينات، وتقول بيانات المد والجزر إن مستوى سطح البحر قد ارتفع ما بين ١٠ و ٢٠ سنتيمترا خلال القرن العشرين. والأغلب أن تكون الأمطار قد تزايدت بنسبة ٠,٥ إلى ١٪ في العقد في ذلك القرن على خطوط العرض الوسطى والعليا، وأن هذه النسبة قد بلغت ما بين ٠,٢، ٠,٣٪ في العقد بالمناطق الاستوائية (ما بين خطي عرض ١٠°ش و ١٠°ج)، وأن تكرار هطول الأمطار الغزيرة في النصف الثاني من القرن العشرين على مناطق خطوط العرض الوسطى والعليا بنصف الكرة الشمالي قد تزايد بنسبة تتراوح ما بين ٢ و٤٪، وهذا قد ينشأ عن زيادة رطوبة الغلاف الجوي ونشاط العواصف الرعدية والنشاط الواسع للرياح، كما حدث بنفس هذه المناطق في نفس الفترة. على الأغلب، زيادة في كمية السحب بلغت ٢٪ وتزايدت منذ أواسط السبعينات

فترات الدفء بالمناطق الاستوائية وشبه الاستوائية وبعض مناطق خطوط العرض الوسطى.

انتهى تقرير ٢٠٠١ إلى أن الأغلب أن يكون ما حدث من تدفئة للجو في القرن العشرين قد أسهم بشكل واضح فيما لوحظ من ارتفاع في سطح البحر عن طريق زيادة حجم الماء بالتسخين وعن طريق الذوبان الواسع النطاق للثلوج على اليابسة.

خبر جديد

في ١٩ مارس ٢٠٠٢ جاء خبر يقول إنه في أقل من شهر تشظى رف ثلجي بالجانب الشرقي للقارة القطبية الجنوبية (اسمه لارسين ب) إلى جبال ثلجية صغيرة. كان سمك هذا الرف ٢٠٠ متر ومساحته ٣٢٥٠ كيلومترا مربعا، لكن هذا لن يرفع من مستوى سطح البحر، لأن الثلج كان بالفعل طافيا، قال العلماء إن السبب هو ارتفاع درجة الحرارة بالمنطقة، إذ يقدرون أن الحرارة قد ارتفعت في بعض المناطق هناك خلال الخمسين سنة الأخيرة بمقدار ٢°م، سوى أن حرارة جوف القارة كانت تنخفض خلال نفس هذه الفترة، غير أن السرعة التي حدث بها هذا الانهيار قد اصابتهم بالفزع، قالوا إنه من الصعب عليهم أن يصدقوا أن تتحلل كمية من الثلج تبلغ خمسمائة مليون بليون طن في أقل من شهر - فهذه أكبر واقعة حدثت حتى الآن في سلسلة تراجعات الرفوف الثلجية عبر الثلاثين سنة الماضية، لكنهم في نفس الوقت لاحظوا أن هناك من الشواهد مايشير إلى أن التراجع في ملاءة الثلج بالجانب الغربي للقارة القطبية الجنوبية قد توقف!

تدفئة الجو وصحة الإنسان

هناك آثار أخرى لارتفاع حرارة الجو لايلتفت إليها كثيرا، وهي أن التدفئة قد تؤدي إلي انتشار الكثير من المتاعب الصحية للبشر، ومما يثير القلق أن ثمة بوادر لذلك قد ظهرت بالفعل.

وارتفاع حرارة الجو قد يؤثر في صحة الإنسان عن طريق مباشر أو عن طريق غير مباشر، فأثر الموجات العاتية من الحرارة سيحدث في معظمه شتاء وفي أثناء الليل على خطوط العرض الأعلى من ٥٠، ومن ثم فالمتوقع أن يرتفع عدد الوفيات الناجمة عن هذه الموجات الحارة حتى لتتوقع نماذج الكمبيوتر أن يتضاعف العدد على عام ٢٠٢٠، وإذا ما طالت الموجات الحارة فإنها ستشجع إنتاج الضخان Smog وانتشار الأليرجينات المسببة للحساسية، وكلا العاملين يرتبط بالمشاكل التنفسية.

وقد يأتي الأثر على صحة الإنسان عن طريق أقل مباشرة، وذلك بأن تزيد التدفئة من تكرار الفيضانات والجفاف ومن النوبات العنيفة من الأمطار الغزيرة، وقد تتسبب هذه جميعا في موت الكثيرين بالغرق أو المجاعة، كما تؤدي إلى ظهور الأمراض المعدية وانتشارها.

والأمراض المعدية جنيٌّ إذا ظهر يصعب احتواؤه ثانية في قمقمه، فهي تقتل في ضربة سريعة واحدة أعدادا محدودة من الناس، لكنها إذا ما تجذرت أخذت تتحدى الإبادة، بل أنها تنتقل وتنتشر إلى مناطق جديدة.

والسيطرة على هذه الأمراض أمر



صعب في العالم النامي حيث تشح وسائل الوقاية والعلاج، لكن الدول الغنية قد تقع هي الأخرى ضحية هذه الأمراض، كما حدث عام ١٩٩٩ عندما ظهر فيروس غرب النيل لأول مرة في أمريكا الشمالية ليقتل سبعة أفراد في نيويورك، ولنا أن نتوقع من التجارة الدولية التي ذاعت في أيامنا هذه أن ظهور المرض بأي مكان في العالم يعني أنه قد يصبح مشكلة حقيقية في قارات بعيدة إذا وجد فيها الكائن المرض بيئة صالحة.

أما الفيضانات ونوبات الجفاف فقد تؤذي الصحة بطريقة أخرى، فهي قد تدمر المحاصيل الزراعية وتجعلها أكثر قابلية للفساد والإصابة بالآفات والحشائش، ومن ثم تقلل الغذاء وتسهم في سوء التغذية، بل وقد تتسبب في هجرة كاملة أو نصف كاملة في الدول النامية، مما قد يؤدي إلى الازدحام وما يصحبه من أمراض كالسل.

ينقل البعوض أمراضا عديدة منها الملاريا وحمى الدنج والحمى الصفراء وبعض صور التهاب الدماغ، وربما كانت هذه هي أهم ماسينتشر من أمراض مع ارتفاع الحرارة، تصل الممرضات إلى البعوض عندما يمتص دم إنسان أو حيوان مريض، ليكاثر الكائن الممرض داخل الحشرة، فتنقله إلى من ستلدغه فيما بعد، ومن المعتقد أن خطورة هذه الحشرات ستتزايد بسبب حساسيتها البالغة للأحوال الجوية، البرد قد يكون صديق الإنسان لأنه يحدد البعوض في فصول ومناطق بعينها، البرد القارس يقتل الكثير من البيض واليرقات والحشرات الكاملة، بعوضة الأنوفليس تسبب تفجرات مفاجئة من مرض الملاريا إذا زادت درجة الحرارة على ١٥درجة مئوية، أما بعوضه إيديس المسئولة عن الحمى الصفراء، وحمى الدنج فتنقل الفيروس فقط في المناطق التي لاتنخفض درجة الحرارة بها عن ١٠درجات مئوية.

ينتشر البعوض بشكل أسرع، ويلدغ أكثر، مع ارتفاع حرارة الجو، فارتفاع الحرارة يسرع أيضا من معدل تكاثر الكائن الممرض ونضجه، ومع ارتفاع حرارة الجو تنتشر الحشرة إلى مناطق كانت محرمة عليها، لتحمل معها المرض، أما ارتفاع الحرارة في الليل وفي الشتاء فيعني زيادة عدد المرضى وزيادة فترة إصابة المرضى في المناطق التي يستوطنها البعوض حاليا.

والفيضانات العالية والجفاف الناتج عن دفء الأرض تساعد على تفشي الأمراض بإضافة أماكن جديدة لتكاثر الحشرات، ففي الجفاف تصبح الجداول بركا راكدة - أماكن طبيعية للتكاثر - وفيه يلجأ الناس إلى الحاويات لجمع الماء لتصبح هذه مواقع صالحة جديدة لتكاثر البعوض.

تقتل الملاريا في العالم الآن ٣٠٠٠ شخص كل يوم معظمهم من الأطفال، وارتفاع حرارة الأرض سيوسع المناطق التي تظهر بها الملاريا من منطقة ٤٥٪ من العشيرة البشرية إلى منطقة تحمل ٦٠٪ منها، كان المستعمرون الأوائل لأفريقيا في القرن التاسع عشر يلجأون إلى الجبال الأبرد هربا من «الهواء الفاسد» mal aria حول المستنقعات .



ولقد بدأت تظهر الآن بالفعل إصابات بأعالي الجبال في أمريكا الجنوبية والوسطى وآسيا وأواسط وشرق افريقيا.

وارتفاع حرارة الأرض قد يزيد من الإصابة بالأمراض التي تحملها المياه، كالكوليرا، الفيضانات قد تجرف مياه البلاعات وغيرها من مصادر المرضات الى مستودعات مياه الشرب، كما تجرف الأسمدة إليها أيضا. وقد تتكاثف الأسمدة مع مياه البلاعات تحت الحرارة المرتفعة لتزدهر طحالب ضارة بعضها سام، وبعضها يلوث الأسماك التي تمرض من يأكلها بل إن الطحالب قد تدعم تكاثر بعض المرضات مثل ميكروب الكوليرا.

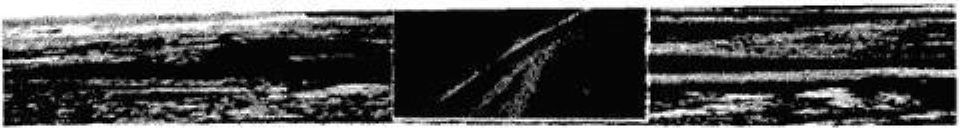


لكن من الصحيح أيضا أن نتائج التدفئة قد لاتكون جميعا سيئة، فالحرارة المرتفعة جدا بالمناطق الحارة قد تقلل عشائر القواقع، ولهذه دورها الأساسي في نقل البلهارسيا، كما أن الرياح العاتية قد توزع التلوث وتشتته، ثم إن الأشية الدافئة بالمناطق المعروفة بالبرودة قد تقلل من أزمات القلب والأمراض التنفسية المرتبطة بالبرد.

بروتوكول كيوتو.. والأمريكان

في ديسمبر ١٩٩٧ اجتمع قادة العالم في كيوتو باليابان لوضع معاهدة دولية تحد من انبعاثات «غازات الصوبة» نص البروتوكول الذي اعتبر يومها معلما في السياسة البيئية الدولية على ضرورة أن تخفض نحو ٤٠ دولة من الدول الصناعية من انبعاثات ست من غازات الصوبة، عن مستوياتها في عام ١٩٩٠ تبلغ في المتوسط ٢ر٥٪ وذلك على عام ٢٠١٢ تسمح هذه المعاهدة بحق الدول في تبنيك واستعارة حصص انبعاثات الكربون من غيرها من الدول الموقعة على الاتفاقية، لم يتضمن البروتوكول النص الذي اقترح بضرورة أن يتم داخل أراضي الدولة ٥٠٪ على الأقل من التخفيض الذي تلتزم به.

لكن إدارة الرئيس بوش عارضت المصادقة على الاتفاقية، وانسحبت منها في مارس ٢٠٠١، رغم أن الولايات المتحدة تبث وحدها في الجو ٢٥٪ من كل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، قال معارضو الرئيس إنه خضع للضغوط وتنصل من تعهداته التي أكدها إبان حملته الانتخابية . قال بوش: «ليست لدينا أية اهتمامات في تطبيق هذه المعاهدة، لاتوجد دولة صناعية كبرى قد صدقت عليها منذ التفاوض بشأنها» كانت إدارة كلينتون قد وافقت عليها، لكنها وجدت مقاومة عنيفة ضدها في



الكابيتول هيل، يؤكد بوش أن المعاهدة ستؤذى الاقتصاد الأمريكى كما أنها تعفى دون وجه حق دولا نامية مثل الصين والهند.

حورت الصيغة النهائية لبروتوكول كيوتو فى اجتماع عقد فى بون بألمانيا فى يوليو ٢٠٠١، لكن المعاهدة ستظل مجرد قطعة من الورق حتى يتم التصديق عليها.

وفى نفس شهر يوليو ٢٠٠١ صرح بوش بأن الولايات المتحدة أبدا لن توقع على الاتفاقية :

«إننى أعتقد أن علينا أن نعمل سويا لتخفيض غازات الصوبة، لكن البروتوكول الذى ورثته «عن إدراة كلينتون» والذى أدانه فى مجلس الشيوخ ٩٥ صوتا ضد لاشىء، ليس هو الطريق الصحيح لنتخذه... إن مانحتاجه هو أن نطور استراتيجية للطاقة ومعها استراتيجية بيئية تقلل من غازات الصوبة وتسمح فى الوقت نفسه لاقتصادنا بأن ينمو». الاتفاقية فى الواقع تتطلب أن تخفض الولايات المتحدة انبعاثاتها من غازات الصوبة على عام ٢٠١٢ بمقدار يقل عن مستوى ١٩٩٠ بنسبة ٧٪.

ولقد توصل مؤتمر أخر عقد بمراكش فى نوفمبر ٢٠٠١ وحضره ممثلون لأكثر من ١٦٠ دولة إلى صيغة تسوية جديدة بتخفيض الانبعاثات لتصبح ٢٪ من انبعاثات ١٩٩٠ خلال عقد من الزمان، مما قد يؤذن بقرب التصديق عليها. «كان من بين الحاضرين ممثلون للولايات المتحدة لايشتركون فى المناقشات» لكن المناخيين يقولون إن المطلوب حقا هو تخفيض هذه الانبعاثات بنسبة ٦٠٪ أو أكثر خلال العقود القليلة القادمة، إذا أردنا أن نحفظ المناخ داخل الحدود الآمنة.

وقعت على هذه الاتفاقية ٨٤ دولة والمطلوب أن تصدق عليها ٥٥ دولة ليبدأ تنفيذها، من بين المتطلبات الإضافية أن يكون ماتبثه هذه الدول الخمسة والخمسون يعادل ٥٥٪ من انبعاثات عام ١٩٩٠ ولقد وضع اعتراض الولايات المتحدة الحل فى يد اليابان، التى تفرد ٦ر٨٪ مما يبث فى جو العالم من ثانى أكسيد الكربون، الاتحاد الأوربى، وروسيا، وشرق أوربا تنتج جميعا أقل قليلا من ٥٠٪ من انبعاثات ثانى أكسيد الكربون، لو وافقت اليابان على الانضمام فستتحقق نسبة ٥٥٪ المطلوبة لتصبح الوثيقة ملزمة قانونيا.

وقد أعلنت وزيرة البيئة اليابانية أن اليابان تنوى أن تنفذ اتفاقية كيوتو، كما رأى بعض المحللين أن الاتفاقية تمثل أداة للضغط السياسى على الولايات المتحدة حتى تعود إلى طاولة المباحثات فى هذه القضية.

من بين أهم بنود هذه الاتفاقية بند يسمح لروسيا أن تبيع فائض المسموح به لها من انبعاثات ، إلى اليابان التى ستزيد انبعاثاتها عن المقرر لها بالاتفاقية - ذلك أن الانبعاثات فى روسيا قد أصبحت أقل مما كانت عليه عام ١٩٩٠ ، بعد انهيار الشيوعية، كما أن روسيا قد حاجت بأن بها من الغازات مايتمص ١٧ مليون طن مترى من ثانى أكسيد الكربون فى العام، الأمر الذى يؤهلها إلى أن تبيع مسموحها إلى اليابان أو غيرها من الدول الصناعية بما

يقدر بعشرة بلايين دولار كل عام.

يقول الأمريكيون إن غابات الولايات المتحدة قد امتصت عام ١٩٩٧ من كربون الجو ما يبلغ ٢٠٠ مليون طن، أي نحو ١٧٪ من الانبعاثات الكلية من غاز ثاني أكسيد الكربون التي أفرزتها الولايات المتحدة، وأن المحاصيل والمراعي قد استوعبت في نفس ذلك العام ٢٠ مليون طن، وهم يرون ضرورة أن يدخل أثر الغابات والزراعة في بروتوكول كيوتو.

يقولون أيضا إن انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بالولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ كانت تزيد بمقدار ١٤٪ عن انبعاثات عام ١٩٩٠، والاتفاقية تطلب أن تخفض هذه الانبعاثات بحلول عام ٢٠١٢ بمقدار ٧٪ تحت مستوى ١٩٩٠.

لكن هناك رأيا آخر!

الأمر الذي لاشك فيه هو أن تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو قد تزايد منذ بدء الثورة الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر، أساسا بسبب احراق الوقود الحفري، وأن هذا التزايد يتسارع، لكن مايتشكك فيه الكثيرون بالمجتمع العلمي هو أن يكون تزايد ثاني أكسيد الكربون هذا هو المسئول عن ارتفاع حرارة الغلاف الجوي للأرض، هم يدعون أن هذا الارتفاع في الحرارة ليس أمرا شاذا، وأن كل التنبؤات المطروحة على الساحة الدولية الآن هي توقعات محسوبة عن نماذج كمبيوتر مدخلاتها كثيرا ماتكون غير دقيقة أو هي خاطئة، فنحن لانمتلك معرفة كمية شاملة في الوقت الحالي عن جو الأرض، والمعروف من المقاييس الضرورية بشكل موثوق قليل للغاية ولايسمح بحسابات نظرية موثوق بها، ماذا يقول المتشككون؟

ثمة أبحاث أجريت على بقايا كائنات بحرية رسبت في قاع بحر ساراجوزا «بالاطلنطي» خلال الثلاثة آلاف عام الأخيرة، تشير إلى أن الأرض كانت تدفأ بالفعل معظم الوقت خلال هذه السنين، باستثناء فترة البرد التي إطلق عليها اسم «العصر الثلجي الصغير» ففيما بين عامي ١٣٠٠ و١٨٥٠ خبرت الأرض هذا العصر بعد فترة من مناخ دافىء طولها ألف عام كان فيها الجو دافئا حتى لتستعمر جرينلاند، «وقد هجرت هذه المستعمرة مع حلول العصر الجليدي» أخذت الحرارة بعد هذا العصر في الارتفاع ثانية وهي لاتزال أدنى من متوسطها الذي ساد خلال الثلاثة آلاف عام الأخيرة، لم يشهد التاريخ البشري أية كارثة بسبب تدفئة كرضية!

إذا أخذنا المائتين وخمسين سنة الأخيرة وضاهينا دفأها بسجلات النشاط المغناطيسي للشمس فسنجد أنهما متلازمان: كلما ازداد النشاط الشمسي كلما غدت الأرض أكثر دفئا، وهذا التذبذب في النشاط أمر معروف في النجوم ذات الحجم والعمر المقارب للشمس، ولقد ارتفعت تركيزات ثاني أكسيد الكربون كثيرا خلال الخمسين سنة الأخيرة، لكن هذا الارتفاع لم يكن متزامنا مع زيادة حرارة الأرض. بل إن هناك قياسات دقيقة تمت في الفترة مابين ١٩٧٩ و١٩٩٧ من أقمار صناعية تشير إلى أن متوسط درجة حرارة جو الأرض كان يتجه إلى الهبوط خلال هذه الأعوام، التي تميزت بأعلى تركيزات

مسجلة لغاز ثانى أكسيد الكربون، هناك كذلك من البيانات مايشير إلى أن ارتفاع درجة الحرارة فى القرن العشرين قد بدأ بالفعل قبل عام ١٩٤٠، أى قبل ارتفاع ثانى أكسيد الكربون بالجو بهذا الشكل الحاد «٨٢٪ من الزيادة فى هذا الغاز قد تمت بعد عام ١٩٤٠» ومن المستحيل أن يكون تركيز الغاز هو السبب فى ارتفاع الحرارة، فالنتيجة لاتظهر قبل سببها!

مع تزايد مقاومة المجتمع العلمى لنظرية التدفئة الكرضية، ومع التزايد المستمر للقياسات التى ترفضها، قامت «الهيئة الحكومية الدولية» - كما يقول المتشككون - بتحوير درجة الدفء التى تتنبأ بها، وخفضها . بمعنى آخر : عابثت الهيئة نماذج الكمبيوتر حتى تعطى تنبؤا يكون مقبولا سياسيا، لكنه فى الوقت نفسه يكفى كى يستمر أصحاب نظرية التدفئة يعزفون لحنهم ويمارسون هوايتهم ببث الرعب فى قلوب الناس ! اختارت الهيئة النظريات التى تتوقع تدفئة الجو بتضخيم أثر ثانى أكسيد الكربون ليؤدى إلى ارتفاع خطير فى حرارة الأرض. لكن هناك نظريات أخرى تتوقع عكس ذلك تقول إن استجابة الجو ستعادل أثر زيادة تركز هذا الغاز لتكون الحصيلة مجرد تغيرات طفيفة فى الحرارة الكرضية، والشواهد تقول إن تركيز الغاز قد ازداد كثيرا ولم يحدث ذوبان للثلوج أو إغراق للأرض ! هراء - يقولون - حتى لو كان ارتفاع الحرارة واقعا: فالثلج الطافى لايرفع إذا ذاب مستوى سطح البحر. أما الثلج غير الطافى بالقطب الجنوبى فإنه لايذوب إلا فى الأعماق السفلى حيث تدفئه حرارة باطن الأرض - أما السطحى منه فإنه أبرد من أن يذوب حتى لو ارتفعت الحرارة كثيرا . ثم إن القلنسوة هناك سميكة للغاية بحيث يتطلب الأمر مئات السنين كى ينتقل أى تغير فى حرارة الجو إلى منطقة الذوبان فى الأعماق، وحتى عندئذ فإن ماسيصل من الطاقة سيكون ضئيلا للغاية مقارنة بحرارة باطن الأرض الموجودة بالفعل هناك.

وتقول نماذج الكمبيوتر بإغراق كرضى وتباين فى شدة العواصف وغير ذلك من كوارث، حتى لتصبح هذه جزءا من تعريف «التدفئة الكرضية» ستغرق مساحات شاسعة من أراضى السواحل . لكن المعدل الحالى المعروف لارتفاع مستوى سطح البحر لايزيد على ملليمتر فى العام أى ٢٠ سم فى القرن، غير أن التباين فى ارتفاع وانخفاض مستوى سطح البحر بالمناطق المختلفة له مجال عريض يبلغ نحو مائة ملليمتر فى العام، والسجلات التاريخية تقول ألا تسارع هناك فى ارتفاع مستوى سطح البحر خلال القرن العشرين.

تتزايد التنبؤات بزيادة تكرار وعنف الأعاصير لكن هذا يتعارض مع البيانات الملحوظة، فالمعروف بالفعل أن عدد الأعاصير بالأطلنطى فى العام قد تناقص مع الزمن، من سنة ١٩٤٠ وحتى سنة ٢٠٠٠ بمقدار يبلغ ٠.٢٥ إعصار فى العقد، كما تناقصت سرعة الرياح فى العقد أيضا لهذه الفترة بمعدل يبلغ ٠.٣٣ متر فى الثانية.

درجة الحرارة تستعيد صحتها بعد العصر الجليدى الصغير، وتتجه إلى وضعها عندما كانت الحرارة أعلى منها اليوم بمقدار ١ درجة مئوية، وتحدث

الآن بالفعل التغيرات المصاحبة، مثل تراجع المثلجات في مونتانا.

الحياة النباتية توفر بلاعة ذات شأن بالنسبة لثاني أكسيد الكربون، فإذا استخدمنا معارفنا الحالية عن زيادة نمو النباتات مع ارتفاع تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو، وبافتراض مضاعفة تركيزه الحالي، فقد قدر أن مستوياته في الجو سترتفع فقط بمقدار ٣٠٠ جزء في المليون قبل أن تستقر.

زيادة تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو تسبب مايسمى «بالتسميد الكربوني» للنباتات ، كما تقلل أيضا ما يفقده النبات من ماء بحيث يمكن أن ينمو في ظروف أكثر جفافا، بدأت أشجار الغابات في شمال غرب الولايات المتحدة تتعدى بالفعل المناطق التي تنمو بها، بل إن تسارع نمو الأشجار هناك قد أصبح أكثر من إمكانات قاطعي الأشجار ومنتجي الأخشاب، كما أن كتلة النباتات بالغابات المطرية الناضجة بالأمازون تزداد فيها حاليا بمعدل يبلغ ١ - ٢ طن في السنة للفدان، والواقع أن الأشجار تستجيب للتسميد بثاني أكسيد الكربون بشكل أقوى من غيرها من النباتات، وإن كانت النباتات جميعا تستجيب، مع زيادة ثاني أكسيد الكربون في الجو يزيد محصول القمح بنسبة تصل إلى ٧٪ في الأراضي المطيرة، لكن زيادة المحصول قد تصل إلى ٢٣٪ تحت الظروف الجافة . أما بالنسبة للأرز ثاني أهم المحاصيل الزراعية بعد القمح فإن ارتفاع تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو يرفع المحصول بنسبة تتراوح ما بين ٤.٢ و٦.٥٪ غير أن ارتفاع الحرارة يقلل المحصول - ولزراعة الأرز في حد ذاتها أثر معنوي في تدفئة الجو بسبب ماتنتجه الحقول المغمورة من غاز الميثان.

يستطرد المعارضون ليقولوا إن من يحيا اليوم على الأرض سينعم ببيئة أكثر اخضرارا وثراء لو تزايد تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي للأرض، سيتمتع أبناؤنا بأرض تحمل ضعف الحياة النباتية والحيوانية الموجودة الآن، مع تزايد إحراق الهيدروكربونات سيتزايد الخير في بيئتنا ، الفحم والبترول والغاز الطبيعي تتحول جميعا إلى ثاني أكسيد كربون، يستخدم بدوره في صناعات النباتات، التي يستخدم البعض منها في صناعة حيوانات.

إننا إنما نحرك الهيدروكربونات من تحت الأرض لتحولها إلى نباتات وحيوانات: هدية إلى البيئة رائعة غير متوقعة منحتنا إياها الثورة الصناعية!

يقولون إن الشواهد تشير إلى أن هناك تكرارا منتظما لتغيرات حرارة جو الأرض، إذ تتعاقب عصور جليدية، طول كل منها نحو مائة ألف عام، تفصلها فترات أدفأ قليلا تسمى المراحل «بين الجليدية»، يستمر كل منها فترة تتراوح مابين ١٠ آلاف سنة وعشرين ألف سنة حدث هذا بانتظام عشر مرات خلال المليون سنة الأخيرة، ونحن نحيا الآن قرب نهاية مرحلة دفء طبيعي «بين جليدية»، مرحلة بدأت منذ ما يزيد قليلا على عشرة آلاف عام، وتم فيها التطور الحضاري للإنسان . ما الضرر إذن - يقول البعض - من أن نرفع الحرارة فنؤجل نهاية مرحلة الدفء الحالية بعض الشيء!! ■

ماذا يعرف الشباب ؟!

لا يقرأ شباب اليوم الصحف ولا يتابع أحداث العالم ولا يشارك في الانتخابات

بقلم

د. أحمد محمد صالح



«في القرن الحادى والعشرين لاتسأل أى انسان تحت سن الثلاثين!»

هناك العديد من البحوث الاجتماعية التى أجريت فى الغرب، واعتمدت في منهاجها البحثي على المقارنة بين الأجيال لدراسة ماذا يعرف شباب اليوم، شباب القرن الحادى والعشرين؟ وعن ماذا يهتمون؟ وماهى وسائل الإعلام التى يتعرضون لها؟ وتظهر نتائج تلك البحوث فى أغلب الأحوال أن شباب اليوم معرفته ضئيلة! ولايقرأ الصحف! ولايتابع مايحدث فى العالم! ولايذهبون للمشاركة في الانتخابات! وأقل إنتقاداً لحكامهم ومؤسساتهم بالمقارنة بالشباب فى العقود الماضية .

ومع التقدم فى تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات كان يتوقع ويفترض أن شباب اليوم يعرف أكثر من شباب الأمس! لكن سلسلة من الدراسات المسحية الحديثة أظهرت أن الناس تحت سن الثلاثين فى عام ٢٠٠٠ أقل اهتماما بأحوال وأخبار العالم بالمقارنة بنظائرهم فى السن نفسها عام ١٩٩٢، وكانوا أقل اهتماما بشئون السياسة، فالفجوة بين الأجيال آخذة فى الاتساع بسرعة متزايدة! ويتوقع رغم ثورة تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات أن الإنسان الجديد فى السنوات العشر القادمة سيفقد اهتمامه كليا بأحوال العالم! وفى تحليل لإحصائيات الرأى العام بين الشباب منذ الأربعينات وحتى الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وجدوا اختلافات ضخمة فى مستوى ونوعية الاهتمامات والمعلومات بين شباب الأربعينات وشباب اليوم، ومنذ خمسة عقود مضت كان الشباب بصفة عامة يعرف ويعلم بنفس الدرجة والنوعية التى يعرف بها الكبار، لكن فى عام ١٩٩٠ أظهرت البحوث أن إجابات الشباب حول معرفتهم للأحوال الجارية كانت أضعف فى المستوى بنسبة ٢٠٪ على الأقل بالمقارنة بمتوسطى وكبار السن، وأن الذين تحت سن الثلاثين يعرفون أقل من الصغار وكانوا أقل اهتماما بما يحدث فى العالم حولهم! وعلماء الاجتماع وباحثو الرأى العام يدركون تماما اليوم أن شباب العالم اليوم أقل اهتماما بالسياسة والقضايا الخطيرة التى تحدث فى العالم بالمقارنة بالكبار، وأن الفجوة الآن بين الشباب والكبار أكثر حدة عن قبل.

والمسوح التى أجريت منذ أكثر من ٤٠ عاما فى الستينات أظهرت أن الشباب الأمريكي كانوا يهتمون مثل الكبار بأخبار وأحداث العالم، لكن منذ منتصف السبعينات والشباب يظهر اهتمامات أقل بما يحدث حولهم فى العالم، وعلى الرغم من أن الذين بلغوا الآن الثلاثين والأربعين

عاما أفضل اعلاما واهتماما بأحوال الوطن والعالم بالمقارنة بما هم تحت الثلاثين، ولكنهم هم أنفسهم أقل اهتماما ومعرفة بالمقارنة بالأكبر منهم سنا.

وفي نهاية الحرب الباردة والتحولات السياسية في شرق ووسط أوروبا، فشلت تلك التحولات في جذب اهتمامات غالبية الشباب في معظم دول العالم، بل العجيب أن الدراسات بينت أن مستوى الاهتمام بين الشباب في أوروبا الشرقية بتلك التحولات كانت أقل بنسبة ٣٠٪ من هؤلاء الذين بلغوا فوق الاربعين وأظهرت الدراسات الديموجرافية الحديثة أن الشباب أقل مشاركة في الانتخابات وأكثر إنجذابا لوسائل الاعلام المرئية والعجيب أن عصر المعلومات أفرخ سكانا لايعلمون ولا يعرفون، وغير مشاركين، فالمقارنة بين الذين بلغوا الخمسين عاما، بالذين بلغوا ٣٠ عاما، نجد أن الذين بلغوا الخمسين عاما أكثر استعمالا للكمبيوتر وأكثر قراءة للكتب ونسبة خريجي الجامعات بينهم أكبر. فالأبحاث الجديدة تكشف اختلافات مذهلة بين الأجيال فيما يعرفونه ويهتمون به. فمثلا التغييرات السياسية التي حدثت في دول الاتحاد السوفيتي تعتبر من الأحداث المهمة التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين، ورغم تلك الأحداث الدرامتيكية، فإنها لم تشكل شيئاً ذا بال بين اهتمامات



الشباب الأمريكي مثلا في تلك الفترة، حتى في أكثر الأحداث أهمية لحظة تحطيم حائط برلين في نوفمبر ١٩٨٩ نجد أن ٤٢٪ فقط من تحت سن الـ ٣٠ عاما من الشباب الأمريكي في هذا الوقت اهتموا بهذا الحدث، ثم بعد شهر واحد من ذلك الحدث الذي غير العالم وجد أن ١٩٪ أي أقل من نصف العدد الذين اهتموا قالوا: إنهم اهتموا بأخبار النهاية العنيفة للشيوعية في رومانيا، ومنذ ذلك اليوم وأخبار أوروبا الشرقية تشغل اهتمام واحد فقط من كل أربعة أمريكان صغار واحيانا واحد من كل عشرين أمريكيا تحت سن الثلاثين، وعند مقارنة ذلك باهتمامات الأمريكان فوق الخمسين لنفس الأحداث في الفترة نفسها نجد ان ٥٨٪ منهم كانو أكثر إهتماما بسقوط حائط برلين و ٣٤٪ منهم انشغلوا باخبار ديسمبر في رومانيا، والأمريكان فوق الخمسين قد أظهروا اهتماما أكثر بسقوط الشيوعية بالمقارنة بمن هم تحت الثلاثين، وهذا النمط واضح تقريبا في معظم الأخبار المتعلقة بالسياسة والقضايا العامة، فالجمهور الأصيل لتلك الأحداث هم الناس الأكبر في السن بالمقارنة بالصغار (٣٠ عاما فاقل) أما متوسط العمر (٣٠ - ٤٩) عندهم شهية أكبر للاهتمام بالأخبار والأحداث أكثر من الصغار باستثناء وحيد متعلق بأخبار السياسات المحلية والعالمية، فالناس الذين

فى الثلاثينات والأربعينات غالبا ما يتفقوا مع من هم فى سن العشرين، أما الموضوعات التى تتعلق بالفضائح، وقرارات وأحكام المحاكم فهى الموضوعات التى تلقى اهتماما أقل بين الشباب (أقل من ٣٠ عاما) بالمقارنة بهؤلاء فوق الخمسين، لكن متوسطى العمر الأمريكان كانوا أكثر اهتماما بشكل هامشى بتلك القضايا من نظرائهم الأصغر، نفس النمط ظهر فى الأخبار حول التغييرات فى الكتلة الشيوعية، فالناس الأكبر سنا كانوا يتابعون تلك التغييرات باهتمام أكثر.

إن الفجوة بين الأجيال فى المعلومات والأخبار ليست حدودها الأخبار السياسية فقط ولكنها موجودة بشكل عام فى معظم أشكال الأخبار. فعندما اصطدمت الطائرة الكولمبية خارج مدينة نيويورك فإن نسبة ٤٧٪ من الأكبر سنا من ٥٠ سنة فأكثر تابعوا أخبارها باهتمام مقابل ١٨٪ فقط تحت سن الثلاثين. لكن أخبار الرياضة هى الفئة الوحيدة التى يتوافق فيها اهتمام الكبار مع الصغار فالاهتمام بكرة القدم منتشرة بشدة بين الكبار والصغار، وأيضا قصص الموت والدمار مثل غزو بنما والضربة الجوية ضد ليبيا تشير الدراسات إلى اهتمام الصغار بها مثل الكبار، ومن أطرف نتائج دراسة قامت بها مؤسسة (بيو) فى الولايات المتحدة الأمريكية وتم نشرها أن نسبة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٢٥ ويستطيعون أن يعرفوا بشكل صحيح من هو نائب الرئيس بوش الابن حوالى ٥١٪ فقط، يعنى ٤٩٪ منهم لايعرفون من هو تشينى!.

الإنترنت وشباب مناهضي العولمة

وإذا كانت الصورة السابقة تعكس حال الشباب فى المجتمعات الغربية، إلا أن أواخر التسعينات وبداية القرن الجديد شهدت بعض الإستثناءات، حيث ساعد الإنترنت على ولادة روح شبابية جديدة متمردة فى احتجاجات سياتل ثم أعيدت تكرارا فى واشنطن، وأوكيناوا، وبراغ، ودافوس، وملبورن، وغوتنبرغ، وليون، ثم فى جنوة والتى بلغت فيها تجمعات المحتجين حوالى ثلاثمائة ألف إنسان، حيث سقط أول ضحية للحركة الشبابية العالمية التى تعرف عن نفسها بـ مناهضة العولمة Anti - globalization، والقتيل شاب لم يتجاوز عمره الحادى والعشرين، ومنذ احتجاجات سياتل (١٩٩٩) يُرجع البعض قدرة هؤلاء الشباب على التجمع والاحتجاج بالاعتماد على الانترنت، الذى استخدم فعلا بكثافة فى تنظيم الاحتجاجات، حيث تجمع فى سياتل أربعون ألف شاب من مختلف دول الأرض، ومعظمهم من البلدان المتقدمة، وتظاهروا وهتفوا لأجل مطالب عالمية، مثل حماية البيئة من آثار الصناعة، وتخفيف ديون العالم الثالث، والفجوة الاقتصادية والرقمية بين الجنوب والشمال، وغيرها من المطالب، فمناهضة العولمة هى صيغة

احتجاج معاصر لشباب مجتمعات مابعد الصناعة، ودعونا نتأمل ماحدث فى مظاهرات كويك ضد مؤتمر التجارة الحرة الأمريكية (Ftaa - free trand area for the americas) والذى حضره ٣٤ رئيسا، يتقدمهم الأمريكى جورج بوش. ويعتبر المؤتمر امتداداً لاتفاق (NAFTA) للتجارة الحرة الذى شمل القارة الأمريكية الشمالية، والذى كانت له تاثيرات بالغة السلبية على وضع الطبقة العاملة فى كندا، التقارير الواردة من ساحة «المعركة» الرمزية ضد النظام الرأسمالى فى كويك، لا تخفى حماسها وتعاطفها اللامتناهى مع الشباب .. ولكن، لم يكن بوسع المنجنيق (مدفع من القرون الوسطى) الذى استخدمه الشباب كوسيلة ابداعية للدلالة على قهر الرأسمالية، أن يهزم القوات التى جندتها الشرطة لهذا اليوم (بلغ عددهم ٦,٠٠٠ شرطى وجندى)، والذين احاطوا بالجدار من الداخل مدججين بالغاز المسيل للدموع وخراطيم المياه والرصاص المطاطى، ووصفت التقارير الآلاف يخرجون معظمهم شباب لاتزيد اعمارهم على العشرين والحماس يملؤهم لهدم جدار أقامته السلطات الكندية بكلفة ٤٦ مليون دولار، ليفصل بين المؤتمرين فى بنايات البلدة القديمة لكويك وبين المتظاهرين الشباب، وصار الجدار رمزا للفجوة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء، ولم يكن المنجنيق البدعة الوحيدة الغربية التى استخدمت فى المظاهرات، بل كانت هناك الدمى والأزياء وأمور أخرى خلاقة كان الهدف منها الهزء من ثراء وقوة الرأسماليين ، والهتافات، والرقصات والموسيقى كانت أيضا بين «الأسلحة» التى استخدمها الشباب للتعبير عن سخرهم من نظام الاستغلال، وهذا ما جعل بعض المعلقين المتحمسين يصف المظاهرات بالكرنفال، ويصف المسيرة بأنها الاكثر حماسة، وشبابا، وسرعة وطاقة . وقال: إن الشباب «حديثى العهد بالسياسة والباحثين عن الحقيقة، غير متأكدين مع من هم وماذا يريدون، ولكنهم يعرفون ضد من يحاربون، ونتفق مع رأى الدكتور وحيد عبد المجيد فى إحدى مقالاته من أن احتجاجات الشباب من مناهضى العولمة لا ترقى إلى مستوى ثورة الطلاب فى أوروبا فى أواخر الستينات وحركات الشباب الأمريكى ضد حرب فيتنام، والتى حققت انجازات أبرزها إسقاط الديجولية فى فرنسا وإنهاء حرب فيتنام، فالاحتجاجات الراهنة على العولمة تبدو أبعد عن تلك الحركات، إنها أقرب إلى تمرد شبابى عشوائى فى الغالب.

وبعد هذه البانوراما السريعة عن أحوال شباب العالم، يبرز السؤال الآتى ماذا عن شبابنا فى مصر؟، ورغم اننى لا أملك نتائج دراسات تقيس فجوة الاهتمام والمعرفة بين الكبار والشباب فى مصر، نتيجة لندرة تلك الدراسات أو عدم وجودها، أو تقصير منى فى عدم متابعتها إذا كانت موجودة! ولكنى أزعم هنا أن حال شبابنا فى مصر لايختلف كثيرا عن حالة اللامبالاة التى يعيش فيها معظم شباب العالم، بل أزعم أيضا أن الموقف

عندنا أعقد من ذلك! فشباب المجتمعات الغربية رغم أنه يعيش في حالة اللامبالاة بالأحداث الجارية كما كشفت عنها الدراسات الاجتماعية الحديثة، رغم ذلك، فقلة منهم نفضوا عنهم حالة اللامبالاة في أوائل القرن الجديد كما رأينا في احتجاجات مناهضي العولمة.

ماذا يشغل شبابنا اليوم؟

ونلاحظ في مصر، أن المصريين الذين يمثلون جيل ثورة ١٩٥٢ وعاشوا تجاربها وايجابياتها وسلبياتها وحروبها حتى نكسة ١٩٦٧، حرب أكتوبر ١٩٧٣، هذا الجيل الذي انتمى إليه كان في شبابه أكثر اهتماما بأحوال مصر ومشاكلها وأحوال العالم حوله بدون أن تكون هناك ثورة الانترنت والاتصالات، وأن العالم قرية كونية صغيرة كما يقولون! وعندما أقارن الآن بين جيلي وأبنائي في البيت وفي الجامعة، بل وحتى المعيدين والمساعدين والمدرسين الذين أعمل معهم، ألاحظ فتور اهتماماتهم بمشاكل الوطن والعالم، رغم مايتوافر تحت أيديهم من إنترنت وأطباق استقبال تجعل العالم كله بين أطراف أصابعهم، ويبدو من متابعة هذه الشريحة (الشباب أقل من ٣٥ عاما يمثلون ٦٦,٥٪ من السكان) ضمن المجموعات السكانية، أنهم في واد آخر مع الإعلانات وأنواع المأكولات الأمريكية، والملابس الشبابية، والبيتزا هت، والهمبورجر وغير ذلك من عالم الاستهلاك، الذي ألهى الشباب عما يحدث حوله، إنهم مشغلون بالدردشة في الانترنت أو حيازة جهاز كومبيوتر لممارسة العابه! أو ملاحقة آخر صيحات الموضة وصرعاتها في الملابس والعطور، وأخبار الفنانين والموسيقى والسينما والمسارح ومطاعم الوجبات السريعة وصالات البلياردو، ولا يعبأون بأخبار مصر الداخلية أو البلدان المجاورة، ولابأسامة بن لادن أو الحرب على أفغانستان، ولا يستوقفهم الحديث عن العولمة والغزو الثقافي ولا التحالف ضد الإرهاب، كل ذلك لايهمهم، بل يتابعون فقط برامج المسابقات، ويراقبون بشغف ربح الملايين فتتضاعف أحلامهم بهبوط ثروة مفاجئة تمكنهم من الوصول إلى فتيات أحلامهم اللواتي يشبهن بنات التليفزيون الرشيقات، الأنيقات والدلوعات، وفي ظل هذه الحياة الهامشية، حدث انهيار قيمي شامل، وسيطرت فيه النزعة المادية، التي جعلت التعليم والعلم بلا قيمة في نظر الكثير وبالأخص من الشباب الذين يرون الغنى الفاحش والإسراف المتوحش بلا مبرر منطقي، والتصرفات الاستفزازية للأغنياء الجدد، فانهارت قيم العلم والفكر، وسيطرت على المجتمع الأنماط الاستهلاكية، وأصبح الجميع يتهافت على لقمة العيش، بأي طريقة، وأصبح الشباب بلا هدف ولا أمل، إلا البحث عن المال والغنى بأسهل الطرق، ولا يستهويهم غير المظهرية والضخامة، ولا يعترفون بأبطال غير السماسرة، ونجوم السينما والإعلان، وباتوا يتحدثون عن



أنواع السيارات والمحمول، والمنتجات، وعالم الروشنة! واتذكر منذ ٧ سنوات أجرت جريدة الأهالي استفتاء، بمناسبة مرور ٢٨ عاما وقتها على هزيمة ١٩٦٧ بين شباب عمرهم خمسة وعشرون عاما، وإذا بهذا الجيل لايعرف أي شيء عن هزيمة ١٩٦٧! ولك أن تنظر لهؤلاء الشباب في الحفلات الغنائية التي لاتنتهي، ويذيعها التليفزيون من العاصمة الجديدة لمصر في قرية مارينا في الساحل الشمالي، تجدهم يتراقصون أولادا وبناتا على نغمات وكلمات جنسية هبابية مزعجة ليس لها معنى، حيث نراهم يتراقصون على الواحدة ونصف وكل شحط فيهم يستعرض حركة وسطه أمام الجمهور، وبنات محجبات وسافرات ويهززن الأرداف.

شباب الريف

وإذا كان ذلك هو حال شباب الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، فبقية قطاعات الشباب في غيبوبة وملهية بالبحث عن عمل ولقمة العيش وكل بطريقته فهناك قطاع عريض من الشباب في ريف مصر يحلم بالهجرة إلى المدينة قاصدا تحويلها إلى قرية أخرى، أو يضطر إلى الانخراط في جماعات التطرف احتجاجا على النسيان والإهمال الذي فرضه المجتمع عليهم، والشباب في الريف ينتمي في اغلبه إلى ما سماه الدكتور رشدي سعيد في مقاله الخطير بمجلة الهلال (عدد يناير) كتلة البشر الغاطسة، وهذه الكتلة البشرية الهائلة التي ينتمي إليها الشباب الريفي غالبا، تبلغ ٥٠ مليونا وتنتظم في ٨٫٥ مليون أسرة يتراوح دخلها الشهري بين ١٠٠ و ٥٠٠ جنيه مما يجعلها تحصل على ٢٦٪ من جملة الدخل القومي على الرغم من أنها تمثل ٨٦٪ من جملة سكان مصر، ويسكن ٥٦٪ من أسر هذه الشريحة في الريف، والباقي في عشوائيات المدن في ظروف غير آدمية بالمرة، فمتوسط الأنفس في الحجرة ٦ أفراد و٨٠٪ من مساكن تلك الكتلة من غير دورات مياه، ويعيشون في قرى ومناطق عشوائية لاتعرف الصرف الصحي أو التنظيم أو الكهرباء أو خدمات عامة كالبريد والتليفون، أو طرق ممهدة أو خدمات اجتماعية وثقافية، بمعنى آخر ليس فيها ابسط الخدمات، ولا يذهب الجزء الأكبر منهم إلى المدارس والتي يتسرب الجزء الاعظم منها إلى العمل الشاق في أعمال الخدمة الهامشية، وهي تكتلات عاجزة عن إيصال صوتها إلى السلطات الحاكمة، لذلك كان من السهل على تيارات الإرهاب أن تجد كوادرها من بين شباب تلك الكتلة الغاطسة التي أوشكت على الغرق، وقبل أن تغرق سوف تصرخ بالعنف طالبة الإنقاذ.

الحلم المصري الضائع

في الستينات كان لكل شباب الوطن حلم مصري واحد يلتف حوله الجميع، حلم قائم على نموذج تنمية مستقبل يستهدف بناء مجتمع يجد فيه كل فرد فرصة حياة كريمة، حلم أصحابه من الأغلبية الفقيرة،

ماذا يعرف الشباب الآن؟!



حلم خالص المصرية نابع من قيمها وأرضها، يسعى لتحقيق التوازن بين الدوائر العربية والأفريقية والإسلامية التى تتقاطع جميعا فى مصر، حلم نموذج حاولت الكثير من الدول النامية الإقتداء به.

وسعت قوى كثيرة خارجية وداخلية، عربية وأجنبية إلى قتل هذا الحلم، ونجحت تلك المساعى وهزمت الحلم فى يونيه ١٩٦٧، ومنذ هذا الوقت سيطرت على شباب المصريين أحلام أخرى تبلورت مظاهرها مع بداية السبعينات خاصة بعد عام ١٩٧٣ حيث الانفتاح والهجرة، ومن وقتها يمكن لغرض الملاحظة أن نميز فريقين من شباب مصر، الأول هم أصحاب الحلم السلفى والآخر هم أصحاب الحلم الأمريكى، بمعنى أوضح فريق يحلم بالحلم السلفى ذات المظهر الإسلامى الخادع المنافق المتشدد الذى اختزل الدين فى الحرام والحلال، والفريق الآخر يحلم بالحلم الأمريكى المحبذ للرفاهية الكاذبة البراقة، وبين الفريقين مسافات متداخلة ودرجات تجمع أغلبية الشباب فى مصر!.

ومظاهر الحلم السلفي منتشرة بين قطاع عريض من الشباب فى كل شارع من ثوب أبيض قصير وصندل وغطاء رأس ولحية مطلقة وبسملة وحنجلة باسم الإسلام، وانتشار الحجاب والنقاب، ومشروعات ملابس المحجبات، كله تجارة فى الدين، وأسماء المحلات والمدارس الإسلامية ذات الطابع الخليجى والتى ترفع شعار المصحف والكمبيوتر واللغة الأجنبية، وقبل كل ذلك شركات توظيف الأموال وشركات الصيارفة والبنوك الإسلامية وكشوف البركة، والتكالب على السفر للعمرة والحج! حتى لو كان بالتقسيط، هذا غير الاندفاع نحو الهجرة للعمل، أى عمل وبأى ثمن، ولك أن تشاهد يوميا مئات الشباب على أبواب القنصليات العربية والأجنبية فى مصر وهم يعلنون بتكالبهم على السفر موت الحلم المصرى، وانتشرت الخرافات والشعوذة باسم الدين، وسادت القيم التى تدعم السلطة الدينية ومرجعية النص الديني، وانتشرت قيم التزمت، وحجب وعزل المرأة، والمبالغة فى النزعة الذكورية، وتفضيل الماضى، ونبذ العلم والتفكير العلمى، وتضخيم النزعة العائلية والقبلية، وتنمية الروح القدرية، وزيادة محاولات تديين الثقافة، وأصبح الحلم السلفى جامعا مانعا يحلم به قطاع عريض من الشباب باختلاف خصائصهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والديموجرافية.

والحلم الأمريكى له طابع خاص فهو سائد بين فريق من الشباب المصرى يمثل نخبة من المجتمع اختيرت على أساس الانتخاب المهنى حيث ساد بين شباب المثقفين والمهنيين والاخصائيين من ذوى المهارات التكنولوجية العالية، وساد بصفة خاصة بين شباب أقباط مصر، فكان الحلم الأمريكى يختار أصحابه، أما الحلم السلفى فكان الجميع يختارونه تحت شعار الإسلام، وأهم مظاهر الحلم الأمريكى

كانت فى إنحياز الدولة للثروة سواء فى سياستها الداخلية أو الخارجية، وانتشار الاستهلاك الترفى نتيجة لاستفزاز وسطوة الإعلانات (هامبورجر ماكدونالد ودجاج كنتاكى وملابس الجينز ومنتجات جونسن والحلقات الأمريكية .. الخ). والمبالغة فى الحرية غير المسئولة وانتشار مدارس اللغات ذات التوجهات الأجنبية، والإعلام القائم على الثقافة الأمريكية، وسيادة الرأسمالية الطفيلية، والجامعات والمعاهد الخاصة، والفن الذى يمجد النموذج الأمريكى فى الحرية الفردية والملكية الخاصة، وسيادة قانون السوق حتى فى العلاقات الاجتماعية، وسيادة الطابع الاقتصادى الريعى والسمسارى، وسيادة الطابع المهرجانى والسياحى للأنشطة الثقافية، وتسطيح التعليم وإشاعه الديماجوجية السياسية والسلوك النفعى، وتهميش الفكر العلمى، والديموقراطية الشكلية، وتفتيت الطبقة الوسطى. وعندما حاول الشباب المصرى تحقيق الحلم الأمريكى، اكتشفوا سراب الحلم وعدم إمكانية وأمل تنفيذه خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ وعندما حاول شباب مصر تحقيق الحلم السلفى اكتشفوا استحالة تحقيقه أيضا لأن التاريخ لايعود للوراء!

بين الحلم السلفى والحلم الأمريكى

ولايوجد تناقض بين الحلم السلفى والحلم الأمريكى، فالأول تابع للثانى فالحلم السلفى هو نفسه الحلم الأمريكى مرتديا عباءة إسلامية، وإذا كان الحلم السلفى هو تجريف لتاريخ مصر كلها، فهو فى الوقت نفسه يدعم الحلم الأمريكى ويوسع قاعدة التبعية. والذين يقولون: إن العامل الاقتصادى هو السبب فى اندفاع المصريين للحلم السلفى والأمريكى، فإننا نذكر أن مصر فى الستينات لم تكن غنية، فنحن لانملك حلماً وطنياً يلتف حوله شباب المصريين فمشروعات البنية الأساسية لن تكون أحلاما وطنية بدون ابعاد سياسية، فالحلم الوطنى سياسى فى الأصل يتطلب حكومة سياسية، وإذا كانت تلوح فى الأفق الان شواهد سقوط الحلم الأمريكى بعد يوم الثلاثاء الأسود فإن سقوط الحلم السلفى فى مصر يتطلب وقفة من الجميع لإحياء قلب وعقل مصر، فشباب مصر ياسادة سوف يحكمون الوطن فى القرن الجديد، وإذا كانت التجربة المصرية مع الشباب عانت سلبيات كثيرة أهمها تعدد الأجهزة والوزارات التى تتولى العمل مع الشباب، بحيث أصبح مجال الشباب مسرحا يطبق فيه شعار التجربة والخطأ، وأصبح امتدادا منهجيا لنظام المدرسة، واعتمد على التلقين، وأهمل التدريب والمشاركة العملية والميدانية، وأغفلوا أهمية اعتماد الشباب على أنفسهم، وأهملوا مشاركتهم فى تخطيط ومتابعة برامجهم، وقتها ياسادة يصبح الوطن فى خطر ما بعده خطر.

والسؤال الان أين الحلم المصرى لشباب مصر؟! إن المكان الطبيعى الذى يفترض أن يتولد فيه هذا الحلم، هو المدرسة والجامعة! فنظم التعليم فى مصر لم تنجح فى تكوين المواطنة بين الشباب ، وفشلت فى بناء نسق معرفى وقيمى

يتفاعل تحته شباب الوطن الواحد، وإذا كان التعليم هو عمليات تغيير معارف واتجاهات وسلوك الأفراد فإن المسئولية الأولى للمؤسسات التعليمية هو إعداد وتهيئة عقول الشباب لمواجهة المتغيرات المتلاحقة والمستجدات الحياتية، وإلى إعادة النظر فى أهداف التعليم فالمعرفة فى حد ذاتها لم تعد هدفا بل الأهم من تحصيلها هو القدرة على الوصول إلى مصادرها الأصلية، واستمرارية الاستفادة منها لاحتياجات تنمية المجتمع وتوظيفها فى حل مشاكله.

وتحت إطار الازدواجية فى النظام التعليمى المصرى، تتم يوميا عمليات ختان العقول لشباب مصر، فالنظام التعليمى المصرى يعانى من أنواع مختلفة من الازدواجية، خاصة بين التعليم الدينى والمدنى، والتعليم الحكومى والخاص الذى يعانى داخله من ازدواجية بين التعليم الأجنبى والدينى، بل هناك التعليم حسب الطلب.

وإذا كان اليابانيون متشائمون حول مستقبل وطنهم، وأن حوالى ٦٠٪ منهم يعتقدون أن بلادهم ينتظرها مستقبل سيء بسبب المشكلات المالية، والعجز المالى الرهيب فى الميزانية ، وتردى الأوضاع الاقتصادية وتكاليف المعيشة الباهظة، وتدنى مستوى الرعاية الصحية والرفاهية الاجتماعية، فاليابان الدولة المعجزة متشائمة من المستقبل ونحن رغم أحوال التعليم المتردية على جميع المستويات، ولايمكن أن تخطئها عين فاحصة، لاتطرف لنا عين!.

والنظام التعليمى فى الدول المتقدمة لاينجح من فراغ بل يتم داخل منظومة مجتمعية تختلف تماما عن المنظومة التى يتم فى إطارها نظام التعليم المصرى، فالموضوع ليس بعدد الأيام الدراسية، أو الشعارات الجوفاء المكتوبة على أسوار المدارس المتهالكة وحولها أكوام الزبالة وهى تقول مدرستى نظيفة وجميلة ومتطورة ومنتجة! فتخلف نظام التعليم المصرى هو نتيجة منطقية وحتمية لتخلف المجتمع، فهى حلقة شيطانية مفرغة، فلا مفر من ثورة فى نظام التعليم تصاحبها تغييرات جذرية على جميع مستويات المنظومة المجتمعية لكسر حلقة التخلف بعد عدة أجيال.

لقد تم حسم الأمور فى العالم كله، واتفق العلماء على أن السبب الرئيسى لتفوق الدول وتقدمها هو نظام التعليم، وبداية إصلاح نظام التعليم المصرى هو الاعتراف بسلبياته، وعدم تحميلها على عهود سابقة، والتاريخ يبين لنا أن الدول المتقدمة لم يكن أمامها إلا التعليم لكى تتحول من مجتمع حكام إلى مجتمع مواطنين، ولاسبيل أمامنا أيضا إلا التعليم السليم الذى يؤهل الشباب ويشكل ضميره ووعيه، ويدفعه للانخراط فى مجموعات القوى السياسية الفاعلة، التى تعتمد عليها فاعلية ديمقراطية الحياة السياسية، فالمجتمعات تضعف أو تتلاشى عندما يتكور و يتقوقع شبابها على ذاته. ■



من جحيم الواقع

الجامعيون واللغة العامية

بقلم
د. محمد رجب البيومى

لماذا تفشت اللغة العامية بين أساتذة الجامعة وكبار المثقفين؟ وكيف تستعيد اللغة الفصحي مكانتها ودورها؟

كيف أقنع الطالب باحترام أستاذ لا يستطيع أن يبين عن ذات نفسه إلا بلغة الأميين؟ ثم هو مع ذلك يرهق تلميذه بثمن مضاعف لمذكرة بالية شكلا وموضوعا، وتجئ ثالثة الأثافى حين يجبره على درس خصوصى يحتاج إلى مورد ضخم لا يقدر عليه والد له عدة أولاد فى الجامعة !!

من نصف قرن وأكثر، وصيحات الدعوة إلى تدريس العلوم باللغة العربية فى الجامعات تتعالى ، والمؤتمرات تنعقد فى شتى عواصم العرب باحثة فاحصة، وصارخة عاجلة. وأطرف ما تعقبه هذه المؤتمرات المتوالية أن النتائج هى النتائج وأن التوصيات هى التوصيات، وبارك الله فى مجامع اللغة بمصر والشام والعراق. فقد بذل أعضاؤها فى تسويد الأوراق الهائفة، ما يكفى لملء خزانة كتب مستقلة فى هذا المجال، ولا أكتم غيظى حين أجدنى بعد ذلك كله أتلو المكرر المردد، دون أن نتقدم خطوة فى التنفيذ ، كما ألحظ أن المعارض هو المعارض، وأن المؤيد هو المؤيد وكأن الثبات على الرأى فضيلة راسخة فى النقاش العلمى كما هو فضيلة فى السلوك الخلقى، وأنا على بعدى عن هذه الحلبة، ووقوفى موقف المشاهد المتنزه المستريح، أقرأ ما أقرأ ثم أنتهى إلى أن الأدلة متكافئة كما يقول علماء الكلام .

على أنى هنا أترك جانب التعريب فى العلوم جانبا، لأنتقل إلى جانب مهم لم ينل أدنى التفات من هؤلاء المتحمسين ذوى الغيرة الصاخبة، هذا الجانب هو



طه حسين



أحمد حسن الزيات

تدريس المواد الإنسانية فى كليات اللغة والآداب والحقوق والتربية وما إليها، فأتساءل أيتم تدريس هذه المواد باللغة العربية حتى نستريح إلى أصالتها فى هذه الكليات أم أن تدريس مواد التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والتربية وتاريخ الأدب فى أحيان كثيرة، يكون باللغة العامية المبتذلة؟ نعم إن المذكرات تكتب باللغة العربية، وأسئلة الامتحان توضع باللغة العربية، والإجابة تكون مزجا بين العامية والعربية! هذا هو المشاهد الملموس، ولكن المشاهد الملموس أيضا أن ثمانين فى المائة من أساتذة هذه المواد لا يجيدون اللغة العربية، ولا يستطيعون المحاضرة بها على وجه يذكرنا بالقدماء من أساتذة الجامعة العريقة، وإنما يلخصون ما وزعوه على الطلاب من مذكرات ركيكة الأسلوب فى الأعم الأغلب مما نقرؤه متحسرين ، يلخصونه باللغة





عبد الوهاب عزام

عبد الرزاق السنهورى

العامية، التى لا تملك من الألفاظ ما تعبر به عن المعانى الأدبية، فتكون النتيجة من الناحية العلمية أن يخرج السامع بعدة قشور تضطره إلى مراجعة المذكرة، ليلمس فجوة فى التعبير بين ما يسمع وما يقرأ. فما بالنا إذن نسكت عن عجز الأستاذ عن الحديث باللغة العربية فى المواد الإنسانية، ونقيم الضجيج حول تعريب العلوم فى الكليات العلمية؟ أتكون اللغة العربية فرضا محتوما على طلاب الطب والهندسة والصيدلة والعلوم، فتعقد لها المؤتمرات وترن الاعتراضات والإجابات، ثم لا يلتفت أحد من هؤلاء المتحمسين الغُيُرُ إلى اللغة العامية التى تدرس بها المواد فى كليات الاقتصاد والآداب والتربية والحقوق، فنبحث فى جد، كيف نخرج مدرسا يستطيع أن يتحدث باللغة العربية فى قاعة المحاضرات ، والمؤلم المخجل، أن القائمين على توجيه الجامعات يعرفون ذلك، ولا يبدون أدنى اعتراض على هذا الانحدار الشائن. بل فيهم من يشارك فيه لأنه كان يتحدث بالعامية دون احتفال بنقد أو توجيه!

وناحية أولى يجب أن نلتفت إليها، هى أن اللغة وعاء للمعنى، ولن يستطيع المتكلم أن يتدفق فى محاضرته إلا إذا كان ذهنه مليئا بالمعانى التى يريد أن يعبر عنها ، فتزاحم المعانى واحتشادها يسهل مهمة المحاضر، ويسعفه بما يريد من الألفاظ ، ونحن نسمع كثيرا كلمات قيمة لأفاضل من رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع لم ينالوا من الدراسة اللغوية غير ما حصلوه فى المدارس الثانوية، ولكنهم لامتلائهم بالأفكار الحية، يفيضون فى الحديث دون تلجلج ، وينتقلون من عنصر إلى عنصر وفق ترتيب عقلى هداهم إليه تفكيرهم المنظم ، حتى لتعد أحاديث طلعت حرب ، وحافظ عفيفى وعلى الشمسى، ضربا من الأسلوب العلمى الدقيق. فإذا تساءلنا عن إخفاق الأستاذ الجامعى فى أدائه التعبيرى ، فلابد أن نجعل من أسبابه المباشرة، عدم التعمق فى المادة، والإلمام بعناصرها المتسلسلة، وافتقاده المسئولية الدقيقة التى نيطت به يوم عين مدرسا، وقد رأى الجو الجامعى الذى يعيش فيه، لا يحاسب مقصرا على تقصيره، فلم يبال بإعداد الدرس على وجهه الصحيح، واكتفى بتعبير عامى لما دونه فى مذكرته للطلاب، وعرف الطلاب

ذلك عنه، فانصرفوا عما يقول، بل إن بعضهم يلقى الدرس من المذكرة التى أوراقها بين أيدى الطلاب، وكأنهم فى حاجة إلى من يقرأ لهم، لا فى حاجة إلى من يشرح، ويكشف، ويحلل ويعلل، وفيهم من يحضر معه كراسة فيها تلخيص لأبواب المذكرة، ويكتفى بإملائها على الطلاب، والسؤال المحرج هو: مافائدة المذكرة إذن، إذا كان الأستاذ يوجز مسائلها فيما يمليه؟.. إن الفائدة ترجع إليه وحده فى إضاعة الوقت، وملء الفراغ دون تحصيل!

بداية الداء

لقد بدأ هذا الداء العياء ينتشر لدينا منذ نصف قرن، وقد بدأ على نحو هين لم يؤذن بأعراضه، لأن الكليات كانت محدودة العدد، وكان اختيار أعضاء التدريس بها يخضع لميزان أدق وأجدى، والأساتذة الكبار لا يزالون يقتعدون مقاعد التوجيه، ولهم رهبة يرتعد لها من لم يكن أهلا للتدريس، ثم تعددت الجامعات فى كل مناحى القطر، وامتلأ الفراغ بمن يصلح ومن لا يصلح، ومرت الأيام متدرجة من السيئ إلى الأسوأ، حتى جاء عقد الثمانينات بما أظهر المأساة على وجهها النكير، فأصدر اتحاد الجامعات العربية فى سنة ١٩٨٠ عددا تربويا كان من بين موضوعاته (تأهيل أعضاء التدريس وتمكينهم من القيام بأعباء التدريس باللغة العربية) وفى هذا الموضوع صراحة كاوية، لأنه أظهر عجز القائم بمحاضرة الطلاب عن الإفصاح بلغته القومية عما يريد، وقد ألقى البحث فى مؤتمر عام، فلم يجد من يلجأ إلى إنكار متشنج نسمعه ممن يوارون السيئات لأنهم يرتكبونها، ويحاولون تبريرها بتبسيط المسائل للطلاب، كأن الطلاب لا يقرءون الجرائد اليومية، ولا يستمعون إلى الإذاعات مرئية ومسموعة، وجلها تنطق باللغة العربية الفصيحة. فيالله! يقرأ العامل والتاجر والفلاح والطالب فى المدرسة الإعدادية والطالب فى التعليم المتوسط!! يقرأ هؤلاء الكلام الفصيح فى الجرائد ويسمعونه فى الإذاعة، فيصل إلى أعماقهم ويتناقشون فى مضمونه بعد أن يستوعبوه، ثم يأتى من يقول إننا نتخذ العامية فى التدريس الجامعى لنسهل العسير على الطلاب!! إن الواعظ الدينى إذا خطب فى مسجد من مساجد العبادة فى أقصى الصعيد أو فى أنأى الريف سقطت هيبته لدى الجمهور الساذج، وعده القوم دخيلا على الوعظ، وشكوه إلى المسئولين، وقالوا إنه يشوه كتاب الله وحديث الرسول حين يفسرهما باللفظ الشائه! أفيكون هؤلاء جميعا فوق طالب الجامعة إدراكا حتى



جمال الدين الافغانى



عبد العزيز البشرى

تتعلل بالتبسيط والتيسير، وقد جاء فى المقال الذى نشرته مجلة (اتحاد الجامعات العربية) إن الجامعات العريقة فى البلاد المتقدمة تشترط فى عضو التدريس أن يجتاز امتحانا ذا مستوى معين فى اللغة القومية التى يدرس بها بحيث يكون أداؤه سليما متميزا ، وإذا لم يتح له ذلك ، فلابد أن يتأخر تعيينه حتى يتسلح بمعرفته لغته القومية إعرابا وأسلوبا ، فإذا كانت الجامعات العريقة تشترط إجادة اللغة القومية، وتضع امتحانا دقيقا لمن يتأهل للتعيين مدرسا بها فى شتى فروع العلم بكليات الجامعة وإذا كنا نرسل البعثات لنفيد من خبرات هذه الجامعات المتقدمة! فلم لا يكون أول ما نفيده من هذه الخبرات أن ننقل عنها نظام الامتحان الدقيق فى اللغة أسلوبا وإعرابا لنختار على ضوئه من يصلحون للأداء التعبيرى فى قاعات المحاضرات ! بل إن فى هذه الجامعات دروسا خاصة باللغة القومية فى كل كلية من الكليات نظرية أو عملية، ولها امتحاناتها التى تظهر مقدرة الطالب فى استيعاب قواعد هذه اللغة! وأنا أذكر أننا فى عهد التقدم العلمى السالف، كنا نتجه هذا الاتجاه، فالأستاذ الكبير عبدالوهاب حمودة كان أستاذا للخطابة فى أوائل الثلاثينات بكلية الحقوق، ومدرسة المعلمين العليا التى كان من شأنها أن تخرج أساتذة المدارس فى غير مواد اللغة العربية ، كانت تدرس الأدب والنصوص فى سنوات متعاقبة ، أقول ذلك لأن الأديب الكبير الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازنى ذكر فى بعض مقالاته أنه كاد يرسب فى امتحان اللغة العربية الشفوى بهذه المدرسة ، حين كان الشيخ حمزة فتح الله رئيسا للجنة الامتحان ووجه إليه من دقائق علم الصرف ما أزعجه، لولا أن عضو اللجنة الشيخ عبدالعزيز شادلين أخذ ييسر جهة الإجابة للطالب المحرج! فإذا رأينا مدرسة المعلمين العليا أخرجت من كبار الكتاب أمثال إبراهيم المازنى وعبدالرحمن شكرى ومحمد فريد أبو حديد وعبدالحميد العبادى وزكى نجيب محمود وفخرى أبو السعود إلى آخر من لا أستطيع إحصاء أسمائهم النيرة المضيئة، فلأن المدرسة جعلت اللغة القومية ذات حظ موفور! مع وجود مدرسة دار العلوم العليا التى تخرج مدرس اللغة العربية المتخصص !

أمية المتعلمين

لقد صار عجز الأستاذ عن إلقاء موضوعه باللغة العربية مثلا سيئا للطالب،

فقد التحق بالكلية النظرية - ولا أقول العملية - وهو يظن أن أستاذ التاريخ أو التربية أو الجغرافيا، أو الاجتماع بحر زاخر يفيض عليه بما كان يصوره خياله من إبداع، ثم تمخض الجبل فولد فأرا، حين رأى المدرس يرسل كلمات مبتورة في سياق عامي، وتتكرر المحاضرات فإذا المحصول هش، وإذا المذكرة المتآكلة هي كل عماد المحاضرة! والذي يعجب له المتأمل، أن بعض هؤلاء يذكرون في ختام مذكراتهم مراجع ضخمة توحي بأنهم درسوا لُبابها في أعقد كتب الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، ولو قرأ هؤلاء بعض هذه المراجع لامتلأت عقولهم بما يجدى الطلاب، لأن وفرة المعاني تساعد على التدفق العلمي، وتجبر الألفاظ على الخضوع الصارم ، وقد يخطئ المدرس قليلا في بعض مسائل اللغة والنحو فلا يؤاخذه الفاحص المستمع إن وجد، لأن تدفق المعاني، وانسياب الشرح التحليلي يرتفع به فوق المؤاخذة اللفظية ! ولكن أي تقدير يناله من يلخص مذكرة مبتورة بأسلوب عامي ركيك! ثم يحمل حقيبته ويمضي!

ونترك الكلام عن الحديث بالعامية قليلا إلى ناحية أخرى تساعد على ضحولة الأستاذ، وضيق أفقه ، وإيصاد منافذ القول أمامه، هذه الناحية هي جهله الواضح بما يبعد عن تخصصه، فهو يحصر نفسه في المادة التي يدرسها، وقد يستلزم الحديث المتفرع إلماما بنواحي الثقافة العامة ، كما هو منتظر في سؤال يعن من طالب، أو وقوع حادث يشغل الأذهان ويتجمع الطلاب سائلين عن الأسباب والدواعي ، فيظهر صاحبنا من دلائل الضيق ما يضائل من مكانته ، ويزعزع ثقة تلاميذه به، وهي ناحية ليست مقصورة على رجال الجامعة وحدهم بل تكاد تشمل أكثر من تخرجوا ، وزاولوا أعمالهم المهنية وفي هؤلاء يقول الدكتور محمد مندور من مقال نقدي جيد نشره تحت عنوان (أمية المتعلمين) :

«إن ضعف الثقافة العامة شديد الصلة بالتعليم والثقافة المهنية على السواء، ونقصد بالثقافة العامة كافة أنواع المعرفة الأدبية والتاريخية والفلسفية، التي لا تتصل بمهنته، ولا تؤدي إلى استقلال مهني مباشر، وفي هذه الظاهرة ترى بلادنا ما يفزع حتى لتحسب أننا في أرض لم تتسرب إليها بعد معاني الحضارة الحقيقية ، ففي أوربا مثلا من المستحيل أن تلقى موظفا أو طبيبا أو مهندسا أو محاميا يجهل مؤلفات الكبار من الأدباء والفلاسفة والمؤرخين وأما في مصر فمن المستحيل أن تلقى من بين من ذكرنا من يعرف تلك المؤلفات في غير

النادر الذى لا حكم له ، ومن أشنع ما يهولك أن ترى سادتنا لا يستحيون من جهلهم بل يظهرون من عدم الاكتراث بهذه الثقافة ما يحزن» .

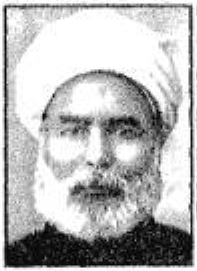
لقد افترض الدكتور مندور على المهندس أو الطبيب أو المحامى أن يلم بأصول الثقافة والمعرفة ، وهؤلاء قد وقفت معارفهم عند درجتى الليسانس أو البكالوريوس ! أما الأستاذ الجامعى فقد اتسعت آفاقه بعد ذلك ونال درجتى الماجستير والدكتوراه ، ومع ذلك التقدم فالحال متفق تماما لم يتغير! وذلك يدعو إلى إقامة المحاضرات العامة بالكليات الجامعية أسبوعيا، كما كنا نشهد فى الأربعينيات ، حيث يدعى أساتذة الفكر من أمثال منصور فهمى وطه حسين وزكى مبارك والعقاد وعبدالرحمن الرافعى إلى مناظرات تقام تحت رياسة مدير الجامعة أحيانا ووزير المعارف أحيانا أخر. والدوريات الأدبية فى هذا العهد حافلة بمظاهر هذا النشاط الثقافى الجامعى، وأنا أقرؤها الآن فأتساءل أين كنا؟ وكيف صرنا؟ هذه المحاضرات العامة ، وهذه المناظرات الموضوعية تعطى الطلاب فكرة ممتازة قوية عن الثقافة الصحيحة ، فإذا رأوا بعد ذلك أساتذتهم لا يحسنون الإلقاء العلمى، ويلجأون إلى العامية المبتذلة فى التعبير الرخيص ، أشاحوا عنهم . وأعلموهم أن أسلوب المحاضرات العامة يرتقى بهم إلى حيث لا يستطيعون المحاكاة ! وإذ ذاك يبذلون الجهد فى تعلم اللغة العربية من جديد !

الجامعى المستنير

وهنا أتذكر مثلا رائعا للجامعى المثقف المستنير ، حدثنى عنه الأديب الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثرى ـ رحمه الله ـ أحد أعضاء المجامع العربية فى مصر والشام والعراق ، وهو من التأليف العلمى بالمكانة التى يتسامى إليها النظراء ، قال الأستاذ فى سنة ١٩٣٦ وفد الأستاذ الدكتور عبدالرازق السنهورى عميدا لكلية الحقوق العراقية وأستاذا للقانون المدنى بها ، فقرأنا فى الصحف عنوانا لمحاضرة علمية يلقيها الأستاذ ، وكنا قد سمعنا من قبل محاضرات رائعة لأساتذة كبار من المصريين أمثال الدكتور عبدالوهاب عزام ، فى محاضرته عن بداوة المتنبى والأستاذ أحمد حسن الزيات فى محاضرته عن كتاب ألف ليلة وليلة فأعجبنا بالأديبين الكبيرين كل الإعجاب ، وقلنا ما عسى أن يقول أستاذ القانون المدنى فى محاضرة عامة، وتخصصه محدود ، ولكن حب الاستطلاع دفعنا إلى سماع المحاضرة ، وكانت التيارات الفكرية فى البلاد تتحدث عن المذاهب



سعد زغلول



محمد عبده

السياسية فى أوربا حديثا صحفيا لا يرتكز على أصول علمية دقيقة، فاختار الزائر الكبير محاضرته فى موضوع (النهضات القومية العامة فى أوربا والشرق) وهو موضوع صادف موقعه فى النفوس . ثم بدأ حديثه المستفيض فى عدة عناصر فى ورقة صغيرة، وضعها أمامه ، فتحدث عن الصراع الأوربى الدائر حول رابطتى الوطن والجنس ، وألم بالثورات المعاصرة من سياسية وصناعية واجتماعية . ثم ثنى بالحديث عن الاشتراكية الروسية ، ووجهت له أسئلة شتى أفاض فى الاجابة عنها فأكلت الوقت المحدد ، وحدد اليوم التالى لبقية المحاضرة ، فتحدث عن النازية والفاشية فارقا بينهما تفريقا دقيقا لم نكن نعهده ، وتوالت الأسئلة فأجاب عنها بما أمتع وأدهش ، وضاق الوقت عن استيعاب البقية فجاء اليوم الثالث ليناقش الديمقراطية فى فرنسا وانجلترا وأمريكا مبينا مالها وما عليها ، وفى كل محاضرة يزداد عدد الحاضرين حتى غص بهم المكان . مع أن المكان هو بهو العاصمة الكبرى فى بغداد وهو أوسع ملتقى للمفكرين فى بلد الرشيد، وكانت الأيام الثلاثة عيدا ثقافيا لم تشهده البلاد من قبل ، حتى قال الأستاذ طه الراوى مدير التعليم حينئذ فى تعقيبه المفرط ، إن مصر التى أنجبت أحمد شوقى من السهل جدا أن تنجب أمثال عبدالرزاق السنهورى ! فهذا هو أستاذ القانون المدنى الذى اتسعت ثقافته فشملت ما يعج بالعالم الغربى من تيارات ! أفلو اقتصر الاستاذ على تخصصه ، ودعى للمحاضرة فى موضوع حدده القائمون على الأمر أفما كان الاعتذار المخجل هو المنفذ الوحيد لأمثاله ! وكيف وهو السنهورى !

أراني حين أتحدث عن ضرورة الثقافة العامة للأستاذ الجامعى أتحدث عن بديهيات كان الواجب إغفالها لوضوحها التام، ولكن الواقع الممض قد يلجئ إلى اعترافات أليمة لا مناص من تسطيرها ، وآخر الدواء الكى كما يقال . وندع جانب الإلقاء العامى فى المدرجات ، إلى جانب شبيه به ، ومتصل به أكبر الاتصال ، هذا الجانب هو جانب الحديث المتبادل بين الأساتذة فى اجتماعاتهم الرسمية وغير الرسمية؛ وليس من الضرورى أن يكون الحديث فى هذه الاجتماعات باللغة العربية

فهذا مالا يطيقه غير أستاذ كبير كالدكتور طه حسين كان يحرص عليه متشددا ، ومؤكدا ما يلزمه من إجادة مخارج الحروف ، ودقة النبر الموسيقى ، إنما الضرورى أن يكون مستوى التفكير فيه راقيا بحيث يشعر السامع أنه ليس فى مقهى يجمع مختلف الطوائف الشعبية ، ولكن المشاهد الملموس أن أحاديث هؤلاء الكبار رسميا لا ترقى إلى المستوى المنشود ، فقد يدور الكلام حول موضوع سياسى يشغل الناس، وتفيض فى تحليله الصحف والاذاعات ، ثم تسمع إلى ما يقوله القوم ، فلا تجد غير ما يردده رجل الشارع ، لأنهم لا يقرءون ، ولا يفترقون فى اهتماماتهم اليومية عن العامة فى شئ! وأعود فأقول إنى لا أنكر وجود طائفة من الممتازين حقا بين هذا العدد الضخم فى كليات جاوزت المائتين فى مختلف نواحى القطر، وهؤلاء الممتازون لم يأت امتيازهم عن طريق الجامعة المعاصرة، بل عن أصالة دقيقة وجدت جذورها فى المنزل، والبيئة الخاصة، بمجتمعهم العائلى المستنير ، ولست أعنى أنهم نشئوا فى مهاد الترف المادى ! بل نشئوا فى مهاد الترف الثقافى فنضح عليهم ما بوأهم مكان الصدارة بين الزملاء هذه المكانة التى جعلتهم موضع الحظوة . وفى الوقت نفسه جعلتهم موضع الاستثناء الذى لا يقاس عليه مجال !

السمر الثقافى

ولا أدرى أين قرأت أن جمال الدين الأفغانى هو الذى أوجد السمر الثقافى فى مصر بمعناه التوجيهى ، فقد كان مجلسه بالمقهى حافلا بالتوجيه الثقافى والسياسى، وقد تتلمذ على يديه نفر من الفضلاء يجيدون الحديث الهادئ إجادة يحسدون عليها ، منهم محمد عبده وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وأديب اسحق، وعبدالله النديم ، فهؤلاء فى مجالسهم يرتفعون بالسامعين إلى الذروة ، ويخيل إلى أن نبوغ سعد زغلول فى الحديث كان السبب فى نبوغه الخطابى، لأن تشقق الحديث ، وتنوع أفانينه ، وتشعب أغراضه من سمات سعد الخطابية، وأنا لم أسعد بسماع سعد خطيبا أو محدثا ، ولكنى قرأت المأثور من خطبه الرنانة، وقرأت ما كتبه الاستاذ عبدالعزيز البشرى رحمه الله عن مجلسه وثقافته فى أحاديث السمر حيث قال عن سعد : « إن أنسى لا أنسى ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارا فى محكمة الاستئناف معروفا بشدة الجدل فى مسألة فقهية وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار إلى غيره ، حتى إذا ظن أنه تمكن من أفحوصه (عشه) ثار عليه سعد بالحجة ، فوثب إلى

سواه ، ومازال به صدرا من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من رأى إلى رأى ، ويحوله من قول إلى قول حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل فى حوار ولا جدل ، قال ذلك البشرى وأخذ فى تحليله بما يضيق المجال عن ذكره ، فليرجع اليه القارئ في كتاب (المرآة) .

وإذا كان من ذكرت من تلاميذ الافغانى قد وجدوا قبل نشأة الجامعة ، فهم غير جامعيين بطبيعة الحال ، فإننا نعرف من كبار الأساتذة فى الجامعة من رزقوا حظوة الحديث الراقى بسامعه إلى أعلى المنازل، ولا يزال تلاميذهم يرددون المأثور عن بدائههم الحاضرة ، ولومعهم الباهرة ، وأذكر أن الاستاذ محمد أبا زهرة وقد كان تلميذا للأستاذ عبدالوهاب خلاف ثم زميلا له فى كلية الحقوق تحدث عن ناحيتين لديه نعنيهما ـ فى هذا المقال، ناحية الإلقاء ، وناحية الحديث ، فعن إلقائه المبدع ذكر الاستاذ أبو زهرة أن الاستاذ عبدالوهاب خلاف كن نسيج وحده فى إلقاء محاضراته ، يستمع إليه السامع فلا يحس تكلفا ولكنه يحس رنة عذبة عميقة لها صدى فى النفس ، ويحسن فى نغماته الإلقائية تصويرا للمعانى من غير أن يحس أن المتكلم غير أو بدل فى صوته، ثم يقول أبو زهرة :

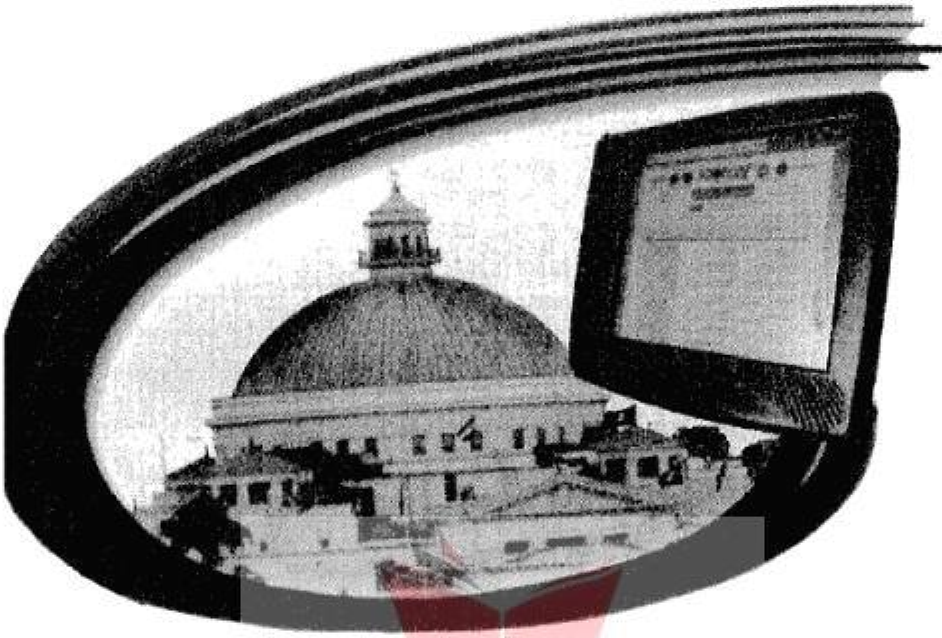
أما أحاديثه الأخوية فى مجالس السمر ، فنوع من السحر ، أفق واسع ، وعلم فياض ، وأخذ بأفانين القول وشجونه، حتى إن المستمعين إليه فى أحاديثه الخاصة يضيقون بكل من يتكلم ويمنعه من استئناف القول ، وأشهد أنى ما سمعت فى الشيوخ أظرف حديثا ، ولا أملك لفنون التحديث ، وأعلم بمداخل النفوس من الأستاذ خلاف ، وكان الحديث الحلو فن لديه فى ذاته إذ يثير عقله المجلس العلمى فيجمع به أشتات المعانى فى لفظ كأنه السلسل العذب».

ونحن لا نطمع فى أساتذة اليوم أن يبلغوا مبلغ أساتذة الأمس ، ولكننا نحارب هذه الأمية الفاشية بين المحاضرين ، نحارب من لا يستطيع أن يتكلم باللغة العربية فى موضوع علمى وهو أستاذ !

الواقع الحقيقى

قد يتهمنى بعض الفضلاء بالمغالاة فيما أكتب ، ولكن الواقع الداهم يغنى عن كل مغالاة ، فإذا حاولت أن أعيد لأستاذ الجامعة كرامته بين الناس على وجه عام ، وبين الطلاب على وجه خاص ، فأنا أسير فى الطريق السوى ، مصدر جشع فاجع لأستاذ مرموق يقبض الراتب المجزى ، ثم يمتص دم الوالد والتلميذ !! أليست هذه هى الحقيقة ، أنقولها؟ أم نخفى رءوسنا فى الرمال ؟

شكوت وما الشكوى لمثلى عادة
ولكن تفيض الكأس عند امتلائها



طريق الخروج من النفق المظلم

بقلم

د. سعيد اسماعيل على

شهدت ساحة الفكر فى السنوات الأخيرة أحاديث وكتابات متزايدة على تلك الطاقة غير المحدودة لمجتمع المعلومات فى حركة التنمية، وبالتالى فى الدفع بكل قوة بالمجتمع الذى يجد على طريق المعلوماتية إلى أقصى ما يمكن أن يأمل فى الوصول إليه من مستويات التقدم والرفاهية لخير الإنسان، وأمر مثل هذا يضع على عاتق المهمومين بالمسألة التعليمية على وجه العموم، والمتخصصين أكاديميا فيها على وجه الخصوص، مسئولية على قدر كبير من الثقل، من حيث البحث عن المهام التى ينبغى أن يضطلع بها التعليم فى تكوين مجتمع المعلوماتية وإثرائه، مع الوضع بعين الاعتبار أن خطوات اليوم والغد، لابد أن تكون موصولة بخطوات الأمس، لا بمعنى السير على نفس نهجها، ولكن بمعنى الاستفادة من خبراتها.

فبالفعل، شهد التعليم المصرى منذ ما يقرب من مائتى عام جهودا ضخمة على طريق التحديث والنهوض الحضارى ، من خلال تلك الركائز الأربع، ألا وهى : التحرر الوطنى. واكتساب الوعى القومى والاجتماعى المشترك، والنمو الاقتصادى ، وتحقيق المشاركة السياسة، لكن المشكلة التى وقفت حجر عثرة أمام هذه الجهود بحيث كانت محصلتها أقل كثيرا عما هو متوقع ومأمول ، هو أن هذه الركائز كانت في كثير من الأحيان تؤخذ فرادى، فضلا عن التفسيرات التي قد لا تتفق تماما مع حقيقة مضمون كل ركيزة من هذه الركائز على اساس مبرر قوى ومعروف، ألا وهو ما يمكن تسميته بمتطلبات المرحلة.

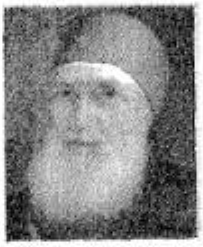
ولاشك فى أن هذا يتطلب منا وقفات سريعة امام بعض النماذج والتجارب المصرية فى الدور الذى قام به التعليم فى مشروعات النهوض الحضارى:

وعلى سبيل المثال، فلم يكن واردا بأى حال من الأحوال فى مشروع محمدعلى للبعث الحضارى أن يتوافر شيء عن المشاركة السياسية، حيث أن واقع المرحلة كان يبتعد تماما عن التفكير في مثل هذه القضية، فإذا كان محمدعلى بالفعل قد أدرك الدور الذى يمكن أن يقوم به التعليم، إلا أنه بدأ التعليم من أعلى، لا من القاعدة الشعبية للتعليم وهى التعليم الابتدائى الذى يتطلب انتشارا فى مختلف البقاع واستيعاب عدد كبير من ابناء الناس، بحكم ما كان يتسم به من عجلة تجعله يتطلع أن يرى «نتائج سريعة»، خاصة بالنسبة للمشروعات العسكرية التى تطلبت فى الحال كوادر عالية مؤهلة تأهيلا حديثا.

وفضلا عن ذلك فإن الجهد التعليمى اقتصر دوره على تغذية الآلة العسكرية الموجهة الى مشروعات التوسع الامبراطورى، ومن هذا فعندما قام تحالف «الشيطان الحقيقى» الذى يقف لمشروعات النهضة فى مصر بالمرصاد، وحصر محمد على داخل حدود ضيقة ، وفق شروط مجحفة، تداعت المشروعات التعليمية، لكنها لو كانت قائمة وفق منطق أن تتوجه توجها كليا للنهوض الحضارى، فربما كان سقوطها أقل خسارة، ولاستمرت الإفادة القومية منها.

بل إن إبراهيم «باشا» عندما ولى الحكم فى سوريا، أرسل إلى أبيه ما كان

محمد علي



ابراهيم باشا



قد سمعه من سليمان باشا الفرنساوى عن انتشار تعليم المرحلة الأولى فى الدول الأوروبية، وأنه من المفضل أن ينهج الوالى النهج نفسه حتى يمكن لمصر أن تكون دولة مرموقة ذات شأن، مثل البلدان الأوروبية، فإذا بمحمد على يكتب إليه بلفت نظره إلى ما تعانيه أوروبا عندئذ من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة، وإلى أنهم قد تورطوا فى تعليم الناس.. (أحمد عزت عبدالكريم: التعليم فى عهد محمد على، ص ٤٠).

صفحات مشرقة

ومن الصفحات المشرقة حقا فى تاريخ نهضتنا أن يتنبه أحد أعضاء مجلس شورى النواب الذى انشأه الخديو إسماعيل كصورة من صور المشاركة عام ١٨٦٦ إلى ضرورة أن يعمل التعليم على هذا، فذكر زملاءه بأن نص اللائحة يقرر أنه بعد ثمانية عشر عاما لا يجوز لمن لا يعرف القراءة والكتابة أن يرشح نفسه نائبا، وبعد ثلاثين عاما لايجوز أن يحظى مواطن لا يعرف القراءة والكتابة بحق الانتخاب، وكان هذا طموحا كبيرا، لم يتحقق، حتى بعد تلك بما يزيد على نصف قرن من الزمان، ودعاء هذا إلى أن يتسرع المجلس على الفور بوضع مشروع لنشر التعليم بين الناس على مختلف مراتبهم، وبالفعل تم وضع هذا المشروع . وكان مهندس هذا المشروع الكبير على مبارك، لكن إعصار الاحتلال البريطانى أتى عليه ففرغه من مضمونه.

وعند قيام الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ ، صاحبتها آمال عريضة فى الدور الذى يمكن أن تقوم به فى النهوض الحضارى، لكن فات على مؤسسيها البعد الاقتصادى فى المشروع، بل وقف قاسم أمين فى حفل افتتاحها ينفى أى شبهة يمكن أن تلوث هذا المشروع العظيم، إذا فكر القائمون على التعليم بها أن تكون مبدأ لإعداد القوى العاملة اللازمة لمشروعات النمو الاقتصادى ، وبالتالى فإن الجامعة يجب أن تعلم العلم من أجل العلم، على أساس أن ما كان قائما من مدارس عليا وهو المختص بتحقيق هذا المطلب.

وترتب على ذلك تضاؤل الإقبال على الجامعة وفتور حركة التبرع لها ، فساءت أحوالها المالية حتى اضطر القائمون عليها إلى تسليمها للحكومة عام ١٩٣٥، وتقع الجامعة المصرية منذ ذلك التاريخ فى «الجب الحكومى» الذى أوقعها فى شباك البيروقراطية و«التلميط» .، فضلا عن فقدانها درة التاج الجامعى، ألا وهى (الاستقلال)، وفقا للقاعدة المعروفة، من يدفع يكون له حق التقرير والتوجيه، ولو شئنا ان نعدد

النتائج السيئة التى ترتبت على هذا لاحتاج الأمر إلى مقال مستقل، ويكفى الإشارة إلى مثال شهير خاص بإخراج حكومة إسماعيل صدقى لطه حسين من الجامعة لأنه رفض بسبب الطابع الاستبدادى المعروف لهذه الحكومة . أن يرأس تحرير صحيفة حزبه سنة ١٩٣٠ .

وشاب مفهوم «الوعى» القومى فى مشروع ثورة يوليو ليس جعله يختلط بمفهوم «الحشد» الذى يقوم على التلقين السياسى والترويج للمنجزات فقط، دون مناقشة السلبيات، مما كان له آثره السلبى فى تغييب مهارات النظر النقدى، وتعدد للرؤى ، والاختلاف الفكرى.

ومن الأمثلة على هذا أنه قد كان هناك مقرر باسم (التربية الوطنية) كان يرتكز على أن يكون التلميذ على بينة ودراية بحقوقه وواجباته ، فضلا عن دراسة مشكلات المجتمع وقضاياه، فاذا به ينقلب تحت مسمى (التربية القومية) إلى ما يشبه (الدعاية السياسية) الفجة

الخديوى اسماعيل



على مبارك



مما فرغ هذا المقرر من مضمونه .
فانصرف عنه المعلمون من حيث الحماس الواجب ان يرافق عملية التعليم، وانصرف عنه التلاميذ من حيث الاهتمام والاقتناع، وشهدت الجامعة ايضا ما سمى بالمقررات القومية مثل (القومية العربية)، و«ثورة ٢٣ يوليو» التى فرضت على جميع الكليات، بالمنطق نفسه (الحشد) و«التلقين السياسى» و«الدعاية»، وتحولت لدى كثير من القائمين بها الى فرصة ثمينة للكسب الكبير عن طريق التوزيع الضخم للكتب، وتصحيح أوراق الاجابة، وتركت انطباعا عكس المراد لها لدى الطلاب.

فضلا عما أدت إليه المشكلات والأزمات السياسية والعسكرية الكبرى (عدوان ٥٦ ، وحرب اليمن، هزيمة ٦٧) من تقليل ضخ المال اللازم لمواجهة التوسع الكمى الضخم فى مؤسسات التعليم، مما فرغ العملية التعليمية من الكثير من مستوى الجودة المطلوبة، وفتح بابا جهنميا لتعدد الفترات الدراسية فى اليوم الواحد فى المدرسة الواحدة.

ويطول بنا المقام لو تتبعنا مختلف الجهود، لكن يكفى الخروج بهذه الحقيقة التى تؤكد أن النظر الكلى الذى يسعى الى توفير ما يمكن تسميته بالتساند الجامعى العام ضرورة لا مفر منها، وان منطق ما لا يدرك كله لا يترك كله، غير مناسب فى هذه الحالة ، وكما سبق لنا

أن أوضحنا فى مقالات سابقة. فإن التصور الفكرى الكلى الشامل للبعث الحضارى للأمة، وموقع التعليم منه، لابد من توافره ، لكن التنفيذ يمكن أن يتأتى على مراحل.

وإذا كانت العلة المزمنة التى نعلق عليها عادة ما قد يواجهنا من إخفاق هو أن معدلات النمو الاقتصادى تقصر عن تلبية مشروعات التعليم، فإن دولة مثل الهند، وكانت حتى وقت قريب تعانى من معدلات فقر أشد حدة مما كانت تواجهه مصر، قد تنبهت إلى هذا الباب الملكى للنمو الاقتصادى، ألا وهو اقتصاد المعلومات فأصبحت من القوى الكبرى التى تحقق عن طريقه دخلا مذهلا، كما ذكر الكتاب الذى صدر عام ١٩٧٣ لعالم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى / الاقتصادى الأمريكى الكبير دانييل بل «مجىء المجتمع بعد الصناعى».

القوة والمال والعقل

وقد جاء هذا الكتاب فى وقت بدأ العالم فيه يشهد تغييرا جذريا فى نوعية السلطة، فقد كان اهم تطور اقتصادى هو ظهور نظام جديد يقوم على الاعتماد على العقل لخلق الثروة، بدلا مما كان قائما من حيث الاعتماد على العضلات ، ولا نعنى بذلك ان يسعى العقل الى التفكير فى أساليب جديدة فى الصناعة، وتوسيع دائرتها، وانما نعنى أن يكون المنتج العقلى نفسه هو الصناعة الجديدة. والمنتج العقلى المقصود هنا هو المعرفة.

وقد قارن «توفلر» فى كتابه عن تحول السلطة، والذى صدر بعد كتابيه الأول عن صدمة المستقبل والثانى عن «الموجة الثالثة» بين السلطات الثلاث والتى هى مصادر القوة فى الحياة البشرية. أولها: العضلات التى تنتج العنف (القوة) ، والمال الذى ينتج الثروة، والعقل الذى ينتج المعرفة ، فالمعروفة تتسم بالثراء فى التنوع، قياسا إلى المصدرين الآخرين، ومن ثم فمن الممكن أن نستخدمها من اجل العقاب، والمكافأة ، والاقناع، وكذلك للتحويل من أمر إلى نقيضه، بأن نحول عدوا الى حليف، مثلا.

والمعروفة كذلك يمكن ان تعين على مضاعفة الثروة أو القوة، وهذا معناه إمكانها أن تزيد المتاح من كل من الثروة والقوة أو أن تقلل من كم المطلوب منهما من أجل تحقيق هدف ما.

ولا يتسع المقام هنا لو حاولنا ان نعدد المزايا الجوهرية التى تتميز بها المعرفة عن غيرها من مصادر القوة، لكن ربما يهمنا ميزة بعينها تتصل بحالنا، فبالنسبة لكل من القوة والثروة، نجد أنه بحكم طبيعتهما فهما ملك للأقوياء والأغنياء، بينما نجد أن المعرفة يمكن أن تكون ملكا للضعفاء والفقراء، وهذا من شأنه أن يعوضهما بالفعل فيصبحا

أقوياء وأغنياء.

ولعلنا لو تذكرنا ما كان يمثله التعليم (الذى هو المصنع الرئيسى للمعرفة) بالنسبة لنا منذ عدة عقود لفهمنا تفسير هذه الميزة ، فالذى يفتش وراء مصيره الكم الاكبر من قدماء أساتذة الجامعات والمفكرين والعلماء والمثقفين ، يستطيع أن يلمس بكل سهولة كيف تمكنوا عن طريق التعليم أن يتمتعوا بعملية الحراك الاجتماعى الى اعلى . فتتحسن احوالهم المادية إلى حد كبير، ويصبحون فى مواقع نفوذ وقوة على الخريطة الاجتماعية . حيث كان التفوق التعليمى يعتمد فقط على الجهد المبذول من الطالب فى التعلم الذاتى بالمنزل والتعلم المباشر بالمدرسة. على عكس ما حدث بعد ذلك من الاعتماد على عوامل أخرى فى التحرك التعليمى!

بين الاقتصاد والمعرفة

إن انتشار الاقتصاد الجديد المبنى على المعرفة، فيما يؤكد توفلر إنما يمثل، فى الواقع، القوة التفجيرية الجديدة التى قذفت بالدول المتقدمة إلى أتون التنافس العالمى المرير، وساهمت إلى حد كبير فى سقوط منظومة الدول الاشتراكية لأنها كشفت لها عن التخلف المزمن لصناعاتها، وأجبرت كثيرا من البلدان النامية إلى التخلى عن استراتيجياتها الاقتصادية التقليدية، فظهرت «نمور» متعددة يعمل لها ألف حساب.

والتعليم كى يقوم بما هو مطلوب منه لإنتاج المعرفة، يحتاج إلى أمور كثيرة قد لا يتسع لها هذا المقال، ويكفى أن نشير إلى جزئية على جانب كبير من الأهمية تتصل بموضوعنا، ألا وهى «المعلومات» فغنى عن البيان أنها نقطة البداية لا للقيام المطلوب، وإنما للتفكير فيه ورسم خططه الاستراتيجية.

ففى احد التجمعات العلمية عالية المستوى، كان أحد الرموز الكبرى مكلفا بإعداد دراسة عن كيفية مواجهة مشكلة التمويل التى هى مشكلة المشاكل فى تطوير الجامعات المصرية، فإذا به يمحور حديثه كله حول أنه لكى يفعل هذا فلابد من خطوتين اساسيتين يفتقدهما مع الاسف الشديد، أولهما: توفير جميع البيانات اللازمة، وهذا أمر لا يتصور احد أنه سهل يسير، فمشكلة الاحصاءات فى مصر أشهر من أن نفيض الحديث فيها، من حيث تعدد المصادر، وتباينها، وأحيانا لعدم مطابقتها لواقع الحال، وثانيهما: كيفية

اسماعيل صدقى



طه حسين



تحويل البيانات إلى معلومات ، فلا يكفى أن نتوقف عند إحصاءات تقول بأن ما ينفق على الجامعات هو كذا من الجنيهات، ويقسم هذا الرقم على عدد الطلاب لنعرف تكلفة الطالب الواحد، ذلك ان هناك تنوعا كبيرا بين طلاب الطب وطلاب الحقوق مثلا ، فكم يتم انفاقه على هذا، وكم يتم انفاقه على ذلك؟ وكم كانت قيمة الجنيه فى سنوات سابقة حتى يمكن القيام بالكشف عن مدى التقدم أو التراجع؟

بل إن الأمر المهم، هو أن السنوات الأخيرة قد شهدت استنبات مصادر متعددة الدخل، قد لا تظهر فى الأرقام الخاصة بميزانية الدولة المنفقة على الجامعات ، من هذه المصادر:

اقسام التعليم باللغة الانجليزية التى تتقاضى الكليات عنها مبالغ كبيرة من طلابها ، حيث يتم توزيعها وفق منطق يختلف عما هو معروف فى الميزانيات الحكومية، وهناك الانتساب الموجه، وكذلك التعليم المفتوح، فضلا عما يسمى بالوحدات ذات الطابع الخاص، مثل المراكز العلمية التى تكاثرت فى السنوات الأخيرة داخل الكليات ، وهناك ما يسمى بالصناديق الخاصة.

وإذا اردنا أن ندرس الدخل المالى لأعضاء هيئات التدريس، فلن يكون للمرتب مقياسا حقيقيا للتعرف على مستوى الدخل، ولا أعنى بذلك الإشارة إلى الدخول الأخرى الخارجية التى تكون لنوعيات بعينها من الأساتذة المهنيين وخاصة فى القطاع الطبى. والهندسى، والتجارى، والحقوق، وإنما أقصد مصادر أخرى تعددت داخل مظلة الجامعة نفسها ، مثل ما يتلقاه البعض من المشاركين فى المصادر سابق الإشارة اليها ، فضلا عما أصبحت المذكرات والكتب المقررة تمثله الآن من دخول ربما تفوق ما يحصل عليه البعض من المرتب الرسمى، ولن نتحدث عن اعمال التصحيح والكنترولات.. وهكذا .

إن البيانات الخاصة بمثل هذه الجوانب لا تظهر فى الإحصاءات الرسمية الخاصة بما ينفق على الجامعات وبالتالى . فمن الصعب الوصول الى معلومات موثوق بها تمكننا من رسم تصورات استراتيجية للنهوض بالتعليم الجامعى حتى يمكن أن يتحول الى مجموعة مصانع لهذه الصناعة الجديدة.. صناعة المعرفة، وفقا للشروط والمواصفات التى تفرضها متطلبات البعث الحضارى، لا اليوم فقط، وإنما مستقبلا، ذلك لأن المطلوب ليس اى معرفة، وإنما هى تلك المعرفة المتقدمة المتطورة التى تملك من الإمكانات ما يجعلها طاقة تغيير حقيقى.

■

أقوال معاصرة


ياسر عرفات


فاروق شوشة


سميح القاسم


د. جابر عصفور

● «إذا شب مائه مليون عربى مسلم على مشاهد الفضائيات العربية التى تبث مشاهد الانتفاضه إلى الجيل الجديد، فلن تبقى اسرائيل في الوجود ؟!

توماس فريدمان

● « اسرائيل تشن حربا استعماريه وليست حربا ضد الإرهاب »

روبرت فيسك

● «ياسر عرفات الميت أخطر مئات المرات من عرفات الحى، فعرفات الميت يجعل الصراع ابدياً، وعرفات الحى قادر على إقامة السلام»

يوري أفنيري

● « لن نستطيع هزيمة اسرائيل عسكريا، ولكن نستطيع هزيمتها سياسيا لو تحلينايا بالصبر.

صبرى عبد الشافى

● اللغة العربية فى الوقت الراهن اساس دائها، وهو داء وبيل، هو تدنى التعليم، فى جميع مراحله، فى بلادنا»

الدكتور ناصر الدين الاسد

● «الأعلام الرسمى يحاصر الثقافة»

الشاعر المصرى فاروق شوشة

● «الحضارات لاتتصارع، بل تحتك وتتقارب، وهى لاشك، سائرة نحو التماثل ثم الاندماج

عبد الحميد البكوش - رئيس وزراء ليبى سابق

● «فلنحترس من هواة الكلام المنمق، ولنحذر مراثى الصياغات وطقوس البلاغة رقصا على الدم»

الشاعر الفلسطينى سميح القاسم

● «إذا كنت ناجحا ستكسب أصدقاء مزيفين، وأعداء حقيقيين، ومع ذلك أعمل على أن تكون ناجحا !!»

المؤلف الامريكى كنت كيث
صاحب كتاب الوصايا المتناقضة تظاهريا

● «سنطحن المقاتلين الشيشان، حتى ولو كانوا فى المراحيض»

الرئيس الروسى فلاديمير بوتين

●«أشعر بالعجز عن فعل شئ، وعن انجاز شئ ايجابى»

د. جابر عصفور
فى رسالة موجهة الى الكاتبة الفلسطينية ليانة بدر

●«لا أحد يستطيع أن يخدع الكاميرا»

ريتشارد ايتنبرو
المخرج الانجليزى الفائز بأوسكار عن غاندى

إسرائيل تحاصر وتحرق أهم المقدسات المسيحية

بقلم
د. الأنبا يوحنا قلته

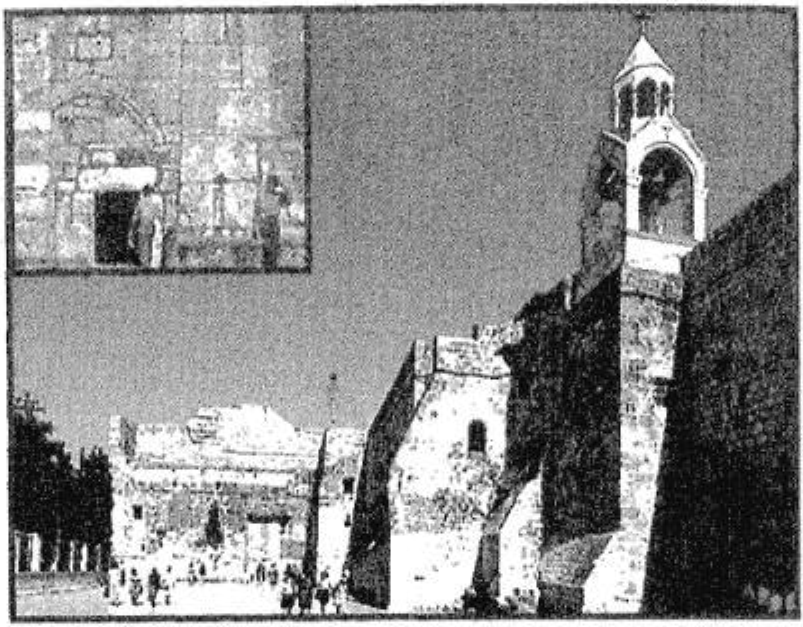
كنيسة المهد .. المكان الذى شرفه الله بمولد المسيح عليه السلام

لم يحدث ذلك فى عهد التتار او المغول ، لم يجرؤ عسكر فى زمن الحروب، والثورات أن يحاصر بيت لحم ، وكنيسة المهد أى عصر تعيشه هذا الذى فيه أحاط بمهد المسيح، الكلمة الإلهية، السلام المتجسد، أقام حضارة المحبة وزرع روحا، إلهيا فى نسيج الوجود ومسيرة البشر جند مدججون باسلحة ودبابات ترى . هل يرونها قلعة حربية ،وفى داخلها مذود يقرولد فيه المسيح ام يرونها مركز مقاومة وليس فيها إلا جماعة من رهبان وراهبات ، التجأ إليها أناس اخرجوهم من ديارهم لا يحملون لا زادا ولا مالا ، هذه هى إسرائيل ، أيها العالم المتحضر هذه هى رؤيتها ، لا ترى فى الكنائس او فى الجوامع إلا مواطن تجمع لأعدائهم .

ليس من عيد فى المسيحية أوسع من عيد الميلاد فلقد كتب له دون سواه ان يجمع فى غمرة واحدة كل البشر الذين يحبون السلام، ولاتحظي كنيسة فى العالم باهتمام تاريخى أو روحى مثل كنيسة المهد التى تحفظ أصداء نشيد الملائكة يوم مولد المسيح تهزج فى فضا . لا متناهى المجد لله فى العلى وعلى الارض السلام وفى الناس المسرة .

★ ★ ★

وفى تلك الأيام صدر امر من اغسطس قيصر باحصا . سكان الامبراطورية الرومانية. ذلك شرع رومانى

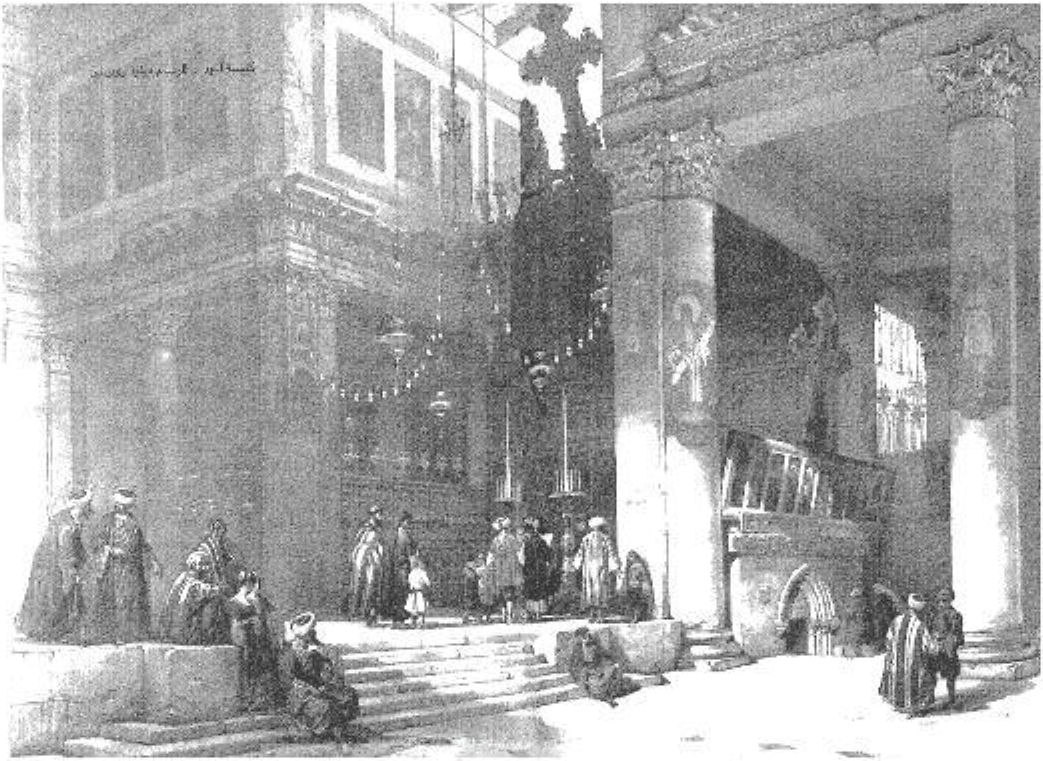


واجهة كنيسة المهد فى بيت لحم وأحد مداخلها

يفرض على جميع سكان الأقاليم ان يدونوا فى سجلاتها الرسمية باسمائهم وحرفهم وكمية ثرواتهم، وهكذا يهون عليها وضع قاعدة الضرائب وتقدير الطاقات العسكرية فى أزمنة الحرب ، وما كان اطولها واقساها من حروب ، يتم التسجيل فى المنشأ الأصيل التى تنتمى اليه كل أسرة . وهكذا اضطر يوسف النجار أن يصعد من الجليل، من مدينة الناصرية الى اليهودية الى مدينة بيت لحم يكتب مع مريم التى كانت حبلى ، وكان الرجال وحدهم ملزمون بفريضة الإحصاء لولا أن يوسف ومريم كانا قد وطنا العزم على التكافل في أجمل تلك السحرة ..

مضى الموكب الحزين الفقير إلى بيت لحم مسقط رأس الملك داود ، بين الناصرة وبيت لحم أكثر من مائة وخمسين كيلو مترا . الطرق بدائية وعرة ، لم تتفرغ روما لغير جمع المال وإذلال الناس، وهل في قلب مستعمر قديما أو حديثا رحم أو رأفة بالبسطاء والفقراء ، على ظهر حمار قطعا المسافة فى أربعة أيام، وسيلة نقل المعلمين فى كل زمان وفى كل مكان وكل حضارة ...

بيت لحم ، البيضاء الجاثمة على علو ثمانمائة متر فوق منحدرات ماكان ابهج منظرها برغم فقرها والصحراء المجدبة التى تلفها ، فيها بعض اشجار الزيتون والكروم وبعض من الاراضى الخصبة والحقول الشقراء وبيت لحم معناها بيت



الخبز كما عرفت باسم أفراته أي الكثيرة الفواكه في اللغة العبرية ..

أنبأ يوما ميخا النبي بمصيرها البهي حيث قال : وأنت يا بيت لحم انك صغيرة ولكن منك يخرج من يسود اسرائيل ومخارجه منذ القدم منذ ايام الأزل (سفر ميخا ٥:١) وكان الله في حكمته السرمدية التي لا يدركها البشر، شاء أن يوقع قيصر قراره لكي تتحقق نبوءة ميخا ويولد المسيح في بيت لحم ..

★★★

كان بوسع المسافرين ان يأويا الى البناء الفسيح الذى كان قائما عند مدخل بيت لحم يدعوه انجيل لوقا «نزلا» ، تلك الفنادق الشعبية لا يزال مثلها قائما في بلاد الشرق ، لم تكن أسباب الراحة لتتوفر فيها ، يزدحم الادميون، كما تتصارع على ارضها البهائم ، وقرار الإحصاء شد الرحال من كل مكان فباتت بيت لحم غاصة بالوافدين من كل صوب ، ويوسف ومريم ليس لهما مال كثير ، وساعة المخاض قد حانت فنزلا في احد تلك الكهوف التي لا يزال يشاهد كثير منها في فلسطين ..

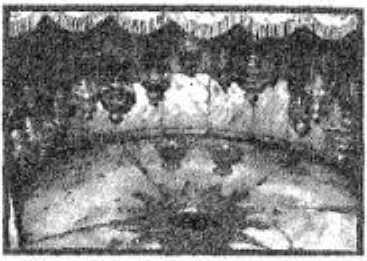
وشهد يوستيس المؤرخ والشهيد في القرن الثاني من الميلاد وكان يعرف تلك الأمكنة معرفة دقيقة بأن مريم ولدت طفلها في المغارة التي يعرفها معاصروه، إذ لم تغب ذكراها عن خاطرهم وتوارثت الأجيال عن هذه المعجزة ..

★★★

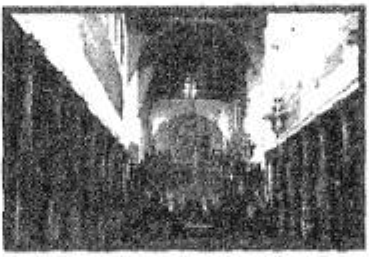
كنيسة المهد التي يحاصرها الجيش المحتل ، والتي لجأ إليها المطرودون من ديارهم ومن سعير نار الحقد والانتقام ، كما لجأت مريم ويوسف إلى المغارة هربا من صخب الدنيا وضجة ضباط الرومان وسياطهم ، ولكن الكنيسة اليوم هي غير مغارة الامس، يحيط بها سور عظيم له ابواب ضيقة تفضي الى كنيسة ذات هندسة قديمة جدا يرقى عهدها الى الجيل الرابع او الخامس وتقع روعتها في النفس موقعا عظيما تتوالى فيه الذكريات المقدسة والمعجزات الباهرة، معجزة حمل العذراء البتول، والمولد المعجز، ونشيد الملائكة ، وموكب الرعاة، وزيارة ملوك المجوس باحثين عن الحق حاملين الذهب والبخور والمر .

للكنيسة خمسة أروقة يفصل بينها اربعة صفوف من الأعمدة من حجر أحمر تيجانها من حجر ابيض ، تلك الكنيسة التي تحتضن الموضع الذى تجسدت فيه كلمة الله بشرا سويا واتم الله للناس رحمته ، وبرغم قدسية الحدث والذكرى والمكان إلا أن الكنيسة تتقاسمها الطوائف المسيحية إذ تأبى كل طائفة إلا أن يكون لها موضع قدم ..

تحت قاعدة الكنيسة معبد أرضي تصل إليه عبر انحدار ثم السير في دهليز طويل ضيق يمحو تماما مشهد المغارة الاصلية ، واحتضان الفضاء لها وضمة التلال وظلال الزيتون . في هذا المعبد ركن يقال له ، «المذود» يتألق فيه الذهب والفضة والحجارة الكريمة في وهج عشرات من السرج المضاءة بالزيت وأما المرمر والرخام والمعادن النادرة فقد وضع منها



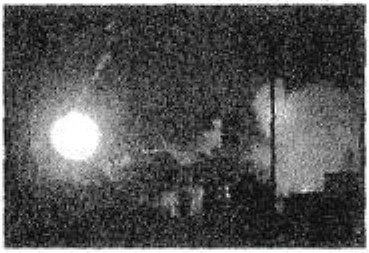
بنيت كنيسة المهد فوق كهف يتضمن مكان ولادة السيد المسيح



أعمدة بهو الكنيسة الحجرية التي بنيت في عهد الأمبراطور جوستيان



آثار العدوان الاسرائيلي كما تظهر على البوابة الخلفية للكنيسة - أبريل ٢٠٠٢



القصف الاسرائيلي فوق كنيسة المهد أثناء حصارها

فى كل مكان ، ومع ذلك فليس على الفضة والذهب ولد السيد بل على الحضيض على حد قول القديس ايرونيمس ..

وفى إناء رخام تتلألأ نجمة من الذهب ، يراد بها تحديد الموضع الذى ولد فيه المسيح وضع تمثال طفل ، بض، مبتسم ، تحته يسير من القش يراد به تجسيد الحدث الذى تم عند ملء الزمان قبل الفى سنة وسنتين ، ولولا الإيمان العميق فى وجدان البشر الزائرين بلا انقطاع الآتين من أقاصى الأرض وأعماق القرون، لتصلى فى هذه البقعة الطاهرة المختارة لولا هذا الايمان ، لأصيب العقل بالقلق الذى تبعثه فى النفوس جميع المزارات ، فى كل انحاء الجغرافيا المقدسة من العالم ، قلق مصدره هذا الفارق الشاسع بين منهج السماء وسلوك البشر .

يدير كنيسة المهد، جماعة من الرهبان الفرنسيسكان اسسها القديس فرنسيس الاسيزى الذى زار مصر خلال الحروب الصليبية سنة ١٢١٦ وقابل الملك الصالح بدمياط وعرض عليه الملك ان يزور بيت لحم وأورشليم فى امن وسلام رغم فظاعة حروب الفرنجة ، ولعلنا نتساءل لماذا تسيطر جماعات الرهبان الكاثوليك على كنيسة المهد وعلى اغلب الكنائس فى الارض المقدسة بفلسطين ويطلق عليها حراس الاراضى المقدسة، هذا الأمر يعود إلى حادثين .

أولهما : صداقة هارون الرشيد

الخليفة العباسي الذى أهدى الامبراطور شارلمان مفاتيح القدس، وأتاح للامبراطور الكاثوليكي ان يبعث بمن يشاء للحفاظ على التراث الديني، ولعل في ذلك درسا لإسرائيل وللعالم الغربي، في عمق الفهم الإسلامي للقيم الدينية والحفاظ على التراث الروحي ..

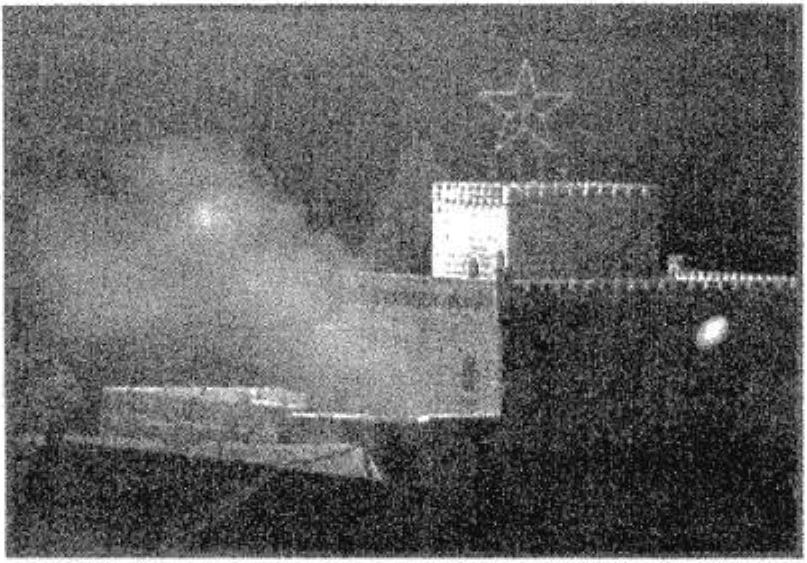
ثانيهما : في لقاء صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الأسد وهو كاثوليكي سلمه مفتاح القدس بالرغم من ان صلاح الدين كان هو المنتصر في نهاية الحروب، وأمر الخليفة المسلم أن يبقى في الارض المقدسة من يشاء من المسيحيين ومن اليهود، حتى من الصليبيين الذين رفضوا العودة الى بلادهم ومنذاك تسلمت الكنيسة الكاثوليكية مسئولية الحفاظ على تراث الارض المقدسة وأعطى صلاح الدين العالم كله درسا في العلاقات الانسانية رفض قتل أى انسان بعد الانتصار وكان بوسعه ان ينتقم لسبعين الفا قتلوا عند استيلاء الفرنجة على بيت المقدس .

هل تتعلم اسرائيل ، هل تقرأ التاريخ، هل يدرك العالم الغربي ان المسلمين على مر الزمن وفي مسيرة الحضارات ادركوا عمق معنى القيم الروحية، وكانوا حراسا أمناء لكل دين وعقيدة، ام أن زحام الأحداث ، وصخب الإعلام الصهيوني، وتدفق الدم البريء ، وعمى القوة الغاشمة، تلك أمور اخفت الحقائق ، ولكن من قال إن الشمس تخفيها السحب الداكنة والعواصف الهوجاء، إن التاريخ شاهد لايخطيء ، بأن الأمة العربية هي امة تؤمن بالمطلق وتحترم الاديان، وتصون المقدسات، وتدرك قيمة الارض وقيمة الإنسان، وقيمة الإيمان، قيمة الحياة .

إن المحاصرين في كنيسة المهد وبينهم مصريون (الراهبة فايزة عياد من كفر الدوار) راهبة فرنسكانية تخدم منذ سبعة عشر عاما ، أبناء بيت لحم ، وهي مع الرهبان والراهبات (عددهم اربعون شخصا) في خدمة الفلسطينيين اللاجئين الى الكنيسة .

واقول لإسرائيل لن يستسلم شخص واحد ممن في داخل الكنيسة ، فليس من طبع العربي الاستسلام او قبول المذلة ولن تجرؤ إسرائيل على اجتياح الكنيسة وتدميرها لسبب غاية في البساطة ، انها تعلم أن المساس بمقدسات المسلمين والمسيحيين سيحول المنطقة الى جهنم لزمن طويل. وابسط الانتفاضة إلا وحيا من تعدي شارون على مقدسات المسجد الاقصى، واقول لهم ، لقد تحول كل الفلسطينيين الى صلاح الدين ، إننا نحن العرب برغم الصورة المأساوية التي نعيشها، وبرغم الالم والحسرة وما يعتصر قلوبنا، ذلك كله ليس إلا ثمرة تكتل الغرب مع اسرائيل لتفتيت وحدة العرب ، ولكنهم لن يستطيعوا خلع جذور الإيمان بمقدساتنا ولن يمحى اعتقادنا الراسخ بأن الحق يوما سينوهج ودولة الظلم والدم إلى زوال .

يأتي الملوك والملكات والعلماء والأغنياء والفقراء الى كنيسة المهد يتأملون سر حب الله للبشر وسر ميلاد السلام بينهم، منذ



الدخان يتصاعد من كنيسة المهد بعد أن قصفها الجيش الإسرائيلي بالأسلحة الثقيلة - أبريل - ٢٠٠٢

عصر الملكة هيلانة فى القرن الرابع، وعصر صلاح الدين، الى عصر النبى (١٩١٨) وحتى منتصف القرن العشرين ظلت كنيسة المهد، نقطة لقاء الأجناس على اختلاف اعرافهم وطبقاتهم، لم يتجاسر مغامر أن يمسها بسوء .

وأما اليوم ، يحيط بها الحرب من كل صوب ، لم نعد ملجأ أمنا ، صيحات الدنيا لم تنفع فى فك الحصار، نداءات البابا ورؤساء الأديان لم تخفف الوطأ عن كنيسة السلام، كأن العالم كله فى كفة وإسرائيل فى كفة ...

ذلك ونحن نعبر الى القرن الواحد والعشرين ، لم تزل شريعة الغاب سائدة، ومنطق القوة يحكم الدنيا، ولكن ... الغلبة فى آخر الأمر للتاريخ والجغرافيا، أما التاريخ فيقول هذه ارض عربية ، هذه كنيسة المهد، المسيح الذى يجله المسلمون والمسيحيون ، هذه ليست حجارة وحوائط وارض ، هذا تراث ، وعقيدة وإيمان، وسيسقط يوما تحت اقدام التاريخ كل غاصب ومحتل ...

والجغرافيا تقول ، هذه منطقة مقدسة، من تلك المناطق التى شاء الله ان يختارها رمزا ومكان صلاة وعبادة ... كما اختار أماكن كثيرة .. وكأن على الأرض مناطق اختصها الله لجلاله وعبادته ، والحج اليها..

سوف يمضى الليل المظلم يا بيت لحم، ستشرق من جديد نجمة المساء وينشد الملائكة انشودة السلام فوق كنيسة المهد، ستعودين الى احضان اصحابك الأصليين، نحن العرب ... ■

مستقبل فلسطين

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أطبقت سحب الكآبة على الصدور ، فأصبحت ضيقة كمن يصعد فى السماء ، وساد حزن نبيل على مصائر الشهداء والأبطال ، وسرى قلق حقيقى - إن لم يكن قنوط ويأس - مما يحمله المستقبل ، وضاعت الثقة والطمأنينة بعد أن وقف الجميع يشاهدون - وإن بانفعالات مختلفة - شعبا صغيرا مناضلا يذبح على أيدى نازيى القرن العشرين . وسألنى سائل أعرف إخلاصه : أمازلت على تفاؤلك الذى طالما بشرت به ؟ وشعرت من نبرة السؤال أنه يريد الإجابة بالإيجاب ، وأجبت بالفعل بنعم ، لا لكى أرضى من سألنى، ولكن لأنى مازلت أعتقد بصحة الإجابة .

فرق كبير بين أن نهزم فى معركة - ولم نهزم بعد - وبين أن نخسر الصراع كله . وفرق كبير كذلك بين أن يعتصر الحزن والأسى قلوبنا ، وألا تفارق الغصة حلوقنا ، وأن تخرج الأنفاس من صدورنا كأنها لن تعود ، لما حل بالمناضلين والمواطنين الفلسطينيين العادسن من جرائم حرب لا تخطر على عقل بشر ، وبين أن نفقد ثقتنا بالمستقبل . ولنحاول بالتحليل الموضوعى

أن نؤسس ما نقوله على أسس منطقية .

النموذج العام لحركة التحرر الفلسطيني

لكي نستطيع أن نقيم ما يجرى تقييما حقيقيا لابد أن نضعه في سياقه التاريخي ، أي في إطار النموذج العام لتطوره ، وهنا نلاحظ أن حركة التحرر الفلسطيني قد بدأت بدايات عشوائية في أعقاب نشأة دولة إسرائيل مباشرة ، فأخذت طابعا فرديا أحيانا ، وغير منظم أحيانا أخرى ، ولم تؤد - كما كان في الخبرات المقارنة لحركات التحرر الوطني - إلى تأثير يذكر على المستعمر .

وفي الأول من يناير ١٩٦٥ أطلقت أول رصاصة «منظمة» في حركة التحرر الفلسطيني في سياق المد القومي العربي العام ، وبهزيمة ١٩٦٧ واستيلاء اسرائيل على ما بقي من أرض فلسطين حدثت نقلة نوعية في حركة التحرير الفلسطيني نتيجة أنها أصبحت تمارس «من الداخل» لأول مرة بأحد المعايير ، وكانت معركة الكرامة في مارس ١٩٦٨ علامة على هذه المرحلة ، ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية وزيادة وزنها بدأت بعض المشكلات تثور مع الدول التي احتضنتها ، ووصل هذا إلى درجات مؤسفة مع الصدام المسلح بين المقاومة وبين هذه الدول انتهى في التحليل الأخير إلى الخروج التدريجي للمقاومة منها ، وكان آخر خروج للمقاومة الفلسطينية من أرض دولة عربية هو خروجها من بيروت في ١٩٨٢ بعد صمود بطولي دام قرابة الثلاثة أشهر، وإن كان هذه المرة بتأثير الحرص على بيروت وليس الصدام مع السلطة اللبنانية .

وفي نهاية الثمانينيات (اعتبارا من ديسمبر ١٩٨٧) بدأت حركة التحرير الفلسطيني مرحلة جديدة تميزت فيها بالنضال الشعبي فيما عرف بانتفاضة الحجارة ، ودامت هذه الانتفاضة أعواما إلي أن داهمتها أزمة الخليج ، ولكنها مع ذلك أثمرت اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ التي مهما كانت عيوبها إلا أنها تضمنت اعترافا صهيونيا للمرة الأولى بشعب فلسطين ومنظمته، ووجودا فلسطينيا سياسيا للمرة الأولى على أرض فلسطين . وهدأ الشعب الفلسطيني بضع سنين في سياق المراوغات الإسرائيلية في تطبيق أوسلو وتوابعها إلى أن تأكد انقلاب اسرائيل عليها ، وظهرت الحقيقة كاملة في قمة كامب ديفيد ٢٠٠٠ : عرض هزيل مطلوب قبوله كحل نهائي للصراع ، ورفضت القيادة الفلسطينية العرض ، وتفجرت انتفاضة الأقصى في أكتوبر

٢٠٠٠ بسبب مباشر هو زيارة مجرم الحرب شارون للمسجد الأقصى ، بينما دافعها الأصيل هو وصول عملية التسوية السلمية للصراع إلى آفاق مسدودة بسبب السياسة الإسرائيلية .

تعمدت أن أشير إلى هذه التطورات في عجالة لكي أستخلص منها ما يمكن أن يفيدنا في معرفة أين نحن الآن ، وأركز في هذه الخلاصة على ملاحظات ثلاث .

وأول هذه الملاحظات أن حركة التحرير الفلسطيني من حركات التحرر الوطني التي تعتبر مبكرة في تبلورها ، فقد نضجت بعد حوالي عشرين عاما من نشأة دولة إسرائيل بينما استغرق ذلك ما يزيد على القرن في الحالتين الجزائرية واليمنية اللتين تم الاحتلال فيهما في ثمانينيات القرن التاسع عشر ولم يحدث الاستقلال إلا في ستينيات القرن العشرين . صحيح أن الظروف والملابسات قد اختلفت، ولكن الملاحظة تبقى جديرة بالتسجيل .

والملاحظة الثانية أن حركة التحرير الفلسطيني قد تقدمت عبر الزمن على الرغم من كل ما يبدو أنه أصابها من نكسات ، فقد انتقلت من النضال العشوائي إلى المنتظم ، ومن النضال من الخارج إلى النضال من الداخل ، ومن غياب الكيان إلى وجوده ، وانتقلت بين أساليب النضال حسب مقتضيات الموقف، فلجأت إلى النضال المسلح في ظروف سمحت بذلك ، ومارست النضال الشعبي عندما تغيرت الظروف ، وجمعت بين الاثنين في ظروف ثالثة ، وهكذا . ولا يعني هذا أنها لم تقع في أخطاء استراتيجية وتكتيكية ليس من المناسب الآن مناقشتها، لكن المهم أن المحصلة في النهاية كانت تشير إلى تقدم عبر الزمن .

ومع ذلك فإن المخلصين يعلقون على مثل هذا الكلام بقولهم : لكن الظروف الراهنة مخيفة ، والخسائر الإنسانية أفدح من أن توصف ، والدمار المادي مأسوي . أجيب بأننا مع كل الحزن النبيل والغضب الصارخ لا ينبغي أن نفقد عقولنا . فيذكر منا من عاش أيام يونيو ١٩٦٧ كيف كانت المشاعر وقتذاك ، فمن كان يصدق أن تشتعل المقاومة المصرية للعدو بعد أسابيع قليلة ، وأن تصل إلى ذروة حرب الاستنزاف بعد شهور قليلة ، ثم إلى قمة حرب أكتوبر بعد سنوات قليلة . هكذا الشعوب . لا يمكن أن تصبر طويلا على أوضاع تخل بحقوقها على نحو جسيم ، فما بالنا بالشعب الفلسطيني الذي حوله

الاستعمار الصهيوني لفلسطين إلى كتلة من الإيمان والغضب والجسارة .

نظرة إلى المستقبل

لم أفقد إيماني يوما بانتصار حركات تحرير الشعوب ، وإن كان توقيت الانتصار وطبيعته تصنعه ظروف كثيرة . يبدو شارون ساعة كتابة هذه السطور منتصرا ، وأقول مع ذلك أننا لم نهزم في هذه المعركة بعد . صحيح أن هزيمتنا فيها واردة ، وربما يراها البعض مرجحة ، ولكن يكفي أن يصمد قطاع غزة إن فكر شارون في التعرض له على نفس النحو الذي صمد به معسكر جنين ، أو أن تستمر عمليات المقاومة - وإن بوتيرة أقل - حتى يفلس شارون عسكريا في المدى القصير بعد أن أفلس سياسيا . ويحين بالتالي أوان رحيله .

ومع ذلك فلنلق بنظرة على السيناريو الأسوأ - أن يكمل شارون مخططه الحالي بنجاح ، في الواقع انه يكون بذلك قد زج بنفسه في مأزق حقيقي، فسوف يواجه أولا مشكلة سياسية تتعلق بإدارة المناطق التي احتلها، ذلك أنه لن يستطيع أن يديرها من خلال جيش الاحتلال إلى الأبد، وإنما لابد من ترتيب سياسي ما، وهذا الترتيب لا يمكن أن يتعاون فيه فلسطيني مخلص، فإن قبلت عناصر فلسطينية التعاون معه فسوف تكون بطبيعة الحال فاقدة للمصداقية الفلسطينية، وبالتالي فإن عمرها سوف يكون قصيرا ، أو لنقل إنها ستعجل باستئناف المقاومة ، ولا يجب أن ننسى أن شارون يتسلم الآن أراضي لها خبرة ثلث قرن في مقاومة العدو بشتى الوسائل ، وهو موقف يختلف جذريا عن احتلال الضفة والقطاع في ١٩٦٧ .

وعندما تستأنف المقاومة - الآن أو بعد حين - تكون قد وضعت نفسها على الطريق من جديد . لا نقول بدايته ، ولكننا لا نقول أيضا نهايته ، فمازال الطريق طويلا وشاقا وهذه طبيعة الأمور ، فضلا عن السمات الخاصة للاستعمار الصهيوني الاحتلالي التي تزيد من تعقيد الموقف أمام حركة التحرير الفلسطيني .

ولكن يحدث السيناريو الأفضل - على المدى القصير بإفشال مخطط شارون - أو المدى الأطول باستئناف المقاومة لابد من شروط فلسطينية وعربية ودولية .

أما الشروط الفلسطينية فهي الوحدة الوطنية الكاملة ، فهي وحدها التي ستمكن القيادة الفلسطينية من السير وفق منهج سليم استراتيجيا وتكتيكيا ، ولاشك في أن

مستقبل فلسطين

الوحدة الوطنية الفلسطينية باتت مشكلة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تعتبر معظم فصائل التحرر الفلسطيني إرهابية ، لكن الطريق واضح وواحد ، وأي نكوص عنه لن يعني إلا تأجيل يوم تحقيق الأهداف.

وأما الشروط العربية فهي تثير مشكلات بلا حدود ، لأن حركة التحرير الفلسطيني تكاد تكون الوحيدة من بين حركات التحرير الوطني المعاصرة التي تعمل في ظل غياب شبه كامل للمساندة الخارجية ، وهي ضرورية ، بل إن تأثير البيئة العربية عليها يكاد يكون سلبيا في بعض الأحيان ، ولولا غضبة الشارع العربي بعد الاجتياح الاسرائيلي الأخير للأراضي الفلسطينية والمجازر الوحشية التي ارتكبت في سياق هذا الاجتياح لكانت المساندة العربية للنضال الفلسطيني صفرا أو تكاد . ومطلوب من النظام العربي أن يعي جيدا أن نتيجة ما يجري على أرض فلسطين سوف تحدد إلى حد كبير مستقبل المنطقة بأسرها ، سواء بمعنى أن الهيمنة الإسرائيلية الإقليمية لابد أن تنعكس - إن تحققت لاقدر الله - على باقي دول المنطقة ، أو بمعنى أن استمرار تراجع أداء النظم العربية في هذا الموقف يمكن أن يؤدي بالتدريج - أو حتى فجأة - إلى تراجع أو تآكل شرعيتها .

ولا يعني هذا أن النظام العربي الرسمي مطالب بالحرب ، فالحرب لها استعداداتها وحساباتها ، وهي أمور لا زال بعض الدول العربية المعنية بعيدا عنها تماما ، ولكنه مطالب بالحركة الفاعلة باستخدام أية أدوات أخرى مناسبة اقتصادية كانت أو دبلوماسية أو إعلامية . المهم أن نملك الرؤية الاستراتيجية السليمة التي ترى فيما يجري على أرض فلسطين خطرا علينا جميعا ، وأن نبلور إرادة سياسية مستقلة تعيننا على اتخاذ ما ينبغي علينا اتخاذه من قرارات . وقبل ذلك كله وبعده يتعين على النظم العربية أن تصل إلى كلمة سواء فيما بينها بدلا من تبادل الاتهامات بالعجز، وأن تصل إلى كلمة سواء أخرى بينها وبين جماهيرها، حتى لا يتحول التناقض بيننا وبين العدو الإسرائيلي إلى تناقض عربي - عربي .

وعلى الصعيد الدولي لاشك في أن الموقف بالغ السوء بسبب الانحياز الأمريكي المطلق إلى جانب إسرائيل ، إن لم يكن المشاركة والتواطؤ ، وهو أمر يجعل الإرادة الأمريكية باهتة أو حتى غائبة عندما تعلن عن مواقف من نوعية

«الانسحاب الآن» ثم تنساها سريعا أمام إصرار القطب الأوحد شارون على عدم الانصياع ، ويجعل الإدارة الأمريكية عاجزة عن تقديم أي عرض سياسي حقيقي يصلح لتسوية الحد الأدنى . ولذلك فإن أي تعامل استراتيجي مع الإدارة الأمريكية على أساس أنها تحمل شيئا مفيدا لنا سوف يمثل خطأ فادحا ، وإنما ينبغي أن يكون التعامل إن حدث على أساس تكتيكي لاتقاء ضغوط لا تحتمل ، أو لالتقاط الأنفاس ، وثمة آمال بازغة في مواقف عدد من الدول الأوروبية لن يكون استغلالها للأسف إلا بأداء عربي أفضل .

★ ★ ★



يزداد الوضع ترديا أمامنا يوما بعد يوم . لكني حاولت أن أخط كلمات للأمل بنيتها على أساس أزعم أنه موضوعي ، وفضلا عما سبق لا يجب أن ننسى أن الحركة الصهيونية منذ ما يزيد على قرن من الزمان تحاول مدعومة في ذلك بقوى الهيمنة في كل مرحلة من مراحل تطور النظام الدولي ، ومستفيدة من ضعف الظهير العربي لحركة التحرر الفلسطيني ، أن تؤسس لها وجودا مستقلا على كامل أرض فلسطين ومع ذلك فإنها لم تنجح حتى الآن ، بل إن دولة إسرائيل في عصر العولمة والانحياز والتواطؤ الأمريكيين ، والغياب العربي شهدت أسوأ أعوامها مؤخرا بشهادة أحد كبار مسئوليها .

ومن ناحية أخرى فإن الكيان الصهيوني بالسلوك الذي يتبعه حاليا ضد الشعب الفلسطيني ، وهو سلوك متأصل فيه منذ نشأته ، قد رسخ إرادة الصمود والصراع في كافة أجيال هذا الشعب وصولا إلى كل طفل لديه أدنى قدرة على أن يعي ما حوله . هكذا قالت سيدة فلسطينية عجوز . «سنظل نقتل فيهم ويقتلون فينا إلى يوم الدين» .. وقال رجل فلسطيني في أواسط العمر : «لن تخيفنا دباباتهم ، فلن تزهق أرواحنا إلا بإذن الله» ، وقالت شابة فلسطينية : «ولن نترك لهم الأرض : أين نذهب ؟» ، وقالت أخرى: «إنها ميتة واحدة» ، وقالت طفلة في حوالي العاشرة من عمرها : «يتصورون أنهم يخيفوننا بدباباتهم ، ونحن لا نخاف فهذه أرضنا» . ومن هذه الأجيال تتولد إرادة الصمود والصراع التي ستصل يوما بالشعب الفلسطيني إلى بلوغ حقوقه مهما تجمعت سحب الكآبة فوق رؤوسنا ، وجثمت صخور الهم فوق صدورنا .

■



المثقفـــون
وضمير العالــم

جزء خاص

بعيداً عن انهزامية المـاضـى....

المثقف العربي

يولد.. يرفض.. ويثور من جديد

أمانى عبد الحميد

مسيرة ثائرة رافضة تنتفض من الموت إلى الميلاد.. تجتاح قلوبنا كالنار، كالطوفان تهب فوق رءوسنا تمنحنا النور والضياء.. تمزق ثوب السلبية.. الانهزامية.. الانكسار القديم.. وتدفعنا بعيداً عن حافة الانحدار انتفاضة حقيقية فى مدننا . داخل كل شارع وكل بيت.. فى الجامعة ... فى الجامع . وعلى صفحات الصحف وعلى شاشات التليفزيونات.. إنها ثورة الغضب تولد من جديد .

منذ سنوات وأمتنا تعانى من انهيار ثقافى نتيجة لكثرة الإحباطات حتى فقد مثقفونا الثقة بأنفسهم وبمجتمعهم فأصبحوا يعيشون غرباء وقد جف نبع القول داخل نفوسهم ومع الوقت تحولت العلة من علة سياسية إلى علة نفسية تخنق المثقف والمبدع العربى فيقول محمود درويش فى قصيدته «الوردة والقاموس» :

وليكن
لابد لى أن أرفض الموت .
وإن كانت أساطيري تموت
وإننى أبحث فى الأنقاض عن ضوء،
عن شعر جديد.

بعد أن كان المثقف يتوهم في نفسه فهم كل شيء بلا تردد، والحلم بكل شيء دون حدود، وتغيير العالم نحو عالم أفضل. ولكن توالي الصدمات عليه حول التغيير إلى نزعة تمرد حتى هيمن عليه وولد لديه إحساسا باليأس دفين ... فالعالم يتغير والواقع متكرر ..

هذه أوراق حقيقية

دم طازج ينزف من جرح جديد

كتابتها كانت

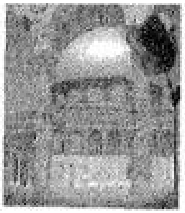
بديلا عن الانتحار

هكذا وصف علاء الديب شعوره كمثقف في كتابه « وقفة قبل منحدر - من أوراق مثقف مصري» وبعد طول انكسار وصل المثقف إلى حافة الانتحار .. مما رسخ الشعور بالغربة فيصفه «الديب» !! «**مدينتي صارت غريبة، صوت الشعراء فحيح، جعلتني سنوات الهزيمة شيخا بلا حكمة، وسكن في قلبي اليوم**» . فارتدى بعض المثقفين ثوب السلبية لعدم إيمانهم بدورهم في التغيير والثورة من جديد .

وخز الضمير

كأن ضمير العالم بدأ يستيقظ من غفوته فجأة أو يولد من جديد.. وكأن فلسطين ظهرت فجأة في غياهب الظلام وأن قضيتها وليدة الأمس القريب.. برغم مرور أكثر من خمسين عاماً على قيام الكيان الإسرائيلي وعدوانه الغاشم ، وأكثر من قرن على كشف النوايا والإعلان عن المطامع اليهودية .. كان عام ٢٠٠٢ بمثابة بداية وخز الضمير وتأنيب الذات في العالم أجمع متخطيا حصار الدعاية الصهيونية ... فانزلقت الأرض تحت أقدام المثقف العربي، واهتزت ثوابت العقل الانساني داخله أمام مشاهد القتل والدم والاجتياح والحصار وسيادة مبدأ البقاء للأقوى .

في البداية أصدر الكاتب الكولومبي «جابريل جارسيا ماركيز» الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢ بيانا يعلن فيه تضامنه مع الشعب الفلسطيني ويوقعه باسم « بيان الفرد الواحد» . يكسر فيه أسطورة السطوة الصهيونية على كثير من الأدباء والكُتّاب، ويثبت أن الأدباء المتميزين يتحملون مسئولية أمام ضمائرهم لحماية مستقبل البشرية . ونتيجة لموقفه شكل «برلمان الكتاب الدولي» وفدا من الكُتّاب العالميين لزيارة الأراضي المحتلة لإعلان موقفهم المعادي للاحتلال ، الأمر الذي يعكس التغيير الذي حدث للضمير العالمي، فقد عبروا عن موقف ١٥٠٠ من كتاب وأدباء العالم من أعضاء البرلمان . من بينهم الكاتب الأمريكي بول استر والأمريكية توني موريس ، والكندية



مارجريت أتوود الحاصلة على جائزة بوكر للآداب عام ٢٠٠٠ ومواطنها مايكل أونداتجي، والمسرحي البريطاني هارولد بنتر والسينمائي كوبولا . وبعد زيارة الوفد لمدينة «رام الله» اكتشف الضمير العالمي أن ماتقوم به قوات الاحتلال فاق قدرات الضمير على الاحتلال .. وهو ماعبر عنه خوسيه ساراماجو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٢ أحد أعضاء الوفد **«يجب أن نقرع جميع الأجراس في العالم لنقول أن ما يحدث في فلسطين هو جريمة يجب وقفها ، وأن علينا ككتاب أن نوقظ أرواح الناس وعقولهم»** كما تتجلى مشاعر الغضب في كلمات الكاتب الفرنسي كريستيان سالمون في ختام زيارته **«لم أكن أعرف أن على كل طفل أن يبحث عن دفاتره وحاجياته بين أنقاض منزله..»** ، أو كما جاء في قصيدة الشاعر محمود درويش التي ألقاها أمام الوفد في ختام زيارته بعنوان « حالة حصار ».. والتي اكتست أبياتها بالحزن والألم .

قال لي رجل عابر بين قنبلتين
سوف نحب الحياة كما هي
عادية ماكرة
فلا يلدغ المؤمن المتمرن من الفرح مرتين .

ورغم سيادة مبدأ البقاء للأصلح .. لكن الأقوى هنا ليس بالضرورة من يملك السلاح والذخيرة والمجنزرات . لكنه من يملك الصبر والصمود والثورة من جديد..

عودة الروح الرافضة

بالرغم من تدهور الأوضاع داخل الأراضي إلا أن الانفراج الحقيقي للأزمة تخرج بوادرها من ضيقها وعمق تأزمها وما نراه في الشوارع ووسط حشود المثقفين المتظاهرين يبرز لنا بوادر الانفراج .. فمنذ عام ١٩٧١ الحماسية لم تشهد شوارعنا ولا قلوبنا مثل ذلك الشعور الجارف القوي. صحيح أنه شعور بالألم والغضب إلا أنه أعاد المثقف إلى الساحة ليلعب دوره الفاعل والمغير من جديد .

فلم تعد كوابح التاريخ تكبل صوته ولم تعد أعباء الماضي الثقيل تشل حركته .. وكأن المثقف قد عاد ليراجع نفسه ويعيد قراءة موقفه من السياسة .. وتوصل إلى أن صوته أصبح خيارا حيويا ومصيريا تحتاج إليه الأمة كما يحتاج للسلاح والقوة .. وكأنه تذكر من هول ما يحدث دوره في تحمل مسئولية التغيير والتنوير وإعادة تشكيل وجدان المجتمع .. ورغم تعرض المثقفين العرب لحملة انتقادات تتهمهم بالعجز عن القيام بدور مماثل لدور « ماركيز » ، وعلى رأس من تعرض للانتقاد الكاتب الكبير نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨.. إلا أن توالي المواقف الرافضة .. وما نراه من البيانات الغاضبة وجمع التبرعات لدعم الانتفاضة الفلسطينية ،

يبعث على الأمل ... الأمل في استيقاظ ضمير الأمة مع استيقاظ ضمير المثقفين ... وتحولت كافة التجمعات الثقافية إلى مؤتمرات تنديد ورفض لما يحدث وخرج كثير من مثقفي الأمة إلى الشوارع صائحين رافضين الاستسلام ، وكأننا أمام انتفاضة تكسر الحواجز داخل أرواحنا لنصل إلى أول طريق الحرية ، كالنار .. كالعصفور .. كالنهار كما يصفها الشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي ، وحتى كتابة هذه السطور لا تزال تجرى المحاولات لعقد مؤتمر دولي داخل فلسطين يضم عددا من أدباء العالم تحت شعار « دعم صمود الشعب الفلسطيني» بل ودعا «منتدى الكتاب العربي» لشعوب العربية والعالمية للاشتراك في مسيرة العشرين مليون نحو القدس ، وكلها محاولات تدل على تغيير المواقف وردود الأفعال تجاه القضايا التي تؤرق أمتنا العربية ..

يا شعرنا .. كن غاضبا

يا نثرنا .. كن غاضبا

يا عقلنا .. كن غاضبا

فعصرنا الذي نعيشه عصر غاضبين .

كما طالب نزار قباني سابقا ـ أو حتى كما تنبأ أمل دنقل في قصيدته الشهيرة «لا تصالح » كيف ستأتي الغَضْبةُ

وغدا

سوف يولد من يلبس الدرع كاملة

يوقد النار شاملة

يطلب الثأر

يستولد الحق

من أضلع المستحيل

لذا وجب علينا كأمة وكشعب ألا نخطئ فهم ما نشعر به من غضب ونقوم به من تظاهرات وتنديد .. فهو سلوك بعيد عن الانهزامية القديمة .. إنه شعور سيفتح الباب على مصراعيه أمام انتفاضة ثقافية جديدة تقود إلى ثورة عارمة أو كما يقول البياتي في قصيدته يوميات العشاق الفقراء :

نغتصب العالم بالموت ، وبالثورة والرحيل نموت في غربتنا ، لكننا نولد من جديد

نحب من جديد

نرفض من جديد

نثور من جديد

فلنستأنف المسيرة الكبرى من الموت إلى الميلاد منتظرين النار والطوفان .. فنحن نرغب في الموت لا الانتحار حتى نكون أسياد المصير .. وهكذا يأتي النور.. ■



المثقفـــــون
وضمير العالـم

جزء خاص

سـارامـاجـو..

إن ما يحدث في فلسطين ليس سوى محرقة نازية

بقلم
د. طلعت شاهين(*)

الزيارة التى قام بها عدد من أعضاء «برلمان الكتاب الدولى» الى الأراضى الفلسطينية المحتلة ليعلنوا رفضهم للممارسات العنصرية الصهيونية بعد أن راعهم صمت الساسة المريب على كل الأصعدة لم يكن من بينهم من يعى الحقيقة المرة التى سيواجهونها على أرض الواقع سوى الكاتب الأسبانى «خوان جويتيسولو» الذى كانت زيارته تلك الرابعة، فقد سبقتها زيارات ثلاث مطولة قام بها الكاتب الأسبانى أنجز خلالها العديد من البرامج التليفزيونية التى تدين الاحتلال الإسرائيلى وتكشف حرب «الإبادة» التى يمارسها ضد الشعب الفلسطينى، وأيضا كتب خلال تلك الزيارات عددا من الأعمال الصحافية والأدبية، منها مجموعة مقالات فى زيارة له عقب اتفاقات أوسلو، صدر جزء منها قبل خمس سنوات فى كتاب بعنوان «دفاتر العنف المقدس».

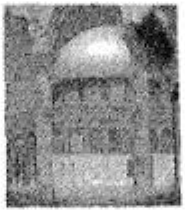
(*)كاتب مصرى مقيم فى اسبانيا

كانت مفاجأة كبيرة ما هو على أرض الواقع اليوم فى العاصمة الفلسطينية المحتلة «رام الله» وما حولها من المدن والقرى الفلسطينية المدمرة على من كانت زيارتهم الأولى، وجعلت بعضهم يقارن - فى دهشة - بين ما يراه وما كان يسمعه عن مناطق أخرى فى العالم كانت تعيش أحداثا مماثلة لما يحدث الآن فى وجودهم وأمام أعينهم، فقد أشار أحدهم من نافذة السيارة التى كانت تقلهم عبر بقايا المدن والقرى الفلسطينية التى دمرتها آلة الحرب الإسرائيلية من دبابات وجرافات على الأرض وطائرات «أف ١٦» وحوامات «الأباشى» الأمريكية من السماء، وبتوجيه من أقمار التجسس الصناعية الأمريكية التى توفر لتلك القوات كل المعلومات عن أى تحرك فلسطينى حتى لو كان فرديا، وأقامت على طرقاتها الحواجز العسكرية التى تمنع الاتصال ما بين قرية وأخرى إلا بتصريح خاص، لم يكن الهدف منه أمنيا بقدر ما هو «إذلال الفلسطينى والنيل من كرامته فى محاولة لوضع حد لمقاومته» ، حسب تعبير أحد أعضاء الوفد برلمان الكتاب الدولى فيما أكد آخر: «أن هذا مزيج من التبت وبرلين قبل سقوط حائطها الشهير».


جوزيه ساراماجو

لكن رؤية المستعمرات الصهيونية المزروعة فى الأرض المحتلة، بشكلها النظيف المرتب الذى يتناقض مع الركام الذى تشكله بقايا القرى الفلسطينية المدمرة، والرفاهية التى يتمتع بها المستعمرون القلائل الذين يسكنونها على حساب معاناة المواطن الفلسطينى المالك الحقيقى لهذه الأرض الذى يعيش مكدسا فى كيلو مترات قليلة، جعلت يرد عليه آخر «بل إنه نظام الأبرتهيد العنصرى الذى كان قائما حتى وقت قريب فى جنوب أفريقيا» (؟!).

مجموعة الكتاب المكونة من ثمانية يمثلون جنسيات وانتماءات عرقية ودينية عديدة، كان بينهما اثنين من الحاصلين على جائزة نوبل للآداب: النيجيرى «وول سوينكا» ، والبرتغالى «جوزيه ساراماجو» أول من حصل على جائزة نوبل للآداب من كتاب اللغة البرتغالية ، وكان هذا الأخير صامتا طوال الطريق يراقب ما يحدث



حوله من جرائم، ويحاول أن يجد له شبيها فى ذاكرته التى شهدت أسوأ ما أبدعته النفس البشرية من تدمير، سواء خلال الحربين الكبريين فى أوروبا أو الحروب الأهلية الدائرة فى العديد من بلدان العالم التى زارها للتضامن مع ضحايا، وكانت آخر هذه الزيارات لمناطق مشتعلة تلك التى قام بها للمكسيك لإعلان تضامنه مع سكان تشياباس الهنود الحمر الذين يتعرضون للإبادة هناك، وكانت تلك الزيارة قبل أيام قليلة من زيارته للعاصمة الفلسطينية رام الله، ولم يجد الكاتب البرتغالى شبيها فى التاريخ الإنسانى المعاصر لما يحدث فى الأراضى الفلسطينية سوى ما حدث على أيدى النازى خلال الحرب العالمية الثانية، ليس ضد اليهود فقط، بل ضد كل من كان النازى يرى أنه عقبة فى سبيل تحقيق «سمو الجنس الآرى»، حتى أن المصادر التاريخية تؤكد أن ضحايا النازى من «الغجر» يفوق كثيرا عدد ضحايا اليهود فيما يسمونه «المحرقة».

ولأنه يدرك أن ما يحدث فى الأراضى الفلسطينية المحتلة على أيدى جيش مسلح بأحدث ما يملك البشر من أدوات للتدمير فى هذا العصر لا يمكن التعامل معه على أنه مجرد «مواجهة» بين قوتين، لأن المواجهة تكون عادة بين قوتين شبه متعادلتين فى العدد والعدة، بل هو حرب «إبادة» لا يمكن أن يكون لها اسم آخر، فقد قال كلمته التى كانت لا تعنى سوى الحقيقة، هذه هى المحرقة النازية التى يمارسها الجيش الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، ورام الله المحاصرة تذكره بمعسكر أوشفيتز النازى.

بهذا التصريح المباغت للإعلام الصهيونى، ليس فى إسرائيل وحدها بل والإعلام التابع والمؤيد للصهيونية فى العالم أجمع، الذى لم يتوقع أن يكون بين أعضاء الوفد من يجرؤ على كسر المحرمات الصهيونية، كان رأى جوزيه ساراماجو خروجا عن نطاق الآراء واللغة الدبلوماسية التى اعتادوا سماعها من «المرتعبين» من مجرد نطق كلمة «المحرقة»، رغم أنها لم تعد تقول شيئا بعد كل هذه السنوات التى استهلك استخدامها من قبل إسرائيل، لم يكن رأى ساراماجو لما يرى سوى وصف للواقع بالكلمات التى تعني بالضبط ما تعنيه اللغة المجردة بعيدا عن الهروب من مواجهة الواقع الردىء الذى يعيشه العالم اليوم والذى يتعامل مع القضايا الكبرى طبقا لما تمليه المصالح الضيقة لمن يلمسونها ويكون بين أيديهم حلها أو التخفيف من وقعها.

هذه الصدمة التى أحدثتها تصريحات جوزيه ساراماجو فى إسرائيل وبين

مـؤيديهـا تكشف عن جـهلهم لموقف الرجل، فهو لم يكن يوما من هؤلاء الذين اعتادوا الابتعاد عن الصدق في التعبير، لا في وطنه ولا خـارجـه، حـتى خـلال تسلمه لجائزة نوبل كان خطابه من أجرأ الخطابات التي اعتاد جمهور نوبل أن يسمعها من الفائزين بها كل عام والتي لم تكن تخرج عن التعبير عن شرف الفوز بها وتبجيل صاحبها، لذلك فإنه في زيارته للعاصمة الفلسطينية المحاصرة «رام الله» لم يمنع نفسه من التعبير عن رأيه الحقيقي الذي يفكر فيه دون انتظار لمكافأة من أحد، بل كان يعرف أن كل ما سيقوله قد يجلب له المتاعب من قبل وسائل الإعلام التابعة والخاضعة للسيطرة الصهيونية التي ترى في كل رأي مخالف «عداء» للسامية وكأن إسرائيل هي تلك السامية المزعومة، وكما قال كاشفا حقيقة أخرى لم يجرؤ أوروبي قبله على البوح بها علنا: إسرائيل لا ترى موقفا ثالثا لأحد، إما الانضمام إلى جوقة المؤيدين إلى السامية طبقا لتعريفها أو احتلال مكان العدو للسامية، ذلك السلاح الكاذب الذي يوجهونه إلى مناهضيهم.

عندما قال ساراماجو في مؤتمر صحفي في رام الله أن ما يحدث من حوله ليس سوى «أوشفيتز» - معسكر النازي الذي يقول دعاة الصهيونية أن ملايين اليهود ماتوا فيه - حاولت صحافية إسرائيلية ابتزازه قائلة: «لا توجد هنا أفران غاز» ، فرد عليها بهدوء «ما أقوله يتعلق بالفعل وليس بالاسم، وما يحدث هنا يصدر عن روح مماثلة (للنازية) وهذا واضح جدا هنا» وزاد في رده بقوله: «إن ما حدث هنا جريمة ضد الإنسانية ، وإذا كانت كلمة «أوشفيتز» تغضب الإسرائيليين فعليهم أن يختاروا كلمة أخرى للتعبير عما أراه هنا، وعلى أي حال لن تكون أي كلمة أخرى لوصف ما يحدث هنا أقل بشاعة من وصف المحرقة النازية».

كان جوزيه ساراماجو يعرف أيضا أن تصريحاته الناطقة بالحق والحقيقة سوف تثير عليه حربا تستخدم فيها الصهيونية كل ما تملك من أسلحة دعائية لتشويهه، ولكنه كان جاهزا للرد، لأنه يعتقد أنه يقول الحق، ولذلك لم يحاول التملص من كلماته أو النكوص عنها، كما حدث من قبل مع الكثير من الساسة والمثقفين بالتراجع تحت الضغوط من خلال محاولة تقديم تفسيرات من ذلك النوع الذي يستخدمه السياسيون عندما يؤكدون أن تصريحاتهم «قد أسيء فهمها» أو «اقتطعت الكلمات من سياقها».

لم تمض ساعات حتى أكد الكاتب



البرتغالي في حوار صحيفة «البابيس» الإسبانية بالهاتف أجرته معه الصحيفة وهو لايزال في فندقه في تل أبيب، لعله ينفي أو يتراجع أو يحاول التملص من كلماته، فما كان منه إلا أن أكد من جديد أن كل كلمة قالها في اتهامه إسرائيل بممارسة «حرب إبادة ضد الفلسطنيين كانت تعني ما تقوله، وانه فكر كثيرا في هذه الكلمات واعتنى باختيارها قبل الإدلاء برأيه، لأنه ببساطة وصف بدقة ما شاهده على أرض الواقع، وغير مستعد للخضوع لأي ضغوط للتراجع عما قاله حرفيا، وأكد انه إذا كانت إسرائيل لا تريد أن تسمع اسم معسكر النازي «أوشفيتز» فإنه تعمد «ذكر هذه الكلمة بالتحديد حتى يهتز المجتمع الإسرائيلي من داخله ويطرح نقاشا حول ممارسات جيشه وحكومته ضد الفلسطينيين ، وان يتخذ ما من شأنه أن يوقف المعاناة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني حتى لا يتكرر مع الفلسطينيين ما حدث لليهود على أيدي النازي».

حرص جوزيه ساراماجو على التأكيد في حديثه مع الصحيفة الاسبانية على انه مصر على رأيه، وأن الكلمات التي عبر من خلالها عن هذا الرأي في المؤتمر الصحفي الذي عقده أعضاء وفد برلمان الكتاب الدولي ، مؤكدا انه لن يتراجع عن تعبيراته مهما كلفه ذلك.

من ناحية أخرى فإن الكلمات التي عبر بها جوزيه ساراماجو عما شاهده من تدمير وحرب إبادة ضد الفلسطينيين كشفت من يدعون أنهم يعارضون «جرائم شارون». ويحاولون لعب دور «الحمائم» في إسرائيل من خلال إعلانها انهم على استعداد لمناصرة الحق الفلسطيني، ولكنهم في الحقيقة يلعبون دورا موكولا إليهم لتجميل صورة القمع الإسرائيلي الوحشي الذي مارسته ولاتزال تمارسة قوات الجيش الإسرائيلي المسلح في مواجهة المواطنين الفلسطينيين العزل من كل شيء حتى من دعم أشقائهم العرب الذي اكتفى زعماؤهم بالبيانات والكلمات الرنانة دون أن يقدموا إليهم ما يعينهم في هذه اللحظة التاريخية الحالكة، فقد انبرى الكاتب الإسرائيلي «عاموس أوز» للهجوم على جوزيه ساراماجو بكلمات لا يمكن وصفها سوى أنها صادرة عن «صهيوني عنصري عتيد» ، وتكشف بوضوح أن هذا الكاتب الإسرائيلي صهيوني حتى النخاع، وانه رغم إعلانه الاعتراض على سياسة شارون الا انه في الحقيقة يتفق معها، ودوره «كداعية سلام» ما هو إلا غطاء لهذه السياسة التي لا هدف لها سوى تحقيق الحلم التلمودي: إسرائيل الكبرى.

هجوم عاموس اوز على ساراماجو كان نابعا من رؤية صهيونية ترى خطورة تصريحات الكاتب البرتغالى والأثر الإعلامى الذى يمكن أن تحدثه فى الرأى العام الأوروبي الذى اعتاد على التعايش مع الدعاية الصهيونية ، وهذا الأثر الذى يخشاه عاموس أوز هو فى النهاية لن يكون فى صالح الفكر الصهيونى برمته، وسوف يكشف الإعلام التابع له الذى يروج لهذا الفكر . فارتعب الكاتب الإسرائيلى من أن تصل تلك الأوصاف التى تصم إسرائيل بالنازية، لأول مرة فى تاريخها، إلى الرأى العام العالمى وتضعه أمام مسئوليته ليخرج عن صمته مطالبا بعقاب إسرائيل بالعقاب نفسه الذى لقيه النازى على أيدى قوات الحلفاء، بالطبع مع الفارق هنا انه لا حلفاء يوجدون على خريطة السياسة الدولية الآن على استعداد لمساعدة الفلسطينيين في محنتهم الحالية.

من هذا المنطلق تحدث عاموس اوز بلسان صهيونى، واتفق فى كل كلمة وجهها إلى جوزيه ساراماجو مع تصريحات المتحدث باسم حكومة شارون مما يكشف عن حقيقة الموقع الذى يحتله الكاتب الإسرائيلى من ماكينة الدعاية الصهيونية التي تعمل فى إطار سياسة شارون . وان كان بذل محاولة لنفى هذا الارتباط بالتوجه الرسمى الإسرائيلى مدعيا انه ضد ما يمارسه جيش بلاده ضد الفلسطينيين . وان كان يرى ان ما يتعرض له الفلسطينيون من «إبادة» لا يقارن بالإبادة» التي تعرض لها اليهود على أيدى النازى (؟!) ، وكأن للشر وممارساته درجات، يمكن تفسيرها حسب هوية من يتعرضون لهذه الممارسات بغض النظر عن نتائجها.

استخدام عاموس اوز فى هجومه على جوزيه ساراماجو الاتهامات الصهيونية الجاهزة ضد من يعارض أفكارها، والتى تستخدمها عادة وسائل الإعلام سابقة التجهيز للدفاع عن إسرائيل وممارساتها الوحشية . فاتهم ساراماجو بانه يدعو إلى «شرعية» تدمير إسرائيل وانه «ضحية للدعاية الفلسطينية الرخيصة».

من يعرف جوزيه ساراماجو وقرأ اعماله وتابع نشاطه السياسى والاجتماعى يعرف ان الرجل كان صادقا مع نفسه قبل أن يكون صادقا فى مواجهة الآخرين، لذلك سرعان ما أعاد التأكيد على تعبيراته مجددا، وزاد عليها ردا لا يقبل أى تفسير آخر سوى أنه يعبر بصدق عن وصف ما شاهده من «جرائم» فقال انه يفضل ان «يكون ضحية للدعاية



الفلسطينية الرخيصة على أن يكون بوقا للدعاية الإسرائيلية الثمينة».

كاتب عصامي ملتزم

لم يكن الكاتب البرتغالي جوزيه ساراماجو البالغ من العمر ٧٥ صنعته ثقافة مجتمعة من خلال مؤسساتها التعليمية ، ولا من أولئك الكتاب الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية فى انتظار أن تصل أعمالهم إلى قراء يجهلونهم ، بل هو كاتب عصامي ، نشأ فى أسرة من الرعاة الأميين ، لم يساعده فقره المادي فى الاستمرار فى التعليم ، وفقد الطريق إلى التعليم الجامعي ، فقرر أن يثقف نفسه بنفسه .

أول كتاب اشتراه فى حياته كان وقتها فى عمر التاسعة عشرة ، وكانت أولى كتاباته عندما تعدى الخامسة والعشرين ليصمت بعدها عن الكتابة ، لأنه كان مقتنعا فى ذلك الوقت بأنه لا شيء لديه يقوله للقراء ، ولم يعد إلى ممارسة الكتابة حتى بلغ الأربعين من العمر ، لذلك يقول إنه لو مات فى الستين من عمره ، من المؤكد أنه ما كان سيترك شيئا ذا قيمة فى الأدب البرتغالى ، وما كان للتاريخ يذكره ، وما كان له أن يتمتع بالحصول على جائزة نوبل والشهرة والراحة المادية التى تحققهما هذه الجائزة ، والتى سعت إليه وهو فى الخامسة والسبعين ، لكنه يؤكد ، أن كل ما كتبه منذ ذلك الوقت كان من منطلق الالتزام المطلق تجاه قناعته الخاصة .

لذلك يعتبر جوزيه ساراماجو كاتبا ملتزما ، لم يقدم مطلقا أى تنازل أخلاقى أو سياسى ليضمن رضاء السلطة السياسية أو الدينية عنه ، يرى أن حرية الفكر والتعاطى معها يؤدى إلى نوع من التوازن العقلى ، ذلك التوازن الذى يسمح له بالتفكير الصحيح فى قضايا المجتمع والعالم الذى يعيش فيه ، من هنا فإن هجره لوطنه عام ١٩٩٣ وإقامته الدائمة بجزيرة لنثاروتى إحدى جزر الكنارى الأسبانية ، كانت نتيجة غضبه من قرار وزارة الثقافة والتعليم منع روايته «الانجيل طبقا لرؤية المسيح » من التداول فى المدارس والجامعات البرتغالية ، وأيضا كانت السبب فى الانتقادات التى وجهها الفاتيكان للجنة جائزة نوبل لأنها منحت الجائزة لكاتب متمرد على الكنيسة الكاثوليكية .

الكتابة عند ساراماجو تعتبر نوعا من تحقيق الوجود ، وأيضا الكتابة بالنسبة له طريق للحصول على حب الآخرين ، يعتبره البعض كاتبا متشائما رغم إعلانه دائما بأنه سعيد ومتفائل ، ويشرح هذا التناقض بقوله إنه بالفعل متشائم مما يراه من حوله من أحداث مأساوية ، لكنه يحاول أن يؤكد للآخرين أنه سعيد حتى لا يجد نفسه

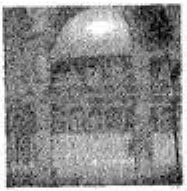
مطالبا بأن يتحدث عن أشياء أخرى تنقصه لتحقيق السعادة الكاملة ، أو على الأقل السعادة بالمعنى الذى يفهمه هو شخصيا كانت بدايته الحقيقية سنة ١٩٧٣ ، برواية «مانويل» ثم جاءت روايته «ثورة الأرض» (١٩٧٩) ثم رواية «ذكريات الدير» (١٩٨٢) ثم رواية «موت ريكاردو ريس» (١٩٨٤) ثم رواية «بحيرة الحجارة» (١٩٨٦) ثم تأتى بعد ذلك سلسلة من الأعمال التى تعتبر تمردا على الممارسات الشمولية التى تمارسها بعض المؤسسات الدينية والسياسية وبشكل خاص الكنيسة الكاثوليكية فكانت اولها رواية «الانجيل طبقا للمسيح» (١٩٩١) التى يعالج فيها النزعة الفردية و«كل الأسماء» (١٩٩٧) التى يتناول فيها عالم البيروقراطية والرأسمالية بعد سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية إضافة الى أعمال أخرى.

ويؤكد نقاد أدب ساراماجو باللغة البرتغالية أنه من الصعب وضع حد فاصل بين إبداعه وأفكاره ، خاصة تلك التى يعلن من خلالها رأيه فى عالم اليوم ، الذى يؤكد أنه يعيش لحظة من أحط لحظات التاريخ البشرى ، لذلك يصفه أحدهم بأنه مقاوم لا يقبل التصنيف ، وأعماله الأدبية تحاول أن تسبح ضد تيار التدمير عبر التجريد ، وحزبه الذى ينتمى إليه فكريا حزب الرافضين للرؤية أو الإحساس عبر الآخرين ، حزب الفرد الذى يرى ويشعر عبر رؤيته الخاصة ، ومن هنا تنبع أهمية كتابيه بحوث عن العمى وكل الأسماء .

وإذا كان هناك من يتساءل عن وضعية جوزيه ساراماجو ، هل هو كاتب مبدع أم مناضل ؟ فإنه يمكن العودة إلى ما قاله ألبير كامى : ليس النضال هو الذى يدفعنا إلى أن نكون فنانين ، بل أنه الفن الذى يفرض علينا أن نكون مناضلين ، وساراماجو كان فتى فقيرا عاديا ، وعندما قرر أن يكون كاتبا حقيقيا وجد نفسه مدفوعا إلى أن يكون مناضلا ، لأن الإبداع التزام .

فوز جوزيه ساراماجو بجائزة نوبل للأدب لهذا العام يعتبر تكريما ليس له ولإبداعه فقط بل تكريم للغة البرتغالية التى لم تحظ بالفوز بهذه الجائزة التى فاز بها العديد من كتاب اللغة الاسبانية رغم تجاورها واشتراكها معها فى الأصول والأرض التى تعيش عليها .

■



المثقفون
وضمير العالم

جزء خاص

ماركيث

وقضايا الإنسان

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

●● فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٨٢ نشر ماركيث فى جريدة «اتلانتيكا الكولومبية» مقالا عقب فيه على مذابح صبرا وشاتيلا التى حدثت فى لبنان واتهم العالم بالنفاق، وبالسكوت على هذه الجرائم التى قامت بها الصهيونية، دون أن يعطيها بما تستحق من اهتمام، وهو يدرك واعيا أكاذيب الصهيونية، وسبق له أن رفض دعوة وجهتها اليه اسرائيل لزيارتها، قائلا «إنها سوف تستغلها سياسيا، وتحشوها بالأكاذيب» ●●

نعرف القليل جدا عن أمريكا اللاتينية مناخا وحياة، وأقل من القليل عنها أدبا وحضارة، رغم أن خمسة من كبار أدبائها نالوا جائزة نوبل : الشاعرة جبرييلا مسترال من شيلى، والروائى أنخل أستورياس من جواتيمالا، والشاعر بابلو نيرودا من شيلى، والشاعر أوكتافيو باث من المكسيك، والروائى جبرييل جرسيه ماركيث من كولومبيا، مع أن وجودها دول مستقلة لا يتجاوز قرنين من الزمان، وواقعها الاجتماعى شديد التعقيد، فقد محا الغزو الأوربى حضارتها الأصلية، وأفنى أغلب سكانها، ولم يبق منهم غير قلة لاذوا بالجبال، أو وقعوا رقيقا فى أيدى الغزاة، وكان هؤلاء ومن تلاهم ، فى جملتهم ، من



جرسيه ماركيث في الثانية من عمره



مع فيدل كاسترو - كوبا ١٩٧٨

اللصوص والقتلة وقطاع الطرق، والمحكوم عليهم بالإعدام، والهاربين من العدالة، والمغامرين. وقد استباح هؤلاء جميعا الهنديات ، وهن جميلات بالفطرة، فأولدوهن أجيالا من أطفال غير شرعيين لا يعرفون لهم أبا .

ومع الغزو بدأت السفن تحمل الى أمريكا ملايين الأفارقة ، اصطادهم الأوربيون من غاباتها، وساقوهم رقيقا الى العالم الجديد يعملون في مزارع القصب، وتجفيف المستنقعات، وبناء المدن، وعبر الرحلة ابتلع المحيط الهادئ ألوفا منهم، وألوفا أخرى أكلتهم أمراض المناطق الحارة، ومن بقايا الهنود والأفارقة والهجناء يتكون المجتمع في أمريكا اللاتينية، ولو أن النسبة تختلف من بلد الى آخر، فالعنصر الهندي هو الغالب في المكسيك وبوليفيا ، والأفريقي في هايتي وجمايكا، ويقتربان عددا في كوبا والدومينكان، ويغلب العنصر الأوربي في أورجواي، ويمثل قوة ملحوظة في الارجنتين.

جاء الأوربيون بلغتهم وعقيدتهم وفرضوها قسرا، وعاشوا على قمة الهرم سادة لايختلطون بأحد، وأغلبهم من الأسبان، يحملون الخصائص الإسبانية التي تتمثل في حب الأدب والاستمتاع بالحياة، والميل الى الفوضى والاستبداد، فكان الشعب يستمد غذاءه الثقافي شفاها، حكايات يرويها الجد، أو الجدة، للاحفاد، وكانت في معظمها أفريقية ، عمادها الحديث عن السحر والشياطين والجن والخوارق، وخرافات الغابة ممثلة في حيوانات غريبة ، ومخلوقات غير معهودة، وقوى غير طبيعية لا يعرفون سرها، أما الهنود فقد اجتث الغزاة



معظمهم ، فلم يبق لهم من تراثهم الشفوى الا النادر من الحكايات .

هكذا كان أدب الشعب، اما السادة ومنهم الحكام والقواد والإقطاعيون فيتمتعون بثقافة مصقولة، تتفاوت حسب الوطن الأوربى الذى قدموا منه، والمنطقة التى عاشوا فيها، ويغلب عليهم نظم الشعر، فهو عماد الثقافة الرفيعة ، وشهرت أمريكا اللاتينية بأنها تختار سفراءها من بين كبار أدبائها ، وهم بداهة من الطبقة العليا، ومع ذلك فكل دولة لها خصائصها المميزة فى نطاق هذا الاطار العام، وتعنينا هنا كولومبيا بخاصة.

أول ما يلحظه المرء فى كولومبيا، وعشت فيها عامين، ثرواتها الطبيعية الهائلة، غابات شاسعة، وأشجار فواكه تنمو عفويا مع الأمطار، وثروة حيوانية وفيرة، ومزارع بن يسقى بماء المطر دون حاجة الى تسميد أو رعاية، ويمثل المحصول الرئيسى، ولكن الدولة تفتقد الطرق الممهدة تماما، وافتقاد الأمن كلية جعلهم يفكرون فى الطائرات تربط بين المدن، لأنها بمنأى عن هجوم الساخطين.

يملك مزارع البن فى مساحات شاسعات للغاية، الاقطاعيون الذين جاءوا مع الغزو، وعددهم لا يتجاوز خمسين أسرة يملكون معظم أراضى الدولة، ويديرون مزارعهم بطريقة بدائية لم تتقدم كثيرا عما كانت عليه منذ مائة عام. أما الأجانب الوافدون حديثا من غرب أوربا أو الولايات المتحدة فيملكون المصانع والمتاجر والمصارف، ويكونون جاليات تعيش فى أحياء مستقلة، لهم نواديهم ومدارسهم ومطاعمهم ، ومطاراتهم الخاصة، يرحلون ويعودون متى يشاءون دون صعاب أو عقبات. ولا توجد طبقة وسطى .

بقية الشعب التى أومأت اليها من قبل تعيش فى الحضيض، لا تفيق من السكر، تعب طوال الليل نوعا من الخمر الرخيص : «الماء الملتهب AGUA ARDENTE» أو الجعة بكميات كبيرة، وتظل فى الحانات حتى الفجر، ولا بأس أن تقضى طرفا من الليل فى أحضان عاهرة، وهن أكثر من الذباب، والأطفال يملأون الشوارع ليس لهم بيوت ولا آباء، ومن العادى أن تجد امرأة تتحرك فى الشارع وحولها أربعة أطفال، وخامس فى بطنها، دون أن يكون لها زوج، ولا تجد فى ذلك حرجا.

تعلق الحكام والطبقة المسيطرة فى كولومبيا باللفظ الأول فقط من شعار الثورة الفرنسية : «حرية» ، فلا قيد على شىء فيها، تكون متدينا أو ملحدا أو شيوعيا، كن كما تشاء، والكتب والمجلات الشيوعية الى جانب الانجيل والمجلات الماجنة والخليعة والصور العارية، تجد ذلك كله عند باعة الصحف مبسوطا فى الشارع أو الاكشاك أو المكتبات وأمام الكنائس.

وتستطيع أن تؤلف حزبا يدعو إلى أية فكرة أو مبدأ أو مذهب، ولكن الإقطاعيين والرأسماليين أذكى من أن يتركوا أى حركة تهدد مصالحهم، فإذا برز زعيم ثورى والتفت حوله الجماهير، ورأوه خطرا عليهم، فإن رصاصة واحدة من أجير



ماركيث مع بابلو نيرودا - ١٩٧٢

تستطيع أن تضع لحياته وخطره حدا. هكذا فعلوا مع الزعيم اليسارى خورخى اليثار جيتان، حين عبأ الجماهير حوله، وجعل شعاره :

إذا تقدمت فاتبعونى
وإذا تقهقرت فادفعونى
وإذا خنتكم فاقتلونى

لم يخن، ومع ذلك فإن رصاصة من أجير وضعت لحياته حدا فى ٩ أبريل ١٩٤٨ ، وثأرا له تدفقت الجماهير الغاضبة على بوجوتا العاصمة تحمل السلاح الابيض والسكاكين والديناميت والبنزين، يدفعها الغضب الأعمى، تقتل كل من تلقى من الجنود والموظفين، وأسلمت المبانى للنيران وأتت على كل مافى المدينة، وقتل فى يوم ألف ومائتا مواطن!

على أية حال، القتل بالرصاص أو السكين شىء عادى، يتقدم منك مخمور ويسألك شيئا، فاذا اعتذرت له بأنك لا تملك، أسكن سكينة فى بطنك واستلها ومضى: مادمت لا تملك فما الذى اخرجك من منزلك؟ .

القتل سهل، والعقوبة عليه بسيطة، لأن الدولة فيما يقول حكامها كاثوليكية بحكم الدستور، والمسيحية ترفض القسوة، ولذلك ألغوا عقوبة الإعدام!، وهذا البلد الذى لا يعرف عقوبة الإعدام يعيش فى ثورات متصلة منذ مائة عام، فى البدء كانت بين الحزبين الرئيسيين اللذين يتنافسان على الحكم : المحافظون والليبراليون ، وحين اتفق هؤلاء فيما بينهم على اقتسام السلطة، كل حزب يتولى رئاسة الجمهورية فترة مدة أربع سنوات، تفجرت الثورة فى الريف ضد الإقطاع والحكومة، وهى تقاتل من نصف قرن، وتزداد كل يوم ضراوة، دون أن تستطيع أية حكومة اخمادها او تحجيم خطرها، رغم كل العون الذى تقدمه لها الولايات المتحدة الأمريكية .

كان الشعر وسيلة التعبير فى كولومبيا بين الطبقة الارستقراطية حين كانت هذه تحكم دون منازع، ولكن هذا الشعر عجز الآن عن تصوير هذا الواقع المعقد، يضطرب بثورات وصراعات لا تهدأ، ويحتاج لتصويره الى روائى اكثر مما يحتاج الى شاعر ، ومنذ بداية الخمسينات



من القـــرن الماضي تمكنت الرواية الأمريكية اللاتينية ان تقف على أرض صلبة ، متغلغلة فى روح الشعب، بحثا عن قيم أصيلة ضاربة فى جذور الواقع الاجتماعى والسياسى، وحظيت هذه الرواية بنجاح منقطع النظير فى كل أنحاء العالم الثالث لأنها تعكس المرارة والآلام التى تعيشها شعوب ذلك العالم، وتطحنه مشكلات تكاد تتشابه مع مشكلات العالم الثالث نفسه. لقد فضحوا هذا الواقع المتخلف ، وتميزوا بالجرأة فى استخدام لغة روائية جديدة، تختلف كثيرا عن مثيلاتها فى الرواية الأوربية والأمريكية، وفى هذا الطريق، وسط هذه الكوكبة، برز جبرييل جرسيه ماركيث، بأسلوبه الرشيق ولغته الجديدة.

ولد ماركيث عام ١٩٢٨ لقبيلة هندية قوية ، لم يستطع الغزو الإسبانى أن يمحوها كما محا غيرها ، وكان أبوه موظفا فى مكتب البرق ، وقد وكله أمه الى أبيها وأمها ليربياه، فشب متعلقا بهما ، وكان جده يحمل لقب الكولونيل لأنه اشترك فى شبابه فى الحرب الأهلية التى خاضها الحزب الليبرالى، ويؤمن بحرية الرأى، ضد حزب المحافظين الذى تؤيده الكنيسة والجيش والإقطاعيون .

كانت القرية، فى شمال كولومبيا، مركزا لزراعة الموز، وذلك يعنى مواطنين فقراء، وشركات أمريكية ضخمة، تستغلهم بلا هوادة، وتمتص دماءهم دون رحمة، وقدم لنا جبرييل فى رواياته المختلفة وصفا رائعا مفصلا لها ، مناخا وسكانا ، تعاسة وأساطير وطابع حياة.

كان جده يمتلك بيتا واسعا ضخما ، وتدفن الأسرة موتاها فى جانب منه ، وتستخدم الموتى وسيلة لإرهاب الأطفال وتخويفهم كى يناموا أو يصمتوا، ويحكى ماركيث عن جده أنه يتمتع بفحولة نادرة، أنجب ستة عشر طفلا بصورة شرعية، وبذر آخرين كثيرين غير شرعيين الله وحده يعلم كم عددهم .

فى القرية أمضى مرحلة التعليم الابتدائى، وتلقى على جده وجدته الكثير من الحكايات والأساطير ، ثم انتقل الى العاصمة، بوجوتا ليدرس المرحلة الثانوية، وبعدها دخل كلية الحقوق فى جامعة أهلية، ووجدها تفتقد الأساتذة العظام، والحياة الجامعية، وتصطخب بتيارات سياسية متعددة أوضحها التيار الشيوعى. وكعادة معظم المبدعين لم يكن متميزا فى دراسته الجامعية، واستحوذ الشعر على اهتمامه ، ترك شعراء المنتخبات المدرسية، وكان رأيه فيهم سيئا، وبحث عن الأجيال الجديدة: روبين داريو رأس الحداثة الإسبانية، وخوان رامون خمينيث شاعر اسبانيا الكبير، الحائز على جائزة نوبل فى الشعر، وبابلو نيرودا، فاستحوذوا على اهتمامه، وشغلوه عن دراسة القانون .

وكان كافكا فى روايته «المسخ» هو الذى شده الى عالم الرواية، وفى اليوم التالى لقراءتها كتب أول قصة قصيرة، ونسى القانون ودراسته، وبدأ حياة الصعلكة، أطلق لحيته، وأخذ يجوب شوارع المدينة مرتديا ملابس رثة، ويتسكع بين المقاهى والحانات الرخيصة، متأبطا كتابا، وينام فى أى مكان، ويقرأ: ديستويفسكى وتولستوى وديكنز : وكتاب القرن التاسع عشر الفرنسيين: فلوبير وستندال وبلزاك وزولا ، وسرعان ما أدرك

أنهم يكتبون لعالم غير عالمه، وأنه فى حاجة الا يقلد أحدا .

الصحافة فى كولومبيا غير مركزية، فلكل محافظة صحفها الصباحية والمسائية ومجلاتها أحيانا، وهى مفتوحة لكل المواهب، خاصة الشادين منهم وعلى صفحاتها بدأ يمارس هواية الكتابة، قصصا أحيانا ومقالات أحيانا أخرى .

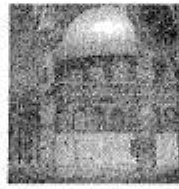
عندما بلغ العشرين من عمره عاد إلى قرطاجنة على ساحل الكاريبى، وفيها عمل محررا فى صحيفة يونيفرسال، فأتاحت له أن يكتب القصة، وأن يردد على حانات الأدباء التى تطل على المرفأ، يحتسون «الروم» ، ويتابعون السفن التى تقلع فى طريقها الى بعض جزر الكاريبى، تحمل المخدرات والمهربين والعاهرات. وفى الحانة فتح محام من اصدقائه عقله على جوانب من الثقافة اليونانية وسوفوكليس بخاصة، وعلى فيلسوف الوجودية كيركجور، وبعدهم تعرف الى الكتاب الانجلو ساكسون فى القرن العشرين خاصة جويس وفرجينيا وولف ووليام فوكنر .

ومالبث أن انتقل الى برانكيا، مدينة أخرى ، تطل على ساحل الكاريبى أيضا مدينة صناعية كبرى، يلفها الغبار والحرارة، وتفتقد سحر قرطاجنة، وتزدحم بجنسيات لا تحصى: فرنسيون هاربون، وطيارون ألمان هزموا فى الحرب العالمية الأولى، ويهود فارون من أوربا ومهاجرون من جنوب ايطاليا، وسوريون وأردنيون ولبنانيون، لا يعرف أحد كيف وصلوا إلى هذه المدينة، وهى ترحب بهم جميعا، والكتاب والفنانون فيها منبوذون من النظام الاجتماعى، ومع ذلك فإن نشاط الأدباء فيها أكثر حيوية من العاصمة بوجوتا، فكونوا حلقة أدبية ذات تقاليد واضحة فى النقد والإبداع تعرف بجماعة برانكيا.

كانوا يقضون الليل بأكمله يشربون ويناقشون قضايا الأدب فى تلك المواخير الأسطورية تزدحم بطيور الزينة والنباتات والفتيات الصغيرات يؤجرن أجسامهن بسبب الفقر. ويحدث أن تناقش المجموعة فى الليلة الواحدة عشرة كتب ، ولأن ماركيث لم يكن قرأها فهو يستعيرها، وكان من بين أعضاء المجموعة موظف فى مكتبة كبيرة لبيع الكتب، ما إن تظل وارادات الكتب من دور النشر الشهيرة فى المكسيك والأرجنتين حتى يحمل اليهم عناوينها لاختيار مايقرأون منها.

كان على رأس المجموعة رامون فينيس ، أديب قطلونى من اسبانيا ، نفى نفسه الى فرنسا حين سقطت الجمهورية واستولى الفاشيون على السلطة، ثم هرب من فرنسا بعد أن استولى النازيون عليها، وجاء الى برانكيا، وقد ادخل المنهجية والنظام على هذه القراءات ، وكانت قبل تتسم بالفوضى، جعلهم ينقبون فى روايات فوكنر المغرمين بها ، أو يهيمون فى عالم جويس، ولكنه من حين لآخر يدعوهم الى التريث ويذكر بهومير صاحب الإلياذة . وقد رد له ماركيث الجميل، فذكره فى «مائة عام من من العزلة» ، ووصفه «الرجل القطلونى العجوز الحكيم الذى يعود ليموت فى برشلونه مسقط رأسه، وهو مصاب بالحنين» ويتقاضى ثلاثة بيزو عن كل عمود يكتبه، وأحيانا ثلاثة أخرى عن كتابة الافتتاحية، ومرات كثيرة لم يكن يملك دفع الأجرة، فكان يرهن مخطوطة احدى رواياته.

عانى ماركيث وهو فى طريقه لإثبات



ذاته ألوانا من البؤس، في برانكيا كان ينزل في فندق من تلك الفنادق التي تؤجر بالساعة، وكان يعمل في جريدة الهيرالدو التي تصدر في المدينة،

وحين عمل في جريدة الاسبكتادور التي تصدر في بوجوتا، ولحظت أنه في اليوم الذي يكتب فيه ملحمته «حكاية بحار غريق» تنفد فور صدورها، فأوفدته إلى أوربا مراسلا لها، وكان يومها كاتبا غير معروف، حتى أن صاحبة الفندق الذي نزل فيه اعتبرته صحفيا من الدرجة السابعة..

وهو في باريس أغلق دكتاتور كولومبيا الصحيفة ، وكان ذلك يعني توقف راتبه، وبعد شهر لم يستطع سداد فاتورة الفندق، ومع هذا التوقف لم يعد يرى باريس كما كان يراها من قبل، مدينة العشاق من الشباب، يمشون في الشوارع متلاصقين ويتبادلون القبل والعناق في المترو، وإنما باتت أنانية قاسية باردة، وأصبح فيها الوصول إلى وجبة ساخنة، ومكانا دافئا معجزة لا يجرؤ على توقعها.

نعم، لقد عاني البؤس من قبل في برانكيا، ولكن الأمر نسبي، فتلك مدينته، له فيها أصدقاء في كل مكان، واعتاد محافظ المدينة أن يرسل إليه سيارته في الفندق، مما كان يكسبه الاحترام بين موظفي الفندق والعاهرات.

إن الحياة في عالم منطقة الكاريبي مفعمة بالإنسانية مهما كان الأمر، وشعارها طعام الاثنين يكفي ثلاثة .

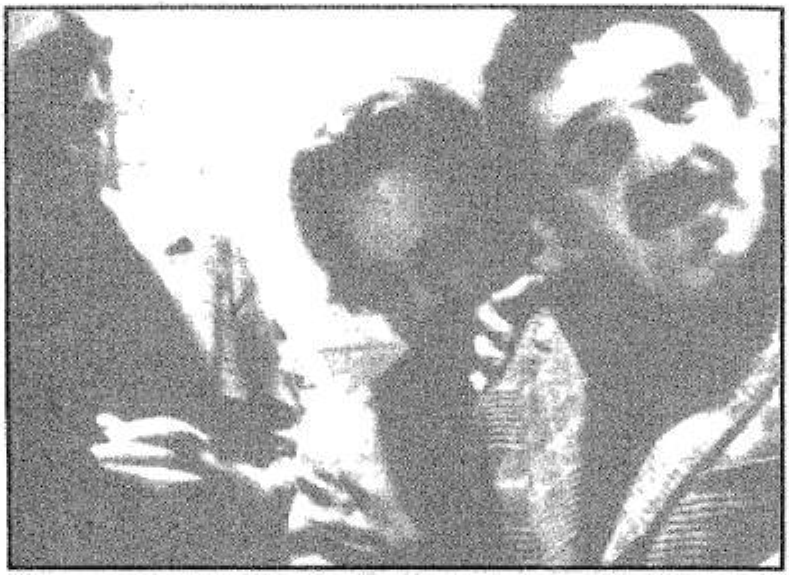
أما باريس فعلى النقيض، مدينة رائعة، عامرة بالفنون والآداب والمتع الراقية من كل جنس ولون، ولكنها قاسية القلب على الفقراء .. أدرك ذلك جرسيه حين اضطر إلى الاستجداء في المترو، لكن الرجل الذي وضع في يده قطعة نقود كان ضائقا بالأمر، حتى أنه لم يرد أن السمع منه توضيحا.

أن أي مدينة يعيش فيها المرء تطبع في أعماقه صورة مسيطرة لا تمحى ، وكانت صورة باريس التي احتفظ بها حزينة، مجرد إنسان من العالم الثالث، يستطيع أن يدفع بعض الأذى حين يملك مالا، أما حين يكون مفلسا، فإن إنسانيته تنتهك، وأحزانه «تتطافح»، وذات ليلة لم يجد مكانا ينام فيه، فقضاها في غفوات متقطعة فوق المقاعد التي في الشوارع، ويحاول أن يستدفيء بالدخان الذي ينبعث من جهة حواجز المترو الحديدية، ويحاول أن يراوغ الشرطة التي كانت تلاحقه ظنا منها أنه جزائري، فجأة في الفجر، خيل إلي أن مياه نهر السين توقفت عن الجريان، وتلاشت رائحة قرنبيط مسلوق كانت تملأ الجو، وللحظة كنت الحي الوحيد وسط ضباب مضبي»، في يوم من فصل الخريف بمدينة خالية، وكنت لحظتها أعبر جسر «بوان سان ميشيل» فسمعت وقع اقدام رجل، رأيت وسط الضباب سترة داكنة، يدين في الجيوب، شعرا مسرحاً بعناية، وفيما نحن نعبر الجسر، شاهدت وجهه ناتيء العظام، وفي لحظة تقارب الثانية، كان يبكي..

أين موقع ماركيث من الاتجاهات السياسية؟

لنبدأ الحكاية من أولها.

كانت المدرسة الثانوية التي تعلم فيها تضم عددا من المدرسين الذين تلقوا



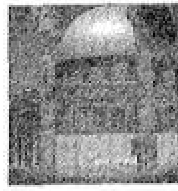
مع الكاتب التشيكي ميلان كونديرا (إلى اليسار) والفرنسي ريجيس دوبريه (في الوسط) - باريس ١٩٨٠

المبادىء اليسارية في كلية المعلمين، في ظل الحكومة اليسارية في ثلاثينيات القرن الماضي. مدرس الجبر يعطيهم دروسا في المادية التاريخية في وقت الراحة بين الحصص، ومدرس الكيمياء يعيرهم كتب لينين، ومدرس التاريخ يقص عليهم تاريخ الصراع الطبقي، وعندما ترك المدرسة كانت تسيطر على عقله فكرتان جوهريتان: الرواية الجديدة يجب أن تكون نقلا شعريا للواقع، والأخرى أن مستقبل البشرية يكمن في الاشتراكية.

وقد انتمى لإحدى الخلايا الشيوعية فترة وهو في العشرين من عمره، ولكنه كان متعاطفا أكثر منه مناضلا، وظلت علاقاته بالشيوعيين مذبذبة، يشوبها الخلاف في أحايين كثيرة، وفي كل مرة كان يتخذ فيها موقفا لا يعجبهم تحمل صحفهم، عليه، لكنه لم يدينوه علنا، حتى في أحلك اللحظات.

وقد أثرت زيارته لألمانيا الشرقية عام ١٩٥٧ وفي أفكاره السياسية بشكل حاسم، وسجل انطباعاته عن الرحلة في سلسلة من المقالات نشرتها احدى المجلات في بوجوتا، وبعد عشرين عاما أعيد نشرها، لا لأنها ذات أهمية صحفية او سياسية ، ولكن لإظهار تناقضاته المفترضة في تطوره السياسي، واتهمه العقائديون في ذلك الوقت بأن الولايات المتحدة الأمريكية دفعت ثمنها، ولكن التاريخ أثبت صحة ما قاله فيها.

هو في هذا الجانب غير واضح تماما، فهو يساري لا ينكر هذا ولا يخفيه، وإعجابه بزعيم كوبا وبالدور التحريري الذي اضطلع به في وطنه، والمثل الذي



أعطاه لكل المناضلين فى أمـــريكا، شمـالها وجنوبها، لا ينكر، وجعل منه صديقا ونصيرا لكاسترو، ومع ذلك لم يكن معجبا بالحكومة السوفيتية ولا البيروقراطيين الذين كانوا يحكمون العالم الشيوعى ويرى أن الديمقراطيات الشعبية التى عرفتها أوربا ثم تهاوت فيما بعد لم تكن اشتراكيتها أصيلة وإنما سارت فى طريق لا يعترف بالظروف الخاصة السائدة فى كل بلد، وإنما هو نظام فرضته من الخارج القوة المسيطرة، وهو الاتحاد السوفييتى ، من خلال أحزاب شيوعية حرفية، لا تملك موهبة الخيال، ويتركز تفكيرها الوحيد فى تطبيق النموذج السوفييتى فى مجتمع لا يناسبه هذا النموذج، وهو رأى فيه الكثير من الحق لأن الأحزاب التى راعت حال شعوبها لم تسقط بسقوط الاتحاد السوفييتى، ولدينا المثل قويا فى كوبا والصين وفيتنام الشمالية - فى عالم البدائل يرى طريقين يكرههما اليمين الرجعى العسكرى الموالى للولايات المتحدة، واليسار المتشدد الموالى للسوفييت - فيما سبق طبعا - ويؤثر عليهما الخيار الديمقراطى الشعبى، الذى اختاره سلفاتور أليندى فى شيلى، وهو اتجاه تراه الامبريالية الامريكية أخطر من الاثنين، فقضوا عليه عن طريق خيانة اليمين العسكرى الرجعى.. وربما لهذا السبب فإن الولايات المتحدة تكره ماركيث بشدة، وتراه عميلا خطيرا لكاسترو.

ماركيث كاتب متان، يجود عمله، استغرق تأليف «خريف البطريرك» سبعة عشر عاماً، وأسقط معالجتين لها قبل أن يبدأ فى المعالجة الصحيحة، وأعاد كتابة رواية «العقيد لا يجد من يكاتبه» تسع مرات، وأمضى خمسة عشر عاما يفكر فى رواية «مائة عام من العزلة».. وفى كل رواياته أراد أن يصور الواقع فى وطنه، ولكن أى واقع؟ واقع الخرافات والألغاز والأساطير التى تموج بها بيئته، والتى حدثته بها جدته، وأعطته لعمله المفاتيح الأولى، وكانت تشكل بطريقة طبيعية حياته اليومية، وظلت تسيطر على ذهنه دواما، لم يكن يخترع، وإنما كان يمسك ببساطة بأطراف عالم ملىء بالهواجس والخرافات التى تشكل فى النهاية عالم أمريكا اللاتينية الحقيقى مثل: الديدان تخرج من آذان الأبقار بتلاوة الصلوات ، الأنهار ذات المياه التى تغلى، العواصف التى تجعل الأرض ترتعد، الأعاصير التى تجرف فى طريقها بلدانا بأكملها.

أراد أن يعبر فى لغة أدبية بكل التجارب التى تأثر بها على نحو ما، يعيش فى بيت حزين واسع للغاية ، مع أخت أكلت التراب، وجدة تتنبأ بالمستقبل ، وعدد لا يحصى من الأقارب يحملون اللقب ذاته، ولا يفرقون كثيرا بين السعادة والجنون، يقول ماركيث نفسه، ملقيا الضوء على هذا الواقع.

فى أمريكا اللاتينية يعلموننا أننا إسبان، وهذا صحيح جزئيا بطبيعة الحال، فللأسبان تأثير قوى فى ثقافتنا لا يمكن إنكاره، لكننى اكتشفت خلال رحلتى لأنجولا أننا أفريقيون أيضا، أو بالأحرى نحن مزيج عرقى، إن أجناسا عديدة ومختلفة ساهمت فى إثراء ثقافتنا ، ولم أكن أدرك ذلك أبدا من قبل.

إن خيال العبيد الأفارقة الملىء

بالحيوية، مختلطا بخيال السكان الأصليين قبل الغزو الاسباني، ومذاق التخيل الأندلسي، وعيادة الاسنان الجليقيين للطبيعة، كل ذلك أدى إلى خلق قدرة ترى الواقع بطريقة سحرية خاصة.

ومن ثم فهو يرى الواقع بطريقة مختلفة، ويتقبل القوى الخارقة للطبيعة على جزء في حياتهم اليومية، إن كولومبوس يحكي في يومياته عن نباتات خرافية، ومجتمعات خيالية، وتاريخ المناطق الآهلة بالافارقة ملىء بالسحر الذى جلبه العبيد معهم من أفريقيا، وجلبه أيضا القراصنة السويديون والهولنديون والانجليز، ولا تجد مكانا في العالم فيه هذا المزج العرقي وتلك التناقضات كالتي تجدها في منطقة الكاريبي، والتي يعد شمال كولومبيا جزءا منها، وأعتقد أن الاشياء الخارقة للعادة جاءت من تراثنا الأفريقي.

وعندما زار أنجولا عام ١٩٧٨ توقع قبل أن يهبطها أن يجد عالما غريبا غير مألوف لديه ولكنه لحظ منذ اللحظة التي وطئت فيها قدماه افريقيا، وتنفس هواءها، أنه كما لو كان قد عاد إلي عالم طفولته.. لقد اكتشف في أنجولا طفولته من جديد.. العادات وكل الأشياء التي كان نسيها، حتى الكوابيس التي كان يحلم بها، بدأت تعاوده مرة أخرى.

اتكأ ماركيث كثيرا على هذا الواقع، وذهب به إلى أبعد مما يتحمله العقل، ولهذا هاجمه العقلانيون والشيوعيون والعلميون والمناطقة، وأطلقوا على واقعيته هذه تشنيعا عليها: الواقعية السحرية، وهو مصطلح يردده كثيرا هواة النقد عندنا في هذه الأيام، دون أن يعرفوا ما يراد به ومنه وما وراءه.

كلمات لجرسيه ماركيث:



مع الكاتب البرزيلى جورجى أمادو

• هيمنجواى ليس روائيا عظيما، ولكنه كاتب قصة ممتاز.

• لا أرى الإلهام منة أو هبة من السماء، إنه اللحظة التي تتوحد فيها مع الموضوع من خلال التشبث به والسيطرة عليه.

• عندما أنتهي من كتابة رواية أفقد الاهتمام بها إلى الأبد.

• الرواية نقل شعري للواقع.

• الكتب التي أحبها ليست بالضرورة التي أعتقد أنها الافضل.

• نيرودا أعظم شاعر في القرن العشرين في أى لغة من لغات العالم.

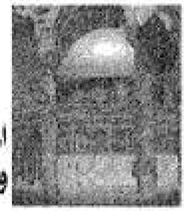
• السلطة هي البديل للحب.

• هبطت الشهرة على دون أن أدعوها أو أرغب فيها.

• إنني أعرفها الآن معرفة تامة، لدرجة أنه ليس لدى أدنى فكرة عنها.

• أرغب في أن يصبح العالم اشتراكيا، وأعتقد أن هذا سوف يحدث عاجلا أم آجلا.

• أمريكا اللاتينية تتوقع من الرواية ما هو أكثر من مجرد تعرية واقع الظلم والقمع الذى يعرفه الجميع معرفة تامة. ■



المثقفــــون
وضمير العالــم

جزء خاص

سوينكا..

ثقافة المقاومة وثقافة التواطؤ

بقلم
ابرهيم فتحى

معظم المثقفين المصريين شبابهم وشيوخهم يرفع الصوت عاليا ويتحرك فى الجامعة والشارع والنقابة مهما كلفه ذلك من تضحيات . ويكتب المفكرون تحليلات موضوعية كاشفة عن حقيقة الوضع فى المنطقة العربية وفى مصر . وهم لا يقفون عند ما يحدث فى فلسطين المحتلة باعتباره أحداث عنف مؤسفة يتعين إيقافها فورا ليجلس الطرفان على مائدة المفاوضات برعاية الإدارة الأمريكية التى تحمل مفاتيح السلام . فالمفكرون الوطنيون يقدمون للشعب المصرى رؤية علمية لحقيقة أوضاع الاقتصاد العالمى والسياسة الأمريكية ومصالحها وتحركاتها العسكرية فى المنطقة العربية و«نضال» أمريكا وإسرائيل الدائم دون توقف ضد الشعوب العربية .

تضامن المثقفون المصريون مع كتاب عالميين وقفوا مع المقاومة الفلسطينية ضد الإبادة الصهيونية المؤيدة من السياسة الأمريكية في المنطقة ولنأخذ وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل ١٩٨٦ . وهو كاتب نيجيري من أفريقيا ، التي كانت معظم بلادها - باستثناء دولة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا - لا تقيم علاقات مع اسرائيل قبل اتفاقيات كامب ديفيد الأولى

ويقول النقاد، إنه، مثل المثقف العربي الوطني ، يرفض الصورة الزائفة لبلاده التي يقدمها الاستعمار ، فنيجيريا مثل فلسطين ليس لها تاريخ ولا ماض حضاري ، والإنسان الأبيض (أو الصهيوني) هو الذي حمل النور والتقدم إلى البقعة السوداء . والمثقف عنده ، وهو نفسه ، عين الجماعة وأذنها ومحرقتها الخاصة وضميرها . فهو الذي يمحو تعمية الناس بالميديا العالمية والصور الزائفة . ووطنيته تتطلب ما هو أكبر من تمجيد الماضي والهجوم على الاستعمار في صورته القديمة فذلك كان مطلوبا ويظل مطلوبا في مواجهة النفي الاستعماري للماضي ونضالاته وإنجازاته

أما الآن فالكاتب مطالب بالموقف النقدي من الواقع الأفريقي ومن سلطات الهيمنة في العالم وخدمها وبوليسها الفكري في الداخل ، ولكنه في مقالاته يرفض وضع كل اللوم على الضغوط الخارجية (دون أن ينكر دورها) ، فهذا



وول سوينكا

موقف تبسيطي اتخذته نخب ما بعد الاستقلال الحاكمة لتبرير تجاوزاتها ويطالب بنقد الذات . وفي مسرحيته «رقصة من الغابات» مثلتها فرقته في احتفال الاستقلال عام ١٩٦٠ ، تحذير واضح للحكام الجدد من الأخطار المحدقة في الداخل والحاضر . وهي تربط الماضي بالحضار وتقدم نقدا حادا للسلطة المطلقة التي أفسدت الماضي والحاضر . والفعل المسرحي يتحرك بين بلاط حاكم تقليدي قديم ودولة ما بعد الاستعمار الحديثة المحتفل بها . وفي استخدامه للتراث في المسرحية يبرز خطر استدعاء التراث «المجيد» لتبرير حاضر رديء ، ولكنه يستخدمه باعتباره عنصرا حيويا لإدراك الذات التي كادت تطمس عند دعاة تسليم الأمر للخارج المتقدم ومحاكاته محاكاة القردة . ولن يبزغ المستقبل إذا استخدمنا التراث لتأكيد سيطرة جماعة ما بل حينما نرى من الماضي الجانب الذي يصلح جزءا فعالا من تنمية الحاضر وفي مسرحية



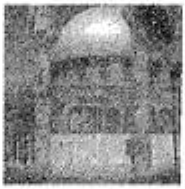
حصاد «كونجي» يوضح كيف جندت أنظمة معينة التراث والأسطورة لخدمة أهدافها الحالية وفى رواية & Searon Anomy ينزع الوهم عن صورة الصفقة الجديدة ، الواجهة المحلية «لتحديث» تفرضه الرأسمالية الكوكبية ، ويشير إلى الحاجة إلى طبقة وسطى مستقلة تشق طريقا جديدا ولا تؤثث أعشاشها على عرى أغلبية الناس ، وفى «الموت وفارس الملك» يبرز العلاقة بين التقاليد والتغير ، الجذور والنمو وفى رواية «المفسرين» يصور مجموعة من المتعلمين فى الخارج واجتماعهم لتفسير معنى الأمة الجديدة وأدوارهم فيها ، ويقعون بين فساد القوى المسيطرة وتكوينهم المنعزل عن أغلبية الناس ، هل يقعون فى شباك النزعة الكلبية أو الأغواءات الاقتصادية ؟ إن الكاتب يعارض البرزانية الجديدة والحرب الأهلية والدكتاتورية العسكرية للجنرال أباشا وخلفائه ويتجه إلى المنفى ، وتنتهى «المفسرون» بالقارئ موضوعا على حافة هاوية وليس له إلا خيار الغرق ، وأثناء الحرب الأهلية أسكت صوته النقدى بالاعتقال سنتين دون تهم محددة قضى معظمها فى الحبس الانفرادى وقد كتب يوميات محنته فى «الرجل مات» التى تجمع الإدانة المباشرة مع ملاحظة متفحصة للذات وقد قوبلت بالعداء الشديد . وانتقل بعدها إلى الخارج سنوات عدة محاصرا جوالا .

وفى محاولاته البحث عن أصالة قومية بدلا من التاريخ الاستعمارى لاستعادة الأرض ومعها أضرحة أبطال وأساطير وعقائد لم يقف عند «عراقة» محلية متحررة من تغير الزمان ، فقد روض «الزنوجة» ، رفض فكرة ماهية جوهرية نقية للافريقيين قبل الاستعمار (مثلما يرفض أمثاله فى العالم العربى ماهية جوهرية أصلية فى تفسيرهم للإسلام) فقد فرض الاستعمار قبول ذيوله الفكرية حتى بعد رحيله : التفرقة العنصرية الدينية الفكرية ، إغفال العلاقات الاجتماعية التاريخية والقول بميتافيزيقا الماهيات : السود كسالى متخلفون حسيون شهوانيون لا يجيدون إلا ايقاعات الرقص ، يفتقرون إلى القدرات التحليلية (العرب ارهابيون ، لا يفهمون إلا لغة القوة يؤمنون بعقيدة خرافية عدوانية ، يخضعون كالقطيع الحكام الديكتاتوريين) أما البيض (والصهاينة) فهم عقلانيون يحترمون المرأة وديموقراطيون . وعلى حركات المقاومة أن ترفض العنصرية المضادة حتى لا تقع فى أسر الفكر الاستعمارى والمركزية الأوروبية (الامريكية) .. لقد واصلت أعماله تصوير دور المثقفين والمبدعين الخاص من زاوية نقدية ترفض النرجسية ولا ترى لهم قيمة إلا فى قدرتهم على الرؤية والكشف والمقاومة من منظور شعوبهم . وقد ظل يتحدى انعدام الإنسانية فى خامدى الفكر والشعور حيثما وجدهم فى المسيطرين على قمم المؤسسات القامعة فى العالم ومثقفيهم الذين يقدمون قاموس «الفكر

الجديد» : الديمقراطية هى إلغاء الشعب ، الحرب من جانب قوى الهيمنة هى السلام، ذبح المدنيين بالجملة هو الدفاع عن النفس، الإدارة فى الدولة العظمى تعين الحكام فى كل البلاد الحرة وتعيد صياغة العقائد الدينية حسب احتياجات السوق ، والعقل هو الجنون .

ولكن هناك عددا صغيرا من نخبة النخبة من الذين لهم مصالح وأوضاع تدفعهم إلى السير في الطريق المعاكس . إنهم يتحدثون عن الشعب باعتباره بطبيعته عاطفيا يغلب المشاعر الساخنة على المنطق العقلى وينجرف وراء الشعارات الطنانة ويدعو إلي الدخول فى حرب دون تحسب للنتائج . ويذهب بعضهم إلى كتابة التاريخ المعاصر ليكشف دور الجماهير الشعبية فى أنها قادت بثوريتها أو باستجابتها للشعارات الثورية البلاد إلى الكوارث العسكرية . وهؤلاء الحكماء العقلانيون يعلنون دائما عن غرامهم «بالديمقراطية» الامريكية والإسرائيلية ، ولا يفهمونها على أنها حكم الشعب ، بل تقتصر الديمقراطية عندهم على منع الشعب من المشاركة فى اتخاذ القرارات لأنه عاطفى تستهويه الشعارات الحماسية ، ويجب أن يكون صاحب القرار (أو أصحابه من أمثال بوش وشارون وبلير) منتخبا في معركة تليفزيونية تتكلف المليارات وتدفعها الشركات العملاقة التى تنتمى إلى المجمع الصناعى العسكرى فى أمريكا أو مختارا من مؤسسة الجنرالات والحاخامات فى اسرائيل ، أو وجها جديدا يواصل سياسة المحافظين باسم العمال فى انجلترا ويلعب دور مدير العلاقات العامة لبوش . إن الحكماء العقلاء يريدون ديموقراطية تسير فى الاتجاه المعاكس للشعب . ومن ناحية أخرى يقدم الحكماء العقلاء صورة إعلانية ملونة صاخبة الشعارات عن الاقتصاد العالمى ووضعنا فيه . فالرأسمالية العالمية التى حكمت العالم منذ قرون «ناجحة» يجب أن يعلن الجميع توبتهم عن أى محاولة للسير فى طريق مختلف عنها ، وما من كلمة عن حقائق أو إحصائيات «نجاح» الرأسمالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة افقار معظم سكان العالم وتركيز الثروات فى أيدى قلة من البلاد أو الأفراد وإهدار ثمار الانتاجية العالية بتوجهها إلى صناعة أسلحة الدمار الشامل على الرغم من أن ٤٠ مليونا من الأمريكيين بلا تأمين صحى . كم تنفق أمريكا من مليارات الدولارات على السلاح ، وما مدى إسهامها فى تلويث بيئة كوكب الأرض ، وإحاطة بلاد العالم بالقواعد العسكرية جريا وراء الهيمنة وإخضاع المنافسين ؟

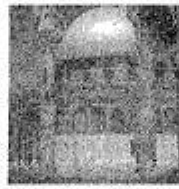
وكيف يرى الحكماء العقلاء مروجو الحلم الأمريكى والسلام الاسرائيلى المأزق الحالى ؟ إنهم يزيفون التاريخ تزييفا فاضحا مؤكدين السياسة الاسرائيلية الامريكية باستخدام «الكذبة الكبيرة» على طريق جوبلز إنهم كعادتهم فى تشويه الشعب الفلسطينى ينكرون عليه تاريخ سلسلة ثوراته ويبيضون وجه الاستعمار البريطانى (والامريكى بعد ذلك) . وفى الواقع فتح الانتداب البريطانى بعد الحرب



العالمية الأولى الباب واسعا للهجرة اليهودية والاستيطان الصهيوني واحتلال الأرض والعمل . وقد وصل التجمع الاستيطاني اليهودي إلي ما يقارب ٣٠٪ من كل سكان فلسطين وشكل معسكرا مستقلا متعارضا مع واقع الأغلبية العربية يتوسع بمساعدة رؤوس الأموال الأجنبية .. فالوطن القومي اليهودي الذي أسسه الاستعمار البريطاني توسع على انقاض ما تبقى للفلاح العربي من قطعة أرض وللعامل من يوم عمل والتاجر من سوق ضيقة .. إلخ في عام انتهاء الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن التناقضات بين الصهاينة والاستعمار البريطاني في أعقاب تلك الحرب كانت تدور حول تحقيق برنامج الحد الأقصى للصهاينة الذي يستهدف تحويل فلسطين بأكملها إلى وطن قومي يهودي ، وكان البريطانيون يضعون في اعتبارهم مصالحهم في بقية العالم العربي ويرفضون تقديم فلسطين بأكملها لليهود الذين بدأت عرى التحالف بينهم وبين الأمريكان تزداد توثقا على حساب مواقع الاستعمار البريطاني (الطريق إلى السلام الهيئة العامة للاستعلامات كتب مترجمة رقم ٧٣٢ ص ٢٩) حقا لقد كانت هناك صدامات مسلحة بين الصهاينة والانجليز يسميها بعضهم حرب استقلال . وكانت العصابات اليهودية الفاشية لتنظيمي أرجون وشتيرن اللذين اتحدا فيما بعد مع الهاجاناة قد بدأت في إرهاب المواطنين العرب من أجل طردهم خارج الأرض .

وتعتبر مذبحة دير ياسين في ابريل ١٩٤٨ ذروة أعمال الصهاينة قبل دخول جندي عربي واحد . ويقدر المؤرخون الجدد في اسرائيل أن ٢٥٠٠٠٠ عربي هربوا قبل حرب ١٩٤٨ من مذابح المنظمات الإرهابية اليهودية . ولم تكن حرب ١٩٤٨ من تدبير قادة الشعب الفلسطيني وملوك وحكام العرب بل كانت في جانب أساسي منها محاولة من جانب الانجليز للمحافظة على مواقعهم في الشرق الأوسط والوقوف إلى حد ما في وجه النفوذ الأمريكي الذي استحوذ على ولاء الصهيونية وعمل على إقامة دولة اسرائيل لتكون موقعا متقدما له لمواجهة الشعوب العربية والحركة الوطنية فيها . ولم يكن الحكام العرب مستقلي الإرادة أيامها فمصر محتلة من جانب الانجليز ولابد أن يمر الجيش المصري بقاعدة السويس ليسمح له الإنجليز بالعبور وهم المصدر الوحيد لتسليحه ، والجيش الأردني كان بقيادة الجنرال جلوب الانجليزي والعراقي كذلك . لقد تجاوزت اسرائيل حدود التقسيم وتمزقت الدولة الفلسطينية العربية إربا بين مخالب اسرائيل والحاق ملك الأردن الضفة الغربية ، واحتلال جيش فاروق لغزة . إن سياسة الحكام العرب وكانوا أيامها من عملاء الاستعمار وهي التشدق برفض تقسيم ١٩٤٧ كانت ستارا لترسيخ تقسيم

أشد وطأة يصفي المسألة الفلسطينية بالكامل وغير منقسمة ويحولها إلى مسألة نزاع على الحدود بين اسرائيل وجاراتها . أما أحط الأكاذيب فهي قول الحكماء العقلاء إن الشعوب العربية هي التي أجبرت حكومات العملاء على شن حرب ١٩٤٨ !! . وهؤلاء الحكماء يدعون أن الشعوب العربية التي كانت تحكم بالحديد والنار وتحملت هي كالمعتاد كل بشاعات الحرب ، هي المسؤولة عن اشعالها ، لقد كانت تطالب بحرب عصابات شعبية مستقلة عن الحكومات تناصر الشعب الفلسطيني ضد عصابات الصهيونية في نضاله المسلح ، ولكن الملوك والحكام العرب أيامها كانوا يحاربون شعوبهم في المحل الأول . وتجئ قصة التقسيم التي يذكرها المثقفون «العقلاء» على أنها جاءت بعد حرب ١٩٤٨ دون حياء . ويعرف الجميع أن القرار جاء عام ١٩٤٧ ، وكان الصهاينة الطرف البادئ بخرق قرار الأمم المتحدة الخاص ، بالتقسيم ، فالقوات المسلحة الصهيونية بدأت تستولي على ما لا يدخل في حدود الدولة اليهودية ، مذبحة إبريل ١٩٤٨ في دير ياسين ، لقد ظل الصهاينة يرفضون وضع أي حدود اعتمادا على التوسع المسلح والتهام الأرض قبل حرب فلسطين . لقد انتهت حرب ١٩٤٨ بضم اسرائيل لمجموعة كاملة من الأراضي العربية وطرد حوالي مليون فلسطيني بالسلاح . وما أعجب أن يقال إن قرار التقسيم الذي مزقته إسرائيل بالعدوان المسلح أعطى للعرب نصيبا أكبر مما حظيت به الدولة العبرية (التي لم تكن قد قامت بعد) ويعرف طلبة المدارس الابتدائية أن الدولة العربية الفلسطينية كانت في قرار التقسيم على مساحة ٤٩٪ من الأرض وأن ٤٩٪ أقل من ٥١٪ ويقول بن جوريون فيما بعد معلقا على ما كان «لقد كان هدف الصهيونيين الحصول على دولة لحظة جلاء القوات البريطانية من فلسطين تقوم الهاجاناه بتوسيعها وتهويدها أي الحصول على دولة بواسطة العمليات العسكرية للقوات المسلحة (الميلاد الجديد ويصير اسرائيل نيويورك ص٢٩٢) . ويواصل العقلاء أنصار «السلام» تشويه الشعب الفلسطيني بالقول بأنه كان يائسا ومتساهلا ومستسلما بدليل أن معظمه ترك الأرض وهاجر !! ، وصمت عن إثارة قضيته وظل قانعا ويائسا ومهادنا وصامتا على حقوقه الضائعة !! هل تستحق هذه الأكاذيب الرد ؟ العالم يرى الشعب الفلسطيني يواصل نضاله وأعداؤه يتهمونه بالإرهاب ، وبعد ذلك تجئ النغمة «السلامية» التي تملأ ألسنة الحكماء والعقلاء والتي تنسب إلى حكام العرب ومحكوميهم الدعوة الإرهابية إلى تدمير اسرائيل والقاء شعبها في البحرين الأبيض والأحمر . أما الإلقاء الفعلي للدولة الفلسطينية في جحيم الإبادة المسلحة ، وأغتصاب الأرض بالمستعمرات واغتيال المناضلين والكتابة على الكنيست «من النيل إلى الفرات يا إسرائيل» فكله سلامي عقلاني . وهل يجب تأكيد أن مصر لم تكن تدافع عن



نفسها واستقلالها في الحروب التي فرضت عليها والزعم بأن كل ذلك كان من أجل فلسطين ؟ وفي تأميم القناة والعدوان الثلاثي .. العرب هم الأشرار والاتحاد السوفييتي لم يكن له أي دور بل المجد لأمريكا التي جمدت الأموال المصرية وطالبت بملء الفراغ والدخول في الأحلاف العسكرية . ومن سلح اسرائيل ودعمها ورسم خطة اصطياد الديك البري (عبدالناصر) والأبيض والأحمر مع اسرائيل للإطاحة بجمال عبدالناصر . ومن قال: إن الرأي العام العالمي أيامها ، أيام وجود معسكرين وبلاد عدم الانحياز وحركات التحرر الوطني التي رفضت الاعتراف حتى مجرد الاعتراف باسرائيل ، كان متعاطفا مع اسرائيل ؟ . وماذا عن أن مصر وقفت وحدها لتسترد سيناء ، ولماذا الكذب الفاضح في الحديث عن أن مصر لم تكن لها مشكلة مع اسرائيل إلا القضية الفلسطينية ؟ إن إغفال دور اسرائيل في المنطقة تاريخيا ومعاداتها لمصر قائدة حركة التحرر العربي لا يغيب عن أذهان أحد . إن اسرائيل في قضية لافون الشهيرة ١٩٥٤ كانت تحرق المؤسسات الأمريكية في مصر عندما كانت الحدود هادئة والعلاقات المصرية الأمريكية في أحسن الأحوال ، ثم قامت بغارة على الجيش المصري في غزة ١٩٥٥ .. و... إلى آخره .

ولا يزال وزراء اسرائيليون يتحدثون عن احتلال سيناء الآن وعن قذف السد العالي ، بالقنابل ولنترك العقلاء انصار السلام مع التوسع والعدوان الاسرائيلي، دعاة استثمار الكرم الامريكي والاسرائيلي الذي طالما ما منحنا فرصا ذهبية أضاعها أنصار النضال الدائم . حقا لقد اشتركت أمريكا اشتراكا فعليا في حرب اكتوبر ضد الجيش المصري (وكان لها دور بارز في عدوان ١٩٦٧ ، وهي تجعل تسليح اسرائيل أقوى كما ونوعا من جميع أسلحة الجيوش العربية ، ولذلك يصل العقلاء إلى أنها هي الصديقة الجميلة التي تحقق لنا التنمية والسلام . أما المثقفون على الضفة الأخرى المرتبطون بشعبهم وتاريخه وقيمه وهويته ومصيره العربي ضد التبعية فيرفعون أمام الشعارات الببغاوية التي يرددها العقلاء والحكماء عن أجهزة الإعلام التي تملكها الشركات الامريكية والصهيونية أهدافا ظل الشعب المصري متمسكا بها ، وهي الاستقلال السياسي والاقتصادي ، والديموقراطي التي تضيف إلى التمثيل البرلماني الحقيقي ، حركة المجتمع المدني من جمعيات وروابط ونقابات ، وحقوق التنظيم الجماهيري للطبقات الشعبية . ورفض الدولة البوليسية وإطلاق حرية التعبير وإلغاء القوانين سيئة السمعة ومع ذلك كله ويتخلل ذلك كله النضال المشترك مع الشعوب العربية .

ولا يقدم المثقفون الوطنيون أنفسهم بديلا أو ذيولا للحكام ، ولا يحددون لهم الخطوات التي عليهم اتخاذها ولكنهم

يقدمون أنفسهم مشاركين فى صياغة الوعى الشعبى ، باعتبارهم جزءا من ضمير الأمة . وقد كانوا دائما ضد التخاذل والزحف على البطون وقبول الأمر الواقع كما كانوا ضد المغامرات والخطوات الطائشة . ■

عندما نلتقى

شعر : مريد البرغوثى

عندما نلتقى
سأقف أمامك مذهولاً
عندما نلتقى
سألمسك برفق كما تلمس أوراق الخريف الأرض
عندما نلتقى سأندفع نحوك كحفيد يغوص فى عباءة جده
عندما نلتقى سأنتحب
عندما نلتقى سأبحث عن عصا من الخيزران
وأضربك بقسوة على إليتك
سأضربك كحليم فقد صوابه
عندما نلتقى
عليك أن تخبرينى لماذا تهربت منى طوال العمر
كلما أوشكت أن ألمسك اختفيت
وكأن بوابة رهيبة ماثلة بيننا
وكأن مفاتيحى صدئة، أو ملتوية
أورثنى حبك تشققاً فى القدمين وريحاً فى الروح
مات أكثر جسمى ومات أكثر المحتشدين فى
أيتها الكاملة المكتفية بذاتك
أما علمت أبداً بتلك الأهوال؟
كان الهواء يتحول الى تمثال صخرى من الهواء
هكذا يحس الناجون من المذبحة
عندما تنغلق الفجوة الرائعة بين اللهاة والحلق
وهل أطلقت سربا من الكلاب خلفنا
لتواصل الركض نحوك على سلم من الفواجع لا ينتهي؟
أسماء أصدقائي تجمدت على شواهد القبور
والأقل حظا قبروا فى الأخاديد
أيتها الشرهة كمسقط شلال
أيتها القاتلة كسقف يهوى فى أوج الحفلة
أيتها الشغوفة بالمراثى وهى تغطى القتلى
بالخوص الأشهب المبتل
ما كان أجدر بنات الثانوية بقصائدنا وهن يسمرن أجسادنا على الطرقات بمشيتهن القادرة على تثبيت البرق
وما كان أجدر حقول عباد الشمس بالالتفات إلى وجوه أمهاتنا لو لم تهدم ملامحهن المصائب.
يا من تجمعين الضحايا كحاطب ليل
سأعاقبك على إفساد العمر الوحيد الذى منحته لى أمى
سأعاقبك على عنادك الشبيه بعناد البغال
سأضربك كما يضرب المطر السقيفة.
سأضربك كما تضرب أجنحة الدجاج عيدان القفص
وسأصلى لك فى صمت كصمت ناقوس المعبد بين دقتين
سأقبل جبينك سبع مرات سأقبل خاصرتك
وساقيك سأمسح خصلات شعرك
سأشم رائحتك
ستستعيد مسامى وخلاياى
رائحة حقل لوز يفضى إلى حقل ليمون يفضى الى كهوف الساحرات وهن يجرشن التوابل
ليصنعن رقية لصبى مسه العشق
سألثم أطراف أصابعك
وأتكور بين ذراعيك كالكنغر الصغير أو
سأقف إلى جوارك معتدل القامة
وأرفع يدك اليسرى عاليا عاليا عاليا
وأترك دموعى تسيل
حتى تلامس ابتسامتى...
فقط.. لو ألقاك
أيتها الحرية !



جزء خاص

المثقفون
وضمير العالم

ملايين مليون ولود فلسطينية

بقلم
صافى ناز كاظم

بعد هزيمة ١٩٦٧ كتبت الشاعرة فدوى طوقان قصيدتها الجارحة «يا قوم الام وحتام؟»، تستصرخ المقاومة العربية للنهوض بوجه الاحتلال الصهيوني المضاف إلى الاحتلال الأول لأرض فلسطين ١٥ مايو ١٩٤٨، الذى كان قد مضى عليه ١٩ عاما، وكان من المفترض أن التحرر منه هو الهدف الأول والقضية الكبرى للأمة العربية. مع صدمة هذا الاحتلال الثانى والهزيمة التى لم يكن يتوقعها أكثر المتشائمين تشاؤما، كانت هناك على أرض فيتنام مقاومة محتدمة ضد العدوان الأمريكى، يشيد بها الجميع ويؤازرها معظم مثقفى العالم من كتاب وفنانين ومسرحيين وشعراء ... إلخ.



تشـــيـيع جنازات الشهداء الفلسطينيين مشـهد يتكرر يوميا

وواكب هذه الإشادة العلنية لمقاومة الشعب الفيتنامى الباسلة، التفوق العرب، مع خلفية المقاومة الفيتنامية لشعب ضعيف صغير شبه أعزل فى مواجهة قوة كبرى عظمى، استشعرت فدوى طوقان هزيمة كل العرب أمام عدو حقير فكافت صرختها فى نهاية قصيدتها

« ....

آه ... آه يا فيتنام ،
آه لو مليون مقاتل ،
من أبطالك،
قذفتهم ريح شرقية ،
فوق الصحراء العربية ،
لفرشت نمارق ،
ووهبتهمو مليون ولود قحطانية!»

ولم يستمع هذه الأمنية الغاضبة أحد من شباب فلسطين أو من بقية العرب، فالحقيقة التى كان يعرفها الجميع أن المشكلة لم تكن كامنة فى عدم خصوبة رجال بنى قحطان وعجزهم عن توليد مقاومة استشهادية تماثل وتفوق مقاومة كل شعوب الأرض ، ولكن المشكلة كانت تكمن فيمن يمنعون الحمل والولادة قسر بعد عمليات الإجهاض المتواصلة التى عبرت عنها « فدوى » نفسها فى مطلع قصيدتها قائلة :

« ....

ياقوم إلام وحتام ؟
لازلنا فى غرف التخدير
على سرر التخدير ننام ،



والعام يمر وراء العام
وراء العام وراء العام ،
والأرض تميد بنا
والسقف يهيل ركاما
فوق ركام ،
والكذب يغطينا
من قمة هامتنا حتى الأقدام ،
ياقوم إلام وحتام ؟
..........................»

ومضت السنون والمرأة القحطانية العربية الفلسطينية لا تكف عن إثبات أنها ولود، وأن منبع قوتها وخوف الأعداء وكابوسهم أنها ولود ، قادرة على الإنجاب الحلال المستمر ، من رجالها القحطانيين العرب الفلسطينيين ، للأطفال المؤهلين للمقاومة والصمود والشهادة حتى وصفها الشاعر الفلسطيني معين بسيسو ، في صيغة جمع ، بقوله : «الأمهات اللاتي يلدن للسكين» .

إن هذه المقاومة المستبسلة التي نرى دقائقها وصورها المجسدة كل يوم على شاشات القنوات الاخبارية ،لم تنبت عفو الخاطر بكل نوارها الوضيء في حقولها اليانعة. إنها غرس لمقاومة على مدى قرن.

ولو قرأنا في سجل فلسطين ويومياتها عن المقاومة والاستشهاد ، فسوف نرى المعاناة التي كابدها الجهاد العربي لمغالبة رياح التثبيط وحملات كسر سيوفه وقسم خناجره وقلع أظافره حتى يتمكن العدو القزم من التعملق وسحق الحقوق وأصحاب الحق .

* * *

في الصفحة الأولى من الجريدة ،عام ١٩٩٧ ، كانت صورة أطفال الخليل ينظرون في تعبير بين التساؤل الحزين والدهشة المغتاظة نحو جنديين إسرائيليين مدججين بالسلاح ،لا يظهر منهما سوى الظهر المرسوم عليه رأس ثور، ومكتوب تحته بالانجليزية ما ترجمته :

« وُلِدَ ليَقْتُل» . وكنت قد قرأت لتوى كلمات للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، المؤسس لمقاومة الجهاد الفلسطيني ، كتبها في ١٠/١٩٩٢ تقول : « هل هناك مازال فضاء لصرخة مدوية ... جاهدوا .... بكل ما تملكون من طاقات ضد المشاريع .. التي تخدم مخطط اسرائيل الكبرى ، فإن أمتنا مازالت تختزن قدرات هائلة - لو أحسن توظيفها - النهوض والانتصار، الهزيمة ليست قدرنا ، قدرنا هو النصر بإذن الله .....» .

هذه الكلمات جاءت في الصفحة ١٦١٥ من الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور فتحي الشقاقي، التي أعدها ووثقها الدكتور رفعت سيد أحمد وصدرها بدراسة هامة عنوانها « رحلة الدم الذي هزم السيف » . تقع هذه الأعمال الكاملة في ١٦٢٤ صفحة من القطع الكبير

ومقسمة إلى سبعة أجزاء فى مجلدين ، يحتويان دراسات ومقالات وخطب ورسائل وأشعار وبيانات وحوارات وكلمات الشهيد التى تعكس ثقافته العالمية والعربية العميقة ، وموهبته شاعرا وأديبا، ورؤاه الفكرية الواعية ، وحسه السياسى

في شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها الدموية

شعر : محمود درويش

فى شهر آذار فى سنة الانتفاضة، قالت لنا الأرض أسرارها الدموية . فى شهر آذار مرت أمام البنفسج والبندقية خمس بنات.. وقفن على باب مدرسة ابتدائية، واشتعلن مع الورد والزعتر البلدى . افتتحن نشيد التراب.. دخلن العناق النهائى - آذار يأتى إلى الأرض من باطن الأرض يأتى، ومن رقصة الفتيات - البنفسج مال قليلا ليعبر صوت البنات . العصافير مدت مناقيرها فى اتجاه النشيد وقلبى.

أنا الأرض

والأرض أنت

خديجة! لا تغلقى الباب

لا تدخلى فى الغياب

سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل

سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل

سنطردهم من هواء الجليل

وفى شهر آذار ، مرت أمام البنفسج والبندقية خمس بنات. سقطن على باب مدرسة ابتدائية . للطباشير فوق الأصابع لون العصافير. فى شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها.

*****

وفى شهر آذار تستيقظ الخيل

سيدتى الأرض

أى نشيد سيمشى على بطنك المتموج ، بعدى؟

وأى نشيد يلائم هذا الندى والبخور

كأن الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطين

فى بدئها المتواصل

هذا اخضرار المدى واحمرار الحجارة

هذا نشيدى

وهذا خروج المسيح من الجرح والريح

أخضر مثل النبات يغطى مساميره

وقيودى

وهذا نشيدى

وهذا صعود الفتى العربي الى الحلم

والقدس

فى شهر آذار تستيقظ الخيل

سيدتى الأرض

والقمم اللولبية تبسطها الخيل سجادة

للصلاة السريعة

بين الرماح وبين دمى

نصف دائرة ترجع الخيل قوساً

ويلمع وجهي ووجهك حيفا وعرساً

وفى شهر آذار ينخفض البحر عن

أرضنا المستطيلة مثل

حصان على وتر الجنس.

فى شهر آذار ينتفض الجنس فى شجر

الساحل العربى

وللموج أن يحبس الموج.. أن يتموج...

أن

يتزوج... أو يتضرج بالقطن

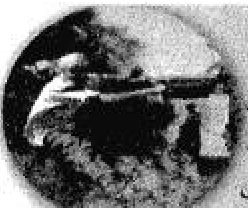
أرجوك - سيدتى الأرض - أن تسكنينى وأن تسكنينى صهيلك أرجوك أن تدفنينى مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج والبندقية ارجوك - سيدتى الأرض - أن تخصبى عمرى المتمايل بين

سؤالين: كيف؟ وأين؟

وهذا ربيعى الطليعى/ هذا ربيعى النهائى

فى شهر آذار زوجت الأرض أشجارها

*****



التحليلى الدقيق المدرك للجذور والأبعاد والعواصف والأنواء ، هذا الحس الذى يدفعه ليؤكد على الدوام : « ... إن أوهام القوة والغطرسة لا تصنع سلاما عندما تغيب كل معانى الحق والعدل . إن التطاحن من حول فلسطين سيستمر وإن مستقبلها سيبقى معلقا بسيوفنا ....» وليؤكد كذلك أن : « .... الشهداء يعيدون تشكيل الحياة بزخم أكبر وبإبداع أعظم لتبقى الشهادة هى المعادل الموضوعى للحياة ، فلا حياة ولا تاريخ لنا بدون الشهداء . لا ماضى ولا مجد ولا عبرة ، هم الذين يصنعون لنا المستقبل وليس المرجفون أو القاعدون على الصمت والنكوص. الشهداء يزرعون فى الأرض ، يورقون ويثمرون وتخضر بهم حياتنا ويبنون لأمتهم التاريخ والمجد والمستقبل....» ويصوغ فتحى الشقاقى تسبيحات حمده : « الحمد لله الذى أعزنا بالجهاد وأذلنا بالقعود عنه ....». ويحلل دلالات ما حدث وجرى فى البوسنة فيرى: « .... مدى الحقد البشع على الاسلام ، ليس فقط من قبل الصرب ، ولكن من قبل كل الغرب . وهو يعطى تفسيرا أكثر وضوحا لما يجرى فى فلسطين ، أحد مواقع تجليات هذا الحقد ، فإن كان الغرب يتعامل هكذا مع من هم أوروبيون وطنا وعرقا ولونا ، فكيف يتعامل معنا فى فلسطين ، حيث وطن بأكمله ينزع من أيدى أهله وأصحابه وشعبه ويسلم إلى اليهود القادمين من أربع جهات الكون ومن وراء البحار ، وحيث جرى ولا يزال تطهير عرقى ودينى .....» .

* * *

هذا الكلام كتبه « فتحى الشقاقى» قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وقبل مجازر شارون التصاعدية من مارس ٢٠٠٢ حتى الآن ، وقبل مشاهد الخذلان الدولى اللاإنسانى لشعب يقاوم ، بجسده واستشهاد أطفاله ونسائه وشبابه ، مجنزرات ومروحيات الأقزام المتعملقين بمساندة فساد الادارة الأمريكية التى يشهد حتى أصدقاؤها باختلالها العقلى وروحها الفاشستية ، ذلك لأن فتحى الشقاقى - المولود عام ١٩٥١ والذى كان قد تخرج فى جامعة الزقازيق طبيبا ، فى السبعينيات - كان قد تم اغتياله فى مالطة تحت إشراف رئيس الموساد يوم الخميس ١٩٩٥/١٠/٢٦ الموافق ٢ جمادى الآخرة ١٤١٦ الساعة الواحدة والنصف ظهرا ، تنفيذا لقرار اسحق رابين ، وكانت هناك ثلاثة اختيارات للتنفيذ وافق رابين على واحد منها . وجاء هذا القرار بالقتل والتنفيذ قبل وأثناء وبعد أن وقف اسحق رابين فى واشنطن يتعهد أمام العالم يوم الخميس ١٩٩٥/٩/٢٨ ويقول : « كفانا دماء ودموعا ، كفانا ..»!

وصدق العالم ، وعلى رأسه المؤيدون للسلام مع الثعابين ، القسم الرابينى ،

وابتسم ياسر عرفات ، وقتها ، وهز رأسه مؤمنًا ....

* * *

بين الخميس ٢٨ / ٩ / ١٩٩٥ والخميس ٢٦ / ١٠ / ١٩٩٥ ، أثبت رابين، الذى مازال البعض يقول إنه كان داعيا للسلام، أن احترامه للعهد لايمكن أن يصمد ولو لشهر واحد . وبالنسبة للذين يقرأون القرآن ويستوعبونه لم يكن فى نكث رابين لعهده، بعدم إسالة الدماء والدموع، أى غرابة، فإذا لم يكن مجرم حرب ومجرم سلام مثل اسحق رابين واحدا من الذين قصدهم القرآن الكريم بقوله : «الذين ظلموا من أهل الكتاب» فمن يكون ؟

* * *

فى أول نوفمبر ١٩٩٥ - [illegible] وعد بلفور المشئوم فى ٢ نوفمبر [illegible] تم دفن الشهيد ابن فلسطين [illegible] لأن سلطات الاحتلال الصهيونى [illegible] الدفن فى مسقط رأسه ، ووقف اسحق رابين يقول بفظاظة : « إننى غير آسف لموت الشقاقى والحياة أفضل بدونه » .

ونشرت الصحف صوراً عديدة للمجاهد الطبيب الشاعر الشهيد وقارنت نظرته الفتية الصبوحة فى عينيه الباسمتين ، المعقودتين على أحد الحسنيين: النصر أو الشهادة، وبين نظرة الالتواء والحقد والشراسة فى عينى اسحق رابين المتجهمتين الشيطانيتين وفيهما طالعت السجل الحافل لمجرم عتيد .



فتحى الشقاقى

* * *

فى مساء السبت ١٩٩٥/١١/٤ نفق اسحق رابين وأعلن قاتله الصهيونى المتعصب أنه : « غير نادم ، وقد نفذت أمر الله » !

هكذا فى أقل من أسبوع ، ارتدت الكلمة الحاقدة لرابين : « أنا غير أسف» عن اغتيال شهيدنا فتحى الشقاقى لتعود [illegible] : « أنا غير نادم » يقولها عند [illegible] قاتل من أهله .

والذى لم يفهمه قاتل رابين ايجال [illegible] والحمد لله - أن تعصبه لباطل اغتصاب الأرض الفلسطينية ليس سوى تعصب ساذج أمام التعصب الداهية الذى يضمره ويمثله الإرهابى المتمرس الشارب من معين الصهيونية صنعة التآمر والتخريب والخداع اسحق رابين .

ويواصل شارون مشوار المجرمين الذين سبقوه بأسلوبه المتميز بفجاجته وسوقيته الخاصة .

* * *

... ومازالت المقاومة الباسلة فى فلسطين تواصل .... ■

البحث عن الذات

فى كتابين جديدين

بقلم
مصطفى نبيل

حكايات جميل مطر

كتاب جميل مطر، ليس مجرد سيرة ذاتية، ولا مجرد تجربة فى العمل الدبلوماسى، إنما هو قطعة أدبية راقية، تحمل شحنة فى عقل الكاتب وقلبه من أجل ارتقاء الوطن، مع نظرة تغلب عليها الجدية والرومانسية معاً، كتبه بقلم رشيق ونظرة إنسانية.





بدأ جميل مطر حكاياته مع الدبلوماسية على أن يتبعها بحكاياته مع الكتابة والكتاب وأخيراً حكاياته مع العمل العربى، فكما تنقل بين عواصم العالم تنقل أيضا بين مجالات للعمل مختلفة وإن كانت فى كثير من الأحيان متداخلة..

وتعطى تجربته الدبلوماسية المثل والعبرة فى عمل يتناول علاقة الوطن بالعالم ويحمل عبء السياسة الخارجية المصرية.

إذا بدأت قراءة كتابه لاتستطيع أن تتركه إلا عند نهايته ، تنتقل معه بين البلاد والناس، وبين المبادىء والأشخاص، ترى تجارب متعددة فى مناطق مختلفة من العالم، وتتابع حكاية شاب مصرى يملك عقله، يطوف فى العالم ، لايمكنه إلا أن

يأخذ عمله بجد وإخلاص.

وإذا كان كل من الدبلوماسيين والصحفيين يتمتعون بالتنقل في عواصم العالم، بدلاً من الرحالة في الأزمان الغابرة، فإن ذلك يلقي عليهم مسئولية تسجيلها ونقلها للقارئ، ويتميز العمل الدبلوماسي بالتأمل والبحث والإحاطة بما يجرى في البلاد التي يعمل بها، وكثيراً ماكتب الدبلوماسيون مذكراتهم، حتى أصبحت هذه الكتابات مصدراً تاريخياً مهما.

ويدهشك عدم وجود عدد كاف من الدبلوماسيين في مصر يسجلون تجاربهم ورحيق خبرتهم.

وها قد فعلها جميل ، وأخذ يحكي لك مايدور في كواليس الدبلوماسية ويكشف الكثير من أسرارها، ويتناول مصاعب العمل إلى جانب متعه . وكثيراً ما أشعر وكأنه يفكر بصوت عال، يجذب القارئ إلى تأمل مايشغله.

وها هو يؤكد – من تجربته – أن السفراء صنفان ، أحدهما يأخذ عمله باعتباره رسالة مقدسة، والآخر الذى يجعل العمل الدبلوماسى أداة للكسب يقول .. «ليس كل الناس الذين بعث بهم كسفراء أختيروا لدواعي خبرتهم وكفاءتهم، فهناك من كان ذهابه مكافأة لتحسين ظروفه المعيشية وحتى ينعم بالعملة الصعبة .. ويؤكد . «لم يكن كل الصالحين من فئة أو طبقة أو مدرسة بعينها ، ولم يكن كل الطالحين من فئة أو طبقة أو مدرسة أخرى».

ويضيف .. «إن تعيين شخصيات ذات وزن فى وظائف سفراء يرتبط باعتبارات كثيرة، فيكون الإبعاد فى وظيفة من هذا النوع، من أجل تبريد الحماسة، وتهدئة الانفعالات أو ترويض الطموح أو تفكيك الشلل أو الانتزاع من الجذور أو كل ذلك معاً».

وترى من خلال قصته فى الدبلوماسية سفراء بلغ عملهم الذرى فى الإجادة والشعور بالمسئولية مثل كل من د. أحمد نجيب هاشم الذى عمل معه في روما والمهندس حسن رجب الذى عمل معه فى بكين وروما.

ومن المسكوت عنه فى تجربته تجنب ذكر الاسماء ، رغم أنه أخذ فقرة من مذكرات أحمد طعيمة الذى كان سفيراً فى الأرجنتين وأظن أن هذه المذكرات كانت الدافع الأول للتسجيل ، ثم عاد إليها تجربته وزيراً لعقد صفقة القمح، ولم يذكر اسم حسين ذو الفقار صبرى الذى ذكر ذات الحكاية التى رواها جميل فى كتابه «يانفس

لاتراعى، رغم أنه قام بتوثيقها بتواريخها الدقيقة، ولعله لم يذكر الأسماء بحكم تقاليد الدبلوماسية التى لم يتخل عنها، ولعل ذلك من دماثة خلقه أو لعله شعر أنه يتمتع بحرية أكبر فى الحديث عن الشخصيات التى تناولها، ولم يذكر فى كل حكايته سوى تجربته الجميلة مع كل من عبداللطيف أبو هيف وزمالته للشاعر نزار قبانى فى بكين.

أما تجربته المريرة فى الهند مع الذى كان يرتدى بدلة سوداء ويضع نظارة سوداء ورابطة عنق سوداء وفى قدميه جوارب سوداء وحذاء أسود، والذى كل تقاريره ترجمة من الصحف الأجنبية فأظن أنه د. مصطفى كامل أستاذ القانون الدستورى .

أما السفير الذى تعامل معه فى بينس آيرس، والذى كان عالى الكفاءة ، ولكنه يتشكك فى الجميع، وكان جده لأبيه رئيس وزراء سابق وزوجته حفيدة رئيس وزراء ، ومات بالسكتة القلبية عندما قرأ تقريراً مكتوباً ضده جاءه من القاهرة، فهو السفير صالح محمود.

وبعيداً عن العمل الدبلوماسى ومؤامراته التى تعرض لها شاب فى مطلع حياته، فتجول ، مع عين ثاقبة ، وملاحظة فنان دقيق يسمع ويرى ويشم، أقول حقيقة لامجازا تشم رائحة البلاد التى زارها، وبقيت رائحة الهند لم تفارقه، وبعد مغادرته لا تبتعد طويلاً، بل تعوده فى كل مرة يتحدث عنها أو يتذكر أياماً وأحداثاً عاشها فى الهند. وترى انبهاره بالهند وغرائبها وأسرارها . وتتبعه فى شوارع نيودلهى وترى فى المدينة القديمة «طبيب» الأسنان الذى يقوم بخلع ضرس المريض على الرصيف بربطه بخيط فى رجل المريض!

وتراه وهو يلتقط مثلثات الفطائر، يلتقطها البائع من الزيت المغلى ، ويضعها فى ورقة من أوراق الشجر.

ويرى أن الفقر فى الهند أفقر من أى فقر يمكن أن يتصوره الانسان .

وتصحبه وهو يروى حكايته مع الصين ، ويخرج لكى يتجول فى أحد شوارع كانتون، ساعياً للاقتراب من هؤلاء الجائلين فى الطرقات ، وفشل. فما كان لإثنين مهما رفعا صوتيهما أن يسمعا بعضهما، فالضوضاء صارخة . والناس ، كل الناس يركضون ، لا أحد يتحدث مع أحد، ولا أحد يشعر بوجود الآخر، ونفس السلوك شاهده بعدها فى نيويورك ، وتنتقل معه إلى روما التى تسبح فى جمال أخاذ لاينضب ولا

يخبو، وروما بالنهار ليست أقل جمالاً وإن اختلفت عن روما بالليل، فروما بالنهار مثل إيطاليا بالنهار ، متحف كبير. ولم يترك صاحبنا متحفا فى روما أو كنيسة قديمة أو حيا شعبياً أو حياً أثرياً من الأحياء المحيطة بالعاصمة لم يذهب إليه..

وإحدى قضاياه ومشاغله هى قضية الحرية، يتلمس ممارساتها فى كل من الهند والصين، وشاغله الرئيسى مايجرى فى بلاده.

«فى الهند ديمقراطية ليبرالية ونظام حزبى وانتخابات دورية .. وصمود هذا النظام الديمقراطى ، وزادت أهمية هذا الأمر عندما وجدت فى الصين تجربة أبعد مايكون عن ليبرالية الغرب وديمقراطية الهند وديكتاتورية الاتحاد السوفييتى.

ولم يكن الانقلاب على الديمقراطية فى عالمنا العربى مسألة تستعصى على الفهم، فقد عشت آخر أيام الليبرالية المصرية وتابعت احتضارها ، ورأيت كيف أجهز عليها رجالها من قادة الأحزاب والصحافة ، وكيف كان الشعب مستعداً للتضحية بها فى سبيل طيبات لم يحظ يوماً بمتعة التمرغ فيها..»

إنه كتاب لابد أن يقرأ.

بعد نصف قرن

يقول سكرتير الملك شهادته

كتبت هذه المذكرات منذ أكثر من نصف قرن ، ولم تنشر إلا مؤخرا ، وقد أوصى صاحبها ، وهو د. حسين حسنى السكرتير الخاص للملك ، بنشرها بعد وفاته .



د. حسين حسنى باشا



«سنوات مع الملك فاروق» يلقي الضوء علي بعض جوانب الكثير من الأحداث التاريخية التي عاشها د. حسين داخل أروقة القصر . بعضها سبق نشره وبعضها الآخر لم يسبق نشره .

ولعل نقطة الضعف فى هذا الكتاب هى الفصل المتعسف بين مواقف الملك السياسية وحياته الخاصة ، التى يعيد إليها الكاتب ما لحق بالملك من نكبات ، رغم أن ما قوض عرش محمد على ، وجعل فاروق آخر ملوكه ، هو السياسات التى اتبعها ، وعدم احترامه للدستور ، فلم يترك برلمانا واحدا يكمل مدته ، والعمل الدائم على تفتيت القوى السياسية . يغير الوزارات بخفة متناهية ، حتى أكد د . حسين حسنى واقعة أن عبود باشا دفع مليون جنيه لإلياس اندراوس لكى يطيح بحكومة نجيب الهلالى ، وأن الهلالى هو الذى أبلغه بذلك ، نقلا عن معلومات السفارة الأمريكية !! كما يسعى إلى إضعاف مؤسسات الدولة متصورا أنه يقوى عندما يضعف الآخرون .. وتضاءلت مسئولية الوزارات وأصبح الملك يملك ويحكم ، وبذلك استطاع أن يستبد بالمواطنين ، وينهب الثروات ، يحمى الملتفين حوله ، بل وتردد أن معظم محاولات الاغتيال السياسى كان الملك يقف وراءها ، كاغتيال أمين عثمان وعبدالقادر طه ومحاولتين لاغتيال مصطفى النحاس .

فليست الفضائح النسائية ، ولا الخمر ولا الميسر هى السبب . ولكن لعل الإلمام بالظروف الشخصية للملك والإمساك بها ، يلقى الضوء على بعض الأحداث التاريخية، ويساعد على فهم أبعادها .

***

وما جاء على لسان د. حسين حسنى يقدم تفسيرا لتلك النظرة التى كثيرا ما أثارت انتباهى ، نظرة الحزن العميق فى عينى الملك التى لا تخلو منها معظم صوره، واستمرت فى مراحل حياته المختلفة ، إنها حقا مأساة ملك. وهى مأساة إغريقية فى عنفوانها وقسوتها ، وهى شكسبيرية إذ تتناول المتربع على قمة السلطة . العلاقة الآثمة بين الأم والمعلم الصديق، وضرورة كتمان خيانة الزوجة التى تسىء إليه أكثر مما تسىء لنفسها ، ثم تخلى الزعماء من الباشوات عنه فى ٤ فبراير ، يعانى ذلك كله وحده وهو فى فترة الصبا وقبل بلوغه واحدا وعشرين عاما ، وتتأكد أن ما تردد على أنه شائعات كان وقائع مؤكدة ، مما حول الملك إلى شخصية عدمية لا تلوى على شىء ، وجعلته وكأنه يتعجل نهايته وينتظرها .

وربما تعود مأساة الملك إلى تلك الطفولة الباردة والقاسية التى عاشها ، وهو الولد الوحيد وسط أربع شقيقات ، بلا أقران أو أصحاب فى مثل سنه ، وهى الفترة التى قضاها وحيدا مع أم تدلله وأب يقسو عليه ، وفرضت عليه مربيته الانجليزية مسز تايلور عزلة تامة ، وحرمته من اللعب مثل سائر الأطفال ، وما كاد ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا حتى وجد نفسه يجلس على عرش البلاد ، ولم ينل كفايته من



زواج الملك فاروق وفريدة داخل قصر عابدين

التعليم لا فى الدروس الخصوصية ، ولا فى المدرسة البريطانية التى لم يكمل فيها عاما كاملا .

ويكفى أن تعرف أنه تنازل عن العرش بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولم يزد عمره عن اثنين وثلاثين عاما ، فهو مولود فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، ووضع على أريكة الحكم ولم يتجاوز السادسة عشرة ، وكان حكمه سلسلة متصلة من الاخفاقات والصدمات الشخصية والعامة .

مأساة الملك

مأساة الملك الأولى كان أطرافها ثلاثة ، الملك والأم والعشيق ، فاروق ونازلى وأحمد حسنين .

تكشف المذكرات الدور المدمر الذى لعبه أحمد حسنين فى حياة فاروق ، فقد ولد لأب فى الحادية والخمسين ، وجاء نتيجة علاقة متوترة بين الملك والملكة ، وعكس بيرم التونسى رأى الشارع فى أنشودته التى ختمها بالقول «والوزة قبل الفرح مدبوحة» ودفع ثمن هذا القول النفى إلى فرنسا !

ورغم تعلق الابن بأمه حدد الملك فؤاد لقاءهما فى أوقات محددة ، ولم يكترث أحد بتعليمه ، وكان أحمد حسنين هو رائده ، وهو الذى نجح فى إبعاد عزيز المصرى الرائد الثانى فى انجلترا ، وسعى إلى التأثير عليه بكل الحيل الممكنة .

ويلقى د. حسين حسنى الضوء على المسكوت عنه من شخصية أحمد حسنين (١٨٨٩ - ١٩٤٦) ، وهو ارتباطه بالسلطات البريطانية منذ نشأته ، وهو أحد أبناء

أحد شيوخ الأزهر ، وأكمل دراسته فى أوكسفورد ، وكان راعيه اللورد ملنر - صاحب المشروع المعروف - ووزير المستعمرات ، وهو الذى ألحقه بالجامعة ، وكان كثيرا ما يقضى نهاية الأسبوع فى قصره الريفى . كما أنه تطوع فى الجيش البريطانى أثناء الحرب الأولى ، بل وعين عند عودته إلى مصر سكرتيرا خاصا للجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال ، وكان يرتدى زى الجيش البريطانى ، وفاوض باسم الانجليز السنوسيين فى الصحراء الغربية، ثم عين مفتشا فى وزارة الداخلية ، التقى مع حسين حسنى عندما قبض عليه وكان خلالها سكرتيرا لهوربنلور كبير مفتشى الداخلية والمشرف العام ، ونقل إلى وزارة الخارجية ، وتم تعيينه فى واشنطن وهناك التقى بلطيفة هانم كريمة الأميرة شويكار وتزوجها ، وهى ابنة الزوجة الأولى للملك فؤاد .

وأصبح بذلك يتمتع برعاية كل من قصر الدوبارة (الانجليز) وقصر عابدين، ويتضح أن أحمد حسنين شخصية مغامرة لايحد طموحه أى كابح من أخلاق أو ضمير.

ويتساءل محمد التابعى الذى كان صديقا لأحمد حسنين .. هل هو بطل ؟ ومصرى وطنى مخلص يقدم مصلحة بلاده على كل ماعداها .. ؟ أم هو خائن وصنيعة الانجليز .. ؟ ولا بأس من أن يضحى بمصلحة مصر فى سبيل مصلحة ذاتية يحققها له الاستعمار .. ؟ وهو حقا شخصية درامية تبحث عن مؤلف .

تباينت الآراء واختلفت حول الرجل ، وهو مغامر يجوب الصحراء مع روزيتا فوربر الإنجليزية ، ويحصل على ميدالية الجمعية الجغرافية البريطانية وأول مصرى يقود طائرته من أوروبا إلى مصر ، وسقطت به الطائرة مرتين إحداهما فى فرنسا والأخرى فى ايطاليا .

يجيب محمد التابعى قائلا .. «لم يكن بطلا ، ولم يكن خائنا لبلاده ، وإنما كان



الملك فاروق على حمام السباحة



الملكة نازلي بملابس شبيهة بنجمات هوليوود

رجلا له مطامع واسعة كثيرا ما أفلح في إخفائها وراء قناع من الزهد في المناصب والجهل بالسياسة وأسرارها .

الخطة الأولى نحو طريق طويل تبدأ بمصاهرة الأسرة المالكة ، ثم العمل على الاستيلاء على صاحب القرار في القصر .. ومن الواضح أن بريطانيا كانت تسعى إلى إفساد الجالس على العرش، وحسنين كان أداتها في تنفيذ ذلك !

أما الملكة نازلي فقد أصبحت أهم شخصية في القصر بعد وفاة زوجها ، فقد مات السجان وانطلقت السجينة التي مازال لديها بقية من شباب (٤٥ سنة) . ووجدت في غياب الملك الأب فرصتها للتحرر من القيود ، والانتقام من الأب القاسي وأيامه ، وفرضت إرادتها في عدم التقيد بالتقاليد التي كان يتمسك بها الملك فؤاد ، ووجدت من حسنين كل العون على تنفيذ إرادتها . كما يسجل حسين حسني .

وساهم فاروق بلا قصد منه في تقديم العون لأحمد حسنين، فعندما عاد من انجلترا رغب في أن تتعرف والدته على الرجل الذي أصبح صديقا وليس مجرد رائد ، وفي اليوم التالي لعودة الملك الشاب من انجلترا ،«دعا فاروق إلى قصر القبة أحمد حسنين ، وقدمه للملكة نازلي والتي قالت له : إنها بعد كل ما سمعته من ابنها عن مبلغ عنايته به أثناء وجوده في انجلترا حرصت على أن تلقاه لتعرب له شخصيا عن مدى تقديرها لكل ما بذله نحو فاروق.» .

ويروي د. حسين حسني نزوات الملكة نازلي ، عند أول رحلة يقوم بها الملك إلى أوروبا «غضبت الملكة لعدم اشتراكها مع الملك في مراسم الاستقبال الرسمي ، وأصرت على عدم النزول من القطار إذا لم تتم مراسم الاستقبال الرسمي لها مثل الملك تماما .. وأنها عقب وفاة زوجها الملك فؤاد ، ذهبت إلى حفلة ساهرة في بيت إحدى صديقاتها قبل مضي أربعين يوما على وفاة الملك وبررت ذلك بأنها في أشد الحاجة إلى الترفيه بعد طول ما عانته من الحرمان في حياة الملك» .

غرام وانتقام

ويصف ما جرى خلال الرحلة التي قام بها فاروق مع أسرته وحاشيته قبل توليه الملك بقوله : «يفاجأ أحد رجال الحاشية بحسنين باشا جالسا على إحدى الأرائك الخشبية على ظهر السفينة وإلى جانبه الملكة في حالة استرخاء لا تكون إلا بين من رفعت بينهم الكلفة . «وأخذنا نفكر فيما قد يحدثه ذلك من الأثر في نفس الملك الشاب المسكين إذا عرف ما يجري بين أقرب مخلوقين كان يعتز بهما وينظر إليهما كالمثل الأعلى للحب والوفاء والإخلاص» .

وتساءل د. حسين حسني .«كيف لا ينتبه الرجل الكبير – أي حسنين – أنه زوج ،

وزوج لسيدة لها مكانتها التى أضفت عليه الكثير مما وصل إليه » .

فهل هذه إحدى صور الغرام والانتقام ؟ أى انتقام نازلى من شويكار زوجة الملك السابق ؟!

وظلت نازلى طوال الرحلة لا تقيم وزنا لشئ سوى ما يروقها وظلت تخرج إلى الملاهى الليلية فى صحبة حسنين ، ولا تحفل بالمواعيد المقررة للقيام ببرنامج زيارة المعالم والمصانع .

ويضيف حسين حسنى فى مذكراته .. «كانت الملكة نازلى تساند حسنين باشا وتطالب له بما يرضيه ، وابنها يرى نفسه أمامها عاجزا عن كبح جماحها أو ايجاد وسيلة لاتقاء الفضيحة فيما لو اشتد الصراع بينهما .. وذاع بين رجال القصر أن الملكة نازلى قد تزوجت من حسنين باشا بعقد عرفى ، وكان ذلك هو الحل الوحيد الذى لم ير الملك بدا من التسليم به حتى يضع حدا للصراع النفسى الرهيب الذى كان يعانيه منذ أمد بعيد» ..

وهناك رواية أخرى يرويها الاستاذ هيكل نقلا عن حسن باشا يوسف ، حول العلاقة الملتبسة بين فاروق وأحمد حسنين.. ففى أوائل عام ١٩٤١ ، وقعت غارة جوية على القاهرة ، وأراد الملك (٢١ عاما) أن يطمئن على أمه ، ولم يجدها فى منزلها وهو قصر والدها عبدالرحيم صبرى فى الدقى ، وعندما عرفت نازلى محاولات ابنها العثور عليها ذهبت إليه قبل الفجر ، ويروى الملك ما جرى بعدها ..

«دخلت الأم إلى ابنها والدموع فى عينيها ، وركعت تحت قدميه تعترف له أنها أحبت أحمد حسنين ، وأنه أول رجل دخل حياتها وتطلب من ابنها أن يسامحها ، وأقسمت أنه لولا فاروق وحرصها عليه لكانت تجرأت على طلب الطلاق ، فقد كان يحبسها فى غرفة نومها أسبوعا كاملا عقابا لها ، وقالت الأم إنها لم تفعل شيئا يغضب الله ، وإنما تزوجت حسنين على سنة الله ورسوله ، واحتفظت بالزواج سرا حتى تنتهز فرصة مناسبة وتتحدث إليه ، وتوسلت اليه ألا يؤذى أحمد حسنين فهو مخلص له ولعرشه ، وقالت الأم لابنها . إذا عفوت بقيت عمرى كله تحت قدميك ، وإذا أبى فسوف تشعل النار فى نفسها» .

فأى صراع ذلك الذى يعانى منه الابن أمام هذه الفاجعة التى تتضارب فيها المشاعر ، فهاهم من يستمد منهم القوة والمثال سواء الأم أو المعلم والصديق يطعنانه طعنة نجلاء !

وهاهى الكاتبة الانجليزية ارتيمس كوبر فى كتابها عن القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية تروى قصة أخرى تقول .. «لم يكن سرا أن أقرب مرافقى الملكة نازلى كان حسنين باشا .. وفى إحدى المرات أبلغ الملك ان ثمة رجلا فى جناح الملكة ، فاقتحم الملك المكان وضبط حسنين وهو يقرأ القرآن لوالدته وأشيع عندها أنهما تزوجا سرا فى عام ١٩٢٧ ، كما طلق حسنين زوجته بعد أن أثارت ضجة حول علاقة زوجها بالملكة» .

ونعود إلى حسين حسنى الذى يروى تأثير هذه الأحداث على الملك .. «وقع اللقاء مع الملك فى بيت عمر فتحى بعيدا عن المتلصصين .

قال الملك بعد فترة صمت طويلة :

« لم أعد أستطيع الصبر ، وقد أوشكت على الجنون ، فماذا أصنع مع الملكة نازلى وحسنين ، هل أقتلهما ..؟! هل أرسلها إلى مستشفى المجانين ؟! وأبعث به سفيرا إلى اليابان .. لم أعد أطيق ما يجرى » ؟

وأبدينا له أنا وعمر فتحى ضرورة التمسك بالحكمة والتفكير الهادىء ، فلعل الملكة تفيق من غفوتها ، أو لعل حسنين يصحو ضميره .



أحمد حسنين باشا

ولست أنسى ما حييت - ومازال الحديث لحسين حسنى - وجه فاروق المسكين فى تلك الليلة وقد احتقن بدماء الغيظ والكبت وهو يروح ويجىء فى أرجاء الغرفة ، وكأنه وحش ثائر جريح أحكمت حوله الأسوار ، ويتساءل عما أحدثه هذا الانفعال النفسى العنيف من جرح غائر فى نفسه فى باكورة أيامه فى الحكم؟

وظل مشهد ثورة الملك يمثل فداحة الفاجعة التى نزلت به فى شخص أعز مخلوقين لديه ، أمه التى كان يخصها بكل الحب بعد طول إبعاده عنها . وأستاذه ومرشده الذى كان يوليه الثقة والتقدير ، ويتساءل :

ألا يحتمل أن هذه الفاجعة قوضت إيمانه بالمثل العليا ، ثم ما حدث بعدها من فقد إيمانه بالزعماء من قادة الشعب ورجال الحكم فى حادث ٤ فبراير ؟

ودارت رحى المعركة فى دهاليز القصر.

وأصبح الملك يضيق بسماع اسم أحمد حسنين ، ويتألم من مجرد رؤيته فى القصر! وعندما لقى حسنين مصرعه فى حادث سيارة على كوبرى قصر النيل عام ١٩٤٦، سارع فاروق وبحث عن العقد أو أى وثيقة حول العلاقة بين أمه وحسنين .

سفر الملكة الأم!

ويتحدث د . حسين حسنى عن هموم الملك العائلية، ويروى قائلا : « كان القدر يخبئ للملك الشاب صدمة عنيفة أخرى تلقاها من آخر ما كان يتصور وقوعها منها وهى الناحية التى صدرت منها أول وأقسى ما عصف بشبابه من صدمات وأعنى بها ناحية أمه ، فبعد وفاة حسنين باشا فى حادث ببضعة شهور، قررت السفر إلى الخارج ومعها كريمتاها فائقة وفتحية القاصرتان المشمولتان بوصايتها وفى صحبتهن التشريفاتى فؤاد صادق، وفى مرسيليا وجدت شابا هو رياض غالى فى الانتظار من موظفى القنصلية المصرية أوفدته ليقدم ما تدعو إليه الحاجة من خدمات ... ووجدت الملكة نازلى فى لباقته ونشاطه ما جعلها تطلب السماح له بمرافقتهن إلى سويسرا ، فأجيبت إلى طلبها ، وهناك عادت وأصرت على إبقائه فى معيتهن إلى أن ألحقته نهائيا بحاشيتها كسكرتير خاص لها ، وامتدت إقامتها فى سويسرا ، وانتقلت بعدها إلى

أمريكا .. وخلال إقامتها في الخارج كان الملك يحثها بين حين وآخر على العودة ، فكانت تعتذر ، وشبت العاطفة بين الأميرتين والشابين الملازمين لهما ، فؤاد صادق ورياض غالي، ووافقت الملكة نازلي على زواجهما، وغضب الملك أشد الغضب .. وأرسل إلى أمه يحذرها من إتمام المشروع ، وأبرق لها أنه يرجو ويلح ألا ترغمه بإصرارها على عدم الاستجابة إلى دعوته بالعودة مع شقيقتيه على أن يتخذ القرار القاسي الذي يفرضه عليه واجبه الملكي بحرمانهن من ألقابهن ، وبعدها أصدر الملك أمرا بحرمان أمه من لقب الملكة وشقيقتيه من لقب الإمارة ، واستطاعت الأميرة فائقة أن تحصل على عفو أخيها . وعادت إلى مصر مع زوجها فؤاد صادق ، وبقيت الأم مع كريمتها الصغرى وزوجها في أمريكا وانتهت حياة الجميع بمأساة أشبه بفاجعات شكسبير » .

ويصل د . حسين حسنى إلى .. « ان من يستعرض حياة فاروق والأزمات والصدمات النفسية التي مر بها في حياته وما عساها أن تكون أحدثته في نفسه من تأثير ، والتي وضحت معالمها فيما كان يصدر عنه بعدها من تصرفات شاذة بطريقة تكاد تكون آلية كأنها رد فعل تلقائي ، يجد فيها راحة نفسية تخفف عنه بعض ما يشعر به من التمرد على الأوضاع التي أفقدته وزعزعت نفسه فيما كان يحيط به ، مما كان يدفعه لاتخاذ مواقف متعارضة على سبيل التحدى . شأن الطفل الذي يأبى أن يطيع الأمر الذي لا يوافق هواه .. وأنه على سبيل التحدى وما يملأ نفسه من التمرد على كل من يقف منه موقف المعلم والموجه ، بعد فقدانه الثقة في معلمه ورائده، فضلا عن أمه التي كان مفروضا أن توجهه إلى كل ما هو صالح، وحتما لن يستمع إلى قول أي ناقد أو معارض» .

فاروق وفريدة

ونأتي إلى إحدى الفواجع التي لاتقل عن سابقتها في حياة الملك الشاب، وهي زواجه وطلاقه السريع من فريدة التي كان اسمها قبل الزواج صافيناز ، بعد أن قوبل هذا الزواج بفرحة وأمل كبير وتأييد كبير للملك الشاب، بدأت القصة في أول رحلة يقوم بها الملك إلى الدول الأوروبية ، وخلال هذه الرحلة قامت علاقة حب بين الملك و«فافيت» كما كان يطلق على فريدة ، وعلى متن الباخرة « فايسروى أوف إنديا» في صيف عام ١٩٣٧ ، قامت علاقة آثمة أخرى بين نازلي وحسنين ، بل ولعب كل من كان على ظهر الباخرة دورا سياسيا في حياة البلاد .

ويروى سكرتير الملك الخاص في كتابه « سنوات مع الملك فاروق» ، بعض ذكريات هذه الرحلة .. « كان الملك يشكو له من أن نازلي وحسنين يسعيان إلى عدم الارتباط بينهما ، وربما كان ذلك حتى لا تفقد الملكة مكانتها ، وقبل انتهاء الرحلة أخذت نازلي تضيق بها وتبدى عدم الرضا عنها ، ولاحظ الملك تغير سلوك حسنين نحوها ، وأخذت نازلي تلاحق صافيناز بألوان من الإساءة والاستفزاز .

وفي النهاية نجح الفتى والفتاة في عقد قرانهما في ٢٠ يناير ١٩٣٨ ، قبل شهر من عيد ميلاده الثامن عشر، ولم تبلغ عروسه الستة عشر ربيعا .



مصطفى النحاس وسير مايلز لامبسون وورائهما أمين عثمان .. أبطال يوم ٤ فبراير ١٩٤٢



زواج رياض غالي والأميرة فتحية الذي تم في أمريكا ورفضه الملك فاروق .. وترى في الصورة نازلي

ولكن سرعان ما وقعت الفاجعة ، وتم الطلاق بينهما ، مما كان له وقع مؤلم وقوبل هذا النبأ بالأسف العميق في كافة الأوساط وصب الجميع جام غضبهم على الشاب ، وبقيت هذه القصة أحد الألغاز في حياة الملك ..

وتكشف بعد ذلك حجم الألم الذي أصاب الملك ، ولم يتمكن من الافصاح عن المسكوت عنه في العلاقة بينهما ، وأدين وهو المجنى عليه إذا أخذنا بما جاء في بعض الكتابات بعد فترة طويلة من الكتمان .

تورد الكاتبة الانجليزية أرتيميس كوبر في كتابها القصة التالية : قامت الملكة فريدة بزيارة الفنان الرسام سيمون ألويز في صيف سنة ١٩٤٣ ، وكان الرسام رجلا وسيما في أوائل الأربعينات من عمره ، وجاء إلى مصر في نوفمبر ١٩٤٩ ، وكان يعمل في العلاقات العامة بالقيادة البريطانية ، وأصبح عمله الرئيسي هو رسم « البورتريه» للبارزين في حياة المجتمع القاهرى ، وكان لويز يتصور نفسه فاتنا للنساء، وأخذ يردد بفخر أنه لا يمكن أن يرسم «بورتريه» لأى امرأة إلا إذا نام معها!، وتمنى قبل أن يغادر مصر أن يرسم الملك والملكة ، وقدمت هذه الرغبة ناهد سرى زوجة حسين سرى باشا وخالة الملكة فريدة ، ووافق الملك على أن يتقاضى الرسام عن كل منهما ألف جنيه يدفع نصفها مقدما ، وبدأ يرسم الملكة في قصر عابدين ، وسط ثرثرة الوصيفات ومقاطعات لا تنتهى ، وطلب الرسام من الملكة أن تأتى إلى مرسمه الخاص ، وأصر ألويز على أنه ليس بوسعه العمل في هذا الجو ، ووافقت الملكة، وكانت في العشرين من عمرها ولها ابنتان هما فريال وفوزية ، وكانت تمر بظروف نفسية قاسية عندما شعرت بإهانة جارحة من علاقة توطدت بين الملك والأميرة فاطمة ابنة الأمير عمر طوسون ، وهى إحدى سيدات العائلة المالكة الفائقة الجمال ، ولهذا السبب لم تكن تبادله الحديث ، ولم تستأذنه لكى يسمح لها بإكمال اللوحة في مرسم الفنان .

وأبقت جلساتها في بيت ألويز سرا ، ترافقها وصيفتها عقيلة ، ولم يغب ذلك عن

القصر طويلا ، وعلم فاروق بزيارات زوجته إلى ألويز . وكان يشاركه مسكنه إثنان من الضباط ، أصابهما الذعر عند دخوله المنزل فجأة ، وفرت الملكة ووصيفتها من الباب الخلفي .

وعندها وقعت أزمة دبلوماسية بين القصر والسفارة البريطانية ، وطالب الملك أن يغادر ألويز البلاد ، وكان السفير البريطاني مايلز لامبسون « اللورد كيلرن» فيما بعد حريصا على تفادي الفضيحة ، وبالفعل أوفد سيمون ألويز إلى جنوب أفريقيا ، ومنع من العودة إلى مصر ، فكتب الرسام رسالة إلى الملكة ينتقد خلالها بشدة السفير البريطاني ، وحصل عليها السفير من خلال الرقابة ، ثم نقل بعدها من جنوب أفريقيا إلى الهند ، حتى يقطع الصلة تماما بينهما!!!

وجاءت إشارات متفرقة حول هذه الواقعة في الوثائق البريطانية .

كما أشار إلى هذه الواقعة السفير في أوراقه الخاصة .

وما يثير الدهشة حقا أنه بعد شهر من مغادرة الرسام البلاد ، طلب الملك بعودة ألويز حتى يكمل اللوحتين اللتين اتفق عليهما واللتين حصل على نصف ثمنهما ..

فهل كان الملك يريد الانتقام من غريمه؟!

كادت الملكة تقتل !

والرواية هذه المرة التي تتناول مسلك فريدة جاءت على لسان سيد جاد أحد رجال الحرس الحديدي في كتابه « كيف كان الملك يتخلص من خصومه؟»، فخلال إحدى مهماته رأى هو وخاله فوزي سيدة عظيمة ـ لم يذكر اسمها ـ في طريقها إلى إحدى الفيلات في شارع أحمد حشمت بالزمالك ، وصاحب الفيلا هو وحيد يسرى ابن الأميرة شويكار ، واكتشفنا – على لسان سيد جاد – أن هذه السيدة هي الملكة فريدة، وقررت اقتحام الفيلا وقتل من فيها لكن باقي الضباط منعوني من ذلك، وغضب الملك عندما علم بالقصة . متصورا أنني الذي رفضت قتلها حتى قابلته وشرحت له الحقيقة فعفا عني! .

ومع التسليم بأنه من الصعب اعتبار سيد جاد مصدرا يعتد به ، إلا أنه يلاحظ أن الأميرة شويكار زوجة الملك فؤاد السابق ، لعبت دورا في تدمير عائلة فؤاد!

ويلمح مرتضى المراغي ـ آخر وزير داخلية في عهد الملك ـ إلى هذه القصة قائلا .. «كانت حاشية السوء تشير من طرف خفي وعبارات مبهمة إلى أن الزوجة بدورها أخذت لا تبالي ، وأخذوا يلصقون بها الاتهامات ، مما أثر في فاروق ، فمضى يتمادى في علاقاته النسائية لكي يكيد الملكة ويغيظها » وذلك في مذكراته «غرائب في عهد فاروق» .

وإذا صحت هذه الاتهامات أو لم تصح ، فأي شقاء عاشه الملك ، خاصة بعد إدانته من الرأي العام ..

لامبسون على الأكتاف !

ونأتي إلى ذروة المأساة وهو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، عندما اقتحمت الدبابات البريطانية قصر عابدين ، ودخل عدد منها فناء القصر من دون أي مقاومة ، وقدم

انذار إلي الملك يطالبه بالتخلي عن العرش، إذا لم يكلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة ، وحملت الجماهير ما يلز لامبسون على الأكتاف عندما ذهب يهنئ رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، وهتفوا بحياته ، « فكان تكريم السفير على هذا النحو لطمة أقسى وأشد لكل من يقدر الكرامة والوطنية» .

وتركت تلك الحادثة أثرا بالغا على الملك ، وخلفت فى قلبه جرحا عميقا وتركت كراهية نحو الانجليز ، ونحو الجماهير التى لم تهب لنجدته ، وحزب الوفد ومصطفى النحاس ، هذا ما قاله سكرتيره كما يعيد مرتضى المراغي إلى هذا الحادث إنشاء الحرس الحديدي!..

ووجد رجالات مصر متخاذلين عندما دعى عدد من الزعماء السياسيين ومنهم زعماء الأحزاب إلى اجتماع فى قصر عابدين للمشورة وإبداء الرأى ، خلال أحداث ٤ فبراير ، وانتهوا بضرورة الاستجابة لطلبات الإنجليز ، وثبت أن وزارة حسين سرى تطوعت وتقدمت إلى لامبسون بطلب عزل الملك .

ويرصد د . حسين حسنى أثر هذا الحادث على الملك ويأسه من رجال الأحزاب ، ويروى ماقاله الملك .. « لقد جربت كل الأحزاب، ولم يحقق واحد منها ما كنت أرجوه ، ولا يستطيعون التغلب على الروح الحزبية التى تتسلط عليهم جميعا ، فتجعلهم يعجزون عن الارتفاع إلى مستوى تغليب مصلحة الوطن على مصلحة أحزابهم بل على مصلحتهم الذاتية ، فلا يوجد زعيم واحد مخلص ، وكل منهم يطعن فى زميله ، بل إن رئيسهم قد يطعن فى معاونيه ، حتى أصبحت فى حيرة من يمكن الوثوق به ومن يجب الحذر منه ؟!

لقد بلغ منى اليأس حد التفكير فى اعتزال العرش..»

ويروى د . حسين حسنى فى كتابه بعض الأسرار التى تروى لأول مرة ، منها التحذير الذى أبلغته للقصر القيادة البريطانية ، من حركة بين ضباط الجيش المصرى ، ومنهم بعض ذوى الميول الشيوعية الذين يتلقون تعليماتهم من روسيا! ، وأنه تم رصد لقاء بعض الضباط، وأحدهم معروف بميوله الشيوعية وأطلق عليه الماجور الأحمر ، وأخذ يتلقى التعليمات من السفن الروسية المارة فى قناة السويس !، وعرضت القيادة البريطانية تقديم أى مساعدة للكشف عن هذه الحركة والقضاء عليها !.

ويقى الكثير من الأسئلة لم يجب عليها سكرتير الملك مثل :

* إنشاء الحرس الحديدى ، وحوادث الاغتيال التى اتهم بها ..

* مغزى رفض النقراشى رئيس الوزراء اشتراك الجيش فى حرب فلسطين، ثم عرضه اشتراك الجيش على البرلمان..؟

* أثر هزيمة ١٩٤٨ على الملك..؟

لقد رضى السكرتير الخاص للملك أن يبقى فى الظل ، وفقد تاثيره على الملك ، وعلى سير الأمور ، فأخذ يتحسر أحيانا ويتألم أحيانا أخرى ، ولم يقم بأى عمل لإنقاذ بلاده ولا حتى لإنقاذ مليكه . ■



شكرى فؤاد

الرجل وظله..

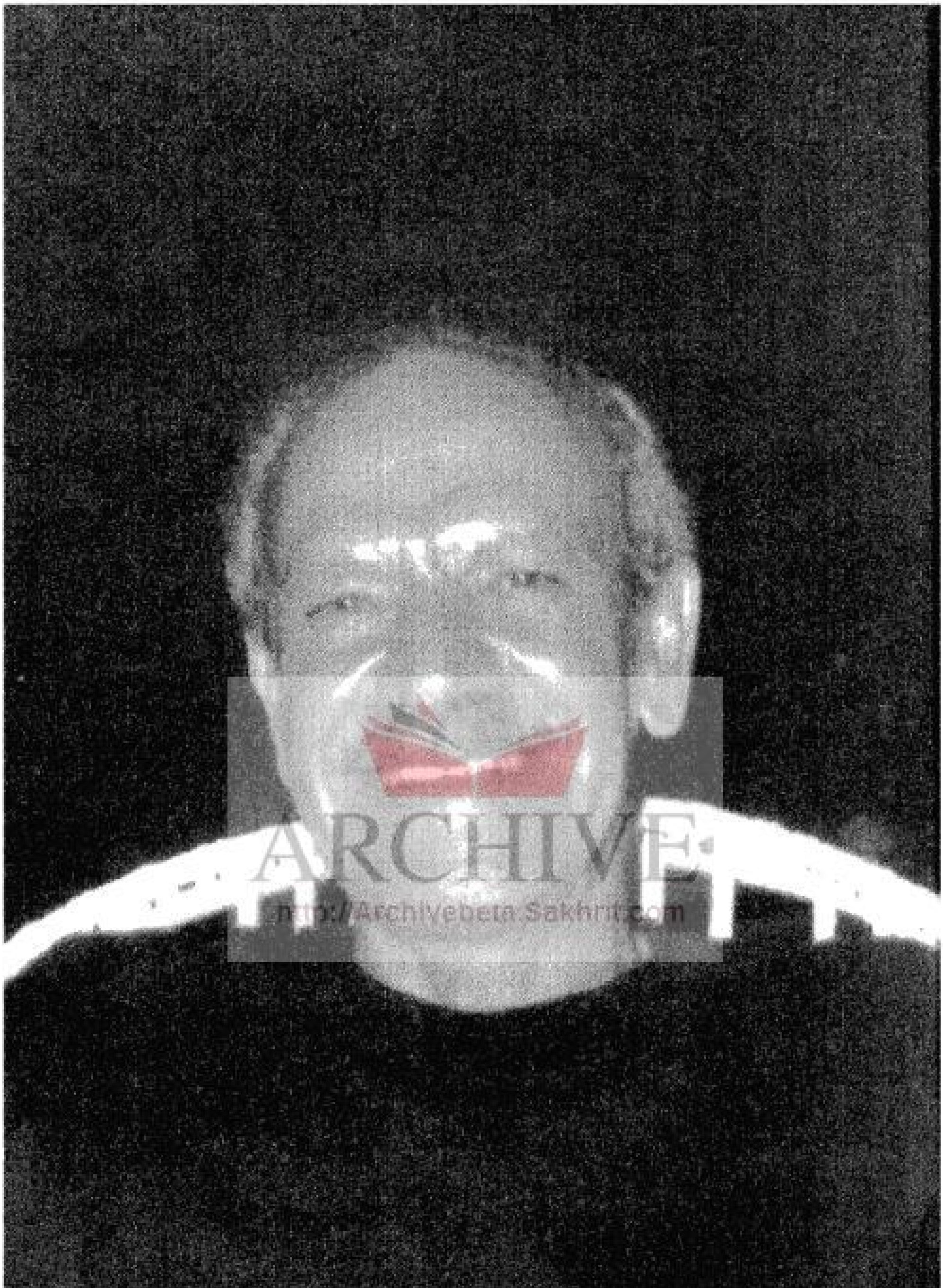
بقلم
حسين أحمد أمين

الجندى الأول : لنسر معا حتى نسأل غيرنا من الحرّاس ما إذا كانوا قد سمعوا الأصوات التى نسمعها ألا ترى الأمر غريبا ؟
الجندى الثالث: أتسمعون يارفاق ؟ أتسمعون ؟
الجندى الأول: لنسر مع الصوت حتى نهاية موقعنا، وحتى نرى كيف ينقطع.

شكسبير: أنطونى وكليوباترة
الفصل الرابع - المنظر الثالث

طوال الأعوام الخمسة والأربعين التى صاحبته فيها، خيل إلى أنى أسمع صوتا، أو ألمح ظلا، يرافقه، ولايستطيع الرجل أن يفلت منه . كان الصوت يصلنى فى البداية خافتا متقطعا، ثم علا بمرور الوقت واتصل ، ثم أصبح عندى بمثابة اللحن المميز له.

هذا الدبلوماسى الكفء الذى خدم فى سفارات مصر فى البرتغال، وكمبوديا، فى الديوان العام للوزارة فى القاهرة، وانتهى به المطاف مستشارا لوزير الخارجية، أقول هذا الرجل الذى وفى كل منصب شغله حقه ، وبذل فيه أقصى جهده، سواء كان فى منطقة يسمونها فى «الوزارة» «صعبة»





كانت مجالس شكرى فؤاد - ولازالت - ملتقى الأدباء والمفكرين من جميع المذاهب والمشارب

أو منطقة وثيرة يطيب بها العيش، وكان أثناء خدمته يحظى دائما بتوقير المرءوسين، واحترام الزملاء، ورضا الرؤساء.. ماهو بالضبط ذلك الحائل الذى حال بينه وبين توليه لمنصب رفيع حقا من المناصب التي يبلغها أناس لديهم قدر من الكفاءة هو بكل تأكيد أقل مما يتوفر لديه منها، ومن الإخلاص والهمة مالا يدانى إخلاصه وهمته؟.

الكثرة، أو الكافة ، تراه متى استعرضت حياته، محظوظاً قد نال مالا تناله الغالبية العظمى، وتغبطه إنجازاته .. ومع ذلك فثمة لديه إحساس دفين بالإحباط لم يعبر عنه قط لا لى ولا لأحد غيرى فيما أعتقد. إحباط هو فى ظنى سر ما يلازمه من حزن، رغم حبه الملحوظ للفكاهة، ومشاركته الإيجابية فى أجواء المرح والدعابة.

لم يكن ثمة رئيس له من السفراء لم يكن اعتماده الأكبر عليه فى تسيير دفة البعثة الدبلوماسية، والنهوض بواجباتها .. لم يكن ثمة وزير للخارجية لم ير لزاما عليه إسناد إدارة أهم إدارات الوزارة إليه، والاستماع جادا إلى مشورته .. ثم كان أن تمسك به الوزير عمرو موسى بعد أن بلغ سن التقاعد، فأبقاه مستشارا له لمدة عشر سنوات، وحتى بلوغه السبعين، يجدد تعيينه سنة تلو أخرى، ويجادل ويحاور رئيس الوزراء من أجل إقرار هذه الإطالة غير المعهودة لخدمة سفير سابق يصر الوزير على أنه لاغنى عنه.

فإن كان الرجل قد أثبت لكل من له عينان أنه لاغنى عنه، وأنه كفء مقتدر، فلماذا تعذر تعيينه فى منصب أرفع من تلك المناصب التى تقلدها؟

لماذا ظل دائما يوحى إلىّ وإلى معارفه بأنه وزير مستديم فيما يطلق عليه اسم «حكومة الظل»؟ حكومة ظل قدرا لها ألا تخرج أبدا إلى النور، فى اعتقادى أنه المسئول عن ذلك غير أنى أؤجل تفسير قولى هذا إلى حين.

ولايحسبن القارىء الذى لايعرفه أن شكرى فؤاد دبلوماسى

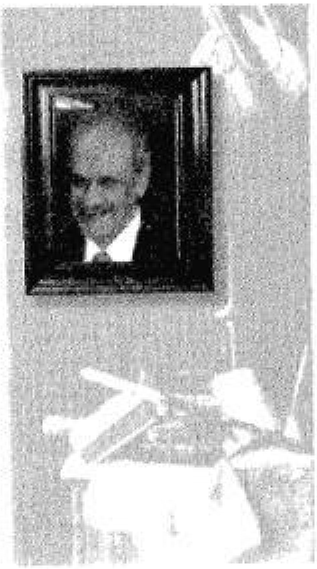


شكرى فـؤاد مع السفير نبيل فهمى

أو سفير فحسب فهو فى المقام الأول - عندى وعند الكثيرين من أصدقائه ومعارفه بمثابة راع لكافة أو معظم الفنون، فالمآدب السخية التى يقيمها وزوجته العظيمة فى مسكنهما ملتقى للأدباء والمفكرين والفنانين من جميع المذاهب والمشارب، حتى تلك التى لاتتفق مع مذهبه اليسارى، ومشربه القومى والعروبى .. هناك تلتقى بالروائى بهاء طاهر، والشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى، والناقدة المسرحية صافى ناز كاظم، والممثلة محسنة توفيق، والزجال أحمد فؤاد نجم، والكاتب عبدالعظيم أنيس، ورئيس التحرير مصطفى نبيل، والباحث جميل مطر، والمفكر الاقتصادى جلال أمين، والمحلل السياسى اليسارى محمد سيد أحمد، والمحلل السياسى اليمينى حازم الببلاوى .. إلى آخره..

جميعهم أصدقاؤه، وكلهم يكنون له المودة العظيمة والاحترام العميق، ويرونه من زمرتهم وفى مصافهم.. وقد تعرفت لأول مرة ببعض هؤلاء فى بعض مجالسه، وكان ثمة لقاء اخصه بالذكر إذ كان من الأحداث التى أثرت تأثيرا عميقا فى مجرى حياتى، وهو لقائى الأول بطيب الذكر المرحوم فيليب جلاب رئيس تحرير جريدة «الأهالى».

كانت مجالس شكرى فؤاد فى داره - ولاتزال - مجالس تجمع الأشتات، وتصلح بين الخصوم، وتعرف المفكرين والفنانين بعضهم بالبعض الذى كانوا جاهلين وتخلق جوا من التفاهم والوئام والألفة يتعذر أن تجد مثيلا له فى موقع آخر.



○ لماذا لم يقدم شكرى فؤاد على تحقيق طبعة كاملة لأعمال بيرم التونسى؟

هذا احتفال بافتتاح معرض للوحات فنان تشكيلى، ستجد شكرى فيه وبافتتاح مكتبة جديدة سترى شكرى بين الحاضرين، أو بالعرض الأول لفيلم مصرى متميز ستلمح شكرى بين جمهوره أو بتدشين مسرحية مهمة ستلمح شكرى عند باب المسرح يحادث مؤلفها أو مخرجها أو كاتب أغانيها أو أحد الممثلين فيها .. نعم قد يكون فى مقدمة الحاضرين فى المعرض أو المكتبة أو دار السينما أو دار المسرح وزير الثقافة، أو مستشار رئيس الجمهورية، أو أمين الجامعة العربية، تختلف الشخصية باختلاف المناسبة أو العرض غير أن شكرى فؤاد هو القاسم المشترك الأعظم، يحضرها جميعا، أو هو بمثابة راعى الفنون فى هذا البلد أو وزير الثقافة فى حكومة الظل.

ومع ذلك فلا يكاد الكثيرون من الحاضرين يعرفون اسمه أو هويته: «من عساه يكون هذا الرجل الطويل النحيل الأنيق الأشيب الذي تتكرر رؤيتى له فى مثل هذه المناسبات؟»، «لا أعرف غير أن وجهه مألوف لدى أيضا».

البوادى لا تجهل أياديه: فأثناء عمله بوزارة الخارجية كان هو الذى أعاد تنظيم وهيكلة الوزارة، ونفذ مشروع التطوير التكنولوجى بإدخال الكومبيوتر الشخصى لأول مرة.. وهو إنسان خدوم إلى أبعد الحدود : إن ذكرت أمامه أنك تبحث منذ أمد طويل عن كتاب قديم، توجه نيابة عنك إلى مكتبات يعرفها دونك فى أحياء بعيدة، وظل يبحث ويسأل حتى يعثر لك عليه .. إن أخبرته أنك لم تجد تذكرة واحدة لإحدى المسرحيات المعروضة فى القاهرة، اتصل من فوره هاتفيا بالمؤلف ليدبر الحجز لك فيها .. إن غاب عنك اسم الشاعر صاحب هذا البيت أو ذاك، أو غاب عن ذاكرتك عجز بيت تحفظ صدره، لم يرتح حتى يجده لك فيما فى مكتبته الخاصة من دواوين شعر ... وإن عبرت عن رغبتك فى التعرف إلى مخرج معين أو فنان معين دبر لكما لقاء فى داره بعد إشادة سخية منه بك عنده، وبه عندك.

لماذا إذن قد أنتج غيره من أصدقائه ومعارفه ما أنتجوه، ولم

ينتج هو؟ لماذا اكتفى بالترويج لإنتاجهم، وتعريف الآخرين بفكرهم وفنهم، والإقبال النهم على قراءة كتبهم ومقالاتهم وزيارة معارضهم، ولم يفكر فى أن يخرج هو على الناس بفكر (وهو الذى تستمع الكافة إلى آرائه فى إعجاب وعناية)، أو بفن، وما من أحد هو أدرى منه بمقتضيات الفن وأشراطه؟.. كانت حياته فى السلك الدبلوماسى - كما ذكرنا - حافلة بالخبرات والأحداث، فما الذى قدمه الى الجمهور خارج وزارة الخارجية من حصيلة تلك الخبرات؟ كتيب واحد عن خلفية تفكك يوغوسلافيا بعد وفاة تيتو، نشرته دار لم تعن حتى بتسويقه .. هو فى رأيى أكبر حجة فى مصر فى إنتاج محمود بيرم التونسى، شعرا كان أو نثرا، وعلى المام لم يتوفر لغيره بأدق تفاصيل حياته المضطربة العاصفة، وبتنقلاته وتخبطه بين بلد وآخر .. فلماذا وهو الذى يعبر دائما - وبحق - عن سخطه على كل ما صدر من طبعات لأعمال بيرم التونسى، لم يضطلع بتحقيق طبعه محترمة وكاملة لها، نحن على ثقة من أن ظهورها سيكون حدثا أدبيا بالغ الأهمية فى تاريخ النشر عندنا؟ لماذا لايصوغ ما يتحفنا به من أفكار فى مجالسنا فى قالب مقالات ينشرها فى هذه المجلة المصرية أو الصحيفة العربية أو تلك ، ونحن المدينون له بالكثير من الأفكار التى نوردها فى كتاباتنا نحن؟ .. إنه يرفض إجراء أية مقابلة صحافية أو إذاعية أو تليفزيونية، فإن نحن اتصلنا به قبل إجرائنا لمثل تلك المقابلات نسأله عن رأيه انهالت ردوده القوية وتدفقت تحليلاته الذكية لايضن بها علينا، فنضمنها إجاباتنا دون إشارة واحدة إليه .

يذكرنى أحيانا بثلاثة من عمالقة الفكر فى مصر: أحمد لطفى السيد، ومحمد شفيق غربال، وعبدالحميد العبادى، ممن لايعتمد فضلهم على الثقافة المصرية على ماأنتجوه من مؤلفات (فمؤلفاتهم نزرة قليلة لاتتناسب مع سمعتهم)، وإنما على تأثيرهم فى تلامذتهم وفى محيط الفكر حولهم إذ ما الذى خلفه وراءه أحمد لطفى السيد مثلا غير بضع ترجمات لبضعة كتب لأرسطو نقلها عن الفرنسية لا اليونانية، وغير مجلدين أو ثلاثة تحوى من المقالات ما عفا على أكثرها الزمن؟ غير أن الرجل خلف أيضا وراءه عشرات وعشرات ممن تعهدهم برعايته وتوجيهه من التلاميذ الذين صاروا فيما بعد قادة للفكر فى بلادنا: كلهم مدين له أفدح الدين، يلهج دائما بفضله عليه، وبعضهم أحرز من الشهرة مالم ينله أستاذ الجيل نفسه.

قد نفسر هذا المسلك عند شكرى فؤاد بعزوف منه محمود عن الشهرة وجلبتها وزخرفها .. غير أنه تفسير ، لو صح، لما فسر لنا ما ذكرناه فى البداية عما يخالطه

ويلازمه دائما من حزن وشعور بالإحباط أرى منبعهما في عجزه عن نيل تلك الشهرة التي يرى أنه كان مؤهلا لاكتسابها، ومالكا لمفاتيحها، ولو صح لكان في تقدير أبناء وزارة الخارجية له، وإعجاب أهل الفنون به، ماهو كفيل بإرضائه وإراحته .. غير أن الرضا والقناعة ليسا من صفاته، ولا هو بمتصوف المزاج الذي يردد القول بأن تساؤل الناس لماذا لم يعين في هذا المنصب الخطير أو ذاك، أكرم له من أن يتساءلوا لماذا عين فيه، أو يتخذ لنفسه شعاراً مثل: «أن أبعد فأقرب، خير لي من أن أقرب فأبعد» ..

أما التفسير الذي أجده أدنى إلى القبول، والذي أراه مفتاحا لشخصيته واللحن المميز له، فنعثر عليه في إحدى فقرات مقاله «التكوين» الذي نشره في مجلة الهلال منذ عام (عدد إبريل ٢٠٠١).

«حصلت على ليسانس الآداب عام ١٩٥٢ وليس في ذهني شيء واضح عما سأفعله بعد ذلك، والواقع أنني لم أخطط أبدا لحياتي ومستقبلي على مدى طويل، ولم أضع لنفسي غاية أو هدفا معينا أسعى إلى تحقيقه وأسير على الطريق الذي يأخذني إليه، بل كنت أقرر عند كل مفترق طرق حياتي السبيل الذي أسلكه ...»



● الافتقار إلى التخطيط وغياب الهدف من الأسباب التي جعلته يعجز عن اكتشاف موهبته الحقيقية

غياب الهدف و الافتقار إلى التخطيط.

هو قوى الشخصية مع هذا الافتقار وهي قوة يعود الفضل في جانب منها إلى ذلك الهامش الواسع من الحرية الذي أتاحه له أبوه في صباه، وفي جانب آخر إلى إقامته بمفرده في القاهرة مذ توجه إليها في السادسة عشرة للالتحاق بجامعتها واعتماده الكامل بعد ذلك على نفسه. فهو حرٌ في أن يقبل حينا على التعبد في الكنيسة في بلدته أسيوط، وحر في أن يهجر طقوسها فيما بعد، ويقلل من تردده عليها، وفي أن يختار في النهاية سبيل العلمانية.. كذلك فهو حر في أن يتحدى الاتجاه الشائع فيختار الدراسة في كلية الآداب، وفي قسم الفلسفة منها بالذات، وهي دراسة لاتؤهل لمهنة واضحة المعالم،

ولا هى بالمجزية ماليا .. وهو حرّ فى اختيار قراءته، حر فى تنقيل اهتماماته بين الأحزاب والمذاهب الفكرية، حرّ بعد تخرجه فى اختيار عمله وفى التنقل من وظيفة إلى أخرى .. وهى قوة فى الشخصية تنعكس واضحة فى علاقاته الأسرية بزوجه وابنته، والوظيفية بزملائه ورؤسائه ومرءوسيه، والاجتماعية بأصدقائه ومعارفه .. قد يلمس البعض فيها أحيانا بعض الخشونة وبعض الحدة المفاجئة غير المتوقعة غير أنها خشونة مغتفرة دائما لما هو واضح وضوح الشمس من طيبة قلب صاحبها، وإنسانيته، وسلامة طويته.

أما مايصعب اغتفاره فعجزه منذ البداية عن اكتشاف موطن موهبته الحقيقية، وعن عقد العزم بعد ذلك فى صبر ودأب على تلمس سبل تنميتها من أجل تحقيق ذاته .. هو فى ذلك على نقيض تام مع زميله وصديقه ثم رئيسه عمرو موسى الذى يقال إنه كان قد استقر عزمه وهو بعد تلميذ فى المدرسة الإبتدائية على أن يتقلد فى يوم ما منصب وزير الخارجية.

فشكرى فؤاد فى صباه ينغمس فى تدين يعقبه شك، ويقبل على قراءة أى كتاب يقع فى يده سواء كان رواية للمنفلوطى، أو إحدى روايات أرسين لوبان، أو كتابا لأحمد الصاوى محمد أو لعبد الرحمن الرافعى .. وهو فى شبابه الأول ينقل ولاءه بين المذهب الشيوعى، وبين حزب الوفد، وحزب البعث، وينقلب عداؤه لثورة يوليو إلى إعجاب، ويتحول فى حياته الوظيفية بعد تخرجه من التدريس (فى مدرسة بنها الثانوية) إلى الصحافة (فى جريدة «الأخبار»)، ثم فى النهاية إلى وزارة الخارجية.

قد يكون من رأى أوليفر كرومويل أنه «ما من أحد يقطع شوطا أطول مما يقطعه الذى لم يحدد لنفسه غاية!» وهو قول إن صادق عليه البعض فى حالة شكرى فؤاد فإنما يصادق عليه من يرون فى إنجازاته الوظيفية والاجتماعية نجاحا ملحوظاً، لا أولئك الذين يرون أن الشجرة لم تؤت كل الثمار التى يحق للناظر أن يتوقعها من مثلها .. وعلى أى حال، فلا بد من أن نعترف بأن ثمة عنصرا اغفلناه فى مقامنا هذا رغم أهميته، ألا وهو الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التى يواجهها المرء فى مسعاه، وتحدد له طموحاته ومسلكه فى الحياة، والتى قد لايكون له فيها يد .. إذ من ذا بوسعه أن يشير فى ثقة إلى ما كان يمكن - أو لايمكن، لشكرى فؤاد أن يبلغه وأن يحققه لو أن حزب الوفد مثلا كانت له الغلبة فى الحياة السياسية، أو لو أنه - على سبيل المثال أيضا - لم يكن مسيحيا؟.. هنا يصبح من حقه أن يجيب على عتابى وعتاب غيرى عليه بقولة الشاعر :

ولا تعتب علىّ فإن رقص   على مقدار إيقاع الزمان!

أشبيلية

التي شهدت وقائع أوبرا كارمن

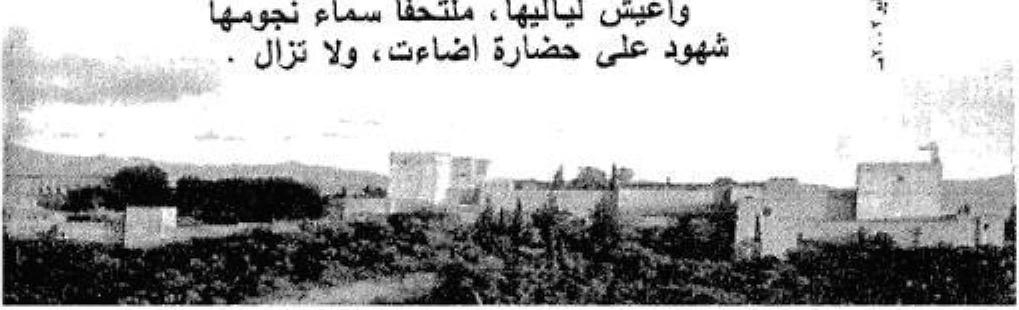
رحلة أندلسية ووداعا للبكاء على الحليب المسكوب

بقلم
مصطفى درويش

كم تمنيت ، وأنا أغادر قصر الحمراء ، قبل سبعة وعشرين عاما ، أن أعود إليه فى مقبل الأيام.

وما كنت أدرى أن تلك الأيام ستمر أعواما بعد أعوام، دون أن أعود، حتى كدت أفقد الأمل فى تدبير أمر رحلته ، أقضى أيامها فى ربوع فردوس أندلسى ، تحته أنهار تجرى ، وتفيض بالخيرات.

وأعيش لياليها ، ملتحفا سماء نجومها شهود على حضارة اضاءت، ولا تزال .





١٢١
صفر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

واجهة قصر الحمراء تشاهد معكوسة فى البحيرة أمام القصر



وكم تمنيت أن تكون عودتي لا بطائرة وقطار، مثلما فعلت عام زوال الديكتاتورية في إسبانيا، وإنما بطريق البحر، مستقلا فلوكة من سرته بأفريقيا، تعبر بي المضيق الفاصل بين القارة السمراء وأوروبا، وبين البحر الأبيض المتوسط شرقا والمحيط الأطلسي غربا أو ما كان يسمى في الأزمنة الغابرة ببحر الظلمات.

تشق وسط أمواجه طريقا طولها لا يزيد على تسعة أميال، يقع بين جبلي موسى في المغرب وطارق في إسبانيا، وهو ما كان يعرف بعمودي هرقل في أزمنة الأساطير .

نفس الطريق الذي شقه القائد طارق بن زياد بأسطول صغير، مكون من أربع سفن لا تزيد، تنوء بثقل ما تحمل من جند وجياد وعتاد.

القول الفصل

وما أن أقام رأس جسر تحت سفح الجبل، قوامه جيش من اثني عشر ألف مقاتل، جاءت بهم السفن الأربع على دفعات، حتى بدأ الزحف شمالا.

وكان ذلك في ربيع عام ٧١١ ميلاديا.

وعند نهر بارباتي، جنوب قادش، واجه جيش طارق جيش رودريك، ملك إسبانيا .

وهنا اثار طارق حماس جنده وحميتهم بقولته التي صارت مثلا

العدو أمامنا ، والبحر وراءنا، ليس لنا الا خيار واحد.. الانتصار .

وفي معركة بارباتي الفاصلة خرج طارق ومحاربوه متوجين بأكاليل الغار، منتصرين على رودريك الذي كان مصيره الذبح، واختفاء جثته، دون أن تترك أثرا .

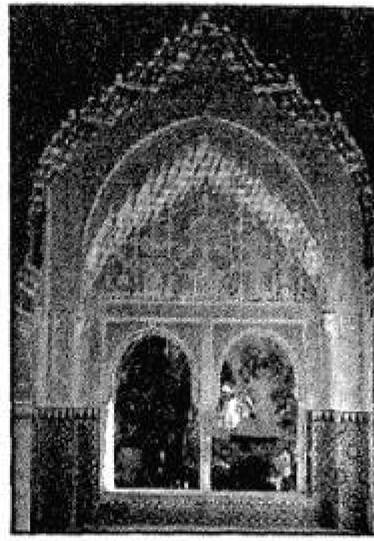
وماكنت أدري أنني سأعود لا كما تمنيت عن طريق جبل طارق، ومنه الى غرناطة شمالا، ثم الى قرطبة واشبيلية غربا .

عبث الأقدار

وإنما سيكتب لي أن أعود لا مثلما تمنيت، ولكن مثلما رسمت أحداث لم تكن في الحسبان.

ففي صباح الحادي عشر من سبتمبر، بالتوقيت الأمريكي، وذلك أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين تعرضت نيويورك وواشنطن لعدوان ارهابي بطائرات انتحارية، اهتز له العالم، ولا يزال وكان من توابع ذلك الحدث الإجرامي، افلاس اكثر من شركة خطوط جوية، بسبب خوف الناس، وامتناعهم عن السفر بالطائرات .





روعة المعمار فى «حوش الأسود» بالحمراء



جمال تصميم الحدائق داخل القصر

وحتى تعود حركة الطيران الى سابق عهدها الزاهر، قبل العدوان، لجأت بعض شركات الطيران من حين لآخر الى بضع وسائل، من بينها تخفيض ثمن تذكرة السفر الى أقل من النصف فى بعض الأحيان.

وهكذا، وبفضل تخفيض وصل الى الف جنيه على الخطوط الجوية الايطالية، بشرط أن يكون السفر الى ميلانو، ومنها الى بضع عواصم اوروبية، من بينها مدريد بفضل ذلك، وجدتنى، لا فى فلوكة عابرا الى جبل طارق، وانما داخل طائرة، مع الشقيقة الوحيدة، فى طريقنا الى مطار العاصمة الاسبانية، حيث كنا على موعد مع المهندس هشام الابن الوحيد للشقيقة ومعه زوجته إيڤا.

وسيارة جرى استئجارها فى المطار، بدأنا، نحن الأربعة، الرحلة جنوبا الى الأندلس، مرورا بمدريد، فطليطلة، ومنها الى قرطبة، فاشبيلية، ثم غرناطة حيث تحققت ذروة الرحلة، كما تحققت قبل ربع قرن أو يزيد.

بين السقوط

بعد يومين فى مدريد، متجولين بين متاحفها وقصورها ومقاهيها، غادرناها



الى طليطلة التى من بين ما يحكى عنها أن الفونس السادس ، ملك قشتالة وليون قد استولى عليها عام ١٠٨٥ ميلاديا .

وكان سقوطها المدوى أول حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء حكام الأندلس عن ملكهم عام اكتشاف كريستوفر كولمبس للعالم الجديد (١٤٩٢) وكان لاستردادها ذات الصدى الذى تردد بين القوط الغربيين، عندما وقعت عاصمتهم توليدو اى طليطلة - غنيمة للعرب، قبل ذلك بحوالى اربعمائة عام وتعتبر طليطلة واحدة من أهم مدن الأندلس وكان سقوطها نذيرا بالمأساة التى حدثت مرارا وتكرارا على مر القرون التالية.

يواصل فى أثنائها الاسبان الضغط والحصار والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة، حتى يقضوا قضاء لا رجعة فيه على أول وآخر دولة عربية فى غربى اوروبا.

ولقد كان من بين ما شهدناه فى طليطلة ، خلال الساعات التى مكثناها فيها، كاتدرائيتها التى تعد بحق ، من أفخم كنائس اسبانيا واكثرها جلالا .

يكفى أن بعض جدران مصلياتها مزدانة بلوحات مرسومة بريشة الجريكو - تعنى اليونانى - ذلك الفنان الوحيد من نوعه بين التشكيليين .

ولم نمكث الليل بها، بل اسرعنا بمغادرتها فى نفس يوم الوصول اليها، متجهين الى قرطبة، تلك المدينة التى اتخذها عبدالرحمن الداخل - صقر قريش - حاضرة لدولة أموية مجددة، أنشأها بالاندلس .

وما أن استيقظنا فى الصباح ، حتى هرعنا منحدرين الى جسر الوادى الكبير، لا نلوى على شىء فى قرطبة الحديثة «كوردوفا»، قبيل أن نشاهد المسجد الجامع - بالأسبانى مزكيتا، نطوف بسوره، نرتاده رافعى الرأس الى ما تبقى داخله من محاريب وقباب.

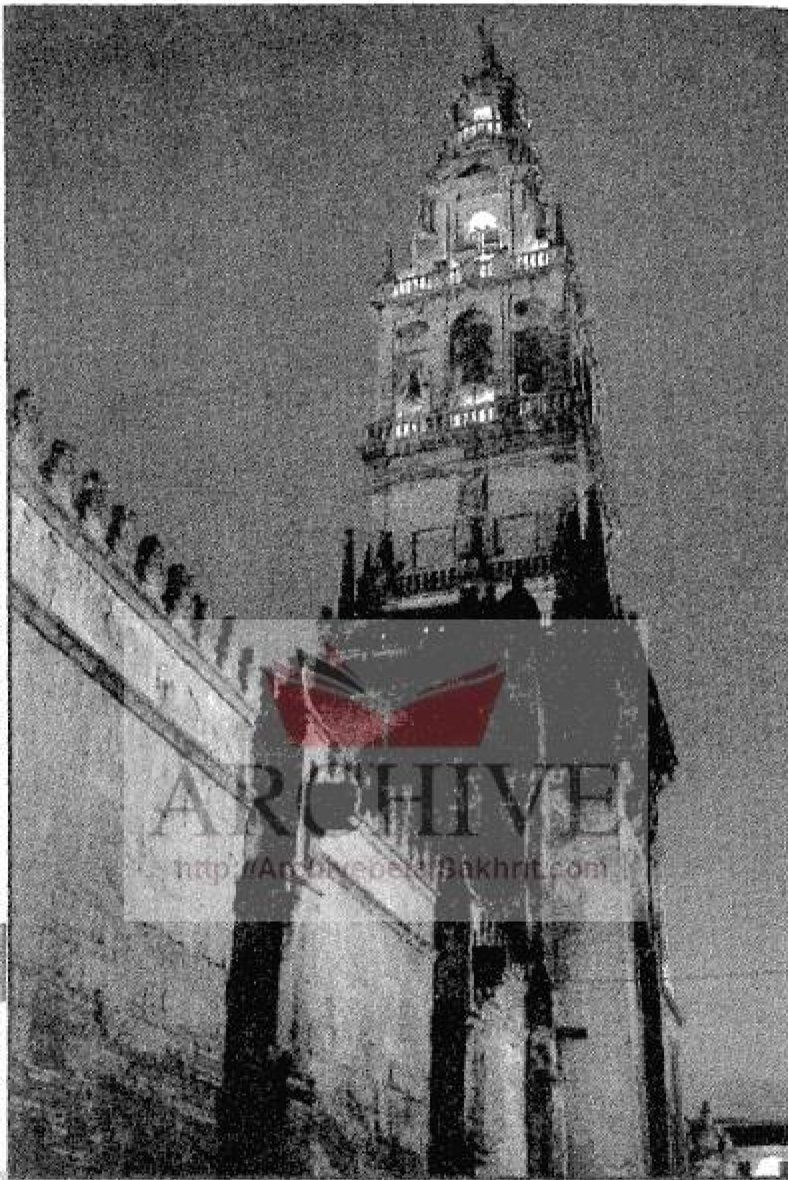
تشويه بغير مبرر!

وكم كان جزعى وضيقى، وأنا أرى ذلك الأثر الحضارى الكبير، الذى بدأ العمل فى بنائه، قبل اثنى عشر قرنا، واستمر زهاء مائتى عام، أراه وقد جرى تشويهه باقامة كاتدرائية فى رحابه دون حياء.

اذ ليس من شك فى ان ما حل بجامع قرطبة عمل بربرى مقيت.

وحتى شارل الخامس، ذلك الإمبراطور الذى اذن لاسقف قرطبة - رغم احتجاج وجهاء المدينة - بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع، أبدى سخطه حين رأى





برج الأجراس الخاص بالكاتدرائية التى بنيت داخل جامع قرطبة فى القرن الرابع عشر



الصرح الضخم الدخيل، وندمه على ما أذن به، وينسب اليه قوله للمسئولين عن التشويه .

«لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أي مكان آخر، وقضيتم بذلك على ما كان فى العالم اثرا وحيدا».

ومن سخرية الأقدار أن قرطبة التى كانت حاضرة للخلافة فى الأندلس زهاء قرن من عمر الزمان .

تحولات

قرطبة هذه التى كانت أكبر مدينة فى أوروبا الغربية بعدد سكانها (نصف مليون) ومساجدها (خمسمائة) وحماماتها العمومية (ثلاثمائة) ومكتباتها (خمسون) وشوارعها المعبدة المضاءة بالفوانيس، والممتدة أميالا، قرطبة هذه التى كانت احدى المراكز الكبرى للثقافة فى العالم القديم، وشأنها فى ذلك شأن القسطنطينية وبغداد .

وكانت ذات رنين فى تاريخ الحضارات، ومصباحا منيرا فى عصر كانت فيه اوروبا تعمه فى الظلام .

الآن لا تعدو أن تكون مدينة بأحد أقاليم اسبانيا، سمى بالأندلس (اندالوسيا) ، يؤمها السائحون من كل فج عميق .

ولربما ، لولا جامعها، لكانت نسيا منسيا وقبل وصولنا إليها، كنت اظن انها عاصمة هذا الاقليم.

ولكن، تبين لى وأنا فى دهشة من الأمر، ان عاصمته اشبيلية المطلة على نهر الوادى الكبير مثلها فى ذلك مثل قرطبة، وان كانت اقرب منها الى مصبه على المحيط.

آثار وثيران

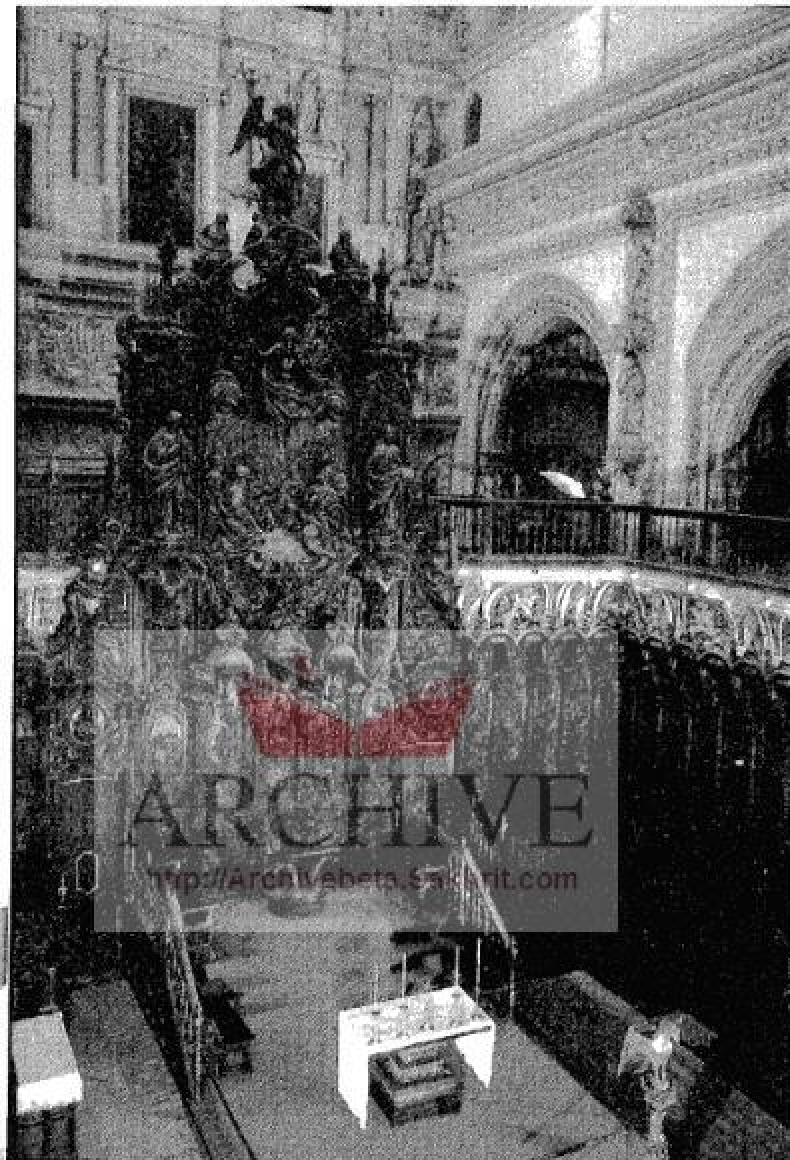
ومن أهم معالم اشبيلية كاتدرائيتها التى تعد واحدة من أكبر وافخم كنائس العالم، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض، فيما عدا صومعته، أى منارته أو مئذنته، التى وسطت واستبدل ببعضها الأعلى عمارة الناقوس، يعلوها تمثال يدور مع الريح، دوران التاريخ فى اسبانيا، ذلك البلد الذى تحول من المسيحية إلى الاسلام، ثم عاد فارتد اليها بعد حوالى ثمانمائة عام.

وبداخلها يوجد قبر الملكين الكاثوليكيين فرديناند وايزابيلا، وجدث كريستوفر كولومبس ابن جنوا، ومكتشف العالم الجديد.

والى جوار الكاتدرائية يقع القصر الملكى، ويعد، والحق يقال، آية من آيات جمال المعمار.

ساعة قضيناها فى هذا القصر، ننتقل من قاعة الى قاعة، ننتقل بذلك من





عرش كبير الأساقفة بكاتدرائية قرطبة



جو الى جو، ويثور فكرنا حينا، وتثور عاطفتنا حينا آخر، عندما نرى التعديلات والتحويرات والإضافات التي جرى إدخالها على القصر عقب سقوط اشبيلية (١٢٤٨)، فشوهت بعضه، مثلما شوه جامع قرطبة، بعد الاسترداد.

وحاليا تعتبر اشبيلية مدينة مصارعي الثيران.

وفيها تقع احداث كل من اوبرا كارمن، بموسيقى جورج بيزيه .

وأوبرا حلاق اشبيلية ، بموسيقى روسيني وأوبرا زواج فيجارو بموسيقى موزار وكما هو معروف ففيجارو هو حلاق اشبيلية رب الحيل.

ومن حيل التاريخ تحول تلك المدينة الاسطورة الى مكان لايشتهر الا بفضل بقايا آثار، ومصارعة الثيران واوبرات لثلاثة من اشهر الموسيقيين، ليس بينهم اسباني واحد!!

ومن عاصمة اقليم الاندلس توجهنا الى جرانادا، حيث نهاية المطاف .

قصر القصور

وما أن اقتربنا من مشارفها، وبانت لنا مبانيها من بعيد، حتى أطلت علينا مرتفعات قصر الحمراء .

وطبعا كان القصر كعبتنا. وما أن دخلنا حديقته مع حشد من السائحين، حتى مررنا بالقصر الدائري، الذي اقامه الامبراطور شارل الخامس مزاحما قصر بني الأحمر، مع انه القائل يوم أطل من علي رياضه ومياهه الجارية «ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا، مشيرا بذلك الى ابي عبدالله آخر ملوك زهرة مدائن الأندلس .

والقصر، كما قال المستشرق الاسباني «اميليو جارثيا جومث» ليس اجمل القصور العربية القديمة فحسب، ولكنه اكثرها احتفاظا برونقه، واقدمها، بل هو الوحيد الباقي من العصر الوسيط».

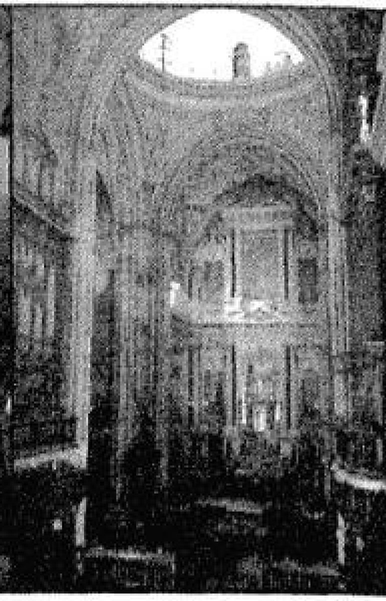
كم هو جميل انسياب الماء من افواه سباعه، وخريره في القنوات.

وكم هي جميلة صور سقوفه وحلياتها، وتيجان عيدانه، وزخارف اركانه وحيطانه.

مسك الختام

حقا كان خاتمة ساحرة للفن الأندلسي، في عصر كان ينذر بغروب الدولة، تقوضت دعائمها، وانتزع الاسبان اوراقها التي أخذت تذبل وتسقط مثل أوراق الخريف، انتزعوها بقوة ، انتزعوها بالارادة والتماسك والمثابرة في مقابل خلافات الأندلسيين، عربا يمنيين وشواما وبربرا وموالي، وتطاحنهم، واستعداء





بهو المذبح بالكاتدرائية



صالة الأقواس في جامع قرطبة

عدوهم المتربص بهم، يصوب بعضهم بالبعض حتى يزيدهم فرقة وانقساما .

قضينا يوما بطوله، فى قصر الحمراء وأبراجه وسوره نستمتع بلون حجراته، وبموضعه فوق الهضبة، وبأبراجه السامقة العارية، وبرياضه.

لا غالب إلا الله

ومما استرعى انتباهنا شعار اخذ يتكرر مئات المرات وسط زخارف القصر «ولا غالب الا الله» فى كافة الأوضاع والأشكال، فى دوائر وبيضاويات ومربعات ومستطيلات.

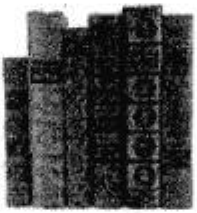
ولم نضق ذرعا بهذا الترداد للشعار الذى ادى دوره الزخرفى أحسن الأداء.

وبينما نحن نغادر القصر، تذكرت كيف استحال الوطن الأندلسى، وهو فى مرحلة الغروب، الى رقعة متواضعة، هى مملكة غرناطة، ومرثية شاعر العصر ابو الطيب صالح بن شريف الرندى .

لكل شىء اذا ما تم نقصان
فلا يعز بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته ازمان

تذكرت كل هذا، وهمست الى نفسى كفى حزنا، وبكاء على حليب مسكوب.. كفى! ■





الحماسة البصرية

تأليف: أبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى

بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

لم يرزق كتاب «الحماسة البصرية» كفله الواجب من العناية كما رزقت «حماسات» أخر، وحقها ذلك الرزق الذى تيسر لها على يد جلة من العلماء والمحققين قديما وحديثا، كحماسة أبى تمام، والحماسة الصغرى، وحماسة البحترى، وحماسة ابن الشجرى.

وبقية هذه القائمة من الحماسات وماهو من طرازها أو قريب منها مثل كتب المختارات الشعرية، حتى فى العصر الحديث حين نشرت «الحماسة البصرية» قبل هذه النشرة كانت شيئا رديئا لا يجوز الاتكاء عليه أو الثقة به .

المؤلف

أما الغبن الذى لحق بمؤلفها، فشىء غريب، وقَدْك أن المحقق أجهد نفسه فى التنقير عنه، فلم يظفر بكبير طائل، إلا مايكون من طراز التقريظات، والجمل المدحية التى لا تفيد غناء، ولعل اسمه هو الذى نجا من غيلة النسيان، فهو أبو الحسن على ابن أبى الفرج البصرى، ويعجب المحقق كيف أهمله أصحاب التراجم، ولم يكن الرجل نكرة، وإن كان قد عثر على اثنى عشر تقريظا ألحقها - مشكورا - بآخر الكتاب، وهى كما قلت جمل متشابهة تكرر نظائرها فى ترجمات أخرى، وحسبك أن ترى مصداق ذلك فيما يقوله ابن العديم عن البصرى : «الشيخ الأجل الكبير الفاضل العالم الكامل، جامع أشتات الفضائل.. لسان الأدب، وحجة العرب، الراقى فى مدارج العلوم إلى أعلى الرتب...» والمؤرخ صديق ومعاصر للبصرى ومع ذلك لم يذكره فى تاريخ حلب، وهما «بلديان»، لا أود أن أقول: إن المعاصرة حجاب، ونفس المؤرخ على الأديب، غير أنى أضيف إلى عجب المحقق - إبراء للذمة - أن تاريخا أو جزءا من ذلك التاريخ لم يصل إلينا، وفيه ترجمة للبصرى، وإذا طبقنا مقاييس العصر الحاضر فربما لا نجد





ذكرا فى كتب النقاد لبعض الشعراء الذين ليسوا من سنخ هؤلاء النقاد، فابتلعوا ألسنتهم، وربما يرد على الخاطر هنا الدكتور محمد مندور الذى أرخ للشعر المصرى بعد شوقى، وأغفل شعراء لهم وزنهم لاختلاف الاتجاه، مثل أحمد مخيمر مثلا . فهل نقيس الحاضر على الماضى، ونرى لدى ابن العديم شيئا من ذلك؟ لكننا لا نسير فى هذا التساؤل الى النهاية، لأن مؤرخ حلب قرظ «بلديه»، وإن كان لم يؤرخ له، مع أنه أرخ لرجال أقل شأنا منه - كما يقول المحقق - وأغفله كذلك ابن خلكان وهو معاصره، ولم يستدركه ابن شاكر فى «فوات الوفيات» ويتجاهله الصفدى فى «الوافى بالوفيات»!!

حتى تاريخ وفاة البصرى لم يتم تحديدها بدقة، مع أن الأمة العربية تهتم بتاريخ «الوفيات» أشد من اهتمامها بتاريخ الميلاد، لأن الذى يكون من غمار الناس ويشتهر تعرف وفاته أكثر مما يعرف ميلاده، حتى محقق الكتاب أصلح تاريخ الوفاة على صدر كتابه «المتوفى بعد سنة ٦٥٨ هـ» بدلا من ٦٥٦ هـ، الممهور بها الكتاب. فهل بعد ذلك غبن لرجل قرظه اثنا عشر عالما من خيرة علماء الأمة!!

كان الرجل فى زمن الفتنة المبيرة، وعاش لحظاتها الأخيرة، من هجوم التتار الكاسح على الديار الإسلامية بغداد وبلاد الشام، وقتل الملك الناصر فى الهجوم على حلب، وقيل إن البصرى كان مع الملك وقتل، مع أن هذا الرأى مرض فيه المحقق، ورجح أن وفاته بعد سنة ٦٥٨ هـ.

منهج المحقق

وقف عادل سليمان على نسخ كثيرة من المخطوطة مابين خطية ومصورة، بلغت ثلاث عشرة، عرف أكثرها، واعتمد ثلاثا هى: نسخة راغب باشا، وكانت فى حياة المؤلف، وهى العمدة، ونسخة عاشر أفندى ونسخة نور عثمانية، وللمحقق كلام جيد عن هذه النسخ وغيرها، لا يجزئ عنه كلامنا.

وعادل سليمان خلق ليكون محققا، فالمخطوطات عشقه أخلص لها فأخلصت له، وأفضت إليه بمكنون أسرارها ولديه قدرة فذة على قراءة خطوطها، واقتراحات القراءة، يجيل بصره فى النص فيدرك زبدته، ويعرف غثه من سمينه، وقد سلخ من عمره سنوات، لا يكل ولا يفتر عن جهد ، وصبر، وربما يفتى بعضنا عفو الخاطر، لكنه - وهو المحقق - يبحث فى المظان، عارفا بواطنها المضنونة بها على غير أهلها، ومنهم عادل سليمان، ومحمود الطناحى - نور الله ضريحه .

أهمية مختارات البصرى

أفاد البصرى من مختارات سابقة، أو من حماسات سالفة أقربها إليه حماسة أبو تمام - لا أحب إعراب الكنى، إنما أبقيتها على حالة واحدة - وكسرها على أربعة عشر بابا هى الحماسة - المديح - الرثاء - الأدب - النسيب - الأضياف - الهجاء - مذمة النساء - الصفات والنعوت - السير والنعاس - الملح والمجون - ماجاء فى أكاذيبهم وخرافاتهم - ملح الترقيص - الزهد والإنابة .

ولعل هذه هى أبواب الشعر وأغراض القول، وإن كانت بعض الدلالات تختلف .

فالأدب - مثلا - يعنى التخلق بمكارم الأخلاق - ولعل المؤلف أيضا لم يخرج عن الإطار العام الذى تختم به الكتب عادة وهو الزهد والإنابة، أو ما كان يسميه الشعراء والوشاحون الأندلسيون المحصات، والمكفرات لكننا نلمح إلى أى مدى كان العالم المسلم - والصالح منهم - لا يتورع عن ذكر الملح والمجون والترقيص، وفي الأخير شعر لن تسمح به الأعراف التى تواضع عليها من يخونونها فى وحدتهم، وحسبك أن ترقص امرأة «هنها» بكلام راقص، لن يزيد من عدد الطالحين واحدا، أو امرأة ترقص ولدها متمنية أن تراه يقعد مقعد الرجل من المرأة بكلام صريح، تلك أيام قد خلت حين كان بنيان الأمة قويا غير وهنان لا تؤثر فيه مثل هذه الأفاكيه، يفتح صدره وعقله للرياح فلا تعصف به، بل يقابلها ببسمة وحسبها هذا .

والبصري - وإن تقبل حماسة أبو تمام - خرج عنه مستقلا ومستنًا طريقه، إذ أضاف ثلاثة أبواب هى الأكاذيب والخرافات وملح الترقيص والزهد والإنابة، وتوسع فى الملح ضاماً إليها المجون، كما أنه يطيل أحيانا فى مختاراته ويذكر مقطعات بينها صلة ما، مثل تشابه المعنى، وتداخل الشعر، أو لأدنى ملابسة، وإن كان يخرج عن الباب.

والمختارات - عامة شعرية ونثرية - أحدث صيحة الآن، وتقذف المكتبات العربية والعالمية بأعداد وفيرة منها ، وهى طريقة قديمة عرفها العرب بكل أنواعها، تدل على ذوق المختار، وذوق العصر، والقارئ الذى تتوجه إليه، وحفلت المكتبة العربية - حتى فى العصر الحديث - بنماذج جيدة منها ، وإن كان بعضها يختار من الشعر الإنسانى كله منتخبات، وربما كان صنيع العقاد فى «عرائس وشياطين» دليلا على ما نؤم .

وحماسة البصرى تكاد تبلغ ضعف حماسة أبو تمام واعتمد المؤلف على دواوين ومجاميع شعرية، بعضها حفظته الأيام، وبعضها سقط من ذاكرتها، ولولا البصرى ماوقفنا عليها، وتبلغ القصائد والمقطعات فى هذه النشرة تسعا وسبعمئة وألف قصيدة ومقطعة.

والمحقق يقف على هنوات المؤلف يفردها بالذكر، سواء أكان ذلك فى المنهج، أم فى نسبة الشعر وروايته، ناخلا الآراء المبثوثة، فى تجرد وحيدة دون أن يصيبه ما يصيب المحققين والمؤلفين عادة من الانحياز لموضوع درسهم، وكان هذا ديدنه - ولا يزال - منذ طراءة السن، وشرة الشباب التى تدفع إلى الصرامة، لكنها كانت حماسة موزوعة فى كل حال.

أضاف عادل سليمان زيادات نسخة عاشر أفندى، وزيادات نسخة نور عثمانية فضلا عن التقاريظ، لكن الشيء الضخم - والعمل كله ضخم - وصل إلى ٢٢٨٦ صفحة من القطع الكبير - الذى عاناه المحقق هو تلك الفهارس الجامعة التى تنوء بها العصبة من الرجال، فى زمن لم يكن يعرف الآلات الحاسبة والدقائق التكنولوجية بلغت ستة عشر فهرسا نذكر منها فهرس الأشعار، والشواهد، والشعراء والأعلام : الأفراد والأمم والقبائل، والخيل، واللغة وهو أضخم هذه الفهارس وأنفسها شأنا ، وفيه من الغريب والغرائب ما يجب الوقوف عنده، وفهارس النحو وضرائر الشعر وفيها كلام جيد، وقد صحح كثيرا من الأوهام اللغوية ومن نسبة الأبيات ومن صوابها ورواياتها المتعددة، ومن هذه التصويبات نسبة الأبيات المشهور نسبها إلى عوف بن محلم الشيبانى وفيها :

إن الثمانين - وبلغتها - قدأحوجت سمعي إلي ترجمان

حيث عزاها إلى سميه «عوف بن محلم السعدى»، وهو عباسى بينما قرينه جاهلى،

وقبل هذه الفهارس ثمة شرح للقصيدة أو المقطعة مقترن بها في الهامش مع ترجمة للشاعر وتخريج لأبياته.

وناقش عادل سليمان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عز الدين إسماعيل مناقشة موضوعية، رائدها البحث عن الحقيقة، حين هوّن الأول من قيمة الحماسة البصرية، وأنها من جملة الحماسات الكثيرة، ورد المحقق هذه النظرة بأن البصرية أضافت واحدا وخمسين شاعرا وست شواعر إلى ما نعرفه من الشعراء القدامي وحسبها هذا، ورد على تهوين عز الدين إسماعيل من مؤلف الحماسة البصرية، في اختياره أبياتا مفردة، مع أنها قليلة جدا كما أحصى المحقق بلغت ثلاثة مواطن فلا ينبغي اتخاذها ظاهرة ، مع أن المثال الذى ذكره عز الدين مقترن ببيت آخر في نسخة راغب باشا، وثمة ملاحظة أخرى لعز الدين حول بعض الأبيات المختارة مرتئيا غثاثتها، ورد عليه المحقق مفصلا القول في الغرض الذي تساق فيه الأبيات من الهزل والمجون، ويقتضيان مهيعا من القول غير جاد الأغراض ورصينها، فضلا عن أننا نرى أن ذوقنا لا يجب أن تسحبه على ذوق الأعصار الخوالي، فربما يكون ما نستهجنه ممدحا لدى القدماء ، دون أن يعني ذلك عدم نقد ذوقهم فنحن نملك من الحرية ما يملكون، ولنا أن نرى في الشعر غير ما يرون، لكن المثل الذى سيق هنا مستهجنا، يجب وضعه في إطاره الماجن العابث الذي يشد لحية المتحنثين الذين يجبرون الشاعر المجهول على تعلم القراءة والمواريث، ولعله كان أميا، أو عالما بالقراءة والكتابة يتعابث بلحى الحمقى كما يقول المتنبي في «قافيته» الذائعة.

ومادة الكتاب مشرقية، بل هي في جملتها جاهلية وإسلامية، وأموية نادرا، وعباسية من ندرة الندرة، بل إنه بعد النسخة الأولى حذف من تاليها كثيرا من أشعار المتأخرين، وأتى بها المحقق في الزيادات، ولسنا ندرى سر هذا الاختيار، مع أنه متأخر زمنا عن أبو تمام مثلا (٢٣١ هـ) والتالين له، فإذا كان لهؤلاء مندوحة في وقوف اختياراتهم عند أمد محدد فما مندوحة البصري، إلا إذا كان يرى الفضل للمتقدم، أو استن طريقة الاستشهاد الأدبي مثل عصر الاستشهاد عند النحاة، وكان يمكن أن تكون اختياراته إضافة متميزة عن سابقيه لأنه عن المتأخرين حيث خنق منتصف القرن السابع، وقبله قرون عديدة تتراحب فيها الاختيارات، التي لم تذكر المحدثين إلا لتشابه معانيهم بمعاني المتقدمين أو صلتها بها، ويزيد العجب أكثر أن يتجاهل الأندلس تماما، إلا من ذكره يوسف بن هارون الرمادي، وأسقطه في نسخة تالية، لقد أخذ المشارقة على ابن عبد ربه مادته المشرقية ـ في أغلبها ـ وقالوا : بضاعتنا ردت إلينا سا باله يسقط أقاليم متعددة تسمى المغرب الإسلامي وفيه الأندلس والبرتغال ـ حاليا ـ وفيه شعراء من عصر بني أمية ومن بعده أجادوا وظفروا باستحسان المشارقة حتى إن المتنبي يقول لصاحبه : أنشدني لمليح الأندلس يعني : ابن عبدربه .

السرقات الأدبية

ومختارات البصري – كغيرها – بابة كبيرة لدراسة ما أسماه القدامى «السرقات الأدبية» بتفريعاتها المتعددة، أو مايسمى حديثا «التناص» وإن كان صديقي محمود الطناحي ـ رحمة الله عليه ـ ينكرها مستثقلا، لأن ورود المعاني المتشابهة – خاصة في الحماسة البصرية – متعاقبة ومنصوصا عليها تفتح مجالا للدرس النقدي عن أصالة الشاعر، وتطور المعاني الشعرية، وصياغتها، والأخذ الخفي لشاعر من شاعر سالف، وتصريف الكلام، وحسن التأتي أو سوئه، وقد وقفنا أثناء القراءة على كلام حسن للمؤلف

والمحقق، وربما كان رثاء أبو تمام لمحمد ابن حميد الطوسى فى «رائيته» المشهورة وسلخه بعض المعانى بل الأبيات الكوامل من شاعر غير معروف هو «أبو مُكْنف» من هذه البابة وقد فطن دعبل الخزاعى إلى ذلك وإن كذب الناس دعبلا، والقضية لها نظائر فى الحماسة، وتحتاج الى تقص رحب، ربما يصلح مجالا لدراسة جامعية شريطة أن يكون الباحث من الحفظة لا من أشباه الباحثين هذه الأيام.

هل برئ هذا السفر الضخم مما يمكن أن تختلف حوله وجهات النظر؟ لا نعتقد، وإن كان هذا الاختلاف يسيرا، يقف فحسب لدى الجزئيات، وربما كان الوقوف عندها من التحنث والتنطس الذى لا يريغه إلا أمثال عادل سليمان، حيث يأخذ نفسه بكثير من الحرج العلمى المحمود، وبسعة الصدر التى ترى الاختلاف فطرة إنسانية، بأصل الخلقة قبل الاتفاق، ولماذا ندور ونداور حول الاختلاف، وعادل سلميان نفسه فى خاتمة مقدمته المسهبة قال : «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر ما يراه فيها من أخطاء لتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذى منيت به وتخرج للناس صحيحة كاملة»، وهو يحتذى فى ذلك شيوخ المحققين فى عصرنا الذين لا تأخذهم زعارة خلق، ولا عزة بالإثم، كبعض خفاف المحققين من الجامعيين وأشباههم، لكننى معتقد أن فى بعض ما أذكره يمكن عزوه إلى أخطاء الطباعة، وهى مما عمت بها البلوى؛ ورد ص ٥٢٠ بيت حاتم الطائى «الخالطون» وحقها النصب بالياء، وإن كان للرفع وجه، على تأويل نحوى، لا نلجأ إليه إلا لضرورة، وفى ص ٥٣٥ فى الحاشية بيت هو :

قد رضيناه فمت بدائك غيظا لا تميتن غيرك الأدواء.

وصوابه حذف الهاء فى «رضيناه» أو بقاؤها مع حذف الفاء بعدها.

- ورد بيت الأعشى الهمدانى :

أيها القلب المطيع الهوى
أنى اعتراك الطرب النازح

وهو من السريع، صوابه «يا» للنداء، وإلا كان صورة من المديد، والقصيدة كلها من السريع .

- ورد بيت خزيم بن أوس ص ٥٨٩، وهو مع الأبيات للعباس بن المطلب كما استظهر المحقق، وشرحها محمود الطناحى فى مقالة له بالهلال :

أنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاقت بنورك الأفق

وهو من المنسرح، صوابه «وأنت» وربما صح على نية الواو، غير أنى لا أسيغ حذفها، ولو كان لها تأويل عروضى كالخرم.

- أبيات تنسب لآدم ص ٦١٠ وهو منها براء، وحسبها الإقواء الذى فيها، وهى «حائية» مضمومة الروى، فيها «وقل بشاشة الوجه المليح» وحقها الكسر على الصفة، ورأى لها أبو سعيد السيرافى وجها هو نصب بشاشة وحذف التنوين وهى حجة نحوية عروضية داحضة وإن كان المحقق استظهرها وأنا مع المعرى فى روايته «وغودر فى الثرى الوجه المليح» وهى وجهة شاعر لا نحوى، ومعروف أن المعرى من شيوخ اللغة والنحو والعروض فرأيه أولى وأشعر، وإن كانت الأبيات كاذبة النسبة لآدم .

- ورد شعر لصالح بن عبدالقدوس ص ٨٧٢ .

رأيت صغير الأمر تنمي شؤونه فيكبر حتي لا يحد و يعظم

وورد شبيه له فيما بعد «فكيف كبرت ولم تكبرى». والفعل على وزن فهم بكسر العين وفتحها فى المضارع من استعلاء السن، أما أن يعظم فهو من باب «عظم» ومنه قوله تعالى :

«كبر مقتا عند الله».

- ص ١٠٠٢ ورد بيت قيس بن الخطيم :

رد الخليط الجمال فانصرفوا
ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

ذكره المحقق بتسهيل همزة «انهم» كأنه ارتأى أن الوزن يستوجبها مع أن الوزن يصح بتحقيق الهمزة، وعليه فالروايتان صحيحتان من المنسرح.

- ص ١٠١١ ورد بيت مضرس بن قرط المزنى :

فمت كمدا أو عش وحيدا فإنما
أراك تكلفني مالا أراك تطيق

وصوابه حذف «أراك» الأول وهو من الطويل .

- ورد ص ١٠١٥ بيت سوادة بن كلاب القشيرى :

لو سألت للناس يوما بوجهها سحاب الثريا لاستهلت مواطره

ولعل الصواب زيادة «واو» أو «فاء» فى أول البيت، بدلا من اللواذ بالخرم وهو زحاف نستهجنه وإن كان واردا، ونرى أيضا قلقا فى «للناس» بحرف الجر، وربما كانت نسخة «ع» اضبط حين قالت الرواية «سألت ظمياء» .

- ورد ص ١٦١٤ بيت يقول :

ترفع الصوت أحيانا وتخفضه
كما يطن ذباب الروضة الهزج

ولعل الصواب «ترفع» بتضعيف الفاء، أو بزيادة «فاء» أوله وهو من البسيط، ويراعى فك التضعيف فى الفعل «تمشط» فى ص ١٦٤٢ ، وفى الأبيات كلام جيد يجرح إخواننا المتوقرين، لكنه صادق وبرىء.

- ص ١٦٧٠ تحذف الفاء من البيت الثالث وهو من المنسرح، كما تحذف «الواو» من البيت الأول ص ١٦٧٣ ، وهو من المنسرح كذلك، وتضاف «واو» فى البيت الثانى ص ١٧٥٣ ليستقيم الوزن وهو من الطويل.

وثمة أوهام قلائل يصح عزوها إلى الطبع والتصحيح، أو قراءة الفكر والذاكرة لاقراءة العين الباصرة، وكلها مما كتب على المرء من النسيان والسهو والغلط، وما نجا منه أحد، وحبذا لو نشر المحقق الكريم دراسته الوافية عن الكتاب فى جزء مستقل، ليكتمل العمل درسا وتحقيقا، لكنه مع أخواته السالفات بناء شامخ فى التحقيق يشهد لعادل سليمان بعلو كعبه فى الفهم والتذوق، ونخل الكلام، وأنه امتداد كريم لتلك الذؤابة الكريمة من شيخة المحققين الكبار شاكر وهارون، وأنه قرين كريم لصنوه الراحل العلامة محمود الطناحى .

ولعل هذه الحماسة تذيع بين جمهرة القراء والأدباء والمتأدبين ، فتحتل مكانتها ومكانها بين أبناء العربية الأصلاء، لا أبناء اللغو والمجانة من أدعياء الأدب والأدباء. ■

دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

وموضوعية كتابة التاريخ

بقلم

د. عاصم الدسوقى

فى ٢٥ مارس ٢٠٠٢ رحل عن دنيانا الاستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس .. وهذه كلمة من أحد تلاميذه وفاء وعرفانا فى زمن انتفت فيه المبادىء وأصبحت العلاقات - على الأرجح - تقوم على المنافع والمصالح .

لم يكن أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذا جامعيا تقليديا ، يلقي دروسه على الطلاب وينصرف إلى بيته عائدا في سلام واطمئنان بعد أداء الواجب ، بل كان أستاذا متميزا في أدائه ، ومتفوقا في علمه ، ومبدعا في أفكاره .

عندما رأيته للمرة الأولى فى العام الدراسى ١٩٥٧/١٩٥٨ ، وأنا طالب بالفرقة الأولى بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس ، كنت قد تركت لتوى مقاعد المدرسة الثانوية ، وكان عائدا لتوه من بعثته للدكتوراه بجامعة لندن ، حيث أعد أطروحته عن «مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ - ١٨٨٤» وساعتها أدركت الفرق بين المدرسة والجامعة . وقد انبهرت به مثلما انبهر به غيرى من زملائى .. شاب فى عنفوان الشباب .. رأسه مزدحم بالمعلومات والأفكار ، يلقيها فى

عبارات متدفقة سهلة دون عناء ، ونحن نكتب وراءه ما نستطيع أن نلتقطه من هذا الفيض .. متوهج الحماسة .. يعشق المحاضرة ، حتى لقد كان يتجاوز الزمن المخصص لها ، ولا يتوقف إلا عندما نحتج بأن هناك محاضرة تالية ونريد بعض الراحة ، فيتركنا غاضبا غضبا أبويا ، ويودعها بعبارات من اللوم فيها من السخرية الشيء الكثير .



ما الذى جعلنى وزملاء آخرين نتعلق به ، وننتظر محاضرته من أسبوع لأسبوع ؟! .. هل لأسلوبه فى المحاضرة وإشراكه لنا فى بعض ما يطرحه من مسائل وتقبله ردودنا الساذجة أحيانا ، وهو ما كنا نفتقده فى الأساتذة الآخرين رغم شموخ قامتهم العلمية ؟! .. هل لشعورنا بأنه أقرب إلينا بحكم العمر من الآخرين ؟!

عندما التقينا به مرة أخرى فى الفرقة الثالثة ، كانت مدار كنا قد اتسعت قليلا وأصبحنا نتفهمه أكثر ، ودخلنا معه فى محاورات سياسية حول ما كان يدور على ساحة العمل السياسى المصرى والعربى والدولى . وقد اختلفنا ، وكان لابد من الاختلاف الذى ينشأ بين جيلين ذوى تكوين مختلف . وكانت السنوات من ١٩٥٧ - ١٩٦١ ، قبل أن نترك مقاعد الدراسة إلى الحياة العملية ، هى سنوات التحول الخطيرة فى مصر اقتصاديا وسياسيا ، من حيث معارك التنمية ، ومعارك التحرر الوطنى والاجتماعى ، ومجابهة الاستعمار العالمى والصهيونية . وكان أحمد عبدالرحيم مصطفى يترك موضوع المحاضرة ويحول القاعة إلى ندوة فكرية بعض الوقت ، يعود بعدها إلى موضوعه خوفا علينا من الملاحة فى البحار الصعبة الصاخبة الموج .

وعندما أعددت رسالتى لدرجتى الماجستير والدكتوراة تحت إشرافه عرفته عن قرب . وكانت الفرصة متاحة أكثر للتعرف على أفكاره دون تحرج ، وعلى آماله فيما يتعلق بالواقع السياسى . كما كانت فرصة للتعرف على الجوانب الانسانية فى شخصيته . وقد اكتشفت فيه شخصية العالم المتواضع الذى يعرف الكثير ولا يباهى أقرانه بما يعلم ولا يتعالى عليهم . ورأيته يسمع أفكاره تتردد على لسان غيره وأمامه لكنه يأبى إحراجهم ، ولا يفكر ولو للحظة فى أن يذكرهم بأن هذه فكرته ، ويخجل أن يصوب أخطاء الآخرين

موضوعية كتابة التاريخ

أمام الغير ، ويؤجل ذلك إلى حين ينفرد بالمخطيء بعيدا عن أعين الآخرين .

لم يضع أحمد عبد الرحيم مصطفى نفسه أبدا فى موضع المقارنة مع غيره ، ولم يداخله يوما إحساس الغيرة القاتلة تجاه الآخرين من الذين اعتلوا المناصب وسلطت عليهم الأضواء وهم أقل منه كثيرا وكان يردد أمامى قول الشاعر :

تقدمتنى أناس كان خطوهم
وراء خطوى لو أمشى على مهل

كان الرجل حريصا على قيمة الاستقلال الفكرى ، وقد أدى هذا الحرص إلى نجاته من التبعية السياسية أو الفكرية فكان ناقدا لكل النظم السياسية التى عاصرها وكان سعيدا بذلك . وقد انعكس هذا الحب لقيمة الاستقلال الفكرى على تلامذته انعكاسا إيجابيا فلم يتحولوا إلى تابعين له أو لغيره .

وقد ترفع عن المناصب واعتبرها إضاعة للوقت فهى تشغله عن القراءة همه الأول . ولم يسع إلى دائرة الضوء الإعلامية ، ولم يكتب فى الصحف والمجلات السيارة إلا بدعوة، وإذا كان الموضوع يصادف اهتماماته . وهكذا انصرف من بداياته إلى القراءة وهضم ما يقرأ واحتفظ بذاكرة قوية بعناوين الكتب وأسماء مؤلفيها ، بل وبعض العبارات التى لفتت انتباهه ، فازددنا ارتباطا وإعجابا ، وأصبح بالنسبة لجيلى نموذج الأستاذ الجامعى الذى نتطلع إلى محاكاته .

عندما غادر أحمد عبد الرحيم مصطفى مدينة سوهاج حيث ولد ، إلى القاهرة فى صيف ١٩٤٢ ليلتحق بكلية الآداب بقسم التاريخ دخل ساحة الحياة الثقافية فى العاصمة من أبوابها المتعددة . وقرأ كثيرا فى الأدب بألوانه المختلفة وفنونه ، وتأثر بتوفيق الحكيم وظل كاتبه المفضل حتى أن أولى كتاباته بعد حصوله على الماجستير كانت فى عام ١٩٥٢ عن «توفيق الحكيم : أفكاره وآثاره» . ومن الواضح أن قراءاته الواعية فى الأدب بألوانه المختلفة زودته بثروة لغوية هائلة ، بدا تأثيرها فى طريقة عرضه للوقائع التاريخية المعقدة ، حيث يعرضها بأسلوب شائق جذاب فيه من تنويعات اللغة والعبارات المركزة ، ما لا يشعر القارىء بالملل أو بالسأم ، بل إن القارىء يجد نفسه وقد انسحب إلى عالم الكتاب فى

شوق وبهجة ليحقق متعة عقلية وروحية معا .

ومن يتأمل كتابات أحمد عبدالرحيم مصطفى فى التاريخ يجد أنها تتعلق بقضايا شائكة ومسائل جدلية ، سواء أكانت عن شخصيات بعينها أو عن تجارب معينة ، ويتناول كلاً منها تناولا جديدا مستندا إلى معلومات وثائقية ، حيث أنه من مدرسة تعلمت «أنه لا تاريخ دون وثائق» ، ومن ثم كان يخشى أن يتناول موضوعا ما دون مصادر، ولهذا لم ينزلق إلى الكتابة عن الحوادث المعاصرة لأنها مجرد وقائع سياسية غير منتهية، ويكتفى بالتعليق على ما يدور فى جلسات (سمنار) التاريخ الحديث بآداب عين شمس أو ونحن جلوس بالمقهى . وكان شديد الضيق بمن يطلق أحكاما دون سند ، ولا يستريح لمن يتعجل من تلاميذه الشهرة، وينصح دائما بالتريث فى الكتابة فى الصحف وفى الاشتراك فى الندوات العامة أو المتخصصة إلا بعد فترة من القراءة المستمرة حتى يكون للمشاركة معنى . وكثيرا ما كان يردد مقولة عباس العقاد أنه لكى تكتب سطرا أصيلا يجب أن تقرأ ألف سطر» . ولم يضيع وقته فى تأليف كتاب للطلاب « (كتاب جامعى) لأنه كان يرى أن مهمة استاذ الجامعة تقتصر على أن يحاضر فى المسائل الكلية العامة بالربط بين الجزئيات تاركا التفاصيل للإطلاع فى المكتبة . ولكن حين وجد محاضراته مطبوعة على ورق الاستنسل وتباع للطلاب من وراء ظهره أضطر إلى اصدارها فى شكل كتاب حتى يضبط ما بها من أخطاء .

والحقيقة أنه بعد أن عاد من بعثته فى منتصف الخمسينيات استغرق النصف الثانى منها فى ترتيب أوضاعه للتلاؤم مع الحياة فى مصر من جديد ، فاكتفى فى تلك السنوات بالمحاضرة والقراءة . وفى الستينيات كان فى أوج نشاطه الفكرى ، فكتب فى موضوعات تاريخ مصر عن «مشكلة قناة السويس ١٨٥٤ - ١٩٥٦» ، وعن «العلاقات المصرية البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦» ، و«تاريخ مصر السياسى من الاحتلال إلى المعاهدة» و«الثورة العرابية» وكتب عن إشكالية كتابة التاريخ القومى ، وعن عبد الرحمن الجبرتى ، وعبدالرحمن الرافعى ، وشفيق غربال ، وجمال الدين الأفغانى . وترجم (أصول التاريخ الأوروبى الحديث) لهربرت فيشر ، وكتاب هيلين ريفلين «الاقتصاد والادارة فى مصر فى

موضوعية كتابة التاريخ

مستهل القرن التاسع عشر» ، وكتاب جب وبوون - أستاذه في لندن - «المجتمع الإسلامي والغرب» ، وترجم عدة فصول ضمن كتاب (مختصر تاريخ العالم) الذي أصدرته مؤسسة فرانكلين ، وكتاب «موجز تاريخ الاشتراكية» لنورمان مكينزى فى عام ١٩٦٠ قبل أن تصبح الاشتراكية منهجا للتحول الاجتماعي فى مصر . وقد استهدف من اختياراته للترجمة أن تكون فى خدمة طلاب الجامعة إلى جنب المحاضرات .

وفى التسعينيات كتب عن حركة التجديد الإسلامي في العالم العربي الحديث ، وتطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، والولايات المتحدة والمشرق العربي ، وأزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكي فى لبنان .

أما فى الثمانينيات والتسعينيات فنراه يكتب عن «بريطانيا وفلسطين : دراسة وثائقية» و ومشروع سوريا الكبرى وعلاقته بضم الضفة الغربية ، ويكتب «فى أصول التاريخ العثمانى» ، ومشروع حلف شرق البحر المتوسط ١٩٤٨ » . ويكتب أيضا عن «حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامي» ، ومشروع اتفاقية الدفاع المشترك ١٩٤٨ . وترجم كتاب أندرو هيس «الحدود المنسية» بعنوان «افتراق العالمين الاسلامي والمسيحى فى المغرب والأندلس» .

أما مقالاته فى الصحف والمجلات وخاصة «مجلة الهلال» وأحاديثه فى الإذاعة فإنها كثيرة وغنية ، وكذا حضوره الدائم في الندوات العلمية التى عقدت في مصر وخارجها وبشكل خاص «السمنار» الأسبوعى للتاريخ الحديث بآداب عين شمس الذى أسسه أستاذه وأستاذنا أحمد عزت عبدالكريم .

ولقد اتبعنا بنفسه عن أنواء الحياة السياسية وصراعاتها ولم ينخرط فى الحياة الحزبية ، وآثر أن يحتفظ باستقلاله الفكرى بعيدا عن التوظيف لصالح أى قوى سياسية .
وكان بتوجهاته الجديدة فى تدريس التاريخ وكتاباته يمثل مع الراحل محمد أنيس فى آداب القاهرة ما يمكن تسميته «عقلنة التاريخ» بعيدا عن وهم العاطفة والتفضيلات الذاتية وهذا ما أدركه طلاب الدراسات العليا الذين أسعدهم الحظ فى أن يتمتعوا بملاحظاته الدقيقة على ما يكتبون ويتعلمون من إشاراته الدقيقة ذات المغزى ، ولازلت احتفظ بين

أوراقي بالنسخة الخطية لكل من الماجستير والدكتوراة بما عليها من ملاحظات مدونة .

لم يخش يوما من نقد أعماله ، بل كان يشجع تلاميذه على نقد ما يكتب ويفرح كثيرا عندما يجد لأحد تلاميذه مقالة لامعة فيبادر إلى تشجيعه والإشادة به ولا يتردد في القول بأنه استفاد منها أو أنها صححت بعض أفكاره .. الخ. وكثيرا ما ردد أن مهمة الاستاذ ليست إعداد نسخ كربونية منه بل إن تجاوز تلاميذه له يعني أن الاستاذ نجح في أداء رسالته . ومن هنا احتضن تلاميذه واحتضنوه ، وصادقهم وصادقوه ، وقربهم إليه وقربوه . وكثيرا ما عرضوا عليه مشكلاتهم الشخصية وهمومهم اليومية ، وكثيرا ما أشركهم في مشكلاته وهمومه .

ورغم كتاباته الكثيرة والغنية والمتميزة إلاّ أنه كان يردد أمامنا أنه لم يعمل شيئاً .. فلما قلت له : أبعد كل ما كتبت لم تفعل شيئاً ؟ .. فيجيب : لم أكتب كل ما كنت أخطط له بسبب كثرة المحاضرات والكتابة في المجلات وعدم القدرة على الاعتذار حتى جرفتني الحياة الثقافية في عجلتها .

وعندما حصل على جائزة الدولة التقديرية من هم دونه فقد الثقة في مصداقيتها وتعجب تلاميذه وعارفو فضله وقدراته ، فلما جاءته في سنة ١٩٩٨ لم يشعر بزهوها . وكان الجائزة كانت خاتمة لحياته إذ تدهورت صحته تدهوراً شديداً قبل ثلاث سنوات فلم يعد بمقدوره المشاركة في الحياة الأكاديمية فقبع في منزله يسترجع الذكريات ، ثم ضعف بصره فلم يعد يقرأ ، كما لم يكن يحتمل مشاهدة التليفزيون وكان الراديو وسيلة اتصاله بالعالم الخارجي . ثم زادت أمراضه بعد رحيل رفيقة حياته (صيف ٢٠٠٠) حتى أقعده المرض بين جدران المنزل ، وحيدا إلا من بناته وأحفاده ، وإلا من سؤال نفر قليل جدا من محبيه إذ انشغل غالبية زملائه وأصدقائه وتلاميذه بمصالحهم وانفضوا عنه حين لم يعد في يده ما يقدمه ..

ألا ما أقسى المرض على صاحبه حين لا تكون أمامه حيلة ..

وما أقسى الموت على المخلصين والمحبين ..

وما أقسى الحياة في زمن وغد ..

ولكن تبقى الذكرى في وجدان كل من عرف قدر أحمد عبد الرحيم مصطفى انسانا متسامحا وعالما متواضعا ومفكرا مهموما .



أم الشهيد
للفنان صبرى ناشد

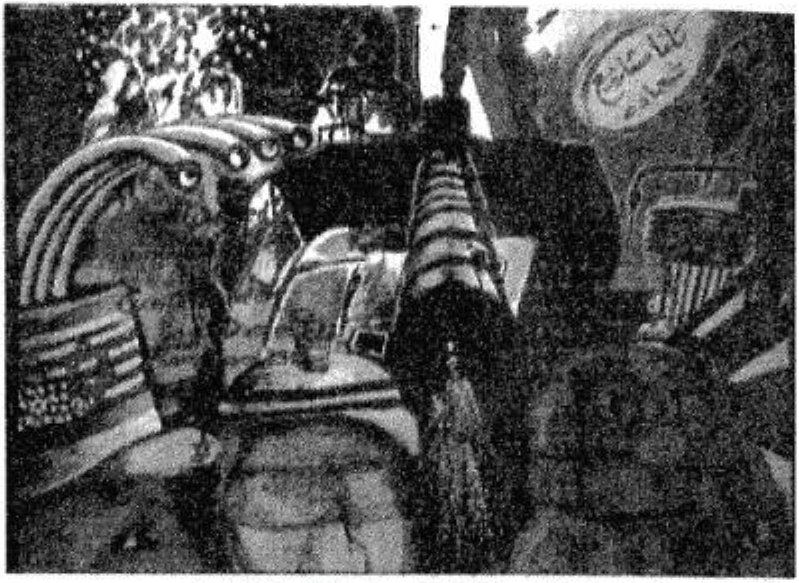
الغضب عبر إبداع الفنانين

بقلم
عز الدين نجيب

إن أروع اللوحات هى التى صورها بدمائهم أبطال المقاومة ، وجسدها الصمود الاسطورى للشعب الفلسطينى ، فى مواجهة المجازر البربرية التى تقوم بها آلة الدمار الاسرائيلية المدعومة بقوة أمريكا العظمى ، ولقد هبت شعوب العالم - من العربية إلى القارات الخمس - تعلن غضبتها المدوية ضد هذه الجريمة الأبشع من كل ما شهدته البشرية ، كما هب الفنانون والكتاب والمثقفون - عبر هيئاتهم وتجمعاتهم - منددين بما حدث ويحدث .

الهلال
صفر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

غير أن التعبير الفورى بلغة الأشكال والألوان لايزال سابقاً لأوانه ، لأن المشاهد الحية للمجازر وصور الدمار والمقاومة تتوالى بغير انقطاع عبر شاشات التليفزيون ، فتبدو أقوى من أي تعبير فنى ، ولأن زيارة الجمهور لقاعات المعارض - التى يفترض أن تقدم أعمالا فنية بحتة - قد تبدو اليوم نوعا من الترف ، فلا مناص إذن من أن يخرج الفنان بأعماله إلى خضم حركة الجماهير ، فى الميادين والساحات والتجمعات ، بأساليب فنية قادرة على التواصل المباشر مع مستويات التلقى المختلفة ، ليس بغرض الاثارة والشحن الانفعالى ، لأن الجماهير لا ينقصها الشحن والتأجج ، بل بغرض صياغة الرمز الجوهرى لمعنى الصمود والمقاومة وتأكيد الوعى باستمرارها . وبحقيقة العدد



«الفلسطيني» في مواجهة الآلة العسكرية كما تصوره لوحات المعرض الغاضبة



قرارات واتفاقيات وتوصيات كلها لم تنفذ وذهبت أدراج الرياح

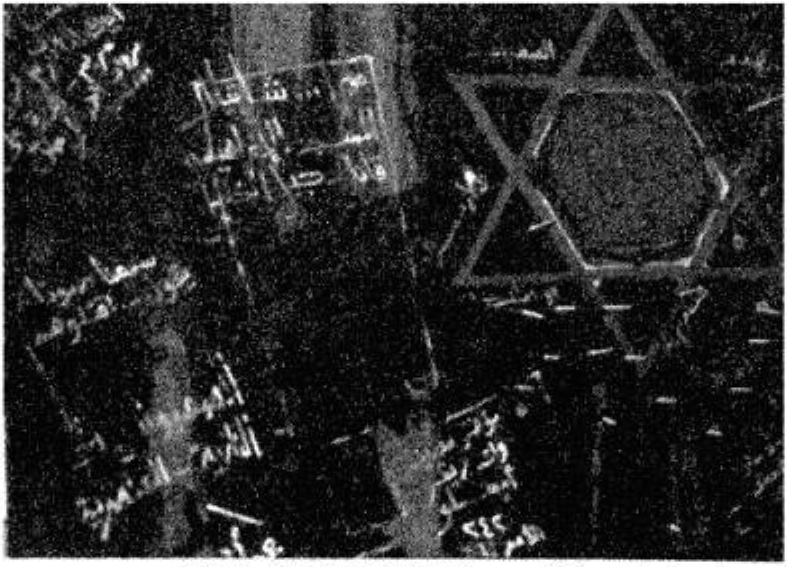
المزدوج (الصهيوني - الامريكي) التي تلخص أقوى رابطة للتواطؤ الاستعماري عبر التاريخ ، فهذا هو دور الفن الحقيقي إذ يستطيع أن يتجاوز جزئية الأحداث الوقتية إلى مدار النضال الانساني عبر المكان والزمان ، معبرا عن قيم الضمير والحضارة ، وعن الإدانة الأخلاقية للقوى التي تدمرها ، مثلما كانت لوحات بيكاسو الشهيرة ضد الحرب ، خاصة لوحته الخالدة «جورنيكا» ، وغيرها من أعمال الفنانين قديما وحديثا .

وعلى الرغم من قصر المدة الزمنية بالنسبة لاستيعاب الفنانين للحدث وبلورته برؤى إبداعية تتخطى التسجيل المباشر ، فقد شهدت الحركة التشكيلية المصرية خلال الشهر الماضي عدة مبادرات فنية شجاعة ، اجتهدت كي تلتحم - بدرجات متفاوتة بالانتفاضة الفلسطينية وتداعياتها المأساوية والبطولية الأخيرة ، كاشفة بذلك عن الجوهر الأصيل للفنان المصري ، الذي يبزغ متوهجاً في الوقت المناسب ، من بين متاهات التجارب الشكلية المسايرة لاتجاهات الحداثة الغربية الفارغة ، وجاءت بعض هذه المبادرات جماعية فيما جاء بعضها الآخر مستقلا .

أيام الغضب

على صعيد التعبير الجماعي كان تحرك الفنانين من خلال نقابتهم ، التي رأيناها لأول مرة في تاريخها تتفاعل مع الأحداث والقضايا الجوهرية التي تشغل الأمة ، مستجيبة لمشاعر الفنانين المتأججة بالغضب ، ومطالبة بموقف قوي تضامنا مع الشعب الفلسطيني ومع القوى الوطنية والديمقراطية بمصر والعالم لإدانة ما يحدث ، وقد جاء ذلك متزامنا مع تسلم النقيب الجديد - الفنان مصطفى حسين - ومجلس الإدارة المنتخب مسئولياتها ، إثر اجراء الانتخابات العامة للنقابة بعد تجمد تام للنقابة استمر خمس سنوات ، أصاب فيها الشلل التام روح المشاركة الايجابية للفنان في المجتمع ، وكان حدث الاجتياح الاسرائيلي وأشكال الحصار والقمع الدموي والمقاومة الباسلة ، محكا حاسما لاختبار مصداقية المجلس الجديد بشأن دور الفنان في المواقف الوطنية والمصيرية ، بما يجعل له مكانة واحتراما في المجتمع ومؤسساته المدنية ، بعد أن كان قد تم تهميشه - بل تغييبه - بالنسبة لهذا المجتمع منذ إنشاء النقابة عام ١٩٧٨ ... هكذا التحم المجلس - بقيادة النقيب الجديد - مع حركة النقابات المهنية الأخرى التي بادرت بعقد المؤتمرات المعبرة عن مواقف أعضائها ، فسمع صوت الفنان وسط هدير الغضب ، من خلال مشاركته في التجمعات النقابية واللقاءات الرسمية ، واستجابت النقابة للمطلب القوي من جانب أعضائها بإتاحة الفرصة أمامهم لتنفيذ لوحات ضخمة تعبر عن غضبهم ، بحيث يمكن تجميعها في جداريات عملاقة تثبت في بعض الميادين المهمة بالقاهرة .

وانطلقت شحنة الغضب المقدس فوق ألواح الخشب عبر الفراجين والألوان ، من خلال ورشة عمل كبرى أقيمت أمام مقر النقابة بساحة الأوبرا ، وقبل مضي



المذابح التي ترتكبها الصهيونية تضرب عرض الحائط بكل المواثيق والاعراف الدولية

أسبوع أيام من بدء هذه الانطلاقة كانت قد اكتملت ثلاث وعشرون لوحة مساحة كل منها ما بين أربعة وثمانية أمتار مربعة . وقد كان من المفترض - طبقا للفكرة الأساسية - أن تشترك مجموعات من الفنانين في إنجاز لوحات جدارية هائلة على امتداد عشرات الأمتار تنفذ في نفس الأماكن التي ستبقى معروضة فيها ، حتى شاهدهم المواطنون أثناء عملهم . لكن الفكرة عدلت بحيث يتولى كل فنان تنفيذ لوحته بمفرده بمقر النقابة ، ربما لصعوبة الحصول على موافقة الجهات الأمنية على تثبيت جداريات بهذا الحجم في أماكن التجمعات الجماهيرية والعمل فيها أمام الجمهور . وقد قام بإنجاز هذه اللوحات كل من الفنانين : ابراهيم عبد الملاك ، عبد الخالق حسين ، عادل ثروت ، هشام نوار ، محمد دسوقي ، محمد نادى ، طارق مأمون ، جورج فكرى ، أحمد رفعت ، أحمد فهيم ، أحمد شلقوم ، أحمد علوى ، هند حسن ، مازن اسماعيل ، أحمد عبد الجواد ، طارق الكومى ، سيد هويدى ، مصطفى كامل ، مروة بنه ، محمود منيسي ، حسام البنا ، محمد طلعت ، سامي كشك .

أيا ما كان مصير هذه اللوحات ، وما سيتلوها من لوحات ، حيث يتسابق الفنانون ، خاصة الشباب لاتخاذ أدوارهم في إنجازها ، وأيا كانت الاساليب التي تنجز بها ومستواها الفني ، قياسا على الفترة القصيرة جدا التي تنفذت فيها

(وأغلبها استخدم أسلوبا رمزيا بسيطا معبرا عن صرخة الاحتجاج ضد ما يحدث ، واضعا في الاعتبار قدرة المواطن العادى على استيعابه) فقد سجلت الفنان المصرى موقفا تاريخيا لن يمحى ، وأسست نقطة تحول فكرية لا يستهان بها ،و خاصة بالنسبة للفنانين الشباب الذين طال العهد بتغييبهم بعيدا عن الامام بمجتمعهم على يد المؤسسات الرسمية المختلفة ، فإذا بهم يكشفون لنا فجأة عن قوة انتماء وطنية وقومية صادقة تتخطى مختلف الحواجز ، من اللامبالاة إلى الخوف إلى غياب الوعى ، وتبتعد فى تعبيرها عن الأساليب الاستفزازية التى كانت تغذيها فيهم تلك الإغراءات التنافسية بالجوائز السخية وتدفعهم نحو التغريب والفردية والاستعلاء على مجتمعهم وواقعهم .

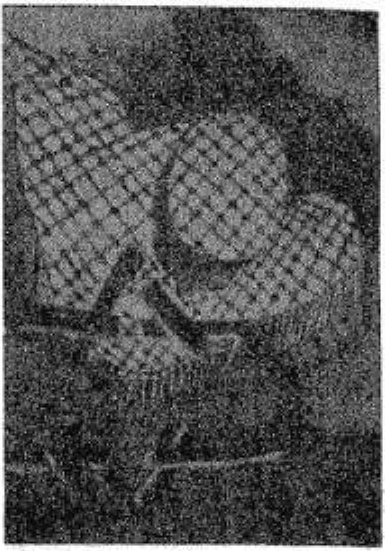
إننى أتصور أن استمرار مثل هذه التظاهرات (التعبيرية - الجمالية) بإتاحة الفرص أمام الفنانين للتواصل مع المجتمع ، لسنوات قليلة ، كفيل بإحداث تغيير كيفى لمسار الفن المصرى المعاصر شكلا ومضمونا .

فهل نقول إذن : اشتدى أزمة تنفرجى ؟!

نشيد النسور

وبقدر ما دفعت أحداث الحصار والمذابح ضمائر المبدعين لإبداع أعمالهم الصرحية بنقابة التشكيليين ، فقد دفعت - من قبلهم - النحات الكبير صبرى ناشد لإقامة معرض خصصه لهذه القضية بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى خلال الشهر الماضى ، لقد كانت الانتفاضة بكل تداعياتها الثورية على مدار الشهور السابقة على المعرض هى جرحه ونزيفه ، وهى جدار الاحباط لقدرته على التعبير عن أى معنى غيرها ، فى الوقت الذى يستبد به الشعور بالعجز والتضاؤل أمام الإرادة البطولية الخارقة للطفل قاذف الحجر المقدس ، كانت لديه مشروعات فنية أخرى غير الانتفاضة استعد لإنجازها كى تعرض بمعرضه الذى حدد موعده منذ فترة طويلة ، لكن شعوره بالقهر الداخلى شل إزميله الذى اعتاد أن يخترق كتل الأشجار بسلاسة ، وكأنه يكشف القشرة الخارجية - فحسب - عن التمثال الكامن والمتشكل فعلا بداخلها ..

وهكذا استحال عليه النوم والصحو والحلم واليقظة ، واستبد به القلق الكابوسى المر ، حتى بالنسبة لجدوى الفن ذاته إزاء ما يجرى ، بل أوشك أن يشك فيما سبق أن أنجزه شخصيا من أعمال فنية بأسلوبه التعبيرى الرمزى المغرق فى التأمل الفلسفى لمعنى الحياة وما بعدها بنزعة تقارب الحس السريالى ، وتساءل : إلى من نتوجه بإنتاجنا الفنى ، بينما الحياة ذاتها تذبح والحق يستباح والباطل يتبجح والمقدسات تنتهك ؟! .. كانت تلك أعنف أزمة روحية يواجهها صبرى ناشد على مدى أربعين عاما هى عمر مشواره الفنى ، ولم يخفف عنه ما حصل عليه من جوائز وتقدير فى مناسبات عديدة ، كان آخرها تكريمه بسمبوزيوم النحت فى أسوان فى فبراير الماضى ضمن قلة من



... ولابد للقيد أن ينكسر



مهما طال الزمن وزادت الأحزان ... سنعود

رموز النحت المصرى المعاصر .

وفجأة اكتشف أن أمامه مجموعة من الاسكتشات الخطية السريعة على الورق كان يترجم بها إحساسه العضوى بما يجرى كل يوم خلال مشاهدته للتليفزيون ، رسمها بخطوط بسيطة موجزة تقارب الواقع ، عن أبطال الحجارة وجنازات الشهداء والأمهات الثكالى وحاملى الجرحى وبوابات المسجد الأقصى ، إلى جانب تخطيطات من وحى خياله لنسور تنشر أجنحتها محلقة فى الفضاء ، يتشابك ريشها مع وجوه البشر وأذرعهم مثلما كانت تتشابك غصون الأشجار فى تماثيله الخشبية السابقة ... هنا ومضت الفكرة فى ذهنه : لماذا لا ينفذ هذه الرسوم كما هى على مسطحات خشبية بأسلوب النحت البارز ، بدلا من تجسيد كتل نحتية فى الفراغ ؟ ... إن ما ينشده اليوم ليس عملا فنيا معقدا يوضع فى المتحف ولا يتواصل معه غير قلة تعد على الأصابع ، بل يصبو إلى تسجيل شهادة حية يخطها بالأزميل على ألواح الخشب ، شهادة يمكن أن تراها الجماهير فى أى مكان فتتواصل معها وتتفاعل مع شحنتها التعبيرية .

هكذا عزم أمره ، ولم يبق على موعد المعرض غير ثلاثة أشهر ، وأحضر نوعا من ألواح الخشب اللينة نسبيا بالنسبة لضربات الأزميل ، واندمج فى عمله الفنى يسابق الزمن ، مدفوعا بقوة تعبير عارمة تصل إلى حالة الحمى ، لا يدرى خلالها ليلة من نهاره ، ولا يسمح فيها بنصيب لراحته ، وما حاجته لراحة الجسد فيما يشعر بتوقد الروح والوجدان ، وتتواصل

أمامه الأحداث كل يوم عبر أجهزة الاعلام لتضيف إليه توقدا كلما وهنت قوته ، وكانت تطوف بمخيلته أيضا صور المنحوتات البارزة على جدران المقابر المصرية القديمة التى أبدعها أجداده الفنانون القدماء ، وهى تحكى قصص المعارك والبطولات دفاعا عن الأرض والمقدسات ، ومشاهد الطقوس الدينية والحياة وما بعد الحياة ، فصارت تلك مثله الأعلى الذى يتوخاه وهو يدق إزميله على خد الخشب ، فينساب رقيقا سلساً ، وكأنه ينساب فوق عجينة طرية .

هكذا اتخذت لوحاته النحتية سمتاً ملحميا أسطوريا برغم واقعيتها المباشرة فلأم الثكلى الملثمة تحتضن وليدتها الشهيدة التى لم يتجاوز عمرها شهورا ، كيانا رقيقا هشا كغصن ذابل ، فيما تبدو الأم شامخة فوق الألم بوشاح أسطورى يحلق مع العاصفة ، ويدها المرفوعة بقوة علامة احتجاج صامتة ضد العدوان ، وبقية جسمها لا وجود لها أسفل جسد الطفل الشهيدة ... فما من لمسة تستحق أن تضاف إلى العمل بعد هذه البراءة المغتالة !

وجسد الشهيد - فى لوحة أخرى - يبدو مكفنا كمومياء فرعونية ، ومن تحته رماة الحجارة فى خطوط رأسية كجذع شجرة تفرعت فى كل اتجاه ، فيما تودع الشهيد ثلاث حمامات باكية تطل عليه من طاقة علوية ، ويرفرف فوق جثمانه طائر منشور الذراعين مثل حورس .

وفى عمل آخر تتشابك أجنحة النسر كحروف الكتابة العربية المتداخلة ، أو كمجموعة من الأيادى والأصابع المتشابكة رمزا للعروة الوثقى التى تجمع المجاهدين الصابرين دفاعا عن الحق .

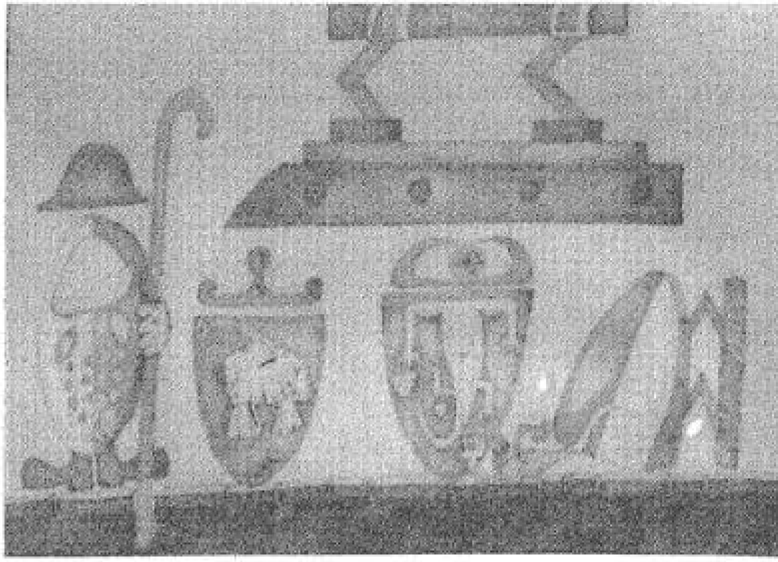
وإذا كانت نسبة التعبير الواقعى المباشر فى كثير من أعمال المعرض قد طغت على نسبة الإيحاء والاختزال والتحليل المبتكر للشكل الواقعى برؤية حديثة ، فيمكننا القول أنه .. بالإضافة إلى عدم كفاية الوقت لنضج التجربة ، بإحالة المرئى والمعرفى إلى خلق جمالى مستقل عن الواقع وغير مماثل له .

فإننا ينبغى أيضا أن نعطى للفنان حقه أحيانا فى تبليغ رسالته بأبسط صيغة ممكنة إلى جمهور عريض مختلف عما اعتدناه ، وما أشد حاجتنا إلى كسبه إلى ساحة التذوق التشكيلى بغير تعقيدات الشكل الجمالى الحديث .

تحت المكواة الحديدية

وفى اتجاه التزام الفنان بموقف فكرى مما يحدث على أرض الواقع المعاصر ، يختار الفنان د . مصطفى يحيى - الأستاذ بمعهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون - من خلال معرضه المقام بقاعة مايكل أنجلو بشارع ٢٦ يوليو ، قضية الساعة على صعيد العالم اليوم .. وهى قضية العولمة ، أو هيمنة القطب الأوحد على مصائر العالم وقولبته فى قالبه ، وكيف يفرض هذا القطب أنماطه على ثقافات الشعوب وفقا لمقاييس مصالحه ، كى يجعل من البشر فى كل مكان مجرد كائنات استهلاكية لما ينتجه ، مطيعة لتوجيهاته ، دائرة فى فلك سياساته .

وتتميز لوحات المعرض - التى نفذ أغلبها بالحبر الأسود وحده ، وأقلها



المكواة العظمى للفنان مصطفى يحيى



تجريد الفنانة فدوى طوقان

بالألوان المائية - بحس السخرية الشديدة ، إلى درجة اقتراب البعض منها من رسوم الكاريكاتير أو الرسوم المتحركة ، بما تتسم به من رمزية واختزال ومبالغة فى رسم الاشكال بأسلوب بسيط ، وتصفيفها بحس أقرب إلى رسم الطفل ، وأيضا لاعتمادها على الفكرة الرمزية والسخرية القائمة على المفارقة ... لكن مصطفى يحيى يتجاوز ذلك كله إلى مستوى التشكيل البصرى المركب فى بناء فنى يتضمن عناصر تثير خيال المتلقى وتجعل منه شريكا فى بناء اللوحة ، بما تحمله تلك العناصر من دلالات ورموز ولغة إشارية ذات مرجعية فى الذاكرة الجمعية محليا ودوليا ، حتى ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بفكرة اللوحة ، كاستطرادات حرة تنبع من باطن الفنان ، مثل السحلية وابن آوى والكف والثعبان ، مما تحفل به الثقافة الشعبية ، هذا إلى جانب العناصر الموظفة مباشرة لخدمة الموضوع مثل أجهزة الكمبيوتر والموبايل والدش والصاروخ والخوذة والدرع والسونكى والعصا وساطور الجزار .. فضلا عن الجسد الانثوى خاصة مناطق الاثارة فيه ، وأنواع البيتزا وسندوتشات الهامبورجر، بيد أن البطل المحورى المهيمن على جميع هذه العناصر هو المكواة الحديدية البدائية التى تسخن فوق موقد الغاز ، لقد باتت هى القاسم المشترك الأعظم فى جميع اللوحات ، رمزا للقمع والتنميط والضغط والقولبة والحكم بالحديد والنار ، وقد جعل الفنان من هذه المكواة شكلا فنيا خياليا متغيرا يجمع بين الفلكلور والآلة العصرية ، حيث نرى وجهها الحديدى المستوى يحمل أحيانا رموزا من الفلكلور (مثل السحلية والكف والثعبان) ويحمل أحيانا أخرى شكل الموبايل أو أزرار الكمبيوتر ، ويستخدم المكواه أحيانا ثالثة بديلا لرأس جندى ، وقد يرتب الفنان أعدادا منها فى صفين طويلين متقابلين كطريق الكباش، حيث تكتسى سطوحها المصقولة بشتى الرموز ، وفى أسفلها تنعكس صورها على الأرض كأنها اصطفت فوق مرآه هائلة أو على طريق فولاذى مصقول بغير نهاية . وقد تتناسل من المكواة الكبرى - الأم - أجيال من الأقزام الحديدية ، تتابع فى أثرها فى طابور منتظم كصغار البط خلف أمهم ، وقد تبدو المكواة الكبرى فى الفضاء مهيمنة على صفوف من القباب والأهلة وأطباق التليفزيون الهوائية وأطبقا البيتزا وسندوتشات الهامبورجر ، فى إشارات ذات مغزى سياسى واضح .

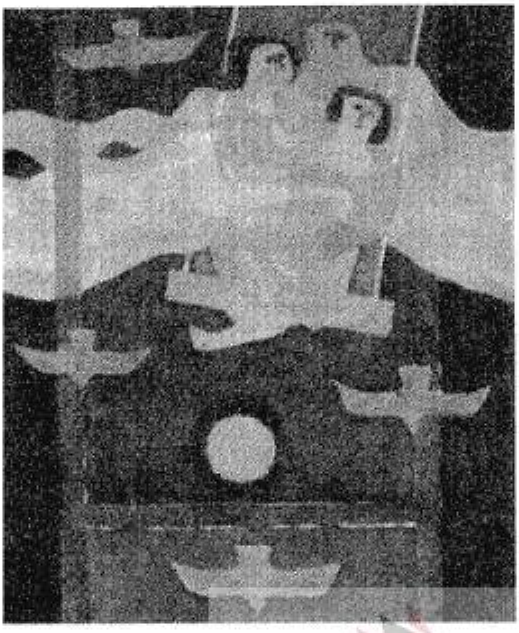
إن أسلوب مصطفى يحيى يقترب من السريالية الشعبية ، مختلف عن السريالية التقليدية فى أنه لا ينبع من مخزون العقل الباطن والغرائز والأساطير ، بل ينبع من مخزون العقل الجمعى بعد أن استوعب عناصر الواقع المعاصر بأدواته التكنولوجية ورموزه التى تحولت إلى منظومة جديدة تستلب روح الانسان بشكل قدرى مطلق يتجاوز مقدرة العقل على توجيه صاحبه ، حيث تبقى إرادة الانسان فى اليد التى تقبض على المكواة الحديدية !

بين التجريد وبرودة العاطفة

وفي مسار يتاخم اتجاه الفنان مصطفى يحيى ولا يشبهه ، أقامت الفنانة الشابة فدوى رمضان معرضها الثاني بأتيليه القاهرة خلال الشهر الماضي أيضا . فهي تعبر بالأبيض والأسود عن فكرة العولمة أو الكوكبية لكن بأسلوب هندسي صارم ، فهي لا تحفل بالدلالات والرموز ، بل يعنيها البناء التجريدي البحت، مستخدمة شكل كرة هائلة تخرج منها شرائط قماشية غامضة ، وتتميز هذه الكرة بحضور بصري رازح يسيطر على الفراغ ، وقد تبدو في فضائها بعض الكرات الصغيرة كأنها تدور في فلكها ، وقد تتدحرج هذه الكرات فوق امتداد أرضي شاسع ، مرصوف ببلاطات متباينة بين الأسود والأبيض، أو تواجه جدرانا شاهقة صماء ..

وأهم ما يميز موهبة فدوى رمضان : جديتها الفائقة وصبرها الذي لا ينفد في استخدام القلم الجاف الأسود وحده كأداة للرسم على الورق ، ما يحقق في النهاية درجة عالية من التوازن الهندسي المحكوم بذهنية باردة لا تعطي للوحتها حياة أو عاطفة ، فضلا عن غموض التوجه الفكري والرمزي لديها ، فربما لا يصل كثير من المشاهدين إلى الفكرة التي أشرت إليها حول العولمة ، هذا إذا كانت واردة أصلا في ذهن الفنانة .

من هنا أرى أن هذه الموهبة التي تملك قدرا كبيرا من الجدية والصبر ، عليها أن تبحث -بنفس الجدية- عن توجه واضح تنطلق من خلاله بحس انساني دافئ، يساعد على تواصلها مع الناس ، حتى لا تنتهي إلى أن تكون لوحاتها نوعا من التمارين الرياضية أو نوعا من الخبرة التقنية الجوفاء لا تعني غير صاحبتها .



المرجيحة للفنان محمود ابو العلاء

في ملكوت السلام المطلق

بين السماء والأرض تدور ملحمة الحياة والموت في أعمال هذا الفنان . فمنذ أواخر الثمانينات كان العالم الخاص لأعمال د. محمود أبو العزم الاستاذ المساعد بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة - هو الانسان وقد تحرر من الجاذبية الأرضية ، وطار محلقا

كالفراشات النورانية الشفافة ، وتواصل مع رفاقه النوارنيين فى علاقات انسانية تتـــراوح بين الحب واللهـــو والغناء والموسيقى وبين طقوس الموت وصيرورة الوجود .

وفى معرضة الأخير بمجمع الفنون بالزمالك خلال شهر مارس الماضى ، جمع مختارات من أعمال مشوار السنين ، وبدت اللوحـات فى تجـانسـهـا واستمرارية عناصرها وأساليبها ، وكأنها وليدة مرحلة واحدة متسقة الرؤية والفكر والنهج الفنى ، ولا أستطيع الجزم بما إذا كان ذلك ميزة أو عيبا ، فهو بلا شك يؤكد بذلك وحدة الشخصية الفنية، كما يؤكد صدقه مع ذاته وامتلاء منابعه بفـيض لا ينضب من الرؤى والحس الشاعرى والتأمل الفلسفى للانسان والوجـود وينم عن درجـة عـاليـة من الشفافية والحلم والسمو الروحى والنزعة الميتافيزيقية لفهم الوجود.. لكنه فى الوقت ذاته – قد يشير إلى نوع من التكرار والجمود، وإلى الخوف من المغامرة الفنية لتجديد مياه جدوله بالدخول فى تجارب إبداعية قد لا تكون مأمونة العواقب، مكتفيا بما حققه من نجاح عبر المضى فى طريق مأمونة ومرضى عنها.

وربما وجدنا بعض الاستثناءات فى مسار رحلته الممتدة هنا أو هناك، مثل مجموعته المستوحاة من أطلال أثرية بالمملكة السعودية (عاد وثمود) وحين كان يعمل هناك لسنوات عدة، وهى لا تتجاوز كثيرا الرؤية البصرية بالمفهوم الأكاديمى للمنظر الخارجى لونا وتكوينا وتحليلا للشكل، أو لوحاته التى استخدم فيها الألوان القوية المتباينة لنفس التكوينات القديمة وبنفس بنائها الفنى، أو فى لوحته الأخيرة المخضبة باللون الأحمر عن الانتفاضة الفلسطينية لكنها تظل تجارب بين قوسين سرعان مما يعبرها للعودة إلى مجراه الرئيسى.

بيد أننى أميل أكثر إلى ترجيح الجانب الايجابى بالنسبة لايقاع التطور الفنى البطئ لديه، محترما قناعته بما يمتلك من مهارة خطية ، وشفافية لونية وجرأة بنائية فى التكوين، محسوبة بحذر شديد، موازنا بين خبراته الأكاديمية الرصينة وبين مفهومه الخاص للتطور والحداثة بنزعة سريالية تعبيرية فإن قدرا كبيرا من الصدق مع الذات إلى جانب قدر أقل من المخاطرة التجريبية المحسوبة، خير ألف مرة من افتعال التجارب التقنية المثيرة للانتباه بغير ضرورة أو احتياج ينبع من أعماق الفنان، بل هى لمجرد إثبات القدرة على مسايرة اتجاهات الحداثة.

يكفى أن أبا العزم فى عدد من لوحاته – يشارف آفاق الاشراق الصوفى، حيث تمتزج روح الانسان بالكون فى ملكوت السلام المطلق مغلفة بحس دينى واضح وتتصالح فى لوحاته الحياة مع الموت ويصبحان صديقين باعتبار أن كلا منهما هو الوجه الآخر لصاحبه، ومن ثم فإن عالم هذا الفنان يمتلك رحابة الفردوس وطرب الدنيا وحلم العاشقين وبلسم المعذبين.

إيقاعات جدارية دافئة

هذا نموذج فذ للإصرار على تحقيق حلم الانسان بأن يكون فنانا، ونموذج

صارخ كذلك للظلم الذى يعانيه صاحب الموهبة الحقيقية لمجرد أنه يعيش فى الأقاليم بعيدا عن العاصمة.. القاهرة لكل من لا يملك وسائط شخصية أقوى من موهبته .. إنه ابن أسيوط الفنان ممدوح سليمان ، الذى نجح أخيرا بعد عشرين عاما من الطرق على الأبواب المغلقة - فى الحصول على اعتراف رسمى من وزارة الثقافة ، بإقامة معرضه بإحدى القاعات الكبرى بمجمع الفنون بالزمالك فى مارس الماضى ، ولعله يفوز أيضا بمنحة التفرغ للفن من الوزارة هذا العام . بعد أن تقدم للحصول عليها من قبل مرارا وتكرارا بغير جدوى !

ممدوح سليمان فنان لا يملك حتى ثمن الألوان والورق الذى يرسم عليه ، فإن مرتبه كمدرس لا يكفى حتى لإعالة أسرته كبيرة العدد التى تقيم معه بالقرب من مدينة أسيوط ، لذا فإن جميع لوحاته رسمها بألوان مائية مما يستخدمه تلاميذ المدارس ، على مساحات لا تزيد على حجم كراسة الرسم المدرسية ، وأذكر أن أول معرض أشاهده له بسراى النصر بالجزيرة منذ عشرين عاما (وكتبت عنه آنذاك) كان منفذا ببقايا منقوع الشاى الممزوج برماد السجائر ، وكم كانت تلك اللوحات بديعة ومعبرة ، بتكويناتها التى تقترب من حس المنشور البللورى المتوهج فى الضوء .

اليوم وقد استطاع الحصول على بعض ألوان الجواش وعلى مساحات أكبر قليلا من الورق ، أطلق ممدوح سليمان العنان لخياله فرسم تكوينات جريئة البناء وحداثية الطابع ، وإن كانت تنأى عن البهجة اللونية (ربما لأنه اعتاد على التقشف أو أنه يخشى نفاذ الألوان الشحيحة منه !) ، فتبدو كل لوحة وكأنها نفذت بلون أو لونين فحسب ، ومع ذلك تبدو غنية وبعيدة الأغوار ، ربما ساعد على ذلك بناؤه لشخصيات راسخة المعمار ، مما يعيد إلى الذهن مباشرة رسوم النحت البارز على جدران المقابر الفرعونية ، وتحف بالشخص - الذى يكاد يقتصر على جسد المرأة المترع بالأنوثة والخصوبة ، تأثيرات لأشكال تجريدية أقرب إلى الكتابات الهيروغليفية .. غير أن السلاسة والعذوبة والرقة المتناهية فى انسياب هذه الخطوط على اللوحة بألوانها الهادئة التى تبزغ من خلالها ومضات ضوء سحرية هنا وهناك ، تنقلنا من عالم التشكيل إلى عالم الشعر والموسيقى معا ، بذلك الإيقاع المتماوج لحركة الخطوط واتصالها فى همس غنائى لا ينقطع ، وأظنه صادقا كل الصدق إذ يكتب فى دليل معرضه هذه الكلمات الدالة:

«.. بمجرد ملامسة الفرشاة تنبثق الألوان فى اللوحة فتقودنى إلى السعادة والإحساس الناعم، إننى أبحث عن الأحاسيس الرفيعة بينما تقتحم الموسيقى الأعمال وتقاسمنى لحظة صدق فى تشكيل الألوان..» .

فلنفتح عيوننا وقلوبنا لهذا القادم الجسور من جنوب الوادى ، بموهبة تؤهله لاحتلال مكانه بين فنانى جيله .

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

رواية فتحي غانم «أحمد وداود» تنبأت بالانتفاضة

بقلم
مها صالح

تناولت ثلاث روايات مايجرى اليوم على أرض فلسطين، كيف بدأت المأساة، وكيف تحول الوطن إلى سجن... ومعنى العودة إلى الوطن من المنافي.

هذه الأعمال الأدبية هي «أحمد وداود» لفتحي غانم، و«يوميات صامد» للكاتب رجا شحادة، و«رأيت رام الله» السيرة الذاتية للشاعر مريد البرغوثي.

تمر في منتصف هذا الشهر أربع وخمسون سنة على قيام «إسرائيل» وبداية زمن الشتات الفلسطيني ورغم مرور أكثر من نصف قرن على بداية المحنة فإن الروح الفلسطينية التي أثخنتها الجراح والضغوط، لاتزال تبدي أروع مظاهر الصمود والمقاومة.

وإذا كان الفدائيون الفلسطينيون يكتبون تاريخا جديدا بمداد من دمائهم، بل وأرواحهم، فلا أقل من أن نبذل نحن بعض الجهد في محاولة فهم ماذا وكيف ولماذا حدث ماحدث، ومايحدث؟!.

ومحاولة الفهم تستعين عليها كاتبة هذه السطور بثلاثة أعمال يحاول كل منها أن يرسم صورة لما حدث ومايحدث في داخل الأرض المحتلة: كيف بدأت المأساة، وشكل الحياة في الوطن بعد أن تحول إلى سجن ثم مذاق العودة للوطن بعد اغتراب في المنفى لمدة تزيد عن ثلاثين عاما.

الكتب الثلاثة هي: رواية «أحمد وداود» للروائي فتحي غانم، ثم «صامد : يوميات صامد في فلسطين المحتلة» للمحامي الفلسطيني رجا شحادة، وأخيرا السيرة الذاتية للشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي كما قدمها في كتابه «رأيت رام الله».

أحمد وداود

تتعرض رواية فتحي غانم لمرحلة الترقب والاحتقان التي سبقت إعلان قيام الدولة الصهيونية في مايو ١٩٤٨.

وذلك من خلال حكاية الشابين أحمد وداود، وينتمي أولهما إلى أسرة مسلمة تسكن قرية د. القريبة من مدينة القدس بينما الثاني هو ابن ساعاتي يهودي يعيش وأسرته في القدس نفسها، وتجمع



الصداقة بين أحمد وداود بينما يجمع الحب بينه وبين سارة، أخت داود وهي فتاة جميلة وذكية وطموحة، لكن شكل الحياة في المنطقة، ومعه علاقة الصديقين، يتغير تبعا للتغيرات التي تكتسح العالم في سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

إن شوكت الأنصاري، أغنى رجال القرية وأقوامهم، يبيع ضيعته للدكتور اليهودي روزنبرج، ويغادر البلاد تاركا وراءه الشراكسة، رجاله الذين كان يعتمد عليهم في ترويع الأهالي وابتزاز أموالهم، أما صاحب الضيعة الجديد فإنه يحولها إلى معسكر، كوبيتزم، يزعمون أنه مخصص لتعليم الفتيات اليهوديات، الزراعة وغيرها من الأعمال، بينما الحقيقة أنه لتدريب الشباب اليهودي، فتيات وفتيان علي القتال باستخدام مختلف أنواع الأسلحة، بالإضافة إلى التشبع بالفكر الصهيوني العنصري، ومن هذا المعسكر وأمثاله سيخرج الوحش الصهيوني الذي سينهش بمخالبه وأنيابه المدن والقرى العربية تمهيدا لقيام الدولة الجديدة: اسرائيل! وتنضم سارة إلى هذا المعسكر،

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

على غير رغبة أهلها، بينما يسافر داود إلى باريس، تحت إلحاح خاله يوسف، بهدف تعلم اللغة الفرنسية التي يعتقد أنها ستهيىء له أن يصبح من علية القوم. وفي باريس يقع داود في قبضة جنود النازي الذين يرسلونه إلى أحد المعتقلات، حيث يمر بتجارب مرعبة وهو يرقب زملاء السجن من اليهود الأوربيين والموت يغيبهم واحدا وراء الآخر... وينجو داود من الإعدام بمعجزة، ليولد من جديد وقد تلبسه الشعار الصهيوني الشهير. «أنت تحارب، فأنت موجود».

وانطلاقا من هذا المبدأ يعود داود إلى فلسطين ليشارك في العمليات الإرهابية للجماعات الصهيونية، وبالتحديد عملية تفجير فندق داود التي اختلطت من جرائها اشلاء رجال المخابرات الإنجليزية بدمائهم بأوراق ملفاتهم، يعود داود إلى فلسطين ليجد والده شالوم قد مات حسرة عليه أما الخال يوسف فإنه تحت وطأة الغضب والقهر، وخوفا من المذبحة التي يشاع - إذكاء لنار الفتنة - أن العرب يدبرونها لليهود، ينضم إلى جماعة الارغون الصهيونية تحت إمرة البولندي مناحم بيجين، وتنتهي الرواية نهاية مفجعة هي اقتحام الجماعات الصهيونية المسلحة للقرية د.، ويكون في طليعة هؤلاء المقتحمين داود وسارة أما أحمد فإنه يسقط شهيدا برصاصة يهودية في ظهره وهو يحاول دخول القرية للإطمئنان على أهله. ولما يعلم أن أفراد أسرته جميعا قد تعرضوا للقتل، بل الذبح والتمثيل بجثثهم في ذلك اليوم المشئوم.

بين التاريخ والفن

الرواية تدور حول حدث تاريخي واقعي هو مذبحة دير ياسين، ويحاول المؤلف من خلال التناول الفني أن يقدم تفسيرا لسبب وكيفية حدوثه وحتى نضع ذلك الحدث في سياقه التاريخي نعود إلى سجلات التاريخ التي تقرر أن عدد اليهود في فلسطين عند الاحتلال البريطاني كان ٥٦٫٠٠٠ أي بنسبة ٩٪ من عدد السكان ثم تحول هذا العدد إلى ٦٠٥٫٠٠٠ يهودي عند انتهاء الحماية البريطانية عام ١٩٤٨، أي ٣٠٪ من السكان البالغ عددهم مليون نسمة، وذلك بطبيعة الحال نتيجة للهجرة التي سمحت بها قوات الانتداب رغم احتجاج العرب وثوراتهم.

أما مذبحة دير ياسين فقد كانت واحدة من أربع وثلاثين مذبحة ارتكبها الصهاينة الأوائل فى فلسطين.

نصف هذا العدد وقع أثناء الانتداب، دون أن تتدخل القوات البريطانية لحماية الأهالى، والنصف الآخر تم بعد إعلان قيام الدولة، وقد كانت هذه المذبحة من العلامات الفارقة فى خطوات التمهيد لقيام الدولة اليهودية.



لقد نجحت أحداث المذبحة فى بث الرعب فى نفوس العرب بينما زادت الصهاينة ثقة فى أنفسهم وسهلت لهم مهمتهم، حتى أن أحدهم، أظنه مناحم بيجين، أعلن فى مذكراته أن القوات الصهيونية أكتسحت القرى العربية بعد هذه المجزرة بسهولة شديدة «كما يمر السكين فى قطعة من الزبد».

ويؤكد فتحى غانم من خلال الرواية أن العرب فى فلسطين، يهودا ومسلمين ومسيحيين بالطبع، كانوا يعيشون حياة عادية تربطهم فيها علاقات اجتماعية وتجارية مثل تلك التى ربطت بين والدى أحمد وداود، ثم بدأت مياه بحيرة الود تتعكر بفعل المهاجرين الصهاينة الذين نجحوا فى زرع بذور الشك فى نفوس المسلمين واليهود على حد سواء، حتى بات كل طرف يتربص بالآخر، منفذا، وهو لايدرى، الخطة المرسومة التى ستعجل بالنهاية الدامية، وقد كانت نفوس اليهود، العرب منهم والمهاجرين، كما صورتهم الرواية، مهيأة لمثل ذلك التحول فى المشاعر، كرد فعل لما تعرض له اليهود على أيدى النازى، أو على حد تعبير الرواية ص ٨٩ «المذعورون فى أوربا يستأسدون فى أورشليم»، ونظنه من الضرورى هنا أن نذكر أن بعض المؤرخين المعاصرين يؤكدون، بناء على معلومات عديدة بعضها مستقى من مذكرات صهاينة معروفين، أن تعاونا وثيقا نشأ بين السلطات النازية وبعض آباء الصهيونية كان من نتيجته أن نجا مئات من أثرياء اليهود وزعماء الصهاينة من أخطار الحرب ومآسى معسكرات الاعتقال بينما أرسل الآلاف من فقراء اليهود إلى تلك المعسكرات، وذلك بغرض تكريس فكرة العداء للسامية

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

وبالتالى الدفع بالآلاف المؤلفة من اليهود تحت وطأة الفزع من مصير إخوانهم، إلى ترك أوطانهم الأصلية والهجرة إلى أرض لايعرفونها، بزعم أنها ستكون دولة اليهود الآمنة.

لماذا هزم العرب؟

يحق لنا، ونحن نقلب صفحات التاريخ، أن نحاول الإجابة على ذلك السؤال الموجع: لماذا هزم العرب فى تلك المواجهات؟

تبعا لرؤية فتحى غانم فى «أحمد وداود» فإن العرب فى فلسطين لم يحسنوا قراءة الأحداث أى أنهم لم يستوعبوا المقدمات وبالتالى لم ينجحوا فى التنبؤ بالنتائج، أو حتى تصور شيئا قريبا منها، لقد أسرّ «شالوم» اليهودى لصديقه المسلم «سالم» (لاحظ دلالة الإسمين) أن شباب الصهاينة المهاجرين يتعمدون الايقاع بين العرب والشراكسة، لكن سالم لم يعلن ذلك، خوفا على مصالحه التجارية مع د.روزنبرج وغيره من اليهود والعرب. وكانت النتيجة أن هاجم الشباب الصهيونى الشراكسة فى ديارهم وأعملوا فيهم القتل حتى أبادوهم (ص ٧٥)، ويفشل العرب للمرة الثانية فى استشعار الخطر الذى يحدق بهم، فلا يدركون أن القضاء على الشراكسة ماهو إلا مقدمة للقضاء عليهم، وفيما بعد يدرك سالم أن وحشا مخيفا يجرى تربيته داخل المعسكر الصهيونى (الكوبيتزم) حتى أنه يقول لإبنه «أحمد» «من يذهب هناك (الكوبيتزم) لايعود ...

وإذا عاد يحمل معه السلاح ولايتعامل معنا إلا بالرصاص» (ص١٧) لكن بداية الفهم هذه لاتقود سالم إلى التقدير الصحيح لمدى خطورة الموقف، إنه يتصور، مخطئا، أن البعد عن مواطن التوتر سيكفل له ولأسرته الأمان، هاهو يحذر ابنه من الانضمام إلى الشباب العربى الثائر، من أمثال عبدالقادر الحسينى، قائلا: لاتتورط.

لاسبيل لأن نحافظ على حياتنا: حياة أمك واخواتك وعيالنا إلا بالابتعاد .. إننا لانستطيع أن نعيش معهم فى سلام «الرواية ص ٢٨» لكن اختيار سالم للمسالة لم يكن عن جبن وتخاذل، وإنما كان ببساطة اتباعا لمن كانوا يمثلون السلطة فى القرية وفى غيرها من المدن

والقرى العربية.

لقد كان هؤلاء يمارسون مايعتبرونه مناورة سياسية يحاولون فيها تهدئة الثائرين، بينما الحقيقة أنهم كانوا يساعدون، دون أن يدروا، فى إحكام قبضة المهاجرين الصهاينة حول العرب (الرواية ص ٢١).

أما الفتى أحمد فقد كان حائرا بين أبيه الذى يدعوه إلى البعد عن المشاكل من ناحية وبين الشباب الثائر الذى لايرى بدأ من المقاومة المسلحة من ناحية أخرى.



ويختار أحمد أن يسير فى الطريق الثانى، وتهيىء له علاقته بأحد قادة المجاهدين، (عبدالقادر الحسينى)، أن يفهم كثيرا مما يدور حوله.

يدرك أحمد أن قومه قد شاركوا بخضوعهم فى صنع المأزق الذى هم فيه «لقد تعودنا أن نخضع .. أن نطيع، وها هم الشراكسة أصحاب السياط المسلطة علينا يفقدون وظيفتهم، كانوا يخضعوننا بدعوى حمايتنا .. ولكننا اليوم لانجد من يحمينا، ولانعرف كيف نحمى أنفسنا» (الرواية ص ٧) وفى السياق نفسه إدانة الذات يحكى عبدالقادر لأحمد حكاية ذات دلالة، إنها حكاية مسعود الخضرة الذى حارب الإنجليز لأنهم سلموا اليهود سلاحا وذخيرة فوشى به المسعود فانتقم له شقيقه بقتل المسعود، واستمر مسلسل الانتقام بينما نسى الجميع العدو المتربص اليهود ومن ورائهم الانجليز. (الرواية ص ٩٨).

وكان استشهاد أحمد وعبدالقادر مصيرا متوقعا، فسقط عبدالقادر فى القسطل وسقط أحمد بعده بساعات على مشارف دير ياسين لقد سقطا، ومعهما آخرون، فى مواجهة جحافل الصهاينة التى كانت تفقهم عددا وعدة، وإن لم تفقهم شجاعة، وإيمانا بحقهم فى الأرض، هاهو عبدالقادر يخاطب أحمد وهما مقبلان على الموت قائلا:

«سوف نفعل كل ما نستطيع أن نفعله

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

.. سوف تخلط أجسادنا ودماءنا بهذا التراب .. وننتظر هنا .. (ننتظر) عودتنا (الرواية ص ١١٠).

لقد حاولوا مقاومة المد الصهيوني بالسلاح، لكن الأمور لم تكن في صالحهم، كان السلاح شحيحا والحصول عليه متعذرا بالنسبة لهم، بينما كان يتدفق بسهولة على الصهاينة من المعسكر الانجليزي بقيادة الميجور وينجت الذي لايخفي تعاطفه معهم، (الرواية ص ١٠٣، ١٠٥) بل أن الأمر تجاوز التعاطف إلى التواطؤ الصريح، فالميجور يقوم بتدريب الشباب الصهيوني، وزاد على ذلك أن قام بتشكيل ما أسماه «فرق الليل الخاصة» لتقوم بمهام تجسس ليلية لصالحهم، وكان من نتيجة هذا النشاط «التجسس» أن فوجيء عبدالقادر ورفاقه بما يقرب من ثلاثة آلاف مهاجم يقتحمون موقعهم فجاة، وقد كانوا يحسبون أن عددهم لايتعدى المائتين. (ص ١١٢ - ١١٤).

ولعله من المفيد أن يطلع القاريء على مايمكن اعتباره شهادة شاهد عيان على أحداث تلك الفترة، وهو د.حسان حتحوت الذي شارك بالعمل كطبيب في الهلال الأحمر في فلسطين قبل وأثناء حرب ١٩٤٨، ففي كتابه «يوميات طبيب مصري: فلسطين النكبة الأولى ١٩٤٨» الصادر عن دار الهلال في يوليو ١٩٨٨ يحدثنا المؤلف عن التفاوت في مستوى التسليح بين العرب واليهود فيؤكد ص٢٢ «أن هذا التفاوت يرجع إلى أن الإنجليز كانوا يحكمون بالإعدام على من توجد لديه رصاصة (المقصود بالطبع العرب)، هكذا جاء قرار التقسيم على حد قول د.حسان «والسلاح عتيد لدى اليهود، جديد على العرب» لقد طالت أسلحة الصهاينة المدنيين العرب في كل مكان: في المسجد وفي المستشفى وفي الحقول حيث تطاردهم طلقات الرشاشات ودوي القنابل والألغام المزروعة. (ص ٣٠ - ٣٢) وما أشبه الليلة بالبارحة! ورغم قلة السلاح في أيدي العرب وبدائيته في مواجهة أسلحة أعدائهم فقد أبدى المقاتلون الفلسطينيون شجاعة لاتنكر، يحدثنا د.حسان حتحوت مثلا عن معركة الرملة حيث رفض المحاربون داخلها الإستسلام للقوات الغازية وظلوا أياما

يردون القصف حتى نفذت ذخيرتهم، عندئذ فوجئوا بنجدة تصلهم من بدو شرق الأردن الذين اكتسحوا القوات الصهيونية بشجاعة مدهشة رغم أن تسلحهم لم يتعد البندقية والسكين، التى يسمونها الشبرية، فقد كانوا يرونه عارا أن يتسلح الرجل أكثر من اللازم! (ص ٦٨-٧٣) لكن الكثرة تغلب الشجاعة فى بعض الأحيان، خاصة إذا عانت الأخيرة من عدم التنظيم وقصر النفس بينما دُعمت الأولى بالتواطؤ بل والخيانة! وهذا ما كان فى مايو ١٩٤٨.

ماذا عن المستقبل

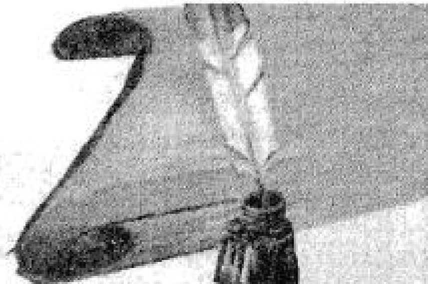
لكن رواية «أحمد وداود» لاتخلو من الأمل فى المستقبل المؤلف يؤكد أن أجراس العودة لابد ستقرع، ولكن متى؟!

هكذا نفهم من أحاديث عبدالقادر الحسينى مع زملائه، ومن إشارات أخرى يذكرها المؤلف فى الفصل الختامى للرواية عن فلسطينيين لم ينسوا أرضهم ودورهم رغم حياتهم فى المنفى وهم يعدون العدة للعودة إليها.



إن التشابه بين مايحدث اليوم وماحدث بالأمس القريب لهو أوضح من أن يحتاج إلى تأكيد. إنها مرة أخرى المغامرات العسكرية الإجرامية التى لاتفرق بين مقاتل ومدني ولاتتورع عن قتل الأطفال والجرحى، وذلك تحت مظلة دولية من العجز والتقاعس والتواطؤ.

لكن هذا لايعنى أن التاريخ يعيد نفسه. لعل رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون يتصور أنه قادر على إعادة الأمجاد الدموية لآبائه الصهاينة الأولين فى حرب ١٩٤٨، لكنه لايدرى أن خمسين عاما من الحياة فى جحيم سجن الوطن أو سجون المنفى قد شحذت قدرة الفلسطينيين على الصمود والمقاومة، حتى أن شهدائهم يطلبون الموت بخطى ثابتة كأنهم ذاهبون للنزهة والترويح! عن هؤلاء الصامدين والمنفيين سيكون حديثنا القادم من خلال كتابى «صامد · يوميات صامد فى فلسطين المحتلة» و«رأيت رام الله».



تجربتى الشعرية

لمحات من تجربتي مع الشعر

بقلم
محمد إبراهيم أبو سنه



الشاعر
محمد إبراهيم أبو سنه

كما تتكون عناصر الطبيعة من الماء والهواء والنار والتراب يتشكل الشعر من اللغة والموسيقى والخيال والتجربة. وإذا كان الخيال هو القوة المحركة للإدراك الإنسانى كما يقول الشاعر الانجليزى وليم بليك فإن ما يحرك الخيال هو وقوع الحادثة الشعرية، قد تكون هذه الحادثة هى الحب أو الحرب أو الموت أو الشوق الحارق أو التأمل الخالق، لقد كانت الحادثة الشعرية الأولى فى حياتي هى وفاة والدتى وأنا فى السابعة من عمرى. ألقتنى هذه الحادثة فى مفترق طرق الوجود، وكان اغترابى عن قريتى التى ولدت فيها بداية الكشف عن الذات واختبارها فى لحظات الخطر المحدقة بصبى فى العاشرة لايرى فى العالم إلا صورة لما يتمناه لا ما يشاهده بالفعل...



أحمد شوقي



حافظ ابراهيم

حملت فطرة الريفي الساذج إلى طرق المدينة الوعرة . كنت أحاول الاختباء في معطف الوهم حتى فاجأني الخيال الشعري مع اندلاع الثورة في عام ١٩٥٢، رأيت صورة رائعة لميلاد أمة عبر رفض شعبي للاستبداد الملكي والاستعمار الإنجليزي وكانت الأحلام الكبرى تتناسل عبر الأناشيد والهتافات والأهازيج وانخرطت في المعزوفة الجماعية قبل أن يتحقق لي وعي مستقل بموهبتي الشعرية، يبدأ الشعر بالالتفات إلى الذات في فترة المراهقة ، حيث تتفجر القوى العضوية والحيوية طامحة إلى التغيير والتحقق. ولكن اهتزازي الأول لسحر الشعر كان وسط جماهير الطلاب الذين اندفعوا في مظاهرات حاشدة يؤازرون الثورة.. كانت مظاهر البؤس التي صبغت رؤيتي الوجودية خلال السنوات العشر الأولى من حياتي في قرية الودي مركز الصف محافظة الجيزة ، تدفعني إلى التعاطف مع هؤلاء البؤساء الذين لا يجدون حتى من يصغي إليهم فضلاً عن من يمنحهم العون، وإذا كان مشهد الوطنية قد ألهمني أولى أهازيجي الشعرية ، فإن الحب الذي كان بمثابة معادل للوجود بأكمله قد رافق خطواتي الأولى في هذه المدينة التي كانت تستعصي على الفهم والترويض ، لقد وقعت في غرام الفتاة التي أطلت بوجهها الجميل من نافذة البيت المجاور وسرعان ما انخرطنا معاً في إشارات طفولية ، تبادلنا بعدها عبارات الإعجاب ثم المشاركة في لهو بريء كان يدفعني إلى التمارض وعدم الذهاب إلى المدرسة ، التي جئت إليها من القرية لأحفظ القرآن الكريم تمهيداً لدخول معهد القاهرة الديني الأزهري.

المشاعر الفوارة

وفي الأزهر كانت أحدث النصوص الشعرية هي تلك التي كتبها شعراء العصر الأموي والعباسي ، لقد حاولت أن أمتطي عربة الخيال في رحلات مكوكية إلى هذه العصور التي كنت أتصورها وطن الشعر الخالد، ورغم حنيني إلى هذا الماضي الذهبي إلا أن الحماس الثوري الذي رأيته يتدفق أمامي قد اختلط بالحمية الدينية في وجداني، كما أشعلت قريحتي قصائد شوقي التي تغنت بها أم كلثوم وبعض القصائد الوطنية الهادرة الأخرى التي ملأ المذياع بها الأسماع وشحن القلوب والهمم، من أجل وطن عزيز يحطم أغلال العبودية ويرسم طريقا للخلاص ويعتمد على تراث حضاري متعاقب الحقب متآزر الحلقات . أحسست في تلك الحقبة أن الماضي المجيد يمكن أن يشد أزر الحاضر ويدفعه إلى الأمام ويقويه.

البدايات

من هنا ومنذ اكتشافى لهاجس الشعر فى نفسى فإننى هدمت الحواجز بين الأزمنة ، لقد انهمكت تحت الحمى الثورية أو الدينية أو العاطفية فى كتابة مطولات شعرية ركيكة أحمد الله أن أحدا لم يطلع عليها وإلا نهانى للأبد عن قرض الشعر.. بعض هذه المطولات يذهب ناحية امرىء القيس فى طللياته وغزلياته وخمرياته، وبعضها الآخر ينعطف نحو شوقى وحافظ ابراهيم خاصة الروائع من أمثال «ولد الهدى ونهج البردة وسلوا قلبى» لشوقى ومصر تتحدث عن نفسها لحافظ.. وكلما اقترب بى الشباب من وهج الفتوة كان انعطافى يتزايد ناحية شعراء الغزل العذرى جميل بن معمر وكثير بن عبدالرحمن وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح، كنت أعيد بناء عوالمهم وشخصياتهم وعصورهم فى وجدانى وكانت صحراء القرية المسرح الملائم لإعادة إنتاج قصصهم العاطفية بطريقة تجعلنى واحدا منهم . لقد توقفت كذلك أمام شعر عمر بن أبى ربيعة بعد أن قرأت قصيدته الرائعة «ليت هندا أنجزتنا ما تعد»، بل لقد توهمت أن روح ابن أبى ربيعة قد حلت فى جسدى وربما كان تناسخ الأرواح قد أصابنى بهذا الانتقاء من بين آلاف الشعراء.

الحب والموت

لقد أصبح الحب والولع بالمرأة يرسخ إيمانى بالحياة ولكن ذكريات القرية التى تطفو مخلفة رمادها الحزين فى العيون كانت تقودنى دائما إلى هذه المشاهد الفاجعة، حيث كنت وأنا طفل صغير أشارك فى تشييع الجنازات طبقا للعادات والتقاليد الدينية، كان إنزال الميت إلى قبره ثم الانصراف بعد ذلك تاركين الموتى لمصيرهم يغمر قلبى بالكآبة والغم والإحساس بهوان الحياة، وعشت منذ تلك اللحظات الدامعة أتمنى أن لا أدفن حين أموت، وربما اشتهيت أن يكون موتى فى البحر أو الجو حتى لا أترك وحيدا فى هذه البرية الموحشة .. هكذا كانت الصحراء مسرحا لهذه الثنائية الحب والموت . وظلت ثنائية الفرح والحزن تسيطر على معظم شعرى . لقد كان شعر هذه المرحلة تقليديا غارقا فى احتذاء شعراء الماضى . كتبت عشرات القصائد الدينية والغزلية تحت تأثير الخيال والوهم معا . وبينما كنت غارقا فى أسفارى إلى الماضى كان الواقع الثقافى فى مصر فى الخمسينيات يشهد مع تفجر الثورة ميلاد الوطنية والأحلام القومية وآمال الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية، كان وعى شعرى جديد قد اقتحم الواقع وبدأ يؤسس لحركة شعرية ثائرة على جمود الكلاسيكيين ساخرة من أحزان الرومانسية، كان فرسان الواقعية يوجهون سهامهم الجارحة إلى رموز الكلاسيكية والرومانسية بينما كانت المؤسسات الثقافية تقف مناصرة القديم مشككة فى الجديد . لقد اصطدمت الرؤية الرومانسية والتقليدية التى حملتها قصائدى الأولى بالرؤى الجديدة التى حملتها مدرسة الشعر الحديث، وهى التيار الواقعى الذى كان صورة للواقع السياسى وكان الخطاب المباشر للنماذج الأولى لهذا التيار قد

شجع الشعراء الشباب على عدم العناية بالصياغة الفنية، وكان تأثير قصيدة عبدالرحمن الشرقاوى «من أب مصرى إلى الرئيس ترومان» كاسحا حيث حملت مضمونا سياسيا مثيرا وصياغة شعرية جديدة قريبة جدا من خصائص النثر.



عبد الله الطوخي

تحول جذرى

حدث التحول الجذرى في موقفى بعد أن تعرفت على من أسميهم «شعراء القلعة» وهى المجموعة التى كانت تجتمع فى منزل الشاعر مجاهد عبدالمنعم مجاهد فى شارع «المدفر»، بحى القلعة، وهناك التقيت بكمال عمار وجيلى عبدالرحمن وفاروق منيب وعبدالله الطوخي وعلى شلش وكامل أيوب وبدر نشأت وآخرين صمتوا أو رحلوا، ولفت انتباهى وأنا الأزهرى الغارق فى العصور الأموية والعباسية تردد أسماء شعراء من أمثال لوركا وبابلو نيرودا وأراجون وبول الوار وناظم حكمت وسمعت عن شعراء عرب لم أكن أعرف عنهم شيئا مثل عبدالوهاب البياتي وصلاح عبدالصبور وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة، ورغم سخرية شعراء القلعة من قصائدى الغارقة فى الرومانسية والبنية التقليدية إلا أنهم قادوا خطاى إلى عالم جديد تماما خاصة كمال عمار الذى دلنى على مبنى دار الكتب، وتعرفت عن طريقهم إلى مقر رابطة الأدب الحديث حيث عرفت محمد مندور ومحمود أمين العالم ومصطفى عبداللطيف السحرتي وعرفت محيى الدين فارس ونجيب سرور وجليلة رضا، وشعراء من العراق والشام هلال ناجى وعاتكة الخزرجي. كان ديوان قرارة الموجة للشاعرة نازك الملائكة قد قادنى إلى كتابة القصيدة الحديثة وقد نشر لى جيلى عبدالرحمن قصيدتى الأولى فى ملحق جريدة المساء الأدبى فى فبراير ١٩٥٩ بعنوان «القارة الغاضبة» وكانت لحظة الحقيقة حيث أصبحت أدرك مدى خطورة أن تكون شاعرا . بدأت تجاربى الشعرية الحديثة بقصيدة سياسية مثيرة هى «بعض الوقت يا مستر دلاس» هاجمت فيها السياسة الأمريكية فى عهد جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية، ولكننى أدركت سخافة الكتابة بهذه الطريقة التى كانت ستقودنى حتما إما إلى النثر أو إلى الصمت ..

مدرسة الشعر الجديد

كانت النماذج الشعرية التى تلقى فى المنتديات الأدبية وتنشر على صفحات المجلات وتصدر فى الدواوين القليلة التى تأتى من بيروت، تحظى بدعم نقدى كبير من جانب الشعراء أنفسهم الذين كانوا يشتبكون فى معارك وآراء ومعارضات ومناقشات على صفحات مجلة الآداب البيروتية، وقد خلق هذا الوعى ركيزة قوية استند إليها الشعراء الجدد فى الترويج لنماذجهم الشعرية وطرح قضاياهم الثقافية وآرائهم الفنية كنت قد شققت طريقا إلى عالم الرومانتيكية الانجليزية وهم الثلاثى الشهير «بيرون وشيلى وكيتس» وكان لترجمة أسفار تشايلد هارولد لبايرون بصياغة عبدالرحمن بدوى

أثر عميق في نفسي وشعري تماما كالأثر الذى أحدثه كتاب «بروميثيوس طليقا» وقصيدة «مرثية أدونيس» فى رثاء كيتس للشاعر شيلي، والترجمة الرائعة التى قام بها لويس عوض وكذلك مقدمته الشاملة التى ألقت الأضواء على تطور الحركة الرومانسية فى الشعر الانجليزى فى القرن التاسع عشر، كما كان للمختارات التى ترجمها محمد عبدالوهاب المسيرى ومحمد على زيد من الشعر الرومانسى أثر أيضا فى خلق مؤثر عميق فى وجدانى ، من هنا جاء ديوانى الأول «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» متأثراً بالتيار الواقعي لمدرسة الشعر الحديث، كما حمل فى ثناياه أيضا بعض الرؤى الرومانسية ولمسات من المذاق الكلاسيكي. لقد صدر هذا الديوان فى عام ١٩٦٥عن دار المكتبة العصرية ببيروت وقوبل بترحيب حذر من جانب عدد من النقاد من أمثال الدكتور عبدالقادر القط، الذى كتب فى مجلة «روزاليوسف» مقالا تساءل فى مقدمته حول الجديد الذى أضافه الديوان إلى ما استقر من سمات فنية لمدرسة الشعر الحديث، حيث قال: «وديوان الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» يواجهنا بذلك السؤال لا لأنه تنقصه الشاعرية أو الإحساس المرهف أو القدرة على التعبير والتصوير، فكل هذه خصائص واضحة فيه، ولكنه يفرض لأول وهلة على القارىء الشعور بسيطرة الشكل الجديد بكل ما تبلورت له من سمات » .

أما الدكتور محمد النويهى فقد هزني باهتمامه حيث تناول الديوان بدراسة عميقة استغرقت أكثر من أربعين صفحة فى كتابه «قضية الشعر الجديد» وقام بتحليل معظم قصائد الديوان بأسلوب موضوعى ؛ حيث وصف صاحب الديوان بالصدق ، يقول «هذا شاعر صادق الشاعرية، قد تختلف فى درجته من المقدرة الشعرية . لكن لاشك فى أنه شاعر صادق وعلامة هذا أنه لا يقلد إلا قليلا . هو يتأثر لكنه فى أغلبه وإن لم يكن فى معظمه تأثر مشروع بلغ درجة التمثل وليس تقليداً فجا. وهو يبذل جهده فى نحت أسلوب خاص به فيوفق أحيانا ويخفق كثيراً لكن هذا بحسب مقياسى لايهم الآن، فمادامت خصوصية آرائه قد أثبتت صدق شاعريته فهو يستحق منا كل ما نستطيع تقديمه إليه من الترحيب والشكران» .

أما الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتى فقد كتب فى كتابه «دراسات نقدية عن ديوان قلبى وغازلة الثوب الأزرق» يقول «شاء الشاعر الشاب .. محمد إبراهيم أبوسنة فى ديوانه البكر «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» أن يكون صادقا مع نفسه ونزعاته وآرائه صدقا حقيقيا غير حافل بالنزعات الجارية فى المجتمع، ولا آبه بالآراء الشائعة فى البيئة ولا باختلاف هذه النزعات والآراء مع الجمهرة من الناس لشعوره شعوراً عميقا بأنه يختلف عن هذه الجمهرة» وقد آثرت أن أورد مقتطفات مما كتبه كبار النقاد لأكشف عن الأثر العميق الذى تخلفه الكتابات الأولى حول شعر أى شاعر خاصة فى مرحلة الشباب ، لقد كسب لى هذا الديوان فكرة الاعتراف بشاعريتى ولكنه واجهنى بأسئلة لابد من الاستجابة لها، وفى مقدمتها كيف لى أن

أتجاوز هذه المرحلة الشعرية التى اختلط فيها الواقعى بالرومانسي وكيف لى أن أبتعد عن عوالم الآخرين الشعرية لأغوص في عالمي الخاص.



عبد الوهاب البياتي



صلاح عبد الصبور

بعيداً عن الأيديولوجية

لقد تنبه شعراء الموجة الأولى فى حركة الشعر الحديث إلى خطورة التهام الأيديولوجية للخطاب الشعرى وإحالته إلى بيان سياسى تابع وهامشى ، ورأى المبدعون أن يستمعوا إلى صوت ضميرهم وإلى نداء مواهبهم، وكان ظهور مجلة شعر والحركة التى تصدرها أمثال يوسف الخال وأدونيس وأنس الحاج وشوقى أبى شقرا ومحمد الماغوط قد خلق تيارا مناوئا للتيار الواقعى القومى فى الشعر العربى الحديث، لقد تابعت المعارك الأدبية التى احتدمت فى البداية بين التقليديين ودعاة الحفاظ على التراث الأدبى وحراس الجمود الفكرى وبين شعراء الحداثة ومن يؤازرهم من كبار النقاد الذين كانوا على صلة وثيقة بالتيارات الأوربية فى مجال النقد الأدبى وعلم الجمال والفلسفة والحداثة الفكرية . لقد تصدعت جبهة التقليديين ولكن جبهة الحداثة ما لبثت أن شهدت بوادر تصدع من نوع آخر ، فقد ظهر تيار حداثة لا تؤمن بتبنى القصيدة لأى محتوى سياسى أو اجتماعى وبدأت حركة الشعر الحديث تستجيب لامتصاص بعض المؤثرات الجديدة، لقد آثرت أن أكون مخلصا لطبيعتى التى تميل إلى الاعتدال ، فلم يكن من الممكن أن أتجرد من المؤثرات الأولى فى ثقافتى التقليدية ، لقد كانت صلتى قوية بموسيقى الشعر القديم وحين جذبتنى الحداثة الشعرية إلى آفاقها فقد آثرت الدخول إليها من باب الشاعرة المعتدلة نازك الملائكة، ولكننى كنت قد عقدت العزم على الإنصات للدوافع الخفية فى وجدانى وقلبى وعقلى للاستمرار كشاعر يؤمن بضرورة المشاركة فى الرسالة الإنسانية التى ينبغى أن تحملها الفنون المختلفة وفى مقدمتها الشعر، كنت قد تأثرت بالأيديولوجية الفكرية للمشروع القومى الذى حملته المرحلة الناصرية، ولكننى رأيت كشاعر أن أحافظ على صوتى الشعرى نابعا من النداء الداخلى لضميرى ومرتكزا على متطلبات الفن الشعرى ومعبرا بالضرورة عن تجربتى الإنسانية فى إطار ترابطها مع الآخرين.

لهذا جاءت قصائدى خالية من هذا الانغلاق الأيديولوجى ؛ فقد استجابت قريحتى الشعرية لطبيعة التجارب التى واجهتنى فى حياة تقلبت بين البؤس الخالص وفترات من الهناء النادر ، لم يكن لشاعر مثلى انغمس فى قراءة عصره سياسيا وفلسفيا وشعريا وأدبيا أن يتجاهل الأحداث الكبرى التى حاصرت جيلى من الشعراء ، فقد

جاء ما سمي بجيل الستينيات ليواجه حصار الديمقراطية وأزمتها ووطأة الهزيمة المروعة فى عام ١٩٦٧ واحتمالات التحول وانتفاض الأمة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم التحولات الكاسحة بعد ذلك ، لقد كان الصراع بين القديم والجديد مرحلة فى تطور الشعر العربي ولكن تصدعا جديدا قد ظهر مع الأحداث الجسيمة التى بدأت بالهزيمة ، وظهور جيل جديد متأثر بثقافة المعارضة ، ويحاول أن يثبت أعلامه الشعرية فوق نفس الهضبة التي شهدت معارك الجديد والقديم، لقد مضيت فى الاستجابة لتحولات الواقع دون أن أسقط الأسس التى قامت عليها ثقافتي ، لقد كان للقائي بالدكتور لويس عوض فى صحيفة الأهرام فى عام ١٩٦٤ والانضمام إلى هذه الكوكبة التى كان يسميها شعراء الأهرام وعلى رأسهم صلاح عبدالصبور أثر عميق فى تعميق إحساسي بالمسئولية تجاه شاعريتي، فقد حاول الدكتور لويس عوض أن يوجهني إلى دراسة اللغات الأجنبية وإلى قراءة الشعر الأوروبي خاصة فن (البالاد)، وكانت مناقشاته الجادة والحادة خلال عرض نماذجي الشعرية عليه لنشرها في الملحق الثقافي للأهرام الذى كان الدكتور لويس عوض يشرف عليه بمثابة درس فى النقد الأدبي ، ورغم أنه كان موجعا ومتشدداً إلا أنني كنت أحترم آراءه.. والحقيقة أنني رغم كثرة الدراسات التى كتبت حول شعرى بأقلام كبار النقاد مثل لويس عوض وعبدالقادر القط وشكرى عياد وصلاح فضل وصبرى حافظ ومحمد النويهي ومصطفى السحرتي ومحمود أمين العالم.. ومحمد عبدالمطلب وغيرهم، إلا أنني كنت أحس دائما بأنهم لم يكونوا يميلون إلى إطرائي أو تشجيعي وإنما كانت الحقيقة الموضوعية هى التى تملى عليهم كتاباتهم التى أفادتني كثيرا فى مراحل مختلفة من تجربتي الشعرية، ولقد كان ظهور ديواني «تأملات فى المدن الحجرية» بمثابة تجاوز للمراحل الشعرية الأولى . لقد جاء هذا الديوان لينهي المرحلة الغنائية ويضعني مباشرة فى قلب الموقف الدرامي من حيث الشكل الفني ومن حيث المضمون . لقد شغلني الشكل الفني للقصيدة طوال كتابتي لها منذ البدايات الساذجة مرورا بمرحلة المراجعة التى قام بها شعراء المدرسة الحديثة في الستينيات. وكان الهاجس الدرامي يمثل لى طموحا فنيا حاولت تجسيده فى مسرحيتين شعريتين هما: «حمزة العرب» و«حصار القلعة»، لقد كانت قراءاتي الواسعة في مسرحيات شكسبير وراسين وكورنيه ونماذج من الشعر اليوناني الكلاسيكي القديم لسوفوكليس ويوربيدس وأريستوفانيس وراء هذا الولع بكتابة المسرح الشعري.

القراءات الذهبية

وقد حصلت على منحتين للتفرغ للكتابة الشعرية المسرحية بتزكية من الأساتذة لويس عوض ويحيى حقي.. وعبدالقادر القط وأنور المعداوى الذين كتبوا يزكونني لإدارة التفرغ ، لقد كنت أطمح إلى مواصلة تجربتي المسرحية ولكن الإحباط الذى

مُنيت به بسبب عدم تمثيل هاتين المسرحيتين قد ثناني على ما يبدو عن المبادرة إلى كتابة المزيد من المسرحيات الشعرية . لكن الهاجس المسرحي ظل يسكنني فقد ظللت أحاور تجاربي الشعرية بروح درامية وربما اتضح هذا في بعض القصائد مثل «مشاهدات دامية في مدينة لامبالية» و«تأملات في المدن الحجرية» و«أمثولة الشاعر والمدينة الخرساء» ظل هاجس الدراما مسيطرا لأنني كنت أحاول الاقتراب من نبض الحدث اليومي بإيحاءاته ودلالاته وشخصياته، وربما فراراً من هذه الأحكام المتسرعة التي وصفت تجربتي الشعرية بالرومانسية وظل الشكل الفني يؤرقني لسنوات طوال كنت أطرح تساؤلاتي على وجداني الداخلي، هل أستسلم للحظة الشعرية أم أخطط لبناء القصيدة فنيا، هل أطارد الشعر أم أتركه يطاردني؟ من أين يأتي الشعر، هناك أحداث تزلزلنا ولكن الاستجابة لها شعريا قد لا تحدث على الإطلاق، وهناك ومضات غامضة تظل تؤرقنا ثم تفاجئنا بقصائد لم نكن ندري عنها شيئا . الشعر مفاجأة ولكنه لا ينبعث من العدم . إنه يقبل من يقظة الحواس والتعاطف مع الوجود والولع بالجمال والجهد المضني . إنه أشبه بالمطارحات الغرامية لابد أن يشعر الشعر بحبك له وقدرتك على التضحية من أجله تماما مثل الوقوع في غرام امرأة . كم من الحرائق التهمت الأيام والليالي من أجل ميلاد قصيدة وكم من فراديس فتحتها القصائد أمام الشعراء إن الشاعر يعمل بطاقة الخيال ولكنه يستمر بدافع الوهم، يتوهم الشعراء أنهم يركضون وراء الحقيقة ولكن الحقيقة أقسى وأشد منعة من الإحاطة بها ، إنهم يتوهمون البقاء في سجل الخلود والزمن مراوغ وساخر وكم من صفحات طويت وأشعار نسيت وأسماء لمعت ثم انطفأت . يقول الشاعر الأرمني باروير سيفاح (١٩٢٤ ، ١٩٧١) في قصيدته «الشعراء».



أدونيس



بدر شاكر السياب

• إنهم كالآخرين / لا يستطيعون العيش بدون الأوكسجين / رغم أنهم يحترقون في كل ثانية / يبكون كالأنفاق المنتحبة تحت الأرض وهم أحيانا يضحكون / لضحكاتهم رنين العملات الذهبية التي تثري العالم أما هم فيظلون فقراء ، لا يقدرون على العيش بالخبز والماء وحدهما . بصراحة إننا لا نملك إلا أن نحسدهم ولكن ثمة أوقات لا نملك إلا أن نشفق عليهم » لقد كانت تجربتي مع الشعر صراعا مع الوجود الحر للكلمات ومحاولة لاصطياد هذه الفراشات الذهبية التي رغم هشاشتها وجمالها قادرة على مواجهة العواصف والأعاصير. ■

ولقد فقدتك قريتي ..!!

شعر : د. أحمد السيد عوضين

مَنْ ذا تُروى مُهجتي
هي وحدها.. شوقي لها
هو ما يثيّر عواطفي
لكنّ بُعادي قد بدا
فلقد حرمت صباحها
وأخذت أشكو غربتي
ما عدتُ أصبر مبعداً
فالقلبُ يرجو رُؤية
يرجو الحياة بقربها
ويزيلُ كلَّ متاعبي
لكن خطاي تباعدت
وتركت خلفي مآلي
صدرا حنونا ضمّني
كان الحياة وروحها
كان الجمال مُعبِّراً
ويثير مِنّي شاعراً
حبُّ الحقيقة مقصدي
أصفُ الفاتنَ مُعجباً
سَمْحاً عطوفاً راضياً
والعمر يبدو مشرقاً
ثقتي تُجاوزُ حدّها
حتى علوتُ محققاً

بالودّ غيّر حبيبتي
فيضٌ يزيد محبتي
لهفا للقيا فتنتي
هجراً يطول لفترة
وحُرمت نورَ البسمة
ياللعذاب بغربتي!!
ما عدتُ أرضى بُغيتي
دوما بفيض مودة
أملا يهدهد فرحتي
في غدوتي أوْ روحتي
إذ قد مضيت لهجرتي
أرضي.. وموطنَ نشأتي
كان الأمانَ وظلّتي
والحب يروي غلتي
يُوحي ويُذكي فتنتي
صدق الشعور قصيدتي
والحسن أسمى غايتي
ومحدثا عَنْ لقيتي
ألقى الحياة بفرحتي
أملي يزاوج خطوتي
لم تُبق صعباً طاقتي
ما أبتغي مَنْ رفعة

لكن .. فؤادي لم يزل — رهن الصبا في صبوتي
يرنو لماضٍ قد بدا — يوما بعيني قبلتي
مهما مضيت مشرقا — أو نحو غربٍ وجهتي
فأنا الأسير مقيدٌ — روحي بأسر جميلتي
مَن ذا يردُّ مسيرتي؟ — مَنْ ذا يُعيد أسيرتي؟

★★★

يوماً تركتُ مدينتي — وهجرتُ هُوناً هجرتي
ورجعت أروي غُلتي — مَن نبع حُب حبيبتي
حيث الجمال موصل — والليل سحر أثيرتي
يُرخي ويُسدلُ ستره — يهدي الخيال لروعة
يُلقي الظلال رقيقة — حول النخيل بجنتي
وأرى النخيل وقد رمت — بظلالها في فتنة
رسمت جمالا موحيا — يوحي بنيل طبيعة
ويهز سمعي.. عزفه — لحن يرق بنغمة
أوتارها بعض الذي — شمل الوجود بنعمة
حسن تألف في هوى — فهو المشيع لنشوتي
وهو المثير مشاعري — وهو الشفاء لشقوتي
يوما رجوت معزتي — في عودتي .. في رجعتي
لكن رأيت أثيرتي — هي في إسار مدينة
فيها الضياء غزيرة — فيها أصطخاب غزيرة
و«الدش» يشغل أهلها — في فرحة.. في بهجة
والكل يسهر ليله — متشوقا لمسرة
متلهفا .. متتبعا.. — حلما يراه بشاشة
نسي البكور بصحوه — صار النؤوم لضحوة
والأرض تنعى هجرة — تشكو جفاف التربة
ما جال ذاك بخاطري — عمّا أريد لبلدتي
فقدت بكارة حسنها — ونضت ثيابْ بريئة
لم يبق ظل واحد — يُهدي الهدوء لثورتي
ووجدت أني لم أزل — في هِجرتي .. في هجرتي
ضاعت حبيبة مهجتي — لمّا فقدتك قريتي

أيام

علاء الديب

الوردية

أمين الألفي والصدر الذي ضاق بما لا يقال

بقلم
د. فهمي عبدالسلام

١٧٢
الهلال
صفر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

يرصد كاتبنا الكبير الأستاذ علاء الديب في روايته الأخيرة الصادرة عن دار الهلال والتي تحمل عنوان «أيام وردية» يرصد أيامنا السوداء التي لا علاقة لها بالورد أو بالورود والعنوان نفسه يحمل سخرية مريرة فأيامنا حافلة بالقبح وبالخراب الذى يطالعنا أينما ولينا وجوهنا ويحاصرنا آناء الليل وأطراف النهار فالبشاعات نعايشها ونعرف أنها بشاعات ونتلقاها في لا مبالاة لا مثيل لها، إفك وخداع وبؤس روحي والكل يعادي الكل والابن يقتل أباه والصديق يلعق دماء صديقه، وكأننا نعيش في سراية مجانين وحشية، هذا الواقع الوحشي المجنون الذي علق عليه أديبنا الكبير نجيب محفوظ في أصداء السيرة الذاتية علي لسان عبدربه التائه حينما قال: «إذا هلكنا فهذا ما نستحق وإذا نجونا فذلك من رحمة الله». وأمين الألفي بكل الأيام الوردية غارق لشوشته تأملا في الانحطاط العام الذي نحياه، يراقبه ويسأل.. إلي أين يؤدي كل هذا؟

البطل المحورى للأيام الوردية هو أمين الألفى، ذلك الكهل ابن الرابعة والخمسين الساخط الناقم الحزين، الذى يسمى نفسه «تعيس الألفى» أو «محبط الألفى» الذى سيفتتح «محلات الألفى للكآبة والظنون». سقط أمين الألفى بعد رحلة مريرة على «شطآن اللا جدوى» يحيا اغترابا حقيقيا عن واقعنا العجيب، يلوذ إلى محارته تلك البلكونة الصغيرة البائسة التى أغلقها بالخشب والألونيوم ويراقب الزجاج المترب، حيث يدفن أحزانه العميقة فى كئوس البراندى الردئ التى تدخله إلى حالة من الظلام الدامس لكن من يوقف النزيف فى ذاكرة المحكوم عليه بالشنق كما يقول البياتى، فلا البراندى كاف ولا سجائر المخدرات قادرة على تضميد جراح القلب والروح.

يراقب أمين الألفى حياته التى تسربت من بين أصابعه كالماء، فيجد أن أغلب تجارب حياته انتهت إلى الهباء واللا شئ، كلها توقفت قبل أن تكتمل وكل النهايات تفسد سواء فى البيت والأسرة أو فى العمل العام أو فى الوظيفة وفى واحدة من منولوجاته الطويلة الجميلة يقول : «اتبعت قلبى فصار أمرى إلى ما صار إليه» وبهذه اللغة العالية الشجية التى ترقى إلى



الشعر المصفى نتابع مأساة أمين الألفى، وهو يرصد فى وحدته الناس الذين عرفهم ونظر فى داخلهم بقدر المستطاع فلا يجد سوى «حالات» بمفهوم الطب النفسى وقوالب أشرار وأوغاد وسفلة وبؤس روحى وتعاسات لا أول لها ولا آخر، دخان وقش وغيوم وداخل كل هذا الركام نادرا ما يصادف عشقا حقيقيا أو فرحا حقيقيا بالحياة وهو الذى أضناه العشق والحب يطرح هذا السؤال المعذب لماذا تفوز الذئاب والضباع دائما؟!

هذا السؤال المرير الذى يطرحه أمين الألفى يعود بنا إلى متاهة فلسفية حزينة، لماذا لا يتلقى الودعاء والأنقياء سوى الهزائم دائما، ولماذا ينتصر السفلة على طول الخط، سيدنا على

النقاء مجسدا في مواجهة معاوية، والمسيح عليه السلام في مواجهة بيلاطس البونطي، وكما عاش المسيح يبشر بالحب وبالغبطة وبالبهجة بالحياة، عاش أمين الالفي ، عاش أمين الالفي عمره الطويل مؤمنا بالحب وبعشق الحياة كمنحة إلهية غير مستحقة فلما



حوصر بالخراب وبالقوادين ومن يستطيعون امتطاء صهوات الأرباح والأسلاب والمغانم وحينما يئس من النوع الإنساني، يودع أمين الألفي كل طاقات العشق في شجرة سنديان عجوز، وفي رحاب هذا الوجود الأخرس الرائع، يتلمس بطلنا سكينة نفسية ضائعة.

ومن السنديانة العجوز إلى مشوار أمين الألفي المعتاد كل ليلة، ونحن في مدينة المنصورة حيث يعمل أخصائيا اجتماعيا في مدرسة، بالبيجامة والشبشب يذهب زبون آخر الليل إلى صيدلية الدكتور ظريف، مسيحي أربعيني أعزب محروم مثل صاحبنا من كل مقومات النجاح في مجتمعنا السعيد، عارب متصلب الرأي ودؤوب يدافع خلف الدكان المترب عن حياته وموقعه، تجارته تتقدم ببطء قاتل ولا يغامر بالقفز فوق أصغر قناة.

***

صار بينهما أكثر مما بين زبون وصيدلي، وتوصلا سويا إلى وصفة خاصة علها تجلب السعادة الرخيصة لأمين الالفي، ثلاث حبات ،المهدئ والمنشط والمقوي، يجد الصيدلي مع زبون آخر الليل حديثا مملا عن لصوص المجلس المحلي وسفالة مجلس المدينة والمصائب التي تحل بالبلد، وحينما ينتهي يعود أمين الالفي إلى كهف الحياة الزوجية، ليجد مس شادن زوجته قد هجعت أمام التليفزيون، ودون أن تنظر إليه تقول له حانقة أن مشيه بالشبشب والبيجامة يفضحها في البلد كلها وأمين الالفي يتحمد مسألة البيجامة والشبشب حتى يخنقها، مستمتعا بالانقلاب يطرأ على روحها وعقلها ووجهها .أنجب منها بسمة وبهجت تبدأ بين أمين وزوجته المشاحنات والملامات التي تدمي القلب والتي تفزع بهجت وبسمة فينسحب أمين الالفي إلى قوقعته الالونيوم المتربة الضيقة.

هذه الصورة البائسة تختلف عن البدايات، البداية كانت لقاء أمين الالفي

بهذه الفتاة اليسارية المتحمسة النشطة التى تكتب المقالات الوطنية والتى تعلى من شأن قيم التقدم، والتى تحضر الندوات، وكان بطلنا آنذاك أمين الألفى مشروع مفكر عربى على لحم الرأس على حد تعبيره، وكانت هزيمة يونيو، تزوجها أمين وذهبا إلى المنصورة تركا القاهرة ليبتعدا عن أضوائها وضجيج مثقفيها وأمراضهم ليعملا بين الناس والجماهير الطيبة وعملت شادن مدرسة لغة إنجليزية وفى مدرسة مجاورة عمل أمين كأخصائى اجتماعى وكان ينتقم من هزيمة يونيو، وعمل بكل نشاط وبأقصى طاقة، حصر الطلاب الفقراء وملفات وتقارير ومساعدات وحل المشكلات موفيا ديناً يشعر به حيال الوطن المهزوم، فالوطن ينفض أوحال الهزيمة بالثرثرة وبالتنظير كأنه سينفضها بالعمل وبحث الهمم وتقديم القدوة والنموذج.

وفى خضم هذا الحماس الهائل كانت شادن بمثابة الزوجة والأم والصديقة كانت بمثابة «حقل القمح» العفى الوافر، وكان يجد عندها الحب وشاى الإفطار ومائدة الغذاء وكان يلامس شعرها ووجهها عند الغروب ومرت الأيام وتحول حقل الحنطة إلى حبات قليلة من القمح الجاف، والسبب كان التحولات الاجتماعية الخطيرة التى حدثت، وقد تجسدت فى شخص أبلة الحاجة زينب، تلك المرأة العجيبة التى سنعود إليها بعد قليل.

***

أمين الألفى بعدما كان يجلس فى حجرة خاصة وحده يستقبل الطلاب ويكتب الملفات بأقلام ملونة، ويبعث الهمم فى نفوس التلاميذ، يجلس الآن محاصرا بأربعة من عتاولة الدروس الخصوصية، والتقارير التى كتبها بكل حماس، هاهى تقبع فى الدواليب متربة وكأنها الجثث المسجاة داخل التوابيت ومن مكانه يستمع كل يوم إلى عشرات المساخر والأهوال التى لا تصدق والتى تحدث فى المدرسة أوراق تصل من الوزارة وأوراق وبيانات وإحصائيات تذهب إلى الوزارة ، تمثيلية هزلية رديئة لا علاقة لها بالواقع الوحشى الموجود بالمدرسة وإبان فترة الحماسة راح أمين الألفى يعقد اللقاءات مع التلاميذ كى يشحذ الهمم للثأر من عار ٦٧، يستمع إليهم ويناقشهم وتنتعش روحه وهو يرقب عيون التلاميذ التى تشع بالحماسة وبالنقاء ومع أن أمين الألفى كان يقوم بما تتبناه السلطة رسميا وفعليا إلا أنه فوجئ برجال أمن الدولة يطلبون منه أن يكف عن هذا النشاط، فالمبدأ مرفوض فمن يجمع التلاميذ لصالح

أهداف السلطة، يجمعهم لأهداف أخرى، والحل أن يتم منع مثل هذه التجارب فى المهد وانتهت قبل أن تكتمل كالعادة وفسدت النهاية كالعادة.

لم يستطع أمين الألفى ولم يرغب فى امتطاء موجة الانفتاح وماتلاها ويصف لنا علاء الديب صباحاً من صباحات يوم جمعة فى حياة بطله المحبط، ميكرفونات صارخة والأسرة ذهبت إلى شوقى خال الأولاد وشقيق مس شادن البيلى كما يقولون عنها فى المدرسة «يأكل شوقى كثيرا ويتكلم كثيرا ونادرا ما يسمع . لحيم ، كان مشاعره اختنقت تحت لحم كثير متراكم، تفرغ للامتلاك ومحصن ضد الاختراق عدله مصلحته وساتره الإسلام عقد صفقة رابحة مع الله، فاز فيها بالدنيا والآخرة له كف غليظ يصفع بها أولاده على وجوههم وإذا تحدث يصمت الجميع».

هذا الوصف الموجز البليغ أشبه بالفنان المبدع، بأقل الضربات بالفرشاة على اللوحة بعدها نرى تحفة فنية، خلال عدة سطور ببراعة فائقة ينقل لنا علاء الديب صورة كاملة لشوقى وكأننا نراه ومن شوقى ننتقل إلى أبلة الحاجة زينب



فكلاهما من نفس الفصيلة فصيلة «البترو إسلام » إذا ما جاز لنا القول، من يتخذون من الإسلام ساترا يخفون خلفه غلظتهم وسوقيتهم وفظاظتهم وأنانيتهم المتوحشة ونستمتع معا بلغة علاء الديب الفاتنة المكثفة وأمين الألفى يتحدث عن أبلة الحاجة زينب.

«الحاجة امرأة من نوع غريب لم يعرفه فى حياته امرأة كاملة التسليح، فى الحجم والجمال والذهب . كتاب الله وحجابها الأنيق وذكاؤها الخارق جعلت لها فى المدينة نفوذا هائلا وقع عليها زوجها فى صفقة سريعة صاحبت إجراءات الإعارة . هناك أنجبا بفضل الله رجلين فى آخر سنوات التعليم الآن صنعا معا ثروة وعقارا قامت معه بالحج مرات وفعلا معا الكثير من أعمال الخير، وأعمال الشر التى تجبرك عليها الحياة العصرية . وأخيرا أضاف زوجها فضلا من أفضاله فرحل مبكرا . عام وبضعة شهور، بعد العودة وانتهاء الإعارة رقد أياما ورحل ومن ماله أكرمته وأكرمه الله بمدفن فاخر تزوره بانتظام . تقول لأمين الألفى وهما يراقبان الحوش الضيق وقد امتلأ عن

آخره بالتلاميذ يتحركون ويصخبون ويتشاجرون كأنهم قنابل قابلة للانفجار تتأملهم وتقول فى كلماتها الخاطفة الخاصة المليئة بالحرارة لا حل إلا بتعاليم الإسلام والاستقامة.

وبعد معرفة دار بينهما صراع ضار على شادن، كانا يتبارزان عليها عن بعد فى البداية، وكانت تهدده ببؤس العاقبة وسوء المآل فبعد سنوات الخليج كانت قد كرست حياتها التسلط على خلق الله الأمر الذى كانت تقول عنه إعلاء كلمة الله وهداية عباده وفعل الخير.. وانتصرت أبلة الحاجة زينب المرأة الكاملة التسليح وخاض أمين الألفى من أجل الابقاء على شادن أهوالا، ودخل فى خطط طويلة مسؤلة ودخل فى مناقشات عقيمة ومزايدات مزيفة وتمت محاصرة شادن من الحاجة زينب وعدد من المدرسات المحجبات والمنقبات وراح يراقب رفضها له وهو يتزايد ويراقب كيف تبنى بينهما هذه الجدران . والسدود وتوغلت فى أركان شقته كتب عذاب القبر بما فيها من ثعابين ومرذبات حديد مشتعلة ومخاوف أبدية لها رائحة شواء البشر .. وضاعت منه شادن، أخذوها من يرفض رأيه إعلاء الإسلام . وتحول حقل القمح إلى حبات جافة وتحول البيت الملئ بالحب والتراحم والحنان إلى كهف الحياة الزوجية وإذا ما اشتكى أمين الألفى «يجد الجميع يرون أن ما يحدث هو أمر طبيعى بل هو مرغوب فيه ومطلوب وأنه هو الحل».

***

ومن محارة الألمونيوم إلى مستشفى نابلس للأمراض النفسية، حالة اكتئاب حادة كما شخصها الأطباء، والحاجة زينب تدبر الأمور المالية بشطارتها المعروفة ، وفى جناح الأمراض النفسية يلتقى أمين الألفى هناك فلسطينية شابة جاءت لرتق ثقوب الروح والجسد، تعرضت عفاف لعملية اغتصاب من ثلاثة رجال فى مذبحة صابرا وشاتيلا، رقيقة ذابلة مثل نور شمعة فى ظلام حالك، مهزومان يعانيان من أهوال الحياة يلقيان فى مصحة نفسية، أحبته وأحبها بدون كلمات تعبر عفاف عن حبها له بطريقتها أن تأتى إلى غرفته مسرعة وبدون أى تحيه تطلب سيجارة، تجلس أمامه تدخن ويتأملها صامتا، وبعد نوبات الهياج تطلب أن تراه وأن يأتى إلى غرفتها . مثقفة ومن أسرة عريقة يتواصلان بلغة لا تفصح عن نفسها بالكلمات ويطلق عليها فى نفسه «وردتى الصفراء».

وطلبت منه عفاف أنها تريد رسامين أو صحفيين، وصحبها إلى محل نابولى، فكان طلبها أن تقعد قعدة أصدقاء



مثقفين وما هى تحصل على ما أرادت «كلهم كانوا موجودين المعروف منهم ونصف المعروف وقد التفوا حول كاتب كبير ثقيل الدم لكنهم يطلقون عليه الكاتب الساخر معارض لا يتعدى الحدود، جرئ لكنه مسنود واصل لكنه يحب الاحتكاك بالجماهير وتعرف أمين على واحد من الزملاء القدامى وجاء فاروق فؤاد أو ف.ف. فتصايح الجميع طربا . أستاذ فى أصول اللعبة ومدير بارع لمثل هذه الجلسات عفاف تسمع عنه كثيرا، وتقرأ له أحاديثه مع المشاهير ومقالاته النارية جاء ناحية أمين الألفى فقد كان يعرفه منذ أماد سحيقة قبل أن يصير ف.ف وقبل أن يصل الألفى إلى ما هو فيه، وفى سرعة وتدريب عال اضطر أمين الألفى أن يقدم له صديقته الفلسطينية، وما أن سمع ف.ف اسم عائلة عفاف وما يوحي به من سلطة وشهرة ونفوذ، حتى استنفرت كل حواسه وبدأ العمل . أصر أن يغير الشراب الذى أمامها وسحب مقعدا جديدا لكى يجلس مجاورا لها، كان مدخله الطبيعي أن يحدث عفاف عن أمين الألفى، وعن العلاقة القديمة بينهما، وعن القيمة والقيم التى يمثلها وما هى إلا لحظات حتى كان قد أزاح أمين الألفى وقام بدلا منه بكل عمليات الشرح والوصل والتحليل. استدار بمقعده كاملا ناحيتها بينما بدت هى ساعتها فرحة سعيدة تتأمل براعته.

وبعد أن دار الكلام دورتين ودار الشراب دورتين أحس أمين أن عفاف تمد يدها كى تمسك يده، وكانت الفضيحة وهما واقفان على الباب، تصلح من شأنها وتبتلع حبة من حقيبتها قالت:

كم هو بارع ابن الـ.... لم أدرك عندما حدثنى عن العقد، وعن رقبتى، ثم عن صدرى بلهاء مازلت كنت ابتسم ثم مد يده على فخذى فى أقل من ربع ساعة أرخص الشـ... يحتاجون وقتاً أطول مما تصور هذا الخـ.... وانتهت قعدة «المثقفين الأصدقاء» بتلك الفضيحة.

وفى مصحة نابلس فجأة يصل محامى المنصورة الأشهر والأشرس عبدالقادر، القرد أبو صديرى صابغا شعره بالأسود الفاحم وقد دهنه بالفازلين الجديد الغالي، جاء فى صحبة شادن ومعهما بالطبع أبلة الحاجة زينب، طابور المنتصرين دخلوا على العدو الذى لم يرفع

إصبعا المقاومة وحصلوا على الطلاق وكل ما أرادوه الحاجة زينب كاملة التسليح ومعها المحامى عبدالقادر كانوا يحملون أوراقا كثيرة وقالوا كلاما كثيرا مأخوذا من كلمات القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم كذبوا طويلا فى قلوبهم قبل أن تكذب ألسنتهم واستمع إلى تلميحات المحامى من الدخول فى المحاكم وتدخلت الحاجة بأقوال كانت تقولها فى تؤدة وكأن وحيا يهبط عليها، وشادن لازال وجهها جميلا فى الحجاب الملون الجديد، تهرب من لقاء العيون بالنظر إلى الأرض وإلى السقف، وأمين الألفى يراقب ما يحدث كأنه يشاهد فيلما هزليا يحدث لشخص آخر.

ويخرج أمين الألفى من المصحة وتتكفل أبلة الحاجة زينب بكل الإجراءات الضرورية ومن مروءتها وحسن إسلامها بعد أن يطلب أمين أن يحال إلى التقاعد تعرض عليه أن يعمل فى إدارة شئ خاص بها، فهى قادرة على أن تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ويرفض أمين ويصر على أن يغادر المنصورة كلها إلى مسقط رأس والده، فى قرية حصماية حيث يعيش داخل كوخ إبراهيم خليفة، صديق الوالد الذى كان يعمل بالسكة الحديد وتم تدبير مكيدة له حكم عليه ظلما بالسجن ثلاث سنوات وخرج أبو خليفة من السجن وعامله الناس كلص وأنكروه ونبذوه فعمل كوخا بجوار السكة الحديد على المزارع يعيش على دخل قليل من زراعة لوف ينمو فى كيزان خضراء ويجف تحت رعاية إبراهيم أبو خليفة ليخرج قلبها أبيض من غير سوء .. بين اللوف وأزهار ست الحسن التى تبزغ وسط الظلمة عاش أمين الألفى مع أبو خليفة ويقول له أبو خليفة:

– عندما أراك مرتاحا هنا، تحب هذا الكشك وتركت الدنيا لتقيم معى ساعتها أقول لنفسى استطعت الآن أن أسترد كرامتى.

ونزلت عليه فى تلك البقعة الساحرة سكينة لم يعرفها من قبل . الدنيا بعيدة لا يصله منها كذب أو ضوضاء هنا لم تعد الظنون تلدغ، تحميه خضرة كثيفة تصنعها أوراق اللوف الكبيرة الخضراء وزهرة ست الحسن تتفتح له كل صباح لتنام معه مع المساء وهنا عرف كيف يموت.

أبكانا علاء الديب ونكأ جراحنا فى روايته القصيرة الحجم الرائعة الحسن وبلغة منحوتة أشبه بالشعر المصفى أدمى قلوبنا، على حالنا وعلى حال بطله النبيل الذى لا ينسى. ■



مقهى المعوقين

قصة قصيرة

لطفي عزالدين
(تونس)

هل كان لهذا العامل المهاجر أن يعود إلى بلده نهائياً كي ينشئ هذا المشروع؟! هذا المقهى كان بمثابة تكريس للاختلاف عن سائر البشر ولتعميق الهوة بيننا وبين المجتمع، ألم تكفهم عزلتنا اللاإرادية حتى يخلقوا لنا عزلة



ارتضاها أغلبنا وذهب يجوب متاهاتها العميقة دون وعي بعواقبها الوخيمة؟!

كان اليوم الأول لافتتاح المقهى مواكبا لزيارة تدشين؟ أداها أحد المسئولين الذى بارك الحدث فى كلمته وأعلن أن: «لا معاق إلا معاق

الفكر» وأن: «لا أعمى إلاّ أعمى البصيرة».. وكلاما من هذا القبيل.. وشكر العامل المهاجر العائد إلى بلده.. على مشروعه الرائد هذا، راجيا أن ينسج بقية المستثمرين على منواله، مبينا أنه بإمكان المعاقين أخيرا الاجتماع مع بعضهم البعض في مكان مجهز خصيصا لهم من الباب الخارجي إلى دورة المياه... كان المقهى بالفعل مجهزا حسب طبيعة زبائنه حيث قسم إلى عدة جوانب: قسم للمشلولين وآخر للصم والبكم وثالث للعميان.. ولقد وضع صاحب المحل حارسا أخرس أمام الباب الخارجي كي لا يسمح بالدخول لغير المعاقين وكان بعض الفضوليين من الناس العاديين قد حاولوا طيلة الأيام الأولى زيارة المحل ولكن دون جدوى لأن الاستظهار بالبطاقة الزرقاء كان إجباريا.. إنه مقهى الإعاقة ولا يجوز للأصحاء السالمين دخوله.. أو ارتياده..

كان قسم المشلولين مشطورا إلى جانبين: جانب طاولته دون كراس.. خصص للمشلولين فاقدي الحركة العضوية الذين يستعملون كرسيا متحركا أو كرسي دراجة، وهو أوسع أرجاء المقهى.. وجانب ثان عادي به طاولات وكراس خصص للمشلولين جزئيا أي في يد أو ساق واحدة أو المستعملين لعكاكيز وهو القسم الذي كنت أرتاده.. وهو أخطر الأقسام خاصة عند الأمسيات ذلك أن بعض رواده حين يتخاصمون يستعملون عكاكيزهم للتضارب والاقتتال، فكان أن خصص لهم صاحب المقهى خزانة خاصة يضع فيها النادل عكاكيز الحرفاء بعد جلوسهم ولا يسلمها لهم إلاّ عند انتقالهم إلى دورة المياه أو مغادرتهم للمحل..

أما القسم الثاني وهو المخصص للصم والبكم فقد كان يُعرف بقسم «المشاريع» ذلك أن رواده يتميزون عادة بذكاء حاد بوأبعضهم للعمل كصناع تجاريين وجعل فئة أخرى منهم منحرفة يبيع أفرادها.. البضائع المهربة.. وفيهم مجموعة استغلتها عصابة تعنى بالاتجار بالعملة الصعبة.. وكان الأخرس بالنسبة إلى هذه العصابة خير عميل.. ذلك أنه في حالة إلقاء القبض عليه لا تستطيع الشرطة الحصول على أية معلومة منه.. لذلك أطلق على هذا الجانب من المقهى اسم قسم «المشاريع» وكان رواده يمتازون باحتسائهم لفاخر الشراب وتدخينهم أغلى أنواع السجائر..

أما القسم الثالث الخاص بالعميان فهو أهدأ ركن في المقهى يتميز رواده بالمسالمة والميل إلى التفكير والتحديق في المطلق، حتى وإن انطلقت من بعض أفراده قهقهات أو صيحات أو أحاديث بأصوات مرتفعة فإن ذلك لا يحدث إلا نادرا.. هذا إذا استثنينا شابا يأتي كل صباح ليشرب كأسي شاي ويرتل من الآيات القرآنية ما يعادل الحزب ثم ينصرف.. وتعود فكرة إنشاء المقهى إلى أحمد مجاهد وهو شاب هاجر إلى فرنسا وبعد سبع سنوات من العمل هناك تعرّض إلى إصابة عمل أفقده رجليه، فكان أن حصل على تعويض مالي إضافة إلى جراية محترمة

تصله مع بداية كل شهر.. فعاد إلى تونس وفكر في استغلال المبلغ المالي المهم الذي لديه فأنشأ هذا المقهى وجعلها خاصة بالمعاقين وأطلق عليها اسم مقهى «الرحمة»..

ولقد كان تصور أحمد لتزويق المحل ينم عن ذكاء كبير وعن تأثر بالفنون التجارية الغربية، إذ عمد إلى وضع رسوم طبيعية ممتازة في ركن المشلولين وبعض اللوحات الحاملة لحكم وأقوال مأثورة وآيات قرآنية من ذلك: «الصبر مفتاح الفرج» أو «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم..».. ولقد أضاف إلى جانبها صور بعض المشاهير والأبطال الرياضيين من المعاقين فهذا مشلول أمريكي يجلس إلى كرسي متحرك ترك لحيته دون حلق، تمسك يده اليمنى بكرة سلة.. أما يسراه فتلوح بعلامة النصر!! وهذا معاق سويدي فقد يديه يبدو في المطبخ وهو يحضر «سلطة» برجليه!!

أما في جانب الأكفاء.. فعمد صاحب المقهى إلى نحت بعض الجمل والآيات بطريقة «برايل» على



أطراف الطاولات بماثل بعضها تلك التي تبدو في جانب المشلولين مثل: «إنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» أو إنما أمره «إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»..

أما القسم المخصص للصم والبكم فتبدو فيه بعض الرسوم التشكيلية والانطباعية منها واحدة كبيرة الحجم تصور الشمس وهي خارجة من البحر كتب تحتها بالخط الكوفي: «حين نتأكد من جمال البحر.. لا يضيف لنا شيئا صوت أمواجه» إضافة إلى بعض الحكم والأمثال الخاصة بتلك العاهة مثل: «الشر يأتي الإنسان من لسانه فما خسر شيئا بفقدانه»..

ولقد استبشر أغلب رفقاء الإعاقة بهذا المقهى واعتبروه مكسبا يبعدهم عن نظرات الشفقة أو السخرية التي عادة ما يكونون عرضة لها في المقاهي العادية وكان بعضهم يعتقد أن المقهى وفر له فرصة الراحة النفسية.. فمن يرى مصيبة غيره تهن عليه مصيبته.

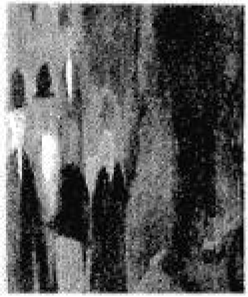
أما أنا فقد كان كل يوم جديد في حياة المقهى يضاعف من هواجسي ويجعلني أمقتها أكثر... ولقد حاولت تسريب أفكاري إلى بقية المعاقين ودعوتهم إلي مقاطعتها، كما أكثرت من تحليل سلبياتها وآفاق «العزل» المظلمة التي تفتح عليها.. ولكن حديثي لم يجد الصدى الذي توقعته.. ربما كنت خطيبا فاشلا، ربما كانت أرائي مثالية جدا.. ربما كنت أطرح مسألة عملية على أناس تعودوا الركون إلى الراحة منذ سنين كثيرة، ولكن الأكيد أن المقهى كانت تمارس جاذبيتها اللامحدودة على زبائنها.. فاكتفيت بانتظار مفاجأة.. أو إحدى الخوارق التي تعصف بهذا المقهى..

ومرت الأسابيع الأولى من عمر المقهى عادية وكانت في أغلب الأحيان تعج بالزبائن، إلا إذا

استثنينا بعض الفترات التي تنشط فيها حركة التسول حيث لا يبقى إلا القليل النادر من الزبائن يكاد ينحصر أغلبه في قسم الصم والبكم أو في بعض الأثرياء من المشلولين والأكفاء..

غير أنه بمرور الأيام صارت تتوافد على المقهى نماذج من المعاقين لم يقرأ لها أحمد حسابا عند تقسيم أرجاء المقهى، فلا يمكن أن يصنفوا في أحد الأجزاء الثلاثة، فهذا قزم محدودب عند مستوى أعلى صدره يسير على قدميه ولكن لابد أن يصنف صحيا واجتماعيا ضمن قافلة المعاقين وآخر فقد عينه اليمنى وإيره في حادث مرور لا يحب أن يرتاد المقاهي العادية.. سمع بفتح هذا المقهى فجاءه وليس له من بطاقة يستظهر بها أو دليل يرفعه سوى نزع سرواله أمام الحارس الأخرس كي يثبت له أنه معاق في رجولته وقبل أحمد عضويته محافظة على الأخلاق العامة..

وهذا أبرص تكسر فكه الأسفل وانزاح جانبيا عن مستواه الطبيعي فصار فاه عبارة عن رحى حجرية لا يتكلم أو يأكل إلا وفكاه في حركة تقاطع مستمرة بين

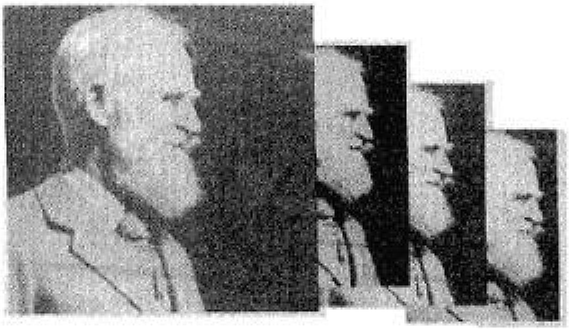


اليمين والشمال.. هذا طبعا إضافة إلى معاقين تجتمع فيهم أكثر من عاهتين ترك لهم عيسى حرية اختيار القسم الذي يجلسون فيه..

هذا الطابع المميز للمقهى، جعلها مجلبة للعديد من الزوار غير المعاقين فهذا طالب يعد أطروحة كفاءة في علم الاجتماع حول المعاق وطريقة إدماجه في الحياة العملية جاء ليوزع على الزبائن استمارات وليطرح عليهم عشرات الأسئلة..

وذاك طالب علم نفس يعد أطروحة تعمق جاء مزودا بجهاز تسجيل وبعشرات المصطلحات التي كان أغلب المستجوبين يجهلها.. وغيرهما من الزوار الذين كان يسمح لهم صاحب المقهى، لسبب أو لآخر بالزيارة.. ولقد كانت كل هذه الزيارات - وإن أثارت بعض الحرج - محل رضى وترحاب من المعوقين بل أكثر من ذلك، كانت بالنسبة إلى الطلبة فرصة ممتازة للقيام بدراسة جدية لعينة إجتماعية.. نفسية قابلة للتحاور.

غير أن الزيارة العجيبة القاضية، كانت تلك التي قام بها صحفي مسئول على الصفحات الاجتماعية بإحدى الأسبوعيات الذي جاء ليتحدث مع المعاقين حول موضوع استفزهم وجعلهم يفضلون التحرك.. لا لن يسمحوا هذه المرة لذلك الصحفي أن يخدعهم ويخدع رفقاءهم، لن يسمحوا له بتجميل صورته على حساب الحقيقة المرة التي يحيونها.. وتسارعت الأحداث بصورة غريبة، فانهالت العكاكيز والكراسي على الصحفي وأشبع ضرباً.. إلى أن أقسم بأغلظ الأيمان أنه لن ينشر مقالاً بل سيعتزل الصحافة.. وأدرك المسكين أن درجة الغضب عند المعاق كما درجة الصبر تتجاوز بكثير تلك التي يتمتع بها المواطن العادي.



برنارد شو

ومحاكمة مجرمى الحرب

بقلم

د. محمود على مراد

كتب جورج برنارد شو، عام ١٩٣٥، مسرحية عنوانها «جنيف»، قدم فيها للمحاكمة، أمام محكمة العدل الدولية بلاهاى، تحت أسماء مستعارة، حكام أوروبا، الديكتاتوريين الثلاثة فى ذلك الوقت، أى موسولينى وهتلر وفرانكو. ووصف «شو» مسرحيته، فى عنوانها، بأنها شطحة خيال سياسية.

وفى ١٢ فبراير سنة ٢٠٠٢، أى بعد كتابة هذه المسرحية بسبعة وستين عاما، بدأت فى لاهاى، أمام محكمة جنائية خاصة، أنشأتها الأمم المتحدة، محاكمة سلوبودان ميلوزيفتش رئيس جمهورية يوغسلافيا السابقة، عن ست وستين تهمة تتعلق بالقتل الجماعى «الجينوسيد» وبارتكاب جرائم حرب. وجرائم ضد الإنسانية.

فهل يمكن اعتبار هذه المحاكمة، التى ستستغرق سنتين والتى ستسمع المحكمة فيها مائتى شاهد، تحقيقا لشطحة خيال برنارد شو؟



ميلوزيفتش أمام محكمة العدل الدولية

يرفع الستار عن مكتب في جنيف، مقر عصبة الأمم، للجنة اسمها «اللجنة الدولية للتعاون الفكري» أنشئت أصلا في باريس لتكون ملتقى لكبار العلماء والمفكرين في العالم، ولكن مواردها تضاءلت فجأة فلم تمارس الدور الذي أنشئت من أجله، واقتصرت هيئة موظفيها على موظفة بريطانية واحدة تقوم بأعمال كتابية روتينية ولم يعد أحد من المسئولين في عصبة الأمم يعلم حتى بوجودها.

وذات يوم تفاجأ موظفة المكتب بزيارات من خمسة أشخاص، كل منهم يتقدم إليها بشكوى يطلب منها أن تنتصف له فيها، باعتبارها ممثلة للتعاون الفكري في أوروبا، وأول الزوار يهودي جاء يشكو من اضطهاد الحاكم الألماني له لكونه يهوديا. والزائر الثاني ديمقراطي بريطاني جاء إلى جنيف ليتظلم من منعه من دخول البرلمان الذي انتخب لعضويته في مستعمرة من المستعمرات البريطانية. والثالث زائرة من إحدى جمهوريات أمريكا اللاتينية اغتيل زوجها بأمر من رئيس الجمهورية الذي خلفه في هذا المنصب، والزائر الرابع أسقف انجليزي جاء ليشكو البولشفيك الروس الذين أفسدوا خادمه وجعلوا منه شيوعيا. والزائر الخامس قوميسار روسي جاء يشكو كنيسة انجلترا التي تعلم الناس أن الروس ملعونون عن بكرة أبيهم.

ويغلق على الموظفة حين تتلقى الشكوى الأولى، ولا تدري كيف تتصرف فيها، ولكن صاحب الشكوى، أي اليهودي المضطهد، يقترح عليها أن تقدم إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي طلبا للقبض على رئيس الدولة التي اضطهدته لمحاكمته.. وتروق الفكرة للموظفة، وتعرضها على باقي الشاكين فيرحبون بها. وتقدم الموظفة إلى المحكمة المذكورة طلبات يحررها لها صديق أمريكي يعمل مراسلا لبعض الصحف الأمريكية، للقبض على المسئولين في جميع الشكاوى التي قدمت إليها «باستثناء الشكوى المقدمة من الأسقف الانجليزي، إذ إن هذا الأسقف يموت، في الفصل الأول، بالسكتة القلبية أثناء





مناقشة حادة له مع القوميسار السوفييتي».

وكان المتوقع ان تتجاهل محكمة العدل الدولية طلبات القبض المقدمة من موظفة لجنة التعاون الفكرى، ولكن الذى يحدث هو أن قاضيا شابا من قضاة هذه المحكمة، أفعم قلبه بمبادىء العدالة الدولية، يرى أن هذه فرصة ذهبية لإعمال المبادىء المذكورة فيصدر تكليفا بالحضور لكل من الحكام الديكتاتوريين الثلاثة ويحدد موعدا لمحاكمتهم.

يرفع الستار، فى الفصل الأخير من المسرحية، عن جلسة المحكمة الدولية، وقد زودت القاعة بأجهزة للراديو والتليفزيون تنقل وقائعها على الهواء الى جميع أنحاء العالم. ويحضر الجلسة الشاكون، وأمين عام عصبة الامم، وموظفة مكتب التعاون الدولى (التى أصبحت شخصية مشهورة فى انجلترا وانعم عليها بلقب «سيدة الامبراطورية البريطانية» وانتخبت عضوا فى مجلس اللوردات)، وشاب خطبت إليه قريب لوزير الخارجية البريطانى، ووزير الخارجية البريطانى نفسه، ويدخل القاضى الجلسة، ويفاجأ الحاضرون بوصول موسولينى أولا ثم هتلر ثم فرانكو، الذين جاءوا بمحض إرادتهم.

وتجرى المحاكمة . ويدافع المتهمون، الواحد بعد الآخر، عن أنفسهم، ويهاجمون خصومهم. وتستمع المحكمة إلى أقوال الشاكين والمشكو فى حقهم. وفجأة يدق جرس التليفون الموضوع أمام القاضى. ويستمع القاضى الى المتحدث ثم يبلغ الحضور بنبأ خطير: كارثة طبيعية كبرى، تقول مراصد العالم إنها ستقع ويترتب عليها فناء العالم خلال ساعات.

ويتوقف سير القضية ويرفع القاضى الجلسة قبل أن ينطق بالحكم.

العدالة الدولية

يعبر قاضى محكمة العدل الدولية، فى الفصل الثاني من المسرحية، عن حاجة العالم الى مثل هذه العدالة. فى مناقشة له مع وزير الخارجية البريطانى الذى حضر الى جنيف على عجل لمقابلة أمين عصبة الامم والوقوف منه على حقيقة الامر، بعد الأزمة الدولية الخطيرة التى أثارتها أوامر القبض التى أصدرها هذا القاضى.

ويقول القاضى إن زملاءه فى لاهاى انتظروا وقتا طويلا حتى تصلهم قضية تسمح لهم بممارسة اختصاصهم الجنائى، وأن لجنة التعاون الفكرى زودتهم بأربع قضايا من هذا النوع، وأنهم سيستفيدون منها إلى أقصى حد لإثبات وجود المحكمة وسلطانها ، وأنه كان مما يثير استنكارهم دائما أن رجال الدولة العصريين ينزلقون الواحد بعد الآخر من حكم القانون القائم على مبدأ العدالة الأزلى إلى خدمة حكومات أقامها غوغائيون ناجحون أو عسكريون منتصرون، لدى كل منهم قائمة بأعدائه، الذين لا يتمتعون بحماية القانون. فالحاكم يسجنهم أو ينفيهم او يغتالهم وفق هواه، وأنه كقاض فى محكمة العدل الدولية قضى سنوات فى محاولة ابتكار اجراء قانونى يسمح بمقاضاة رجال الدولة الذين يخالفون القانون.

ويبدى وزير الخارجية البريطانى اعتراضين على هذا الموقف: الاول هو أن الدول حين انضمت إلى عصبة الأمم لم تكن تتصور وجود مثل هذا الإجراء، والثانى هو أن المحكمة لا تملك أى سلطات . وأن السلطات بيد الدول، وأن

المحكمة لا تستطيع أن تضع الدول فى قفص الاتهام، كما أنه ليس لديها شرطة لتنفيذ أوامرها أو إمكانيات لتنفيذ العقوبات التى تقضى بها.

ويرد القاضى على هذين الاعتراضين بقوله ان الدول وقعت على ميثاق عصبة الامم لا لأنها قرأته وإنما إرضاء للرئيس ولسون، رئيس الولايات المتحدة صاحب فكرة إنشاء العصبة، وأن سلطة محكمة العدل الدولية مستمدة مما يختاره لها قضاتها، وأن القانون الذى تريد أن تسنه هو قانون السوابق القضائية «المعمول بمثله فى انجلترا» وأنه، إذا كان صحيحا أن المحكمة لا تملك توقيع عقوبة على رجل أو دولة، فإن العقوبة التى ستوقعها تستند إلى قداسة العدالة والحرص على ألا يكون هناك ضرر بدون إصلاح، وأن الحاكم أو الدولة اللذين يدانان أمامها لن يكونا فى وضع مريح.

هل أصبح الخيال حقيقة ؟

هل يمكن أن يقال إن محاكمة سلوبودان ميلوزيفتش امام المحكمة الجنائية الدولية فى لاهاى جاءت تحقيقا لأمنية القاضى فى مسرحية «جنيف»؟

الرد على هذا السؤال يحتاج إلى تفصيل، فإن محاكمة ميلو زيفتش تمثل المرحلة الاخيرة من تطور له جانبان: جانب تشريعى وجانب قضائى.

وقد بدأ الجانب التشريعى، فى العصر الحديث. باتفاقيات عقدت فى جنيف عام ١٨٦٤ وضعت فيها قواعد لمعاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية. وقد عقد فى لاهاى ، فى عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٧، مؤتمران للسلام العالمى سنت فيهما قوانين للحرب، كما عقدت مؤتمرات بعد الحرب العالمية الأولى للغرض ذاته. وقوانين الحرب تمنع قصف المدن بالمدافع أو القنابل، كما تمنع القيام بعمليات حربية ضد غير المحاربين. وقد وضعت الأمم المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية، على أثر عمليات القتل الجماعى التى تعرض لها اليهود وغيرهم خلال الحرب، اتفاقية تحظر القتل الجماعى.

وآخر رحلة فى هذا التطور التشريعى هى إنشاء محكمة جنائية دولية دائمة فى لاهاى تختص بالنظر فى الجرائم الدولية الخطيرة كجريمة القتل الجماعى والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب وقد أعلن السيد كوفى عنان، أمين عام الأمم المتحدة ، رسميا إنشاء هذه المحكمة فى روما بحضور رئيس الجمهورية الإيطالى، فى١٦ أبريل ٢٠٠٢، وستبدأ المحكمة فى مباشرة عملها العام القادم.

أما الجانب القضائى من العدالة الجنائية الدولية، فلم يبدأ إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد اتخذ شكل محاكمات لمجرمى الحرب المذكورة. وأشهر هذه المحاكمات واكبرها هى تلك التى تمت فى مدينة نورمبرج بألمانيا لمجرمى الحرب النازيين. وقد حوكم امام المحكمة التى أنشئت لهذا الغرض ٢٤ من القادة العسكريين والسياسيين والاقتصاديين فى ألمانيا النازية بتهم ارتكاب جرائم ضد السلم (الاعداد لحرب عدوانية وإدارة هذه الحرب)، وجرائم حرب (خرق قوانين الحرب) وجرائم ضد البشرية (القتل الجماعى). واستمرت المحاكمة من ٢٠ نوفمبر ١٩٤٥ إلى أول اكتوبر ١٩٤٦، وصدرت فى نهايتها أحكام بالإعدام شنقا على أثنى عشر متهما، وبالسجن المؤبد على ثلاثة متهمين وبالسجن عشرين سنة على ثلاثة آخرين. وخمس عشرة سنة على متهم، وعشر سنوات على متهم آخر. وقد انتحر جورنج

في زنزانته في اليوم السابق على يوم تنفيذ احكام الإعدام. وإذا كان هتلر لم يقدم الى هذه المحكمة فلأنه انتحر قبلها في برلين.





أما المحكمة الجنائية الدولية بلاهاي لمحاكمة مجرمي الحرب في يوغسلافيا السابقة، فقد أنشأها مجلس الأمن بقرار صدر بإجماع أعضائه الخمسة عشر سنة ١٩٩٣ (وكان د. بطرس بطرس غالي أمينا عاما للأمم المتحدة وقتها) وهي تختلف عن محكمة نورمبرج في أنها ليست محكمة عسكرية ولا محكمة منتصرين كهذه المحكمة الأخيرة، التي كانت مشكلة من ممثلين لدول الحلفاء الأربع أي: الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، وبريطانيا، وفرنسا.. وقد حوكم امام محكمة لاهاي، قبل ميلوزيفتش، عدد من المتهمين من جمهوريات الصرب وكرواتيا والبوسنة والهرسك، التي كانت تابعة لاتحاد جمهوريات يوغسلافيا، وصدرت ضد بعضهم أحكام بالسجن لمدد مختلفة نفذت أو جار تنفيذها في سجن بهولندا.

وميلوزيفتش هو أول رئيس دولة قدم للمحاكمة عن جرائم ارتكبت خلال فترة رئاسته.

وإذا قارنا ما دار في محاكمة هذا الزعيم حتى الآن بمحاكمة موسوليني وهتلر وفرانكو في مسرحية برنارد شو لبدا لنا، للوهلة الأولى، ان محاكمة ميلوزيفتش تحقق فعلا ما كان يصبو اليه قاضي القضاة في المسرحية من اخضاع رجال السياسة والدولة للقانون. وهناك في الواقع اكثر من وجه شبه بين المحاكمتين:

- فقد جهزت قاعة المحكمة في كلتيهما بأجهزة تنقل وقائعها بدقة وتفصيل إلى جميع أنحاء العالم.

- والمتهمون في كلتيهما لا يعترفون بقانونية المحكمة ولا بأنهم خاضعون لسلطانها. ويحرصون على تقرير انهم إذا كانوا يتحدثون فليس ذلك دفاعا عن أنفسهم، فهم لا يعترفون بالتهم الموجهة إليهم، وإنما لكي يعرف الرأي العام العالمي، والمجتمع الدولي، والتاريخ. شخصهم ومواقفهم.

- وهم في كلتا القضيتين يكيلون النقد والاتهام لخصومهم. وقد خصص سلوبودان ميلوزيفتش الجانب الاكبر من مرافعته المبدئية لاتهام منظمة حلف شمال الأطلسي، التي قذفت قواتها بالقنابل مواقع يوغسلافية في ربيع سنة ١٩٩٩، وقبله، بجرائم الحرب، وقال إن رؤساء دولها الأعضاء هم الذين يجب ان يقدموا للمحاكمة. وقال ايضا ان ما فعلته القوات والميليشيات اليوغسلافية في كرواتيا والبوسنة والهرسك، وفي منطقة «كوسوفو» جنوب الصرب، ما هو الا محاربة للارهاب داخل البلد، لا تختلف في شيء عن محاربة امريكا للإرهاب في أفغانستان التي تبعد عن امريكا بآلاف الأميال.

هناك إذن صلة ما بين المحاكمتين، بل رب قائل ان ما تحقق بالفعل في مجال العدالة الدولية في قضية ميلوزيفتش يسجل تقدما محسوسا على محاكمة المسرحية، بالنسبة لبعض النقاط التي أثارها وزير الخارجية البريطانية في حديثه مع القاضي، فقد قبض على سلوبودان ميلوزيفتش وأودع السجن، ومثل في قفص الاتهام امام المحكمة، وحوله حارسان، بعد أن سلمته حكومة يوغسلافيا الى المحكمة، وهناك في هولندا سجن سيقضي فيه هذا الحاكم المدة التي سيحكم عليه بها اذا ثبتت إدانته.

هدف المسرحية

على أننا إذا أنعمنا النظر فى المسرحية لوجدنا ان الصلة بينها وبين موضوع ميلوزيفتش لا تكمن فى المحاكمة ذاتها، وإنما فى الجرائم التى قدم ميلوزيفتش من أجلها للمحاكمة. فالواقع ان هدف برنارد شو من كتابة مسرحية «جنيف» كان اكبر بكثير من مجرد توضيح حاجة المجتمع الدولى لعدالة جنائية. والعدالة التى تحققت بمحاكمة هذا الزعيم الصربى - مهما هللت لها الأوساط الدولية - ليست عدالة حقيقية، وإنما هى فى الواقع عدالة رمزية، ولو كانت هناك عدالة حقيقية لما اقتصر الأمر على رئيس الدولة وبعض أعوانه ورجال جيشه ولحوكم أيضا عشرات الآلاف من الضباط والجنود ورجال الميليشيات الذين اشتركوا بصورة فعلية فى عملية التطهير العرقى فى يوغسلافيا السابقة، على مدى عشر سنوات، من بداية التسعينيات الى قرب نهايتها، التى اسفرت عن مصرع ما لا يقل عن مائتى ألف شخص، وجرح اضعاف هذا العدد، وتدمير ألوف المساكن ومئات القرى، واغتصاب عشرات الألوف من النساء، اللائى كان بعضهن أطفالا او فتيات فى سن المراهقة، ونهب الأموال وتخريب المرافق، وإخراج مئات الألوف من ديارهم، وارتكاب فظائع شبهتها المدعية العامة السويسرية فى بدء المحاكمة بفظائع القرون الوسطى ومن هذه الفظائع مذبحة سربرنيتسا المدينة البوسنية التى قتل فيها ثمانية آلاف من المسلمين البوسنيين العزل برصاص القوات العربية فى يوليو ١٩٩٥.

ان هدف المسرحية يتضح مما رواه برنارد شو عن ظروف كتابتها كما يتضح من ثلاثة او أربعة سطور وردت فى حديث أحد الشاكين، فى الفصل الأول، مع موظفة



هتلر



موسولينى

لجنة التعاون الدولى.

يقول «شو» ان «لجنة التعاون الفكرى» انشئت بالفعل بباريس بعد إنشاء عصبة الأمم بقليل، وإن الذى انشأها رجل فرنسى كان مقتنعا بأن العصبة ان لم يكن هناك تعاون فكرى ينير لها الطريق، ستظل تمارس الدبلوماسية القديمة،وإن هذا الرجل وهب اللجنة مبلغا ضخما من ماله. الا أن تدهور قيمة الفرنك حرم اللجنة من المورد الذى يمكنها من أداء مهمتها. وإنه - اى مؤلفنا - فكر فى كتابة شىء عن هذه اللجنة. وكان لبرنارد شو صديق، اسمه جلبرت مورى، من دعاة السلام من المؤمنين بعصبة الأمم كان خلال فترة ما بين الحربين، رئيسا لاتحاد بريطانى لجمعيات تناصر العصبة. واقترح عليه هذا الصديق ان يراسل العصبة ويزودها بأفكاره. حدث هذا فى الوقت ذاته الذى كان «شو» يفكر فيه فى الكتابة عن لجنة التعاون الفكرى. ولم يراسل برنارد شو العصبة، ولكنه كتب مسرحية «جنيف».

وجعل برنارد شو اليهودى، صاحب الشكوى يطرح على موظفة لجنة التعاون الفكرى. السؤال الآتى: كيف يستطيع عمالقة المفكرين الذين يكونون لجنتكم ان يؤثروا بكل قوة عقولهم الديناميكية الهائلة، وبكل مكانتهم وسلطانهم الأدبى،





على مصائر الأمم؟ ما الذى يفعلونه لتصحيح أخطاء رجالنا السياسيين الجهلة؟

ومسرحية «جنيف» هى إجابة برنارد شو عن هذا السؤال الخطير الذى يتعلق بمصائر الأمم وهدف المسرحية هو بحث ما اذا كانت عصبة الأمم قادرة على تحقيق الغرض الاساسى الذى انشئت من أجله، أى منع الحروب، وإذا لم تكن قادرة على تحقيقه، بحث أسباب ذلك.

وبرنارد شو، كما يتضح من المسرحية لم يكن، كصديقه جلبرت مورى، من المؤمنين بعصبة الأمم وبقدرتها على انقاذ العالم من الحروب، وقد اثبتت الأيام صحة شكوكه، فقد عجزت العصبة، قبل كتابة المسرحية ، عن منع اليابان من محاربة الصين ومنع ايطاليا من غزو الحبشة واحتلال البقية الباقية من ليبيا، كما عجزت، بعد كتابة المسرحية بأربع سنوات، عن منع قيام الحرب العالمية الثانية التى فاق عدد القتلى والخراب والدمار الذى احدثته بكثير ما تمخضت عنه الحرب العالمية الاولى.

ويرجع برنارد شو فشل عصبة الأمم فى إحلال السلام فى العالم الى سببين هما : العصبية وتقسيم العالم الى دول .

العصبية

معظم أشخاص مسرحية «جنيف» متعصبون أو عنصريون بصورة أو بأخرى : فالموظفة البريطانية متعصبة للحى الذى كانت تقيم فيه، ومتعصبة للامبراطورية البريطانية، ومتعصبة ضد الشيوعية والكاثوليكية والنظام الجمهورى .

واليهودى، الذى جاء الى جنيف ليشكو من الاضطهاد العنصرى والدينى الذى سلط عليه فى ألمانيا، يقول إن الجنس الذى سيهدى العالم بعقله.. هو الجنس الذى أنتج كارل ماركس وروسيا السوفييتية.

والسيدة، التى جاءت من بلد فى أمريكا اللاتينية، متعصبة لبلدها وتقول إنه اكثر بلاد العالم تحضرا وانه من بلاد العالم التى تحتل مكان الصدارة فى الثقافة ونقاء الجنس (مع أن اهله خليط من أجناس المايا والازتيك والإسبان)، وهى متعصبة ضد اليهود وتقول إنها لو كانت رئيسا لبلد اليهودى لأعدمت كل يهودى فيه لأن اليهود صلبوا المسيح، وهى متعصبة أيضا ضد الشيوعية .

والقوميسار متعصب لبلده ولنظامه، وهو يقول ان هناك صفات لاتنبت إلا على الأرض الروسية، وإنه لن يكون هناك مستقبل للعالم الغربى إلا إذا قبل زعامة موسكو .

ووزير الخارجية البريطانى متعصب لبلده وللامبراطورية البريطانية، وهو يقول إن هناك سبيلا واحدا لا غير لجمع الأمم كلها فى عصبة واحدة حقيقية، هو تحويلها جميعا إلى الأفكار الانجليزية.

ورأى برنارد شو فى العصبية هو ما عبر عنه أمين عصبة الأمم وقاضى محكمة لاهاى. فأمين العصبة يصارح المذكورين، فى انفعال، بانه يكرههم. وهو يصفهم بأنهم أعداء للجنس البشرى، ويصف أبطالهم القوميين بأنهم قطاع طرق وقراصنة. وهو يقول لوزير الخارجية البريطانى إنه لا يسمعه يتحدث فى السياسة إلا وتتملكه الرغبة فى قتله. أما القاضى فإنه يقرر انه ليس هناك جنس نقى أو ممتاز وأن الناس جميعا أجناس مختلطة مهجنة.

تقسيم العالم الى دول

حين كتب برنارد شو مسرحيته، لم تكن صورة موسوليني وهتلر هي الصورة التي ظهرا بها أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان موسوليني قد بدأ تنفيذ نظامه الفاشستي قبل أن يبدأ هتلر في تنفيذ برنامجه النازي بسنوات. ولم تكن العلاقات بين موسوليني وبين انجلترا وفرنسا قد ساءت. ومن جهة أخرى لم تكن الحرب الأهلية الإسبانية التي لعب فيها فرانكو دورا حاسما قد احتدم أوارها بعد.

لذلك فإن تقديمهم للمحاكمة كان لأسباب ترجع الى عصبيتهم وعنصريتهم أساسا (ولأن برنارد شو كان يريد عن طريقهم أن يعمم الإدانة إلى الدول الأخرى). فهتلر في المسرحية يقسم البشر الى فريقين: الجنس الآرى، الذى يعتبره أرقى الأجناس، والأجناس الأخرى، ومنها الجنس السامي، الذى ينتمي اليه اليهود، وهي أجناس أدنى درجة، أما موسوليني فقد كان يقسمهم إلى بيض وسود: البيض هم السادة والسود هم سكان المستعمرات.

وأخيرا فإن فرانكو كان يقسم الناس الى أسياد وأوغاد، والى كاثوليك وكفار. وكان لكل منهم حججه في تبرير تعصبه وعنصريته، كما كان كل منهم يستعد لتنفيذ برنامجه لبلده بالقوة العسكرية. وقد وقفت عصبة الأمم أمام هذا الوضع المتفجر عاجزة عن الحركة .

وأفكار برنارد شو في تصوير أسباب هذا الوضع ونتائجه تظهر، هنا أيضا، في كلام أمين العصبة والقاضي.

إن الأمين يقول إن السنوات التى قضاها في خدمة المنظمة علمته أن البشر بحاجة إلى شيء أسمى من الوطنية، وإن من المتعذر الحصول على هذا الشيء» من هؤلاء الوطنيين بأناشيدهم الوطنية وأعلامهم وأحلام الحرب والانتصار التى تلقن لهم منذ الطفولة»، ويضيف أن «تنظيم الدول هو تنظيم للحرب العالمية»، وأن العصبة تحلق فوق أوروبا كسحابة حرب دائمة.

ولا يختلف موقف قاضي المحكمة الدولية في هذا الصدد عن موقف أمين العصبة. وهو - مثله - يتولاه الغضب حين يتحدث في هذا الموضوع، ويخاطب الحاضرين بلهجة ليست لهجة رجال القضاء المتحفظة. إنه يقول، أثناء المحاكمة، ان عصبة الأمم حين تتخذ أية مبادرة استنادا الى مبدأ من المبادىء، فإن النتيجة لا تكون سلما بل تهديدا بالحرب أو الانشاق او كليهما، فتضطر العصبة الى الامتناع عن القيام بأى عمل، إلى أن تتفق الدول العظمى فيما بينها على استخدامها - أى العصبة - كأداة لدبلوماسيتها العتيقة.

ويفصح القاضي عن المشاعر التى أثارتها فيه وقائع القضية بقوله للحاضرين (بما فيهم من لم يقدموا للمحاكمة): «أنتم تبدون لى على المستوى الشخصي بشرا مسالمين...، وعملي، الذى يتمثل في بناء هيكل من القانون الدولى عن طرق السوابق القضائية، يبدو، حتى الآن، هينا الى حد كبير، ولكن .. ما أن يثار موضوع يتعلق بالسياسة الخارجية إلا وتواجهونني بدرجة من العمق الإجرامي الأسود لا تستحقون معها أقل من الحكم عليكم بالإعدام فورا .. إن هدفكم هو السيطرة، وأسلحتكم هى النار والسم والتجويع حتى الموت والخراب، والإفناء بكل طريقة يعرفها العلم.. وإذا لم يكن هذا هو الإجرام، فماهو الإجرام إذن؟!».

الصلة بحروب يوغسلافيا

كانت يوغسلافيا، التي وقعت فيها الأحداث التي تعنينا، دولة ظهرت إلى حيز الوجود، بعد الحرب العالمية الأخيرة، كاتحاد يتكون من ست جمهوريات أكبرها جمهورية الصرب. وأكثر سكانها من الأورثوذوكس، وجمهورية كرواتيا، وأكثر سكانها من الكاثوليك، وجمهورية البوسنة والهرسك، وأكثر سكانها من المسلمين الذين يرجع إسلامهم الى أيام الحكم العثماني القديم لمنطقة البلقان، وثلاث جمهوريات أخرى هي سلوفينيا ومنتنجرو ومقدونيا. وكان في كل من كرواتيا والبوسنة والهرسك أعداد كبيرة من الصربيين، كما كان في البوسنة عدد كبير من الكرواتيين.

وفي جمهورية البوسنة والهرسك أجرى استفتاء في فبراير ١٩٩٢ صوتت الأغلبية فيه على الاستقلال عن يوغسلافيا، ولكن السكان الصربيين والكرواتيين عارضوه، ونشبت معارك عديدة بين المسلمين والصربيين وبينهم وبين الكرواتيين. وكان ميلوزيفتش يزود صربيي البوسنة، تحت رئاسة زعيم لهم اسمه كاراتزيك، بالسلاح، وبدأت القوات الصربية في البوسنة، بقيادة قائد اسمه رادوفان راتكوميلانتش (وكلاهما هارب الآن، ولم تتمكن المدعية العامة بمحكمة لاهاي من تنفيذ أمر القبض الصادر ضدهما) عملية «تطهير عرقي» واسعة النطاق لإجلاء المسلمين وغير الصربيين من المناطق التي بسط الصربيون سلطانهم عليها. وحاصر الصربيون سراييفو عاصمة البوسنة حصارا طويلا ورهيبا وقتلوا من مسلميها عدداً كبيراً ابتداء من أبريل ١٩٩٢ مما دفع الأمم المتحدة إلى فرض مقاطعة اقتصادية ضد يوغسلافيا لمعاقبتها، بعد فشل جهودها وجهود دول حلف شمال الأطلسي في معالجة الموقف بالوسائل الدبلوماسية.



تيتو



فرانكو

ومحصلة هذا العرض هي أن التعصب العنصري والديني في يوغسلافيا كان السبب في ثلاث حروب أهلية لم تر أوربا شيئا في مثل قسوتها وبشاعتها منذ أيام الحكم النازي في ألمانيا، وكان من نتائج هذه الحروب. فضلا عن مئات ألوف القتلى والمشردين، والخراب الذي لا يوصف، والآلام والحزازات بين أبناء الوطن الواحد. انقسام الدولة الى أربع دول بينها من العداء ما لن تفلح قوات حفظ السلام، ولا المعونات الاقتصادية، ولا المساعي الدولية، في محو آثاره لفترة لا يعلمها إلا الله.

ولم يكن هذا خافيا على برنارد شو، وهذا البديل موجود بالفعل في المسرحية، وهو ما أسماه أمين عصبة الأمم بـ «روح جنيف» . وروح جنيف، في هذه المسرحية، التي استخدم مؤلفها الرمزية فيها على أوسع نطاق، تعبير رمزي يشير إلى شيء يعتقد برنارد شو أنه قادر على إنقاذ العالم. ■



نازك الملائكة

التى تجنت عليها الصحافة

بقلم
وديع فلسطين

أفهم بحكم كونى صحفيا بالتأهيل الجامعى وبالممارسة العملية وبتدريس علوم الصحافة وبإصدارى ثلاثة كتب عن فنون الصحافة أن قضية السبق الصحفى تؤرق كل عامل فى هذه المهنة، فلا يكاد الصحفى يقع على خبر جديد حتى يعجل بنشره انفرادا به قبل أن تسبقه إلى ذلك صحف منافسة، ولكن العنصر الجوهرى فى السبق الصحفى هو صحة الخبر وليس كذبه، فالخبر الصادق ينعم بصفة السبق الصحفى، أما الخبر الكاذب فيصدق عليه وصف الفضيحة العلنية.

والشاعرة العراقية الرائدة نازك الملائكة عانت المرة تلو المرة من محاولات السبق الصحفى التى تندرج تحت وصف الفضيحة العلنية، وما أقسى وطأتها على هذه الشاعرة الرقيقة التى تعتصم بالصمت ولاتحاول تكذيب الأخبار الزائفة إلا بإبداع

قصيدة جديدة تطلع بها على الناس.

في عام ١٩٩٢ تورطت صحفنا المصرية في نشر خبر ينعى إلى الأمة العربية هذه الشاعرة الكبيرة، وبادر أستاذنا الدكتور بدوى طبانة (١٩١٤ ـ ٢٠٠٠) بنشر مرثية منصفة في جريدة الأهرام ، فقد عرفُ الشاعرة في بغداد عندما عمل هناك أستاذا للأدب العربي، وتحدث عنها بإعزاز في كتابه «أدب المرأة العراقية» الذي نشرت طبعته الأولى في الأربعينات من القرن الماضي، وكنت من ناحيتي أعرف أن الشاعرة تنعم بحياة موفورة في بلادها بعدما تقاعدت من عملها الجامعي في الكويت، وأنها تتحمل بصبر آلام مرضها، وهو ما تحققت منه بالاتصال بأصدقائي من أدباء العراق، فسعيت من ثم إلى تصحيح هذا الخبر الزائف ونشرته «الأهرام» على استحياء، بينما قام زميلها التونسي الوفي ـ أبوالقاسم محمد كرو ـ الذي زاملها في الدراسة الجامعية في بغداد ـ بكتابة مقال في جريدة «الحرية» التونسية رد فيه الأمور إلى نصابها، وبشر عشاق نازك بأنها مازالت ترفد دوحة الشعر بجديد أوابدها، وكانت مجلة «الهلال» قد تورطت بحسن نية في نشر نبأ الوفاة في عدد أغسطس ١٩٩٢ ، فلما انبلجت الحقيقة تداركت الأمر بعدد سبتمبر ١٩٩٢ معتذرة للقراء عن هذا الخطأ غير المقصود.

وارتأت نازك الملائكة أن حالتها المرضية تتم العناية بها على وجه أفضل في القاهرة بسبب نقص الأدوية ووسائل العلاج في بغداد نتيجة للحصار الغاشم المفروض على العراق، فاتخذت من القاهرة مستقرا دائما لها مع زوجها الدكتور عبدالهادي محبوبة (١٩١٩ ـ ٢٠٠١) ونجلها الدكتور براق، وآثرت أن تعيش في عزلة لأنها لم تعد تحتمل ضجيج المجتمعات أو مطاردات المتطفلين على حياتها، سواء باسم الصحافة أو باسم الشعر والأدب، ومع ذلك لم تسلم من الذين يريدون أن يسبقوا القدر، حتى من مؤلفي الموسوعات الأدبية.

فقد نشر الباحثان السوريان الدكتور نزار أباظة ومحمد رياض المالح كتابا عنوانه «تتمة الأعلام» استدركا فيه على الكتاب الباذخ للعلامة السوري خير الدين الزركلي (١٨٩٢ ـ ١٩٧٦) الموسوم «الأعلام» ومع أن كتب الأعلام سواء ما صدر للزركلي أو للأديب الأردني أحمد العلاونة أو للأديب السعودي عبدالعزيز الرفاعي (١٩٢٣ ـ ١٩٩٣) هي كتب موقوفة على الراحلين، فإن الباحثين السوريين أثبتا في كتابهما أن حياة نازك الملائكة تمتد بين عامي ١٩٢٣ و١٩٩٢! وهكذا اقترفا في حقها جناية أدبية غليظة، لأنهما اعتمدا الشائعة القديمة باعتبارها حقيقة ماثلة، ولم يسعيا إلى التثبت من الأمر كما هو شأن العلماء الأصلاء، هذا على الرغم من أن نازك

الملائكة لم تكف عن نشر قصائدها الجديدة، وأحدثها القصيدة الموسومة «أنا وحدى» التى نشرتها فى مجلة «أخبار الأدب» وفى جريدة «الأهرام» بعد وفاة زوجها فى ٨ سبتمبر ٢٠٠١ بل إن اسم نازك الملائكة قفز إلى الصدارة عندما كرمتها مؤسسة البابطين بمنحها جائزة الشعر، ولئن تعذر عليها تسلمها بنفسها فى احتفال كبير أقيم فى أبوظبى، فقد ناب عنها زوجها فى تسلم الجائزة وعرف المجتمع الأدبى كله أن نازك الملائكة مازالت تعيش بيننا برغم ما تعانى منه من أسقام.

ومع ذلك، فالمطاردات غير الأخلاقية لها مازالت تتواصل، فقد نشر الأديب اللبنانى محمد على شمس الدين مقالا فى عدد نوفمبر ٢٠٠١ من مجلة «العربى» الكويتية عنوانه «من يذكر نازك الملائكة» كان مما جاء فيه قوله: «وقد غطست نازك الملائكة فى ليل من النسيان أو مايشبه النسيان.. وأحست هى بذلك فآثرت الاستسلام للانطواء والاحتجاب والعزلة، حتى أن أخبارها لم تعد تصلنا فى السنوات العشر الأخيرة إلا من خلال أخبار مغلوطة عن وفاتها تارة فى القاهرة وطورا فى العراق أو فى لندن، ثم ما تلبث هذه الأخبار أن تصحح، ويظهر أن الشاعرة لاتزال حية ترزق فى مكان ما على هذه الكرة الأرضية إنما هى حياة كالموت » .

هذه ولاريب عبارات جارحة أترك للقارىء مهمة وصفها ووصف الدوافع التى تكمن وراءها، وبمجرد صدور هذا العدد، بادر أبوالقاسم محمد كرو الأديب التونسى الأريحى المنصف فكتب مقالا رد فيه على هذا الكاتب وبعث به إلى مجلة «العربى» التى لم تنشره منذ نوفمبر الماضى وحتى مارس الحالى، فقام كرو بنشره فى جريدة «الصباح» التونسية ليعرف الناس أن نازك الملائكة مازالت تواصل الحياة ولم تغب أبدا عن ذاكرة الأمة العربية حتى يتساءل ذلك الكاتب بقوله «من يذكر نازك الملائكة؟».

ومن أيام كنت أتحدث هاتفيا مع الدكتور براق نجل الشاعرة نازك الملائكة فأبدى دهشته من أخبار أذاعتها محطة الإذاعة البريطانية فى لندن وتناقلتها الصحف ووكالات الأنباء حول تدهور صحة نازك، بل إن جريدة «أخبار الأدب» التى يفترض فيها أنها تتحرى أخبار الأدباء بدقة، زعمت أن نازك فى الإنعاش بعد تدهور صحتها!، وقال لى الدكتور براق: صحيح أن والدته مريضة وتتابع العلاج ولكن حالتها الصحية مستقرة، وإن كل ما أذيع ونشر من أخبار لايمت إلى الحقيقة بصلة.

ياقوم! اتقوا الله فيما تلفقون من أخبار من شأنها تضخيم محنة هذه الشاعرة، وتحروا الحقيقة قبل أن تنشروا هذه الأراجيف المدمرة!، وإن عز عليكم أن تقولوا كلمة طيبة عن نازك الملائكة، فالصمت أحجى، ونازك تقرأ كل هذه الأخبار الزائفة، وتأبى عليها كبرياؤها أن تنفيها أو تعلق عليها.

في عام ١٩٦٨ ألفيت نفسي في الشارع بلا وظيفة وبلا أمل في الاهتداء إلى وظيفة بعدما سدت في وجهي جميع الأبواب، فكتبت إلى أصدقائي من أدباء المهجر، وكنت على اتصال بأعلامهم، أبدى لهم رغبتي في الهجرة إلى ديارهم عساي أستطيع أن أبدأ الحياة من جديد، ناعما بمؤازرة مبدئية منهم ولم تكن لي في ذلك الوقت أي صلة شخصية بالشاعر المهجري زكي قنصل (١٩١٩ ـ ١٩٩٤) المقيم في بوانس آيرس بالأرجنتين والذي اشتهر بلقب «شاعر غلواء» وهو لقب شاركه فيه الشاعر اللبناني إلياس أبوشبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧)، فلما ترامى إلى زكي قنصل أنني أفكر في الهجرة بسبب ضيق العيش، دعا زملاءه في «الرابطة الأدبية» إلى اجتماع تدارسوا فيه حالتي وأصدروا بيانا لم أطلع عليه حتى الآن طالبوا فيه بإنصافي، ولم يكتف بذلك، بل نظم قصيدة موجهة إلى كان مما جاء فيها قوله:

«ما أنت إلا فرحة في مأتم!»، وفوجئت وقتها باستدعائي إلى مباحث أمن الدولة العليا حيث سألني الضابط عن صلتي بالأرجنتين، ودهشت لسؤاله، لأنني لم أكن ذا صلة بهذا البلد ولا بأحد من أبنائه، فقال: لقد تلقينا عن طريق أجهزتنا أخبارا بأن أدباء المهجر في الأرجنتين أصدروا بيانا حول محنة تجتازها، وطلب منا أن نتحرى الأمر منك، فقلت له إنني لا أعرف موضوع هذا البيان، أما محنتي فتتحصل في أنني صرت بلا عمل، وأصبحت أفكر جديا في الهجرة النهائية إلى حيث أجد عملا يمكنني من النهوض بأعباء أسرتي، حتى ولو كان الهجرة إلى أدغال الأمازون أو إلى أحراش استراليا، وصرفني الضابط بعد ما سجل أقوالي ليرفعها إلى الجهة التي طلبتها.

واتفق بعد ذلك أنني اهتديت إلى عمل كمترجم قانوني في شركة بترول أمريكية في طرابلس بليبيا فسافرت إلى هناك، وبدأت أواصل المجلات الأدبية اللبنانية بمقالاتي الأدبية، فكانت مجلة «الأديب» لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) تضيف إلى توقيعي رقم صندوق بريدي في طرابلس، وعندما اكتشف زكي قنصل عنواني الجديد، وهو قد كان يجهل عنواني القديم والجديد بعث إلى برسالة طواها على قصيدته وروى لي قصة البيان الذي أصدره أدباء الأرجنتين دفاعا عني دون أن يوافيني بنسخة منه، وقال إنهم أبلغوا هذا البيان إلى السفارة المصرية في العاصمة الأرجنتينية، وهكذا بدأ بيننا التواصل بالبريد، سواء وأنا في ليبيا أو بعد ترحيلي منها في أربع وعشرين ساعة على يدي نظام القذافي دون إبداء أي سبب لذلك.

وكانت لدى زكي قنصل رغبة أعرب لي عنها، وهي أن ينشر ديوانا في كل عاصمة عربية، فديوان في القاهرة وثان في تونس وثالث في بيروت ورابع في دمشق وخامس

فى الرياض، وهلم جرا.

ورجانى أن أحاول تحقيق هذه الأمنية مع ناشر مصرى، ولكن محاولاتى ذهبت هباء، وإن كان نجح بمساعدة أبى القاسم محمد كرو فى نشر ديوانه «هواجس» فى تونس، كما نجح فى نشر الجزء الأول من ديوانه الكامل فى دمشق، وإن كانت هذه التجربة قد خيبت آماله، لأن الناشر سجل على غلاف الديوان عبارة مدمرة نصها «دققه لغويا وعروضيا فلان!» فغضب زكى قنصل وطلب محو هذه العبارة من الديوان الذى خرج ـ بزعم تدقيق المدقق! ـ مليئا بأغلاط الطباعة، واضطر إلى إعداد لائحة من عدة صفحات لتصويب ما ورد فى الديوان من أخطاء، ويبدو أن غضبة زكى قنصل على الناشر الحكومى جعلته يعدل عن متابعة إصدار الأجزاء التالية من الديوان الكامل، وعندما فقد الشاعر الأمل فى نشر دواوينه فى العواصم العربية المختلفة، تابع نشرها فى الأرجنتين، ومن إمارات التجديد فى الطباعة أنه اختار لديوانه «ألوان وألحان» أوراقا ملونة بألوان قوس قزح فى طباعته، فخرج الديوان ولكل ملزمة من ملازمه ورق ذو لون مختلف، أحمر وأخضر وأزرق وأبيض وهلم جرا، أليس عنوان الديوان «ألوان وألحان»؟.

وعاش زكى قنصل يحلم بطباعة المجموعة الكاملة لديوانه فى الوطن وليس فى المهجر ليكون فى متناول الباحثين، وهى أمنية لم تتحقق إلا على يدى الشيخ عبدالمقصود خوجة راعى دار «الإثنينية» فى جدة، الذى نشر المجموعة فى ثلاثة مجلدات فى طباعة فاخرة وتجليد مترف، والمهم أنه نشرها فى حياة الشاعر.

اشتغل زكى قنصل بالتجارة فى مهجره السحيق، ولكنه لم يصب فيها حظا كبيرا كالحظوظ التى نالها شاعر عبقر شفيق معلوف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦) بمصانع الحرير التى أقامها فى البرازيل، وتزوج من سيدة من أصل سورى وأنجب منها ابنه اسمها «سعاد» تعلق بها أشد التعلق، فلما توفيت فى شهرها الثامن، أصدر ديوانا كاملا عنها، ثم رزق بابنه «عمر» الذى أسماه على اسم الشاعر السورى «عمر أبوريشة» (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) الذى كان وقتها سفيرا للجمهورية العربية المتحدة فى الأرجنتين فى زمن الوحدة المصرية السورية، وكان لزكى قنصل أشقاء كثيرون، لم يكن يهتم بالأدب منهم إلا الشاعر والروائى إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) وإلا كرم قنصل الذى كان يقيم فى سوريا وتوفى فى ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٠، وعند وفاة زكى قنصل فى ١٤ يوليو ١٩٩٤ أحرق جثمانه عملا بوصيته، ومات وهو يشفق على ابنه الوحيد عمر الذى كان يعانى من داء عضال.

وعندما زرت مدينة حلب من سنوات، ودعانى الفضول إلى دخول حمام شعبى

فيها، لاحظت أن زكى قنصل سبقنى إلى زيارة هذا الحمام، وعبر عن شعوره فى أبيات من الشعر نقشت على لوحة نحاسية وعلقت فى مدخل الحمام.

وقبيل وفاة زكى قنصل زار موطنه الأصلى سورية (فهو من بلدة يبرود) بدعوة رسمية من الدولة فاكرم وفادته الرئيس حافظ الأسد، كما زار المملكة العربية السعودية حيث احتفت به المحافل الأدبية فى الرياض وجدة، وكان فى نيته أن يزور مصر، كما أخبرنى بذلك - ولكن يبدو أن مرض القلب الذى كان يعانى منه والذى بسببه أجرى جراحة لتثبيت منظم لضربات القلب، اضطره إلى العودة إلى الأرجنتين دون أن يعرج على مصر، فضاعت على فرصة مشافهته بعد مراسلات ممتدة معه.

وعندما صدر ديوانه المجموع عن مؤسسة الشيخ خوجة، فوجئت بوجود قصيدتين وليس قصيدة واحدة موجهة إلى فى الديوان، وهكذا أكرمنى بعد وفاته دون أن يسمع منى كلمة شكر على أريحيته.

ولعل أوفى دراسة صدرت عن زكى قنصل هى التى أعدها الأديب والسياسى السورى عبداللطيف اليونس - أطال الله بقاءه - عندما كان مهاجرا إلى الأرجنتين وقبل أن يعود إلى بلدته صافيتا فى سورية، وإن كان أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى يشرف على رسالة ماجستير عن زكى قنصل تعدها الطالبة نجلاء محمود فى حين يشرف على رسالة أخرى للماجستير عن إلياس قنصل يعدها الطالب أيمن عثمان.

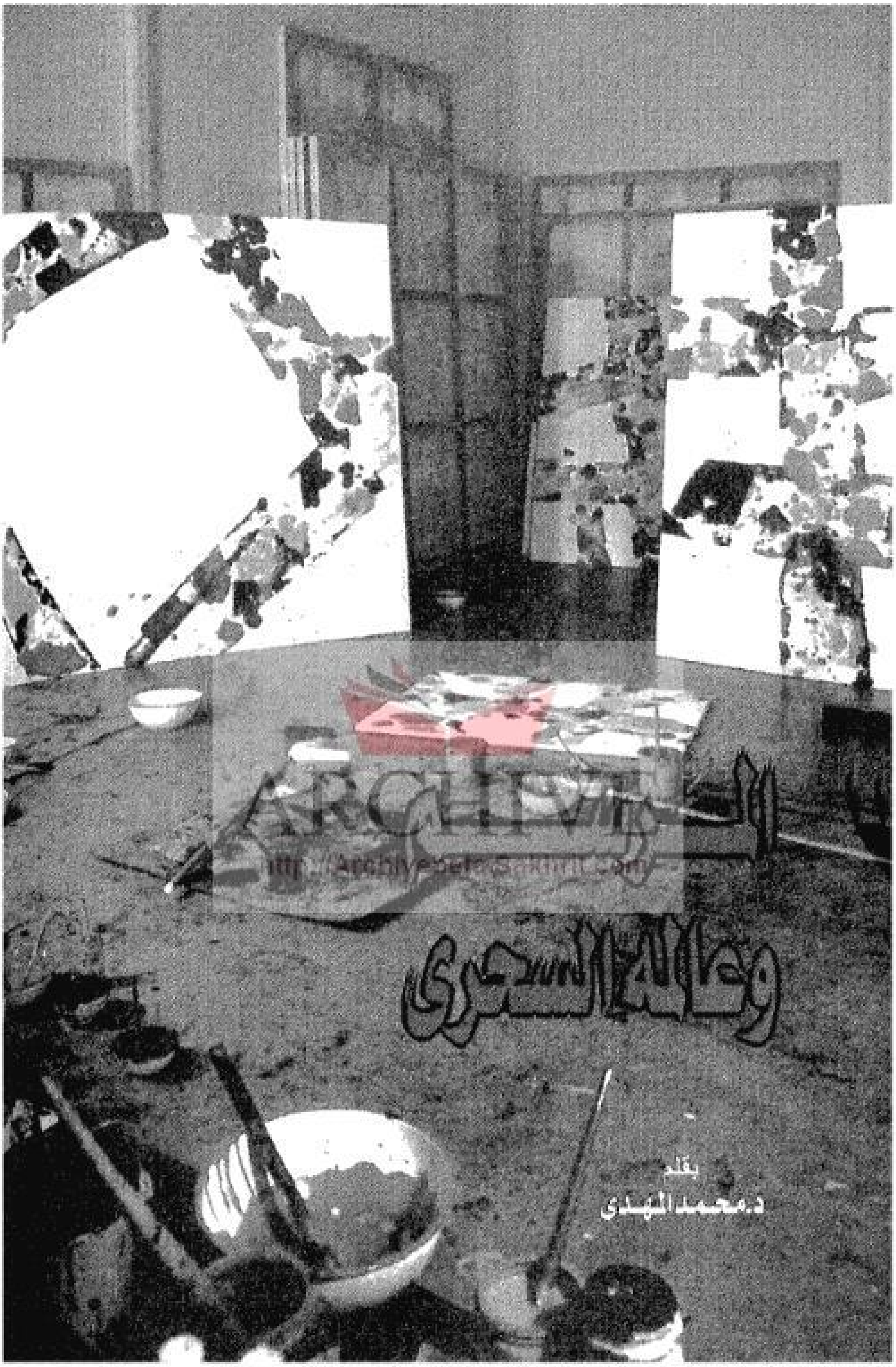
الشيخ جلال الحنفى

حديث الشعر والشعراء يسوقنى إلى الحديث عن شاعر عراقى معاصر يغفله دارسو الأدب، ربما لأنه رجل دين ولأنه يتولى الإمامة فى مسجد الخلفاء فى بغداد، ألا وهو الشيخ جلال الحنفى الذى يبلغ من العمر تسعين عاما والذى يضيف إلى رصيده الشعرى رصيدا من النثر البليغ يتابعه قراء جريدة «العراق» فى زاويته الأسبوعية.

والشيخ جلال الحنفى طويل النفس فى شعره، وكل قصائده مطولات ملحمية يتحدى بها كل من قصرت باعه فى الشعر، وكانت بينه وبين صديقه العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) مساجلات شعرية تزيد أبيات القصيدة الواحدة منها على ثلاثين بيتا، وكلها من الشعر المسبوك الذى تهتز له الروح وتطرب له الأذن.

وقد قضى الشيخ جلال الحنفى سنوات فى الصين يؤدى هناك رسالته الدينية، حيث تعلم اللغة الصينية وأتقنها وألف معجما صينيا - عربيا يعد انجازا علميا عظيما.

وإنما رغبت فى هذه العجالة أن أحيى هذا الإمام المستنير الذى يرفع رايات الأخلاق والأدب والإيمان ويواصل أداء دوره الثقافى دون أن تقعده سنه العالية. ■


وعالمه السحرى
بقلم
د.محمد المهدى

قليلا هي المعارض أو الكتب التي تعطي فرصة لمعرفة كيفية إنجاز الأعمال الرائعة التي نعيش فيها، أو تعبر عما نعيش فيه من عالم ساحر.. المرسم يكشف بنية العمل الفني.. كل جزئية تهمس بمعني من المعاني يتصل بنمو التشكيل واكتمال أوصاله.. موقع المرسم، أركانه، إضاءته، ادواته، محتوياته، خاماته.. عناصر عند استجماعها أو إعادة تجميعها تتبلور النبتة الأولى.. كيف نمت. كيف اينعت بالتكوينات والأحجام والألوان؟

المرسم رحم العمل الفني.. دليل الناقد الجاد.. دليل المشاهد الذكي.. ارشيف الفنان.. ذاكرته. وبعد رحيله ذكرياته ومذكرته التفسيرية. ما انتج.. وما كان ينتج.. وما شرع في انتاجه وتوقف عنده.

- لماذا هجر الفنان الرومانسية واتجه إلى الواقعية؟
- أقام مونيه مرسمه في قارب وقال: إني أرسم الهواء

مرسم الفنان جياكومتي، تتحدث عناصره عن عوالمه، مكان بسيط وبليغ.

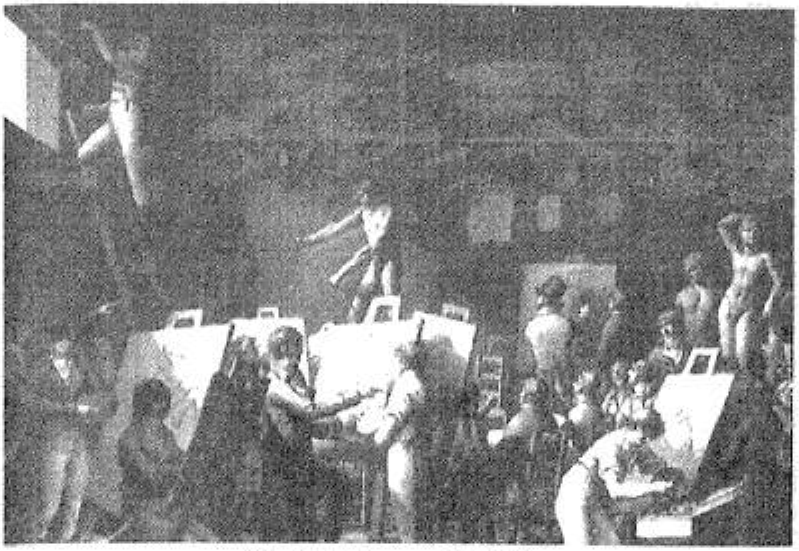
هكذا كانت منحوتاته. رشاقة القد البسيط ينتثر عليه محتويات المعنى العميق.. حوائط المرسم مشغولة بالرسوم الأولية.. بالخيالات حينما كانت هائمة.

وقد تجد بينها ما حط رحاله، أوقر قراره بتشكيل جمالي إنساني يتلبس شكله مضمونه.. مراسم اخرى تبدو كأنها العمل الفني بعينه، كسرة من خبز الفنان ساخنة بالألوان، تغرى بالأضواء بقدر ما تغرى بالتأمل.

مرسم الفنان (جاكسون بولوك) نحت تعيش في جوفه. تمشي الهوينا تخفف الوطأ، ليدخل الفنان صاخبا يبث ألوان جنونه في الارجاء.

منذ عام ١٨٦٠ سهل التصوير الفوتوغرافي مهمة، المرسم، تحول لمكتبه بصرية بقدر ما يحوى من نماذج فنية نحتيه أو تصويرية، بقدر ما يحوى من

مرسم الفنان المعاصر سام فرنسيس في طوكيو يضج بالالوان

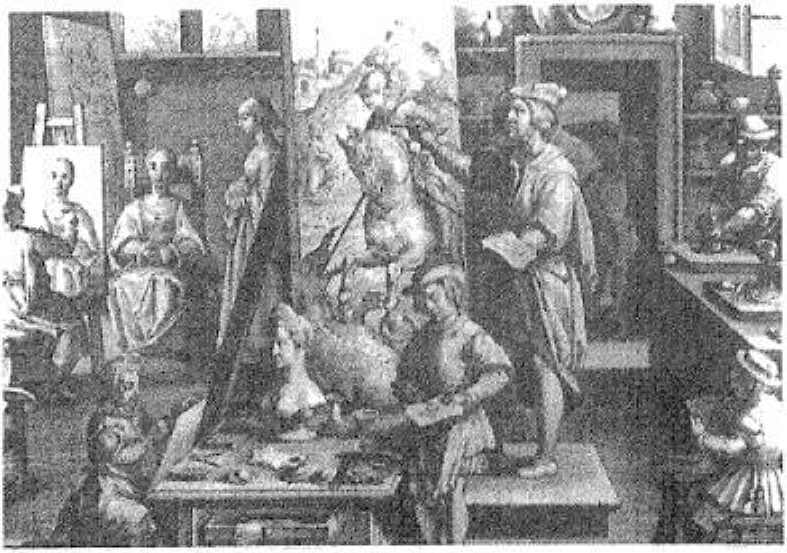


مرسم الفنان ديفيد .. رسمه جان هنرى كلاس

وثائق نصية من كتب مصورة.. بدأ هذا المفهوم الجديد للمرسم قبل التصوير الفوتوغرافى.

بدأت المحاولات الأولى من عصر النهضة الأوروبية على استحياء، ووسط موجة استهجان. ويعتبر مرسم (ليبرو دل ارت) للفنان (سيتينى) مثالا لهذا التبدل.

ولم تكن الخصوصية هى أهم ما حصله الفنان من هذا المفهوم الجديد للمرسم، فهناك - رغم ما تبدو عليه المراسم من فوضى - الاعداد الفنى من ألوان، وفرش، وإطارات وحوامل لوحات.. كانت مقدمات إقامة الاكاديميات الفنية المتخصصة بمفهومها الدراسى الباحث.. وجاءت هذه الخصوصية بتقاليد جديدة، فالعمل الفنى صار متشكلا من النبتة الأولى إلى اللمسة الأخيرة بيد الفنان.. كان (روبنز) السابق لهذه المرحلة يحدد فى خطاباته لزبائنه الفارق فى السعر بين لوحة ينتجها بكاملها بيده (اصلية من يدى)، ولوحة (رسمها احد تلامذتى ووضعت خطوطها النهائية بيدى)، لقد كانت المراسم التى أدارها الفنان دافيد (أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩) فى (اللوفر) هى اخر ما يمكن ان نسميه مراسم الاساتذة الكبار.. حيث كانوا



مرسم هولندي من القرن ١٦ يلاحظ الاستاذ في الوسط

يرسمون وسط المريدين والتلامذة، ويصدر العمل الفني بخصوصية الاستاذ ، قبل خصوصية التلميذ .. كانت هذه المراسم تمثل البقية الباقية من مفهوم المرسم الكلاسيكي أو الصورة المثالية للمرسم آنذاك ، ونجد في المقابل وفي الفترة نفسها الزمنية مرسم الفنان (ديلاكروا) صورة معاكسة للمرسم بتكويناته الجديدة.

الاستشراق والموديل

في منتصف القرن التاسع عشر كانت الرومانسية الغربية أدبيا، وفنيا تتراجع امام الواقع الاجتماعي، والاقتصادي المرير، ازدياد حركة التصنيع، تضم رؤوس الأموال ، ظهور البنوك.. برجوازية جديدة تمتص طبقة عمالية مضطهدة.. وإذا كانت بقايا الرومانسية قد وجهت الفنان الغربي للبحث عن مصادر الآلام عند شعوب غير أوروبية ، أو على وجه الخصوص في الشاطىء المقابل للبحر الأبيض أي العالم العربي، بما انتج الاستشراق الفني بمواصفاته الواقعية، أو النقلية او التسجيلية المباشرة في غالبية الاحيان، فإن النمو الاقتصادي قد انتج ايضا مقدمات الاشتراكية وما كان يسمى بـ (السان سيمونية)، ظهرت الواقعية الأدبية ، وظهرت الواقعية الفنية، جاءت تشكيلات (مييه) و(كوربيه) معبرة عن مأساة الفلاح في أرضه، وعبرت

تشكيلات (دوميه) عن مأساة العامل فى مدينتـه.. اصبحت هناك واقـعـيـة استشراقية، مقابل واقعية اشتراكية وكلا منهما ينطلق من مفهوم مختلف، إن لم يكن متناقضا، على ان كلا منها اتفقا على هجران المرسم، احدهمـا هاجـر ليستلهم من الشرق خيالات محلقة، والآخر تمرد ليستلهم من المأساة واقعا مريرا.

زار الفنان الانجليـزى فـردريك لويس) القاهرة عام ١٨٤١ .. ليس مثل أثرياء الاتراك، جعل مرسمه صورة للشرق كما تخيله، أو كما أراد ان يتخيله.. جلسات ارضية مسترخية ، يستعرض عليها حريمه، وموديلاته بملابسهن الصاخبة.. دخان كثيف يتصاعد، يعبق المكان.

وعندما عاد إلى لندن ١٨٥١ حمل معه كل هذه الأدوات (الاكزوتيك) -Ex otique وجعلها مصدر الرسوم التى ربح منها الكثير.

ونافس مرسم (لويس) مرسم الفنان الانجليـزى LEIGHTON لورد رئيس أكاديمية لندن الملكية، فقد اعده بكل ما هو عربى صارخ، بل لقد حول منزله فى (هولندبارك) إلى ديكورات شرقية مبالغة غامضة، . وحتى الفنان الفرنسى (جيروم) وهو استشراقى أكثر جدية ، حمل معه بعد زيارته لمصر الكثير من المواد الشرقية المثيرة لتكون نواة لمرسمه فى باريس (محفوظة الآن فى المكتبة الوطنية بباريس).

وبالغ الفنان المستشرق الذى يصور المعارك فحول مرسمه إلى ما يشبه المعسكر كالفنان DETAILLE دوتيل ، أو الفنان نوفيل NEUVILLE .

وبعض المراسم ضمت مضخات الحريق، أو الغريب من الأثاث، والعجيب من الحيوانات، والنادر من النباتات . تحولت مراسم (ماكار) فى فيينا، و(لونباخ) فى ميونخ،، و (فورتينى) فى روما إلى مزارات لفرط غرابتها.

وبقدر ما أفاد التصوير الفوتوغرافى الفنان فى مرسمه ، بقدر ما احرج المدرسة الواقعية، ان ما تقدمه الكاميرا هو تسجيل أدق من جهد الفنان، طرح السؤال المهم ما هى مهمة الفنان التشكيلى؟.. ما هى أدواته؟

وجاءت الاجابة.. مهمته رصدية واعية.. واجروميته بصرية لونية.

من هنا ينفرد ، ويتفرد، وينفصل عن الفنون اللغوية والفنون السمعية وساعد تحليل (اسحق نيوتن) لالوان الطيف على صياغة هذه الأجرومية.

بحث عنها الفنان ورتب تتابعها فى الطبيعة، هجر المرسم لاسباب جديدة، واضاف الكشف العلمى ان شبكة العين



سامر زفران .. مرسمه يعج بأشكال السلالم التي شغلته

تحتوى على عدد كبير من الجزيئات اللونية حيث يشمل كل جزء منها اللون الاخضر، والاحمر ، والازرق المائل للبنفسجي. تتكون إذن الرؤية نتيجة للعلاقة القائمة بين الضوء وشبكة العين ، لأن الألوان الموجودة على الشبكية ترتبط بالاعصاب البصرية الموصلة للمخ.

الرابطة واضحة بين اللون والضوء..

وإذا اراد الفنان ان يكون صادقا مع مرئياته، وهى ادواته واجروميته الحقيقية، عليه ليس فقط هجر المرسم، ولكنها ارتياد الخلاء للرسم فى ساعات محددة من النهار، واستكمال اللوحة فى الساعات نفسها كل يوم.

اللون إذن نتاج لتأثير الضوء على اللون.

تشكلت المدرسة (التأثيرية) بأفرع ثلاثة : تقسيمية Divisionisim وتنقيطية، pointalism وضوئية . Lu-ninsm وعرض (مانيه) لوحته (الغذاء على العشب) عام ١٨٧٤، اخترق التقاليد، اخرج نبلاء الخلاء من وقارهم.. واخرج التكوين من محدوديته

اللونية.. وعرض (مونيه) لوحته (تأثير). بنى لنفسه في منطقة (ارجنتيل) مرسما عائما داخل قارب يتيح له ان يتأمل التغيرات الساحرة للضوء على لجين الماء. اعلن (انني ارسم الهواء فوق الجسر، وفوق المنزل، وفوق القارب).. وحينما توفيت زوجته عام ١٨٧٩ رافق الجثمان من المساء إلى ان انبلج الصبح.. اخذته روعة ألوان الأضواء وجلالها على صفحة وجه رفيقته الراحلة، دعته هذه الليلة لانشاء مرسمه المتفرد والقائم إلى الآن.. حديقة متكاملة في (جيفرني) بالقرب من باريس. انتقى لها النباتات والاشجار، ووزع بينها البرك المائية، ونسق فيها الاضواء.. لوحة كاملة متكاملة تأثيرية الألوان والأضواء.



جياكوميتي في مرسمه

[illegible]

ونذكر بما عاناه رواد الفن الحديث من فاقة وشظف ورفض لاعمالهم. بيكاسو عاش مرحلة مريرة في (الباتولافوار). رسم لوحته الشهيرة (آنسات افينيون) والتي يعتبرها النقد علامة فنية، في مرسم شديد البرودة، سقفه متقوب، كان يضطر احيانا لشدة البرودة إلى قضاء نهاره في السرير.

و(ماكس ارنست) ، احد اقطاب السريالية عاش لفترة في مرسم مشترك تمنى زملاؤه رحيله لانه كاد يحول المكان لمسلخ كنماذج لرسومه.

عبرت بعض المراسم ليس عن شخصية الفنان فقط، بل تواءمت مع طبيعة العمل الفني.. مرسم الفنان (موندريان) في ٥٩ شارع نيويورك كان نظيفا يشع بالضوء كأعماله.. وعلى العكس شكل الفنان الامريكي (بالتوس) أعماله الرقيقة في مرسم يتصف بالصرامة وجاءت اعمال الفنان اليوغسلافي دادو DADO المضطربة في مرسم يفيض بزهور هادئة. وفي مرحلة اخرى من حياة بيكاسو تميز مرسمه بكثرة الفضلات من نماذجه..

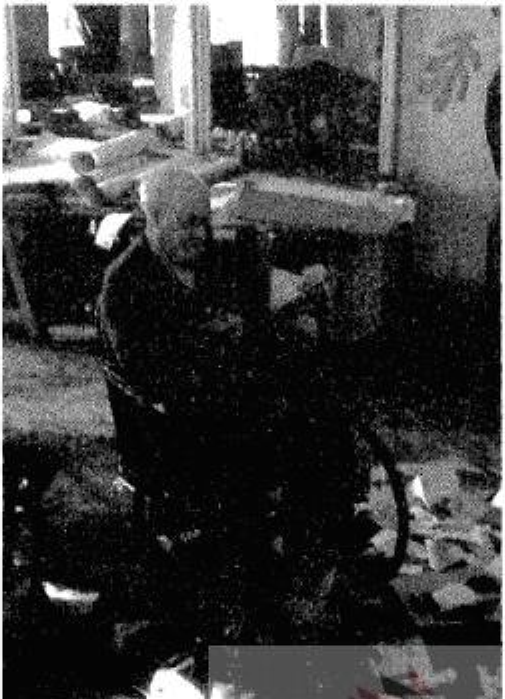
تذكرة مترو.. لعب اطفال.. بعضها حظى بشهرة فى اعماله كإناء التبغ.

وكان (لـ ماتيس عالم مختلف لقد حول فيلته التي سكنها في اواخر حياته في مدينة نيس (متحف ماتيس الآن) الى مرسم كبير ، شغل حوائطها بالرسوم وأوراق القص، واللصق بتكوينات وزخارف اسلامية شغف بها وعندما اقعده المرض كان يتحرك على كرسى بعجل وفى يده عصا طويلة يلصق بها تكويناته فى ست جهات.

وعلى عكس ما يمكن ان نتصور كان (دافنشى) يفضل المرسم الصغير، بينما نرى الفنان المعاصر يفضل المرسم الواسع.. وشكلت المدرسة الامريكية الفنية الجديدة شكلا مختلفا للمرسم. (دى كوننج) و(نيومن) و(جسبرجونز) تشغل مراسمهم وسط مدينة نيويورك الصاخبة. يرفضون النمط الاوروبى الهادىء.. مراسمهم تبدو كمصنع، أو ورشة في الأدوات والخشونة.

وإذا اردت مقابلة فإن مرسم الفنان الانجليزى (بيكون) يتصف بسكينة غامضة ، بينما معاصره الامريكى (اندرى ورهول) يتصف بصخب مكشوف.

وتسارع الزمن على تكوين المرسم فى زماننا، حدث التقابل ثم التضارب



ماتيس فى مرسمه

بين عولمة تريد احتواء العالم.. وخصوصية ترفض التنازل عن الهوية. دخل الكمبيوتر والانترنت المرسم وفرضا سكونية المكان، وداخل الفنان القلق ليس من برودة السكونية فقط، ولكن ايضا لطموح محبط كان يأمله.. كان يأمل بحكم اتساع أذرع مرسمه ان يلامس زميله الفنان، ورفيقه الانسان فيما كانت تبشر به ورش العمل الجماعية، وانتاج الفنون الجمعية.

وفى انتظار تسارع.. تسارع الزمن.

التكوين

«٢»

أشعر بالرغبة في التخلص من أوراقي وأبدأ على صفحات بيضاء

أمينة رشيد

نواصل فى هذه الحلقة من «التكوين» العوامل التى شكلت حياتى ووجدانى ومسيرتى الفكرية، وتبدأ هذه الحقبة الجديدة منذ وصولى إلى باريس سنة ١٩٦١ لمواصلة دراساتى العليا فى مجال الأدب المقارن .



وصلت باريس فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٦١ . لم أشعر مثل د. محمد حسين هيكل ببهجة اكتشاف مدينة الحرية كما وصفها فى مذكراته! صحيح أننى لم أصل عشية حفلات ذكرى الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو مثله، حيث يرقص الفرنسيون فى الشوارع فى كل مكان! وصلت فى جو كئيب من الأمطار الخفيفة ومطاردة الجزائريين وأنصارهم من العرب والفرنسيين وغيرهم، فى نهايات حرب التحرير الجزائرية.

كانت العنصرية، وكان

الرعب فى أوج عنفوانهما، وربما كنت أحمل بداخلى رعب مصر والمطاردات التى شاهدتها قبل سفرى، فانتابنى شعور قاس بالغربة وبالوحدة منعنى من الاستمتاع بشهورى الأولى فى باريس. ومع ذلك، استرددت ماتبقى لدىّ من شجاعة لأدخل فى إجراءات تسجيلى للدكتوراه .

كانت ثقافتى العربية ضئيلة ـ كما قلت ـ ومعرفتى باللغة العربية ضعيفة.. لم أكن قد قرأت بالعربية إلا روايات عودة الروح وزقاق المدق وحديث عيسى بن هشام ودعاء الكروان، فى السنة الرابعة لليسانس، من خلال محاضرات اللغة العربية مع د. عبدالحميد يونس، الى جانب المنشورات السياسية التى جعلتنى أفهم المراحل المهمة لتاريخنا الحديث، لكنها لم تكن تساعد كثيرا فى التعلم السليم للغة العربية! فقررت منذ البداية، وحتى قبل سفرى أن أعمل فى مجال الأدب المقارن، بتشجيع من د. مؤنس طه حسين، أحد أساتذتى فى قسم اللغة الفرنسية، وكان قد عانى من نفس المشكلة.

توجهت فور وصولى الى قسم الأدب المقارن بجامعة السوربون، وطلبت مقابلة ايتيامبل، وكان من أعلام الأدب المقارن ليس فقط فى فرنسا، بل أيضا فى العالم، حيث اشتهر من خلال سجالاته مع المقارنين الأمريكان ودراساته المهمة حول فرنسا والصين فى القرن الثامن عشر، ورسالته فى موضوع أسطورة رامبو، الذى استطاع من خلاله قبل انتشار دراسات التلقى والاستقبال أن يفكك الأسطورة بين المعجبين والمنددين بالشاعر، من القراء والنقاد، معطيا هكذا نموذجا فى الحياة الأكاديمية الفرنسية لإمكان، وربما ضرورة، كلمة أخرى غير الكلمة الدارجة، واستمر طيلة حياته يخوض المعارك فى كتاباته ومواقفه العامة، التى لم يكن يفصل بينها، ومن أشهرها رفضه لغزو اللغة الإنجليزية للغة الفرنسية كإحدى وسائل «أمركة» فرنسا ونقده اللاذع «للمركزية الأوروبية» فى الدراسات المقارنة.

لا أنسى أبدا مقابلتنا الأولى، كانت سمعته وكان شكله كالنسر الذى يتفحص من أمامه، مستعدا لاقتحامه واسكاته اذا لم يعجبه قوله! وكنت خائفة بالطبع، يغلب علىّ الخجل فى اللحظات

التكوين

الحرجة وتعودى على التأدب من خلال تربيتى، مما جعلنى، وحتى الآن، لا أستطيع الرد بسهولة على من يعارضنى أو يعادينى. بدأنا بالتعرف، من أين أتيت ولماذا أريد الدراسة في مجال الأدب المقارن؟ ثم عرض عليّ موضوعا لم يعجبنى، فقلت ذلك بأدب لكن بلا تردد رغم خشيتى من رد فعله الذى جاء عكس ما ظننته ! (فهمت بعد ذلك أن هذه طريقته لاختبار شخصية من أمامه!). وتفتحت المناقشة بيننا صريحة وطليقة.

كنت من خلال تدريسى فى قسمنا قد اكتشفت العصور الوسطى ودور العرب فيما يسمى بعصرهم الذهبى. قلت أيضا أننى أريد إعادة اكتشاف العقلانية العربية ورفضى لأيديولوجيات العبث التى كانت سائدة فى فرنسا فى تلك الفترة (متأثرة فى الغالب بقراءاتى لسارتر). ووجدته معجبا بموقفى، مشجعا له، ونصحنى بأخذ فترة قراءة وتفكير قبل اختيار موضوع للرسالة. واستمرت علاقتنا على هذا النحو، متسمة بالاحترام والمعزة، عندما كنا نتفق أو نختلف.

لم أتعجل اختيار «الموضوع»، بل شرعت فى اكتشاف باريس، محاولة تجاوز صدمة البدايات. مثل جميع الطلاب الأجانب ذهبت الى المسرح، وزرت المتاحف، وفرساى وفونتنبلو، وكانت أجمل متعة تعرفى على روائع السينما العالمية. وكانت صداقاتى الأولى مع طلاب من العالم الثالث وليس مع فرنسيين. نذهب الرحلات معا، نجلس فى مقاه معا، نثرثر بلا نهاية عن التجارب المختلفة المتشابهة لبلادنا، كانت أغلب صداقاتى من أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا الشمالية، وأفريقيا عامة، وأيضا من المانيا وايطاليا، أسبانيا ، الاتحاد السوفيتى سابقا، يوغوسلافيا سابقا، وغيرهم، كلهم من اليساريين، نشتم الغرب ونستمتع بملذاته، نشجب السياسات الاستعمارية، ونبتهج





أمينة رشيد وسيد البحراوى فى عقد قرانهما بالقاهرة وتظهر فى الصورة لطيفة الزيات وعطاف محفوظ ١٩٨١/١٢/٢٦

بحرية الحديث التى لم يكن أغلبنا يجدها فى وطنه. .

انتهت حرب الجزائر. وحضرت احتفالا بالاستقلال فى مقر طلبة افريقيا الشمالية تعرفت فيه على جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار. لم يتركا فى نفسى الأثر الآسر الذى كنت أتوقعه. مماثلا لكتاباتهما وموقفهما المساند لحرب تحرير الجزائر والعالم الثالث عامة. فى نفس الفترة تعرفت على رشدى راشد وكان قد دعانى الى هذا الاحتفال. كان آنذاك يعمل فى ألمانيا الشرقية (سابقا!) مطاردا من الحكومة الفرنسية بسبب مساندته للثوار الجزائريين، ومن السفارة المصرية لأنه دافع عن زميل سورى حجز جواز سفره بسبب نشاطه السياسى فى فرنسا (كان ذلك فى فترة الوحدة بين سوريا ومصر). بعد عودته النهائية الى باريس تزوجنا، تعرفت من خلاله على مصر حى الحسين التى لم أكن أعرفها وعلى صرامة نادرة فى البحث العلمى. لكن زيجتنا لم توفق فانفصلنا، بعد ميلاد ابننا مروان فى ٢٦ يونيو ١٩٧١.

قرأت كثيرا فى هذه الفترة. أقرأ فى العلاقات بين العرب وأوروبا فى العصور الوسطى، أبحث عن كل التأثيرات العربية المعروفة وغير المعروفة. اذهب بانتظام الى المكتبة الأهلية، أقضى فيها ساعات طويلة، سعيدة ومنهكة، اغرق فى قراءات صعبة لم

التكوين

أكن مؤهلة لاستيعابها! احضر أيضا بعض المحاضرات والسمنارات في تخصصات العصور الوسطى. وأخيرا اخترت موضوع رسالتي للدكتوراه، من خلال لقاء مع جاك بيرك الذى كلمنى عن رامون لول، هذا الاسباني العقلاني الذى سافر الى بلاد العرب بغرض تبشيرى وأراد أن يجذب المسلمين الى المسيحية، فتأثر هو بالثقافة العربية، وكتب فى المجالات المختلفة للسجال الفلسفى وقصص الحيوان والنثر الشاعرى الصوفي، معلنا اعجابه بالثقافة العربية، فلسفة وأدبا واقتناعه بعقلانية العرب وانجذابه لجمال الشعر العربى فى آل «حبيب والمحب». كان يقال عنه انه تعلم العربية وعرفها جيدا، لكننى استطعت اكتشاف انه قرأ الأعمال العربية من خلال الترجمات اللاتينية والأسبانية التى قام بها المسيحيون الأسبان.

لم أنغلق مع ذلك فى حدود رسالتي. كانت الستينات فى فرنسا، رغم كآبة بداياتها، فترة رائعة، ازدهرت فيها الاتجاهات المختلفة للنقد الأدبي، وتعمقت القراءة المنهجية، وتعددت أساليب السينما الطليعية . كل هذا فى سياق تاريخى رأى تفاقم



حركات التحرر الوطنى فى العالم، فيتنام تخوض حربا بطولية ضد أمريكا وشى جيفارا ينادى بالكفاح المسلح ويزرع ألف فيتنام فى العالم.

رفضت البنائية

أقرأ مع غيرى نظرية الشكليين الروس وانبهر بانجازاتها، رغم رفضى المبكر للبنائية التى نتجت عنها، أو أخذت مناهجها مبررا لدفاعها عن انغلاق النص الأدبي، وانفصاله عن سياقه التاريخى الاجتماعي. أتابع رفض عالم الانثولوجيا ليفي - شتراوس لاستخدام نقاد الأدب لنظرياته فى بنى النسب الأسرية، التى رأى أن تطبيقها على النص الأدبي غير صالح .

أتابع أيضا عمل مجموعات كانت تقرأ ماركس فى النص (وليس من خلال المنشورات). وفرويد: فكانت الأولى تجد فى كتاب رأس المال مبادئ الاستلاب الناتج عن اخفاق الصراع الطبقى، والثانية تتعمق فى الاستلاب النفسى الذى تختفى جذوره وراء اخفاق اللاوعى .

كانت فترة الفيلسوف الفرنسى ألتوسير واعادة قراءة ماركس . وخرج من عمله المشترك مع آخرين كتاب قراءة رأس المال الذى قرئ فى أوساط المثقفين فى فرنسا وترجم فى الكثير من لغات العالم

(وترجم ايضا الى العربية) . أما أنا فكنت أقرأ الى جانب تودوروف وجينيت وبارت، التطور الجديد للنظرية الماركسية فى النقد الأدبى: جولدمان وماشرى، ومنهم عدت الى لوكاتش، أما باختين فلم اكتشفه الا بعد عودتى الى مصر .

كانت أوساط المثقفين المصريين فى فرنسا أيضا تشغى بالتساؤلات حول مصير الثورة، ثورتنا المصرية. كنا مجموعة حية من المشاغبين، نطرح على السلطة اسئلتنا القلقة، نتبنى مفهوم الطبقة الجديدة فى مصر، ونتنبأ بصعود الثورة المضادة. وفى هذا السياق الملتهب تكونت مجموعات عمل لتدرس مشاكل الزراعة والصناعة، والتربية والديمقراطية، والثقافة والعلم، الخ. اتهمنا بالغربة التى جعلتنا لا نرى الواقع، وبالتأثر بنظريات غربية لا تتجانس مع قضايانا. ومع ذلك أخذت مواقفنا فى الاعتبار، اذ نظم فى مصر مؤتمر للمبعوثين انعقد فى ١٩٦٦، كى يتم فيه «تبادل وجهات النظر».

وكانت كارثة ١٩٦٧

كانت الصدمة والذهول لنا ولكل الجالية العربية فى فرنسا. بقينا يومين نرفض الهزيمة ونتهم الإعلام الغربى بالكذب عندما تعلن اذاعاته استسلام الجيوش العربية. ننظم اللجان التى تتصل بجميع وسائل الاعلام لقول الحقيقة. وبالفعل كانت جريدة «فرانس سوار» قد



أمينة رشيد فى شرفة منزل الزمالك (١٥ سنة)

أصدرت عددها الأول فى صباح ٥ يونية بعنوان «المصريون يعتدون»، ثم استبدلته بعد احتجاجنا -أم بعد أن عرف العالم أن الاسرائيليين كانوا المعتدين؟- . لم نصدق شيئا مما يقال الا بعد سماع صوت جمال عبدالناصر، وقورا، حزينا، يعلن تنحيه عن كل مناصبه ومسئولياته. ولا أعرف كيف وجدنا أنفسنا جميعا أمام السفارة المصرية، فى الساعة التى تلت خطابه، نطالبه بالبقاء، علمنا بعد ذلك أن نفس الشيء كان قد حدث فى مصر.

تغيرت حياتى بعد ذلك . ودعت بداخلى مباهج باريس، وهم الحرية والثقافة. الاستمتاع بالسينما، اكتشاف النقد الأدبى

التكوين

الجديد، الثرثرة فى المقاهى. أركز على هدف واحد: الانتهاء من الرسالة والعودة إلى مصر. كتبت صفحات وصفحات نالت إعجاب إيتيامبل، يهنئنى على منهجى الماركسى (مضيفا أنه ليس ماركسيا بل معجبا بنا كآخر الشرفاء فى العالم!).

هذا لم يمنعنى من ممارسة العمل فى «اتحاد الطلبة المصريين» حيث كنت أقوم بالتنسيق مع «اتحاد الطلبة العرب» وبالعلاقات الخارجية مع طلاب فرنسا والعالم. أحببت هذا النشاط وتعرفت من خلاله على بشر رائعين، وعلى القضية الفلسطينية التى دخلت حياتى منذ هذا الحين كى لا تخرج منها أبدا بعد ذلك.

فى هذه الفترة، وقعت أحداث مايو ١٩٦٨. بدأت ثورة طلابية تندد بمناهج التعليم البالية لما سمى ب «سوربون بابا» وبموروث نابليون الطبقى والسلطوى فى كل مراحل التعليم. رأيت جدران السوربون الكئيبة فى العادة، تمتلئ بالشعارات الثورية والطوبائية إلى حد كبير (مثل : «الخيال فى السلطة»). رأيت الطلبة وبعض العمال الذين انضموا إليهم يهتفون ويغنون، يرقصون وينادون بالثورة «فى الفرح». رأيت فرنسا الـ«ديمقراطية» تجند أمنها المركزى لمهاجمة الطلاب بدروعهم الزجاجية وأقنعتهم الشفافة. ثم تحولت الـ «ثورة» إلى انتفاضة عمالية، وعشت بذهول التجربة المثيرة لإضراب الشهرين الذى شل الحياة فى فرنسا. لكن كل هذا لم يكن يهمنى كثيرا: كنت راغبة فى الانتهاء من رسالتى والعودة إلى مصر!



فى ظروف صعبة وسنوات أليمة انتهيت من رسالتى. ولد مروان وانغلقت معه فى البيت (باستثناء حضور بعض السمنارات)، أهتم به وأكتب الرسالة. أحكى له الحكايات وأكلمه عما يحدث وأفاجأ بذكائه المبكر وحساسيته المفرطة، بأسئلته الصائبة وتعليقاته الدقيقة. ملأ حياتى بالهناء والأمل، وأيضا بتمزق الاختيارات الصعبة عندما جاء وقت العودة وقرار تركه فى باريس مع أبيه.

ناقشت رسالتى واحتفل بى أصدقائى فى بيت مصطفى صفوان. نهاية سعيدة وبداية السؤال الصعب: هل أعود إلى القاهرة، إلى جامعتى، أم أبقى فى باريس؟ كنت قد عينت فى الـ «مركز القومى للبحث العلمى» فى فرنسا وكان الإغراء بالبقاء شديدا، لكننى لم أتحمل فرنسا أكثر من ذلك، أعيش فى أحداث مصر وأبكى عندما أفتح نافذتى وأرى

سماء باريس الرمادية أشعر أننى استفدت كثيرا مما عشته من تجارب فكرية وسياسية ووجدانية لكن أدركت تماما أن هذا التاريخ ليس تاريخى وأن هذه الحياة ليست حياتى.

عدت إلى مصر وإلى جامعتى. وفى المناخ الصعب لـ «كامب ديفيد» واتفاقيات السلام انتميت لدوائر مختلفة من الوعى ومن العمل. تعرفت على لطيفة الزيات. فى البداية كنا نلتقى فى شقة الصديقة العزيزة ليلى الشربينى فى حلقة نسائية، أسبوعيا. فى كل مرة تحكى إحدانا عن تجربتها، وكانت أغلبها تجارب صعوبة التوفيق بين الارتباط الزوجى والحياة المستقلة التى يشغلها هدف خاص، نضالى أو بحثى أو إبداعى. ثم بعد «كامب ديفيد» ونشأة «لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية»، انتمى أغلبها إلى هذه اللجنة، نلتقى كل يوم أحد، ننظم الندوات والمسيرات، تصدر مجلة «المواجهة» وننجح فى خوض بعض المعارك: رفض التطبيع الذى كنا أول من رفع شعاراته ومعركة معرض الكتاب التى استطعنا من خلالها أن نمنع نهائيا وجود إسرائيل فى المعرض.

تعرفت على سيد البحراوى فى حلقة أخرى كانت تجتمع فى بيت د. عبد العزيز الأهوانى. مع بعض الزملاء من تخصصات أدبية مختلفة وبعض المثقفين،



أمينة رشيد في نادى الجزيرة (١٨ سنة)

كنا نناقش المناهج الجديدة فى النقد الأدبى أو الاتجاهات الفكرية، نعرض كتابا جديدا أو نتبادل الحديث فيما يدور.

جمعتنى صداقة خاصة بسيد البحراوى، انجذبت فى البداية لطيبته التى كانت تحيط بى وتمحو كل جروح حياتى ثم قرأنا كتبا معا، ترجمنا معا، أحبنى وأحببته. وبعد خروجى من السجن ٢٦ ديسمبر ١٩٨١ تزوجنا. معه اكتشفت عالم الريف الذى لم أكن أعرفه إلا من خلال خبرة ملاك الأرض أو رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى. معه تجاوزت صعوبة الكتابة بالعربية.

ومعا خضنا الكثير من المعارك، فى

التكوين

«لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية» و«نادى أعضاء هيئة التدريس لجامعة القاهرة»، وغيرها من المجموعات. استفدت كثيرا من خبرته الثقافية واستفاد هو من بعض خبراتي. وفى صعوبة الحياة العامة فى مجتمع متشرذم والتجارب المتقطعة والفاقدة للتراكم، أنشأنا بيتا نحبه ويحبه معنا الكثير من الأصدقاء ومن الأسر الصغيرة التى كوناها، أو تكونت من حولنا.

تجربة سعيدة

فى ١٩٨١ كانت تجربة السجن. بالطبع لا أستطيع أن أقول أنها كانت تجربة سعيدة! لكننى تعلمت من خلالها الكثير. رأيت التضامن الإنسانى لبشر لا يجمع بينهم شىء. كونت صداقات أخرى، تعمقت علاقتى بـ لطيفة الزيات وتعرفت على صافى ناز كاظم. وساعدتنى كل منهما على تجاوز عدم الثقة فى نفسى الذى كان قد تجذر بداخلى . وأساسا استكملت تجربة الانتماء التى كم كانت صعبة، مؤلمة، وكم مزقتنى فى لحظات مختلفة من الحياة لأول مرة فى حياتى أشعر أننى كل لا يتجزأ ولست منقسمة، أعانى الاختلاف، شخص هجين، لست فرنسية ولست مصرية. شعرت أننى مصرية وعربية، أعيش تجاربنا بكل أبعادها وأنتمى لمجتمعى مع كل مشاكله وصعوباته. لا أستطيع أن أشك فى ذلك الآن ولا يشك فيه أحد من حولى .

ثم استقرت حياتى . أعطى الجامعة أولوية مطلقة، رغم نصائح الكثيرين من حولى أن أهتم أكثر بكتاباتى وأبحاثى. أحب طلبتى ويحبوننى. أتأثر بصعوبة حياتهم فى سياق لا يساعد على الدراسة السليمة ولا على الانتماء ولا حتى على حياة مراهقة سعيدة. عن طريق الأدب المقارن، أحاول تجاوز عبثية التدريس فى قسم لغة أجنبية فى زمن يخلط بين الأجنبى والعولمة والتبعية ولا يساعد على اكتشاف المشترك الإنسانى والعالمى فى الفكر والعلم والكتابة الأدبية.

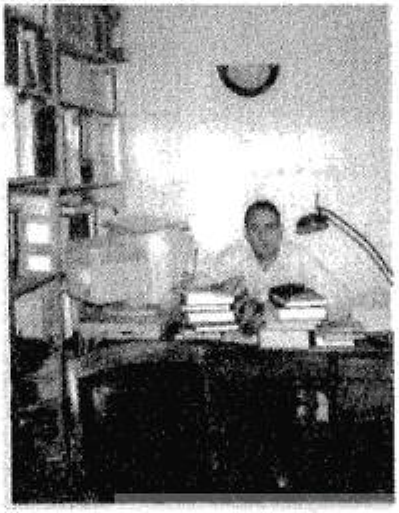
واعترف أيضا أننى مازلت هاوية فى قراءاتى ، أما فى كتاباتى فأنا لا أركز على موضوع وأستكمله (باستثناء بعض المقالات وكتابين انتهيت منهما تحت ضغط وبصعوبة فظيعة!). تمتلئ أدراجى بأوراق غير مكتملة، خطط لمشاريع، كتابات خاصة، كروت بحث... وأحيانا أشعر أننى أريد التخلص من هذا كله وأبدأ من جديد على صفحات بيضاء.

ومع ذلك تشغلنى بعض المواضيع وأقرأ فيها كثيرا. موضوع الزمان والمكان فى النص الأدبى، موضوع السيرة الذاتية





أمينة رشيد وابنها مروان - باريس ١٩٧٢



مروان راشد ابن أمينة رشيد - باريس ٢٠٠٠

فى تجلياتها المختلفة (ومنها سيرتى الخاصة، بدأتها منذ أكثر من عشرين عاما وأخاف الاقتراب منها)، وأهتم بمشروع نور لكتابة المرأة العربية، رغم أننى لم أنتم أبدا لمشروع نسوى: مع الزمن وتجارب الحياة اقتنعت بأن هناك خصوصية لقضايا المرأة، لكنها لم تتحول أبدا إلى مشروع حياتي..

والآن فى نضالنا من أجل فلسطين أشعر أن لا شئ له قيمة حتى تتحرر فلسطين. أعيش وجع الجميع رغم أننى أرى أن جنون المجزرة التى تقوم بها إسرائيل فى الأراضى المحتلة يشير إلى أن هذه الدولة المزيفة تعيش بداية نهايتها. لكن الثمن مؤلم، غاية الألم، والدمار مريب، نقوم بالكثير من المسيرات واللقاءات، نوقع على بيانات، أتأثر بكفاح سيد المميت، مع آخرين، أكتشف بشرا فى نضالنا لم أكن أتوقع أن شيئا عاما يهمهم، وأحاول أن أقتنع أن أمتنا بخير. أتابع بأمل تحول الرأى العام العالمى، وخاصة جهود فرنسا التى عايشت قوة الصهيونية فى إعلامها. وقبل كل شئ يحيى قلبى كل يوم وفى كل لحظة جسارة المقاومة الفلسطينية: كنا نظن أن العرب سوف ينقذون فلسطين . وأعرف الآن أن فلسطين هى التى سوف تنقذنا.

أنت والهلال

عاطف مصطفى

بمناسبة مقال « أسرار الأميرة التى تحرك الرجال وتصنع الأحداث » والذى نشر فى عدد أبريل الماضى لدى بعض الملاحظات من بينها :

عودة للأميرة نازلى فاضل



● الأمير مصطفى بهجت فاضل (١٨٣٠ ـ ١٨٧٥) أخ أصغر غير شقيق للخديوى اسماعيل ، لم يؤلف كتابا بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه دبج رسالة سميت فى أدبيات التاريخ : « من أمير إلى سلطان » وهى من روائع الأدب السياسى .

● الرسالة وجهت إلى السلطان عبدالعزيز وليس السلطان عبدالحميد .. والسلطان عبدالعزيز (١٨٣٠ ـ ١٨٧٦) هو السلطان رقم ٣٢ من سلاطين آل عثمان. والأمير مصطفى بهجت فاضل، كتب رسالته الشهيرة عام ١٨٦٦ .

رسالة فى أدبيات التاريخ

● ورد فى المقال والذى كتبه رئيس تحرير الهلال أن الأميرة نازلى فاضل، ترجمت هذه الرسالة من التركية إلى العربية .. وما أعلمه عن هذه الرسالة أن توفيق الرافعى قام بنشر ترجمة عربية لها عام ١٩٢٢م، وقام بتعريبها أحمد فتحى زغلول (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) وهو شقيق سعد باشا زغلول، تحت عنوان « من أمير إلى سلطان » .

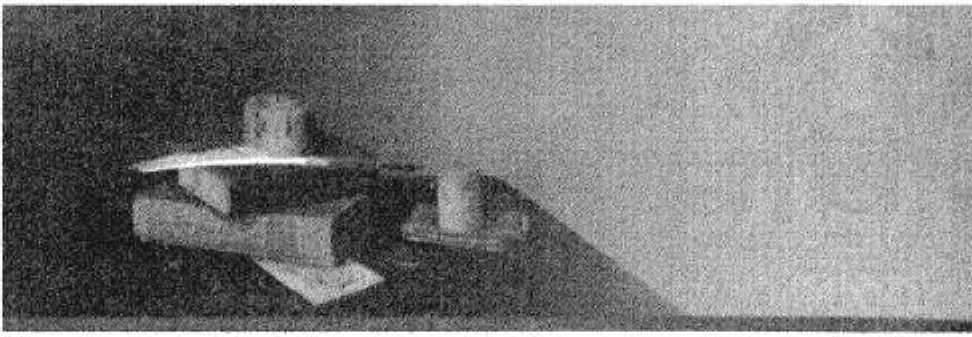


● فى عام ١٩٤٠ قام المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بنشر كتيب بالقطع الكبير وباللغة الفرنسية لهذه الرسالة .

والنص المعرب والآخر الفرنسى موجود لدى إذا ما رأيتم نشره بالهلال . علما بأن نص الرسالة هو قطعة من الأدب السياسى الرفيع والعفيف الصادر من محكوم إلى حاكم فى القرن ١٩ . ولكنه يصلح لكل عصر .

مهندس/ شريف سيد عفت - القاهرة

● الهلال شكراً على تحيتك الرقيقة ونحن فى انتظار إرسال مالديكم فى أقرب فرصة.



حان الجهاد

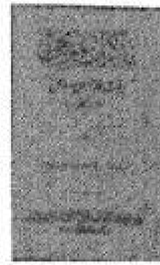
الجرح زاد توسعا ونزيفا ... والحزن بات على القلوب كثيفا
سالت دماء المسلمين ولم تزل ... تجرى برام الله - تروى حيفا
سفاح صهيون اللئيم مواصلا ... بالحرث حرقا، والبنا تجريفا
والنسل قتلا غير أبه لحظة ... فى أمة المليار، ليس أسيفا
وتبارك الاجرام - أمريكا - له ... فى قولهم : هو بالدماء شغوفا
لكن رام الله يابى حصنها ... فتحا، لهذا الغازى الملهوفا
فيها أبو عمار طودا شامخا ... لا يخشى موتا من يموت شريفا
طلب الشهادة والشهادة مطلب ... للماضين إلى الجهاد زرافا
الحاملين على الأكف رؤوسهم ... الطالبين رضى الإله ألوفا
المانحين الروح حب كرامة ... للقدس أنفسهم، ولا تكليفا
يا أمتى حان الجهاد فسارعى ... نمضى إلى أرض الجهاد لفيفا
ليفوز بالنصر المبين جميعنا ... أو بالشهادة نكسب التشريفا
فكفاك ذلا انهضى لا تنثنى ... وكفاك تأجيلا كفى تسويفا

درهم جبارى -أمريكا - سان فرانسكو

مذكرات عربجي.. من جديد!

كتب الدكتور محمد رجب البيومى مقالاً فى عدد يوليو ٢٠٠١ عن كتاب عنوانه « مذكرات عربجى » ، وقد أرسل إلينا السفير شكرى فؤاد ما يفيد أن الكتاب من تاليف الكاتب الكبير فكرى أباظة، وليس « أبو محمود »، وطلب فى نهاية كلمته أية معلومات جديدة حول هذا الكتاب .

والحقيقة أن كتاب « مذكرات عربجي » الذى كتب مقدمته الكاتب الكبير فكرى أباظة، قد أثار ضجة كبيرة عند صدوره .



وأرى أن المؤلف « الأسطى حنفى » مجرد شخصية وهمية تخفى وراها المؤلف الحقيقى وهو الفنان الكبير سليمان نجيب (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وهو ما أكده بعض أصدقائه ومنهم الشاعر صالح جودت فى مقال له بالمصور سنة ١٩٥٥ .

والجدير بالذكر أن سليمان نجيب لم يكن مجرد ممثل سينمائى بل كان أديب وكاتب مسرحى له العديد من الأعمال المسرحية والكتابات الأدبية ، وهو ما يتطلب دراسة موسعة عن حياته وفنه وأدبه .

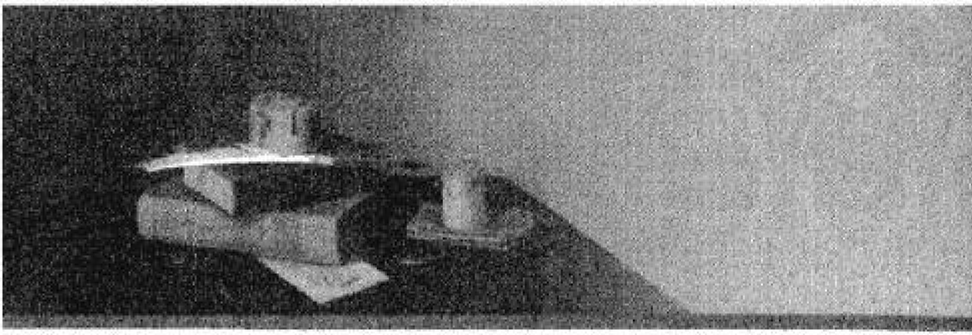
محمد رضوان - القاهرة

رنين الشعر

هذه قصيدة من شاعر تتنبأ له الهلال بمستقبل طيب وهو من أصدقاء « أنت والهلال » تقول أبيات قصيدته :

أعلم أن الزهر يموت
أعلم أن الغصن اليانع
فى هدرات خريف حتما سيموت
أعلم أن دموع الشجر النائم فى أحلامى
ماهي إلا دموع من شجر التوت
أعلم أن الضلع الناقص في جسدي
يأكله الحوت
أعلم أن عصورا جاءت
وعروشا مازالت ترقد في التابوت
لكن رنين الشعر (الحرِّ) يدوى
لن يرغمه سيف سكوت

عبدالناصر الجوهرى
دكرنس - دقهلية



قصة من الأدب العربي

خرج أعرابي من البدو في سفر، فأقبل على الأمير المهلبي وهو يتناول طعامه ، فلما فرغ من طعامه أومأ إلى البدوي قائلا :

- من أنت يا بدوي؟!

- شاعر قصدتك بأبيات من الشعر .

عندئذ طلب الأمير من رجاله أن يأتوه بقوس وسهم ثم قال للبدوي: قل أبياتك ، فإن أعجبتني كافأتك أو رميتك بهذا السهم !

فأنشد البدوي يقول شعرا :

أمنت بداود وجود يمينه
من الحدث المرهوب والبؤس والفقر

وأصبحت لا أخشى بداود نبوة
ولا حدثانا إن شددت به أذري

له حكمة لقمان وصورة يوسف
والملك سليمان وصدق أبي ذر

تهرب الأموال من كفه كما
يهرب الشيطان من ليلة القدر

فقوسك قوس الجود والوتر الذي
وسهمك فيه الموت فاقتل به فقري

فضحك المهلبي وسأل البدوي :

- أيها أحب إليك أن أعطيك على قدرك أم على قدري

قال : على قدري يا أمير

قال الأمير : وكم قدرك ؟

قال : مائة ألف درهم

قال الأمير : لك ما طلبت ولكن لم لا يكون على قدري أنا؟

قال : يا أمير إن الأرض وما عليها لا تساوي قدر الأمير لذا طلبت على قدري !

ابتسم الأمير وقال له . والله إن نثرك لأحسن من شعرك ، لذا أعطيناك مائة ألف أخرى على ألا تنقطع عنا .

محمد أمين العيسوي - الإسماعيلية

أنت والهلال

الانتماء للوطن

في برما محافظة الغربية واحدة من أقدم المدارس والتي تبرع ببنائها غبريال بك فرج الصعيدي أحد أغنياء أقباط مصر عام ١٨٩٠م وأوقف عليها أربعة وثلاثين فدانا للإنفاق على هذه المدرسة ، وظلت هذه المدرسة تكبر وتتطور إلى أن أصبحت بعد أكثر من مائة عام خير دليل على قوة النسيج الوطني، حيث كان يلتحق بها طلاب من الوجهين القبلي والبحري مسلمين وأقباطا .

ومن أهم الظواهر الإيجابية في التاريخ للأقباط، ما قام به الدكتور محمد عفيفي بالاشتراك مع الدكتور رفيق حبيب في كتابهما المشترك « تاريخ الكنيسة القبطية» القاهرة سنة ١٩٩٤م وكتاب الدكتور محمد عفيفي «الدين والسياسة في مصر - القمص سرجيوس ١٨٨٢ - ١٩٦٤ » وهذان العملان لم يلقيا الاهتمام والرعاية من جمهرة المؤرخين والباحثين .. وظاهرة التاريخ للأقباط تدعم وترسخ ركائز الوحدة الوطنية .

أيضا من الظواهر الإيجابية في دعم الوحدة الوطنية ، ظاهرة حكماء الأقباط، وهم الذين أكدوا دائما انتماءهم الوطني لمصر الأرض والوطن والإنسان وأقاموا جسور الثقة والتفاهم والتواصل مع كل المصريين أقباطا ومسلمين من هؤلاء الحكماء نذكر : د . ميلاد حنا، د . مينا بديع عبدالملك د . رشدي سعيد د . يونان لبيب رزق .

عمرو عبدالمنعم حموده

٢٢٢

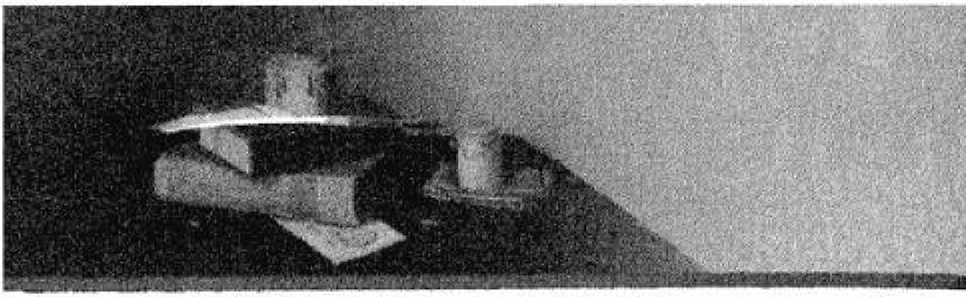
حل مشكلة التجليد

أنا من عشاق مجلة الهلال ، والتي أحبها أبي وغرس في هذا الحب ، فلم يترك عددا واحدا منها ، ولذلك تزدان بها مكتبتنا بالبيت ، وأقرأ كل أعدادها ، فضلا عن أنني أنتظر بفارغ الصبر أول كل شهر وصولها إلى لبنان لكي أشتريها وأقضي كل ساعة فراغ في قراءتها .

لكنني لاحظت في الأعداد الأخيرة التي صدرت ، وبرغم جمال التطوير أن التجليد ليس على مستوى هذا التطوير ، فأحيانا عندما أقلب صفحاتها « تفرط » ، مما جعلني أتساءل عن السبب في ذلك ؟

عبدالقادر - بيروت - لبنان

● هذا الأمر يشغلنا منذ عدة شهور ، ووعدنا مدير عام المطابع، بأنه ابتداء من عدد مايو الذي بين يديك لن تتكرر هذه الشكوى .



إشـــادة بالدكـــاترة زكي مبـــارك



أنا من قراء الهلال الذين يحرصون على قراءة كل أعدادها والتى - نادرا - ما تصل إلى ليبيا ولا أدرى سببا لذلك .. أتوجه بسؤال إلى الكاتب وديع فلسطين أطال الله فى عمره .. هل كانت لديه علاقة بالدكاترة زكي مبارك الذى أحبه وأحب كل كتاباته ، راجيا أن يتكرم بنشر بعض ما يعرفه عنه ، فزكي مبارك يستحق من أهل الضاد كل التكريم .

صالح عمار النائلى
طرابلس - ليبيا

● **الهلال : فى مقاله بالهلال يتناول الكاتب وديع فلسطين كل الشخصيات الأدبية التى أثرت الفكر والثقافة العربية وقد وعد بعد أن قرأنا عليه رسالة الصديق ، بكتابة بعض ذكرياته عن الدكتور زكى مبارك .**

القدس تنــادى

يحمل البريد مساهمات كثيرة حول ما يدور الآن فى فلسطين وتلك المحنة التى يعيشها أخوة لنا فى جنين ورام الله من بينها هذه الأبيات ننشرها كما جاءت إلينا.

آه قدسى قدسى يضنيـــ ـــه الحزن الشوق ويقعده
يحيا قهراً يحيا فى حز ن مـــرّ من منـــا سيبدده
غدرا يغدو نارا ، نارا آه من يأتـــى كـــى يخمـده
عرفات الحر يقول بلا دى ، أولادى مـــن يبعـــده
عرفات الصامد ظل بنا دى فـــلا أحـــد يؤيـــده
والظلم الغـــدر يحاصره آه آه مـــن ينجـــــده

محمود أحمد المصلى

أنت والهلال

لماذا يلقبونهم بالحمير؟!

السخرية هى خير تعبير عن الحالة السياسية ولكن بقليل من الكلمات .. إننى أتساءل لماذا ينفعل بعض فنانينا وفور الانفعال يقولون عن البعض إنهم حمير ؟!

فكيف نسمح بذلك ، ولماذا لا تكون هناك وقفة ؟!

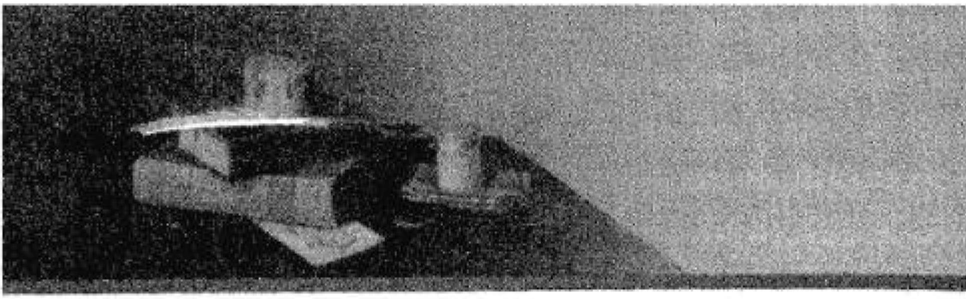
عاصم فريد البرقوقى
الاسكندرية - جليم

● **الهلال : نترك للقارىء العزيز أن يحكم على من يتفوه بمثل تلك الكلمة غير المسئولة .**

شذى العبير

عيناك فيها يكمن الخطر ... وعلى جبينك يسطع القمر
بدر تجلى وسط هالته ... فالنور في الأنحاء ينتشر
يا فتنة القلب قد ظهرت ... فتانة وتوالت العبر
رقت فكانت كالنسيم سرى ... وقست كأن فؤادها حجر
عطفت على صب يزرقه ... شوق إليها بات يستعر
ألقت عليه شباكها فغدا ... منه الفؤاد يكاد ينفطر
ما للهوى يلهو بخافقه ... ربعقله تتجاوب الفكر
روت مدامعه وسادته ... فالدمع فوق الخد ينهمر
القلب يخفق كلما خطرت ... ويظل يرنو نحوها النظر
لو أنها ألقت تحيتها ... ماكان فى إلقائها ضرر
علمت بأشواقى لها فمضت ... لا تستجيب وليس تعتذر
قالت لمن قد جاء يعذلها ... دع عنك لومي وامض يا عمر!!
أعبير ماهذا الصدود وفى ... نفسى إليك يسوقها وطر
داع دعا قلبى فخف له ... هل تتركين القلب ينتظر

يحيى بن عبد الله المعلمي - السعودية



مع الأصدقاء

●● أحمد إبراهيم خضير : ذكر السيد/ رجب عبدالحكيم فى « أنت والهلال » عدد أبريل بأن الشيخ محمد الغزالى ولد بإحدى قرى القليوبية عام ١٩١٧ ولكن أنوه أنه من مواليد نكلا العنب التابعة لمركز إيتاى البارود بحيرة حيث ولد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٩١٧م .

●● ١٨ مايو ٢٠٠٢ يوافق مرور ١٣٠ عاما على ميلاد الفيلسوف برتراند راسل .. هو من أبرز المفكرين فى العالم الذين نادوا بالسلام والقضاء على الحروب من أجل رفاهية البشر ، وقد لقى كثيرا من العنت بسبب دعوته للسلام .

أين هو الآن حتى يرى مذابح جنين ونابلس وقتل الفلسطينيين وهذا الدمار الشامل لشعب أعزل إلا من إيمانه بقضيته.. والعالم كله يقف متفرجا من هول المذابح التى يقوم بها شارون وعسكر إسرائيل !

●● يقول الصديق حسن أبو القيط:

تزيف الأرض تشهده السماء

سنصبر لن تضيع لنا دماء

سنسعى للحياة بكل جهد

نرد الظلم نحن الأبرياء

❑ الصديق محمد صابر محمد - الإسكندرية : نشكرك على رسالتك التى تعبر فيها عن حرصك على الاستفادة بكل ما تنشره الهلال من موضوعات أدبية ، أو تتناول جوانب تاريخية .

وحول حصولك على بعض الأعداد التى تساعدك فى بحثك كما أشرت فيمكن الاتصال بإدارة التوزيع بدار الهلال ت: (٣٦٢٥٤٥٠) ستة خطوط حتى ٣٦٢٥٤٥٦ ، لكى توفر لك الأعداد المطلوبة وكيفية إرسالها إليك .

❑ وصلتنا رسائل عديدة أسعدها كثيرا المقال الذى كتبه الكاتب الساخر محمود السعدنى فى عدد إبريل الماضى وتطلب من الكاتب الكبير أن يواصل كتاباته للهلال.

❑ الشاعر الصديق : أحمد نادى بهلول نعتذر عن الخطأ الذى حدث فى ترتيب أبيات قصيدتك « الربيع » نرجو ألا يتكرر ، وفى انتظار إنتاجك الجديد .

الكلمة الأخيرة



حرب شارون الهمجية

بقلم : نجيب محفوظ

لا أنكر أنني شعرت بالاستفزاز قدر ما استفززت أخيرا من ذلك الهجوم الإسرائيلي الوحشي على الأراضي الفلسطينية، ومحاصرة رأس السلطة الفلسطينية بهذه الطريقة المهينة، وقطع الماء والتيار الكهربائي عن مقر إقامته، ثم مطالبته بإدانة الإرهاب!

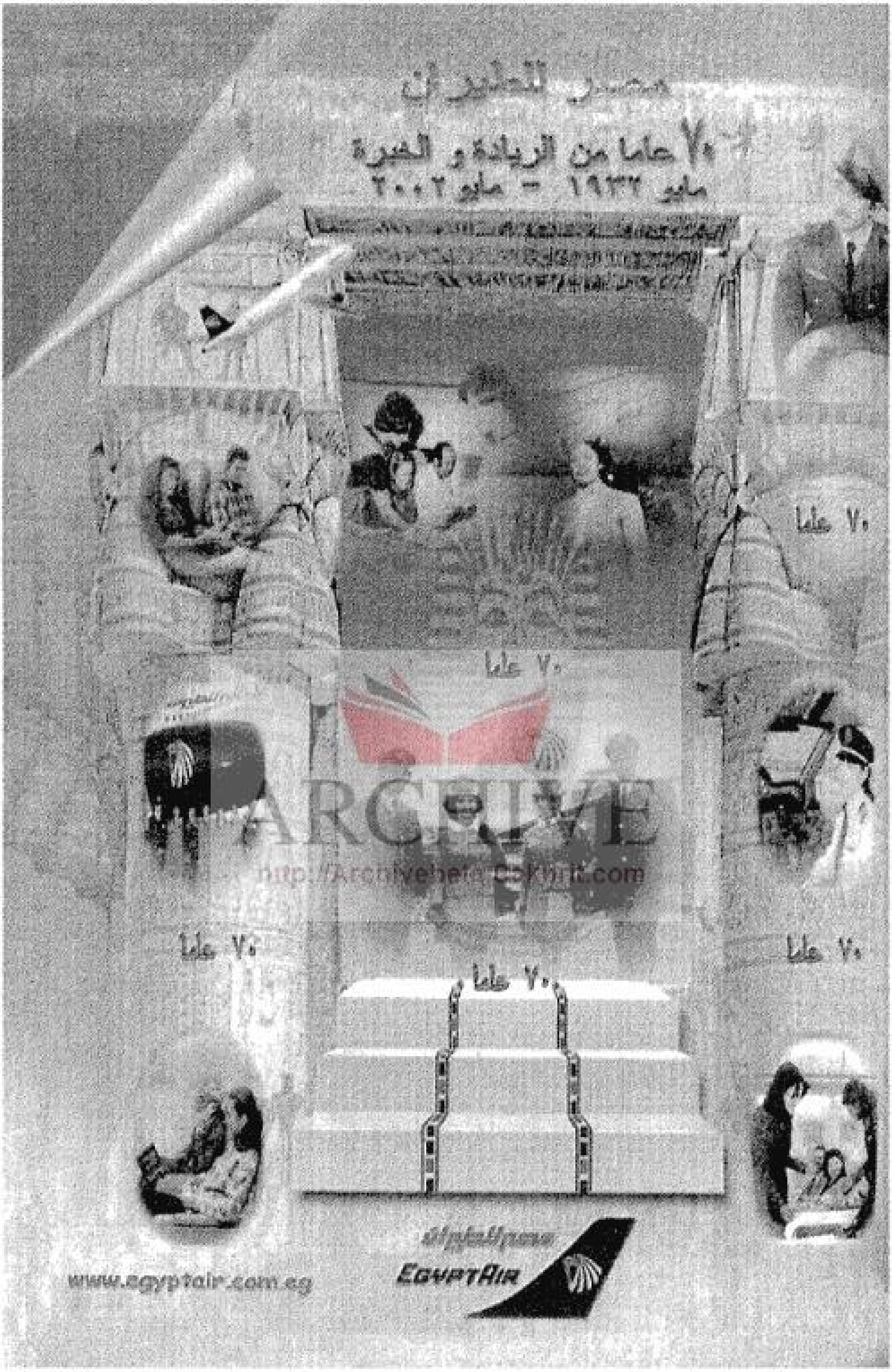
إن ما تقوم به اسرائيل الآن، هو أخطر أنواع الإرهاب، لأنه إرهاب دولة وليس إرهاب أفراد، وهو ما لا ينبغي للمجتمع الدولي أن يسكت عنه.

أما ما يقوم به الفلسطينيون فهو عن الدفاع عن النفس والاستشهاد في سبيل الوطن والحرية.

إن علينا في هذا الموقف تأييد انتفاضة الشعب الفلسطيني الباسلة، ودعمها بكل الوسائل الممكنة بعد أن أثبتت أنها الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آمال الشعب الفلسطيني الذي مازال يعاني ويلات واحد من أسوأ أنواع الاحتلال في عصر مضى فيه عهد الاحتلال.

لقد ضاقت السبل بالفلسطينيين أمام الهمجية الإسرائيلية، ولم يعد أمامهم غير الكفاح المسلح، بعد أن سدت في وجوههم كل محاولات السلام، وضرب شارون بالمبادرة العربية عرض الحائط، وانتهك كل القوانين والأعراف الدولية، حتى جرد حياة الفلسطينيين من كل معنى، فهل نلومهم إذا خرجوا يبحثون بالموت عن ذلك المعنى الذي فقدوه في الحياة؟!

إن اسرائيل باجتياحها للأراضي الفلسطينية، قد أعلنت حربا همجية على الفلسطينيين، تنتهك فيها كل القوانين، لكن الفلسطنيين يملكون كل مقومات الانتصار، في الوقت الذي تزداد الأوضاع سوءا، داخل اسرائيل اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا أيضا.


مصر للطيران
٧٠ عاما من الريادة و الخبرة
مايو ١٩٣٢ - مايو ٢٠٠٢
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
من هو الإرهابي؟!
(جزء خاص)
يونيو ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
خفايا القاهرة

لوحة وفنان





لوحـــة - منظر في القاهرة

للفنان - حسني البناني

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
٣٦٢٥٤٨٧ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ر١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٥ر٢ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدد) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٤٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولارا. باقي دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢٩٨٣٢ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة

ربيع أول ١٤٢٣هـ - يونيو ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



عزيزى القارىء

ذكرى ٥ يونيو

نتساءل بعد ٣٥ عاما على هزيمة «يونيو» هل استفدنا من دروسها؟. وهل استوعبنا مغزاها؟ وهل قرأنا أحداثها قراءة صحيحة؟. وما مكانتها فى التاريخ؟.

يعتبر البعض تلك الهزيمة فشلا كاملا للتجربة المصرية في جميع المجالات التى كانت قائمة فى الخمسينيات والستينيات، وأن وقائعها أثبتت خطأ منهج ثورة يوليو!.

وهذا مما يجافى الحقيقة والواقع .. فالصحيح أن ثورة يوليو لم تقم وزنا سليما لخصومها، ولم تقدر تقديرا سليما حجم التحديات الاستعمارية والصهيونية التى تواجهها، وأن الفجوة كبيرة بينها وبين أعدائها، وقد أثبتت ذلك حرب أكتوبر المجيدة، التي كانت بمثابة معكوس هزيمة يونيو ونقيضها، ويكمل كل منهما الآخر ..

فرغبة سيطرة الدول الكبرى على العالم ليست ظاهرة جديدة، وإنما هى جزء من حقائق العالم الذى نعيش فيه، وتملك الدول الكبرى أجهزة جبارة لا هدف لها سوى البحث عن ثغرة بين الدول التى تقاوم هيمنتها، ولايجوز لومها عندما تجد أمامها مجرد حاجز هش مملوء بالثقوب.

•

فأى هزيمة مهما بلغ هولها، ومهما كان حجمها لاتكتمل ولا تحقق أهدافها، إلا إذا أصابت القلوب، وكسرت المعنويات، ونالت من نفوس الناس ووجدانهم.

ولم يعد لانقا تناول هزيمة يونيو من أجل تصفية الحسابات، ولا لكى نتساءل من تقع عليه المسئولية الرئيس أم المشير؟ ولايجوز أن تصبح موضع صراع بين أنصار عبدالناصر، وأنصار السادات؟!.

فإذا كانت يونيو هى التخلف الذى انعكس على سوء الأداء. فكانت القوات المسلحة فى أكتوبر تلامس العصر، عندما استبدلت الأمية بالعلم، وجند خريجو الجامعات وخاضوا الحرب الإلكترونية، وعندما قدمت القوات المسلحة أداء عالى الكفاءة سواء فى التخطيط أو التنفيذ أو القدرة العالية على التضحية.

وإذا أشاعت يونيو مناخ الاستسلام، فقد أشاعت أكتوبر روح الأمل الذى أكدته القدرة الفائقة على قهر التحديات.

ويونيو هو ما تصوره العدو فرصة من أجل تدمير خلايانا الفكرية، وتفكيك ثقافتنا

الوطنية، أما أكتوبر فهو إنتعاش ذاكرتنا الوطنية وإنتعاش ثقافتنا وهويتنا .

ويونيو هى أن يتهم بعضنا بعضا، ونتحول إلى الإنقسام والفرقة، ويتفرق تيار الوطنية، ونتجه عندها مغمضى العينين إلى الهاوية السحيقة، وأكتوبر تعنى التصدى لسلبياتنا، واقامة تيار عام يبادر ويعمل ويدرك أولويات العمل من أجل المستقبل.

فإذا كان من الممكن أن يستبدل الصراع المسلح بصراع من نوع آخر، وينتقل الصراع إلى مجالات العلم والتعليم والتنمية، ومن أجل مستوى معيشة أعلى، وأن يتمتع أبناؤه بالعدل والحرية، ومن أجل أن يحصل المواطن على نصيب عادل من الحكم والثروة، وأن يمتلك آليات التصحيح، ولايغرق أبدا فى قضايا هامشية، فهو التحدى الذى نواجهه اليوم.

●

إن النصر والهزيمة العسكرية، ترتبط ارتباطا وثيقا بموازين القوى فإقامة مجتمع حى وعصرى، هى المسألة الجوهرية التى تحسم الصراع فى مداه الطويل.

والمجتمع العصرى هو المجتمع الذى يستطيع أن يصل إلى أقصى درجات التنظيم، ويحشد كل طاقته فى سبيل تحقيق أهدافه، وهو المجتمع الذى يعرف معنى الوقت، ويعرف ثمن الآلة، أى يعرف أنه لايكفى شراء المعدات والتقنيات الحديثة، بل عندما تكون ملائمة لظروفه واحتياجاته. كما أنه لايكفى نقل العلوم والتكنولوجيا بل ينبغى أن تصبح جزءا حيا من خلاياه، فلا نكون مستهلكين لمستحدثات العصر بل مشاركين فى إنتاج هذه المستحدثات.

●

ويبقى حصان طروادة للعدو، وهو الفرقة سواء داخل البلد العربى الواحد أو بين البلاد العربية وبعضها، وعجزها الفادح أن تتعاون وتتفق فى إطار المشترك بينهما، وعملا بالسير - أحيانا - على قدر أضعف الحلقات .

فيقيم الأعداء حساباتهم على أن المنطقة العربية يمكن أن تتضامن ولا أن تنسق فيما بينها، رغم أنها قادرة بامكانياتها أن تصبح قوة فعالة، لذا يسعى الأعداء إلى نشر الوهن بين أهلها وإشاعة الفرقة بينهم.

وهناك سمة متكررة تراها كلما وقعت هزيمة، فبدلا من مواجهة أسبابها الحقيقية، يسعى كل طرف إلى إلقاء المسئولية على غيره.

وفى داخل البلد الواحد، توضع أحيانا على نظام الحكم وأحيانا على قوى سياسية بعينها، لكى يكون ذلك سببا للتداعى والسقوط.

فأى قوة سيحققها العرب، إذا شاع بينهم حق الإختلاف، وأن ذلك لايحول دون الإتفاق فى إطار مصالحهم المشتركة.

وأخيرا نتساءل لماذا لم يعد الألمان واليابانيون يتحدثان عن الهزيمة التى لحقت بهما ..؟، رغم أن هزيمتهما كانت أفدح كثيرا من يونيو، فلم تحول الهزيمة دون أن يعملا إلى ما هما عليه من تطور اقتصادى ومكانة سياسية، ووجهت كل من ألمانيا واليابان جهودهما لامتلاك عناصر القوة الحقيقية فى العالم المعاصر.. كل ذلك بوسائل غير عسكرية.

المحــــــرر

ذِكرُ ما جَرَى

أيـــام يونيـــو ١٩٦٧

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

●● ليسمح لى الأخ العزيز جمال الغيطانى أن أستعير عنوان رائعته «ذكر ما جرى» كنصف عنوان لهذه الصفحات. ظللت زمنا أفكر فى الكتابة عن شئ أشبه بمذكرات مواطن. كان رأيى أن وصف الأحداث وتحليلها من خارجها غيره من داخلها، ومن مواقع السلطة العليا غيره من موقع المواطن العادى، وأن أهم الأحداث قد شهدها عادة شهود عيان عاديون يستطيعون - لو أنهم على قدر من العلم - أن يدلوا بشهادات قد لا يكون المؤرخ الأكاديمى على بينة منها ، أو وجد ما يدل على صحتها فى وثيقة أو صحيفة أو شهادة مسئول. وعندما بدأ الأستاذ الجليل الدكتور يونان لبيب رزق محاولته الرائدة لكتابة تاريخ مصر من خلال صحيفة الأهرام كانت التجربة موحية لى على الرغم من اختلاف السياق . كان ما شجعنى أنه بدأ عملية تأريخ واسعة للحياة المصرية اعتماداً على مصادر غير تقليدية، وازدادت شجاعتى على الإقدام على المحاولة مع ظهور عدد من المذكرات لأناس صحيح أنهم ليسوا مواطنين عاديين ولكنهم لم يكونوا حكاما(١) ، ولأن تسجيل تجربة «مواطن» بأكملها مسألة غير يسيرة - ناهيك عن أنها لا تستحق بالضرورة أن تسجل فى كل أبعادها -كان الاختيار ضرورياً، وكم ألح على أن أكتب عن ذكريات يونيو ١٩٦٧ بالذات على الرغم من كآبتها المطلقـــة . ربما لأن المواطن العـــادى فى لحظة فـريدة من لحظات التـاريخ صنع الأحـداث فى جانب مـهم منهـا ، وتمكن من أن يحدث تحولا حقيقيا فى مسارها. ومع ذلك ظل العبء ثقيلاً سنة بعد سنة إلى أن حسمت الأحداث الأخيرة فى أرض فلسطين ترددى لسبب لا يخفى على فطنة القارىء، فالكثيرون يشعرون أننا ربما نكون قريبين فى هذه الأيام من مناخ يونيو ١٩٦٧ ومضمونه ، ومن ثم يكون «ذكر ما جرى» ودلالاته مفيداً لنا فى محاولة استشراف مستقبلنا ●●

الأزمة

كنا نقترب من امتحانات السنة الثانية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عندما تفجرت أزمة مايو ١٩٦٧. كانت متابعة تطورات الأزمة تباعد بيننا وبين المذاكرة، غير أنها كانت من ناحية أخرى تثير حماسنا، وكنا نتبادل في مجالس الاستذكار الجماعية سؤالاً يرتبط بأمل حقيقي: أنكون حقا في تل أبيب بعد انتهاء الامتحانات؟ يجسد السؤال المناخ الذي تكون فيه جيلي حتى وقوع هزيمة ١٩٦٧، وكان عبدالناصر يبدو لنا عملاقا في إدارته للأزمة، وإن كنت لا أنكر أنني أصبت بغصة عندما قال في مؤتمره الصحفي العالمي يوم ٢٨ مايو ردا على سؤال مراسل صحيفة الديلي اكسبريس البريطانية :

« بالنسبة للسن أظن أنا ما عجزتش، وأنا لسه ما بلغتش الخمسين ، وأنا مش خرع زي المستر إيدن بأي شكل من الأشكال. يعني لازم تفهموا هذا الكلام ، وطمنهم في انجلترا إني أنا ما كملتش الخمسين ، وقاعد لسة مدة طويلة موجود هنا في هذه البلد وفي هذه المنطقة من العالم »(٢) .



جمال عبد الناصر

تعودت دائما أن أتشاءم من هذه الطريقة في الحديث، وكان حسي يصدق دائما، ومع ذلك كانت المشاعر غلابة، ولم يكن لشيء أن يوقفها، وارتبطت العلامة الوحيدة على أن ثمة احتمالا لخطأ ما فيما يجري حولنا بضابط الاحتياط الوسيم المهذب الذي كان يدرس لنا التربية العسكرية في الكلية، والذي تحدث عن الفوضى في استدعاء القوات الاحتياطية وحشدها، وعن سوء ظروف معيشتها ، وتدني مستوى تدريبها ، وأنكر أننا تلقينا كلماته ـ وكان ذلك قبل الحرب بحوالي عشرة أيام ـ بوجوم كامل، ولم يكن مبعث الوجوم تخوفا مما قال، ولكنه كان أقرب إلى الاستنكار ومظنة الخيانة أو لنقل التخاذل ، وأحسب أن شخصيته الدمثة، وعلاقتنا الودودة به قد حمته من انفجار

مشاعرنا المكتومة فى وجهه .

الهرب

ردد صباح الخامس من يونيو دوى أصوات المدفعية المضادة للطائرات التى حفرت لنفسها مكانا فى ذاكرة طفولتى منذ تلك الأيام المجيدة من عام ١٩٥٦. سرعان ما بدأت إذاعة القاهرة فى إعلان أعداد الطائرات الاسرائيلية التى تم إسقاطها . كانت الظواهر تشجع على إطلاق العنان للفرحة ، لكن الدراسة القصيرة فى الكلية يبدو أنها أحدثت بعض الأثر ، أو لعله ميل فطرى للتريث فى إصدار الأحكام ، فقد لاحظت أن أعداد الطائرات الاسرائيلية التى تم اسقاطها كبيرة ، فما عدد الطائرات المهاجمة ياترى؟ ولماذا لم تتوقف الهجمات بعد هذه الخسارة الفادحة ؟ لاحظت عصر ذلك اليوم أن دوى المدافع قد سكت، وظهر فى السماء أزيز طائرات النقل الحربى الذى أعرفه جيداً، وكان وقعه فى أذنى يشبه النحيب لسبب لا أدريه، ومع ذلك غالبت مشاعر الانقباض التى بدأت تهاجمنى .

فى صباح اليوم التالى (السادس من يونيو) مر على الصديق العزيز عبدالقادر شهيب(٣) فى المنزل ليسألنى: ألن نفعل شيئا؟ كنت مسئولا عن منظمة الشباب بالكلية، وتأملت فى معنى مهم سيتكرر بعد ذلك فيما هو أهم: أننى أنا المسئول وهو العضو. هو الذي بادر بينما جلست أنا فى بيتى أنتظر أن يتصلوا بى اقتناعا منى بأن لكل مقام مقالا .. ولأن ما طرحه كان مقنعا فقد ذهبنا معا إلى الجهة المعنية فى المنظمة. حاولوا أن يقولوا لنا إن المرحلة لا تحتاجنا، ولم نكن وحدنا، وأفضى إلحاحنا إلى تكليفنا بمهمة لا أعرف لها وصفا محددا حتى الآن . أقمنا فى معسكرات فى المدرسة السعيدية الثانوية نخرج منها فى المساء لضمان انضباط الشوارع : ضمان إطفاء البيوت لأنوارها ومواجهة أية تحركات معادية محتملة! لم يكن معنا أى سلاح، ولم نكن مؤهلين لاستخدامه أصلا . رضينا بما قسم لنا ، وبدأنا ممارسة عملنا الجديد منذ ليل السادس من يونيو .

فى صباح يوم السابع من يونيو وقف أحد زملائنا من القياديين فى المنظمة يشرح لنا أبعاد الموقف «استنادا» إلى معلومات من غرفة العمليات: « الخسائر طفيفة . أؤكد لكم . فى الطائرات . فى الطيارين . فى المطارات» . استمعنا إلى كلماته مشتتين بين الأمل فى أن تكون معلوماته صحيحة، والقلق الذى يعترينا من شواهد لا يمكن أن يخطئ العقل فهمها.

كان الحديث عن تجمع القوات فى خط الدفاع الثانى قد بدأ ، وتغيرت نغمة الإذاعة المصرية بشكل لافت : محرم فؤاد يغنى «بلادى بلادى» ، وأم كلثوم تنشد «مصر التى فى خاطرى»، ومحمد فوزى يردد «بلدى أحببتك يابلدى» بعد أن كانت فايدة كامل تتفاخر بـ «مدافعكم الكتار» والمجموعة تتوعد اسرائيل « فى البحر حندفنكم فى البحر ... وحندخر كل قواكم دحر» وأم كلثوم تتغنى بالحلم «راجعين بقوة السلاح» . لم يكن المرء يحتاج كثير ذكاء ليصاب بالهلع من هذا التغير الجذرى فى نغمة الإعلام المصرى .

فى ليل الثامن من يونيو بدأت أرتال لا أول لها ولا آخر من سيارات النقل العسكرى تمر بنا بحذاء سور حديقة الحيوان بالجيزة فى طريقها إلى الجنوب!. لكن أشد الهلع الذى أصابنى كان مبعثه ظهور نفر من الجنود المصريين بملابسهم الرسمية فى حالة يرثى لها. لم أفهم وقتها كيف وصلوا إلى المكان . أتينا بأحدهم إلى مقر لجنة منظمة الشباب بالجيزة(٤) . أجرى المهندس صلاح عبدالله(٥) أمين اللجنة حوارا معه يستفسر فيه عما جرى . تحدث الجندى المسكين ـ الذى بدت قدماه الداميتان من حذائه الممزق بوضوح ـ عن عودته من ميدان المعركة ماشيا ، وعن الطائرات التى كانت تهاجمهم أثناء رحلة العودة بأعداد تماثل عدد النجوم فى السماء، وكيف كانوا يقاومونها ببسالة منقطعة النظير. أدركت أن ثمة أمراً غير طبيعى فيما يقول . تمتم صلاح عبدالله بأدبه المعروف : «برافو يا بطل» .

نزلنا إلى دوريتنا الليلية . أضاء أحدهم الأنوار فى منزله مخالفا التعليمات. نبهته فقال: « ما الحكاية خلاص» . كان صوته شديد الوضوح فى سكون الليل ، وكانت فيه نبرة تشف. لاحظت أنه أحد ساكنى واحدة من أرقى العمارات أمام حديقة الحيوان . قلت له بأدب وحزم : «أطفئ الأنوار لو سمحت إلى أن تنتهى الأمور فعلا تحسبا لأى خطر» . استجاب على الفور ، ولعل نفسه قد حدثته بأنه قد صبر سنوات فلا ضير فى أن يواصل صبره ساعات أوربما دقائق .

بلغ القلق منتهاه ، وكنت متلهفا على الاستماع إلى نشرة أخبار الواحدة والنصف صباحا من الراديو الترانزستور الصغير الذى أحمله معى. تكفل الخبر الأول بتوضيح الأمور تماما : صدرت التعليمات لمندوبنا الدائم فى مجلس الأمن

بقبول وقف إطلاق النار . شعرت أنني أصبحت كشجرة خاوية . سألني زميل لا أعرفه يقف على مقربة مني : ما الخبر؟ لم أجرؤ على إجابته ، وكأن اخفائي للكارثة سوف يلغي وقوعها . بعد انتهاء نشرة الاخبار التي لم يطل أمدها بدأت إذاعة نشيد «دعاء الشرق» لمحمد عبدالوهاب. لا أدري عدد الذين مازالوا يذكرون هذه الواقعة حتى الآن، لكن ما أعلمه علم اليقين أن كلمات النشيد ولحنه الهادئ في بدايته صنعت نصلا أصاب القلب بجرح غائر، ومازال ذلك النصل يعاود فعله في القلب ، وتتسمر الغصة في الحلق ، وتتجمع الدموع في العينين بعد مرور مايزيد على ثلث القرن كلما سمعت كلمات ذلك النشيد ـ وبالذات مطلعه ـ دون أن أجرؤ على أن أحدث أحدا بما في داخلي .

في خلال ثوان بعد انتهاء نشرة الأخبار تجسد أمامي مشهد لم ولن ينمحي من ذاكرتي . كان تمثال نهضة مصر أمام نهاية كوبري الجامعة ـ أو بدايته ـ يكاد يكون مغطى بالكامل بمجموعة من اللافتات البيضاء المعلقة على قوائم خشبية ، وكانت شعارات المعركة التي انتهت مكتوبة على تلك اللافتات : كلمات عن دخول تل أبيب وقطع رأس الأفعى وغير ذلك من آمال ما قبل الحرب، وفي لمح البصر إذا بأعداد من الرجال لم تكن واضحة على الاطلاق في الظلام تتسلق سلالم عالية ، وتنزل تلك اللافتات من صواريها بسرعة هائلة . صنع طول اللافتات وكثرة عددها ولونها الأبيض مع ارتباك السرعة مشهدا لا يمكن أن يغيب عن العقل . وقفت مذهولا كمن يشاهد عصبة من العفاريت أو الأرواح الشريرة ، وكان الأمر برمته بالغ الدلالة ايذانا بنهاية مرحلة ، وبداية الدخول في نفق مظلم لا يعلم إلا الله وحده متى يحين أوان الخروج منه .

عدنا إلى معسكرنا في السعيدية الثانوية بعد أن انتشرت الأنباء في حالة من الانكسار العظيم . بدت علامات اضطراب واضح بين الموجودين . كان البعض ذاهلا، والبعض الآخر ينوح وفريق ثالث يسخر، وتفجرت مشاعر الغضب في وجه مسئولي المعسكر، وهتف على بركات(٦) بلهجته المصرية الصميمة: «إن المعركة لم تنته . بل لعلها لم تبدأ بعد» . ضج الشباب بالضحك، لكن الأيام أثبتت بعد نظر مؤرخ متميز، وإن كان للشباب عذرهم في حينه أن يسخروا مما بدا لهم غيابا للقدرة على استيعاب ما وقع، أو محاولة لإنكاره أصلا . تفتق ذهن أحد

عباقرة المرحلة التى ولت عن فكرة يجمع الشمل بها، فأعلن أن هجوما من عناصر معادية سوف يقع على المعسكر، وعلينا أن نكون فى قمة اليقظة لدفع الهجوم فكاد الشباب يفتكون به فتراجع عن فكرته المهينة .

كان ضوء الفجر قد بدأ يتسلل إلى المكان ، لكنه كان أشد كتبة من أحلك الظلمات . انصرفنا فرادى من المعسكر ، وأثناء مرورى بسور حديقة الحيوان تطلعت فى وجوه الناس . كانت كلها تكتسى بتعبير واحد لا يمكن أن ينسى: مزيج من الذهول والانكسار والألم، ومازالت ترن فى أذنى حتى الآن كلمات قليلة قالها مصرى بسيط لزميله وهما يجلسان على سور حديقة الحيوان: «البلد حزينة ياصاحبى» .

تعودت ألا أفهم حوالى نصف أفلام المخرج الكبير يوسف شاهين من المشاهدة الأولى، لكن بضعة مشاهد من فيلمه «العصفور» كانت كفيلة بأن أسلم بعبقريته، فقد رأيت التعبير الذى أشرت إليه حالا على وجوه المصريين بشفافية لا يمكن أن تخطئها العين ، أو يجهلها العقل أو القلب فى المشهد الصامت للمساكن الشعبية المصرية الذى تضمنه الفيلم قبل إلقاء عبدالناصر خطاب التنحى الشهير . عدت إلى منزلى لأجد التعبير نفسه على وجوه أبى وأمى وشقيقى الأكبر ، ولا أدرى كيف مرت الساعات حتى حان موعد خطاب عبدالناصر .

الصمود

قبل الخطاب بقليل دق باب المنزل، وكان الطارق هو أحد الأصدقاء الأعزاء(٧) . التعبير نفسه يكسو وجهه، ولا كلام يدور . استمعنا معا للخطاب، وعندما وصل عبدالناصر إلى حديثه عن التنحى فوجئت بالصديق العزيز يجهش ببكاء حار جسده الراحل «على الشريف» لاحقاً بعبقرية لافتة فى فيلم العصفور .

غادرنا المنزل على عجل. كان الناس فى الطريق فى حالة اضطراب بين ، وعندما وصلنا إلى تقاطع شارعى «روض الفرج» و«أبو الفرج» شاهدت الشرارة الأولى للحدث العظيم الذى وقع فى تلك الليلة واليوم التالى لها : مواطن مصرى بسيط فى العشرينات من عمره يخرج من مقهى بلدى صغير وهو يهتف «ناصر» ، متجها إلى طريق يمكن أن يفضى إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون . أقول هذا الآن ولم أكن أدركه فى حينه إلا بعد أن تجمعت الخيوط . اقتضت المعالجة الدرامية ـ أو لعله الموقف الفكرى ـ فى فيلم «العصفور»

أن تقول جماهير ٩ و١٠ يونيو «حنحارب»، لكن الحقيقة انها كانت تقول كلمة واحدة: «ناصر». كنت قد قررت أن أذهب إلى مقر لجنة منظمة الشباب بمحافظة الجيزة، ولكى يتم هذا بسرعة قررت أن أستقل سيارة «تاكسى»، بدا الموقف طريفا فيما بعد : الجماهير المصرية تهدر فى الشوارع فى اتجاه واحد، وأنا داخل سيارة «تاكسى» . غير أن هذا التصرف أتاح لى أن أشاهد ميلاد ٩ و١٠ يونيو منذ لحظته الأولى، وفى قطاع مكانى عريض نسبياً . كان الطريق إلى مقر اللجنة يمر من النقطة التى بدأت بها فى شارع «أبو الفرج» إلى سوق الخضار القديم ثم يمينا إلى كورنيش النيل مرورا بمبنى الاذاعة والتليفزيون حتى كوبرى قصر النيل، فكوبرى الجلاء ثم يسارا حتى نصل إلى مقر اللجنة عند نهاية سور حديقة الحيوان قرب ميدان الجيزة، وطول هذا الطريق الذى استغرق قطعه حوالى ساعة إلا ربع الساعة شهدت ميلاد ٩، ١٠ يونيو: جماهير البسطاء تعدو فى اتجاه مبنى الاذاعة والتليفزيون ظناً منها أن عبدالناصر قد ألقى خطابه من داخله، وهى وجهة تغيرت ـ كما عرفت بعد ذلك ـ إلى منزله بعد أن اكتشفت الجماهير حقيقة الأمر . وعندما وصلنا إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون بعد دقائق من بدء رحلتنا كانت الحشود قد بدأت تتضخم على نحو واضح ، وعند عبورنا كوبرى الجلاء كان بعض جنود الشرطة الذين لا حول لهم ولا قوة يحاولون عبثا، باستخدام الهراوات ، أن يمنعوا المواطنين من عبور الكوبرى باتجاه وسط المدينة .

وصلت إلى مقر اللجنة لأجد المهندس صلاح عبدالله أمين اللجنة موجودا هناك. كان رابط الجأش يحاول أن يفسر ماوقع، وكلما طرح سببا ناقشته فيه منتهيا إلى تفنيده مستخدما قدرتى المتواضعة فى التحليل السياسى كطالب بالسنة الثانية بقسم العلوم السياسية، وكان الرجل يوافقنى فى معظم ما أقول. لم يكن ثمة مفر من أن نعترف بأن خللا داخليا خطيرا قد سمح لكل ما وقع بأن يقع على الرغم من اعترافنا بضراوة المؤامرة الخارجية . لكن الجميع لم يكن فى رباطة جأش صلاح عبدالله . كان زميلنا «مصطفى» الذى نسيت اسمه الثانى يجهش بالبكاء تماما كصديقى إياه ، وقد هاجر مصطفى لاحقا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد مدة بالغة القصر من انكسار الحلم .

حل الظلام وبدأنا نسمع أصوات طلقات مدفعية مضادة للطائرات ، وعلمنا بعد ذلك أنها ربما أطلقت لإثناء الجماهير عن سلوكها ، غير أن المذهل أننا بدأنا نشاهد تباعا من النوافذ عشرات الألوف من البشر تتوافد من الأماكن الأقرب فالأبعد ، فأهل البدرشين وصلوا قبل أهل بني سويف وبعدهم أهل المنيا ، وهكذا . كنا نعرف المكان الذى أتوا منه من الحافلات العامة التى كانت تئن بأعداد متناهية فى الصغر منهم إذا قورنت بمجموع من يسير على قدميه ، فهذه طريقها بنى سويف ـ القاهرة ، وهذه المنيا ـ القاهرة ... الخ .

بدا المشهد بدوره بالغ الدلالة ، فلجنة المنظمة التى يفترض أنها طليعة من طلائع النظام تقود حركة الشارع وقت الضرورة تقبع حبيسة داخل مقرها ، والجماهير المصرية تؤدى دورها التاريخى فى الشارع غير عابئة بأصوات طلقات المدفعية . سكتت الطلقات بعد قليل لكن هدير الجماهير كان متصاعدا ومرة أخرى سلمت بعبقرية يوسف شاهين فى ذلك المشهد من فيلم «العصفور» الذى يتساءل فيه رجل النظام (نظيم شعراوى) بما معناه: أهؤلاء رجالنا؟ وعندما يجاب عليه بالنفى يقول : «أمال مين دول؟» . تمضى الأعوام على تلك الأحداث، ويسمع المرء تفسيرات مضحكة ويقرؤها لما حدث يومى ٩ ، ١٠ يونيو ولو أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب فإن أحدا لن يقنعنى أن ما حدث فى هذين اليومين كان تمثيلية ، ولن يهتز يقينى بحقيقة ما وقع مثقال ذرة.

كنا نتابع التليفزيون داخل مقر اللجنة. لاحظنا أن أول برقية ترفض قرار التنحى كانت من أمين الشباب بالاتحاد الاشتراكى والمسئول الأول عن منظمة الشباب فى ذلك الوقت (د . حسين كامل بهاء الدين) ، وهتف المهندس صلاح عبدالله: «هكذا يجب أن يكون التصرف» . تلت ذلك برقية من زكريا محيى الدين الذى رشحه عبدالناصر لخلافته يرفض فيها ولاية الحكم ، ولا يقبل بغير عبدالناصر قائداً، وانغمست الراحلة همت مصطفى وغيرها فى مناشدات باكية للرئيس عبدالناصر كى يبقى، وأدركت أن القصة لم تتم فصولها بعد .

بقينا ليلتنا فى المكان ، وفى الصباح التقينا بأحد المسئولين فى المنظمة فى جامعة القاهرة ، وكان مصرا على أن الهزيمة ترجع لخيانة الاتحاد السوفييتى لنا، ونكثه وعوده بالتدخل فى الحرب لصالحنا. فترت همتى للمجادلة ، فقد كان الموقف أكبر من أى حديث فى جزئيات .

بدأ أهل النظام يرتبون لمسيرات منظمة توجهت لمجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) . كانت نذر الفوضى تدفع إلى قلق عظيم . شائعات من كل نوع ولون . حديث عن سيارات ملاكى بها جواسيس اسرائيليون ينبغى تعقبها والفتك بمن فيها .

طال انتظارنا قليلا . كنا نتوقع حضور عبدالناصر إلى مقر المجلس، لكن الأنباء تسربت بأنه أرسل إليه رسالة يعلن فيها استجابته لإرادة الجماهير وتراجعه عن قراره . سرت فرحة استخدمت كثيرا فيما بعد للإساءة إلى الرجل وإلى المرحلة التى مثلها ، خاصة وقد «رقص» بعض أعضاء مجلس الأمة كما قيل بعد قرار عبدالناصر بالعدول عن التنحى . لا شك أن لكل نظام رجاله ومنافقيه ، وعادة فإن هؤلاء المنافقين هم أسوأ ما فى أى نظام ، وقد شاءت المصادفة المذهلة أن أشاهد ثلاثة ممن نسبت لهم واقعة «الرقص» فى مطار امستردام الدولى ليلة تشييع جنازة عبدالناصر . كنت أبحث عن طائرة تنقلنى إلى القاهرة بأى ثمن ، وكانت جدران المطار تردد صدى ضحكاتهم المجلجلة، وشاءت المصادفة المذهلة مرة ثانية أن نجلس متجاورين على متن الطائرة الهولندية نفسها المتجهة إلى القاهرة ، ولم يتوقف ضحكهم ، فلم ترسم علامات العبوس على وجوههم - كأى ندابات محترفات - إلا عندما أعلن قائد الطائرة عن هبوطها فى مطار القاهرة الدولى . ألا لعن الله النفاق والمنافقين !

غير أن الفرحة بغض النظر عن عدم التوفيق فى التعبير عنها كان لها معنى آخر . لا أستطيع بطبيعة الحال أن أتحدث عما جرى فى مجلس الأمة ، لكن الجماهير التى كنت بينها كانت ترى فى القرار بداية تبعث على الأمل ، وقد كان. وبدأت قرارات إعادة البناء العسكرى تتوالى، ومظاهر تحسن الأداء العسكرى تتعاظم ، وعشنا بعدها أياما مجيدة إلى جوار الخطر وفى كنفه ، لكن الوطن كان فوق كل اعتبار ، وسقط من سقط من الشهداء ودمرت المدن لكى يعود للوطن وللأمة شرف أهين بغير حق .

●●●

لماذا ألحت على ذكريات يونيو ١٩٦٧ فى هذا العام تحديدا وقد قاومت طويلا أن أعود إليها لأسجلها ؟!.. لعلى أردت، وجماهير فلسطين ومن خلفها الأمة العربية بأسرها تعيش أياما شبيهة بتلك الأيام ، أن أذكر بما لم يكن يخطر على عقل بشر

إبان الأيام الأولى للهزيمة ، فقد قاتل أبطال القوات المسلحة المصرية فى رأس العش فى يونيو ١٩٦٧ (نعم : يونيو ١٩٦٧) وانتصروا بعد أيام قليلة من الهزيمة الساحقة ، ودك نسورها المواقع الاسرائيلية فى سيناء فى يوليو ١٩٦٧، وأغرق رجال بحريتها المدمرة ايلات - أكبر قطعة فى الأسطول الحربى الاسرائيلى - فى أكتوبر ١٩٦٧، وقام رجال صاعقتها البحرية فى ميناء إيلات فى ١٩٦٩ بعمليات لا مثيل لجسارتها ، وتصاعدت حرب الاستنزاف على نحو يشرف كل مصرى وعربى لتصل عودة الروح إلى ذروتها بحرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد أكثر قليلا من ست سنوات على الهزيمة. أتراني أوضحت الرسالة ؟

(١) على سبيل المثال لا الحصر: أحمد شرف، براءة سياسية، القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠، د . يحيى الجمل، قصة حياة عادية، سلسلة كتاب الهلال، ع٥٩٥، يوليو ٢٠٠٠. جميل مطر ، أول حكاية، حكايتى مع الدبلوماسية، سلسلة كتاب الهلال، ابريل ٢٠٠٢ .

(٢) حديث إلى ممثلى أجهزة الاعلام العالمية والعربية فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة، ٢٨ مايو ١٩٦٧، فى وثائق عبدالناصر . خطب - أحاديث - تصريحات (يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٦٨)، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٣، ص ١٩٣ .

(٣) الصحفى اللامع، والقلم المصرى العربى المتميز فى دار الهلال حاليا .

(٤) فى فيلا تواجه نهاية سور حديقة الحيوان بالقرب من ميدان الجيزة توجد مكانها الآن عمارة ضخمة .

(٥) انقطعت صلتى به للأسف بعد ذلك .

(٦) العميد السابق لكلية الآداب بجامعة المنصورة، وأستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة حلوان حاليا .

(٧) مسيحى مصرى يشغل حاليا منصبا مرموقا فى قطاع الأعمال الخاص، لم أذكر اسمه لأننى لم استأذنه، ولمعرفتى بأن الرجال قد لا يحبون الإشارة إلى واقعة تتضمن بكاءهم، حتى ولو كان هذا البكاء شهادة على وطنية حقة ، وانتماء راسخ وحس مرهف، وقد أشرت إلى ديانته اعتزازا بالنسيج المصرى الفريد الذى نعمت به ومازلت خاصة وقد كانت نشأتى الأولى فى تلك البقعة الحبيبة المسماة شبرا . ■

مزيد من الاستئساد الأمريكى

بقلم
د. مصطفى سويف



فى حسابات الحركة السياسية الدولية كانت أواسط الثمانينات من القرن الماضى مرحلة تاريخية شديدة التميز اذا قورنت بالسنوات المبكرة من العقد، ذلك أن ما اتسمت به هذه السنوات الوسيطة كان التبلور الواضح لتيارات منبئة بأن عجلة التاريخ فى طريقها الى منعطفات تنطوى على تغيرات كيفية هائلة، لا مجرد تراكمات كمية عابرة. أما أمور الحركة السياسية فى مصر فى تلك الفترة نفسها فلم أقرأ فيها تيارات تتبلور لتتخذ توجها بعينه (سواء الى الأفضل أو إلى الأسوأ)، بقدر ما لمحت فيها خصائص التموجات الدائرية تظهر على سطح بحيرة راكدة، إثر سقوط حجر فيها بين الحين والحين. وعلى هذه الخلفية المصرية، ومن ورائها الخلفية العالمية جرت أحداث حياتى الشخصية، أحاول ما استطعت ان اقدم شيئا ايجابيا، ولسان حالى يردد الآية الكريمة : «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر».

العرب في عيون الولايات المتحدة

توالت على امتداد اواسط الثمانينات أحداث عالمية قرأت بعضها باعتبارها تعنى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تجد حرجا فى الإفصاح التدريجى عن سياسة تنم فى وجهها التصورى (الأيديولوجى) عما تكنه نحو الدول العربية والاسلامية من طمع يشف عن الاستخفاف، وتسفر فى بنودها العملية عن إهمال قوامه الهوان. وقرأت بعضها الآخر باعتباره يشير الى أن الولايات المتحدة إذ تفعل ذلك إنما تكشف عن توجه أصيل لديها كنظام سياسي يزداد جنوحا إلى اليمين السياسي والاقتصادى فى أسوأ صورهما: فقد كانت فى هذه الحقبة نفسها تساند نظام الحكم العنصرى السائد (حينئذ) فى جنوب أفريقيا، وكانت كذلك ترعى ماديا ومعنويا نظم الحكم اليمينية فى أمريكا الوسطى، وفى أمريكا الجنوبية، وفى جنوب شرقى آسيا.

أما كيف كان ذلك فقد جرت فاتحة الأحداث السياسية الدولية ذات الدلالة فى فبراير سنة ١٩٨٤، فى ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة مطمئنة الى تورط الاتحاد السوفييتى فى الحرب ضد الأفغان، والى انغماس البلاد العربية والاسلامية فى مؤازرة الأفغان ضد السوفييت بدعوى مناهضة الإلحاد السوفييتى . وأتاح لها (أى للولايات المتحدة) ترتيب الأمور على هذا النحو أن توجه القدر الأكبر من اهتمامها المباشر الى ما يحدث بين اسرائيل، والفلسطينيين ، واللبنانيين. كانت اسرائيل فى ذلك الوقت قد أمضت ما يقرب من السنتين مستقرة فى احتلالها الجنوب اللبنانى، وكان لبنان ممزقا فى حربه الأهلية التى تعدد الفرقاء فيها، وقد وصلت الى لبنان قوة متعددة الجنسيات بدعوى الفصل بين المتحاربين، شارك فيها الأمريكيون والانجليز والفرنسيون والايطاليون، وبعد سلسلة من الاعتداءات (الوطنية اللبنانية) على أفراد القوة الأجنبية انسحب الجنود الأمريكيون (فى منتصف فبراير سنة ١٩٨٤) ليبقوا فوق بوارج الأسطول الأمريكى قبالة الساحل اللبنانى. وانسحب كذلك بقية أفراد القوة الأجنبية. واستمر الموقف فى لبنان على سيولته وغليانه فى الداخل، واستمر كذلك رهن الاحتلال الاسرائيلى والتربص الأجنبى (والأمريكى بوجه



خــاص) على مـــقـــربة من الشاطىء.

وبقية العالم الثالث في المنظور الأمريكي

ومع أن أحداث لبنان استـحـوذت على مـعظم انتباهى فى تلك الفترة فقد كنت على وعى بأحــداث عنف لا تقل عنها ضراوة ولا توريطا للأصابع الأجنبية (والأمريكية خاصة) تجرى فى معظم أنحاء العالم الثالث، وخاصة ما يجــرى من هذه الأحـــداث بين إيران والعــراق، هناك كـانت الحـرب تجرى بصورة بالغة التدمير وبالغة العبثية كذلك، ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن الولايات المتحدة كانت فى ذلك الوقت تبيع السلاح للطرفين المتحاربين فى آن واحــد. وفى أمــريكا الوسطى جــرت أحداث الحرب الأهلية فى شيلى، وفى الأرجنتين، والبرازيل، وكذلك فى جنوب افريقيا.

كنت أرصد هذه الأحداث جميعا، وأحاول أن أجمع بينها فى مجال واحد للرؤية حتى تسنى لى أن أحسن فهمها واستخلاص دلالتها متكاملة فيما بينها، وكان المعنى الاجمالى الذى يرتسم فى ذهنى لذلك المشهد أن القوى الوطنية (حيثما كانت) انما تتعرض لهجوم كاسح من جانب من نصبوا أنفسهم ورثة للتسلط والاستعمار القديم، وكان كل من منهما قد سبق أن ازيح عن كثير من قواعده من خلال حركات التحرر الوطنى التى اجتاحت العالم بنجاح على امتداد الخمسينيات وأواخر الستينيات. وهاهم الورثة يعــيــدون الآن تنظيم صفوفهم تحت قيادة أمريكية ويتقدمون فى هجوم مضاد لاستعادة مايستطيعون استعادته من امتيازات اسلافهم (فى منطقة الشرق الأوسط العربى، وفى أجزاء من القارة الأفريقية) . وهم، بالاضافة الى ذلك يعيدون النظر فى تقوية دروعهم حيثما كان لهذه الدروع وجود (كالبيض فى جنوب افريقيا ، ونخبة من الحكام فى جنوب شرق أسيا واسرائيل). وكان واضحا أن الأمريكيين يضبطون ايقاع حركتهم نحو هذه الأهداف طبقا لحسابات يستخلصونها أساسا من أحوال الحرب الباردة الدائرة بينهم من ناحية، والسوفييت من ناحية

ثانية، والقوى الوطنية التى كانت تتخذ من الوجود السوفييتى جدارا يحمى ظهرها، من ناحية ثالثة .

الأفول المتسارع للنجم السوفييتى

وكانت أحوال السوفييت تمضى فى ذلك من سيىء الى أسوأ، فى داخل بلادهم وخارجها، فقد أثبتت الحرب الأفغانية أنها شرك شديد الاستنزاف لطاقاتهم، هذا فى الخارج، اما فى الداخل فقد توفى برجنيف رئيس الدولة ورئيس الحزب (فى نوفمبر سنة ١٩٨٢)، وتولى رئاسة الدولة بعده أندروبوف، ولم تكن أحواله الصحية على ما يرام، وما لبث أن توفى هو الآخر (فبراير ١٩٨٤)، وخلفه فى الرئاسة تشيرننكو، ثم ما لبث هو الآخر أن توفى (مارس ١٩٨٥)، وتولى قيادة الدولة بعده جورباتشوف. وغنى عن البيان أن هذه الوفيات المتوالية لم يكن الحدث الواحد منها يمر دون أن تصحبه صراعات فى المستويات العليا للسلطة، وبدون أن تعقب كل صراع توابع بالغة الخطر فى آثارها المباشرة وغير المباشرة على أعمدة النظام، ومجمل سياساته. وما كاد نظام جورباتشوف يستقر حتى فاجأته محنة أضافت الى الهزات السابقة ما جعل الأمر يبدو فى جملته زلزالا عنيفا يضرب الاتحاد فى الصميم، فقد وقع انفجار فى واحد من أكبر المفاعلات الذرية فى الاتحاد (مفاعل تشيرنوبل فى كييف عاصمة اوكرانيا، حدث ذلك فى منتصف مايو سنة ١٩٨٦)، وقد أحاطت بهذا الحادث ملابسات جعلت منه واحدا من أوضح معالم التدهور فى أحوال الدولة، وبعد أقل من ثمانية شهور كانت جيوش السوفييت تبدأ انسحابها من أفغانستان، وتعلن بهذا الانسحاب أن القطب السوفييتى تتنامى لديه أعراض الضعف والهزال بمعدلات متسارعة، ولكى تبدو للقارئ الدلالة التاريخية لهذا المشهد كما عايشناه فى ذلك الوقت يلزمه أن يقارن بين أحداثه وما كان يجرى مناظرا لهذه الأحداث او لبعضها فى الولايات المتحدة فى الفترة التاريخية نفسها: فقد أعيد انتخاب الرئيس ريجان (نوفمبر ١٩٨٤) لفترة رئاسية ثانية (تمتد لأربع سنوات) . وجاء فوزه بالأغلبية المطلقة فى ٤٩ من الخمسين ولاية التى يتألف منها الاتحاد، وهو ماسمى حينئذ بالأغلبية المريحة. ولذلك



لم يكن عجبا ان بدأنا نلمح مظاهر الاستئساد فى ممارسات السياسة الدولية للولايات المتحدة الأمريكية، كمحصلة أخيرة لعوامل هذه المشهد فى جملته.

عينة من مظاهر الاستئساد الأمريكي المتنامي

كان حادث السفينة الايطالية «اكيلى لاورو» فى اوائل أكتوبر ١٩٨٥ من الحوادث المبكرة التى انتهزتها الولايات المتحدة لكى تبدأ عندها تغيير تكتيكاتها فى ادارة الحرب الباردة نحو اقدار متزايدة من الاستئساد، كانت هذه سفينة سياحية تجوب عددا من موانئ البحر الأبيض المتوسط، وكانت قد بدأت رحلتها من الاسكندرية. وبعد ابحارها بقليل استولى عليها مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين، وأعلنوا أن مطلبهم الرئيسى هو الافراج عن عدد من مواطنيهم الفلسطينيين المعتقلين فى المعتقلات الاسرائيلية، وقد هددوا بإغراق السفينة اذا لم تجب مطالبهم. وتصدى لهم فى هذه الأثناء مواطن أمريكى مسن فقتلوه وتدخلت امريكا فى الموضوع بدرجة من الغضب المعلن غير مسبوقة. وبعد سلسلة من المناوشات جرت على ظهر السفينة لجأ الشبان الفدائيون الى مصر وقررت مصر أن تقوم بترحيلهم على متن طائرة مصرية الى المغرب، فما كان من أمريكا إلا أن تربصت بهم وبالطائرة المصرية، وأرسلت عدة طائرات حربية لاعتراضها، وأرغمت الطائرة المصرية على الهبوط فى صقلية حيث قبض الأمريكيون على الفدائيين وسلموهم الى السلطات الايطالية.

وبعد حادث السفينة اكيلى لاورو بما يقرب من ستة شهور وقع حادث آخر كانت له الدلالة نفسها ولكن بلسان أفصح وبيد أقوى. فقد أعلنت الولايات المتحدة فى مارس سنة ١٩٨٦ أنها تعد العدة لإجراء مناورات فى البحر الأبيض المتوسط، وفى منطقة خليج سرت بوجه خاص، وأعلنت الجماهيرية الليبية أن خليج سرت يعتبر ضمن المياه الاقليمية الليبية، وان اجراء المناورات الامريكية فى مياهه يعتبر استفزازا مبرمجا ضد الحكومة الليبية. ولم تأبه أمريكا لهذا

الإعلان، وكان الرد هو الإصرار على اجراء المناورات. وماهو اكثر من ذلك أن الأسطول السادس الأمريكي قام بضرب الشواطيء الليبية، ثم ماهو أكثر وأكثر أن الطائرات الأمريكية قامت بعد أقل من شهر بضرب عدد من المدن الليبية.

هذان الحادثان الخاصان بالسفينة اكيلي لاورو، وبخليج سرت يوضحان بجلاء ما تطورت اليه التكتيكات الأمريكية من أسلوب واكب في الكشف عن حقيقة تزايد الضعف والهزال في أحوال الدولة السوفيتية. كنت اقرأ ذلك بوضوح في تلك الفترة. وكنت اختبر صحة هذه القراءة بعقد المقارنات بين هذين المثالين وأمثلة اخرى مناظرة سبق وأن وقعت على الساحة الدولية كان تصرف الأمريكيين فيها اشد تحفظا، فتذكرت في هذا الصدد كيف تصرفت أمريكا ازاء اعلان مصر تأميم شركة قناة السويس في سنة ١٩٥٦، وتذكرت اطاحة القذافي بعرش السنوسي سنة ١٩٦٩، وتذكرت ايضا هجوم الفدائيين الفلسطينيين على الرياضيين الاسرائيليين في اولمبياد ميونيخ سنة ١٩٧٢. في هذه الأمثلة الثلاثة (وغيرها) كان رد الفعل الأمريكي أقرب الى التحفظ، بل والاعتدال، واذن فقد كان البعد عن الاستئساد في هذه الأمثلة الثلاثة أمرا محسوبا لأن الظروف العالمية لم تكن مواتية، لا لأن طبيعة النظام الأمريكي وفلسفته تقتضيان ذلك. اما وقد تغيرت الظروف العالمية بوهن القطب السوفيتي وتهافته فقد آن الأوان لكي يستأسد الأمريكيون وينصبوا انفسهم سادة على الجميع.

ثم ماذا عن مصر؟

وسط هذه الأحداث العالمية كنت أعايش الأفق المصري، في ذاكرتي الوطنية عن فترة الثمانينات المتوسطة حدثان يقومان كمعلمين بارزين، اولهما هبة جنود الأمن المركزي مساء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦. والحدث الثاني عودة ظهور مخدر الهيروين بين المضبوطات المعلن عنها في تقرير الادارة العامة لمكافحة المخدرات لسنة ١٩٨٥.

وأبدا بالحديث عن الحدث المعلم الأول، هبة جنود الأمن المركزي. فقد علمت اول ما علمت بها من نشرة الأخبار الصباحية في اذاعة لندن (صبيحة ٢٦ فبراير). ثم لم تلبث الاذاعة المصرية أن اذاعت النبأ. وقيل أن السبب الرئيسي لاندلاع هذه الهبة كان سريان شائعة بين الجنود مؤداها



ان الدولة فى طريقهـا الى زيادة مدة تجنيدهم بما مـقـداره سنة كـاملة، وعلمت وعلم الجميع أن احداث الهبة وما صاحبها من عدوان فى ساعـاتهـا الاولى كانت بالغة السوء، حتى لقـد أعلنت الحكومـة حظر التـجـول بدءا من ظهـر يوم ٢٦ فـبراير،، واسـتـقال وزير الداخلية، وعـين وزير اخـر بدلا منه (هو اللواء زكى بدر) . وعطلت الدراسـة فى الجامعات والمعاهد والمدارس جميعا، واستمر حظر التجول ساري المفعول (مع التخفيف التدريجي من وطأته) حتى صباح يوم ٨ مارس.

اما الحدث الثانى فكان يدور حول عودة مخدر الهيروين الى الظهور فى الأسواق غير المشروعة للمخدرات فى مصر، بعد أن كان قد اختفى من قوائم المضبوطات. لدينا عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية . وبدأ عدد من الكتاب ينبهون إلى هذا الخطر ، وسرعان ما ارتفعت الأصوات تتزاحم فيما بينها بالكلام المعقول وغير المعقول .

ودخلنا فى دوامـة من المزايدات والمزايدات المضادة على صـفـحـات الجرائد والمجلات وعلى موجات الاذاعات المرئية والمسموعة ، وفى جلسات مجلس الشعب . واستمر الحال على هذا المنوال حتى أواخر الثمانينات ، عندما صدر القـانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩، باستحداث تعديلات كبيرة فى بعض مواد قانون المخدرات الذى كان سارى المفعول من قبل (رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠) . وعندئذ هدأ ضجيج الأصوات وصخبها

هذان هما الحدثان المعلمان اللذان وسما الفترة الزمنية التى نتحدث عنها . ويبدو كل منهما أمامى الآن مجرد اهتزازات دائرية متنامية الاتساع ، وربما صحب كلا منهما بعض الرذاذ على سطح البحيرة المصرية الراكدة . وفى حدود رؤيتى فإن كلا منهما يصلح لأن يعالج باستفاضة تحت عنوان «دراسـة حـالة» فى إطار العلوم الاجتماعية / السياسية/ النفسية . لكن هذه قصة أخرى تحتاج إلى سياق آخر.

خلفية الحدثين المعلمين

ونأتى الآن إلى خلفيـة الحـدثين

العلمين في ذاكرتي الوطنية .

تزدحم هذه الذاكرة بمفردات حدثية تنتظم فيما بينها حول محاور ثلاثة ، أولها: محور تلاقي حول مجموعة أحداث يجمع بينها كونها اتجهت إلى معنى محاولات «التغيير إلى الأفضل»، وثانيها: يؤلف بينها ما تشير إليه من تحديد لـ«مستويات الأداء»، وثالث المحاور: يجمع بين أحداث تتعلق «بشئون المال العام». ثلاثة محاور تستوعب فيما بينها على وجه التقريب مجموع الأحداث التي تزدحم بها الذاكرة الوطنية عن فترة أواسط الثمانينيات .

فأما المحور الأول فتلتئم حوله أحداث أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر أحداثا تدور حول شعار «إعادة بناء الإنسان المصري» (أواخر ١٩٨٤) ، وأخرى تدعو إلى التطبيق الفوري للشريعة الإسلامية (يولية ١٩٨٢) ، ومجموعة ثالثة تدعو إلى رفع كفاءة التعامل مع مشكلة المخدرات في أوجهها المختلفة (على امتداد العامين ٨٦ و٨٧) ، وقبل هذه وتلك مجموعة من المحاولات تتجه إلى التعديل الشامل لقانون الجامعات (القانون ٤٩ لسنة ١٩٧٢).. إلخ .

هذه الأحداث (مصحوبة بأقوال لا حصر لها) عايشتها وقد بدأت جميعا (وعشرات أخرى من طرازها) باعتبارها مشروعات تسعى نحو التحقق ، ولكن شيئا منها لم يتحقق . أما لماذا لم تتحقق؟ فهذا سؤال تقتضي الاجابة عنه الاسترسال في نوع من القص يمكن أن تمتلئ به مجلدات من القطع الكبير . ومع ضخامة هذا المطلب فلا يجوز اعتباره ضربا من المحال، لا سيما إذا اتجه أولو العزم إلى انتقاء مثال أو مثالين وتقديم قصة كل منهما بالدراسة الموضوعية المناسبة .

وأما عن المحور الثاني فتندرج تحته أنواع الأداء في مجالات حياتنا المتعددة . في تلك الفترة من تاريخنا القريب كانت مؤشرات مستوى الأداء بالغة السوء شديدة الإرهاق للنفوس، كانت أعطال التليفونات لا آخر لها ، أم نسينا ؟! وكان سقوط العمارات السكنية مسلسلا لا يسر الخاطر، وكانت الأخطاء المطبعية في الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية . لا أول لها ولا آخر، وكانت الاستثناءات عن التقيد بقيود المجاميع المطلوبة عن الالتحاق بالجامعات قد بلغت حدا شديد الاستفزاز للشعور العام ، وكانت ..



وكانت ... الخ . ثم نأتى إلى المحور الثالث، محور الأحداث التى تدور حول «شئون المال العام» . وفى هذا الصدد كانت هناك أحداث الاستباحة المشروعة ، وأحداث الاستباحة غير المشروعة . وأضرب مثلا للنوع الأول ماكتبه المرحوم الأستاذ أحمد بهاء الدين فى عاموده اليومى فى الأهرام (فى ٢٦ يونيه ١٩٨٤): قال رحمه الله إن المسلسلات الرمضانية التى يقدمها التليفزيون يتكلف الواحد منها أكثر من ستمائة ألف جنيه ، وقال إن بعضها تصل تكلفته إلى أكثر من مليون جنيه . وثمة أمثلة أخرى كثيرة على هذه الاستباحة المشروعة! أما عن الاستباحة غير المشروعة فالمثال الذى أقدمه من أحداث الفترة نفسها صدور حكم محكمة القيم (فى ٣٠ مارس ١٩٨٥) فى قضية تجار العملة: فقد اتهم رئيس المحكمة فى مؤتمر صحفى عقده عقب صدور الحكم ، اتهم وزير الاقتصاد باستغلال النفوذ . وبعد ساعات من نشر هذه الأنباء فى جريدة الأهرام أذاع الراديو أن رئيس الجمهورية قبل استقالة وزير الاقتصاد . كما أذاع كذلك أنه قبل استقالة محافظ البنك المركزى . وفى هذا الإطار (وفيه أحداث أخرى مماثلة) وجدتنى اتساءل: أيمكن أن نكون قد دخلنا عصر الجريمة المنظمة فى شئون المال العام ؟!

من الذاكرة الوطنية إلى الذاكرة الشخصية :

يبرز على صفحة الذاكرة الشخصية عندى عن هذه الفترة التاريخية نفسها حدثان/ معلمان ، أحدهما هو نقل السلطة (فى القسم الجامعى الذى كنت أرأسه) إلى تلاميذ الأمس وزملاء اليوم . وكان الحدث الآخر هو عودتى إلى تغليب الكتابة العربية فيما أكتب بعد أن كنت قد اتجهت بمعظم مؤلفاتى البحثية إلى الانجليزية أخاطب بها أرباب التخصص حيثما كانوا فى العالم على اتساعه .

أما الحدث الأول : فقد واكب بلوغى سن المعاش فى خلال العام الجامعى ٨٤/٨٥، ولا أزال أذكر أن هذا الحدث اتخذ شكلا بالغ الرقى . سواء فيما اقتضاه من إجراءات بيني من ناحية وخليفتى فى رئاسة القسم من ناحية أخرى ، أو فيما أقدمت عليه كليتى وجامعتى من صنوف المجاملة التى فاقت توقعاتى من ناحية أخرى، ورأيت فى ذلك

برهانا يضاف إلى غيره من البراهين كنت وما زلت حريصا على تجميعها مؤداه أن من يزرع الخير يحصد الخير والجمال معا.

وأما عن الحدث الثانى : فقد اقتضاه ما شهدته من حاجة شديدة فى المجتمع (فى تلك الفترة)، إلى أن تقال كلمة العلم الوطنى القائم على البحث الجماعى الرصين فى شأن المخدرات والتعاطى والإدمان، فرأيت أن أستجيب لهذه الحاجة، وأن أعطى هذه الاستجابة قدرا من الأولوية أو الأفضلية على التأليف إلى مخاطبة الأسرة العالمية للعلماء .

هذان هما الحدثان المعلمان فى حياتى الشخصية فى تلك الفترة ، وكلاهما يكشف عما هو قائم فى نفسى من معابر ممهدة كل التمهيد بحيث تيسر الحركة جيئة وذهابا بين ما تسميه البحوث النفسية الحديثة (فى طبيعة الذات) بالأنا الإنسانية العامة ، والأنا الوطنية ، والأنا الشخصية . أما سائر الأحداث التى تملأ صفحة الذاكرة الشخصية فقد توزعت بين فئات ثلاث : أولاها يتعلق بنشاطاتى العلمية المتآزرة بين الانتاج والتلقى ، وكنت أعيشها تحت وطأة توترات لا ترحم، أريد أن أحافظ على إتقان الخاص ولا أتنازل عن الإلمام بالعام ، وأريد أن أعمق الجذور ولا أتنازل عن رؤية العلاقات وكانت الفئة الثانية فئة الأعمال الادارية / الأكاديمية من قبيل عضوية اللجان فى الجامعة وخارج الجامعة ، ولم أكن سعيدا بها ، ولكى كنت أؤديها بشعور الواجب الذى لابد منه وإلا لفسدت الأرض . ثم كانت الفئة الثالثة فئة الأسفار للمشاركة فى المؤتمرات العلمية ما كان منها متاحا وملائما .

.... و ....

هكذا بدأ مشهد العالم فى أواسط الثمانينيات أمامى ، على الصعيد الدولى تراجع للقطب السوفيتى نحو تناقص للقوة ولإشعاع القوة ، يوازن تقدم للقطب الأمريكى نحو مزيد من الاستئساد وصلف القوة . وعلى الصعيد الوطنى ما يشبه انفراط روح الجماعة ومن ورائه ما يشبه غضب البراكين لا ينقصه الا تنظيم الإرادة وتبصرها ، وعلى المستوى الشخصى تأكيد لقيمة العمل الإيجابى فى مواجهة القريب المعلوم والبعيد المجهول .

■



العيش
على حافة النظام العالمى الجديد

بقلم
د. رشدى سعيد

يشهد العالم اليوم ميلاد نظام جديد لم يحدث أن كان له نظير في سابق التاريخ الإنسانى، برزت فيه الولايات المتحدة كقوة هائلة لها من القدرات العسكرية والاقتصادية والتقنية ما يمكنها من الوصول إلى كل مكان، والتأثير على أحواله وتشكيل النظام العالمى الذى تكون لها فيه السيادة، وتتفرد هذه القوة الجديدة من بين كل القوى والإمبراطوريات السابقة فى قدراتها التقنية الفائقة والمتطورة التى تحتكرها وتجعلها قادرة على مد ذراعها إلى كل أرجاء الأرض واحتواء أية قوة يمكن أن تشكل أى تحد لها. ولايحتاج الأمر فى معظم الأحيان للوصول إلى هذه الغاية إلى استخدام الآلة العسكرية الضخمة التى تملكها، بل يكفى أن تربط مصالح ورخاء هذه القوى بالسماح لها باستخدام التقنيات التى تحتكرها والتى تجعل الاستغناء عنها صعبا، ولا يسع المتتبع لأحوال عالم اليوم إلا أن يرى أن نفوذ الولايات المتحدة قد امتد ليشمل قوى كبرى كروسيا والاتحاد الأوربى والصين بسبب هذه المصالح المتشابكة، وفى هذا المقال عرض لعناصر القوة لهذا النظام العالمى الجديد ولعناصر الضعف الكامنة فيه والتى تمثل الخطر الذى يمكن أن يضيع من سطوته.

من عناصر القوة في النظام العالمي الجديد

للولايات المتحدة من عناصر القوة والسطوة مايجعلها قادرة ليس فقط للوصول إلى كل مكان على ظهر الأرض بل وإلى امتلاك السماء والفضاء المحيطين به أيضا، وهذا حال لم يشهده العالم على طول تاريخه، فلم يحدث أبدا أن أتيحت لأية قوة في أي وقت أن كانت لها مثل هذه القدرة - فجميع الإمبراطوريات السابقة وحتى أحدثها لم تستطع إمكاناتها التقنية أو قدراتها الاقتصادية الهيمنة إلا على جزء من سطح الأرض تاركة أجزاء كبيرة منه بعيدة عن هيمنتها، مما أتاح الفرصة لبروز قوة أخرى قادرة على تحدي القوة السائدة والقضاء عليها - قصة ظهور وسقوط جميع الإمبراطوريات السابقة هي قصة ظهور دولة مركز قوية تمتد ثم تسقط بعد وقت طال أو قصر بواسطة دولة من دول الأطراف التي لم تكن قد طالتها ذراع دولة المركز.

تقنية بعيدة المنال

وعلى طول التاريخ لم تكن الفجوة التقنية بين مختلف القوى كبيرة للدرجة التي تجعلها عسيرة العبور، فلم يحدث أبدا أن بلغت أية قوة عظمى سابقة مستوى التقنية بعيد المنال الذي بلغته الولايات المتحدة اليوم والذي يكاد أن يكون الوصول إليه بواسطة أية قوة أخرى مستحيلا، فهو مبني على بنية تحتية بالغة التعقيد باهظة النفقة يصعب تصور أن يكون لأي قوة أخرى إمكان بناء مثيل لها، في الماضي لم تكن الفروق في المستوى التقني كبيرة بين مختلف القوى . لقد تهاوت الإمبراطورية الرومانية المهيبة أمام برابرة شمال أوربا وسقطت الإمبراطورية البيزنطية الشامخة أمام القبائل العربية وتحطمت الإمبراطورية الإسلامية الزاهرة أمام جحافل التتار.

كان وصول الولايات المتحدة لهذا المستوى التقني العالي والفريد نتيجة للثورة العلمية التي قامت بها لتطوير أسلحتها استعدادا لمواجهة التحدي الكبير الذي كان الاتحاد السوفييتي يشكله لها.

ولم تعط هذه الثورة العلمية قصب السبق للولايات المتحدة في أدوات الحرب التي أنفقت الأموال الطائلة في بنائها وتطويرها وجعلها أكثر فتكا فقط، بل وفي القدرة الاقتصادية الفائقة التي تتمثل في الشركات عابرة القارات التي تملك الجزء الأكبر والمؤثر فيها والتي تقع مراكز اتخاذ قراراتها فيها، والتي تحتكر الجزء الأكبر والأهم من مجالات النشاط الصناعي والخدمي على مستوى العالم - فهي التي تملك أجهزة ونتائج البحث العلمي والتقنيات ورءوس الأموال والقدرات الإعلامية التي تمكنها من احتكار بل واجتياح الأسواق دون منافسة تذكر- وفي



السنوات العشر الأخيرة ومنذ سقوط الاتحاد السوفيتي امتد نفوذ هذه الشركات لكي يشمل العالم كله، ولم يعد هناك ركن فيه لم تصله أو هي في الطريق إليه . ويعود هذا الانتشار ليس فقط بسبب تفوق هذه الشركات في ميدان الإنتاج بل وبسبب رغبة كل الدول لجذبها للاستثمار فيها، فقد دخل في روع حكامها أن طريق هذه الشركات هو الطريق الوحيد الذي يؤهلها لدخول هذا العالم الجديد. وقد بلغ من جبروت هذه الشركات أنها لم تترك مجالا واحدا لم تدخله حتى تلك ذات التقنيات البسيطة مثل تقديم وجبات الطعام أو تعليب المياه الغازية أو صناعة الحلوى والمثلجات أو أعمال الترفيه كالموسيقى أو ألعاب السيرك أو غير ذلك من الأنشطة التي كان من الممكن للقوى المحلية أن نبرع فيها.

دولة تمنح وتمنع

وللولايات المتحدة سلطان مؤثر على دنيا المال والبورصات العالمية وهي قادرة على التأثير على أسعار العملات وعلى حالة اقتصاد أغلب الدول . وهي التي تمنح وتمنع فهي التي تملك الاستثمارات التي يسعى لجذبها ساسة مختلف الدول الذين أصبحوا على قناعة بأن مستقبل بلادهم مرهون بنجاحهم في جذب الاستثمارات الأجنبية.

وبالإضافة إلى ذلك فالولايات المتحدة تحتكر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ذات التأثير الساحق من حيث الانتشار، مما يجعلها قادرة على إيصال أية رسالة تريد إيصالها إلى آذان العالم، ويرجع سبب هذا الاحتكار وشبه الهيمنة الكاملة على البث الإعلامي العالمي إلى الامتلاك شبه الكامل للولايات المتحدة وشركاتها عابرة القارات للفضاء ولمعظم الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال، وكذلك إلى الصعوبة البالغة التي تمنع إمكان إنشاء بث إعلامي خارج عن حدود الأطر المؤسسية القائمة واستحالة إيجاد التمويل المناسب والذي يأتي أساسا من الإعلان الذي تتحكم فيه بالدرجة الأولى الشركات العملاقة عابرة القارات.

استخدام حق الفيتو

وللولايات المتحدة سيطرة تكاد أن تكون شبه كاملة على المؤسسات والمنظمات الدولية وخاصة بعد اختفاء الاتحاد السوفييتي السابق من الساحة الدولية باستخدام حق الفيتو الذي يمكنها من إيقاف أي قرار لا تقبله . أما في حالة البنك الدولي وصندوق النقد فللولايات المتحدة من أنصبة رأس مال هاتين المنظمتين ما يسمح لها بتمرير أي قرار تراه.

ولا تحتاج الولايات المتحدة لإحكام سيطرتها على العالم إلى الحاجة إلى اللجوء إلى طريق الحرب أو التدخل العسكري إلا عندما يكون ذلك أمرا لا مفر

منه ، وعادة ما يحدث ذلك في أضيق الحدود ؛ فللولايات المتحدة أنصار في كل مكان سعت لمد نفوذها إليه فقد أعادت تشكيل العالم بحيث يكون لها أعوان محليون ينوبون عنها في تنفيذ سياستها . وهؤلاء الأنصار هم المستثمرون المحليون في الشركات عابرة القارات ورجال وسيدات الأعمال الذين يدورون في فلك هذه الاستثمارات ، والذين يعتمد استمرار موقعهم المتميز في المجتمع على ولائهم لهذا النظام العالمي الجديد . وهم أيضا رجال وسيدات الإعلام وأساتذة الجامعات ومعلمو المدارس وغيرهم من المؤثرين في تشكيل الرأي العام والذين وجدوا أن خدمة هذه الاستثمارات تعطيهم ميزة مادية وموقعا مميزا في المجتمع. ومن الملاحظ أن الاستثمارات الأجنبية تحرص على بناء هذه القاعدة المؤثرة في الرأي العام وتعتبر الإنفاق للحصول على ولائها أحد المكونات الأساسية لرأس المال العامل في الشركات عابرة القارات.

من عناصر الضعف في النظام العالمي الجديد

على الرغم من كل عناصر القوة والقدرات العسكرية والتقنية الهائلة التي يملكها النظام العالمي الحاضر بقيادة الولايات المتحدة ، إلا أن به من نقاط الضعف والتناقضات ما يمكن أن يؤدي به في نهاية المطاف إلى السقوط ، ولا يحتاج المرء إلى الكثير من العناء لكي يرى أن هذا النظام لم ينجح في إعطاء الإنسان الأمان والسلام اللذين ينشدهما ، فعالم اليوم مليئ بالتوترات مليئ بالغضب وحركات الاحتجاج التي عمت كل الأرجاء ومست كل الأجناس والطبقات ، وأكبر مظاهر ضعف النظام تقع في داخله فليس للنظام عدو خارجي يمكن أن يهدده.

أول وأبرز التناقضات التي يعيشها النظام العالمي بقيادة الولايات المتحدة تكمن في قبوله دخول الأصوليين الدينيين ميدان السياسة والمشاركة في الحكم وفي تقرير السياسات العامة للدولة ، فقد مثل هذا القبول انقلابا يكاد يكون تاما للمبادئ الأساسية التي قامت عليها الدولة ، ذلك لأنه على الرغم من قدم تيار الأصولية الدينية الذي تعود جذوره إلى وقت نشأتها إلا أن هذا التيار كان بعيدا عن ميدان السياسة ومنكفئا على نفسه ومكتفيا بالعمل الروحي بين جماعاته التي عكفت على العيش عيشة شبه مستقلة ، وحرصت على أن يكون لها أقل العلاقة مع الحكومة الفدرالية . على أن ذلك الاستقلال بدأ يروح رويدا رويدا مع تقدم العمران وامتداد سلطة الحكومة الفدرالية ليشملها وهو الاتجاه الذي حاربته هذه الجماعات والذي أفرز حركات الإرهاب بين رجالها ، والتي قامت بتفجير المبنى الحكومي بأوكلاهوما (سنة ١٩٩٨) واستخدمت البريد لتوزيع الجمرة الخبيثة سنة ٢٠٠١



أو المتفجرات سنة ٢٠٠٢ تعبيرا عن غضبها من تدخل الحكومة فى حياة الناس.

وقد استحدث قبول دخول الأصوليين الدينيين ميدان السياسة ومشاركتهم فى الحكم وتقرير السياسات العامة للدولة توجهات ومبادئ تتناقض تماما والأصول العلمانية الخالصة لها ، والتى كانت قد أخذت بها منذ نشأتها ونقلتها عن أفكار عصر النهضة الأوربية التى صاحبت ظهور الحضارة الغربية التى تعتبر الولايات المتحدة امتدادا لها ، وكان من آثار مشاركة تيار الأصولية الدينية فى الحكم تراجع الكثير من أفكار عصر النهضة وعلى الأخص ثابتيها الأساسيين العلم والأخلاق واللذين شكلا الأساس الذى ضمن للحضارة الغربية السيادة والتقدم.

كان للعقل دوره الكبير فى نشأة الحضارة الغربية بعد أن خرجت من العصر الوسيط ووضعت كل الظواهر والأفكار تحت مجهر الفحص والاختبار، ورأت ألا تحكم عليها مسبقا أو أن تصل إلى أى استنتاج بشأنها دون استخدام العقل - وقد أدى هذا الاستخدام إلى عديد الاكتشافات التى فتحت الآفاق - ولا تعود أهمية استخدام العقل إلى هذه الاكتشافات التى غيرت العالم فقط بل تعود أيضا إلى أن بغير استخدامه تصبح القوة عبئا تحمل من الضرر أكثر مما تحمل من الفائدة ، فالعقل هو البوصلة التى توجه القوة إلى الاستخدام الرشيد الذى يخدم أهداف نظام يريد أن يستقر على قواعد العدل، وبدون العقل تصبح القوة شجارا بلا معنى قد يؤدى إلى زعزعة النظام بل والقضاء عليه.

وكما كان للعقل دوره كذلك كان للقانون الأخلاقى الذى تبنته هذه الحضارة عند نشأتها دوره أيضا ، وكان هذا القانون نتاج حركة الاحتجاج البروتستنتية التى دعت إلى أن يكون خلاص النفس من داخلها ودون وساطة وعن طريق الصدق فى القول والاستقامة فى العمل ، لأن الثواب والعقاب مرهون بمسلك الفرد ودرجة إتقانه لعمله وفائدته للمجتمع الذى يعيش فيه وليس مرهونا بإقامته الشعائر والطقوس التى ألغت الحركة الكثير منها الصوم والاعتراف والحج للأماكن المقدسة، وهذه هى خلاصة المبادئ التى تبنتها هذه الحركة الإصلاحية والتى تعرف اصطلاحا بالنظام الأخلاقى البروتستنتى.

اللهاث وراء الثروة

ومع تراجع هذين الثابتين تحت تأثير التحالفات الجديدة مع تيار الأصولية الدينية التى تشارك اليوم فى الحكم دخلت على عملية صناعة القرار اعتبارات أيديولوجية لا علاقة لها بالعقل ، تقودها الأحكام المسبقة لتيار الأصولية الدينية على الكثير من الشئون الزمنية . وفقد النظام

الأخلاقى الصارم الذى نشأت فى ظله الحضارة الغربية بريقه وكاد أن يختفى وأن يحل محله نظام يهتم بمسلك الفرد، لأن الثواب والعقاب يتقرران فيه حسب ما يقوم به الإنسان كفرد وليس كعضو فى جماعة فالإنسان يكون على الطريق القويم إن قام بالشعائر وأدى الطقوس وعاش عيشة الطهارة التى درج النظام على تسميتها بقيم العائلة، ووهب حياته وولاءه إلى الطائفة أو الملة التى ينتمى إليها وترك أموره لله فيس للفرد أن ينظم أسرته أو أن يهتم بالشئون العامة أو أن يلتزم بأى شئ نحو المجتمع الأكبر الذى يعيش فيه . وفى مثل هذا النظام الأخلاقى يمكن للفرد أن يبرر استخدامه أية وسيلة للوصول إلى غايته ، وفقد نظام السوق الذى يسير المجتمع بمقتضى قواعده كل توجه أخلاقى وأصبح من العادى أن يكون هم الشركات والعاملين هو اللهاث وراء الثروة بأى طريق ودون أى وازع، ولا يكاد أن يمر يوم واحد دون أن نقرأ على صفحات الجرائد خبر خلل أو فساد جسيم فى الشركات وأسواق المال ، أو خبر انحراف مجالس إدارة الشركات أو رجال الأعمال أو الموظفين العامين ومن العلامات ذات الدلالة أن الناس قبلت هذا الوضع ورضيت أن تعيش معه ، وتقوم الكثير من المحال التجارية على سبيل المثال بإعداد ميزانياتها على افتراض أن خمس بضائعها ستتم سرقته بواسطة موظفيها أو المترددين عليها ، ولم يثر خبر إفلاس شركة انرون وما أحدثه هذا الإفلاس من آلام لعشرات الألوف ممن استثمروا وخسروا مدخرات عمرهم فيها الغضب الكبير بين الناس.

وكما تراجع الوازع الأخلاقى عند الفرد تراجع أيضا عند الجماعة التى كانت أن تروح منها صفة التراحم الإنسانى التى تعتبر أحد أهم أعمدة تماسكها ، وأصبح من المقبول أن يرى الناس الفقراء يزدادون فقرا والأغنياء غنى وأن يروا جزءا كبيرا من ذويهم من المواطنين الفقراء بلا رعاية صحية ، وجزءا آخر لا يقل عددا يعيش فى رعب فقدان وظيفته ومعاشه.

أزمة أخلاقية

وأثر صعود تيار الأصولية الدينية على مسلك قادة الولايات المتحدة ونظرتهم على العالم المحيط وفقدوا تحت تأثيرها النظرة الموضوعية للأشياء ، وأصبح حكمهم عليها يتقرر بميزان الخير والشر فمن ليس معنا فهو شرير يستحق العقاب ولذا فهم مستعدون لأن يقبلوا أن تحتل اسرائيل أرض الغير، وأن تنزع ملكيتها وتقيم المستوطنات عليها وأن تسرق مواردها الطبيعية وأن تضرب بعرض الحائط القرارات الدولية . وهم مستعدون لأن يغضوا الطرف عن الأعمال الشنيعة وجرائم الحرب التى تقوم بها ردا على الأعمال الانتقامية واليائسة التى يقوم بها أصحاب الأرض المحتلة، وهم قابلون لأن



يروا البيوت تدك فوق رؤوس أصحابها وأن يقتل الناس مع سبق الإصرار ودون محاكمة وأن تقتلع المزروعات وأن تجرف الأرض وتدار معسكرات الاعتقال الرهيبة ، وأن تحاصر دور العبادة بما فيها كنيسة المهد والأكثر من ذلك فهم مستعدون لإظهار تأييدهم لهذه الأعمال دون خجل واستصدار القرارات المطالبة بالمزيد منها كما حدث مع مجلسى الشيوخ والنواب وبما يشبه الإجماع، حقا إنها لأزمة أخلاقية.

ومن مظاهر عمق الأزمة الأخلاقية ما حدث بعد أحداث الإرهاب التى وقعت بالولايات المتحدة فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ واستعداد القائمين على تنفيذ القانون على إعطاء إجازة ، وسوق الناس إلى الاعتقال دون محاكمة أو توجيه اتهام ومصادرة الأموال الخاصة بالأفراد والمؤسسات والدول دون تحقيق، ومعاملة أسرى الحروب دون اعتبار للقوانين الدولية التى تنظم هذه المعاملة . ومن مظاهر هذه الأزمة قبول الحكومة ورجال الإعلام استخدام الزيف والخداع والمعلومة الخاطئة من أجل تبرير أعمال العدوان التى قاموا بها أو ينوون القيام بها.

ويبدو لى أن الأزمة الأخلاقية التى تشهدها الولايات المتحدة اليوم هى بنت ساعتها ، فمنذ أقل من خمسين سنة كانت تسود البلاد نغمة أخلاقية عالية تحولت فيها بشاعة الحرب العالمية الثانية إلى ملحمة فى الفداء من أجل رفعة البشر ونشر السلام . وفى ذلك الوقت تبنت الحكومة الأمريكية ميثاق الأطلنطى ، وساهمت مساهمة فعالة فى كتابة ميثاق الأمم المتحدة الوليدة والذى أرادته أن يكون نبراسا لمنظمة فعالة لدعم السلم والعدل وكتابة ميثاق حقوق الإنسان، والذى يعتبر من أهم العلامات فى سلم التطور البشرى لتأكيد إنسانية الإنسان ، وفى ذلك الوقت ارتفعت نبرة السمو الأخلاقى ووقف العلماء ضد الحرب وضد استخدام أسلحة الدمار الشامل والتى كانوا قد بنوها بأيديهم ، فلما رأوها تستخدم فى هيروشيما وناجازاكى باليابان لم يتردد البعض منهم فى مساعدة الاتحاد السوفييتى على بناء أسلحته الفتاكة حتى تتم حالة من الاتزان الدولى يمتنع فيها استخدام هذه الأسلحة – وفيها ألغت الكثير من الحكومات عقوبة الإعدام – وفيها امتنع الكثير من الشباب عن العمل فى مجالات الحرب أو التجسس . ونحن نرى اليوم أن الحال قد انعكس تماما؛ تراجعت هيبة الأمم المتحدة وقبل العالم أن يرى دولة صغيرة مثل اسرائيل تتعامل معها دون أكتراث لقراراتها ولم يعد لميثاق حقوق الإنسان المهابة التى كانت له ، وأصبح يستخدم عند الحاجة لأغراض سياسية ولإحراج دولة بعينها عندما يراد لها أن تحرج. وأعيدت عقوبة الإعدام فى

الكثير من البلاد وتكالب العلماء على العمل فى مراكز البحث العلمى التى تقوم ببناء الأسلحة الأكثر فتكا والأكثر قدرة على الدمار وتسابق الشباب للعمل فى ميادين التجسس والمخابرات، ولم يعد كشك مكتب التحقيقات الفيدرالى أو المخابرات المركزية الذى كان ينصب بالجامعات لجذب وتوظيف الخريجين للعمل فيهما مهجورا كما كان فى سنى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

التناقض الآخر والكبير فى النظام العالمى الماضر هو فى تراجع أهمية البشر فى صناعة الثروة أو فى الدفاع عن الوطن ، مما أدى إلى تهميش قطاعات كبيرة منهم وتراجع قدراتهم على الضغط على صانع القرار أو المشاركة فى تقرير السياسات العامة للبلاد والتى أصبحت فى أيدى قلة صغيرة تنفرد بالسلطة . لقد تقدمت تقنيات الإنتاج والحرب للدرجة التى لم يعد فيها حاجة لقوة بشرية كبيرة لإنتاج الثروة أو لشن الحرب ، ولم يعد الإنتاج الزراعى والصناعى والمعرفى المباشر والذى يمثل قاعدة الثروة الحقيقية فى البلاد محتاجا لأكثر من ثمن مجمل القوة العاملة فى الولايات المتحدة . أما باقى هذه القوة فهى تعمل إن وجدت العمل فى مجال الخدمات والتى هى وباستثناءات قليلة لا تعطى عائدا ماديا مجزيا للعاملين فيها . وقد أدت هذه التركيبة الجديدة لنمط العمل والتى انتقلت إلى أرجاء كثيرة فى أنحاء الأرض خلال العشرين سنة الماضية وأصبحت النمط الشائع فى معظم البلاد التى تأخذ بنظام السوق إلى تناقضات هائلة داخل المجتمع الواحد، قسمته إلى قلة غنية تركزت فى يدها معظم الثروة وكثرة فقيرة ، ودفعت الكثير من الشركات ذات الأنشطة المتماثلة أو حتى المتقاربة تحت ضغوط قوى السوق التى أطلقت حريتها إلى الاندماج فزادت عملقة وسطوة، وكانت حصيلة ذلك ازدياد الضغوط النفسية والمادية على أغلبية الناس وخاصة من انتمى منهم إلى الطبقة المتوسطة.

وكما حدث التطور فى تقنيات الإنتاج فقد حدث أيضا فى تقنيات الحرب والتى أصبح فى الإمكان شنها بل والانتصار فيها بعدد محدود من الطيارين والجنود ، ولذا فلم يعد شرف الدفاع عن الوطن متاحا لعامة الناس فقلت أهميتهم بعد أن لم يعد الوطن فى حاجة إليهم لحمايته ، وتغيرت موازين القوة داخل المجتمع لغير صالحهم.

وأدى الجو العام من الإحباط الذى أحدثته هذه التطورات إلى دفع البعض ممن تهمشوا أو شعروا بأنهم مستغلون دون وجه حق إلى البحث عن مكان خارج الإطار المؤسسى القائم، والذين لم يجدوا لهم فيه مكانا ووجدوا فى الأنشطة الخارجة عن القانون مجالا، وهكذا توسعت



هذه الأنشطة حتى شكلت في الكثير من الأحوال مؤسسات ضخمة ذات انتشار عالمي تعمل في تهريب السلاح أو المخدرات أو البضائع، أو في التجارة في البشر سواء النساء أو الأطفال أو الراغبين في الهجرة من جحيم عالم الجنوب وما إلى غير ذلك من الأنشطة غير القانونية . وعلى الرغم من أن حجم معاملات هذه الأنشطة غير معروف على وجه التدقيق إلا أن الخبراء يقدرونه بمئات المليارات من الدولارات في كل سنة.

وجاء الإحباط مضاعفا في عالم الجنوب بسبب أن الاستثمارات التي جاءت إليها لم تأت بما كان مأمولا منها لفتح الآفاق أمامها للعبور إلى العالم النامي . فقد جاءتها عن طريق الشركات عابرة القارات التي رأت في عمالتها الرخيصة وقوانينها المتسامحة نحو البيئة وظروف العمل الفرصة لنقل بعض مصانعها إليها ، وبالإضافة إلى ما أثاره هذا النقل من غضب بين عمال البلاد الصناعية فإنه لم يفلح في تحسين أحوال بلاد الجنوب التي نقلت إليها هذه المصانع على أي شكل ظاهر ، فقد كان من شروط نقل المصانع إلى هذه البلاد هو أن تظل العمالة رخيصة وأن ترضى هذه البلاد بالعيش في ظل التقنيات المنقولة إليها وما يجيئ من الخارج لتحسينها، وهو ما كان يفرض قيودا على تقدم البحث العلمي الوطني وعلى القدرة على اتخاذ القرار السياسي المستقل . وهكذا أغلق الباب أمام دول الجنوب سواء تلك التي نالتها الاستثمارات فحرمت من التنمية الحقيقية أو تلك التي لم تأتها الاستثمارات كتلك الفقيرة في البنى التحتية ، فهمشت بالكامل وأصبحت نسيا منسيا ولم يعد لها مكان في هذا العالم الجديد . ويمكن أن نذكر من بين هذه البلاد الكثير من دول أفريقيا كسيراليون والصومال والسودان ورواندا وغيرها الكثير.

في الماضي كانت الامبراطوريات تبنى بحيث يكون لكل مكان فيها وظيفة معينة كانت تجعل منها عضوا ولو صغيرا في نظام عالمي كبير ، هكذا كان حال الامبراطورية البريطانية التي أعطت لكل ركن فيها وظيفة كانت في الأغلب تتعلق بإنتاج الخامات التي كانت تلزم صناعاتها التي تركزت في دولة المركز . أما اليوم فإن الإمبراطورية الجديدة التي تنشأ تحت نظام العولمة وانتقال الاستثمارات وحرية التجارة ليس لها هذا المفهوم الوظيفي لأركانها . فكما هو حادث بداخل مركزها من تهميش لمن لا يستطيعون اللحاق بتقنياتها المتقدمة أو لمن لا يقبلون قواعد لعبتها ، فإنه يمكن أن يحدث أيضا في أطرافها للدول التي لا تملك الخامات المناسبة أو الظروف المواتية لجذب الاستثمار .

***

صورة عالم اليوم التي تتشكل تحت تأثير قوى السوق وتقنيات الاتصالات التي تملك أو تسيطر على معظم خيوطها الولايات المتحدة والتي حاولت أن أرسم خطوطها العامة في هذا المقال تبدو غير سعيدة ، فأغلبية البشر فيها غاضبون أو محبطون أو غير راضين عن أحوالها ، ويظهر التعبير عن هذا الغضب في صور متعددة بعضها يتمثل في حركات الاحتجاج التي شهدتها شوارع سياتل ونيويورك وجنوة وواشنطن وغيرها من المدن التي يجتمع فيها قادة الدول أو ممثلوهم لترتيب هذا العالم ، وبعضها الآخر يتمثل في خروج البعض عن الأطر المؤسسية القائمة والعمل خارج القانون في أعمال مدمرة كالتجارة في المخدرات أو السلاح أو البشر . أما أكثر الحركات انتشارا وربما كانت أكثرها خطرا فتتمثل في تصاعد الأصولية الدينية على مستوى العالم ولجوئها للعمل على الوصول إلى السلطة ، إما عن طريق العنف والإرهاب كما هو حادث في الكثير من دول الجنوب ، أو عن طريق الأحزاب القائمة وصندوق الانتخاب في الدول التي تأخذ بالنظام الديمقراطي كما هو حادث بالولايات المتحدة أو الهند.

الأصولية الدينية

وتعود خطورة حركة الأصولية الدينية إلى أن لها بريقا عند الناس وعلى الأخص في أوقات الشدة والإحباط، على الرغم من المصائب التي يمكن أن تحدثها لو أنها أفلحت في الوصول إلى الحكم كما يستبين ذلك من التجارب القليلة التي أفلحت في الوصول فيها إلى الحكم أو المشاركة فيه، وهناك أربعة مراكز لنشاط الأصولية الدينية في العالم منها مركزان يتولى شئونهما أصوليون دينيون يديرونهما حسب جدول أعمالهم ، ومركزان آخران دخلت عليهما الأصولية الدينية أخيرا ولها فيهما بعض الأثر ، وتمثل هذه المراكز نقاط التوتر في عالم اليوم.

أول مراكز مجموعة الدول الدينية هي دولة إسرائيل مركز الأصولية اليهودية والتي بنيت أصلا على أساس ديني ، وهي دولة تحركها اعتبارات أيديولوجية مستمدة من قرار إلهي يعطي لها الأرض فيما بين النيل والفرات ، ويبرر لها الاعتداء على أرض الغير ومن هنا تجيء صعوبة العيش معها.

المركز الثاني في هذه المجموعة تحتله بعض دول عربية أصبحت من مراكز الأصولية الإسلامية والتي استخدمت ثروتها لنشر دعوتها في كل مكان. وقد تم بالفعل القيام بذلك في الكثير من الدول الصناعية بالاستفادة من قوانينها الليبرالية التي تسمح بحرية العبادة وتحترم الأديان ، وفي التخوم الآسيوية للاتحاد السوفييتي السابق بمساعدة وإشراف قلم المخابرات



الأمريكي الذي وجد في هذا النشاط نصيرا يساعده في محاربة الاتحاد السوفييتي، و في كل البلاد التي يدين معظم سكانها بالإسلام أو تلك التي تتعدد فيها الديانات بغرض دعم المؤسسة الدينية، والدعوة لتطبيق الشريعة وتسييس الدين . ولم تؤد كل هذه الجهود الى أي نجاح يذكر باستثناء الإجهاز على الاتحاد السوفييتي السابق ، والذي ربما عاد الفضل الأكبر فيه إلى مساعدة المخابرات الاجنبية فإن كل هذه الجهود لم تجلب إلا الكوارث والتوتر، فقد أدت جهود تسييس الدين إلى إفراز الإرهاب وإلى إعطاء صورة للدين الإسلامي لا تليق بمكانته السامية، كما أدى سوء استغلال هذه الجهود للقوانين الليبرالية في الدول الصناعية ولإثارتها الفتنة في البلاد متعددة الأديان إلى شقاء الكثيرين.

وتحتل الهند المركز الأول من مجموعة الدول العلمانية التي أدخل عليها تيار الأصولية الدينية الهندوسية الذي أصبح له وجود على الساحة السياسية ، كرد فعل لتصاعد المد الإسلامي في باكستان التي فضلت الخروج من ثوبها الهندي والدخول في أمة الإسلام ومطالبتها بضم كشمير المقاطعة الهندية التي تسكنها أغلبية تدين بالإسلام. وعندما انقسمت الهند في سنة ١٩٤٨ وانفصلت عنها باكستان صممت الهند على الاحتفاظ بمقاطعة كشمير على الرغم من أغلبية سكانها المسلمة ، فقد أرادت الاحتفاظ بها لتكون مثالا على إمكان التعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين تحت راية الديمقراطية والدولة العلمانية . وقد نجحت التجربة بالفعل ولم يحدث ما عكر صفو العلاقة بين سكانها إلا بعد تجربة إنشاء الدولة الدينية بقيادة الانقلابي ضياء الحق. وينبغي أن نبين هنا أن تيار العلمانية تيار غالب في الهند اليوم، وأنه تيار الأصولية الهندوسية ثانوي إلا أن ظهوره على الساحة السياسية وارتفاع صوته يعد ظاهرة قد يكون لها أكبر الأثر على استقرار ومستقبل القارة الهندية.

إقحام الدين في ميدان السياسة

وتحتل الولايات المتحدة المركز الثاني في مجموعة الدول العلمانية التي أدخلت عليها الأصولية الدينية المسيحية عندما أقحم الدين في ميدان السياسة فيها في آخر سنوات الحرب الباردة ، وعلى استحياء كبير ولم تظهر لهذا الإقحام آثار ظاهرة على مجمل السياسة العامة للدولة إلا خلال الإدارة الحالية للرئيس جورج دبليو بوش، عندما تولى بعض مراكز القرار المهمة فيها أعضاء من جناح التيار الأصولي الديني الصغير في الحزب الجمهوري الذي ينتمي إليه الرئيس نفسه،

وهؤلاء تدفعهم اعتبارات أيديولوجية بحته لا علاقة لها بالعقل أو حتى بالصالح العام عند اتخاذ القرار بما ينبىء بما اعتقد أنه سيكون ذا عواقب وخيمة على مستقبل الكثير من مؤسسات الدولة كالقضاء والضمان الاجتماعى والتأمين الصحى والتعليم، والتى يراد تغييرها لخدمة هذه الأيديولوجية ولتعميق جذورها بداخل المجتمع وعلى مستقبل الاقتصاد المحلى والعالمى نتيجة الإنفاق الضخم وغير المنضبط على الحرب التى يراد لها أن تتوسع لمطاردة كل مراكز الشر فى العالم وعلى مستقبل العلاقات الدولية ، والتى تدهورت بسبب ما حدث لأصولها المستقرة من تقويض. وللحق فإن هذه القرارات قد مرت فقط بسبب الظروف الاستثنائية التى مرت بها البلاد بعد أحداث الإرهاب القطيعة التى لحقت بها فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ ، فقد أطلقت هذه الأحداث أيدى الأصوليين لتنفيذ جدول أعمالهم تحت شعار حماية الوطن. ومهما كان الأمر فلى ثقة فى أن الوقت وما ستجلبه هذه السياسات من عواقب ستعيد الولايات المتحدة إلى سابق عهدها دولة علمانية تفصل الدين عن السياسة ، تحترم حرية العبادة وتقدس الأديان وتبنى حياتها على الاستقامة فى العمل وتجل القانون وتتخذ قراراتها عن طريق العقل وتحل مشاكلها بالحوار الرشيد. وستثبت الأيام وصناديق الانتخاب إن كانت ثقتى هذه ذات أساس.

ولا يحدونى أى شك فى أن الأمل الوحيد فى مستقبل البشرية هو فى إصلاح النظام العالمى القائم وتنقيته من تلك التيارات المدمرة التى أدخلت عليه وأوقفت تقدمه وتطوره وأفقدته ثابتيه الأساسيين اللذين قام عليهما وهما العقل والأخلاق ، واللذين كانا من الممكن أن يشكلا آلياته لتحليل جذور مشاكله ومجابهتها وحلها ثم إلى تطوير أحواله لكى يصبح أكثر إنسانية وأكثر فائدة لكل البشر . ليس هناك فى أفق السياسة الحالية بديل آخر يمكن أن يحل محل النظام القائم غير الفوضى الشاملة والتصادم اللاعقلانى بين مختلف الحضارات والديانات.. لقد أدى تصاعد تيار الأصولية الدينية إلى صدامات وإلى شلل فى الحياة وإلى كوارث هائلة عندما نجح فى الوصول إلى السلطة . ينبغى علينا أن نتكاتف لنوقف هذا التيار ولنعيد للدين موقعه المهم فى حياة الإنسان كمصدر لهدايته ، وأن نعطى مالقيصر لقيصر وماالله لله وأن نؤكد الأصول العلمانية لعالمنا، فليس هناك من طريق للعيش فى سلام بين مختلف الأديان دون ذلك ودون العودة لإعمال العقل والتمسك بمكارم الأخلاق. ■



توازن الرعب على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إذا كانت حروب الإنترنت هي انعكاس للصراعات السياسية على أرض الواقع، فمن الطبيعي في الوقت الذي يشهد فيه الشرق الأوسط تصاعدا متواصلا في وتيرة العنف، أن تشهد ساحة الإنترنت حربا لا تقل ضراوة منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في سبتمبر من عام ألفين ، وتناقلت وكالات الأنباء العالمية يوم الثلاثاء ١٦ - ٤ - ٢٠٠٢ خبرا يقول إن إسرائيل مازالت تتعرض لهجوم عبر الإنترنت، وإن المواقع الإسرائيلية التي تنتهي بـ «il» كانت الأكثر تعرضا لهجمات الهاكرز خلال الفترة التي تلت اندلاع الانتفاضة.

حيث تعرضت لـ ٥٤٨ هجوماً من إجمالي ١٢٩٥ هجوما تعرضت لها مواقع الإنترنت في الشرق الأوسط مما دفع مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى التحذير من حدوث فوضى شاملة على شبكة الإنترنت قد تشمل المواقع الغربية والأمريكية على السواء، حيث أثارت هذه الحرب المشتعلة مخاوف السلطات الأمريكية التي أعربت عبر المركز الوطني لحماية البنية التحتية وهو هيئة مستقلة تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكي من أن حرب الإنترنت بين أطراف النزاع العربي الإسرائيلي يمكن أن تكون لها انعكاسات على المواقع في الولايات المتحدة، وخاصة أن العديد من المؤسسات والمواقع الأمريكية تستغل بشكل واضح من قبل الطرفين في عمليات الهجوم على الطرف الآخر، إلا أن التطور الأكثر خطورة في رأي الخبراء هو لجوء الطرفين إلى ما يسمى بسلاح حصان طروادة وهو عبارة عن رسالة إلكترونية بريئة المظهر تحتوي على فيروس فتاك يعمل بمجرد فتح الرسالة على تدمير محتويات جهاز الكمبيوتر أو إصابته بأعطال لا يمكن إصلاحها حسب قوة الفيروس، وقبل فترة ليست ببعيدة اتجه الصينيون لصب غضبهم على أمريكا وشرعوا بالهجوم على موقع البنتاجون والبيت الأبيض ومواقع حكومية حساسة.

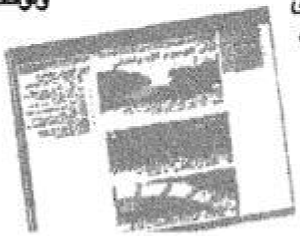
لقد أصبح التسلل للمواقع بهدف التخريب السياسي آخذا في الازدياد بسبب سهولة تنفيذ عمليات التسلل التخريبية التي تحمل أقل قدر من المخاطر. ومنذ تصاعد الاشتباكات الأخيرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين انهمك القائمون على إدارة مواقع كلا الطرفين في صد هجوم المتسللين إلى الطرف الآخر، ولوحظ تصاعد الهجمات على المواقع الإسرائيلية كلما تصاعدت حدة العنف في المنطقة، ففي النصف الأول من شهر أبريل ٢٠٠٢ نالت إسرائيل ثلثي هجمات الهاكرز التي استهدفت مواقع الإنترنت في الشرق الأوسط، وكانت معظم مجموعات الهاكرز المعادية لإسرائيل هي من المصريين وقد بدأت نشاطها بعد أسابيع قليلة من هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، ومن المنطقي أن تكون الحرب التي تشهدها شبكة الإنترنت مؤشراً على درجة التوتر السياسي في العالم، وأن التوتر الذي يشهده الشرق الأوسط ينعكس في هيئة هجمات مباشرة وغير مباشرة للهاكرز، وتعتبر هذه الهجمات أكثر تهديدا بالنسبة لإسرائيل ليس بسبب هجماتها على السلطة الفلسطينية فقط، ولكن لأن بها أكبر عدد من مستخدمي الإنترنت في الشرق الأوسط، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد مستخدمي الإنترنت في إسرائيل يبلغ ١,١ مليون مستخدم وهو عدد كبير في منطقة مثل الشرق الأوسط. والمعروف أن تشعب اتصالات إسرائيل عبر الإنترنت أكثر من جيرانها يجعلها أكثر بلدان المنطقة استهدافاً لأعمال القرصنة مما

يعتمد هذا المقال على الإبحار داخل عشرات المواقع العربية والإسرائيلية، ومواقع الصحف ووكالات الأنباء وشبكات الإعلام

يعرض الكثير من شركاتها إلى أضرار اقتصادية جمة. ولأن الكثيرين من المستهلكين الإسرائيليين يعتمدون على الشراء عن طريق الإنترنت بواسطة كروت الاعتماد، فهذا يسهل عملية اختراق بيانات هؤلاء المستهلكين والحصول على بيانات بطاقاتهم مما يعرض التجارة الإلكترونية فى إسرائيل لخسائر فادحة.
ويقول بيتر سومر الباحث فى مركز أمن الكمبيوتر فى كلية الاقتصاد بجامعة لندن إن بوسع الهاكرز المدفوعين بقضايا سياسية تصعيد حملتهم «إذ من الممكن أن يقوموا بهجوم عبر الإنترنت على مواقع البنية التحتية الوطنية». و يضيف « من وجهة نظر المؤيدين للعرب سيكون أمرا كهذا أكثر تأثيرا من إرسال شخص انتحارى. ورغم كل الاحتياطات لتوفير أكبر قدر من الأمان لشبكة الانترنت الا أن حيل الهاكرز تجعل هذا الأمر أشبه بالمستحيل، هذا ما تؤكده تقارير الكونجرس الامريكى! ويبدو أن خسائر الشركات الإسرائيلية لم تعد مقصورة على اندلاع الانتفاضة بل تعدتها إلى خسائر فى التجارة الإلكترونية . وتشير بعض المصادر مثل منظومة الدياغ لتكنولوجيا المعلومات (DIT) إلى أن خسائر هذه الحرب الإلكترونية تصل إلى ملايين الدولارات فى الجانب الإسرائيلى. ويبدو أن الأمر تطور من مجرد صدام بين إسرائيل من ناحية ومؤيدى الانتفاضة من عرب ومسلمين، إلى حرب ضروس على شبكة الإنترنت تكلف الدولة العبرية ملايين الدولارات أى أكثر مما تكلفها الحروب الحقيقية. من جهة أخرى أبدى العديد من الخبراء الإسرائيليين دهشتهم واستغرابهم من الطريقة التى تستخدم للهجوم على المواقع الإسرائيلية فقد أكد خبير الكمبيوتر الإسرائيلى «دانيال برونير» نائب رئيس شركة انفورميشن سيكيورتى أدفايسر الكندية - أن الهجمات التى تتعرض لها المواقع الإسرائيلية تتم بوسائل تقنية متقدمة جداً على عكس ما يشيع البعض، لأن المهاجمين يعرفون ما يريدون وينقلون مصدر هجماتهم من مكان إلى آخر بسرعة البرق، حتى أننا نتخيل أن العالم كله يهاجمنا دون أن نستطيع تحديد مصدر هذا الهجوم!

معركة الرسائل والصور

وفى أثناء الاجتياح الإسرائيلى الأخير للأراضى الفلسطينية، وحصار ياسر عرفات، توسع نطاق المواجهات بين الإسرائيليين والفلسطينيين لينتقل إلى استخدام الرسائل والصور . وكانت المواجهة مع بداية الانتفاضة، أخذت شكل هجوم متبادل على مواقع الطرفين وتعطيلها . ونشرت على مواقع الشبكة صور المجازر الإسرائيلية، فيما نشرت فى المقابل صور ضحايا إسرائيل من العمليات الاستشهادية التى قام بها الفلسطينيون ، وفى كل مرة يستجد فيها حدث ما فى الأراضى المحتلة، كانت تتوافر كميات هائلة من المعلومات بشكل سريع على الإنترنت، وكان ذلك غير ممكن قبل عشر سنوات فقد ارتفع عدد المشتركين فى شبكة الانترنت فى الاراضى الفلسطينية وفى اسرائيل. ومرض الصور منتشر بين جنود الجيش الإسرائيلى، فهم يحرصون على تصوير قتلاهم بعد التمثيل بجثثهم، ولوحظ اثناء حرب جنوب لبنان أن بعض المواقع الإسرائيلية التى يبثها الجيش الإسرائيلى يظهر فيها



الكثير من الدماء. فاللون الاحمر هو الطاغي. وهناك أمور يمكن مشاهدتها، وأمور تستحيل مشاهدتها. ولهذا نقرأ التحذير الآتي على بوابة الموقع: (المخربون يموتون في الخفاء. الصور في هذه الصفحات قاسية للغاية لمشاهدتها، ولا يفضل أن يشاهدها أصحاب القلوب الضعيفة أو النساء الحوامل أو الاطفال). وليس مصادفة نشر مثل هذا التحذير، لان ما يتبعه لا يمكن التمعن به، بل هو يزعزع بدن كل من يشاهده، وتظهر فيه تلك الصور إلى جانب القصائد والنكات التي يضيفها الجنود المواظبون على انجاح الموقع . وفي هذه الصور يظهر الجندي الذي يستمتع بالتقاط الصور للذين قتلهم، حيث يحرص الجنود على التقاط صور (تذكارية) إلى جانب الجثث، خصوصا تلك التي شوهتها الإصابات القاتلة . انها جزء من التربية الاسرائيلية حول الموت . هذه التربية التي تنفذ الموت وتتمتع به وتوثقه !

ويقول مدير خدمة الإنترنت في وزارة الخارجية الإسرائيلية « أوري نوي » إنه يجري تجديد الاخبار الموجودة على الموقع ثلاث أو أربع مرات في اليوم مقابل مرة أو مرتين قبل أعمال العنف وارتفع عدد المطلعين على هذه المواقع من ١٥٠ ألفا إلى أكثر من ٤٠٠ ألف في الشهر. مشيرا إلى الدخول في معركة الصور. ويتضمن الموقع صفحة مخصصة لذكرى ٣٩ اسرائيليا قتلوا في أعمال العنف مع صور كل منهم ونبذة عن حياته، ونشرت على الموقع أيضا تصريحات مناهضة لإسرائيل أدلى بها مسئولون فلسطينيون ووردت في صحف عربية بالإضافة إلى صور لهجمات على مستوطنات يهودية، ويقر المسئولون في السلطة الفلسطينية بتفوق المواقع الإسرائيلية لكنهم يراهنون على مواقع المنظمات الانسانية ومنظمات الدفاع عن حقوق الانسان لمواجهة ذلك.

ويفترض أن الجبهة الالكترونية تنجح في ربط العرب والمسلمين في العالم أجمع مع قضية الشعب الفلسطيني، ويرى بعض الخبراء أن تشكيل الرأي العام العربي والإسلامي يأخذ بعدا إضافيا على الانترنت ويميل كفة الميزان لصالح الانتفاضة رغم الصعوبات التي يواجهها الفلسطينيون في نقل أخبارهم لوسائل الاعلام، فتجربة الانتفاضة أثبتت للفلسطينيين أن الحكومة الاسرائيلية تتفوق في مجال الإعلام.

الحملة الأمريكية ضد انتفاضة الإنترنت

والحملة الأمريكية ضد ما يسمى بشبكات الإرهاب انتقلت أيضا إلى الإنترنت، وحسب صحيفة «ليبراسيون» فإن القاضي الفرنسي «جون بول» قام باستجواب المسئول على موقع «ستكوم - نت» إسماعيل بدروني، لأنه بث تقارير داخل الموقع تشير إلى أن العمليات الاستشهادية هي نوع من الدفاع عن النفس وتم إغلاق الموقع. وتشير ليبراسيون إلى أن معظم الشركات الغربية وخاصة الأمريكية التي تسمح بإنشاء مواقع تخاطب المسلمين على الإنترنت بدأت منذ انفجارات أمريكا إما أن ترفض استمرارها في بث هذه المواقع أو إغلاقها. ويذكر أن نظام مسئولية شركات الإنترنت تجاه الصفحات والمواقع التي تبثها على الإنترنت يختلف من بلد إلى آخر، ففي فرنسا صدر قانون في أول أغسطس

٢٠٠٠ يتيح لشركات الإنترنت منع نشر محتوى أى صفحة تحتوى على مضامين تشجع على التظاهر غير المشروع، وهو ما سهل على أى شركة فرنسية تضم مواقع على الإنترنت أن تغلق أى موقع لها بمجرد الادعاء بأنه يحرض على التظاهر على نظام معين .. ويشار إلى أن الإدارة الأمريكية قد أعلنت يوم الإثنين ٢٠٠١/١٠/٨ أنها خصصت ١٠ ملايين دولار لتدشين حرب جديدة ومكثفة ضد ما يعرف بالإرهاب الشبكى الذى يعتبره عدد من المسئولين الحكوميين ومن خبراء الإرهاب يمثل تهديدا خطيرا للأمن القومى الأمريكى.

ويذكر ايضا أن الكثير من الخبراء قالوا بأن الخاطفين الذين نفذوا هجمات ١١ سبتمبر فى امريكا استخدموا شبكة الإنترنت من خلال المقاهى العامة ومحلات الإلكترونيات لترتيب الاتصالات فيما بينهم دون أن يتم اكتشافهم. وفى أواخر عام ٢٠٠١ قام مكتب التحقيقات الفيدرالى بأول عملية من نوعها سجلت سابقة فى الرقابة على الإنترنت إذ اقتحمت مكاتب شركة انفوكوم كوربوريشن فى ولاية تكساس وأغلقت مواقع عربية وإسلامية عدة تبث عبرها، بذريعة أنها تروج لمعاداة السامية أو ترتبط بمنظمات تعتبرها إرهابية. وكان بين أبرز المتضررين من الحملة موقع الصحيفة الالكترونية «عروب دوت كوم» التى تعمل فى رام الله (الضفة الغربية) والتى اعتبرت الاجراء سياسياً، ويدخل فى إطار الإرهاب الالكترونى. وتعتبر عملية « أف بى آى » نتيجة لحملة شنتها بعض المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة، وتحديداً الناشط فى محاربة المنظمات الإسلامية المناهضة لإسرائيل فى الولايات المتحدة دانيال بايبس. وهى أدت إلى قيام السلطات الأمنية الأمريكية بفتح تحقيقات لوقف نشاطات هذه المنظمات التى تعتبر مرتبطة بنشاطات حماس والجهاد الإسلامى على شبكة الإنترنت أو داعمة لها. وقالت مصادر أمنية أمريكية إن تفتيش مكتب شركة انفوكوم يصب فى هذا الاتجاه بعدما تبين للسلطات أن هذه الشركة تقدم خدمات لمواقع انترنت تروج ضد إسرائيل وتعتبر معادية للسامية. وذكرت هذه المصادر أن التحقيقات تتركز على معرفة المالك الحقيقى لهذه الشركة ومصادر تمويلها، وأشارت إلى أن هناك شكوكاً فى أشخاص مرتبطين بحركة حماس، وكان بايبس قد نشر مقالة فى وول ستريت جورنال أشار فيها إلى نشاطات حماس والجهاد على شبكة الانترنت فى الولايات المتحدة. ومن المواقع التى ذكرها «قدس كول دوت كوم وفلسطين انفو اكت» ودعا بايبس الحكومة الأمريكية إلى العمل فوراً على اقفال المواقع المذكورة ومواقع أخرى مشابهة عملاً بقرار تنفيذ صادر فى عام ١٩٩٥ عن الرئيس الأمريكى يسمح فيه السلطات الفيدرالية بمنع أى عملية مالية فى الولايات المتحدة إذا ثبت أنها مرتبطة بواحدة من ٢١ منظمة تعتبرها واشنطن إرهابية، وبينها حماس والجهاد الإسلامى. وأشار إلى أن التهمة التى وجهت لهذه المواقع هى ممارسة التحريض على الكراهية والعنف والارهاب والعداء للسامية.

حرب الإنترنت بين العرب وإسرائيل

ونذكر القارئ أنه مع بداية



الانتفاضة فى أواخر عام ٢٠٠٠، كانت مجموعة من الهاكرز الإسرائيليين هم الذين بدأوا هذه الحرب من خلال محاولة إسكات المواقع العربية التى بدأت فى توظيف ما يحدث فى فلسطين لفضح الممارسات والسياسات الإسرائيلية عبر شبكة الإنترنت. إلا أن الدفة سرعان ما تحولت بشكل سريع لتصبح المواقع الإسرائيلية هدفاً لسيل من الهجمات المضادة قادها مجموعات من الشباب العربى من مختلف أنحاء العالم. وتطوع البعض بإنشاء مواقع لاستخدامها فى عمليات الهجوم، ففى الوقت المحدد للهجوم يطلب من زوار الموقع الضغط على أحد الأزرار المرتبطة ببرنامج يقوم بتحويل هذه الضغطة إلى سيل من الإشارات الإلكترونية التى تضرب الموقع المستهدف وتؤدى إلى انهياره وخروجه من الخدمة لفترة من الزمن تطول وتقصر حسب مدة الهجوم وقوته وعدد المشاركين فيه، وكانت حصيلة الصراع سقوط ٣٥ موقعاً للإسرائيليين على الإنترنت، بينها موقع الكنيست وبعض الوزارات، وحتى المواقع الشخصية وبعض السياسيين، مثل أرييل شارون، ومواقع مالية، والبورصة الإسرائيلية، ومواقع اقتصادية متعددة، بالإضافة إلى مراكز بعض أعضاء اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم السيناتور الجمهورى رودى بوشيتيز عضو الكونجرس السابق وبعض أفراد أسرته والمخرج السينمائى ستيفن سبيلبرج وزوجته والإعلامى المشهور تيد تيرنر مؤسس شبكة السى أن أن والممثلة جين فوندا والملياردير مان روزنبوج وعدد كبير آخر من مشاهير المجتمع الأمريكى. وهذا جاء رداً على المحاولات الإسرائيلية المتعددة فى فتح نوافذ أمنية داخل أجهزة الاتصالات العربية خاصة العائدة للسعودية وحزب الله وحركة الجهاد الإسلامى. ويقول (أوجست هانينج) مدير جهاز الاستخبارات الألمانية إن الحروب ستدور من الآن فصاعداً فى مجال المعلوماتية، وخصوصاً الإنترنت، وأن استخبارات دول العالم تهتم بالتكنولوجيا الجديدة، وتدرب جيوشها على القرصنة المعلوماتية مشيراً إلى اهتمام الدول بالفيروسات لشل أنظمة دول أخرى والتجسس عليها.

وأدت العمليات العسكرية الإسرائيلية الأخيرة فى اجتياح الأراضى الفلسطينية المحتلة إلى توقف شبكات الكمبيوتر التى تعمل من المنطقة. فقد أصيب الكثير من مواقع الانترنت فى الأراضى الفلسطينية بالشلل التام لعدة أسابيع ومن بينها معظم المواقع الحكومية الفلسطينية. ويعكف الفنيون الفلسطينيون منذ انسحاب القوات الإسرائيلية على إصلاح شبكة الاتصالات المعطوبة. وفى المقابل أدت العملية الإسرائيلية كذلك إلى تزايد هجمات الهاكرز على مواقع الإنترنت الإسرائيلية وذلك بالرغم من أن معظم المواقع الحكومية الإسرائيلية لا تزال تعمل بانتظام. وقد بدأ اختفاء المواقع الفلسطينية عن شبكة الإنترنت فى أبريل الماضى عندما هاجمت القوات الإسرائيلية مقر شبكة الاتصالات الفلسطينية «بالتيل» فى نابلس بالضفة الغربية، والتى أنشئت عام ستة وتسعين بتكلفة بلغت ٦٥ مليون دولار وكانت توفر خدمة الاتصالات الهاتفية للأراضى

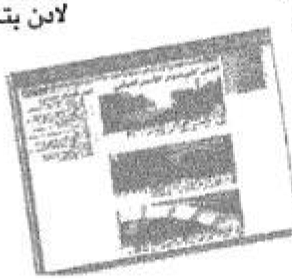
الفلسطينية. وقد لجأت معظم المواقع المعطلة إلى إعادة توجيه زوارها إلى صفحات مؤقتة على موقع مقره في الولايات المتحدة هو «إلكترونيك إنتفاضة»، وذلك بعد أن دمرت جميع أجهزة الكمبيوتر دمرت وخربت وجمعت وألقيت في كومة كبيرة في المداخل، كما انتزعت الأقراص الصلبة لهذه الأجهزة، ومعها أجهزة الفاكس والطباعة. والهدف الواضح من إلحاق الضرر بمواقع الإنترنت وتجهيزات الاتصال هو الحد من قدرة الفلسطينيين على استخدام الشبكة الدولية للمعلومات في نشر تطورات ما يحدث في أراضيهم، ولايتكرر ماحدث على الإنترنت مع بداية الانتفاضة في سبتمبر عام ٢٠٠٠ ، لكنهم ينسون أن معظم الهجمات الإليكترونية الأخيرة جاءت من خارج الاراضي الفلسطينية وأن معظم الدعاية الفلسطينية تتم عبر الإنترنت لا تعتمد على المواقع فقط بل على رسائل البريد الإلكتروني من موقع الأحداث.

وقد تكون حرب الإنترنت هي التعبير الحقيقي عن الحرب السرية الساخنة، التي تدور رحاها بين الأجهزة الأمنية العربية والإسرائيلية المدعومة من قبل السفارات الغربية المتناثرة في العواصم العربية، والتي تتناول كل القطاعات ولم تقف عند حدود التجسس على القدرات العسكرية التي يمتلكها هذا البلد أو ذاك، والتي بدأت تطال القطاعات الاقتصادية والشركات التجارية النشطة

وفي رأي الباحث الألماني هانز بيرند برسيوس مدير معهد علم الاتصال بجامعة لودفيج ماكسيميليان بميونيخ أن فرص الحرب والسلام في الشبكة تحمل في طياتها تحديات تواجه الجهود البحثية في حقل الاتصالات خاصة في الواقع الخارج عن السيطرة الذي يتجلى في الإنترنت ، وما ينتابه من تنام كبير للمواجهات والاعتداءات الإلكترونية على خلفية سياسية واستراتيجية .

ويشكو مدير قسم الإعلام والاتصال بالجامعة العبرية في القدس المحتلة البروفيسور تامار ليبيز من ظاهرة تدني المستوى العام لما هو مطروح في شبكة الإنترنت ، إذ إنه سيقود إلى مضاعفات من بينها تفاقم ظاهرة الحرب الإلكترونية فيها ، كما جاء في ورقته البحثية التي حملت عنوان «حرب الأشكال: استنفار الإعلام القديم والجديد ».

وفي دراسة عن « دور الإنترنت في الصحافة الفلسطينية»، لاحظ الباحث الفلسطيني إلياس زنانيري أن كثيرا من الحالات المرتبطة بالمواجهة عبر الإنترنت تبقى متوارية عن إدراك عموم الجمهور، ففي إحدى الحالات جرى اعتقال ثلاثة أشقاء فلسطينيين بطريقة همجية على أيدي السلطات الإسرائيلية إذ اتهمتهم الأخيرة بأنهم يشاركون في الهجمات الإلكترونية على مواقع إسرائيلية من خلال متجر الحواسيب الذي يديرونه في تل أبيب، وتضمنت قائمة الاتهامات الموجهة اليهم، التسلل إلى حاسوب مفاعل نووي إسرائيلي والتنصت على الاتصالات الإلكترونية للمخابرات الإسرائيلية وتعطيلها ، وبالإضافة إلى تزويد السعودي أسامة بن لادن بتقنيات للاتصالات اللاسلكية آمنة من التجسس . وأوضح الباحث الذي يعمل نائبا لمدير المركز



الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية في رام الله « مدار » أنه ليس من المعروف ما آلت إليه التحقيقات مع الأشقاء الثلاثة، خاصة في ظل السرية المطلقة التي فرضتها السلطات الإسرائيلية على قضيتهم ورفضها السماح لمحامين فلسطينيين بالاتصال بهم . وتطرق زنانيري إلى أهمية شبكة الإنترنت بالنسبة للفلسطينيين، الذين يجدون فيها حرية واسعة النطاق بعد أن فرض الاحتلال الإسرائيلي الرقابة المشددة عليهم طوال عقود متواصلة . وأشار باهتمام إلى ظاهرة انتشار مقاهي الإنترنت في التجمعات السكانية الفلسطينية وامتلاك الفلسطينيين لشبكة من الاتصالات المعلوماتية الحديثة، مقابل امتلاك الدولة العبرية لصناعة معلوماتية هائلة وقاعدة تقنية متفوقة تحظى بشركات عالمية معروفة في حقل تقنية المعلومات والاتصالات .

وفي ندوة عقدت في جامعة بن جوريون منذ شهور باسم «معركة الخوادم، معركة القلوب : الإعلام الجديد والحرب المعلوماتية » أعرب فيها الحاضرون عن مخاوفهم من الجماعات الإسلامية الناشطة والمتطرفين المسلمين الذين وجدوا بعضا من ضالتهم في دنيا الإنترنت التي أتاحت لهم تكوين مجتمعات عريضة متشابهة فكريا وأضافت «ليمور يجال» المحاضرة في العديد من الجامعات الإسرائيلية عن الإرهاب والإنترنت تقول : «لقد أدرك المسلمون أهمية الإنترنت مبكراً جداً » وحذرت من أن المسلمين « طوروا بسرعة استراتيجية ما أطلق عليه بالجهاد الإلكتروني e-jihad or online jihad، وأنشأوا مجتمعا إسلاميا على الإنترنت يربط أطراف العالم الإسلامي ويوحد المسلمين ويتعاضد فيه مثلا مسلمو أفغانستان والجزائر مع المسلمين في إسرائيل ! إنهم ليسوا فقط مجموعة من المسلمين أضافوا حرف « C » لنشاطاتهم، وأن هذا النزاع قد يجذب بعضا من المجموعات المسلمة الأخرى ذات الحضور القوي على الإنترنت ، والتي لم تدل بدلوها في ذلك النزاع « وكلما تعقد ذلك النزاع فإن الوقت المتاح لكل من الجانبين سوف يعطي الفرصة لإعداد فيروسات الكمبيوتر، الأمر الذي لن يقتصر بالطبع على المستهدف من الجانبين، بل سيتطاير شرره ليلحق أضرارا بأجهزة الكمبيوتر في العالم بأجمعه».

وبالرغم من أن الهدف المعلن لمركز مجتمع الشرق الأوسط الفعلي MEViC هو محاولة إنشاء الحوار المباشر بدلا من العدائية، فإن تساوي كفتي الصراع على الإنترنت ، وعدم رجحان ميزان قوى المعركة على الإنترنت لصالح إسرائيل أقلق مؤسس المركز مايك داهان وحدا به إلى القول بأن « كلا الجانبين في الصراع العربي/ الفلسطيني – الإسرائيلي يستثمر قنوات التوزيع في حرب الإنترنت cyber-war » .. فهم يتراسلون فيما بينهم بعروض الباور بوينت، والرسوم المتحركة بفلاش، والتوزيع غير معقول .. مئات الآلاف من الرسائل يتناقلونها ، ويمررونها لبعضهم .. لكن ذلك ليس ببساطة مجرد محاولة لإذاعة «المعلومات». وأوضح داهان قائلا : «إن ذلك يدفع الناس سواء في مناطق السلطة الفلسطينية أو أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية للنزول للشوارع

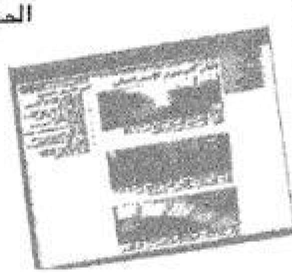
، ولاتنحصر الأنشطة فقط على الإنترنت ». ويشاركه كينيث بريس الأستاذ بجامعة بن جوريون رأيه قائلا : « إن مشاهدة العنف الجارى فى إسرائيل أو أراضى السلطة أو القراءة عنه يدفع للمشاركة فيه بدلا من كبته ». من الواضح أن مرارة ويأسا قد أصابا إسرائيل من تلك الانتفاضة ، الأمر الذى جعل الأستاذ موتى سوكولوف من جامعة تل أبيب يرد قائلا : « هناك الكثير من القوانين ضد إراقة الدماء والسرقة ، لكن أى شخص يريد أن يقتل سوف يقتل ، وأى شخص يريد أن يسرق سوف يسرق، إن الأمر أكثر تعقيداً على الإنترنت، والقوانين وحدها لن تساعد » !

مستقبل المواجهة الإلكترونية

ويبدو واضحا من الأحداث التى تشهدها شبكة الإنترنت منذ اندلاع الانتفاضة أن حرب المعلومات بين العرب وإسرائيل مرشحة للاستمرار لفترة طويلة وخاصة أن العديد من الشباب العربى يرى فى هذه الحرب الوسيلة الفعالة للجهاد ضد إسرائيل بعد أن أغلقت كل السبل الأخرى أمامه .

إلا أن الأسئلة التى تطرح نفسها بشدة فى هذه المرحلة وتحتاج إلى إجابات شافية تدور حول إمكانية أن تتحول هذه الحرب من معارك بين مجموعات من الهواة والمتحمسين لقضاياهم إلى حرب معلومات شاملة بين العرب وإسرائيل؟ وما الذى يمكن أن تسفر عنه مثل هذه الحرب؟ وهل استعدت لها الأطراف المختلفة بالشكل الكافى؟ كيف يوظف العرب المواجهة الإلكترونية وإمكانيات شبكة الإنترنت إعلاميا خاصة فى ظل اختلاف اللغة التى نفهمها ونتكلمها عن اللغة المعولة السائدة فى العالم الآن؟! فنحن نرى المقاومة الفلسطينية نضالا مشروعا لتحرير الأرض ، والعالم اتفق حول مقاومة الإرهاب، فى إسرائيل، وايرلندا الشمالية والباسك وكورسيكا والتيبت والشيشان وأنجولا، بل أيضاً فى ايطاليا مع الألوية الحمراء واليابان مع الجيش الأحمر وتركيا مع حزب العمال الكردى، العرب يعتبرون تخريب مواقع إسرائيل على الإنترنت ردا مشروعا على مهاجمة مواقعنا ، بل وصدرت فتاوى دينية تحلل ذلك ! والعالم يعتبر ذلك نوعا من الارهاب الشبكى الذى يهدد بنية الإنترنت ! نحن مازلنا نستخدم فى خطابنا الرسمى والإعلامى مصطلحات مثل الوطنية ، والجهاد ، وحركات التحرير، والاستعمار! والعالم كله اعتبر تلك المسميات خارج لغة العصر ، وفى سبيلها للانقراض ! نحن نعتبر الاستشهاد بطولة وشجاعة، ومنتهى التوحد مع تعاليم الإسلام ، والعالم يعتبر الشهادة ليست إلا وجهاً من وجوه الإرهاب، أو تعبيرا عن اليأس والإحباط!

اليوم ، كيف نقنع العالم بعدالة القضية الفلسطينية؟ وأن المقاومة الفلسطينية ليست إرهابا ! نحن فى حاجة إلى مراجعة دورية لطريقة تفكيرنا التى تظهر فى لغة إعلامنا، علينا أن نتقن اللغة الاعلامية التى يفهمها عالم القرن الحادى والعشرين ، وننقل قضايانا ووجهة نظرنا بطريقة يفهمها بقية العالم ، فالحرب منذ الآن اعلامية والهزيمة الحقيقية لم تعد عسكرية بل أصبحت سياسية فقد هزم البوسنيون وألبان كوسوفو وسكان تيمور



الشرقية فى الحرب العسكرية لكنهم كسبوا الحرب الاعلامية فهزموا أعداءهم. وإسرائيل نجحت على مدى عقود فى استمالة معظم الإعلام الأمريكى والغربى عموماً وتسخيره لصالحها فهى خططت ونفذت ووضعت استراتيجيات وطبقتها، ونجحت فى إدراك أهمية الإعلام ووسائل كسب المؤيدين . وتأليب العالم على الفلسطينيين والعرب والمسلمين ونحن فشلنا إعلاميا فى إقناع العالم بأن صور الشهداء من الأطفال والنساء الملتفة بعلم فلسطين ، هى صور لضحايا إرهاب إسرائيل ، وليست استعراضا لجثث الموتى لإثارة مشاعرهم وتعاطفهم وهذا الفشل يستوجب توظيف الإنترنت إعلامياً ومخاطبة العالم بلغاته الأساسية، وبث ونقل كل ما هو عربى من تراث وفنون وحضارة وثقافة وفكر ليتعرف العالم علينا عن قرب ! فالحرب مع إسرائيل الآن هى حرب حضارية فى الأصل ويجب تعبئة الجهود لسد الفجوة الإعلامية الرقمية بيننا وبينهم فهى حقيقية حيث يعتقد الكثيرون منا أن الصراع بيننا وبين إسرائيل هو صراع عسكرى وسياسى فحسب، وما ذلك إلا لأن هذين الوجهين من الصراع هما الوجهان الظاهران اللذان تنقل لنا وسائل الإعلام أطرافاً منهما باستمرار ، ولا أظن أن ذاكرة أى عربى تخلو من صور شنيعة تركتها فى وجدانه سلسلة القهر والظلم والعدوان ، التى كانت دير ياسين من أوائل حلقاتها، ولن تكون قانا وعناقيد الغضب ومقتل محمد جمال دره ومذبحة جنين هى آخرها غير أن صراعنا مع إسرائيل يمتد عبر مواجهات أخرى ، لاتنقل لنا وسائل الإعلام أخبارها كما تنقل أخبار الاعتداءات المسلحة وتهديم البيوت وتهويد الأراضى العربية والاستيطان، مواجهات تعتمد على العقل والعلم، تلك هى مواجهات التقنية والكمبيوتر والمعلوماتية الإعلامية ! فتخلفنا العلمى وصل إلى حد الهزيمة ، وأننا مالم نتحرك بكل جدية وإصرار فإن مستقبلنا بل وجودنا كله سوف يصبح فى ذمة التاريخ ، فالفجوة فى التقنية والكمبيوتر والإعلام كبيرة وآخذة فى الاتساع بين الدول العربية وإسرائيل لصالح الأخيرة، فإسرائيل تقوم منذ الآن بتصنيع الجيل الثانى من الإنترنت ! وهى تهيمن الآن على الأدوات المخصصة لأمنها!

إن الذى نحتاجه لتدارك وسد هذه الفجوة الفادحة فى تقنيات الإعلام ، هو ثورة علمية شاملة ، تجند لها جميع طاقات الأمة، وتشترك فى دفعها وإشعال وقودها الحكومات والمؤسسات والهيئات والأفراد، كل بحسب طاقته ، وبحسب موقعه ، هذا هو خيارنا الاستراتيجى الوحيد . إننا نحتاج لتعديل موقفنا السلوكى المنفصم عن العلم والحداثة، ففى الوقت الذى نستخدم فيه ثمار العلم من كمبيوتر وإنترنت ، ومحطات فضائية وطائرات وسيارات نرفض المبادئ العقلية التى يؤسس عليها العلم، ولقد بات واضحا أن المستقبل لن ينتظرنا !

■

العنف والصهيونية العنصرية

بقلم
د. قـدري حفنـي •

لابد للكتابة من هدف.. ولم يكن بد من أن التساؤل بداية: تري هل من فائدة ترجي من الكتابة بالعربية عن الإرهاب الإسرائيلي ؟ هل القاريء العربي في حاجة حقا لمن يكتب له عن الإرهاب الإسرائيلي؟ ألا يكفينا ما تنقله أجهزة الإعلام بالصوت والصورة للممارسات الإسرائيلية الإرهابية ليستغني بها القاريء عن أي حروف مكتوبة؟ هل مازلنا نحن الناطقين بالعربية في حاجة لمن يقنعنا بحقيقة ما نراه بأعيننا ؟.. لعل من يحتاجون لتلك الكلمات وربما لما هو أكثر من الكلمات هم أولئك الذين شاهدناهم يتظاهرون في شوارع العديد من المدن الأمريكية والأوروبية تأييدا لإسرائيل، والخطاب في هذه الحالة ينبغي أن يكون بلغتهم هم، تري لمن إذن تتوجه هذه الكلمات ؟

إن بعض شبابنا الذين يتواصلون مع العالم الغربى سواء بالاتصال المباشر كدارسين أو عاملين أو زائرين أو عبر قنوات الاتصال الأخرى كالانترنت أو غيرها تنقصهم المعلومات اللازمة لتفنيد وجهة النظر المقابلة، فيرتج عليهم القول، وتختلط الأمور.. ولذا فإن هذه الأسطر قد تعنى شيئا بالنسبة لهؤلاء .

قد نواجه بمن يحاول إثبات أن تاريخ اليهود يشهد بأنهم كانوا ومازالوا ضحايا العنف والكراهية من الآخرين،. وكثيرا ما نندفع فى حماس محاولين إثبات أن تاريخ اليهود بل وحاضرهم ملىء بالمذابح التى اقترفوها ويقترفونها حيال العرب المسالمين، ويكون الرد من الطرف الآخر استعراض لتاريخ من العنف العربى، لنندفع فى محاولات مستميتة للدفاع والنفى.

• استاذ علم النفس – جامعة عين شمس



صوره لعدد من افراد عصابة «الهاجاناه» التى كانت إحدى دعائم تأسيس الكيان الصهيونى

إن التاريخ البشرى لم يعرف جماعة لم تمارس عنفا، أو لم تتعرض لعنف بصورة أو بأخرى، وليس من استثناء فى هذا الصدد، الجميع مارسوا العنف، لكن عنف الجماعات يكون فى أغلب الأحيان عنفا موقوتا بمعنى أن الجماعة قد تقلع عنه اختيارا أو إجبارا دون أن يعنى ذلك تهديد وجودها ذاته.

غير أنه فى حالات نادرة يكون ذلك العنف بمثابة ضمان استمرار حياة الجماعة بتشكيلها الراهن، بحيث يصبح الكف عن ممارسته نذير يهدد جوهر تكوين الجماعة ومن ثم تفككها.

وعلى أى حال فإن تباين الجماعات البشرية من حيث ممارستها العنف، وكذلك من حيث نوعية العنف الذى تمارسه، إنما يرجع للعديد من الظروف الحياتية المحيطة بها وأهمها أساليب التنشئة الاجتماعية التى تمارسها حيال أبنائها.

العنف والتنشئة الاجتماعية

إن نظرة فاحصة إلى المجتمع فى علاقته بأفراده تكشف لنا حتما عن حقيقة أن الفرد يخضع منذ لحظة مولده لتأثير عدد كبير من المنظمات الاجتماعية المتباينة الوظائف، والتى تقوم جميعا بالاسهام فى عملية التنشئة الاجتماعية، ولسنا بصدد تعداد تلك المنظمات على سبيل الحصر، بل يكفى على سبيل المثال أن تشير إلى أن الوليد، ما أن يرى الحياة - بل حتى قبل أن يتمكن من رؤيتها بالمعنى العلمى - يخضع لأشد المنظمات الاجتماعية تأثيرا وخطرا على نمط شخصيته أعنى الأسرة بما تضمه من أدوار مختلفة للأب والأم والأخوة وغيرهم، وما أن يشب الطفل عن الطوق تتلقفه

مجموعة الأقران التي تمارس أيضا تأثيرها عليه فى نفس المجال، وفى نفس الوقت تبدأ المؤسسات التعليمية فى ممارسة تأثيرها أيضا لنفس الهدف، والأمر كذلك بالنسبة للمؤسسات الايديولوجية، والدينية، والإعلامية، والتشريعية ونستطيع أن نحصى الكثير والكثير من أسماء تلك المنظمات.

وتسهم عملية التنشئة الاجتماعية بهذا المعنى فى مجالين مهمين فيما يتصل بالتكوين السيكولوجي للمجتمع.

أولا: مجال التفاعل الأفقى - إذا صح التعبير - بين أفراد هذا المجتمع أى أنها العملية التي يتم من خلالها توحيد أو تفتيت الجيل المعاصر فى أى مجتمع.

ثانيا: مجال التفاعل الرأسي - إذا صح التعبير - بالنسبة لهذا المجتمع - أى أنها العملية التى يتم من خلالها محاولة الجيل الحالى غرس ما يود غرسه من قيم وأفكار فى الجيل التالى له:

وتختلف عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل عن نظيرتها فى المجتمعات التى تشكلت عبر عملية تراكم تاريخى طويلة، إذ أنها تمثل البوتقة، أو أداة الصهر التى يتم من خلالها «اصطناع» ذلك المجتمع، وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولا: أن إسرائيل تضم شتاتا من الأفراد المنتمين إلى مائة قومية تختلف بقدر يزيد أو يقل من حيث قيمها وعاداتها واتجاهاتها، أو باختصار من حيث تكوينها السيكولوجى وليس من سبيل لصنع مجتمع من ذلك الشتات إلا من خلال تخطيط وتوجيه ومتابعة لعملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع بهدف خلق التكوين السيكولوجى المشترك بينهم.

ثانيا: إذا كان وجود جماعات فرعية خارجة على المعايير السائدة فى مجتمع معين أمر يهدد ذلك المجتمع بشىء من التفكك، فإن عدم وجود مثل تلك المعايير أصلا أمر يهدد بالفشل تجربة صنع المجتمع من أساسها.

بوتقة الصهر

إذا ما نظرنا إلى جيل الرواد الصهاينة الأوائل الذين يطلق عليهم الحالوتسيم والذين قدموا إلى فلسطين محملين بطابع الحياة التى كانت تسود أحياء الجيتو فى أوربا آنذاك، نتبين أن التكوين السيكولوجى لذلك الجيل قد تميز بعنصرين أساسيين هما الشعور بالتمايز، والشعور بالاضطهاد.

وبعد قيام الحركة الصهيونية توالت عمليات تهجير اليهود من شتى أنحاء العالم إلى أرض فلسطين، واستمرت موجات التهجير اليهودى بعد قيام دولة إسرائيل وحتى اليوم، ولم يكن غريبا والأمر كذلك أن يضم المجتمع الإسرائيلى المعاصر بين جنباته أبناء من مائة قومية مختلفة ومتباينة، ولم يكن بد من أن تسعى الصهيونية لخلق البوتقة المناسبة لصهر ذلك الشتات، بحيث تكون تلك البوتقة ملائمة لتوجهها الفكرى العنصرى، ذلك الفكر الذى يقوم على أركان ستة متكاملة:

- أن تتحقق صهيونية كل اليهود، بانتهاء ظاهرة الرفض اليهودى للصهيونية.

- أن تضم دولة إسرائيل كافة اليهود، بانتهاء ظاهرة يهود الشتات.
- أن يتحقق النقاء السكانى للدولة اليهودية، بإنهاء الوجود البشرى الفلسطينى.
- أن يتحقق الانسجام السكانى اليهودى داخل الدولة بإنتهاء التمايز العرقى بين اليهود.
- أن يتحقق النقاء الروحى للدولة اليهودية، بسيادة الطابع الدينى اليهودى عليها.
- أن تتطابق الخريطة الدينية مع الخريطة السياسية للدولة اليهودية، يتحقق مقولة إمتداد أرض الميعاد من النيل إلى الفرات.

ولو نظرنا إلى الركن الثالث من أركان الفكر الصهيونى العنصرى لاتضح لنا أنه لا يقبل أساسا بوجود شعب فلسطينى، ومن ثم فإنه يسعى بلا هوادة لاستئصال هذا الشعب وإخلاء أرض الميعاد لتصبح خالصة لأولئك الصهاينة، ولعلنا لذلك لم نفاجأ بموافقة غالبية أعضاء حزب الليكود فى مؤتمرهم الأخير فى مايو ٢٠٠٢ على رفض مبدأ قيام دولة فلسطينية أيا كانت طبيعتها، وغنى عن البيان أن إخلاء أرض من سكانها لا يمكن أن يتم بالشكل المطلوب إلا بالعنف والإرهاب، وما دام الأمر كذلك فليس من سبيل سوى تنشئة الأجيال الجديدة على أقصى درجة ممكنة من تحقيق ذلك الهدف.

وواجه صهاينة إسرائيل مشكلة عويصة، كيف ينشئون أبناء ما يزيد عن مائة قومية تنشئة اجتماعية موحدة، فضلا عن الطبيعة الدموية العنصرية المطلوبة لتلك التنشئة؟ اتبع الصهاينة آليتين متكاملتين.

الأولى: اختراع الخطر

لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطانى عسكرى يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون فى أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيدا لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر فى أعماقهم بحيث يستشعرون دوما بأن العالم المحيط بهم - أى العالم العربى - يهددهم بالفناء، مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية للتصدى لذلك التهديد وكانت تلك هى المهمة الأساسية التى مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل ومازالوا يمارسونها حتى اليوم، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكي يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم ولم يكن النجاح في هذه المهمة يعنى توحيد الشارع اليهودى الإسرائيلي فحسب، بل كان يعنى أيضا تحقيق أهداف استراتيجية ثلاثة لا تقل عنه أهمية بالنسبة لاستمرار بقاء إسرائيل كما هى عليه:

الهدف الأول: هو ترويع يهود العالم بحيث يتضخم لديهم الدافع للهجرة إلى إسرائيل أو على الأقل فإنهم تحت وطأة الشعور بالإثم والتقصير لا يترددون فى مضاعفة دعمهم المادى والسياسي للوجود الإسرائيلي.

الهدف الثانى: هو كسب تعاطف العالم الغربى مع إسرائيل خاصة وأن استراتيجية بقاء إسرائيل منذ رسمها هيرتزل تقوم على اعتماد وجودها على توافر تحالف قوى مع قوة عظمى.

الهدف الثالث: هو تخدير الشارع العربى، بتدعيم إحساس زائف لديهم بأننا -



حرق المسجد الأقصى إحدى جرائم الصهيونية



«روهان» المتهم بحرق المسجد الأقصى يشير الى ما جنت يداه

على ما نحن عليه - الطرف الأقوى الذى يثير رعبا لا حد له لديهم، مما يدفعنا إلى الاسترخاء وترك إسرائيل لتموت رعبا.

الثانية : المثل الأعلى الكيبوتزى

ليست عملية التنشئة الاجتماعية في النهاية سوى عملية تعلم أو تعليم .. تعلم لعادات معينة، وتقاليد معينة، وقيم معينة، وأنماط معينة من سلوك، وما إلى ذلك، ورغم الأهمية البالغة للدور الذى تلعبه اللغة فى عمليات التعلم بعامة، وفى عملية التنشئة الاجتماعية بوجه خاص إلا أنها - أى اللغة - ليست السبيل الوحيد أيضا لبلوغ عملية التنشئة الاجتماعية غايتها المرجوة ثمة نوع من التعليم الصامت إذا صح التعبير.. تعليم يستغنى عن الكلام أى يستغنى عن قيام حوار بين معلم ومتعلم - ذلك النوع من التنشئة الاجتماعية الذى أشرنا إليه فيما سبق إشارة عابرة واصفين إياه بأنه يعتمد على «ضرب القدوة» أو «اتباع النموذج» أو «الاقتداء بالمثل الأعلى».

ولا تخلو جماعة بشرية من وجود نماذج تكون بمثابة المثل العليا لأفراد تلك الجماعة بعامة، يسعون إلى الاقتداء بها والسير على دربها والتمثل بتصرفاتها دون أن تسعى تلك النماذج سعياً ملموسا إلى دفع الأفراد لمثل ذلك السلوك وقد يختلف المثل الأعلى من فرد لآخر، ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود نماذج تعد مثلا عليا على نطاق المجتمع ككل، ويسعى المجتمع عادة إلى تأكيد وإبراز نماذجه هذه، والتى قد تكون شخصيات قيادية معاصرة، وقد تكون شخصيات تاريخية عرفها ذلك المجتمع فى تاريخه القديم أو الحديث، وسعى المجتمع فى هذا الصدد إنما هو فى النهاية،

سعى إلى تدعيم وحدة التكوين السيكلوجى لأبنائه، وتدعيم لعملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى فيه.

لقد لعبت الكيبوتزات الإسرائيلية دورا أساسيا فى تشكيل صورة «القدوة»، ولعل أصدق ما قيل تعبيرا عن حقيقة الدور الذى تلعبه تجربة الكيبوتزات هو ما قاله المحلل النفسى اليهودى الصهيونى الأمريكى الجنسية برونو بتلهايم فى كتابه المعنون: أطفال الحلم.. بالنسبة لمسألة ما إذا كانت التربية المتبعة فى الكيبوتزات يمكن أن تقدم - أو إنها تقدم بالفعل - قادة لإسرائيل، فإن المرء يمكنه أن يجيب على وجه التقريب.. بأنها تستطيع ذلك، ولكن بشكل فريد تماما: إنها تحقق ذلك بضرب المثل أكثر مما تحققه بتقديم انجازات حقيقية للأمة إنها تحقق ذلك من خلال رهبانية حديثة، أكثر مما تحققه من خلال الانجازات العقلية والعملية والاجتماعية التى اعتدنا أن نربط بينها وبين القيادة التغير..

خلاصة القول إذن أن أبناء الكيبوتزات هم النماذج والمثل التى تقدمها الصهيونية لأبناء إسرائيل لكى يقتدوا بهم.

والحديث عن تفصيل الحياة فى الكيبوتز حديث لا ينتهى، والاسترسال فيه قد يذهب بنا بعيدا عن موضوعنا الرئيسى لذلك فقد أثرنا أن نستخلص عددا من الخصائص العامة لتلك الحياة، رأينا أنها تمس موضوعنا مسا مباشرا.

أولا: أن تأسيس الكيبوتزات قد قام على أكتاف عدد من المهاجرين اليهود النازحين من أواسط أوروبا.

ثانيا: إن العمل الزراعى هو العمل السائد فى تلك الكيبوتزات.

ثالثا: تسود الكيبوتزات فكرة المساواة بين الجنسين بدرجة قد تصل إلى حد التطرف.

رابعا: يتناوب القيام على تربية الأطفال مربيات متخصصات من عضوات الكيبوتز يتولين رعاية أطفال الكيبوتز جميعا وبشكل مستمر سواء كان الآباء والأمهات فى العمل أو داخل الكيبوتز.

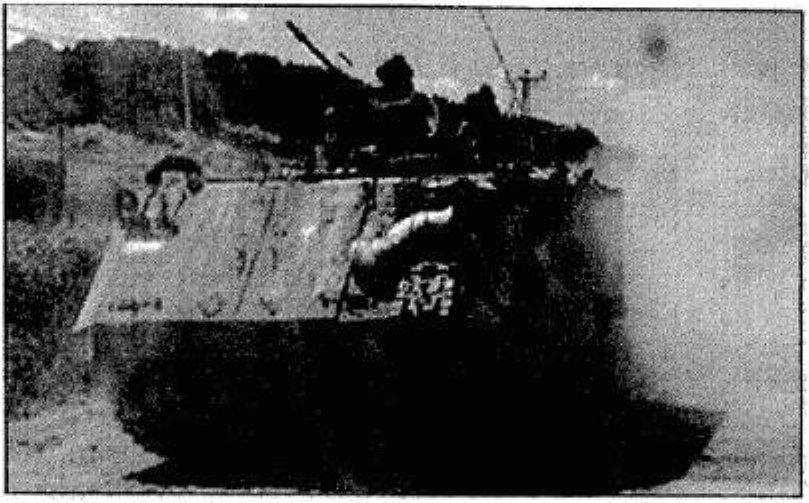
خامسا: تترك الأم طفلها بعد الولادة بأربعة أيام تحت إشراف المربية وتقوم الأم بإرضاع طفلها فى أوقات محددة بمعدل ست مرات يوميا إلى فطامه فى سن الثمانية شهور.

سادسا: عندما يبلغ الطفل من العمر ستة شهور يصبح من حق الوالدين أخذه إلى غرفتهما لمدة ساعة يوميا عند الظهيرة ثم إعادته إلى مكان تجمع الأطفال.

سابعا: تختلف تجمعات الأطفال فى الكيبوتز من حيث مكان التجمع وحجم التجمع وبرنامج النشاط اليومى وأيضا أشخاص المربيات حسب السن.

صحيح أن الكيبوتزات لم تعد تلتزم اليوم التزاما حرفيا بتلك القواعد القديمة فى تربية الأطفال، ولكننا نستطيع القول بأن قادة الكيان الصهيونى الذين يواجهوننا اليوم قد تشربوا بتلك التربية.

ترى ما هى الآثار التى يمكن أن تخلفها مثل تلك الخصائص التى ذكرناها على



لم يتورع الإسرائيليون عن استخدام الجيش بكامل طاقته فى تدمير البنية التحتية للسلطة الفلسطينية وقتل المدنيين العزل - ٢٠٠٢

أبناء الكيبوتزات؟

الكتابات فى هذا الصدد تفوق الحصر، ويكفى أن نستشهد فى هذا المقام بعالم النفس الأمريكى ملفورد سبيرو الذى يعد من أفضل من درسوا الموضوع، وسوف نكتفى بلمحات سريعة مما أورده سبيرو.

لقد رصد سبيرو لدى أطفال الكيبوتز ما أطلق عليه ظاهرة التناقص التدريجى فى الاستجابة العدوان بالصراخ كلما تقدموا فى العمر، وأرجع ذلك لسببين:

أولا: إن الأطفال يتعلمون أن الصراخ لا يوقف المعتدى عند حده بل إنه فى كثير من الأحيان يدفعه إلى الاستمرار .. حيث انه بمجرد ان تنطلق الطاقة العدوانية لدى هؤلاء الأطفال المعتدين فانهم لا يبدون رحمة بل أن تألم الضحية لا يدفعهم إلا لمزيد من العدوان.

ثانيا: إن الأطفال يكتشفون مع تقدم السن أن الصراخ باعتباره وسيلة لجلب حماية المربية لم يعد مجديا لانشغالها بالعديد من الوجبات والمسئوليات.

كذلك يشير سبيرو إلى أن من أبرز ما يميز أبناء الكيبوتز من السابرا هو كراهية الغرباء بعامة والمهاجرين من الشرق الأوسط بصفة خاصة، وهم ينظرون إليهم باعتبارهم أدنى منهم ويطلقون عليهم لقب (Shchoism) أى السود - ويصبون عليهم كافة أنواع العدوان اللفظى والبدنى ويمتد ذلك العدوان ليشمل حتى الأوروبيين الغرباء على الكيبوتز ويرتبط ذلك بندرة إقامتهم لعلاقات انفعالية وثيقة مع بعضهم البعض، ويمضى سيبرو مفسرا تلك الخاصية بقوله «إن الانطواء إنما يعنى الابتعاد عن الآخرين أو تجنب إقامة علاقة بهم أصلا وإذا ما كان الابتعاد عموما يمثل

استجابة للألم، وإذا ما كان التجنب يمثل استجابة لتوقع الألم، فإن انطوائية أبناء السابرا قد يكون دافعها الألم الناتج عن خبراتهم المبكرة مع الآخرين، أو الألم المتوقع من مزيد من التفاعل مع الآخرين.. أي أنهم ينظرون إلى الآخرين باعتبارهم مصدرا للألم والخطر، وإذا ما كان الأمر كذلك فإن انطوائيتهم دليل على افتقارهم للأمن.

وتحت عنوان «الحقد» يؤكد سبيرو أن العجرفة هي بلا شك أكثر التعبيرات وضوحا لما يميز هؤلاء من حقد في تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز الآخرين.. ويمتد ذلك الحقد ليشمل من ليسوا أعضاء في الكيبوتز أيضا، وإذا ما كان حقد السابرا في تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز يتخذ صورة العجرفة فإنه يتخذ في علاقتهم مع الغرباء صورة الانسحاب العدواني وأفضل تفسير لكل من الحقد والانسحاب قد يكون افتقاد الشعور بالأمن شأنهما شأن الانطواء تماما:

وماذا بعد؟

خلاصة القول إذن أن العنف إلى حد الإبادة العرقية مكون أصيل من مكونات الاستيطان الصهيوني العنصري في فلسطين، وأن الحفاظ على اشتعال جذوة ذلك العنف العنصري قد اقتضى من توفير أليتين متكاملتين: اختراع الخطر العربي من ناحية، وترسيخ النموذج الكيبوتزي من ناحية أخرى.

وليس من سبيل أمامنا إلا اختيار واحدة من استراتيجيتين:

الاستراتيجية الأولى:

تحويل الخطر العربي «المخترع» إلى خطر حقيقي واقعي يجبر قادة إسرائيل على التخلي عن مكون العنف العنصري الذي أقاموا عليه دولتهم، والمثال التاريخي القريب هو الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه من تخلي ألمانيا عن العنصرية النازية، والقياس مع الفارق بطبيعة الحال.

الاستراتيجية الثانية:

كشف زيف الاختراع الصهيوني للخطر العربي الذي يهدد بإفناء إسرائيل، وتبني أليات الكفاح المدني، ومن ثم دفع الشارع الإسرائيلي إلى العزوف عن تبني العنف العنصري حيال الفلسطينيين، والقبول بالتعايش السلمي، والمثال التاريخي القريب هو نموذج مانديلا وإجبار البيض في جنوب أفريقيا على التخلي عن عنصريتهم والقبول بالتعايش، والقياس أيضا مع الفارق بطبيعة الحال.

وغني عن البيان أن لكل من الاستراتيجيتين تكلفتها وأعباءها وعائدها أيضا.. وليس بمقدورنا في حدود تخصصنا العلمي المفاضلة بين الاستراتيجيتين، ولكننا نستطيع وفي حدود ذلك التخصص أن نؤكد أن المناخ الأفضل لازدهار العنف العنصري الإسرائيلي يتمثل في تهديد عربي دون خطورة حقيقية، أو في دعوة للسلام تقف عند حدود الكلمات دون ممارسة آليات السلام الهجومي. ■





من هـو الإرهـابى..

الفدائى أم المحتل؟!

بقلم
مصطفى نبيل

قامت إسرائيل بما لم يتوقعه أحد، وبما يفوق كل التصورات العربية، عندما تجاهلت الاتفاقات الدولية والأصول المرعية، ولعبت القوة برؤوس ساستها، وأفرطت فى استخدامها، معتمدة على ترسانتها النووية، وقنابلها الانشطارية، ودعم الولايات المتحدة لها، ومستغلة الأجواء التى شاعت فى العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر.

وها هو أحد الكتاب الإسرائيليين يؤكد - من قبل - استحالة ما جرى، يقول «آلان داوتى» فى ختام كتابه «الدولة اليهودية والقرن المقبل».. «لايوجد طريق لاستمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية، إلا إذا قامت بما كان يقوم به النازى فى الأراضى التى احتلتها قواته خلال الحرب العالمية الثانية.. فتلجأ إلى التطهير العرقى والترحيل الجماعى (الترانسفير)، فهذا مما يستحيل القيام به فى ظل عصر أدوات الاتصال الحديثة».



جندى اسرائيلي يرهب طفلا فلسطينيا بمدفعه الحديث

وبالفعل سرعان ما ظهر رد الفعل الغاضب والرافض لما تقوم به اسرائيل، والذى تنبأ به الكاتب «داوتى»، وتبدل الرأى العام العالمى وهو يشاهد على شاشات التليفزيون عمليات القتل الجماعى ضد شعب أعزل، وملاحقة كل أشكال الحياة: قصف البشر والحجر، واقتلاع أشجار الزيتون، ويرى المأساة وهى تصل إلى ذروتها فى مذبحة جنين - ولا يذكر أن سكانها سبق أن أجبرتهم إسرائيل على الرحيل - واغتيال القادة بطائرات الأباتشى، وحصار المدن، والاستهانة بالمقدسات، وبدأت صحوة الضمير العالمى، وعبر الكثير من الكتاب والفنانين عن إدانتهم، وقامت مظاهرات الاحتجاج فى معظم أنحاء العالم.

وقامت حملة مضادة - على الطريقة الإسرائيلية - واتهمت الجميع بالتحيز ومعاداة السامية، ورفضت الاعتراف بحقيقة تأييد هذه الأصوات للمقاومة الفلسطينية، ومطالبتها بضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلى.

وتوزع قادة إسرائيل سواء من حزب العمل «باراك» أو الليكود «نتنياهو» بجولات فى العواصم الغربية، يقودون المظاهرات، ويلقون المحاضرات، يلقون



رابين وجولدا مائير في ظل الرعاية الأمريكية متمثلة في وسيطها كيسنجر

بالمسئولية على الخاضعين للاحتلال، وأشهروا أحد أسلحتهم القديمة والمستهلكة، وهي التذكير بمحرقة النازي (الهولوكست)، والادعاء بانتشار موجة جديدة من معاداة السامية، وشاركت الصحف الأمريكية في توجيه هذه الاتهامات، ووصلت إلى قاعات الكونجرس الأمريكي الذي ردد بعض أعضائه ذات الاتهامات للدول الأوروبية! فهل يجدي رفع اتهام معاداة السامية لوقف تحرك الضمير العالمي، وإدراكه الواضح لما تقوم به إسرائيل كقوة احتلال؟!

الانتفاضة

ويفضح ما جرى، منذ زيارة شارون إلى المسجد الأقصى، وما تلاها من أحداث، سيطرة اليمين المتطرف على «القرار» داخل إسرائيل، وما يجدر بنا الالتفات إليه، ما أكدته ممارسات السلطات الإسرائيلية خلال عام ونصف العام من الانتفاضة، وهو عمق الحس العنصري لقطاعات واسعة في إسرائيل، والإصرار على تحقيق المشروع الصهيوني، الذي لا تحده حدود، سواء باستخدام العنف أو بالوسائل السياسية، واتباع سياسة العنف والإرهاب إزاء أبناء البلاد، ويطبق ساستهم القول.. «إن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة»، ويتبعون قول بن جوريون.. إنه يمكن إخضاع الفلسطينيين من خلال استخدام القوة الفائقة لإسرائيل». وكما رأينا، لا تحد ممارساتهم أية حدود أو ضوابط

دولية أو أخلاقية، وحصار كنيسة المهد خير شاهد على ذلك، وهو الحصار الذى استمر تسعة وثلاثين يوماً، رغم أنها من أكثر الأماكن قدسية لدى المسيحيين، ولم يقيموا أى اعتبار لقدسية المكان، ولا يعنيهم سوى اتباع سياسة «المطرقة التى تهوى على رؤوس العرب، كل فترة زمنية، وهى الكفيلة وحدها بإخضاعهم إلى الأبد»!!

المصالحة التاريخية

ويتضح من خلال أحداث الانتفاضة، زيف التصور الذى ساد فى التسعينيات، من إمكانية تحقيق «المصالحة التاريخية» بين العرب وإسرائيل، وأنه يمكن أن يسود أخيراً فى إسرائيل صوت العقل، وتعود إلى طريق العقلانية والواقعية، وتبتعد عن الأساطير والأوهام، وأثبتت الأحداث الأخيرة أن هذه التصورات محض أوهام.

كما تصور البعض أن الدور الأمريكي ممكن أن يحقق هذه المصالحة، خاصة بعد أن لعب دوراً مهما في حضور إسرائيل إلى مائدة المفاوضات فى مدريد، وما قامت به بعدها حتى الدور النشط الذى قام به الرئيس الأمريكى السابق «بيل كلينتون» ولكن إذا بالولايات المتحدة الأمريكية تقف داعمة للإرهاب الإسرائيلى، وتغمض الطرف عن استخدام الأسلحة الأمريكية ضد شعب أعزل، والذى كان أبشع صوره قتل قائد الجبهة الشعبية أبو على مصطفى، وما تم بعدها على طول الأراضى الفلسطينية، وأصرت السياسة الأمريكية، على تجاهل إرهاب المحتل، وكأنها لا ترى سوى المقاومة للاحتلال، وأعادت هذه السياسة المنطقة من جديد إلى الخانة رقم واحد.

المستقبل والتاريخ

وعادت صفحات التاريخ تطل من جديد، بعد أن تصور البعض أنه يمكن أن تتوارى الأعمال الوحشية الإسرائيلية كجزء من الماضى، فإذا بها المستقبل أيضا، بعد أن أكدت ممارسات إسرائيل، أن الإرهاب هو السياسة المعتمدة في إسرائيل، وأن ما عداه مواقف سياسية مؤقتة على طريق تنفيذ المشروع الصهيونى، وحان الوقت للنظر فى عين الحقيقة، فبعد أن تسيطر إسرائيل على المركز يأتى زمن السيطرة على ما تتصوره المجال الحيوى لها!

من هو الإرهابى؟

تقوم الصهيونية على مجموعة من البشر يرون أنهم أسمى من سواهم، ويعتمدون الحل العنصرى للمشكلة اليهودية، ويتبعون العنف والإرهاب لترويع أصحاب الحق، قبل وبعد قيام إسرائيل. وخطط قادة الصهيونية لطرد أكبر عدد



إيجال عامير قاتل رابين



ليا رابين تبكي زوجها



اسحاق رابين

من الفلسطينيين خارج حدودهم، واعتمدت الصهيونية على مصادرة الأراضي ونسف البيوت وطرد الأهالي من قراهم، وبالفعل تم ما تحقق من الأهداف قسراً.

فهل تربط ذاكرتنا بين ما جرى في الماضي وما يجري اليوم؟!

ومن صور الماضي وذكرياته ذلك المشهد الذي يصف تجمعا من الرجال والنساء حول سجن شارون ، رجال يرتدون جلابيب سوداء وذوو لحى طويلة وقبعات كبيرة، ينفخون في الشوفار (آلة نفخ - بوق - مصنوع من قرن الكبش) ، والبعض الآخر يرقص إحدى الرقصات القديمة، ووقفت خلفهم النساء يدققن الطبول.. ينتظرن أن يؤدي عزفهن ودوي الموسيقى إلى فتح أبواب السجن، كما حدث ووقع في الماضي عندما انشق البحر أمام بني إسرائيل عند خروجهم من مصر الفرعونية، وذلك من أجل الإفراج عن «إسحق جنسبرج» اليهودي الأمريكي خريج جامعة بوسطن، والذي أقام احتفالاً كبيراً لـ «باروخ جولد شتاين» الذي فتح النار في الحرم الإبراهيمي على الركع السجود عند صلاة الفجر وقتل تسعة وعشرين فلسطينيا.

وهي إحدى الصور المتكررة للتطرف والإرهاب في المجتمع الإسرائيلي، فالإرهاب نبت طبيعي للأخيلة والأوهام والتعبئة الخادعة التي يقوم بها المتعصبون والمتطرفون.. وتفجر العنف أساطير الماضي، وتتحول الكلمات باسم ما هو مقدس إلى أشلاء وطلقات، فتأتي المذابح والمآسي من الذين يتصورون أنهم وحدهم يملكون الحقيقة، والذين يوظفون التاريخ كأداة للحقد، وأولئك الذين يرفضون تكييف الأيديولوجية مع الظروف المتغيرة، والمتمسكين بحرفية

النصوص مها أوغلت، والذين يعادون التجديد ويخاصمون العصر.

ومن هؤلاء مجموعات كثيرة داخل إسرائيل، يصفهم المفكر الفرنسي جارودي بالجمود ورفض التكيف، وعدم التسامح، والانغلاق والعناد.

ويقعون ضمن أحد التعريفات التى أعلنتها الولايات المتحدة للإرهاب، وهو استخدام العنف بدوافع دينية، ومع ذلك أطلقت السياسة الأمريكية الإرهاب على المقاومة الفلسطينية، وتجاهلت الإرهاب الحقيقى، وهو الإرهاب الصهيونى.

الأصولية

ويصف الكاتب الفرنسى اليهودى «إيمانويل هايمان» الأصولية اليهودية بقوله .. «إن التعبير الصادق عن الأصولية اليهودية يأتى من تلك الحادثة التى جاءت فى سفر الخروج عندما أمر موسى (عليه السلام) هارون بقتل عبدة العجل، وقتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل اختيروا عشوائيا لامتصاص غضب النبى الذى تنكر له شعبه.. فالتطرف والعقلية الرجعية المتحجرة هما المصدران للإرهاب.. فهؤلاء الرجال ذوو الإيمان الملتهب، والمنكفئون على ذواتهم، والمقتنعون بتملكهم الحقيقة الإلهية، والخائفون من التأثيرات الخارجية، والذين يعبدون النصوص المقدسة، يعطون أنفسهم الحق فى فرض معتقداتهم بالقوة والعنف.

وتبرز فى إسرائيل هذه الظاهرة جلية، ومن بين صفوف هؤلاء خرج «إيجال عامير» الذى اغتال إسحق رابين، وهم الذين يرفضون أى حل وسط مع السلطة الفلسطينية، ففى ذلك تنازل عن الأرض الموعودة!.

صحيح أن المتطرفين يظهرون فى كل جماعة بشرية، ولكن يسيطر هؤلاء على «القرار» فى اسرائيل. ويسجل «إسرائيل شاحاك» أستاذ الكيمياء العضوية بالجامعة المعبر به وأحد دعاة حقوق الإنسان فى كتابه الذى يتناول موقف اليهود من «الأغيار» أى غير اليهود قائلا : «تعرض التاريخ المعروف لحذف الحقائق اليهودية الموجعة، فالخصوصية الهيودية تنطوى على الشك والعداء لغير اليهود، وهى تجنح بطبيعتها للعزلة، ولذا تقوم الكيبوتزات وبعدها المستوطنات كمؤسسات عنصرية مغلقة. حتى أن التراث التلمودى يرى أن علاج غير اليهودى حرام حتى إذا كان مقابل أجر، وينصح بدفع الأغيار إلى البئر للتخلص منهم، ويوصى بعدم إخراج من يسقط منهم فى البئر»!!.

ويذكر شاحاك فى كتابه «التاريخ اليهودى» أن القوانين الإسرائيلية تتسم بالتفرقة العنصرية فى مجالات ثلاثة ، حق الإقامة، وحق العمل، وحق المواطنة. فيقف على قمة الهرم فى المجتمع الإسرائيلى، اليهود الغربيون (الاشكناز) ويليهم اليهود الشرقيون (السفارديم)، وفى قاعدة الهرم عرب إسرائيل.

وإذا أخذنا فى تقليب صفحات التطرف فى اسرائيل، هالنا ما نرى.. فمثلاً تمثل حركة «جوش أمونيم» الفكر الإرهابى الصهيونى، والتى تضم الآلاف فى صفوفها، وتكرس جهودها لضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وتسعى إلى إعادة بناء الهيكل، وإقامة المستعمرات، وجاء على لسان «شلومو أفنير» أن الوصايا الإلهية للشعب اليهودى اسمى من أى أفكار بشرية، فالله تكلم مع شعبه..

ويؤكد الحاخام «إليعازر فيلدمان».. لايمكن أن نستكمل عملية استرداد الأرض بأى طريقة سوى الحرب!!..



نتانياهو

شوكة فى العيون



باراك

وتلمس المغالاة فى أفدح صورها فى كتاب الحاخام كاهانا، «شوكة فى عيونكم»، أى فى عيون الصهاينة، وكتابه بحق وثيقة عنصرية فاضحة، ويرى أن إسرائيل تتجه إلى الانتحار إذا اتبعت سياسة التسامح مع العرب، وهو لا يطالب بطرد الفلسطينيين من الضفة والقطاع فحسب، بل كل الفلسطينيين الذين بقوا بعد عام ١٩٤٨، ويورد كلمة جولدا مائير.. «إننى لا أريد أن أنهض كل صباح لأسأل نفسى كم يا ترى من العرب ولدوا الليلة البارحة..» وكانت أكبر بركة حظى بها اليهود هى ذلك «الهروب» نتيجة الرعب الذى استولى عليهم، وغادروا البلاد! وهى - عنده - معجزة إلهية من الصعب على غير المتدينين إدراكها، حتى لو كان شاهد عيان، لأنه بانهزاميته يدير رأسه للمعجزات!.



شارون

فإبعاد العرب عن أرض الميعاد هو فكرة يهودية، وليس سياسية، تقوم على تعاليم التوراة.. فإسرائيل غير قابلة للإبادة، وهى فريدة ومقدسة، اختارها الرب، ونظرة التوراة لمكانة الغرباء تشكل جزءاً من نظرة شاملة بشأن جوهر الشعب اليهودى، فالعرب تدنيس لتلك الأرض المقدسة، وطردهم عمل دينى!!

فمن هو كاهانا، إنه مايكل كينج القادم من بروكلين، والذى كان عميلاً للمباحث الفيدرالية الأمريكية، والذى تحول إلى حاخام، وأخذ ينادى ببناء الهيكل ونسف المسجد

الأقصى وقبة الصخرة.

ويورد حكاية فى كتابه أنه سعى إلى هجرة العرب داخل اسرائيل، على أن يقدم لهم المساعدة اللازمة ويدعى أن قرية «الجش» فى الجليل، وافقت على الانتقال بكاملها إلى كندا، على أن يكون الانتقال إلى قرية خاصة بهم. ويعلق «موشيه إيشون» على اتفاقية أوسلو فى ذات الاتجاه بقوله.. «ذكر رابين أن العهد القديم ليس سفر تسجيل الأراضى، وبهذا الحديث يتنازل عن أرض إسرائيل، ويتنصل من القيم الأبدية لشعب إسرائيل، ويتجاهل ماجاء فى سفر التكوين .. «سأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكا أبديا»..

ويرى أن كاهانا خير معبر عن الاتجاهات الأصولية فى اسرائيل، ويرى أن مطالبة مصر بنزع الأسلحة النووية فى إسرائيل هو امتداد للنزاع التاريخى بين موسى وفرعون!.

ويجدر تسجيل ملاحظتين، هما أن التطرف اليهودى فى جانب منه قادم من الحى اليهودى فى بروكلين بنيويورك، والتى تعتبر إحدى حواضن الحركة الصهيونية، ومنها خرج كاهانا وبعده جولد شتاين، وتردد عليه «جابوتنسكى»، وهاجر منه خلال عام ١٩٩٢ ألفان من اليهود الأمريكيين للإقامة فى الخليل معظمهم من هذا الحى، ولديهم فى أمريكا معسكر للتدريب العسكرى..

فهل ثمة علاقة بين ذلك وبين ما سبق وقامت به الولايات المتحدة من تدريب المجاهدين لإرسالهم للحرب فى أفغانستان، وذلك من أجل أهداف سياسية أمريكية مسكوت عنها.

أما الملاحظة الثانية، فهذا الذى يحدث أمام الولايات المتحدة الأمريكية لم يجعلها تدرج أيا من التنظيمات الإرهابية فى اسرائيل ضمن التنظيمات الإرهابية التى تلاحقها؟! وهو سؤال ضمن العديد من الأسئلة التى تبقى بلا إجابات!

ثم ماذا بعد؟. وقد أسفرت اسرائيل عن وجهها، وتخلت الولايات المتحدة عن دورها؟ ماذا سيفعل العرب أمام الوجه القبيح لإسرائيل؟! وما هى احتمالات المستقبل؟ مع أولئك الذين يفتقدون الحكمة، ويعتمدون على غطرسة القوة؟، ويركنون إلى ترسانة نووية، ويستمدون من أساطيرهم الدافع لتدمير كل ما حولهم.

وأخيراً.. فهل ما شاهدناه بداية العنف أم نهايته؟!. ■

من دير ياسين إلى جنين

مسلسل الإرهاب الإسرائيلى

بقلم
مجدى شرشر

فى تاريخ الإرهاب العــالمى يقف النمـوذج الإسـرائيلى فـريدا بين كل نماذج وأشكال وصـور الممـارسـات الإرهابيــة، لايقف عند المستوى العقائدى بل يتجسد واقعا ضـاريا وحشيا يعيث تسلطا وبطشا وتقتيلا وترويعا فى أبشع الصور الدامـية التى تعيشها الذاكرة الإنسانية.

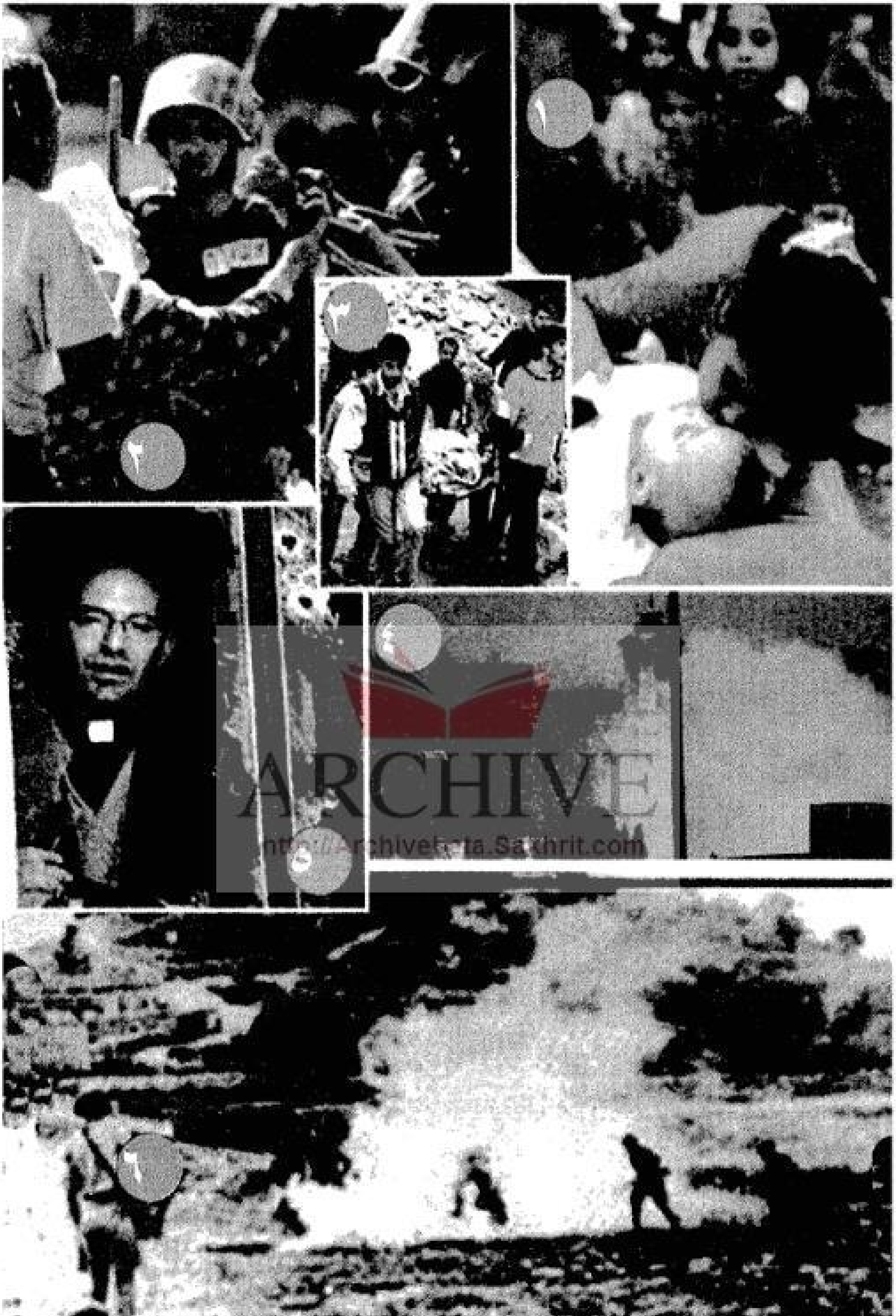
لم يتوقف الإرهاب الإسرائيلى عند حدود الماضى قبل قيام الدولة عام ١٩٤٨.

تكتفى بالإشارة هنا إلى عنف المتظاهرين اليهود ومساعدة البريطانيين لهم فى مظاهرات حائط البراق فى ٢٨ و ٢٩ أغسطس ١٩٢٩ واستشهاد ثلاث نسوة من جميلة الأشقر وعائشة أبو حسان وعزيزة سلامة.

تجسيد بشع للإرهاب

اتصل الإرهاب بعد قيام الدولة العبرية متخذا أشكالا وأبعادا ومستويات أشد

١- قبلة وداع أخيرة لإيمان حجو ذات الثلاثة أشهر شهيدة الإرهاب الإسرائيلي.
٢- حتى العجائز لم يفلتن من البطش الإسرائيلي.
٣- اخراج الجثث من تحت انقاض مخيم جنين.
٤- القصف الإسرائيلي لم يفرق بين منازل الفلسطينيين والمقدسات في القدس.
٥- أحد القساوسة يتفقد كنيسة المهد بعد الحصار الإسرائيلي والاعتداء عليه.
٦- مذبحة دير ياسين (١٩٤٨) كانت محاولة لطرد الفلسطينيين من أرضهم.



عدوانية وأشرس فتكا ودموية في تجسيد بشع لإرهاب الدولة بما تستخدمه من آلة حربية ومؤسسات وسياسات وأدوات كانت بعيدة عن متناول الأفراد والعصابات الصهيونية، لقد تجاوز إرهاب الدولة حدود دولة إسرائيل لنرى جرائمه تطال أراضي ومواطني دول أخرى، ومارس الإسرائيليون إرهابهم تحت دعاوى الكثير من المزاعم لعل أكثرها وهما أسطورة أرض الميعاد والأمن القومي وتأمين الحدود ومايضاف إليه من مبررات عقائدية.

الرعب والتخويف

وأيا كان الشكل أو المسمى أو المستوى أو الأسلوب الذى يتخذه الإرهاب الإسرائيلى فإنه لايخرج فى النهاية عن كونه لجوءا إلى العنف لإشاعة الرعب والتخويف أو التهديد به وصولا لهدف الصهيونية.

وعنصر التفرد الجديد فى الإرهاب الإسرائيلى هو تسخير بطش الآلة الحربية النظامية التى توظف أساسا للدفاع عن أى بلد ضد عدوان خارجى لقمع وكسر إرادة أبناء البلد المحتل على مثل هذا النطاق الواسع والتدمير الشامل للبنى التحتية والمؤسسات الوطنية بغية حمل هذا الشعب على التخلى عن أهدافه الوطنية والرضوخ لقوة الاحتلال فى تقرير مصيره.

العداء ضد الشعوب

ولاشك فى أن الإرهاب الإسرائيلى نابع من شعور عدوانى وعدائى تجاه الشعوب والدول الأخرى، تغذيه رغبة فى السيطرة والهيمنة والتسلط ويتمكن هذا الشعور العدائى والعدوانى من الإسرائيليين على المستوى الفردى والمؤسسى ليصبح دافعا ومحركا للمؤسسة الإسرائيلية وأهدافها، مما يجعل النظام الإسرائيلى فى حالة حركية دائمة لممارسة العدوان على الآخرين فى انتهاك صارخ لكل الأعراف والقيم والقوانين الدولية والمعاهدات والاتفاقات، تحت دعاوى ومبررات تركز على أن قضية الأمن تتقدم على ماعداها وهذا الأمن لاترسمه أو تحدده حدود موضوعية بل يتوسع نطاقه إلى خارج الحدود وإباحة الحق للنفس فى اتخاذ ضربات وقائية بدعوى حماية الأمن وكأن الأمن حكر عليهم وحدهم، ومن حقهم التمتع به وحرمان الآخرين منه. وفى سبيله لايتورعون عن استخدام أى وسيلة سواء شن الحروب أو انتهاك الحدود أو التسلل للدول الأخرى وتدبير المؤامرات والاغتيالات وكل ما من



مناحيم بيجن زعيم « الإرجون» يصافح أحد رجاله في استعراض بالقدس ١٩٤٨

شأنه تحقيق هدفهم، فالجيش متطور يحظى بقوة ضاربة تدعمه صناعات حربية متقدمة تمكنه دوما من تنفيذ أهدافه العدوانية .

تأصل الإرهاب في الفكر الصهيوني

ومع تنوع وقائع وأشكال وصور وأنماط ومستويات الممارسة الإرهابية الإسرائيلية، نرى الاستعانة ببعض المعايير التي يمكن من خلالها كشف مدى تأصل الإرهاب في الفكر الصهيوني والدولة التي تمثله .

تشريد الفلسطينيين

ظل مبدأ طرد العرب من فلسطين بالقوة فكرة أساسية ملازمة للحركة الصهيونية قبل وبعد إقامة إسرائيل عام ١٩٤٨، وكانت الشخصيات التي نادت به قبل قيام الدولة هي ذات الشخصيات التي تولت الحكم بعدها وظلت تورثه للأجيال التالية من الحكام والمسئولين بالمؤسسة الإسرائيلية جيلا بعد جيل. وتشرد ثلاثة أرباع مليون عام ١٩٤٨.

وتشرد وأبعد نحو مليون عربي بعد احتلال عام ١٩٦٧ في استمرار



عصابات الأرجون وشتيرن ذبحت ما يقرب من ٢٥٥ رجلا وامرأة وطفلا في ٩ - ١٠ أبريل ١٩٤٨ بدير ياسين

استراتيجية الترحيل الإجبارى أو القسرى (الترانسفير)، وفى سبيل تحقيق هذه الاستراتيجية انتهج الصهاينة وارتكبوا أبشع أنواع المذابح، ولم يكن من الغريب أن تدمر (٢٩٢) قرية من أصل (٤١٨) قرية صنفتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، دمرت تدميرا كاملا بنسبة (٧٠٪) ودمرت (٩٠) قرية تدميرا واسع النطاق بمعنى أن نسبة ضئيلة من المنازل ظلت باقية، حيث لم يبق سوى منزل واحد فى (٢٠) قرية، ودمر عدد قليل من المنازل فى ثمانى قرى وبقيت سبع قرى فقط لم تدمر وقد استوطنها الإسرائيليون.

المذابح هدف شرير!

ولجأ الصهاينة إلى إشاعة أجواء الرعب والخوف لدفع السكان على الرحيل، وتقدم هذه المذابح أبلغ دليل على تأصل هذا المبدأ فى العقيدة والممارسة الصهيونية تحت ذرائع وأسباب مختلفة، وجندت الحركة الصهيونية كل قواها فى الداخل والخارج وجند الزعماء الصهاينة كافة العصابات والجماعات كشتيرن والهاجاناه وأرجون، ثم أجهزة المخابرات والأمن الأخرى لارتكاب المذابح ضد القرى العربية لإجبار سكانها على الرحيل، ولا يغيب بالطبع عن الذاكرة مذبحة دير ياسين، تلك القرية المسالمة الوادعة الواقعة غرب القدس يفصل بينهما واد تغرس على مصاطبه أشجار التين واللوز والزيتون، شهدت القرية واحدة من أبشع المذابح التى وقعت بأراضى فلسطين، وفى جنح الظلام داهم القتلة القرية الوادعة. ووقعت

مذبحة القرية فى إطار عملية (نحشون) التي يصفها بنى «توريس «بأنها منعطف مهم يتميز بالعزم وببذل الجهد اللازم لتطهير منطقة كاملة تطهيرا نهائيا ودائما من القرى العربية ومن سكانها المعادين أو الذين ربما يكونون معادين» وهو الأسلوب نفسه الذى انتهج فى الهجوم الأخير على الضفة الغربية.

ونفذ المهاجمون المذبحة دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وحملوا جزءا من الأسرى وطافوا بهم فى شوارع القدس وسط تهليل اليهود، وأعيد هؤلاء بعد ذلك إلى القرية وقتلوا ليبلغ عدد الضحايا (٢٤٥) .

وهناك أيضا مذبحة الدوايمة قضاء الخليل التي أدت إلى نزوح سكانى كثيف، ووقعت المذبحة التى نفذها الجيش الإسرائيلى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨ فى إطار العملية يواف، وقتل مابين (٨٠ إلى ١٠٠) شخص فى الموجة الأولى للهجوم.

ومذابح أخرى

لم تكن دير ياسين والدوايمة الأوليين فى سجل المذابح الإسرائيلية، فهناك قرية بلدة الشيخ التى لقى فيها (٦٠) شخصا مضرعهم مساء ٣١ ديسمبر عام ١٩٤٧ بعد أن داهمتها الهاجاناه، وقرية سمع فجر ١٥ فبراير ١٩٤٨. وعلى نفس النهج جاءت مذبحة اللد والرملة لتكشف زيف التاريخ الرسمى الإسرائيلى الذى ادعى أن سكان اللد والرملة طلبوا مغادرة بيوتهم بمحض إرادتهم، والواقع يروى أن الكتيبة الثالثة بلواء يفتاح احتلت اللد فى ١١ يوليو ١٩٤٨ فى إطار خطة دانى واقتحم القرية خمسمائة جندى، بدأوا فى إطلاق النار فى الشوارع والبيوت، وباتجاه أسرى الحرب الذين حشروا فى أحد المساجد ليلقى (٢٥٠) أو أكثر حتفهم ظهر ذلك اليوم.

سياسة الترحيل

ومن أهم الأدلة على أسلوب الترحيل والإبعاد القسرى ماتؤكده مذبحة قبية فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٣ بعد استقرار الدولة، التقى وزير الدفاع بنحاس لافون وقائد الجيش موردخاى ماكليف ورئيس العمليات موشيه دايان



صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ – لبنان



جنين ٢٠٠٢ – الضفة الغربية

ورئيس الحكومة، لدراسة حادث تسلل تعرضت له مستوطنة (ياهود) وقرروا الرد بالهجوم على قرية قبية، وصدر الأمر لهيئة العمليات ومن ثم إلى قيادة الجبهة الوسطى ثم إلى الوحدة (١٠١) بقيادة الرائد حينذاك أريل شارون، مع كتيبة المظلات (٨٩٠)، وكان الأمر العسكرى ينص على تدمير كل بيوت القرية وقتل أكبر عدد من السكان بهدف القضاء عليها نهائيا وترحيل مايتبقى، وفى ليلة ١٤/١٥ أكتوبر توجهت القوات الإسرائيلية لتنفيذ المهمة وللتمويه أطلقت النار باتجاه قريتى (شقيا) و(العلين) واقتحم المهاجمون المنازل من بيت إلى بيت ودمروا كل بيت دخلوه وكان القتل نصيب كل من حاول الخروج، ونسف المظليون (٤٥) منزلا وبلغت حصيلة القتلى (٦٠) فردا من النساء والأطفال فى معظمهم، ويقول شارون إن جنوده كانوا يدخلون كل بيت ليتأكدوا من وجود أحياء فى داخله، فإذا وجدوهم أجهزوا عليهم ثم قاموا بنسف البيت». وهى ذات الأساليب التى استخدمها جنود شارون فى مذبحة جنين ٢٠٠٢، هجوم من بيت إلى بيت واستخدام المدنيين كرهائن فى اقتحام البيوت، لم تتغير العقلية أو الأسلوب أو الهدف، كل ما تغير هو السلاح المستخدم ليصبح فى جنين دبابات الميركافا وطائرات الأباتشى والكوبرا الأمريكية ومقاتلات اف ١٦.

يونس (٢٥٠) شهيدا مرورا بمذبحة الأسرى المصريين على يد شارون، فصابرا وشاتيلا على يد خبير القتل والتذبيح شارون طبعة عام ١٩٨٢، ومذبحة القدس أكتوبر عام ١٩٩٠ (٢١) شهيدا، و (١٥٠) مصابا ومذبحة الحرم الإبراهيمى فجر ٢٥ فبراير ١٩٩٤ (٥٠) شهيدا ومذبحة قانا ١٩٩٦ (١٦٠) شهيدا لبنانيا، والقائمة طويلة .

سياسة الاغتيالات

فى أكتوبر عام ١٩٣٩ شكل ابراهاما شتيرن عصابة شتيرن من المنشقين على عصابة أرجون وعاودت العصابتان الاتحاد فى يناير ١٩٤٤ توطئة لعدد من العمليات القذرة، كان أهمها اغتيال شتيرن للورد والتر موين وزير الدولة البريطانى المقيم بالقاهرة فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ وبعدها بعامين فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦، تقوم العصابتان بتفجير فندق الملك داوود فى القدس والحصيلة (٩١) قتيلا من البريطانيين والفلسطينيين واليهود نتيجة نسف الجناح المخصص للحكومة البريطانية فى الفندق، وهناك الحادث الشهير المعروف بفضيحة لافون حين دبر الصهاينة لتدمير مكاتب الاستعلامات الأمريكية بالقاهرة، وتفجير عدد من المنشآت للنيل من علاقات مصر مع الغرب وأرسلت مجموعة جواسيس وإرهابيين، وألقى القبض عليهم مما أدى إلى استقالة وزير الدفاع بنحاس لافون فى ٢٧ فبراير ١٩٥٥ .

نتيجة فشل العملية

ومن أخطر الأساليب التى مارسها الإرهاب الصهيونى تدمير (١٣) طائرة مدنية بمطار بيروت فى ١٩٦٨/١٢/٢٨، وقتل أكثر من خمسين وإصابة أكثر من (٧٥)، وفى ١٤ فبراير ١٩٨٦ انقضت مقاتلتان اسرائيليتان على طائرة ليبية كانت فى طريقها من طرابلس إلى دمشق على ارتفاع (٣٠) ألف قدم وكانت على وشك الدخول إلى الأجواء السورية، وعلى متنها وفود عائدة من مؤتمر للفصائل الفلسطينية فى ليبيا، وأجبرتها على الهبوط شمال اسرائيل. وقبلها فى أكتوبر ١٩٨٥ كانت عملية تدمير مقر منظمة التحرير فى تونس ، أما قائمة الاغتيالات فطويلة نكتفى منها باغتيال وائل زعيتر فى روما ١٩٧٢ وكمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف فى



هكذا كان القتل الجماعي في جنين ونابلس - ٢٠٠٢

بيروت ٩ أبريل ١٩٧٣ وعلى حسن سلامة في ١٩٧٩ وأبو جهاد وعصام سرطاوي وانتهاء باغتيال قيادات الانتفاضة الحالية وابرزهم أبو على مصطفى أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

ويضاف إلى هذا المحاولات العديدة لاغتيال العلماء الألمان العاملين في مصر واغتيال علماء الذرة العرب، ولاننسى إقدام الكيان الصهيوني على احتجاز أطفال أسر أردنية كرهائن خلال حرب ١٩٦٧ للضغط للإفراج عن الأسرى.

سياسة الاستيطان

يعتبر الاستيطان من أبشع أشكال الممارسات الإرهابية التى تمارسها السلطات الإسرائيلية، وهو يشكل جريمة دولية تتناقض مع جميع المواثيق والقوانين الدولية، ذلك لأنه يقوم على اقتلاع السكان الأصليين وتهجيرهم وإبعادهم لإفساح المكان لاستيعاب المهاجرين اليهود وباتت المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية تحتل الأداة الرئيسية لتقطيع أوصال التواصل الجغرافي للإقليم الفلسطيني، وبهذا فهي وسيلة الكيان الصهيوني

لإخضاع والسيطرة على الكانتونات الفلسطينية التي يتصور قادة الكيان الصهيوني إقامتها للفلسطينيين ويتجاوز عدد المستوطنين المستعمرين الآن ٣٨٠ ألف مستوطن يهودي في مستوطنات الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، ويسيطر هؤلاء المستوطنون على ما نسبته ٤١٫٩ من الضفة الغربية ويشكلون مفرخة للتعصب ووقودا للهجمات التي تتعرض لها المدن والقرى والطرق الفلسطينية، ولم يكن من المستغرب أن يشدد تقرير لجنة ميتشل على ضرورة تجميد النشاط الاستيطاني باعتباره أحد أهم أسباب تغذية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

وفي تعليقه على المذابح الإسرائيلية ينتقد بني نوريس أحد المؤرخين الجدد الصحافة الإسرائيلية معتبرا أنها فشلت فشلا ذريعا في أداء واجبها بالشكل الذي يجب أن تؤديه الصحافة الديمقراطية بتقديم المعلومة الصحيحة للقارئ، ويرى أن الصحافة الإسرائيلية ظهرت وكأنها مجهزة لخدمة الحكومة والجيش الإسرائيليين وتبرير أفعالهما أيا ما كانت.

ظاهرة المؤرخين الجدد

وحين ظهرت ظاهرة المؤرخين الجدد في اسرائيل في منتصف ثمانينيات القرن الماضي أرجعوا ظاهرتهم إلى إلغاء الحكومة الإسرائيلية للحظر المفروض على الوثائق الرسمية التي مر عليها ثلاثون عاما، مما مكنهم من التعرف على كثير من الحقائق الخافية والآن حدثت مذبحة جنين على مرأى ومسمع من العالم ووسائل إعلامه وتليفزيوناته، ونقلت المشاهد المذبحة حية على الهواء ولم يعد هناك مجال للقول بأن هناك وثائق أو حقائق خافية، ولم نسمع أو نقرأ - باستثناء بعض المقالات التي تصدر على استحياء - آراء هؤلاء المؤرخين الذين تابعوها كما تابعها العالم على شاشات التليفزيون، فهل تفاجأ بهم يختلفون كما اختلفوا حول المذابح الأولى في تحميل حكومتهم المسئولية الأخلاقية والسياسية والقانونية عن مذبحة جنين؟ أم أننا سنفاجأ منهم بمن يدعي أن مذبحة جنين لم تكن سوى مجرد تجاوزات وليست سياسة متعمدة ومدبرة لبث الرعب وكسر إرادة شعب خاضع للاحتلال. ■

فى أصول الإرهاب الصهيونى بين النسبى والتاريخى

بقلم
د. عاصم الدسوقى

لأن زعماء الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بال ١٨٩٧ كانوا يدركون تماما أن إقامة وطن ليهود العالم فى أى بقعة من بقاع الأرض المعمورة أمر لا يمكن أن يتحقق ببساطة ويسر وسهولة فقد آمنوا منذ البداية بأن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بالعنف، والعنف وحده، ولا شئ غيره (فى المعجم الوسيط: العنف ضد الرفق) كما آمنوا بأن استخدام العنف أمر مشروع فى سبيل الغاية، وهاجموا كل من وصف وسائلهم بالعمل اللاأخلاقى، وأنكروا على غيرهم أن يتخذوا من العنف سبيلا للدفاع عن حياتهم ومصيرهم، وهكذا تنتحر المعانى عندما تختل المعايير، وعندما تنتزع النصوص انتزاعا خارج السياق لتصبح أداة للخداع والتمويه والتخدير.



تيودور هرتزل



فلاديمير يابوتنسكي



كان تيودور هرتزل الأب الروحي للحركة الصهيونية أول من برر استخدام العنف سبيلا للحركة، ففي كتابه «دولة اليهود» (١٨٩٦) دعا إلى حمل السلاح لمواجهة المشكلات التي سوف تثيرها محاولة إقامة الوطن، وحاييم وايزمان اعتنق مبدأ العنف والإرهاب، وبن جوريون أول رئيس «لحكومة» إسرائيل يقول: «إن إسرائيل لا تستطيع العيش إلا بقوة السلاح. أما فلاديمير يابوتنسكي (يكتبه البعض جابوتنسكي وهو خطأ شائع) فيلسوف ممارسة العنف والإرهاب ضد الفلسطينيين فقد رسم برنامجه في تحقيق الهدف على أساس اعتناق العنف بشكل مطلق وشحن شباب اليهود بروح القتال.

وعندما تسلم مناحم بيجين تلميذ يابوتنسكي راية الإرهاب نراه يتفوق على أستاذه وعلى من سبقوه إذ يقول «أنا أحارب إذن فأنا موجود، وإن العنف والقوة صنوان للحركة الصهيونية.. والعدوان مسألة جوهرية وليست عارضة «حتى لقد قال بن جوريون» عندما اسمع بيجين يتحدث يخيل إلى أنني استمع إلى هتلر أو موسوليني ثم ينتهي بيجين إلى القول بأنه لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا في «أرض» إسرائيل، ولن يكون سلام للعرب أيضاً مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله حتى ولو وقعنا مع العرب معاهدة صلح وهذا الاعتراف الذي أورده بيجين في كتابه «التمرد» (نشر في ١٩٥١) وحكى فيه دوره ودور منظمته الأرجون في إقامة دولة إسرائيل يؤكد أن نزعة التوسع بالعنف والإرهاب والترويع لا يمكن أن تزول بإقامة الدولة، بل إن إقامة إسرائيل في ١٩٤٨ يعد في نظره مقدمة لابتلاع الأراضي العربية

تحقيقا لشعار من النيل إلى الفرات.

وعلى هذا تبلورت سياسة العنف ليس فقط لتحقيق الدولة ولكن «لتأمينها»!!.. ويدل مصطلح أمن إسرائيل وحدودها الآمنة الذى يتردد فى السياسة الإسرائيلية منذ ١٩٤٨ دلالة واضحة على أن دولتهم تم غرسها قسرا فى تربة غير مواتية، ووسط محيط يجافيها تاريخيا وجغرافيا، وليس من المعروف على وجه الدقة واليقين حتى الآن ماذا تعنى الحدود الآمنة لإسرائيل؟.

أما أصول هذه السياسة فقد تمت صياغتها على يد منظمة الأرجون زفاى ليومى (ومعناها المنظمة العسكرية القومية) وخاصة تحت رئاسة مناحم بيجين، وشعارها : إسرائيل الكبرى مكتوب على خريطة من النيل إلى الفرات تجثم فوقها بندقية وتحتها كلمة «راك كاخ» أى «هكذا فقط والحاصل أن بيجين نشأ فى حضن الإرهاب وتربى فى حضانته إذ انضم فى عام ١٩٢٩ وهو في بولندا وعمره ستة عشر عاما إلى منظمة «بيتار» (شباب اليهود) التى تقوم على استقطاب العناصر شديدة التطرف فى صهيونيتها، ثم تسلل إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية (يونيه ١٩٤٢) هاربا من معتقله في سيبيريا إلى إيران فالعراق فشرق الأردن حيث التحق فورا بمنظمة الأرجون.

وآنذاك كانت فلسطين تحت حكم الانتداب البريطاني منذ ١٩٢٢ وكانت الوكالة اليهودية التي ترعى شئون الحركة الصهيونية فى فلسطين قد أسست «الهاجاناه» أداة عسكرية للمشروع لكن العناصر الأكثر تطرفا فى الصهيونية لم تكن تعتقد فى أهلية الهاجاناه للإسراع بتحقيق المشروع، ومن ثم كانت منظمة الأرجون (١٩٣٧) برئاسة ديفيد رتزل ثم عصابة «شتيرن» نسبة إلى مؤسسها إبراهام شتيرن (ومعناها : جماعة المحاربين من أجل حرية إسرائيل).

وقد تولت الأرجون تحت رئاسة بيجين مهمة التعجيل بتحقيق الدولة رغم أنف حكومة الانتداب. ولهذا نرى هذه المنظمة تعتبر أن الانتداب البريطانى «حكومة احتلال لأرض إسرائيل» وتصف عرب فلسطين بالغزاة وترى أن الحل المثالى للمشكلة يتلخص فى «تفريغ الأرض من هاتين القوتين» : البريطانيين والعرب باستخدام العنف الذى هو فى هذه الحالة «تمرد مشروع لتحرير الوطن»!.

وعلى هذا بدأت الأرجون منذ ١٩٤٤ سلسلة متصلة من الهجوم العنيف

على مراكز سلطة حكومة الانتداب البريطاني وتخريب الأماكن وتسويتها بالأرض لإجبار الانجليز على ترك البلاد، وفي هذا يقول بيجين «كانت أغلب هجماتنا ناجحة» .. وعندما كان الضباط الانجليز يقومون بجلد أحد أعضاء الأرجون تقوم المنظمة بجلد ضباط إنجليز قصاصا، وفي حالة إصدار أحكام بالإعدام علي يهود تقوم المنظمة بشنق إنجليز في المقابل.. وهكذا. كذلك قامت المنظمة بتدمير الجسور

اللورد موين



اللورد ولتر موين وزير الدولة البريطاني لشئون الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية وهو المنصب الذي ابتكره تشرشل لدراسة كل المقترحات الخاصة بالشرق الأوسط ومتابعتها، وكان موين قد اقترح لمواجهة الجماعات الصهيونية في فلسطين التي كانت تسعى في تلك الفترة لإجبار الإدارة البريطانية (حكومة الانتداب) لترك فلسطين حتى يستأثر اليهود بها ومن هنا اقترح موين استقدام لجان لها طابع دولي بريطاني في الأساس لمواجهة هذه المحاولات الصهيونية المبكرة. وكان قد وافق على اقتراحات التقسيم المقدمة من هذه اللجان ..

ولما كانت الحركة الصهيونية ترفض التقسيم وتريد الاستئثار بكل فلسطين والحلول محل حكومة الانتداب فقد قد قرروا التخلص من هذا الوزير

ومن هنا بعثت عصابة (شتيرن) نسبة إلى ابراهام شتيرن مؤسسها باثنين من أعضائها قتلاه في القاهرة وهو في سيارته في الزمالك، حيث مقر إقامته .

والقاتلان هما الياهو حكيم والياهو بتسوري،

وقد وجه اللورد كيلرن السفير البريطاني في مصر في ذلك الوقت (نوفمبر ١٩٤٤) اللوم إلى حكومة أحمد ماهر في مصر لأنها لم توفر الحراسة المناسبة .

وردت الحكومة بأن اللورد هو الذي كان قد طلب رفع الحراسة .



حاييم وايزمان



ديفيد بن جوريون



مناحم بيجن

والكبارى والبيوت والسطو على البنوك ونسف السيارات وذبح الأطفال العرب والنساء وبقر بطون الحوامل.

وعندما قامت الأرجون بنسف فندق الملك داود بالقدس (يوليو ١٩٤٦) وراح ضحيته مائتا شخص أغلبهم إنجليز واستنكرت الهاجاناه هذا العمل فى بيان لها، نجد بيجين يصف هذا البيان بأنه «باطل» وأن «الحق» ما يقوله هو وما تفعله جماعته!! وأكثر من هذا نراه يلجأ للتاريخ لتشجيع عصبته على ارتكاب أعمال الفساد فى الأرض فيقول لهم: «لقد كان هناك فى الامبراطورية النمساوية القديمة وسام خاص يمنح لأعمال البطولة التى يمارسها الجنود بالمخالفة لأصول الضبط والربط والانتظام العسكرى» ويستخدم الدين لتسويغ العدوان ففى تبريره لارتكاب مجزرة دير ياسين (ابريل ١٩٤٨) ينتزع نصا فى سفر الخروج من سياقه يقول: إننى أدفع إلى يديك سكان الأرض فتطردهم من أمامك ولا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا ولا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ»..

وعندما وصفت الإدارة البريطانية فى فلسطين مناحم بيجين بأنه «الإرهابى رقم واحد» فى البلاد وأن جماعته عبارة عن عصبة من السفاحين والقتلة، قال بيجين: إن ما يقوم به ليس من الإرهاب فى شئ.. ثم يقول: إن أعداءنا هم الذين يطلقون علينا اسم «الإرهابيين». إلا أننا غير كذلك لأن الأصول التاريخية واللغوية لمصطلح الإرهاب terrorism تجعله لا ينطبق على حرب ثورية للتحرر كالتى يقوم بها وأكثر من هذا فإن بيجين يشرح

المصطلح قائلاً : إنه قد يتولد عن الثورة ما نسميه إرهابا كما حدث فى الثورة الفرنسية، وأحيانا يكون الإرهاب نذيرا بالثورة كما حدث فى روسيا .. لكن الثورة في حد ذاتها ليست إرهابا، ومن هذا التصوير المصطلح ينطلق إلى القول بأن ما قامت به الأرجون في مقاومة حكومة الانتداب إنما هو عمل للقضاء على الإرهاب «وبهذا كنا أعداء الإهابيين».

وبنفس هذه المقاييس التى اصطنعها بيجين لتبرير أعمال العنف والإرهاب والترويع فى سبيل الهدف، أليس فى قيام الفلسطينيين بالدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم ووطنهم بعمليات التفجير والاستشهاد ما يعد ثورة تحررية وليس إرهابا؟.. لماذا إذن تنكر إسرائيل اليوم على حزب الله وشهداء الأقصى وكتائب عزالدين القسام أن يتحصنوا وراء شعار «الجهاد» ... ألم يستخدم بيجين من قبل نصوص التوراة لإضفاء الشرعية على تصرفاته؟!. ألم ينزعج بيجين فى سابق الأيام من عدم مبالاة العالم لما كان يفعله هتلر بيهود أوربا .. أليس هو القائل بأن اللامبالاة عدوة للإنسانية لأن هتلر عندما اطمأن لعدم مبالاة العالم بدأ ينشب أظافره فى اليهود؟ فلماذا ينزعج يهود إسرائيل اليوم عندما يبالى العالم بما يحدث فى فلسطين من تقتيل وتشريد وتدمير وإبعاد خارج الديار؟!.

لقد حاول بن جوريون إدماج منظمة الأرجون فى جيش إسرائيل لكن بيجين ظل يرفض دوما وبعد إقامة إسرائيل غصبا كما هو معروف فى مايو ١٩٤٨ بادر بيجين بتكوين حزب سياسى باسم «حيروت» رافعا نفس شعار الأرجون ومعلنا أن هدفه استكمال اغتصاب الأرض العربية المتاخمة، وتجمعت حوله كل عناصر التطرف والتشدد والتعصب والكراهية منذ ١٩٤٩ ولما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ كان من رأيه «الاحتفاظ بالأرض التى تم الاستيلاء عليها لتكون منطلقاً لفرض الاستسلام على العرب وعندما اعتدت إسرائيل على العرب فى يونية ١٩٦٧ قال بيجين: «إن الهجوم لا يعتبر عدوانا وإنما هو دفاع عن النفس». وفى المؤتمر التاسع للحزب (مايو ١٩٦٨) قال بيجين إن على إسرائيل أن تفرض سيادتها على جميع الأراضى العربية التى احتلتها واصفا إياها بأنها «أراض تم تحريرها من حكم الأجانب غير الشرعى فى كل من الضفة الغربية والجولان وغزة وسيناء».

ومن باب توسيع دائرة مؤيديه وتوحيد كلمة العدوان قام بيجين بإنشاء تكتل «الليكود» (سبتمبر ١٩٧٣) من مجموعة المتطرفين العدوانيين (حيروت



أسرائيليون يسلبون منازل الفلسطينيين قبيل نكبة ١٩٤٨

/ الأحرار/ المركز الحر/ إسرائيل واحدة) ويتلخص برنامجه فى استمرار احتلال الأرض العربية وتثبيته قانونا، واستمرار الهجوم العسكرى على دول المواجهة العرب، وتوسيع نطاق الاستيطان.

ولما تمكنت القوات المصرية من تحطيم خط بارليف فى أكتوبر ١٩٧٣ وإيقاع الهزيمة بجيش إسرائيل «الذى لا يهزم» أصبحت الفرصة مواتية لكى يحكم المتطرفون، ولهذا أتت انتخابات مايو ١٩٧٧ بمناحيم بيجين زعيم الليكود إلى الحكم. ومنذ ذلك التاريخ والجماعة المتطرفة تحكم إسرائيل وتسمى نفسها بالجماعة الوطنية، وتمارس العنف والوحشية ضد الفلسطينيين وتصفهم بالإرهابيين، وتنكر على الفلسطينيين حقهم فى مقاومة العنف بعنف مضاد، ويتحكمون فى المنظمات الدولية حتى فقدت حيادها ومصداقيتها، ويدفعون العالم إلى عدم المبالاة بالشأن الفلسطينى ويفخرون بشعاراتهم العدوانية التى تحض على العنف والكراهية التى أقاموا دولتهم على أساسها، وينحتون ألفاظا تدارى سوءاتهم أمام البشرية. أما نحن العرب فى مناخ اليأس وتحت حكم اليائسين المستضعفين نسخر من شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ونعمل على إقناع أنفسنا بأن القوة لا تعنى القتال وإنما تعنى أشياء أخرى.. وحتى هذه الأشياء الأخرى لا نقوى على استخدامها؟! ■

قتل السياسيين والعلماء

سجل الاغتيالات الإسرائيلية

● حفل سجل إسرائيل بسلسلة من عمليات الاغتيالات التى نفذها جهاز الموساد الإسرائيلى ضد قيادات فلسطينية وعلماء ومفكرين عربا منهم :

● غسان كنفانى (بيروت ١٩٧٢/٧/٨) .

– وائل عادل زعيتر (فى روما ١٩٧٢/١٠/١٦) .

● محمد يوسف النجار – كمال ناصر – كمال عدوان (فى بيروت ١٩٧٣/٤/١) .

– د. محمود الهمشرى (فى باريس ١٩٧٣/١/٨) .

– د. يحيى المشد عالم الذرة المصرى (فى باريس ١٩٨٠) .

– عصام سرطاوى عضو المجلس الوطنى الفلسطينى (فى لشبونة ١٩٨٣/٤/١)

– عالم الذرة نبيل أحمد فليفل (فى فلسطين ١٩٨٤/٤/٢٨) .

– د. إسماعيل راجى الفاروقى وزوجته (فى أمريكا ١٩٨٦/٥/٢٧) .

– العميد منذر أبو غزالة قائد البحرية الفلسطينية (فى أثينا ١٩٨٦/١٠/٢١) .

– اغتيال أبو جهاد (خليل الوزير) (في تونس) .

– اغتيال أبو علي مصطفي قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (٢٠٠٢)



غسان كنفاني



كمال عدوان



د. محمود الهمشرى



عصام سرطاوى



ابو على مصطفى

برنادوت

الوسيط الدولي الذى اغتاله الارهاب الصهيونى

بقلم
د. رشاد عبد الله الشامى

ليس غريبا رفض إسرائيل لجنة تقصى الحقائق التى قررها مجلس الامن وانصياع المنظمة الدولية لذلك.

فقد سبق لها ان تجاهلت تقرير الأمم المتحدة الخاص بمذبحة «قانا»..

والأدهى من ذلك اغتيالها للوسيط الدولى الكونت فولك برنادوت.

وكان أول الوسطاء بعد إقامة دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨، وقد ساهم فى موافقة الأطراف على الهدنة خلال المعارك فى يونيو ١٩٤٨. ولكن هذه الهدنة اقتصرت منذ البداية على أربعة أسابيع، وفشل برنادوت فى محاولته لإطالتها، وكان فشله الكبير هذا، سببه عدم قدرته على تحقيق الهدف الذى أرسل من أجله، أى التعجيل بتسوية بالطرق السلمية للموقف فى فلسطين.

رئيس قسم اللغة العبرية - جامعة عين شمس



برنادوت ساهم في موافقة الأطراف على الهدنة في يونيو ١٩٤٨

ومنذ البداية، لم يكن «برنادوت» يتمتع بالصفات التى تساعده فى التأثير على مواقف الاطراف. إن مكانته المحترمة فى السويد كابن من أبناء الأسرة المالكة وكرئيس للصليب الأحمر «السويدى»، والشهرة التى حظى بها فى نشاطه الإنسانى الخيرى خلال الحرب العالمية الثانية وافتراض ان حكومة السويد مهتمة بنجاحه، لم تكن تنطوى على ما يمنحه القدرة على المساومة فى العلاقات الدولية. وفى الحقيقة، فإنه عمل كوسيط من قبل الأمم المتحدة ، ولكن انعدام فعالية الأمم المتحدة لدى معالجتها لقضية فلسطين منذ ان اتخذ قرار التقسيم فى ١٩٤٧/١١/٢٩ ، قد عكس القيود التى تحكم تأثير المنظمة الدولية. وقد ساعدت كذلك شخصيته الكتومة وعدم خبرته بموضوع النزاع العربى – الإسرائيلى وبالظروف السائدة فى الشرق الأوسط ، على التقليل من قدرته على التأثير.

عدم احترام القرارات!

ويبدو، على ضوء المذكور عاليا، أن نجاحه بالذات فى تحقيق اتفاق

الاطراف على الهدنة الأولى فى حاجة الى توضيح. ان نجاحه هذا يجب أن ينسب اساسا إلى الظروف وإلى توقيت عمله. فبعد عدم احترام قرارات مجلس الأمن الثلاثة التى تدعو الاطراف الى وقف اطلاق النار. دعا مجلس الأمن الاطراف مرة اخرى فى ١٩٤٨/٥/٢٩ إلى وقف اطلاق النار . وفى اعقاب هذا القرار بدأ برنادوت اتصالاته مع الاطراف بهدف دفعهم لاحترام القرار. وقد بدأت اتصالاته بعد أن تم صد تقدم الجيوش العربية، واهتزاز ثقة الدول العربية في الانتصار السريع. وفى هذه المرحلة بدأ الارهاق من المعارك يؤتى ثماره لدى الطرفين وانتظر كل منهما ان يستفيد عسكريا من الهدنة: الجيوش العربية - من اجل اعادة التنظيم، وإسرائيل - من أجل البناء، والدعم البشرى، والتزويد العسكرى.. والتدريب للجيش الجديد الذى بدأت فى اقامته فى تلك الأيام، وكان توقيت العمل ملائما.

وبالرغم من هذا فإننا يجب ألا نلغى تماما قدرة التأثير الخاصة بالأمم المتحدة ومندوبها فى تلك الأيام. وقد نبعت قدرة التأثير هذه من عدم رغبة الاطراف فى الظهور كنا قضين لقرار الأمم المتحدة . حتى الدول العربية ، التى كانت علاقتها بالأمم المتحدة سلبية، لم تهتم بمواصلة الظهور كمتحدية للأمم المتحدة، من ناحية، ومن ناحية أخرى ، فقد نبعت قدرة تأثير الأمم المتحدة من الأمل الذى تعلق به الطرفان: لقد أملت إسرائيل فى أن تستطيع الاستعانة بالأمم المتحدة وقراراتها من اجل تدعيم وجودها الشرعى وكبح جماح الدول العربية بمعارضتهم لقيامها. وفى مقابل هذا فقد جاءت توقعات الدول العربية من التفسيرات التى اعطاها «برنادوت».. لكتاب تكليفه بمهمته ولقرار مجلس الأمن بشأن الهدنة، لقد قال برنادوت، ان مهمته ليست خاضعه لقرار التقسيم، وحدد فى التفسير الذى قدمه لقرار مجلس الأمن عن الهدنة، أن لديه صلاحية تقيد دخول المهاجرين للدولة اليهودية. وقد كان فى هذا التفسير ما يجعل الدول العربية تأمل فى أنها سوف تنجح عن طريق التعاون معه فى تحويله الى صفهم واحباط انشاء الدول اليهودية.

وفى النهاية يجدر أن نذكر، ان الموضوع نفسه - وهو مسألة ما اذا كان لابد من الإذعان لقرار مجلس الأمن بالهدنة لمدة محدودة



وضع الارهاب الصهيوني نهاية لمشروع "فولك برنادوت" باغتياله - ١٩٤٨

لفترة اربعة اسابيع - لم يثر خلافا مبدئيا، وكان من الممكن اعتباره محدودا في ابعاده.

أسباب فشل برنادوت

إن فشل «برنادوت» في مد فترة الهدنة قد نبع من رفض العرب الاستجابة لطلبه ولطلب مجلس الامن «اعلنت اسرائيل استجابتها المشروطة باستجابة الطرف الآخر» وقد ساهمت عدة عوامل في الرفض العربي من بينها الخوف من ان تستمر الهدنة لفترة غير محدودة. وقد بدا هذا الامر بالطبع في نظر العرب باعتباره يساهم في تجميد الموقف الذى حدث، حينما اصبح جزءا من فلسطين تحت سيطرة دولة اسرائيل.

ثانيا، كان التوقيت يفتقد الى الظروف الضاغطة، فالجيوش العربية ازدادت قوة وانتظر زعماء العرب بتفاؤل مع انتهاء الهدنة استئناف المعارك العسكرية. ويكمن السبب الثالث وراء فشل برنادوت في خطأ فادح ارتكبه برنادوت حينما اعتقد انه يستطيع ان يدفع الدول العربية الى مد الهدنة، اذا ما قدم اليها اقتراحات للبحث من أجل حل النزاع وقد اعدت هذه الاقتراحات التى قدمت فى يوم ١٩٤٨/٦/٢٧ حسبما

يبدو بما يرضى الدول العربية، وبحيث يستشف منها الغاء استقلال اسرائيل. واستنادا لهذا الاقتراح المقدم من «برنادوت» كان من المفروض ان تقوم فى فلسطين دولة جديدة مكونة من «وحدة» بين القطاع العربى والقطاع اليهودى. وكان خطأ «برنادوت» الفادح انه اقترح ان تضم الاجزاء العربية من فلسطين لمملكة شرق الاردن، وهكذا تجمع ضد اقتراحاته ، وضد مد الهدنة التى ربطها، «باقتراحات البحث» التى طرحها، كل من مصر وسائر خصوم الملك عبدالله، الذين لم يرغبوا فى مد الهدنة من اجل بحث احتمال ان تخرج شرق الاردن الرابحة الوحيدة منها.

وفى النهاية فإن فشل «برنادوت» فى مد الهدنة قد نبع كذلك من انه لم يحصل، ولم يحاول ايضا ان يحصل على سند دولى لخطواته. ويبدو ان «برنادوت» لم يسع فى هذه المرحلة الى ان يضع فى الصورة سكرتير الامم المتحدة والدول العظمى الرئيسية، ويبدو بشكل عام انه لم يفهم مدى اهمية ان تكون اعماله منسقة على المستوى الدولى.

وفى نهاية الامر أصبحت هناك هدنة جديدة سارية المفعول، وكان لبرنادوت فيها نصيب صغير فقط - اذا كان هناك دور له على وجه العموم- فى التوصل الى الحصول على استجابة الاطراف. فبينما كانت اسرائيل مستعدة لقبول الهدنة منذ البداية، فإن العرب استجابوا فقط بعد ان منوا بهزائم عسكرية وبعد ان هدد مجلس الامن بفرض عقوبات. وقد كان التهديد بالعقوبات بالنسبة للحكومات العربية بمثابة مخرج محترم للتخلص من الموقف الذى تورطوا فيه. وبعد عدم تحقيق توقعاتهم فى تحقيق انتصار سريع ضد اليهود، وبعد الهزائم العسكرية التى منوا بها شكل التهديد بالعقوبات ذريعة اتاحت للحكومات العربية تبرير قبول الهدنة بالنسبة لحلفائهم، وبالنسبة للرأى العام الهائج فى بلادهم وقد كانت الحكومات بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية على علم بحاجة الدول العربية لذريعة من هذا النوع ، وقد ساهمت هذه المعرفة ، حسبما يبدو، فى صياغة قرار مجلس الامن.

يتضح مما قيل سابقا اسباب فشل جهود «برنادوت» من اجل التعجيل بتسوية سلمية لمشكلة فلسطين. اولا، لقد نبع الفشل من ثقل

المهمة – وهى التسوية الشاملة للنزاع، ان تحقيق هدف واسع الى هذا الحد، يمس المواقف الأساسية لأطراف النزاع، كان متجاوزا لمقدرة برنادوت. والذى يثير الاهتمام هو ان برنادوت لم يكن منتبها لهذا. ان السذاجة ونقص المعلومات لديه عن المواقف والحساسيات الخاصة بالأطراف وعن قدرتهم العسكرية والدبلوماسية قد جعله يطرح فى

شعر

محمود درويش

هكذا قالت امرأة لابنها فى جنازته

قالت امرأة للسحابة : غطى حبيبى
فإن ثيابى مبللة بدمه !

□□

إذا لم تكن مطراً ياحبيبى
فكن شجراً
مشبعا بالخصوبة .. كن شجرا
وإن لم تكن شجراً يا حبيبى
فكن حجراً
مشبعا بالرطوبة .. كن حجراً
وإن لم تكن حجراً ياحبيبى
فكن قمراً
فى منام الحبيبة ... كن قمرا
(هكذا قالت امرأة
لابنها فى جنازته)
(إلى الليل) مهما ادعيت المساواة
«كلك للكل » ... للحالمين وحراس
أحلامهم ، فلنا قمر ناقص ، ودم
لايغير لون قميصك ياليل ...

□

نعزى أبا بابنه : «كرم الله وجه الشهيد»،
وبعد قليل ، نهنئة بوليد جديد .

□



ياسر عرفات بعد نجاته من محاولة اغتياله بعد ضرب مقر منظمة التحرير في تونس ١٩٨٥

اقتراحات البحث التى قدمها فى ١٩٤٨/٦/٢٧ اقتراحات لم تغضب جزءا محترما من المعسكر العربي فحسب حسبما رأينا من قبل، بل اثارت عليه اليهود كذلك. وبعد هذه الاقتراحات. التى استشف منها الغاء استقلال اسرائيل والتى بموجبها كان من المفروض ان تكون القدس كلها خاضعة للسيطرة العربية وليس السيطرة الدولية وفق قرار هيئة الامم المتحدة فى ١٩٤٧/١١/٢٩ اصبحت إسرائيل نزاعة الى الشك ومتصلبة فى اتصالاتها معه . تتضح سذاجة برنادوت وعدم اهليتـه، فى انه لم يحاول فى هذه المرحلة تجنيد المجتمع الدولى لاقتراحاته.

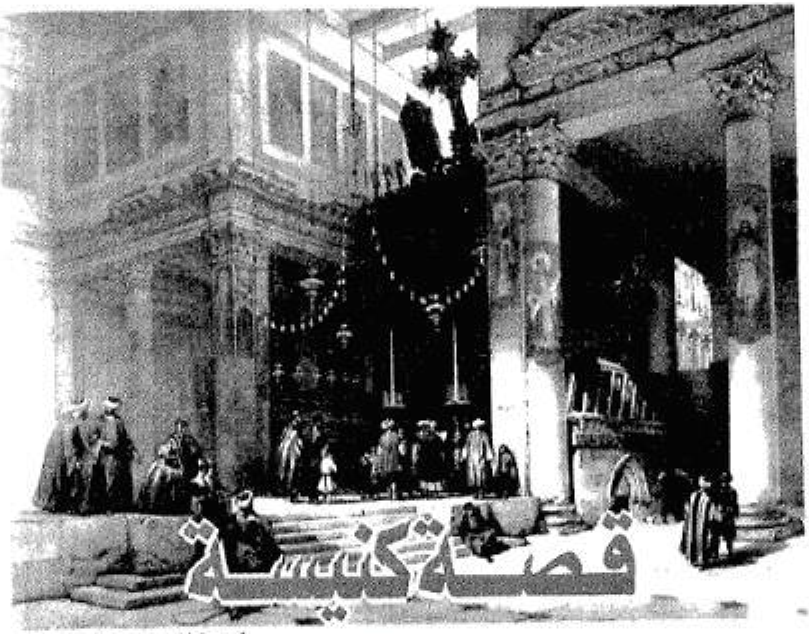
ويقال لصالح برنادوت. انه حاول ان يستفيد دروسا من فشله هذا فى حاجة الى فرض حل على الاطراف . وفى مشروعه الجديد لا يتضح وجود جهد من اجل كسب ود الاطراف (او اى منهما) ولكن موافقة الدول العظمى، والمجتمع الدولى. ولم يقدم هذا المشروع هو الاخر الى الاطراف، بل قدم الى الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد فهم برنادوت الآن ايضا، انه حيث ان الولايات الامريكية والاتحاد السوفيتى وايضا عديد من الدول الاخرى قد اعترفت بإسرائيل فإنه اذا كان يريد ان يحصل على سند دولى لاقتراحاته فعليه ان يأخذ هذه الحقيقة فى الحسبان. لذلك فإن هذه الاقتراحات تذكر بصراحة ان



صورة تجمع خليل الوزير«ابو جهاد» ومعه انتصار الوزير «ام جهاد» فى الستينيات

دولة يهودية موجودة فى فلسطين وانه ليس هناك ما يبرر افتراض انها لن تستمر فى الوجود و قد لين كذلك فى مشروعه هذا، توصيته بأن يضم الجزء العربى من فلسطين الى شرق الاردن، واقترح، بدلا من هذا ، أن تقوم الدول العربية بحسم هذه المسألة.

وكما هو معروف، فان برنادوت قد قتل فى ١٩٤٨/٩/١٧ على ايدى متطرف صهيونى ولم يتمكن من النضال من اجل اقتراحاته فى الجمعية العامة للأمم المتحدة التى امتنعت فى نهاية الامر عن تبنى توصياته. ولكن لو كان قد اتيح له ان يناضل من اجل اقتراحاته، فإن هناك شك كبير فى انها كانت ستقبل. ان معارضة الطرفين لاقتراحاته لم تكن قابلة للتغيير بسهولة فى الظروف التى كانت قائمة فى نهاية ١٩٤٨ وهى : عدم وجود حتمية تدفع الدول العربية للموافقة على قيام اسرائيل، وعدم وجود حتمية بالنسبة لإسرائيل للتنازل عن المناطق التى استولت عليها. وتوقيت المناقشة فى الامم المتحدة اثناء معركة الانتخابات على الرئاسة فى الولايات المتحدة الامريكية مما جعل من الصعب على الولايات المتحدة الامريكية ان تنحاز الى مشروع تعارضه اسرائيل بشدة . كما ان التوتر المتزايد بين الشرق والغرب، حال هو الاخر دون بلورة تجمع دولى حول مشروع عارضته اطراف النزاع. وفى هذه الظروف لم يكن هناك احتمال كبير للنجاح امام مشروع برنادوت الذى وضع الارهاب الصهيونى نهايته بالاغتيال. ■



قصة كنيسة

كنيسة المهد - بريشة روبرتس

بقلم
د.نيفين مسعد*

أخذ الذين كتبوا عن كنيسة المهد ما جرى لها بعيداً .. بعيداً جداً عما جرى فيها . أحصوا ثقوب الجدران التى صنعتها رشاشات محتل اجترأ على أحد أقدس بقاع الأرض وأطهرها ، زكمت أنوفهم رائحة الموت والحـريق التى لاتزال تعلق بالأثر الأهم لكل أتبـاع عيـسى المسيح ، هالهم يبـوس أوراق الشجر الذى رعاه الرهبان الطيبون يوماً بعد يوم قبل أن يجف ماؤه وماؤهم ، رصدوا كل وجوه التدمير والتخريب التى طالت مهد السيد المسيح بعد حصار خانق دام أربعين يوماً كاملة ، لكنهم نسوا بين ما نسوا أن ما كـان يجرى بين أروقة الكنيسة أهم .

*استاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

التقط آخرون الخيط القانوني والسياسي أيضاً في قصة الكنيسة منذ بدأت وحتى انتهت . طرحوا على أنفسهم وعلينا أسئلة كثيرة واجتهدوا في إجابتها : ماهو وضع بيوت الله زمن الحرب ؟ إذا كانت السفارات تحميها دبلوماسيتها فهل لاتشفع قداسة تلك البيوت لحمايتها ؟ ماذا تقول اتفاقيات جنيف عن حقوق المدنيين في وقت القتال . وكيف يتعامل القانون الدولي مع جرائم التعطيش والتجويع والإيذاء النفسي لأكثر من مائتي محاصر في الكنيسة تقدم إسرائيل إلى المحاكمة بتهمة ارتكاب كل جرائم الحرب ؟.. ثم .. ثم ماذا عن صفقة تحرير المحاصرين وأي ثمن أطلق سراحهم ؟ هل تؤثر صفقة التسريح على الوحدة الوطنية ؟ هل تضفي شرعية على سياسة الإبعاد ، الوجه الآخر لسياسة الاستيطان الكريهة ؟ ماذا عن مصير ثلاثة عشر مناضلاً فلسطينياً ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يعد لهم من ملجأ إلى الله إلا إليه ؟ ألف هل وكيف ولماذا ، وجميعها أسئلة مشروعة وربما مطلوبة ، لكنها جميعاً وبدون استثناء تسحب دائرة الضوء عن أيام عاشها المحتجزون معاً ، وصمدوا فيها معاً ، وأضافوا بما ومن خلالها فصلاً جديداً في قصة لاينقصها شيء من أسباب العبقرية والإبداع : قصة ميلاد السيد المسيح .

مثل كل الأطفال ، كان المدخل القصصي هو المدخل الأنسب الذى إختارته أسرتي لربطي بآيات الله منذ وقت مبكر ، وحتى على تأمل معانيها . ولا زلت أذكر كيف كنت أقرأ قصص القرآن مرات ثلاث ، أبدأ مع القرآن ، ثم ألجأ إلى رائعة أحمد بهجت «أنبياء الله» لأفهم ، ثم أعود للقرآن لأتذوق حلاوة الأسلوب بعد ما وضح المعنى في ذهني . ومثل بعض هؤلاء الأطفال ، كانت تشدني بوجه خاص قصة السيدة العذراء ، هذه السيدة التي نذرتها أمها لله وهي جنين لم تزل ، وكانت تحيرني هذه المفارقة التي ينطوي عليها لقب «السيدة / العذراء» قبل أن أدرك أن هذا هو جوهر أصطفائها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين إختصاصها بهذا النوع الفريد من الأمومة الذي يليق بمولد نبي . وكم كان يهزني ، وما لايزال ، ذلك المشهد الذى أبدع القرآن تصويره ، عندما أجاء مريم المخاض إلى جذع النخلة فاتكأت عليه ، وهي ما بين شك ويقين . تشفق على نفسها مما يتقول به عليها قومها ، وهي العابدة القانتة التي لم تفارق محرابها ولم تك يوماً بغياً . ويهدىء من روعها حديث الملك الذى بعثه الله إليها حاملاً البشارة الأولى ، حتى إذا كلم المسيح الناس في المهد صبياً كانت إمارة النبوة وعلامتها التي بها قرت عينا مريم .

لست أبالغ عندما أقول أن إحساساً مشابهاً غشاني وأنا أتابع يوماً بيوم مايحدث داخل الكنيسة المحاصرة . بيت من بيوت الله يحتضن مائتي فلسطيني ، منهم المسلم ومنهم المسيحي ، ويقفل أبوابها عليهم . يقوم الرهبان على خدمتهم، وأهل مكة أدرى بشعابها ، ويداوون منهم من يسقط جريحاً ويصلون على من تفيض منهم روحه مع إخوانه ، ترى ماذا كان شكل الصلاة ؟. يقتسمون مع الجميع زادهم القليل ، وليس أكثر زهداً من حياة راهب . تطاردهم أدوات جيش الاحتلال الواقف على بعد أمتار من أبواب الكنيسة وتحلق فوق رؤوسهم

طائراته فلا يفزعون . وعندما يسأل أحد رهبان الكنيسة : هل يستسلم ؟.. يتريث الرجل لحظة وكأنه لم يفهم السؤال ، أو لعله يستنكر أن يطرح عليه ابتداء .. ثم يجيب على السؤال بسؤال : أستسلم ؟ .. لمن أستسلم ؟ لا هذا بيتنا ، وهم الذين يحاصروننا ، وعليهم هم الذهاب . وعندما يتدارك سائله بعد أن فهم أنه أرسل الرسالة الخطأ ، يعود فيسأل : أعني هل تسلمون من تطالب بهم إسرائيل من المحاصرين داخل الكنيسة ؟ يجيب الرجل الرائع في اقتضاب شديد : من لجأ إلينا فهو آمن . تأملت كلمات الراهب ملياً ، ووجدت بين ثناياها شعاع ضوء كنا أحوج ما نكون إليه والمدن الفلسطينية ومخيماتها تتسابق في إهداء أبنائها الواحد منهم تلو الآخر للشهادة .. اختصر الراهب ، وأظن أنه الأب إبراهيم فلتس ، كل الجدل العقيم الذي أثاره قبل سنين دعاة صراع الحضارات ، أو صراع الأديان بتعبير أوضح ، وقطع عليهم الطريق عندما برهن على أنه في بيت الله الكل سواء ، وأن إنسانية بني آدم هي رخصته للحماية وليس دينه ولا ملته . يا إلهي كيف تاه هذا المعنى الجميل وسط ركام القبح الذي أحاطنا منذ التاسع والعشرين من مارس ؟ إن تطورات ما كان يحدث داخل كنيسة المهد باتت هي الشيء الوحيد الذي أفتش عنه في كل نشرات الأخبار بعد ما بلغت وحشية المحتل مداها ، ولم تعد هناك قوة على الأرض تجبرني على أن أقتفي آثارها وإذا قبلنا من العالم - والأمر ليس مقبولاً - أن يغمض عينيه عن المعنى ودلالاته ، فكيف بنا والأصل في علاقتنا مسلمين ومسيحيين هو صورة مما كان يجري داخل كنيسة المهد ؟ أدهشني دائماً أن يمنح غيرنا نفسه الحق في أن يمتحن علاقات مواطنينا ببعضهم من زاوية الأنا والآخر ، وساءني دائماً أن ندافع عن أنفسنا أمام من لايملك حق مساءلتنا . لكن ما أدهشني أكثر وساءني أكثر ، أننا وقد قبلنا المبدأ ، أن نغض الطرف عن أيام الحصار داخل الكنيسة فلا نزهو بها

تمضي الأيام بطيئة كأنها تزحف ، ويحل أسبوع الآلام ، هل هو وصف لبعض من سيرة المسيح أم وصف لجزء من مشوار الكنيسة ؟ يتداخل المعنى ويختلط عندما يأتي العيد والمهد لازال محاصراً ، لا تضاء له شمعة ولا يفطر له صائم . وليت أن أحداً من المحاصرين كتب عن ذكريات تلك الأيام . كيف كان يرتل الإنجيل ؟ كيف كانت تقام الصلاة ؟ أي الشهداء تقمص دور المسيح تلفه الأكفان في يوم الجمعة الحزينة لتعود فتسحب عنه إيذاناً بالقيامة ، مع فارق أن المسيح يقوم أما الشهيد فلا ؟ كيف كان طعم التهنئة بالعيد هذا العام ، وعبارة «كل سنة وأنت طيب» يتبادلها المسلم والمسيحي ويستقوي بها على أيام لعل أسوأها لم يأت بعد ؟... تجربة إنسانية شديدة الإيلام والإيحاء والثراء في الوقت نفسه .

فك الحصار

وأخيراً أخيراً جداً يفك الحصار عن الكنيسة ، ويتاح لكاميرات التليفزيون أن تتجول داخل أروقتها ، فماذا نشاهد ؟ .. أغطية متراصة الواحد منها جنب الآخر ، فالكل يلتحف الأرض ، والأجساد المنهكة تتلاصق لتستمد الدفء من بعضها في ليالي شهر أبريل الباردة . ومواقد الغاز تتناثر هنا وهناك عندما كان للمحاصرين فيها حاجة ، قبل أن ينفد ما تنضجه

النار، ولا يجد المحاصرون ما يأكلونه غير أوراق شجر الليمون ، أما ما كان يخلع القلب ويوجعه فكانت قطرات الدم تخضب كل شيء في الكنيسة .. كل شيء فعلاً .. الأغطية ، والمواقد ، الجدران ، المذبح ، قدس الأقداس ، الشمعدانات الذهبية ، الأجراس . قوة ما بعدها قوة أن يضاف إلى شظف العيش داخل الكنيسة وجحيم المحتل خارجها ، ألم الحياة في وجود جثث الشهداء الثمانية الذين إخترقت قذائف البرابرة أجسادهم الطاهرة ، وهم يهمون بفتح نافذة أو إعتلاء سلم أو استراق النظر من وراء باب . هل جرب أحد منكم من قبل ملهاة اختلاط الموت مع الحياة وعايشها أياماً ؟ هل رأى أحد منكم نهايته بهذه الفظاظة وإن علم عنها ما علم ، وليس من يرى كمن سمع ؟ لقد كان هذا - التحديد أكثر ما ألم راهب الكنيسة الأب إبراهيم فلتس ، عندما قدر له أن يتكلم أمام إحدى الفضائيات العربية بعد فك الحصار ، فكان سائله يدور حول الخراب الذي لحق بالكنيسة ومقتنياتها ، وكان الرجل لايتحدث إلا عن الشهداء الثمانية وكان سائله يستدرجه للتعليق على المس بهيبة الكنيسة فيستحضر الرجل مشهد خروج الشهداء الثمانية ويعتبر التجاسر على حرمة الموت أفظع . تأمل معنى إستخدام الراهب وصف الشهداء لمن تصفهم إسرائيل وآخرون غيرها - بالإرهابيين ، فالسياسة تغير مضامين الأشياء أما الديانات السماوية فلا ، وليس النضال كالإرهاب . كان الأب إبراهيم فلتس يهون من كل الأضرار التي لحقت بالأثر رغم فداحتها ، لكنه كان يأسى أسى شديداً على من فارقوا الحياة ، لأن تلك هي الخسارة الحقيقية التي لايمكن تعويضها ، ولأن مسرح الشهادة كان هو بهو الكنيسة . وعندما رأيت بعد ساعات قليلة من فتح أبواب الكنيسة كيف يتحرك الرهبان داخلها بهمة عالية لتنظيف الجدران ، وإعادة الهيبة لمهد المسيح ، أدركت لماذا كان يتحدث الرجل بقلب مطمئن عن أن كل شيء قابل للإصلاح ، وكان يعني - بالطبع كل شيء مادي . تمنيت وقتها لو كان الزمان غير الزمان ، ربما كان يمكن وقتها أن أنضم وكثيرون عندي ممن بهرتهم تجربة الكنيسة إلى قافلة هؤلاء الرهبان النشطاء الطيبين ، حتى لو كان كل نصيبي أن أرفع ورقة ، أو ألم غطاء ، أو أطلي حائطاً ، فأنا أحب أن أكون بين هؤلاء .

ربما تكون إسرائيل قد شوهت في أقدس كنيسة ما شوهت وأصابت بها ما أصابت ، لكن رهبان الكنيسة أجبروا جيشها بكل عتاده وتجبره على أن يقف أمام أبوابها أربعين يوماً كاملة لايدري ماذا يصنع ، يتناوب ذئابه حراستها ويكتمون دهشتهم من قدرة المحاصرين على الصمود . وربما تكون إسرائيل قد أزهقت من الأرواح الطاهرة داخل الكنيسة مثلما أزهقت أخرى خارجها ، لكنها نسجت عن غير قصد منها - الطبع تلاحماً وطنياً - ولا أقول دينياً - رائعاً ستظل هذه المدينة : بيت لحم وهذه الكنيسة : المهد ، شاهدتين عليه إلى الأبد . أهم من كل ذلك أن الأثر الأهم لتجربة الكنيسة ، أنه ما عاد ينطلي على أحد أن النضال (نعم النضال وليس الإرهاب كما تسميه إسرائيل) حرفة إسلامية خالصة .

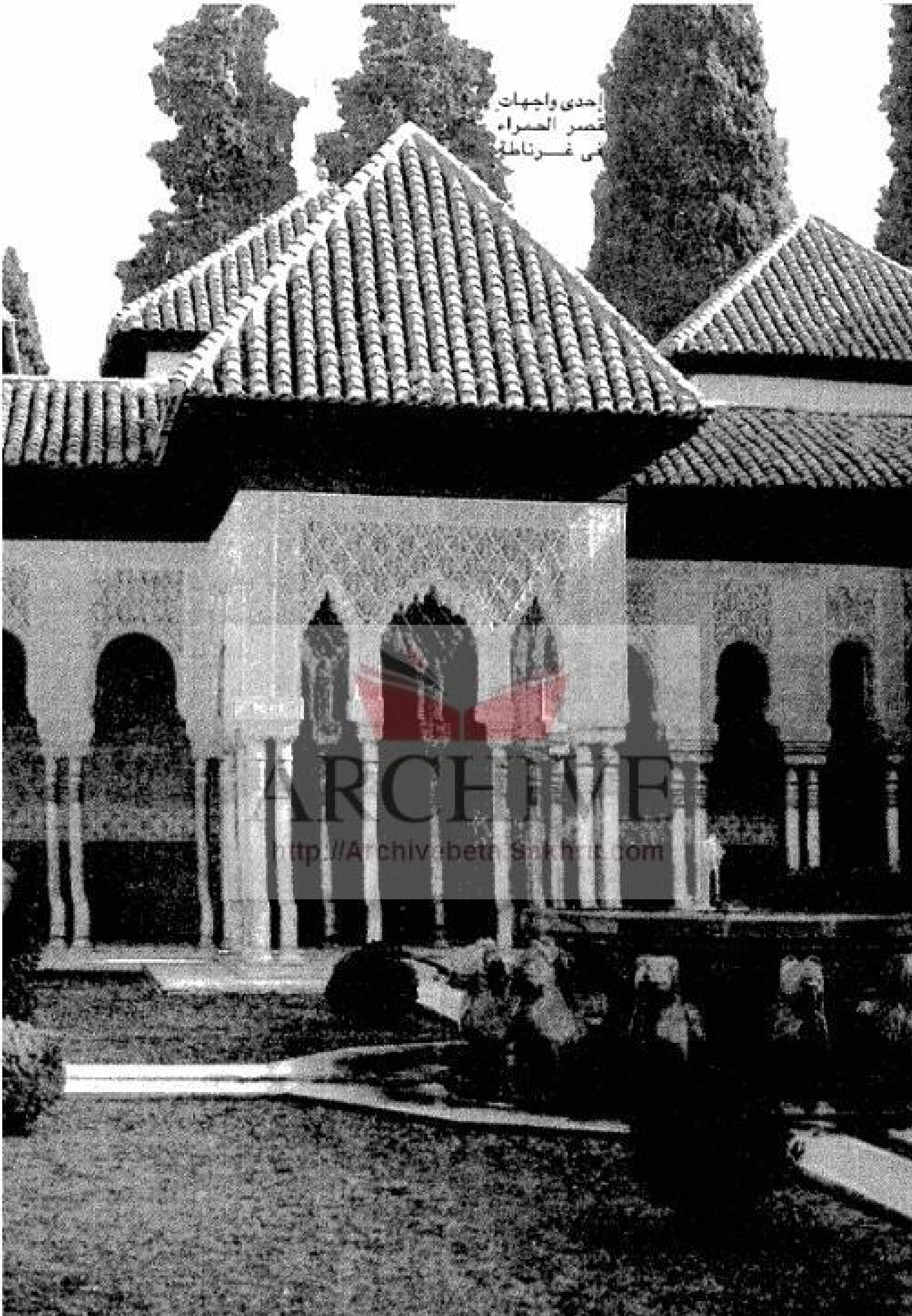
■

الحوار العربي الأوربي

بقلم

د. محمـود علي مكـي

غرناطة .. عروس مدن الأندلس.. حاضرة بنى نصر، ملوك آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس. فى غرناطة وفى أختيها قرطبة وإشبيلية تقوم أروع شواهد الحضارة العربية الإسلامية: قرطبة كانت عاصمة الخلافة الأموية التى تنافس بعمرانها ومساجدها ومكتباتها بغداد والقاهرة، وإشبيلية، مقر بنى عباد بقصورها وبساتينها ومنارة مسجدها الجامع، التى تشهد بفنها الرفيع على رهافة إحساس ملوكها، ولا غرو فقد كان هؤلاء الملوك وعميدهم المعتمدبن عباد من نوابغ الشعراء. حاضرتان تتمثل فيهما عظمة الأندلس في إبان أوج قوتها وازدهارها. وأما غرناطة فإن روعة الفن فيها تتجلى فى قصر الحمراء، غير أنه فن بقايا دولة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ومع ذلك فقد استطاع بناة هذا القصر أن يعتصروا من موارد مملكتهم الفقيرة المتداعية ما يعد عصارة لفن لا نكاد نرى له مثيلا.. وكأن ملوك غرناطة يشعرون بقرب نهاية دولتهم العربية، فأفرغوا فى هذا القصر البديع خلاصة ما فى التراث الأندلسى من فنون العمارة، وكأنهم أرادوا أن يعبروا عن حسهم الشعرى حينما زينوا جدرانه بقصائد أكبر شعرائهم: لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك.



إحدى واجهات
قصر الحمراء
في غرناطة

قرطبة وإشبيلية تقومان على ضفاف «الوادى الكبير El Guadalguivir» الذى كانت تحف به المتنزهات البهيجة وتمخر فيه قوارب النزهة فى ظلال الشجر الوارف، وتحت تغريد الأطيار. وأما غرناطة فيشقها نهرا حدره El Darro وشنيل El Genil وهما فرعان صغيران من الوادى الكبير يجفان فى أكثر فصول السنة، وكان شاعر غرناطة غرسية لوركا - الذى أطاحت به يد الجهل والتعصب - كان يرى فى نهرى غرناطة صورة مكثفة لمأساة بلده فى قصيدته «الأنهار الثلاثة» حيث يقول:

«نهر الوادى الكبير
ذو لحية حمراء داكنة
ونهرا غرناطة
واحد من دموع، والآخر من دم
آه من الحب
الذي طارت به الريح
للقوارب ذات الشراع
طريق فى نهر إشبيلية
وفى مياه غرناطة
لا مجاذيف إلا الزفرات
آه من الحب
الذى ذهب ولم يعد»

منذ عشر سنوات احتفلت إسبانيا بمرور خمسة قرون على كشف العالم الأمريكى الجديد. وكان من الاتفاقات أن السنة التى تم فيها هذا الكشف علي يد كريستوفر كولمبس وهى عام ١٤٩٢ هى نفسها التى سقطت فيها غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين. وأقيمت فى إسبانيا وفى بلاد أمريكا اللاتينية احتفالات كبيرة بهذه المناسبة، لا ابتهاجاً بسقوط غرناطة كما ظن البعض، وإنما لأن هذه السنة كانت فاصلة بين مرحلتين تاريخيتين، ووقفة لتأمل الماضى واستخلاص العبرة منه. وكان من ثمرات ذلك دراسات كثيرة حول التراث الأندلسى عبر فيها أصحابها عن تقديرهم لما يمثله من منجزات الوجود العربى الإسلامى فى أرض شبه الجزيرة، والنظر إليه على أنه جزء لا يتجزء من الحضارة الراقية التى ازدهرت على أرض إسبانيا، فأصبحت جزءاً من تاريخهم القومى يعتدون به كل الاعتداد.

التعاطف مع الماضى

من هذه النظرة الجديدة إلى ذلك التراث المشترك بيننا وبين إسبانيا أصبح الشعور السائد فى إسبانيا اليوم يتسم بالتعاطف مع ماضينا وحاضرنا والتفهم لقضايانا المعاصرة، على نحو يفوق ما نجده لدى سائر بلاد أوروبا. ولعل من مظاهر ذلك أن أول محاولة جادة لقضية فلسطين - شاغلنا الأكبر - إنما انطلقت من مدريد فى عام ١٩٩١. وإذا كانت مسيرة السلام التى بدأت أولى خطواتها من العاصمة الإسبانية قد تعثرت بعد ذلك - فإن إسبانيا مازالت واعية بدورها فى تلك المسيرة، متمسكة بمبادىء الشرعية الدولية التى أقرت أسسها فى ذلك الاجتماع التاريخى، وأولها مبدأ «الأرض فى مقابل السلام».

من هنا كان هذا المؤتمر الأخير الذي عقد في غرناطة بالذات باسم «الحوار العربي الأوروبي» خلال يومي ١٤ و١٥ من فبراير الماضي. وأتت المبادرة بالدعوة لهذا المؤتمر من قبل الحزبين الاشتراكيين: الأول هو الذي يحمل اسم «الاشتراكي العمالي الإسباني» Psoe والآخر «الحزب الاشتراكي الإسباني» Pse ، وهما جبهة المعارضة في الوقت الحاضر في مواجهة «الحزب الشعبي» .P.P الحاكم وزعيمه خوسيه ماريا أثنار.

على أن الدعوة لم تكن باسم هذين الحزبين فقط، وإنما باسم الأحزاب الاشتراكية في الاتحاد الأوروبي. ولهذا فقد كان التمثيل الأوروبي فيه واضحاً، إذ حضره عدد كبير من ممثلي الاشتراكية الأوروبية، ولاسيما من أعضاء البرلمان الأوروبي، بالإضافة إلى عدد من أكبر أساتذة الجامعات والمفكرين والكتاب ذوي المكانة الرفيعة في بلادهم. وقد بلغ المدعوون المشاركون في المؤتمر نحو خمس وعشرين شخصية، من بينهم ممثلون للبلاد العربية والإسلامية، وكان لكاتب هذه السطور شرف المساهمة في أعماله. واستخدمت فيه اللغات الأربع: العربية والإسبانية والإنجليزية والفرنسية. غير أن كثرة المتحدثين في كل جلسة لم تسمح إلا بنحو عشر دقائق أو تزيد قليلا لكل متحدث.

أما مقر المؤتمر فقد كان قصر المؤتمرات الذي أنشيء حديثاً منذ سنتين في موقع متوسط بين كنيسة غرناطة الكبرى التي كانت مسجدها الجامع والمدرسة العربية القديمة التي كان بناؤها في نحو عام ١٣٢٥ على يد الحاجب (رئيس الوزراء) أبي رضوان الذي يسميه الكاتب الوزير لسان الدين بن الخطيب مؤرخ غرناطة «حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها» على غرار المدارس التي كانت شائعة في بلاد المشرق العربي منذ العصر الأيوبي، ولاسيما في مصر. وكان رضوان هذا وزيراً للسلطان محمد بن أبي الوليد إسماعيل ثم لأخيه أبي الحجاج يوسف، وهما من أعظم ملوك بني الأحمر أو بني نصر. ومكان هذه المدرسة هو الذي تحتله اليوم الجامعة العربية الأوروبية التي تم إنشاؤها باتفاق بين الاتحاد الأوروبي والجامعة العربية.

من شرفات هذا القصر تبدو معالم قصر الحمراء، ومن خلفها سلسلة جبال غرناطة المسماة جبال الثلج Sierra Ne-vada التي يكلل الجليد قممها الشاهقة حتى في شهور الصيف في مشهد من أروع مشاهد الطبيعة. وفي أدنى الوادي حي البيازين Barria ded Ailaicin الذي كان فيه على أيام العرب مساكن الحرفيين والصناع. وكان اختيارها هذا المكان لبناء القصر موفقاً كل التوفيق لموقعه بين المسجد القديم ومكان المدرسة، وكأنه يرمز إلى جمعه بين ركنين أساسيين

من أركان الثقافة العربية الإسلامية: وهما الدين والعلم.

وأما أعمال المؤتمر فقد توزعت على ثلاث جلسات، عقدت أولاها فى صباح الرابع عشر من فبراير، وكان محورها: «نظرة عامة للحوار العربى الأوربى: المبادىء الأساسية»، وتضمن البرنامج ستة متحدثين:

– خوان مونتابس، أستاذ العلوم السياسية بجامعة غرناطة.

– محمود على مكى، الأستاذ بجامعة القاهرة.

– رافاييل إستريا، عضو البرلمان الإسبانى.

– خالد عليوة، الأمين العام الدولى للاتحاد الاشتراكى فى المغرب.

– رياج ططرى، رئيس اتحاد الجامعات الإسلامية فى إسبانيا (وهو إسبانى من أصل سورى).

– إميليو منندث ول فاى، عضو البرلمان الأوروبى (عن إسبانيا).

وافتتح الجلسة خوان مونتابس الذى تحدث عن المتغيرات التى حدثت فى العالم بعد الحادى عشر من سبتمبر الماضى، وما يسمى بالحرب ضد الإرهاب، وما يروجه رجال السياسة وأجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية من إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، فذكر أن الأمر يحتاج إلى تدبرهادئ يحاول أن يتفهم أسباب ما وقع بعيداً عن التهييج والإثارة، وعن التسرع بإلقاء الاتهامات، وكان من بين ما قاله: «لقد عرفنا الإسلام وحضارته عن كثب، ومدينة غرناطة التى نعقد مؤتمرنا فيها شاهدة على أن ثقافة الإسلام كانت من التسامح وسعة الأفق ما جعل من بلادنا نموذجاً للتعايش بين الثقافات والأديان».

وتحدث عضوا البرلمانين الأوروبى والإسبانى عن مشروع السلام فى الشرق الأوسط منذ أن بدأت مسيرته فى مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ وما تبعه من مؤتمرات تالية، وعن الدور الذى يجب أن يقوم به الاتحاد الأوروبى وإسبانيا فى مواصلة هذه المسيرة، على أساس التمسك بالشرعية الدولية واحترام المواثيق، والعمل على تنفيذ القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة، كما أشاد بضرورة التحالف فى الحرب ضد الإرهاب مع مجموعة البلاد الإسلامية التى أدانت الإرهاب انطلاقاً من مبادىء العقيدة الإسلامية نفسها.

مبادىء الإسلام

وأما العضوان اللذان كانا يمثلان الجانب العربى وهما رياج ططرى وكاتب هذه السطور فقد تحدثا عن مبادئ الإسلام التى دعت منذ البداية إلى نبذ العنف والتطرف، والتى قامت على احترام جميع العقائد والأديان، مع ضرب أمثلة من التعايش السلمى بين الطوائف المختلفة، سواء من التاريخ القديم أو الحديث، مع التركيز على ما مثلته الحضارة الأندلسية من تسامح لا نكاد نجد له مثيلاً فى عالم العصور الوسطى. كما تناول الحديث وجهة نظر الجماعات الإسلامية فى إسبانيا،

وموقفها من إدانة كل ألوان التعصب.

أما السلام الذي ندعو إليه فينبغي أن يقوم على العدالة. فليس من المعقول أن يكون الحديث عن محاربة الإرهاب مع غض النظر عما يجري في العالم من عدوان على الحقوق الإنسانية، ولاسيما في فلسطين، حيث تمارس إسرائيل إرهابا تقوم به أجهزة الدولة ضد شعب أعزل يطالب بحريته التي ضمنتها له الشرعية الدولية.

القيم وحقوق الإنسان

وكانت الجلسة الثانية في مساء هذا اليوم نفسه، وكان محورها «القيم وحقوق الإنسان والحريات بعد الحادي عشر من سبتمبر» وتولى إدارتها الدكتور طارق رمضان أستاذ الفلسفة وعلوم الإسلام في جامعة فريبورج، وكان المدعوون للاشتراك فيها هم:

- نزهة شقروني، وزيرة شئون المرأة في المغرب.
- عالية شمري، الكاتبة التونسية.
- لويس ماريا دي بوتش، المقرر الدائم للتعاون بين بلاد البحر المتوسط في الجمعية العامة للمجلس الأوروبي
- خيما مرتين مونيوث، أستاذة علم اجتماع العالم العربي في جامعة مدريد المستقلة.
- محمد طوزي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة الدار البيضاء بالمغرب.
- سهام بنسدرين، الكاتبة التونسية.



د.محمود علي مكي

- خديجة أريب، النائبة في البرلمان الهولندي.
- سيما سمر، نائبة رئيس الحكومة المؤقتة في أفغانستان.
- باسكوالينا نابوليتانو، النائبة في البرلمان الأوروبي، من إيطاليا.

ومن اللافت للنظر كثافة التمثيل العربي والإسلامي في هذه الجلسة، وحضور المرأة فيها، وأن بعض المشاركين كانوا من مواطني بعض البلاد الأوروبية وإن كانوا من أصول عربية، كما أن هؤلاء يحتلون مناصب رفيعة في تلك البلاد التي أصبحوا من مواطنيها. وكانت المداخلات في هذه الجلسة تدور حول الدور الأوربي الذي يجب أن يواجه ما تسعى إليه الولايات المتحدة من فرض إرادتها وهيمنتها على العالم، بغير اعتبار للشرعية الدولية. كما عبر المشاركون بقوة عن ضرورة احترام حقوق الإنسان وتطبيق العدالة على الجميع أفراداً ودولاً، وعن أن شعار الحرب ضد الإرهاب

لا ينبغي أن يتخذ مبرراً للتدخل في شئون الدول الأخرى أو لمحاولة فرض نظام معين عليها. وقد كان من أكثر المداخلات موضوعية في هذه الجلسة حديث الدكتورة خيما مرتين الأستاذ في جامعة مدريد المستقلة والمتخصصة في شئون العالم العربي، إذ عرضت بوضوح أزمة الشرق الأوسط، ونددت بالعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، وبالسياسة الأمريكية المنحازة انحيازاً كاملاً لإسرائيل، دون نظر إلى ما تمارسه هذه الدولة من عدوان سافر على شعب فلسطين، ومع التهديد بضرب العراق، متبعة سياسة الكيل بمكيالين، وهي سياسة لن ينتج عنها إلا إثارة مزيد من الكراهية لدى الشعوب العربية والإسلامية، ويخشى أن يؤدى ذلك إلى إفراز جماعات إرهابية يمكن أن تهدد العالم بخطر مستطير.

وعقدت الجلسة الثالثة في صباح يوم ١٥ فبراير، وكان محورها «تقييم مشروع برشلونة وأزمة الشرق الأوسط» وكان من المتحدثين فيها:

– ميجيل أنخل موراتينوس، المبعوث الخاص للاتحاد الأوروبي في الشرق الأوسط.

– شلومو بن عمي، وزير الدولة الإسرائيلي السابق للشئون الخارجية في حكومة إيهود باراك.

– ميشيل يونج، الكاتب اللبناني.

– مانويل مارين، النائب في البرلمان الإسباني.

– أحمد جداى، الأمين الأول لجبهة القوى الاشتراكية في الجزائر.

– رايمون أوبيولز، النائب في البرلمان الأوروبي.

– مالكة بن رضى، المحامية المغربية.

وكان مقرر الجلسة ومدير الحوار فيها الكاتب الفرنسي برنار راڤينيل.

وكان موضوع هذه الجلسة أزمة الشرق الأوسط التي تفاقمت في الآونة الأخيرة، مهددة مشروع برشلونة المتوسطي بالفشل، بعد الاعتداءات الإسرائيلية التي تجاوزت كل الخطوط الحمراء، حتى لم يعد الأمر انتكاسة في جهود إقرار السلام، بل أصبح أشبه بقضاء على عملية السلام برمتها. وقدم ممثلو الجانب العربي عرضاً وافياً للوضع المتردي في الأرض الفلسطينية، حتى أصبح يهدد الاستقرار في المنطقة بأسرها إذا لم يوضع حد للاعتداءات الاسرائيلية التي تمثل أخطر انتهاك لحقوق الإنسان.

شاهد على معاناة الفلسطينيين

وكان من أبرز المتحدثين في هذه الجلسة ميجيل أنخل موراتينوس الذي عايش الموقف في فلسطين خلال السنوات الماضية، فكان شاهد عيان على مقاساة الشعب الفلسطيني، وكان شرحه واقعياً للظروف المأساوية التي يعيشها هذا الشعب وقيادته إزاء التعنت من جانب القادة الإسرائيليين الذين يتخذون من أبسط عمل من أعمال المقاومة ذريعة للقتل الجماعي والاستخدام المفرط للعنف.

وأمـــا شلومـــو بن عــمـي، وهو الإسرائيلي الوحيد الذي اشترك في المؤتمر ممثلاً لحزب العمل، فإنه – على عـادة الإسرائيليين في أمثال هذه المؤتمرات – حاول أن يقدم نفسه بصفته رجل سلام، وقال: إن حكومة إسرائيل – التي لم يعد ينتمي إليها وإن كان حزبه من المشاركين فيها – تسعى أيضا للسلام مع الفلسطينيين، ولكن بشرط أن يكف هؤلاء عما يمسيه «الإرهاب»، وهي الحجج التي طالما سمعناها من ساسة إسرائيل سواء أكانوا من داخل الحكم أو خارجه، فهدفهم الرئيسي هو «تجميل» وجه إسرائيل أمام العالم.

وقد أعقب كل جلسة من الجلسات حوار طويل اشترك فيه جمهور الحاضرين، وكان من أكثر المداخلات إثارة للحوار العنيف حديث الوزير الإسرائيلي السابق الذي أتى مباشرة بعد العرض الذي قدمه موراتينوس، إذ هاجمه أكثر المعلقين، وندّدوا بسياسة حكومته بشكل بالغ الحدة، فلم يكن أمامه إلا اصطناع الوداعة، فزعم أنه ليس موافقاً كل الموافقة مع سياسة حكومة بلاده، وظل يردد قوله إن السلام ممكن على الرغم من كل شيء، وإنه يوجه دعوة إلى القيادة الفلسطينية أن تكف عن رعاية ماسماه «الإرهابيين» الذين يقتلون المدنيين في إسرائيل.

وعقدت بعد ذلك الجلسة الختامية التي كان المتحدثان فيها هما خوسيه لويس ثاباتيرو الأمين العام للحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، وإنريكي بارون رئيس المجموعة البرلمانية الاشتراكية في البرلمان الأوروبي. وقد طالب كلاهما بأن يضطلع الاتحاد الأوروبي بدور أكثر فاعلية في الضغط على إسرائيل ومطالبة الولايات المتحدة بأن تتخذ موقفاً عادلاً من قضية النزاع في الشرق الأوسط من منطلق احترام حقوق الإنسان الفلسطيني الذي يقاوم الاحتلال في دفاع مشروع عن النفس، وأن تعمل على احترام قرارات الأمم المتحدة والعمل على تنفيذها. أما محاربة الإرهاب فإنها لن تنجح إلا بالتعرف على جذوره وأسبابه، والقضاء على ما يسود العالم من مظالم متعددة الأسباب. وطالب ثاباتيرو حكومة بلاده اليمينية بأن تتخذ موقفاً أكثر حزماً وتماشيا مع مبادىء العدالة واحترام حقوق الشعوب المطالبة بحريتها.

افتراءات ضد الإسلام

على أن المؤتمر لم يخل من بعض «المنغصات» التي أتتنا – مع الأسف – لا من الجانب الأوروبي وإنما من جانب من هم محسوبون علينا. فقد نهض أحد الأكراد معلقاً على ما كنت قد ذكرته حول سماحة الإسلام، فإذا به يقول: «إن تاريخ الإسلام حافل بالجرائم والاضطهادات وانتهاك حقوق الإنسان» وضرب على ذلك مثلا بما ذكر أن حكومة العراق تمارسه ضد الشعب الكردي، ولم يكتف بذلك بل عمم حكمه فقال: إن المسلمين منذ فتحوا

العراق لم يكفوا عن التنكيل بالشعب الكردي. وكان عليّ أن أرد على هذه الافتراءات، فذكرت أن المسلمين منذ الفتح تعاملوا مع الشعب الكردي كما فعلوا مع سائر الشعوب التي قبلت الإسلام طواعية وأن الأكراد عاشوا في كنف المجتمع الإسلامي وأصبحوا جزءاً منه، وضربت مثلا بصلاح الدين الأيوبي الكردي الذي أصبح بطلا من أبطال العروبة والإسلام وكان في الوقت نفسه نموذجاً للحاكم الرفيق برعيته المتسامح مع الأعداء. والغريب بعد ذلك أن هذا الرجل - وقد علمت أنه من الأكراد المعارضين للنظام العراقي وأنه يعيش لاجئا في فرنسا - أتى إليّ ونحن على مائدة الغداء معتذراً عما قال وأنه لم يقصد بمقولته حكمه على الإسلام، وإنما أراد التنديد بنظام الحكم في بلاده، ومع ذلك فقد عجبت لمثل هذا التصرف، وذكرني ذلك بالمثل الشعبي الذي يقول «يشتمني في زفة، ويعتذر لي في عطفة»!

***

وعلى كل حال فقد كان المؤتمر ناجحاً إلى أقصى حد، وقد أثار قلق إسرائيل، مما حمل حكومتها على إرسال وزير خارجيتها شيمون بيريز في اليوم التالي إلى مدريد حيث عقد لقاءات مع بعض المسئولين ، ثم قامت باستضافته المذيعة التليفزيونية ماريا تيريسا كامبوس في حديث مفتوح أدلى به مدافعاً عن موقف حكومته، وإن كان في محاولته احتواء غضب الجمهور الإسباني قد لجأ - على العهد به في المراوغة - إلى التصريح بأنه لا يقر تماماً موقف رئيس حكومته، وأن مساعيه كانت دائماً محاولة لتهدئة الأوضاع وفتح سبل للتفاوض مع الفلسطينيين، غير أنه إلى ترديد الحجج التي تذرع بها زميله بن عمي. وقد كانت المذيعة التي أجرت معه الحوار تتلقى أثناء حديثه المذاع مباشرة على الهواء تعقيبات تليفونية كانت كلها هجوما عنيفا على السياسة الإسرائيلية، مما جعله يشعر بالحرج والامتعاض.

لقد تحول هذا المؤتمر إلى تظاهرة في تأييد الحق العربي لها وقعها وتأثيرها في الرأي العام الإسباني. وقد تزامنت معها مقالات كثيرة في الصحف الإسبانية تندد بسياسة إسرائيل قام بها كتاب كثيرون نذكر منهم إدوار سعيد الذي لم تسمح ظروفه الصحية بحضور المؤتمر، ومنهم الصديق المستشرق بدرو مرتينث مونتابث، بل كان منهم كاتب إسرائيلي هوداقيد جروسمان كتب في جريدة الباييس مقالا يحمل فيه على سياسة بلاده ويدعو إلى الكف عن استخدام القوة مع الفلسطينيين والعودة إلى المفاوضات، ومن بين هذه المادة الصحفية حديث طويل أجرته معي الصحفية سوليداد ألاميدا في الملحق الأسبوعي لصحيفة البايس المذكورة. ■

أقوال معاصرة



نيلسون مانديلا



غازي القصيبي



كولين باول



عبد القادر القط

• «أصعب مهمة يواجهها المرء هى تغيير ذاته»

رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق

نلسون مانديلا

• «أعتقد باننا فى حاجة إلى مواجهة حازمة مع الذات، لم نقم بها بعد، ويجب أن نقوم بها»

الشاعر والروائى والدبلوماسى السعودى غازى القصيبى

• «ليست الهوية إرثا جاهزا، وانما هى بناء، وعلينا أن نبنيها ».

محمد مجتهد شبسترى

مفكر ايرانى وحجة اسلام واستاذ بجامعة طهران

• «روح الحرية هى تلك الروح غير الواثقة وثوقا راسخا بانها على حق».

القاضى الامريكى ليرندهاند

• «لا أسـرار للنجـاح، أنه ثمـرة تحـضيـر واجـتـهـاد وتعلم من الأخطاء».

كولين باول

وزير خارجية الولايات المتحدة

•• «نحن فى مجتمع كثرة الثرثرة وقلة الصراحة».

زافين قيومجيان

مقدم برامج تلفزيونية فى لبنان

• «اخترنا من بين وسائل النسيان الكثيرة، أن نضحك ضحكا أجوف، خاليا من أى فكر»

الدكتور عبدالقادر القط

مفكر مصرى

• «الكتابة هى الهـواء الذى أتنفسـه، ولو كف قلمى عن الكتـابة أموت مختنقاً».

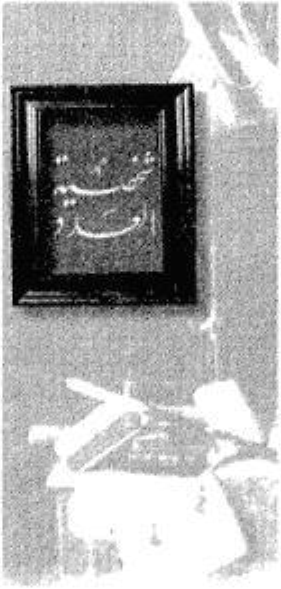
الاديب الفرنسى هنرى ترويا

• «علينا أن نتعلم كيف نعبر عن غضبنا دون أن نركب رؤوسنا، ونضر بانفسنا وبقضيتنا بسيئات البعض منا».

د. عبدالحميد الانصارى

عميد كلية الشريعة والقانون

والدراسات الاسلامية بجامعة قطر

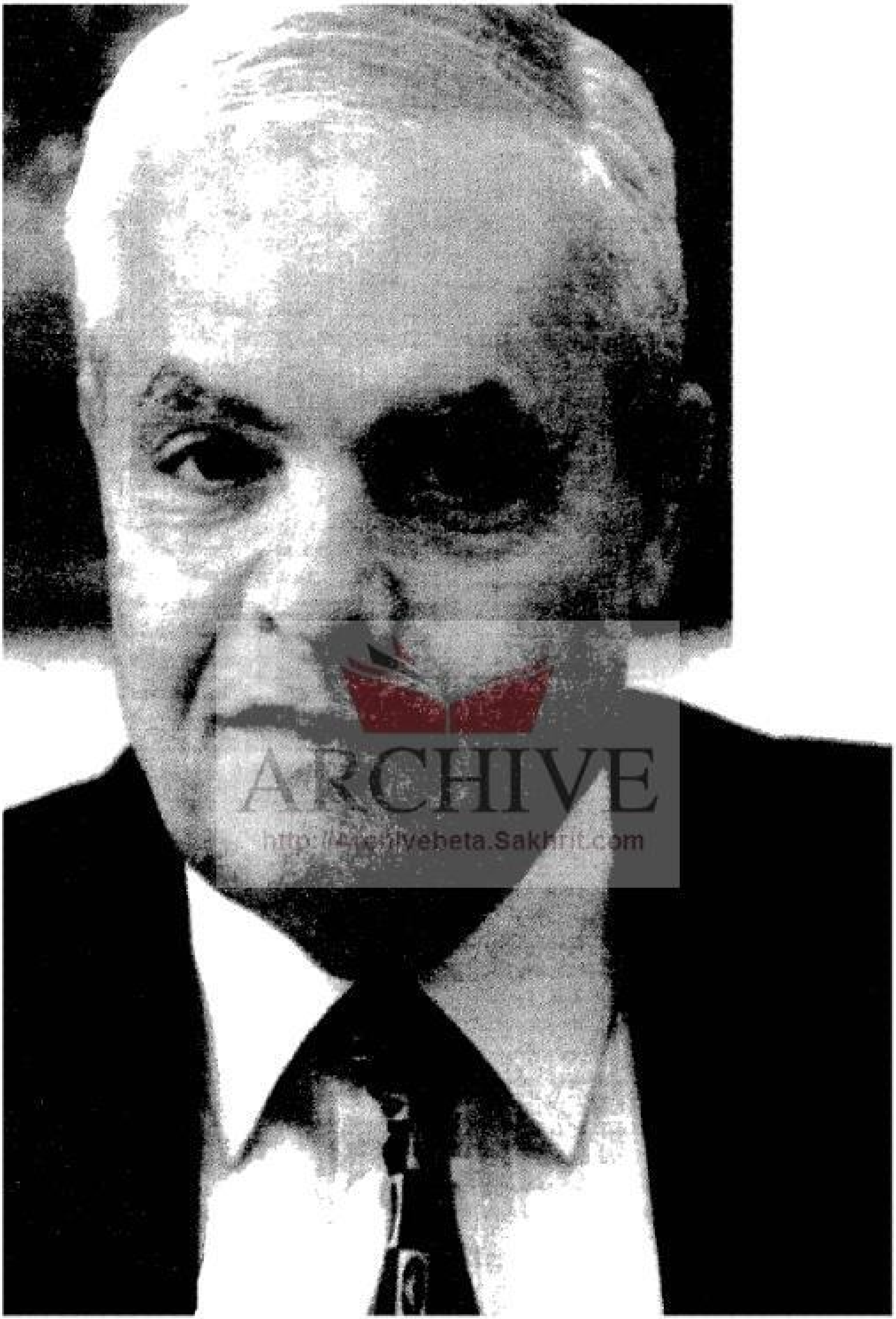


يونان لبيب رزق

مؤرخ مصر المعاصرة

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

يمثل الدكتور يونان لبيب رزق- أستاذ التاريخ الحديث- صاحب المؤلفات العديدة التي تناولت تاريخ مصر الحديث من أكثر من جانب من جوانبه - نموذجاً صادقاً للمصري الأصيل، المكافح في صبر. المجاهد دون كلل، العامل الدءوب في إخلاص، الذي يضع نصب عينيه غاية سامية لا يحيد عنها، ويظل طوال حياته يسعى لتحقيقها، لا تصرفه شواغل الحياة - والأيام - عن بلوغها. كانت غايته - منذ أن اختار طريقه - هي جلاء تاريخ هذا الوطن، وإبراز كفاحه، وما عاني أبناؤه من مظالم، وما لاقوا من عنت سواء طوال الفترة التى قضوها تحت نير الاحتلال الغاشم أو بعد جلاء المستعمر، وتحرر مصر من جبروته، ليلاقى المصريون - بعد ذلك - ظلما من نوع آخر، ربما كان أشد وطأة، لأنه يقع من مصرى على مصرى .





وتقرأ له، فإذا مصر هى عالمه الكبير، هى شغله الشاغل، وموضوعه الأثير، وقد كانت نهضتها - ورائدها محمد علي باشا الكبير - هى مجال بحثه الأكبر، يتعمقها بفكره، ويرد مظاهرها وتطوراتها إلي أسبابها الحقيقية.. ويأتى حديثه عن ذلك كله متصفاً بالدقة والشمول، لأنه قائم على دراسة موضوعية، تتحرى الصدق، وتتسم بالإخلاص، وتكون النتيجة أن يقدم إلينا تاريخنا المعاصر، نابضاً بالحياة، معبراً عن الواقع فى عرض شامل متكامل، لا يهمل التفاصيل، ولا يغفل - فى ذات الوقت - عن الدوافع والأسباب..

وربما كانت أبحاثه عن الحياة الحزبية فى مصر من أهم الدراسات التى أبرزت الدور الذى لعبته الأحزاب السياسية - ومختلف الجماعات - فى التاريخ المصرى الحديث..

علاقة شعب واحد

وهو فى نفس الوقت لا ينظر إلى مصر إلا فى إطار كونها إحدى الدول العربية تعتز بعروبتها، وتتصل حياتها - وتطوراتها - بحياة شقيقاتها من الدول العربية الأخرى.. وإنك لترى بذور اهتماماته تلك فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراة، والتى كان موضوعها: «السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول» حيث كانت علاقة مصر بالسودان هى مدار البحث، وموضوع الدراسة، وفيها تعمق الأصول، وتحرى حقيقة الروابط، ولم تكن تلك الرسالة هى الوحيدة التى خصصها لدراسة علاقة مصر بالسودان. فهو لا يفتأ يعاود الحديث عن هذه العلاقة، وعن هذا الارتباط الأبدى.. ومن هنا كانت درة كتاباته تتمثل فى مؤلفات عديدة على رأسها مصنفاته التى تتناول العلاقات المصرية السودانية هذا القلم الصادق، المعبر عن فكر واضح - والذى ينبض بالوطنية الصادقة - ما فتئ يبحث، ويدرس ويغوص فى أعماق التاريخ ليبرز حقائقه، ويجليها، ويطالعنا بها تعريفا وما عرض له من أحداث، وبيانا لعلاقاته بسواه من الدول والكيانات.. كيف نشأ؟ ومم تغذى؟ وكيف تكون؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه من عمق، وأصالة وموضوعية؟

مسئولية مبكرة

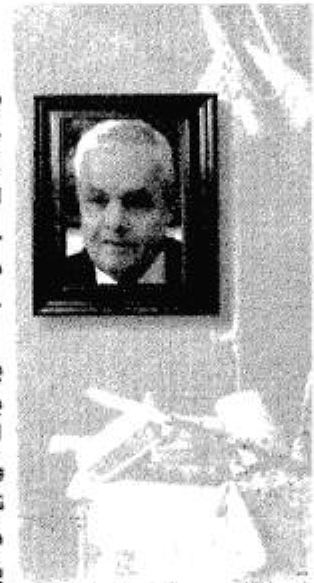
ذلك حديث طويل ربما كانت بدايته مع بدايات عقد الثلاثينيات حين شهد «بيت المأمور» فى حى «القللى» بالقاهرة - حيث تسكن أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى - مولد «يونان» وكان رب الأسرة يعمل موظفاً فى الحكومة، ويقيم مع

● ينظر الدكتور يونان الى مصر فى اطار عروبتها وارتباطها بحياة شقيقاتها العربيات

أسرته في البيت الذي بناه أبوه - والذي كان يعمل مأموراً لقسم الأزبكية في بدايات العقد الثاني من القرن الماضي، وقد كان «يونان» هو الثالث مولداً - بعد بنتين - ومع ذلك فلم يلق من التدليل ما كان متوقعاً، لأن أباه لم يمكث طويلاً في وظيفته، بل تركها وانصرف إلى زراعة الأرض التي كان يمتلكها أبوه في كفر الشيخ، ومن ثم كان غيابه يطول عن البيت. غير أن هذا التغيب المتقطع ما لبث أن صار غياباً متصلاً، إذ فاجأه الموت وكان «يونان» لم يكمل السادسة من عمره بعد.. فكان لذلك أثره على الأسرة ليس فقط من الناحية المادية، بل كان له أثره على «يونان» من الناحية النفسية أيضاً، إذ انعكس أثر ذلك عليه إحساسا مبكراً بالمسئولية، وأخذا للأمور في جدية تامة، وربما حرمه مما كان ينعم به لداته من لهو الطفولة، وعبث الصغار. وهنا يبرز دور الأم، حزما وعزماً في توجيه دفة السفينة حتى تصل بالأسرة إلى بر الأمان وهو يتحدث عن دورها فيقول: «ما أذكره من تلك الفترة في البيت أن والدتي التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة والثلاثين قد انكفأت علينا تربينا بصرامة بالغة.. ومع أني كنت كثيراً ما أبتئس من تلك الصرامة.. إلا أني فيما بعد أدركت أن غياب أبي المبكر هو الذي دعاها إلى اتباع هذا الأسلوب، فقد آلت على نفسها أن تقوم بدوره مع دورها بالطبع..» - ويذكرني حديثه عنها بحديث أديبنا الكبير. المازني عن أمه، وكيف أنها كانت صارمة حازمة، مع حرصها على أن تجعل منه وهو مازال صبياً رجلاً مدركاً للمسئولية، ملماً بأبعاد الموقف، ومازالت على رعايتها له، حتى اجتاز مراحل التعليم، وبلغ مبلغه بين أهل الفكر والفن والأدب في تاريخ مصر. كذلك كانت الأم بالنسبة الدكتور يونان، حرصاً على تنشئته على المثل العليا، ودفعه ليسلك سبيل التعليم حتى نهايته، تاركة له اختيار طريقه، وتخصصه- وإن أبدت حرصها الشديد على أن يبلغ في تعليمه أعلى الدرجات، وقد بلغها بالفعل، فقد التحق بكلية الآداب التي يتحدث عنها بحب يصل إلى مرتبة العشق فيقول «في شبرا وفي كلية الآداب الوليدة التي كانت لاتزال تحبو في عامها الثاني، نموت مع هذا الوليد ولنحو عقد ونصف العقد، منذ أن وطئتها أقدامي في شتاء عام ١٩٥١ وحتى نلت درجة الدكتوراه منها في صيف عام ١٩٦٧، وكانت سنوات البهجة والنضوج».. ثم يفصح عن مكنون القلب - ولكن بقدر - وهو يقرر «أن تلك الفترة كانت لاتزال تعرف بالعلاقات العاطفية الجميلة التي تتحول إلى شكل من الحب الرومانسي، الذي كثيراً ما ينتهي بالارتباط الأبدي، وهو ما حدث لي أيضاً حين نشأت علاقة من تلك العلاقات الجميلة بيني وبين زميلة كان يفصلني عنها ثلاث سنوات في الدراسة، والتي أصبحت فيما بعد رفيقة العمر بعد أن تزوجنا في أعقاب تخرجها عام ١٩٥٨»..

استدعاء شخوص الماضي

على أن تخصص الدكتور يونان في الدراسات التاريخية لم يأت نتيجة لمحض الصدفة، أو لأن كل الأقسام كانت في تقديره متقاربة.. بل جاء عن اختيار أصيل، واستجابة لطبيعته المنجذبة لهذا اللون من الدراسات الذي يدخل به إلى «عالم استدعاء شخوص الماضي، وضخ الدماء في عروقها» - كما قرر ذلك في حديثه عن سنوات التكوين - ولذلك فإنه منذ دخوله إلى ذلك العالم وهو يعيش فيه، ويتعمقه، بل ويغوص في أعماقه، يكشف عن حقائقه، ويتعرف على أسراره، ويحلل وقائعه، مدفوعاً



بحب البحث عن الحقيقة مجردة من كل ما عداها من شوائب.. ظل مخلصاً له، منقطعاً له دون أن تنحرف به أغراض جانبيه، أو أمور عارضة، مهما كان بريقها، أو إغراؤها، حتى أن جميع المناصب التي شغلها بدءاً من «مدرس» التاريخ، ومروراً بمختلف الدرجات حتى أصبح رئيساً لقسم الدراسات التاريخية - لتتصل جميعها بعالمه الذي تعشقه ونذر نفسه له، وآثره على كل ما سواها من عوالم مهما كان فيها من إبهار.

والدكتور يونان يحكمه في مساره في حياته العملية ذات ما يحكمها في عمله كباحث في المجالات التاريخية: فكر متوقد لا يكف عن الانشغال بالنواحي العلمية، ونظر صادق ينفذ إلى أعماق الأمور، وتقدير موضوعي لكل ما يعرض له، لا يتحرى سوى الحق ولا يهدف إلا إلى جلاء الحقيقة.. لا يتحيز مسبقاً لرأى قبل أن تستقيم لديه - وتتوافر عنده - دواعي الاقتناع به، واعتناقه. ومن هنا فهو لا يتسرع في الحكم، ولا يقفز إلى النتائج، بل لابد أن يقدم لما يبدى من آراء، وما يعرض له من حقائق، بالمقدمات الضرورية - والمنطقية - التي لها سندها من الواقع والتاريخ. تلمس ذلك في تحليله لتاريخ مصر الحديث، كما تلمسه في حديثه عن علاقات مصر بشقيقاتها، وبصفة خاصة في علاقتها بالسودان، فتلك العلاقات جميعها لها دواعيها - ودوافعها - وأوصلها من حقائق الحياة، وطبائع الأمور، والواقع الذي ليس إلى إنكاره من سبيل، بل أن الشواهد والأصول العرقية، والجنسية، فضلاً عن الأوضاع الجغرافية، والبشرية، والثقافية، والعقائد الدينية.. ناهيك عن توحد الأعراف، والعادات.. إلى آخر ما هنالك من عوامل لها أصولها وجذورها الممتدة - والمتشعبة - هنا وهناك - كل ذلك يجعل من هذه العلاقات بين مصر وشقيقاتها - ليس مجرد علاقات جوار، أو مصالح مشتركة، بل جعل منها علاقات حياة واحدة، وإذ يقول الدكتور ذلك، فإنه يختلف عن سواه فيما يقدم به، وفيما يعرضه، بشأن كل عنصر من هذه العناصر من دراسات مؤصلة، لا تقف عند الظواهر، بل تأبى إلا أن تغوص إلى الأعماق، ومن ثم لا يأتي قوله سوقاً لحقائق مرسلة، إنما هو سياق لدراسة عميقة الجذور، مكتملة العناصر، وتأتي النتائج - في النهاية - وهي الخلاصة الصادقة لأبحاث تناولت الموضوع من جميع نواحيه.

● شارك في العديد من القضايا القومية الهامة المرتبطة بأمن مصر القومي

أساتذته

يتحدث الدكتور يونان عن أساتذته فيذكر أن الصدفة البحتة هي التي جعلت أحد أقربائه ضاق مسكنه بما لديه من كتب فاستأذن في أن يحتل من الشقة التي يقطنها فتانا مكانا صغيراً للدولاب الذي يضم مجلدات لأهم المجلات المحترمة التي كانت

تصدر فى ذلك الوقت - أو قبله - الهلال، المقتطف، والمجلة الجديدة التى كان يصدرها ويحررها المفكر المصرى الكبير سلامة موسى.. وإلى هذه «المجلة الجديدة» - الموسوعية - يرجع الدكتور يونان أكثر ما أثر فى تكوينه الثقافى.. بما فتحت أمامه من عوالم مجهولة ومبهرة من الفكر الإنسانى..

كما يذكر الدكتور يونان بكل معزة وتقدير أستاذه الدكتور أحمد عزت عبدالكريم - أستاذ التاريخ الحديث، ورئيس القسم على عهد دراسته بكلية الآداب.. ولا يقف تقديره له لعلمه الغزير، ولأستاذيته الكريمة، بل يضيف إلى ذلك وصفه له بأنه أشبع فى نفسه ما ظل يفتقده لسنوات طويلة منذ أن فقد أباه: الشعور بالبنوة.. وقد كان الدكتور عزت هو الأب الحقيقى الذى رعاه، واهتم بمصالحه، ومستقبله، وهو الذى أشرف على دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه.

ويشير الدكتور يونان أيضاً إلى أساتذة آخرين كانت لهم أفضال عليه لا ينساها ولا يفتأ يرددها.. ومن هؤلاء: الدكتورة زينب عصمت راشد ويشيد بالتزامها بدروسها واهتمامها بأبحاث طلابها، وتوجيهها لهم إلى المراجع الموسوعية.. حتى لقد اهتم الدكتور يونان منذ وقت مبكر بكتابات العمالقة الكبار، وراح يطالع الكتابات الموسوعية: لأميل لودفج - كارل بروكلمان - ابن إياس - الجبرتى

***

والواقع يؤكد أن الدكتور يونان حرص على أن يتزود بخير زاد من الدراسات المتعمقة، ومن القراءات الموسوعية، وأن يكون مثالاً للمثقف المعاصر، المحيط بثقافة العصر وتقنياته، ويستعين بها فى مختلف الأعمال، والمهام - المكلف بها، والتى يحرص على أن يبلغ فيها أعلى مراتب الكمال ومن هنا تعددت المهام التى تولاها والأعمال التى قام بها، ومن هنا يمكن أن نرصد عنه ما يأتى:

- كما أنه كان تدرج فى سلك التعليم الجامعى بجامعة عين شمس مدرساً، فاستاذا مساعداً، فأستاذا، ثم أستاذا متفرغاً.. وتولى رئاسة قسم الدراسات التاريخية فى كلية البنات الفترة ما بين عامى ١٩٩٠ - ١٩٩٤.

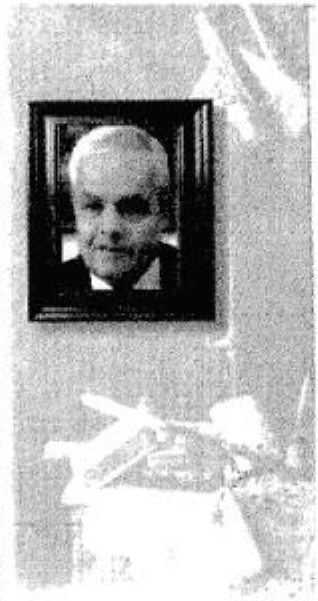
وكذلك فإنه تولى منذ عام ١٩٩٣ وحتى الآن رئاسة قسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة وهى إحدى منظمات جامعة الدول العربية..

وهو حائز على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٥.

كما أنه كان المؤرخ الذى اختارته وزارة الخارجية المصرية لعضوية هيئة الدفاع المصرية فى قضية طابا - حيث تولى مسئولية جمع الوثائق، وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية التى كان يقدمها الجانب المصرى لهيئة المحكمة.. وقد وضع كتاباً بعد صدور الحكم لصالح الجانب المصرى تحت عنوان «طابا - قضية العصر».. كما شارك فى وضع «الكتاب الأبيض» الصادر عن وزارة الخارجية حول هذه القضية..

- وكذلك فإنه كان عضو الوفد المصرى فى مؤتمر مدريد الذى انعقد فى العاصمة الأسبانية عام ١٩٩٠ - فقد رأت وزارة الخارجية الاستعانة به كخبير فى النواحى التاريخية فيما يتصل بأعمال المؤتمر.

- وكذلك فقد كان عضو الوفد المصرى فى المفاوضات مع الجانب السودانى حول



قضية حلايب وهى المفاوضات التى جرت على ثلاث جولات خلال عامى ١٩٩٢ - ١٩٩٣.

وبحكم العلاقات التاريخية بين مصر والسودان فقد كان دوره أساسياً فى تلك الجولات.

- كما أنه قد أوفد - خلال تلك الفترة - من قبل وزارة الخارجية إلى لندن للحصول على كل الوثائق المتعلقة بالحدود بين البلدين الشقيقين وكتابة مذكرات حولها..

وهو فضلاً عن ذلك كله عضو بمجلس الشورى لدورتين.. آخرهما الدورة الحالية..

وهو المؤسس منذ عام ١٩٩٢ «لمركز تاريخ الأهرام» بمؤسسة الأهرام الصحفية.. ويقوم بتحرير الصفحة الأسبوعية التى تنشرها الأهرام فى يوم الخميس من كل أسبوع تحت عنوان «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» وقد جاوزت حلقاتها الأربعمائة حلقة - وكل منها دراسة مستقلة ذات طبيعة علمية، تتميز بالتبسيط، مع الحرص على تجميع أطراف الموضوع مما يكون قد نشر فى الأهرام - بصفة أساسية - ومن غير ذلك من المصادر - حتى تستكمل عناصر الموضوع على نحو يتمكن معه القارئ العادى من متابعة تلك الموضوعات والأحداث التاريخية التى بعد العهد بها، غير أنها بجهد الدكتور يونان تعود تلك الموضوعات و الأحداث إلى الحياة، فيستطيع القارئ معايشتها، وبذلك يشيع الوعى التاريخى بين جموع قراء تلك الصحيفة العريقة من المصريين والعرب، وهى من الكتابات القليلة التى تنشر فى الأهرام، كما تنشر فى ذات الوقت مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى الأهرام ويكلى AL.AHRAM WEEKLY مما يتيح الفرصة للأجانب الذين يرغبون فى معرفة التاريخ المصرى فرصة الإطلاع على بعض فصوله..

وقد حرص الدكتور يونان على تجميع تلك الفصول ونشرها فى مجلدات يتوالى ظهورها مجلداً بعد الآخر، حتى يتسنى لقارئ تلك المجلدات أن يتابع التاريخ المعاصر، ليس فقط فى نواحيه السياسية، وما اتصل بالقضايا الوطنية، بل وأيضاً بما يمكنه من أن يرصد التطورات الاجتماعية، والقوى الاجتماعية الصاعدة.. وظهور المؤسسات الحديثة التى عرفتها مصر الحديثة منذ نهضة محمد على باشا، واستمرت فى نموها بعد جيل حتى بلغت ما بلغته الآن فى مصر المعاصرة..

والواقع أن جهد الدكتور يونان فى اعداد وتحرير واصدار «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» وهى التسمية التى يقر بأنه

● كان تخصصه فى الدراسات التاريخية استجابة لطبيعته الذى يدخل بها الى عالم استدعاء شخوص الماضى وضخ الدماء فى عروقها

اقتبسها عن الدكتور طه حسين - هذا الجهد لهو من الجهود المتميزة - يكفى أنه يكشف عن توفر جهود صاحب ذلك الجهد لتتبع إعداد صحيفة الأهرام منذ بداية صدورها فى القرن التاسع عشر فى مدينة الأسكندرية ، ومطالعتها عدداً فعدداً ليستخرج منها كل ما نشرته من أخبار ومعلومات وأنباء وآراء ومقالات .. فى تصنيف موضوعى رائع ، بحيث يخرج علينا فى فصول متتابعة يتناول كل فصل منها موضوعا كاملاً متكاملاً مستمداً فى معظمه مما نشرته الصحيفة ، لكن بعد بذل جهد موضوعى كبير لإعادة تصنيف تلك الموضوعات ، ولاستخراج ما أنطوت عليه من دلالات ، واستخلاص ما تكشف عنه من حقائق.. وهو يقدم ذلك فى صورة حية نابضة وناطقة وكأنه يضع أمام ناظرينا «بانوراما» حقيقية لأحداث الحقب المنقضية من التاريخ..

***

ومع توالى مجلدات الدكتور يونان عن «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة» فإن سلسلة أبحاثه ودراساته ومؤلفاته تحمل عناوين متنوعة وتتناول موضوعات متعددة.. فله مؤلفاته العديدة عن السودان وقضية وحدة وادى النيل منها «قضية وحدة وادى النيل بين المعاهدة وتغيير الواقع الاستعمارى» ومنها أيضاً «الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية» فضلاً عن رسالته لدرجة الدكتوراه وكان موضوعها: «السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول».. وله أيضاً دراساته عن «الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢» و«تاريخ الوزارات المصرية من ١٨٧٦ حتى ١٩٥٣» كما أن له مؤلفاً عن «عصر التكوين: ١٨٧٦ - ١٩٢٦» وآخر عن «مصر المدنية: فصول فى النشأة والتطور» - وله كذلك مؤلف عن «موقف بريطانيا من الوحدة العربية - ١٩١٩ - ١٩٤٥» وآخر بعنوان: «قراءات تاريخية على هامش حرب الخليج» وله أيضاً «الوفد والكتاب الأسود - ١٩٧٨»..

كما أنه حقق عدداً من المذكرات السياسية منها: «مذكرات فخرى عبدالنور عن ثورة سنة ١٩١٩»، كما ترجم عن الإنجليزية كتاب «تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠» وكتاب «رقيب على أحداث مصر: شارويبم ميخائيل».. وغير ذلك.. فضلاً عن قيامه بالإشراف على العديد من الرسائل الجامعية.. وهكذا نرى أن جهوده العلمية سواء مؤلفاً أو محققاً، أو مترجما أو مشرفا.. لم تتوقف، وإننا لندعو له بالاستمرار ودوام العطاء..

***

وبعد ذلك - بل وقبل ذلك - فإن الدكتور يونان هو شخصية أسرة. حلو الحديث، طيب المعشر، رقيق السجايا، رومانسى النظرة دون أن تؤثر فى تلك النظرة صرامة الحقائق التاريخية، وهو ممن يألفون ويؤلفون، يأخذ كل الأمور فى هدوء وموضوعية. ومنهاجه دائماً هو تحرى الحقيقة، و إبراز الأصالة المصرية على مدار تاريخ مصر وبصفة خاصة منذ نهضتها الحديثة التى لاشك أن محمد على باشا كان له دوره الكبير فيها.. ومع ذلك فلا يغفل الدكتور يونان فترات الضعف والتراخى، أو ما شاب الأداء الوطنى - فى بعض الأحيان - من تقصير أو انحراف، ولكن ذلك لا يأتى إلا مقترنا بتحليل الأسباب، وعرض الظروف والأوضاع.. فهدفه دائماً هو إبراز الحقيقة فى موضوعية وتجرد أصيلين. ■

نقد ونقض مقال حسين أحمد أمين



بقلم
صافى ناز كاظم

●● لم أقرأ للأستاذ حسين أحمد أمين مقالا أجمل من مقاله ، بعدد الهلال الصادر شهر مايو الماضى ، عن صديقنا المشترك السفير شكرى فؤاد ، رغم أننى لم أتفق معه مطلقا فى قراءته وتحليله لشخصية شكرى . بداية من المدخل، يبدأ نقدى ونقضى لمقال صديقى اللدود حسين أحمد أمين ، فأنا لم أجد المبرر لذلك المقتطف الذى اختاره من مسرحية وليام شيكسبير، «يوليوس قيصر» ، وإن أضحكتنى تلك الطفولة الكامنة فى شخصية حسين أحمد أمين ، فى رغبته الدائمة لإثبات أنه «الأول على الفصل» و«الألفا فى الإنجليزى» وأن شيكسبير «لعبته» وطوع بنانه و«اللى يحصلنى يكسرنى»! ●●

طيب ! أنا أمتلك نفس الطفولة الكامنة و«الغلسة» وأحب أن أساير التحدى وأقول: إذا كان ولابد من انتخاب مقتطف من شيكسبير ألخص به رؤيتى لشكرى فؤاد، فسوف أردد على الفور «ترجمتى» للكلمات التى قالها «هاملت» عن صديقه «هوراشيو» :

" هوراشيو إنك لرجل شريف ،

لن ألتقى بمثيله بين البشر ،

... ...

أنت الذى اختارته نفسى ،

منذ أن بدأت تميز بين الناس،

لأنك مثل الذى عانى كل شئ ،

فأصبح لا يعانى شيئا ،

يتلقى من الأقدار الخير والشر ،

بامتنان واحد ،

وطوبى لهؤلاء ،

الذين يتوازن عندهم العقل والعاطفة ،

فلا يصبحون مزمارا فى يد الحظ،

يعزف عليه ما يشاء

أعطنى هذا الرجل ،

الذى يرفض أن يكون عبداً لأهوائه،

وسوف أضعه فى السويداء، نعم، فى قلب قلبى..."

ـ مسرحية هاملت / الفصل الثالث المشهد الثانى ـ

●●●

نعم، هذه الملامح الهوراشية رأيتها تتبدى لى بوضوح على مدى سنوات معرفتى الإنسانية بشكرى فؤاد، حتى أننى صرت كلما تخيلت «هوراشيو» وأنا أشرح أبعاد شخصيته لطلابى فى آداب المستنصرية ببغداد ـ من ١٩٧٥ حتى – ١٩٨٠ ـ يظهر لى بوجه «شكرى فؤاد» وهيئته الكاملة وإيماءاته، وكأن معرفتى بشخصية «شكرى» قد ساعدتنى على فهمى لهوراشيو ، وكأن كلمات «شيكسبير» الدقيقة التى أطلقها على لسان «هاملت» قد ساعدتنى على صياغة تحليلى لشخصية «شكرى» .

●●●

فى بيت «وداد وسعد» كان لقائى الأول مع شكرى فؤاد وزوجته العزيزة نبيلة، أو «بلبل» كما يناديها الجميع ، فى يوم من أيام صيف ١٩٧٠ . كان قد مضى على صداقتى لوداد مترى بزوجها الدكتور سعد لوقا ثلاث سنوات منذ تعرفى عليهما فى عرض مسرحية «أجاممنون» بمسرح الجيب القديم ، بالقرب من حديقة الأندلس، عام ١٩٦٧ . تقدمت منى وداد بظرف شديد وبادرتنى بالكلام وأجزلت لى العطاء بالثناء على ما كنت أكتبه فى ذلك الحين من نقد مسرحى بمجلة المصور .. لم أكن أعرف ساعتها أن وداد مترى قاعدة لصداقات ثقافية وفنية وأدبية وتربوية وصحافية وسياسية عريضة ،

تتعدد فيها الأفكار والآراء والمشارب وإن استقرت على حب الوطن والأمة العربية ومساندة كل القضايا المقاومة للكيان الصهيوني وكل أشكال الظلم والقهر والفساد . وكان بيتهما ، بيت «وداد وسعد»، بمثابة «مسقى» لكل العطاشى من كل اتجاه ، وكان من أبرز خلصائهما وأصدقائهما الحميمين الشاعر « صلاح جاهين» والصحفية الرائدة «چاكلين خوري» والفنانة «انجى افلاطون» و«محسنة توفيق» و«الدكتور عبدالعظيم أنيس» أما ابنتهما الروحية فكانت «شاهندة مقلد» أرملة شهيد فلاحي كمشيش «صلاح حسين» .

ذلك العام ، ١٩٧٠ ، كانت صداقة «وداد» و«شكرى» قد تعدت سنواتها العشرين ، منذ زمالتهما - خريف ١٩٤٨ - بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) قسم الفلسفة وتخرجهما في دفعة ١٩٥٢ - التى كان شكرى فؤاد أصغر أعضائها سنا ، فلم يكن يزيد على العشرين عاما وخمسة أشهر - .

قالت وداد : « شكرى ياصافى راجع من عمله فى سفارتنا بكمبوديا » . وحبذت أن أقدم له كتابى «رومانتيكيات»، فكتبت له إهدائى : « إلى الأستاذ شكرى كمبوديا، مع التحية والمودة .... ٢/٧/١٩٧٠» .

كنت وقتها فى سمت لعلعتى الصحفية وفرحتى بروحى ناقدة وكاتبة ، قبل أن أقع على بوزى بصفعات قهر وظلم، «الكاتب الرومانسى المتسامح الذى لا يؤذى ناموسة» ، يوسف السباعى، بداية من أغسطس ١٩٧١. وهكذا عاد «شكرى» من كمبوديا ابريل ١٩٧٠، وما كدت أصادقه هو و«وبلبل» حتى وجدت نفسى تتقاذفنى «الشلاليت» إلى «طوكر» . فى هذا التطور المروع لأحوالى ، حين تخلى عنى من تخلى ، وتجهم لى من تجهم ، وأنكرنى من أنكر ، تكشفت لى الأبعاد «الهوراشية» فى شخصية ذلك النبيل الذى لم يضيّق على صدره ، لحظة واحدة، سترة «الدبلوماسى» المتخوف ، المتحرج، الذى يخشى على موقعه من مخالطة أمثالى «المنبوذين» من السلطة ، على مدى دورة فلكية صينية كاملة استغرقت ١٢ سنة .

●●●

بعد أن استقر «شكرى وبلبل» فى مصر فى ديوان وزارة الخارجية لمدة ثلاث سنوات ، سافر عام ١٩٧٣ إلى مواقعه المتغيرة فى سفاراتنا على مدار الكرة الأرضية، وظل موقعى ثابتاً فى قوائم المدعوّين إلى معتقل القناطر للنساء كلما استدعت الظروف والدولة إلى إثارة قضية أمن دولة وهمية ما تلبث أن تحفظ بعد أن



من يسار الصورة وداد مترى وشكرى فؤاد ومنال بنت شكرى و شاهندة مقلد و صافيناز كاظم وابنتها نوارة أمام مطعم بالسيدة زينب - ١٩٩٤

يتم المرغوب من اعتقالنا ومرمطتنا بتهم الشغب وقلب نظام الحكم ، التى أثارت سخرية إحدى السجانات فكانت تمر على الزنازين صائحة: «فيه تفتيش ... اللى قالبه نظام الحكم تعدله بسرعة يابنات......»!

يسافر شكرى ويعود ثم يسافر ثم يعود، ويطلق سراحى من المعتقل ثم أعود ثم... الخ، و«شكرى وبلبل» ، كما قال هاملت، «فى قلب قلبى»، لا تهتز لهما شعرة خوف منا مما يحدث لى ولكثير من أصدقائهما، وبوصلة معرفة أحوالنا وأين يجدنا هى صديقتهما «وداد»، حين لا تكون مسافرة مصاحبة لزوجها الاستاذ الجامعى «سعد لوقا» فى جامعات بافريقيا أو ببلاد العرب، ويهتم «شكرى» بأن يبعث لى من كل مكان بقصاصات صحف تكون قد نشرت لى صورة وأنا فى القفص الحديدى خلال المحاكمة ، أو يكون قد ذكرنى ذاكر بطيب فى مقال أو محاورة . لمسات رقيقة حانية لا أتوقعها ، تأتينى ترش وجهى كرذاذ الماء البارد المنعش فى القيظ الصعب .

●●●

إذا أردت أن أحدد المهمة الأولى لشكرى فؤاد فى الحياة ، أضع يدى على «صديق» . و«الصديق» ليس بالضرورة هو الذى يتفق معك فى الرأى أو فى العقيدة،

لكنه الذى يتوام معك ويفهمك ويرى حقك فى أن تكون مـــا أردت أن تكونه . هو الذى لا «يضيق معه خلقك»، ولا تنحبس زفرتك ، ولا تخشى عنده إطلاق فكاهتك ، ولا يسوؤه وقع دعاباتك . يفهمك . يفهمك يفهمك .

●●●

لا أظن أن «شكرى» قد فكر لحظة فى أن يكون «وزيرا» . ولذلك فـلا يمكن أن نلومه لأنه لم يخطط لذلك ، لأنه ليس من الطبيعى ، ولا من المفترض أن يخطط الإنسان لنفسه مثل هذا الشئ . فإذا حدث ووجد الإنسان نفسه « وزيرا» فهذا قدره وعليه أن يتحمله ويصبر عليه حتى تزول الغمة ، لكن من المؤكد أن «شكرى» منذ بداية تفتحه الثقافى ، قد خطط لنفسه أن يكون شريفا وصادقا وأمينا ومستقيما، ولقد تجول بعقله ووجدانه بحرية وشغف فى حدائق المعرفة الإنسانية وحقولها الواسعة ، ليس من أجل تغذية الرطانة فى الصالونات، ودعم الاستعراضات الفكرية ، ووجاهة الانضمام إلى «نادى النخبة»، ولكن سعيا وراء الانتشاء بالوعى ، وشحذا للإدراك الشفيف الذى يقود إلى «الحياة» من التباهى والتعفف عن تزكية الذات .

يتقن «شكرى» السمع والإنصات لحدثه ، وحين يتكلم يختصر ويتركك فى شوق إلى إسهابه . تقوده حكمة : «خفف الوطء...» ، يتململ من الفجاجة ، وينسحب من اللجاجة ، ويطوى صفحات الركاكة كأنها لم تكن .

رغم صلابته الكامنة وعناده الراسخ غير السافر ، لا يتحرج من الإعجاب بالقوة الصريحة وبمن يكشفون وجه عنادهم بالزعيق : يجد فيهم طرافة يضحك لها كثيراً . ورغم اختياره للتكتم فى الألم والفرح ، لا يضايقه مَن من صفاته البوح ، ورغم إمعانه التفكير لا ينكر على غيره سرعة الحسم . يدفعه حسه النقدى الحاد إلى طمر الكثير من ملكاته الأدبية والفنية. حين طلبنا منه مقالة «التكوين» ، كان لابد أن أتسلط عليه بالإلحاح المتكرر حتى كتبها بقلم شيق وإن اختصر واختزل وظلل الكثير من جوانب حياته ومشواره ، وأنهاها كأنه يتخلص من جمر يلسعه ، وعندما طلبنا منه جزءا ثانيا أخفى حياءه بادعاء الكسل .

يحترم قيمة «التواضع» ويجد الأناقة فى «التوارى» ، إلا فى أحوال الاستنجاد ، تدفعه شهامته لنجده البارز فى الصف الأول ، ولولا هذا «التوارى» المبدئى لكان «شكرى فؤاد» واحداً من أهم نجوم كتابة فن «المزاح» ـ ولا أقول السخرية لأنها ذات دلالة شريرة سلبية ـ وما أسميه «فن

المزاح» هو ذلك الذى يجعل خفة الظل وعاءً لتعويم الحزن والآلام من الجراح العامة والخاصة . ولقد أطلعتنى «وداد» على بعض خطابات أرسلها «شكرى» إليها بين أكتوبر ١٩٥٢ وأكتوبر ١٩٥٣، وكانت وداد فى الخامسة والعشرين وشكرى لم يبلغ الواحد والعشرين ، يرسلها إليها شكرى من «القاهرة» - ويسميها : « مصر فى ...» - إلى «ديروط - قبلى ، مدرسة ديروط الابتدائية الأميرية للبنات ، للآنسة المهذبة وداد مترى أنطون، المدرسة بالمدرسة»! وطابع البريد بعشرة مليمات ويحمل صورة الملك فاروق غير مشطوبة رغم أن الرسالة تاريخها بعد قيام ١٩٥٢/٧/٢٣ . وأسطر الرسائل تحمل كل المفاتيح المطلوبة لفهم شخصية «شكرى/ هوراشيو» منذ نصف قرن إلى الآن .

الرسائل مكتوبة بخط جميل منسق بقلم حبر أخضر على ورق كراس . يقول فى بعض أسطر الرسالة الأولى :

* " مصر فى ١٢ أكتوبر ١٩٥٢

عزيزتى وداد

أكتب إليك وأمامى مطوتك البراقة، والدنيا ليل خالص - وتخوّف - والواقع أن الذى يرانى الآن يعتقد أنى أدبر مؤامرة أو قاتل يعترف وسلاح الجريمة أمامه



شكري فؤاد ووداد مترى فى رحلة طلابية - ١٩٥١

خصوصا إذا انطفأ النور الآن - كما هى العادة - وأحضرت شمعة أكمل بها الجواب - (لكن على إيه ده كله أكمله بكره هى الدنيا طارت) - وكنت أحب أن أكتب لك مثلا فى جو شاعرى ، يعنى أقول... أكتب لك وأنا أستقبل أشعة الشمس فى يوم جديد ... أو وأنا أودع الشمس الغاربة .... أو أى كلام من ده لكن أعمل إيه؟ مسألة استقبال النهار الجديد دى زى ما أنت عارفة محدش فاضى يستقبله لأنى أكون نائما ولا أستيقظ إلا وأشعة الشمس قد أحالت الجو إلى فرن ليس أحر منها إلا شوقى إليك .... عاوز أكتب لك عن موضوع الأشواق بس خايف من الناظرة

شوية ليكون لها مزاج تفتح الجوابات تبقى مش لطيفة .... يمكن الجواب ده تعطيه لك وتقول لك : قولى لقريبك الوقح إن هنا ناس مؤدبين موش بتفتح جوابات حد ....» .

ويوقع شكرى فى كل خطاب باسمه كاملا مع عنوانه : «٢٢ شارع أنسى ، شبرا» ، ويظل لا يتوقف عن ذكر «الناظرة» التى تمثل له هاجسا رقابيا لا يتورع عن فتح خطابات المدرسات ، ومع هذا الهاجس يحتاط بألا يذكر كلمة «الناظرة» إلا وقبلها «حضرة الناظرة» !

وفى خطاب «مصر فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٢» يذكر «شكرى» لوداد أنه قد تم تعيينه مدرس لغة فرنسية (!) فى بنها الثانوية ويقول: « ... هنا فى بنها أنا مبسوط ولو إن شغلة التدريس دى أتاريها متعبة جدا ، وأنا أسافر من مصر لبنها يوميا ، وأحسن ما فيها بس إن التلامذة والفراشين بيحترمونى ويقولوا لى يابيه ، ولو إن فيه تلاميذ لطاف خالص أبقى عايز أعملهم أصحاب وأضحك معهم ، لكن أقول ياواد هيب خليك مدرس عليك القيمة ....» ويعود فى خطاب «٢٠ نوفمبر ١٩٥٢» يؤكد تبرمه من مهنة التدريس لأنه يفضل أن يكون «تلميذا» فيقول: « ..... شغلة تلميذ هذه لا تعوض ، وأنا فى بنها مع إن كل الظروف حسنة وتساعد على الانبساط ولكنى أتعب جدا من الوقوف والشرح خصوصا وإن معلوماتى فى الفرنساوى .... إنت مش غريبة ! تصورى أنا الذى كنت أخرج من المنزل الساعة تسعة وأرجع واحدة ..... الآن لازم أسافر الساعة ٧ صباحا وأرجع ٣ بعد الظهر وطول الوقت عمل متصل... أحسن مافى المدرسة الناظر والوكيل والمدرسين فى غاية اللطف ويعاملونى كابن ويتساهلون معى جداً، والطلبة موش بطالين بس الدوشة تحطم رأسى كل دقيقة وأنا على رأيك ... ماليش تقل على كده . على العموم طبعا فاكره الناس الكبار لما كانوا يقولوا .... الحياة، الدنيا تعب، أحوال الدنيا عجب، وكل الكلام العبط ده أتاريه بصحيح اولاد الايه دول ... لكن ولا يهمك...» ويحقق «شكرى» لنفسه العودة إلى «التلمذة» بالالتحاق بمعهد الصحافة فيقول فى : « مصر فى ٢١ نوفمبر ١٩٥٢ ..... حقا إننى لسعيد ... أرجع كل يوم طوال الأسبوع من بنها إلى معهد الصحافة فأقابل الزميلات والزملاء وأتمتع بهم .... كيف حالك فى التدريس؟.... أنا طبعا أدرس فرنساوى..... أول ما أدخل أقول للعيال سيلانس ... أتانسيون ... اكتبوا .. ديكتيه... فطبعا بيبتدوا يسألوا عن معناهم

ويقولوا ... يابيه اتكلم عربي، (يابيه قصدهم أنا . الحقيقة لما كنت الأول أسمعهم كنت ألتفت ورائي أفتكر الناظر دخل من غير ما أشعر وبعدين فهمت إن البيه هو العبد الفقير .... دنيا)، المهم يقولوا لي اتكلم عربي أقولهم ما يصحش لازم تتمرنوا وأنا معرفش أشرح بالعربي ، وبعد شوية رجاء أقول لهم علشان خاطركم ولو إن ده فيها مخالفة لتعليمات الوزارة ، وأتكل على الله وأبتدي أشرح لهم فرنساوي بالعربي على طريقة القراءة الرشيدة . والمؤسف إني تعلمت ، واضطررت أن أستعمل نفس الكلام الذي كان المدرسون يضحكون علينا به . أقول لهم: وهو الفرنساوي ده بتاع الأيام دي فرنساوي؟ الكتاب اللي بتاخدوه في الثقافة أنا درسته في ثالثة ابتدائي ... وأحكي لهم عن أيام زمان ومدارس زمان وإن الجغرافيا كانت بالفرنساوي والتاريخ بالانجليزي ، فاضل بس أحكي لهم حكاية الجنيه لما كان الواحد يفكه ويقعد يضيع فيه سنة ويزيد بعد كده ٩٥ قرشا .....» .

وفي خطاب «مصر في ١٢ أكتوبر ١٩٥٣» بعد عام كامل من انشغاله بالتدريس، يعلن التمرد ويكتب : «عزيزتي وداد ... وقد تألمت بسبب ضيقك من المدرسة والدروس، والحقيقة ده جزء مما عندي لأني في غاية من الانقباض من هذه الوظيفة .... وكل يوم أروح المدرسة يخيل لي أتخانق مع الناظر والمدرسين - مع أنهم لطفاء جدا - وأستقيل وأشتغل أي شغلة ثانية ماتهمش الفلوس ... المهم الاستقامة ... على كل حال .... كلها أربعين سنة وتتعدل والواحد يبقى على المعاش وطول النهار فاضي يقعد معك زي ماهو عايز .... مرة أخرى تحياتي لك ولحضرة الناظرة!» .

●●●

مرت الأربعون سنة، لكن شكري واصل العمل بعد سن المعاش في ١٢ يناير ١٩٩٢ ، حتى بلوغه السبعين منذ ستة أشهر ، ولا أظن أنه وجد نفسه «طول النهار فاضي» بدليل أنه « لا يقعد معنا زي ما احنا عايزين» ، لكنه والحمد لله لا يزال «مرجعنا» في كل شأن من شئون الضمير ، ويكون بذلك قد حقق الإنجاز الأكبر الذي يتمناه كل شريف على هذه الأرض ، «هؤلاء الذين يتوازن عندهم العقل والعاطفة، فلا يصبحون مزمارا في يد الحظ ، يعزف عليه ما يشاء» ، ... الرجل الذي يرفض أن يكون عبدا لأهوائه، يستحق أن نضعه في السويداء، في قلب القلب . ■

السهل الممتنع

كتب عن السفير شكري فؤاد زملاؤه وأصدقاؤه، وأشعر أن كتابتي عنه نيابة عن تلاميذه بوزارة الخارجية هي فرض كفاية عن جيل الشباب بالوزارة عرفانا له وتقديرا لخصاله، ولو لم أفعل لكنت ككاتم الشهادة!

لاأكتب عنه بوصفه من المشاهير، لكن الكتابة عن هؤلاء طرق في المطروق ثم إنه كما أن القانون والعدالة ليسا دائما صنوين كذلك فإن الشهرة والفضيلة لم يكونا دوما وجهين لعملة واحدة.

والسفير شكرى فؤاد من الشخصيات التى يطلق عليها في اللاتينية تعبير em-minence grise أي «العقل المدبر» المختفى وراء الكثير من الأحداث والأفكار التى لاتحمل توقيعه وإن حملت بصمته «المؤتمر الاقتصادى - تنظيم وزارة الخارجية - النقاش العام حول مواضيع أدبية وفنية» أول ماينطبع فيك من الرجل هو تحفظه وكتمانه، يحتفظ لنفسه بأفكاره، لكنك تكتشف إنه لا يضن بها على سائل أو مستفسر وإن لم يسع أبدا إلى الجهر بها تبرعا، يدهشك أن لاحاجة له اطلاقا لما يلجأ إليه الرجال إثباتا لجدارتهم من استعراض في أي محفل. فالرجل إن رأيته فى محاضرة عامة وهو كثير الحضور لها، لايطلب الكلمة لسؤال أو تعليق لكن لو سألته الرأى لوجدت لديه رؤية واضحة سلسة عميقة دون تقعر أو افتعال أو غموض في غالبية مايشغل الناس فى الشأن العام والخاص. وهو على درايته متواضع تواضع العلماء وهو منهم فى ظنى. فقديما كان يقال العالم واليوم يقال المثقف، وشكرى فؤاد هو المثقف دون آفاته وعيوبه وهو صاحب قلم لاشك فى ذلك لكن حرصه على عدم الظهور وتوخي الحذر واللباقة واللياقة يحيدان به عن الكتابة في أغلب الأوقات . لذا لم يكن حصاد العمر كتبا كان أقدر الناس علي كتابتها ولم يفعل - وأعتب عليه فى ذلك - لكنه كان محبة إخوانه وأبنائه سواء بسواء.

شيء في هذا المظهر يوحي بالثقة والحكمة التي تجعل كل صاحب مسألة يلجأ إليه. سمعت أن الوزير عمرو موسى اعتبره حائط مبكى للكثيرين، أما أنا فكنت اسمى مكتبه بالوزارة عندما كان مستشارا لوزير الخارجية «العيادة» وقد كان الطبيب الأريب شكرى فؤاد يشير على من يستشيره، فكلنا كان لسان حالنا يقول له «دبرنى ياوزير» ربما حتى الوزير نفسه!

نجا مما يسقط فيه الكثيرون فهو المثقف المتواضع، وهو القبطي النبيل الذي يحمل الوطن فى قلبه، بمسلميه ومسيحييه، برجالاته وحرافيشه وهو الشخصية الاريحية التى لايصدر عنها من الصغار مايحط من أقدار الرجال.

هذا الأب الروحي لم ينظر إلى الشباب بمنظور الفجوة بين الأجيال ولم يتعامل معنا نحن شباب الدبلوماسيين بمنطق بطريركي متعال أبدا. ورغم أن الرجل قد أتم أعوامه السبعين هذا العام، فقد احببناه جميعا كأخ وزميل وصديق.

ماجدة بركة
بروكسل

من تاريخ العاصمة الكبرى

خفايا القاهرة

بقلم

د. محمد رجب البيومى



«خبايا القاهرة» كتاب متواضع الطبع، أصغر الورق، تملأ غلافه صورة ماجنة لامرأة خليعة، وكنت قد وضعته جوار «مذكرات عريجى» فى مكتبى بالرف الأسفل، لبعض المشابه بينهما، فلما كتبت عن المذكرات فى الهلال ما صادف بعض القبول، قلت فى نفسى إن الجار اللصيق سيغضب لما لحقه من الجفاء، وأنا أتصور أحيانا للكتب أرواحا كما للناس، وهممت أن أترضاه بهذا المقال، ولن أتاكد من ذلك إلا إذا رضى القراء، أما عن مؤلفه الأستاذ أحمد محفوظ فقد كان موظفا بالقسم الأدبى بدار الكتب مع صفوة من أدباء العصر، وكانت قصائده تحتل جريدة الأهرام فى الثلاثينات، ثم اتجه إلى التأليف عن زعماء الشعر كالبارودى وشوقى وحافظ فى كتب مستقلة ونظم بردة نبوية كتب مقدمتها الدكتور محمد حسين هيكل، ولكنه فوق ذلك ابن القاهرة التى عرفت خطاه فى كل درب وشارع، وحدثته منازلها ورجالها ونساؤها بما لم تكد تحدث به سواه، وقد تفاعل ذلك فى نفسه، فكتبه سطوراً فى كتابه هذا؛ «خبايا القاهرة» وفى العنوان تجاوز لأنه كتب عن الظواهر والخبايا معا، وأظنه أراد أن يجذب القارئ الكسول، كما ظن أنه سيجذبه بصورة الفتاة الداعرة، ولعل ذلك من صنيع الناشر، وهو منه برىء!



فتاة بالملابس التقليدية



إحدى الفرق الشعبية

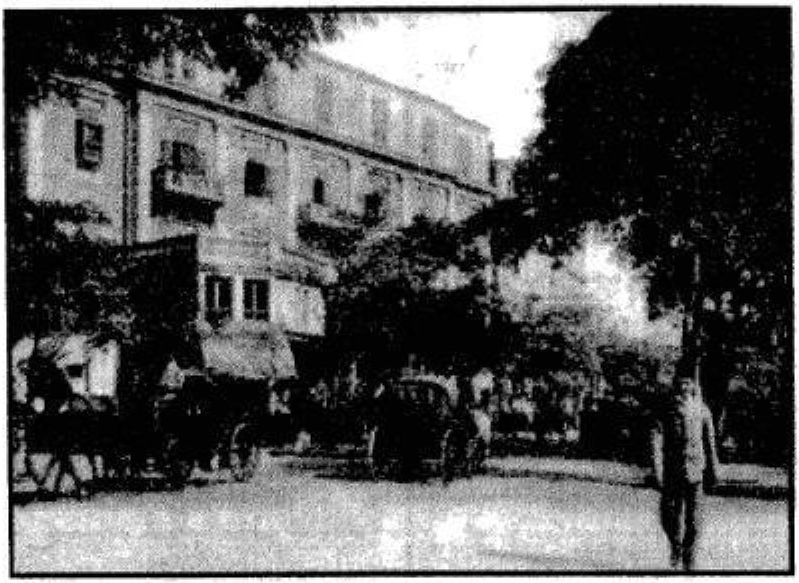
خفايا القاهرة

تحدث الكتاب عن ملاهي القاهرة ولياليها في منتصف القرن التاسع عشر، وثلثي القرن العشرين، وخص المقاهي الكبيرة وما سماه بالكباريهات بحديث لافت شغل فراغا كبيرا، وكذلك تحدث عن النوادي عالية وهابطة والفنادق والحانات ومسارح التمثيل والغناء وأبطالها من الممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، وأفاض في أحوال المبتذلات والخواطيء والسواقط بما لا أدري كيف اهتدى إلى عناصره، أما الأعراس والأحزاب والمجالس النيابية ورواد الأمسيات اللاهية فلم تخل من حديث جاذب، لأنه وإن اتصل بالسياسة المعروفة كان ذا مذاق ترفيهي من أدعياء المعرفة، ودخلاء الأدب وأصلائه، وعن مواسم الأعياد وحفلات المرح وما يدور هذا المدار، والكتاب صورة مصغرة لكتاب سابق هو «المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم» الذي ألفه الأستاذ إدوارد وليم لين عن عصر محمد علي فأفاض إفاضة لم تتهيأ لمؤلف الخبايا، لأن المستشرق الإنجليزي كان متقيدا بخطة منهجية حاول تطبيقها، أما الأستاذ أحمد محفوظ السمّير، فقد تخيل نفسه مع أصدقاء يمتعهم بالحديث المستطاب، وحسبه ذاك .

وفي الفصل الأول تحدث عن حي الأزبكية وملاهي الحديقة الفسيحة ذات العبث الصاخب، ففصل تفصيلاً أليماً ما أجمله حافظ إبراهيم حين قال عن ملاهي هذا المكان مخاطباً هذه الحديقة :

كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين في حاليهما تيه الغني ، وذلة المفلوك

وقد ذكر من أسماء الراقصات والمطربات أكثر من عشر فواتن، متحدثا عن حيلهن (!) في اصطياد الأغرار، ولا يعنينا ذلك قدر ما تعنينا كوارث البلطجية ممن يحمون هذه الأماكن، أو يتصدرون اللهو في جبروت يستند إلى القوة الغاشمة فهذا من يسمى «بسليم السلحدار، يغشى بار (كافيه اجبسيان) بجيش من الأتباع ما بين نوبي ومغربي وطلياني ومصري، وكلهم مسلحون يظهرون الجبروت مناصرة لهذا الشركسي الغني، ومن عتوه أنه كان يقتحم المكان بعربته التي يقودها حصان واحد، وهي يومئذ من مراكب الأثرياء ذوي الحظوة، فإذا هم صاحب



منظر من وسط المدينة



شارع النحاسين

المقهى بالاعتراض أوسعوه ضربا، وكسروا ما أمامهم من الكراسى فى شغب يزعج الحاضرين فيولون الأدبار، ويبكى صاحب المقهى مستعطفا هذا الشركسى، فيجود عليه بأثمان ما حطمه أتباعه من موائد وأثاث، ويقابل بالشكر الجزيل لأنه تعطف! وتسأل فيم هذا الجبروت فلا تجد الجواب؟ وأين المسئولون فى الداخلية فلا تجد الجواب أيضا؟

وممن شملته حماية البوليس الإنجليزى فى هذه البؤرات الفاسدة من يسمى «كار تيبه» السويسرى، وكان ضابطا لطيف المظهر أنيق الشكل، ووظيفته الأساسية فض المشكلات بين هؤلاء التعسات المنكودات اللاتى كتب عليهن شقاء الحرفة الهابطة، وهن يستمعن إلى حكمه، ويخضعن له إن تطرف، لأن بعض المحتلين من الأجانب ذوى السطوة، جعلوه قوادا لهن يختار من تحظى بتقديره، وهو بهذا العمل المنحدر المخزى يأمن كل شكوى تقدم للمسئولين من ناحيته، وله صلة بمن يسمى (لاينس) الذى تخصص فى الرحلة والسفر إلى أوربا لاحضار الساقطات، وتغذية هذا المكان الموبوء،

وليس كارتييه السويسرى العاهر هو وحده المزعم فى هذا المجال لارضاء الرواد، بل هناك امرأة بدينة تدعى مدام مارسيل يقول المؤلف عنها إن لها حزم قواد الجيوش، وهمها جمع المال من وظيفتها الشائنة شتاءً، ثم تسافر إلى باريس بعد ذلك صيفاً فى زى راهبة ناسكة لتعطف على المعوزيات من أبناء جنسها ويسمونها هناك (القديسة الفاضلة «مارسيل» لما تبذل فى المبرات الخيرية هناك، تبذل من جهد السواقط دون حرج أو استحياء).

إظهار المثالب

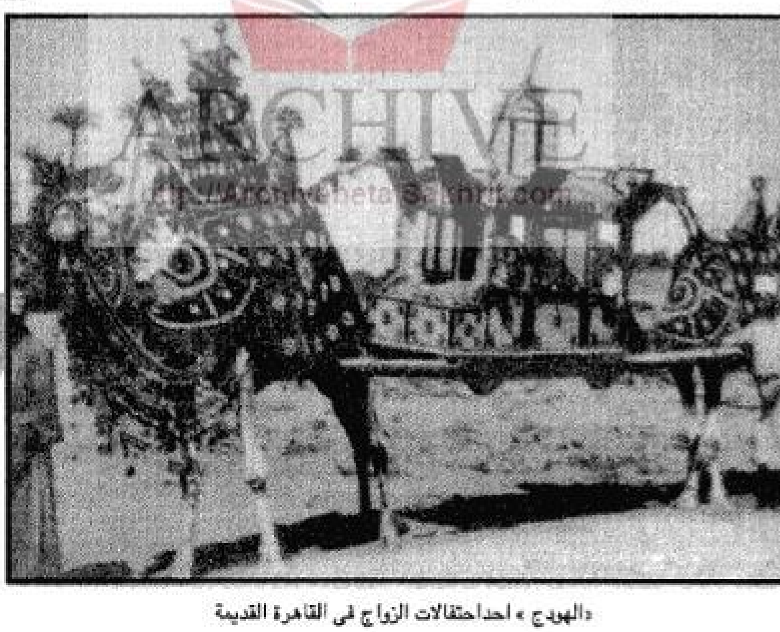
وأنا أؤاخذ المؤلف على أمر هام، هو أنه تعمد إظهار النواحى الهابطة وحدها دون النواحى المشرفة المضيئة وهو يتحدث عن مجتمع القاهرة وفيه الشر والخير معا، أفما كان الأجدر به وقد تحدث كثيرا عن ألوان البغاء، والفسق الفاجر، أن يذكر المقاومة الرائعة التى بذلها المخلصون للقضاء على هذا الوباء الجارف، أو يجهل وهو المثقف المطلع أن معارك قلمية ثائرة قامت بين الكتاب من أجل القضاء على هذه البؤر الفاسدة، حتى تكللت جهودها المضنية بعد أمد بالنجاح، الا



أم كلثوم فى صدر شبابها



بائع العرقسوس



«الهودج» احداحتفالات الزواج فى القاهرة القديمة

يعلم أن زعيم المقاومة الذى تصدر الصفوف لحماية الفضيلة والعفاف هو الأستاذ الثورى الجليل محمود أبو العيون من كبار مفكرى الأزهر الشريف لعهده! وقد لقى من كبار المعارضين سيلا من الشتائم والسباب، حتى أن الأستاذ عباس محمود العقاد وهو من هو جلالة قدر، وعظم همّه ، قد تهكم به مرات، وقال فى بعض مقالاته «أسكت يا شيخ ، فأنت أصغر من أن تقود حملة كهذه» إن البغاء عمل رسمى مشروع فى دول آسيا وأوربا، ولا يمكن إزالته بالعرائض والمقالات!! قال العقاد هذا ! وقد عاش أبو العيون والعقاد معا حتى رأيا زوال هذه الفاحشة استجابة لصيحات الأطهار والشرفاء سنة ١٩٤٨، فهل كاد أبو العيون وعبد لحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ممن قاوموا هذا البلاء أصغر من أن يقوموا بحركات الإصلاح كما زعم العقاد! لم أكن أتوقع هذا، ولكنه حدث!

هذه ناحية أما الناحية الثانية فقد سكت لباحث سكوتا تاما عن مظاهر لثقافة الرائعة فى هذه الحقبة الدقيقة إذكانت السهرات الأدبية والاجتماعية تعقد أسبوعياً فى ندوات جمعيات الشبان المسلمين، وقاعة يورت التذكارية، والجمعية الجغرافية ومدرج كلية الآداب، ولها روادها المنتظمون على حين تفسح الصحافة صدرها لتدوين خلاصات وافية لهذه الندوات التى اشتهر فيها طه حسين ومحمد كرد على ومحمد توفيق دياب ومحمد مظهر سعيد ومنصور فهمى ومحمود عزمى وزكى مبارك وغيرهم من كبار المثقفين أفلا تستحق هذه الندوات بعض ما امتلأ به الفراغ من حديث المثالب والنقائص ! وكأنى بالمؤلف وقد سار سيرة المستر ادوارد وليم لين، حين احتفل بتسجيل مظاهر الشذوذ وحدها! ولم يتكلم عن مظاهر النشاط الإنسانى لدى أهل الخير، وعن حلقات العلم فى الأزهر الشريف، وهو يومئذ منارة التثقيف! وصديق شخصى لكبار المصريين!

نترك حديث مدام مارسيل وأخواتها اللاتى توسع فى ذكرهن المؤلف، إلى حديث عن الرجال المستهترين فى هذا العهد، ومنهم من يسمى «باسيلى بك عريان» وكان يتخذ مقهى نوبار مقراً لاجتماعه مع الوجهاء من أعيان القاهرة

ومن يفدون إليها من عمد الريف! حين كان العمدة وجها لامعا من وجوه الثراء، وقد وصفه الأديب الكبير محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام بما يعطى الصورة الصحيحة عن ثرائه وجهله معا، ولكن شتان بين أسلوب وأسلوب!! فهذا الثرى قد أفلس وفقد ثروته اندفاعا فى التعاظم بالمال، إذ كان يُشير بإغلاق المقهى ليخلو مع بعض الفنانين والفنانات طول الليل، ثم يقوم بدفع ما يقدره صاحب المقهى من مال كان ينتظر أن يكسبه لو لم يغلق المقهى! وقد ذكر المؤلف من رواد مجلسه طائفة من الأعلام نضعهم فى مقدمة رجال الثقافة؛ مما يؤكد أن المجلس لم يكن كله شرا، ولكن باسيلى كان نمطا من الأثرياء الذين يضعون الشىء فى غير موضعه، ولا نزيد فى تقريعه الغاضب فيكفيه أنه أفلس! وعاش بقية عمره مهجوراً لا يعرفه من غمرهم بالعطاء ! ومات وحيدا عليلا.

وقد كتب المؤلف كتابه سنة ١٩٥٨ بعد قيام الثورة بست سنوات ، واقتضاه هذا أن يُهجن زعماء فضلاء من رجال العهد السابق، وأن يتجنى عليهم بما لا يليق، حتى أنه ذكر فى بعض المناسبات الزعيم الجليل



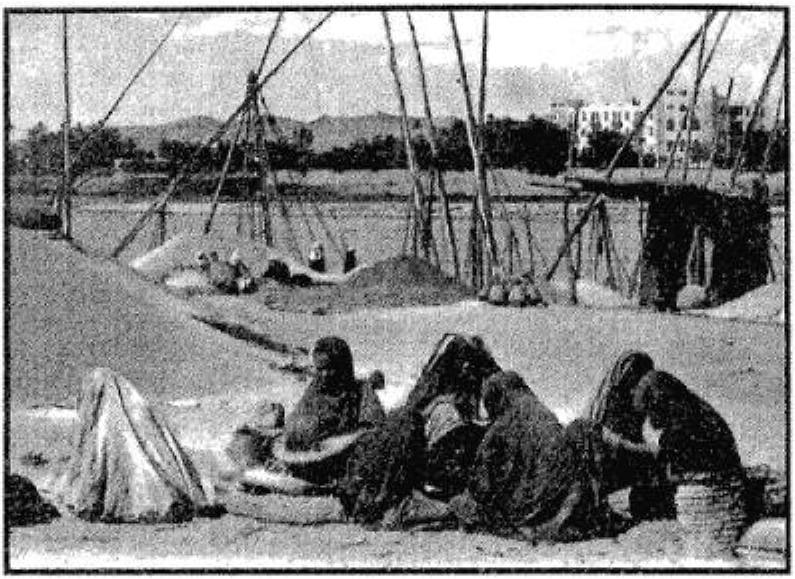
عبده الحامولى

مصطفى النحاس باشا - وهو من هو - فى ذيل طائفة من رجال السياسة، وقال عنه فى موقف مشرف هذه العبارة (مصطفى النحاس قبل أن ينتكس) كأن الرجل قد انتكس فعلا! وما كان أغناه عن هذا الملق الكاذب، وإذا كان جباناً لا يقدر على كلمة الحق الصريح فى هذا البطل، فليعتصم بالسكوت! كذلك ذكر الملك فؤاد مرتين، قال فى إحداها إنه كان يرد المقهى وهو فقير معدم مفلس، فيقابل بالتهكم الخفى! وهذا زور فاضح، لأن الأمير أحمد فؤاد قد ورث عن أبيه ضعف ما ورثته أخته المحسنة البارة الأميرة فاطمة التى أسهمت فى بناء الجامعة المصرية بأكبر مما أسهم به فريق كريم من المتبرعين معا!! ولم

يكن مقامراً حتى يفلس بل كان الأمير أحمد فؤاد هو الرئيس الفعلي لمشروع الجامعة المصرية وقد أمدها بخبراته وكفاءته، والذين ألفوا الكتب الدراسية في الجامعة قبل توليته العرش وبعده قد أهدوه مؤلفاتهم في صدور كتبهم في الصفحات الأولى ومنهم طه حسين ومحمد الخضري وإسماعيل رأفت فلماذا لا يعي المؤلف ذلك، أنا لا أنكر عليه النقد الصائب، فقد كان من حقه أن ينقده عند حديثه عن تأليف الدستور فيقول مثلا إنه عارض رغبة الأمة في أن تكون مصدر السلطات، وتحرش بزعماء الثورة المخلصين على طريقته السياسية المشتهرة ، فلو قال ذلك ما خالفه أحد، أما أن يهوى إلى المخترعات الهابطة التي راجت عنه بعد الثورة فيقول أنه مفلس! ويقابل بالتهكم الخفي من الناس، فهذا نزق كريه! وهذا يذكرني بمن قال عنه في الصحف المنافقة أنهم بحثوا عنه ليولوه العرش فوجدوه في خمارة !! وهذا افتيات.

وقفة مع الفن

في الحديث عن الغناء والمسرح تكلم المؤلف بإيجاز دقيق عن نشأة الشيخ سلامة حجازي وسيد درويش ومحمد عبدالوهاب في المكاتب القرآنية حتى اهتدى إلى موهبتهم من قادهم إلى الظهور، وكذلك تحدث عن أم كلثوم، وما سجله عن المطربين وتاريخ التمثيل والغناء حق صريح، ويستحق أن يكون مرجعاً، لولا أن ميله الشخصي قد دفعه إلى المغالاة الرخيصة في تحقير بعض النابهين، فنحن مثلا لا ننكر الدور القيادي الذي قام به عزيز عيد في بناء المسرح المصري الناشيء، إذ كان أحد الأعمدة التي ارتفع عليها هذا البناء عن جدارة واستحقاق، ولكن المؤلف ترصده في أكثر من صفحة وباب وبالغ في تحقير مظهره الخلقي كأنه هو الذي خلق نفسه، ووصفه بالمشئوم عدة مرات! وأعفي القاريء من تسجيل هذه الهفوات الأليمة حقاً، ولكن أستجير كل الاستجارة ما ذكره من نوادر المطرب الشهير عبده الحمولي رحمه الله، فقد كان مع زعامته الخارقة لمطربي عصره، وفقد المنافس المماثل ذا أريحية نادرة هي في الوقت نفسه زعامة «خالدة» في دنيا الأخلاق الكريمة، إذ كان عطفه على الفقراء ، وتبرعه بأكثر ما يكسب دون نظر إلى طواريء المستقبل مضرب المثل الخارق، ومما ذكره المؤلف من طرائف هذا الفنان، أنه مر ذات أصيل



نساء على ضفاف النيل

فى بعض أزقة الإسكندرية، فرأى امرأتين تتشاجران، وهو مولع بسماع ما تتقاذف به ألسنة العامة فى هذا المجال وبخاصة إذا كانت المتشاجرتان سيدتين شعبيتين، فعلم أن إحداهما كانت ترش الطريق الضيق لتقيم فى الغد حفلة متواضعة لزفاف نجلها، فأصاب جارتها رشاش من الماء، وكانت ذات غل حانق من قبل، فابتدأ الشجار، وقالت الجارة الغاضبة فيما قالت: زفاف إيه! يعنى عبده الحمولى جايلك!! فردت عليها غريمتها، يسمع منك ربنا، مش بعيد عليه،! فتأثر الفنان المتنكر، وتقدم للأم المسكينة قائلاً: خذى ثلاثين جنيها ذهبياً، وأعدى السرادق فى الشارع الكبير، وسيحضر عبده غداً فى المساء فذهلت ولم تكد الحائرة تصدق، ولكن المال الذى لم تحلم بعشره من قبل وقع فى يدها، فسألت من أنت!؟ فقال أنا صديق عبده الحمولى، وأذاع المطرب فى الإسكندرية أنه سيغنى فى مكان كذا غدا، فتوافدت الجموع تسأل، وتأكدت الأم فنصبت السرادق، وحضر الحمولى فصدح بأعذب أغانيه، بأكثر مما كان يطرب فى ليلاته النادرة،

وكانت حفلة ظل جميع الناس يتحدثون عنها ، وقد علموا من الأم حقيقة الأمر، حين سألوا: كيف جاءت بعبده الحمولى على رقة حالها الماثلة، فأجابت بما كان ! إن لفتة الفنان هذه تحمل من المشاعر أضعاف ما تحمل من المروءة، والفنان شاعر أيضا، ومما رواه المؤلف من النوادر الطريفة التى لا يضيق بها هذا المقال لروعة مغزاها الخلقى، أن وزيرا من كبار العلية ، دعا عبده الحمولي لحفلة زفاف ولده الأوحد، وحضر الفنان مع صديقه الأستاذ سليم سركيس، وهو صحافى مرموق، وكان قد تناول أحد الوزراء بنقد عاصف، فلما رآه الوزير المتشامخ فى الحفل، دعا زميله ، وأصر على أن يطرد سركيس من الحفل وإلا انسحب منه، وظن زميله أن المسألة سهلة.. وذهب إلى سليم سركيس يأمره بمغادرة الحفل، وهو مزدحم بالأفواج، وفى الخارج أكثر مما فى الداخل، ولحظ عبدالحمولى خروج صديقه وعلم بما كان، فأمر جوقته بجمع الآلات الموسيقية وصمم على الخروج قبل أن يبدأ، وحاول صاحب الحفل أن يثنيه، فأصر، فقال إذن يمكث سركيس ولا تفضح موقفى أمام الناس فصاح به، لقد حضر معى وفى ضيافتى أنا لا فى ضيافتك، ولن أستمر فى الحفل حتى يطرد الوزير، وتحرج الموقف ، ولم يستجب الفنان إلا بعد انسحاب الوزير المتشامخ زلفى لمشيئة الحمولي، وكانت نادرة تحدثت بها الصحف! أى عظمة خلقية هذه، وأى حمية نادرة المثال!

تقاليد الزفاف

وبمناسبة حديث الزفاف أذكر أن المؤلف أجاد كثيرا فيما تحدث عن تقاليد هذا العصر فى هذه المناسبة، منذ تبدأ الخطبة إلى أن يتم اللقاء فى خاتمة الليلة السعيدة، وقد قال بهذا الصدد عن الطبقات المتوسطة: أن الزواج يكون بوساطة الخاطبة التى تقدم كشفا يحمل أسماء الفتيات المناسبات مع ما يلزم من المعلومات عن العروس وأهلها ودرجتهم المالية والاجتماعية، ثم إذا تم القبول، ووقع الاختيار على إحداهن، ذهبت الأم وعاينت العروس، وعادت لابنها تخبره عن صفاتها كما رأتها، فإذا ارتاح إلى ما سمع وافق على الزواج ولا يرى العروس إلا فى حفلة الزفاف! وهذا إجمال موجز، وأذكر أن الأديب الكبير الأستاذ عبدالعزيز البشرى رحمه الله،



بديعة مصابنى فى ريعان الشباب

قد فصله فى مقالين كبيرين تحت عنوان وكيف كان الشباب يزوجون، فبعد أن وصف مقدمات البحث، والموافقة على اختيار العروس بلغ موقع الاعجاب من القارىء حين

وصف حضور قريبات الشاب وفى مقدمتهن أمه لمعاينة العروس، فقال ببعض التصرف واصفا مشهد اللقاء الأول :

تقدم العروس ومعها فنجان القهوة،

والأنظار تتناهبها من كل جانب، هذه تتوسم وجهها، وهذه تتفقد عنقها وصدرها، وهذه تسرح النظر فى شعرها، وأخرى تلاحظ مشيتها مخافة أن يكون بها عوج، وكل تلاحظ فنجان القهوة فى يدها، هل سالت منه قطرة واحدة تدل على عدم ثباتها ، فإذا أدت التحية، وجلست للامتحان، أخذن يحدثنها لعل فى لسانها حبسة أو عقدة، أو فى أسنانها ما يلفت النظر، فإذا حان الانصراف ولابد أن يحين أقبلن على معانقة الفتاة لا حبا فى العناق بل فحصا عن حالة الصدر، وشما لرائحة الفم، مع الطواف على جميع أنحاء الجسد فى مهارة ليعرفن ما قد يكمن من أسباب الترهل، أو الضعف، وقد يعدن مرة ثانية إذا اختلفت الآراء لمراجعة النظر ! فأى عذاب هذا؟

هذا عن المقدمات، أما حفل الزفاف، فقد يعجب القارىء حين يسمع أنه كان لا يتم على وجهه الصحيح، بدون شجار حقيقى يقوم به فريق من الفتوات، ذكر المؤلف أسماءهن، حيث لكل حى أبطاله المتخصصون فى هذه الحرب الرعناء، ومنهم من قتل فى العراك، وعد قتله استشهادا فى ساحة البطولة، وأعود ثانية إلى الأستاذ عبدالعزيز البشرى فأذكر أنه فصل هذا الإجمال بما لا نكاد نصدقه اليوم لولا أنه حق واقع، فقد قال الأديب الكبير بعد أن وصف نظام الموكب، وطوائف السائرين فى الزفة، ومن يحيط بالعريس من الأصدقاء، وما يقال من الأغانى الشعبية فى هذه المناسبة، قال الأستاذ البشرى :

«فإذا بلغت الزفة الموضع الواقع بين مسجدى الشيخ صالح والحنفى أذن المؤذن بنشوب القتال، وكانت أول عصا تهوى على رءوس الزمارين المساكين، فاكتسبوا مهارة فى اتقاء الضرب بطول التمرين، وكيف يولون الأدبار!

وكان الطبالون أشد هؤلاء عناء، لما يثقلهم من حمل أدوات الطبل، وكثيرا ما تنحرف طبولهم بضربة العصا، ويتلاقى الأقران، فلا ترى إلا عصيا تهوى على الأبدان، فتشق الرءوس وتدق الأصلاب، وتسيل الدماء ولم يكن البوليس ليجرؤ على اقتحام هذه الملاحم، بل كان يولى منها فرارا، ولا يمكن أن يتقدم أحد من هؤلاء الفتوات بشكوى إلى البوليس، ولو أتلفه الضرب وأرداه، إنما ينتظر الانتقام فى عرس



ضاربة الدف



الأعيان والبسطاء فى القاهرة



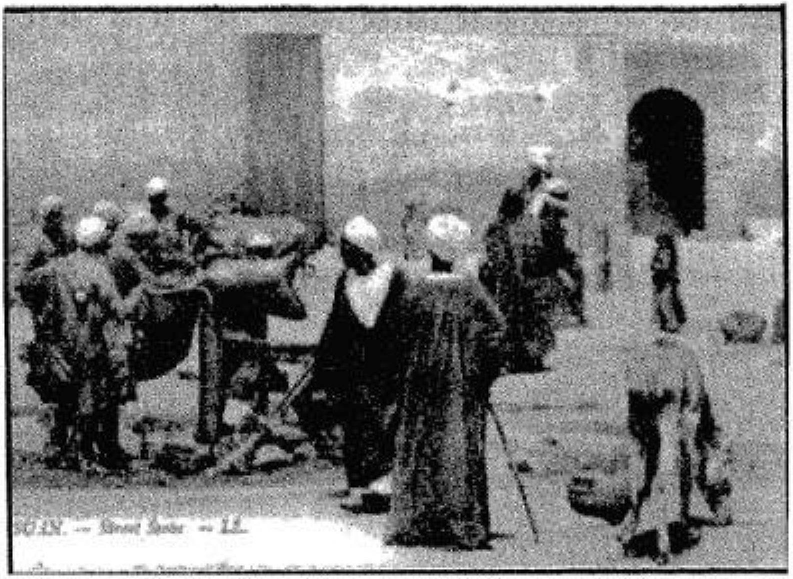
الراقصة والتخت فى وصلة طرب

قادم! أقول بعد تسجيل ما تقدم! أهذه حقيقة أم خيال ! فإن الذى دونه المؤلف والأستاذ البشرى من غرائب الوقائع يذكرنا بقول أحمد شوقي:

تكاد لروعة الأحداث فيها
تخال من الخرافة وهى صدق

أما الشحاذون فأمرهم أعجب، وقد ذكر المؤلف من نوادرهم ما يستغرب ، فهذا العمل الشائن له فن ذو أصول عند هؤلاء فمنهم من يتعامى ، ومنهم من يتعارج، ومنهم من يتأرجح فى مشيته ويهتز كأنه مشلول، ومنهم من يتخارص ويتصامم ومنهم من يستأجر الأطفال الصغار ويعرضهم فى أسمالهم الممزقة ويدعى أنهم أبناؤه وأنه عاجز عن إطعامهم ومنهم من يستغل عاهته فيبرز ساقه المقطوعة، أو ورم قدميه المصابتين، ومنهم من يسر إليك فى استحياء ليوهمك أنه من أسرة أخنى عليها الدهر، ومنهم من يرسل لحيته ويحمل مبخرة ويطوحها فى الهواء مصليا على النبى، إلى صنوف أخرى يضيق المقال عن سردها، وقد استغرق عن هؤلاء عدة صفحات ختمها بطريقة نادرة عن كفيف أعمى البصر كان يقرأ القرآن جالساً بالقرب من عربات الترام فى شارع الخليج المصرى، فإذا مرت عربة قال : إطلع يا نمرة (٧) أو اطلع يا نمرة (٨)، ويجيء الرقم صحيحا، رقم العربة مع أنه كفيف لا يبصر! وأنا أقول: كيف يحدث هذا؛ لأن المؤلف سجل أنه كان لا يخطىء أبداً فى رقم من الأرقام! وحديث البشرى عن الشحاذين أروع وأبدع، ويضيق المقام عن تسجيله، وهو مدون بالجزء الثانى من كتاب المختار، ثم فى كتاب (قطوف) أيضا!! فليرجع إليها من أراد الاستقصاء !

وقد ختم المؤلف كتابه بكلام عن زفة العجم فى موسم عاشوراء، إذ كانت جالية من الإيرانيين بالقاهرة يحتفلون بذكرى الحسين يوم استشهاده، فتغلق أبواب المسجد الحسينى بالسلاسل، ويقوم على حراستها نفر من البوليس ، ثم تبدأ الزفة يتقدمها فرسان أصيلان يمتطيهما صبيان صبيحا الوجه يمثلان الحسن والحسين رضى الله عنهما، وحولهما الصفوف المتراصة من جماعة الإيرانيين، بأيديهم السيوف والسكاكين، يضربون بها وجوههم صارخين، وينادون باسم الحسين باكين، ويواصل الموكب مسيرته مخترقا شارع



«السقاء هكذا كانت توزع المياه

الموسكى، ثم يعود إلى المسجد، والقوم فى نوبة تشبه الجنون، صياحاً وتعذيباً للنفوس بالطعن الدامى، واللكم المتواصل، ثم ينتهى المحفل بالجلوس فى سرادق يتصدره القنصل الإيرانى ووجهاء الجالية ! وقد أبطلت الحكومة هذه الزفة أثناء الحرب العالمية الأولى نظراً لما تجلب من أخطار دامية ولما تجمع من طوائف تصطدم أحياناً بجيش الاحتلال، وأذكر أنى قرأت للأستاذ المازنى وصفا بديعاً لهذا المشهد وقد زاد على ما قاله الأستاذ محفوظ بأن السرادق توزع فيه أكواب من الماء الساخن المذاب فيه نوع من الملح المر، ليكون بمذاقه اللاذع تعبيراً عن الأسى الفاجع! ويشربه الإيرانيون دون نفور وكأنه شهد مذاب!!

وبعد، فهذه بعض الإشارات الدالة على المجتمع القاهرى فى أواخر القرن التاسع عشر، إلى ما يقرب من منتصف القرن العشرين، والقاهرة الجميلة هى القاهرة التى كانت أكبر ما تمناه شوقى حين قال :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى ■

التراث المعماري

لمدينتي القاهرة وباريس

بقلم
د. فتحي صالح



١٤٠



يمثل التراث المعمارى لمنطقة وسط المدينة بالقاهرة قيمة معمارية خاصة، نتيجة أنه نشأ فى فترة تزاوج معمارى فريد بين القاهرة وباريس، وذلك فى فترة حكم إسماعيل باشا عندما قام بالالتقاء بالبارون أوسمان مؤسس باريس الحديثة فى منتصف القرن التاسع عشر ويتم أوسمان توثيق هذا التراث المعمارى القيم لمنطقة وسط المدينة كخطوة أولى فى عملية الحفاظ على تراثنا القومى.

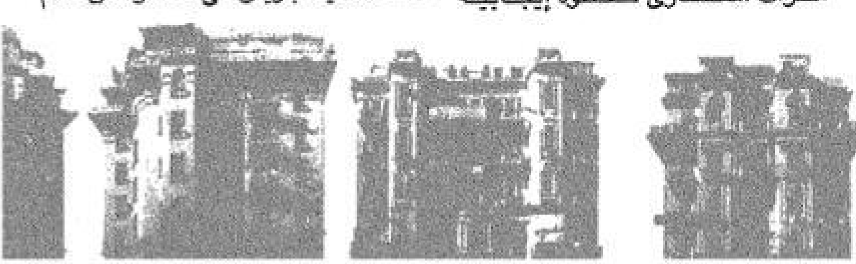
يتميز تراث مصر الحضارى بقيمة عالمية خاصة، وذلك نظرا للاستمرارية التاريخية التى يتمتع بها عبر آلاف السنين وقد نشأت فى مصر جوانب مختلفة للحضارة تعكس تطور التراث الحضارى منذ عصر ما قبل التاريخ وعبر العصور الفرعونية والرومانية والإغريقية والقبطية والإسلامية والحديثة لذا يعتبر هذا التراث ذا قيمة قومية وعالمية متميزة، كما أن الآثار المصرية تمثل نسبة عالية من مجمل التراث العالمى.

تزخر القاهرة بثراء معماري متميز تراكم عبر القرون، منذ أن أصبحت عاصمة مصر في عام ٩٦٩ ميلادية ولقد شهدت السنوات ما بين ١٨٦٠ و١٩٤٠ تطور منطقة وسط المدينة على غرار ما حدث في مدينة باريس في نفس الحقبة حتى سميت القاهرة وقتها بباريس الصغيرة وقد تميز هذا التطور بنقلة معمارية فريدة امتزجت فيها الطرز الأوروبية الكلاسيكية والجديدة بالعناصر الشرقية، مما أضفى على عمارة تلك الفترة ثراء لا يضاهى. وقد كثرت في الآونة الأخيرة دراسات متفرقة تمثل مجهودات جديرة بالاهتمام لتوثيق تاريخ مدينة القاهرة وتراثها المعماري.

ويقوم مشروع التوثيق على استخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) التي تسمح للباحث باستخدام قاعدة بيانات تقوم بتوقيع المباني على خريطة رقمية للقاهرة ويمكن للجهات المعنية أن تستخدم قاعدة البيانات للأغراض المتعددة حيث أنها مصممة لكي يتيح لمتخذي القرار والمعماريين والمتخصصين ومؤرخي الفن، المعلومات اللازمة لهم وأخيرا يمثل هذا المشروع أداة تساعد على تنمية الوعي العام بأهمية هذا التراث المعماري كخطوة إيجابية للمساهمة في خطة التوثيق للتراث الحضاري المصري بغرض الحفاظ عليه.

قصة مدينتين

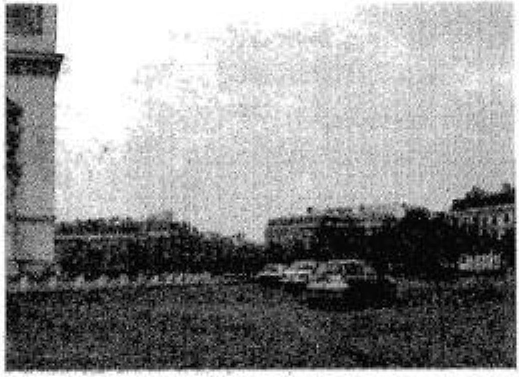
هناك علاقة عمرانية وتاريخية خاصة تربط بين باريس وقاهرة القرن التاسع عشر فبعد أن قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر، مرت فرنسا وخاصة باريس بصفتها العاصمة بفترة من عدم الاستقرار والحروب والإضرابات والثورات، وضح معها عند وصول الإمبراطور نابليون الثالث للحكم في عام ١٨٥٢ أي بعد ثورة ٢ فبراير ١٨٤٨، أن باريس بشوارعها الصغيرة والملتوية في حاجة لإقامة نظام دولة وأمن مستتب، وذلك نظرا لسهولة إقامة المتاريس في مثل هذه الشوارع الضيقة. كما أن هذه الفترة كانت بصفة عامة فترة نهضة عمرانية في أوروبا لتجميل العواصم المختلفة مثل ما حدث في فيينا عاصمة النمسا وبروكسل عاصمة بلجيكا ولشبونة عاصمة البرتغال، لذا كان مع بدء الجمهورية الثانية في فرنسا تحت إمرة نابليون الثالث، أن بدأت حملة لتجديد وإعادة تخطيط باريس وإنشاء الشوارع العريضة (البولفارات) فقام نابليون الثالث بتعيين البارون أوسمان Le Baron Haussmann عمدة لمدينة باريس في الفترة من عام



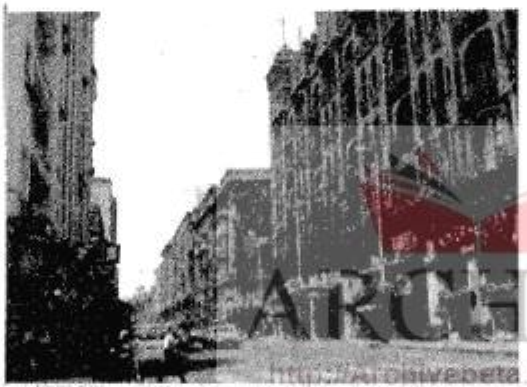
١٨٥٣ حتى عام ١٨٧٠ أى على مدى سبعة عشر عاما. ويعزى إلى «البارون أوسمان» تخطيط باريس بصفة عامة على ما نراها عليه اليوم، وما تم من وضع قوانين تنظيمية للعمران تصل إلى حد تحديد ارتفاعات المبانى بستة أدوار، وتحديد مواصفات العمارات بطريقة مفصلة تصل إلى حد توصيف نظام البلكونات بحيث تكون بعرض المبنى على مستوى الطابقين الثانى والخامس من كل عمارة فى حين تبقى الطوابق الأخرى ببلكونات صغيرة منفصلة.

وتشتهر باريس «البارون أوسمان» بصفة عامة بالتخطيط الدائرى Circu-lar بمفهوم ميادين دائرية تنطلق منها العديد من الشوارع، وأبرز مثال على ذلك ميدان شارل ديجول - إيتوال الذى يوجد به قوس النصر ويطلق عليه اسم إيتوال Etoile أى النجمة لأنه يشبه النجمة التى ينطلق منها الإشعاع فى كل اتجاه. فمن هذا الميدان ينطلق اثنى عشر شارعا عريضا (بوليفار) كما اهتم البارون أوسمان كذلك بالمتنزهات الصغيرة داخل المدينة وأبرزها حديقة لوكسمبورج Luxembourg والمتنزهات المتسعة على أطراف المدينة وأبرزها غابة بولونيا.

وكل من يزور باريس يلاحظ وجه الشبه بينها وبين تخطيط وسط المدينة فى القاهرة أو قاهرة إسماعيل باشا حيث الميادين التى تشع منها الشوارع مثل ميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) وميدان مصطفى كامل (عماد الدين سابقا) وكذلك تنسيق العمارات القائمة فى هذه المنطقة ووجود حديقة الأزبكية فى وسط المدينة وحدائق الأورمان والحيوان فى أطراف المدينة.



ميدان شارل ديجول الذى يوجد به قوس النصر



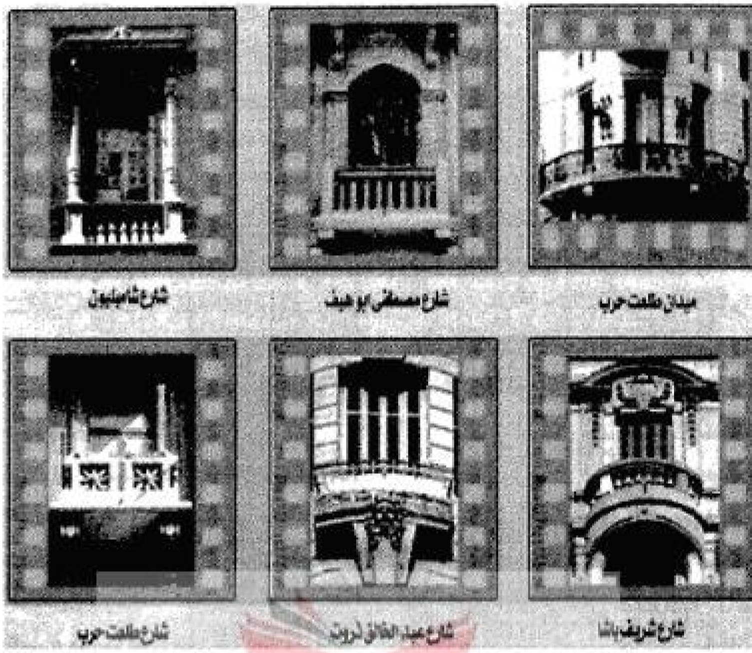
عمارة القاهرة تشبه باريس الى حد كبير

فعند تولى الخديو إسماعيل الحكم فى عام ١٨٦٣ كانت الدولة مشغولة بصفة خاصة بمسألة إتمام مشروع حفر قناة السويس، الذى كان مقررا أن يتم افتتاحها فى عام ١٨٦٩. ولما كان الخديو إسماعيل على دراية بما يدور فى عواصم أوروبا من إعادة تخطيط لعواصمها فى حين أن القاهرة أصبحت مدينة ليست على نفس المستوى، خاصة وأنها على أبواب احتفالات افتتاح قناة السويس، وذلك بالمقارنة بالعواصم الأخرى. ومن ثم فإن الخديو إسماعيل قام برحلة لزيارة باريس فى عام ١٨٦٧، وذلك فى طريقه إلى اسطنبول لحضور المعرض الدولى المقام فى باريس والذى شاركت فيه مصر لأول مرة وكانت هذه الزيارة قبل عامين من افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ ولما كانت مصر تستعد لهذه الاحتفالات وتستعد لاستقبال شخصيات عالمية مرموقة، فقد برزت فكرة أن القاهرة ينقصها بجانب التخطيط العمرانى الحديث، وجود قصور مناسبة لنزل هذه الشخصيات ولم يكن بها وسائل الترفيه على غرار ما يوجد فى دول أوروبا من مسارح ودور أوبرا وقهاو كبيرة وأرض سبق خيل وخلافه. ولذا فقد انتهز الخديو إسماعيل فرصة زيارته لباريس ومشاهدة ما يجرى فيها من تحديث واجتمع «بالبارون أوسمان» الذى اقترح عليه الاستعانة بالعديد من المهندسين ومصممى الحدائق والمتنزهات العامة الفرنسيين الذين شاركوا فى تخطيط باريس وقد تم بالفعل التعاقد مع كل من السيد باريه ديشام Barillet De-schamps ليكون مديرا عاما للمتنزهات والحدائق بالقاهرة والسيد جران P. Grad ليكون مسئولا عن البنية التحتية بالقاهرة وذلك تحت إدارة على باشا مبارك الذى تم تعيينه فى عام ١٨٦٨ وزيرا للأشغال العامة والأوقاف.

ومن هنا يتضح أن الخديو إسماعيل استعان بالبارون أوسمان فى استشارات عامة واقتراح أسماء فنيين فرنسيين يعملون بالقاهرة دون أن ينشغل هو شخصيا بالاشتراك فى هذا المشروع ولذا فليس من الغريب أن تخرج قاهرة إسماعيل باشا والتى تمتد من شارع الخليج المصرى (بورسعيد حاليا) حتى شاطئ النيل على غرار باريس البارون أوسمان من حيث التخطيط والتجميل والقوانين المعمارية أى أن باريس والقاهرة تم تنسيقهما عمرانيا فى نفس العصر تقريبا.

إلا أننا لو تتبعنا ما طرأ على باريس من تغييرات عمرانية منذ تلك الفترة حتى الآن وما طرأ على القاهرة فستجد أن





نماذج من عمارة القرن الماضى لشوارع وسط القاهرة

المدينتين سارتا فى اتجاهين مختلفين.

مظاهر التنسيق العمراني لباريس

أصبحت باريس الآن من أكثر عواصم العالم مزارا للسياح حيث بلغ عدد السائحين القادمين لفرنسا ما يزيد على ٦٠ مليون سائح معظمهم يزورون باريس.

والعامل الرئيسى فى ذلك بجانب الثراء الثقافى لهذه المدينة هو الحفاظ على تراثها المعمارى على مر الزمن بل وتحسينه وتجميله خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

قوانين المباني

من أهم بنود التنسيق الحضارى المعمارى بباريس احترام القوانين المنظمة لهذه المبانى ولذا احتفظت باريس بمظهرها العام على مر القرنين الماضيين فعندما تمر بشوارع باريس بصفة عامة تجد المبانى على ارتفاع

واحد بل وفى معظم الأحيان يغلبها طراز معمارى واحد حتى أنه عندما تم بناء برج إيفيل فى نهاية القرن الماضى كنصب مؤقت لمعرض باريس الدولى بمناسبة مرور مائة عام على الثورة الفرنسية فقد قامت الدنيا وقعدت لهذا البرج العالى الذى يشوه تنسيق باريس لولا أنه مع الوقت بدأت أصوات أخرى تنادى بالحفاظ عليه نظرا لقيمته التصميمية كنصب هندسى من الحديد فريد من نوعه فتم الحفاظ عليه وأصبح مع الوقت رمزا لباريس.

ولك أن تشاهد كيفية إضاءة هذا الصرح الآن بطريقة ليس لها مثيل بحيث يصبح فى ظلام الليل قطعة من الدانتيل البديعة المنظر وليصبح هذا البرج مزينا لباريس بدلا من أن يكون مشوها لها.

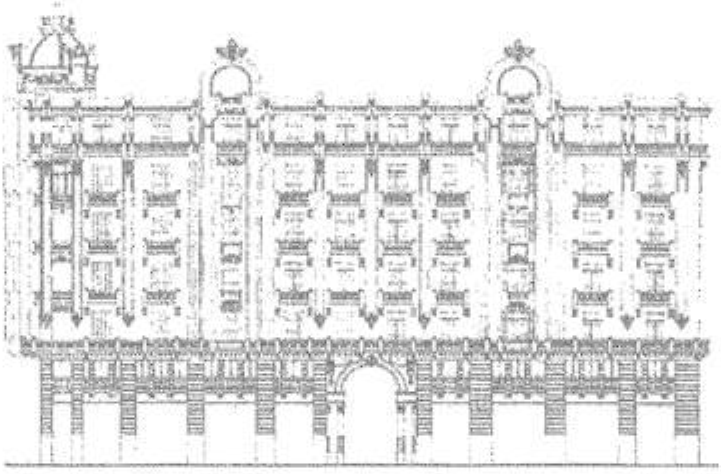
مسئول للتنسيق المعماري بكل حي

أحد العوامل المهمة التى تم من خلالها السيطرة والحفاظ على التراث المعمارى فى باريس، أن الدولة عينت فى كل حى مهندسا مسئولا على مستوى فنى عالٍ للتنسيق الحضارى والمعمارى فعلى سبيل المثال إذا أراد شخص أن يبنى عمارة جديدة، فلابد أن تعرض الرسومات على المهندس المسئول ليرى إذا كانت واجهة العمارة المقترحة تتماشى مع واجهات العمارات الأخرى الموجودة فى الشارع أم لا، بل إلى حد أنه إذا أراد شخص أن يغير شباكا موجودا فى عمارة قائمة بالفعل، فعليه أن يقدم رسومات هذا التغيير إلى المهندس المذكور ليرى إذا كان هذا التغيير سوف يشوه من واجهة هذه العمارة أم لا، وإذا ما رفض الاقتراح يقوم المهندس بعرض حلول بديلة على صاحب الشأن.

كلية خاصة للتنسيق المعماري

بجانب وجود كليات الهندسة المعمارية العادية المناظرة لما هو موجود فى الدول الأخرى فإن هناك كلية خاصة يدخلها خريجو الهندسة المعمارية الذين يريدون التخصص فى هندسة التنسيق والترميم المعمارى «مدرسة شايوه Ecole de Chaillot»، وهى تختص بدراسة تاريخ العمارة وهندسة المدن والقرى والقوانين المنظمة لها وكذلك هندسة ترميم المبانى الأثرية والتاريخية. وفى الواقع فإن خريجى هذه الكلية يمثلون الكادر الرئيسى القائم لعنصرى المهندسين المسئولين عن التنسيق المعمارى بكل حى والمهندسين المسئولين عن ترميم الآثار والمبانى التاريخية.





رسم تخطيطي لشكل العمارة فى شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

واجهات العمارات عند هدمها

هناك بعض العمارات وخاصة فى وسط المدينة أصبحت جزء من تراث المدينة المعمارى يتم الحفاظ على واجهاتها بأى ثمن حتى لو تم هدم العمارة سواء لأسباب فنية أو أسباب تجارية والمثال الجيد على ذلك هو فندق الماريوت الذى تقرر إقامته فى وسط شارع الشانزليزيه الشهير على أن يحتل عمارتين ملتصقتين إحداهما تطل على الشانزليزيه والأخرى تطل على شارع خلفى مواز فقد تم الاحتفاظ بواجهتى العمارتين على ما هما عليه، وتم إعادة بناء الفندق من الداخل بالكامل، وقد أصبح هذا الفندق مزارا خاصا وشاهدا على كيفية الحفاظ على التراث المعمارى للشارع العظيم مع إقامة مشروع استثمارى عالمى.

معلوماتية الشوارع

المقصود بمعلوماتية الشوارع فى المقام الأول: إنشاء نظام المعلومات الذى يغطى كل الشوارع والمنازل حتى يتسنى للمواطن العادى أن يصل إلى أى عنوان بسهولة ويسر. ولكن هناك مستوى ثانى للمعلومات وهو أن تعطى هذه المعلومات مدلولا أكثر عن هذه المبانى.

وعلى نطاق المستوى الأول من المعلومات فإنه لا يوجد منزل فى باريس ليس عليه رقم ولا توجد ناصية فى أى شارع ليس عليها اسم الشارع وهذه هى البنية الأساسية لمعلوماتية الشوارع.

أما المستوى الثاني فله أبعاد كثيرة:
أولها أن لافتات الشوارع التي توجد على كل ناصية، لا تحمل فقط اسم الشارع وإنما تحمل في معظم الأحيان اسم الحي ويزيد على ذلك أنه عندما يكون الشارع قد سمي على اسم شخصية عامة فإن الافتة تحتوي أيضا على معلومات أساسية عن هذه الشخصية وعلى سبيل المثال فإنك ترى أن شارع اميل زولا يحمل لافتة على الوجه الآتي:

الحي الخامس عشر
شارع اميل زولا
١٨٤٠ - ١٩٠٢
كاتب وناقد

وهو ما يوضح بطريقة سريعة أن هذا هو شارع اميل زولا بالحي الخامس عشر وأن اميل زولا ولد سنة ١٨٤٠ وتوفى سنة ١٩٠٢ وأنه كان يعمل كاتبا وناقدا.

وفي هذا المستوى من المعلوماتية فإنك ترى خريطة بالحجم الكبير (حوالى متر × متر) عند النواصي المهمة للحي وموضح عليها بطريقة واضحة موقع هذه الناصية من الخريطة.

أما الجانب الثاني من معلوماتية الشوارع هو وجود مربع من الرخام على بعض المنازل التي أقام فيها بعض الشخصيات العامة توضح أن هذه الشخصية قد أقامت في هذا المنزل في فترة معينة وعلى سبيل المثال فإن المنزل الذي أقام به فولتير في نهاية حياته، عليه لافتة تقول:

أقام في هذا المنزل
الكاتب فولتير
الذي ولد في باريس
في ٢١ نوفمبر ١٦٩٤
وتوفي في هذا المنزل
في ٣٠ مايو ١٧٧٨.

وأما النقطة الأخيرة في هذا المستوى من المعلوماتية هي المعلومات العامة عن المباني الأثرية والتاريخية والخاصة فقد صممت محافظة باريس عمودا خاصا له شكل جمالي به لافتة بيضاوية الشكل تقريبا توضع أمام كل مبنى له قيمة أثرية أو تاريخية أو حتى قيمة خاصة مثل بعض المباني العامة عليها نص مكتوب يوضح قصة هذا المبنى ويحكي تاريخه في عدة سطور.

العودة إلى القاهرة

وأما إذا حاولنا المقارنة بين ما تم بباريس وما تم بالقاهرة فإن باريس البارون أوسمان قد تم تنسيقها في قلب باريس القديمة مع امتدادها إلى خارج حدودها القديمة حيث كان بها اثنى عشر حيا ليصبح الإجمالي عشرين حيا.







معلوماتية الشوارع في باريس تضح في اللافتات التي تحمل معلومات وافية عن اسم الشخصية أو المكان

وقد بقيت باريس على الحدود التي رسمها البارون أوسمان حتى وقتنا هذا (أي بعد مرور ١٥٠ عاما) وهي الحدود التي يرسمها الآن الطريق الدائري لباريس وأما قاهرة الخديو إسماعيل فقد بنيت خارج حدود القاهرة القائمة في ذلك الوقت (والتي يحدها شارع الخليج المصري) في أراض كان يغمرها النيل أثناء الفيضان فتم بناء جسر للنيل وتم ردم هذه الأراضي (وهو مشروع بدأ منذ عهد محمد علي) وتم إقامة المدينة الجديدة على هذه الأراضي وبالتالي فإن تخطيطها كان أسهل في التنفيذ من باريس البارون أوسمان.

إلا أن القاهرة كما هي معروفة في أوائل هذا القرن فقد تم اتساعها في اتجاهات مختلفة بإنشاء مدينة مصر الجديدة في الثلاثينات وإنشاء مدينة نصر في الستينات كما امتدت التوسعات في الجانب الآخر من النيل أي مدينة الجيزة لتشمل إنشاء مدينة المهندسين والمدن المهنية الأخرى الملحقة (الزراعيين، الصحفيين، الأطباء...) والتي بدأت بفكرة إنشاء فيلات ثم انهارت المعايير لتنتقل هذه المنطقة من فيلات إلى عمارات ويكفي أن نعرف أن تعداد القاهرة في نهاية القرن الماضي يساوي بالتقريب تعداد القطر المصري بأكمله في منتصف القرن الماضي (حوالي ١٨ مليون) لنعي السبب في انفجار العمران بمدينة القاهرة ولكن الشئ الغريب أن وسط المدينة احتفظ إلى جانب كبير بتنسيقه المعماري المتميز

ويبدو أن هذا التنسيق المتميز هو الذى حماها من الانهيار المعمارى مثل الذى حدث فى مدينة المهندسين ومصر الجديدة.

ومن الواضح أن منطقة وسط المدينة تحتاج لجهود أقل من التنسيق لتصبح على مستوى أفضل، مثل قوانين الحفاظ على تراث هذه المنطقة وقوانين تنظيف المبانى وقوانين معلوماتية الشوارع وتنسيق نظام لافتات المحلات التجارية الموجودة أسفل العمارات والمكاتب والعيادات الموجودة بالأدوار العليا، بالإضافة إلى تنظيم المرور بالمنطقة والتى تعتبر من أحسن المناطق فى القاهرة بصفة عامة احتراما لقوانين المرور.

توثيق التراث المعمارى

والآن نستعرض معا مكونات المشروع الحالى لتوثيق عمارة قاهرة وسط المدينة أو قاهرة إسماعيل باشا والهدف من المشروع هو توثيق التراث المعمارى لمنطقة وسط المدينة عن طريق استخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) سعيا لجمع وتنسيق المجهودات المبذولة من قبل عدد من الباحثين والجهات المعنية من أجل حصر الأبنية ذات الطابع المعمارى الخاص وتوقيعها فى صورة رقمية على خريطة حديثة للمنطقة وبناء قاعدة بيانات لاستعراض المعلومات المختلفة الخاصة بكل مبنى على أن يمتد هذا المشروع فى السنوات القادمة ليشمل المناطق الأخرى من القاهرة.

وتلبى قاعدة البيانات احتياجات مختلف المستخدمين لما تحتويه من معلومات وفيرة فتشتمل على معلومات جغرافية كعنوان العقار واسمه والشياخة والقسم التابع لهما، ومعلومات تاريخية كسنة الإنشاء، وأخرى معمارية كالطراز المعمارى للعقار واسم المهندس المعمارى وتحتوى قاعدة البيانات استخدامات العقار الحالية ونوعية الأنشطة بالدور الأرضى، وأيضا تشمل بيانات العقار صورة حديثة له تبين الواجهة الرئيسية وتبين حالته الإنشائية.

وينفرد هذا المشروع بتجميع وتنسيق وطريقة عرض جديدة لبيانات تاريخية مثل تسلسل ملكية العقار، ولتحليل الواجهات من حيث العناصر المعمارية المستخدمة (شكل رقم ١٠) مع إعطاء نبذة عن مختلف الطرز المعمارية مما يمكن أن يفيد مختلف الفئات المستهدفة من باحثين فى مجالات التاريخ والعمارة والفنون، كما تعد تلك القاعدة دليلا إرشاديا إلكترونيا لأنها تحتوى على أسماء وعناوين واستخدامات





احتفظ وسط مدينة القاهرة بتنسيقه المعمارى

المباني والأنشطة التجارية المختلفة.

وفي إطار توثيق منطقة وسط المدينة تمت عملية إعادة بناء للواجهات الممتدة على طول المحاور الرئيسية باستخدام برنامج خاص بالرسم وبالوسائط المتعددة (multimedia) لإعطاء الباحث تجربة واقعية، كما لو أنه قام بعمل نزهة حيث تتيح تلك العملية للمستخدم تصور الارتفاعات المختلفة للمباني وتصور نسب الفتحات في الواجهات من أبواب وشبابيك والتعرف على المواد المستخدمة وأيضا نسب عروض الشوارع لارتفاعات المباني وفيما يتعلق بالشوارع المحصورة بالمنطقة فتحتوى قاعدة البيانات على الأسماء الحالية والسابقة مع أسباب تسميتها وكذلك الحقبة التاريخية التي خططت فيها.

ويمكن للجهات المعنية أن تستخدم النظام كمرجع في أغراض الترميم والتطوير وإعادة استخدام المبنى حيث أنها تتيح للباحث استعراض الصور القديمة والحديثة للمبنى وكذا الرسومات المعمارية من مساقط أفقية وواجهات وقطاعات وأما فيما يتعلق بالمشاريع الخاصة بالارتقاء بالبيئة العمرانية والطبيعية فيمكن الاستعانة بما تحتويه قاعدة البيانات من معلومات قيمة.

وأخيرا يمثل هذا المشروع أداة تساعد على تنمية الوعى العام لأهمية هذا التراث المعمارى كخطة إيجابية للمساهمة في خطة توثيق التراث بغرض الحفاظ عليه وذلك ضمن رسالة المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى.■

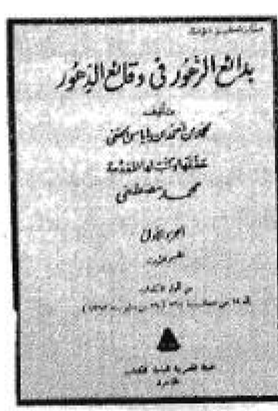
من ذخائر الكتب العربية

بدائع الزهور في وقائع الدهور

لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي

دفتر أحوال الدولة المصرية في عهد المماليك

بقلم
د. نبيل حلمي محمود


بدائع الزهور في وقائع الدهور
تأليف
محمد بن أحمد بن إياس الحنفي
حققها وكتب لها المقدمة
محمد مصطفى
الجزء الأول


بدائع الزهور في وقائع الدهور
الفهارس

بهرني ما وقع بيدى فى سنوات الدراسة الثانوية والجامعية من مطبوع كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى ما حفل به من أحداث تاريخية وما تميز به من منهج بحثى انفرد به بين سائر الموسوعات التاريخية، إضافة إلى ما اختص به أسلوب مؤلفه محمد بن أحمد بن إياس الحنفى من سمات ضاعفت على الدوام من أعداد قرائه ومن إعجابهم به، إننى مازلت أشعر حتى الآن بلوعة الأسى الذى ملأ قلبى قبل سنوات عديدة.. عندما قرأت وصف ابن إياس المبهر المبكى - فى القسم الثانى من الجزء الأول من الكتاب - لسقوط دمشق أمام جيش الغازى المغولى تيمور لنك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٠٣ هـ، والذى تلاه وصف ابن إياس لسقوط بغداد بيد نفس الفاتح فى شهر ذى الحجة من نفس السنة، لم يتبدد من النفس أساها بمتابعة ما أورده ابن إياس على طول كتابه من أحداث، حتى ضاعف ابن إياس أسى النفس بمزيد من الهم.

عندما قدم بقلمه وصفا ـ تعجز عنه آلات التصوير فى أيامنا هذه - لهزيمة جيش مصر بقيادة السلطان قانصوه الغورى أمام جحافل العثمانيين بقيادة سليم شاه بن عثمان بمرج دابق فى صباح الأحد الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ، يقدم ابن إياس صورة بانورامية لما حدث فى مرج دابق تحفل بالألوان والأصوات والحركة بما يلقى فى روع القارئ أنه يشاهد فيلما ولايقرأ نصا، إذ يهتم ابن إياس بوصف هيئة الجيش فى ذلك الصباح الحزين ويتحدث عن ترتيب وقوف القادة، من كان على يمين السلطان ومن جاء موقفه إلى يساره، يدقق ابن إياس فى إثبات ما ارتداه الغورى وقادته فى ذلك الصباح من ثياب.. أنواعها وألوانها، يتحدث عن الصناجق (الأعلام) المشرعة فوق رؤوس القادة والجنود، ولا يفوته ذكر الأربعين مصحفا المرفوعة فوق رؤوس الأشراف المحيطين بالغورى، ويشير إلى أن بين هذه المصاحف مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه، هكذا يمضى ابن إياس يتنقل بقلمه فى سهل مرج دابق لا تفوته أدق التفاصيل لما حدث يومها، حتى يصل إلى مشهد ختام المعركة ليلخص فيه ماحل بجيش مصر فيقول فى الصفحة رقم ٧١ من الجزء الخامس : «فداسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول، وفقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء

وصناجق الأمراء، ووقع النهب في عسكر مصر، وزال ملك الأشرف الغوري في لمح البصر . فكأنه لم يكن».

أين مشهد الهزيمة البائس في مرج دابق من مشهد الخروج المختال لجيش الغوري في ذلك الصباح ليوم الاثنين عاشر ربيع الآخر من سنة ٩٢٢ هـ ؟.

المؤلف

ولد محمد بن أحمد بن إياس الحنفي بالقاهرة في شهر ربيع الآخر من سنة ٨٥٢ هـ - (١٤٤٨م)، كان والده هو أحمد ابن الأمير إياس الفخري.. أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق والذي ترقى حتى شغل منصب الدوادار الثاني، بينما كانت والدته هي حفيدة الأمير أزدمر العمري المعروف بأبي ذقن .. والذي تقلد وظائف الخازندار وأمير سلاح ومقدم ألف في السلطنة الثانية للناصر حسن وفي سلطنة الأشرف شعبان، لذلك ينسب محمد بن أحمد بن إياس إلى فئة «أولاد الناس» التي ضمت الأمراء الذين خرجوا من مناصبهم وأبناءهم من بعدهم، وهي الفئة التي كانت تعيش على إقطاع يمنحه السلطان لأفرادها نظير قبولهم الدخول في عداد الجيش عند الحروب والأزمات، ولقد حقق انتماء ابن إياس الطبقي له ثلاث ميزات ساهمت في إعطاء كتابه الكثير من سماته، إذ كفل له الإقطاع الذي ورثه عن أبيه وجده استقلالا ماديا حقق له التفرغ للكتابة وساهم في إمداده بالعديد من المراجع التي تفيض بها صفحات كتابه، أما الميزة الثانية.. فإنها تمثلت في قربه من دوائر بلاط القلعة وسبره لدهاليز نظام الدولة الإداري، وهو ما منح كتابه ثراء لا حد له فيما حواه من معلومات عن نظام الحكم والسياسة الإدارية لدولة المماليك يندر أن يجد القارئ لها مثيلا في الموسوعات التاريخية الأخرى التي اعتنت بنفس الحقبة الزمنية، ومما هو جدير بالذكر أن إقطاع ابن إياس هذا كاد أن يسلب منه في إحدى موجات المصادرات التي لجأ إليها السلطان قانصوه الغوري كثيرا كوسيلة لجمع المال، حدث ذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٩١٤ هـ، ولكن سعي ابن إياس لاستعادة هذا الإقطاع.. كلل بالنجاح فيما بعد، أما الميزة الثالثة والأخيرة لانتماء ابن إياس إلى فئة «أولاد الناس».. فإنها تتمثل في اندماج هذه الفئة بعامة الشعب المصري، مما انعكس على الروح الشعبية واللجوء إلى العامية اللتين وسمتا حكاياته وأسلوبه .

يعد كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» أهم ما ألف ابن إياس من كتب، وهو الذي حقق لاسمه الخلود، لكنه لم يكن مؤلفه الوحيد خلال عمره الذي بلغ حوالي خمسة وسبعين عاما (توفي سنة ٩٣٠ هـ)، إذ أمكن إحصاء أربعة من الكتب من تأليفه وهي : «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» وتحمل نسخة دار الكتب المصرية منه اسم «خريدة العجائب وبغية الطالب» - «عقود الجمان في وقائع الأزمان» - «مرج الزهور في وقائع

الدهور» و«نزهة الأمم فى العجائب والحكم» ، وقد قام ابن إياس بالتنويه عن الكتاب الأخير فى الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الثالث من كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، وإن كانت الكتب الثلاثة الأخيرة مفقودة الآن لم يصل إلينا منها شىء.

المنهج

يستطيع قارئ الكتاب أن يستشف المنهج الذى اعتمده ابن إياس فى إعداده، وإن كان ابن إياس قد أشار إلى هذا المنهج فى مقدمته التى صدّر بها الجزء الرابع من الكتاب، فقد أراد ابن إياس كما أوضح فى تلك المقدمة أن يضع تاريخا لمصر لا هو «بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل» وذلك بنص قوله ، يحوى هذا التاريخ أخبار مصر ومن ملكها من مبتدأ الزمان، وحتى يتحقق ذلك يقول ابن إياس فى تلك المقدمة التى جاءت فى بداية الجزء الأول من طبعة الكتاب الأخيرة : «وقد طالعت على هذا التاريخ كتبا شتى، نحو سبعة وثلاثين تاريخا، حتى استقام لى ما أريد».

لذلك يمكن تقسيم الكتاب إلى قسمين رئيسيين: ضم أولهما تاريخ مصر منذ بدء الخليقة ـ كما تصور ابن إياس – وحتى سنة ٨٧٢ هـ عندما أتم المؤلف العشرين من عمره، وقد استغرق هذا القسم كلا من الجزءين الأول والثانى من الكتاب، بينما اشتمل القسم الثانى ـ الذى شغل الأجزاء من الثالث إلى الخامس ـ على تاريخ مصر فيما بين سنة ٨٧٣ هـ وسنة توقف ابن إياس عن تدوين تاريخه وهى سنة ٩٢٨ هـ .

جاءت رواية ابن إياس فى القسم الأول من الكتاب اعتمادا وتلخيصا لكتابات سابقيه من مؤرخين، ونظرا لما اتصف به ابن إياس من أمانة علمية ودقة بحثية، فإنه يذكر دائما أسماء من نقل عنهم من مؤرخين سابقين ويشير إلى ما استعان به من كتب، فمن المؤرخين السابقين يذكر ابن إياس أسماء مثل : بدر الدين محمود العينى ـ عبدالله بن عبدالحكم ـ أبو عمر محمد بن يوسف الكندى – الحافظ ابن عساكر ـ احمد بن يوسف التيفاشى – ابراهيم بن وصيف شاه – شمس الدين بن خلكان – شهاب الدين بن أبى حجلة – جلال الدين عبدالرحمن السيوطى – إبراهيم بن دقمان وشهاب الدين بن حجر العسقلانى، ومن الكتب التى ذكر ابن إياس أنه نقل عنها بعض ما ورد من أحداث بالقسم الأول من الكتاب نذكر : شرح مقدمة «تذكر أولى الألباب فى أصول الأنساب» لابن أبى الغنائم الحسينى ـ «الأقاليم» لابن حوقل ـ «العبر» و«دول الإسلام» لشمس الدين الذهبى ـ «المستجاد من فعلات الأجواد» لعبد المحسن التنوخى ـ «تاريخ مصر» لعز الملك بن المسبحى ـ «الخطط» لتقىّ الدين المقريزى ـ «السكردان» لشهاب الدين بن أبى حجلة ـ «المسالك» لابن فضل الله العمرى و«زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» للأمير بيبرس ركن الدين المنصورى.

أما فى القسم الثانى من الكتاب .. فإن رواية ابن إياس للأحداث جاءت من مشاهداته المباشرة لها أو نقلا عن شهود

عيان أو رواة للأحداث، لذلك اختفت من هذا القسم تقريبا أسماء المراجع التى كانت عماد روايته للقسم الأول، كانت رواية ابن اياس فى القسم الثانى من الكتاب تتناول أحوال الدولة المصرية بشكل منتظم كاد أن يكون يوميا، وهو ما أكسب هذه الرواية قيمتها وتفرّدها بين ما وصل إلينا من روايات تاريخية عن تلك الحقبة التى جاوزت نصف القرن وشهدت العديد من الأحداث التى غيرت تاريخ مصر والمنطقة، ولما كان ابن إياس منتميا إلى فئة «أولاد الناس» التى شكلت طبقة وسطى أو فاصلة بين طبقة الأمراء ورجال الدولة وطبقة عامة الشعب، فإن روايته للتاريخ فى هذا القسم جاءت تعبيرا عن أحوال طبقته الاجتماعية، فبينما حفلت تلك الرواية بالعديد من أخبار دواوين الدولة ومراسيمها وتنظيماتها الإدارية، فإنها ازدانت أيضا بكل ما هو شعبى من أخبار ونوادر وحكايات، حتى أنه قدم تراجم للعديد من المهمّشين من أبناء الشعب المصرى، لذلك يمكن القول بأن رواية ابن إياس لتاريخ مصر فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتابه .. كانت - وبحق - ديوانا لأحوال الدولة المصرية فى نصف القرن الأخير من عمر دولة المماليك بمصر.

اهتم ابن إياس فى القسم الثانى من الكتاب بتسجيل كل شيء عن حياة المصريين، لم يترك ابن إياس صغيرة قبل كبيرة إلا واهتم بتسجيلها فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب، فكما اهتم بوصف المواكب الرسمية لخروج السلاطين للحرب أو للحج أو للنزهة، فإنه وجه نفس القدر من الاهتمام لوصف الأعياد والاحتفالات الدينية والشعبية، وكما اهتم بذكر أسلحة زمانه وأوصافها .. فإنه لم يهمل تسجيل أسماء الأكلات والأزياء وأشكالها، جاء كل هذا جنبا إلى جنب مع أخبار السياسات الاقتصادية ممثلة فى أسعار الحاصلات والعملات وأخبار الأزمات والمجاعات وأحوال الفيضان وتأثيرها على الزراعة، ولما كان ابن إياس يذكر كل ذلك فى إطار من التدقيق العلمى يتمثل فى تمحيص الأخبار وتحقيقها، فإن ذلك انعكس على أسلوبه فجاء خاليا من الصنعة اللغوية وفى شكل أقرب إلى الكتابات العلمية التى نعرفها الآن، وإن تميز هذا الأسلوب باحتوائه على الكثير من الألفاظ العامية والأمثال الشعبية، وهو ما أكسبه صدقا وقبولا عند قرائه على مر العصور .

اعتمد ابن إياس منهجا فى صياغة تاريخه.. اتفق فى إطاره العام مع ما ابتكره مؤرخو عصره من مناهج ، ولكن منهج ابن إياس اختلف عن تلك المناهج فى أسلوب عرض المادة التاريخية، جاء اتفاق ابن إياس مع الآخرين من اتباعه مبدأ التقسيم السنوى الذى يعنى استعراض أحداث التاريخ سنة بسنة، أما فيما يختص بأسلوب عرض المادة

التاريخية.. فإن اختلاف ابن إياس فيها يتضح عند مقارنة ما ابتدعه فيه بما جاء به البعض من معاصريه مثل بدر الدين محمود العينى (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) وجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى (٨١٣ - ٨٧٤ هـ)، إذ يبدأ ابن العينى تسجيله لأحداث السنة في كتابه «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» بتسمية ملك مصر ونوابه والقضاة الأربعة، ثم يتبع ذلك بذكر أسماء ملوك الدول المعروفة آنذاك، ولينتقل بعد ذلك إلى تفصيل ماوقع فى السنة من أحداث، وعندما ينتهى ابن العينى من تسجيل آخرأحداث السنة.. فإنه يقدم فصلا يحمل دائما عنوانا واحدا : «ذكر من توفيّ فيها من الأعيان» ، بينما يبدأ ابن تغرى بردى تسجيل أحداث السنة بتاريخه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» بذكر من توفيّ فيها من الملوك والأمراء والأعلام، وقد لا يذكر ابن تغرى بردى من أحداث السنة شيئا سوى الوفيات، ثم يتبع ذلك بأخبار السنة يذكرها مرتبة بتاريخ وقوعها، لكن أسلوب ابن إياس فى كتابه تمثل فى افتتاحه أخبار السنة التى يؤرخ لها بإثبات تشكيل الحكومة القائمة عند مطلع تلك السنة ، ثم يعرض ما وقع بالسنة من أحداث ، ويختتم عرضه لأحداث السنة بالترجمة لمن توفى فيها من ملوك وأمراء وأعيان وبعض العامة من أدباء وشيوخ وأهل الحرف مثل الأطباء والمهندسين والمطربين والمطربات. إن تقديم بعض النماذج من الكتاب والتى تعبر عن النقاط الرئيسية التى شكلت محاور رواية ابن إياس ، يعد كافيا لتأكيد الاستنتاجات السابقة ولإشباع فضول من لم يقرأ الكتاب .

اهتم ابن إياس - وعلى الأخص فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب - بإثبات تشكيل الحكومة الموجودة عند مطلع السنة التى يؤرخ لها.

مواكب واحتفالات

يبلغ ابن إياس الأوج فى التعبير عندما يصف المواكب والاحتفالات، والتى كانت من أهم وسائل الترفيه التى تترقبها الجماهير المصرية وبالأخص سكان القاهرة، ينثر ابن إياس وصفه لما شهده من مواكب وماعاينه من احتفالات على طول الكتاب، فيتألق نثره فى مواضع تلك المشاهد من الكتاب وكأنه در منثور، إن النموذج التالى يعد كافيا لجلاء هذا الجانب المشرق من بيان ابن إياس .

من بين المواكب الكثيرة التى وصفها ابن إياس فى الكتاب ..يجىء وصفه لموكب خروج كل من محمد ابن السلطان قانصوه الغورى وزوجة السلطان إلى الحج.. على قمة ما وصف ابن إياس من مواكب ، فبعد أن يصف انسحاب أطلاب ابن السلطان وكبار الأمراء الذاهبين للحج فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر شوال سنة ٩٢٠ هـ ، ويقدم صورة كاملة لوحدات الأطلاب الخارجة، يقدم ابن إياس وصفا يحير العقل لمحفة زوجة السلطان ، حتى ليخيل إلى القارئ أنه يشاهد شريطا سينمائيا، إن دقة وصف ابن إياس تركت لنا الآن صورا تموج بالألوان والتفاصيل وكأنها بريشة فنان لا

بقلم كاتب .

غرائب وعجائب

أما عن الغرائب والعجائب التى أوردها ابن إياس على طول كتابه ، فإنها تكفى لتسويد كتاب مما نقرأ فى هذه الأيام، إذ يذكر عجائب الطبيعة من ظواهر طبيعية وفلكية ، ويهتم بتسجيل غرائب الخلق التى عاصرها أو سمع عنها، ولا يفوته إثبات غرائب الأحداث التى تقع حوله أو تصل إلى مسامعه .

فمن عجائب الطبيعة التى يهتم ابن إياس بإثباتها .. ظواهر كسوف الشمس وخسوف القمر واقترانهما ووقوع الزلازل، ومن ذلك أيضا .. سقوط المطر فى غير أوانه كما حدث فى شهر المحرم من سنة ٩١٩ هـ .

ملابس ومأكولات

يحمل الكتاب فيضا من أسماء ملابس العصر المملوكى ومأكولاته التى اهتم ابن إياس بتسجيلها ووصفها ، فمن ملابس العصر التى تحدث عنها ابن إياس ووصفها : السلارى (نسبة إلى الأمير سلار المنصورى نائب السلطنة ومدبر المملكة فى السلطنة الثالثة للناصر محمد) ومن أنواعه سلارى صوف بصمّور عالى وسلارى بعلبكى أبيض - فوقانى بطرز يلبغاوى (نسبة إلى الأمير يلبغا العمرى أتابك العسكر فى دول الناصر حسن والأشرف شعبان) عريض - كامليه صوف بصمّور - كامليّه مخمل أحمر بصمّور - وكامليه جر ذهب شغل القاعة بصمّور عال - تفاصيل حرير سكندرى - أطلس - أبراد منزلاوى - ثوب برصاوى مزهّر بقصب - مثمّر - جنينيّات جوخ وبشاخين زركش، ومن أغطية الرأس يذكر ابن إياس العديد من أنواعها مثل : تخفيفة صغيرة مملّسة - كلوتّه - تخفيفة كبيرة بقرون طوال - طرحاة - الكلفتة وتخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، ولا يفوت ابن إياس الحديث عن أكلات عصره ، فيذكر أنواعا منها مثل : طواجن بورى - مأمونية - البقسماط - السنبوسك - مخللات - الكعك - حلاوة شامية - حلوى المشّبك والمنفوش ، هكذا لم يترك ابن إياس مظهرا من مظاهر الحياة فى الدولة المصرية على عهد المماليك لم يصفه أو يقدم عنه ما بلغه من معلومات .

العامية والأمثال

يظل ما شاب لغة ابن إياس من ألفاظ وتعبيرات عامية ... أهم سمات الكتاب المميزة ، إذ يمكن للقارىء أن يرصد ميل المؤلف الواضح لاستخدام بعض التعبيرات والأمثال العامية السائدة فى عصره والتى مازال البعض منها يستخدم فى مصر حتى الآن ، ولعل السبب فى ذلك هو قربه من عامة الشعب المصرى واندماجه بينهم ، إن المجال يضيق هنا عن عرض نماذج وافية لما استخدمه ابن إياس من ألفاظ وتعبيرات عامية ، لكن الاستشهاد بالبعض منها يعد كافيا لتمثيل تلك السمة ، فمن ذلك قوله : «فكانت هذه الواقعة من أشنع مايقع من الأولاد فى حق الأبهات» (جزء ١ - قسم ٢ - ص ٩٠) وعنفه عن هذه الأمور

الشنيعة ، الذى يتقع منه» (جزء ١ - قسم ١ - ص ٥١٦) - «ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ويبلصهم غيرما مرة» (جزء ٥ - ص ٣٢١) - «زعموا أنهم دواسيس» (جزء ٥ - ص ٤٥٧) - «وأخذوه وهو ماشى مشحطط بينهم» (جزء ١ - قسم ١ - ص٥٠) ، إن الكثير من الألفاظ والتعبيرات العامية التى استخدمها ابن إياس فى الكتاب ... مازالت تجرى على لسان العامة فى كثير من أنحاء مصر حتى الآن ، ومن ذلك لفظ «يبلصهم» الذى يراد به الرشوة ... فإنه مازال يجرى حتى الآن على لسان العامة فى صعيد مصر ، وكذلك لفظ «مشحطط» الذى تستعمله العامة فى كل ربوع مصر لوصف المرء تتدافعه الأيدى فيما بينها وهو لايقدر على الزود عن نفسه .

إن لجوء ابن إياس لاستخدام الألفاظ العامية فى التعبير عن بعض المواقف ، يراه البعض كالمؤرخ الراحل محمد عبدالله عنان : «يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل فى بيانه ، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان فى عصره» (مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى - ص ١٥٦) ، بينما يرى البعض فيه - وأنا منهم - رأى الروائى الكبير جمال الغيطانى الذى جاء فى مقدمة «فهارس بدائع الزهور فى وقائع الدهور» (ص٩) : «تضفى حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر» ، وقد قاده هذا المنهج فى الكتابة إلى الاستعانة بالعديد من الأمثال العامية السائدة فى عصره والتى مازال البعض منها يجرى على ألسن العامة من الشعب المصرى حتى يومنا هذا ، ومن الأمثال التى حفل بها الكتاب مايلى : «وإذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها» (جزء ٥ - ص٤٨) - «مصائب قوم عند قوم فوائد» (جزء ٥ - ص٣٨٣) - «ويا فرحة ما تمت» (جزء ٥ - ص٣٨٣) - «فصلوا وعلى رءوسهم طيره» (جزء ٥ - ص٤٤١) و«العبد بسعده لا بأبيه ولا بجده» (جزء ٥ - ص٢٠) .

المهمشون

احتل المهمشون مكانا بارزاً فى رواية ابن إياس لتاريخ مصر خلال الحقبة التى عايشها ، فقد كانوا محور العديد من الأحداث التى سجلها ، بل إنه ترجم للبعض منهم عند وفاته مثل عبدالقادر الحمّامى الذى قال عنه فى أخبار شهر ربيع الأول من سنة ٨٩٠هـ (جزء ٣ - ص٢١٦) : «وفيه توفى عبدالقادر الحمامى الجابى ، وكان ريّساً حشما سيوساً ، وكان لا بأس به» ، تترى أخبار وتراجم العديد من الحرفيين فى الكتاب جنباً إلى جنب مع أخبار الهبات الشعبية التى يشير إليها ابن إياس مرة بقوله : «وفيه ثار جماعة من العوام» ، ومرة أخرى بقوله : «وفيه جاءت الأخبار بأن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع» ، ثم يعود ابن إياس ليصف عامة الشعب بلفظ الحرافيش ، فيحدثنا فى أخبار شهر ربيع الآخر من سنة ٩٢٢هـ بالجزء الخامس عمن خرج مع السلطان قانصوه الغورى لملاقاة العثمانيين فى مرج دابق فيقول : «وسافر صحبته شيخ المشايخ المسمى بسلطان الحرافيش وجنده وصنجقه وطبله» (ص٤٣) .

على أن أشهر من جاء ذكره من

مهمشين فى الكتاب ... هو ابن أبى الردّاد، كانت مهنة ابن أبى الرداد هى قراءة مستوى ماء النيل فى وفائه - الذى يحل غالبا فى شهر مسرى - عند المقياس الجديد بالجزيرة ، وهو المقياس الذى بناه الأمير يزيد بن عبدالله التركى (وال عباسى - على مصر فيما بين سنتى ٢٣٦ و٢٥٣هـ) ، وقد أسند الأمير يزيد تلك المهمة - أى قياس مستوى النيل - إلى ابن أبى الردّاد وأولاده وأحفاده من بعده .

ظاهرة غريبة

إن المطالع للجزء الأول من فهارس الكتاب التى وضعها الدكتور محمد مصطفى وهو محقق الكتاب أيضا ، سوف يكتشف وجود ظاهرة غريبة مست العديد من رجال دول المماليك ، تمثلت تلك الظاهرة فى أن المادة المنشورة عن كثير من المسئولين فى الدول المملوكية تحوى دائماً مفاتح مثل : ضُرب - عُذب - سجن - صودر ومات تحت العقوبة ، ففى حالة أبوعبدالله الأقمر ... تشير مادة الفهرست الخاصة به فى الصفحة رقم ١٩١ بالقسم الأول من الجزء الأول للفهارس إلى المواد التالية : الوزير - قبض عليه وصودر - قتل ، أما برهان الدين إبراهيم بن ثابت النابلسى ... فإن ما جاء عنه من مواد فى الصفحة رقم ٢٣ بالقسم الأول من الجزء الأول من الفهارس حوى الآتى : كان وكيل بيت المال - كان أحد نواب الشافعية - قبض عليه ومات تحت العقوبة، وهكذا ... تتوزع إشارات ضرب كبار رجال الدولة على طول الكتاب وفهارسه ، لكن يحيى بن عبدالرازق الأرمنى الملقب بزين الدين الاستادار والمعروف بالأشقر ابن كاتب حلوان ... يجىء على رأس طابور طويل من المضروبين والمصادرين من رجال الدول المملوكية ، إذ تشير مادة الفهرست المنشورة عنه فى القسم الثانى من الجزء الأول من الفهارس إلى : الاستادار - كملت عمارة مدرسته - كملت عمارة جامعه الذى ببولاق - استمر فى الترسيم (أى السجن) - اختفى - ظهر بعد اختفائه - رسم بنفيه إلى القدس - ضُرب - أعيد للاستادارية - قبض عليه وضرب - أفرج عنه ونُفى إلى المدينة المشرفة - ضرب بالدبابيس - قبض عليه ثم أفرج عنه ، وهكذا حتى جاءت نهايته على يد الأشرف قايتباى فى شهر ربيع الأول سنة ٨٧٤هـ - عندما استدعاه قايتباى من منزله حيث كان يقيم بلا عمل، ليُضرب زين الدين بين يديه ضربا مبرحا بسبب عداوة قديمة بينهما أو بسبب ما أشيع عن نهب زين الدين لخزائن الظاهر جقمق قبل وفاته ، كان ذلك هو الأسلوب الأمثل عند كثير من سلاطين المماليك لمحاسبة كبار رجال الدولة على ما اقترفوه من جرائم أو لاستعادة ما نهبوه من أموال الدولة التى تحت أيديهم ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اتهام زين الدين الاستادار بنهب خزائن الظاهر جقمق .... إنما يرجع إلى حقيقة أن شاغل وظيفة الاستادار كان هو المسئول عن كل شئون السلطان المالية والمعيشية ، ولقد جاءت وظيفة الاستادار من معنى الكلمة نفسها ، إذ تشير مادة

«استادار» بالصفحة رقم ١٨٢ فى الجزء الرابع من «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» للدكتورة فاطمة محجوب إلى أنها لقب فارسيّ صُكُّ من لفظين فارسيين ويعني المتولى للأخذ ، وهو الذى يتولى تحصيل دخل السلطان وإنفاقه على شئونه ومسكنه وأسرته وحاشيته .

جهد المحقق

ختاما ... فإنه من الجدير بالذكر أن يشار هنا إلى أصحاب الفضل فى ظهور نسخة الكتاب الأخيرة التى ظهرت منها مؤخرا طبعتان ، أولاهما التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة فى سنة ١٩٨٢م ، وثانيتهما هى الطبعة المصورة من طبعة الهيئة العامة للكتاب والتي صدرت متضمنة فهارس الكتاب عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة فى سنة ١٩٩٨م ، ويرجع الفضل فى صدور هاتين الطبعتين الأكثر قربا من الصورة المفترضة للكتاب بعد فضل الله إلى الجهد الرائع لمحقق الكتاب الراحل الدكتور محمد مصطفى وإلى الدعم المادي والعلمي لجمعية المستشرقين الألمانية ، ولبيان مدى مابذل الدكتور محمد مصطفى - رحمه الله - من جهد أمام القارىء ، فإن عرض ما استعان به من مخطوطات الكتاب لإخراجه فى صورته الأخيرة ، يعد كافيا للتدليل على هذا الجهد ، فقد استعان - رحمه الله - أثناء بحثه الجاد الذى بدأه خلال عام ١٩٢٨ فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة بون لتحقيق الطبعة الأخيرة من الكتاب بالمخطوطات التالية للكتاب أو بعض أجزائه :

١ - مخطوط ليدن رقم ٣٦٧ .

٢ - مخطوط لندن رقم ٧٣٢٣ .

٣ - مخطوط باريس رقم ١٨٢٢ .

٤ - مخطوط رقم ١٠٥٨ فى كتابخانة دولت علية إيران - طهران .

٥ - مخطوط فيينا المحفوظ بالمكتبة الأهلية تحت رقم ٢٧٤ (٤٥٤) .

٦ - مخطوط مكتبة جامعة برنستون المقيد تحت رقم ٢٢٢٣ عربى ورقم ٤٤١١ فى السجل .

٧ - مخطوطات فاتح أرقام ٤١٩٧ - ٤١٩٩ - ٤٢٠٠ المحفوظة بمكتبة جامع الفاتح باستانبول .

وقد قام الدكتور محمد مصطفى بمقابلة محتويات تلك المخطوطات بما جاء فى طبعة بولاق الصادرة عن المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق سنة ١٨٩٤م ، وذلك لتحقيق الصورة الحالية للكتاب فى طبعته الأخيرة .

تفرغ الدكتور محمد مصطفى سبع سنوات بعد صدور آخر أجزاء الكتاب المحققة فى عام ١٩٧٥ لكتابة فهارس الكتاب التى انتهى من إعدادها للنشر فى عام ١٩٨٤ ، ولقد صدرت أجزاء الفهارس الستة متفرقة فيما بين القاهرة وبيروت حتى اكتملت فى سنة ١٩٩٢م إن الجهد الذى بذله الراحل دكتور محمد مصطفى لتنوء به العصبة أولى القوة ، لكنه - وبفضل من الله - نهض به ليسجل اسمه قرينا لهذا الكتاب الفريد فى سجل الخالدين .

■

فاروق عبد القادر

وأوراق نهاية القرن

بقلم
د. حسن عطية

لكل ناقد كبير مشروعه النقدى المتكامل ، يؤسس قاعدته مع بداية تبلور وعيه النقدى وتحديده لطبيعة وماهية ووظيفة العمل الإبداعى ، ويظل يطور مصطلحاته ويرتفع ببنائه حتى يستقر على أصوله الكلية ومفاهيمه الثابتة ، وفقا لما يصل إليه من نتائج حواره الفعال بين النظرية والتطبيق ، قد يضيف إليه من مستحدثات الزمان النظرية فيثريه ، وقد يقف به عند حدوده الأولى مكتفيا بما قنع به فيتجمد، وهو إذ يشرع فى صوغ مشروعه النقدى ، لا ينفلت قيد أنملة عن لحظته الزمنية وموقعه التاريخى وسياقه الاجتماعى واختياره الأيديولوچى، فالناقد هو ابن بار لشروط الواقع التاريخية والجغرافية والاجتماعية ، لا يصدر فى حكمه عن هوى، ولا يصادر حق مبدع فى التعبير عن رؤيته الذاتية والطبقية للعالم.

وقد صاغ الناقد الكبير «فاروق عبدالقادر» مشروعه النقدى، الذى يتجلى دوما عبر مقالاته النقدية التطبيقية، على امتداد مايقرب من خمسة عقود كاملة، تبدأ مع أول تبلور وعيه بذاته وبالمجتمع المحيط به، وثورة هذا المجتمع تتفجر فى صيف ٥٢، معبرة عن حلم ضخم لشعب يريد أن يغير من وضعه وسط عالمه ومتغيرات مابعد الحرب العالمية الثانية، ومحدثة فى الواقع مجموعة من الأفعال وردود الأفعال المؤكدة على أن لحركة الجماعة تأثيرها فى صياغة التاريخ، فى الوقت نفسه كانت المدرسة الفرويدية التى تمترست بقسم علم النفس بكلية الآداب، جامعة عين شمس، حيث كان يدرس ناقدنا أواسط الخمسينيات، كانت تدفعه نحو تحليل الذات المتمحورة بشدة حول عقلها الواعى المتصارع مع عقلها الباطن وأحلامه المكبوتة، فتخلقت أمامه أول إشكالية نظرية عن علاقة الفرد بالجماعة، والتى جسدت نفسها نقديا فى قضية علاقة الفنان بمجتمعه، ودوره بفنه وسط جماهير شعبه.



فاروق عبد القادر

هل مازالت للنقد القدرة على اطلاق النار..

الناقد المشاغب

لم يعرف «فاروق عبدالقادر» العمل الوظيفى بمعناه وممارسته التقليديين، حيث وجد نفسه خلال الستينيات ومعظم سنوات السبعينيات، متنقلا بين سكرتارية تحرير مجلات ثقافية، كمجلة المسرح، تصدرها مؤسسة حكومية هى الهيئة المصرية العامة للنشر، والتى كان ينتسب وظيفياً لها، وبين العمل كاتباً ومحرراً ببعض المؤسسات الصحفية، مصرية وعربية، حتى وصل لتحمل مسئولية القسم الأدبى والفنى بمجلة (الطليعة)، التى كانت تصدر عن مؤسسة الأهرام، وأغلقها «يوسف السباعى» رئيس مجلس إدارة المؤسسة المعين، بعد إقصاء «محمد حسنين هيكل» رئيس مجلس إدارتها التاريخى، وذلك عقب انتفاضة الجوع، فى ١٧و١٨ يناير ١٩٧٧، التى أزرتها المجلة، واتهمها رئيس الجمهورية السابق بأنها «انتفاضة حرامية»، حيث صدر

آخر عدد من المجلة حاملا رؤيتها كاملة في فبراير التالى، ثم آخر عدد بعد الإطاحة بهيئة تحريرها كاملة في مارس، دخلت بعده ملفات التاريخ، وعين معها كل العاملين بها بالمؤسسة الصحفية الكبيرة، فيما عدا ناقدنا، الذى حرر نفسه خلال ربع القرن الماضى من أى عمل وظيفى روتينى، كما تخلص من أية علاقة تربطه بفكر وطبيعة عمل المؤسسات الحكومية، مما خلص فكره من أية تبعية لمنظمات وهيئات حاكمة، قد يسايرها عملا فى الوقت الذى يقف من إنتاجها موقف الناقد، فصار ناقدا صريحاً وأحياناً «مشاغباً»، كما حلا للبعض وصفه، وتخلصت لغته النقدية من أية محاولة للالتفاف حول الكلمات، درءا لغضب الرؤساء، فصارت لغته النقدية مباشرة كطلقات الرصاص، وتعمقت عنده إشكالية الفرد والمجتمع، ليس من باب الفنان ومجتمعه فقط، وإنما أيضاً من باب علاقة الناقد بهذا المجتمع ودوره فيه.

أنهى «فاروق عبدالقادر» كتابه الأول والمثير للجدل (ازدهار وسقوط المسرح المصرى) ١٩٧٩، بجملة دالة، هى ذاتها التى يثبتها على رأس أول أوراق كتابه الأحدث، والذى منحه عنواناً رئيسياً هو (غروب شمس الحلم)، بما تحمله تلك العبارة من دلالة على رؤيته الحزينة للواقع الذى يعيشه، إلى جانب عنوان فرعى هو (من أوراق نهاية القرن) محدداً به اللحظة الزمنية التى تدور داخلها رؤيته للواقع، وجملتنا التى نقصدها هنا هى «كيفما تكونون يكون إبداعكم»، ودلالة الجملة تتجلى فى إدراكه الممتد على مدى هذه السنوات الطوال لعلاقة الفن ليس فقط بالواقع المادى الذى يتخلق فى أعطافه ويعبر عن حركته، وإنما وعيا بحركة البشر الإبداعية داخل هذا الواقع المادى، فالإنسان هو مبتغاه، وإبداعه هو نتيجة اختياره وفعله وكينونته، والإبداع عنده «رسالة تصدر عن سياق بعينه لتعود فتتوجه إليه»، فهو نتاج واقع دون أن يكون انعكاسا آليا له، ومؤثر فى هذا الواقع حينما يتوجه إليه دون مباشرة، ومن ثم يتجلى الفن تعبيراً عما يكون عليه البشر، وعما يريد أن يكونه فنان هذا المجتمع، وعما يود الناقد أن يكون عليه حال هذا المجتمع، مما يخلق حواراً خلاقاً بين الناقد والفنان والمجتمع معاً، وإن فجر صراعاً، مثمراً أو غير مثمر، بين رؤى الثلاثة، وقدرة كل واحد منها على التأثير على الآخرين.

وإذا كان كتابه الأول قد صدر منذ أكثر من عقدين من الزمان، حاملا مرارة التباكى على مسرح بنهار، بفعل متغيرات العقد السبعينى على المستويين المصرى

والعربى ، فإن كتابه الأخير ، يأتى ليقدم لنا رؤيته لنتاج سنوات نهاية القرن الذى مضى، بتاريخه الذى ادعوا أمريكيا نهايته ، وسعوا للقضاء على الفكرة القومية التى تجمع الأمم المختلفة وتفكيك الدول الوطنية، وتجاوز الثقافات المحلية ، من أجل بناء قرية كونية يحكمها القطب المنتصر وحده، ومن ثم عكست أوراق «فاروق عبدالقادر» النقدية رؤيته لهذا الواقع المخلخل، فهى أوراق كتبت فى زمنها وكتبت زمنها ، لكنها لم تستنفد دورها، ومازالت لها - وستظل لها - فاعليتها فى المشهد الثقافى الذى يسعى هذا الكتاب لرصده ورسم معالمه، حتى ولو بدا له هذا المشهد معتما تغيب عنه أية حركة إبداعية نشطة ، دون أن يعنى ذلك لعينيه اليقظتين غياب مبدع متفوق هنا أو عمل إبداعى متميز هناك ، لكنه حضور جزئى متفرد لا ينتظم فى تلك «الحركة الإبداعية النشطة» الغائبة المغيبة، فى كل مكان من العالم العربى، وهو مايضعه فى موقف شديد التعقيد : حيث يدرك خواء الواقع من حركة إبداعية نشطة ، لكنه لا يقود ذاته نحو التشاؤم وهجر دوره النقدى الفاعل فى مجتمعه، والانسحاب داخل الذات وهواجسها الخاصة ، وإنما يدفعه لمعان الماس الخاطف هنا وهناك، للاستمرار فى مسيرته النقدية الشجاعة، رغم إدراكه بأن مسيرة النقد العربى فى السنوات الأخيرة فى غالبيتها لم تعد تؤدى أهدافها المرجوة ، وذلك لأسباب يرجعها لانغماس ناقد اليوم فى مناهج ومصطلحات النقد الغربى، التى غربته عن واقعه وإبداعه العربيين ، إلى جانب انقطاع هذا الناقد صاحب الصوت عن تراثه النقدى العربى، وهو انقطاع لازم هذا الانغماس وجاء نتيجة له، فضلا عن التقوقع داخل بعض المناهج ومفاهيمهما المتحجرة، فى الوقت الذى اتسع فيه مدى العلوم الإنسانية الرافدة للعمل النقدى بالكثير من المفاهيم مما يوسع من دائرته ويعمق من مجراه ، ناهينا هنا عما أسماه بـ «تفشى الأهواء والمصالح»، فهو مايخل بالعملية النقدية بأكملها، وهو كما يبدو لايقف كناقد أمام الاستفادة من العلوم الإنسانية ، سواء الفلسفية أو النفسية أوالاجتماعية المتجددة دوما ، ولا يؤمن بفكرة نقاء النوع، التى تحاول أن تجعل للنقد لغته النقدية (الأدبية)، اتساقا مع فكرة أدبية الأدب ، التى قذفت بالنقد العربى فى السنوات الأخيرة لجب الشكلانية، وفصلت رسالته عن بنائه الفنى، وغربت النقد بأكمله عن جماهيره العامة.

الثقافة وحدة

رأى المسرح ينهار ، لكنه لم يرد أن

يقف على أطلاله يبكي ويجتر أيامه الماضيات، رغم مقارناته المستمرة لمنتج اليوم بما تم إنتاجه في الأزمنة الذهبية ، بل راح منذ زمن يوسع من دائرة اهتمامه النقدي، فضم الرواية والقصة القصيرة والشعر لتلك الدائرة ، موسعاً في ذات الوقت من مساحة تلك الدائرة لتشمل العالم العربي بأكمله، حتى صار أبرز خبير متخصص في نقد الرواية العربية، متجاوزاً بذلك أية شيفونية تدفعه للتغني بمنتج ضعيف ، لاشيء سوى خروجه من وطنه الخاص، ومؤمنا في ذات الوقت بقدرة العالم العربي على مواجهة قرية الغرب الكونية ، بمدينة عربية فاضلة، يتقدم فيها البشر وتتحرر إرادته ويزدهر فيها إبداعه، ومن ثم فإن تصدى ناقدنا للمنتج الفني العربي، كما يتبدى واضحاً في كتابه الأخير، ليس من قبيل البحث عن رضاء أصحابه، وممالأة غير المصريين، كما يدعي البعض، وإنما لإيمانه الكامل بأن الثقافة العربية كل واحد، وأن «الإبداع العربي وحدة واحدة رغم التنوع: تتأسس الرواية في مصر، ومنها تنتشر لكل العالم العربي، وتحدث ثورة الشعر المعاصر في العراق، ومنه تنتشر إلى القاهرة ودمشق وبيروت».

بداية يرى «فاروق عبدالقادر» أن الناقد هو عين المتلقي المدربة المثقفة المتفحصة، ودليله في أرض يقطعانها معا، ومن ثم فمهمة الناقد هي : الكشف عن «رسالة» العمل الذي يتصدى له، والحكم على ماتحمله هذه الرسالة من «فائدة وصحة» ، وإيصال ماكشف عنه بصراحة ووضوح للمتلقي الذي اختاره ليكون رائده في مهمة استطلاع العمل المبدع، فليس عنده أي وجود لعمل مجاني أو ظاهر بالمصادفة ، وهو لايؤمن بأن العمل الفني يصنع لذاته أو تنفيسا لصاحبه وخلاصا له من أزمة ذاتية، وبالتالي فلا جدوى عنده من فن لايتصدى لواقعه، فيقوم هو كناقد بالتصدي، معريا قبحه وفساده ، ومتطلعا مع الفنان الواعي لعالم «أكثر عدلا وأمنا وجمالا» ، بشرط أن يتم الإبداع بأدوات الفن، وليس بأدوات أي نشاط إنساني آخر، ومن ثم تتفاعل عنده الرسالة بالوسيلة، ويتجلى المحتوى عبر البناء الفني، ويتبدى دور الناقد في اختياره لموقعه (مع) المتلقي وعلى أرضه، لاتضامنا (مع) المبدع ودفاعاً عنه، وعليه فقد حسم تلك العلاقة ثلاثية الأبعاد (الفنان والناقد والمجتمع)، متخذاً موقف المجتمع الباحث عن الحقيقة لدى الفنان أو الأديب، دون أن يذوب - كناقد - في لجة هذا المجتمع والأيديولوجية المهيمنة

عليه، فهو مازال - كناقد أيضاً - محتفظاً باستقلاليته النسبية عن المجتمع، واستقلاليته الكاملة عن مؤسساته الرسمية الحاكمة له، ولذلك فالتزامه بقيم الصدق والجسارة ليس مجرد التزام مهني، بقدر ماهو التزام أخلاقي وإنساني في المقام الأول، والتزام بما يراه خيرا لمجتمعه.

قبل أن يدلف لرصد وتقييم حركة الإبداع العربي في السنوات الخمس الأخيرة من القرن العشرين، يتوقف ملياً ليقدم بسرعة وتكثيف حال هذا الإبداع خلال هذا القرن الفائت، على أساس أن الحال الراهن ليس مجتث الجذور عما سبقه من مقدمات، فلا شيء منقطع عن ما قبله، ولا ظاهرة منفصلة عن سياقها، ولذلك فهو يأخذنا في رحلة فحص زماني يمتد لقرن كامل، وفحص مكاني يمتد بامتداد العالم العربي من المحيط إلى الخليج، وفحص جنسي يشمل فنون الشعر والرواية والقصة والمسرح. فباستثناء الشعر (ديوان العرب الأول) يؤكد لنا بداية أن كل هذه الأجناس الإبداعية هي وليدة القرن العشرين في عالمنا العربي، قد تكون ثمة إرهاصات بها في القرن التاسع عشر، إلا أن شروطها الفنية اكتملت فقط مع بدايات القرن العشرين، ومع ذلك فقد تألقت القصة والرواية في السنوات الأخيرة، بينما هبط المسرح وتجمد الشعر عند مرحلة معينة، وذلك في مقارنة يرجعها الناقد لطبيعة فرسان كل جنس من الأجناس الأربعة التي يتصدى لفحصها.

الارتباط بالتراث

بدأ فن الشعر أوائل القرن العشرين تقليديا وظل كذلك رغم محاولات تطويره خلال النصف الأول من ذاك القرن، انعكاساً لواقع اجتماعي وفكري تقليدي البناء، وثارت ثورة شعراء منتصف القرن على تقليدية الواقع وفساده، اقترانا بميلاد حركة ثورية على المستوى القومي، والحلم بمجتمعات جديدة ذات أبنية اجتماعية مخالفة لما كانت عليه مجتمعات النصف الأول من القرن العشرين، وبالتالي جاءت ثورة الشعر الحديث ثورة في طرح القضايا والهموم المجتمعية، عبر أشكال وتقنيات فنية مخالفة أيضاً لما كان عليه حال الشعر العربي القديم، وعليه انتصرت هذه الثورة الشعرية عند ناقدنا بسبب انطلاقها من رفض الواقع المتردي مضموناً وشكلا، وأيضاً لارتباطها بتراثها الشعري العربي، وهو يرى أنه «حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدي استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يتحملها

الإطار القديم» فثمة علاقة تفاعلية عنده بين الشكل أو البناء الفني والمضمون أو المحتوى الفكري المعبر عنه، فحين يتغير البناء تتغير بالتالي المحتويات التي يشتملها هذا البناء ، ليس كمجرد وعاء جديد يحمل بأحضانه الشراب المعتق، وإنما كمعمار بنائي يعبر عن محتواه بصيغته الشكلية المادية الملموسة ، والعكس صحيح فعندما يتغير منظور الرؤية للعالم ، تتغير بنية الأعمال الفنية، لتتوام مع هذه الرؤية ، فتغيير البناء الفني لايستهدف ذاته، ولا ينتج عن رغبة فردية ، بل هو نتاج تغير في بنية المجتمع التي تطرح رؤى مخالفة للحياة، واحتياجات جديدة لأبنية فنية تعبر بها عن هذه الاحتياجات وتلك الرؤى.

والمشهد الشعري اليوم ، عند ناقدنا ، قد غامت معالمه ، فسقطت إنجازات الشعر الحديث ، وتحولت مكاسبه الفنية والفكرية لبضاعة مزجاة ، وشعراء اليوم عنده يجترون ويكررون ما سبقهم إليه الرواد الكبار ، ولم يبق أمامه سوى قامتين كبيرتين هما العراقي «سعدي يوسف» والفلسطيني «محمود درويش» ، ومن ثم تغيب عن الكتاب أية مراجعة أو متابعة للإنتاج الشعري العربي خلال السنوات الخمس الأخيرة ، ربما لأنه لم يجد في الساحة العربية أمامه ، وهو المتابع الدءوب لها ، أي إنتاج شعري يستأهل منه التحاور معه والكشف عما يخبئه لمجتمعه من جوهر ، وما يحمله له من رسائل تنويرية .

صعود وانكسار

يؤمن فاروق بأن المسرح فن عرض مركب شامل ، نواته الصلبة النص الدرامي ، رغم كل دعاوى إسقاطه أو تجاوزه ، لذا يتتبع في تلك البانوراما حركة الكتابة الدرامية ، وكيفية انطلاقها مع توفيق الحكيم أواسط القرن العشرين ، ووصولها لقمة صعودها مع الجيل الذي واكب ثورة يوليو ، وعبر عن الموجة الثقافية الباحثة عن تجديد واقعها ، جيل نعمان عاشور وألفريد فرج ويوسف إدريس ووهبه والشرقاوي والخولي وعبد الصبور ونجيب سرور وغيرهم ، إلا أن هذا المسرح لم يعمر طويلا ، صعد وانكسر خلال عقدي الخمسينيات والستينيات تحت ضغوط عوامل متعددة ، فصلها «فاروق عبد القادر» في كتابه الأول (ازدهار وسقوط المسرح المصري) ، وأجملها في كتابه هذا بجملة واحدة هي «هزيمة ٦٧» ، وثلاثة مواقف ترتبت عليها «تحولات الواقع وتربص الرقابة وخيانة المسرحيين» ، أي متغيرات الواقع السياسي وهزيمة مشروع فكري وحراك

اجتماعي غير من بنية وغائية التوجه الثقافي للطبقة الفاعلة ، وتربص حكومي رقابي بكل عمل مسرحي ، وخيانة صاحب الرأي والإبداع وهروبه من الساحة ، مما أدى إلى رجحان كفة المسرح التجاري من جهة ، وممالأة المسرح الجاد للسلطة من جهة أخرى ، «وفقد المسرح قدرته على نقد الواقع وتطلعه نحو المستقبل واهتمامه بجماهير الناس» ، ولم يبق من المسرح العربي الجاد كله «غير حفنة من النصوص» ، خاصة وأن نهضة المسرح في العالم العربي اعتمدت على فناني المسرح أو (المسرحجية) وليس في الأساس على كتاب نصوصه الدرامية .

في إطار هذه الرؤية يقدم لنا الكتاب دراسة واحدة متكاملة عن مسرح محمود دياب ، في باب (المراجعات) ، بينما يقدم في باب (المتابعات) ثلاث مقالات عن مسرح الفريد فرج بمناسبة عرض مسرحيته (الطيب والشرير) ، وعرض (لعبة الست) لمحمد صبحي ، وعرض (مشعلو الحرائق) بمعهد جوته ، إلى جانب تعريف سريع بالمخرج «حسن الوزير» ضمن مقال يتابع فيه النشاط الأدبي والفني أوائل عام ٢٠٠٠ ، ثم مقال وحيد عن ناقد مسرحي وأدبي هو د . علي الراعي بمناسبة رحيله .

المتصل الفكري

في دراسته عن محمود دياب ، بعد ما يقرب من عشرين عاما على رحيله (٣٢ - ١٩٨٣) ، يضع «فاروق عبد القادر» تلك الأعمال في سياقها الاجتماعي ، ويرصدها في ظل حركة واقع تتداخل فيه المتغيرات (المجتمعية) العامة بالعلاقات (الذاتية) الشخصية ، وتتجلى المفاهيم السائدة وقتذاك بوضوح على صفحة العمل الفني ، خاصة في فترة التحول للاشتراكية في النصف الأول من الستينيات ، وهو يرصد أعمال «محمود دياب» المسرحية والقصصية والروائية بترتب إبداعها الزمني ، كاشفا عن ذلك المتصل الفكري الذي يربط كل أعمال الكاتب الراحل بخيط واحد ، كما يحلل علاقة رسالة العمل الفني بمعماره البنائي ، فمسرحيته (الزوبعة) لم تقل ما قالته من أفكار «بحوارها الذكي وحده ، بل بنسيجها الدرامي كله ، ببنائها البسيط والمحكم في الوقت ذاته» ، وعلى حين تطرح (ليالي الحصاد) العلاقة بين الفرد والجماعة ، بينما حدثها الدرامي «يتخلق أمامنا على ثلاثة مستويات متداخلة من المسرح» ، فليس ثمة انفصال بين المحتوى الدلالي للعمل وبنيته الدالة .

وهو ما انتبه إليه «فاروق عبد

القادر» ، كما انتبه إلى أن أى عمل إبداعى لا ينفصل أبدا عن مجمل رؤية الفنان الكلية ، فهو مفردة فى عقد متكامل ، دون أن يعنى ذلك انفصاله عن شرطه التاريخى ، وتفرده عن بقية حبات العقد ، فعندما يتصدى لعرض (الطيب والشرير) لألفريد فرج (فرقة المسرح الحديث ١٩٩٨) ، مستعرضا رحلة الكاتب الطويلة ، من أول عمل له(سقوط فرعون) بالفرقة القومية ١٩٥٧ ، مرورا بأعماله الستينية الكبيرة مثل حلاق بغداد وسليمان الحلبى والزير سالم وعلى جناح التبريزى ، والتى يرى أن ما قام منها ومن غيرها على حكايات تراثية ، هو ما سيبقى طويلا فى تاريخ المسرح العربى ، وذلك لقدرتها على : الابتعاد عن الواقع من أجل الاقتراب ، وتصفية الواقع مما هو شائب وعابر لتقديمه على نحو أكثر تركيزا ، واستلهام الطابع الخيالى الساحر ، ومع ذلك فهو يرى المسافة شاسعة بين أعمال ألفريد المنتمية لهذه النوعية من المسرح والمقدمة فى الستينيات ، عن تلك التى تنتمى لنفس النوعية والمقدمة فى التسعينيات ، مثل (الطيب والشرير) ، حيث يوجد بها الكثير من الصنعة والقليل من الفكر ، وهو ما يعكس عنده ذلك الفارق بين زمنين وحالين للمجتمع والمسرح المصريين ، وأيضا الفارق بين موقفين للكاتب نفسه .

الفن الأول

رغم أن محاولات كتابة رواية عربية قد ظهرت فى مصر والمشرق ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، إلا أن «فاروق عبد القادر» يؤكد على أن الشروط الفنية للرواية العربية ، لم تتوافر إلا مع رواية (زينب) للأديب د. «محمد حسين هيكل» ، التى صدرت طبعتها الأولى عام ١٩١٣ ، وإن لم تلفت الأنظار إلا مع ظهور طبعتها الثانية عام ١٩٢٩ ، وبعدها انهالت فى الثلاثينيات أعمال «إبراهيم الكاتب» و«العقاد» و«طه حسين» و«الحكيم» وعميد الرواية العربية «نجيب محفوظ» ، ثم أعمال السورى «شكيب الجابرى» واللبنانى «توفيق يوسف عواد» ، والعراقى «ذو النون أيوب» ، ثم راحت فى العقود التالية تكتسب أراضى وأسماء إبداعية جديدة ، «حتى كادت أن تصبح – مع نهاية القرن – هى الفن العربى الأول ، خاصة مع ارتباطها الوثيق عامة بالتحولات الكبرى فى العالم العربى ، فى زمن الثورة والتماس الحرية والعدل ، نتيجة لذلك يحتل نقد الرواية المساحة الأكبر فى هذا السفر الضخم (٥٠٠ صفحة من القطع الكبير) ، حيث يفسح مجالاً واسعا للرواية الفلسطينية ، فى

دراسة موسعة ترصد البدايات ، متوقفا بشكل تحليلى كامل لأعمال ثلاثة من كبار كتاب الرواية الفلسطينية، رصدا لتطور تلك الرواية اتساقا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربى ، وهم : «غسان كنفاني» و«أميل حبيبي» و«جبرا إبراهيم جبرا» ، كما يتوقف عند اثنين من كتاب الرواية السودانية ، وهما «الطيب صالح» و«مروان حامد الرشيد» ، إلى جانب دراساته المتعمقة فى أعمال الروائى الجزائرى «الطاهر وطار» ، والروائى العراقى «فؤاد التكرلى» ، فضلا عن متابعته لأحدث الأعمال الروائية للسعودى «عبد الرحمن منيف» ، وللمصريين «صنع الله إبراهيم» و«أسامة أنور عكاشة» و«غبريال زكى» ، وللسوريين «خيرى الذهبى» و«حيدر حيدر» ، وكلها أعمال تعبر عند نبض الواقع العربى الفوار بالحركة ، تلمع كالماس البراق ، لكنها لاتشكل عنده تياراً أو مجموعة من التيارات المتصارعة على خريطة الإبداع الروائى العربى ، يراها دوما متخلقة فى أعطاف سياقها المجتمعى ، فلا يدين الرواية الفلسطينية لبعض قصور بنائى يعتريها ، فهى تكتب عنده فى أتون النضال ، ولا يتفرغ أصحابها لتجويد معمارها الفنى ، وإنما هم يبدعونها لتكون حاديهم فى عمليات النضال اليومى ، فى المقابل يرى «فاروق عبد القادر» فى تراجع الكاتب الجزائرى «الطاهر وطار» ، فى أعماله الروائية الأخيرة ، «عن مواقفه الفكرية السابقة تراجعا يكاد يصل من النقيض للنقيض» ، نوعا من اتقاء «صعود الجماعات الإسلامية ووجودها الثقيل فى الواقع الجزائرى المعاصر» ، مما أثر بالتالى على بناء عمله الفنى ، فافتقد «وضوح الرؤية على المستوى الفكرى ، والصلابة والتماسك على المستوى الفنى» .

فى مفتتح مقاله عن د . على الراعى ، يصف كتابته النقدية بأنها كتابة «مشرقة وضاءة ، مقتصدة مدققة ، تنظر نحو رسالة العمل دون أن تغفل عن أدواته وطرائقه فى نقلها» ، ولا أجد وصفا لسفر «فاروق عبد القادر» النقدى ، أختتم به مقالى هذا ، أبلغ من تلك الكلمات التى استخدمها الناقد نفسه فى وصف كتابه علم من أعلام النقد العربى فى مصر ، مضيفا إليه سؤالا يلح على كلما قرأت مقالا لفاروق عبد القادر ، خاصة فى الفترة الأخيرة بالزميلة (المصور) ، هل مازال الناقد بقادر على امتلاك إمكانية إطلاق الرصاص على قبح العالم ، وتعرية ما يعترى منتجاته الفنية الرخيصة مما فيها من فساد وإفساد ؟ ■

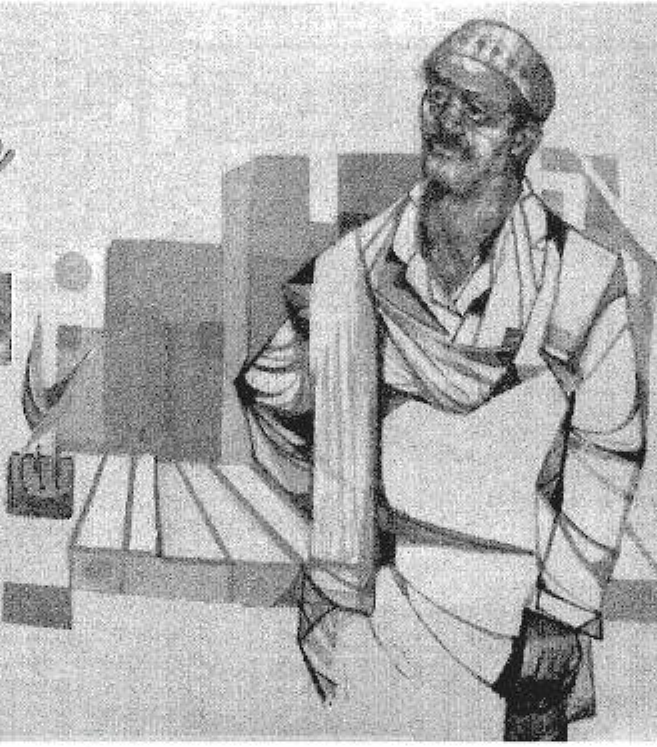
قصة قصيرة

عبد الغفار

مقاطعة

بقلم: سلوى بكر

رسوم: سميحة حنين



[illegible]

من وجهة نظرى كانت مسألة المقاطعة . المقاطعة الجذرية الآن .. الآن وليس غداً ، فهذا هو الموقف الأكثر عملية وقابلية للإستمرار بعيداً عن علالات العواطف والانفعالات السريعة التى سرعان ماتفور وقتاً ثم تأخذ فى التلاشى شيئاً فشيئاً حتى تغيب . كانت عبارة «الآن الآن وليس غداً»، هى العبارة الأكثر رسوخاً برأى من كل الكلمات التى قيلت والأفكار التى تناثرت خلال ذلك الاجتماع الهائل الذى حضره آلاف من الناس فى تلك القاعة الفسيحة بمبنى نقابة من النقابات، والحقيقة أننى وخلال عودتى إلى البيت بعد ذلك كان شاغلى هو استعراض البضائع والسلع التى سوف أدفع كل من أعرفهم حولى لعدم شرائها والتعامل



معها، سواء من المأكولات والملبوسات أو من السلع الأخرى كمساحيق الغسيل والمسلسلات والأفلام وكل ماشابه ذلك وكنت أبتكر بمخيلتى أساليب إقناع أتصور أنها فذة وسريعة المفعول فى الإقناع ، ستجعل زوجى وأولادى وأولاد الجيران وأهلهم وزملائى فى العمل ، والبقال والجزار والخضرى والمكوجى يلبون ندائى للمقاطعة فوراً ، فيمتنعون عن شراء بعض أنواع الحلوى أو يكفوا عن غسيل ملابسهم بهذا المسحوق أو ذاك . كانت القائمة المطبوعة والمحددة لأسماء عشرات من السلع والمواد المتوجب على الجميع مقاطعتها والتى وزعت خلال هذا الاحتجاج الحاشد ، هى معينى على مقاطعة عاجلة فورية ، لذلك وبمجرد أن اقتربت من العمارة التى أسكن فيها رأيت عبد الغفار البواب ، والمكلف بحراسة الأرض المجاورة لها أيضاً، جالساً على كرسيه المعتاد أمامها ، يتأمل مثلما أراه دوماً أفق الأسمنت والطوب الممتدة أمامه من عمارات تحت الإنشاء وأبنية لايعلم إلا الله متى ينتهى بناؤها، وبمجرد أن رآنى هب عبد الغفار فى حركة أوتوماتيكية معتادة ليحمل عنى ما أحمله من أشياء ،ولكن بما أنى لم أكن أحمل إلا أفكاراً برأسى عن المقاطعة ،

فقد أكتفي بتحيتي وإبراز جانب من فكه العلوي كشفت عنه ابتسامته الغامضة الساخرة والتي لم أفهمها أبداً، رددت تحيته وقلت له بسرعة:

- عبدالغفار . خلاص . عاوزين كلنا نعمل مقاطعة.

لم عبدالغفار حاجبيه الكثيفين وبربش بعينه قليلا وبدا وكأنه يحاول فك شفره ما ، قبل أن يتساءل بدهشة :

- مقاطعة؟

- آه مقاطعة للبضاعة والحاجات الإسرائيلي والأمريكاني ، قلت .

صمت قليلاً ، قبل أن يرند بهدوء.

- آه.

بدت «آه» غامضة على نحو ما بالنسبة لي، فأنا لا أعرف هل فهم كلامي فعلاً ، أم أن الأمر التبس عليه ، أو أنه يجاريني في الكلام فقط، فعبد الغفار متحفظ عادة ولا يفصح عما بداخله وهو يصر على فهمه للحياة كفلاح قدم للمدينة للعمل هرباً من بؤس الحياة الريفية ويخشى التورط مع أمثالي من سكان المدن ، الذين يبدوا وكأنه لايفهم أبداً ، لذلك حاولت إيضاح الأمر له على نحو أكثر تفصيلاً فقلت :

- يعني عاوزين نبطل شراء البضاعة الإسرائيلي والأمريكاني.

سقط حائط غربة بيننا إذ قال على الفور:

- قطيعة نقطعهم ياأستاذة.



- لأن أنت شايف بعينيك وكل يوم في التليفزيون أفعالهم ضد الفلسطينيين وجرائمهم ضد الأطفال و.... قلت.

قاطعني وكأني نكأت له جرحاً قديماً فقال:

- أفعال سوداء ومنيلة ياأستاذة. تعرفي لما أتفرج على التليفزيون وقلبي يتحصر ، والعيال الصغار أمام عيني مضروبة بالرصاص ومقتولة ، يبقى نفسي أشيل طوبة وأخبط بها التليفزيون وعساكر إسرائيل ، لكني أمسك روحي، وأقول : يعني التليفزيون ينكسر ياعبد الغفار، الغرض أقول لك أني أصير كالمجنون من الغيظ والله ياأستاذة .

كان ذلك كافيا لأن أقول بدوري :

- أفضل شيء ومن غير كسر التليفزيون هو أنك تقاطع حاجاتهم ونمتنع عن شراء أي

بضاعة لهم لأن الفلوس
المدفوعة فيها معناها
أسلحة ورصاص
يستخدم في قتل الناس
والعيال ، يعني المشاريب
الصاقعة على سبيل
المثال؟

نمتنع عنها كلنا ،
ويناقص.

- طيب تعرفي
ياأستاذة ، أنه لما الحر
يشتد ويبقى الإنسان
ريقه ناشف ، عمري ما
أبل ريقي بغير
العرقسوس أو الكركريه.
أصل قزايز الحاجات
الصاقعة كلها مرض.

- والشاي ياعبد
الغفار. منه أنواع
مقاطعة.

- طيب . صلي على
النبي . من يوم ماوعيت
على الدنيا وأنا لم أشرب
غير شاي العصان.
أصله رخيص وعلى قد
حالنا يعني.

حرت وأنا أبحث عن
شيء يقاطعه عبدالغفار ،



اضطررت لإخراج
القائمة المطبوعة
التي أحملها من حقيبتي،
فتحتها بسرعة ورحت
أستعرض ما ورد بها،
أصناف من الحلوى
والألبان ، أسماء أجنبية
لأنواع مختلفة من
الشيكولاتة، مأكولات
معلبة ، لم أجرؤ على
مطالبة عبدالغفار
بمقاطعتها لأنه ولابد لم
يسمع عنها ولن يسمع
عنها طيلة حياته . كنت
على وشك مطالبته
بالامتناع عن شراء
أنواع من الأقمشة
والملابس الأمريكية
قرأتها وقد دونت في
القائمة، لكني تراجعت
فوراً ، إذ كانت الجلابية
البوبلين المصنوعة من
القطن المصري والطاقية
الشبيكة على رأسه،
والتي لم أره بغيرهما
أبداً كفيلتان بإسكاتي،
لكن كانت أمامي
مساحيق الغسيل
فقلت:

- مساحيق الصابون
فيها مقاطعة ، وأصناف
من صابون التواليت
والحوض ممنوعة لأنها
إسرائيلي وأمريكاني:

جاء رده كما لو كان
يشاكسني ويصر على
دحض أفكاري إذ
قال:

- والله يامدام أم
محمد جماعتنا طوال
عمرها تحمم العيال
بصابون نابلسي إنه بركة
وبزيت الزيتون ، ثم أن
الأمريكاني غالي
والمسحوق الرخيص هو
المصري. وأحد الآن
ماتوصلناش لغسالة
بالكهرباء لأن الحكومة
ركبت العمدان، والتيار

دخوله باقي عليه وقت والحكومة يومها بسنة .

تبقى الأكل ، المواد الغذائية الأساسية ، وهذه لن يفلت منها عبدالغفار سأحاصره حتى يقتنع ويقاطع قلت له بحزم:

- وجميع المأكولات لازم نقاطعها كلنا ياعبدالغفار .

- طيب يأستاذة صلى على النبي . أنا الفراخ الأمريكاني المحنطة الموجودة في المحلات والمحطوطة في الثلاجات ، مستحيل تهوب ناحية فمي. يعني لو أني ماشوف الفرخة تلقط الحب من الأرض بذات نفسها ، وتتقي بروحها أكلتها، عمري ماأحط لحمها في جوفي أبداً، حتى ولو دفعوا لي ألف جنيه . في الأكل لازماً أن يكون الإنسان إنف.

أه، الإنفة في الأكل مطلوبة .

لم يكن عبدالغفار مضطراً لكل هذه الخطبة المطولة، ولم أجد أنا ماأضيفه وأنا أتأمل مازرعه عبدالغفار.

من بصل وجرجير في حوض الزهور الموجود.

وبعدما رحت أتخيل القائمة الغذائية اليومية له والتي من المستحيل أن تتضمن أيا من السلع التي تضمها قائمة المقاطعة التي أحملها معي.

تأملت عبدالغفار ، كانت ملامحه سمحة، هادئة ، مطمئنة، تطل منها ثقة وسكينة عميقة لم تتغير أبداً. فكرت في أن عبدالغفار لم يحضر ليدين ويندد ضمن الحشد الهائل يدعو في النقابة ولم يطالب باعتصام أو إضراب عن الطعام ولم يدع إلى مقاطعة ليتحدث أمام هذا الحشد على طريقته في المقاطعة وليشاهد الجميع كل ذلك اليقين المطل من عينيه ولكني كنت أعرف إجابته مقدماً والتي ستكون «وهل من المعقول أن أترك العمارة والأرض يا أستاذة» ، لذلك لم أسأله وآثرت تركه، وبينما كنت أضغط زر المصعد الذي سيقلني إلى شقتي في الطابق السابع من العمارة، رحت أفكر في عنوان لقصة عبد الغفار وهل سيكون :



عبد الغفار يقاطع أمريكا؟

أم

عبد الغفار هو الحل!. ■

مهرجانات

وفيلم عدو على الأبواب

بقلم
مصطفى درويش

كان انشغال البال ، زمنا طال إلى ربع عام، بماضى أندلس أسبانيا الرائع الفاجع ، وحاضره الدافع للحنين، المثير للأنين .

كان سببا فى كثرة الأحداث السينمائية، وتراكم وتزاحم أخبارها، على نحو كان لابد معه أن أعمل جاهدا من أجل استرجاعها على شاشة الذاكرة، وهو أمر كان من الصعوبة بمكان .

فلما نجحت فى استرجاع بعضها ، واتسعت الرؤية، إذا بالعبارة تضيق .

وإذا بى حائر، ماذا استبعد مما استرجعته، وماذا من بينه اختار .



تانيا المحاربة المثقفة ضد الغزاة النازيين

وفيما وقع عليه الاختيار ، من أين أبدأ؟

آخر الكبار

هل أبدأ باختفاء اثنين من سينمائيي القرن العشرين .

أحدهما أحمد مظهر ، الممثل والمخرج والفارس الذى تقمص شخصية صلاح الدين الأيوبى فى فيلم الناصر صلاح الدين، ومات عن عمر يناهز الخامسة والثمانين .

والآخر «بيلى ويلدر» آخر السينمائيين الكبار ، الفارين من نير النازية فى أوروبا إلى العالم الجديد ، حيث عاش فى هوليوود ، حتى أسلم الروح عن عمر ناهز الخامسة والتسعين ، فى أثنائه أخرج خمسة وعشرين فيلما ، من بينها روائع خالدات، أذكر من بينها على سبيل التمثيل نهاية أسبوع مفقودة، شارع الغروب، البعض يحبونها ساخنة وشقة العازب .

وفاز بأوسكار أفضل مخرج مرتين ، كما جرى ترشيحه لها ، دون الفوز بها ، ست مرات .

سلاح فاسد

أم تكون البداية بالكلام عن شعار مقاطعة الأفلام الأمريكية ، ذلك الشعار المثار هذه الأيام .

وهنا لا يفوتنى أن أقول: إنه شعار له من العمر أكثر من ثلث قرن من عمر الزمان ، إذ جرى إطلاقه أثر عدوان الخامس من حزيران (١٩٦٧) .

وأغرب ما أعجب له بالنسبة له أنه كلما جنح الحماس بالبعض إلى اطلاقه ، كلما ازدادت هيمنة أفلام مصنع الأحلام .

فما أكثر الأفلام التى من انتاجه ، والمعروضة على شاشات دور السينما بالقاهرة فى هذه الأيام ، ومن بينها أعمال سينمائية ضخمة ، لا غرض من صنعها سوى تمجيد بطولات أبناء العم سام فى الحرب ضد فيتنام (كنا جنودا بطولة ميل جيبسون) ، والإعلاء من شأن تضحياتهم



جود لو في دور القناص الروسي الذي هز ثقة الألمان

من أجل شعب الصومال، وذلك قبل تسعة أعوام (سقوط الصقر الأسود) لصاحبه ريدلى سكوت مخرج المصارع الفائز بأوسكار أفضل فيلم (٢٠٠١) .

الوحدة الوطنية

أم تكون ، أى البداية، بالعرض لحفل أوسكار الأخير ، ذلك الحفل الذى جرى بث شريط وقائعه ، كاملا غير منقوص على الشاشات الصغيرة، بفضل تليفزيوننا، اليقظ دائما وأبدا .

وكان أن شاهدنا ، نحن المصريين ، الوحدة الوطنية وقد تحققت على أرض الولايات المتحدة بين البيض والسود ، ويرمز لها على خشبة مسرح كوداك، بقيام نجمة بيضاء جوليا روبرتس، وهى من هى، بتسليم أوسكار أفضل ممثل رئيسى لدنزل واشنطن، النجم الأسود، عن أدائه لدور شرطى فاسد فى فيلم «يوم التدريب».

وقيام نجم أبيض «راسل كراو» بتسليم أوسكار أفضل ممثلة رئيسية لهالى بيرى النجمة السوداء، عن أدائها ، فى فيلم «كرة الوحش» ، لدور امرأة سجين أسود ، تقع فى حب السجان .

وفضلا عن ذلك قيام «ووبى جولدبرج» النجمة السوداء، الخفيفة الظل، والفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة (١٩٩٠)، عن أدائها لدور مشعوذة فى فيلم «شبح»، قيامها بأداء واجب تقديم نمر البرنامج ، بدءا من رفع الستار ، وحتى ختام الحفل الكبير .

وتكريم «سيدنى بواتييه» أول نجم أسود يجرى تتويجه بأوسكار أفضل ممثل رئيسى، وذلك قبل أربعين عاما ، إلا قليلا (١٩٦٣) .

حلقة جهنمية

أم استهل الكلام بالعرض لواقعة صدور مجلتين جادتين ، غير دوريتين، مدارهما الفن السابع ، إحداهما «السينما الجديدة» تصدرها جمعية نقاد السينما المصريين .

والأخرى «نظرة» ، ومن بين أهدافها تحرير الفن السابع من قبضة السينما السائدة، واحتكارها للعروض ، وفقا لمعاييرها التجارية النمطية .

وهنا ، تجدر الإشارة إلى مطالبة جمعية النقاد فى عددها الثانى ، وزير الثقافة بتبنى مشروع تأسيس دار سينما وسط القاهرة، تساندها شركة متخصصة فى استيراد النوعية المتميزة من الأفلام، وذلك من أجل النهوض بالمشاهد، وحمايته من أذى التشويه السائد .

وتحضرنى هنا مطالبة مماثلة تقدم بها نفر من محبى السينما إلى وزير الثقافة وذلك قبل خمسة وثلاثين عاما، أو يزيد .

أم بتناول ظاهرة اختفاء الفيلم المصرى من احتفالية مهرجان كان الخامس والخمسين ، حيث جرى عرض ثلاثة أفلام فلسطينية وإسرائيلية وإيرانية ضمن المسابقة الرسمية ، التى تؤهل



صلاح عبد الله الفائز بجائزة أفضل ممثل بدلا من أحمد زكي

المشاركة فيها ، للفوز بجوائزه، وعلى رأسها السعفة الذهبية بطبيعة الحال .

كما جرى اختيار عدة أفلام عربية أخرى، من بينها فيلم سورى للعرض فى تظاهرات المهرجان أو ظاهرة قرارات لجنة تحكيم المهرجان القومى الثامن للسينما المصرية التى صدرت مشوبة بخلل شديد، وليد اغفال إعمال العقل والتفكير الرزين .

اغتيال فيلم

واضرب على ذلك مثلا بأيام السادات، لصاحبه محمد خان .

فهذا الفيلم لم يرد له أى ذكر بين الأفلام المتوجة بجوائز المهرجان .

أما لماذا اسقطته اللجنة من الحساب، وكأنه نسياًمنسياً ، فذلك لما يدخل فى باب العجب العجاب .

والحق أنه ليس ثمة تفسير مقبول عقلا لهذا التصرف غير المتسم بالاتزان ، اللهم إلا إذا سلمنا بالرأى القائل أن اللجنة إرتأت أن أيام السادات لم يك أصلا فيلما مصريا .

أو كان كذلك إلى أن صححت اللجنة المسار باسقاط الجنسية عنه، باعتباره فيلما مارقا ، آثما فى حق الأوطان .

وليس أدل على جنوح اللجنة عن طريق الحق والعدل من قرارها الصادر بمنح جائزة أفضل ممثل رئيسى للكوميدى صلاح عبدالله ، عن أدائه لدور ثانوى فى

مواطن ومخبر وحرامي» لصاحبه «داود عبدالسيد» .

الحرمان لماذا ؟

كل ذلك لا لسبب سوى حرمان أحمد زكي من تلك الجائزة التي كان يستحقها ، بجدارة ، عن تقمصه لشخصية أنور السادات .

والأكيد أن هذا القبح القبيح المتمثل في تفضيل الذي هو أدنى على من هو أعلى منه منزلة في الأداء، لم يمله المنطق ، وإنما املاه لدد الخصومة لنجم عيب عليه، من بين ما عيب ، ارتكاب إثم عمل فيلم حول مسيرة رئيس ، يكن له البعض بغضا شديداً .

كما أن اللجنة قد خانها التوفيق عندما جنحت إلى منح جائزة الإخراج الأول لخالد يوسف عن جواز بقرار جمهوري .

فهذا الفيلم السخيف المنقول عن فيلم إيطالي ، ليس فيلمه الأول ، وإنما فيلم العاصفة الأشد منه سخفا .

تجارة وشطارة

وأغلب الظن ، أن الباعث على هذا التجاوز ، هو مكافأته عن عاصفته ، حيث جرى إحراق علمي اسرائيل والعم سام .

وإذا كان الأمر كذلك ، أفلم يكن أحق بجائزة الاخراج الأول صاحب فيلم «أصحاب واللابيزنس» ، حيث فجر شاب فلسطيني نفسه على الحدود مستشهدا، وسط ثلة من جنود الاحتلال؟

وخانها التوفيق كذلك، عندما منحت جائزة أفضل ممثلة رئيسية «لهند صبري» عن دور صغير أبته في «مواطن ومخبر وحرامي» ، وتعديها بهذا الجنوح على حق بطلة أسرار البنات » ، في الفوز بتلك الجائزة، عن أدائها الرائع لدور فتاة حامل في الحرام .

وعندما أثرت «الساحر» بجائزة الانتاج الثالثة، وهو الفيلم الفائز ، قبل بضعة شهور ، في مهرجان دمشق السينمائي ، بجائزة أفضل فيلم عربي ، من الخليج إلى المحيط .

صوت المعركة

أما لماذا تراجع «الساحر» إلى الدرجة الثالثة، فذلك ربما يرجع إلى نظرية البهجة التي يدعو إليها «رضوان الكاشف» صاحب الفيلم ، ليل نهار ، أو ربما إلى عدد القبلات المتبادلة بين ابنة الساحر ، وحبيب قلبها ابن الجيران .

وهي من الكثرة والجرأة، ولا أقول الفجر ، بحيث كانت تقترب من عدد القبلات التي تبادلها العندليب الأسمر مع غانية الاسكندرية في «أبي فوق الشجرة».

وهذا ، ولا ريب ، أمر غير مقبول في زمن الجهاد !!

ذكرى انتصار

وفيما أنا هكذا حائر، شاهدت فيلما كنت انتظره بفارغ الصبر، منذ رأيت إشارته في إحدى دور السينما بشارع برودواي، وذلك قبل خمسة عشر شهراً .

ولأمر ما، تأخر عرضه عندنا ، إلى أن

جـاء الموسم الميت ، حـيث تخلو دور السينمـا من روادها، ومـعظمـهم من الشباب ، لانشغالهم بالامتحانات .

وفجأة ، دون تمهيد ، جرى عرضه في ذكرى انتصار الاتحاد السوفييتي ، في حـربه ضـد المانيـا الهـتلرية (٩ مايو١٩٤٥) وأين ؟

في أضـخـم وأفـخم دار سـينمـا ، بالقاهرة ، وأمام نفر قليل من المتفرجين ، وكأن الدار تنعى من بناها .

هذا الفيلم هو «العدو على الأبواب» للمـخـرج الفـرنسي «جان جاك آنو، صاحب أسود وأبيض بالألوان» ، الفائز بأوسكار أفـضل فـيلم أجنبي (١٩٧٦) البحث عن النار ، «باسم الوردة» المأخوذ عن قصة للأديب الإيطالي «امبرتو ايكو» ، «الدب» «العاشق» المأخوذ عن السيرة الذاتية للأديبـة الفـرنسيـة «مارجـريت دوراس»، و«سبع سنوات في التبت» .

معركة المعارك

والعدو على الأبواب انتاج مشترك بين ثلاث دول أوروبية المانيا ، بريطانيا وايرلندا وحتى الآن يعتبر أغلى فيلم انتجته أوروبا ، إذ ارتفعت تكلفته إلى ستين مليون جنيه استرليني وموضوعه يدور وجـودا وعـدمـا حـول صـمـود ستالينجراد أمام العدوان النازي ، ذلك الصمود الذي انتهى بالجيش السادس ، تحت قيادة الفيلد مارشال فردريك فون باولوس مـحـاصـرا ، بدءا من ٢٣ من نوفمـبـر لعام ١٩٤٢، وحتى الثـاني من فبراير لعام ١٩٤٣، تاريخ استسلامه ، مع جـيـشـه الذي لم يبق منه سـوى واحـد وتسـعـين الف جندي ، وذلك بعـد فـقـده حـوالي مـائة وخـمـسين ألف جندي ، قبل واثناء الحصار .

وعلى كل ، فـمـا أن شـاهـدته ، حـتى شعرت بأن حيرتي تؤذن على الانتهاء .

فقد وجدتني أمام فيلم جدير بان أقف عنده ، مشيدا، وخاتما به الحـديث، ليكون مسك الختام .

من المشـاهد التي يفـتـخـر سـتـيـفن سبيلبرج بابداعه له في فيلمه «انقاذ النفر رايان، الفائز عنه باوسكار أفضل مخرج ، مشهد نزول الجنود الأمريكيين على ساحل نورمـاندي بشـمـال فـرنسـا ، حـيث ترى جثثهم في أعماق البحر تتمزق إربا ، وعلى رمال الشاطئ تتطاير أشلاء .

جحيم مقيم

وكم بدا لي هذا المشهد باهتا ، مفتعلا، مقـارنة بلقطات فـاتحـة فـيلم «العدو على الأبواب»، حيث يؤمر ركاب أحد القطارات من المدنيين بمغادرته فورا ، حـتى تستقله جموع المجندين ، وكأنها قطعان .

وما هي إلاّ ثوان من الزمن السينمائي، حتى يساق بهم، ومعهم المجند «فاسيلي زايتسيف» ـ يؤدي دوره الممثل الانجليزي «جودلو» ـ إلى قوارب تعبر بهم نهر الفولجا ، في رحلة نحـو سـتـالينجـراد ، أو بمعنى أصح نحـو الجـحـيم ، تحت رحـمـة قنابل

تتساقط عليهم من طائرات الألمان ، فتحصد أرواحهم حتى يموج النهر بجثثهم، وجثث من حاول الهروب من الموت ، فأردته رصاصات الرفاق، امتثالا لأوامر صادرة بقتل كل من تسول له نفسه الفرار من ساحة القتال ، دفاعا عن أرض الآباء.

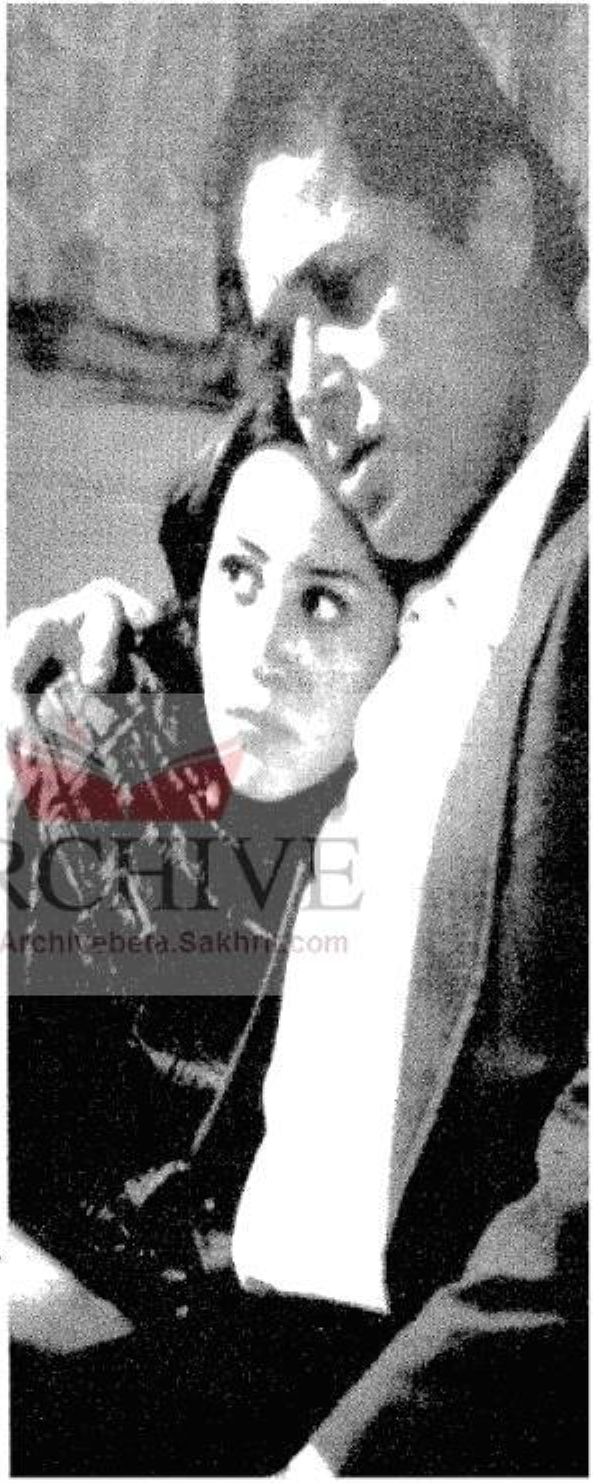
أما المدينة نفسها المتسمية باسم ستالين ، بدلا من تزارتسين (مدينة القيصر) فقد تحولت ، بفعل القتال من شارع إلى شارع ، ومن مبنى إلى مبنى ، وبفعل القذف المتواصل من مدافع وطائرات الألمان ، تحولت إلى بقايا من سقوف ، وجدران ، تطل من بعضها فجوات كانت نوافذ أو أبوابا ، في سالف الزمان .

بقايا مصانع ومنازل كانت بالأمس آهلة بالعمال والسكان .

صمت القبور

أما الآن فالسكون المخيم فيها ، سكون أخرس أبكم ، سكون رهيب بعمقه ، ساحق، ساحق بحزنه ، سكون أقرب إلى صمت القبور .

وسط كل هذا الخراب المقيم



محمود عبد العزيز وابنته
في فيلم الساحر

، ومع دوى انفجارات هائلة ، تهتز لها الأرض تحت الأقدام ، وقنابل تتطاير فوق الرؤوس ، فلا يسمع إلاّ صفير أنكر من صوت الحمير .

ومن حين إلى حين ، تسمع أنات جرحى ، لتختلط بأزيز الرصاص، وصفير القنابل ، وزئير المدافع .

انتصار الإرادة

وسط هذا البلاء ، دار صراع حتى الموت بين إرادتين .

إحداها إرادة قناص روسى « زايتسيف» من أسرة رعاة، نشأ يتيما فى الاورال ، طلقات بندقيته تصيب الذئاب ، لا تخطئها أبدا .

والآن طلقاته تصيب ضباط جيش الاحتلال فى مقتل ، مثلما كانت تصيب الذئاب الضالة فى الغابات .

بالمناسبة زايتسيف هذا شخصية حقيقية ليست من صنع الخيال ، أبلت فى الحرب الوطنية الكبرى بلاء حسنا ، توج عنه ، بعد النصر بوسام لينين .

وعن سيرته فى أثناء تلك الحرب، كتب مذكراته تحت عنوان «وراء الفولجا، لم يكنْ لنا أرض» .

أما الارادة الأخرى، فصاحبها ضابط المانى من أبناء الأكابر «كونج»- يؤدى دوره الممثل الأمريكى « ادهاريس»

تعلم فن الرماية، لا لحماية الماشية من خساس الحيوانات ، وإنما لاقتناص الوعول والغزلان فى رحلات صيد علية القوم ، المترفين ، الباحثين عن اللذات .

ولن احكى تفاصيل الصراع بين ارادتى هذين العدو بين، وكيف دار ، حتى مقتل الألمانى برصاصة انطلقت من بندقية الروسى إلى أم رأسه ، فخر صريعاً .

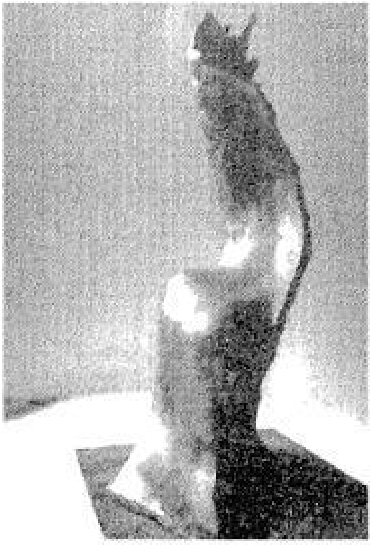
ولا تفاصيل قصة الحب بين ابن الرعاة «تانيا» الفتاة المتخرجة فى جامعة موسكو - تؤدى دورها الممثلة الانجليزية «راشيل وايزه» - والمتطوعة لمحاربة الغزاة مثل الرجال ، تعانى معهم من البرد القارس ، ومتاعب الحياة الجندية . وكيف انتهت قصتهما بلقاء سعيد .

ولا تفاصيل إدارة نيكيتا خروشوف للمعركة الفاصلة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ، بتكليف من ستالين - لعب دوره الممثل الانجليزى «بوب هوسكنز» ،

وكيف كان قاسيا ، فظا ، غليظ القلب فى إدارتها ، حتى تحقق النصر باسر جيش الاحتلال المحاصر ، والاذلال له فى شوارع ستالينجراد ، حيث رقص الجنود الروس ، وغنوا فرحا ، إلا الذين ماتوا ، وهم بالملايين ، فأولئك ظلوا صامتين .

لن أحكى تفصيل كل هذا، فذلك شئ يطول .

وإنما اكتفى بأن أقول بأن العدو على الأبواب جدير بأن يشاهده شبابنا ، حتى تعود إليه روح التضحية والفداء ، دفاعا عن أرض الآباء والأجداد . ■



تكوين - حليم يعقوب



الانسان - جميل شفيق

الفنانون يواصلون رؤى السلام

بقلم
عز الدين نجيب

الهلال
ربيع أول ١٤٢٣هـ - يونيه ٢٠٠٢م

كما كان متوقعا: خمدت سريعا هبة الفنانين المصريين المواكبة لانتفاضة الشعب الفلسطينى البطل، وقد عرضنا فى العدد الماضى بعض تجليات التعبير الفنى عن تلك الهبة خلال شهرى مارس وإبريل، سواء عبر ورش عمل جماعية أو معارض فردية، وأشدنا بموقف نقابة الفنانين التشكيليين لاستجابتها لمطلب أعضائها بأن تتبنى إقامة جداريات فنية فى بعض الأماكن العامة لأعمالهم الفنية التى قاموا بإنتاجها لهذا الغرض خلال فترة قياسية بساحة



زوربا المصرى - ايهاب شاكر



القاهرة - فرغلي عبد الحفيظ

النقابة بالجزيرة، مدفوعين بمشاعر الغضب والتضامن مع أشقائهم، وبموقف قومى يتعلق بمصير هذه الأمة، لكن النقابة سرعان ما تخلت عن وعودها واستبقت اللوحات فى مكانها محاطة بالأسوار بعيدا عن أعين الشعب الذى أنجزت هذه الأعمال من أجله، بل تخلت عن إصدار بيان قوى يعبر عن موقف الفنانين المصريين بكل تجمعاتهم بعد أن تمت صياغته وأقر مجلس النقابة توزيعه محليا ودوليا، وبذلك فشلت فى أول اختبار لمصداقية الشعارات والوعود الانتخابية (حول تأكيد حضور الفنان وموقفه من القضايا القومية) التى وعد بها النقيب الجديد الفنان مصطفى حسين، لتصيب الفنانين بخيبة أمل مبكرة، ومن ثم استأنفوا حياتهم المعتادة ونشاطهم الفني بنفس رؤاهم الذاتية السابقة للأحداث، والتى تعكس أجواء السلام بتجلياته المختلفة.

ولقد ازدحمت كالعادة قاعات الفن بالقاهرة بمعارض الفنانين عبر مساراتهم الفنية المعهودة، بعضها أقيم خلال شهرى مارس وإبريل ولم نستطع تقديمه فى العدد الماضى ، والبعض الآخر أقيم فى النصف الأول من شهر مايو، وقد تنوعت الأجيال والاتجاهات والرؤى الفنية بين مبدعيها، وسوف نحاول استعراض ما تسمح المساحة بتقديمه.

إيهاب شاكر: زوربا المصرى!

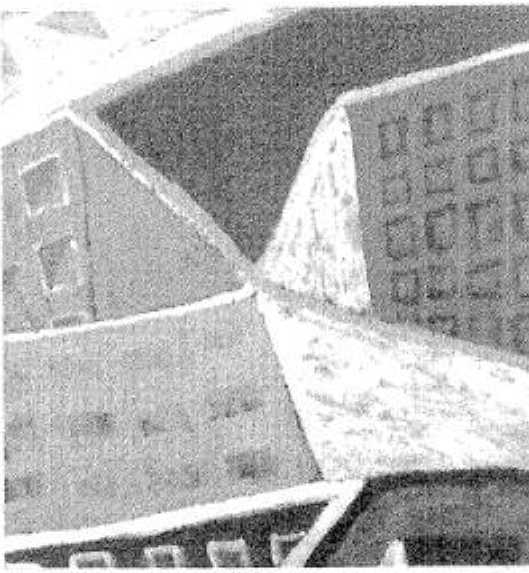
كان معرضه الأخير بين منتصف مارس ومنتصف ابريل امتدادا لمعرضه فى العام السابق، مزاوجا بين متناقضات عدة تبلغ حد المفارقة: بين الموضوع الشعبى والأسلوب الحداثى، بين العفوية الطفولية والسيطرة العقلانية، بين الرؤية الواقعية والشطحات السريالية، بين التشخيصية الاسطوانية والتبسيط المحرف الذى يشارف التجريد، بين المبالغة العبثية الساخرة، والتأملية الحكيمة المتفلسفة!

والغريب أنه ينسج لوحاته بسنون أقلام ملونة تقتضى وقتا وصبرا لا يملكهما إلا العابدون، ويبدو أحيانا مثل حائط التطريز والخيامية، يتحداك عمله أن تتعرف على سر صنعته، حيث لا يبدو أثر لخيط أو غرزة إبرة، ويمكنك بالفعل إقامة مقارنة بين تقنياته وبين كثير من المهارات الحرفية المتوارثة، مع فارق الأستاذية والابتكار المتفرد لكل قطعة.

وبالرغم من أن عبقرية إيهاب تتركز فى تلك المهارات التقنية على وجه الخصوص، حيث بلغت من الرهافة حد التلاشى الدخانى للألوان والملامس، فإن عالمه يمتلك بعدا أسطوريا غامضا وفلسفة حسية فطرية للحياة، لنقل إنها «وجودية زورباوية» نسبة إلى زوربا اليونانى، تكمن فى كيفية أن يعيش الإنسان لحظته الآنيّة بدون أسئلة حتى الانتشاء، ويتحقق ذاتيا بقناعة المتقشف حتى يتواصل مع المطلق.. يرقص ويغنى ويلعب ويغامر ويعزف ويحب ويتماهى مع من يحب حتى الذوبان، لكنه يظل مصرى الهوى والهوية، أما مفرداته اللغوية (التشكيلية) فهى خطوط بسيطة وشرائط متماوجة وشرائح ملونة تتجاور وتتعانق وتبنى تكوينا عضويا متلاحما يستحيل تفكيكه أو الإفلات من براثنه بمجرد أن تمسك بأول الخيط للولوج إليه.. إنها نوع من أحابيل الحواديت الشعبية المخادعة.. بلا كلمات!

محمد رزق: حوار الحديد والنحاس

كان هذا عنوان المعرض رقم ١٦ للنحات محمد رزق بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى فى مارس الماضى. ومنذ الستينيات لم يبتعد رزق يوما عن مطرقته وألواحه النحاسية وكتله الحديدية التى يشكل بها عالما جماليا مليئا بالحياة والمشاعر والنبض الإنسانى، وكأن تلك



تكوين معماري - اسماعيل غريب

الألواح والكتل الصلبة قد تحولت إلى مادة طينية لدنة أو آلة عود يعزف عليها بريشة العواد!

وكابن من أبناء محافظة دمياط، تمثل المهارات اليدوية أهم السمات الشخصية له، كما هي بالنسبة لأهل هذا الإقليم، وعندما تكتمل المهارة بالابتكار تتحقق الرؤية الإبداعية للفنان، أما أن تتفتق هذه المهارة من خلال خامات صعبة كالحديد والنحاس، وليس من خلال الأخشاب كأهل دمياط، فتلك هي طاقة التحدي الخلاق التي تميز الفنان الحق.

وقد لعبت الصدفة دورا تاريخيا في اختيار رزق للمعادن وخاصة النحاس ليبدع منحوتاته من خلالها، فقد اشتغل عام ١٩٥٩ بشركة الحديد والصلب بحلوان، وهناك وجد في المعادن ضالته، وبهرته - بشكل خاص - خاصة النحاس فوقع أسيرا لها على حد قوله، وبعد عشرة أعوام (عام ١٩٦٩) اتخذ قراره الحاسم بالاستقالة والتفرغ لمعشوقته!

وربما - لهذا السبب - يعد محمد رزق أحد الفنانين المصريين القلائل الذين عاشوا من فنهم ولفنهم وحده، ويعد لهذا أيضا من أكثر الفنانين الذين توجد أعمالهم في الأماكن العامة. وأظن أن ذلك قد ترك أثره في تعدد أساليبه وفقا لمقتضيات المكان الذي يضع عمله على جدرانه، متأرجحا بين الواقعية الوصفية والتعبيرية الحرة والسريالية الرمزية والتكعيبية المبسطة حتى مشارف التجريد المطلق.

وإذا كان ذلك قد منحه قدرا كبيرا من الحرية ليعزف ألحانه بغير نسق أسلوبي ينتظم مراحله الفنية، فقد انعكس - من ناحية أخرى - على اقترابه الخطر من الخط الأحمر الفاصل بين الفن البحت

والفن السياحي المتعارف على مواصفاته. ووجه الخطورة بالنسبة لرزق أن طموحه الشخصي كفنان يتجاوز كثيرا مستوى الأغراض السياحية إلى مستوى الإبداع الخالص لخلق عالم ذاتي بحت، وهو يملك بالفعل كل المؤهلات لتحقيق ذلك الطموح، لو اختار أعماله التي يقدمها في معارضه من النوعية التي تحقق هذا الهدف، وهو ما لم يحدث في معرضه الأخير، الذي جمع من كل بستان زهرة، وكان من بينها عدد من الأعمال المتفردة باجتهادات تعبيرية وخيالية وتحليلية مرهفة، تنحو نحو الحداثة الأوروبية ولا تنفصل - في ذات الوقت - عن الروح المصرية، مثل الرجل ذو القناع، وعازف الناي، والرجل الجالس، ورأس الحصان.

فرغلي عبدالحفيظ: قصيدة عشق للقاهرة

في أعماله السابقة تعودنا على أغنياته الريفية المضمخة بعبير الطمي وخصب النيل، حتى أنه كان يجتهد كي يشعرنا بملامس الطين وتشققات التربة العطشى وألوان الطمي الجاف والمحروق فوق أسطح لوحاته، وقد يرسم فوق هذه الملامس وجوها ومشخصات تبزغ وتختفي وتتداخل وتتلاشى، في وميض يتذبذب كاستدعاء الذاكرة.

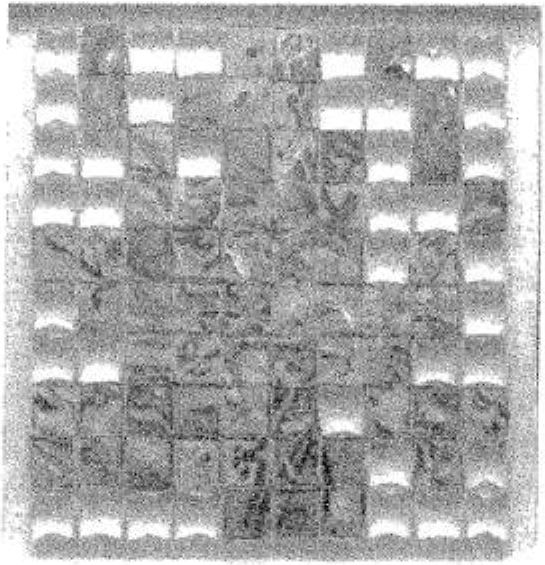
لكن المعرض الأخير لفرغلي عبدالحفيظ بقاعة الزمالك بين أواخر مارس ومنتصف ابريل اتخذ من القاهرة موضوعا له، وجعل منه قصيدة عشق تنبعث من وعي فتى صعيدي يطأ ميدان باب الحديد لأول مرة في حياته.. إنها - إذن - ذكريات الحب الأول والأخير لهذه المدينة، فقد لازمه هذا الحب طوال ٤٣ عاما دون أن يفقد وهجه وإبهاره، حتى أنه يكتب عنها في دليل معرضه قائلا: «إنها القاهرة ذات الدلال والجلال، إنها امتداد «منف» العظيمة، تتعثر خطاها أحيانا وأغضب منها وعليها وأختلف معها، لكنني عندما أعود إليها عند ضفاف قصر النيل وأستمع إلى حواراتها وهمساتها مع النيل الفضي الأزرق القادم إليها من الجنوب، أشعر بأن الدفء كله، والسحر كله، والدماثة كلها، والروحانية كلها، والعاطفية كلها، تتوالد أطيافها الأولى على ضفاف النيل، حيث تجتمع وتتكاثف وتتآزر كل عناصر المحبة والسلام».

وتلك - لعمري - حالة وجدانية غريبة، تبدو على عكس حالة أغلب المبدعين - شعرا وأدبا وفنا - من أبناء الريف والصعيد، الذين سرعان ما تبدد انبهارهم الأول بالمدينة الحلم، وأفاقوا على حقيقتها كأخطبوط هائل بلا قلب، يعتصر القلوب في صراع الوجود، بغلظة أذرعه الطبقية، وبقسوة الوحدة والغربة التي عانوهما في شوارعها، مقارنة بحياة القرية التي جاءوا منها، بروحها الجماعية وفطرتها التلقائية وطبيعتها النقية، حتى باتت «القاهرة» تعبيرا مجازيا عن مضمون اسمها، إذ

تمارس القهر على الغرباء حتى يدمنوه ويتكيفوا معه!.

أيا ما كان الأمر، فإن لكل فنان مدينته الفاضلة التي يخلقها بخياله واشتياقه وبمثاليته الرومانسية، لهذا فإن القاهرة كما صورها فرغلي ليست هي القاهرة التي نراها ونعيشها، بل هي مزيج من أحلام القرية والمدينة معا، عبر النيل والوجوه الطيبة والحسناوات البيض والسمر بملامح نوبية أو زنجية، المتجملات بالحلي الشعبية والتعاويذ السحرية، ويتزاحم فيها البشر بألفة حميمة في الكازينوهات والطرقات، وتتقارب الرؤوس والأعين والآذان والشفاه، مغمغمة بالهمسات ومومئة بالنظرات والبسمات، وتتمايل القوارب الصغيرة على سطح النيل عابرة بالمحبين، كل ذلك بأسلوب تعبيري فطرى خال من الأناقة والمحسنات البديعية، محاكيا رسوم الأطفال والفن الساذج.

لقد أضحي فرغلي – مع نضوجه – أكثر بساطة وتلقائية عما كان عليه قبل عشر سنوات أو أكثر ، عندما كان يمتطي مكوك الحداثة والتمرد الفني ويبشر بهما، وكم من فنانين شباب ضلوا طريقهم فى الفضاء حين كان يعدهم بالمجد عبر ذلك المكوك!



تكوين معماري – يسري القويضي

جميل وحليم: الريشة والأزميل

فى منتصف ابريل كان افتتاح المعرض المشترك بقاعة بيكاسو للفنانين جميل شفيق (في الرسم) وحليم يعقوب (فى النحت) .

ولا يحتاج المرء إلى كبير اجتهاد ليكتشف الطابع النحتى لرسوم جميل، ليس لتأكيد الكتلة والعمق الاسطوانى لشخصاته فحسب، بل أيضا لمعالجتها كمجسمات محاطة بفضاء، حتى وإن بدت

خلفها أو أمامها عناصر أخرى تكمل التكوين، وكذلك لإدراكه أهمية الاختزال الشديد لكافة التفاصيل غير الضرورية في عناصره المجسمة، بالنور والظل، حتى تبدو البطولة معقودة للجوهر النقي داخل الشكل والحركة والإيقاع البصري بين الضوء والظلال، وتلك جميعا من سمات النحت.

وعالمه التعبيري يدور في جو أقرب إلى الحلم أو الأسطورة، فبطله كثيرا ما نراه موسيقيا يعزف على العود فتنصت إليه الكائنات جميعا، بشرا وحيوانا وطيرا وشجرا، بل وتنحني أمامه الجبال خشوعا ووجدا، وتحتل علاقات الحب مكانا مميزا في هذا العالم، حتى تصل إلى تلك الوحدة الاندماجية بين المحبين، محققة تلاحما جسديا ذا نتوءات وأطراف عديدة تكسب التكوين طابعا أسطوريا، وربما تضفي عليه مسحة الذوبان الصوفي.

أما منحوتات حليم يعقوب فهي اختزال طوطمي للمشخصات البشرية والحيوانية، تعكس طابعا سحريا محفوفا بالأسرار ومنذرا بالنبوءات، لقد تخطى سياج المشابهة لعناصر الواقع قربا من التجريد، معطيا ظهره لمثالية النحت المصري القديم برسوخه وصرحيته ومهابته الميتافيزيقية، وفي وعيه وذاكرته البصرية تطل منجزات النحت الأوربي الحديث، باجتزائها للمشخصات خارج السياق الطبيعي، وتحريفها حتى تصل إلى جوهر الشكل أو الحركة، وإعلائها شأن الخامة والملمس وغرابة الشكل وغموضه، دون اكتراث لعدم وجود مرجعية بصرية مشتركة بين الفنان والمتلقي حتى يلتقيا على أرضها، ومن ثم يتعين على هذا المتلقي أن يؤسس مرجعيته الثقافية والبصرية من خلال كتب الفن الغربي الحديث، كي يمكنه أن يتواصل مع هذه المنحوتات، عندئذ قد يصل إلى كنه الجمال الخالص لذاته وليس للمفهوم الجمعي عنه، وقد يسمع صهيل الحصان في التمثال الذي يراه كتلة مندفعة طائرة بغير أرجل أو ملامح واضحة.

شاهين..
بين الأرضي والكوني

في مركز الجزيرة للفنون أقيم معرض المصور عبدالرحيم شاهين أوائل شهر مايو، وقد صعد نجم شاهين خلال التسعينيات بعد غياب امتد عشرين عاما عن بلده، ليعود محتشدا برؤية فنية تحوم حول ضفاف الحلم والأساطير والكوابيس، وقد تواصلت معارضه على نفس المنوال، مزاوجة بين الواقع وما فوق الواقع، بين الأرضي والكوني والسفلي بخيالات الجحيم، محافظا على تقنياته التكوينية واللونية، التي يمثل اللون البني عمودها ونسيجها، فتبدو اللوحة مثل الأعمال الكلاسيكية القديمة، خاصة أعمال «رمبرانت» الهولندي، التي تبدو كالرسم

بشطفات الضوء على طبقات الظلمة.

في معرضه الجديد يزداد توغلا في عالمه السفلي، وتزداد جرعة المأساة والحس الكابوسي في لوحاته، ويغلف الحزن كافة عناصره، حتى ولو كان بطل اللوحة عازفا على الكمان، وهو مشهد يتكرر مرارا في لوحات المعرض، في مقابل حالات الحصار والكبت والتمزق والعجز أمام قوى مجهولة، تتراءى لنا في أشكال تشبه الحواجز والتوابيت والصلبان والشباك والأسلاك الشائكة ، وإذ يبدو الإنسان أسيرا بلا مخرج وسط ذلك كله، فثمة ضوء يبرق أو ومضة تشع وسط هذا الظلام، وثمة وجوه تبزغ وتشق طريقها إلى قلب اللوحة معلنة عن تحديها للحصار، وثمة أعمال نفذت مؤخرا بأسلوب مركب ومجسم تبدو محاولة جديدة من الفنان للخروج المزدوج، أي من أسر الأزمة وأسر الأسلوب الفني المتكرر في آن واحد.

عماد أبوزيد.. الظاهر والباطن

وفي قاعة مجاورة لمعرض شاهين، أقيم في نفس الفترة معرض الفنان الشاب عماد أبوزيد، يضم لوحات مجسمة من خامات عدة، وعماد أحد المواهب المتفتحة في الحركة التشكيلية منذ أواسط التسعينيات ، عرف بتجاربه الطليعية مستخدما خامات غير تقليدية مثل أوراق الصحف والخيش والحبال والأخشاب والألياف، لتقديم رؤى ذهنية في إطار ما يسمى «بالفن المفاهيمي» ، تقوم على فكرة مسبقة في خاطر الفنان يسعى لإبلاغها إلى المشاهدين بأبسط السبل وأفقر الخامات، وهو في الحقيقة يطرح على المشاهدين إشكالية وجودية تثير من الأسئلة أكثر مما تحمل من الإجابات، وبذلك يجعل المشاهد طرفا في عملية الإبداع الفني.

وفي هذا المعرض يطرح علينا عماد – الذي حصل على الدكتوراه مؤخرا من كلية التربية الفنية – إشكالية التباين بين الظاهر والباطن، من خلال مجموعة لوحات مشكلة من خامات مختلفة، كالعوارض



عامل الافران للفنان محمد رزق

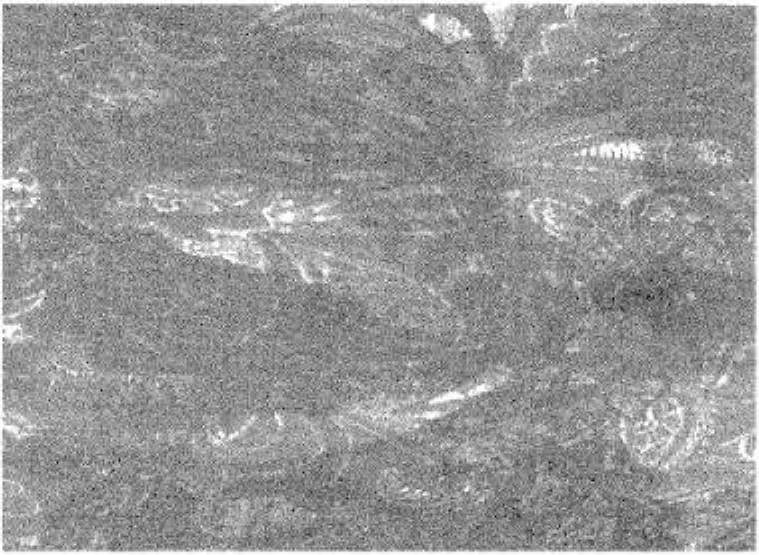
الخشبية المحترقة والخناجر الحديدية واللفائف الجلدية أو الورقية التي تبدو مثل المخطوطات التاريخية المتآكلة، وعناصر غريبة تبدو كالحراب والمسامير والأنياب، وقد غطيت بأغطية من القماش الأبيض شدت بحبال ومشابك تشبه ما يستعمل في الخيام، ثم نزعت هذه الأغطية في أماكن معينة، لتظهر من تحتها جوانب من هذه الأشكال المتوارية.. ولأن الفنان لا يقول لنا ما هي الإشكالية التعبيرية أو الفلسفية التي يقصدها، وماذا يرمي من وراء حشد كل هذه المخلفات، فإن خيالنا يقوم بملء الفراغ المفاهيمي، بدءاً من تحديد الإشكالية حتى طرح الأسئلة وصولا إلى الإجابات، مما يسمح بتعدد الاجتهادات والمفاهيم وزوايا النظر بين المشاهدين.

شريف كروان .. بين الزخرفة والتعبير

شأنه شأن كثير من الفنانين الذين دفعتهم ضرورات الحياة إلى الاغتراب للعمل في دول الخليج سنوات ممتدة، عاد الفنان شريف كروان إلى مصر بعد أن تسرب الشباب من بين أصابعه، فيما انزوى الإبداع الفني في زاوية من حياته، وبالرغم من أنه كان يعمل في السعودية في مجال الفن ويشغل وظيفة مقرر لجنة الفنون التشكيلية بالجمعية السعودية للثقافة والفنون بجدة، فإن قائمة معارضه المطبوعة بدليل معرضه الذي أقيم بمتحف أحمد شوقي بالقاهرة في مايو الماضي تخلو من أية معارض شخصية له طوال الفترة من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٩ وهي سنوات إقامته بالخارج، ومنذ عودته ذلك العام أقام مجموعة متلاحقة من المعارض في أماكن متفرقة بالقاهرة، مما يشير إلى فيض الإبداع المختزن بداخله الذي تدفق بغزارة بمجرد وجوده في مناخه الطبيعي على أرض الوطن.

شريف كروان رسام جرافيكي يملك تقنية عالية في الرسم والطباعة على أسطح الزنك والخشب، وقدرة على استخدام طرق خاصة في الطباعة تحقق قيما عالية خطيا ولونيا بأسلوب القطعة المتفردة بغير استنساخ.

ولا أعرف أسلوبه وعالمه الفني قبل سفره حتى يمكن استنتاج مدى تأثره بالبيئة الثقافية في السعودية فترة إقامته بها، لكن لوحات المعرض تشي بذلك التأثر، حيث تعتمد على المنهج الزخرفي العربي، هندسيا كان أو نباتيا، وتبدو مهارته في إضفاء حس تعبيري وتجريدي على لوحاته يتجاوز البعد الزخرفي إلى آفاق غنائية كالترانيم والابتهالات، حتى تتصاعد إلى طبقات الصفاء والإشراق الصوفي، عبر إيقاعات موسيقية موقعة توقيعا منتظما، ونغمات لونية مثل فراشات مزركشة أو مثل رقش على سجاجيد فارسية أو هندية، وقد تتراءى لنا رسومه كزحام بشرى هائل - بحس تجريدي مطلق - حول الكعبة أو



انسيابية - شريف كروان

الحرم النبوى الشريف.

غير أن خبرته الجمالية فى الاتجاه الإسلامى البحث أوقعته فى حيرة مضنية بين التشخيص، الذى ذبلت خبراته فيه مع طول سنوات الهجران لممارسته، وبين التجريد الذى يحصره فى محيط محدود، وأظن أن استمرار العمل والتجارب كفيل بإخراجه من حيرته، لنكسب بذلك فارسا جديدا فى مضمار فن الجرافيك ، يزاوج بين الأصالة والحداثة.

إسماعيل غريب.. ونثرة الطائر

نفس هذه الحيرة بين الواقع والتجريد نلمحها فى معرض الفنان الشاب اسماعيل غريب الذى أقيم بقاعة مشربية خلال إبريل الماضى، إنه رسام شغوف بالعمارة إلى حد أنه جعل منها العنصر الوحيد فى تكوينات جميع لوحاته الزيتية، بعلاقات هندسية كمتواليات رياضية لا تنتهى، وقد تقترب كثيرا من مفهوم الفلسفة الإسلامية عن الشكل الهندسى اللامتناهى، فليس للوحته أول ولا آخر، بغير اللجوء الى المنهج الرياضى للأطباق النجمية المعشقة والمتداخلة، التى تتوالد فى أعداد لا نهاية لها من المثلثات والمربعات والدوائر، كرمز لامتداد وجود الله الأحد فى الكون بأجمعه، فيما تمثل كل وحدة من هذا الامتداد الكلى روح الخالق.

وقد نجح اسماعيل فى تحقيق هذا المعنى بعيدا عن المنظور الزخرفى الإسلامى، مستعينا بمنظور عين الطائر فى النظر من أعلى إلى سطوح العمائر، حيث تبدو كمساحات مجردة، وأضاف إلى ذلك استخدامه لصفوف منتظمة من فتحات النوافذ التى تبدو كقطع الخرط العربى فى المرشبية، واستخدامه كذلك لشكل «المفروكة» فى التعشيق الهندسى العربى، لكن رؤيته تتجاوز هذا الإطار التقليدى بنزعة تعبيرية عفوية تتضمن مساحات من الفضاء والضياء تسمح بالتنفس وتطلق خيال المشاهد نحو آفاق مفتوحة.

يسرى القويضى.. والتكعيبية المصرية

فى المدار نفسه تدور تجربة فنان آخر لكنه لا ينتمى إلى أجيال الشباب، بل ولا إلى أوساط الفنانين، فهو يأتى من جماعة الدبلوماسيين، ذلك أن يسرى القويضى شغل مناصب دبلوماسية عديدة منذ عام ١٩٦٢ كان آخرها مساعد وزير الخارجية عام ١٩٩٩، وظل الفن هواية خاصة يمارسها فى أوقات فراغه، وقد يشارك بين الحين والآخر فى معارض متفرقة، أو يقيم معارض خاصة على فترات متباعدة، حتى أتيح له أخيرا التفرغ للفن، فأقام عدة معارض فردية كان آخرها معرضه بمركز الجزيرة للفنون خلال شهر مايو الماضى.

والمدار الذى أعنيه هو التجريد الهندسى حسب متواليات رياضية، لكنها تنطلق من شكل المربع الذى يوحى تتابعه بالأرابسك ، غير أن الجديد الذى يضيفه هو أن لوحته تقوم على مجسمات منفصلة – متصلة من مكعبات ورقية متلاصقة كلوحة الشطرنج، قام بتنفيذها بنفسه من الورق المقوى بتحريفات محسوبة لشكل كل مكعب، وقام بحشو بعضها بأوراق ملونة تختلف من مكعب إلى آخر، لتتكامل فى النهاية لوحة تجمع بين السطح والمجسم، وتمثل الفراغات المتبقية من مكعباتها غير المحشوة أو الملونة عمقا وإيقاعا بصريا متماوجا.

إنها إذن شكل من أشكال التكعيبية المصرية أو المعربة، ولا نقول إنه مبتكر هذا الشكل، فقد سبقه كثير من الفنانين المصريين، بدءا من عفت ناجى وعبدالرحمن النشار حتى محمود عبدالعاطى، بل والأوربيين (مثل فازاريللى) لكننا نشير إلى حساسيته فى استخدام هذا الأسلوب معتمدا على خامة الورق، بما يصل به إلى حالة من الروحانية النابعة من التماوج البصرى المراوغ عبر مستويات الغائر والبارز على سطح اللوحة، وأحيانا يصل إلى تركيبات معمارية متصاعدة تعطى إيحاءات تختلف من مشاهد إلى آخر حسبما يلهمه خياله. ■

أغنية في ليل المدينة

شعر
حسن طلب

جـــمـــــر عـلـى كـــبـــــد !
نـحـن اكــــتــــفــــينا من زلال الحب
بالثمد
كنا التقينا ..
والمدينة أظلمت طرقاتها
وصفا الغرام لنا
فأصبحنا كأنا وحدنا
لاخوف من عذل ..
ومن حسد
فكما يشاء الحب ..
نقضى ليلنا
ولنا المدينة كلها :
نشدو على أطلالها
نغشى بواديها
ونمرح فى خرائبها
ونرثى نهرها ..
أشجارها ..
سكانها
نبكى لمصرع طائر غرد
ونعود نمرح مثلما كنا
فكيف إذا الطغام
- بقضها وقضيضها -
طفقت غداة غد :
كـــالـــسـيل تســعـى فى مناكــبــهـــا !
وطغى الرغــام .. فــســد وجــه الشــمس ..
ثم مضى الزحام بنا
فـصـرنـا : مـحـض مـعــدودين فى عـــدد !





أضواء على

زكي مبارك

بقلم
وديع فلسطين

مرت في شهر يناير الماضي الذكرى الخمسون لوفاة الدكاترة محمد زكي عبدالسلام مبارك (فهو من مواليد ٥ أغسطس ١٨٩١) فأقام له أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي رئيس رابطة الأدب الحديث حفلا متواضعا لم يشهده الا نفر قليل كان من بينهم ابنته كريمة زكي مبارك. وهكذا تنطوي صفحات الأدباء في غياهب التاريخ الأدبي، ولولا مؤلفاته - التي تحاول كريمة إعادة طبعها وفاء منها لذكرى أبيها - لذهب زكي مبارك بدوره في طريق النسيان، وهو طريق يبطش بالأعلام ويجور على آثارهم .

قضيت المرحلة الثانوية من عمري في المدرسة الانجليزية بجزيرة الروضة. فلما وصلت الى نهاية هذه المرحلة، استحدثت وزارة المعارف العمومية سنة اضافية أطلقت عليها اسم «التوجيهية»، وهي شعبتان: شعبة أدبية وشعبة علمية. فكان لابد إذن من ترك هذه المدرسة لخلوها من المعامل اللازمة لطلاب الشعبة العلمية - وأنا منهم - والانتقال الى مدرسة أخرى غير أميرية. وكانت هناك مدرستان مجهزتان لهذه السنة التوجيهية، هما القسم الثانوي في



الجامعة الأمريكية - وقد ألغى فيما بعد - ومدرسة الأقباط الكبرى بالدرب الواسع قرب ميدان باب الحديد . فاخترت الالتحاق بالجامعة الأمريكية لأنها الأقرب من حيث سكناى فى حى الجيزة ، ثم لأن نظام التعليم فيها يعد امتدادا للنظام الانجليزى الذى انخرطت فيه .

كان ذلك فى العام الدراسى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ وكان أستاذنا فى اللغة العربية هو السيد شحاتة، وهو رجل يجمع بين وسامة الشكل وأناقة الملبس والتذوق الأدبى مما جببنا فيه وفى الأسلوب الذى اتبعه فى تدريس المنهج. وكان يزاملنى فى الفصل الطالب عبدالسلام زكى مبارك، وكنت أرتاح الى صحبته واختار مجلسى الى جواره .

النجاة من امتحان عسير

وذات يوم فوجئنا بالسيد شحاتة يدخل الفصل وفى صحبته رجل أشعث الشعر غليظ العوينات لا يهتم كثيرا بأناقة ملبسه كأستاذنا شحاتة، وقبل أن نتبين شخصيته قال لى جارى عبدالسلام: هذا أبى. وكنا نسمع عن زكى مبارك ومعاركه الأدبية

التي لا تنتهي، وعن شراسته في الطعن في الذين يصاولونه من كبار الكتاب، وخشينا أن يجرب زكي مبارك - مفتش اللغة العربية أو موجهها بالتعبير «المطوّر» اليوم أسلحته الفتاكة معنا نحن الطلاب القليلي الحيلة. وبدأنا نعد أنفسنا لامتحان عسير لن ينجح فيه أحد، لأننا جميعا قوارير ضعيفة لا تصمد أمام «بلدوزرات» زكي مبارك! ولكن وجود عبدالسلام بيننا رطب الجو نوعا ما، كما أن أستاذنا السيد شحاتة أخذ يحدثنا عن منزلة زكي مبارك في الحياة الأدبية، مؤكدا أن زيارته لنا تشريف هو نفسه أول الناعمين به، وقال إننا جميعا طلاب على زكي مبارك، ثم دعاه الى أن يزيدنا من علمه، ويحاضرنا في الأدب الذي هو من أعلامه الكبار. وعوضا عن أن يقوم زكي مبارك بامتحان قدراتنا، أخذ يحدثنا حديثا مشتهى عن الأدب، مما صرفه عن توجيه أي سؤال الينا. وهكذا نجونا من امتحان عسير قد لا يكرم فيه أحدنا، بل نهان جميعا .

كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها زكي مبارك رأي العين، وكنت أحسبها الأخيرة لأنني كنت ميالا الى العلوم، ولاسيما الكيمياء، وكان الأدب بالنسبة لي ميدانا بعيدا عن اهتمامي.

وفي السنة الدراسية التالية، انتقلت الى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية، لا عن حب للصحافة أو مطمح في العمل بها، ولكن لأن جميع الكليات العلمية : الطب والعلوم والصيدلة كانت تتقاضى مصروفات باهظة ، فاخترت قسم الصحافة لأن مصروفاته كانت أقل. ومع أن الدراسة في هذا القسم كانت تتم باللغة الانجليزية، فإن الجامعة إرتأت أن التمكن من اللغة العربية ضروري لطالب الصحافة المصري. ولهذا استعانت بالعلامة الدرعمي السباعي بيومي لكي يقوم بتدريسنا الأدب العربي.

وذات يوم دخل علينا السباعي وهو مكفهر الوجه على غير ما عهدناه فيه، ولما استوضحناه سبب ذلك، أخرج من حافظته مجلة «الرسالة» وقال. لقد تعرضت لحملة شعواء جائرة من الدكتور زكي مبارك الذي يحسب انه الإمام الوحيد للغة الضاد في جميع العصور. وطلبنا من أستاذنا أن يتلو علينا ما كتبه زكي مبارك، فاستجاب لنا، وكان في أثناء التلاوة يرد على كل اتهام وجهه اليه الكاتب. ثم وعد بأن يلقنه درسا عندما يرد عليه في هذه المجلة عينها. وهكذا تحولت محاضرة الأدب العربي الى

حديث عن المعركة بين السباعى بيومى وزكي مبارك وهى معركة تابعناها فى فصول الدرس التالية. وعندما عرفنا أن السجال توقف بعد آخر مقال نشره السباعى ، أدركنا أنه كسب هذه المعركة .

معارك أدبية مستمرة

وبعد ما خرجت الى الحياة العملية دعيت الى الانضمام الى رابطة الأدباء التى أنشأها الدكتور ابراهيم ناجي في عام ١٩٤٥ فاختير هو رئيسا لها واخترت بدورى وكيلا للرابطة على مدى عمرها. وكانت الرابطة تعقد ندوتها الأسبوعية مساء كل أحد، فيشارك أعضاء الرابطة فى برامجها الى جانب من ندعوهم ليحاضرونا فى الرابطة. ومن جملة الضيوف الذين وقع اختيارنا عليهم الدكتور زكى مبارك الذى رحب بدعوتنا وارتجل محاضرة أدبية شرق فيها وغرب، وكنا مبهورين بواسع علمه وقدرته على الارتجال دون أن يتلعثم أو يتوقف . كانت هذه هى المرة الأولى التى أجلس فيها الى جوار زكى مبارك وأتحدث معه حديثا مباشرا. وأشهد بأنه كان هادئا، تخلى فى جلسته عن كل أسلحة النزال التى كان يدير بها معاركه التى لا يخبو لها أوار .

كنت فى ذلك الوقت أخشى المنتديات الأدبية المنصوبة فى القاهرة، فالتقى هنا وهناك بزكى مبارك الذى لا يضن علىّ بتحيته وتشجيعه. كما كنت أنضم الى مجلسه كلما لمحته فى مشرب من مشارب القاهرة، فإن لم أجده فى مشرب ميدان عرابى، فهو فى مشرب الأمريكين بعماد الدين أو فى الباريزيانا فى شارع ألفى بك، فإذا خلا الى نفسه هنا أو هناك، حبر مقالا طويلا من أحاديثه ذات الشجون التى كان ينشرها فى جريدة «البلاغ» لصاحبها عبدالقادر حمزة باشا أو فى مجلة «الصباح» لصاحبها مصطفى القشاشي بك أو نظم قصيدة تغنى فيها بجمال «الجمال» وضمها الى ديوانه الكبير «ألحان الخلود» ، ولأنه كان يرتجل أحاديثه ذات الشجون، التى كانت تفترش صفحة كاملة من جريدة «البلاغ»، فقد كان القارئ يجد فيها خليطا عجيبا من كلام العقلاء ودردشات العوام، حيث كان يكتب أى كلام يخطر على البال فى ثرثرة أدبية لاريب ممتعة بكل مافيها من شذوذ العباقرة وفلتات الألسنة وتداعيات الذهن والخاطر. ولم يسلم ديوانه الوحيد «ألحان الخلود» من هذه الاستطرادات يسوقها كيفما اتفق وكأنه ترك العنان لقلمه يكتب مايشاء دون ضابط حتى وإن جاء هذا الكلام جليلا أو سقيما. فزكى مبارك ينطلق على سجيته وليس يبالى أن يجىء كلامه كوخز الابر يخدش ويجرح ويصيب المقاتل.

وكنت أراه فى الساعة الثامنة

زكي مبارك

صباحا جالسا في مشرب الباريزيانا، فأسأل نفسي: هل بكّر في الحضور الى هذا المكان، أو أنه قضى الليل بطوله مسمرا في مقعده؟ وكنت أشفق عليه من حياة تنتقص من قيمته الأدبية، وتكاد تلحقه بصعالكة الأدب، ولكنه كان - فيما يبدو - يريد أن يغرق أحزانه في كئوس مترعة من أسباب النسيان .

ولم تكن معاركه مع طه حسين وأحمد أمين والسباعي بيومي ومحمد أحمد الغمراوي وغيرهم الا ذريعة للتنفيس عن شعور طاغ بالاضطهاد كان يعاني منه منذ ما وقف طه حسين في وجه تعيينه استاذا في كلية الآداب، مما قصر حظوظه الوظيفية على عمل المفتش في وزارة المعارف العمومية. فقد كان يعتقد - بحسب اعترافه - بأنه «أعظم رجل في العالم» وأن كل أدباء مصر دونه مرتبة. فأحمد لطفي السيد باشا «أصارته المقادير رئيسا للمجمع». وأحمد محمد الغمراوي «شخص معتوه مخبول». أما طه حسين فقال عنه إنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وكأنه يعيره بضياع بصره واعتماده في القراءة والكتابة على سكرتيره. كما قال عنه « لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ان جاز أن أقدم الى أطفالي لحوم الكلاب»! وقال عن أحمد أمين «لو أن معدتي كانت كما أحب من القوة والعافية لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة في الأدب والتاريخ. ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح، فلم يبق لي في محاسبته غير شيطنة الروح، وفي الأرواح شياطين». كما قال عن نفسه انه «اشتهر برعونة القلم وشراسة اللسان».

ومؤكد أنه ما كان يليق بكاتب كبير كزكي مبارك أن يتوسل بهذه العبارات الجارحة للنيل من خصومه. ولو تحلى بشيم العلماء الأصلاء لقارع الحجة بالحجة وحصر النقاش في الأثر الأدبي ولم يجاوزه الى شخصية منازله. ولكن عقدة الاضطهاد التي كان يعاني منها هي التي أخرجته عن طوره وصورت له أنه في حلبة لمصارعة الثيران، ولا بد له وهو «الميتادور» البارع أن يصرع كل الثيران في الحلبة . وصدق الشاعر صالح جودت عندما قال أن زكي مبارك «فتى أضاعوه في مصره».

سمير الوجد

جاءت رحلة العراق كحبل مُدّ الى غريق، اذ اختارته حكومة العراق للتدريس في معهد التعليم العالي، وبهذا أخرجته من «جحيم الظلم في القاهرة

الى سعير الوجد فى بغداد» حسبما جاء فى عنوان قصيدته البغدادية المطولة ومن يقرأ كتاب زكى مبارك فى العراق لعبد الرزاق الهلالى، يكتشف أن الصحف العراقية وكل المحافل الأدبية فى بغداد هلّلت لقرب وصول زكى مبارك الى عاصمة الرشيد، حيث فتحت أمامه جميع الأبواب، وألفى نفسه موضوع حفاوة وتكريم فى كل يوم من أيام الأشهر التسعة التى قضاها فى ربوع هذا البلد الأمين - وعسى الله يزيل الغمة التى تحيط به اليوم. فى العراق احتل زكى مبارك مكان الصدارة فى كل محفل، فالدولة بكل أجهزتها والهيئات الأدبية بكل تشكيلاتها، والمعاهد الجامعية بكل أسمائها تتسابق فى الحظوة باستضافة هذا الألمعى الخارج من سنتريس والمتخرج من باريس وهما - فى رأيه - أعظم مدينتين فى العالم! وتبارت الأقلام فى الترحيب به فى الصحف، وتسابق الشعراء فى تكريمه، وصار فى شبه عرس دائم لا محل فيه للصراع والنزال. ولقد كان يتمنى لو أنفق بقية عمره فى العراق، ولكن المعهد الذى كان يقوم بالتدريس فيه أغلق بعد هذه السنة الدراسية، وكان لامعدي عن العودة الى «جحيم الظلم فى القاهرة» وازاء ما تمتع فيه فى العراق من حب عارم جارف، أصدر كتابه الضخم «ليلى المريضة فى العراق»، وكم تمنى أن يكون هو وحده الطبيب الشافى الوحيد لليلى.

وهناك عدة كتب صدرت عن زكى مبارك وضعها الأديب الكويتى فاضل خلف والأديب الأردنى الدكتور حسين خريس وكريمة زكى مبارك وأنور الجندى ومحمد محمود رضوان، ومع ذلك فإن هذه الشخصية الضخمة بآثارها التى كان يتحدى بها الناس، تستحق مزيدا من الدراسة المنصفة. كما أن المعارك التى خاضها زكى مبارك تستأهل التسجيل بنصوصها الكاملة هجوما ودفاعا خدمة لتاريخ الأدب العربى، لأن هذه النصوص مازالت مطوية فى بطون الصحف باستثناء المعركة حول جناية أحمد أمين على الأدب العربى التى سجل وقائعها الدكتور حسين خريس، وان يكن سجل مقالات زكى مبارك وأغفل ما كتب فى الرد عليها على أهميته لاستكمال صورة المعركة من جوانبها المختلفة.

وللشاعر الدكتور ابراهيم ناجى قصيدة جميلة فى تحية زكى مبارك اجتزئ منها بهذه الأبيات بما فيها من دعابات محببة :

فى حمى سنتريس شب غلام
شاعرى الكلام والأنظار
فرح الأهل بالغلام الذى
صار حديثا فى ندوة السمار

عمموه وقفطنوه فأمسى

أمل القوم ، فارس المضمار

ومضى يطلب العلوم وحيدا

موحشا قلبه غريب الدار

عجبي من «مجاور» ضاق بالأزهر،

واحيرة النفوس الكبار

ثم أمسى مطربشا واكتسى

البذلة مابين ليلة ونهار

ثم أمسى مبرنطا يقصد «السين» ويغزو

مدينة الأنوار

ظل في ذلك الحمى مصريا

عربي الحياة والأفكار

كلما هُبت الغواني عليه

ضاق ذرعا بالغادة المعطار

وختمها بقوله :

كرموا نابغيكم وأعرفوهم

فضياع النبوغ في الانكار

فزكي مبارك شعلة في مصر

تهدي شبابها كالمنار

قسما لو يتاح لي الغار

كُلت بكفي جبينه بالغار

●●●

الإثنينية والثالوثية

قضيت في جدة أياما جميلة غشيت في أثنائها مجالس أهل العلم والفضل التي يعقدونها في أيام منتقاة من أيام الأسبوع، فندوة تعقد في يوم الاثنين وتعرف بالاثنينية وراعيها هو الشيخ عبدالمقصود خوجة، وندوة تعقد في أيام الثلاثاء وتعرف بالثالوثية وراعيها هو الأستاذ محمد سعيد طيب.

وقد درجت ندوة «الإثنينية» على تكريم أديب من داخل المملكة أو من خارجها في كل جلسة أسبوعية من جلساتها على مدار العام، وسبق لها أن كرمت من مصر الدكتور مصطفى الشكعة وأنيس منصور والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور محمد عمارة والدكتور مصطفى محمود والدكتور حسين علي محمد والدكتور محمد رجب البيومي وغيرهم. فإذا التأم المجلس، تبارى الخطباء في الحديث عن المحتفى به والتعريف بآثاره والاشادة بدوره في الحياة، وألقى الشيخ عبد المقصود خوجة كلمة الترحيب الضافية بمن يطلقون عليه «فارس الاثنينية» فإذا ما فرغ الأدباء والشعراء من إلقاء كلماتهم، تحدث الضيف عن تجاربه في الحياة، ثم فتح الباب لتوجيه أسئلة من الحضور يجيب عنها الضيف.

ومع أنني كنت أتهيب لقاء هذا الجمع الحاشد في «الاثنينية» لأنني لا أعرف أحداً من كل هؤلاء الفضلاء الذين لبوا دعوة الشيخ عبد المقصود خوجة فقد لقيت من حفاوتهم وتقديرهم ما بدد

الرهبة التى استولت على . ثم جاءت الكلمات التى ألقيت فى الندوة وأبيات الشعر التى أنشدت لتعيدنا إلى عصور العكاظيات التى تحتل الكلمة البليغة أعلى المنازل فيها وإذا كان القصد الأول من «الاثنينية» هو تكريم الأدباء ورجال الفكر على الصعيد العربى، فإن الفضل فى هذه البادرة يعود إلى أريحية الشيخ عبد المقصود خوجة فى المقام الأول وإلى صفوة أهل العلم والفضل الذين يؤازرون راعى «الاثنينية» فى إنجاح ندواته التكريمية.

وحتى لا يتبدد الكلام المسموع فى الهواء، فإن من تقاليد الأثنينية تسجيل كل ما يقال فيها بالصوت والصورة، ثم إفراغه فى كتاب تذكارى يعتبر مرجعاً أدبياً ثميناً لأن فيه السير الموثقة للأعلام وشهادات التقدير التى قيلت فى حقهم والمحاورات التى جرت بينهم وبين النخبة من أدباء السعودية وأساتذة الجامعات فيها والحافظين لتراثها وقد صدر حتى الآن تسعة عشر مجلداً تضم وقائع تكريم عشرات من المفكرين، وهى تشكل فى مجموعها ما يشبه طبعة جديدة من «معجم الإعلام» لياقوت الحموى.

وفى ندوة «الثالوثية» التى تنعقد كل ثلاثاء فى بيت الأستاذ محمد سعيد طيب التقيت بمجموعة كريمة من وجوه الفكر والأدب فى المملكة، وجرى النقاش فيها مفتوحاً وبدون برنامج موضوع، وللحاضرين جميعا حق متساو فى الإعراب عن آرائهم سواء فى الموضوعات المحلية أو العالمية أو قضايا الأدب والفكر ومع أن كل الآراء ترتجل فى هذه الندوة، إلا أنها جميعاً آراء ممحصةٌ بفضل خبرة أصحابها وإحاطتهم الأكاديمية والتجريبية العميقة .

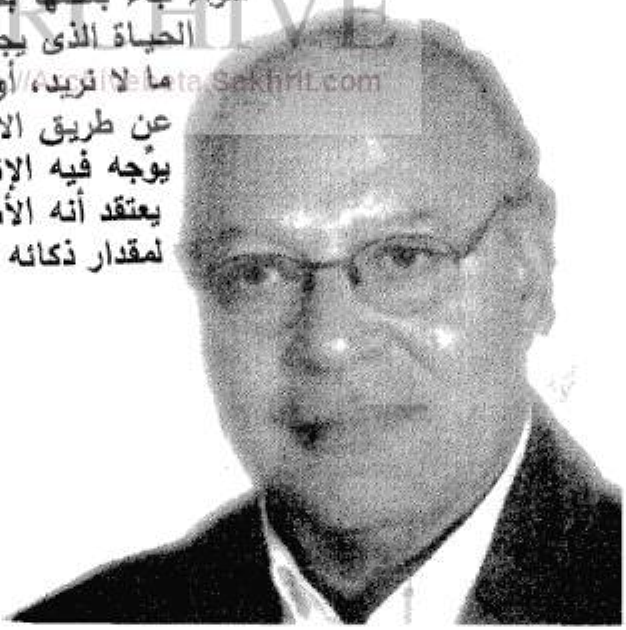
وهذه اللقاءات الحميمة سواء فى «الاثنينية» أو فى «الثالوثية» كفيلة بأن تجعل النفوس تتقارب وتخلو من الكدر، ولاسيما بين الذين يحملون راية الفكر والعلم والثقافة والصحافة، وأكرم بهذه اللقاءات فى جو من الألفة والتقدير المتبادل . ■

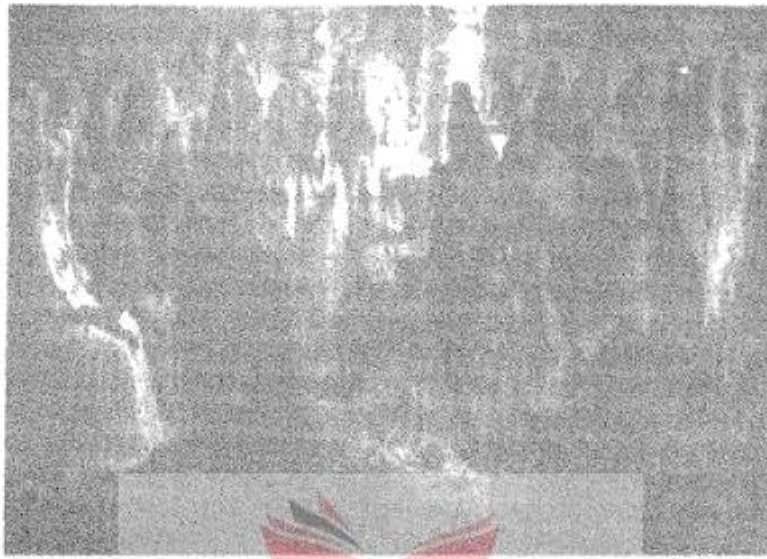
التكوين

اللوحة يجب أن تكون عملاً ثقافياً..

صبري منصور

تساهم فى تكوين شخصية الإنسان عوامل عديدة، تبدأ من مـرحلة الوعى بالوجـود أثناء الطفـولة، ثم يزداد تعقيدها وتشابكها عبر المرور بتجارب الحياة المختلفة، سواء جاء بعضها بفعل الظروف ونسيج الحياة الذى يجعلنا نواجه أحياناً ما لا نريد، أو جاء البعض الآخر عن طريق الاختيار الحرّ الذى يوجه فيه الإنسان نفسه نحو ما يعتقد أنه الأصوب والأكمل وفقاً لمقدار ذكائه وفطنته.





الزار - مشروع التخرج ١٩٦٤

وفى اعتقادنا فإن العناصر المؤثرة فى تكوين أى شخص تتخذ أوضاعها النهائية فى تشكيل ملامح الشخصية فى حوالى الثلاثين من العمر، فكل ما سيأتى فيما بعد لن يفيد كثيراً أو يضيف جديداً، ولن يغير تغييراً جذرياً فى الملامح التى تعمقت خلال حوالى ربع قرن من الزمان.

وحين تعود الذاكرة سنوات إلى الوراء للتعرف على العوامل التى كان لها أكبر الأثر، وتركت بصمة أكيدة فى تكوين الشخصية وتحديد ملامحها الأساسية، فإنه يمكن متابعتها من خلال مراحل كان لكل منها إضافتها الواضحة على تحديد الملامح.

الطفولة - القرية

كان الميلاد عام ١٩٤٣ فى قرية «بخاتى»، وهى قرية ريفية صغيرة من قرى محافظة المنوفية، حيث عشت فيها حتى سن الرابعة، وفى تلك البلدة بدأ الوعى بالحياة وبالموجودات، واختزنت الذاكرة صوراً ظلت مطبوعة ومحفوظة لعالم الريف المصرى البسيط الذى لم يؤثر فيه مرور الزمن، وظل على حاله منذ عصر قدماء المصريين، فالحياة فيه متواضعة تكاد تقترب فى وسائلها من

التكوين

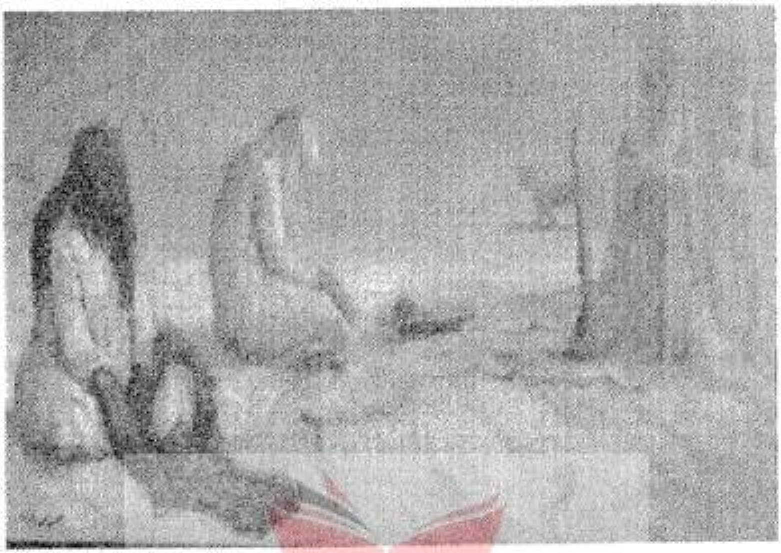
الحياة البدائية، ولم تكن القرى المصرية في بداية الأربعينات قد أضيئت بعد بالكهرباء، لهذا فقد مثل لي الليل الريفي في ذلك الوقت عالماً غامضاً مليئاً بالأرواح والكائنات الخفية، أكدته سماع الحكايات المتناثرة عن الجن والأشباح، وحين كنت أجوس خلال طرقات القرية مساءً ماراً بالمدافن القريبة من بيوت الأحياء، أكاد أحس بالأرواح تسبح في الفضاء المحيط، وكان القمر في تشكلاته المختلفة عنصراً من أشد عناصر الجذب، فكنت أتخيله كائناً حياً، وأراه حين يكون بدراً كوجه إنسان كامل القسمات، وكنت حين أسير أراه معي يصاحبني أينما ذهبت، لقد كان لغزاً وأنا أراه هناك يطل من بعيد على المكان الموحش ويضفي عليه بضوئه الخافت سحراً وغموضاً، وتضيف الظلال التي يخلقها وجوده رهبة إلى عناصر المشهد الريفي المكون من البيوت الطينية المتواضعة والنخيل المرتفع في السماء، وتكتمل الرؤية حين يصاحب ذلك همهمات مختلطة بنباح الكلاب ومواء القطط ونداءات بشرية متقطعة وأصوات متخيلة تكاد تكون مسموعة.

المدرسة وهواية القراءة



وفي سن الرابعة انتقلت إلى مدينة طنطا لألتحق بالمدرسة الإبتدائية، وقد أمضيت أربع سنوات كنت فيها تلميذاً عادياً لا تستهويه المواد الدراسية وخاصة علم الحساب الذي ساهم مدرسه بالقدر الوفير في نفوري منه، في الوقت نفسه الذي شجعني فيه مدرس الرسم حين وضع لوحة رسمتها عن سفينة نوح في بهو المدرسين، وكنت حين أتطلع إليها هناك أعلى الحائط أشعر بالفخر وأحس بالثقة، وفي دراستي الاعدادية والثانوية استمر التعامل مع المواد الدراسية بطريقة عادية، وإن كنت قد بدأت أشعر ببعض الميل إلي المواد الأدبية والفلسفية والتاريخية وهو ما حدا بي لاختيار تخصصي الأدبي في نهاية المرحلة الثانوية.

ولعل أهم ما يمكن رصده من عوامل التكوين في فترة الدراسة قبل الجامعية عاملان، كان أولهما الميل الشديد إلى القراءة الحرة والولع بالكتب، ولقد ساعد على ذلك اضطراري لملء الفراغ في شهور الأجازات الصيفية الطويلة بالإطلاع، وكان والدي – مدرس اللغة العربية – جاداً في حياته وعمله، وصارماً في تربيته، كما كان مؤمناً بأن الطفل يجب أن ينشغل بأنشطة جادة بعيدة عن اللعب والهزل، وفي نفس الوقت كان شقيقي الأكبر أديباً ناشئاً يهتم بالقراءة والأدب حيث اختار دراسة الأدب



من الزار - مشروع التخرج ١٩٦٤

العربى فى الجامعة فيما بعد، وكان سبباً رئيسياً فى التعرف فى سن مبكرة على عيون الأدب العربى وأعلامه، فبعد أن قضيت سنوات الدراسة الإعدادية ألتهم فيها القصص البوليسية المثيرة (أرسين لوبين وشـــرلوك هولمز) بدأت فى أثناء التعليم الثانوى قراءة كتاب من أمثال المنفلوطى والمازنى والزيات ، وكان هناك «عم محمد» صاحب كشك الكتب الشهير الذى يؤجر قراءة الكتب والمجلات بقروش قليلة، وبعد أن أتيت على معظم كتبه انتقلت إلى مكتبة البلدية بطنطا حيث قـــرأت هناك مـــعظم روايات يوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس ومحمد عبدالحليم عبدالله.

أما العامل الثانى الذى تأكد فى تلك الفترة من الدراسة فقد كان زيادة شغفى بالرسم والخط، ولم تكن كتبى المدرسية تخلو من الرسوم فى الهوامش والمساحات الخالية منها، ولم تكن هناك فرصة فى بلدة إقليمية مثل طنطا لزيادة المعرفة بالفن واكتساب أية خبرات مبدئية فيه، وفيما عدا انضمامى لمجموعة الرسم فى المدرسة الثانوية وقيامى ببعض الأنشطة وعمل بعض اللوحات البسيطة للمدرسة من بينها الخرائط والرسوم التوضيحية

التكوين

فإن إحاطتي بدنيا الفن اقتصرت على ما تنشره المجلات وما تحتويه الكتب من رسوم.

وهكذا حين جاء الوقت الذى أقرر فيه اختيار مجال دراستي بعد الحصول على الثانوية العامة كان واحداً من اثنين، إما الآداب بمباركة مدرس اللغة العربية، أو الفنون الجميلة بتشجيع من مدرس الرسم والأشغال.

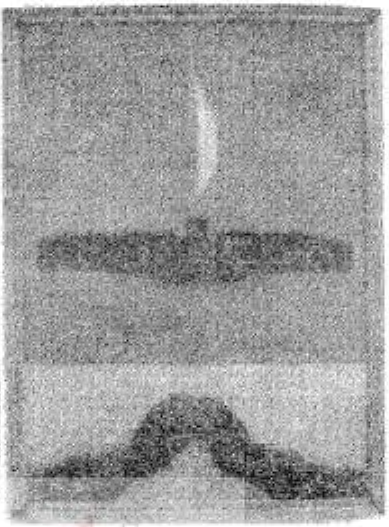
الرغبة في الاختلاف

وقد التحقت رسمياً بقسم الفلسفة بآداب عين شمس فى عام ١٩٥٩، ولكنى حين اجتزت اختبار قدرات الفنون الذى كان يتم فى كلية الفنون بالزمالك، انجذبت بشدة إلى ذلك العالم الساحر الذى عايشته لأول مرة حين رأيت مقر الكلية المتلىء بالتماثيل الرومانية الضخمة، ومنظر المراسم وطلابها من ذوى الذقون والمظهر المختلف عما ألفته، بالإضافة إلى الجو العام الذى يغلف المكان، كل ذلك قد استهوانى ودفعنى للاختيار النهائى لدراسة الفنون الجميلة.

ولقد اخترت دراسة فن التصوير الزيتى الذى كان أقرب تخصصات الكلية إلى نفسى، وأقبلت على الدراسة بحب واجتهاد عرضت به سنوات خمولى الدراسى فى المرحلة



السابقة، مع أن منهج الكلية الأكاديمي لم يكن يروق لى، فقد كان هذا المنهج – الذى وضعه مؤسسوا الكلية الأجانب – يقوم على أسس كلاسيكية تقليدية، ويهدف فى الأساس إلى تعليم الطالب حرفة الرسم والتصوير بأسلوب النقل والتقليد، ورغم أنه كان هناك هامش للحرية فى التصرف وتحوير الأشكال، إلا أن الشكل الواقعى ظل هو المثل الأعلى لدى الأساتذة الذين كان معظمهم من كبار الرسامين الواقعيين، وهكذا لم يكن أمامى فى السنوات الأولى غير الاجتهاد فى تجسيد الشكل الواقعى، وجاء العثور على بعض الملامح الذاتية فى نهايات السنة الثالثة من دراستى، حين كنا مطالبين بعمل لوحة من عناصر الطبيعة الصامتة، وقد اخترت مجموعة من العناصر المطلوب رسمها وأضفت عليها عناصر أخرى من عندى، وقمت بتغيير الخلفية التقليدية فرسمت منظراً خيالياً أضاف للوحة بعداً غير واقعى يتخطى النماذج المألوفة فى أشكال الطبيعة الصامتة، ولم أكن على وعى بكل ذلك، وإنما كنت مدفوعاً لعمله لأنى أحببت ذلك، فى تلك الأثناء كان الفنان حامد ندا الذى يعمل أستاذاً بفنون الإسكندرية فى زيارة للكلية ، وتجول فى المراسم للإطلاع على أعمال الطلبة والتعرف على مستواهم الفنى، وقد فوجئت به يقف خلفى مبدياً



امرأة وطائر وهلال تصوير ١٩٧٠



مع الناقد نعيم عطية والناقد محمود بقشيش في معرض خاص ١٩٧٢

إعجابه وتشجيعه، ولم يكتف بذلك بل أخبر بقية الأساتذة الذين بدأوا يتقاطرون لمشاهدة اللوحة وبعضهم أبدى إعجابه، والبعض الآخر قد تحفظ، ولكن ما كان يهمني وقتذاك هو رأي ذلك الفنان الكبير الذي كنت أراه عملاقاً من عمالقة فن التصوير المصري المعاصر وشخصية فنية تتمتع بشهرة عريضة ومكانة مرموقة، وظل رأيه حافزاً وموجهاً لي في طريق بدأت التعرف على أول ملامحه.

ولقد مثلت لي سنوات الدراسة بالكلية مرحلة مهمة في تكويني الثقافي، فمن خلال الاختلاط بالطلاب القدامي - وكان بينهم من أصبحوا نجوماً في الفن والثقافة المصرية فيما بعد أمثال الدسوقي فهمي وعز الدين نجيب ومحمود بقشيش ومحيي اللباد ونبيل تاج - بدأت أتعرف على نماذج الأدب الروسي الشهيرة مثل أعمال تشيكوف الذي تأثرت بنماذجه القصصية الإنسانية، وجوركي وتولستوي، وكانت تلك سنوات المد الاشتراكي والارتباط بالثقافة الروسية، كما تعرفت لأول مرة على فن الموسيقى الكلاسيكية ومتعة تذوقه، وكانت أذني تنفر منه وتتحاشاه، وكانت «ألف ليلة وليلة» لكورساكوف مدخلي إلى الاستمتاع بهذا الفن الرفيع والانتقال إلى نماذج أصعب فيما بعد، وقد أمضيت ساعات

التكوين

طويلة بالمكتبة الموسيقية التى كانت قائمة فى مركز المدينة.

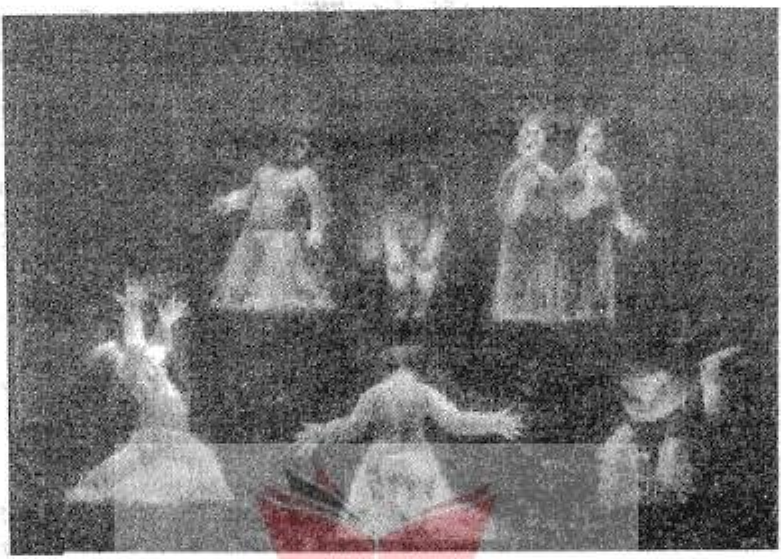
وبالإضافة إلى إطلاعى على نماذج الفن العالمى فى مكتبة الكلية - حيث انجذبت بشكل خاص إلى لوحات الفنان الفرنسى جوجان - فإن ذلك لم يمنعنى من متابعات المعارض الفنية التشكيلية التى كانت تزخر بها القاهرة خلال الستينات سواء كانت معارض لفنانين مصريين أو أجانب، وكان يسود الساحة الفنية فى مصر حينذاك صراع ما بين الفن الاشتراكى الموجه من ناحية، والفن التجريدى من ناحية أخرى، مع هامش متاح للاتجاه الذى يقلد التراث الفنى المصرى الفرعونى والقبطى والإسلامى، ولم أكن أحس بالرغبة فى الانطواء تحت أى من هذه التوجهات، ولقد شد انتباهى وأثار إعجابى أسلوب الفنان عبدالهادى الجزار الذى كان يطرق عالماً قريباً إلى نفسى، فتلك الأجواء المشعوذة التى كان يرسمها فى تلك الفترة قد سبق لى أن عايشتها عن قرب فى مولد السيد البدوى بطنطا قبل أن تمتد إليه يد الحكومة بالتنظيم واستبعاد العديد من أنشطته الشعبية الماجنة، وقد التقيت بأعمال الجزار وكان مسافراً فى بعثة عاد منها حين كنت فى السنة قبل النهائية ، وبدا تأثيره



واضحاً على مشاريعى الدراسية بالكلية، وكان متعاطفاً معى ومشجعاً لى وقد اقترح علىّ موضوع الزار لكى يكون مشروع تخرجى، ومع ذلك فإن العلاقة بيننا لم ترق إلى مصاف العلاقة الوطيدة بين الأستاذ والتلميذ، على الرغم من تكليفه لى فور تخرجى بتنفيذ التصميم الذى وضعه للوحته الشهيرة «حفر قناة السويس» حين كان يعانى من مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته عام ١٩٦٥، واختتمت فترة دراستى الجامعية عام ١٩٦٤ بتخرجى من الكلية بتقدير ممتاز وترتيب الأول على كليتى الفنون الجميلة بالقاهرة والإسكندرية، مما أهلنى لحضور عيد العلم ولقائى بجمال عبدالناصر الذى كان فى ذروة تألقه السياسى، ذلك اللقاء الذى غلفته المهابة والتقديس لتلك الشخصية الطاغية ، والتى غاب الوعى فى حضرتها فلم أعد أذكر بعده سوى يدى التائهة فى اليد الضخمة للرئيس، وقد ملأنى هذا اللقاء بالأحاسيس الوطنية الجارفة التى تدفع نحو الجدية وتحفز الرغبة فى الانتماء والإخلاص للوطن.

بحث عن المعرفة

وبعد أن أنهيت دراستى فى الكلية أدركت أن رأسى مازال خاوية تفتقد إلى الكثير من المعارف وفى حاجة إلى مزيد من التحصيل، وكانت هناك أسئلة كثيرة تبحث



الاحتفال - ١٩٧٩

عن إجابات مقنعة حول ماهية الفن وقيمته وجدواه وأيضاً حول تاريخه وتطوره، فالدراسة فى الكلية كانت تركز على الجوانب الحرفية وتهمل الجوانب الثقافية، لذلك قررت أن أولى الجانب الثقافى - الذى كان مازال منحصراً فى فن الأدب - أهمية قصوى، وأن أتولاه بنفسى دون مرشد أو معين، وكان الإطلاع على الكتب التى تتناول النقد أو الفلسفة شاقا فى البداية، ولكن سرعان ما بدأ العقل يسعد بلذة التفكير والفهم، وأحسست أن مناطق مظلمة منه تضىء بنور لم أعهده من قبل، وكان كتاب «الإحساس بالجمال» لجورج سانتيانا فيلسوف علم الجمال هو مدخلى إلى عالم المعرفة الجديد.

وفى تلك الفترة بدأت أتذوق الشعر الحديث من خلال أشعار الشاعرين العراقيين بدر شاكر السياب الذى شدتنى فيه أغانى الموت، ونازك الملائكة وأغانيها للقمر، وكذلك من خلال شعر صلاح عبدالصبور بمصريته المتدفقة، ولقد كنت أشعر بأن هناك علاقة وثيقة بين فنى الشعر والتصوير وإن لم أكن أدرك ساعتها كن هذه العلاقة تماماً.

وقد استمرت قراءاتى الأدبية حيث

التكوين

انتقلت إلى إبداع جيل التنوير والتحديث أمثال العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين الذى كانت له منزلة خاصة في نفسى واعتبرته من أعظم العقول التى أنجبتها مصر فى تاريخها القريب، ثم تعرفت على إبداع نجيب محفوظ الروائى بأسلوبه الواقعى المحمل بالدلالات والإيحاءات الفلسفية، كما كان هناك أيضا شاعرى المهجر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة اللذين كان لعالمهما الرمزى تأثير شديد الخصوصية على نفسى. كذلك بدأت فى متابعة مؤلفات زكى نجيب محمود الفلسفية التى تقترب من عالم الفنون.

وخلال تلك السنوات من التكوين تعرفت أيضا على فنين كنت مازلت أجهلهما وهما المسرح والسينما، وكنا فى سنوات إزدهار المسرح المصرى، حيث تابعت بالمشاهدة والقراءة مسرحيات الحكيم ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة ورشاد رشدى ونجيب سرور ومحمود دياب، إلى جانب المسرحيات المترجمة شكسبير وموليير وبيرانديللو وتشيكوف ودورنيمات، وحين أنشىء مسرح الجيب الذى اهتم بالمسرح المعاصر تابعت فيه أعمالاً مسرحية ليوجين يونسكو وصمويل بيكيت حيث انجذبت لرؤيتهم الحداثية الجديدة.

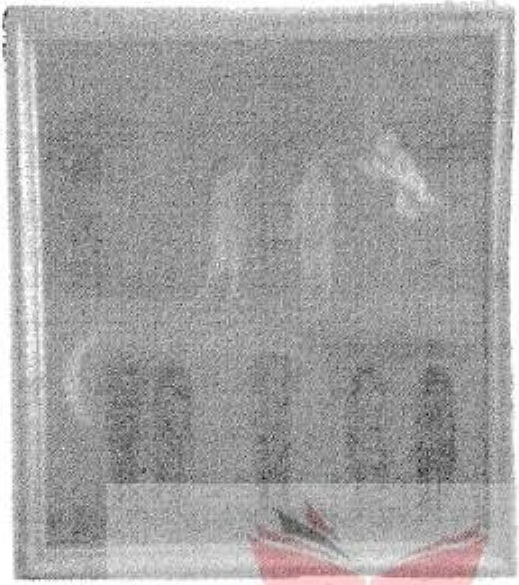


أما فن السينما فقد بدأت تذوقه مدركاً العلاقة بينه وبين الفن التشكيلى من حيث كون الكادر السينمائى هو فى النهاية لوحة تشكيلية متكاملة وإن أضيف لها عنصر الزمن وتعرفت على الفن السينمائى من خلال جمعية الفيلم ثم فى نادى السينما الذى أنشىء فيما بعد بسينما أوبرا واشتركت فى عضويته مستفيداً من المناقشات والمقدمات التى تصاحب العرض والتى تتعرض لجماليات هذا الفن، وتنير الطريق نحو الاستمتاع الأمثل بقيمه الفنية الرفيعة، وهناك أفلام سينمائية تركت أثراً فى النفس لا يمحى لما تناولته من جوانب دقيقة فى النفس والحياة الإنسانية، مثل أعمال المخرج اليابانى أكيرو كيراساوا والمخرج الهندى ساتيا جت راى والإيطالى فيللينى وكذلك أفلام الموجة الجديدة فى فرنسا، وكان الاهتمام بهذه الفنون دافعاً لى للالتحاق بأول دفعة بالمعهد العالى للنقد الفنى حين انشىء فى بداية السبعينات ، ولقد درست فيه لمدة عامين كيفية تذوق جماليات فنون السينما والمسرح والفن التشكيلى ونظريات علم الجمال، وكان يقوم بتدريس مادة السينما الناقد الكندى المعروف بول وارين، ويقوم بتدريس تذوق الفنون التشكيلية الناقد الإنجليزى جون

أكتون، وكانت تعجبني طريقة الاثنين في الشرح والتحليل، ورأيت من خلالهما أسلوباً شيقاً وممتعاً في التدريس يحترم عقل الدارس وفكره، ولكن بعد اضطرار هذين الأستاذين للرحيل وتعويضهما بأساتذة مصريين- لسد الخانة - فلم أجد لدراستي الفائدة التي ابتغيها فلم استكملها.

اللقاء بأوربا

ظللت أتحرق شوقاً إلى السفر لأوربا، فقد كانت هناك هالة مقدسة حول فنانين عايشت أعمالهم وعرفت قصص حياتهم المثيرة من خلال الكتب، واستبدت بي الرغبة في لقاء إبداعهم وجهاً لوجه - وفي صيف عام ١٩٦٥ - بعد تخرجي بأربع سنوات - قررت تحقيق حلمي والقيام بمغامرة السفر على نفقتي الخاصة، وكان يسمح للمسافر آنذاك بخمسة جنيهات استرلينية فقط ، وكانت الرحلة بالطائرة إلى ميونخ في ألمانيا والانتقال منها بأسلوب الإشارة للسيارات - إلى باريس، وكانت تلك الرحلة - المغامرة - التي تخللتها أيام قاسية صعبة ذات أثر كبير أدى إلى إعادة تقييمي لنواحي متنوعة في الفن



آدم وحواء - ١٩٧٩

وفي الحياة، كما كانت بمثابة صدمة حضارية تلقيتها بدءاً من المنظر البادي من نافذة الطائرة أثناء هبوطها في مطار ميونخ، وطوال فترة الرحلة تكشف لي عالم جد مختلف في جماله ونظامه وأسلوب حياته ، وغمرني الإحساس بأنني قادم من عالم يعيش خارج إطار العصر.

وفي متاحف ميونخ واللوفر ومتحف التأثيريين والفن الحديث في باريس التهمت عيني مئات الأعمال الفنية الخالدة، ورأيت إلى أي حد وصلت إليه قدرة الإنسان حين يبلغ ذرى الابداع في الفنون التشكيلية خلال مراحل متنوعة من

التكوين

عمر الإنسان على الأرض.

وجاء اللقاء الثاني بأوربا خلال رحلة ثانية قمت بها لإيطاليا عام ١٩٧٢ واستمرت شهراً، زرت فيها فلورنسا مهد عصر النهضة وروما وفينيسيا، ولم تحدث هذه الزيارة صدمة حضارية كسابقتها، ولكن الصدمة كانت فنية حين التقيت بفناني عصر النهضة العظام الذين تمثل أعمالهم إنجازاً بشريا فذاً يندر أن يتكرر على مر العصور، وعلى وجه الخصوص لوحات مايكل انجلو التي نفذها لكنيسة الفاتيكان، وقد تأثرت بلوحته الشهيرة يوم الحساب التي كانت آخر وأعظم أعماله وأمضى في تنفيذها عدة سنوات موضحاً فيها خلاصة تجربته الفنية والروحية.

أما اللقاء الثالث بأوربا في فترة التكوين فكان أثناء بعثتي الدراسية بأسبانيا، حيث أمضيت أربع سنوات في مدريد أتاحت لي فرصة كاملة للتعرف عن قرب على ملامح الحضارة الغربية المعاصرة عامة، وعلى الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة على وجه الخصوص فمدريد تعد إحدى العواصم الثرية بالإبداع الفني الجديد، والشعب الأسباني يقدس الفنون ويمنحها مكانة متميزة في مجمل ثقافته، وتاريخ الفن الأسباني الممتد من عصر النهضة يزخر بأسماء مهمة ذات بصمات



د. صبري منصور

رئيس قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة .

- **انتخب عميداً للكلية من ١٩٨٩ - ١٩٩٢ .**
- **شغل منصب رئيس قسم التصوير عام ١٩٨٩ ، ومن عام ١٩٩٤ حتى ١٩٩٧ .**
- **رئيس لجنة الترقيات للأساتذة والأساتذة المساعدين بكليات الفنون الجميلة والتطبيقية والتربية الفنية من عام ١٩٩٥ حتى ١٩٩٨ ، ورئيس لجنة الترقيات بكليات الفنون الجميلة والتربية الفنية من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١ .**
- **صدر له كتاب «دراسات تشكيلية» عام ٢٠٠٠ .**
- **حاصل على عدة جوائز أهمها : جائزة التصوير بالمعرض العام للفنون التشكيلية ١٩٨٢ ، وجائزة الشراع الذهبي من بينالي الكويت العربي عام ١٩٨٥ ، وجائزة الدولة التشجيعية في التصوير عام ١٩٨٥ .**

واضحة وإضافات أثرت فى صياغة الأساليب الفنية على مر العقود الماضية ، بدءاً من فيلاسكين وجويا والجريكو ووصولاً إلى سلفادور دالى وميرو وتابييس والمعمارى انطونيو جاودى.

ولقد كانت مدة البعثة فترة للرصد والدراسة والتعرف على الآخر ، ومحاولة لرصد أسباب التميز والاختلاف، وكان هناك حوار دائم داخل النفس يقيم المقارنات محاولاً استخلاص الأسباب والنتائج، وكانت رغبتى فى التعرف على كل ما أستطيع من دواعى إبطاء تجربتى الفنية، فقد كنت معجباً بأساليب عديدة وطرق تعبير متنوعة ولكننى فى النهاية كنت أود أن أجد طريقة مختلفة فى الرسم تكون نابعة منى وليست تقليداً أو احتذاء لما أراه أو أعجب به.

تكوين التجربة الفنية

وللتجربة الفنية هى الأخرى ملامح تكوينها التى تتأكد وتنضج على مر السنين ولقد ظللت أؤمن منذ بداية دراستى لفن التصوير بأن اللوحة يجب أن تكون عملاً فنياً ثقافياً فى المقام الأول، وأنها ليست مجرد عنصر زينة وتجميل، وأن قيمتها تكمن فى مدى تقديمها لرؤى وأحاسيس عميقة، وأنها يمكن أن تجسد الأفكار وتعبر عن الروح الجماعية لمجموعة من البشر.

لقد كان حلمى هو تقديم رؤية فنية مصرية، متأثراً بذلك بالدعوة التى كانت سائدة خلال الستينات فى مجالات إبداعية أخرى كفن المسرح من خلال دعوة يوسف إدريس وأعمال نجيب سرور ومحمود دياب، وقد كان ذلك حافزاً لى لاختيار موضوع رسالتى للماجستير «نحو تصوير مصرى معاصر» محاولاً فى دراستى مزج عناصر تراثية بملامح حداثية غربية وتلك كانت رؤية نظرية غير واضحة .

لقد كانت قناعتى التى انتهيت إليها أن أية تجربة فنية ذات مستوى ثقافى رفيع يجب أن تتمتع بالخصوصية حتى لو جاءت متواضعة ، لأن قيمتها تكمن فى أصالتها وفى تقديمها لرؤية تختلف عن رؤى الآخرين ولقد كان هناك نماذج ناجحة فى الفن المصرى المعاصر أمثال النحات محمود مختار والمصورين محمود سعيد وراغب عياد والجزار وندا، فكل هؤلاء على اختلاف أساليبهم مهدوا طريقاً حاولت أن أسلكه ، وكان زادى فى ذلك الطريق الذى بدأته منذ نهاية الستينات يعتمد على مشاهدات وأحاسيس مترسبة فى أغوار النفس ، تجسدت فى صياغات فنية مستمدة من التراث الفنى الزاخر لمصر، مضافاً إليها خلاصة ما استطعت هضمه واستيعابه من عناصر ثقافية وفنية تركت أثراً عميقاً فى وجدانى خلال فترة التشكل والتكوين.

◆ عاطف مصطفى

من الذي كتب مذكرات عربجي.. ومذكرات فتوة؟!

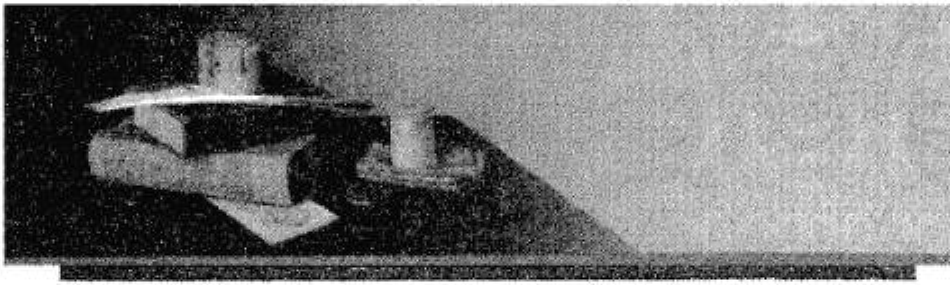


كتب د. محمد رجب البيومى بأن كتاب «مذكرات عربجى» ظهر فى سنة ١٩٢٣، وكان الأستاذ فكرى أباظة حينئذ يكتب مقالات شبه يومية فى جريدة «الأهرام»، وإذا كان يمزج بين العامية والعربية، فأسلوبه مميز، لا يستطيع أن يقلده أحد.

أما مقالات «مذكرات عربجى»، فقد كانت تنشر بانتظام فى مجلة «الكشكول» التى كان يصدرها الأستاذ سليمان فوزى ولها قراؤها المشهورون، وكانت التعليقات على هذه المذكرات تنشر تباعا فى المجلة، ولم يتجه، الظن إطلاقا إلى الأستاذ فكرى أباظة وقد جاء فى المذكرات أن الأسطى محمود (المؤلف) أصيب فى كارثة، إذ صدمته حافلة كان يركبها جنود الانجليز، فذهب إلى قصر العينى، وتولى علاجه على بك إبراهيم نفسه، وقال إنه معجب كثيرا بأفكاره فى المذكرات، كما أن كاتب المذكرات يعترف بأن فكرى أباظة ابن الأصول، وقد أعانه على طبع المذكرات بمبلغ مالى..

وقال د. البيومى : على أننا لا نمنع أن يكون الأسطى محمود حسين عرض على فكرى أباظه أن يقدم المذكرات، أن يكون فكرى قد تناول بعض الكلمات فى المذكرات بالتغيير والتحويل حين قرأها قبل أن تطبع، وليس معنى هذا أنه هو الذى كتبها فى الأصل.

أما القول بأن سليمان نجيب هو الذى كتب هذه المذكرات، فنحن نعرف أسلوب سليمان نجيب وطريقته المسرحية فى التعبير بالحوار على سبيل الأخذ والرد، مما يستبعد تماما أن يعيش فى جو العربجية!



الهلال : جاءنا أيضا من الكاتب خيري شلبي أن فكري أباظة كتب مذكرات «فتوة» ونترك الباب مفتوحا لنتعرف على الآراء من الذي كتب هذه المذكرات ؟!

مواكب الشهداء

عربي أنا .. أثور لحقي
وقوي .. والحق للأقوياء
يهدر الثأر في دمي وعروقي
سأضحي لأمتي بدمائي
قسما !.. أن نهب للحق.. للعدل
لكراماتنا .. وللكبرياء
قسما!.. لن نعيش في العار منهم
لن يشيدوا نصرا على أشلائي
أمتي!.. أمة البطولات ! والمجد!
والشعر ! والإبا ! والفداء
هبي يا مصرا.. والبطولات فخر
توجت منك كل حرف هجاء
يا عراقي !! يا أردني!! يادمشقي
ياجبال «الأوراس» لبي ندائي
دنسوا أرضنا.. وداسوا حمانا
وتحدوا قداسة الأنبياء
نقضوا العهود أبناء (صهيون)
وخانوا بلا ذمة ودون حياء
ليس يجدي مع الطغاة وفاء
لا .. ولا ذمة.. لهم «هؤلاء»
كوني يا «أرضي» قبرهم.. وجحيما
وكوني موتا من فوقهم ياسمائي
يا فلسطين لن تذلي لباغ

عبدالعزيز عبدالرحمن - السعودية - الذكير

الاهتمام بوثائق الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى



د. أحمد عبدالرحيم

طالعت باهتمام شديد مقال د. عاصم الدسوقى فى العدد الماضى من الهلال بعنوان «د. أحمد عبدالرحيم مصطفى وموضوعية كتابة التاريخ» ود. أحمد أحد أبرز الباحثين فى تاريخنا الحديث، وكان دائما يهتم بازدهار الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لاستجلاء المؤشرات المستقبلية فى طيات ركام المادة التاريخية.

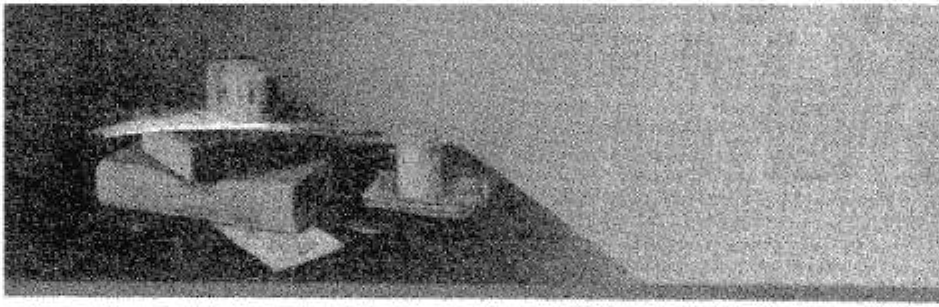
ومن بين بحوثه المهمة ما كتبه حول سياسة بريطانيا إزاء فلسطين فيما بين عامى ١٩٤٥ - ١٩٤٩.

لقد قال د. أحمد عبدالرحيم فى تصريح له: إن البحث فى أى موضوع لم ينل حتى الآن نصيبا من الدراسة، لأن ما كتب لا يعدو أن يكون سوى انطباعات عاطفية، تردد شعارات لا تخدم الحقيقة أو المسار القومى من قريب أو بعيد».

كما كان يحدوه الأمل فى أن يدلى الباحثون بدلوهم فى مجال بكر من مجالات التاريخ المصرى، ذلك هو البعد الاجتماعى، حيث لم يحظ بالاهتمام الكافى، وحمل ذلك أمانة فى أعناق النابهين من مؤرخى الجيل الجديد إننى أناشد أسرة الراحل الكبير بإيداع ما تركه من وثائق بدار الوثائق القومية التاريخية حتى يتسنى للباحثين والمؤرخين الإستفادة منها

د. صموئيل لبيب سيحة - المنيا

الهلال : نحن معك في أن الراحل الكبير كانت تؤرقه أمانة الكلمة ومسئوليتها ، لم يخالف ضميره يوما ، وكان شجاعا في كل ما كتبه في «الهلال» يتحري الدقة في كل ما يكتب.. وبوفاته فقدنا واحدا من أهم مؤرخينا في العصر الحديث.. رحمه الله وعوضنا من يسير علي دربه ومنهجه .



لا عـزاء

لا تنصبوا فى كل بيت محزنة
يا إخوتى
عند الصباح ستنجلى عن دارنا
سحب الدموع الساخنة
عند الصباح ترون معجزة الدم
بدلا من الألفين ينبت فى الغد
سبعون ألفا من رجال الملحمة
لا تنصبوا فى كل قلب مأتما
وتعهدوا نبت الحياة القادمة
وابنوا لهم فى كل عين مسكنا

سبـعـون مليـونا من الغـرس
العفى ينبت
طوفانهم يجتاح يجتاز الطغاة
محطما ومطهرا
لا تنصبوا بين الجوانح مأتما
لن نظلم
رغم الطغاه وبغيهم.
لن نظلم

د. حسنه عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

نكتة يهودية سخيفة

عندما زار رئيس وزراء ما يسمى بدولة إسرائيل مناحيم بيجن مصر صرح بكلام خطير جدا لا يستند إلا إلى المطبخ اليهودى الذى يكثر فيه أكل الثوم والبصل. مادام المطبخ اليهودى يكثر فيه أكل الثوم والبصل وما دام الثوم والبصل أكل قدماء الشعوب ومادام ملوك مصر القديمة الفرعونية كانوا يعطون الثوم والبصل للعبيد للأكل لأنه مصدر القوة والنشاط والحيوية ومادام أن العبيد هم الذين بنوا الأهرامات . إذن فاليهود هم الذين بنوا الأهرامات وهم يرددون ذلك حتى يومنا هذا هذه نكته يهودية سخيفة كرائحة الثوم والبصل.!

د. جمال العطار
كامب شيزار - الاسكندرية

سرقة أدبية!

القصة التى نشرت فى العدد الماضى وعنوانها «مقهى المعاقين» ليست للسيد لطفى عز الدين، بل هى قصتى، وقد نشرت منذ خريف عام ١٩٩٤ فى الملحق الأدبى بإحدى الصحف التونسية، كما أصدرتها فى كتاب بالمنامة مع قصص أخرى بالعربية والفرنسية

الأسعد بن حسين -تونس

أنت والهلال

الصراع بين إسماعيل ومصطفى فاضل



كثر الحديث عن الأميرة نازلي فاضل والتي تناولها رئيس التحرير في مقاله المنشور في عدد ابريل الماضي ، وهي ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم بن محمدعلي فحينما تولى إسماعيل عرش مصر بدأ عهده بالتودد للسلطان العثماني ودعاه لزيارة مصر، وأتى فعلا السلطان عبدالعزيز لزيارة مصر ونجح الخديو إسماعيل في احتواء السلطان العثماني بتغيير نظام توارث عرش مصر، بحيث يؤول إلى أكبر أبناء الحاكم، وكانت الضربة القاضية لآمال مصطفى فاضل، لأنه كان سيصبح وليا للعهد.

وعلى الفور قرر الأمير مصطفى فاضل مغادرة مصر هو وأسرته حزينا لما حدث.

وفي عاصمة الدولة العثمانية ، انضم الأمير إلى «أحرار تركيا» المعارضين لاستبداد السلاطين، وعاونهم بالنفوذ والمال، حتى أطلقوا عليه «أبا الاحرار» وتبخرت ثروته وقرر بيع كل أملاكه في مصر ودخل الخديو إسماعيل مشتريا حتى يقضي على طموح أخيه في العودة إلى مصر مرة ثانية بعد حرمانه من عرش أبيه.

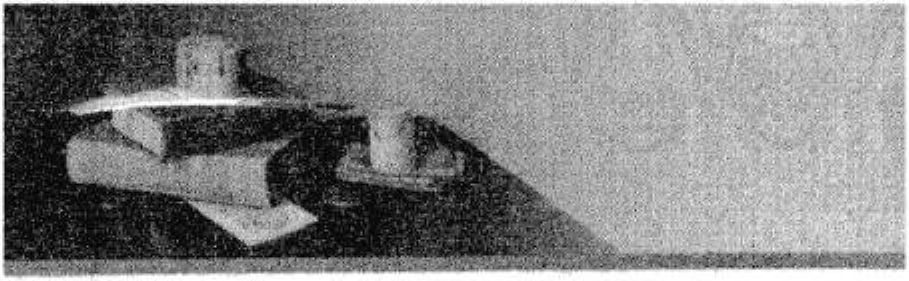
المهندس شريف سيد عفت - القاهرة

إلى ياسر عرفات - يوم فك حصاره

وعرفت الآن
يوم فك حصارك
كيف العالم حولك
ياعرفات
أحد لم ينقذك
عملك أنت.. عملك أنت
فاشدد ازرك
وتوقي الضربات
أي مكان تأتيك

إسرائيل.. أمريكا
أي الجبهات.
هذا زمن الظلم
زمن الزيف
زمن الكذب
زمن الترهات
فاشدد أزرك
وتوقى الضربات
عملك أنت.. عملك أنت

محمد علي عبدالعال - القاهرة



لطيفة الزيات عاشقة الحرية

تعد د. لطيفة الزيات نموذجا بارزا للمرأة المصرية المثقفة، تخرجت فى كلية الآداب عام ١٩٤٦.

بدأت عملها الاكاديمى بالجامعة منذ عام ١٩٥٢ بقسم اللغة الانجليزية وتعددت أبحاثها حول هيمنجواى «وت. س اليوت»، ثم تعدد عطاؤها النقدي ليشمل دراسات أدبية ونقدية لأعمال العديد من الكتاب وفى مقدمتهم نجيب محفوظ ، وبدأت فى نشر العديد من قصصها القصيرة وكتبها النقدية المتعددة

وصدر لها «الباب المفتوح» ، «الشيخوخة» «وقصص أخرى»، «وحملة تفتيش» - «اوراق شخصية» - «بيع وشراء» (مسرحية) صاحب البيت (رواية) ، الرجل الذى عرف تهمته «رواية قصيرة» ١٩٩٥.

وقد اتسمت اعمالها القصصية والروائية بمعرفة حميمة بالحياة كانت شديدة الجرأة فى كتاباتها وعرضها ذلك للسجن أكثر من مرة ولكنها ظلت حتى اخر يوم من حياتهما شامخة لا تلين عزيمتها ، تحب الوطن، وتعشق الحرية، وقد كرمتها مصر حين منحتها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ١٩٩٦.

أحمد رشاد حسانين - بورسعيد

سجنوا الكل بأى ظنون

اضرب.. اضرب.. فجر واضرب　　اضرب كل عدو يضرب
فك حصارك يا منصور　　واخرج بالدنيا للنور
مثلك يا ابن الأرض يثور　　مثلك يا ابن الارض يثور
فى كل العادين تأجج　　نار لفاع لا تتحرج
ضربوا حولك سورا فاخرج　　واضرب بجسورا ظل يجور
كل يهود الأرض فجور　　كل يهود الأرض فجور
اضرب ضربا من رام الله　　كل عدو يا عبد الله
ومن القدس وكل الدولة　　وحدك جاهد كل خطير
أنت بعون الله كثير　　انت بعون الله كثير
وقف الكل بعيدا ينظر　　لا يتقدم بل يتأخر
هذا حظك منهم فاصبر　　حتي تنتصر يا منصور
ربك يا ابن الأرض كبير　　ربك يا ابن الارض كبير
سجنوا الكل بزى ظنون　　سجنوا الكل بكل جنون
كل جيوب الأرض سجون　　للابرار بلا تبرير
يا من نحو النور تسير　　يا من نحو النور تسير

حسن ابو الغيط -المصيلحة - منوفية

لماذا الغضب؟!

قرأت مقال د. عادل أبوزهرة في هلال إبريل تحت عنوان «فلننظر إلى الحاضر في غضب» وهو عن تزمت بعض الغلاة ممن يحجرون على معاني الحضارة، والتقدم ويعدونها رمزا للتخلف، كما يدعون إلى إقصاء المرأة عن ميدان الحياة، وأنها يجب أن تتستر بالحجاب والبقاء في المنزل!

ورؤيتي.. هي اهتمام الكتاب بنفر من الشواذ الذين لا يمثلون إلا أنفسهم ويجابهون الرأى الدينى العام.

وبالنسبة لرأى الدين في هذه القضية، فيتضح مما كتبه العلماء في الكتب والصحف التي تفرد للبحوث الدينية صفحات هادفة.

أنها كلها كتابات هادفة.

وبذلك يكون الكاتب متناقضا فيما كتب ، لأن من عناهم بالقول منتقدون ، وقد تناولت الأقلام بالكتابة تزييف ما يتجهون إليه.

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين - دقهلية

أنشودة الغروب

اتركيني واتركي مـا ... قد تبقى في يقيني
واذكريني في غروب الشمـ ... ـس من حين لحين
ثم قولي كان دفنا ... في وريدي يحتويني
ظل يشدو وللمني والحـ ... ـب في العصر الضنين
عشت أهواك وقلبي ... يصطلي جمر الحنين
بين بركان اشتياقي ... كم أعاني ضعف طيني
فاسبحي يا نبض عمري ... ضد امواج السنين
رددي للكون لحني ... واعبري فوق الأنين
جففي دمع المآقي ... فوق خد الياسمين
ذات يوم ينبت الصـ ... ـبار في القلب الحزين

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا - الدقهلية



مع الأصدقاء

الصديق حسام المتولى - المنصورة يسأل : البؤساء هى الكلمة الصحيحة، أم صحتها : البائسون.

وفى اللغة المفرد بائس والجمع بائسون ، ويصح أن يقال بؤساء بعد أن شاع هذا الخطأ فى أجهزة الإعلام.

● **الصديق احمد محمد عبدالحافظ** .. وصلتنا قصيدة منك توجهها إلى شخص غير معلوم.. وعموما قصيدتك كما تسميها بعيدة تماما عن الشعر، وربما يمكن ان تدرج فى الخواطر.

● **الصديق عمرو عبدالمنعم حمودة** وصلتنا رسالتك الأخيرة والتي تتحدث فيها عن حسن الشريف، وجهوده خاصة فيما كتبه فى الهلال فى الثلاثينيات. برجاء أن ترسل لنا التواريخ التى عثرت عليها، كما أرجوك كتابة رسائلك بخط أوضح حتى يمكن قراءتها بسهولة.

●**الصديق علاء عبدالفتاح القدوسي** مساهمتك بعنوان «كان صاحبي فى غربتي» فكرتها طيبة جدا ولكنها ليست من الشعر، هى بمثابة زجل.. رجاء قراءة الاعمال الشعرية والتعرف على علم العروض، حتى تتمكن من كتابة الشعر العربي.

● **اشرف عبدالغني ابو المجد** : فى انتظار مساهمات جديدة منك، ومطلوب منك القراءة بانتظام حتى تتمكن من امتلاك ناصية كتابة القصة القصيرة.

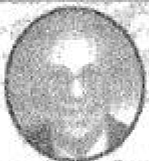
فوز مجلة الهلال فى التفوق الصحفى



فازت مجلة الهلال بالجائزة الثالثة فى الإخراج الصحفى فى مسابقة التفوق الصحفى التى تجريها نقابة الصحفيين سنويا ، وحصل عليها الزميل محمود الشيخ المدير الفنى لمجلة الهلال.

الكلمة الأخيرة

حين تشوه المعاني



بقلم : د. محمود الربيعى

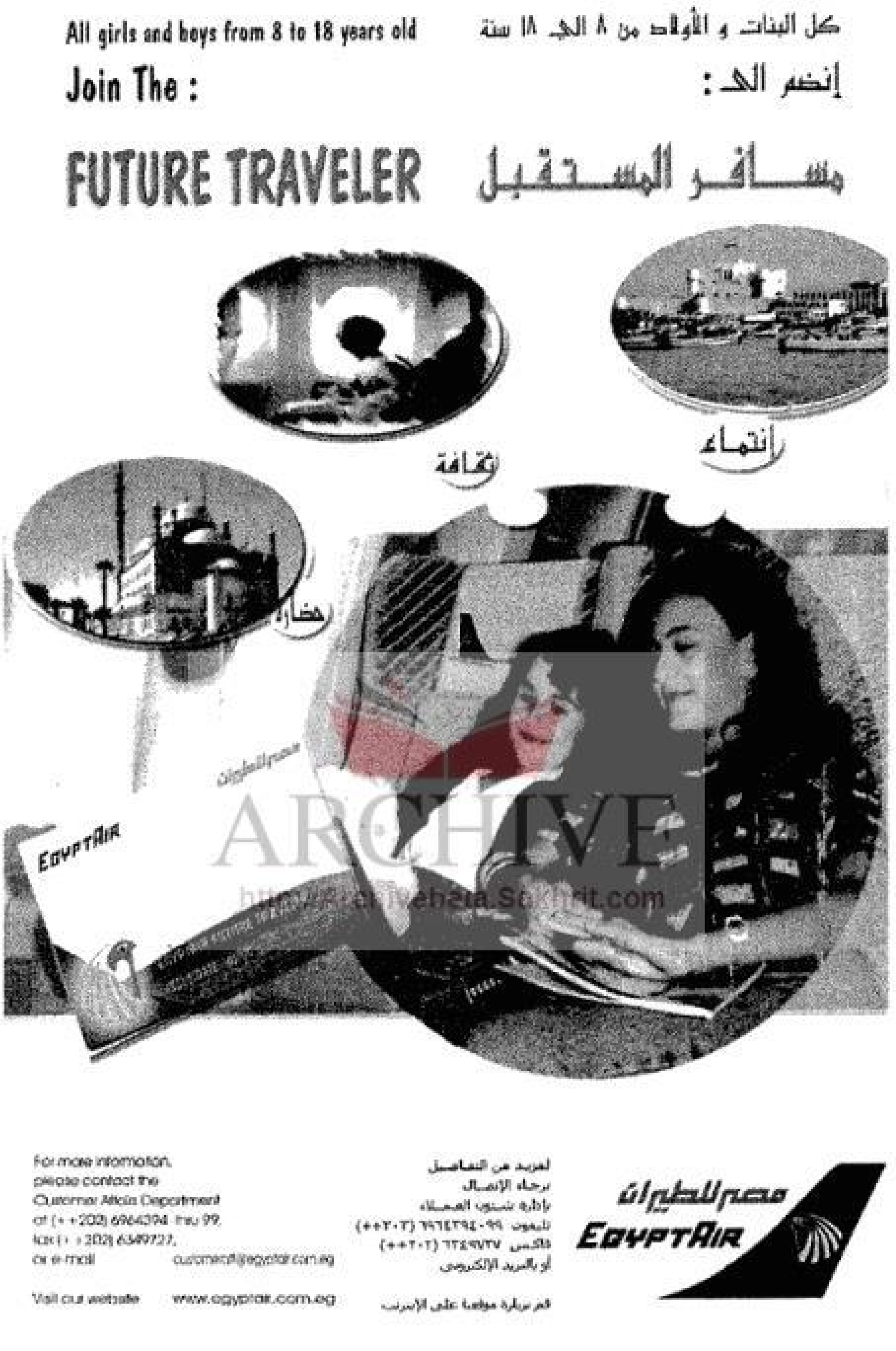
«آفة الرأى الهوى» قول قديم حكيم، فكم من حق يراد به باطل، ولكن أسوأ حتى من الحق الذى يراد به باطل الباطل الذى يراد تصويره فى صورة الحق، وحين تعيى صاحبه الحيلة يفرضه على الناس فرضا «بالقوة الجبرية». وعيب بعض الألفاظ أنها حمالة أوجه، والمراوغة فى تحديد المصطلحات لعبة قديمة، ويذكر أبناء جيلى كمّ الصفحات التى سودت لتحديد الفرق بين «الأراضى» و«أراض» فيما يتصل بقرار من قرارات مجلس الأمن خاص بالقضية الفلسطينية - ولا يزال فى جعبة جهابذة المكر والدهاء الكثير.

لقد ملأنا ذاكرة الأجيال بكلام كثير عن العالم المتحضر، والعالم المتخلف، وبان الآن أن كل ذلك كان من خداع الألفاظ، ومن الواضح أن الأسئلة بدأت تنشأ عن معنى «التحضر» و«التخلف» أو التحضر فى ماذا. والتخلف عن ماذا ونحن نعلم ما فعله هتلر بالعالم، ومع ذلك يقال لنا إنه كان عاشقا للموسيقى الكلاسيكية، فهل كان ذلك «تحضرا» أو «تخلفا»؟ وهاهو ذا شارون يلغ فى دماء الأطفال الفلسطينيين صباح مساء، ومع ذلك يقال إنه يحكم دولة «ديمقراطية»، فما معنى هذا؟

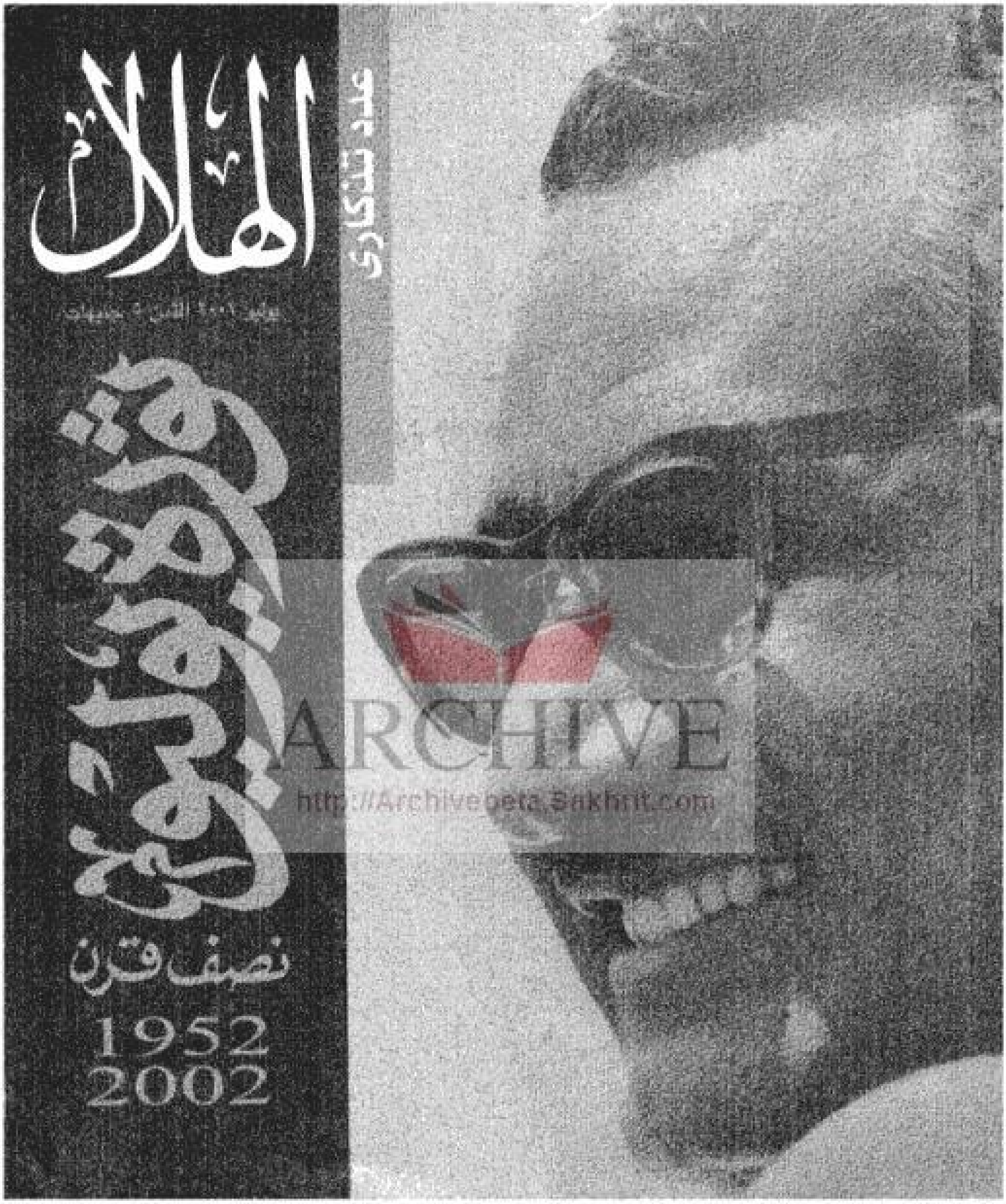
لقد تكشف لنا جزء ضئيل جدا حتى الآن مما يسمى «النظام العالمى الجديد» ومع ذلك فهو يكفى لدعوتنا إلى إعادة النظر فى معانى كلمات مثل «التحضر» و«التمدن» فى ناحية، و«التقدم التكنولوجى» و«الرفاه المادى» فى ناحية أخرى، والشواهد تصرخ أمام أعيننا بأنه يخطئ من يعتقد بأن هذه المصطلحات متلازمة الدلالات، أو أن تحقق مفهوم أحدها يعنى ضرورة تحقق مفهوم الآخر، ذلك لأن «التحضر» و«التمدن» مثلا حالتان من الصقل العقلى والعاطفى قد تفضيان إلى ابتكارات مادية، ولكن ذلك ليس بالضرورة. إنما الضرورى الذى لابد أن يفضيا إليه فهو الانفتاح المعرفى غير المحدود، والقدرة على استيعاب البدائل، ثم نبذ التعصب الذاتى أو القبلى، وإدراك التوازن الدقيق بين حرية النفس وحرية الآخر، والعمل على تحقيقه، ونصرة الحق - وإن كرهته النفس، والانحياز ضد الباطل - وإن أحبته النفس.

وأما «التقدم التكنولوجى» و«الرفاه المادى» فلا شك أنهما نتيجة لجهد بشرى خلاق واستثمار مذهل للوقت، وإعمال النظر الذى هو «فرض عين» فى البيئة باستغلال كل ذرة فيها، ونحن نرى الآثار الهائلة لكل ذلك، ونستمتع بفوائدها ليل نهار. ولكن ذلك إذا لم يثمر سلوكاً متحضراً متمدينا - مما أشرت إلى تجلياته قبل قليل - كان أشبه بلعبة خطرة فى يد طفل، ستدمره وتدمر غيره عاجلا أو آجلا، وما حديث «هتلر» و«شارون» ببعيد.

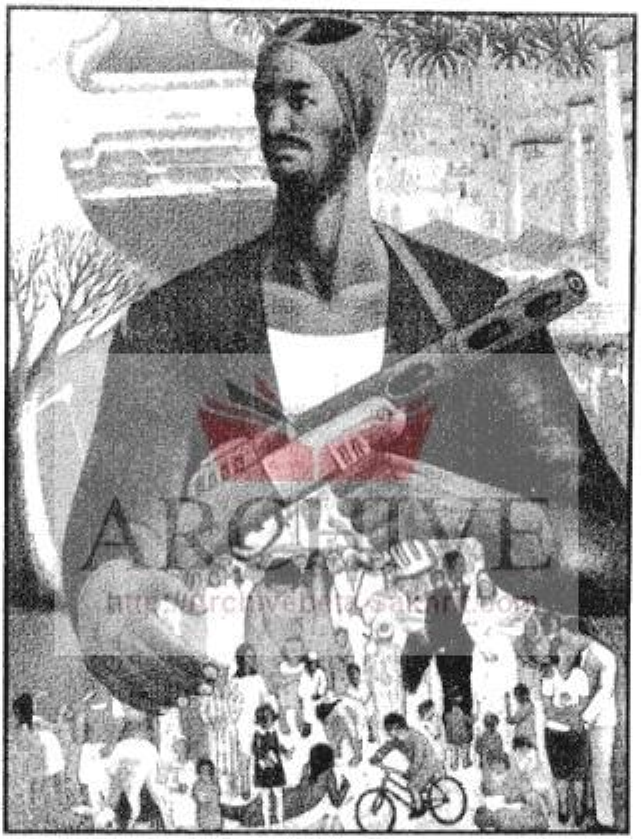
بقى حديث الذين لم يحققوا فى حياتهم الحاضرة قدراً يعتد به فى ناحية من الناحيتين، فلا تحضروا بحيث يميطون الأذى عن الطريق، أو يقفون لشارة المرور الحمراء بوازع من أنفسهم، ولا تقدموا - تكنولوجيا - عن الحالة التى أشار إليها شوقى بقوله: «لا يقدرون لإبرة تشكيلا» فليس أمامهم سوى واحد من أمرين: إما أن يبقوا أسراء إرادة الغالب، أو يطوروا لأنفسهم سياقاً حضارياً ومادياً متسقاً مع هويتهم.


All girls and boys from 8 to 18 years old
كل البنات و الأولاد من ٨ الى ١٨ سنة
Join The :
إنضم الى :
FUTURE TRAVELER
مسافر المستقبل
إنتماء
ثقافة
حضارة
EGYPTAIR
For more information, please contact the Customer Affairs Department at (++202) 6964394 thru 99, fax (++202) 6349727, or e-mail customeraff@egyptair.com.eg
Visit our website www.egyptair.com.eg
لمزيد من التفاصيل
برجاء الإتصال
بإدارة شئون العملاء
تليفون ٩٩-٦٩٦٤٣٩٤ (٠٢٠٢++)
فاكس ٦٣٤٩٧٢٧ (٠٢٠٢++)
أو بالبريد الإلكتروني
قم بزيارة موقعنا على الإنترنت
مصر للطيران
EGYPTAIR


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
البورصة
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة


الهلال
عدد تذكاري
نصف قرن
1952
2002
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة وفنان



كفاح الشعب للفنان – محمد حامد عويس

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقاً) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
تلكس ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير
محمد أبو طالب — المستشار الفني
عاطف مصطفى — مدير التحرير
محمود الشيخ — المستشار الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٣٠٠٠ فلس - الكويت ١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالاً - البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - دبي/ أبوظبي ١٥ درهم - سلطنة عمان ١.٥ ريال - تونس ٥ دينارات - المغرب ٤٠ درهماً - الجمهورية اليمنية ٢٥٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢.٢٥ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٨ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

عدد تذكاري

ثورة يوليو

نصف قرن
1952
2002

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ١٨ جنيها داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولارا، باقي دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت: عبد العال بسيوني زغلول ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 / ٤٧٤١١١٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة

ربيع الثاني ١٤٢٣ هـ - يوليو ٢٠٠٢م

أمريكا ويوليو

الإسلام والثورة

الصحافة والثورة

الأبواب الثابتة



اليوبيل الذهبي

هذا هو «العدد التذكارى» الذى نصدره بمناسبة الاحتفال هذا الشهر بنصف قرن على ثورة يوليو.

نتلفت خلال هذه المناسبة وراءنا ونتساءل.. هل مضى بالفعل على قيام ثورة يوليو خمسون عاماً..؟ فما أسرع مايمضى الزمن بإنجازاته وخيباته.

ولا يقاس أثر الثورات بخفوت صوتها أو ارتفاعه بعد انقضاء كل هذه السنين، وإنما يقاس ببقاء هذا الأثر فى ضمير الأمة وأحلامها..

لقد هوجمت ثورة ١٩٥٢ من كثيرين، بعكس ما لقيته ثورة ١٩١٩، التى اتفق الجميع على الحديث باسمها، وتجتمع اليوم الثورتان، اللتان تؤكدان على دأب الشعب على تحقيق أهدافه. بعد أن محا الزمن الكثير من الأحقاد فإذا لم يكن من حق ثورة ٥٢ أن تجحد جهود السابقين عليها، فلا يحق لهؤلاء أن يجحدوا دورها، خاصة فى هذا الوقت الذى تبحث فيه الأمة عن عون لطريقها الشاق الملئ بالصعاب والمد أمامها.

●

ولا يفوتنى أن أؤكد أنه لا يوجد لثورة يوليو تاريخ مستقل عن شعبها، فالتشابك قائم بالضرورة بين الثورة وبين الوطن، بين نظام الحكم وجموع المواطنين، الذين دفعوا عرقهم ودماءهم من أجل العمل الوطنى.

ويلاحظ أن ثورة يوليو قد حققت الكثير من أهدافها، فتمكنت من إسقاط النظام الملكى القديم، والاستيلاء على الحكم، وهو ما لم تنجزه ثورة عرابى، بعد أن قضت قوات الاحتلال البريطانى عليها، كما لم تحقق ثورة ١٩١٩ هدفها وهو إجلاء الإنجليز الذى تم بعد ثورة يوليو أى بعد حوالى ٤٠ عاما على قيام ثورة ١٩١٩.

وقد أقدمت الثورة على تغيير المجتمع فى ظروف صعبة، وفى مجتمع يرفض فيه التغيير قطاعات واسعة مسيطرة على مقدراته، وتفجرت مع قيام الثورة أحلام المصريين فى إنجاز مشروع وطنى طموح، وفى إنجاز بناء اجتماعى وثقافى جديد، وبناء صناعة وطنية، وإنهاء الاحتلال، وتأميم القناة، وإتاحة التعليم لكل فئات الشعب، وتحسين صحة الشعب ومستوى معيشته، وزيادة الإنتاج الزراعى وتنميته بالسد العالى، والمشروعات المختلفة على طول النهر، وطموح كبير فى مواجهة الصهيونية والهيمنة الأجنبية وتحرير الإرادة الوطنية، والمضى فى طريق التطور المستقل.

●

ومع التسليم بأن القهر يرتبط - عادة - بالثورة، فنجد أن الثائر البريطانى كرومويل يقطع رأس ملك بريطانيا، وروبسبير الثائر الذى قطع رأس لويس السادس عشر، ولينين قطع رأس العائلة القيصرية بأكملها،

وأيضاً، وفي التاريخ العربي والإسلامي، قطع العباسيون رؤوس الأمويين، وقطع الأيوبيون رؤوس الفاطميين، وقطع العثمانيون رؤوس المماليك، وذات الشئ قام به محمد على مع المماليك فى القلعة!

ولايغفر فى كل الأحوال للثورة غياب الديمقراطية، ولا انتهاك حقوق الانسان، لا كجزء من الحديث عن الماضي ولكن لما له من آثار خطيرة على المستقبل.

وعلى من يبحث عن الحكم الموضوعي أن يدرك أنه فى حساب الإيجابيات والسلبيات، فإن الثورة قد حققت الكثير، وهناك أمر واحد وأساسي هو غياب الديمقراطية، وهى نقطة الضعف الأساسية التى غطت على السلبيات الأخرى، وهى المسئولة عن التستر على النواقص والسلبيات وبما فيها الفساد.

وفي ذلك جانب من طبيعة البشر، نرفضه ولكن علينا أن نعرفه، وما يهمنا منه ما يلقى بنتائجه وظلاله على الغد، فعندما تتعرض كل القوى السياسية النشطة للاضطهاد، فلن يكون أمامها سوى العمل السرى أو السلبية المطلقة، ومن الذى سيتولى عندئذ بناء المستقبل؟!

●

ولن نردد القول بأن الهزائم التي واجهتها الثورة، كانت إحدى نتائج المؤامرات الدولية للقضاء على العملاق الذى خرج من القمقم، وهو ما حدث من قبل لكل من محمد على وعرابي، لأن المسئولية تقع على هؤلاء الذين لم يقدروا تقديراً صحيحاً حجم المخاطر والتحديات، وأولئك الذين تركوا الثقوب والثغرات فى النسيج الوطنى، لكى ينفذ منها الأعداء.

ونهدف فى هذا العدد إلى إحياء الذاكرة التاريخية للأمة، فنسيان الماضى هدف عزيز على الكثيرين، وأن نتأمل تجاربنا، وأن نملك شجاعة استيعاب الدروس والعبر، وتأتى العبر من الصواب والخطأ معاً، ومن تراكم الخبرة التاريخية تظهر عبرة الإنجاز وعظة الإخفاق.

على أن ننظر إلى تاريخنا ومراحله المتتابعة، لابنظرة التسليم والتأييد، ولا بنظرة العداء والثأر، فهى أحداث تاريخية وقعت وانتهت ولايملك أحد لها تبديلاً.

●

ومع تقليب أوراق يوليو نلاحظ أن أول من استخدم كلمة «الثورة» عقب قيام ٢٣ يوليو، بعد أن كان يطلق عليها أصحابها «الحركة» هو الدكتور طه حسين، ولم يطلقها عفو الخاطر، فمعنى الثورة عنده هو التمرد على المجتمع الفاسد، والوعى بمتطلبات التغيير الاجتماعي.

ونتناول الثورة على صفحات الهلال تناولاً نقدياً وموضوعياً، كما ينبغى أن تعالجها المجلة الثقافية، نرحب بكتابات من أنصفها ومن تحفظ عليها أيضاً، ونترك الأمر للقارئ، مع الإدراك أنه لا يجوز محاكمة مرحلة سابقة بقوانين معاصرة.

كما توقفنا أمام مسألة هل انتهت الثورة برحيل قائدها جمال عبدالناصر، أم أنها مستمرة، وخاصة بعد أن أعلن الرئيس أنور السادات نهايتها، واخترنا أن نتناول نصف قرن من التغيرات والأحداث، التى كانت ثورة يوليو أبرز معالمه وأهم أحداثه، ونسعى إلى تقديم تتابع الأحداث والوقائع مع الاهتمام بتلك الأحداث القديمة التى لم يعش وقائعها الأجيال الجديدة، وحتى ننعش الذاكرة الوطنية، فلا مستقبل لما لاماضى له.

وستقرأ على صفحات هذا العدد عدداً من المقالات السابق نشرها فى مجلة الهلال لكبار الكتاب، حتى ننقل إلى القارئ أجواء الماضى، جنباً إلى جنب مع مقالات نخبة ممتازة من الكتاب والمؤرخين المعاصرين.

المحـــــرر

يوليو ١٩٥٢

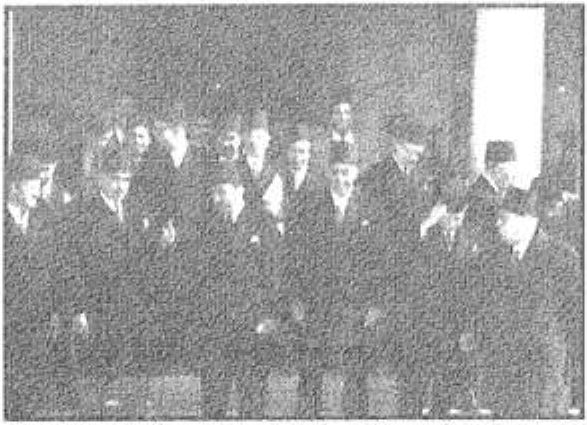
التحدي والاستجابة

بقلم : د. يونان لبيب رزق

بعد مضى نصف قرن على ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ لازال اللجج دائرا حول وضع توصيف محدد للحدث الكبير، فخصومه يستكثرون عليه تسميته بالثورة، بينما بدا أنصاره وكأنهم متمسكون بهذا الوصف، ولكن على استحياء!.

ونري أن السبب وراء ذلك ماتعرض له الحدث الكبير، خاصة بعد وفاة صانعه الأول، جمال عبدالناصر، من هجمة شرسة، ومن أطراف عديدة، أسميناهم في بعض كتاباتنا «بأمراء الانتقام»، وهى الهجمة التى أثرت في قطاع كبير ممن «لايعلمون» فأصبحوا يرددون مفرداتها، خاصة ممن لا يقرءون ولم يعايشوا العصر، وكأنها حقائق لا تقبل الجدل، الأمر الذى انعكس على المناصرين فخفت صوت البعض وارتفع عند البعض الآخر على نحو غير مقبول، كثيرا ما أتى بنتائج عكسية!.

ويبدو أنه لم توضع دراسة تاريخية حتى هذه اللحظة لتصحيح المفاهيم، وما يترتب على ذلك من ضبط المسميات، الأمر الذى نحاوله فى هذه الدراسة القصيرة..



وزارة علي ماهر الجديدة بعد إقالة وزارة مصطفى النحاس

فالمعلوم أن حركة التاريخ دائما ما تفرز متغيرات، وكثيرا ما يتمخض عن تلك العملية قوى جديدة ومصالح جديدة تعيش لفترة جنبا إلى جنب مع القوى والمصالح القديمة إلى أن تطغى عليها، ومن الطبيعي أن تحمل بعدئذ على إزاحة هذه الأخيرة، إذا لم تستطع بالطرق السلمية فلا مندوحة من استخدام القوة، وهو المنطق الذي ظل يتكرر، ليس في التاريخ المصري بل باستشهاد التاريخ الإنساني!.

إذا طبقنا هذا المعيار على الثورة الفرنسية، أم الثورات في التاريخ الحديث، والتي اسماها المؤرخون «ثورة البورجوازية»، فهي قد تفجرت تعبيرا عن زيادة مصالح هذه الطبقة على نحو لم يستطع النظام القائم استيعابه، والذي ظل يغلب مصالح الإقطاعيين القدامي، هذا من جانب، ثم أن تلك الطبقة الجديدة قد أفرزت أفكارا مختلفة عبر عنها مفكرون أعلام بدءا من روسو، ومرورا بمونتسكيو ووصولا إلى ديدرو الذي وضع موسوعة تضمنت أهم أفكار الطبقة الجديدة والتي بشرت بأفكار الاستنارة التي تتعامل مع البشر من منطلق العطاء الإنساني لكل فرد، بغض النظر عن أصله وفصله، كما كان حادثا مع القيم الإقطاعية التي كانت سائدة من قبل.

وبغض النظر عن الوسائل التي استخدمها الثوار في هدم النظام القديم The old Regime والتي أخذ عليها البعض عنفها الشديد إلى حد توصيف إحدى مراحلها بعصر الإرهاب فإنها في النهاية قد نجحت في اسقاط هذا النظام واحلال نظام جديد أعطى للبورجوازية مكانها الطبيعي، وأزاح الارستقراطية القديمة عن مكان لم تعد تستحقه.

باختصار فإن حركة التاريخ تقوم على أساس وضع قائم لم يعد محتملا مما يمثل تحديا للإرادة الشعبية، وعندما لا تتمكن من تغييره فإنها تلجأ

للعنف، وعلى قدر نجاح هذا العنف في التغيير تكون درجة الاستجابة، أما إذا عجز عن ذلك، فيما يحدث كثيرا في العالم الثالث بتغيير شخوص الحكام دون تغيير للنظام القائم، يكون من الصعب التوصيف بالثورة، وبهذا المفهوم نرى أن الوقت قد حان للتعامل مع ما حدث في يوليو عام ١٩٥٢ وما بعده ..

التحدى

تمثل حالة القلق العامة التي عرفتها مصر خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ - ١٩٥٢) أول مظاهر هذا التحدى، وهى حالة تبدت في كثير من الظواهر :

ع عدم استقرار الحكم على نحو غير مسبوق، فالإنجليز قد نفضوا أيديهم من الصراعات الداخلية، بعد إقالة وزارة الوفد في أكتوبر عام ١٩٤٤، وهو نفض لم تمله الظروف الداخلية فحسب، بل أملاه قبلها انحسار الدور البريطاني العالمي، بعد أن خرج الأسد العجوز واهن القوى من حرب لم تبق ولم تذر!

ولم يكن فاروق الأول على قدر المسئولية فقد توالت الوزارات وكان لكل منها منطق مختلف أحمد ماهر ثم النقراشي، إسماعيل صدقي ثم النقراشي مرة أخرى، بعده إبراهيم عبد الهادى فعلى ماهر حتى انتهى الأمر في بداية عام ١٩٥٠ بتأليف الوزارة النحاسية السابعة والأخيرة، ولم تكن مثل أية وزارة سبقة من وزارات «الزعيم الجليل»!.

ونرى أنه مع هذه الوزارة بدأ احتضار النظام القديم.. فقد اختلت حالة التوازن القديمة التي ظلت تحكم المسيرة السياسية في مصر، منذ صدور دستور عام ١٩٢٣.. الإنجليز لم يعودوا طرفا مؤثرا، طغيان الدور الملكي، تهاوى أحزاب الأقلية، وأخيرا اهتزاز صورة الحزب الشعبي التي ظلت غالبة خلال السنوات الثلاثين السابقة، ولأكثر من سبب:

١ - فالوفد كان قد أخذ في التحول بعد خروج أحمد ماهر والنقراشي أواخر عام ١٩٢٧، ثم مكرم عبيد بعد سن سنوات، وما تبع ذلك من دخول فؤاد سراج الدين وفئات قوية من الأرستقراطية الزراعية، الذين قادوا الحزب الكبير بمكانة العمد لامنطق المجاهدين، الأمر الذي كان لابد وأن يؤدى إلى انحسار التأييد الشعبي الذي طالما حظى به الحزب الكبير.

صحيح أنه قد جرت في تلك الفترة محاولات الحفاظ على بعض شعبية الحزب الكبير من خروج جماعة يسارية صغيرة من معطفه، هي التي تسمت «بالطليعة الوفدية» والتي قادها ابن لأحد أقطاب الحزب الكبير، عزيز فهمي، وناقد أدبي شهير، محمد مندور، غير أن تأثير المحاولة كان محدوداً. فقد حوصرت من الداخل، إذ لم تكن القيادة الجديدة التي التفت حول النحاس باشا مستعدة أن تسمح لهذه الجماعة بتجاوز هامش محدد، مما حولها إلى جماعة ثقافية أكثر منها قيادة سياسية!

٢ - ظاهرة التفسخ في السلطة التي برزت خلال عامي الوزارة الوفدية الأخيرة، فالملك بعد أن قبل بعودة النحاس إلا أنه كان متوجسا منها أشد التوجس الأمر الذي تؤكده الوثائق البريطانية من ناحية وتسجله مذكرات رجل القصر، حسن باشا يوسف من ناحية أخرى.

وقد زاد من أسباب التوجس الحريات الواسعة التي أتاحتها الحكومة الوفدية للصحافة، مما مكن

بعضها، خاصة صحف الأحزاب العقائدية، وعلى وجه التحديد مصر الفتاة التى تحولت إلى ما أسمته «الحزب الاشتراكى»، من الهجوم على الملك نهارا جهارا، وكان أشهر الحملات التى شنها أحمد حسين فى صحيفته صور مجموعة من البؤساء تحت عنوان كبير.. رعاياك يا مولاى!.

زاد منها أيضا موقف نواب الوفد من صدور قانون الحد من حرية الصحافة، وهو القانون الذى عرف باسم مقدمه، اسطفان باسيلى، وعلى الرغم من أنه كان نائبا وفديا، وعلى الرغم من أن مشروع القانون كان قد تم إعداده باتفاق بين القصر وسراج الدين، فإن هؤلاء النواب قد أسقطوه بأغلبية ساحقة، أكثر من ذلك أن جريدة «المصرى» التى كانت أكثر صحف الوفد رواجا فى تلك الفترة، قد خرجت على قرائها بصورة لباسيلى مجللة بالسواد. وهى تنعى حرية الصحافة!.

وزاد منها ثالثا تفجير قضية «الأسلحة الفاسدة»، والتى كان وراءها مجلة روز اليوسف ورئيس تحريرها الأستاذ إحسان عبدالقدوس وعدد من ضباط الجيش، وبغض النظر عما ثبت من ضعف الأدلة الخاصة بتلك القضية، إلا أنها فى مرحلة من مراحلها قد طالت بعض رجال الملك، الأمر الذى لم يكن ليغفره فاروق بسهولة للوزارة القائمة، خاصة أن جانبا من هذه القضية قد أثاره بعض النواب فى البرلمان ذى الأغلبية الوفدية الكاسحة!.

وكان من المنطقى مع ذلك أن ينتهز الملك أول فرصة ويقيل حكومة الوفد بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ليقع فى مأزق أكبر ولتزداد حالة عدم الاستقرار إلى الحد الذى تألفت معه أربع وزارات فى مدة تقل عن ستة أشهر، الأمر الذى مثل علامات نهاية الاحتضار والوصول إلى غيبوبة الوفاة، وهو ما لم يتأخر كثيرا!.

الفشل غير المنطقى الذى منيت به الحركة الوطنية خلال تلك السنوات السبع العجاف، فعلى الرغم من سقوط كثير من مفردات ما قبل الحرب، وهى المفردات التى أملت توقيع معاهدة ١٩٣٦، منها اختفاء حالة التوتر الدولى التى قادت إلى الحرب العالمية الثانية، ومنها انهيار الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس بعد خروج الإنجليز من الهند عام ١٩٤٧، الأمر الذى فقد معه القول «بحماية المواصلات الامبراطورية»، الذى كانت تتذرع به حكومة لندن من قبل، كل مضمون، ومنها ظهور عالم جديد وصفه المؤرخون بعالم الدول المتوسطة والصغيرة حديثة الاستقلال.. ورغم ذلك فقد ظلت القضية الوطنية تتعثر بين القاهرة ولندن.

تعثرت بعد فشل مفاوضات صدقى - بيفن عام ١٩٤٦، وبعد اخفاق اللجوء إلى مجلس الأمن فى العام التالى والتى قادها رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى، ثم تعثرت أخيرا فى عهد حكومة الوفد الأخيرة بعد المفاوضات التى أجراها وزير الخارجية محمد صلاح الدين مع الجانب البريطانى.

وفى هذا الجو من التعثر العام لجأت حكومة الوفد إلى خطوتها الأخيرة بإلغاء اتفاقيتى الحكم الثنائى الخاصتين بالسودان المعقودتين عام ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ فى ٨ أكتوبر عام ١٩٥١، وإذا كان لا يستطيع أحد أن يمارى فى قيمة هذا العمل الوطنى، غير أنه أقام الدنيا ولم يقعدها وأخرج المارد الذى تكفل بالإجهاز على ما بقى من النظام القديم .. أخرجه من القمقم، ولم يكن ليستطيع أحد أن يعيده إليه، ولا الوفد نفسه!.

ما ترتب على زيادة حجم الطبقة الوسطى، وقدر المعاناة الذى كابدته فى ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية من «غلاء المعيشة» من انتشار أسباب السخط، ولم تكن مثل هذه الظروف غريبة على المصريين ، غير أنهم خصوصا فى شرائحهم الريفية لم يكونوا قادرين على التعبير عن سخطهم إلا فى انفجارات محدودة كما حدث فى قرية كمشيش لا فى ثورة عامة، وهو عجز نتج عن ضعف الوعى عند الفلاحين من جهة، وتبعثرهم فى قرى منعزلة من جهة أخرى، هذا فضلا عن تمكن العصبيات المحلية، خاصة الأسرية والإقطاعية، من رقابهم من جهة أخيرة.

بيد أن ظروف الحرب قد أدت إلى خروج أعداد من هؤلاء إلى المدن حيث عملوا فى المتاجر أو فى الصناعات الجديدة التى اقتضت تلك الظروف ظهورها، ثم ما لبث هؤلاء أن دفعوا بأبنائهم إلى المدارس والجامعات، واشتغلت قطاعات كبيرة منهم فى الوظائف الحكومية الصغيرة، التى لم تكفل لهم عيشا معقولا، خاصة وأنهم كانوا يعانون حالة البذخ التى يعيشها كبار ومتوسطو ملاك الأراضى الزراعية الذين كانوا قد وفدوا إلى العاصمة واستقروا فيها.

ولم يكن ليرضى هؤلاء أن يظلوا مهمشين على هذا النحو، خاصة وقد عرفت الفترة نفسها انتشار الأفكار الأيديولوجية التى وجدوا فيها طوق النجاة من وضع لم يعد محتملا.. من ثم جاءت الزيادة غير المسبوقة فى حجم أصحاب تلك الأفكار.. الماركسيين ومصر الفتاة (الاشتراكيين) والاخوان المسلمين، والمعلوم أن هؤلاء قد نجحوا فى سحب الأرض من تحت أقدام الوفد بعد أن سيطروا على الشارع السياسى المصرى، الأمر الذى بدا فى حركات الطلبة والعمال منذ عام ١٩٤٦ والتى أكدت أن تغييرا قد حدث، ولم يبق سوى ترجمته على أرض الواقع، مما شكل جانبا آخر من جوانب التحدى!.

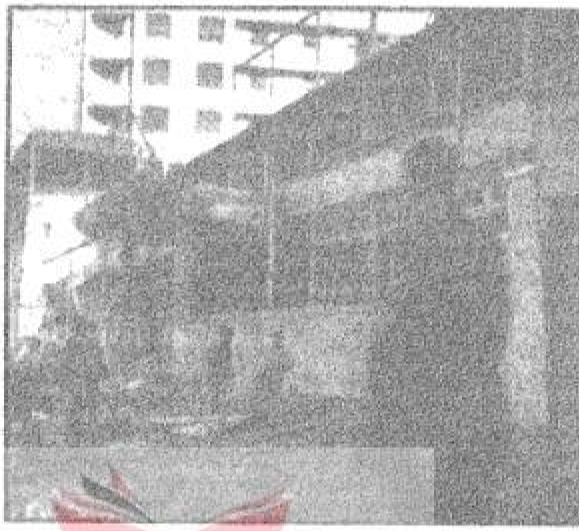
م أخيرا فقد بدا النظام القديم عاجزا عن مواجهة المخاطر الخارجية ممثلة فى قيام دولة إسرائيل وما تبعها من مضاعفات، فلأول مرة فى التاريخ المصرى الحديث يقبع على الحدود عدو علنى يهدد التراب الوطنى.

صحيح أن مصر قد عرفت خلال الحرب العالمية الأولى احتمالات الغزو التركى الألمانى من الشرق، عبر سيناء وقناة السويس، وعرفت خلال الحرب العالمية الثانية غزوا حقيقيا، إيطاليا وألمانيا عبر الصحراء الغربية والذى تكسر عند العلمين، إلا أنه سواء فى المرة الأولى أو الثانية فإنه قد حدث فى إطار صراع عالمى انتهى بانتهاء دواعيه!.

أما بالنسبة لفلسطين فقد كان الخطر مقيما، ولا زال (!)، وكانت تلك القضية من أهم الأسباب التى أنعشت الوعى بالانتماء العربى بين المصريين، خاصة بعد النجاح فى إقامة منظمة «جامعة الدول العربية» عام ١٩٤٥ باتفاق من سائر الفرقاء ، فى السياسة المصرية، بمن فيهم الوفد وقصر عابدين.

ويشير التأمل فى مجريات الأحداث خلال تلك الفترة إلى حالة من التمزق قد انتابت المصريين، بين العمل الوطنى والسعى للتخلص من الوجود البريطانى الجاثم منذ نحو سبعين عاما على صدورهم، وبين التوجه العربى العامل على مواجهة الخطر الجديد، وكان مثل هذا التمزق يشكل جانبا أخيرا من جوانب التحدى!.

الاستجابة



بعد حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ ازدادت حالة عدم الاستقرار إلى الحد الذى تألفت معه أربع وزارات فى مدة تقل عن ستة أشهر

كان يمكن أن يتحول ما جرى ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ إلى مجرد انقلاب عسكرى يؤدى إلى تغيير وجوه الباشوات والبكوات أصحاب الطرابيش، إلى وجوه الشبان من ضباط الجيش أصحاب الكابات، لو لم تكن الاستجابة مع قدر التحديات!.

ويخطىء البعض عندما يقرن بين فكرة الثورة وحجم العنف، وأنه حتى تكتسب مثل هذا الوصف فإنه يتوجب عليها أن تكون مقرونة باكبر قدر من الضحايا، وقد تأثر هؤلاء بالنموذج التقليدى للثورات فيما جرى أواخر القرن الثامن عشر فى فرنسا، أو أوائل القرن العشرين فى الثورة البلشفية فى روسيا والتى ولدت القوة العظمى الثانية فى العالم، الاتحاد السوفييتى.. وهم تحت هذه الفكرة لم يعجبهم أن يروا مجموعة صغار الضباط وقد أطاحت بالنظام القديم فى ليلة ليلاء من ليالى التاريخ حسب اعتقادهم ، واستولت على السلطة!.

ويمكن التسليم بصحة هذا الاعتقاد إذا كان ما قام به رجال يوليو مجرد تغيير الحكام القدامى بحكام يوليو جدد دون استجابة للتحديات القائمة، الأمر الذى يتطلب تمحيص الموقف للتوصل إلى الحقيقة ووقف هذا الجدل العقيم..

عدم استقرار الحكم كان التحدى الأول، وهو ما بدا أن رجال العهد الجديد، كما أسموه أنفسهم، عاجزين عن مواجهته، فالتغير السريع فى الوزارات من ناحية، والصراع الذى طفا على السطح بين قادة هذا العهد، عبدالناصر ونجيب،

والذى وصل إلى ذروته خلال أزمة مارس عام ١٩٥٤، بدا معه كأن حالة عدم الاستقرار ظلت قائمة.

غير أن القائلين بهذا الرأى لم يميزوا الفارق بين تقلصات الاحتضار، وهو ما كان حادثا بالنسبة للعهد القديم، وبين صرخات الميلاد، وهو ما أصبح حادثا خاصة خلال العامين الأولين اللذين أعقبا الحدث الكبير، فبالنسبة للحالة الأولى هى نهاية لمرحلة استقرار، أو خاتمة لفترة حياة عهد بأكمله، وفى الحالة الثانية هي بداية لمرحلة جديدة من الاستقرار الذى كان مفتقداً!

يؤكد ذلك هدوء الشارع السياسى المصرى فى أعقاب الثورة، وهو الهدوء الذى يعزوه البعض إلى القبضة الحديدية التى أمسكت بها الحكومة الجديدة بأزمة الأمور، وهو رأى يستحق إعادة النظر، فالعنف وحده لا يكفى لصنع الاستقرار مع استمرار حالة السخط العام!.

ولا يمكن التفريق بين تلك الحالة وجملة المتغيرات التى عرفتها مصر خلال الخمسينات واستمرت على نحو أو آخر خلال العقد التالى والتى قدمت استجابات معقولة للتحديات التى كان النظام القديم قد عجز عن مواجهتها.

وكان من الطبيعى، لصنع هذه الاستجابات، أن يبدأ رجال العهد الجديد فى التخلص من بقايا النظام القديم، الملك فاروق تنازل عن العرش، وقبل أن يمضى عام آخر تم إلغاء النظام الملكى برمته بعد نحو قرن ونصف من وجود أبناء أسرة محمد على على رأس الحكم فى مصر، والأحزاب القديمة تم إلغاؤها فى يونيو عام ١٩٥٣.

وينتقد البعض بشدة الإجراء الأخير واعتبروه النقلة المميتة من العصر الليبرالى لعصر الاستبداد الناصرى، وهم فى هذا يتناسون حقيقة، حتى وإن بدت مؤسفة، ألا وهى أن مدة صلاحية تلك الأحزاب كانت قد انتهت، وأنها لو كانت تملك بعض القوة لقاومت الإجراءات التى لم يكن لها دور، أكثر من إعلان الوفاة والمواراة فى رمس التاريخ!.

فضلا عن ذلك فقد جاء قانون الإصلاح الزراعى الأول الصادر بعد شهرين فحسب من ليلة ٢٣ يوليو بمثابة قص الجناحين الاقتصادى والاجتماعى للقوى التى ظلت تجسد النظام القديم، والتى كما سبقت الإشارة، تمثلت فى الارستقراطية الزراعية، ولم يكن مقدراً لها أن تطير فى سماء الحكم بعد ذلك.

جاءت الاستجابة رقم (٢) متعلقة بالقضية الوطنية، حيث أقدم الحكام الجدد على مجموعة من الإجراءات لم تكن أى من الحكومات التقليدية لتجرؤ على اتخاذها..

من تلك الإجراءات الفصل بين قضية الجلاء وقضية السودان، وهو ما لم يحدث فى أى مفاوضات مصرية - بريطانية سابقة، إلا عام ١٩٢٩ التى لم تصل أبدا إلى بر النجاة، وكان معلوما أن القضية الأخيرة ظلت الصخرة التى تتحطم عليها محاولات التوصل لاتفاق بين الطرفين.

ومع أن رجال العهد القديم نزلوا تقريعا فى قادة يوليو ممن اعتبروهم شبابا قصيرى النظر يضحون بالمصالح المصرية فى ماء النيل، الذى هو أساس حياة البلاد، غير أنهم قد تجاهلوا فى ذلك ما أحدثه الزمن من متغيرات فى هذه القضية، بين حقوق السيادة التى كانت إحدى مفردات العصر الإمبريالى، وبين حق تقرير المصير الذى ساد

خلال فترة ما بعد الحرب والذى تمسك السودانيون به، ولهم كل الحق.

المهم انتهى هذا التحدى بعقد المعاهدة المصرية - البريطانية فى فبراير عام ١٩٥٣ والذى أدى إتمام تنفيذها بعد نحو ثلاث سنوات إلى ظهور الجمهورية السودانية فى الجنوب، وهذه النهاية وإن لم ترض كثيرين غير أنها أنهت هذا الشق من القضية الوطنية.

منها أيضا الشق الآخر المتصل بالوجود العسكرى البريطانى فى منطقة القناة، وكان ميسورا التوصل إلى حل له بعد تسوية الشق الأول من القضية، مما تحقق فى معاهدة الجلاء التى عقدت فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ونصت على جلاء آخر جندى بريطانى من البلاد خلال عشرين شهرا، بعد أن بقى أصحاب البيريهات الحمراء على أرض الكنانة لنحو ثلاثة أرباع القرن.

بسقوط هذه المفردة من المفردات التى ظلت تكبل النظام القديم انطلق الحكام الجدد يتخلصون من بقية القيود بالاستجابة لبقية التحديات.

فقد دخلت مصر بقوة فى عالم الدول الصغيرة والمتوسطة المستقلة الذى ساد وقتئذ، وهو ما ترجم عن نفسه بمشاركات قوية فى المؤتمرات التى جمعت قادة هذا العالم بدءا من باندونج عام ١٩٥٥ بكل ما ترتب على ذلك من دور قيادى فى هذا العالم ظل المصريون يحلمون به من قبل، وكان عبدالناصر، مع نهرو وتيتو وسوكارنو أحد أهم رموزه.

ساعد هذا الدخول من جانب وجلاء آخر جندى بريطانى من البلاد من جانب آخر إلى اتخاذ النظام الجديد لخطوة تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦، وعلى الرغم من أن تلك الخطوة قد أدت إلى تعرض مصر لغزو واسع، بريطانى فرنسى إسرائيلى، إلا أنه انتهى بالفشل وظفر المصريون بقناتهم، وهو ما لم يكونوا يحلمون به فى ظل النظام القديم، مما يشكل ذروة الاستجابة لتحد من أخطر التحديات التى واجهت ذلك النظام.

الاستجابة رقم (٣) تبدت فى جملة من المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى صنعها النظام الجديد.. بدأت بحركة تمصير محدودة وانتهت بحركة تأميم واسعة، فضلا عن تنفيذ مجموعة من الخطط الاقتصادية الخمسية التى أصلحت من حال أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة، بكل ما تبع ذلك من انحسار أسباب السخط، ولكن لا نقول اختفاءها.

لم يبق بعد كل ذلك سوى الخطر الإسرائيلى الجاثم على الحدود الشرقية، ونرى أن الدعوة للفكرة العربية التى تصاعدت خلال الخمسينات ووصلت إلى ذروتها بقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨، إنما كانت درجة عالية من الاستجابة لهذا التحدى، ونختلف فى هذا مع القائلين بأن تلك الدعوة قد أضعفت من الانتماء المصرى، فقد كان من أهم بواعثها أولا وأخيرا كفالة الأمن الوطنى لمصر.

وبغض النظر عما ترتب على الاستجابة للتحدى الأخير من مخاطر حاقت بمصر ووصلت إلى ذروتها فى حرب عام ١٩٦٧، إلا أن الاستجابة لمجمل التحديات التى كانت قائمة قبل عام ١٩٥٢ إنما يضع ما جرى فى ٢٣ يوليو من ذلك العام فى مصاف الثورات الوطنية، الأمر الذى نتمنى معه وقف اللجج حول حقائق التاريخ! ■

تنظيم الضباط الأحرار

في مذكرات رجال الثورة

بقلم : د. رءوف عباس

تعد المذكرات التى ينشرها بعض من يشاركون فى صنع الأحداث فى بلادهم ، مصدرا مهما لدراسة ذلك الحدث ، أو تلك الحقبة التى لعب فيها صاحب المذكرات دورا فى الحياة السياسية لبلاده ، غير أن المذكرات لا تتساوى مع بعضها البعض من حيث الأهمية التاريخية ، فالحرص على تدوين مذكرات عن الأعمال التى شارك السياسى فى صنعها يتطلب وعيا عميقا بالتاريخ ، وحرص صاحب التجربة على أن يوصل صوته لمن يعنيهم أمر التأريخ للمرحلة ، بقدر ما يحرص على أن تبدو صورته أمام الرأى العام على النحو الذى يريد . وغالبا ما تكون المذكرات التى يعتمد صاحبها فى كتابتها على يوميات يسجل فيها الأحداث من زاوية رؤيته لها أولا بأول أكثر قيمة من غيرها ، ونادرا ما يقع فيها خلط فى الأحداث والوقائع ، على عكس المذكرات التى يكتبها صاحبها بعد تقاعده من العمل العام معتمدا على ذاكرة أوهنها الزمن



مجلس قيادة الثورة .. ويظهر في الصورة عبد المنعم أمين ، جمال عبد الناصر ، محمد نجيب ، جمال سالم ،عبد الحكيم عامر، وخلفه محمود الجيار ، محمد فهيم ريان ، خالد محيي الدين ، اسماعيل فريد ، مجدي حسنين ، كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي

، وهى التى نعتبرها «ذكريات» لا يعول عليها كثيرا كمصدر للتاريخ

ورغم نضج وعمق الوعي بالتاريخ عند جمال عبدالناصر ، لم يحاول - فيما نعلم - أن يسجل يومياته التى كانت تقدم إضافة مهمة لمصادر دراسة ثورة يوليو ، تسد الفراغ الكبير الذى تركه موته المفاجىء دون أن تتاح له فرصة كتابة المذكرات الخاصة به ، أو إملائها على من يتولى صياغتها . ولعل ذلك يرجع إلى غلبة شخصية قائد التنظيم السرى على التكوين النفسى لعبد الناصر، إذا صح ما قيل من تفضيله الأوامر الشفهية أو «التوقيعات» (التأشيرات) على ما يعرض عليه من أوراق ، وألا يعرف معاونوه عما يسنده إليهم من موضوعات إلا ما يريدهم أن يعرفوه ، بحيث تظل الخيوط كلها مجمعة بين يديه .

وهناك أربعة - على الأقل - من رجال الثورة كان لديهم وعى متميز بالتاريخ ، وحرص بالغ على تدوين مذكراتهم ، ويأتى أنور السادات فى مقدمتهم . فقد كان أسبق زملائه إلى نشر مذكراته عن الكفاح الوطني في ما قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها والسنوات الأولى للثورة ، وهى المذكرات التى نشرها «كتاب الهلال» فى يوليو ١٩٥٧ بعنوان «أسرار الثورة المصرية» والذى ترجم إلى الانجليزية والفرنسية تحت عنوان «ثورة على ضفاف النيل» ثم عاد أنور السادات إلى كتابة مذكراته مرة أخرى - فى السنوات الأخيرة من حكمه وعمره (معا) الذى حمل عنوان «البحث عن الذات» والذى حرص فيه أن يرسم لنفسه صورة براقة اقتضت صياغة





المعلومات التى سبق له ذكرها فى «أسرار الثورة المصرية» لتتفق مع ما يريد توصيله إلى القارئ ، فبعد أن كانت علاقته بعبد الناصر بعد التخرج من المدرسة الحربية (١٩٣٨) فى منقباد تقوم على مشاركة مجموعة من الضباط الشبان الهم الوطنى فى أحاديث المساء داخل المعسكر ، نجده ينسب تأسيس تنظيم الضباط الأحرار إلى هذا التاريخ ، ويوحى للقارئ أنه مؤسسه ، وأنه أوكل الأمر إلى جمال عبدالناصر عندما اعتقل فى قضية الجاسوس الألمانى أثناء الحرب (على نحو ما جاء فى «البحث عن الذات») .

ومن أولئك الثوار الأربعة - أيضا - عبداللطيف البغدادى الذى بدأ يكتب يوميات منذ أزمة مارس ١٩٥٤ حتى يترك للأجيال قضية النضال الوطنى والثورة التى كان من أبرز من شاركوا فى صنعها ، ولكنه لم ينشر مذكراته التى اعتمد فى كتابتها على يومياته إلا عام ١٩٧٧ ، وقد أثار نشر هذه المذكرات ثائرة أنور السادات لأن دوره فيها يغاير الصورة التى يريد أن يرسخها فى أذهان الرأى العام ، إلى حد تحركه «لتنظيم» الكتابة عن تاريخ الثورة ، فشكل «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» لهذا الغرض ، وأصدر قانونا يحرم نشر الوثائق التاريخية قبل مرور خمسين عاما دون الحصول على إذن مسبق ، ولم يلق الضوء على مذكرات البغدادى فى وسائل الإعلام، ولم ينشر - فيما أذكر إعلان عنها بالصحف سوى مرة واحدة . ومع ذلك تعد مذكرات البغدادى مصدرا مهما لدراسة تاريخ الثورة .

والثائر الثالث الذى ترك مذكرات عن دوره فى الثورة هو محمد نجيب الذى نشر كتابه «كلمتى للتاريخ» فى بيروت عام ١٩٥٧ ، وصدرت فى نفس الوقت ترجمة له بالإنجليزية بعنوان «مصير مصر» وقد كتبها بعد إزاحته من السلطة ، أثناء وجوده فى البيت الذى حددت فيه إقامته ، ونجح فى تهريبها إلى الخارج ومنع تداول الكتاب فى مصر

بطبعتيه العربية والإنجليزية ، وأخيرا أعيد طبعه في مصر (عام ١٩٨١) . أما كتابه الآخر «كنت رئيسا لمصر ، مذكرات محمد نجيب» الذى نشر عام ١٩٨٤ ، فقد كتبه أحد الصحفيين مستخدما معلومات «كلمتى للتاريخ» إضافة إلى أحاديث أو قل إن شئت «دردشات» أجراها مع محمد نجيب في ظروف كان الزمن قد فعل فعله بذاكرة الرجل وزاد من حدة تأثيرها مدة الاعتقال الطويلة التى سلبته الحرية الشخصية ، وأثرت على تقييمه للأمور...

أما الثائر الرابع الذى حرص على تسجيل يومياته عن الظرف التاريخي لقيام الثورة ، ونشر مذكراته عنها في «كتاب الهلال» أيضا فهو جمال حماد صاحب « ٢٢ يوليو أطول يوم في تاريخ مصر» (ابريل ١٩٨٣) ، الذى لا يكتفى فيه بشهادته ، ولكنه يعرض ويمحص شهادات الآخرين ويحلل شخصياتهم ، ومن ثم أصبح كتابه مرجعا أساسيا عن تلك اللحظة التاريخية الفريدة في تاريخ مصر .

وفيما عدا ثروت عكاشة الذى نشر مذكرات مهمة عن دوره في ثورة يوليو غلب عليها دوره في تأطير وتنمية العمل الثقافي وتضمنت شهاداته السياسية ، ونشرت في مجلدين بعنوان «مذكراتي في السياسة والثقافة» (١٩٨٧) ، فيما عدا هذا العمل الذى صاغه صاحبه بقلمه الرشيق ، جاءت معظم المذكرات التى نشرها جمع كبير (نسبيا) من رجال الثورة مجرد ذكريات أملوها في شيخوختهم على من صاغها وأخرجها في كتاب ، يظهر اسمه في بعضها ، ويتوارى في معظمها ، ولكنها عندما تنشر تحمل اسم صاحبها .

من ذلك مذكرات كمال رفعت التى أعدها مصطفى طيبة ونشرت بعنوان «حرب التحرير الوطنية» (١٩٦٨) وهى تتضمن تسجيلا لأعمال الكفاح المسلح في منطقة القناة ، كما تضم نصوصا لبعض بيانات ومنشورات التنظيمات السرية وخاصة منشورات «الضباط الأحرار» من ذلك أيضا مذكرات عبدالمنعم عبدالرءوف التى صاغها (بعد وفاة صاحبها) أحمد عيد ، ونشرت بعنوان : « أرغمت فاروق على التنازل عن العرش » (١٩٨٨) ، ومذكرات حسين حمودة التى نشرت بعنوان «أسرار حركة الضباط الأحرار والاخوان المسلمين» (١٩٨٥) ، وقد حرص كل من عبدالمنعم عبدالرءوف وحسين حمودة على نسبة الثورة للضباط الاخوان ، مما يعنى أن عبدالناصر «استولى» على التنظيم من الاخوان ، وفتحه للضباط غير الملتزمين دينيا ، فحاق بالثورة غضب الله ، فكانت هزيمة ١٩٦٧ (!!) ، فقد بدأ عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين نشاطهم السياسى في رحاب الاخوان المسلمين ، بل وأقسم بعضهم يمين الولاء والبيعة للمرشد العام حسن البنا ومن هنا يرى عبدالرءوف وحمودة أن ترك تنظيم «الضباط الاخوان» كان ردة ، بل وسلبا لدور الاخوان المسلمين و «عدم التزام» بالشريعة (!!) .

ولا نجد مما نشر من كتب تضمنت مذكرات أو أوراق خاصة ما يحاول التقليل من شأن دور





عبدالناصر في الثورة (على نحو ما فعل السادات في «البحث عن الذات») سوى تلك المجموعة من الأوراق التي أعدها أربعة من رجال الثورة بسلاح الفرسان (مصطفى نصير - عبدالحميد كفافي - سعد عبدالحفيظ - جمال منصور) التي قاموا بجمعها تلبية لطلب «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» وأرفقوا بها مذكرة عن دور «تنظيم ضباط الفرسان» في ثورة يوليو .

وقد طرق جمال منصور بعض الأبواب من أجل نشرها ، ومن بينها باب عبدالعظيم رمضان الذي سارع بنشرها ضمن سلسلة «تاريخ المصريين» (١٩٩٧) ، بعنوان «ثورة يوليو والحقيقة الغائبة» وقدم الكتاب بمقدمة قصيرة أبدى فيها «سعادته» باكتشاف الحقيقة الغائبة وهي أن هؤلاء الضباط الأربعة هم مؤسسو تنظيم الضباط الأحرار ، وأن انضمام أصحاب الرتب الأكبر (جمال عبدالناصر ورفاقه) اليهم عام ١٩٤٩ ، جعل حقيقة كونهم أصحاب الثورة تصبح «غائبة» ، فلزم التصويب خدمة لتاريخ مصر (على حد قولهم وقول صاحب السلسلة التي نشر فيها الكتاب) .

شهادة يوسف صديق

كذلك نشر بنفس السلسلة (١٩٩٨) كتاب يضم بعض أوراق يوسف صديق ، تضمن شهادة يوسف صديق أمام لجنة تسجيل تاريخ الثورة التي قدمها كتابة ومعها بعض الأوراق وتتصل جميعا بدوره البارز في الاستيلاء على قيادة القوات المسلحة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذي يعزى إليه ما حققته الثورة من نجاح في توجيه ضربتها الأولى للنظام فاق كل التوقعات ثم اختلافه مع مجلس قيادة الثورة حول قضية الديمقراطية .

وقد نشر أربعة آخرون من رجال الثورة ذكرياتهم عن أدوارهم في الثورة تحت عناوين مختلفة ، ويأتي في مقدمة هؤلاء خالد محيي الدين ، الذي اختار لذكرياته عنوان « .. والآن أتكلم» (١٩٩٢) ، ثم حلمي السعيد ، صاحب «شهادتي

للأجيال» ، وأحمد طعيمة ، صاحب «شاهد حق» وقد نشر الكتابان الأخيران (عام ١٩٩٩) ، وأخيرا ذكريات عبدالمحسن أبو النور التي حملت عنوان «الحقيقة عن ثورة يوليو» (٢٠٠١) .

وقد اعتمدت هذه الكتب على ما جاءت به ذاكرة أصحابها وعلى كتابات من سبقهم من زملائهم في نشر مذكراته ، وقليلا ما استخدم بعضهم بعض ما لديه من أوراق خاصة أو نشر صورا منها ، ولكن حرص جميعهم على تزويد كتبهم ببعض الصور التى تسجل شبابهم الباكر ، وجوانب من الأدوار التى لعبوها فى السلطة فى عهد الثورة .

وإذا كانت هذه المذكرات التى ضمها (١٥) كتابا قد سجلت رؤية أولئك الرجال الذين ساهموا فى صنع ثورة يوليو وشاركوا فى مسيرتها ، فقد تفاوتت - أحيانا - رؤية بعضهم للتنظيم الذى خطط ونفذ الثورة وحدد مسيرتها ، ونعنى بذلك «تنظيم الضباط الأحرار» ، وهذا ضد الاختلاف فى الرؤية إما لأسباب سياسية نتجت عن طبيعة تكوين التنظيم من ضباط ذوى اتجاهات سياسية مختلفة ، يجمعهم العمل الوطنى والرغبة فى تقويض أركان النظام السياسى القائم ، وما ترتب على هذا التباين فى التوجهات السياسية من خلاف مع مجلس قيادة الثورة حول السياسة التى تم اتباعها بعد الاستيلاء على السلطة .

القضاء على الفساد السياسى

ويفهم من مجمل تلك المذكرات ، ومن غيرها من المصادر المتاحة أن الجيش المصرى أصبح يموج بالحركات السياسية التى انضم إليها الضباط الشبان ، والتى كانت تهدف إلى تخليص البلاد من الوجود البريطاني وتحقيق الاستقلال الوطنى .

واتسعت آفاق بعضهم لتشمل القضاء على الفساد السياسى وإقامة نظام ديمقراطى وتحقيق «العدالة الاجتماعية» . وأملت طبيعة الجيش على أولئك الضباط صيغة «التنظيم السرى» . وكان الرباط الذى يجمع أعضاء التنظيم الواحد هو الصداقة والشعور الوطنى ، والرغبة فى تحقيق الاستقلال ، وعلى حين رأى بعضهم فى القيام بعمليات محدودة ضد المعسكرات البريطانية والجنود الإنجليز تتضمن التخريب للمنشآت وقتل الأفراد ، رأى بعضهم الآخر أن يمتد نشاطهم إلى اغتيال «عملاء الإنجليز» من الساسة المصريين ، أما أولئك الذين التمسوا حلا أشمل للمسألة المصرية ، يجعل مصر تتبوأ مكانتها اللائقة بها ويحقق مستوى معيشة أفضل للمصريين ، فراحوا يطرقون أبواب التنظيمات السياسية المدنية مثل : «الإخوان المسلمين» و «المنظمات الماركسية» و «حزب مصر الفتاة» . وعلى حين استقر بعضهم فى واحد من تلك التنظيمات ، مر بعضهم الآخر عليها جميعا ثم رأى أن طريق الخلاص لمصر من قيودها وواقعها لا يمر عبر تلك التنظيمات .

وكانت المجموعة التى شكلت «تنظيم الضباط الأحرار» فى أواخر عام ١٩٤٩ ، وفى سبتمبر من ذلك العام (حسب رواية جمال حماد) وكونت اللجنة

التأسيسية بقيادة جمال عبدالناصر ، وعضوية ثمانية من الضباط هم : عبدالمنعم عبد الرءوف ، عبدالحكيم عامر ، خالد محيي الدين ، كمال الدين حسين ، حسن إبراهيم ، عبداللطيف البغدادي ، صلاح سالم ، جمال سالم ، وتم ضم أنور السادات فيما بعد (أواخر ١٩٥١ أو مطلع ١٩٥٢) بناء على طلب عبدالناصر لصلاته بيوسف رشاد والحرس الحديدي وبضابط المخابرات في السفارة البريطانية (على حد قول عبدالناصر لخالد محيي الدين) فكان ضمه يفيد التنظيم في التعامل مع الجهتين عند الحاجة لذلك .

ويدأ التنظيم يتصل بالتنظيمات الأخرى القائمة بالجيش لضم من يتوسمون فيه الرغبة في العمل معهم من الضباط ، فتم ضم «الضباط الاخوان» كأفراد ، وكذلك بعض أعضاء قسم الأحذية (الجيش) بتنظيم حدتو الماركسي كأفراد أيضا ، لأن عبدالناصر كان حريصا على استقلال التنظيم وعدم وقوعه تحت سيطرة تنظيم سياسي معين ، لذلك عندما تحدث خالد محيي الدين مع جمال منصور حول انضمام تنظيم ضباط الفرسان إلى «الضباط الأحرار» ، اشترط عبدالناصر أن ينضم أعضاء التنظيم كأفراد أيضا.

وقد بدأ استخدام عبارة «الضباط الأحرار» في أول منشور يصدر عن التنظيم في فبراير ١٩٥٠ ، على نحو ما يذكر كل من أحمد حمروش (قصة ثورة يوليو) ، وخالد محيي الدين ، وجمال حماد . ولكن عبدالمنعم عبدالرءوف يزعم أن تنظيم الاخوان كان يستخدم «الضباط الأحرار» على منشوراته بدلا من «الاخوان الضباط» منذ الأربعينات ، وأن صاحب الفكرة هو الصاغ محمود لبيب وكيل الاخوان ، وذلك بهدف تضليل الأمن . ويحدد جمال منصور وزملاؤه الثلاثة ، بداية تأسيس التنظيم عام ١٩٤٥ ، ويزعمون أنهم هم أصحاب تسميته «الضباط الأحرار» وأنهم بدأوا استخدامها عام ١٩٥٠ (أي بعد عام من انضمامهم فرادى إلى التنظيم) وأن تنظيم الفرسان (الذين أسسوه عام ١٩٤٥) كان يضم سبعين ضابطا ، من بينهم خالد محيي الدين ، وأنهم أصحاب المبادىء الستة الشهيرة التي أخذها عنهم تنظيم «الضباط الأحرار» .

الإخوان والعمل السرى

أما «الاخوان الضباط» فيعزون لأنفسهم فضل تأسيس العمل السري في الجيش ، فيعتبر عبدالمنعم عبدالرءوف بداية تأسيس تنظيم «الاخوان الضباط» عام ١٩٤٢ بداية للعمل السري بالجيش ، وإن كان يعترف أن عدد أفراد التنظيم بلغ سبعة ضباط عام ١٩٤٤ ، وظل العدد ثابتا حتى عام ١٩٤٦ عندما قاموا بطقوس القسم والبيعة ، وكان من هؤلاء السبعة جمال عبدالناصر وخالد محيي الدين وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين ، وقد تركوا تنظيم الاخوان عام ١٩٤٧ ، لأن عبدالناصر كان يرى أن الاخوان لا يعلنون صراحة منهجا سياسيا محددا فيما يتعلق بالقضية الوطنية والإصلاح الاجتماعي ، ويشعر أن هدفهم هو السيطرة على تنظيم الضباط لتنفيذ

أغراض الجماعة وحدها فنفر هو وزملاؤه منهم ، وحتى بعد تشكيل التنظيم الخاص بهم (الضباط الأحرار) عام ١٩٤٩ ، ظلوا ينظرون بعين الشك إلى نشاط عبدالمنعم عبدالرءوف الذى استمرت علاقته التنظيمية بالاخوان مما أدى إلى تجميد عضويته بالتنظيم قبل قيام الثورة بثلاثة شهور ، رغم استمرار علاقات المودة بينه وبين عبدالناصر وقيادات الاخوان المسلمين الذين أبلغهم عبدالناصر بنفسه بموعد قيام الثورة قبل تحرك القوات المشاركة فى الانقلاب بثلاثة أيام .

والحق أن تنظيمات الضباط فى الجيش تعود إلى أوائل ١٩٤٠ عندما تأسست أول خلية ثورية بسلاح الطيران ضمت عبداللطيف البغدادى وحسن عزت وغيرهما من الضباط ، وضموا إليهم أنور السادات فيما بعد بتزكية من حسن عزت ، وقد تزامنت التنظيمات مع بعضها البعض دون اتصال بينها حتى استطاع جمال عبدالناصر أن يكون منها جبهة واحدة عام ١٩٤٩ كانت بمثابة التنظيم البديل والموحد ، وساعد ذلك على نمو التنظيم بشكل عنقودى بحيث يتولى كل عضو تجنيد أربعة آخرين لتكوين خلية برئاسته بشرط ألا يعرفوا عن التنظيم سواه ، إذ كان الأمن يأتى فى مقدمة اهتمام اللجنة التأسيسية بقيادة جمال عبدالناصر حتى لا يؤدى إهمال ذلك إلى تعرض التنظيم للخطر قبل أن يحقق أهدافه الوطنية ، وظل جمال عبدالناصر وحده يجمع كل خيوط التنظيم بين يديه ، ولعل ذلك يفسر ما يرد كثيرا فى مذكرات رجال الثورة سالفة الذكر فى أكثر من موضع أن صاحب المذكرات تحدث مع أحد زملائه الضباط حول الأوضاع السياسية للبلاد ، ثم يعرف - فيما بعد - أن زميله عضو مثله فى «تنظيم الضباط الأحرار» ، بل من المفارقات الطريفة أن هذا الاكتشاف لرفاق التنظيم من زملاء السلاح تم ليلة الثورة عندما وزعت قيادة التنظيم التكليفات على الضباط .

إن مذكرات «الضباط الأحرار» تقدم مصدرا لا غنى عنه ، يدعم غيره من المصادر الضرورية لدراسة تاريخ الثورة ، وتعدد المذكرات يساعد على تحقيق الشهادات المختلفة التى ترد بهذه المذكرات، واستخلاص النتائج منها . ورغم اعتراضنا على مبدأ قيام هيئة حكومية بالانفراد بكتابة التاريخ ، ومن ثم إحجامنا عن التعاون مع «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» ، فإن الفضل يعود إلى هذه اللجنة فى حث الكثير من «الضباط الأحرار» على كتابة مذكراتهم أو الإدلاء بشهاداتهم عن أدوارهم فى مسيرة الثورة ، وقد قامت اللجنة بتجميع كم هائل من الأوراق الخاصة من أيدى هؤلاء وغيرهم ممن لعبوا دورا فى الحياة السياسية قبل الثورة وفى عهدها . وكان المكان الطبيعى لهذه الأوراق والمذكرات هو «دار الوثائق القومية» ولكن بعد انتهاء عمل «لجنة تسجيل تاريخ الثورة» لا نعرف أين استقرت تلك الأوراق التى يتعذر كتابة تاريخ دقيق لثورة يوليو دون الرجوع إليها ، ونأمل أن تعود يوما من تغريبتها إلى مكانها الطبيعى «دار الوثائق القومية» ولعل الاحتفال بالعيد الذهبى للثورة فرصة مناسبة لتحقيق ذلك . ■

يوليو ١٩٥٢ بين العلم والسياسة

بقلم : د.عاصم الدسوقى

منذ سبعينيات القرن العشرين أصبح الخلاف على ماجرى منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أشد ضراوة عما كان من قبل، وعلنا بعد أن كان يدور همسا، ولم يقتصر الخلاف على الباحثين كما يحدث عادة بينهم حول شخصيات التاريخ وقضاياه وتجاربه الكبرى، بل لقد اتسعت دائرة المشاركين فشملت سياسيين وصحافيين وأدباء وشعراء وفنانين وكل من وجد فى نفسه رغبة فى الكتابة حتى ولو لم يكن مؤهلا لها.

ولعل اتساع نطاق هذه المشاركة وتنوع أطرافها يرجع إلي مجموعة عوامل يأتي في مقدمتها موقف القيادة الحاكمة بعد تصفية الصراع السياسي - الذي وقع بعد وفاة عبدالناصر وحتي ١٥ مايو ١٩٧١ - لصالح الرئيس السادات الذي بادر باتهام منافسيه بأنهم مراكز قوي ناصرية تعمل لحساب السوفييت، وعلي هذا أخذ البعض يعيد ترتيب أوراقه، ويتخلي عن مواقفه السابقة، ويوجه شراعه ناحية المركز الجديد، ومن هذه العوامل أيضا اتجاه الحكم الجديد إلي فتح نافذة «للديمقراطية» تسمح بحرية التعبير أطلت منها ثلاثة منابر فكرية تمثل اليمين والوسط واليسار، سرعان ما تحولت في اكتوبر ١٩٧٦ إلي أحزاب سياسية وتشكلت معها أحزاب أخري استوعبت بقايا القوي السياسية التي كانت قائمة قبل ١٩٥٢ وأنصارها من الأجيال الجديدة وفي مقدمتها الوفد والإخوان المسلمون والشيوعيون فضلا عن الناصريين بطبيعة الحال الذين اعتبروا قوي قديمة.



صورة تجمع بين الرئيسين جمال عبد الناصر وشكري القوتلي اثناء توقيع وثيقة الوحدة بين مصر وسوريا ليكونا الجمهورية العربية المتحدة

والحال كذلك بدأ الجدل يحتدم بين خصوم يوليو وبين أنصاره حول مسائل أساسية وفرعية انطلق فيها الخصوم من رفض كل التغييرات التى تمت من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠ إما بدافع الثأر من سياسات الإصلاح الزراعى والتأميم، وإما بدافع الثأر والاعتقال فى السجون، ووجدوا فى بعض العثرات السياسية والانكسار العسكرى ضالتهم لكى يهيلوا التراب على كل ما تم من تغييرات فى البناء الاقتصادى والأوضاع الاجتماعية والأحوال الثقافية، وأما الأنصار فقد توقفوا عند هذه التغييرات التى رفعت من شأن الطبقة الوسطى

وشأن العمال والفلاحين أساسا التى لولاها لظلوا فى دائرة النسيان وقيد هامش المجتمع مثلما كان آباؤهم قبل ١٩٥٢ .

وعلى هذا اختلط ماهو نسبى بالمطلق ، وما هو علمى بالسياسة، وما هو موضوعى بالمصلحة الذاتية واعتقد كل طرف أنه صاحب القول الفصل دون منازع، واستخدم الجميع أسلحة التشهير للنيل من بعضهم البعض بالكليشيهات المتداولة من نوع العمالة والغباء والحماقة وكل هذا جاء بسبب إقحام السياسة وهى متغيرة على التاريخ وهو وقائع ثابتة، وبسبب دراسة التاريخ خارج نطاق التاريخ أى خارج سياق الظروف والحوادث، مع أن أبجدية العلم تقول لنا إن أى تفكير خارج المكان وخارج الزمان لايعد تفكيراً علمياً.

النجاح فى تحقيق الاستقلال

على أننى أعتقد غير جازم أن هناك اتفاقا على أن ثورة يوليو ١٩٥٢ لها مكانة خاصة بين ثورات التحرر الوطنى التى شهدها عالم المستعمرات عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لأكثر من سبب فهى أول ثورة تقوم فى المنطقة العربية وتنجح فى تحقيق الاستقلال زمن الحرب الباردة (بدأت هذه الحرب ١٩٤٧ – ١٩٤٩ بمشروع مارشال والنقطة الرابعة وحلف الأطلنطى أمريكيا، والكومنيفورم والكوميكون وحلف وارسو سوفيتيا) حين كان كل معسكر من المعسكرين العالميين يسعى لتوسيع نطاق نفوذه على حساب الآخر عن طريق طى القوى الصغيرة تحت جناحه بسلاح المساعدات أساسا. وقد عمل جمال عبدالناصر بالتنسيق مع نهرو الهند وتيتو يوغوسلافيا على شق طريق ثالث قد يبعدهم عن الاستقطاب لأحد المعسكرين ألا وهو طريق الحياد الإيجابى فى ١٩٥٥ الذي أضيف له عدم الانحياز عام ١٩٦٠.

وفى إطار هذا المبدأ شاركت ثورة يوليو فى حمل راية النضال ضد الوجود الاستعمارى فى العالم الثالث وخاصة فى البلاد العربية والإفريقية، وعلى هذا الطريق عمل جمال عبدالناصر على أن يجعل من القومية العربية حقيقة مذهبية تقوم على أساسها سياسة مصر لتحقيق الوحدة العربية بعد أن كانت العروبة مجرد تيار فكرى منذ أواخر القرن التاسع عشر لم يترجم إلى حقيقة سياسية حتى على يد جامعة الدول العربية، فكان قيام الجمهورية العربية المتحدة بالوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨) وتمسك عبدالناصر باسم الجمهورية بعد انفصال سوريا أملا فى تحقيق الوحدة فى قابل الأيام. وكان العمل على تحرير فلسطين جزءاً من هذا الطريق فى وقت كان المجتمع الدولى يتعامل مع قضية فلسطين على أنها قضية شعب من اللاجئين تبحث الأمم المتحدة ومنظماتها عن طريق لإعاشته وإيوائه، فتحولت على يد عبدالناصر إلى قضية شعب له

حق فى دولة على أرضه التى اغتصبتها الأمم المتحدة بتقسيم نوفمبر ١٩٤٧ .

ومن ناحية أخرى فإن ثورة يوليو تعد حركة فريدة من نوعها فى تاريخ الثورات إذ قام بها عسكريون، والعسكريون فى المفهوم السياسى الشائع أداة فى يد الطبقة الحاكمة يعملون فى خدمة مصالحها، وقد ينقلبون عليها لصالح طبقة أخرى أكثر نفوذا، لكن هذه الثورة التى قام بها العسكريون خلخلت هذا المفهوم الشائع إذ قام الضباط بتغييرات اجتماعية شاملة لصالح العمال والفلاحين والطبقة الوسطى، فجمعت بذلك بين التحرر السياسى والتحرر الاجتماعى بسياسة التخطيط المركزى التى اتبعتها، وبتأميم رأس المال الأجنبى ثم المحلى وإنشاء القطاع العام ، وقيام الدولة بدور اقتصادى - اجتماعى لصالح غالبية الجماهير، وأكثر من هذا فإن عبدالناصر خرج من انفصام الوحدة مع سوريا (سبتمبر ١٩٦١) بإضافة نظرية لفكرة الوحدة العربية عندما صك شعار «حرية - اشتراكية وحدة» أى تحقيق الوحدة العربية على أساس الأرضية الاشتراكية خلافا لمقولة حزب البعث العربى الاشتراكى التى تقوم على تحقيق الوحدة قبل الاشتراكية، وخلافا لمقولة الماركسية التى ترى فى القومية حركة البورجوازية الرأسمالية.

ثورة بيضاء

على أن ثورة يوليو فى سعيها لتثبيت أركانها وتحقيق أهدافها دخلت فى صراع مرير مع أكثر من قوة محليا وعربيا وعالميا. ففى مصر دخلت فى صراع مع قوى النظام القديم الذين كانوا يدافعون عن مجمل امتيازاتهم الطبقية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ورأوا أن الثورة سلبتهم هذه الامتيازات دون وجه حق ومن ثم كان الصدام حتميا، ومع هذا فإن الثورة لم تلجأ إلى التخلص من حياة عناصر هذه القوى كما فعلت الثورة الفرنسية مثلا، بل اكتفت بعزلهم سياسيا بالغاء الأحزاب السياسية، وتجريدهم من سلاح القوة الاقتصادية بقوانين الإصلاح الزراعى والتأميم مؤكدة بذلك أنها ثورة بيضاء، وفى هذا قال عبدالناصر: إن الهدف هو تصفية دور الطبقة وليس تصفية حياة أبنائها .

كما واجهت الثورة مقاومة القوى التى تحظى بشعبية ما مثل جماعة الأخوان المسلمين والفصائل الشيوعية حول مبدأ المشاركة فى الحكم (الديمقراطية)، لكن جمال عبدالناصر لم يكن يؤمن بالدولة الدينية الإسلامية كما يراها الإخوان المسلمون فى مجتمع يضم طوائف، كما لم يكن يعتقد فى إقامة دولة شيوعية فى مصر، بل كان يريد تحقيق العدل الاجتماعى بتقريب الفوارق بين الطبقات فى إطار من التكافل الاجتماعى الذى تحض عليه الأديان، ومن ثم رأى فى هذين

التيارين تطرفا لاتقبله طبيعة المصريين المعتدلة التى تقوم على التدين دون تطرف أوغلو، وترنو للعدل والمساواة دون سحق آخرين، واكتشف أن تيار المعارضة بكل أجنحته يتخفى وراء مبدأ الديمقراطية السياسية لكى يصل إلى الحكم، ولو كانت هذه القوى تستهدف التغيير السياسى والإصلاح الاجتماعى بإجلاء الإنجليز وإزالة النظام الملكى كما كانت تقول لوضعت يدها في يد الثورة طالما أن الضباط يحققون الأهداف ذاتها، لكن المسألة كانت مجرد صراع على كراسى السلطة وفقط .

وعلى المستوى العربى اشتبكت الثورة فى خصومة مع ثلاث مجموعات متداخلة أولها نظم ملكية تستمد شرعيتها فى الحكم من الوراثة، رأت فى الثورة على النظام الملكى وإعلان الجمهورية خطرا على شرعيتها إذا ما اعتنقت شعوبها مبدأ الثورة، وثانيها نظم ترفض الاشتراكية منهجا لأن اقتصادها يدور فى نطاق الاقتصاد الرأسمالى التابع للسوق الرأسمالية العالمية، وثالثها نظم لاتؤمن بالقومية العربية وتقدم عليها الوحدة الإسلامية مع أن القومية العربية فكرة علمانية تستوعب أديان العرب ومعتقداتهم على حين أن الوحدة الإسلامية تشمل قوميات متنافرة لغة ومصالح وتوجهات.

تأميم قناة السويس

وأما على المستوى العالمى فقد واجهت الثورة خصومة شرسة من قوى الغرب الرأسمالى بسبب طريق التنمية الاقتصادية والعسكرية الذى أخذت به الثورة وكان من شأنه أن يخرج مصر تدريجيا من دائرة التبعية للسوق الرأسمالية العالمية ومن ذلك تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ورأس المال الأجنبى فى مصر (١٩٥٦-١٩٥٧) والشروع فى إقامة الصناعات الثقيلة كالحديد والصلب ومجموعة المصانع الحربية، وتقييد الاستيراد إلا فيما يتعلق بمستلزمات الانتاج مما كان يهدد باغلاق السوق المصرية أمام المنتجات الأجنبية فى الوقت الذى تحارب فيه الرأسمالية العالمية، من أجل استمرار السوق الخارجية لتدوير رأس المال وإنعاش الطبقة الوسطى والعمال فى بلادها لتحقيق السلام الاجتماعى. وعسكريا تمكنت الثورة من عقد صفقة الأسلحة التشيكية (١٩٥٥) فانكسر احتكار الغرب لتوريد السلاح، واتجهت السياسة المصرية نحو المعسكر السوفييتى فاختل توازن القوى العسكرية فى الشرق الأوسط الذي كان قد تحدد بمقتضى التصريح الثلاثى فى مايو ١٩٥٠ بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا .

وكان من الطبيعى والحال كذلك أن تلتقى كل هذه القوى المعادية محليا وعربيا وعالميا على نقد ثورة يوليو دون بصيرة، ونقض أعمالها دون موضوعية إلا من مقاييس الذات،



عبد الناصر وخروشوف
عام ١٩٦٤



جمال عبد الناصر في
مؤتمر القمة الافريقي
الثاني عام ١٩٦٤

إذ تراهم يتغاضون عن إيجابيات إعادة بناء المجتمع لصالح الأغلبية، ويتوقفون عند الإجراءات الاستثنائية التى تصاحب عادة عملية الهدم والتغيير ، وهى إجراءات أخذت بها كل نظم الحكم التى عرفها المجتمع البشرى بما فى ذلك الدول الأكثر ديمقراطية أو الدول الأشد تدينا، والأمثلة على ذلك كثيرة لايتسع المقام لذكرها .

وأول الطعون التى يوجهها هؤلاء للثورة موضوع الديمقراطية والمشاركة السياسية وتداول السلطة والتعددية الحزبية .. الخ. ويعتبرون أن أزمة مارس ١٩٥٤ بمثابة إعلان لموت الديمقراطية، ولكن هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الديمقراطية فى أصلها اليونانى وممارساتها فى دول الغرب تعنى حكم صفوة معينة، بدأت بصفوة المواطنين فى أثينا اليونانية، ثم انتقلت مع التطور الى صفوة تملك رأس المال فى الزراعة أو الصناعة والتجارة والخدمات، وتسيطر بالضرورة على السلطة التشريعية والتنفيذية حماية لمصالحها ضد من لا يملكون إلا قوة عملهم فى خدمة هذه المصالح، والفارق بين نظام ديمقراطى وآخر مايعرف اصطلاحاً بهامش الحرية الذى يتمثل فى مدى إتاحة فرصة التعبير للجمعيات الأهلية والنقابات العمالية والمهنية عن مصالح أعضائها .

ومن العجب أن أولئك المعارضين يعتقدون أن تداول السلطة عبر التعددية الحزبية يمكن أن يتم باتفاق «جنتلمان» وكأننا فى نادٍ من أندية الروتارى أو جمعية من جمعيات الإدخار التى ينظمها الموظفون فى المصالح الحكومية أو الجيران فى المنازل ويتم تداول صرف الأنصبة أول كل شهر، ولم يعرف هؤلاء أن هذه الصيغة من ديمقراطية الحكم لم تأت منحة وطواعية من السلطة الحاكمة المتحكمة وإنما جاءت من خلال صراع طويل ومرير بين الحاكم والمحكومين.

الملاك الجدد بمجلس الأمة

والآن .. إذا كانت الديمقراطية عند هؤلاء تعنى حكم الأغلبية ، فإن ثورة يوليو ثورة ديمقراطية لأنها تمثل الأغلبية، أما إذا كانت الديمقراطية تعنى حكم الصفوة المالكة فإن ثورة يوليو أيضا ديمقراطية لأنها تمثل الملاك الجدد لوسائل الإنتاج بمقتضى الإصلاح الزراعى والتأميم وإنشاء القطاع العام، والدليل على ذلك أن أول مجلس أمة عام ١٩٥٧ كان يضم ٣٣٪ من رجال الأعمال و١٣٪ من أغنياء الريف حين كان الاقتصاد لا يزال فى نطاق النشاط الرأسمالى، ثم تغيرت النسبة بعد ١٩٦١ مع تغيير قاعدة ملكية وسائل الإنتاج بمقتضى الإصلاح الزراعى وإقامة القطاع العام فأصبح للعمال والفلاحين (الملاك الجدد) ٥٠٪ من مقاعد السلطة التشريعية .

ومن ناحية أخرى فإن أى ثورة فى العالم

نجحت فى الاستيلاء على السلطة لم تفتح الباب هكذا لكى يشاركها خصومها السياسيون فى الحكم، وهذا ما حدث فى الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، وفى الثورة الأمريكية ١٧٧٦ التى لم تصدر الدستور إلا فى ١٧٨٩ أى بعد أكثر من عشر سنوات من التخلص من الإدارة البريطانية ومن الصراع بين أصحاب المعتقدات المختلفة.

وفى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ التى يصفها خصوم الثورة بأنها عصر الليبرالية لم تكن هناك ديمقراطية بالمعنى الذى يطالبون به ثورة يوليو. فمن المعروف أن تداول السلطة كان يتم بين أحزاب طبقة اجتماعية واحدة انشقت كلها عن الوفد بسبب التنافس الشخصى على الحكم، وكان الملك يعصف بالدستور ويقيل الحكومات، والجميع تحت الهيمنة البريطانية والامتيازات الأجنبية، ولم يحدث أن اشترك أحد العمال أو الفلاحين أو أحد أبناء الطبقة الوسطى فى الهيئة التشريعية.

ومن الطعون الأخرى طالما وجهت للثورة مساندتها للثورات التحررية فى كل من الجزائر ١٩٥٤ - ١٩٦٢، والعراق (١٩٥٨)، واليمن على وجه الخصوص (١٩٦٢ - ١٩٦٧) لاتصالها بالهزيمة العسكرية فى حرب يونية ١٩٦٧، واعتبار هذه المساندة تدخلا فى شئون الغير، وتبديدا للأموال. ولم يلتفت أصحاب هذه المؤاخذة إلى دور الجغرافية السياسية (جيوبولتيك) فى تحديد سياسات الدول فيما يتعلق بدائرة المصالح الاستراتيجية الكبرى فما بالك بالثورات التى تسعى لتأمين نفسها بزيادة مساحة مثيلاتها من خلال ما تعلنه من مبادىء. هكذا فعلت ثورة المستعمرات الأمريكية والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية.

كما لم يلتفت هؤلاء الخصوم إلى أن السعودية مثلا تدخلت ضد ثورة سبتمبر ١٩٦٢ فى اليمن ليس بسبب وجود الجيش المصرى هناك كما يتوهمون، ولكن بسبب الجغرافية السياسية بحيث أنه إذا لم تتدخل مصر لمساندة ثورة اليمن كانت السعودية سوف تتدخل لمساندة حكم الإمام والتاريخ السابق القريب يؤكد هذا. ففى مارس عام ١٩٤٨ وقبل يوليو ١٩٥٢ بأربع سنوات قام ابن الوزير بحركة ضد الإمام فما كان من الملك عبد العزيز آل سعود إلا أن تدخل بكل قواته ورجال قبائل الحدود لإعادة الإمام للحكم ونجح فى هذا بعد حوالى شهر. وفى ثورة سبتمبر ١٩٦٢ حاول الرئيس الأمريكى كينيدى الذى اعترف بالجمهورية الجديدة فى ديسمبر ١٩٦٢ أن يقنع السعودية بالأمر الواقع وكانت القوات المصرية قد بدأت فى الانسحاب بناء على ترتيبات فى أبريل ١٩٦٣. لكن مقتل كينيدى فى نوفمبر ١٩٦٣ غير من كل الترتيبات حيث قام خليفته جونسون الذى كل يمثل احتكارات البترول بإرسال خطاب للأمير فيصل أبلغه فيه



مع الأسقف مكاريوس في القاهرة ١٩٦١

أن اليمن يمكن أن تكون مصيدة لعبد الناصر. وهكذا بدأ برنامج إطالة الحرب لاستنزاف قوة مصر بعد أن كانت التسوية قد تمت في أبريل ١٩٦٣ كما سبقت الإشارة وفي ١٩٦٥ (اتفاقية جدة). وآنذاك كانت الترتيبات تتم لتوريط الجيش المصري في مواجهة مع إسرائيل بعد إنهاكه في اليمن. وهذه أمور معروفة لمن يريد أن يستخدم العقل، ووثائقها الأمريكية مكشوفة.

ومن الطعون الساذجة القول بأن ما حدث في يوليو ١٩٥٢ كان انقلابا عسكريا وليس ثورة أو على أحسن التقديرات «حركة مباركة». وهذا استخفاف بالعقل ما بعده استخفاف، ذلك أن القاموس السياسي الذي وضعه الغرب يقول :إن الانقلاب هو تغيير السلطة الحاكمة دون مساس بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وإن الثورة هي تغيير السلطة وتغيير الأوضاع تغييرا أساسيا. فإذا كان خصوم يوليو يصفونه بأنه انقلاب عسكري وليس ثورة فلماذا يحاسبون قيادته على زوال الديمقراطية. وإذا كان خصوم الثورة يتفقون على أن محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة بسبب التغييرات التي قام بها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فإن جمال عبد الناصر يصبح مؤسس مصر المعاصرة بذات المقاييس، فلماذا تختل المعايير.

والحق أن المقام لا يتسع لمناقشة أفكار خصوم يوليو على ذلك النحو، ولست أقصد أن أقول إن الثورة فوق مستوى الأخطاء أو أن رجالها لم يخطئوا، فهذا أمر يتنافى مع طبيعة الأشياء. لكن مشكلة هؤلاء الخصوم أنهم ينتزعون الحوادث من قلب سياقها، وأنهم يمشون وراء اختياراتهم الذاتية، وأنهم غير صرحاء في كشف حقيقة كراهيتهم ليوليو. ولو كانوا يتمتعون بالصراحة الواجبة فإن الشجاعة تقتضيهم أن يعلنوا أنهم يكرهون الثورة لأنها طبقت الإصلاح الزراعي فحررت الفلاح من سيطرة الملاك، ولأنها منعت الفصل التعسفي للعمال وطمأنتهم على غدهم قبل يومهم، ولأنها أقامت القطاع العام فانتعشت الطبقة الوسطى. وهذا النوع من الصراحة أفضل من التباكي على الديمقراطية التي طالما استباحوها قبل ١٩٥٢، وعلى اعتقال الخصوم والزج بهم في السجون، لأن الصراع السياسي لا يعرف الأخلاق والسجون قائمة في كل بلاد الدنيا، وسجون مصر قديمة قبل الثورة بزمان طويل، وطالما استضافت بين جدرانها الخصوم السياسيين الذين يعتقدون أنهم على حق. ■



أن أكثر الثورات نجاحا ونفعا هى تلك التى تعمل جـــادة على الآن تكون مـــجـــرد ثورة ..

مكان الثـــورة المصـــرية فى تاريخ مـصـر الحـديثـة

بقلم : محمد شفيق غربـال *

وهل الثـورة كـسـائر أحـداث الزمـان ؟ أمى مما يسـتطيع مـؤرخ أن يكتب فـيـه؟ إن من حق الثورات أن تحمى نفسها ممن يكيدون لها ويعملون على إفساد تدبيرها والحط من قدرها ، وقد يخشى الباحث المؤرخ أن يزج به فى زمرة الكائدين والمفسدين فيؤثر الصمت ، ويترك الكلام للمستقبل البعيد أو القريب .

والواقع أن هذا النوع من الحرج ليس مشكلة المؤرخ وحده بل يتعدى المؤرخين إلى المواطنين عموما فى عصور الانقلابات والثورات . أيقتصر الأمر على أن يكون المواطن رجلا مطيعا يلتزم الحدود ؟ أم ينبغى له وعليه أن يشارك فى التدبير بالفهم وفى التنفيذ بالعمل الايجابى؟.. وحل المشكلة يتوقف على شيئين : يتوقف أولا على المواطن نفسه ومقدار شعوره بمسئوليته، ويتوقف ثانيا على الثورة فى ذاتها وعلى روحها واتجاهاتها

والأمر بالنسبة للمؤرخ كذلك ، يتوقف عليه أولا كان يحب الحقيقة ويحب الحرية ولا يطلب شيئا لنفسه ، ويتوقف ثانيا على الثورة نفسها كان لا تضيق بالنقد النزيه .

* الهلال يوليو ١٩٥٢

إن تحقيق ذلك جاز للمؤرخ أن يبحث فى الثورة التى يعاصرها . فيحاول الكشف عن أصولها ، وأن يرد اتجاهاتها وأهدافها لمجرى التاريخ القومى . والمؤرخ إذ هو يفعل ذلك محقق للثورة نفعا حقيقيا وإن كان خفيا . فهو يزيل عنها عندئذ صفة الحادث العارض والأمر الاستثنائى، ولا يستهين أحد بذلك . فقد طاشت ثورات لأنها لجت فى مخاصمة الماضى ، ولم تستطع أن تكسب مكانا فى قصة الماضى ولا فى حاضر الأمة .

والثورة المصرية لا تخاصم تاريخ مصر ، وإن كانت قد اختصت بحبها عصورا وكرهت عصورا ورجالا .

وأهم من هذا بالنسبة للمؤرخ أنها تضع العمل الصالح للوطن فوق اعتبارات المذاهب والعقائد والنظريات ، فمكنت بذلك المواطنين من الالتفاف حولها إذ الأعمال لا تفرق الناس كما تفعل المطالبة برأى معين أو مذهب محدد . انظر إلى نابليون فى عهد القنصلية يجمع الفرنسيين حول برنامج قومى حافل بالعمل الايجابى ، فلم يسأل عن ماض ، ولم يبعد إلاّ المتعصبين ودعاة التفرقة وخدام الغرور الشخصى باسم طهارة المذهب . ووفق كما نعلم إلى أن أدمج الثورة الفرنسية فى تاريخ فرنسا، وشكل بها مستقبلها القريب والبعيد حتى اللحظة الحاضرة .

●●●●●

وبعد فلنحاول أن نبحث عن مكان الثورة المصرية فى تاريخ مصر الحديث ونقرر - أول ما نقرر - أن الثورات - على عكس ما يتوهم الناس - قد تكون أكثر الأحداث القومية تأثرا بما جرى وبما يجرى خارج المحيط القومى . قلت: إن الناس يتوهمون عكس ذلك ولهم بعض العذر فى وهمهم . فالثورة على شئ ما ، وهذا الشئ قومى ، وهى تهدف إلى تحقيق أشياء ، وهذه الأشياء قومية . ولكن الثورات تتعلم من ثورات عصرها أكثر مما تتعلم من تاريخ البلاد ، فالثورة نتيجة تدبير ، والمدبرون يدرسون كيف دبر غيرهم ممن كانوا فى مثل ظروفهم ، والثورة ترمى إلى تنفيذ ، وفى التنفيذ يستهدون بما فعل غيرهم فى مثل ظروفهم، فينبغى على هذا لمؤرخ الثورة المصرية أن يهتم أيضا بالثورات العسكرية فى العراق وسوريا ، وبالتشكيلات والتنظيمات التى اتخذتها بعض الحركات فى التاريخ الأوروبى المعاصر . ولكننا فى بحثنا الحاضر نكتفى فقط بالتنبيه إلى هذا ونقصر اهتمامنا على مكان الثورة فى تاريخ مصر الحديث .

●●●●●

أما عن ربط الثورة المصرية بالماضى أو بالتاريخ فلست ممن يرى أن الثورات تتأثر كثيرا بالتاريخ . ولا يحملنك ما تشهده من الاستشهاد

بالماضى على أن تظن ذلك . فهذا الاستشهاد مما يتصل بفن الثورة - إن شئت - لا بأسبابها . وهو وسيلة قد تستدل بها على ما يستطيعه الشعب أو على ما تحمله الشعب ، أو تتخذها لبعث حماسته أو تعبئة معنوياته ، والحقيقة هى أن تأثير التاريخ أقــوى فى تكوين رجل الفكر لا فى تكوين رجل العمل.

ولكن الثورات تحب أن تتصل بثورات سابقة ، وثورتنا المصرية وصلت نفسها بالحركة العرابية ، ولهذا ما يبرره ، فالحركة العرابية كان رجال العسكرية العنصر البارز فيها المحرك لها ، والحركة العرابية نطقت عن الشعب وعبرت عن آماله وآلامه ، والحركة العرابية نسبت الآلام للحكم المطلق فى يد رجل ضعيف هو الخديو محمد توفيق ، تحيط به بطانة من رجال السوء ، وتسيره الوكالات الأجنبية فى استنزاف دم الشعب البائس.

ولكن هذه «الأبوة» التاريخية لا تفيد قط أن الثورة المصرية تتصل بالحركة العرابية من حيث أسبابها ومن حيث أنها استئناف لها من حيث انتهت . ففى التاريخ لا تكون فجوات ولا فراغ من هذا النوع .

●●●●●

فلنبحث اذن عن « أبوة » أعمق ولنقرب الفكرة بعض الشئ بمثل من تاريخ الثورة الفرنسية . من «أبو» الثورة الفرنسية؟. أجابوا عن ذلك بأنهم ملوك فرنسا ووزراؤها . قيل: أيصح ذلك فى الإفهام ، وها هى ذى الثورة تبطل الملوكية بل تمعن فى الابطال فتقطع رأس لويس السادس عشر؟. يردون على ذلك بأن الواقع هو أن الثورة الفرنسية أتمت عمل الملوكية فى الداخل وفى الخارج ، فأتمت عمل الملوكية فى استئصال الاقطاع والاقطاعيين ، وفى إنشاء الحكومة المركزية ، وفى الاتجاه نحو المساواة بين أفراد الرعية، وفى توجيه كلمة الأمة . هذا فى الداخل ، وفى الخارج عملت على تحقيق فكرة حدود فرنسا الطبيعية ، وفى تبوئة فرنسا مكان الصدارة فى أوروبا . فالثورة أو - على الأقل - المنفذة لوصيتها .

نخرج من هذا المثل الفرنسى بحقيقتين : نخرج منه أولا بأن الثورات قد تكون أيضا من فعل الملوك ، ونخرج منه ثانيا بأن الثورة فى أمة ما تنفذ مما تركه الماضى أشياء وتناقضه فى أشياء ، أو قل إنها حركة سريعة فى التطور التاريخى لأمة ما .

وأنا لا نجد قطعا أبوة ولا نجد بنوة للثورة المصرية فى فتن الأمراء ورؤساء العصابات فيما مضى من تاريخ مصر ، ولا نجدها قطعا فى الهياج أو الانفجارات الشعبية القديمة فى الريف

والحضر .

والأصح في التاريخ أن نترك البحث عن الأبوات والبنوات فهذه ـ كما قدمت ـ لا تؤثر كثيرا فيما يجري ، والأنفع أن يبحث المؤرخ عن أسباب الثورة المصرية في الماضي القريب .

●●●●●

إني أرجع هذه الحركة لانهيار ما يمكن أن أسميه نظام ١٩٣٦ بشقيه الداخلي والخارجي ، فأما شقه الخارجي فهو التحالف المصرى البريطاني ، وأما شقه الداخلي فهو ارتباك أداة الحكم وتوقفها عن العمل الصالح ، وعجزها عن اصلاح نفسها .

ونصيب الرجال في أحداث الارتباك والفساد ظاهر ، وهو الناحية التي لقيت التأكيد من الكاتبين ، ولكنه يفسر جانبا واحدا فقط من جوانب الثورة المصرية ، وينبغي أن نتجه إلى ما هو أعمق .

في رأيي أن الانحراف الذي اعتور ثورة ١٩١٩ وحولها لحركة مفاوضات مسئول عن خيبة أمل الأمة المصرية وشعورها بأنها ينبغي لها أن تتجه نحو حلول جوهرية لآفاتها الاجتماعية ومآسيها الروحية .

لقد كانت ثورة سنة ١٩١٩ قابلة لكل شئ ، ولكن الزعامة ـ حكومة أو حرة ، عملت على تضييق نطاقها والحد من آفاقها ، ولم تسمح لها بتطور جوهري ، وقد فعلت الزعامة ذلك عمدا ، خشيت إفلات الزمام ، وخشيت تشتت الفكرة السياسية وضعفها ، وخشيت أن دقة مركز مصر السياسي ومصالح الجاليات الأجنبية والأقليات وما إلى هذا كله يتيح للاحتلال البريطاني فرصا عديدة للدس للحركة القومية ، فعمدت إلى أن لا يتحدث الناس أو أن ينظموا أنفسهم لإحداث التغييرات الحقيقية

وقد تم من ذلك شئ غير قليل ولكنه جاء فاترا ، غير مشبع .

والأدهى اعتبار ١٩٣٦ خاتمة حركة ١٩١٩ ، وانه لم يبق إلا أن ينعم الناس بما نالوا ، أو على الأقل من يستطيع ذلك منهم ، وجاءت فترة تناهب الأرزاق ، وكانت خاتمتها ما شهدناه .

هذا تفسير الثورة المصرية وتفسير اتجاهاتها

لقد انقضى من حياتها عام واحد .. تشاهد مما حققته ما نشاهد . ويعد فكلمة الختام هي أن أكثر الثورات نجاحا ونفعا هي تلك الثورة التي تعمل جادة على أن لا تبقى مجرد ثورة ، بل تعمل على أن تطعم بالمضاء والعزم والتوثب ـ أو قل بروح الثورة ـ هذا الجسم الاجتماعي التليد : الأمة المصرية . ■

مـايبقى مـن

ثورة يوليو

بقلم : عبدالرحمن شاكر

مايبقى من ثورة يوليو - بعد مضى نصف قرن عليها - لا يشمل منجزاتها فحسب، بل يشمل أيضا مسئولياتها إزاء الأهداف التى قامت تلك الثورة من أجلها، وما استجد بشأن تلك المسئوليات، فى ظل ظروف محلية وعالمية متغيرة، وبعبارة أخرى فإن هناك ما تم إنجازه كليا أو جزئيا من أهداف الثورة، وهناك أيضا ما ينبغى إنجازه، ابتداء أو استكمالا لما بدأ.

فإذا أتينا إلى ما تم إنجازه، فأوله هو الاستقلال الوطنى، وذلك أمر ليس بالهين. بالنسبة لمن عاصر أيام ما قبل الثورة ، من أمثالنا من المسنين، ولعل الشباب المعاصر وهم الأغلبية الآن ما بين أبناء الشعب المصرى، وكثير منهم ولدوا بعد الثورة أو أدركوها وأدركتهم وهم مجرد أطفال، يرون أن الاستقلال الحالى هو من طبيعة الأمور، وأن الدنيا وجدت هكذا. ولكن الذين رأوا دبابات الجيش الانجليزى تخرج من ثكنات قصر النيل التى كانت تقوم حيث يوجد الآن مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون، لتسحق - أى هذه الدبابات - أجساد الطلبة المصريين فى مظاهراتهم المطالبة بالجلاء - أى جلاء القوات البريطانية



جمال عبد الناصر وصلاح سالم و الشيخ الباقوري في استقبال شعبي حافل

عن أرض مصر - أو شاهدوا وبالقليل عاصروا خروج تلك الدبابات لكي تحاصر القصر «الملكي» في عابدين، وتفرض على الجالس على العرش تشكيل حكومة بعينها - حتى لو كانت من حزب الأغلبية المضطهد، هم من يستشعرون تماما قيمة الاستقلال الوطني. ولقد كانت الحادثة المشار إليها في أقرب ما تقدم، هي المحرك الأول لتشكيل حركة الضباط الأحرار في الجيش المصري، التي أنجزت الثورة بعد عشر سنوات من تلك الحادثة، وعصفت فيما عصفت بالعرش ذاته والجالس عليه، لأن تلك الحادثة وكثير غيرها قد أسهمت تاريخيا في إفساده، حتى صار من المحتم أن يخرج إلى الأبد من التاريخ.

لم يعد القرار المصري يوضع في «قصر الدوبارة»، مقر المعتمد البريطاني، أو المندوب السامي ، أو حتى السفير، وهي الألقاب التي حملها على التتابع الحاكم باسم دولة الاحتلال في مصر، وإنما أصبح القرار المصري يصنع في جهة

ما مصرية فى هذه «الدولة» العريقة عراقة التاريخ ذاته!

صحيح، إن الأوضاع العالمية، وعلاقات الدول، قد تفرض على صانع القرار المصرى مراعاة جوانب معينة فى بعض القضايا، أو حتى تحمل ضغوط دولية فى شأن سياسى أو آخر، فى عصر أصبح يوصف بأنه عصر العولمة، وتحول الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة، تتشابك مصالحها ومشاكلها، ويستعلى فيها قطب واحد دولى فائق المقدرة سياسيا وعسكريا واقتصاديا، ويصبح فيه حتى مبدأ الاستقلال الوطنى بمفهومه التقليدى، موضع إعادة نظر - على الأقل - ولكن ذلك أمر لا تنفرد فيه مصر وحدها، بل يكاد يلف معظم دول العالم، وتلك قضية أخرى، يتعين بالتأكيد مواجهتها، وسوف نأتى على ذكر ذلك فى موضعه، ولكن ذلك لا ينفى فضل ثورة يوليو فى انجاز الاستقلال الوطنى على ما نحن عليه، وخاصة نجاحها فى إجلاء القوات البريطانية المحتلة عن أرض مصر.

النفوذ العالمى

إن بعض خصوم ثورة يوليو، وخاصة من الذين أضيروا ببعض قراراتها ، مثل أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة، أو من صودرت أو أممت بعض مصالحهم المالية أو التجارية، يحاولون أحيانا الزراية على الثورة بوصفها بأنها «انقلاب عسكرى» متجاهلين أن هذا الانقلاب قد مهدت له ثورة شعبية عارمة بكل المقاييس، من مظاهرات صاخبة ضد الاحتلال البريطانى وعملائه وخاصة الجالس على العرش، إلى أعمال فدائية ضد قوات الاحتلال المتمركزة فى منطقة قناة السويس ، إلى أحزاب راديكالية جديدة، وجمعيات سرية تصدر صحفا علنية أو سرية ومنشورات تهاجم الاستعمار والاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى .. الخ.

إن انقلابا عسكريا فى التاريخ - المعاصر على الأقل - لم يحظ بتأييد شعبى جارف مثل الذى حظيت به ثورة يوليو أو «انقلابها» «!» فيما عدا نموذجها الأولى وهو ثورة عرابى، قبلها بنيف وسبعين عاما! ولم يحظ قائد عسكرى شاب «منقلب» على حكومة بلاده بمثل ما حظى به جمال عبدالناصر، سواء على مستوى وطنه، أو أمته العربية أو العالم أجمع، من مكانة تشمل الحب العميق إلى جانب التقدير الهائل. فضلا عن الكراهية العنيفة من أعدائه والتى لا تخلو أيضا من تقدير وإحساس بخطورة مكانته عليهم وعلى مصالحهم. لا أذكر أنه يوم مات شهدت شوارع القاهرة أكبر جنازة فى التاريخ فحسب، من مواطنيه المفجوعين بموته، بل أذكر أيضا أن يومها كان الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون على ظهر إحدى سفن الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض المتوسط، ولم يعلم بعد بأن جمال عبدالناصر قد مات فيقول لرجاله: أطلقوا مدافع الأسطول السادس لكى يسمعها جمال عبدالناصر ويعلم أننى أحكم أكبر وأقوى دولة فى العالم!! كلمة لم تقل من قبل فى حق حاكم آخر، ولكن ما أطلقته مدافع الأسطول السادس يومها كان بمثابة تحية وداع غير مقصودة لرحيل الرجل

العظيم!

أكتب هذه السطور، والرئيس المصرى محمد حسنى مبارك، الخليفة الثانى لجمال عبدالناصر، مجتمع او فرغ لتوه من الاجتماع مع الرئيس الأمريكي الحالى جورج بوش ليباحثه فى إيجاد حل لما يسمى «مشكلة الشرق الأوسط» ما بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وسائر الدول العربية التى تحتل إسرائيل بعض أراضيها. وأكاد أوقن أن الرئيس الأمريكي يعلم وهو يتباحث مع حسنى مبارك أنه لا يخاطب فيه مصر وحدها، تلك الدولة الصغيرة بمقاييس دولته الولايات المتحدة الأمريكية. ولكنه يخاطب فى شخصه مصر المعاصرة التى أوجدها جمال عبدالناصر بمدلولها السياسى بعد الاستقلال، زعيمة للوطن العربى والقارة الافريقية و من الجفاف الذى عم القارة الافريقية والعالم الإسلامى وإحدى القوى الرئيسية فى حركة عدم الانحياز وحركة العالم الثالث فى مجموعه من أجل التحرر والاستقلال والتقدم.

لكم عاب بعض قصار النظر أو الحاقدين على الثورة سعى مصر الناصرية لمد يد العون إلى الحركات الاستقلالية فى كل ارجاء المعمورة، وخاصة دوائرنا الثلاث الاقرب فالأقرب، العربية فالافريقية فالاسلامية، ثم العالم باسرة. ولكن آلا يرون كيف نتلهف حاليا على التأييد العالمي، من جانب الشعوب أساسا، لموقفنامن القضية الفلسطينية، حيث تميل القوى العالمية الكبرى والوحيدة الولايات المتحدة الامريكية الى مساندة الدولة الصهيونية وعدوانها الجائم المستمر، على الارض الفلسطينية وشعبها المعذب بويلات الاحتلال، فضلا عن الاراضى العربية الاخرى فى سوريا ولبنان! أقول كيف نتهلف حاليا على نصرة الشعوب المتطلعة إلى الحرية والتقدم والعدل الاجتماعى وخاصة بعد زوال المعسكر الذى كان يساندنا فى نضالنا من أجل الاستقلال والتحرر والتقدم الصناعى والاقتصادى، ويعززنا عسكريا وسياسيا فى مواجهة العدو الصهيونى، وهو المعسكر الاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفييتى السابق، والذى أصبحت بعض فلوله مرشحة حاليا للانضمام إلى معسكر أعدائنا؟!

منجزات باقية.. ولكن!

لا نستطيع أن نتكلم عما تبقى من ثورة يوليو، دون ان نذكر واحدا من اهم منجزاتها، وهو بناء السد العالى، الذى حمى مصرنا المحروسة من الجفاف الذى عم القارة الافريقية منذ عقود قليلة، فضلا عن امدادنا بالمياه الضرورية للتوسع فى الرقعة الزراعية لمواجهة التزايد فى عدد السكان، بحكم زيادة المواليد من ناحية، ولنقص وفيات الأطفال من ناحية أخرى، بسبب انجاز رئيسى آخر من منجزات الثورة وهو انتشار الوحدات الصحية التى تشرف على الرعاية الصحية للأمهات والمواليد بما فى ذلك تنظيم حصولهم على الأمصال المضادة للأمراض الوبائية، ونحن نفضل بالطبع أن يتقاتل أبناؤنا على القوت بدلا من أن يموت معظمهم اطفالا! ونعود إلى مآثر سدنا العالى فنذكر إمداده لنا بالكهرباء اللازمة لصناعاتنا من ناحية ولزيادة التطور العمرانى فى



كان بناء السد العالى من أهم منجزات الثورة، وهو الذى حمى مصر من الجفاف و أمدنا بالمياه الضرورية للتوسع فى الرقعة الزراعية

ربوع بلادنا من ناحية أخرى، فضلا عن توفيره مؤخرا إمكانية إنجاز مشروع توشكى، الذى يبشر بلادنا بحضارة جديدة فى جنوب القطر، تخفق قلوبنا معه دعاء له بالتوفيق!

ونذكر أيضا من منجزات الثورة انتشار المدارس والجامعات على ربوع بلادنا بما لايقاس به ماكان عليه الحال قبل الثورة، ومازلنا نطلب المزيد فى الثورة التعليمية، فالأمية مازال باقية لم يقض عليها بعد ولابد من العمل على محوها كلية من بلادنا كما حدث فى بلاد أخرى كثيرة منها شقيقات عربيات! فضلا عن أن برامجنا التعليمية مازال بحاجة إلى تطوير كبير لمواجهة أعباء عصر الثورة التكنولوجية، ولعلنا نصل إلى حل لمشكلة الدروس الخصوصية، فضلا عن الفجوة الكبيرة القائمة حاليا بين ما يسمى مدارس اللغات التى تقصدها «الصفوة» والمدارس الحكومية التى يؤمها الشعب وتعتمد اساسا على لغة البلاد، وتذكرنا تلك الفجوة بالانقسام القديم الذى وجد فى بلادنا بين المدارس العصرية والتعليم الأزهرى!

ولابد أن نذكر للثورة التوسع فى الصناعة وما تحقق على يد القطاع العام الصناعى من قدرة على مواكبة التقدم العمرانى، فضلا عن امداد القوات المسلحة بكثير من حاجاتها إبان الحروب التى اضطررنا إلى خوضها، وإذا كانت «الخصخصة» قد أصبحت هى شعار العصر بالنسبة للإنتاج الصناعى بعد أفول نجم النظم الاشتراكية، فإن الرأسمالية المصرية الحديثة التى ورثت القطاع العام لم تكن دائما على مستوى تطلعات الوطن والجماهير، فكثير من الصناعات المعتمدة على القطاع الخاص، قد أنشىء بطريقة

عشوائية غير مدروسة علميا بحيث أصبحت منتجاتها مهددة بالبوار، وعمالها مهددين بالبطالة التي لا ننكر أنها ظاهرة عالمية ولكن ذلك لا يغني عن ضرورة مواجهتها. وإذا كانت قلوبنا تدمى حينما نسمع مؤخرا عن شباب أقدموا على الانتحار يأسا من الحصول على عمل أو مورد رزق، فاقترح أن تتولى القوات المسلحة أمر اليائسين من هؤلاء الشباب، وتخصص لهم إدارة خاصة بهم، تتولى لمن يرغب منهم تجنيده أولا ثم استخدامه في مشروعات عامة وخاصة مشروعات التوسع الزراعي في توشكي وأمثالها.

الديمقراطية والكيان الكبير

لا ننكر أننا في عهد حسني مبارك نتمتع بقدر من الديمقراطية لم تحظ به بلادنا من أول أيام الثورة وقيام الشرعية الثورية! ومع ذلك فمايزال الكثير مطلوبا في هذا الصدد وخاصة تعديل بعض القوانين المتعلقة بحرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف حتى تكون أكثر حرية، فضلا عن إعادة النظر فيما إذا كانت الحاجة ماتزال قائمة للعمل بقانون الطوارئ».

وجانب آخر أراه شديد الأهمية فيما يتعلق بقضية الديمقراطية وهي ارتباطها بقضية الكيان العربي الكبير الذي نسعى الى إقامته في بلادنا لكي تقوى على مواجهة أعباء التقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي لجسر الفجوة ما بيننا وبين عدونا الصهيوني من ناحية، وسائر العالم الذي يقوم على الكيانات والتكتلات الاقتصادية الكبرى من ناحية أخرى. إن الديمقراطية أداة فعالة جربتها الأمم من قبلنا لحشد وإطلاق الطاقات البشرية الابداعية في مختلف الميادين العملية والفكرية والاقتصادية ، ولابد أن يعي عالمنا العربي هذه الحقيقة، وخاصة في الظرف الراهن الذي تحاول فيه الصهيونية فرض إرادتها على بلادنا بما تحت أيديها من تقدم علمي وتكنولوجي ومدد لا ينفد من جانب القوى العالمية الكبرى. وإذا كانت الدول العربية قد كلفت الأمين العام الجديد لجامعة الدول العربية وهو الدبلوماسي اللامع عمرو موسى بإعداد مشروع لتطوير جامعة الدول العربية وتحسين أدائها في المستقبل العربي، فإننا نعتقد أن من أهم عناصر هذا التطوير هو إيجاد جهاز معبر عن إرادة الشعوب العربية، نحن بالاختصار بحاجة إلى مجلس الشعب العربي، على غرار الكونجرس الأمريكي ، أو البرلمان الأوربي، أو في مجلس الشعب الصيني أو الكونجرس الهندي، وللوصول الى مثل هذا المجلس لابد من زيادة الوعي بأهمية الديمقراطية ليس بين صفوف الجماهير العربية فحسب ، أو صفوتها المثقفة ، بل لدى حكامها أيضا، حيث يكتشفون انه بإقامة الجهاز النيابي الذي يحكم باسم الجماهير ويتخذ على مسئوليتها القرارات المصيرية فيما يتعلق بمستقبل الأمة وتوجهاتها. إنما يرفعون عن كواهلهم إصرارا كبيرا في مواجهة أحكام التاريخ! ■

القصة الكاملة لتشكيل

الحرس الحديدى

بقلم : د.عبدالمنعم الجميعى *

تعرض

المجتمع المصرى قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لعدة أحداث مروعة هددت أمنه فى الصميم كان أبرزها جرائم الاعتداء على المناوئين لسياسة السراى وما صاحبها من خسائر فى الأرواح والأموال والتى كان من أهمها اغتيال «أمين عثمان» و«عبدالقادر طه» ، ومحاولات اغتيال «مصطفى النحاس» ، ثم اختفاء القتلة .

لقد روعت هذه الجرائم أمن الوطن والمواطنين ، واستنكرتها جميع طوائف الشعب المصرى التى بدأت تتساءل: من هو المسئول عن التستر على منفذى هذه العمليات فى طمس معالم جريمتهم والتعتيم عليها ودفعها إلى سراديب التضليل والضياع والنسيان ؟ وما هو موضوع العربة السوداء التى كانت تخرج فى جنح الظلام لاصطياد المعارضين للملك ؟ وهل يستطيع القتلة الخارجون على شرائع السماء وقف رياح التغيير ؟ وهل

* استاذ ورئيس قسم التاريخ - جامعة القاهرة - فرع الفيوم



النحاس باشا في المستشفى القبطي بعد إحدى المحاولات الفاشلة لاغتياله على يد الحرس الحديدي ١٩٣٨

الهلال - ربيع ثاني ١٤٣٣هـ - يناير ٢٠١٢م

يستقيم أمر الرعية إذا كان الراعى هو المسئول عن ذلك ؟

وعلى الرغم من كل هذه التساؤلات التى كانت تطرح نفسها بقوة فى الشارع المصرى فإن أحدا كان لا يعرف على وجه اليقين أن الملك فاروق - بصفة خاصة - كان قد أنشأ تنظيما يعد من أخطر التشكيلات السرية التى شهدتها مصر فى فترة ما قبل الثورة ، وأن هذا التنظيم كانت لديه قوائم بأسماء من يرغب فى تصفيتهم إخلاصا للعرش وتفانيا فى خدمة الملك ، وأنه كان ضالعا فى جرائم الاغتيالات التى تمت والتى نجح فى بعضها وفشل فى تنفيذ الآخر .

وبعد أن تأكدت الحكومة البريطانية من حقيقة ما يحدث وخطورته على مركزها فى مصر أمرت وزير خارجيتها «أرنست بيفن» باستدعاء السفير المصرى فى لندن وكان وقتها «عبدالفتاح عمرو» وإبلاغه بأن يسافر إلى القاهرة ليبلغ الملك بأنه لا يليق بالجالس على عرش مصر أن تكون لديه فرق لإرهاب خصومه السياسيين وقتلهم ، ومع كل ذلك فإن حقائق هذا الموضوع ظلت غامضة ويحاط بها الشكوك إلى أن خرج «سيد جاد» أحد أعضاء هذا الجهاز وأكثرهم معرفة بأسراره عن صمته فأوضح حقيقة الموضوع وكشف لنا الكثير من الأسرار التى حلت العديد من الألغاز فى هذه المرحلة المهمة من تاريخ مصر ، فإذا بنا أمام عالم غريب تتشابك فيه العلاقات المريبة والحكايات العجيبة والمعلومات المدهشة ، وإلى جانب ذلك فإن ما نشره «مرتضى المراغى» آخر وزير داخلية لمصر فى العصر الملكى من مذكرات قد زاد الصورة وضوحا وجعل حقيقتها بارزة للعيان .

قصة تشكيل جهاز الحرس الحديدى

وترجع قصة تشكيل هذا الجهاز إلى رغبة «الملك فاروق» فى مواجهة الأخطار التى كانت تحوم حول عرشه وتعترض حكمه خاصة بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذى اضطر فيه إلى الموافقة على تولية «مصطفى النحاس» رئاسة الوزارة رغم أنفه مما ولد فى نفسه إحساسا بالغ الأثر، وترك فى قلبه جرحا عميقا وكراهية شديدة ضد الانجليز ، ومصطفى النحاس، ثم أخذت هذه الكراهية فى الازدياد بعد تعرضه لمحاولة اغتيال على طريق الاسماعيلية بالقرب من «القصاصين» يوم ١٥ نوفمبر ١٩٤٣ عندما اعترضت طريق سيارته التى كان يقودها شاحنة تابعة للجيش الانجليزى مما أدى إلى تحطيم سيارته ، وإصابته بكسر فى ضلوع الحوض، ونقله إلى أحد مستشفيات الجيش البريطانى وهو فى حالة حرجة بين الحياة والموت ، وانتداب الطبيب «يوسف رشاد» الذى كان يعمل ضابطا فى سلاح البحرية وقتذاك للإشراف على علاجه والذى توثقت علاقته به خاصة وأنه كان يمتلك الصفات المطلوبة لمن يتولى علاج الملك فقد كا شابا قويا مفتول العضلات يستطيع حمل فاروق من سريره ليضعه فوق كرسى ممدود نهارا ثم يعيده إلى السرير ليلا، ومكافأة له لبراعته فى أداء مهمته الشاقة أمر الملك بنقل يوسف رشاد من سلاح البحرية الذى كان يعمل به إلى القصر ليصبح واحدا من الحاشية ، كما ألحق زوجته «ناهد رشاد» بالقصر لتصبح وصيفة لشقيقته فايزة طليقة شاه ايران ثم الأثيرة إلى قلبه بعد ذلك .

وخلال ذلك ألمح « الملك فاروق » لطبيبه «يوسف رشاد» برغبته فى تشكيل جهاز سرى يكون تحت إشرافه مباشرة بحيث يضم عددا من الضباط الشبان الرياضيين خاصة البارعين فى لعبتى



يوسف رشاد وزوجته ناهد رشاد في محاكمة الفدر

المصـارعة والملاكمـة ليكونوا سندا له في الوقت المناسب ضد الانجليز ومن يسير في ركابهم وقد أطلق الملك على هذا الجـهـاز اسم «الحـرس الحديدي» ، كمـا أوكل أمر تشكيله إلى «يوسف رشاد» وزوجته «ناهد» .

وقـد بدأ «يوسف رشـاد» في تشكيل هذا الجهاز بعد أن أبلغ الملك باستعداد مجموعة من أصدقائه الذين كان يدعوهم إلى بيته والذين رأوا

في حادث ٤ فبراير إهانة لمصر ، وفي «مصطفى النحاس» و«أمين عثمان» وكل من يتعاون مع الانجليز خونة وعملاء !

ولما كان «الملك فاروق» حتى ذلك الوقت لا يزال محبوبا من معظم أفراد الجيش والشعب الذين رأوا فيه رمزا لمصر ، واعتبروا الولاء له جزءا متمما للولاء لمصر فإنه لم تكن هناك صعوبة في إقناع بعض الضباط بالانضمام إلى الحرس الحديدي خاصة وأن من يرغب في الترقية منهم إلى رتب أعلى أو من يرغب في التقرب من حاشية الملك كان سيحصل على ما يريده.

ومع ذلك فقد بدأ هذا التنظيم بأعداد محدودة حددها «مرتضى المراغي» في مذكراته بستة أفراد عبارة عن أربعة من صغار ضباط الجيش ، والخامس ضابط مطافئ؛ أما السادس فكان موظفا مدنيا ، ولم يفصح عن أسمائهم كاملة بل ذكر الاسم الأول لكل منهم وهم «مصطفى» و«خالد» و«فهمي» و«حسن» و«إبراهيم» و«توفيق».

أما «سيد جاد» فقد ذكر أسماء هؤلاء الأعضاء، وهم اليوزباشي «عبدالرؤوف نور الدين» واليوزباشي «يوسف حبيب» واليوزباشي «خالد فوزي» واليوزباشي «مصطفى كمال صدقي» والطبيب «يوسف رشاد» و «ناهد رشاد» وصيفة القصر الملكي واليوزباشي «حسن فهمي عبدالمجيد» و«عبدالله صادق» (ضابط شرطة) و«بهجت بك» (سفير مصر في ليبيا) واليوزباشي «أنور السادات» و«حسن التهامي» و«حسن عزت» واليوزباشي «سيد جاد» و«مرتضى المراغي» (وزير الداخلية) هذا بالإضافة إلى مجموعة من السيدات.

ولكي يقوم الجهاز بدوره المنشود دفع الملك فاروق إلى « يوسف رشاد» مبلغا كبيرا من المال لشراء ثلاث سيارات يعد لها أرقاما مزيفة وتشترى بأسماء مستعارة ، ومجموعة من المدافع الرشاشة والبنادق والقنابل اليدوية والديناميت لاستخدامها في المهام التي سيكلف بها أعضاء الجهاز ، وكانت الأوامر الخاصة بعمليات الاغتيال تبلغ شفويا من الملك إلى الدكتور « يوسف رشاد» الذي كان يبلغها لأعضاء الجهاز ، وبعدها تخرج عربة سوداء من السراي الملكية وهي تحمل أعضاء فرق الاغتيال المسلحين بالرشاشات والمزودين بالقنابل والمفرقعات لتنفيذ المهمة الموكلة إليهم ثم تعود من حيث أتت دون أن يتعرض لها أحد . ومما يذكر أن الملك فاروق كان يرأس اجتماعات قادة الحرس الحديدي في منزل «يوسف رشاد» بشارع مصر والسودان بالقاهرة ، كما كانت ناهد رشاد تجتمع بأعضاء الحرس الحديدي من السيدات والذي كان يتكون من خمس نساء .

الجرائم التي ارتكبها الحرس الحديدي

تضمنت اللائحة الداخلية للحرس الحديدي «أنها تعمل لحماية حياة الملك من أي خطر يتهدده سواء من جانب خصومه المصريين أو من جانب



«أنور السادات» كان يعمل بشكل مزدوج بين الحرس الحديدي، وتنظيم الضباط الأحرار

الانجليز» ومن أجل تنفيذ ذلك قاموا بعمليات تصفية جسدية وقتل وتنفيذ أحكام إعدام دون محاكمة في كل ما يشتم منه عداوته للملك فكانت العربة السوداء تتربص به ليلا حتى تنتهي من أمره .

وكانت أول مهمة كلف بها هذا الجهاز هي اغتيال «أمين عثمان » أحد المقربين الوفديين إلى قلب السفارة البريطانية في مصر ، ومؤسس رابطة النهضة التي كانت تهدف إلى توطيد الصداقة والتعاون بين المصريين والانجليز وتعزيز

الروابط بين مصر وانجلترا ، ونجاح القاتل «حسين توفيق» الذى حرضه بعض أعضاء الجهاز على تنفيذ جريمته وتمكنه من الاختفاء فترة ثم القبض عليه، وعلى الرغم من اعترافه أثناء التحقيق معه أنه ينتمى إلى أحد التشكيلات التى تهدف إلى قتل الانجليز وكل من يتعاون معهم من المصريين ، وأن هذا التشكيل كانت لديه خطة لاغتيال «النحاس» الذى تولى الحكم تحت حراب الانجليز فى ٤ فبراير فإنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة الملك بهذا الجهاز . والغريب فى الأمر أنه قبل أن تصدر المحكمة حكمها على «حسين توفيق» تم تهريبه إلى خارج البلاد مما جعل الشائعات تقترب من القصر الملكى وصلته بالحادث ، وإلى دوره فى تمييع القضية .

والجدير بالذكر أن عملية تهريب «حسين توفيق» لم تكن سهلة فبعد أن تلقفته عربة بها بعض ضباط الحرس الحديدى بملابسهم العسكرية واتجهت به نحو الحدود حتى يعبر من هناك إلى سورية أو أى بلد عربى آخر ، فإن وصول أخبارها إلى رجال البوليس وحرس الحدود كاد أن يفشلها لولا سرعة التصرف من جانب الحرس الحديدى .

وبالنسبة لتكليف الجهاز باغتيال الضابط «عبدالقادر طه» فقد تم بعد أن وصل إلى مسمع الملك أنه يتآمر عليه بعد عودته من فلسطين وأن الذى وشى به كانت ناهد رشاد الذى كان يتنافس عليها للوصول إلى قلبها .

أما عن المحاولات التى قام بها الجهاز لاغتيال «مصطفى النحاس» فكانت هناك محاولة استهدفت مسكن « مصطفى النحاس» والاعتداء على حياته وتم نجاته منها، وأعقب ذلك محاولة إطلاق النار عليه فى مساء ٨ فبراير ١٩٤٨ وهو يهم بدخول منزله وبصحبته « محمد فؤاد سراج الدين» ولكن رصاصاتها لم تصبه بل أدت إلى مقتل اثنين ، وجرح آخرين من حراس منزل النحاس الخصوصيين ، وبعدها اختفى القتلة وقيدت القضية رقم ٢٦٢٢ جنايات السيدة زينب لسنة ١٩٤٨ وبالاضافة إلى ذلك فقد فشلت محاولة اغتيال النائب الوفدى «رفيق الطرزى» عدو الملك ونتيجة لفشل هذه المحاولات ضعفت ثقة الملك فى الحرس الحديدى الذى كونه «يوسف رشاد» وزوجته «ناهد» ، وخشى من تكرار فشله وانكشاف أمره مما جعله يفكر فى إنشاء حرس حديدى آخر وهداه تفكيره إلى استدعاء أحد رجال حاشيته ممن يعرف بأنه على صلة بمهربى المخدرات ، طلب منه البحث عن شخص يستطيع القيام باصطياد الرؤوس التى فشل الحرس الحديدى فى التخلص منها ، وانتهى الأمر باختيار ضابط بوليس كبير اشتهر بقتل المجرمين وأرباب السوابق دون انتظار لمحاكمتهم وقد عهد الملك إلى هذا الرجل مهمة اغتيال الشيخ « حسن البنا » ، ونتيجة لذلك انقسم أعضاء الجهاز إلى قسمين قسم يؤيد تنفيذ أوامر الملك بالقتل الفورى لمعارضيه ، وآخر يرى ضرورة إجراء محاكمات قبيل تنفيذ أى عمليات اغتيال ، وازدادت حدة الانشقاق بين الطرفين عندما وضع اسم «اللواء محمد نجيب» ضمن قوائم الاغتيال ،

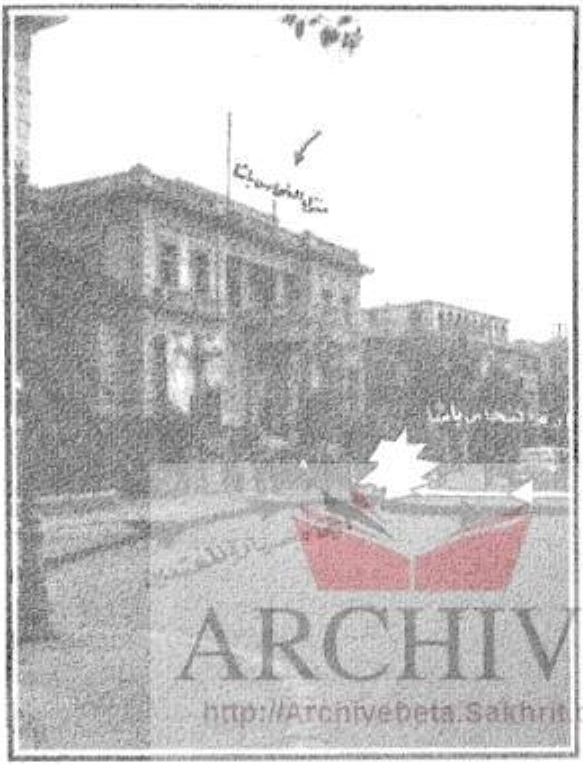
ووصول الأمر إلى تدبير عمليات اغتيال جماعي مثل العملية التي اقترحتها «ناهد رشاد» بنسف قطار الصعيد الذي كان يقل النحاس باشا عند مدينة «العياط» . هذا في الوقت الذي رأى فيه بعض أعضاء الجهاز تغيير تكتيك عمليات الاغتيال بإحالة العربة السوداء إلى المعاش ومعها المدافع الرشاشة واللجوء إلى طريقة أخرى للقتل باستخدام السم عن طريق الفم أو باستخدام دبوس مسمم لمن تصدر الأوامر بتصفيته . وقد بدأ الحرس الحديدي بتجربة هذه الطريقة لما لها من مميزات كثيرة فلا ضجيج ولا مدافع ولا حتى صوت . ويذكر «سيد جاد» أنه استخدم هذه الطريقة مع ضابط انجليزي برتبة «يوزباشي» كان يتمتع بقوة جثمانية كبيرة فاندفع تجاهه ووخزه بالإبرة القاتلة فصرخ وأخذ يعتذر له ويطيب خاطره فاستكمل سيره ثم سقط على وجهه فجأة، فحمله البوليس الحربي الانجليزي دون أن يعرف ما حدث له إلى أن مات ، وقد ظن الانجليز أنه شرب شيئا ساما مما دفعهم إلى تزول محلات الخمور ، وتحليل عينات منها ولكنهم لم يجدوا شيئا من ذلك.

والجدير بالذكر أن جهاز الحرس الحديدي لم يقتصر نشاطه على اغتيال أعداء الملك من السياسيين المصريين فحسب بل ساهم في عمليات المقاومة ضد الانجليز في القتال ، بعد أن أمر الملك، بدعم نشاط الفدائيين هناك فقام مجموعة من ضباط الحرس الحديدي بتدريب المتطوعين من مختلف الأحزاب في صحراء الهرم ، كما تم إمدادهم بسلاح الحرس الحديدي الذي كان كامنا بمدافن الرفاعي ، واستخدم في التدريب في العلميات القتالية ، وذهب بعض رجالهم إلى منطقة العمليات للمشاركة في العمليات الفدائية والترصد لقتل الانجليز وكان الملك يساندهم ماديا بطريقة سرية حتى لا ينقلب الانجليز عليه كما حدث معه في حادث ٤ فبراير .

ويذكر «سيد جاد» أن بعض رجال الحرس الحديدي قاموا بالسطو على عربات قطار انجليزي محمل بالسلاح والعتاد والمؤن في منطقة القباري ونقلوها إلى عزبة «الصفيح» بالورديان بالاسكندرية حيث تم تخزينها هناك ، وأنهم قاموا بقتل اثنين من الجنود الانجليز ، وتجريدهما من الأوراق والنقود والملابس ووضع أثقال حديدية حول جثتيهما وإلقائهما في البحر .

وإلى جانب ذلك فقد كان أعضاء الحرس الحديدي يكلفون بمراقبة الخطرين على الأمن والجواسيس وقتلهم ، فعندما بلغهم أن «ايزيفتش» اليوغسلافي الجنسية وصاحب المقهى الشهير بميدان الاسماعيلية - التحرير الآن - يقوم بمساعدة الشيوعيين الموجودين بمصر ويمدهم بالأموال ، ويروج لأفكارهم حاولوا قتله ولكنهم لم يتمكنوا لشعور الرجل بانكشاف أمره وهروبه إلى خارج البلاد .

وإلى جانب ذلك قام رجال الحرس الحديدي بمراقبة سيدة كانت تدخل فيلا أحد المسئولين الانجليز لإمدادهم بأسرار تخص القصر الملكي وكان الملك يرغب في التخلص منها ، ولكن رجال



صورة توضح مخطط الاعتداء الفاشل على النحاس باشا ١٩٤٨

الحرس اختلفوا فيما بينهم بحجة احتمال أن تكون هذه السيدة مظلومة مما ضايق الملك وأخذ يزداد اقتناعا بفكرة حل الحرس الحديدى ، الذى يكلفه الكثير ولا يحصل منه إلا على القليل .

والواضح أن عمر هذا الجهاز السرى كان محدودا ، ولم ينعم طويلا بثقة الملك خاصة بعد أن أحس بفشله في تأدية بعض المهام المكلف بها ، وبعد تآمر بعض أفراد الجهاز على الملك نفسه ، فقد أقدم «مصطفى كمال صدقى» أحد أفراد الجهاز على اغتيال الملك بسبب التنافس معه على وصيفة القصر ناهد رشاد ، كما قام بعض رجال الحرس الحديدى بمحاولة إرهاب الملك بعد قبوله

لقب جنرال فخرى بالجيش الانجليزى فأطلقوا بعض طلقات مدافعهم بالقرب منه ، هذا إلى جانب رغبة ناهد رشاد الرأس المدبر للجهاز فى الانتقام من الملك بعد أن فشلت فى الفوز بمنصب الملكة الذى كان قد وعدها به الملك فى لحظة غرام وانسجام بعد زواجه من «ناريمان» ، ونتيجة لذلك بدأت تكيد للملك سرا فأخفت عنه تحركات ضباط الجيش السرية ضد الملك بعد ما أبلغها بها اليوزباشى «أنور السادات» الذى كان يعمل بشكل مزدوج بين الحرس الحديدى، وتنظيم الضباط الأحرار ، كما كانت تضع للملك على سبيل الانتقام بعض المنشورات التى كانت تصلها ضده ضمن الأوراق التى كانت تعرض عليه .

وظل الأمر كذلك حتى ظهر تنظيم الضباط الأحرار الذى فجر ثورة يوليو ١٩٥٢، فبدأ كل فرد من ضباط الحرس الحديدى يبحث عن آخر من الضباط الأحرار للاحتماء به ، ويكون سندا له، كما انصرف كل فرد منهم يلتمس لنفسه مخرجا فحسن فهمى عبدالمجيد انقلب إلى جمهورى متطرف ، ومصطفى صدقى أصبح ثائرا من الثوار وخالد فوزى أضحى داعية خطيرا من دعاة الثورية، وعبد الله صادق أصبح مرشدا للنيابة والبوليس ، ويوسف حبيب انزوى وحيدا ينعى حظه العاثر وأمجاد الماضى، وتنصل الباقون برشاقة من ماضيهم وتحولوا إلى دعاة للثورة وراحوا يصفقون لها، أما سيد جاد فقد اعتقل وألقى به فى غياهب السجون وتخلى عنه الجميع .

وفى رأينا أن القصر الملكى كان قد أخطأ فى التورط بتشكيل هذا الجهاز وإدارته خاصة وأن سفك الدماء فى حد ذاته أمر لا يفيد القضايا الوطنية بل يزيدها تعقيدا ، وأن حل المشكلات الوطنية لا يتم عن طريق تصفية المعارضين بسفك دمائهم كما حدث لأمين عثمان وسيد طه وحسن البنا وغيرهم بل يأتى عن طريق المحاورة والنقاش، وتوضيح وجهات النظر مما يتيح لكافة الجوانب أن تعيد حساباتها ومواقفها بما يفيد الوطن وقضاياه . فالاغتيال يولد فى المجتمع جوا من الإرهاب، ويساعد على قتل حرية الرأى ومصادرتها وتكميم الأفواه . كما أنه ليس لغة الشعوب المتحضرة ، بينما حرية الرأى تدعم الاطمئنان بين كافة المواطنين . وقديما قالوا إن الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية .

المصادر التى تم الاستعانة بها فى هذه الدراسة :

ملف تحقيق النيابة ومرافعات الدفاع فى قضية أمين عثمان (دار الوثائق) .

أحمد مرتضى المراغى : غرائب من عهد فاروق، وبداية الثورة المصرية / دار النهار اللبنانية .

سيد جاد : الحرس الحديدى : كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ .

محمد حسنين هيكل : خريف الغضب، القاهرة ١٩٨٨ .

البلاغ : أكتوبر ١٩٥٢ ومارس ١٩٥٣. ■

الثورة والعرب

بقلم : د. أحمد يوسف أحمد

عندما

طلب منى الأخوة الأعزاء المسئولون عن التحرير أن أكتب عن ثورة يوليو والعرب لبيت مرحبا. كنت بطبيعة الحال أنوى الكتابة عن ثورة يوليو بمناسبة مرور نصف قرن على قيامها، لكنى لم أكن قد اخترت زاوية الكتابة بعد، وتوافق طلب الكتابة عن ثورة يوليو والعرب مع أولوية اهتماماتى البحثية، ومن هنا كان ترحيبى، لكن الحيرة أعقبت الترحيب، وقد نبعت من البحث عن منهج المعالجة، فلقد كتبت كثيرا فى هذا الموضوع أو حوله، ولاشك فى أن ذكرى مرور خمسين سنة على قيام ثورة يوليو تتيح المجال لمدخل جديد فترى كيف يكون؟ فكرت أولا أن يرتبط المدخل بشخص قائد الثورة ذلك لأن بصماته على علاقة ثورة يوليو بالعرب أقوى منها بكثير فى حالة أداء الثورة فى الساحتين المصرية والعالمية، ففى الحالتين الأخيرتين يمكن الزعم بوجود تقاليد واضحة للحركة الوطنية المصرية استمدت منها ثورة يوليو أسس حركتها وبنت عليها، أما الساحة العربية فقد شهدت الى حد بعيد ممارسات مصرية جديدة وغير مألوفة لاشك فى أنها تعود لقائد الثورة وفكرته عن الدوائر الثلاث لحركة مصر، وإعطاء الأولوية بين هذه الدوائر للدائرة العربية. ولن يكون

ممكنا بطبيعة الحال فصل ما هو ذاتى يرتبط بعبد الناصر، عما هو موضوعى يتعلق بالظروف العربية والاقليمية والعالمية، لكن المدخل يبقى منبثقا من هذه القيادة الكاريزمية.

كان الأفق العربي لثورة يوليو واضحا لدى عبد الناصر منذ البداية، تشى بذلك بعض عبارات وردت فى خطبه وتصريحاته منذ السنة الثانية للثورة على أقصى تقدير، ثم تكشف الأمر على نحو أوضح فى فلسفة الثورة التى ظهرت بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤، وتحدث فيها عبد الناصر عن دوائره الثلاث المشهورة، وأعطى الأولوية للدائرة العربية تحديدا، وأردف بالحديث عن دور هائم أرهقه التجوال يبحث عن بطل، ولم يكن أقل من ذلك بعض الأفعال التى بدت رمزية فى حينها كافتتاح محطة صوت العرب فى ١٩٥٣ لكنها سرعان ما تكشفت عن رؤية استراتيجية بعيدة المدى. صحيح أن المرء لا يجد أبعادا لمشروع عربي متكامل لدى عبد الناصر منذ البداية، غير أن هذا المشروع أخذ فى التبلور عبر الزمن وبصفة خاصة من خلال تفاعله مع الجماهير العربية وقواها السياسية الفاعلة.

وهكذا تبلور المشروع العربى لعبد الناصر وفقا لأبعاد تتعلق بالتحرر والوحدة اذا نظرنا لهذين الهدفين نظرة شاملة بحيث يحمل التحرر مضمونا سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا واجتماعيا فى آن واحد، وتشمل الوحدة كل ما يتعلق بتكتيل الجهود العربية نحو تحقيق غايات النضال العربي.

ففى مجال التحرر كان مشروع عبد الناصر يتضمن محاربة الاستعمار وتصفيته فى الوطن العربي، ومن هنا قدم العون لكافة حركات التحرر العربية بدءا بالعون الاعلامى والدبلوماسى ووصولا الى المساعدة العسكرية كما وضح بجلاء فى حرب التحرير الجزائرية منذ منتصف الخمسينات وحتى أوائل الستينات من القرن العشرين وحرب التحرير فى جنوب اليمن فى الستينات من القرن نفسه، غير أن التوصل الى الاستقلال لم يكن شكليا لدى عبد الناصر، ومن هنا امتد بنطاق مشروعه ليشمل مواجهة محاولات ربط الوطن العربي استراتيجيا بسلسلة الاحلاف الغربية، فجاءت حركته الناجحة ضد كل من حلف بغداد فى ١٩٥٥ ومشروع ايزنهاور فى ١٩٥٧ وغيرهما من المشروعات المماثلة.

ولم يقتصر مفهوم الحرية بالنسبة لعبد الناصر على البعد السياسى الاستراتيجى فحسب، وانما امتد ليشمل بعدا اقتصاديا وثالثا

اجتماعيا.

ويلاحظ على البعد الاقتصادي أنه لم يكن بالوضوح نفسه المميز للبعد الأول لسببين على الأقل: أولهما أن البعد الاقتصادي للتحرر العربي كان يثير، فيما يبدو، حساسية لدى عبد الناصر خشية أن تتعزز الاتهامات بأطماعه في ثروة البترول العربية، ولذلك لم يركز عليه كثيرا مكتفيا بجهده في تأسيس نموذج مصري للتنمية المستقلة، كما أن ظروف المواجهة السياسية الضارية مع خصوم مشروعه لاشك في أنها أسهمت في تراجع بعده الاقتصادي الى أولوية تالية.

أما البعد الاجتماعي فعلى الرغم من الإشارة إليه منذ سنوات الثورة الأولى الا أن تطبيقه داخل مصر نفسها لم يتكامل الا في أوائل ستينات القرن العشرين وبذلك طرح متأخرا في السياق العربي، وارتبط طرحه بمشكلات معينة، منها ما قيل على سبيل المثال من أثر سلبي للقرارات الاشتراكية التي صدرت في يوليو ١٩٦١ على التعجيل بانفصال سوريا عن مصر في سبتمبر ١٩٦١، وكذلك على استبعاد بعض الشرائح الاجتماعية العليا من قاعدة التأييد العربية لمشروع عبد الناصر.

أما الوحدة فقد تحدث عنها عبد الناصر منذ سنوات الثورة الأولى وإن كان واضحا أنه نظر اليها باعتبارها توحيداً للجهود العربية في اتجاه تحقيق أهداف مشتركة لا يأخذ بالضرورة الشكل الدستوري، مع ذلك فقد قبل بالوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا في ١٩٥٨ استجابة لضغوط القوى القومية في سوريا على الرغم من أنه كان يعتقد بضرورة وجود مرحلة انتقالية قبل انجازها، ولذلك لم يجد عبد الناصر بعد تفكك الوحدة المصرية – السورية في ١٩٦١ صعوبة في أن ينتقل الى أشكال غير دستورية لتحقيق الفعل الوحدوي العربي اذا جاز التعبير، سواء اقتصر هذا الفعل على شريحة معينة من النظم العربية الثورية كما تبدى في شعار وحدة الهدف في أعقاب الانفصال السوري، أو امتد ليشمل الدول العربية بأسرها كما ظهر في تبني عبد الناصر لآلية القمم العربية اعتباراً من ديسمبر ١٩٦٣ وحتى نهاية ١٩٦٥.

العرب ومشروع عبد الناصر:

اذا كنا قد بلورنا الخطوط الأساسية للمشروع العربي لعبد الناصر في العجالة السابقة فترى كيف كان استقبال العرب له؟ لا يمكن من الناحية المنهاجية أن نتحدث عن العرب ككل، وقد يكون مفيدا أن نقسمهم الى جماهير ونخب: أما الجماهير فقد اتسق عبد الناصر مع



قدم ناصر العون الاعلامى والدبلوماسى والعسكري لكل حركات التحرر العربية كما حدث فى حرب التحرير بجنوب اليمن فى الستينات

صميم أهدافها، ولذلك ايدته على نحو غير مسبوق فى تاريخ العرب الحديث، ولايكاد المرء يقرأ كتابا منصفا تناول المرحلة أو مذكرات سياسى عاشها الا ووجد فيما قرأ ما يشير الى

هذه العلاقة الفريدة. والأهم من هذا أن الجماهير قد لعبت دورا فاعلا فى تنفيذ المشروع العربى لعبد الناصر وحمايته، ألم تلعب المظاهرات الجماهيرية الحاشدة المضادة لحلف بغداد دورا

في اسقاطه؟ ألم تكن الجماهير العربية سندا معنويا هائلا لمصر ابان عدوان ١٩٥٦؟ اليست الجماهير السورية هي صاحبة الفضل الأول في انجاز الوحدة المصرية - السورية في ١٩٥٨؟ ألم يكن العمال العرب هم الذين حققوا نصرا فريدا في المعركة - وإن تكن بالغة الدلالة - مع عمال الشحن الأمريكيين في ميناء نيويورك ابان الحادثة الشهيرة لمقاطعة الباخرة المصرية كليو باترا في هذا الميناء في ١٩٦٠؟ ألم تكن الجماهير المصرية خاصة، والعربية عامة، هي التي حمت مصر والنظام العربي من السقوط في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الفادحة بتحركها التاريخي يومي ٩ و ١٠ يونيو؟ ألم توجه جماهير الخرطوم في أغسطس ١٩٦٧ رسالة واضحة لكل من يعنيه الأمر داخل الوطن العربي وخارجه مفادها أن عبد الناصر مازال زعيم هذه الأمة على الرغم من هزيمته المدوية في ١٩٦٧. صحيح أن هذا التأييد الجماهيري الغلاب لم يبدأ مع الثورة، فقد مرت سنوات نظرت فيها الجماهير العربية بريبة الى هذا البكباشي القادم على أسنة الرماح والى صدامه العنيف بقوى سياسية حقيقية في الساحة المصرية، لكن الصورة اتضحت بعد ذلك، ومع بدايات ١٩٥٥ أخذ نمط العلاقة الكاريزمية بين عبد الناصر وجماهيره في التبلور.

غير أن الأمر اختلف كثيرا بالنسبة للنخب السياسية، الحاكمة منها وغير الحاكمة. كان منطقيا أن تعاديه النخب الحاكمة أو المستفيدة في النظم العربية التي اصطدم بها عبد الناصر، وأن لوحظ أن الاعجاب به وحتى تأييده قد تسلل الى بعض عناصرها، وأن الاحترام قد غلب على نظرة عديد من عناصر هذه النخب لعبد الناصر على الرغم من أنها لم تخف كراهيتها له في بعض الاحيان، وكان منطقيا ايضا أن تنسلخ شرائح اجتماعية عليا في المجتمعات العربية من قاعدة التأييد للمشروع بعد أن بدأت تخسار من جراء بعض السياسات والإجراءات التي اتخذها بدافع عنها، وكان منطقيا من ناحية ثالثة أن تعاديه النخب السياسية العربية ذات التوجهات الاسلامية في أعقاب صدامه المروع مع الاخوان المسلمين في مصر لكن ما بدا غريبا بحق - وان لم يستعص على الفهم - صدام نخب سياسية معه تشاركه في توجهاته، أو على الأقل تتفق معه في أهداف مرحلية. وهكذا تصادمت معه أحزاب شيوعية عربية عديدة على أساس اتهامها له بغيبة الآفاق الاشتراكية الحقيقية عن مشروعه، وان كان المرء لا يمكنه أن يتجاهل أن السبب الحقيقي لهذا الموقف قد يكمن في نفوذه على السياسة والجماهير العربية، الأمر الذي قضى

على أية امكانية لتطور مكانتها السياسية فى الوطن العربى، وتصادمت معه أحزاب قومية أخفقت فى أن تفرض عليه معادلة الزعيم فى مقابل الحزب. أى أن يكون هو الزعيم المعترف به عربيا القادر على أن يحكم الثورة العربية ويقودها من خلال هذه الاحزاب، وتصادمت معه نظم قطرية ثورية رأت فى قربها الزائد منه خطرا على استقلاليتها.

وولد هذا كله صراعا مزدوجا بين عبد الناصر وقوى معارضة له: فقد اصطدم من ناحية بالمحافظين الذين كان مشروعه يهدف بوضوح فى بعض مراحله الى القضاء عليهم، ومن ناحية ثانية بالثوريين الذين كان نجاح مشروعه يعنى بشكل أو بآخر تهميشهم. وصنع هذا جنبا الى جنب، مع التحديات الخارجية الهائلة التى واجهت عبد الناصر، معضلة اضطرته الى أن ينتقل أكثر من مرة بين صيغة العمل العربى المشترك الذى يشمل الجميع فى مواجهة العدو الخارجى سواء كان مشروعا أمنيا غربيا أو تهديدا إسرائيليا، وصيغة العمل العربى الثورى التى لا تشمل الا قوى عربية بعينها تشترك معه فى التوجهات وتحارب الى جواره العدو فى الخارج وأركانه فى الداخل من النظم العربية. وعلى الرغم من أن الباحث المنصف يرى أن انتقال عبد الناصر بين الصيغتين كان له دائما ما يبرره الا أنه قد يكون من المبكر - أو حتى من المستحيل - الحكم على الأثر الحقيقى الذى أوجده هذا الانتقال بين الصيغتين على تطور النظام العربى فى عهد عبد الناصر.

رؤية نقدية :

صادفت ثورة يوليو كغيرها من الثورات انتقادات حادة، بل وتشكيكا فى شرعيتها أصلا، واتهاما بأنها كانت السبب فى كوارث ألمت بالصعيدين الوطنى والعربى لمجرد واقعة قيامها وفقا لمعسكر خصومها، أو بسبب أخطاء استراتيجية وتكتيكية هائلة ارتكبت فى مسيرتها وفقا لبعض انصارها، أو على الأقل الذين لم يناصبوها العداء، ويكاد يكون مستحيلا أن تصل فى سياق محاولة اصدار حكم تاريخى على ثورة يوليو الى كلمة سواء بعد مرور نصف قرن فحسب على قيامها، فمازال المستفيدون من الثورة والمضارون منها كأفراد وتكوينات اجتماعية وسياسية ونظم حاكمة وقوى دولية موجودين فى ساحة الحركة السياسية، ولابد من تأثرهم بمصالحهم وهم يصدرون احكامهم على يوليو وقائدها. ومع ذلك فقد لا يكون من المبالغة أن نسجل أن الانتقادات لسياسة ثورة يوليو العربية جاءت من داخل مصر أكثر مما صدرت

عن نوائر عربية، وأنها تقل عبر الزمن بما يعكس احساسا متزايدا بأن ما ألم بالوطن العربي في عهد يوليو يرجع الى ضراوة الهجمة الامبريالية الاستعمارية أكثر مما يعود الى أخطاء الثورة، وأن النظام العربي ربما يكون بحاجة في الظروف الراهنة الى نهج التحرر والكرامة الذي انتهجته ثورة يوليو، أو على الأقل الى بعض هذا النهج.

غير أن هذا لا يعني من ناحية أن ممارسات ثورة يوليو في بعدها العربي كانت منزهة عن الأخطاء، أو العثرات أو السلبيات، ولا يعني من ناحية أخرى أن كل ما وجه اليها من انتقادات واتهامات كان صحيحا.

لا يمكن لاحد بداية أن يشكك في سلامة توجهات يوليو العربية عن التحرر والوحدة، وإن كان من الممكن الحوار حول اثر غياب رؤية واضحة متبلورة لدى الثورة وقيادتها للواقع العربي وسبل الحركة لتغييره، فلعل هذه الرؤية كان من شأنه أن يوفر على ثورة يوليو تكلفة التنقل المتكرر بين التحالف مع الكل ضد التهديدات الخارجية وبين قيادة الجزء لتغيير النظام العربي من الداخل، ولا يمكن لأحد أن يشكك في الدور التاريخي الذي لعبته زعامة بقامة عبد الناصر وتوجهاته، لكن الاعتماد المفرط على كاريزما الزعيم حرم السياسة العربية لثورة يوليو من ذراع مؤسسية قوية، وأتاح في الوقت نفسه لبعض العناصر من الاشخاص المحسوبين على ثورة يوليو أن يلعبوا – بحسن النية أو بدونها – دورا تخريبيا في تنفيذ تلك السياسة. ولا يمكن لأحد أن ينكر أن ثورة يوليو حاولت في البداية جمع شمل العرب كافة وواصلت هذا المسعى كلما دعت الظروف لذلك، وأنها ليست مسئولة عن ظاهرة الصراعات العربية – العربية، فقد ظهرت قبلها وبقيت بعدها، لكن الطريقة التي أدارت بها قيادة الثورة بعض خلافاتها مع عدد من النظم العربية لم تكن الطريقة المثلى دائما، ولا يمكن لأحد أن ينكر سلامة التوجه الاستراتيجي للثورة في الصراع ضد اسرائيل، لكن الأثر الفادح الباقي معنا حتى الآن لهزيمة يونيو ١٩٦٧ شكل ملمحا هائلا في إنجازات الثورة في هذا السباق.

ومع ذلك فإن الحكم النهائي عليها من هذا المنظور يبقى عملا بالغ التعقيد بكل المقاييس، فخصوم الثورة يرون أن كارثة يونيو ١٩٦٧ كفيلة بمحو أي أثر ايجابي لثورة يوليو في تاريخ المنطقة، ومع ذلك فإن مثل هذا القول يمكن أن يرد بأن مشكلة اسرائيل كانت ميراثا ثقيلا ورثته



عبد الناصر بين الجماهير الحاشدة في الخرطوم التي أكدت على دعمها ووقوفها من خلفه

ثورة يوليو عن حقبة التبعية السابقة عليها، وإن هذا الميراث الثقيل قد عوق انطلاقها غير مرة وانها بلورت قبل هزيمة ١٩٦٧ رؤية استراتيجية سليمة للمواجهة، وأن الهزيمة الفادحة في معركة عسكرية لم تكن من نصيب ثورة يوليو وحدها وإنما طالت نظما ديمقراطية عريقة قبل أن تنتصر هذه النظم في حربها الشاملة ضد خصومها كما كان الحال بالنسبة لمعظم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وأنها – أي ثورة يوليو – قد سارت على الدرب نفسه في السنوات التالية مباشرة للهزيمة. فتصاعد النضال العسكري ضد اسرائيل على نحو غير مسبوق مهد لانجاز اكتوبر ١٩٧٣ الذي تم في زمن قياسي بكل المعايير.

هل يمكن والأمر كذلك أن يسمح لنا خصوم ثورة يوليو بأن نهديها باقة عرفان وامتنان بعد نصف قرن على قيامها؟ وان نعبر عن احساسنا الصادق بافتقادنا قيماً نضالية أصيلة عبرت عنها وسعت الى تجسيدها في الواقع العربي فنجحت حينا وأخفقت حينا لكنها تركت لنا ضوءا هاديا لعلنا أكثر ما نكون احتياجا إليه في الظروف الراهنة . ■

دور القاهرة

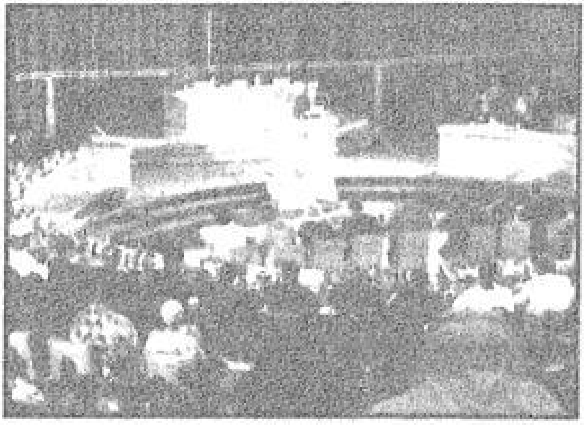
فى إقامة عالم جديد خال من الاستغلال والتبعية

بقلم : د. منير زهران

كان لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إشعاع تعدى حدود مصر والعالم العربى باعتبارها حاملة شعلة الحرية والكفاح ضد الاستعمار البريطانى والاحتلال الأجنبى والإمبريالية، والمطالبة بحق تقرير المصير للشعوب التى ترزح تحت نير الاستعمار والتى تعانى من السيطرة الأجنبية على مواردها الطبيعية .

وقد كان تأثير ثورة يوليو كبيراً على حركات التحرير فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حيث كان للثورة المصرية صدى لدى المتطلعين للحرية والاستقلال فى مختلف أرجاء المعمورة .

وقد كانت نقطة البداية تحرر مصر من الاحتلال الأجنبى نتيجة الضغوط التى مارستها الجماعات الفدائية ضد معسكرات الجيش البريطانى المرابط فى منطقة قناة السويس ثم من خلال المفاوضات، ثم ممارسة السودان لحق تقرير المصير بدعم من مصر أمام الاستعمار البريطانى ثم حصول السودان على استقلاله، وتأييد مصر الثورة لحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره على ترابه الوطنى وفقا لميثاق الأمم المتحدة، وتأييد حركات التحرير فى أفريقيا ومساندة مطالب مختلف تلك الشعوب بإنهاء الاستعمار والاحتلال الأجنبى، ومن



مؤتمر القمة الافريقي
في القاهرة لأول مرة
١٩٦٤

ثم حصولها على استقلالها الواحد تلو الآخر، وقد انطبق ذلك على المستعمرات البريطانية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية . كما أدانت مصر نظم وسياسات الفصل العنصري والابارتهيد الذي تمت ممارسته بأبشع الصور في جنوب افريقيا واسرائيل ، إلى أن تم إلغاء ذلك النظام في جنوب أفريقيا عام ١٩٩٤ باعتماد دستورها الجديد وانتخاب الزعيم نلسون مانديلا كأول رئيس للنظام الديمقراطي الحر في بريتوريا .

وكان أحد مظاهر النفوذ الخارجي لثورة يوليو معارضة مبادرات الدول الغربية التي تذرعت بسعيها لملء الفراغ الناجم عن انسحاب بريطانيا من المنطقة من خلال مد مظلة حلف شمال الأطلنطي للشرق لتطويق الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو من الجنوب . وقد تعاونت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا في الترويج لتلك الخطة ، إلا أنها واجهت معارضة مصر ، وحذت غالبية الدول العربية حذوها، ثم تعدلت تلك الخطة بفكرة قيام تحالف جديد تم إنشاؤه في ٢٤ فبراير ١٩٥٥ ضم العراق وإيران وتركيا وباكستان وبريطانيا تحت اسم حلف بغداد حيث تمركز في العاصمة العراقية ، ولم تنضم لذلك الحلف الولايات المتحدة وإنما احتفظت فيه بصفة المراقب ، وكان إنشاء ذلك الحلف استفزازا لمصر الثورة التي انتقدت ذلك الحلف بشدة، وما لبث ذلك الحلف أن رحل من بغداد عقب خروج العراق منه بعد ثورة تموز عام ١٩٥٨ ، واتخذ الحلف من أنقرة مقرا له تحت اسم حلف السنتو .

***

وشاركت مصر في عام ١٩٥٥ تحت زعامة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في مؤتمر تضامن الشعوب الافريقية الأسيوية الذى عقد في مدينة باندونج وذلك للتشاور فيما بين زعماء الدول الافريقية والأسيوية التى نالت استقلالها حول كيفية تعزيز التعاون والتضامن فيما بينها للمحافظة على استقلالها وكانت مشاركة مصر ذات أهمية كبيرة لما عرف عنها من تأييد حركات التحرير ضد الاستعمار وبصفة خاصة في أفريقيا .

وقد تأكد في مؤتمر باندونج انتهاج الشعوب الافريقية والأسيوية لسياسة الحياد الايجابى ، والتى تدعو لكافحة الاستعمار وتأييد استقلال الشعوب وإنهاء الاحتلال الأجنبى ومساندتها فى ممارسة حق تقرير المصير ، ومعارضة محاولات الدول الغربية لتكبيل حرية الحركة للدول التى حصلت على الاستقلال لربطها باتفاقيات عسكرية .

***

وقد استمر دور مصر تحت تأثير مبادئ ثورة يوليو واتسع نفوذها فنشأت منظمة تضامن الشعوب الافريقية الأسيوية عام ١٩٥٧ واتخذت من القاهرة مقرا لها ، ثم تحقق أول مشروع للوحدة بين مصر وسوريا بإنشاء الجمهورية العربية المتحدة عام ٥٨ .

وقد أسفرت مشاورات قادة باندونج واتسع نطاقها لتضم دولا من أوربا وأمريكا اللاتينية ، فوضعت معايير الانضمام لحركة عدم الانحياز في مؤتمر تحضيرى عقد في القاهرة في يونيو ١٩٦١ ثم عقدت أول قمة للحركة في بلجراد في سبتمبر من نفس العام .. وفى نهاية سبتمبر ١٩٦١ انفصلت سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة لأسباب عديدة من أهمها سعى فرنسا للرد على تأييد القاهرة لكفاح جبهة التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى ومساندة الشعب الجزائرى في مطالبه الخاصة بممارسة حق تقرير المصير والاستقلال .

وكان دور مصر مؤثرا في إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة للقرار ١٥/١٥١٤ في ١٤ ديسمبر ١٩٦٠ والقاضى بتصفية الاستعمار وحق تقرير المصير . وتجدر الإشارة إلى أن مصر دعت إلى عقد اجتماع وزارى فى القاهرة فى يوليو ١٩٦٢ حول «المشاكل التى تواجه التنمية الاقتصادية فى الدول النامية » وقد ضم المؤتمر بالإضافة إلى الدول الأعضاء فى حركة عدم الانحياز دولا نامية لم تنخرط فى الحركة نظرا لاتساع الهدف من الاجتماع لمواجهة تحدى التنمية وهو لا يقتصر على الدول غير المنحازة .

وقد كانت نتائج مؤتمر القاهرة هى الأساس فى تعبئة الجهود فى الجمعية العامة للأمم المتحدة للدعوة لأول مؤتمر للأمم المتحدة حول التجارة والتنمية (UNCTAD) والذى عقد فى مدينة جنيف عام ١٩٦٤ تحت رئاسة الدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير الاقتصاد المصرى حينئذ، وانتهى المؤتمر بإعلان وبرنامج عمل، بالإضافة إلى إعلان

وزارى بتأسيس مجموعة السبعة وسبعين (كان هذا هو عدد الدول النامية المستقلة حينئذ) فى ١٥ يونيو ١٩٦٤. ونظرا للدور المؤثر لمصر على إنشاء ونشاط تلك المحافل والتنظيمات الدولية فسوف نعرض لكل منها بإيجاز .

أولا : منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية

تعتبر منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية امتدادا شعبيا لأهداف مؤتمر باندونج، فقد انعقد فى القاهرة فى نهاية عام ١٩٥٧ حتى أول يناير ١٩٥٨ المؤتمر الأول لحركة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وانبثقت منه السكرتارية الدائمة للمنظمة ومقرها الدائم فى القاهرة . ويرأس المنظمة حاليا ومنذ عام ١٩٨٨ الدكتور محمد مراد غالب وزير خارجية مصر السابق ، ويتولى منصب السكرتير العام السيد/ نورى عبدالرزاق من العراق .

ومنظمة التضامن منظمة غير حكومية لها لجان وطنية فى أكثر من تسعين بلدا فى أفريقيا وآسيا، كما أن لها لجانا منتسبة فى أمريكا اللاتينية بل وفى أوربا. ويرأس اللجنة المصرية للتضامن الأفروآسيوى الأستاذ أحمد حمروش أحد الضباط الأحرار لثورة يوليو .

ولقد كان تأثير المنظمة كبيرا فى دعم نضال حركات التحرير فى أواخر الخمسينيات وخلال الستينيات ، وتوجت انتصارات حركات التحرير بالنجاح الذى حققه شعب جنوب افريقيا بالانتصار ضد الأبارتهيد والفصل العنصرى .

وقد كان نضال حركات التحرير وراء استقلال كثير من البلدان فى أفريقيا وآسيا ، وخروجها منتصرة على الاستعمار الذى جثم على أنفاس شعوبها، ومازال الشعب الفلسطينى يناضل ضد الاستعمار الاسرائيلى والاحتلال الأجنبى، ومازالت قضية السلام فى الشرق الأوسط إحدى أهم القضايا التى تدعمها منظمة التضامن من أجل إنشاء دولة فلسطين الحرة المستقلة وعاصمتها القدس ، وتلقى منظمة التضامن والشعب الفلسطينى من مصر دعما متواصلا منذ الخمسينيات وحتى مطلع القرن الحادى والعشرين

وإزاء تغير العلاقات والظروف الدولية فى التسعينيات ومع بداية القرن الحادى والعشرين وانعكاسات ذلك على البلدان الافريقية والآسيوية خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة والقطبية الثنائية، فقد أخذت منظمة التضامن على عاتقها القيام بمسئولياتها الجديدة ، فأدرجت على جدول أعمال المنظمة ولجانها الوطنية الموضوعات الداخلية والخارجية التى أصبحت تشغل الدول الافريقية والآسيوية ومنها الديمقراطية وحقوق الانسان ، والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والديون ونقل التكنولوجيا والثورة العلمية وقضايا البيئة والسكان والنزاعات الحدودية ، والنزاعات الداخلية القبلية والاثنية ، واللاجئين والنازحين والسكان الأصليين والأقليات ، ونزع السلاح ، والتعاون فيما بين دول

الجنوب ، والحوار بين الشمال والجنوب .

وهكذا تبنت منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية القضايا الجديدة التى تهم تلك البلدان والمدرجة على الأجندة الدولية المعاصرة .

وباعتبارها جزءا من حركة الشعوب الديمقراطية فى العالم ، تتعاون منظمة التضامن مع المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية التى تعمل من أجل الاستقلال ونصرة الحرية ، وتعمل من أجل عالم خال من الحرب والعنف، وتنادى بعدم الاستخدام أو التهديد باستخدام القوة فى العلاقات الدولية ، والعمل من أجل التسوية السلمية لمختلف النزاعات .

وتتمتع منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية بصفة استشارية فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة وبصفة المراقب فى منظمات دولية عديدة مع الاشارة بصفة خاصة لليونسكو واليونيدو والانكتاد . كما تتمتع بصفة مراقب فى حركة عدم الانحياز .

ثانيا : حركة عدم الانحياز

تأسست حركة عدم الانحياز رسميا عام ١٩٦١ كحركة حكومية لبلدان العالم الثالث باعتبارها تواصلا رسميا لمؤتمر باندونج ، بينما تعتبر منظمة تضامن الشعوب الافريقية الآسيوية امتدادا شعبيا لذلك المؤتمر .

ومنذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ استمر التشاور فيما بين قادة الشعوب الافريقية الآسيوية ، وكان العدوان الثلاثى على مصر إثر تأميمها لقناة السويس اختبارا لمدى صلابة التضامن فيما بين حكومات وشعوب افريقيا وآسيا لدعم مصر فى صمودها أمام العدوان الذى اقترفته اسرائيل مع فرنسا وبريطانيا اللتين تجسدان الاستعمار القديم فى نفس الوقت الذى تتمتع فيه كل منهما بمقعد دائم فى مجلس الأمن ، وقد اتسع نطاق التشاور فيما بين القادة ليشمل دولا خارج افريقيا وآسيا ، مثل يوغسلافيا فى أوربا ، وكوبا فى أمريكا اللاتينية وبناء على المشاورات المكثفة التى جرت فيما بين الرؤساء جمال عبدالناصر وجوزيف بروز تيتو وأحمد سوكارنو ورئيس وزراء الهند حينئذ جواهر لا نهرو استضافت القاهرة فى يونيو ١٩٦١ اجتماعا تحضيريا على المستوى الوزارى للتمهيد لعقد اجتماع لقادة الدول النامية التى رفضت الانضمام للأحلاف لتأسيس حركة عدم الانحياز .

وقد رأس الاجتماع الوزارى التحضيرى المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر حينذاك، وكان لى شرف المشاركة فى وفد مصر كأحد المختصين بهذا الملف فى وزارة الخارجية. وتم الاتفاق فى اجتماع القاهرة على أهمية عقد مؤتمر القمة الأول للحركة فى بلجراد فى سبتمبر ١٩٦١ استجابة لدعوة الرئيس تيتو ، وضرورة توسيع عضوية الحركة سواء من حيث النشاط أو من حيث النطاق الجغرافى بهدف تحويلها إلى آلية فيما بين الاقاليم للمحافظة على السلم والأمن الدوليين ، وأهمية عقد مؤتمرات دورية على مستوى



في اجتماع مؤتمر عدم الانحياز ١٩٦٤ جمال عبد الناصر مع دورتيكوس (كوبا) وتيتو وسوكارنو والامبراطور هيلاسلاسي والسيدة باندرانيكه

القمة لإعطاء دفعة سياسية وعلى أعلى مستوى للتوصل إلى نتائج إيجابية لمواقف الحركة لخدمة السلام العالمي، وترجمة التعاون الدولي إلى واقع ملموس استجابة لتطلعات الشعوب في الحصول على استقلال فعلي والارتقاء بمستويات المعيشة في الدول الأعضاء .

وقد اتفق في اجتماع القاهرة على المعايير التي تطبق على الدول التي تنضم إلى الحركة ، وبالتالي يمكن دعوتها لحضور اجتماع القمة الأول في بلجراد ، وتلك المعايير هي :

١ - اتباع سياسة مستقلة تستند إلى التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة السياسية والاجتماعية المختلفة وإلى عدم الانحياز ، أو التي تعطي مؤشرات باتباع تلك السياسة .

٢ - تأييد حركات التحرر الوطني .

٣ - عدم الانضمام إلى أحلاف عسكرية في إطار الصراع بين الدول الكبرى .

٤ - إذا كانت الدولة المرشحة مرتبطة باتفاقية عسكرية مع دولة كبرى أو عضو في حلف دفاعي إقليمي ، فيلزم أن تكون تلك الاتفاقية أو الحلف خارج إطار الصراع بين الدول الكبرى .

وتطبيقاً لتلك المعايير وجهت الدعوة لحضور أول قمة للحركة في بلجراد في سبتمبر ١٩٦١ للدول النامية في القارات الثلاث : إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

ومع تزايد عدد الدول النامية التي حصلت على الاستقلال والدول التي تخلصت من عضويتها في الأحلاف أو أنهت وجود القواعد العسكرية على

أراضيها ، زاد عدد الدول الأعضاء في الحركة من ٢٥ دولة عام ١٩٦١ إلى ١١٤ دولة مع انعقاد آخر قمة لحركة عدم الانحياز عام ١٩٩٨ في ديربان بجنوب أفريقيا ، وكانت القمة الثانية عشرة ، وقد قبلت الحركة عرض المملكة الأردنية الهاشمية لاستضافة القمة الثالثة عشرة في عمان في أواخر عام ٢٠٠٢ .

هذا وقد استضافت القاهرة القمة الثانية عام ١٩٦٤ برئاسة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وظلت رئاسة مصر للحركة أطول مدة إلى أن عقدت القمة بعد سبع سنوات في لوزاكا عام ١٩٧٠ .

وبالنسبة للموضوعات التي تركز عليها حركة عدم الانحياز ، فيلاحظ التطور الذي طرأ على اهتمامات الحركة ، والذي صاحب اتساع نطاقها ثم انهيار الاتحاد السوفييتي وحلف وارسو منذ بداية التسعينيات ، فقد بدأت الحركة بالتركيز على الموضوعات السياسية ، ثم ازداد اهتمام الحركة منذ مؤتمر القمة الثاني في القاهرة عام ١٩٦٤ وتحت تأثير دولة الرئاسة ، أي مصر ، اهتمت الحركة بموضوعات التعاون الاقتصادي الدولي .

ومن أهم الموضوعات السياسية :

١- احترام حق الشعوب والأمم في تقرير المصير والكفاح ضد الامبريالية وتصفية الاستعمار والاستعمار الجديد .

٢ - احترام السيادة الوطنية للدول والسلامة الاقليمية وعدم التدخل في الشئون الداخلية .

٣ - التفرقة العنصرية والابارتايد .

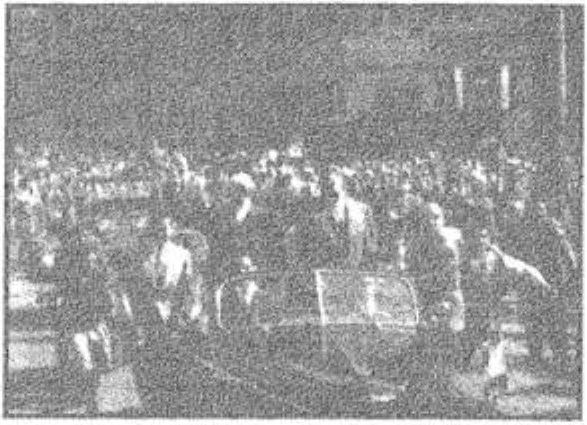
٤ - نزع السلاح الكامل والشامل ومنع التجارب النووية ومشكلة القواعد العسكرية الأجنبية .

٥ - التعايش السلمي فيما بين الدول التي تنتمي إلى نظم سياسية واجتماعية مختلفة .

٦ - دور الأمم المتحدة وتنفيذ قراراتها.

وجدير بالذكر أن مؤتمر القمة الثاني للحركة الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٤ أدان الامبريالية التي تهدد منطقة الشرق الأوسط وقرر تبني الاستعادة الكاملة لحقوق الشعب الفلسطيني في وطنه القومي وحقه في تقرير المصير ، وأعلن تأييد حركة عدم الانحياز الكامل لشعب فلسطين في كفاحه للتحرر من الاستعمار والعنصرية ، كما أيد حق جميع الشعوب التي تنادي باستقلالها بما في ذلك حقها في تقرير المصير والتخلص من الاحتلال الأجنبي ، وكان للحركة دور في دعم استقلال انجولا وموزمبيق وناميبيا وإلى التخلص من نظام الفصل العنصري وسياسة الابارتهيد التي كانت سائدة في جنوب أفريقيا واجراء انتخابات هناك بالمشاركة الكاملة لجميع المواطنين من سود وبيض

أما بالنسبة للموضوعات الاقتصادية ، فإن مؤتمر القمة الثاني للحركة الذي عقد عام ١٩٦٤ في القاهرة برئاسة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر خصص فصلا كاملا من نتائجه لموضوعات التنمية الاقتصادية والتعاون



الالتفاف الشعبي حول جمال عبد الناصر وشكري القوتلي أثناء مباحثات الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨

الاقتصادى الدولى .

وكان لجهود مصر - مع غيرها من الدول الرائدة فى الحركة مثل الهند ويوغسلافيا وكوبا - تأثير فى مواقف الحركة ومجموعة السبعة وسبعين وفى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية المعنية لاعتماد مبادرات دولية هامة لصالح تعزيز جهود التنمية وتوحيد صفوف الدول النامية فى هذا الشأن ومن أمثلة ذلك :

١ - اعتماد الاستراتيجية الدولية للتنمية فى الجمعية العامة للأمم المتحدة بما فى ذلك تحديد هدف المساعدات الرسمية للتنمية بنسبة ٠,٧٪ من الناتج القومى الاجمالى للدول المتقدمة .

٢ - إصدار الأمم المتحدة لقرار الجمعية العامة التاريخى حول السيادة الدائمة على الموارد الطبيعية .

٣ - قرار القمة الرابعة لحركة عدم الانحياز فى الجزائر عام ٧٣ حول الآثار الاقتصادية للعدوان الاسرائيلى على الدول العربية ، والذى أدان إقامة وتوسيع المستعمرات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة ، واستنزاف اسرائيل للثروات الطبيعية فى الأراضى المحتلة ، والمطالبة باستعادة شعوب المنطقة لحقوقها غير القابلة للتصرف وممارستها لسيادتها كاملة على ثرواتها الطبيعية وغيرها من الثروات ، وكان هذا القرار حاسما فى توجيه مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة فيما بعد واستصدار القرارات المقابلة حول هذا الموضوع .

٤ - الاعتماد الجماعى على الذات للدول غير المنحازة وغيرها من الدول النامية لتعزيز التعاون

فيما بينها من خلال التعاون الاقتصادى والتعاون الفنى فيما بين الدول النامية (ECDC) و (ECTC).

٥ - الدعوة لإقامة نظام اقتصادى دولى جديد يتسم بالعدالة والانصاف ، وكانت هذه الدعوة أساسا لعقد الدورة السادسة الخاصة والدورة السابعة الخاصة للجمعية العامة حول إنشاء نظام اقتصادى دولى جديد عامى ٧٤ و٧٥ .

٦ - وضع الخطوط والتوجيهات لوفود الدول النامية التى شاركت فى الحوار بين الشمال والجنوب من خلال مؤتمر التعاون الاقتصادى الدولى الذى عقد فى باريس بدعوة من الرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان خلال الفترة من ديسمبر ٧٥ وحتى يونيو ١٩٧٧ . وقد كان لى شرف المشاركة فى وفد مصر فى ذلك المؤتمر الذى ضم تسع عشرة دولة نامية وثمانى دول متقدمة منها المجموعة الاقتصادية الأوربية . وقد فشل ذلك المؤتمر فى التوصل إلى أى نتائج مرضية سواء بالنسبة لإمدادات الطاقة أو ضمان استثمارات الدول المصدرة للبترول أو القطع بالتزامات محددة حول المساعدات الرسمية للتنمية أو تخفيف عبء ديون الدول النامية .

٧ - مبادرة حركة عدم الانحياز عام ٧٩ ببدء مفاوضات شاملة فى الأمم المتحدة كبديل لمؤتمر باريس ، ولم تؤد تلك المفاوضات لتحسين وضع الدول النامية لإصرار الدول المتقدمة على الهيمنة .

مجموعة السبعة وسبعين :

ترجع نشأة مجموعة السبعة وسبعين تاريخيا إلى تأثير ثورة ٢٣ يوليو بدعوة القيادة المصرية للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٢ إلى الاجتماع الوزارى الأول للدول النامية حول مشاكل التنمية الاقتصادية للدول النامية وما صدر عنه من إعلان القاهرة والذى تناول مشاكل التجارة والتنمية والمواد الأولية ومساعدات التنمية وتدفق الاستثمار ومشاكل التصنيع.

وكان مؤتمر القاهرة وما تمخض عنه من نتائج مقدمة للحملة التى قامت بها مصر ومعها العديد من الدول النامية فى الأمم المتحدة لعقد مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (UNCTAD) .

وقد عقد المؤتمر دورته الأولى فى جنيف فى مايو/ يونيو ١٩٦٤ برئاسة المرحوم الدكتور عبدالمنعم القيسونى وزير الاقتصاد المصرى حينئذ ، وانتهى المؤتمر بإصدار الدول النامية لإعلان مشترك حول إنشاء تجمع اقتصادى للدول النامية هو مجموعة السبعة وسبعين فى ١٥ يونيو ١٩٦٤ : وقد أشار الاعلان المشترك فى فقرته الأولى إلى أن إنشاء المجموعة يرجع إلى جهود الدول النامية المتواصلة لتنسيق مواقفها وتعبئة طاقاتها والتى بدأت بإعلان القاهرة الصادر عن الاجتماع الوزارى الأول للدول النامية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٦٢ كخطوة هامة على طريق إنشاء نظام اقتصادى عالمى جديد وعادل يستند إلى اعادة تقسيم العمل الدولى ، بما يعجل من عملية التصنيع فى الدول النامية ورفع مستويات المعيشة

لشعوبها .

وقد عقد الاجتماع الوزارى الأول للمجموعة بعد ذلك فى الجزائر عام ١٩٦٧، حيث تم اعتماد «ميثاق الجزائر» الذى أنشأ هيكلا مؤسسيا دائما للمجموعة ، فأنشأ بالإضافة إلى اجتماعات المجموعة فى نيويورك حيث المقر الرئيسى للأمم المتحدة ، أنشأ فروعا (CHAPTERS) لمجموعة السبعة وسبعين فى العواصم والمدن التى توجد بها مقار لعدد من المنظمات الدولية والوكالات المتخصصة الهامة وذات الصلة بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الدول النامية ، وهكذا نشأت فروع لمجموعة السبعة وسبعين فى روما حيث مقر منظمة الأغذية والزراعة (FAO)، وفى فيينا حيث مقر منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (UNIDO) والوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA)، وباريس حيث مقر منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (UNESCO)، ونيروبى حيث مقر برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP) .

هذا وتجدر الاشارة إلى أن المشاورات داخل مجموعة السبعة وسبعين تمخضت عن الحاجة إلى تنسيق مواقف الدول النامية بمناسبة الاجتماعات السنوية للبنك الدولى للتعمير والتنمية (WORLD BANK) وصندوق النقد الدولى (IMF) فى واشنطن، فتقرر إنشاء مجموعة مصغرة من الدول النامية يوكل إليها مثل هذا التنسيق ، وهى مجموعة الأربعة وعشرين .

ثم نشأت مجموعة مصغرة من الدول النامية ذات الاقتصاديات البازغة هى مجموعة الخمسة عشر منذ عام ١٩٨٩ . ورغم أن عدد البلدان النامية زاد حتى أصبح الآن ١٣٣ دولة إلا أن اسم المجموعة لم يتغير وتم الاحتفاظ به كمجموعة السبعة وسبعين لما له من مغزى تاريخى .

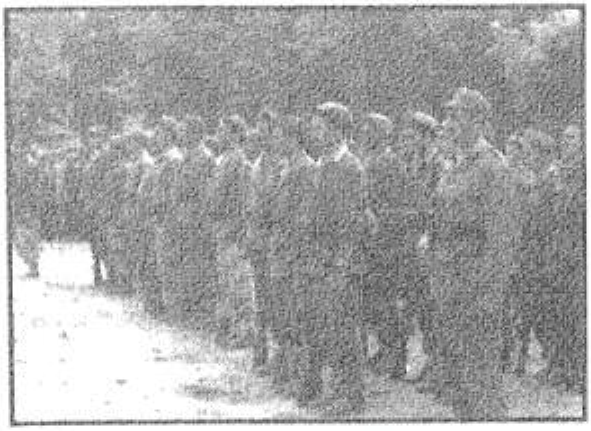
أهداف المجموعة :

وتعتبر مجموعة السبعة وسبعين أكبر تجمع للعالم النامى فى إطار الأمم المتحدة ، والهدف من إنشائها واجتماعاتها هو صياغة والدفاع عن المواقف والمصالح الجماعية لدول المجموعة فى المجال الاقتصادى ، وتدعيم قدراتها التفاوضية فى جميع الموضوعات الاقتصادية الدولية الكبرى فى إطار نظام الأمم المتحدة ، بالاضافة إلى تشجيع التعاون الاقتصادى والفنى فيما بين الدول النامية .

هيكل المجموعة :

ويتميز تنظيم ووسائل عمل مجموعة السبعة وسبعين فى مختلف فروع المجموعة بالحد الأدنى من المواقف المشتركة والمتشابهة فى العضوية وفى اتخاذ القرارات ووسائل التنفيذ العملى لتلك المواقف .

ويتم تنسيق المواقف فى كل من فروع المجموعة بواسطة رئيس يعتبر المتحدث الرسمى باسم المجموعة . ويتم التناوب فى رئاسة المجموعة فيما بين المجموعات الجغرافية الثلاث : بين افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والكاريبى . وتستمر رئاسة



جيش التحرير الجزائرى ساندته الثورة المصرية فى كفاحه للحصول على الحرية

المجموعة لمدة سنة فى كل فرع من الفروع . وترأس فنزويلا المجموعة فى نيويورك عام ٢٠٠٢ . وسبق لمصر أن تولت رئاسة المجموعة مرتين فى نيويورك منذ إنشائها فى سنة ٧٣/٧٢ وفى سنة ٨٥/٨٤ . كما ترأس مصر المجموعة فى جنيف عام ٢٠٠٢ .

ويعتبر الاجتماع الوزارى للمجموعة أعلى سلطة لاتخاذ القرار . ويعقد مرة فى السنة على هامش الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك ، كما يعقد دوريا بمناسبة الإعداد لمؤتمرات الأمم المتحدة للتجارة والتنمية التى تعقد مرة كل أربع سنوات . كما تعقد للاعداد للمؤتمر العام لكل من اليونسكو واليونيدو كما تعقد دورات خاصة للاجتماع الوزارى لمجموعة السبعة وسبعين كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وهكذا عقد اجتماع وزارى للمجموعة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على إنشاء المجموعة فى كراكاس فى يونيو ١٩٨٩ وبمناسبة مرور ثلاثين عاما على إنشاء المجموعة فى نيويورك فى يونيو ١٩٩٤ .

وقد عقدت أول قمة لمجموعة السبعة وسبعين فى هافانا فى ابريل عام ٢٠٠٠ وهكذا أصبح أعلى مستوى سياسى لاتخاذ القرار فى المجموعة على مستوى القمة منذ ذلك الحين .

وبالنسبة لمتابعة وتنسيق أنشطة مجموعة السبعة وسبعين تعقد اللجنة الحكومية للمتابعة والتنسيق على مستوى كبار المسئولين، وتعقد مرة كل سنتين The Intergovernmental Follow. up Cordination committee on Economic Cooperation anong Developing

Countries (IFCC) وذلك لمتابعة مدى التقدم فى تنفيذ برنامج عمل كراكاس The Caracas Programme of Action (CPA) والذى تم اعتماده في الاجتماع الوزارى لمجموعة السبعة وسبعين فى عام ١٩٨١.

وهكذا نرى أن إشعاع ثورة ٢٣ يوليو على الدول النامية وتأثيرها كان كبيراً ومتعاظماً فى إطار مساندة حق الشعوب فى تقرير مصيرها وحصولها على الحرية والاستقلال السياسى والاقتصادى، بإنهاء الاحتلال الأجنبى وتحقيق السيادة الفعلية لكل دولة على مواردها الطبيعية، ووضع حد لسيطرة الاستعمار على الاقتصاد والتجارة الخارجية فى مختلف الدول النامية بالحصول على نصيب عادل من حصيلة تجارتها الخارجية وتوجيه مواردها لخدمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية على طريق رفع مستويات المعيشة لشعوبها.

ومن هنا كان دور مصر الثورة فعالا ومؤثراً فى مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥، وحاسما فى نشأة حركة عدم الانحياز التى وضعت مبادئها وأهدافها فى القاهرة عام ١٩٦١، ثم فى تجمع الدول النامية من خلال مؤتمر الدول النامية الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٦٢ وفى إنشاء مؤتمر التجارة والتنمية (UNCTAD) ومجموعة السبعة وسبعين عام ١٩٦٤ والتى تطورت حتى عقدت أول قمة لها فى هافانا عام ٢٠٠٠.

ونظراً للتداخل فيما بين اهتمامات وأنشطة حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين وخاصة بالنسبة للموضوعات الاقتصادية والتعاون الدولى من أجل التنمية، فقد تم الاتفاق على ضرورة إيجاد آلية للتنسيق فيما بين التجمعين خاصة فى ظل العولمة والتحول الى اقتصاد السوق وانهيار الاتحاد السوفييتى وحلف وارسو، وما تواجهه الدول النامية من تحديات العولمة وهيمنة الدولة المتقدمة من خلال الشركات عبر القومية على الاقتصاد العالمى، لذلك تم الاتفاق على إنشاء لجنة مشتركة للتنسيق فيما بين حركة عدم الانحياز ومجموعة السبعة وسبعين تعقد اجتماعات دورية فى نيويورك لإعداد مواقف مشتركة بالنسبة للنظام الاقتصادى والتجارى والنقدى والمالى فى العالم وموقف الدول النامية من ضرورة إصلاح تلك النظم وكيفية اتخاذ القرار فيها على نحو ديمقراطى بما فى ذلك تنفيذ تعهدات الدول المتقدمة للدول النامية سواء بالنسبة للمساعدات الرسمية للتنمية أو تدفقات الاستثمار أو استقرار الأسواق المالية ونقل التكنولوجيا والبيئة وتخفيف عبء مديونية الدول النامية. وقد تأكد ذلك فى آخر قمة لحركة عدم الانحياز فى ديربان فى جنوب أفريقيا عام ١٩٩٨ وقمة الجنوب التى عقدت فى هافانا عام ٢٠٠٠. ■

مصر والطاقة النووية خلال نصف قرن

بقلم : د. فوزى حماد

كان إلقاء القنبلتين النوويتين على هيروشيما ونجازاكى فى أغسطس ١٩٤٥ إعلاناً مدوياً ببداية العصر النووى. وسبق هذا التدمير الهائل جهود سرية هائلة منذ اكتشاف الانشطار النووى في برلين فى أواخر عام ١٩٣٨، وانتقاله إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٩، ثم موافقة الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت، بناء على خطاب توصية من أينشتين فى أكتوبر ١٩٣٩، على صناعة القنبلة الذرية . وأنشأ الرئيس الأمريكى لجنة اليورانيوم لدراسة هذا الموضوع وحصر الإمكانيات العلمية الأمريكية فى الجامعات الأمريكية، وتم بناء أول مفاعل نووى صغير، الذى أثبت إمكانية التوصل إلى تفاعل انشطار نووى متواصل، ثم مشروع مانهاتن - أكبر مشروع فى التاريخ منذ بناء الهرم الأكبر - لإنتاج اليورانيوم ٢٣٥ والبلوتونيوم - ٢٣٩ وصناعة القنبلة النووية

وعقب السباق النووى الذى حدث بعد هيروشيما، تحرك الرئيس أيزنهاور نحو برنامج «الذرة من أجل السلام» الذى أعلنه من على منبر الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٥٣، وتضمن البرنامج إزالة السرية عن النشاط النووى ونشر نتائج البحوث فى المجلات النووية السلمية وتبادل المواد النووية. فى إطار هذا الانفراج النووى أصدر الرئيس جمال عبدالناصر فى فبراير ١٩٥٥ قراراً بإنشاء لجنة الطاقة الذرية وبدأت مشوارها النووى ونتناول فى هذا المقال المراحل المختلفة للبرنامج النووى المصرى وهى كما نرى:

- مرحلة الإنشاء والتكوين ١٩٥٥ - ١٩٦٠.
- البرنامج النووى فى ظلال ديمونا ١٩٦٠ - ١٩٦٧ .
- تعدد الهيئات وتعدد المشاريع النووية.



تتضمن الوثائق الأمريكية المحاولات الدائمة للحيلولة دون السير في طريق تطوير النشاط النووي في مصر. وضرورة إخضاع مفاعل انشاص إلى التفتيش الدوري بل وسعت الولايات المتحدة إلى الحصول على حقها في التفتيش.

وهذا محضر لقاء بين عبد الناصر و تالبوت السفير الامريكي في ١٨ إبريل سنه ١٩٦٥

مرحلة الإنشاء والتكوين.
١٩٦٠ - ١٩٦٥.

كانت إسرائيل أول دولة في المنطقة، عقب مشروع إيزنهاور تعلن عن تكوين لجنة للطاقة الذرية، ففي نوفمبر ١٩٥٤ أعلن العالم إرنست برجمان رئيس لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية عن هذه اللجنة. وفي هذا العام أيضاً قدمت الحكومة الأمريكية لإسرائيل عرضاً بإنشاء مفاعل تجريبي بحثي قدرته ٥ ميجاوات يستعمل وقوداً عالي الاغناء (الإثراء) نسبة اليورانيوم٢٣٥ فيه تصل إلى ٩٣٪. وللتعامل مع هذا العرض كان على إسرائيل أن تعلن عن لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية التي شكلت سراً في يونيو ١٩٥٢، في وقت قيام الثورة المصرية. في ظل البرنامج الأمريكي الجديد ، وفي إطار العرض الأمريكي على إسرائيل، وإعلان تكوين لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية جاء التحرك المصري في عام ١٩٥٥ في مجال الطاقة النووية، أصدر الرئيس جمال عبدالناصر في ١٧ فبراير بصفته رئيسا للوزراء قراراً بتشكيل لجنة للطاقة الذرية تابعة لرئيس الوزراء من خمسة أعضاء برئاسة وزير التعليم (كمال الدين حسين) وتولى الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن مهام سكرتارية اللجنة وإدارتها بجانب عمله أميناً عاماً لمجلس الوزراء وقد اختصت اللجنة بالنظر في كل مايتعلق بالطاقة الذرية واستخداماتها وتطبيقاتها السلمية.

وفي مارس ١٩٥٥ اعتمد مجلس الوزراء قرارات السيد رئيس الوزراء وتحدد اختصاص اللجنة في إعداد وتنسيق وتنفيذ كل مايتعلق بالطاقة الذرية من برامج ومشروعات وبحوث ودراسات علمية ومناهج التدريب وأجهزة وأدوات وإعداد التشريعات واللوائح اللازمة لتقدم بحوث الطاقة الذرية والعمل على استخدامها في مختلف الأغراض السلمية.

وفي ٣٠ مارس ١٩٥٥ وافق مجلس الوزراء على البرنامج الذي أعدته اللجنة في المرحلة الأولى من العمل وقد تكون البرنامج من المشاريع التالية:

- إعداد الأفراد.
- إنشاء مركز للنظائر المشعة
- الكشف عن الخامات الذرية
- إنشاء معمل للطبيعة النووية
- إنشاء مفاعل ذري.

وقد أشرف على إعداد هذا البرنامج الدكتور

إبراهيم حلمى عبد الرحمن وهو فى تقديرى أول برنامج علمى متكامل فى تاريخ مصر الحديثة ، وتم إقراره بواسطة أعلى سلطة سياسية وهو مجلس الوزراء بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر.

وجاء هذا البرنامج متوازناً يجمع بين العلم والتطبيق، ويبدأ لأول مرة فى مصر الكشف عن الخامات الذرية وفى مقدمتها اليورانيوم مادة العصر النووى، ثم إنشاء مفاعل نووى مع الاهتمام بعلم الطبيعة النووية النظرى والتجريبى وهو أساس مهم من أسس العلوم النووية .

وأشرف أيضاً على تطبيق وتنفيذ هذا البرنامج فى الفترة من ١٩٥٥ - ١٩٨٥ الدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن، عالم الفيزياء والفلك الذى درس فى جامعات لندن وأدنبرة وكامبردج فى بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان لصلته القوية بالسلطة السياسية وقيامه بمهمة أمن مجلس الوزراء دافع للتقدم السريع فى هذه الفترة ، وقد تفرغ بعد ذلك للتخطيط القومى ابتداء من عام ١٩٥٨ .

بداية الاستخدامات السلمية

بدأ العمل فى مركز النظائر المشعة فى يوليو ١٩٥٥ فى مقر مؤقت بجامعة عين شمس، وتم تزويد المركز بالأجهزة والمعدات لاستخدام النظائر المشعة فى التشخيص والعلاج . ومن هنا انطلقت الاستخدامات الطبية النووية وهى أعظم تطبيقات الطاقة الذرية. ونعتقد أن الدافع وراء ذلك أن السيدة أم كلثوم مطربة الشرق كانت قد أصيبت بمرض فى الغدة الدرقية، وسافرت للعلاج فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٤ باستخدام النظائر المشعة وانتشر النبأ فى الصحف مما أعطى مساحة لمعرفة بعض استخدامات الطاقة الذرية مبكراً .

بداية الاحتكاك الدولى

شاركت مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة الأول للاستخدامات السلمية الذرية الذى عقد فى جنيف فى أغسطس ١٩٥٥ من خلال وفد رفيع المستوى قدم ثلاث أوراق توضح اتجاهات استخدامات الطاقة النووية .

- الورقة الأولى عن احتياجات مصر من الطاقة الذرية .
- الورقة الثانية عن اليورانيوم.
- الورقة الثالثة عن الوقاية من الاشعاع.

وهى اتجاهات رئيسية حتى الآن فى مجال الطاقة النووية وبنهاية عام ١٩٥٥ صدر القانون ٥٠٩ لسنة ١٩٥٥ (٢٣ اكتوبر) بإنشاء لجنة الطاقة الذرية لتمكين الدولة من الاستخدامات النووية السلمية.

وتوج كل ذلك القرار الجمهورى ٢٨٨ لسنة ١٩٥٧ الذى حول اللجنة إلى مؤسسة عامة تمارس نشاطا علمياً وحدد أقسام الهيئة ونظامها والهيكل الإدارى وطبق قانون الجامعات على الموظفين العلميين . ونقل تبعية المؤسسة إلى رئيس الجمهورية أو من يفوض من الوزراء.

على الجانب الإسرائيلى

وقعت إسرائيل والولايات المتحدة فى يوليو ١٩٥٥ عقداً على شراء المفاعل البحثى الذى أشرنا إليه سابقاً وهو مفاعل نحال سوريق . لم يكن هذا المفاعل من النوع الذى عملت إسرائيل على امتلاكه فلقد كان تخطيطهم منذ عام ١٩٤٩ على امتلاك مفاعل من طراز الماء الثقيل - اليورانيوم الطبيعى لإنتاج البلوتونيوم وإنتاج القنبلة الذرية. ولكنهم قبلوه لتقوية إمكانياتهم البحثية والتدريبية وإنتاج النظائر . ومن المهم الإشارة إلى أنه أثناء مؤتمر جنيف أوضحوا للجانب الأمريكى رغبتهم فى الحصول على البلوتونيوم واكتساب الخبرة فى هذا العنصر الجديد والتدريب عليه . وأنهم يريدون مفاعلات حقيقية أى مفاعلات إنتاج البلوتونيوم .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن النشاط الذرى الإسرائيلى بدأ بإنشاء قسم للنظائر بمعهد وايزمان للعلوم فى عام ١٩٤٩ برئاسة العالم الكيميائى ارنست برجمان وهو يهودى ألمانى

واهتم باستخراج اليورانيوم من خام الفوسفات ويحوث الماء الثقيل ونظراً للتقدم العلمي في هذا المجال للإسرائيليين فقد بدأ برنامج للتعاون مع فرنسا في المجالات النووية وكانت فرنسا تعمل في مفاعلات الماء الثقيل اليورانيوم الطبيعي ، وسمحت لهم فرنسا بالتدريب والمشاركة في العمل الفرنسي في هذا المجال .. وأصبح هدف إسرائيل هو بناء هذا الطراز من المفاعلات ، ولقد تحقق لها ذلك في ظروف العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦ .

التعاون مع الاتحاد السوفيتي

عام ١٩٥٦ كان بداية التحرك نحو تنفيذ مشاريع الطاقة الذرية . كان هذا العام مليئاً بالأحداث السياسية، فقد شهد صداماً مع الغرب بعد أن سحبت الولايات المتحدة عرضها بتمويل مشروع السد العالي، وأعقب ذلك تأميم قناة السويس في يوليو ثم العدوان الثلاثي في نوفمبر ١٩٥٦ في فبراير ١٩٥٦ تم توقيع عقد معامل الطبيعة النووية وفي مقدمتها معجل الفان دي جراف . وفي يونيو ١٩٥٦ تم توقيع الاتفاق الثاني للتعاون في مجال الاستخدامات السلمية النووية تمهيداً لتوقيع عقد المفاعل النووي الذي تم في سبتمبر. كانت قدرة المفاعل ٢ ميجاوات ويستخدم وقوداً مثرى بدرجة ١٠٪ يورانيوم ٢٣٥ ، وهو من نوع المفاعلات النمطية التي يصدرها الاتحاد السوفيتي لدول الكتلة الاشتراكية . إن إمكانيات هذا المفاعل أقل من إمكانيات مفاعل نحال سوريق الإسرائيلي الذي أشرنا إليه . وكان يمكن اختيار مفاعلات سوفييتية أكثر قدرة. ولكن يبدو أن الجانب المصري لم يطلب ذلك، ويمكن تبريره بأن الخبرة في هذا المجال كانت في بدايتها، ولم تكن هناك معرفة بالنشاط السوفييتي. وكنت أعتقد أن وجودنا في مؤتمر جنيف كان كفيلاً بأن نتابع التطورات في مجال أبعاد المفاعلات النووية، وخاصة أنه في عام ١٩٥٥ تعاقدت الهند على شراء مفاعل من كندا من طراز الماء الثقيل– اليورانيوم الطبيعي قدره ٤٠ ميجاوات ، وربما أيضاً لأن الاتصالات الدولية المصرية بالعالم النووي لم تكن كافية ولم تكن متاحة . مثل الاتصالات الإسرائيلية الفرنسية ، كما أن كثيراً من العلماء اليهود كانوا على صلة بالتطورات النووية في العالم . كذلك كانت الهند عن طريق العالم هومي بهابها مهندس البرنامج النووي الهندي الذي درس في كمبردج الفيزياء النووية وكان على صلة بالدوائر العلمية النووية ، وكان عبدالقدير خان مهندس البرنامج النووي الباكستاني في قلب صناعة إغناء اليورانيوم الأوربية ، وتجدر الإشارة هنا أيضاً أنه بعد توقيع عقد مفاعل انشاص بحوالي شهر، وافقت فرنسا في أكتوبر ١٩٥٦ أثناء مفاوضات سيفر للإعداد للعدوان الثلاثي على إعطاء إسرائيل مفاعلا يمكنها من صنع القنبلة الذرية وهنا تكللت الجهود الإسرائيلية التي بدأت في عام ١٩٤٩ بالنجاح ، وبدأ حلم إسرائيل النووي في التحقق . وتم ذلك في سرية تامة، وسوف نعود إلى ذلك .

القوى البشرية

من الأمور التي أولاها دكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن رعاية كبرى هي التدريب والقدرات البشرية. تم حصر أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الذين تخصصوا في مجالات إشعاعية ونووية وكان عددهم قليلا وتم نقل من يرغب منهم للعمل باللجنة وتم إرسالهم للخارج في الدورات التدريبية التي نظمتها الولايات المتحدة في إطار برنامج الذرة من أجل السلام . كما تم إرسال بعثات للخارج للحصول على درجات علمية للدكتوراه ، وأخذ ذلك وقتاً كبيراً ومن الخطوات المهمة اختيار عدد من أوائل طلاب الثانوية العامة في عام ١٩٥٦ وإرسالهم في بعثات للاتحاد السوفييتي لدراسة العلوم النووية على مستوى البكالوريوس ثم درجة الدكتوراه وخاصة في مجال الفيزياء النووية والرياضيات. وشكلت هذه

المجموعة قدرة علمية مصرية مهمة في هذه المجالات.

موقع إنشاص - المفاعل

في عام ١٩٥٦ أيضاً تم تخصيص مساحة ٤كم٢ على بعد حوالي ٤٠كم شمال شرق القاهرة في منطقة تقع على الحدود بين محافظتي القليوبية والشرقية (وبين أبو زعبل وانشاص) ليكون موقع النشاط النووي الأساسي في مصر .. ويطلق عليه اسم انشاص .

وبدأت حركة الانشاءات في هذا الموقع، كان أولها معامل الطبيعة النووية وأهمها معجل فان دي جراف الذي انتهى في عام ١٩٥٩ ثم قسم الوقاية (١٩٦١) وقسم الجيولوجيا والخامات الذرية (١٩٦١) وهكذا .. ولازال العمران العلمي يمتد في هذا الموقع الذي يتسع ليكون مدينة العلوم والتكنولوجيا النووية، وكان درتها في هذا الوقت مفاعل مصر البحثي الأول ودرتها الآن مفاعل مصر الثاني - متعدد الأغراض، والسيكلوترون أو المعجل الدائري وهي من مرافق العلم الكبير والتكنولوجيا المتقدمة .

نعود إلى مفاعل مصر البحثي الأول ، لم يكن تشييده أمرا سهلاً ، حدث تأخر في التشييد عن الجدول الزمني المحدد ، في فترة فراغ إداري حينما ترك الدكتور إبراهيم حلمي الطاقة الذرية قبل تولي السيد صلاح هدايت رئاسة هيئة الطاقة الذرية في عام ١٩٦٠ .

شرح السيد صلاح هدايت هذه الظروف في احتفال بسيط ، أشرفت على تنظيمه في مبنى المفاعل بانشاص في عام ١٩٩١ بمناسبة مرور ٣٠ عاماً على تشغيل المفاعل لتكريم الرواد الذين ساهموا في إقامة هذا العمل.

ذكر السيد هدايت أن الرئيس جمال عبدالناصر استدعاه للمقابلة ، وذكر له أن السوفييت شكوا من التأخير في التنفيذ، بالرغم من أن كل المعدات موجودة في الموقع، وطلب منه تولي مسئولية هيئة الطاقة الذرية والإشراف على عملية التشييد للانتهاء منها في أقرب فرصة ممكنة. ولقد قام هدايت - رحمه الله فقد فاضت روحه منذ عدة أسابيع - بالمهمة خير قيام ، فهو ضابط حصل على بكالوريوس علوم - كيمياء ، وخبير مفرقعات . وكون فريق عمل متكاملا يضم كل التخصصات والخبرات اللازمة، أتى بهم من جهات مختلفة لتدعيم طاقم المهندسين بالهيئة، وفي مطلع عام ١٩٦١ بدأت اختبارات بدء التشغيل ووصل المفاعل درجة الحروجية .

في فبراير ١٩٦١ بدأ المفاعل في العمل وتم الحصول على أول تفاعل انشطار نووي متسلسل في «مصر والأمة العربية» ، وذلك بعد ١٩ عاماً من تشغيل مفاعل فيرمي شيكاغو -١ أول مفاعل في العالم في ديسمبر ١٩٤٢ كان المفاعل المصري خامس مفاعل بحثي في أفريقيا وآسيا، وقد سبقه مفاعل أسبارا الهندي قدرة ١ ميجاوات (٨/٥٦)، ونحال سوريق - إسرائيل ٥ ميجاوات، وقد أشرنا إليه (٦/٥٨) - تريكو - ١ زائير ٦/٥٩ (تم إيقافه في عام ١٩٧٠ ، والمفاعل الكندي الهندي - ٤٠ ميجاوات (٧/٦٠) الذي أشرنا إليه أيضا وهو أكبر مفاعل بحثي خارج الدول الكبرى. كل هذه المفاعلات بحثية وتدريبية وتستخدم لإنتاج النظائر ماعدا المفاعل الكندي - الهندي - فهو مفاعل إنتاج بلوتونيوم يستخدم اليورانيوم الطبيعي ، ويهدئ بالماء الثقيل .

مقابلة مع إبراهيم حلمي عبد الرحمن

أود أن أشير هنا إلى مقابلة تمت بيني وبين السيد الدكتور إبراهيم حلمي في عام ١٩٩٥ . أردت أن أستوضح الموقف في الفترة التي تولى فيها إنشاء لجنة الطاقة الذرية وإعداد مشروعاتها وتنفيذها . وسألته صراحة هل كانت هناك أي أهداف عسكرية .. ولكنه أوضح لي أنه لم يكن هناك أي توجيهات بذلك، وذكر أنه كان بلجنة الطاقة الذرية عضو يمثل القوات المسلحة وكان

يحضر كل الاجتماعات ، ولم يحدث أبدا عرض مواضيع عسكرية .

ولذلك كان التخطيط المصرى على ماهو ظاهر من البرامج الإسرائيلية ، ويبدو أنه لم يكن هناك جهد مصرى فى متابعة مايحدث فى إسرائيل سراً أو فى الباطن منذ عام ١٩٤٩، ولم يكن هناك معرفة بعمق الاتصالات الإسرائيلية الفرنسية النووية. كانت إسرائيل على معرفة وثيقة بالاتجاهات الجارية فى العالم حتى السرية منها فالعلماء اليهود كانوا وراء النشاط النووى الأمريكى وفى مشروع مانهاتن. كما كانوا فى كثير من المعامل النووية فى أوروبا . وهذا وضع لم يتح لمصر كما أن إرسال البعثات المصرية جاء متأخرا، وكان فى جامعات وليس فى مراكز بحوث نووية إلا فيما ندر كانت مصر مقطوعة الصلة النووية بالعالم .

عام ٥٦ ومفاعل ديمونا

أشرنا سابقاً إلى الجانب النووى من اتفاقية سيفر فى أكتوبر ١٩٥٦ ونشرنا عن تفاصيل ذلك فى مقال بالمصور (العدد ٣٧٦٠ أول نوفمبر ١٩٩٦) ، وتم تغطية هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب «إسرائيل والقنبلة (الكاتب الإسرائيلى أفنركوهين) الذى نشر فى عام ١٩٩٨» لقد أدركت إسرائيل مبكراً جداً أهمية العلم والتكنولوجيا فى صياغة مستقبل إسرائيل وأمنها . ولقد عبر بن جوريون عن ذلك فى خطاب له بالكنيست فى مطلع الخمسينيات قال فيه:

«إن أمن إسرائيل واستقلالها يتطلب أن يعمل مزيد من الشباب على تكريس جهودهم للعلم والبحوث الذرية والالكترونية والطاقة الشمسية ، وما شابه ذلك». كما اعتقد كثير من العلماء الإسرائيليين ومنهم «ارنست برجمان» بأنه لابديل «أى لابديل عن القنبلة الذرية» لبقاء إسرائيل وتضافرت جهود برجمان تحت قيادة شيمون بيريز مهندس البرنامج النووى الإسرائيلى ورئاسة بن



ابراهيم حلمي عبد الرحمن



صلاح هدايت

جوريون للوصول إلى هذا الهدف، إن الوصول إلى ماتم الاتفاق عليه فى سيفر استلزم قدرات علمية إسرائيلية مفيدة للفرنسيين وتحديد الهدف مبكراً عن نوع المفاعل الذى يريدونه ، والارتباط طويل المدى مع الفرنسيين منذ بداية برنامجهم النووى المستقل عن البرنامج الأمريكى، كماأدت هذه العوامل إلى توثيق العلاقات النووية الإسرائيلية الفرنسية، ورعى ذلك بيريز باستمرار ، ولم تنقطع الرعاية حتى حانت لحظة سيفر . البحث العلمى والتكنولوجيا هما قوة إسرائيل .. هدف لم تحد عنه الحركة الصهيونية قبل إنشاء الدولة وكان فى مقدمته الطاقة النووية وتحرك نحو الفضاء والصواريخ ثم إلى عصر المعلومات والتكنولوجيا المتقدمة .. هذا سر الهيمنة الإسرائيلية التى تجنى ثمارها الآن بكل اقتدار.

فى أكتوبر ١٩٥٧ تم التوصل إلى الاتفاق الفنى والاقتصادى بخصوص ديمونا وكذلك بخصوص محطة إعادة المعالجة وفصل البلوتونيوم، وبدأت أعمال الحفر والإنشاء فى أوائل عام ١٩٥٨ وبدأ يتكشف السر فى ديسمبر عام ١٩٦٠ . وحينما بدأت تشغيل مفاعل مصر البحثى فى انشاص، لم يعد ديمونا سرا.

وفى ٢٦ ديسمبر ١٩٦٣ وصل ديمونا إلى درجة الحروجة وبدأ التشغيل، وفى عام ١٩٦٦ -

١٩٦٧ بلغت إسرائيل مرحلة تطوير سلاحها النووي . وأصبح لديها قوة نووية صغيرة قبل حرب ١٩٦٧ وبحلول عام ١٩٧٠ أصبحت إسرائيل الدولة النووية السادسة في العالم.

وكان هذا موقفاً جديداً ينبغي على مصر أن تواجهه .. موقفا لم تعلم عنه الكثير ولم تتابعه، بل لقد فوجئت به.

في ظلال مفاعل ديمونا

تم وضع الخطة الخمسية ١٩٦٠ - ١٩٦٥ في ظلال مفاعل ديمونا . وفي ضوء تطور الوضع العالمي بالنسبة للمفاعلات القوى النووية وإنتاج الكهرباء . فقد تم تشغيل محطة أمريكية بالولايات المتحدة بالقرب من شيكاغو في عام ١٩٦٠درسدن ١- ، وكانت قدرتها ٢١٠ ميجاوات، وهي من مفاعلات الماء الخفيف، وبدأت الهند مرحلة الكهرباء النووية - بعد أن سيطرت على تكنولوجيا البلوتونيوم - وعملت على إدخال محطة من هذا النوع. في ظل هذه الظروف أشرف السيد صلاح هدايت على صياغة خطة تتناول مايلي:

- إنشاء مفاعل قوى نووي قدرة ١٥٠ ميجاوات كهربي وملحق به محطة لتحلية مياه البحر سعة ٢٠,٠٠٠ متر مكعب وملحق بها مزرعة تجريبية مساحتها حوالي ١٥,٠٠٠ فدان.
- السعي لدى الشركات المتقدمة بتقديم مفاعل تجريبي لأغراض التجارب والبحوث من نوع اليورانيوم الطبيعي والماء الثقيل.
- إقامة دورة وقود نووي بما فيها الطرف الخلفي لدورة الوقود النووي والتصنيع المحلي للوقود.

تبع ذلك نشاط كبير في ظلال ديمونا على النحو التالي :

- في عام ١٩٦١ تم تشكيل لجان للدراسات واختيار موقع المفاعل واختير موقع برج العرب سيدي كرير من ضمن خمسة مواقع رشحت لذلك، والملاحظ أنه تم التوصل إلى هذه الصياغة متأخرا جداً عن إسرائيل والهند.
- في عام ١٩٦٢ تم تشكيل لجنة إنشاء مفاعل القوى ولجنة لتحلية المياه . وتم إنشاء إدارة عامة لمفاعل القوى بالهيئة .
- في عام ١٩٦٣ تم طرح المناقصة العالمية للمفاعل وتحلية المياه ودورة الوقود. فلم تكن هناك علاقات نووية تسمح باتفاقات ثنائية .
- تقدمت ٤ شركات عالمية : منها شركتان ألمانيتان وشركتان أمريكيتان ولم يتقدم الاتحاد السوفييتي بأي عرض بالرغم من الطلب منه .
- في عام ١٩٦٦ تمت الموافقة على عرض من شركة وستنجهاوس وتم إعطاؤها خطاب التزام . كان عرضا ممتازاً لمفاعل قوى نووية قدرة ١٥٠ ميجاوات وبه وحدة لتحلية مياه البحر، وقدمت عرضاً إضافيا وهو مفاعل تجريبي قدره ٣٠ ميجاوات وملحق به وحدة لتصنيع الوقود.
- في نفس الوقت طلبت عرضاً من الاتحاد السوفييتي لإقامة معمل حار لمعالجة الوقود النووي المشع. وشكلت لجنة تسمى لجنة العمل الحار عام ١٩٦٥.

ويعتبر هذا المشروع المتكامل هو الرد المصري على مفاعل ديمونا وهو مشروع سلمي لتوليد الكهرباء وتحلية المياه وفي نفس الوقت يسهم في بناء التكنولوجيا النووية في المفاعل التجريبي ووحدة الوقود النووي.

ولكن حرب ١٩٦٧ كانت على الأبواب ؟ وتوقف هذا النشاط بالكامل؟ فهل كان هذا من أسباب حرب عام ١٩٦٧؟ يعتقد الكثيرون في ذلك ولكن الموضوع يحتاج إلى دراسة تاريخية موثقة.

بالإضافة إلى ذلك يجب أن نشير إلى زيارة صينية حدثت عام ١٩٦٥ .

الزيارة الصينية

في يوليو ١٩٦٥ زار وفد مصري رفيع المستوى الصين برئاسة د. عبد المعبود الجبيلي الذي أصبح مديراً عاماً لمؤسسة الطاقة الذرية . كان ذلك في أعقاب التفجير النووي الصيني في

عام ١٩٦٤.

وقام الوفد بزيارة عدد من المعامل البحثية المتقدمة ومراكز البحوث والجامعات والصناعات التقليدية والمتقدمة، وبعد هذا البرنامج الحافل من الزيارات تمت مقابلات سياسية على أعلى مستوى وطرح فيها التعاون النووى العسكرى .. وكانت الإجابة على أعلى مستوى ..الاعتماد على الذات هكذا تقول المراجع الأجنبية .

وتطرح سؤالا هاماً .. لماذا لم يتم الحديث عن الاستخدامات السلمية قبل الحديث عن الاستخدامات العسكرية ؟

المرحلة الثالثة : تعدد الهيئات - تعدد المشاريع

بدأت عام ١٩٧٤ أثناء زيارة الرئيس نيكسون إلى مصر. وأعلن فيها عن تقديم مفاعل لمصر ومفاعل لإسرائيل لإنتاج الكهرباء. وعقب ذلك تم تقديم عرضين أمريكيين بالطبع أحدهما من شركة وستنجهاوس والآخر من شركة جنرال اليكتريك . وزادت قدرة المفاعلات إلى أكثر من ٦٠٠ ميجاوات. وبدأت المفاوضات واللجان وما إلى ذلك .. وتعيين مكتب استشارى أمريكى .

كما بدأت السفريات من هنا ومن هناك، وحدثت تحركات قوية لإعادة تنظيم الطاقة الذرية استعداداً للمرحلة القادمة فأنشئت هيئة المحطات النووية عام ١٩٧٦ لتتولى هذا المشروع الكبير، ونقل إليها العاملون بالإدارة العامة لمفاعل القوى وعدد من الأساتذة. وفى عام ١٩٧٧ انشئت هيئة المواد النووية ونقل إليها العاملون بقسم الجيولوجيا والخامات الذرية الذى أنشىء فى عام ١٩٥٧.

وفى عام ١٩٧٩ وقع حادث ثرى مايل أيلاند فى أمريكا وتوقف المشروع . ثم بدأت محاولة أخرى فى عام ١٩٨٢ مشروع الضبعة وانتهت فى عام ١٩٨٦ حين وقع حادث تشيرنوبل فى الاتحاد السوفييتى . وبدأت عقب ذلك اتصالات مع كندا لإقامة برنامج تزداد فيه نسبة الاعتماد على الذات .. وانتهت أيضا إلى نفس المصير . قد تكون هناك عوامل سياسية وراء ذلك الفشل المكرر !! ولكن هل تمت إدارة المشاريع بكفاءة ونجاح .. نحن فى حاجة إلى دراسة ذلك قبل أى تحرك جديد .

ولم يتحرك الموقف النووى منذ ذلك التاريخ .. لم تقم مفاعلات لتوليد الكهرباء .. ولم يعلن عن اكتشافات كبيرة لليورانيوم .. تحركنا من مشروع سيدى كرير إلى مشروع الضبعة وغيرها ولم تؤد إلى أى نتيجة.

التحرك الوحيد هو الذى قامت به الطاقة الذرية لإقامة مفاعل بحثى كبير قدرته ٢٢ ميجاوات ومصنع الوقود الملحق به وافتتحه السيد الرئيس حسنى مبارك فى عام ١٩٩٨ وهو أكبر مشروع علمى فى تاريخ مصر الحديثة ، وهو يحتاج إلى رعاية هائلة من كل النواحى .. لكى يؤتى هذا المشروع ثماره ويسهم فى نقلة عصرية نحو التكنولوجيا المتقدمة.

لقد قادت برامج الطاقة النووية السلمية المفاعلات ودورة الوقود النووى العالم المتقدم وكثيرا من دول العالم النامى الهند والصين وكوريا الجنوبية وغيرها إلى عصر التكنولوجيا المتقدمة .. وشكلت رادعا سلميا أمنيا .. ونحن فى أشد الحاجة إلى الردع بالتكنولوجيا النووية السلمية .

مصر الآن عضو فى معاهدة منع الانتشار وتحترم تعهداتها بكل دقة، وتسعى إلى إنشاء منطقة خالية من أسلحة التدمير الشامل . ويجب أن تسعى فى نفس الوقت إلى بناء التكنولوجيا النووية السلمية . ولازال هدف الكهرباء النووية وتحلية المياه هدفا قومياً هاما يجب أن نسعى إليه بكل قوة لندخل إلى المستقبل التكنولوجى . ■

القنبلة الذرية يجب أن تصنعها مصر

بقلم : د.أحمد زكى*

نعم لابد لنا من القنبلة الذرية. لابد لمصر منها ولا تعجب ولا يأخذك مما أقول ذهول واندعار.

وسوف تسأل: لم؟

وسوف تسأل: كيف؟

وسوف أجيبك، فأقول لك لم، وأقول لك كيف.

القنبلة سلاح للإذلال السياسي

لن يمضى خمس سنوات أو عشر، حتى تكون القنابل الذرية عند كثير من الأمم ذات العلم، وذات الصناعة كبيرها والصغير وعندئذ تصبح القنبلة سلاحا للإذلال السياسى خطير. وتصبح أمة صغيرة، عندها قنبلة ولو واحدة، تسيطر إرادتها على أمة كبيرة، لا قنبلة عندها تقول لها افعلى، فإن لم تفعلى فأدمرك فى ساعة تدميرا وخير ذلك أن يكون عند الاثنين قنابل وغير ذلك أن لا يكون عند الاثنين قنابل.

إنها المساواة بينهما فى امكان الدمار العاجل تأتيانه كلاهما معا، فيمنع الخوف المتبادل من دمار أو هى المساواة بينهما فى استحالة الدمار عليهما تأتيانه باستحالة القنبلة أن تكون بأيديهما جميعا.

فإذا أنا رأيت أن أذكر بأمر القنبلة الذرية، أطلبها لمصر جريا مع ما سوف تجرى عليه وإليه الأمم الصغيرة، فى زمان غير بعيد، فما ذلك عن رغبة فى تدمير ناتيه مصر، أو رغبة فى اعتداء تكون فى مصلحته ولكن رغبة فى دفع دمار مادى محقق أو اذلال سياسى شر منه، إذا ما كان لجاراتها أو غير جاراتها من القنابل الذرية ما ليس لها.

إنها جارة تثرثر بالدين

وهى جارة واحدة يجب أن نخشاها أشد خشية.

إنها جارة تثرثر بالدين أكثر مما يجب، وتعتدى باسم الدين وتقتل وتأتى البشاعة باسم الدين كأنه لم يكف البشرية ما أصابها من شرور التعصب الدينى، بين أهل الأديان جميعا، طوال

* الهلال يوليو ١٩٥٧

تلك القرون العشرين أو الثلاثين الماضية.

والدين يدخل قلوب بعض الناس فيكون طمأنينة وسلاما والدين يدخل عقول بعض الناس فيصيبها بالحمى، ويجعل من الرجال الوادعين وحوشا، ومن النساء وهو فساد في بعض العقول شقي به الاسلام طويلا، وشقيت به المسيحية زمانا أطول ولم يشق به من أهل الأديان شقاء تلك الجارة التي ضلت سبيلها إلى الله، وكان الضلال في سالف الزمان لها عادة.

القنبلة من صنع رجال هذه الجارة

ومما يزيد في احتمالات الموقف الحاضر وخطورته أن القنبلة الذرية كانت من صنع رجال يمتون إلى هذه الجارة بصلة من الدماء ذلك أن هتلر في فترة من نزواته، وحماقة من حماقاته، وبناء على رأى فاسد فاجر من آرائه الفاسدة الفاجرة، رأى أن يتخلص من أهل العلم في ألمانيا من غير ذوي الدماء الآرية؛ وضيق عليهم فهاجروا إلى حيث كانوا آخر الأمر وبالا عليه أي وبال.

وكان ممن هاجر منهم إلى أمريكا علماء وكان من هؤلاء العلماء علماء ذرة وقامت الحرب بين هتلر وأمريكا وأخذت ألمانيا فيما كانت آخذة فيه من صنع القنبلة الذرية ونبه هؤلاء المهاجرون رئيس الولايات المتحدة، روزفلت، إلى هذا وكان من العسير تنبيهه وإسماع رجاله ولكنهم سمعوا أخيرا. وأخذت القنبلة طريقها إلى البحث مستندة إلى ما نقله المهاجرون من سر الذرة إلى الولايات ونجح البحث العلمي الذي مهد للقنبلة ودخلت القنبلة دور الصناعة، يدفعها الحذق الفني الرائع والثروة الطائلة والحرب المنذرة، وفي سبيل الحرب يهون العسير ويرخص الغالي وكان من أمر الذرة ما كان ومن أخطر ما كان أن سر الذرة، شقها، وتفجيرها هو اليوم في أيدي تلك الجماعة التي تمت إلى الجارة المجنونة بصلة الدماء.

احتمالات

وتستطيع أيها القارئ أن تتصور ما قد يكون نفر من هؤلاء العلماء يأتي هذه الجارة فيعلمها كيف تصنع القنبلة وهي قنبلة واحدة لا سواها تتحكم في الشرق كله أو قل قنبلتين أو ثلاثا أو تقوم حرب بين الولايات وخصومها، تكون القنبلة من أدواتها ويحملها رجال الولايات إلى هؤلاء الخصوم ومن رجال الولايات هؤلاء القوم المخوفون يكفي أن تأخذ برأسه تلك الحمى الدينية المعتوهة فيتوجه بتلك القنبلة، لا إلى ما قصدتها بها الولايات من خصوم، ولكن إلى من يراهم هو لدينه من أهل هذا الشرق خصما أو تسرق القنبلة من الولايات سرقة القنبلة الذرية، لا الادروجينية فالأولى أصغر وفي الأولى الكفاية غاية الكفاية والسرقة منها المكشوف والمستور. ومن حسن التدبير وسائل يضفى عليها عند الخروج مظاهر السرقة، وإغماض عين بعض الرؤساء المسئولين، كل شيء يجوز، وفي سبيل الله يجوز!

وكم زعموا لله عند أهل هذه الأرض من سبيل وطئها الإنسان، ما كان قد شقها غير الشيطان.

الأمر جليل خطير

الأمر إذن جليل

والأمر إذن خطير

ولن يقال أن تفكيرا على هذا النحو غلا وبالغ، وذهب مع الخيال من غير ضابط فنحن في عصر زالت فيه الحواجز ما بين الممكن وغير الممكن ما

بين الحقيقة والخيال ولو أن شيئا حق له أن يقع واقعا في نطاق الخيال دون الحقيقة لكان خراب الدنيا أحق الأشياء بالبقاء في هذا النطاق.. ولكن خراب الدنيا تعدى منطقة الخيال فدخل منطقة الحقيقة. وليس بعد خراب الدنيا المنذر شئ يقال له لا يمكن، لاسيما إذا هو اتصل بالخراب والتخريب ولاسيما إذا هو اتصل بضمائر الناس وضمائر الأمم.

السبيل إلي القنبلة ليست وعرة

والسبيل إلى القنبلة ليست اليوم بالسبيل الوعرة الكثيرة الوعورة أن كل شئ وعر في أوله، مستعص وهو كثير النفقة فإذا عرفت موضعه، فقد تجد طريقا إليه أقصر، وأقصر كثيرا وتبلغه على أسلوب أرخص وأرخص كثيرا.

والقنبلة الذرية الأولى، تلك التي كلفت الولايات في البحث عنها بضع مئات من ملايين الجنيهات لا تتكلف الكثرة منها اليوم الا كسرا ضئيلا من هذا، هو لا شك غاية في الضآلة لا يتناسب مع تلك النفقات الأولى، والطرق الفنية اختزلت والعمليات المعقدة تبسطت.

يدلك على هذا أن اليورانيوم نفسه أصبح مادة من مواد التجارة نعم أنه لا يتداول إلا بإذن ولكنه يباع للأفران الذرية في الولايات كما يباع القطن، إن الولايات المتحدة تعالج من خامة اليورانيوم ٨٩٠٠ طن في اليوم، وكندا، وبها أربعة أمثال الخامة بالولايات، تنتج اليورانيوم وسوف تبز الولايات في انتاجه في العام القادم. والولايات المتحدة بنت في عام ١٩٥٦ نحوا من ٧٨ فرنا ذريا لمن اشترى أو يشترى، وكلها لانتاج الكهرباء.

ومن انتاج الأفران الذرية إلى انتاج القنبلة اليورانيومية خطوة ليست بطويلة.

لن يمضي من الزمن سنوات حتى تحتل الذرة المحل الأول في الصناعة، وتتضاءل مكانة الزيت. فالذي يسبق إلى الذرة، وإلى علم الذرة، وإلى فنها، بل إلى ما يحيط بها من فنون فإنما يسبق إلى المستقبل، إلى خيره وإلى شره.

نود السلام لأهل الأرض جميعا

إن الشرق العربي، وغير العربي لا يود إلا السلام، وإلا الرفه والسعادة لبني الإنسان. لأولئك الأبناء من البشر الذين يعرفون معنى التعايش، ولا يغتصبون الناس أموالهم، ولا يخرجونهم عن ديارهم وهم يطلبون الذرة وعلم الذرة، وفنون الذرة، من أجل السلم والسلام فإن هم طلبوا وراء ذلك شيئا، فإنما هم يطلبونه كما تطلب أنت الخنجر، تحمله مغمدا في جرابه عند خاصرتك، عندما ترى من لا يرعون لبني الناس حقوقا، ولا يخشون الله، قد حملوا الخناجر، غير مغمدة، يلوحون بها ويعتدون والشرق العربي، وغير العربي، لا يود أن يستيقظ يوما ليسمع أنه أصبح لقنبلة ذرية واحدة عبدا أن قنبلة واحدة تكون في يد تلك الجارة التي أعني سوف تصيبها فوق جنونها الديني، بجنون ذري، هو من بعض جنون القوة في اليد التي لا تبالي العواقب.

فإذا قلنا لابد لمصر من القنبلة الذرية، فإنما نعني أن نحصل عليها لتمنع هذه الجارة من ممارسة الجنون.

والله معنا. ■

أقوال معاصرة


د. محمد نور فرحات


دونالد رامسفيلد

● «الثقافة السائدة حجاب كبير ، لا على الإبداع وحده وإنما على التذوق أيضا» .

الموسيقار الألماني هيلموت لاخنمان

● «ثقافتنا لا تستنكر الرذيلة في حد ذاتها ، وإن كانت تفزع للفضيحة ، ولا تحبذ الفضيلة في حد ذاتها ، وإن كانت تمجد التباهي بها» .

الدكتور محمد نور فرحات

● «الشعر رغم إنه يبدأ من الذات إلا أنه يتخطاها إلى معانقة الإنسانية برحابتها ، وبكل ما تحمله من مخاوف ومآس وآمال» .

شيركو بيكه سي
شاعر من كردستان العراق

● «الدولة التي أريدها هي دولة مفتوحة تضم الجميع ، وهي ليست فلسطين ولا إسرائيل !!» .

إيليا سليمان
مخرج «يد الهية» الفائز بجائزة
لجنة التحكيم الخاصة لمهرجان كان

● «أوروبا تجد نفسها في العالم الذي تخلق بعد ٢٢ سبتمبر وكأنها لا تزن سوى وزن الريشة ، في الوقت الذي جنح فيه الوزن الثقيل الأمريكي جنوحا خطيرا إلى الانفراد بالقرار» .

جان ماري كولومباني
رئيس تحرير جريدة لوموند الفرنسية

● «الحرب الشاملة على الإرهاب ، وعلى الأنظمة التي تملك أسلحة الدمار الشامل بدأ ، ولن تتوقف» .

دونالد رامسفيلد
وزير دفاع الولايات المتحدة

● «التطرف كان بالفعل نتيجة التطرف المضاد ، وغياب الحرية» .

الصحفي السعودي داود الشريان

● «أنا عائد من العالم الآخر ، وأخبركم ماذا شهدت ، فجهنم بالتأكيد أحسن من هنا ، البلد فوضى ويسوده الهجر والمذيان ..

النائب اللبناني غسان الأشقر
ردا على إشاعة سرت حول وفاته

شخصيات

أبي جمال عبد الناصر

بقلم : د. هدى عبد الناصر

لم يفارقني يوما .. حتى شريط السينما الذى صوره لنا كأسرة مازلت أحتفظ به داخل بيتى .. علمنى كل شىء بداية من قيادة السيارة ولعب الدومينو وحتى الحياة .. إنه بالنسبة لى إنسان من نوع خاص. لكنه كسائر الآباء حنون ، عائلى بالدرجة الأولى .. جعل طفولتنا سعيدة .. فلم يفارقنا برغم مسئولياته وعشقه لمصر الأم الكبيرة ! ..

أبــى

. . . .

داخل بيت منشية البكرى عشنا كأسرة مصرية بسيطة، حياتها عادية رغم ما قد يقلقها من المظاهر غير العادية.. وكنت وأخوتى لا ندرك قيمة بعض الأمور ودلالة بعض الأحداث الدائرة حولنا .. برغم أن وقت الأزمات التى مرت بمصر كانت تنعكس على بيتنا أيضا وتتكاثر الحياة بعض الشيء .. فكنا ونحن صغار لا ننشغل على أبى وهو يعانى من أزمة ما أو متكدر من موقف ما ، لا نتحدث معه ونحترم تأمله .

●● وفى حالة الفرح والنصر كان البيت يمتلئ بالسعادة وأذكر أنه مع إعلان الوحدة مع سوريا كان وجه أبى يتهلل فرحا .. وكان حديث المائدة وقت الغداء لا يخلو من الحكى عن الإنجاز وعن مدى سعادته به .

. . . .

●● عايشنا أيضا لحظات القلق الممزوج بالفرح مثال ذلك شغلت حرب الاستنزاف جانبا كبيرا من مشاعرنا .. القلق يتزايد مع بداية كل عملية وينتهى بالفرح مع نجاحها .. فأول دورية عبرت القناة كانت لها فرحة كبيرة .. وأول معركة نشبت « معركة رأس العش » ثم غرق المدمرة إيلات .

. . . .

●● أمى كان عبدالناصر محور حياتها.. تزوجته فى ٢٩ يناير ١٩٤٤..



صورة عائلية لعبد الناصر مع السيدة قرينته وابنائه



مع حاتم صادق وهدى عبد الناصر وابنتهما الأولى هالة في بيته بمنشية البكري

كانت من قبله وحيدة .. توفى والديها.. فكان هو أهلها.. بعد أن أنجبتني وأختي منى، رحل أبي إلى جبهة القتال ليشارك في حرب فلسطين بسنة ١٩٤٨ .. ورغم الصعاب والقلق تحملت المسئولية طوال فترة الحرب.. وحتى بعد عودته سالما من الحرب لم يترك العمل الوطني حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والتي كانت في البداية محفوفة بالمخاطر ونسبة نجاحها ضعيفة.. وهو الأمر المقلق جدا..

رب الأسرة

● ● كنا محظوظين جدا .. نعمنا بطفولة سعيدة وهانئة في ظل حنان أبي ووجوده معنا دائما كان أبي حريصا على وقت العائلة وقضاء الأجازات الصيفية وأيام الجمع معنا برغم انشغاله بهموم الأمة والثورة .. حتى أنه كان يملك من الصبر ما يجعله يجيب عن جميع أسئلتنا مهما بلغت .. فكنا أنا وإخوتي نذهب إليه دائما بعد عودتنا من المدرسة نحكي له عن يومنا ، عن أصدقائنا ، وعن مدرستنا .. كان أبا مثل كل الآباء حريصا على دراستنا ويوقع لنا الشهادات المدرسية .. ومن يحصل منا على درجة مرتفعة كان يسارع إليه ليوقع شهادته أولا .. أما من يحصل على درجة منخفضة فكان يضع شهادته بجوار سرير أبي ليقوم بتوقيعها قبل ذهابه للمدرسة خوفا من عتابه . بل وكان يحضر باستمرار الحفلات المدرسية الخاصة بكل منا ..

هلال - ربيع الآخر ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م



صورة زفاف عبد الناصر والسيدة تحية

وأذكر أن زوجي حاول الاعتذار عن حضور أول حفلة مدرسية لابنتي هالة نظرا لانشغاله فنظرت له بدهشة وقلت له «أبي عبدالناصر كان حريصا جدا على مسائل الأسرة رغم انشغاله بهموم الأمة كلها .. فبماذا أنت مشغول؟» . وأعتقد أن أبي اهتم كثيرا بعائلته نظرا لحرمانه في ذلك الجو الأسري ففقد والدته عندما بلغ الثامنة من عمره وعاش فترة داخل مدرسة داخلية ومن الطريف أيضا أننا في البداية عند التجهيز لمنزل منشية البكري اضطررنا للسكن داخل قصر الطاهرة .. الأمر الذي سبب لنا إزعاجا كبيرا .. كل واحد منا له غرفة كبيرة

مما جعلنا نشعر بالفرقة . فافتقدنا بيتنا في منشية البكرى الذى كان يحتوينا .. ورغم أنه ليس صغيرا إلا أنه كان مقسما . الدور الأول يضم الصالونات الخاصة باستقبال الضيوف والزائرين . أما الدور العلوى فهو خاص بنا .. به غرفة للمعيشة وأخرى للطعام نجتمع داخلهما كأى أسرة عادية أمام تليفزيون واحد وهذا هو أهم مظهر من مظاهر الرباط الأسرى .

صعيدى بالدرجة الأولى

. . . .

●● كان أبي رجلا صعيديا بالدرجة الأولى لا يحب أن يقتحم أحد خصوصيات حياته ولا حياة أسرته أو يعكر صفوها .. كان المقربون منا قليلين جدا حتى لا تقوم علاقاتنا بالبشر على أساس مكانة أبي ولا تقوم على النفاق والخداع بل على الصدق فقط، بعيدا عن منصب والدي .

وكان شديد الحرص على تربيتنا لنكون كسائر أفراد الشعب .. فأدخلنا المدارس الحكومية العامة .. فدرست بمدرسة دار السلام الإبتدائية ثم سراى القبة الإعدادية ثم القومية الثانوية بالعجوزة ولا تزال صورنا داخل تلك المدارس حتى الآن .

. . . .

●● ولم نكن نحضر أية اجتماعات رسمية ، كنا نحضرها فقط في حالة وجود وفد أجنبي أو عربي برافقه أطفالهم أطفال فقط . أو إذا طالب أحد رؤيتنا . وأذكر أن خروشوف لدى حضوره مصر كانت تصحبه ابنته مما استدعى وجودنا معها ، كذلك الرئيس اليوغسلافي تيتو حضر ومعه أولاده . كذلك لم نكن نسافر مع أبي باستثناء مرتين فقط كانت إحداها إلى يوغسلافيا .

. . . .

●● كان يسمح لنا بحضور أعياد الثورة من كل عام باستثناء خطاب ٢٣ يوليو الذى لم يكن مسموحا لنا حضورها . كنا نشاهد المظاهر



مباراة في الشطرنج مع ابنه خالد

الاحتفالية في القاهرة والاسكندرية كالعروض العسكرية صباح يوم الثالث والعشرين ، وعرض الشباب في استاد القاهرة .. ثم نسافر للاسكندرية لحضور احتفال وخطاب ٢٦ يوليو بل قد حضرنا مرة واحدة مناورة عسكرية ضمن مظاهر الاحتفال . ورغم كوننا أنا وإخوتي صغار السن لم يكن يوجه لنا أية محاذير أو ارشادات قبل الذهاب إلى أية احتفالية . كان يترك لنا مطلق الحرية والتصرف على هوانا الطفولي .

علمني قيادة السيارة

. . . .

●● كان عبدالناصر الرجل الثوري هادئ الطبع .. صوته خافت داخل المنزل، ولا ينهرنا أبدا . كان عقابه هو النظر إلينا بعينه فقط . ورغم قربنا منه لم يحمل أحد منا شخصيته . كل منا يحمل جزءا أو صفة منه أو حتى لمحة صغيرة فقط حتى أحفاده لم يرثوا منه الكثير وإن ظل داخلنا طوال الوقت .. حتى أنني لدى رؤيتي للأفلام التي جسدت شخصية أبي لم أكن أجده داخلها .. ففرق شاسع بين الأصل والتقليد .

●● هواياته كانت متعددة .. لكن كان التصوير والفوتوغرافيا هما هواياته المفضلة.. فكان يعشق التصوير السينمائي والفوتوغرافي . وحتى الآن أحتفظ بالأفلام الـ ٣٥ ملي التي صورها لنا في منزلنا وعلى شاطئ البحر .. وكان يعشق القراءة خاصة مجلة «الناشيونال جيوجرافيك» و«لايف» و«لوك» لما تحتويه من صور تغذي هواية التصوير لديه . وكان يهتم كثيرا بمجلة «المصور» و«الهلال» .

. . . .

●● علمني قيادة السيارة أنا وأختي منى . وكان يلاعبنا خلال الأجازة الصيفية ونحن في برج



كان يعشق التصوير السينمائي والفوتوغرافي

العــرب «الشطرنج» و«البـينج بونج» بل وعلمنا «الدومينو» .. كما كان يعشق الطبيعة والبحر والسباحة . كم من الآباء يعلمون أولادهم ويتفرغون لممارسة أحب الهوايات معهم ؟!

. . . .

●● في بداية حياتي عملت معه داخل مكتب السكرتارية فتعلمت مغزى العمل ومعنى الحياة وتعلمت كيف تصدر القرارات المصيرية .. وكيف تتم الاتصالات الحرجة وقت الأزمة ، واستفدت من حرصه الشديد على دراسة الموقف والاطلاع على جميع الدراسات .. والانفتاح على نظم الحكم في العالم والدساتير المكتوبة في الغرب والشرق . كل ذلك خلال فترة زمنية سادت العالم فيها أفكار جديدة وحركات تحرر ومد ثورى وحرب باردة ونظم مختلفة للحكم ..

في نزهة على الاقدام مع والده في الاسكندرية ١٩٦٤



. . . .

●● ويكفى أن أبى كان زعيما استطاع أن يحرك القوى العظمى الكامنة داخل الشعب المصرى ويعرف كيف يوظفها لصالح الأمة .. آمن بالأفراد البسطاء المهمشين وغير القادرين .. عبر عن أحلامهم ومطالبهم ولبى كل ما كان مطروحا من مطالب قبل الثورة .. آمن بالشعب فآمن به الشعب كزعيم وقائد مسيرة .

كان مناضلا بورقه العام وليس الخاص .. عايش الاحتلال الانجليزى وحزم في الجيش إيمانا بدور الجيش في القضاء على الفساد وتحرير الوطن من الاحتلال ، وشارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وفى حرب الفدائيين عام ١٩٥١ ويكفيه فخراً قيامه بإصدار قرارى تأميم قناة السويس وبناء السد العالي .. ولتعلم أن مصر كافحت طوال القرن الماضى من أجل استعادة دخل قناة السويس فهو قرار مبنى على قصة كفاح طويلة . صدر في أعقاب خروج القاعدة البريطانية من مصر ليتحدى بذلك القوى الكبرى في العالم .. إنه أبى عبدالناصر . ■

مبنى قيادة الثورة

متحف على الورق

ينتظر ٤٠ مليون جنيه لتمويله

أمانى عبد الحميد

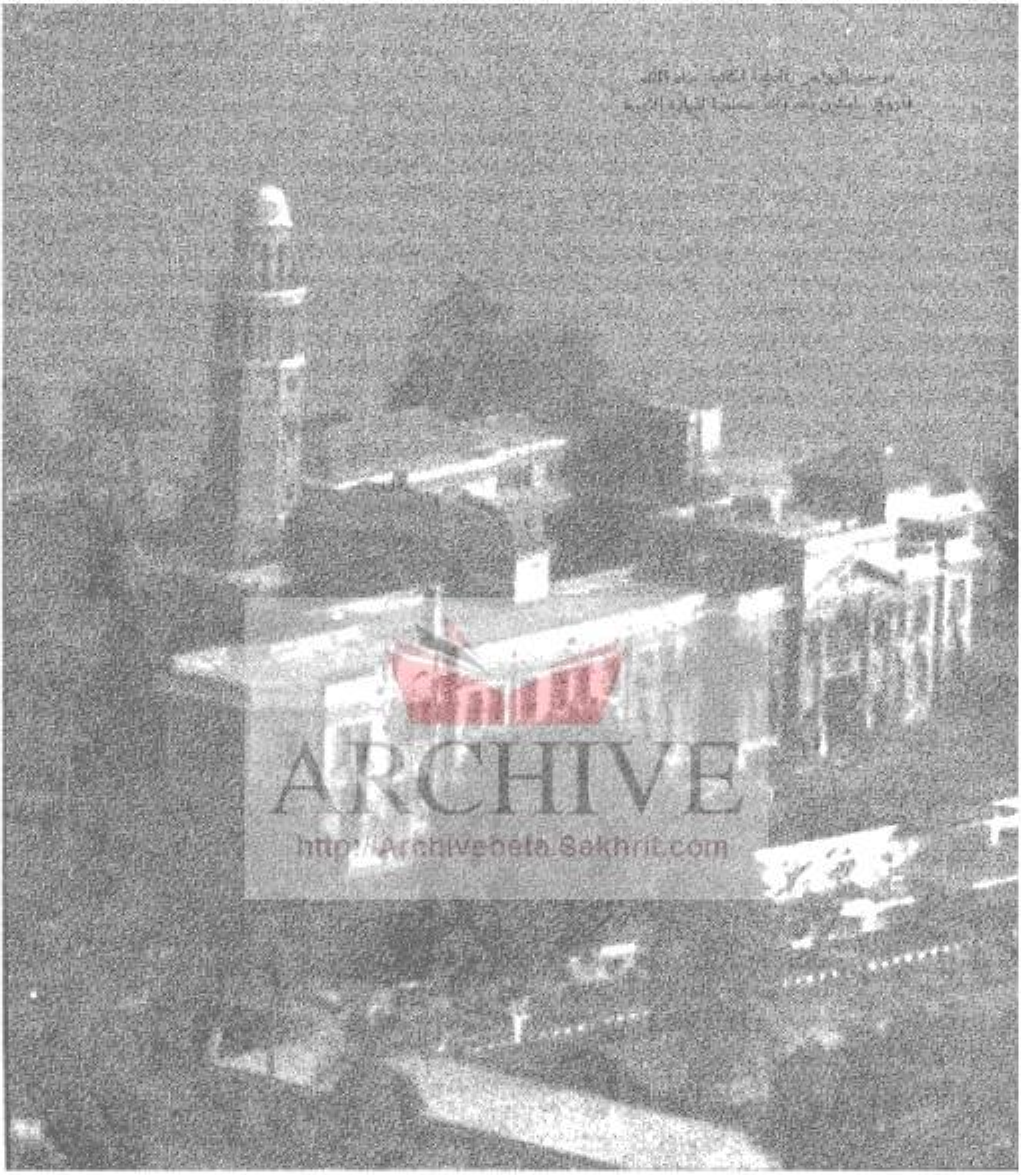
بعد مرور خمسين عاما على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ فإن وقعها فى النفس لايزال غائرا فى نفوسنا وفى ضمائرنا والتى تمثلت فى العزة والكرامة والاستقلال.

مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة والذى يطل على ضفاف نهر النيل، يعد واحدا من أهم الأماكن التى شهدت أخطر القرارات التى صدرت بعد أن اتخذه أعضاء مجلس قيادة الثورة مقرا لهم، وحيث شهدت غرفه الأربعين قرارات مهمة غيرت مجرى التاريخ المصرى وقد أهمل هذا المبنى – تماما – منذ حوالى ثلاثين عاما، ولم يعد هو ذلك المكان الذى شهد أخطر الاجتماعات وضم الكثير من الوثائق والقرارات، والتى لو خرجت من مكانها لأفصحت عن كثير من الحقائق الغائبة، والتى تجيب عن تساؤلات طالما تمنينا الإجابة عنها!

فلماذا هذا الجحود لهذا المكان، وعدم الاهتمام به لكى يصبح متحفا يضم وثائق الثورة والتى تتيح للباحثين ورجال التاريخ الإطلاع عليها، فضلا عن تعريف الأجيال الشابة بكل ما يودونه حول ثورة يوليو.

وفى عام ١٩٩٩ صدر قرار جمهورى بتخصيص المبنى ليصبح متحفا لزعماء ثورة يوليو، ومرت ثلاث سنوات ومازال المبنى على

مجلة ... – ربيع الثانى ١٤٢٣هـ – يوليو ٢٠٠٢م.



ما هو عليه من الإهمال.. لماذا؟!

ومتى وكيف يرى هذا المشروع النور ؟!صورة غائمة

في زيارتنا للمبنى للوقوف على حالته الراهنة.. لم نكن نتوقع أن الزمان لايزال راكداً ويغط في سبات عميق.. وبرغم الهواء الطلق من حوله وبقايا الذكرى المتناثرة هنا وهناك . فإن مظاهر الأبهة قد بادت.. حتى جدرانه العتيقة أصبحت آخذة في التفتت ولا تحتاج إلاّ إلى دفعة واهنة لتنهار أجزاء منها ..

خيل لنا وكأننا عبرنا بوابة زمن بعيد.. داخل غرفة يبدو الهواء أقل كثافة والصمت أكثر رسوخاً، وفي ردهات المعقل الحكومي الرحب بدت الأشياء غائمة الصورة.. فأين مظاهر القوة والقيادة والقرار..؟ أين الحرس وأين عسكريو الجيش المرابط الذي حكم مصر؟.. لم يبق في عصر بطولاتهم سوى ختم النسر المعلق على أعمدة المداخل.. أين أوراقهم؟ أين وثائقهم ومكاتبهم؟ أين تاريخهم..؟

تنقلنا ما بين الدور الأول والدور الثاني. ما بين مكتب الزعيم جمال عبدالناصر حيث ظل داخله طوال فترة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ لايخرج منه.. وما بين قاعات الاجتماعات التي شهدت التفاف أعضاء مجلس قيادة الثورة منذ اندلاعها وحتى هدوء لهيب ثورتها.. وما بين قاعة المحكمة التي شهدت أهم محاكمات عاشتها مصر مثل محاكمات سلاح الفرسان عام ١٩٥٤ ومحاكمات ١٥ مايو ١٩٧١ لمراكز القوى خلال ما سمي بثورة التصحيح أثناء فترة حكم الرئيس أنور السادات، ومع انقطاع التيار الكهربي داخله وتحت ضوء خافت تسرب من نافذة مطلة على النيل بدا دبيب الحياة أبطأ حتى كاد يتوقف تماماً. ففي الفناء الخارجي المجاور لم يكن الحال أفضل. فالزمن ظل راكداً كما هو ورائحة التراب وبيوت العنكبوت نسجت خيوطها الغبراء لتملأ المكان كله، وأمام الفناء يقف المدخل المؤدي للجامع تسده بقايا الأخشاب الخشنة ملقاة بين حطام الأثاث من خزائن وكراس محطمة ومكدسة فوق بعضها البعض، وحتى الرواق المعقود والمزركشة بالأعمال الجصية غطتها أتربة النسيان.

لم نكن نتخيل أن الطيور فقط اتخذت المبنى الذي هجره أهله مكاناً لها. فعششت فيه ووجدت داخله مكاناً تتسابق فيما بينها تتنقل ما بين شبابيكه وأبوابه، ووسط كم من «الرديم» تسلقنا الفنارة القديمة بسلمها المعدني الحلزوني الشكل، والذي احتلت الأتربة سطحه.. ومن فوقها تجلت القاهرة والنيل جميلة بهية على يميننا كوبري الجامعة وحي المنيل وعلى يسارنا كوبري قصر النيل.



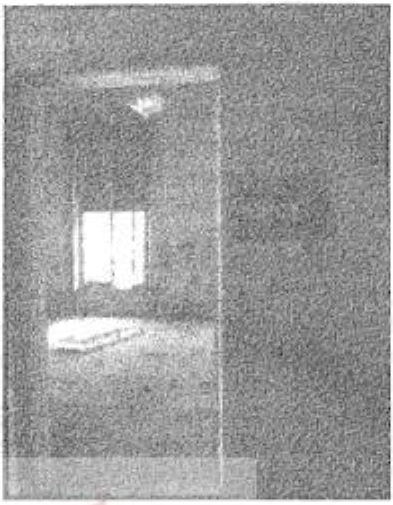
المصلحة من إخفاء بعض الوثائق لدى الأفراد دون الاعلان عنها؟

ملف – ربيع الثاني ١٤٢٣هـ – يوليو ٢٠٠٢م



على الطراز المعمارى اليونانى الرومانى القديم، وقد انتهت أعمال البناء فى عام ١٩٥١ بتكلفة وصلت وقتها إلى حوالى ١١٨ ألف جنيه مصرى. هذا المبنى مكون من ثلاثة طوابق على شكل مربع تقريبا ويحتوى على أربعين غرفة. وعقب قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقع اختيار أعضائها على هذا المبنى ليكون مقراً للقيادة.. وقد تميز بشرفته الكبيرة التى تطل على ثكنات قصر النيل مقر القوات البريطانية فى مصر قبيل الجلاء. فبعد أن كان مبنى القيادة العامة للجيش بكوبرى القبة مقراً للثورة فى أيامها الأولى بينما ظل أوصياء العرش يتخذون قصر عابدين مقراً لهم وتحول المبنى تدريجيا إلى مقر يجتمع فيه الثوار ساعات طويلة للتشاور واتخاذ القرار.. وشيئا فشيئا بدأ المبنى يفقد بريقه خاصة بعد الانتهاء من محاكمات ثورة التصحيح التى كانت تتم بداخله ليتحول بعدها إلى مقر للسكرتارية نظراً لقربه من منزل الرئيس أنور السادات بالجيزة. ثم ليصبح بعد ذلك، مقراً للجنة التى تم تشكيلها بقرار جمهورى عام ١٩٧٥ لتقوم بأعمال التوثيق والتأريخ لوثائق يوليو وذلك برئاسة الرئيس حسنى مبارك وكان وقتها نائبا لرئيس الجمهورية. وبعد توقف أعمالها نظراً لتطور الأحداث السياسية، عندئذ توقف الزمن داخل مبنى مجلس قيادة الثورة وفقدت الصلة بكل ما يتعلق

بالمجلس فى محاضر اجتماعات، ومن تسجيلات المحاكمات حتى
فترة حكم ...لات التى صدرت من داخل المكان.
ضوء خافت تسرب ... موزها الوطنية التى تعتز بها، وتحاول دوما إبرازها،
يتوقف تماماً. ففى الفنا... خلال الأعوام الأخيرة تعالت أصوات تنادى
راكداً كما هو ورائحة الترا... يخية فى مصر سواء كانت تلك الرموز أشخاصا
المكان كله، وأمام الفناء يقف
الخشنة ملقاة بين حطام الأثاث من
من المبانى التى حازت هذا الاهتمام على
البعض، وحتى الأوراق المعقودة والمزج...
...بدر قرار جمهورى رقم (٢٠٤)
النسيان.
وبالفعل تسلمت وزارة الثقافة
لم تكن تتخيل أن الطيور فقط اتخذت أمر...
...ة عن غرف عارية وأبواب
فعششت فيه ووجدت داخله مكاناً تتسابق فيما بـ...
...غة المبنى لتحويله إلى
وأبوابه، ووسط كم من «الرديم» تسلقنا الفنارة القديمة...
المفترض أن يضم
الشكل، والذى احتلت الأتربة سطحه.. ومن فوقها تجلت
...ب جميع الوثائق
بهية على يمينا كوبرى الجامعة وحى النيل وعلى يسار...
...يوليو والأفلام
...ممن المشروع



هكذا يبدو الإهمال داخل المبني ......



فمتي يتحول الي متحف حقيقي وليس على

مجلة ... - ربيع الثاني ١٤٢٣هـ - يوليو ٢٠٠٢م

تخصيص جناحين للرئيسين جمال عبدالناصر وأنور السادات داخل مكتبيهما، ليضمان جميع المتعلقات الشخصية والأوسمة والنياشين، بالاضافة إلى قاعة عرض في الدور الثاني للرئيس محمد نجيب.. ومن المقرر انشاء مرسى خاص علي شاطيء النيل لاستقبال الزائرين عن طريق النيل. وقد وصلت تكلفة المشروع على الورق طبقاً للمعلومات الواردة في قطاع الفنون التشكيلية المسئولة عن المبنى حوالي ٤٠ مليون جنيه مصرى . وحتي وقتنا هذا لم تتوافر أى من بنود التمويل في أجل البدء في مشروع التطوير.

الوثائق .. رحلة بحث طويلة

كل ذلك يقودنا نحو قضية بالغة الخطورة.. فبرغم جميع الجهود المبذولة من أجل الحفاظ على رموز بلادنا وبرغم انقضاء خمسين عاماً على قيام ثورة يوليو.. الا أن قضية وثائق الثورة لاتزال قضية مسكوتاً عنها.. فلماذا حتى يومنا هذا لم يتم الكشف عن جميع وثائق ومحاضر اجتماعات الثورة خاصة التي كان يضمها المبنى؟ ولماذا حتى الآن لم يتم الاعلان عن كافة الأوراق الحكومية

والخطابات الرسمية وغيرها في وثائق الأرشيف الرسمي للبلاد، مع الاحتفاظ بجميع الوثائق التى قد يمس الكشف عنها قضية الأمن القومى... ولماذا لم نكشف النقاب عن تفاصيل وحقائق ووثائق التاريخ المصرى خلال أحرج الفترات الزمنية التى عاشها الوطن؟ بل والسؤال الملح هنا، ماذا حدث بعد توقف لجنة توثيق وتاريخ الوثائق منذ ما يقرب من عشرين عاماً؟ إن الإجابة عن التساؤلات يجعلنا نقف أمام رحلة بحث طويلة لكن بلا إجابة ؟!

يذكر التصور الذى أمامنا لشكل المبنى لما سيضمه بعد الانتهاء من أعمال التطوير حيث يضم مكتبة ضخمة تحتوى على وثائق الثورة.. فهل تلك الوثائق فى حوزة وزارة الثقافة أم عن أية وثائق يتحدثون؟.. لقد كانت رحلة البحث عن وثائق الثورة طويلة، تنقلنا خلالها ما بين دار الكتب والوثائق القومية والتردد بالخطابات على ديوان رئيس الجمهورية بقصر عابدين، ومجلس الوزراء، والتقينا بالدكتورة هدى عبدالناصر والتى تتبنى قضية البحث عن الوثائق كما حاولنا الاتصال بالدكتور صبحى عبدالحكيم أحد رؤساء لجنة التاريخ لمعرفة ماذا تم فى أعمال التوثيق داخل اللجنة. ولكن كل المحاولات باءت بالفشل ولم نصل إلى شىء فالكل ينكر وجود الوثائق لديه.. ويأتى الرد إما بالصمت وإما بالنفى وإما بعدم المعرفة..



إن مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة قد شهد إجتماعات حيوية وبالتالى فإن الحل النموذجى لا يكون فقط بترميمه وتحويله إلى متحف بانورامى لقادة الثورة مع إضافة بعض مظاهر الحداثة الفنية من ليزر وأضواء وغيرها.. بل المطلوب أكثر من ذلك، وهو ضرورة فتح الباب أمام الباحثين للإطلاع على جميع الوثائق التى تحوى تاريخ مصر الحقيقى بعيداً عن المذكرات والذكريات .. وحتى لا نقع فى شراك تحريف التاريخ وإعادة سرده كل على هواه، أو على قدر ما تعينه الذاكرة. بل إن القضية الأخطر أن هناك عدداً من الأفراد ممن حظوا بموقع قريب من إدارة الحكم، فاحتفظوا بجميع الوثائق التى طالتها يدهم لأنفسهم. وبعضهم احتفظ بها فى خزائن بنكية خاصة سواء داخل مصر أو خارجها. وكأن تاريخ مصر أصبح ملكاً له أو لأحد دون غيره. فلماذا لم يتم حتى الآن تجميع جميع الوثائق التى لدى الأفراد لحفظها بدار الكتب والوثائق القومية تحت قسم خاص يحمل اسم «وثائق الأفراد» لضمان عموم الفائدة منها. كذلك مطلوب مزيد من الشفافية من قبل الجهات الحكومية خاصة بعد انقضاء خمسين عاماً على الثورة أى مرور فترة السرية الخاصة بأية وثيقة. ومطلوب مزيد من المصارحة حول موقع وجود الوثائق ومحاضر الاجتماعات لنعلم ما هو موجود وما هو مفقود.

فكيف يمكن تحقيق تاريخ دولة ما دون الإستعانة بالوثائق والمستندات الرسمية خاصة فيما يتعلق بحدث مهم كثورة يوليو ١٩٥٢.

رحلة بلا نهاية

خلال الشهر الماضي تسلمت دار الكتب والوثائق القومية برئاسة د. صلاح فضل وثائق الأرشيف الرسمي البريطاني والأمريكي المتعلقة بشئون مصر بعد انقضاء فترة السرية الأمر الذي دفعنا إلى التوجه إلى د. فضل لسؤاله عن وثائق الثوره ووثائق مجلس قيادتها .. لكن الرد جاء محبطاً فالمشكلة تكمن طبقا لأقوال د. فضل في .. أن القوانين المطبقة داخل مصر وتختص بالوثائق المصرية لاتلزم أية جهة إدارية أو وزارية بإيداع وثائقها لدى دار الوثائق (الجهة المختصة بحفظ الوثائق) أي أن كل وزارة تحتفظ بوثائقها داخل مكاتبها إلى حين التخلص منها دون وجود أي دافع قانوني يجبرها على ايداعها داخل الوثائق للاحتفاظ بها كوثيقة قد يحتاج للإطلاع عليها الباحثون . لذا أكد د. فضل أن دار الوثائق لا تحتوي خزائنها أية وثائق تتعلق بثورة يوليو لا بمجلس قيادتها كما أن لجنة تسجيل وتوثيق التي تشكلت في عام ١٩٧٥ لم تودع أية وثائق ولا كتب نتجت عن أعمالها التوثيقية ... وفي مقابلة مع وزير الثقافة فاروق حسني نفى وجود الوثائق بحوزة الوزارة وإن جاء رده مؤكداً أن الوثائق تحتفظ بها الدولة في مكان ما. وأنها (يقصد الدولة) تنتظر الوقت المناسب لإعلانها فليس من مصلحة الدولة إخفاء الوثائق وانما تنتظر الوقت المناسب وعن احتفاظ الأفراد ببعض الوثائق أوضح وزير الثقافة أن أي فرد لا يمثل أية قوة منع أو افصاح عن الوثائق كما تمتلك الدولة . وأوضح أن كل فرد يمتلك وثيقة يعلم جيداً مصلحة الدولة ويعلم متى يظهرها ويفصح عما لديه كما يقول ليس من مصلحة أحد إخفاء الوثائق .. فما قيمة مايمتلكون من وثائق اذا لم يتم استعمالها واظهارها فلأى وقت ولماذا فعاجلا أو آجلا ستفقد قيمتها اذا لم يعلن عنها في وقتها المناسب !

وفي نهاية رحلة البحث عن الوثائق لم نتوصل إلى مكان وجود وثائق مجلس قيادة الثورة برغم إيماننا بوجودها لدى الدولة لكن يبدو أن فترة خمسين عاماً على اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢ ليست الفترة الكافية لإنهاء حالة السرية التامة المحاطة بها الوثائق فالوقت لايزال غير مناسب للاعلان عنها وإتاحتها أمام الباحثين .. وسؤالنا الأخير متى يأتي الوقت المناسب الذي لا يأتي ؟

■

تحقيق مصور

متى تعود الحياة لمنزل جمال عبد الناصر؟
لماذا تأخر تحويله الى متحف ١٢ عاما؟

لماذا

تأخر تنفيذ القرار (٧٧) لمدة ثلاثين عاما .. والذى سيعيد الحياة لمنزل الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وتحويله لمتحف يضم مقتنياته ومتعلقاته .. ولماذا أسقطنا من حساباتنا ذلك المنزل الذى شهد مولده. ولماذا تقف - دائما - العراقيل أمام أية فرصة لإحياء ذكرى رموزنا التاريخية والسياسية. إنها تساؤلات لا نجد إجابة شافية عنها حتى الآن؟!

جمال عبدالناصر .. شخصية لا تسقط ذكراها بتقادم التاريخ فقد كان له الأثر البالغ فى تاريخ الأمة المصرية .. وله دلالة قوية داخل نفوس المصريين والعرب جميعا..

ففى ١٥ يناير ١٩١٨ شهد المنزل رقم ١٨ شارع أنواتى - حى باكوس - محطة الرمل الاسكندرية مولد الزعيم جمال عبدالناصر داخل البيت المتواضع والذى تتوسطه غرفة أكثر تواضعا قضى بها سنوات طفولته، ومنه بدأ طريق الآلام حيث توفيت والدته عندما بلغ الثامنة من عمره، ثم انتقل للعيش فى القاهرة، حيث قضى شبابه وسنوات دراسته الثانوية عند عمه «خليل حسين» من حارة خميس العدس بحى الخرنفش، والذى شهد كثيرا من اجتماعات الطلبة لتنظيم مظاهرات سنة ١٩٣٥ .

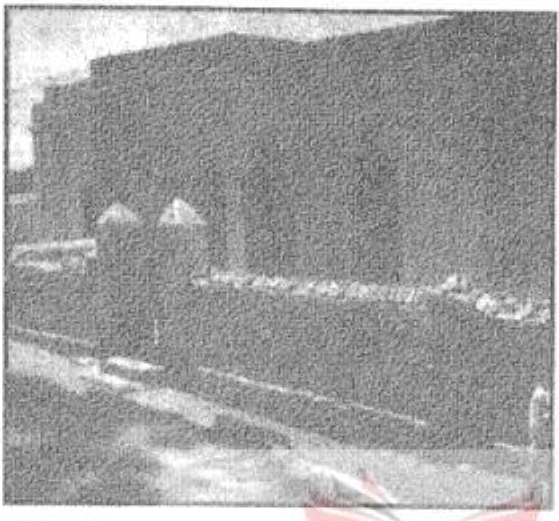


ما هو السبب فى تأخر تنفيذ القرار ٧٧ بتحويل « بيت المنشية » الى متحف يضم مقتنيات عبد الناصر ومتعلقاته ؟

وانتهى به المطاف داخل بيت منشية البكرى حيث قاد من داخله البلاد خلال سنوات حكمه وحتى وفاته عام ١٩٧٠ .

تلك كانت البداية والنهاية.. فجمال عبدالناصر لم يمتلك طوال حياته منزلا لدرجة ان منزل منشية البكرى ومايحويه من اثاث ومفروشات كان عهدة حكومية.

ظل طوال حياته مجرد مواطن خرج من بين



المنزل رقم ١٨ «شارع أنواتي» في حي باكوس بالاسكندرية الذي شهد مولد جمال عبدالناصر



بعيداً عن السياسة عبد الناصر يتصفح احدى المجلات في حديقة بيت المنشية

صفوف الشعب وعاش هموم تلك الفترة مثله مثل بقية أبناء الشعب المصرى. كان هدفه الأساسى بناء وطن حر يقوم على أسس العدل والمساواة بين الناس. ولم يمتلك غير مرتبه كرئيس جمهورية .

وفى عام ١٩٧٠ عقب وفاته أصدر مجلس الأمة قرارا رقم (٧٧) تتنازل فيه الدولة عن ملكية الدار (منشية البكرى) لأسرته طوال حياتها . على أن تخصص بعد ذلك كمتحف ومزار تخليدا لذكرى الزعيم «جمال عبدالناصر» . وتلحق به مكتبة تضم أكثر من عشرين الف كتاب. وتنفيذا لهذا القرار قامت الأسرة بتسليم المنزل للدولة بعد وفاة أرملته فى عام ١٩٩٠ . ومنذ ذلك التاريخ. والمنزل لا يزال مغلقا .. دون وجود أسباب حقيقية؟ فلماذا تأخر تنفيذ القرار (٧٧) بتحويل منزل جمال عبدالناصر الى متحف يضم مقتنياته ومتعلقاته حتى الآن؟

وذكرت د. هدى عبدالناصر أنه منذ بضع سنين صدر قرار آخر بتحويل منزل منشية البكرى الى مكاتب تابعة لرئاسة الجمهورية وطالبونا بضرورة نقل جميع محتويات المنزل ومتعلقات الرئيس عبدالناصر، الأمر الذى أحزن أسرة الزعيم .

وتوجهت الهلال بسؤال لوزير الثقافة فاروق حسنى والذى أوضح بأن المنزل لم يكن ملكا لجمال عبدالناصر بل كان ملكا للدولة وأنه مقر لاقامة رئيس الجمهورية وأوضح الوزير أن متحف مبنى مجلس قيادة الثورة سيخصص جناح منه لاسم الزعيم جمال عبدالناصر ولمتعلقاته والأوسمة والنياشين التى حصل عليها خلال فترة رئاسته للجمهورية نظرا لقيمتها التاريخية. وكان فاروق حسنى قد صرح من قبل انه اتفق مع محافظ الاسكندرية اللواء محمد عبدالسلام المحجوب على أن يؤول البيت الذى ولد فيه الرئيس عبدالناصر الى وزارة الثقافة لتحويله الى متحف خاص يحمل اسمه كخطوة اولى فى سبيل إحياء ذكراه .

وأوضح الوزير أن البيت سيتحول إلى متحف يحوى داخله كل ما يتعلق بجمال عبد الناصر، وسيعرض كافة المعلومات عن حياته وسيرته الذاتية.

وعلى الرغم من كل هذه التصريحات والقرارات الوزارية فكل ما نرجوه ان يتعدى الأمر ذلك بكثير .. فالاهتمام برموز مصر السياسية ينبغى ألا يتوقف عند حد اصدار القرارات فقط.. فالتنفيذ الفعلى فى رأينا هو أهم خطوة من خطوات الاهتمام.. بل إن الوقوف عند المستوى الادارى فقط يفتح الباب أمام مزيد من المبررات والاسباب التى قد تعيق تنفيذ أي قرار جاد بتخليد ذكرى رموز بلادنا .. وبالطبع لا أحد يستطيع انكار الدور الذى لعبه جمال عبدالناصر طوال حياته من أجل الوطن ولا ينكر انجازاته خلال قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ . ■



زكريا محيى الدين

رجل إدارة حازم وقيادة نادرة

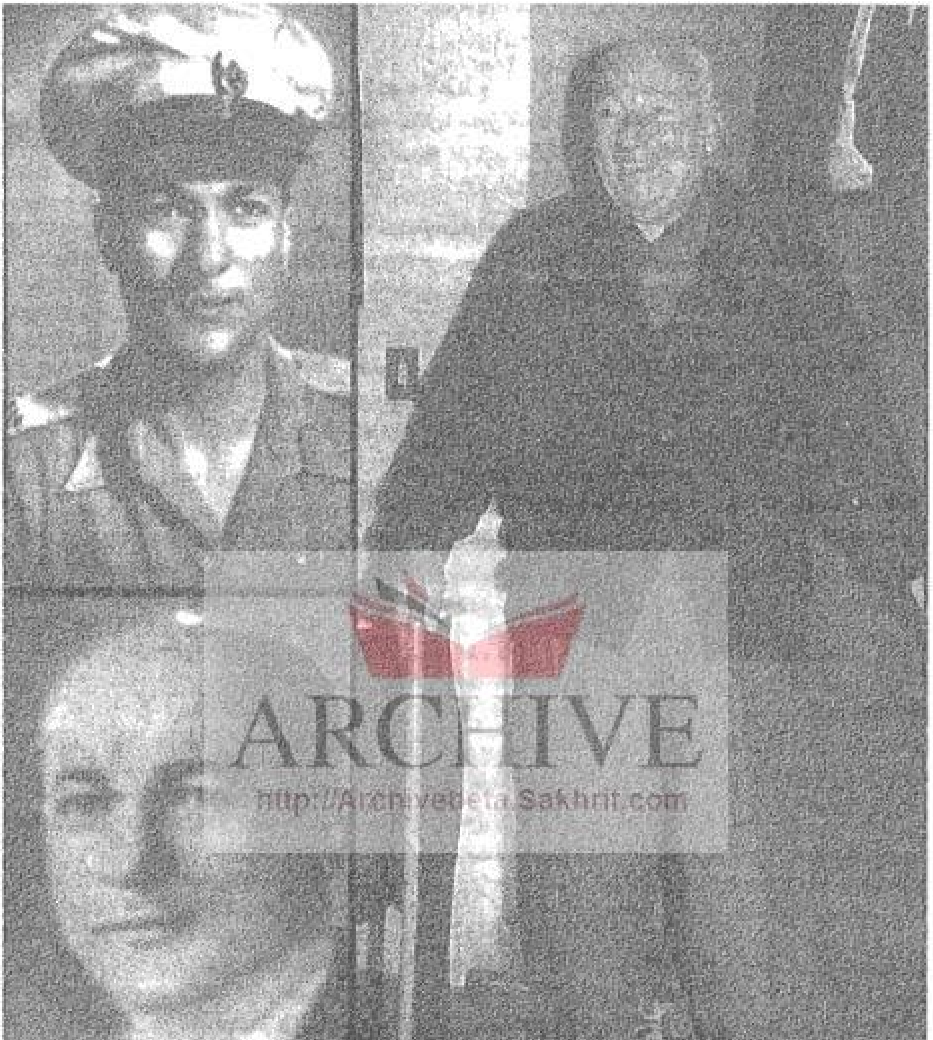
بقلم : د.ابراهيم سعد الدين

محيى الدين الوحيد الذى لم يدل برأيه فى الأحداث المهمة التى كان طرفا فيها ونأى عن المهاترات، فضلا عن دوره المهم فى أنه كان أحد الذين رسموا خطة تحرك الجيش ليلة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

وهو الوحيد من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى لعب واحدا من أهم الأدوار فى ثورة ٢٣ يولو ١٩٥٢ ، والذى تولى العديد من المناصب المهمة ، حيث أنشأ إدارة المخابرات العامة ، وعين وزيرا للداخلية ، ورأس مجلس الوزراء ، فضلا عن أنه رئيس الوزارة الذى استقال احتجاجا على رفع الأسعار خاصة التى تمس عامة الشعب المصرى.

.. وكان الدكتور إبراهيم سعد الدين لصيقا به ، وعمل معه لفترة طويلة ، وهو هنا يقدم لنا بعض أبعاد هذه الشخصية الفريدة الفذة ، من خلال وقائع ومسئوليات كلف بها مع زكريا محيى الدين

زكريا محيى الدين فى مراحل مختلفة من حياته ◀



نقدمها للقارىء العزيز.

عرفت السيد زكريا محيى الدين عن قرب، فى مرحلة إنشاء منظمة الشباب، ثم فى مرحلة رئاسته للجهاز المركزى للمحاسبات.. فى المرحلة الأولى دعيت مع مجموعة من الزملاء لمناقشة نوع البرنامج التثقيفى الذى لابد أن يوجه لأعضاء منظمة الشباب التى كانت فى مرحلة التكوين فى عام ١٩٦٤، ودعيت لهذه المشاركة مع مجموعة كانت تضم الدكتور محمد الخفيف، والدكتور حسين كامل بهاء الدين والدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور أحمد الشقيرى وغيرهم.. وكان المطلوب من هذه اللجنة وضع برنامج تثقيفى لأعضاء منظمة الشباب .



كنا نجتمع لوضع الخطوط الأساسية لمثل هذا البرنامج وكنا نجتمع منفردين فى العادة، وقد توجد بيننا اقتراحات نصل فيها إلى اتفاق، أو نصل فيها إلى خلاف فى بعض الأشياء.

وكان السيد زكريا محيى الدين رغم عدم حضوره للجلسات يحصل على تقارير وافية عن المناقشات، وعما يدور فيها وعما اتفق عليه، وعما صار من خلافات بشأنها .

هذه التقارير كانت تنقل إليه عن طريق سمير مصلح، وكان فى سكرتارية زكريا محيى الدين حيث كان يعطيه صورة دقيقة عن المناقشات التى دارت، وعما انتهينا إليه من آراء .

وكان زكريا محيى الدين يجمعنا مابين وقت وآخر لنجتمع به ولنناقش معه ماوصلنا إليه، ويبدى الرأى، ويصدر حكمه على بعض الخلافات إذا كانت موجودة، فى محاولة للوصول إلى اتفاق بشأنها .

وقد طلب منا أن نضع البرنامج الخاص بإنشاء منظمة الشباب موضع التنفيذ، فى شكل سلسلة من المحاضرات تولى كل منا جانبا من جوانبها وكنت قد كلفت بأن أكتب محاضرة عن حتمية الحل الاشتراكى، وتوليت هذا، فى الوقت الذى كانت فيه بقية المجموعة لها تكليف فيما يختص ببرنامج هذه المنظمة، وكانت هذه المحاضرات بعد ذلك موضع عناية زكريا محيى الدين الذى كان يقرؤها و يناقش بعد ذلك ماوجد من ملاحظات فى إطار المجموعة وبرئاسته شخصيا.

ولاحظت أنه كان فى هذا الأمر مثالا للإنجاز السريع والدقة وأشير هنا الى الإنجاز السريع، لأن جميع المسائل كان يتم النظر والبت فيها، بمجرد تقديمها، كانت هذه هى المرحلة الأولى التى عرفت فيها السيد زكريا محيى الدين وتم اختيارى لهذه المشاركة

لأنه كان مسئولا عن وضع برنامج لإنشاء منظمة الشباب، والتي هي جزء من تنظيم الاتحاد الاشتراكي، وكان في الوقت نفسه مسئولا عن الاتحاد الاشتراكي في مدينة القاهرة، ولاحظت أنه كان يوالي مسئولياته بدقة شديدة، ويعمل صبور، ودقيق، وكان هذا من صفاته فضلا عن الإنجاز السريع والبت في الموضوعات دون أي تسويف.

أما المرحلة الثانية التي عملت فيها معه، كانت بعد صدور القانون الخاص بإنشاء الجهاز المركزي للمحاسبات، وكان قد اختير ليكون مسئولا عن إنشاء الجهاز ، ووضع القانون موضع التنفيذ.

لا يتدخل في شيء

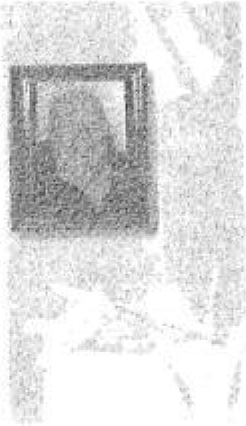
كنت في ذلك الوقت أعمل كعضو لمجلس إدارة المعهد القومي للإدارة العليا، حيث كان هذا المعهد تحت إشراف زكريا محيي الدين باعتباره نائب الرئيس جمال عبدالناصر للإنتاج، وكان يشرف على المعهد القومي للإدارة العليا في إطار المهام الموكلة إليه، وكنا نجتمع في مجلس إدارة المعهد ونناقش الأمور، وكان المجلس برئاسة المرحوم الدكتور فؤاد الشريف، وكان معنا في المجلس الدكتور عبدالعزيز الشربيني، والدكتور حامد جمال الدين وأنا وزميل خامس، وكنا نجتمع كأعضاء مجلس إدارة ونناقش الأمور، ونضع برامج التدريب للإدارة العليا وغير ذلك .. وكان يحضر معنا أحد سكرتيري السيد زكريا محيي الدين وكان يتولى سكرتارية المجلس، وبدوره كان ينقل إليه صورة مايجرى من مناقشات وفي هذه الاجتماعات، كنا نحدد ماهو ضروري، وماهو غير ضروري وكان لايتدخل في أي شيء اللهم إلا إذا كان هناك مايدعو إلى الاتصال بنا، إذا كان هناك فيما وصله، مايتطلب منه أي نوع من التدخل، إنما ماعدا هذا فنحن نقرر كل الأشياء دون أي تدخل .

كان زكريا محيي الدين مثالا للإنجاز السريع ، يوالي مسئولياته بدقة شديدة

وكنت وأنا أتولى مهمتي في المجلس مستمر في عملي دون أي اتصالات به اللهم إلا متابعته لنا، وأي تدخلات قد تتم عن طريقه، فهذه التدخلات في العادة، تكون خلال نقاش معنا حول ماوصل إليه، ومايراه، ولم تكن قرارات تصدر منه منفردا وعلينا التنفيذ بأي حال من الأحوال.

وقد طلب مني وأنا إذ ذاك في المعهد أن أزور السيد زكريا محيي الدين، وذهبت إليه في منزله، وسألني ما إذا كنت قد اطلعت على القانون الجديد الخاص

بإنشاء الجهاز المركزى للمحاسبات، وأخبرته بأننى قرأت القانون، ولكننى لم أدرسه فلم يكن موضع عناية منى، فطلب منى أن أدرس هذا القانون جيدا، ثم أحضر الىّ لجنه فى جهاز المحاسبات مكونة من مجموعة من الأشخاص يقوم هو باختيارهم وأن أرأس هذه اللجنة لكى أناقش وضع قانون الجهاز موضع التنفيذ.



وعندما ذهبت إلى ديوان المحاسبات، وجدت اللجنة تضم الدكتور طاهر أمين، والأستاذ ابراهيم لطفى، ووكيل ديوان المحاسبات ومجموعة أخرى من الزملاء، واجتمعنا، وتداولنا، وبدأنا العمل لوضع قانون الجهاز موضع التنفيذ وكان الجهاز إذ ذاك قد وكل إليه طبقا لقانون المراقبة الحسابية لشركات القطاع العام، ومتابعة تنفيذ الخطة إلى جانب مراقبة الصرف فى الجهاز الإدارى، والتى كانت هى دائما مهمة ديوان المحاسبة .. ثم اجتمعنا عدة مرات، وناقشنا ووضعنا خطة مشتركة تقدمنا بها إليه، واقترحنا أن يتكون الجهاز المركزى للمحاسبات من عدة أقسام، جزء لمتابعة الجهاز الإدارى للدولة، وجزء خاص لمتابعة حسابات شركات القطاع العام، وجزء لمتابعة الخطة، وجزء خاص بالنواحى القانونية، وقضايا المخالفات المالية التى يتم للجهاز متابعتها.

ملاحظات بناءة

عندما انتهى هذا التقرير تقدمت به إليه وفى أقل من ٤٨ ساعة كان قد أنجز قراءة ماقدم إليه وأبدى بعض الملاحظات هنا وهناك، ثم طلب منى أن أكون مسئولا عن وكالة الجهاز لمتابعة الخطة، وأن أضع الميزانية اللازمة لإنشاء الجهاز وأتقدم بها وأناقشها مع وزير المالية إذ ذاك وهو الدكتور نزيه ضيف، وبالفعل وضعت المقترح الخاص بالميزانية، وتقدمت به إلى الدكتور نزيه وأقره.

وطلب منى زكريا محيى الدين أن أتولى الإشراف على تنفيذ القانون ووضعه موضع التنفيذ.

وبدأنا العمل، وتم وضع المسئولين عن الجهاز المركزى للمحاسبات وهم د. محمد محمود الإمام مسئولا عن متابعة العمليات، وأنا كمسئول عن متابعة الخطة وإبراهيم لطفى كمسئول عن متابعة محاسبة الشركات وزميل من ديوان المحاسبات كمسئول عن متابعة الجهاز الإدارى، وهكذا نشأ الجهاز.

وبدأنا العمل، وبدأنا التنفيذ بالفعل فى إطار الميزانية التى وضعت فى ذلك الوقت وكان ذلك فى الفترة مابين عامى ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ .

وكان زكريا محيى الدين يتابع عملنا بدقة، وكان فى العادة ماننتهى إليه نقدم تقريرا له، ومن الأشياء المهمة بالنسبة لى دائما أن أى تقارير كانت تقدم إليه، كان يتصل مباشرة بى بعد ليلة على الأكثر ويكون قد قرأ التقرير بدقة، وله ملاحظاته أوله استفساراته ويتصل تليفونيا وبشكل مباشر للاستفسار أو لإعطاء التوصية متوليا مهمته بدقة.

.. فى بعض الأحيان كان زكريا محيى الدين يطلب أشياء معينة بناء على معلومات لديه، وليست لدى .. وبالطبع فإننى أقوم بالتنفيذ.

وقد استمريت مع السيد زكريا محيى الدين وأنا فى هذا الموقع، إلى أن اختير رئيسا للوزراء وفى ذلك الوقت كانت قد تكونت الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وتم اختيارى بها ولأكون مسئولا عن أمانة المعاهد الاشتراكية، وبدأت مع مجموعة من الزملاء فى ذلك الوقت لوضع برنامج المعاهد الاشتراكية .

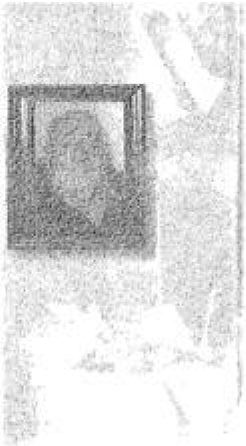
كل قراراته تحمل مسئوليتها وما ترتب عليها من آثار دون تردد وبحزم وشجاعة

وقد اتصل بى يطلب منى أن أعمل معه فى إنشاء جهاز لمتابعة تنفيذ الوزارات لمهامها، وكنا قد بدأنا بالفعل فى العمل فى برامج المعاهد الاشتراكية، وعلى الرغم من أن العمل معه فيه فائدة فكرية كبيرة واكتساب خبرة واسعة فإننى فى ذلك الوقت اخترت فى أن أتم مهمتى فى إنشاء معاهد الدراسات الاشتراكية واعتذرت عن المهمة التى كلفنى بها، ورشحت بدلا منى الدكتور محمد محمود الإمام، ليتولى هو إنشاء جهاز المتابعة .

وخلال المرحلتين اللتين عملت فيهما معه، عرفت فيه شخصية دقيقة موضوعية حازمة، يقوم بإدارة المهام الموكلة إليه بدقة، ويعطى الحرية الكاملة لمن يعملوا معه، فى أن يتولوا هم المسئوليات المناطة بهم دون أن أى تدخل، ويناقش معهم نتائج أعمالهم، أو أية أمور ومعلومات قد تصله دون أن يأخذ قراراً مفاجئا دون أن يفاجىء به من يعملون به وقبيل معرفتهم المسبقة، ودون مناقشة .

تمتعت بالعمل معه

فضلا عن أننى عرفته فى أثناء مشاركتى فى عضوية الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى وكان يحضر دائما مناقشات الأمانة العامة، عندما كانت برئاسة الرئيس جمال عبدالناصر وكانت هذه الاجتماعات تناقش كل الأمور، وعادة كانت المناقشات تدور مابين الرئيس جمال عبدالناصر وبين أعضاء الأمانة من غير أعضاء مجلس قيادة الثورة وعلى العادة أن زكريا محيى الدين وأنور السادات



وحسين الشافعي وغيرهم من مجلس قيادة الثورة لايتناقشون في الأمور في ضمن الأمانة العامة، ومن وجهة نظرى الخاصة أن الأمور من الممكن أن تكون نوقشت مع الرئيس جمال عبدالناصر، إما بعد أو قبل الاجتماع، إنما في العادة أثناء الاجتماع، والمناقشات كانت تجرى فى العادة ودائما بين أعضاء الأمانة العامة من غير أعضاء مجلس قيادة الثورة . واستطيع القول بأننى تمتعت بالعمل معه، واعتبره من القيادات القادرة والنادرة فى وقتها، وفى قدرتها على حسم الأمور والبت فيها، وإعطاء الحرية لمن يعملون بلا تدخل وفى سرعة الانجاز وفى عدم ترك أى أمر معلق دون قرار محدد وواضح .. حتى إذا اختلفت في بعض الآراء، فإننى كنت أعرف دائما أين يقف وأين أقف، وهو دائما في مثل هذه الحالة، مادام متوليا المسئولية، فهو صاحب القرار وأنا بالتالي لا أجد أي غضاضة في أن أنفذ قراره، لأنه هو صاحب القرار.

ومرة ثانية أقول إننى تمتعت بالعمل تحت رئاسة زكريا محيي الدين سواء فى فترة إعداد برنامج التثقيف لمنظمة الشباب الاشتراكي، أو في عملى فى الجهاز المركزى للمحاسبات، وقد حدث أن قرر أن أكون نائبا له فى الجهاز، إلى جانب استمرارى فى تولى مسئولية متابعة الخطة .

وكنت فى بورسعيد فى صيف ١٩٦٥ عندما طلب منى أن أتصل به وهو فى الاسكندرية، وبعض المسئولين فى بورسعيد اتصلوا بى ، وطلبوا منى أن أذهب إلى مكتب المباحث العامة، حيث تم الاتصال به فى الاسكندرية فأخبرنى أنه قرر أن أكون نائبا لرئيس الجهاز فشكرته على ذلك.

وأود أن أؤكد على طبيعته كرجل دولة مسئول وأشير هنا إلى أمر يختص بمسألة رفع الأسعار فى وزارته عندماتولى مسئولية الوزارة، وكانت قد بدأت ارتفاعات للأسعار غير مطبقة، ونوعا من التضخم غير المخطط فى الاقتصاد المصرى كنتيجة لزيادة كبيرة فى الاستهلاك.

وكان من الضرورى إذ ذاك أن يتم العمل على توازن الميزانية، ورفع الايرادات بصفة مخططة، بما فى ذلك رفع بعض الأسعار وقدأعلن ذلك فى بيانه الوزارى، وكنت قد اطلعت على البيان إذ ذاك، وعرفت بأنه كان هناك اتجاه لرفع الأسعار، فسألته أليس من الأفضل أن يعلن الرئيس جمال عبدالناصر هذا الأمر، بدلا من أن يلقى العبء على كاهل الوزارة التى تبدأ عملها إذ ذاك، وأنه قد يكون من المناسب أن يأتى هذا فى خطاب الرئيس، لأنه سيكون له قبول أكبر من المواطنين، مما لو أعلن القرار

بواسطة رئيس الوزارة الجديد.

تقدير كامل للمسئولية

وذكر لى زكريا محيى الدين فى عبارة موجزة أنه لو أعلن زكريا محيى الدين قرار رفع الأسعار وتمت مهاجمة زكريا محيى الدين، فإن الأمر ليس خطيرا ومن الممكن أن يذهب زكريا محيى الدين ويتولى غيره رئاسة الوزارة، أما إذا تعرض عبدالناصر لهذا الأمر، وكان هذا الأمر موضع غضب الناس، فمعنى ذلك أن الهجوم سيكون على الثورة وعلى النظام، وليس على فرد أو آخر.

هذا التقدير للمسئولية والاستعداد لتحمل المسئولية، وتحمل مايترتب على القرار من آثار، دون تردد حماية للثورة فى الصفة الأساسية لرجل الدولة المسئولية.

وأنا أعلم وكنت أعيش هذه الفترة أن هذا القرار كان موضع هجوم شديد، وكان موضع هجوم من الاتحاد الاشتراكى بالذات، وتعرض فيه زكريا محيى الدين من منظمة الشباب التى ساعد فى إنشائها، ولكنه لم يتردد فى أن يصدر القرار اللازم، وأن يتحمل مسئوليته حتى إن كان غير مسئول عن السياسات الاقتصادية، التى أدت إلى هذه الضرورة.

زكريا محيى الدين فى سطور

* ولد في عام ١٩١٨
* عمل مدرسا بالكلية الحربية بعد انتهاء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ثم مدرسا لمادة التكتيك في كلية أركان الحرب حتي قيام ثورة يوليو ١٩٥٢
* بعد قيام ثورة يوليو عمل مديرا للمخابرات الحربية، ثم مديراً للمخابرات العامة سنة ١٩٥٢ حتي عين وزيراً للداخلية في أكتوبر ١٩٥٣
* عين وزيرا للداخلية في عهد الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨ .
* سنة ١٩٦١ عين نائباً لرئيس الجمهورية للمؤسسات وفي سنة ١٩٦١ تولي وزارة الداخلية إلي جانب منصبه كنائب لرئيس الجمهورية ورئيس الجهاز المركزي للمحاسبات.
* في سنة ١٩٦٤ عين عضواً باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي
* عين رئيسا للوزراء سنة ١٩٦٥ ثم نائبا لرئيس الجمهورية .
* وفي مارس ١٩٦٨ قدم استقالته من منصبه كنائب لرئيس الجمهورية

شخصيات

هيكل في السجن

بقلم : حسين عبد الرازق

لم تكن «حبسة» سبتمبر ١٩٨١ شيئاً عاديا في تاريخ مصر ، ولا في تاريخ عمليات «القبض» التي تعرض لها كثيرون من المتصدين للعمل العام خلال السبعينيات أو قبل ذلك . ليس فقط لأنها استندت إلى المادة ٧٤ من الدستور، التي تعطى «لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد الوحدة الوطنية أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستوري أن يتخذ الإجراءات السريعة لمواجهة هذا الخطر ويوجه بيانا إلى الشعب ويجرى الاستفتاء على ما اتخذه من إجراءات خلال ستين يوما من اتخاذها» .. أو لأن الاستفتاء تم على موضوعات لم يتصور أحد أنه يمكن أن يستفتى الناس حولها ، مثل التحفظ على ١٥٣٦ مصريا أو على الأصح اعتقالهم ، ونقل ٦٤ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية إلى وظائف أخرى ، ونقل ٦٧ من الصحفيين والعاملين في المؤسسات الصحفية واتحاد الإذاعة والتليفزيون إلى هيئة الاستعلامات ، وعزل البابا شنودة ، وسحب تراخيص جريدة الشعب ومجلات الدعوة والاعتصام والمختار الإسلامي وجريدة وطني ومجلة الكرازة ومجلة الموقف العربي ، وحل عدد من الجمعيات الأهلية الإسلامية والمسيحية .. ولكن أكثر ما يميز هذه الحملة من الاعتقالات هو نوعية الناس الذين شملتهم ، فقد ضمت عشرة وزراء سابقين ، من العهد الملكي «فؤاد سراج الدين» وعبد الفتاح

حسن – رحمهما الله – ومن عهد الثورة المرحوم فتحي رضوان، ومحمد حسنين هيكل ومحمد فائق ود. حلمى مراد، ومن وزراء السادات د. اسماعيل صبرى عبد الله ، والمرحوم د. فؤاد مرسي ، والمرحوم عبد السلام الزيات ، والمرحوم المهندس عبد العظيم أبو العطا ، وامتدت من الجماعات الإسلامية والمسيحية وقادة أحزاب وقوى سياسية (التجمع – الوفد – العمل – الإخوان المسلمين – الحزب الشيوعى – الناصريين) ، إلى أعضاء مجالس النقابات المهنية والعمالية ومواطنين عاديين .

منذ اللحظة الأولى التى ألقى القبض على فيها مساء ٢ سبتمبر ١٩٨١ أدركت الطبيعة الخاصة لهذه الحملة ، بل وكانت هناك مؤشرات لذلك قبلها ، فقد حضر إلى حزب التجمع فى الصباح الزميل (المرحوم) بدوى محمود الصحفى بالجمهورية يحمل رسالة عاجلة من المهندس ابراهيم شكرى لخالد محيى الدين ، تقول إن هناك حملة اعتقالات ستبدأ هذه الليلة وستطال الجميع . وعندما حضر ضابط مباحث أمن الدولة إلى منزلى – ومنازل الآخرين – لم يكن لديهم أى رغبة فى «التفتيش» المعتاد والاستيلاء على



محمد حسنين هيكل

المضبوطات من كتب وصحف ومسجلات وأصول مقالات «تهدد أمن الدولة» . وصلت إلى سجن الاستقبال بطره ، وهو سجن جديد بناه المرحوم المهندس عثمان أحمد عثمان (المقاولون العرب) بعد تمثيلية هدم السادات لسجن ليمان طره عقب انقلاب ١٣ مايو ١٩٧١ (المشهور إعلاميا بثورة ١٥ مايو) ، لتضم منطقة طرة عدة سجون منها الليمان، والمزرعة وملحق المزرعة والاستقبال . فوجئت بالتنوع الغريب للمقبوض عليهم . فالزنزانة التى دخلت إليها فى أول ليلة كانت تضم زملاء من حزب التجمع والوفد والعمل والاخوان والجماعات الإسلامية والتكفير والهجرة (الجماعة الإسلامية).

وعندما تم نقل من أطلق عليهم السياسيون (من غير الجماعات الإسلامية والمسيحيين) وهم ٢٣ من حزب التجمع و ٥ من حزب العمل و ٩ من حزب الوفد و ٢ من الإخوان المسلمين و ١٣ من القيادات الناصرية الشابة والمستقلين ، وتم نقلهم على دفعتين إلى سجن ملحق مزرعة طره ، توقفت طويلا أمام «محمد حسنين هيكل» الذى كان يمثل حالة خاصة ، بالنسبة لى على الأقل .

هيكل وإعجاب اليسار به

لم أكن قد التقيت به من قبل إلا مرتين . الأولى عابرة ، وكنت فى الأهرام مع محمد عودة وأمينة شفيق ، نهم بالصعود إلى الأهرام عندما فتح باب المصعد وخرج منه هيكل وكان هذا اللقاء العابر

قبل أن يترك هيكل الأهرام عندما قدمتني له أمينة شفيق ، سألني بثقة عن رأيي فيما يكتب في الأهرام في ذلك الوقت ، كان للسؤال معنى واضح . فقد فصلت من العمل في الجمهورية ومن الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي عام ١٩٦٨ بتهمة إلقاء محاضرة في الاتحاد الاشتراكي تعرضت فيها بالنقد للأوضاع السياسية التي أدت للهزيمة . وللأستاذ هيكل وكتاباته في الأهرام . وكانت مقالاته الأخيرة في الأهرام محل إعجاب وتقدير اليسار كله وأنا منهم . وأجبته على سؤاله بحسم «هايله» . ثم التقيت به في عشاء بمنزل «لطفي الخولي» رحمه الله ، حضره قادة الحركة الطلابية عام ١٩٧٢ ، إلى أن التقيت به في سجن ملحق مزرعة طره ، أو «الملحق» كما كان يطلق عليه اختصارا !

كان هناك ارتباط واضح في أذهاننا جميعا بين ثورة ٢٣ يوليو ومحمد حسنين هيكل ، فرغم أنه من الناحية الرسمية كان رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ورئيسا لتحرير الأهرام ، فقد كان منذ بداية الثورة وحتى رحيل جمال عبد الناصر ولفترة محدودة خلال حكم السادات ، واحدا من صناع السياسة المصرية . فعلاقته بعبد الناصر علاقة من نوع خاص ، فقد أثر في جمال عبد الناصر وسياساته بصورة واضحة . كانت بينهما - كما يقول دائما - علاقة صداقة . وبقدر ما أخذ من عبد الناصر بقدر ما أعطى . وكان المهتمون والمشتغلون بالسياسة ، من المعجبين بهيكل أو الذين اتخذوا منه موقف المعارضة والرفض ، حريصين على قراءة مقاله «بصراحة» كل يوم جمعة ، أو الاستماع إليه في الإذاعة ، حيث كان دائما يحمل معلومات لا يعرفها أحد ، وتحليلات ووجهات نظر تشير إلى اتجاه الريح في الحاضر وأحيانا كثيرة في المستقبل. أصبح هيكل ظاهرة في ثورة ٢٣ يوليو وفي الحياة السياسية المصرية والعربية . وقد حاول البعض لعب هذا الدور ، سواء في مصر أو بعض الدول العربية ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . فلم يكن لديهم قدرات هيكل ونفوذه وعلاقاته مع دوائر الحكم في مصر والعالم ، ولم يكن عبد الناصر بكل تفرده له شبيه بين الرؤساء في مصر والعالم العربي ، ولم تكن علاقة هيكل وعبد الناصر أمرا يمكن تكراره بمجرد قرار من هذا الصحفي ، وذاك .

وعندما ضم السجن هذا الكم الهائل من الشباب والشيوخ المنتمين إلى أجيال مختلفة ، من فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسني (رحمهما الله) الأكبر سنا إلى حمدين صباحي وكمال أبو عيطة الأصغر سنا ، كان هناك تساؤل .. كيف سيواجه محمد حسنين هيكل تجربة السجن ؟ .. فكل الذين جمعهم السادات في حملة ٣ - ٥ سبتمبر ١٩٨١ في الملحق سبق لهم المرور بتجربة السجن عدا القليلين ومنهم محمد حسنين هيكل ، فهذا قدر كل من يتصدى للعمل العام في مصر، وأظن أن هيكل نفسه لم يكن يتوقع أن يمر بهذه التجربة ، وعادة ما يصيب الارتباك الذين لم يضعوا احتمال دخول السجن في حساباتهم .

بين السجين والسجان

ولا أنكر أن كثيرين منا اهتموا بمتابعة تعامل هيكل مع السجن والسجان بحثا عن إجابة لهذا التساؤل ، والغريب أننا واجهنا بعد الإفراج عنا العديد من الأسئلة كان من أبرزها كيف تصرف هيكل في السجن ، وكانت الإجابة واضحة ، لقد مر بنجاح في هذا الامتحان ، لم تفزعه التجربة وتعامل معها بقوة وتماسك ، وأكاد أقول إنه امتلك نوعا من التميز والخصوصية بين كل المحبوسين

رغم أهميتهم جميعا بدرجة أو أخرى .

ومازلت رغم مرور ما يقرب من ٢١ عاما على هذه التجربة أتذكر تفاصيل وحكايات كان محمد حسنين هيكل طرفا فيها ، منها على سبيل المثال مشهد توقفنا أمامه بعض الوقت . وهو ذلك الحوار المتصل بين هيكل وقائد السجن وبعض ضباطه . هيكل داخل زنزانته المغلقة طوال الليل والنهار عدا دقائق معدودة في البداية يسمح لنا خلالها بالخروج والحديث معا ، يقف خلف القضبان يتحدث مع السجان باهتمام . لم نكن نعرف ما يدور من حوار بينهما باستثناء رفيقي هيكل في الزنزانة .. عبد العظيم المغربي (أمين التنظيم في حزب التجمع في ذلك الوقت وأحد قادة الحزب الناصري ونائبه في البرلمان حاليا) وصابر بسيوني (عضو حزب التجمع والعامل الشيوعي في الستينيات - رحمه الله) . بعد فترة اكتشفنا سر هذه الأحاديث . كان هناك تقرير - وقيل تسجيلات - ترفع يومياً للرئيس الراحل أنور السادات ، تركز عما يفعله هيكل تحديدا ، ماذا يقول وكيف يتصرف ، وهل انهار أم مازال متماسكا . وقرر هيكل - كما يبدو - استغلال هذه القناة لتوصيل رسائل يومية للسادات ، تؤكد أولا أنه هو وكل «أسرى» مذبحة سبتمبر ١٩٨١ متماسكون ، ويضع أمامه ثانيا بعض الآراء السياسية في كل ما جرى وما يجرى حولنا .

وكانت عزلتنا عن الخارج شبه تامة لا صحف ولا زيارات ولا أى مصدر للمعلومات ، وكنا نفتقد المساجين الجنائيين الذين كنا نحبس عادة معهم في نفس السجن ، ويتطوع بعضهم عن طيب خاطر لتوظيف الحريات النسبية المتاحة لهم في الاتصال بالخارج ، فيهربون لنا الصحف والرسائل إلى أن يسمح لنا بالزيارات والصحف والكتب ، واكتشف بعض الزملاء وجود «راديو» في حقيبة ملابس الأستاذ هيكل ، التي تم حبسها مع كل الحقائب في زنزانة بالدور الأرضي ، وتطوع حمدين صباحي وكمال أبو عيطة . بإحضار الراديو بعد أن أحاطهم هيكل بأوصاف حقيبته وأعطاهم المفتاح ، وادعى حمدين وكمال حاجتهما لملابس من حقائبهما . وسمح لهما بدخول زنزانة الحقائب . وبسرعة وفي غفلة من الحارس فتح أحدهما حقيبة هيكل وأخفى الراديو والسماعة الخاصة به في ملابسه وسلمهما لهيكل دون أن يلحظهما أحد . وبرزت مشكلة أخرى ، لا توجد بطاريات في الراديو ، كلفنا أحد جنود الحراسة المتعاطف معنا بأن يحضر لنا البطاريات عن طريق المتهمين في قضية الحزب الشيوعي وعلى رأسهم نبيل الهلالي والمحبوسين في سجن المزرعة . كان الجندي بطبيعة عمله يتنقل بين الملحق والمزرعة ، وكان زملاؤنا في سجن المزرعة محبوسين منذ مارس ١٩٨١ ولديهم حقوق المحبوسين احتياطيا من زيارات وصحف وكتب والتعامل مع الكانتين . ووصلت البطاريات بالفعل . وفي المساء وبعد إغلاق الزنازين علينا بدأ أول اتصال لنا بالعالم الخارجي ، جلس الأستاذ هيكل فوق سريره وفتح الراديو مستخدما السماعة حتى لا يكتشف أحد وجود الراديو . طال وقت الاستماع ، وعبد العظيم المغربي وصابر بسيوني في شوق لمعرفة الأخبار التي يستمع إليها هيكل . أغلق هيكل الراديو بعد ما يقرب من ساعة - وكما روى صابر بسيوني - فقد سأله عن الأخبار التي استمع إليها كل هذا الوقت، ورد هيكل بهدوء قائلا إنه كان يستمع لموسيقى برامز - فجن جنون صابر وقال غاضبا .. «ده موسيقار بورجوازي عفن» .

وجاء يوم ٢٣ سبتمبر ، وهو يوافق عيد ميلاد

هيكل .. كنا قد بدأنا فى بث إذاعة الملحق ، يستغل المسئولون عن الإذاعة فترة فتح الأبواب ليضعوا برنامج اليوم ويتفقوا مع المشاركين فى الإذاعة وتحديد الفقرات التى يشاركون بها . وبعد إغلاق أبواب الزنازين ، تبدأ الزنزانة التى تدير الإذاعة فى تقديم الفقرات المختلفة التى تذاع من زنازين عديدة ، وكان يقيم فى زنزانة إذاعة طرة حسب ما أتذكر ، حمدين صباحى - كمال أبو عيطه و أبو العز الحريرى قبل ترحيل الأخير إلى ليمان «أبو زعبل» تقرر تخصيص كل الفقرات فى ذلك اليوم للحديث عن محمد حسنين هيكل . توالى المتحدثون كل يتناول هيكل من زاوية مختلفة حتى الذين لم يكن قد تم الاتفاق معهم مسبقا تحدثوا ، فلم يتخلف أحد عن المشاركة فى هذه المناسبة .

وجاءت مشاركة د. عصمت سيف الدولة (رحمه الله) لتكون من نوع خاص جدا . كان الحديث قطعة من الأدب من ناحية الصياغة ، تناول الكثير مما يحسب لهيكل ، ولكنه أيضا احتوى نقداً لاذعا له فى صورة مديح ! استطلت من موقعى ومعى حامد الأزهرى وإبراهيم مراقبة زنزانة د. عصمت وزنزانة الأستاذ هيكل فى الصف المقابل لنا ، وكيف بدا الضيق على هيكل دون أن ينطق بكلمة .

ومرت أيام طويلة وحضرت جلسة مصارحة ومصالحة بين هيكل وعصمت ، سأله هيكل عن سر هذا النقد اللاذع ، وقال د. عصمت إن أحمد الجندى شقيق زوجته وصديق هيكل وكانا معا فى لندن ، نقل إلى هيكل خبر إلقاء القبض على د. عصمت متهما فى أحد القضايا السياسية فى بداية حكم السادات ، وعلق هيكل قائلاً «أحسن .. يستاهل» . ونفى هيكل هذه القصة تماما ، واعتبر د. عصمت الأمر منتهيا عند هذا الحد ، وعادت المياه إلى مجاريها بينهما .

بعد فترة طويلة ، وفى ١٨ نوفمبر ، وكان السادات قد اغتيل وتحسنت أحوالنا فى السجن وبدأت الزيارات ، احتفلنا بعيد ميلاد «شاهنده مقلد» بطريقة مختلفة . كانت شاهنده متحفظا عليها فى سجن النساء بالقناطر الخيرية ومعها «فريدة النقاش» - أو على الأصح كانتا محبوستين احتياطيا - منذ مارس ١٩٨١ ، ولكن السادات أضاف اسميهما إلى قائمة المتحفظ عليهم فى سبتمبر ١٩٨١ بتهمة إثارة الفتنة الطائفية والمسئولية عن أحداث الزاوية الحمراء !

أحضرت أمينة النقاش لنا تورتة فاخرة ، وتجمعنا ومعنا الأستاذ هيكل فى حوش السجن وغنينا «عيد ميلاد سعيد» لشاهنده ، وأكلنا «التورتة» .

يوم اغتيال السادات

وعندما اغتيل السادات صباح يوم ٦ أكتوبر ، كنا الوحيدين فى مصر الذين لم يعرفوا بالحدث لمدة ٢٤ ساعة . فالحصار المفروض علينا كان محكما . وفى صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) قال لنا صبرى مهدى من خلف باب زنزانته إنه لم ينم طوال الليل ، فهتافات المقبوض عليهم من الجماعات الإسلامية فى سجن الاستقبال الذى يبعد عنا عدة كيلو مترات لم تنقطع وهم يرددون كلمة واحدة «هلك الهالك» . و لم نفهم المعنى الكامن وراء هذا الهتاف ، تأخر فتح أبواب الزنازين عن الموعد المحدد ، وبدأ مدير السجن وعدد من معاونيه يمرون على الزنازين الواحدة تلو الأخرى ويمضى المدير بعض الوقت يتحدث ثم يخرج ويغلق باب الزنزانة مرة أخرى ، وجاء دورنا ليبلغنا بأن الجميع يثق فى وطنيتنا وحرصنا على هذا البلد ، ثم ينقل إلينا خبر «وفاة» السادات

وعندما سأله أحدنا هل قتل ، أجاب بقوة لا .. توفى بأزمة قلبية، وبعد أن أتم جولته فتحت أبواب الزنازين وخرج عادل عيد مندفعا وهو يهتف «تحيا مصر» وردد الجميع الهتاف بعده . وعلمنا أن هيكل بكى عندما سمع الخبر .

بعد أيام بكينا جميعا عندما أصيب عبد العظيم أبو العطا بنوبة قلبية ولم نستطيع إنقاذ حياته ، وكنا فى حاجة إلى حقنة لا يساوى ثمنها عدة قروش ، ولكنها لم تكن موجودة بعيادة السجن وفشلت محاولات إرسال أحد الجنود لشرائها من الخارج ، كان لابد من الحصول على إذن من جهات أعلى من مدير السجن ورحل عبد العظيم أبو العطا قبل أن يصل الإذن. كان رد فعلنا عنيفا ورفضنا الدخول إلى الزنازين قبل حضور النيابة العامة . وتم كتابة مذكرة حملنا فيه السلطات مسئولية وفاته ووقعنا عليها جميعا . وأظن أن هذه هى المرة الأولى التى شارك فيها هيكل فى اتخاذ موقف جماعى مع آخرين . فالحدث كان يتجاوز أية حسابات .

هيكل وخريف الغضب

ويبدو أن هيكل اتخذ قراره بتأليف كتاب عن فترة السادات بمجرد اغتياله . وهو الكتاب الذى نشر بعد ذلك تحت اسم «خريف الغضب» وتم منعه من دخول مصر سنوات طوال . وبدأ يضع خطوطه العريضة وهو مازال داخل سجن ملحق مزرعة طره . ومن المشاهد التى تكررت كثيرا فى هذا الوقت ، هيكل يقطع حوش السجن ذهابا وإيابا ويستمع إلى صلاح عيسى أو د. ميلاد حنا . كان الحديث مع صلاح يدور حول الجماعات الإسلامية ، بينما الحديث مع ميلاد يتركز حول الكنيسة القبطية . لفت نظرى بعد ذلك أن هيكل لديه معلومات كثيرة جداً عن الحكم وصراعاته فى مصر وخارج مصر ، ولكن معلوماته عن الأحزاب والقوى السياسية والحركات الشعبية لم تكن على نفس المستوى .

كان لقائى الأخير مع محمد حسنين هيكل داخل السجن عندما ذهب مع عدد من «المتحفظ عليهم» للتحقيق أمام المدعى الاشتراكى ، وعادوا فى المساء متأخرين عن المعتاد ساعات طوال . سألت أحدهم عن سبب هذا التأخير فقال إنهم كانوا فى انتظار الأستاذ هيكل الذى استمر التحقيق معه من الصباح إلى المساء . لم أجد الأمر مقنعا وجاشى خاطر غريب وتوجهت لهيكل وسألته مباشرة ، ماذا جرى فى لقائك بالرئيس مبارك ؟! لم ينف هيكل أنه غادر مقر المدعى العام الاشتراكى للقاء مهم ، ولم يؤكد أن اللقاء كان مع الرئيس . وقال إن الحبسة فى طريقها للتصفية، وهو ما تحقق بعد ذلك عندما أفرج عن الغالبية فى ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ - حسب ما أتذكر - ولم أكن من بينهم ، وخرج الآخرون على دفعات . وكان بين المفرج عنهم فى نهاية الحبسة أبو العز الحريرى الذى احتاج لجهود شديدة حتى يخرج من السجن .

وأظن أن هناك علاقة خاصة نشأت بينى وبين الأستاذ هيكل منذ هذه التجربة ، وخلال رئاستى لتحرير الأهالى (١٩٨٢ - ١٩٨٨) واليسار (١٩٩٠ - ٢٠٠١) .

قد لا أكون من بين أصدقائه الذين يلتقون به دائما ، ولكن هناك مشاعر خاصة نحوه ولدت فى هذه الأيام الصعبة ، ومازالت مستمرة . ■

شخصيات

نجيب محفوظ

بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو

بقلم : ابراهيم فتحى

الطفولة والشباب الغض، كان محفوظ مثل أقرانه من المصريين يتنفس السياسة الوطنية باعتبارها محورا للحياة، فسياسة الحكام الدكتاتوريين الممالئين للقصر الملكي المستند على حراب الاحتلال البريطانى كانت تتحكم فى رقاب الناس، وفى مستوى معيشتهم وقدرتهم على العمل والكسب وتعليم أبنائهم ، لذلك كانت المقاومة الوطنية الديمقراطية هى أمل الناس فى التخلص من الأوضاع الجائرة وفى مستقبل متحرر، وفى بيت محفوظ كان والده يتكلم بحماس عن «أبطالنا» القوميين وكانت أسماء مصطفى كامل ، ومحمد فريد، وسعد زغلول محاطة بالقداسة، وحينما كان والده يتحدث عن رجال السياسة بانفعال شديد، كان الطفل يشعر أنهم ينقسمون إلى أصدقاء أو أعداء شخصيين وفقا لمقتضيات الروح الشعبية فى الشارع وأماكن العمل والسوق والساحات العامة.



وعند محفوظ كان الوفد ضمير الأمة ومعقد الآمال كما صور ذلك فى الثلاثية من وجهة نظر يحيطها بالتعاطف عند شخصية كمال عبدالجواد، التي تحمل طرفا من تطور أفكار محفوظ، ولم يكن محفوظ عضوا فى أى حزب طوال حياته كما لم يشغل قط أى منصب سياسي، وفي شخصية عامر وجدى في رواية «ميرامار» قبل الهزيمة مباشرة (١٩٦٦) كان الوفد يمثل للصحفي الذى اقترب من الثمانين جانب الثورة العالمية الخالدة ١٩١٩ جانب الأوهام المحلقة فى السحب والعبارات الحماسية ذات الدوى الشعرى، بعيدا عن المصالح الطبقية الأنانية، وأكياس أعيان الريف الممتلئة بالفضة، وبعد ذلك حينما ألغى مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ عادت روح ثورة ١٩١٩ عام ١٩٥٠ إلى الحياة السياسية المصرية فى ظروف محتدمة من الصراع الطبقى والفكرى. وفى «المرايا» (١٩٧١) تقول شخصية إن الوفد زحف عليه العجز والتدهور وتقول شخصية يسارية أخرى الثورة أفضل من الوفد، وفي فترة ما قبل ١٩٥٢ كانت «الاشتراكية» فى رواياته متعددة الاتجاهات وكانت «الكلمة» تلقى تعاطفا واسعا وتنتحلها التيارات السياسية الجماهيرية كافة: الطليعة الوفدية، الاشتراكية الوطنية (مصر الفتاة) الاشتراكية الإسلامية، أما الاشتراكية الماركسية فكان ينقصها حزب علنى معترف به وقاعدة جماهيرية . وكان

الشيوعي يحاط بالتعاطف أحيانا في رواياته، ويساق بعد ذلك إلى العزلة في صخب تصريحاته المعادية للدين أو إلى السجن. ولكنه لم يكن يحيط «جماعة الإخوان المسلمين» بعطف خاص كتنظيم سياسي، وإن تعاطف مع بعض أفراد هذه الجماعة من الشباب من ناحية تعبيرهم عن قيم عامة لا تطبيقات عملية واقتصادية وسياسية مستمدة من عصور ذهبية متخيلة تصلح لجميع العصور إلى أبد الآبدين. فقد تعاطف القص مع القيم الدينية والإنسانية في العدل والرقي الخلقي.

الثورة .. وموقف الترقب

وجاءت حركة الجيش في يوليو ١٩٥٢، ولم تكن تطلق على نفسها اسم الثورة بل كانت «حركة مباركة»، وفي سنواتها الأولى كانت في الممارسة ذات توجه إصلاحي يحاول التخلص من عاهات النظام القديم مع الاحتفاظ بأسسه، فكان الإصلاح الزراعي محدودا جدا بالنسبة إلى حاجات التنمية، وكانت «النقابات» التي أقرها منطوق القانون للعمال الزراعيين مطاردة بوحشية في الواقع، ولم تكن أراضي الإصلاح الزراعي نفسها تطبق قانون الحد الأدنى للأجور وكان الاتجاه إلى الغرب صارخا، فالمسألة الوطنية في السنوات الأولى انحصرت في «الجلاء»، والأمل في رؤوس الأموال الأجنبية التي ارتفعت حصتها في قانون الشركات إلى ٥١٪ أي إلى معدل أعلى في القانون أيام



العهد البائد (٤٩٪ عام ١٩٤٧)، وكتب عبدالناصر في مقدمة كتاب «حقيقة الشيوعية»: إننا لا نعترض على الأحلاف العسكرية ويمكن أن نناقش إمكان الانضمام إليها بعد الجلاء.

ففي بداية الحركة المباركة لم يكن التوجه «الثوري» شيئا يمكن التنبؤ به أو كامنا في ثنايا مجلس قيادة الثورة بل تحقق عبر تناقضات وصدامات وتأرجحات داخل مصر والعالم العربي والوضع العالمي.

لذلك كان موقف محفوظ هو موقف الانتظار والترقب، ولم يكن مجتمع ما بعد ١٩٥٢ قد تشكل أو وضحت معالمه.

أولاد حارتنا

وأول عمل نشر له بعد ذلك هو «أولاد حارتنا»



(١٩٥٧) ، وكان من الطبيعي أن يناقش هذا العمل فكرة الثـورة من أجل التـقـدم الفكرى والعـدالة الاجتماعية والحرية السياسية، لقد كان الواقع منذ ١٩٥٢ وبعد قمع هبة مارس ١٩٥٤ واعتقال وفصل ممثلى الاتجاهات المعارضـة جميعا ثم ممارسة التعذيب الوحشى فى السجن الحربى خانقا، وكان تغييب الديمقراطية (ابتداء من إعدام العاملين خميس والبقرى بعد محاكمة هزلية ومطاردة النقابيين وسجنهم وسيطرة الاتحاد القومى على النقابات والانتخابات بجميع مستوياتها وأشكالها وفرض الرقابة على كل مجالات التعبير) يجعل من بعض القرارات «الثورية» حبرا على ورق أو يعرقل تنفيذها أو يجعل تنفيذها هشا، فالحارة (رمز مصر) تطرح السؤال على «الثورة»، على أهدافها المعلنة الوطنية والديمقراطية والاجتماعية التى يوافق عليها محفوظ، ماذا عن التطبيق فى «نظامها» الفعلى؟ هل تسير فى طريق الثورات العالمية السياسية والروحية؟ الثورة الفرنسية استولى عليها الرأسماليون الاستعماريون والروسية استولى عليها البيروقراطيون الدكتاتوريون ، والثورات الروحية الكبرى استولى عليها مرابو شعب مختار أو كهنة امبراطوريات اقطاعية «مقدسة»، أو أصحاب ملك دنيوى عضوض، فهل تسير ثورتنا المباركة فى اتجاه سيطرة أقلية طبقية جديدة تقهر الشعب وتسرقه باسم الشعب؟

وهل تعود الثورة إلى ممارسة تنتمى إلى قوى البغى المتماثلة فى الماضى والحاضر.

ولكن أولاد حارتنا تؤكد أنه كما يواصل الاستغلال والاستبداد العود الأبدى تواصله كذلك حركة الرفض والاحتجاج والمقاومة، ولكن تاريخ الحارة (والعالم) لا يسير فى الرواية داخل دورات مغلقة متشابهة، ولم تكن الثورات السياسية والروحية عبثا، فالعود ليس رجوعا إلى نقطة البداية، فثمة مكاسب ضخمة حققتها أغلبية الناس فى التقدم المادى والعلمى والفكرى، وفى آفاق أهدافهم الجديدة. إن قضية الخبز والحرية والتسامى الأخلاقى والروحى التى انتهت الثلاثية

بإبرازها تنبثق من جديد فى أولاد حارتنا، على مستوى أعلى يناسب ما أضافته حركة ضباط يوليه إلى أهداف ثورة ١٩١٩.

وبدأت حركة الجيش تتخذ طابعا ثوريا حقيقيا ظهر خافتا فى مؤتمر باندونج ثم نما عندما قطعت صلتها على أساس تدريجى بمحاولاتها السابقة فى الاستعانة بالأمريكان فى بناء الاقتصاد ، وبناء السد العالى، وأممت القناة بعد رفض الأحلاف العسكرية وقاومت الغزو الاستعمارى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى، واتجهت إلى استغلال التناقضات بين المعسكرين العالميين مع الاستقلال عنهما، ورفضت نظرية ملء الفراغ الأمريكية أيام أيزنهاور، لأنها تعنى حلول الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم . وكان محفوظ فى تصريحاته ورواياته يؤيد هذه النقاط الحاسمة.

بين ثورتين

وحينما يصور العلاقة بين ثورة ١٩١٩ ومنجزات ثورة يوليه ١٩٥٢ فى رواية «السمان والخريف» (١٩٦٢) ويطلها وفدى مرموق نحته الثورة جانبا، ولا سبيل له إلى انكار أن الثورة قد حققت أهم الأهداف الوطنية لحزبه الذى أصبح محظورا ، وهل كان من الممكن لحزب الأغلبية الشعبية أن يحقق شيئا مما أنجزته الثورة فى المجال الوطنى؟ إن عيسى الدباغ بطل الرواية كان فاسدا مرتشيا، وتسخر الرواية من المتسلقين الذين



يتسللون إلى تنظيمات الثورة دون إيمان بمبادئها ، ومن أغنياء «الاشتراكية»، ويقرأ (محمود الربيعى) الرواية باعتبار أن بطلها رمز للماضى الذى يتصف بصفات خاصة وقد جوبه بالحاضر «الثائر المتوثب» كما جوبه قبل ذلك بتحجره الذاتى وإفلاسه ، والسؤال الحيوى هو هل يستطيع رمز الماضى أن يتغلب على هزيمته الذاتية (قراءة الرواية) وأصدقاؤه مثله من رجال الماضى ولكن بعضهم ينافق الثورة أو يهرب إلى القمار والنشوة الحسية، فالرواية لا تتخذ موقفا نقديا من الثورة أو تقدم رفضا لها، بل ترسم صورة حية لاستمرار الحيوانات المنقرضة فى الحاضر. وكذلك الحال مع اللص والكلاب (١٩٦١) فهى تصور المتاجرين

بشعارات الثورة والتمرد عليهم بالإرهاب الفردى طائش الرصاصات، ولا تعتبر الروايات المحفوظية أن الثورة قد شكلت الواقع الاجتماعي والنفسى للناس وخلقتهم على مثالها من جديد أو أنها مسئولة عن مظاهر السلوك السلبية فى المجتمع، فهذه المظاهر مستمرة منذ زمن بعيد، ولم يكن محفوظ عابدا لسعد زغلول مبغضا لعبدالناصر.

ميرامار .. ورموز الماضى

وفى «ميرامار» يوجه النقد الحاد لممثلى «النظام القديم» ومحاولاتهم المنحطة استعادة الماضى ومعاداة الثورة، إن «زهرة» الفلاحة ممثلة الشعب تؤمن بالثورة إيمانا فطريا، وجميع النزلاء فى البنسيون يميلون إليها، كل حسب رؤيته السياسية، ولكنها تصد ممثلى الملكية الكبيرة للأرض وممثلى الطبقات المنقرضة كقطة متوحشة فقد مضى عهد الباشوات، وتعطى قلبها وذراعيها وشفتيها لمن بدا لها ممثلا للثورة ولكنها لا تفقد معه الشىء الذى لا يعوض، فقد حفزتها الثورة إلى أن تتعلم وإلى إدراك أن الفوارق الاجتماعية فى سبيلها إلى الذوبان: فالدنيا تغيرت وكلنا أبناء حواء وآدم، ومن حقها أن تنظر إلى فوق

وهى تبصق عليه بعد أن اكتشفت حقيقته، وترفض بائع جرائد ميسور الحال ولا تعتبره كفؤا لها لأنه يروض النساء بالحذاء وستعود معه إلى مثل حياة القرية قبل الثورة.

ويسخر السرد فى الرواية من شهادة أحد أعمدة النظام القديم عن الثورة ويقرنها بشهادة «ماريانا» عشيقته القديمة صاحبة البنسيون، القوادة المتقاعدة، وهما يعزفان لحنا واحدا. الأول يرى فى طرف الحبل المشدود حول عنقه طيف سعد زغلول الذى بذر فى رأيه البذرة الخبيثة للثورة الحالية، وشهادته تجىء مماثلة لما ينسبه بعض النقاد إلى محفوظ على الرغم من سخرية السرد الروائى ورفضه الكامل لها: ما الذى يدعو أحدا إلى الالتصاق بالثورة؟ لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم، وحوش يتعاركون على أسلابنا هاتفين تحيا الاشتراكية والتقشف، ما تحت بذلة الثورى إلا مولع بالترف، الجواسيس وعملاء البوليس ينتشرون كالوباء أين أيام الديمقراطية (أيام إسماعيل صدقى وإبراهيم عبدالهادى!) الاشتراكية الحقة أيام سيدنا عمر لأنه كان يمشى جائعا فى الأسواق، إنه يرى أن الاعتداء على قداديه الألف اعتداء على كون الله وسنته وحكمته، ومملكة السماء عنده مخفر لحراسة مصالحه وقد أنابت عنها أمريكا القيام بالمسئولية المقدسة (هل كان يحلم برئيس مؤمن ينتمى إلى العالم «الحر») إنه يواصل عزف اللحن المشترك مع ماريانا (التى فقدت زوجها الضابط البريطانى فى ثورة ١٩ ومالها فى ثورة ١٩٥٢)، فهل كانت «مأساتها» فاصلا كوميديا يؤديانه معا كما يوحى

السرد؟ إنهما فى ليلة رأس السنة يعجزان عن ممارسة الحب، هو فى حاجة إلى معجزة لتحريكه بعد أن تجردت أمامه ماريانا مومياء من شمع مذاب، وانتابتها آلام الكلى بدلا من تأوهات المتعة، وأصبحا غير جديرين بالصباحية المباركة، والسرد المحفوظى هنا كان يقطع بأن كل محاولاتهما الكحولية لاسترداد الزمن الضائع ميئوس منها، وهل كان أحد يستطيع أن يتنبأ بأن «الصباحية المباركة» بين ديناصورات النظام القديم ودمى التبعية لأمريكا ستعقب احتفالات زفاف صاخبة من داخل سرداق ثورة يوليه الذى أبعد بالكامل ممثلى أى رقابة شعبية من جانب إخوة زهرة وأخواتها أصحاب المصلحة الحقيقية فى استمرار الثورة وتعميقها؟ فهل تحمى الأجهزة البوليسية والإدارية وممثلوها فى أعلى عليين ثورة شعبية؟، ما أسهل أن يتساقطوا «كأوراق الخريف» كما تردد بعد ذلك.

محاكمة ناصر

وفى «أمام العرش» يتعرض محفوظ مؤرخ الحياة الشعبية لمناقشة القمم الحاكمة من مينا إلى السادات (بعد اغتياله) والعرش هو عرش أوزيريس، إله العالم السفلى وميزانه هو ميزان الانجاز الوطنى، ولكن هذا الميزان فى الحقيقة يمسك به محفوظ لا أوزيريس، والأحكام هى تصريحات عامة مباشرة لا علاقة لها بالفن الروائى أو الدرامى وتعكس الرأى السائد فى الإعلام الرسمى أيامها (١٩٨٣) وقد اختلف محفوظ مع بعضها فى روايات تالية، إن محكمة أوزيريس يجلس بين أعضائها الحكام الموعودون بالجنة ليشتركوا فى محاسبة من جاء بعدهم، إن تحتمس الثالث يأخذ على عبدالناصر رجل الجيش مسئوليته عن الهزائم العسكرية، وكان الجيش المصرى الذى بنى وسلح فى سنوات قليلة (بعد ١٩٥٥) كان من المطلوب منه ولو كان على رأسه تحتمس الثالث أن يهزم عدوانا تقوم به امبراطوريتان عظيمتان وقتها (إنجلترا وفرنسا) وإسرائيل ربيبة أمريكا وألمانيا عسكريا ولم يكن عبدالناصر مخطئا فى تأميم القناة، ولو كانت الشركة ستعيد القناة بعد زمن قصير فلماذا شنت بريطانيا وفرنسا العدوان لاستردادها؟ إن العدوان كان على استقلال مصر وبناء اقتصادها، أما هزيمة ١٩٦٧ فترجع إلى خطة مدبرة كشفت عنها الوثائق بين أمريكا وإسرائيل، وإلى أخطاء نشرت بعد ذلك من جانب شخصيات فى القيادة العسكرية لم تكن خاضعة لسيطرة عبدالناصر ولم تكن متفرغة للجيش، وكان الجيش المصرى بتضحية رجاله وبسالتهم يقوم بواجبه فى الدفاع عن حدود مصر، ولم يعتد على أحد ولم يهاجم أحدا، أما اتهام سعد زغلول لعبد الناصر بالاستبداد، فقد تعرض هو لمثله من جانب الأحرار



الدستوريين الرجعيين، كما كان أول من قبض على الشيوعيين الذين قبض عليهم عبدالناصر بعد ذلك، وقام بدور في ضرب نقابات العمال وتحريم حق الاضراب واخضاع النقابات لحزب الوفد كما أدان كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» ودعا إلى محاكمة مؤلفه، ولكن خطيئة الثوريين في مصر بين ١٩١٩ و١٩٥٢ كانت استدعاء جماهير مجردة من سلاح التنظيم السياسي والنقابي إلى المبايعة والتصفيق وإعطاء أصواتها في الصناديق ثم تسريحها بعد ذلك كأفراد مبعثرين، وأنفار في طابور التأييد بلا مشاركة في اتخاذ القرار، وفي محاكمة عبدالناصر يقول مصطفى النحاس على لسان نجيب محفوظ إنه مذنب في إلغائه حقوق الإنسان رغم ما فعله من أجل الفقراء، ولا شك في أن أجهزة الثورة البوليسية اعتدت أبشع اعتداء على حقوق الإنسان وكرامته استمرارا لهذه الاعتداءات قبل الثورة، ولا شك في أن السنوات القليلة التي سمح فيها للوفد بأن يحكم دون إقالة تميزت بحريات واسعة، أما القول بأن عبدالناصر دمر المثقفين طليعة الأمة فإنه يقبل المناقشة ، حقا إنه سجن معارضيه ولفقت لهم الأجهزة التهم وعملت على تشويه صورتهم وشاركت أقلام مأجورة في ذلك (وهي ممارسة طويلة الأمد مستمرة)، ولكن القول بأن المثقفين عموما فقدوا احساسهم بالكرامة الإنسانية وروح المبادرة فهو قول ظالم، إن عبدالناصر إلى حد ما قصر ضرباته على المثقفين المعارضين ولكنه عندما أمم الصحافة وفرض الرقابة على كل وسائل التعبير سمح لكل الاتجاهات الفكرية بالتعبير عن نفسها إن لم تعارض سياسته العملية، وكان المثقفون اللامعون أيامه طه حسين وتوفيق الحكيم وسهير القلماوي ونجيب محفوظ (الذي عرف أكبر ازدهار له في الفترة الناصرية رغم كل شيء) وعباس العقاد (طوال عشر سنوات) وعزيز أباظة «باشا» وثروت أباظة (طبعت أعماله في مؤسسات الدولة وجلس في لجان المجلس الأعلى للآداب والفنون مؤيدا (بالكسر) لرجل الثورة في الآداب والفنون يوسف السباعي ومتمتعا برؤية أعماله في سينما الدولة وتليفزيونها، وحائزا على أول جائزة تشجيعية عام



١٩٥٨، كما قررت روايته «ابن عمار» على شهادة الإعدادية عام ١٩٦٣) ولم يكن أحد منهم يحسب على الثورة وهل حارب عبدالناصر يحيي حقي أو زكي نجيب محمود أو عبدالرحمن بدوي أو أحمد بهاء الدين أو صلاح عبدالصبور أو عبدالرحمن الشرقاوي.. إلى آخر القائمة الطويلة ، (دعك من مجانية التعليم ومن توفير الوظائف للخريجين) وبعد ذلك نجد اتهامات النحاس لعبدالناصر مختلطة بنبرات صوت محفوظ التي رددها بعد ذلك

ألم تكن تنمية القرية المصرية أهم من تبني ثورات العالم؟ ولكن النحاس كان رجل دولة يعرف علاقة استقلال مصر بثورات العالم، وقد تبنى الوفد ثورة مصدق في إيران حينما أمم البترول بعد علاقة وثيقة مع حزب المؤتمر الهندي، وإقامة علاقات مساندة مع حركات الاستقلال في المشرق والمغرب العربي، ورفض مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط، ودخول الحرب الكورية رغم الضغوط الأمريكية وانتقادات صحافة أمريكا الضاحكة ، وهل كان استقلال مصر ممكنا دون الثورات ضد «الامبريالية» العالمية؟

بيد أن محفوظ لا يستمد قيمته الكبيرة من تصريحاته السياسية والاقتصادية بل من أعماله الروائية والقصصية و«أمام العرش» تصريحات مجردة. إن أوزيريس يتردد في إرسال عبدالناصر إلى الجنة، بزعم أن القليلين هم الذين خدموا بلادهم مثلما خدمها وأقل منهم هؤلاء الذين أضروا بها بقدر ما فعل(!) بل إن مأثرة السادات التي صعدت به إلى الفردوس هي «تصحيح» ما ورثه من نواحي خلل حكم عبدالناصر.

مرحلة السادات

ولكننا سنجد في رواياته التالية «باقي من الزمن ساعة» مثلا اختلافا مع تصريحاته في أعياد الثورة عن أموالها وانجازاتها، ومع تأييده للديمقراطية البازغة في عهد السادات (حتى بعد قمعه «لانتفاضة الحرامية» في ١٨ و١٩ يناير) ، كما نجد في الرواية اختلافا عن تصريحاته حول تبنيه من كل قلبه للتطبيع مع إسرائيل لأن ذلك هو

الطريق إلى الرخاء» ففي رواية «باقي من الزمن ساعة» (١٩٨١) يؤكد السرد كذب ذلك الوهم في الواقع، «وفي يوم قتل الزعيم» (١٩٨٥) يصور السرد الانفتاح الاستهلاكي وسيرك لصوصه، والحنين إلى أيام عبدالناصر لدى الذين عاشوا أيام ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ وثورة التصحيح المضادة، وقد لقيت الرواية استجابة سريعة من المثقفين وجرى اعدادها إعداداً مسرحيا باسم القاهرة ١٩٨٠ لتذكرنا برواية القاهرة الجديدة (القاهرة ٣٠ في الفيلم) عن فساد نظام ما قبل ثورة ١٩٥٢، وهل كان أحد يستطيع نقد الأوضاع أيام السادات ويبقى في مصر، أيام الخروج الكبير للمثقفين التي انتهت «بثورة» ٥ سبتمبر ١٩٨١، باعتقال كل ممثلي تيارات الثقافة المصرية بتهمة التجسس والخيانة وإشعال الفتنة الطائفية؟، ورغم نقد الرواية لسياسات السادات فقد اعتبرت الصحافة العالمية محفوظ مؤيدا بشدة لتلك السياسة، وقال متحدث رسمي إسرائيلي في الأمم المتحدة إن محفوظ جار طيب لإسرائيل، ويتعاطف السرد مع من يقول لقد فقدنا زعيمنا الأول (عبدالناصر) ومطربنا الأول (عبدالحليم حافظ) وخرجنا من الهزيمة على يد زعيم مضاد (السادات) الذي أضاع علينا حلاوة النصر، والزعيم المضاد في الرواية خلق امبراطورية لصوص ومملكة منحرفين وتحول إلى زعيم عصابة ويمثل عهده في عيون الشباب انحدارا هابطا من أيام عبدالناصر ، وتصور الرواية توازيا – كما في القاهرة الجديدة – بين الانفتاح الاستهلاكي والتبعية من ناحية والدعارة السياسية والإعلامية من ناحية أخرى، وتصور الرواية «رندة» التي يدفعها الواقع إلى السقوط (رمز مصر؟) استمرارا لحميدة في زقاق المدق أيام الملكية والاستعمار (د. سامية محرز)، ولكن «زهرة» أيام الثورة في ميرامار لا تسقط وتدافع عن شرفها وتقدمها وبالمثل تردد الرواية أصداء أقوال جيل الشباب المثقف في مقهى ريش. هذا الجيل يقدم قرابينه للبطل الراحل عبدالناصر، رمز الآمال الضائعة، آمال الفقراء والمهمشين، كما يصب لعناته على بطل الحرب والسلام، هل يؤدي النصر إلى لعبة الاستسلام يقول الشباب المثقف ذلك على مسمع من السياح الإسرائيليين، «صديقي بيجن صديقي كمستجمل، «الزي زي هتلر والفعل فعل شارلي شابلن»، وقد لا يكون منطق السرد الروائي مطابقا لتصريحات محفوظ، ولكنه كعادته أمين في الإنصات إلى الاتجاهات المختلفة وتجسيدها وفي اتخاذ موقف نقدي من الأنظمة السياسية المحلية والعالمية جميعا، لأن أدبه ينظر إليها من زاوية حلم الإنسانية بمجتمع المثل الأعلى . ■

أى ديمقراطية

بقلم : محمد عوده

من أشهر البرقيات فى تاريخ مصر الحديث برقية «جرانفيل» وزير الخارجية البريطانى التى بعث بها إلى القنصل العام ايفلين بارنج - كرومر - فى يناير عام ١٨٨٣ ليبلغها إلى الحكومة المصرية ولتكون القاعدة السياسية الرئيسية ثم ابلغها إلى الدول «العظمى» أيضاً للعلم.

وقال - لا أرى حاجة إلى أن أنصح لكم أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائماً فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى تقديمها إلى الخديو فى المسائل المهمة والتى تستهدف فيها حكومة مصر وسلامتها للخطر ويجب على الوزراء والمسئولين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تقررها ولا مناص من أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مسئول لا يقر هذه السياسة وينفذها، وإن حكومة جلالة الملكة واثقة أنه إذا اقتضت الحال استبدال أى من الوزراء فإن هناك من المصريين سواء ممن شغلوا مناصب الوزارة من قبل أو مناصب أقل درجة من هم على



الهيئة البرلمانية لحزب الأحرار الدستوريين

استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها لهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملك.

وقد ظلت هذه البرقية الحاسمة الصارمة والبالغة الإهانة مطبقة منذ وصلت حتى نهاية الإحتلال . وقد توالت على قمة السلطة فى مصر أكثر من ستين وزارة دام بعضها ثلاثة عشر عاماً طويلة ودامت آخرها يوماً واحداً ولكنها جاءت وذهبت كلها بلا استثناء طبق مانصت عليه برقية جرانفيل.

وكانت البرقية نتيجة استفزاز رئيس مجلس النظار محمد شريف باشا الذى رفض إخلاء السودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ورفع شعاراً سريا فى البلاد «إذا تركنا السودان فإن السودان لايتركنا».

وكانت بريطانيا ترى أن احتلال مصر لايحافظ على طريق الهند فحسب ولكنه القاعدة لاقامة الإمبراطورية الافريقية من القاهرة إلى «كيب تاون» فى أقصى الجنوب وهو مشروع اشتهر باسم أحد بناة الإمبراطورية سيسيل «رودس».

وكانت نهاية محمد شريف باشا دامية وكان ذات يوم يلقب «أبو الوطنية والدستور» وقد اختاره عرابى باشا ليكون أول رئيس وزراة للثورة وفرضه على الخديو ولكنه انقلب على كل مبادئه وتاريخه ورحب بالاحتلال وتشفى فى العرابيين.

واختاره اللورد دوترين ليكون ساعده الأيمن فى وضع النظام الجديد الذى اقتبسه من ولايات الهند ثم عهد اليه بتطبيقه فى أول وزارات الإحتلال وكان عند حسن الظن به واستبسل فى توطيد

الوجود البريطاني في عامه الأول ولما لم يكن يستطيعه سواه . وانتهى بجزاء «ستمار» ولم يعش طويلا بعده ..

وحينما اعترفت بريطانيا باستقلال مصر بعد ثورة ١٩١٩ ومع تحفظات أربعة هيء للجميع أن برقية جرانفيل قد طويت صفحتها ولكن لم يحدث . ولم يصدر دستور«الاستقلال» عام ١٩٢٣ عن جمعية تأسيسية منتخبة كما صدر دستور عام ١٨٨١ ولكن لجنة وضعها سعد زغلول باسم لجنة «الأشقياء» وحينما نص مشروع الدستور على أن يكون لقب الملك الجديد «ملك مصر والسودان» ذهب فخامة المندوب السامي البريطاني إلى القصر يحمل إنذاراً بحذف «السودان» من اللقب وكان له ما أراد !

وتولت السلطة أول وزارة وطنية دستورية وسط فيض جارف من الحماس والتفاؤل وبزعامة «تاريخية» تعد الثانية بعد عرابي.

وضاعف من التفاؤل إن كانت الوزارة البريطانية «عمالية» أول حكومة في تاريخ بريطانيا، وكان رئيسها المستر ماكدونالد قد زار مصر وأبدى تعاطفاً شديداً مع المسألة المصرية .. واتضح على مائدة المفاوضات أن لا فرق بين العمال والمحافظين وأن الإمبراطورية عقيدة بريطانية.

وتجرع الوفد الصدمة المريرة وعاد لكي يصب اهتمامه على الاصلاح الداخلي .

حادث اغتيال السردار

وفوجئت البلاد بحادث اغتيال «السير لي ستاك باشا» حاكم السودان وقائد عام الجيش المصري..

وكان فخامته استعماريا قحا من المؤمنين بضرورة فصل السودان عن مصر . ولكن لم يكن هناك مبرر لاغتياله خاصة في ذلك الوقت ولازالت أسرار الحادث خافية إلى الآن.

لم تكن جريمة ضد شخصية من أكبر الشخصيات البريطانية فحسب بل كانت مصوبة أيضاً إلى وزارة سعد حتى كأنها دبرت لاسقاطها لأن كل الدلائل والملاحظات تدل على أن الوزارة القائمة ستكون هدفاً لمطالب جسيمة تؤدي حتماً إلى استقالتها ولذلك قال سعد إن جريمة اغتيال السردار قد أصابت مصر وأصابتني شخصياً وأنا أول المهزوزين لهجومها والمتطيرين من شرها وأشد الناس اعتقادا بتدبيرها ضد وزارة كنت متشرفا برئاستها والتي كانت نية الدساسين معقودة على اسقاطها.

إنذار اللنبي

وردا على الحادث ارتدى فخامة المندوب السامي البريطاني الفيكونت فيلد مارشال اللنبي فاتح القدس سترته العسكرية ونياشينه واخترق شوارع القاهرة في سيارة مكشوفة وفي موكب «إرهابي» يتقدمه ٢٥٠ من جنود الفرسان البريطانيين حاملي الرماح وقصد رأساً إلى مكتب رئيس الوزراء ودفع الباب وألقى على مكتبه وثيقة إنذار .

وحينما سأله سعد ساخراً : هل أعلنت الحرب..



مصطفى النحاس يتوسط أعضاء وزارته الجديدة أمام قصر عابدين

لم يجب وخرج عائداً بنفس الموكب وتضمن الإنذار هذه المطالب:

١ - أن تعتذر الحكومة المصرية عن الجناية.

٢ - أن تبحث عن الجناة وتوقع بهم أشد العقاب.

٣ - أن تمنع أى مظاهرة شعبية سياسية وأن تقمع أى مظاهرة تقوم بأقصى الشدة.

٤ - أن تدفع غرامة نصف مليون جنيه استرليني لأرملة السردار.

٥ - أن تسحب الجيش المصرى نهائياً من السودان وتحول الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية لتسوية معاشات من اعتزلوا الحكومة منهم وأن تبقى منصبى المستشار المالى والمستشار القضائى وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليها عند الغاء الحماية وتحترم أيضاً نظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية واختصاصاتها وتنظر بعين الاعتبار الوافى إلى ما يبديه مديره العام من المشورة.

ورفضت أرملة السردار قبول الغرامة واتهمت الحكومة البريطانية بامتهان كرامة زوجها وفزع اقطاب الأحرار والعمال فى بريطانيا من هول ماحدث، وأثارت صحف الإثارة مأساة التضحية بجوردن ذات يوم لصالح الامبراطورية خاصة تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها.

٦ - أن تطلق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة أطيان مشروع الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان إلى مساحة غير محدودة .

٧ – أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية الأجانب فى مصر وأن يعاد طبقاً لهذه الرغبات النظر فى شروط خدمة الذين لايزالون فى خدمة الحكومة المصرية وفى الشروط المالية .

انهيار التجربة الديمقراطية

وانهارت التجربة الوطنية الديمقراطية فى ميلادها وتولى رئاسة الحكومة أحمد زيور باشا وهو شخصية هزلية أعلن مهمة وزارته وهى انقاذ مايمكن انقاذه ، من حطام الحياة السياسية.

وسارع جلالة الملك فؤاد لملء الفراغ وانشأ حزباً ملكياً باسم حزب الاتحاد من ضباط الجيش المتقاعدين ، وكان فخامة المندوب السامى قد سبقه بانشاء حزب موال تمثلا بتجربة سلفه كرومر باسم حزب الأحرار الدستوريين يرث مابقى من حزب الأمة ويضيف اليها ابناء البيوتات ضد حزب الرعاع – أى الوفد .

وقام الحزب على قاعدة التساهل مع الانجليز للوصول إلى حل القضية المصرية وكان اعضاؤه يفاخرون لهذه السياسة ويسمونها كياسة وما هى من الكياسة فى شيء بل هى سبيل التفريط فى حقوق البلاد . وكان وجود الحزب موضع اطمئنان السياسة البريطانية إذ كانت تهدد به كل هيئة نيابية لاتميل إلى التسليم فى حقوق البلاد كما كان مع غيره من الأحزاب الرجعية وسيلة لاستعادة الحكم المطلق ، كما كتب عبدالرحمن الرافعى.

وقد تولى الوفد حزب الأغلبية وصاحب الحق الشرعى السلطة الحكم مرات متقطعة انتهت جميعاً بالاقالة فى خطاب من بضعة سطور تتراوح فى البذاءة والغطرسة .

عزيزى مصطفى النحاس باشا :

نظرا لما اجتمع لدينا من الادلة على أن شعبنا لم يؤيد طريقة الوزارة فى الحكم ولتعذر ايجاد سبيل لاستصلاح الأمور على يد الوزارة التى ترأسونها لم يكن بد من اقالتها تمهيداً لاقامة حكم صالح يقوم على تعرف رأى الأمة وتستقر به السكينة والصفاء فى البلاد ويوجه سياستها خير وجهة فى الظروف الدقيقة التى تجتازها ويحقق أمانينا العظيمة فى رقيها وعزتها.

فاروق

٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧

عزيزى مصطفى النحاس باشا :

لما كنت حريصاً على أن تحكم بلادى وزارة ديموقراطية تعمل للوطن وتطبق أحكام الدستور نصاً وروحاً وتسوى بين المصريين جميعاً فى الحقوق والواجبات وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب فقد رأينا أن نقيلكم من منصبكم.

٨ أكتور سنة ١٩٤٤

فاروق

وكانت الاقالة الأخيرة التى خرج بها الوفد من التاريخ.

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس

باشا:

إن أشد ما نحرص عليه ونعمل له هو أن تنعم بلادنا العزيزة بحكم يحفظ سلامتها ويرعى الأمن بين ربوعها وتسود فيه كلمة القانون ويستتب معه النظام وتتوافر في ظله طمأنينة الناس على أرواحهم وأموالهم.

ولقد أسفنا أشد الأسف لما أصيبت به العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنها خسائر في الأرواح والأموال وسارت الأمور سيرا يدل على أن جهد الوزارة التي ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام.

لذلك رأينا إعفاكم من منصبكم ..

وكانت ذروة الزيف والقهر والعبث السياسي الذي عانته مصر منذ الاحتلال وخاصة منذ إعلان «الاستقلال» مع التحفظات.

وخلال سبع وعشرين عاما تتالت على البلاد أربعون حكومة أقيلت جميعا بخطاب من بضعة سطور.. توحى به السفارة البريطانية ويوقعه جلالة الملك.

والقول إنه كانت هناك ديموقراطية وتعددية حزبية قضت عليهما ثورة يوليو إثم وبهتان مبين.. لم يكن ممكنا ذلك كان مستحيلا أن تقوم أي ديمقراطية قبل أن يذهب الملك ويلحق به الاحتلال .. وتسترد مصر السيادة كاملة ..

لم تكن مغامرة عسكرية

لم تكن ثورة يوليو مغامرة عسكرية انتقاما للهزيمة في فلسطين ثم اكتشفت طريقها براجماتيا عبر التجربة والخطأ ولكنها كانت ثورة ذات رؤية وفلسفة واستراتيجية أرسى جوهرها قائد المتطوعين القائمقام أحمد عبدالعزيز حين أعلن لضباطه (إن المعركة الحقيقة في مصر وكان يعني أن تحرير فلسطين الحقيقي يبدأ بتحرير مصر ثم يمتد ليشمل العالم العربي ثم الأفريقي ثم الإسلامي وأن الثورة لاتتجزأ وأنها لا تأمن إذا ظل الاستعمار في أي ركن أو حجر من هذه الآفاق الثلاثة . ولذا قرر قائد الثورة أن يحتفظ بالجيش سليما ونقيا للمهمة التاريخية وأن يسلم السلطة إلى أصحابها الشرعيين والذين أبعدوا ظلما ، وذهب إلى سكرتير عام الوفد فؤاد سراج الدين وعرض عليه أن يسترد الوفد اعتباره وهيبته وأن يعود معززا مكرما إلى السلطة في حراسة الجيش الوطني وباسم الشعب الذي خرج عن بكرة أبيه يحتفل بالثورة التي حملت إليه الخلاص.

سوف يعود حزب الأغلبية لينفذ كل برامجه التي أجهضها القصر والاحتلال وسوف لايجرؤ أحد على إقالته أو عزله بخطاب من بضعة سطور

وعزز قائد الثورة، عرضه بالشعار الذي رفعته الثورة وحفلت به جدران العاصمة نحن نحمي الدستور.

ولم يشترط أي شئ سوى قبول الاصلاح الزراعي «المعتدل» والذي ترك للملاك ثلاثين ضعف الأرض التي تركها القانون المماثل الذي صدر يومئذ في اليابان وعقد الاثنان أربعة اجتماعات طويلة، ثم طلب سراج الدين عرض الأمر على سلطات الحزب وهيئاته العليا ثم عاد في النهاية

ليعلن اعتذاره عن قبول العرض وأن الحزب .. حزب الأغلبية الشعبية الساحقة بفضل الضرائب التصاعدية التي لا يملكها عمال التراحيل والأغلبية المعدمة فى الريف، والتى يتهرب منها الملاك والاقطاعيين ورسب الدرس عميقا فى نفس قائد الثورة ولم يكن الدرس الأول والأخير.. وفوجئ قائد الثورة بمعارضة «خبيثة» للاصلاح الزراعى من الحكومة القائمة التى اختارتها الثورة، وأن ذلك يوحى الدوائر البريطانية والأمريكية التى هالها سقوط الطبقات التى كانت تعتمد عليها .

وكانت المفاجأة الأشد وقعا هى معارضة مجلس الوصاية الذى كان يرأسه أحد كبار ضباط الثورة.. للقانون .

واتسعت الرقعة وتألفت رابطة باسم رابطة الملاك، جمعت كل الذين افنوا ربع قرن فى الصراعات السياسية والحزبية دائما وأعلنوا أن الحد الأدنى للملكية يجب أن يكون ألفى فدان ، ثم وزعت سكرتيرة الرابطة وكانت سيدة معروفة من أقطاب الحزب السعدى استقالتهما منشورا عاما يحذر من أن الاصلاح الزراعى هو الخطوة الأولى للانزلاق إلى الشيوعية .

انقسام القوى السياسية

وضاعف من التحدى انقسام القوى السياسية الفاعلة والرئيسية فى تلك المرحلة ازاء الثورة .

انقسم الاخوان المسلمون إلى فريق يرأسه أخو المرشد العام الذى اغتاله الملك، وأيد الثورة، وشارك فى السلطة بوزيرين كانا من أبرز الوزراء وفريق آخر برئاسة المرشد العام طالب بولاية الفقيه وأن يكون له حق «الفيتو» على قرارات الثورة.. وكان فضيلته قد تصالح بعد توليه مباشرة مع جلالة الملك وقابله وخرج من المقابلة مبهورا ليصرح أنه «ملك كريم وابن ملك كريم» وغفر له اغتيال المرشد العام والمؤسس ثم أفتى بأن مقاومة الاحتلال فى القناة «تهلكة» يجب أن لا يلقى الشباب بنفسه فيها قبل أن يعدوا لها ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل » .

وانقسم الشيوعيون بدورهم إلى فريقين وأيدت تجربة الديموقراطية للتحرر الوطنى «حدتو» الثورة على أن تلزم برنامجها ، وأعلن الحزب الشيوعى المصرى أن الثورة انقلاب أمريكى قام لاجهاض الثورة الاشتراكية التى كان على وشك إضرامها ونادى بضرورة الإطاحة «العاجلة» بالديكتاتورية العسكرية .

وتعاطفت الطليعة الوفدية التى اضطهدها ونكل بها سكرتير عام الوفد مع الثورة.. وكذلك الملاك المستوطنون عصب الحزب والذين أدركوا ماسوف يحققه الاصلاح الزراعى من استقرار فى الريف الذى بدأت شرارات الثورة تسرى إليه .

بناء الديمقراطية الجديدة

وكان قائد الثورة يدرك تمام الادراك وعن وعى تام أن بناء التنظيم السياسى حتمية .. استراتيجية .

وكان يدرك أيضا أن البناء من أعلى ومن قمة السلطة تحد وامتحان عسير وغير مسبوق .

ولم يكن هناك سوى طريق واحد، هو الطريق الذى تحققت به الديموقراطية عامة سواء الليبرالية الغربية أو الاشتراكية أو الديموقراطية الجديدة

الآسيوية الأفريقية فى العالم الجديد الثالث وهو التجربة والخطأ ..

ومرت تجارب الثورة وأخطائها فى ثلاث مراحل .

- هيئة التحرير .
- الاتحاد القومى .

ثم تجربة خلاقة أضافت إلى تراث الديموقراطية «الجديدة» وهى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الذى أضرم حوارا عاما من الثورة وقائدها وكل القوى والقيادات الفكرية والسياسية من كل المذاهب والاتجاهات الوطنية .. وانتهى المؤتمر إلى وضع «ميثاق» يرسى الأسس العقائدية والطريق الخاص «العربى» الذى أضافته يوليو لتحقيق الثورة القومية والاجتماعية ثم التنظيم السياسى الذى يعنى ويقود قوى الثورة فى مواجهة قوى الثورة المضادة ثم مشروع الدستور الجديد «الشعبى» الذى يحدد حقوق المواطن فى السلطة والثورة والمعرفة ..

وفى ظل هذه الديموقراطية «الجديدة» حققت الثورة أول خطة تنمية متكاملة وأنجح تجربة فى التنمية اعتمدتها الأمم المتحدة نموذجا للدول النامية عامة .

وفى ظلها صمدت لأشد محنة واجهتها مصر منذ الاحتلال .

وقامت ببناء أقوى جيش فى تاريخ مصر العسكرى «جيش المثقفين» يدرك لماذا يحارب وكيف يحارب، وخاضت به أول حرب أليكترونية « فى التاريخ كما قال معلق بريطانى» إدوجار أوبلانس » وانتهت بتقويض سلاح العدو الحاسم وبكاء جولدامائير» فى أسبوع تساقط الطائرات ، وطلبت إلى وزير خارجية الدولة «الأم» فى واشنطن أن يسعى لعقد هدنة .

واستشهد قائد الثورة وهو يقاتل ويدافع على جبهتين فى مصر وفلسطين وعاش بطلا ورحل بطلا من الشعب وللشعب وبالشعب، ولم يختلف إلا الذين فى قلوبهم مرض .. يغفر الله لهم . ■



عبد الناصر فى كلمته أمام المؤتمر العام للاتحاد القومى (١٩٦٠)

شهادات

من شهادة مواطنة مصرية على سنوات عاشتها..

صافي ناز كاظم

لا أكاد أصدق أنه قد مضى نصف قرن بتمامه على ١٩٥٢/٧/٢٣ . ولا أكاد أصدق أن يشاء الله سبحانه وتعالى مدّ عمرى لأمسك بوعى كامل بداية تلك «الحركة المباركة» وأعيش مشوارها كله ، على مدى خمسين عاما ، ويكون قدرى أن أجلس وأقول: هل ٢٠٠٢/٧/٢٣ هو احتفال بعيد ميلاد لحى لا يزال قائما بيننا يسعى ، أم هى ذكرى لرحيل حلم ، وهم ، سراب ؟

كان هناك من عادى ، ولا يزال يعادى، ١٩٥٢/٧/٢٣ لأنها أزاحت الملكية، وطبقت الاشتراكية ، ودعت إلى الوحدة العربية ، وتناطحت مع الغرب والتغريب لصالح رفع شأن الهوية المصرية والعربية .. إلخ .

وكان هناك من عادى ، ولا يزال يعادى ، ١٩٥٢/٧/٢٣ لأنها ضحكت على الذقون ولم تزح الملكية بالشكل الكامل ، ورفعت شعارات العدالة الاجتماعية ولم تحققها ، ونادت بضرب الإقطاع وأعطته المبررات ليبدو مظلوما ، وأصدرت القوانين الاشتراكية وخالفتها ، ودعت إلى القومية العربية ونسفتها ، وقامت أساسا لتحرير فلسطين ودحر الكيان الصهيونى ، الذى لم يكن قد مر عليه سوى أربع سنوات حين قامت ١٩٥٢/٧/٢٣، وتصحيح أخطاء



عدد من المتهمين في طريقهم الى الحجز المؤقت بمصنع النسيج بكفر الدوار



اعضاء المحكمة العسكرية التي حاكمت المتهمين وهم يحلفون اليمين

وخيانات هزيمة العرب عام ١٩٤٨ ، فلم تفعل شيئا سوى تدعيم ذلك الكيان بالانهزام أمامه في الحرب وفي اتفاقيات السلام معه ، وضربت الهوية المصرية والعربية في مقتل حين سارت مع تيار العلمانية ، فلم تبلغ بها شرقا ولا غربا ، وإن خلخلت دعائم الروح الإيمانية وشجعت السفهاء على التقافز فوق أكتاف المؤمنين ، والأهم أنها انتقدت تجاوزات «العسكري الأسود» و «البوليس السياسي» في العهد الملكي وابتكرت آليات في القهر والتنكيل بالمواطنين بدا معها ذلك العسكري الأسود وذلك البوليس السياسي ملائكة من نفحات الجنان !

* * *

لا زلت أذكر ذلك الصباح ، الساعة الثامنة والنصف، والمذياع يعلن بصوت محمد أنور السادات زوال «العهد» الملكي «الفاسد» ، الذي سيظل اسمه «العهد البائد» لفترة لا بأس بها ، وقيام «العهد الجديد» و«الحركة المباركة» ، وذلك بتنازل «فاروق» عن العرش لوليده «أحمد فؤاد» ومغادرة البلاد ، وصوت جلال معوض المطحن يهلل: « وقد «تفضل» جلالته فوافق على المطلبين».

كانت النتيجة المعلقة فوق مكتبتي الصغيرة تحمل صورة الملك فاروق ، ولم أتردد في تخريق عينيها وخدش ملامحها تعبيرا عن تأييدي الكامل لكل هذه الأخبار « السعيدة» ، مندمجة تماما في صيحات الفرح التي عمت الشارع وانطلقت من الكبير والصغير والوقور والمندفع والمتحفظ والمتهور.

كان باقيا على عيد ميلادي الخامس عشر في ١٩٥٢/٨/١٧ ، ٢٥ يوما ، ولدي دفتري الذي أسجل به أحوال البلاد ونشاط «الفدائيين» ضد معسكرات جيش الاحتلال الانجليزي على خط القناة ـ الدفتر بحوزتي حتى الآن ـ الأجازة الصيفية في منتصفها وأنا ناجحة منقولة من السنة الثالثة الثانوية إلى السنة الرابعة ، وكان اسمها شهادة الثقافة العامة وهي السنة قبل شهادة التوجيهية التي تتمم الدراسة الثانوية لدخول الجامعة .

أكمل الأجازة الصيفية مع الجيشان الشعبي الفرحان ، متمنية لو قابلت مدرس التاريخ «إبراهيم عبدالواحد» بروحه المهزومة الذي كان قبل شهور قليلة يضرب حماسنا مع المقاومة الفدائية ضد الانجليز وهو يتهكم قائلا : « اتلهوا على عينكم ، انجليز ايه اللي انتم فاكرين شوية عيال على القناة ممكن يطردوهم ، انتم تساووا حاجة من غير الانجليز ؟ ده حتى الإبرة بنبعت ناخدها من عندهم ...» كنت أريد أن أواصل تحديه بقولي: «شفت ؟ إيه رأيك بقى!» .

* * *

أمي التي تلبس السواد ، منذ وفاة أبي ١٩٤٤/٤/٤ ، أراها تضحك لأول مرة، تقف ، بدون قواعدها الصارمة ، تلوح معنا لمواكب «الضباط الأحرار» أو «الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى» ، كما أطلق عليهم وقتها سيد قطب ، وقائدهم صاحب الوجه الطيب الباش محمد نجيب، الذين يمرون يوميا من تحت شرفتنا بشارع العباسية بسيارات مكشوفة وبلا حراسة سوى حراسة الجماهير التي تتلقاهم بشلالات هادرة من الحب والهتاف .

* * *

مع التصعيد بزوال الغمة والبغي والقهر والفساد يقوم عمال مصانع كفر الدوار للغزل

والنسيج بمظاهرات ضد الإدارة التابعة لـ «العهد البائد» يوم الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢ بظن تأييد «العهد الجديد» ورئيسه الطيب البشوش وفتيانه الشباب التقى النقى ، لنهضتهم المحتجة على «البائد» والمؤيدة بحماس لـ «الجديد» ولكن .... وتدق الفجيعة قلبى الصبى يوم عيد ميلادى ١٩٥٢/٨/١٧ بصدور أحكام بإعدام العاملين الشابين الفقيرين المعدمين ، كحال معظم الشعب الحالم بالخلاص ، القمرين خميس - ١٨ سنة - والبقرى ١٩,٥ سنة - وأبكى بانتحاب ولا أصدق ما يقال عن «خيانتهما» لـ «الثورة» . وأخشى حينئذ أن أقابل أستاذ التاريخ « إبراهيم عبدالواحد» حتى لا أرى فى وجهه الشماتة والبرهان على خيبة الأمل .

* * *

عندما قامت حركة ١٩٥٢/٧/٢٣ لم تكن مصر أرضا نائمة أيقظتها هذه الحركة ، ولم يكن المصرى مكسور العين مطأطئ الرأس محتاجا لمن يصيح به : «ارفع رأسك ياأخى ... قد زرعت فيكم العزة والكرامة» . لا والله، لا والف لا .. كان وراء مصر والمصريين السجل الطويل من المقاومة والفدائية والعزة والكرامة التى لم تكف عن احتضان كل هبة وطنية ترفع راية «الجلاء بالدماء» و«نموت نموت ويحيا الوطن» . كانت مصر حبلى بالثورة وبالتمرد معا ، وكانت خارجة من مظاهرات الأربعينيات متلمظة ضد القصر والانجليز ومخاتلات الأحزاب السياسية والهزيمة القاسمة على أرض فلسطين ، متهيئة للوضع والميلاد ، بعد طول انتظار ، راجية الانطلاق إلى فجر عصر جديد . ولذلك عندما سبقت حركة الضباط كل التكتلات الوطنية الأخرى إلى إعلان الخروج على الأوضاع الفاسدة وعلى الوضعية السياسية ، التى كانت شرعيتها السياسية قد انتهت فى أذهان الناس حتى قبل سقوطها ، التف حولها الشعب مسقطا عليها كل أحلامه الثورية التى تشوق إليها طويلا خاصة بعد مرارة الهزيمة فى فلسطين عام ١٩٤٨ . وفى غمرة الحماس الشعبى الذى تبنى حركة الضباط ولقبها بـ «الثورة» - لأنه كان يريدها كذلك - لم يكن بوسع أحد أن يقف ليراقب بدقة مواقف هذه الحركة الجديدة ، بل على العكس وافق الحماس الشعبى على أن يقوم - بوعى منه أو بلا وعى - بدور «المبرر» لكل الأخطاء التى ارتكبتها هذه الحركة منذ الشهر الأول لإمساكها الزمام فى مصر ، هذه الأخطاء التى وصلت فى حالات إلى درجة الخطأ الفادح وفى حالات أخرى إلى درجة الجريمة النكراء ، ثم بلغت فى نهاية جولتها درجة درجة درجة ... ... درجة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

لم يقف الشعب «الفرحان» ليناقش مفهومات ومدلولات شعار «الثورة البيضاء» الذى أطلقه الضباط على حركتهم ليتساءل ويقارن «بيضاء» على من و«حمراء» على من و«سوداء» على من : فقد خُلع الملك وتم الإبقاء فترة على ولى عهده الأمير أحمد فؤاد ، وأعطى الملك حق «الموافقة» على «الثورة» بأن تقدم الضباط للملك بطلب التنازل عن العرش وترك البلاد و«تفضل جلالته فوافق على الطلبين»! وتم رحيل الملك فاروق فى ١٩٥٢/٧/٢٦ عن مصر فى يخته المحروسة مودعا بكامل الاحترام والحقوق الملكية الواجبة له ، ولم يمس كادر ملكى من أتباعه بشعرة أذى واحدة - ومع ذلك أخذ الجميع على خاطره لنزولهم من

عليائهم وحرماتهم من الاستثناءات التى كانت تعزز امتيازات ترفهم ـ وكان هذا هو الجانب الأبيض السلمى لهذه الحركة ، لأنه ، وبعد أسبوعين فقط من تطبيق هذا السلوك المهذب «الحضارى» مع ملك مدان هو ونظامه بعديد من الجرائم ضد شعب مصر ومصالحه ، قامت مظاهرات عمال مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج ـ (الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢) ـ ضد الإدارة الرجعية التى لم يكن قد تم تغييرها بعد من قبل حركة الجيش . رفعت مظاهرات العمال شعارات «الحركة الجديدة» ضد الفساد والاستغلال ، وهتف العمال بحياة القائد العام ـ محمد نجيب ـ وفتيته الثوار، وكان التصور أن هذا «العهد الجديد» لابد وأن يتبنى مطالب العمال ويساندهم ضد الإدارة الرجعية ، ولكن العجيب هو الذى حدث : إذ كشرت الحركة الجديدة صاحبة شعار «الثورة البيضاء» عن أنيابها وتحالفت مع الإدارة الرجعية وصدقت كل ادعاءاتها ضد العمال ، وتم قمع المظاهرة ـ أو الهبة العمالية ـ من دون أى محاولة لتفهمها ودراسة بواعثها، وأقيمت فوراً المحكمة العسكرية لمحاكمة العصاة ، وتم تقديم ما يربو على ٦٠ متهما وتم تحديد زعمائهم بشهود الزور والبهتان ـ باتهام العامل «محمد مصطفى خميس» ١٨ سنة ـ والخفير محمد حسن البقرى ـ ١٩ سنة (وهو أب يعول خمسة أطفال وأم معدمة تبيع الفجل وتكسب مليمين فى اليوم)، وكان من بين المقدمين للمحاكمة أطفال فى سن العاشرة والحادية عشرة «شاءت إنسانية المحكمة وعدالتها أن تحكم ببراءتهم رغم ثبوت جريمة سرقة بعض أثواب القماش عليهم ».... (كما جاء فى تقرير أحكام قضية عمال كفر الدوار الذى صدر عن إدارة القوات المسلحة ١٩٥٢/٨ برجاء الرجوع إليه لمن لا يصدقنى لأنه وثيقة كاملة دامغة تساعدنا فى فهم الطبيعة الفاشستية لهذه الحركة التى عبرت عن سياستها ضد الشعب المصرى منذ الشهر الأول لقيامها) .

فى أقل من أربعة أيام تمت محاكمة هذا العدد الكبير من المتهمين ، (من صميم الشعب الفقير صاحب المصلحة الحقيقية لقيام الثورة كما زعمت الشعارات) ، وصدرت الأحكام بإعدام خميس والبقرى والأشغال الشاقة المؤبدة وسنوات سجن أخرى على بقية المتهمين ، وجمع عمال المصنع كلهم فى النادى الرياضى وأجلسوا حلقة كبيرة على الأرض حيث أذيعت فيهم الأحكام المرعبة من خلال مكبرات الصوت وسط طقس من الذهول الكامل تذكر فيه الوعى الوطنى محاكمات دنشواى وشنق الفلاحين لصالح خاطر المحتل الإنجليزى وجنوده .

فى الفترة نفسها حدث تمرد حقيقى بالصعيد معاد «للعهد الجديد» ومعاد لمصالح الشعب . قام بهذا التمرد «المسلح» إقطاعى اسمه عدلى لملوم ، لم يكف هو وأمه عن كيل السباب أثناء محاكمته ، ضد «الثورة» وضد الفلاحين ، وحكمت عليه المحكمة بالمؤبد ثم خففته فيما بعد حتى تفسح له مكانا من رحمة شعارها «الثورة البيضاء» . (وتجدر الإشارة هنا إلى الإفراج الصحى الذى حصل عليه عدلى لملوم بعد ذلك ، كما تجدر الإشارة إلى أن محاكمته كانت حافلة بأقطاب المحامين ، بينما كانت صرخات خميس والبقرى تذهب أدراج الرياح : هاتوا لنا محامى .. هاتوا لنا محامى .. ياناس) .

وهكذا لم نر شعار «الثورة البيضاء» يشمل



المتهم الأول مصطفى خميس بعد أن سمع الحكم عليه بالإعدام

أحدا سوى الملك وأسرته وشقيقاته، ولم يتسع سوى لكل الفاسدين والمفسدين من سفاحي الشعب المصرى حقا ، من وزراء ورجالات وإقطاعيى «العهد البائد» والذى ظل يضيق ويعجز تماما عن رحمة كل أبناء مصر المخلصين من العمال والفلاحين والعلماء والقضاة وأصحاب الرأى (أمثال الشهداء سيد قطب ، عبدالقادر عودة ، شهدى عطية .. إلخ) .

هذه البداية لحركة ١٩٥٢/٧/٢٣ تنقل لها الآن ونستطيع أن نستشف فورا خلوها الكامل من فكر ووعى والتزام إيمانى يعطى لها منطلقا ثوريا يحدد لخطواتها الطريق الذى تصعده متدرجة نحو غاية محددة أو رؤية تقدمية شرعية أو فلسفية إنسانية تحسم لها المواقف وتحلل لها الظواهر بحيث يمكن لها أن تفهم الفوارق الواضحة بين : تمرد إيجابى للعمال ، وتمرد سلبى لإقطاعى متجبر ، فلا تصل إلى قرارات تقتل بها أبناء الشعب المخلصين وتحافظ على حياة أعدائه وتستمر فى ذلك على الدوام ...

* * *

منذ هذا الخلط الأول - (خميس وبقرى/ عدلى لطوم) - الواضح فى مبدئية حركة الضباط ، استمرت تلك «الحركة» فى اتخاذ سياسة : ذبح كل الاحتمالات الواعية التى كان يمكن أن تتشرنب من بين صفوف الشعب المصرى لتحاسبها أو تناقشها أو تصحصحها وتقول لها : مكانك لقد خدعنا فيك ولست أنت أمل مصر ولا صيغة خلاصها . وحين بدأت الخلافات تقع بين أعضائها لم يكن بينهم بطل أو شهيد، فالظاهر البادى أمامنا الآن أنهم جميعا كانوا سواء . «يتخاصمون إذا المآرب عطلت، فإذا انقضين فلا خصام ولا مراء»، ولا أرى نفسى تأسف على محمد نجيب أو تفرح بانتصار جمال عبدالناصر عليه ، فلا يوجد لدينا مبرر واحد يؤكد لنا أنه لو انتصر محمد نجيب وحاز السلطة

بين يديه لما فعل الأفعال الدكتاتورية التى كانت النهج الذى اختاره عبدالناصر وبلوره وأجاده منذ انفراده بالسلطة عام ١٩٥٤ معتمدا معه سياسة سرابية ، تغذى الأحلام ، وتداعب المشاعر، دون أن يجد أى حلم سبيله للتحقيق على أرض الواقع .

* * *

مع انفراد عبدالناصر بالسلطة ، لم تعد هناك - عمليا - «حركة ضباط» ، إذ تمركزت «الحركة» و «الثورة» بل ومصر كلها فى شخصية «الفرد» الفارس الأسر الزعيم الأوحد جمال عبدالناصر ، وتولد ربما لأول مرة التعبير الشرير ، «من البديل؟» والبدائل العظيمة تسحق دوريا بالمشانق والتعذيب والاعتقالات التى لا تنتهى ، ولقد بلغ اتجاه التمركز فى شخص عبدالناصر أوجه عام ١٩٥٦ عند إصداره قرار تأميم قناة السويس الذى صاغه بحيث يبدو هو من ورائه «الشجيع» الذى يصفع أمريكا فى مقابل رفض البنك الدولى تمويل مشروع بناء السد العالى ، فتم إخراج القرار كضربة شجاعة لا يقدر عليها إلا «الجدع» عبدالناصر . وتاهت فى الصخب حقيقة أن تأميم قناة السويس حق من حقوق الشعب المصرى كان يجب أن يناله سواء قبل البنك الدولى أو رفض تمويل بناء السد العالى أو غيره، وحقيقة أن هذا «الحق» كان يجب أن يصدر بقرار هو جزء من خطة منهجية فى برنامج «الثورة» - (وتجدر الإشارة هنا إلى أن قرار تأميم قناة السويس تضمنه البرنامج السياسى لبعض الهيئات الشعبية، مثل الاخوان المسلمين والحزب الاشتراكى لأحمد حسين ، قبل ١٩٥٢/٧/٢٣) - ولا يمكن لمصر أن تغفر لعبدالناصر إخفاءه عن الشعب المصرى حقيقة الواقع العسكرى الذى نشأ فى المنطقة إثر العدوان الثلاثى ، فقد تصورت الجماهير ، العاشقة لبطلها عبدالناصر ، أنها انتصرت مائة بالمائة ، وأن الاحتلال الأجنبى قد رحل تماما ولم تعلم أى شئ عن وضع مضايق تيران أو شرم الشيخ أو الموافقة السرية من عبدالناصر للسماح للسفن الإسرائيلية بالمرور عبر المياه المصرية .

* * *

استمر الصعود المتنامى لشخص عبدالناصر الذى أحبت الجماهير العربية أن ترى فيه أملها المنشود ، خاصة بعد قرار الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ : هذا القرار الذى تم - كالعادة - بأمر فردى مباغت ومفاجئ ، ومع ذلك ساندته كل القوى الوطنية العربية . وتسجل سنوات ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ (تأميم الصحف) حتى ١٩٦١ أوج الصعود لشخص عبدالناصر مجسدا بشعاراته أمانى وأحلام الأمة ، خاصة بعد أن أعلن سياسته المتجهة نحو ما أسماه «الاشتراكية العربية» . مع ذلك الصعود لشخص عبدالناصر كان هناك الهبوط لسعر الشعب المصرى وقيمة الفرد فيه ، حيث كانت هذه السنوات نفسها هى سنوات بزوغ وتألق المنهج الإجرامى لإلغاء شخصية وحيثية الإنسان المصرى ومحوه، ذلك المنهج الذى ابتدعه عبدالناصر - وألهم به معظم زعماء الوطن العربى من بعده - وسلطه هو وقنواته وأدواته الوحشية ليحول الشعب المصرى المتكلم الساخر الفصيح إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة ، لا يعرف سوى التصفيق بأجنحته الكسيرة ، وسوى إخفاء الكلام كالسمك فى كيس منقاره . سنوات تأسيس منهج إشاعة الذل والقمع والإرغام والاقتلاع من الجذور وجدع الأنوف وقطع الألسنة - (ولو بقول النكتة

التى لا يحيا بدونها المصرى) - وقصم الظهر والهيمنة على النفس الصاعد والهابط ، سنوات تقنين المنهج البدائى الهمجى فى التعذيب الذى غُيِّر به المغول والتتار ، وتراه فى وحشية الأعداء ، منهج إحراق مكتبات بكاملها بعد شنق مؤلفيها الأفذاذ حتى لا يقرأ الشعب المصرى ، ومن ورائه الشعب العربى ، الكتب التى تمد إليه طوق نجاته ليغرق بدلا عنها حتى أذنيه فى مؤلفات الركاكة والسماجة والأكاديمية المزيفة والشقشقات والطقطقات التى ترضى الزعيم وتخلص دائما إلى النتيجة بأنه «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» وأن الفزع الوحيد الذى يجب أن يواجهه الشعب المصرى هو فزع احتمال غياب عبدالناصر فمن يكون «البديل» للفلتة المقلوبة من دورة الزمان !

وبما أن لكل عملة وجهين ، فإن خمر السلطة وكرباج القمع تمكنا من عزل عبدالناصر تماما حتى عن موقع قدميه حيث أصبح لا يرى ، وتحت وطأة منهجه فى تعبيد شعب مصر ، الذى حاول ممثلوه أن يقرروه على شعب سوريا ، كسرت الوحدة بين مصر وسوريا فى عام ١٩٦١ وكان هذا الكسر هو الهزيمة الأولى الواضحة لعبد الناصر بعد أن صار اسم «عبدالناصر» يعنى كل شئ : «الحركة المباركة» و«العهد الجديد» و«الثورة» بل و«مصر» و«الأمة العربية» .

وبدلا من أن يراجع «عبدالناصر» سياساته ورجالاته وحوارييه والطبقة الجديدة - التى صارت بفسادها تنافس فساد العهد الملكى - حتى يقف على الأسباب التى تكالبت على الوحدة وكبدت الجماهير العربية خيبة أمل محزنة أدت إلى التراجع نحو التعصب القطرى لكل بلد عربى ، وقف يعلق كل الأخطاء على مشاجب خارجية ، متعاميا تماما عن أسباب كانت مسئوليته فيها مباشرة ، معتمدا على ، ومستغلا ، مكانة الحب الهائلة التى كانت تضعه فى قلوب الجماهير العربية المصرة على ألا تتبدد أحلامها . واحتمى عبدالناصر بعد هزيمة الانفصال عن سوريا خلف قوانين ١٩٦١ الاشتراكية التى ألهت طبولها ومزاميرها وأفراحها الناس عن رؤية الأخطاء والأخطار الكامنة فى سياسة عبدالناصر الفردية السرابية ومنهجه القمعى ، وقد أدى تأثيرهما فيما بعد إلى تعطيل كل القوانين الاشتراكية عن فعاليتها المثمرة ، فلم يذق منها الناس إلا شدتها ومرارتها ولم يفلحوا - بعد الصبر - فى الوصول إلى حلاوتها .

وهكذا .. كما تشوهت الخطوات نحو الوحدة العربية ، تشوهت الخطوات نحو العدالة الاجتماعية، وظل الشعب العطشان عطشان يلهث وراء قطرات من حقوقه فى خدمات التعليم والعلاج والمواصلات ولا يكاد يبل حلقه، وبعد نصف قرن تلتفت لترى «الفقر والجهل والمرض» كما هى مشكلاتنا ، ولنسمع «وستعمل حكومتى على تسهيل وسائل المواصلات ... » كما هى وعود الكذابين ، ولنرصد المجئ والذهاب والدوار وقد تقلصت قضية تحرير فلسطين من احتلال ١٩٤٨ ، إلى تحرير الأرض المحتلة ١٩٦٧ ، إلى فك حصار عرفات وكنيسة المهد ، وإنا والله لمحزونون ... ...

... ...

... ... وتنتهى المساحة المتاحة ولم ينته الكلام والشهادة ... ■

شهادات

ثورة عبد الناصر ذكريات وتأملات

بقلم : د.على الراعى*

نظرت الي الصورة ولم أصدق عيني لا يمكن! مستحيل هذه صورة دبابات تحاصر قصر عابدين وعنوان الصحيفة الانجليزية يقول : ثورة في مصر...

هل يمكن أن يكون هذا قد حدث حقا ؟

لا، لا مستحيل لا يمكن أبدا ..!

الجيش ؟ جيش فاروق يفعلها؟ غير معقول . مرفوض تماماً !

***

ورحت أدقق في الصورة : الدبابات حول القصر فعلا، ومدافعها مصوبة نحو القصر وليس تجاه الشعب كما اعتدت أن أرى الدبابات في مصر ... دبابات الانجليز مثلا في عام ١٩٤٦، التي طافت شوارع القاهرة تحاول أن تخنق الروح الوطنية، والدبابات الأخرى المصرية، التي كانت تخرج أيام الزفف وأوقات الاستعراض ..

الدبابات - فعلا - تحاصر قصر عابدين ..!

***

كنت أيامها في انجلترا لم تمض على إقامتي بها سوى أشهر قليلة ، حافلة بكل ما يثير، كل ما يقطع على الطالب هدوءه وراحة باله، أثمن ما يحتاج للبحث والتعمق والاستيعاب .

لم تكد تمضي أيام على وصولى إلى انجلترا في خريف ١٩٥١ حتى الغيت المعاهدة ، وقامت مظاهرة نصف المليون تشيد بهذا الالغاء ، وبدأت معركة حرب التحرير الشعبية التى شنها فدائيو القناة .

وجاءت وزارات «عصر الزهور» في تتابع سريع، كانت الواحدة منها تمكث في الحكم أياما، ثم تسقط كأوراق الخريف، وكان عهد فاروق يلفظ مع

يوم الثورة ... وحصار قصر عابدين

* الهلال نوفمبر ١٩٧٠



كل واحدة منها نفسا من أنفاسه الأخيرة.

وتصاعدت الحوادث سراعا ورحنا نركض وراءها لاهثين - حتى في انجلترا الى أن بلغت الذروة بحريق القاهرة، واحترق مع مباني المدينة الباسلة آخر ما تبقى لمصر الملكية من أرض وجاه ونفوذ .

وهذه هي الدبابات تحاصر قصر عابدين ..!

***

مضت الدقائق ، واخذت - شيئا فشيئا - أصدق بأن ماوقع قد وقع فعلا بالمتعتى .. يا لمتعتي أنا، قبل كل الناس ..

كنت أيام الصبا الباكر، وأنا بعد طالب في المدرسة الثانوية ، أطوف بميدان عابدين الفسيح ، وأقول : هذا ميدان الثورة !

وكنت ارى أن الميدان الذى شهد المواجهة بين عرابي وتوفيق والذى انطلقت منه أول شرارة ضد الطاغوت الخديو، هو أجدر الميادين بأن يصبح ميدان الثورة وها هى ذى الثورة تحدث فعلا .. في الميدان الذى اخترته لها في خيالي .

ها هى ذى الثورة تعبر - سريعا - هزيمة الشكل الأول لها ، ثورة عرابي، وتتجاوز نكسة ثورة ١٩١٩ وتنتفض واقفة ، مرفوعة الرأس في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

موقف حافل بكل الامكانات وجميع المخاطر. الصحف هنا تسأل : من صنع هذه الثورة، وماذا تريد؟ وواضح أن الإنجليز قد أخذوا على غرة .

وجنود الاستعمار الثمانون الفا في قاعدة السويس قد أمروا بالتأهب، وصدرت التعليمات الى المدمرة «برمنجهام» الانجليزية بأن تغير طريقها وتتجة من فورها إلى مدينة بورسعيد لتنتظر مزيدا من التعليمات .

ومرت ثلاثة أيام حافلة بكل ألوان القلق ...

ماذا يا ترى الانجليز فاعلون؟ وهل يعقل أن يتركوا الثورة وشأنها ولهم على بعد ساعات من القاهرة ثمانون الفا من الجنود مدججون بالسلاح؟

ولكن الايام الثلاثة انقضت ولم يحدث للثورة شئ مما كنا نخشاه وسمعت نبأ طرد فاروق وأنا أتأهب للقيام برحلة تطوف فرنسا وسويسرا وايطاليا .

كان ضمن رفاقي في الرحلة كندى عجوز ، مازلت أذكر قسمات وجهة واضحة على قلة ما أذكر الوجوه والاسماء .

قال لى الرجل : ما هذا الذى يحدث في العالم؟ قلت : ماذا؟ قال : هؤلاء العسكريون الذين يتولون الحكم في كل مكان ديجول وايزنهاور وشان كاى شيك .. وعندكم - مؤخرا - جمال عبد الناصر .

قلت له: ما رأيك أنت ؟ قال ارى أنكم متجهون الى ديكتاتورية عسكرية شر الوان الديكتاتوريات ! وللأمانة المطلقة أقول : أن ما كنت أعرف اذ ذاك عن جمال عبد الناصر، هو أقل من القليل لا يتعدى ما قالته الصحف البريطانية يومذاك من أنه المدير الحقيقي لثورة ٢٣ يوليو، وانه رجل صموت، يحب أن يسمع أكثر مما يتكلم غير أنني وجدتني استمع الى رفيق الرحلة الكندى في هدوء، وأنا استثنى - في نفسي - جمال عبد الناصر من الاندماج تحت سلك الحكام العسكرين الديكتاتوريين .

لماذا؟ ولأى سبب؟ لا ادرى لم يكن لدى سبب واحد يدعونى إلى هذا لعله كان مجرد رجاء بألا يكون جمال عبد الناصر مجرد ضابط آخر من الضباط الذين يقلبون الحكومات فى كل مكان، ثم يثبتون من بعد أنهم ليسوا أحسن ممن انقلبوا عليهم .

وكانت انقلابات سوريا المتلاحقة فى أواخر الاربعينات مازالت فى الاذهان ويبدو – مما كتبه السيد أنور السادات فيما بعد – انه كان ثمة خطر حقيقى لأن تنقلب الثورة ديكتاتورية عسكرية لولا عبد الناصر، ولولاه وحده فقد وضع الديكتاتورية فى كفة ووجوده هو على رأس الثورة فى كفة أخرى .

وانتصر عبد الناصر أول انتصار هام وأساسى، فى سلسلة انتصارات أخرى كانت تنتظره .

***

يئست الصحف البريطانية فيما يبدو – من أن يصيب الثورة مكروه كانت تتمناه، وأصبح واضحاً من تأييد الشعب الإجماعى للثورة أنها قد كانت هى بالضبط ما يحلم به الناس ويتمنون حدوثه وانها جاءت تعبيرا حقيقا وأمينا عن كل ما عملت له حشود بعد حشود من الوطنيين المختلفي الآراء والمشارب، منهم من سقط شهيد محاولته ، ومنهم من عاش ليصمت أو يتنكس .

وكان مثار العجب عند بعض المعلقين أن النظام الملكى الذى هوى لم يطلق فى الدفاع عن نفسه من الرصاص أكثر مما يطلق الفلاحون فى فرح ريفى متواضع .

واستنتج الانجليز من هذا أن النظام الملكى كان قد تهافت وهوى من الداخل، وظل موجودا شكلا بلا موضوع ، حتى هبت ثورة يوليو الخلاقة فأطاحت بالشكل بعد الموضوع .

ذلك ان الجذور الحقيقة لثورة يوليو بدأت فى الفالوجة وأخذت القوى الثورية التى فجرها عبد الناصر تتكاتف مع غيرها ومن القوى الثائرة حتى تم تخريب بناء الظلم تخريبا تاما من الداخل واصبح سقوطه مسألة وقت .

هنالك قررت بريطانيا ان تحتوى الثورة، وتماشيها بعض الطريق يأمل أن تستولى عليها فيما بعد .

وأخذت الصحف البريطانية تتحدث علانية : أحيانا فى مواربة، وأخرى فى سذاجة مضحكة عن الادوار التى يمكن أن يسندها الغرب لجمال عبد الناصر .

أيمكن ان يقوم بدور نابليون؟ أنستطيع أن نسند اليه دور جورج واشنجتون؟ وقالت أشد هذه الصحف غباء ان هذا الرجل الصموت الذى يحسن التوارى عن الناس لا يصلح الا لدور بروتس : المتآمر الأكبر!.

كان واضحا من هذا كله مدى الحيرة التى وقعت فيها بريطانيا بإزاء عبد الناصر وهى حيرة لم يفعل الرجل العظيم شيئا واحداً ليبددها بل لعله تعمد أن يزيد الاستعماريين الانجليز خبالا على خبال .

كان المراسلون يقابلون بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة ويعودون وهم يفركون الايدى فرحا، ويكتبون فى صحفهم : «فى مجالسهم الخاصة،

يقول هؤلاء الاعضاء: إنهم مع الغرب » . ويحلم المراسلون بأن يكون هذا صحيحا، ثم تأتي وقائع بعينها فتعكر عليهم صفو الاحلام .

****

التحية التي وجهت الى الاتحاد السوفييتي عقب وفاة ستالين مثلا. علام تدل؟ ماذا يقصد هؤلاء الناس؟ أي اتجاه يتجهون ؟.

قانون الاصلاح الزراعي في سبتمبر عام ١٩٥٢ وما تلاه من تقويض للأساس الذي اعتمد عليه الاستعمار البريطاني من اقطاع. وما وجه من ضربات لملكية الأجانب للأرض ، وما أثمر من رفع بعض الغبن عن الأجراء الزراعيين .

علام يدل هذا؟ أمسير نحو الاشتراكية؟ أم اصلاح لبعض مظاهر الظلم الفاقع، حتى تخف حدة الثورة على الاوضاع ؟

لم يكن أحد يعرف على وجه التحديد . لأول مرة يعيش الاستعمار البريطاني في ظلام لا يعرف ماذا يحدث ، ولا ماذا تكون الخطوة التالية .

ومما عرفناه جميعا عن عبد الناصر حين تفتحت أكمام قيادته ، ونمت وازدهرت، نستطيع ان نقرر واثقين أن الرئيس كان يبتسم في سعادة لهذا الذي احدثه داخل معسكر الاستعمار من بلبلة ، وأنه كان يسخر - لا ريب من محاولات الاستعمار ان يسند اليه ادوارا معينة ينتقى الواحد منها بعد الاخر، من مخازن التاريخ .

***

كان عبد الناصر قد أسند لنفسه دوراً واحداً لم يغيره قط ولم يتنازل عنه، هو أن يكون ابن مصر البار، ومحررها من كل الوان الاستغلال والاستعمار مهما كان مصدرها .

عام ١٩٥٤ العام المشرق .. عام باندونج وشعار الحياد الايجابي يرتفع عالياً خلاقاً.

قصار النظر يظنون ان الحياد هو أن ندير ظهورنا للدنيا كلها، ما بين شرق وغرب ولكن عبد الناصر يصحح هذا بالنظرة الخلاقة للوضع العالمي ليس كل الناس سواء ولا مواقف الدول منا متشابهة هناك دول يهمها أن يتحطم الاستعمار وتعلو موجة التحرر الوطني وهذه الدول ترتبط مع الدول المجاهدة بمصلحة مشتركة هي تحطيم الاستعمار العالمي أو إضعافه الى حد كبير وهي في سبيل تحقيق هذا لا تبخل بالعون ، ولا تشترط كي - تبذله - أن ننحاز الى صفها يكفي فقط الا ننطم الى اعدائها وأن نسير في الطريق الذي اخترناه لأنفسنا : طريق التحرر من التبعية السياسية والاقتصادية للدول الاستعمارية .

وهذا ما أدركه جمال عبد الناصر بالنظر الثاقب والتحليل الدقيق . وهذا هو الذي رفع مقامه ومقام مصر كلها درجات كثيرة في رأى العالم .

بعد باندونج أصبحنا نسير بوضوح على طريق نصادق من يصادقنا ، ونعادي من يعادينا .

وانهارت الاسوار التي كانت تحبسنا في الارض الضيقة ، وتحرمنا تأييد ملايين الملايين في دول العالم الثالث وفي معسكر الاشتراكية.

ولابد أن المصابيح الحمراء - اشارات الخطر - أخذت من ذلك اليوم تومض في معسكر الاستعمار الحديث، الذي ظل حتى ذلك التاريخ يأمل في أن ينجح فيما فشل فيه الاستعمار القديم ، من احتواء لثورة عبد الناصر، وتحويلها من ثورة

حقيقية الى مجرد حركة تبديل لاشكال الاستغلال القديمة وإحلال اشكال جديد محلها .

***

عام ١٩٥٥، وهانذا أعود الى بلادى بعد غيبة اتصلت أربع سنوات أعود الى وطن تركته بين براثن ملكية متعفنة جعلت منا جميعا أضحوكة بين الناس .

كان أول ما صادفنى وساءنى فى انجلترا هو الصور الكاريكاتورية التى تنشرها صحيفة ديلى أكسبريس ، المعنة فى الاستعمار ، ضد ملك مصر ، وضد مصر بالتالى، والتى كان النظام البائد يحتج عليها فى وهن، فيقال له : الصحافة حرة فى بلاد الانجليز !

كانت بلادنا ذليلة بل كسيحة فى ظل النظام البالى. يعرضون علينا فى عام ١٩٥٦ أن ننضم الى حلف الدفـاع المشـتـرك، ويظنون انهم يمسحون الجرح، ويجعلون القهر أمراً مقبولا باقـتـراح غـريـب، هو أن يرأس الحلف قـائد عـسكرية مـصـرى، يأتمر بأمره العسكريون الانجليز، فنصبح بهذا رؤساء وليس مجرد تابعين !

كلام لا يجوز حتى على الاطفال ولكن بهذا القدر من السذاجة كان الاستعمار يظن الحركة الوطنية فى بلادنا ..

ومـا بين ١٩٥١ حين تركت مـصـر متـرددا، موزع الخـاطر وعام ١٩٥٥ حين عـدد سـعيدا لارض الوطن، كانت المعجزة قد تحققت وكان نور الاستقلال الحقيقى للشعوب قد أخذ يبزغ من جاكرتا ، وكان عبد الناصر واحدا من ابرز من وضعوا له الزيت وأشعلوا المصباح .

ولم يكن عجبا - بعد هذا - أن تصطدم ثورة عبد الناصر بالاستعمار الجديد أيضا، بعد أن تجرأت على كسر السدود ومن ثم بدأت سلسلة من المعارك المجيدة .

وكـان من حسن حظى أنى عدت فى الوقت المناسب لاعيش مع ملايين المصريين والعرب هذه المعارك المجيدة كلها وأولاها: تأميم القناة .

***

هل كان الاستعماريون يظنون يوما أن عبد الناصر سيجرؤ على تحديهم بكل هذه الجرأة ؟

بل هل كـان بعض المصـريين يظنون فى قائدهم كل هذه الشجاعة والاقتحام ؟

شاءت الظروف أن أكون واحدا من المصريين القلائل الذين علموا باعتزام عبد الناصر تأميم القناة .

عرفت هذا السر الذى حرص عبد الناصر على أن يبقى طى الكتمان، قبل اعلانه بساعات ، كانت كافية لإسعادى أياما طويلة ، حتى بعد أن أعلن الحدث الكبير .

كان بداخلى شئ من الزهو، لأن حدثا بالغ الاهمية فى حياة بلادى يوشك أن يحدث ، وأنا بين قلة قليلة تعرف أنه سوف يحدث فى ميعاد مرسوم.

وكنت أشعر أيضا بشعور من أطلع على سر من أسرار لعبة بالغة الخطورة، ولكنها أيضا بالغة الطرافة والامتـاع .. وكـان مما يزيد من شعورى بالسعادة أن اللعبة موجهة ضد اعدائنا ، واننا نحن الذين نوجه الضربة للاستعمار، بعد

أن جاء دورنا أخيراً ، بعد أن ظل هذا الاستعمار ذاته يوجه لنا الضربات المذلة المتوالية .

وقناة السويس، وشركتها ، وما كانت تشيعه في البلد من تيارات ضارة، ليس فقط في محيط الاقتصاد، بل وفي حياة الجماعات والافراد ايضا، هي جزء من حياتي فقد عشت طفولتي الباكرة كلها في الاسماعيلية ورأيت كيف تقسم الشركة الفرنسية البلد قسمين ظالمين قسم به كل الوان المتع وأرقى أيات الحضارة : فيللات فاخرة، وحدائق رائعة الحسن، ومدارس ومستشفيات وحفلات ، ومحال للبيع كلها على أحدث وأجمل طراز حتى كان هذا الحي الأوروبي يسمي : باريس الصغيرة .

وقسم آخر به الفقر كله : الازدحام، والحفاء والمرض والبيوت المتهالكة والمدارس القليلة المهدمة ، والمستشفى الاميري، بكل ما يعنيه هذا من شقاء ومرض وعذاب – كل هذا موجود في الحي العربي – أي حي المصريين ، أصحاب الأرض ، وأصحاب القناة .

كان أقصى ما يمكن أن يطمح اليه المصريون هو أن يقبلوا للعمل في خدمة شركة القناة اذا حدث هذا لفرد فقد رأى ليلة القدر .

ومازلت اذكر طفلا من أصدقائي، يشير الى مواطن كان يعمل بستانيا في خدمة الشركة ، كل مهمته أن يروي بعض الحدائق بخرطوم طويل . قال الولد : ترى هذا الرجل؟ أنه يعمل في خدمة الشركة وهي تعطيه عشرة جنيهات في الشهر.

عشرة جنيهات – قلت لنفسي ذلك نصف مرتب والدي المرتب الذي وصل اليه في أواخر خدمة امتدت أكثر من ثلاثين عاما .

كنا نعيش في الاسماعيلية على هامش البلد ما بين الشركة الفرنسية، وهي حكومة داخل حكومة، وما بين معسكر قوات الاستعمار القريب من البلدة . وهو طبعا حكومة أخرى، أقوى وأعتى كنا نعيش نهبا للمذلة ضيوفا غير مرغوب فيهم في بلد لم يعد ملكا لنا .

لهذا كله كان خبر تأميم القناة الوشك الحدوث ذا مغزى خاص بالنسبة لي . كان بمثابة انتقام طال انتظاره لسنوات من الاذلال عرفتها وذقت غصصها، طفلا وحدثا .

وأخذت الساعات تدنو من السادسة، وأخذت دقات قلبي تشتد، وتشتد معها سعادتي، إذ ينفرط عقد الساعات ولا يقوم ما يمنع الحدث الكبير المرتقب من أن يحدث .

وفي الميعاد المحدد أو حواليه . انطلق صوت جمال عبد الناصر يقول : باسم الامة : رئيس الجمهورية.. تؤمم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية ...

دارت عجلة الزمن دورة كاملة وعادت القناة لأحفاد الفلاحين والأجراء الذين حفروها بأظافرهم وسواعدهم المعروقة، وجوعهم، وأسمالهم البالية ..

***

كان هذا بدء الصدام الحقيقي بين ثورة عبد الناصر والاستعمار العالمي. وهو الصدام الذي بلغ ذروته في عام ١٩٦١، عام التأميمات الشهيرة، التي نقلت الجزء الاكبر من الاقتصاد المصري الى ملكية الشعب وجعلت الحديث عن مجتمع ينتقل الي الاشتراكية حقيقة واقعة وليس مجرد أمنية من

أماني العمال والفلاحين .

ومن يوم تأميم القناة الى يومنا الحاضر لم تهدأ ثائرة الاستعمار العالمي، ولن نهدأ نحن في كفاح هذا الاستعمار .

وقد كانت هذه سنوات كفاح مرير، وتضحيات ودم مسفوك ولكنها شقت لمصر طريقا واضح المعالم، أصبح من غير المقبول بل من غير الممكن تنكب السير فيه .

ذلك أن عبد الناصر لم يقم السد العالي وحسب . لم يحول مجرى النيل وحسب . لم ينشئ المصانع والمدارس والجامعات وحسب بل شق أيضا – وأهم من هذا كله – – لمصر طريقا حفر مجرى لنهر كبير يواكب النيل، ويضاهيه نهر له فرعان : الاشتراكية الخلاقة، والانفتاح على العالم كله، ما بين قريب وبعيد .

حفر هذا النهر وسط مصاعب لا حصر لها . فلم يكن هينا أنه يصادق العالم الاشتراكي في ابان حرب باردة عاتية بين المعسكرين ، وفي وجه انقسامات داخلية كثيرة في المعسكر الاشتراكي ذاته .

ولم يكن سهلا ان يحدد الطريق الى الاشتراكية في وجه معارضة ظاهرة وخفية من قوات التخلف في الداخل، وأن يفعل هذا بأقل قدر ممكن من التضحيات .

ولم يكن سهلا ان يهتم بمشكلات الوطن، ويمد النظر في الوقت ذاته الى الوطن العربي الاكبر، ثم الى الوطن الام، افريقيا ثم إلى دول العالم الثالث الشبيهة بنا والقريبة منا، ثم الى العالم كله من بعد: وطن الانسانية كلها .

ولكن هذا دائما شأن القائد الكبير الواسع الافق العالي الهمة كجبل راسخ تضرب قمته في الفضاء ويعرف سطحه النبات كله، والمناخ كله، ويرى ما يحيط ، وما يقبع من بعيد .

لا عجب أن نكس ثوار فيتنام اعلامهم في الادغال تحية له . ولم يجد قنصل أمريكا في القدس المحتلة مفرا من تنكيس علم أمريكا وبين هذين النقيضين كانت الاعلام كلها منكسة .

غير أن اعلام العدو والصديق لن تلبث أن ترتفع وكذلك تفعل اعلامنا، وحق لأعلامنا أن ترتفع لقد أصبح لها معنى ومغزى ، بعد أن كانت في السابق شارات زينة صار علم الجمهورية العربية المتحدة ذو النجمتين يعني شيئا بذاته رؤية محددة للأشياء، وعدا للافراد والجماعات والشعوب بأن سياستنا ستكون دائما الانشغال بالانسان ، بوصفه أثمن ما يحمل هذا الكوكب، والعمل الدائب على تحريره من كل مظاهر الاستغلال والاستعمار، بصرف النظر عن جنسه ولونه ودينه ومكان مولده .

لقد أصبح علم الجمهورية عندنا شعاراً مجيداً يقول: عاش الإنسان حراً، ممجداً في كل مكان .

ولقد بذل عبد الناصر أيام حياته جميعاً في سبيل أن يرتفع هذا الشعار .

وبعض التكريم الذي يستحق هذا الرجل الكبير هو أن نرفع شعاره دائما، عاليا خفاقا . ■

شاهد على عصر...

ماقبل وبعد ٢٣ يوليو

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

ما أقدمه ليس تاريخا، لأن للتاريخ مناهجه، وأصوله، ومكانه أيضا، وإنما هى ذكريات مواطن مصرى، شهد أحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢ طالبا فى الجامعة، وعاصر الأحداث التى سبقتها تلميذا فى الثانوى، ثم واكبها فى سنيها الأولى موظفا فى الحكومة، وهى شهادة قد تصلح تمهيدا للتأريخ، أو تمثل خطوة فى الطريق إليه، ولكنها لا تحل مكانه، ومع أنها مجرد ذكريات فإنى لم أستوحها من الذاكرة وحدها.

انتهت الحرب العالمية الثانية فى النصف الثانى من عام ١٩٤٤، وهدأ ضجيج المدافع، وصمت أزيز الطائرات فى كل مكان، وبدأ العالم ينشغل بما خلفته الحرب من دمار مادى واجتماعى، وكان ما صنعته فى مصر تحت جنح الظلام قويا وعميقا: السوق السوداء، الرواج الاقتصادى أثناء الحرب والانكماش بعدها، أرباح العمال الهائلة، ثم البطالة من بعد، طبقات تهاوت فى بؤرة الإفلاس، وأخرى صعدت إلى قمة الثروة، دون أن تخضع أى منهما فى صعودها أو هبوطها لقانون اقتصادى أو اجتماعى، وإنما هى الصدفة وحدها.

وبدأ الشارع المصرى يموج بتفاعلات وأفكار تتدافع من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، لا يعرف أحد إلى أين وجهتها، وما هى غايتها، يسودها التوتر والقلق، وتحركها العفوية والنوايا الطيبة، ومصالح تتصارع، ويأكل القوى منها الضعيف، وتيارات بعضها قادم من وراء الزمن، أو وافد من وراء الحدود، حركات إسلامية أو يسارية، تعمل علانية أو تحت الأرض، تتقاتل فيما بينها، أو تواجه السلطة القائمة، وهذه بدورها لم تكن واحدة، وإنما هى أحزاب مختلفة، تعتمد على دعم الشعب، أو قوة القصر الملكى، أو ذكاء المناورة، أو تلاقى المصالح، وتتخذ مسرحها فى كل مكان من



القوات الانجليزية أثناء
الاستعداد للجلاء عن مصر

أرض مصر، بين الطلاب في الجامعة والأزهر والمدارس، أو بين العمال في النقابات والمصانع، أو بين المثقفين في المنتديات، وفي تجمعاتهم، بين أناس تشغلهم هموم الوطن، أو يبحثون عن موضع قدم في قطار السلطة.

جدت في ساحة النضال الوطني اتجاهات لم تكن تعرفها مصر من قبل، أو كانت محدودة الأثر، وطفت على السطح قوى فاعلة، كانت تنمو بنظام، وفي تؤدة وثبات، بعيدا عن الرقابة والملاحقة، إنها الفترة التي بلغت فيها حركة «الإخوان المسلمون» ذروة نشاطها ونجاحها، تغلغلا في أحياء المدن وفي القرى والعزب والكفور، وسيطرة في الجامعة والمدارس ونقابات العمال، وتسربوا إلى الجيش والشرطة، يبشرون بحل في نطاق مشروع لا يكون بعيدا عن الدين، يلقونه مجملا، غير واضح المعالم والسمات لغير قادته، وربما كان ذلك مقصودا.

وكان الشيوعيون.. يمثلون القوة الجديدة الثانية، ذلك أن مصر اعترفت رسميا خلال الحرب بالدول الشيوعية بضغط من الحلفاء (انجلترا وفرنسا وأمريكا) وبدأت المطبوعات الشيوعية تأخذ طريقها إلى القارىء في مصر، سرا أونة، وعلى استحياء أونة أخرى، تتحرك مستقلة أو دراسات في مجلات وصحف شيوعية، تطبع في مصر أو قادمة من بيروت، وتجلى دور الشيوعيين واضحا في قيادة الجماهير للتصدي لمعاهدة صدقي - بيفن، عن طريق «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، وهو تنظيم أبدعوه، وفيه التقت الطبقة المثقفة مع الطبقة العاملة، وكان ذلك غاية استراتيجية، وفيه ظهرت الفتاة المصرية مناضلة سياسية في شخص لطيفة الزيات «الدكتورة فيما بعد» الطالبة في قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، فقد انتخبت عضوا في مجلس الإدارة، وكانت اللجنة تقود المظاهرات، وتصوغ لها الشعارات، تؤكد على مقاومة الاحتلال، وتلمس القضايا الاجتماعية، وعندما أسقطت المعاهدة سقط إسماعيل صدقي معها.

كان الإخوان المسلمون وحدهم، من دون بقية الهيئات السياسية الأخرى، الذين أدركوا مبكرين خطورة اللجنة، وقوة دورها، وأنها تمثل في العمق خطا شيوعيا واضحا، فاصطدموا معها، وانسحبوا منها، وألبوا بقية القوى الشعبية عليها، فخفت صوتها، وانتهى دورها عمليا.

إزاء تزايد قوة الشعب وصلابته في مقاومة الاستعمار البريطاني، وجد الإنجليز أن الاعتماد على القصر الملكي وحده، أو الباشوات وأتباعهم، مغامرة غير محمودة العواقب، على حين أن الطبقات الشعبية أصبحت في عمقها ساحة لغزو سياسي سري منظم من جهتين، كلتاهما تكره بريطانيا: الشيوعيين والإخوان المسلمين، وهكذا دخلت الساحة بتنظيم أرادته أن يكون شعبيا أيضا، وأن يتجه إلى قاع المجتمع، ودنيا الطبقة الوسطى فيه، وأسمته «إخوان الحرية»، ومع أنه علني، ولكنه في تحركه اتخذ نظام الخلايا، وأعطته غايات واضحة: التبشير بالديمقراطية الإنجليزية،

وتأكيد الصداقة بين الشعبين، وكان يدعمه بقوة أساتذة قسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب، في جامعة فؤاد، وعلى رأسهم كريستوفر سكيف، وهو الذي أهداه الدكتور لويس عوض ديوان شعره «بلوتو لند وقصائد أخرى» ونشره عام ١٩٤٧، وقد لعبت هذه الجماعة أدوارا مشبوهة في حرق كنيسة السويس في ١٩٥١/١/٤، وفي حريق القاهرة، وعندما ألغت وزارة الوفد معاهدة ١٩٣٦ في ١٩٥١/١٠/٨ أصدرت قرارا بحل هذه الجماعة وحظر نشاطها.

ولم تشغل القضية الوطنية جماهير الشعب في حركتها الهادرة ضد الاستعمار عن القضايا العربية، فتظاهرت متضامنة مع فلسطين في ثورتها ضد الاستعمار البريطاني، ومع سوريا ولبنان في وقوفهما ضد عودة الاستعمار الفرنسي، وفي هذه الأعوام (١٩٤٥ وما بعدها) فتحت مصر أبوابها لزعماء المغرب العربي بكل أقطاره (المغرب وتونس والجزائر) وتجمعوا في «بيت المغرب العربي» في القاهرة، يديرون منه صراعهم ضد الاستعمار الفرنسي، ووضعت تحت أيديهم كل إمكاناتها المتاحة، وتحولت القاهرة إلى مركز حقيقي لكل المطالبين بالحرية والاستقلال والوحدة في العالم العربي بأجمعه.

وكان الأمل في أمة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج تجمع بينها أواصر اللغة الواحدة، والثقافة الواحدة والدين الواحد، والامتداد الجغرافي المتصل، وروابط الأمن والمصلحة والآمال المشتركة، يداعب وجدان الجماهير، ويملأ مخيلة المثقفين والفنانين، وهم أقدر من غيرهم على تخطي حواجز الحدود، ومحاولة خلق قوة فاعلة تبشر بوحدة عربية، قد يطول بها الزمن، ولكنها آتية لا محالة، وهي طريق العرب الوحيد إلى القوة، وهي دعوة كانت تجد من الإقبال في كل بلد عربي، بقدر ما فيه من الثقافة والتقدم والشعور بنبض الزمن، ومن ثم شاعت: أم كلثوم مطربة الشرق، وشوقي أمير الشعراء، وخليل مطران شاعر القطرين، مصر والشام، والرسالة مجلة كل الكتاب العرب، إنها الفترة التي حمل فيها الأساتذة المصريون رسالة التنوير في كثير من الجامعات والمدارس في البلاد العربية، مدفوعة رواتبهم من مصر نفسها، وفتحت مطابع القاهرة أبوابها لكل المؤلفين والمبدعين من الأقطار العربية المختلفة.

كان الشارع المصري مائجا، يموج بتفاعلات متناقضة، لا يعرف أحد إلى أين وجهتها، ويلفها التوتر والقلق، وفيما عدا الاخوان المسلمين والشيوعيين ينقصها القيادة والتنظيم، وتحديد الغاية والهدف، وإنما تحركها العفوية والنوايا الطيبة، وفي غيبة التخطيط والقيادة الواعية أسلمت نفسها وقيادها لطلقات المسدس، وبدأ الرصاص يلعلع في مختلف أركان العاصمة. وكلهم شارك في القتل: الملك بحرسه الحديدي، والحكومة بشرطتها، والإخوان المسلمون بتنظيمهم السري، الشيوعيون وحدهم لم يلوثوا أيديهم بدماء الاغتيال.

اغتيالات بالجملة

فى هذا المناخ أغتيل أحمد ماهر رئيس الوزراء فى مبنى البرلمان، والنقراشى رئيس الوزراء فى مبنى وزارة الداخلية، وكان وزيرا لها، واللواء سليم زكى حكمدار العاصمة، وكانت الحكومة الأمريكية قد دربت له فرقة خاصة من قوات الشرطة، سلحتها بمدرعات خفيفة، وحملت اسم «فرقة الباشا»، ويقودها سليم زكى بنفسه، وعندما قادها ليواجه مظاهرة قام بها طلاب كلية قصر العينى، تلقفته قنبلة، أمام الكلية، من أعلى سطح بيت مجاور، أودت بحياته فى الحال، واغتال رجال الملك أمين عثمان باشا، واغتالت وزارة الداخلية حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، ونجا النحاس باشا من محاولتين لاغتياله.

وعندما تتناسى الحكومة القانون، وتتخلى عن وظيفتها فى حفظ الأمن، وتنزل إلى الشارع لتقتل خصومها، فذلك يعنى أنها فقدت دواعى وجودها، وأنها فى طريقها إلى الزوال.

وتوالت الأحداث.

انقض صدقى على الشيوعيين وكل التقدميين، وتجلى للرأى العام بوضوح، وربما للمرة الأولى، أن كل الرؤوس المدبرة، والتى لها الكلمة، فى كل الحركات الشيوعية، من اليهود أجانب أو مصريين.

وانقض النقراشى بعده بضربة أعنف وأشد على «الإخوان المسلمين»، ولم يكن لها ما يبررها، ودفع حياته ثمنا لها.

وأعلنت بريطانيا أنها ستتخلى عن انتدابها على فلسطين، والجلاء عنها، فى الوقت الذى ترفض فيه الجلاء عن مصر، لحاجتها فيما تقول إلى قواعد عسكرية تؤمن مصالحها، وكان واضحا أنها تود تسليمها لليهود، أو الجانب الأكبر منها على الأقل، وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة، بضغط أمريكى، الموافقة على قرار يقضى بتقسيمها بين العرب واليهود.

فى أعقاب قرار التقسيم كان العالم العربى على مستوى الشارع يموج بالحركات الشعبية تنادى الحكام العرب وتستصرخهم لإنقاذ فلسطين، وكان صوت الإخوان المسلمين هو الأعلى فى الدعوة إلى نصرتها، وكان شبابها أول من اشترك فى فصائل المقاومة العربية، وقاموا بدور باهر فى الاستيلاء على بعض المواقع الهامة، خصوصا فى النقب، وحول القدس، وعلى الطرق المؤدية إليها، وكان يقود المتطوعين من الإخوان وغيرهم كوكبة من شباب ضباط الجيش، طلبوا الإحالة إلى الاستيداع، وتطوعوا بقيادة هذه القوات، وفى مقدمتهم: أحمد عبدالعزيز، وكمال الدين حسين، ومعروف الحضرى وآخرون وقد استشهد أولهم برصاصة طائشة، فى ظروف غامضة، من جندى مصرى، أما الشيوعيون فقد رأوا فى محاربة اليهود فى فلسطين مؤامرة رأسمالية عربية على الطبقة العاملة فى البلدين، وأن الدولة اليهودية التى ستقوم فى فلسطين تستحق الدعم والترحيب بنشأتها وقيامها والتعاون معها من كل التقدميين، لصالح السلام العالمى،

ولانتصار الشيوعية الدولية، وصوروا ما يجرى فى فلسطين على أنه صراع طبقى فى أساسه، بين طبقة عاملة عربية ويهودية تريد السلام، وطبقة رأسمالية مستغلة عربية ويهودية ضده، وهذا هو جوهر الصراع والتناقض، فيما كانوا يرون، على حين يرى الرأى العام، باستثناء قلة من الساسة، أن الحرب فى فلسطين دفاع عن مصالح مصر ومستقبلها قبل أن يكون نصرة لشعب عربى شقيق.

وهزمت الجيوش العربية كلها وأدى ذلك إلى تداعيات سياسية عميقة وخطيرة لم تتوقف، على امتداد الوطن العربى.

فى مصر تعمقت روح القلق والتمرد، وبلغت حتى قوات الشرطة، فاضربوا عن العمل احتجاجا على ضعف مرتباتهم، وامتنعوا عن القيام بدورهم فى حفظ الأمن، مما جعل عبء ذلك يقع على عاتق الجيش، وحدث هذا فى مصر للمرة الأولى.

مغامرات الملك العاطفية

وفى هذه الفترة بدأت سمعة الملك تتردى حتى انتهت إلى الحضيض، وكان الناس فى النوادى والمقاهى ومختلف التجمعات يتهامسون عن آخر مغامراته وغرامياته، والعلاقات العاطفية التى تربط بين أمه ورئيس ديوانه، أو بين زوجته الملكة فريدة ووحيد يسرى، وإزاء هزيمة الجيش فى فلسطين ، واضطراب الأمن فى القاهرة، وتعنت الانجليز فى المفاوضات الخاصة بالجلاء، وعجز حكومات الأقلية عن القيام بأى عمل جاد فى أى جانب من جوانب الحياة لتحسين الأوضاع، جعل الكل يتنبأ بأننا على أبواب كارثة قادمة، لا يعرف أحد ماهيتها ولا لونها، ولكن الجميع واثقون بأنها قادمة لا محالة.

وفى هذا الجو الملبد بالغيوم انتهى مستشارو الملك إلى أن أفضل طريقة للخروج من الأزمة هى الاستغناء عن خدمة أحزاب الأقلية بالكامل، وأن الوسيلة الوحيدة لذلك هى إتاحة الفرصة لحزب الوفد، لكى يعود إلى الحكم عن طريق الانتخابات الحرة، فهو وحده القادر على إشاعة الأمن والاستقرار، ومفاوضة الإنجليز، وإرضاء الشعب، مما يتيح للملك فرصة الهدوء والتفكير والتقاط الأنفاس.

وألف حسين سرى، وهو سياسى مقرب من القصر، ويتصف بالاستقامة والاعتدال، وزارة محايدة لإجراء الانتخابات فى أواخر عام ١٩٤٩، وقرر الوفد أن يرشح نوابا فى كل الدوائر، وألا يترك واحدة منها يفوز فيها نائب من الأحزاب الأخرى بالتزكية، حتى ولو كانت خسارة الوفد فيها مؤكدة، ووجد مرشحين لمعظم الدوائر، ولكن دائرة باب الشعرية فى القاهرة استعصت عليه، لم يجد من يقدم من أتباعه على الترشيح فيها، ضد نائبها السابق سيد جلال، وهو عامل بسيط صعد بكده وجهده واستقامته، من القاع إلى القمة، وأصبح من كبار الأغنياء، ولم يتنكر لأصوله الأولى أبدا، وكان شديد الالتصاق بأهل دائرته، أقام لهم مستشفى ومدرسة تحملان اسمه حتى يومنا هذا، وقدم لهم خدمات لا تنقطع، وكان ينتمى إلى حزب

السعديين. وأخيرا قبل الترشيح ضده طالب في السنة النهائية في كلية الهندسة، ورئيس لجنة الطلبة الوفديين فيها، اسمه: مصطفى موسى، دفع له الحزب التأمين، وأمده بقليل من المال، وبداهة لم يكن الحزب، ولا هو نفسه، يؤمل في شيء من النجاح. كل ما كان يأمل تحقيقه، ألا يفوز النائب السعدى بالتزكية، وقد اعتمد في دعايته على زملائه الطلاب، ينتشرون في مقاهي الحي، ويحاورون روادها: «نعم إن سيد جلال شخصية عظيمة، وخدماته على الحي لا تنسى، ولكنه فيه عيب خطير أضر بالبلد كله: إنه سعدي، وانتخابه يعني استمرار هذا الضرر ودعمه»، وسرت هذه المقولة بين الناس سريان النار في الهشيم، ووجدت صدى بلا حدود: «عيبه أنه سعدي!».

حين انتهت الانتخابات، ترقب الناس نشرة أخبار الساعة الثامنة والنصف مساء، واتجهت كل الآذان إلى أخبار دائرة باب الشعرية، فمن المؤكد أن فوز سيد جلال سيكون ساحقا! ولكن، حدثت المفاجأة، وكانت قنبلة سياسية من الحجم المريع، عميقة الدلالة بلا حدود، لقد نجح مصطفى موسى، وفقد سيد جلال قيمة التأمين، لأنه لم يحصل على ١٠٪ من عدد الأصوات!.

كان ذلك يعني أن الوفد قد اكتسح الانتخابات بأغلبية كاسحة، جاءت به إلى الحكم، في انتخابات نزيهة حرة، أجرتها وزارة محايدة، وكان قبلها مبعدا عن الحكم بالقوة لمدة ست سنوات. وقد وضع نصب عينيه منذ اللحظة الأولى أن يصل إلى حل مع بريطانيا فيما يتصل بمفاوضات الجلاء، ولكنها أخذت تراوغ كعادتها. وفي منتصف عام ١٩٥١ وصلت الأمور بين الدولتين إلى طريق مسدود، رفض الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر العظيم، مؤيدا بقوة من النحاس باشا أي تحالف عسكرى مع بريطانيا أو الغرب قبل جلاء القوات البريطانية عن مصر، وكان الشعب يدعمه بقوة، ويفسد أي محاولة للالتفاف حوله، وفي لحظة بلغ فيها التأييد الشعبي أعلى درجاته اتخذ النحاس باشا قراره الخالد في ٨/١٠/١٩٥١: إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ووقف في مجلس النواب يقول جملته الخالدة: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر ألغيها».

مقاومة باسلة للاحتلال

وتظاهر الشعب كله مؤيدا.

وبلغت شعبية الوفد عنان السماء، ونشطت المقاومة الوطنية ضد معسكرات الاحتلال، وأسهمت فيها جميع القوى الوطنية، وردت القوات البريطانية بعنف، وسحبت الحكومة كل العمال المصريين الذين يعملون في القواعد البريطانية، وقررت القوات البريطانية طرد قوات الشرطة في الإسماعيلية من معسكراتها، وقاومت هذه، وقاتلت ببسالة، حتى آخر طلقة كانت معها. وفكرت حكومة الوفد في تفجير توصيلات الماء والكهرباء والمجاري بالمعسكرات البريطانية، واستقدمت خبراء من ألمانيا متخصصين في هذا الأمر كانوا لاجئين في البرازيل، وكان الأهالي في الشرقية يمنعون وصول

الأغذية إلى قوات الاحتلال .

كانت إرادة المقاومة قوية، ورد الفعل الشعبي جارفا، ولم يتخلف فرد ولا طبقة من المساهمة فيها: المحامون والأطباء والعمال والفلاحون والتجار وضباط الجيش والشرطة.

وفي يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ تآمر الاحتلال والملك وأعداء التقدم على حرق القاهرة، وكان الملك يحتفل بتقديم ولي عهده الوليد إلى ضباط جيشه، ويتناولون الغداء على مائدته وطلبت الحكومة تدخل الجيش لوقف المظاهرات والحرائق بعد أن عجزت الشرطة وماطل الملك.

وفي مساء اليوم نفسه اجتمع مجلس الوزراء وقرر إعلان الأحكام العرفية، (وكانت معلنة منذ ١٩٣٩ فلما تولى الوفد الحكم رفعها) وبعد ساعة من إعلانها تلقى النحاس باشا خطابا من الملك بإقالته، وحين احترقت القاهرة بدا أن عصرا بأكمله يعيش آخر أيامه، ويلفظ آخر أنفاسه!.

وتبقى معالم وطنية بارزة في تاريخ هذه الفترة، يذكرها جيلي بكل فخر واعتزاز:

● الاعتداد بمكانة مصر والحرص على كرامتها، وعدم الارتعاش أمام أية قوة أجنبية مهما عظمت وعندما أصدر مجلس الأمن قرارا بالسماح للبواخر الإسرائيلية بالمرور في قناة السويس رفضت مصر لأن الهدنة لا تنهي حالة الحرب.

وأعلنت وزارة الحربية والبحرية المصرية في ١٩٥٠/١٢/٢١ أن منطقة المياه الساحلية الواقعة غرب الخط الموصل بين رأس محمد ورأس نصراني، منطقة ممنوعة لا تجوز الملاحة فيها، وأخطرت بذلك جميع شركات الملاحة والقنصليات الأجنبية في مصر.

● منع السفن الحربية الإسرائيلية بالقوة من المرور في هذه المنطقة.

● ضبط السفن الإسرائيلية التجارية وحجزها إذا حاولت المرور في المياه الإقليمية المصرية بما في ذلك مدخل خليج العقبة.

يتم التحقق من حالة ووضع السفن الحربية والتجارية الأجنبية المحايدة، قبل السماح لها بالمرور بمدخل خليج العقبة، وللسفن الحربية المصرية اتخاذ الاجراءات اللازمة في هذا الشأن.

وعندما خالفت السفينة الإنجليزية إمباير روش التعليمات في ١٩٥١/٧/١، أوقفتها السلطات المصرية وحجزتها أربعا وعشرين ساعة ووضعت حرسا عسكريا على ظهرها ، واحتجت السفارة البريطانية، ورفضت مصر الاحتجاج فاقتنعت السفارة، وسجلت حق مصر وقالت: بأنها ستراعي الاجراءات عند مرور سفنها بالمياه الإقليمية المصرية.

إن الوطنية في تلك الأيام لم تكن تجارة، يطلب أصحابها في مقابل نضالهم مغانم ومرتبات وترفا لهم ولأبنائهم من بعدهم ، ومعظم الوزراء لم يكن يستخدم غير سيارة واحدة حتى لو تعددت وظائفه ويحرم على أسرته استخدام أي سيارة حكومية وبعضهم بلغت به الطهارة مبلغها فلم يكن يستخدم سيارة الوزارة في الإجازات الرسمية.

وحين اغتيل محمود فهمي النقراشي رئيس الوزارة لم يجدوا في جيبه غير ثمانية جنيهات وبضعة قروش ولم يخلف أرضا ولا عقارا ولا أسهما ولا سندات ولا حسابا جاريا، وعرف الناس من نعي الصحف فقط أن له أخا يعمل موظفا صغيرا في جمرك الإسكندرية، والشئ نفسه يمكن أن يقال عن النحاس باشا ومكرم عبيد، وغيرهم وعندما أقيلت الوزارة الوفدية وكان عبدالفتاح حسن أحد وزرائها ، اقترض من البنك الأهلي مبلغ ألف جنيه بفائدة ٥٪ ليواجه بها نفقات إعادة فتح مكتبه للمحاماة.

كان هذا هو الأصل وغيره، وهو نادر هو الاستثناء!

بعد إقالة وزارة الوفد في ٢٧ يناير ١٩٥٢، بدأ تأليف الوزارات وإسقاطها يأخذ شكلا عبثيا، وبين إقالة وزارة الوفد و٢٣ يوليو تألفت ست وزارات، وقد وضع الجيش حدا لهذه المهازل في بيان أذاعه أنور السادات ، أحد ضباط الحركة ، من الإذاعة المصرية، في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الأربعاء ٢٣ يوليو يعلن أن الحركة التي قامت بها مجموعة من الضباط للاستيلاء على السلطة، قد نجحت.

وفي ٢٦ يوليو وقع الملك وثيقة التنازل عن العرش لابنه وغادر أرض الوطن إلى إيطاليا، ولم يعد إليه إلا جثة هامدة بعد سنوات ليدفن في ثراه.

اتسم تقبل الرأى العام للحركة العسكرية في بداية الأمر بالوقار، وضبط النفس في انتظار ما يأتي به الغد، فلا مظاهرات ولا توترات وحرص الجميع على الهدوء، لأن مظاهرة واحدة من مائة شخص تهتف بحياة الملك كانت كفيلة بتعقيد الأمور إلى أبعد حد، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الأجنبي للتدخل والمساومة.

ولكن ما إن انتهت الحركة من تثبيت سلطانها حتى ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وبدأ الناس يناقشون في تجمعاتهم ما تصدره الحركة من قرارات كان أولها وأهمها قانون الإصلاح الزراعي.

في رأى عتقاء السياسة لم يكن القانون يستهدف إصلاحا اجتماعيا أو اقتصاديا بقدر ما كان يبغي هدم القلاع الضخمة بين المصريين والتي كانت تمثل أصحاب المصلحة الحقيقية، والتعبير لكبيرهم إسماعيل صدقي، وكانوا في جملتهم يستمدون قوتهم من ثرواتهم، وهذه عمادها الأرض التي يملكون وتجريدهم منها تدمير لقوتهم ، أما بقية الأغنياء من التجار وأصحاب الصناعات فهم في جملتهم من الأجانب ويستظلون برايات أجنبية وعلى ثقة من أن العسكريين آخر من يفكر في الاشتراكية أو التأميم.

وبداهة هلل له صغار الفلاحين لأسباب متعددة أوضحها عاطفي، فقد رأوا فيه ثأرا لاستعبادهم وآبائهم من قبلهم، على امتداد مئات السنين وتحريرا لهم من العوز والفقر، ومعه أحسوا بأنهم أصبحوا ملاكا، وهو معنى كبير للغاية في الريف المصري، وعلى النقيض منهم كان كبار الملاك الذين جردهم القانون من أملاكهم ولكنهم وجدوا

أنفسهم عاجزين عن عمل أى شئ إلا ترويج الإشاعات، ومحاولة بذر الفتنة بين رجال الحركة أنفسهم.

مصادرة اراضي الامير

وكان الشيوعيون من أشد المصريين معارضة للقانون بالطريقة التى صدر فيها فقد شد من تحت أقدامهم بساط الدفاع عن الفلاحين ، ولأنهم يقفون فى الصف المواجه لكبار الملاك ، اتخذوا من المزايدة وسيلة للهجوم العنيف، فدعوا إلى مصادرة أراضى الأغنياء دون تعويض وتوزيع الأراضى على فقراء الفلاحين بلا مقابل.

وأما كبار الاقتصاديين وخاصة الجامعيين منهم، فنظروا إلى الأمر نظرة اقتصادية بحتة فرأى د. عبدالجليل العمرى، وهو نموذج فذ للجامعى الشجاع المعتد بنفسه والمترفع عن المناصب، واشترط لقبول الوزارة تعويض أصحاب الأراضى الزراعية المصادرة وأن يكون الحد الأعلى للملكية مئتى فدان، وللأسرة الواحدة مائة.

وقد تابع المثقفون تعلق الخلافات الحادة التى بدأت تظهر بين كبار ضباط الحركة، وأبرزها ما كان بين محمد نجيب وجمال عبدالناصر ورأوا فيما حدث من الثانى للأول مؤشرا واضحا على نزوعه إلى التفرد بالسلطة، وأحسوا أن مصر تتحول بالتدريج إلى سجن رهيب، وأن نوافذ الحرية بدأت تغلق نافذة وراء أخرى وأن الحركة العسكرية قهرت حرية الرأى والفكر، وكممت الأفواه وسقطت فى أحضان النفاق والمنافقين والانتهازيين والوصوليين وأن شأنها شأن أية حركة عسكرية أخرى قامت فى العالم تبدأ وطنية وترفع شعارات براقة ولكنها بطبيعة تكوين رجالها ، تكره الديمقراطية، ولا تعرف الاختلاف فى الرأى وترى تداول السلطة والتشاور عبثا ، وتميل إلى الحكم المطلق، وتدوس فى سبيل الوصول إليه كل شئ وكان المثل واضحا فى الحركات العسكرية التى تشهدها أمريكا اللاتينية كل يوم، ولعل هذا الفهم وإن لم يعلنه صاحباه كان وراء امتناع الدكتور محمد صلاح الدين وعبدالفتاح حسن عن المشاركة فى التشكيلات الوزارية الأولى، وقد عرضت عليهما قبل أن ينتهى بهما الحال إلى المحاكم والسجون.

وبدأ السخط ينتشر والناس يتململون مما يجرى أمام أعينهم وضاقوا بعسكرة الوظائف العليا دون مبرر، وبدأوا يحلمون بحياة ديمقراطية وأخذ الضيق يستشرى بين كل الطبقات وفتحت السجون أبوابها وقامت المحاكم العسكرية ثم جاء تأميم القناة فذهب بكل هذا الضيق، وفتح أبواب الأمل من جديد ومسح كل خطايا عبدالناصر، وجاء العدوان الثلاثى فجعل منه بطل القومية العربية ، وزعيم العرب دون منازع ، وأحست الجماهير أنه البطل الذى تنتظره لكى يمسح عنها عار الهزيمة والضعف والتخلف.

وتوالت الأمجاد.

جلاء قوات العدوان الثلاثى

الوحدة مع سوريا .

وكانت هذه الأخيرة خاتمة الأمجاد، وفكها بداية الهزائم التى مازلنا نعانى منها، وندفع ثمنها، نحن والأمة العربية على السواء. ■

شهادات

مصر.. ونصف قرن من

الحصاد الفكرى

بقلم : حسين أحمد أمين

مقارنة

حصاد الفكر المصرى فى فترة نصف القرن التالى لثورة يوليو ١٩٥٢ بحصاده خلال الأعوام الخمسين السابقة عليها، تبرز فى وضوح تفوق فترة ماقبل الثورة.. كان قادته وأعلامه وقت نشوبها إما قد ماتوا، أو أنتجوا خيرة أعمالهم ولم يبق فى جعبتهم غير القليل، ثم تتابعت وفياتهم تاركين الساحة لأبناء جيل جديد: (زكى مبارك١٩٥٢، أحمد أمين ٥٤، محمد حسين هيكل ٥٦، سلامة موسى ٥٨، بيرم التونسى وشفيق غربال ٦١، أحمد لطفى السيد ٦٣، عباس العقاد ٦٤، على عبد الرازق وأمين الخولى وعبد الرحمن الرافعى ٦٦، أحمد حسن الزيات ٦٨، طه حسين وعزيز أباظة ومحمود تيمور٧٣)، بينما توقفت عن الصدور أهم مجلتين ثقافيتين مصريتين، وهما مجلتا «الرسالة» و«الثقافة»، بعد الثورة بأشهر قليلة



عبد الناصر مع المؤرخ العالمي ارنولد توينبي

أقول هذا رغم علمي بأنه ليس ثمة علاقة حتمية بين ازدهار الثقافة والفكر في بلد أو منطقة وبين ازدهار النظم السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية في هذا البلد أو هذه المنطقة. ذلك أنه مع الثقافة، كما مع الشعوب والدول والأفراد، لا ترتبط أجمل الفترات ببلوغ مجد أو تحقيق انتصار، أو نيل ثروة أو الوصول إلى غاية، وكلنا يعلم كيف أن الأدب والموسيقى بلغا أوجهما في روسيا في ظل النظام القيصري، وأن العصر الذهبي في الأدب الفرنسي كان في ظلّ الملكية المطلقة السابقة على الثورة الفرنسية وعهد نابليون اللذين لا يكادان يفخران بغير أديبين معاديين لهما، هما مدام دوستال وشاتوبريان، وأن ازدهار الآداب والفكر في المشرق العربي إنما كان في العصر العباسي الثاني الذي تفككت أثناءه دولة الإسلام، وانحلّت فيه أشكال الحكم السياسي، وفي المغرب العربي، في الأندلس، في عهد ملوك الطوائف ومَنْ تلاهم من الحكام حيث شاعت الفُرقة بين المسلمين .

تحقيق الآمال

كلّ ما يمكن قوله هنا هو أن أزخر الحقب بثمرات الفكر والآداب والفنون ليست بتلك التي تُحقِّق فيها الشعوب آمالها، وإنما هي تلك التي تعمر الثقةُ فيها قلوب أبنائها بالقدرة على بلوغ الآمال والوصول إلى الأهداف، وذلك من قبل أن تبلغها، حتى إن اقترنت تلك الحقب بالفقر وانتشار الأوبئة، وكثرة الحروب والجرائم، وغير ذلك من الشرور الاجتماعية.. وأبرز مثال على ذلك زمن شكسبير في ظل حكم إليزابيث الأولى. فقد تمخّضت عدة أحداث، كانتصار الأسطول

البريطاني على الأسطول الإسباني في موقعة الأرمادا، وبدء استيطان الانجليزي في شمال القارة الأمريكية عن خلق توقّعات جمّة وآمال عريضة لدى الانجليز، عمرت قلوبهم بالثقة في مستقبل مجيد أكيد، وإن كان الحاضر لا يزال مفعما بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الضخمة، وقد كانت هذه الثقة بالضبط - كما يذهب مؤرخو العصر الإليزابيثي - هي السبب الأعظم في ظهور أناس في مثل قامة شكسبير، وكريستوفر مارلو، وبن جونسون، وفرانسيس بيكون، وبومونت وفلتشر، وعشرات غيرهم.

مثل هذه التوقّعات نجد شبيها بها في تاريخ مصر في حقبة العشرينيات من القرن العشرين التي وصفها لي القانوني البارز مصطفى مرعي بأنها أخصب وأسعد الحقب في تاريخ مصر الحديث. فقد شهد ذلك العقد نهضة عظيمة في كل مناحي الحياة، ربما كان من أهم أسبابها ما تركته ثورة ١٩١٩ من أثر عميق في الروح المصرية، ثم ذلك الرخاء الاقتصادي الناجم أساسا عن ارتفاع سعر القطن. ففي المجال السياسي والحزبي والتشريعي، شهدت مصر بدء الحركة التشريعية الحديثة، وإلغاء الحماية البريطانية والاعتراف باستقلالها، وتأسيس حزب الأحرار الدستوريين، وإعلان دستور ١٩٢٣، ووزارة سعد زغلول. وفي المجال الاقتصادي بدأ العقد بافتتاح طلعت حرب لبنك مصر، وانتهى بإنشائه مصانع الغزل والنسج بالمحلة الكبرى . وفي مجال حقوق المرأة، سُمح للنساء عام ١٩٢٢ بالخروج دون نقاب، وبدأت هدى شعراوي دعوتها بالمطالبة بحقوق المرأة السياسية، وفي مجال التعليم، شهد عام واحد - هو عام ١٩٢٥ - افتتاح أول مدرسة ثانوية للبنات، وافتتاح جامعة فؤاد الأول بالقاهرة. وفي مجال السينما، أسست عزيزة أمير أول شركة سينمائية مصرية، وظهر فيلم «ليلى» أول فيلم مصري طويل صامت. وفي مجال المسرح، تواصل عرض أوبريتات سيد درويش، ومسرحيات محمد تيمور، وظهرت مسرحية «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، و«مصرع كليوباترا» لأحمد شوقي، بالإضافة إلى تكوين عدد كبير من الفرق التمثيلية الهامة، وبزوغ نجوم أمثال يوسف وهبي ونجيب الريحاني وعلي الكسار، وفي ميدان الغناء، قدمت إلى القاهرة عام ١٩٢٠ لاحتراف الغناء فيها فتاة قروية تدعى أم كلثوم، كما شرع محمد عبد الوهاب يتغنّى بقصائد شوقي، وفي ميدان الصحافة، صدرت جريدة «السياسة» التي رأس تحريرها محمد حسين هيكل، وصحيفة «البلاغ» لصاحبها عبد القادر حمزة، وأسست الفنانة فاطمة اليوسف مجلتها «روز اليوسف»، وفي مجال الآثار، كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ بداية اهتمام مكثّف بتاريخ مصر الفرعوني سرعان ما أضاف بُعدا جديدا إلى أبعاد الهوية المصرية، أما في مجال الفكر والأدب فحدّث ولا حرج فقد سطعت في ذلك العقد نجوم العقاد والمازني وزكي مبارك

وبيـرم التـونسى إلى جـانب المنفلوطى وشـوقى، وخَلَّفَ محمود تيمور أخاه محمدا فأخرج مجموعته القصصية «الشيخ سيِّد العبيط»، وواصل لطفى السيد ترجمته لأعمال أرسطو، وظهر أهمُّ عمل أدبى فى تاريخ الأدب العربى الحديث، وهو كتاب «الأيام» لطه حسين، وصدر فى عامين متتاليين كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق (١٩٢٥)، وكتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين (١٩٢٦)، وهما كتابان وصفهما طه حسين عام ١٩٤٧ بأنهما «قد نجحا فى إرساء دعائم الفكر الحرّ فى الإسلام بصورة حاسمة».. وفى عام ١٩٢٨ نشر أحمد أمين كتابه «فجر الإسلام»، وهو أول مجلد فى تاريخه للحضارة الإسلامية، وصفه المستشرق سير هاملتون جيب بأنه «أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد فى التاريخ الإسلامى العربى الحديث».

خَبا ضوء تلك الحقبة الزاهرة بنشوب الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٩، وتلاها انحسار وتدهور فى مختلف مناحى الحياة، فمن ضائقة اقتصادية صحبها ارتفاع جنونى فى الأسعار، إلى وقف العمل بالدستور وتولِّى الوزارة أناس لديهم نزعة تسلُّطية كإسماعيل صدقى ومحمد محمود، إلى فساد الحياة الحزبية والسياسية بعد وفاة سعد زغلول، إلى نموّ التطرف الدينى بتأسيس حسن البنا عام ١٩٢٨ لجماعة الإخوان المسلمين بمدينة الإسماعيلية، إلى اتجاه الكثيرين من كبار الكتَّاب إلى الاستجابة لهذا التيار الدينى سعيا وراء الكسب، إلى تحجُّر فكرىّ قضى على الكثير من المواهب، وعلى قدر كبير من حرية الفكر والتعبير.

الصدارة والريادة

غير أنه بالرغم من ذلك الانحدار التدريجى، ظل لمصر لثلاثة عقود أو أربعة أخرى مكان الصدارة والزعامة والريادة فى العالم العربى بأسره، وظل الكل فى الأقطار العربية المختلفة، ولأمد طويل، لا يرون منافسا عندهم لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب فى الغناء، ولزكريا أحمد والقصبجى والسنباطى فى الموسيقى، وليوسف وهبى ونجيب الريحانى فى التمثيل، ولزكى طليمات فى الإخراج المسرحى، ولتوفيق الحكيم، فى الأدب التمثيلى، ولطه حسين وأحمد أمين والعقاد ومحمد حسين هيكل فى الأدب والفكر، ولمحمود تيمور ثم يوسف إدريس فى القصص القصيرة، وشوقى وحافظ وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى فى الشعر، وبيرم التونسى فى الزجل، بالإضافة إلى ذلك التفوق المصرى الكبير فى مجالات السينما والصحافة والإذاعة. صحيح أن الكثيرين من روّاد النهضة الثقافية الحديثة فى مصر كانوا من اللبنانيين أو السوريين، كجرجى زيدان ويعقوب صروف وفارس نمر وأنطون الجميل وخليل مطران ويعقوب صنوع .. إلى آخره، غير أن معظم هؤلاء كان قد وفد إلى مصر واستقرّ فيها فرارا من الحكم العثمانى فى الشام، أو طلبا لميدان أرحب وجمهور أكبر لنشاطهم الفنى، فاعتُبر نشاطهم هذا

جزءاً لايتجزأ من الحياة الثقافية والفكرية والفنية المصرية، بالضبط كما ننظر اليوم إلى مؤلفات سلمان رشدي أو أهداف سويف أو ڤيديا نايبول وغيرهم من المهاجرين إلى بريطانيا باعتبارها من ثمار الأدب الإنجليزي.

لقد كان للحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ وانفتاح مصر على الحضارة الأوروبية من جرّائها، وانفصالها منذ ذلك الحين عمليا ثم شكليا عن الدولة العثمانية، في حين لم تنل معظم الأقطار العربية الأخرى استقلالها عن تلك الدولة إلا بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى أثر حاسم في أن تظل مصر سابقة على الدول العربية الأخرى في المجال الثقافي والفني بنحو قرن وربع قرن، فلم يكن من المستغرب أن تظل لها ولمفكريها وفنّانيها الريّادة في هذا المجال لعدة عقود تلت نيل تلك الأقطار لاستقلالها، غير أن الزمن يمضي، والعوامل الماكبة للثقافة والفنون المصرية تزداد، فإذا هي خلال الأعوام الخمسين الماضية تفقد تدريجيا مكان الصدارة في مجال ثقافي تلو مجال، وإذا الأنظار التي ظلت معلقة بها لأكثر من قرن تتحوّل إلى نجوم ساطعة غير مصرية في سماء الفنون والفكر، كصباح فخري وفيروز وماجدة الرومي في مجال الغناء، وسعد الله ونّوس في مجال المسرح، ومحمد الماغوط في مجال الأدب، وأدونيس ونزار قباني وعبد الوهاب البياتي في ميدان الشعر، ودريد لحام في مجال التمثيل، وإدوار سعيد في مجال المقال السياسي، وجريدة «الحياة» في مجال الصحافة، ونضال الأشقر في مجال الإخراج المسرحي .. إلى آخره.

الإضرار بالمناخ الفكري

نعم قد أثارت ثورة يوليو عام ١٩٥٢ والسنوات الأولى من عهد عبد الناصر توقعات وتطلعات إلى مستقبل أفضل لدى شطر كبير من شعب مصر شبيهة بتلك التي أثارتها ثورة ١٩١٩، غير أن ثمة فارقا ضخما بين الثورتين، هو أن الأولى (ثورة ١٩١٩) أعقبها نموٌ مطرد في كل المجالات، سريع وقويٌ لكنه هادئٌ متناسق، في حين اتّسمت الأعوام التالية على ثورة يوليو بالعنف والحدة، والحروب والتقلبات، وتذبذب السياسات والتوجهات على نحو أضرّ إضرارا رهيبا بالمناخ الفكري والثقافي على نحو يذكّرنا بما ألحقته الثورة الفرنسية وعهد نابليون من أضرار بالحياة الفكرية والثقافية الفرنسية، لهذا لا يبدو الأمر مستغربا أن يكون الكتاب الذي يكاد رأي الغالبية يستقر على أنه أهم كتاب مصري صدر في الأعوام الخمسين الماضية، وهو «شخصية مصر» لجمال حمدان، هو من تأليف رجل نأى بنفسه بعيدا عن كل الأحداث والمؤثرات والتيارات في مجتمعه.

فما الذي عساه أن يكون قد حدث في العقود الخمسة الأخيرة فيما يتصل بالفكر والثقافة والأدب والفنون في مصر؟

تدهور التعليم

● ثمة أولا ذلك التدهور الملحوظ في مستوى التعليم المقترن بالتزايد المفرط في تعداد السكان،

واكتظاظ الفصول في المدارس والجامعات بالطلبة، والافتقار إلى خطة حكيمة محكمة لإعداد شبابنا لمواجهة التحديّات الفكرية للعصر الذى نعيش فيه، والانحطاط المطّرد فى مستوى المدرسين والأساتذة نتيجة لهجرة خيرتهم إلى الدول الخليجية، وضآلة المخصصات المالية للتعليم، وقلة اكتراث الطلبة بغير اجتياز الامتحان ولو عن طريق الغش الذى بات الآباء أنفسهم يقرّونه ويغضّون الطرف عنه، وتضاؤل ثقة الشباب فى أن سعة العلم والثقافة هما المدخل إلى ما يطمحون إليه، وتزايد ثقتهم فى أن النجاح الدنيوى لا يتوقف على ما يعرفونه بقدر ما يتوقف على من يعرفونه.. إلى غير ذلك من عوامل أثرت فى طبيعة التكوين الثقافى لأعلام الثقافة ولقرائهم وجمهورهم.

● وثمة تزايد ضعف حصيلة الشباب من اللغة العربية، وضعف قدرتهم على التعبير بها عما يدور بنفوسهم من مشاعر، وبأذهانهم من أفكار، وقد حرمهم فسادُ منهج تعليم اللغة العربية فى مدارسنا من القدرة على النظر فى كتب التراث العربى القديم لعجزهم عن فهم لغتها، فإن نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة فى التندّر على سخافة نظر الأسلاف، خاصة من جانب المتفرنجين المبالغين فى النظرة إلى الغربيين وكأنهم أنصاف آلهة، والمبالغين فى التحقير من شأن تراث أمّتهم الذى حسبوه خطأ المسئول عن التخلّف الذى صرنا إليه . وقد نجم عن انقطاع الصلة بتراثهم وماضيهم افتقارٌ إلى القدرة على الاستعانة بالجانب الإيجابى الحىّ من التراث فى مواجهة التحديات المعاصرة.

● كذلك فإنه لابدّ من الإشارة إلى تكاثر مشاغل الحياة وضجيجها المعنوى، وتنامى الاحتياجات الكمالية التى ترفع الكل تقريبا إلى التكالب بكل السبل على تحصيل المال، مما لا يدع فى النهاية فائض طاقةٍ أو وقتٍ لتحصيل الثقافة. فقد انحصر الشغل الشاغل للغالبية فى وسائل الكسب، والكسب السريع إن أمكن، ولم يعد أحد يطيق الصبر أو التدرّج أو يؤمن بجدواهما، كان ثمة تجار فى مجتمع ما قبل ثورة يوليو غير أن الناس وقتها كانوا فريقين: تجارا، وغير تجار. أما اليوم فقد أضحت الكافة تجارا فإن كان الأساتذة الجامعيون قد استغرقهم الاتجار بالعلم ، وملائكة الرحمة بالرحمة، فما يحول بين الأديب أو الصحافى أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق الأموال أو التعيين فى المناصب، خاصة أن هدف هؤلاء لم يعد مجرد الحصول على ما يُعينهم على مواجهة أعباء الحياة، وإنما أصبح الاستمتاع، وإلى أقصى حدّ متاح، بأطايب الحياة ومباهجها، وهو ما ليس بالوسع من أجل تحقيقه الاعتماد على القلة القليلة المتضائلة ممن لايزال بمقدورها أن تقدّر فكرا، أو تسيغ فنا، فإن أضفنا إلى ذلك حقيقة انتقال المال والثروة فى العقود الثلاثة الأخيرة من صفوة القوم إلى حُثالتهم، من أولئك الذين كانوا يرعون النهضة الثقافية إلى من تمكّنوا بفضل ثرائهم الجديد من فرض أذواقهم فى

الفن والثقافة، وفرض مفهومهم عنهما (وهو مجرد الترفيه) على مجتمعنا كله، بما في ذلك المشتغلون بالآداب والفنون ممن باتوا يراعون إرضاء هذه الطبقة الجديدة ذات القدرة المالية، بات من السهل علينا أن نفهم كيف انتقلنا من عصر التنوير، عصر طه حسين وسيد درويش ومحمود مختار، إلى عصر أحمد عدوية وشعبان عبد الرحيم وفيفى عبده!

خطب ود السلطات

● ما نجم عن ظهور الثروة النفطية في بعض الأقطار العربية من اتجاه شطر كبير من الكتاب والفنانين المصريين إلى خطب ودّ السلطات في تلك الأقطار حتى يستفيدوا ماليا من نشر أعمالهم فيها، وهو ما اقتضى منهم مراعاة الالتزام بالشروط المعلنة وغير المعلنة لفحوى ما ينشرون، حتى إن كانت الشروط رجعية في اتجاهاتها السياسية والدينية، مما زعزع في النهاية من القدرة على الابتداع، وعلى كل فكر حر، بل وزعزع من ثقتهم بأنفسهم وبأخلاقياتهم وبضاعتهم، وانتهى بهم إلى تبنّي موقف من الحياة والقيم والثقافة مفعم بالشك والسخرية.

● ما لاحظناه من اقتران تزايد المدّ الإسلامى الشعبى وإرهاب الجماعات الدينية المتطرفة بمواقف من شيوخ الإسلام الرسمى لا تختلف كثيرا عن موقف تلك الجماعات، إما خشية من فقدان النفوذ لدى العامة، أو بتأثير من الجوّ الفكرى الرجعى السائد. وقد كان من نتائج حاجة السلطة السياسية إلى تلك الهيئات الدينية «الرسمية» لمساندتها ضد الإرهاب، ونفوذ الجماعات المتطرفة، ولإضفاء «الشرعية» على إجراءاتها ضدهم، والشهادة بحسن إسلامها، أن أضحت السلطة السياسية مضطرة إلى مراضاة تلك الهيئات، وغضّ الطرف عما يُصادر من كتب توحى بفكر حر، أو أحكام قضائية ضد مفكرين كتلك التي صدرت ضد نصر حامد أبو زيد وغيره وكان أن وجد المثقفون السلامة إما في التزام الصمت، أو الالتزام بما يمليه علماء الدين الرجعيين الذين اطمأنوا إلى مناصرة السلطة لهم، وإلى فقدان المفكرين للجرأة على التحدّى والنقاش، فلم يجدوا ضرورة للتسلّح بالمزيد من العلم والمعرفة من أجل ضمان النصر في أىّ جدل أو حوار مع المخالفين. وبالتالي فقد أهملوا الدرس والتحصيل، وقلّت بضاعتهم من العلم، مكتفين بالاستناد إلى السلطة السياسية وإلى القضاة في حماية العقيدة، ومحاربة البدعة.

● ثمة أمر آخر يتّصل بالضائقة الاقتصادية التى كانت الثقافة من أولى ضحاياها مع ما نعلمه من أن الناس متى ماغشيتهم أزمة مالية كان أول ما يضحون به في سبيل التمكّن من تلبية احتياجاتهم المادية الأساسية هو ما كانوا ينفقونه على الكتاب وسبل الثقافة الأخرى. والملاحظ على أىّ حال أن الكتب والمجلات الجادّة (خاصة الأجنبية منها) هى من ارتفاع السعر بحيث بات

شراؤها خارج متناول جمهور الناس، حتى أصحاب الدخول المعقولة منهم، وبحيث باتت من الكماليات التى لا يقدر عليها غير الهيئات والمكتبات العامة أو واسعى الثراء. وهو أمر أسهم فى انقطاع صلة المثقفين فى بلادنا بكل ما يجرى فى الساحة الفكرية والثقافية خارج مصر، على نحو يذكّرنا بالحال التى كنّا عليها أثناء حكم العثمانيين الذى عَزَلَنا عن تأثيرات عصر النهضة فى أوروبا.

● كذلك فقد زاد الطلب فى الحقبة الأخيرة على ما قد نسميّه بالشهرة الفورية، أسوة بالأطعمة الفورية، والقهوة الفورية، مما دفع البعض إلى القول بأن «الممثلة كانت فى الماضى تحاول جاهدة أن تصبح نجمة، أما اليوم فليس ثمة غير نجمة تحاول أن تصبح ممثلة!». فالملاحظ أن معظم العاملين فى الحقل الأدبى – وهم المتعطشون إلى الشهرة الفورية – أضحوا يفضّلون كتابة المقالات للصحف والمجلات واسعة الانتشار على قضاء السنوات الشاقة فى تأليف كتاب تُطبع منه ثلاثة أو خمسة آلاف نسخة لا تنفد إلا بعد انصرام أعوام فإن طُبعت لهم كتب فهى إما تجميع لمقالات سبق للصحف والمجلات نشرها، أو من صنف الكتب مضمونة الرواج السريع. وهمّ الكاتب دائما إنما هو أن يلمع إسمه، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وأن تستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة المتخلّفة له، وأن يُدعَى للاشتراك فى ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وأن تُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومى، أو مقال أسبوعى، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُمطر بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التى يهواها، والأغانى التى يفضّلها، وعلّة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق!

★★★

لقد باتت الحياة الفكرية والثقافية والفنية اليوم أشبه شئ بخليّة النّحل التى فقدت ملكتها، قد نرى النّحل مستمرا فى مجيئه وذهابه: الكتب والمجلات والصحف تصدر، والمعارض الفنية تتوالى، والأفلام والمسرحيات الجديدة تشغل دور العرض، والتمثيليات المسلسلة التليفزيونية تتدفّق دون انقطاع، وقد نحسب هذه الحركة حياة.. غير أننا متى اقتربنا من الخليّة لنتأملها بعناية، هالتْنا مظاهر الفوضى التى ضربت أطنابها بعد رحيل الملكة، والتى جعلت من الأجدى التخلّص من الخلية بإلقائها طُعمة للنيران.

حياة فكرية وثقافية وفنية لا تنشُدُ فى محنتها الراهنة غير أمر واحد لاشريك له، هو العودة إلى مناخ كذاك الذى ساد مصر فى العشرينيات من القرن العشرين، حين كانت ثمة طموحات وتطلّعات لدى أبناء مجتمعنا، وأمل وثقة فى أن تتحقق تلك الطموحات، وفى أن يأتى المستقبل بالخير، حتى إن كان الحاضر مُفْعما بالمشكلات. ■

شهادات

ذكـــــريـات

حرائق وثورة ورقابة

بقلم : مصطفى درويش

كان عاما فاصلا. مليئا بأحداث جسام، حسمت مصير مصر لنصف قرن من عمر الزمان.

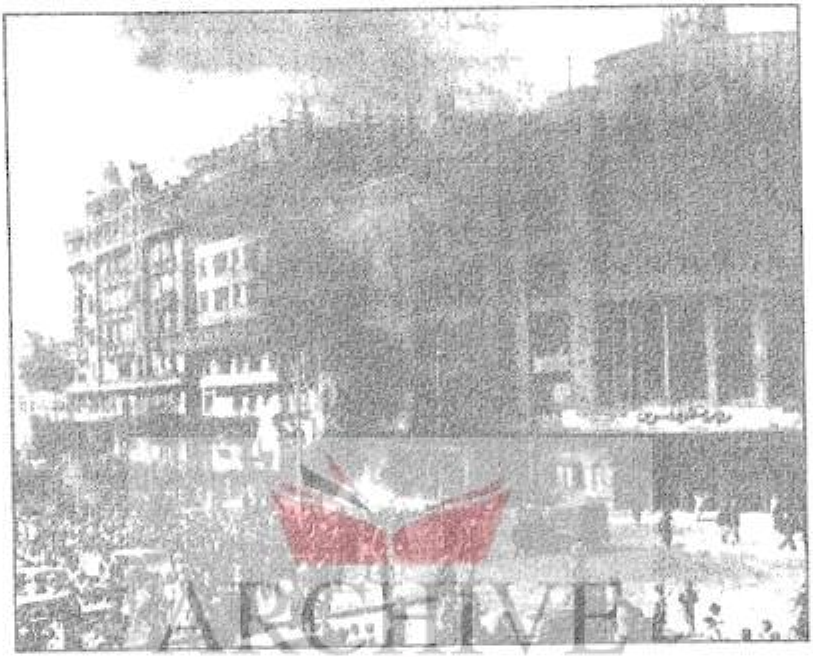
وتلك الأحداث بدأت بما جرى للقاهرة فى السادس والعشرين من يناير لعام ١٩٥٢.

ولأن ذلك التاريخ وافق يوم سبت، فقد سمى بالسبت الأسود.

وما هكذا سمى، إلا لأن وسط القاهرة تعرض خلال بعض ساعات منه لأهوال حرائق متعمدة، يشيب لها الوليد، أتت على معظم معالمه، التى جرى تشييدها بسواعد المصريين، منذ عصر الخديو اسماعيل.

نهاية عصر

ففى ذلك السبت الأسود التهمت ألسنة النيران مبنى فندق شيبرد، الأسطورى بمعمارة العربي، ومشاهير نزلائه من أمثال ستانلى مكتشف اعالى النيل، غوردون فاتح الخرطوم، عاصمة السودان، لورنس المغامر، والعاشق للعرب والصحراء، مارى بيكفورد حبوبة السينما الصامتة وزوجها دوجلاس فيربانكس، بطل أفلام المغامرات إنتاج مصنع الأحلام فى بلاد العم سام.



حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢)

أقول التهمته ألسنة النيران، تحولت به إلى بقايا من سقوف وجدران.

ومن أطلاله انتقلت الألسنة جنوبا إلى حيث مباني المصارف الأجنبية، ومحلات شيكوريل وشملا وبنزيون ومطعم وبار جروبي وكازينو بديعة بميدان الأوبرا، دور سينما مترويول، ريفولي ومترو مفخرة الشرق في ذلك الزمان، وغيرها كثير.

كل ذلك لم تبق منه النيران شيئا، جعلته انقاضا.

باختصار تحول السبت الأسود بوسط القاهرة الى أرض خراب، وبمصر كلها إلى بلد تحت حصار حكم عرفي، بغيض.

أزمة حكم

وبدءا منه، وعلى امتداد ستة أشهر توالت على

مصر أربع وزارات، من بينها اثنتان تحت رئاسة نجيب باشا الهلالي، الذى ماكادت وزارته الثانية تتشكل وتحلف اليمين، حتى كان نعيها يزف الينا نحن المصريين، ببيان يذاع بصوت محمد أنور السادات من حين لآخر من الراديو، صباح يوم الثالث والعشرين من يوليه، مبشرا بزوال عهد الفساد.

ولم تمر سوى ثلاثة أيام على ذلك البيان، إلا وكان فاروق الملك الضال، مكرها على التنازل عن العرش لفؤاد ابنه الوحيد، وعلى مغادرة أرض مصر إلى الأبد، على اليخت المحروسة، ومعه زوجته الثانية، وولده منها الملك الطفل فؤاد الثانى فضلا عن بناته الثلاث من زوجته الأولى، ومطلقته وقت مغادرته البلاد وفوق هذا، معه سبائك ذهبية مهربة فى صناديق ويسكى، وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه من متاع الحياة اللذيذة، يبدده فى ربوع ايطاليا، ذلك البلد الذى تآمر مع نظامه الفاشى، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، لا من أجل مصر حرة مستقلة، وإنما من أجل استبدال استعمار فتى باستعمار شاخ، تؤذن شمسه بالغروب، الأمر الذى أدى إلى فاجعة الرابع من فبراير، بعارها الذى يندى له الجبين.

ميتة مفاجئة

وظل رجلا ضالا، مدمنا التردد على علب الليل، ومطاعم شارع فينيتو، رمز الحياة اللذيذة فى روما، وقتذاك الى أن باغته الموت، مساء السابع عشر من مارس لعام ١٩٦٥، وهو يتناول وجبة دسمة بمطعم «أيل دى فرانس» ومعه شابة «أنا ماريا» ولم يكن لها من العمر سوى اثنين وعشرين عاما.

وماهى إلا أيام، بعد وفاته، حتى كانت جثته فى طريقها إلى عاصمة ملكه الذى لم يصنه (٢٧ مارس)، لا لتدفن فى مسجد الرفاعى، إلى جانب الموتى الآخرين من آل محمد على الكبير، وإنما فى مقبرة إبراهيم باشا.

وهكذا شاءت الأقدار لمن امضى حياته ساكنا القصور، أن يمضى مماته أسير قبر، تحده من ناحية مبان فقيرة مكتظة بالأحياء المعدمين، ومن ناحية أخرى مقابر مكتظة، هى الأخرى، بأحياء محتلين لها بوضع اليد، فيما يسمى بمدينة الأموات.

إيقاع سريع

وفيما بين مغادرته بر مصر من قصر رأس التين، مودعا باللعنات توالت أحداث كثيرة بايقاع سريع، غير معتاد، من بينها أذكر على سبيل التمثيل اصدار قانون الإصلاح الزراعى، تشكيل محكمة عسكرية لإدانة عمال قاموا بإضراب فى كفر الدوار، وانحدرت احكامها إلى حدّ الحكم بإعدام عاملين، جرى إعدامهما فعلا، استحداث لجان لتطهير الجهاز الحكومى من رجال العهد البائد الفسدة، سمى بعضها بلجان التطهير، وبعضها الآخر بلجان فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى.

الغاء دستور ١٩٢٣ وإعلان الجمهورية فى الثامن عشر من يونيه لعام ١٩٥٣.

الاعتداء على رئيس مجلس الدولة بالضرب

فـي مكتبه، واثـناء قيامه بالعمل .

الاطاحة بأول رئيس للجمهورية، وتحديد اقامته لأعوام طوال.

إصـدار قـانون لتنظيم الرقـابة عن الأشـرطة السينمائية ومصنفات فنية أخرى، جرى العمل بأحكامه، بدءا من الثالث من سبتمبر لعام ١٩٥٥ .

الترخيص للمخرج الأمريكى سيسيل بـدى ميل بتصوير بعض مشاهد فيلمه الوصايا العشر فى صحراء مصر.

هزيمة عدوان

جلاء القوات البريطانية، بعد احتلال مقيت استمر دون انقطاع، زهاء ثلاثة وسبعين عاما.

تأميم شركة قناة السويس، وكان من بين توابعه العدوان الذى انتهى بهزيمة ساحقة ، ماحقة للدول الثلاث المعتدية، وسقوط رؤساء وزرائها الثلاثة انطونى ايدن، جى موليه وبن جوريون.

من بين هذه الأحداث، وهى قليل من كثير، لن اقف، إلا قليلا، عند : أولا لجان فصل الموظفين بغير الطريق التأديبى، وثانيا تصوير بعض مشاهد الوصايا العشر فى صحراء مصر.

والحق أن تلك اللجان كان القصد منها أولا وأخيرا، هو التخويف.

الليل والضباب

ولقد وجدتنى فى ذلك الوقت الذى اضحى فيه الخوف من المجهول سمة تضاف إلى المناخ العام : وجدتنى امين سر لجنة فصل الموظفين الخاصة بوزارة الحربية، وكان رئيسها مستشارا بالقضاء العادى، غدا فيما بعد وزيرا للعدل، فى عهد السادات.

وأغرب ما عجبت له، وأنا أراجع اسماء الموظفين المحالين إلى اللجنة من أجل البت فى أمر بقائهم فى الخدمة من عدمه، وأسباب احالتهم، أن واحدا من بينهم كان ذنبه الأوحد، أنه سار - على حسابه - إلى باريس، بهدف الحصول على إجازة الدكتوراه فى مادة القانون المدنى، وبالتحديد «التعبير عن الإرادة».

وأنه فى سبيل استكمال بحثه، سعى إلى الحصول على اجازة مرضية، اتاحت له فرصة البقاء فى العاصمة الفرنسية، إلى أن تحقق له ما كان يتمناه.

استخلاص غير سائغ

واستخلصت من ذلك إدارة التجنيد، حيث كان يعمل، أنه تمارض، وغاب، دون وجه حق، عن العمل، على نحو أضر بالصالح العام، الأمر الذي يجعله غير أهل للبقاء فى خدمة دولة ثورية، سمتها الرئيسية النقاء، وعدم الالتواء.

هذا الموظف المذنب، كان الدكتور الفاضل وليم سليمان قلادة.

ووقتها لم يكن بينى وبينه سابق معرفة ومع ذلك، ولأن المداولة بين أعضاء اللجنة كانت فى صالحه إلى حد كبير، فقد طمأنته، دون أن أضع فى الاعتبار ماقد يحدث من متغيرات ، وليدة نزوات.

فدون سابق، انذار، وبعد سماع ممثل الإدارة، جهة الاتهام، ودون مواجهة الدكتور بما هو منسوب اليه وسماع دفاعه، قرر رئيس اللجنة

فصلته، وأسرع بكتابة الحيثيات .

وفيما أنا حائر، كيف اتصل بالدكتور، وانبهه للخطر الذى يتهدد مستقبله، إذا به وكأن السماء ارسلته يطل باستحياء من باب الحجرة، حيث مكتبى، مستفسرا عن الأحوال.

افشاء سر

وكان على ألا اخفى حقيقة ما يتهدده، رغم مافى ذلك من افشاء للأسرار.

ولم أكتف بذلك، بل اتحت له فرصة التسلل إلى حجرة اللجنة، والمثول، لأول مرة، أمام اعضائها، حيث ابدى دفاعا، اقنعهم بعدالة قضيته.

وانتهى الأمر برئيسها إلى كتابة حيثيات تبرئته، على ظهر نفس الورقة المكتوب عليها حيثيات فصله.

ولم تمر سوى بضعة أشهر على هذه الواقعة ذات الدلالات، إلا وكان كلانا، وبالعجب، منقولا إلى سلك القضاء.. وأين؟

فى مجلس الدولة، حيث بقى كلانا، إلى أن بلغ سن الإحالة إلى المعاش، هو بدرجة وكيل وأنا بدرجة نائب رئيس .

وإلى أن جاء الموت، قبل عامين، ظل صديقا مخلصا ، من أهل العطاء، وكم هم قليل فى هذه الأيام .

اسطورة الوصايا

فإذا ما انتقلنا إلى الوصايا العشر وتصويره فى صحراء مصر، فسنجد انفسنا أمام مفارقة عجيبة حقا .

معروف أنه من مسلمات الدين اليهودى أن «عودة» اليهود من الشتات إلى جبل صهيون فى أورشليم (القدس) أمر حتمى، ومن مسلمات التاريخ اليهودى أن حنين اليهود، وبالذات فقرائهم إلى الأرض الأم فى فلسطين، إن هو إلا رد فعل عاطفى لفظاعة الحياة واليأس من صلاح الأحوال فى المنفى، وربما خير تعبير عن هذا الحنين هو نشيدهم الذى يجرى بهذه الكلمات :

«لانزال مشردين فى هذا العالم، ولكن فى العام القادم سنكون فى أورشليم .. ولانزال عبيدا فى هذا العام .

ولكن فى العام القادم سنكون أناسا احرارا ...» .

ومفهوم هذا النشيد أن مايعذب فى الشتات هو التشرد والعبودية، وأن ما يبعث الأمل هو العمل لا من أجل حرية اليهود فى الأرض حيث يعيشون ، وإنما من أجل الخروج للعودة إلى أورشليم .

توظيف الأسطورة

ولا يسع من يقرأ التوراة إلا أن يعترف بما فى قصة النبى موسى، وهو يقود بنى اسرائيل من أرض الفراعين إلى أرض اللبن والعسل، من معان ورموز تستطيع الصهيونية أن تطوعها لخدمة الدعوة بين يهود الشتات، من أجل التحرر من العبودية والخوف «بالعودة إلى أرض الميعاد».

ويتضح من القصة أنها تفيد الصهيونية، فيما لو أحسن ترجمتها إلى لغة السينما.

ففيها التشرد والعبودية والأمل والعمل من أجل الخروج والعودة «بالشعب المختار» الى الأرض

الموروثة.

ومن هنا اختيار شركة بارامونت لصاحبها أودلف زوكور المنحدر من أصل يهودي مجري، اختيارها لقصة النبي موسى لتنتجها تحت اسم «الوصايا العشر» مرتين، الأولى صامتة بلا الوان عام ١٩٢٣، في أيام قل فيها اقبال اليهود على الهجرة الى أرض الأنبياء، والأخرى ناطقة بالالوان (١٩٥٦)، وعقب إعلان قيام دولة اسرائيل، وفي أيام انحسرت فيها موجة هجرة ابناء «الشعب المختار».

تحريف التاريخ

وفي كلا الفيلمين كان «دى ميل» هو المخرج، وفي كليهما كان لا هم له إلا أن يتناول قصة النبي موسى وبني اسرائيل أثناء وجودهم في مصر، ثم اثناء الخروج منها، على نحو مشوه يراد به باطل، هو تصوير أهل مصر، وكأنهم ابناء شعب منبوذ، كتب عليه ذل العيش في أغلال العبودية لفرعون، وقومه الظالمين.

وهذا السبيل الذي سلكه «دى ميل» لايثير دهشة أحد.

أفلم يسبق له في فيلمه عن السيد المسيح «ملك الملوك» أن ألقى بمسئولية موت المخلص على «كايفاس» بدلا من يهوذا مراعاة منه لشعور اليهود.

مايثير الدهشة حقا أن يجيء «دى ميل» إلى مصر إبان عام ١٩٥٤، ليصور فيلمه في صحرائها، وبمشاركة جيشها في بعض المشاهد، لاسيما مشهد البحر الأحمر، وهو ينفلق كالطود العظيم لينجو موسى ومن معه اجمعين ثم يغرق الله الآخرين، أي فرعون ومن معه من الجنود المصريين.

وأن يلعب «عباس البغدادلي» – وهو ضابط مصري سابق من سلاح الفرسان، وقعت في حبه حفيدة المخرج، واصطحبته إلى الولايات المتحدة، حيث عاشا زوجين، إلى حين – يلعب دور سائق عربة رمسيس فرعون مصر (يول برونر).

وأن يتوج ذلك كله بحفل افتتاح كبير، يعرض فيه «الوصايا العشر» بمدينة نيويورك، يوم التاسع من نوفمبر لعام ١٩٥٦، أي فور اجتياح القوات الإسرائيلية لشبه جزيرة سيناء بأيام، بل قل بساعات معدودات.

عام المائة عام

وفيما بين ذلك الاجتياح الذي مهد للعدوان البريطاني الفرنسي، وعدوان يونيه (حزيران)، توالت أحداث كثيرة بسرعات تفوق الخيال، وكان أبرز هذه الأحداث بالنسبة لي، انتدابي من مجلس الدولة لوزارة الثقافة وذلك لشغل وظيفة مدير الرقابة على المصنفات الفنية، لا مرة واحدة بل مرتين والأولى لمدة خمسة شهور (١٩٦٢) بعد بضعة شهور من انفصال سوريا، والثانية لمدة قاربت العشرين شهرا، من بينها عام عدوان الخامس من حزيران، الذي يعتبر، وبحق، بمثابة مائة عام.

أما لماذا انتدبت مرتين، وكيف تكثفت الأحداث في عام واحد، بحيث أصبح في مقام مائة عام، فذلك في اعتقادي، موضوع آخر. ■

شهادات

شاهد عيان على ما جرى

مشاهد فى موكب ثورة يوليو

بقلم السفير: محمد وفاء حجازى

يسجل التاريخ الأحداث والوقائع ويدونها فى بعض الأحيان بكافة تفاصيلها ويدونها فى أحيان أخرى مع تلافى ذكر التفاصيل ولكن تبقى المشاهدة الحية للأحداث من أهم الذكريات لدى من عاصروا تلك الأحداث.. ذلك أن الصورة تظل محتفظة بألوانها وبحيويتها، وبنبضها فى ذهن المشاهد وفى ذاكرته.. وفى مشاعره ووجدانه..

شاءت الأقدار، أن أكون شاهد أو معاصرا على أحداث، تسجل أجزاء من الطريق الذى سارت فيه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

والمشاهد متعددة ومهمة ولكن اخترت منها خمسة مشاهد.

تنازل الملك عن العرش

مشهد مغادرة الملك فاروق من مصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ من المشاهد المثيرة والتى مازلت أحتفظ بها فى مخيلتى كأنها صورة حية.

كنت فى ذلك الوقت، ضابطا فى الحرس الملكى، بقصر رأس التين بالإسكندرية..



لحظة رحيل فاروق الى منفاه على الباخرة المحروسة (رسم تخيلي)

وشاءت الأقدار، أن أكون الضابط المناوب، في قصر رأس التين ، في نفس اليوم الذى أعلن فيه تنازل الملك عن العرش، شهد القصر لأول مرة صورة مختلفة، عن التي اعتادها والتي اعتدناها

سابقا عليه. فقد كان الانضباط والوجاهة هما سمات هذا القصر وإضفاء الهيبة هو الشغل الشاغل لكل القيادات السياسية وكل القيادات التى كانت تتولى حراسة وحماية الملك.

ولكن فى ذلك اليوم انهارت هذه الصورة، وتآكلت، ورأينا مشهدا آخر يتنافى تماما مع هذه الصورة الجمالية التى كانت تبهر بعض الناس أحيانا.. رأينا الشخوص على حقيقتها.. ورأينا الأحداث وهى تقع فهى تبدل أوضاع وتغير هيبة ومكانة قيادات فى هذا البلد.. شاهدنا الملك المنهار الذى لم يستطع أن يتحمل الصدمة، وشهدنا عددا من كبار رجال الدولة الذين كانوا يبكون بين يدى الملك، ولا يعلم أحد هل حزنا عليه أم خوفا من المستقبل الذى ينتظرهم، شهدنا النساء العاملات فى القصر وهن فى إطار من الأبهة والفخامة والادعاء بالانتماء إلى المدرسة الفرنسية فكلهن يتخفين وراء قناع اللكنة الفرنسية متشبهات ومتعلقات بعادات الغرب وتقاليده.. وثقافته ولغته.. شاهدتهن وهن يولولن كنساء قاع المدينة الكل يبكى ويصرخ بصوت عال، رأيت هذا التحول المفاجىء والصاعق والذى لم يكن يتصوره أحد يحدث فى لحظة واحدة.. ساعة ما عرف الجميع أن هناك وثيقة يقوم الملك بالتوقيع عليها بالتنازل عن العرش، رأيت على ماهر باشا وهو يدخل على الملك ويخرج لعدة مرات وفى يده هذه الوثيقة لكى يصحح جملة أو يعدل فقرة إلى أن تم الاتفاق على شكل الوثيقة النهائى ووقع عليها الملك، وعلمت من بعض الأصدقاء الذين كانوا فى القاعة التى وقع فيها الملك على الوثيقة أنه قام بالتوقيع على الوثيقة مرتين، حيث اهتزت يده فى المرة الأولى، ولكن فى المرة الثانية لم تمتنع يده عن الاهتزاز!

كل هذه المشاهد رأيتها وأحسست بها وأنا فى مكتبى كضابط مناوب وكنت أتجول فى طرقات القصر لأتابع الأحداث بدافع الفضول .. وعلمت أن الملك على وشك مغادرة القصر بعد ساعات.. وخلال هذه الساعات تحول القصر إلى مأتم تحيطه الغربان من كل ناحية لا تسمع فيه إلا صراخا وولولة النساء، الكل فى لوعة على المجد الزائل والأبهة التى انهارت فى لحظة.

السلطة ضاعت والأبهة تلاشت مع توقيع الملك على وثيقة التنازل عن العرش، ثم كانت الطلقات النارية المدوية والتى أفزعت الجميع وخاصة أنه نتج عنها تحطيم الواجهات الزجاجية غالية الثمن، وكان ذلك أثناء احتكاك حراس القصر مع جنود الثورة المكلفين بتنفيذ الأوامر الجديدة.. وخشى الجميع من حدوث معركة دامية ولكن الله سلم ولم يحدث اشتباك يؤدى إلى قتل أو دمار..

ذهبت إلى رصيف الميناء الغربى لأشاهد خروج الملك وأرى الموكب الحزين والمثير ولكن شاهدت فى تلك الأثناء خروج صناديق وخزائن وحقائب فى أحجام مختلفة، لتسبق الملك على مركب المحروسة، ثم اصطف بعد ذلك حرس الشرف المكلف بتوديع الملك، وجاء بعض كبار الضباط من الجيش ومن قيادات الثورة لتوديع



مراسم اعلان قيام الوحدة المصرية - السورية أمام مجلس الأمة

الملك الوداع الأخير.

وقبل الساعة الثالثة خرج الملك مرتديا الزى البحرى الرسمى وعلامات التوتر والكآبة والضيق بادية على قسمات وجهه.. وكنت قريبا منه ولذلك رأيت تفاصيل ما حدث على وجه كله خوف وفزع ودهشة .. ولأول مرة أرى الملك عن قرب شديد

برغم أنني كنت من الحرس الملكي.. كنا نراه ولكن على مسافات بعيدة.. ولكن هذه المرة كنت قريبا منه.. وكان واضحا لكل ذي عينين أن هذا الرجل كان في داخله خوف وحزن وندم، ويحاول بقدر الإمكان أن يخفي مشاعره التي خانته!

وخرج الملك وركب «اللنش» الذي قاده إلى مركب المحروسة ثم دخلت قيادات الثورة المتمثلة في محمد نجيب، حسين الشافعي، جمال سالم، وعلى ماهر، وآخرين.. وركبوا لنشا آخر.. لتوديع الملك.. وفي هذه المناسبة يحضرني ما سمعته مؤخرا وأثار دهشتي حيث أذاعت بعض القنوات التليفزيونية على لسان واحد ممن عشقوا تمجيد هذا الملك وجميع رموز العصر الملكي، أن الملك قبل توقيعه على وثيقة التنازل عن العرش، رفض الاقتراح بالتدخل الانجليزي لتغيير الموقف وحمايته تحت دعوى أنه لا يريد أن يرى حربا أهلية وأنه يفضل أن يتنازل عن العرش عشرات المرات ولكنه لا يسمح لنفسه أن تحدث حرب أهلية.. وهي ليست أكذوبة ولكن ذلك لا يتناسب مع طبيعة هذا الملك، فهذا الملك كما رأيناه أثناء خدمتنا في الحرس أو قبل ذلك لم يكن يعنيه أمر هذا الوطن من قريب أو بعيد.. بالعكس كل همه كان منصرفا إلى المتع والملذات لدرجة أن البعض كان يطلق عليه «الحلوف» ولم نسمع في هذه الآونة وأثناء تلك الأحداث عن هذه الحادثة وهذا الادعاء الذي ليس له أساس من الصحة..

ونسب بشكل فج إلى ملك ، لم يكن يعنيه مثل هذه الأمور.

وهذا يدل على أن الثورة حتى بعد خمسين سنة من عمرها، يحاول أعداؤها إعادة الاعتبار إلى ناس أساءوا إلى هذا البلد وارتكبوا في حقه أفظع الجرائم والفواحش، وهذا محض افتراء وكذب ولا يقصد بذلك إنصاف الملك بقدر ما يقصد به الإساءة إلى ثورة ٢٣ يوليو، هذا مشهد مازلت احتفظ بصورته واضحة حتى الآن.

يوم إعلان تأميم القناة

كنت في ميدان المنشية بالإسكندرية أثناء خطاب الرئيس جمال عبدالناصر وإعلانه تأميم القناة، ورأيت الفرحة الطاغية التي عمت الناس في الشارع والتي أعادت إلى مصر حقا كان مغتصبا.

في ذلك اليوم ، عندما تقابلت مع المرحوم يوسف صديق على أحمد القاهي ومع بعض الأصدقاء وكانت فرحته غامرة ولا أنسى عبارة قالها «إن هذا الخبر خبر مزعج» أي مزعج في فرحته ومزعج في شموخه وضخامته.

حيث إن دلالة الخبر تنبيء بمستقبل مشرق، وإن هذه خطوة على طريق تمصير مصر، واستعادة روحها الوثابة ومحاولة استرجاع حقوقها.. فلم يكن هذا القرار خاصا بقناة السويس وإنما كان قرارا خاصا بكل المصريين، شيء في مصر كان ملكا للأجانب وحكرا عليهم من أكبر المؤسسات الاقتصادية والبنوك إلى أصغر المتاجر ، إنه إعادة مصر إلى أهلها.

يوم إعلان الوحدة

هذا مشهد آخر من مشاهد الفرحة والفخر

والافتخار، يوم إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، حيث كنت في ذلك الوقت في الساحة أمام مجلس الوزراء ومن الشرفة الجانبية ، طلع علينا عبدالناصر ومعه شكرى القوتلي ليعلنا من خلال هذه الشرفة عبر ميكروفون صغير أنه قد تم الاتفاق بين القيادة السورية والقيادة المصرية على إقامة الوحدة بين مصر وسوريا، وعمت الفرحة الناس في كل مكان، وغزا القلوب حماس فريد نحو خطوة مهمة، لوحدة مصيرية كنا نتمناها ومازلنا نتمناها، والمشهد الذي كان أكثر جمالا وروعة هو رقص السوريين في ميادين مصر وكانت رقصاتهم الشعبية المشهورة «الدبكة» تنتشر في شارع ٢٦ يوليو وسط القاهرة، ويشاركهم الرقص عدد كبير من المصريين في فرحة لا مثيل لها.. وما حدث في مصر حدث في سوريا، حيث خرجت الشعوب تعبر عن فرحتها بالوحدة المنشودة.

ونتمنى أن قبسا من هذه الأحاسيس والمشاعر التي عشناها في الخمسينيات تعود الآن في قمة الأزمة التي نعانيها والتي لا علاج لها إلا الوحدة، وأنا فهمت قيمة الوحدة الآن أكثر من أي وقت آخر، وأن الخطأ الذي ارتكبناه أننا لم نحافظ على الوحدة ولم نقيها الوقاية الكاملة ضد المخاطر التي ستتعرض لها.. والتي كان وقوعها وقع الصاعقة على الاستعمار وأعوانه والقوى الصهيونية ، لأنهم رأوا أن استمرارية الوحدة فيها القضاء على خطط الاستعمار والصهيونية العالمية، والقضاء على الظلم التاريخي الذي وقع على الشعب الفلسطيني، لقد فرحنا بالوحدة ولكن لم نتنبه للأخطار التي تحاصرها والتي أطاحت بها، ومع ذلك ستبقى أمل ، وستبقى التجربة تستحق أن نستفيد منها ونحاول أن نكررها لا بالنسبة لبلد واحد ولكن بالنسبة للوطن العربي كله.

التنحي

عم مصر مشهد باك حزين في أعقاب النكسة وطغى على الشعوب العربية فيضان من الحزن والألم والتحدي أيضا لأنه كان أمامنا طموحات واسعة جدا وآمال عظيمة وأمنيات رأينا بشائرها تتحقق، ولكن فجأة أصيبت أمتنا بهذه النكسة الأليمة أو أصابتنا الهزيمة العسكرية بالنكسة وبالتراجع والانحسار..

والإحساس بالألم مرجعه أننا في معركة من معارك المصير لم ننتصر، وإن جاءت بعد انتصارات كبيرة - مثل انتصارات على العدوان الثلاثي - بناء السد العالي - الوحدة وغيرها.. أن نصاب بهزيمة ، ولابد أن نعترف أنها كانت هزيمة عسكرية بكل المقاييس، ولكن نقول إنها مأساة حدثت ولكنها بدلا من أن تصيبنا بالانهيار أصابتنا بالتحدي.. قام الشعب المصري والعربي بعد سماع خطاب التنحي وانفجر بقوة مشحونة بالتحدي والإرادة والعزيمة والإصرار على أن تسترد كرامتها وأن تعبر هذه الهزيمة وتحقق الانتصار بإرادتها مرة أخرى، وهذا اختبار للشعب أكثر منه للقيادة السياسية ، لأن الذي خرج يوم ٩ و ١٠ يونيو هو الشعب الأصيل ليعبر

عن القيم الحقيقية للشعب المصرى والعربى، والكل رفض الهزيمة ورفضوا أن تُملى عليهم إرادة خارجية، ورفضوا أن يكونوا خاضعين لمخططات تستهدف إذلالها وإهانتها..

هذه هى روعة الموقف..

كنت فى القاهرة ونزلت من منزلى لأعيش مع نبض الشارع المصرى وأرى الحزن يعم الجميع، ورأيت الشارع عبارة عن إرادة وكلمة واحدة لا للهزيمة، لا للانكسار، لا للخضوع. لا للخنوع.. وأعتقد أن هذا الموقف هو الذى لا يتوقعه الذين خططوا لهزيمة يونيو..

ومن منظور التاريخ ومنظور الرصد الوطنى القومى يوما ٩ و ١٠ يونيو هما إعلان لإرادة وطنية قومية تتمسك بحقوقها، وتجعل من الهزيمة نقطة انطلاق نحو رد الاعتبار ورد كل الخسائر التى خسرها الوطن ونحن مازلنا فى هذه المعركة.

وإذا كان نصر أكتوبر ٧٣ بداية الانتصار فى معركتنا، إنما فصوله لم تتم وعلينا أن نتمم هذه الفـ ـول، أن نتممها فى مواجهة الاجتياح الذى يحدث للشعب الفلسطينى.. علينا أن نتممها فى مواجهة الحصار الذى تقوم به أمريكا لعديد من الدول العربية.. مثل العراق وليبيا والسودان وسوريا.

علينا أن نتممها بتلاحم أبناء الأمة العربية وعلينا أن نتـــمم هذه الخطوة برفض كل هذه الأجزاء الوطنية القومية ونتوحد لكى نشكل جبهة قادرة على التعامل مع هذه التحديات اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وأمنيا .

ناصر يقدم عرفات للسوفييت

من موقعى كدبلوماسى أثناء عملى فى سفارة مصر فى موسكو عام ١٩٦٨، أكتب عن مشهد لا أنساه أبدا، ألا وهو تقديم عبدالناصر لياسر عرفات إلى القيادة السوفييتية.

جاء عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتى ومعه ياسر عرفات تحت اسم مختلف ، ولم يكن هناك علاقة بين الاتحاد السوفييتى ومنظمة التحرير الوطنى الفلسطينية وكان هناك لغط كبير حول المقاومة الفسلطينية، وهل يعترف بها الاتحاد السوفييتى أم لا؟ وهل يساعدها أم لا؟! وكان هناك فريق داخل الاتحاد السوفييتى يرفض المساعدة بحجة أن الحركة غير موجودة على أرض فلسطين؟ وهى تعمل من الخارج ولذلك يرفضون مساعدتها.

وقدم عبدالناصر ياسر عرفات إلى القيادة السوفييتية على أنه هو الذى يقود حركة المقاومة الفلسطينية وهو الرجل القادر على محاربة الصهيونية، وأصر عبدالناصر على أن يكون ياسر عرفات جزءا من الوفد المصرى الذى يجلس على مائدة المفاوضات الرسمية، وأصر على أن يكون هناك علاقة قوية مع منظمة التحرير حتى يمكنها من تأدية دورها الوطنى فى استرداد حقها المسلوب.

وبالفعل كنت شاهدا على هذا الاجتماع التاريخى والذى فرض فيه عبدالناصر ياسر عرفات على القيادة السوفييتية، ونتج عن ذلك



عبد الناصر لحظة اعلانه قرار التنحى

موافقة القيادة السوفييتية على التعاون مع ياسر عرفات وتقديم المساعدة اللازمة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وعندما أفكر فى هذه المشاهد وغيرها أتأكد من دور ثورة يوليو واهتماماتها الوطنية والقومية.

وأخيرا.. ومنذ مشهد مغادرة الملك للقصر حتى هذه اللحظة.. كانت اهتمامات ثورة يوليو تتصل بقضايا الوطن ، وقضايا الأمة وقضايا المستقبل ، ولم يكن يهمها سوى الانتصار لهذه القضايا.. من الممكن جدا أن تنهزم في معاركها ومن الممكن جدا أن تنتصر فى مشعارك ولكن الأهم من ذلك أن تحافظ على مشروعها الوطنى القومى الذى يستهدف إعلاء شأن الوطن والمجتمع.

أنا .. وجمال عبد الناصر والزمان..

بقلم : محمد مستجاب

– وألعن – مافى هذا العنوان : أن اسمى يسبق اسم جمال عبدالناصر ، حتى لو انتهى بنا الأمر إلى الزمان، وهو زمان آخر يختلف عن الزمن التاريخى – المدرسى ، والزمن الذى وقع فى براثن قوانين الطاقة الخاصة بالزميل إينشتين ، وكوارث مربع سرعة الضوء ، إنه زمان آخر يبدأ دون امتداد (زمن) فى حالة انفعال أمى أثناء تفقدها المحزون لساحة الوغى (رجاء عدم الإمعان فى الوغى) التى امتلأت بعدد متناثر من أشلاء كتاكيت مداهمة (السروة) لمأواها قبل الفجر بقليل .

والسروة هى المصطلح الخاص بالعرسة فيما يبدو ، إلا أن العرسة عندنا أقل حجماً وذكاء من السروة ، ولا يوجد في كل المعاجم – المعلنة والمختفية – أي أثر للسروة ، وعندما تنتهى أمى من استيعابها الباكى للموقف ، أو ما يشابهه من فواجع مداهمة الثعالب للدواجن ، أو تمزيق جسد على عبدالنظير – ذى الصوت الجميل – وإحراقه ثم إلقائه بين حقول البرسيم تحت (بكاء أو نحيب قطرات الندى الثلجية) ، أو جلسة سعيد أبو برغوث – وهو غير آل البرغوثى الذين تقوم إسرائيل بتدميرهم والتمثيل بجسد وطنهم فلسطين – رعاكم الله) – حيث يأتى إلى بيتنا الجميل – أقصد كوخنا – أقصد الشاليه الخاص بعائلتنا – ليحاول الحصول على فتات من خبز وجبن ولفت مخلل ، يستند إلى الحائط بعيون مكسورة بالملابس المكسورة والجسد المكسور ، ويمعن فى وجه أمى ، تلك التى أوعزت لأبى أن يسرع فيشترى بيت هذا الذليل ، وقمنا جميعا – حتى أنا الذى لايدرك – بتحطيم الباقى من ثمن أرضه الصغيرة الممتدة وراء – لا مؤاخذة –

الشاليه ، ليأتى بين حقبة وأخرى راجياً أن يحصل على ماهو حقه ، فتمنحه بعضا منه على أنه صدقة ، فتقوم أمى – فور ذلك – بإطلاق هذه الكلمة : .. زمن ، حيث أعتقدت – أنا – بعد ذلك بثلاثين عاماً (١٩٤٨ – ١٩٧٨) أن هذه المرأة التى أنجبت عدداً مذهلاً من الحكايات نسيت المصطلح الذى جعلها صبورة ممتثلة خانعة خاضعة لما يجرى : .. زمن ، وأن الأمور قد تغيرت بها وبلسانها وثقافتها فى العاصمة الكبرى بعد أن هجرت معنا الماضى القروى ، إلا أننى فوجئت ذات أمسية منزلية باهظة التكاليف ، وأثناء قيام واحد من الوجوه السياسية التليفزيونية بإعادة صياغة أقواله الثورية عن عبدالناصر ، لأقوال شوكية – من الشوك – فى ديمقراطية جديدة بعد رحيل عبدالناصر بثمانى سنوات ، أن أمى رفعت وجهها الشرس الرافض من فوق شاشة التليفزيون إلى صورة جمال عبدالناصر التى تحتل الحائط الأصلى فى شقتنا – أى فى العاصمة ، وهمست بطريقة لا تدركها زوجتى ولا أبنائى ولا التاريخ ولا المدارس ولا الكتب : .. زمن .. !! وحين انتبهت إلى أنى ألاحظها جيداً ، أعادت الهمس باستبداد بالغ الشجن .. زمان ، فأيقنت حينئذ أن أمى .. لكنها كانت قد أغلقت عيونها واسترخت فى جلستها الخاضعة الخانعة الممتثلة .. وكان واضحاً أنها وضعتنى فى صف المهتمين بأمور وسلوك وموضوعات تثير الحزن فى القلب : .. زمان ، ويالهول هذا المصطلح الممتد فى الشرايين والعروق والعيون ، بقدرته الفائقة على عدم التفريق بين الفضائل والفضلات .

كنت – قبل أن التقى بجمال عبدالناصر – قد تجاوزت مرحلة ركوب الخيول المصنوعة من أعواد البوص تقليدا لأفراد من العائلات ذات السطوة المهيمنة – أقصد المستعبدة – لكثير من أفواج وجحافل عائلاتنا فى ديروط الشريف ، حيث لم يكن مباحاً أو مسموحاً لأى واحد من أهلنا وأهل غيرنا أن يعبر أو يمر فى طريق ممتطيا حمارته أمام أى واحد منهم دون النزول من فوق الركوبة كى يصافحه منحنيا ومبتسماً فى رضى – وبعض منا لابد من تقبيل اليد الكريمة ، وهو مشهد معروف ومرهق وصارخ الألم كتبت عنه من قبل ، وتتكره الأجيال التالية منا بعد أن قلب عبدالناصر الأمور وألغى – دون قرار – هذا المشهد الاستعبادى المروع ، وقد حاول – قبل عبدالناصر – سراج منير أن يزرع فينا الرفض العنيد حينما أصبح عنترة العبسى الذى اخترق قلاع السطوة ليتزوج كاريوكا – أقصد عبلة ، ثم فشل كمال الشناوى في إستثارة الهمم المشتعلة كي نحصل على تحية كاريوكا بصفتها أميرة الجزيرة – فى فيلم لايعرف طريقه أحد من إخراج حسن رمزى ، وتناثرت فوق المصاطب والمقاهى وأجران القمح ووراء حوائط الجوامع والكنائس ودير أبو سريانة (الأنبا سرابيون) وحقول قصب المرج وعمر أغا : حكايات أبوزيد الهلالى وسعد زغلول وذات الهمة والعقاد ومحمد باشا محمود (أنا ابن من عرضوا عليه الملك فأبى) ومصطفى النحاس الذى ألغى معاهدة ١٩٣٦ ، وجيد عبدالنور بطل حادثة قطار ثورة ١٩١٩ بين دير مواس وديروط (وقد رأيته ذليلا مستكيناً فى ظل حائط الرحمة ، وما ترتب عن ذلك من وقوعنا جميعاً – أنا ومصطفى جبارة وصلاح عبدالرحمن وعدد مذهل من جيلنا – الذى

تعلم العشق والغرام المشتعل من سينما قرشي وبدأ بريقه تحت حوائط وعيون الفتيات سليلات «الأثر» الظالمة ، وبالتالي فإن كل هذه المصائب المبكرة في العشق انتهت كما يقضي بذلك قانون العشق الموروث والمعروف : بالدمار ، دون تحقيق هدف واحد ممن كانت تكافح السينما على تحقيقه : بالزواج المفتعل في النهايات الساذجة المفتعلة .. ، فقمنا بتسلم قلوبنا لأغاني كارم محمود وأم كلثوم ومحمد الفخراني وأخته ذات الصوت الجميل.

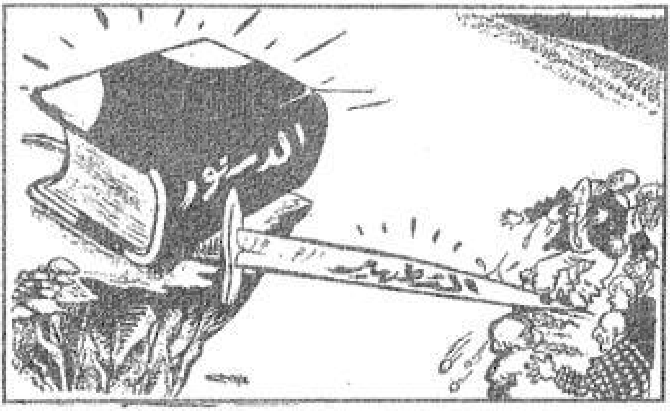
وبينما نحن كذلك ، جاء جمال عبدالناصر ، الاتحاد والنظام والعمل ، أما الاتحاد فظل يضغط على أعصاب السبورات (جمع سبورة التي تكتب عليها بطباشير المدارس) ويدخل أناشيد خالي أحمد خميس الذي نجح في اختراق قارة قبلي البلد ويجالس العمد والأعيان بعد ارتدائه الشرخ (أي القفطان المفتوح) ، حيث يلقي قصائده الفاخرة عند حلول مفتشي المعارف ومديري المديريات لمدارس قريتنا ، وبالتالي فقد ظل الاتحاد لايعني عندنا اتحاد الشعب بطوائفه وأديانه وشرائحه ، بل اتحاد قلوب العشاق في الشجن المتألق تحت النخيل وراء الحوائط والأفراح ذات الغوازي الراقصة ، أما النظام فلم تكن نجيد الفوضى حتى نسعى للنظام ، حياتي - أنا بالذات - هائمة في الآفاق الممتدة وسط الحقول وبنات نيل القط والترع الملتفة في رونق النهر الخالد لابن عمنا محمود حسن إسماعيل على شواطيء الإبراهيمية والبدرمانية والديروطية والشريفية وبحر يوسف - إضافة إلى أنواع أخرى من الترع القليانة : الرياح والمصرف والدلجاوي - هل رأيت أو سمعت في حياتك عن قرية تحتضنها الترع والقلوب العاشقة المظلومة مثل قريتنا ؟ ، وهو مايؤدي إلى العنصر الثالث الذي جاء به جمال عبدالناصر : العمل ، ونحن نمتلك عدداً مذهلاً من الطبقات يفوق ما ورد عند كارل ماركس وانجلز وسلامة موسى ومحمود أمين العالم ودعاء كروان طه حسين مع إضافة نوال السعداوي وعبدالرحمن الشرقاوي وكامل زهيري ، الطبقة العليا تملك وتحكم وتلعب القمار وتتابع في إدراك جميل وقوى كافة أنواع الحشيش والغوازي والجنس والمرح المتألق في الكنوس ، وقد وضعناهم في صفوف الإقطاع دون انطباق هذه الصفة عليهم لأسباب ضمور الملكية الزراعية للحدود التي تجعلهم في مسافة نائية عن الحاجة ، واتساع ذات الملكية الزراعية التي يستمتعون بها حتى أنهم يهتمون بمباني المساجد والكنائس والعطف على اليتامى والمعوزين - مع الزيارة السنوية الضرورية لمستعمرات الفن واللهو في العاصمة عند بديعه مصابني وصفية حلمي في مواسم الانتهاء من جني القطن وإقامة الليالي المزدهرة بالطبول والانشاد الديني والأذكار واللحوم والبسبوسة والهريسة والبسيمة والفولية ، ثم الطبقة التي تليها ومنها ما تسمح ظروفه بمصادقتهم من كبار الموظفين والأقل منهم شأناً في امتلاك الأراضي ، ثم ما تسمح ظروفه بمجالستهم فقط بصفتهم تابعين يبتسمون موافقين في إعجاب ممتثل ، ثم من يكون راغباً في التطوع لخدمتهم دون أي مقابل سوى مواقعة بواقي الموائد، بعدها أناس يعملون في حقولهم - وبعضهم في حقول الآخرين ، وعدد كبير من ذوي المهن : نجارين وحدادين

ومصلحي كلوبات (جمع كلوب) وفراشي المدارس وعمال المجلس البلدي (القروي) والخفراء والحمارين (الذين يعملون مع حميرهم بالأجرة) والجمالين وعمال الأرض - وهم غير الفلاحين ، وعمال الفواخير أصحاب الدراية في تحمير الطوب وصناعة الأباريق والقلل والمناطيل (جمع منطال - كوز من الفخار) والأزيار والمواجير ، ثم عدد محدود يتاجر في السكاكين ويصلح أنواعاً من الأسلحة النارية ، مع عدد آخر من صناع الأحذية والمراكيب والشباشب ، ثم واحد أو إثنان في كل مربع متخصص في طلوع النخل وتقليبه ومراعاة الناتج من البلح منذ نعومة بوادر النبيني (بواكير البلح) حتى يصبح رطباً جنياً .

بداية العزة والكرامة

وكنا في حالة هابطة فقيرة بالغة الرثاء عندما جاء جمال عبدالناصر ، (دعك من ظهور محمد نجيب بعض الوقت) ، فقررنا - كعادتنا - أن نردم على كل ما مضى ، وبدأت العزة والكرامة تبدو على وجوهنا التي عبثت في محتوياتها أنواع من الأنيميا الواضحة ، لقد جاء في الوقت المناسب كي يوقف - ثم يحطم كل الإقطاع والظلم والبؤس الذي حال دون الكثير من دخول المدارس الأميرية - التي بالبندر في ديروط مقر السلطة الإدارية ، وإني أقر هنا أن ملكيتنا المسكينة نحن ال مستجاب - كانت أحسن من غيرنا ألف مرة ، لكنها لم تكن تتيح لنا أن نأكل ونشرب خلال الوجبات الثلاث المعهودة ، ولا نستطيع أن نطبخ سوى مرة أو مرتين كل دهر من الدهور ، وقد رقصنا في الشوارع ، كل ديروط الشريف رقصت في الشوارع إبتهاجاً بجمال عبدالناصر العظيم ، والذي - بعد أن أطلعنا على مبادىء الثورة القائمة على الاتحاد والنظام والعمل - أثار فينا هذا التحدي التاريخي المشار إليه في الكتب ، ليقف معنا ضد الظلم - والصحيح أن نقف معه بعد أن أوقظنا ، وأثبتت التجارب أننا على المستوى المطلوب : في العشق والسمر والوصول إلى غرف الحشيش والتعامل مع أمين أبوعلة أشهر المشرفين علي أنواع الخمور في ذلك العصر ، وانفتحت المدارس والعقول والنوافذ والأناشيد ، وبالذات ما أحسست به أنا بصفتي ولدت آخر ساعات يوم يوليو ١٩٢٨ - لأستقبل صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ مبتسماً فخوراً شديد الزهو لقدرة أمي على إنجاب الذكور ، بعد أن فشلت في هذا الأمل الأبوي في الأحقاب الماضية بسبب إنجابها الهادر للإناث .

وهو ما أدى بي إلى أن أقف مع جحافل الجماهير في أكتوبر ١٩٥٤ أنتظارا لعضو مجلس قيادة الثورة محمد أنورالسادات ، الذي جاء ممثلاً للثورة العظيمة ضد الاستبداد والإقطاع مناديا بالحرية والاتحاد والنظام والعمل والسيطرة على الزمن أو الزمان وكان ذلك اليوم عظيماً ، وجاء السادات قوياً وشامخاً وشديد الصلابة ، ليستقبله بحفاوة - على رأس القوى الشعبية - أفراد من الطبقة الأولى التي أشرت إليها ، وأصطحبوه إلى قصر إسماعيل بك كامل ذي الحدائق الرائعة ، ووقفنا نحن - في سعادة لا نهاية لها - خارج القصر والحدائق - نمور ونثور ونجلجل بآيات الاحتفاء والاحتفال .. دون أن ننتبه للزمن .. أو الزمان . ■



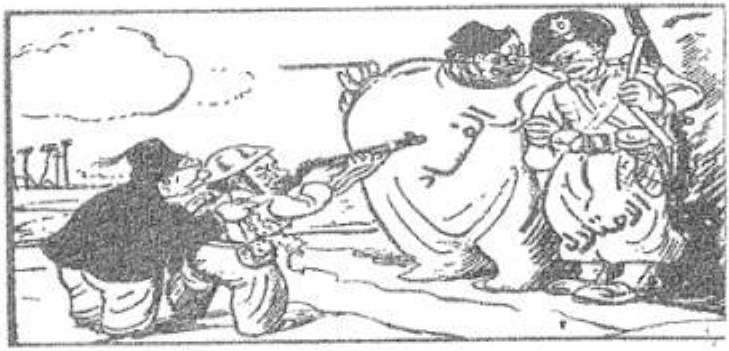
الطريق إلى
لدستور ؟! ..

الكاريكاتير

١٨٨ ٥٠ عاماً من السخرية

يكن فن الكاريكاتير يوماً مجرد هزل ولا ضحك أو ترفيه.. بل تعدى ذلك .. فهو النكتة الساخرة اللاذعة التي تدمع العين لا من شدة فكاهتها بل لقوة تأثيرها وقربها اللصيق بالقلب.. وهو الصرخة الجريئة في وجه الخطأ بمختلف أشكاله ..

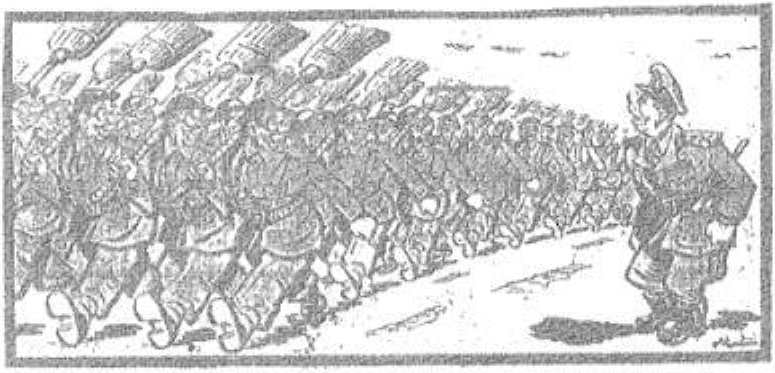
وفي مصر لعبت رسوم الكاريكاتير دورها باقتدار خلال أشد الأزمات التي تعتصر البلاد، فكانت وقود الشعب، واللهيب الذي يشعل الثورة على الظلم والفساد والقهر.. فقادت ثورة من نوع خاص على جميع الأوضاع التي لا يرضى بها الشعب .. فكانت نقطة النور التي تكشف



المصرى أفندى - اضرب الأثنين مرة واحدة .
لأنك لو سبت واحد راح يضربك ويضربنى

كل تفاصيل حياتنا الرقيقة بما فيها من عيوب وأخطاء بلا رتوش أو مجاملة، وتنقدها وتعرى قبحها.. فلم تسلم شخصيات مجتمعنا من ريشة فنانى الكاريكاتير الساخرة، فلا رئيس الدولة ولا رئيس الوزراء أو حتى الموظف البسيط أو المرأة العاملة أو الزوج المطحون أو حتى ربة البيت المتسلطة أو الخادمة المغلوبة على أمرها. إلا وتناوله فنانو الكاريكاتير بالنقد اللاذع والهادف، ومن يتأمل تلك الرسوم قبل ثورة ١٩٥٢ لا يستطيع إغفال انتقاداتها اللاذعة ضد الفساد الملكى والحزبى المتفشى فى مصر.. ومع اندلاع ثورة يوليو لم تخفف رسوم الكاريكاتير من وتيرتها الساخرة .. فملأت الصحف والمجلات ضجيجاً وسخرية.. فكانت الريشة التى ألهبت قلوب الشعب المصرى بتأييد الثورة وقراراتها وجعلت منها ثورة شعبية سلاحها الكاريكاتير.

وبالطبع لا نستطيع أن نغفل رواد هذا الفن الجميل الذين رسخوا قواعده على صفحات مجلاتنا وجرائدنا. فمن منا ينسى صاروخان بعبقريته اللاذعة فى التعبير عن مرارة أوضاع الفقراء.. أو خطوط صلاح جاهين الرشيقة وكلماته التى تمس شغاف القلب.. أو رسوم بهجت عثمان الأنيقة ذات الشفافية.. ولا جرأة وجسارة رسوم عبدالسميع.. وفروسية «رخا» فى محاربة الفساد ولا شخصيات أحمد حجازى الذكية ولا حماسة وصدق رسومات زهدى .. وغيره من الرسامين الذين أخرجت ريشتهم رسومات ساخرة ثائرة أضحكتنا على عيوبنا وأخطائنا ضحك يصل إلى حد البكاء .. فدخلت تاريخ الصحافة وقادت حربا شاملة بلا هوادة على الجهل والظلم والاستكانة ! ■



الأخبار ، ٨ أغسطس ١٩٥٢

لواء "الكنس والتطهير"
الماريشال المصري أفندي : إلى الفساد السياسي ... مارش!



... يا برتقان احمر وكبير .. بكره الوقفه وبعده العيد ...





السد العالي الذي يشيده امام الاستعمار ..

صباح الخير – ١٦ فبراير ١٩٥٦

د. بهيشه أزهري



رسمه صلاح جاهين — صباح الخير – ٥ يوليو ١٩٥٦



من مجلس الامة الى بيت الرئيس بمنشية البكرى .. وبالعكس

روزاليوسف ١٢ يونيو ١٩٦٧



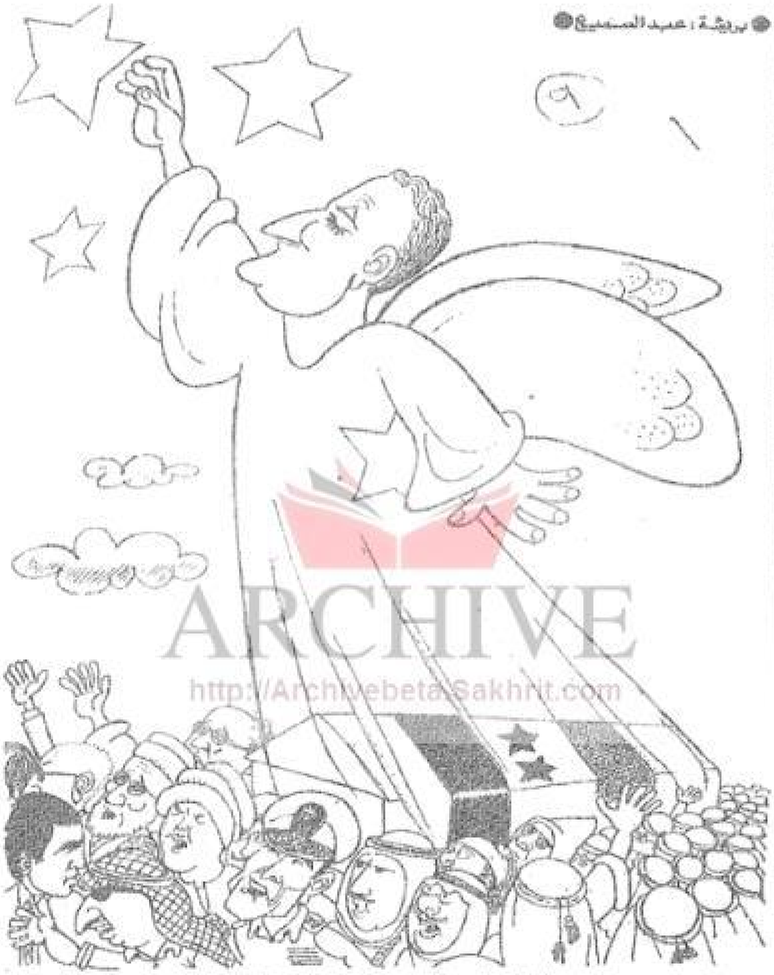
يا حرية
يا وطنية
يا روح الامة العربية
يا ناصر ...

.... يا ناصر !

.... يا ناصر !

يا حرية
يا وطنية
يا روح الامة العربية
يا ناصر !

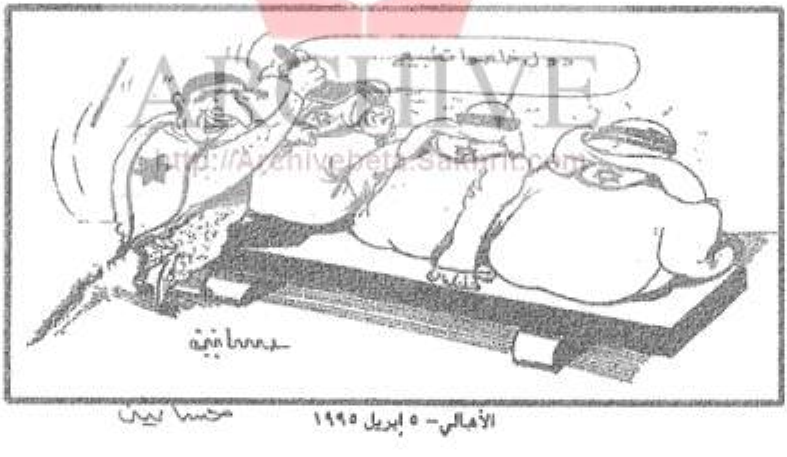
روزاليوسف ١٢ يونيو ١٩٦٧



وإذا كانت النفوس كباراً .. تعبت في مرادها الأجسام







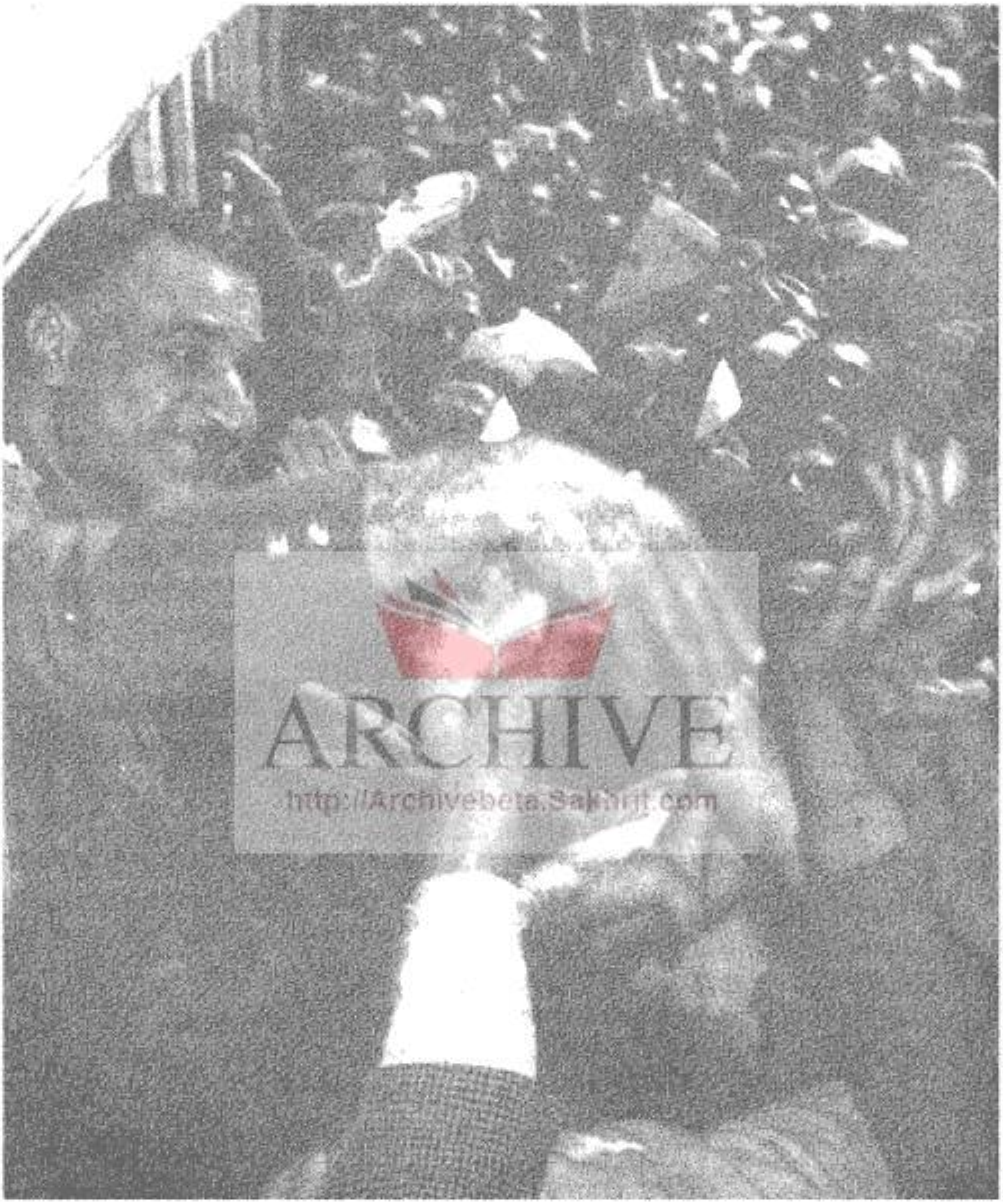
الأهالي – ٥ إبريل ١٩٩٥

المغزى التاريخى
لثورة يوليو

بقلم : د. جلال أمين

السنوات الثلاث أو الأربع السابقة على قيام ثورة يوليو ،كان يسود المصريين شعور عام بأن شيئاً لابد أن يحدث. كان يحكمهم ملك فاسد تأتيهم الأخبار كل يوم عن مغامرة جديدة له مع النساء أو على موائد القمار. وفي ١٩٤٨ كان الجيش المصرى مع ستة جيوش عربية أخرى، قد منى بهزيمة منكرة فى فلسطين أعلن بعدها قيام دولة إسرائيل. وكانت الحكومات المصرية تتوالى بسرعة على فترات متقاربة، وكل منها أكثر فسادا من سابقتها، مع تفاوت صارخ فى الدخول، وزيادة سريعة فى السكان، دون أن يبدو من واضعى السياسة الاقتصادية أنهم يأخذون هذه الزيادة فى الاعتبار، بفرض أن كانت هناك سياسة اقتصادية على الإطلاق. والامتيازات كلها، سواء فى المناصب السياسية أو فى الحياة الاجتماعية أو الثقافية، تحتكرها نسبة جدّ ضئيلة من السكان، مع وجود حاجز حديدى يمنع ما لا يقل عن سبعين أو ثمانين بالمائة من السكان من القيام بأى دور فى الحياة العامة أو التمتع بطيبات الحياة، ابتداء من التعليم وحتى التصييف .

التوحد الوطني حول رمز ثورة ٢٣ يوليو ◄



كان هذا إذن هو سرّ ذلك الفرح العظيم الذى استقبل به المصريون خبر قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢. فقد اعتبرت الغالبية العظمى منهم ما حدث شيئا طبيعيا تماما وضروريا. لقد فوجئنا بالطبع بأن الذى قام بالتحرك وأحدث التغيير هم ضباط الجيش. ولكننا قلنا لأنفسنا : «ولم لا؟ أليسوا مصريين مثلنا ؟ يشعرون بنفس ما نشعر به؟ ومن غيرهم، على أى حال، كان يمكن أن يقوم بهذا العمل الجرىء والحاسم؟»

ليس هذا فحسب، بل كان من الواضح جدا للمصريين، عندما سمعوا بقيام الثورة، ما يجب على الثورة عمله. فهذا أيضا لم يكن هناك خلاف جدى حوله، وهو ما تضمنته مبادىء الثورة الستة المشهورة: القضاء على الاستعمار وأعوانه، القضاء على الاقطاع، القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، إقامة جيش وطنى قوى، إقامة عدالة اجتماعية، وإقامة ديموقراطية سليمة.

كان كل هذا واضحا وبديهيا. ولكن من المهم أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بكل هدف من هذه الأهداف، سواء تعلق بالسياسة الخارجية أو الداخلية، بالتغيير الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى، كانت هناك عدة احتمالات مختلفة أشد الاختلاف، لما يمكن أن يحدث بشأنه.

ففى السياسة الداخلية، هل يعود الجيش إلى ثكناته بعد أن أدى مهمته العظيمة ويتأكد فقد من إجراء انتخابات نزيهة، أم يستمر الضبّاط فى الحكم؟ وفى السياسة الخارجية، ما الذى سيحدث بعد أن تنجح مصر فى التخلص من الاستعمار الانجليزى والاحتلال؟ هل ستصبح دولة حرة مستقلة، أم تقبل أن تصبح تابعة لأمريكا؟ أم لروسيا؟ أم تقف على الحياد بين الدولتين؟ وفى سياسة مصر الاقليمية، هل ستتحد مصر مع السودان؟ أم تدخل فى وحدة عربية أكبر، أم تحاول تكوين جبهة مع الدول الأفريقية أو الإسلامية؟

وفى الموقف من إسرائيل، هل سنعقد صلحا ونقبل الأمر الواقع، أم ندخل فى حرب على الفور أم ننتظر حتى نكون جيشا قويا ثم نحارب؟ وفى السياسة الاقتصادية، لاشك أن التنمية ضرورية، ولكن التنمية أشكال وألوان. فهل نركّز على الزراعة أم على التصنيع أم كليهما؟ هل سنعتمد على النفس أم على المعونات الأجنبية؟ على القطاع الخاص أم على القطاع العام؟ وفى التصنيع، هل تكون الأولوية للصناعة الخفيفة أم الثقيلة؟ ونطبق أساليب للإنتاج كثيفة الاستخدام لرأس المال أم للعمل؟

وفى سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية، إلى أى مدى سوف نذهب للتخفيف من حدة التفاوت بين الطبقات؟ هل نطبق اشتراكية من النمط السوفييتى أم الصينى؟ أم نكتفى بإعادة توزيع الدخل عن طريق الضرائب التصاعدية دون إلغاء للملكية الخاصة؟ هل يكون نظامنا هو الاشتراكية أم رأسمالية الدولة؟

★ ★ ★

إننى سوف أزعم فى هذا المقال أن الذى حدد «اختيارات» رجال الثورة فى كل هذه المسائل لم يكن انحيازا أيديولوجيا أو تفضيلات شخصية من جانب هذا القائد أو ذاك، هذه المجموعة من الضباط أو تلك، بل الذى حدد هذه «الاختيارات» كان هو «ظروف العالم».

لم يكن الأمر واضحا لنا على هذا النحو حينئذ، ولكنه الآن أكثر وضوحا بكثير. وهذه سمة

طبيعية، أى أن المغزى التاريخى لأى تجربة لا يتضح إلا بعد مرور فترة من الزمن. هكذا كان الأمر فى تجربة محمد على مثلا، وفى تجربة اسماعيل وفى تجربة طلعت حرب... إلخ. إن مرور الزمن يضع التجربة فى إطارها التاريخى على نحو لم يكن واضحا أبدا أثناء حدوثها، فإذا بالذى كان يبدو اختيارا حراً، أو محض صدفة، أو نتيجة لاختلاف تافه فى الأهواء والأمزجة، يتضح أنه كان اتجاها ضروريا يصعب جدا تصور حدوث غيره.

ولكنى أريد أن أذهب إلى أبعد من هذا فأحاول أن أحدد السمة الرئيسية لـ «ظروف العالم» خلال الخمسين عاما الماضية، تلك السمة التى حددت إلى حد كبير مسار ثورة يوليو. فإذا بى لا أجد تشخيصا لهذه الخمسين عاما، من وجهة نظر العالم ككل، أنسب من تشخيصها بأنها كانت تمثل «العصر الأمريكى»، أو تمثل بداية هذا العصر.

نعم، لقد كان قد بدأ يتضح، منذ بدايات القرن العشرين، أن الاقتصاد الأمريكى ينمو بسرعة تفوق بكثير سرعة نمو الاقتصاد الأوروبى، بما كان يحمل فى طياته أن تصبح الولايات المتحدة القوة الأولى فى العالم، ولكن ظلت بريطانيا وفرنسا طوال النصف الأول من القرن هما الدولتان المهيمنتان فى السياسة الدولية وعلى اقتصاديات العالم، ولم تتسلم الولايات المتحدة مركز القيادة فى العالم إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

★ ★ ★

إن معظمنا سوف يتفق، فيما أظن، على أنه لو لم تكن الولايات المتحدة راضية عن قيام الجيش المصرى بحركة سياسية فى ١٩٥٢ ما نجحت هذه الحركة. بل والأرجح أن إحجام القوات البريطانية التى كانت مرابطة وقتها على قناة السويس، عن التدخل لوأد حركة الجيش، كان سببه تدخلا أمريكيا بصورة أو بأخرى. ونحن نعرف أن الملك فاروق كان أول ما فعله عندما فوجئ بدخول الضباط إليه فى ٢٦ يوليو ومعهم وثيقة التنازل عن العرش، هو الاتصال بالسفير الأمريكى تليفونيا للتحقق من أنه راض عما يحدث، فلما تحقق من ذلك وقّع على التنازل. ويروى أحمد حمروش (قصة ثورة ٢٣ يوليو، الجزء الأول: مصر والعسكريون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٣٨ – ٩).

القصة التالية التى حدثت فى أوائل سبتمير ١٩٥٢

«أصدر (مجلس القيادة) قرارا باعتقال ٦٤ سياسيا يوم ٧ سبتمبر دون الرجوع إلى رئيس الوزراء (على ماهر) وأعلن جمال عبد الناصر الخبر فى اجتماع لمجلس القيادة كان يحضره الدكتور عبد الرازق السنهورى وسليمان حافظ، وتحدد بهذا القرار مصير وزارة على ماهر، وبدأ البحث عن اسم رئيس الوزراء الجديد. ورشح سليمان حافظ الدكتور السنهورى رئيسا للوزراء، ولكن على صبرى همس شيئا فى أذن جمال سالم، وكان حاضرا لهذا الاجتماع باعتباره سكرتيرا لمجموعة الطيران. وقال جمال سالم إنه يجلّ السنهورى ويعرف قدرته ويعترف بجدارته ويثق فى إخلاصه للحركة، كما بدا واضحا فى تأييده لقانون الإصلاح الزراعى، ولكنه يستسيغ الصراحة والإخلاص فى عرض السبب الذى يحمله مرغما على العدول عن ترشيحه. وكان السبب كما قاله جمال سالم هو أن الأمريكان سوف يعترضون

على الترشيح لأن بعض الصحف الغربية نسبت إليه فى أواخر عهد الملك السابق وأثناء حكم الوفد أن له ميولا يسارية. واستطرد جمال سالم قائلا إنه رغم يقينه ببطلان هذه التهم فإن مصلحة الحركة - وقد أخذت بعض الصحف فى الخارج تتهمها بالشيوعية - تقتضى تفادى كل ما من شأنه أن يستغله الأعداء. ويقول خالد محيى الدين « إن الأمريكيين كانوا قد أبلغوا على صبرى بذلك عندما شعروا باقتراب السنهورى من مجلس القيادة ورجوع الأعضاء إليه فى كل مشاكلهم الدستورية، وأجاب الدكتور السنهورى فى ثقة هادئة بأنه يقرّ وجهة نظر جمال سالم بعد أن قال إن الذريعة التى استندت إليها صحافة الغرب فى اتهامه بالشيوعية ترجع إلى أنه وقع هو وزملاء له من مستشارى محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة نداء للسلام هو ما عرف فى ذلك الوقت باسم (نداء استوكهولم) ومضمون النداء لايعدو أن يكون دعوة لإقرار السلام العالمى ومقاومة أسباب الحروب. وأنهى الدكتور السنهورى كلامه طالبا الانتقال للحديث عن مرشح آخر، وانتهى الأمر إلى الاقتراح بتعيين محمد نجيب رئيسا للوزراء وسليمان حافظ نائبا لرئيس الوزراء» .

وللقارئ أن يتصور كم كان من الممكن أن يتغير مسار التاريخ المصرى فى تلك المرحلة لو افترضنا أن أصبح على رأس الحكومة أمثال الدكتور السنهورى.

لم تكن أمثال هذه القصص معروفة وقت حدوثها، ولكن حتى لو عرفنا بعضها فقد كان فرحنا بالثورة غامرا ورغبتنا جامحة فى أن نتصورها خالية من الشوائب لدرجة منعتنا من أن نفهم فهماً صحيحا تلك المؤثرات الحاسمة التى كانت تجرى وراء الكواليس. فإذا تأملنا الآن ما حدث خلال الخمسين عاما الماضية أدركنا إلى أى حد كان هذا الذى حدث متأثرا بهذه السمة الأساسية لهذه الفترة، وهى أنها كانت تمثل فى الحقيقة الخمسين سنة الأولى من «العصر الأمريكى».

هل كان من قبيل الصدفة مثلا أن تتخذ الثورة المصرية فى ١٩٥٢ ، ضد الفساد السياسى والاقتصادى، شكل الانقلاب العسكرى، وهو، كما ظهر فى انقلابات أخرى قبله وبعده، الطريقة المفضلة لدى الأمريكيين لإحداث التغيير المطلوب فى دول العالم الثالث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية؟ وهل كان من قبيل الصدفة أن يكون أول قانون للإصلاح الاقتصادى الاجتماعى يصدر بعد الثورة هو قانون الإصلاح الزراعى، وقد كان الإصلاح الزراعى فى ذلك الوقت هو شكل الإصلاح المفضل عند الأمريكيين عندما يتعلق الأمر بالدول المتخلفة كطريقة للحد من انتشار الشيوعية؟ وهو إصلاح يقوم على توسيع نطاق الملكية الخاصة للأرض لا على إنشاء مزارع مملوكة للدولة يعمل فيها المزارعون كأجراء. بل وهل كان من السهل حقا أن نتصور أن توقع بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر فى سنة ١٩٥٤ وأن يتم الانسحاب فعلا فى ١٩٥٦ بعد ٧٤ عاما من الاحتلال، ومن دون ضغط من الولايات المتحدة عليها بالانسحاب؟

قد يقال إن هذا التشخيص قد يكون مقبولا للسنوات الأولى من حياة ثورة يوليو، ولكن كيف يمكن القول به عن السنوات التالية؟ كيف يمكن أن نستخدم وصف «العصر الأمريكى» على عصر شهد كل هذا الاصطدام بين الإرادة المصرية

والإرادة الأمريكية، وكل هذا التحدى من قادة ثورة يوليو للمطامع الأمريكية فى المنطقة؟

وأنا أطالب القارئ ببعض التروّى وعدم التسرع. فدعنا نعترف أولا بأن الفترة التى قد يثور حولها الشك فى مدى ملاءمة وصف «العصر الأمريكى» لها، من بين الخمسين عاما الماضية، هى فترة لا يكاد يزيد طولها على عشر سنوات، وهى الواقعة بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الستينيات، أى منذ اشتراك مصر فى مؤتمر باندونج وعقدها صفقة الأسلحة التشيكية فى ١٩٥٥، وبين إخطار الولايات المتحدة لمصر فى ١٩٦٥ بأنها ستتوقف عن إعطائها المعونات الغذائية ثم شن إسرائيل هجوم ١٩٦٧ على مصر بتأييد ودعم الولايات المتحدة، قبل هذه الفترة لم يكن هناك صدام بين الثورة وبين الولايات المتحدة، وبعد انتهاء هذه الفترة كان من الواضح أن الولايات المتحدة قد أخذت تتخذ موقف الهجوم مما سمح لها شيئاً فشيئاً بإخضاع مصر لإرادتها.

فإذا تأملنا هذه الفترة (٥٥-١٩٦٥) وجدنا أن من الواجب الاعتراف ببعض الحقائق التى قد لا تجعل استخدام وصف «العصر الأمريكى» مرفوضا تماما، ففى هذه الفترة اتخذت قيادة ثورة يوليو الكثير من الإجراءات الوطنية والقومية مما يتفق تمام الاتفاق مع آمال المصريين والعرب، ولكن بعضا من أهم هذه الإجراءات كان يتفق أيضا، فى تلك المرحلة، مع مصالح الولايات المتحدة. إنى أقصد بذلك مواقف من نوع مساعدة ثوار الجزائر ضد فرنسا، والعراق ضد بريطانيا والأردن ضد وجود القائد البريطانى جلوب، ولبنان ضد كميل شمعون وممثلى النفوذ الفرنسى. بل أو لم تحقق فكرة الثورية العربية نفسها مصالح مهمة للولايات المتحدة فى العشر سنوات المنقضية بين منتصف الخمسينيات ومنتصف الستينيات، كوسيلة للتخلص من النفوذ البريطانى والفرنسى من ناحية، ولإقامة سد مانع ضد انتشار النفوذ السوفييتى والفكرة الشيوعية، من ناحية أخرى؟

إنى أعرف أن هذا الكلام يمكن أن يؤخذ بمعانٍ مختلفة ويحمَّل أكثر مما يحمله من معان. ولكن هل من الصعب على المرء أن يميز تمييزا صارما بين اتفاق ظاهرة أو سياسة ما مع بعض مصالح الأعداء وبين ما إذا كانت هذه الظاهرة أو السياسة فى حد ذاتها نبيلة وجديرة بالاحترام وفى صالح الأمة نفسها؟ إنى مثلا لم أفقد، فى أى مرحلة من حياتى، إيمانى بالثورية العربية وضرورتها لتحقيق نهضة عربية حقيقية، سياسية واقتصادية وثقافية، ولم أشعر قط بأى تعاطف مع أعداء فكرة القومية العربية أو ناقديها أو الساخرين منها أو المقللين من شأنها. ولازلت أعتبر أن صورة من صور الوحدة العربية لا غنى عنها لتحقيق هذه الأمة لآمالها. فهل يتعارض أى شيء من هذا مع الاعتقاد بأن الولايات المتحدة كان من مصلحتها تشجيع حركة القومية العربية لفترة ما لتحقيق مصالح خاصة بها على أن تقوم بضربها فى وقت لاحق وقبل أن تصبح تهديدا حقيقيا لهذه المصالح ويصبح من الصعب استئصالها؟

ألم يحدث شيء شبيه جدا بهذا خلال الحرب العالمية الأولى، عندما أيدت الحكومة البريطانية بشدة، بل وشجعت بقوة، قيام ثورة عربية ضد الأتراك «تحقيقا لمآرب بريطانيا الخاصة» فقدمت مختلف الوعود البراقة للشريف حسين فى مكة بدعمها لقيام خلافة

عربية مستقلة بمجرد انتهاء الحرب، ثم نكصت عن كل هذه الوعود بعد ذلك؟ هل يتعارض الإيمان بضرورة ومزايا إقامة دولة عربية موحدة مع الاعتراف بأن بريطانيا كانت تدعم الفكرة وتؤيدها في ذلك الوقت؟

أو فلننظر إلى سياسات الثورة الاقتصادية. لقد قبلت حكومة الثورة فى البداية مشروع النقطة الرابعة الأمريكي، وهو الصورة الأولى من صور المعونات الأمريكية الخارجية في أعقاب الحرب الثانية. ثم قبلت حكومة الثورة أن تعتمد على المعونات الغذائية الأمريكية، اعتمادا كبيرا، فيما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٥ وقبل أن تتوقف تماما فى ١٩٦٧. فهل كان هذا الاعتماد على المعونة الأمريكية ضروريا حقا لتحقيق التنمية السريعة في مصر. من وجهة النظر الاقتصادية البحتة؟ لا أعتقد ذلك بالمرة.

فالحقيقة أنه كان من الممكن جدا لمصر، ودون تضحيات جسيمة فى ذلك الوقت، أن تحقق تنمية سريعة دون الاعتماد على القمح وسائر السلع الزراعية الأمريكية. كان هذا أسهل بكثير مما أصبح فى السبعينيات أو الثمانينيات، بعد أن أدمنت مصر هذه المعونة، وأسهل بكثير أيضا منه الآن.

بل إن مفهوم التنمية نفسه، الذى تبنته الثورة، كان له سمات أمريكية واضحة، بمعنى ملاءمته للأغراض الأمريكية فى المنطقة. لقد تبنت الثورة نفس فلسفة التنمية التى شاعت فى الخمسينيات والستينيات وروجت لها منظمات الأمم المتحدة، وقبلناها نحن دون تروٍ، ثم تبين لنا فيما بعد أنها تقوم على مفهوم خاص جدا، ليس هو المفهوم الوحيد ولا هو بالضرورة المفهوم الأصلح لنا. لقد قبلنا تعريف التنمية بأنها زيادة متوسط الدخل، وليس إشباع الحاجات الأساسية للناس، والأمران مختلفان. إذ من الممكن أن تنجح فى تحقيق الأول نجاحا باهرا وتفشل في الثاني، كما أن من الممكن أن تنجح نجاحا باهرا فى تحقيق الثاني مع تقدم بسيط فى رفع متوسط الدخل.

إن تبنى هذا المفهوم للتنمية دون تروٍ هو الذى سمح باتخاذ سياسات اقتصادية تقوم عى تدليل الطبقة الوسطى وتشجيع استهلاكها لكثير من السلع والخدمات الترفية والكمالية بدرجة أكبر بكثير مما كانت تبرره مستويات المعيشة السائدة فى ذلك الوقت لغالبية المصريين، من أجهزة التكييف إلى السيارات إلى إنشاء المصايف الجديدة اللائقة بالطبقة المتوسطة الجديدة حتى قبل أن تشبع بعض الحاجات الأساسية لأقل الناس دخلا.

نعم لقد حدث خلال الخمسينيات والستينيات تقدم كبير فى مستويات التغذية والتعليم والإسكان حتى لشرائح الدخل الدنيا، خاصة إذا قورن هذان العقدان بالعقود التالية لهما، ولكن كان من الممكن أن يحدث تقدم أفضل بكثير في كل هذه الأمور «ولو فى مجال محو الأمية مثلا» لو كانت الإرادة المصرية حرة حقا فى تشكيل السياسة الاقتصادية.

كان تبنى هذا المفهوم الخاطىء للتنمية هو أيضا الذى سمح بإنفاق أكبر من اللازم على شراء الأسلحة وبالاستخدام الكثيف لرأس

المال بدلا من الاستخدام الكثيف للعمل، بل وسمح أيضا باستمرار فقدان النظام السياسي لدرجة معقولة من الديمقراطية.

كل هذا لم يكن إلا نمطا معينا من الأنماط الممكنة للتنمية، تقدمت به مصر، بلاشك، خلال الخمسينيات والستينيات، خطوات كبيرة إلى الأمام، وبدرجة أعلى بكثير مما حققته مصر في العقود التالية، سواء من حيث معدلات التصنيع وتغير الهيكل الإنتاجي، أو من حيث إعادة توزيع الدخل، ولكن كان يعيبه عيبان أساسيان، كان كلاهما يتلاءم مع المصالح الأمريكية في ذلك الوقت وهما:

١ - الاعتماد الكبير على المعونة الأمريكية.

٢ - رضوخ غير مبرر للمطامح الاستهلاكية لدى الطبقة المتوسطة.

لقد تفاقم هذان العيبان في السبعينيات والعقدين التاليين لهما، فزادت المديونية للولايات المتحدة وللغرب عموما بمعدلات مذهلة، كما اشتدت قوة النزعة الاستهلاكية لدى أصحاب شرائح الدخل الوسطى من المصريين، بدرجة مذهلة أيضا، الأمر الذي أدى بنا إلى ما نحن فيه الآن، من مختلف أوجه الضعف في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء.

إن قراءة ما حدث يمكن أن تؤدي بنا إلى اتخاذ أحد موقفين:

موقف يؤكد على أوجه الاختلاف المهمة بين المرحلتين، مرحلة الخمسينيات والستينيات من ناحية، والمرحلة التالية لهما من ناحية أخرى، وإلقاء اللوم كله، أو معظمه، فيما حدث للاقتصاد والمجتمع والسياسة المصرية على إحدى المرحلتين دون الأخرى، وموقف آخر ينظر إلى المرحلتين باعتبارهما حقبتين متتاليتين من نفس العصر، لم تتمتع مصر خلال أي منهما بحرية حقيقية في الحركة، أو باستقلال كبير في الإرادة، وإن كان من الممكن أن نعترف للمرحلة الأولى بأن حرية الحركة فيها كانت أكبر واستقلال الإرادة أوسع، بسبب ظروف الحرب الباردة (خاصة في الفترة ٥٥ - ١٩٦٥) والتي طرأ عليها تغير كبير ابتداء من منتصف الستينيات. وهذا القدر الأكبر من حرية الحركة هو الذي سمح في رأيي بأداء أفضل في الخمسينيات والستينيات، في كل ناحية من نواحي حياتنا، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بل والسياسية أيضا، بالمقارنة بالعقود التالية عليهما.

هذا الموقف الثاني، الذي ينظر إلى الخمسين عاما ككل، ويؤكد على أوجه الشبه بين المرحلتين بدلا من أوجه الاختلاف، هو فيما يبدو لي الموقف الأنسب ونحن نحاول، في سنة ٢٠٠٢، تأمل حقبة نصف القرن بأكمله، أملا في اكتشاف المغزى التاريخي لهذه المرحلة بأسرها. فإذا فعلنا ذلك فإني لا أجد تشخيصا أفضل لهذا العصر بأكمله أنسب من تشخيصه بأنه كان «العصر الأمريكي»، أو الخمسين سنة الأولى من هذا العصر. ■

مصر وأمريكا

العلاقات الأمريكية المصرية

من ثورة يوليو إلى مباحثات السلام

بقلم السفير: د.رضا شحاته

خمسون عاما تمر اليوم على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وفى عام ٢٠٠٢، نستذكر أيضا خمسة وثلاثين عاما على حرب الخامس من يونيو ١٩٦٧، وما يقرب من ثلاثين عاما على حرب أكتوبر ١٩٧٣، وخمسة وعشرين عاما على رحلة الرئيس السادات إلى القدس فى أكتوبر ١٩٧٧.

معالمنا التاريخية الكبرى فى مصر إما ثورات وإما حروب ولكل من الثورات والحروب على أرض مصر آثارها البعيدة والعميقة فى تطورنا السياسى والاجتماعى وفى مسيرتنا العربية والدولية.

ووراء ثورة يوليو وما بعدها حتى حرب ١٩٥٦ ثم منذ حرب ١٩٦٧ وما تلاها من آثار لم نزل نعيشها إلى اليوم بل ووراء حرب ١٩٧٣ والزلزال الذى أحدثته فى الشرق الأوسط وآثارها الاستراتيجية حتى مبادرة السلام عام ١٩٧٧، وراء كل هذه الثورات والحروب نقرأ ونرى على الخلفية دائما صورة أمريكا وسياستها ومواقفها تجاه مصر، تجاه عبدالناصر فى ثورة يوليو وتجاه حرب ١٩٦٧، وتجاه السادات فى حرب ١٩٧٣ ومبادرته عام ١٩٧٧، وتجاه مصر مبارك منذ عام ١٩٨١.

وعلى خلفيات علاقات أمريكا بقادة مصر فى يوليو ٥٢، ويونيو ١٩٦٧، وأكتوبر ١٩٧٣ وأكتوبر ١٩٧٧، وحتى حين عقد مؤتمر مدريد للسلام، نقرأ دائما ونرى صورة علاقة أمريكا بإسرائيل منذ ما قبل ثورة يوليو وإلى اليوم، تلقى بالظلال على كل زوايا علاقات مصر بأمريكا وعلاقات أمريكا بمصر والعرب والشرق الأوسط.

***

منطلقات السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط، ومن ثم نحو مصر، قبيل ثورة يوليو، هى فى الجوهر، منطلقات استراتيجية نحو منطقة بكل أبعادها، الموقع، والثروات، وخطوط النقل، والإطار الدولى السائد عندئذ، وهو سياق ومناخ الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية وإطلاق مبدأ ترومان فى ١٢ مارس ١٩٤٧ لمواجهة التهديد السوفييتى للشرق الأوسط، ونذر الصراع العربى الإسرائيلى وهى كلها عوامل إقليمية ودولية تضافرت لتدفع بالشرق الأوسط إلى دائرة الاهتمام المباشر فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية والإقليمية بعد الحرب العالمية الثانية.

طبيعة المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط تستمد فى الأساس من الواقع الاستراتيجى للمنطقة، من حيث صلتها بالأمن العالمى، وبحكم موقعه شرق البحر المتوسط، والبحر الأحمر والخليج فى حركة المواصلات البحرية والجوية والبرية بين الشرق والغرب، يضاف إلى ذلك إمدادات النفط والطاقة التى تمثل عصب القوة الاقتصادية لأوروبا الغربية والولايات المتحدة، ويختزل موقع مصر أحد أهم الدول فى المنطقة كل هذه العناصر، بحكم سيطرتها على قناة السويس.

كانت الاستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، وتجاه مصر قبل يوليو تواجه - فى تقديراتها - عدة مصادر تهديد، أو أخطار أولها، الخطر الشيوعى ومن ثم ضرورة احتوائه بوضع منظومة دفاع تفرض مصالحها فى الشرق الأوسط ضد التغلغل السوفييتى، ومن أجل مواجهة هذا الخطر كان على الاستراتيجية الأمريكية أن تعالج عدة مشكلات شبه مستعصية أولها النزاع المصرى البريطانى، ثم الصراع العربى الإسرائيلى.

مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط

الوثائق الأمريكية السرية تشير إلى أن وزارتى الدفاع والخارجية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية انشغلت خلال عام ١٩٥١ ومطلع عام ١٩٥٢ ببحث مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط وشرقى البحر المتوسط، وقد حددت تقارير مجلس الأمن القومى الأمريكى، منذ هذا التوقيت المبكر منذ أكثر من خمسين عاما، حددت لمصر مكانا مفصليا فى أى قيادة أو منظومة للدفاع عن الشرق الأوسط، لكن كل هذه الأجهزة الأمريكية كانت تدرك المحاذير التى تحد من استجابة مصر

للتعاون مع الولايات المتحدة فى خططتها لتحقيق أهدافها الاستراتيجية والدفاعية فى الشرق الأوسط، وأول هذه المحاذير - كما تقول التقارير السرية الأمريكية عام ١٩٥١ - هو شعور المرارة تجاه الولايات المتحدة بسبب المواقف فى فلسطين، بالإضافة إلى النزاع المصرى البريطانى وهو ما يطرح صعوبات خاصة فى تنفيذ التصورات والرؤى الأمريكية للدفاع عن الشرق الأوسط ولعل ما قيل وكتب منذ خمسين عاما أقرب ما يكون لما يجرى اليوم من تطورات وأحداث فى المنطقة (وإن اختلف العدو من التغلغل الشيوعى إلى الإرهاب الدولى).

قبل عام كامل من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وضعت تفاصيل الاستراتيجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وتجاه مصر لتحقق أهدافا محددة من بينها ومن أهمها إدخال مصر شريكا أساسيا فى بناء منظومة الدفاع الإقليمى عن الشرق الأوسط مع ضمان تدفق البترول للغرب وتأكيد استعداد النظام الأمريكى للمشاركة فى الدفاع عن المنطقة ثم تحقيق التعايش بين العرب وإسرائيل (فهل اختلفت الأهداف والوسائل منذ خمسين عاما عما هى عليه الآن؟)

كان دخول مصر فى منظومة الدفاع الأمريكى عن الشرق الأوسط، ثمنا يعرض عليها مقابل المساعدة فى التوصل لاتفاق بين بريطانيا ومصر حول القوات البريطانية لكن مصر - قبل الثورة - وجدت فى مقترحات القيادة المشتركة مجرد امتداد للاحتلال البريطانى ليس بواسطة بريطانيا بل بواسطة دول أخرى لا تعترف بالآمال الوطنية لمصر ولا تضع نهاية للاحتلال لأراضى مصر، وخسرت الولايات المتحدة أولى معاركها لجر مصر إلى الدخول فى خطط الدفاع عن مصالحها الاستراتيجية ، كل ذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ التى كانت لاتزال تدق على أبواب مصر.

السياسة الأمريكية تجاه مصر، قبل الثورة، جعلت تسوية النزاع المصرى الانجليزى مرهونة أو لنقل مشروطة بارتباطها وتعاونها مع قيادة الحلفاء للدفاع عن الشرق الأوسط، لكن مصر حتى قبل ثورة يوليو تمردت على هذا الشرط الذى ينقل إرادتها من التبعية البريطانية إلى التبعية الأمريكية.

ومع ذلك ظلت السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ، تتمحور حول أهمية مصر ومكانتها ودورها الإقليمى، وظلت الولايات المتحدة - حتى بعد قيام ثورة يوليو تتابع السير لتحقق هذا الهدف - تسعى إلى تكامل مصر مع منظومة الدفاع الأمريكية الإقليمية فلعبت واضطلعت دورا نشطا فى المفاوضات المصرية البريطانية حتى تصبح مصر عنصرا فاعلا فى دائرة الاستراتيجية الأمريكية لتكوين الأحلاف العسكرية، وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٢ اتخذت الولايات المتحدة من المواقف ما جعلها وسيطا مهما بين

الحكومات المصرية والحكومات البريطانية فى مشاورات متصلة بين واشنطن والقاهرة وكانت مصر فى الحقيقة ترحب بهذا الدور أو بهذه الوساطة الأمريكية من منطلق التقدير الأمريكى لأمن الشرق الأوسط ووصف «صدقى باشا» هذا الدور الأمريكى بأنه تدخل من الدولة التى كانت مصر تعلق عليها دائما الآمال.. وأن مصر تشارك الولايات المتحدة اهتماماتها بالنسبة لأمن المنطقة، لكن مصر تؤكد أن اهتمامها بالأمن يرتبط بضرورة استعادة حريتها.

منذ ما قبل يوليو ومصر لا تساوم ولا تقايض على حريتها مقابل أمنها حتى ولو كان أمنا أمريكيا.

خطوط متوازية

وتحركت السياسة الأمريكية عندما حذرها السفير الأمريكى فى القاهرة (جيفرسون كافرى) من التباطؤ فى المفاوضات المصرية البريطانية ومن مشاعر الغضب التى تجتاح البرلمان المصرى الذى يطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ومقاطعة بريطانيا والهجوم على السياسة الأمريكية والبريطانية فى الشرق الأوسط (هل تقرأ فى ذلك خطوطا متوازية بين تطورات اليوم فى الصراع العربى الإسرائيلى وبين ردود الفعل المصرية والعربية تجاه السياسة الأمريكية عموما) ولم تكن الولايات المتحدة تنظر بعين الرضا إلى إجراء منفرد من جانب مصر بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ولم يكن ثمة ما يهم الولايات المتحدة فى كل جوانب النزاع المصرى البريطانى سوى بقاء قاعدة قناة السويس الحيوية جاهزة ومتاحة للدفاع عن الشرق الأوسط والمصالح الأمريكية أما تحقيق المطالب القومية لمصر بجلاء القوات البريطانية فكان مطلبا ثانويا يأتى فى المرتبة التالية.

وموطن القصور فى السياسة الأمريكية تجاه مصر فى ذلك الوقت أن هدفها الأساسى ظل دائما ليس تحقيق الاستقلال التام لمصر بجلاء القوات البريطانية بل ضمان أمن الغرب شرقى البحر المتوسط وحث مصر على الانضمام لقيادة الدفاع عن الشرق الأوسط لكن مصر رفضت كل هذه المقترحات، وألغت معاهدة ١٩٣٦.

كانت قدرة السفير الأمريكى فى مصر عشية ثورة يوليو فى الحصول على المعلومات الدقيقة الموثقة قدرة فائقة، فضلا عن قدرته على قراءتها وتحليلها بدقة، وكانت الخارجية الأمريكية فى واشنطن تعلم علم اليقين بمقدمات الثورة فى مصر وقد كشفت نشاطها لمعرفة تحركات الضباط الأحرار وحاولت احتواء آثار الأزمات الداخلية والوزارية المتعاقبة ونصحت بريطانيا بعدم التدخل عسكريا أو التورط فى استخدام القوة وكان اهتمام واشنطن بتطورات الأوضاع فى مصر باتجاه قيادة الثورة مرتبطا باهتمام الولايات المتحدة باستقرار مصر وتأثيرها على أمن الغرب فى شرق البحر المتوسط وعلى المصالح

الاستراتيجية الأمريكية.

أمريكا تنفتح على ثورة يوليو

من الحقائق التاريخية الثابتة الآن بالوثائق التى كشفت عنها دار الوثائق القومية فى واشنطن تلك الظواهر الإيجابية فى ردود فعل السياسة الأمريكية تجاه قيام الثورة فى مصر، وكان السفير الأمريكى مرة أخرى دور مهم فى رفض مساعى الملك فاروق أو مساعى مرتضى المراغى وزير الداخلية لحث الولايات المتحدة على التدخل العسكرى . فضلا عن نصيحة (كافرى) الملك فاروق بالا يرتكب (عملا طائشا) عندما اتصل به يطلب إخراجه هو وأسرته من مصر فى حراسة سفينة حربية أمريكية، لكن الخارجية الأمريكية أكدت لسفيرها فى القاهرة ضرورة نصح فاروق بالا يسلك سلوكا طائشا وأن يقول له إن الولايات المتحدة لا تريد التورط، ومؤدى هذا الموقف الأمريكى عمليا أن واشنطن سعت إلى ترك الأمور أمام الثورة لتسير فى مجراها المرسوم دون تدخل من جانب الملك أو البريطانيين، وقد تزامن هذا الموقف مع بدء أولى اتصالات السفارة الأمريكية مع ضباط ثورة يوليو خاصة فى المخابرات العسكرية المصرية (مع عبدالمنعم النجار وسليمان محمود) وتأكيدهما لمسئول السفارة الأمريكية نوايا الثورة فى الداخل والخارج.

فتحت السفارة الأمريكية أبواب الاتصالات والمباحثات بينها وبين ضباط الثورة لجمع أكثر قدر من المعلومات عن الحركة واتجاهات أعضائها وتفكيرهم السياسى حتى تتمكن من إعادة تقييم سياسى متكامل للثورة فى مصر وقد انعكس ذلك فى رد فعل علنى وإيجابى صدر فى تصريح لوزير الخارجية الأمريكى عن (التطورات المشجعة) فى مصر فى الثالث من سبتمبر ١٩٥٢.

لماذا كانت التطورات فى مصر «مشجعة» فى نظر السياسة الأمريكية فى مثل هذا الوقت المبكر؟ تقول الوثائق الأمريكية إن الضباط على صبرى وزكريا محيى الدين ومحمد نجيب فى أحاديثهم مع أعضاء السفارة الأمريكية أكدوا (الطابع المعادى للشيوعية) فى الحركة، وكانت الاتصالات قبل الثورة وفى أيامها الأولى تتم عن طريق قائد الجناح على صبرى والبكباشى عبدالمنعم أمين ويؤكد أحمد حمروش فى «قصة ثورة يوليو» عام ١٩٨٢ هذه الرواية التى نشرتها الوثائق الأمريكية وإن كان «مايلزكوبلاند» فى كتابة الكلاسيكى «لعبة الأمم» الذى اعتمد عليه «حمروش» قد أشار إلى هذه الاتصالات المبكرة بالتفصيل.

كانت أولى أهداف حركة الضباط كما نقلها «عبدالمنعم النجار» إلى الضابط الأمريكى «ديفيد ايفانز» مساعد الملحق الجوى الأمريكى هى «تطهير الجيش من الفساد وطلب المعونة العسكرية من الولايات المتحدة والاشتراك فى قيادة مشتركة مع الحلفاء والقضاء على النفوذ الشيوعى وتأكيد عدم أى تدخل عسكرى ضد الثورة» وقد لعب على

صبري بصفة خاصة دورا بارزا في هذه الاتصالات المبكرة لكن مستوى الاتصالات كان يرتقي أحيانا إلى الاتصال مع محمد نجيب وكافري، الذي كان يؤكد له نجيب «الرغبة في الصداقة مع الولايات المتحدة» ورفع مستوى معيشة الشعب وتطهير الحكومة من الفساد والأحزاب السياسية وإعادة تنظيم الجيش وبرامج الإصلاح الزراعي حتى أكد له السفير الأمريكي «تعاطفه مع ضباط الحركة وتهنئته له ولزملائه على النظام وعدم العنف وانتهاج سياسة الاعتدال» وأوصى كافري واشنطن بأن تشيد بالحركة الإصلاحية في مصر فاستجابت له الخارجية الأمريكية «واعتبرت السياسة الأمريكية هذا التغيير في النظام في مصر محققا لأعظم الآمال من أجل الاستقرار وتشجيع الإصلاح الحقيقي».

هكذا كانت السياسة الأمريكية تجاه ثورة يوليو في أيامها الاولى ذات توجهات إيجابية ترى كما يقول وزير الخارجية الأمريكي «اتشيسون» إن اللحظة مواتية للولايات المتحدة للتحالف مع القوى السياسية للتغيير والإصلاح من خلال برامج التعاون أو كما يقول سفيرها في القاهرة (كافري) بتعبير من تعبيراته المجازية يجب أن تكون الولايات المتحدة هي الضمير لمصر تذكرها دائما بأن هناك في العالم مشكلات تؤثر على مستقبل مصر (ربما كان يقصد الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية ، والسلام مع إسرائيل).

أعدت الخارجية الأمريكية خلال عام ١٩٥٣ خطة إقليمية لمصر يهمنا أن نشير إلى أنها اليوم وبعد خمسين عاما تكاد تختزل جوهر السياسة الأمريكية تجاه مصر في مطلع الألفية الثالثة، قامت هذه الخطة على تطوير مواقف مصر لتسهيل التعاون مع الغرب، خلق إدراك لدى مصر بخطورة الاستعمار السوفييتي والتخريب الشيوعي وتنمية الإمكانيات الاقتصادية الاجتماعية في مصر، كل ذلك من منطلق إسهام مصر في الدفاع عن الشرق الأوسط من خلال تعاون إقليمي وتعميق إحساس مصر بقوة الولايات المتحدة، والأهم من ذلك كله ومنذ خمسين عاما تشجيع مصر على قبول إسرائيل كدولة والتأكيد بأن السلام مع إسرائيل لا يهدد مصالح مصر.

كانت السفارة الأمريكية تتابع باهتمام خاص صراع عبدالناصر ضد قوى الإخوان المسلمين وما أدى إليه هذا الصراع من مواجهات بين عبدالناصر ومحمد نجيب، ولم تكن التقديرات الأمريكية تخفي ميولها إلى ترجيح كفة عبدالناصر الذي اعتبرته «العقل الحقيقي والشرارة وراء حركة الجيش» وكانت ترى محمد نجيب «رجلا طيبا وأمينا ووطنيا مخلصا ومحبوبا لكنه كان ضعيفا».

وأدركت واشنطن منذ وقت مبكر عام ١٩٥٤ قوة شخصية عبدالناصر حتى قالت فيه «لا الرأي العام العالمي ولا حتى الرأي العام المصري يدرك مدى قدرة عبدالناصر على التخطيط والتنفيذ

لحركة الجيش وان عبدالناصر وهو ابن ٣٦ عاما كان أطول قامة وأقوى شخصية من محمد نجيب» وصفت الوثائق الأمريكية قدرة عبدالناصر فى مواجهة أزمة مارس ١٩٥٤ مع نجيب وعدد من ضباط سلاح الفرسان بأنه «رجل جسور وذكي ولا تؤثر فيه «النكسات» يعتمد على عنصرين هما العمال والجيش داخليا . فضلا عن الاتجاه العالم للحركة التى يقودها للتوصل إلى تسوية سياسية مع بريطانيا مما يفتح الباب أمام المعونة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية لمصر».

تبددت أمانى الولايات المتحدة فى ثورة يوليو وفى قائدها عبدالناصر لرفض مصر الرضوخ للشروط الأمريكية بالانضمام إلى نظام الدفاع الإقليمي عن الشرق الأوسط، ومنذ ذلك التاريخ فى نهاية عام ١٩٥٤ بدأت مرحلة بل مراحل التدهور فى العلاقات المصرية الأمريكية وصلت إلى ذروتها فى سحب عرض تمويل مشروع السد العالى فى ١٩ يوليو عام ١٩٥٦.

ولم تتوقف السياسة الأمريكية فى تنفيذ مخططاتها لإنشاء منظومة الدفاع الإقليمى الجديدة عند مصر بل مضت نحو إنشاء حلف دفاعي جديد «حلف بغداد» يضم تركيا وباكستان «ثم العراق» لإنشاء حزام شمالى أثار رد فعل شديد العنف لدى عبدالناصر أدى إلى صدام ومواجهات بينه وبين السياسة الأمريكية.. وكانت أولى نقاط الاحتكاك إنشاء هذا الحلف الجديد المرتبط بحلف الأطلنطى، ثم مشاركة مصر فى تجمع «حيادى» جديد عرف باسم «مؤتمر باندونج» مما فجر صداما بين السياسة الأمريكية التى تقوم على التحالفات العسكرية وسياسة مصر التى تدعو إلى الحياد والاستقلالية فى السياسة الخارجية لكن أخطر نقاط الصدام قاطبة كان سعى مصر الحثيث للحصول على السلاح من مصادر جديدة وتوصلها إلى اتفاقية الأسلحة التشيكية فى سبتمبر عام ١٩٥٥.

إسرائيل كعقبة

كان عبدالناصر يعارض تحالف القوى الكبرى مع القوى الصغرى مما دفع إلى المزيد من التدهور بين أمريكا ومصر فى هذه الفترة، كانت المواجهة العسكرية مع إسرائيل التى شنت هجوما مسلحا على قطاع غزة فى فبراير ١٩٥٥ كأول هجوم منذ اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٩ بزعم الرد على عمليات التسلل من القطاع وكان لهذا الحادث «٢٨ فبراير ١٩٥٥» أثره بعيد المدى على موقف مصر من السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط لرفض واشنطن المتكرر تزويدها بالسلاح مما أدى إلى أن يتخذ عبدالناصر قرارات استراتيجية لسياسة تسليح القوات المسلحة المصرية ولسياسة مصر الخارجية عموما وضعها موضع الصدام مع الولايات المتحدة .

ولم يكن أمام عبدالناصر إلا التحدى وإعلان صفقة الأسلحة التشيكية فى سبتمبر ١٩٥٥

فهاجت الإدارة الأمريكية لخشيتها من التغلغل السوفييتى ، وهاج الكونجرس وأوفدت مدير وكالة المخابرات المركزية «الان دلاس» إلى عبدالناصر ليجرى معه مقابلة تاريخية مشهورة فى أكتوبر ١٩٥٥ ليقتنع فيها عبدالناصر بالرجوع عن سياسته للتسلح من الاتحاد السوفييتى وليصر عبدالناصر على قراره ولتبدأ رحلة العد التنازلى لحرب السويس ١٩٥٦ وإن حاولت الإدارة الأمريكية الدخول من باب جديد إلى مصر هو باب المعونات الاقتصادية بعد أن فشلت فى الدخول من باب المعونات العسكرية المشروطة لكنها - مرة أخرى - أخطأت نفس الخطأ حين سحبت عرضها لتمويل مشروع السد العالى لضغوط اللوبى الصهيونى فى الكونجرس ، ولاستيائها من سياسة عبدالناصر المناهضة للأحلاف وفتحه الباب أمام النفوذ الشيوعى وتعريضه السلام للخطر فى الشرق الأوسط، كان الكونجرس الأمريكى يرى أن تسليح مصر لقواتها بأسلحة من الكتلة الشيوعية هدفه الرئيسى تهديد دولة إسرائيل الديمقراطية كما نصت على ذلك محاضر الكونجرس ومجلس النواب فى فبراير ١٩٥٦ .

★ ★ ★

ظلت قضية النزاع العربى الإسرائيلى عامة والتسوية السلمية بين مصر وإسرائيل منذ قيام يوليو هدفاً أساسياً وأولوية عالية فى السياسة الأمريكية تجاه مصر، فبذلت جهوداً من اليوم الأول لعلاج مشكلات إغلاق مصر لقناة السويس أمام الملاحة الإسرائيلية ولمشكلات الاشتباكات المتكررة عبر خطوط الهدنة على مصر وإسرائيل ١٩٥٤-١٩٥٥ بل والأهم والأخطر كما تؤكد الوثائق الأمريكية والبريطانية بذل الجهود السرية للوساطة بين مصر وإسرائيل لتحقيق تسوية سلمية عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ فأجرت مشاورات أمريكية بريطانية لإعداد خطة سرية عرفت باسم (خطة ألفا) لتحقيق التسوية بين مصر وإسرائيل وقام مبعوثون أمريكيون مثل «الور جاكسون» بمهام سرية بين عبد الناصر وبن جوريون عام ١٩٥٥ لنفس الهدف كما قام (روبرت اندرسون) بمهام سرية مماثلة بين عبد الناصر وبن جوريون أيضاً وسجل كلاهما هذا كله فى كتبه وتقاريره ومن الحقائق التاريخية الثابتة الآن بالوثائق الأصلية أن الدبلوماسية الأمريكية منذ اليوم الأول لثورة يوليو وضعت الخطط للوساطة بين مصر وإسرائيل للتوصل لتسوية سلمية خاصة بعد تصاعد التوتر فى أعقاب «اتفاق الجلاء عام ١٩٥٤» وكانت دائماً تحث أعضاء مجلس قيادة الثورة فى مصر وكذلك إسرائيل على التوصل إلى مثل هذه التسوية .

كانت (خطة ألفا) خطة شاملة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى تناولت موضوعات الحدود واللاجئين وقطاع غزة وكانت الخارجية الأمريكية قد كلفت سفيرها فى القاهرة «بايرود» بعرضها

على عبد الناصر، لكن إسرائيل لم تمهل الخطة بل شنت غارتها المعروفة على قطاع غزة عام ١٩٥٥ لتدفع بالموقف كله إلى مسار الصدام المصرى الأمريكي لا إلى مسار التسوية التى تسعى إليها الإدارة الأمريكية ولم تحرز الجهود الأمريكية السرية نتائج تذكر لا من خلال المهام السرية (الملور جاكسون) ممثل جماعة الكويكرز فى الأمم المتحدة و«روبرت اندرسون» مبعوث الإدارة الأمريكية، وذلك كما تقول الوثائق إلا أن إسرائيل رغم لهفتها للسلام مع مصر، ترفض (التنازل عن بوصة واحدة من الأرض) وكل ما تطلبه هو السلاح وفى الربع الأول من عام ١٩٥٦ كان وزير الخارجية الأمريكى «دلاس» قد كتب قراراً سلبياً عن علاقة أمريكا مع مصر بسبب نكسة جهود الوساطة الأمريكية بين مصر وإسرائيل.

مجمل القول إنه منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ كان العامل الإسرائيلى ولازال بالطبع أقوى العوامل المؤثرة فى علاقة الولايات المتحدة بمصر رغم حرص واشنطن الدائم على تسوية النزاع لكن إخفاق الجهود الأمريكية، ومواقف الكونجرس المتحيزة لإسرائيل أدى إلى تحول تدريجى فى السياسة الأمريكية تجاه ثورة يوليو ومصر منذ الربع الأول لعام ١٩٥٦ حتى حرب السويس بآثارها ونتائجها.

إن مواقف ثورة يوليو منذ يومها الأول هى مواقف رافضة للانضمام إلى منظومة الأحلاف العسكرية، ورافضة لتسوية سياسية مع إسرائيل بشروط أمريكية ثم المواقف الاستقلالية لثورة يوليو على الساحة الدولية هذه المواقف المتراكمة قد وسعت الفجوة العميقة بين النظام الجديد فى مصر وبين السياسة الأمريكية حتى اقتربت من نقطة الافتراق الحقيقى.

بناء السد العالي

ومن الناحية التاريخية كانت آمال ثورة يوليو فى بناء اقتصاد مصر معلقه على إنشاء مشروع وطنى كبير ببناء سد جديد على نهر النيل عند أسوان لزيادة الرقعة الزراعية وتوليد الطاقة الكهربائية. وكانت الإدارة الأمريكية تعلم ذلك علم اليقين وكانت تبدى اهتمامها بالمشروع منذ الأيام الأولى لثورة يوليو كما جاء فى شهادة يوجين بلاك الرئيس السابق للبنك الدولى وهى شهادة تغنى عن كل اجتهاد ففيها اعترف (بلاك) فى مذكرته إلى الرئيس ايزنهاور بإمكانية مساهمة الولايات المتحدة فى تنفيذ مشروع السد العالى وأهمية ذلك بالنسبة لمكانة أمريكا فى مصر والشرق الأوسط عموماً.

لكن «بلاك» كان يعلم أنه لابد من معالجة مشكلة الدفاع عن الشرق الأوسط وقاعدة قناة السويس، ومشكلة إسرائيل واللاجئين العرب كما وصفها بلاك فى شهادته ومذكرته إلى ايزنهاور وانه من شأن هذه المشكلات تشتيت اهتمام الشعب المصرى عن معالجة مشكلاته الاقتصادية

والاجتماعية الخطيرة، وانه لا يتوقع للنظام فى مصر محاولة تسوية هذه المشكلات الدولية دون أن تتوافر له قاعدة داخلية قوية تستند إلى سياسة اقتصادية ترفع مستوى الشعب فى مصر، وهذه السياسة الاقتصادية تتكلف أموالاً باهظة.

يسجل التاريخ أن عبد الناصر كان قد قبل العرض الأمريكى لتمويل السد العالى لكنه كان يعرف تماماً أبعاد المعركة الضارية التى تدور فى أروقة الكونجرس وفى الإدارة الأمريكية رغم أن السفير الأمريكى فى مصر فى ذلك الوقت (هنرى بايرود) حذر واشنطن من ذلك التردد الذى قد يدفع مصر إلى اللجوء إلى السوفييت كما فعلت فى صفقة الأسلحة، لكن جون فوستر دلاس كان قد اتخذ قراره بسحب العرض الأمريكى لتمويل مشروع السد فى ١٦ يوليو ١٩٥٦ فى اجتماع مهم سجلته وثائق الخارجية الأمريكية التى قيل فيها إن عبد الناصر كان يصر على رفض الشروط الأمريكية باعتبارها «تدخلاً فى شئون مصر الداخلية» ولكن الثابت أن موقف الكونجرس الذى كان شديد العداء لعبد الناصر كما سبق القول كان هو العامل الحاسم فى سحب عرض التمويل الذى أبلغه دالاس للدكتور/ أحمد حسين سفير مصر فى واشنطن فى اجتماع تاريخى مشهود فى ١٩ يوليو ١٩٥٦، كان هو المقدمة المباشرة لقرار تأميم قناة السويس بعد أسبوع من القرار الأمريكى وذلك فى السادس والعشرين من يوليو، وكان بمثابة رفع الستار عن أحداث درامية متلاحقة وصلت إلى حرب أو بتعبير أدق عدوان ثلاثى مسلح بدأته إسرائيل فى التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦.

والسؤال المطروح مرة أخرى هل أخطأت السياسة الأمريكية بسحبها عرض تمويل مشروع بناء السد العالى ثم أخطأت مرة ثانية فى قياس رد فعل عبد الناصر الذى تمثل فى تأميم شركة قناة السويس وتفجير أزمة السويس؟ كان ذلك القرار الخاطئ نقطة الذروة فى تغير اتجاهات السياسة الأمريكية نحو مصر وربما كانت شهادة «وليام فولبرايت» رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى من أفضل الشهادات لتأكيد هذا الخطأ الأمريكى بمثلما تؤكدها رواية روبرت ميرفى وكيل الخارجية فى كتابه (دبلوماسى وسط المحاربين).

ولعل مثل هذا الخطأ الأمريكى فى التقدير والتنبؤ يمثل نموذجاً على أخطاء مماثلة فى تقديرات السياسة الأمريكية نحو مصر فى سنوات لاحقة دفعت بعلاقات واشنطن والقاهرة إلى نقاط الصدام والمواجهة التى طغت على علاقات أمريكا بثورة يوليو سنوات عبد الناصر وامتدت إلى ما وراءها ولكن فى سياق تاريخى ودولى مختلف.

حاولت الدبلوماسية الأمريكية عبر مشاورات محمومة مع بريطانيا وفرنسا أن تمارس ضغوطاً دولية على عبد الناصر من خلال عقد مؤتمر لندن

في أغسطس ثم في سبتمبر ١٩٥٦ وبإيفاد رئيس وزراء استراليا إلى عبد الناصر حاملاً إنذاراً رفضه عبد الناصر وحاولت من خلال مجلس الأمن تكثيف الضغط وكانت واشنطن تتشكك في نوايا حليفتيهما بريطانيا وفرنسا بالسعي لاستخدام القوة ضد مصر وكانت تعلم دوافعها للتخلص من عبد الناصر، فرنسا لحربها في شمال أفريقيا ودعم عبد الناصر لثوار الجزائر، وبريطانيا لرغبة رئيس وزرائها في كبح جماح عبد الناصر.

أجل كانت واشنطن تعلم نوايا وخطط بريطانيا وفرنسا للتدخل العسكري ضد مصر، وكانت تعلم باحتمالات تحرك إسرائيل. والوثائق الأمريكية تسجل أن الدبلوماسية الأمريكية رغم كل معارضتها لعبد الناصر وقراره بتأميم قناة السويس كانت تحاول بشتى السبل إقناع البريطانيين بعدم اللجوء لخيار استخدام القوة، كما لو كانت في سباق مع الزمن قبل الانتخابات الأمريكية الرئاسية الوشيكة في نوفمبر من العام نفسه.

أمريكا وحرب السويس:

الموقف الأمريكي من حرب السويس يمثل مادة من أغزر المواد التاريخية التي سجلت في علاقات أمريكا بثورة يوليو وليس المجال بالطبع إعادة قراءة هذه المواد التي تملأ دور الوثائق في العواصم لندن وواشنطن وباريس وموسكو وتل أبيب والقاهرة.

وصف ايزنهاور سياسة أمريكا تجاه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر بقوله «أنا لا أؤمن بأن الحرب هي العلاج للمشكلات في الشرق الأوسط الذي وقعت فيه مظالم عدة على كل الأطراف ولا يمكن أن نقبل قانوناً للضعفاء وقانوناً للأقوياء لمن يعارضنا وقانوناً لمن يتحالف معنا، فليس هناك إلا قانون واحد هو ميثاق الأمم المتحدة» فهل حافظت السياسة الأمريكية بعد حرب السويس على هذا القول التاريخي للرئيس ايزنهاور؟

لكن الفكر الاستراتيجي تجاه الشرق الأوسط وليس تجاه مصر وحدها بعد حرب السويس طرأت عليه تحولات جذرية فقد طرح إيزنهاور عقيدة استراتيجية جديدة لملأ ما أسماه (بالفراغ في الشرق الأوسط) بعد هزيمة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في حرب السويس ضد عبد الناصر وثورة يوليو، وطرح المبدأ الذي عرف بمبدأ ايزنهاور لملأ الفراغ التي خلفته آثار حرب السويس لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة والتفاعل الساخن بين السياسة الأمريكية وثورة يوليو في العقد التالي ١٩٥٧ - ١٩٦٧.

المواجهة

حاولت السياسة الأمريكية في عهد الرئيس جون كيندي فتح الحوار من جديد مع مصر في رسائل تاريخية متبادلة بين كيندي وعبد الناصر في ٢٧ مايو ١٩٦٢ في ذروة الفوران والغليان في

البلدان العربية وفي ذروة المد القومي العربي وتوقعات حدوث انقلاب لصالح أنصار القومية العربية في الأردن واحتمالات نشوب حرب عربية إسرائيلية بعث كيندى إلى عبد الناصر برسالة ليس بوصفه رئيساً للجمهورية العربية المتحدة فقط بل بوصفه أقوى وأهم الزعماء العرب كما تقول التقارير الأمريكية يؤكد فيها «أن التزام واشنطن بأمن إسرائيل لا يحول دون تطور العلاقات الأمريكية مع الجمهورية العربية المتحدة» وقال كيندى «وأرجو ألا يحول مثل هذا الالتزام الأمريكى تجاه إسرائيل تطور العلاقات فيما بيننا».

لكن (الناصرية) أو (الفكر الناصرى) القائم على دعامتين الفكر القومي العربي من ناحية، والأخذ بالنهج الاشتراكى من ناحية أخرى جعل عبد الناصر، ومصر وثورة يوليو كلها لا تشكل فى منظور السياسة الأمريكية مصدر خطر لإسرائيل فقط بل للدول العربية مثل الأردن وإمارات الخليج والسعودية فى ذلك الوقت (١٩٦٣) كما تقول التقارير الأمريكية خاصة وأن هذه السنوات الأولى فى عقد الستينيات شهدت تطور التعاون العسكرى الوثيق بين إسرائيل والإدارة الأمريكية منذ بداية عهد كيندى عام (١٩٦٢) واستمراراً فى عهد «جونسون» بل إن الوثائق الأمريكية الحديثة تقول إن بذور التحالف العسكرى والاستراتيجى الأمريكي الإسرائيلى قد غرست فى غمرة الاتصالات التى كانت تجريها إدارة الرئيس كيندى مع عبد الناصر وبن جوريون، وبينما أغلقت إدارة كيندى الباب فى وجه عبد الناصر كما تقول الوثائق الأمريكية فُتحت على مصراعيها أمام إسرائيل لتخطو الخطوات الأولى نحو حرب ١٩٦٧ ضد مصر عبد الناصر ويوليو رغم تجديد الحوار عام ١٩٦٤ وتبادل المراسلات بين عبد الناصر وجونسون والذى كان همه الأول «تحذير عبد الناصر من الحصول على أسلحة الدمار الشامل والابتعاد عن الصراع النووى فى الشرق الأوسط» كما جاء فى رسالته إلى عبد الناصر فى أغسطس ١٩٦٤ .

أيدت السياسة الأمريكية فى هذا العقد بعد حرب السويس النظم الملكية فى السعودية وفى الأردن، وكذلك حكومة لبنان بهدف احتواء النفوذ المصرى فى الشرق الأوسط والوقوف أمام المد القومى العربى الذى أطلقته سياسة عبد الناصر العربية.

وكانت نقطة مهمة من نقاط الصدام الأمريكى المصرى، توجه الأحزاب فى سوريا عام ١٩٥٨ إلى عبد الناصر لتحقيقه الوحدة بين سوريا ومصر والتى أطلقت تيارات القومية العربية بكل قوتها فى معارضته السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط حتى سقوط هذه الوحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١.

أما نقطة الصدام الثانية كذلك كانت بُعداً آخر من سياسة عبد الناصر العربية حين تدخل عبد

الناصر عسكرياً فى اليمن بعد ثورته على النظام الملكى عام ١٩٦٢ مما عمق الشكوك والتوتر بين مصر والسعودية والسياسة الأمريكية بشكل عام فى شبه الجزيرة العربية.

ولعل سياسة عبد الناصر العربية تجاه الأردن ثم سوريا والانقلاب العسكرى فى العراق ثم الانفصال عن سوريا، والتدخل العسكرى فى اليمن كانت تشكل بمراحلها وتقلباتها وكل عنفوانها مشاهد مثيرة من المصادمات السياسية الحادة بين أمريكا وسياسة ثورة يوليو العربية عبر السنوات الأولى من عقد الستينيات.

أمريكا وحرب ١٩٦٧

تدهورت العلاقات المصرية الأمريكية تدهوراً مطرداً ما بين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٧ ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى التدخل العسكرى المصرى فى اليمن وإلى التوترات العربية الإسرائيلية خاصة عام ١٩٦٦ بعد إغارة إسرائيل على قرية السموع فى الأردن والمعركة الجوية بين إسرائيل وسوريا أبريل عام ١٩٦٧ وتعكس تقارير السفير الأمريكى لوشيوس باتل إلى الخارجية الأمريكية قلقه من إقدام عبد الناصر على مغامرة عسكرية مثل تسخين الصراع العربى الإسرائيلى (أزمة مايو ١٩٦٧ والتوترات على الحدود السورية الإسرائيلية).

ليس المقام هو العودة للحديث عن مقدمات حرب يونيو ١٩٦٧ لكن الثابت تاريخيا اليوم أنها وقد وقعت كان الرئيس الأمريكى جونسون قد ترك إسرائيل تتصرف كما تريد أو كما تراه ملائماً ولو إلى حد المضى إلى الحرب «كما يقول وليام كوانت» فى كتابه عن النزاع العربى الإسرائيلى منذ عام ١٩٦٧.

فى الشهور بل الأسابيع والأيام القليلة السابقة على حرب ١٩٦٧ زار واشنطن وزير خارجية إسرائيل «ابا أيبان» وقابل الرئيس جونسون، وزارها (مائير أميت) رئيس الموساد - المخابرات الإسرائيلية - قبل الحرب بأربعة أيام (٣١ مايو ١٩٦٧) للتأكد من موقف الرئيس جونسون، وكانت المخابرات المركزية تعرف تماماً أن إسرائيل على وشك بدء القتال (مقابلات مدير الموساد أميت مع هلمز مدير وكالة المخابرات المركزية).

لم يكن الرئيس الأمريكى «جونسون» صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ بحاجة إلى الشعور بالدهشة عندما استيقظ فى الصباح لإبلاغه بأن الحرب قد بدأت ويقول (كوانت) إن جونسون أعطى (ضوءا أصفر) لإسرائيل، ولكن أى قائد سيارة (ويقصد هنا إسرائيل) يمكن أن يعتبر الضوء الأصفر ضوءا أخضر لبدء شن الحرب على مصر.

بعد نشوب حرب ١٩٦٧ لم يعد الشرق الأوسط، ولا العلاقات المصرية الأمريكية بعد هذا التاريخ أبداً كما كانت عليه قبل الخامس من يونيو، ودخلت علاقة أمريكا بمصر وبالمنطقة العربية كلها وبالصراع العربى الإسرائيلى فى مرحلة جديدة

ولم يوجه الرئيس الأمريكى «جونسون» لإسرائيل (لوماً) لأنها بدأت الحرب واكتفى بالإعراب عن (خيبة الأمل) لكنه حتى وإن كان متشككا فى هواجسه بشأن بدء إسرائيل الحرب عام ١٩٦٧ فقد تحول إلى أشد المؤيدين لها بمجرد بدء القتال ويقول «وليام كوانت» بكل صراحة ووضوح «لم يكن من الممكن أن يمنع إسرائيل من استخدام القوة (ضد مصر) إلا التزام أمريكى مبكر لكن هذا ما لم يكن جونسون قادراً عليه».

خيارات السلام

فى عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة اتخذت السياسة الأمريكية مواقف لم تكن لتؤدى إلى انسحاب إسرائيل من الأراضى التى استولت عليها عام ١٩٦٧ فخاضت مصر فى عصر السادات حرب ١٩٧٣ إبان إدارة الرئيس نيكسون ووزير خارجيته «كيسنجر»، وقلب الرئيس السادات بذلك كل المعادلات الدولية والإقليمية بحرب ٧٣ ثم بمبادرة السلام فى أكتوبر ١٩٧٧ لتبدأ مسيرة طويلة وشاقة نحو السلام انضمت إليها منظمة التحرير الفلسطينية ثم سوريا والأردن وكذلك معظم الدول العربية منذ مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ولأول مرة منذ أكثر من خمسين عاما من العلاقات المصرية الأمريكية أو العربية الأمريكية لم يعد السلام مع إسرائيل حلماً بعيد المنال لكنه اليوم فى منتصف عام ٢٠٠٢ يبدو أن تحقيق هذا الحلم يزداد بعداً وصعوبة وسيظل مرهوناً ليس فقط بنوايا الدول العربية أو بمبادرات السلام العربية بل سيظل مرهوناً وبنفس القدر والميزان بمصداقية النوايا الإسرائيلية، وحقيقة الأهداف والسياسة الإسرائيلية وطبيعة الدور والشراكة وطبيعة الوساطة الأمريكية فى عملية السلام وجوهر ومحتوى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية فى المستقبل المنظور وغير المنظور.

دفعت ثورة يوليو فى عهد عبد الناصر ثمناً باهظاً لسياستها العربية قبل حرب ١٩٦٧ فاصطدمت ثورة يوليو بالسياسة الأمريكية عقوداً طويلة بسبب خيارها العربى، ثم تلاقت مع السياسة الأمريكية على مساحات عريضة من العمل من خلال خيارها من أجل السلام الذى بدأه الرئيس السادات وسار على دربه الرئيس مبارك.

فهل انتهى التناقض بين السياسة المصرية - سياسة ثورة يوليو العربية - والسياسة الأمريكية بعد خمسين عاما على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أم أن خيار مصر العربى سيظل هو تلك الصخرة، التى ستظل تعمل دوائر معروفة ونشطة فى السياسة الأمريكية على إزاحتها بعيداً من أمام طريقها للانفراد بعلاقات استراتيجية بين إسرائيل والولايات المتحدة، قد يكون الثمن لها دائماً علاقات مستقرة ونامية بين مصر وأمريكا أو بين الدول العربية والولايات المتحدة فى إطار شرق أوسط يسوده السلام والعدل والأمن والاستقرار للجميع دون استثناء. ■

مصر وأمريكا

عبدالناصر

وقضية الصّلح

بقلم : د.عبدالعظيم أنيس*

طلب منى رئيس التحرير أن أكتب شيئا عن ثورة يوليو بمناسبة اقتراب موعد هذه الذكرى ترك لى أن أختار الزاوية التى أتناول منها هذه الثورة، وبعد تفكير استقر رأيى على أن أتناول على وجه التحديد مسألة الجهود التى بذلت من الغرب لدفع عبدالناصر إلى الصلح مع إسرائيل خصوصا فى السنوات الأولى للثورة ، وقد استمرت هذه الجهود إلى وقت زيارة وزير الخزانة الأمريكى - أندرسون - للقاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ الذى جاء يعرض على مصر مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل .

وسبب اهتمامى بهذا الجانب اليوم ينقسم إلى شقين ؛ الشق الأول هو أن هذه القضية حية اليوم فى ضوء المفاوضات والعثرات بين العرب واسرائيل فى واشنطن ، ووصول جولات المفاوضات فى هذا المضمار إلى عشر جولات .

* الهلال يوليو ١٩٩٣ .



موسى شاريت



ابيا ابيان

أما الشق الثاني فهو تاريخي في حقيقة الأمر، فهذا الجانب - ثورة يوليو وقضية الصلح - لايعرف عنه غالبية الناس شيئا ، وقلما تجد حتى بين المثقفين من اهتم ببحث هذه القضية . وهناك عدد من الكتب التى تناولت فى السنوات الأخيرة هذه القضية وفى مقدمتها كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل ، خصوصا كتاب «ملفات السويس» بالإضافة إلى بعض الكتب الأمريكية ومنها الكتاب القديم «لعبة الأمم» لمؤلفه ضابط المخابرات السابق مايلز كوبلاند . إلا أن مثل هذه الكتب والوثائق المصاحبة لبعضها (كتب هيكل على وجه الخصوص) غير متيسرة لغالبية الناس وقد يكون من المفيد التعرض للموضوع فى مقال واحد .

قبل وقوع ثورة يوليو -وفقا لرواية كوبلاند - عاد كيرميت روزفلت (مسئول المخابرات الأمريكية فى الشرق الأوسط) إلى واشنطن بعد زيارة القاهرة وقدم لوزير الخارجية الأمريكى تقريرا عن الأوضاع فى مصر ملخصه ما يلى : أن الثورة الشعبية المتوقعة فى دوائر الخارجية، والتى يسعى إليها الشيوعيون والاخوان ليست مطروحة ، وأنه لا توجد طريقة لإبعاد الجيش عن التحرك ، وأن الضباط الذين يرجح أن يقودوا الانقلاب على نظام فاروق لهم دوافع سياسية ، وأن على الولايات المتحدة أن تقبل إزاحة الملك فاروق وربما نهاية

الملكية ، وأنه إذا كان لا مفر من عدو لايخاف من هذا الانقلاب فهي الطبقات العليا في مصر والانجليز وليس إسرائيل .

أمريكا ومساع للصلح مع إسرائيل

وكان هذا التقرير هو أول إشارة في التقرير الأمريكي إلى أن الثورة قد لا تكون معادية تماما لإسرائيل . وبعد الثورة وبالتحديد في سبتمبر سنة ١٩٥٢ أعدت – وفق رواية هيكل في «ملفات السويس» – مذكرة «تقدير موقف» في الخارجية الأمريكية تتضمن تأكيد أهمية تأييد النظام ماديا ومعنويا بهدف تحقيق أهداف الغرب وخصوصا الصلح مع إسرائيل ، وتشير المذكرة إلى أهمية أن يصدر النظام تصريحا علنيا في وقت ما يعلن فيه نواياه غير العدوانية تجاه إسرائيل ..

ولسنا نعلم شيئا عن الأسس التي جعلت رجال المخابرات الأمريكية يتوقعون أن يكون موقف ثورة يوليو «مرنا» في قضية الصلح . فربما يكون قد جرى نقاش بين هؤلاء وبين بعض الضباط الأحرار وخرجوا بهذا الانطباع من النقاش . ومن المؤكد أن هذا الموقف كان موجودا في أوساط عدد من الضباط الأحرار ، فأنا مثلا أتذكر خطابا غريبا لصلاح سالم في المحلة – عام ١٩٥٣ تحدث فيه عن الصلح مع إسرائيل بشكل صريح وكان محل اندهاش العديد من المثقفين .

وفي أول زيارة لكيرميت روزفلت بعد الثورة في أكتوبر سنة ١٩٥٢ وفي حفل العشاء الذي أقيم في منزل الوزير المفوض الأمريكي ، وحضره عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وعبدالمنعم أمين أثير موضوع الصلح مع إسرائيل من جديد . ثم جاءت زيارة ريتشارد كروسمان – النائب العمالي والوزير البريطاني السابق – في ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وكان هدف الزيارة الصريح سؤال عبدالناصر : «ماذا تنوي أن تفعل مع إسرائيل ؟» وهو نفس السؤال الذي وجهه أينشتين لهيكل عندما قابله في بريستون بعد ذلك بسنوات .

ولم تكن زيارة كروسمان مجرد مبادرة شخصية ، فالثابت أنه طار بعد مقابلة عبدالناصر إلى «تل أبيب» وقابل بن جوريون ، ثم عاد إلى القاهرة بعد أسبوع يطلب مقابلة عبدالناصر مرة ثانية ، وعندما تم اللقاء عرض عليه اقتراحا إسرائيليا باجتماع مشترك للاثنين في أي مكان في العالم سرا أو علنا .

وفي كل عمليات «جس النبض» هذه للنظام الجديد كان خط دفاع عبدالناصر هو أن موضوع إسرائيل لايقع في سلم أولوياته ، وأن هذه القضية

على أى حال تخص الدول العربية مجتمعة لا مصر وحدها ، وبالتالى لاتستطيع مصر أن تبت فيها وحدها . أما سلم أولويات الثورة فهو جلاء الانجليز والتنمية . ولقد ظل هذا هو موقف عبدالناصر حتى عندما بدأت مرحلة المفاوضات مع بريطانيا للجلاء عبر قناة السويس ويذكر هيكل فى كتاب «ملفات السويس» أنه عندما بدأت هذه المفاوضات أرسل رئيس الوزراء الإسرائيلى - موسى شاريت - مبادرات مستقلة مع رسل كثيرين باقتراح لقاء مفاوضات مباشرة ، وكان رد عبدالناصر على هؤلاء الرسل هو أن موضوع إسرائيل مؤجل بالنسبة له وأن مشكلة فلسطين هى مشكلة جماعية عربية .

ثم جاءت زيارة وزير الخارجية الأمريكى دالاس لمصر فى مايو سنة ١٩٥٣ ، وكان دالاس قد قابل السفير الإسرائيلى فى واشنطن أبا إيبان قبل سفره إلى القاهرة واعترف له فى هذا اللقاء أن خبراء الخارجية نصحوه بعدم فتح موضوع الصلح مع إسرائيل فى زيارته الأولى لمصر ، فرد «أبا إيبان» قائلا : «إنها نصيحة تفوح منها رائحة البترول» .

لكن دالاس لم يأخذ بوجهة نظر خبرائه وأثار موضوع الصلح على مائدة العشاء فى منزل السفير كافرى - وكان عبدالناصر وعامر من حضور هذا العشاء - بإلحاح وقال إن السلام مع إسرائيل هو من طبيعة الأمور ، وإن الإسرائيليين ساميون مثل العرب وأولاد عمومتهم وإن الخطر الحقيقى هو الشيوعية وليس إسرائيل ووفق رواية هيكل اضطر عبدالناصر إلى الرد على بعض هذه الادعاءات مفندا ، وعندما سأله دالاس : «هل يعنى هذا الرد استحالة السلام مع إسرائيل» لجأ عبدالناصر إلى رده التقليدى وهو أن إسرائيل ليست شاغله اليوم !

إسرائيل ضد جلاء بريطانيا

وعندما بدأت مفاوضات الجلاء مع الانجليز كان عبدالناصر يدرك أن إسرائيل ستكون فى مقدمة المعارضين لجلاء القوات البريطانية عن القناة ، لذا حاول عبدالناصر تطمين إسرائيل بأنه بعد جلاء الانجليز يمكن حل مشكلة الصلح بينها وبين العرب ، ويحكى خالد محيى الدين فى كتاب (شهود ثورة يوليو) أنه خلال إقامته فى الخارج بعد أزمة مارس سنة ١٩٥٤ علم أن هناك اتصالات سرية مع إسرائيل يقوم بها عبدالرحمن صادق - الملحق الصحفى بسفارتنا بباريس - بهذا الهدف ، وحتى لا تتأخر مفاوضات الجلاء .

لكن إسرائيل كانت لا تريد تنفيذ اتفاقية جلاء

بريطانيا عن مصر دون اتفاق صلح مع إسرائيل وعندما وقعت اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ كانت إسرائيل قد بدأت تفقد الأمل فى أن ينحاز عبد الناصر إلى صف التفاهم والصلح مع إسرائيل ، وثبت لها خطأ تقديرات المخابرات الأمريكية فى هذا الصدد ، ومن هنا بدأت تحرك عملاءها فى القاهرة والإسكندرية فى عمليات تخريب واسعة النطاق بالقنابل بأمل إضعاف مركز النظام فى مصر وإثبات عجزه ، وهو الأمر الذى عرف بعد ذلك بـ «فضيحة لافون» بعد أن قبضت السلطات المصرية على الفاعلين وقدمتهم للمحاكمة.

ولقد كان الهدف الأساسى من عمليات التخريب هذه الإساءة إلى اتفاقية الجلاء وإلى العلاقات المصرية الأمريكية ، وفى فبراير سنة ١٩٥٥ بدأت عمليات الاستفزاز ضد الجيش المصرى فى قطاع غزة بالغارة الإسرائيلية الأولى التى قتل فيها العشرات من الجنود والضباط المصريين ، وكان الهدف من هذه العملية إثبات عجز النظام محليا وعربيا خصوصا أن الغرب قد رفض أن يعطى عبدالناصر السلاح الذى كان قد طلبه لتسليح الجيش .

ولقد كانت هذه الأعمال الاستفزازية من جانب إسرائيل تعنى أن إسرائيل بعد أن فقدت الأمل من التفاهم مع عبدالناصر قد قررت أن تلجأ إلى استفزازه ، لكن لم يكن هذا هو موقف الجانب الأمريكى بالدقة حتى مع بداية طريق باندونج فعندما كان عبدالناصر على وشك الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية ، حاول كيرميت روزفلت إقناع عبدالناصر بأن يتضمن إعلانه فقرة تستهدف تطمين إسرائيل على أمنها ووافق عبدالناصر لكنه رفع الفقرة بعد ذلك من خطابه .

ثم جاءت زيارة وزير الخزانة الأمريكى - أندرسون - فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ بعد صفقة الأسلحة التشيكية ، وجرت آخر محاولة لمحاصرة قيادة الثورة فى موضوع الصلح مع إسرائيل فقد بدأ أندرسون أول اجتماع له مع عبدالناصر بسؤاله عن فرص السلام مع إسرائيل . وكان عبدالناصر قد بدأ يتخلى عن خط دفاعه القديم فى المسألة الإسرائيلية عندما كان يقول إنها ليست من أولى أولوياته وإنما مشكلة عربية وليست مصرية . لقد تخلى عبدالناصر عن هذا القول لأنه لم يعد مقنعا ، فاستبدل به خط دفاع ثانيا بمناسبة الأزمة التي أثارها اقتراح اشتراك إسرائيل فى مؤتمر باندونج باعتبارها دولة اسيوية . لقد كان هذا هو رأى «أونو» رئيس بورما إحدى الدول الخمس التى وجهت الدعوة إلى المؤتمر وأرسل عبدالناصر رسالة إلى «أونو» يقول فيها لأول مرة إن العرب

على استعداد لقبول مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين فإذا قبلته إسرائيل فإن الطريق يكون ممهدا لاشتراكنا فى باندونج . وبالطبع لم تقبل إسرائيل المشروع ولم تشترك فى باندونج .

عبدالناصر ورفض المفاوضات

والآن نعود إلى زيارة أندرسون وسؤاله لعبدالناصر الذى أعاد موقفه الذى اتخذه فى باندونج وهو قبول مشروع التقسيم .

وطار أندرسون إلى تل أبيب للتداول مع بن جوريون ، وعاد مرة أخرى بعد أسبوع يحمل اقتراح بن جوريون بمفاوضات مباشرة فى أى مكان علنا أو سرا .. ورفض عبدالناصر .

ثم سافر أندرسون إلى واشنطن لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أسرته والتشاور مع حكومته ، ثم عاد إلى القاهرة يحمل معه اقتراحا أمريكيا مؤداه أن واشنطن مستعدة لأن تتقدم إلى الطرفين المصرى والإسرائيلى بمشروعات حلول تفصيلية يوقعها الطرفان دون لقاء بينهما ، ثم تتاح فرصة اللقاء بعد التوقيع . وحمل أندرسون معه إلى القاهرة ملفا يحتوى على ثلاثة مشروعات رسائل : إحداهما موجهة من عبدالناصر إلى إيزنهاور ، والأخرى تتضمن مبادىء التسوية مع إسرائيل كما تراها مصر ، والثالثة موجهة من عبدالناصر إلى البنك الدولى يوافق فيها على إشراف البنك على موارد مصر المالية وأوجه صرفها خلال سنوات تنفيذ مشروع السد .

وبعد مداولات متصلة انهارت المفاوضات التى عرفت تاريخيا باسم «مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل» ورفض عبدالناصر الصفقة وشروطها . وسافر أندرسون غاضبا واستعد دالاس لإعلان رفض أمريكا تمويل مشروع السد العالى على نحو ما هو معروف .

يحكى هيكل فى كتاب «ملفات السويس» أنه قد عقد اجتماع فى المخابرات الأمريكية حضره جيمس إنجلتون وكيرميت روزفلت وفرانسيس راسل وريمون هير فى أوائل ١٩٥٦، لمناقشة الموقف من عبدالناصر بعد باندونج وصفقة الأسلحة التشيكية ورفضه مقايضة السد العالى بالصلح مع إسرائيل . وفى هذا الاجتماع اقترح إنجلتون إطلاق إسرائيل ضد مصر . لكن روزفلت قال فى الاجتماع «إن أسلوب الانقلاب على عبدالناصر لا يصلح فى مصر ، وإنه ليست هناك وسيلة للخلاص منه إلا إذا تقرر اغتياله» .

ولقد حاولت المخابرات البريطانية تدبير هذا الاغتيال بعد هذا الاجتماع ، وعندما فشل هذا التدبير بدأ الاستعداد للعدوان الثلاثى . لكن تلك قصة أخرى .

■

مابين أهل الثورة وسلاطين الطرب

بقلم : د. نبيل حنفي محمود

تسجل

لنا كتب التاريخ دوماً علاقة ذات اتجاهين فيما بين أهل السلطة وأهل الغناء، في الاتجاه الأول تأخذ العلاقة صورة استمتاع أهل السلطة بما حبا الله به أهل الغناء من موهبة وبريق، وفى الاتجاه الآخر تبدو العلاقة وكأنها طمع أهل الغناء فى ذهب السلطة وحمايتها، إن كتب التاريخ تفيض بعشرات الحكايات التى تؤكد على أزدواجية اتجاه هذه العلاقة.

حفل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالوقائع والمواقف والحكايات التى جمعت بين قادة الثورة والعديد من أهل الغناء، ومما هو جدير بالذكر هنا أن اقتصار البحث على الرؤساء الثلاثة الأول فى حقبة الثورة .. يرجع إلى عديد من الاعتبارات ، منها أن ما عاصره الثلاثة من أحداث ارتبط بشكل أو بآخر بالغناء، أو لأن الثلاثة كانوا من مجموعة القيادة التى خرجت على رأس طلائع الثورة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ، وهو مايعنى سبق انتمائهم إلى الثورة .

محمد نجيب

وضع محمد نجيب (١٩٠١ - ١٩٨٤م) منذ الشهور الأولى للثورة الأسس التى يرى النظام الجديد أن يقوم الفن عليها فى عهد الثورة، جاء ذلك فى مقالة حملت توقيع الرئيس اللواء بالصفحة الثالثة من العدد رقم (٦٧) من مجلة «الكواكب»



عبد الناصر يسلم أم كلثوم وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى

الصادر في ١١/١١/ ١٩٥٢ ، كانت المقالة بعنوان «رسالة الفن» وبدأها نجيب بقوله : «يمكن القول إن الفن عندنا، كان إلى ماقبل يوم ٢٣ يوليه - وربما حتى الآن - صورة للعهد الذي قامت نهضتنا للقضاء عليه .. كانت الميوعة، والخلاعة - إلا في القليل النادر - هي سمات المسرح، والسينما ، والغناء». هكذا جاء أول رئيس لمصر في عهد الثورة بفكر جديد للغناء ، ويرى هو - وبالطبع النظام الجديد - أنه الأجدر بأن يتبع، وهو مايعكس مدى اهتمام النظام القادم إلى الحكم منذ أيام قليلة بالغناء وبما يمكن أن يسهم به في تحقيق سياسات النظام.

قرن محمد نجيب القول بالفعل ، ولتكون المرة الأولى في تاريخ مصر بالقرن العشرين الميلادي المنصرم التي يحضر فيها رأس النظام الحفلات الغنائية ويجيء مجلسه فيها بين الجماهير، في تلك الحفلات التي حضرها نجيب .. سقطت الحواجز القديمة التي كانت تفصل بين الملك وبين أهل الغناء وعامة الشعب في الحفلات الملكية، غنت أم كلثوم قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» في بداية الوصلة، والقصيدة هي العمل الوحيد الذي شدت به أم كلثوم من شعر حافظ إبراهيم وكانت من تلحين رياض السنباطي وقدمتها أم كلثوم في موسمها الغنائي ١٩٥٠ - ١٩٥١ (حنفي المحلاوي : شعراء أم كلثوم - ص١٠٧ : ١١١) ، ثم أتبعت أم كلثوم القصيدة الأولى بالقصيدة الثانية وهي قصيدة «صوت الوطن» التي سجلتها بالإذاعة في مطلع الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر ١٩٥٢ (الإذاعة المصرية: العدد٩١٧ - ١١/١٠/١٩٥٢)، ولقد أذيعت «صوت الوطن» للمرة الأولى من الإذاعة في سهرة يوم الأحد ١٩ /١٠/١٩٥٢ (الإذاعة المصرية : العدد ٩١٨- ١٨/١٠/ ١٩٥٢)، وتصف مجلة «الكواكب» غناء أم كلثوم أمام محمد نجيب في حفل الخميس ٣١ أكتوبر ١٩٥٢ فتقول: «ولأول مرة تصدح مطربة الشرق في جو حر ، وانطلقت تغني(مصر تتحدث عن نفسها) في وصلتها الثانية.. فاستمع كل مصري إلى أمانيه القومية ، وهتف الجميع من قلوبهم مشتركين مع أم كلثوم في إلقاء نشيدها الحماسي، وبعد ذلك علا (صوت الوطن) يتردد على كل لسان في كلام عذب ومعان سامية ، واستمرت أم كلثوم في غنائها حتى بدأت في إلقاء كلمات العهد الجديد التي صاغها رامي وصور بها شعور كل

فرد فى هـذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصـر، مصر التى فى خاطرى وفى فمى، وانتهت أم كلثوم بعد أن قادت مظاهرة حماسية أسمعت العالم أجمع والشرق خاصة صوت مصر وصوت الوطن» ، ومما هو جدير بالذكر هنا .. أن تسجيل قصيدة «صوت الوطن» التى شدت بها أم كلثوم فى هذا الحفل قد قدم فى إحدى حلقات برنامج «ألحان زمان» من إذاعة البرنامج العام بالإذاعة المصرية قبل قليل من السنوات، أيضاً ... فإن مابذلته أم كلثوم من جهد فى هذا الحفل – الذى تزامن مع بداية مشاكلها الصحية مع الغدة الدراقية – قد أصابها ليلتها بأزمة صحية، وهو ماترتب عليه استدعاء اثنين من الأطباء – بعد فراغ أم كلثوم من أداء القصيدتين – لمتابعة حالتها الصحية ..

كانت المطربة ليلى مراد تجوب أوروبا كعادة الكثير من أهل الفن عندما يسافرون لقضاء الصيف فى المصايف الأوروبية الشهيرة، ولسبب لايعرفه أحد ومن مكان مجهول ... انطلقت إشاعة ثلاثية وذات ثلاث شعب لتصيب الفنانة حيث كانت تقيم بباريس آنذاك، قالت الإشاعة : إن ليلى مراد زارت إسرائيل وتبرعت لها بمبلغ خمسين ألف من الجنيهات وإنها توفيت – أى ليلى – بباريس إثر صدمة سيارة بعد عودتها من إسرائيل ، فزعت ليلى مراد عندما وصلت إلى أسماعها الإشاعة، فتركت باريس على عجل وقفلت عائدة إلى القاهرة لتضع نفسها رهن طلب الحكومة المصرية ولتثبت كذب هذه الإشاعة ، ويقول محرر الموضوع الذى نشر عن هذه الإشاعة بالعدد رقم (٦٦) من مجلة «الكواكب» : «ثبت أن هذه الإشاعات مكذوبة من أساسها ولاصحة لها على الإطلاق ، وقد ثبت ذلك بعد التحريات الدقيقة والتحقيقات الواسعة النطاق التى قام بها قلم المخابرات السرية»، لذلك اهتمت ليلى مراد بأن تقدم أغنية تشيد فيها بالعهد الجديد ولتقطع دابر تلك الإشـاعة وتزيل من النفـوس ما قد تكون تركته بها من آثار، فكان أن وفقت إلى نشيد جديد ألفه ولحنه الموسيقار مدحت عاصم بأسلوب المارش، ويقول مطلع النشيد الذى حمل اسم نشيد «التحرير»:

على الإله القوى الاعتماد
بالنظام والعمل والاتحاد
فانهضى يامصر ياخير البلاد
واصعدى للمجد وامضى للجهاد
بالاتحاد والنظام والعمل

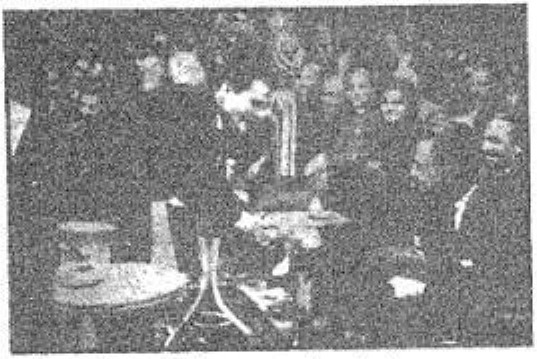
جمال عبد الناصر

احتل جمال عبد الناصر (١٩١٨ – ١٩٧٠) سدة قيادة الثورة .. ليس بطول مدة بقائه فى الحكم والتى بلغت سبعة عشر عاماً لتفوق بذلك فترة حكم كل من محمد نجيب وأنور السادات مجتمعين، ولا بسبق تأسيسه لتنظيم الضباط الأحرار الذى قاد الثورة ، وإنما بكثرة ماشهدته مصر فى عهده من تحولات ومعارك، ولقد شهد الفن فى عهد عبدالناصر واحداً من أزهى عصوره بمصر فى العصر الحديث .. إن لم يكن أزهاها على الإطلاق.

شارك الغناء فى تحـولات ومـعـارك عـهـد عبدالناصر بجهد وافر مما جعله سجلا تاريخيا لتلك الفترة ، وهو ماجعل من فرصة التقاء الزعيم بأهل الغناء حدثا متكرراً ومعتادا، لذلك حفلت الأدبيات التى تناولت عهد عبدالناصر بإشارات وحكايات عن مواقف جمعت بين الزعيم والبعض من أهل الغناء، وهم أهل القمة بالطبع،

***

تتناثر فى أدبيات الثورة حكايات كثيرة عن عشق عبدالناصر لصوت أم كلثوم، والبعض من هذه الحكايات يرجع إلى الفترة التى قضاها عبد الناصر على أرض فلسطين محاربا فى صفوف الجيش المصرى إبان نكبة قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، لكن المؤكد والثابت لنا حتى الآن ...



جمال عبد الناصر يصافح عبد الحليم حافظ .. وكان قد منحه وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولي

أن أول لقاء بين عبدالناصر وأم كلثوم حدث في الحفل الساهر الكبير الذي أقيم احتفالا بتوقيع اتفاقية الجلاء بميدان التحرير مساء يوم الأربعاء ٢٠/١٠/١٩٥٤ (الأهرام: ٢٠/١٠/ ١٩٥٤ - ص ١٧)، في تلك الليلة تقدمت أم كلثوم نجوم الحفل كما تقدمتهم في الغناء، إذ صعدت قبل الحادية عشرة إلى المسرح الكبير الذي شيد من ٥٠٠ مائدة طعام في قلب الميدان وأمام متحف الآثار المصرية كما ذكرت صحيفة الأهرام، كان صعود أم كلثوم إلى المسرح بعد حضور جمال عبدالناصر إلى المكان وفي صحبته بعض قادة الثورة والوزراء، والذين حضروا مع عبد الناصر من قادة الثورة في تلك الليلة كل من: كمال الدين حسين- صلاح سالم - عبدالحكيم عامر- زكريا محيي الدين - عبداللطيف البغدادي وحسين الشافعي وذلك بترتيب جلوسهم حوله، غنت أم كلثوم في تلك الليلة تحيتها الأولى للثورة «صوت الوطن» وبلغ تجاوب الجمهور معها في أدائها حداً مذهلاً، وهو ما وصفته مجلة «الكواكب» في تغطيتها للحفل بالصفحات (١٣ : ١٥) من عددها رقم (١٦٩) الصادر في ٢٦/١٠/١٩٥٤ فقالت: «ردد الشعب مع أم كلثوم كلمات الأغنية (نحبها من روحنا .. ونفتديها بالعزيز الأكرم)، وكان جميل من السادة قوّاد الثورة أن يشتركوا في الترديد، وكان السيد كمال الدين حسين أقواهم صوتا» وقد بلغ عدد الجماهير التي حضرت هذا الحفل حوالي خمسين ألف متفرج كما جاء بالتحقيق المنشور بمجلة «الكواكب»، وقد انصرفت أم كلثوم بعد غنائها مباشرة لارتباطها بالسفر في صباح اليوم التالي إلى بيروت لإحياء حفل زفاف كريمة رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الراحل (آنذاك) إلى الأمير طلال بن عبدالعزيز آل سعود.

صعد فريد الأطرش - نجم الحفل الثاني - بعد أم كلثوم إلى المسرح ليقدم أغنيته الثانية للثورة وهي قصيدة «البعث» من شعر أحمد خميس، وتصف مجلة «الكواكب» في تغطيتها الحفل .. صدى قصيدة «البعث» لدى قادة الثورة في هذه الليلة فتقول: «كان الموسيقار فريد الأطرش موفقاً في اختيار قصيدة (بني مصر قد راح ليل العبيد)، وقد صفق له قواد الثورة كثيراً خصوصاً عندما اختتم أغنيته قائلاً:

بني مصر هذا الصباح لنا
تفجر بين الربى والسنا
ينشر في الكون أمجادنا
يحيي الجلاء يحيي الجنود
ونهتف قد راح ليل العبيد
قدمنا لمصر الضياء الجديد

وعند انصراف قادة الثورة في منتصف الليل .. ألقى عبدالناصر كلمة شكر فيها كل من شارك في الحفل من أهل الغناء .

لم يكتف أهل الغناء بحفل ميدان التحرير كمظهر وحيد للتعبير عن فرحتهم وفرحة الشعب بالجلاء ، بل أقيم حفل آخر بعد أسبوع بدار الأوبرا المصرية ، كان فريد الأطرش هو نجم الحفل الثاني وشاركه في إحياء الحفل كل من أوركسترا الإذاعة المصرية والفرقة المصرية الحديثة، قدم فريد الأطرش في هذا الحفل رائعته الخالدة «أول همسة»، بينما قدم أوكسترا الإذاعة منتخبات من الموسيقى العالمية، وذلك إضافة إلى الفصل الأول من مسرحية الحاكم بأمر الله الذى قدمته الفرقة المصرية الحديثة ، وفيما بين الفقرات ... التقى المشاركون من أهل الفن بالرئيس عبدالناصر لتبادل التهنئة بالجلاء ، وقد قدمت مجلة «الإذاعة المصرية» في الصفحة السابعة من عددها (١٠٢٤) الصادر في ١٩٥٤/١٠/٣٠ صورة لعبد الناصر مرتديا الزى العسكرى وهو يصافح فريد الأطرش ... بينما يظهر يوسف وهبى في منتصف الصورة وقد علت البسمة وجوهم جميعاً، كانت تلك الصورة هي الأولى التي يظهر فيها عبد الناصر منذ نجاح الثورة مع واحد من ثلاثي القمة في الغناء المصري خلال تلك الحقبة.

***

لم ينصرم عام ١٩٥٤ حتى حدث لقاء عبد الناصر بمحمد عبدالوهاب ، ليكتمل بذلك لقاؤه خلال عام واحد بالثلاثة الكبار في عالم الغناء المصرى آنذاك، جاء لقاء عبدالناصر بمحمد عبدالوهاب في حفل سلاح الفرسان الذى أقيم بثكنات السلاح بكوبري القبة مساء الخميس ١٩٥٤/١٢/٢ (الجمهورية : ١٢/٢/ ١٩٥٤ - ص١)، كان الحفل ابتهاجاً بتوقيع اتفاقية الجلاء وبنجاة عبدالناصر من محاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرض لها في ميدان المنشية على يد أحد أفراد الإخوان المسلمين في يوم الثلاثاء ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ ، ليلتها غنى عبد الوهاب أغنيته الشهيرة «كل ده كان ليه» بعد أن غنى أغنيته «تسلم ياغالي»، وضعت أغنية «تسلم ياغالي» خصيصاً لتهنئة كل من عبدالناصر بنجاته من محاولة الاغتيال والجيش بنجاح ثورته وتحقيق الجلاء ، والأغنيتان من نظم الشاعر عبدالمنعم السباعى وهو أحد الضباط الأحرار وقد كان يعمل آنذاك في وظيفة استحدثتها الثورة وأسمتها «أركان حرب الإذاعة»، ويتحدث محمد عبدالوهاب عن هذا الحفل فيقول : «جمال عبدالناصر، الله يرحمه، هو الذى طلب منى أن أغنى في تلك الحفلة، لأننى كنت قد امتنعت عن الغناء في الحفلات العامة ، وهو مستمع لدرجة أنه عندما نزلت من على المسرح وسلم على قال لى وهو يقبلنى : أنت رجعتنى لشبابى يامحمد، أنا كنت أذهب إليك في تياترو رمسيس، وأجلس في الصف الثاني في الرقم كذا» (غنيم عبده :المصور - العدد ٣٤٧٤ - ص ٢٥ - ١٩٩١/٥/١٠)، ويذكر غنيم عبده في مقاله المشار إليه بالعدد رقم (٣٤٧٤) من مجلة «المصور» أن صوت عبدالناصر قد ظهر على شريط الأغنية المسجل وهو يقول «الله .. الله»، وبالرجوع إلى تسجيل الأغنية الذي طرحته إحدى شركات الصوتيات .. يتضح للمستمع أنه عند انتهاء عبدالوهاب من أداء أغنيته «تسلم ياغالي» وأثناء تصفيق الجمهور يظهر صوت لمستمع يقول بانتشاء واضح : «ياسلام .. الله ... الله»، وفي ضجيج تصفيق الجمهور ... فإن أحدا لايستطيع الجزم بأن المستمع صاحب الصوت هو عبدالناصر، إن الصورة الوحيدة التي نشرت عن هذا الحفل وجاءت في الصفحة السابقة بالعدد رقم (١٠٣٠) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادرة في ١٩٥٤/١٢/١١ تظهر جمال عبدالناصر وقد جلس



ناصر يكرم محمد عبد الوهاب وأم كلثوم في يوم واحد .. فقد كان تكريم عمالقة الفن حلقة من حلقات إشادة الثورة بدورهم الخالد في شحذ وجدان الأمة

في مقدمة الجمهور وإلى يمين الصورة، بينما يجلس إلى يمين عبدالناصر (أويسار الصورة) كل من إسماعيل الأزهري رئيس وزراء السودان وجمال سالم ثم اللواء عبدالعزيز مصطفى (مدير سلاح الفرسان آنذاك) وفي أقصى يسار الصورة يظهر صلاح سالم، لكن ماتظهره الصورة بوضوح .. ابتسامة عبدالناصر ويديه المرفوعتين بتصفيق الإعجاب لمحمد عبدالوهاب .

جاءت مشاركة أهل الغناء في حفلات عام ١٩٥٤ تطوعا ودون الحصول على أجر، لكن أصواتهم لم تكن عماد تبرعاتهم الوحيد ، وإنما اتخذت تبرعاتهم للنظام الجديد أشكالاً أخرى، ومن ذلك أنه في يوم ١٩٥٥/٢/٧ وعند بدء عرض فيلم «عهد الهوى» وهو الفيلم رقم (١٧) في سلسلة أفلام فريد الأطرش، تصادف أن يكون بطل الفيلم طريح الفراش إثر أزمة قلبية أصابته في الأيام الأولى من شهر يناير، ولما كان بطل الفيلم لم يتماثل للشفاء قبل حفلة العرض الأولى للفيلم، فإن جمال عبد الناصر وافق على حضور حفل افتتاح الفيلم بسينما ديانا في مساء الاثنين ١٩٥٥/٢/٧ ، وذلك بناءً على برقية بعث بها فريد الأطرش من فراش مرضه يرجو فيها الرئيس تشريف حفل افتتاح فيلمه الجديد، ويعلن فريد الأطرش في البرقية أيضاً عن تبرعه بإيراد حفل الافتتاح لصالح كل من منكوبي السيول بقنا وجمعية تحسين الصحة، وفي صباح الخميس ١٩٥٥/٢/١٠ ... تنشر صحيفة «الأخبار» بباب «أخبار المجتمع» في الصفحة الخامسة صورة جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وصلاح سالم وأنور السادات وهم وقوف بشرفة سينما ديانا يلوحون بأيديهم لجمهور حفل الافتتاح ، كان لحضور عبدالناصر وصحبه من قادة الثورة حفل افتتاح فيلم «عهد الهوى» فعل السحر في نفس فريد الأطرش ، فغادر فراش مرضه في صباح السبت ١٩٥٥/٢/١٢ متوجها إلى مقر مجلس الوزراء ليلتقي بجمال عبدالناصر - رئيس الوزراء آنذاك - ويصافحه معبرا عن امتنانه لتشريف الرئيس حفل افتتاح فيلمه الجديد ، وليقدم له شيكا بمبلغ مائتي جنيه هي كل إيراد اليوم الأول لعرض الفيلم .. تبرعاً منه لمنكوبي السيول بقنا ولجمعية تحسين الصحة، ولقد نشرت صورة هذا اللقاء بين عبدالناصر وفريد الأطرش في الصفحة الرابعة

بعـدد يوم الأحـد ١٩٥٥/٢/١٣ من صـحـيـفـة «الأخبار».

***

تعددت لقاءات جمال عبدالناصر بأهل الغناء في عام ١٩٥٥ ، وجاءت كل هذه اللقاءات في إطار العمل الوطني لصالح مشروعات دولة الثورة وأهدافها ، فعندما أعلن عبدالناصر في ٢٧ سبتمبر من عام ١٩٥٥ عن نجاح مصر في كسر احتكار السلاح - المفروض عليها من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا - وذلك باتفاقها مع حكومة تشيكوسلوفاكيا على صفقة السلاح الشهيرة ، أعلنت حكومة الثورة إثر ذلك عن فتح باب التبرعات الموجهة لتمويل تلك الصفقة في أسبوع سمى آنذاك «أسبوع التسليح» أسرع فريد الأطرش - أيضاً - إلى رئاسة الجمهورية في صباح ١٩٥٥/١٠/١٣ ليسلم عبدالناصر شيكا بمبلغ مائتي جنيه إسهاماً منه في تبرعات أسبوع التسليح (الأخبار : أخبار المجتمع - ص ٥ - ١٩٥٥/١٠/١٤)، لكن أم كلثوم آثرت أن يكون تبرعها في أسبوع التسليح بالغناء ، فأحيت حفلا في سينما ريفولي مساء الخميس ١٩٥٥/١٠/٢٠ خصص إيراده لصالح أسبوع التسليح ، وقد حمل هذا الحفل في ثناياه مفاجأة ذات دلالات مهمة ، إذ فوجىء جمهور الحفل بحضور الرئيس جمال عبدالناصر ومعه مجلس قيادة الثورة ، وكان الطريف في أمر حضور الرئيس ومجلس قيادة الثورة - كما ذكرت مجلة «الكواكب» بالصفحة الرابعة من عددها رقم (٢٢١) الصادر في ١٩٥٥/١٠/٢٥ - أن عبدالناصر قدم تذكرة الحفل - كان قد اشتراها من ماله الخاص - عند باب السينما ، إن لحضور عبدالناصر حفل أم كلثوم في تلك الليلة دلالتين مهمتين، أولاهما أن حضوره لسماع شدو أم كلثوم .. يؤكد ماتردد دائماً عن عشقه لصوتها ، بينما تتمثل ثاني الدلالات فيما التزمه عبدالناصر طوال حياته من طهارة يد وما امتلأ به قلبه من حب لمصر ، لأن الرئيس الذي يشتري تذكرة لحفل كهذا ... يريد أن يؤكد لشعبه صدق دعمه لحملة التبرع وأن يرسخ في عقول الجميع قدسية الالتزام وسلامة القصد في كل مايمس ذمة الزعيم المالية، وهو ماتأكد طوال حياته وبعد وفاته رحمه الله.

في تلك الأيام من السنوات الأولى للثورة .. شارك المطرب الصاعد - آنذاك - عبدالحليم حافظ في حملة فنية لجمع التبرعات في «أسبوع التسليح»، ضمت الحملة أسماء مثل : فاتن حمامة - سامية جمال - شادية - إيمان وعبدالحليم حافظ (الكواكب: تعبئة فنية في أسبوع التسليح - العدد ٢٢١- ص ٦:٩ - ١٩٥٥/١٠/٢٥).

لم تشر الأخبار والمقالات التي تناولت الغناء في سنوات الثورة الأولى إلى أن عبدالحليم حافظ قد غنّى أمام عبدالناصر أو التقى به خلال تلك الحقبة من عمر الثورة، وذلك بالرغم مما يحاول البعض الإيهام به في كتابات نشرت في السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، ولكن الثابت - مما هو متاح من مطبوعات تلك الحقبة - أن المرة الأولى التي غنّى فيها عبدالحليم أمام عبدالناصر كانت في حفل أضواء المدينة الذي أقيم مساء الأحد ١٠ يناير ١٩٦٠ بمدينة أسوان احتفالا ببدء العمل في مشروع السد العالي، وهو الحفل الذي حضره مع جمال عبدالناصر من أعضاء مجلس قيادة الثورة كل من: عبداللطيف البغدادي - كمال الدين حسين - صلاح سالم - زكريا محيي الدين وأنور السادات، وذلك إضافة إلى ضيف مصر الكبير ملك المغرب محمد الخامس وولي عهده الأمير الحسن (الملك الحسن الثاني فيما بعد)، وقد شارك في إحياء هذا الحفل بجانب صوت عبدالحليم حافظ أصوات كل من: فريد الأطرش - شادية - محمد عبد المطلب - صباح - محمد

قنديل – نجاة ونجيب السراج، ليلتها تغنّى عبدالحليم برائعته «حكاية شعب» وأنشد فريد الاطرش أغنية «يا أسطى سيد» عن السد العالي.. بينما قدمت شادية أغنيتها الشهيرة «بلد السد»، وقد ذهب عبدالحليم حافظ بعد فراغه من أداء «حكاية شعب» إلى مكان جلوس عبدالناصر حيث صافحه هناك (الكواكب: العدد ٢١٧٤ – ص ٤٧ – ١٩٩٣/٣/٣٠)، ثم تكرر غناء عبدالحليم حافظ أمام جمال عبدالناصر في أعياد الثورة خلال النصف الأول من عقد الستينيات كما هو مثبت بأعداد المجلات الفنية والثقافية التي تناولت هذه المناسبات بالتسجيل والتحليل، ومن ذلك حفل عيد الثورة العاشر الذى أقيم بنادى ضباط القوات المسلحة بالزمالك مساء ٢٣ يوليو ١٩٦٢، شهد هذا الحفل حدثا فنيا لم يتكرر قبل هذه الليلة أو بعدها، يقول الصحفى سيد فرغلى عن هذا الحدث: «إذ اشترك فيه (أى الحفل) عمالقة الفن العربي: عبدالوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ، الذين لم يسبق لهم الاشتراك جميعا فى حفلة واحدة» (سيد فرغلى : عمالقة الفن – الكواكب – العدد ٥٧٤ – ١٩٦٢/٧/٣١)، وللقارىء أن يتخيل الآن شكل الحفلة التى أحياها الأربعة الكبار فى الغناء المصرى، ليس فى القرن العشرين وإنما – أعتقد – فى كل عصوره، فى تلك الليلة غنّى عبدالوهاب نشيده الجديد – أنذاك – «دقت ساعة العمل» وهو من كلمات حسين السيد، وإن كنت أعتقد أنه قد أداه بطريقة «البلاى باك»، وشدت أم كلثوم بأغنية أعدتها لتلك المناسبة وحملت اسم «بالمحبة بالاخوة بالسلام» وهى من نظم عبدالفتاح مصطفى، ويقول مطلع هذه الأغنية التى لحنها رياض السنباطى:

بالمحبة بالاخوة بالسلام

وبعزيمة شعب ثائر لاينام

أمة بتنور طريقها للأمام

كل خطوة تسبق الأيام بعام

الزعيم والثورة وفوا بالعهود

لسّه دور الشعب يوفى بالجهود

شارك فريد الأطرش فى ذلك الحفل بنشيده «المارد العربى» والذى صاغ كلماته حسين السيد، ويقول المقطع الأخير للنشيد:

يالى خلقت شباب المارد

وعى وثورة بكل نضال

كبر المارد وصبح قائد

يحمى شعوب ويصون أجيال

عاش القائد عاش المارد

والاتنين صنعك يا جمال

بينما كانت أغنية عبدالحليم فى تلك الليلة هى أغنية «مطالب شعب» والتى كتبها أحمد شفيق كامل ولحنها كمال الطويل، حملت هذه الأغنية مفاجأة لم يتوقعها جمهور الحفل وملايين المستمعين، يقول سيد فرغلى عن هذه المفاجأة: «إن الأغنية تعتبر عملا فنيا جديدا، خاصة وهى فريدة فى مطلعها، إذ تبدأ بعبارات بصوت الرئيس جمال عبدالناصر، حتى أن البعض قد ظنوا أن عبدالحليم يقلد صوت الرئيس» ! ، اختار عبدالحليم ومجموعة العمل التى كانت وراء أغنية «مطالب شعب» مجموعة من العبارات المؤثرة لعبدالناصر فى بعض خطبه الشهيرة مثل خطبة تأميم قناة السويس لوضعها وبصوت جمال عبدالناصر فى مقدمة الأغنية وقبل المقطع الذى يبدأ به غناء عبدالحليم، فتبدأ الأغنية بصوت عبدالناصر يقول : «النهارده بعد عشر سنوات من الثورة أقدر أقول إن هذا الجيل جاء فى موعده مع القدر، إن هذا الجيل من شعب مصر العربى استطاع أن يحقق فى عمره كل ما كانت تتطلع إليه أجيال سابقة، لقد كان ٢٣ يوليو سنة ٥٢ بدء تاريخ جديده لهذه الأمة الثائرة المناضلة»، لذلك كان من الطبيعى أن يكرم عبدالناصر الأربعة

الكبار في هذه الليلة، فدعا عبدالوهاب وأم كلثوم للجلوس إلى مائدته في فترة الاستراحة، ثم أتبع عبدالناصر ذلك بأن صافح فريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وكمال الطويل وعلي إسماعيل وأحمد فؤاد حسن في نهاية الحفل .

لم يكن جلوس عبدالوهاب وأم كلثوم إلى مائدة عبد الناصر ومصافحة الرئيس لفريد الأطرش وعبدالحليم حافظ هو مظهر التكريم الوحيد لأهل الغناء في عام ١٩٦٢، وإنما سبق ذلك تكريم الأربعة دفعة واحدة في الاحتفال بعيد العلم، حيث منح عبدالناصر أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى ، بينما سلم كلا من فريد الأطرش وعبدالحليم حافظ وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى، وقد تكررت مظاهر تكريم عبدالناصر للأربعة الكبار ولأهل الغناء بصفة عامة في كثير من المواقف والمناسبات، من ذلك منح أم كلثوم جائزة الدولة التقديرية في الفنون عام ١٩٦٨ تقديرا لدورها في دعم المجهود الحربي بعد عدوان ١٩٦٧ ولكل مشوارها الفني، بالإضافة إلى منحها جواز سفر دبلوماسي .

تتناثر حكايات تكريم عبدالناصر ورعايته لأهل الغناء خاصة والفنانين عامة على طول سنوات حكمه لمصر، ولعله من الجدير بالتأمل هنا أن نذكر أن آخر ما أمر عبدالناصر بمنحه من أوسمة لأهل الغناء، كان هو وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى الذي منحه عبدالناصر لفريد الأطرش في ١٩٧٠/٣/١٥ .

أنور السادات

يعد أنور السادات (١٩١٨ - ١٩٨١) أكثر الرؤساء الثلاثة ممن جاءت بهم ثورة يوليو التقاء بأهل الغناء قبل وصوله إلى رئاسة مصر وبعد أن أصبح رئيسا في عام ١٩٧٠، ففي الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٥٣ وقبل أن ينصرم عام من عمر الثورة.. سافرت أم كلثوم لعلاج مرض أصاب غدتها الدرقية في مستشفى البحرية الأمريكية الشهير بالولايات المتحدة الأمريكية ، قدمت مجلة «آخر ساعة» تحقيقا مصورا عن وداع أم كلثوم في مطار القاهرة على الصفحات من ١٨ إلى ١٩ بعددها رقم (٩٦٧) الصادر في ١٩٥٣/٥/٦، حوى الموضوع الذي جاء تحت عنوان «دموع أم كلثوم وهي تغادر الوطن».. عشر صور قام بالتقاطها المصور الشهير محمد يوسف، تظهر أم كلثوم في أربع من هذه الصور مع البكباشي أنور السادات «الذي جاء ليودعها ممثلا للقيادة العامة»، وذلك بنص التعليق الموجود تحت هذه الصور، أخذت صور السادات الأربعة مع أم كلثوم على سلم الطائرة.. إذ رافقها حتى باب الطائرة، لكن الشيء اللافت للنظر في هذه الصور الأربعة جميعا .. أنها أوضحت أن أم كلثوم تقف على درجة من سلم الطائرة أعلى من الدرجة التي يقف عليها أنور السادات!.

عديدة هي الحكايات والمواقف التي حوتها الكتب والمجلات والصحف عن ميل السادات الواضح لصوت فريد الأطرش، وإن في استعراض البعض منها هنا ما يدعم الذي يخلص إليه المقال الحالي من حقائق واستنتاجات ، الحكاية الأولى يوردها الأستاذ/ أنيس منصور في ثنايا مقال له بعنوان «كنا نغني وعبدالحليم حافظ يقول لنا : الله» في العدد (٣٩) من ملحق «أيامنا الحلوة» الصادر مع العدد الأسبوعي للأهرام في ٢٠٠٢/٢/٨، يقول أنيس منصور : «وفي مذكرات السيدة جيهان السادات التي عنوانها (سيدة من مصر) ، ذكرت أنه في عيد ميلادها لم يكن معهما فلوس، فاقترح عليها زوجها أنور السادات أن يقيم لها حفلا خاصا وعلى قد فلوسهما، تقول السيدة جيهان السادات إن الرئيس غنى لها عددا من أغنيات فريد الأطرش!» ، ومن الواضح من ملابسات هذه الحكاية أنها حدثت قبل الثورة وربما

عندما كان السادات مفصولا من الجيش، أما الحكاية الثانية.. فإنها تدور حول لقاء أنور السادات بالسيد/ كمال أدهم مستشار الملك فيصل والمشرف على المخابرات السعودية، وهو اللقاء الذي قال عنه الكاتب الكبير/محمد حسنين هيكل في كتابه «خريف الغضب» مايلي: «كان أول لقاء بين الاثنين (السادات وكمال أدهم) في حفل عشاء في بيت مطرب مشهور هو فريد الأطرش (ص ٨٥)، وقد جاء هذا اللقاء إبان شغل السادات لمنصب الأمين العام للمؤتمر الإسلامي بدءا من عام ١٩٥٤، ثم تجيء الحكاية الثالثة في عام ١٩٧٨ ومن منتجع كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية وأثناء المفاوضات الشهيرة بين السادات وكارتر وبيجين، وقد ذكر الأستاذ/ محمد الباز هذه الحكاية في سياق موضع بعنوان «الله لايزور كامب ديفيد ـ السادات شاهد أفلام فريد الأطرش هناك»، وهو الموضوع الذي جاء بالصفحة الأخيرة (رقم ٢٠) من العدد رقم (٧٤) من صحيفة «صوت الأمة» والصادر في ٢٠٠٢/٤/٢٩ . يقول محمد الباز: «كان الرئيس السادات يمارس حياته بطريقته الخاصة، كان السادات يسهر إلى وقت متأخر من الليل، يشاهد وهو يرتدي بيجامة بيضاء بعضا من أفلام فريد الأطرش، وقت راحته بالاستراحة التي يقيم بها . وقد أخذ معه إلى كامب ديفيد ستة أفلام شهيرة»، ثلاث حكايات من مراحل مختلفة في رحلة السادات مع الحياة والسياسة.. تقول جميعها إن الرجل كان من عشاق صوت فريد الأطرش .

لم يقف حب السادات لصوت فريد الأطرش حجر عثرة في طريق لقائه بمحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ، ولكن الثابت فيما نشر عن هذه اللقاءات..أنها حدثت بعد وصول السادات إلى منصب الرئيس، لحن محمد عبدالوهاب أغنيتين عن السادات، كانت أولاهما «يازعيمنا ياسادات» وغنتها فايدة كامل في عام ١٩٧٦، أما الثانية فكانت باسم «مصر السادات» وغنتها المجموعة، جاء لقاء السادات الأول بمحمد عبدالوهاب بأكاديمية الفنون في يوم الثلاثاء ٩ يونيو ١٩٧٥ عندما سلمه شهادة الدكتوراه الفخرية، يومها .. كانت أم كلثوم قد رحلت قبل مايقرب من أربعة شهور وقبلها بتسعة وثلاثين يوما كان رحيل فريد الأطرش ، وكلاهما لم يلتق بالسادات بعد انتخابه رئيسا لمصر، ثم التقى محمد عبدالوهاب مرة أخرى بالسادات في حفل تسليم الاسطوانة البلاتينية لعبد الوهاب من شركة إيمي العالمية، أقيم الحفل بقاعة سيد درويش بالهرم في مساء الخميس ١٩٧٨/٢/٢، ثم كان اللقاء الثالث بين السادات وعبدالوهاب في مطار القاهرة عندما قاد موسيقار الأجيال الفرقة الموسيقية العكسرية التي عزفت السلام الوطني الجديد (بلادي بلادي)، حدث ذلك عند استقبال السادات عند عودته من كامب ديفيد صباح السبت ١٩٧٨/٩/٢٣، خرجت الجماهير يومها في استقبال أسطوري ـ بتأثير الصورة التي قدمها الإعلام عن الاتفاق ـ لتملأ شوارع القاهرة وتحيط بالسيارة المكشوفة التي استقلها الرئيس العائد بأكاليل الغار من أمريكا وبجانبه نائبه محمد حسني مبارك (الأهرام: ١٩٧٨/٩/٢٤ – ص ١)، وقد عمل السادات على استغلال هذا الاستقبال الأسطوري على النحو الأمثل .. بأن جعل زفاف نجله الوحيد جمال في اليوم التالي لعودته من كامبد ديفيد ، وفي مساء الأحد ١٩٧٨/٩/٢٤ وقف السادات وزوجته السيدة جيهان يستقبلان ضيوف زفاف ابنهما جمال، ليلتها استعاد السادات أجواء الاستقبال الأسطوري في اليوم السابق.. عندما تقدم إليه محمد عبدالوهاب ـ كواحد من النخبة المدعوة ـ ليصافحه مهنئا بزفاف نجله (الأهرام: ١٩٧٨/٩/٢٥ – ص ٣) ، وبالرغم من كل ما

أحاط به السادات عبدالوهاب من تكريم.. إلا أن عبدالوهاب لم يغن ولو أغنية واحدة للسادات أو لعهده!.

لم تحفظ مطبوعات السنوات السبع التي عاشها عبدالحليم حافظ من رئاسة السادات ولو صورة واحدة للقاء له مع الرئيس الراحل، وهو ما ساعد بعد ذلك على انتشار مقولة إن السادات لم يكن يحب عبد الحليم لأنه مطرب عبدالناصر ، وقد نفت السيدة / جيهان صفوت رءوف حرم الرئيس السادات تلك المقولة وردت عليها بقولها : «عبدالحليم كان نجم فرح أولادى وكان أحسن

مطرب في مصر، أتذكر أنه في فرح صغرى بناتي أنه حضر وكان مريضا ، وقلت له : معقول ياحليم تيجي وانت مريض بالشكل ده، فقال : معقول لا أغني لجيهان، عبدالحليم كنا كلنا بنحبه » «الكواكب : العدد ٢١٨٨ ـ ص ٤١ ـ ١٩٩٣/٧/٦)، وبالرغم مما قالت السيدة جيهان .. فإن الثابت أن عبدالحليم حافظ غنى فى أثناء حرب اكتوبر الأغنيات التالية : «خلى السلاح صاحى» - «عاش اللى قال» - «لفى البلاد ياصبية» و«صباح الخير ياسينا» ، وغنى أيضا بمناسبة إعادة افتتاح قناة السويس للملاحة فى ١٩٧٥/٦/٥ : «النجمة مالت ع القمر» و«المركبة عدت» ، إلا أن كل هذا لم يكن كافيا ليفتح له الطريق إلى قلب السادات، فكان أن رحل عبدالحليم حافظ فى عام ١٩٧٧ دون أن يلقى أى تكريم من السادات، وبالرغم من أن عبدالحليم جعل أغنية «عاش اللى قال» - والضمير هنا يعود إلى السادات - مفتتح غنائه فى كل حفلته منذ عام ١٩٧٣ وحتى رحيله .

ما وراء الحكايات

إن ما تقدم من حكايات ومواقف ربطت بين الرؤساء الثلاث الأول فى نظام ثورة يوليو والبعض من أهل الغناء.. ليست هى كل الحكايات.. ولكنها تكفى لهذا المقام، وإذا ما نحينا جانبا ما يخص الرئيس الأول ـ محمد نجيب ـ من حكايات مواقف لصغر مدة بقائه فى الحكم، فإن التحليل الآن سوف ينصرف إلى ما يخص كلا من الرئيسين : عبدالناصر والسادات، ولعله من المناسب أن يكون هناك معيار واحد لهذا التحليل حتى يكون القياس واحدا فى الحالتين، وليس هناك معيار أدق من رأى كل من الرئيسين فى الفن والفنانين ، فبينما يقول عبدالناصر فى إحدى خطبه : «إن الفن أصبح من أقوى الأسلحة فى معركة الحرية السياسية ضد الاستعمار وضد الاستغلال، مازالت فى ذاكرتنا جميعا مشاهد من أعمال فنية، كانت من أكبر مصادر الإلهام فى كفاحنا الوطنى، كذلك مازالت فى أسماعنا أصداء أناشيد كانت من أقوى ما حملنا معنا إلى ميدان القتال من عتاد.. كانت الكلمة فى مثل قوة طلقة الرصاص فى نضالنا وكذلك كان النشيد»، نجد السادات يقول فى مقال له نشر بالعدد رقم (٧٠٥) من صحيفة «الجمهورية» الصادر فى ١٩٥٥/١١/٢٨ : «إننى لا أجد نفسى حقيقة إلا فى صحبة الممثلين» ، وهو ما جعل الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل يقول عن هذه الجزئية من شخصية السادات : «إن الذين عرفوا أنور السادات فى ذلك الوقت لا يذكرون شيئا غير عادى من الناحية السياسية فيما يتعلق به، وكل ما يذكره معظمهم عنه فى ذلك الوقت كانت براعته فى الغناء وفى التمثيل وفى تقليد الرؤساء من الضباط» (محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ـ ص ٤١)، هكذا تضع أقوال كل من الرئيسين جوانب شخصية كل منهما أمامنا، فعبدالناصر ينظر إلى الفن نظرة أيديولوجية تعده سلاحا من أسلحة الحرب، والسادات ينظر إليه نظرة ذاتية كهواية محببة إلى قلبه، ولهذا اختلف أسلوب تعامل كل منهما مع أهل الغناء ، فبينما يستشعر عبدالناصر فى أعماق نفسه بمشاعر الزعامة والأبوة تجاه أهل الغناء كفصيل من



عبد الناصر يسلم فريد الأطرش وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى

المصريين الذين يتزعمهم، فجاءت لقاءاته بهم في الأعياد والمناسبات القومية فقط، وكان مطلبه الدائم منهم هو الفن والإخلاص فيه، ولعل ذلك مادفعه لأن يطلب في احتفالات العيد الحادي عشر للثورة (٢٣/٧/١٩٦٣) من أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب أن يلتقيا في عمل مشترك [د. رتيبة الحفني: أم كلثوم معجزة الغناء العربي - ص ١٣١)، فكان أن ظهرت للناس أغنية اللقاء الأول «إنت عمري» في أول خميس من شهر فبراير سنة ١٩٦٤ وبعد حوالي سبعة شهور من طلب عبد الناصر، أما السادات.. فإن الكثير من لقاءاته بأهل الغناء - وبالأخص قبل سنة ١٩٧٠ - ظللتها سمات الخصوصية والمشاعر الإنسانية، وهو ما انعكس على الفن في عهده بصفة عامة والغناء على وجه الخصوص، فمثلا .. كانت دعوته عبدالوهاب لحضور زفاف ابنه الوحيد للتعبير عن امتنانه لما قام به موسيقار الأجيال من استقباله بالمطار وإعادة توزيع السلام الوطني وقيادة الفرقة الموسيقية بالمطار، ومن ذلك أيضا .. أنه أوقف الكاتب الكبير/ محمود السعدني عن العمل طوال ستة شهور في مجلة (التحرير) عندما أفحش في هجومه على فريد الأطرش بأحد أعداد المجلة، ومجلة «التحرير» كانت تصدر في السنوات الأولى للثورة عن «دار التحرير» التي عمل السادات مشرفا عليها (مشوار حياة محمود السعدني: أكتوبر - العدد ١٠٢٣ - ص ٥٦ : ٥٧ - ٢/٦/١٩٩٦)، بينما كان موقف السادات من أم كلثوم وعبدالحليم حافظ على النقيض من ذلك، إذ لم تشر أدبيات السنوات الأولى من حكم السادات إلى أي لقاء جمع بينه وبين قطبي الغناء الكبيرين، أو إلى تكريم أي منهما .. لا هو لقب «فنانة الشعب» الذي أهدي إلى أم كلثوم في يناير من عام ١٩٧٢.

كبيرة هي الفروق بين ما كان من علاقات أهل السلطة وأهل الغناء في عهدي الرئيسين، ففي عهد عبد الناصر توحد اتجاهي العلاقة .. لتصبح علاقة ذات اتجاه واحد يصب في خانة الوطن، وفي عهد السادات عادت ازدواجية الاتجاه مرة أخرى، إن ذلك مايلمسه المستمع اليوم في الفرق بين صدق الغناء وحرارته في كلا العهدين. ■

دولة طلعت حرب

بقلم : فتحي رضوان

حينما جاءت ثورة يوليو لتقوم بالتأميم، كانت أهم الشركات التي أممت هي شركات بنك مصر وقرار التأميم الذي تم في يوليو ١٩٦١، كان يطول الملكيات الكبيرة لوسائل الانتاج والخدمات، دون تفرقة بين مالك وآخر.

وظلت الشركات التي تتبع بنك مصر تعمل بكل القوى العاملة بها، وتم تحديث الآلات وتزويد هذه الشركات بكفاءات فنية عالية من خريجي الجامعات، فظل دور هذه الشركات قويا في بناء الاقتصاد المصري وحمايته من الاستيراد الأجنبي.

ولنتعرف علي دور الرائد الكبير طلعت حرب مؤسس بنك مصر كتب المفكر الكبير فتحي رضوان مقالا في كتابه «طلعت حرب بحث في العظمة والذى نشر عام ١٩٧٠.. ننشر فصلا من هذا الكتاب بعنوان «دولة طلعت حرب» والذي يقول فيه



طلعت حرب



بنك مصر المركز الرئيسى

كان طلعت حرب يتمنى أن يتسلم مقاليد الأمور فى مصر، وأن تتاح له فرصة تغيير أوضاع بلاده، ابتداء بالشئون الاقتصادية والمالية، وانتهاء بشئون الفكر والثقافة، والحياة الاجتماعية، فقد كان له فى كل هذه الأمور آراء، وكانت له الى جانب هذه الآراء فى كل جانب من جوانب حياة المصريين، نظرة شاملة، تستند الى ماضى البلاد، وتقاليدها وتراثها الروحى. ولا تدع هذه النظرة، ناحية مهما صغرت. فى كلمة ، كان لطلعت حرب برنامج سياسى شامل، ولو طلب اليه أحد أصدقائه الحميميين الذين لهم عليه دلالة، أن يفرغ الى نفسه ساعة أو بعض ساعة، ليضع برنامج حزب، على خلاف برامج الأحزاب التى كانت قائمة وقتذاك، لما وجد فى ذلك أدنى صعوبة .

نعم ، كان فى وسع طلعت حرب أن يضع برنامج حزب، وخطة عمل لهذا الحزب، وكان سيجد لذة ومتعة، فى أن يشرف على أجهزة الدعاية فى هذا الحزب، وأن يتولى توجيه - إن لم يكن تحرير - صحيفة الحزب .

ولكن طلعت حرب، كان سياسيا نافذ البصيرة

لذلك رد نفسه عن أن تستهلكه السياسة الحزبية. أدرك أنه على مواهبه التنظيمية واطلاعه الواسع على شئون مصر وعلى صلته الوثيقة بكثير من كبار الرجال فضلا عن قدرته القلمية التي تضعه في الصف الأول من كتاب أمته أدرك أنه مع كل هذه المواهب لايستطيع أن يحقق نجاحا ما إذا ما خاض المعركة الحزبية وأنه إذا نجح فيها فلن يكون نجاحه الا نجاحا في الظاهر سيكون به واحدا من هؤلاء الزعماء الذين ينقم بينه وبين نفسه على أساليبهم وعلى إهمالهم الجوهري الرئيسي من حاجيات مصر.

ولذلك قرر طلعت حرب أن يكون سياسيا من طراز جديد، وأن يطرق ميدان السياسة لا من أبوابه التقليدية ولا من أبوابه الخلفية، بل إنه يشق لنفسه طريقا جديدا لم تدب عليه الأقدام .

وقد كان ...

اختار طريق المال والاقتصاد ، حيث يستطيع أن ينفرد ويمتاز، وبدأ بالبنك، ولكنه لم يكن البنك وحده ليشبع أطماعه الروحية، ولا يحقق الخطة التي وضعها، ليهيمن، كما استطاع، على حياة المصريين ، ليخرجهم مما هم فيه.

كان لابد أن يكون لبنك مصر، على جوانبه الأربعة، اليمين واليسار، والأمام والخلف، أجنحة يبسط بها سلطانه الروحي والمادى على نواح لم تطلها يد البنك .

فكانت الشركات .

ولكيلا تظن أني ألقي القول على عواهنه، أدعوك لأن تتأمل هذا الاتساع في الميدان الذي اختارت شركات بنك مصر العمل فيه .

قد يكون مفهوما وطبيعيا أن يتجه بنك مصر، وهو بنك بلد زراعي، يلعب فيه القطن الدور الرئيسي، في الاقتصاد والاجتماع، الى القطن وتصنيعه في الأدوار المختلفة : من نقل وحلج وغزل ونسج وصباغة وتصدير وتجارة، هذا ميدان طبيعي .

وقد تكون دار لطباعة دفاتر ومطبوعات البنك الكثيرة خطوة طبيعية أيضا، بل قد لا تكون نشاطا يستأهل الوقوف أمامه. فما أيسر أن يشترى البنك مطبعة، كبرت أم صغرت.

ولكن ما شأن بنك مصر بالتمثيل، ان فهمنا اهتمامه بالسينما، باعتبارها صناعة وباعتبار حاجة البنك وشركاته والنشاط التجارى والصناعى كله الى الدعاية، ثم ما شأن بنك بالفنادق والسياحة، والفنادق في البلاد العربية وما مدى احتمال بنك ناشيء، كبنك مصر، لتكاليف، شركات الملاحة البحرية، وشركات الطيران، وهو نشاط يؤود الدول، ويسوط كاهلها . ولكنها دولة طلعت حرب، لا تكف عن مغازلة خياله، ومداعبة خاطره، وهو يستجيب لهذا الغزل، ويضعف، ويلبي دواعيه، ويخف لتحمل ضرائبه. إنه حقا هيام .

لقد مر بنا قول طلعت حرب وهو يتحدث عن شركات بنك مصر ، اذ قال :

«وقد وفقنا الله في ذلك، فكان لنا في هذه الفترة القصيرة - فترة الخمسة عشر عاما - أن ركز البنك، في السهل والجبل، وفي الشرق والغرب، وعلى الماء، ومتن الهواء علم البلاد.. يخفق

تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات بنك مصر.. بل باسم مصر كلها أو بعضها بعد أن طال احتجابه بين الظلام عهدا طويلا..».

وهذا كلام رئيس دولة، لا رئيس بنك .

وإن خالجك شك، فى طبيعة النبرة التى يتكلم بها طلعت حرب عن الشركات، فاستمع الى هذا الكلام :

«لعلكم لاحظتم ونحن نسرد لكم شركات مصر، أن هذه الشركات تكون حلقات متصلة بعضها ببعض، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا.

«فالمطبعة والمكتبة، والشركة المساهمة لصنع الورق، حلقة.

«وللقطن حلقة، تتمثل فى الحلج والنقل، والتصدير، والتأمين، والغزل والنسج.

«ويتصل أيضا بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان.

«ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر، والنقل فى البحر، والنقل فى الجو».

«كما اتصل بهذه الحلقة مسألة السياحة .

«ومن اتصالنا بالبحر، نشأت حلقة أخرى، هى «حلقة السمك»، وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف.

«ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات، وتتبع كل ماتهم اذاعته، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية، ثم ان لهذه الشركات، التى مر ذكرها، منتجات طيبة، يصح بل يجب أن تكون فى متناول جميع المصريين وغيرهم. ففكر بعض «كبار المصريين» فى ذلك، واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة (بيع المصنوعات) .

وقد يقول قائل ماذا فى هذا الكلام، مما يخرج عن نطاق كلام رئيس بنك، وفق فى انشاء هذه الشركات، فوقف يسرد أسماءها ، ويبين صلة بعضها ببعض، وصلة البنك بها .

والواقع أن هذا قول صحيح، ولكن الذى يحتاج الى التعليق، هو أن يكون لبنك ناشئ، وبنك تجارى، أى بنك ودائع، أن يكون له كل هذه الشركات الصناعية المتعددة، وأن يتم انشاؤها فى هذه الفترة القصيرة. وقد أدرك طلعت حرب، أن هذه الكثرة من الشركات، وهذه السرعة فى الانشاء، مما يتوجه اليه النقد، والتشكيك فى سلامة هذه السياسة، وقد بقيت حملة النقد والتشكيك فى هذا الموضع، قوية ومتجددة، حتى انقطعت صلة طلعت حرب بالبنك، وألجئ الى عزلة قاتمة مريرة حتى توفاه الله فى الحادى والعشرين من أغسطس ١٩٤١ .

لذلك وجد طلعت حرب نفسه مضطرا الى الرد على هذا النقد فقال :

«نعم أيها السادة أن يكون بنك مصر، مجرد بنك كالبنوك الأجنبية الكثيرة العدد، فى البلد، وهى بنوك تستوحى فى الغالب سياستها من أمهاتها فى الخارج .

«ولقد رأى بنك مصر العبء الذى تركته هذه البنوك فادحا وثقيلا، ولكنه لم يتردد فى أن يحمله، فحمله وحده بشجاعة وأمانة معتمدا على الله الذى يجزى اليد الصالحة بما هى أهل، والذى لايضيع أجر من أحسن عملا..» .

ثم قال: ولم يكن للبنك مفر من الاسراع فى تأسيس المشروعات المهمة الضرورية ، لا سيما وعصرنا الحاضر، عصر سرعة بكل ما تحمل من معنى هذه الكلمة.

«وقد يكون هناك بعض الذى يخشون هذه

السرعة التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته، ولكن أمثال هؤلاء لايلبثون أن يقتنعوا بأن استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح، هل رأيت؟ أنه مشغول بكرامة الأمة، لا بقدرة (البنك) وطاقته على تحمل أعباء هذه الشركات، تأسيسا واشرافا وتوجيها وتقويما وتمويلا . إنه لم يطق أن يستمر تطفل الأمة على موائد الغير والعيش على فتات تلك الموائد ، وهذا احساس سليم، ولكنه لايصدر إلا عن رئيس دولة، لا عضو مجلس ادارة بنك منتدب، فعضو كهذا، مهما كانت مشاعره الوطنية، وطموحه القومي، نشاطه، أراد أو لم يرد، مقصور على الميدان الذي يمارس فيه البنك نشاطه، والذي يقره المساهمون، والا ثار عليه هؤلاء المساهمون، لأن هذه الآمال العريضة، تودي بأموالهم، أن سكتوا عليها إن آجلا وإن عاجلا .

ولكن لم يكن نشاط شركات بنك مصر، مجرد آمال في الهواء، لا يقوم على سند من الدراسة الاقتصادية، وتحري الحاجات القومية الحقيقية، مع ادارة ذات كفاية وذات دراية.

ونظرة واحدة الى ما طرأ على رأس مال هذه الشركات من زيادة، في عدد قليل من السنوات يرينا أن هذه الشركات، كانت عملا اقتصاديا ناجحا، وأن البنك لم يتورط في انشائها، والمساهمة في رأس مالها، تحت ضغط طلعت حرب وطموحه ، ورغبته في أن يقي الكرامة المصرية من الهوان والتجريح، وانه كان يفكر في هذه الشركات، بروح رئيس الدولة الحقيقي والأمين معا، واليك هذا البيان عن مركز هذه الشركات حتى سنة ١٩٤٥ فقط، أي بعد وفاة طلعت حرب بأربع سنوات:

ففي سنة ١٩٢٢ أسست شركة مطبعة مصر برأسمال قدره ٥٠٠٠ جنيه زيد حتى أصبح ٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٤ أسست شركة مصر لحليج الأقطان برأس مال قدره ٣٠ ألف جنيه زيد إلى ٢٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٥ أسست شركة مصر للنقل والملاحة برأسمال قدره ٤٠ ألف جنيه زيد الى ١٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٢٥ أسست شركة مصر للتمثيل والسينما برأس مال قدره ١٥ ألفا زيد الى ٧٥ ألفا .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر لنسيج الحرير برأسمال قدره ١٠ آلاف من الجنيهات زيد الى ٢٥٠ ألف جنيه .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى برأس مال قدره ٣٠٠ ألف جنيه زيد الى مليون جنيه، الى جانب سندات أصدرتها الشركة على ثلاث دفعات تبلغ قيمتها المليون جنيه تستهلك في كل عام .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر لمصايد الأسماك برأسمال قدره ٢٠ ألف زيد الى ٧٥ ألفا .

في سنة ١٩٢٧ أسست شركة مصر للكتان برأسمال قدره ١٠ آلاف زيد الى ٤٥ ألفا .

في سنة ١٩٣٠ أسست شركة مصر لتصدير الأقطان برأسمال قدره ١٢٠ ألفا زيد الى ١٦٠ ألفا .

في سنة ١٩٣٢ أسست شركة مصر للطيران

برأسمال قدره ٢٠ ألفا زيد الى ٨٠ ألفا .

في سنة ١٩٣٢ أسست شركة بيع المصنوعات المصرية برأسمال قدره ٥ آلاف جنيها زيد الى ٨٠ ألفا .

في سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للتأمين برأسمال قدره ٢٠٠ ألف جنيه .

في سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للملاحة البحرية برأسمال قدره مائة ألف جنيه زيد الى ٢٠٠ ألف .

في سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر للسياحة برأسمال قدره ٧ آلاف جنيه مصري.

في سنة ١٩٣٤ أسست شركة مصر لدباغة وصناعة الجلود برأسمال قدره ٥ آلاف زيد الى ٥٠ ألفا .

في سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار برأسمال قدره ٢٥٠ ألفا ثم زيد الى نصف مليون جنيه .

في سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر للمناجم والمحاجر برأسمال قدره أربعون ألفا .

في سنة ١٩٣٨ أسست شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت برأسمال قدره ٣٠ ألفا .

وقد كانت شركات الغزل والنسيج في المحلة وكفر الدوار، عملا اقتصاديا ناجحا غاية النجاح، وقد أدت خدمات هائلة للمستهلك المصري، في فترة الحرب العالمية الثانية، واضطرد انتاجها في التحسن، والتوسع، حتى أصبحت مصنوعاتها قادرة على منافسة انتاج أعظم البلاد الصناعية كسويسرا والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا .

ويمكن أن يقال أن الشركات التي يتصل نشاطها بالقطن كشركات حلج القطن أو تصديره والاتجار فيه في الداخل أو الخارج وتقلمه، كانت ايضا، شركات ناجحة.

أما شركات الملاحة والطيران والتمثيل والسينما، فقد كانت بذورا، ألقيت بيد طلعت حرب، لتضع الحكومة المصرية امام الأمر الواقع، ولتحملها في المستقبل القريب او البعيد، على النزول الى هذا الميدان الذي تستلزم كرامة الأمة والدولة معا، النهوض بتبعاته، وأداء تكاليفه مهما كانت باهظة، فإن لمكانة الوطن مقتضيات لا سبيل الى الفرار منها، وان كانت الحكمة تقتضي الدولة أن تقتصد ما استطاعت الاقتصاد ، في المجالات التي لا تزيد على كونها، ألوية ترفع، ورايات ترفرف، ومظاهر للوجود. فهي أشبه ما تكون بالتمثيل السياسي الذي يكون التوسع فيه ، حيث لا نفع ولا جدوى منه، اسرافا ممقوتا، وتبديدا تأباه المصلحة الحقيقية للوطن .

أما باقي شركات بنك مصر، فقد كان تجارب يتفاوت حظها من التوفيق، فبعضها كانت محاولات مخففة تماما، وبعضها كانت بدايات، قد تثمر في المستقبل ثمرا لا بأس به.

ولكنا اذا نظرنا الى شركات طلعت حرب، ككل، استطعنا ان نقول، انها كانت ارتيادا للحقل الاقتصادي المصري، وان للريادة دائما، ثمنا يدفع، فليست كل خطوة في الدروب المجهولة، والمجالات البكر، مضمونة النجاح، ولكن النجاح لا يأتي للناس، اذا لزموا أماكنهم، وتحاشوا المجازفة واستهداف الخطر، فالشركات ان لم يحالفها جميعا النجاح، الا انها كانت مدارس لتعليم الشبان المصريين وتدريبهم، واهابة للرأسمال المصري ان يتحرك ويجازف ويستكشف، ولو قام الرأسماليون الآخرون بواجبهم، وقامت الدولة بواجبها كذلك ، لوفروا جميعا على طلعت حرب

وبنك مصر ما بذل من جهد، وما أنفق من مال، وما تعرض له من نقد .

ولكن شركات بنك مصر ، كان لها دور آخر، فى حياة طلعت حرب ونشاطه، فقد منحته الحق، فى أن يتحدث ويعمل ويتحرك، بوصفه رئيسا لدولة غير رسمية، تكمل الدولة الرسمية ، ويقوم عنها بما لا تقوم به، ويقول مالا يقوله رؤساء الوزارات، والوزراء الزعماء، للصحف، ويشغل نفسه بأكبر وأعظم وأبقى مما يشغل بال ونفس هؤلاء جميعا، وقد يكون من الصعب تعقب كل ما قاله طلعت حرب فى هذا الصدد، بصفته رئيسا غير متوج لدولة هو واضع أساسها، وراسم بناؤها، ومحدد أهدافها. وقد لايستطيب القارئ كثيرا هذه المقتبسات المنتزعة من خطب طويلة، فقد لا تكون للمقتبسات روح الخطبة الكاملة، وأثر سياقها المتصل، ولذلك لابد من الاقتصاد ما استطعنا فى هذه الاستشهادات .

وأول ما يعرض أو يفرض علينا نفسه من هذه الاستشهادات ، هو ما قاله طلعت حرب فى ٣ من مارس سنة ١٩٢٤، فى وليمة أولمها للقناصل المصريين الجدد وأنى لأرجوك أن تتبين المعنى فى هذه الوليمة. فلقد كان التمثيل القنصلى جديدا فى مصر، عقب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وبعد انعقاد أول مجلس نيابى مصرى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

إنى أستطيع أن أؤكد أن هؤلاء القناصل الجدد الذين تهيأوا للسفر الى مقار أعمالهم لم يتلقوا من أحد غير طلعت حرب دعوة لتكريمهم أو التحدث اليهم، بل لعل وزير الخارجية المصرى نفسه لم يلتق بهم مجتمعين، أما الهيئات الأخرى مثل اتحاد التجار أو اتحاد الغرف التجارية، أو وزير المالية، فلعلهم لم يشعروا تماما بأن جهازا جديدا وضع فى خدمتهم هو جهاز السلك القنصلى.

أليس صحيحا اذن ما أقوله من أن طلعت حرب، كانا يفكر بالنيابة عن رئيس الدولة ورئيس الوزراء، والوزراء فيعوض على البلاد، ما يضيعه هؤلاء، بنقص ثقافتهم السياسية. وقلة ادراكهم لواجباتهم الوطنية .

اجتمع طلعت حرب بالقناصل المصريين، فاسمع ماذا قال لهم :

قال أولا : «اذا كنا نأسف لأن حوادث التاريخ قد حرمتنا حق التمثيل فى مدى عدة قرون فاننا نفرح لأن العصر الحاضر قد اتصل بالعصر الغابر فى استعادة هذا الحق الذى لم يضع بالتقادم، ونفرح بالذات لأننا نرى فيكم وفيمن سبقوكم منذ أسابيع من رجال التمثيل السياسى حلقة الاتصال بين هذا الحاضر وذاك الغابر .

ثانيا : أنتم تتمون بناء الأجداد وكم عمل هؤلاء الأجداد قديما منذ عهد توت عنخ آمون الى عهد الدولة الفاطمية، كان لهم فى غضون المدنيتين العظيمتين اللتين ورثناهما عنهم فى دمائنا . مدنية الفراعنة القديمة، وثانهما ومدنية العرب المجيدة جهود لم تقف عند حد تشييد القصور والقبور، والمآثر والآثار بل اتجهت الى كل معنى من معانى الروح والدين وما بعد المات.

ثالثا : نرى الآن حلقة الاتصال بالخارج قد انقطت بنا عدة قرون فكان انقطاعها مضافا الى

أسباب أخرى داعيا الى جعل الترقى فى أساليب الانتاج ضعيفا.

رابعا : لهذا نحن لا نطلب الى حضرات القناصل أن يقوموا بما هو مفروض على بقية الأفراد والجماعات العاملة من الأمة المصرية ، ولكننا نطلب إليهم أن يعملوا كما كان يعمل أسلافهم من الأجداد الغابرين ، نطلب إليهم أن يزدادوا معرفة بأحوال بلادنا الاقتصادية بحيث لا يكون ابتعادهم عن مصر ، سببا فى عدم معرفة شئونها الاقتصادية ثم نطلب إليهم أن يدرس كل منهم فى جهته أحوالها الاقتصادية من جميع الوجوه ، وأن يتفهم ما ينتج وما يصلح من انتاجها لبلادنا وما تحتاج إليه من منتجاتنا ويرشد عن طريقة الانتفاع من التبادل التجارى بين البلدين : وأن يتفهم طرائق كل قوم يعيش بين ظهرانيهم فى الانتاج والتوزيع ويرشدنا عن الجديد من هذه الأساليب ارشادا يصح أن يكون محل التجربة للانتفاع به فى بلادنا ، أو يبقى قائما فى ذاته ، فإن من الأساليب ما لا نرى فى تطبيقه اليوم نفعا وقد نرى فى اقتباسه فى الغد فائدة».

وأكاد أقطع بأن القناصل المصريين منذ ذلك اليوم ، لم يفكر أحد فى دعوتهم لشىء مما دعاهم إليه طلعت حرب ، ولم يسمعوا من رئيس أو وزير مصرى منذ تلك الوليمة الفكرية التى أولمها لهم ، كلاما كهذا الكلام ، الذى لا يصدر إلا عن مثقف، يعرف تاريخ بلاده ، ويحبها ، ويحب هذا التاريخ ، ويحترم عقول الذين يتحدث إليهم، ويشعر بأن له الحق فى توجيههم ، وفى رسم منهاج العمل لهم ، وإن كان مجرد عضو مجلس ادارة منتدب فى بنك مصرى ، وشركات تتبعه .

وإذا كان طلعت حرب ، لا تكاد تتاح له فرصة ، تمكنه من التحدث عن برنامجه العام إلا ويعض عليها بالنواجذ ، فقد وجد هذه الفرصة واسعة ، وهو يتحدث باسم التجار فى حفلة تكريم رئيس الوفد سعد زغلول ، وأعضائه عند عودتهم إلى مصر ، بعد سنتين قضوها فى الخارج من ابريل سنة ١٩١٩ حتى فبراير سنة ١٩٢١ . قال:

«أمامكم أمم العالم فهل رأيتم أمة بينها تترك الصدفة حبلها على غاربها فى شئونها الاقتصادية لا رأى لها فى الذب عن مصالحها وتترك طعمة للآكلين ومضغة لكل ماضغ . أين الغرف التجارية التى أسسها (المهيمنون على أمورنا) أو ساعدوها ؟ أين النقابات الزراعية والصناعية التى نظموها ؟ أين البنوك والشركات المصرية التى عملوا على ايجادها ؟ أين التشريع الذى يقى المصريين ويحمى صناعتهم ومحاصيلهم ؟ تركوا المصريين عزلا من كل سلاح بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة ، وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشىء ، لأننا لم نعمل شيئا ، وهم هم الذين لم يؤهلونا للعمل بل أفسدت السياسة ما كان صالحا لدينا» .

لم يقنع طلعت بقبول هذا الكلام ، فهو لم يكن يقوله لسامعيه ، وإنما كان يحدث به نفسه ، بصوت عال ، فهذا برنامجه هو، أهملته الحكومات الخاضعة للنفوذ الأجنبى ثم أهملته حكومات الأحزاب ، فليقم به هو ، معتمدا على نفسه ، وعلى الشعب الذى كان يحسن الظن به ، صدقا لا ادعاء ولا دجلا . ■

أنا والليل

شعر
نازك الملائكة

الهلال – ربيع ثانى ١٤٢٣هـ – يوليو ٢٠٠٢م

ارجعْ، فالليل تثير مخاوفهُ قلقى
وأنا وحدى والنجم بعيد فى الأفق
يخدعنى أمل فى فجر لم ينبثقِ
وحبابة دمع باردة لم تحترقِ

٢

ومددت يدى فرجعت بحفنة ظلماء
وسألت الليل فبؤت ببضعة أصداء
أصداء مغرقة فى سورة إغماء
جاءت تزحف من أغوار الماضى النائى

٣

دربى حاولت سدى أن أرفعَ أستارهْ
تصخب فى عتمته أشباح ثرثارهْ
أنكرت الدرب كأن لمَ أعرف أحجارهْ
يوما بالأمس، ولم أستكشف أسراره

٤

أرجع ،أواه ،ألا تسمع صوتى الموهون
لن أبقى وحدى فى هذا الدرب المجنون
هذا الأفق المستغلق حيث النجم عيون
حيث الأشجار هياكل أفكار وظنون

٥

تتردد فيه أصوات تُنذر حبى
أصوات غادرة تنبح ملء الرحب
صدقنى وارجع أخشى أن تجرح قلبى
صدقنى إنى أسمعها تملأ دربى

٦

فى المعبر سعلاة ترمقُ طيفى بفتور
ووراء المفترق المتشعب بعض قبور
خذ بيدى ، ولنترك هذا الأفق المهجور
لا تتركنى روحا صارخة فى الديجور

كان ياما كان

هذا الملف استعراض لأحداث نصف قرن، البعض عاش بعض هذه الأحداث بقلبه وعقله،

والبعض الآخر من الأجيال الجديدة لم يعش هذه الأحداث.

خمسون عاما مرت على ثورة يوليو ١٩٥٢ .. هذه السنوات شهدت أحداثا هامة ، بدءا من تحرير الإرادة المصرية والقضاء على الفساد المتمثل فى إسقاط الحكم الملكى ، وخروج الانجليز من مصر ، وإقامة الحياة الاجتماعية الكريمة لغالبية الشعب المصرى ، والتى تمثلت فى مجانية التعليم وقانون الإصلاح الزراعى ، وإقامة الصناعة الوطنية، وإعداد جيش قوى يدافع عن الوطن .

تحققت الوحدة مع سوريا، وقيام حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الإفريقية .

ثم بناء السد العالى وتأميم قناة السويس وخروج الانجليز من مصر، ومقاومة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ .. وعلى الرغم من هزيمة يونيو ١٩٦٧ وما تلاها من تداعيات تم تحقيق النصر عام ١٩٧٣ وعبرنا خط بارليف وتم تحرير سيناء .

فقدت مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ جمال عبد الناصر ، وفى ٦ أكتوبر ١٩٨١ فقدت أنور السادات ، وكلاهما قدم الكثير من أجل الوطن، ثم تولى الرئيس مبارك قيادة مصر ليواصل مشوار نهضتها وتقدمها .

هذاالجزء أشبه بشريط سينمائى عن بعض الأحداث خلال نصف قرن .

الهلال



صورة من حرب فلسطين وقضية الأسلحة الفاسدة وصورة لحريق القاهرة تعبيرا عن غضب الشعب المصري وفي الصفحة المقابلة قائد الدبابات يدرس خطة حصار قصر عابدين .









أمر ملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

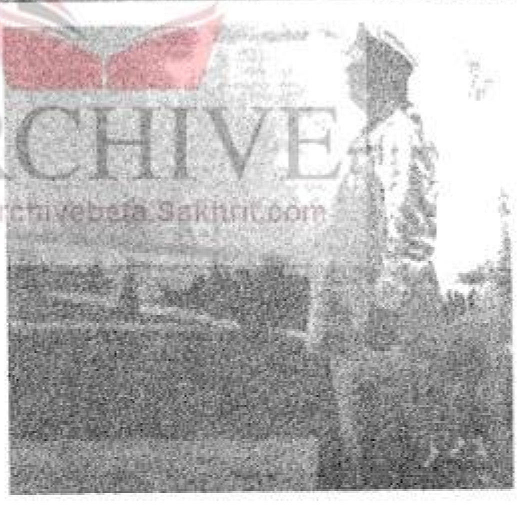
لما كنا نتطلب الخير دائماً لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة

ونزولاً على إرادة الشعب

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه.

صدر بقصر رأس التين في ٤ ذي القعدة ١٣٧١ (٢٦ يوليو ١٩٥٢).



الحصار ورحيل الملك يوليو ١٩٥٢

طلائع ثورة ١٩٥٢ متمثلة في حصار قصر عابدين، وقد انتشر الضباط في ساحة القصر، وهم يحاصرونه باسم الشعب وصورة ضوئية من وثيقة تنازل الملك فاروق عن عرش مصر والتي وقعها الملك مرتين نظرا لاضطرابه، فالمفاجأة أذهلته تماما وشلت تفكيره!

ولقطة لرحيل الملك فاروق عن البلاد ويرى وهو يلقي آخر نظرة وداع على بلاده التي لم يصنها ويعمل على رخائها.

كان يا ما كان





أول وزارة بعد الثورة

محمد نجيب يهنئ على ماهر بعد تشكيل الوزارة والتي لم تستمر أكثر من شهرين وشكل بعدها محمد نجيب وزارته ويرى في الصورة جمال عبدالناصر وجمال سالم.

وبدأت الثورة تحقق أهدافها في العدالة الاجتماعية .. ونرى أحد فلاحي مصر وهو يقبل عبدالناصر ابتهاجا بتسليمه وثيقة ملكية خمسة أفدنة من أراضي الإقطاع



أول وزيرة وأول نائبة برلمانية

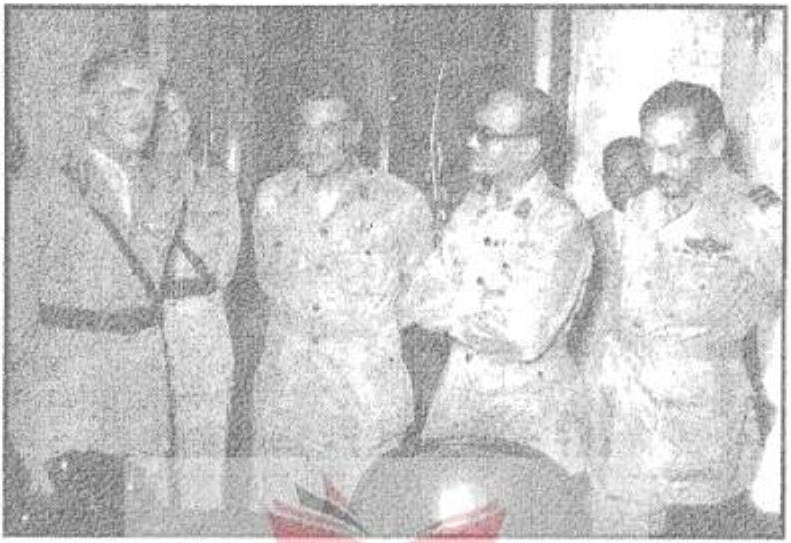
أول وزيرة مصرية كانت في عهد الثورة وقد حصلت المرأة على الكثير من حقوقها، فحصلت على حق التصويت والترشيح، وتولى وظائف كبرى في النظام السياسي.

وكانت د.حكمت أبو زيد أول وزيرة، للشئون الاجتماعية وراوية عطية نائبة في أول برلمان يتيح الفرصة للمرأة.

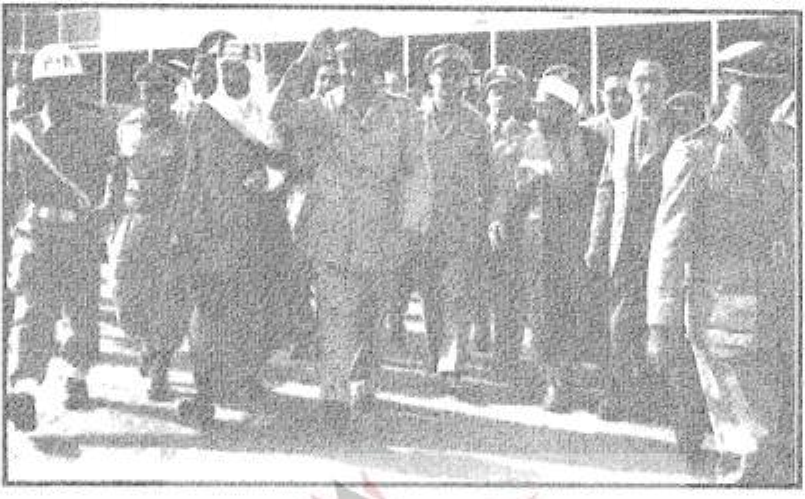
* * *

وعلى الصفحة المقابلة بدأت المباحثات المضنية من أجل خروج الانجليز من مصر ويرى في الصورة العليا عبدالناصر والجنرال روبرتسون في ابريل ١٩٥٣ أثناء مباحثات الجلاء، ثم لقطة لعبد الناصر وأنتوني ناتنج أثناء توقيع اتفاقية الجلاء.













مؤتمر باندونج

عبدالناصر وحوله عدد من الزعماء العرب الذين شاركوا في مؤتمر باندونج في مواجهة الأحلاف والتكتلات الغربية ، كان قرار تأميم قناة السويس أحد أهم أسباب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ولقطة تبين آثار الدمار على بعض المباني في مدن القناة

* * *

العدوان الثلاثي

و جمال عبدالناصر يخطب في الجامع الأزهر عقب العدوان الثلاثي على مصر ويحشد الجماهير لمواجهة المعتدين من انجلترا وفرنسا واسرائيل .

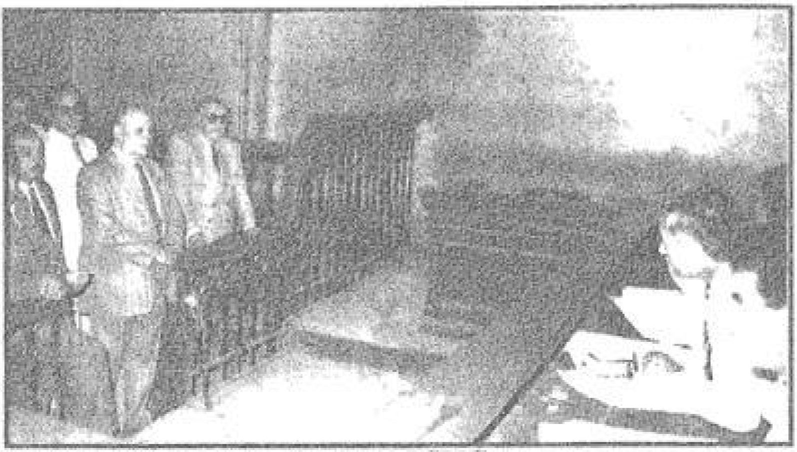


عبدالناصر يطفئ ظمأه ويرتوى من ماء «قلة» وبجواره الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف .

وعلى الصفحة المقابلة إحدى الجلسات التي يتم فيها محاكمة فؤاد سراج الدين

وصورة لجمال عبدالناصر فى واحد من لقاءاته مع زعيم إفريقى .

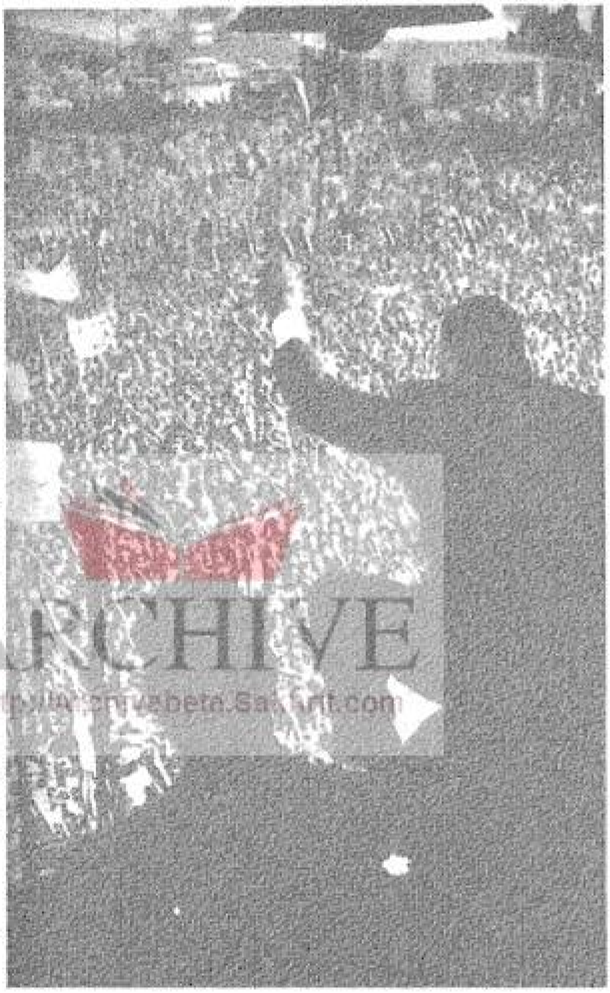
كان يا ما كان











إقامة السد العالى

على الصفحة المقابلة بداية مشروع السد العالى .. ويرى جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى والملك محمد الخامس ووزير الرى السودانى أثناء وضع حجر الأساس.

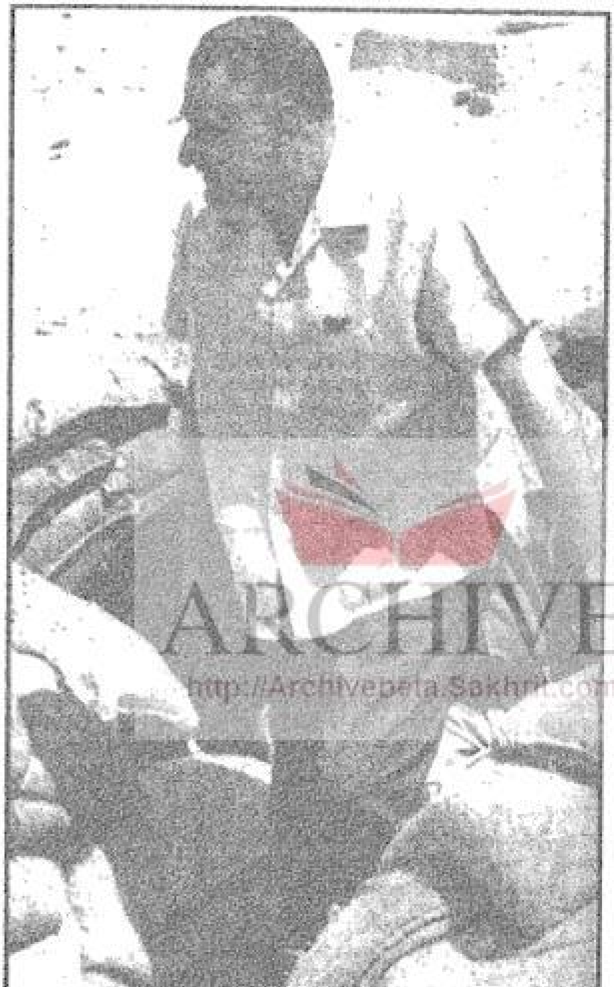
مؤتمرات القمة العربية ١٩٦٤

ولقطة تجمع عبد الناصر والملك سعود وأمير الكويت فى إحدى جلسات أول مؤتمر للقمة العربية بالقاهرة ١٩٦٤

الوحدة بين مصر و سوريا

ثم مشهد تاريخى للجماهير السورية التى سارعت للقاء عبد الناصر فى حلب عقب إعلان الوحدة المصرية - السورية فى فبراير ١٩٥٨

كان يا ما كان



جمال عبد الناصر يزور أحد المواقع العسكرية أثناء حرب الاستنزاف والتى بدأت بعد نكسة ٥ يونيو ١٩٦٧.

سبتمبر الأسود

على الصفحة المقابلة مؤتمر القمة العربية الذى عقد خلال أحداث أيلول الاسود والصراع الذى دار بين القوات الأردنية وقوات من منظمة التحرير الفلسطينية .. بذل عبدالناصر جهده ودمه من أجل إيقاف نزيف الدم العربى ..

ولقطة تضم عبد الناصر وياسر عرفات ومعمر القذافى بعد المصالحة.

وبعد انتهاء مؤتمر القمة قام عبد الناصر بوداع الرؤساء المشاركين فيها.





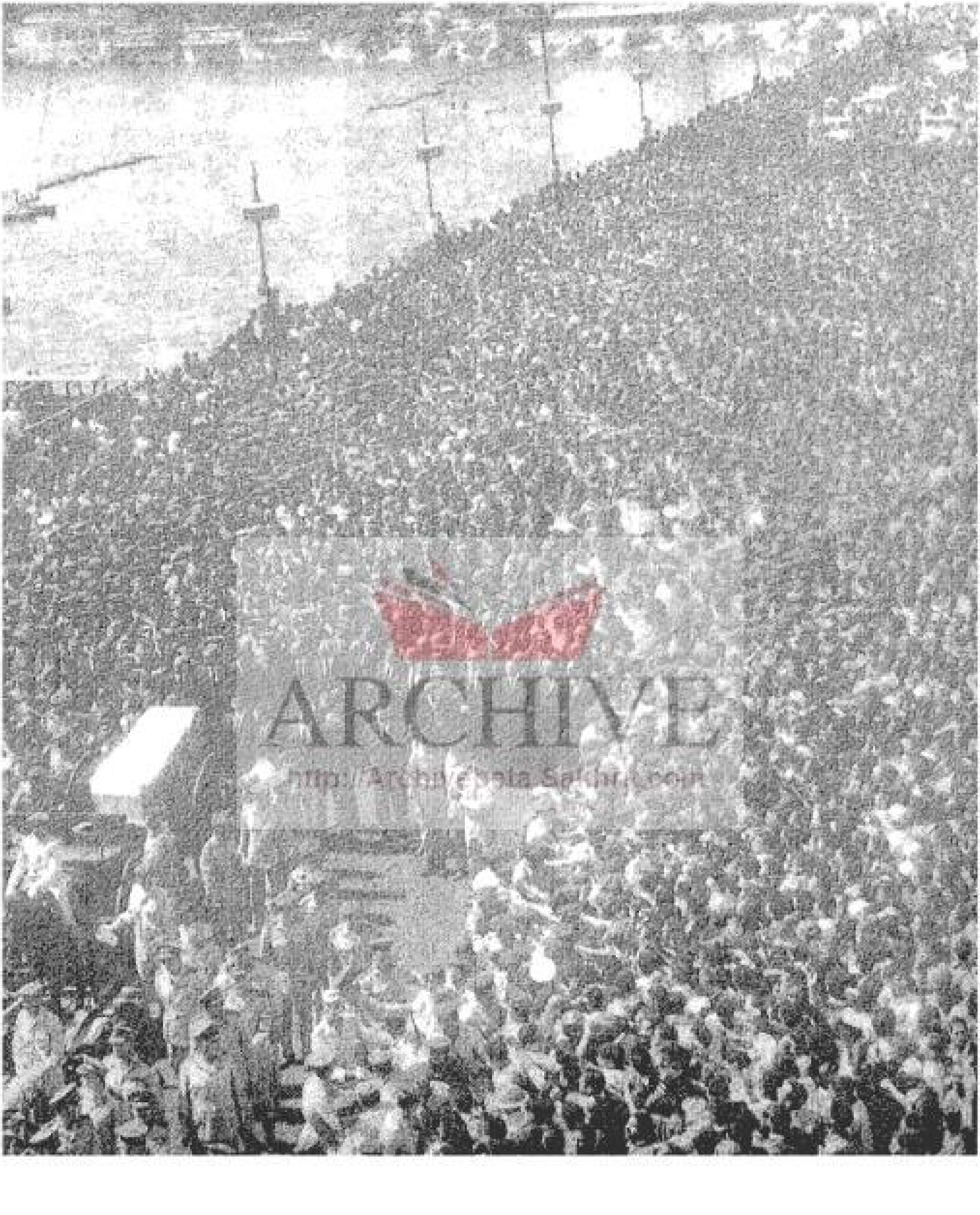


يوم وفاة عبدالناصر

كان آخر من قام بوداعه في مطار القاهرة أمير الكويت ، ثم عاد إلى منزله لكي يسلم الروح وعمره لم يتجاوز الثانية والخمسين .

على الصفحة المقابلة

جنازة الرئيس جمال عبد الناصر والتي حضرها ملوك ورؤساء أغلب دول العالم .







تولي أنور السادات مقاليد الحكم في أكتوبر عام ١٩٧٠، وفاجأ العالم بقرار العبور في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، والذي أذهل العالم واندفعت قواتنا المسلحة تتخطي خط بارليف وتكسر حاجز الخوف ، لتسترد سيناء، وتستعيد الكرامة، ويري أول مشهد لرفع العلم علي أرض سيناء الحبيبة .





الفريق أحمد إسماعيل واللواء طيار حسني مبارك قائد القوات الجوية وأحد نسور الجو يدرسون خطط الهجوم علي العدو الإسرائيلي أثناء حرب ١٩٧٣.



ولقطة لعودة قناة السويس أمام الملاحة العالمية في ٥ يونيو ١٩٧٥

وعلي الصفحة المقابلة لقطة تجمع بين الفريق سعد الدين الشاذلي والفريق أول أحمد إسماعيل





مباحثات كامب ديفيد

الرئيس السادات والرئيس الأمريكي جيمي كارتر أثناء المباحثات في كامب ديفيد عام ١٩٧٩

حادث اغتيال الرئيس السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ .







عقب تولي الرئيس حسني مبارك مقاليد الحكم استقبل عددا كبيرا من المعتقلين السياسيين وأمر على الفور بالإفراج عنهم.



الرئيس حسني مبارك يرفع علم مصر علي سيناء الحبيبة بعد تحريرها

الهلال

وشقيقاتها

- مجلة الهلال تصدر أول كل شهر.
- كتاب الهلال يصدر فى الخامس من كل شهر.
- روايات الهلال تصدر يوم ١٥ من كل شهر.

بالإضافة إلى كتب النشر الخاص الذى يتضمن الثقافة الرفيعة بأقلام كبار الكتاب

إحرص على اقتناء هذه المطبوعات التى تزدان بها مكتبتك، ويشارك فى تحريرها وكتابتها أعلام الفكر والثقافة العربية

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الإسلام والثورة:

الإخوان وعبد الناصر

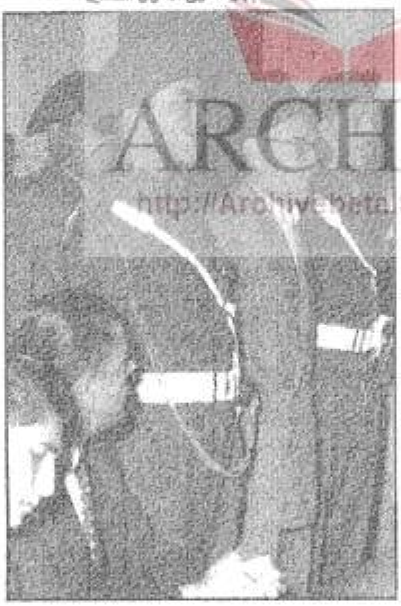
إتصالات الأخوان بالإنجليز عام ١٩٥٣م

بقلم : د. أحمد زكريا الشلق

في واقعة غير مسبوقة أجرت السلطات البريطانية في مصر اتصالات ومحادثات سياسية مع تنظيم شعبي، وهو جماعة الإخوان المسلمين في فبراير عام ١٩٥٣، أي بعد قيام الثورة بنحو سبعة شهور، دارت حول تسوية العلاقات المصرية - البريطانية ، وكانت هذه المسألة تمثل تدخلا مباشرا من جانب جماعة الإخوان للمشاركة في هذه القضية السياسية المهمة التي عادة ما تناط بالحكومات، كما كانت هذه المسألة إحدى القضايا التي ساهمت في تدهور العلاقات بين مجلس قيادة الثورة وبين الإخوان، مما ساعد على التمهيد لمرحلة صراع عنيفة، أعقبت مرحلة التوجس والاستكشاف من كلا الجانبين، تلك المرحلة الجديدة التي بلغت ذروتها في حادث محاولة اغتيال عبدالناصر، فيما عرف بحادث المنشية في أكتوبر ١٩٥٤.



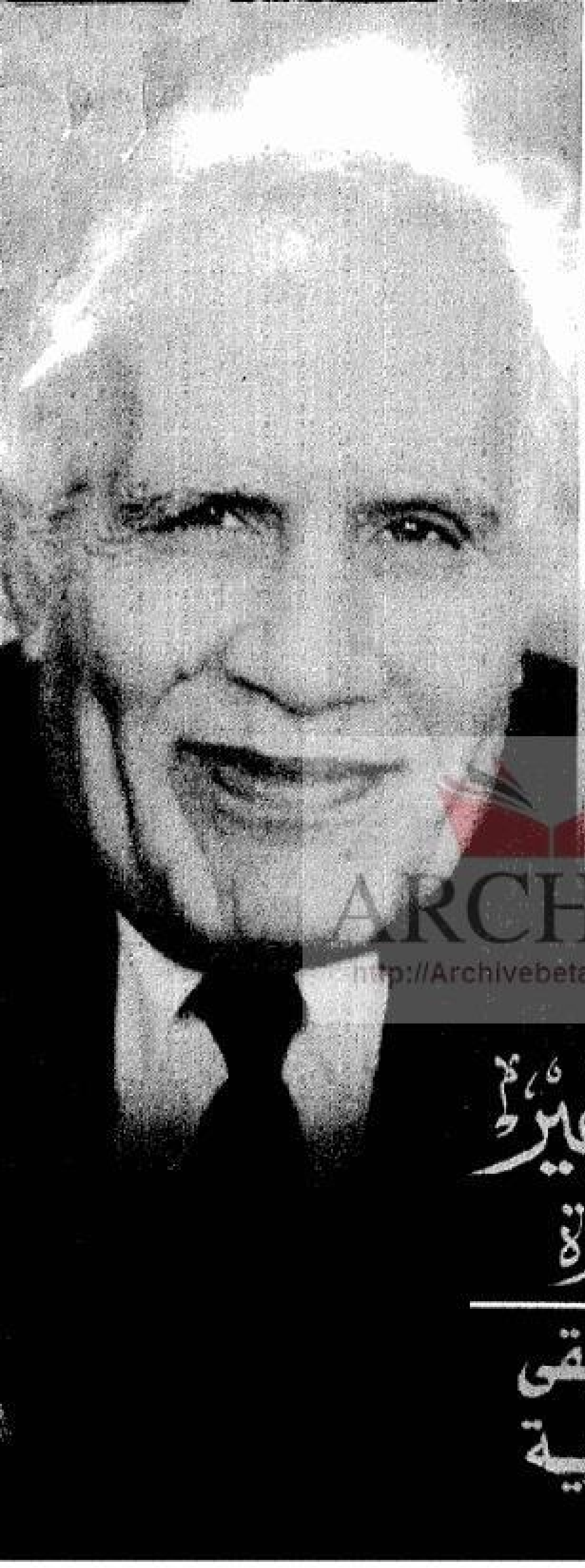
محكمة الثورة بعد حادث محاولة اغتيال عبد الناصر بالمنشية ويرى على المنصة جمال سالم وانور السادات



الصيدلي خميس حميدة واستقبال حكم المؤبد أثناء محاكمة الجهاز السري للاخوان المسلمين



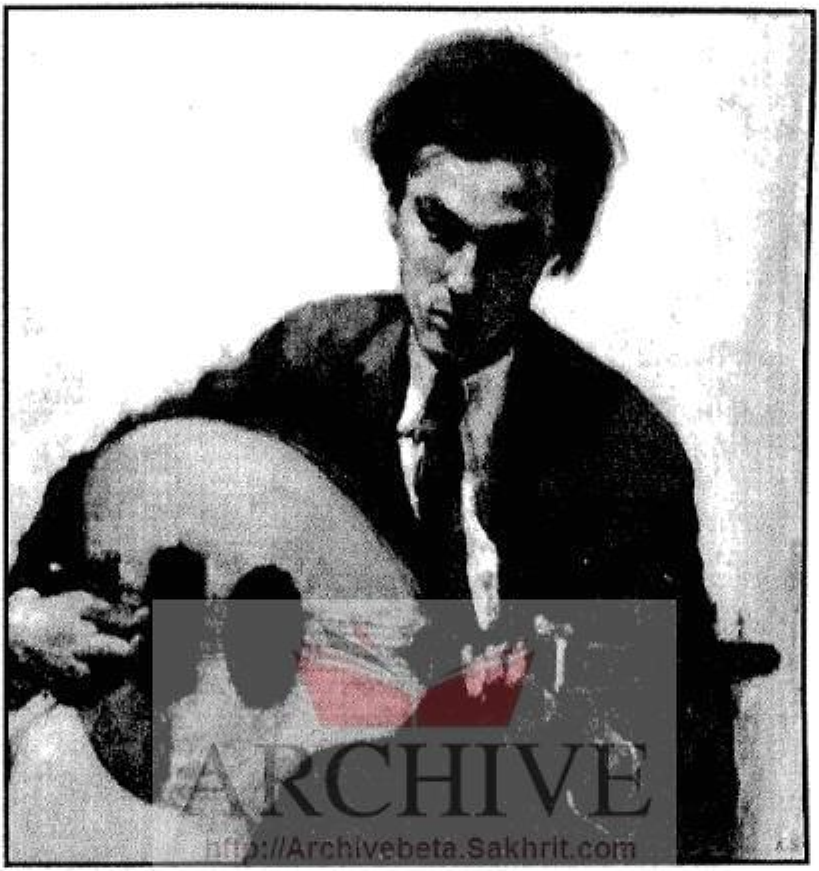
محمود عبد اللطيف المتهم بمحاولة اغتيال عبد الناصر



الهلال

د. أحمد مستجير
العالم والجائزة

دعوة لإنقاذ ماتبقى من البيوت الأثرية



لوحة وفنان



لوحة : بيكار
للفنان : أحمد صبرى

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - التلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
تلكس ٣٦٢٥٤٦٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦١ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير
محمد أبو طالب — المستشار الفني
عاطف مصطفى — مدير التحرير
محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار
إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٢٥ دولارا. باقي دول العالم ٤٠ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ محمد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٢ - الصفاة - الكويت ت/ 13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة
جمادى أول ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

وصف مصر

حدث ثقافي كبير: استكمال وإعادة نشر كتاب «وصف مصر»، فهو وصف بانورامي لما كانت عليه مصر منذ أكثر من مائتى عام.

ونشر هذا الكتاب هو بالتأكيد أحد إنجازات مكتبة الأسرة، ودعم لهدف «القراءة للجميع»، وهو يظهر التباين فى منهج التفكير بين الغرب والشرق.

وجاء الاهتمام هذا العام من قبل السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس حسنى مبارك بواحد من أهم الكتب التى تؤرخ لمصر، والذى اهتم بكل ثقافة الشعب المصرى، بدءا من الحضارة الفرعونية، ومرورا بتاريخ مصر المعاصر، بالكلمة والصورة وليكون خير شاهد على أن الحملة الفرنسية عادت أدراجها بمدافعها وقواتها، وليبقى هذا الكتاب العلمى ذا أهمية فى أن تقرأه الأجيال الشابة لتتعرف على تاريخ مصر.

وتعتبر موسوعة «وصف مصر» والتى تطرحها الهيئة المصرية العامة للكتاب بسعر رمزى هذا العام، وقد وضعها العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م) من أكثر الموسوعات العالمية الموثقة عن تاريخ مصر وفنونها وتراثها التاريخى والعلمى. وأصبحت بالتالى جزءا من التراث الفكرى العالمى.

وقد ظلت تلك الموسوعة المكتوبة باللغة الفرنسية مهملة على أرفف المكتبات العامة، ودار الكتب، دون أن تصل إلى القارىء العربى، حتى تصدى الأديب الراحل زهير الشايب لترجمتها، على الرغم من أن مثل هذا العمل الجبار كان يحتاج إلى مؤسسة لكى يتحقق لكن زهير استطاع أن يحقق حلم حياته، وأن ينجز فى فترة وجيزة ترجمة «وصف مصر» فى عشرة أجزاء فكان عمله هذا أشبه بالمعجزة ومنحته الدولة جائزتها

التشجيعية عام ١٩٧٩، ثم رحل عن الحياة سنة ١٩٨٤ قبل أن ينجز مشروعه بالكامل بعد أن أضناه العمل وسهر الليالى.

وظلت بقية الأجزاء تنتظر من يستكمل ترجمتها إلى العربية ولتكون فى متناول القارىء العربى، وخاصة ملاحق الكتاب، وهى عبارة عن ١٢ مجلدا كبيرا تضم ٩٠٠ لوحة، تعد مكملة للأجزاء النصية.

وقد ركز زهير الشايب عمله مع مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبع بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل.

وقد سبق وطبع كتاب وصف مصر الذى يعتبر إنسكلوبيديا مصرية مرتين: الأولى استغرق العمل فيها من سنة ١٨٠٩ إلى سنة ١٨٢٢م وظهر المجلد الأول بالفرنسية عام ١٨٠٩، لكن بقية المجلدات التسعة ظهرت بعد سقوط الامبراطور نابليون الأكبر.

وتضم المجلدات التسعة: مجلدين لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر من طيور ونبات وأسماك وحشرات وحيوانات وأربعة مجلدات لدراسة العصور القديمة، وثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة لمصر، والتى تبدأ على وجه التقريب منذ الفتح الإسلامى لمصر، وحتى مجىء الحملة الفرنسية.

وصدور موسوعة «وصف مصر» فى هذا التوقيت يعد إنجازا حقيقيا لإثراء الفكر الثقافى والحضارى لمصر، فضلا عن أن كل ما تضمنته يعد جهدا لا يمكن إغفاله لعلماء الحملة الفرنسية الذين لم يضيعوا وقتا، بل أنجزوا هذا العمل الذى يثبت أن مصر بلد الحضارة العريقة من خلال كل ما سجلوه وكتبوه.

تحية للدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب على جهده الذى جعل لدى كل مهتم مكتبة غنية بالمعارف المتعددة.

إنه كتاب ضرورى فى كل مكتبة.

المحــــــرر



استقلال الجامعة

يجب التركيز على هدف إرساء قيم العلم والعقلانية

بقلم

د. حامد عمار

في ندوة عقدت مؤخرا في المركز الثقافي الفرنسي شاركت فيها مع الصديق الجليل أ. د. حسن حنفي حول رسالة الجامعة، تركز الحديث حول مفهوم رسالة الجامعة وما يقتضيه احتضان هذه الرسالة في المؤسسة الجامعية. وكان محورها منذ البداية التفرقة بين وظيفة المؤسسة ورسالتها، والتأكيد على أن الرسالة تحمل في خطابها مضامين ومعاني وقيماً ذات أبعاد إنسانية مترامية الأطراف، لا تقتصر في أدائها على الحدود المكانية أو الزمانية في داخل المؤسسة أو التنظيم. وهي في الوقت ذاته تحتوي على قضايا رئيسية متعددة تسعى إلى الانشغال بها، كما هو الشأن في احتواء رسالة الجامعة لقضايا رقي المجتمع واكتساب المعرفة وإنتاجها، وتكوين قيادات علمية وفنية في مجالات العلوم التطبيقية والاجتماعية والإنسانية، وشمول روادها لكل من الذكور والإناث، ولطلاب مصر والوافدين من الأقطار العربية والإسلامية. ثم تتصل امتداداتها إلى ما قبلها من المنظومة التعليمية المدرسية التي تستقبل طلابها، وإلى ما بعدها من الأطر والتنظيمات المجتمعية المختلفة حيث من المنتظر أن يعمل فيها خريجوها.

ومع هذا المضمون القيمى فى قوميته وإنسانياته وتعدده وامتداداته، فإن أى رسالة تتضمن، كجزء من مفهومها، نشاطات دعوة تقوم لتكسب أنصاراً، أو لتشكل فكراً معيناً، أو لترسخ قيماً ومعتقدات تؤمن بأهميتها وصلاحيتها فى حياة الأفراد والجماعات. ومن ثم فإن لكل رسالة داعية أو دعاة، ولابد لدعوتهم من أن تتجسد فى تنظيم محدد يتولى العمل على تحقيق أهداف الرسالة ومقاصدها. والجامعة كمؤسسة هى حاضنة تلك الأهداف، والمسئولة عن اتخاذ كل الإجراءات المناسبة للقيام بالمهمات الضرورية تحقيقاً لمضامين رسالتها.

وبين المحاولات الفكرية لتحديد المفاهيم وعلاقاتها تقفز فجأة مع أحداث اللحظة التاريخية مواقف الطلاب خلال مراحل نضالات الأمة فى مواجهة الاستعمار وطلباً للحرية والعدالة. ويبرز النصب التذكارى المقام أمام كلية الآداب فى جامعة القاهرة للشهيدين الجراحى ومرسى ممن استشهدوا فى الثورة ضد الاستعمار البريطانى، وتذكرنا هذه اللحظة التاريخية كذلك استبعاد (٤٥) أستاذاً جامعياً عام ١٩٥٤ حين عبرت أقلامهم وكلماتهم عن أهمية الاستمساك بالديمقراطية فى الحكم. وتتداعى الذكريات ليأتى الطلاب مرة أخرى عام ١٩٦٨ مطالبين فى تظاهرهم بتصحيح الأوضاع بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وتتردد أشعار أحمد فؤاد نجم ورفيقه الشيخ أمام (ياعم حمزة، رجعوا التلامذة للجد تانى). ومن حولنا فى كل جامعة يحتشد الطلاب ومعهم أساتذتهم تناشد صيحاتهم الصاخبة وبياناتهم الغاضبة الأمة العربية، العمل على إيقاف الغزو الشارونى الدموى للأرض الفلسطينية، و مساعدة الشعب الفلسطينى على الاستمرار فى مقاومته البطولية تحريراً للأرض والمقدسات.

الرسالة فى نشأة الجامعة

ثم تعود الندوة بعد أن طرحت هذه المشاهد الرائعة لمعالجة موضوعها بصورة منهجية.. ولتتساءل حول مسيرة المؤسسة الجامعية فى احتضان رسالتها، وعن تطور تلك المسيرة، ومدى احتفائها بالتفاعل مع رسالة تحرص عليها، وتدعو لها، وتؤكد التزامها بها. ومما ورد ذكره فى هذا الصدد ضرورة الالتفات إلى السياق التاريخى المجتمعى والدوافع لإنشاء الجامعة المصرية لفهم ديناميات المؤسسة/ الرسالة.

لقد تمت الدعوة لإنشاء الجامعة الأهلية من خلال صفوة من أعلام الحركة الوطنية منهم مصطفى كامل وسعد زغلول، وشارك فيها الأثرياء والأمراء ومختلف الفئات الشعبية بإسهامات رمزية، كذلك جاءت الدعوة بعد حادثة دنشواى

المروعة، وفى أجواء سياسية دولية أدت إلى دعم شرعية بريطانيا فى احتلالها لمصر بعد الاتفاق الودى الثنائى بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤. وفى هذه الأجواء المحبطة تمخضت الحركة الوطنية عن إنشاء الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ رغم معارضة دنلوب ومحاولة توجيه الأنظار إلى أهمية نشر الكتاتيب ومراكز التدريب المهنى.

ونخلص من هذا إلى أن إنشاء الجامعة الأهلية استهدف بطريقة غير مباشرة العمل على أن تحمل رسالتها لمقاومة الاستعمار فى خطابها المسكوت عنه. ولم يكن فى الفكر المصرى أو حتى العالمى إذ ذاك الفكر الليبرالى فى مفهوم (العلم للعلم)، وفى التعليم الجامعى للنخبة لتكوين جماعة العلماء الذين (يحملون عن مصر واجبها فى المسئولية العالمية عن تقدم العلوم والفنون فى مدينتنا الحاضرة) ويتابع أحمد لطفى السيد فى خطابه إلى الاتحاد العلمى فى كلية العلوم عام ١٩٤٠ مشيراً إلى أن (قوة الأمة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة، ليست آخر الأمر إلا نتيجة لتربيتها الجامعية).

ومع ما يبدو من المفهوم الليبرالى (العلم للعلم) من انفصاله عن تطلعات المجتمع، إلا أنه فى ذلك الوقت هو التعبير عن امتلاك القوة والاقتدار على مواجهة الاستعمار من خلال العلم والثقافة، ودعم الوحدة الوطنية وتكوين النخبة المثقفة فى مقابل إعداد (موظفين للإدارة الحكومية لا أكثر ولا أقل) مما كانت تقوم به آنذاك معاهد التعليم العالى الحكومية. وهذا ما ورد فى قانون تأسيسها من توضيح رسالتها فى (ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف دياناتهم، وذلك بنشر الآداب والعلوم). ولم يكن هدف ارتباط التعليم بالاقتصاد أو بسوق العمل وارداً فى الفكر الاقتصادى أو التربوى على المستوى العالى أو فى الجامعة المصرية إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

وتستمر الجامعة حاملة لواء الليبرالية والاستقلالية حتى بعد أن تحولت من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية باسم الجامعة المصرية عام ١٩٥٢ وبعدها باسم جامعة الملك فؤاد الأول، يتم تمويلها من موازنة الدولة السنوية. ومما يستحق التنويه أن الجامعة أصبحت فى بؤرة الاهتمام الحكومى مع تنامى الشعور القومى بأهمية التعليم الجامعى بعد ثورة عام ١٩١٩ وما تلاها من الاستقلال الذاتى عام ١٩٢٢ وصدور الدستور عام ١٩٢٣ بعده تحولت إلى جامعة رسمية عام ١٩٢٥.

وهكذا تتخلق الجامعة فى تطورها مع أحداث الوطن ومصائره وتطلعاته. ولم يكن تدخل الدولة إذ ذاك تدخلاً ضاغطاً، بل كان تدخل الأحزاب وما تكون فى الجامعة من أحزاب طلابية، هو الأكثر ظهوراً

والأقوى صوتاً. وأذكر من خبرتى الشخصية حين كنت طالباً فى كلية الآداب فيما بين عام ١٩٣٧ - ١٩٤١ ما حدث من بدايات التدخل الحكومى استبعاد د. طه حسين من عمادة الكلية واستبداله بالأستاذ سليم حسن الأثرى المشهور. وحين سئل د. طه حسين عن سبب إبعاده أجاب بمقولته البليغة الموجزة «إن كلية الآداب أضيق من أن تسعنى وتسع سليم حسن».

بيد أنه كثيراً ما كان ممثلو الأحزاب يدخلون إلى حرم الجامعة فى تلك الفترة، ويلتف حولهم أشياعهم من الطلاب يرددون هتافات وطنية أو حزبية. ولن أنسى مقدم د. محمد حسين هيكل من قيادات حزب الأحرار الدستوريين حين دخل إلى حرم الجامعة وخطب فينا محرضاً على التظاهر والإضراب (لقد أدينا واجبنا وعليكم أن تؤدوا واجبكم). ومما يستحق ذكره عن هذه الفترة الليبرالية حتى عام ١٩٥٢ الإشارة إلى ما كانت تموج به الكليات من تشكيلات للطلاب من مختلف الأحزاب السياسية. وأذكر كذلك أن طالباً من الأخوة الأقباط كان ملتحقاً بقسم اللغة العربية وكان شاعراً نتجمع حوله لنسمع قصائده فى المناسبات الوطنية، كما كان هناك من اليهود فى كثير من أقسام كلية الآداب فى ذلك الوقت.

ومع أن التعليم الجامعى بمصروفات يتيح للأثرياء والشريحة العليا من الطبقة الوسطى تحمل أعبائه المالية إلا أنه كان ثمة نصيب محدود للفقراء من الحاصلين على درجات عالية فى امتحان البكالوريا ثم التوجيهية فى نهاية المرحلة الثانوية. كما كان من حق طلاب مديرية (محافظة) أسوان التمتع بدفع ربع المصروفات فى القسم الداخلى بالمدرسة (عشرة جنيهات) ولم تكن قضية العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص التعليمية ملحة فى السياق التعليمى حتى عام ١٩٥١ حين تقررت مجانية التعليم فى المرحلة الثانوية.

ومن مآثر مؤسسة الجامعة احتضانها لرسالة تعليم البنت والتى يقول فى شأنها أحمد لطفى السيد فى خطابه المشار إليه فى عام ١٩٤٠ (إن الجامعة قد قبلت الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بإخوانهن فى الدرس، لأننا بعد أن سرنا على هذا النهج أكثر من عشر سنين، قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط، فلم نأبه لها على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا.. ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كل منهما على كماله الخاص على سواء.. ويسرنى أن أذكرهم أنى لم تعرض لى جزئية من الجزئيات تجعلنى أندم، ولو وقتياً، على ما شرعته الجامعة من هذه

الخطة من غير أن نستفتى فيه العرف العام) وذلكم - فى تقديرى - هو معدن القيادة الجامعية التى تحمل رسالتها، وتدعو لها، وتدافع عنها فيما تراه لصالح الوطن فى مستقبل نهضته والواقع أن الفترة الليبرالية التى خاضت الجامعة تياراتها كانت فترة ثرية، التقت فيها غالباً رسالة الفكر وتصاريف المؤسسة فى مواجهة سلطة الدولة التى أخذت تزحف إليها . كما تجلت فيها سلطة المؤسسة مع التزام الأساتذة بهدايات الرسالة وضوابط المؤسسة، بل وتصالح معهم جميعاً الطلاب فى حركات اتحاداتهم وأنشطتهم. وفى تقييمنا لهذه الفترة كثيراً ما يثير البعض قضية انفصال الجامعة وبرجها العاجى عن المجتمع، مبررين ذلك بدعوى أنها كانت تعلو العلم لحب العلم والمعرفة لحب المعرفة، متجاهلة دورها فى قضايا التنمية. وهذا ما يعيب دراستنا للتاريخ، حين نجر الماضى جراً إلى الحاضر، أو حين نجر الحاضر باتجاه الماضى، فنسىء إلى فهم الماضى حين لا نستطيع تقييمه وتوظيفه، ويضطرب معنا التفكير حين نجر الحاضر إلى الماضى باعتباره المنقذ من الحاضر، فى تطلعنا إلى المستقبل.

الجامعة بين الاستقلال والسلطة

ومع الفترة الناصرية منذ عام ١٩٥٢ يتخذ التعليم الجامعى منعطفات جديدة فى رسالته ومؤسسته، وقد شهدت مصر إنهاء آخر مراحل الاحتلال البريطانى، وسيطرت المؤسسات العسكرية على مقاليد الحكم، وأخذت مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تشق طريق إنجازاتها من خلال التخطيط المركزى، وبلغ المد القومى العربى والتصدى للعدو الصهيونى مداه، وتمت الوحدة مع سوريا التى سرعان ما أجهضت . ومع أوائل الستينيات تصدر القوانين الاشتراكية تحت شعار الكفاية الإنتاجية والعدالة الاجتماعية، وإذابة الفوارق بين الطبقات ، وما تطلبه ذلك من خطط التنمية وتأميم مصادر الإنتاج. وتتواصل قبضة الدولة ومركزية الحكم إلى أقصى درجاتها.

وارتبط بالتوجهات القومية والاشتراكية اكتمال مبدأ المجانية فى كل مراحل التعليم، بعد أن أصبح التعليم الجامعى والعالى بالمجان منذ عام ١٩٦١. وأضيفت إلى مناهج التعليم المطورة موضوعات عن القومية العربية، والاشتراكية العربية، والتدريب العسكرى، وانتهت جهود التنسيق وإحكام العلاقات بين الجامعات إلى إنشاء المجلس الأعلى كان حلقة مهمة فى عمليات الضبط والتقنين والتنميط فى مسيرة الجامعات. وشاع مبدأ إيثار أهل الثقة على أهل الخبرة فى المواقع القيادية بما فى ذلك القيادات الجامعية. وغلبت قضايا العدل الاجتماعى على قضايا

الحرية في المجتمع وفي السياسات الجامعية.

وانعكست كل تلك التوجهات على مؤسسة الجامعة التي تم خضوع رسالتها لرسالة الحكم، وغدت رسالتها مسايرة لتوجهات السلطة وظهرت أحياناً توترات بين الرسالة والمؤسسة. مع التوسع الهائل في الالتحاق بالتعليم الجامعي، وفي إيفاد البعثات وبخاصة إلى الاتحاد السوفييتي (سابقاً). ثم أدخل الحكم شريحة الأساتذة الجامعيين في الوزارات والقيادات التنفيذية من أجل الاستعانة بهم كخبراء لدعم مسيرة النظام. ويعتبر هذا التوجه في ضم الجامعيين إلى الأجهزة القيادية في السلطة معلماً مميزاً من معالم اجتذاب الجامعات إلى دعم نظام الحكم، مما سار تقليداً امتد إلى التشكيلات الوزارية في مصر منذ ذلك الوقت حتى اليوم.

وأخذت المؤسسة الجامعية تذعن - راضية أو متململة - للتوجهات من السلطة السياسية، ومنها إلى أجهزتها التنظيمية، تتساقط من المجلس الأعلى للجامعات، إلى مجالس الجامعات، فمجالس الكليات، متجسدة في الجهود الضابطة لتطوير قانون الجامعات. وقد أدى ذلك إلى أن تفقد الجامعات استقلاليتها الحقيقية، وأن تتكثف أجواء التعبئة والتنميط والضبط والحشد في المناهج والأنشطة وعلى مختلف مستويات العمل المؤسسي.

ومما يستحق التنويه أن هذه الفترة قد شهدت نمواً هائلاً في الالتحاق بالجامعات بدرجة غير مسبوقة، مما أتاح لنسب متزايدة من أبناء وبنات العمال والفلاحين وذوي الدخل المحدود دخول الجامعات. وقد أدى ذلك إلى التضخم الكمي في جسم الجامعات حيث لم تشهد نمواً مناظراً في بناء جامعات جديدة وبدأ الحديث حول ما عرف «بالجامعات الكبيرة» وأهميتها. ومع الحراك الاجتماعي الذي جرى، انفتحت الشهية للطلب على التعليم الجامعي بدرجة غير مسبوقة مما لم تستطع المراحل التالية أن تواجهه بما يلزمه من الإمكانات.

الجامعة والانفتاح الاقتصادي السياسي

ويأتي الانعطاف الثالث في رسالة الجامعة ودور مؤسساتها مع الفترة الساداتية منذ بداية السبعينيات حتى أوائل الثمانينات، وفيها تجلت بوضوح غلبة المؤسسة على الرسالة من حيث استسلامها لأيديولوجية السلطة الحاكمة. وقد تمثلت فيما عرف بالانفتاح الاقتصادي وتشجيع الاستثمار للقطاع الخاص حيث ألغيت القوانين والتنظيمات الاشتراكية، وتم عقد معاهدة الصلح مع إسرائيل، والتوجيه السياسي نحو المجتمع الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وظلت المركزية

واستقبال التوجهات من الخارج ومن أعلى تحكم مسيرة الجامعة ونظمها ومعظم قياداتها وأساتذتها. وامتد التوتر السياسي وصراعات القوى السياسية إلى طلاب الجامعة، ولكي يحكم (رب العائلة) سيطرته على الجامعة بتشجيع تكوين فريق الجامعات الإسلامية في مواجهة فريق الناصريين واليساريين.

ومع ظهور ما عرف بالصحوة الإسلامية انعكست في الجامعات دعوات ضد اختلاط الجنسين، كما شاع لبس الحجاب وغيره من رموز الزى، كما ظهر خطاب التصادم في انتخابات اتحادات الطلاب فيما حدث من مواجهات بين التيار الإسلامي والتيارات الأخرى. ورغم سيطرة السلطة على الجامعة إلا أنها أفرزت ثنائية حادة من التوتر بينها وبين استقلالية الجامعة وحرية الفكر فيها، بل غامت أية علاقة بين أطراف المؤسسة ورسالتها، فلم يعرف أى طرف ما ينتظره الطرف الآخر على وجه التحديد. ومن ثم انفتح المجال لمظاهر العنف في التعامل أحياناً أو إلى مظاهر الاغتراب أحياناً، أو إلى مظاهر حمل المباخر والسعى إلى الاقتراب من السلطة لدى كثير ممن كانوا قيادات جامعية وثقافية.

وفي هذه الفترة كذلك تزايد نمو أعداد هيئات التدريس التي انصرفت عن جامعاتها هجرة أو طمعاً في نصيب من تدفق الثروات النفطية. وقد صاحب الاستقلال السياسي لدول الخليج منذ مطلع السبعينيات إلى العمل على إنشاء جامعاتهم الوطنية أو التوسع فيما كان قائماً منها، مما أتاح فرصاً وافرة لاستقبال الأساتذة المعارين من الجامعات المصرية. واستطالت طوابير الانتظار للإعارة، والانشغال بالطموحات المادية مما أثر في الأداء التعليمي والبحثي لهيئات التدريس. وتراوحت نسبة الهجرة إلى النفط مابين ٦٠٪ - ٥٠٪ وأسهم في اطراد تدفقها القانون الذى أباح إطالة مدة الإعارة على فترين لتصل إلى عشر سنوات مع الاحتفاظ بحق المعار في العودة إلى موقعه السابق في الجامعة وقد كانت الإعارة من قبل حسب قانون ١٩٧٢ لمدة سنتين قابلة للتجديد مرة واحدة أى لمدة أربع سنوات لا غير.

وازدادت وتيرة التمحور حول الخلاص الفردى للأساتذ والطلاب من خلال الاعتراف بالكتاب الجامعي المقرر، وبدعمه وتقدير ثمنه على أساس عدد الملازم وحجمه على أساس عدد ساعات التدريس للمقرر. وتفشت حرفة تاليف الكتاب السريع على أساس تجارى، وحدثت أحياناً توترات بين أساتذة القسم من جراء الاتفاق على تاليف الكتب وتوزيعها وإغراء الطلاب بشرائها بطرق مشروعة وغير مشروعة. وقد سعد الطلاب بخطيئة الكتاب الجامعي المقرر الذي يتوجب على الأساتذة إعداده قبل بداية كل فصل دراسى، وإلا

احتج الطلاب صائحين أين الكتاب، وأين الفصول أو الموضوعات المقررة فيه، وماذا يمكن حذفه منها، وهل يمكن تصويره، إلى آخر تلك المناوشات التى عادة ما يثيرها الطلاب حول الكتاب الجامعي؟. وهكذا تستقر أطراف العملية التعليمية، وكل قوم بما لديهم فرحون، الأساتذة بإعاراتهم وانتداباتهم وكتبهم وعوائدها. وكذلك الطلاب سعداء باختزال عملية التعليم والتعلم والتقييم الامتحاني فى المقروء، ولا خروج عن النص.

وباختصار اتسمت الفترة الساداتية بتآكل مفاهيم القومية العربية والتوجهات الاشتراكية، ولم يعد الخطاب السياسي مركزاً - كما كان - على العدالة الاجتماعية، وإنما أدت أجواء الانفتاح الاقتصادى وشعار (أكسب ما شئت طالما التزمت بدفع الضريبة) إلى مزيد من دوافع الخلاص الذاتي، ومع كل ما سبق ذكره من مظاهر الخلاص الذاتى ومن تدفق الإعارات الخارجية، والاتجار بالكتب، وانتهى الأمر بالجامعة إلى افتقاد مضامين رسالتها القومية والاجتماعية ، ولم تستعد استقلاليتها وحرية قرارها، بل خضع عدد من أساتذتها للاعتقال فى هوجة غضب الرئاسة فى سبتمبر عام ١٩٧٩.

وحدثت شروخ عميقة فى الفكر الطلابى نتيجة لتدخل السلطة وجماعات المصالح خارج الجامعة، واتشحت بعض صدامات الطلاب بزى الفكر الدينى، بل ظهرت مفاهيم كأسلمة العلوم والتأصيل الإسلامى لكل المقررات. وهكذا اضطربت أجواء الجامعة فى تحديد هوية رسالتها، بل إن أداءها الأكاديمى والمهنى والقيمى قد أصابه قدر كبير من الخلل، مما أثر فى دورها كمؤسسة ذات فاعلية داخلية سواء كان ذلك فى جامعات العاصمتين أو الجامعات الإقليمية التى أنشئت خلال هذه الفترة.

فترة الليبرالية الجديدة والخصخصة

ومع مقدم الثمانينيات اتسعت آفاق الليبرالية الجديدة وشيوع التكيف الهيكلى الاقتصادى مع توجهات السوق الطليقة، والخصخصة للقطاع العام وتشجيع الاستثمارات للقطاع الخاص المصرى والأجنبى، وتزايد دور الشركات المتعدية الجنسيات والبنك الدولى ومنظمات الأمم المتحدة. وكان للمؤتمرات الدولية وسياسات تلك المنظمات الدولية تأثيرها فى السياسات التعليمية والجامعية. وتنامت ضغوط الدولة وتدخلاتها فى مسيرة المؤسسة الجامعية كما حدث فى اختيار عمداء الكليات بالتعيين، وفى عمليات فرز المرشحين لاتحادات الطلاب.

وكان من نتائج تشجيع الاستثمار الخاص أن أنشئت الجامعات الأربع الخاصة، وبدأت الدولة فى التصريح لإنشاء

جامعات أجنبية منها جامعة بريطانية وثانية فرنسية وثالثة ألمانية فى طور التأسيس هذا فضلاً عن ازدهار شأن الجامعة الأمريكية والتنافس على الالتحاق بها، كما أن هناك جامعات خاصة مصرية تنتظر دورها فى الموافقة على تأسيسها. وفى جميع هذه المؤسسات تمتد عيونها وعيون خريجها إلى خدمة الشركات المتعدية الجنسيات أو الشركات المصرية أو سوق العمل فى الخارج.

ومع بداية اندماج الاقتصاد المصرى فى السوق العالمية، وما ارتبط بها من الأهمية البالغة لدور الثورات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والاتصالية كان لابد للجامعة، رسالة ومؤسسة، من أن تتأثر بتلك القوى. واستدعى ذلك أن تكون قضايا التكنولوجيا واللغات الأجنبية الشغل الأوفر حظاً فى الخطاب الجامعى الرسمى وفى سياسات الجامعات وتطويرها. وبدأ تعليم مهارات الحاسوب والتعامل مع شبكة المعلومات العامة وشبكة المعلومات الجامعية التى تم ربط كل الجامعات، كما كانت مطالب تعلم اللغة الإنجليزية من مطالب الدراسات العليا.

ثم إن التعليم بلغة أجنبية قد اعتمد فى بعض أقسام الكليات كما هو الحال فى كليات التجارة والحقوق والإعلام والتجارة الدولية والتربية والاقتصاد والعلوم السياسية. وخفت صوت أولئك الذين كانوا يطالبون بالتعريب والتعليم من خلال اللغة العربية فى جميع الكائنات الجامعية بما فيها كليات الطب والهندسة والعلوم.

وكان من نتائج تلك المتغيرات العالمية أن تنامى الانشغال فى رسالة الجامعة بالتكنولوجيا والحاسوب واللغات الأجنبية دون إحداث تطور فى احتياجات الكفاءات البشرية من اهتمام بقضايا التنمية الذاتية وما تتطلبه من تكوين شامل للذهنية العلمية والتوجهات المجتمعية المستقبلة. ولعل استمرار سياسة الكتاب الجامعى المقرر وطرق التعليم ونظم الامتحانات، دون الاستعانة بتكنولوجيا التعليم والإلمام بمصادر المعلوماتية وتوظيفها دليل على عدم القدرة على الدخول إلى قلب المعرفة - لا أطرافها - المطلوبة للتطوير الحقيقى لرسالة الجامعة ومتطلبات المؤسسة فى سياق النظام العالمى الجديد. وبقيت رسالة الجامعة وتكييف المؤسسة لدور فاعل فى إنجاز تعليم جامعى متطور تمثل أزمة اجتماعية وعلمية، تعثرت معها المحاولات العسيرة فى إصدار قانون جديد لتنظيم الجامعات، والذى لم يتغير منذ قانون تنظيم الجامعات رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢.

ثم إن السعى إلى إنشاء جامعة مفتوحة، ودراسات عن طريق التعليم من بعد من خلال الوسائط التكنولوجية المختلفة لم تنته إلى ما كان متوقعاً، وربما كان ذلك ناتجاً عن قصور فى الموارد المالية أو فى الخبرات الفنية والتنظيمية لمثل هذه المؤسسات. واختزل الأمر إلى إنشاء مراكز

للتعليم المفتوح فى بعض التخصصات مما تبنته جامعات القاهرة والإسكندرية وأسيوط حيث تسمح لمن قضوا خمس سنوات بعد حصولهم على الشهادة الثانوية (العامة أو الفنية) بالالتحاق فى تلك المراكز للحصول على شهادة جامعية. ومع ذلك فإن تلك المراكز لم تتجاوز فى مناهجها النماذج التقليدية فى تأليف الكتب أو فى الأشرطة التسجيلية ما يدرس فى الجامعات القائمة.

وهكذا تفقد الجامعة رسالتها الكبرى من أهداف وقيم، ويحرم الطلاب من حق التنظيمات السياسية فى كلياتهم باعتبارها مجالاً للتثقف السياسى والوطنى والمدنى ومجالاً لتنمية القيادات الشبابية. وينصرف الأساتذة إلى الانشغال إما ببحوث سطحية للترقية العلمية أو للإعارة وتجديدها، أو للترقية إلى مناصب إدارية أو سياسية، أو إلى الاتجار فى الدروس الخصوصية إلى غير ذلك مما يقف فى سبيل إصدار قانون لتنظيم الجامعات يحقق عملية تطوير شامل وعميق. ولعل صعوبات عدة تحول دون التحرك الحثيث نحو ما انتهى إليه المؤتمر القومى لتطوير التعليم العالى من قرارات، من بينها توفير الموارد المالية، والقيادات العلمية والتنظيمية الجسورة فى مواجهة المصالح المكتسبة والمصالح الطامعة فى توظيف الجامعة نحو أهدافها الخاصة، فضلاً عن مخاوف أمنية تهدد الاستقرار الرتيب لأجواء الحياة الجامعية.

أهداف الرسالة المستقبلية

جرى العرف فى إصدار قانون تنظيم الجامعات أو مراجعته أن تتصدر مادته الأولى ذكر ما تختص به الجامعات من مهمات التعليم الجامعى والبحث العلمى مضافاً إليها تنمية المجتمع وخدمة المجتمع. وتتبع هذا الثالوث المبهم عبارات تتعلق بمساهمة الجامعات فى رقى الفكر، وتقدم العلم، وتنمية القيم الإنسانية، والتربية الدينية والخلقية والوطنية، وبعث الحضارة العربية والإسلامية، والتقاليد الأصيلة للشعب المصرى، وتوثيق الروابط مع الجامعات الأخرى. وباستثناء قانون ١٩٧٢ الذى تأثر بالقوانين العامة فى الفترة السابقة حين أضاف هدف المساهمة فى بناء وتدعيم المجتمع الاشتراكى، فإن معظم قوانين تنظيم الجامعات إن لم يكن كلها لم يتناول إلا اختصاصات الجامعة. ويجىء هذا التناول فى عبارات ومعان مكرورة أغلبها مثالية مجردة كما انعكس منذ قانون تأسيس الجامعة المصرية عام ١٩٢٥، ويمكن أن تكون تلك الاختصاصات والأهداف من مقاصد أى جامعة عربية أو من جامعات العالم الثالث.

ومع هذه العمومية والتسطيح لأهداف الجامعة يمتلىء القانون مزدحماً بكل ما يمكن تصوره من تفاصيل فى كل مناحى

التنظيم المؤسسى تصل إلى ما يقرب من ٧٠ صفحة. وتتلوه اللائحة التنفيذية لتزيد تفاصيل القانون بمزيد من التفاصيل، بحيث يتم تنميط مسيرة كل جامعة، بنية وهياكل وكليات وهيئات التدريس ونظم الدراسة والامتحانات.

وفى صدد أزمة الجامعة الحالية بين الرسالة والمؤسسة اعتقد فى ضرورة إعادة صياغة الأهداف من أجل أن تتوحد الرسالة مع المؤسسة، وتغدو كل قوانينها وأنشطتها مشبعة بقيم الرسالة التى يمكن التعبير عنها بصورة محددة، تنطلق مع التوجه نحو صناعة المستقبل القومى، ومؤكدة على أن الجامعة وهى قلب المنظومة التعليمية. سوف تضخ الحياة والحيوية، وتدعم المناعة الذاتية فى جسم الأمة وفى حياة مواطنيها. ولنتذكر فى هذا الصدد مقولة توفيق الحكيم (إن الأمة الحية تحيا بأمواتها والأمة الميتة تموت بأحيائها).

لذلك أدعو إلى التأكيد على إطار التوجهات المجتمعية فى رسالة الجامعة/ المؤسسة، وصياغتها فى القانون أو فى اللائحة التنفيذية بطريقة يمكن ترجمتها وتقييم منجزاتها فى مسيرة الجامعة، واقترح النموذج التالى على سبيل المثال:

– إعداد العلماء والخبرات والكفاءات العلمية العالية لقيادة مسيرة التنمية الشاملة والمستدامة، فضلاً عن الوفاء بمطالب الأمن القومى من خلال ما يسهمون من جهد وطنى وعمل خلاق.

– إرساء مقومات ثقافة عربية قومية إنسانية منفتحة للتطوير والتجديد، وتنوع الرؤى، فى إطار إيجابى بصير للثورات المعرفية ومنجزاتها، وايلاء اهتمام خاص بإشاعة الثقافة العلمية بين الجماهير.

– ترسيخ مقومات النهج الديمقراطى وآلياته فى الحوار والتفاعل بين الرأى والرأى الآخر، من أجل وفاق قومى وقرار مجتمعى وفعل مثابر ومتجدد.

– التعاون والتكامل مع الأقطار العربية والإسلامية فى مختلف مجالات الأنشطة الجامعية ، وبخاصة فى تيسير قبول الطلاب الوافدين، وفى السياسات والبحوث العلمية والتكنولوجية.

ومن ناحية أخرى يمكن النص على ترجمة هذه الأهداف المجتمعية إلى أهداف أكاديمية ومهنية لمؤسسة الجامعة، نقترح التأكيد على:

– التوسع المطرد فى فرص التعليم الجامعى باعتباره من حقوق الطالب المؤهل للالتحاق به، واعتبار الجامعة هى المسئولة عن إعداد الكفاءات البشرية العالية، نحو تأسيس مجتمع المعرفة.

– تمكين الطالب من التزود بالمعرفة من مختلف مصادرها المتاحة، بما فيها توظيف تكنولوجيا المعلومات ، دون الاقتصار على مصدر واحد، فيما عرف بالكتاب الجامعى. وفى هذا الصدد يقول لطفى السيد فى مفتتح خطابه السابق متحدثاً إلى الطلاب. (نحن لا نعطيكم كتباً مقررة، فإن غرض التعليم الجامعى تثقيف العقل، لا ملء

الحافظة ، غرضه تنمية ملكة البحث العلمى ومعرفة مناهجه وأنماطه، وتوسيع آفاق الإدراك).

- تقترن عملية التعليم بتكوين مهارات التعلم الذاتي، وتأكيد دور كل من المعلم والطالب في ممارسة التعلم الذاتي، كجزء لا يتجزأ من رسالة تكوين الطالب الجامعي.

- تنمية مختلف القدرات العقلية وأنماط التفكير العلمى بمختلف مناهجه ومناظيره، واكتساب المهارات التكنولوجية المرتبطة بتطبيق المعرفة النظرية.

- يعتبر الانشغال بالبحث العلمى من بين أهم واجبات الأستاذ الجامعى، وهو واجب متصل لا ينقطع طوال حياته الجامعية. والحرية الأكاديمية في إجراء البحوث ونشر نتائجها هى اللحن المميز لرسالة الجامعة نذكر هنا على سبيل المثال ما يشيع من شعارات فى الأوساط الجامعية الأمريكية.

أنشر أو اختفى Publish or Perish

ابتكر أو تبخر Innovate or Evaporate

- تمكين الطلاب من تنظيم وممارسة أنشطتهم الاجتماعية والثقافية والسياسية من خلال تنظيمات اتحادات الطلبة وانتخاب قياداتها، وكما يقول لطفى السيد «تدعيما لترتيبهم الاستقلالية» فيما اسماه بتكوين «حى الطلبة» ويؤكد لنا أن «بناء هذا الحى أجدى على الجامعة والتربية الجامعية من بناء إحدى الكليات» ويتابع تأكيده على رسالة الجامعة من حيث (أن التعليم الجامعى أساسه حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال، لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال. كذلك التربية الجامعية قوامها عندنا حرية العمل).

- وأخيراً وليس آخراً تبقى عملية الدعوة لرسالة الجامعة فى قيمها القومية والإنسانية والمعرفية والأخلاقية الشحنة التى تحرك ما تقوم به من تعليم وبحث وتنمية المجتمع. كما تتجسد فى دعوتها لتجديد والتطوير، وللانتاج المتميز والمبدع فى داخلها وفى خارجها، فى أبحاثها وكتبها، وفيما تنظمه من مؤتمرات، ومحاضرات فى مختلف فروع المعرفة، مع التركيز فى كل نشاط أو محاضرات على هدف إرساء نتاج العلم والعقلانية والتفكير المركب، والذى يواجه أنماط التفكير السائد فى التفسير والتبرير والتحيز والرؤية المغلقة والأحكام القاطعة.

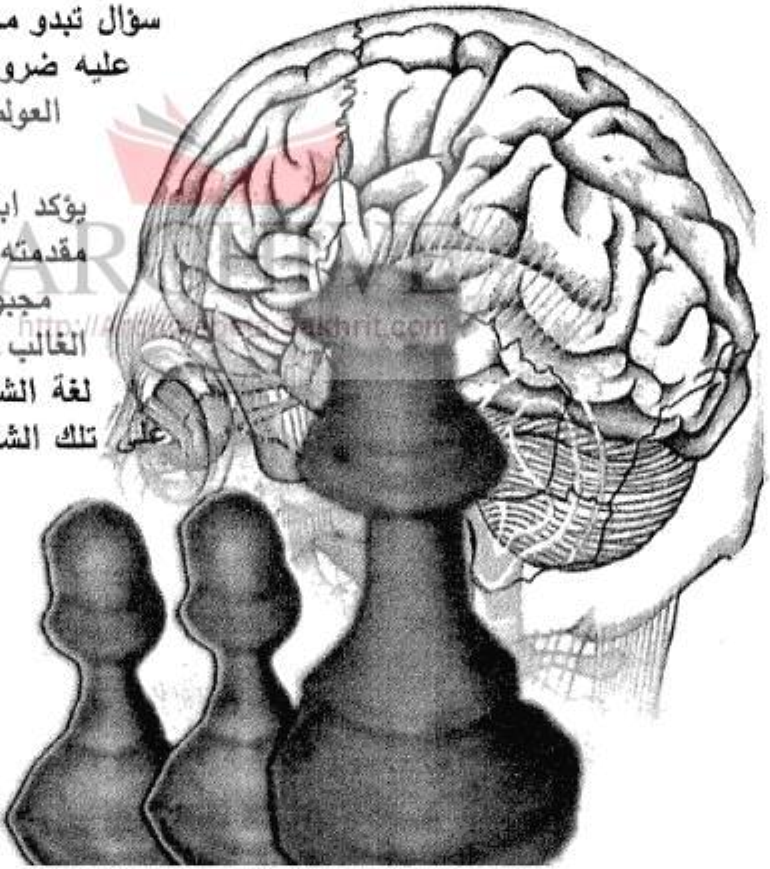
ومن ثم ينبغى أن تمثل قضية الدعوة فى داخل الجامعة وفى خارجها جزءاً لا يتجزأ من مهمات الجامعة، رسالة ومؤسسة. ■

فى المسألة الثقافية

بقلم

مصطفى نبيل

هل يمكن حقا أن تجتاح حضارة، حضارة أخرى ؟!
وتقضى عليها ؟! أى تمحو مجموع القيم والأفكار السائدة
واستبدالها بقيم أخرى ؟! عن طريق التلاعب بالعقول ؟!.
سؤال تبدو محاولة الإجابة
عليه ضرورية فى عصر
العولمة أو الأمركة
الراهن ..
يؤكد ابن خلدون فى
مقدمته «إن المقلوب
مجبول على تقليد
الغالب، ولذلك تسود
لغة الشعوب الغالبة،
على تلك الشعوب المغلوبة



هذا رغم وجود تجارب تاريخية وقع خلالها العكس، أي أمم مغلوبة أثرت في الغالبة، فعندما انتصرت وسادت الإمبراطورية الرومانية، سادت الحضارة الإغريقية المغلوبة، ونرى هذه التجربة مرة أخرى عندما سادت الحضارة الإسلامية وسط قوات المغول الغازية، فانتصر المغول على بلاد الإسلام، وسرعان ما اعتنقوا الإسلام.

وتؤكد هذه الخبرات التاريخية، أن الذي يخص الحضارة ويحمي الثقافة تقوم على قوة المجتمع ومدى تماسكه، ومدى قوة قيمه وثقافته. تتعاظم أهمية هذه القضية مع تصاعد الصيحات التي تطالب بالتغيير الذي يشمل مجموع القيم السائدة في المجتمع، وتنقية التراث من الشوائب التي تكرس التخلف، وتدفع إلى العنف والإرهاب!، ويروج المستغربون داخل اسرائيل وفي كثير من الأوساط الغربية، ادعاءات أن «التراث» يدعو إلى استخدام العنف، ويدللون على ذلك بآيات من القرآن الكريم تدعو للجهاد بعد أن يخرجوها من سياقها!



ابن خلدون



كمال اتاتورك

ولم يقتصر الأمر على عدد من الأبحاث أو المقالات، بل تحولت الى سياسات وخطط وبرامج لتحقيق هذا الهدف وتنقية التراث مما يرونه خطرا، وشاهدنا عمليات رصد خطب تلقى في المساجد في صلاة الجمعة، وتحليل مضمونها، وحصر للتعليم الديني في البلاد الإسلامية، وإبداء الرغبة في ضرورة تقليصه، ويبدون خشيتهم من أن

• اكتسح المغول العالم الإسلامي.. واعتنق الغزاة الإسلام

• كيف اختفي نظام «الساموراي» في اليابان؟

يصبح طلبة المعاهد الدينية مثل «طالبان» في أفغانستان، التي قامت على طلبة المعاهد الدينية، وتتناول الصحف الغربية العديد من الأبحاث حول برامج تعليم التاريخ واللغة والدين، ويقترحون الخطط البديلة من أجل تنقيتها مما يحرض على العنف!.

وهنا يخلطون خلطا فاحشا بين المقاومة والإرهاب، فالمقاومة أحد أنبل الظواهر البشرية عندما يرفض الإنسان القهر والاستعباد.

وحقيقة الأمر، لكل من يتابع هذه الحملة، وجود خطة تهدف إلى القضاء على مناعة العالم الإسلامي، والنيل من روح التضامن داخله.

فهناك فارق واضح بين نشر القيم وطريقة الحياة الأمريكية وبين محاربة الولايات المتحدة الإرهاب، ولايجوز الخلط بينهما.

وتظل السياسة الأمريكية تنتهج في المنطقة العربية والإسلامية سياسة تطويع العديد من القوى الإقليمية والمحلية في المنطقة، حتى تتوام مع سياستها وتتوافق مع المصالح والأهداف الأمريكية، كما تظل تعمل على التأثير على طريقة تعامل دول المنطقة مع التيارات الدينية. كما تعمل على تقييد المناهج الدينية في مؤسساتها التعليمية.

فتتخذ السياسة الأمريكية اتجاها محددا مع دول الشرق الأوسط التي تضم في تكوينها الديني والعربي ذات السمات التي اتسمت بها المجموعة المتهمة بأحداث ١١ سبتمبر، وهي تسعى إلى نشر القيم الأمريكية تحت شعار «العولمة»، وتحاول رفع شعوب المنطقة إلى هذه القيم بكل الوسائل المتاحة، وتستخدم في ذلك الهيئات والمؤسسات الدولية بمؤتمراتها وتجمعاتها المختلفة، سواء المتعلقة بالقيم التي تحكم الحياة السياسية أو الاجتماعية مثل حقوق المرأة والطفل، بل حتى الشواذ وتجاهل تضارب ذلك مع القيم الدينية، والتقاليد والثقافة السائدة.

وتتهم الولايات المتحدة بعض دول المنطقة بغياب الديمقراطية، وأخر ماتتطلبه هو الديمقراطية التي في ظلها ستتمكن الشعوب من الدفاع عن مصالحها، كما يتجاهل الجميع أن قوات الإحتلال البريطاني دخلت مصر في يوليو ١٨٨٢ لضرب التجربة الديمقراطية التي أقامتها الثورة العرابية.



كما تعمل الولايات المتحدة على دعم التحولات التى تشهدها بعض المجتمعات العربية، وإنشاء المدارس والجامعات التى تتبع المناهج الأمريكية لغة وثقافة، مما يؤدى إلى غربة أجيال جديدة عن قيمهم ولغتهم ومجتمعهم وتذهب صيحات د.طه حسين هباء والذى طالب وألح على وحدة التعليم فى مراحل التعليم الأولى..



هنرى ميللر

والغريب ترويجها لاتهام الصحافة بمعاداة السامية، واعتبارها تأييد القضية الفلسطينية تأييدا للإرهاب!.



د.طه حسين

أوراق القرن العشرين

إذا اعتبرنا التجارب التاريخية التى وقعت فى العصور السحيقة مثل ماجرى للرومان والمغول، وأنها لاتصلح للقياس عليها، وقلبنا أوراق القرن العشرين ، وجدنا تجارب حديثة، تهدف إلى الهيمنة الثقافية، وتغيير الهوية وقامت تجربتان، غنيتان بالدروس والعبر :

أولاهما : ماجرى للدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى، وماشهدته أسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية.

وثانيتهما : ماشهدته اليابان بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية، عندما قام القائد الأمريكى الجنرال ماك أرثر بوضع خطة بتغيير كل ما تمثله اليابان من قيم.

العمامة والقبعة

قامت تركيا الحديثة على أنقاض الدولة العثمانية الممتدة بين الشرق والغرب، والتى عاشت رحلة طويلة قاسية زاخرة بالمعارك بين الشرق والغرب بذلت خلالها الكثير من الدم والعرق.

لذا لم يكن غريبا الحرب الشرسة التى شهدتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، والذى تحدد هدفها بالنيل من الهوية الشرقية والدينية بعد أن وصلت بجيوشها وبيارقها إلى القارة الأوربية.

وانتهت الحرب بعد أن خلعت العمامة وارتدت القبعة، وبعد أن توجهت للغرب، وأدارت ظهرها للشرق، وألغت الخلافة الإسلامية التى كان مقرها أسطنبول، ونقلت

في المسألة الثقافية

العاصمة من اسطنبول التى تتوسط جغرافيا الشرق والغرب، إلى أنقرة الواقعة فى الغرب.

فدار الصراع حول انتماء تركيا وجذوره وأبعاده التاريخية، فبقدر مايعتبر انتماء لندن أو طوكيو أو القاهرة مسألة بديهية، نجد أن هذه المسألة هى التى سعى الغرب لتغييرها.

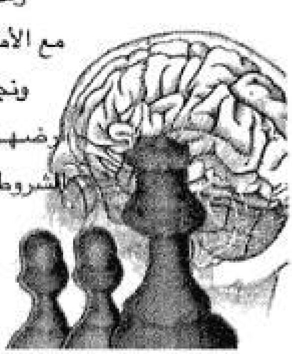
وعندما توقفت المدافع وانتهت الحرب تحول المجتمع من مجتمع شرقى بكل معالمه إلى مجتمع غربى، تغيرت فيه الأزياء واللغة، فتحولت حروف الكتابة العربية إلى حروف لاتينية، يضمن عدم الرجوع إلى أى كتاب قديم وانتقلت الإجازة الأسبوعية من يوم الجمعة إلى يوم الأحد، وتم ذلك بسلطان الدولة، وليس بالاختيار الحر لأهلها.

فمنذ قيام الدولة العثمانية وحتى انهيارها وهى فى صدام مع الغرب، حتى أصبح لفظ «تركى» قرين «المسلم» فقد ارتكب العثمانيون الجريمة التى لم يغفرها الغرب أبدا، فبعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية عند جبال طوروس، وأصبح الحد الفاصل بين البلاد الإسلامية وبقية العالم هى هذه البلاد، نجحت الدولة العثمانية فى تخطى هذه الجبال، ثم وقفت الدولة العثمانية لكى ترد الغزو الغربى عن الشرق الإسلامى، وكانت الدولة العثمانية آخر وأطول الدول الإسلامية العالية فى الشرق، بل ومن أطول الإمبراطوريات التى شهدها التاريخ.

ومنذ حصار فيينا الثانى سنة ١٦٨٣م، بدأ التراجع والانحدار، وتم استيلاء الروس على الشاطىء الشمالى والشرقى للبحر الأسود فى القرن الثامن عشر واستمر حتى القرن العشرين، عندما خرجت القومية الطورانية من نار الهزائم المتتالية والإمبراطورية المنهارة، ووجد فيها الاتراك ملاذهم.

وتداخل فى هذه المرحلة التغريب مع التتريك، كما تتداخل اليوم العولمة مع الأمركة!.

ونجحت تركيا فى إجلاء قوات الاحتلال، واستعادة سيادتها على أرضها، وأنقذ مصطفى كمال استقلال تركيا، وأذعن فى سبيل ذلك إلى الشروط الغربية، وتوالت التغييرات التى تغير وجه تركيا وهويتها، وسلم بحق



الدول الكبرى فى التصرف فى أراضى الدولة العثمانية فى الأقاليم غير التركية رافضا أن يمس أحد الأراضى التركية..

وفرضت هذه الدول شروطها، بأن تتخلى تركيا عن ارتباطها بالخلافة الإسلامية، وتحول مصطفى كمال من الدعوة الدينية إلى الدعوة القومية، وقطع شوطا كبيرا فى طريق فصل الدين عن الدولة، وأعلن أتاتورك فى الجمعية التركية فى أكتوبر ١٩٢٣م قطع علاقة تركيا بالشرق وقضاياه، وعاد الأتراك إلى الأناضول، وكان ذلك سهلا على القائد المنتصر، وفى مارس سنة ١٩٢٤ ألغى الخلافة الإسلامية، وفى يونيو غيرت الحكومة التقويم الهجرى إلى التقويم الجريجورى.

وتحصنت هذه القرارات بالدستور والجيش التركى.

فعادة بعد الهزائم يفقد المجتمع المهزوم الثقة بقدرته على المقاومة، ويتطلع فى الوقت نفسه إلى مابين أيدى المنتصر.

وتقدم قصة «الدولة العثمانية» درسا بليغا، يحكى عن كيف يمكن أن تتحول وتتبدل الأفكار والمبادىء والقيم السائدة، عندما تتغير موازين القوى، وتؤكد أن من يريد الحفاظ على هويته لابد أن يحافظ على قدرته.

وتظل بقايا الصراع حتى اليوم، فرغم كل ماقدمته تركيا الغرب، مازالت لم تقبل حتى اليوم، فلم تحصل على العضوية الكاملة فى الوحدة الأوربية.

الساموراى

وتجربة أخرى أكثر معاصرة، وأكثر وضوحا، وسجلتها الوثائق الأمريكية شهدتها اليابان عقب الهزيمة التى لحقت بها فى الحرب العالمية الثانية، ورغم التسليم وإعلان استسلامها القيت عليها القنبلة الذرية فى هيروشيما وناجازاكى، ولم تكتف الولايات المتحدة بالدمار المادى الشامل، وإنما استهدفت العقول والوجدان، وحتى يكتمل الانتصار.

وكان لابد من القضاء على سر قوة اليابان، وعلى روح اليابان التى دفعت الجندى اليابانى يقاتل بضراوة وعناد، وهو على استعداد ليدفع حياته دفاعا عن وطنه، ويفضل الموت أو «الكارى هارى» عن قبول الهزيمة، فلابد من القضاء على مجموعة القيم والمفاهيم التى جعلت اليابان تملك تلك القوة العسكرية الأسطورية.

وفور وصول «ماك آرثر» القائد العسكرى الأمريكى إلى اليابان ، شرع فى تشكيل

لجنة من الخبراء والمتخصصين تبحث سر قوة اليابان، وكيف يمكن نزع هذه القوة، وكيف يمكن تفكيكها.

وكان المجتمع الياباني يقوم مثل الهرم الذي يقف على قمته الإمبراطور المقدس إله الشمس، يليه طبقة «الساموراي» بتقاليدهم العسكرية الصارمة، يليهم جموع الشعب التي ترى في طاعة الإمبراطور طقوسا دينية.

ويذكر الكاتب الأمريكي «باتريك سميث» في كتابه «بدأ الأمريكيون احتلالهم لليابان بخطة طموحة لإعادة صياغة الحياة اليابانية» ولم يقبل الأمريكيون من اليابان شيئا إلا إذا كان انعكاسا لذواتهم ومفاهيمهم والأخذ بطريقة الحياة الأمريكية التي سرعان ماتؤثر على طريقة التفكير وعلى القيم والمفاهيم السائدة... ويضيف .. لم يقبل ماك أرثر أقل من تحرير اليابانيين من عبء ماضيهم، ومن سدنة الحكم المطلق الإقطاعي الذي دفع الياباني إلى الكارثة، وهدف إلى نشر الديمقراطية، وأن يغير كل شيء، قلوب اليابانيين وعقولهم وحتى أرواحهم!، وتصور أنه حقق بالفعل النجاح المنشود عندما أدخل موائد البلياردو وحفلات الرقص ولعبة البولينج وفرق الجاز ...»

ويضيف الكاتب الأمريكي قائلا ... «كان احتلال الحلفاء لليابان من سنة ١٩٤٥ وحتى سنة ١٩٥٢، وقام المشروع الثقافي الأمريكي على اكتافهم أولئك الذين قادوا اليابان إلى الحرب، وهؤلاء – أي الساموراي – فعلوا الكثير لمساندة أمريكا في إعادة اختراع بلادهم، واليابان التي نشاهدها اليوم، هي ذاتها التي صنعتها أمريكا من فساد وسيطرة السوق وتدمير البيئة، بينما الفردية فيها تختنق، والعمل السياسي متعثر وبلا قيادة.

ويعود ذلك كله إلى ذلك الدستور الذي كتب تحت إشراف ماك أرثر..»

أما الأساليب التي اتبعت ، فهي العمل على القضاء على طبقة الساموراي من جانب، والعمل على قيام الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات الأهلية كأدوات للقضاء على توحد الشعب وراء الإمبراطور، واستخدمت من أجل الوصول إلى هذه الأهداف الأعمال الأدبية والأفلام السينمائية وأدوات الاتصال المختلفة.

ولكن رغم ذلك ورغم مايقوله الكاتب الأمريكي، نتساءل هل قضى على القيم اليابانية، وهاهو خبير أمريكي في الإدارة يقول.. «عندما يفشل مشروع إقتصادي في أمريكا تستغني الإدارة عن العمال، وعندما يفشل



مصنع في اليابان تتغير الإدارة ويبقى العمال...».

ويرى البعض أن كل ماجرى في اليابان، هو التحول من الجهد الحربي إلى الجهد الاقتصادي، وبدلا من التضحية في الحروب أصبحت التضحية من أجل بناء اقتصادي قوي، وبدلا من المنافسة في ميادين القتال انتقلت المنافسة على كسب الأسواق.

من يدفع للزمار؟!

وإذا تلفتنا في الحاضر وأخذنا نبحث عن المحاولات المختلفة للتأثير الفكري والثقافي، فسنجد الكثير من الأدوات الظاهرة والذي يقف على قمتها وسائل الاتصال الحديثة أما الخفي فيقفز إلى الذهن كتاب مهم صدر أخيرا وترجمه طلعت الشايب في مشروع المجلس فالأعلى للثقافة، والكتاب بعنوان «من يدفع للزمار؟»، والزمار هنا هو المثقف، كاتبا كان أم موسيقيا أم رساما، لكاتبته فرانسيس سوندرز البريطانية، وهي من مواليد ١٩٦٦، وخريجة جامعة أوكسفورد، والتي أخذت القارىء وأبحرت به في بحر هائج يزدحم بالخفايا والأسرار، وبكل مافي هذه الرحلة من مخاطر وأهوال.

بعد أن قضت الكاتبة أربع سنوات تقتفي أثر كل معلومة أو خبر يتعلق بالمخابرات المركزية الأمريكية، تبحث فيما هو متاح وتصل منه إلى ماهو خفي.

تلتقي بكل الشهود الأحياء، وبدأت مشروع الكتاب بعد إعداد برنامج للتليفزيون البريطاني عن علاقة (السي. آي. إيه) بالفنون المختلفة، ووصلت إلى نتيجة مؤداها أن عمل (السي. آي. إيه) في ميدان الثقافة، أشبه بفيل يدوس بهدوء في الساحة على التحف التي لايعرف قيمتها دون أي شعور بالمسئولية.

وكشفت من خلال البحث والتقصي أن مئات المؤتمرات والندوات والمحاضرات، والأعمال الفنية المختلفة، كانت تقف خلفها المخابرات الأمريكية، تخطط لها وتمولها.

والكتاب رد واضح على أولئك الذين ينكرون التأثير الخارجي، ومن ينكرون محاولة الدول الكبرى التأثير على غيرها من الدول عن طريق «التلاعب» بالعقول ورد واضح على من لايدركون أن أخطر المعارك تلك التي تدور في عقول البشر، ومن الطبيعي أن تدور هذه المعارك في الخفاء، وأن تظهر غير ماتبطن.

ويستعرض هذا الكتاب - الوثيقة - تفاصيل النشاط السري الذي يدور في ميدان الفكر والفن، يستهدف الوجدان والمفاهيم والقيم الراسخة.

بدأت الدور الذي قامت به المخابرات الأمريكية تحت لافتة مكتب الخدمات الاستراتيجية، والذي قام خلال الحرب العالمية الثانية، وتحدد مهمة هذا المكتب بالقدرة

على اكتشاف الخطر قبل وقوعه، والقضاء عليه من منبعه، وتجدد هذا النشاط مع اشتعال الحرب الباردة، ويروج للنموذج الأمريكي وينفر من النظام الشيوعي.

وأصبح هذا النشاط هو الجانب الفكري من مشروع «مارشال» الذي يعيد بناء ماتهدم من أوروبا بعد الحرب .. «فيد تقدم الخبز ويد أخرى تقدم ثقافة دولة الخبز» وأخذت الآلة تدور وتسعى إلى تجنيد الكتاب والفنانين والسينمائيين، وتنظم عقد الندوات والمؤتمرات والمحاضرات، وتستخدم الناشرين والفرق الفنية المختلفة ومعارض الفن التشكيلي، ووصلت إلى حد استخدام الفولكلور والأغنيات الشعبية والرواة الجائلين.

وتبينت الأجهزة السرية أن أنجح الوسائل هو استخدام المنشقين عن اليسار... «وتقوية اليسار غير الشيوعي» وإقامة هياكل تنظيمية متعددة تابعة للمخابرات الأمريكية، وجاء التمويل بالإضافة إلى مشروع مارشال من مؤسسات مالية مثل مؤسستي فورد وروكفلر.

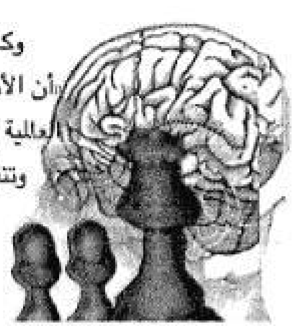
ويدهشك، أن كل ماكان يقال على أنه شائعات أو هواجس، قدمته الكاتبة على أنه حقائق موثقة، ويلاحظ هنا دور اليهود البارز في هذا النشاط، فكانوا الخميرة لكل نشاط في المجال الفكري، وبالتحديد اليهود الشرقيين في المنفى، ومنذ اللحظة الأولى لهذا النشاط، حددت اللجنة العاملة في ١١ مايو ١٩٤٩ .. «استخدام المهارات المتنوعة لليهود الشرقيين من أجل التصدي للسيطرة السوفيتية».

وصدرت في إطار هذا النشاط مجلات كل من كومنتري، ونيو ليدز، وبارتيزان ريفيو، والعلم والحرية، وإنكاونتر التي ساهم في تحريرها أرنولد توينبي وبراتراندراسل، وهربرت سبنسر كما قام نادي القلم بنشاط ملحوظ في هذا المجال وهو القائم حتى اليوم وله ٧٦ فرعا في ٥٥ دولة ومن بينها مصر!

المثقفون وقطع الشطرنج

وكالعادة يخلقون الوحش ثم يعملون على القضاء عليه، وتؤكد الكاتبة.. «أن الأمريكان هم أنفسهم الذين موّنوا آلة الدعاية الشيوعية خلال الحرب العالمية الثانية بالزيت.. وهم الذين سعوا بعد ذلك إلى تدمير هذه الآلة».

وتنقل الكاتبة عن المؤرخ الأمريكي آرثر شيلزنجر قوله .. «لم يكن نفوذ



السي. آي. إيه عادة شريرا أو رجعيا»، وكان معظم الكتاب يرحبون بالتعاون معها.

واستطاعت مؤسسة التجسس الأمريكية بالفعل التدخل في أوروبا .. «وقيامها كعامل مجهول بتسهيل سلسلة عريضة من النشاط الإبداعي، ووضع المثقفين وأعمالهم مثل قطع الشطرنج في اللعبة الدولية الكبرى!».

وتتساءل الكاتبة .. «أي نوع من الحرية يمكن أن يسفر عنه هذا النوع من الخداع، حينما يعتقد الناس أنهم يتصرفون بحرية بينما هم مكبلون بقوى لاسيطرة لهم عليها». وترصد الكاتبة ما أطلقت عليه «شبكة الدعارة الأكاديمية الدولية»، والتي نشرت العديد من المؤلفات التي انتهى بها الحال إلى محلات بيع الكتب القديمة والمستعملة.

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لدى أجهزة التجسس الأمريكية ماتروجه إضافة إلى «طريقة الحياة الأمريكية»، إلا أن مجموعة العمل أخذت تواصل البحث عن الفكر الذي تسوقه، يقول لاسكي «إن ما نحتاجه هو حقيقة نشطة، حقيقة لديها الجسارة الكافية لأن تدخل ساحة الصراع، وليست حقيقة تتصرف مثل المتفرج على الأولمبياد»!.

وتقرر الكاتبة فرانسيس ساندرز أن جورج كينان هو أحد آباء المخابرات الأمريكية، وهو الذي سمح بتدخل سري في الانتخابات الايطالية، وهو صاحب الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب الثانية.. يقول .. «لقد فاز الشيوعيون بوضع قوى في أوروبا عن طريق الاستخدام الذكي والوقح للأكاذيب، حاربونا باللاحقيقة واللامنطق، فهل بإمكاننا أن نحارب اللاحقيقة بالمنطق وننجح؟!» وأصبح ذلك هو دستور الأعمال السرية..

وتورد الكاتبة نص توجيه الرئيس الأمريكي ترومان .. «لابد أن تكون جميع الأنشطة السرية مخططه ومنفذه جيدا بحيث لاتظهر أي مسئولية على صاحبها، ويمكن للولايات المتحدة أن تتنصل بشكل مقنع من أية عمل منها في حالة اكتشافه...» أما النشاط السري فهو .. «أي نشاط سري يهدف إلى التأثير على الحكومات الأجنبية أو الأحداث أو المنظمات أو الأفراد لمساعدة السياسة الأمريكية، ويتم بطريقة لاتظهر أي تورط للأمريكيين»!!

الوسيلة هي الرسالة

هذا هو الشعار الذي عملت على أساسه السي. آي. إيه في المجال الثقافي، وهنا يظهر مغزى وجود «عدو» فهو لايتعلق فقط بإمكانية حشد الرأي العام وراء السلطة

القائمة، ولا بالإنفاق على العتاد العسكرى، وإنما هى فرصة للكثيرين من أجل العمل والكسب كما لم يكن الهدف هو مواجهة الشيوعية فحسب بل تدمير كل أنواع الفكر النمطى المذهبى، واستغلال الفراغ الذى ينتج عن ذلك.

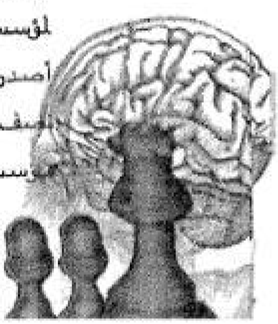
وقد نجحت المخابرات فى هذه الجولة فى تجنيد كتاب مرموقين، مثل هوارد فاست، وإيليا كازان.

وأقامت منظمة «الحرية الثقافية» مكاتب لها فى كل من ألمانيا وبريطانيا والسويد والدنمارك وايسلندا، بل وفى قارات أخرى، فى اليابان والهند والأرجنتين وشيلى واستراليا ولبنان والمكسيك وبيرو وكولومبيا والبرازيل والباكستان..

ولم يسبق لأحد أن حاول تعبئة المثقفين والفنانين فى كل أنحاء العالم للقيام بحرب أيديولوجية قبل هذه المرة، وللدفاع عما كان يسمى «موروثنا الثقافى»، وتحطيم الأسطورة الأوربية عن «ضآلة ونقص الثقافة الأمريكية».

وتستعرض الكاتبة المؤتمرات والندوات التى خططت لها المخابرات الأمريكية، وكأنها وزارة ثقافة العالم، كما أصدرت عددا كبيرا من المجلات، مجلة «بريف» فى باريس لتنافس مجلة «الأزمنة الحديثة» التى كان يصدرها سارتر وسيمون دى بوفوار، وصدرت مجلة «القرن العشرين» فى لندن لكى ترد على مجلتى نيشن ونيوستيتسمان؛

ويصف جيمسون السهولة التى كان يقابلها لإشراك الأمريكيين فى المشروعات السرية، بقوله : «لم يكن هناك أحد أذهب إليه وأقول إنى من الـ (سى. آى. إيه) إلا ويرحب بما أعرضه، ويتحدث إلى بكل احترام». وكان روناك ريجان الرئيس الأمريكى الأسبق هو المتحدث الرسمى باسم لجنة جمع الإعانات فى حملة مشاعل الحرية»، وكانت إحدى المغامرات الأولى لمؤسسة فورد هى بدء برنامج النشر المتبادل بإشراف جيمس لوفلن التى أصدرت أعمال أورويل وهنرى ميللر، وحصلت دار تشيكوف للنشر، على نصف مليون دولار من مؤسسة فورد لشراء أعمال روسية ممنوعة، كما كانت مؤسسة روكفلر، بدرجة لاتقل عن فورد إحدى ركائز آلة الحرب الباردة



الثقافية. وتولى بعد ذلك الرجال الذين ساهموا فى هذا العمل أرفع المناصب.

إنكا ونتر..

وقامت محاولات فكرية مزيفة بتخطيط وتحريض من المخابرات الأمريكية، وكانت الحكومة الأمريكية قد وافقت على طلب الحكومة البريطانية بعدم القيام بنشاط داخل بريطانيا، وفى أواخر ربيع ١٩٥٢ اتفقت المخابرات البريطانية والأمريكية على القيام «بأهم تدخل فى مسار التاريخ الثقافى» وصدرت مجلة ثقافية هى إنكا ونتر تهدف إلى توصيل الأفكار المعادية للشيوعية إلى المثقفين فى العالم الثالث على أن تقوم وزارة الخارجية البريطانية بشراء عدد من النسخ، تشحن وتوزع عن طريق المجلس البريطاني، وكتب ماجروج الذى اشترك في تحرير المجلة «إن السرية لازمة لعمل المخابرات لزوم الرداء الكهنوتي، ولزوم البخور للقداس، أو الظلام لجلسات تحضير الأرواح، لابد من توفيرها بأى ثمن بصرف النظر عما إذا كانت تخدم أو لاتخدم أى غرض».

ومما يجدر ذكره أنه طلب من ت. س. اليوت الكتابة للمجلة فكتب رسالة يقول فيها .. «إن لديه شكوكا بالنسبة لفعالية المجلة وتأثيرها، ومن الواضح أنها تصدر بدعم ورعاية أمريكية .. وإذا أراد الأمريكى أن يقول شيئا للرأى العام، فمن الأفضل له أن يكتب فى صحيفة أمريكية..».

كل ذلك يلقى بالمسئولية على المثلث الذهبى الذى يضم الإعلام والتعليم والثقافة، وعلى هذه الأطراف الثلاثة أن تقوم بتجلية القيم العربية، التى تقوم على العدل والحرية واحترام حقوق الإنسان.

وأن تظل الثقافة العربية قادرة على التفاعل الفكرى، كما كانت دائما، وأن تبقى مفتوحة للتفاعل موصدة أمام الهيمنة.

فهذه الحضارات القديمة في صراعها، رأينا كيف أثر الإغريق فى الدولة الرومانية، وكيف تأثر المغول بالحضارة الإسلامية، فكلاهما قوة غاشمة بلا عقل، ورأينا محاولتين لطمس هوية كل من الدولة العثمانية واليابان، وتابعنا الصراع الذى اشتعل خلال الحرب الباردة والذى استخدمت فيه كل الأدوات العلنية والسرية.

واليوم يدور الحديث عن صراع الحضارات!

وما نحن فى أشد الحاجة إليه توافق العقل الجمعى للأمة، القادر على التمييز بين مايقال ومالايقال، والذى يميز بين مانعتقده ومانفصح عنه.

فهذا وقت الفعل لا الكلام . ■

غطرسة القوة

وخطر الإمبريالية الجديد

بقلم
محمد يوسف علس



من عجائب الطبيعة الإنسانية أن يولّد انعدام الثقة بالنفس - عند بعض الناس - شعورا متضخما بالقوة والرسالة ، وأنه إذا اجتمع فى أمة واحدة أقصى القوة مع انعدام الثقة بالنفس تصرّفت بأسلوب فيه خطر على نفسها وعلى الآخرين ... وعادة ما يتملك مثل هذه الأمة رغبة جامحة بحاجتها لأن تبرهن على ماهو واضح جليّ لكل ذى عينين ... وهذه حالة مرضية من أبرز أعراضها أن تخلط الأمة بين فكرة القوة العظمى والقوة المطلقة، وبين المسئولية العظمى والمسئولية الكلية .. ويصحب هذا إصرار عجيب على أنها لابد أن تكسب أى مناقشة مع الآخرين مهما بلغت تفاهة ما لديها من مبررّات. ومن أخطر أعراض هذه الحالة سوء تقدير الأمة لقوتها الحقيقية حيث تتجافى الحكمة عن مواقفها ويتضاءل دور الإدراك الصحيح فى حكمها على الأشياء.

صاحب هذا الكلام الحكيم سياسي أمريكي مخلص لوطنه كتبه ليحذر بلاده من خطر التورط فيما أسماه بـ «غطرسة القوة». فقد تبين له من دراسته وتحليله لنشأة الإمبراطوريات الكبرى في العالم وانهيارها أن قادة هذه الإمبراطوريات كانوا يفتقرون إلى الحكمة وحسن التقدير في استخدام ما لديهم من قوة.

وفي إسقاط على الحالة الأمريكية يقول:

«لقد بلغنا الآن نقطة في التاريخ عندها تصبح الدولة العظمى في خطر أن تفقد رؤيتها الصحيحة لما هو في نطاق قوتها وماهو خارج عن حدود هذه القوة، وعندما بلغت أمم أخرى هذا المنحنى الخطير في حياتها حلّقت أعلى مما ينبغي لها وبسطت جهدها أبعد من طاقتها فانهارت ثم سقطت»

هذا المصير المأساوي وذلك السقوط المروّع من ذروة القوة هو الذي يحذر منه الكاتب والسياسي الأمريكي الحكيم بلاده من خطر الوقوع فيه. إنه وليام فولبرايت، كان نائبا في مجلس النواب ثم في الكونجرس، بدأ عمله في السياسة سنة ١٩٤٣ وأصبح عضوا في لجنة العلاقات الخارجية ثم رئيسا لها، شهد عهود خمسة من رؤساء الولايات المتحدة هم روزفلت وترومان وأيزنهاور وكندي وجونسون، وتعاقب عليه ثمانية من وزراء الخارجية.

وللثقة في خبرته العريضة وحكمته وشجاعته استدعته كلية جونز هوبكنز للدراسات الدولية بواشنطن سنة ١٩٦٤ لإلقاء ثلاثة محاضرات عن بعض جوانب من السياسة الأمريكية الخارجية التي يعتبرها الأعظم أهمية والأجدر أن تحظى بإعادة النظر فيها. فاختار لهذه المحاضرات عنوانا جامعا هو «غطرسة القوة». على أساس هذه المحاضرات الثلاث ألف وليام فولبرايت كتابا بهذا العنوان نشر له سنة ١٩٦٦.

توقف فولبرايت طويلا وهو يبحث عن إجابة لسؤال كثيرا ما حيره ألا وهو: «لماذا تتنازع الأمم حول قضايا بعينها.. ولماذا تعنى أصلا بهذه القضايا بالذات!؟». لم يجد فولبرايت إجابة مقنعة أو مريحة فانتهى إلى القول بأنه: «فيما يتعلق بالحرب والسلام ستبقى هناك أسئلة معلقة كأنها غير قابلة للإجابة».

ولكنه وجد مخرجا في كتابات «ألدوس هكسلي» فاقتبس منها هذه الفكرة كما نتبينها في السياق التالي:

«قد يحدث بين الناس نقاش حول أفضل طريقة لزراعة القمح في مناخ بارد، أو حول إعادة تشجير الجبال التي تعرت من أشجارها، ولكن مثل هذه المناقشات لا تؤدي أبدا إلى مذابح منظمة، إنما تنتج المذابح المنظمة من الجدل حول أسئلة من هذا النوع:

من هي الأمة الأفضل؟

ماهو الدين الأفضل؟

ما أفضل نظرية سياسية؟

ما أفضل شكل من أشكال الحكومات؟

لماذا الشعوب الأخرى بهذا الغباء وذلك الشر؟

ولماذا لا يستطيعون أن يروا كيف أننا أخيار وأذكياء؟

ولماذا يقاومون محاولاتنا الخيِّرة لجعلهم تحت سيطرتنا لكى نصنعهم مثلنا».

الأسباب المعلنة والأسباب الخفية

يقول وليام فولبرايت معلقا : كثير من الحروب التى خاضتها البشرية كانت حول هذه الأفكار المجردة، وكلما تأملت فى الحروب الكبرى عبر التاريخ كلما زاد اقتناعى بأن الأسباب التى نُسبت إليها مثل الأرض والأسواق ومصادر الثروة والدفاع عن المبادىء الكبرى ، لم تكن فى الحقيقة هى الأسباب الجذرية العميقة، وإنما كانت ذرائع أو شرحا لدوافع كامنة يصعب أو يتعذر سبر أغوارها فى أعماق الطبيعة الإنسانية، ونظرا لغياب الفهم الواضح لماهية هذه الدوافع فإننى أشير إليها بعبارة «غطرسة القوة».. وكأنها حاجة نفسية دفينة تحتاج إليها الأمم لتبرهن لنفسها وللآخرين أنها أعظم وأفضل وأقوى من الأمم الأخرى.

فى أعماق هذه الدوافع الغامضة هناك افتراض غامض لا يحتاج إلى برهان، وهو أن القوة نفسها هى البرهان المطلق على التفوق.. وتفسير ذلك أنه عندما ترينا أمة من الأمم أنها تملك الجيش الأقوى فكأنها بذلك تبرهن لنا ضمنا أن شعبها ومؤسساتها ومبادئها هى الأفضل، وبصفة عامة أنها تملك الحضارة الأفضل من جميع الحضارات الأخرى.

يستطرد فولبرايت فى تدعيم هذه الفكرة فيقول : «دليلى على صحة هذا أجده فى التناقض الصارخ بين الأسباب المعلنة والأسباب الخفية لكثير من الحروب الحديثة، وفى التناقض بين أسبابها المعلنة وبين النتائج التى وصلت إليها».

ويضرب لنا عدة أمثلة نكتفى بمثلين منها:

١ - كان السبب المعلن للحرب البروسية الفرنسية ١٨٧٠م خلافا بينهما حول من يخلف العرش الأسبانى، وقد اختلط هذا السبب بسبب آخر كان مفهوما ضمنا وهو معارضة فرنسا للوحدة الألمانية، ولكن كان من الواضح أن عملية توحيد ألمانيا كانت تسير فى طريقها، وكان يمكن إتمام هذه العملية بدون الحاجة إلى شن حرب على فرنسا، وفى معاهدة السلام التى انعقدت بينهما لم يرد أى ذكر للعرش الأسبانى فقد نسى الجميع أمره! فما هى النتيجة الواقعية التى تحققت بعد الحرب: خسرت فرنسا مقاطعتى الألزاس واللورين، وتم إذلال فرنسا، وظهور ألمانيا باعتبارها أكبر قوة فى أوربا، وذلك كله لم يكن ليتحقق بدون حرب. ويعجب الإنسان إلى أى مدى كان الألمان مدفوعين برغبة جامحة لتقليص أولئك الفرنسيين المتعجرفين إلى حجمهم الحقيقى!.

٢ - فى سنة ١٨٩٨ ذهبت الولايات المتحدة إلى كوبا تحت شعار تحريرها من الطغيان الأسبانى، ورغم أن أسبانيا كانت مستعدة لدفع ثمن باهظ لكى تتجنب الدخول فى حرب مع الولايات المتحدة، ولكن الأخيرة لم تلتفت إلى ذلك بل مضت فى حربها ضد إسبانيا حتى رحلت عن كوبا .. فما الذى فعلته أمريكا بعد ذلك؟ إنها لم تطلق سراح كوبا وإنما



وليام فولبرايت

وضعتها أولا تحت حمايتها ثم ضمتها إلى أملاكها. كانت الفلبين أيضا تحت الاحتلال الأسباني فقامت أمريكا بشرائها [illegible] وعشرين ألف دولار وفرضت عليها الاحتلال، وبدلا من أن تعترف أمريكا أن احتلالها للفلبين كان وراءه أطماع إمبريالية في ثروات الفلبين وأسواقها وفتح مواقع جديدة للاستثمارات الأمريكية الرأسمالية، يعلن الرئيس الأمريكي ماكنللى أن الله أوحى إليه أن من واجب أمريكا أن تنهض بعبء تربية الفلبين ورفع شأنهم وتحضيرهم وتنصيرهم... ويستطرد قائلا : «سوف نبذل قصارى جهدنا معهم لأنهم إخواننا فى الدين الذين مات المسيح من أجلهم».

ويعلق فولبرايت على هذا الكلام ساخرا فيقول: «أليس من المثير حقا أن يكون الصوت هو صوت الرب بينما الكلمات هى كلمات «تيودور روزفلت» و«هنرى كابوت لودج» و«الأدميرال ماهان»؟!.. وكان هؤلاء هم قادة الإمبريالية وروادها سنة ١٨٩٨، الذين أرادوا أن يبنوا لأمريكا إمبراطورية لمجرد أنها دولة كبرى قوية.

كانت هذه هى روح العصر التى عبر عنها بوضوح «ألبرت بفريدج» بقوله: «إننا عنصر غاز بطبعه.. وينبغى أن نطيع دوافع الغزو التى تجرى فى دمائنا.. وأن نحتل أسواقا جديدة وإذا لزم نحتل أراضى جديدة».

والسبب كما يراه بفريدج: «أن الله فى قدره وخطته الأزلية أن تزول الحضارة المتردية وتتلاشى الأجناس المنحطة أمام زحف الحضارة الأرقى والإنسان الأقوى والأنبل».

فى إطار سيادة «غطرسة القوة» على ثقافة الشعب الأمريكى يحاول وليام فولبرايت تقييم مواقف الأمريكيين تجاه الشعوب الأخرى الصغيرة، تلك الشعوب التى ذهب الأمريكيون لمساعدتها، يقول: «بصفة عامة يمكن القول بأن هناك علامات لغطرسة القوة لا تخطئها العين فى مسلك الأمريكيين عندما يذهبون إلى البلاد الأخرى.. وغالبا ما يعلق الأجانب على التناقض الملحوظ بين سلوك الأمريكيين فى بلادهم وفى الخارج، فهم فى بلادهم كرماء أما فى الخارج فإن شعورهم بالانتماء إلى أكبر وأغنى دولة فى العالم يجعلهم يتصرفون بشىء من التعالى كأنهم يملكون المكان وكأن أهل البلاد أنفسهم غير موجودين.

الشعور بالرسالة

إلى جانب الشعور بالقوة المتفوقة يأتى شعور آخر مرتبط به وهو شعور بالرسالة، أو الواجب الذى يرى الأمريكيون أن يؤدوه تجاه الآخرين. ويضرب على ذلك فولبرايت بمثالين نلاحظ فيهما اختلالا فى فكرة الواجب ونشازا فى السلوك المترتب عليها:

يحكى الدكتور «تشيشو لم» قصة عن أحد المبشرين المسيحيين البارزين،

ذهب يعظ في بلاد الإسكيمو.. قال عن لسانه: «لقد مكثنا معهم عددا من السنين لم نستطع أن نعمل شيئا على الإطلاق.. فهؤلاء الإسكيمو لايقترفون أي إثم كما نفعل.. ويبدو أنه لكي نستطيع فعل أي شيء معهم لابد أن نعلمهم أولا كيف يرتكبون الآثام لعدة سنوات!».

أما المثال الثاني فيأتي في قصة أخرى لثلاثة من تلاميذ الكشافة كتبوا في تقرير لرئيسهم: أنهم استطاعوا مساعدة امرأة عجوز في عبور الطريق.. فسألهم: ولماذا احتاج الأمر إلى ثلاثة؟ ألم يكن واحد منكم فقط قادرا على القيام بالمهمة؟ فأجاب التلاميذ ببساطة: «كانت المرأة ترفض عبور الطريق..!» وفي هذا إيحاء بأن المرأة لم تكن تريد ولا كانت بحاجة لعبور الطريق، ولكن التلاميذ المتحمسين لفعل الخير أجبروها قسرا على فعل ما لا تريد!

كوريا وفيتنام

تتجلى غطرسة القوة وانحراف الرسالة في علاقة الولايات المتحدة بكل من كوريا الجنوبية وفيتنام.. وهنا نجد فولبرايت متأثرا بالأهداف البراقة المعلنة عن أسباب التدخل في هاتين البلدين.. وخلاصتها أن أمريكا ذهبت لمساعدتهما في الدفاع عن نفسيهما وعلى إقامة حياة ديمقراطية .. ولكنه يثير على ذلك اعتراضا مهماً يتصل بأسلوب التدخل العسكري واستخدام القوة في تحقيق مثل هذه الأهداف.

هو يعترض في الأساس على قدرة الولايات المتحدة أو أي دولة غربية أخرى عندما تذهب إلى شعب آسيوي صغير غريب ومتخلف لكي تخلق عنده استقراراً حيث تسود الفوضى، وتحيي إرادة النضال حيث تسود روح الانهزام، وتقيم ديمقراطية حيث لا توجد تقاليد ديمقراطية، وحكومة أمينة حيث الفساد هو اسلوب الحياة.

لذلك نراه يعبر عن دهشته من المظاهرات التي اندلعت في ربيع ١٩٦٦ في شوارع سيجون ضد الولايات المتحدة حث أحرق المتظاهرون سيارات الجيب الأمريكية وحاولوا الاعتداء على الجنود الأمريكيين، وأخذوا يهتفون بسقوط الإمبريالية الأمريكية، ووقف رجل دين بوذي يخطب في الجماهير فلعن الولايات المتحدة والشيوعيين باعتبارهم جميعا مصدر تهديد لاستقلال كوريا.

يقول فولبرايت معلقا على ذلك: «لقد شعر الأمريكيون بصدمة كبرى وغضب شديد أن يفاجأوا بكل هذه المشاعر المضادة من شعب لولا تضحيات الأمريكيين بأموالهم وأرواحهم ما كان له أن يتحرر».

ويتساءل مستنكرا : «أهم حقا يكنون لنا كل هذه الكراهية وهذا الجحود!؟».

ومرة أخرى يقدم فولبرايت عن هذا التساؤل إجابة يبدو فيها تأثره بالأنماط الفكرية السائدة في الولايات المتحدة فيقول: «إنه التأثير القاتل للغنيّ والقويّ على الفقير الضعيف.. فالقوة الأمريكية إهانة لضعفهم والغنى الأمريكي سخرية بفقرهم والنجاح الأمريكي تذكرة لهم بفشلهم..». «ويستخلص من ذلك» أن ما

بنكرونه منا هو الأثر القاهر لثقافتنا القوية على ثقافتهم الهشة».

أسباب وهمية للكراهية

نلاحظ هنا أن فولبرايت يكاد ينسى فكرته الأصلية عن غطرسة القوة وتأثيرها على السلوك الأمريكي تجاه الشعوب الأخرى، فراح يلتمس أسبابا وهمية للكراهية والتمرد على الولايات المتحدة.

من أجل هذا لا ينبغي أن نستغرب الأفكار أو التصريحات التي أطلقها الرئيس جورج بوش الابن بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عن حرب الإرهاب الإسلامي والحملة الصليبية التي كان يزمع شنها على الإرهابيين الأصوليين، وأهم من كل هذا هو تصويره لمشاعر العداء للولايات المتحدة أنه عداء للديمقراطية والحضارة والرخاء الذي يتمتع به الشعب الأمريكي.

إنه نفس المصدر الذي خرج منه البيان الذي وقعه ستون من المثقفين الأمريكيين يهاجمون فيه الإسلام وينسبون إليه الإرهاب، ويحرضون الولايات المتحدة على ردع المسلمين أعداء الغرب والحضارة الغربية، تأكيدا لوجهة نظر الصهيوني العريق صامويل هانتنجتون في نظريته عن صدام الحضارات..

ربما نلتمس لوليام فولبرايت العذر في أنه كان يحمل في مخيلته صورة مشرقة لبلاده في ذلك الوقت من عام ١٩٦٦، ولم يكن الخطاب السياسي في الإدارة الأمريكية قد انحدر إلى هذا المستوى الذي نشهده اليوم بحيث تصف واحداً من أكبر مجرمي الحرب في التاريخ المعاصر بأنه رجل سلام، ربما نلتمس العذر لوليام فولبرايت لأنه لم يشهد دولته تنتهك الديمقراطية وحقوق الإنسان على الأرض الأمريكية كما تفعل اليوم حيث تنتهك حرمات البيوت وتلقى القبض على آلاف الأبرياء وتصادر المؤسسات الخيرية الأمريكية التي يملكها المسلمون بحجة محاربة الإرهاب.

المشهد الڤيتنامي

تستقيم الصورة عند فولبرايت عندما ينتقل إلى المشهد الڤيتنامي حيث يقتبس تقريراً لمراسل نيويورك تايمز ويعلق عليه باعتباره نموذجا متكررا لتقارير صحفية أمريكية أخرى كثيرة.. والحديث عن ڤيتنام الجنوبية في الوقت الذي كانت تتعرض فيه لهجمات الڤيتكونج الشيوعيين، وكانت القوات الأمريكية تملأ البلاد بحجة الدفاع عن الڤيتناميين في الجنوب.

هذه بعض محتويات التقرير الصحفي:

«وجد كثير من الڤيتناميين أنفسهم مضطرين للسماح لنسائهم وبناتهم للعمل في الحانات لخدمة روادها من الجنود الأمريكيين، وإشباع غرائزهم الجنسية.. وقد انتحر جندي ڤيتنامي تحت وطأة الشعور بالعار لأن زوجته افترسها جندي أمريكي في واحدة من هذه الحانات»... ويمضي التقرير الصحفي ليتحدث عن صعوبات الحياة اليومية والمعيشية التي يعانيها الڤيتناميين بسبب وجود القوات الأمريكية في بلادهم فقد أصبح من الصعب على الڤيتنامي ايقاف تاكسي لأن صاحب التاكسي يفضل الزبائن الأمريكيين لأنهم يدفعون ببذخ. في هذا المناخ الذي أشاعه الأمريكيون بدولاراتهم صعدت طبقة من بنات الحانات والعاهرات وأصحاب الملاهي

الليلية وسائقى التاكسى إلى أعلى درجات الهرم الاقتصادى فى ڤيتنام الجنوبية، وعلى عكس ذلك تدهورت أوضاع الطبقة المتوسطة فأصبحت الأسر فيها لا يستطيعون الحصول على مسكن مناسب، لأن الأمريكيين رفعوا إيجارات المساكن إلى مستويات لا يقدر عليها الڤيتناميون، حتى أن أصحاب العقارات كانوا يطردون سكانها الوطنيين لتأجيرها للأمريكيين، وأصبح الموظف الڤيتنامى والجندى.. بل الضباط الڤيتناميين غير قادرين على إعالة أسرهم بسبب التضخم المالى الذى أحدثه الأمريكيون فى الاقتصاد الڤيتنامى..

التقى الصحفى الأمريكى بعدد من الڤيتناميين فى الطريق وسألهم عن مشاعرهم تجاه الوجود الأمريكى، فلم تخرج إجاباتهم عن هذه العينة: قال أحدهم: «فى أى وقت وفى أى مكان يحل فيه الأمريكيون البيض تحل الأزمة بالسكان الوطنيين» وقال آخر «نحن لا نحب الأجانب .. أى نوع من الأجانب فلا تتعجبوا أننا لا نحبكم».

ويعلق وليام فولبرايت على ذلك بقوله: «وهكذا فإنه برغم الجهود الأمريكية لبناء الحرية فى ڤيتنام الجنوبية فإن النتيجة كانت مختلفة عما قصد بها فكأن كل هذا النضال والمعاناة لجعل العالم مكانا أفضل كان خطأ كبيرا».

هو يفترض أن هذا كان هدف الولايات المتحدة فى ڤيتنام، ونحن قد لا نتفق معه فى افتراضه ولكننا نوافقه على النتيجة التى توصل إليها، وهى «أن الوسيلة التى لجأت إليها الولايات المتحدة فى تحقيق هذا الهدف كانت خطأ كبيرا، «ذلك أننا كنا نريد تغيير المجتمع الڤيتنامى بالقوة وهى مهمة لا يمكن - بطبيعتها - أن تتحقق بالقوة ولا بأى وسيلة أخرى يملكها جنودنا فقد يكون الهدف مرغوبا ولكنه مستحيل» ويستشهد على ذلك بعبارة لجورج برنارد شو حيث يقول: «إن الدين قوة كبرى بل هو القوة الحقيقية المحركة فى هذا العالم، ولكن ما لا تفهمونه أيها الأصدقاء، هو أنه لابد أن تصل إلى الإنسان من خلال دينه هو، لا من خلال دينك أنت».

يقول فولبرايت فى موضع آخر: كان هدفنا البرئ هو تعزيز التنمية والديمقراطية فى البلاد التى أردنا مساعدتها، ولكن فلاسفتنا رأوا أنه للوصول إلى هذه الغاية لابد من تدمير أساليب الحياة القديمة العقيمة.. فى هذا الجزء الأخير كنا أكثر نجاحا، ويرجع ذلك إلى المعرفة والمهارة والمال والموارد التى توفرت لنا بمقادير لم يسبق لها مثيل فى التاريخ، ومن ثم استطعنا السيطرة على سكان البلاد الأصليين وعلى مقدراتهم.. وهنا انتهى نجاحنا، فقد انهار نظام الحكم التقليدى وانهارت المؤسسات وأساليب الحياة تحت طرقات الثراء الأمريكى والقوة الأمريكية.. ولكننا فشلنا فى استبدال ذلك بمؤسسات جديدة وأساليب جديدة فى الحياة، ولم يسفر هذا التفكيك عن ديمقراطية أو تنمية أو تقدم بل أسفر عن فوضى عارمة وانحطاط، ذلك لأننا خلال عملية هدم الأساليب التقليدية فى العمل هدمنا الثقة بالذات والاعتماد على النفس، وهما ركيزتان لا يمكن لمجتمع بدونهما أن يبنى مؤسساته.. فتحول الناس بين يوم وليلة إلى حالة من التسوّل والعالة



ثيودور روزفلت

وامتهان الذات».

في ضوء هذه الحقائق التي ساقها وليام فولبرايت بقوة ووضوح ألا يحقّ لنا أن نتوقف قليلا لنتأمل سر الضغوط الأمريكية لعولمة ثقافتها ولتغيير نظمنا التعليمية دينية كانت أو مدنية؟. لا أحد ينكر أن نظمنا التعليمية مثل نظمنا السياسية والإدارية بحاجة ماسة إلى التغيير والإصلاح. ولكن أي إصلاح؟ هذا الذي تفرضه علينا إرادة أجنبية متغطرسة أم الإصلاح الذي نراه نحن ونخططه وفق اقتناعنا وفي إطار إرادتنا الجماعية؟.

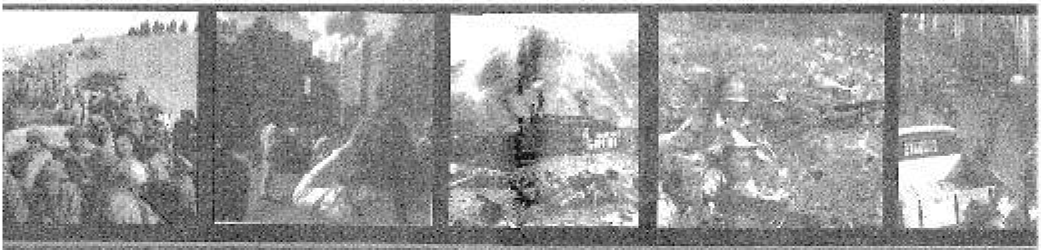
أليس من حقنا أن نتساءل: أين ومتى سعت الولايات المتحدة لإصلاح شأن أو مساندة نظام ديمقراطي حقيقي في أي دولة من دول العالم الثالث الذي ننتمي إليه؟!.

إن الإنسان ينظر حوله فلا يرى سوى أعمال القمع والتدمير والعقوبات الجماعية والمؤامرات التي تمارسها الولايات المتحدة وحليفتها الاستراتيجية إسرائيل في هذا العالم من أفغانستان إلى فلسطين عبر العراق. ولا يعرف من أصدقاء أمريكا إلا طرازا نمطيا من الطغاة الفاسدين الذين كانوا وبالا على شعوبهم، من أمثال ماركوس وشاه إيران وسوهارتو، ثم جنرالات الانقلابات الدموية في أمريكا اللاتينية، وجنرالات تركيا الذين يقفون حجر عثرة في طريق الديمقراطية، ويفرضون على شعب مسلم تحالفا مشبوها مع الكيان الصهيوني ضد إرادة الشعب، وينصّبون من أنفسهم حُراسا على نظام غبيّ يعتبرونه مقدسا، وأعني به نظام أتاتورك. أليس من دواعي السخرية أن تروج الولايات المتحدة لهذا النظام بالذات وتدعو الدول المسلمة كلها أن تحذو حذوه!؟.

★ ★ ★

لم تعد الولايات المتحدة تهتم بتغليف خطابها السياسي بشيء من الدبلوماسية، فقد أصبح خطابا صريحا ينطوي على أوامر مباشرة مصحوبة بالتهديد السافر «إما أن تكون معنا أو ضدنا.. وعليك أن تتحمل نتائج موقفك!».. فإذا توجه الخطاب إلى البلاد العربية والاسلامية يبلغ أقصى استهانته واستخفافه: «على قادة الدول في المنطقة أن يكونوا مواطنين صالحين.. عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في محاربة الإرهاب»، والإرهاب في القاموس الأمريكي يشمل المقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي.

ليس من المستغرب إذن أن تختار أمريكا ممثلا لسياستها الخارجية جنرالا لم يمارس الدبلوماسية قط، فهي لم تعد بحاجة إلى دبلوماسية.. وعلينا أن ندرك أن العالم الآن يواجه إمبريالية جديدة تتمتع بطاقة هائلة من غطرسة القوة، وتتكشف أمامنا عن حالة مرضية لم يشهدها العالم منذ انتحار هتلر وسقوط النازية. ■



التحولات في المؤسسة العسكرية الأمريكية

بقلم
محمود عزمي

تعودت الولايات المتحدة الأمريكية أن تخوض الحروب خارج أراضيها خلال القرن العشرين، مثل الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) والحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣) والحرب الفيتنامية (١٩٦٥ - ١٩٧٥)، دون أن تتعرض أراضيها لأية هجمات مباشرة، ولذلك ترسخ لدى شعبها وقادتها السياسيين والعسكريين - خاصة في ظل تمتعها بقوة عسكرية تقليدية ونووية ضخمة للغاية - اعتقادا بأن أرض الوطن الأمريكي ليست عرضة لأية هجمات جوية تقليدية. ومن ثم كانت الصدمة السياسية والعسكرية والمعنوية التي لحقت بها شعبا ودولة، نتيجة الهجمات الانتحارية بالطائرات المدنية المخطوفة التي جرت في كل من مدينتي نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، والتي أسفرت عن ٣٤٠٦ قتيلا ومفقودا، كبيرة وعميقة التأثير سياسيا وعسكريا ومعنويا بدرجة غير مسبوقة في تاريخها طوال القرن العشرين.

وهذا ما عبر عنه دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي الحالي في مقال بعنوان «تحويل المؤسسة العسكرية» نشرته مجلة «شئون خارجية» (فورين أفيرز) في عدد مايو/ يونيو عام ٢٠٠٢، تناول فيه التطورات التي لحقت بالعقيدة العسكرية الأمريكية وكذلك بالمؤسسة العسكرية، بعد هذه الأحداث التي جعلت الولايات المتحدة تمر بتجربة مؤلمة تعكس تحديات القرن الجديد، حيث قال «من كان يمكنه أن يتخيل، منذ شهور قليلة فقط، أن الإرهابيين سيحولون طائرات خطوط جوية تجارية إلى صواريخ، ويستخدمونها ضد مبنى البنتاجون ومركز التجارة العالمي، ويقتلون الآلاف من الناس. وفي السنوات المقبلة ستواجه الولايات المتحدة على الأرجح مرة أخرى بمفاجآت جديدة ممن يلجأون إلى ضربها بأساليب غير متوقعة. ونظرا لأنهم يملكون أسلحة فتاكة تتسم بمدى وطاقة متزايدين، فإن الهجمات قد تكون أكثر فتكا من تلك التي عانينا منها في ١١ سبتمبر».

وأوضح رامسفيلد أن هذا تحدي صعب في القرن الجديد، لأنه يعني الدفاع عن الولايات المتحدة ضد أخطار مجهولة، وغير مؤكدة، وغير مرئية، وغير متوقعة. الأمر الذي قد يعني أنها مهمة مستحيلة ولكنها ليست كذلك. ولذلك فيجب أن نُنحي جانبا أنماط التفكير المريحة ونتخطى المخاطر ونستخدم أساليب جديدة، حتى يمكننا ردع وهزيمة قوى معادية لم تظهر للعيان بعد لتتحدانا.

استراتيجية جديدة

ومن هنا كان من الضروري للولايات

* باحث استراتيجي مصري



المتحدة - فى رأيه - التوصل إلى استراتيجية جديدة لمواجهة تحديات المستقبل، ولذلك قررت الخروج من إطار الاستراتيجية السابقة التى مارستها فى مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة مباشرة، والتى كانت تقضى بالاحتفاظ بقوات عسكرية تكفى لخوض «حرب فى مسرحى عمليات رئيسيين» وتكون قادرة على احتلال عاصمة عدوين فى آن واحد وتغيير أنظمتهما السياسية. وذلك بعد أن أصبح ذلك المفهوم الاستراتيجى يجعلها غير متأهبة لمواجهات تحديات القرن الحادى والعشرين الطارئة وغير المتوقعة. وفى هذا الصدد يقول رامسفيلد: «فبدلا من الاحتفاظ بتشكيلات تكفى لتشكيل قوتى احتلال رئيسيتين، قررنا أن نولى تركيزا أكبر لتوفير الردع فى أربع مسارح عمليات حرجة، مدعومين فى ذلك بالقدرة اللازمة لإلحاق الهزيمة الحاسمة والسريعة بعدوين فى آن واحد، مع الاحتفاظ بخيار تنفيذ هجوم مضاد كاسح واحد لاحتلال عاصمة عدو وتغيير نظام الحكم فيه، الأمر الذى يحرر قوة الاحتلال الثانية، التى ستوفر مصادر عسكرية جديدة للمستقبل لمواجهة القوى الطارئة التى قد تواجهنا».

وأضاف رامسفيلد موضحا أن الولايات المتحدة قررت أيضا أن تتحرك بعيدا من إطار الإستراتيجية «المنطلقة من التهديد» التى حكمت التخطيط الدفاع الأمريكى نحو نصف قرن، وتبنت مفهوما استراتيجيا جديدا قائما على القدرات» يركز بصورة أقل على من يمكن أن يهدد الولايات المتحدة، أو أين، وبصورة أكثر على كيف يمكن أن يتأتى التهديد وما تحتاجه لردع مثل هذه التهديدات والدفاع ضدها. وقال: «بدلا من إعداد قواتنا المسلحة على أساس خطط مقاتلة هذا البلد أو ذاك، نحن فى حاجة إلى فحص نقاط ضعفنا. وأن نسأل أنفسنا، كما فعل فردريك الأكبر فى كتابه «المبادئ العامة للحرب» الذى قال فيه: «أى مخطط كنت سأقوم به فيما لو كنت محل العدو؟». ثم نكيف قواتنا على أساس ما هو ضرورى لردع وهزيمة هذا التهديد. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أنه بسبب امتلاك الولايات المتحدة لقوة لا نظير لها فى البر والبحر والجو، فإنه من غير المنطقى أن يحاول أعداؤها الكامنين منافستها بشكل مباشر. فهم تعلموا فى حرب الخليج أن المواجهة المباشرة للقوات المسلحة الأمريكية يعد عملا «متهورا». ولذلك فإنهم بدلا من إعداد جيوش وقوات بحرية وجوية منافسة سيبحثون، على الأرجح، على تحدينا على نحو غير متماثل من خلال البحث عن نقاط الضعف لدينا ومحاولة استغلالها. وهؤلاء الأعداء المحتملين، على سبيل المثال، يعلمون أن

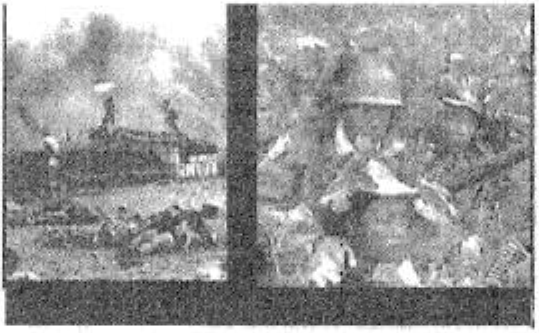
المجتمع الأمريكى المفتوح أكثر عرضة لهجمات الأنماط الإرهابية الجديدة. إنهم يعتقدون أن الوسائل الفضائية وشبكة المعلومات الأمريكية قابلة لمهاجمتها. إنهم يعرفون أن قدرة أمريكا لاستخدام القوة العسكرية فى أماكن بعيدة من العالم يعتمد، فى بعض الحالات، على قواعد أجنبية عرضة للهجوم. وإنهم يعلمون أيضا أنه ليس لدي الولايات المتحدة دفاع ضد هجمات الصواريخ الباليستية، الأمر الذى يوفر باعثا على تطوير أسلحة دمار شامل ووسائل توصيلها. ولذلك يجب على الولايات المتحدة أن تتوقع مهاجمة الوسائل الفضائية، وشبكة المعلومات ، وصواريخ «كروز» (الصواريخ الجوالة) «قصيرة المدى التى تتابع الأهداف الجوية المعادية تلقائيا، والصواريخ الباليستية، والأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. وفى الوقت نفسه عليها أن تدعم مجالات القدرات التى تتميز فيها، مثل القدرة على إسقاط قوة عسكرية عبر مسافات بعيدة، وأسلحة الضربات دقيقة التوجيه، والقدرات الفضائية، والاستخبارية، وقدرات الحرب تحت سطح الماء».

ستة أهداف للتطوير

وأوضح رامسفيلد أنه قبل وقوع الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن كانت وزارة الدفاع الأمريكية قد قررت بالفعل، التركيز علي تحقيق ستة أهداف تستند إليها عملية تطوير كل من العقيدة والمؤسسة العسكرية الأمريكيتين:

أولا: توفير الحماية الدفاعية لأراضى الولايات المتحدة وقواعدها العسكرية الخارجية. ثانيا: تأمين القوة العسكرية الأمريكية وإدامتها فى مسارح العمليات البعيدة. ثالثا: حرمان أعداء الولايات المتحدة من المأوى والملجأ، والتأكد من علمهم أن ليس هناك مكان فى العالم مهما كان نائيا أو في جبل وعر أو تحت الأرض، يمكن أن يحميهم من إمكان وصول القوة العسكرية الأمريكية إليهم. رابعا: حماية شبكة المعلومات والاتصالات من الهجمات. خامسا: استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال المتوافرة لدى الولايات المتحدة لتأمين الربط بين مختلف فروع القوات المسلحة الأمريكية حتى يمكن لها أن تقاتل بشكل مشترك. سادسا: الاحتفاظ بالسيطرة على الفضاء وحماية القدرات الفضائية الأمريكية من أية هجمات معادية.

وقد دعمت خبرات ١١ سبتمبر، وحملة أفغانستان التالية لها، الحاجة إلى تحريك وضع الدفاع الأمريكى فى الاتجاهات المشار إليها. وذلك هو السبب فى أن ميزانية الدفاع عن عام ٢٠٠٣ قد صممت لتطوير كل من هذه الأهداف الستة من خلال زيادات مهمة فى الاعتمادات المالية الخاصة بها. ولذلك يجرى زيادة الاعتمادات الخاصة بتطوير برامج التحويل التى توفر قدرات جديدة تماما، وتحديث البرامج التى تدعم التحويل المذكور فى الوقت نفسه. وفي خلال السنوات الخمس التالية، سوف



تزداد المخصصات المالية للدفاع عن أرض الوطن الأمريكي والقواعد الخارجية بنسبة ٤٧٪، وعلى البرامج الهادفة إلى حرمان الأعداء من المأوى والملاذ بنسبة ١٥٧٪، وعلى البرامج الهادفة لتأكيد قدرة إسقاط القوات العسكرية الأمريكية فى المناطق المعادية البعيدة بنسبة ٢١٪، وعلى برامج الربط والاتصال بين المعلومات التكنولوجية بنسبة ١٢٥٪، وعلى برامج مهاجمة شبكات معلومات العدو والدفاع عن شبكات المعلومات الأمريكية بنسبة ٢٨٪، وعلى البرامج الهادفة إلى تقوية القدرات الفضائية الأمريكية بنسبة ١٤٥٪.

وفى الوقت نفسه افترضت وزارة الدفاع الأمريكية إنهاء مجموعة من نظم التسلح غير المتوافقة مع الاستراتيجية الدفاعية الجديدة مثل «برنامج البحرية للدفاع الصاروخى عن المنطقة»، والصواريخ الباليستية (أرض - أرض) العابرة للقارات «ل ج - ١١٨ بيس كيبر». كما افترضت أيضا التخلى عن المشروعات التسليحية المتقادمة والمكلفة للاحتفاظ بقدراتها، مثل مقاتلات «ف - ١٤» و ١٠٠٠ هليكوبتر تعود إلى مرحلة الحرب الفيتنامية.

ولم يكن الهدف من وراء ذلك كله تطوير المؤسسات العسكرية الأمريكية بأكملها خلال عام واحد، أو حتى خلال عقد واحد. لأن ذلك أمر غير ضرورى وغير حكيم فى الوقت نفسه. نظرا لأن التحويل ليس حدثا، وإنما هو عملية تقدم مستمرة. ولن تكون هناك نقطة يمكن أن يعلن عندها أن القوات المسلحة الأمريكية قد أتمت تحولها وتطورها.

الوصول السريع لمسرح العمليات

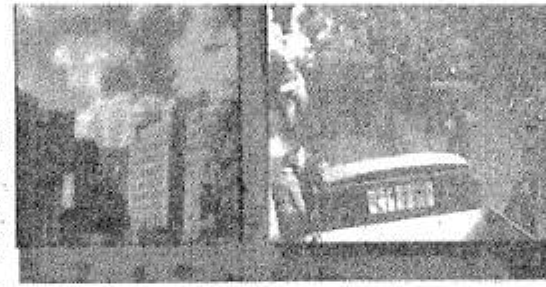
ويقول رامسفيلد فى هذا الخصوص: «إن التحدى الذى يواجهنا فى القرن الحادى والعشرين هو الدفاع عن مدننا، وأصدقائنا وحلفائنا وقواتنا المنتشرة وأجهزتنا الفضائية وشبكات الكومبيوتر، ضد الأشكال الجديدة من الهجوم، فى الوقت الذى ترسل فيه قوات لمسافات بعيدة لمقاتلة الأعداء الجدد. وهذا يتطلب توفر قدرة سريعة على نشر قوات مشتركة مندمجة بالكامل، قادرة على الوصول السريع إلى مسارح بعيدة للعمليات والعمل مع القوات الجوية والبحرية لضرب الأعداء بسرعة وبنتائج فعالة. وهذا يتطلب استخبارات محسنة، وقدرات قصف بالغة الدقة، ومنصات بحرية للمساعدة فى التصدى لقدرات وسائل دخول الأعداء. إن هدفنا ليس ببساطة مجرد خوض الحروب وكسبها، وإنما العمل على منع وقوعها. ولكى نحقق ذلك يجب أن نجد سبل للتأثير على صناعة القرار لأعدائنا المحتملين، وردعهم ليس فقط عن استخدامهم

الأسلحة الموجودة لديهم ولكن أيضا وأساسا لمنعهم عن بناء أسلحة جديدة خطيرة». وأضاف موضحا أنه يجب على الولايات المتحدة تطوير مصادر قوة جديدة بشكل مجرد امتلاكها عامل غير مشجع لأعدائها على منافستها. فعلى سبيل المثال يشكل نشر دفاعات فعالة مضادة للصواريخ الباليستية عاملا قد يثنى الآخرين عن إنفاق مبالغ طائلة لامتلاك صواريخ باليستية، لأنها لن توفر لهم فى الحالة المذكورة ما يبتغونه من وراء امتلاكها: وهو القوة التى تجعل مدن الولايات المتحدة وحلفائها رهينة الابتزاز النووى. وإن تقوية النظم الفضائية الأمريكية وتطوير وسائل الدفاع عنها يمكن أن تثني أعداء الولايات المتحدة المحتملين عن تطوير أسلحة صغيرة مدمرة للأقمار الاصطناعية لمهاجمة شبكة الأقمار الاصطناعية الأمريكية. كما أن أسلحة اختراق القشرة الأرضية وأسلحة الديناميكية الحرارية مثل تلك التى استخدمت ضد قوات «طالبان» و«القاعدة» المختبئة فى الجبال بأفغانستان، من الممكن أن تؤدى إلى هجر الكهوف والملاجىء الموجودة فى العمق تحت الأرض والتى يختفى داخلها الإرهابيون والتى يمكن أن تخفى الدول الإرهابية داخلها أسلحة الدمار الشامل.

وبالإضافة لبناء قدرات جديدة، فإن تطوير المؤسسة العسكرية الأمريكية تتطلب أيضا إعادة التوازن بين القوات الموجودة والقدرات، من خلال مزيد من الوسائل التى يسميها البنتاجون «معدات منخفضة الكثافة/ ذات متطلبات عالية». فعلى سبيل المثال أوضحت خبرة الحرب فى أفغانستان مدى فاعلية الطائرات بدون طيار، وفى الوقت نفسه كشفت نقاط الضعف فى الطائرات المذكورة ومدى قلة ما لديها منها.

وقد عرفت وزارة الدفاع الأمريكية منذ فترة أنها لا تملك عددا كافيا سواء من الطائرات بدون طيار سواء أو للقيادة والسيطرة للاستطلاع والمراقبة، أو من قدرات الدفاع الجوى، أو من وحدات الدفاع الكيمائي والبيولوجي ، أو وحدات كافية من بعض أنواع وحدات عمليات القوات الخاصة. ورغم علمها بهذه النواقص فى الأسلحة والوحدات القتالية المشار إليها، فقد أجلت الوزارة المذكورة الاعتمادات اللازمة فى هذا الخصوص، بينما استمرت، ضمن استعادتها الماضى، فى تمويل برامج أقل وتحتاج إلى تغيير.

وحين يتم تغيير أولويات تمويل برامج التسليح الأمريكية، يرى رامسفيلد، ضرورة البدء بتغيير التوازن فى الترسانة الأمريكية بين الأسلحة والمعدات التى يشغلها الرجال وتلك التى تعمل بدون رجال، وبين نظم التسليح قصيرة المدى وبعيدة المدى، ونظم التسليح المستخدمة سرا وغير المستخدمة سرا ، وأسلحة الرمى ونظم التجسس ، والنظم القابلة للإصابة وتلك ذات الصلابة كما يجب تحقيق الوثبة إلى عصر المعلومات، التى تشكل الأساس



الحاسم لكل جهود التحويل فى المؤسسة العسكرية الأمريكية. وقد تبين للمؤسسة المذكورة، بعد أحداث ١١ سبتمبر، أن المسئوليات الجديدة فى الدفاع عن أرض الولايات المتحدة ذاتها تفاقم كل هذه النواقص. ولذلك يجب على أى رئيس أمريكى أن لا يختار بين الدفاع عن المدنيين فى أرض الوطن واهتمامات الولايات المتحدة وقواتها فى الخارج. لأنه يجب أن تكون المؤسسة العسكرية الأمريكية قادرة على القيام بالمهمتين معا. وأن فكرة إمكان إجراء التحويل المذكور مع تقليل الموازنة الدفاعية وإن كانت فكرة مغرية إلا أنها خاطئة.

●●●

وبطبيعة الحال رغم أن تحويل المؤسسة العسكرية يتطلب بناء قدرات جديدة وزيادة الترسانات الموجودة منها، فإنها تعنى أيضا تخفيض المخازون غير الضرورى من الأسلحة. ومثل ما هو صحيح بأن الولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى قوات ضخمة وثقيلة لتتصدى لغزو سوفيتى بالدبابات فى سهول أوربا، فإنها أيضا لم تعد بحاجة إلى الاحتفاظ بعدة آلاف من الرؤوس النووية الهجومية التى تم تجميعها فى مرحلة الحرب الباردة لردع هجوما نوويا سوفيتيا. وذلك حين كان أمن الولايات المتحدة يتوقف على امتلاك قوة نووية كبيرة على نحو كاف ومتعدد الأشكال، بحيث تكون كافية للبقاء والرد المضاد فى حالة حدوث ضربة سوفيتية أولى. والآن تغير أعداء الولايات المتحدة وبالتالى يجب أن تتغير حسابات الردع. فمن الواضح أن الإرهابيين الذين قاموا بضربات ١١ سبتمبر لم تردعهم ترسانة الولايات المتحدة النووية الضخمة. ولذلك فإن الولايات المتحدة يجب أن تجد وسائل جديدة لردع أعدائها الجدد. ولذلك فإن الرئيس بوش يسعى إلى التوصل لمفهوم جديد للردع، يجمع بين إجراء تخفيضات كبيرة فى القوات النووية الهجومية وبين بناء قدرات عسكرية تقليدية ودفاعات ضد الصواريخ يمكنها أن تحمى الولايات المتحدة وقوتها وأصدقائها وحلفائها فى مواجهة هجمات صاروخية محدودة.

وفى الوقت نفسه يجب على الولايات المتحدة وهى تخفض عدد أسلحة ترسانتها النووية، أن تقوم أيضا بتجديدها، وتطور نظم أسلحة تقليدية جديدة، هجومية ودفاعية، أكثر ملائمة لردع الأعداء المحتملين التى تواجههم. وفى الوقت ذاته يجب عليها تأكيد سلامة أسلحتها النووية وإمكان الاعتماد عليها.

ويختصر رامسفيلد متطلبات القوة العسكرية الأمريكية فى صيغتها الجديدة المقترحة فى تعبير «الثلاثى الجديد» الذى سيشكل مدخلا جديدا

للردع، ويتضمن: تخفيض القوات النووية الهجومية، وتطوير القدرات الهجومية التقليدية، وتطوير سلسلة من الأسلحة الدفاعية الجديدة التي تضم أسلحة دفاع ضد الصواريخ الباليستية العابرة للقارات ، ودفاع ضد «صواريخ كروز» ، ووسائل دفاع فضائي، والدفاع عن «وسائل التحكم التلقائي الآلية» أي شبكات المعلومات القومية (الكمبيوترات) التي تتحكم تلقائياً وآليا في وسائل الدفاع المختلفة، تدعمها كلها «بنية تحتية دفاعية مجددة».

ويستطرد رامسفيلد قائلا أنه وفي ظل هذه الوسائل والأسلحة فإن من الضروري الحاجة إلى مفهوم جديد في موازنة المخاطر الأمنية، ففي العام الماضي كان مفهوم التهديد يركز الانتباه على المخاطر بالمعنى القريب، ويستبعد الاستثمارات في البشر، والتحديث، والتحويل. ذلك لأن بناء مؤسسة عسكرية للقرن الحادي والعشرين يعني إيجاد توازن بين جميع هذه المخاطر، ولذلك يجب تحويل ليس فقط القوات المسلحة ولكن أيضا المؤسسة الدفاعية (التي تضم وزارة الدفاع «البنتاجون» ووكالات الاستخبارات والمعلومات وأجهزة الأمن والاستطلاع بجميع فروعها) التي تخدمهم، من خلال تشجيع ثقافة الإبداع وتناول المخاطر بذكاء. ويضيف: «وأخيرا يجب أن لا نغير فقط القدرات القتالية الموجودة في حوزتنا، ولكن يجب أن نغير أيضا طريقة تفكيرنا عن الحرب.. فإن جميع الأسلحة ذات التكنولوجيا المتطورة في العالم لن تحول القوات المسلحة الأمريكية ما لم نغير طريقة تفكيرنا، وتدريبنا، ومناوراتنا العسكرية ، وأسلوب قتالنا».

وأوضح رامسفيلد أن البنتاجون تبنى، خلال عام واحد ٢٠٠١ فقط، استراتيجية دفاعية جديدة . واستبدل الاستراتيجية ، التي استمرت خلال العشر سنوات السابقة، والتي كانت قائمة على مفهوم «حرب في مسرحي عمليات رئيسيين» بمفهوم أكثر ملائمة للقرن الحادي والعشرين. وهو استراتيجية جديدة تقوم على توازن المخاطر وتعيد تنظيم وإحياء بحوث الدفاع الصاروخي وبرنامج اختباراته، مع التحرر من قيود معاهدة «الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية» (أي معاهدة سالت – ٢» الموقعة مع الاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٩). كما أعيد تنظيم المؤسسة الدفاعية لتركز بصورة أفضل على القدرات الفضائية. وبالنسبة للقوى النووية فقد تم تبني طريقة جديدة للردع الاستراتيجي تزيد من الأمن بينما يتم تخفيض الاعتماد على الأسلحة النووية الاستراتيجية.

استخلاص الدروس المستفادة

وأكد رامسفيلد أنه بينما يقوم البنتاجون بالتحويل فإنه يجب عدم الوقوع في خطأ الإدعاء أن الخبرة في أفغانستان سوف تكون نموذجا للحروب المقبلة. ذلك لأن الترتيب لإعادة خوض آخر حرب تمت ممارستها هو خطأ تكرر في معظم التاريخ العسكري، وهو أمر



يجب تجنبه، ولكن يمكن استخلاص الدروس المهمة المستفادة من هذه الخبرة الحديثة التي يمكن أن تطبق في المستقبل . ثم عرض أبرز الدروس المستفادة أمريكيا من حرب أفغانستان الأخيرة على النحو التالي:

أولا: إن حروب القرن الحادي والعشرين سوف تتطلب على نحو متزايد تجميع كافة عناصر القوة القومية: اقتصاديا ، دبلوماسيا ، ماليا ، استخباريا ، قانونيا ، وكل من العمليات العسكرية العلنية والسرية. وذكر بما قاله «كلاوزفيتز» من قبل وهو: «إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى» معلقا: «وفي هذا القرن، قد تكون معظم هذه الأساليب غير عسكرية».

ثانيا: إن قدرة القوات المسلحة على الاتصال ببعضها البعض والعمل بشكل جيد في مسرح العمليات القتالية سوف يشكل عنصرا حاسما لتحقيق النجاح. ففي أفغانستان قامت أطقم قتالية من القوات الخاصة الأمريكية تعمل برا بالعمل على تحديد الأهداف وتنسيق توقيت الضربات الجوية، الأمر الذي حقق نتائج تدميرية ساحقة بالنسبة إلى العدو. والدرس المستفاد من هذه الحرب أن الفاعلية في القتال تتوقف بشكل كبير على «التعاونية» القتالية، أي مدى قابلية الأفرع المختلفة من القوات المسلحة على الاتصال وتنسيق جهودها في ساحة المعركة. ولكن تحقيق التعاونية القتالية في زمن الحرب يتطلب بنائها في زمن السلم. لذلك يجب أن يتم التدريب مثلما سيتم القتال وأن يتم القتال مثلما تم التدريب.

ثالثا: إن سياسة هذه الحرب في قبول المساعدة من أي بلد، وفقا لقواعد ترتاح إليها حكومة هذا البلد، والسماح للبلد المعني تحديد كيفية تقديم مساعدته (بدلا من فرض توصيف المساعدة المطلوبة من البلد المعني). وقد مكن هذا الأسلوب من الحصول على الحد الأقصى من التعاون من البلدان الأخرى وأقصى فاعلية قتالية من قبل القوات المسلحة الأمريكية في مواجهة العدو.

رابعا: يمكن للحروب أن تستفيد من التحالفات المؤقتة التلقائية ولكن من المؤكد أن الحروب لا يمكن أن تخاض بواسطة لجنة. ذلك لأن المهمة القتالية يجب أن تحدد التحالف، وليس للتحالف أن يحدد المهمة القتالية، وإلا فإن المهمة القتالية تسقط إلى أقل مستوى من التعاون القتالي.

خامسا: إن الدفاع عن الولايات المتحدة يتطلب تحقق الوقاية وأحيانا «الضربة الوقائية المسبقة»، أي «الهجوم المضاد المسبق» الذي يعرف أيضا بـ«الهجوم المضاد الإجهاضي» لهجوم من المحتمل أن يقوم به الخصم. (وهذا

التعبير مأخوذ لغويا من كلمة «حق الشفعة»، أى حق الأولوية فى الشراء للجار المالك بدلا من المشترى الأصلى فى حالات معينة). ويبرر رامسفيلد ذلك فيقول: «لأنه ليس من الممكن الدفاع ضد كل تهديد، في كل مكان، وفى أى وقت يمكن تصوره. إن الدفاع ضد الإرهاب، وأية تهديدات أخرى، قد تظهر يتطلب أن ننقل الحرب إلى العدو. ذلك لأن الأفضل - وفى بعض الحالات يكون هو الحل الوحيد تكون الدفاع هو الهجوم الجيد».

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الرئيس جورج بوش قال فى خطاب له مع الضباط الأمريكيين الجدد، يوم أول يونيو عام ٢٠٠٢: «يجب أن ننقل المعركة إلى العدو، ونربك خططه، ونواجه أسوأ التهديدات قبل أن تظهر للعيان». وأضاف أنه يري دور أمريكا الجديد فى العالم بعد هجمات ١١ سبتمبر: «ليس فقط فرض الضربة الوقائية المسبقة، والاستخدام الأحادى الجانب للقوة فى الزمان والمكان الذى تختاره، وإنما أيضاً معاقبة هؤلاء الذين شاركوا فى الإرهاب والعدوان وتعمل على فرض الوضوح الأخلاقى الدولى بين الخير والشر». وفى ذلك إشارة إلى التهديدات التى وجهها فى خطابه عن «حال الاتحاد»، يوم ٢٠٠٢/١/٢٩، إلى العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها «محورا للشر».

وقد عقبت صحيفة «واشنطن بوست» على أقوال بوش هذه فقالت: «تاريخيا، لما تمارس المؤسسة العسكرية الأمريكية هجمات وقائية مسبقة أو هجمات مفاجئة، مثلما فعلت إسرائيل حينما هاجمت المفاعل النووى العراقى «أوزوريس» عام ١٩٨١، وكما فعلته اليابان حين هاجمت بيرل هاربور عام ١٩٤١».

والواقع أن مبدأ «الضربة الوقائية المسبقة»، المبرر لشن حروب عدوانية بدعوى إحباط هجوم مزمع من قبل خصم ما، إنما يشكل عنصرا رئيسيا من عناصر «نظرية الأمن» الإسرائيلية (أى العقيدة العسكرية الإسرائيلية)، التى طبقتها إسرائيل بوضوح فى حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧.

وتكشف لنا أقوال رامسفيلد وبوش هذه مدى التغيير الذى يجرى من أجل تطوير العقيدة العسكرية الأمريكية بحيث تخدم الأهداف العدوانية المزمعة ضد دولة مثل العراق، وغيرها من دول «محور الشر» الحالية، وكذلك من الدول التى يمكن أن تضاف إلى لائحة «محور الشر» مستقبلا، بدعوى ضرب الإرهاب مسبقا. ويؤكد هذا ما ذكرته محطة «سى إن إن» التليفزيونية الأمريكية، فى إحدى نشراتها يوم ٢٠٠٢/٦/١٨، من أن أمريكا تلمح بشدة إلى أن العراق سيكون الجولة الثانية فى حربها ضد الإرهاب: «فيما تعيد إدارة بوش صياغة الأمن القومي التى تتجه إلى اعتماد الضربات الوقائية المسبقة تكتيكا جديدا». ■

العنصرية

على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح



إذا كانت الإنترنت مكانا عظيما لتبادل الأفكار، والتواصل الإنسانى، فهى أيضا بوتقة للتمييز العنصرى، وبث الاحتقار للآخرين! ونشر الكراهية العرقية! ففى الوقت الذى كان يعمل فيه مناهضو العنصرية على مدى سنوات لرفع الوعى بهذه القضية والتحذير من خطورتها، كانت الجماعات التى تحض على الكراهية العنصرية تحتمى بالإنترنت لنشر رسالة الكراهية التى تحملها!

وفي تقرير قدم إلي المؤتمر الأخير لمناهضة العنصرية في ديربان بجنوب إفريقيا والذي حضرته مائة وخمسون دولة أوضح فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر مكانا آمنا لذوي الدعوات العنصرية ونشرها عبر الإنترنت، حيث يستغل مروجو الدعوات العنصرية الحرية التي يكفلها القانون الأمريكي، لكي ينشروا دعوات إلي الكره والنازية ونبذ الأجانب، وخلال السنوات الخمس الماضية تدفق علي الولايات المتحدة عدد كبير من الجماعات العنصرية خوفا من التعرض للملاحقة القانونية في بلادها، خاصة وأن الولايات المتحدة ترفض حتي الآن المشاركة في أي آلية لفرض نوع من الرقابة علي الإنترنت.

وحين ظهر موقع «ستورم فرونت» الذى يدعو إلى تفوق الجنس الأبيض فى عام ١٩٩٤، كان أول موقع للنازيين الجدد على الإنترنت، ولم يتوقع مستخدمو الإنترنت أن وجودهم سيستمر، بسبب عدم قانونيته، وقد أسس هذا الموقع بمعرفة شخص يدعى دون بلاك وهو خبير في الكومبيوتر وعضو سابق فى جماعة كو كلوكس كلان العنصرية البيضاء، واستغل الإنترنت لتجنيد مزيد من الأعضاء لصالح قضية البيض التى يزعم الدفاع عنها!.

مواقع عنصرية

وكان انطلاق موقع «ستورم فرونت» هو البداية لإطلاق مئات بل آلاف المواقع العنصرية على الشبكة الدولية للمعلومات، وأصبحت مواقع الإنترنت والبريد الإلكترونى ومنتديات الحوار من أفضل الوسائل لتجنيد أنصار جماعات الكراهية العنصرية وجمع التبرعات لها، بعد أن كان عليهم فى السابق الذهاب إلى محلات التصوير لنسخ نشراتهم والتجول بها على السيارات فى المواقف لتوزيع ما لديهم على زجاجها، أما الآن فبإمكانهم الاتكاء بعيدا عن المشاكل والمخاطر والبقاء مجهولين فى الظلام ونشر فكرهم وانحرافاتهم بلا مقابل لتصل إلى ملايين الناس، والنازيون الجدد فئة تستعدى اليهود والملونين وكل من لا يتصف بصفتهم والتى منها الانتساب للعرق الآرى والتدين بالمسيحية، وبدأت نذر صراع دستورى فى الولايات المتحدة بشأن السماح لهذه الجماعة العنصرية الأمريكية بالاستمرار فى تقديم نفسها إلى العالم عبر موقعها على الإنترنت، وتكمن خطورة استخدام الإنترنت فى أن العنصريين يستغلونها فى تجنيد صغار السن والذين يعانون الوحدة، من خلال مواقع الدردشة التى تقبل عليها هاتان الفئتان.



وتحول القواعد المعمول بها في الإنترنت دون تنفيذ رغبة البعض فى إخضاع الشبكة للرقابة أو ملاحقة الناشرين فيها، كما تعارض جماعات الدفاع عن الحريات المدنية مثل تلك المحاولات، حتى إغلاق المواقع التى تبث دعوات عنصرية ليس مجديا حيث ينتقل الناشرون بسهولة إلى موقع شركة بث أخرى ، أو ينشئوا هم مواقعهم الخاصة، وكان مدار الصراع حول قانونية وجودهم فى الواقع، وكذلك قانونية أفكارهم التى يبثونها من خلال مواقعهم، فقامت على الإنترنت وقتها ثورة الشريط الأزرق Blue Ribbon الشهيرة والذى يرمز به لحرية التعبير، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٩٥ ، والتى تزامنت مع الدعوات التى رفع لواءها المعتدلون بمنع المواقع الإباحية من استخدام الإنترنت، وقد انتصرت حملة الشريط الأزرق، فلم تخل رسالة بريدية ولا موقع من دعوة لحرية التعبير بل إن بعض المواقع البعيدة عن العنصرية احتجبت تماما، واستبدلت صفحاتها الأولى بصورة مكبرة من الشريط الأزرق تعبيرا عن استهجانهم لكبت الحريات على الإنترنت، ومع ضعف الحملات المضادة لظهور هذه المواقع على الإنترنت تنامى عدد المواقع العنصرية التى تقف خلفها منظمات الكراهية والحقد العرقى وبلغ عددها فى أواخر عام ١٩٩٧، ما يزيد على ١٦٠ موقعا نشطا تمارس فعالياتها العنصرية بكل حرية دون تدخل من السلطات الأمريكية أو غيرها.

وهذه الجماعات تحارب كل من هو أجنبى فى الولايات المتحدة، وكل ملون أو لا يدين بالمسيحية وما إلى ذلك من الصفات التى يصر النازيون الجدد على أن يصطبغ بها كل أمريكى، وفشلت الجهات المسئولة فى الولايات المتحدة فى مواجهة هذه الحملات، وانهارت محاولات السيطرة على تلك المواقع بصورة قانونية، وقد حذت الجمعيات الإسلامية الأمريكية والبريطانية هذا الحذو وصارت تبث حملات مناهضة عبر البريد الإلكترونى ضد المواقع التى تحارب الإسلام وقد حققت تقدما ملموسا خلال السنوات القليلة الماضية وكان آخرها إغلاق الموقع الذى حرف القرآن ونشره على الإنترنت.



ومادامت الإنترنت تحكمها الأنظمة الأمريكية فإن مواقع من هذا النوع ستستمر فى الظهور، دون رقيب لأن الإنترنت عالمية، وتحكمها قوانين أمريكية محلية مثل قانون حرية التعبير، وهى قوانين لا يعترف بها غالبية رعايا الدول المرتبطة بالإنترنت، وتواجه مكافحة التطرف العنصرى الموجود على الإنترنت صعوبات تكنولوجية وقانونية هائلة، وحتى لو أصبح من الممكن فنيا إعاقة الوصول إلى المواقع العنصرية، فإن

الطبيعة العالمية لهذه الوسيلة – الإنترنت – تجعل من المستحيل صدور تشريع يسمح بذلك، وحتى إذا وجد هذا التشريع فإن تطبيقه مستحيل في بلد يضمن حرية التعبير مثل الولايات المتحدة.

وحتى عام ٢٠٠٠ كانت الأرقام العالمية ترصد على الإنترنت ما بين ٢٥٠ – ٤٠٠ جماعة لها مواقع على الإنترنت تبث من خلالها الكراهية للآخرين، وأغلبها يبث من الولايات المتحدة الأمريكية، لكن مركز سايمون ويسينثال لوس Simon Wiesenthal مقره في لوس أنجليز، وهو يهتم بتتبع مواقع جماعات الكراهية والعنصرية على الإنترنت ، أصدر عام ١٩٩٩ إحصائية تقول إن هناك حوالى ٢٠٠٠ موقع ظهرت على السطح تلبث الكراهية والعنصرية منها المواقع المؤيدة لجماعة كوكلاكس كلان العنصرية، والنازية الجديدة، والمواقع التي تنشر كيفية صنع القنبلة الذرية في البيت لقتل الآخرين، وتلك المدافعة عن السامية! وفي عام ٢٠٠١ أعلن المركز في أحدث تقرير له عن الكراهية العنصرية عبر الإنترنت وجود ثلاثة آلاف موقع تثير مشاكل عنصرية وتروج للعنف العرقي والإرهاب وموسيقى الكراهية! وقوبلت الحملة التي يقودها المركز ضد المواقع العنصرية بانتقاد في بعض الأحيان من الجماعات المدافعة عن الحريات المدنية! وفي نفس الفترة أعلن معهد القوانين المقارنة في لوزان بسويسرا عن كشف إحصاء علمي بوجود أربعة آلاف موقع عنصري تقريبا على شبكة الإنترنت منها ٢٥٠٠ في الولايات المتحدة وحدها! وتم إحصاء خمسين ألف صليب معقوف على الإنترنت ألفان منها في ألمانيا من أصل مليار موقع تم التحقق منها، و٨٥ في المائة من الرموز الفاشية كانت موجودة في مواقع أمريكية، وازدادت هذه الظاهرة العنصرية انتشارا في السويد وفنلندا والنمسا كما في ألمانيا، وكشفت الدراسة على أن السرية والشعور بالإفلات من العقوبة يحثان أنصار العنصرية على التجمع وارتكاب أعمال عنف مثل إعداد لوائح سوداء بأسماء شخصيات يعتبرونها معادية أو تبرير هجمات عنيفة لليمين المتطرف.. وكشف تقرير أعدته الحكومة الألمانية، عن حجم القلق الرسمي من ظاهرة الإقبال المتزايد على منظمة «النازيين الجدد العنصرية، التي شهد العام ٢٠٠١ ارتفاعا ملحوظا في عدد المنتسبين إليها، كما شهد تزايدا في اعتداءاتها التي يتصدر العرب قائمة ضحاياها، حتى الغجر لم يسلموا من العنصرية، فقد عبر قادة جماعات الغجر في جمهورية التشيك عن قلقهم واحتجاجهم على ظهور لعبة تمارس عبر الإنترنت ويرون أنها تثير مشاعر العنصرية ضدهم وفكرة اللعبة هي إطلاق النار على شخصيات تمثل غجرا يحاولون تدمير حائط يفصلهم عن شعوب أخرى، ويقال إن فكرة اللعبة مستوحاة مما حدث بالفعل في بلدة أوستي ناد لابم، حيث قامت السلطات ببناء حائط



خرسانى ضخم ليفصل بين المنطقة التى يسكنها الغجر وبين منازل المواطنين التشيك! وما أكثر العاب الكمبيوتر على الإنترنت ، التى تمثل العرب والمسلمين كإرهابيين، وإن كانت لا تسميهم، بل يظهر ذلك من الأسماء والملامح والملابس والبيئة التى تجرى فيها فعاليات اللعبة! ومن أغرب المواقع العنصرية، موقع عرقى أطلق على شبكة الإنترنت التونسية لليهود المحليين، ويعتبر الموقع اليهود شعبا نوعيا الأقرب من الإنسان الخالص أو ما وصفوه بـ (الفرادة الإنسانية).

العنصرية ضد العرب والمسلمين

بعد أحداث إرهاب سبتمبر على أمريكا، تزايدت نغمة العنصرية، واصبحت الولايات المتحدة ملجأ آمناً للعنصريين الذين ينشرون كلمتهم عالميا باستعمال الإنترنت ، ومن يحاول الإبحار فى منتديات الحوار والمناقشة على الإنترنت يستطيع أن يلحظ بسهولة، إن هناك من استغل حرية الكلام على الإنترنت فى بث الكراهية والإحتقار للآخرين بكافة لغات العالم! وهناك من عمل محرقة للآخرين ! فبعد هجوم الثلاثاء الأسود يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأمريكية، والذى جعل العالم يقف على أطراف اصابعه، وبعد انتهاء الصدمة الأولى بدأت حربا حقيقية فى منتديات الحوار بالإنترنت ، واشتعل فضاء الإنترنت بأعنف موجة حقد وكراهية ضد كل ما هو عربى وإسلامى، وانتشرت الموجة فى كافة منتديات الحوار عبر العالم كله، واشتدت بصفة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا، وانغمس آلاف البشر فى حوارات عنصرية شوفينية متعصبة مطالبين بالثأر الفورى والقوى لضحايا مركزى التجارة والبنتاجون! وأعلن المجلس الإسلامى الأمريكى أن القضاء فى الولايات المتحدة ينظر فى ٢٥٠ قضية تتعلق بممارسات عنصرية وقعت بعد هجمات الثلاثاء.

وأشار المجلس الإسلامى إلى أن حوالى ٧٠٪ من هذه الجرائم ارتكبت مباشرة بعد الهجمات والرعب الذى عاشه الأمريكيون، وهذا جعل أيضا الكثير من المواقع المناهضة للعنصرية ترفض الحرب وتنادى بالعودة لساحة القانون وترفض القوة والبطش، وتوجه النصائح للمسلمين والعرب عن كيفية التصرف والتأثير فى مجتمعاتهم الغربية، فضلا عن الدعوات المناهضة للعنصرية الأمريكية، ونبذ العنف من جميع الأطراف.. ويذكر أن فى الولايات المتحدة ما بين ستة وسبعة ملايين من الأمريكيين المسلمين ونحو ثلاثة ملايين من العرب الأمريكيين، واتسمت ردود



أفعال العرب والمسلمين خلال تلك الحوارات بالدهشة والحساسية الشديدة.

بين العرب والمسلمين

ففي العقدين الأخيرين بدأنا لنلمس انتشار النزعة الشوفينية بين العرب والمسلمين أنفسهم! ورصدت الحوارات العنصرية والشوفينية بوضوح في منتديات الحوار العربية والإسلامية على الإنترنت ، حيث حوار التعصب والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب، والأستعلاء أو الانغلاق العنصرى، والدينى، والعرقى، والثقافى، والقومي، والعجيب ان العرب والمسلمين وخاصة الأصوليين منهم يتعاملون مع مبادىء الحرية فى منتديات الحوار بالإنترنت بمقاييس متباينة، فإذا كان الانتقاد موجهاً لهم ضاقوا به وسخطوا عليه وتألبوا ضد قائله، في حين أنهم في الوقت نفسه يمنحون أنفسهم حرية واسعة في الهجوم على كل ما هو غربي، وعلى كل من ليس له علاقة بمبادئهم ومذاهبهم واتجاهاتهم ، فإذا تصدى لهم من يذودهم عن هذا الهجوم جأروا بالشكوى وتباكوا على الحرية المهدرة التى تحول بينهم وبين التطاول على عقيدة الآخرين وتلويث مقدساتها وإهانة رموزها، وهذا المنطق العجيب يفترض أن الحرية المطلقة تخصهم وحدهم وأن ما عداهم ليسوا أهلا لهذه الحرية التى ينشدونها لأنفسهم ويحظرونها على غيرهم، فهم يتعاملون مع الحرية بإزدواجية تتلون بتلون غاياتهم وأهدافهم، لدرجة أن فى المنتديات السلفية على الإنترنت (٧٠٪ من منتديات الحوار العربية سلفية التفكير) لا يسمحون بالمشاركات التى تخالف اطروحاتهم وأفكارهم ولا يسمحون لأصحاب الافكار الأخرى حتى بالتسجيل لديهم، وهذا التيار الأصولي يحرم على المسلمين دخول مواقع الكفر والإلحاد على اختلاف أشكاله وصوره.. ولا أدرى ما يقصدونه بمواقع الكفر والإلحاد، هل يقصدون الجنس؟ فهم ذكروا ذلك فى قائمة محرماتهم! ويحرمون أيضا الدخول فى مواقع أهل البدع كالرافضة والصوفية والأشاعرة والإباضية وغيرهم من مواقع أهل الاتجاهات المخالفة لهم كالعلمانية والحداثة والقومية ونحوها.. ومواقع السحر والكهانة والتنجيم والحظ وما إليها ومواقع الأفلام والصور ومواقع الأغاني والموسيقى ومواقع الأفلام والفيديو مثل: المسرحيات والتمثيليات وعروض الأزياء والرقص ومواقع التعارف والصداقة بين الجنسين، ويحرمون فى الإنترنت أيضا التحدث مع الجنس الآخر غير المحرم بلا غرض شرعي، وعدم التحدث فى قضايا الغزل والحب، ويحرمون إمكانية مشاهدة صورة الرجل للمرأة والعكس وتبادل الصور وتبادل رسائل الغرام والغزل بين الجنسين وإرسال بطاقات التهاني بأعياد الميلاد وغيرها من المناسبات المحرمة!



هكذا هو الحال فى منتديات الحوار بالإنترنت ، ويصبحون، فى نفس الوقت هدفا نموذجيا لممارسات العنصرية والشوفينية من قبل رواد منتديات الحوار الغربية! وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال التالى لماذا لا يسترعى انتباهنا سلوكيات العنصرية والشوفينية التى تمارس فى الحياة اليومية فى بلاد العرب والمسلمين؟! فالإهانات اليومية التى تمارس على أساس العرق أو اللون أو الدين أو الجنس لماذا اصبحت شيئا معتاداً لا يسترعى الانتباه؟!.

ففى بعض المطارات العربية خاصة الخليجية تجد العنصرية والشوفينية واضحة تماما! وهى تفرق فى طريقة الاستقبال بين العرب والأجانب، بل أيضا بين الجنسيات العربية نفسها .

لقد ساد السلوك العنصرى فى اللغة واللاوعى، حتى أصبح خطابا ثقافيا معتاداً! وظهر واضحا فى المنتجات الثقافية والإعلامية، وأصبح يعكس ثقافة عامة تقسم الناس إلى رتب حسب العرق والجنس واللون والدين والجنس! وأزعم أن الإهانة العنصرية التى يمارسها بعض العرب والمسلمين فيما بينهم، إنما هى جزء من إهانة منظومة القهر التى تطال المواطنين فى تلك البلاد فى حريتهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحين يكون المرء مقهوراً، لن يشعر بالإهانة العنصرية!وهناك العديد من قضايا العنصرية المسكوت عنها فى بلاد العرب والمسلمين، هناك القهر والطغيان وشن الحروب ضد بعض الأقليات ، والممارسات التى تقوم على الإقصاء من المشاركة السياسية على أسس طائفية أو دينية أو عرقية، والدعاية والتحريض التى تقوم على التعصب والاستعلاء الدينى والقومى وغيرها ، فهناك قضية الأكراد، والحرب الأهلية فى السودان، ومشكلة عديمى الجنسية فى دول الخليج، والتمييز ضد النساء، والتمييز ضد العمال المهاجرين داخل أو خارج العالم العربى، كلها قضايا شوهت صورة العرب والمسلمين فى الغرب!

ورغم الجهود المتواصلة المبذولة لمناهضة العنصرية، فإن العالم وهيئاته مثل الأمم المتحدة، وجمعيات حقوق الإنسان، يساوره قلق بالغ من زيادة انتشار العنصرية والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب، وكذلك أعمال عنف، وإرساء سياسات تقوم على الاستعلاء أو الانغلاق العنصرى، والدينى، والعرقى، والثقافى، والقومى، وزاد القلق أيضا من أن أولئك الذين يسيئون استخدام تكنولوجيات الاتصال الجديدة، بما فى ذلك شبكة الإنترنت لنشر



أرائهم العنصرية، البغيضة! وتعددت المؤتمرات والندوات العالمية لمكافحة العنصرية والكراهية، فنجد الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى، تحظر نشر الأفكار القائمة على التفوق العنصرى أو الكراهية العنصرية هو أمر يتفق مع الحق في حرية الرأى والحق فى التعبير على النحو المبين فى المادة ١٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وتؤكد الاتفاقية على أن أعمال العنف العنصرى ضد الآخرين النابعة من العنصرية لا تشكل تعبيرات عن رأى بل تعد جرما ، وتشجع جميع الدول على أن تدرج، فى مناهجها التعليمية وبرامجها الاجتماعية، على جميع المستويات، حسب الاقتضاء، المعارف المتعلقة بالثقافات والشعوب والبلدان الأجنبية والتسامح إزاءها واحترامها، وتشجع الحكومات على اتخاذ تدابير ملائمة للقضاء على جميع أشكال العنصرية والتمييز العنصرى وكراهية الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب، وترفض بشكل قاطع إساءة استعمال المطبوعات والوسائل السمعية البصرية والالكترونية وتكنولوجيات الاتصال الجديدة، بما في ذلك شبكة الإنترنت ، للتحريض على العنف بدافع من الكراهية العنصرية.

ومنذ أكثر من سنة عقد مؤتمر حول جريمة الإنترنت فى بوادبست بالمجر ناقش فيه الخبراء اعداد مشروع اتفاق يهدف مكافحة الدعاية العنصرية والترويج لكراهية الأجانب عبر الإنترنت.

وبعد اعتداءات ١١ سبتمبر قامت لجنة وزراء مجلس أوروبا بتعزيز اتفاقية محاربة جريمة الإنترنت عبر تضمينها بنودا تتعلق بنقل رسائل ذات مضمون إرهابى عبر الإنترنت وفك رموزها ، واشترطوا أن الاتفاقية لا تشكل بأى حال أساسا ولا عذرا للرقابة، ويطالب البعض بالملاحقة القضائية لمدراء الشركات التى تسمح بنشر مواد عنصرية على المواقع التى تتحكم فيها ، ويقترح آخرون طريقة ما لتحقيق هذه الصيغة، تتمثل فى تركيب مستخدمى الإنترنت القلقين من الدعايات العنصرية فلاتر على أجهزتهم وإبلاغ السلطات بأى رسائل عنصرية تصلهم عبر الإنترنت ، كما يقترح أن يلجأ مناهضو العنصرية إلى الأسلوب الهجومى فى تصديهم للدعوات العنصرية، مشيرة إلى أن الإنترنت التى أصبحت وسيلة اتصال لحظى بين مختلف الجماعات البشرية فى جميع أنحاء العالم يمكن أن تصبح وسيلة لنشر التقارب والتسامح، ومهما اختلفت الآراء حول السبل المثلى لمواجهة العنصرية على الإنترنت فإن الجميع يتفقون على ضرورة وجود تعاون عالمى قوى فى هذا المجال. ■





ذكريات باريس

(تأليف الدكتور زكي مبارك)

بقلم
د. محمد رجب البيومي

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات عن الدكتور زكي مبارك (١):

«وزكي مبارك مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم في الحياة بالقوة وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع، وهو أحد الأنباء الذين لم يقم مجدهم الأدبي على الظروف والحظ، وإذا كان الحظ قد وقع في حياته فهو الحظ المنكود، لأنه كان يكدح قلمه، وتقدم بفضل جهاده، ثم كانت الظروف التي تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة.. ولو استطاع زكي مبارك أن يتملق الظروف، ويصانع السلطان، ويحقق شيئاً من فن الحياة لاتقى كثيراً مما جرته عليه بداوة الطبع، وجفاوة الصراحة، ولكن هذه الأعراض النفسية ستختفي فيه وفي الناس، ويبقى ذلك المجهود الذي قدمه للأدب العربي في شتى مناحيه الحظ شاهداً على صدق خدمته للأدب، ورفيع مكانته في النهضة».

في هذه السطور القليلة قدم الأستاذ الزيات عناصر أصيلة تصلح أن تكون أساساً لمؤلف رائع، يترجم حياة زكي مبارك، وقد أعتني في هذا التقديم من الحديث عن مجهده الأدبي، وكفاحه المرير، منتقلاً إلى الحديث الأصيل عن كتاب (ذكريات باريس) وأنا حين أتحدث عن الكتاب لا أبعد عن ترجمة حياة الدكتور، لأن صفحات حافلة بالكثير من تاريخ هذه الحياة، وأسلوبه الرائق الشفاف يجذب كل قارئ إليه، بل إنه يغفر كثيراً مما يسهو فيه من الحديث عن نفسه، لأنه مع صدقه الواقعي مسرح لأدب شخصيته لم يشأ الكاتب أن يحجبها في خطوطه بل هتف بها في إخلاص وجد تجاوبه من القارئ البصير، لأنه يدرك تمام الإدراك أن كاتبه مجاهد شريف.

نلمس هذه الحسرة الكاوية في أول فصل من فصول الكتاب، حين يذكر لقارئه أنه اتجه إلى محطة باب الحديد مسافراً إلى الإسكندرية فكان موعده ثلاثة ركاب من الوداع أصدقائه كان يأمل أن القاهم قصد المسافرين الآخرين الذين احتفل بهم ذووهم الكثيرون ومن بينهم فتيات من الجنس اللطيف،



الذى يحسن التوديع بالقبلات والعناق ، ثم التلويح بالمناديل البيض » ، وأنا أنقل ذلك لأنص على أن الدكتور زكى مبارك كان لا يخفى عن قارئة الدقيق من خطرات نفسه، بل إنه في سائر فصول الكتاب يسمعه همس الجوانح ورفيف الشغاف ، وأظن كثيراً من المسافرين قد أحسوا إحساسه فى مثل موقفه ، ولم يستطيعوا الجهر به ، ولكن الرجل يلتمس زيت وقوده من أعصابه المتأججة ، وعواطفه المشتعلة ، ولا يهمه أن يقع حديثه موقع الرفض أو القبول .

ثم يتابع حديثه المرير ، فيتحدث عن جلوسه فى الباخرة التى أقلته من الإسكندرية فيقول (ونقلت أمتعتى إلى مكانى فى السفينة ، وشغلنا عن توديع الإسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن ؟ وما فراقه ؟ إذ كنا فى بلادنا غرباء ، والمظلوم فى وطنه غريب) .

وإذا كان الدكتور مبارك قد وطن نفسه على أن ينقل مشاهداته إلى جريدة البلاغ ، حيث شاء صاحبها الاستاذ الكبير عبد القادر حمزة أن يجعله مراسلاً للجريدة فى مدينة النور بأجر يسعفه ببعض تكاليف الحياة ، إذا كان الدكتور قد فهم مهمته تلك، فإنه أحسن أداءها خير الإحسان ، حيث كان فى كثير مما كتب يتجاوز أسلوب الصحافى إلى أسلوب الشاعر المرهف ، وكتاب الرحلات يحملون صفة المؤرخ الراصد ، ولكن زكى مبارك مع احتفاظه بخصائص كاتب الرحلة قد ضم إلى أسلوبه مالا يستطيع الفكاك منه ، إذ هو فى أعماقه أديب مطبوع تنفحه الشاعرية بصور لا تتاح إلا للملهمين من ذوى الاستبطان النفسى الدقيق ، ويظهر ذلك جليا فى أول فصول الرحلة ، فبعد أن وصف بإجمال أماكن الغذاء والنوم والرياضة جال بشاعريته إلى ما رآه من أحوال الراهبات والرهبان ممن كانوا زملاءه فى الباخرة بعد أن سجل فى خفة روح أن الملائكة استراحت من تسجيل آثامه فى رحلة الباخرة حيث اضطر إلى الانزواء متأملا وجوه الراهبات ، وقد قال فى تحليله الأدبى البديع «إن الراهبة أعقل من الراهب ، وأبعد عن الفضول وقد لاحظت أن بينهن فتيات يترقرق فى وجوههن ماء الحسن ، ويقطر من أعطافهن دم الشباب فبدا لى أن الله قد أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال (هذا كلام لا يقوله غير شاعر) ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف فى شيء أن نصارح القارىء بأنه لا خير



فى تقوى كثير من الناس لأن أكثرهم لا يتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق ثم امتد الحديث فى هذه المعانى ، وهى تؤكد تماما أن الدكتور يكتب كل ما يفد على خاطره دون احتياط وهو مذهب فى الأدب كان الدكتور رائده الأول فى مصر ، وقد جر عليه من العداء ما باعد بينه وبين ما يستحقه من المناصب المرموقة كما أشار إلى ذلك الأستاذ الزيات ، ولم يكن العداء بسبب آرائه الوجدانية ، بل لمهاجمته من يراه موضع المهاجمة من الكبار ! وفى حديثه عن الباخرة ثورة على من يتظاهرون بالتقى وهم مراءون ، وكأنه بذلك يبرر صراحته الكاشفة للنقائص الجاهرة بالنقد الجارح يقول الدكتور «والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام ، فأوغلوا فيها ، وافتنوا فى جمع أسبابها ، والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردهم إلى الحد المعقول ، وأنا والله غير نادم ، فتلك كلها حظوظ لا يفرح بها غير الضعفاء » .

ركوب الطائرة والشعور بالعزة

وانتقل بعد حديث الباخرة إلى ما وصف به الكاتب شعوره وقد ركب الطائرة لأول مرة فى حياته ، وكانت فى ذلك الوقت مظنة إشفاق لدى الكثيرين حتى حذره أحد أصدقائه من ركوبها ، فلما صمم قال له : أكتب وصيتك إذن!! ركب الدكتور الطائرة ، فلاحظ أنها أرفق بركابها من السيارة فوق الأرض ومن الباخرة فوق الماء ، فسير الطيارة لين هين لاعنف فيه ولا اضطراب ، فهى أرق فى نظره من المطايا الذلول التى تجوب البيداء ، وأسعفته شاعريته الممتازة بخواطر لاتتاح لرحالة إلا إذا كان أديباً من طرازه ، فقد قال فيما قال :

لقد شعرت بالعزة الإنسانية حين توغلنا فى آفاق السماء ، وكنت بين الراكبين كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به من المنازل والقصور والبساتين ، فراعنى أن شعورى بجمال الطبيعة كان أعمق مما تربى فى خيالى وأيقنت أن الطير أكثر نعيما منا ، وأدق إحساساً وأعمق شعوراً ، وأبصر بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال ، وكيف لا ، وأنت على الأرض لا تدرك من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة فى زخارفها ، وتهاويلها ونقوشها وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المجلوب والجمال الموهوب ، وإن نظرة إلى بعض مناظر



باريس التى أخذت من الطيارة تريك الفرق البعيد ، بين المنظرين ، منظر يؤخذ من مصور يقف على الأرض ، ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء» قلت إن زكيا كان شاعراً لأنه فسح لخياله أن يتصور مبالغات هى موضع جدل ! لأن راكب الطائرة لا يرى فى علوه السامق القصور والدور إلا كبعض الأشباح ، فهل كان له بصر زرقاء اليمامة التى ترى ما لا يراه الناظرون ! أو لديه من الجلاء البصرى ما يتحدث عنه المتصوفون ! وقد كان منهم فى وقت ما كما قرر ! ووافقه الأستاذ الزيات !

ومظاهر الحب ، وسحر الفتيات أكثر ما يلفت الرحالة الشاب من معالم باريس، وكذلك كان زكى مبارك فقد شغل صفحات كثيرة فى الحديث عن عرائس باريس ، وإذا كنا نعلم أن الرحلة مقالات متفرقة نشرت خواطرها فى أعداد مختلفة من جريدة البلاغ فلا محل لتلمس بعض المتناقضات فيما يروى الدكتور ، لأنه فى يوم ما يرى من مشاهد العفة والطهر ما يسجله عن صدق ، وفى يوم آخر يرى من مشاهد التبذل والإسفاف ما يسجله عن صدق ، وإذن فلا يقول قائل هذا عكس ما روى من قبل، وإنما يدرك أن الليل والنهار يتداولان الحياة ، ولكل لونه الخاص ، فالدكتور يقول فى موضع من كتابه «أتريد الحق ، إن أهل باريس لا يرون فى الحب ما نراه، هو عندهم شريعة الحياة ، وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق أحد المقاعد وبجانبه صبية مشغولة بكتاب تقرأه ، أو شعار تحوله ، أو أمل مرموق ، فى صدرها المفتون ثم تظل فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القبل ، وهدير العناق » .

الحياة فى باريس

وقد يزيد فيأتى بحديث التى تساوم على المتعة ، وتطلب الأجر المضاعف ! مما نكتفى بالإشارة إليه فحسب ، ثم يقول فى موطن آخر «لقد تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية ، ولم يصل أحد إلى مثل ما وصلت إليه من الألفة الصافية، ، والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم فى باريس وغير باريس ، فالمرأة الفرنسية الصميمة الأصلية يغلب عليها النبل والطهارة والعفاف ، وإن نبرة من صوتها لتبدل الأرض غير الأرض وإنها لتذل من تذل، وتغر من تغر ، وهى فى مكانها كالطود



الراسخ لا تغلب ولا تنال ، ولو كانت المرأة الفرنسية هينة إلى الحد الذى يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات فى فرنسا لما أنجبت فرنسا كاتبا ولا شاعرا، وظل أهلها فقراء العواطف موتى الأحاسيس » .

و يندفع إلى أبعد ما يبلغه المحامى فيقول : هل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والملاجىء والمستشفيات ؟! وأنا أقول له إن أمير الشعراء كان أبعد نظرا، حين حكم بوجود الجانبين فى المدينة ، جانب اللهو والتبذل ، وجانب العلم والدرس فقال يخاطب هذه المدينة الساحرة .

إن كنت للشهوات ريا فالعلا
شبواتهن مرويات فيك
ومن العجائب أن واديك الثرى
ومراتع الغزلان فى واديك !

فالناحيتان موجودتان ، وتلك سنة الحياة !

وحديث الدكتور عن الحى اللاتينى صادق فى مجموعه ، فهو يقرر أن عصابات من النساء ، وأسرابا من الفتيات يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللاتى يبحثن عن معالم الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظماء إلى الحسن الغض ، وهناك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق ولا يجدن ! على أن أحس ما جاء فى هذا الباب هو ما قرره الدكتور عن المرأة الشرقية حيث قال :

إن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص ، هى سيدة لأنها لا تزال تطلب وتعشق ، ويقال فيها الشعر ، أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها ، وبادت أيامها ، لأن الغرب رزى ببلايا زهدت الرجال فى النساء .

الحب لمصر

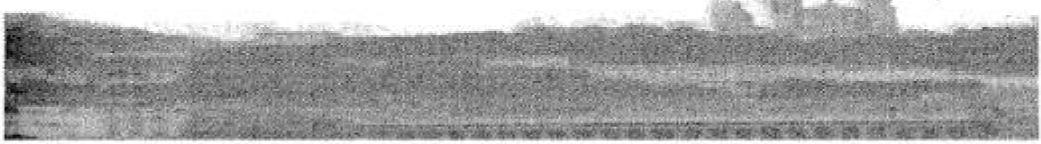
هذا عن باريس أما مصر ، فقد كانت ماثلة فى زمن زكى مبارك ، تجيش عواطفه نحوها بأصدق انفعالات الحب ، حتى حين ينقد أوضاعها ، إذ يأتى النقد صادرا عن رغبة فى الإصلاح ، وحافزا للتقدم ، كما ينقد الوالد ابنه فى تصرفه ، وقد يهم بعقابه بالضرب لا كراهية له ، بل رغبة فى إصلاحه ، فإذا أخذ المؤلف على الكتب المدرسية اهتمامها بالقديم دون الحديث ، وإذا أخذ على الشباب المصرى أنه يعرف عن خلفاء العباسيين



والأمويين أكثر مما يعرف عن مصطفى كامل وأحمد عرابى ، فهو توجيه سديد ، وقد حادث بعض الشباب فى مصر فرأى أنهم يقولون إن النهضة المصرية بدئت بثورة سنة ١٩١٩ فهم يجهلون إذن كفاح عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ، ومرد ذلك إلى الكتب المدرسية التى لا تحفل بغير القديم ! . وكم كان المؤلف شديد الأسف على سبق فرنسا السياسى إذا قورن بمصر ، منتهزاً كل فرصة لتوعية قومه بما يجب أن يكون ، إذ أن حديثه هذا ينشر تباعا بجريدة سيارة هى جريدة البلاغ ، ومن أمثلة ذلك حديثه عن المعرض الدولى الباهر الذى أقيم بباريس فجذب أنظار العالم جميعه ! لقد وصف المعرض وصف الأديب البارع ، ثم اتجه إلى أمر له مغزاه ، ذلك أنه لاحظ أن وزراء فرنسا قد جاءوا إلى المعرض كما يجيء أى فرد من أفراد الشعب ، حتى لم يشعر بهم زكى مبارك إلا حين أخبره أحد الزائرين عرضا بأنهم جاءوا فرادى وذهبوا دون أن يشعر بهم أحد ، يقول زكى مبارك :

«لقد دهشت حين علمت بعد نصف ساعة من ذهابهم ، أنهم حضروا وشاهدوا ما أهمهم من مختلف المعروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد، فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب، لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس حيث لا مدفع ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» .

وحين يتحدث زكى عن حرية النقد فى صحف باريس وصدوره عن صدق خالص لا يعرف الملق ، يأسف كل الأسف لما يراه فى الصحف المصرية من مجاملات فارغة لا تمت إلى النقد الصحيح ، ويقول متألماً فى خطاب لصديق (كم رأينا من أذلاء ، لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال : هذا مؤلف بارع ! وذلك كاتب مجيد ، وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع ، فلتعلم أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف ! اصنع معروفا وأكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية ، إذ



أعرف أن أكثر التقريظ من وضع المؤلفين » .

لماذا سكتوا عنه

وقد يكون من المناسب أن أذكر أن الدكتور زكى مبارك خص كبار الأدباء من زملائه ببحوث جيدة ، نشرت فى كتاب مستقل بعد وفاته ، وهؤلاء جميعا قد سكتوا عن مؤلفاته سكوتا مخزيا ، غير كلمتين للمازنى وأحمد أمين لم تخلوا من نقد ! وأنت تقرأ كتاب ذكريات باريس فلا تجد ما يدل على صلة ما بينه وبين كبار الأدباء ممن زاملهم فى تحرير الصحف والمجلات ، إنك تجد رسائله لأحمد الزين ومحمد السباعى وحسن القاياتى ، وذكرياته عن عبد الباقى سرور نعيم ومحمود بيرم التونسى ، ولكن أين طه والعقاد والمازنى وهيكل ومحمد لطفى جمعه ؟ وقد كتب عنهم جميعاً فأفاض ! لقد كان هذا التجاهل أحد أسباب الألم النفسى الذى تراكمت دواعيه مع آلام أخرى أدت إلى العزوف فالانهيار ! فوا أسفا !

فإذا تركنا مصر إلى البلاد العربية فإننا نجد عواطف الحب والإخلاص تشع زاهية براقة فى كثير من الصفحات ، لقد شهد احتفالا لعيد الحرية بباريس فساءه أن يرى أبناء الجزائر والمغرب يشاركون فى الاحتفال ، وهم مكبلون بأغلال الاحتلال الفرنسى ، فصاح متأوها !

ويلاه ، هؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء ، ملكتهم هذه الدولة العاتية - يريد فرنسا - فمزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف (بعض الوصوليين فقط) فعادوا نبتا يؤكل ! ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز ، وكانوا كلما لوحوا بإشارة الرضا ازددت حسرة على حسرات ! كان هؤلاء الجنود يخطرون بخيولهم على شاطىء السين وهم صاغرون ، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوربا ، وأذلوها فى القرون الوسطى أشنع إذلال ، وكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير، هذا هو مبارك العربى المسلم الأصيل !

وبعد فلو كان لكاتب المقدمة أن يطيل فى الاستشهاد لأطلت . ولكن الكتاب يقدم نفسه للقراء بما يغنى عن كل تقديم واستشهاد وهو زهرة ناضرة من روضة زكى مبارك تقدمها دار الهلال فى حب واعتزاز ، لتكون بعد ذلك نسمة عاطرة تنفح القراء بعبير فواح ، ومرأى قشيب ! ■



بقلم
د. محمد عادل عبد العزيز*



أين اختفى قبر الإسكندر الأكبر؟ وحكايات النبي دانيال

هناك خطأ وقعنا فيه جميعا حينما استقر فى أذهاننا أن الأسكندر الأكبر دفن فى مقبرة . إنما الحقيقة أنه وضع فى السوما أو السيما وهو مبنى أنشئ خصيصا ليكون مشهدا لجثمان الإسكندر الأكبر ، وهى حالة فريدة فى التاريخ ليس لها مثيل سوى قاعة عرض جثمان لينين فى الميدان الأحمر فى موسكو.

وتشير الأدلة التاريخية أن بسيدوكليثينس (Pseudo - Callis-thenes) ذكر أن بطلميوس الأول وضع الإسكندر الأكبر فى المعبد الذى أطلق عليه سيما (Sema) .

وينص سترابون (Strabo) على أن جثمان الإسكندر الأكبر (السوما) يقع فى جزء من القصر الملكى ويقع بعد المتحف، وأنه كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعا ولذلك فإنه يصعد إليه بواسطة سلم حلزونى .

كما ذكر الدكتور هنري رياض نقلا عن مؤرخ قديم أن قبر الإسكندر يشتمل علي سلم يؤدي إلي فناء مربع الشكل ثم ممر طويل يؤدي إلي السوما . كما ذكر أحد المؤرخين في العصر القديم أن السوما كانت تحوطه الأشجار .

وهذا زينوبيوس (Zenobius) وقد نص علي أن جثمان الإسكندر (السوما) يقع في منتصف الإسكندرية .

وهذا أخيل تاتيوس (Achill Ta-tiuus) الذي أشار أيضا إلي أن جثمان الاسكندر يقع في منتصف المدينة بالنسبة لعرضها .

ولكن أين يقع وسط اسكندرية العصر القديم من إسكندرية اليوم؟

وهكذا اقتضت أهمية معبد أو مشهد جثمان الإسكندر الأكبر أن يقام فى وسط الإسكندرية .

ولما كان المسجد الجامع من التكوينات المعمارية الأساسية فى المدينة الإسلامية ، حيث يمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيطها ، كما اقتضت وظائفه المتعددة أن يكون موضعه وسط المدينة أيضا - ويبدو أن هذا هو السبب فى أن يرتبط أقدم مساجد الإسكندرية باسم ذى القرنين .

ولكن ما هو الدليل على أن قبر الإسكندر الأكبر تحول إلى مسجد ؟

إن أول ما يصلنا من نصوص فى هذا الشأن تصلنا من ابن عبدالحكم الذى زار الإسكندر سنة ٨٧١م وشاهد مسجد ذى القرنين حيث يقول :

«خمسة مساجد بالاسكندرية مسجد موسى النبى عند المنارة أقربها إلى

* كلية اللغة العربية - جامعة الازهر - الزقازيق

الكنيسة ، ومسجد سليمان عليه السلام ، ومسجد ذى القرنين أو الخضر عليهما السلام وهو الذى عند اللبخات بالقيسارية، ومسجد الخضر أو ذى القرنين عند باب المدينة حين تخرج من الباب ولكل واحد منهما مسجد ، ولكن لا ندرى أين هو ، ومسجد عمرو بن العاص الكبير .

من النص السابق يتضح أن المسلمين قد اتخذوا من قبر الاسكندر الأكبر مسجدا لأن القاعدة الإسلامية فى مسميات المساجد تجعلنا أمام أحد احتمالين : إما أن الذى بنى هذا المسجد يدعى ذى القرنين ، وإما أن هذا المسجد كان ضريحا لذى القرنين .

ونحن نرجح الاحتمال الثانى ، فقد أورد ابن جرير الطبرى ، والأموى فى مغازيه ، وابن كثير فى تفسيره حديثا عن عقبة بن عامر : أن نفرا من اليهود جاءوا يسألون النبى – صلى الله عليه وسلم – عن ذى القرنين . فأخبرهم أنه كان شابا من الروم وأنه بنى الإسكندرية . ورغم أن ابن كثير قد استشهد بهذا الحديث فى تفسيره ، لكنه ذكر أنه حديث ضعيف .

وهنا نود أن نشير إلى موطن القوة فى هذا الحديث من الناحية التاريخية ، فلو كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال هو الإسكندر بدلا من (شابا من الروم) . لقلنا أى إسكندر يا رسول الله ؟ لأنهم كثير ، لكن الحديث جاء دقيقا ، حيث يحدد جنسيته أولا ، ثم يشير إلى بنائه مدينة الإسكندرية ثانيا ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أنه بلغ مطلع الشمس ، ومغرب الشمس . فلن يكون هذا إلا الإسكندر الأكبر .

آخر نص وصل إلينا من نصوص العصر الإسلامى أورده أحد الرحالة الذى زار الذين زاروا الإسكندرية فى القرن السادس عشر ، وهو الحسن الوزان (ليون الافريقى) . فيقول : «ولا يجوز أن نغفل ذكر مكان فى قلب المدينة فى وسط الأطلال ، فيه بيت صغير منخفض ، كأنه نوع من مسجد يقع فيه ضريح مبجل جدا ومكرم عند المسلمين ، حيث توقد الأنوار فيه ليلا ونهارا . ويقال إن هذا هو قبر الاسكندر الأكبر ، الذى كان نبيا وملكا كما ورد فى القرآن الذى نزل على محمد – صلى الله عليه وسلم .

نص ثالث ورد على لسان تربى منطقة كوم الدكة فى القرن التاسع عشر يفيد أن محمد على والى مصر كان يعرف أن صاحب الضريح هو الإسكندر الأكبر ، وليس النبى دانيال .

- ويمكن أن نضيف دليلاً آخر فى غاية الأهمية يؤكد أن ضريح الإسكندر الأكبر كان قد تحول إلى مسجد ، وهذا الدليل ينحصر في تطابق النصوص التاريخية التى حددت موقع قبر الإسكندر، مع النصوص التى حددت موقع مسجد ذى القرنين . فكما وردت نصوص العصر القديم تؤكد أن قبر الإسكندر الأكبر يقع فى منتصف مدينة الإسكندرية . جاءت نصوص العصر الإسلامى تؤكد أن مسجد ذى القرنين يقع فى منتصف المدينة أيضا .

فهذا زينوبيوس (Zenobius) ينص على أن جثمان الإسكندر الأكبر السوما يقع فى منتصف الإسكندرية .

وهذا أخيل تاتيوس (Achill Ta-tious) ينص على أن جثمان الإسكندر يقع فى منتصف المدينة بالنسبة لعرضها .

ونفس الحال فى نصوص العصر الإسلامى .

فهذا ابن عبدالحكم ينص على أن مسجد ذى القرنين يقع في القيسارية وهو وسط المدينة . وهذا ليون الإفريقى الذى يحدد مسجد ضريح الإسكندر الاكبر فى قلب المدينة .

وهذا رحالة آخر وهو مرمول الذى زار الإسكندرية سنة ١٥٤٦ وشاهد قبر الإسكندر فى وسط المدينة .

ونحن أمام هذا الإجماع من أقوال المؤرخين والرحالة لا نملك إلا أن نقرر أن هناك تطابقا فى موقع قبر الإسكندر ، ومسجد ذى القرنين . الأمر الذى يؤكد أن قبر الإسكندر الأكبر كان قد تحول إلى مسجد بعد فتح الإسكندرية .

الأدلة الطبوغرافية

انتهينا فيما سبق إلى أن موقع قبر الإسكندر الأكبر هو نفسه موقع مسجد ذى القرنين . لهذا فإن البحث عن أحدهما يقودنا بالضرورة إلى الآخر . وحيث أنه لم توجد دراسات تقودنا إلى موقع مسجد ذى القرنين بينما توجد دراسات تحدد موقع قبر الإسكندر طبوغرافيا لذلك سنكتفى بالبحث عن موقع قبر الإسكندر الأكبر .

وقد انتهت الدراسات الطبوغرافية التى اهتمت بتحديد موقع قبر الإسكندر الأكبر إلى ثلاث مدارس :

المدرسة الأولى : وعلى رأسها محمود الفلكى باشا . وهذه المدرسة انتهت إلى أن وسط المدينة بالنسبة لعرضها يقع عند تقاطع الشارعين الرئيسيين ، وأن موقع السوما (شاهد الإسكندر) عند سفح تل كوم الدكة على الشارع الطولى الكبير فى

اتجاه الجنوب بين الشارعين المتقاطعين ل١ ، ص٥ حسب خريطة محمود الفلكي ، ولذلك كان محمود الفلكي يرى أن قبر الإسكندر يقع في المنطقة الملاصقة لمسجد النبي دانيال .

المدرسة الثانية : ومن روادها أوسفلد (Ausfled) وقد انتهت هذه المدرسة إلى أن قبر الأسكندر الأكبر يقع عند سفح تل كوم الدكة على الشارع الطولي الكبير ولكن في اتجاه الشمال وذلك اعتمادا علي شهادة سترابون الذي ذكر أن شاهد الاسكندر في الحي الملكي .

وأعتقد أنه لا تعارض بين من قالوا بأن قبر الاسكندر الأكبر في حي السوما وبين شهادة سترابون بأنها في الحي الملكي لأن الموقعين لم يفصلهما سوى ثلاثين ياردة ، وهي عرض الشارع الفاصل بينهما . كما يجب ألا ننسى أن سترابون نفسه حينما ذكر أن شاهد الاسكندر يقع في الحي الملكي ذكر أيضا أن السوما كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعا وذلك ما ينطبق على منطقة كوم الدكة حاليا حيث أنها كانت أكثر مناطق الاسكندرية ارتفاعا في العصر الإغريقي .

المدرسة الثالثة : وعلى رأسها أدرياني (Adrinani) وترى هذه المدرسة أن موقع شاهد الاسكندر الأكبر في منتصف المدينة لا يتفق وعبارة أخيل تاتيوس (Achill Tatious) «إلى بضعة ستاد من باب الشمس» . ولذلك فقد انتهت إلى أن قبر الاسكندر يقع عند تقاطع الشارع الطولي الرئيسي ل١ مع الشارع العرضي ص١ بحسب خريطة محمود الفلكي .

أي أن أصحاب هذا القول ابتعدوا بقبر الاسكندر مسافة تقاطع أربعة شوارع عرضية عن الموقع الذي حددته المدرسة الأولى في اتجاه باب الشمس ، والخطأ الذي وقعت فيه تلك المدرسة في اعتقادنا أنها لم تنتبه إلى ذلك التعارض بين النص الذي اعتمدوا عليه وهو (إلى بضعة ستاد من باب الشمس) وبين ما ذكره أخيل تاتيوس نفسه حينما يذكر أن شاهد الاسكندر يقع في وسط المدينة بالنسبة لعرضها .

وحيث أن المسجد هو مفتاحنا في قضية قبر الاسكندر ، وحيث أن مسجد النبي دانيال هو المسجد الذي وجدناه في تلك النواحي التي أشارت إليها الدراسات الطبوغرافية سالفة الذكر ، وحيث أن موقعه يتطابق والموقع الذي أشار إليه محمود الفلكي . لذلك فإن رأي محمود الفلكي هو أرجح الآراء في اعتقادنا .

الأدلة الأثرية

قبل أن نحدد موقع تابوت الإسكندر الأكبر في مسجد النبي دانيال يجب أن نتعرض لملاحظة في غاية الأهمية في

أقوال المؤرخين .

فبعد أن كان ينص المؤرخون على لفظ جثمان وتابوت ، نجدهم يتحولون عن ذلك إلى لفظ ضريح وقبر دون ذكر جثمان أو تابوت .

فمثلا :

Strabo الذى زار مصر فى الفترة من سنة ٢٥ إلى ١٩ ق.م. فقد ذكر أن جثمان الإسكندر «السوما» Soma فى الإسكندرية فى المكان الذى ما زال موجودا فيه حتى الآن ، وأن التابوت الحالى مصنوع من الزجاج ، وهو بديل عن التابوت الذهبى الذى وضع فيه الجثمان فى البداية .

كما أن هناك مصادر قديمة متعددة تشير إلى زيارة بعض أباطرة الرومان لقبر الإسكندر . فقد زاره أغسطس أول الأباطرة (٣٠ ق.م - ١٤م) حيث وضع على رأسه إكليلا من الذهب ونثر عليه الزهور .

كذلك زاره كاركالا Caracalla (٢١١ - ٢١٧م) حيث خلع رداءه وجميع ما كان يتزين به من حلى ووضعها على جثمان الإسكندر .

ومن العصر الإسلامى يذكر المسعودى قبر الإسكندر حيث يصفه أنه فى تابوت من المرمر ثم يقول ما نصه : «وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الإسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر إلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة» .

ويفهم من هذا النص أن تابوت الإسكندر المرمرى كان موضوعا على منصة من الرخام .

ثم حدث أمر ما فتتغير لهجة المؤرخين ولنراجع معا قول الحسن الوزان : «ولا يجوز أن نغفل ذكر مكان فى قلب المدينة فى وسط الأطلال ، فيه بيت صغير منخفض ، كأنه نوع من مسجد يقع فيه ضريح مبجل جدا ومكرم عند المسلمين ، حيث توقد الأنوار فيه ليلا ونهارا . ويقال: إن هذا هو قبر الاسكندر الأكبر .

وهذا مرمول يذكر أنه شاهد قبر الإسكندر فى وسط المدينة ، وهذا ابن عطاء الله السكندرى يذكر أن الشيخ مكين الدين أخبره أنه زار قبر النبى المدفون بالديماس (كوم الدكة) .

إذن حدث أمر خطير . فما الذى حدث ؟

نحن نعلم أن الاسكندرية تعرضت لزلزال مدمر أتى على كل العمارات الإغريقية على وجه الخصوص نظرا لقدمها ، وقد كان من هذه المبانى معبد كليو باترة ثم منارة الإسكندرية الشهيرة ، والتى بحجارتها وفى نفس موقعها بنى السلطان قايتباى قلعته المعروفة حتى اليوم.

لذلك فنحن نرجح ان السوما (مسجد ذى القرنين) قد انهار أيضا إنهيارا جزئيا نظرا لأنه أصبح مستندا من كل الجهات بالرديم الذى أتى به فعل الزمن وطبيعي أن هذا الإنهيار الذى حدث فى السوما قد دفن تحت إنقاضه التابوت والمنصة الرخامية مع الأسف .

والدليل على ذلك :

أولا : المحافظة علي هيئة القبر لتشير إلي أن التابوت مدفون في الردم من تحته .

حقا لقد ذكر حسن عبدالوهاب أنه أسندت إليه فى فبراير سنة ١٩٤٣ أعمال التنقيب فى ضريح النبى دانيال بناء على طلب الأمير عمر طوسون وموافقة عبدالهادى الجندى باشا وزير الأوقاف فى ذلك الوقت . وقد اثبتت أعمال الحفر أنه لا توجد أي مقبرة أسفل المقصورة الخاصة بالنبى دانيال حتى عمق حوالى ٢،٥ متر، كما أن نتائج اختبار التربة جاء ليثبت أنها من الردم وليست تربة طبيعية . وقد وضعتنا هذه التجربة أمام أحد احتمالين .

الاحتمال الأول : أن يكون ذلك الضريح المعروف بالنبى دانيال ضريحا صوريا للاستجداء ولا شئ غير ذلك .

الاحتمال الثانى : أن يكون ذلك الضريح قبرا قديما توارثته الأجيال بهيئته وأن المقبرة التى بها صاحب الضريح تقع على عمق أكثر من الذى نزل إليه حسن عبدالوهاب .

فإذا كان الضريح صوريا للاستجداء . لماذا وضع مخالفا للشريعة الإسلامية .

ألم يكن من الأفضل أن يوضع متفقا مع الشريعة حتى تكتمل أبعاد التمثيلية !!

ثم لماذا قالوا إن صاحب القبر (نبى) ؟ ألم تكن هذه جرأة لم يعرفها المصريون على مدى تاريخهم الطويل ؟ ألم يكن كافيا أن ينسبوا إليه صفة العارف بالله ، أو ما إلى ذلك من الصفات التى تعرف بها أضرحة أولياء مصر الصالحين ، والتى تمثل حصيلة صدقاتها أكبر بكثير من حصيلة صدقات النبى المزعوم !؟

ثانيا : الطراز المعماري للضريح أغريقي :

انتهت الدراسات الأثرية التى قام بها برشيا Breccia فى الفترة من ١٩٢٥ وحتى ١٩٣١ على مسجد النبى دانيال بأن المسجد المدفون (الضريح) من طراز غريب فى الحقيقة على العمارة الإسلامية ، ويرجع تصميمه إلى السراديب

الإغريقية ، كالتى اكتشفت بالشاطبى ، والأنفوشى ، والورديان ، وان احتوى بعض العناصر الإسلامية ، والتى تكشف الدراسات أنها اضيفت فى عصر المماليك .

ثالثا : انخفاض القبر إلي منسوب العصر القديم :

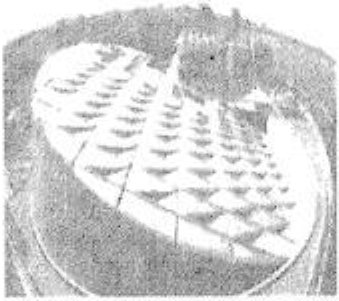
طبيعى أن يطرأ على مستوى سطح الاسكندرية تغييرات بمرور الزمن ، فقد ثبت من أعمال الحفر أن مستوى الإسكندرية اليوم يرتفع عن مستواها القديم بعدد من الأمتار نتيجة لتراكم مخلفات العصور المتعاقبة فوق سطحها حتى أنه لا يعثر الآن على مخالفات العصر الرومانى إلا بعد حفر مسافة ستة أو سبعة أمتار فى باطن الأرض . ولاشك أن العصور على مخلفات العصر الإغريقى يتطلب مزيدا من الحفر ، وهذا ما ينطبق على قبر النبى دانيال حيث ينخفض منسوبه عن سطح الأرض حاليا حوالى ستة أمتار ، رغم ارتفاع منطقة كوم الدكة أصلا عن الإسكندرية ، الأمر الذى يدل دلالة واضحة على أن قبر النبى دانيال لا ينتسب إلى العصر الإسلامى ، وأنه أقرب إلى العصر الإغريقى من أى عصر آخر .

رابعا : أن دانيال الذى أصبح المسجد يعرف به هو أحد شيوخ المذهب الشافعى ، وأسمه محمد بن دانيال الموصلى ، أنه قدم إلى الإسكندرية فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، وأنه اتخذ من مسجد ذى القرنين مكانا لتدريس الأصول وعلم الفرائض ، ثم لما توفى سنة ٨١٠هـ دفن فى مؤخرة المسجد ، وحيث أن وفاة الشيخ محمد بن دانيال كانت بعد دفن تابوت الإسكندر الأكبر تحت الأنقاض ، وبعد أن أعاد المماليك بناء المسجد ، فقد كان طبيعيا أن يغلب اسم دانيال .

مما سبق يتضح أن الحفائر التى قام بها حسن عبدالوهاب كانت غير كافية لأنه لم يصل بحفائره إلى أرضية السوما الأصلية .

وبعد ، لقد أخطأ حسن عبدالوهاب خطأين : الأول حينما لم يواصل أعمال الحفر حتى يصل إلى الأرض الطبيعية ، وأخطأ خطأ ثانيا حينما كان سببا فى أن يحجم الجميع أن يضعوا أيديهم على المنصة الرخامية وحطام التابوت .

وأخيرا أقول أما آن لنا أن نتحرك ، وأن نحبط إقامة هيكل يهودى جديد ، وأن نعيد إلى مسجد النبى دانيال اسمه القديم (مسجد ذى القرنين) عليه السلام . ■



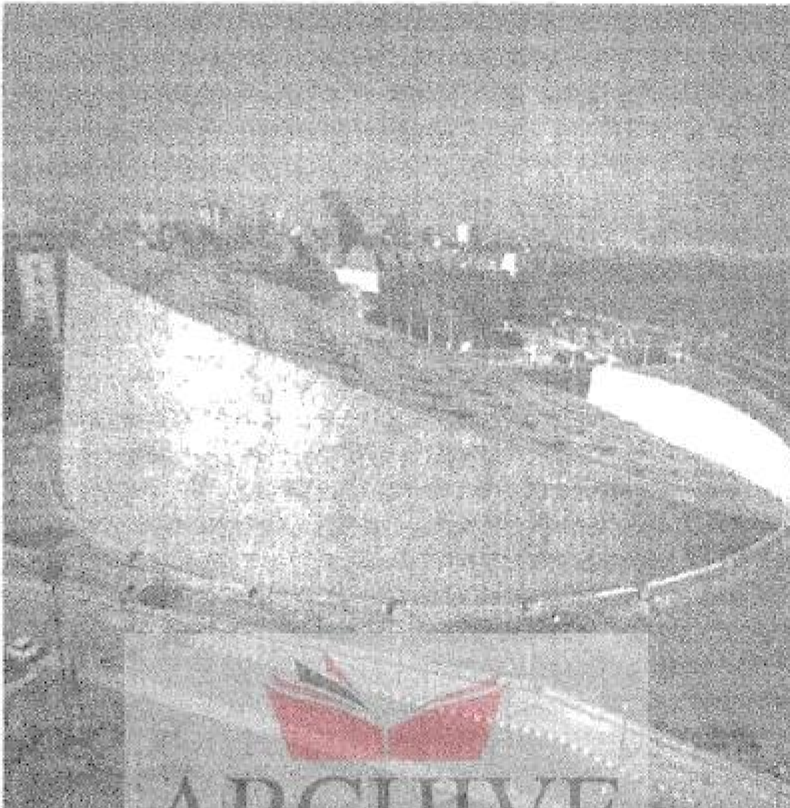
مكتبة الإسكندرية

هل تنقذ العالم؟!

وأبعاد السلام السكندرى

بقلم
د. أحمد عثمان

لمكتبة الإسكندرية أبعاد عالمية لا يفطن إليها البعض، والبعض الآخر يخشى على مصر وعلى المكتبة من هذه الأبعاد العالمية. ولذا نسارع بالقول إن هذه الأبعاد العالمية هى سر عظمة مكتبة الإسكندرية، القديمة والحديثة ولا نبالغ إذا قلنا إن موقع مصر الجغرافى ومكانتها التاريخية ودورها الحضارى منذ القدم وإلى اليوم هو الذى أعطى لهذه المكتبة صفة العالمية.

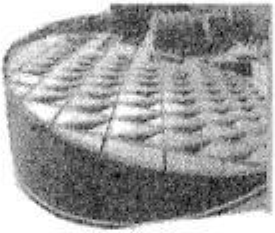


ضمت مكتبة الإسكندرية كل حضارات المنطقة من العلم والمعرفة والأدب والفنون

ولكى تتضح الصورة أمام القارئ نود هنا أن نصحح بعض الأفكار الشائعة أولى هذه الأفكار الظن بأن مكتبة الإسكندرية مكتبة إغريقية ليس إلا. صحيح أن الذى أسس مدينة الإسكندرية هو الإسكندر الأكبر والقادة خلفاؤه ولاسيما بطلميوس الأول فى نهاية القرن الرابع ق.م. ولكن راكوتيس البلدة المصرية القديمة (راكودة أو راقوده الآن) كانت النواة وقام البطالمة الأوائل بإنشاء المكتبة بوصفها ملحقا للموسيون (معبد ربات الفنون) الذى كان بمثابة جامعة يقيم فيها رجال العلم والأدب.

ولم تك مكتبة الإسكندرية الأولى فى التاريخ فالمعابد المصرية القديمة ضمت مكتبات وضعت فى خدمة الكهنة أرباب العلم، وعرفت حضارة ما بين النهرين المكتبات أيضا. أما فى العالم الإغريقى فإن أكبر مكتبة عرفت قبل مكتبة الإسكندرية فهى مكتبة أرسطو معلم الإسكندر الأكبر.

وتحفظ لنا الروايات القديمة شبه التاريخية - دون أن يتوافر لنا الدليل المادى القاطع - أن الطاغية



بيسيستراتوس (٥٧٠ - ٥٠٧ تقريبا) كان أول من أسس مكتبة عامة فى أثينا، وأن الأثينيين قد عملوا من بعده على زيادة مجموعات الكتب التى اقتناها. ورد ما يفيد ذلك عند أولوس جيلليوس الكاتب الرومانى الذى عاش إبان القرن الثانى الميلادى ويرى بعض العلماء أن الرواية التقليدية الشائعة بأن هذا الطاغية كان أول من أمر بجمع وتدوين أعمال هوميروس إنما ترمز فى الواقع إلى أنه حاول تركيز تجارة الكتب فى أثينا. ويقال كذلك إن طاغية جزيرة ساموس الشهير بوليكراتيس قد جمع إبان النصف الثانى من القرن السادس كتبا كثيرة فى هذه الجزيرة جاء ذلك فى رواية أثينايوس الذى عاش حول عام ٢٠٠م فى مدينة نوكراتيس المصرية الإغريقية (كوم جعيفة الحديثة بالقرب من إيتياى البارود). وقيل كذلك إن نيكو كراتيس (؟) من قبرص - وهو ينتمى إلى فترة زمنية أقدم - قد فعل نفس الشئ غير أن بعض العلماء يرجحون ألا تكون هذه الروايات صحيحة، إذ من المحتمل أن يلصق الكتاب المتأخرون بهؤلاء الحكام القدامى عادات وسمات حكام العصر الهيلينستى. ومن المشكوك فيه - كما سبق أن ألمحنا - أن تكون الكتب شائعة التداول قبل عصر بريكليس وهذا لا ينفى أن مجموعات من الكتب قد استخدمت بحكم الضرورة فى المدارس آنذاك. ومما يروى فى هذا الصدد أن ألكيبياديس (٤٥٠ - ٤٠٤ تقريبا) قد ضرب ناظر إحدى المدارس لأنه لم يكن يحتفظ بنسخة من أشعار هوميروس فى مدرسته أما مجموعات الكتب الخاصة بالأفراد فقد كانت نادرة وتعد من الأمور اللافتة للنظر إلى حد أن يوريبيديس قد أصبح موضوع سخرية أنه يمتلك مكتبة خاصة ويخبرنا كسينوفون أن يوثيديموس صديق سقراط قد أنشأ لنفسه مكتبة لا بأس بها، إذ كانت تضم الشعراء والسوفسطائيين إلى جانب كتب فى الطب والعمارة والهندسة والفلك. وفى شذرة للشاعر الكوميدى أليكسيس (٣٧٥ - ٢٧٥) نجد إشارة إلى مكتبة تضم المؤلفين الإغريق الكلاسيكيين (شذرة رقم ١٤٥). هذا وقد راجت تجارة الكتب إبان القرن الرابع، حتى أنه عندما وصلت بقايا حملة العشرة آلاف إغريقى بقيادة كسينوفون عبر الأناضول إلى ساليديسوس على البحر الأسود وجدت بين حطام السفن التى كانت قد وصلت إلى هذه المنطقة النائية كتبا كثيرة منسوخة كان البحارة قد نقلوها فى صناديق خشبية.

أرسطو القدوة

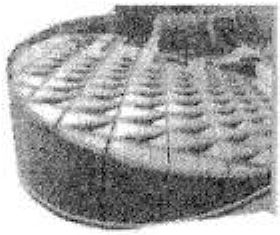
ومما لا شك فيه أن أفلاطون قد احتفظ فى مدرسته «الأكاديمية» بمجموعات من الكتب أو المخطوطات التى استخدمها هو وتلاميذه بيد أن

سترابون (٦٤/٦٣ق.م – ٢١م على الأقل) يروى أن أرسطو هو أول من جمع الكتب، فكان بذلك القدوة والرائد الذى حذا حذوه ملوك مصر البلطمية إذ تعلموا منه – وهو معلم قائدهم الإسكندر الأكبر – كيف ينشئون وينظمون مكتبة ضخمة مثل مكتبة الإسكندرية.

ومن هنا تأتى أهمية الحديث عن مكتبة أرسطو ومدرسته إذ كانت دراسة التراث القديم تشكل واحدا من أبرز الموضوعات التى أولاها هذا الفيلسوف عنايته فهو مربى الإسكندر الأكبر (٣٥٦ – ٣٢٣) الذى أشرف على تعليمه طفلا وصبيا وشابا يافعا فكان يدرس له أشعار هوميروس ومسرحيات شعراء التراجيديا الأتيكية. وربما ألف من أجله كتابا عن مؤسسى المستعمرات وآخر عن حكم الفرد. وعندما مات والد الإسكندر الملك فيليب عام ٣٣٦ عاد أرسطو إلى أثينا، وهناك فى مكان خارج المدينة أى إلى الشمال الشرقى منها فيما بين صخرة ليكابيتوس واليسوس وجد كهفا مقدسا لدى الإله أبو للون لوكيوس Apollo Lykeios ولربات الفنون الموساى. هناك أقام أرسطو مدرسته التى عرفت باسم اللوكيون (Lykeion)، وكانت تحتوى على فناء مغطى اعتاد أرسطو أن يتمشى فيه (Peripatos) وهو يحاضر تلاميذه حتى أن أتباع مدرسته الفلسفية حملوا اسم المشائين فيما بعد.

دراسة التراث

ما يهمنا الآن هو أنه فى هذه المدرسة جمع أرسطو العديد من المخطوطات وأسس مكتبته النادرة التى حوت فيما حوت الخرائط الجغرافية كما ألحق بها متحفا يضم مجموعات من وسائل الإيضاح المتباينة من الحيوانات والنباتات وغيرها، استخدمها الفيلسوف العظيم أثناء تدريسه ومما يروى أن الإسكندر الأكبر قد أهدى إلى أرسطو مبلغ ثمانمائة تالنت ليساعده على جمع هذه المقتنيات. كما أمر هذا العاهل المقدونى والشاب الفاتح لكثير من الأقطار صياديه فى البر والبحر أن يحضروا إلى أستاذه أرسطو كل ما يصادفهم ويمكن أن يكون ذا فائدة علمية له. ولقد وضع أرسطو الفيلسوف المعلم نظاما دقيقا للحياة فى المدرسة، بما فى ذلك الوجبات المشتركة ومائدة الشراب الوحيدة أو ما نسميه المأدبة symposion مرة كل شهر، ولقد ألف هذا الفيلسوف العظيم فى كافة مجالات المعرفة كما سبق أن ألمحنا فى الباب السابق، واحتلت دراسة التراث القديم جزءا كبيرا من اهتمامه وكذلك الدراسات الأدبية واللغوية بصفة عامة يضاف إلى ذلك أنه بمفرده أو بمساعدة تلاميذه قد أعد قوائم كثيرة تاريخية وعلمية، وذلك مثل قائمة الأبطال المنتصرين فى الألعاب الأوليمبية (Olympionikai)، وقائمة الأبطال المنتصرين فى الألعاب البيثية (Pythionikai)، وقائمة بنماذج من



عادات الشعوب (Nomina) ونظام أو دستور الأثينيين (Athenaion Poli-teia) المكتوب حوالى عام ٣٢٩/٣٢٨ والذى اكتشف نصه على ورقة بردية حفظتها رمال مصر حتى عام ١٨٩٠م فأثار ضجة فى أوساط دارسى الكلاسيكيات فى العالم الغربى، وامتد صداها إلى مصر حيث ترجم د. طه حسين هذا النص إلى اللغة العربية، واهتم به الكثيرون من المفكرين المصريين. ومن القوائم المهمة التى وضعها أرسطو وكان فقدها خسارة جسيمة يحس بها كل مهتم بالتراث الكلاسيكى أو بالدراسات الأدبية بصفة عامة والفن المسرحى بصفة خاصة هى الديداسكالياى (Didaskaliai) وهى سجل بالعروض المسرحية التى قدمت فى أثينا، يضم اسم الشاعر المؤلف واسم المواطن الأثينى المكلف بتمويل وتجهيز الجوقة أى الخوريجوس (Choregos) وسنرى أن هذا الكتاب - الذى لم يصلنا سوى فى صورة شذرات مهلهلة ومتناثرة - قد ترك تأثيرات واضحة على أدباء وعلماء الإسكندرية مثل كاليماخوس وأريستوفانيس البيزنطى وغيرهما ولا شك أن هذا الكتاب يعتبر أول لبنة توضع فى أساس بناء ضخم نسميه الآن علم التاريخ الأدبى.

ومن ثم يطرح السؤال التالى: إذن ما الذى أعطى لمكتبة الإسكندرية كل هذه الأهمية؟

ومن الملائم تماما أن نبدأ بالظرف التاريخى، فلقد غيرت فتوحات الإسكندر الأكبر - القرن الرابع ق.م - وجه العالم المعروف آنذاك. انتهى عصر الدول الصغيرة أو الدولة - المدينة (polis) الذى قامت على أساسه الحضارة الهيللينية وبدأ عصر الدول الكبيرة والإمبراطوريات واختلط الشرق بالغرب وبدأ ما يسمى بالعصر الهيللينستى الذى يفهمه الغربيون - بفعل المركزية الأوروبية - على أنه تأغرق (هلنة) الشرق ونفهمه نحن بأنه تزاوج وتمازج الشرق بالغرب.

وامتزاج الحضارات هذا إذن نوع من العولمة بمعايير ذلك الزمان وعندما أقام البطالمة دولتهم واتخذوا من الإسكندرية عاصمة لهم علينا أن نفهم دور هذه المدينة التى تحمل اسم صاحب العصر الاسكندر الأكبر فى ضوء هذه المتغيرات كانت الإسكندرية بمثابة مدينة عالمية أو كونية Cosmopolis ترى فيها كل ألوان البشر وكافة الأجناس وتسمع فى طرقاتها كل اللغات المتداولة فى منطقة البحر المتوسط، ومن ثم فلا غرو أن تكون مكتبة الإسكندرية القديمة مرآة لعولمة ذلك العصر إنها مكتبة أسسها اليونانيون على أرض مصرية، فضمت بين جوانحها كل حضارات المنطقة ولذلك أصبحت قبلة كل الباحثين

عن العلم والمعرفة وكل المبدعين فى الآداب والفنون.

الإسكندرية المثل الذى يحتذى

كانت الإسكندرية بالنسبة لروما الناشئة المثل الذى يحتذى بل كان الرومان يحلمون بأن يبنوا عاصمة فى إيطاليا على منوال الإسكندرية وكان للإسكندرية تأثيرات ضخمة على حياة الرومان وفنونهم وآدابهم.

وسنضرب مثلين فقط للاستدلال على إعجاب الرومان بالإسكندرية المثل الأول هو أنطونيوس الذى باع الإمبراطورية الرومانية برمتها ليس فقط من أجل جمال كليوباترا وتعلقه بها، ولكن أيضا من افتتانه بالحياة فى الإسكندرية أما الإمبراطور هادريان فى مزرعته الريفية على بعد ٣٠ كيلو متر شرق روما والمسماة فيلا هدريانا Villa Hadriana والتى لاتزال باقية إلى اليوم، فقد بنى فيها جزءا من الإسكندرية وتعنى كانوبوس Cano-pus (أبو قير) بما فى ذلك التماسيح وهكذا جسد هذا الإمبراطور الحلم الرومانى التقليدى القديم أى أن تكون لهم عاصمة مثل الإسكندرية على الأرض الإيطالية.

باختصار شديد وبوضوح أشد هناك ثلاثة عوامل رئيسية أسهمت بها مصر فى مكتبة الإسكندرية القديمة وهى:

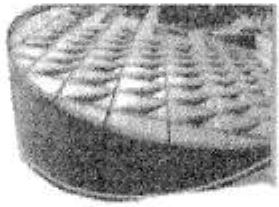
أ - الحضارة المصرية القديمة، حيث قدمت الأنموذج الذى يحتذيه الإغريق والرومان فى كل مناحى الحياة.

ب - نبات البردى الذى صنع منه المصريون الورق منذ القدم فصارت الحضارة المصرية القديمة حضارة كتابية تعلم منها الآخرون فن الكتابة فى حين تغلب على الحضارات الأخرى ومنها الإغريقية - الشفاهية.

ج - الثراء المصرى الواضح حتى فى كنوز الذهب المكتشفة فى الآثار المصرية كما كانت مصر مخزن الغلال بالنسبة للإمبراطورية الرومانية هذا الثراء المصرى هو الذى مكن البطالمة من الإنفاق على مشروعهم الثقافى الطموح وهو بناء المكتبة واجتذاب الأدباء والعلماء من كل الأرجاء.

على أن هناك بعض المعلومات الشائعة والخاطئة عن حرق مكتبة الإسكندرية، وبادئ ذى بدء نقول إنها عدة حرائق - لا حريق واحد - التى أتت على المكتبة فى النهاية. كان الحريق الأول عام ٤٨ ق.م عندما حوصر يوليوس قيصر فى قصر كليوباترا الملكى واضطرت الإمدادات العسكرية التى جاءته من الخارج إلى أن تدك هذا القصر دكا لكى تنقذ يوليوس قيصر فاشتعلت النار فى جانب من المكتبة وقضت على ٤٠ ألف مجلد كما يرد عند بعض الكتاب الإغريق والرومان. وهذه الخسارة هى التى عوضها أنطونيوس لكليوباترا بعد ذلك بعدد هائل من مخطوطات مكتبة برجامون (برجامم) فى آسيا الصغرى.

وفى عام ٢٧٣م تعرضت المكتبة



لحريق هائل أثناء حرب الإمبراطور أوريليانوس ضد زنوبيا وفي القرن الرابع الميلادى وبعد أن أعلنت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية تعرضت المكتبة للحرق باعتبارها رمزا للوثنية.

وعندما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى ودخلوا الإسكندرية لم يكن للمكتبة أثر يذكر ولا داعى لتصديق الروايات التى تقول: إن عمرو بن العاص هو الذى حرقها واستغرق ذلك ستة أشهر، حيث كانت مجلدات كانت المكتبة وقودا لحمامات الإسكندرية.

ومعروف أن العرب المسلمين كانوا يقايضون الكتب الإغريقية بالأسرى الروم، وأنهم كانوا يبحثون عن هذه المخطوطات أينما وجدت وكان الخلفاء العباسيون يزنون كل كتاب إغريقى مترجم بالذهب مكافأة لمترجمه.

فهل من المعقول أن قوما هذا شأنهم وشغفهم بالتراث الإغريقى يقدمون على إحراق مكتبة كاملة وقعت فى أيديهم؟

على أننا نود تصحيح خطأ آخر شاع بين الناس ويتمثل فى السؤال: مادامت مكتبة الإسكندرية قد أحرقت مرة أو مرات وانتهى أمرها فلماذا نحيى أثرا باليا اندثر؟ ألم يختف هذا التراث السكندرى للأبد؟

أضخم مكتبة في العالم

وقد يبدو هذا التساؤل معقولا ومقبولا للوهلة الأولى، ولكن قليلا من التمحيص يظهر الأمر غير ذلك فالحرائق التى اندلعت فى مكتبة الإسكندرية القديمة تباعا لم تأت على تراثها الفكرى والعلمى فالمكتبة - أى مكتبة ناجحة - لا يقتصر إشعاعها الثقافى على موقعها أو ما يحيط بها من دائرة مكانية وزمانية محدودة كانت مكتبة الإسكندرية القديمة هى أضخم مكتبة فى العالم آنذاك، وقصدها القاصى والدانى طلبا للعلم والمعرفة والتف حولها الأدباء والعلماء من كافة أنحاء العالم آنذاك وكان الكثيرون منهم ينسخون الكتب الموجودة فى مكتبة الإسكندرية فيعودون بها إلى أوطانهم - صقلية ورودس مثلا - لكى يقوموا بتدريسها لطلابهم وربما يضعونها فى خزانة الكتب بالمدارس، ومن ثم يمكن أن تتخيل مئات الكتب السكندرية وهى تشق طريقها إلى المراكز الثقافية فى أنطاكية ودمشق وحلب والرها وجزر اليونان وقورونة وشمال أفريقيا، ثم جاء خلفاء بغداد وترجموها وحاولوا جمع كل تلك المخطوطات فى وقت لاحق. ويكفينا أن نضرب مثلا واحدا على تراث الإسكندرية الذى وصل بغداد ومنها إلى عالمنا الحديث ونعنى جالينوس الذى عرف له حنين بن اسحق أفضل المترجمين العرب ١٢٩ عملا ترجم منها مائة عمل، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا لا تعرف منه سوى بضعة أعمال، ولد جالينوس فى برجامون وتربى فى الإسكندرية وبلغ من العلم شأوا رفيعا حتى أصبح الأستاذ المفضل فى روما ويعتبره العرب إله الطب. أليس هذا تراثا سكندريا نتداوله بين أيدينا وفى

رسائلنا العلمية إلى يومنا هذا؟

ومن باب أولى أن تكون مكتبة الإسكندرية قد أغدقت العطاء للمدارس اليونانية المنتشرة فى مدن وادى النيل وقراه النائية، وإلا فمن أين لهذه المدارس بآلاف البرديات التى وصلت إلى أيدينا وقرأنا عليها نصوصا أدبية وعلمية (طبية) وأشعارا ومسرحيات هذه البرديات تغطى الأدب الإغريقى من هوميروس إلى شعراء التراجيديا والكوميديا الإغريق تملأ البرديات الأدبية والعلمية متاحف العالم وكلها مكتشفة فى مصر وكان مصدرها الرئيسى فى الأغلب مكتبة الإسكندرية إذن فتراث مكتبة الإسكندرية مازال يتواصل معنا برغم الحرائق المدمرة وبرغم القرون الطويلة التى تفصل بيننا وبينها.

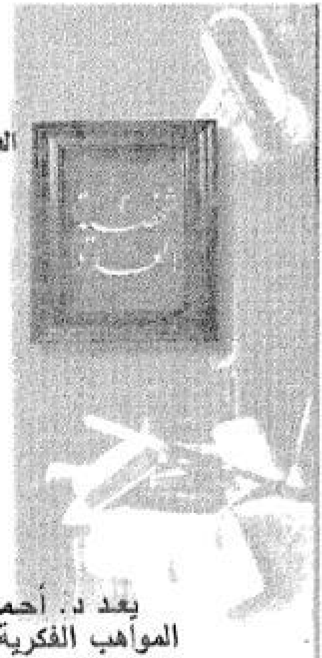
فلا عجب إذن إذا قلنا إن مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية هو تاج يوضع على هامة الجهود المصرية فى مجال الدراسات اليونانية واللاتينية والحضارية بصفة عامة، وهو تاج يكلل هامة رواد الفكر والثقافة منذ رفاعة رافع الطهطاوى وطه حسين ولطفى السيد وتوفيق الحكيم وأحمد شوقى إلى جيلنا هذا.

ولادة عالم جديد

أما القيادة السياسية المصرية فقد استشعرت نبض المثقف المصرى وتبنت مشروعا حلم به هذا المثقف الواعى طوال القرن العشرين ليرى النور فى نهاية نفس هذا القرن وهاهو ويفتتح رسميا فى العام الثانى من القرن الحادى والعشرين بل إننى أرى أن القيادة السياسية قد أصابت بهذا المشروع الثقافى هدفا سياسيا ضخما. حقا فما أشبه اليوم بالبارحة فإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد نشأت فى ظل متغيرات ثقافية وفكرية جوهرية سبق أن ألمحنا إليها حيث انتقل الإنسان من حياة المدينة - الدولة polis الضيقة إلى آفاق الحياة فى مدينة كونية Cosmopolis مثل الإسكندرية فإننا فى أيامنا الراهنة نشهد ولادة عالم جديد تحت ظل العولمة وثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات فإذا بمصر شعبا وحكومة تقدم للعالم الأنموذج الأمثل للعولمة وثقافة السلام والعدالة والتآخى بين الشعوب - ثقافة حوار الحضارات لا تصادمها وتلاكمها. ها هى شمس مكتبة الإسكندرية الحديثة تطلع على البحر المتوسط والعالم بهذا الأنموذج المصرى التاريخى والتقليدى إنه مشروع السلام السكندرى Pax Alexandrina لا هيمنة فيه إلا لنور العقل ولا طمع فيه إلا فى العلم والمعرفة.

هذه مصر تمد يدها بمكتبة الإسكندرية وبسلامها السكندرى، ونحن على ثقة تامة بأن العالم أجمع سيتلقف هذه اليد الممدودة وسيتعاونون معنا من أجل البناء برغم الأشرار ذوى الأطماع وبرغم الأنقاض التى نشروها حولنا لا يستطيع أحد أن يطفئ الشمس شمس السلام السكندرى (باكس أليكساندرينا) الذى علينا أن نتشبث به أملا فى خلاص العالم. ■

العالم المصرى الأصيل



أحمد مستجير

بين العلم والجائزة

بقلم
د. مصطفى ابراهيم فهمى*

يعد د. أحمد مستجير من العلماء المتميزين من متعددى المواهب الفكرية والقدرات العلمية والأدبية المتفردة، فهو بجانب كونه عالما من علماء الزراعة، فهو مترجم قدير ، وشاعر متميز ، وأديب ضليع جمع بين كل هذه الألوان العلمية والأدبية والفكرية فى قدرة ودأب وإخلاص .

وهو يذكرنا بذلك النمط من العلماء الأدباء أمثال د. أحمد زكى و د. ابراهيم ناجى و د. محمد كامل حسين ، سار على نفس درب الجمع بين الأدب والعلم والترجمة ،وهو احد ابرز كتاب مجلة الهلال فضلاً عن انه أصدر ديوانا شعريا، وترجم في سلسلتي الهلال وروايات الهلال كتابين هما: «ثلاثة في قارب» و«يوميات رجل كسول» ، بجانب تمكنه من أصول اللغة العربية مما أهله ليصبح عضوا بمجمع اللغة العربية ..

إنها في محاولة لعرض بعض ما أعرفه من ملامح في شخصية عالمنا الكبير د. أحمد مستجير الذي فاز أخيراً بجدارة بجائزة مبارك للعلوم. عندما ذكرت في العنوان أن د. مستجير عالم مصري لم أقصد بذلك أن جنسيته مصرية مثله مثل الملايين الستين أو السبعين من غيره من المصريين، وإنما عنيت بذلك أنه مثال للفلاح المصري القح الذي يحمل معه هموم وطنه في كل زمن ومكان ، والذي تشرب مصريته حتي النخاع بكل مايملؤها من معان وآمال . وأهم مايتضح ذلك في أبحاثه العلمية التي يدور معظمها حول تحسين الانتاج الزراعي في مصر ، وله في ذلك أبحاث مختلفة في تحسين إنتاج الماشية المصرية لحماً ولبناً ، باستخدام شتي الوسائل الوراثية ، مع اهتمام خاص بالجاموس، ثم هناك بحثه الفذ الأخير للعمل علي نجاح

*استاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية



زراعة الأرز والقمح في أراض ومياه مالحة ، بتهجينها بالغاب. وكثيراً مايقول مستجير إن أبحاث التهجين هي أبحاث الهندسة الوراثية للدول الفقيرة .

ومن سمات الفلاح المصرى عند د. مستجير كرمه الريفى الذى يبذله طبيعيا وبسخاء وعن طيب خاطر ، وقد كان أول تعارفى معه فى ظروف ظهر فيها كرمه وشهامته ، وكان ذلك منذ مايقرب من أربعين عاماً فى اسكتلندا بالمملكة المتحدة أثناء دراسة الدكتوراه في جامعة ادنبرة. وكنت وقتها في بعثة علمية لدراسة التحاليل التى تجرى لعمليات القلب الجراحية . وكان من بين برنامج التدريب أن أدرس هذه التحاليل فى معمل مستشفى أدنبرة . وتصادف أن كان لنا صديق مشترك عرض على مستجير أن يستضيفنى فى شقته بأدنبره فقبل ذلك على الفور دون سابق معرفة . والحقيقة أن هذه الشقة كانت بمثابة دوار العمدة فى الأرياف. فهى مفتوحة لأى من المصريين الذين يزورون ادنبرة لأسباب شتى لعل أهمها هو الدراسة أو العلاج . وكان أثاث الشقة مثل أثاث دوار العمدة الضيق الذى يفوح بعبق عز غابر ، وفيها ثلاث حجرات للنوم يشغل اثنين منها مستجير وزميل دراسة آخر يقيم معه، أما الغرفة الثالثة فهى لاتخلو أبداً من أحد الزوار . وأحياناً يأتى زائر آخر إضافى فيبيت فى حجرة الجلوس فوق أريكة فى مواجهة بيانو متهالك . وقد أقمت فى هذه الشقة الدوار طوال شهر رأيت فيه زوارا إضافيين يفترشون الأريكة مابين صحفى أو زراعى أو طبيب أو ضابط ... الخ وكان أكثر هؤلاء الضيوف يقدرون كرم د. مستجير كل التقدير . إلا أن هناك قلة منهم كانت أحياناً تسبب له بعض المتاعب، كان يتضح بعد سفر أحدهم أنه أجرى مكالمات تليفونية بمبالغ لها قدرها ولم يدفعها، أو أن يحيل بعضهم ديونه على مستجير بدعوى ظروف تفرض تعجله للسفر . وكان هذا يسبب ارتباكاً فى ميزانيته المحدودة وقتها . فقد كان مايصرف له من مرتب هو مايوازى مرتبه فى مصر حيث أنه كان فى إجازة دراسية وليس مبعوثاً .، وكان هذا المرتب لايزيد على ثلاثة وعشرين جنيها أو نصف مرتب طالب البعثة وقتها ، وعندها كان مستجير يضطر إلى زيادة جرعة التقشف كان يقتصر بروتين الطعام على مصادر رخيصة لايقبل عليها أهل ادنبرة مثل «المخ والأكارع». ومع كل هذه المتاعب وهذا التقشف ظل دوار العمدة يواصل استقبال الضيوف أحسن استقبال .



○ يعد د. مستجير من أفضل من ترجم كتب الثقافة العلمية إلى العربية . وقد ترجم فى هذا المجال مايزيد على ثلاثين كتابا

مدرسة في الوراثيات

ومستجير بالإضافة لكرمه الفلاحي يبذل العطاء العلمي لكل من يحتاجه من طلبة

سواء طلبة التخرج أو طلبة الدراسات العليا . وهو إلى جانب القاء الدروس الأكاديمية يحاول دائماً إعداد صف ثان وثالث ورابع من باحثي الوراثة ، وقد كون بالفعل كتيبة علمية من توسم فيهم النشاط والقدرة على مواصلة خط أبحاثه. ولو وجدت هذه الكتيبة في مجتمع آخر تتوافر له استراتيجية شاملة للإنتاج الجدي، تتضمن في طياتها خطة علمية متكاملة لتكونت من هذه الكتيبة مدرسة علمية مصرية في الوراثيات الزراعية (والدكتور مستجير لسبب ما لايحب كلمة وراثيات)، ولكننا بكل أسف مازال ينقصنا مقومات لاغنى عنها لبناء المدارس العلمية المتصلة، وإن لم يكن من بين هذه المقومات المنقوصة نقص الأفراد الأكفاء المخلصين.

ود. مستجير يعد من أفضل من يترجم إلى العربية كتب الثقافة العلمية . وقد ترجم في هذا المجال مايزيد على ثلاثين كتاباً ، وله في الترجمة أسلوب سلس يكاد - أحياناً - يقترب من الشعر كما في ترجمته الشهيرة «الربيع الصامت» لراشيل كارسون، وأعتقد أن ترجمته لهذا الكتاب أعيد طبعها ثلاث أو أربع مرات. ومرة أخرى فإن مستجير العالم والفلاح المصري لايبخل بمد يد العون لكل من يدخل حديثاً في مجال الترجمة العلمية ، مادام يتوسم فيه جديته وقدرته. وأذكر أن أول كتب الثقافة العلمية التي تمت ترجمتها ثم نشرت، كان كتاباً أعطاه لي مستجير من مكتبته وشجعني على ترجمته، عندما سمع مني - أني لا أعرف بعد - ماذا سأفعل بما توفر لي من فراغ بعد خروجي إلى المعاش . ومازالت لدى النسخة الانجليزية لهذا الكتاب وهي تحمل في أول صفحة اسم د. مستجير ، وعنوان هذا الكتاب «التنبؤ الوراثي» ويدور حول محاولات التنبؤ بالأمراض الوراثية . ومقرر الوراثة الذي درسه جيلنا في الطب لاتزيد مدته على ساعات معدودة ، ومعظم المقرر له اتجاه تطبيقي فيهتم بتوصيف الأمراض الوراثية ، ولا يذكر إلا القليل عن الأساس النظري للوراثة . وكان على أن ألجأ كثيراً للاستعانة بمستجير ليشرح لي النظريات والمصطلحات الوراثية، ولم يبخل على قط بعلمه أو وقته . ولكنه ظل دائماً يتندر بقلة معلومات الأطباء عن النظريات الوراثية الأساسية، وانغماسهم مباشرة في دراسة الأمراض الوراثية بلا أسس نظرية، وبلا تعمق في «ميكانزمات» التغيرات الكيميائية في المجالات الوراثية أو مايسمى أحياناً بالوراثيات الجزيئية ، وبلا معرفة بتفاصيل الهندسة الوراثية ووسائل العلاج بالجينات . وعبثاً أحاول اقناعه بما حدث مؤخراً بين زيادة الاهتمام في دراسات الطب بكل هذه الأمور، وبأن تقريرا للجمعية الطبية البريطانية ترددت فيه شكوى علماء الوراثة على نطاق العالم كله من قلة الساعات المخصصة لدراسة مادة الوراثة وتكررت فيه الدعوة للعمل على زيادتها.

التحايل العلمي !

وكما تعرض مستجير أحياناً لمن حاولوا استغلال كرمه الفلاحي ، فإنه تعرض أيضاً



● الانشغال بهموم الوطن جعله يفكر في تهجين القمح والأرز... الشاب كي يزرعها في الأراضي المالحة

في بعض الأحيان لمن حاولوا استغلال كرمه العلمي وإقباله على رعاية تلاميذه وكل من يلجأ إليه علمياً. ومن ذلك حالة لأحدث الأدعياء زعم له أنه من حوارييه في الترجمة العلمية وعرض عليه بعض ماترجمه لإبداء رأيه فيه ، وتحايل على د. مستجير ليكتب له رأيه كتابة، وما لبث أن طبع هذا الرأى في أول كتابه على أنه مقدمة كتبها مستجير لهذا الكتاب، وذلك بدون أى استئذان منه . وكان أن فقد هذا الداعي بعدها أى تعاطف منه وخسر بذلك أكثر مما كسبه بتحايله . ومع ذلك فمازال مستجير يواصل العطاء العلمي نفسه باذلا الكثير من علمه وخبرته لمن يستعين به من الطلبة والمترجمين .

عناد الفلاح المصرى

وأحمد مستجير صاحب رؤية واضحة ومبادىء محددة ويعرف دائماً ما يريده وكيف يحققه حسب هذه المبادىء. وهو عندما يقتنع برأى فى مسألة ويتخذ قراره فيها فإنه يتمسك بذلك بعناد الفلاح المصرى ولايقبل بديلاً . وقلما يندم على قرار اتخذه لأنه لايتخذه إلا بعد بحث ودراسة. أحياناً أداعبه قائلاً إنه كان ولابد مثل كل طالب فى القسم العلمى بالثانوية العامة يهفو لدخول كلية الطب ومادام قد دخل الزراعة فهو إذن قد عجز عن الحصول على المجموع اللازم للطب، ويرد مبتسماً فى أول الأمر ثم محتدا مع مواصلة كلامه، بأنه حصل على مجموع يتيح له دخول كلية الطب بسهولة ، ولكنه لم يدخلها لما انتابه من قرف من منظر الجثث فى المشرحة وأنه لايندم أبداً على عدم دخوله كلية الطب . وأعلق معاندا بأن هذا ربما فيه كسب كبير للزراعة فى مصر، وربما فيه أيضاً كسب كبير للطب فى مصر !

بعد تخرج مستجير من الزراعة بتفوق (الخامس) كانت أول وظيفة مارسها هى العمل كمشرف فى الاصلاح الزراعى فى عزبة بمركز دكرنس ، أسعده أنها كانت قريبة من قريته. ولاشك أنه ذهب إلى عمله وهو مفعم، ككل الشباب وقتها ، بآمال واسعة بأنه من خلال هذا العمل سيسهم فى تقدم بلده وإصلاح شئون الريف والزراعة . ولكنه بعد فترة تقل عن الشهرين لمس من أمور الفساد والبيروقراطية ، ما جعله يحسم أمره بعد أن أدرك أن هذا ليس المجال الذى يحب العمل فيه ، بما يحيطه من ظروف محبطة وقرر أنه لابد وأن يشتغل بالبحث العلمى، وكتب فيما بعد مقالاً عن

ذلك من ارق ماكتبـه بما فيه من شجن ورومانسية وحسرة على الآمال المحبطة.

وقد حدث لمستجير أثناء دراسته فى ادنبرة وهو يتحمل قلة الموارد والحياة المليئة بالتقشف أن أتيحت له فرصة التحول إلى عضو بعثة من بعثات كلية الزراعة بأسيوط ، ولكنه بالتزامه وأمانته العلمية رفض هذه البعثة لأنه كان يعرف أن ظروفه الخاصة لن تسمح له بعد عودته من انجلترا بأن يعمل فى أسيوط مع أن قبوله للبعثة كان يترتب عليه أن يتضاعف مرتبه، ومع أن كثيراً ممن ذهبوا فى بعثات خارجية لحساب جامعة أسيوط لم يعودوا لها قط، وأمكنهم بطريقة أو بأخرى الالتحاق بجامعات أخرى، أو أنهم عاشوا أساساً في القاهرة، ليسافروا إلى أسيوط ساعات معدودة من كل أسبوع، ولكنه رفض هذا كله لأنه لايتفق مع مبادئه وأسلوبه في الحياة . كما أدى به وضوح رؤيته ومبادئه إلى أن رفض عرضاً للعمل فى انجلترا بعد حصوله على الدكتوراه، وفضل العودة إلى الوطن ، على الرغم من إدراكه لكل المصاعب التى يلقاها الباحث العلمى الجاد فى مصر . كما أنه رفض أيضاً فى حياته العلمية فيما بعد أن ينخرط فى مناصب إدارية تبعده عن البحث العلمى ، واكتفى برئاسة قسمه فى الكلية وبانتخابه عميداً للكلية ، فهذان المنصبان لم يكونا مما يعوقه عن نشاطه العلمي. وحسب ماعرفته من أكثر من مصدر فقد عرض عليه قبل انتخابه عميداً منصباً فى الكويت ، وسافر بالفعل إلى هناك ليستطلع أسلوب العمل ، ولكنه عندما انتخب عميداً اعتذر عن منصبه فى الكويت . كذلك عرفت أيضاً أنه اعتذر عن منصب وكيل الجامعة لأن هذا المنصب وما يتلوه عادة من مناصب ادارية أخرى سوف يبعده عن كليته وأبحاثه . ثم اتخذ قراره أيضاً بعد بلوغه سن الستين برفض عمادة أى من كليات الجامعات الأهلية لعدم إيمانه بها . ولعل القرار الصحيح الوحيد الذى كان ينبغى أن يتخذه العالم مستجير من زمن بعيد ولم يتخذه حتى الآن، هو أن يقرر المبادرة إلى الامتناع عن التدخين. وهو مازال يدخن بعناد وإصرار، مع معرفته طبعاً بكل ما يؤديه له التدخين من مخاطر صحية رأى بعضا منها وهو يودى بحياة زميل عزيز لديه، خاصة وأن هناك أيضاً فى الخلفية تاريخاً عائلياً فيه ماينذر بتجنب التدخين . وهذا حقا تناقض غريب عندما يسلك أحد العلماء فى حياته اليومية مسلكاً يتعارض مع منهجه وثقافته العلميين. إلا أن المنطق أحياناً يتلاشى إذ يحس كل إنسان مهما كان علمه بأن «هذا لن يحدث لى»، وكأنه محصن ضد سلوكه اللاعقلانى.

تشابه فى الأسماء

وكما أن لعالمنا المصرى أحمد مستجير صفاته الفريدة فإن له أيضاً اسمه الفريد الذى لا يماثله اسم. هذا وإن كان الأديب الفنان محمد مستجاب يزعم وهو يستعيذ أن

اسم مستجير مشابه لاسمه، بل وانهما يتشابهان فى القوام والملامح! على أن تشابه الأسماء لايزيد عن الحروف الثلاثة الأولى التى توجد فى أول أسماء كثيرة مثل مستنير ومستحيل ومستعار . كما أن اسم مستجير يحمل شحنة من التواضع حيث يطلب صاحبه من يجيره ، بينما اسم مستجاب فيه شحنة من الكبر حيث يعتقد صاحبه أنه مجاب لما يطلبه إلا أن القاسم المشترك الأساسى بين الصديقين مستجير ومستجاب هو أن كلاهما مبدع . فالعالم المتمكن الذى ينتج علماً جديداً ، لابد وأن تكون لديه جرأة فى الخيال وسعة فى الأفق والقدرة على الابتكار. وهذه هى نفس العناصر المطلوبة لكل من يعمل بالإبداع سواء فى العلم أو فى الفن بشتى صنوفه.



لم يكتب د. مستجير شعرا شجيا فقط ولكنه وضع نظرية في علم العروض، وأضاف وزنا إلى أوزان الخليل بن أحمد

والبحث العلمى لا يجرى دائماً فى خطوات منطقية صارمة كما يظن الكثيرون. وفى أحيان كثيرة يبدأ الإبداع العلمى بأفكار غائمة أو فروض جامحة يغلب عليها الحدس والتخمين وتخالف الكثير من الأفكار التقليدية السائدة . ومع اتفاق الإبداع العلمى والفنى فى هذه البدايات إلا أن كلا منهما لايلبث أن يتخذ طريقاً مختلفاً، خاصة عندما تأتى مرحلة التجريب والتفنيد والتقييم النقدى . والبحث العلمى يرتبط عادة ارتباطا وثيقا بفكرة التقدم بينما لايلزم أن يكون العمل الفنى كذلك . والعمل العلمى يكتسب قيمته أساساً من محتواه بصرف النظر عن الشكل أو الأسلوب ، بينما يكتسب العمل الفنى قيمته من التوقف بين المحتوى والشكل . والعلم عموماً يوصف عالما خارجياً يدعى أن له وجوداً مستقلاً عن العقل البشرى، بينما يوصف الفن عادة عالماً داخليا له نشأته العقلية الخالصة ووجود ذاتى أكثر مما له فى الواقع. ويشيع الاعتقاد أحياناً أنه حتى يؤدى المرء بحثا علميا فكل ما عليه هو أن يجرى بعض الملاحظات ويجمع نتائج التجارب ليخرج من ذلك بإحدى النظريات. على أن هذا قد ينتج عنه مجرد بحث روتينى تكون نتائجه دائماً شبه متوقعة كما يقول فرانسوا جاكوب عالم البيولوجيا الجزيئية. بل وربما يظل أحد الباحثين يواصل تأمل إحدى المسائل من كل زاوية لسنين طويلة ولا ينتج عن ذلك أى ملاحظة أو نظرية لها قيمتها العلمية . وحتى يتوصل الباحث لما له قيمة علمياً ينبغى أن يكون لديه منذ البداية فكرة عما تكون عليه ملاحظته . وكثيرا ما يحدث أن النظرية العلمية الجديدة التى تؤدى إلى تقدم ملموس، تنبجس فجأة فى لحظة تنوير،

ليتضح مرة واحدة جانباً من الأمور لم يكن ملموساً من قبل . ويتطلب هذا عموماً أصالة فى تفكير العالم، ونظرته للأمور من زاوية جديدة غير متوقعة تسترشد دائماً بمفهوم معين عما يمكن أن تكونه الحقيقة .

بحث عبقرى

ويتوافر هذا كله فى العالم أحمد مستجير، وعلى ضوء ذلك يمكننا أن ندرك كيف توصل إلى بحثه العبقرى الأخير الذى يبشر بإمكان زراعة الأرز والقمح المهجن بالغاب أو البوص فى أراضى مالحة أو تروى بمياه مالحة . وما أكثر من سافروا بالطريق الصحراوى إلى الإسكندرية ورأوا عند الملاحات المجاورة لبعض أجزاء الطريق كثافة الغاب الذى ينمو فى هذه الملاحات رغم زيادة تركيز الملح فيها. ولكن مستجير وحده ، العالم المشغول دائماً بهموم وطنه ، عندما لاحظ هذا الغاب طرأ إلى ذهنه هذا الخاطر الطموح شبه الخيالى لزراعة قمح وأرز مطعم بالغاب . وفكرته هذه قد جاوزت الآن مرحلة التجارب التمهيدية وبدأت تدخل المراحل التنفيذية .

●●●

هذه بعض جوانب عرفتها فى شخصية العالم المصرى أحمد مستجير . وهناك جوانب أخرى عديدة فى هذه الشخصية الموسوعية الرحبة لايتسع المجال لذكرها كلها. فهو إلى جانب اشتغاله بالعلم والترجمة العلمية أديب وناقد وشاعر، وله نظرية فى عروض الشعر استخدم فيها ترقيمات الكمبيوتر وصحح وأضاف لأوزان الخليل وزناً، الأمر الذى أثار فقهاء العروض التقليديين . وهو يكتب شعراً شجياً رقيقاً أشبه بما سماه الناقد الراحل د. محمد مندور بأنه شعر مهموس. اسمع له وهو فى لحظة شجن يقول :

جفت السحب فوق الغدير القديم
والشجيرات أغفت على ضفته
لم تعد نسمة تعبره
ماتت الساقية
ماؤها قد نضب
صوتها قد ذهب
لم يعد فوقها مايظل سوى قمر ينتحب.

إن الشيء المهم الذى أحب أن أؤكد عليه هو أن مستجير لايمارس أى عمل فى هذه الأنشطة المتعددة إلا لأنه يحبه من صميم قلبه ، فهو يحب البحث العلمى الذى يجريه ويحب الكتاب الذى يترجمه ويحب الأدب الذى يبدعه، ولأنه يحب هذه الأنشطة جميعاً فقد نجح فيها نجاحاً فذا.. ■


رحلة البحث عن
الماس

عالم براق بدايته الحلم بالثراء ونهايته لعنة الموت

أحجار الماس.. رمز للحب والثراء والقوة.. وعلى الرغم من بريقها ولمعان سطحها، والنور الكامن فى أعماقها ، وشفافيتها الدالة على نقائها ، إلا أنها تحمل داخلها الكثير من الغموض والأسرار.

ورحلة البحث عن أحجار الماس، رحلة درامية لم تنته بعد مشاهدها الدامية على أرض الواقع. فمن أجل ارضاء رغبات المترفين من البشر استعر صراع محموم حولها. فمن أجل ثمن باهظ تدفعه شعوب فقيرة تزداد فقرا لتثرى شعوبا غيرها.

بدأت الرحلة ولم تنتـــه . بدأت بأمل الثراء واستمرت على أمل تحقيق الرخاء والتخلص ممن لا يرحم. ولا تزال مشاهدها تتكرر يوميا داخل حقول الماس فى أعماق صحراء سيبيريا وفى مجاهل افريقيا وحتى أمام ضفتى نهر الأورانج أغلى أنهار العالم.

أطلق علماء الجيولوجيا على الماس لقب سيد الأحجار الكريمة وأغلاه على وجه الأرض.. فهو معدن طبيعى ذو مظهر جمالى فريد؛ تكوّن نتيجة لضغوط ودرجات حرارة هائلة، أثرت على مواد كربونية موجودة داخل القشرة الأرضية، وعلى مدى ملايين السنين تجمع الماس على هيئة عروق داخل أرضيات زرقاء فى باطن الأرض. حتى أن الماس الخام يشبه الى حد كبير قطع الزلط السوداء. فلا يعلم حقيقته ولا قيمته سوى الجيولوجى الخبير المدرب، ولا تظهر فتنته إلا بعد أن تتناوله يد الصانع الماهر لتقطعه وتهذبه لتصل الى جوهره المتلألئ.

ويشتهر الماس بقدرته الفائقة على قطع وخدش أى معدن آخر. فهو أصلب الأحجار الكريمة الموجودة على الكرة الأرضية. وتعادل صلابة قوته ٩٠ مرة من معدن «الكورندم» ثانى أصلب المعادن المعروفة. ومن هنا تأتى قيمته الكبرى فى الصناعة اذ يستخدم كمادة قاطعة للزجاج وللماس نفسه. كما يستخدم فى آلات حفر الصخور أو حفر آبار البترول والمياه وعمليات التعدين.

سباق لاكتشافه

وخلال القرن الثامن عشر كانت الهند المصدر الوحيد للماس. تأتى من بعدها البرازيل فى أعقاب اكتشافه فى أنهارها. ولكن مع بدايات القرن الماضى احتلت



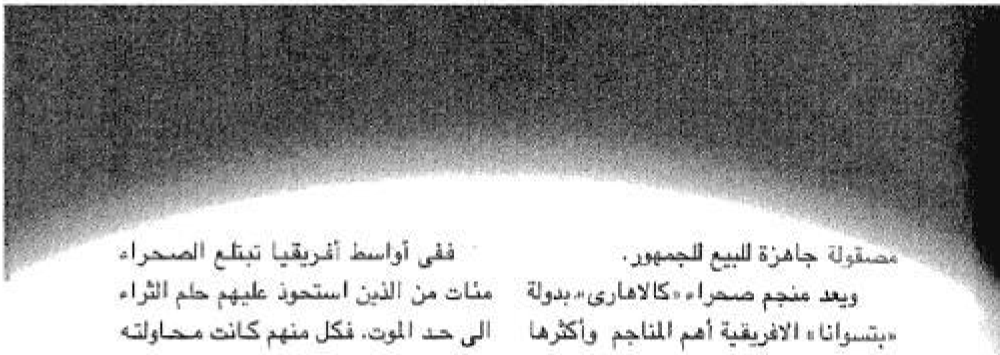
الماس

الحرفية الهندية في تقطيع وصقل الماس الى أحجار صغيرة للترصيع الدقيق



القارة الأفريقية بمكانة متقدمة داخل السباق المحموم على حقول الماس فى العالم خاصة مع اكتشافه فى حوض نهر الفال والأورانج بجنوب افريقيا ودول السيراليون وبيتسوانا والكونغو الديمقراطية وانجولا .

وتقدر الاحصائيات الدولية حجم التبادل التجارى بين العالم أجمع بحوالى ١٢٠ مليون قيراط فى الماس الخام خلال العام الواحد. يصل وزنه الخام الى ٢٤ طنا بما قيمته حوالى ٧ بلايين دولار ويرتفع السعر الى حوالى ٥٠ بليون دولار عندما يصل إلى أيدى المنتجين، وتتحول أحجار الماس الى فصوص ماسية



مصقولة جاهزة للبيع للجمهور.

ويعد منجم صحراء «كالاهاري» بدولة «بتسوانا» الافريقية أهم المناجم وأكثرها انتاجا فى العالم. وقد تم اكتشافه عام ١٩٧٣ ويصل حجم انتاجه الى حوالى بليون دولار سنويا .

وتعد تل أبيب وامستردام وبلجيكا وجوهانسبرج أكبر أسواق صقل الماس وتجارته عالميا.

الماس .. وأحلام الغريق

كان من المفترض أن تكون رحلة البحث عن الماس رحلة شيقة مليئة بالطرائف لتخفف فى وطأة حرارة وقيظ ليالى الصيف.. لكننا «كالمستجير بالنار من الرمضاء».. فطوال محطات رحلة البحث كانت ملامحها تجتمع واحدة تلو الأخرى لترسم لنا ذلك الوجه القبيح لعالم أصبحنا نعيش فيه.. فلم تكن يوما رحلة البحث والتنقيب عن الماس رحلة نبيلة غايتها رفاهية الشعوب التى تملكه، بل كانت رحلة غايتها الحقيقية تكمن فى فرض مزيد من الهيمنة والاحتكار.. وبالتالى مزيد من الانفراد بالسطوة العالمية.

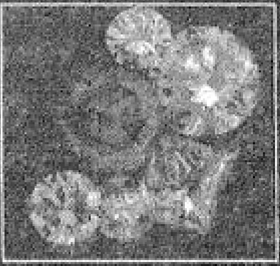
فالكثيرون سرقتهم أحلام الثراء وداعبت خيالهم بآمال الرخاء والراحة. فلا تعب ولا شقاء بعد اقتناص الماس. فلم يكن فقط الصراع من أجل الوجود أو البقاء هو المحرك الرئيسى الذى يحرك آلاف العمال الفقراء داخل مناجم الماس .

ففى أواسط أفريقيا تبتلع الصحراء مئات من الذين استحوذ عليهم حلم الثراء الى حد الموت. فكل منهم كانت محاولته عبور رمال الصحراء أملا فى الوصول الى مناجم الماس. ولكن منذ اللحظة الأولى لاكتشافه فى أفريقيا أصبح الصراع محموما ويزداد لهيبا كلما ازداد ارتفاع أسعاره . خاصة مع تفشى الفقر والجوع وسط جموع شعوبها، حتى تحول لهيبه الى نار تأكل كل بلد أفريقى بما عليه من بشر .

ففى مدن حكمها المرتزقة والعسكريون، ووسط طوفان من الانقلابات العسكرية أصبحت شعوب الماس ترتطم يوميا بمزيد من المرايا الفجة التى تعكس واقعا مريرا يشابه الى حد كبير واقع العبودية.. وتحولت حقول الماس الى حقول سخرة وحقول عذاب. كما تحولت الدول التى أنعم الله عليها بخيرات الماس إلى دول سقطت تحت رحمة تجار أشبه بأسماك القرش الهائجة وسط محيطات متمردة . وتحول حلم الرخاء والثراء كحلم غريق يستوحش بر الأمان.

لعنة الماس

اشتعلت الحرب بين عدة مجموعات مسلحة بهدف السيطرة على حقول الماس. ومثال ذلك تلك الأوضاع المتردية فى أنجولا. وكأن اللعنة قد أصابت تلك البلاد نظرا لإكتشاف الماس فى أراضيها. فلم تكن الحرب الأهلية لتستمر من دون وجود


الماس الملون أزرق أصفر وردي من أندر وأغلى الأحجار

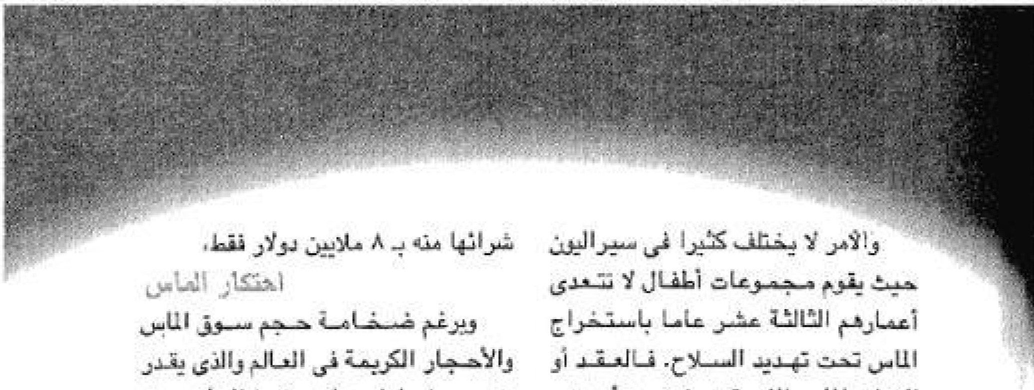
الماس

أحد مصانع الهند الخاصة بقطع وتلميع الماس حيث تشتهر بوجود أكثر من ٨٠٠ ألف عامل ماهر يستطيعون صقل سطح الماسة الواحدة إلى ٥٨ سطح [illegible] لامع



الماس. وأبلغ دليل على ذلك شهادة ناشطي حقوق الإنسان الذين أكدوا أن صناعة وتجارة الماس مسئولة عن مأساة أنجولا .

ورغم شيوع مقولة «الماس خير صديق للمرأة» الا أن الأوضاع داخل المناجم تختلف تماما. فالقوات المسيطرة على مناجم الماس تجبر النساء والأطفال بقوة السلاح على القيام بأعمال الحفر والتنقيب واستخراج الماس. ومن لا يلتزم بالعمل تطالبه القوات باختيار اليد أو الرجل التي ستقطعها له عقابا على التقصير في العمل ليكون عبرة لمن يعتبر .



والأمر لا يختلف كثيرا فى سيراليون حيث يقوم مجموعات أطفال لا تتعدى أعمارهم الثالثة عشر عاما باستخراج الماس تحت تهديد السلاح. فالعقد أو الخاتم الماس الذى قد يشتريه أحدهم أغلى كثيرا مما قد يدفعه فى مال مقابله. الأمر الذى جعل كندا ـ تفخر بأن الماس المستخرج من أراضيها نقى كنقاء الثلج الذى يغطى سفوح جبالها. فلا دماء ولا حروب من أجل استخراجه .

الماسة الكبيرة

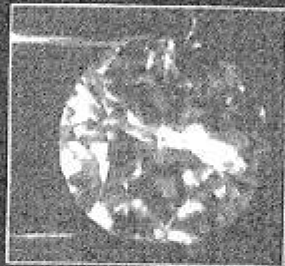
وبالرغم من الإدعاء بازدراء الحروب الا أن دور اسرائيل فى تغذية الصراعات الافريقية وفى تهريب وشراء الماس بطرق غير شرعية مقابل تزويد القوات المتمردة بالسلاح وهو أمر لا يخفى على أحد. وتعد منطقة البحيرات العظمى مثالا واضحا على ذلك. كما أن سوق «رامات جان» الإسرائيلى هو المستفيد الأول من صفقات الكونغو الديمقراطية.. ومثال ذلك عندما عثر أحد الحفارين فى الكونغو على حجر ماسى ضخم أطلق عليه اسم «الماسة الكبيرة» . حاول بيعها لكنه لم يكن يعلم أن الصفقة غير عادلة. فقد قدرها السماسرة بـ ٣ ملايين دولار. ولكن رغم أن ثمنها الحقيقى يصل الى ٢٠ مليون دولار. ولكن ظروف الحرب الأهلية المشتعلة لم تمكنه من بيع تلك الماسة. ولكن استطاع شركاء اسرائيليون فى تل أبيب على رأسهم وليم جولدبرج فى شرائها منه بـ ٨ ملايين دولار فقط.

احتكار الماس

وبرغم ضخامة حجم سوق الماس والأحجار الكريمة فى العالم والذى يقدر بنحو ٨٠٠ مليار دولار سنويا إلا أن سوق عرض الماس تتحكم فيه ثلاثة شوارع فقط فى العالم كله. أولها شارع رقم ٤٨ فى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية. وشارع هاتون جاردن بلندن، ورامات جان بتل أبيب، وتتداخل معهم منطقة دار الأوبرا فى مدينة بومباى بالهند. وتشتهر الهند بتوافر الأيدى العاملة الرخيصة التى تقوم بتصنيع وتلميع الماس داخل أكبر مصنع فى العالم . حيث يصل عدد العمال داخله الى ما يقرب من ٨٠٠ ألف عامل. والمعروف أن حقول الماس تنتج خلال العام الواحد حوالى ٨٠٠ مليون حجر ماسى. يستخدم ٨٠٪ منه فى الحلى والمجوهرات. ويقوم العمال المتخصصون فى قطع وتلميع الماس فى الهند بإعداد حوالى ٩٠٪ من حجم الانتاج العالمى، وان كانت أغلبيته تعرض داخل متاجر المجوهرات فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتحتاج عملية اعداد وتلميع حجر الماس الخام الى عامل «حكاك» يقوم بحك الحجر واعطائه الأشكال المطلوبة لخدمة السوق . ويعتبر «مونى برنستين» من أشهر حكاكى الماس فى العالم. حيث يعمل فى منطقة الماس بوسط «منهاتن» بنيويورك، ويرى أن الماس برغم نقائه إلا





صقل الماس يعطيه جمالا ويبرز نقاءه

الماس

رحلة البحث عن

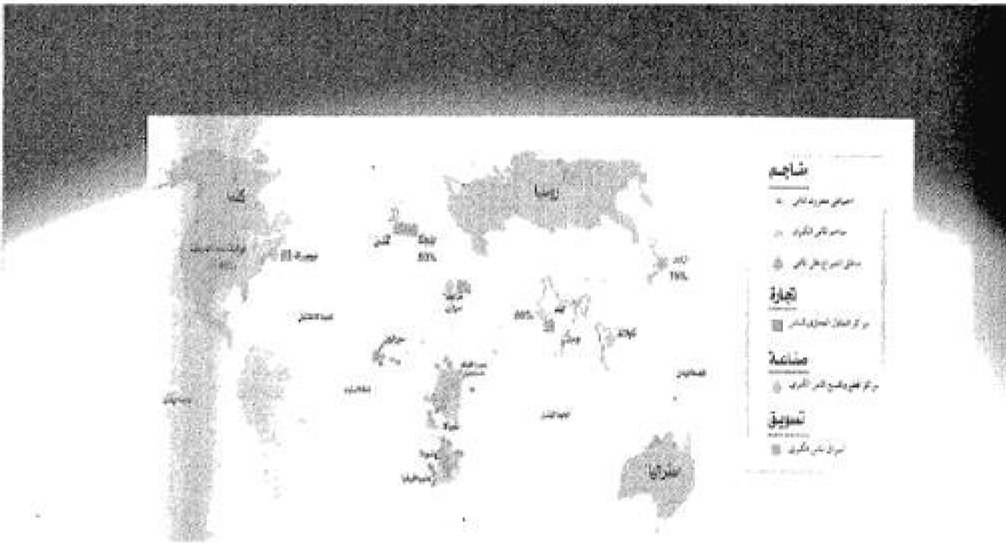
هكذا تبدأ رحلة البحث عن الماس عند ضفاف الأنهار باستخدام الأيدي



يحمل داخله الغموض. وهو يراعى في تحديد الشكل النهائي للحجر التقليل من حجم الفاقد منه والشكل الجمالي له. فسطح الماسة التي يقوم بحكها هي التي تسمح بانعكاس الضوء على سطحها وداخل قلبها وبالتالي «تبرز» جمالها ونقاءها .

٢٠٠٠ قدم تحت الأرض

تقتضي عمليات التنقيب عن الماس من العمال تقليب الرمال السطحية بأصابعهم، أو التقاط أحجار الماس أو الغوص تحت سطح المياه لا نتشالها من القاع أو الغوص داخل باطن الأرض لأعماق بعيدة. حتى الوصول لعروق



خريطة توضح مناطق المناجم وتجارة وصناعة وتسويق الماس في العالم

الماس. كما هو الحال في منجم الماس الذي تم اكتشافه في صحراء سيبيريا عام ١٩٥٧ . حيث يصل عمق المنجم الى ٢٠٠٠ قدم تحت سطح الأرض. بل تحتاج السيارة الى ٩٠ دقيقة للصعود الى سطحه .

والمعروف أن هناك قوانين تتحكم في أقاليم الماس. فيحرم الدخول أو الخروج من منطقة المناجم إلا بتصاريح خاصة. وبعد الدخول يحظر على الزائر أن يلمس الأرض بيده. لأنه يسير وسط بحر من الأحجار تحوي كنوزا ماسية باهظة الثمن. ولدى الخروج من المنطقة يتعرض الخارجون لعمليات تفتيش دقيقة، والكشف باستخدام الأشعة السينية خشية التهريب عن طريق ابتلاع الماس.

أغلى الأنهار

أما نهر الأورانج الذى يمر ببتسوانا وجنوب افريقيا فهو أغلى أنهار العالم أجمع حيث تتدفق أحجار الماس داخله كما تتدفق مياهه عبر ملايين السنين. وتمتلك حق التنقيب والتعدين عن الماس على ضفتيه وداخله وحتى مصبه في البحر شركة «دى بيريز». فوفقا لإحصائياتها فإنها تستخرج حوالى ١٩ ألف قيراط من الماس شهريا بمعدل ٢٦ قيراطا في الساعة أغلبها الأحجار عالية الجودة والنقاء ويصل حجم الفص الواحد منها حوالى قيراطا واحدا كاملا وشركة دى بيريز انجليزية ـ جنوب أفريقيا تابعة لعائلة «أوبنهايمر» اليهودية أبرز ملوك الماس في العالم وقد تأسست في عام ١٩٣٠ إبان الاستعمار البريطاني لعدد من الدول الأفريقية . واتخذت من لندن مقرا لها . وتقوم كل عام بتوزيع حصص الماس على الأسواق. فهي تتحكم في ٦٠٪ من حجم تجارة الماس في العالم وتسيطر على سوق العرض والطلب. وتعتبر مركزا عالميا



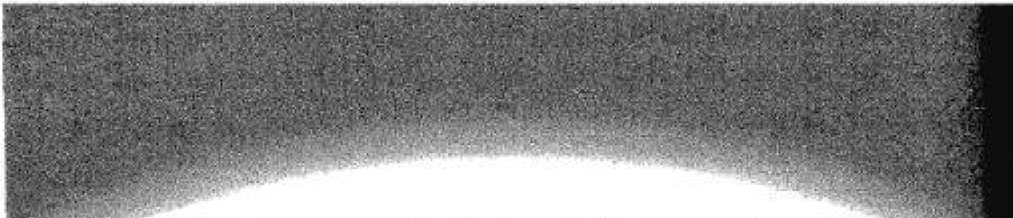
ابتلعت الصحراء أرواح كثيرين ممن سرقتهم أحلام الثراء. فلم ترأف بهم ولا بأحلام الفقر التي يعيشونها



الماس. وكانت الشركة لدى تأسيسها تلعب دورا مهما، فى تسويق الماس المستخرج فى المستعمرات البريطانية فى جنوب أفريقيا وناميبيا وغيرها. بالاضافة الى استقطاب الماس الروسى والبرازيلى والكندى حتى تتحكم فى آليات تحديد أسعار الماس فى الأسواق العالمية.

أندر أحجار الماس

ويعتبر حجر الكسندرايت المتعدد الألوان أندر أحجار الماس وأغلاها ويصل ثمن حجر وزنه ٤ قراريط منه الى حوالى ٣٠٠ ألف دولار. وقد اكتسب اسمه نسبة الى الكسندر قيصر روسيا فى أعقاب اكتشافه فى روسيا عام ١٨٣٠. ويشتهر



الماس يتعدد ألوانه مثل الأزرق والأصفر والوردي، ويرتفع سعره كلما ازداد شفافية وأصبح لونه أكثر وضوحا. وأغلاه على الاطلاق الماس الأزرق نظرا لندرته. وفي يومنا هذا أصبح الماس يخضع لعمليات تلوين باستخدام أشعة الليزر، كما خضع لعمليات تصنيع كاملة والذي يطلق عليه «الزيركون».

ملوك الفيروز

وفي مصر قدرت شركة «دي بيريز» أن حجم تجارة الماس لا يتعدى ٥٠٠ مليون جنيه سنويا. بعد أن كانت السوق المصرية للماس قبل الخمسينات مركزا دوليا وبورصة عالمية مهمة لتحديد سعر الماس في العالم.

واليوم تحول السوق المصري الى سوق مستورد بالدرجة الأولى دون أن يلعب دورا في صناعة الماس أو حكه أو تلميعه. يتم استيراده من الخارج ولا يزال تجار المجوهرات من مصر يحملون شعار «نحن ملوك الأحجار الكريمة من فيروز وزبرجد وزمرد في العالم بل لايزالون ينصبون أمير أغا ملكا للفيروز برغم وفاته منذ سنوات عديدة وطوال الفترة الماضية حافظت عائلة آل كاظم وآل خراسان وآل عاشور على اهتمامها بالاحجار الكريمة كما حاولت الدخول في معترك التنقيب عن تلك الاحجار داخل الأراضي المصرية بحثا عن الفيروز والزمرد والزبرجد، إلا أنها كانت دائما تصطدم بالقوانين المحلية التي تعرقل مثل تلك الأنشطة علاوة على التكلفة المرتفعة للأدوات والماكينات المستخدمة في عمليات التنقيب. ويكفينا أن نعلم أن لدينا في مصر في منطقة البحر الأحمر «جزيرة زبرجد» لكن السلطات حولتها الى منطقة عسكرية لدواعي أمنية كما أننا نملك أجود أنواع الفيروز لكن عملية استخراجه تحرمها قوانين المحميات الطبيعية نظرا لوجوده داخلها، كما نملك في أعماق البحر الأحمر اللؤلؤ لكن استخراجه أيضا يحتاج إلى تكاليف باهظة تفوق القدرة المحلية. كما تشتهر بلادنا بالمرجان الذي يخضع لقوانين المحميات الطبيعية. فالمعروف أن المرجان ينمو سنتمترا واحدا فقط كل مائة عام وبالتالي فلا يقدر بالمال. وبرغم ما تشتهر به بلادنا من هذه الاحجار الكريمة الا أنه لا يوجد على أرضها أحجار الماس، الأمر الذي حماها من السقوط في بئر الدمار كما هو الحال داخل القارة الافريقية وكأن عناية السماء رأفت بحالنا ولم تود أن تصيبنا بلعنة «الماس» التي مست جيراننا. فعندما تصيب اللعنة أحدهم لا تنجده أية تعاويذ أو أحاجي من سحره فبرغم أن الرمال التي نسير فوقها قد تحمل بين طياتها كنز الكنوز إلا أنها قد تخفي أيضا إحدى تلك اللعنات لعنة أحجار الماس! ■

حياتي في الشعر

بقلم
أحمد سويلم

قصتى مع الإبداع الشعرى لا تخرج عن ساحات ودهاليز هذه القلعة.. التى قد تبدو - من البعد - قلعة حصينة فولاذية بالرغم من أنها مفتحة الأبواب والنوافذ، ولا أدرى تماماً .. متى كانت أول طرقة على باب هذه القلعة.. وإن كنت متأكدا من محاولاتى الأولى لهذه المغامرة منذ فتحت عينى على قراءات مكثفة للتراث الشعرى العربى الصوفى.. فى تلك الكتب الصفراء القديمة التى كان والدى الشيخ - رحمه الله - يحتفظ بها فى خزانته بعيداً عن عبث الصغار أمثالى.



أحمد سويلم

فكثيراً ما كنت أتسلل إليها فى غياب أبى عن البيت، مشغوفاً بما سطر فى أوراقها.. فأنهل منها ما أستطيع .. حتى إذا أحسست بخطاه أسرع بإعادتها والخروج إلى استقباله نافضاً عقلى وقلبى من تأثيرها حتى لا يفطن إلى (جريمتى) .. لكننى اكتشفت أننى كنت أحيط هذا الرجل الطيب بهالة من الهيبة المخيفة التى لم تكن فيه.. ففى أحد الأيام .. فاجأنى أبى فى غرفته مستلقيا على صدرى محتضناً ديوان ابن الفارض أسفل وجهى.. وأدمعى تملأ عينىّ من شدة التأثر بما أقرؤه.. وحينما شعرت به فوق رأسي.. قفزت من مكانى.. لكنه نظر إلى فى حنان وحب.. وأدرك كل شىء.. فضمنى إلى صدره.. وبدأ يشجعنى على القراءة فى الشعر والتراث الشعبى .. بل كان يضمنى إلى حلقة الذكر التى كان يعقدها فى البيت ليلة كل أربعاء.. أهتز فيها على أنغام المنظومات الدينية وبردة البوصيرى.

وكعادة أبناء الريف.. كانت وسائل الثقافة والترفيه محدودة جداً .. وكان المسجد بالنسبة لى مدرسة ثقافية جامعة

إلى جانب المدرسة التي تسقينا العلم.. ومكتبتها التي كنا نلتهم فيها الكتب دائماً.. وأذكر أنني كنت حريصاً على قضاء فترة ما بين صلاتي العصر والمغرب في المسجد حيث كان (الشيخ عبدالهادى) يتصدر المجلس ليتحدث إلينا في كل شيء ويجيب عن كل سؤال.. والعجيب أن هذا الرجل لم يكن يملك من حياته إلا شهادتي (الفقر) و(لا إله إلا الله محمد رسول الله) - على حد قوله - لكنه لعب دوراً مع جيلي في بلدتنا - بيلا كفر الشيخ - في غرس قيم الحرية والرأى والحوار .. ومزيد من الثقافة العامة.

وقد كنت أحسّ دائما بجمرة الإبداع في داخلي .. ومن ثم كانت أولى علاقاتي بالكتابة في صورة رواية طويلة بعنوان (حب في الظلام) تدور أحداثها في القرية المصرية وتتصادم فيها القيم والعادات والتقاليد . ثم جربت القصة القصيرة - على قدر سني وخبرتي وطموحي مستمداً مضامينها أيضا من بيئتي الريفية - وأيضا جربت التعبير عن ذاتي في بعض الخواطر والتأملات في الحياة.. إلى أن جاء عام ١٩٥٦ وتلقت مصر تهديداً بعد تأميم قناة السويس.. وامتنعت كل دول العالم عن تسليح مصر.. وبدأت الدعوة للتبرع لشراء السلاح الجيش المصرى.. وغنى عبدالوهاب أيامها أغنية (سلح جيش أوطانك .. واتبرع لسلاحه) فانهالت التبرعات من أجل المجهود الحربي وإنقاذ مصر وكرامتها.. ووجدتني في براءة الوطنية أكتب - بالعامية - على غرار أغنية عبدالوهاب متحمساً ومشاركاً هذا الشعور الوطني الفياض.. ثم عرضت ما كتبت من قبيل التجربة على صديقي الأزهرى - حسن محرم الحويني - وهو الآن مدرس بجامعة الأزهر - فوجدته يطالبني بإعادة كتابة هذه المقطوعة بالفصحى.

إنني على يقين بأن صديقي هذا قد أدرك أن شيئاً بداخلي ينبغي أن يتفجر.. ولابد أنه أحس يومها هذا الاشتعال الكامن الذى أنتبه إليه .. فاستفزه داخلي .. وحركه من ركوده وكمونه !

وأعجبني كثيراً في قراءاتي الأولى: صعلكة عروة بن الورد.. وبطولة عنترة.. وشموخ امرىء القيس برغم عمره القصير.. وتجديد أبي العتاهية.. وروميات أبي فراس .. وفلسفة أبي العلاء.. ومقدرة ابن الرومي.. وتفرد المتنبي.. وتمرد أبي نواس.. ودراما عمر بن أبي ربيعة.. وشعبية البهاء زهير.. وتحدي البارودي .. ومعاصرة شوقي وحافظ.. ورومانسية ناجي وعلي محمود طه وجماعة أبوللو.. وتأملات مدرسة المهجر .. وتجديد مدرسة الديوان.

لكن كل هذا في وجداني طوال سنوات ثلاث (١٩٥٦ - ١٩٥٩) وحاكيت شيئا منه في قصائدى الأولى وأنا طالب في المرحلة الثانوية.. تغمرني البراءة والثورية والدهشة والحماسة الشفافة التي أستمدها - بلا إرادة - من الإعلام السائد آنذاك... ومما كنت أتلقاه في الفصل الدراسي من الشعور القومي الخالص من أى شوائب أو أفكار مضادة .. فكان شعرى انعكاسا تلقائيا لا يحيد إلى دروب أرحب من هذا .

والحقيقة أنني ودعت أي لون آخر إبداعي سوى الشعر.. وكأني وجدت ذاتي فيه.. فقررت أن أخلص له دون غيره .

وأرحل في منتصف عام ١٩٥٩ إلى القاهرة حاملاً اتمام الثانوية العامة .. وستة عشر عاماً لم أبرح خلالها هذا الريف التقليدى !

ويصل الشاب الريفي إلى القاهرة .. تلك المدينة الصاخبة

ووجدت نفسي في قلب هذه المدينة.. لألتحق بعمل أعول به أسرة مكونة من أم فقدت زوجها من سنوات وثلاثة إخوة صغار.

ترى .. أكانت تجربة جديدة.. أم هي إضافة للوجدان الشعري؟

وما الذي يمكن أن تمنحه تلك المدينة الموحشة المخيفة لهذا الوافد البسيط الرقيق.. الذي حمل في قلبه الإيمان والبراءة معاً .. وماذا عن الشعر والشعراء.. والإعلام .. والسياسة .. ماذا عن كل هذا ؟..

لقد أدركت منذ الوهلة الأولى أن المدينة تقتحمني.. تتسلل داخل شراييني.. تتوحد بخلاياي.. وتصارع مكان الشعر.. عليّ إذن أن أقاومها وأحتفظ بصفاء الوجدان.. وإذا لم أستطع المقاومة فعليَّ مهادنتها.. أو التواصل معها بلا جراح.

جذبتني الساحة بما فيها من إيقاع سريع يخالف تماماً إيقاع الريف الذي أحمله داخلي.

وكانت الساحة الشعرية - وهي ما تعنيني الآن - في بداية الستينيات ذات ملامح محددة .. فهي ساحة فرضت عليها حتمية التغيير من مجتمع يعاني بقايا الرأسمالية والإقطاع والرجعية والصراعات على السلطة.. إلى مجتمع وجد في النظام الاشتراكي خلاص المرحلة.. وطبيعي أن يجد هذا التغيير من يناصره من شباب مصر الذي كان يرى في عبدالناصر قدره المنتظر.. وطبيعي أيضا أن يجد هذا التغيير من يقاومه من هؤلاء الذين ينتمون إلى الماضي.

هي إذن مرحلة انعكست ظلالها على كل شيء في حياتنا.. اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وفنياً وأدبياً.. وما يهمنا هنا ما انعكس منها على الشعر.

فمنذ سنوات عشر تقريبا على تلك المرحلة بدأت مدرسة الشعر الجديد تعلن تمردها على تقليدية القصيدة.. ورتابتها ، وإن كانت تحترم الحوار مع التقليديين برغم إعلانهم خصومتهم لهذا التطور الجديد.

وكان صلاح عبدالصبور رائد هذه المدرسة في مصر.. والسياب ونازك الملائكة والبياتي في العراق.. وبالرغم من المقاومة الضارية في جميع وسائل الإعلام فإن إصرار أبناء هذه المدرسة كان أقوى وأشد قدرة على التصدي والصمود.. مسلحين بالثقافة المنوعة التي تمزج التراث البعيد بمعاصرة الحديث.. والثقافة العربية بالثقافة الأجنبية.

وبدأت القصيدة الحديثة تأخذ مسارها في الساحة بمفرداتها الخاصة.. وتشكيلها الجديد وإضافاتها وآفاقها المتعددة بين الغنائية والدرامية .. وبين الرومانسية والواقعية .. وبين إضافاتها المسرحية على أيدي الشرقاوي وعبدالصبور .. مؤكدة ثراءها .. وعدم جمودها في قوالب بعينها.

أين أنا إذن في هذا المعترك الصاخب؟ .

إما أن أكون أو لا أكون!

أدركت بعد استيعاب ظلال هذه الساحة الجديدة.. أن ما سبق وكتبته طوال السنوات السابقة - وما زهوت به كثيراً - لم يعد يصلح لهذه الساحة الأكثر حركة وقلقاً .. ووجدت نفسي في قلب المدرسة الجديدة أشرب من نبعها وألتقط خيوطها.. وأنسج إبداعاتي متكئاً على هذا الزاد المتميز الذي حملته من

التراث.. وما أقبلت عليه من الثقافة الحديثة.. وساعدني على ذلك كثيراً عملي في دار النشر (دار القلم) حيث أتاح لي هذا العمل مزيداً من التعرف على الساحة من خلال القراءة واللقاءات مع الشعراء الذين كنت أسمع بهم في مرحلة الدراسة وأتمنى لقاءهم .

كان علي أن أعيد حساباتي في كل شيء .. وأن أعيد ما قرأت - سابقاً - لكن برؤية أخرى تماماً.. وأضيف إليه ما استحدث في قلب الساحة.. ثم بعد ذلك أبدأ في إفراغ رؤيتي الخاصة.

وكان سباقاً مع الزمن.. واصلت فيه دراستي الجامعية (في كلية التجارة جامعة الأزهر) في أثناء عملي اليومي الذي أحببته كثيراً.. لكن الشعر كان يحفر لنفسه مساره الخاص الذي لا يطغى عليه أي مسار آخر:

التحمت بالساحة الجديدة لعلني أحظى فيها بمكان لخطواتي .. فوضعت ما كتبت سابقاً في (ظرف كبير) خاص وكتبت عليه (ما قبل التاريخ) ثم انطلقت من جديد مسلحاً بإصراري على خوض هذا المعترك.

وفي أوائل عام ١٩٦٤ - بعد خمس سنوات من التجريب - استرحت إلى قصيدة رأيتها تصلح أن تقدمني للقارئ.. وعلى الفور أرسلتها إلى جريدة (الحرية) في بيروت باسم رئيس تحريرها وسعدت بها منشورة على صفحاتها.. إذن يمكن أن تكون هذه الجريدة (غير المصرية) جواز مروري إلى الساحة المصرية.. وبالفعل رحب بأشعاري د. عبدالقادر القط حينما كان رئيسا لتحرير مجلة الشعر القاهرية لتبدأ رحلتي مع النشر بلا انقطاع.

وتتناثر حولي دواوين الشعر الجديد.. كل له مذاقه وتجربته وإضافته.. وأنا أكتب وأنشر قصائد متفرقة هنا وهناك داخل وخارج مصر.. ويشير علي أصدقائي أن أنشر ديواني الأول.

لم يكن ميسوراً - وقتذاك - أن ينشر شاعر جديد ديوانه الأول - كما هي الحال اليوم - فقد كان النشر له معايير قاسية ولجان أكثر قسوة.. لكنني أقدمت على التجربة .. وراقت لي .. ووجدتها فرصة اختبار حقيقية لقدرتي الإبداعية.. فجمعت عدداً من القصائد ودفعتها إلى (دار الكاتب العربي) وكانت داراً قومية .. وبعد فترة روتينية طويلة امتدت لأكثر من ستة أشهر تمت الموافقة على الديوان ليصدر بعد ذلك بنحو سنة في أعقاب نكسة ١٩٦٧ (سبتمبر ١٩٦٧).

كانت المضامين السائدة آنذاك تدور حول محاور الذات والحب والتعاطف والخلاص والتمرد والتنبؤ بالغد.. وكنا جيلاً نشكل منظومة كاملة من شعراء قرأوا التراث قراءة عميقة فاتخذوه قاعدة فنية ينطلق منها الشاعر إلى العصر ودراما الإنسان مع الوجود حيث يثور ويتمرد.. ويتطلع إلى الغد.

إن علاقة الشاعر بالتراث علاقة وثيقة حتى لو أنكرها.. فالشاعر يحمل في داخله - رغماً عنه - جينات الشعراء والأجيال السابقة عليه منذ بدأ الشعر العربي حتى زمن الشاعر.. لكن يبدو أن التمرد على التراث يصبح أحياناً موجة من موجات التمرد الدونكيشوتي .. مسايرة لمدارس الثورات وإنكار الماضي بحجة السلفية وغيرها.

وقد غاب عن وجدان هؤلاء الموهومين .. أن تراثنا - كأي تراث حضاري - يتضمن قيماً إيجابية وأخرى سالبة ..

ونظرة الشاعر ومشروعه الإبداعى هما اللذان يحددان موقفه من هذا وذاك.

ومن ثم كانت نظرتي للتراث العربى أنه جزء من التراث الإنسانى بعامة، وأنني لابد أن أعيد النظر إليه في ضوء هذه الفكرة.. فكرة الانتقاء.. فإذا تعاملت معه فينبغى أن أستعيد منه - فى شعرى - ما يستطيع أن يحمل دلالات العصر.. وإلا أصبت شعرى بالتخلف.

وأحسب أن التجربة الشعرية هى التى تحدد احتياج الشاعر إلى استخدام التراث أم لا.. فليست هناك قاعدة فى ذلك .

بدأت إذن رحلتى الجديدة مع الكشف والارتياد فى أقاليم الليل والنهار والتراث والواقع والمستقبل.. وكنت أحرص كل يوم على اكتساب خبرة جديدة وتجارب أكثر تأثيراً تتسلل إلى داخلى.. وتؤكد كل مقومات الإبداع.

التجربة الشعرية

والتجربة الشعرية عندى عميقة الجذور.. تبدأ - فى دهاليز الزمان الممتد داخلى منذ الطفولة حتى لحظة كتابة القصيدة.. بل تمتد بأطراف مختلفة فى ماضى الإنسانية القديم.. وهى تعيش داخلى فى ركن مجهول.. وما أكثر أركان ذاتى المجهولة.. حتى إذا لمست هذه (الخلية الأولى) لحظة تفجر معاصرة سرعان ما تتحول هذه (الخلية) إلى محور (مغناطيسى) داخلى ينجذب إليه كل ما يحمل طرفاً من خصائص هذا المحور دون غيره.. وتظل عمليات الجذب والطرد.. والقوة والضعف - حتى يكتمل المحور تماماً ويتشبع بهذه المفردات المنجذبة .. ولحظتها فقط أحس بقوة أشواك هذه التجربة داخلى.. وأن علىّ أن (أتخلص) منها على الورق.

وفى يقينى أيضا أن متعتى الحقيقية هى فى ذلك العذاب الجميل الذى أعانيه فى داخلى حتى تأتى لحظة المخاض.. وهنا أكتب تجربتى فى جلسة واحدة.. ثم أترك ما كتبت قليلاً حتى أستعيد طبيعتي - قبل القصيدة - لأتحول إلى قارىء أو متذوق أو ناقد.. فأقبل على القصيدة مرة ومرة أصلح منها.

لقد قصدت هنا أن أقترب من مراحل التجربة الشعرية.. لكننى أدرك تماماً أن بها عوامل أخرى كثيرة تتداخل وتتشابك وتتنافر حتى تتم التجربة.. يعجز أى مبدع أن يقبض عليها أو يصفها أو يحدد ملامحها تماماً.. أو حتى يعبر عنها تعبيراً نهائيا.. وبالرغم من هذا فأنا أومن - كما يقول ناظم حكمت - أن (القصيدة الجيدة هى التى لم تكتب بعد) وإلا توقف الإنسان عن الإبداع مادام كتب أجود ما عنده!.

دخلت بهذا ساحة الشعر - والنشر - من أوسع أبوابها .. وطرقت تجارب كثيرة من التشكيل الشعرى والتجارب والتجريب بكل آفاقه.. وما أصدرته من دواوين إنما وقع تحت اختيار دقيق من بين عدد كبير من القصائد.. أردت أو رضيت أن أقدم نفسى من خلال ما نشرته فى هذه الدواوين فقط - فى حينها بالطبع -

وحاولت فى كل ديوان أن أعبر عن تجارب متقاربة .. وليس معنى ذلك أنها ترتبط بآنيّة الزمن بالضرورة .. وإنما هى تجارب يضمها غلاف واحد وتبوح بما عندى ساعة إصدار الديوان .

الدواوين الأولى

ففى ديوانى الأول وديوانى الثانى .. كنت أتحسس خطاى فوق هذه الأرض

الوعرة الملتهبة.. وكانت أمامى تجارب الرواد الكبار.. وغيرهم من رواد العالم الذين تصل إلينا أعمالهم كل يوم.

وكان لا مفر من أن أقع - فى البداية - تحت تأثير ما أقرأ . وأتذوق .. وأحاول الانفلات منه حتى أتخذ لنفسى مساراً خاصاً تجلى في ديوانى الثالث (البحث عن الدائرة المجهولة).

لقد كان هذا الديوان الذى صدر فى أوائل عام ١٩٧٣ حصيلة تجربة طويلة قاسية من الإحباط والتحمل والتوجس والتوقع الوهمى الذى عاشه المجتمع العربى فى هذه الفترة التى سميت (باللا سلم واللا حرب) والتى انعكست بلا شك فى أعمال جيلنا كله.. وكان معظمه مجنداً فى القوات المسلحة منذ سنوات سابقة فى انتظار الخلاص.

وكانت رؤيتى للخلاص تتكىء على مقومات عديدة.. أولها على الإطلاق الاعتماد على الذات والتحدى لهذا المصير الذى اقتحم الساحة العربية فأصابها فى مقتل وكأننا نحيا عصر الموت.

وتحققت الرؤيا دون أن تكذب حين جاءت حرب أكتوبر (١٩٧٣) وكنت واحداً من المشاركين فيها.. وتهطل علينا آثارها - الإيجابية والسلبية - وتتعدد وتتفرد الرؤى لهذا الحدث الكبير.. ويقع المبدعون فى مأزق شديد.. فما حدث كان عظيماً بكل المقاييس لكنه ليس نهاية العظمة وقمة الخلاص.. وما جناه الإعلام فى حق هذا الحدث من مبالغات أظهرته بصورة غير واقعية .

ماذا إذن يفعل المبدعون؟

إن هم صدقوا مع أنفسهم خرج إبداعهم أقل من الصورة الإعلامية التى اقتحمت وجدان المواطن المصرى .. وإن هم واكبوا ركب الإعلام.. أصبحوا مبدعين إعلاميين وشاركوا فى جريمة المبالغة.

إنه إذن مأزق شديد دفع المبدعين إلى الصراخ والبحث عن حل هذه المعادلة الصعبة - خاصة بعد اتفاقية كامب ديفيد - فلجأ المبدع إلى الرمز والتراث والتشكيل الشعرى الذى يثرى التجربة ويبعدها عن الآنية والمباشرة ويجعلها ممتدة فى الزمان القادم.

وكان ديوانى : الليل وذاكرة الأوراق (١٩٧٧) انعكاساً حقيقياً لهذا القلق الإبداعى.

الدراما الشعرية

وفى هذا الديوان طرقت باب الدراما الشعرية - على مستوى القصيدة - بعد أن طرقتها من قبل على مستوى المسرحية فى عملى الأول (اخناتون).

ومن خلال تجربتى الدرامية .. أستطيع أن أؤكد فروقاً عميقة بين دراما القصيدة .. ودراما العمل المسرحى المركب.. فليس كل من يتفوق فى دراما القصيدة يمكنه أن يكتب دراما المسرحية.. فهما وإن اتفقا فى التسمية يختلفان فى كثير من الملامح.

بهذا الفهم الخاص والعلمى للدراما.. حاولت أن أعمق تجربتى المسرحية فكتبت ثلاثة أعمال مسرحية هى : اخناتون - شهريار - الفارس- وكما نلاحظ فهى تقدم (نماذج) ورؤى وليست شخصيات بعينها وإلا فلنقرأ التاريخ فهو أصدق من كل شىء.

لقد حاولت فى كل عمل مسرحى أن أعالج أفكاراً عصرية تماماً.. ففى اخناتون عالجت موضوع عدالة الحاكم..

وقابله شهريار ليعالج موضوع الظلم الاجتماعي والسياسي.. أما الفارس فهي تعالج قضية الإعلام ومدى قدرته على تزييف الواقع !

واعترف أن هذه المسرحيات الثلاث حاولت فيها أن أستخدم طاقات الإيقاع الشعري بلا حدود.. كما أنني حاولت أيضا أن أستخدم طاقات الدراما بما تتيحه لي من حرية الحركة والدينامية المتوترة .

وفي عام ١٩٨٠ أصدرت ديواني الخامس (الخروج من النهر) حاولت أن أؤكد فيه قدرة الإنسان على تجاوز الألم وقدرته على الحياة في ظل حضارته وواقعه وتحديه لمصيره .

وتتوالى بعد ذلك دواوين : السفر والأوسمة (١٩٨٥) - العطش الأكبر (١٩٨٦) وفي هذا الديوان أنظر إلى البحر وإن كنت لا أعيش على شاطئه وأفسر طلاسمه وأمزج ذلك بمصير إنسان العصر.

ثم يأتي ديوان (الشوق في ملكوت العشق) ١٩٨٧ والذي حصلت به على جائزة الدولة التشجيعية في الشعر.. وفي هذا الديوان رؤية صوفية عصرية خاصة.

ثم جمعت دواويني الثمانية الأولى (السابقة) في مجلد واحد عام ١٩٩٢ .

ثم أصدرت ديواني (قراءة في كتاب الليل) عام ١٩٨٩ ثم انتقلت نقلة شكلية في ديوان (شظايا) ١٩٩٣ حيث يضم الديوان مجموعة من القصائد القصيرة.. وأحسب أن كتابة القصيدة القصيرة لا يقدر عليها سوى شاعر تمرس وباح كثيراً واكتسب خبرة الشعر.. وله تاريخ في مجال الإبداع بحيث يهيىء له كل هذا التقاط الفكرة والتعبير عنها دفعة واحدة.

ولأن التجربة الإبداعية هنا ينبغي أن تشمل ألوان الإبداع المختلفة لي.. فقد تناولت الشعر والمسرح الشعري للكبار.. غير أن هناك جانباً مهماً من إبداعي هو جانب الدراسات أو الرؤى الأدبية .. وأحسب أنني عاشق للتراث والشعر معاً وأرى أنهما يتعانقان في كثير من الدروب .

ثلاثية الحب والحلم ورؤية الخلاص

وربما صعب على الشاعر أن يسير وفق خطة مرسومة مسبقة .. وقد أشار النقاد في دراساتهم عن أعمالي إلى أن أشعاري قد تبلورت في مثلث متكامل الأضلاع: الحب .. والحلم .. ورؤية الخلاص المتعددة.

أما الحب فهو نابع من داخلي أنا .. وبمقاييسي الخاصة.. وليس بما يرضاه الآخرون.. ويبدو أن الجدية في حياتي قد فرضت عليّ أن أعلو فوق الصعب وأحاول التفوق على نفسي.. وكبح عواطفي .. فنظرتي إلى المرأة تبدأ من عقلها.. ذكائها.. وإعجابي بها من هذا الموقع يضفي عليها كل جمال وحسن.. فأنا لا تأسرني المرأة الجميلة المحشوة بالفراغ أو القش.. لأنها ذات جمال زائف غبي.. أما المرأة الذكية فلا يمكن أن تكون قبيحة.. لأن الذكاء هنا والثقافة والعقل والحوار المستمر الذي لا يهدأ.. يشكل في المرأة ملامح الجمال والأنوثة التي يطلبها الرجل القوي .

إنني أعترف للمرأة بكيانها الاجتماعي والجمالي معا .

فهي تشارك الرجل كل شيء.. ولهذا فأنا أفضل المرأة التي تجبرني على احترامها وتقدير مواهبها واستقلالها.. ولا أحب المرأة التي تذوب في الرجل لمجرد أنها أنثى وهو ذكر !!

وربما يندهش البعض من هذا التصور المثالي .. لكنني - حتى في

حالات الفناء العاطفي - أتطلع إلى المرأة من خلال هذا التصور : فـأنا أحب أي أقدر وأحترم وأجن .. وأنا أمنح المرأة قبلاتي أو لمساتي تقديراً لما حباها الله من جمال .. وهكذا !

والعاطفة في شعري تبدأ من تلك العلاقة الخاصة الثنائية بين الرجل والمرأة .. ثم سرعان ما تتطور وتتسع وتتأكد حيث أضفي عليها مزيدا من الألوان والظلال التي تحتوي كل شيء في الوجود.

إنني أعني بالحب هنا .. هذا الإحساس بالحياة .. وليس مجرد شيء هامشي أو مكمل لمفردات هذه الحياة.. ولهذا فالحب عندي هو ذلك السباق بين الطرفين في العطاء .. إنه لا يقبل المساومة .. أو انتظار العطاء .. لأنه يمتلك قدرة لا تحد على هذا العطاء بين الطرفين.. حتى تنعدم بينهما المسافة.. وتسقط الأسوار .. ويصلا معاً إلى مرحلة السمو والغوص والاحتواء والفناء والجنون بلا توقف .. إنه صدق بلا حدود .. صدق في العطاء .. وصدق أيضا في التعبير.

- ويتصل بهذا المحور الحلم :

فالشعراء كلهم حالمون .. مهما ادعوا الواقعية .. والقصيدة أصدق حلم عندالشاعر.. وشاعر بلا حلم ناظم جاف جامد مطرود من ملكوت الشعر .. لكن حلم الشاعر يختلف عن حلم العالم .. فحلم الشاعر لون من التمني الذي يسقطه على الوجود.. أما حلم العالم فقد خطط له من قبل لكي يتحول إلى حقيقة.. وإلا أخفق في حلمه .. ولهذا فإن أحلام الشعراء كثيرا ما تكون إما من الأحلام الخضراء .. أو الأحلام المستحيلة .

أما المحور الثالث فيكمل شكل المثلث.. وربما يمثل قاعدته أحيانا: وهو (رؤية الخلاص المتعددة) وهو بعد معرفي إلى حد كبير ينطلق حيث يعجز الحلم أو يصل إلى طريق مسدود .

إن هذه الرؤية تتفجر بما يشبه التوقع في النهايات المفتوحة وترتبط ليس بالخلاص الشخصي وإنما هي أصلاً تبدأ من الخلاص الجماعي.. باعتبار الشاعر واحداً من هذا المجموع.

وتتعدد في أشعاري رؤى الخلاص والتي تبدأ من الهروب إلى الحب.. حتى آخر الطرف الآخر- الهروب إلى الموت - وبينهما تتعدد (الخلاصات) والتي تتكئ دائما على تلك المتغيرات ومفردات الحياة التي تواجهني كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة.

ولأن تجربة الشعر الحديث تمتلك القدرة على استشراف آفاق لا تحد ولا تعد.. منها المسرحية مثلا.. والملحمة .. والدراما القصصية وغيرها.. فأنا هنا أصارح القارئ بقلقي الشديد على مستقبل الشعر.. بعد أن سادت الساحة تحت مسمى (التجريب - الحداثة - الحساسية الجديدة - الـ .. الـ..) تلك البدع التي تبناها بعض شعراء الجيل الجديد.. وأصبحت هدفاً بعد أن كانت وسيلة .

إن ساحة الشعر اليوم تعاني خللاً شديدا.. وبدعاً تطغى على الإبداع.. ووجعاً بلا دواء.. ومهاترات بلا طائل.. لا تليق بالشعر والشعراء .. تتيح لأعداء الشعر أن يصرخوا: هذا عصر الرواية .

فهل نحن الشعراء راضون عن ذلك ؟

إنه سؤال يمثل وخزاً حقيقياً في جسد الشعر العربي الحديث وعلينا أن ننتشله من هذا الألم العميق . ■

حديث الشعر والشعراء

بقلم
وديع فلسطين

الشعراء محظوظون ، ترصد لهم الجوائز السخية ، وتقام لهم المهرجانات فى العواصم العربية ، وتعقد عليهم الدراسات ، وتتغنى بقصائدهم مطربات العصر ، وتتقصي الصحف أخبارهم - ولو باعتبارهم مؤلفين للأغانى أو مقيمين لسهرات شعرية فى الفنادق وعيادات الأطباء ! - وتكتب عنهم الرسائل الجامعية ، ويستشهد بكلامهم فى كتابات الكاتبين ، وكثيراً ما تتجاوز شهرتهم تواضع منازلهم فى حياة المجتمع . وقد عرفت شعراء كباراً عاشوا على الكفاف .

وعلى مدى العمر ، تهيأت لى صلات واسعة بكثيرين من الشعراء ، سواء فى مصر أو فى العالم العربى أو فى المهاجر الأمريكية ، مما أتاح لى الوقوف على أخبارهم ودقائق حياتهم وعلى المعانى المستترة فى شعرهم ، وهى التى لايبيحونها لقرائهم .

وقد عرفت من أسرة المعالفة اللبنانية إثنين من كبار الشعراء ، هما شفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) صاحب «ملحمة عبقر» ورياض معلوف المولود في عام ١٩١٢ والذي رحل عن دنيانا في الحادي والعشرين من شهر أبريل الماضي . أما ثالث الإخوة ، وهو فوزي المعلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) صاحب ملحمة «على بساط الريح» فقد توفي وهو في الحادية والثلاثين من عمره على إثر جراحة أجريت له ، ولم يتسن لي أن أعقد معه أي صلة .

والشعراء الثلاثة هم أبناء العلامة اللبناني عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ - ١٩٥٦) الذي كان عضواً مؤسساً في مجمعي القاهرة ودمشق ، وله آثار كثيرة مازال بعضها مخطوطاً .

ورحيل رياض المعلوف عن تسعين عاماً هو خبر تجاهلته صحفنا المصرية ، ولم تشر إليه حتى صحف الأدب التي انشغلت في الفترة الأخيرة بالمعتركات السياسية أكثر من اشتغالها بالأدب الذي هو من صميم اختصاصها . ولهذا ارتأيت أن أدير الحديث هنا على رياض المعلوف حتى لا يقال إن مصر تجاهلت وفاة هذا الشاعر الكبير ولم تعرف له فضلاً .

ولد رياض المعلوف في مدينة زحلة اللبنانية التي اشتهرت في الأدب العربي بقصيدة الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ - ١٩٣٢) الموسومة «يا جارة الوادي» ، ودرس في مدارس سورية ولبنانية ،



إيليا أبو ماضي

واستطاع الحصول بالمراسلة على شهادة في الحقوق . وبفضل إجادته للغتين الانجليزية والفرنسية ، قام برحلات واسعة في فرنسا والولايات المتحدة إلى أن استقر في البرازيل في عام ١٩٤٠ حيث اتخذ التجارة وسيلة للرزق . ولكن ذلك لم يحل دون انخراطه في النشاط الأدبي المهجري ، فانضم إلى جماعة «العصبة الأندلسية» و«نادي القلم الدولي» و«الرابطة العالمية للصحفيين والكتاب» ، ولكن رياض المعلوف ضاق بحياة المهجر ، فقرر العودة في عام ١٩٤٧ إلى زحلة ليعيش بقية عمره في مهرجانات شعرية ينصبها في «كوخه الأخضر» أو تقام تكريماً له في الحواضر اللبنانية المختلفة .

ولعل رياض المعلوف من القلة النادرة التي استطاعت أن تصدر دواوين بثلاث لغات . ففي اللغة الفرنسية أصدر «التلاوين» و«غيوم» و«حبات رمال والفراشات البيضاء» و«مسامير العاج» ودراسة عن «شعراء الخمرة والمرأة عند

العرب» . وأصدر باللغة الانجليزية ديواني «غيوم» و«حبات رمال والفراشات البيضاء» بعدما ترجمهما من اللغة الفرنسية .

أما في اللغة العربية فقد أصدر ملحمة «الأوتار المتقطعة» ودواوين «خيالات» و«زورق الغياب» و«غمائم الخريف» و«صور قروية» و«ريفيات» عدا أنه أصدر كتاباً عن «شعراء المعالفة» ، كما وقف على نشر «تاريخ فخر الدين المعنى» من تأليف أبيه العلامة عيسى اسكندر المعلوف. وأعاد نشر دواوين شقيقه فوزى ووضع كتاباً عنه .

ويبدو أن عدوى الشعر تنتقل في أسرة المعالفة جيلاً بعد جيل . ففي رسالة وجهها رياض المعلوف إلى صديق له قال «أبعدنا تجلى الحبيب (عيسى) عن الشعر، ودرس بالجامعة اليسوعية إدارة الأعمال . ولكن غلب عليه نظم الشعر ، وفاجأنا ببعض غزليات من نظمه الشخصي يشهد الله على ذلك . وفي حفلة تكريمي في بيروت ألقى قصيدة لطيفة نالت الاستحسان الكثير» .

ولأن زحلة هي موطن أسرة المعلوف ، وفيها خزائن كتب العائلة ومقتنياتها الأثرية ، فقد أقام رياض المعلوف من نفسه حارساً على هذه الخزائن التي تضم نفائس الكتب بين مطبوع ومخطوط ، بما في ذلك المؤلفات التي مات والده دون نشرها ، وكان عاكفاً على إخراجها خدمة للضاد .

وكانت لرياض زيارة دورية لتمثال شقيقه فوزى المنتصب في زحلة . وعندما دعى شقيقهما الشاعر شفيق معلوف من البرازيل لإزاحة الستار عن التمثال ، خاطبه بقوله :

فوزى ، ومالي في الخطوب يدان
ما هكذا الأخوان يلتقيان

قدمت صدرى للعناق فلم يقع
إلا على حجر من الصوان

ومع أن رياض المعلوف أقام في لبنان عمراً أطول من السنوات السبع التي قضاها في البرازيل ، فإن أغلب الدارسين يعدونه من شعراء المهجر .

ومن المفارقات أن أكبر الأشقاء الثلاثة، وهو فوزى ، مات عن ٣١ عاماً ، وأن أصغرهم وهو رياض مات عن تسعين عاماً ، وأن الشقيق الأوسط شفيق مات عن ٧١ عاماً في حين أن والدهم عيسى اسكندر المعلوف مات عن ٨٧ عاماً .

موسوعتان عن الشعراء

أعرف الأديب الفلسطيني راضى صدوق شاعراً متميزاً بدواوينه «كان لي قلب» و«ثائر بلا هوية» و«النار والطين» و«بقايا قصة الإنسان» و«أمطار الحزن

والدم» و«الحزن أخضر دائماً» و«رياح السنين» ، ولكننى اكتشفت فيه مؤخراً أنه من مجترحى الموسوعات الضخام التى لا تقوى على إنجازها إلا العصبة من ذوى العزم والمضاء . وقد عرتنى دهشة ممتزجة بالانبهار وأنا أستقبل موسوعته «شعراء فلسطين فى القرن العشرين» وهى تقع فى نحو ٧٤٠ صفحة وصدرت فى بيروت عام ٢٠٠٠ ، وموسوعته «ديوان الشعر العربى فى القرن العشرين» وقد صدر جزؤها الأول فى ٨٢٠ صفحة وصدرت عن دار كرمة للنشر فى روما ، ويرجى أن يصدر لهذه الموسوعة جزءان آخران فى هذا الحجم عينه لتصبح أشمل موسوعة عن الشعراء العرب فى قرن كامل من الزمان .

وأى كلام يساق عن هاتين الموسوعتين لن يوفيهما حقهما من الإنصاف والتقدير، ولن يجزى راضى صدوق عن الجهد العنيف الذى بذله فى توثيق مادة الموسوعتين ، سواء بالاتصال الشخصى أو بالرجوع إلى جمهرة كبيرة من المراجع المتناثرة فى العالم العربى . وإذا كانت الموسوعة الفلسطينية قد اقتصرت على الشعراء الفلسطينيين وحدهم ، فإن موسوعة «ديوان الشعر العربى» ترامى فضلها فشملت شعراء من جميع البلاد العربية . والموسوعتان تسجلان سير الشعراء وتحصيان آثارهم وتعرضان نماذج من شعرهم وهى نماذج منتقاة بذوق جميل لأن صاحب الموسوعة شاعر مطبوع وموهوب .

وقد بذل راضى صدوق قصارى جهده فى سبيل الإحاطة الكاملة بجميع شعراء فلسطين والأمة العربية ، غير مغفل أى شاعر مهما قل إنتاجه أو افتقر إلى الشاعرية المكينة ، فليس همه أن يدرس شعرهم أو يخضعه لنواميس النقد الصارمة ، وإنما مراده أن يحصر بين دفتيه كل من قال شعراً عربياً ، متساهلاً مع الذين يتحررون فى النظم من القوافى والبحور ، ولكن المقدمات المسهبة التى صدر بها راضى صدوق موسوعتيه تقدم للقارىء صورة بانورامية واضحة للمشهد الشعرى فى جميع الأمصار ، وهو فى مقدماته يلتزم بالمنهجية الأكاديمية الأصولية وبمذهبه الخاص فى الشعر .

وربما غابت بعض الأسماء عن عناية راضى صدوق ، لأن وسائله لم تسعفه بالوصول إليها ، ولكن كيف يتأتى للباحث أن يستقصى أخبار جميع الشعراء والوطن العربى ممزق إلى وحدات صغيرة تقوم بينها تخوم شاهقة وتمتنع بينها حركة انتقال الكتب والدوريات الأدبية ؟ وحتى معارض الكتب التى تقام فى العواصم العربية باتت تفرض على الكتب حواجز جمركية فحيل بين الناشرين العرب والمشاركة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب ، أما الجزائر فقد صادرت جميع شحنات الكتب الواردة للعرض فى معرضها

عندما تعذر على الناشرين أن يسددوا الرسوم الجمركية الباهظة ! فى هذا الجو الثقافى الخانق الذى تعانى منه أمة العرب ، كيف يستطيع باحث جاد دءوب مثل راضى صدوق أن يحيط بالنشاط الشعرى إحاطة شاملة بريئة من الثغرات ، اللهم إلا إن قام برحلة بطوطية إلى البلدان العربية ، يدق فيها أبواب بيوت الشعراء لجمع مادته ، وهو ما فعله الشاعر المصرى عبدالعليم القبانى فى الإسكندرية (المتوفى فى ١٤ يناير ٢٠٠١).

ولكن الذى ليس منه ريب أن موسوعتى راضى صدوق قد جاءتا فتحاً عظيماً فى دنيا الموسوعات ، وهو بعمله قد هون على الباحثين مهمتهم وقدم لهم المفاتيح التى بها يفتحون الأبواب التى استعصت على الفتح طويلاً ، وإذا كانت موسوعة «ديوان الشعر العربى فى القرن العشرين» لم تستكمل طباعة ، فالأمل معقود على إمكان إتمام هذا العمل الرائد دون إبطاء .

وما أحوجنا نحن - أهل النثر - إلى موسوعة مماثلة تؤكد لنا أن النثر فرع أصيل ثان من فروع الضاد ، ولا يصح إهمال أمره .

توفيق مفرج

كان توفيق مفرج يحب أن يحشر بين الشعراء ، ألم يترجم بعض مقطوعات من رباعيات عمر الخيام بشعر منثور ، أولم ينشر فى مجلة «المقتطف» قصيدة عنوانها «إلى ....» فى عام ١٩٢٢ ؟ فمن هو توفيق مفرج الذى ضاع فى زحام الحياة ؟

فى عام ١٩٤٨ أو نحوه ، تلقيت فى مكتبى فى الجريدة التى كنت أعمل بها ثلاثة كتب مطبوعة طباعة فاخرة مهداة من مؤلفها توفيق مفرج ، دون أى معرفة سابقة به ، وأرفق بالكتب بطاقة تدل على عنوانه، فسعيت إليه فى مكتبه بشارع الشواربى - وقد حلت محله عمارة مشمخرة - حيث رغبت فى شكره على هديته وفى السعى للاستزادة من معرفته ، ولاحظت أن المكتب الذى يحتله يحمل أسماء شركات أجنبية للأدوية ، فسألته عن صلته بهذه الشركات ، فقال إنه يقوم بأعمال الوكالة لها ، ويوزع منتجاتها على المستشفيات والصيدليات فى مصر ، ولكنه استدرك قائلاً إن عمله التجارى يستغرق بعض وقته ، أما هوايته الأدبية فتستأثر ببقية وقته يقضيها فى المطالعة وفى الكتابة .

ولم يفتنى أن ألاحظ فى مظهر توفيق مفرج وملبسه وإيماءاته امارات الأرستقراطية الواضحة ، ولا غرو ، فهو يحمل رتبة الباشوية أهديت له من أمير عربى . ولاحظت على مكتبه صورة لمصطفى النحاس باشا تستقر فى إطار

مذهب ، فسألته : هل أنت وفدى ؟ فأجاب: إننى صديق صدوق للنحاس باشا ، وهذه الصورة مهداة منه ، ولهذا أتشرف بتزيين مكتبى بها .

وحاولت بعد ذلك أن أرصد إسهامات توفيق مفرج فى الأدب من واقع مجموعات مجلة «المقتطف» فوجدته بدأ النشر فيها منذ عام ١٩٢١ فكتب مقالات تتفاوت في موضوعاتها ، فمن مقال عن «سجن ريا وسكينة» إلى مقال عنوانه «على ضريح من أحب» إلى غيره عنوانه «كيف خلق الله المرأة» ، ومقال أخر عنوانه «بريطانيا العظمى والحرب» ومقال عنوانه «أنا الحي الميت» . فإذا انتقلت إلى عام ١٩٢٧ وجدت له أقصوصة عنوانها «راسم» ، أما فى عام ١٩٤٧ فكتب مقالاً عن رحلة روزيتا فوربس إلى واحة الكفرة ، وهى الرحالة الانجليزية التى رافقت أحمد حسنين باشا فى رحلته الاستكشافية إلى الصحراء الغربية .

أما الكتب الثلاثة التى أصدرها فهى ترجمته لرباعيات عمر الخيام وقد طبعت ثلاث مرات ، وكتاب «على ضفاف النيل من مينا إلى فاروق» وكتاب «أحلام وآمال» وترجمته للرباعيات خضعت لدراسة أكاديمية أعدها الباحث الأردنى الدكتور يوسف بكار فى كتابه الكبير «الترجمات العربية لرباعيات الخيام» الذى صدر فى عام ١٩٨٨ .

وتوفيق مفرج من مواليد كورة بشمزين في لبنان ومن خريجي جامعة كولمبيا فى الولايات المتحدة . وكان قد اختار الإقامة فى مصر لمزاولة أعماله التجارية ، ولكن عندما بدأت هجرة الشوام العكسية من مصر فى أوائل عقد الخمسينات من القرن الماضى ، عاد إلى لبنان حيث استأنف نشاطه التجارى .

وفى لبنان أصبح توفيق مفرج من ألمع نجوم المجتمع ، يصادق الوزراء والأعيان، ويخطب وده كل ذى حيثية . وكنت تراه فى معظم الحفلات الساهرة التى تقام فى العاصمة اللبنانية فى أزهى أيامها ، وفى ٩ يونيو ١٩٦٨ أقام توفيق مفرج حفلاً ساهراً فى قصره دعا إليه زبدة المجتمع اللبناني . ولما كان يخاف أن يتعرض الحفل للإفساد على يدى نجله المتخلف عقلياً ، فقد عمد إلى عزله فى إحدى غرف القصر وأحكم إغلاقها ، ولكن الصبى أفلح فى الخروج من محبسه ، وتوجه رأساً إلى المطبخ حيث امتدت يده إلى ساطور ، ثم اقتحم صالة الحفل وهوى بالساطور على أبيه فسقط مضرجاً فى دمائه ولفظ أنفاسه على الفور، ثم التفت إلى أمه وأصابها إصابات بالغة ولكن أمكن إنقاذها . أما الابن القاتل فقد أودع مصحة نفسية .

من دعابات الشعراء

خلت الدواوين المهجرية من كثير من الدعابات التى كانت تجرى بين الشعراء ، ولدى طائفة غير قليلة من هذا الشعر الفكاهي تلقيتها من أصحابها فى حينها وعددتها من ضنائنى .

ولكن لا بأس من إيراد هذه الدعابة التى جرت بين شاعرين كبيرين من شعراء المهجر الشمالى هما إيليا أبوماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ونعمة الحاج (١٨٨٩ - ١٩٨٨) .

ففي عام ١٩٢٠ ، أي بعد عامين من زواج إيليا أبو ماضى من ابنة الصحفى نجيب دياب صاحب جريدة «مرآة الغرب» النيويوركية اتفق أن زار نيويورك صديقه الشاعر نعمة الحاج قادماً من بلدة كارولينا ونزل ضيفاً على آل دياب ، وعند رحيله ، وعد مضيفه بهدية هى سرب من الدجاج المسمن فى مزرعته .

وبوصوله إلى كارولينا قام بشحن الدجاج مع بطاقة كتب عليها :

قد وعدناك وها نحن نفيكا
مانسينا وعدنا ، لا وأبيكا
نحن إن قلنا فعلنا ، لا كمن
يبذل الوعد ولا شيئاً يريكا
الدجاجات التى نرسلها
بدماها وحشاها تفتديكا
قد أعرناها الهوى أجنحة
فاحتضنها ثم عضعضها بفيكا
واترك الديك لإيليا ، عسى
بعد أن يأكله يخلف ديكا

ولم يكن إيليا أبوماضى وقتها قد أنجب أولاداً .

فتلقى الشاعر نعمة الحاج من أبى ماضى الرسالة الشعرية التالية :

وصل الديك ناحل الجسم مسترخى الجناحين خائر الأعصاب
لم يقارع خصماً عنيداً ولا كان طريداً لدى ضوارى الكلاب
لا ولا فارق الصحاب فنعزو ما به من ضنى إلى الأحباب
إنما أكثر الوثوب على هذى وهذى فى غفلة الركاب
فاتانى مشوش الريش والطرة والذيل ، ذابل الأهداب
رابنى أمره ، ولكن وجود (الست) فى ركبه أزال ارتيابى
فهو طاوى الحشا ، وهن سمان كل ردف منهن ملء الباب
ألغيرى تلك الجوارى الصبايا
ولى الديك وحده ياصحابى ؟
ويله ، إننى تعلمت منه
كيف حز المدى وجز الرقاب

ولئن صدر لأبى ماضى ديوانان فى حياته هما «الخمائل» و«الجداول» وصدر له بعد وفاته ديوان «تبر وتراب» ، فإن نعمة الحج لم يصدر فى حياته إلا ديواناً واحداً عنوانه «من نافذة الخيال» ، وكان أخبرنى أنه باع أسهمه لكى يوفر لنفسه نفقات السفر إلى لبنان ليطبع مجموعته الشعرية الكاملة ، ولكن الأحداث اللبنانية المدلهمة حالت دون سفره ، ومات دون أن يحقق أمنيته . ولا أدرى ما مصير مخطوطة ديوانه . ■

أقوال معاصرة

● «كل فتوحات العلم سبقها الخيال، والعالم في الأصل أديب محلق»

العالم المصري د. أحمد مستجير

● «لا أحد، ولا أية قوة قادرة بمفردها على تحقيق عالم أفضل»

دومينيك دي فيلبان
وزير خارجية فرنسا

● «الحكم الصالح هو الذي يقوم على توسيع فرص الحرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»

من تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢

● «على المشفقين على فقراء العالم الثالث أن يتحدثوا عن فساد الادارات»

عبدالحميد البكوش
رئيس وزراء سابق



عبد الحميد البكوش

● «حصلت على نجاح يكفيني للعيش ثلاث حيوات»

المخرج الأمريكي ستيفن سبيلبرج

● «بقدر ما تكشفين من جسمك سيتألق مستقبلك»

نصيحة لممثلة شابة من النجمة كيم باسنجر الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة



كيم باسنجر

● «الشاعر عليه أن يكون ذاته هو، لا مستغرقا في ذوات الآخرين»

الشاعر المصري محمد آدم

● «مكسب للامة لو أن المثقف الديني، بذل في الدفاع عن العدالة الاجتماعية، بمقدار ما بذل باعفاء اللحى وتقصير الثياب»

الكاتب السعودي عبدالله الحامد

● «الشعر سؤال يولد سؤالا آخر»

الشاعر السوري أدونيس



ادونيس

عن المسرح و«التلبيخ» بالثقافة



بقلم
صافى ناز كاظم

صرحت الدكتورة نهاد صليحة، عميدة المعهد العالى للنقد الفنى، فى الحوار الذى نقل عن لسانها بمجلة نصف الدنيا عدد ٢٠٠٢/٧/٧، ص ١١٦، فى الملف الخاص عن المسرح، بعد شكواها من القيود على الحرية، التى تمنع المسرح من مناقشة موضوعات: الهوية والأديان، أن مسرحنا، كذلك، لا يستطيع مناقشة: « ... بعض الحقوق التى أصبحت فى العالم الغربى مثل المثلية الجنسية والتى يمكن أن يعبر عنها فى مسارح أوروبا، بينما فى مصر لا نستطيع مناقشتها على خشبة المسرح بالرغم من وجود مثليين فى مصر، فلدينا قدرة غريبة على القضاء على حرية التفكير والتعبير المسرحى بفكره وجسده....»، ثم تقول فى تصورها لحل أزمة المسرح المصرى، وهى عميدة المعهد العالى للنقد الفنى قد الدنيا، « ... على المسرح أن يتوسع عبر البصر ويتخلص من الحياء الذى يلازمه وأن يتحرر من فكرة العيب المتأصلة تماما منذ الطفولة فى ثقافتنا العربية....» .

وناهيك عن أخطائها في معلوماتها عن المسرح المصرى واعتبارها د. طه حسين من نقاد مسرح الستينيات، وهي كما نعيد التنويه عميدة المعهد العالي وأستاذة النقد، فهي ترى أن المسرح: «.. ليس منبرا في البرلمان...» ولن أتوسع في الرد وأقول لها: بل إن المسرح هو «مجلس الأمة» ذاته، فليست هي من أحب أن أعلمها شيئا، لكنني أعرض كلامها على الوعي الشعبي والثقافي الذي يقرأ ، وأحب أن أترجم لـ «الأبرياء» مصطلحها المتواري خلف «المثلية الجنسية» و«المثليين»، بما نعرفه من مصادر ثقافتنا العربية وغير العربية، فهي تعني أتباع «فاحشة» قوم سيدنا لوط - الذين لم يسبقهم فيها أحد من العالمين - وهي الفاحشة التي جلبت عليهم لعنة الله وأرسل من أجلها رسله إلى النبي لوط ليطمئنوه بأن «موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب»؟. وقال الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم، سورة هود، آية ٨٢ - ٨٣ : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسوّمة عند ربك، وماهي من الظالمين ببعيد) صدق الله العظيم - وقانا الله شر صبحهم وشر الوعيد - وقد

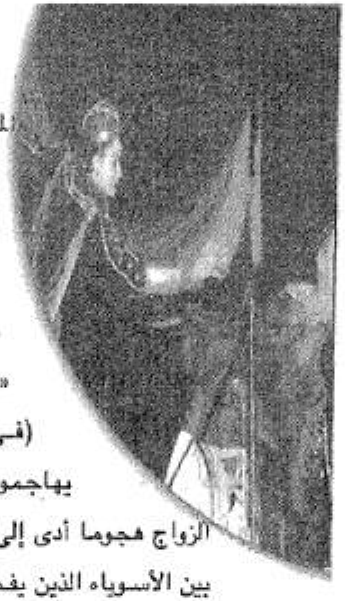


د. نهاد صليحة

أسماهم الناس «اللوطيين» و«الشواذ جنسيا». وهم نعم موجودون في كل مكان، كثروا أو قلوا، ووجودهم في مصر لا يعني المطالبة لهم بـ «حقوق» وإلزام المسرح المصرى بعرضها أو تبنيها ليكون برأي نهاد «مسرحا» بحق، بديلا عن عرض حقوق «الفقراء» و«المقهورين» وأصحاب المظالم.. الخ، إذ تظن حضرتها أن مثل هذه العروض ستخرج «المسرح» من كونه «مسرح» ويصير برأيها، وهي أستاذة النقد وعميدته، «منبرا في البرلمان» .

★★★

وماهي - بما يشاء الشيطان - «حقوق» هؤلاء ورثة أصحاب فاحشة إتيان الذكران في عرف الأستاذة نهاد صليحة المنادية بـ «حرية» المسرح



المصرى؟ هل هى ما نالوه فى «الغرب» من السماح لهم بالزواج الكنسى «الشرعى» – (فى الوقت الذى يهاجمون فيه مؤسسة الزواج هجوما أدى إلى إلغائها تقريبا بين الأسوياء الذين يفضلون العلاقات الحرة من دون قيود الزواج!) – ؟ أم حقوقهم فى تبنى الأطفال – (لأن يعنى تحرمهم من أولاد يملوا عليهم البيت، وكل ننبهم أن علاقتهم المثلية لاتمكنهم من الإنجاب؟) – ولا يهم أن يتربى الأطفال فى ظل قيم هذه العلاقات الشائهة؟ أم حقوقهم بعدم التعريض بإثمهم، وبتحسين المصطلح من «لواط وشذوذ وفاحشة.. الخ» إلى هذا المصطلح «الشيك» المترجم عن اللغات الغربية والعولمية: «المثلية الجنسية» و«المثليين»؟

★★★

أما رغبة الست العميدة، المسئولة عن تخريج نقاد مسرح، فى أن يتخلص مسرحنا من «الحياء» وأن يتحرر مع فكرة «العيب»، فهى رغبة تم التعبير عنها من قبل، بلا «حياء» وبلا خوف من «العيب» أو استعظام لـ «الحرام»، فى مقال كتبته الدكتورة «منى أبوسنة» فى نشرة المسرح التجريبى رقم ٨ بتاريخ ١٩٨٩/٩/٨ تحت عنوان : «ماهو التجريب» فقالت ما نصه: « ...أما الثقافة العربية فهى محكومة باللفظ، ومحكومة أيضا بالمحرمات الثلاثة التى دمرها المسرح التجريبى فى العالم ... وحيث إن الرؤية الكونية السائدة فى العالم العربى هى الرؤية الدينية، وحيث إن المسرح علمانى بطبيعته، وحيث إن العلمانية مرفوضة بدعوى أنها ملحدة، فإن جذور المسرح التجريبى مقطوعة فى الثقافة العربية ... والسؤال الآن : كيف يتجاوز مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى هذه المعوقات؟» وبإجابة هذا السؤال قالت الدكتورة منى أبوسنة فيما قالت: «... من خلال توفير المناخ الثقافى اللازم لنمو الإبداع وهو مناخ يتسم بتحرير الفكر من القيود التى تكبل

الإبداع... إلخ» ... وساندها فى رأيها المخرج سعد أردش قائلا : « ...التجريب هو نوع من التحدى لحقائق منها ثالوث المحرمات المقدس لدينا كعرب ....» (ويقصد بثالوث المحرمات ما ذكرته منى أبوسنة عن: الدين والسياسة والجنس) .

وخلاصة هذه الهجمة تعنى طرحا مفاده أن «الدين» فى منطقتنا العربية من «معوقات» المسرح التى يجب «إزالتها» . وبما أن «الدين» فى منطقتنا العربية يعنى فى غالبه «الإسلام» فالطرح الذى تطرحه هنا السيدة الدكتورة منى أبوسنة والسيد المخرج سعد أردش - الذى يوصى بالتحدى ولم نشهد له فى تاريخه تحديا واحدا لسياسة السلطة - ينادى فى الواقع بإزالة «المعوق» الذى يكبل «المسرح» و«القيود» التى تكبل الإبداع أى - من غير لف أو دوران وبالتلبيخ المباشر- «إزالة الإسلام» . وهنا يبدو لنا أن هؤلاء السادة الملبخين بالثقافة يريدون أن يسد بالاسمنت الباب بين المسرح والإسلام، ويقررون أن لا حياة لأحدهما فى وجود الآخر.. والذى يفكر بهذه الطريقة - إلا إذا كان قد فقد عقله - يدرك تماما أن الجماهير العربية - بما فيهم العصاة - إذا ما خيِّرت بين «الإسلام» أو «المسرح» فالبديهى أن تقول : اذهبوا أنتم ومسرحكم إلى الجحيم. والحقيقة أن مثل الدكتورة العميدة نهاد صليحة والدكتورة منى أبوسنة والمخرج سعد أردش لا يخدمون الفن أو المسرح بهذا «التلبيخ» ، بل يكشفون عن الوجه المرفوض للتطرف العلمانى الذى يهدد حقا مسيرة الفن والمسرح والموسيقى فى بلادنا ويستهدف «التعويق» الفعلى لتطور هذه الأشياء ، إذا كان لها أن تتطور، على طريق النهضة الحضارية الرشيدة الإيمانية المرجوة لأمتنا.



سعد أردش

★★★

بقى أن نشير إلى أبجدية ، يعرفها كل دارس للمسرح وتاريخه، وهى أنه بدأ أولا فى معابد مصر القديمة، ثم



تحتفل ليوم ميلاده الثاني في معابد اليونان القديمة مع احتفالاتهم الدينية بمعبودهم الإله المزعوم «ديونيشس / باكوس» ، ثم تلقفته المسيحية الأوروبية وأعطته مضامينها بدلا عن الألفاظ والمضامين الوثنية الاغريقية ، وهذا يجعلنا نقول إن المسرح ليس علمانيا بطبيعته بل على العكس : هو ديني في نشأته وتطوره على مسار حقبات تاريخية طويلة . ومن يتأمل بوعي مسرح شكسبير يجده مسرحا أخلاقيا بالدرجة الأولى، يندد بقلة «الحياء» وضياع قيمة الخجل من «العيب»، وهو حين يهاجم زيف بعض المتدينين يطرح في مقابلهم القيم الدينية الصادقة، كما نرى في مسرحية «هاملت» وثورته على الملك الفاسد كلوديوس، والذي يتحدد إطار فساده في : إدمانه للخمر وانغماسه في الشهوات الحسية، وارتكابه جرائم الزنا

والقتل والكذب والتجسس واغتصاب الحق بالزور والبهتان ... الخ. فالمرجعية الأخلاقية التي يستمد منها «هاملت» ثورته هي مرجعية دينية مسيحية غير مزيفة وغير مستغلة للدين هذا الاستغلال الذي كان من بين خطايا المنافق الملك كلوديوس – (وهي مرجعية تتشابه إلى حد كبير مع قيم الإسلام الفاضلة: لا تقتل، لا تزني، لا تسرق، لا تكذب، لا تغتصب، وبالطبع لا تمارس اللواط / المثلية، وتزين بالحياء واعرف العيب !) – ومنذ ٢٥ قرنا يقدم «سوفوكليس» مسرحية «أنتيجون» يصور بها الصراع بين القانون الديني والقانون الوضعي: فأنتيجون تموت شهيدة الدفاع عن القانون الديني الذي يأمر بدفن الموتى ، وتتحدى الملك «كريون» الذي يسن قانونا مغايرا يمنع دفن الموتى ويهدد من يتحدى قانونه بالموت. وتقول «أنتيجون» للملك «كريون» : «حكمك عليّ بالموت لايهم»! ويقف سوفوكليس مع الموقف الأنتيجوني ناصرا القانون الديني على القانون «الملكي / العلماني» فمن أين أتت حضرة الدكتورة، أستاذة الأدب الانجليزي،

بمقولة إن المسرح علمانى بطبيعته؟

★★★

إذا كانت بعض التجارب المسرحية قد استطاعت فى الغرب «علمنة» المسرح، مثل تجارب بريخت، فذلك لأن بريخت كان يريد أن يكتشف أساليب جديدة يعبر من خلالها عن أيديولوجيته الماركسية، أى دينه الجديد، ومع ذلك لم يستطع بريخت أن يتغلب على كثير من السمات الدينية المتغلغلة فى طبيعة المسرح. أما تجارب جروتوفسكى فى مسرحه الذى أسماه «المسرح الفقير»، فقد اعتمدت على القدرة الروحية لدى الممثل التى تشابهت فى بعض تدريباتها مع «طقس» المتصوفة ووسائلهم فى «الكشف» و«الوجد»... إلخ.

وصحيح أن هناك تجارب مثل تجارب «مارثا جرام» فى الرقص والتعبير الجسدى.. إلخ إلخ . لكن هذه كلها «تجارب» ، وهى جزئية من مشهد واسع، ليست «كل» المسرح حتى نجبر عليه ويفرض علينا الاختيار الضيق: «إسلام» أو «مسرح».

★★★

إن التجريب الذى يجب أن ينشغل به المسرح العربى هو ابتداع الوسيلة التى تقرب «المسرح» من «الإسلام» ،



د. منى أبو سنة

التى تستأصل من المسرح «المعوقات» التى تجعله من «المحرمات». لابد من صيغة تبنى لنا «المسرح» الممتع والمفيد الذى يستلهم «الإسلام» ويحترم قوانينه ، كما تعب بريخت وصنع مسرحه من أيديولوجيته الماركسية . إن التجريب لا يعنى أن «أنقل» بغباء وتبعية «تجريب» الآخرين، لكنه يعنى أن أحدد مشكلتى وأحدد هدفى وأتعرف على عقيدتى بعمقها، وأنشد التواصل مع جماهيرى المؤمنة، العربية، عبر وسائل أكتشفها بالتجريب والبحث، تجريبنا نحن، الذى لن يقودنا بالحتم إلى خلع ملابسنا والتخلى عن «الحياء» و«العيب» لننشغل بـ «حقوق» أتباع «فاحشة» قوم لوط، من أسمتهم حضرة الدكتورة عميدة معهد النقد الفنى : «المثليين». ■

المحترف

ورقش الفنون

بقلم

د. محمد المهدى

- الفن الجميل ونظام الحرف والطوائف
- «الرسم» فى الغرب و«المحترف» فى الشرق

طرقات ضيقة لا تمنع الحمار النشط من العدو برأس مرفوع، لا يعوقه سوى حركة الجمل الصبور. قد يحمل الحمار صاحبه ذا العمامة السوداء الكثيرة الثنيات، وفى حزامه سلاحه.. دواه، وريشه. إنه الكاتب القبطى. وقد يسعد حمار آخر بملمس حمل يبدو كهرم مجلل بالسواد، ولكن فى داخله غادة معطرة بالمسك والعنبر خارجة من الحمام.



سبيل في استانبول
للفنان هيبوليت بيك
القرن ١٩.

يوقظ اللوحة من غفوة الجمل ذلك الحصان الجامح الذى يحمل العربى ذا العباءة الواسعة، والبندقية المستعرضة فى ظهره. يعود الإيقاع بطيئا بمشية ذلك المملوك المتباهى بعبوديته، ينافسه فى عظمته المزيفة ذلك الألبانى بملابسه المزركشة، وخيلائه بالانتساب إلى ربيب نعمته «الباشا».

فى الإطار تكوينات عديدة لأزياء هندية، وحبشية، ويونانية، وفارسية، وغربية. تصحب الجميع أصوات العواء، والدق، ونداء الخدم المصاحبين للحمير تحمل الأسياد... «اوع يمينك، اوع شمالك.. اوع يا جدع.. ياست. يابت.. يافندى.. يا ولد.. يا خواجه.. يامعلم.. ياشيخ.. يا عروسه».

قدم المستشرق الانجليزى الشهير «ادوارد وليم لين» هذه الصورة عن القاهرة فى القرن التاسع عشر. وعلى وجه التحديد عام ١٨٢٩ كنموذج للمدينة الإسلامية. بتداخلات مع تنافرات . وفى نهاية القرن قدم ابن شقيقه «ستانلى لين بول» نفس الصورة خابية المعالم حتى من التداخلات.

رقش المدينة يتفكك . ورقش المدينة الإسلامية يتكون من مقر السكن والسكينة. أى البيت والمسجد. ومن مقر العمل وإبداع الفنون، أى المحترف، «مقر معلم الحرفة وتلاميذ الحرف اليدوية»، ونظام الطوائف.

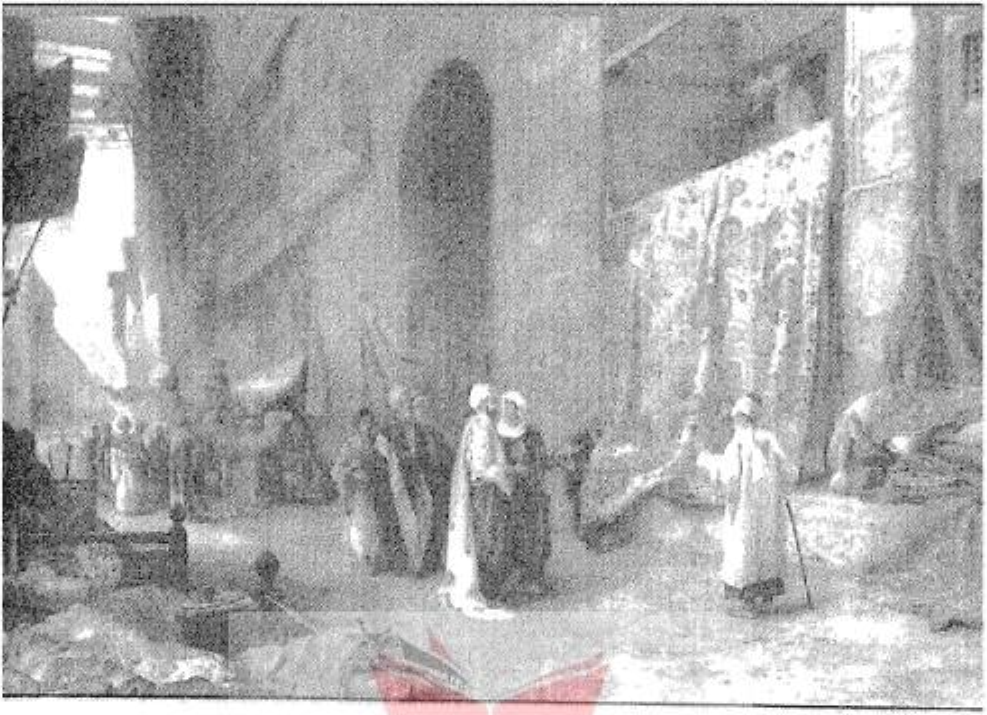
بقدر ما جمع نظام الطوائف.. السقاء، والحلاق، والسباك، والدلال، والتاجر، والنوتي، جمع الموسيقى، والمغنى، والقصاص، والمكفت، والنقاش، والخطاط.

جمع هذا النظام الصناعة والتجارة، أى كل عطاء بجهد، وإنتاج مشهود، وكلها تدور فى دورة المدينة الكبيرة، لتنتهى إلى دورة الدار الصغيرة. جدرانها تضم الأسرة الكبيرة.. القاعة، والدرقاعة ، والإيوان ينفتح إلى مالا نهاية.. إلى اتساع الرقش «الأرابيسك» ، والوحدة الزخرفية الجابذة، النابذة. الإيوان موجود أيضا فى المسجد.أربعة أواوين. منها إيوان القبلة. قد يكون الصحن مفتوحا على السماء، وقد يكون مغلقا . المهم ترابط الجدران الأربعة. بل الستة. فقد شاركت الأرضية والسقف فى إتمام الدورة.

فى الزوايا مقرنصات . خلية نحل هندسية متشابكة حتى وإن كانت وحدتها نباتية.. تربط السقف بجدران اليمين واليسار. ليست مجرد حلية زخرفية . انها



التكفيت:
لوحة للفنان
لودفيج
دويتش
القرن ١٩



سوق السجاد.. لوحة للفنان شارلز روبرتسون «القرن ١٩»

تكسر حدة الزاوية لتربط الجهات، فرغم أن الفن الإسلامى هندسى الطابع، تجريدى المزاج، إلا أن هندسته مترابطة، متشابكة. وأيضا ممتدة إلى أبعد من قدرة فرد. إنها قدرة ترابط الجماعة، جماعة الحرفة، والعديد من الحرف، تنتج بترابط إنسانى، كأنه رقش بشرى متعدد الأعراق والعقائد.

حفل التخرج

ولأن القاعدة التى تحكم الجميع هى قدرة «التمامية»، أى اتقان الصنعة.. فعلى جميع الطوائف إذ تحضر حفل التنصيب، وتشهد بجدارة الصبى الجديد.

ولكن كيف بدأ التدريب؟

تقوم الرابطة الأولى بين المبتدىء وحرفته عندما يقبله «المعلم» فى مصنعه. عندئذ تتلى الفاتحة بحضور أعضاء الطائفة، ويقال إذ ذاك إن التلميذ قد دخل «الباب» الأول للطائفة الحرفية.

يقضى التلميذ عدة سنوات دون أن يتقاضى أجرا. وعزاء الأسرة فى ذلك أنه



القاعة نموذج لفن الإحاطة من ست جهات. اللوحة للفنان جان فردريك لويس «القرن ١٩»

يكتسب مهارة، ويتعلم حرفة، ومتى أتقن الصنعة يأخذ أعضاء الطائفة في حث معلمهم على إلحاقه بالطائفة، ويعمد المعلم عادة في إرجاء ذلك قائلا «هذا الفتى يجيد العمل كالصانع الماهر، ولكن شرابه لايزال رقيقا». وعندما يرى المعلم أهليته قد اكتملت يأمر الشاويش «موظف مهمته مراقبة الأسواق» أن يعطى المرشح عودا أخضر من الريحان، أو أى نبات أخر عطر الرائحة. يتلقى التلميذ العود بامتنان ويقبله، ويضعه على رأسه.

يسجل المعلم اسم المرشح مع غيره من المرشحين - إن وجدوا - حتى يتسنى الاحتفال بضمهم إلى عضوية الطائفة ويقوم الشاويش بدعوة كبار الطائفة للحفل، وكان يقام عادة في إحدى الحدائق، أو في منزل أحد أعضاء الطائفة. يبدأ الحفل بأن يقود الشاويش المرشح وقد وضع يديه على صدره علامة التوقير، إلى بساط أخضر في وسط

الحجرة. وحينئذ يأمر نائب رئيس الطائفة الشاويش بقراءة الفاتحة جهرا، ويجثو الجميع على ركبهم.

يتقدم النائب لشد النطاق او الحزام (عبارة عن وشاح أو شال) على خصر المرشح، ويرفع يدى المرشح من صدره إلى قمة رأسه، ثم يبسط الحزام، ويلفه حول التلميذ من خصره إلى كعبيه، ثم يشده من الخلف إلى الأمام، ويربط طرفه بثلاث عقد تكريما لرئيس الطائفة، ومعلم التلميذ، والشاويش. ولا يسمح بفك العقدة الأولى إلا لرئيس الطائفة، متى يعرف التلميذ أنه يدين له بالطاعة، ويتولى كبير الصناع فك العقدة الثانية. أما العقدة الثالثة فيفكها الشاويش. هذه العقد الثلاث ترمز أيضا إلى العهد الذى يربط التلميذ بأعضاء الطائفة. ومتى فك العقد الثلاث عين النائب أحد المعلمين الحاضرين ليكون أبا حرفيا للتلميذ. وفى الغالب يتم تعيين معلم التلميذ أبا له، ولكن من حقه أن يختار شخصا آخر إذا أراد. وعلى أبى الحرفة أن يضمن سلوك التلميذ وإتقانه الصنعة.

ويقدم رئيس الطائفة التلميذ النصيحة العالية «يابنى إن جميع الطوائف الحرفية تشتغل بحرف يؤتمن فيها المرء على المال، والملك، والحياة، والجودة، وحرفتك هى ملكك فحافظ عليها بكل قواك.. وإذا تسلمت أحوال الناس، فلا تخن الأمانة بتبديدها . حذار من أن تخون أعضاء طائفتك لأن الخائن لابد من محاكمته». ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم: ما رأيكم أيها الاخوة والصناع والمعلمون: هل هذا الفتى جدير بأن يصبح صانعا؟ فيجيبون : نعم إنه لجدير بذلك.

القسم والإتقان

يقترب أبو الحرفة من التلميذ ليأخذ عليه العهد وجها لوجه، يثنى كل منهما ركبته اليمنى حتى تمس الأرض قبل أن يقترب كل منهما من الآخر حتى يتماس إبهامهما من الجانب الايمن ، وركبهما من الجانب الايسر. ثم يمسك أبو الحرفة يد التلميذ اليمنى فى يده، ويمسك كل منهما إبهام الآخر، وسبابته فى إبهامه وسبابته. ويغطى الشاويش أيديهما بمنديل أو منشفة حتى لا يرى الواقفون العلامة التى يتبادلانها . ثم يقول ابو الحرفة للتلميذ « أقسم أمامى يمين الله ورسوله ألا تخون أعضاء الطائفة، أو تغش فى صنعتك» يردد التلميذ ذلك، ثم يأخذ الشاويش التلميذ والوشاح على كتفه ويطوف به حول شيوخ الطوائف ليتلقى تهانيهم واعترافهم



بقايا الحرفية دون محترف

به.

بعد انتهاء الحفل يجلس الجميع إلى وليمة بسيطة تسمى «التمليحة» نسبة إلى الملح الذى يرمز لرابطة الجماعة، ويرمز لكسبهم رزقهم بالعرق والصبر. وفى وسع الحرفى أن يترقى إلى رتبة «معلم» إذا نجح فى امتحان المهارة والإتقان. فإذا توافرت فيه الشروط مثل امام جماعة من الطائفة لتقرر هل يستحق الترقية أم لا.

يطلب من الصانع أن يقدم عينة من أروع أعماله قبل النظر فى ترقيته، تعرض العينة على الجماعة فإذا وجدوا فيها عيبا أرجأوا الترقية. ويطلق على المعلمين الذين وصلوا إلى مراكز النفوذ اسم الشيوخ أو الأشراف، وهم يساعدون رئيس الطائفة فى وظائفه، كما يساعدون المحتسب «مفتش الأسواق» فى المحافظة على القانون والنظام بالسوق. وكان على معلم الطائفة احترام لوائح الحرفة، ومراقبة الدقة. إذا أنتج أحد النساجين تحفة من النسيج تخالف مقاييس الطول أو العرض المعتاد، أو بها عيوب أو تلاعب، فإن معلم الطائفة يمزقها إربا، ويعلقها فى السوق تحذيرا للجميع. وإذا حامت شبهة حول تصرفات أحد التجار أوفد المعلم الشاويش لإغلاق المحل. وإذا اتهم حدادا، أو «مكفت» بالغش يقلب رئيس الصاغة سندانه، ومن يطرد من الطائفة يقاطع وتشن عليه حرب كبيرة.

وكان من مهام معلم الطائفة إيجاد العمل للعمال المهرة المتعطلين، وتسوية المنازعات، فضلا عن مناشطه الأدبية وتوقيره بين الأسر.

بين المحترف والمرسم

والآن هل يعادل المحترف فى المدينة الإسلامية . المرسم فى المدينة الغربية؟

لا .. المرسم الغربى مقصور على الفنان الذى يقدم الفن الفرد، والمحترف جامع لكل فنان «حرفى» يشارك فى فن الجمع.

الفن الإسلامى يحتاج للجمع. لايعرف الفراغ.. يكسر الفراغ. لا يتعمد ذلك كما فعل «ماتيس» الذى هام بهذا الفن. حاول التوفيق بين زمانه ووحدات الرقش الإسلامى . كان من الصعب استعادة الزمن الذاهب الذى تكون بفطرة اليد العاملة كل ساعة، وكل يوم وكل عام، وكل قرن. أحدث دورة متكاملة دون تساؤل ، أو مدرسة، أو تفاسف.

قد ندرس الآن، وقد نشغل فراغ المؤلفات والنقد التشكيلى حول الأصول التراثية، ولكننا لم نسمع أو نقرأ عن

افتتاح متحف للفن الإسلامي أيام المأمون مثلا، أو معرض للفن الحديث أيام قلاوون.

قد نقرأ عن مناظرة تشكيلية طريفة حدثت أيام الفاطميين بين رسام اسمه «القصير» وآخر اسمه «ابن العزيز»، صور الأخير راقصة تبدو وكأنها تخرج من الحائط. وصور الآخر راقصة تبدو وكأنها تدخل إلى الحائط. ولكن في المقابل تسأل كم عدد الفنانين المشاركين في صياغة عمارة «الحمراء» أو «فاس»، أو «القيروان» أو «القاهرة»، أو «دمشق» أو «بغداد» أو «استانبول» أو «بخارى» أو «تاج محل»؟

لا توجد لدينا وثائق عن حركة الفنانين آنذاك. فالحدود لم تكن موجودة. والحواجز لم تكن مقامة.. أما الأعداد فتجل عن الحصر.



الخيامية.. نموذج للفنون الحرفية

الهلال

تدعو لإنقاذ

بيوت القاهرة القديمة

بقلم

د. أحمد عبد الجواد

إذا استمرت حالة الإهمال والتجاهل القائم للتراث المعماري للقرن التاسع عشر، فستفقد مصر في السنوات القليلة المقبلة عدداً من أبرز هذه النماذج التي تشكل ثروة معمارية لاتقدر بثمن.

ونوجه هذا النداء عن طريق مجلة الهلال لحماية هذا التراث الانساني..

الهلال أغسطس ٢٠٠٢

تعد العمارة المحلية نتاج تراكم طويل الأمد لخبرات في مجال البناء والزخرفة امتدت منذ العصر الفرعوني ، هذه العمارة تعكس أيضاً تأثير وتأثر بأنماط معمارية وافدة كثيرة ومتنوعة امتدت علي مدي تلك الفترة الطويلة من الزمن.

وتمثل عمارة القرن التاسع عشر في مصر عامة، والقاهرة خاصة ثروة لاتقدر من ناحية طرازها المعماري الفريد ، ومن ناحية تأثيرها في نماذج العمارة التي ظهرت في القرن العشرين. وقد شهد هذا القرن نهاية حكم المماليك ، وانسحاب الحملة الفرنسية ، تم تولي محمدعلي الحكم (١٨٠٥ - ١٨٤٩). هذا القرن يعد أيضاً حاسماً بالنسبة لعمق التغيرات التي

منزل المانيلي بحارة القربية بباب زويلة حيث تمثل الخرجات و الزخارف واجهة المنزل بالكامل



بيوت القاهرة القديمة

طالت تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وهي التغيرات التي أثرت بدورها علي مجال العمارة وبالتالي علي الفنون والصناعات المرتبطة بها.

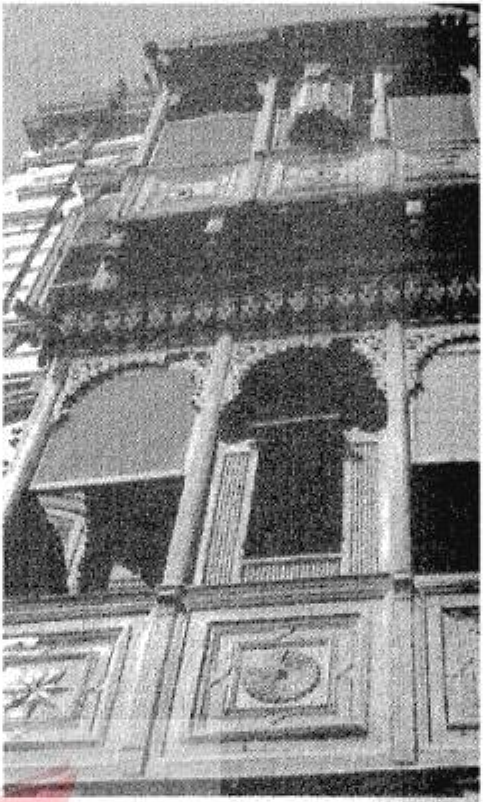
تميزت عمارة البيوت السكنية ، سواء كانت للطبقة العليا أو الوسطى أو الفقيرة، والتى كانت سائدة منذ فترة محمد على ، بخاصيتين أساسيتين ، وهما : القدرة على التكيف مع ظروف فصل الصيف الحار ، وتوفير جانب الخصوصية لسكان هذه البيوت .

المعماري يواجه الطبيعة

كانت المشكلة التى واجهت المعمارى المصرى منذ العصر الفرعونى هى كيفية التغلب على شمس الصيف الساطعة ، وهوائه الحار . وقد ابتكر المعمارى المصرى «المشربية» حتى يستطيع تقليل حدة الشمس وضوءها الساطع. وقد تطور شكل المشربية مع تطور وظيفتها كأحد عناصر العمارة المصرية فى مصر منذ عهد دولة سلاطين المماليك . وقد اشتق الاسم (المشربية) من وظيفتها الأولى حيث كانت قاعدتها تحتوى على فتحات مستديرة لوضع الأوانى الفخارية المستعملة فى تبريد المياه، وقد أطلق عليها كذلك اسم (المشربية) من حيث اشرافها على الطريق كذلك . وقد قامت المشربية أو المشرفية بتنظيم ثلاث وظائف مهمة فى العمارة المصرية وهى التهوية والاضاءة والرؤية .

وتتطلب الحاجة إلى تهوية الحجرات عمل فتحات كبيرة ، والتى سوف تسمح بدخول كميات كبيرة من الضوء والحرارة المباشرة أو المنعكسة من اسطح جدران المنازل المقابلة ، ولتخفيف حدة الضوء واستبعاد الحرارة المنعكسة لجأ المعماريون إلى ملء الفتحات الكبيرة هذه بواسطة مخمل مصنوع من برامق الخشب الدقيق بمقاسات محددة من حيث أقطار هذه البرامق ، ومن حيث سعة الفتحات التى بينها بما يضمن أكبر كفاءة فى حجب الحرارة وأشعة الشمس وفى السماح بمرور الهواء، وان فى عمل البرامق مستديرة مايجعل الضوء والظل يتوزعان عليها بحيث تخف حدة التضاد بين حواف البرامق وبين الفتحات المضيئة بينها عما إذا كانت قطاعات البرامق مربعة أو مستطيلة . وبهذه الطريقة أمكن للمعمارى المصرى أن يجعل فتحة الشباك بالكامل تماثل مسطح الجدار الخارجى للحجرة دون حرج مع الحفاظ على خصوصية الأفراد داخل المنزل . فلما كان الطريق هو محور النشاط الاجتماعى والاقتصادى للأفراد ولما كان الكثير من السلع والخدمات يعلن عنها بواسطة الباعة الجائلين كانت الحاجة ملحة لأفراد المنازل برؤية الطريق دون أن يراهم من هم بالخارج .

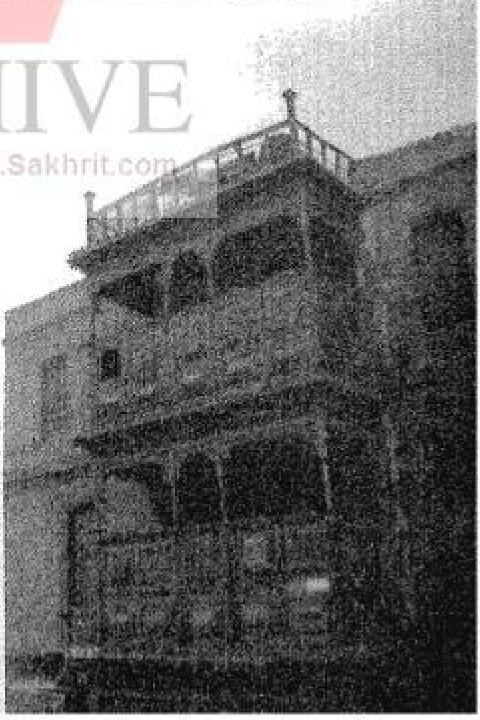
المشكلة الأخرى التى تتعلق بظروف فصل الصيف، هى الهواء الساخن . وفى هذا المقام لجأ المعمارى المصرى إلى



خرجات المنزل الكائن بحى الخليفة(تم هدم هذا المنزل فى عام ٢٠٠٠

طريقتين مكملتين لبعضهما البعض ، أحدهما خارجية وتقوم على استخدام وحدتين معماريتين وهما «الملقف» و«الشخشيخة» أما الطريقة الأخرى الداخلية فتتعلق بتصميم أجزاء الوحدة السكنية من الداخل.

و«الملقف» عبارة عن مصد خشبى كبير على هيئة زاوية قائمة . يقام فى أعلى المنزل . والضلع المستوى (أى الأفقى) من هذا التكوين يوازى سطح المنزل، والضلع المائل يمثل الناحية التى تواجه اتجاه الجنوب أما الضلع القائم فهو الناحية التي تواجه اتجاه الشمال . (أى البحرى) . وتحتوى تلك الناحية على فتحات يمكن التحكم فيها باغلاقها أثناء فصل الشتاء . والغرض من «الملقف» هو دفع الهواء البارد الذى يصاحب الرياح الشمالية التى تهب على مصر فى فصل الصيف . ومن هنا أصل تسميته «بالملقف» أى لقف الهواء وتحويله إلى داخل المنزل . كان هذا الهواء البارد هو ماتستفيد به كل الوحدات السكنية أثناء فصل الصيف الحار. وفى مقابل هذا «الملقف» ، وهو «مدخل» الهواء البارد ، كان هناك «الشخشخة» وهى «مخرج» الهواء الساخن الذى يندفع إلى أعلى بعد مروره بأجزاء المنزل . وتوجد



الخارجه المفتوحه بالمنزل القائم بميدان أبو الريش – القرن العشرين تم هدم هذ المنزل فى عام ٢٠٠٠

الشخشيخة أعلى المنزل وتصنع من الخشب فى أشكال مختلفة مثل متعدد الأضلاع والأسطوانى وتنتهى غالباً بقبة يعلوها الهلال . «الملقف» و«الشخشيخة» يتحكمان فى دورة الهواء بالمنزل كله اعتمادا على خواص الهواء ، فالهواء البارد يهبط إلى أسفل ، أما الهواء الساخن فيرتفع إلى أعلى .

عبقرية المعماري المصري

ظهرت عبقرية المعمارى المصرى فى الاستفادة من دورة الهواء البارد والساخن فى تصميم الوحدات السكنية من الداخل. فقد كان هناك الجزء المخصص للمعيشة، وهى الصالة أو «الريسبشن» بلغة اليوم ، فى مقابل الجزء المخصص للنوم، ويتميز الجزء المخصص للمعيشة بارتفاع السقف، ويستحدث هذا التصميم دورة أخرى للهواء بحيث يهبط الهواء البارد لأسفل ويرتفع الهواء الساخن لأعلى ، مما يعمل على تجديد جو هذا الجزء بالهواء البارد المنعش . أما الجزء المخصص للنوم (خزانة النوم) فقد كان يتميز بانخفاض ارتفاع السقف فيه حتى يمكن الاحتفاظ بالهواء الدافىء أثناء فصل الشتاء .

الضوء الساطع والهواء الحار لفصل الصيف كان لهما الأثر الكبير فى ظهور «المشربية» و«الملقف» و«الشخيشخة» كأحد العناصر المعمارية والزخرفية للعمارة المحلية فى تلك الفترة .

الخاصية الثانية المميزة للعمارة المحلية تتعلق بجانب الخصوصية .

فبجانب ما أسهمت به «المشربية» فى تحقيق تلك الوظيفة ، كان للتصميم الداخلى للوحدات التى يتكون منها المنزل دورا مهما فى هذا الاتجاه . فقد كانت تلك الوحدات ، سواء فى بيوت الطبقة العليا أو الوسطى أو فى الأربع (جمع ربع) محل سكن الطبقات الفقيرة ، منفصلة عن بعضها البعض . ففى بيوت العائلات الكبيرة كان هناك مدخل واحد يؤدى إلى حوش واسع تتوزع على جوانبه عدة وحدات سكنية لكل منها مدخله الخاص ، كما فى منزل الخرزاتى الكائن بالدرب الأصفر بحى الجمالية ، والمنزل القائم بشارع وابور الرز بحى بولاق (١٢٩٥ هـ) ومنزل مدكور باشا بشارع باب الوزير بحى الدرب الأحمر ، والمنزل القائم بـ ٥٠ شارع الخليفة (١٢٦٣هـ) أما بيوت الطبقة الوسطى ، والتى كانت تخلو من هذا الحوش فقد ابتكر المعمارى المصرى حلا آخر لتحقيق عامل الخصوصية متمثلاً فى توزيع تلك الوحدات التى يتكون منها المنزل على مستويات مختلفة . فقد كان لكل وحدة سكنية مستوى أو طابق خاص بحيث لا توجد أى وحدتين سكنيتين متقابلتين وفى مستوى واحد. ويبدو هذا النظام فى المنزل القائم خلف جامع أم السلطان شعبان والذى يرجع تاريخ بنائه إلى نهاية القرن التاسع عشر.

◄ زخارف تحتوى على حشوات بالغة الروعة (عمارة بداية القرن العشرين)



وتعكس الصور الفوتوغرافية والمناظر التي سجلها الرحالة الأوروبيون لمدينة القاهرة في بداية القرن التاسع عشر مدى انتشار المشربية بأشكالها وزخارفها المختلفة . وقد قام حول المشربية مجتمع اقتصادي وفني كذلك متمثلاً في فئة الحرفيين الذين استطاعوا تحويل قطع الخشب الصغيرة المتبقاه من كتل الخشب ذات الأطوال والأحجام الكبيرة إلى أشكال غاية في الروعة والجمال من الخرط الصغيرة الحجم على مخارطهم اليدوية ذات القوس اليدوى . وهناك الكثير من أشكال هذا الخشب الخرط مثل الشكل الميموني المستقيم والمائل والصليبي الفارغ والمملىء وغيرهما ، والتي استخدمت كوحدات زخرفية في تلك المشربيات.

بداية انهيار التقاليد المعمارية

ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر حدث انهيار في تقاليد العمارة المحلية بخصائصها السالفة الذكر تحت تأثير ثلاثة عوامل وهي : التأثر بالأنماط الأوروبية في العمارة التي ازداد تأثيرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ثم ضعف دور النقابات الحرفية منذ عهد محمد على باشا وأخيراً تجاهل دور الصناعات الحرفية التقليدية في مشروع دولة محمد على حتى الآن .

١ – وبالنسبة للعامل الأول يذكر حسن عبد الوهاب أن محمد على باشا قد استعان بمهندسين وعمال أجانب وأتراك أثروا في ايجاد عناصر جديدة في العمارة والزخرفة لم تكن موجودة من قبل . فقد وجدت تصميمات جديدة للقصور مستوحاة من نمط العمارة الأوربية . كما ظهرت زخارف «الركوكو» التي تمثل زهور وعناقيد العنب والتي انتقلت عن طريق المهندسين والعمال الاتراك الذين تأثروا بهذا الفن الذى انتقل إلى تركيا بعد انتشاره في أوربا . ويذكر أيضاً أنه تحت تأثير هذه العوامل انعدمت المشربيات وحل محلها الشبابيك الحديثة. ويذكر ادوارد لين بعد زيارته الثانية لمصر عام ١٩٣٦ كيف تدهورت صناعة المشربيات وحرفة الخراطة القائمة عليها فيقول «كان الخراطون كثيرى العدد وكان عملهم حينذاك أكثر اتقاناً أما الآن فقد قلت أعمالهم لأن نوافذ المنازل الحديثة تصنع من الزجاج». وتمثل مرحلة الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩)، ذروة التأثير الأوربى في العمارة والزخرفة المحلية . وفى تلك الفترة أيضاً تم بناء العديد من المنشآت العامة والقصور للعائلة المالكة والأمراء وكبار رجال الدولة في محاكاة للنظام الأوربى في العمارة والزخرفة . فقد تم الانتهاء من تشييد قصر عابدين عام ١٨٧٤ وتم بناء الأوبرا أثناء احتفالات قناة السويس على نفس الطراز أيضاً . وكان لوجود جالية أجنبية كبيرة في هذه

المنزل الكائن بميدان سيدى عبد الجواد شارع بولاق الجديد – القرن العشرين

جمادى أول ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م



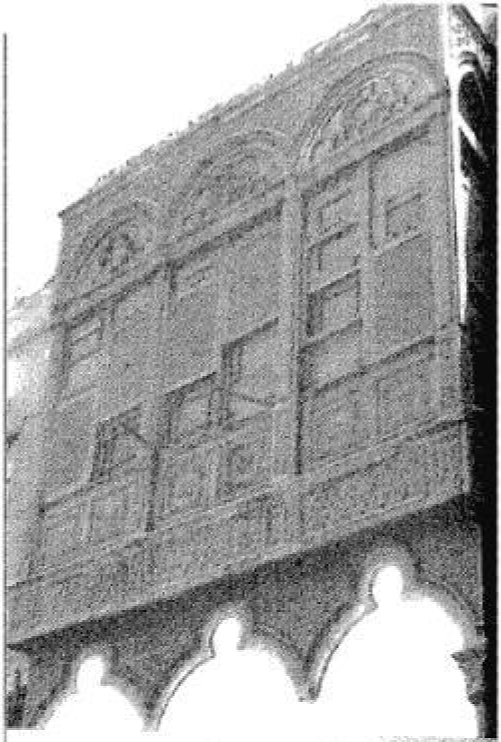
الفترة دور كبير فى انتشار نمط العمارة الأوربية . فقد وصل عدد السكان الأجانب فى مصر إلى ١٦٨.٦٥٢ عام ١٨٧٨ . وصل عددهم فى مدينة القاهرة وحدها إلى ٧٦.١٧٣ عام ١٩٣٧. وفى خلال هذه الفترة أصبح المثلث المحصور بين ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) وحديقة الأزبكية ومنطقة الفجالة منطقة سكن هذه الجالية ومحور النشاط الاقتصادى لمدينة القاهرة ومركزا للتجارة والبنوك والبورصة . وقد شيدت هذه المنطقة على الطراز الأوربى مما أصبحت معه نموذجاً يستوحى فى كل المنشآت العامة وبناء المنازل فى المناطق القديمة لمدينة القاهرة مما أضاف بعداً آخر فى انهيار استعمال المشربية والزخارف المرتبطة بها.

انتشار الأسلوب الأوربى

ويذكر أندريه ريمون أنه ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ساد الأسلوب الأوربى حتى بالنسبة لتنظيم المنزل الداخلى وتقسيماته مع توكيد الاهتمام بغرفة الاستقبال (الصالون)، ويشتمل هذا التقسيم على غرف ومطابخ وحمامات، وأصبحت القاهرة جزءاً من المعمار الغربى وتم ذلك بالتضحية بخصائص العمارة المحلية والتى تعتمد على تعدد مستويات الوحدات السكنية وتنوع الوظائف للأجزاء المختلفة للمنزل .

٢ - يتعلق العامل الثانى بانهيار النقابات الحرفية . فقد كان الحرفيون ينتظمون فى طوائف لكل منها شيخ . وتعتبر هذه الطوائف تنظيمات اجتماعية واقتصادية . وكانت هذه الطوائف تقوم بمهام متعددة بإشراف شيخ الطائفة ومعاونيه تشمل الحفاظ على التقاليد الحرفية بتنظيم مستوى اجادة الحرفة. واستمر هذا الوضع حتى مجىء محمد على حيث تعرض تنظيم الطوائف الحرفية لهزات عنيفة نتيجة لعدة عوامل ، كان أولها هو سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على فى الصناعات اللازمة لبناء الجيش والأسطول وخاصة صناعة النسيج والأحذية والملابس مع إهمال الصناعات الحرفية الأخرى وبذلك أضمحل الدور الاقتصادى للطوائف تحت ضغوط ازدياد نمو الدولة المركزية . وأدى انشاء صناعات جديدة للأسطول والجيش فى مناطق جديدة إلى القضاء على تقاليد التوطين . حيث كان أفراد كل حرفة يقيمون فى منطقة واحدة تعرف بالنشاط الحرفى الغالب عليها مثل الفحامين والنحاسين والكعكيين. وأدت سياسة محمد على بالعزل والتعيين الادارى لمشايخ الحرف بدلاً من اختيارهم عن طريق أفراد الطائفة إلى سلب مشايخ الطوائف لامتيازاتهم واشرافهم على طوائفهم وتقلص دورهم إلى مجرد توريد الحرفيين اللازمين لمشروع محمد على.

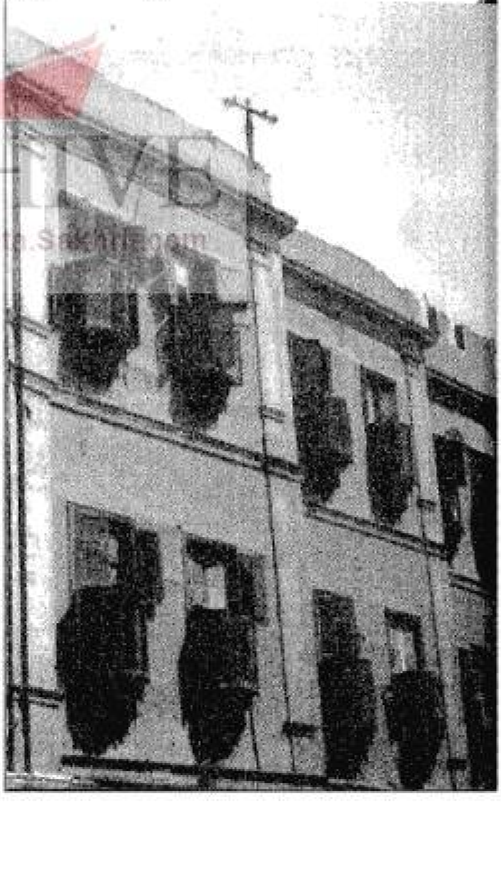
وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أسهمت ظروف جديدة فى التعجيل بانهيار طوائف الحرف منها نمو مدن جديدة مثل السويس والإسماعيلية



المنزل الذى ولد به طلعت حرب بحى قصر الشوق ويظهر السلاملك وتعلوه المشربية -القرن التاسع عشر

وبورسعيد مما ألغى احتكار الطوائف فى تحديد عدد من يعملون بكل حرفة بهذه المدن الجديدة . وتزامن هذا مع ظهور مؤسسات اقتصادية واجتماعية جديدة قامت بدور الطوائف في تحديد الأجور لعدد من الخدمات . وفى عام ١٨٨١ أعفت الحكومة شيوخ الطوائف من مهمة جمع الضرائب المفروضة على المهن المختلفة . وفي عام ١٨٩٠ صدر القانون الذى يعطى الحرية الكاملة لجميع أنواع الحرف. كما ألغي التمرين اللازم لكل حرفة، وهو القانون الذى أدى بالتدريج إلى اختفاء العديد من الطوائف وموتها موتا بطيئاً ولم يسجل موتها أى مرجع . فقد اختفت طائفة تجار العبيد عام ١٨٧٨ . وطائفة جزارى القاهرة عام ١٨٩٢ وطائفة المراكبية ١٨٩٣ - ١٨٩٦، والسقايين بالأسكندرية ١٨٩٥. وصيادى السمك بالمنزلة عام ١٩٠٢ . ولا يعرف تاريخ محدد لاختفاء طائفة عمال الخرط والمشربيات ولا طائفة البنائين.

٣ - ويتعلق العامل الثالث بتجاهل دور الصناعات الحرفية وأهميتها الاقتصادية والاجتماعية من حيث أنها تعكس خبرات وثقافة المجتمع . ورغم جهود محمد على فى إقامة صناعات جديدة فان أياً من هذه الجهود لم يشمل الاهتمام بالصناعات الحرفية التقليدية مثل صناعة المشربيات والخشب الخرط



المشربيات التى تزين واجهة المنزل الكائن بشارع الدرب الأحمر - القرن التاسع عشر

وصناعة الأثاث والأواني الفخارية.

ويذكر أحد التقارير أنه في عام ١٩٠٠ لم تكن هناك غير مدرستين صناعيتين احداهما ببولاق والتي أنشئت سنة ١٨٤٢ والتي أشرف عليها الفرنسيون وأنشئت بجانبها عام ١٩٠٢ بعض الورش النموذجية . أما المدرسة الأخرى فقد أنشئت بالمنصورة عام ١٨٨٩ . وقد عمدت تلك المدارس إلى تدريب الحرفيين على استخدام السلع والآلات الحديثة وفي مسايرة الأذواق الجديدة وترويجها مع تجاهل مميزات الانتاج المحلي وتقاليده.

وفي بداية القرن العشرين توسعت الحكومة في انشاء العديد من المدارس الصناعية متبعة في ذلك نفس السياسة السابقة في المدن المختلفة . فقد أنشئت مدرسة أسيوط الصناعية عام ١٩٠٧ . وفي نفس السنة تم انشاء المدرسة الصناعية بالفيوم وبني سويف والأقصر ودمنهور ونجع حمادي والجيزة . وفي عام ١٩٠٩ أنشئت مدرسة أبوتيج الصناعية وأنشيء بها قسم للنسيج وآخر للنجارة والأثاث المنزلي على النمط الأوربي . وبجانب هذه المدارس فقد تم انشاء مجموعة من المدارس الصناعية الحرة ، فقد أنشأت جمعية العروة الوثقى الاسلامية مدرسة صناعية عام ١٩٠٢ بالاسكندرية وانشأت جمعية التوفيق القبطية مدرسة صناعية بالفجالة عام ١٩٠٤ . وقد تم انشاء اتحاد الصناعات الفنية بمصر في ١٦ يونيو ١٩١١ وكان هدفه هو تشجيع الصناعات والحرف الفنية لمختلف الصناعات المصرية التي تنزع إلى محاكاة الطراز العربي والمصري لكن الجهود لم تصل إلى نتيجة مرجوة في إحياء الصناعات أو الحرف التي انقرضت مثل صناعة المشربيات وحرفة الخرط وطرز البناء المحلية .

مابقي من تراثنا المعماري

رغم تلك العوامل السابقة التي أسهمت في اضمحلال العمارة المحلية بخصائصها المميزة السابقة، الا أن هناك نماذج مازالت باقية منها بمدينة القاهرة، تحتفظ بتلك الخصائص ممثلة في انفصال وحدتها الداخلية عن طريق المدخل الخاص بكل منها . وممثلة كذلك في وجود المشربيات والشخيشخة بأشكالها وأحجامها المختلفة والتي تعكس جماليات أعمال الخرط والحشوات المتعددة الأشكال. هذه النماذج تتميز أيضاً بوجود قاعات متسعة المساحة تزين أسقفها صور وزخارف ملونة مميزة لتلك الفترة . هذه البيوت التي تنتمي إلى تلك الفترة كانت محلا لسكن عائلات مشهورة . كما كانت أيضاً محلا لسكن العديد من رجال الفكر والأدب والاقتصاد الذين أثروا في تاريخ مصر الحديثة. فالمنزل الكائن بقصر الشوق كان محلا لسكن طلعت حرب باشا وهو المنزل الذي ولد به . والمنزل الكائن بجنينة ناميش كان محلا لسكن الأديب والمفكر مصطفى لطفي المنفلوطي . أما المنزل الكائن بـ ٥٠ شارع الخليفة والذي بنى في عام ١٢٦٢هـ حسب اللوحة

التأسيسة الموجودة به كان محلا لسكن بعض أفراد عائلة محمد على باشا.

أثرت عمارة القرن التاسع عشر على شكل عمارة الطبقة الوسطى القاهرية والتى أنشئت فى أوائل القرن العشرين فى الأحياء القديمة بمدينة القاهرة. وقد خضعت هذه العمارة الأخيرة بالكامل لطراز العمارة الأوروبية من ناحية تقسيم الوحدات السكنية، بحيث أصبحت تلك الوحدات (الشقق)، التى تشترك فى نفس التقسيم الداخلى للحجرات، توجد فى مستوى واحد (أى طابق واحد) هذه الطوابق أو الأدوار يعلو بعضها البعض فى تكرار رتيب. بجانب أن هذه الوحدات تشترك كلها فى مدخل واحد. ورغم أن هذا التقسيم يستبعد ميزة الخصوصية التى ميزت لفترة طويلة عمارة القرن التاسع عشر وما قبله. الا أنها احتفظت بتقاليد المشربية ممثلة فى تلك «الخرجات» التى تصنع من الخشب. وتحتل واجهه البناء. هذه «الخرجات» احتفظت بجانب الشباك الأوروبى بمشربيات صغيرة غاية فى الروعة والجمال. وتمثل تلك الخرجات «المقفلة» ابتكارا من قبل المعمارى المصرى فى تحوير شكل البلكونة الأوربية «المفتوحة» بالكامل والتى تتعارض مع جانب الخصوصية.

تميز هذه «الخرجات» وما بها من مشربيات صغيرة أو ضرف تنزلق إلى أعلى وإلى أسفل تصنع من شرائح الخشب Lattice. عمارة القرن العشرين والتى انتشرت بأحياء القاهرة القديمة مثل الدرب الأحمر وسوق السلاح وباب الوزير والخليفة والسيوفية والأزهر والعطوف حتى منطقة بولاق. وتحتوى هذه «الخرجات» على مسطحات كبيرة جعلت جزءاً كبيراً من واجهة هذه المنازل، أو كل الواجهه تملأ بالكامل بحشوات مختلفة الأشكال. هذه «الخرجات» كانت المادة التى ساعدت حرفة الخرط والزخرفة العربية على الاستمرار حتى الوقت الحالى.

تتعرض كل هذه النماذج التى تنتمى للقرن التاسع عشر أو القرن العشرين للانهيار السريع والهدم والإزالة. فرغم أن معظم هذه المنازل مر على انشائها أكثر من مائة عام وينطبق عليها قانون حماية الآثار، الا أنها لاتخضع لاشراف أو رعاية المجلس الأعلى للآثار. وتتعرض هذه المنازل لاهمال متعمد يعرضها للزوال السريع. فالمنزل القائم بـ ٥٥ شارع باب الوزير والذى ينتمى إلى فترة القرن التاسع عشر والذى كان سكنا للشيخ عبدالرحمن قراعة أحد رجال الأزهر البارزين، أصبح يحتل طابقه السفلى تجار مستلزمات التنجيد مثل ألواح الأسفنج والمواد اللاصقة السريعة الاشتعال. وهو ما أدى إلى اشتعال حريق هائل أودى بالمنزل فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠١. أما المنزل رقم ٥٠ شارع الخليفة فيتعرض للانهيار نتيجة لعدم الاهتمام باصلاحه من قبل ملاكه.

وبطبيعة الظروف.. فإذا استمرت هذه الحالة من الاهمال والتجاهل، فمن المتوقع أن تفقد مصر عبر السنوات القليلة القادمة عدداً من أندر هذه النماذج التى تمثل ثروة معمارية وزخرفية مميزة. ■

ثقافة الظلم وظلم الثقافة

بقلم
عبدالرحمن شاكر



إن أهم ما يشغل الإعلام العربى اليوم، وكثيرا من الجهود الثقافية والسياسية والدبلوماسية، هو التصدى للحملات الضارية الشرسة التى تشنها أجهزة الدعاية الصهيونية والقوى الموالية لها فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، على العرب والمسلمين، واستغلال أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية، والمتهم بتدبيرها بعض العرب والمسلمين. فى إثارة الغضب والكراهية ضد هؤلاء فى جميع أنحاء العالم، بما فى ذلك الادعاء بأن الدين الإسلامى هو الذى يحض على كراهية الغير.

وأهم من ذلك استغلال تلك الأحداث والمشاعر المستثارة على هذا النحو لتسويغ كل عمل من أعمال العدوان على العرب والمسلمين، سواء فى ذلك ما تتعرض له الجاليات الإسلامية والعربية من اضطهاد وعدوان يصل إلى حد القتل وتخريب الممتلكات ومصادرة الأموال وإهانة المقدسات، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، إلى استمرار اغتصاب حقوق المسلمين القومية سواء فى كشمير، أو الشيشان، أو سنكيانج الصينية، أو فى فلسطين، إلى حد تصوير الاعتداءات المتواصلة البشعة على الشعب الفلسطينى من حصار وتجويع وبطش وقتل وتدمير للمنشآت العامة والخاصة وتعطيل الخدمات العامة من علاج وتعليم.. إلخ. وتقويض لمقومات الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع استمرار الاحتلال الجاثم على ربوع الأرض الفلسطينية منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما، أقول تصوير كل ذلك بأنه جزء من الحرب على الإرهاب من نوع الحرب التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية بعد الأحداث المشار إليها فى أفغانستان والتى مازال تقتل فيها المدنيين العزل كل يوم كما حدث مؤخرا حينما تصوروا إطلاق بعض الأعيرة النارية فى عرس من الأعراس على نحو ما يحدث عندنا على أساس توهم أن تلك الأعيرة كانت موجهة ضد الطائرات الأمريكية التى تولت دك العرس ومن فيه!

آخر ما تناهى إلى أسماعنا من قصص الحملة على العرب والمسلمين فى أجهزة الإعلام الأمريكية الخاضعة للصهيونية ، هو استخدام العبارات التى وردت فى العهد القديم من الكتاب المقدس عن اضطهاد المصريين القدماء لبنى إسرائيل ، والتى أرسل النبى موسى طبقا لها للخروج ببنى إسرائيل من مصر لتخليصهم من ذلك الاضطهاد.. أقول استخدام تلك العبارات فى محاولة النيل من المصريين المعاصرين، جاهلين أو متجاهلين أن معظم المصريين حاليا يؤمنون بالنبى موسى ومن سبقه ومن تلاه من الرسل، سواء فى ذلك المسيحيون الذين يقرأون تلك القصة فى العهد القديم أو المسلمون الذين يقرأونها فى القرآن الكريم ، فكيف يمكن تعبير سكان مصر بتلك القصة التى وقعت منذ أكثر من ثلاثين قرنا، تبدل فيها الناس غير الناس والعقائد غير العقائد ولكن هكذا يفعل المغرضون!

السيطرة على المال والأعمال

ولكن القصة الحقيقية التى ينبغى أن تروى ، ويعرفها جميع الناس سواء فى بلادنا العربية الإسلامية أو غيرها من البلدان، هى قصة اليهود المعاصرين الذين تتشكل منهم الحركة الصهيونية بكافة أساليبها الوحشية وألاعيبها الخسيسة . إن أكثر من تسعين فى المائة من هؤلاء القوم، كما سبق أن ذكرت أكثر من مرة على صفحات «الهلال» وغيرها، هم من الخزر الأشكناز الذين تحولوا إلى اليهودية فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن

الثامن للميلاد، بعد ظهور كل من المسيحية والإسلام، وأن موطن هؤلاء الخزر كان من القوقاز جنوب روسيا حاليا وأن سبب نشوء الحركة الصهيونية ، هو ما لقيه هؤلاء المتهودون الخزر من اضطهاد على يد القياصرة الروس خلال القرن التاسع عشر، وبسبب هذا الاضطهاد كان «الخروج» الأكبر لهؤلاء اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث توجه معظمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث شكوا الجالية اليهودية الكبرى هناك وخاصة في ولاية نيويورك ، حيث سيطروا على دوائر المال والأعمال وكذلك أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون وسينما ودور نشر، وكذلك الأجهزة الثقافية في الجامعات وغيرها وصولا إلى شبكة الإنترنت ، وهم يسخرون هذه الوسائل جميعا من أجل أغراضهم السياسية بما في ذلك تعزيز قوة الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة ودعم سياستها العدوانية وتحويل ذلك الكيان ليس إلى حاملة طائرات لا تغرق فحسب، كما كان يقول الساسة الأمريكان منذ عقود قليلة، ولكن إلى القوة النووية الثالثة في العالم، حيث يعلنون في زهو أنها تملك حوالي أربعمائة رأس نووية، في محاولة لإرهاب العالمين العربي والإسلامي ومحاولة فرض هيمنتها عليهما وعلى مصيرهما!

خطورة الإرهاب

وليست مصر هي المستهدفة وحدها في الإرهاب الصهيوني الأمريكي ولا الحملات الإعلامية الظالمة التي تتم باسم الحرب ضد الإرهاب (!) ، رغم أن مصر كانت أول دولة نبهت إلى خطورة الإرهاب وعانت على أيديه ما عانت، بل الاستهداف يشمل العراق التي لا يكف الساسة الأمريكان عن التلويح بالانقضاض عليها عكسريا لتبديل نظامها، ويشمل المملكة السعودية التي كانت صداقتها مع الولايات المتحدة الأمريكية منهجا ثابتا في علاقاتها الخارجية، حيث ينادي بعض المتهوسين الأمريكان بسحق مكة والكعبة المشرفة بالقنابل النووية، لنسف أكثر الأماكن قداسة عند المسلمين الذين هم عند هؤلاء هم مصدر كل الشرور!

ولكن من أغرب ما نتعرض له في سبيل الحملات الظالمة على الحضارة والثقافة العربية والإسلامية، هو ما عمد إليه كاتب عربي شهير، يكتب مقالا أسبوعيا في جريدة عربية كبرى، من تعاقل وادعاء كاذب بالإنصاف حيث يرمي العرب القدماء بالعنصرية، التي هي السمة البارزة في مسلك القوى الصهيونية ومن والاها وفي أصل ثقافتهم . ودليله على ذلك - أي عنصرية العرب هو لفظان عربيان حيث يقول في الخامس من يونيو الماضي:

«لقد كان العرب يعتقدون أنهم وحدهم الذين أوتوا رجاحة العقل وطلاقة اللسان، وأن غيرهم ممن ينطقون بما لايفهم أعاجم، يشاركون الحيوانات العجماء عجزها عن الإفصاح، وكانوا يسمون الأجنبي الذي لم



اشتباكات بين مقاتلى طالبان ومحاربى تحالف الشمال بالقرب من قندوز

يدخل فى دينهم علجا، والعلج هو الحمار المكتنز، أو الحمار الوحشى!!

ولو كلف الكاتب نفسه الرجوع إلى معجم عربى مثل لسان العرب لتردد كثيرا فيما ذهب إليه فبالنسبة للفظة الأولى ، جاء فى مادة عجم:

«قال أبو اسحق: الأعجم الذى لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربى النسب، مثل زياد الأعجم، قال الشاعر:

منهل للعباد لابد منه

منتهى كل أعجم وفصيح،

والأنثى عجماء، وكذلك الأعجمى، أما العجمى فهو من جنس العجم».

والكلام فى هذه المادة الطويلة عن الناس ، من عرب وغير عرب، أما صلة هذه المادة بالحيوان ففى موضع آخر يقول: «والأعجم الذى يجمع على عجم ينطلق على ما يعقل وما لا يعقل».

فالتشبيه هنا هو الحيوان بالإنسان غير الفصيح وليس العكس.

أما الكلمة الثانية التى استدل بها الكاتب على أن العرب عنصريون وهى كلمة «علج» ، فهى أيضا طبقا للسان العرب صفة للإنسان قبل أن تكون صفة للحيوان

تبدأ مادة «علج» فى لسان العرب هكذا: «العلج» الرجل الشديد الغليظ وقيل هو كل ذى لحية ....

«واستعلج الرجل: خرجت لحيته وغلظ، واشتد وعبل بدنه...

وبعدها:

«والعلج الرجل من كفار العجم...

أما صلة ذلك بالحيوان فهو أيضا لشبيه بالإنسان، حيث جاء في موضع آخر من المادة قوله:

و«العلج حمار الوحش لاستعلاج خلقه وغلظه ... ».

أما تشبيه الإنسان بالحيوان، فلعله لم يرد في كلام العرب أكثر مما ورد في تسمية أنفسهم وأولادهم، من ذلك: تسميتهم كلب، وكلابا، وكليبا، وفأرا ويربوعا وثعلبا. وذؤيبا (مصغر ذئب) .. إلخ.

هل يعرف الكاتب معنى اسم أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول، وقيصر العرب كما وصفه بعض معاصريه؟ إن المعنى الحرفي لهذا الاسم كما في مادة «عوى» من لسان العرب أيضا هو: «الكلبة المستحومة التي تطلب السفاد» فهي تعاوي الكلاب الأخرى، أي تتبادل معها العواء أو النباح عسى أن يحس بها ذكر منها فيلبي حاجتها.

هل وصف العرب أحدا من الأعاجم بأقبح من هذا؟!

فلماذا إذن هذه الحملة الظالمة على لغة العرب؟

ونسأل الكاتب: كيف يريد أن «نراجع ثقافتنا، ونمتحن أنفسنا، ونفتش عن عيوبنا ونتخلص منها» كما جاء في مقاله ؟

هل يريد أن يتوقف العرب والمسلمون عن تلاوة آية في القرآن الكريم مثل التي نصها: «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» «سورة النحل»؟

أم يريد أن يكف العرب والمسلمون عن ترديد الحديث المشهور: «ليس لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى»؟ وهو الحديث الذي يعتز العرب والمسلمون بأنه يمثل غاية المساواة بين البشر بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وألسنتهم؟!

نعم: بعض العرب تباهوا قديما بلون بشرتهم وأهانوا بعض ذوي البشرة السوداء، مثل الصحابي أبي ذر الغفاري، حين قال لرجل منهم: يا ابن السوداء، فنهره النبي العربي وقال له «أنت امرؤ فيك جاهلية».

كان السواد منتشرا ما بين العرب، وكان السود منهم يعرفون باسم «أغربة العرب»، على أن كلمة غراب هي أيضا مما تسمى به العرب، ولو نظرت في وجوه أكثر الأفارقة حاليا لوجدت الملامح العربية تغلب عليهم، مما يدل على التداخل الكبير ما بين العرقين اللذين لا يفصل بينهما إلا البحر الأحمر الضيق في مبدئه ومنتهاه.

العنصرية يا سيدي هي آفة العصر الاستعماري الذي مازلنا نعيش أقسى فصوله بظهور القطب الأوحد الذي يمتطيه ألد أعدائنا، فلا تكن عونا لهم علينا أصلحك الله! ■

كتاب الهلال

ذكريات باريس

بقلم

د. زكي مبارك

يصدر ٥ أغسطس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٤٩

الهلال

جماد أول ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م

حالة مستعصية

بقلم

سعيد سالم

تصدر ١٥ أغسطس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

أطلال بومبى وبركان ڤيزوف

بقلم
مصطفى درويش

كان من حسن الطالع أن تحققت لى ثلاث أمنيات، فى مدة من عمر الزمان لم تزد عن عشرة أيام.

ومتى؟ فى أثناء شهر الاحتفال بالعيد الذهبى الثالث والعشرين من يوليه، وثورته التى اطاحت بحكم فاروق ملك علب الليل.

والامنيات الثلاث التى تحققت هى زيارة المتحف المصرى فى مدينة تورينو، التجول بين اطلال مدينة بومبى التى اهلكتها حمم بركان ڤيزوف، قبل ألفى عام، والقاء نظرة طائرة على كاتدرائية «ساجرادا فاميليا» - تعنى العائلة المقدسة - ببرشلونة - تلك الكاتدرائيـة التى أعطاها المهندس الفنان «انطون جاودى» من حياته أربعين عاماً، ويؤمها الناس من كل فج عميق، لا للصلاة، فبناؤها لم يكتمل بعد، ولا ينتظر اكتماله قبل خمسين عاماً - وإنما للاحتفال بآفاق خيال، بلا شطآن .





مومياء لرجل كانت في احد التوابيت الحجرية

أعياد ذهبية

أما لماذا تحققت الامنيات الثلاث فى أثناء شهر الثورة بالذات، فذلك سببه صدفة ميلاد ابن شقيقتى وفعلاً تم اللقاء فى المطار على النحو المرسوم ، جاء مفاجئا ، موحياً .

مدينة عائمة

بعده، توجهنا ، جنوباً إلى ميناء جنوة المطل على شمال غربى البحر الأبيض المتوسط ، حيث صعدنا إلى ظهر سفينة ، ولا اقول مدينة عائمة ، أكبر من تيتانيك المنكوبة حجماً ووزنا وارتفاعاً ، تكاد تناطح السحاب، جديدة عمرها يحسب لا بالأعوام ، بل بالأيام.

وبنا طافت سبعة موانىء ، من بينها نابلى، حيث على بعد بضعة أميال بركان فيزوف، وكعهدنا به، يغلى من جديد .

وبرشلونة ثانى مدن أسبانيا ، وعاصمة اقليم كاتالونيا ومع انتهاء ليالى البحر السبع عادت بنا السفينة ، واسمها «يوريبيان ستارز » ، إلى اليابسة فى جنوة، ومنها صعدت السيارة بنا إلى اقصى شمال إيطاليا، حيث بحيرة ماچورى، بشطآنها الأقرب إلى جنات تجرى من تحتها الانهار ، وتتقاسم بعضها سويسرا مع إيطاليا، حيث اقمنا فى فندق مطل على البحيرة الساحرة ، يرجع تاريخه إلى بداية القرن السابع عشر، وحيث احتفلنا باليوبيل الذهبى لأبن شقيقتى.



الحياة اليومية أيام الفراعنة

فرعونيات إيطالية

وفي أثناء اقامتنا التي لم تدم سوى أربع ليال ذهبت كالأحلام، توجهنا بالسيارة إلى المدينة المشهورة بصناعة سيارات فيات، واعني بها تورينو، حيث يوجد المتحف المصري.

وما سموه كذلك إلا لأنه خاص بآثار قدماء المصريين ، ولا شيء آخر.

فهو يحتوي على مجموعة نادرة من تلك الآثار ، لا تعلو عليها منزلة سوى مجموعة الآثار الفرعونية التي يزهو بها المتحف المصري ، وسط القاهرة.

وعكس متحفنا الاقرب إلى مخزن للآثار ، رأينا القطع الفرعونية في متحف تورينو، معروضة مع عظيم الاحترام، وفي اطار من الجمال والجلال : داخل حجرات لا زينة فيها ، الزينة كانت فيما احتوت، تماثيل ارباب وملوك واعيان ، رسوم حائطية. أو بمعنى أصح كتابات هيروغليفية ، سجلت تفاصيل الحياة، كما كان يعيشها الناس في أزمنة الفراعين، سجلتها بألوان، لاتزال تسر الناظرين.

موميـاءات لسادة وسيدات أشبه ما كانوا وهـم على قيـد الحيـاة ، قبـل آلاف السنين. حتى ان بعض النسـاء لازلن محتفظات بشعرهن كما كان لامعا، فاحما.

حجرة من بعد حجرة ، فيها قطع الآثار توزعت، وتقسمت ، على نحو علمي، مدروس.

بردية هيرودوت

وعند بردية شهيرة تعرف ببردية تورينو، سجل عليها المؤرخ الاغريقي هيرودوت اسماء جميع الفراعين الذين حكموا مصر على امتداد ثلاثين قرنا، أمامها عندها وقفت طويلاً.

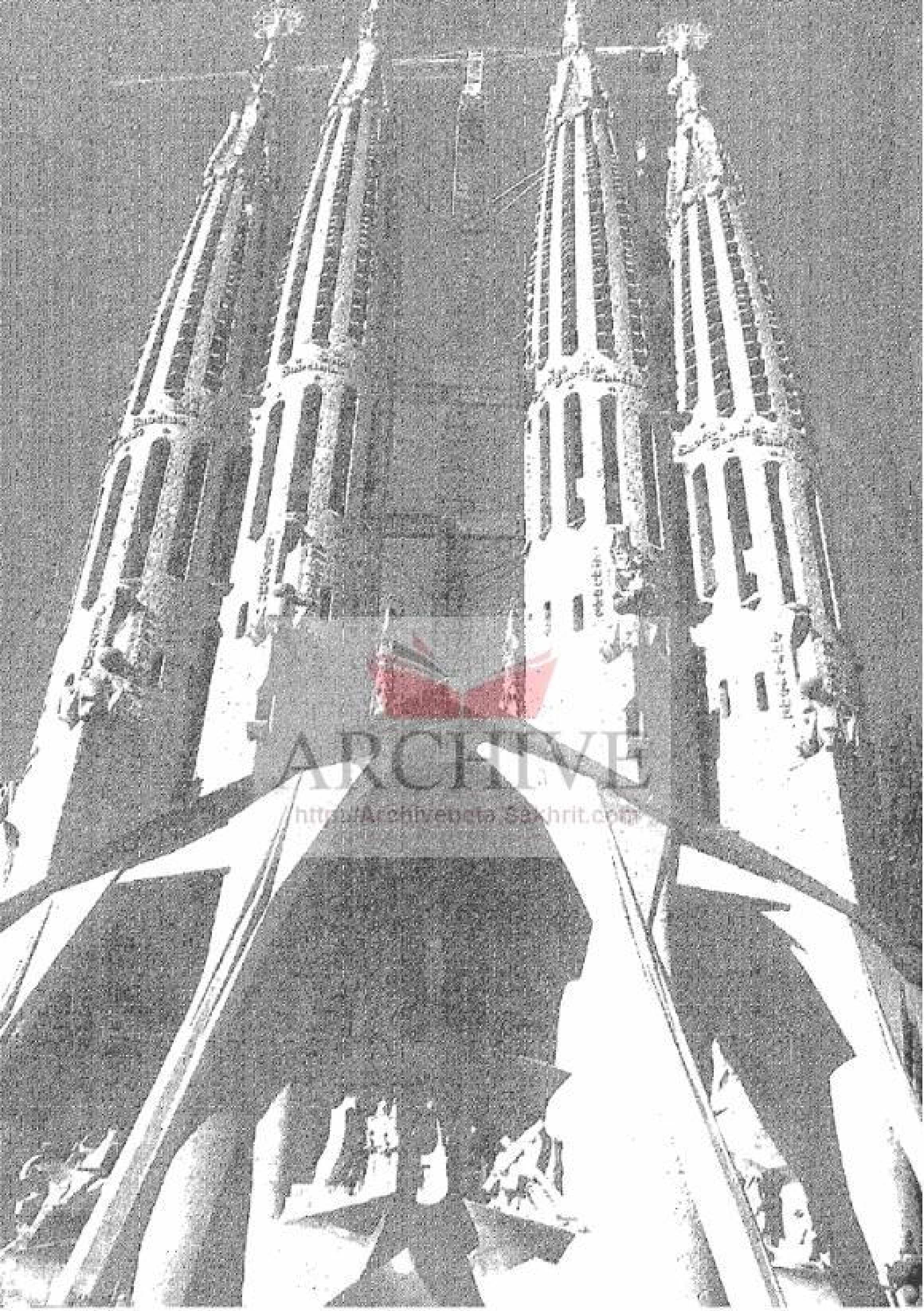
وبينما أنا أمام تلك البردية اتأملها معلقة على الجدار، أعجبت بكيفية الحفاظ عليها من عاديات الزمان استرعى انتباهي في جانب آخر من الحجرة وجود صورة طبق الأصل من كتابات حجر رشـيد بلغاتهـا الثلاث، في اشارة واضحـة إلى شامبليون الذي زار تورينو، ولعب دوراً في تصنيف ما كان موجـوداً وقتذاك في أحـد متاحفها من آثار فرعونية.

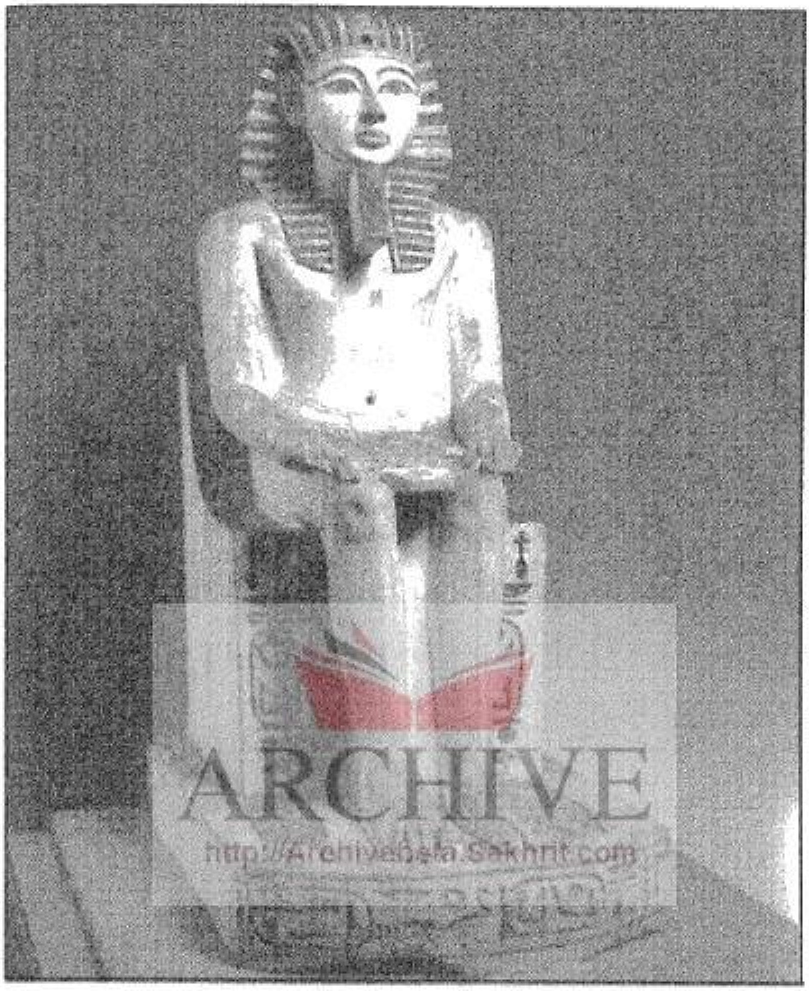
فك اللغز

ومما يعـرف عن شـامـبليـون أن الفـضـل يرجع له وحـده في فك لغـز اللغـة الهيروغليفية.

وكالشأن في كل المكتشفات المحولة لمجرى التاريخ كان فك شامبليون للغز تلك اللغة التقاء بين قمة بلغتها أشواق روحه، وقمة بلغها تحصيله العلمي، كي يستكمل استعداده بدراسة اللغات القديمة واللهجات المنحدرة منها .

كاتدرائية ساجرادا فاميليا ببرشلونة ◄





تمثال لأمنحتوب

فذلك الاكتشاف، والحق يقال، عادت بفضله إلى الحياة أمة ماتت.

داء النسيان

وهنا، وأنا ألقى نظرة أخيرة على كتابات الحجر الشهير، وجدتنى استرجع على شاشة ذاكرتي قول يحيي حقى أديبنا الكبير:



معبد في مقبرة من دير المدينة

«من سخرية الأقدار أن هذه الأمة انفردت من بين جميع الأمم السابقة والمعاصرة لها في الحرص على أن تخلف وراءها بالكتابة سجلا كاملا لحياتها، ثم صانته تربتها من التلف أو الضياع».

فإذا بهذا السجل يمتد - وكأنما في غمضة عين - إلى عالم المجهول .

يصبح من الألغاز والمعميات التي تتحطم عليها كل محاولة للفهم مهما بلغ ذكاؤها وعلمها، إلى أن أشرقت اللحظة في بصيرة رجل عاش في أوائل القرن التاسع عشر.. وأين؟ في فرنسا .

وتساءلت ، قبل أن أغادر الحجرة ، حيث بردية تورينو وحجر رشيد، أليس مما يدخل في باب العجاب ألا تعود الحياة إلى تاريخنا القديم إلا بفضل فرنسي كرس حياته القصيرة من أجل فك لغز لغتنا، والا نعرف شجرة عائلة الفراعين على امتداد آلاف السنين الا بفضل اغريقي قديم لا نتذكر من أقواله سوى مصر هبة النيل!! ■

الطبقات الكبرى

لمحمد بن سعد كاتب الواقدى

أول موسوعة لتاريخ العرب المسلمين

بقلم

د. نبيل حنفى محمود

لم يعرف التاريخ الإسلامى كتابا مثل «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدى، فقد مضى على تصنيف ابن سعد لهذا السفر الجليل نيف واثنا عشر قرنا .. لم ينقطع خلالها سيل الملتجئين إليه من باحثين وقراء ، فمنذ البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) وحتى الدكتورة عائشة عبدالرحمن .. يمتد طابور طويل من المؤلفين الذين أفادوا من كتاب ابن سعد بوجه أو بآخر ، إذ احتل «الطبقات الكبرى» مركزا متقدما فى صدارة المراجع التى استعان بها العديد من المؤلفين القدامى والمعاصرين .



فمن القدامى نرصد على سبيل المثال: الإمام ابن كثير فى كتابه «البدايه والنهاية» - المؤرخ أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى فى تاريخه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، والحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه «تاريخ الخلفاء». ومن المعاصرين تبرز أسماء أدباء وكتاب كان «الطبقات الكبرى» خير معين لهم فيما تصدوا له من دراسات وكتب عن تاريخ الإسلام ؛ ومن هؤلاء نذكر: الدكتور/ طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) فى كتبه «فى الأدب الجاهلى» و«الفتنة الكبرى» - الدكتور / محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م) فى كتبه «حياة محمد» و«الفاروق عمر» و«عثمان بن عفان» - أحمد أمين (١٨٨٧ - ١٩٥٤م) فى كتبه «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» «الدكتورة / عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) فى كتابها «أم النبى عليه الصلاة والسلام» ، وبموازاة طابور المؤلفين وحوله اصطفت أعداد لا نهاية لها من قراء نهلوا المعرفة بأحداث القرنين الأولين من تاريخ الإسلام من نبع ابن سعد الصافى .

أجيال من المؤرخين

كان المسلمون يلجأون فى صدر الإسلام إلى كبار الصحابة فى المدينة للسؤال فى القرآن والعقيدة وغير ذلك مما يشكل عليهم فيما يخص السياسة والحقوق والأنساب ، فقد حفظ أولئك الصحابة الكثير من هذه المسائل شفاهة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، ومن هؤلاء الحفظة : قارىء القرآن أبى بن كعب الذى أملاه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، البعض من سور القرآن - أبو هريرة ، عبدالرحمن بن صخر - عبدالله ابن عمرو ابن العاص وعبدالله بن عمر ابن الخطاب، لقد اشترك هذا النفر من الصحابة فى كثرة رواياتهم الصادقة عن أيام الإسلام الأولى ، وقد أشار إلى ذلك المستشرق المعروف إدوارد ساخاو فى معرض حديثه عن عبدالله بن عمر بقوله : « كان عبدالله عمدة الرواية القديمة ، وعنه تدفقت روايات كثيرة ، تجمعها كلها صفة الصدق ولا يرقى إليها الاتهام أو التكذيب. إذ إنه كان راويها فقد كان الشاهد العيان أو السامع لجريات الحوادث المهمة أيام الإسلام الأولى ، ولم يعرف عنه قط الرغبة فى التدليس أو دس الخبر الكاذب».

شكلت أحداث حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وأحاديثه الشريفة عماد الروايات الأولى عن تاريخ الإسلام ، تلك الروايات التى جاء بها أولئك النفر من

الصحابة المشار إليهم فيما سبق . فلما فصلت الأحاديث وبوبت طبقا لمباحث الفقه، فإن ما تبقى من أحداث عن حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وجهاده وغزواته .. عرف باسم «المغازى والسيرة» وأفردت له فى كتب الفقه أبواب منفصلة تحت هذا المسمى ، ويعد أبان بن عثمان ابن عفان (ت ١٠٥هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (٢٩ - ٩٢هـ) من أوائل من صنف من المؤرخين المتقدمين في المغازى والسير.

ولد الجيل الثانى من رواة التاريخ الإسلامى بعد سنوات من رحيل الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فجاءت رواياتهم نقلا عمن عاصروه -صلى الله عليه وسلم-، من الصحابة أو شهود عصر النبوة ممن لم يشرفوا بجواره الكريم ، ويأتى سعيد ابن المسيّب (١٣ - ٩٤هـ) على رأس هذا الجيل من الرواة، وتنبع أهمية رواية ابن المسيّب من أنه عاصر العديد من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، منهم والد زوجته الصحابى الجليل أبو هريرة ، لذلك كان ابن المسيب حجة فى جميع مسائل العقيدة والشريعة .. كما كان على معرفة تامة بتاريخ ظهور الإسلام وانتشاره ، وبالرغم من تلك الأهمية التى اكتسبتها رواية ابن المسيّب والمكانة العلمية التي حققها .. إلا أنه كان زاهدا فى حياته مترفعا عن الانغماس فى دروب السياسة ومشاكلها ، لكل ذلك .. جاءت رواية ابن المسيّب لتاريخ الإسلام شفاهية يلقيها على أعلام التابعين مثل عطاء بن أبى رباح ومحمد الباقر وعمرو ابن دينار ومحمد بن مسلم الزّهرىّ فى المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، ولم يؤثر عن ابن المسيّب تأليف الكتب أو تدوين روايته ، وهو الذى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : « أفضل التابعين سعيد بن المسيّب » .

بدأ تدوين التاريخ الإسلامى مع الجيل الثالث من رواته ، هذا الجيل الذى لم يدرك أغلب أفراده أحدا من صحابة النبى -صلى الله عليه وسلم- وعمّر أفراده حتى أدركوا بعض عقود القرن الهجرى الثانى ، ويعد محمد بن مسلم الزُهرى (٥٠ - ١٢٤هـ) زعيم هذا الجيل وصاحب السبق إلى تدوين علمه ، روى عن الزُهرى كل من عمر بن عبدالعزيز وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار وآخرون ، وقال عنه أبو داود : «حديثه ألفان ومائتا حديث... النصف منها مسند» ، ويعد الجيل الثالث من الرواة هو الجيل الذى قام بتدوين التاريخ الإسلامى طبقا لواحد من مناهج البحث التاريخى ، لذلك يقول إدوارد ساخاو عن الزُهرى: «فقد جمع الأخبار من كل مكان ومن كل شخص... كبيرا كان أم صغيرا... رجلا كان أم امرأة ، جمعها حتى من قبائل الأنصار القليلة ووعاها فى ذهنه ، وإن كان قد أثبتها فى نفس الوقت أو أثبت معظمها بالتدوين والكتابة» ، لم يكن الزُهرى من أنصار

تدوين الأحاديث والتاريخ الإسلامي في بداية اشتغاله بالعلم ، وإنما اضطره لذلك نهوضه بتعليم الأمراء من أبناء خلفاء بني أمية الذين عمل في قصورهم ، وهو ما نقله الحافظ شمس الدين الذهبي في ترجمته للزهري التي جاءت بين تراجم أعلام الطبقة الثالثة عشرة وضمنها الجزء الثالث من كتابه الشهير « تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام» ، يثبت الذهبي ما نقله معمر عن الزهري ونصه الآتي : «كنا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه الأمراء فرأيت ألا أمنعه مسلما» ، ولقد فقدت مدونات الزهري على مر التاريخ كما فقد غيرها من مؤلفات ، ولكن شمس الدين الذهبي يشير إلى ماهيتها في الصفحة رقم ٥٥٥ من الجزء الثالث من كتابه السابق الإشارة إليه بقوله : « فقد جمع أحمد بن صالح المصري علم الزهري وكذا ألف محمد بن يحيى الذهلي حديث الزهري فأتقن واستوعب وهو في مجلدين».

خلف من بعد هذا الجيل من الرواة جيل رابع لحق بالعصر العباسي وأحدث في التأريخ للإسلام جديدا ، ولعل أشهر مؤلفي هذا الجيل هم محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر الواقدي ، ومن الغريب أن معظم مؤلفي هذا الجيل قد ولدوا بالمدينة المنورة وبها تعلموا وذاعت شهرتهم .. ثم هاجروا جميعا إلى بغداد والكوفة حيث مقر الخلفاء العباسيين ، ولد محمد بن اسحاق بن يسار سنة نيف وثمانين للهجرة بالمدينة ، تلقى ابن اسحاق العلم في المدينة عن بعض أبناء الصحابة مثل أبان بن عثمان ومحمد بن أبي بكر ومحمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إضافة إلى الزهري ، ويعد كتاب «المغازي» أهم مؤلفات ابن اسحاق ، وقد ضمن ابن اسحاق كتابه هذا ما جمعه من أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأخبار بعثته ومغازيه ، ويرى أحمد أمين أن أهم ما جاء به ابن اسحاق هو «جمع الأحاديث وترتيبها وتبويبها وسلسلتها» ، وقد اختلف العلماء في كل من المدينة والعراق في ابن اسحاق ، يقول الذهبي نقلا عن أحمد بن زهير وابن مهدي : « كان يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك يجرحان محمد بن إسحاق » ، بينما ينقل الذهبي عن يونس بن بكير قوله: « سمعت شعبه يقول : ابن اسحاق أمير المؤمنين في الحديث » ، ثم يجمل الذهبي رأيه في ابن اسحاق بقوله : «الذي استقر عليه الأمر أن ابن اسحاق صالح الحديث وأنه في المغازي أقوى منه في الأحكام» ، وقد توفي ابن اسحاق ببغداد سنة ١٥٢ هـ .

حينما توفي ابن اسحاق .... كان محمد بن عمر بن واقد الواقدي قد أتم العام الثاني والعشرين من عمره في المدينة حيث ولد وعاش ، تلقى الواقدي العلم من بعض شيوخ المدينة مثل عمر بن راشد ومالك ابن أنس وسفيان الثوري ، ولكنه أخذ الكثير عن المغازي والتاريخ من أبي معشر السندي ، رحل الواقدي إلى العراق في عام ١٨٠ هـ بناء على طلب الوزير يحيى بن خالد البرمكي ، ليستقر هناك ويجد في طلب العلم والتأليف ، حتى ولي القضاء في خلافة المأمون وظل

يعمل به حتى وافته المنية ببغداد فى نهاية سنة ٢٠٧ هـ ، قال عباسى الدورى : «مات الواقدى وهو على القضاء وليس له كفن .. فبعث المأمون بأكفانه» ، انصب اهتمام الواقدىّ على المغازى وتاريخ الإسلام ، وقد أجمل منهجه فى ذلك بقوله : « ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا وسألته ، هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمنى مضيت إلى الموضع فأعاينه» ، وهذا هو نص ما نقله أحمد أمين عن الخطيب البغدادى (٣٩٢ - ٤٦٣هـ) من كتابه «تاريخ بغداد » . فأثمر ذلك كتبا كثيرة أحصاها ابن النديم للواقدى فى كتابه «الفهرست» منها : «المغازى» «التاريخ الكبير» وكتاب «الطبقات» ، وتتضح ريادة الواقدىّ ومنهجية فكره من اتباعه ترتيب التاريخ طبقا لتسلسل السنوات فى كتابه «التاريخ الكبير» ، ومن ابتكاره فكرة الترجمة للصحابة والتابعين فى طبقات بكتابه «الطبقات» ، ليس هناك ما هو أدل على ريادة الواقدىّ من أن كتبه - وبالرغم من خلاف البعض حوله كالعادة - كانت مصدرا لاقتباسات العديد من لاحقيه من المؤرخين مثل ابن كثير والمسعودى والسيوطى وابن حبيش وابن جرير الطبرى .. وتلميذ الواقدىّ محمد بن سعد مؤلف كتابنا هذا .

محمد بن سعد

ولد أبو عبدالله بن سعد فى البصرة سنة ١٦٨هـ لأسرة من الموالى تدين بعتقها للحسين بن عبدالله بن عبيد الله بن العباس بن عبدالمطلب ، تنقل ابن سعد بين الكوفة ومكة طلبا للعلم ، ثم استقر به المقام ببغداد حيث اتصل بأستاذه الواقدىّ ، تصدى ابن سعد للتدريس فى حلقة دراسية ببغداد - بعد رحيل الواقدىّ - ضمت العديد من الشباب المشتغل بالعلم ومنهم المؤرخ المعروف أحمد بن يحيى البلاذرىّ صاحب كتاب «فتوح البلدان» ، لم يعرف عن ابن سعد الاشتغال بأى عمل إدارى فى الدولة العباسية ، وإنما عرف بأنه «كثير العلم .. كثير الحديث .. كثير الكتب» كما حدث عنه الحسين بن فهم ، ومن كتبه التى حفظت لنا كتب التراث أسماءها : كتاب «الطبقات الكبير» الذى عرف أيضا باسم «الطبقات الكبرى» وكتاب «الطبقات الصغير» ، وقد روى عن ابن سعد الكثيرون مثل أحمد بن يحيى البلاذرىّ - أبو بكر بن أبى الدنيا - الحسين بن محمد بن فهم والحارث بن أسامة وآخرون، ويعد ابن سعد موضع ثقة جمهور لاحقيه من كتاب ومؤرخين ، وذلك لما أثر عنه من صدق وحيدة ولما اتسمت به كتاباته من موضوعية وترفع عن زخرف القول وغثه ، وهو ما وشت به كتب التاريخ وتراجم الإعلام بما جاء عنه فيها ، إذ تنتثر ترجمة ابن سعد فى كل الكتب التى اهتمت بالتاريخ والمؤرخين منذ وفاته وحتى عصرنا الحالى ، فبين ترجمة الخطيب

البغدادي (ت ١٠٧٢ م) له في كتابه «تاريخ بغداد» وحتى ترجمة أحمد أمين (ت ١٩٥٤م) له في كتابه «ضحى الإسلام»... تنتشر العديد من التراجم له في كتب التاريخ والتراجم ، مثل تلك الترجمة الضافية التي أوردها المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ) في كتابه «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» ، وليس ببعيد عن ترجمة الذهبي لابن سعد .. الترجمة الأخرى التي ضمنها الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠٥ - ٧٧٤هـ) كتابه «البداية والنهاية» ، وبعد ذلك وقبله .. عديد من التراجم الأخرى التي جاءت تعبيرا عن مكانة ابن سعد بين المؤرخين وكتاب السيرة ، وقد لقي ابن سعد وجه ربه ببغداد في يوم الأحد الرابع من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ .

محتوى الكتاب

يقع كتاب «الطبقات الكبير» المعروف باسم «الطبقات الكبرى» في ثمانية أجزاء، أفرد ابن سعد الجزء الأول والشطر الأكبر من الجزء الثاني لسيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وألحق بالجزء الثاني في ختامه فصلا عن « من كان يفتي بالمدينة من الصحابة على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم -» ، افتتح ابن سعد الجزء الأول بفصل تحدث فيه عن الأنبياء السابقين وأنسابهم ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن نسب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وتاريخ أسرته ، وفيما تبقى من القسم الأول من الجزء الأول يقص علينا ابن سعد أحداث حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم -، منذ ميلاده ومرورا بمبعثه وانتهاء بهجرته إلى المدينة ، وفي القسم الثاني من الجزء الأول يؤرخ ابن سعد لحياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، في المدينة ، فيصف مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومنزله وملابسه وأسلحته ودقائق حياته حتى البئار (جمع بئر كما استخدمها ابن سعد) التي شرب منها -صلى الله عليه وسلم-، ويتحدث ابن سعد في هذا القسم أيضا عن وفود العرب التي قدمت إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، في المدينة ، ثم يكمل ابن سعد سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بالحديث عن غزواته ومرضه ووفاته في القسم الأول ومعظم القسم الثاني من الجزء الثاني ، وابن سعد في كل ذلك يهتم بالدقائق والتفاصيل التي جعلت باحثا مثل الدكتور/ عوني عبدالرءوف - مترجم الشروح والتعليقات والمقدمات التي وضعت الكتاب باللغة الألمانية - يقول عنه « حتى ليمكن أن نعد هذين الجزءين كتابا قائما بذاته» .

يفرد ابن سعد الجزء الثالث بتسمية لمن شهد بدرا من المسلمين ، فيترجم لشهود بدر من المكيين في القسم الأول من هذا الجزء ، وعددهم ستة وثمانون من المهاجرين وأولهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم يتبعهم بتراجم المدنيين من شهود بدر في القسم الثاني والذين يبلغ تعدادهم مائتين وتسعة وأربعين من الأنصار ، بينما يقدم ابن سعد في القسم الأول من الجزء الرابع تراجم للطبقة

الثانية من المهاجرين والأنصار ممن لم يشهدوا بدرا وقد بلغت عدتهم تسعة وتسعين صحابيا ، وهم الذين هاجر معظمهم إلى الحبشة وشهدوا موقعة أحد وما بعدها من المشاهد . وأما فى القسم الثانى من الجزء الرابع .. فإن ابن سعد يترجم للصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وقد بلغ عددهم مائة وثلاثة وأربعين صحابيا .

ينتقل ابن سعد فى الجزء الخامس إلى تراجم أعلام الطبقات من الأولى إلى السابعة من أهل المدينة التابعين ، وهم الذين روى البعض منهم عن عثمان وعلى وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد وأبى بن كعب وغيرهم ، وقد أحصى ابن سعد فى هذه الطبقات عدد أربعمائة وسبعة وسبعين مدنيا ، ثم يتبعهم بطبقات أهل مكة ممن روى عن عمر بن الخطاب وغيره وعددها خمس طبقات ضمت مائة واثنين وثلاثين مكيا ، ثم يقسم ابن سعد أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ممن نزلوا بالأمصار المختلفة إلى طبقات تبعا لبعد هذه الأمصار عن مكة ، فيبدأ بتسمية طبقتى صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، والفقهاء والمحدثين ممن نزلوا بالطائف وعددهم أربعة وثلاثون صحابيا وواحد وعشرون فقيها ومحدثا ، ويتبعهم بتسمية من نزل باليمن من صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وطبقات المحدثين باليمن ، وعددهم سبعة وعشرون صحابيا وأربع طبقات من المحدثين ضمت أربعة وثلاثين من المحدثين . ويكرر ابن سعد الأمر نفسه مع من نزل باليمامة من الصحابة ومن كان بها من الفقهاء ، وعددهم ستة من الصحابة وثلاثة عشر فقيها ومحدثا ، ويختتم ابن سعد هذا الجزء بتسمية من نزل بالبحرين من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وقد بلغ عددهم خمسة وعشرين صحابيا ، وبذلك يبلغ إجمالى من نزل بهذه الأمصار من الصحابة والفقهاء اثنين وتسعين صحابيا بالإضافة إلى ثمانية وستين فقيها ومحدثا .

يخصص ابن سعد الجزء السادس من الكتاب لطبقات الكوفيين ، وهم من نزل بالكوفة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ومن كان بها بعدهم من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم ، فيبدأ ابن سعد بذكر من نزل بالكوفة من الصحابة وعددهم مائة وتسعة وأربعون صحابيا وأولهم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، ثم يرتب ابن سعد أهل الكوفة ممن نقلوا الأحاديث عن خلفاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وكبار الصحابة بعد ذلك فى تسع طبقات تبعا لمكانة وعدد من نقلوا عنهم من الصحابة ، وقد بلغت عدتهم ثمانى مائة وسبعة وخمسين كوفيا ، ولعل هذا العدد الكبير يرجع إلى إقامة ابن سعد بالعراق قريبا من موطنهم .. مما أتاح له أسباب تقصى ذلك العدد من مصادره الحقيقية .

يتحدث ابن سعد في القسم الأول من الجزء السابع عمن نزل البصرة من الصحابة وعدتهم مائة وخمسون صحابيا، ثم يواصل حديثه فيما تبقى من القسم الأول عن الفقهاء والمحدثين والتابعين من أهل البصرة ، فيصنفهم في طبقتين .. الأولى وهي التي تضم أصحاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه - أو من روى عنه وكان عددهم اثنين وخمسين فقيها ومحدثا، وأما الطبقة الثانية فقد تحدث فيها ابن سعد عمن روى من المحدثين عن عثمان وعلى وطلحة والزبير وأبيّ بن كعب وأبى موسى الأشعرى وغيرهم وأحصى منهم مائة وأحد عشر محدثا ، وأما في القسم الثانى من الجزء السابع .. فإن ابن سعد يرتب أعلام المحدثين ممن نزلوا بالبصرة فى الطبقات من الثالثة إلى الثامنة ، وقد بلغت عدتهم مائتين وسبعين محدثا ، ثم يختتم ابن سعد القسم الثانى بتسمية من نزل مدن العراق وغيرها من مدن الأمصار التى عرفت الإسلام فى مطلع القرن الثانى للهجرة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، والفقهاء والمحدثين ، وقد أحصى ابن سعد منهم خمسة وتسعين صحابيا وسبعة وخمسين فقيها ومحدثا .

يختتم ابن سعد عمله الموسوعى الرائد هذا بالجزء الثامن الذى أفرده لتراجم «النساء المسلمات والمهاجرات من قريش والأنصاريات المبايعات وغرائب نساء العرب وغيرهن» وذلك بنص تقديمه ، ويناقش المستشرق المعروف كارل بروكلمان - محقق الجزء الثامن - أسباب إفراد ابن سعد الجزء الأخير من كتابه للنساء وذلك فى مقدمة التحقيقات والشروح لهذا الجزء ، فيقول : « فالمؤلف إنما يهتم بالنساء فى المقام الأول باعتبار أنهن شاهدات على الحديث ، ويلزم لصحة الحكم على الرواة وتعديلهم أو تجريحهم ضرورة معرفة أحوالهم المعيشية ، لذلك جمع كل ما يمكن أن يتصل بهذا ، ولذا ينقل لنا الكثير من الأخبار التاريخية القيمة ، وقد اهتم بصفة خاصة بالأخبار الثقافية التاريخية طبقا لما يمليه عليه وضع المرأة المفروض فى الإسلام ، ويعتبر هذا الكتاب مصدرا خصبا لمعرفة الحياة المنزلية آنذاك » .

تجىء ترجمة السيدة خديجة - رضوان الله عليها- فى مقدمة تراجم النساء ، ثم يتبعها ابن سعد بتراجم بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -، ومن بعدهن عماته وبنات عمه صلى الله عليه وسلم ، يلى ذلك ذكر أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم- ، ومن خطب من النساء ولم يتم زواجه منهن، ومن وهبت نفسها من النساء للنبى - صلى الله عليه وسلم -، بعد ذلك يترجم ابن سعد للمهاجرات من قريش والمهاجرات من غير قريش والأنصاريات المبايعات ، ويرتب ابن سعد الأنصاريات المسلمات المبايعات فى طبقات، تضم الطبقة الواحدة النساء من كل حىّ من أحياء الأنصار ، وقد بلغ عدد من ترجم لهن ابن سعد فى طبقات بنات النبى - صلى الله عليه وسلم -، وعماته وبنات عمه وزوجاته والمهاجرات والأنصاريات خمسمائة وتسعا وعشرين مسلمة ، ثم ينهى ابن سعد الجزء الثامن

والكتاب بتراجم النساء اللواتي لم يروين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وروين عن أزواجه وغيرهن وعددهن أربعة وتسعون سيدة من بينهن بعض حفيدات الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل أم كلثوم وزينب ابنتي الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، إن هذا العدد من تراجم النساء يجعل مجموع ما قدم ابن سعد من تراجم في «الطبقات الكبرى» لأعلام الإسلام يبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشر ترجمات .

منهج ابن سعد

لا يمكن لمدقق أن يعد «الطبقات الكبرى» - بأي حال - واحداً من كتب تراجم الأعلام.. ولا واحداً من كتب المغازي أو الفقه، ولكن الانصاف يقتضي أن يعد المرء هذا الكتاب موسوعة تاريخية جمعت من تلك الصنوف من الكتب كل طيب ومبتكر، إن مصداق ذلك يأتي في مقولة فضيلة الشيخ / حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر التي وصف بها الكتاب في مقدمة طبعة «دار التحرير» التي بدأ صدورها في الرابع من شهر رمضان سنة ١٣٨٨ هـ (الموافق ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٨م)، يقول الشيخ / حسن مأمون: «وطبقات ابن سعد ليست تاريخاً فقط لحياة - رسول الله صلى الله عليه وسلم - وللقرنين الأولين من تاريخ الإسلام، إنما هي فوق ذلك كله سجل حافل بالأحاديث النبوية والأحكام الفقهية وكثير من الأمور الاجتماعية المتعلقة بالبيت والسوق والمهن والتجارة وشتى الثقافات» ، إن ما أكسب «الطبقات الكبرى» هذه الخصائص هو ما أنتهجه ابن سعد من أسلوب في كتابته.

يُفصّل المستشرق إدوارد ساخاو منهج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» في ثنايا مقالته التي حملت عنوان «تطور الرواية التاريخية عند العرب ومنزلة ابن سعد من ذلك» وصدّر بها تحقيقات وشروح الجزء الثالث من الكتاب، يقول ساخاو عن منهج ابن سعد في الترجمة لأعلام الكتاب: «ويبدأ (أي ابن سعد) كل ترجمة بتحقيق نسب المحارب، متحدثاً عن نسب أبيه ونسب أمه متتبعاً سلسلة هذه الأنساب إلى أجيال عديدة، ثم ينتقل إلى الحديث عن أولاده وأمهاتهم، متحدثاً عن نسب هؤلاء الأمهات أيضاً» ، ثم «يستطرد ابن سعد بعد ذلك متحدثاً عن سلالة الصحابي المحارب ومن تاريخها وعما إذا كانت ذريته بقيت بالمدينة أو رحلت عنها متخذة لها من أي مكان آخر بالدولة الإسلامية موطناً» ، ويعزو ساخاو سلاسل الأنساب الكثيرة عند ابن سعد إلى أنه أخذها من رواية هشام عما خلفه له أبوه من كتب، ويضيف ساخاو بعد ذلك: «وفي النهاية يصف ابن سعد نهاية الصحابي، متحدثاً عن كيفية الوفاة وسببها وزمانها ومكانها» تلك هي الخطوط العريضة - كما استشفها - ساخاو من الكتاب - لمنهج ابن سعد في الترجمة لأعلام كتابه،

والتي كانت تختلف من علم إلى آخر طبقاً لما أتيح لابن سعد من أخباره، ولقد نهج ابن سعد فى تتابع ترجمته لأعلام كتابه ما اختطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من ترتيب فى الديوان الذى أنشأه ودون فيه أسماء المستحقين من المسلمين، وأن قارئ الكتاب ليتفق مع ما أسف له ساخاو من أن ابن سعد لم يخرج كثيراً عما استنه لنفسه وكتابه من منهج، وهو ما يستطيع أن يلمسه المدقق فى إيجاز المادة التى حواها الكتاب عن بعض الأحداث التاريخية المهمة مثل الحروب التى نشبت فى عهدى أبى بكر وعمر.

كتيبة من المحققين

إن كتاباً مثل «الطبقات الكبرى» لم يكن ليصل إلينا فى صورته الحالية.. لولا الجهد الكبير الذى بذله إدوارد ساخاو (١٨٤٥ - ١٩٣٠م) الأستاذ بجامعة برلين ومعه تلامذة مدرسته العلمية الذين تتلمذوا على يده بمعهد الاستشراق ببرلين، قام ساخاو بتحقيق بعض القسم الثانى من الجزء الأول والقسم الأول من الجزء الثالث والقسم الثاني من الجزء السابع، كما قام أيضاً بوضع فهارس الكتاب التى صدرت فى جزء تاسع، تصدى أويجن متفوخ (١٨٧٦ - ١٩٣٢م) لتحقيق القسم الأول من الجزء الأول.. كما حقق الملازم الست الأولى من الجزء الثانى، وقد نهض يوسف هوروفتس (١٨٧٤ - ١٩٣١م) لتحقيق القسم الأول من الجزء الثانى والقسم الثانى من الجزء الثالث، بينما قام فريدريش شفاللى (١٨٦٣ - ١٩١٩م) بتحقيق القسم الثانى من الجزء الثانى، أما يوليوس ليبرت (١٨٦٦ - ١٩١١)... فإنه قام بتحقيق الجزء الرابع من الكتاب، وكان تحقيق القسم الأول من الجزء السابع من نصيب برونو ميسنر (١٨٦٨ - ١٩٤٧م)، وكما تم التنويه عنه قبل ذلك.. فإن كارل بروكلمان (١٨٦٨ - ١٩٥٦م) كان هو محقق الجزء الثامن، لكن الجهد الأكبر فى عملية التحقيق هذه.. كان من نصيب كارل فيلهلم تسترستين (-) الذى نهض بتحقيق الجزءين الخامس والسادس، ولقد اعتمدت كتيبة المحققين هذه على خمس مخطوطات للكتاب كانت موجودة بمكتبات: القاضى ولىّ الدين جار الله أفندى باسطنبول - الملكية فى جوتا - الملكية ببرلين والدار الهندية بلندن، ومن ثم فإن إصدار الكتاب بأجزائه الثمانية استغرق الأعوام منذ ١٩٠٤م وحتى ١٩١٨م، ثم انصرمت عشرة أعوام أخرى حتى اكتمل صدور جزء الفهارس، إذ صدر القسم الأول من جزء الفهارس فى عام ١٩٢٠م، بينما صدر القسم الثانى بعد الأول بثمانى سنوات وذلك فى عام ١٩٢٨م، وليكتمل بذلك بين أيدى أجيال المسلمين القادمة على مر الزمان - ومنذ هذا التاريخ. - واحد من أهم كتب تراثهم على مر عصور حضارتهم. ■

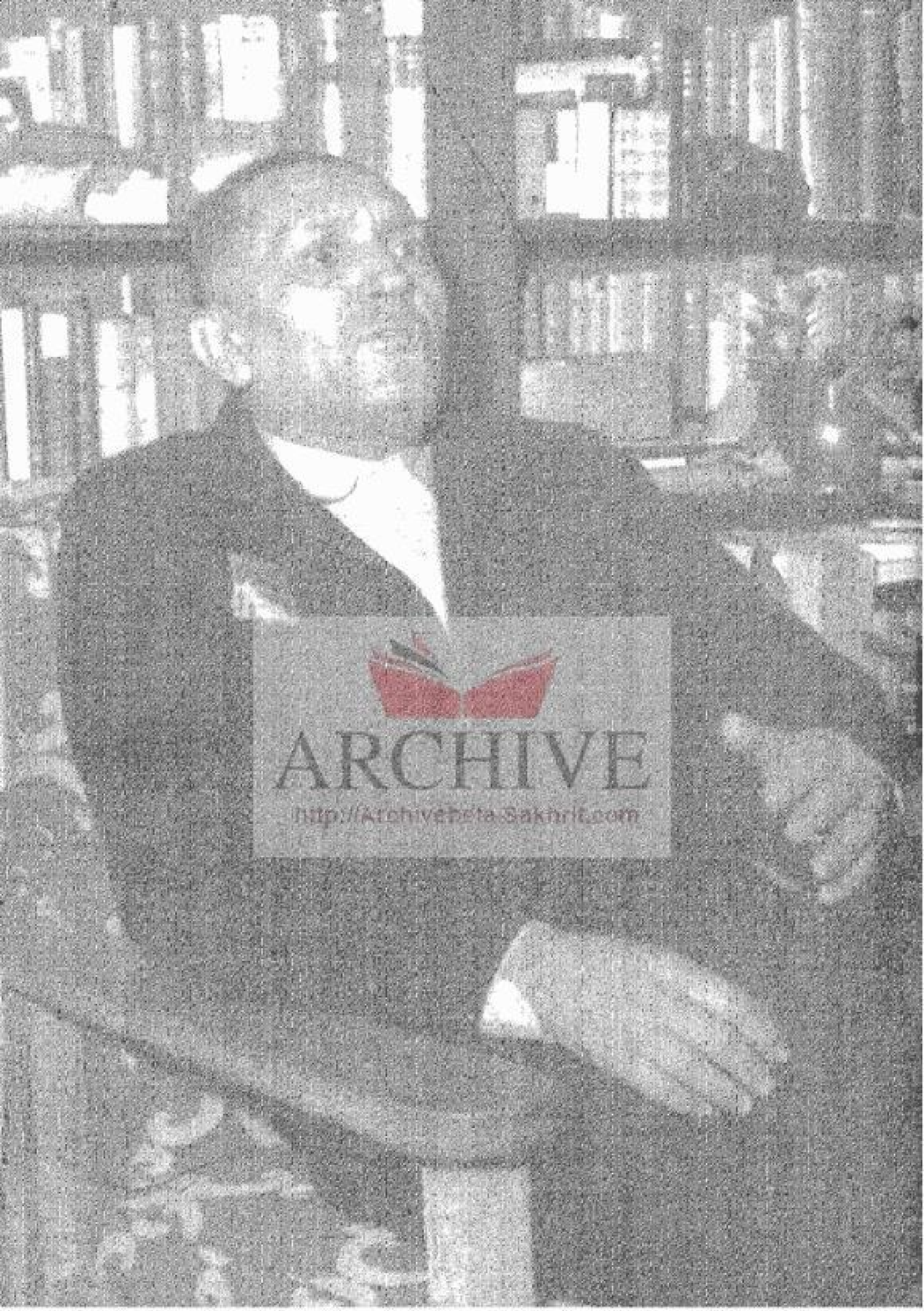
الدكتور

حسين فوزى

معاصرنا

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

لماذا أدعو الدكتور حسين فوزى المولود فى ٢١ يوليو ١٩٠٠ والمتوفى فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٨ معاصرنا؟ فى ذهنى، جزئياً، عنوان كتاب للناقد البولندى يان كوت عنوانه «شكسبير: معاصرنا» Shake-speare our Contemporary وفيه سعى إلى إقامة وشائج بين خبرة كاتب القرن السادس عشر وخبرة إنسان القرن العشرين، فرأى فى مسرحية «الملك لير» استباقاً لتجارب العبث عند بكيت وغيره. رآها هزلية ميتافيزيقية، إن جاز التعبير، وحسين فوزى - الذى قرأ شكسبير وعرفه - كان أيضاً من أبناء عصر النهضة الأوروبية، بل هو محدر أصيل من تلك السلالة التى جعلت من المنظور الهيومانى وسيلتها إلى استكشاف العالم الداخلى والعالم الخارجى على السواء، جمع فى شخصه بين طبيب العيون وعالم الأحياء المائية والقاص والناقد والرحالة ومتذوق الموسيقى والفن التشكيلى والباليه، وكان إدارياً قديراً كما كان فناناً متوحداً يلوذ فى آخر اليوم، بعد نهار حافل بالصراعات مع أقرانه من الرجال، بسكون غرفته حيث يلتمس فى الموسيقى أو الأدب أو مستنسخات الفن التشكيلى ما يزيل عن روحه أوضار السعى فى مناكب الدنيا، ويسكب فى أعماقه ذلك الصفاء الداخلى الذى لا يعرفه غير عشاق الفنون.





إننا حين نحتفل بذكرى حسين فوزي لا نحتفل بقطعة متحفية غدت جزءاً من الماضي الغابر أو حتى القريب، وإنما نحتفل بفلذة حية من لحم الواقع، واقعنا بكل همومه وأفراحه وأتراحه. مازالت مشكلاته - مشكلات المثقف داعية التنوير - هي مشكلاتنا، ومازالت انشغالاته هي انشغالاتنا، ومازالت الحلول التي قدمها، والذي أخفق في تقديمها على السواء، تناوش وعينا في عبث قاس وإصرار عنيد لا يتوقف، ولكنه لذيذ رغم ذلك، لأنه دليل حيوية وحياة. وأي قيمة لحياة قد خلت من المشاكل والصعوبات؟

كان حسين فوزي ثرى النفس، متعدد الجوانب وكأنه أحد رجال عصر النهضة الأوروبية الذي عشقه وكتب عنه، فهو، أصلاً، متخصص في طب العيون وفي علوم البحار والأحياء المائية. وهو الرحالة الأبدي الذي كتب «سندباد مصري» و«حديث السندباد القديم» و«سندباد إلى العالم الجديد» و«سندباد إلى الغرب» و«سندباد في رحلة الحياة» و«سندباد عصري يعود إلى الهند» وكلها نماذج فريدة من أدب الرحلات الذي يحوى علماً وفنارا وتعليماً وتسلية، وجداً ولهواً. ثم هو عاشق الموسيقى الكلاسيكية (شأنه في ذلك شأن الحكيم وحسن محمود ويحيى حقي ولويس عوض من أبناء جيله، وفؤاد زكريا في جيل تال) الذي ظل سنوات طويلة يتولى روائعها بالشرح والتقديم على موجة البرنامج الثاني (البرنامج الثقافي الآن) بالإذاعة، مما تجد له أثرا في كتابيه «الموسيقى السيمفونية» و«بيتهوفن». وهو المتعبد في محراب الثقافة الغربية (دون أن يفقد طابعه المصري الأصيل - ولد في درب الوطايط بحي الحسين) صاحب الكتاب الصغير الجميل «سان جوست ملاك الإرهاب» عن عصر الثورة الفرنسية وكتاب «تأملات في عصر الرينسانس» الذي صدر له قرب نهاية حياته (من غرائب المصادفة أن يختم لويس عوض أيضاً حياته بكتابين في نفس هذه الموضوعات: «الثورة الفرنسية» و«ثورة الفكر في عصر النهضة الأوروبية». ترى أي دلالة لهذا؟ أو تراه كان رد فعل ضد موجات السلفية والظلامية التي رآها هذان المفكران - ببصيرتهما الثاقبة - تزحف على حياتنا الثقافية لكي تقوض كل ما بناه رواد الفكر الهيوماني، شرقاً وغرباً، منذ القرن الخامس عشر، وكل ما سعى رفاعة الطهطاوي وطه حسين والعقاد وسلامة موسى والمازني وهيكل وأمين الخولي إلى إقامته منذ أواخر القرن التاسع عشر؟).

مما يذكر فيشكر للمجلس الأعلى الثقافة ولجنة الموسيقى والباليه بالمجلس تحت قيادة الدكتورة سمحة الخولي أن المجلس أصدر منذ عهد قريب كتابا للدكتور حسين فوزي عنوانه «في براح الفكر: اثنتان وثلاثون سندبادية» حررها وأشرف على إصدارها الأستاذ إبراهيم عبدالعزيز، وكتاب «في براح الفكر» (يذكرني العنوان بأقصوصة رائعة

للقاصة المجددة اعتدال عثمان عنوانها «وقفت فى ثقب والدنيا براح) يتألف من مقالات نشرت فى صحيفة «الأهرام» خلال عقد الستينيات. وللكتاب - صدق أو لا تصدق! - مقدمة من خمس صفحات لنجيب محفوظ العظيم يروى فيها ذكرياته عن حسين فوزى منذ عمل بمصلحة الفنون مع يحيى حقى ثم مع توفيق الحكيم وفوزى فى مبنى الأهرام (كيف تسنى لإبراهيم عبدالعزيز أن يستل هذه المقدمة من بين براثن الأسد العجوز المعروف بكراهيته كتابة المقدمات وعزوفه عن إصدار الأحكام النقدية على أحد؟). تلى ذلك مقدمة طويلة لإبراهيم عبدالعزيز، ورسائل من فوزى إلى طه حسين والحكيم. ويبدأ إبراهيم عبدالعزيز مقدمته بقوله: «جنت السياسة على د. حسين فوزى فى أخريات حياته الأدبية والفكرية والعلمية الحافلة فصار مجهول الفضل والذكرى». والإشارة - بطبيعة الحال - إلى تأييد حسين فوزى (ومعه الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض، ثم لطفى الخولى فى فترة لاحقة) مبادرة السادات وزيارة القدس، وزيارة فوزى لإسرائيل وحصوله على الدكتوراه الفخرية من إحدى جامعاتها، مما أخذه عليه كثيرون. وهنا أقول، دون ترقيق من حواشى الكلم: ليس فى هذا الموقف ما يعيب حسين فوزى، وليس لأحد أن يزايد على وطنيته وهو المصرى العريق المغروس حتى النخاع فى تاريخه وقوميته. فقد كانت اللحظة التاريخية آنذاك تبرر ذلك، وقد لاح وقتها أن السلام بين الجارين المتعاديين صار قاب قوسين أو أدنى، ورأى فوزى (وأحسبه فى هذا على صواب) أن التبادل الثقافى بين مصر وإسرائيل خليق أن يكسر كثيراً من الحواجز النفسية بين الشعبين، وأن يمحو قسماً ليس بالقليل من مرارة الماضى، وأن هناك رقعة من الإنسانية المشتركة (تتجسد فى الفن والعلم والأدب) يمكن أن تجمع بين الثقافة العربية والثقافة العبرية. ليس إذن، لدى حسين فوزى ما يخجل منه، ولا يحتاج إلى اعتذار. لقد كان وطنياً مخلصاً، ومفكراً شجاعاً مستقلاً، وفناناً هيومانى النزعة رحب النظرة يعلى من القيم الإنسانية العليا ويراها أبقى من صراع القوميات وتقلبات السياسة.

وفى الكتاب الذى وضعه إبراهيم عبدالعزيز بين أيدينا (وقد أعده صاحبه للمطبعة فى باريس فى ١٣ سبتمبر ١٩٨٢) نرى خصائص حسين فوزى كاتباً ومفكراً وفناناً كما عهدناها فى أعمال له سابقة، ولكنها هنا قد استحصدت واستوت على سوقها: إنه الجوال الأبدى فى حقول المعرفة، كاره الابتذال والدمامة، الجامع بين خير ما فى حضارة الغرب وتراث الشرق. إنه يروى حواراً له مع صديقه توفيق الحكيم، ويكتب عن سلاح الفكر وكيف كان من أمضى أسلحة الثورة الفرنسية، وعن الفنان المصرى القديم، وعن تانيس عاصمة الرعامسة والمسلات، وعمارة حسن فتحى، ومعنى التقدم والتخلف، وقصة هاروت وماروت، وفن القصة، ومقابلة أجراها نيلز دالجرن مع الروائى الأمريكى فوكنر قبيل وفاة هذا الأخير فى ١٩٦٢، وألبرت شفايتزر الطبيب الفيلسوف محب الإنسانية، وأينشتاين،



«وحوار الموتى» للكاتب الاغريقى لوقيانوس أو لوسيان. وثمة مساجلات مع أحمد الصاوى محمد ومع أمين الخولى الذى نقد مسرحية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» من منطلق تاريخى وفقهى فانبرى فوزى للدفاع عن صديقه الحكيم، ورسم المصور الإيطالى كارفاجيو للقديس متى صاحب الإنجيل المعروف. كذلك يكتب حسين فوزى عن الفن التشكيلى، ويناقش آراء المستشرق الفرنسى جاك بيرك، ويعرض مسرحية للكاتب المسرحى الفرنسى فيركور صاحب «صمت البحر»، ويقدم صورة لمصر فى ستينيات القرن التاسع عشر كما انعكست فى مرآة روائى وصحفى فرنسى، ويختم الكتاب بفصل عن رواية الأديب الروسى لرمنتوف «بطل من زماننا» (لها ترجمة عربية بقلم المترجم السورى الكبير، ناقل دوستويفسكى وبرجسون، سامى الدروبى).

يتكامل هذا الكتاب وكتب حسين فوزى السابقة، كما ينبغى أن يقرأ جنباً إلى جنب مع مقابلتين أجريتا معه فى حياته: إحداهما أجراها فؤاد دوارة فى كتابه «عشرة أدباء يتحدثون» (كتاب الهلال، يوليه ١٩٦٥) والأخرى لعبد العال الحمامصى، صاحب المجموعة القصصية الممتازة «بئر الأحياش»، فى كتابه «هؤلاء يقولون فى السياسة والأدب» (كتاب الهلال، مارس ١٩٧٦). الكتاب تذكرة، جاءت فى وقتها، بما تدين به حياتنا الثقافية لهذا المثقف الكبير الذى تولى عدة مناصب قيادية فى الحياة الجامعية والثقافية، وكان من أوائل من فتحوا أعيننا على ثقافة الغرب الرفيعة وآدابه وفنونه التشكيلية وموسيقاه. ثم كان - كما أوضح يحى حقى فى كتابه الصغير بالغ الأهمية «فجر القصة المصرية» - من أعلام «المدرسة الحديثة» التى خطت بالفن القصصى المصرى خطوات واسعة نحو النضج فى العقود الأولى من القرن العشرين، وكان لحسين فوزى ذاته مساهمات إبداعية مسرحية وقصصية أذكر منها أقصوصته المسماة «السبع الحلاوة» وقد عرفنى بها الصديق الشاعر الكبير فاروق شوشة منذ قرابة أربعين عاماً.

دعوة لجمع تراثه

أريد هنا أن أحيى المجلس الأعلى للثقافة الذى يحرص - بقيادة الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور - على استنقاذ صفحات مطوية من تراثنا الأدبى لعبدالرحمن شكرى ومحمود البدوى وحسين فوزى وغيرهم، وأتمنى على إبراهيم عبدالعزيز الذى أصدر حديثاً كتابا عن أساتذة نجيب محفوظ: طه حسين والعقاد وسلامة موسى وحقى والحكيم وغيرهم) أن يستكمل العمل الذى بدأه هنا بجمع مقالات حسين فوزى التى كان ينشرها على هيئة افتتاحيات لمجلة «المجلة»، سجل الثقافة الرفيعة، إبان توليه رئاسة تحريرها فى الفترة من ١٩٥٧ إلى ١٩٥٩ حيث أن هذه الافتتاحيات - التى كانت تحمل عنوان «الحق أقول لكم» - لم تجمع بعد

بين دفتي كتاب، إنها تتضمن كتابات في موضوعات مختلفة أذكر لكم أغلبها هنا دون ترتيب: ذكـــريات عن المدرســـة السعيدية الثانوية وفكرى أباظة، حكاية عن المخرج الإيطالى فيتوريو دى سيكا، نبـذة عن الموســوعـة الكبـرى لديدرو، الموسيقى الأندلسية، المخرج السوفييتي سيرجى آيزنشتاين، التجربة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتي والصين، تأملات فى أوجـه الشبـه والاختلاف بين مصـر وأوروبا، الأزهر، فتحي رضوان، أسفار حسين فوزى إلى موسكو والمجر، بيلا بارتوك الموسيقى المجرى، آفات السينما المصرية والغناء المصرى، سلامة موسى، رواية «صوناتة إلى كرويتزر» لتولستوى، قصة «ياجوج وماجوج» للكاتب الإيطالى جيوفانى بابينى، رحيل السيدة روز اليوسف عن عالمنا، فيلم «عصيان على السفينة باونتى»، توفيق الحكيم وما أثير عن تأثره بديوان «بلاتيرو وأنا» للشاعر الإسبانى خيمينث، مسرحيتا «رجل الأقدار» لبرنارد شو و«المومس الفاضلة» لسارتر على خشبة المسرح القومى، يوحنا سباستيان باخ، رأى الجاحظ فى قضية العامية والفصحى، تدوين تراثنا الموسيقى بالنوتة، كتاب جوردون كريج «الفن المسرحى» وكتاب ستانسلافسكى الذى يحـــمل نفس العنوان، أبو بكر خيرت، المتحف المصرى، سيد درويش، الموسيـقى الفنلندى جـان سيبليـوس، زيارة الخليفة المأمون لمصر عام ٨٣٢ ميلادية، تاريخ الجبرتى، قصيدة من الأدب المصرى القديم، قضية «الدكتور جيفاجو» لباسترناك، على إبراهيم أستاذ الجراحة وعلى مشرفة عالم الرياضيات، مسرحية ثورة الموتى لاروين شو، قصيدة لبيرون، مشروع إصدار دائرة معارف عربية، مقتطفات من كتابى «قبل الفلسفة» لهنرى فرانكفورت و«تاريخ المجتمع الأوربى فيما قبل التاريخ» لجوردون تشايلد، إلى آخر هذه السندباديات المطوفة بكل أفق، الضاربة فى كل واد.

عن «أدب الأمناء»

أود أيضا أن أقدم نموذجاً من أدب حسين فوزى الرفيع، كلمة قصيرة كتبها تحية لمجلة «الأدب» التى كان يصدرها الأستاذ أمين الخولى رائد جماعة «الأمناء» وقد حدثنى الشاعر الناقد الدكتور عبدالعزيز شرف نائب رئيس تحرير «الأهرام»، أنه ينوى إعادة إصدارها كاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، مثلما أعاد إصدار مجلات «الكاتب المصرى» و«أبولو» و«الزهور». يقول حسين فوزى فى افتتاحية مجلة «المجلة» (عدد يونيه ١٩٥٨) تحت عنوان «أدب الأمناء»:

«إذا أردت أن تعرف القيمة الحقيقية لشىء ما، أو أن تزن بميزان حساس مقدار صداقتك لإنسان، فما عليك إلا أن تحساب نفسك: ماذا تكون حالك لو اختفى هذا الإنسان، أو زال هذا الشىء من حياتك؟

لبثنا أعواماً نسخر من مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» وننعى عليهما التقاعس، والانحدار عن المستويات الفكرية التى بلغتها الواحدة تلو الأخرى فى أول نشأتها، فلما اختفتا من الميدان أحسسنا بفراغ مؤلم، ولو أن بعضنا، والشباب منا على وجه التخصيص،



شيعوهما بما يشبه صــــراخ الهنود الحمر فى المعركة، وقال بعض آخر: إنهما لم تستطيعا العيش لأن حياتنا المعاصرة لا تسمح لهذا النوع من المجلات أن يعيش.

وأسائل نفسى وأنا أطالع العدد الأول من السنة الثالثة لمجلة «الأدب»: ماذا يحدث لو اختفت المجلة التى يصدرها الأمناء؟

وسأجيب عن نفسى :

أولاً : أفقد مجلة تكتب بلغة أطمئن إلى صحتها .

ولا تعجب من هذا التصريح الساذج، فإنك لا تتصور كيف تفسد لغتك ولغتى فى حياتنا اليومية، على أيدى الصحف والمجلات والمكاتبات الحكومية، والإعلانات فى السينما، وفوق الجدران، ولغة بعض الإذاعيين.

لقد نسيت قواعد النحو والصرف والبيان والبديع، ولكن مطالعتى العربية فى كتب القدماء والمحدثين من أئمة اللغة، واستماعى لتلاوة القرآن، وأحاديث المجودين ومحاضراتهم، تشحذ إحساسى السليم باللغة الصحيحة، وتردنى إلى الصواب إن أخطأت، وتدلنى على الحقيقة فى موضع الشك، فاللغة العربية لغة شاقة وعرة، لا تنفع فيها ألفية ابن مالك ولا أبى مالك، إنما هى لغة أشبه بلغة الموسيقى، أهم شىء فيها أن تكون أذنك مهيأة لها، حساسة باللحن فيها (وكلمة اللحن هنا تؤدى المعنيين).

لا يكفى أن تؤجر الصحيفة أو المجلة مصححاً لأسماء إن وأخواتها، وإنما الذى أعنيه بصحة اللغة سلامة الأسلوب، والإحساس الفنى عند الكاتب والمحاضر، وإلا فخير عندى ألف مرة أن أستمع لتحدث باللغة الدارجة، أو أقرأ لكاتب أزجال ومواويل من أن أعود أذنى الفهاهة والتفاهة والعى.

وثانياً: أفقد مجلة صادقة فى كل صفحاتها صدق ما ترويه فى صدرها، فهى «الأدب» فنية، شهرية يصدرها الأمناء».

من الأمناء؟ لا أدرى وإن عرفت بعضهم، وما أسهل أن أسأل شيخهم، وهو جارى فى أكثر من مجلس! ولكن ما حاجتى بالسؤال، ومجلة «الأدب» جعلتنى أعرفهم عن طريق تفكيرهم، وأسلوبهم، وسجاياهم من تحدثت إليهم؟ يكفينى أن يكونوا حفاظاً للغة، أمناء على الفكر.

وثالثاً : إذا غابت مجلة «الأدب» انطفأ مصباح، منير وهاج من مصابيح الثقافة والفكر السليم، وأعتذر عن صيغة الجمع هذه، فما أعرف للثقافة مصلحة كمصلحة الغاز والكهرباء !

ورابعاً : إذا غابت مجلة «الأدب» فإن ذلك نذير باختفاء مجلتنا هذه، وإنذار بأننا على شفا إفلاس ثقافى. وما أحلى الجهاد يحمل لواءه رفيقان متحابان! و«المجلة» إذا تحيى شقيقتها، تحنى لها الرأس إعزازاً وإكباراً .

وأخيراً : اختفاء مجلة «الأدب» معناه

اندحار قوى الشكيمة والمثابرة، أمام السهولة والغثاثة والملق، فمجلة «الأدب» من رأسها إلى أخمص قدميها وليدة الإرادة، إرادة الخير، وبنت الإخلاص، وربيبة الإيمان بالمثل العليا».

لن أتوقف هنا عند الخلق الرفيع الذي يجعل رئيس تحرير مجلة يحيي مجلة أخرى قد تقوم بينها وبينه شبهة تنافس أو صراع، فقد كان هذا الخلق العالي أمراً عادياً لا يستثير دهشة في ذلك الجيل العظيم. لكني أتوقف عند هذه الكلمات المكتوبة منذ أربعة وأربعين عاماً لأجد كل ما فيها حياً طازجاً نحتاج إليه اليوم. ما الصفات التي يزكيها حسين فوزي في مجلة «الأمناء»؟ إنها صحة اللغة، وصدق المحتوى، وعلو الأفق الفكري الإبداعي الثقافي، وكلها أمور نحتاج إليها اليوم - بل لعل حاجتنا إليها أشد - كما كنا نحتاج إليها في أواخر الخمسينيات. وهكذا كان الشأن في أغلب ما كتب حسين فوزي - مع التسليم بأن فيه قدراً زائل القيمة عابر الأهمية: إنه سهم منطلق في اتجاه المستقبل، يستبقي من الماضي ما هو جدير بالحياة وبالنماء، ويلتحم بمشكلات الحاضر.

مفكر لن يتكرر

حسين فوزي ابن لحظة تاريخية لن تتكرر، ومن ثم فهو مفكر لن يتكرر. لقد ولى عصر المفكر الموسوعي، على طريقة ليوناردو أو جوته، ودخلنا عصر التخصص الدقيق بل الأشد دقة مما ينبغي بحيث كادت تغيب عنا الصورة الكلية للغابة في غمرة انشغالنا بتأمل أشجارها المفردة. قد نجد علماء أكبر من حسين فوزي، أو أدباء أعظم موهبة، أو رحالة أعمق معرفة بالأماكن التي زاروها، أو محللي موسيقى أقرب إلى الاحترافية Professionalism وأبعد عن لمسة الهواية amateurishness التي لعلها قد شابت بعض جهوده في التقديم والتعريف. ولكن أين نجد رجلاً واحداً - في يومنا هذا - جمع في شخصه بين كل هذه الجوانب؟ إنه مثل يانوس في أساطير الإغريق ينظر بعين إلى بلاغة الجاحظ والتوحيدي والدميري وابن إياس والجبرتي، وبعين أخرى إلى تراكيب العامية المصرية وصورها ومأثورها الشعبي وتترقرق فيها روح شعبية حلوة كتلك التي تجدها في شعر البهاء زهير، وفي نثر المازني ويحيى حقي وإدوار الخراط. انظر رائعتيه «حديث السندباد القديم» «وسندباد مصري» وهما عندي خير ما كتب وأبقاه على الزمان. قل عنه ما شئت تحبيذاً أو نقداً، ولكنه في كل الأحوال يظل شاهداً ساطعاً على خصب الخبرة الإنسانية وقدرتها على التأليف بين أبعد الأقطاب على الثراء الروحي والعمق الفكري ودربة الحساسية حين تجتمع في إهاب. وما أحوجنا إلى هذا كله في عصر يزداد - مع كارثة العولمة وسيادة قيم المجتمع الاستهلاكي - سطحية وابتذالاً وزيفاً عاماً بعد عام، بل شهراً بعد شهر، بل يوماً بعد يوم. ■

كلمة حق

عن السفير د. مصطفى كامل

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

قرأت كتاب «حكايتي مع الدبلوماسية» للأستاذ جميل مطر قراءة مستوعبة، إذ دفعتنى إلى ذلك دواع عديدة لا تقف عند مجرد الإعجاب بالكاتب ومنهاجه الشيق فى العرض، بل كانت هناك الى جانب ذلك دوافع ذاتية فقد كنت على صلة بكثير من الوقائع التى تناولها المؤلف، وبالعديد من الأشخاص الذين تعرض لهم.. وكان من بين ما أثار اهتمامى. حديث المؤلف عن شخصية كان لها أثر فى حياته، لا يزال يذكره ويتذكره رغم انقضاء أكثر من اربعين عاما على الوقائع التى يرويها. وربما كانت لنا وجهة نظر أخرى تخالف نظرة المؤلف بالنسبة لتلك الشخصية التى تحدث عنها الأستاذ جميل مطر حديثا مطولا فى أكثر من موضع من مؤلفه، كان إيجابيا فى أول الأمر، ثم ما لبث أن صار حديثا سلبيا لا يروى سوى العديد من الأخطاء التى يمكن اغتفارها، ثم ما لبثت أن أصبحت خطايا وآثاما تجل عن الغفران.

وإذ لم نكن بصدد الدفاع عما رواه المؤلف من أخطاء وخطايا نسبها إلى صاحب تلك الشخصية، إلا أن لنا وجهة نظر مخالفة بشأن صاحب الشخصية، التى تناولها جميل مطر بحديثه ـ نرجو أن يأذن لنا الهلال بالتعبير عنها فى هذه السطور بأن نقدم صاحب تلك الشخصية المحورية – من منظورنا الشخصى – الذى قد يكون متميزا، وإن

مال إلى الإنصاف دائما ، مع التريث فى إصدار الأحكام التى ما يصح أن تبنى على الشائعات أو المقولات المرسلة .

وإذ نعرض لصاحب تلك الشخصية فإننا نذكر أنه ما كان اختياره ليكون سفيرا لمصر فى الهند إلا لما تميز به من سعة أفق ، وعمق تفكير، وشخصية آسرة مؤثرة. مع علم غزير وإجادة لأكثر من لغة. وهو أن تخصص فى القانون ، ونال فيه أعلى الدرجات العلمية وقام بتدريس القانون العام بكل فروعه لأكثر من جامعة كانت آخراها جامعة القاهرة. إلا أن أولى الأمر من أوائل عهد الثورة، وبعد ما تحقق لمصر من مكانة عالمية بدورها الرائد فى مؤتمر باندونج. رأوا اختياره ليكون واحدا من سفراء مصر الناطقين باسمها فى الخارج، والممثلين لها لدى هذه الدولة أو تلك. فكان اول منصب تولاه هو سفير مصر فى الهند ومن بعده شغل منصب سفير مصر لدى الولايات المتحدة فى فترة من أحرج الفترات. وفى المنصبين أثبت بالفعل كفاية واقتدارا وأدى مهامه خير أداء يشهد بذلك ما قدم من تقارير، وما أجرى من اتصالات، وما حقق من نجاحات. وأشهد بأن كفايته تلك كانت مصدر حسد لدى كثيرين، وكانت تلك الكفاية مقترنة بزهد فى الحياة، وترفع عن الدنايا، ونأى عن الإغراءات أيا ما كان وزنها أو نوعها، وكان كل ما يهمه هو الأداء الجيد، والإخلاص المتناهى، والدقة الكاملة، فما أوفدته مصر إلا ليرفع رأسها، وليعمل على رفع مكانتها، وإذ يتحدث عن سياستها - فإنه يقدم لحديثه بالأدلة الحقيقية والملاحظات الذكية، مستعينا بحاضرها المشرق، ومستقبلها المبشر غير ناس ماضيها الذى خلده التاريخ.

ذلكم هو الدكتور مصطفى كامل. الذى كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم اعتزل العمل الدبلوماسى بل والعمل العام، وقضى الشطر الأخير من حياته متنقلا بين مصر ودول أوروبا حتى وافاه الأجل بعد عمر حافل بالجهاد .

والواقع أنه ترك فى القانون ذخيرة طيبة من المؤلفات شملت القانون الدستورى والقانون الإدارى وربما كان كتابه عن القضاء الإدارى من أوائل الكتب التى ظهرت فى هذا الفرع الحديث من القانون.

ولنا أن نقرر أن دوره كأستاذ للقانون العام – وقد كنت واحدا من تلاميذه - كان دورا كبيرا ومؤثرا ، فهو المحاضر المتميز والعالم الثبت، والأب العطوف الحنون، وكتبه من أعمق المؤلفات فكرا، ومن أبدعها عرضا وأسلوبا وتناولا للموضوعات العلمية والفقهية.

وما كان اختياره سفيرا لمصر إلا رغبة فى الإفادة من علمه وفضله فى مثل هذه المواقع التى تحتاج - فى بعض

الأحيان والظروف – إلى من هم فى مثل علم وفضل الدكتور مصطفى كامل.

والعجيب فى الأمر أن يطالعنا كتاب الهـلال ـ عـدد أبريل ٢٠٠٢ ـ بمؤلف للأستـاذ / جـميل مطر يحـمل عنوان : «أول حكاية : حكايتى مع الدبلوماسية» وقد ورد فيه ذكر لهذا الرجل فى أكثر من موضع، وهو وإن تحاشى أن يذكر اسمه إلا أنه كان يشير اليه دائما بأنه :

«السفير الدكتور الذى يرتدى بدلة سوداء، ويضع نظارة سوداء، ويربط عنقه بربطة سوداء، وفى قدميه جوارب سوداء وحذاء أسود».

وقد تكرر هذا الوصف عبر صفحات الكتاب أكثر من مرة، وكلما عرج الحديث إلى صاحب تلك الشخصية التى كان لها ـ ولاشك ـ دورها البناء لا يمكن اغفاله فى المجالات التى عمل فيها صاحبها، وفيما أسند إليه من مهام وطنية جسيمة. الأمر الذى يدعونا الى التساؤل: أما كان الأجدر ـ والأقرب الى الإنصاف ـ أن يكون اختيار كاتبنا لتعبير آخر وهو يتحدث عن تلك الشخصية الأسرة المؤثرة ـ حتى وإن اختلف رأيه بالنسبة لها ـ تعبير يكون أكثر موضوعية ودلالة دون الوقوف عند لون النظارة والثياب وربطة العنق والجوارب والحذاء..!!

وحكاية جـميل مطر مع السـفـير مصطفى كامل انه التقى به عندما ألحق الكاتب للعمل بسفارة مصر فى الهند،



جميـل مطـر

وقد سعد بلقائه للسفير، وتعامله معه حتى اختاره للعمل فى مكتبه، وكان يتعاون معه، وقـد وضـع فـيـه ثقـتـه، وأولاه تقـديره، واستعان به فى العديد من المهام والأعمال، وكانت علاقة السفير به لا تقف عند الحدود الرسمية، بل كان يتعامل معه فى بساطة وعدم تكلف، يزوره فى بيتـه، ويشـاركـه جلساته هو وزملاءه، ثم اصطحبه معه فى مهمة مكلف بها لدولة تحقق لها الاستقلال حديثا، وهنا يرى كاتبنا أمرين أولهما: أن السفير فى تلك الرحلة شغله بأن راح يملى عليه ترجمة كاملة لمقال منشور فى إحدى المجلات الأجنبية – والثانى – أنه عندما جرى استقبالهما فى تلك الدولة حديثة الاستقلال جعل السفير يقارن بينها وينتقد ماهو قائم فى مـصـر من أوضـاع . وعند العودة الى الهند، حدث خلاف بين الكاتب والسفير كان مرجعه ما أبدى من انتقاد لبعض آراء السفير. كما يذكر ضمنا أن تلك المقالات التى يترجمها ويمليها عليه كان يبعث بها السفير الى الجهات المسئولة فى مـصـر على أنها آراؤه أو تعليقاته. ويذكـر أنه على أثر مـا أبداه الكاتب من رأى مخالف، ضاق به السفير، فقد بادر

يطلب من الجهات المسئولة اتخاذ اجراءات حازمة ضده حيث وصفه بأنه لا يصلح، بل ويضيف أن السفير ظل يلاحقه ليلحق به بالغ الأضرار لولا أن هيأ الله له من قدر مواهبه واحتضنه واقتنع بكفايته واقتداره .

تلك هي القصة التى رواها الأستاذ/ جميل مطر فى كتابه والتى شغل بها العديد من صفحات الكتاب، وربما كان لنا أن نعلق عليها بالملاحظات الآتية :

– إن هذه روايته هو . ولم يعد من المتاح أن نسمع رواية الطرف الآخر عنها .. ومن ثم فنحن لا ندرى ما دفع السفير الى ذلك الموقف.. ربما كان ثمة خلاف بين حقيقة ما وقع، ونص ما يرويه الكاتب، بل وربما حتى لو لم يكن هناك اختلاف فى الرواية فربما كان ثمة خلاف فى وجهات النظر، ومن ثم فليس لنا أن نسلم بهذه القصة على إطلاقها، وانما نأخذها بحذر.

– إن قيام الدكتور مصطفى كامل بترجمة ما يلفت نظره من مقالات فى المجلات الأجنبية وموافاة المسئولين بها انما هو عمل جيد ربما لا يجيده كثيرون، ومع ذلك فإن لى أن أشك فى أنه كان ينسب ما ورد فى تلك الترجمات من آراء لنفسه، فالذى أعرفه عن أمانته العلمية يجعل تصديق ذلك أمرا مستحيلا. وإذا سلمنا مع الكاتب بحدوثه فإنه يكون خطأ يمكن اغتفاره.

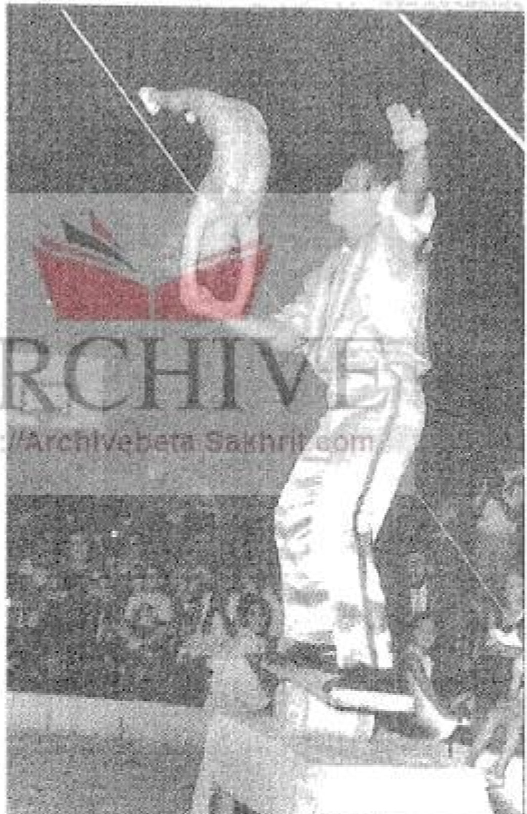
أما عما أشار اليه الكاتب من أن الدكتور مصطفى كامل تعقبه حتى بعد أن نقل من الهند وظل مصرا على إلحاق الأذى به، فتلك رواية للأستاذ / جميل مطر. تحتمل بالطبع أكثر من وجه. وربما كانت حماسة الشباب وراء تلك الرواية.. ونحن لا ننفي صدق الرواية، لكننا نرى أنها ربما نقلت اليه في مبالغة من الرواه .

ويبقى أن الأستاذ / جميل مطر فى أول حديثه عن الدكتور مصطفى كامل قد أشاد به، وتحدث عن كفايته ومقدرته، وعن شخصيته الودودة والبسيطة. وربما كان مايعيبه ـ فى رأيه ـ هو أنه كان يميل إلى الجدية في معظم الأحيان .

وفي ختام هذه الكلمات أقول إننى وقد عاشرت الدكتور مصطفى كامل واقتربت منه كثيرا فإننى أقرر انه كان شخصية سمحة طيبة ودودة ولم يكن يحمل حقدا لأحد وكانت دوافعه دائما هى حب مصر والتفانى فى خدمتها . ورغم ذلك فقد لقى فى أخريات أيامه تعنتا وحربا لم يكن لهما ما يبررهما إلا أنه قد تلقى ذلك بصبر وإيمان حتى وافاه الأجل ـ رحمه الله ، فقد كان، رغم حديث جميل مطر عنه، إنسانا نادر المثال، قدم لوطنه الكثير مما يبقى له فى مجال أعماله الطبية. ■

من هو؟

بقلم
د. يحيى الجمل



أحد عروض السيرك

سيدى

هل تعلم أنه لم يبق من لاعبى السيرك غيرك أنت وحدك الذى تقفز من حبل إلى حبل من لعبة إلى لعبة وأن كل الصحاب القدامى منهم من وقع من حالق فدقت عنقه ومنهم من قضم الأسد ذراعه فلم يعد يصلح لشئ ومنهم من فقأ القرد عينيه فأصبح ضريراً يتكفف الناس ولا يستطيع أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن يأخذ أحد بيده .

أنت وحدك دون الجميع بقيت حيث أنت تؤدي دورك وتقوم بألاعيبك وتنتقل من نمرة إلى نمرة ورغم أن السيرك قد تغير عليه عدد من الملاك والمديرين إلا أنك أنت وحدك بقيت محل رضا الجميع رغم اختلاف مشاربهم وميولهم ونوعية الجمهور الذين يحرصون على اجتذابه .

وما أكثر رواد السيرك من المعجبين بأدائك وقدرتك ومهارتك . وما أكثر أولئك الذين يريدون أن يلتحقوا بالسيرك يؤدون هذه اللعبة أو تلك أو يقومون بتلك النمرة أو تلك وقد يلقى بعضهم بعض القبول ويؤوب كثرتهم بخفي حنين .

وأنت هناك تنظر إلى الجميع من رواد السيرك ومن راغبي العمل بابتسامة غامضة لا يستطيع أحد أن يسبر أغوارها أو أن يدرك معناها.

وكلهم ينظرون إليك بإعجاب.

بعضهم لا يخفى مع الإعجاب حقداً دفيناً.

وبعضهم يحيط إعجابه بكثير من النفاق الفج أحياناً والمتقن أحياناً أخرى.

وأنت حيث أنت تعاملهم جميعاً برفق وأدب بارد وفي نهاية الأمر لا ينال أحد منهم منك شيئاً قط.

الناس جميعا في نظرك سواء.

ليس فيهم أعداء ولا أصدقاء.

كلهم كلهم عدو محتمل وصديق محتمل.

وهكذا كفيت نفسك شرهم وعرفت زيف ما عندهم من ود وحب وتقدير.

وحاروا جميعاً في أمرك.

إلا صاحب السيرك فإنه أخذ منك أحسن ما عندك.

وأنت بدورك لم تبخل عليه وأعطيته ما في وسعك من مهارة وخفة حركة وخبرة بعالم الحيوان والإنسان.

وأدركت منذ وقت مبكر - منذ أول صاحب سيرك تعاملت معه - طبيعة مأموريتك وأتقنتها ولم تفكر يوما في أن تحيد عنه وأخذت عبرة من كثيرين من لاعبي السيرك الآخرين عندما خطر في ذهنهم في بعض لحظات أن يتخطوا حدود مهمتهم أو ينظروا إلي أبعد مما قدر لهم فإذا بهم يخسرون كل شي وإذا بهم يتركون لوحوش السيرك ينهشونهم بغير رحمة.

وحرصت منذ وقت مبكر أيضا - منذ الصاحب الأول للسيرك - أن تظل بعيداً عن الأضواء لا تزاحم فيها أحدا. إن الأضواء ليست هي طلبتك فأنت قد

عرفت أنها أضواء زائفة غير صحيحة وأنها لا تسمن ولا تغنى من جوع وأن عمرها قصير كل القصر، أقصر حتى من عمر الشموع.

وصدق حدسك. كل الذين تكالبوا على الأضواء ضاعوا كما تضيع الفراشة تحوم حول المصباح فيحرقها، وتساءل الجميع عن قدراتك تلك الخارقة التى وصلت بك إلى ما وصلت اليه ونسوا جميعا انك رجل درست المسرح دراسة جيدة وعرفت ابعاد اللعب فيه وما يتاح فيه من أدوار ولمن من اللاعبين.. ورضيت بدورك وأتقنته إتقاناً غير محدود بحيث لم يعد عنك فيه غنى.



ولم تخدع نفسك ولم تخدع غيرك. أنت لا تطلب مجداً. وليس فى السيرك مجد. إنما أنت تطلب دوراً وأعطيت الدور. وأتقنت الدور وبرعت فيه إلى المدى الذى لم يعد أحد يجرؤ على أن ينازعك فيه أو ينتزعك منه.

أتذكرذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى أحد الصحاب تدعوه فيه إلى العمل قريبا من السيرك فقال لك ذلك الصاحب إننى لا أستطيع أن أعمل مع فلان فبادرته بهدوء بارد ولماذا فلان فقط وهل يرضيك فلان وفلان وفلان إنهم جميعا ليسوا أفضل منه ولا أسوأ منه. إنهم هناك لأنهم مطلوبون وعليك أن تتلاءم معهم . بل إن عليك أن تدرك أن أدوارهم قد تكون أهم من دورك وأبقى وأنفع لصاحب السيرك لامم نفسك معهم إن كنت تريد أن تدخل هذا الميدان وإلا فاتركهم فى حال سبيلهم واذهب إلى حال سبيلك غير مأسوف عليك وإن تصورت أو صور لك البعض غير ذلك من أوهام .

ومضى كثير من الفرقاء إلى حيث يدعون أنهم راضين عن أنفسهم وإلى حيث الظلام يتصورون أنه عارض وهو مقيم .، ومضيت أنت «تنط» من حبل إلى حبل وتقفز من شبكة إلى شبكة وتلاعب كل الحيوانات لا تخشى من بأسها شيئاً حتى كأنها أصبحت لك بديلاً عن كل الأصدقاء .

والله على كل شئ قدير ، ■

خجولة

شعر :

د. هيثم الحوبيج العمر - دمشق

خجولة ياليتني لم أكن ... خجولة أخاف شمس النهار

ياليتني جريئة كي أرى ... كواكب الحب وحقل الهزار

ها قد دعاني اليوم شاب إلى ... حفل ولكني أهاب البحار

ماذا إذا لم أحسن الرقص في ... هذا المسا بين يدى شهريار

وهل .. وهل هذا الفتى المرتدى ... قبعة البحر يحب القمار؟

أم أنه يحبني مثلما ... أحببته نجماً طويل المدار

ماذا إذا ارتبكت في الحفل أو ... رأى حماقتي حبيبي وطار

إلى ذراع امرأة ، عينيها ... جريئة وثغرها كالمطار

ملابسي قديمة ، لونها ... مكتئب كأنها في شجار

هذا الحذاء شكله مرعب ... يصافح الإحباط فيه الغبار

والشجا حقيبتي استسلمت ... لنزل مستسلم للدمار

والكحل لن يليق بي ، كم أنا ... كالحة من دعوة مثل نار

ما أسخف الأعذار قدمتها ... سكبتها على زوايا السوار

لو إنني مقدامة في الهوى ... لما .. لما خفت نداء البحار

حقيقة واحدة كالقنا(١) ... تطعنني ، تطعن نور النهار

تملأ عيني بدمع الأسى ... ترغمني دوماً على الاعتذار

خجولة أعوم في حمرتي ... أبدو كحمقاء إذا الحب ثار

(١) القنا : الرماح

تجليات على أرض الخصوصية



تكوين للفنان أحمد عبد الحميد

بقلم
عز الدين نجيب

فرض الرحيل المفاجئ للخزاف الكبير د.نبيل درويش فى الشهر الماضى عن عمر يناهز ٦٢ عاما ، ظله الثقيل على الحركة الفنية والثقافية ، لأنه لم يكن مجرد فنان مبدع بأستاذية واقتدار ، بل كان كذلك مشاركا إيجابيا فعالا فى الساحة ، سواء من خلال عضويته بمجلس نقابة التشكيليين لسنوات طويلة ، أو بلجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة ، أو بهيئة التدريس بكلية الفنون التطبيقية وغيرها من الكليات الفنية بالقاهرة والاسكندرية ، كأستاذ مخلص لرسالته التعليمية .

وفى كل من هذه المجالات كان دائم التفاعل مع الأحداث ، والمبادرة بطرح الأفكار والمشروعات ، للنهوض بواقع الفنون التشكيلية أو الشعبية أو التربوية فى الجامعات ، ولعل هذه الطاقة من الحيوية والإيجابية والاشتباك الدائم

مع الأحداث كانت نابعة من قدر عظيم من الحلم بالتقدم لبلده الذى ذاب فيه عشقا .

نبيل درويش .. ورؤيته للهوية

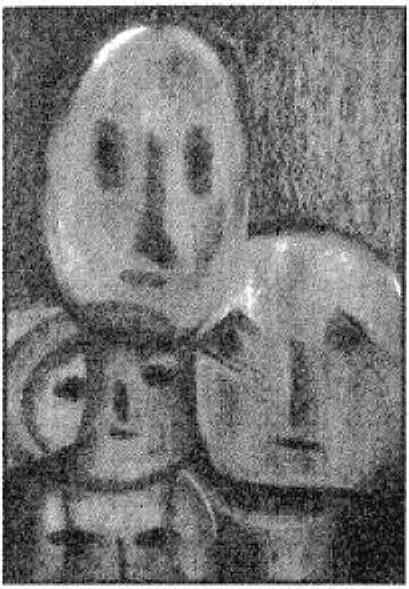
لكن رؤيته للتقدم كانت فى اتجاه عكسى مع دعاة اللحاق بالنهضة الأوروبية أو العالمية الحديثة ، حيث كان يرى أن التقدم الحقيقى يبدأ بالعودة إلى جذورنا الحضارية وإلى جوهر القيم الكامنة فيها ، لنستمد منها زادنا وزوادنا وعدتنا للمستقبل ، فبغير ضمير أخلاقى وعقيدة إيمانية بالحب وبما بعد الحياة - كما



الفنان الراحل نبيل درويش

كان عند المصرى القديم - وبغير ارتباط بين العلوم والتكنولوجيا والفنون والصناعات من جهة ، وبين قيمة الخير والحب بين البشر فى ارتباطها جميعا بفطرة الحياة وجوهر الطبيعة وبساطتها من جهة أخرى ، وبغير تأكيد على وحدة الأمة ، بذوبان الفرد فى الجماعة والجماعة فى الفرد ، وعلى قيمة التواصل بين الحضارات المتتابعة وامتزاجها فى نسيج يمثل شخصية الأمة .. بغير ذلك كله فإن أى تقدم علمى أو تكنولوجى لا يعنى إلا التبعية لثقافة الغرب ، وإلا الغربة للإنسان عن ثقافته وجذوره ، التى تنتهى بعزلة الفن عن المجتمع واغتراب الفنان فيه .

عاش نبيل درويش بهذه المنظومة الفكرية على هدى أفكار أستاذه الفنان سعيد الصدر رائد فن الخزف الحديث فى مصر ، الذى ظل يعترف بفضله عليه وإن حرص على أن يؤكد تجاوزه لما وصل إليه أستاذه من كشوف وابتكارات فى تقنيات وجماليات الخزف ، كما عاش على هدى فلسفة المفكر الأستاذ حامد سعيد حول الفن والحياة ، وهى لا تخرج كثيرا عن جوهر تلك الأفكار ، وإن لم يتطرق درويش إلى أنه ينتسب إليها أو إلى ذكرها ، بل سعى إلى تحقيقها عمليا من خلال مشروعه الإبداعى طوال ما يقرب من أربعين عاما ، فلم يكتف بتأمل الطبيعة أو تأمل منجزات الحضارات المصرية المتعاقبة ، بل تعمق فى دراسة دوافعها الفلسفية والعقائدية وارتباطها بالحياة والخلود وبالعادات والتقاليد ، مؤمنا بقدرة الإنسان المصرى البسيط على الإبداع ، مما جعله يستلهم الكثير من أشكاله وتقنياته ويتعلم منها ويضيف إليها ، خاصة فيما يتعلق بالخزف الأسود والتوصل إلى أسلوب صنع الفوهة السوداء للإناء كما كان يستخدمها المصريون القدماء ، والتوصل أيضا إلى سر عملية الاختزال بالطريقتين الفرعونية والاغريقية / الرومانية ، خاصة فى الرسم على الإناء بالكربون أو بالدخان



«أقنعة» للفنانة شادية القشيرى

وليس بالأكسيد ، وغير ذلك من الاكتشافات مثل التوصل إلى الطينة الزرقاء والطينة البيضاء على زرقاء أو سوداء .. إلخ .

وقد ساقه هذا الإيمان المطلق بما اعتنقه من أفكار وما توصل إليه من اكتشافات إلى حافة التعصب ، وإلى اتخاذ موقف حاد ضد مشجعي تيارات الفن الحديث المتأثرة بأساليب الغرب بعيدا عن جذور الهوية المصرية ، جعله مستهدفا للهجوم عليه والعمل على تهميشه على الساحة الفنية ، وأدى ذلك بدوره إلى ترسيخ الشعور بداخله بالاضطهاد ، ومن ثم إلى قيامه بعملية تعويض ذاتي ، بالزهو دائما بعبقريته غير المسبوقة وريادته المطلقة لفن الخزف المعاصر في مصر ، بينما هو في حقيقة الأمر - بعيدا عن هذا الصراع السلبي - كان إنسانا ودودا ومحبا للحياة وشديد البساطة والتواضع والسماحة، يقدر موهبته العظيمة المتفردة ، ولعل هذا الشعور المركب (بين الاضطهاد والعظمة) قد استهلك كثيرا من طاقاته وضاعف من طعم المرارة في أعماقه بغير طائل .

لكن تراثه الضخم من أعمال الخزف بمتحفه الذي أسسه وأهداه إلى وزارة الثقافة ، جدير بأن يحسم مع الأيام هذه الاشكالية المتجددة للهوية والتواصل مع العصر ، خاصة وأن أعماله ذاتها تحمل الكثير من الإجابات لحل هذه الاشكالية ، وربما كان تصديه شخصيا للأطراف الأخرى في الصراع بشأنها ، وخلطه في ذلك بين الجانب الذاتي والجانب الموضوعي ، من أسباب تصاعد الموقف المضاد له وتفاقم رد الفعل بداخله ، في حين أن بعض كبار النقاد أنصفوه وأبرزوا في كتاباتهم عنه أهمية خبراته واكتشافاته .

وعلى أي حال ، فإن حركة النقد الموضوعي ومسار الفن الملتزم بالهوية سوف يتوليا نيابة عنه دور التقييم الحق لمجمل مشروعه الفني ، مما يضعه في مكانه اللائق به في تاريخ الفن المصري المعاصر .

هاجس الهوية المتصاعد

إن المتابعة النقدية لما تقدمه قاعات العرض في السنوات القليلة الماضية حتى الآن

، تثبت أن تيار الفن القومي النابع من خصوصية التراث وجماليات الفنون الشعبية وزخم الحياة الفطرية ، يتنامى ويتسع أبعد من حدود المساحة الضيقة التى كان محصورا فيها قبل ذلك فى قاعات الدولة ، بينما أوشك هذا التيار أن يكتسح أغلب ساحات العرض بالقاعات الخاصة ، ولو بدافع تجارى ، باعتبار أنه الأكثر مبيعا بالنسبة لتيارات الحداثة على الطريقة الغربية ، خاصة التجريد بأنواعه و«العمل المركب» بشطحاته ، ولا شك أن القائمين على قاعات الدولة ، الذين كرسوا فرص العرض فيها - لزمن طويل - للتيارات الحداثية بهذا المعنى، قد أدركوا - مع تغير الأوضاع والمواقع والحسابات فى السنوات الأخيرة - مدى العزلة التى وجدوا أنفسهم فيها ووجدتها أيضا تلك التيارات ، حتى اقتصرت على مخاطبة شريحة بالغة الصغر من المجتمع ، بعد أن ضعف الاقبال على اقتناء أعمالها .. وهكذا قلت تدريجيا درجة التشدد لدى القائمين على الحركة الفنية من أصحاب «الدوجما» الحداثية الثابتة المنساقين خلف النموذج الغربى دون قدرة على تزويجه بجماليات الواقع والشخصية المصرية ، فأفسحوا هامشا أخذ يتسع على خريطة المعارض التى تقدمها الدولة للفنانين .

فوق هذا الهامش قدمت قاعات مجمع الفنون بالزمالك فى الشهر الماضى معرضين مهمين لفنانين من أصحاب هذا التيار ، أحدهما فى التصوير والثانى فى النحت .

وجوه ثناء عز الدين

كان المعرض الأول فى التصوير للفنانة د. ثناء عز الدين ، وقد استوحت فكرته من لوحات وجوه مقابر الفيوم الشهيرة التى أنتجت خلال الحكم الرومانى لمصر بأيدى الفنانين المصريين لتوضع فوق تابوت الميت عملا بطقوس العقيدة الفرعونية ، لكنها اتخذت لديهم أسلوبا مختلفا عن الأسلوب المصرى القديم ، قد يقترب من ملامح الفن الرومانى لكن بحس شعبى يذكر بلوحة الأيقونة المسيحية .

وقد عملت ثناء عز الدين (الأستاذة بالمعهد العالى للفنون التطبيقية بمدينة ٦ أكتوبر) على إعادة إنتاج الفنون التراثية ، قبطية وإسلامية وشعبية ، فى تطبيقات وظيفية ، مثل الأزياء والعرائس والستائر والنسجيات الطباعية ، وهى معنية بخلق حالة إنسانية حية تتعايش مع الواقع بتقنيات معاصرة ، تعطى دور البطولة فيها للتأثيرات الجرافيكية والذبذبة البصرية ، على خلفية من ألوان قوية ناصعة وتأثيرات ملمسية على سطح اللوحات ، التى تخلت عن الاطار الخشبى التقليدى ، لتبقى الأعمال كمعلقات حرة تتماوج على الجدران ، بما يعيد إلى الذاكرة تلك الرقائق الجلدية أو المعلقات النسجية فى العصور السحيقة ، ويبدو بوضوح تأثير الفن القبطى ، وبشكل خاص تأثير الروح الفطرية الخشنة الكامنة فيه ، مع الاستفادة من أسلوب

الفنان الشعبي الذي يميل إلى شغل فراغات اللوحة بأشكال خطية زخرفية أو رمزية .. لكنها ، بقدر قربها من هذا السمت التراثي فهي أكثر قربا من البنائية الجمالية المعاصرة ، خاصة وهي تستخدم تقنيات وخامات وأساليب تضع لوحاتها في إطار «التعبيرية» ، مثل اعتمادها على خامات الأقمشة والأوراق والجلود والشبكيات والصبغات ، وعلى تقنيات الطباعة بالشاشة الحريرية وبقوالب الخشب والجلد ، وقد نجحت أن تحقق في بعض لوحاتها نوعا من خداع البصر والحركة التبادلية المراوغة بين شكلين على سطح اللوحة ، أحدهما أمامي متمثلا في شبكية من النسيج الأبيض الشفاف وقد ثبتت على مسافة محسوبة فوق لوحة ملونة بإيحاءات غامضة ، إلا أن أهم ما يميز هذه الوجوه هو ما تتمتع به من حس إنساني بالغ الثراء ، حتى يجعلك تصدق أنك تعرفه !

إن ثناء عز الدين لم تنفصل قط عن انتمائها الروحي إلى أفكار الفنان والمفكر الرائد حامد سعيد ومدرسته ، هذا الانتماء الذي تعمق فيما بعد بتوليها إدارة مركز الفن والحياة الذي أسسه حامد سعيد أواخر الستينات ، وقد حاولت خلال فترة عملها بالمركز أن تطبق عمليا ما آمنت به من أفكار الأستاذ ، عبر أنماط من الطباعة الجرافيكية والزخرفية على الأقمشة والأزياء ، مستفيدة من جماليات الحروف العربية حينا ، ومن «الموتيفات» الشعبية حينا آخر ، ثم ركزت بحثها الفني في السنوات الأخيرة على العرائس القطنية الشعبية الملونة ، ونجحت في ابتكار تشكيلات جماعية من أنواع مختلفة من فروع التخصص ، مثل التصوير والمجسمات والطباعة والمسطحات البارزة .

وتبقى السمة الأساسية لرحلتها الفنية هي إحياء الخصوصية الجمالية، بقدمه في الموروث والأخرى في قلب العصر .

منحوتات سركيس طوسونيان

تواكب هذا المعرض مع معرض ثناء عز الدين بمجمع الفنون ، محققا حالة من التواصل الروحي غير المباشر معه ..

ذلك أنه يستدعي - بالوجدان - حسا تاريخيا يجمع بين الفنين المصري القديم والروماني ، في شكل تماثيل برونزية سوداء ممشوقة القوام ، بغير تفاصيل تشريحية أو أوضاع حركية مباشرة ، بل تقف في رسوخ ومهابة وكأنها تخاطب الأبدية أو تقيم صلاة طقوسية فيما وراء الزمان والمكان والأديان ، غير أن ما تحققه من قوة الحضور الروحانية يتجاوز أي تصنيف تاريخي أو حتى مدرسي ، إنها قوة حضور تنبع من روح الفنان نفسه ، وتتبدى في حس بغموض مبهم ، موحية بنبل النفس الإنسانية المغلفة بالكبرياء والشموخ عبر مشخصاته البرونزية ذات الأحجام



من أعمال سركيس طوسونيان

الصغيرة والملامح المطموسة السوداء حتى تبدو أقرب إلى الأشباح المحلقة - بالرغم من قوة استقرارها فوق قواعدها .

وبقدر انتمائها إلى أنماط شبه تقليدية من التراث الحضارى (مع الميل إلى التعبيرية) فإن تماثيل «سركيس طوسونيان» ذات نبض معاصر بعيد عن النمط المتكرر ، قريب إلى الذاتية المتفردة ، تلك التى تعكس حالة عاطفية دافقة بمشاعر الحب أو الوحدة أو حلم اليقظة .

ولكى يخرجنا من تحت سيطرة التراث التقليدى للنحت ، استخدم أسلوب كشط مناطق معينة من سطح البرونز الأسود أو البترولى القاتم ، على شكل شريط أو وشاح أو تاج أو حزام أو حلية ، فبدت لامعة كالذهب وسط القتامة الغالبة على التمثال ، وأدت إلى تحريك السكون المخيم فوقه بحركة بصرية مشعة ، كما عملت على إثراء الشكل الجمالى بحوار بصرى متناقض الطرفين على سطح إثراء التمثال .

إن موهبة سركيس (الذى يبدو من اسمه أنه أرمنى الأصل ، والمولود بالاسكندرية عام ١٩٥٣ ، وخريج كلية الفنون الجميلة بها عام ١٩٧٩) تؤكد أننا كسبنا إضافة مهمة لفن النحت المصرى الحديث ، ذات رصانة بنائية وطلاقة تعبيرية ووعى بالخصوصية وعلاقتها بالعالمية ، بغير نزعة استعراضية للشكل أو مواكبة التيار السائد للحداثة المغتربة وربما تأخر ظهوره فى الوسط الفنى بالقاهرة حتى اقترب من سن الخمسين ، لكن هذا الظهور المفاجىء على الساحة وبهذه القوة يعنى أنه حضر ليبقى ، وإن كان ذلك مرهونا بمدى طموحه وإصراره على تحقيقه ، فالموهبة ليست هى أكبر عوامل النجاح فى مثل ظروف حركتنا الفنية ، بل لابد للفنان أن يكون مناضلا ودؤوبا لتبليغ صوته ورسالته حتى يفسح له المجتمع الثقافى المكان اللائق به .

الأصالة .. بين مندور والبدرى

قدمت قاعة شهر زاد بالمعادى (التى أنشأتها جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة) معرضا مشتركا للفنانين محمد مندور - فى الخزف - وعبد الفتاح البدرى - فى التصوير - لترسى بهذا المعرض تقليدا جديدا فى نشاطها ، وهو التبادل بين معارض متخصصة فى مجالات إبداعية معينة ، وبين معارض جامعة لمختلف الحرف التقليدية والفنون التشكيلية .

ولم تمض غير أيام على انتهاء المعرض حتى أعلن فوز الفنان مندور بإحدى الجوائز الرئيسية لبينالى الخزف الدولى بالقاهرة ، فتوجهت مسيرته الكفاحية التى أسس خلالها نفسه بنفسه منطلقا من فواخير مدينة الفسطاط الاسلامية بمصر

القديمة ومنتهيا إليها أيضا ، حيث ينتمي إليها بكل خبرته وتاريخه ، ويقيم فيها حتى الآن مرسمه المتواضع ، برغم أن بإمكانه أن يحقق ثروة طائلة من إنتاجه الخزفى ، لو عمل على تلبية احتياجات السوق السياحى التى يتهافت عليها كبار الخزافين ويقيمون من أجلها المصانع .

وقد أسقطت هذه الجائزة الدولية - التى منحتها له لجنة تضم أغلبية من النقاد الأجانب - الاتهامات التى كان يوجهها إليه «أولياء أمور الحداثة» فى مصر بأنه يمارس شكلا إقليميا تقليديا في الخزف جمد عند وضع ثابت بغير قدرة على الابتكار والتطور ولا يرقى إلى مستوى العالمية ، فجاء الرد من هيئة تحكيم عالمية اختارته من بين أسماء اكاديمية مرموقة فى الخزف المصرى المعاصر ، اشتهرت بالتجديد التقنى الملاحق للأساليب الحداثية فى العالم ، إن معنى ذلك أن أعماله تتمتع بقيم جوهرية للفن الحقيقى بغض النظر عن منابعه الإقليمية ، مثبتة أن معنى الأصالة لا يقتصر على التراث أو البيئة ، بل يعنى - قبل كل شىء - الموهبة وخصوصية الذات المبدعة للفنان ، وقدرته على الجمع بين هذه الخصوصية الذاتية وبين الملامح القومية والأسس الجوهرية للفن الحقيقى .

ولعل مكمن الخصوصية والفرادة فى خزفيات مندور هو احتوائها طاقة روحية وأسراراً دفينة ، فتعيد إلى الذاكرة الخزفيات الفرعونية التى كانت تدفن مع المومياء ، حافظة أسرار صاحبها وكنوزه ، كى تبعث معه فى يوم البعث العظيم .

وتمثل الضخامة الوقورة الكاتمة للسر لقدوره المستديرة أو المستطيلة بفوهاتها الضيقة وآذانها الملتصقة بالفوهة ، سمة أسلوبية لدى الفنان ، يؤكدها الإيجاز الشديد لخطوط الشكل ، والهمس الموحى فى انسياب الخطوط ، كما تمثل تقنية حريق الطينة السوداء والألوان الرمادية المكتومة أو الوردية المشرقة أو البترولية ذات البريق المطفأ - بعيدا عن بهرجة الزخارف والألوان - سمات أخرى تجتذب الناظر الى أعماله بسحر من نوع خاص ، يجعلك تحار بين ما تمتلئ به من حس الفطرة الشعبية والنبل الأرستقراطى والزهد الصوفى ، والخلاصة أنه يقدم لنا نموذجا لسهل الممتنع ، كالصانع الماهر الذى بات يشكل الذهب بتلقائية وكأنه يلعب به !

***

أما لوحات عبد الفتاح البدرى فهى معزوفات شعبية على وتر الربابة، فى أحجام صغيرة موحدة الأسلوب والموضوع ، نفذت بخامات سريعة الأداء كألوان الشمع والباستل والجواش ، أما الموضوع فهو رقصة التحطيب فى الصعيد ، فجعل من حركات الراقصين بملابسهم البيضاء الفضفاضة وعمائمهم المستديرة وألوان وجوههم السمراء إيقاعا منتظما لخطوط متكررة أو متوازية أو متقابلة أو متعاكسة ، على سلم

موسيقى يتنقل عليه الايقاع البصرى للخطوط والملامس والألوان والحركة ، بأبسط قدر من التقنية وبناء التكوين.

وبالرغم مما يبدو من تلقائية الحركة والتكوين ، فإنها محسوبة حسابا هندسيا محكما ، يقابل حساب توزيع المجاميع فى رقصات الباليه ، وهو ما ينخدع به البعض ممن ينظرون إلى مجموع الأعمال نظرة خارجية عابرة ، فيرون أنها متشابهة مكررة ، وفى الحقيقة أنها مختلفة بقدر اختلاف تشكيلات الرقصات الايقاعية على المسرح ، أو اختلاف «التونات» الصوتية فى أنغام الربابة .



«وجوه» للدكتورة ثناء عز الدين

وقد تختلف هذه التجربة عن تجارب البدرى السابقة ، التى تتمتع بغنائية لونية وتنوع فى اتجاهات الخطوط وايقاع الحركة ، والحقيقة أن تجربته الأخيرة - على بساطتها وتقشف ألوانها وخاماتها - هى خلاصة مختزلة لتجاربه السابقة .

وهكذا نلمح أكثر من صفة مشتركة بينه وبين الخزاف مندور ، تؤكد قناعتنا بأن نبع الأصالة فى حياتنا الشعبية لايزال فياضا وملهما لمن يدرك سره !

تداعيات الصمت !

كان هذا هو عنوان المعرض الأول للفنانة الناقدة شادية القشيرى فى الشهر الماضى بقاعة إكسترا بالزمالك، وهكذا وقفت الناقدة لأول مرة موقف «المنقود» بدلا من الناقد ، خاصة وأنها جازفت باختيار موضوع واحد وخامة واحدة لجميع اللوحات ، أما الموضوع فهو القناع ، وأما الخامة فهى ألوان الباستل الزيتى على ورق أسود فى أغلب الأحيان ، وأما الأسلوب الذى أتخذته فهو التعبيرية التى قد تجنح أو تتماوج على ضفاف السريالية حينا والتجريدية حينا آخر .

وقد كان متوقعا أن تدس الناقدة أنفها فى عمل الرسامة وتضع أمامها الخطوط الخضراء والحمراء كى تستمر فى الرسم أو تتوقف ، وذلك أخطر ما يواجه الفنان الذى يمارس النقد دائما ، لكن من حسن حظ شادية القشيرى أنها أغلقت درج مكتبها على الناقدة قبل أن تشرع فى رسم لوحاتها ، وفى مقابل ذلك فتحت درج

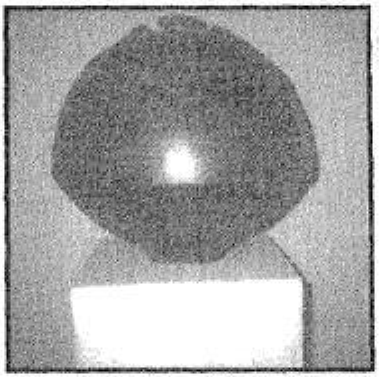
الطفلة الكامنة بداخلها ، فانطلقت خيالاتها وهواجسها وكوامن نفسها المختزنة بغير رقيب ، وبغير تصور مسبق للأسلوب الذى تنفذ به لوحاتها ، وهو ما جعل هذه اللوحات تجليات فطرية طفوليـــة النظرة والمذاق ، وإن حفلت بالمعانى والتأملات التى تقبل اختلاف التأويل من مشاهد إلى آخر .

وأول ما يلفت النظر فى إيقاع خطوطها ، أنه إيقاع دائرى يقوم على الأقواس والمنحنيات والدوائر ، إنه إذن إيقاع عاطفى يناسب حالة المرأة والطفلة معا . والملاحظة الثانية هى انبثاق وجوهها أو أقنعتها من ظلام المساحة السوداء ، فهى وجوه وأقنعة ليلية هائمة كأرواح غامضة ، والملاحظة الثالثة هى الرمزية ، فكثيرا ما تجعل من عيون القناع طاقات تنطلق منها طيور غريبة ، أو تجعل الشفاه محكا لفراشات أو عصافير ، كأنما هى صور شعرية رومانسية مجنحة ، أما الملاحظة الأخيرة فهى الانسيابية الطليقة لخطوطها أو لمسات قطع الطباشير الملونة فوق الورق الأسود ، وأحيانا تقودها هذه الانسيابية إلى حالة من الثرثرة الخطية بدوائر متداخلة كخيوط تتلوى وتلتف على بعضها بغير نهاية ، لكنها تظل محصورة داخل مساحة القناع ، إن هذه الملامح جميعا تتناسب بالفعل مع تكوين امرأة أطلقت عقال مشاعرها فخرجت بصدق لا يعرف التصنع ، وهو إرهاص إلى مخزون فياض من الرؤى التعبيرية التى تحتاج مزيدا من الصبر والخبرة والتقنية المكثفة ، وبذلك تكسب الحركة الفنية وجها جديدا قد يكون مصدر ثراء لها.

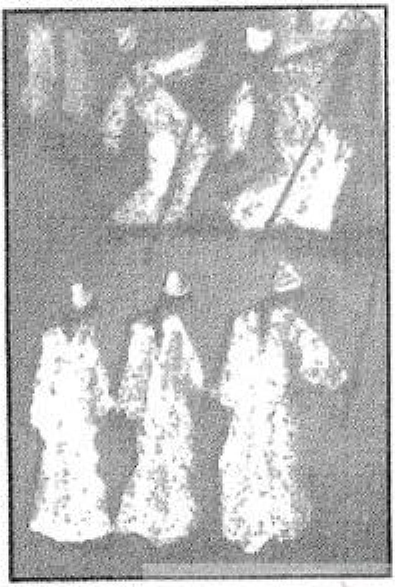
البر الغربى

عرفت الفنان الشاب أحمد عبد الحميد لأول مرة منذ عامين فى مدينة الأقصر ، من خلال إشرافى على ورشة عمل إبداعية لعدد من الفنانين الشباب هيأتها لهم هيئة قصور الثقافة من خلال مرسم خاص ملحق بقصر الثقافة هناك ، ولاحظت فيه طاقة من الحيوية الزائدة لا تهدأ لحظة واحدة ، ولهفة مشتعلة للمعرفة والتجربة ، فهو لا يضع حدودا فاصلة بين الرسم والمعايشة ، أو بين الخيال والواقع ، ويبدو - مع طلعة كل صباح - كصفحة بيضاء مفتوحة أمام الطبيعة ، لتدفق فوقها بكارة اللون ووهج الضياء وعفوية الأشكال والظلال وسيولة الحركة ... إنها تلك الحالة التى تجمع بين روح الطفل وموهبة الفنان ، تلك الموهبة التى لم تمر عبر بوابة القواعد الأكاديمية ... وقد

من أعمال الخزف محمد مندور



كان هو الوحيد بين مجموعة الفنانين الشباب فى ورشة العمل تلك ، الذى لم يدرس الفن بأية كلية أو معهد أو حتى مرسم أحد الفنانين ، فى الوقت الذى كان الآخرون جميعا خريجين ومدرسين ودكاترة بكليات الفنون ، وكان ذلك كفيلا بإشعاره بالتضاؤل ويدفعه إلى الانزواء والاحساس بالنقص ، لكنه - على العكس - انطلق بفطرة الفنان الشعبى البسيط الذى لا يعنيه غير إمتاع نفسه بلا مطمع وراء إنتاجه ، وأقصى ما يسعده أن يسمع كلمة تشجيع تطمئنه إلى أنه على الطريق الصحيح .



«رقصة التحطيب» للفنان عبد الفتاح البدرى

وفوجئت به فى الشهر الماضى يدعونى إلى معرضه الخاص بأتيليه القاهرة ، وكنت أتوقع وأنا ذاهب إليه أن أجد مجموعة مناظر طبيعية ومشاهد من الحياة اليومية بالأقصر - وكم كانت دهشتى حين وجدت كماً كبيراً من اللوحات الصغيرة لا تكاد تلمح بينها شيئاً من الطبيعة والحياة فى الأقصر ، بل يمكن القول أن ما فيها هو «روح المكان» وليس المكان ، فقد أحال الفنان المرئى إلى محسوس ، وأحال المحسوس إلى مجرد ، مثيرا موجات من الحيوية اللونية والخطية المتدفقة بغير انقطاع ، تعادل حالة صاحبها فى سلوكه الشخصى ، والتى قد تخدع البعض فى قدراته ، إذ لا يتوقع منه مثل هذا المزيج الابداعى المشبع بالحلم .

وقد لا يجدى كثيرا أن تسمعه وهو يشرح لوحاته ، حتى يحيلها إلى استبطانات لا يعيشها أو يلاحظها غيره ، تماما مثل الطفل حين يشرح لك رسمه ، متصورا أنك على نفس موجة وعيه وإدراكه ، ولذلك فمن الأنسب لهذا الفنان الشاب أن يواصل تجاربه على سجيته ، مستعينا بمصفاة بصيرته الخاصة وخبرته التلقائية التى ستقوده إلى التطور الخاص به وحده ، وربما كسبنا فنانا متميزا لو وفرنا له وقت الفراغ الذى ينتج فيها أعماله ، حيث تبتلع وظيفته فى المصانع الحربية كل وقته وطاقته. وإذا لم يخدم نظام التفرغ للفن مثل هذا الفنان ، فما جدواه إذن ؟!

يمــوت هنــا يــزدهر هنــاك



بقلم
محمـود قاسـم

هل آن الآوان لاغلاق صناعة النشر الأدبى فى مصر؟!

تأتى الاجابة مؤكدة من خلال ما نشرته مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٣ يونيه الماضى، حول أحوال النشر الأدبى فى باريس خلال الصيف الحالى.

التحقيق الذى أجراه ثلاثة من محررى المجلة، امتلأ بأرقام توزيع عالية للكتب الأدبية، وهذه هى المرة الأولى منذ زمن طويل التى يتم الحديث فيها عن القراءة اثناء موسم الصيف، باعتبار أن موسم القراءة الحقيقى يبدأ مع دخول المدارس، وأن الناس لا تقرأ اثناء الاجازات سوى ما هو طريف، وخفيف يتناسب مع أجواء البهجة.

ففيما سبق كانت الروايات البوليسية، وقصص التجسس، والتخويف، تتصدر قوائم المبيعات، وتباع هذه الكتب من أجل الاستهلاك اليومي، ويبدو ذلك واضحاً لو مررت بأسواق الكتب القديمة في المدن الأوروبية، واكتشفت الى أي حد يتخلص الناس من هذا النوع من الكتب، لدرجة أن أحد الباعة عرض عليّ أثناء زيارتي بجينيف في صيف عام ٢٠٠١ مجموعة صناديق من الكتب يمكنها أن تصنع مكتبة، بالمجان.

لكن، مع موسم صيف عام ٢٠٠٢، بدا الأمر يختلف الى حد ما، فالناس تتحدث عن جدوى قراءة أشياء أكثر جودة، وافادة من الكتب البوليسية، وهاهي، في الأيام الأولى من الأجازات، تحقق بعض الكتب مبيعات خيالية في فرنسا بشكل خاص.

الاستثناء الأول والوحيد في قوائم المبيعات يتمثل في رسوخ الرواية الأخيرة للكاتبة الأمريكية ماري هيجنز كلارك، حيث ظلت «أنت الذى أحببته طويلا».. فوق سلم المبيعات طوال الأشهر الماضية، وبيع منها قرابة نصف مليون نسخة.

وهذا الرقم يعتبر ضئيلا بالنسبة لما تحققه مبيعات الكاتبة في بلادها، والغريب أن واحدة من أهم رواياتها قد ترجمت قبل عامين في روايات الهلال باسم «قنبلة في نيويورك» تنبأت فيها بتفجير مبنى التجارة العالمي، وهذه الرواية طرحت للبيع مرة أخرى عقب أحداث سبتمبر، لكن القارىء العربي يبدو كأنه لم يعد يهتم بقراءة الأدب، على مستوى واسع، لذا فان مبيعات الرواية في مصر، تحقق ماكان منتظرا منها مقارنة بتوزيعها الذي تجاوز الملايين العشرة في الولايات المتحدة، وأوروبا.

صناعة النشر في أوروبا تقوم على أسس معرفة ماذا يريد القارىء، في الوقت المناسب، وهناك موعد محدد لصدور الكتاب في السوق، يتم الاعلان عنه، وعمل حملة إعلامية له، بحيث يترقبه القراء، ولا يعنى بيع نصف مليون نسخة من رواية لماري هيجنز كلارك سوى أن الناس قد طبع على كمية مضاعفة، وانه عمل حساباته، وعرف جيداً الأرقام المتوقعة للبيع.

يجيء هذا التحقيق في وقت، نشرت فيه إحدى الصحف أن النشر الأدبي يتناقص توزيعه ، وأن الكاتب في الكثير من الأحيان يشترى عدداً كبيراً من النسخ، أي اننا امام صناعة تكاد تموت، تحت ادعاء أن الوسائل المنافسة تمثل خطراً للكتاب، وكأنما العالم التقني لا يستخدمها أكثر منا.

الروايات العشر الأولى في قائمة المبيعات الفرنسية في الشهر الماضي كانت كما يلي: الرواية المذكورة لماري هيجنز كلارك، ثم رواية «كتاب الوهم» للأمريكي بول اوستر، و«مأوى الحجارة» للفرنسي جان اويل، و«اليد الرابعة» للأمريكي جون ارفنج،

و«احبته» للفرنسية آنا جافالادا، و«أرحل بسرعة وارجع متأخرا» لفريد فارجاس، و«ليلة فى النادى» لكرستيان جايلى، و«الأربعون التائهون» لريمون ديفوس، و«بيجى سو والأشباح» لسيرج بروسلو، ثم «مجهول هذا العنوان» لكرسمان تايلور.

هوس بالفراعنة

لكن فى مصدر آخر، فإن الكتب المبيعة، تتوقف من ناشر لآخر، حيث ان البان ميشيل يبدو كأنه يمتلك إدارة خاصة، اقرب الى المجسات فى عملها، أو الرادار الذى يستكشف به درجة قبول النص الأدبى لدى القراء، وقد راهن هذا الناشر، فى الصيف الحالى، على العديد من الروايات الفرنسية ، فغامر باصدار أحدث رواية للكاتب باتريك كوفين تحت اسم «دم الورود» ثم نشر رواية «أنا مركب» الكاتبة سيلفى جرانوتييه. ويقول مدير النشر انهم يعدون معسكراً كاملاً لكتب الصيف، ويرسمون أشكالاً بيانية متوقعة لمبيعات كل كتاب، وفى الغالب ما تأتى النتائج مثلما تم التوقع.

ولا أعتقد أن لدينا فى مصر، فيما يتعلق بالنشر الأدبى، ما يشبه هذه الإدارة، ففى الوقت الذى يحجم فيه الناشرون المصريون (القطاع الخاص) عن النشر الأدبى ، إلا فى حدود مجاملات الصحفيين المبدعين الذين يعملون فى الصحافة الأدبية، فإن المؤسسات الحكومية تطبع الكثير ، دون أن نعرف الأرقام الحقيقية للمطبوع، أو الموزع، وتبدو النتيجة واضحة فى هذا الكم الهائل من المرتجعات المباعة بأسعار متدنية، بهدف التخلص منها، وتفريغ المخازن من أجل استقبال المخزون الجديد.

وليس صحيحاً أن المبيعات الأعلى فى الصيف، ينحصر هذا العام على القصص البوليسية، فقد تمكن جون جريشام الأمريكى من منافسة مواطنيه فى الترجمات الأدبية عن روايته الأخيرة «الحصار الأخير». والمعروف أن جريشام هو ابرز كُتاب القصص البوليسية فى السنوات الأخيرة، وأن اعماله تحولت جميعها الى روايات ، لكن هذا الكتاب ليس رواية، بقدر ما هو تجربة ذاتية وسيرة خاصة.

وأكثر ما يثير الدهشة فى عالم الربح والخسارة فيما يتعلق بالنشر، هو ظاهرة اسمها كرستيان جاك، ذلك الرجل المصاب بهوس التاريخ الفرعونى، وقدم على مدى السنوات الأخيرة أكثر من عشرين رواية ضخمة الحجم، وبعضها يقع فى اجزاء متتالية، مستمدة جميعها من التاريخ الفرعونى.

انه أمر اقرب الى المزاح، فالفرنسيون يعشقون تاريخنا أكثر منا، ومن بين هذه الروايات الأكثر مبيعا لم تتم ترجمة عمل واحد الى اللغة العربية، فى مصر، حتى الآن، وقد حققت رواية الصيف الفرعونية هذا العام لنفس الكاتب واسمها

«ملكة الحرية» ما لايقل عن ٣٥٠ الف نسخة لكل جزء من الأجزاء الثلاثة معا. أى مليون نسخة.

خزانة الروح

ليس هناك لدى الناشرين دوما كتاب لديهم نفس أرقام المبيعات مثل جريشام، وكلارك. خاصة في الصيف، لذا، فإن العديد من أصحاب دور النشر، يلجأون الى الدعاية المكثفة، ليس في التليفزيون، ولكن عن طريق طبع عدد كبير من ملصقات الدعاية، ووضعها عند محطات الترام، والمترو، ولأن مواعيد القطارات منتظم، فان الناس تجد نفسها أمام الملصقات، فتلتصق بذهنها، وتشترى الكتاب الذي أوحت له الافيشات انه يستحق القراءة، وهذه هى سياسة دار النشر «جراسيه». التى ترفع شعار «متعة القراءة»، وقد حدث هذا بقوة فى الشهور الماضية مع رواية «عواجيز بريتون» تأليف جونزاج سان – برى الذى كان من المفروض أن يطالعه الناس مع أول الموسم الدراسى.

والملاحظ أن حركة الترجمة الى اللغة الفرنسية تزداد فى الفترة الأخيرة، فقبل أن يشاهد الناس فيلم «عازف البيانو» إخراج رومات جولانسكى فى مهرجان كان، ودور العرض، كانت دار نشر روبير لافون قد أصدرته مترجما عن مؤلفه البولندى فلاديسلاف سبيلمان. ولاشك فى أن المبيعات قد تضاعفت بعد فوز الفيلم بالسعفة الذهبية.

ووسط هذه الأجواء التى تتغير، فإن المنافسات تشتد بين دور النشر، من أجل اكتشاف المبدعين الجدد، والمراهنة عليهم، وقد نشرت الصحف، والصفحات الأدبية فى المجلات، طوال الأسابيع الماضية متابعات أدبية متعددة، للروايات الجديدة التى يكتبها مؤلفون ينشرون أعمالهم لأول مرة، فراهنت دار نشر روبير لافون على رواية «السم الأخضر» تأليف باتريك نوتريه، وراهنت دار نشر (XO) على رواية «خزانة الأرواح» للكاتب دافيد خياط، ذى الأصل التونسى، وهى رواية يقول إنها تنتمى الى الروايات البوليسية الطبية، أما دار نشر فلاماريون، فقد راهنت على رواية مترجمة بعنوان «أعراس هندية للكاتب الأمريكى شارون ماس، فى نفس الوقت الذى دخلت رواية «خبز البحر» للكاتبة جويل روجنس المنافسة من قبل الناشر لاتيس.

هذه الظاهرة، لم تكن موجودة من قبل، فى شهور ماقبل الصيف، وفى موسم الأجازات نفسه، فالمتابع للصفحات الأدبية، ولتواريخ اصدارات روايات الشباب، فيما سبق، فانه سيلاحظ انها كانت تصدر تباعا، وبالتناسق بين دور النشر، مع بداية سبتمبر، وذلك من أجل أن تتاح لها فرصة التنافس على الجوائز الأدبية التى

تعلن عادة في أوائل شهر نوفمبر.

أي أن الناشرين قد ضربوا أكثر من عصفور، بمحاولة واحدة ، فهم يضمنون البيع في الصيف، ودخول المنافسة، والفوز بالجوائز، والغريب أن ظاهرة المراهنة على اصدارات الصيف لم تجيء مصادفة، بل تحمس لها جميع الناشرين معا هذا العام، بما يوحي بالتنسيق البالغ الدقة بين هؤلاء العاملين في مجالات النشر، واتضح الأمر من خلال المواعيد المحددة لظهور كل كتاب على حدة.

موت .. وحياة

فكما أشرنا، فان موعد ظهور كتاب، أشبه في أليته، بموعد عرض فيلم، حيث يعرف القاريء مسبقا، متى سيظهر الكتاب، وعليه أن يحجز نسخته.

لكن السؤال هو: هل يمكن لموسم العودة أن يتم وأده، بما ظهر مؤخراً ، فيما يتعلق بموسم النشر الصيفي؟.

الاجابة تقول إن هناك ٥٥٧ عنواناً جديداً ستصدر في التاسع عشر من أغسطس الحالي، أي مع بداية موسم العودة، وتقول مديرة إحدى دور النشر «إنهم يبيعون مابين ٨٠ ألفا الى ١٠٠ ألف كتابا شهريا خلال الصيف، فلماذا يتم تجاهل هذا الرقم من المبيعات دون إصدار عناوين جديدة».

ولعل بزوغ هذه الظاهرة الثقافية الجديدة في أوروبا، كان سببه حدث لم يمر اعتباطا في فرنسا، ففي صيف عام ٢٠٠١، طبع الناشر أربعة آلاف نسخة فقط من كتاب «الحياة الجنسية لكاترين م» من تأليف كاترين ميليه، لدواعي القراءة الصيفية، ففوجيء بطلب متلاحق على الكتاب، وكانت الحصيلة بيع ٢٢٦ ألف نسخة في أشهر الصيف.

الحياة تتغير من حولنا، فيما يتعلق بالنشر الأدبي، وفي مصر، فإن الأمر يتغير، صحيح أن مشروع القراءة للجميع يسد فراغا هائلا في النشر الأدبي، والثقافي، وهو يختلف تماما عن الخطط التي لدي الناشرين، خاصة القطاع الخاص، وفي الوقت نفسه، فإن الأمر يتعلق بدرجة إقبال القارئ العربي على متابعة الروايات ، خاصة الجديد منها، وبخصوصية أدق الأبداع الجديد لكتاب يؤلفون لأول مرة.

في الوقت الذي يفخر فيه الناشرون في العديد من المدن العالمية، بأن توزيع الكتب الأدبية يزدهر، فإن البعض يعلن هنا عن «اقتراب موت النشر الأدبي» ، خاصة المنظم منه، وأن مؤسسات بعينها هي التي تفعل هذا، ومنها الثقافة الجماهيرية، وهيئة الكتاب، وبعض الدور الصحفية في حدود ما. ■

الموروث الشعبى

فى روايات الأمريكية زورا هرستون

بقلم
د. عزه مازن

رغم كونها واحدة من أبرز الكاتبات السود الأمريكيات فى فترة العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين فإن هرستون لم تحظ باهتمام النقاد فى عصرها، فقد غابت أعمالها عن معظم الدراسات النقدية ولم يفهمها معاصروها ولكن مع اهتمام الكاتبات المعاصرات من السود الأمريكيات بإرساء تقاليد أدبية تقوم على فهم تراث الأجداد واستيعاب قيمه الجمالية، ويفضل بعض من النقاد المعاصرين المتميزين ظهر الاهتمام بأعمال زورا نيل هرستون، واعتبرها النقاد المعاصرون واحدة من أبرز رموز الحركة الأدبية فى العشرينات والثلاثينات. يرجع تميز هرستون ككاتبة سوداء إلى قدرتها على الاحتفاظ بالموروث الشعبى للسود فى أعمالها الروائية وغير الروائية فقد استمدت معايرها الأدبية الجمالية من ثقافة السود وتراثهم الشعبى، وأساليبهم فى الحكى والسرد. وبذلك ساهمت هرستون فى القضاء على الرؤية الأحادية للأدب من حيث الفهم والإبداع. اعتمدت هرستون فى أعمالها الروائية على جماليات الثقافة المجتمعية للسود وعلى منظومتهم الأخلاقية والعقائدية الشعبية

الموروث الشعبي

ولدت هرستون في بلدة ايتنوفيل في أعماق الجنوب الأمريكي وهي بلدة سكانها جميعا من السود. من هنا ترسخت في أعماقها جذور الثقافة الشعبية السوداء واتحدت في نفسها مع موهبة متميزة في الحكي جاء الاحتفاء بهذا الموروث الشعبي في جوهر أعمالها الأدبية: «يونس وكرمة العنب» (١٩٣٤) «عيونهم ترقب السماء» (١٩٣٧)، «موسى: رجل فوق الجبل» (١٩٣٩) ليشكل مشروعا أدبيا ومجالا للفخر والاعتزاز لم يغب أثر هذا التراث حتى عن روايتها الأخيرة «ملاك فوق نهر سوانى» (١٩٤٨) والتي اتخذت أبطالها من البيض في الجنوب.

اتجهت هرستون في نهاية العشرينات إلى دراسة الأنثروبولوجي وأثمرت رحلاتها البحثية عن كتابين متميزين في هذا المجال: «بغال ورجال» (١٩٣٥) «وقل لحصاني» (١٩٣٥). كرست هرستون حياتها لإثبات قيمة ثقافة السود وثراء موروثهم الشعبي، بل وتميز هذه الثقافة وتفوقها.

التحم التاريخ مع الموروث الشعبي في أعمال هرستون ليكونا معا جانبين لاستراتيجية واحدة تسعى لمواجهة الماضي من أجل العمل لمستقبل أفضل. بوعي عميق لتاريخ السود كأحد مكونات موروثهم الشعبي استخدمت هرستون التاريخ كوسيلة لمواجهة الماضي واستشراف المستقبل. أدى هذا الوعي الخاص بالتاريخ إلى مفهوم خاص للقيم المجتمعية للسود فاعتبرت ذكرياتها الخاصة جزءا من التاريخ المجتمعي للسود في الجنوب الأمريكي. جاءت أحداث من سيرتها الذاتية لتمثل مكونا أساسيا في سياق أعمالها الروائية، حيث إلتقت مؤثرات من حياتها الخاصة بأحداث تاريخية مهمة كان لها تأثير كبير على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسود في آمريكا.

كانت تجربة العبودية من أهم الأحداث التاريخية التي ألقت بظلالها على حياة السود. في كتاباتها غير الأدبية أعلنت هرستون موقفها الرافض لأولئك الكتّاب الذين يتخذون من مشكلة العرقية محورا أساسيا لأعمالهم الأدبية ومن ثم كان رفضها لتيار أدب الاحتجاج الاجتماعي الذي ساد روايات السود في الثلاثينات والأربعينات فلم ترض هرستون عن المفهوم السائد في ذلك الوقت الذي يحتم على الكُتّاب السود ضرورة تكريس فنهم لعرض مظاهر معاناة السود من اضطهاد البيض في زمن العبودية، ومع ذلك لم تهمل هرستون أثر تجربة العبودية على التكوين النفسي والفكري للسود وتأثيرها على علاقاتهم بعضهم ببعض وبالعالم الخارجي. أدركت هرستون تمام الإدراك أن تجربة العبودية جزء لا يتجزأ من الموروث الثقافي الجمعي للسود. فتناولت في أعمالها الأدبية أثر هذه التجربة على تشكيل وعي أبطال رواياتها وعلاقاتهم الاجتماعية ومدى تأثيرها في تكوين صورتهم الخاصة عن أنفسهم وعن العالم من حولهم. لم تغفل هرستون ما خلفته هذه التجربة في نفوس السود من إحساس بالدونية حال دون تحررهم النفسي وعرقل انطلاق مواهبهم الإبداعية. ولكن جاء تناولها لهذه التجربة



زورا هرستون

مـخـتـلفـا عن تناول تيـار الرفض السـائد في الثـلاثينات والأربعينات فلم تقدم هرسـتون هذه التـجربة في سـيـاق الاعتـراض والشكوي، وإنما لمواجهة الماضي والتـحـرر من سلبيـاته من أجل بناء المسـتـقـبل من هنا كـانت رسـالة هرستون أن قوة التحرر الكبري للسود تكمن في ثقافتهم الغنية. فبوعيهم بثراء هذه الثقافة يمكنهم التحرر من عقدة الدونية التي زرعها البيض فيهم، ومواجهة مضطهديهم من منطلق ثقافة مساوية لهم بل ومتفوقة عليهم.

انطلاقا من مـفهومـها لمشكلة العرقية تناولت هرستون تاريخ السـود في أعمالها تناولا خاصا فقد تناولت أحداثا تاريخية مهمة مؤكدة علي دور الأمريكان الأفارقة في تاريخ الولايات المتحدة وبنائها الاقتصادي. من أهم هذه الأحداث الهجرة الكبري للسود من الجنوب الأمريكي الزراعي ونزوحهم نحو الشمال الصناعي في أعقاب الحرب العالمية الأولي، وما أسفر عنه ذلك من تغيير في البناء الاقتصادي الأمريكي.

توحد مفهوم هرسـتون الخاص للتاريخ مع مفهومها للموروث الشعبي للسود. فلم تر فيه كيانا جامدا من الماضي بل استمرارية حضارية تمتد بآثارها في الواقع المعاش.

استعرضت هرستون في أعمالها جماليات ثقافة السود مؤكدة تأثيرها الكبير علي مدي إيمان السود بقدراتهم الذاتية وتحررهم من عقدة الدونية. استخدمت هرستون أيضـا، كوسيلة للنقد السياسي والاجتماعي، الأساليب المختلفة التي لجأ إليها السود في ظل هذه الثقافة للتعبير عن آرائهم في زمن العبودية والسخرية المستترة من مضطهديهم البيض، ومن ذلك منهج الحكاية الشعبية التي يعبر السود من خلالها عن رغبـاتهم الدفينة وآرائهم مستخدمين في ذلك أشكالا رمزية من الحيوانات ومن ذلك أيضـا أسلوب القناع الضاحك حيث لجأ السـود إلي الحكايات الضاحكة للتغلب علي معاناتهم وتحقيق رغبـهم الدفينة في السخرية من الرجل الأبيض بأسلوب لا يفهمه البيض.

انطلاقا من علاقتها المباشرة بالسياق الأصلي لموروث الثقافة الشعبية للسود ومن ثم التـحامها الأصيل بمكونات هذه الثقافة، استطاعت هرستون بنجاح وبراعة أن تستمد معايير الجماليات الأدبية في أعمالها من تاريخ السود وجماليات موروثهم الشعبي. وبذلك أرست هرستون الأساس لجيل من الكاتبات السود المعاصرات يسعين لبناء تقاليد أدبية خاصة تستمد أصولها من وعي عميق بتاريخ السود وموروثهم الثقافي وجماليات المجتمعية. ■

قصة قصيرة



بقلم
أحمد عبد الله متولى

لقاء في طنجة

كان الجو بارداً، البحر يلقى رذاذه على جلدي، أتدثر بالماء المالح تحت فضاء رحب، السماء زرقاء، صافية، مرصعة بالحمام الأبيض.

اشتاق جسدى لصلابة الشاطىء.. أمضغ قطعة خبز جافة، تتجول العين فى رؤيا اللا شىء.. وكل شىء.

على الحجر تجاعيد، وبصمات الزمن الماضى.. جاءت لفحة هواء دافئة، وعلى حين بغتة ارتفعت تنورة حمراء.. رفعت بصرى إلى حسناء.. يا للبهاء! أهى حورية من البحر أم من البر؟ لاحظت عيناى وهما تلعقان جسمها المرسوم بضوء النهار.. وتتجولان فى تضاريس الحرارة والدفء والحسن.

ابتسمت وهى تصوّب نظرتها صوبى.. يا للمرح الطفولى، أقبلت، تسألنى فى صوت كلحن فى نشيد.

- معك نار؟

كانت لحظة التعارف سريعة كاللهب بين فتاة أوربية لا تعرف البطء، وبيني.. نظرت إلى عينيها .. بوابتين خضراوتين، وحين تكلمت تخرج الألفاظ كالموسيقى، وبحماسة قلت: «احتوانى جمال المكان فنسيت نفسى!..» الجملة غامضة لكنها لم ترفض قولى.. وغمزت لى بعينها ثم قالت: كثير ما يحدث لى هذا .. فى طنجة.

كانت طويلة، ممشوقة القوام .. كالرمح .. على رأسها تاج من الشعر الذهبى الجميل المضموم فى بساطة على شكل ذيل حصان

لست مراهقا.. ماذا أقول لطغيان الجمال إذن!.. لابد من لاعتراف بأن نظراتى - بالرغم منى -



كانت ترحل فى مجاهل تكوينها.. إنها قطعة موسيقية تجسدت فى شكل أنثى!

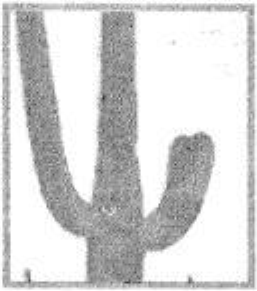
وجاءت سيرة الطعام.. وطلبت الشهية ما تشتهى.. فرحت أقدامنا نحو مطعم فاخر.. أشارت صاحبتى إلى ركن دافىء فى المطعم .. بالنسبة لى لم أفهم تعبيرها itis cozy ، جلسنا، لفتنا غيمة عبير دافئة.

أكلنا لحماً مشوياً وشربنا بعض البيرة. مازلت أرحل فى سعادة خفية.. أتطلع - فى رفق - إلى ملامحها المتوردة .. مسامها تمنح قلبى لمسة دفء عجيبة.. وتسلل السؤال إلى أعماقى هي العين السعيدة تجعل القلب يمرح فى دنيا الألوان المنسجمة.

سمعتها تقول والبسمة تنبض على الشفتين: الجلوس بعض الوقت على رصيف المقهى فى هذا الوقت، عادة أمارسها، هل تشاركنى.

- بكل سرور.

- أعتقد أن الراحة القليلة بعد الأكل



مطلوبة.. هذا درس الأطباء لنا!

وتجولنا قليلا ، فى جو منعش.. قادتنا أقدامنا إلى قهوة فسيحة متعددة الأبواب، فى بناية قديمة عالية السقف.

لكننا جلسنا خارج المقهى على الرصيف، على مقاعد خيزرانية ملونة وأمامنا طاولات صغيرة مستديرة.

كان المقهى مطلاً على شارع فسيح، هادئ، يجلس بعض السائحين وأهالى البلاد، تتصاعد دوائر الدخان الزرقاء.. من «البايب» أو السجائر.. والبعض يدخن النرجيلة.. وأخرون يحملقون فى وجوه الأشكال المتحركة.

جاء الجرسون .. التفتت إلىّ «يارا»: - ما رأيك فى الشاى؟ وكأنها تعرف عاداتنا.. وحبنا لشرب الشاى بعد وجبة دسمة.

- عظيم .

سمعت صوتها الحريرى يهمس فى أذنى: هل تسمح لى بسؤال عابر؟

قلت : أهلاً بالسؤال.

قالت : ما الذى جاء بك إلى طنجة؟

- وهل قدومى إلى طنجة ، يثير التساؤل؟

ابتسمت كأنها تعتذر عن السؤال.. ولكنها أضافت: انظر حولك، نكاد تكون المصرى الوحيد هنا!.. انت ترى أمريكان، إنجليز، فرنسيين إيطاليين، وبالطبع مغاربة! ولكنك الوحيد من نوعك.

قلت وقد أزعجتنى الملاحظة بعض الشىء ولم ترض غرورى:

- على أية حال .. أنا هنا.. فهل يرضيك حضورى؟

- بكل سرور ، وأنا سعيدة بمعرفتك.

وكأنها تعتذر عن سؤالها قالت : ما رأيك فى جولة.. هل تعرف الأمكنة هنا؟

نظرت إلى الأفق البعيد وقلت: موافق على الجولة.. أما عن معرفتى

بالأماكن فأنا أكثر غربة منك!

قالت بأدب - تداعبني - المفروض أنك قريب لأهل هذه البلاد وتتكلم لغتهم.

قلت لها وأنا أحبس انفعالات طارئة : اللغة ليست وحدها أداة تفاهم.

وأضفت وفي حلقي بعض المرارة.. (وقد تكون أداة تباعد)!!

أحضر الجرسون الشاي والماء المثلج وانصرف.

وضعت «يارا» حقيبتها فوق ركبتيها وأخرجت أوراقا نقدية، يبدو أنها تريد أن تدفع نصيبها من الحساب.. أمسكت يدها بالنقود وأقسمت ألا تفعل، فتعجبت ولم تفهم سلوكي، ورحت أغير الموقف:

- يارا .. سألتني ما الدافع إلى زيارتي لطنجة، في الحقيقة أنه الملل.

نعم الملل الذي يحركني من مكان إلى آخر.

- أما زلت تفكر في سؤال عابر.. كان وسيلة للتعارف!

وراحت تثرثر حول أشياء كثيرة، ترصد الأشياء بذكاء ومداعبة مرحة، تجعل النفس تتشبع بالبهجة، وأينما نظرت إليها وجدت ابتسامة تنبض على شفتيها كطائر جميل.

كنت أحسب نفسي المسرف في المشي والتجوال، فاقتنى يارا حباً المشي ورغبة في التجوال، تمسح بعينيها شوارع المدينة في عشق.. سمعتها:

- طنجة مدينة رائعة، وقد زرتها عدة زورات. إنها مدينة لها أكثر من بوابة بل طنجة نفسها بوابة المغرب.. ايه لن أقلد المرشد السياحي الغبي!

مشينا في الدهاليز، الشوارع ليست ممتدة، إنها تفاجئك بدوران، أو منحنى أو تصعد بك أو تهبط.. لكنها مدينة



صريحة، سهلة، ترحب بالضيوف، تشعرك أنها مدينة متاحة، مثل امرأة بلا عقد، تفتح ذراعيها بلا حياء!

يا لبهجة الألوان التي تمطر فوق عيني!.. يارا تسير بجانبي، حورية، تطالع المعروضات والبضائع.. عرجت نحو بائع ملابس .. قالت يارا تخربشني:

- كنت أحسب النسوة وحدهن المتلهفات على الشراء والاقتناء!

لم أعلق.. أمسكت شالاً قطنياً غيرته بآخر من القطيفة .. أحمر اللون.

- ما ريك يا فتاة ؟

- رائع .

دفعت للتاجر ثمن الشال .. وأخرجت الشال من الكيس النايلون وأحطته حول كتفي يارا.. قالت يارا باسمة : هل تجربه عليّ .. هل فتاتك في لون بشرتي ؟..

قلت : إنه لك: إن في الجو لسعة برد في المساء.. اقبليه مني.. نظرت إلى بدهشة.. وشكرتني والدموع تكاد تسيل من عينيها.. وقالت في نعومة: هذا كثيرا.

أشكرك .. شكراً جزيلاً !.

وأثلج صدرى أن وجدت أناملها تداعب أطراف الشال.

ارتمت على عينى بعض النباتات الملونة، فشحذت ذهنى بالسؤال قلت لها:

– هل هى طنجة التى عرفتها فى أول زيارة ؟

– لا.. المكان يختلف دائماً.. كنبض الاحساس!.. طعمها الآن أجمل .

سرتنى مقولتها ..

المقاهى الرصيفية مرصعة بالكراسى، مزركشة بالسائحين، وتطل علينا فى ترحيب ابتسامات الباعة فى «البازارات» التجارية المتراصة بجوار بعضها فى ود. وتطل علينا البضائع الفاسية والتطوانية والمراكشية، وتشعرك بالأيدى البارعة المنتجة لهذه الأعمال البديعة.



نظرت فى وجه يارا، فوجدت طنجة بوجهها البشوش.. قالت يارا:

– هل تسمح لى بالذهاب إلى الفندق.

نظرت فى عينيها، وجدت لون السماء الزرقاء سألتها: هل أنت متعبة؟

– نجلس قليلاً، ونأتى بأدوات الرسم وبعض الأوراق.. ألا تحب أن ترانى وأنا أعمل.

– لم لا.. ربما أتعلم منك كيف تختارين التكوين.

– تقصد أختار اللقطة ، ثم أصنع التكوين.

ابتلعتنا الدهاليز، ثم خرجنا بحذاء البحر، قالت يارا: أتعرف يا صديقى أن البعض أطلق على طنجة اسماً جذابا .. «بوابة الأحلام». ما أجمل أن تراقب امرأة تعشق مدينة! تقول يارا فى حماس..

(أتحدى أن يزورها انسان ولا يقع فى عشقها..).

تتفرس العين.. فى مظهر المدينة العتيق ، تهمس لى :

– ألا يوحى المكان بالرسوخ والثبات؟

أمسكت بكفها وقلت : لا أفهم الثبات!

تنبسط المدينة بلا ضوضاء ولا صخب!

شاهدت سيدات محتشمات يلبسن غطاءً للرأس، قبعة عريضة جميلة، مكملة للأثواب الفضفاضة، وبعضهن حاسرات الرأس يكشفن عن سيقانهن.

سألتنى : أتعرف شيئا عن تاريخ طنجة .

قلت مغتاظا : منك أستفيد!

قالت : كانت طنجة محمية فرنسية منذ سنة ١٩١٢ – ١٩٢٢، ١٩٥٦ وربما قلنا هذا هو عصر المدينة الذهبى.. أنا لا أسرف فى حكمى .

– يبدو أن النكهة الفرنسية تعجبك.

– بل الجو الدولى ، انها مدينة كوسموبوليتية بكل ما فى الكلمة من معنى.

– أننى أراها مدينة عربية، لها بصمة عربية. ربما تكون عينى متحيزة.

– وجهة نظر .. ثم أمرتنى فى لطف:

قف .. أريد أن أمسك لحظة في يدي.. وراحت تلتقط صورة.

ثم ثبتنا الكاميرا لتلتقط لنا معا .. صورة ..

وحين اقتربت مني .. صاح صوت داخلي يقول في تمن :

«كم أتمنى أن يضمني معها ملليمتر مربع»!

وفي موضوعية لا مكان لها قالت : أتعرف أن الضواحي تتضخم بسرعة. انها تمتلىء بعمارات لها طابع غربي.

– لكنها عمارات نظيفة وجميلة وصحية.

– لكنها دخيلة مثل الطبقات التي كانت تسكنها.

وقلت لها متسائلاً : لماذا القول بأنها طبقات دخيلة؟

– هي بالفعل كذلك، كانت طبقة عاشت في ظلال الحامية الفرنسية وجنت بعض الثروات المتواضعة من الأجانب !

خرجت فتاة صغيرة من أحد البيوت أو «الخيم الخشبية» كما تسميها «يارا» وأشارت لنا بكرم وحب للغرباء – تفضلوا.



أمسكت (يارا) الفرشاة وراحت تضرب في مهارة على الورق، واقتربت منها الطفلة في شغف .. ترمقها يارا.. مازلت ترسم وتدندن بلحن غامض.

خاطبت يارا الطفلة : أتحبين الرسم؟.

– جداً، ولكنني لست ماهرة مثلك.

– هل تحبين أن أرسمك ؟.

– بكل سرور.

فقبلتها وأشارت لها أن تقف في مكان قريب.. تحدث الطفلة وهي ترسمها تضع اللمسات للشعر الكستنائي والخرز الملون حول العنق النحيل.

أخرجت يارا ورقة مالية ومدت يدها للفتاة الصغيرة، البنت ترفض في خجل، أمسكت برأسها وقبلتها في وجنتيها ودست الورقة المالية في جيبها، وطلبت من الطفلة كأساً من الماء البارد ذهبت الصغيرة.

– بنت لطيفة جداً .

قالتها في رقة.

عادت البنت بزجاجة ماء بارد وكأسين وزجاجتين من المانجو على صينية نظيفة مشغولة برسوم وزخارف عربية أنيقة.

رحبت يارا بكرم الفتاة الصغيرة، وأكثرت من الاعتراف بالجميل.. وعادت إلى رسمها ترصد المساكن الفقيرة .. وسألتني وهي مشغولة بعملها:

– هل يعجبك الرسم؟

قلت بصوت لا يخلو من الضيق لانشغالها عني : رائع ، إنه يصالحني مع هذه النفايات! وما نرفضه في الواقع يجمله لنا الفن.

وأضفت كمن يعتذر عن غلظة ليس لها مبرر.. أعني يجعلنا نقبل الواقع ونفرح به.

لم ترفع بصرها عن الورق: الرسم لا يزيف الواقع .

وفي مهارة التلوين

قالت انظر هناك .. هل ترى تلك التلة الرائعة .

- أراها ..

- البعض يقول عن التل «الجبل».. وأهل الوطن يعتبرونه رمزاً من رموز العهد البائد!.. لعلك تلاحظ الفيلات الرحبة المبنية على طراز أوربي صرف.

- أتسعدين بالرسم؟

- جداً .. ولكن كيف تنقل لغة الريح وحفيف الشجر وصمت الصحراء.. الرسم يحاول ، صحيح أن الرسم يحاول الوصول إلى العمق.. ويمكن أن يتحول الرسام إلى متصوف.. وأنا أحاول.

- هل أدعوك لبعض البيرة .

- بكل سرور .. ولا تنسى السجائر!.. مدت يدها بالنقود.. قبلت اليد ولم أقبل النقود.

انتقلت يارا تحت شجرة، واستغرقها العمل. وانسدل الشعر الأصفر على جانبي وجهها. ضمت شفتيها السيجارة بشغف.. تقول

- أتعرف أن طنجة محط كثير من الأدباء والفنانين.

- مثل من ؟

نظرت إلىّ باستغراب، كمن يجهل كنوز بلاده ، تشرب البيرة .. اسمعها:

- جاء إلى هنا ديلاكروا وماتيس وفرانسيس بيكون وجوزى هيرنانديز، وليام بيروكس وجاك كيرواك، الين جينسبرج ، وصمويل بكيت، وأعتقد أن بكيت يأتى إلى هنا فى الشتاء.

- لماذا الشتاء ؟

- لا أدرى ! رغم أن الناس لا تأتى هنا فى الشتاء ! ربما يعشق المنافى البعيدة ولا يحب الزحام.. الشتاء له صفة خاصة هنا ، أنه يعطيك الفرصة فى الانفراد.

- تصدقينى.. أنا أيضاً أحب زيارة الإسكندرية فى الشتاء .

خذ البيرة .. أكملت :



قابلت هنا فى المرة السابقة الكاتب الأمريكى تنسى وليامز. ويأتى إلى هنا رولان بارت، وسفير كوبا سيفيرو ساردى، إنه شخصية لطيفة جداً. يحب التسكع بين حارات طنجة القديمة ، ويتحدث عنها بعشق اسطورى.

بالمناسبة .. هل تعجبك كتابات ويليام بيروكس.

قلت متحرجاً: لم أقرأه.. وأضفت .. تتحدثين عن طنجة كأنها الفردوس الذى يضم الملائكة.

- إنه القطاع الذى يهمنى.. بالطبع هناك من يأتى للسرقة والتهريب ، منذ أصبحت طنجة مدينة دولية.. ولا غرابة أن تجمع الشعراء والفنانين والمهربين وقطاع الطرق!. وإنها صارت سوقاً للصفقات من كل نوع.. عموماً الناس البعيدون عن قوانين بلادهم يتصرفون بحرية أكثر.. الكثير من البضائع الممنوعة موجودة فى الأزقة الملتوية، حيث أصبحت مساحة لعملياتهم المشبوهة.

ونظرت إلى بعد

الفقرة الطويلة.. تمتص السيجارة بشغف، تشرب البيرة بتلذذ.. تقول كأنها تعتذر عن وجهة نظرها: أنا يا صديقي لا أبحث عن الرومانتيكية، ولا أبحث عن ماضٍ مزيف!

راحت تعرض عليّ بعض الاسكتشات حول طنجة.. انها تجهز لمعرض كامل عن هذه المدينة.. صور جميلة .. فرشاة رقيقة.. ألوان تجذب النظر.. توقفت أمام النساء الجبليات ومعهن بضاعتهن ويرتدين قبعات عريضة من الخوص الأصفر مطرزة بنقوش جميلة، وبعضهن يرتدين ثيابهن الملونة بالخطوط البيضاء والحمراء.. يلتففن بالشيلان البيضاء ذات الشراشف.

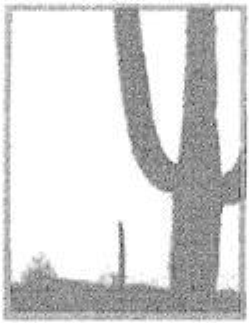
ملت نحوها.. سألتها : ألم تفكري في الزواج؟.

بدا السؤال شخصياً وسخيفاً ولكنها ابتسمت وردت على السؤال بسؤال:

- عندك عريس ؟

قلت بحماس : هذا الجمال له ألف مليون زبون.

- آه .. زبون !.. لا



أحب أن أتحول إلى سلعة.

- آسف .. خانني التعبير.. يالقبح اللسان!

- الفن قضية تستوعب عمري كله، ورحلة البحث في الدنيا .. في الناس.

لا تنتهي .. ولا أبحث عن عريس.. ولا زبون!

- أتقصدين أن ..

- بالضبط .. أنا رحالة .. لم أستقر بعد على شيء!

- ودور المرأة عندك .. حرام هذا الجمال الفاتن ..

قاطعتني بابتسامة ..

- هناك من ينهض بهذا الدور.. إن كنت تقصد الانجاب وتربية الأولاد.. و.. وعني شخصياً فالمرأة الدجنة لا أقبلها في نفسي!..

- لكن المرأة حصلت على حريتها في أوربا .. وفي بلادنا.. و.. قاطعتني على غير عادتها مرة أخرى.

- لا.. وسوف تسمع عن تظاهرات هذا العام وبعد مائة عام .. المرأة مسكينة فعلاً، ويكفي أن تعرف نظرة الناس عندكم للمرأة .. والجنس.. والتزمت العجيب حتى داخل كليات الطب!.. والجنس يعني العيب عندكم ! أليس كذلك؟.. انهم يحذفون كلمة مشاكل جنسية ويقولون مشاكل نفسية!.

ولا تنس أنني لا أكتفي بقراءة الكتب .. لقد جبت نصف العالم.. ورأيت كيف يضرب الأب ابنته لعلاقتها بزميل أو جار!.. وربما لا يسمح الناس عندكم بمثل الحوار بيننا الآن.

- وما السبب في رأيك ؟.

- الخلط بين المشكلات الاقتصادية والسياسية والدين .

- عفواً .. تتحدثين في مسائل خطيرة بسهولة عجيبة.. فهل اتخذت قرارك في حياة

بلا أسرة .. وتتوقعين السعادة .

– القرار ملكي ، وفي بلادنا .. يمكن أن أعيش على ما أقرر، أما مسألة السعادة فالعمل يمنحني السعادة .. والعطاء يعطي سعادة أفضل من الأخذ .. والفن نوع من العطاء .. والهرب من ساقية تدور للابد نوع من الحل.. وعموماً تحرير المرأة يرتبط بحرية المجتمع نفسه.

– يبدو أن لك عقلاً سياسياً.

– ربما .. وليس المفهوم الشائع في بعض البلاد.. فلا أجيد المناورات وأمقت لعبة الانتخابات .. وأكتفي بالفن والتأمل والرحلات.. والسعادة أن تعيش يوماً بيوم..

شعرت أن أصابع قوية تعتصر قلبي .. هذا الكيان الجميل يفكر هكذا.. العيب فيّ أم فيها.. لأول مرة .. أجد مسافة .. قلت لها وكأنها تقرأ أفكاري ومشاعري :

– احترم وجهة نظر الآخرين .. تسعد .

لمت حاجياتها وجذبتني من يدي : تعال .. أريك شيئاً.

تخطو بخطوات واسعة، لا تذهب بجمال طولها وعودها الفارع .

– أنظر .. «مقبرة الكلاب».

تشير إلى أسفل الحي الرامي بمنطقة «الجبل» في مكان مسوّر .. وكأنها ترد على دهشتي سمعتها : ألا ترى أنه الوفاء النادر من الإنسان للحيوان! راحت تدفعني للإمعان والنظر في بلاطات رخامية، ورسومات لأنواع عريقة من السلالات والنسب!.. ثمة كتابات بحروف لاتينية جميلة، غائرة في رخام ناعم.. تقول لي فجأة بصوت هامس : انظر لهذه السيدة الأوربية .. إنها تضع زهوراً على قبر كلبها المدفون!.. ربما منذ ربع قرن.. لو حدقت في عينيها سترى الدموع قلت ساخراً دون وعي : كأنه الشهيد!.

ها نحن نصل إلى مرتفعات «مرشان».. ليصافحنا مقهى الشاطيء الصخرى قالت يارا : أراك تعبت من كلامي .. فلتسترح في هذا المكان.. جاء الجرسون قالت يارا : هات شاي منعنع!.. يا للذوق الحلو !.. بعد قليل أقبل الجرسون بلباسه الأنيق، البنطلون الأسود والقميص الأبيض وعلى صدره فوطة بيضاء. المكان ينسحب على نفسه في سكينة! ثمة شبان يتكلمون بهدوء .. رحت أفكر في كلمات يارا .. واجدل الحوار بالصمت.. وأخلط كل شيء بحكايات البحر وزرقة السماء الممتدة إلى ما لا نهاية.. المكان بطل حقيقي، كأنه يرفض عادات السياح الاستعراضية، حيث (يارا) رجلا يجلس على باب المقهى.. قالت عنه : «إنه صاحب المقهى، رجل طيب.. كنت هنا يوماً.. وضاعت حافظة نقودي.. وتعرضت للاعتذار والاحراج فعرض علي الرجل نقوداً من جيبه، رجل شهم.. ويصر على تقديم طلب مجاني .. هدية ! كلما أتيت هنا .

لم أتعجب .. إنها تتآلف بسرعة مدهشة مع البشر والحجر! وتفهم حتى لغة البقر! رحت أغمض عيني، لأتذكرها

وهي تمشي بين الدكاكين المزدحمة بالبضائع، وتطل علينا التحف النحاسية وأباريق مشغولة بالزخارف وخناجر مزركشة . إنها امرأة تلتهم العالم بلا مهادنة، وما كنت أتصور نفسي أسير كل تلك الساعات في التجوال في أزقة نصف مظلمة، لكنها نظيفة رغم الازدحام.

وأخرجت الكاميرا، تلتقط في هوس صوراً تعبر عن تشابك البيوت وتداخلها المعماري.

يارا تقول مهما كان.. الصورة صماء، ليتني أسجل الحوار والصخب فهو جزء من الصورة! الكاميرا تحنط اللحظة، لا شيء يستوعب هذا إلا السينما، الآن عرفت لماذا تحول كوكتو من الشعر إلى المسرح ومن الرسم إلى السينما دون أن يتخلى عن وسيلة فنية يملكها! المهم كيف تسجل هذا المجال الحميمي !

فارقنا الأزقة الملتوية والضيقة، واتجهنا صوب شوارع فسيحة ، أصبحت العين ترى المدى المكشوف ، والسماء العارية.

سألت أحد المواطنين : أين ضريح (ابن بطوطة).. قال بحماس .. هناك .. وأشار إلى الاتجاه المؤدي إليه، مررنا على مقبرة ابن بطوطة المتواضعة ثم صعدنا نحو «باب العصا» ثم إلى نقطة شاهقة تشرف على التقاء الأطلنطي بالمتوسط.

لا أدري كيف أصف طنجة من هنا .. وكيف قذفت يارا بكل هذه المشاعر إلى أعماق قلبي، وأشارت يارا إلى موضع ارتطام البحر والمحيط وقالت :

- انظر .. هنا تورطت طنجة بتاريخ حافل..

سافر عقلي إلى مصر.. لعقد مقارنات أدق وأخطر.. ولكنني سمعتها كأنها لا تتكلم معي.. أين الواقع وأين الحلم.. أين الحقيقة والخيال.. كل شيء يمر بي يؤكد أننا في حلم .. حتى الصور والألوان .. مجرد حلم، غداً أترك كل هذا وأعود إلى بلادي، وفي لهجة واضحة : لن أنسى هذا اللقاء .. سوف أضع اسمك في هذه المرحلة.

اشتدت موجة برد مفاجئة .. أحكمت الشال على كتفيها.. كأنها قرأت خاطري..

- ربما نلتقي مرة أخرى.. ستكون هناك رسائل .. أليس كذلك؟

همست بحرارة: يارا .. أتمنى أن أذهب معك إلى آخر الدنيا.. ولكن أفكارك عجيبة .

ضحكت يارا.. وفي نغمة مرحة قالت : هكذا أنتم .. ساخنون سريعاً.. باردون سريعاً.

وفي إضافة حريرية قالت : لا شيء يدوم !.

موجات البحر ذاهبة في سرعة عظيمة ، كانت الشمس تضرب في الأفق وتترك لمسة من الدفء على شعر يارا قبل غروبها الكلي.. وصمت يخيم على كل شيء. ■



التكوين

كانت لقراءاتي الأدبية الأولى أثرها العميق في تكويني الأدبي

محمد الدسوقي

كنت أحد أربعة من الصبية نعيش في بيت العائلة الكبير، الذى كان يتكون من خمسة من الإخوة لم يقدر لأحدهم أن يتزوج ، وكان لكل من الأربعة الآخرين زوجة وأولاد.

وكان ينشب بين هؤلاء الصبية وهم يلعبون فى باحة البيت تشاجر وتعارك فى بعض الأحيان لأتفه الأسباب، وكان هذا التشاجر يؤدى إلى تدخل الأمهات بصورة تثير غضب الآباء ، وتعكر جو الحياة فى الأسرة.



وفى يوم من الأيام احتدم التضارب بين الصبية، وارتفع صوت بعضهم بالبكاء، مما حمل العم الذى كانت له الكلمة الأولى فى العائلة - فهو يتولى الإنفاق عليها، لأن عائدات الإنتاج الزراعى وتربية الماشية تصب فى جيبه، وما كان أحد من إخوته يسأله عما ينفق أو يدخر، وهو إلى هذا يحفظ القرآن الكريم، ويجيد كتابة الصكوك، وله رأى مسموع فى مجالس التحكيم فى الريف - على أن يدفع بهؤلاء الصبية إلى كتاب القرية، عله يشغلهم عما يقع بينهم من تعارك ، ويتعلمون ما قد يعود عليهم بالنفع فى حياتهم.

وكان لهذا الكتاب شيخ صارم كنا نخشاه أكثر مما نخشى آباءنا ، وكان مع حزمه شديد الحرص على تعليم الأطفال، وتحفيظهم كتاب الله.

وقبل بلوغ العاشرة من العمر كنت قد حفظت القرآن الكريم، ورأى الشيخ مرسى - رحمه الله - شيخ الكتاب إرهاصات الاستعدادات لمواصلة التعليم لدىّ، فقابل والدى وهو رجل أمىّ كل همه منصرف إلى الزراعة، والحرص على زيادة عدد الأفدنة التى تمتلكها العائلة، وقال له: إنك رجل لا تعرف شيئا عن ولدك، لقد أتم حفظ القرآن ، وهو الذى يصلح للتعليم دون أولاد أعمامه. ويجب أن يذهب إلى المدينة لتجويد القرآن ودراسة بعض العلوم التى تؤهله للالتحاق بالأزهر.

وتكلم والدى مع العم المسئول الذى استجاب لما نصح به الشيخ مرسى، وفى نحو عام كنت قد أنهيت دراسة أهم قواعد علم التجويد، مع الإلمام بقدر من علم الحساب الذى يتيح لى أن أجتاز امتحان القبول بالسنة الأولى الابتدائية بالأزهر.

مرحلة الأزهر

وكان نظام التعليم فى الأزهر منذ نحو خمسين عاما خلت لا يسمح للطالب فى السنة الأولى الابتدائية بالانتقال إلى السنة الثانية، وكذلك من هذه السنة إلى الثالثة إلا إذا نجح فى كل المواد المقررة فى امتحان الدور الأول، ولا يسمح لمن رسب فى مادة أو أكثر أن يمتحن فى الدور الثانى، فقد ألغى ذلك النظام بالنسبة لطلاب السنتين الأولى والثانية، ومن يرسب فى مادة واحدة فإنه يعيد السنة ، ويدرس المواد كلها مرة ثانية.

وأقبل الفتى على دروسه فى الأزهر بجد ونشاط ، لا يضيع وقتا فى لهو أو لعب، وإنما يذاكر ما يتلقاه عن شيوخه فى حرص ومتابعة، وجاء امتحان آخر العام ، وكان الفتى قد تهيأ له، وكاد أن يحفظ كل المقررات، وإن لم يكن قد فقه كل فصولها وأبوابها، وظهرت النتيجة التى سعد بها، فقد نجح فى كل المواد وتحصل فيها على درجات عالية تكاد تقرب من درجة النهاية الكبرى اللهم إلا مادة واحدة كانت درجته فيها تزيد درجة واحدة على النهاية الصغرى، وهى مادة الإنشاء، وانزعج الفتى من درجة هذه المادة ، وقال له بعض زملائه: لو نقصت مادة الإنشاء درجتين لرسبت، ولضاع عليك جهدك الذى بذلته فى المذاكرة. وتساءل الفتى كيف يمكن أن يكون قويا فى الإنشاء، وأن يحصل فيها على درجات عالية؟ فقيل له : إن السبيل إلى ذلك هو قراءة المجلات والكتب الأدبية..

وفى الإجازة الصيفية للسنة الأولى حفظت «مجموعة النظم والنثر» وإن لم أفهم كثيرا من نصوصها، وهذه المجموعة كانت وزارة المعارف قد قررتها



د. محمد الدسوقى أثناء مناقشة رسالته

التكوين

على طلاب المدارس فى الأربعينيات من القرن الماضى.

وقبل بداية العام الدراسى الثانى بالأزهر بنحو شهر انفرط عقد الأسرة؛ فقد انقسم الإخوة، وأصبح لكل منهم أرضه الزراعية الخاصة، وأشار أحد أعمامى على والدى بإخراجى من التعليم لأعاونه فى الزراعة، لأنى أكبر أولاده الذكور، فضلا عن أن رحلة الدراسة طويلة، ونفقات التعليم ليست يسيرة، بيد أن والدى رفض ما أشار به هذا العم، وقال له: سأنفق على ولدى فى التعليم، ولو بعت كل ما أملكه.

وأخذ الفتى منذ العام الثانى له بالأزهر يطالع بعض المجلات كالأزهر والرسالة والهلال، وعرف عن طريق هذه المجلات بعض الكتب التى قرأها، وأصبح الوقت الذى يقضيه فى القراءة فى غير المواد المقررة أكثر من الوقت الذى يذاكر فيه هذه المواد، وكان سعيدا بذلك، فالقراءة الأدبية لم تفده فى مادة الإنشاء فحسب، وإنما أفادته فى كل المواد، فقد يسرت له فهم ما لم يكن يفهمه، وأتاحت له الإجابة فى الامتحانات بعبارة رصينة، ولغة سليمة أرضت شيوخه فكانوا يمنحونه الدرجات العالية، ولا ينسى حصوله على جائزة مالية فى النقل من السنة الثالثة الابتدائية إلى السنة الرابعة، وكان مقدارها أربعة جنيهات فى وقت كان الجنيه المصرى أقوى اقتصاديا من الجنيه الاسترلينى، وذلك للتفوق فى النجاح، كما لا ينسى حصوله على الدرجة النهائية فى مادة الإنشاء.

واستطاع الفتى فى المرحلة الابتدائية بالأزهر قراءة عدد من مؤلفات المنفلوطى والزيات وأحمد أمين وطه حسين والعقاد والرافعى وغيرهم، بالإضافة إلى ما قرأه من التراث القديم كأجزاء من العقد الفريد وزهر الآداب، وأثمرت هذه القراءة ثمرتها الطيبة، فقد عرف وهو فى مستهل المرحلة الثانوية بالأزهر سبيله للكتابة والنشر، وكان أول ما نشره فى باب البريد الأدبى بمجلة الرسالة، ثم نشر بعد ذلك فى مجلة الأزهر وبعض الصحف الإقليمية.

وقدر لى بعد الحصول على الثانوية الأزهرية الالتحاق بكلية دار العلوم، وكان لهذه الكلية دورها فى صقل المواهب وتنميتها، فالدراسة تختلف مادة ومنهجا عما درسته من قبل، وكان أهم مادة لها تأثيرها فى التكوين العلمى مادة قاعة بحث، التى تفرض على كل طالب أن يقدم بحثين فى كل عام دراسى، أحدهما فى فرع من فروع علوم اللغة العربية والثانى فى فرع من فروع الدراسات الإسلامية.

واقتضى إعداد البحوث الثمانية فى المرحلة الجامعية الرجوع إلى بعض ما كتب فى المناهج العلمية، وكذلك المصادر الخاصة بموضوع كل بحث، فضلا عن توجيهات الأساتذة الذين كانوا لا يبخلون بالإرشاد وتقديم خبرتهم فى البحث لجميع الطلاب. فهذه المادة فتحت مجالات جديدة للقراءة، والتعمق فى الكتابة وإعداد البحوث وفق أصول المنهج العلمى، مما كان له أثره فى تمهيد الطريق للدراسات العليا، والحصول على درجتى الماجستير



مع شيخ علماء البوسنة وعميد كلية الدراسات الاسلامية بسراييفو

والدكتوراه

في مجمع اللغة العربية

وتنتهي المرحلة الجامعية بنجاح وتفوق، ومع أن ترتيبي كان الثاني على دفعتي لم أعين معيدا بالجامعة ، ولكن هذا النجاح فتح لي باب العمل بمجمع اللغة العربية محررا علميا، وكان العمل في مجمع الخالدين لنحو عشر سنوات فرصة ذهبية من حيث القراءة والفائدة العلمية، فمكتبة المجمع غنية بذخائر المؤلفات العربية في علوم اللغة والتفسير والسنة والفقه والأصول والتاريخ وغيرها.

مع د. طه حسين

ويضاف إلى ما أومأت إليه آنفا أن عملي في المجمع كان سببا في علاقة مع عميد الأدب العربي، ورئيس المجمع اللغوي الدكتور طه حسين، وقد بدأت هذه العلاقة في أواخر سنة ١٩٦٤م، وامتدت إلى صيف ١٩٧٢م، أي قبل وفاته بنحو عام، فقد وقع الاختيار على لأرافق العميد مدة أسبوعين: لأن سكرتيره فريد شحاتة في حاجة ضرورية إلى إجازة، وبعد هذا كنت أذهب للعميد يوما كل أسبوع على الأقل، وهو يوم إجازة فريد، فضلا عن إجازته السنوية وكانت نصف شهر، وكانت تبدأ غالبا عقب عودة العميد من رحلته الصيفية، ثم ساءت العلاقة بين العميد وسكرتيره الذي عمل معه نحو أربعين عاما. ولم يعد السكرتير يحافظ على الذهاب إلى رامتان كل يوم بحجة طوارئ المرض، وكان العميد يعتقد أن سكرتيره يفتعل المرض، وأنه أصبح بهذا السلوك - على حد تعبير العميد - لا يطاق.

وبعد أن ترك فريد العمل مع العميد في يناير سنة ١٩٦٩م، كان على أن أذهب إليه يوميا، وأن أتولى مهمة السكرتير الخاص له ، على الرغم من أن هناك عددا من الشباب جاء ليقوم بهذه المهمة ، غير أنهم ما كانوا يستمرون في القيام بها، فقد كان الواحد منهم يعمل أسبوعا أو شهرا ثم يعتذر لأسباب لا

التكوين

مجال للحديث عنها.

وكنت في هذه الأيام التي سعدت فيها بلقاء العميد أمكث معه كل يوم خمس ساعات، نصفها في الصباح ونصفها الآخر في المساء، وكنت أقرأ له الكتب والصحف العربية. وقد قرأت له كتبا كثيرة، أغلبها تراثية، يتألف معظمها من عدة أجزاء، وقرأت معه بعض هذه الكتب أكثر من مرة كالكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة.

وما كان العميد وأنا أقرأ له الكتب سواء القديم منها والحديث يكتفي بالاستماع والإنصات، فقد كانت له تعليقاته وانتقاداته المختلفة، وما كان ينتهي من قراءة كتاب دون أن يومىء إلى رأيه فيه، وكان الرجل في بعض تعليقاته يشركني في الحديث معه، وأحيانا يطلب مني الرجوع إلى بعض المصادر لتفسير عبارة، أو التأكد من معنى.

في سلك التدريس الجامعي

وبدأت رحلة التدريس الجامعي بعد الحصول على الدكتوراه في عام ١٩٧٢، ومازالت حتى الآن، والتدريس الجامعي في جوهره جهد علمي متواصل، وعطاء فكري متجدد، وما لم يكن كذلك فإنه لايبني عقولا، ولا يخرج مبدعين أو مجددين، ولا يختلف اختلافا ذا بال عن التدريس في المرحلة الثانوية. وآفة التعليم الجامعي المعاصر أنه يقدم على التقليد والجمود، ولا يعرف التطوير أو التغيير، فلا غرو أن تفشت ظاهرة السرقات الأدبية في الأبحاث والرسائل، واتسم النتاج العلمي بوجه عام بالضحالة، وعدم الابتكار، ومن ثم حرصت منذ بداية هذه الرحلة على أن تكون المواد التي يعهد إليّ بتقديمها للطلاب دراسة علمية منهجية تعتمد على المصادر الأصيلة والمقارنة الموضوعية والاجتهاد المستطاع، وأبيت أن تكون هذه الدراسة في صورة مذكرة يدرسها الطلاب دون أن يعرف الآخرون عنها شيئا، ويتكرر طبعها في كل عام من غير إضافة أو تطوير كما يفعل البعض.

في البوسنة

وكان لهذا النهج في التدريس جدواه في تعميق التكوين في مجال التخصص، والارتقاء بمستوى البحث والتأليف، وكانت ثمرته أكثر من خمسة وعشرين كتابا، ونحو ثلاثين بحثا في حوليات محكمة، ونحو مائة مقالة في مجلات شهرية أو أسبوعية، والفوز بعدة جوائز علمية على المستوى العالمي والإقليمي، والمشاركة على مستوى العالم الإسلامي في نحو عشرين مؤتمرا علميا، أو ندوة ثقافية، فضلا عن بعض المهمات العلمية التي كلفت بها، وأذكر منها مهمة استغرقت شهرا كاملا في جمهورية البوسنة والهرسك، فقد كان المسلمون في هذه الجمهورية مثلا صارخا للوجود الإسلامي الذي يجهل جمهور الأمة تاريخه وبخاصة في العصر الحاضر، فلما حدثت المؤامرة الكبرى التي كانت تسعى - ومازال - للقضاء على هذا الوجود، وأخذت وسائل الإعلام تبث أنباء الجرائم البشعة التي اقترفها الصرب والكروات ضد المسلمين، عرف المسلمون أن هناك إخوة لهم في البوسنة والهرسك يعانون مما يقع عليهم كل يوم

من قتل وتشريد واغتصاب وتدمير للمقدسات وسعى محموم أرعن لمحو كل ما هو إسلامى فى أرض البلقان.

وكان من فضل الله علىّ أن رشحت أستاذا متخصصا فى الشريعة الإسلامية فى الكلية الإسلامية فى سراييفو، وهى مهمة فى مجال العلوم الشرعية، واتخذت كل الإجراءات الرسمية للسفر والبقاء فى البوسنة لمدة شهر يوليو سنة ١٩٩٦م.

وقمت بتوفيق من الله بأداء المهمة العلمية التى كلفت بها



مع رئيس جمهورية باكستان السابق - أكتوبر ١٩٩٨

تكوين لا يعرف

وبعد فإن التكوين لا يعرف مرحلة من العمر يقف عندها، إنه يقوم على الاستمرار فى الطلب مادام الإنسان قادرا عليه، والإسلام وهو دين الحضارة الإنسانية خاطب الأمة أول ما خاطبها بالأمر بالقراءة والتعلم بالقلم «اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» (١/٥/ العلق) هذه الأمة التى خاطبها الوحى بهذه الآيات لن تفارق العلم: لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم. والمسلم فضلا عن حرصة البالغ على التزود بالعلم ، وطلبه له من المهد إلى اللحد يشعر بأنه مهما يبلغ من العلم يظل منهوما إلى المزيد منه ، فهو لا يشبع أبدا ولذا كان دعاؤه «وقل رب زدنى علما» (١١٤/ طه) لأنه كلما حصل نصيبا من العلم تطلع نحو نصيب آخر، وأدرك أنه يجهل أكثر مما يعلم «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥/ الإسراء) فلا يفتأ مواصلا جهاده فى الطلب، موقنا بأنه إن لم يفعل ذلك فلن يحتفظ بما ناله من العلم ، فطلبه له أشبه ما يكون بالتجديف ضد التيار، والذى يتابع التجديف يتقدم بكل ضربة خطوة إلى الأمام فإن حل به الوهن أو جنح إلى الكسل، ولم يواصل مقاومة التيار فلن يحتفظ بما بلغ إليه، لأن التيار سيدفعه إلى الخلف، حتى يرجع به إلى نقطة البداية، ويذهب كل ما بذله من جهد سدى، وهكذا العلم يزكو وينمو بالمتابعة والاستمرار ويخبو ويضمحل بالإهمال والهجران.

وآفة الآفات فى التكوين أن يظن الإنسان أنه بلغ فى العلم درجة لم يرق إليها سواه، وأنه بهذه الدرجة أصبح فى غنى عن طلب المزيد، فمن ظن أنه قد علم فقد جهل، والعالم إذا لم يبرأ من شوائب الغرور والزهو والادعاء وعدم الرضى بما حصله من العلم فإنه لن يكون عالما بالمعنى الصحيح، ويكون لغيره مثلا سيئا فى طلب العلم والتبحر فيه. ■

◆ عاطف مصطفى

«الهلال» وخمسون عاما على ثورة يوليو

منذ صدور الهلال الماضى وكلمات الثناء لاتتوقف، وعبارات الاستحسان تأتى إلينا، والطلبات على هذا العدد التذكارى تلاحقنا فى كل مكان .. وحرىٌ بنا أولا أن نتقدم بالشكر لقراء الهلال الأعزاء ولكل النقاد الذين احتفوا بالهلال، فضلا عن أن البريد قد أتى يحمل بعض التعليقات ، نكتفى ببعضها.

يقول د.صموئيل لبيب سيحه : لنبض السنوات ذكرى خالدة محببة إلى النفوس، ونحن الآن نحتفل بالذكرى الخمسين لثورة يوليو، وجاء العدد الماضى من الهلال تذكاريا يتضمن هذه المناسبة، ولاجدال أن الهلال دوما فى إصداراتها لاتغفل هذه المناسبة القومية.

وجاء فى عدد ديسمبر ١٩٥٢ وقت أن أتمت الهلال ستين عاما من حياتها فى خدمة الثقافة فى العالم العربى مقالات للاستاذ عباس العقاد تحت عنوان «الجيش وقائده» قال فيه : «من التوفيقات الإلهية أن يدخر القدر لحركة الجيش رجلا من أصلح الناس، أن يكون قدوة لمن يحاربون الإقطاع، ويعتصمون بنزاهة اليد والضمير من آفات الإقطاع وفتن الإقطاع».

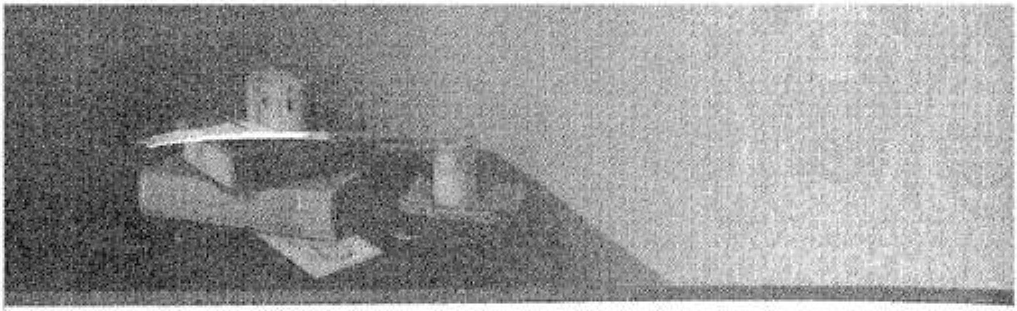
ومن نافلة القول أن الهلال كانت معاصرة آنذاك لنهضة المشرقين الإسلامى والعربى، وسايرت الأدوار التقدمية التى مرا بها، ولعلها مرآة صادقة للتطورات الفكرية والاجتماعية والعمرانية، وحافظت على مزيتها الأولى.

والهلال بحق مجلة كل جيل .. وسفيرة الثقافة الحديثة، والأفكار الراقية الحرة بين الشرق والغرب، وبات هذا جليا واضحا فى عدد يوليو الماضى الذى صدر فى ثوب قشيب تحريرا وإخراجا .. حقا إنه إبداع يحسب لمجلة الهلال .

المغزى التاريخي لثورة يوليو

ويقول الدكتور سامى منير : لقد أعجبنى مقال المغزى التاريخى لثورة يوليو للدكتور جلال أمين على مافيه ، ولم يعجبنى إهمال الزميل الدكتور ماهر شفيق فريد لاسم الشاعر والناقد صلاح عبدالصبور كمؤسس لمجلة فصول حين تحدث عن مجلة المجلة .

كما يقول لقد سعدت بالكلمات التى جمعت فى طياتها ثراء ماضينا منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وأفضل مايمكن أن يتوقع من أحلام حاضرنا ومستقبلنا، حتى نضمن ألا تخبوا شعلة هذه الثورة، بما قد أثارته وأضاءته للأجيال المقبلة من شبابنا.



طريق المستقبل والرخاء

ويكتب سعيد عبد القوى حواس، نصف قرن مضى وثورة يوليو المصرية ماضية مضيئة، تقضى على الاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، وتقيم جيشا وطنيا قويا، وعدالة اجتماعية، وحياة ديمقراطية سليمة.

رفع ذكرها فى العالمين جمال بالحرية والسد والقتال والاشتراكية والوحدة والنضال، وأقالها من عثرتها أنور بالقتال والسلم وفتح لها طريق المستقبل والرخاء والاستقلال مبارك.

وستظل مصر بضمير دينها وصوت عروبتها وفكر تاريخها على طريق البناء والنماء.

ويعقب عمرو عبدالمنعم حمودة على ما أثارته زميلتنا أماني عبدالحميد في مقالها «مبنى قيادة الثورة: متحف على الورق» والذى يتناول قضية ملفات ووثائق ثورة ٢٣ يوليو وتاريخنا القومى ويطالب بضرورة رفع الحظر عن هذه الوثائق وفتح الباب أمام الباحثين للإطلاع على الوثائق الرسمية والحقيقية والأصلية، إلى توثق للأحداث فى أسبابها ونتائجها ودوافعها فى تاريخنا المعاصر.

العدد التذكارى



هذا العدد من أروع ما أصدرته دار الهلال مبنى ومعنى، الغلاف رائع، والطباعة، وحجم الكتاب، والموضوعات وتسلسلها واختياراتها من حيث الصور المنتقاة والكتاب، وعناوين الموضوعات.. الخ إنه عمل متكامل من الناحية الصحفية والتاريخية .. وحرفيا ينال درجة إمتياز.. ولكن .. وللأسف الشديد، من يرغب الآن فى اقتناء هذا العدد لايجده متوفرا فى الأسواق، ونرجوكم إعادة طبع هذا العدد وطرحه والإعلان عن ذلك حتى يتسنى لمن لم يسعد به أن يقتنيه، ومن حصل على نسخة واحدة - مثلى - أن يجد نسختين على الأقل، بل إنى أقترح إصدار «نسخة شعبية» إن أمكن ذلك من هذا العدد الحرفي البديع.

م .شريف عفت - القاهرة

الهلال: شكراً لك أيها الصديق وفعلاً نفذ الهلال، وأعدنا طباعتة مرة ثانية نزولا على رغبة القراء الأعزاء

طغيان

لأن القدس شمس الله عن دنياه لم تغرب
لأن عبيرها المهموس يحضن ريحها الأعذب
لأن الأنبياء بها : وعود الغيب
كانت يقظة الأحلام،
منطلق الغمام،
مسافة الإلهام في أيامنا الأرحب
وكانت للدم العربي أكفانا معطرة
وللحلم النبي رؤى معبرة عن الكوكب
وكانت للبنات، الأغنيات صراط منطلق إلى الجنات
كانت للشباب مراكب الأحباب
في شجر الحياة إلى محيط ذهب
وكانت للضمير الحر عرق الصبر
ينبض فائضا بالخير عند الموقف الأصعب
وكان الليل طوافا بها
والريح والأقمار
كان الشدو والأسمار
كان الشعر لايتعب
وكان الغدر يحمل بعضه بعضا
ليسرق سرها الأمضى
فتحرق جانحيه شهب!
فكيف يبيح هيبتها بنو صهيون؟

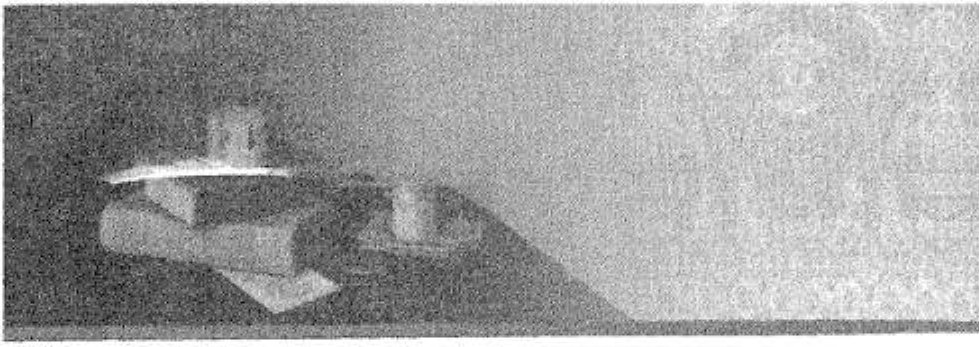
عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

د.مصطفى سويف والنزاهة العلمية

أتابع باهتمام سلسلة المقالات التي ينشرها د.مصطفى سويف بالهلال والتي تتناول رؤياه الثاقبة لتطورات الأوضاع المتوازية في مصر والوطن العربي.

وقد تضمن عدد الهلال الصادر في مارس ٢٠٠٢ حلقة بعنوان «انتفاضة الحرامية» ووردت بها إشارات إلى ماعرف بحرب «الأوجادين» التي وقعت بين الصومال وأثيوبيا عام ١٩٧٧.

وأود توضيح بعض الحقائق من بينها.



- أن الجيش الأثيوبي أطاح بحكم هيلاسلاسي، ونجح منجستو هيلا ماريام بالانفراد بالسلطة.

- ظن الرئيس الراحل الجنرال محمد سياد برى أنه يمكنه شن حرب خاطفة لتحقيق أحد أحلام الصوماليين التاريخية فى إنشاء الصومال الكبير، باسترداد اقليم «الأوجادين» الذى ضمته الصومال على مراحل بمساعدة الدول الغربية، وبالفعل حقق الجيش الصومالى انتصارات سريعة إلا أن هذا الانتصار مالبث أن أجهض، فاضطر الجيش الصومالي فيما بعد إلي الانسحاب، وتحول النصر السريع إلي هزيمة منكرة.

وكانت هناك أخطاء للرئيس سياد برى ، كما أن الدول العربية لم تقدم دعما كافيا باستثناء عون مالي محدود من السعودية وانقسام الدول العربية فى تأييد الصومال.

إن مقالات د.سويف فى الهلال والتي تتابعها الأجيال بشغف، تتسم بالموضوعية والروح العلمية والنزاهة والحياد.

السفير محمود مصطفى - القاهرة

ديمقراطية صورية!

رسالة وصلت إلى الهلال من الصديق عبدالحميد الصراف الذى يشكر على وصول كتابين وعدد شهر مارس من الهلال، ويتحدث عن الحياة فى «كاردف» وكيف أن الناس هناك يعيشون يوما بيوم فإذا ترك أحدا عمله أو طرد منه، فلسوف يموت جوعا، لولا أن تسعفه الحكومة فورا، لأنه لايجد شخصا يقرضه، وإن وفر أحدهم فذلك لأجل السفر خلال إجازته السنوية وأما الحياة الاجتماعية فتختلف عن حياتنا فى الشرق مائة بالمائة

ويذكر مثالا : فقد سأل صديقا عن صحة ولده الوحيد فأجاب : سوف يتركنا هذا الولد غدا لأنه سوف يبلغ سن الرشد (١٨ سنة) ومن حقه أن يتصرف كما يشاء، ويعيش فى غرفة فى دار مشتركة مع آخرين، وهو يسدد مصاريفه لأنه الآن يستحق المساعدة الحكومية حتى يجد عملا فى أى مكان وفى أية مهنة.

أما الديمقراطية التى يتحدثون عنها ليل نهار فلا وجود لها لأنها ديمقراطية صورية يعلن عنها فى جميع وسائل الدعاية .

قصائد قصيرة

١ - ارتواء

افتحى قلبى وارتوى،
من شعرى،
قصائدا ..
كى تهاجر منه الجراح!!

٢ - هل ؟!

هل تسمحين - حبيبتى - لى
أن أذوب على شفاهك شعرا؟!
حتى..
يعيد لنا تواريخ اشتياق!!

٣ - لاحظة

كان يأتى
يطرق الباب الأدبى
باب قلبى
كى ينال
غيمة الشعر ..
ويمضى!!

٤ - رسم

والنيل يداعب البلاد
ويغسل أحزانها
يرسم الورود عمرا
يرسم العمر قلبا
يرسم القلب قدسا
متشحا بالسواد!!

٥ - ميم ياء

قلبان اثنان
حرفان اثنان
ميم ياء
مزجا
ثم انتلقا
ثم انطلقا
صارا وطنا ..
يتسكع فى طرقات الأحزان!

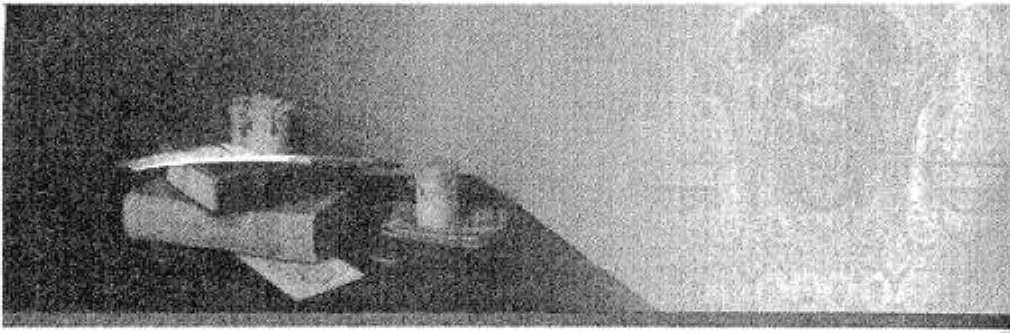
محمود أحمد المصلحى
شربين - دقهلية

الرياضة..والعولمة

كنت أفهم أن الرياضة لاعلاقة لها إطلاقا بما شاهدناه في مباريات كأس العالم الأخيرة التي أقيمت في كوريا واليابان هل تطلق كلمة «العولمة» حول ما شاهدناه في هذه المباريات الأخيرة .. فقد دخل الاحتراف مباريات كرة القدم، وتم استغلال الرياضة للسياسة، وترك الناس أعمالهم لأن غالبية المباريات كانت تقام صباحا.

لقد شهدنا دولة مثل كوستاريكا تلعب مع الصين، في حين أن عدد لاعبى كرة القدم في الصين يزيدون على عدد سكان كوستاريكا.

ومن الدلائل على تغيير الأحوال في العالم وفي كرة القدم بالذات، خروج فرنسا الحائزة على الكأس السابقة مبكرا مع بقاء السنغال إلى أدوار أعلى علما بأن فرنسا كانت تستعمر السنغال من قبل .



ووضحت العولة أن اللاعب الأسود يلعب في المنتخب الأوروبي الأبيض، ووضحت العنصرية عندما أحرز لاعب كوريا هدف الفوز لفريقه ضد إيطاليا، وهذا اللاعب الكورى يلعب فى ناد إيطالى، وقالوا إنه لم يلعب إلا لإحراز هذا الهدف الذى حرم إيطاليا من الفوز، وقالوا إنه سوف يحرم من دخول إيطاليا ولن يلعب فى نواديها أبدا

رأينا أشياء غريبة .. فأرباح اليابان تصل إلى ٢٥ مليار دولار فيما تصل أرباح كوريا ٨ مليارات فقط..

رأينا ظلم الحكام .. وتقاليع اللاعبين.

حتى الرياضة طالتها العولة.

د. جمال العطار - الإسكندرية

الاهتمام بوصول مطبوعات الهلال للسعودية

أتابع مجلة الهلال والكتاب والرواية بانتظام ومنذ سنوات طويلة، وما لاحظته هو ارتفاع أسعار هذه المطبوعات مقارنة مع غيرها من المطبوعات وأنا فى رسالتى إليكم لا أتحدث عن هذه الزيادة وإنما كل ما أطلبه هو أن يتم الاهتمام بوصولها كما يحدث بالنسبة للمطبوعات الأخرى.

على بن متروك السادة
سيهات - السعودية

الهلال: لقد تم الاتصال بقسم التوزيع، وبدوره اتصل بالشركة القومية للتوزيع، حتى تصل إليكم الأعداد بصورة سليمة، وبالطبع أنت ترى هذا التطور الكبير الذى حدث فى مجلة الهلال ابتداء من يناير ٢٠٠١، وفى العدد الأخير (يوليو) الماضى والذى نفد من الأسواق وأعيد طبعه مرة ثانية.

جارية كالغزال

أقبل أبو زيد الأسدى على سليمان ابن عبدالملك وهو فى إيوان قصره والمفروش أن حيا أبو زيد الأمير رفع الأمير رأسه اليه وسأله: أبا زيد ما يطيب فى يومنا هذا قال: قهوة حمراء فى زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء أشربها من كفها ثم أمسح فمى بخدها فلما سمع الأمير ذلك تغير وجهه وقال لأبى زيد: والله لأضربن عنقك إن لم تخبرنى ما الذى دفعك إلى هذا الكلام قال أبو زيد: نعم فقد كنت أمر بقصر أخيك سعيد فإذا بى أرى جارية تخرج من باب القصر كأنها غزال أنفلت من شبكة صياد

أنت والهلال

فى رجليها نعلان حمراوان قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها ولها خدان كأنهما نونان وحاجبان مقوسان وعينان ساحرتان وهى تقول: عباد الله من لى بدواء طال الحجاب وأبطأ الجواب والقلب حائر والنفس والهة والفؤاد مختلس والنوم محتبس فى رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام وسيلة لكان أمرا جميلا فقلت لها: ياجارية أنسية أنت أم جنية فقد أعجبنى ذكاء عقلك وحسن منطقك فتركتنى وانصرفت فوالله ما أكلت طعاما طيبا إلا غصصت به لذكرها ولا رأيت حسنا إلا قبح فى عينى لحسنها فقال سليمان: إن هذه التى رأيتها هى الذلفاء التى قيل فيها:

أنما الذلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

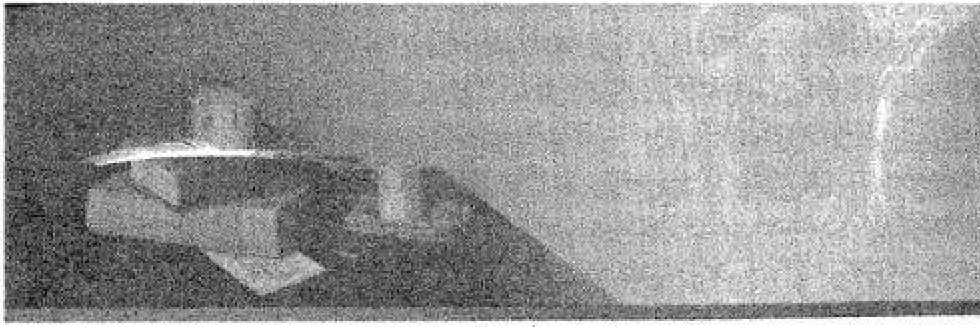
ثم استطرد سليمان قائلا: وقد اشتراها أخى سعيد إلا أن قلبها ظل معلقا بصاحبها وإنى يا آبازيد قد عفوت عنك.

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

خمسون عاما

خمسون عاما انتظر
خمسون عام
أرقب الفجر البعيد
أرسم على مر الزمن
ذلك الوطن العتيد
وانتظر
خمسون عاما
لم أكن يوما جبانا
لم أكن أبدا
يائسا .. أو خاضعا .. أو خائفا
خمسون عاما
انتظر ..
خمسون عاما
أحمل فى كف سلاحا
وفى كف كفن
أمضى،
أرحل من ألم إلى ألم
أحلم يوما
أن يصنفنى حضن الوطن
خمسون عاما
انتظر
خمسون عاما ..
يتقاسم الشياطين أرضى
زوجتى .. أولادى
يستبيحون بلادى
فى مشهد مخز
وزمن عفن

د.دعاء طه تليمة -صيدلانية



في جفون المستحيل

في جفون المستحيل
أمنيات وانفجار
وارتحال في صبابات
التمني ...
كلما أحسست أني
أحتسي كأس المرار
***
رشفة من ماء زمزم
يا إلهي يرتوي منها
جفاف النفس قبل الاحتضار
إنني نجم تجلى في سماء
العشق يشكو فرط شوق
وانشطار
أشعل الليل حنيني
وانبرت شمس الرؤى
بين الحنايا تحتويني..

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا المنصورة

من الأصدقاء

تصل قصائد ومساهمات لكنها تحتاج إلى مزيد من الصقل، فالشعر له أوزانه التي ينبغي أن يلم بها كل من يقرض الشعر بالإضافة إلى الموهبة.

● ونقول لمحمد إبراهيم من البحيرة عليك مواصلة قراءة الشعر، صحيح لديك الموهبة، ولكن من الضروري الاهتمام بالوزن.

● عاصم فريد البرقوقي، الإسكندرية : شكرا على متابعتك المستمرة لكل ماينشر في الهلال أما قصة «طفلي» فهي بعيدة تماما عن أن تكون ضمن فنون القصة القصيرة.

● أبو رحاب رجب الخولي : كتب لنا عن الدكتور عبدالله شحاتة الذي رحل عن عالمنا أخيرا . وأشار إلى أنه خريج كلية أصول الدين وحصل على الماجستير والدكتوراه من كلية دار العلوم والتي عمل أستاذا بها منذ عام ١٩٦٨ إلى ١٩٩٠ ومن بين مؤلفاته : الشباب المسلم وقضاياه المعاصرة - أركان الإسلام، قبس من سيرة الرسول، منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم .

● إبراهيم خالد - الأسكندرية : يمكنك الحصول على أعداد الهلال فبراير ٢٠٠١، وأبريل ٢٠٠١ عن طريق إدارة التوزيع بدار الهلال والتي ستقوم بإرسالها إليك بالبريد بعد تسديد مايطلب منك . ويمكنك الاتصال هاتفيا بدار الهلال عن طريق أرقام الهواتف الموجودة على الهلال .

الكلمة الأخيرة



«همـوم الكتـابـة»

بقلم: محمد عودة

الكتابة عندي هم بالليل وهم أثقل بالنهار، وهي كوم من أوراق «الدشت» للتسويد والتبييض وتسويد التبييض ثم التوقف ولكن ما يكون وكثيرا ما حاولت استرجاع «أصل» من المطبعة لتغيير فقرة أو سطر وظلت مهموما لاستحالة الأمر.

يكت احسد المرحوم أحمد بهاء الدين على السهولة والعذوبة التي يكتب بها.. نرى باب غرفته مغلقا ويقولون الأستاذ يكتب وبعد ساعة على الأكثر يأتيك ويقدم ورقة منمنمة بخط خطاط أنيق ويسأل ما رأيك (هذه قصيدة أو سوناتا، وليست تعليق).

كان لابد أن يقرأ أعمدته ثلاث مرات مرة للفهم وثانية للنقد وثالثة للمتعة ومهما اختلفت تظل في نشوة!!

كانت قدرته على اكتشاف المواهب ورعايتها رائعة وكان المعهم رئيس تحرير الهلال الآن والذي أضاف التراث وأقرأه إلى أبعد مدى [illegible] خاصة بهذا العدد.

ولاشك أن كل أب أوجد يستطيع أن يقدم عدد الهلال التذكاري عن ثورة يوليو «٥٠ سنة» إلى أبنائه وأحفاده [illegible] هذا ما قدمناه.. واستطعناه.. وهو ليس نهاية التاريخ [illegible] الثورة [illegible] مستمرة وهي قد تتراجع أو تنتكس ولكنها لابد [illegible]

ولم تبدأ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ في ذلك اليوم ولكن بدايتها في أكتوبر سنة ١٧٩٨ بثورة القاهرة الأولى ضد أول غارة استعمارية فرنسية على مصر.. وظل الجمر تحت الرماد حيا ومشتعلا يصنع التاريخ ويغيره، حينا آخر.. وهذا قدر الأمم العريقة.

عدد الهلال التذكاري حساب يقدمه جيل لأبنائه وأحفاده.. ويذكرهم بمهمتهم التي لا تقل وطأة وقد خلفنا الاستعمار الأوربي وعليهم أن يخلعوا استعمارا أشد وطأة، وضراوة استعمارا اسرائيليا أمريكيا هو لاشك آخر الطغاة وبنهايته سوف ينتهي عصر طويل كالح دام من التاريخ عصر سيادة الغرب وسوف ترتد الحضارة إلى ينابيعها الأولى على ضفاف النيل، والبانجستي والبراهما بدءا... في مصر والصين والهند.. مثلا وسوف ينقرض الاستعمار والاستبداد والاستغلال ويتحقق حلم البشرية العريق في عالم يسوده السلام والرخاء والاخاء.. وسوف تصلنا أخباره ونباركه معهم. لاشك!!!



مصر للطيران

الناقل الرسمي لمهرجان السياحة والتسوق

تعلن عن رحلاتها المنتظمه
خلال موسم الصيف
بين الاسكندريه عروس البحر المتوسط
والمدن التاليه:-

المدينة	الأيام
الكويت	الثلاثاء/ الاربعاء/ الخميس/ الجمعه
جدة	يوميا ما عدا السبت
الرياض	الخميس
الدمام	الخميس
ابوظبي	الثلاثاء
العين	الثلاثاء
دبي	الاربعاء
البحرين	الخميس
الدوحة	الاثنين /الخميس
مسقط	الاربعاء
بيروت	الاربعاء
دمشق	الثلاثاء
بني غازي	الاربعاء
اثينا	الاربعاء/ الجمعه/ الاحد

*بالاضافه الى رحلاتنا الداخليه :-

المدينة	الأيام
شرم الشيخ	الاثنين/الجمعه
الغردقة	الاثنين /الجمعه

للاستعلام او الحجز :
مكاتب مصر للطيران بالاسكندريه

جليم	٥٨٢٥٤٢٦/٥٨٢٥٥١٨
محطة الرمل	٤٨٦٠٧٧٨/٤٨٦٥٩٣٧
مطار النزهة	٤٢٥٠٩٨٤/٤٢٥٠٩٨٥
مطار برج العرب	٤٥٩٤٣٩٥/٤٥٩٤٧١٥

مصر للطيران
EGYPTAIR

www.egyptair.com.eg


روايات مصرية للجيب
أجمل أوقات الفراغ تقضيها
مع باقة من أمتع القصص والروايات
المؤسسة العربية الحديثة
معشوقة شباب العالم العربى
من مشرقه إلى مغربه

الهلال

110 سنوات ثقافة

- الطعام والتفاعلات الثقافية بين الشعوب
- المجتمع وتكنولوجيا المعلومات

سبتمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

أفراح الأنجال



الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط)
المكاتبات ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الالكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١.٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢.٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

١١٠ سنوات من عمر الهلال



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٣٥ دولارا. أمريكا وأوربا وأفريقيا ٤٢ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

- وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادي عشر بعد المائة

جماد آخر ١٤٢٣هـ - سبتمبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



الهلال ١١٠ سنة

عزيزي القارئ

كل عام وأنت بخير .. عزيزي القارىء ، ففي هذا العدد يدخل الهلال عامه العاشر بعد المائة من عمره المديد .

ومعنى هذا أن الهلال لبث وحده في ساحة الصحافة الثقافية طوال هذا العمر الموصول .

ولا تتخذ مجلة الهلال من هذه المناسبة سبيلا إلى حديث عن النفس ، إلا لأنه حديث عن الثقافة العربية ، وعن مسيرة ثبات التقدم في بلادنا الذي بدأ مع الهلال في سبتمبر سنة ١٨٩٢ .

ويالها من رحلة طويلة شاقة ، تقطعها مجلة ثقافية ساهم في الكتابة فيها معظم الكتاب والأدباء .

ولعل خير احتفال بالهلال أن نذكر الذين أضاءوا صفحاتها بعصارة فكرهم ، ولولاهم لما أصبحت للهلال هذه الحياة المتصلة .

لقد أصدر الهلال عددا خاصا عن نجيب محفوظ في فبراير ١٩٧٠ قبل فوزه بجائزة نوبل ، وكأنها نبوءة من الهلال ، كما أصدر أعدادا خاصة متوالية عن طه حسين والعقاد وشوقي وتوفيق الحكيم وغيرهم .

ويعتز الهلال أن أول طبعة ظهرت من «عصفور من الشرق» عام ١٩٢٦ نشرت في الهلال ، كما نشر به «الأيام» للدكتور طه حسين في الهلال في أول ديسمبر من نفس العام ، وتوالت باقي الأيام عام ١٩٢٧ .

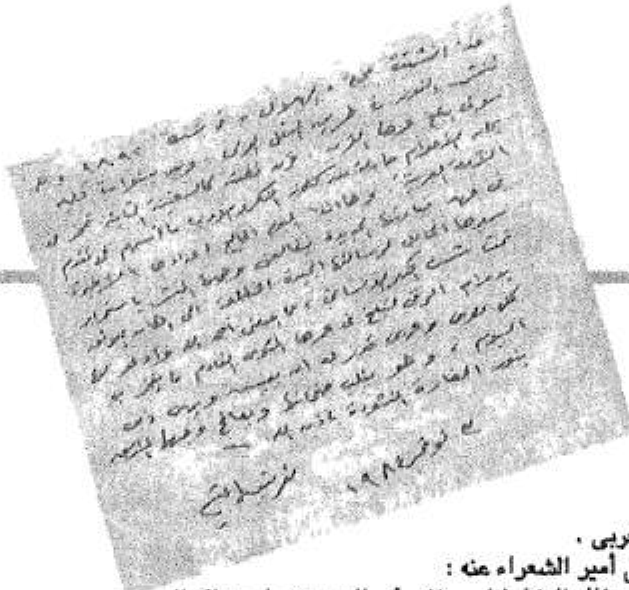
كما نشرت مذكرات أحمد عرابي في الهلال وعدد قليل من المجلات الشهرية في كل أنحاء العالم ، استطاعت أن تجذب إليها القارىء ، وتثير اهتمامه خلال قرن وعقد من الزمان و«الهلال» من هذه المجلات التي استطاعت أن تواكب الزمن ، وأن تعيش في عالم سريع التغير .

لأنها أدركت أنها تجدف ضد التيار إذا توقفت سرعان ما تعود إلى الوراء ، فكانت في حالة تجديد مستمر في جميع المجالات ، وتمضي بقدم ثابتة في طريقها حاملة مشعل الحرية ، وتشعر في الهلال بتواصل الأجيال ، أجيال جديدة تتعلم من الأجيال السابقة عليها ، ولا ينقطع الخيط الواصل بين الأجيال ، ولا بين الماضي والحاضر والمستقبل مع حلول الجديد دائما محل القديم .

لكل هذه الأسباب أصبحت مجلة الهلال هرم الثقافة المصرية والعربية الذي يطل على القراء خلال عشرة أعوام ومائة سنة من الآداب والعلوم والفنون .

فلم يكن غريبا أنها كانت أول من دعت إلى إقامة الجامعة العربية في عدد فبراير في مطلع القرن العشرين وأنها واكبت على الدوام عمليات التحديث وتطورت في كل المجالات .

وتعترف العديد من الجامعات بأن أعداد «الهلال» تعد مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه



رسالة توفيق الحكيم للهلال بخط يده

لتطور الفكر العربي .

وقال شوقي أمير الشعراء عنه :

قد أكمل الله ذاك الهلال لنا فلا رأى الدهر نقصا بعد اكمال

وفي ذكرى الكاتب الكبير توفيق الحكيم الذي خرجنا من عباءته، واستضأنا بنور كلماته ، الذي كان أحد أساطير هذا الزمان .

ومازلت أذكر تلك الرسالة التي تلقيتها منه باعتزاز والتي كتبها وهو على فراش المرض ، يؤكد في رسالته على دور الهلال منذ نشأتها في نشر النور في طريق العقل العربي ، وجاء في الرسالة .. قرن قضته الهلال كالسفينة الثابتة تمخر في بحار الأعوام حاملة من كنوز الفكر والأدب ما أسهم في تقدم الأمة العربية .

ويضيف الكاتب الكبير .. هأنذا أطالع أعدادها الأخيرة في عهد قيادتها الجديدة ، فيطالعني وجهها المبشر باستمرار سيرها الحامل لرسالتها المجيدة المتطلعة إلى المكان اللائق تحت شمس الفكر الإنساني ، مما جعلني أحمد الله وأدعو لها بدوام الرقي .. ما يفخر به كل مصري وعربي وهو يقلب صفحاتها ويصافح وجهها المشرق بنور الحضارة المنشودة بإذن الله .

وعلاوة على مقالات كل من الدكتور مصطفى سويف والدكتور محمد رجب البيومي والأستاذ وديع فلسطين ، فقد اخترنا عددا من المقالات التي سبق نشرها والتي كتبها د. طه حسين ، ود. محمد حسين هيكل وانطون الجميل وفكري أباظة ، والتي تعيد أجواء عصر مضى .

ولا تطمع الهلال سوى أن تستمر تعبيرا صادقا وأمينا عن واقع الحياة الثقافية ، وأن تفتح صفحاتها لكافة «المدارس الفكرية ، وأن يجد رموز الحياة الثقافية وأجيالها الشابة في مجلة الهلال انعكاسا لابداعهم وفكرهم .

فعلى اقلام الكتاب والمفكرين قامت ، وبهم تستمر في تأدية رسالتها.

وبقي أن أقول إن هناك أمنية مازلنا نحلم بها ونسعى إليها ، وهي تسجيل أعداد الهلال على اسطوانة « سي . دي» حتى تتوافر للباحثين والمؤرخين فهي بحق مرآة الفكر العربي .

المحرر

الهلال الآن
مع الهلال
توثيق التجربة

بقلم
د. مصطفى سويف

رأيت فى دعوتى إلى الكتابة عن «تجربتى مع الهلال» فرصة لتوثيق هذه التجربة لأنها تحتل فى نفسى مكانة لها سماتها الفارقة بينها من ناحية وغيرها من تجارب تماثلها بدرجات متفاوتة من ناحية أخرى، فقد سبق أن استكتبنى أساتذة أفاضل، فى مقدمتهم يحيى حقى، وزكى نجيب محمود، وعبدالحميد يونس رحمهم الله جميعا، الأول لمجلة «المجلة» والثانى «للفكر المعاصر» والثالث «للفنون الشعبية» ومع أن استجابتى للدعوات الثلاث كانت إيجابية، فكتبت للمجلات الثلاث ما وفقت إلى كتابته، فقد جاءت تجربتى مع مجلة الهلال تجربة فريدة، سواء فيما يتعلق بشكل الدعوة، أو توقيتها، أو فيما يتعلق بالكيفية التى استجبت بها لهذه الدعوة

وهذا بالضبط ماسوف أتناوله في مقالي الراهن: سوف أتكلم عن الدعوة توقيتا، وشكلا، وعن المراحل والصور التي مرت بها استجابتي، ثم أتكلم عن الكيفية التي رأيت أن أنظم بها عملي للمجلة، وأخيرا سوف أتناول بالشرح والتوضيح تلك الصيغة التي أدركت (ولا أزال أدرك) من خلالها الدلالة النفسية الاجتماعية للمجلة بالنسبة لي.

الدعوة إلى الكتابة
التوقيت والشكل والاستجابة

تلقيت الدعوة إلى الكتابة في بواكير سنة ١٩٩٠ وجاء هذا التوقيت مواكبا لحدث مهم في حياتي كمؤلف، كانت معظم جهودي في التأليف موجهة منذ بداية السبعينيات إلى خدمة التخصص العلمي الدقيق، وكانت تنصرف إلى الكتابة بالإنجليزية توخيا للنشر في دوريات هيئة الصحة العالمية، وما كان على شاكلتها، وكانت تدور معظمها في مجال سلوكيات تعاطي المخدرات، ولم يكن هذا تشيعا مني للغة الإنجليزية، ولكنه كان واجبا اقتضاه اختياري خبيرا بمجلس خبراء بحوث التعاطي بالهيئة الدولية (منذ يونيه سنة ١٩٧١) ولكن وقعت أحداث في مصر في أواخر الثمانينات برز على أثرها اهتمام واضح لدى الدولة بأخطار المخدرات على الشباب، فرأيت من واجبي عندئذ أن أوجه بعض جهودي إلى التأليف بالعربية في هذا الميدان (ولسان حالي أنني مستعد للاتجاه هذه الوجهة في الكتابة مادامت مؤلفاتي سوف تجد من يقرأها). في ذلك الوقت تلقيت الدعوة للكتابة في الهلال، ولم تكن لهذه الدعوة أية علاقة بتسلسل الأحداث الخاص بكتاباتي حول تعاطي المخدرات، ومع ذلك فقد اعتبرت مجيء الدعوة في هذا الوقت على وجه التحديد مصادفة سعيدة، لأنها في نهاية الأمر طلب للكتابة بالعربية سوف ينضاف بما يحمل من ثقل إلى قراري السابق على الدرب نفسه، والنتيجة (كما أرجو) سوف تكون مزيدا من التكريس للتأليف بالعربية.

ولا أذكر الآن على وجه اليقين أي شيء عن الصيغة اللفظية التي تلقيت بها الدعوة على لسان الاستاذ عادل عبدالصمد (مدير تحرير كتاب الهلال)، ولكني أذكر أن الدعوة تركت في نفسي حينئذ أثرا طيبا ربما كان مرجع بعضه إلى مضمونها، لكن من المؤكد أن البعض الآخر كان مرجعه إلى كياسة الاستاذ عادل وعنايته الفائقة بانتقاء ألفاظه وعباراته، وما كان وجهه يشف عنه من معان ومشاعر طيبة.

ومع ذلك لم أكن على استعداد للرد بالقبول أو الاعتذار في التو واللحظة فطلبت أن تمهلنى المجلة بضعة أيام حتى أحسن التفكير فيما عساه يترتب على قرارى من نتائج ومسئوليات، وكان همى الحقيقى حينئذ أن أجد الإجابة الصادقة عن سؤال بدا واضحا فى ذهنى منذ الدقائق الأولى: هل سأجد فى وقتى وجهدى متسعا للقيام بالمهام الثلاث بالصورة اللائقة، وأعنى بالمهام الثلاث الاستمرار فى الكتابة بالإنجليزية (للصحة العالمية) مضافا إليها الكتابة بالعربية (فى التخصص)، ثم الكتابة بالعربية (فى القضايا العامة) لمجلة الهلال؟ وكان مايزيد من شعورى بالهم أننى لا أريد أن أعد وعدا غير مشفوع بالوفاء، واستشرت فى الأمر قلة من الأعزاء ذوى العقل الراجح والنفس الصافية ، وأعملت مع المشورة التى تلقيتها كثيرا من الفكر والحساب، وانتهيت إلى قرار بأن أكتب: وقد صغت قرارى على النحو الآتى:

سوف أكتب لأن لدى فكرا أحب أن أسهم به فى الشأن العام، ولأن هذا أقل مايجب أن أقدمه للمجلة جزاء وفاقا على مبادرتها الكريمة، هذا عن الرد المباشر، أما أن أواصل الكتابة بعد ذلك من شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام، فأمر موكول إلى ما نوفق له، المجلة وأنا، من قبول متبادل وسعة فى الصدر سداها التسامح ورحابة فى الأفق لحمتها التكافل.

مسيرتى فى الكتابة

ونشرت مقالى الأول فى المجلة فى أول مارس سنة ١٩٩٠.

وانتظمت فى الكتابة منذ ذلك التاريخ، وقد اجتمع لى على صفحات المجلة حتى أول يونيه سنة ٢٠٠٢ مايقرب من ستة وثمانين مقالا، وهو مايعنى أن صدر المجلة اتسع لمتوسط يقرب من سبع مقالات لى فى كل عام على امتداد هذه الفترة، فترة عقد وسنتين تقريبا.

وقد ألزمت نفسى فى معظم هذه المقالات (إن لم يكن فيها جميعا) بعدد من القيود الكمية مراعاة لاعتبارات عملية بعينها، وكان من أهم هذه القيود أن يتراوح عدد الكلمات فى المقال الواحد حول ٢٥٠٠ كلمة، مسترشدا فى هذا التحديد ببعض المتوسطات التى قدرتها لمقالات بعض الكتاب الأفاضل الذين سبقونى إلى الكتابة فى المجلة أو زاملونى على صفحاتها، ولكى أفسح المجال أمام غزارة المادة التى كانت تفرض نفسها علىّ أحيانا ابتكرت طريقة المقالات الثلاثية أعنى كتابة ثلاثة مقالات متتالية يتناول كل منها جانبا بعينه من جوانب الموضوع الذى أعرض له، بحيث تكون فى مجموعها ثالوثا متكاملا.

دون الإخلال فى الوقت نفسه بالوحدة الداخلية للمقال الواحد، أضرب لذلك مثلا أو مثلين، فقد كتبت فى مايو ويونيه ويوليه سنة ١٩٩١.

ثلاث مقالات عن «العمل» جاءت على النحو الآتى: «العمل فى حياة المواطن»، و«العمل ركيزة للصحة النفسية»، و«الآثار النفسية للبطالة»، وكتبتُ فى مارس وأبريل ومايو سنة ١٩٩٥ ثلاث مقالات عن الهوية الوطنية، تتابعت على الوجه الآتى : «نحن والهوية الوطنية»، و«عواقب الانسلاخ من الهوية الوطنية»، و«دعم الهوية الوطنية» وثمة أمثلة أخرى كثيرة تقوم على التصميم نفسه.

المجلة وأنا

الآن ، وقد انتهيت من هذه الجولة التى راعيت أن أجمع فيها بين التفصيل والتركيز، آن الأوان لكى أتحدث عن الكيفية التى قرأت بها دلالة المجلة النفسية الاجتماعية بالنسبة لى، وغنى عن البيان أن هذه الدلالة لم تكن واضحة أمام عينى منذ بداية الطريق، ولكنها سرعان ما وضحت وربما أعنتها على الوضوح ببذل الجهد من جانبى لكى أكشف عن ركائز للرؤية حتى أستطيع أن أعطيها من وقتى وجهدى ماهى جديرة به، وإلى القارىء ذكر الركائز الثلاث التى استطعت أن أحدد معالمها ، وأن أكفل لها فى نفسى قدرا معقولا من الدعم بعد القبول:

١ - كان أول ما ارتسم فى خاطرى عن المجلة أنها منبر يتيح لى الوصول برأيى إلى دائرة معينة من القراء، ولم يكن يعنينى كثيرا أن تكون الدائرة واسعة بقدر ما كان يهمنى أن تكون فاعلة، وأصبحت أحمل الهم كل الهم لمدى التوفيق فى أن تكون عباراتى بالغة الدقة فيما أريد لها أن تحمل من معان وشحنات تجعل هذه المعانى تنبض بالحياة فى نفوس المتلقين، ولا أذكر فى هذا الشأن أننى كنت أرضى دائما عن مستوى التوفيق الذى أبلغه، ولكن مما لاشك فيه أننى كنت عندما أبلغ حافة الرضا كانت كل مشاعر السعادة تغمرنى، لا بالنسبة لما أكتبه فحسب، ولكن بالنسبة للحظة التى وافقت فيها على الكتابة للمجلة، بل واللحظة التى تلقيت فيها دعوة المجلة إياى أن أكتب.

٢ - وكانت الركيزة الثانية للمجلة فى نفسى أنها بدت لى بكتابها وشعرائها وقصاصيها ومايجرى بينهم من حوار منطوق أحيانا وحوار مهموس أحيانا أخرى، مايدور حولهم بين الحين والآخر من أخبار وأقاصيص،

أقول بدت لى المجلة بكل هذه الشخوص والحوارات والأحداث وكأنها أسرة لى تغنى عالمى بمزيد من الأنس يقى النفس شر مايعتريها أحيانا من مشاعر الوحشة وأحاسيس الاغتراب، وربما كنا نحن المشتغلين بالفكر أكثر تعرضا من غيرنا لهذه المشاعر والأحاسيس المعاكسة، وإذن فما أحوجنا إلى مثل هذه المجلة نطل منها على رفاق القلم، ونأتنس بإطلالتهم علينا.

٣ - وكانت الركيزة الثالثة للمجلة فى نفسى أن أجدها تتيح لى الاقتراب (فيما أكتب) من شاعرية اللغة ما أمكن، فأنا عندما أكتب لدوريات التخصص العربية، (من قبيل «المجلة الجنائية القومية» و«المجلة الاجتماعية القومية» اللاتين يصدرهما المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) أجدنى أتعامل مع قوالب وقواعد شديدة الصرامة، تكسب الافكار حدودا حادة، وتخضع العلاقات فيما بينها لمقاييس تتخذ من الفكر الرياضى مثلا أعلى يحتذى، ولست أنكر أن لعالم الضبط الفكرى الدقيق جاذبيته بالنسبة لى، ولكنى أعترف بأننى أهفو إلى عالم الوجدان الشاعرى من حين لآخر، ومن خلاله أتجه إلى شاعرية اللغة والصورة، وهذا ماتيسره لى مجلة الهلال تلقيا وإبداعا.

خاتمة

أكتفى بهذا القدر الذى قدمته من الحديث عن تجربتى مع «الهلال»، وقد أوضحت فيه كيف ومتى حاولت المجلة أن تجتذبنى إلى الكتابة فيها، وكيف كانت استجابتى لهذه المحاولة المشكورة، وأوضحت كيف أن استجابتى التى كان يشوبها فى البدء شىء من الحذر أسفرت حتى الآن عما يقرب من ستة وثمانين مقالا نشرت على امتداد مايقرب من إثنى عشر عاما، وأنا الآن، تماشيا مع عاداتى العقلية أتخيل لو أن المجلة لم تكن إيجابية فى محاولتها اجتذابى حين حاولت، إذن لما كنت قد انتجت هذه المقالات وأودعتها ما أودعتها من عناصر فكرية ووجدانية تعبيرية، وأفكر فيما يعنيه ذلك بالنسبة لى؟ وأشعر ردا عن هذا التساؤل بأننى مدين للمجلة بالشكر الجزيل لأنها صاحبة فضل فى ذلك لاينكر.

ولعل فيما ذكرت عن المعانى التى أقرأها الآن فى المجلة، ودلالتها بالنسبة لى، مايلقى الضوء ساطعا على حقيقة العلاقة التكافلية التى تضمنى وإياها. ■

أقوال معاصرة

● « لن يتخلى الشعر عن الوزن إلا حين يتخلى الجنس البشرى عن إحساسه بالموسيقى » .

الدكتور عبدالقادر القط



عبد القادر القط

● « نحن فى حاجة قصوى إلى الشعر ، لأننا فى أشد الحاجة إلى مخاطبة الذات » .

كريستينا بيكييرى

أستاذة الفلسفة فى جامعة كيرنجى ميلون بالولايات المتحدة

● « علينا ألا نقول للنقاد الأمريكيين ، أنتم انتقدوا أمريكا ونحن أيضا ننتقدها ، دون أن ننتقد أنفسنا » .

الصحفى اللبنانى حازم صاغية

● « ظاهرة النساء تعمل وفق جدلية مزدوجة ، تشريك الخسائر ليتحمل وزرها المجتمع بكامله ، وتخصيص الأرباح ليعود نفعها على الأفراد واحدا أحدا » .

جويلم فايز

صاحب كتاب الصين - الأزمات - التحول



حبيب سوايدية

● « ما هو رائع حقا فى أوروبا هو أن للعدالة وجودا حقيقيا ، وهى تحسم هنا بين أى مواطن بسيط وبين الجنرال ، حتى وإن كان واحدا من الرجال الأقوى فى بلده » .

الجندى الجزائرى حبيب سوايدية

مؤلف كتاب الحرب القذرة

● « الإنسان غير الحر فقير » .

المفكر المصرى نادر فرجانى

صاحب تقرير التنمية البشرية العربية



الصادق المهدي

● « الموقف النفطى السودانى الواعد بأكثر مما هو مرئى حتى الآن ، ساهم مساهمة إيجابية فى الدفع نحو السلام » .

الصادق المهدى

رئيس الوزراء السودانى الأسبق وزعيم حزب الأمة

● « أنا لست فى المنصب لأبقى ، وأسأل نفس كل صباح عن أمثل طريقة لخدمة الجزائر » .

خليدة مسعودى

الناطقة باسم الحكومة الجزائرية -ووزيرة الاتصال والثقافة

● « حتى يجيد الممثل تقمص الشخصية ، عليه أن يكون سعيدا أثناء التصوير » .

جان مورو -نجمة السينما والمسرح الفرنسية

الهلال زمان

انطباعات صادقة

الحوار الهادئ على صفحات الهلال

بقلم
د. محمد رجب البيومي

ما أظن نقاشا هادئا موضوعيا يأخذ سمته المتزن ، كما يتجلى على صفحات مجلة الهلال منذ عهدها الأول فى أواخر القرن التاسع عشر إلى الآن ! حيث لم تحد هذه المجلة الكبيرة عن سمتها الخلقى الرفيع فيما تعرض من نقاش قد تختلف فيه وجوه الرأى من أنأى اليمين إلى أقصى الشمال . ومع هذا الاختلاف البارز فى تناول القضية ، فكرية كانت أو سياسية فإنك تلمس طابع الهدوء التام ، والالتزام بالموضوعية الدقيقة فى الكثير الكثير مما تقرأ ومن أعجب ما يلحظه القارىء المطمئن ، أن كاتباً كبيراً يعالج موضوعاً حوارياً على صفحات الهلال . فيجرى حديثه وادعا ملتزما ، ثم يضطر إلى نقاش آخر فى الموضوع ذاته فى جريدة يومية أو مجلة شهرية فترى النغمة غير النغمة ، والصوت الصاخب غير اللحن الهادىء ، ومعنى ذلك أن مجلة الهلال فى مدى أكثر من قرن قد طبعت كاتبها على منهج خاص يلتزم به واعياً مدركاً ، أو لاشعورياً مبهما .



جورجي زيدان



أمين الخولي

وكثيراً ما تساءلت بيني وبين نفسي ، أمن الجائز أن يرد إلى المجلة رد حاد صاحب فتعتذر عن نشره مهما بلغت درجة صاحبه من الاشتهار والذيوع ، أو أنها إذا قررت نشره حذفت منه ما لا تراه متفقاً مع سننها الموضوعي ؟ سألت نفسي هذا السؤال . وكان الاحتمالان واردين ، غير أني بالرجوع إلى واقعي العملي أرجح أن الكاتب من تلقاء نفسه يعرف اتجاه الصحيفة المثالية فلا يحاول أن يشذ عن منهجها القويم ، وأصارح القارىء أني كتبت في دائرة الحوار بمجلة الهلال أكثر من مرة ، فكنت تلقائياً ألتزم من الهدوء ما قد أتحلل من صرامته في مكان آخر ، لأني أحترم ضوابط المجلة أولاً ، كما أحترم قارىء المجلة ثانيا ، إذا عرف تساميه الخلقي وتقديره لمجلة هي أم المجلات الثقافية التي تصدر في العالم العربي ، ومن دوحتها تفرعت غصون كثيرة في شتى الحدائق الفكرية فآتت أكلها الطيب ، وأنبتت من كل زوج بهيج .

المصدر الأول

ولعل السبب الرئيسي المباشر لهذا الاتجاه الحميد ، هو ما اتجه إليه مؤسسها الأول العالم المؤرخ جورجي زيدان منذ قام على توجيهها الفكري في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد كان هذا الرجل الأعجوبة بل المعجزة يقرأ الفرنسية والانجليزية والألمانية قراءة مستوعبة ويراقب ما يصدر في هذه اللغات من صحف علمية راقية ، فارتاحت نفسه الكريمة إلى ما تلتزمه بعض هذه الدوريات من سلوك موضوعي ، ورأى فيه نمطاً يحتذى ، فطالع القراء بمنحاه الخلقي في حوار المجلة العلمي ، وكان عميقاً أن ترى الحوار صاخباً في غير الهلال حتى ليبلغ مبلغ الشتائم في مجلة محترمه لها تقديرها العظيم كصحيفة «مصباح الشرق» التي كان يقوم على توجيهها الأديب الكبير محمد المويلحي رحمه الله ، ثم ترى النبرة مختلفة تماما على صفحات مجلة الهلال ، حتى حين يستدعي المجال بعض الحدة ، فقد أصدر المؤرخ الكبير جورجي زيدان كتابيه الخالدين عن تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ الأدب العربي ، فقوبلا معاً بعاصفة من النقد تجاوزت الموضوعية إلى الذاتية ، وأذكر أن العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني كبير علماء الهند ، قد قابل الكتاب الأول بهجوم عاصف ، إذ ادعى أن المؤرخ لم يتعرض للعصر النبوي بنقد ما خيفة وحذرا ، ولكنه انتقد العصر الأموي تشفياً لغرضه بعيداً عن العصر النبوي ، هكذا قال الرجل الكبير فيما قال ! ويكفي في الرد عليه أن الشهيد العظيم الأستاذ سيد قطب وهو من لا مغمز في حميته الإسلامية قد قال في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» عن

العصر الأموى أكثر مما قال الأستاذ جورجي وما جرؤ أحد أن يتهمه بالغرض ، أما كتاب تاريخ الأدب العربى فقد هاجمه العلامة الاستاذ أحمد السكندرى وكان حينئذ فى فورة شبابه المتوثب هجوماً لا يخلو من التفسير الشاط لبعض الآراء ، ومحاولة إيجاد بواعث خاصة ، وكان الأستاذ جورجى زيدان متأدباً بأدب الإسلام حين رد على هذين الفاضلين فى حوار جاد ، دفع فيه السيئة بالحسنة وجادل بالتى هى أقوم ، ولو كنت مكانه ما ملكت من هدوء الأعصاب وسعة الصدر بعض ما يملك ، بل أذكر أن المجلة (مجلة الهلال) فسحت صدرها لنقد تاريخي كتبه المؤرخ السورى الشهير الأستاذ رفيق العظم بك لكتاب التمدن ، فنشرت النقد كاملاً على ما يتضمن من احتمالات كثيرة توجب الخلاف ! وهذا السلوك الممتاز خلقاً ، قبل أن يكون ممتازاً علمياً هو ما سنه المؤرخ الكبير لباب النقد فى مجلة الهلال فى نشأتها الأولى وعلى هذين سار من خلفوه جميعاً على رئاسة التحرير حتى الآن ، فأنت تطالع المجلدات الضخام التى تتابعت منذ صدور هذه المجلة إلى الآن فلا نجد فى الحوار غير نزاهه القصد ، وسواء السبيل ، بل تعجب كثيراً لأقلام العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل ، والمازنى وزكى مبارك كيف تنازلت عن حدتها فى صحف البلاغ والوادى وكوكب الشرق والجهاد والسياسة اليومية والعصور ، ثم عادت هادئة منطبقة على صفحات الهلال ! وأعتقد أن هذا الهدوء مما يساعد على اجتلاء الحقائق من أقرب طريق .

مثال من الرافعى

وحين انتقل الاستاذ جورجي زيدان إلى رحمة الله فجأة ، واضطر ولده الشاب إميل زيدان أن يقطع رحلته العلمية فى أوربا وأن يعود ليقوم على إصدار مجلة الهلال ، رأى من الحيطة ، كما ذكر الأستاذ سليم سركيس فى مجلته، رأى أن يسترشد بآراء الكاتبين الصحفيين النابهين داود بركات ، وسليم سركيس ، وخاطبهما فى ذلك فأبديا كل ترحيب ، ولكن ظهور عددين من المجلة على نحو كريم ، قد دعا الرجلين إلى الإشادة بمواهب إميل ، واعترفا أن مثله فى إلمامه الصحفي ، واتجاهه الواقعى لم يعد فى حاجة إلى استشارتهما ، بل إنهما قد يحتاجان إلى استشارته المثمرة ! وواضح أن الصحفى الشاب قد التزم صراط أبيه علميا وخلقيا ، ولكنه فى ميدان الصحافة قد سعى إلى الارتقاء بالمجلة ، حتى أصبحت الأولى فى مضمار الثقافة المتطورة ، واتسعت لتشمل ميادين لم تتح لها من قبل ، فزاد اهتمامها بثمار الفكر العالمى ، وفتحت من الأبواب ما كان غير متيسر من قبل ، واحتذت حذو أرقى المجلات الأوربية حين أبدعت أسئلة عصرية مهمة توجهها لكبار



عبد الرحمن الرافعي



المرموقين شرقا وغرباً ومن أهمها أبواب: ما أكبر شيء أثر في حياتي ؟ ومجلة المجلات ، وشئون الدار ، وأعلام السياسة العالمية ، وغيرها ، وفى ميدان الحوار العلمى كانت السابق فى اختيار ما يشغل الذهن العربى من معاضل السياسة والاجتماع ، ومسألة القديم والجديد ، فى الأدب كانت موضع حوار ساخن بين طه حسين وسلامه موسى ومحمد فريد وجدى ومصطفى الرافعي ومحمد حسين هيكل على مدى أكثر من ربع قرن ، وكان الحوار ساخناً يبلغ درجة العنف لدى الكثيرين من هؤلاء ، ومن أبرزهم إمام البيان العربى الأشم ، وصاحب اللسان الصارم دون منازع ، وهو الاستاذ مصطفى صادق الرافعى الذى كان يحمل الراية المعارضة فى صرامة واندفاع فيبلغ من خصومه مالا يبلغه صاحب السيف الباتر فى ميدان الصيال ، على حين لا يعتمد على حزب سياسى ، أو منصب جامعى ، أو موالاة جريدة شهيرة تجزل له الأجر ، إذ كان يعتمد على قلمه وحده ، بل على قلبه النابض بحقائق الوجود الإنسانى قبل أن ينبض بمشاعر العروبة والإسلام والوطنية ، هذا العملاق الثائر الجبار ، يكتب معارضا خصومه فى البلاغ وكوكب الشرق وأخبار

أمين الرافعى فتحسب ناراً حامية تلفح الوجوه ، ثم هو يكتب فى مجلة الهلال فيما يكتب فيه بالصحف الأخرى ، فترى مع اتفاق الفكرة ، ووضوح الهدف هدوءاً عاقلا ، وأسلوباً هادئاً لا يلفحه الشواظ ، وأنقل هنا بعض ما قاله فى مجلة الهلال (فبراير سنة ١٩٢٤) رداً على الاستاذ سلامة موسى ، ليجد القارىء فى أسلوب الرافعى غير ما يعهد من الثورة والحمية بل من التوهج والاشتعال يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعى :

«المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب فى أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التى تحويها تنزل من الزمن منزلة أمة العرب من العظماء ، وأن يكون الدين العربى لا يزال هو كما نزل به الوحى أمس ، لا يفتتنا عنه علم ولا رأى ، وأن يأتى الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شىء كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً .

فإذا أرادوا بالمذهب الجديد أن يكتب الكاتب فى العربية منصرفاً إلى المعنى تاركاً اللغة وشأنها متعسفا فيها . آخذا ما يتفق كما يتفق ، وما يجرى على قلمه يجرى . إن أرادوا بهذا واشباهه المذهب الأدبى الجديد قلنا : لا ، ثم لا ، ثلاث مرات ، ثم أى خير لأدبنا وعلومنا وكتبنا من أن نحرص على الأصل الصحيح القوى الذى فى أيدينا ، ونحتمل فيه ضعف الضعفاء حتى ينشأ جيل أقوى من جيل ، وتخرج أمة خيرا من أمة أم ندع الإصلاح للنساء ، ونتراخى فى القوة حتى تصير ضعفاً ».

ولا أستطيع أن أنقل هنا مقالاً طويلاً كتب فى عدة صفحات ، وإنما اكتفيت بما ينبىء عن هدوء الرجل على صفحات مجلة الهلال ، وكتاب (تحت راية القرآن) يكفى لتأييد ما أرمى إليه من نهج الحوار على صفحات مجلة الهلال ، وهو نهج لو التزمت به الصحف الأخرى لقضى على لجاج يمتد سنوات طوالاً دون أن ينتهى إلى رأى جازم ! ولعل الاستاذ محمد فريد وجدى رحمه الله وقد قضى عمره فى ميدان الحوار الجاد ، كان القدوة المثلى لحين يلتزم الحياد الهادف فى عرض الآراء ، وقد اتسعت مجلة الهلال لكثير من آرائه البصيرة ذات الأسلوب العف ، والرأى النزيه !

أأترك الأستاذ الرافعى إلى مجادل آخر ، فأتخذه مثلا للهدوء الملتزم المترفق على صفحات الهلال حين يكون فى مجال آخر يخز بالسيف لا بالقلم ، ويضرب بالحديد لا باليراع !

أمين الخولى

عرف الأســتاذ الخولى بسطوة الجدل ، وتشقق الخلاف ، ومقدسات كتبه تحمل من الإيقاع الحاد ما قد يكون ثقيلاً على بعض الأسماع ، إذ يفترض أنه يضع



سلامة موسى



مصطفى صادق الرافعي

مناهج عقل الناس عن ضرورتها الحاسمة ، وأنا أستغفر تلاميذه ومريديه حين أقرر أنى أتابع المقدمة إلى غيرها من الأبواب ، فأجد التجديد المبتكر حقا فى بعض ما قرر ، ولكن لا أجد ما كنت أتوقعه بعد هذه الصيحات المدوية ! وإذن فلماذا هذه الصاخة تلو الصاخة المفزعة ، فى مقدمة كل كتاب ، بل وفى أكثر البحوث التى طرقها بالمجلات !

هذا المجادل النظار إذا تعرض للنقد على صفحات الهلال يصطنع من الهدوء مالا نعهده فى قلمه ، وقد يكون هدوءاً نسبيا كما فى مجادلته للأستاذ يوسف الدجوى ، والأستاذ فريد وجدى على صفحات الهلال ، ولكنه يبلغ من الرقة والتواضع أحياناً مالا نتوقعه من قلمه ، ومن ذلك مناقشته لأستاذه الكبير الدكتور أحمد أمين حين كتب فى مجلة الهلال مقالا يقرر فيه أن أدبنا العربى لا يصلح أن يكون غذاء كافيا للجيل الحاضر ، سواء فى ذلك الأدب القديم أو الأدب الحديث ، لأن الأدب القديم لا يدرك فحواه غير الخاصة أما الأدب الحديث فهو لا يكفى لغذاء الجيل الحديث لأنه لم يملأ حياتنا ، ولم يحقق رسالة ما ، مع أن أدب كل أمة يجب أن يساير نهضتها، بل يجب أن يكون أمامها ، وأدبنا ليس كذلك ، فهو كالثوب القصير للرجل الطويل ، أو الثوب البدوى للمرأة المتحضرة ، وإذن فأدبنا لا يمثلنا فى رأى الكاتب الكبير .

هذا فحوى مقال الدكتور أحمد أمين ، وقد شاء الأستاذ الخولى أن يعارضه بمقال تال على صفحات الهلال ، فقد نشر بالجزء الرابع من عام سنة ١٩٣٧ مقالاً تحت عنوان «أدبنا الآن يمثلنا، وما الأدب إلا صورة الحياة»، وقد بدأه ملاطفاً مجاملا حيث قال «بينى وبين الأستاذ أحمد أمين من الأواصر والصلات كثير يتقاضانى السكوت ، طاعة لشرعة هذا النقد المتعارف ، فلى منه الأستاذ ، والصديق ، والزميل ، والجار وما إلى ذلك من نعوت: كلها محبب مقرب ، وكلها يبدى مخالفتى إياه فى صورة منغصة عند من يعرف النقد على هذا المعنى الفاسد لكنى أتقدم لمخالفته ومناقشته ونقده فى غير ما تهيب ، وفى غير ما هوى له أو عليه ما استطعت ، وفى عبارة لن يراه إن شاء الله مثيرة لغير الرضا التام ».

هذا الترفق الوديع مما يناسب منهج الهلال دون نزاع ، وقد ذهب الأستاذ الخولى

في رده إلى أن الأدب المعاصر يمثلنا تمام التمثيل ، لأننا مبعثرون غير مجتمعين ، فقد ورثنا حضارة لها مزاجها وكيانها . وطلعت علينا حضارة لها توابع أخر وهاجمتنا محاولات لإحياء قديم أسبق من الحضارتين ، تثير إلى بعض مجد الفراعين ، فنحن في هذا المضمار أشتات بدد يذهب كل فريق إلى ناحية ويلوذ بزاوية ، أو يقوم وسطا بين هذا وذاك ، ثم انتهى الأستاذ بعد أن بسط هذا المنحى في وضوح شاف كاف ، إلى أن الأدب الحاضر في عربيته وغربيته ، وقدمه وحداثته ، وتململه وقلقه ليس إلا صورة لحياتنا الاجتماعية فهو يمثلنا تمام التمثيل .

هذا المنطق الدقيق المترفق ، كان جديداً على قارىء الأستاذ الخولي ، وأنا في مجال التعقيب عليه ، أعرف أن الاستاذ أحمد أمين كان لا يجهل ما قرره الأستاذ الخولي ، ولكنه كان يطمح إلى أدب قائد يجمع المتفرق إلى هدف واحد فهو يشرئب إلى أفق جديد ، أما الخولي فقد وصف الواقع كما هو ، وقرر أنه يمثلنا باختلاف مناحيه ، لأننا نحن مختلفون معاً ، فالناقد يصور الواقع ، والمنقود يطمح إلى مثل أعلى» .

وقريب من الحوار الأدبي على صفحات الهلال ما هو شبيه من ذكر رأيين متعارضين في مسألة اجتماعية وقد أتى حين من الدهر على الصحف المصرية كانت قضية المرأة الشرقية ومدى اقتباسها من سلوك المرأة الغربية موضع الجدل الذي لا يكاد يقف عند حد ، بين متطرف ينزع إلى إهمال كل تقليد شرقي ومتطرف أخر ينزع إلى أهمال كل منحى غربي ، ولكن هدوء الحوار على صفحات مجلة الهلال ، واتزان المتحاورين اتزانا منصفا ، جعل الخلاف يضيق بين المتحاورين وهما ليسا من منزع واحد ، فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي في غير مجلة الهلال يصف المرأة الغربية بما يحذر منه المرأة الشرقية ، يقول ذلك صريحا لا مواربة به ، والأستاذ أمين الريحاني الكاتب اللبناني يدعو إلى لحاق الشرقية بالغربية في كثير مما كتب ، حتى إذا استضافتهما مجلة الهلال رأيا من الصواب أن يتقارب المتباعدان قدر المستطاع ، بحيث تضيق الفجوة كثيراً عن ذي قبل ، فالأستاذ مصطفى صادق الرافعي يقول في إجابته الشافية بالعدد الثالث من مجلة الهلال الصادر في سنة ١٩٢٤ م « أما ما يحسن أن يقتبسه نساؤنا من المرأة الغربية فهو العلم وحده ، وما هو من نتائجه كالتدبير والحزم والتبصر في أمور الحياة ، وحسن التصرف فيها ، وما كانت المرأة الشرقية في حاجة إلى هذا من قبل ، فعليها إذن أن تقتبس من تاريخها لا من تاريخ المرأة الغربية ، وكل فضيلة المرأة الغربية عندي معرفة فن الحياة المنزلية على أحسن أشكاله ، وأرقى ما انتهى إليه من إنشاء



محمد فريد وجدى

المرأة للبيت ثم إنشاء للأسرة ثم إنشاء الأسرة للمجتمع ، أما ما وراء ذلك من التبرج والسفه والإسراف وفنون اللهو بين الجنسين ، فهذا ما يجب أن تكون المرأة فيه شرقية خالصة» .

هذا لباب ما قاله الرافعى أما لباب ما قاله الريحانى فى العدد نفسه ، فهو «أن المرأة الغربية نوعان واحدة تعيش لنفسها وللذاتها ، فلا تهتم بغير الأزياء وأهواء النفس ، وتقضى أيامها فى مسارح اللهو والطرب والغناء ، وتجعل الحب ألعوبة من ألاعيب الحياة ، وهذا مما لا يحسن بالمرأة الشرقية أن تأتيه ولا تقتبس منه شيئاً .

وأما النوع الآخر وهو المرأة المهذبة الحكيمة التى لم تفقد شيئاً من مزايا القلب الإنسانى الشريف . ولا شيئاً من ارتقاء عقلها ، فهى الأم الرءوم ، والزوجة الصالحة ، والعضو العامل فى الهيئة الاجتماعية ، ولها ذوق سليم فى الآداب والفنون الجميلة ، وعندها واجبان مقدسان بيتها ووطنها ، وبين الواجبين تخص ساعة لنفسها فتحضر حفلة موسيقية ، ولا تنسى أنها امرأة ! وتلك هى المرأة التى يحسن بالشرقية أن تحتذيها» .

فالجوابان على صفحة الهلال يتقاربان ولا أقول إنهما يتفقان ولعل هذا التقارب وجد حين فهم الكاتبان رسالة الهلال نفسها ، التى توجب القصد والاعتدال ، وهما فى صميم نفسيهما يودان ذلك ، هذا وقد استمرت مجلة الهلال على مبدأ الحوار الهادف حتى أصبح باب الحوار ، فى عهدها الراهن من الأبواب الثابتة المحببة للقراء ، وأنا أحيى القائمين عليها لاتجاههم الرائع ، فى فتح النوافذ المغلقة ، وتحديد الهدف المراد ، والبعد عن الخطابيات ، وترك الحرية لكل ناقد أن يقول ما يشاء .

وبعد أترانى أفصحت فيما كتبت عن ناحية من نواحى مجلة الهلال ، كان لها أثر بارز فى اتجاه سلوكى قبل أن تترك أثرها فى تثقيف ذهنى ، وهو تثقيف أولعت به منذ أخذت أقرأها فى ميعة الصبا واقتبال الشباب ، ومازلت بعد تقدم السن أجد آثار هذا التثقيف تتسرب إلى منافذ تفكيرى ، فأولع بالمجلة وشيخاً ، كعهدى بها شابا ، مرددا قول الشاعر القديم .

دعاني من نجد فإن سنينه
لعبن بنا شيباً ، وشيبننا مردا ■

نزهة بين أعداد قديمة من «الهلال»

بقلم
وديع فلسطين

هويت منذ ما تركت مقاعد الدرس اقتناء المجلات الأدبية والاستمتاع بقراءتها ، فالعدد الواحد من المجلة يضم أشتاتاً من الموضوعات بين أدبية وعلمية وترفيهية وسياسية ، فيقف المرء على زبدة أفكار الكتاب مكثفة ومجلوة . فإذا فرغ القارىء من مطالعة المجلة ، لم يهملها كما يهمل الجريدة اليومية ، بل يحتفظ بها شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة فتتألف من مجموعاتها دائرة معارف شاملة لعصر كامل برجاله وأحداثه وبكل ما اضطرب فيه من آراء وأفكار هذا إلى كونها تعتبر مرجعاً موثقاً بما تنشره من سير الأعلام الراحلين والمعاصرين ، وما أكثر ما رجعت إلى مجموعاتي من المجلات للتحقق من واقعة معينة ، أو من تاريخ وفاة أديب ، أو لمتابعة معركة اشتجرت حول موضوع كان وقتها موضوع الساعة .

وقد بدأت اقتناء مجلة «الهلال» منذ عام ١٩٤٥ عندما قامت المجلة بالتعريف فى أحد أعدادها بكتابى الأول ، وهو ترجمة لمسرحية «الأب» للأديب السويدى أوجست سترندبرج ، وحاولت بعد ذلك أن أضيف إلى أعداد المجلة ما سبق له الصدور منها قبل هذا التاريخ ، أرصدها على سور حديقة الأزبكية أو فى المكتبات التى تبيع الكتب القديمة ، فتوافرت عندى أعداد ترجع إلى الثلاثينات من







القرن الماضي تغرى بأن أتجول بينها في نزهة عقلية لاستخراج بعض مما جاء فيها من مستطرفات .

المرأة جنس غير فني

ففي شهر نوفمبر ١٩٣٥ أصدرت مجلة «الهلال» عدداً ممتازاً عن الفن والجمال شارك في تحرير مادته الشاعر الأديب عبدالرحمن صدقي (١٨٩٧ - ١٩٧٣) فكتب مقالاً عنوانه «النساء جنس غير فني» استهله بعبارة جان جاك روسو وهي «النساء على وجه العموم لا هوىً لهن في فن من الفنون ، ولم يعرف عنهن النبوغ في أحدها، وليست العبقرية من نصيبهن» .

ومضى عبدالرحمن صدقي يستقصي دور المرأة في الفنون المختلفة مؤكدا أن الصدارة في فن الموسيقى كانت للرجال دائماً ، وأن نصيب المرأة في تطور الموسيقى جد ضئيل ، وقال إنهن «بين الهمج والحضر في جميع أنحاء المعمورة جد متوافرات على الموسيقى ، ومع هذا كله فإنهن في الغالب الأعم عازفات ، أما منشئو الموسيقى فكلهم من الرجال» .

فإذا انتقل الكاتب إلى ميدان الأدب قال إن «المباحث العقلية مقصورة على الرجال ، ولا تكاد تستبين اسم امرأة حتى بين المتخلفين من طلاب هذه الدراسات . وإذا كان قوام عمل الفيلسوف هو إقامة عالم مثالي مفترض على أساس من كيانه النفسي الخاص ، فإن هذا ينافي طبيعة المرأة» .

ويؤكد عبدالرحمن صدقي «أن هناك فناً واحداً يمكن القول بأن النساء فيه لاينافسن الرجال فحسب ، بل يسبقهن في حقيقة الواقع ويبرزن عليهن ، وذاك هو

فن التمثيل ، كما أن بين النساء من برعن في تحرير الرسائل ، ومع هذا فإنهن لم ينشئن أدباً عالياً ، وأشيع ما تعاطاه النساء من هذا الفن رسائل الحب ، فلهن القدم السابقة والقدح المعلى ، على أن النساء جميعهن في هذه المقدرة سواسية ، وأن ألوف الرسائل المعطرة التي يتلقاها العشاق من عشيقاتهم فيودعونها أدراجهم زمناً ثم يسلمونها طعما للنار ، لو أنها طبعت بدلاً من ذلك لرأينا أن مدام دى سفيني لها في تحبير الرسائل منافسات كثيرات» .

وختم عبدالرحمن صدقي مقاله مستشهداً بقول شوبنهور بأن النساء جنس غير فني .

حرية الفتيات في اختيار الأزواج

وفي عدد نوفمبر ١٩٣٦ الخاص «بالاستقلال» نشر الشيخ عبدالعزيز البشرى (١٨٨٦ - ١٩٤٢) مقالاً عنوانه «حرية الفتيات في اختيار الأزواج» قال فيه إن «البنت المصرية الآن إن لم تكن ثائرة ، فهي على جناح ثورة بالآباء والأمهات وبمأثور العرف والتقاليد جميعاً . إن لها لعقلاً وقلباً ، وإن لها لإرادة وعاطفة وحساً ، ولقد توافرت لها جميع الشرائط اللازمة لحرية التصرف المباحة لجميع العقلاء الأحرار ، فكيف يجوز الحجر عليها في التصرف في أخص شئونها ؟» .

ومضى الشيخ البشرى يورد أمثلة على سوء تقدير الفتاة إذا ما استأثرت باختيار شريك حياتها متحررة من وصاية الوالدين فقال «إن الهوى كثيراً ما يكون نزعة وقتية لا تلبث أن تخمد جذوتها الأيام ، لأن الفتاة - في الأغلب - غرة ، تملأ جوانحها المنى ، ولا يتراءى لها إلا معسول الأحلام ، وقَلَّ أن تفطن إلى أعقاب الأمور أو تنفذ بصيرتها إلى ما وراء الظواهر من الشرور والمحن ، فإذا كان مما لاريب فيه أن للفتيات حرية كسائر الناس ، ولكن هذه الحرية يجب الحد منها ، وإنما يحد منها حفظاً للفتاة نفسها وكفالة لأمنها وسعادتها على الأيام ، وهذا مايذهب إليه رأى الآباء» .

وختم مقاله بقوله : «ترى هل لهذه المشكلة الجديدة من علاج ؟» .

وفي عدد أغسطس ١٩٣٧ كتب الدكتور أمير بقطر (١٨٩٩ - ١٩٦٦) مقالاً عنوانه «هل الحياة جديرة بأن نحياها ؟» بدأه بقوله «في هذا السؤال من الناحية البيولوجية تناقض لاشك فيه ، إذ كيف تكون الحياة حياة ، وهي غير جديرة بأن

نحياها ؟» . ثم سأل : «متى تكون الحياة جديرة بأن نحياها وحتى لا تكون ؟» . وأجاب عن هذا السؤال بقوله : «يمكن القول بوجه عام إن الحياة جديرة بالعيش طالما كان الإنسان حياً ، أى كل حياته . غير أن التوازن بين صحة البدن والعقل والنفس هو فى اعتقادى أهم العوامل التى تجعل صاحبها مطمئناً للحياة راضياً عنها مشغوفاً بها أميناً لها ، فإذا ما رأينا إنساناً يسخط على الحياة ويصر على إنكارها وينادى أن الحياة غير جديرة بأن نحياها ويتمادى فى القول زمناً طويلاً ، فلابد أن يكون هناك خطأ جسيم فى توازنه .

وإذا اختل التوازن ، رأى الشمس كاسفة ، والقمر ظلاماً حالكا ، وأطايب الحياة بؤساً» .

وختم مقاله بقوله «إن الحياة فن من الفنون الجميلة ، بل قل إنها الفنون الجميلة كلها مجتمعة . والرجل الذى يدرك معنى الحياة ، يستطيع أن يجد فى العمل ، وأن يستخرج من الهزل الجد ، ويتطلب الفرح فى الحزن ، ويتلمس اللذة فى الألم» .

المصالحة

وفى عدد مارس ١٩٣٨ نشر الأستاذ أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤) مقالاً عنوانه «المصالحة» ذهب فيه إلى أن هذه اللفظة هى المقابل الدقيق للفظة compaomise الانجليزية ، مع أننى أعتقد أن ترجمتها الأقرب إلى الصحة هى «التراضى على حل وسط» .

ويقول أحمد أمين فى شرح نظريته إن «التعصب لوجهة النظر الشخصية كثيراً ما يؤدى إلى شر النتائج ، وإن الخير كل الخير فى إجراء المصالحة بين الطرفين المتخاصمين أو بين الحزبين المتنافرين بحيث ينزل كل منهما عن شىء من مطالبه ، وهكذا يتحقق الحل الوسط الذى يحسم النزاع ويقرب بين وجهات النظر» .

وفى رأى أحمد أمين أنه «لايجد أقرب فى اللغة العربية للدلالة على هذا المعنى من كلمة المصالحة فمن معانى المصالحة القانونية فى كتب الفقه أن يكون بين اثنين خصومة ، وكل منهما يدعى بحق ، فيأخذ كل منهما حقه وينزل للآخر عن بعض حقه. فإذا وسعنا هذا المعنى ، وجعلناه يطبق على المعنويات كما طبق على الحقوق المالية، كانت هذه الكلمة أنسب للدلالة على

كلمة compromise الانجليزية ، ثم إذا أكثرنا استعمال هذا المعنى فى حياتنا اليومية ، اضطر الناس للتعبير عنه بهذا اللفظ ، فصقل وأخذ حيزه من الأفكار ومن المعاجم» .

وختم أحمد أمين مقاله متمنياً أن «يتنبه الناس لهذا الخلق ، خلق المصالحة ، وأن يكرروه وأن يستعملوه فى لغتهم وفى معاملتهم . وأن يضعوه فى أول ثبت للأخلاق بجانب الصدق والشجاعة والعدل» .

حرق الموتى فى رأى أبى العلاء

وفى عدد يوليو ١٩٣٨ نشر الدكتور محمد بك عبدالحميد مقالا عنوانه «حرق الموتى فى رأى أبى العلاء» قال فيه «لم تقتصر آراء المعرى فى الطب على تحريم لحم الحيوان وإكتفائه بالنبات ، بل تحدث كذلك عن حرق جثث الموتى وآثرها على دفنها فى التراب . فقد خشى أبوالعلاء أن تتسع جنبات الأرض للموتى ، فلا يجد الأحياء فيها مكاناً يقيمون فيه ، وهو ما عبر عنه فى لزومياته بقوله :

لوهب سكان التراب من الكرى ... أعيا المحل على المقيم الساكن
لغدوا وقد ملأ البسيطة بعضهم   ورأيت أكثرهم بغير أماكن

ولهذا أستصوب المعرى إحراق جثث الموتى فقال فى لزومياته :

إذا حرق الهندى بالنار نفسه   فلم يبق نحض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر   وضغطة قبر لايقوم لها نظم ؟

وقال فى موضع آخر :

لو شك بالطعن ميت لم يجد ألماً   فالرمح فيه كأشفى الخرز فى الأدم
سيان إلباسه ما لان من كفن   وحرقه فى لظى للنار تحتدم

وفى أبيات أخرى يقول المعرى :

يحرق نفسه الهندي خوفاً   ويقصر دون ما صنع الجهاد
يقرب جسمه النار عمداً   وذلك منه دين وإجتهاد

الأدب بعد خمسين عاماً

وفى عام ١٩٤٢ أصدرت مجلة «الهلال» «الكتاب الذهبى ١٨٩٢ - ١٩٤٢» ، وأرتأت أن تستقرىء رأى الأديب إبراهيم عبدالقادر المازنى (١٨٩٠ - ١٩٤٩) عن مستقبل الأدب بعد نصف قرن فكتب يقول : «إنى أحسب أن الثروة اللفظية للغتنا لن تكون فى المستقبل من مزاياها ، وسيكون هم الناس الاجتزاء بما يفى

بحاجات التعبير وطرح الباقى الذى لا خير فيه ولا حاجة إليه ولا حياة له لأنه غير لازم . ما أظن أحداً منا يستعمل من كل هذه الثروة اللفظية التى تملأ عدة مجلدات ضخمة أكثر من بضع مئات من الألفاظ هى الحية الصالحة ، أما ماعداها فميت» .

وقال إن «هذا يستدعى أن تختفى كتب البيان والبديع وأن لايبقى من النحو والصرف إلا مالاغنى عنه لصواب التأليف» .

ويضيف المازنى إلى ذلك قوله «ويكبر فى وهمى أن الشعر لن يكون له محل - أو إلا محل ضئيل فى هذا المستقبل ، فيقل الإقبال عليه ، وتفتر الرغبة فيه ، فلا يقول القائل سوى أبيات مفردة تكون كالفلتات» .

ومن غريب ماذهب إليه المازنى قوله «وهذا الذى أتخيله فى المستقبل القريب نسبياً ليس إلا مرحلة فى الطريق إلى ما أنا مقتنع بأن الأمر صائر إليه لا محالة بعد زمن كافٍ ، وأعنى ذلك الاستغناء عن اللغة جملة وعن أداة اللفظ فى التفاهم والاكتفاء بموجات نفسية يتبادلها الناس ويتفاهمون بها ولا يحتاجون معها إلى كلام وثرثرة» .

تبادل الشكوى بين الرجال والنساء

وفى عام ١٩٤٣ جرت مناظرة بين السيدة إبنة الشاطىء (١٩١٣ - ١٩٩٨) والدكتور أمير بقطر حول شكوى كل من النساء والرجال من الجنس الآخر . فكتبت إبنة الشاطىء تقول : «دخل فى وهم الرجال قديماً وحديثاً أن لهم علينا نوعاً من السلطان ، وأن هذا السلطان حق لهم مقرر تؤيده الطبيعة وتقره النساء ، وقد أقاموا من أنفسهم حماة لذلك السلطان وابتدعوا النظم والأوضاع التى تؤيده . ثم رأوا أن سلامة هذا الحق تقتضى ضعفاً من المرأة وقصوراً فيها ، فبدأ بينهم وبينها صراع خفى ، يظل كامناً ما رضيت المرأة بالضعف وشعرت بالعجز والحاجة والقصور ، ولكنه يحتدم حيثما وجدت امرأة طامحة ممتازة تحس شخصيتها القوية وترى من إمتيازها مايدفعها إلى الطموح لتأخذ مكاناً لها فى الدنيا التى أستأثرت بها الرجال. والواقع أنها خصومة باطلة وصراع مزعوم» .

ومضت تقول «لقد تكشفت حركتنا الأخيرة عن مهزلة أليمة موجعة ، ظهر أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم وهم يوهموننا أننا نعمل - ويعملون معنا - لحسابنا .... أبداً إن أقسى ما نلقاه فى محنتنا هو شعورنا بما

انكشف من ضعف الرجال وصغارهم . كنا نناضل لنلحق به ونكون أهلاً له ، فإذا هو يغدو غير أهل لنا . كنا نرجوه جديراً باحترامنا فإذا به يثير إشفاقنا ورثاءنا . لقد زين لنا الخروج على فطرتنا ، ودفعنا إلى المعركة ، فإذا بنا نناضل غير كفء لنا في النضال» .

أما الدكتور أمير بقطر فقد بث شكواه من المرأة قائلاً : «لمن نشكو والخصومة بيننا أشد إيلاماً من الحب ، وأقدم عهداً من التاريخ ، ولمن نحتكم ، وقد ادخلت الشيطان شريكاً لنا في الدعوة ؟ ألم تطردى من الجنة فزعمت أن الحية أغوتك ؟ وأنى للرجل أن يقوى على المرأة والحياة والشيطان في آن واحد ؟» .

ثم قال «إعلمى ياسيدتى أن الشكوى من المرأة ستبقى ما بقيت الطبيعة البشرية، وأن التوتر بين الجنسين سيظل هو هو ماظلت العاطفة الإنسانية ، وأن النضال بين القلب والقلب سيدوم ما غرد طير وفتح زهر . واليوم الذى يعيش فيه الرجل والمرأة بسلام ، هو اليوم الذى نقول فيه على الحضارة والعلم والمدنية السلام . فالفنون الجميلة والشعر والموسيقى والاختراع والعلم وأشد ما نعتز به من طيبات الحياة ، إنما يعزى إلى ما توحيه أنت إلينا من خيال وابتكار وحب وجمال فعفوا ياسيدتى ، ولا تأخذى ما قلت فيك بحرفيته ، فإننى أحبك لأن لنا نحن معشر الرجال من بين جنسك أمهات وشقيقات وعمات وخالات وحبيبات سابقات . فلمن نشكو ، وأنت الخصم والحكم ؟»

كيف تصبح مليونيرا

وفى كتاب «مختارات دار الهلال» الصادر عام ١٩٤٦ نشر المليونير أحمد عبود باشا (١٩٨٩ - ١٩٦٣) مقالا عنوانه «كيف تصبح مليونيرا» أورد فيه النصائح التالية :

- لاتأنف من القيام بأى عمل شريف، وانهض بهذا العمل، واجعل منه عملا عظيما، ولا تنتظر الربح السريع، ولاتستسهل عملا لأن السهل ينافسك فيه كل الناس.

- أعط عملك كل وقتك، وباشر فيه كل صغيرة وكبيرة ليشعر معاونوك بيقظتك فيضاعفوا من نشاطهم، وأعلم أنك إذا أهملت أهملوا، وإن تساهلت تهاونوا.

- الذين فشلوا من أصحاب الأعمال سببه أنهم أقبلوا على العمل بنشاط فى بادىء الأمر، فلما شعروا ببوادر النجاح انصرفوا إلى حياة الترف والكسل،

وتركوا لمعاونيهم العمل يديرونه، ومثل هذا العمل لاينجح.

– لاتفرح للربح، فقد تعقبه خسارة، ولاتيأس إذا خسرت، بل اعتبرها امتحانا لكفاءتك. اقتصد دائما ، ما تستغنى عنه اليوم تحتاج إليه غدا .

– تفقد أحوال معاونيك وعمالك، وأشعرهم أنهم شركاء فى العمل، وكافىء المجد منهم بسخاء، واشتد مع المهمل.

– دع الناس يثقون بكلمتك الشفهية، واجعل لها قوة الوعد المكتوب.

– أشعر كل من تتصل بهم أنك تعتز بصداقتهم وتعمل بمشورتهم، فقد تجد بين آرائهم رأيا صائبا يعود على عملك بالنجاح.

– ابتكر فى عملك وجدد.

– الحياة البيتية المنتظمة والهناء العائلى من أكبر أسباب النجاح.

كيف ينظم الشاعر قصائده؟

فى كتاب «الهلال فى أربعين سنة» الصادر عام ١٩٣٢ سئل الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ – ١٩٤٩) كيف تنظم قصائدك فأجاب :

«عندى نوعان من الشعر الأول شعر الطلب فى المدح والرثاء ونحوهما، وهذا لايكلفنى مجهودا لأنى لا أبذل جهدا فى اتقانه، فأكتبه كيفما اتفق».

«أما النوع الثانى فهو الشعر الفنى، وهو يحدث لى وكأنى حسب الظاهر اختاره، وإنما هو فى الواقع بإيجاد قاهر من حادثة أو قصة أو غاية اجتماعية أو سياسية يخطر لى تأييدها والدعوة إليها، وعندئذ تجتمع فى ذهنى على جملة أمام فكرة القصيدة بجموعها، وأحيانا أدون مايخطر ببالى من الأفكار بشأنها فى قالب النثر ثم أعود فأنظمها، وأحيانا لا أدون هذه الأفكار، ولكن المهم أن خاتمة القصيدة أو الغاية المنشودة تكون حاضرة فى ذهنى قبل الشروع فى النظم، ومعظم نظمى فى الصباح، وأحيانا أنشد الخلوة الذهنية فى قهوة ولايعوقنى عن النظم عندئذ كلام الأشخاص أو لعبهم النرد أو الموسيقى، وأنا أعيد النظر كثيرا فيما أنظم ولا أتعجل، ولكن هناك ظروفا كانت تجعلنى أحسن النظم فأوفيه حقه ولو كنت مع ذلك مستعجلا.

***

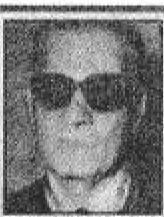
وإذا كنت استمتعت بهذه النزهة فى أعداد «الهلال» القديمة، فعسى أن يشاركنى فى هذه المتعة قراء لم يدركوا هذه السنوات المبكرة من المجلة. ■

قالوا فى الهلال

المصور ١ ديسمبر ١٩٦٧

،كانت مجلة الهلال مثال الجد فى العمل والإخلاص للعلم، ثم أصبحت - إلى جانب ذلك - مثال الفطنة لأذواق القراء والنشاط لأرضائهم ، وهى على كل حال أخف المجلات العربية ظلا، .

،طه حسين،



طه حسين

،الهلال ييسر المعارف ولا يبتذلها، .

،عباس محمود العقاد،



العقاد

،كان الهلال مجلة الشيوخ فصار مجلة الشيوخ والشبان، .

،الشيخ مصطفى عبدالرازق،

،أعجب ما أعجب له أن أرى ،هلالا، ملأ الشرق سناء ، وزاحم أشعته كل كوكب من كواكب العلوم والآداب ، ثم ما يزال يكبر حتى فاق البدور ونافس الشمس فى توابعها المنيرة ،التى كلما اكتشف منها تابع، زاد من توابع ،الهلال، مثله، .



أحمد شوقى

،أمير الشعراء ،أحمد شوقى،

،الهلال مجلة سائرة فى طريق الرقى المستمر وتقدم الآداب المصرية والاجتماعية، .



حافظ ابراهيم

،شاعر النيل حافظ إبراهيم،

،الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح فى الحياة، .

،إبراهيم عبدالقادر المازنى،

،الهلال صورة واضحة للتطور الحديث، .

،مى زيادة،



مى زيادة

الهلال زمان

مجلة ثقافية حفلت بأقلام زعماء الأدب والشعر



بقلم : فكرى اباظه

«الهلال» المجلة العربية التى بلغت من عمرها العامر العام «الخامس والسبعين» : عمر عامر ومديد نرجو أن يعمر وأن يعمر . وأن يطيل الله بقاءه فى عالم الصحافة ذخرا متينا . وكنزا ثمينا يغترف منه قراؤه العديدون فى الشرق العربى - والأسيوى الأفريقى - وفى أوروبا - وبين المهاجرين العرب فى أمريكا الشمالية والجنوبية ..

طاف «الهلال» طوافه الطويل فى خمسة وسبعين عاما ببحوثه العلمية والأدبية . والفنية . وبأقلام الأقطاب والأقيال من زعماء الأدب والشعر والعلم ولا يزال يطوف .. «الهلال» أنجب بنين وبنات ملأوا دنيا الصحافة العربية فى ميادين سياسية وأدبية وفنية فى داره العامرة وهى «دار الهلال» التى تصدر هذا العدد الوافر من المجلات الأسبوعية على أحدث طراز إنتاجا وإخراجا وتصويرا حتى استحقت بجدارة تلك المكانة فى الكيان العربى الواسع النطاق ..

هذا العدد الممتاز من مجلة «الهلال» يصدر فى أول ديسمبر جامعا بين الأقدمين والمخضرمين والمعاصرين من كبار الكتاب ومنهم الذين اختارهم الله إلى جواره ينعمون بثوابه وجزائه الحسن . ومنهم الأحياء المعاصرون الذين يمثلون النهضة الفكرية العصرية ومن ثمار هذه الأقلام يقتطف القارىء ما شاء أن يقتطف من ثلاثين إلى خمسين إلى أربعين إلى اليوم الذى يصدر فيه وفكرة الجمع بين هذه الروائع بآرائها وأفكارها وأساليبها القديمة والحديثة فكرة موفقة جامعة تعتبر «سبقا صحفيا» يهنأ به «الهلال» ويهنأ به قراء الهلال ...

المصور ٢٤ ديسمبر ١٩٦٧

أثر الهلال



بقلم الدكتور طه حسين

أنشيء الهلال مثلا سنة ١٨٩٢ وكان إنشاؤه حدثا من الأحداث الأدبية ذات الخطر البعيد كما سنرى، فإذا استطعنا أن نوقت نشأة الهلال بالعام والشهر واليوم فقد لا ينبغي أن يخدعنا هذا عن أنفسنا وألا يغرنا عن الحق وألا يخيل إلينا إننا قد وقتنا نشأة الهلال توقيتا دقيقا. ذلك أن الهلال لم ينشأ فجأة وإنما نشأ لأن هناك أمورا اقتضت انشاءه ومن الحق أن المرحوم جرجي زيدان قد عرف بعض هذه الأمور وأحصاها وتأثر بها فيما أقدم عليها من عمل أدبي خطير. فهو قد أحس حاجة الشرق إلى هذه المجلة، وأحس قدرته على انشائها، أحس إنه قد يقصر في ذات نفسه وفي ذات الشرق وفي ذات الأدب إذا لم ينشيء مجلة الهلال.

ولكن لماذا أحس هذا كله، ولماذا خطر له هذا كله، ولماذا دفع إلى أن يحس هذا كله ويفكر فيه؟ الأسباب كثيرة ما أظن إنه عني باحصائها أو استقصائها. فقد كان رجل عمل يعني بالاقدام أكثر مما يعني بشطر الشعرة شطرين كما يفعل بعض المؤرخين وبعض مؤرخي الآداب بنوع خاص وأكبر الظن أن الأسباب التي دعت إلى انشاء الهلال كانت أقدم وأبعد من التفكير فيه، بل كانت أقدم وأبعد من وجود جرجي زيدان نفسه فقد اتصل الشرق بالغرب اتصالا قويا في آخر القرن الثامن عشر وأحس الشرق الحاجة إلى أن يأخذ مناهج الغرب في التفكير والتثقيف والنشر والاتصال بين أفراد المثقفين وجماعاتهم وظهرت محاولات لذلك كله أتيح لبعضها الفوز وقضى على بعضها الاخفاق. وجعل الشرق كلما تقدمت به الأيام اشتدت حاجته إلى استئناف هذه المحاولة والوصول بها إلى الفوز، وكان الجهد الذي بذله

جرجي زيدان في أنشاء مجلته وتعهدها جهدا من هذه الجهود الخصبة الموفقة. وليس من شك في إننا نستطيع أن نرجع إلى أسباب أخرى أبعد من القرن التاسع عشر ومن القرن الثامن عشر .

فإذا أرادني صديقي اميل زيدان على أن أؤرخ له اللغة والأدب في نصف قرن وعلى أن يكون هذا التاريخ في فصل قصير فإني استأذنه في أن أتجاوز نصف القرن هذا وفي أن ألاحظ أن التطور الذي غير الحياة الأدبية العربية في مصر خاصة وفي الشرق العربي بوجه عام ربما كان أقدم من نصف القرن هذا، وربما كان من المقارب أن نرجع به إلى أيام إسماعيل حين كثرت آثار المطبعة وحين كثرت آثار البعوث العلمية إلى أوروبا وآثار البعوث العلمية من أوروبا إلى الشرق وحين أصبح الاتصال الدقيق المنظم السريع غير مقصور على أوروبا والشرق القريب بل متناولا للشرق البعيد أيضا بعد أن احتفرت قناة السويس، وغير مقصور على التعليم والتعلم بل متناولا للسياسة والإدارة والاقتصاد والمال، وحين نشأ عن هذا كله جيل ساخط يشعر بنفسه وبكرامته وبآماله، وحين نشأ عن هذا السخط العام اضطراب عام في الشرق العربي كان من بعض مظاهره الخطيرة الثورة المصرية التي وقعت أحداثها قبل نشأة الهلال بعشر سنين.

وقد كان جرجي زيدان رحمه الله رجلا من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه كما كان محمد عبده رجلا من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكما كان الاصلاح الديني وحرية الرأي نتيجة لسخطه وطموحه. وقل مثل ذلك في قاسم أمين وقل مثله في البارودي وحافظ وشوقي وغيرهم من الذين قامت عليهم نهضتنا المعاصرة مهما تختلف فروعها ومظاهرها.

وفي الأدباء كثير من الاعتداد بالنفس والاكبار لآثارهم في الحياة العقلية بل في الحياة عامة.. ويكاد كثير من الأدباء يقطع بأن تطور الحياة انما هو أثر من آثار الإنتاج العقلي لهذا الكاتب أو لهذا الشاعر، وربما تطول فتمس بأن فكرة لعالم من العلماء أو اختراعا لرجل من رجال الفنون التطبيقية قد كان لها أثر في هذا التطور ولكن الأدباء قلما يحفلون بالمؤثرات الاقتصادية وبالمؤثرات المادية بوجه عام. ومع ذلك فلهذه المؤثرات المادية والاقتصادية خاصة نتائجها الخطيرة في الحياة الإنسانية جملة وفي الحياة العقلية والأدبية على وجه التحديد كما يقولون. وقد يكون من المبحوث الطريفة الخصبة أن يحاول محاول استكشاف الاثار القريبة والبعيدة التي تركها في لغتنا وآدابنا احتفار قناة السويس وما نشأ عنه من هذا الاتصال المنظم بين أقصى الشرق وأقصى الغرب وما نشأ عن ذلك من تغير حياتنا الاقتصادية والمالية ومن تحقيق الغاية التي كانت مصر تطمح اليها منذ أقدم عصورها وهي أن تكون مركز الالتقاء بين الشرق والغرب.

ولست أقول هذا كله تزيدا أو تعمدا للاسراف في الاحصاء والاستقصاء وانما أريد أن ألاحظ أن من أصعب الأشياء وأشدها عسرا. أن نفترض في تاريخ الظواهر

الأدبية وقتا معينا تبدأ فيه أو تنتهي عنده. والشيء الذى لاشك فيه أن مجلة اسمها الهلال نشأت منذ نصف قرن وكان منشئها رجلا من رجال هذا الجيل الذى صورته ساخطا طامحا شديد الطموح عظيم التوثب تنطوى نفوس أبنائه وضمائرهم على آمال ضخام عراض يتبينها المثقفون الممتازون من رجاله وكان منشيء هذه المجلة من هؤلاء الرجال. فلم تستأنف نهضة لغوية أو أدبية فى الوقت الذى أنشئت فيه مجلة الهلال وانما كانت هذه النهضة موجودة قوية سريعة الحركة إلى أمام وكانت مظاهرها واضحة كل الوضوح، كانت تتناول الشعر والنثر والتفكير الاجتماعى والدينى كما كانت تتناول العلم أيضا. ومن الحق أن هذه النهضة قد صدمت صدمة عنيفة قبل إنشاء الهلال بعشر سنين حين كانت الثورة المصرية والاحتلال البريطاني. ولكن من الحق أيضا أن هذه الصدمة لم تمح النهضة ولم تحولها عن وجهتها وإنما وقفتها أعوام ثم لم يلبث هذا الجيل الساخط نفسه أن أفاق من الصدمة واسترد نشاطه القديم واستأنف سيره إلى الأمام وكان إنشاء الهلال مظهرا لاستئناف هذا النشاط. ولاحظت فى غير هذ الفصل وكان ذلك بعيد الأثر فى حياتنا الأدبية وأنه يكفى أن ننظر إلى الأجزاء الأولى من هذه المجلة وإلى الأجزاء الأخيرة لنلاحظ أن منشيء الهلال كان يكتب مجلته كلها على وجه التقريب وأن صاحب الهلال بعد الحرب الماضية لم يكن يكتب فيه إلا قليلا جدا ومعنى ذلك أن مجلة الهلال لم توجد لنفسها القراء فحسب وانما أوجدت لنفسها القراء والمحررين أيضا. وهى لم توجد القراء والمحررين فى البيئة المصرية وحدها ولا فى البيئة الشرقية وحدها وإنما أوجدتهم فى بيئات بعيدة جدا عن مصر والشرق، فى البيئات الغربية الأمريكية. ومعنى هذا كله أن نصف القرن الذى يريد صديقى أميل زيدان على أن أورخ الأدب واللغة فيه قد امتاز بظاهرة أدبية شديدة الخصب عظيمة الخطر بعيدة الأثر جدا فى الحياة الأدبية العربية وهى نشأة الهلال.

وما أريد أن يظن قارىء هذا الفصل انى أكتب تحيه للهلال لانه قد أنفق من حياته الطويلة نصف قرن، فأنا لا أزيد على أن أكون مؤرخا للأدب العربى ولكن مؤرخا يحرص على الا يتشعب عليه الموضوع وعلى الا يحاول فى فصل قصير ما لا يوفى إلا فى كتاب ضخم. ويكفى أن ألاحظ لاثبات ما أقول أن مجلة الهلال قد كانت مصدر أحداث أدبية خاصة كان لها أبعد الأثر فى حياة الأدب العربى المعاصر وقلما يشاركها فيها مظهر من مظاهر النشاط الأدبى الحديث. فليس من الغلو فى شىء أن يقال أن منشيء الهلال قد أوجد فى اللغة العربية هذا العلم الحديث الذى نسميه تاريخ الأدب، لا بتأليف كتابه المشهور فحسب ولكن بالبحوث الكثيرة التى نشرها فى الهلال وبالكتب التى أرخ بها الأمة العربية والحضارة الإسلامية.

على أن منشيء الهلال لم يقف عند هذا الحد ولكنه بسط العلاقة بين الشرق والمستشرقين وألغى المسافة أو كاد يلغيها بين العلماء الدارسين للغة والأدب فى الشرق والعلماء الدارسين للغة والأدب في الغرب. ولست أنكر أن لغير منشىء الهلال آثارا قيمة فى هذه السبيل ولكنى أزعم أنه هو الذى مهد لهذه الآثار وفتح للشرقيين

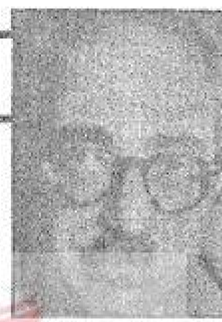
هذا الباب من أبواب العلم. ثم لصاحب الهلال رحمه الله أثر آخر بعيد فى حياة الأدب العربى المعاصر وهو أثر أدبى خالص لم يوف حقه من الدرس والإكبار . فصاحب الهلال هو الذى نقل إلى أدبنا العربى مذهبا من مذاهب الأدب الأوروبى هو القصص التاريخى.. ولست أزعم أن القصص التاريخى الذى كتبه جرجى زيدان كان يمتاز بروعة الأسلوب وبراعة اللفظ ولكنى أسجل هذه المحاولة أولا على أنها نحو جديد من أنحاء الإنتاج الأدبى فيه أحياء للتاريخ العربى وفيه توجيه للشباب وفيه بعد هذا كله تأثير قوى فى الخيال . كنت فى أيام الصبا والشباب أبدا فى قراءة القصة التاريخية من قوى فى الخيال ومهما أنس فلن أنسى انى كنت فى أيام الصبا والشباب أبدأ فى قراءة القصة التاريخية من قصص جرجى زيدان فلا أكاد أتقدم فى قراءتها شيئا حتى أفتن بها وإذا هى تشغلنى عن دروس الأزهر حتى أتمها. وإذا هى تأخذ على تفكيرى وقتا طويلا بعد أتمامها.. ويستطيع النقاد أن يقولوا ما يشاءون . ولكن الشىء الذى لاشك فيه هو أن القصص التاريخى الذى أصدره جرجى زيدان قد كان من أهم المؤثرات التى أتاحت لهذه النهضة أن تؤتى الثمار القصصية التى يستمتع بها قراء العربية الآن.

ومن الواضح أن جرجى زيدان لم يكن وحده الذى يعمل وينتج ويغزو الثقافة العربية فقد كان هناك علماء وكتاب وشعراء ومفكرون كما كانت هناك مجلات كثيرة مختلفة . ولكن من الواضح أيضا أن جرجى زيدان كان أبعد هؤلاء المثقفين أثرا فى الحياة الأدبية المعاصرة. كما أن مجلة الهلال كانت أبعد المجلات أثرا فى هذه الحياة الأدبية. وقد يكون من الحق على أن أعلل هذه القضية وقد يكون تعليلى لها مدهشا لبعض الذين يتعجلون الأحكام فى التاريخ الأدبى. ولكنه مع ذلك تعليل صحيح فيما أعتقد. ذلك أن جرجى زيدان لم يكن أرستقراطى الأدب وانما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ولكنهما نافعتان أشد النفع إحداهما النزعة العلمية التى تظهر فيما كتب من التاريخ الأدبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة. والثانية النزعة الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه وفى فصوله الثقافية العامة. فهو قد كان يتجه إذن بعلمه وأدبه إلى أوساط المثقفين ولست أعرف بيئة أحسن استعدادا للانتفاع بالثقافة من هذه البيئة المتوسطة التى لا يرتفع بها الامتياز عن الاستفادة ولا ينحط بها الجهل عن الانتفاع بما يقدم إليها من غذاء العقل والقلب والروح. وقد كان جرجى زيدان شعبيا فى علمه وفى أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عما يتعرض له العلم الشعبى والأدب الشعبى أحيانا من الاسفاف والابتذال. فكان له من أجل هذا أعمق الأثر فى نفوس الذين قرأوه وفى عقولهم أيضا. وما أسعد الذين يستطيعون أن يحصوا لأنفسهم بين العلماء والأدباء وأوساط المثقفين تلاميذ كالذين نستطيع أن نحصيهم لجرجى زيدان. وما أسعد الذين يعجز التاريخ الأدبى عن أن يمر بأسمائهم وأعمالهم دون أن يقف عندها وقفة طويلة كالوقفة التى يقفها التاريخ الأدبى عند اسم جرجى زيدان وآثاره.

الهلال ١١٠ سنة

عهدي بالهلال

بقلم الدكتور: محمد حسين هيكل



يرجع أول عهدى بمجلة الهلال إلى أربعين سنة خلت، كنت يومئذ طالبا بالمدرسة الخديوية الثانوية، وكنت كزملائى التلاميذ يومئذ، وكأبنائنا التلاميذ اليوم، أقضى الأجازات المدرسية بقريتنا فى الريف، وكان والدى مشتركا فى مجلتى الهلال والمقتطف، وكان حريصا على أن يتناول الطعام مع أبنائه فى الوجبات الثلاث، وبخاصة فى وجبة الظهر، فإذا فرغنا من تناولها أوى إلى مضجعه يقضى فيه ساعة أو بعض ساعة وكان يقرأ قبل أن ينام، فلما انتقلت من دراستى الابتدائية الى المدرسة الثانوية كان يدعونى بعد الغداء لأتلو الفصل الذى يختاره من مجلة الهلال، وأظل فى تلاوتى حتى إذا أطمأننت إلى أنه نام انسحبت من مخدعه وفررت إلى حيث يلعب أخوتى وأعمامى لاشترك معهم فى لعب النرد أو كرة القدم، أو غير ذلك مما يكونون بسبيله من ألوان اللعب، وكثيرا ماحدث أن أعتقدت أنه نام فوضعت المجلة وتأهبت للانسحاب فإذا هو ينبهنى إلى أنه لم ينم، ولا بد لى عند ذلك من متابعة القراءة حتى ينام.

خلقت هذه القراءات شيئا من الألفة بينى وبين مجلة الهلال من ذلك العهد.

وكثيرا ما كنت أقرأ فى صحفها الأخيرة ماتنشره من فصول لهذه الروايات التاريخية الإسلامية التى كان يكتبها جرجى زيدان، وقد سرنى قراءة هذه الفصول أثناء الأجازات ودفعتنى إلى قراءة هذه الروايات كاملة وكانت دار الكتب المصرية - أو الكتبخانة الخديوية كما كانت تدعي إذ ذاك - تحتل جزءا من البناء الذى كان يجمع وزارة المعارف ، والمدرسة الخديوية، وهذه الكتبخانة الخديوية، فكنت أخرج عقب انتهاء الدروس يوم الخميس فأذهب إلى دار الكتب لأجلس فى غرفة المطالعة وأطلب هذه الروايات التى كتبها جرجى زيدان، وتنشرها الهلال، ولايزال الأثر الذى تركته قراءاتى لغادة كربلاء عالقا بنفسى إلى اليوم سردت ماتقدم ليرى أبناء اليوم ما كان للهلال من أثر فى توجيه ثقافتنا نحن أبناء الأمس، وأثر الهلال لم يقف فى حدود مصر حيث كان يظهر، ولم يقف فى حدود بلاد الشرق العربى، بل كان يتخطاها إلى كل متكلم بالعربية حيثما كان من بقاع الأرض.

وكانت ميزة الهلال، فى عهد منشئه، البساطة فى عرض المسائل الأدبية والاجتماعية والتاريخية بساطة تقربها إلى الذهن وتحببها إلى النفس، كما أنه كان يتجه بأبحاثه الأدبية والتاريخية الى بعث التراث العربى إلى نشر الثقافة العربية على نحو يؤلف بين الذين يتكلمون العربية ويطبع نفوسهم وقلوبهم بطابعها ويبعث الى جوارحهم محبتها والتشبث بها.

وهذه الميزة قد احتفظ بها أبناء منشىء الهلال بعد والدهم، ولهذا بقيت الصلة بين الهلال وقرائه الأولين، أقام الهلال على الوفاء لهم وأقاموا على الوفاء له، مع تطوره كتطورهم ليلائم الجميع روح هذا العصر السريع التطور، ولعل الهلال قد بلغ من مجاراته العصر فى سرعة تطوره ما لم يبلغه غيره من صحفنا ومجلاتنا.

● الهلال - الكتاب الذهبي - ١٨٩٢ - ١٩٤٢.

الهلال

فى نصف قرن

بقلم
طاهر الطناحى

كان مؤسس الهلال فى أول نشأته يتولى وحده جميع شئونه التحريرية والإدارية ، ويشرف بنفسه على أعمال طبعه .. ولما اتسع نطاق المجلة عهد فى إدارتها إلى شقيقه واستخدم آخرين للأشغال الأخرى وعكف هو على التحرير والتأليف ، وعنى عناية عظيمة بالتاريخ ، وعلى الأخص تاريخ الشرق وتاريخ رجاله البارزين سواء أكانوا ملوكا أم قواداً أم فلاسفة أم رجال علم وأدب .

وبدأ الهلال فى أول سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، وكان يظهر مرة فى الشهر ، وكانت سنته اثنى عشر شهرا .. فكان يبتدئ فى سبتمبر وينتهى فى أغسطس ، واستمر الهلال يصدر على هذا المنوال (مرة فى الشهر) إلى نهاية السنة الأولى ، وفى أثناء هذه السنة ظهرت رغبة كثير من القراء فى زيادة حجم الهلال واتساع مادته، واقترح بعضهم أن يصدر مرتين فى كل شهر ، فوعدهم مؤسسه بذلك ابتداء من أول السنة الثانية .

فلما كانت السنة الثانية ظهر الهلال مرتين فى الشهر : الأولى فى أوله ، والثانية فى منتصفه ، وأصبح عدد أجزاء الهلال فى السنة أربعة



وعشرين ، كل جزء يحتوى على ٣٢ صفحة . وفى غضـــون هذه السنة زادت أبواب الهـلال بابا سادسا هو « باب السؤال والاقتراح» .. فصارت أبوابه ستة .

وفى السنة الثالثة من حياة الهلال زاد مؤسسه عدد صفحاته ١٦ صفحة، فصار مجموع الجزءين ثمانين صفحة فى الشهر ، وأضاف إلى أبوابه بابا سابعا دعاه «باب الأخبار العلمية» درج فيه ما كان يحدث فى العلم والصناعة من المبتكرات والاختراعات والاكتشافات ، وذلك تحقيقا لما وعد به القراء من الزيادة والتحسين كلما رأى منهم إقبالا وتشجيعا .

وفى السنة الرابعة زادت أبواب الهلال بابا ثامنا درج فيه قسما من فصول رواية تاريخية غرامية بعنوان « أرماتوسة المصرية » وصار ينشرها تباعا ، ولابد من ملاحظة أن هذا الباب سبق أن وعد به فى افتتاحية الجزء الأول من السنة الأولى ، ولكن لكثرة أعماله واحتياج هذا التأليف الروائى إلى طول البحث اضطره إلى الاستعاضة عن هذا الباب فى السنوات الثلاث الماضية بباب آخر سماه « باب المراسلات» ثم لما اشتد إلحاح القراء عليه فى إضافة هذا الباب إلى الأبواب الأخرى لم يسعه إلا أن يجيبهم إلى رغبتهم .

وزاد فى السنة الخامسة بابا جديدا وهو «باب مشاهير العصر » وفيه رسوم مشاهير العصر الأحياء فأصبحت الأبواب تسعة، وما انتهت هذه السنة حتى كان «الهلال» قد انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها وأصبح له كثير من القراء فى سورية، والعراق وفارس والهند واليابان وتونس والجزائر ومراكش وغربي أفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الغربية وجزائر الهند الشرقية واستراليا وزيلاندا وأواسط السودان وجنوبه وشرقيه وفى زنجبار والترنسفال وفى أكثر مدائن أوروبا .

واستمر «الهلال» في تقدمه ونموه حتى كان العام الأخير من العقد الأول من حياته، وهو العام الاشر فدخل في طور جديد من التقدم والنمو يظهر فيما يأتي :

١ - العناية بشئون الصحة، ففتح لها بابا خاصا سمي «صحة العائلة» .

٢ - زيادة عدد الرسوم مع اتقان حفرها وطبع بعضها على ورق خاص .

٣ - العناية بجودة الورق .

٤ - تقديم هدايا إلى المشتركين . وكانت هدية السنة العاشرة «تاريخ التمدن الإسلامي» لمؤسس الهلال .

هذا مجمل نمو الهلال وتطوره في العقد الأول من حياته .. وفي العقد الثاني ظهر النمو والتطور بمظهر أكبر وأحسن . ففي السنة الحادية عشرة زادت العناية بطبع الهلال واختير له ورق أجود مما كان عليه في السنين الماضية ، وزين كثير من الصفحات بعدد من الرسوم الواضحة ، وجعل لكل صفحة إطاراً جميلا يفصل الكلمات عن الهامش، وبقي يصدر مرتين في الشهر .. ولكن نظرا لهذه التحسينات رؤى أن تعود صفحات كل جزء إلى ٣٢ صفحة ، وزيدت قيمة الاشتراك عشرة قروش .

غير أن مؤسس الهلال أراد أن يعوض قراء الهلال من نقص وزيادة الاشتراك بشئ يفيدهم علاوة على التحسينات المطبعية، فأنشأ بابا جديدا من أول تلك السنة عرض فيه بالتوالي أعجب وأغرب ما في الطبيعة من المخلوقات ، وهو باب « عجائب المخلوقات » .



وما كادت تبدأ السنة الثانية عشرة حتى أعد مجموعة من الحروف الإسلامبولية الجميلة ، وهي

أجمل أنواع الحروف فى ذلك الوقت ، وتمتاز بصغرها عن الحروف التى كان الهلال يطبع بها ، وبذلك أمكن أن يستوعب الهلال كثيرا من المواد والموضوعات .

وفى هذه السنة نفسها رأى مؤسس الهلال أن يصدره عشرة أشهر فى السنة مع بقائه مرتين فى الشهر ، وأن يعوض المشتركين عن الشهرين الباقيين بكتاب يهدى إليهم بحجم أجزاء الشهرين .

وفى السنة الثالثة عشرة شكا قراء الهلال من قلة الصفحات مع كثرة الموضوعات التى تستلزم زيادة عدد صفحاته ، واستحسن أغلبهم ضم الجزءين إلى بعضهما وصدورهما جزءا واحدا فى آخر كل شهر . فلم يسع مؤسس الهلال إلا إجابة رغبة الأكثرية، وعاد الهلال يصدر مرة فى الشهر على أن تكون صفحاته ثمانين صفحة ، وسنته عشرة أشهر وأن يعوض القراء عن جزأى الشهرين بكتاب.

وفى خلال السنين الماضية كانت المقالات الخارجية التى تأتى إليه من بعض العلماء والأدباء للنشر فى الهلال نادرة . ولكن فى العقد الثانى من حياة الهلال ظهر على صفحاته أسماء لبعض العلماء والأدباء الشرقيين كالمرحوم «المقدسى» صاحب كتاب «علم الأدب عن الأفرنج والعرب» وطالما أتحف هذا العالم قراء الهلال بمقالات تاريخية وفلسفية وعمرانية جيدة ، وكذلك الدكتور نقولا فياض ، وأخوه المرحوم إلياس فياض، وحافظ بك إبراهيم والدكتور شبلى شميل .

وأخذ الهلال فى هذه المرحلة ينشر بقلم مؤسسه مقالات اجتماعية واقتصادية فضلا عن المقالات التاريخية مثل « النهضة المالية المصرية» و« الإحصاء المصرى» و«اللغة العربية والمدارس » و«تاريخ التعليم فى مصر» ونحو ذلك مما يحتاج إلى درس وتنقيب .

العقد الرابع

وفى العقد الرابع دخل الهلال فى طور يمتاز عن سابقه بكثرة التحسين تماشيا مع التطور الحديث وتيار الرقى والتقدم الراهن وقد ألغت منه بعض الأبواب ، واستعيض عنها بأبواب جديدة وموضوعات

أجل فائدة وأكثر ملاءمة للتطور المادى والأدبى والعلمى فى السنين الأخيرة .

أما الأبواب الأخرى فقد نالها كثير من التعديل ، فغيرت عناوينها ، واختير لها عناوين أخرى واصطبغت بصبغة جديدة فى الأسلوب والاختيار والترتيب ، ومن ذلك «باب السؤال والاقتراح» فتغير عنوانه باسم « بين الهلال وقرائه» و«باب التقريظ والانتقاد» أصبح عنوانه « عالم الأدب» و«الأخبار العلمية » صار باسم «سير العلوم والفنون» وفيه من الصور مالم ينشر من قبل و«أخبار اجتماعية» باسم «من هنا وهناك » و«صحة العائلة» باسم «شئون الدار» أما « باب عجائب المخلوقات» فقد استعيض عنه بعرض صور مختلفة لهذه المخلوقات العجيبة مع التعليق عليها .

وقد ألغى «باب تاريخ الشهر » ثم أعيد أخيرا بمظهر جديد وذلك باسم «معرض الشهر» ويشتمل على صور أهم الشخصيات والحوادث التى شغلت الأذهان فى الشهر المنصرم ، هذا فضلا عن التجديد فى الورق والتحسين فى الطبع والتصوير : ومنذ جلبت دار الهلال مكنات الطبع بالروتوغرافور ، صارت صفحات هذه المجلة تزدان بصور جميلة تضاهى الصور الفوتوغرافية فى وضوحها وحسن طبعها .

وقد اتجه الهلال وجهة جديدة باتجاه الأفكار الآن نحو المغرب وعلومه وآدابه ، ولكنه مازال صورة واضحة لتطور الشرق وتقدمه ، وقد حاز من تقدير العلماء والأدباء ما جعله مجالا لبحوثهم القيمة وآرائهم الناضجة ، وأخذ نخبة منهم ينشرون فيه مقالاتهم وقصائدهم وآرائهم .



فأصبح الهلال بذلك معرضا حافلا للعلم والأدب والاجتماع ، وميدانا تتبارى فيه أقلام العلماء والأدباء .

العقد الخامس

بدأ الهلال عقده الخامس سنة

١٩٣٢ وكانت فى مصر وسائر بلدان العالم أزمة مالية استحكمت حلقاتها ، وعانت منها جميع الأمم متاعب مادية ومشاكل اقتصادية عدة، ويختتم هذا العقد فى إبان أزمة أخرى أشد وأروع ، وهى أزمة الحرب الراهنة التى هدمت كثيرا من معالم المدنية الحديثة، ورزأت الأمم بضائقة خطيرة، وكما صمد الهلال فى تلك الأزمة الاقتصادية وفى أزمة الحرب العالمية الماضية التى مر بها ، يصمد الآن لأزمة هذه الحرب مؤديا رسالته فى خدمة الشرق وخدمة النهضة الشرقية .

وقد امتازت السنوات العشر الأخيرة من حياته بما أصدره من أعداده الخاصة المتعددة تماشيا مع النشاط الفكرى والاجتماعى والسياسى فى مصر والأقطار الأخرى، وقد بلغت هذه الأعداد ١٨ عددا تتناول أهم الموضوعات التى تشغل الأذهان فى المناسبات العلمية والأدبية والسياسية أيضا . ونذكر من هذه الأعداد : « الفاروق عمر بن الخطاب» . «حياتنا الجديدة» . «أبو الطيب المتنبى» . «المرأة والحب» .. « أبو نواس» .. « أبو العلاء المعرى » .. «العرب والإسلام» .. «العالم العربى والحرب» .. «الإنجليز» .. «الحرب» .. «العرب والديمقراطية» إلى آخر هذه الأعداد الممتازة فى تحريرها ، وفى تنسيقها ، وفى طبعها ، وقد صادفت نجاحا وتقديرا من جميع القراء ، وكانت سجلا لجانب كبير من الحياة العلمية والأدبية وصورة واضحة للنهضة الفكرية وجهود العاملين فيها .

وقد اضطر الهلال فى السنتين الأخيرتين أن يدمج عددين فى عدد واحد تحت تأثير الأزمة الحربية الحاضرة ولكن ذلك لم ينقص من قوة تحريره والرقى الفنى فى طبعه ، ولا من الرسالة التى أنشئ لأجلها ، ولم يخمد من هذه الشعلة التى أوقدها مؤسسة ، وتعهدها الذين جاءوا من بعده ، ولا ريب فى أن تلك الأزمة ستمر كما مرت الأزمتان السالفتان ، وسيعود الهلال كما كان ، وخيرا مما كان ، وسيبقى كما بقى فى الخمسين عاما الماضية مؤديا واجبه فى خدمة العلم والأدب والاجتماع .

هلال - الكتاب الذهبى - ١٨٩٢ - ١٩٤٢ ■

ذكريات عن الهلال ومنشئه

بقلم الأستاذ أنطون الجميل



ألا رحم الله منشئ الهلال ونفعنا بآثاره الباقية .

ومد الله في عمر مجلة الهلال، وأبقاها عاملا فعالا فى خدمة الشرق واللغة العربية.

أما منشئ الهلال فلا أزال أذكر ما كان له من الفضل يوما ما على نشأتى الأدبية وإذا كنت أعمد مغتطبا، لمناسبة هذه الذكرى الخمسينية إلى تسجيل هذا الفضل فلا شك أن كثيرين غيرى من حملة الأقلام اليوم يعودون مثلى إلى ماض قريب أو بعيد فيذكرون مثلما أذكر.

.. كنا قبيل الحرب الماضية، وكان جيلنا من شبان تلك الحقبة يتطلع إلى النهضة الفكرية فى الشرق، ويتلمس آثارها فى كتابات من كان فى الطليعة من أبنائنا.

وكان أن صدر ديوان الخليل لأستاذنا مطران فانصرفت إليه أطالع مقطوعاته فى كثير من الشغف والاعجاب لأنى وجدت فيه الكثير مما كانت تشوف إليه نفوسنا الفتية التى نهلت من الأدب الفرنجى، وأصبحت تبحث عن مثل هذا المعين دون أن تجده فى أدبنا العربى العصرى . وبعد أن رويت ظمأ نفسى من هذه المطالعة أحببت أن أدون ما جال فى خاطرى من أثر هذا الشعر الجديد فعكفت على كتابة بحث طويل عن شاعرية خليل وعوامل التجديد فى قصائده وموضوعاتها ولما أتممت بحثى وأتقنت تبييضه حملته إلى منشئ الهلال، لأن صفحات الصحف اليومية لم تكن تتسع وقتئذ لمثل هذه البحوث .

وكان رحمه الله يقصد عند مغرب كل يوم إلى مكتبة الهلال، فى أول شارع الفجالة حيث تلتف حوله عصبة من رجال القلم يتفكهون ويتنادرون فدفعت إليه المقال على أن أعود إليه فى اليوم التالى لأعرف رأيه فيه بعد اطلاعه عليه.

وعند مغرب اليوم التالى عدت إلى مكتبة الهلال، فوجدت المرحوم جرجى زيدان بين رهط من أصدقائه كالمعتاد فابتدرنى بالتحية مرحبا وقال: أهنئك بمقالك، وسننشره فى هلال الشهر القادم، ثم اسمعنى بعض عبارات التشجيع قائلا: أبشرك بمستقبل حسن فى الأدب إذا ثابرت على البحث والكتابة وفى الشهر التالى قرأت بحثى منشورا فى الهلال وتفضل، رحمات الله عليه، بأن أهدى إلى المجلة على سبيل المكافأة.

ولا شك فى أن هذا الحادث كان من الحوافز التى دفعتنى إلى الكتابة فى المستقبل. هذه أولى ذكرياتى عن منشئ الهلال.

أما مجلة الهلال وما قامت به من الخدمات الجلى للأدب والتاريخ واللغة فقد يكون بعض الدليل عليه فى القصة الآتية:

كنا فى مطلع صيف سنة ١٩٢٧ نتأهب للسفر إلى أوربا وقصدنا مع بعض الأصدقاء إلى بورسعيد للسفر منها على باخرة كانت قادمة من جزر الفيلبين إلى جنوى.

وتأخرت الباخرة عن موعد وصولها إلى الميناء المصرى بسبب هبوب الرياح الموسمية فى المحيط الهندى، فقضينا ليلتنا فى أحد الفنادق ننتظر قدومها وقبل طلوع الفجر أيقظنا وكيل شركة الملاحة مبشرا بأن الباخرة قد اجتازت قناة السويس، وانها لا تلبث أن تواصل سفرها حالا فأسرعنا بحقائبنا إليها وما كدنا نستقر على ظهرها حتى أطلقت صفارتها مؤذنة بالرحيل.

يعرف الذين يسافرون كيف تقضى أيام السفر البحر: مطالعة، وحديث، وسمر، فى حلقات يعقدها الذين تعارفوا وذهاب واياب على ظهر السفينة للرياضة.

وبينما كنت فى اليوم الثانى من السفر أذرع السفينة ذهابا وايابا، رأيت رجلا وسيدة فى مقعدين متجاورين وكان منظرهما قد لفت انتباهنا منذ اليوم الأول.

الرجال مثال للعنصر الشرقى بشرة سمراء، وعينان سوداوان وشعر كث فاحم كظلام الليل، وهو فى نحو الخمسين من عمره.

والسيدة مثال للعنصر الانجلوسكسونى: بشرة ناصعة البياض، وعينان زرقاوان، وشعر أشقر كشعاع الشمس، وهى فى نحو الثلاثين من عمرها.

بينما أنا فى فى طوافى جيئة وذهابا بادر الرجل بتقديم نفسه إلى

فقال: أعرف هذا الاسم.. ورحب بى، وقدمنى للسيدة، وهى زوجته، ثم ذكر اسمه، وسرد قصته قال:

- اسمى عزيز توفيق هاشم، من كفر شيما بلبنان هاجرت من قريتى وأنا فى الثانية عشرة من عمرى وقد مر على فى المهجر أربعون سنة كاملة لم أرجع فيها إلى الشرق.. ذهبت فى أول أمرى إلى أمريكا الشمالية، ثم انتقلت منها إلى أمريكا الجنوبية، ولم يصادفنى التوفيق فى كلتا الأمريكتين، فيممت شطر جزر الفيلبين، وتعاطيت بعض الأعمال التجارية فى مانيلا، فحالفنى النجاح ثم اشتريت بالاشتراك مع الدكتور صليبى أراضى واسعة، وكان من حظنا أن كشفنا فيها منجم فحم، فكان لنا منه ثروة طائلة قال، واطلعنى على مجموعة صور فوتوغرافية لذلك المنجم ومئات العمال يشتغلون به وكان الرجل يروى لى قصته هذه فى لغة هى مزيج من اللغة الفصحى واللغة العامية الدارجة فى لبنان يتخللهما شطرة بيت من الشعر أو كلمة بالانجليزية أو الأسبانية.

ولما أبديت له استغرابى من أسلوب تعبيره المختلط قال:

لا تعجب! قلت لك انى هاجرت من الشرق منذ أربعين سنة، وأنا فتى يانع وبعد بضع سنوات تلقيت كتابا من المرحوم والدى يقول لى فيه ما معناه: يابنى، أخشى أن تنسى فى ديار الغربة لغة قومك وعادات عشيرتك لأنك لاتزال صغير السن. لذلك اشتركت لك بمجلة الهلال لتظل تطالع فيها لغتنا فلا تنساها، وتقرأ فيها أنباء شرقنا العزيز..» وهكذا عرفتك عندما تسميت لأنى قرأت لك فصولا فى الهلال، وهكذا ترانى بعد غياب أربعين سنة أحتفظ بلغتنا، وأن كانت العادة قد أدخلت على عباراتى كلمات أجنبية كثيرة.

نجمتان

شعر
د. حسن فتح الباب

أشعل شمعة لعلها
تضئ لي الماضى الذى انطفأ
أسأله : ماذا جنيت
حين عدوت فى طريقى الطويل
لعلنى أقطف نجمة المساء
رأيتها كأنها على الأفق
لؤلؤة تسبح فى الضياء
لعلها تصحبنى فى ليلى الغريق
أشدو لها .. لعلها
تعيرنى سفينة من بحرها
صغيرة تمخر فى العباب
لعلها تقلنى
إلى سواحل بعيدة
عن أعين القرصان
تمنحنى الأمان
وفجأة رأيت نجمتى
ترمقنى بنظرة مشفقة
لأن كفى الصغيرتين
أسلمتا الشراع للقرصان
فكان لى الربان !!
وعاد بى من حيث جئت
لا سفينة ولا شراع
[illegible] ولا بحار
لانجمة أقطفها من الفضاء
تصحبنى فى ليلى الغريق
إلى مرافئ الأمان
إلى السموات العلا
طيرا طليقا كالضياء

***

منفردا مع الملائكة
صحوت من حلمى على يدين
وقبلتين من حنان :
بنى .. لاحت نجمة الصباح



عامان من النضال الفلسطينى

بقلم
د.أحمد يوسف أحمد

ترددت طويلاً قبل أن أشرع فى الكتابة عن الانتفاضة الأقصى وهى تستعد لاستقبال عامها الثالث، وكان مبعث ترددى أمرين : أولهما أن الوقت قد يكون مبكرا لإصدار حكم موضوعى تسلم به أغلبية المتابعين لها، ففى مثل هذه العمليات التاريخية لايمثل عام أو عامان سوى قطرة فى محيط هذه العمليات التى تكون عادة شديدة التعقيد، وقد يمر النضال الفلسطينى بلحظة بالغة الصعوبة والخطر، غير أن هذه اللحظة ربما تكون بوابة للانتقال إلى مرحلة أرقى، أو إلى إنجاز حقيقى حتى ولو كان محدداً ، هذا فضلا عن أن الحقائق الخاصة بما جرى وتأثيراته لاتكون معروفة فى البداية بشكل متكامل ودقيق، ناهيك عن الحاجة لدراسات مقارنة عن مسار حركة التحرر الوطنى الفلسطينى الراهن فى سياق الخبرات المعاصرة لحركات التحرر العالمية.

مع ذلك كله فإن الحاجة الموضوعية لوقفة مع مسار الانتفاضة تبدو ملحة ليس بغرض التوصل إلى حكم تاريخي عليها، وإنما لأن مثل هذه الوقفة ضرورية لتقديم الدعم للانتفاضة في وجه من يشنون عليها حربا فكرية وسياسية ونفسية تحاول أن تقوضها من أساسها، وتنفي أية إمكانية للحديث عن إضافة إيجابية قدمتها في مسار التحرر الفلسطيني.

أما الأمر الثاني الذي أفضى إلى ترددي في الكتابة ، فهو مخافة التكرار في الأفكار، فلقد تابعت مسار الانتفاضة في العامين السابقين ، واجتهدت في الكتابة عنها من موقف المدافع الذي يحاول الاستناد في دفاعه إلى أسس موضوعية، بغض النظر عن التوجهات القومية والإنسانية التي تضع المرء بالتأكيد في موقف التعاطف معها، وتناولت في هذا الصدد عدداً من الأفكار التي لاشك في أن الحديث عنها مطلوب في السياق الراهن، وعلى الرغم من أن تفادي التكرار ضرورة إلا أن ثمة أفكاراً لايمكن اسقاطها ونحن بصدد الحديث عن الانتفاضة في عامين بحجة أنها قد نوقشت من قبل خاصة وأن تطورات الأحداث تحمل لنا الجديد في كل يوم.

كيف يمكن في إطار القيود السابقة أن يحاول المرء تقديم إطار لتقييم مسار الانتفاضة في عامين؟ قد يكون من المناسب أن نقترح إطاراً رباعي الأبعاد يتضمن تناولاً للبيئة الخارجية للانتفاضة، وصمودها في النضال، ومدى حفاظها على وحدتها الوطنية ، وتأثيرها على الكيان الصهيوني ، وهي أبعاد متداخلة موضوعيا دون شك، وإن كان الفصل بينها ضروريا بغرض الوضوح ، ولن يسمح الحيز المكاني المتاح للأسف سوى بتناول البعد الأول من هذا الإطار أملاً في أن نتمكن من تناول باقي الأبعاد في مناسبة قادمة

السياق العالمي للانتفاضة

تظهر خبرة حركات التحرر الوطني المعاصرة أنها نمت وتطورت في سياق خارجي إقليمي وعالمي إما أنه كان مواتياً إلى حد بعيد، وإما أنه على الأقل ضمن لها الحد الأدنى من الدعم. لم يقاتل الأنصار الخارجيون أبداً معارك الشعوب من أجل تحررها ، لكن دعمهم وفر ظروفا مواتية وأحياناً مثالية لهذه المعارك . تؤكد هذا خبرات التحرر في الجزائر وفيتنام وجنوب اليمن وجنوب افريقيا وغيرها، فلقد اتسمت بنية النظام الدولي حينذاك بقطبية ثنائية ساند أحد ركنيها وهو الاتحاد



السوفيتى حركات التحرر فى العالم بصفة عامة مادياً ومعنويا ، بينما لم يكن الركن الثانى المتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية حريصاً بصفة خاصة على الحفاظ على البنية التقليدية للنظام الاستعمارى العالمى طالما أنه – أى القطب الأمريكى – كان يخطط لتأسيس هيمنته العالمية وتعزيزها .. وهكذا عملت الحركات التحررية السابقة وغيرها فى إطار عالمى يمكن وصفه بصفة عامة بأنه مواتٍ بما ساعد على سرعة إنجاز أهدافها.

بالمقابل نجد أن الحلقة الراهنة من حلقات تطور حركة التحرر الفلسطينى تتم فى إطار ظروف عالمية بالغة الصعوبة والعسر، فقد سقط نظام القطبية الثنائية، وانفردت الولايات المتحدة الأمريكية ولو إلى حين بمقاليد القيادة العالمية ، وفقدت حركات التحرر على هذا النحو أية إمكانية لدعم يأتيها من قمة النظام العالمى إلا أن تكون فى نجاحها مصلحة محققة لقطب هذا النظام والأدهى من ذلك أن حركة التحرر الفلسطينية بصفة خاصة تعمل فى ظل ذلك التحالف العضوى التام بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذى يجعلها تبدو وكأنها لاتواجه الاستعمار الصهيونى وحده، وإنما الهيمنة الأمريكية بأسرها. وهى مهمة تنوء الجبال بحملها خاصة فى ظل أوضاع عربية سنأتى إلى ذكرها لاحقا.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها

ازدادت الأمور سوءاً دون شك بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ . ساد فى البداية ظن أو أمل فى أن الإدارة الأمريكية قد تدرك أن المناخ الذى أفضى إلى تلك الأحداث يتمثل فى عدم العدالة السائد على الساحة العالمية عامة، وفى المنطقة العربية خاصة، ومن ثم فقد تدخل هذه الإدارة قدراً من التغيير أو حتى التعديل على سياستها الخارجية فى اتجاه قدر أكبر من العدالة بما يساعد على إنجاز الأهداف المتواضعة الراهنة للنظام

العربي في شقه الرسمي وكذلك السلطة الفلسطينية القائمة في مواجهة إسرائيل، غير أنه سرعان ما بدأت الإدارة الأمريكية تنزلق - تحت وطأة توجهاتها اليمينية المتطرفة والنفوذ الغلاب للوبي الصهيوني - في اتجاه تأييد الممارسات الاستعمارية العقيمة للحكومة الإسرائيلية في مواجهة الشعب الفلسطيني بل - وهذا هو الأخطر - إعادة تكييف الصراع العربي - الإسرائيلي كصراع ضد الارهاب الفلسطيني ينبغي أن تخوضه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والنظم العربية يدا بيد، وليس كصراع من أجل تحرير أراض فلسطينية تحتلها إسرائيل، وفي ضوء هذا التكييف يمكن بعد تحقيق الأهداف الأمريكية الإسرائيلية - أي بعد النجاح في وأد المقاومة الفلسطينية - أن يعطى الفلسطينيون بعض الفتات، وهكذا مثل خطاب الرئيس الأمريكي جورج بوش في شهر يونيو الماضي بداية مشئومة لمرحلة جديدة في السياسة الأمريكية تجاه الصراع تسقط فيها كل ثوابتها، وإن احتفظ لها ببعض اللافتات التي لامعنى لها، وتحل محلها بعض الوعود الغامضة التي لن تختبر مصداقيتها إلا بعد وأد المقاومة الفلسطينية والقضاء على أي تأييد عربي لها، لكي تذوب بعد ذلك - أي تلك الوعود الغامضة - أو تتكشف حقيقتها في لحظة الوصول إلى السراب.

تخاذل المواقف الدولية

يلفت النظر بعد ذلك أن هذه التحولات الخطيرة في الموقف الأمريكي لم تلق مقاومة دولية رسمية تذكر، أو اذا شئنا الدقة فإن هذه المقاومة لم تكن فاعلة، فقد اكتفى أطراف الاتحاد الأوروبي دوما ببعض الاختلافات الطفيفة مع السياسة الأمريكية، ولعل أبرز نماذج هذه الاختلافات في الآونة الاخيرة قد تمحور حول الاعتراض على القرار الأمريكي بعدم التعامل مع القيادة الفلسطينية الراهنة، وكأن القضية قد اختزلت في شخص فرد، بالإضافة إلى بعض التصريحات الرسمية التي تعجب العرب من حين لآخر، أو تعطيهم على الأقل أملاً في تغيير السياسات الأوربية إلى الافضل.

ولعلي لا أكون مبالغاً إذا أضفت إلى ماسبق أن الاتحاد الأوربي قد لعب بشكل أو بآخر دورا في مزيد من تقويض الشرعية الدولية المؤيدة للحقوق الفلسطينية بالجهود المستمرة لإقناع



الفلسطينيين والعرب بأن يعتدلوا (!) أكثر وأكثر في مطالبهم من المنظومة الدولية حتى يمكن تمرير قرار بشأن هذه المطالب أو تحقيق إجماع أو أغلبية كبرى حولها فتكون النتيجة هي رفض القرار كما يحدث عادة في مجلس الأمن أو حتى رفض تقديم مشروعه أصلا إلى المجلس على الرغم من الاعتدال العربي الذي يسجل كموقف عربي رسمي جديد، أو تحقيق أغلبية معقولة أو حتى كبرى حول قرارها – وهو ما يحدث عادة في الجمعية العامة– ولكن مضمون القرار في هذه الحالة يبدو وكأنه يساوي بين القاتل وضحيته، ويفرغ الصراع من جوهره، والمطالب المشروعة من أسانيدها، كما حدث في القرار الأخير للجمعية العامة للأمم المتحدة في أعقاب مذبحة غزة والذي احتفت به أطراف عربية عديدة دون داع.. والأكثر سوءا من هذا أن ما ذكر عن المواقف الأوربية ينطبق على نحو أسوأ بالنسبة لقوى دولية فاعلة عديدة .

دواع للأمل

على أية حال فإن التحليل السابق للسياق العالمي الذي تعمل فيه حركة التحرر الفلسطيني الراهنة يجب ألا يحجب عنا أمرين بالغي الأهمية أولهما أن الانتفاضة قد تمكنت بأدائها الرفيع طيلة العامين السابقين من أن تكسب أرضية لدى عدد من القوى السياسية أو على الأقل العناصر الفاعلة داخل هذه القوى في دول أوربية وغير أوربية عديدة، وكذلك لدى بعض أجهزة الإعلام الأجنبية التي انتقلت مواقفها من اللامبالاة إلى الاهتمام، ومن الانحياز الأعمى إلى حالة أقرب إلى الحياد وفي بعض الأحيان التفهم للموقف الفلسطيني، وهو تطور إيجابي قد يكون محدوداً، ولكنه مرشح للاستمرار والتنامي إذا حافظ النضال الوطني الفلسطيني على أدائه الرفيع.

أما الأمر الثاني فهو الأكثر أهمية، إذ يتعلق بإمكانية مواصلة النضال التحرري

في ظل ظروف عالمية بالغة التعقيد والمشقة ، والحق أن المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله كانت قد تمكنت في ظل ظروف شديدة الصعوبة من النجاح في تحرير الجنوب اللبناني في مايو ٢٠٠٠ ، أي بعد حوالي عقد على تفكك الاتحاد السوفيتي ، وأكثر من عقد على فقدانه لدوره العالمي في النصف الثاني من ثمانينات القرن العشرين قبل تفككه ، ومن الحقيقي أن الظروف الراهنة تعد أسوأ بكثير مما كانت عليه إبان تصاعد النضال التحرري اللبناني في العقد الأخير من القرن العشرين ، غير أن خبرة حركات التحرر الوطني تشير إلى قدرة هذه الحركات على إبداع الوسائل الخاصة بها لمواجهة الظروف شديد الصعوبة ، وإن صمود الانتفاضة الفلسطنية لعام كامل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، وما أتاحته من إطلاق يد العسكرية الإسرائيلية الهمجية بطشا وتنكيلا بالشعب الفلسطيني ليزودنا بالأمل في أن الانتفاضة سوف تتمكن من اجتياز هذا الاختبار الصعب بنجاح كما اجتازته حركات التحرر الوطني من قبلها.

عن الظهير العربي للانتفاضة

تناولت الفقرات السابقة السياق العالمي الذي ناضلت فيه الانتفاضة الفلسطينية على مدار ما يقارب العامين ، أما السياق الإقليمي العربي فحدث عنه ولاحرج، فثمة فارق هائل بين الظروف التي عملت في إطارها حركتا التحرر الجزائرية واليمنية على سبيل المثال في خمسينات القرن العشرين وستيناته في ظل تصاعد المد القومي العربي الذي قادته ثورة يوليو ١٩٥٢ بمشروعها التحرري وبين الظروف العربية الراهنة . لانقصد بذلك أن نلمح إلى استبعاد النظام العربي الرسمي خيار الحرب ضد إسرائيل دعما للانتفاضة ، فقد سبقت الإشارة إلى أن الشعوب المعنية دون سواها كانت هي التي تحملت عبء النضال ضد المستعمر ، ناهيك عن أن ذلك الاستبعاد له مبرراته الموضوعية التي نوقشت غير مرة في مناسبات سابقة، لكن المقصود أن مستوى الدعم الذي قدمه النظام العربي كان في حده الأدنى ، بل لقد بدا أحياناً وكأن هذا النظام يسلك - ولو دون قصد على نحو يضر



بالانتفاضة بل وقد يقوض أركانها.

فعلى الصعيد الرسمى لم يعمل النظام العربى الرسمى ، أو على الأقل دوله المحيطة بفلسطين كقاعدة دعم نضالية تزود الفلسطينيين بالأسلحة والذخائر ، وتقدم لهم خدمات التدريب والمأوى.. إلخ

كما حدث فى كافة الخبرات المعروفة لمختلف حركات التحرر الوطنى بما فى ذلك حركة التحرر الفلسطينى ذاتها فى مراحل سابقة، ولاشك أن هذا السلوك من قبل النظام العربى الرسمى قد تولد عن حسابات معينة لموازين قوى إقليمية وعالمية غير مواتية ، وحتى لو كان دعم من هذا القبيل قد تم فمن المؤكد أنه جاء على نطاق محدود للغاية على أساس أن من قام به حريص كل الحرص على عدم انكشاف أمره مما يفرض بالضرورة قيودا هائلة على ذلك الدعم المفترض ، وعلى الصعيد الاقتصادى قررت أكثر من قمة عربية منذ انعقاد قمة الأقصى فى أكتوبر ٢٠٠٠ دعماً اقتصاديا لابأس به للانتفاضة الفلسطينية، لكن سداد الدول لأنصبتها فى هذا الدعم والقرارات المتعلقة بكيفية تقديمه عانى دائما من مشكلات حقيقية جعلته بعيدا عن المستوى المطلوب.

غير أن الأخطر من ذلك كله ما بدا من أن النظام العربى الرسمى والمتحدثين باسمه فكريا يتبنون ، فى أكثر من مناسبة من المواقف ما يضر بالانتفاضة بل وقد يساعد فى تقويضها، ومن هذه المواقف على سبيل المثال التشكيك فى جدوى الانتفاضة أصلاً، والترويج لفكرة أنها أجهضت تسوية معقولة كانت فى الطريق (أين هى منذ أكثر من نصف قرن قبل أن يبدأ النضال الفلسطيني؟) أو السقوط فى شرك الحديث عن العنف أو الانتقام المتبادلين ، وضرورة تقديم الطرفين لتنازلات فى مساواة ممقوتة بين القاتل والضحية، وحديث البعض فى منعطفات زمنية شديدة الوعورة بالنسبة للنضال الفلسطينى عن أنه قد آن الأوان للتوقف

عن النضـال لجنى ثمـاره . (أية ثمـار لاندرى؟!) ، أو الإسراع بالتـصدى للعمليات الاستشهادية بدعوى أنها تضر بالنضـال الفلسطينى دون التكرم بتوضيح أن مثل هذه العمليات ليست عرضـا مـرضـيـا خـاصـا بالشـعب الفلسطينى ، وإنما هى إفراز طبيعى لوحشية إسرائيلية بلغت آفاقا لايمكن احتمـالهـا، ولمسالك للتسوية سدت جميعها بما يقطع الأمل ، وأن الطريقة الوحيدة لوقف هذه العمليات لاتكون إلا بالاستجابة للحد الأدنى على الأقل من المطالب المشروعة للنضال الفلسطينى ، أو مواصلة الاتصالات بحكومة مجرمى حرب يعلم الكافة أنها لايمكن أن تكون طرفاً فى أية تسوية مقبولة بحيث لايكون لهذه الاتصـالات من أثر سوى إعطاء شرعية – ولو على نحو غير مباشر – لأفعال الحكومة الإسرائيلية الراهنة.

ومن الأمانة أن نشير إلى أن أطرافا فـاعلة فى النظام العـربى الرسـمى قد حـافظت على حـد أدنى من المواقف السياسية السليمة فى إدارتها للصراع ، وأن النظام العربى غيـر الرسـمى ، أو الشارع العربى وفقا للتعبير الشائع ، قد قـام بدور لابأس به سـواء فى ابداء التعاطف مع الانتفاضة وتأييدها من خلال المظاهرات والمؤتمرات وكـافـة اشكال الحركة الجمـاهيرية ، أو فـيمـا هو أهم بالدعم المادى لها عن طريق حملات جمع التبرعات وحركة المقاطعة الاقتصادية الشعبية الفاعلة للسلع التى ينتجها العدو وحلفاؤه على الرغم من كل الصعاب التى واجهتها هذه الحركة ، وان كان الاعتراف واجبا بأن حركة الشارع العربى قد عانت بدورها من عثرات مفهومة مـازال الأمل موجودا فى إمكانية تجاوزها فى مستقبل قريب

***

فى هذه الظروف يمكن تصنيف صمود الانتفاضة الفلسطينية لسنتين حتى الآن ضـمن نطاق المعجـزات إذا شـئنا التعبير بلغة بلاغية ، أو ضـمن الأفعال التى تكشف عن حركة تحرر صلبة المراس حسنة التنظيم مؤمنة بأهدافها معبرة عن شعبها إذا اخترنا التعبير بلغة الواقع .. وفى هذا الإطار يمكننا أن نتحـدث عن صمود النضال الفلسطينى طيلة عامين من الانتفاضة وتأثير هذا الصمود على الكيان الصهيونى ، وهو موضوع يحتاج تناولا تفصيليا نتمنى ان تتاح له فرصة قريبة قادمة. ■

أفراح أنجال الباشا

بقلم
د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي

تمثل الأفراح لدى المصريين سواء الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة مهمة تبرز فيها الكثير من العادات الموروثة والمستحدثة، فالبحث عن بنت الحلال التي تسعد زوجها، وتريح قلبه، وتحفظه بحسن تدبيرها، وتكون سترا له في الدنيا من الأمور التي تهفو إليها القلوب

وإذا كانت أفراح أنجال الباشوات تتميز بالبذخ الزائد، والتنافس على تقديم الهدايا الثمينة وإنفاق الأموال الكثيرة، فإن أفراح أنجال العامة تتميز بالبساطة ويسودها التقاليد الشعبية التي يطغى عليها ضرب الدفوف والطبل البلدي والمزمار، وزغاريد النساء، ويظهر فيها الجدعان والفتوات من أبناء الحارة وهم يتبارون بالنبابيت ويلعبون بالجريد والسيوف والرماح .

وإذا كانت بنات الباشوات تنقلن إلى بيت الزوجية من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية، ويتم خلالها توسعة الشوارع التي يسير فيها شوار العروس بعد تنظيفها ورشها بالماء، فإن العروس من بنات العامة كانت تحمل في هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير، ويحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حريرية، وأجراس مختلفة في رقابها، وكانت الشوارع التي يمر فيها موكب العروس تضاء بالمشاعل والقناديل الصغيرة التي تسير خلفها الفلاحات في ملابسهن الزرقاء، وهن يصدرن أصواتا تعبر عن فرحهن حتى يتم الوصول إلى منزل العروسين وسط ضجيج وصخب كبيرين.

وإذا كان الذي يحضر حفلات عقد قران أنجال الباشوات أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء، والأعيان بملابسهم الجديدة اللافتة للنظر، وكان



صوره نادرة تجمع بعض انجال الخديو اسماعيل وزوجاتهم مع اثنتين من زوجات الخديو نفسه ، من اليمين : الاميرة ملك زوجة الامير حسين كامل ثم زوجة الامير ابراهيم حلمي وحدى زوجات الخديو اسماعيل والامير حسين كامل ثم زوجة اخرى للخديو خلفها الامير احمد فؤاد وابنة الامير ابراهيم حلمي ثم الامير ابراهيم حلمى



احدى الاميرات امام قصر الجزيرة حيث كانت تقيم والدة الخديو اسماعيل وحيث اقيم الاحتفال بزواج الانجال

تقدم لهم أفخر المأكولات والمشروبات فإن الذى كان يحضر حفلات أنجال العامة هم العمال وأصحاب الجلاليب الزرقا، أمثال المعلم شلبى، والأسطى حنفى، وزعيط الفلاح، وكانوا يجلسون القرفصاء أو على أقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية، ويتعاطى بعضهم الأدخنة والحشيش وهم يستمعون إلى الأمثال العامية وإلى قصص أبو زيد الهلالى وعنترة.

وبينما كان يدعى لإحياء أفراح أنجال الباشوات كبار الموسيقيين الذين تدفع لهم المبالغ الطائلة فإن أنجال العامة كانوا لايدفعون فى غالبيتهم أجرا للموسيقيين أو المهرجين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم، أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة فى تكاليف الفرح.

وبينما كانت الهدايا المقدمة لأنجال الباشاوات تمثل صورة من الحياة الطبقية الصارخة، فإن هدايا أنجال العامة كانت لاتزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والأوز.

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التى يتناولها ضيوف أفراح أنجال الباشاوات فى صحون المحمر والكباب والكفتة والفاكهة وغيرها، فإن ضيوف أفراح أنجال العامة كانوا لايتناولون سوى العدس أو «البيصارة» أو الفول بالإضافة إلى المش والجبن والفجل والمخلل.

وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم فى قصور الباشاوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها، بل يجلسون القرفصا على الأرض، ويستعملون أياديهم وأصابعهم حيث كانت أسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها.

أفراح أنجال الخديوى اسماعيل

وتعد أفراح أنجال الخديوى اسماعيل من الأفراح القليلة التى مازالت أصداء لياليها الباهرة تتردد فى أذهان المصريين نظرا لما عاشته مصر خلال أيامها الأربعين من احتفالات فخمة، وإسراف أسطورى لم تر مثله فى عصرها الحديث، والتى ذكّرت الناس بليالى ألف ليلة وليلة، وباحتفالات قطر الندى ابنة «خمارويه» أمير مصر الطولونية بالخليفة العباسى «المعتضد» فقد تشابهت ليالى أفراح أنجال الباشا مع هذه الأفراح، من حيث البذخ الشديد، وإقامة الزينات الفخمة وإعداد المواكب التى تعزف الجوقات الموسيقية الرائعة.

ففى حفل مهيب عقد الخديوى إسماعيل قران أولاده الثلاثة، وإحدى بناته فى وقت واحد. إذ عقد لولى عهده «محمد توفيق» على الأميرة «أمينه هانم» بنت إلهامى باشا ابن عباس الأول والتى عرفت فيما بعد بأم المحسنين، وللامير «حسين» والذى عرف فيما بعد بالسلطان «حسين كامل» والذى نصبه الإنجليز سلطانا على مصر على الاميرة «عين الحياة هانم» بنت الأمير أحمد رفعت ابن ابراهيم باشا نجل محمد على الكبير.

وللأمير «حسن» ثالث أنجاله على «خديجة هانم» بنت الأمير محمد على وحفيدة محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة، كما زوج الخديوى ابنته الأميرة «فاطمة الزهراء» صاحبة اليد الطولى فى إنشاء الجامعة المصرية للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا ابن محمد على.

وقد بدأت أفراح الأنجال فى ١٥ يناير ١٨٧٣، واستمرت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها، وقد أقيمت هذه الأفراح أمام القصر العالى الذى كانت تقيم فيه والدة الخديوى وفى أرض قشلاق حرس القصر وحديقته والتى أطلق عليها بعد ذلك اسم «المنيرة» نظرا لإضاءتها بالأنوار طوال الأربعين ليلة، كما أصدر الخديوى اسماعيل أمرا بأن يطلق اسم «أفراح الأنجال» على أحد شوارع هذا الحى احتفالا بهذه المناسبة، وكرمز لأعظم فرح ارتدت فيه القاهرة أجمل ما لديها من حلى. كما فاقت مظاهر الإسراف والبذخ الوصف مما جعلها موضع أحاديث الناس فقد أنفق الخديوى على هذه الأفراح وكما ورد فى الوثائق الرسمية مبلغ عشرة ملايين جنيه وسبعمائة وثلاثة وأربعين ألف وخمسمائة وثلاثة وسبعين قرشا وثمانية عشر فضة وهو مبلغ بالغ الضخامة بالنسبة للعصر الذى أنفق فيه، وبالنسبة للميزانية المصرية وقتذاك.

اعتبار أفراح الأنجال مناسبة قومية

جعل الخديوى من حفل زواج أولاده الأربعة مناسبة قومية، فعطلت المدارس، واستقبل الأهالى نبأ هذا القران بغبطة شديدة، وعم الفرح مدينة القاهرة بأكملها،



صورة نادرة لبعض الأمراء من الاسرة الخديوية حول النارجيلة ويظهر فى الوسط الامير حسن كامل بن الامير حسن ابن الخديو اسماعيل الى يساره

كما شارك الآلاف من المصريين من كافة الطبقات سواء من كان بالعاصمة أو من ظل فى إقليمه فى هذه الاحتفالات، وسارع بعضهم بعقد قران أولاده فى هذه الأيام احتفالا بهذه المناسبة الخديوية، وقد تجلى البذخ خلال هذه المناسبة فى أوضح مظاهره، فزينت شوارع العاصمة بالثريات والفوانيس المختلفة الألوان، ووضع فى نهايتها أقواس نصر فى أشكال متعددة، ونصبت السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش لاستقبال المدعوين الذين قدم لهم صنوف الأطعمة على مختلف أنواعها، كما وزع على الأهالى صحون نحاسية مملوءة بالأرز المطهى بخلاصة رؤس الضأن

والعجول الصغيرة والذى أطلق عليه «أرز اسماعيل» وقدم لهم الخدم العصائر والحلوى والقهوة، ونثروا عليهم الماء المعطر برائحة الورد، وإلى جانب ذلك أقيمت سرادقات فى العديد من الميادين، دعى إليها كبار المطربين والمطربات، وأشهر العوالم والراقصات كما نصبت تخوت الآلاتية التى استمرت تصدح وتشنف الآذان بأعذب الألحان وكان منها تخت «عبده أفندى الحامولى» الذى كان يبعث فى الحضور طربا وانتعاشا، كما نصبت المسارح على بوابة قصر عابدين وسور حديقته، وأقيمت المسارح المرتجلة التى جمعت غواة الفن من أنحاء القاهرة والأقاليم لتمثيل المسرحيات المضحكة، فكان البهلوانيون وفرق الحواة والقراقوز وخيال الظل يمددن حبالهم لعرض ألعابهم على الحاضرين، كما كانت الصواريخ تنطلق فى الليل بين تهليل الصبيان وصياحهم، واحتفاء بهذه المناسبة قدم الخديوى دعوة لطلاب المدارس للاشتراك فى تناول الأطعمة والحلوى، وسماع الموسيقى والأغانى، ومشاهدة الصواريخ التى تنطلق من حديقة الأزبكية التى تحولت ساحاتها إلى مولد حقيقى. وخلال ذلك أرسلت الهبات السنية التى وهبها الخديوى لمستحقيها، ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين، كما تنافس الأمراء والذوات والأعيان فى التسابق إلى سرايات الخديوى لتقديم الهدايا الثمينة، وبالغ الخديوى فى منحه الأراضى لأنجاله وأعضاء أسرته والأقارب والأصهار حتى الخدم والحشم ابتهاجا بهذه المناسبة.

وبينما كانت الاحتفالات فى شوارع العاصمة وميادينها قائمة على قدم وساق كانت هناك احتفالات خاصة فى سراى عابدين دعى إليها الأمراء والوزراء والأعيان وشيخ الأزهر، ورجال السلك الدبلوماسى من الشرقيين والأجانب وعقيلاتهم، وفيها أقيمت الولائم الفاخرة والمراقص الساهرة التى شارك فيها الخديوى بنفسه.

ولم يقتصر الأمر على تجمعات الرجال، بل شغلت قصور الحريم تجمعات النساء. وقد شارك فى إحياء هذه الليالى مشاهير المطربين، ففى أماكن تجمع الرجال غنى «عبده الحامولى» و«محمد عثمان» و«المعلم شاكر» أما فى قصر الوالده باشا وغيره من القصور التى تجمع فيها النساء فقد غنت «ألماظ» و«الأسطى ساكنة» و«الوردانية» كما قامت امرأة تسمى «بهلوانة» بالسير فوق الحبل على ارتفاع كبير وهى تحمل معها شاة صغيرة تقوم بذبحها، وإلى جانب ذلك فقد أقيم بالعباسية مهرجان سباق للخيل، ومُدّ فيه على نفقة الخديوى الخاصة مقصف للمدعوين. كما أقيم مرقص فى قصر الجزيرة دُعى إليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف من الأجانب وأعيان البلاد ووجهائها، وأضيئت الطرق من عابدين إلى الجزيرة بفوانيس من الورق الملون.

جهاز العرائس

وقد بلغ شوار العرائس من الفخامة مبلغا تجلت فيه نزعة اسماعيل فى الشغف



الأميرة أمينة الهامي زوجة الخديو توفيق الملقبة بأم المحسنين



الاميرة عين الحياة التي زفت الى السلطان حسين كامل في أفراح الانجال

بالترف والإسراف والبذخ فكان جهاز كل عروس منسقا في ثلاث غرف فسيحة بالقصر العالي للعرض على الأنظار وهو يتكون من أنواع الحلي المختلفة الأشكال، المرصعة بالجواهر والماس، هذا عدا الأواني الذهبية والفضية والمرايا وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجوهر، وفصوص الماس والياقوت.

وكان كل جهاز من الجهازات الأربعة يطاف به في أنحاء المدينة محملا على عربات تحت حراسة الجند الراكب تتقدمها فرقة موسيقية لإرسالها إلى سراي العروس، وكانت الشوارع التي يمر بها تزدحم بجماهير الناس، وكذلك كانت شرفات المنازل والفنادق تغص بالمتفرجين الذين يهللون ويكبرون ويدعون للخديوى وأنجاله بدوام العز والبقاء.

ولقد أفاض مؤرخو عصر إسماعيل أمثال «إلياس الأيوبي»، و«أمين سامي» في الحديث عن شوار العرائس وخط سيره فنذكر صاحب تقويم النيل أن أول من خرج من شوار العرائس كان شوار الأميرة «أمينة هانم» زوجة الأمير «محمد توفيق»، حيث انتقل إلى قصر القبة حيث يقيم العريس فسارت زفة الشوار عبر شوارع القاهرة في موكب عسكري تتقدمه جوقة موسيقية، وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين، وكانت العروس تركب عجله التشريفة الكبرى يجرها ثمانية من الخيول البيضاء، وكانت الهدايا موضوعة في أسبته مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة

المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة جنود فى كل عربة، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية، والسيوف مشهرة فى أيديهم، وكان من بين الهدايا هدية الخديوى إسماعيل لابنه توفيق وهى عبارة عن سرير من الفضة الصب الخالصة شبيه بالذى أهداه إلى الامبراطورة الفرنسية «أوجينى» زوجة نابليون الثالث أثناء إقامتها بمصر وكان محلى بماء الذهب، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر، والزمرد والفيروز.

وقد تبع هذا الموكب مواكب مشابهة تحمل شوار الأميرات «عين الحياة»، و«خديجة»، و«فاطمة»، والهدايا المهداة إليهن، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل تم شراء جهاز الأميرات السابق ذكرهن من خارج البلاد أم من داخل مصر؟

الواقع أن الخديوى اسماعيل كان يفضل الشراء من المتاجر المصرية بدلا من الأجنبية، فعلى الرغم من رسو العطاء على محل «باسكال» الفرنسى، فقد رأى اسماعيل أن يتم الشراء من المحلات المصرية بقوله إذا كانت المحلات والمتاجر المصرية لا تنتفع من أفراح أولادى فمن أفراح من تستفيد؟

وعلى أى حال فقد تبارى الشعراء والكتاب فى تأليف المنظومات والأدوار الغنائية المختلفة، فألف «رفاعة الطهطاوى» رسالة أدبية سماها «الكواكب النيرة فى ليالي أفراح العزيز المقمرة» وصف فيها تلك الأفراح التى لم تعرف مصر قبلها أو بعدها مثيلا، وقد بدأ رفاعة هذه الرسالة بمقدمة مدح فيها الخديوى اسماعيل وأثنى على طريقته فى تزويجه أولاده من بنات أعمامهم، ثم أخذ يثنى على كل أمير وزوجته خاتما ثناءه عليهما بأبيات تؤرخ هذا الزواج، فلكل زوج تهنئة باسمه، ولكل زوجة تهنئة أخرى باسمها كذلك.

كما وضع «اسماعيل صبرى باشا»، و«محمود سامى البارودى»، والشيخ «على الليثى»، والشيخ «عثمان الجندى»، والشيخ «محمد الدرويش»، وضعوا طائفة من أبدع الأغانى، كما تبارى رجال الموسيقى فى وضع المقطوعات الخاصه بهذه المناسبة، وكان فى مقدمة هؤلاء الموسيقيين وقتذاك «محمد ذاكر بك» الذى وضع «مارش أفراح الأنجال»، و«مارش أفراح القبة»، و«مارش الهوانم».

وكان من أشهر المطربين الذين اشتراكوا فى إحياء حفلات هذه الأفراح الشيخ «محمد عبد الرحيم» المشهور باسم المسلوب والشيخ «محمد الشلشمونى»، و«محمد عثمان»، و«أحمد صابر» و«عبده الحامولي»، و«يوسف المنيلاوى»، و«عبد الحى حلمى».

ومن أشهر العازفين «محمد العقاد»، و«محمد ابراهيم»، و«عبد الحميد



الاميرة خديجة زوجة الامير
حسن نجل الخديو اسماعيل

الامير حسن

القضايي».

ومن المطربات «ألماظ» و«الوردانية» و«نزهة».

وهكذا كانت أفراح أنجال الباشا بمثابة بانوراما فنية سهرت فيها القاهرة أربعين ليلة شبيهة بليالي ألف ليلة وليله التي أضحت أمامهم حقيقه لا خيال، خيّل للناس خلالها أن هذه الأفراح هي أفراح الأمة بأسرها، فقد غنّى الناس وزمروا وطبلوا في هذه الافراح الذين اسبهوامهم صخبها وضجيجها دون أن يدرك معظمهم أن ما ينفق فيها من أموال، وما يظهر من بذخ كان نتاج عرقهم وجهدهم، وأن ما حدث من سفه وابتذال بغير حساب هو من أموالهم وأقواتهم وأنه سيكون في النهاية خطرا على مسار الدولة الاقتصادى الذى يمكن أن يساعد على إفلاسها. وحتى لو عرف بعض هؤلاء المصير المنتظر ماذا كان بيدهم أن يفعلوه مع حاكم شرقى لا يُسأل عما يفعل، فقد حدث مثل ذلك من قبل أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ بل وأكثر منه حيث كان الخديوى ينثر أموال الخزانة المصرية ذات اليمين وذات اليسار، ولم يستطع أحد أن يهمس ببنت شفة.

وهكذا كانت حياة الشعب المصرى يكتنفها البؤس والحرمان مقابل النعمة والثراء والترف التي يعيشها هؤلاء الذين جعلوا من حفلات زواج أنجالهم ومراسيمه معرضا للحفلات الأسطورية، ومصدرا للتفاخر والأبهة مما أدى إلى استنزاف أموال الدولة بلا طائل سوى مظاهر خادعه ساعدت على تعرض أبنا ء مصر للفاقة والحرمان. وإذا كان ترف «خمارويه» وتبذيره خلال زواج ابنته «قطر الندى» وتجهيزها ومراسم ارسالها إلى بغداد قد أدى بيبس مال مصر إلى الإفلاس فإن الحفلات التى تمت خلال أفراح أنجال اسماعيل باشا، والأموال التى صرفت من خلالها لاشك أنها أثرت على الخزانة المصرية التى كان مفتاحها فى جيب الباشا الخاص. ومع كل ذلك فإن هذه الأفراح قد بلغت من الشهرة ما جعلها تتناقل على ألسنة الناس جيلا بعد جيل.

حقيقة لقد كان عصرا اسماعيل عصر المتناقضات فقد جمع بين القوة والضعف، والنور والظلمة، والازدهار والانهيار، والهناء والشقاء، والخصب والجدب، والعز والمذلة، والعدالة والظلم، ولكنه في النهاية كان العصر الذى فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام طوفان رأس المال الأجنبى الذى تسبب فى نهاية الأمور إلى سيطرة الأجانب على شئون البلاد.

وانتهى أمر هذه الأفراح، ولم تبق من ذاكرها إلا لافتة صغيرة زرقاء ألصقت على أحد جدران البيوت فى حى المنيرة، وكتبت عليها شارع «أفراح الأنجال». ■


الاميرة فاطمة اسماعيل التي
زفت الى الامير طوسون
الامير طوسون

ذكريات من حياتى

لعبد العظيم أنيس

بقلم
د. جلال أمين

كان لدىّ أكثر من سبب للسرور عندما سمعت بظهور كتاب «ذكريات من حياتى» للدكتور عبدالعظيم أنيس (كتاب الهلال، يونيو ٢٠٠٢). فها هو كتاب من كتب السيرة الذاتية التى تجد فى الكثير منها مزيجا من العام والخاص، الموضوعى والشخصى، يضفى على المشاعر الخاصة مغزى وعمومية، ويكسى الأحداث العامة دما ولحما ويبث فيها الحياة. ينطبق هذا أحيانا حتى على تراجم بعض الأشخاص العاديين، فما بالك إذا كان الشخص مهما، وكان له وجود محسوس ومحمود فى حياتنا الثقافية لمدة تزيد على نصف قرن، مثل الدكتور عبدالعظيم أنيس، رجل دخل السجن عدة مرات لأسباب تتعلق بالمبادىء السياسية، وخرج منه ليحتل مراكز مرموقة فى الجامعة أو فى رئاسة بعض الهيئات الثقافية المهمة فى مصر. كما دخل معارك ثقافية وسياسية كثيرة مع بعض من كبار شخصيات عصره، وعرف كثيرين من عظماء ومشاهير المصريين والعرب عن قرب.. فما أكثر ما لديه ليرويه لنا عن هؤلاء الأشخاص وعن تلك المعارك والأحداث.



ن ولكن لدىّ أسبابا أخرى كذلك للابتهاج بظهور كتاب عن حياة عبدالعظيم أنيس بقلمه. فأنا أعرفه ككاتب منذ مدة طويلة، أى منذ نشر كتابه «فى الثقافة المصرية» فى ١٩٥٥ بالاشتراك مع الأستاذ محمود أمين



العالم. ومنذ ذلك
الحين لا يمكن أن
أجد كتابا أو
مقالا يحمل اسمه
دون أن أقتنيه
وأقرأه.. فهو
واحد من الكتاب
القليلين الذين لا يقولون إلا ما يعنونه
حقيقة، وهو يصف الشيء كما يشعر
به دون إضافة لا لزوم لها. ودون
حذف لا لزوم له أيضا، ثم كان من
حسن حظى أن تعرفت عليه شخصيا
فإذا بى أجده يجمع بين عدة صفات
ترفع كلها من شأن الكاتب وتزيد
كتاباته جاذبية. من بينها أنه «حكاء»
عظيم، أى يجيد رواية ما لديه من
حكايات ، فيعرف كيف يثير اهتمامك
بها ابتداء ويحتفظ بتشوقك إلى
سماعها حتى ينتهى من روايتها.
والأهم من ذلك أنه يعرف ما الذى
يجدر به أن يحكيه وما يجدر به
الامتناع عن الخوض فيه. فليس كل
الحكايات تستحق الرواية، وإنما فقط
الحكايات ذات المغزى.. وحكايات
عبدالعظيم أنيس كلها ذات مغزى.

الصدق في التعبير

ثم قرأت الكتاب فلم يخب ظنى



فيه، بل تأكد لىّ كل
ما قلته حالا. لم
أشعر بالأسف إلا
على شيء واحد،
وهو أنه لسبب أو
آخر، لم يكتب أكثر
من ذلك.. إن غالبية
فصول الكتاب سبق نشرها وكتبت فى
مناسبات مختلفة بقصد روايته حكاية
بعينها، أو التعليق على حدث بعينه،
دون أن يكون فى ذهن الدكتور
عبدالعظيم أن يصبح هذا المقال أو ذاك
جزءا من «سيرة ذاتية» فلما طلب منه
الناشر نشرها مجتمعة وافق على ذلك،
وحسنا فعل. ولكنه لم يشعر بأن الأمر
يستدعى إضافة فصول جديدة عن
مراحل مهمة أخرى من حياته لم يكن
قد كتب عنها. ربما لأنه شعر بأن هناك
أعمالا أهم تستحق منه بذل جهده
فيها، أو موضوعات أكثر إلحاحا
تتطلب إدلاء الرأى بشأنها. ولكن هناك
سببا آخر قد يكون هو الذى صرفه عن
استكمال هذا النقص، وهو ما يعبر عنه
فى مقدمة هذا الكتاب بقوله: «هل
حياتى تستحق أن يصدر عنها كتاب
؟.. فأنا لا أصدر كتابا شاملا عن
حياتى وإنجازاتى بالمعنى الذى يقصده

الأوربيـــــــــــــــون تحت اسم (autobiography).. فـــمن أنا حــتى أطمع فى كــتــاب من هذا النوع؟».

لاشك عندى فى أن د. عبدالعظيم كان صادقا فى التعبير عن شعوره فى هذه الفـقـرة، يمكننى أن أصف هذا التصرف من جانبه «بالتواضع» فهو بالفعل كذلك ، ولكنى بصراحة لا أميل قط إلى الثناء على أى شـخص بالقول بأنه «متواضع» حتى لو كان متواضعا حقا.. ذلك أن التواضع كلمة تشير إلى سلوك الشخص ازاء الآخرين، ولكنها لا تصف ما يشعر به هذا الشـخص فى داخل نفسـه. والشيئان ليسا دائما متطابقين ،فما أكثر من صادفت فى حيـاتى من الأشخاص «المتواضعين» فى سلوكهم إزاء الآخـرين، والمملوئين غـرورا مع ذلك فى داخل أنفسـهم. هؤلاء قـد يمكن وصـفهم بالتـواضع ولكنى لا أتعاطف كثيرا معهم، إذ المهم هو ذلك الشعور الداخلى. وأنا أعرف جيدا أن عـبدالعظيم أنيس، بالإضـافـة إلى تواضـعه مع الآخرين، لا يشـعـر فى داخله بما يتـعـارض مع ذلك. إذن فـالوصف الملائم فى هذه الحالة ليس هو التواضع بالضبط ، وإنما هو أقرب إلى وصف الشـخص بأنه «لا يبالغ فى الاعتقاد فى قدر نفسـه»، أو أنه «لا يبالغ فى أخذ نفسه مأخذ الجد»، وهذه هى الصفة المحببة حقا، وهى محببة فى أى شخص، ولكنها محببة ومطلوبة بوجه خاص فى الكتّاب، وهى قطعا صفة متوفرة فى عبدالعظيم أنيس وإن كانت قد حرمتنا للأسف من الحصول على سيرة ذاتية أكبر حجما من كتاب «ذكريات من حياتى».

ها هو ذا إذن سبب آخر للاحتفاء بكتاب «ذكريات من حياتى»، ولكنى لا أشعر عندما أذكر هذا، بأنى وضعت يدى بعـد على أهم أسـبـاب هذا الاحتفاء.

هل السبب هو «الصدق»؟ طبعا الكتاب صادق مائة بالمائة ولكن إلى أى حد يجوز لنا أن نمتدح كتابا، ولو كان من كتب السيرة الذاتية ، بقولنا إنه «يتحلى بالصدق»؟ إن ما الذى ننتظره من الكاتب بالضبط؟ هل القاعدة العامة فى الكتّاب أن يقولوا لنا كذبا محضا فنفرح كلما عثرنا استثناء على كاتب يلتـزم الصدق؟ أليس الأجدر بنا أن نعكس الأمر ونفـترض الصدق من الكاتب ونتوقعه منه فلانثنى عليه إذا



وجدناه قد التزمه ولكن نلومه إذا حاد عنه؟ أظن أن هذا هو الأجدر والأليق. ومن ثم فإني لن أثني على كتاب عبدالعظيم أنيس بقولي إنه كتاب «يتحلى بالصدق»، رغم أنه يتحلى به بالفعل.. لابد أن هناك سببا آخر أهم.

أسلوب ناجح تماما

هل هذا أسلوب الكتاب؟ أسلوب عبدالعظيم أنيس في هذا الكتاب مثل أسلوبه في كل ما قرأته: أسلوب سهل وواضح وسلس مثلما يجب أن نتوقع، فيما أظن، من أستاذ للرياضيات إذا كتب في شيء آخر غير موضوع تخصصه. الجمل قصيرة، والتكرار منعدم، والاستطراد قليل، والكلمات مألوفة، ولكن الكلمات المطلوبة لأداء المعنى المقصود متوفرة دائما في يد الكاتب لا يجد صعوبة في العثور عليها، فلا يلجأ إلى اللف والدوران للتعبير عما يجول بخاطره. كل هذا صحيح ، ولكن ليس هذا هو الذي يقصده القارئ العربي عادة



عندما يصف أسلوب كاتب معين بأنه أسلوب جميل . إنه قطعا ليس كأسلوب طه حسين، الذي يمكن وصفه دون تردد بأنه أسلوب جميل، بل ولا كأسلوب زكي نجيب محمود مثلا، الذي قد يصفه البعض بذلك. أسلوب عبدالعظيم أنيس أسلوب ناجح تماما لأنه يفي بالغرض ، ونجاحه يأتي من شفافيته، أي أنه كالزجاج النظيف الرائق الذي لا يحجب الرؤية. وما أكثر ما نصادف من كتّاب متخصصين في حجب الرؤية.. إن جمال أسلوب كاتب مثل طه حسين هو كجمال الزخرفة في الرسم، وليس كل الناس مغرمين بالزخرفة ولكنه على أي حال جمال منفصل إلى حد كبير عن موضوعه، أي أن تأثيره في نفس القارئ له مصدر مستقل عن الموضوع الذي يكتب فيه أو عن الأفكار التي يعبر عنها. ليس كذلك أسلوب عبدالعظيم أنيس. مهمة الأسلوب فيما يكتبه هو فقط كمهمة المركبة التي توصل المعنى إلى هدفه، بأسرع طريق وبأقل عناء وكاملا غير منقوص.. هل

يوصف مثل هذا الأسلوب بالجمال؟ ربما. ولكنه بكل تأكيد أسلوب «رائق» وملائم تماما.

ما هو إذن السبب الأساسي للاحتفاء بكتاب عبدالعظيم أنيس؟ لقد شعرت بأني وضعت يدي على هذا السبب الأساسي عندما خطر لي أن من أهم ما يميز الكتاب من أول صفحة إلى آخره هو «نبل المعنى» لكن هذا يحتاج إلى توضيح.

نبل المعنى

الكتاب يتكون ، عدا المقدمة، من ٢٢ فصلا ، تتراوح بين وصف نشأته وأسرته ، وبين ذكرياته عن دوره في الحركة الوطنية منذ أن كان تلميذا في المدرسة الثانوية ثم وهو معيد شاب في كلية العلوم بجامعة الاسكندرية، ثم وهو أستاذ للرياضيات في جامعة لندن، ثم عندما كان يشتغل بالصحافة قبيل اعتقاله في ١٩٥٩. وهناك أيضا أربعة فصول جميلة عن سنوات الاعتقال والرسائل المتبادلة بينه وبين زوجته خلال تلك الفترة القاسية ويوم لقائهما عند خروجه من السجن.. إلخ.. وفي بعض الفصول الأخرى يركز على علاقته بشخصيات شهيرة بعينها، فهناك مثلا فصل عن علاقته بطه حسين، وفصل عن علاقته بإحسان عبدالقدوس، وآخر عن لقائه بجيفارا.. إلخ. فما الذي أقصده «بنبل المعنى» في هذه الفصول كلها؟ الذي أقصده باختصار هو الطابع الإنساني الذي تتركه رواية كل قصة من هذه القصص في نفس القارىء. أن شخصا ما قد يقابل رجلا كطه حسين، على سبيل المثال، ويتبادل معه الحديث ، ثم يأتي ليصف لك هذا اللقاء، فلا تخرج من هذا الوصف إلا بمعنى «صغير» أو «تافه» يتعلق مثلا بأنه هذا الشخص طلب من طه حسين أن يحقق له رجاء فلم يستجب له فوصفه الرجل بأسوأ الأوصاف. (وهو مثال لا أستمده من خيالي بل من بعض السير الذاتية التي قرأتها لكتاب مرموقين).

أما عبدالعظيم أنيس فهو عندما يتكلم عن طه حسين ينقل في صفحات قليلة صورة رائعة لذلك الرجل العظيم: صورة رجل قوي الشخصية، أو جبار كما كان يصفه من يعرفه ، يأمر فيطاع، ولا يستطيع أحد من عظماء البلد أن يرفض له طلبا. ولكن الأهم من ذلك هو انتصاره للحق، وجرأته في الدفاع عنه، واستخدامه تلك القوة التي

حباه الله بها لنجدة المظلوم والدفاع عمن لا يملك وسيلة للدفاع عن حقوقه، ثم استعداد طه



حسين لأن يغفر الاساءات الصغيرة لمن تجرأ عليه من فرط ثقة طه حسين بنفسه، أى استعداده «للعفو عند المقدرة» ، وترفعه عن الرغبة فى الانتقام ممن أخطأ فى حقه. وهو بالإضافة إلى ذلك يتابع انتاج الشباب من الأدباء المصريين ويشجعهم ويحنو عليهم أيا كان موقفهم منه هو أو رأيهم فى أدبه، وكأن المهم ليس ما يصيبه منهم بل ما يمكن أن يعود على البلد من خير من انتاجهم بسبب هذه الصفات نجد عبدالعظيم أنيس يختم هذا الفصل عن طه حسين بالفقرة الآتية:

«ثم جاء النذير بالنبأ التعيس، نبأ وفاته فى اكتوبر عام ١٩٧٣. وأحسست بغم يقتل، وتملكتنى كآبة دامت أياما، وعندما مشيت فى جنازته التى خرجت من جامعة القاهرة لم أكن أحس أن مصر فقدت

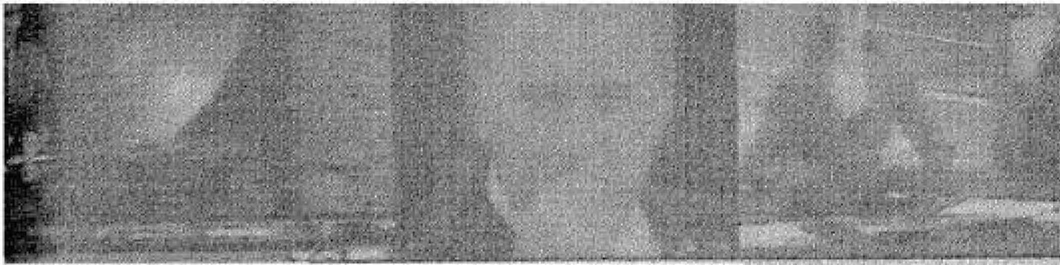


رجلا من كبار رجالها ومفكريها فحسب، وإنما كنت أحس أننى فقدت إنسانا عزيزا على نفسى قريبا من قلبى ، على الرغم من أننى لم أقابله غير مرات معدودة لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة، وعلى الرغم من خلافنا فى الفكر».

مثل هذا الترفع عن الصغائر، والتطرق مباشرة إلى المعنى النبيل، تجده أيضا فى فصول الكتاب عن إحسان عبدالقدوس وعن علي مصطفى مشرفة عن ثروت عكاشة، وفى الفصل الخاص بموقفه من النظام الناصرى وموقف عبدالناصر منه. وكذلك فى الفصل الذى يصف فيه تجربته الشيقة جدا فى الترشيح لمجلس الأمة فى سنة ١٩٥٧، فى أول انتخابات تعقدها حكومة الثورة بعد انتهاء عدوان ١٩٥٦. فى هذا الفصل تجد مثلا ذكرا لبعض كبار المثقفين المصريين، مثل أحمد بهاء الدين ولويس عوض، الذين دفعهم حماسهم لانتخاب عبدالعظيم أنيس (ولتجربة الثورة نفسها) إلى الحضور إلى السرادق الذى أقامه فى

ميدان الوايلي والجلوس معه على المنصة أمام الآلاف من أهل الدائرة ومن خارجها، كما يذكر أيضا أنه لم يسع إلى الحصول على توقيع نجيب محفوظ على بيان المثقفين بتأييد انتخابه، إذ لم تكن ثمة علاقة شخصية بينهما، ومع ذلك يقول: «إنني عندما أزور بعض المنازل فى منطقة (بين الجناين) حيث كان يسكن هو «أى نجيب محفوظ» آنذاك، أفاجأ بمن يخبرني من السكان أن الأستاذ نجيب محفوظ قد زارهم بيتا بيتا مؤكدا عليهم أهمية انتخابي».

على الرغم من سروري الشديد بظهور كتاب عبدالعظيم أنيس وتمتعي بقراءته. فقد ران على قلبي بعض الحزن بعد أن انتهيت منه. إذ لابد أن يؤدي التفكير في هذا الكتاب بعد قراءته إلى التساؤل: «لماذا أصبحنا نفتقد فى حياتنا المعاصرة هذا الشيء الذى يميز هذا الكتاب وسميته «نبل المعنى»؟ ان هذا الافتقاد لا يقتصر على حياتنا الثقافية في مصر، بل إننا نلحظه على مستوى العالم بأسره. تذهب إلى المسرح أو تشاهد فيلما سينمائيا أو تقرأ رواية حديثة أو قصة، أو ترى لوحة من لوحات الرسم الحديث وعملاق أعمال الفنون التشكيلية الأخرى، فتجد طغيانا مدهشا «للتكنيك» على «المعنى»، أى طغيانا لفن الأداء على مضمون الرسالة أو المغزى. بل لقد شاع الاعتقاد بأن هذا المعنى أو المغزى ليس له أهمية كبيرة بل وربما لا ضرورة له أصلا إلى حد أن يضرب الصفح عن المعاني اللاأخلاقية أو الخفيرة، ناهيك عن المعانى الصغيرة، والتافهة إذا رؤى أن العمل ذو قيمة فنية عالية من حيث طريقة الأداء أو «التكنيك» وليس هذا المقال بالطبع هو مجال الخوض فى هذه القضية، أو التساؤل عن أسباب هذا التدهور في أخلاقيات الحياة الثقافية، وما إذا كانت التضحية بالمعنى، من أجل التكنيك أمرا مشروعا أم غير مشروع. ولكنى لا أملك إلا الشعور بأن شيئا ثمينا جدا قد فقد بهذا التنازل عن توفر شرط «نبل المعنى» فى كتاباتنا الأدبية وحياتنا الثقافية بوجه عام. ولهذا فنحن مدينون بشدة لهذا الصنف النادر من الرجال الذى ينتمي إليه عبدالعظيم أنيس، والذى يذكرنا بين الحين والآخر، بأنه ليس من الضرورى أبدا أن تستمر الأمور على هذا النحو. ■





الحيل الدرامية

بقلم
محمد يوسف عدس

يتوقع الناس أن تدور الحملات الانتخابية بين المرشحين لعضوية البرلمان والمناصب السياسية حول المشكلات الهامة والموضوعات الأساسية التى تؤثر على حياتهم ، ولكن لاحظ علماء النفس الاجتماعى والسياسى أن الخطاب السياسى الأمريكى فى العقود الأخيرة من القرن باهتمام الناخبين فشغلتهم عن القضايا الأهم - كما لاحظوا غلبة اللغة الانفعالية على هذا الخطاب وارتفاع شعارات معبأة بالعواطف السلبية..



خضعت هذه الظاهرة لدراسات وأبحاث اتضح منها أن هذه الأساليب الدعائية تختزل فهم الناخبين للقضايا المطروحة وتهبط بقدرتهم على التفكير في المشكلات العامة إلى أدنى مستواها.

ولأن السياسة العامة تنطوى على قضايا ومشكلات معقدة وليست من النوع الذى ينفع فيه التناول السطحى أو التبسيط المخل، فقد وجد الباحثون أن الحملات الانتخابية التى يجيدها الغوغائيون أصبحت تأتى للسلطة بمرشحين يفتقدون الحكمة ولا يصلحون للحكم أو إدارة شئون البلاد.

للإعلامى الأمريكى «بل مويارز» سلسلة تليفزيونية مشهورة بعنوان «الصورة الحقيقية» قدم فى إحدى حلقاتها سيدة خبيرة تدعى «بولا دريلمان» تعمل فى مجال تطوير صناعة الحملات الإعلانية - تحدثت فى اللقاء على طريقتها فى التعرف على احتياجات الجمهور العاطفية لتوظيفها فى صياغة الإعلانات ، لهذا الغرض تنظم لقاءات مع مجموعات من النساء ثم توجه إليهن أسئلة معينة.. وتطلب منهن الإجابة عليها بسرعة وبطريقة عفوية - من هذه الأسئلة مثلا: ما الفكرة التى ترد إلى ذهنك إذا سألتك كيف تقيمين مهارتك فى صنع الطعام.

وما هو الأثر الذى تلاحظينه على الأسرة؟

تقول «بولا دريلمان»: «لاحظت أن إجابات النساء تدور حول عواطف الأطفال والأسرة.. وعن الصورة التى رسمتها كل واحدة منهن لنفسها كأم نموذجية .. وكيف ترتسم الابتسامات السعيدة على وجوه الأطفال عندما يعودون من المدرسة فيجدون الأم تعدلهم مفاجأة سارة فى الفرن الذى تنبعث منه رائحة طعام أشهى».



تأكيد الذات

كذلك اكتشفت «بولا دريلمان» من تحليلها لإجابات النساء أمراً

على جانب كبير من الأهمية وهو أن الأم تجد فرصة متاحة لاسترجاع خبراتها الطفولية الخاصة - من خلال تقمصها لانفعالات أطفالها، ولكن بعد تعديل هذه الخبرات وإعادة صياغتها بشكل أفضل، إذ تستبعد منها العناصر المؤلمة وتستبقى العناصر السارة.

وهكذا نرى أن المجموعات النسائية . موضع الدراسة كن يعبرن - ربما بدون وعى - عن حاجتهن العميقة لتأكيد الذات وللحب الذى افتقدنه فى طفولتهن الخاصة . فماذا استفاد خبراء الاعلانات المتلفزة من هذه الحقيقة النفسية ؟ :

لجأ هؤلاء الخبراء إلى حيلة خبيثة حيث قاموا بإدماج هذه الاحتياجات العاطفية فى نسيج الإعلان عن السلعة، فجعلوا من شراء خلطة معينة لـ «كيكة» رمزا لحب الأم لطفلها ومجلبة لسعادة الطفل وحبه، وبذلك تتحول خلطة الفطيرة وسيلة تؤكد بها الأم لنفسها أنها محبوبة . ومن ثم تقبل على شرائها لا لأنها تتميز بشئ يتصل بقيمتها الغذائية (فقد تكون عديمه القيمة) .. ولكن تشتريها تحت تأثير الإعلان التليفزيونى وإغرائه الواعد بجائزة عاطفية .

بناء على هذا ترى «بولا دريلمان» أن التحدى الذى يواجه خبراء الإعلان هو أسلوب المزج بين المعلومة الإعلانية عن السلعة وبين الصورة العاطفية الأكثر إثارة، وذلك بطريقة مقبولة عند المستهلك، بحيث لا يتنبه إلى الحقيقة الخفية وهى أن الإعلان لا يحمل إليه رسالة واحدة عن المنتج بل رسالتين: تحمل أولاهما بعض معلومات عن السلعة قد تكون مبالغا فيها أو زائفة، وتحمل الثانية الصورة المصاحبة المثيرة للعاطفة وهى الأكثر أهمية فى الإعلان.

يستخدم خبراء الإعلانات السياسية نفس هذه الحيل والأساليب ولكن فى مجال الانتخابات العامة، ولكى ندرك مدى خطورة هذا النوع من الخطاب السياسى الذى يعتمد على الحيل المثيرة بدلا من الحقائق نحتاج إلى استعراض بعض الدراسات الأمريكية التى أجريت فى هذا المجال.

مسرحة الأخبار

فى كتابه «الأخبار: سياسة الوهم» يحلل «لانس بنيت» خصائص الأخبار التليفزيونية مركزاً على الطريقة التى يتم بها «مسرحة» الأخبار أو بمعنى آخر صياغتها صياغة درامية حيث يتم تفكيكها والتلاعب بأجزائها تقديما وتأخيراً .. إضافة وحذفا.. وربط الخبر دائما بشخصية معينة هدفها التأثير على مشاعر

المشاهدين وعواطفهم ودفعهم لاتخاذ مواقف مقصودة.

لاحظ «لانس بنيت» مثلا أثناء حرب الخليج الثانية أن آليات الدراما فى عرض الأخبار كانت تستخدم بأعلى درجة من الاتقان المسرحى:

فهناك مقدمة وموسيقى.. وهناك الحبكة الدرامية والأسلوب والمنطق الداخلى لتتابع الأحداث وتشابكها، كل ذلك كان موضع إثارة بالغة عند المشاهدين، فقد رأينا صورا مذهلة لصواريخ .. باتريوت وهى تنطلق ثم رأيناها تعترض صواريخ إسكود العراقية فتدمرها فى الجو .. ورأينا القذائف الذكية التى تبحث أوتوماتيكيا عن أهدافها فتدق عليها الأبواب بإحكام.. ورأينا لوحات ورسوم تستخدم تشرح المناورات العسكرية، كل هذه الحيل المسرحية كانت تأخذ بألباب المشاهدين.. وفى قلب هذه الدراما تظهر شخصيات الأبطال الخيرين والخصوم الأشرار.. يقول «لانس بنيت»:

«وبالطبع كانت قواتنا فى الجبهة تلعب دور الأبطال بينما صدام حسين يتلبس دور الشرير اللئيم».

المهم أنه فى خضم تدفق الأخبار الدرامية المصنوعة وأثناء إنبهارنا بالحيل وألاعيب التكنولوجيا الأمريكية الأخاذة كانت القنابل الذكية تخترق الجدران الخرسانية وتتفجر داخل الملاجىء المحصنة لتقتل آلاف المدنيين من النساء والأطفال العراقيين.

ولكن هذه الإخبارية ، فإذا أكتشف أمرها بطريقة أو بأخرى كان الإنكار التام هو رد الفعل الأول فإذا ظهرت أدلة قيل فى تبريرها: لابد فى الحروب من بعض الضحايا المدنيين، أو لابد من الأخطاء الطفيفة فى التصويب لا تستحق الذكر، وفى بعض الحالات كان اللوم يوجه إلى الضحية فيقال: إنه خطأ «العدو» الذى يحتفظ بأهدافه العسكرية فى وسط المدنيين. سمعنا هذه المبررات الكاذبة من كبار مجرمى الحرب من أمثال ميلوسفيتش وكاراجيتش وشارون وسمعناها من رامسفيلد.

إثارة عواطف الجماهير

ننتقل إلى نقطة بالغة الأهمية فى سيناريو الأخبار ومسرحتها حتى قبل نشوب الحرب.. والهدف هنا هو إثارة عواطف الجماهير وتعبئتهم بالغضب واكتساب تأييدهم للتدخل العسكرى.

يقول: «لانس بنيت» قبل أن تبدأ معارك الخليج لم يكتف البيت الأبيض بترك أعمال صدام حسين تتحدث عن نفسها وإنما أراد أن يرسخ فى عقول الأمريكيين وغيرهم أن صدام حسين هو هتلر الثانى، وهنا جاء دور الكويت لاستكمال الصورة الدرامية المطلوبة حيث لجأت إلى مؤسسة «هل» ونولتون للعلاقات العام فدفعت لها نيابة عن الحكومة الأمريكية إحدى عشر ونصف مليون دولار لإنتاج برنامج إعلامى يثير الشعب الأمريكى ويحفزه على مزيد من المساندة والدعم للتدخل العسكرى من أجل تحرير الكويت.

ويعد البحث والدراسة وجدت المؤسسة أن صورة هتلر هى أكثر الصور المثيرة للرعب والكراهية ، ومن ثم بدأ رجال البيت الأبيض وأبواق الصحافة يتوسعون فى استخدام المقارنة بين صدام حسين وهتلر فوجدوا تماثلا بينهما حتى الشوارب كانت واحدة!.

وهكذا بين يوم وليلة أصبح صدام حسين بشخص هتلر الجديد الذى يهدد العالم بالدمار الشامل.

وفى هذا السياق الدرامى جاءت الصورة الحية المفعمة بالبراءة متمثلة فى فتاة كويتية اسمها «نيرة»، لتقدم شهادتها أمام لجنة من أعضاء الكونجرس ، فادعت أنها شاهدت أحداثاجرت أمام عينيها عندما اقتحمت القوات العراقية مستشفى كويتيا فنزعت المواليد الرضع من الحضانات الصناعية وألقت بهم على الأرض ليموتوا .. كانت «نيرة».. تحمل معها تقارير عن حالات موثقة لهؤلاء المواليد بلغت ٣١٢ حالة سلمتها إلى اللجنة

هذه الحكاية بتفاصيلها الدرامية وردت فى مقالة لأحد الباحثين اسمه «أ. و. راوز» A.W. Rowse نشرتها له مجلة Lolomlia Jowrmalism Revie-ot فى عدد سبتمبر – أكتوبر سنة ١٩٩٢م.

يقول راوز معلقا: «لقد اتضح فيما بعد أن هذه الصور الدرامية المفزعة التى أحدثت ثورة بين الجماهير الأمريكية ضد العراق لم يكن لها أى أساس من الصحة بل كانت مزيفة، وقد اهتمت مجموعة من الصحفيين الأمريكيين الذين تشككوا فى صحة القصة التى روتها «نيرة» فذهبوا يبحثون عن الحقيقة حتى عرفوا أن هذه القناة التى قدمت التقارير كانت إبنة سفير الكويت فى واشنطن، وأنها اضطرت إلى التراجع عن شهادتها إذ قالت أنها شاهدت رضيعا واحدا

أخرج من حضانته.. وبعد انتهاء الحرب لم يتابع الصحفيون التحقيق فى القصة أكثر مما فعلوا.. ولكن الصورة الدرامية المتأججة للعراقيين قاتلى الأطفال الرضع قد أصبحت شائعة، وبالتأكيد قامت بدورها السحرى المطلوب فى دعم الجماهير الأمريكية للتدخل العسكرى في الخليج.

الإرهاب في المحتوى الدرامي للأخبار

كثير من الأبحاث التى أجريت على المحتوى الدرامى للأخبار المتلفزة، أو بمعنى آخر الصياغة المسرحية للأخبار، أظهرت أن هذه العملية تؤدى إلى تبسيط المشكلات المطروحة وتسطيحها في عقول المشاهدين. تشهد بذلك الدراسة التى قام بها أحد علماء النفس الاجتماعي مع فريق من زملائه هو «مايكل ملبورن».

نشرت بمجلة علم النفس السياسي سنة ١٩٩٢ تحت عنوان: «العرض الدرامى للأخبار وأثره على الإدراك»، ثم عمقها بدراسة أخرى مع فريقه اشتملت على مقابلات مكثفة مع عدد كبير من الناس فى «ماسا شوسيتس»، أتضح منها أن أكثر الموضوعات التى تحظى بإقبال المشاهدين هى الموضوعات الأقل تعقيدا فى تفسير ظاهرة الإرهاب، وأن أبسط تفسير مقبول عند هؤلاء الناس هو أن الإرهاب مجرد إفراز طبيعى لشخصية الإرهاب نفسه.. مثلا: جميع الإرهابيين مجانين..

كذلك وجد الباحثون أن جزءا من المشكلة الإعلامية التى تؤدى إلى هذا الفهم السطحى لظاهرة الإرهاب أن الأخبار المتلفزة لا تقدم عادة أى خلفية تاريخية ولا تتعرض للسياق الواقعي الذى تجرى فيه هذه الأعمال العنيفة بحيث يمكن للمشاهد أن يفهم الأسباب أو البواعث التي دعت إليه فقد يكون هناك ظلم واقع أو يأس من تحقيق العدل المفقود.

إنطلاقا من هذه الحقيقة يمكن القول بأن المشاهدين وهم على هذا الحال في الضلال والسطحية يمكن أن يقبلوا أى تفسير ساذج أو ملفق لمثل هذه الأعمال التى توصف بأنها إرهابية، بل يمكن للمتلاعبين بالعقول أن ينتقلوا التهمة من جهة إلى جهة أخرى دون تقديم أى أدلة على الاتهام وبدون إلتزام بمنطق.

ولعلنا نتذكر أن تهمة إسقاط طائرة لوكربى وجهت فى أول الأمر إلى إيران

وقيل فى تبرير ذلك إنه كان انتقاما لإسقاط الطائرة المدنية الإيرانية بواسطة قوات البحرية الأمريكية فى الخليج.. ثم نقلت التهمة إلى سوريا ثم أتهم الفلسطينيون بالجريمة .. حتى استقرت أخيراً على ليبيا.. وقبل التحقيق والمحاكمات وثبوت التهمة بالأدلة قامت أمريكا بقصف منزل العقيد القذافى وفرض الحصار الاقتصادى على ليبيا.. وتجرى الآن عملية ابتزاز كبرى لإجبار ليبيا على دفع تعويضات تصل إلى عشرة مليارات جنيه استرلينى لأسر الضحايا.

تهمة بن لادن

ويتكرر التسطيح والتلفيق مرة أخرى فى حادثة الهجوم على مركز التجارة الدولى بنيويورك وعلى البنتاجون فى واشنطون يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

فبدون تحقيق ولا أدلة أيضا تم تثبيت التهمة على بن لادن و«القاعدة».. وقد عبر الرئيس بوش الابن عن هذا التسطيح عندما نسب الحادثة إلى كراهية أولئك الأشرار المسلمين للديمقراطية والحضارة وحقدهم على الرفاهية التى يتمتع بها الشعب الأمريكى. وأغفل تماما الظلم الواقع على الشعب العربى فى فلسطين والمساندة الأمريكية المستمرة لإسرائيل فى احتلالها للأراضى الفلسطينية وفى عملياتها الإجرامية المتواصلة ضد الفلسطينيين.

الدراما والميلودراما

فى دراسة مقارنة قام بها الكاتب المسرحى «برتولت بريخت» (سنة ١٩٥٧) بين المسرح الدرامى والمسرح الملحمى.. يحدد ثلاثة خصائص للدراما يرى أنها الأكثر تأثيرا فى انجذاب الجمهور:

أولها: أن الدراما تزود المشاهد بالمشاعر والإثارة.

ثانيها: أنها تتيح للمشاهد الانخراط فى التجربة الدرامية عن طريق المشاركة العاطفية.

ثالثها: أنها تؤكد على الأحاسيس والمشاعر أكثر من تأكيدها على العقل والتفكير.

ويلاحظ «فاجنر باسفيتش» أن التليفزيون الأمريكى لا يتوقف عند حدود الدراما بل يتخطاها ليغرق فيما يسمى بالميلودراما.

وهنا نجد أن المشاعر المستثارة مشاعر سطحية بسيطة ومزيفة، فالشخصيات المسرحية فى الميلودراما أحادية البعد، البطل يمثل الخير المطلق

أما الخصم فنذل يمثل الشر المحض، وإذا كان هذا هو الحال فلا يوجد فى الميلودراما سوى حل واحد هو انتصار البطل والقضاء على النذل الشرير وليس لدى المشاهد سوى اختيار واحد وهو أن يصفق للبطل ويلعن الخصم الشرير.

هذا الانتصار عادة ما يستبعد فكرة الحل الوسط تماما كأن يعود العدو أو الخصم إلى الحق فيندم أو يعلن التوبة أو تحدث له يقظة ضمير، وهذه كلها مشاعر إنسانية وواقعية ولكنها مستبعدة كلية من الميلودراما الأمريكية ، فقدر العدو أنه شرير لا ينفك عن شره أبدا ولا علاج له سوى الإبادة والمحو التام.

حكمة عقلانية

أزعم أن هذا النموذج الميلودرامى فى الثقافة الأمريكية يتضح لنا بجلاء فى السياسة الأمريكية الحالية وفى الحرب التى تشنها الآن ضد ما تسميه الإرهاب، على سبيل المثال يردد الناس عندنا فى مجالس فكاهاتهم الحكمة القائلة: «إذا كان عدوك نملة فلا تنم له» وهى حكمة عقلانية تدعو إلى اليقظة وعدم الاستهانة بالعدو مهما كان صغيراً، أما الأمريكيون فلا يتورعون عن ضرب النملة فى أفغانستان بقنبلة نووية!

من الخصائص المشتركة بين الدراما والميلودراما أنهما يعتمدان على أسطورة ما تبطن الأحداث ويقوم عليها البناء الدرامى.

وقد استخدم الخبراء هذه الآلية فى تقديم الأخبار على نطاق واسع.. ومنطقهم هو أنك لكى تجتذب أكبر جمهور من المشاهدين على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم لابد أن تلجأ إلى اصطناع أسطورة معينة يمكن أن ينتمى إليها أكبر عدد من الناس ويفهمونها.

وقد أشرنا إلى أسطورة «هتلر الثانى» التى استخدمت فى الحرب الأمريكية على العراق.. وحديثا يطلقون أسطورة جديدة يسمونها «مثلث الشر»، والشرير الأكبر بن لادن و«القايدة» أو (شبكة الإرهاب العالمى) التى لا يعرف اليوم أحد إذا كانت على الأرض أو فى كوكب آخر، هذه «القايدة» العجيبة تفرز نوعا من الفيروسات القاتلة تنتقل بقدرة غير مفهومة علميا إلى كل مكان فى الدنيا ، وقد علمنا فى الأخبار الأمريكية أن هذا الفيروس قد أصاب تسعة وسبعين دولة تستوعب كل البلاد المسلمة، وكل جماعات المقاومة الإسلامية فى العالم بصفة خاصة، على رأسها قوى المقاومة الوطنية فى لبنان وفلسطين لأنها موجهة ضد القاعدة الأمريكية الإسرائيلية فى قلب الأمة العربية. ■

التعامل الإسلامى

مع واقع العولمة

بقلم
د. محمد عمارة

إن عظم المخاطر، وشراسة التحديات - التى تواجهنا بها العولمة - لا تعنى أن الصورة قاتمة، ولا أننا أمام طريق مسدود .. ونقطة البداية - فى مخاطر العولمة .. ومواجهتها والتعامل معها - هى أن تعى قوى اليقظة والأصالة الوطنية والقومية والإسلامية - فى عالم الإسلام حقائق الموقف، دونما تهوين ولا تهويل، وأن تحدد نقاط قوتها، والفرص المتاحة أمامها فى مواجهة هذه التحديات .. أى أن تعى حقائق وقوى وتضاريس الموقف الداخلى والخارجى على السواء. فالغرب، الذى تأتى منه أعاصير العولمة ليس كتلة واحدة مصمتة ولا صماء .. وإنما يجب أن نميز فيه بين «الإنسان» الغربى ... و«العلم» الغربى .. و«المشروع» الغربى.. فالإنسان الغربى لامشكلة لنا معه، بل قد يكون هذا الإنسان ضحية «لصناعة الصورة» فى مارد الإعلام المتحيز ضد قضايانا العادلة ومن ثم فهو بالنسبة لقضايانا يمثل إمكانية صداقة ومعاونة.. بل إن هذا الإنسان يفتح عقله وقلبه حتى إسلامنا إذا نحن أحسنا خطابه وعرضنا عليه بضاعتنا بمنطق العقل والعدل والمصلحة.. وفى قضية العولمة قد يكتشف هذا الإنسان الغربى أنه هو نفسه - معنا - ضحية لمخاطر التوحش الرأسمالى الذى تهددنا عولمته !.

وكذلك العلم الغربى.. ليست بيننا وبينه مشكلة.. بل إنه - بالنسبة لنا - هو الحكمة المنشودة، التى هى ضالتنا، والتى يجب أن نسعي اليها أنى وجدناها، فنحن الأحق بها .. فهو سلاح من أمضى أسلحة قوتنا ، التى بدونها لن نستطيع مواجهة ما يتهددنا من مخاطر وتحديات ..

أما مشكلتنا مع العولمة الغربية فهي مع «المشروع الغربى» والأمريكى بالدرجة الأولي، و«قفازه» الصهيونى على أرض فلسطين .. فعلينا أن نميز بين غرب وغرب، وأن نستعين على « المشروع» الغربى- وبالذات جوانبه المعادية - بما فى الغرب من إمكانات وطاقات يمكن الاستفادة منها، والاستعانة بها، أو على الأقل «تحييدها »، ولنتذكر تلك السنة الحميدة لمشروعاتنا النهضوية وحركات تحررنا الوطنى- إبان الاستعمار التقليدى- عندما كانت قوانا الحية والقائدة تتحالف مع قوى العدل والحرية فى الغرب، أو تحسن الاستفادة من التناقضات الغربية.. صنع ذلك محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ - ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وتنظيم «العروة الوثقى» ومصطفى كامل باشا (١٢٩١- ١٣٢٦م هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) وحزبه الوطنى .. وكذلك كل العقلاء عندما يخوضون المواجهات مع التحديات.. ولقد كانت لنا تجربة فى مواجهة عولمة القيم، عندما تحالفنا مع الكنيسة الكاثوليكية ضد سلبيات وثيقة مؤتمر السكان والتنمية سنة ١٩٩٤م... وعندما وجدنا أنفسنا فى خندق واحد مع مئات منظمات المجتمع المدنى الغربية ضد العولمة ومنظمة التجارة العالمية فى مدينة «سياتل» - الأمريكية -- فى نوفمبر ١٩٩٩م تلك المنظمات التى هتفت مظاهراتها: نريد تجارة عادلة، لاجائزة ! فكانت عونا لمندوبى دول الجنوب ومؤتمر «سياتل» وسببا حال بين قوى العولمة وبين تحقيق ما تريد .


محمد على باشا

كذلك على قوى اليقظة والأصالة فى عالم الإسلام، أن تميز فى مكونات ظاهرة العولمة بين التقنيات التى تحول العالم إلى قرية واحدة، والتى هى بالنسبة لنا «فرصة متاحة» للتطور والتقدم والتعلم، إذا نحن أحسنا استخدامها وتوظيفها وحملناها بالمضامين المتسقة مع هويتنا وقيمنا الإسلامية.. علينا أن نميز بين هذه التقنيات وبين العولمة كأيديولوجية تشرع وتبرر وتكرس لهيمنة الغرب والشمال على العالم بأسره وأيضا، أن نميز بين هذه التقنيات وبين المصالح الغربية غير المشروعة، التى تسعى إليها شركات الغرب العابرة للقارات من وراء العولمة.. إن تحول العالم بتقنيات ثورة الاتصال، إلى قرية عالمية، هو حقيقة وواقع .. ولكن أيديولوجية هيمنة العولمة الغربية لاتجعل بيوت هذه القرية وسكانها سواء، لأن ايديولوجية العولمة تريد السيادة «سلتوازن القوى» – وهو مختل خللا فاحشا – بدلا من «توازن المصالح» والثقافات والحضارات، الذى يحقق «العالمية الإنسانية» بدلا من «العولمة الغربية» فنحن نريد «القرية العالمية» التى يسودها هذا التوازن فى المصالح والتفاعل فى الثقافات ونرفض «القرية المعولمة» التى فيها القاتل والمقتول، ومن تنزع سيادته عن أرض وطنه، ومن ينزع هذه السيادة من أصحابها، ومن يحرم من حقه القطرى فى تقرير المصير ومن يقرر مصائر الآخرين، ومن يحمى – بالقوة – طغيان الاحتكارات الراسمالية العالمية على حساب الحمايات الوطنية لاقتصادات الدول النامية .. فموقفنا يجب أن يكون ضد «القرية المعولمة» ومع «القرية العالمية» إننا لسنا ضد التقنيات التى تفتح الحدود وتزيل السدود، ولكننا نريد استخدام هذه التقنيات لفتح الحدود بين دول عالم الإسلام، لا أن يكون الفتح فقط لحدود كل بلد مسلم مع مركز الهيمنة الغربية.. فالتقنيات التى تفتح الحدود – رأسيا – مع الشمال، يمكن ويجب أن تفتح حدودنا – أفقيا – مع دول الجوار الإسلامي، لتحصيل العافية التى تمكننا من تحمل رياح الشمال !..

وكذلك الحال بين عالم الإسلام ودول وحضارات الجنوب فتساند دائرتنا الحضارية مع هذه الحضارات هو جزء من ترتيب الإمكانات لتحقيق شروط التوازن فى هذه المواجهات. كذلك على قوى اليقظة والأصالة – الوطنية والقومية والإسلامية– أن تكشف زيف التغريب الفكرى فى بلادنا ذلك الذى رحبت رموزه بالعولمة ، باعتبارها «واقعا .. وقطارا .. ركوبه قضاء وقدر».. والامتناع عن اللحاق به سيؤدى

بالرافضين والمترددين إلى مصير الهنود الحمر.. هؤلاء الذى زعموا « أن الحداثة الغربية عموما، والعولمة المعاصرة خوصوصا، وما افرزته من ثقافة .. فى طريقها ، إلى أن تصبح ثقافة عالمية أو كونية شاملة بكل ما فى الكلمة من معنى فلا شئ قادر على الوقوف فى طريقها ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئا أما ثقافة العولمة، أحببنا ذلك أو كرهنا، وافقنا أو رفضنا » (١) ..

علينا أن نكشف زيف هذا «المنطق» التغريبي، بالتمييز بين «الواقع» وبين التسليم بهذا الواقع».. فالعولمة كطور جديد فى واقع وعلاقة النظام الغربى وخاصة الأمريكى بالعالم- هى حقيقة لاينكرها إلا واهم ولكن المطلوب هو «التعامل» مع هذا الواقع وليس «التسليم والقبول» بهذا الواقع.



جمال الدين الافغانى

لقد جاء على عالمنا الإسلامى حين من الدهر عمته بلوى الاستعمار الأوربي الحديث .. ومن قبل واقع هذا الاستعمار الحديث، عاش عالمنا الإسلامى واقع الغزوة الصليبية التى دامت - هى الأخرى - قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) .. وإبان ذلك واجهت امتنا واقع الاحتلال العسكرى والنهب الاقتصادى والاستعمار الاستيطانى .. وفى مفردات ذلك الواقع تحولت القدس إلى مدينة لاتينية صليبية والمسجد الأقصى إلى كنيسة.. والأزهر إلى اصطبل لخيل «بونابرت» .. والجزائر إلى قطعة من فرنسا.. الخ . لكن الأمة تعاملت مع هذا «الواقع» حتى غيرته، ولم تقبل بذلك الواقع أو تلحق به أو تندمج فيه فالاعتراف بالواقع شئ والقبول به شئ آخر وتلك حقيقة يجب أن نكشف بها زيف التغريب الفكرى الذى جعل نفرا من مثقفينا أشد حماسا للعولمة الغربية، ولتحرير التجارة العالمية من جماهير غربية تظاهرت - فى «سياتل» و«ديفوس» ١٩٩٩ م. و«بانكوك» سنة ٢٠٠٠م - ضد هذه العولمة واصفة اياها بالإمبريالية الجديدة» !

كما لابد من كشف العمالة الحضارة للذين لم «ينبهروا» بالعولمة فقط، وانما رحبوا بها باعتبارها الاجتياح للقيم والثقافة الإسلامية التي يكرهون !..

كذلك علينا أن نبرز ونثمن ونعظم وعى كثير من حكوماتنا ونظمنا وطبقاتنا الاجتماعية بمخاطر العولمة وسعيها إلى ترتيب البيت الإسلامي فى مواجهة تحدياتها.. وأن نميز بين مواقف «صانع القرار» ويده فى النار - وبين شرائح التغريب الثقافى، المحسوبة أحيانا على صانع القرار!.. ففي الوقت الذى كان نفر من شواذ المثقفين فى مصر يحتفلون مع فرنسا بمرور مائتى عام على غزوها - بقيادة «بونابرت» - لمصر والشرق - أى يحتفلون «بالاحتلال» بدلا من الاستقلال - كانت الحكومة المصرية تتململ، شاكية من العولمة، التى جعلت أوربا ، وفى المقدمة منها فرنسا، ترفع على مصر دعوى إغراق الأسواق الأوربية بالسلع المصرية.. الأمر الذى أفضى إلى خسارة مصر ٤١٪ من تجارتها مع أوربا.. فى حين أن واقع أرقام التجارة كان يقول: إن مصر قد صدرت إلى فرنسا بـ ٤٠ مليون دولار، واستوردت منها بـ ٧ مليارات!! »

ولقد كان خطاب مصر الدولة فى مؤتمر «ديفوس» ١٩٩٨م دعوة لموقف موحد ضد مخاطر العولمة، لا على اقتصادات الجنوب النامية وحدها، وإنما على اقتصادات الدول «المتقدمة»، فى المدى الطويل، ذلك أن إفقار دول الجنوب - وفيها ٨٠٪ من سكان العالم - معناه انعدام القوة الشرائية لسلع ومنتجات هذه الدول «المتقدمة»، وتحول رأس المال الحالى إلى المضاربات، بدلا من الإنتاج، لن تقف كوارثه وزلازله عند الدول النامية وحدها لأن عولمة الاقتصاد ستجعل الكوارث عالمية أيضا!.

ولقد تجلى هذا الوعى بمخاطر العولمة الاقتصادية فى السعى الحثيث - رغم المعوقات الخارجية والداخلية - لترتيب البيت العربى والإسلامى، بالتكامل الاقتصادى، والمناطق الحرة، والسوق المشتركة.. وشهدت السنوات الأخيرة المساعى لإقامة العلاقات والتكامل والتساند بين الدول الثمانى - الإسلامية - والدول الـ ١٥ ... والكومسا - العربية الإفريقية - الخ..

كذلك وعت التجارب التنموية الآسيوية - وخاصة التجربة الماليزية - دور العولمة .. ورأس المال الحالى، «بتياراته الساخنة الهائمة فى البورصات

والمضاربات» في إجهاض هذه التجارب التنموية ، وتخريب ثمرات المعاناة التي بذلتها شعوب تلك البلاد في سبيل التقدم والنهوض والرخاء.

ووعت أفريقيا مخاطر العولمة، فجاء «إعلان الجزائر» الصادر عن قمة منظمة الوحدة الإفريقية - في ١٤ - ٧ - ١٩٩٩م ليحدد المخاطر الخمسة التي تواجه القارة، وعالم الجنوب، فإذا بالعولمة هي الخطر الأول ومعه: تهميش الأمم المتحدة - وهو من آثار العولمة - ونزع السلاح النووي والإرهاب والجريمة المنظمة - وانحسار آفاق التنمية للدول النامية في ظل الاقتصاد العالمي - وهو أيضا من آثار العولمة.

فهذا الوعي بمخاطر العولمة، عند «صانع القرار» وهذه المساعي - غير الكافية حتى الآن، والتي لا تتناسب مع شراسة التحدي -جديرة بأن تكون في وعي وحسابات قوى اليقظة والأصالة - الوطنية والقومية والإسلامية - في بلادنا ، وذلك لدعمها وتعظيمها، والحذر من طغيان التناقضات الثانوية بين قوى اليقظة هذه وبين صناع القرار على التناقضات الرئيسية والعدائية بين الأمة - حكاما ومحكومين - وبين قوى «الهيمنة العولمية».



نابليون

لقد عرفت بلادنا، في مواجهة الاستعمار التقليدي والمباشر، إطار «الجبهة الوطنية» العريضة التي جمعت قوميات الأمة وطبقاتها ومذاهبها وتياراتها الفكرية والاجتماعية ضد الاحتلال الأجنبي.. ومطلوب اليوم: الدعوة إلى جبهة وطنية عريضة لمواجهة الامبريالية الجديدة - العولمة - التي تجتاح عالمنا دون جيوش!.. وكما استفدنا من تقنيات الثورة الصناعية الأوروبية - التي أفرزت ظاهرة الاستعمار - في مواجهة هذا الاستعمار، وفي تغيير واقعه،

علينا – اليوم – الاستفادة من تقنيات عصر العولمة فى «ترتيب البيت الإسلامى» لتحقيق عالمية العالم، بدلا من عولمته.

إن عالم الإسلام، ومعه حضارات الجنوب، يملك من الإمكانات ما يغرى المخلصين والواعين بترتيبها وتعظيمها لا للعزلة بها والانغلاق عليها، فذلك وهم غير ممكن وغير مفيد، وإنما لتعديل موازين القوى الدولية، وتحقيق العالمية الإنسانية، بدلا من العولمة الغربية.. فعالم الجنوب يستورد «المواد المصنعة» من الشمال – وأكثرها متخلفة.. والحديث منها هو الاستهلاكى لا الانتاجى – يستوردها الجنوب بأغلى الأسعار، بينما يصدر للشمال – بأرخص الأسعار – ٤٠٪ من المعادن – و ٣٥٪ من النفط – و ٩٣٪ من القصدير – و ٦٥٪ من الخشب – و ٤٠٪ من القطن.. والعالم الإسلامى وحده يمتلك وطنا مساحته ٣٥ مليونا من الكيلو مترات المربعة.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها نحو ربع البشرية – ١,٣٨٤,٨٠٠,٠٠٠ نسمة – بينما يعيش فى الصين قرابة هذا التعداد على مساحة هى ٩ من مساحة العالم الإسلامى.

وغير الإمكانات الروحية والحضارية والثقافية التى يملكها العالم الإسلامى – وحدة العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة.. ودار الإسلام – فإن هذا العالم هو:

– العالم الأول فى البترول والغاز والمنجنيز والكروم والقصدير والبوكسيت..

وهو العالم الثانى فى النحاس والفوسفات.

وهو العالم الثالث فى الحديد..

والعالم الخامس فى الرصاص.

والسابع فى الفحم.

وإذا كانت أغلب ثروات العالم الإسلامى إنما تستخرج من باطن الأرض – وهى مركوزة فيها – فإن بابا واحدا من أبواب الزكاة، وهو زكاة الركاز – ٢٠٪ من قيمة ما يستخرج من باطن الأرض – يمكن أن يقيم صندوقا لتنمية كل العالم الإسلامى – بالحلال – وفقا لحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «.. وفى الركاز الخمس» – رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو دواد ومالك والإمام أحمد – .. وبعيدا عن الربا الذى فاق فى فحشه ربا الجاهلية

القديمة.. وخارج أغلال المؤسسات الاقتصادية للعولمة الغربية - صندوق النقد الدولي.. والبنك الدولي -.

وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يجعل عالم الإسلام حرا فى مصادر غذائه، ففيه أطول أنهار الدنيا، وأقدم فلاح علم الدنيا فن الزراعة ومئات الملايين من الأفدنة التى يمكن أن تزرع باستثمار الفوائض النقدية الإسلامية، المودعة فى بنوك العولمة الغربية، والتى تتآكل هناك بالمخاطر والمؤامرات!.. وباستطاعة التكامل الاقتصادى أن يفتح حدود عالم الإسلام أمام التجارة البيدنية - التى تقف الآن عند ٨٪ من حجم هذه التجارة بينما ٩٢٪ منها قائم بين كل دولة قطرية وبين الشمال!.. فتقنيات العولمة يمكن وأولى بها أن تعولم عالم الاسلام أولا، فتفتح حدوده للتجارة الإسلامية المتكاملة، وللتكامل الصناعي، وبعد ذلك يكون التعامل مع الشمال ككتلة اقتصادية.. فذلك هو قانون العصر، الذى تطبقه أوربا، كقارة وأمريكا كقارة، ونحن أولى بتطبيقه، لأننا «أمة» ولسنا مجرد مساحة فى الجغرافيا.



مصطفى كامل

ومنظماتنا الإقليمية - العربية - والإسلامية.. والإفريقية - لو نفخت فيها الروح، وتم تفعيلها، يمكن أن تمثل الشكل المعاصر لوحدة أمة الإسلام ودار الإسلام - أى الخلافة الإسلامية الجديدة - التى تزدهر فى إطار جوامعها العامة والمرنة ومصالحها المشتركة الدول القطرية والقومية .. هذا الشكل وهذه الصيغة التى أفرد لها المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م) دراسته النفيسة عن (فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم إسلامية).. والتى سبقه فى الإشارة إليها جمال الدين الأفغانى - فى (العروة الوثقى - قبل مائة وعشرين عاما - عندما قال: «إن الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية

الإسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين.. والدول الإسلامية متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، يجمعها القرآن ، فلم لا تتفق على الذب والإقدام كما اتفقت عليهم سائر الأمم؟.. ولو اتفقت فليس ذلك ببدع منها، فهو من أصول دينها.. لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا، فإن هذا ربما كان عسيرا، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعها القرآن، ووجهة وحدتها الدين، وكل ذى ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه، ألا إن هذا، بعد كونه أساسا لدينها، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات.

* * *

أما الخطوة الأولى على الطريق - الشاق.. والذى هو الطوق الوحيد لنجاة هذه الأمة - فهي الوعي بحقائق الواقع، وما فى هذا الواقع من «فرص» ومن «مخاطر».. واستخدام هذا الوعي فى تجديد الفكر الإسلامي، وفى الإبداع بمختلف ميادين هذا الفكر ليكون لأشواقنا النهضوية «دليل العمل» الذى ينير لطلائع الأمة الطريق .. ولتكون لهذه الأمة الثقافة والآداب والفنون التى تملأ النفس الإسلامية وتغذى الوجدان الإسلامى، وتروح عنهما، حتى لا تملأ العولمة فراغنا الثقافى والروحى بقيم الانحلال وثقافة الحداثة اللادينية.. فإذا لم نملأ فراغنا بثقافة الحلال وفنونها وآدابها، فإن فراغنا هذا سيمتلىء بثقافة الانحلال.

فإذا كانت العولمة تعنى صب العالم فى قالب الحضارة الغربية المهيمنة اقتصادا وسياسة وقيما وثقافة.. فإن العالمية الإسلامية والإنسانية، تريد العالم «منتدى حضارات» تتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام، وتتمايز فى الهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية .. لتتدافع الأمم وتتسابق وتتعارف، بدلا من الصراع والهيمنة والقهر والاستغلال .. ولما كان البدء - عادة.. ودائما - هو للكلمة.. فعسى أن تكون هذه الكلمات قبسا مضيئا على درب أمة الإسلام فى مواجهة ما تواجه من ابتلاءات وتحديات.. وصدق الله العظيم (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم

مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتي يقول الرسول والذين آمنوا معه متي نصر الله ألا إن نصر الله قريب).

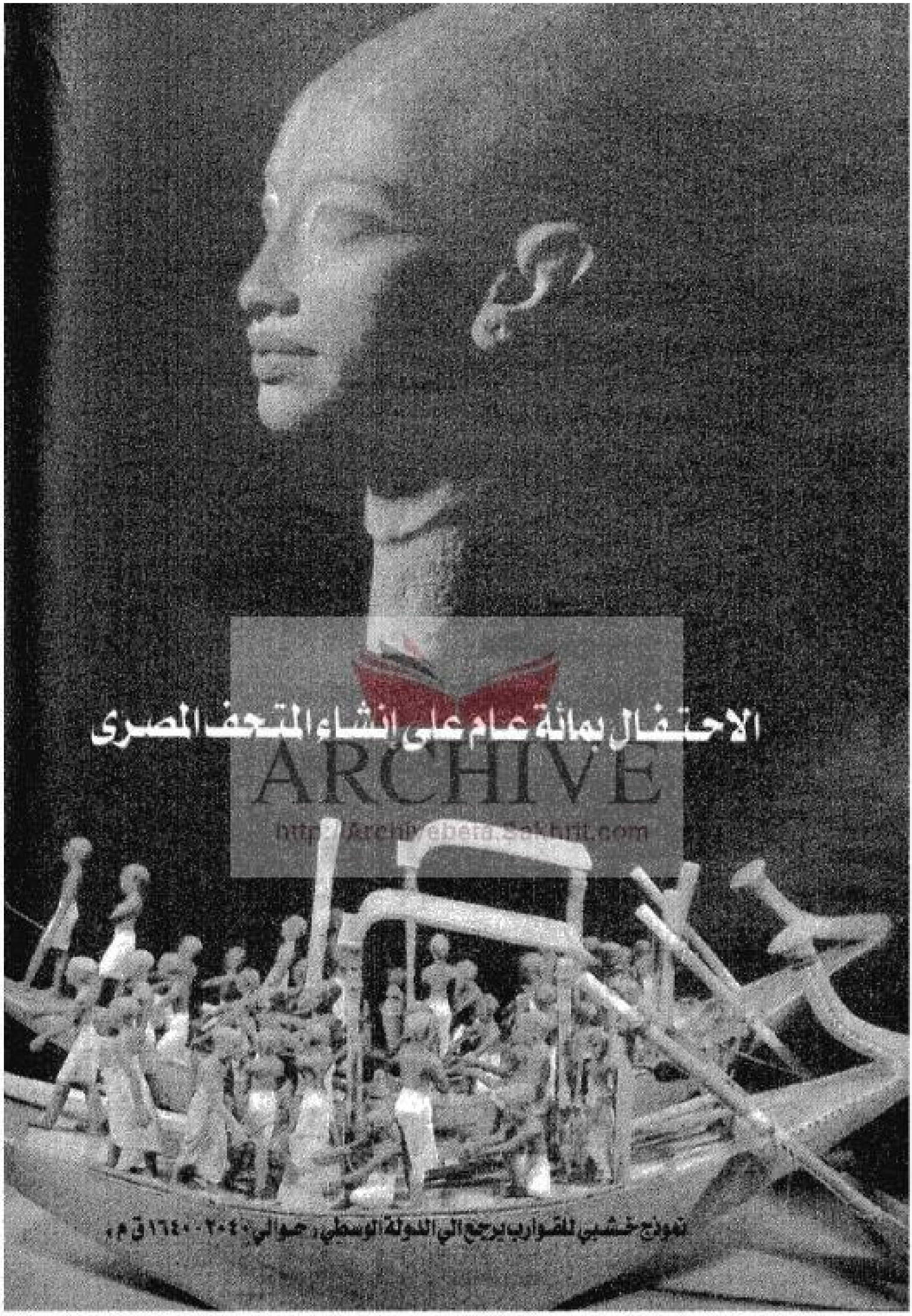
-- البقرة ١١٤ .. (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) – آل عمران : ١٣٨ - ١٤٢ - .. (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما) – النساء : ١٠٤ –..

إن التقدم، وكذلك تداول الأمم للنهوض والتراجع ليس سخطا صاعداً باستمرار ، ولا هابطا دائما وأبداً.. وإنما هناك السنن التي تحكم دورات الصعود والهبوط فيه..

وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عندما قال: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره» - رواه الإمام أحمد ..

وصدق الله العظيم (لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) – يوسف : ٨٧ – ......

والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والتوفيق. ■



نموذج خشبي للقوارب يرجع الي الدولة الوسطى، حوالي ٢٠٤٠-١٦٤٠ ق م،

بداية مرحلة جديدة للاهتمام

بآثار مصر القديمة

أماني عبد الحميد

مبنى المتحف المصرى المطل على قلب العاصمة القاهرة ليس مجرد مبنى بلغ فى العمر مائة عام (اقيم عام ١٩٠٢) لكنه مكان يستمد شموخه من روعة وجمال مقتنياته البالغ عددها ١٦٠ الف قطعة.

فعند دخولك البهو الرئيسى للمبنى تتلبسك روح الخلود التى طالما آمن بها أجدادنا الفراعنة. فكانت ناموس الحياة الخالدة ولا تملك وانت تتجول داخل قاعاته سوى أن يزداد شعورك بالانبهار الشديد بتلك الحضارة التى تبدو فيها الحياة جذابة ومرغوبة برغم قدسية الموت والانشغال الكامل بالمراسم الجنائزية اكثر من اى شىء آخر وامام قناع مومياء خشبى تلاشت كثير من رقائق الذهب التى تغطيها تتهادى كلمات كتاب الموتى المقدس:

يامن تذهب ستعود
يا من تنام سوف تنهض
يا من تمضى سوف تبعث
فالمجد لك
للسماء وشموخها
للأرض وعرضها
للبحار وعمقها

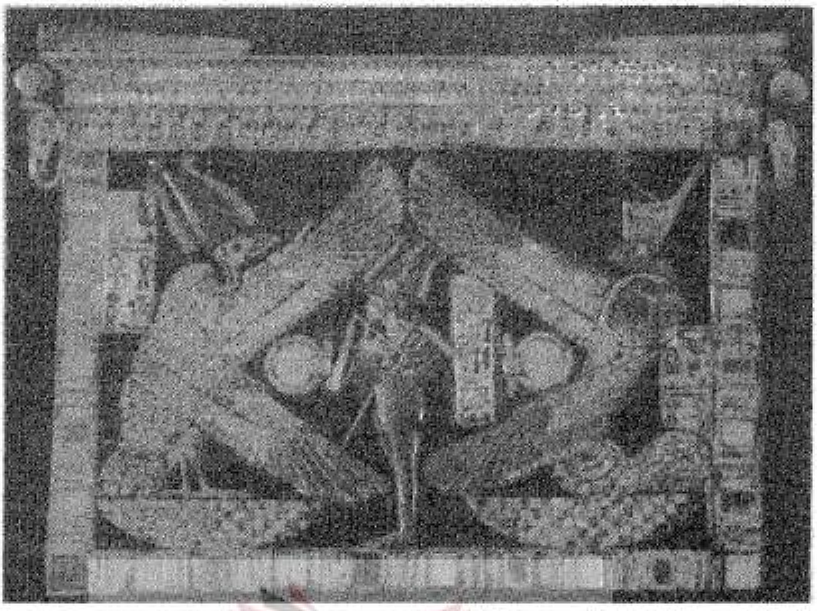
وهى أبيات تدل على شموخ أولئك القدماء المصريين بتصورهم لأنفسهم ولعالمهم. وشموخ فى أفكارهم عن الآلهة والحياة بعد الموت. إنها صورة مجتمع استطاع أن يدرج ما هو مقدس وفائق فى نسيج حياته اليومية. وأن يجمع من مزاج فريد بين ماهو أرضى عابر وبين ما هو باق وخالد.

العشق المقدس

يحكي لنا التاريخ حكايات عديدة لأناس علماء ، رحالة، فنانين، دبلوماسيين كانت الحضارة الفرعونية بالنسبة لهم راية للخلود ورمزا للعشق المقدس. الكل كان يهتم بها بطريقته ، إما عن طريق الاكتشاف أو عن طريق الرسم أو الكتابة أو حتى السرقة والنهب ، لكن فى النهاية يجمعهم ولعهم المفعم بجمال آثارها وعقائدها ولغتها الصامتة.. فخلال رحلته الوحيدة الى مصر والتى استغرقت ١٩ شهرا صاح شامبليون - الذى فك رموز اللغة الهيروغليفية - أمام معبد الكرنك متهللا «لسنا فى أوروبا سوى أقزام، لا يوجد شعب قديم أو حديث تصور الفن المعمارى مثلما فعل المصريون.. إن الإبداع الذى يحلق عاليا فوق أروقتنا فى أوروبا يسقط عاجزا عند أقدام بهو الأعمدة فى الكرنك الذى يضم ١٤٠ عمودا. هكذا كانت مصر من وجهة نظر عشاقها.

لكن هذا العشق وذلك المجهود العلمى كان يشوب بعضه أغراض أخرى تقوم على عمليات سرقة تاريخ. أقدم دولة حضارية عرفتها البشرية فشهدت أرضها خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعمال نهب هائلة ازدانت بها أغلب متاحف العالم، وأصبحت تمثل فيها أقساما كاملة مثل متاحف برلين - اللوفر تورين. المتحف البريطانى وكان حلم إقامة متحف مصرى هو الخطوة الأولى نحو حماية أرضنا من لصوص الآثار والتى لولاه لما كنا رأينا مجموعة الملك توت عنخ أمون. ولا مجموعة المومياوات الملكية وغيرها من الآثار فلم تكن ساحة الآثار المصرية منطقة

● المتحف نواة لعرض آثارنا الفرعونية.. ومازالت هناك مشكلة التكدس داخل قاعات العرض!



حلية صدرية عليها صورة للإله اوزيريس وجدت في مقبرة توت عنخ آمون

محصورة على العلماء الجادين فقط بل كانت مسرحا لقراصنة الآثار خاصة في عدم وجود قانون وقتها يمنع خروج الآثار من مصر. وكان قناصل السلك الدبلوماسي هم أبطال هذا العصر.

ويكفينا ان نسرد حكايات برناردينو دورفيني القنصل الفرنسي في مصر (١٨١٠ - ١٨٢٩) وأشهر جامع تحف في ذلك العصر. والذي حقق أرباحا طائلة من جراء تهريب الاثار. كان عملاؤه ينهبون المواقع الأثرية دون وازع وتمكن في بيع ثلاث مجموعات أثرية ضخمة لكل من الملك شارل العاشر ملك فرنسا، ولملك بدمونت وملك بروسيا مما جعل متحفي «تورين» و«اللوفر» يفتخران بالأقسام المصرية داخلها. وحذا حذوه الرسام هنري سولت قنصل انجلترا في مصر (١٨١٦) الذي باع ثلاث مجموعات ضخمة للمتحف البريطاني ولمتحف اللوفر. ومنها تابوت سيتي الأول المصنوع من المرمر والذي اشتراه احد أثرياء أوروبا بثمن مجموعة كاملة.

ومن تلك النماذج جيوفاني بلزوني

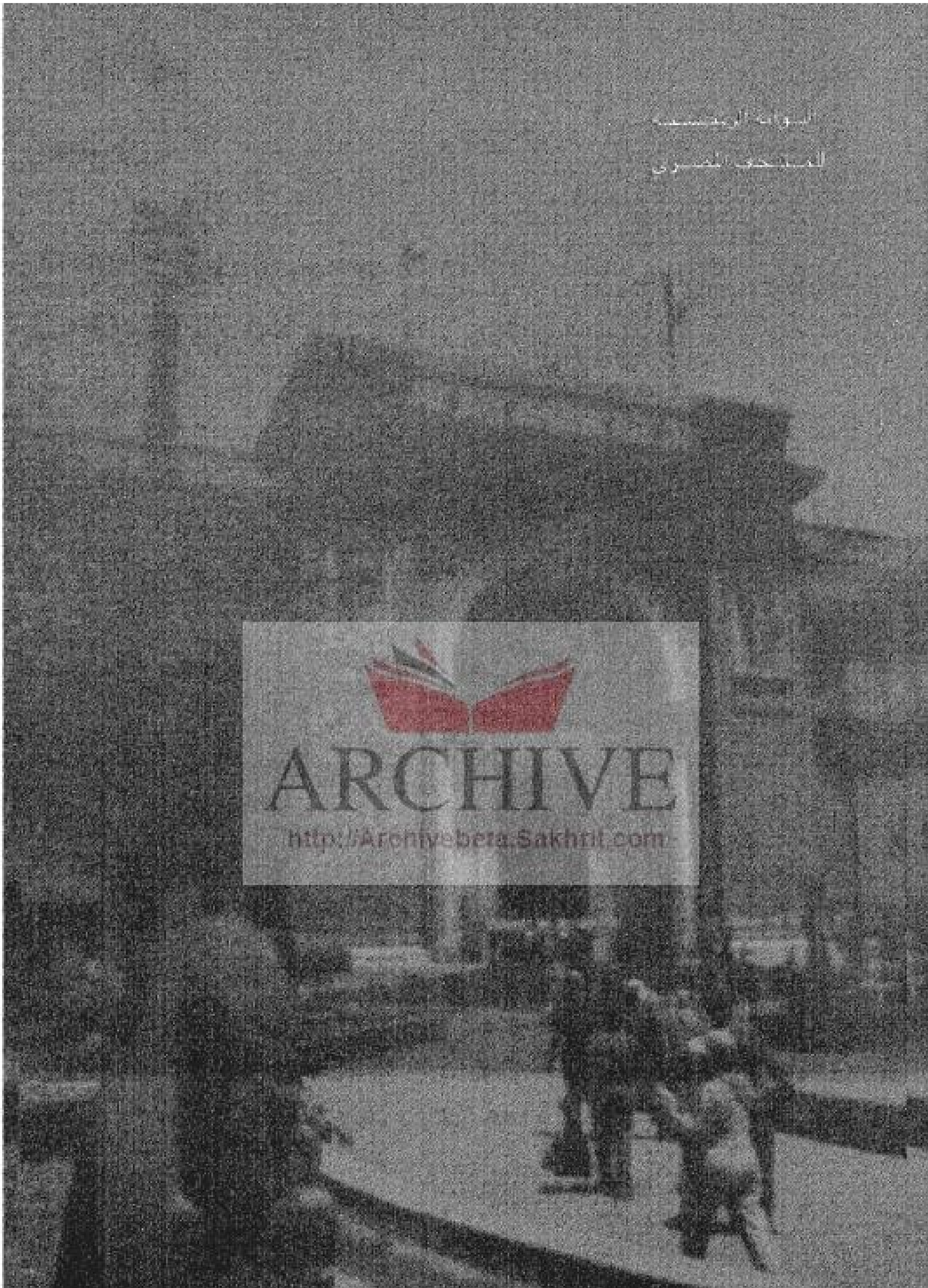
الذى وصف بأنه وحش آدمى وأكبر قرصان للآثار عرفه التاريخ، وترتب على ذلك انتشار ما يطلق عليه «الاجيتومونيا» أو الهوس بالمصريات. وأصبحت أمنية أى متحف عربي أن يحصل وبأى ثمن على رأس تمثال مصرى قديم أو مومياء من أى أسرة. وفى المقابل ازدادت كتابات العديد من الرحالة بداية من هيرودوت وديودور الصقلى وأسترابون وبلوتارك وحتى بريس دافن ومولنى وأميليا إدوارد وروبرتس وغيرهم كثيرين. وتعد مصر بالنسبة للأوربيين مصدرا يغذى الأساطر بصمتها حتى اعتبرها الماسونيون مصدر الحكمة بل أطلقوا عليها إسم بلاد العجائب والغرائب فهى بالنسبة لهم بلاد قديمة قدم التاريخ اليهودى والمسيحى.

ومن الطريف أن الشغف الأوروبى وصل إلى أبعد الحدود. لدرجة أن العطارين فى فرنسا كانوا يبيعون عقارا باسم «المومياء» وهو مسحوق يميل لونه إلى السواد. ويدعون أنه مستخرج من حرق المومياوات وأمنوا بشفائه لأمراض الجهاز التنفسى والهضمى ونزيف الدم بل ولإثارته للشهوة الجنسية، كما كان البحارة يعتقدون أن وجود المومياوات على ظهر السفن يثير العواصف ويعزون ذلك إلى قوة سحرية شريرة. كما يذكر لنا الكاتب الفرنسي. وبيرسوليه فى كتابه «مصر ولع فرنسى».

إعادة الاكتشاف

وهيمنت مصر على كتابات كثيرة مثل كتابات بنوادى مابيه. وكلود سيكار، فرانسوادى فولينى وتضمنت كتبهم معلومات مفصلة عن جغرافية مصر ومعابدها الكبرى. كما اتسمت كتابات كلود اتيين سافارى بالانبهار الشديد. كما جاء فى كتابه «خطابات عن مصر» ولكن فيفان دينون استطاع أن يعرف الأوربيين بمصر عن طريق رسومه. فهو الذى انشأ متحف نابليون أو اللوفر بعد عودته من رحلته خلال حملة نابليون بونابرت على مصر. وكان كتابه «رحلة الى مصر السفلى ومصر العليا» إيذانا ببدء حركة احياء لحضارة مصر القديمة. فرسمه لجميع

• محاولة لكسر نفسى المتحف القطع التى ترصد ملامح تاريخ الفن الفرعونى.



البوابة الرئيسية
للمتحف المصري

المعابد في كتابه الصادر عام ١٨٠٢ عزز موجة الافتتان بجمالها. وعقب صدور كتاب دينون نشرت دراسات المائة والخمسين عالما الذين اصطحبهم نابليون بونابرت خلال حملته وهي عبارة عن تسعة مجلدات من النصوص وأحد عشر اطلسا من الصور فيما بين ١٨٠٩ - ١٨٢٢ وهو ما أسفر عن كتاب «وصف مصر» الشهير.

وفي عام ١٧٩٩ تسبب اكتشاف حجر رشيد في اشتعال نار التنافس بين الأوروبيين بلا هوادة حول فك رموز الكتابة الهيروغليفية حتى تمكن جان فرانسوا شامبليون من فك رموزها في سبتمبر ١٨٢٢ مما أعاد اكتشاف مصر القديمة.

ومن العلماء الجادين «لبسيوس» واضع الاساس العلمي لعلم المصريات والعالم الألماني «برجش» مؤسسة مدرسة «اللسان القديم» أول مدرسة لتدريس الآثار المصرية. وأدولف أرمان الذي أعد قاموسا للغة المصرية القديمة وجاستون ماسبيرو مدير عام مصلحة الآثار ومؤسس المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية.

ومن العلماء أيضا جون ولكجسون مؤسس علم دراسة المصريات بانجلترا. وصاحب كتاب «آداب وعادات المصريين القدماء» والفرنسي اميل بريس دافن الذي اهدى متحف اللوفر «غرفة الملك» المسلوبة في معبد الكرنك وأهدي أيضا فرنسا «بردية بريس» وهي وثيقة مسهبة يرجع تاريخها الى «٢٠٠٠ ق . م» وتعتبر أقدم كتاب في العالم.

وأخيرا جاء لمصر أوجست ماريت الذي استطاع ان يكفل لعلم الآثار مستقبله في مصر. وكان سعيه الأول هو حماية كل الآثار والقطع المصرية القديمة خاصة بعد اكتشافه «للسرابيوم» في سقارة/ وما به من توابيت للعجل أبيس المقدس.

وكان له الفضل في إرساء الأسس اللازمة لمصلحة الآثار المصرية. ومن بعدها المتحف المصري. ولولاه لكان طريق النهب استمر حتى طال مخبأ المومياوات الملكية في الدير البحري

« من الضروري أن يكون للمتحف الكبير دليل على مدى الحرص على عرض الآثار المهملة.

ومقبرة توت عنخ آمون.

رمز الخلود
حلم المائة عام

وعندما تجد نفسك قد دخلت قاعات المتحف تجد أن لديك اسبابا مهمة للتأمل او حتى مجرد التفكير فى كونك أحد أحفاد أولئك العظماء وان زيارة واحدة لا تكفى فهناك شىء ينتعش فى عقلك ويدفعك نحو آفاق بعيدة لتطوف فى أغوار الماضى. وبرغم جمال المبنى فى الداخل والخارج. وعظمة كل قطعة مهما صغر حجمها. الا ان التكدس الرهيب داخل قاعات العرض لا يتيح لك فرصة الاستمتاع بالجمال المتناثر من حولك. خاصة ان المصرى القديم كان يعتقد ان المهابة والفخامة والرحابة هى أهم ملامح الفن الحقيقى فقامة الرجال ترتفع دائما لتطال السماء ليتحقق لها المجد الخالد وهذا التكدس موجود داخل مخازن المبنى حيث ترقد اكثر من ٨٠ الف قطعة لا تجد مكانا لعرضها وإن كان هذا الرقم غير مؤكد كما يوضح لنا مدير المتحف الدكتور ممدوح الدماطى فنحن لا نملك الاحصاء الدقيق لحجم الآثار التى يضمها المتحف سواء المعروض أو المخزون وإن كان عددها يتراوح ما بين ١٤٠ الى ١٦٠ الف قطعة أثرية.

ويوضح لنا أيضا أن الحلم الاكبر يكمن فى أن يتحول المبنى البالغ من العمر مائة عام الى متحف يضم كل القطع التى ترصد ملامح تاريخ الفن الفرعونى. فى حين ترحل المجموعات الأثرية الكبيرة مثل مجموعة توت عنخ آمون الى المتحف الكبير المزمع اقامته عند هضبة الأهرامات.

واذا رجع بنا الزمان إلى عام ١٨٣٥ م، لكى نتعرف على بداية قصة انشاء متحف يضم مجموعة الآثار المصرية، نجد أن البداية كانت داخل مبنى ملحق بحديقة الأزبكية ثم انتقل إلى مبنى متحف بولاق فى عام ١٨٥٨ بدعم من الوالى سعيد باشا . لكن الذى قام بافتتاحه هو الخديو اسماعيل فى عام ١٨٦٣ ونظرا لتعرض المتحف المستمر لفيضان النيل تم نقل المجموعة الأثرية الى ملحق بقصر اسماعيل باشا بالجيزة. ولكن الزيادة المستمرة لمجموعات الآثار دفع الى الاتجاه نحو اختيار موقع جديد يتضمن مساحة كافية. وبالفعل تم وضع حجر الاساس للمتحف المصرى بميدان التحرير فى حضور الامير عباس حلمى الثانى وعالم المصريات

ماسبيرو وذلك فى ابريل عام ١٨٩٧ وفي ١٥ نوفمبر ١٩٠٢ تحقق الحلم بافتتاح مبنى المتحف الذى صممه المهندس المعمارى الفرنسى مارسيل دورنون، على مساحة ١٥ الف متر مربع وبتكلفة تصل الى ٢٣٠ الف جنيه مصرى ليعرض حوالى ٥٠ الف قطعة أثرية.

وينقسم المتحف إلى قسمين قسم فى الدور الأرضى ويضم مقتنيات تم ترتيبها طبقا للتابع الزمنى والتاريخى منذ بداية الأسرة الملكية الأولى.

وحتى الأسرة الملكية الثلاثين «٣٠٠٠ - ٣٤٢ ق. م» ثم العصر الفارسى الثانى حتى عام ٣٣٢ ق . م. بالإضافة إلى بعض مجموعات العصر اليونانى الرومانى. ومن أشهر القطع المعروضة فى الدور الأرضى تمثال للملك «زوسر» صاحب الهرم المدرج بمنطقة سقارة كذلك التمثال الوحيد للملك خوفو صاحب الهرم الأكبر بمنطقة الأهرامات بالجيزة. وهو تمثال لا يتعدى حجمه ٩ سم . أما الدور الأول أو القسم الثانى بالمتحف فهو عبارة عن أشهر المجموعات المكتشفة ومن اهمها حجرة المومياوات الملكية. وهى تضم احدى عشرة مومياء قديمة والتى عثر عليها بخبيئة الدير البحرى بالقرب من معبد الملكة حتشبسوت بالبر الغربى بالأقصر. من عام ١٨٧٥ - ١٨٩١ م ومقبرة الملك امنحوتب الثانى بوادى الملوك بالاقصر عام ١٨٩٨ م. كذلك من أهم المجموعات مجموعة الملك توت عنخ أمون. والتى اكتشفت عام ١٩٢٢ وضمت ما لا يقل عن ٣٥٠٠ قطعة معظمها من الخشب المذهب والمطعم بالاحجار وهى المقبرة الوحيدة التى نجت من أيدى اللصوص علاوة على مجموعة مقبرة يويا وتويا التى عثر عليها عام ١٩٠٥ بوادى الملوك بالاقصر وهى مقبرة لولدى الملكة «تى» زوجة الملك امنحوتب الثالث حوالى ١٣٨٠ ق . م علاوة على مجموعات الحياة اليومية والحلى المصرى القديم وكنوز المقابر الملكية بمنطقة تانيس ومجموعة برتريهات الفيوم. وكانت أول مجموعة تم اكتشافها فى عام ١٨٨٨ .

وها نحن نحتفل بذكرى مرور مائة عام على إنشاء المتحف المصرى تلك الذكرى التى تستحق منا الكثير من التأمل . فهى بداية مرحلة جديدة نبدأ بها مائة عام أخرى نحاول من خلالها بذل مزيد من الرعاية والوعى والاهتمام بتاريخ مصر القديم فاذا نظرنا لها على اعتبارها الخطوة الأولى نحو وقف



مقطع من رسم فى مقبرة الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى

عمليات النهب والسرقة المنظمة لآثار أجدادنا فبالتالى نأمل أن تكون المائة الثانية هى الخطوة التالية نحو وقف نزيف السرقة المستمر حتى وقتنا هذا وان اختلفت مظاهره . ونحلم أن يحقق مشروع انشاء المتحف المصرى الكبير بالقرب من هضبة الاهرامات الحماية الكافية كما وفرها من قبله المتحف المصرى لدى انشائه عام ١٩٠٢.

المجتمع وتكنولوجيا المعلومات



بقلم
د. أحمد محمد صالح

يتوقع تقرير الاتجاهات العالمية ٢٠١٥ الذى وضعته المخابرات المركزية الأمريكية سى آى أى فى موقعها على شبكة الانترنت، أوضاع العالم خلال السنوات الخمس عشرة المقبلة، وصنف التقرير سبعة عوامل أساسية تحرك وتوجه العالم، كان العلم والتكنولوجيا فيها فى المرتبة الثالثة بعد السكان والموارد الطبيعية والبيئية وقبل السياسة وطبيعة الحكم وقبل العولمة والاقتصاد الرقمى الجديد وأعطى التقرير رؤية متشائمة جدا للأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية فى الدول العربية، والشئ اللافت فى هذا التقرير هو الدور المتزايد الذى يؤديه العلم، وخصوصا المعلوماتية والبيولوجيا، فى تحديد وتوجيه التطور العالمى.

ويشبه التقرير ثورة المعلوماتية والاتصالات بالثورة الصناعية الكبرى في منتصف القرن الثامن عشر، التي غيرت مسار التاريخ والبشرية وأن ما تراكم من معرفة عن الثورة المعلوماتية يمثل كما ضخما لكنه أدنى بكثير مما لا نعرفه عنها، ونحتاج دراسة مستمرة لآثارها الاجتماعية والفكرية والثقافية والقانونية والأخلاقية لذلك أصبح من الأهداف الأساسية للتعليم في القرن الجديد هو إكساب وتزويد الأفراد بفهم واضح لأحوال العالم، بصورة خاصة التكنولوجيا العصرية وبدون هذا الفهم لا يمكن تطبيق تلك التكنولوجيات في سياقها الإنساني والبيئي المناسب، حتى تستخدم فقط حين تكون نافعة وغير ضارة للإنسان والبيئة فضلا عن ذلك فإن نقص الفهم الواضح لمبادئ الأساسية التي تنظم آلية تطبيق تلك التكنولوجيات غالبا ما يؤدي إلى شلل عقلي وهو النقص في حب الاستطلاع والبحث والتدقيق في مدى مناسبة تلك التكنولوجيات للإنسان الذي يفترض فيه البحث عن المعرفة الواعية التي تؤدي إلى الفهم الصحيح، وهذا النقص يقلل الشروط الإنسانية لتكنولوجيا. فكم عدد الناس الذين يعرفون مبادئ عمل محركات الاحتراق في الطائرات؟! أو الآلية التي تعمل بها محطات إرسال المحمول المنتشرة فوق الأسطح لكي نحدد مدى نفعها أو ضررها للإنسان والبيئة؟! لقد أصبحت التكنولوجيا صغيرة جدا ورقيقة جدا ومخفية جدا عن العين وبقية حواس الإنسان وهي في الغالب تختفي في دوائر اليكترونية مدمجة صغيرة جدا في الحجم، وهو ما يعرف باسم النانو تكنولوجي وهي فرع هندسي يتصل بتصميم الدوائر الإلكترونية المتناهية الصغر! ونتيجة الشلل العقلي أصبحنا نستعمل تلك التكنولوجيات ونحن نتجنب استفهاما أساسيا، هو السؤال: كيف تعمل هذه التكنولوجيا؟.

لذلك تحاول دائما بحوث اجتماعيات المعلومات (SI) Social Informat-ics استكشاف تصميم واستعمالات وتطبيقات تكنولوجيات المعلومات والاتصالات (ICTs)، في تفاعلها مع السياقات الثقافية والمؤسساتية. فهناك مهنيون كثيرون ومديرون وصناع سياسات لا يتفهمون بعمق أسباب وحوافز وتسهيلات وعقبات التطبيق الفعلي الموثوق لتكنولوجيات المعلومات في مقار العمل أو في المجتمع الواسع وخلال السبعينات



والثمانينات ركزت بحوث اجتماعات المعلومات على المنظمات والمؤسسات لأنها كانت المواقع الرئيسية التي تطبق فيها الحوسبة وفي السنوات القليلة الماضية فقط انتشرت تطبيقات تكنولوجيات المعلومات ولم تقتصر على الاخصائيين التقنيين وانضم ناس كثيرون آخرون فهموا نظم الكمبيوتر والإنترنت للاستعمال المنزلي، وأصبح العمل يتم في البيت والاتصال يجري من البيت حتى الترفية والمعلومات الطبية والاستعمالات الشخصية الأخرى تتم كلها من خلال البيت.

تأثير تكنولوجيات المعلومات على المجتمع

وهذه الظواهر المهمة تحتاج دراسة أبعادها الاجتماعية والنفسية وكانت أسئلة البحوث التي تدور حول تأثير الحوسبة تصاغ بطريقة حتمية الأثر الناتج مثل: ماذا سوف يكون أثر الكمبيوترات على السلوك التنظيمي إذا نحن عملنا كذا؟! ما هي التغييرات في الحياة الاجتماعية التي ستحدث إذا نحن عملنا كذا؟، هل سوف تحسن نظم الكمبيوتر على سبيل المثال، جودة ونوعية العمل؟ هناك العديد من الدراسات التي حاولت أن تجيب عن تلك الأسئلة وكانت الأسئلة تطرح في الدراسات بشكل مباشر وبسيط مثل: ماذا سوف يحدث؟ س أو ص؟ والإجابة: أحيانا س، وأحيانا أخرى ص، لكن لم تكن هناك أبدا نتيجة تبين أثر الحوسبة بشكل مباشر وواضح ، وكثير من خصائص التغييرات اعتمدت على القدرة النسبية للعمالة على سبيل المثال: تبين بعد إدخال الحوسبة أن الكتبة والبائعين ومساعدي المحاسبين المؤقتين غير الدائمين أقل جودة في المتوسط، من المهنيين المحترفين لكن أحيانا كانت السكرتارية التي تنتمي إلى الطبقات العليا، قادرة على إحداث تحسينات فاعلة في أعمالها بالمقارنة ببقية الناس خاصة النساء اللاتي كن يعملن ويعالجن الصفقات في الحجرات الخلفية للبنوك وشركات التأمين فقد لعبت القدرات المهنية دورا مهما في تسوية وتشكيل الطريقة تلك تؤثر بها الحوسبة في إعادة تشكيل مقار العمل وحاولت البحوث أيضا أن تبين إلى أي مدى كانت مركزية الإدارة في المنظمات والمؤسسات بعد إدخال الحوسبة؟ وكانت هناك نقاشات ومجادلات رئيسية تقول: إن نظم الكمبيوتر سوف تمكن مديري الإدارة العليا أن يحصلوا على معلومات مفصلة وكثيرة عن العمليات التي تجري في مقار العمل البعيدة عنهم،

مثل مواقع العمل الأمامية وحجرات التحرير، والفصول الدراسية وبذلك تصبح المنظمات أكثر مركزية وقالت دراسات أخرى أن الحوسبة ستجعل المنظمات والمؤسسات أكثر توزعا وعدم مركزية! حسنا ناس كثيرون يريدون أن يعرفوا: هل إدخال نظم الكمبيوتر فى أى مؤسسة أو منظمة يجعل هناك مركزية فى الإدارة أو عدم مركزية؟ وكما ذكرنا وجدت بعض الدراسات أن استعمال تكنولوجيا المعلومات أدى إلى المركزية فى بعض المنظمات ودراسات أخرى وجدت أن استعمال تكنولوجيا المعلومات أدى إلى عدم المركزية! وكانت أسئلة تلك الدراسات قائمة كلها على القاعدة البسيطة فى حتمية الأثر التكنولوجى؟ وكان إخفاق المذهب التحليلى لحتمية الأثر التكنولوجى هو أحد المكتشفات القوية والمثيرة من بحوث اجتماعيات المعلوماتية.

واليوم أيضا بعض المحللين ونقاد كثيرون يصيغون مزاعم كثيرة حول حتمية أثر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى الحياة الاجتماعية مثل تلك المزاعم التى تقول إن شبكة الويب تعنى أن الجمهور سوف يصبح فى متناول يده معلومات كما ونوعا أفضل كثيرا من أى وقت فيما مضى! وكاتب هذا المقال كان من ضمن الذين كانوا يؤيدون تلك المزاعم لكن دراسات اجتماعيات المعلوماتية نجحت فى التشكيك بصحتها وصحة حتمية الأثر التكنولوجى ونتساءل: كيف تمكن شبكة الويب الجمهور أن يحدد المعلومات الأفضل؟ وتحت أى شروط؟ فمن؟ ولماذا؟ يضع ثقة أكثر فى ذلك الموقع أو غيره ومن الذى يضمن لنا ولماذا أن نثق فى تلك المعلومات ونفقد الثقة فى غيرها؟! سواء معلومات عن الصحة طب الأعشاب أو الجراحة عن بعد؟ أو فى أى مجال من مجلات الحياة، اقتصاد سياسة ثقافة إلخ، وهذه الأسئلة لا توصل إلى فهم مهنى عميق لتأثير تكنولوجيات المعلومات والاتصالات فى الحياة الاجتماعية بقدر ما هى نوع من الاستفسار السياقى يترجم إطار التحليل لباحثى اجتماعيات المعلوماتية لتحليل وفهم أثر تكنولوجيات المعلومات فى الحياة الاجتماعية وناقشت بعض الدراسات طريقة إيضاح تأثير تكنولوجيا المعلومات فى نسق الحياة الاجتماعية من خلال دراسة حالة بعض الشركات الاستشارية التى تبنت نظم كمبيوتر وثائقية ففى دراسة حالة لإحدى كبيرات الشركات الإستشارية Price Waterhouse التى اشترت عشرة آلاف نسخة من النظام الوثائقى الشهير



اللوتس Lotus Notes كنظام مساند وثائقى لموظفيهم فى ١٩٨٩ وهو نظام شبيه بسطح الإنترنت حيث لوحات إعلانات ومجموعات المناقشة والبريد الإليكترونى فهو يمكن أن يعمل كنظام بريد إلكترونى كامل، ونظام مناقشة ونظام نشر إلكترونى ونظام مكتبات رقمية وهذه الشركة وظيفتها الاستشارات الدولية، فيها عشرات الآلاف من الموظفين فى كل أنحاء العالم وحوالى ١٠,٠٠٠ منهم يقيمون فى الولايات المتحدة وكانت أهم نتيجة لوحظت بعد إدخال البرنامج أن موظفى الشركة فى جميع فروعها فى العالم لوحظ أنهم يتقاسمون ويتشاركون فى المعلومات بعدوانية شديدة جدا لافتة للنظر، لم تكن منتشرة بينهم قبل إدخال هذا البرنامج!

والسياق الاجتماعى يشير إلى مصفوفة معينة للعلاقات الاجتماعية ونقصد به هنا هو تلك الأنظمة المحفزة والدافعة لاستعمال وتنظيم وتقاسم المعلومات وكيفية توظيفها فى العمل. فالحوسبة منظومة مترابطة من نظم الكمبيوتر والشبكات والقرارات حول التكنولوجيا وتنظيم العمل. ومن سوء الحظ أن الكلام والتفكير فى الحوسبة على أنها مجرد تركيب واستعمال تكنولوجيات جديدة أكثر انتشارا من النظرة المتكاملة للحوسبة بأنها تركيبة اجتماعية وتكنولوجية، فمن الشائع للمديرين والتكنولوجيين أن يناقشوا بعض النتائج الاجتماعية للتكنولوجيات الجديدة مثل رعاية المشروعات وتدريب الناس لاستعمال النظم الجديدة والتحكم فى مداخل المعلومات لكن هذه المناقشات عادة تعالج معظم السلوك الاجتماعى كحالة منفصلة عن التكنولوجيات بينما اجتماعيات المعلوماتية تقترح رؤية انتقادية سوسيولوجية وتقنية متكاملة socio technical.

تأثير المجتمع على استعمال تكنولوجيات المعلومات

وإذا كانت بحوث اجتماعيات المعلوماتية قد شككت فى الأثر الحتمى لتطبيق تكنولوجيات المعلومات على المجتمع فهى أكدت فى نفس الوقت على أن المجتمع بنظمه السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية يؤثر تماما على الطريقة التى يستعمل ويوظف بها المجتمع تلك التكنولوجيا والفكرة الأساسية فى

بحوث اجتماعيات المعلوماتية هي أن السياق الاجتماعي لنمو تكنولوجيا المعلومات واستعمالها يلعب دورا مهماً في التأثير على الطريقة التي يستعمل بها الناس المعلومات والتكنولوجيات وهكذا تتأثر نتائج أعمالهم ومنظماتهم والعلاقات الاجتماعية الأخرى ونقدم أمثلة في كيفية تأثير السياق الاجتماعي على الطريقة التي يستعمل بها الناس تكنولوجيات المعلومات. المثل الأول من مصر فقد فوجئت بإعلان فاخر جدا وبالألوان في أشهر مجلات الكمبيوتر العربية يتكلم عن العالم الخفي. وماذا تعرف عن الجن؟! كيف يأكلون؟ ويشربون وأين يسكنون؟ وكيف يتشكلون ويتصورون؟ هل الجن تسكن بيوت الأنس؟ وكيف يمكن طردهم منها؟ كيف تعالج المس وتخرج الجن من الشخص المسوس؟ كيف تعالج الشخص المسحور بالقرآن الكريم؟ كيف تتحدى الساحر وتبطل سحره؟ كيف تعالج الشخص المحسود والمسوس، وكيف تعالج نفسك من حسد الحاسدين وسحر الساحرين؟ كل ذلك تجده في برنامج كمبيوتر تنتجه شركة عربية لها عنوان في القاهرة منشور في المجلة والحقيقة أن هذه الشركة جمعت الكتب الصفراء التي تباع على الأرصفة وتتكلم عن الجن والشعوذة وحولتها إلى صورة إليكترونية في شكل إسطوانة CD، في الوقت الذي تعتبر إسرائيل الدولة رقم واحد في الشرق الأوسط في إنتاج تكنولوجيات المعلومات من برامج وأجهزة جادة ومفيدة والهند تصدر كل عام برامج كمبيوتر بعدة مليارات من الدولارات، بل وانتجت أخيرا برامج كمبيوتر يستطيع الشخص الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة التعامل من خلالها مع الكمبيوتر! والمثل الثاني من السعودية فقد أذاعت أسوشيتد برس في ٢٠٠١/٤/٢٩ على لسان مسئول سعودي أن المملكة العربية السعودية ستستخدم تقنية متقدمة لحجب نحو ٢٠٠ ألف موقع على الإنترنت، مضاعفة بذلك عدد المواقع الممنوعة من قبل السلطات السعودية وقال المشرف على الإنترنت بمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتكنولوجيا إنهم يقومون بحجب المواقع الممنوعة بشكل يومي مضيفا أن تقنية جديدة سيبدأ العمل بها قريبا وأكد المشرف أن مزيدا من المواقع سيتم حجبها تدريجيا خلال هذا العام بعد استخدام التقنية الجديدة، بيد أنه لم يذكر مواصفات تلك التقنية أو المواقع المستهدفة بها وتقول الأنباء إن



معظم مواقع الإنترنت المحظورة في السعودية التي سمحت بدخول هذه التقنية عام ١٩٩٩ تحتوى على انتقادات للنظام السعودى أو الأنظمة الخليجية المجاورة أو مواقع ذات محتوى إباحي وتستخدم السعودية أحدث الأنظمة في مجال حجب مواقع الإنترنت لكنها مع ذلك لم تستطع منع نحو ٤٤٪ من مستخدمي الشبكة من دخول المواقع المحظورة.

والمثل الثالث جامع وشامل ويعكس الكيفية التي يؤثر بها نظام المجتمع في الطريقة التي يوظف بها تكنولوجيات المعلومات فقد انتشرت في الويب مواقع كثيرة تتحدث عن الإسلام، وحينما شرعت في الكتابة عنها، تراقصت أمام عيني كل المحرمات الثقافية التي تسجن عقولنا، واعترف لكم أنني لا أملك المقومات المعرفية، التي تمكني من نقد تلك المحرمات الثقافية واعترف أيضا أنني لا أستطيع تحمل تبعاتها في مجتمع يكفر كل من يختلف معه في الرأي، فأنا لا أملك جرأة وشجاعة اقتحام المحرمات الثقافية، ومناقشتها، ونقدها، ولا أملك العقل الناقد لعلي عبدالرازق وطه حسين ولطفي السيد وسلامة موسى وشبلي شميل، وفرح انطوان ولويس عوض وزكى نجيب محمود ونجيب محفوظ ونصر أبو زيد وغيرهم ممن من ملكوا القدرة المعرفية وشجاعة النقد، حتى وصل الأمر بتكفيرهم ومحاولة قتلهم لذلك حاولت الحرص والحياد في كتابة هذا الجزء من المقال، وكنت أقرب إلى الرصد، وأبعد من النقد، وعلى القارئ أن يستنتج المعاني التي لم أقصدها!

فإذا دخلت الإنترنت وبحثت عن الإسلام تجد آلاف المواقع غالبيتها بالانجليزية وبقيتها بالعربية والفرنسية والألمانية والعبرية والفارسية والتركية والاردية بكل لغات العالم وأن كل من هب ودب عمل موقع وأعطاه الصفة الإسلامية، وأخذ يبث أفكاره، بصرف النظر عن صحتها من عدمها، وكل موقع نصب نفسه راعي حمى الدعوة الإسلامية واكتشفت أنه يستحيل الكلام عن العالم الإسلامي في الإنترنت باعتباره كتلة واحدة أو رؤية إسلامية موحدة فالمواقع الإسلامية التي تعكس فلسفة الشيعة، مختلفة عن تلك التي تعكس فلسفة السنة وتختلف أيضا تلك المواقع حسب الجهة التي تصدر منها، من المنطقة العربية أو أمريكا أو أوربا وهكذا، بل أن المواقع الإسلامية السلفية يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الدولة

التى ترعاه فهذا يعكس الإسلام السعودى بفتاويه المعروفة، وذاك يعكس فلسفة شيوخ قطر وآخر يمثل المواقع التى تصدر من باكستان وأخرى مختلفة فى أندونيسيا وجنوب أفريقيا ونيجيريا وهكذا! حتى المواقع الإسلامية فى الويب الصادرة من أوروبا تختلف من مجتمع أوربى إلى آخر حسب أوضاع المسلمين فى كل مجتمع وتكرر فى كل المواقع تقديم الخدمات التعليمية الإسلامية كل حسب لغة الموقع من قرآن وسنة وحديث وصلاة وزكاة ومعاملات مالية وحج وفتاوى، وكل حسب مستوى الموقع فى التصميم، وأبرز الملحوظات على معظم المواقع الإسلامية الصادرة من المنطقة العربية التكرار الشديد، وقليل منها ما أتى بجديد وغياب أدوات البحث، وكثرة القوائم البريدية الإليكترونية ولم تضارع مواقع الأديان الأخرى من حيث الكيف والكم . ولا يخفى على المتابع لتلك المواقع أن كلا منها ينتمى إلى بلد معين على الرغم من ادعاءات الجميع التى تقول أن مواقعهم للمسلمين فى كل مكان بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والمذهبية ويمكن القول إن ٧٠٪ من تلك المواقع ذات اتجاهات فكرية تتبع المنهج السلفى، ونقلوا لمواقعهم كل أمراض الظاهرة الإسلامية وهم يمثلون أغلبية المواقع، ولم نقرأ فى أى موقع عن كيف نحاكم حكام المسلمين الفاسدين؟ وكيف نحاسبهم؟ بل العكس هناك فتاوى تؤكد على طاعة والانصياع للحكام! لأن مخالفة الحكام هى مخالفة الله تعالى! وتسود تلك المواقع فتاوى وأحاديث الشيوخ الذين انتجهم النفط، وهم أصحاب مصلحة اقتصادية حقيقة وأصيلة فى فتاويهم وتفسيراتهم ويغيبون العقول فى فقه دوره المياه، والمرأة والجن والأنس، والزواج من الجنيات والشياطين، ومحاربة أفكار الانحلال والملاحدة والشيوعيون والزنادقة وفى بعض هذه المواقع نقلوا الكتب الصفراء من على الأرصفة إلى صورة اليكترونية صفراء أيضا فى الإنترنت نفس الرؤية نفس المشاكل نفس الفتاوى عن الجن والشياطين والجنس والمرأة ويسأل المسلمون فى الإنترنت هل المرأة شر كلها!! وعن السفور والحجاب؟! عن حب المرأة لغير زوجها؟ هكذا لا يعرفون ماذا يفعلون بالمرأة فهى شغلهم الشاغل حتى فى الإنترنت! ولا أحد يسأل كيف تحارب الفساد والقهر الذى يعانى منه المسلمون فى المنطقة كيف نزود إنتاجنا؟ كيف



نشارك العالم فى اختراعاته التكنولوجية؟! كيف نسد الفجوة التكنولوجية بيننا بين إسرائيل! وهكذا نتكلف بنيه أساسية ونستورد أحدث التكنولوجيات لندخل الإنترنت لكى نسأل عن العفاريت والجن وزواج الإنسان من الجن ونشترى ونسمع أناشيد! وتحولت معظم تلك المواقع فى الإنترنت إلى سوق مفروش مثل الأسواق التى تفرش أمام المساجد لبيع الكتيبات الصفراء وشرائط الكاسيت والفيديو ، التى تتكلم عن غسيل الموتى والنهاية السوداء لكل من لا يسمع تلك الشرائط . إن تلك المواقع تشجع وتنمى قيم التزمت وحجب وعزل المرأة والمبالغة فى النزعة الذكورية وتفضيل الماضى ونبذ العلم والتفكير العلمى وتضخيم النزعة العائلية والقبلية وتنمية الروح القدرية وذلك لخدمة نظمها السياسية، وتنتشر الأفكار المسطحة والسلوكيات المصابة بالانفصام بين الكلام والعمل وفى تلك المواقع سواء باللغة العربية أو الانجليزية والألمانية وغيرها من اللغات مثل الاردية والاندونسية تنتشر فيها لغة التهديد والوعيد، وإتهامات بالكفر، وأن الغرب وأنصاره ملاعين شياطين يعيشون فى ظلمات ونجاسات ويعترضون على نشر تشريع الله وحكمته وهذه المواقع بعيدة تماما عن المشاكل الحقيقية والواقعية فى المنطقة الإسلامية من قصور نظم التعليم، وتخلف سياسى واقتصادى وثقافى، وفساد وإفساد وانفجار سكانى وغياب التعاون العربى والإسلامى والتخلف التكنولوجى تلك القائمة الطويلة من مشاكل العرب والمسلمين تلك المواقع لا تقدم كيف نحول الطاقة الدينية التى يملكها المسلمون إلى طاقة إنتاجية فعالة تقابل احتياجات العصر، وتظهر فى سلوكيات المسلمين اليومية ومن جانب آخر هناك الكثير من المسلمين من جنسيات أمريكية وأوربية اسلموا فى بلادهم أو انحدروا من أسر مسلمة تعيش هناك وأغلبهم من الزنوج أنشأوا العديد من المواقع الإسلامية بلغة بلدانهم الأجنبية وأغلبيتها بالانجليزية وهى تقدم القرآن والسنة والأحاديث ومواعيد الصلاة والحج والصوم وكيفية أدائها والزكاة، وتحاول أن توظف الدين فى خدمات حياتيه يومية لهؤلاء المسلمين، ولهم كتبهم ومطبوعاتهم ومجلاتهم ودعاتهم ومشايخهم وأغانيهم وأناشيدهم الخاصة إنهم لا يعرفون أى

مؤسسة دينية رسمية أو أهلية من المنطقة الإسلامية الكلاسيكية بل لهم منظماتهم وهيئاتهم وهم هناك لهم همومهم كأقليات وتفسيراتهم للإسلام وفقا لعاداتهم وتقاليدهم هناك، والبعض منهم يطالب بفقه إسلامي خاص بهم يناسب احتياجاتهم هناك، بل إن البعض افتى هناك بسماح زواج المسلمة من غير المسلم ولوحظ الندرة الشديدة فى المواقع الأكاديمية العربية التى تتكلم عن ا لإسلام مقابل كثرة المواقع الأكاديمية الأجنبية التى تبحث فى جميع الأديان ومنها الإسلام، فجامعات مثل اكسفورد، وبيركلى، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية خصصت مواقع للدراسات الإسلامية تتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الانجليزية وهى غنية جدا بالكتب والبحوث الإسلامية وفيها فيض ضخم من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام، فهل يعرف دارسونا فى الإسلاميات تلك المواقع فهى تحت أيديهم هل يملكون المهارات التكنولوجية واللغوية فى الدخول إلى تلك المواقع ونقد وتفنيد تلك الدراسات؟!

أظن بعد هذه البانوراما السريعة للمواقع الإسلامية فى الإنترنت أصبح واضحا تماما القارئ كيف يؤثر نظام المجتمع فى توظيف واستعمال تكنولوجيات المعلومات فالانترنت وسيلة إيجابية فعالة للتواصل الإسلامي والعربي ويمكن أن تقوم بدور كبير فى تعليم المسلم خاصة الجيل الجديد عقائد دينه السليمة من خرافات وعبادات خالصة من البدع والتشويه والتعسير والتعقيد والمعاملات السليمة بدون تزمت وتسيب وتفتح الإنترنت الأبواب كلها حتى يمكن للعالم كله سماع صوت المسلمين، وهم يدافعون عن الإسلام ويفندون تلك الادعاءات الباطلة عنه، وتتيح الفرص للتواصل مع الديانات الأخرى . إن الوعاء الإليكتروني للثقافة الإسلامية فى الإنترنت فى مواجهته مع التحديات الجديدة فى القرن الجديد يحتم على تلك الثقافة أن تتكلم لغة العصر.

والسؤال المطروح الآن على المسلمين، هو كيف يوظفون تكنولوجيات المعلومات وخاصة الإنترنت لخدمة الإسلام؟! لكن هذا التوظيف يستلزم أولا تغيير المنظومة الاجتماعية والسياسية والإدارية للمجتمعات العربية والإسلامية! ■


الفيوم
واحة مصر الجميلة

بقلم
د.ماهر شفيق فريد

باردة الاسحار ، بارزة الأشجار ، كثيرة الثمار ، قليلة الأمطار .

هكذا وصف الفيوم - منذ أقل من ٧٥٠ عاما خلت - ابو عثمان النابلسي وهو أمير سوري كان حاكما عليها . لم يمل النابلسي كثيرا الى سكان الاقليم ، ولكنه كان شديد الإعجاب بغنى الأرض وجمالها ، وكانت تذكره بغوطات دمشق وبساتينها .

بهذه الكلمات يبدأ رونيل هيوسون كتابه الفيوم : تاريخ ودليل (١) الذي صدر عن الجامعة الأمريكية الطبعة الثالثة - فريدة ومنقحة ، من كتاب غدا منذ صدوره في ١٩٨٤ أوفى دليل الى هذه المحافظة الجميلة ، مزودا بالصور الملونة والخرائط مع ببليوجرافيا بأهم الكتابات السابقة عنها بالانجليزية والفرنسية .







الفيوم – جغرافيا – منخفض كبير خصب في صحراء مصر الغربية، على مبعدة قرابة تسعين كيلو مترا جنوب غربي القاهرة، وهي غنية بتذكارات التاريخ وجمال الطبيعة على السواء، إن ميراثها التاريخي يشمل معابد وأهرامات ومدنا يرجع تاريخها إلى المملكة الوسطى والعصر البطلمي فضلا عن كنائس وأديرة ومساجد من عصور لاحقة. وأراضيها التي ترويها السواقي من بين أخصب الأراضي في مصر، كما يمتاز منظرها الطبيعي بالتنوع والجمال. إن بركة قارون الكبيرة القديمة تقع منها في الشمال بين الأرض الخضراء من جهة والصحراء القاسية من جهة أخرى. وحديثا حفرت بحيرتان – تصل بينهما الشلالات الوحيدة في مصر – في وادي الريان غربا – وهو الوادي الذي كان مجدبا قاحلا – مما جعل الصيادين والمزارعين والسائحين يقبلون على ما كان من قبل منطقة صحراوية، ولم تعد التماسيح – التي كانت مقدسة في الأزمنة القديمة – تعيش في مياه الفيوم، ولكن الحياة البرية فيها غنية بالقطط البرية والنمس وطيور أبي ملعقة والبشروش وأبي قردان.

ويقدم الكتاب لمحات من تاريخ الفيوم (بل وعنها في حقبة ما قبل التاريخ) وبحيراتها واصفا زراعتها وحياة الفلاحين فيها وأهم مواقعها الأثرية وأماكنها السياحية حائدا عن الطريق الرئيسي – كلما دعا الأمر – لكي يتوقف بهذه البقعة أو تلك، داعيا إيانا إلى استكشافها والتعرف عليها.

***

ليست الفيوم، طوبوغرافيا، جزءا من وادي النيل أو من الدلتا، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا يمكن القول بأنها جزء من الصعيد، ولا الوجه البحري، ولا حتى مصر الوسطى، وليست واحة (وإن دعوناها كذلك في عنوان هذا المقال) حيث إنها تعتمد تماما على مياه النيل، وإنما هي منخفض طبيعي كبير أشبه بمنخفض القطارة وإن تكن أخصب تربة. ومجموع مساحتها حوالي أربعة آلاف كيلو متر مربع. ومناخها معتدل لطيف فهي ليست حارة في الصيف حرارة أقاليم مصر العليا. وأمطارها في الشتاء ليست بغزارة أمطار القاهرة والوجه البحري، إن المطر فيها قد يسقط في أي فترة بين شهري أكتوبر ومايو، ولكن الأرجح أن يكون سقوطه في ديسمبر ويناير وفبراير، وهو عادة مطر خفيف لا يدوم طويلا.

وتعداد سكان المحافظة – بحسب آخر تعداد في ١٩٩٦ – يقرب من المليون و ٩٨٩ ألف نسمة (أي حوالي ٣٪ من مجموع سكان مصر). وقربها من القاهرة يجعل من اليسير على كثير من سكانها أن يعملوا أو يدرسوا في العاصمة ثم يعودوا إلى الفيوم في عطلة نهاية الأسبوع للاستمتاع بالراحة وطهو البيت على حد تعبير المؤلف! على أنه قد افتتحت بالفيوم، في السنوات الأخيرة، كليات للتربية والزراعة والهندسة والخدمة الاجتماعية والطب، وكلها تتبع جامعة القاهرة.

وأهم محاصيل الفيوم الزراعية القطن الذي تشرف الحكومة على زراعته وهو يزرع في أبريل ويجنى في سبتمبر وينمو



الطبيعة الخضراء أهم ما يميز الفيوم

أساسا في المناطق الوسطى من المحافظة. أما المناطق الهامشية، حيث التربة أكثر رميلة ، فتزرع الطماطم من سبتمبر إلى أبريل، فضلا عن كثير من الأعشاب الطبية والعطرية.

ماذا عن تاريخ الفيوم؟ في الأساطير المصرية القديمة إن بحيرتها الكبيرة كانت هي نون، المحيط الأولي وأصل كل حياة ، بينما الأرض المرتفعة المحيطة بعاصمة الإقليم هي التل الأولى الذي برغت فيه الحياة لأول مرة.

البحيرة المقدسة

ويقول ديودور الصقلي إن الملك مينا موحد القطرين خرج في حملة صيد بالفيوم، ولكن كلابه هاجمته قرب البحيرة ولم ينقذه منها سوى تمساح حمله على وجه الماء الى بر الأمان. وعلى سبيل العرفان بالجميل جعل البحيرة مقدسة للتماسيح، وأقام المدينة التي تعرف الآن باسم كيمان فارس والتي غدت مركزا لعبادة التمساح الإله سوبيك وقد ظل سوبيك. هو كبير أرباب الفيوم طوال عهد الأسرات والعصر اليوناني حتى العصر الروماني وكانت كل المعابد تبني. او تبنى جزئيا على الأقل لاسمه. وقد شاهد كل من هيرودوت وسترابو تمساحا مقدسا كان يحتفظ به في المعبد الرئيسي لمنطقة كيمان فارس.

وأغلب الظن أن أمنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، هو الذي غمر الفيوم بالمياه لكي ينشيء البحيرة التي وصفها هيرودوت بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة وما لبث سنوسرت الأول أن شاد مسلة أبجيج، وكان هرم اللاهون قبرا لسنوسرت الثاني.

وفي أعقاب وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م شرع بطليموس الأول في تجفيف البحيرة، واستصلح حوالي ١٢٠٠

كيلو متر مربع من الأرض الخصبة. وواصل ابنه بطليموس الثاني (فيلادلفوس) عمله فمنح هذه الأرض لضباطه وجنوده الإغريق والمقدونيين الذين استقروا بالإقليم.

غدت مصر ولاية رومانية بعد أن استولى عليها أغسطس قيصر عام ٣٠ ق.م واستمرت الفيوم على ازدهارها بعض الوقت ، ولكن أحوالها بدأت تتدهور إذ اضطربت أحوال الإمبراطورية الرومانية الكبرى، وأعوزها الاستقرار، ودبت فيها عوامل الاضمحلال، ومع تقسيم الامبراطورية إلى قسمين في ٣٩٥م غدت مصر خاضعة للامبراطورية الشرقية وعاصمتها بيزنطة . وظلت المسيحية هي الدين الرسمي الى أن فتح العرب مصر وغدا الإسلام ديانة أغلب المصريين.

تدهورت أحوال الفيوم في ظل الاتراك العثمانيين الذين حكموا مصر من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ . وكانت اسطنبول ترسل، مرة في السنة ، قاضيا إلى الإقليم بينما يحكم نائبه بقية العام في ديوان ينعقد مرتين في الاسبوع ويحضره ستون من مشايخ العرب.

وفي يوليو ١٧٩٨ - بينما كان اثنان من البكوات المماليك، مراد بك وابراهيم بك يحكمان مصر - غزا جيش نابليون البلاد وهزم المماليك في موقعة الاهرام. حتى اذا رحل الفرنسيون عن مصر في ١٨٠١ نشب صراع على السلطة بين الأتراك والمماليك إلى أن استتب الأمر لمحمد على الذي استولى على الفيوم في يوليه ١٨١٠ ، وفي العام التالي دبر مذبحة المماليك في القلعة فدانت له البلاد من أدناها إلى اقصاها.

ويذكر بديكر - صاحب الدليل السياحي المشهور - ان الخديوى اسماعيل كان يولى الفيوم عناية خاصة لاسيما وقد كان في وقت من الاوقات يملك خمس أراضي مصر المزروعة ومع الاحتلال البريطاني لمصر قرب نهاية القرن التاسع عشر مهد البريطانيون عدة طرق وأنشأوا أنظمة للري يسرت استصلاح الأراضي.

ومع صدور قوانين الاصلاح الزراعي التى اعلنها الرئيس جمال عبدالناصر في الخمسينيات تمكن الفلاحون - لأول مرة - من امتلاك الأرض التي يفلحونها، وأنشئت عدة جمعيات تعاونية لمساعدة الفلاح ودخلت الكهرباء القرى.

قصر التيه

وينتقل بنا المؤلف إلى أوائل الرحالة الذين زاروا الفيوم وأبرزهم هيرودوت من هاليكارناس الذى زارها في منتصف القرن الخامس ق.م. وسجل انطباعاته عنها في المجلد الثاني من كتابه المسمى «التواريخ» وخلال رحلته شاهد قصر التيه «اللابيرنث» بالهوارة حاليا، والبحيرة التي كانت أصلا لبحيرة قارون، كما حدثنا عن التمساح المقدس الذى كان موضع رعاية وتبجيل هنا.. بخلاف الحال في جزيرة فيلة.. مثلا، حيث كانت التماسيح تصاد وتؤكل.

وسترابو رحالة اغريقي آخر جال في انحاء مصر في العقد الثالث ق.م أى قبل أن تغدو البلاد ولاية رومانية بفترة قصيرة وبعد اكثر من مائتي سنة من استقرار الإغريق البطالمة والمقدونيين في الفيوم وقد نوه سترابو بخصوبة التربة وكونها الإقليم الوحيد في مصر الذى يزرع أشجار

إحدى لوحات «وجوه الفيوم»



الزيتون وينتج زيت الزيتون.

وقد شرع الرحالة والمغامرون الاوربيون فى استكشاف الشرق الاوسط فى القرن السابع عشر، وكان أغلبهم مدفوعا بالرغبة فى مشاهدة الآثار التى تحدث عنها هيرودوت وسترابو.

وفى يناير ١٨٠١ شرع الدكتور ب . د. مارتان، وهو مهندس فرنسى جاء مع حملة نابليون - فى استكشاف الاقليم، خاصة بركة قارون، بعد أن نال ثقة البدو، ترك لنا سجلا لرحلاته التى وصلت به الى مشارف الصحراء فى كتاب «وصف مصر».

ومن الماضى ننتقل الى الحاضر : إن مدينة الفيوم اليوم تقع على أرض مرتفعة «حوالى ٢٢ مترا فوق سطح البحر ، وحوالى ٨ أمتار تحت مستوى النيل فى بنى سويف جنوب شرقى منخفض الفيوم على كلا شاطئى بحر يوسف.

ظلت المدينة فى موقعها الحالى منذ القرن الثالث عشر على الاقل حين كان يحكمها ابو عثمان النابلسى وفى كتابة المسمى «تاريخ الفيوم» وبلاداتها المكتوب فى ١٢٤٥ يذكر أن الفيوم - وهى على مبعدة ثلاثة أيام من الفسطاط - بنيت على كلا شاطئى بحر يوسف، كما هو الشأن الآن. كان لكل نصف من المدينة اسواقه. بينما تزخر المنطقة كلها بالبساتين والحدائق الخصبة التى تخرج فاكهة من كل نوع وياسمين وورداً .

واذا كنا قد أشرنا الى أسطورة الملك مينا والتمساح . فإن لأهل الفيوم فى عصرنا الحاضر أساطيرهم . فهم يعتقدون أن مدينتهم بنيت فى الف يوم. ومن ثم سميت «مدينة الف يوم» التى ما لبثت ان حرفت - بتغيير يسير - إلى «مدينة الفيوم» انها قصة جذابة ولكنها للاسف بلا سند من الواقع ، فكلمة الفيوم مشتقة من كلمة قبطية هى بمعنى «البحر».

وأهم معالم الفيوم السياحية هى: مسلة أبجيج الجرانيتية وقد أقامها سنوسرت الأول (ثانى ملوك الأسرة الثانية

منظر خلاب لبحيرة قارون



عشرة وبانى مسلة هليوبوليس الشهيرة) وقد انطمست للأسف نقوشها وغدا من الصعب قراءتها ، وكيمان فارس شمالي المدينة، والسبع سواقى (رمز محافظة الفيوم) وهى سوداء صلبة لامعة ينبثق الماء من قواديسها، والمسجد المعلق، ومسجد قايتباى ، وقبة مسجد على الروبى، وكنيسة العذراء، والسوق حيث الصاغة.

عين السيلين

وهناك عين السيلين بحدائقها ومياهها ومزارعها الوفيرة ومياهها المعدنية التي يعتقد أنها قادرة على شفاء العديد من الأمراض. وبركة قارون التي تقع تحت سطح البحر بـ ٤٥ مترا في القسم الشمالي الأدنى من منخفض الفيوم، وتحمل اسم قارون الذي ترد قصته في العهد القديم وفي القرآن الكريم . فنحن نقرأ في سفر العدد (الإصحاح السادس عشر) «قارون» (قورح) تمرد على موسى ومن ثم عاقبه الله بأن خسف به الأرض مع أسرته وممتلكاته.

فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة. وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور».

في سورة «القصص» (٧٥ - ٨٢) نقرأ قوله تعالى:

«إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا

«السواقى السبع » أهم معالم الفيوم



يحب المفسدين.، قال انما اوتيته على علم عندي او لم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون».

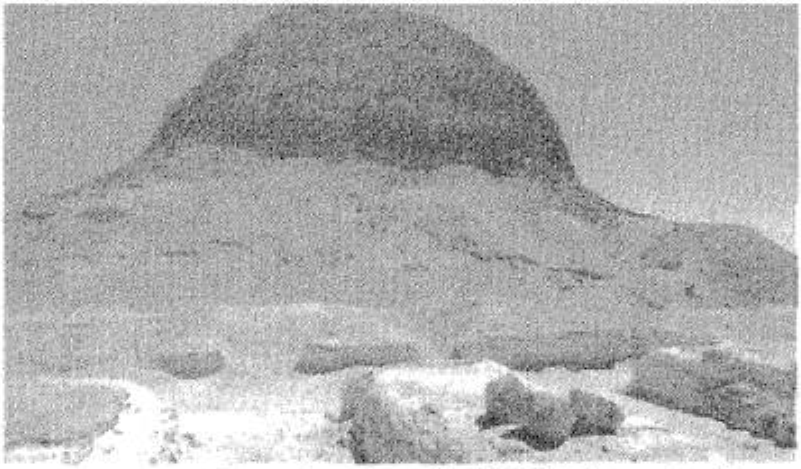
ويتوقف بنا المؤلف عند الأوبرج الذى كان فى وقت من الأوقات استراحة الملك فاروق ومسرح محادثات سياسية وزعماء منهم تشرشل والملك ابن سعود فى فبراير ١٩٤٥ ، وبركة قارون التى تبلغ مساحتها ٢١٤ كيلو مترا مربعا ، ووادى الريان وهو منخفض كبير فى الصحراء غربى الفيوم يعرفه مشاهدو فيلم «المهاجر» ليوسف شاهين ، وقد صورت فيه عدة لقطات سينمائية وفيديو كليبات لجماله ومناظره الطبيعية .

وفى الفيوم عدد من الأديرة أقيمت فى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد ، أى بعد فترة قصيرة من نشأة نظام الرهبنة فى صحراء مصر الشرقية . وأهم هذه الأديرة : دير الغرب ، ودير الملاك (٢) .

أما مواقع الفيوم الأثرية فأهمها كوم أوشيم (وهى بلدة من العصر البطلمى الرومانى تضم متحفا) وديمية السباع (بلدة من العصر البطلمى تضم معبدا من عصر المملكة الوسطى) والصنم (قواعد تمثالين لأمنمحات الثالث من عصر المملكة الوسطى) وقصر قارون (معبد بطلمى مازال محتفظا ببهائه) ومدينة ماضى (تضم معابد من الأسرة الثانية عشرة والعصر البطلمى ، أما المدينة فقد غدت أطلالا دارسة) وأم البريجات (مصغر : برج ، وتضم معبدا من المملكة الحديثة) وهرم هوارة (بناه أمنمحات الثالث من عصر المملكة الوسطى ، وفيه كان قصر التيه «اللابيرنث») وهرم اللاهون (بناه سنوسرت الثانى من ملوك المملكة الوسطى) وهرم ميدوم (بناه سنفرو ، المملكة القديمة) وأم الأثل (قرية بطلمية / رومانية) وهرم سيلا (هرم غامض بناه سنفرو / المملكة القديمة) .

وتكتنف هالة من الأساطير كثيرا من هذه المواقع فجنوب شرقى المعبد الحجرى لمدينة ماضى ، مثلا ، بلدة تربط المأثورات بينها وبين أبى زيد الهلالى ، بطل الملحمة الشعبية ، زاعمة أنه قاد رجاله من صحراء نجد عبورا بمصر إلى تونس فى القرن الحادى عشر الميلاد . وحين وصل إلى البلدة طلب من حاكمها الملك ماضى أن يزوده بالطعام والسكن . ولكن الملك رفض طلبه فسوى أبو زيد البلدة بالأرض ومحاها محوا وقتل الملك وكل رعاياه واستولى على كل ما يريد من مئونة ثم مضى فى طريقه لا يلوى على شىء .

أما قصر التيه ، قرب هرم هوارة وكان معبدا جنائزيا الملك أمنمحات الثالث فقد اختفى كل أثر له ، للأسف ، وقد كتب عنه



الفيوم ليست مدينة زراعية فقط وانما احتوت على عدد كبير من الآثار المصرية القديمة

هيرودوت يقول (٣) :

«لقد رأيته بنفسي ، وهو عمل يعجز عن وصفه البيان . إذ لو قدر لامرىء أن يجمع معرضا للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون ، لبدت عملا أقل من هذا «اللبيرنث» بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق . ولو أن معبدى «إفسوس» و«ساموس» ليستحقان الكلام كذا لاحظنا أن الأهرام تجل عن الوصف وأن كلا منها يكافيء كثيرا من آثار يونانية ، حتى عظيمها . ولكن «اللابيرنث» يفوق الأهرام أيضا وبه إثنا عشر بهوا مسقوفا مداخلها متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ، متتابعة ، يحيط بها سور خارجي واحد . وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الأرض وبعضها فوق الأرض ، تحت سطح الأرض . وعددها ثلاثة آلاف قاعة . خمسمائة وألف من كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التي فوق سطح الأرض وجسنا خلالها وإنا لنتكلم عما شاهدناه بأعيننا .. أما القاعات التي تحت الأرض فوقفنا على أمرها مما قيل لنا ، لأن هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة أن يرونا إياها ، مدعين أنه توجد بها توابيت الملوك الذين بنوا ، أول الأمر ، ذلك اللابيرنث ، وبها توابيت التماسيح المقدسة أيضا وهكذا تلقفنا الحديث عن القاعات السفلى ، وعرفناه عن طريق السماع ، أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا وهي تفوق أعمال البشر . فالممرات خلال الردهات والمنعرجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الأبهاء كانت لنا مصدر إعجاب لا حد له ، أثناء مرورنا من البهو إلى القاعات . ومن هذه إلى الأروقة ، ومن هذه إلى ردهات أخرى ومن القاعات إلى سائر الأبهاء. وسقف هذه الأبنية كلها من الحجر مثل الجدران ، والجدران ممتلئة الأشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الأبيض متداخلة بإتقان فائق» .

الثقافة والمطبخ

- تقاليد وعادات الأكل والتفاعلات الثقافية بين الشعوب
- أسماء بعض الأكلات تمثل مصدرا مهما عن العلاقة بين الثقافات

بقلم
جميل مطر

اثنان من كبار المفكرين الأمريكيين أثارا اهتمامى لمدة طويلة . الاثنان ديانتهما يهودية ، والاثنان لا يخفيان كراهيتهما للعرب والمسلمين . والاثنان مبدعان فى تخصصهما . واحد من الاثنين وليام سافاير الكاتب فى صحيفة نيويورك تايمز ، وصاحب العمود الأسبوعى الشهير تحت عنوان «لغة» . فمن هذا العمود تعلمت وغيرى الكثير . وأحاول الا يفوتنى قراءة ما يكتب فى هذا العمود وحين أقرأ ما يكتب فيه أنسى أنه يكرهنى . وكثيرا ما جال فى خاطرى أن للرجل شخصيتين .. شخصية إنسان ودود وبالغ الدقة فى كل كلمة وحرف يكتبهما ، وشخصية إنسان حقود وكاذب وعنصرى وسخيف . أكاد لا أصدق أن من يكتب هذه الروائع فى عمود اللغة يستطيع أن يكتب بكل هذه الكراهية فى عموده السياسى .



الثاني هو بنارد لويس المؤرخ والمستشرق ، وقد صار المرجع الأساسي لكل باحث أو قارئ مهتم بالإسلام والعرب والشرق الأوسط . بل لعله المستشار الأهم لعديد من أجهزة صنع السياسة الغربية المتصلة بالشرق الأوسط ومشكلاته ، وبخاصة العلاقة مع الشعوب والحكومات الإسلامية . ولما كان انحيازه ليهوديته ، أو لقبيلته اليهودية شديدا ، وبسبب اختراق هذا الانحياز لموضوع تخصصه ، وهو الإسلام والشرق الأوسط ، تعلمت عندما أقرأ ما يكتب أن أكون حريصا «وشكاكا» . إنه أحد المؤرخين ، وفي صدارة المفكرين ، الذين يثيرون في نفسي نوازع لا أحبها ، ومنها الاحتماء بقبيلتي في مواجهة التزامه الصارخ والمتزمت بقبيلته .

***

وقعت منذ فترة على مقال كتبه برنارد لويس تحت عنوان «في منطقة الإصبع» ، ونشرته له مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» في أحدث ما وصلني من أعدادها الأخيرة . بدأت بمقاله ، وكان ممتعا ، رغم ما يصيبني عادة من تحفز خلال قراءة مقالاته . فبعد قراءة سطور قليلة اتضح أنه يكتب عن تقاليد وعادات الأكل ، ومصادر وأسماء مأكولات وفاكهة في مختلف المجتمعات ومنها الشرق الأوسط . ولما كانت الأكلات وما يتصل بها هواية فضلتها في معظم الأحيان عن هوايات أخرى ، فقد وضعت هذا المقال في صدارة المقالات التي احتفظ بها للامتاع عند اللزوم وفي الوقت المناسب . في هذا المقال يحاول برنارد لويس أن يشرح كيف أن أسماء بعض الأكلات والمأكولات يمكن أن تكون مصدرا غنيا لمعلومات عن العلاقات التاريخية بين الثقافات وعن تطور هذه الثقافات .

يقول لويس إن أسماء المأكولات والثمار والأغذية بوجه عام لعبت دورا مهما كمصدر من مصادر كتابة التاريخ وكانت دائما موضع تقديس من جانب الشعوب . ففي قديم الزمن اعتقد الإغريق أن غذاء الآلهة يتكون من العنبر والأكبرى . وتحدثت ديانات سماوية عن الحليب والعسل المتوفرين بوفرة في الأرض الموعودة . والمعروف أن الشرق الأوسط بحكم موقعه كمهد لعديد من الحضارات القديمة غني بهذه الأسماء . وقد استفاد المؤرخون من هذه الوفرة في الحصول على المعلومات عن الشعوب والثقافات القديمة . ولكن الوفرة لا تعني أن المؤرخين يستخدمونها دون تدقيق . ويضرب المثل بثمرة البرتقال . ففي اللغة الإنجليزية يطلق عليها «أورنج» وكذلك الفرنسية وإن بنطق مختلف ، وكلاهما من الكلمة الأسبانية «نارانخا» . وفي العربية أطلقوا عليها أحيانا «نارانج» أو «اللارنج» وأصلها من اليابانية «نارانج» .

أما العرب والأتراك والفرس المعاصرون فيطلقون عليها «البرتقال» ، نسبة إلى البرتغال . بمعنى آخر يستخدم الغربيون اسما استعاروه من الشرق الأوسط ، ويستخدم أهل الشرق الأوسط كلمة استعاروها من أوروبا . السبب هو أن ثمرة البرتقال جاءت إلى الشرق الأوسط عن طريق البرتغال ولم تأت مباشرة من موطنها الأصلي ، ولم تكن معروفة في الشرق الأوسط . كان البرتقال المر المعروف باسم النارنج هو السائد في الشرق الأوسط . أما ثمرة البرتقال الحلو فقد جاء بها تجار أوروبيون من الشرق الأقصى وزرعوها في البرتغال وأعادوا تصديرها إلى الشرق الأوسط فعرفت باسم البرتغال .

ويروي لويس قصة الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي أراد أن يعبر عن مشاعره الودية تجاه تركيا عندما وافقت على الانضمام إلى حلف الأطلسي ، فأمر مساعديه بإرسال ديك رومي إلى الرئيس التركي بمناسبة عيد الشكر في أمريكا ، وهو عيد يحتفل الامريكيون فيه بتناول هذا الطائر محشوا ويطلقون عليه «التركي» Turkey . أما الأتراك فيسمونه «الهندي» . هذا الطائر لم يكن معروفا في العالم القديم ولا في العصور الوسطى ، أي قبل اكتشاف أمريكا منذ خمسمائة عام . واختلف المستوطنون الأوروبيون الذين نزلوا إلى الشاطئ الأمريكي على تسميه هذا الطائر . البعض أطلق عليه التركي والبعض الآخر من ذوي الأصول الفرنسية اختار له اسم Dinde d'inde أي الهندي . ومن أمريكا وصل الطائر إلى الشرق الأوسط ، فأطلق عليه العرب اسم الديك الحبشي وأحيانا الديك الرومي (أي اليوناني) . اللافت للنظر أن كافة الشعوب كانت تختار لهذا الطائر بالذات اسماً يرتبط بهوية أو بجنسية ربما لغرابة شكله أو صوته .

من المصادر المهمة التي اعتمد عليها المؤرخون ، بخلاف ما يسجله الرحالة عن المأكولات الغريبة التي استهلكوها في البلاد التي زاروها ، ما سجله الحجاج عن أكلات شهية تناولوها في طريق ذهابهم إلى الحج أو عودتهم منه . وقد استقى الأوروبيون عن هذا الطريق مادة وفيرة من البهارات التي لم يكونوا يعرفون شيئا عن أغلبها . واعتمدوا كذلك على قصص وحكايات وأساطير وقصائد شعرية . فمن القصائد الشعرية التي كانت تلقى بعد المآدب والحفلات تكريما للمضيف أو لقضاء الوقت ، استخرج بعض المؤرخين والمستشرقين وصفات لأطباق اشتهرت بها مطابخ بغداد ودمشق والأندلس . من هؤلاء دافيد وينز المستشرق الكندي الذي كتب كتابا ذاع صيته وكان عنوانه مطبخ الخليفة . وجدير بالذكر أن وينز عاش بالقاهرة سنوات عدة قام خلالها بتدريس التاريخ





الإسلامى فى الجامعة الأمريكية . ويروى لويس فى مقاله قصة ينقلها عن كاتب فارسى . والقصة عن الباذنجان . فبهذا الاسم كانوا يعرفونه فى بلاد فارس. ومنها اشتقت كلمة أوبرجين فى الفرنسية . حدث ذات يوم أن السلطان محمود (٩٨٨ - ١٠١٠م) شعر بجوع شديد فأحضروا له صحنا من الباذنجان أعجبه جدا وقال إن الباذنجان أكلة شهية، فانطلق أحد رجال البلاط يمدح فى الباذنجان بطلاقة . وبعد أن شبع السلطان وبدأ يمل هذه الأكلة قال أن الباذنجان شئ ضار جدا . فانقلب رجل البلاط فورا يسرد مضار الباذنجان وخطورته على الصحة . فغضب السلطان وقال لرجله ألم تكن منذ قليل تمدح فى الباذنجان وأنت الآن تعدد مضاره . أجاب رجل الحاشية ، ولكنى أعمل فى حاشيتك يا مولاى وليس فى حاشية الباذنجان . ويقال إن الشاعر الفارسى الداسجان قضى معظم عمره ينظم شعرا عن المأكولات الشهية . وقد عاش فى القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر فى شيراز . حمل أهم دواوينه عنوان «كنز الاشتهاء» . وكتب قطعة نثرية طويلة بعنوان «ملحمة الأرز وفطيرة اللحم المطبوخين بالزعفران» ، وملحمة أخرى بعنوان «مغامرات الأرز والفطير» . ووضع قاموسا لمفردات المطبخ والأكلات .

وينتقل لويس إلى خاصية أخرى من خصوصيات الشرق الأوسط ، وهى الكتابات القانونية والدينية التى تحدد بالتفصيل أحيانا ما يؤكل وما يحرم أكله . يقول إن اليهودية والإسلام حافلتان بهذه القواعد على عكس المسيحية التى لم تهتم بالأكل . فالمسيحيون يأكلون ويشربون أى شئ بينما الأنبذة مثلا محرمة فى الإسلام ، ولكن لا يحرمها المسلمون على غير المسلمين . وإلى جانب القواعد القانونية والدينية استفاد المؤرخون من الوثائق العثمانية ، وهى وفيرة وبالغة الأهمية . كان ممكنا مثلا أن يعرف المؤرخ اتجاهات الأذواق ووصفات الأطباق من وثائق دوائر المكوس والضرائب التى كانت تحدد ضريبة على كل مكون من مكونات الطبخة أو الأكلة ، ومن وثائق كان يحتفظ بها فى مطابخ قصور الحكام والأغنياء ، وفى مطابخ المعسكرات وأماكن توزيع الغذاء بالمجان على الفقراء . ويستخدم مؤرخون علم الآثار . فقد اكتشف خبراء الآثار لوحة قديمة منحوتة على قصر أحد ملوك الآشوريين تسجل الأطباق التى قدمها الملك لضيوفه فى إحدى الحفلات الكبرى . ويقال إن الملك أراد بتسجيل هذه الأكلات ومكوناتها أن يبلغ العالم من بعده مدى قوته واتساع ملكه . فالأكلات كانت تمثل كافة بقاع المملكة . أراد أن يقول انظروا كم من الشعوب استعبدت وكم من الأراضى احتللت . وتحكى اللوحة أن المأدبة استمرت عشرة أيام ، وحضرها ٦٩،٥٧٤ مدعوا من الرجال والسيدات . واحتوت قائمة الطعام على أنواع متعددة من اللحوم ، فكانت هناك أطباق من لحوم البقر والضأن ، والأوزى ، والغزال ، والبط والأوز والحمام وطيور أخرى والأسماك والبيض والخبز والخضراوات

والفواكه والمكسرات والبهارات ، و١٠ آلاف برميل من البيرة ، وعشرة آلاف قربة من النبيذ .

ويحتمل أن يستفيد المؤرخون مستقبلا من التقدم فى «التكنولوجيا الحيوية» ، بل حدث فعلا أنه منذ أربعين عاما اكتشفت بعثة كانت تنقب فى أواسط آسيا الصغرى عن مقبرة لأحد ملوك العصور القديمة . ويبدو أن الملك أقام مأدبة فاخرة ومات أثناءها فدفنوه فى هذه المقبرة مع بقايا المأكولات . ولم يتمكن علماء الآثار من تحديد الأكلات أو مكوناتها بسبب تعفنها وتحللها . ولكن بعد التقدم الذى أحرزته علوم البيولوجيا بدأ يظهر علماء آثار مهتمون بتحليل البقايا لزيادة معلوماتهم عن أمزجة وتقاليد الشعوب .

الزيتون أوقف توسع المسلمين ؟!

وفى القسم الثانى من المقال ، يتساءل لويس عن أهم مكونات المطبخ القديم ، ويجيب أنها الحليب والعسل بطبيعة الحال. ويقسم العالم إلى ثلاث مناطق لبنية أو حليبية . إحداها منطقة الحليب المحلى ، وأخرى منطقة الحليب الحامض والثالثة منطقة اللاحليب . أما الأولى فهى أوروبا والأمريكتان ، ومنطقة الحليب الحمضى هى الشعوب الإسلامية والهند . والثالثة حيث لا تشرب الشعوب الحليب ولا تستهلكه فى المطبخ التقليدى ، لا حليب ، لا جبن ، لا زبد فهى اليابان والشرق الأقصى .

بنفس القدر من الأهمية فى الزمن القديم كان العسل . فالعسل أقدم المحليات التى استعملها الإنسان قبل السكر . واستخدمه القدماء فى صنع الخمور . ويبدو أنه اكتشف قبل الإسلام بوقت قليل – ففى العصر الرومانى – الإغريقى لم يكن مستخدما ، ولم يعرفه المطبخ الفرعونى المصرى . ويأتى على سيرة الأرز فيروى أن قائدا عربيا فى الأهوار عثر جنوده على سلتين ، إحداهما تحتوى على تمر والثانية على أرز غير مضروب . قال لجنوده كلوا التمر ولا تقربوا هذا الشئ الآخر فقد يكون سما ، فأكله حصان ولم يمت ، وبعده صار الأرز من أهم الأطباق فى المطبخ العربى .

أما الخبز فلعله أقدم الأكلات على الإطلاق ويكاد يحتل مكانة تقديس . وينقل عن الفقيه الغزالى (مطلع القرن الثانى عشر) أنه كتب ، فى رسالة شهيرة عن آداب وسلوكيات تناول الطعام ، ينصح الناس بأن يقطعوا رغيف الخبز بأيديهم وليس بالسكين ، فالتقطيع بالسكين يعنى احتراما أقل للخبز ، وأن يبدأوا أكله من حوافه وليس من وسطه . وينقل عن آخرين نصيحتهم أن يقطعوا الرغيف بأسنانهم ، وأن لا يوضع صحن أو وعاء



فوق الخبز . يوضع فقط مأكولات أخرى . احترام الخبز واجب لأن الله بعث به كبركة من السماء . لا تمسح يدك بالخبز . إذا سقطت منك قطعة خبز ، التقطها ونظفها ، ولا تتركها إلى الشيطان . ويقول لويس إن ظاهرة احترام الخبز إلى درجة تقترب من التقديس موجودة فى ثقافات متعددة وليس فقط عند المسلمين .

كان اللحم دائما شيئا ثمينا ونادرا . ولم يكن أبدا من النصيب اليومى للناس العاديين . واللحوم بينها ما هو محرم وما هو حلال . ويزعم بعض المؤرخين أن الإسلام انتشر فى كل اتجاه . انتشر فى الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ولكن توقف توسعه فى كل هذه الاتجاهات عندما وصل إلى أماكن تأكل شعوبها الخنازير بوفرة ، أماكن مثل الصين والبلقان وأسبانيا . ويزعم آخرون أن الفتوحات الإسلامية توقفت عندما وصلت إلى أقاليم لا تزرع الزيتون ، باعتبار أن الزيت أهم مكون فى جميع الأطباق العربية . وفى الحالتين مبالغة شديدة .

وفى القديم ، والعصور الوسطى ، احتلت فواكه معينة مكانة مهمة ومنها التفاح حتى أنهم صاروا يطلقون كلمة التفاح على أى فاكهة جديدة لا يعرفونها . فقد أطلق أحد الحجاج الإيطاليين على الموز عندما شاهده فى مصر لأول مرة فى عام ١٣٨٤ ميلادية «تفاح الفردوس» . وأطلق الألمان على البرتقال أبفلسين أى تفاح الصين .

كذلك لم تكن ثمرة «البطاطس» معروفة فى العالم القديم - أى فى آسيا وأفريقيا وأوروبا - حتى وصل الفرنسيون إلى أمريكا فأطلقوا عليها «تفاح الأرض» وعندما بحث اليهود خلال سعيهم لإحياء لغتهم عن كلمتين تناسبان البرتقال والبطاطس لم يجدوا ، فأطلقوا عليهما «التفاح الذهبى وتفاح الأرض» . من ناحية أخرى عندما أدخل الإيطاليون «الطماطم» إلى بلادهم أطلقوا عليها تعبير «التفاح الذهبى» Pomodoro . ومن إيطاليا انتقلت الكلمة إلى العالم العربى تحت اسم بنادورة أو بندورة .

ثم هناك المكونات العديدة التى تدخل فى طهو المأكولات لتعطيها طعما مختلفا هناك مثلا البصل والكرات والثوم ، وكلها إضافات موجودة منذ العصور القديمة مثلها مثل السكر الذى جاء من إيران عبر الهند ، ولم يكن معروفا فى العصر الرومانى أو الإغريقى ، وعندما استعمل لأول مرة كان لأغراض طبية . ولم ينتشر استعماله إلا بعد الفتح الإسلامى فانتقلت استخداماته من إيران إلى مصر ، ومن مصر إلى شمال افريقيا فأسبانيا فجزر المحيط الأطلسى ومن هذه الجزر إلى العالم الجديد . وبعد سنوات طويلة بدأت رحلة العودة فانتقل السكر من جزر العالم الجديد إلى الشرق الأوسط . فقد استطاع المستوطنون الأوروبيون زراعته بوفرة فى جزر الهند الغربية بتكلفة أقل كثيرا من تكلفة زراعته فى الشرق الأوسط وأوروبا .

وبالمناسبة كان للبن والقهوة قصة مماثلة.

كذلك كان للتوابل دور كبير في قصة التجارة العالمية بين الشمال والجنوب . ويشير لويس إلى دورها في انتشار الأديان واختلاف الثقافات . وقد اشتهر الأدب العربي شعرا ونثرا وأساطير بالأنبذة والمشروبات الكحولية رغم تحريمها ، واشتهر أيضا بعدم الاهتمام بالمشروبات الساخنة . إذ يبدو أن مشروبات كالقهوة والشاي والكاكاو لم تكن معروفة في منطقة البحر المتوسط والمناطق المجاورة في الأزمنة القديمة والعصور الوسطى . كتب بعض الرحالة العرب عن عادة شرب الشاي في الصين ولكن كان واضحا أنهم اشمأزوا منه أو على الأقل استغربوه ، وربما لهذا السبب لم يستوردوه . ولكن توجد مؤشرات على أنه حين احتل المغول بلاد فارس في القرن الثالث عشر اصطحبوا معهم عادة شرب الشاي ولكنها لم تستقر كعادة في فارس أو غيرها من بلاد المنطقة إلا على أيدي الأوروبيين . فأصبح الشاي يستورد رأسا من الصين عن طريق القوافل أو البحر ، واستخدم العرب نفس اسمه المستخدم في الصين . ولذلك تجده في بعض بلاد العرب باسم تشاي Chai أو شاي وفي بعض آخر تحت اسم «تيه» Tey ، وهي الكلمة التي يستخدمها الغرب بكافة لغاته حتى الآن .

وحازت القهوة على اهتمام مؤرخين كثر وقد وثق لها العديد منهم . نشأت أصلا في الحبشة . ويقال إن اسمها مشتق من إقليم «كافا» حيث تنبت شجرة البن شيطانيا كما يقول العامة . ويؤكد برنارد لويس أن البن احتاج إلى عبقرية خاصة ليتحول إلى مشروب ، إذا قورن بغيره من المشروبات . وقد جلب اليمنيون البن إلى بلادهم من أثيوبيا ، ومن اليمن عبر الجزيرة العربية إلى مصر وسوريا وتركيا ، حدث هذا في القرن السادس عشر . ويقال إن الأوروبيين لم يقبلوا على شرب القهوة واعتبروها مدعاة للدهشة ، وفي كتابه «تشريح الحزن» كتب روبرت بيرتون في عام ١٦٢١ يقول «لدى الأتراك مشروب يسمى «كوفا» (لأنهم لا يشربون النبيذ) ، مستخلص من ثمرة سوداء ومرة، يشربونه ساخناً وعلى المهل ، في «مقاه» مثل الصالونات التي نشرب فيها البيرة . وفي هذه المقاهي يتحدثون ويشربون لقتل الوقت وليتسلوا ، لأنهم اكتشفوا بالخبرة أن هذا المشروب يساعد على الهضم ويثير البهجة» . وكالسكر أخذ الأوروبيين البن إلى مستعمراتهم في جزر الهند الغربية وجنوب شرق آسيا . وبحلول القرن الثامن عشر كان البن والسكر كلاهما في صدارة واردات دول الشرق الأوسط من أوروبا .



ويستخدم لويس تعبير «شرب» التباق والحشيش كما يستخدم في العالم العربي . ويقول إن شرب الحشيش

عادة قديمة في الشرق الأوسط أما التبغ Tobacco فقد ورد حديثاً من أمريكا إلى المنطقة ولم يكن معروفاً من قبل . فقد استورده من أمريكا في بداية القرن السابع عشر تاجر بريطاني وانتشر بسرعة مدهشة . ويقول لويس إن كلاً من القهوة والدخان آثارا جدلاً حول إن كان شربهما حلالاً أم حراماً ، ويزعم أن التدخين كان محرماً وكانت عقوبته الإعدام ، وأن الوهابيين وبعض أتباعهم مازالوا يحرمونه .

أسعد المقدم ، الصحافي اللبناني المعروف ، رجل يحب الطهو . ذواقة من الطراز الأول . أقمنا معاً لفترة في إحدى الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط . تميزت هذه الدول بعديد من المزايا الممتازة، وللأسف لم يكن بين هذه المزايا مطبخها . كان مطبخها متواضعاً إذا قورن بمطابخ دول أخرى مجاورة ، ولما كان الطعام هواية مفضلة لكلينا ، كنا - أسعد وأنا - نقضي نهاية الأسبوع نناقش ، نختلف ونتفق ، على ترتيب المطابخ . وكان لأسعد نظرية تقول إن حضارة أي شعب تبدأ في مطبخه ، أي في جودة ولذة وإتقان وأناقة الأكلات التي يشتهر بها . كنا أحياناً نضع المطبخ المغربي في الصدارة ، وفي أحيان أخرى نقرر أن المطبخ الصيني يأتي في المقدمة . وقد نختلف حول ترتيب المطبخ الفرنسي أو العربي - العثماني ، أو الهندي . ولكن لم نختلف كثيراً على ترتيب المطبخ الإنجليزي والألماني والمطابخ الإسكندنافية والأفريقية وعدد لا بأس به من المطابخ العربية . فهذه كلها كانت دائماً تأتي في نهاية أي قائمة نقوم بترتيبها .

يكاد يجمع الرحالة على أن قلة قليلة جداً في المجتمعات العربية كانت تطهو أكلاتها في المنازل ودار السكنى، الأغنياء والعظماء فقط كانوا يفعلون ذلك . وأما الغالبية العظمى فكانت تشتري الأكلات جاهزة من مطاعم ومطابخ في السوق . وقد كلف السلطان مراد الرابع في عام ١٦٣٠ موظفيه بإعداد قائمة بنقابات ومشيخات المهن في استانبول ، وجاء بينهم العاملون في مهنة الغذاء ابتداء من المزارعين ومروراً بالخبازين وصانعي الملح وطباخي الفطائر وخبازي الخبز المرقوق والطحانين وصانعي الحلوى والنشا والبسكويت ، ثم يأتي بمن كان يطلق عليهم «التجار المصريون» . وهؤلاء كانوا يعملون في استيراد البن والأرز والسكر ، وانتهاء بمحلات تقديم الشربات والحلويات والأرز والعدس والقهوة . وهذه بلغ عددها ثلاثمائة رجل ودكان ، كلهم من اليونانيين وكلهم أغنياء .

وكانت هناك مجموعة أخرى احتوتها القائمة وتضم الجزارين وهؤلاء أنواع . فهناك المتخصصون في لحم البقر وآخرون في لحم الخنازير ونوع ثالث متخصص في لحم الضأن . ثم تأتي مجموعة منتجي الألبان وبائعيها وهؤلاء أيضاً ينقسمون حسب مصادر اللبن . فهناك من ينتج ويبيع ألبان البقر فقط وآخرون ألبان الضأن

وتجار القشطة وتجار الزبد وتجار اللبن الزبادى . وضمت القائمة كذلك أسماء وعناوين الطباخين الذين يتخصصون فى السوق فى إنتاج وبيع اللحم المجفف واللحم المملح والكبد والفواكه والخضراوات المخللة والثوم والبصل . ووجدت فى السوق دكاكين متخصصة يطبخون للفقراء فقط ، وكان هناك متخصص فى هذه الدكاكين والمطابخ يقدم الأكل إلى الزبون ويتمتم «باسم الله» ، ثم يقتطع قضمتين من الأكل ويأكلهما وبعدها يطلب من الزبون أن يبدأ فى تناول طعامه، ويقول لويس إن وراء هذه العادة كان ربما الخوف من التسمم .

ويعتقد لويس أن الشرق الأوسط وإن عرف المطابخ العامة إلا أنه لم يعرف المطاعم ويدلل على ذلك برفاعة رافع الطهطاوى الذى زار باريس واندهش لوجود محلات تقدم الأكل واسمها «رستوران» ، حتى أنه نقل الكلمة كما هى، بمعنى أنه لم يجد لها مقابل فى اللغة العربية . ويستطرد لويس أنه رغم أن بعض المؤشرات التاريخية تقول إن القدماء فى الشرق الأوسط عرفوا المقاعد والموائد، إلا أن المؤكد أن أهل العصور الوسطى لم يستخدموها ، وهذا فى رأيه يعود إلى أن المنطقة كانت تشكو قلة الخشب ووفرة الجلود والأقمشة ، واختار الناس ما يناسب بيئتهم وظروفهم واستعملوا ترتيبات أخرى للجلوس وتناول الطعام .

بماذا يأكلون ؟ يقول لويس إن الشعوب تنقسم ثلاثة أقسام أو مناطق . منطقة الشوك والسكاكين وهذه فى الغرب، ومنطقة العصى وهذه فى الشرق، ومنطقة الإصبع وهذه فى الشرق الأوسط . ويقول إن الشوك والسكاكين وردت إلى الغرب حديثا نسبيا وأن الشوكة أصلها بيزنطى ووصلت إلى بريطانيا فى القرن السابع عشر عن طريق تجار إنجليز وجدوا الإيطاليين يستعملونها . وبالفعل يعود أصل كلمة شوكة بالإنجليزية إلى كلمة «فورشيتا» الإيطالية ، ولم تكن قد وصلت إنجلترا عندما كتب شكسبير مسرحياته وإلا لجاء ذكرها فيما كتب . أما العصى فهى بالغة القدم فى الشرق الأقصى .

ويحكى الرحالة عن اختلاف تنظيم المآدب فى الشرق عنها فى الغرب . فى الزمن القديم كان النساء والرجال يأكلون معا . ثم تغيرت هذه العادة فصار الرجال فى الشرق يأكلون منفصلين عن النساء بينما استمر الاختلاط يمارسه الغربيون . وينقل لويس عن رحالة شرق أوسطى واسمه وحيد أفندى وكان سفيرا لاستانبول فى باريس . كتب وحيد أفندى فى ١٨٠٦ أو ١٨٠٧ عن هذه الممارسة فى الغرب فيقول «فى المآدب الأوروبية تشارك سيدات كثيرات ، يجلسن إلى المائدة بينما يقف خلفهن الرجال يراقبونهن كالحيوانات الجائعة بينما النساء تأكل ، فإذا شعر النساء بالعطف على



الرجــال فكن يعطيهن شيئا ليأكلون ، وإلا بقى الرجال جوعى» .

ويشكك لويس فى روايته ، ويقول إن لديه عشرات الروايات عن المقب فى الشرق الأوسط لا تقل غرابة عن الرواية التى يرويها وحيد أفندى عن المقب الغربية .

***

وجدت فى قراءة مقال برنارد لويس متعة ، ومدخل مفيد لفهم التاريخ ومصادره . وكان أكثر ما استرعى انتباهى هو ظاهرة انتقال السلع والمنتجات الزراعية بحرية كاملة . وعدت إلى عناوين الصحف فى الآونة الأخيرة وتقاريرها عن التشبث المريع من جانب الولايات المتحدة وشركاتها بحماية حقوق الملكية الفكرية . قرأت عن المطاردة «الإرهابية» التى تقوم بها حكومة أمريكا وتنظمها التجارة الدولية ودول أوروبا لدول فقيرة تئن شعوبها من المرض والجوع ، اختارت أن تقلد منتجات الغرب وتبيعها أو توزعها على شعوبها بأثمان بسيطة ، فحق عليها العقاب . وهو بشع ورهيب . وتصورت اللحظة ماذا يمكن أن يحدث لو عقد برنارد لويس مؤتمرا يجمع مؤرخين موضوعيين يقدمون شــهاداتهم عما ورد فى وثائق الرحالة العظــام فى التاريخ ، عن بذور وثمار وطيــور وأدوية وسلع انتقلت بحرية من أقصى الشرق إلى أوروبا ، ومن أقصــى الغرب أى من أمريكا إلى الشرق الأوســط وأوروبا ، ولم تكن من قبل معروفة إلا فى مواطنها الأصلية .

ألم يكن هذا التداول السهل المباح القاعدة التى بنيت عليها حضارات الغرب؟ ألم يكن الفعل فى حد ذاته عملا حضاريا . أيهما أرقى حضاريا ، أن تسافر ثمرة البن أو ورقة الشاى من الحبشة أو الصين إلى أوروبا وأمريكا حرة وبريئة وكريمة فيعيد زراعتها الأوروبيون فى مزارعهم بالهند الغربية والهند الشرقية وسيلان وأفريقيا ، وأن تسافر ثمرة البرتقال من الشرق الأقصى حرة وبريئة وكريمة فيعيد زراعتها شعوب الشرق الأوســط ، ويتمتع العالم كله بمذاق وفائدة هذه الثمرة وتلك ، أم أن تنتج أمريكا وأوروبا أدويــة لا شــفاء بدونها لمرضى الإيدز والملاريا والسل وتمنع إعادة إنتاجها فى دول هى فى أمس الحاجة إليها بحجة حقوق الملكية الفكرية . فى الزمن القــديم ازدهرت الحياة بفضل حرية انتقال الاختراعات ، وفى الزمن الحاضر يموت مئات الألوف بسـبب تقييد حرية انتقال السلع والمنتجات .

يتأكد يوما بعد يوم أن الحضارة والقيم الحضارية ليست بالضرورة ما يزعم أهل زماننا . هى شىء آخر أرقى وأعمق . ■

فيلبي وكتاب

قلب الجزيرة العربية

بقلم
د. صبري محمد حسن

اسمه هاري Harry سينت st. جون John بردجر Bridger فيلبي philby ، وهو مستكشف، مؤلف بريطاني ولد في عام ١٨٨٥ الميلادي، أي قبل أن يبدأ بالجريف رحلته «وسط الجزيرة العربية وشرقها» بعام واحد، ومات في عام ١٩٦٠ الميلادي. هذا يعني أن هذا المؤلف الرصين عاش حوالي خمسة وسبعين عاما. وفي عام ١٩١٧ الميلادي، أي عندما كان في الثانية والثلاثين من عمره التحق بالعمل في وزارة الخارجية البريطانية، وأوفد في مهمة خاصة إلى الجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التي تشكلت مؤخرا للمشاركة في المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، الذي يعرفه العرب باسم ابن سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣).

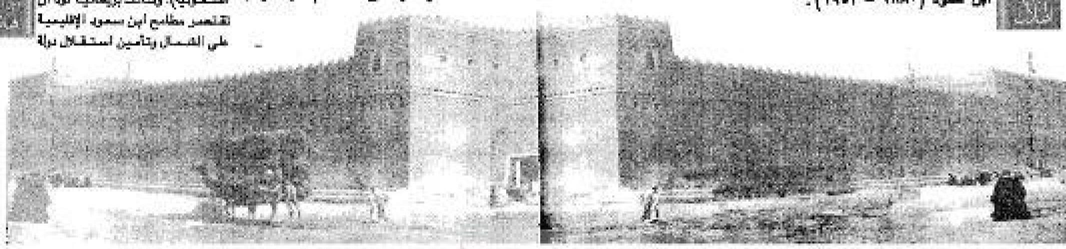
كان هدف البعثة الرئيسي هو مناقشة ابن سعود في الرياض في إمكانية تجريد حملة عسكرية على حائل، التي كانت حليفا لتركيا في ذلك الوقت، ومناقشة بعض المسائل الخاصة بكسر الحصار الذي كان مفروضا على الكويت من قبل البريطانيين لوقف استيراد البضائع من الخليج ومنع وصولها إلى الأتراك وحلفائهم، وكان من بين أهداف تلك المناقشات البحث عن وسائل لتهدئة العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين في مكة، استهدافا لضمان اشتراك الشريف حسين في الثورة العربية على الأتراك ودعم انسلاخه عنها.

وبالرغم من نجاح فيلبي في اقناع ابن سعود (وذلك على العكس مما نصحه به شعبه) في تجريد حملة على حائل إلا أن السياسة البريطانية الرسمية طويلة الأمد لم تكن تتفق أو



مؤلف الكتاب

تتطابق تماما مع سياسة ابن سعود. إذ كانت بريطانيا تريد للحاكم السعودي هو والشريف حسين في مكة أن يعيشا في سلام ووفاق ووئام (إلى حين واصل ابن سعود في عشرينيات القرن العشرين ضم الحجاز وبعض المناطق الأخرى ليكون دولة موحدة هي السعودية). وكانت بريطانيا تود أن تقتصر مطامع ابن سعود الإقليمية على الشمال وتأمين استقلال دولة



شرق الأردن الجديدة (الأردن حاليا)، وبذلك تكون تلك السياسة هي أنجح السياسات. ومع ذلك، أحس فيلبي بالصدمة والاستياء عندما نقض البريطانيون وعودهم ورفضوا امداد ابن سعود بالمال والسلاح. وكان السبب في ذلك أن الحملة المزمع قيام ابن سعود بها على حائل أصبحت غير ذات بال بعد استيلاء البريطانيين على كل من القدس ودمشق. وبالرغم من كل ذلك، تواصلت علاقة الاحترام المتبادل والصداقة بين ابن سعود وفيلبي سنوات طويلة بعد ذلك. وبذلك يصبح فيلبي أول أوربي يزور المناطق الجنوبية من نجد. والغريب في الأمر أن ذلك الرجل عمل طوال مايقرب من ثلاثين عاما، مستشارا لابن سعود، ملك السعودية.

كان فيلبي مستشرقا مستعربا بارزا، سافر إلى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وسرعان ماذاع اسمه وصيته، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أمضى بضع سنوات في استكشاف السعودية، ووضع مجموعة من الكتب هي التي فتحت شبه الجزيرة العربية المجهول أمام القراء في كل أنحاء الدنيا. زد على ذلك، أن النسخ الخاصة التي احتفظ بها في مكتبته، وكذلك للطبعات النادرة من كتاب «جنوبي نجد» على سبيل المثال، والذي طبع منه في القاهرة مائة نسخة في عام ١٩١٩، وكذلك كتاب «الربع الخالي» الذي طبع في لندن في عام ١٩٣٢ الميلادي، اضافة أيضا إلى مجموعة كبيرة من الكتب الكثيرة التي كانت في مكتبته، ومن بينها الكتاب الذي كتبه ولستد wellsted عن أسفاره وترحاله في الجزيرة العربية، والذي نشر في لندن في عام ١٨٤٨، كل هذه الكتب الكنوز موجودة حاليا في جامعة جورجيتون George town، التي تلقت تلك الكتب هي وكتب وأبحاث أخرى هدية من السيدة هوب هيدلي Hope Headly ابنة روبرت ولستد Robrt Wellsted هيدلي. وبعد أن أسلم فيلبي أطلق على نفسه اسم عبدالله فيلبي، وكتب كتابا عن «هارون الرشيد» نشرته دار بيتر ديفز ليمتد في عام ١٩٣٣، كما كتب كتابا آخر بعنوان «الحاج فيلبي» وكتابا أيضا بعنوان الجزيرة العربية في ظل الحكم الوهابي».

وجديد فيلبي الذي رحل عنا منذ ما يقرب من اثنين وأربعين عاما أن صالة سوزبي للمزادات في لندن، عرضت للبيع في اليوم العاشر من شهر مايو من عام ٢٠٠١ الميلادي، ثماني عشرة رسالة بالغة الأهمية، لم يسبق نشرها،

وحددت لها ثمنا يتراوح بين ٨٠٠٠٠ و١٠٠٠٠٠ جنيه استرليني. وهذه الرسائل كلها تقريبا معنونة إلى السير Sir بيرسي PERCY كوكس Cox المفوض المدني في بلاد الرافدين في ذلك الوقت، كما يتعلق أيضا بالمهمة التاريخية التي قام بها فيلبي إلى الجزيرة العربية في أواخر الحرب العالمية الأولى. الأهم من ذلك أن تلك الرسائل لها صلة أيضا بتعاملات فيلبي مع عبدالعزيز بن سعود الاسطوري، مؤسس السعودية وأول ملك لها، يضاف إلى ذلك، أن الرسائل تحكي بالتفصيل عن أول رحلة يقوم بها رجل من الغرب إلى جنوب نجد وعن قبيلة الدواسر الموجودة في تلك المنطقة. وفيلبي، في تلك الرسائل، يعلق بين الحين والآخر على النجاح وكذلك على الفشل الذي أصاب معاصره لورانس الذي أطلق عليه اسم «لورانس العرب».

والقسم الأكبر من تلك الرسائل، يغطي الفترة من شهر يونيو من عام ١٩١٨ الميلادي إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبي في فترة متأخرة، أي في عام ١٩٢١ - ١٩٢٢ الميلادي.

وترجع الأهمية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم، من ناحية، صورة حية لفراسة فيلبي ونفاذ بصيرة بريطانيا في مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد، من ناحية ثانية، قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبي إلماما وثيقا ودقيقا بالشئون العربية، كما توضح من ناحية ثالثة، رأيه الشخصي والصريح في أولئك الناس الذين تعرفهم تعرفا جيدا ووثيقا ، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبي في استكشاف المناطق المجهولة، وابراز مشاعر الود والاحترام والولاء التي كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية في بداية تأسيسها ومع ذلك يظل كتاب «قلب الجزيرة العربية» موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من كل أعمال وكتابات فيلبي.

قلب الجزيرة العربية

إذا كان بالجريف، صاحب كتاب «وسط الجزيرة العربية وشرقها». قد تنكر في زي طبيب مزيف، عجزت السلطات المحلية كلها عن اكتشاف حقيقته، مما جعله يتمكن من جمع مادة كتابه بعيدا عن أعين السلطة وعن رقابتها، ليخرج على القراء وعلى الباحثين وعلى المهتمين بشئون الجزيرة العربية، في ذلك الوقت، بكتاب ينطوي على مادة غزيرة جمعها ذلك





الهفوف : سوق الخميس في يوم السوق وأعمدة القيسارية على اليسار ، وأسواق الكوت على اليمين

الرجل، من أفواه الناس، إذا كان بالجريف قد بعد عن أعين السلطات المحلية تخوفا منها وتجنبا لها فإن فيلبى philby فى كتابه «قلب الجزيرة العربية»، الذى نشره فى عام ١٩٢٤ الميلادى عن «القسم الأول فقط من تجوالى فى الجزيرة العربية، والذى انتهى بعودتى إلى العاصمة الوهابية بعد رحلة قمت بها فى صيف العام ١٩١٨ الميلادى إلى المناطق الجنوبية، جمع مادته العلمية تحت أعين السلطة، وهذا لا يعنى أن الرجل كان يتحسب لتلك السلطة أو يحاول التزلف إليها، وإنما كان الأمر عكس ذلك تماما، إذ كان فيلبى مطلوبا من السلطة ومرغوبا فيه أيضا

والغريب فى الأمر أن فيلبى كان مساعدا للقائد العام للقوات البريطانية المتمركزة فى بغداد فى ذلك الوقت، كانت تركيا وألمانيا قد بدأتا تتقاربان تقاربا شديدا، مما عكر صفو بريطانيا العظمى وجعلها تتخوف من ذلك التعاون وتعمل له ألف حساب وحساب، ولذلك كان الهدف الرئيسى لفيلبى عندما نوى السفر إلى الرياض، هو العمل على استعداء القيادات المحلية ممثلة فى الشريف حسين، فى الحجاز، وابن سعود فى الرياض على الأتراك وقواتهم من ناحية ، وإحكام الحصار



جلوى وابنه سعود والمراسلون يقفون فى الخلف

حول الحاميات التركية التى كانت فى الاحساء وفي الجنوب من الناحية الأخرى.

كانت بريطانيا قد أنعمت على الشريف حسين بلقب «ملك الحجاز»، الأمر الذى أثار حمية ابن سعود وأغاظه، وهنا حاولت بريطانيا اللعب على حبل التوتر بين الشريف حسين، وابن سعود استهدافا لتحقيق الهدف الرئيسي، والمؤسف ان الحكام المحليين لم يدركوا ذلك، أو يفطنوا إليه، ولذلك استطاعت بريطانيا توظيف جهود الشريف حسين لتحقيق مآربها، ثم لعبت على حبل الخلاف بين الشريف حسين وابن سعود مما أسفر عن هزيمة الثاني للأول بتحريض من بريطانيا.

كان ابن سعود، كما يقول فيلبي، قد وقع اتفاقية رسمية مع بريطانيا فى العام ١٩١٦ الميلادي، واعتمادا على تلك المعاهدة وجه ابن سعود ضرباته إلى الحاميات التركية الموجودة فى الأحساء وفي الجنوب مما أسفر عن جلاء الأتراك عن بلاده، وبخاصة بعد أن تورطت تركيا فى أتون الحرب إلى جانب ألمانيا.

كسر شوكة ابن الرشيد

وبحكم المعاهدة الرسمية ومن باب



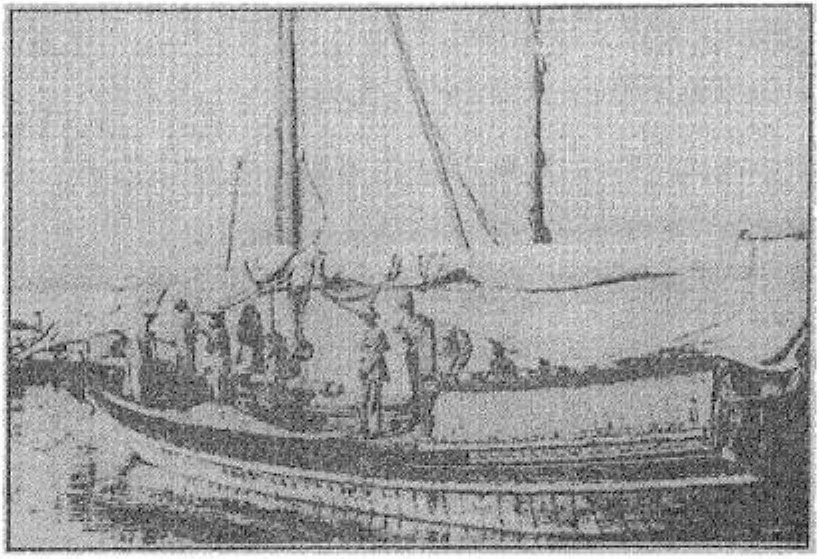


بعض الذين صاحبوا المؤلف فى رحلته التى قام بها عبر الجزيرة العربية : الوقوف من الشمال الى اليمين هم : مطليغ ، تامى ، ابراهيم ، المؤلف ، سعد ازماى ، حيلان ويدر : الجلوس - شايا ، سعيد ، ابن ناصر ، ابونوره ، جرمان

اللعب على حبل الخلاف مع الشريف حسين من ناحية، ومن باب التلويح باستقلال العرب وإعطائهم حقوقهم من الناحية الأخرى، أصبح فيلبى، مرغوبا من الطرفين، ولم يغب عن بال فيلبى، حسب الخطط الموضوعة، أن يعمل على كسر شوكة ابن الرشيد ، فى حائل، فى شمال الجزيرة العربية، نظرا لأن حائل كانت تناصر الأتراك.

والغريب فى الأمر أيضا، أن فيلبى زار الرياض مرتين: المرة الأولى اتجه منها مع ركب وفره له ابن سعود، إلى جدة كى يلتقى الشريف حسين بعد أن أنعمت عليه بريطانيا العظمى بلقب «ملك الحجاز»، ولكنه كان يطمع فى لقب «ملك البلاد العربية» الأمر الذى أغضب بريطانيا، وأثار حمية ابن سعود، الذى أصر على مخاطبته بلقب «ملك الحجاز». وعندما التقى فيلبى الشريف حسين، ولم يصل مع الأخير إلى تحقيق مبتغاه أصر الشريف حسين على ألا يعود فيلبى إلى الرياض بطريق البر، وإنما عن طريق البحر، وذلك على سبيل تحقيره والانتقام منه.

ويعود فيلبى إلى بريطانيا ليواجه بإصرار مليكها على عودته مرة أخرى إلى بغداد ومنها إلى الكويت ، ومن

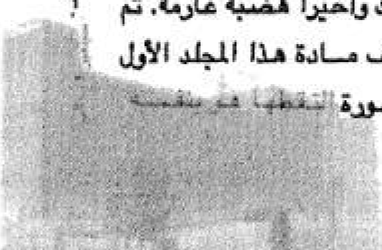


الدهو، وعليه البعثة البريطانية ، تقطره السفينة التجارية لورانس احدى سفن صاحب الجلال ، في حين يقف العقيد كينلف في المنتصف

الكويت على رأس وفد صغير إلى الرياض فى شهر أكتوبر من عام ١٩١٧ الميلادى، حيث يبقى إلى جانب ابن سعود فترة من الوقت انتظارا لتنفيذ المطلوب، ويستغل فيلبى الوقت المتاح فى القيام برحلة إلى الجنوب، ظاهرها الاستكشاف، وباطنها الوقوف على حقيقة الأمور فى تلك المنطقة بعد جلاء الأتراك عنها، وكذلك الوقوف أيضا على مسألة احكام الحصار ووقف تهريب المؤن للقوات التركية المشاركة فى القتال.

يجمع فيلبى مادته العلمية تحت أعين السلطة ودون اعتراض منها ليكتب كتابا فى مجلدين، يكشف فيهما الكثير مما كان يدور فى تلك المنطقة، وعن أهلها، والتيارات القوية والضعيفة فيها، وكلمة ابن سعود التى كانت نافذة ولها مكانتها فى تلك الأماكن.

قسم فيلبى المجلد الأول إلى ستة فصول: عتبة الجزيرة العربية، الصحراء الشرقية، العاصمة الوهابية، طريق الحج، والأراضى المقدسة، ثم ظهير الفرات وأخيرا هضبة عارمة. ثم يعزز المؤلف مادة هذا المجلد الأول بأربعين صورة التقطها في رحلته





العقيد ر . أى. ايه هاميلتون الي اليسار ومعه فهد من الحرس الملكى فى الرياض

كبيرة فى وسط الجزيرة العربية، ولكن بعض المستكشفين اثبتوا عدم صحة ذلك. يضاف إلى ذلك، أن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن أفادت كثيرا من دقة فيلبى فى الوصف، والتى مكنت المتخصصين فى تلك الجمعية من توقيع تلك المعطيات والأوصاف على خرائط دقيقة بعد ذلك، وفيلبى نفسه يقول: تمكن خبراء الجمعية الجغرافية الملكية من الإفادة من بيانات تجوالى المفصلة فى إعداد ورسم خرائط مناسبة لذلك البلد الذى ظل حتى ذلك الحين موقعا على الخرائط من واقع معلومات من الدرجة الثانية.

والمجلد الثانى يشتمل على أربعة فصول: الخرج، الأفلام، عتبة الوادى، وحاجز هضبة الطريق، وينهب فيلبى المجلد الثانى بملحق عبارة عن مقتطفات من تقريره أعده ر. ب. نيوتن. من المتحف البريطانى، عن مجموعة من الحفريات جرى الحصول عليها من وسط الجزيرة العربية (جبل طويق)، ويضيف ملحقا آخر بالمصطلحات والكلمات والتعبيرات العربية التى وردت فى الكتاب. وإمعانا من فيلبى فى تأكيد الحقائق التى أوردها يعزز المجلد الثانى بثمانى صور التقطها هو شخصيا لبعض لبعض الأفراد والأشياء والأماكن ذات الصلة بموضوع الكتاب.

دقة فيلبى فى الوصف

ويتناول فيلبى، فى الفصل الأول، بالوصف الدقيق الطريق من البحرين إلى العقير، ثم يبدأ بعد ذلك فى الإسهاب فى وصف العقير نفسها، ثم يصف بعد ذلك الطريق من العقير إلى الأحساء، التى يسهب أيضا فى وصفها. ترى لماذا لجأ فيلبى إلى الإسهاب فى الوصف؟ معروف أن كل من سبقوا فيلبى لم تكن معلوماتهم أو معطياتهم من الطراز الأول، أن بعض من سبقوه كانوا يقولون بوجود بحيرة

الأماكن والمعالم التى تخدم موضوع كتابه القيم.

لم يغب عن بال فيلبى أن يعزز ذلك المجلد بخارطتين أحداهما لجنوب نجد، وتبين الطرق والمسارات فيما بين الرياض ووادى الدواسر، وذلك من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيا. والخارطة الثانية لوسط الجزيرة العربية، وفيها يبين الطريق الذى سلكه من الخليج العربى إلى البحر الأحمر، وذلك أيضا من واقع المسح الذى قام به فيلبى شخصيا. وامعانا أيضا من فيلبى فى نسب الفضل إلى أهله، أقر فى تصدير المجلد، بأن أساتذة وفنيي الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية هم الذين ساعدوه على الوصول بخرائطه إلى الشكل الذى هى عليه فى الكتاب.

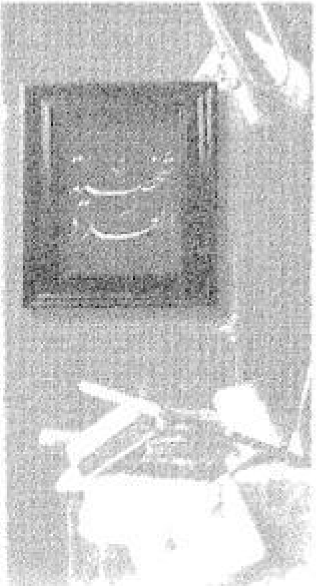
وفيلبى إذا كان قد قرأ كتاب بالجريف قبل أن يقوم هو برحلته، إلا أنه لم يغب عن باله أن يخصص حوالي خمسين صفحة أو ما يزيد على ذلك قليلا، لمناقشة بعض المقولات، وبعض التعبيرات التى وردت عند بالجريف. والفارق هنا كبير بين هذا وذاك نظرا لأن بالجريف ادعى أن قسما كبيرا من المادة العلمية التى جمعها ضاعت منه فى حادث انقلاب القارب الذى وقع له، وأنه كان يكتب معتمدا على الذاكرة، أما فيلبى فكان على العكس من ذلك، لديه الأدوات التى - برغم عدم كفايتها - مكنته من جمع مادة دقيقة إلى حد بعيد جدا. يضاف إلى ذلك أن السلطات المحلية كانت تتودد إليه وتسترضيه. ولذلك كان حرا فى تجواله وفى تنويع المصادر التى كان يجمع منها مادته ومعطياته.

ولا يسعنا إلا أن نقول: إن كتاب فيلبى يغطى فترة زمنية غاية فى الأهمية، هى فترة الحرب العالمية الأولى والصراع الذى دار فى تلك المنطقة بين تركيا وبريطانيا من جهة، وبين السلطات المحلية والحاميات التركية من جهة ثانية، والصراع الذى دار بين حائل، بحكم موالاتها للأتراك، والقوى المحلية من جهة ثالثة.

والمهتمون بتاريخ تلك الفترة الزمنية الدقيقة، فى تلك المنطقة بالذات التى هى بمثابة الدماغ من الجسم البشرى المتمثل فى الجزيرة العربية يجدون، فى كتاب فيلبى، الكثير من الحقائق الخفية والمهمة أيضا.

ولو قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجما على يدى ناشر محترم فسوف يشكل إضافة قيمة إلى المكتبة الخليجية فى المقام الأول ثم المكتبة العربية فى المقام الثانى. ■





الدكتور

جورج أبي صعب

بقلم
شكري فؤاد

تلقيت فى شهر فبراير عام ٢٠٠١ دعوة من المعهد الجامعى للدراسات الدولية العليا بجنيف لحضور ندوة تقام يومى ٢٢ و٢٣ من مارس ٢٠٠١ على شرف الدكتور جورج أبى صعب أستاذ القانون الدولى بالمعهد بمناسبة بلوغه سن التقاعد فلبيت الدعوة سعيدا بأن أشارك فى هذا التكريم الذى يناله، عن استحقاق، أستاذ مصرى عالمى مرموق.

استلفت نظرى فى هذه الندوة الأسلوب الراقى والطابع العلمى الأكاديمى للاحتفاء بأستاذ عالم، فلم يتناوب الخطباء على الحديث عن المحتفى به يكيلون له عبارات المديح التقليدية الرثة المستهلكة كأننا فى حفل تأبين، ولم يتحدث أصدقاؤه وتلاميذه عن استاذيته أو علمه أو رعايته لهم مع أن هناك الكثير الذى يمكن يقال فى هذا المجال، إنما اختار المعهد موضوعا تدور حوله الندوة هو العدالة الاجتماعية والقانون الدولى وهو أحد الموضوعات التى اهتم بها جورج أبى صعب فى حياته الاكاديمية وله فيه إضافات واسهامات يعرفها كل مشتغل بالقانون الدولى.

وقد شارك بالحديث في الندوة مجموعة من أبرز أساتذة القانون في جامعات ومعاهد سويسرا وفرنسا واليونان وإيطاليا والولايات المتحدة واستراليا واليابان وبعض قضاة محكمة العدل الدولية في لاهاى استغرقت محاضراتهم جلستين سادتهما الروح العلمية فكان اسم جورج لا يذكر إلا عند الاشارة إلى اسهامه الفكرى في الموضوع الذى يتناوله المحاضر وفى الجلسة الثالثة والأخيرة القى الدكتور بطرس بطرس غالي محاضرة عن الديمقراطية والقانون الدولي ثم تقدم الدكتور جورج ليلقي ما أطلق عليه اسم الدرس الأخير أو محاضرة الوداع باعتبارها آخر محاضرة دراسية يلقيها بالمعهد، وفي الختام أعلن مدير المعهد إطلاق اسم جورج على إحدى القاعات وهى المرة الأولى التى يطلق فيها اسم أستاذ مازال على قيد الحياة على قاعة بالمعهد ولم تغب مصر عن المشاركة فى هذا التكريم فاقامت السفيرة فايزة أبو النجا - سفيرة مصر بجنيف في ذاك الوقت ووزيرة الدولة للشئون الخارجية الآن - حفل استقبال بمقر سكنها دعت إليه كل من حضر الندوة ورؤساء البعثات الدبلوماسية فى جنيف ولا يفوتنى أن أقول إن الاحتفال كان على الطريقة السويسرية فالجلسات تبدأ وتنتهى فى موعدها بالضبط ووجبات الغداء والعشاء يدفع ثمنها المشاركون بعيدا عما ألفناه فى مصر من إقامة الندوات فى فنادق الخمس نجوم.



***

والدكتور جورج أبى صعب مصرى ولد بالقاهرة عام ١٩٣٣ لأبوين مصريين ترجع أصولهما العائلية إلى لبنان أتم دراسته الثانوية في مدرسة مصر الجديدة الثانوية عام ١٩٥٠ والتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ونال منها درجة الليسانس عام ١٩٥٤ وإذ كان متفوقا فى دراسته حصل على منحة



○ انتماء جورج الوطني لمصر والقومي للعروبة والدولي للعالم الثالث وحركات التحرر الوطني: كان هو الركيزة الأساسية لتوجهاته مهنيا وفكريا

لدراسة الاقتصاد في جامعة متشيجان بالولايات المتحدة عام ١٩٥٦ وبعد درجة الماجستير ينتقل إلى جامعة هارفارد ويتجه إلى دراسة القانون الدولي فينال درجة الدكتوراه منها عام ١٩٦٢، ويذهب إلى جنيف في مهمة علمية فيتلقى عرضا للتدريس لفترة محدودة في المعهد الجامعي للدراسات الدولية العليا وهناك يلتقي بشريكة حياته السويسرية السيدة الفاضلة روز ماري فيستقر في جنيف كأحد أعضاء هيئة التدريس بالمعهد ويحصل منه على درجة ثانية للدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٦٧ وكان قد نال قبل ذلك دبلوم أكاديمية القانون الدولي في لاهاي عام ١٩٦٤ وهو أول مصري يحصل على دبلوم الأكاديمية وفي عام ١٩٦٩ يصبح أستاذا للقانون الدولي بالمعهد ويستمر في هذا المنصب حتى عام ٢٠٠١ ليتوقف عن التدريس والمحاضرات ويستمر في عطائه العلمي مشرفا على رسائل طلبة الدكتوراة طبقا للنظام الذي يأخذ به المعهد مع أساتذته الذين يبلغون سن التقاعد.

****

كانت سنوات التكوين الأولى لجورج أبي صعب هي الفترة بين منتصف الأربعينات ومنتصف الخمسينات من القرن الماضي والساحة المصرية تموج حينئذ بمختلف التيارات السياسية والاجتماعية فانخرط في العمل السياسي بالأسلوب الذي يناسب طبيعته الهادئة المتزنة التي تعمل الفكر والتحليل بعيدا عن الصخب وحب الظهور والأضواء الزائفة والزبد الذي يذهب جفاء، ومنذ البداية كان اختياره واضحا وانحيازه حاسما مع المستضعفين ضد الاستغلال بكافة أشكاله السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلى جميع مستوياته استغلال الفرد للآخرين وقهر الحكومات للشعوب واستنزاف الدول الاستعمارية ومؤسساتها المالية والاقتصادية للدول النامية، ويستمر على هذا

الموقف طوال حياته فكان انتماؤه الوطني لمصر والقومي للعروبة والدولي للعالم الثالث وحركات التحرير الوطني هو الركيزة والمعلم الأساسي لتوجهاته في حياته المهنية والفكرية، فوظف قدراته الأكاديمية للدفاع عن هذه القضايا التي آمن بها والمبادئ التي اعتنقها وأصبح واحدا من أبرز القانونيين - أن لم يكن أبرزهم - الذين أغنوا المدرسة الاجتماعية في القانون الدولي بعلمهم وهي المدرسة التي تبنت قضايا العالم الثالث ودافعت عنها أمام اساطين القانون الغربيين فكان جورج هو صوت الدول النامية والمنظر لوجهات نظرها فيما يطرح من موضوعات واستوعب التغيرات الكمية والكيفية على الساحة الدولية التي أحدثتها حركة تصفية الاستعمار والنضال من أجل التحرر الوطني بازدياد عدد الدول المستقلة في المجتمع الدولي من ناحية وبظهور مصالح ومطالب لهذه الدول الحديثة تقتضي من ناحية أخرى أن تشارك في عملية تطوير قواعد القانون الدولي التي كانت حتى ذلك الوقت وقفا على المركزية الأوربية ويذكر له دائما أنه عندما كان عضوا في الوفد المصري الرسمي إلى مؤتمر الخبراء الحكوميين ثم المؤتمر الدبلوماسي لتقرير وتطوير قواعد القانون الإنساني الواجبة التطبيق في المنازعات المسلحة الذي استمرت أعماله بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٧ تم اختياره متحدثا رسميا باسم مجموعة عدم الانحياز في موضوع حروب التحرير الوطنية فكان المنظر لمشروعية هذه الحروب ولطبيعتها الدولية وانها ليست حروبا أهلية وبالتالي فإن اتفاقيات جنيف وملحقاتها تنطبق عليها.

وإلى جانب نشاطه الأكاديمي فإن جورج قاض ومحكم دولي معروف تم اختياره قاضيا خارجيا في محكمة العدل الدولية في لاهاي مرتين في قضيتين من قضايا نزاع الحدود بين بعض الدول الأفريقية، وهو كمحكم دولي يأخذ دائما جانب الدفاع عن مصالح الدول النامية في مواجهة الشركات المتعددة الجنسية العملاقة وينجح دائما في أن يوائم بين المبادئ والممارسة والنظرية والتطبيق ولعل هذا هو سر السلام مع النفس الذي يتمتع به ويعرفه عنه كل من صاحبه.

عرفت جورج أبي صعب عام ١٩٧٩ عندما نقلت للعمل في بعثة مصر

الدائمة لدى مقر الأمم المتحدة فى جنيف وكان السفير عبدالرءوف الريدى قد نصحنى قبل سفرى بالاتصال بجورج والتعرف إليه وحالت ظروف ومتطلبات الاستقرار الأول فى مدينة جديدة دون ذلك فور وصولى حتى التقيت به فى عشاء عند الدكتور محمد البرادعى مدير وكالة الطاقة الذرية فى فيينا الآن، وكان يعمل فى البعثة المصرية فى جنيف فى ذلك الوقت، فكان هذا اللقاء بداية صداقة وطيدة اعتز بها زادها وثاقة وصول السفير الريدى فى العام التالى إلى جنيف كمندوب دائم لدى الأمم المتحدة فأصبحنا لسنوات متتالية نقضى نحن الثلاثة مع أسرنا أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من إجازات العام الجديد (ديسمبر – يناير من كل عام) فى منتجع شتوى بأحد جبال سويسرا نعيش عيشة مشتركة يتولى الأعداد لها وتنظيمها جورج وزوجته روز ماري وكنا نقول له دائما أنه نجح فى أن ينقل قطعة من مصر إلى قمم جبال الألب فالأحاديث والمناقشات والمطارحات تدور دائما حول الشأن العام المصرى والعربى سواء فى السياسة أو الأدب أو الفنون، والموسيقى العربية لا تنقطع عن المنزل وأفلام الفيديو المصرية هى تسلية المساء وصوت عبدالحليم حافظ مطرب التوبة وقارئة الفنجان.. إلخ وجورج يقول إن هذه الأسابيع هى الزاد المصرى الذى يعيش عليه باقى العام، وكانت هذه الاجازات من أسعد أيامى فى سويسرا بالرغم من الخضوع فى كثير من الأحيان للنظام الصارم والتخطيط المحكم الذى يفرضه علينا جورج وروز ماري.

والواقع أن جورج وإن كان قد غادر مصر ليعيش خارجها منذ عام ١٩٥٦ فإن مصر ظلت دائما فى سويداء القلب منه، يأبى أن يحصل على جنسية أخرى غير جنسيته المصرية ويحمل جواز سفر واحد هو جوازه المصرى يزور مصر مرات كل عام ويحرص على متابعة كل ما يجرى فيها، يأتى محملا بالهدايا



○ كان جورج - بالإضافة إلى نشاطه الأكاديمي - قاضيا ومحكما دوليا، اختارته محكمة العدل الدولية في لاهاي مرتين في قضايا نزاع الحدود بين بعض الدول الإفريقية

ليعود محملا بآخر الاصدارات من الكتب والمجلات والأفلام يقضى وقته كله مع أصدقائه الكثر ويترك منزله فى القاهرة مغلقا أغلب الأوقات ليقيم مع صديق شبابه الأستاذ سميح صادق حيث يستقبل زملاءه وتلاميذه المصريين الذين درسوا عليه فى معهد جنيف الذى أصبح اسمه عندهم معهد جورج أبى صعب وجميعهم يبادلونه وفاء بوفاء وحبا بحب.

***

وجورج هو المحامى الدولى الدائم لمصر فى المحاكم والمحافل القانونية الدولية، كان مستشار الحكومة المصرية فى إجراءات طلب الرأى الاستشارى من محكمة العدل الدولية بلاهاى فى قانونية نقل المكتب الاقليمى لمنظمة الصحة العالمية من الاسكندرية إلى دولة عربية أخرى عقب توقيع اتفاقيات ١٩٧٩ مع اسرائيل ومقاطعة أغلب الدول العربية لمصر وأبلى فى مهمته بلاء حسنا فجاء رأى المحكمة مساندا لبقاء المكتب بالاسكندرية، ومثل مصر عند طلب الرأيين الاستشاريين من المحكمة نفسها حول شرعية استخدام دولة للأسلحة النووية فى نزاع مسلح وشرعية التهديد باستخدام أو استخدام أسلحة نووية.

أما أبرز أعماله دفاعا عن مصالح مصر وحقوقها فكان مشاركته فى تحكيم طابا، وإذا كان لم يشارك فى البداية فى المفاوضات المصرية الاسرائيلية لتسوية النزاع وذلك لتحفظات له على اتفاقيات كامب دافيد، فإن ذلك لم يمنعه من تقديم مشورته القانونية للمفاوض المصرى فلما فشلت المفاوضات ولجأت مصر إلى التحكيم شارك مع مجموعة من خيرة القانونيين المصريين فى الاعداد للتحكيم وكان العضو البارز فى هيئة الدفاع عن الموقف المصرى أمام المحكمين الذين نظروا فى النزاع وأعمل فكره وعلمه وفقهه بكفاءة عالية فى إعداد المذكرات والدراسات التى تدعم وجهة نظره وأخيرا فى مرافعته الشفوية أمام المحكمة فكان له دور بالغ الأهمية فى صدور الحكم لصالح مصر.

وهو إلى جانب هذا كله المستشار القانونى الفعلى لوزارة الخارجية المصرية تستدعيه للتشاور والاستئناس برأيه قبل اتخاذ قرار فى أى

موضوع مهم له صلة بالقانون الدولى، يقوم بهذا كله متطوعا قانعا بتقدير بلاده له وقد عرفت مصر مكانته وقدرت خدماته فمنحته وسام الاستحقاق وعندما طلب من الحكومة المصرية ترشيح أحد أبنائها لعضوية المحكمة الدولية لجرائم الحرب في يوغسلافيا اختارت جورج إلى صعب الذى ظل عضوا بالمحكمة حتى استقال بسبب ظروف عمله، وفي عام ٢٠٠٠ رشحته مصر لعضوية هيئة النقض لجهاز تسوية المنازعات في منظمة التجارة العالمية وهي أعلى هيئة تحكيم في المنظمة ففاز بالعضوية وأصبح بذلك واحدا من سبعة محكمين أو قضاة على مستوى العالم كله هم أعضاء هذه الهيئة.



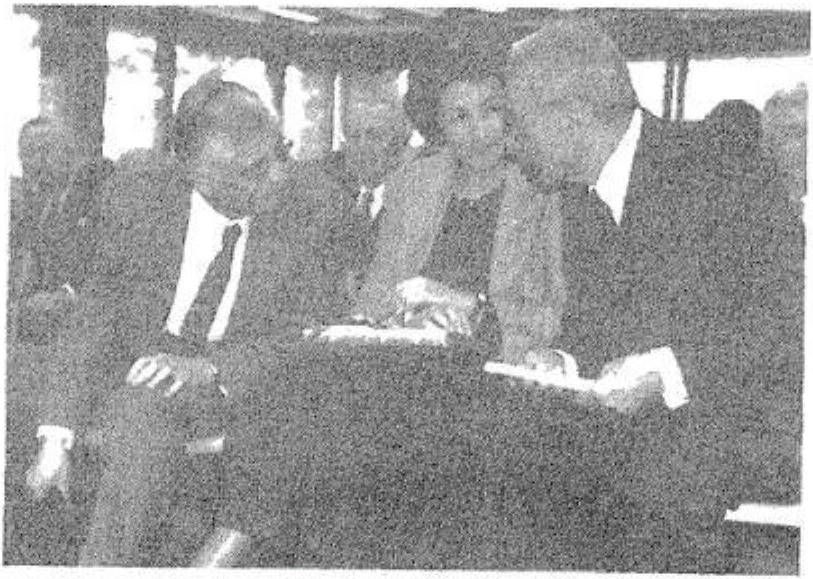
○ عرفت مصر مكانته فمنحته وسام الاستحقاق، فمتى يمنح جائزة الدولة التقديرية وقد نالها بعض من هم دونه في العلم والموهبة؟!

كما اختارته كلية حقوق جامعة القاهرة أستاذا متفرغا بها عام ١٩٩٧.

***

تقول الدكتورة فرجينيا ليرى الأستاذة بكلية هاستنج للقانون بجامعة كاليفورنيا: جورج أبى صعب ليس مجرد استاذ لامع أو قاض دولي أو كاتب ملهم في القانون الدولى فالأهم من ذلك بالنسبة لنا نحن تلاميذه أنه كان يتابع مسيرتنا المهنية ويرشحنا للمناصب المناسبة ويستمر في الاهتمام والتوجيه بعد التخرج وأصبح صديقا لنا منذ تتلمذنا على يديه ولذلك لم يكن غريبا أننا أصبحنا نشكل حلقة (من المريدين) يجمع بيننا تأثرنا به ونحن نشق طريقنا في مجال القانون الدولي وشعورنا الدائم بالامتنان العميق له.

يذكرني جورج أبى صعب في علاقته بطلبته بما نقرأه عن شيوخ طوائف الحرفيين في القاهرة المملوكية والعثمانية فهو بالنسبة لطلبته شيخ القانونيين الدوليين، وكما كان قبول عضو جديد بإحدى الطوائف الحرفية يتم بمراسم يتولاها شيخ الطائفة تبدأ بحفل الالتحام عندما ينضم الصبى لأول مرة إلى



جورج وقرينته روز ماري مع د. بطرس غالي قبل « الدرس الأخير »

الطائفة ثم يليه حفل العهد ويتدرج إلى حفل الشد وأخيرا يحصل الصبي وقد أصبح رجلا على الاذن من شيخ الطائفة بمزاولة المهنة وبتعليم غيره حرفته بعد أن صار أسطى. فكذلك يفعل جورج مع طلبته الذين يختارهم بعين الخبير المتمرس يقوم بدور شيخ الطائفة ليبدأ بالأخذ بأيديهم في مراحل الدراسة والاعداد للدكتوراه ثم يلازمهم بالاشراف والتوجيه ولا تنقطع صلته بهم بعد التخرج بل يستمر في رعايتهم يزكيهم للمناصب المختلفة ويرشحهم للوظائف المناسبة فانتشر طلبته من كل الجنسيات في أنحاء العالم أساتذة في الجامعات وعمداء للمعاهد وسفراء لدولهم يعترفون دائما بفضله ويكنون له كل محبة وتقدير وامتنان.

هذه عجالة عن هذا المصري الوطني النبيل لا أستطيع أن أختمها دون أن أتساءل كيف أخطأته جائزة الدولة التقديرية حتى الآن وقد نالها بعض من هم دونه في العلم والموهبة. ■

مازالت لوحات الجزار وندا تتربع على عرش الإبداع المصرى

بقلم
صلاح بيصار

فى عام ٢٠٠٠ أقيم معرض للفنان عبد الهادى الجزار (١٩٢٥-١٩٦٦) بمناسبة مرور ٧٥ عاما على ميلاده، وذلك بقاعة المرسم بمدينة نصر.. افترشت القاعة بأكثر من ٥٠ عملا بالحبر الشينى والجواش والألوان الزيتية.. هذا مع مجموعة من لوحاته الصرحية التى تعد من أهم أعماله، من بينها «فرح زليخة» وبورتريه «تأمل» للسيدة زوجته ولوحة «البقعة المجهولة».

ووقت أن كان المعرض مقاما عرض ربع مليون جنيه لاقتناء «زليخة» لكن السيدة ليلى عفت حرم الفنان الجزار رفضت العرض مؤكدة أن «زليخة» و«المجنون الأخضر» ملك لأسرة الفنان ولا يمكن التفريط فيهما.



•فرح زليخة • للفنان عبد الهادى الجزار

تكررت هذه الواقعة مرة أخرى هذا العام لكن الطريف أن العرض تجدد من أحد رجال الأعمال على أن يدفع ٦٠٠,٠٠٠ جنيه للوحة الواحدة وقوبل أيضا بالرفض.. يؤكد هذا ابراهيم عبد الرحمن مدير قاعة «بيكاسو» للفن التشكيلي والخبير فى تقدير القيمة المادية للوحات المصرية .. ويضيف بأن لوحات الجزار في بورصة الفن التشكيلى هى أغلى اللوحات على الإطلاق من حيث التداول تليها لوحات حامد ندا التى تصل قيمتها إلى ١٢٠ ألف جنيه للوحة.. ويعد ذلك لوحات الجيل الأول والتى تصل قيمتها إلى ٥٠ ألف جنيه للوحة بالنسبة لأعمال محمد ناجى ويوسف كامل وأحمد صبرى وراغب عياد.. أما أعمال محمود سعيد فتصل قيمتها إلى ٨٠ ألف جنيه.

■ لماذا الجزار وقد؟

فى قمة التوهج وعبقرية الإبداع رحل عن دنيانا عبد الهادى الجزار عام ١٩٦٦ عن ٤١ عاما.. ورغم حياته القصيرة إلا انه ترك تراثا فنيا ضخما يتجاوز الـ٥٠٠٠ عمل فني.. تراثا كتب له البقاء والخلود.. وما أشبه رحلته فى الإبداع برحلة فان جوخ (مع فارق الشخصيتين) والذى ترك أكثر من ٢٧٠٠ لوحة ورسم فى رحلته القصيرة التى لم تتجاوز ٣٧ عاما.

ولقد تنوعت مراحل الجزار الفنية بدءا من مرحلة القواقع التى صور فيها الإنسان عاريا من كل شيء خارجا من قوقعة الزمن إشارة لبداية الحياة مسكونا بالألم والخوف والتساؤلات.

أما أعماله التى صور فيها الطقوس الشعبية فقد غاص فى الوجدان الشعبى المقهور بالخوف من المجهول أسير الهموم والأساطير والأحزان محاصرا بالتمائم والأحجبة والتعاويذ حتى أنه عند تأملنا للوحاته فى هذا الاتجاه يظل عالمه يرتعش بداخلنا ويصرخ فينا من فرط دراميته.. وقد جاءت لوحة «فرح زليخة» صورة لقوة السحر حيث تقف زليخة ممسكة بوردة ذات ورقة وحيدة خضراء تطل من اناء ومعها ابنتها الصغيرة المتوجة بالتعاويذ والتمائم ويقف القط مع تلك الخلفية التى تمثل جدارية شعبية تموج بوجوه آدمية متوحشة.. واللوحة أبدعها الجزار عام ١٩٤٨.

أما لوحة الجزار الشهيرة «المجنون الأخضر» والتى صورها عام ١٩٥١ فهى لواحد من مجاذيب الحسين يحمل وجها



«يوم جمع الثمار» للفنانه انجى افلاطون

أخضر مسكونا بوطأة المعتقدات الشعبية أسيرا للتعاويذ بقرط فى أذنه ووردة حمراء وخلفه حائط برسمين للكف وفى كل كف عين الحسود.. ينقلنا فيها إلى عالم من الرموز الشعبية التى تصور دراما الحياة من واقع الموالد الشعبية.

وفى لوحة «المتأملة» للسيدة زوجته أضاف على ملامحها عالمه الخاص حيث تتوحد الرموز بين توهج الألوان وخفوتها وبين الجلال والخشوع وهذه المسحة من السحر الصوفى الذى لا ينتهى.

أما عالم الفنان حامد ندا فهو ينتمى أكثر إلى مرح الحياة الشعبية أو الخيال الفنتازى الذى يأسرنا برشاقته وطرافته حيث نطالع نساءه الداكنات المسطحات فى استطالة شديدة وبضيق الخصر وتنفرد الأذرع فيتحولن إلى كائنات أشبه بفرسة النبى من خلال هذا الجسد المطوط والمسكون بالسحر والغموض مع مفرداته الشعبية العديدة: الديك والقط والحصان والعصفورة والسمكة والمفتاح وحبل الغسيل وعربة الروبابيكيا وكلها تمثل نداءات الحياة الشعبية.

• جيل الرواد

فى بورصة الفن وصلت القيمة المادية للوحة الواحدة من أعمال الجيل الأول إلى ٥٠ ألف جنيه من تلك الأعمال التى يقتنيها أفراد..فهى تمثل انطلاق الشرارة الأولى للإبداع المصرى والذى امتد بين البحث فى جذور تراث مصر القديمة واستلهام البيئة المصرية مع هذا المزيج من المؤثرات الغربية .

فى أعمال محمد ناجى امتزجت روح مصر التى تمتد من طيبة إلى الإسكندرية بوهج شمس الحبشة بحضارة العرب واليونان.. فكانت نهضة مصر «ايزيس» التى تقود الركب، وكانت صور الطبقات الشعبية ومناظر الريف الذى توحد فلاحوه مع حيواناته.

ويقودنا راغب عياد إلى هدير الحياة الشعبية من الزار والأسواق والمقاهى والحقول والحمامات الشعبية والأفراح والموالد والأديرة المنتشرة فى صعيد مصر بأسلوب تعبيرى مفعم بروح الفن القبطى.

ولقد أبدع أحمد صبرى فى التعبير عن مجتمع الطبقة الوسطى من خلال الصورة الشخصية فخرجت من الواقع الفوتوغرافى إلى واقع جديد..واقع فنى تحقق فى أبلغ صورة فى «الراهبة» و«بعد القراءة» وغيرهما من الصور.

ولقد ظهرت مصرية يوسف كامل حين صور بالنور معالم القاهرة القديمة وبهاء القرية بطيورها وحيواناتها الأليفة وأسواقها.. مع مناظره المسكونة بأريج الحقول من زهور البرسيم إلى رائحة الجميز.

لكن لوحات محمود سعيد والتى تصل إلى ٨٠ ألف جنيه للوحة فتبدو فيها ملامح من مصر متمثلة فى بنت البلد الممتلئة بالخصوبة وقوة الحياة.. مثلما هى فى «بنات بحرى» و«ذات العيون العسلية».

أما أعمال رائد التربية الفنية حبيب جورجى فتصل قيمة اللوحة إلى ٢٥ ألف جنيه وهى معزوفات لونية من مناظر الريف وأشجار الدوم والنخيل و السواقى والغروب على الجبل وأيضا لوحاته حول الأديرة وبيوت العبادة والتى تعد بمثابة تجليات صوفية بألوان غاية فى الاقتصاد من «مائدة الرهبان» ولوحة «داخل الدير».

• الجيل الثانى

أما لوحات الرائد حسين بيكار التى تتنوع من فن البورتريه «الصورة الشخصية» التى مزج فيها روحه الشفافة الحالمة فتألقت مسكونة بابتهالات الضوء.. إلى لوحات الحصاد والنوبة التى تمثل ايقاعات بصرية بألوان حاذقة من الرماديات والأسود والأبيض ومساحات من الأزرق والأخضر فتصل إلى ٢٠ ألف جنيه.

يقول ابراهيم عبد الرحمن: والحقيقة أن قيمتها أكبر من ذلك بكثير فهى تقدر بخمسين ألفا للوحة ولكن الأستاذ بيكار متواضع فى أسعار لوحاته.



دنيا البياتولا للفنان حامد ندا

وبالنسبة لرسومه واسكتشاته ودراساته فتبدأ من ١٠٠٠ جنيه.

ومن الجيل الثاني أيضا تصل لوحات كامل مصطفى وجمال السجيني إلى ٣٠ ألف جنيه ولقد بيعت هذا الموسم لوحة للفنان حسني البنان بـ ٥٠ ألف جنيه.. لوحة «مشهد ريفي» والتي تعد بمثابة ملحمة مرئية تغنى للريف المصري بالبشر من الفلاحين والفلاحات وحيوانات القرية مع النيل والنخيل والمراكب، ولقد تتلمذ البنان على يد الرائد يوسف كامل وربطت بينهما المصاهرة مع حب الحياة الشعبية والريفية ويتميز اسلوبه بالاتجاه التأثيري.

وتصل أعمال الفنان صلاح طاهر إلى ٥٠ ألف جنيه بالنسبة لأعماله الواقعية وأيضا أعماله التجريدية بمراحلها العديدة

وتنوعاتها من التعبيرية التجريدية إلى الغنائية الشكلية والتجريدية الرمزية.

وبالنسبة لوجوه صبرى راغب التى تطل بالحلم والرومانسية باتساع مشاعر وأحاسيس البشر فى لمسات ملونة أو بهجة من الهمس والنور والضياء وأيضا زهوره التى تعد بمثابة بورتريه آخر أشبه بالإنسان فتصل إلى ٢٠ ألف جنيه.

وفى أعمال حسن سليمان التى تجمع بين القوة والرصانة وأستاذية الأداء فلوحات الفحم تبدأ من ٢٥٠٠ جنيه والألوان ٦٥٠٠ جنيه أما لوحات الزيت فتصل إلى ٣٥ ألف جنيه.

ولقد صور رائد الباستيل الفنان محمد صبرى وجه مصر فى لوحاته لقاهرة المعز التى صور فيها سحر الدروب والأبهاء والمشربيات والمناظر الشعبية المسكونة بالباعة والحوانيت ومعها مناظر النيل والنخيل والجبال والريف المصرى.. تصل أعماله إلى ٢٠ ألف جنيه.

ورائد الفن الشعبى الفنان سيد عبد الرسول الذى يطل عالمه شديد الخصوصية والتعبيرية له ايقاعه الخاص الذى يموج بفنتازيا الألوان مع الأفراح المسكونة برقصات الخيل والتحطيب وعازفى الربابة والأرغول والمنشدين والرقصات الايقاعية لصبايا الريف وأيضا حاملات الجرار والعمل فى الحقل وصندوق الدنيا .. تلك الأعمال تقدر قيمتها بـ ٣٥ : ٤٠ ألف جنيه.

أما سيف وأدهم وانلى .. وقد أضاءا سطوح اللوحات بدنيا المسرح والسيرك والباليه فلوحات الأحبار والجواش من انتاجهما تقدر بـ ٧ آلاف جنيه أما الصور الزيتية فتبلغ قيمتها من ٣٠ :٤٠ ألف جنيه .. (٣٠ ألف بالنسبة لأعمال أدهم و٤٠ ألفا لأعمال سيف).

وفى أعمال عبد الوهاب مرسى تطل على مصر الزمن والتاريخ من خلال هذا الايقاع الذى يسكن روح الجداريات المصرية الفرعونية وصور الفن الشعبى.. تبلغ لوحاته التى يشكلها من الرمال ٤٠ ألف جنيه.

وتكمن قيمة أعمال جورج البهجورى التى تنتمى لمرحلة الستينات لهذا النبض الشعبى حيث تطل الوجوه بعيون شاخصة كوجوه الفيوم . تصل لوحات هذه المرحلة إلى ٢٠ ألفا أما أعماله الحديثة والتى جمع فيها بين التصوير الزيتى والكولاج وقصاقيص الخيامية فقيمتها من ٣ آلاف إلى ٧ آلاف جنيه.

ولوحات الفنان حامد عويس التى

صـورها بتلك الملامح البـارزة من قـوة الأيدى والأذرع والأقدام العملاقة والعيون المتسعة المتطلعة والأكتاف العريضة والتى تمثل ترنيمة بطلها الإنسـان.. واكسبت ثورة يوليو وباركت انجازاتها بالخطوط والألوان وتبنت أحلام الطبقة الصاعدة.. قيمة اللوحة ٢٥ ألف جنيه.

● لوحات الفنانات

ومارجوفيون المولودة بالقاهرة عام ١٩٠٧ من أم نمساوية وأب سويسرى التى تقـول عن لوحـاتهـا إنهـا رمـزية تجريدية ساخرة شيطانية أو أى شىء من الممكن أن نسميه ما دام يرتبط بسحر الفن. قيمة أعمالها ٤٠ ألف جنيه للوحة.

أما تحية حليم والتى تمثل مرحلة النوبة قمة أعمالها فتقدر بـ ١٥٠ ألف جنيه وبالنسبة للاسكتشات والدراسات فتبدأ من ٥٠٠٠ جنيه.

وتلتقى جانبية سرى مع إنجى أفلاطون فى القيمة فتصل قيمة لوحات كل منهما إلى ٢٠ ألف جنيه.

أما أعمال الفنانة فسيلا فريد التى نطالع فيها المرأة الكادحة من الحى الشعبى والتى صورتها فى حزنها وشقائها فى صمتها وهمسها وحيدة خارجة من خلفية اللوحة أو ممتزجة بها فى ألوان من الرماديات والأصفر والأزرق والأسود فتقدر بـ ٧٠٠٠ جنيه.

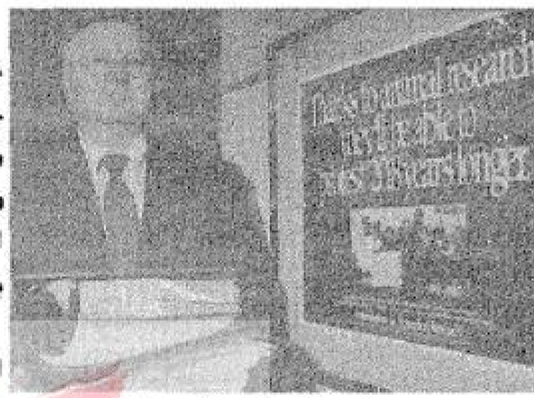
وتجىء لوحات الفنانة كاترين باخوم المصرية الأصل الفرنسية الجنسية والمقيمة بباريس خروجا من إطار الفن الاستشراقى فهى تصيغ بقلبها تلك الألحان التى تجمع بين القوة والهمس فيطل الانسان فى رياش من القفاطين والعباءات والسترات المطرزة بالقصب الذهبى والفضى كما لو أن ضوء الشمس يغمر طياتها تبلغ قيمة لوحاتها الصغيرة ٤٠٠٠ جنيه.

أما الفنانة زينب السجينى والتى تصور أحلام البنات فتصل لوحاتها من المقاس الكبير إلى ٣٠ ألف جنيه.

وتبقى أعمال جيل الشباب مثل عمر عبد الظاهر وعماد ابراهيم وفتحى عفيفى وخالد السماحى وتقدر قيمتها من ٢.٥ ألف:٧ آلاف جنيه.

وبعد.. تلك كانت إطلالة علي بورصة الفن التشكيلي والتي تمثل واجهة حضارية لمدي احترام المتذوق المصري للأعمال الفنية وهي تشير أيضاً إلي ملامح القيم التشكيلية ومؤشراتها المسكونة بالخصوصية والتي تجعل من العمل الفني نافذة مسكونة بالأضواء والظلال وسحر الحياة. ■

جماعات حقوق الحيوانات تحاصر جامعة أوهايو لإنقاذ القطط من الموت!!؟



د. برادلى نائب رئيس جامعة اوهايو للأبحاث والتجارب

فى البداية تدفقت الخطابات الغاضبة من أفراد وجماعات حقوق الحيوانات على جامعة أوهايو الأمريكية.. تهدد وتتوعد، وتطالب برأس الدكتور مايكل بودل والداعمين لمشروع البحث الذى يقوم به، لدراسة تأثير بعض العقارات فى الإسراع بالاصابة بمرض الايدز!.

ذلك لأنّ الدكتور بودل المشرف على هذا المشروع، يقوم بحقن القطط بهذا العقار، ويظل يتابع حالاتها لفترة، ثم يقوم بحقنها بعد ذلك بالسم حتى تموت بسرعة!.

لكن الأمر لم يتوقف على الخطابات ، وكل وسائل الاتصال الأخرى .. فقد تحدد الموعد بين هذه الجماعات منذ أسابيع.. وتجمع المئات، وحاصروا الجامعات ومركز الأبحاث.. ورابطوا أمام أبوابها.. ورشوا بيت مدير الجامعة باللون الاسود، وقاموا بتصميغ أبواب مبنى الإدارة واقفالها.. ووقفوا فى انتظار د. بودل أو غيره، لكنهم كانوا قد هربوا قبل الحصار!!

يقول جوردان كوهين رئيس الجمعية الأمريكية للكليات الطبية : إنه من المستحيل أن يتوقف البحث العلمى والتجارب المعملية .. لكننى أرى أنه يجب أن يتحول هؤلاء الباحثين إلى تماثيل صامتة.. فيقتلون فى أنفسهم كل شهوة نصر أو دعاية.. ويعلمون أنه قد كتب عليهم الصمت والصبر وروح التضحية!

د. بودل الذى وصله ١٢ تهديدا بالموت من حماة القطط وعشاقها، عمره ٤٤ سنة متزوج وله طفلان، يترقى فى مركزه الأكاديمى لنجاحه فى مشروعه الذى حصل له على منحة قدرها ١.٧ مليون دولار من معاهد الصحة الوطنية، صرح لجريدة

النيويورك تايمز طالبا عدم نشر صورته: سأتخذ القرار المناسب بالنسبة لي شخصيا.. سأترك الجامعة والعمل والبحث الطبي فورا.. سأضحي بمستقبلي الأكاديمي والبحثي انقاذا لحياتي والبحث والتجارب التي لاشك سيواصلها غيري بطرق أخرى مختلفة.. ذلك أفضل أيضا لأسرتي..

وقال: سأتجه للعمل في عيادة بيطرية لعلاج الحيوانات، لن تكون لي ولا باسمي،. سيكون ذلك في ولاية أخرى، واعفوني من ذكرها وتحديدها!.

يقول د. برادلي مور نائب رئيس جامعة أوهايو للأبحاث والتجارب: سوف لن نضع الكاميرات في غرف التجارب، سنعمل بهدوء.. لكن الذي أخشاه أن تتراجع بعض الجهات المانحة خوفا من جماعات التخريب العلمي هذه.. لكننا سنعمل بهدوء..

المعروف أن د. مايكل بودل قد أجرى تجاربه في مشروعه هذا الأخير على الإيدز، على ١٢٠ قطة، وهو يقول: سأستخدم خبرتي هذه في علاج القطط المريضة، ويوم أصل إلى علاج ١٢٠ قطة، أمل أن يصفح عني حماة القطط ويتركوني أربي أولادي وأرعى أسرتي!!

معركة فلسطينية إسرائيلية في عالم سمسم!!؟

الطريف أنها معركة تنافسية ودية، كانت ضمن ما اتفق عليه في أوسلو في إطار الصداقة والجوار «الحتمي» بين الجانبين.. وذلك أنه إذا كان هذا الجوار الحتمي يستتبع سلاما لا مفرّ منه، فإن البدء بالأطفال والتقريب فيما بينهم، هي الخطوة الأولى، إضافة إلى «فرض» العولمة الفكرية «المطلوبة» للإنسان الجديد في كل أنحاء هذا الكوكب!.

انه «عالم سمسم» الذي تموله ٨ جهات أمريكية، مع الاتحاد الأوروبي، وكندا.. بكل من اللغتين العربية والعبرية.. كان اسم البرنامج «شارع سمسم» باعتبار أن الشارع هو أفضل رمز للصداقة والاحتكاك والصداقة بين الأطفال ومعهم تلك «الدمى» التي تزيد ارتباط الشعبين من الأطفال.

البرنامج واجه مرحلة جديدة: الانتفاضة والحصار الإسرائيلي الذي لم يترك مدينة أو قرية بكل ساحاتها وشوارعها بما فيها شارع سمسم، ودخول الأردن كشريك ثالث

يحصل بها على نسخة عربية هى نفسها النسخة الفلسطينية مع ما يمكن أن نعطى الضرورة من اختلافات محلية.. الطرف الأردنى رأى الخروج من الشارع الواحد، إلى عمومية أكثر، فاقترح تسمية البرنامج: «قصص سمسم».

«نحن ندرك أن صداقة العولة تأتى بمواجهة الحقائق، بعيدا عن أية ظروف مؤقتة وكل ما يحدث الآن» تقول شارلوت كول نائبة رئيس الدراسات لشركة سمسم اسمها الرسمى «The children's Television workshop» فى نيويورك.. وبعد أن كان الفلسطينيون يذهبون بشكل عادى قبل الانتفاضة إلى تل أبيب للعمل فى إنتاج الحلقات، ويلتقون فى لندن ونيويورك، أصبحوا مع توقف الإنتاج مع الأمل فى عودته واستمراره بحكم ما أسند إليهم من مهام ووظائف، يستخدمون فى اتصالاتهم الهواتف والبريد الالكترونى.. وتقول الونا إيبت المنتجة الإسرائيلية المسئولة: «من الضرورى مواجهة هذا الواقع ومعالجته» بينما يقول الفلسطينيون أنه من الحماقة إذاعة حلقات وقصص تدعو للتسامح بينما لا يوجد سلام ولا حتى اتفاقية سلام موقعة..

ويقول داود كُتاب المنتج الفلسطينى المسئول، والذى يملك ستوديو تصوير فى رام الله: «الإسرائيليون يدمروننا فكيف نقول للأطفال كونوا طيبين ومتسامحين مع الذين يقفون بدباباتهم ومدافعهم أمام بيوتهم؟

كــتــاب أمــريكي.. يحـــاكم في أنقـــرة..

الكتاب وعنوانه «أىّ غفران هذا .. بعد كل هذه المعلومات؟» لا يركز على تركيا، ولا ينتقد الحكومة التركية، لكنه يتحدث عن الأكراد، ويشير فى المقدمة إلى أنّ للأكراد فى تركيا شعورا بالأمل فى المستقبل..

مؤلف الكتاب جوناثان راندل وهو مراسل سابق لصحيفة الواشنطن بوست وله خبرة طويلة بالشرق الأوسط، وهو أمريكى، يعيش الآن فى باريس.

ناشر الكتاب عبد الله كيسكين، وهو مثقف تركى «كردى» أصدر عبر دار النشر التى أنشأها فى عام ١٩٩٦ (١٢٠ كتابا)، منها نحو خمسين كتابا باللغة الكردية،

وتضم كثيرا من الترجمات للأدب الكردي من العراق وإيران وكذلك من الأدب العربي واللغتين الانجليزية والفرنسية.

الاتهام وجّه إلى الناشر، باعتبار أنّ الكتاب المترجم عن الانجليزية، يوحي بأنّ كردستان الأكراد أمة لها شخصيتها وانفصالها عن الآخرين، إضافة إلى أنه نشر خلال الأعوام الثلاثة الماضية عدة كتب فى نفس المجال، وواجه تهما جنائية بسبب هذه الكتب، حول التاريخ والأدب والتراث الكردي، توقظ النضال الكردى وتؤكد على لغتهم وهويتهم.. مما يدل على أنه ماضٍ في طريقه.

تمت مصادرة الكتاب بعد أيام من ظهوره، ووجهت التهمة لكيسكين ببث الفرقة، والدعوة إلى الانفصال، وإثارة النعرة التركية، والايحاء برسم خريطة محددة وواضحة المعالم لكردستان داخل الأراضي التركية..

قضية كيسكين ترصد اهتماما بها خارج تركيا، ليس فقط لأن مؤلف الكتاب المترجم أمريكي، ولكن لأن دار النشر «أفستا» لها سمعة دولية طيبة، خاصة فى أوروبا..

عندما أنشأ كيسكين دار نشره قال : «بعض الناشرين يركزون على النشاط السياسي، وآخرون لا تهمهم سوى التجارة، أما هذه الدار فهى فى مكان ما بين النشاطين، إنها تعتبر متنفسا متواضعا لسلعة قليلة الحظ، هى الأدب الكردي، لكنني لست ناشرا سياسيا، وليست لى ارتباطات أو علاقات بأى تنظيم سياسى كردي».

يقول كيسكين الذى يحاكم أمام محكمة أمن الدولة، والذى يواجه حكما بالحبس ثلاث سنوات يتوقف على «مزاج» القاضي أو «امتزاجه».. فالمؤلف لا تتم محاكمته، وأنا لا أسعى إلى الإثارة، وكل هدفي أن أقدم للأتراك والأكراد الفرصة والقدرة على الحوار التعددى...» المعروف أنّ البرلمان التركي قد أصدر الشهر الماضى قوانين جديدة تتيح الفرصة للأقليات ومنهم الأكراد (١٢ مليون نسمة أى ٢٠٪ من السكان) فى استخدام لغاتهم ونشاطاتهم، بهدف الاقتراب من رضا الاتحاد الأوروبى لضمها إليه، ومن هذه القوانين مايمنع إصدار أية أحكام بالاعدام إلا فى أوقات الحرب.. بما يستدعى بشكل عام براءة كيسكين على الأقل.

لكنّ بعض المراقبين والمحللين فى أوروبا والولايات المتحدة، يرون أنّ تركيا - على الأرجح - سوف تنتظر طويلا، لأن أوروبا لن تستطيع تحمل أن تصبح حدودها الشرقية جارة للعراق وسوريا وإيران!!؟

الولد على طريق خاله !

نيل بســـوندات من ترينداد أديبـــا في كندا



نيل بسوندات

أهدى نيل بسوندات روايته الجديدة «Doing the heart good» إلى خاله ومعلمه نيبول البريطاني الترينيدادي الأصل، والحاصل على جائزة نوبل، والذي أثارت أفكاره عددا من النقاد في مصر لموقفه من ثوابت المعتقدات والتقاليد.

في إهدائه ومقدمة روايته يشير بسوندات إلى خطاب أرسله له الخال نيبول ولم يكن بسوندات قد تجاوز العشرين بعد .. يقول : «نصحني أن أهاجر إلى كندا، وأن أتابع طموحي إلى أن أكون كاتبا وأديبا.. وحذرني من أنّ تمسك الإنسان وانغلاقه داخل أصله وتاريخه وتقاليده، يصبح قيدا عليه وفخاً له».

يحكي نيل بسوندات ذلك وهو جالس في حديقة بيته الخلفية التي تتشكل بأنواع مختلفة من الزهور البرية، في أحد أحياء مدينة كيبك الكندية الهادئة..

لقد أصبح ابن الأخت بالفعل أديبا كنديا، له أربع روايات، ومجموعتا قصص قصيرة.. وكتاب يضم أهم مقالاته وأفكاره..

● يقول : لقد حققت نصيحة خالي، والآن أجد نفسي داخل مركز حوارات حادة، حول أسباب وجذور السمات الانسانية والمواهب البشرية، وأنّ الفروق العرقية تولّد في إطار الاحتكاكات والتعاملات الفردية والدولية، تولّد امتيازا فطريا وحقدا عنصريا!!

إن المدن الكندية مزدحمة بالمهاجرين بمعدلات مدهشة، وذلك يسبب اهتياجا ضدها من الأوربيين.. الذين يعارضون فتح أبواب الهجرة على مصارعها!.

أغلب روايات بسوندات يتناول حياة المهاجر ، ومدى قدرته على «الاندماج المريح» في المجتمع الجديد ، وربما يرتكز هذا الاندماج على سلوكيات ناعمة ومنافقة ولينة مع المجتمع الجديد، ليحاول اخفاء واقعه الذي يجعله يزداد تضخما مؤلما داخل

أعماقه.. بعض شخصيات بسوندات من المهاجرين، يجدون الخلاص الفاشل في العودة إلى وطنهم الأصلي، ليزداد تمزقهم، يجدون الخلاص الفاشل في العودة إلى وطنهم الأصلي، ليزداد تمزقهم بعودتهم إلى «النار» من جديد.

يطرح بسوندات أفكاره الصريحة في كتابه أوهام رائجة « Selling illusions» والتي أثارت عليه المهاجرين من أبناء وطنه الذي ينزوي في ركن صغير بين دول أمريكا اللاتينية.. حيث ولد هناك في مدينة أريما، ويقول إن أفكاره وفلسفة حياته تقوم على «الفردية» أو المذهب الفردي «individualism» حيث تكون مصلحة الانسان فوق كل الاعتبارات.. ويعود هذا إلى نشأته وسط أسرته الكبيرة، فأجداده كانوا فقراء، يعملون في حقول الأرز والسكر، ولكنهم خططوا لأنفسهم للخروج من دائرة الفقر، بامتلاك أعمالهم الخاصة، فأبوه كريسن امتلك محلا للبيع بالتجزئة..

● يقول: أعتقد أنّ البراعة الفردية هي التي تشكل حياة الانسان..

والدته ساتي - شقيقة ينبول - لها دور كبير في حياته، فقد كانت زاخرة الخيال بالحواديت والحكايات، وأتاحت له مئات القصص وروايات الخيال في سن مبكرة.. وفتحت عالمه الصغير على الدهشة التي لا حدود لها.. ولما كبر، ورأى في مكتبة أمه عشرات الكتب التي ألفها خاله ينبول، امتلأ قلبه بالأمل الكبير في أن يصبح كاتبا.. ووضعته نصيحة خاله بالهجرة، خارج حدود بلاده، ونزعته بعيدا عن جو التخلف والانقلابات السياسية التي عاشتها ترينداد لسنوات طويلة، رغم ثرائها باعتبارها دولة بترولية وزراعية معا. ومساحتها الصغيرة التي تصل إلى نحو ٦ آلاف كيلومتر مربع.. أي أكثر قليلا من نصف مساحة لبنان.. اللغة الفرنسية، وكانت هوايته المناقشات السياسية ومتابعة السينما. طلاب الجامعة من زملائه وأبناء بلده لم يقبلهم ولا قبلوه واتهموه بالخيانة لأنه كان يطلق على بلده أنها «مهرجان كبير من المتطرفين والمجانين»..

كان أول ما نشره مجموعة قصص قصيرة بعنوان «حفر الصخور» سنة ١٩٨٥، وتخرج من الجامعة وأكمل دراساته العليا.. وواصل الكتابة، وعمل أستاذا للإبداع الأدبي في جامعة لافال في كيبيك وهي جامعة أسسها الرومان الكاثوليك، وتزوج من كندية فرنسية.

ولديه ابنة عمرها ١١ سنة، يعيش في حي يقل فيه عدد المهاجرين.. يدافع عن القضايا المحلية والمحافظة على التراث الفرنسي للسكان!. يحتفظ في بيته بمئات التحف من كل أنحاء العالم.. إلا من بلده ترينداد!.

يقول: أحب أن أكون معروفا بأنني أديب كندي. ■

باريس - جنيف

مشاهد ثقافية في رحلة أوروبية

بقلم
محمود قاسم

هل يقرأ رجل الشارع الفرنسي عشرات أضعاف ما يقرأه المثقفون في بلادنا ....؟

المشهد الأول

مترو أنفاق ، في مدينة باريس ، مزدحم بالركاب و أغلبهم ملون البشرة ، قادم من أفريقيا والكاريبي ، ينطلق المترو في أنفاق عملاقة ، وجوه الكثيرين تحدق في صفحات كتب ، أغلبها روايات ، لا تكاد تلحظ ظاهرة الحملقة أو «البص» .. في وجوه من حولك ، لكن هناك رباطا شديد الأصرة بين الناس ، وما يقرأونه .

الظاهرة لا تخف ، سواء كان المترو مزدحماً ، أم به أقل عدد من الركاب ... في الصباح الباكر حيث يذهب الناس إلى أعمالهم ، أو وهم عائدون في آخر النهار إلى ديارهم .

المشهد الثاني

الحدائق العامة ، وما أكثرها ، مقاعدها تذكرك بالرواية الحدث التي كتبها جورج بيريك عام ١٩٦٦ بعنوان «رجل نائم .. حول الانفصام الإنساني بين البشر ، فيجلس إلى جوارك شخص في الحديقة نفسها ، وعلى المقعد نفسه ، فلا يتبادلان الحديث مهما طال وقت جلوسهما، وتجاورهما ، قد تجد أحدهما عند طرف المقعد ساهما ، شارداً ، يفكر في لاشيء ، والآخر وجد له صحبة في كتاب يأخذه إلى حيث قصص الحب ، والعلاقات الإنسانية الدافئة ، إلى عالم منشود يفتقده غالبا ..



كل هذا الزخم من الكتب ، فى احدى دور النشر ، كم حياة يحتاجها المرء لقراءة كل هذا العدد من الكتب

مثل هذا المشهد يتكرر وجوده فى جميع الحدائق ، الناس فى حالة عزلة ، يعانون من غربة أشد وطأة من تلك التى استبدت بـ «ميرسو» بطل رواية «الغريب» لألبير كامى عام ١٩٣٩ .

القراءة هنا ليست ترفيها ، إنها ضرورة ... ملحة بحثا عن صديق ورفيق فوق الورق .

المشهد الثالث

فى مركز بومبيدو الثقافى ، الواقع فى قلب العاصمة ، عند الساحة الخارجية ، موسيقيون يعزفون ، واشباه حواة يؤدون نمرتهم ، ورسامون ، يلحون عليك أن يرسموا لك بورتريه فى أقل وقت ممكن . وشباب يتمدد فوق الأرض ، اما نائم ، أو قارىء ، عشاق يتبادلون قبلات توحى لك بالشهوة لكنهم لايتجاوزون حدود القبلات والملامسة ، فلا تبدو الشهوانية على تصرفاتهم ، بقدر ما يعبر المنظر عن حاجة كل منهم إلى حنان من نوع خاص من رفيقه الذى عثر عليه ، وصار كل همه أن يحتفظ به ، حتى لايعود إلى حالة الوحدة الموحشة فى حالة الفراق .

المشهد الرابع

المكان نفسه .. داخلى أى بداخل مركز بومبيدو ، حيث توجد قاعات ضخمة لتوزيع وبيع الكتب الثقافية ، التابعة لدور النشر .

محيط هائل من الكتب ، والعناوين ، لاتستطيع عيناك أن تلحق بها ، وتحتاج لمراجعتها إلى يومين بأكملهما ، فقط لقراءة العناوين .

شعور موحش ، وانبهار يلاحقان المرء، وهو يشـــاهد هذه العناوين ، وسرعان ما يكتشف جهله الزائد ، المجسد ، المتضاعف ، وأنا على سبيل المثال ، عندما زرت أوروبا لأول مرة عام ١٩٨٦ ، كنت أعـــرف هذه الكتب ، وعناوينها ، ومؤلفيها ، وقرأت الكثير من ملخصات هذه الكتب ، والقليل القليل من بعضها ، لكن اليوم فإن العدد يزداد ، والاحساس بالأمية يتنامى بعدد هذه الكتب ، ويتولد احساس بأن مائة حياة متفرغة لاتكفى لقراءة كل هذا الإبداع البشرى ، وأن المطابع الظالمة ترمى كل يوم بعشرات العناوين الجديدة ، من أجل إشباع شبق القراءة ، وغريزة الاطلاع التى أصابت هؤلاء الناس ، فى المترو ، والحدائق والبيوت وأثناء التهام وجبات الطعام فى المحلات العامة ، حين يفتقدون إلى الصحبة .

المشهد الخامس

متحف اللوفر ، باتساعه الشديد ، ومحـــلاته ، والمطاعم ، وبازارات بيع الهدايا، ثم صالات عرض أجمل الإبداع البشرى فى فن الصورة ، ومكتبات تبيع الكتبا مصورة ، ومتخصصة عن ما شاهدته ، أو مالم تتمكن من متابعته ، بحر من الكتب المتراكمة ، المطبوعة بشكل جيد ، وجذاب، كتب عن الجناح المصرى ، لم نصنعها ، ولم تصل الينا ، وازدحام الرواد ، والمجموعات السياحية ، تحاول أن تبحث عن فوج عربي ، أو زائر من بلادنا يتفرج على ثقافات الشعوب ، فلا تجد ولاتسمع من حولك سوى من «يرطنون .. بكل اللغات ، عدا لغتك أنت ... فتحس باغتراب خاص ، لا تستطيع أن تتخلص منه .

المشهد السادس

انهم هنا ، فى شارع الشانزليزيه العريض ، أثرياء العرب وأسرهم ، على الجانبين ، حيث المطاعم الفخمة ، المرتفعة الأسعار ، يزدحمون ، وهم يرتدون زيهم التقليدى ، رجال ونساء ، يلتهمون الأطعمة الفرنسية ، ويملأون الأماكن صخبا بلكناتهم المتعددة ، المتقاربة ، ويحملون حتى جريدة بين أصابعهم ، وأقصى ما يفعلونه هو التجوال فى محلات العطور ، والأزياء القريبة التى تنتظرهم ، من أجل سحب أكبر أرقام من أرصدة بطاقات الإئتمان ، رغم ارتفاع سعر اليورو قياسا إلى إنخفاض سعر الدولار .

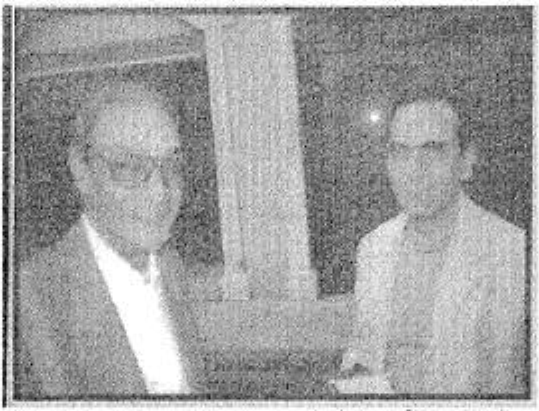
أنهم لايقرأون .. بالمرة ...

المشهد السابع

معهد العالم العربى ، المطل على نهر السين ، قلعة حصينة للدفاع عن الثقافة العربية وتقديمها إلى الفرنسيين بشكل خاص ، والأوربيون عامة ، يحتفل هذا العام بمرور خمسة عشر عاما على تأسيسه ، بؤرة متدفقة من النشاط ،

لمحاولة ربط الثقافتين العربية والفرنسية في إطار واحد ، مهرجان سينما ، معرض كتاب ، معرض لوحات القدس ، ندوة عن التقاء الحضارات ، لكن أبرز ما في المكان وجه كاتب جزائري هو الحبيب ولد العروسي السالمي ، أكثر من عرفت شراهة لتجميع الكتب من جميع الثقافات، العروسي ، يتولى شئون المكتبة ، ويعكف حاليا على إعداد أول موسوعة ضخمة لكل الشخصيات العربية والمستشرقين ، تشرف على المشروع سارة واصف المصرية ، المليئة بتوتر، وحساسية الحصول على المعلومة المتكاملة الصحيحة ، لو أن المشروع الذي تعده بإتقان تم تنفيذه خلال السنوات القادمة ، فإن مقولة أن اللجان تصنع في الوطن العربي من أجل تعطيل المشاريع الناجحة ، تصبح في محلها ، فسارة تعمل بمفردها ، والموسوعة تعدها مباشرة على الكومبيوتر باللغتين العربية والفرنسية.

ملحوظة أساسية أن المترددين لمتابعة أنشطة المعهد الثقافية أكثرهم من الفرنسيين ، وأن الكثيرين من العرب المقيمين بالعاصمة ، لايكادوا يعرفون عن المعهد سوى أنه محطة أتوبيس شهيرة .. وذلك رغم الجهود المضنية التي يبذلها د. ناصر الأنصاري ليصبح المعهد بيت كل العرب والفرنسيين والأوروبيين .



بهاء طاهر والأديب الدبلوماسي محمد توفيق ، أثناء احتفال الأدباء العرب بجنيف بذكرى قيام ثورة يوليو الخمسين.



المبدعون العرب، في الطابق الأعلى من معهد العالم العربي المطل على نهر السين ، جاءوا لمناقشة الحوار الثقافي بين الحضارات في الصورة د. جابر عصفور ، ومدحت الجبار ، والناقد السوري صلاح سرفيه

المشهد الثامن

قطار أوروبا السريع ، المزدحم المقاعد، يندفع وسط الحقول الشديدة الخضرة ، وأمطار الصيف المنعشة ، وفي عربات القطار ، يستفيد المسافرون إلى جنيف من الساعات الثلاث التي يستغرقها

القطار بين المدينتين في القـــراءة ، استطاع أكثر من قارىء أن ينتهي من التهام صفحات كتب مهمة ، من ثقافات متعددة ، منها رواية «بلزاك والحائكة الصينية الصغيرة .. للكاتب الصيني داي سيجي ، الحاصل على جائزة أحسن رواية معارضة عام ٢٠٠٠ ، وهو كاتب صيني أقام في فرنسا منذ ستة عشر عاما ، وكتب روايته الأولى كلها باللغة الفرنسية.

هناك أيضا من انتهى من قراءة رواية «الوصية الفرنسية» لانتريه ماكين الحاصل على جائزة جونكور عام ١٩٩٥ ، وهناك روايات عديدة لماركيز ، وكورتثار ، والياباني أشجورو ، وروايات من إيران ، وأفغانستان ، وروسيا .

امرأة في الستين من عمرها ، تقرأ في القرآن الكريم ، نسخة ضخمة ، مكتوبة باللغتين العربية والفرنسية ، تتابع الصفحات باهتمام :

– أنت تقرأين القرآن الكريم ... هذا شيء رائع .

– أحاول أن أفهم ماذا يعني الإسلام .. خصوصا بعد أحداث سبتمبر .

– هل توصلت إلى مفهوم محدد ...؟

– لم أنته بعد من القراءة ، لكن من المهم التعرف على ثقافات الآخرين .

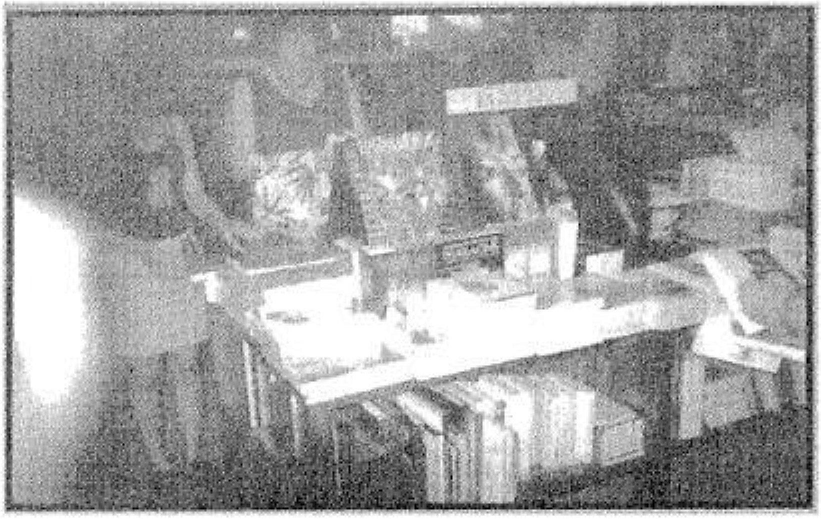
إجابة مدهشة ، تذكر المرء بتلك الحساسية المفرطة تجاه ثقافة الغرب التي تعلو نبرات الذين يهتمون ببعد واحد فقط من الثقافة ، ويتعاملون مع إبداع الآخر على أنه نتاج الزندقة ، والخصوم ، وأنه من الواجب تجنب هذه الثقافة ، وإلقائها في البحر ، لأنها ضد مبادئنا وثقافتنا .

المشهد التاسع

ساحة البلان باليه ، في مدينة جنيف، كانت معروفة من قبل باسم ميدان السيرك، مكان متسع يأتي إليه باعة الأشياء المستعملة يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع ، يبيعون كل شيء بأسعار زهيدة ، لاتصدق .

البضاعة الرائجة ، والمنتشرة ، التي تجد لها أكبر عدد من الزبائن هي الكتب ، مؤلفات بجميع اللغات ، خاصة الفرنسية ، روايات وموسوعات ، وكتب أطفال ، وكتب سياسية ، وفكرية ، وسياحية ، وعدد الكتب المترجمة من ثقافة الآخر أكثر بكير من الكتب المؤلفة بالفرنسية ، منها الأعمال الكاملة المترجمة إلى الفرنسية لنجيب محفوظ .

في هذا المكان ، يصبح للكتاب القديم سوق ضخم ، وتغدو الثقافة بضاعة رخيصة تماما ، وفي متناول الجميع بالفعل ، تمتزج المجلات الخليعة مثل «لوي» ، وبلاي بوي» ، بمجلات ثقافية راقية من طراز «اكتيول» ، وتكتشف أن



جناح الكتب من مصر ، فى المكتبة الكبرى الملحقة بمتحف الفوار

أغلب المؤلفات الخليعة قد انتشرت ، وأن أغلب هذه المطبوعات قد توقف عن الصدور منذ عشر سنوات ، وأن حالة محن «الحشمة» بدأت تعود إلى أوروبا .

فى نهاية كل يوم سوق ، يتخلى الكثيرون من الباعة عن الكتب ، ويضعونها فى مكان خاص ، فى ركن من السوق ، لمن يشاء أن يأخذ منها دون حساب ، قبل أن يتم التخلص من الكتب الباقية فى عربة القمامة .

القلب يتمزق والكتب تهرس فى مؤخرة عربة القمامة الضخمة ، وأتخيل كاتبا من طراز أنتونى بيرجيس ، أو ميشيل تورنيه، أو ويليام بويد ، وغيرهم ، وهم يرون عصارة فكرهم يتحول إلى عصارة ورق فى عربة القمامة ، فالكتب زائدة عن الحد .

الناس فى أتوبيسات جينيف لايقرأون بنفس القدر ، والقراء تزداد أعدادهم فى الحدائق العامة ، وفى حمامات السباحة حيث تبحث الأجساد على شمس دافئة تصبغها باللون البرونزى .

طائرة مصر للطيران تقطع رحلتها من جينيف إلى زيورخ فالقاهرة فى قرابة سبع ساعات ، سيدة مصرية مقيمة فى باريس منذ ربع قرن ، تجلس إلى جوار نافذة الطائرة ، تطالع رواية قديمة بعنوان «موبى ديك» للكاتب الأمريكى هيرمان ملفيل ... لم تقرأ سوى ثلاث صفحات ، ثم فجأة دخلت فى ثرثرة تافهة مع جارتها، استغرقت منها كل الرحلة . ■

الفلسطيني يعيش الغربة في الوطن والغربة في المنفى

بقلم
مها محمود صالح



صامد

«الغضب يشحن الذاكرة وينعشها، وبدون هذه الشحنة فإنك تستسلم وتتخلى حتى عن حقك في الدفاع عن الحقيقة. تترك الآخرين يكتبون تاريخك، وذلك هو الاستسلام النهائي. ونحن الصامدين، لا نستطيع مقارعة القوات الإسرائيلية الشرسة. ولكن علينا أن نبقي الغضب مشتعلاً، ونعقد العزم على محاربة الأكاذيب، فأن نتذكر وندون، أمر منوط بنا وحدنا».
«الصامد: رجا شحادة»

هذه الصفحات لا تقدم صورة متكاملة للقضية الفلسطينية في أعمال الأدباء والمفكرين، بل لعل العكس هو الصحيح؛ فنحن نحاول أن نقدم من خلال بعض هذه الأعمال صورة تقترب من حقيقة ما جرى وما يجرى على الأرض في فلسطين المحتلة. وفي عدد سابق من الهلال قدمنا الرؤية الفنية والفكرية التي عرضها الروائي فتحي غانم من خلال روايته «أحمد وداود» وفي هذا العدد نتناول واقع الحياة في الأرض المحتلة، ذلك الواقع الذي لا تكشفه عناوين الصحف عندما تتحدث عن نسف البيوت أو تفريق المظاهرات بالقوة أو الإهانة المتعمدة للفلسطينيين عند حواجز الطرق أو غير ذلك من مظاهر الظلم ومحاولات الإذلال التي يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني مع كل يوم جديد.

ذلك الواقع نتعرف عليه من خلال كتابين: الأول هو «صامد: يوميات صامد في فلسطين المحتلة» المحامي الفلسطيني رجا شحادة الذي أنهى دراسته للقانون في إنجلترا ثم عاد ليعمل محامياً في الضفة الغربية المحتلة. أما الكتاب الثاني فهو للشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي الذي فاجأته حرب يونيو ١٩٦٧ وهو يؤدي امتحانات السنة النهائية في كلية الآداب جامعة القاهرة وأجبرته على البقاء خارج الوطن حتى نجح أخيراً في الحصول على تصريح الزيارة وأثمرت الزيارة كتابه «رأيت رام الله».

صامدون

يقدم لنا رجا شحادة في كتابه حكايات عمن يسميهم «عرب الداخل الجدد» وهم عرب المناطق المحتلة عام ٦٧ بالمقارنة بعرب «الداخل» الذين تشبثوا بأراضيهم فوجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها قد أصبحوا رعايا دولة أجنبية غازية في

إسرائيل!

لقد اختار هؤلاء درجات متفاوتة من الاقتراب من الحكم العسكرى الإسرائيلى والقبول به . فهناك الصامدون والفدائيون وهناك أيضاً المتعاونون، ويتعدد نوعيات الصمود والتعاون تتعدد الحكايات.

الصمود للبعض معناه ببساطة التكيف مع الاحتلال باعتباره مشيئة إلهية عليهم احتمالها منشغلين بحياتهم اليومية ومشاكلها التى لا تنتهى حتى يغير الله مشيئته!.

أما رجا شحادة فيقدم لنا تعريفه لمفهوم الصمود الذى يمارسه، فيقول: «صمودك يعنى أن ترى بيتك يتحول إلى سجن، وأن تكون صامداً معناه أن تختار البقاء فى هذا السجن لأنه وطنك، ولأنك تخاف إذا ما تركته ألا يسمح لك سجانك بالعودة إليه، وأن تعيش هكذا، معناه أن تبقى على الدوام تقاوم أحد أمرين، أن تذعن لخطة السجان بيأس المستسلم أو تتحول إلى معتوه استهلكته الكراهية لسجانه ولنفسه السجينة» ص ٨.

المؤلف إذن يحاول بصموده أن يختط طريقاً ثالثاً غير الاختيارين الذين يدفعه إليهما السجان وهما اليأس والكراهية ، ولأنه يعمل بالمحاماة فإن مجال صموده الأساسى هو العمل كمحام أمام المحاكم الفلسطينية الخاضعة للحكم العسكرى الإسرائيلى، هى حقاً محاكم نزعت منها هويتها الفلسطينية إلا أنها، كما يرى شحادة ، هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لمحاولة الوقوف أمام الحكم العسكرى الذى يعمل على انتزاع الأراضى من أصحابها قطعة قطعة!

إن محامين آخرين فى الأرض المحتلة قاطعوا هذه المحاكم، منذ بداية الاحتلال، إيماناً منهم بعدم شرعيتها وهم يعتبرون أن أمثال رجا شحادة من المترافعين أمام هذه المحاكم يستخدمون «لتكريس الاحتلال الإسرائيلى». أما رأى شحادة فيتلخص فى أن عدم وجود هؤلاء فى المكان المناسب لمقاومة الإسرائيليين هو الذى ترك الحكم العسكرى يخرج بالكثير مما خرج به، وترك محاكمنا المدنية تسقط إلى درك الوضع المزرى الذى هى عليه الآن،.. وهو الوضع الذى يريده الإسرائيليون تماماً» ص ١٥٤ . وحتى نفهم المناخ القانونى الذى تتم فيه محاولات الحفاظ على دونمات من الأراضى العربية علينا أن نتعرف على شبكة متداخلة من الهيئات، والقوانين التى استحدثتها إسرائيل بهدف نزع الأراضى العربية من أصحابها والاستيلاء عليها! تبدأ هذه الشبكة بما أسمته إسرائيل «القيم على أموال الغائبين»، وهم بالطبع الفلسطينيون الذى خرجوا من ديارهم بالترويع والمذابح!

وتنتهي إلى تلك القوانين التي تسمح بتأجير الأراضي أو بيعها لليهود، ولو كانوا من غير قاطني إسرائيل، بينما يحرم ذلك على العرب حتى لو كانوا من حاملي الجنسية الإسرائيلية!!

يقف المحامي رجا شحادة إذن أمام محاكم يؤمن بعدم شرعيتها، وإن كان لا يستطيع الاشارة إلى ذلك، في محاولة لمواجهة نظام قانوني جائر يطلب من كل من يحاول التشبث بأرضه أن يثبت أنها أرضه بدلاً من أن يثبت المغتصب حقه فيها! بل أن لجنة الاعتراضات التي تتبع المحكمة قد اعتبرت سجلات الضرائب «غير موثوق بها» مما جعل ملكية الفلسطيني لأرضه تكاد تكون غير قابلة للإثبات أصلاً.

رجا وأينوخ

ولعل أحد أهم عناصر ذلك الصمود الذي يمارسه شحادة هو علاقته بالآخر: الإسرائيلي، وهي علاقة متشابكة متعددة الجوانب كما سنرى.

هناك أولاً صداقة رجا الفلسطيني بأينوخ الإسرائيلي وهو طبيب نفسي يهودي متدين أتى إلى إسرائيلي من كندا محاولاً تحقيق حلم أمه بعد وفاتها. لكن ما رآه في إسرائيل لا يعجبه، وهو يعلن أن «العلاقات بين اليهود والعرب هي الاختيار الأخلاقي الذي ينبغي على الديانة اليهودية أن تجتازه»، ص ٥٤.

إن كلا الصديقين يحاول أن يصل لصيغة تسمح لهما بالتعايش على تلك الأرض التي يؤمن كل منهما أنه ينتمي إليها، وهما مصممان علي عدم ترك الأمر في أيدي دعاة الحرب. ويعي رجا شحادة أن أينوخ يمثل نموذجاً نادراً لا يكاد يؤثر في صنع سياسات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة. أما النقيض لنموذج أينوخ من حيث الانتشار وقوة التأثير، فيمثله مائير كاهانا من حركة كاخ اليهودية المتطرفة، الذي ذهب في ٢٨ إبريل ١٩٨٠ إلى بلدية رام الله، حيث سلم رسالة اعتبر فيها عرب فلسطين «قنبلة موقوتة» بالنسبة للدولة اليهودية ثم اقترح إخراج كل العرب منها إلى الدول العربية والغرب وجلب يهود العالم بدلاً منهم!

وانطلاقاً من هذا التوجه العنصري التوسعي الصريح تقوم جماعات اليهود المتطرفين وكذلك جماعات المستوطنين بنشاطات إجرامية متعددة بهدف دفع الفلسطينيين إلى ترك ديارهم والتوقيع على صك التنازل عن حق العودة!! من هؤلاء مستوطنو جماعة «جوش ايمونيم» التي تعلن أنها أخذت القانون بأيديها، وقد كونت جيوشاً خاصة تجوب الشوارع معلنة أن «أي عربي يجرؤ على التعرض لأنشطة الاستيطان سوف يعاقب على يدي المستوطنين»، ص ٦٢ . وفيما بين النقيضين السابقين تقع نماذج متعددة من السلوك الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين . هناك الإسرائيلي الذي يرسم على وجهه ابتسامة ودية معلنا أنه ضد الاحتلال، وهذا «التلميح بالصداقة» يعتبره المؤلف في كثير من الأحيان «ليس أكثر من رغبة في

إرضاء النفس، لتهدئة الضمير الإسرائيلي المتألم» ص ٥٢. وهناك أيضاً الجندي الإسرائيلي الذي يقف على أحد حواجز الطرق ويتفنن في تعريض الفلسطينيين الذين يوقعهم حظهم العاثر في طريقه لأقصى ما يستطيع أن يصل إليه من إهانة لهم واستفزاز لمشاعرهم . يحكي لنا المؤلف أكثر من موقف مؤلم على هذه الحواجز، وفي أحد هذه المواقف وصل شحادة وأهله إلى حالة نفسية «مهلهلة»، حتى أنه لم يكد يشعر بالركلة التي وجهها إليه الجندي من الخلف وهو ينحني لركوب السيارة. ص ١٢٩. أما الإهانة الحقيقية فقد شعر بها رجا شحادة جارحة حارقة في سياق مختلف تماماً! لقد وضع المؤلف كتاباً مع صديق له تحت عنوان «الضفة الغربية وحكم القانون» يوضح فيه كيف يستر الإسرائيليون همجيتهم بثوب القانون وكيف تنتهك حقوق الإنسان الفلسطيني، وهاله أن يواجه كتابه بعداء - دون أن يقرأ ! - حتى من أكاديميين يفترض أن يتصفوا بالموضوعية. لقد فتح ذاك الموقف عينيه على حقيقة لم يدركها بذلك الوضوح من قبل، وهي أنه حتى الإسرائيليين المتعاطفين مع الفلسطيني في محنته قد «يتحدثون إليه ويربتون على كتفه.. ولكنهم لا يستمعون إليه أبداً!.. فاليهود هم الذين يقدرون على توجيه الانتقاد أو الدفاع، هم الذين يحق لهم أن يقولوا فيما يتعلق بنا (أي الفلسطينيين) هذا حسن وهذا سيء.. (أما) إن تجرأت وفتحت فمك، فسوف تستفز كراهيتك الحقيقية كراهيتهم واحتقارهم».

الفدائي والمتعاون!

الفدائي هو الوجه الآخر للصامد! كلاهما يرفض الاحتلال وإن كان الأول أكثر جرأة وتحدياً في إظهار رفضه! يحدثنا المؤلف عن الفدائية «مها» ذات التسعة عشر ربيعاً، قضت منهم ثلاثة في السجن كجزء من عقوبة تبلغ اثني عشر عاماً، بتهمة زراعة متفجرات في القدس. لقد كبرت مها وهي ترى جنود الاحتلال كإحدى حقائق الحياة المعتادة في شوارع مدينتها، لكنها بهدوء وبدون أن يلحظ أحد، انضمت إلى الفدائيين فأصبحت فدائية مهمتها أن تزرع القنابل حيث يطلب منها، ويؤكد المؤلف أن مها ليست هي الصامدة الوحيدة التي تحولت إلى فدائية ودخلت السجن، فهي هناك مع آلاف من الشباب المراهقين والرجال والنساء، معظمهم كانوا صغاراً عندما بدأ الاحتلال، ولا يعرف أحد ولا كيف ولا متى بالضبط تعلموا أن يصبحوا مقاتلين في سبيل الحرية، لكن أعدادهم تتزايد باستمرار» ص ١٠٢

والصامد رجا شحادة لا يخفي تعاطفه بل إعجابه الذي يصل إلى حد الانبهار بالفدائي الفلسطيني! يعترف شحادة أنه مشوش مضطرب، بل وخائف بينما

الفدائي يعرف ماذا يفعل ومصمم وشجاع ويتبع طريقاً حدده بنفسه لنفسه، مقدراً للمخاطر، ولديه الإرادة ليتحداها، ولكنه يدرك أيضاً أن كليهما، الصامد والفدائي، يعملان لنفس الهدف. ورغم أن العمليات الفدائية الفلسطينية تتبعها عادة عمليات إسرائيلية انتقامية، وغالباً ما تتضمن عمليات تفتيش يتمادى فيها الجنود الإسرائيليين في إهانة العرب وإذلالهم وافساد مخزونهم من الأطعمة، إلا أن معظم الصامدين لا يقبلون بأحد اختيارين يرى شحادة أن إسرائيل تأمل فيهما وهما أن يتخلوا عن صمودهم جسدياً بمغادرة أراضيهم إلى المنفى، أو أن يتخلوا عنه معنوياً وذلك بالتعاون مع سلطة الاحتلال، بل إنهم أي الصامدين - لا يقبلون حتى بشجب تلك الأعمال الفدائية! وها هو الشعب الفلسطيني - الصامد حقاً - يرفض نفس الموقف خلال الأحداث الأخيرة، إن أبناء الشعب الفلسطيني الذين نجوا من مذابح جنين خرجوا بعد انسحاب الجنود الإسرائيليين يدفنون شهداءهم ويعيدون بناء بيوتهم ، لكن أحداً منهم لم يشجب العمليات الفدائية أو يطالب بوقفها!.

ولأن الطبيعة البشرية لا تتصف بالمثالية، ولأن القدرة البشرية على الصمود تتفاوت، فإن وجود متعاونين مع الاحتلال الإسرائيلي هو من طبائع الأمور. هناك مثلاً نموذج رجل الأعمال الفلسطيني الذي انتفخت جيوبه نتيجة المكاسب الهائلة التي حققها من العمل مع الاحتلال، وهناك أيضاً نموذج الفلسطيني الذي يعمل محققاً مع السجناء غير الأمنيين . إنه يؤدي واجبه بإخلاص يؤنبه عليه أحياناً رئيسه الإسرائيلي، فالضرب يجب ألا يترك أي علامة على أجساد السجناء!.

وإذا كان رجا شحادة قدم لنا في كتابه الصادر في عام ١٩٨٥ صورة شديدة الحيوية للحياة في سجن الوطن، حيث يعيش الإنسان على أرضه دون أن يملك إعلان حقه في هذه الأرض، فإن مريد البرغوثي في «رأيت رام الله» يحدثنا عن تجربة الحياة في سجن الغربة، بعيداً عن الوطن. ومن خبرة ثلاثين عاماً في المنافي المتعددة بين القاهرة والكويت وبودابست، يقدم لنا البرغوثي تعريفاً دقيقاً للغريب :

«.. لا تعنيه التفاصيل الصغيرة في شئون القوم أو سياستهم «الداخلية» لكنه أول من تقع عليه عواقبها. قد لا يفرحه ما يفرحهم لكنه دائماً يخاف عندما يخافون. هو دائماً «العنصر المندس» في المظاهرة إذا تظاهروا، حتى لو لم يغادر بيته في ذلك اليوم» ص ٨.

إنها علاقة معقدة بين المغترب ومنفاه، قد يكون فيها أحياناً شيئاً من التعاطف لكنها أيضاً لا تكاد تخلو من سوء الظن!

وبينما قدم لنا شهادة في كتابه مناخ الغضب والإحباط الذى أثمر قيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى فى ١٩٨٧ وتحول الصامدون إلى منتفضين، يقدم لنا البرغوثى مناخ ما بعد اتفاقية أوسلو ١٩٩٣. وقد اختلفت الآراء بطبيعة الحال فى هذه الاتفاقية لكن الجميع على تباين آرائهم قد حاولوا الاستفادة من ذلك القليل الذى أتاحته! ولعل أفضل ما قيل فى ذلك هو ما جاء على لسان أحد الذين قرروا العودة من تونس إلى رام الله بعد أوسلو: «... الموافق مكانه هناك (يقصد المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية) والمنافق مكانه هناك. والمعارض مكانه هناك. احسبونى فى أى خانة تشاؤون فأنا سأذهب، ولا فرق عندى أن أذهب لأكون فى السلطة أو فى الشارع أو فى السجن».

يعود البرغوثى إذن إلى رام الله زائراً ليلتقى بأقاربه وأصدقاء طفولته الذين بقوا فى رام الله، وأيضاً أولئك الذين عادوا بعد أوسلو ليعملوا مع السلطة الفلسطينية الوليدة فى محاولة بناء قراهم ومدنهم التى أخر الاحتلال نموها لسنوات طويلة.

ومن رام الله يكتب المؤلف عائداً بذاكرته ويعين خياله إلى سنوات طفولته وصباه فيسجل كيف كانت رام الله بأسواقها ومتنزهاتها، ويصحبنا معه لنتعرف على علاقاته بتلك الأماكن كما نتعرف على تاريخه الشخصى: سنوات الصبا والمراهقة وأول الشباب، والتأثر بأحداث العالم العربى، مثل القرارات الاشتراكية فى مصر والوحدة مع سوريا، والتفاعل معها، وفى الوقت ذاته يرصد المؤلف بعين الواقع التغيرات العديدة التى طرأت على المكان والناس خلال سنوات البعاد، أى سنوات الاحتلال! ومن خلال هذا الرصد يمكننا استكمال صورة ما يحدث فى فلسطين المحتلة.

المستوطنات والسلطة

تقتحم المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية عينى البرغوثى منذ الصباح الأول لزيارته لرام الله! يراها من نافذة الحجرة فى منزل مضيفه، ويدرك أنها تقع أعلى التلة عندما يلاحظ أن الشارع الذى يسير فيه «يصبح أكثر اتساعا ونعومة وأناقة» ثم ينفصل عن الطريق متجهاً إلى أعلى ، أو عندما يرى الأعلام الإسرائيلية على مداخلها ويلاحظ أن الكتابة على إشارات المرور بالعبرية فقط.. أما عبارة «تفكيك المستوطنات» فهى لا تبعث - فى رأيه - إلا على الضحك! فالمستوطنات على حد تعبيره هى «إسرائيل ذاتها.. هى الميعاد اليهودى.. وهى التيه الفلسطينى ذاته». ويعد وجود المستوطنات واحداً من مظاهر «صورية السيادة» التى تتمتع بها

السلطة الفلسطينية، وقد لاحظ البرغوثي أنه مما يثير غضب الناس واستفزازهم هو أن بعض مسئولى السلطة يبالغون فى مظاهر سيادتهم الشخصية، مثل ركوب السيارات الفارهة واستئجار مساكن بأسعار عالية وغير ذلك ، مما لا يتناسب على الإطلاق مع «هشاشة» السيادة الوطنية، إذ تستطيع إسرائيل فى أى وقت تشاء أن تغلق منطقة تريدها لأيام أو لشهور، وليس أدل على ذلك بالطبع من أحداث الأسابيع الأخيرة حيث اجتاحت إسرائيل مناطق السلطة الفلسطينية دون أن تحفل بأى اتفاقيات!

شحادة والبرغوثى

وجدير بنا أن نشير إلى العديد من نقاط التشابه فى الآراء بين رجا شحادة ومريد البرغوثى، مثلاً يؤكد شحادة فى مؤلفه على دور المرأة الفلسطينية الصامدة فى المجتمع الفلسطينى ويتنبأ بأنها ستقود الثورة ضد الحكم العسكرى الإسرائيلى، وإذا بالبرغوثى يشيد بدور المرأة الفلسطينية فى الانتفاضة والذى لم تكتب قصته بعد! كذلك يؤكد المؤلفان على الدور البطولى الصامد الذى تمارسه جامعة بيرزيت فى الأرض المحتلة رغم قلة الإمكانيات والتضييق المادى والقانونى الذى تمارسه ضدها سلطات الاحتلال. كذلك يكاد رأى المؤلفين يتطابق فيما يختص بسلوك الإسرائيلى «المعتدل» تجاه الفلسطينيين، والذى يلخصه البرغوثى قائلاً «الإسرائيلى قد يتعاطف معنا، غير أنه يجد صعوبة عظيمة فى التعاطف مع «قضيتنا».

لكن التشابه الذى أراه عميق الدلالة وجديراً بأن نختم به حديثنا عن الكاتبين فهو رؤية المؤلفين للشباب الفلسطينى الذى يمثل الأمل فى المستقبل . أما رجا شحادة فيعتقد ببساطة أن «الدنيا دولاب.. يكشف عن وجوه مختلفة فى أوقات مختلفة» . ستدور العجلة إذن وستكون أجيالنا القادمة عندئذ، وقد صقلتهم مرارة تجربة التصدى للاحتلال أقوى من أجيالهم المدللة وأقدر، بالتالى، على المواجهة . أما مريد البرغوثى فإنه يلخص نفس الثقة بالمستقبل وهو يحكى عن أطفال الانتفاضة الذين رأو الكثير وتحملوا مسئوليات مبكرة فجمعوا بين «شفافية المشاعر واقتحامية السلوك» ص ٢٤٥ .

وما الصفحات السابقة إلا محاولة متواضعة تضاف إلى عملى رجا شحادة ومريد البرغوثى، وغيرهما كثير، لتكثيف وعينا وشحن ذاكرة أبنائنا بتفاصيل ما جرى وما يجرى، حتى إذا أتى زمان المد العربى، وهو لابد آت، وجدت أجيالنا القادمة زاداً من ذاكرتها وغضبها يعينها على القيام بمسئولياتها تجاه المستقبل. ■

زجاجة كوكاكولا

قصة قصيرة - مهداه للانتفاضة

بقلم: محمد جابر غريب

والأسرة تجتمع قدام التليفزيون بعد العشاء تناولت زجاجة «حاجة سافعة» .

بحثت عن المفتاح في الثلاجة .

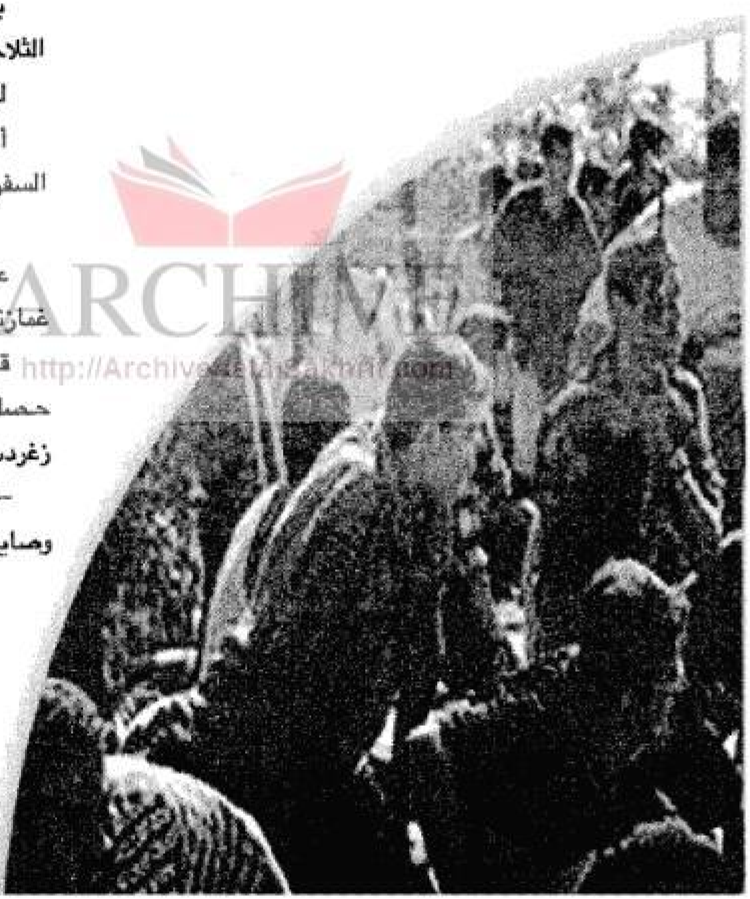
لم أجده . سألت أمي. أشارت نحو «ترابيزة السفرة» .

★ ★ ★

عيناي تبتسمان . غمازتاي تضحكان .

قمورة .. مرحة .. حصلت على الإعدادية .. زغردت أمي ..

– اسم النبي حارسك وصاينك ..



فـرقت الشـريان ،
ويخرتني .

★ ★ ★

بينمـا كنت أضع
المفتاح فوق غطاء الزجاجة
.. رأيت أطفـالاً وشـبـاباً
يصوبون حجارة .. «بعزم
مـافـيـهم «نحـو بنادق
ورشـاشـات توجـه إلى
صدورهم بغير ساتر .

★ ★★

كنت أجلس في «حجر
أمي» .. بينمـا أجـذب
الغطاء .. فارت دفقة مياه
.. أندفـعـت من عنق
الزجاجة لأعلى .. تناثرت
على وجهينا .. أمي وأنا
وبللت صدر بيجامتي .

★ ★ ★

كـان أبي لا يثق في
جيلنا .. قال : لقد أهدرتم
قيم الآباء والأجداد .

★ ★ ★

لسعت المياه «زوري» ..
استطعمتها .. كانت لذيذة
.. آخذت جرعة ثانية ..

★ ★ ★

حين عـادت أختي من
الجامعـة .. قـالت : إن
الدكتور قطع المحاضرة
.. حـذرهم من شـراء
أشـيـاء مـسـتـوردة ..
وأوضح أن أرباحهم منها
تتحول إلى بنادق تصوب
نحونا .

لم يخطر ببـالي أن
الزجاجة يمكن أن تكون
صناعة أمريكية .. تناولت
جرعة ثالثة .

★ ★★

حكت أخـتـي عن
زملائها .
تدوس أقدامهم قطعة
قماش .. تتوسطها نجمة
سداسية .
أصابع تدور بعـود
مشتعل .. تتطاير ألسنة
لهب .
يهتفون .. يصرخون
.. يطالبون بالسفـر إلى
هناك .

★ ★ ★

وقـالت : أن قـذائف
قد تأتي عبر دخول حمام
.. أو إعداد طعـام .. أو
عبر ركوع لصلاة فجر ..
أو حبكة كوافيل طفل ..
أو تنفـيض سـجـاد ، أو
ستارة ، أو نافذة .

★ ★ ★

كانت كفي تقبض على
الزجـاجـة بشـغف وحب
كـبـيـرين .. بينمـا كنت
أسـأل أمـي : لماذا هـاجـر
الآخر .. من بلاد متفرقة
وجاء يسعى إلى بلادنا ؟

★ ★ ★

كنت قـد أتيت على
ثلاثة أرباع مـا فـي
الزجاجة .. حين خطر لي
ما قالته أختي على لسان
الدكتور .. قلت في نفسي
ربما تكون مـيـاه
الزجاجة صناعة أمريكية.
ارتعشت رموشي فوق
عيني ..
وقـرأت .. وأعـدت
القراءة .. كوكا كولا .
فـتـأكـد لي وأيقنت
بالفعل .. أنها مستوردة .
تدافع ما بجوفي إلى
الخارج ..
ولم أعد مبتسمة ولا
مرحة .

من ذخائر الكتب العربية

الشعر والشعراء

لابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦) هـ

بقلم
د. عبد العزيز الدسوقي

يحتل كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، منزلة رفيعة، في التراث العربي، لأنه بمثابة موسوعة علمية دقيقة، تناولت عدداً كبيراً جداً من شعراء العرب بطريقة فنية، وبأسلوب علمي رفيع.

ولأن مؤلفه علم من أكبر علماء العرب، وأوسعهم ثقافة، وأقدرهم على تناول الموضوعات المتنوعة، وهو صاحب منهج في التأليف والنقد، يقول عنه محقق الكتاب (أحمد محمد شاكر) «علم من أعلام الإسلام، وإمام حجة من أئمة العلم، وكان لأهل السنة، مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة».. ثم هو في النهاية أديب قادر على تذوق الشعر وتحليله ونقده، إلى جانب ذاكرته القوية، وحافظته الفائقة . ألف الكثير من الكتب في علوم مختلفة مثل «غريب القرآن» و«غريب الحديث» و«أدب الكاتب» و«عيون الأخبار» و«المعارف» وغيرها من الكتب المهمة التي لانزال نتداولها حتى يومنا هذا، واسمه «عبدالله بن مسلم بن قتيبة - أبو محمد الكاتب الدينوري»..

وقد حدد ابن قتيبة منهجه فى هذا الكتاب على النحو التالى: «هذا كتاب ألفته فى الشعراء.. أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم، وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان عرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره.. وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم.. وأخبرت عن أقسام الشعر وطبقاته.. وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل العلم والأدب، والذين يقع الاحتجاج بشعرهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله وحديث رسول الله.. فأما من خفى اسمه وقل ذكره.. وكسد شعره.. وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل».

ثم تعرض بعد ذلك لقضية «القديم والحديث التى لا نزال نعيد الكلام فيها ونزيد. يقول « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه» (١) ثم بدأ يشرح ويحدد أركان الشعر فقال: «تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب:

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه» (٢) وضرب منه «حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى (٣) «وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه» (٤) «وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه» (٥) وهذه القسمة الرباعية حاول من خلالها ابن قتيبة أن يجول جولة عريضة فى ميادين الشعر العربى، ويبين بطريقته الجيد منه والردىء وكان يحفظ معظم هذا الشعر الذى يرويه ويعرف أصحابه من الشعراء ويعرف طريقتهم فى نظم الشعر، كما كان يعرف أحوالهم وظروفهم ويعرف رأى الناس فيهم..

يضرب مثلا للشعر الذى حسن لفظه وجاد معناه قول أبى ذؤيب

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وعلق عليه بقوله «حدثنى الرياشى عن الأصمعى قال هذا أبدع بيت قاله العرب» (٦) وكقول حميد الثورى:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما

ولم يقل فى الكبر شىء أحسن منه

وضرب مثلا للشعر الذى حلا لفظه فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى (٧) قول «عتبة بن زهير» :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهاري رحالنا
ولا ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

ويعلق عليها بقوله: «هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء : مخارج ومطالع ومقاطع وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث.. ثم يقول وهذا الصنف فى الشعر كثير».

وضرب مثلا للشعر الذى جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه قول لبيد (٨):

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعلق عليه بقوله: «هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه ينقصه الماء والرونق».

وضرب مثلا للذى تأخر لفظه ومعناه قول الخليل بن أحمد العروضى

إن الخليط تصدع — فطر بدائك أو قع
لولا جوار حسـان — حور المدامع أربع
أم البنين وأسمـا — ءوالرباب وبوزع
لقلت للراحل إرحل — إذا بدا لك أودع

ويعلق عليه بقوله وهذا الشعر بين التكلف ردىء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة .

وإذا كنا لا نوافق «ابن قتيبة» على كل آرائه فى جودة الشعر أو قبحه فى النماذج التى يوردها ، فإننا نلتمس له العذر، فنحن لا نزال حتى الآن نختلف حول جودة الشعر ورداءته.

ولعل بعض الأهواء والخلافات السياسية والاجتماعية والعلمية كانت تتحكم فى أحكام أبى محمد، وإن كان فى الأغلب الأعم من أحكامه دقيق التحليل والتعليل.

* * *

وفى الكتاب كثير من القضايا الهامة مثل حديثه عن الشعر المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذى قوّم شعره بالثقافة، ولقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة .. وكان الأصمعى زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم لقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول خير الشعر الحولى المنقح المحكك. وكان زهير يسمى قصائده الطويلة بالحوليات . ومن القضايا التى أثارها ابن قتيبة «بواعث الشعر» يقول: «وللشعر دواع تحث البطىء، وتبعث المتكلف فمنها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب» وكان يدعم عناصر كل قضية يتناولها بحكاية عن شاعر أو قصة سمعها يروى «قيل للحطيئة أى الناس أشعر فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع»(٩) وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخريمى:

مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد، يعنى كاتب البرامكة ، أشعر من مراثيك فيه وأجود فقال كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء.. وبينهما بون بعيد (١٠)».

وتناول المؤلف أيضا «قضية اختيار الشعر» والمختارات فى ميدان الشعر العربى كثيرة ولكن ابن قتيبة حدد أسباب اختيار الشعر فقال : «وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، لكنه قد يختار ويحفظ على أسباب، منها الإصابة فى التشبيه أو خفة الروى أو لأن قائله لم يقل غيره أو لأنه غريب فى معناه، أو لنبتل قائله.. وقد أورد – على طريقته – مثالاً – لكل سبب من هذه الأسباب.

والمطبوع من الشعراء – فى رأيه – «من سمح بالشعر، واقتدر على القوافى وأراك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة(١١)».

وقد ترجم لعدد من الشعراء بلغ ٢٠٦ ، بدأهم بإمرىء القيس وختمهم بـ «أشجع

السلمي».. وكانت طريقته في الترجمة للشعراء متفاوتة في الطول والقصر متفاوتة في الشعر الذي يرويه للشاعر، ولكنه التزم في كل تراجمه ببعض الحكايات والطرائف التي يعرفها عن الشاعر، وذكر بعض أشعاره.

فعندما ترجم لإمرىء القيس قال:

«هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي وهو من أهل نجد ، من الطبقة الأولى. وهذه الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد. قال لبيد بن ربيعة: أشعر الناس ذو القروح يعني (امرأ القيس) » (١٢) ثم راح يحكي بعض الحكايات التي يعرفها عنه ويعطي بعض النماذج من شعره، فيقول مثلاً:

«ويستجاد من تشبيهه قوله:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدي وكرها العناب والحشف البالي

وقوله:

كأن عيون الوحش حول قبابنا
وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب(١٣)

معنى ذلك أنه يدرس شخصية الشاعر بعد أن يعرف ظروفه الاجتماعية والنفسية وأحداث حياته، وبعد أن يقرأ شعره » قراءة فحص وتذوق فيعجب ببعضه، ويقول عنه «هذا ما يستجاد من شعره» ويعيب بعضه ويقول عنه «هذا ما يعاب من شعره».

وهذا في رأيي هو النقد الأدبي، أو نقد الشعر.. أليس النقد في جوهره القراءة المتأنية لتمييز الجيد من الردي»، وهذا ما فعله «ابن قتيبة» في شعر «امرىء القيس»..

وكان يتابعه في كل موضوعات شعره فقال عن وصفه للفرس «وقد أجاد في صفة الفرس:

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (١٤)»

وعندما قرأ بعض أبياته فلم تعجبه قال: «ومما يعاب عليه من شعره قوله:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل

وإنما قالوا: «الثريا لا تعرض لها، وإنما أراد الجوزاء ، فذكر الثريا على الغلط كما قال الآخر كأحمر عاد، وإنما هو كأحمر ثمود، وهو عاقر الناقة(١٥)»..

قد نختلف معه في بعض تحليلاته للشعر، وقد نرى أن جودة الشعر لا تتوقف على صحة القضايا التي يتناولها.. فقد يكون (أعذب الشعر أكذبه» كما كان يقول القدماء ولهذا فبيت امرىء القيس «إذا ما الثريا» بيت جيد سواء تعرضت الثريا أو لم تتعرض.. وهذا لا ينفي اجتهاد ابن قتيبة أو يغض من إحكامه.

أما ما يروى من حكايات وطرائف تدور حول الشاعر الذي يدرسه، فهذا هو المنهج الاجتماعي الذي لايزال ساريا حتى الآن في بعض الدراسات الأدبية والنقدية.

ونحن نستمتع بحكايات «ابن قتيبة» التي رواها وهو يدرس شخصية (امرىء القيس) ومن

الحكايات الطريفة حكاية «يوم الغدير - وهو يوم «دارة جلجل».

«وذلك ان الحي احتملوا ، فتقدم الرجال وتخلف النساء والخدم والثقل .. فلما رأى ذلك (امرؤ القيس) تخلف بعد ما سار غلوة، فكمن في غيابة من الأرض حتى مرت به النساء، وفيهن عنيزة، فلما وردن الغدير قلن لو نزلنا فاغتسلنا في هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال، فنزلن في الغدير ونحين العبيد، ثم تجردن فوقعن فيه، فأتاهن امرؤ القيس، وهن غوافل، فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها، وقال: والله لا أعطي جارية منكن ثوبها ولو ظلت في الغدير يومها، حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها، فأبين ذلك عليه، حتى تعالى النهار، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه، فخرجن جميعا، - غير عنيزة - فناشدته الله أن يطرح إليها ثوبها، فأبى فخرجت فنظر إليها - مقبلة ومدبرة - وأقبلن عليه وقلن له: إنك عذبتنا وحبستنا ، واجعتنا، قال فإن نحرت لكن ناقتي تاكلن منها، قلن: نعم فخرط سيفه فعرقبها ونحرها ثم كشطها، وجمع الخدم حطبا كثيرا فأججن نارا عظيمة، فجعل يقطع لهن من أطايبها ويلقيه على الجمر، ويأكلن ويأكل معهن، ويشرب من فضلة خمر كانت معه، ويغنين وينبذ إلى العبيد من الكباب، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن أنا أحمل طنفسته ، وقالت الأخرى أنا أحمل رحله وانساعه، فتقسمن متاع راحلته وزاده، وبقيت عنيزة لم يُحملها شيئا، فقال لها يا ابنة الكرام لابد ان تحمليني معك فإني لا أطيق المشي، فحملته على غارب بعيرها ، وكان يجنح إليها فيدخل رأسه في خدرها فيقبلها، فإذا امتنعت قال حدجها فتقول: عقرت بعيري فانزل (١٦)»..

فيدون هذه الحكاية التي رواها «ابن قتيبة» وغيرها من الحكايات التي رويت عنه، ما كنا لندرك على وجه التحديد ما روى في شعره من بعض أحداث حياته. فهذا المشهد رواه في معلقته فقال:

ويوم عقرت للعذاري مطيتي	فيا عجباً من رحلها المتحمل
يظل العذاري يرتمين بلحمها	وشحم كهداب الدمتس المفتل
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة	فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً	عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقلت لها سيري وأرخي زمامه	ولا تبعدينا من جناك المعلل (١٧)

ولا يكتفي «ابن قتيبة» برأيه في شعر امرىء القيس، بل كان ينقل آراء غيره.. يقول :

«قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يقول من فضله: أنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى في الدمن، ووصف مافيها، ثم قال دع ذا رغبة عن المناسبة، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا، واللقوة والسباع والظباء والطير، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف .. (١٨)

ثم تتبع «ابن قتيبة أثر امرىء القيس فيمن جاء بعده من الشعراء . بقوله:

«فمما أخذه الشعراء من شعر امرىء القيس.. قال امرؤ القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم

يقولون لا تهلك أسى وتجمل

أخذه طرفة فقال:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك أسي وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف فرسا:

وتخطو علي صم صلاب كأنها
حجارة غيل وارسات بطحلب

أخذه النابغة الجعدى فقال:

كأن صواحبه مدبراً خضبن وإن كان لم يخضب
حجارةغيل برضراضة كسين طلاء من الطحلب

★ ★ ★

بعد ذلك بين ما انفرد به الشاعر، فقال: ومما انفرد به قوله فى العقاب

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدي وكرها العناب والحشف البالي

شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد وأحسن التشبيه (١٩) ..

★ ★ ★

والشاعر الثانى الذى اهتم به «ابن قتيبة» فى كتابه «زهير ابن ابى سلمى» وترجم له على هذا النحو «هو زهير ابن ربيعة بن قرط، والناس ينسبونه إلى مزينة، وإنما نسبه فى غطفان، وليس لهم بيت شعر ينتمون فيه إلى مزينة إلا بيت «كعب بن زهير» وهو قوله:

هم الأصل مني حيث كنت وإنني من المزنيين المتصفين بالكرم .

«وكان لا يعاظل بين القول، ولا يتبع حوش الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه(٢٠)».

ويروى إبن قتيبة «قال عكرمة بن جرير، قلت لأبى من أشعر الناس، قال أجاهلية أم إسلامية: قلت : جاهلية .. قال زهير، قلت فالإسلام قال الفرزدق، قلت فالأخطل؟: قال الأخطل يجيد نعت الملوك، ويصيب صفة الخمر، قلت له فأنت ؟ قال أنا نحرت الشعر نحراً»(٢١).

وقال عبدالملك لقوم من الشعراء أى بيت أمدح: فاتفقوا على بيت زهير

إذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقيل لخلف الأحمر زهير أشعر أم ابنه كعب؟ قال لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت كعبا أشعر منه.. يريد قوله:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر
ولأنت أشجع من أسامة إذ دعي النزال ولج في الذعر
ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا تفري
لو كنت من سيء سوي بشر كنت المنور ليلة والبدر

وكان زهير يتأله ويتعفف فى شعره، ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله:

يؤخر فيودع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب أو يعجل فينقم(٢٢)

وراح ابن قتيبة على طريقته ، يروى الحكايات حول زهير ويقدم شعره الذى استجاده ويقرأ حولياته ويروى ما يعجبه منها «قال ومما سبق إليه زهير فأخذ منه قوله يمدح هرما:

هو الجواد الذي يعطيك نائله
عفواً ويظلم أحيانا فيظلم

★ ★ ★

بعد ذلك ترجم لكعب بن زهير ، والنابغة النبياني ، والملتمس، والمرقش الأكبر ، والأفوه الأودى وعمرو بن كلثوم ، وحاتم الطائي والاعشى بن قيس ، وزيد الخيل ، ومهلهل بن ربيعة ، وعمرو بن قميئه ، وجرير بن عطية وذو الرمة، ومسكين الدارمي والعرجى وختمهم في الجزء الثاني بالشاعر اشجع السلمي وقال عنه: هو أشجع بن عمرو من بني سليم وكان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، وراح يروى ما يروق له من شعره قال: ويستجاد له في مدح الرشيد

وصلت يداك السيف يوم تقطعت
وعلي عدوك يا ابن عم محمد
فإذا تنبه رعته وماذا هدا
أيدي الرجال وزلت الأقدام
رصدان ضوء الصبح والإظلام
سلت عليه سيوفك الأحلام (٢٣)

***

وكانت تراجمه تقصر أو تطول حسب معلوماته وحكاياته عن الشخصية التى يترجم لها وحسب الشعر الذي يحفظه له.. ولكنه في كل التراجم كان يطبق منهجه الذى التزم به فيتحدث عن الشاعر ويروى أحداث حياته وطبيعة هذه الحياة والبلد الذى عاش فيه وثقافته وطريقته فى نظمه ، ثم يقرأ شعره ويفهمه ، ويقول رأيه فى الجيد والردىء منه، ويعطى نماذج مما يستجيده، ونماذج مما يعاب عليه. وكان لا يكتفى برأيه فى الشاعر، بل كان يعود إلى آراء الشعراء والكتاب فيه، ولعل تلك الحصيلة الضخمة من الدراسات لنحو مائتين وستة شعراء قد صقلت ذوقه وأرهفت حسه ، وأذكت مشاعره وكونت له ملكة فى نقد الشعر تعينه على معرفة الجيد والردئ وتحدد له منهجا فى دراساته يسير عليه كما جاء فى مقدمة كتابه .

★ ★ ★

بعد هذا الاستعراض ماذا نقول في الكتاب وفي المؤلف ؟ ونحاول أن نصنع صنيعه، عندما كان يستأنس بآراء غيره في الشاعر أو الذي يدرسه قال عنه صاحب كتاب «التحديث بمناقب أهل الحديث » (وهو أحد أعلام الائمة والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفا وأحسنهم ترصيفا . له زهاء ثلاثمائة مصنف، وكان يميل إلى مذهب أحمد واسحق، وكان معاصرا لإبراهيم الحربى ومحمد بن نصر المروزى . وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون: أمن استجاز الوقيعة في «ابن قتيبة» يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شئ من تصنيفه لاخير فيه »

ورجل هذه ثقافته وتلك مؤلفاته، يجعلنا نقرر في اطمئنان أن كتابه «الشعر والشعراء» كان بداية للنقد الأدبى بمعناه الدقيق، فقد تناول نصوص الشعراء وفهمها ودرسها وأصدر حولها «حكما» بقيمتها . ففى الكتاب دراسة وحكم وتحليل وتعليل، وللكتاب منهج التزم به صاحبه من أجل ذلك نختلف مع أستاذنا الدكتور محمد مندور رحمه الله عندما قرر ان «ابن قتيبة» ليس ناقدا وإنما هو مؤرخ أدب أكثر منه ناقدا فلاشك انه ناقد بكل المقاييس والمعايير ..

وان كان الدكتور محمد مندور وهو يحكم عليه حكما عاماً قد أنصفه وقال فيه قولاً جميلا

على الرغم من قوله إنه ليس ناقداً .

قال عنه «هو رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله ، دعا الى تحكيم الرأى الشخصى فأصاب، وعرف الشعر المتكلف فى أحد المواضع بأنه ماخلا نسجه من الوحدة فأصاب، وحاول ان يقسم الشعر تبعا لجودة ألفاظه ومعانيه فتخبط فى الحكم والذوق ، وقسمه إلى مطبوع ومتكلف فخلط بين الارتجال والطبع ، وبين التثقيف والتكلف وحاول ان يورد عن غيره بعض المقاييس فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليضعها وضعها الحقيقى (٢٤)

ويبدو ان الدكتور مندور لم يقرأ كتابه كاملاً ، ولم يقرأ له شيئاً من كتبه وإلا لما حكم عليه هذه الأحكام!

وان كان قد انصفه بعض الانصاف عندما قال« ومع ذلك يبقى له فضل وقوفه فى سبيل طغيان منطق اليونان على أدب العرب وفضل التعصب للقديم لقدمه أو الحديث لحداثته، وذلك رغم أنه لم يستطع ان يقيم محل مارفضه أسساً صحيحة أو نظرية متماسكة » .٢٥»

ونحن نظلم « ابن قتيبة» إذا طالبناه فى القرن الثالث الهجرى أن يفكر على طريقتنا ويحدد معالم نظريته بأسلوبنا . ولكنه فى الوقت نفسه وهو يؤلف كتابه «الشعر والشعراء » حدد منهجه ورسم طريقه، والتزم بما قرر وحدد، وبما وضع من معايير وقواعد وهذه هى أسس نظريته فى نقد الشعر. ولقد وقف فى وجه ذلك التيار المدمر الذى حاول ان يفرض على الذوق الأدبى نظرات الفلاسفة والمتكلمين ولقد اعترف له استاذنا الدكتور محمد مندور رحمه الله بهذا الفضل عندما قال «وليس من شك فى أن (ابن قتيبة) كان ذا فضل فى مقاومة التيار الجديد، وحماية الدراسات الادبية من طغيانه وسوف نرى ان نزعته هى نزعة الآمدى وعبد العزيز الجرجانى : ذوق عربى، واستقلال فى الرأى وتنحية للفلسفة عن مجال الادب» (٢٦) .

المراجع

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة - الجزء الأول ص٦٥ وما بعدها بتصرف (الطبعة الثالثة ١٩٧٧) .
(٢) السابق ص٧٠ .
(٣) السابق ص٧٢.
(٤) السابق ص٧٤ .
(٥) السابق ص٧٥ .
(٦) السابق ص٧٦ .
(٧) السابق ص ٧٣ .
(٨) السابق ص ٧٤ .
(٩) السابق ص٨٥ .
(١٠) المصدر والصفحة .
(١١) المصدر السابق ص٩٦ .
(١٢) السابق ص١١١ .
(١٣) المصدر السابق ص١١٦ .
(١٤) المصدر السابق ص١١٦ .
(١٥) المصدر السابق ص١١٧ .
(١٦) المصدر السابق ص١٢٩ ، ١٣٠ .
(١٧) المصدر السابق ص١٢٠ ، ١٢١ .
(١٨) المصدر السابق ص١٢٤ .
(١٩) المصدر السابق ص١٤٠ .
(٢٠) المصدر السابق ص١٢٠ .
(٢١) ص١١٤ - ١٤٥ .
(٢٢) المصدر ص١٤٥ .
(٢٣) الجزء الثانى ص٨٦٦ .
(٢٤) الدكتور محمد مندور النقد المنهجى عند العرب ص ٣٣
(٢٥) المصدر السابق ص ٣٣
(٢٦) المصدر السابق ص ٣٣

ينابيع الشمس

رحلة القلب والعقل معاً

بقلم
عذاب الركابي

«ومن خلال فكرة وحدة الزّمان ، والموت في الحُبّ، عبّرتُ عن سنوات الرّعب والنفيّ والانتظار التي عاشتها الإنسانية عامة والأمة العربية خاصة، ومن خلال مرآة نفسي أنا أيضاً..».

عبدالوهاب البياتي تجربتي الشعرية ص ٤٤

في السبعينات، بداية الوعي بالهم والكلمة، وفعلها والرّهان على زحف نيرانها الضروري المقدس..، كان كتاب (تجربتي الشعرية) لعبد الوهاب البياتي من الكتب الطاغية على أذهاننا حتى الهوس، كنا نقرأه مرات ومرات دون ملل لثرائه وصدقه.. وكان له تأثيره الفاعل على جيل جريح.. بل على أجيال قادمة وكأنه وحده الذي كان يجيب على الأسئلة المزمنة والمحيرة التي كنا متثقلين بها، أضف إلى ذلك نفوذه الذي فاق في سحره، وتأثيره مئات الدواوين الشعرية.

فكل كاتب.. وكل شاعر .. وأستاذ جامعي سرعان ما يعرف بارتعاشة جسدك شعراً، يطلب منك قراءة (تجربتي الشعرية)..!! وقد قرأته بظمأ، ولا أبالغ إذا قلت إنني حفظت منه عبارات، بل فقرات هامة، ومازالت عالقة في ذهني.. استفدت منها كثيراً في أحاديثي.. وتنمية رؤاي الشعرية



والنقدية.. وإننى مدين لهذا الكتاب، وهو معى حتى هذه اللحظة (طبعة بيروت - دار العودة ١٩٧١).. وهو بداية حبى وهوسى بكتب السيرة ابتداء من «أيام» طه حسين، و«أوراق العمر» للويس عوض وحتى سير عباقرة هذا القرن هنرى ميللر، وكازنتزاكى، وبابلو نيرودا، وهرمان هسة!!

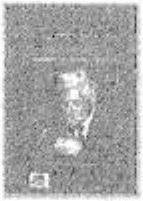
ويقول البياتى «إن الكتابة فى العالم الثالث عذاب وليست ترفاً لأن الكاتب عندما يتصور أن الكتابة مجرد كلمات وطموح نحو إبداع محض تتحول فى مثل هذه الحالة إلى خدوش باهتة فى سطح الواقع الفاسد».

★

حين وصلنى (ينابيع الشمس) سيرته الشعرية التى بعثها لى الصديق الشاعر الكبير عبدالوهاب البياتى، كنت أقرأ سيرة شاعر الهند العظيم طاغور (ذكرياتى)، وبقدر ما فيها من كثافة وعمق وصدق، تفتقد إلى عنصرى الدهشة والجذب اللذين يساعدان فى توريطك بقراءة ممتعة موحية ... وإننى أجدهما فى كتابات الصديق البياتى الشعرية والنثرية، وهذه حقيقة يمكن أن يتفق معى فيها الكثيرون، ولهذا السبب قدمت اعتذارى لطاغور العظيم، وأنا أفتح قلبى ونوافذ ذاكرتى.. وحدائق أصابعى لكتاب البياتى الجديد (ينابيع الشمس) - السيرة الشعرية.. وهو لما يزل ساخناً سخياً..!!

«فكان شأنى وأنا أكتب السيرة - المذكرات هذه، كشأنى وأنا أكتب الشعر، إذ كلما انتهيت من كتابة قصيدة، أشعر أنى سحابة أمطرت كلّ ما عندها، وظلت تنتظر موسماً آخر لكى تستعيد عافيتها فتمطر من جديد..» - ينابيع الشمس ص ٧.

من الصعوبة بمكان الحديث عن شاعر بقامة البياتى بمعزل عن سيرته لأنها تكاد تكون الامتداد الطبيعى لذلك النزف الساخن - الشعر، بل هى الرئة التى يتنفس من خلالها الشعرُ هذا الكم من الهواء الصحى النقى.. والعكس صحيح ..!!



السيرة الشعرية

و(ينابيع الشمس) السيرة الشعرية لعبدالوهاب البياتي ليست سيرة حياة الشاعر البياتي وحده، وفيضه الشعري، ومصادر ثقافته وتكوينه الإبداعي والإنساني فحسب إنما هي سيرة الإنسان الجريح في كل مكان، وإنساننا العربي خاصة، وهي محاولة تتبع وبذكاء حركة كوننا المثقل بسحب الكوارث والهزائم والأخطار، وأنها سيرة وطن مغيب، قسراً، البياتي كشاعر مُقلق، جزء منه، بل عنصر هام من عناصر حركته، عند هذه النقطة فقط تكتسب هذه السيرة أهميتها.. وقوة جذبها للقارئ الظامئ لبارقة أمل تحيل، تشجعه على الحياة وترتب له سريراً دافئاً، وسط هذا الكون المضطرب!!

و(ينابيع الشمس) حديث النفس الجريحة.. لوحة صادقة مثيرة الإيقاع واللون، والظلال، رسمت بحنكة تحت تأثير وجع وهم كبيرين.. أطلقت الجرأة في هذه الأصابع الناحلة، التجربة الكبيرة التي عاشها الشاعر، وهو يفتح صدره لنبال النفي، والغربة، والجوع، والسهر، وقلق الكتابة القاتل، مبتسما بسخرية، إنه حديث النفس المضيئة بإنسانيتها، وحلمها، وشاعريتها بعيداً عن الأنانية، والغطرسة، والغرور.. حديث الشعر المطارد الذي استوطن جسد هذا الشاعر الكبير.. حتى صار وجهه وأصابعه وهويته .. وطريقه.. وامرأته :

«منذ نعومة أظافري بدأت أعي سر الموت وسر الغربة وسر الصمت، وكنت ألوذ بكتبي متأملاً الطيور والسحب التي كانت تغطي السماء في أيام الشتاء، حالما بالرحيل إلى مدن أخرى وإلى بلاد بعيدة..» ص ٩.

وعبدالوهاب البياتي في (ينابيع الشمس) ينتصر للإنسان لأنه هو .. قصيدته التي دلته على (جلجامش)، وهو بدوره دله على ينابيع الشمس...، وينتصر للإبداع – السحر الذي بدونه لا يمكن أن يحتمل هذا العالم – حسب تعبير (هرمان هسة)!!.

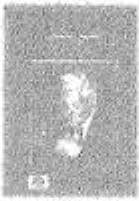
(ينابيع الشمس) كتابة بأحرف كبيرة .. مضيئة ومستفزة لسؤال البؤس الإنساني الذي أرقه، بل ترك في جسده آثاراً لا تمحى.. قصائد ترفع راية الثورة والتمرد والعصيان على امتداد الأزمنة الثلجية التي عاشها الشاعر..، وهو سبب انكساره، وحزنه، ووحدته.. وما من سبيل لنسيانه

والتغلب عليه إلا بالكتب: «**وفي تلك المرحلة شعرت بالوحدة الهائلة، وشعرت بأن العالم السحري الذي كنت أملك مفاتيحه، وأستطيع من خلاله أن أجيب، وأجاب عن كل أسئلتي قد تقوض وانتهى فلجأت إلي الكتب**» ص ٢٥... وقد كان الشعر ضالته، قد فوض إليه أمره، وقد تكفل بتبديد كل ظلمات النفس:

«**كنت أقتنص بيت شعر لشاعر جاهلي مثل طرفة بن العبد أو شاعر إسلامي أو عباسي، كنت أشعر بالفرحة لأن هذا البيت أو شطراً منه قد أضاء بعض ظلمات نفسي..**» ص ٢٥.. يسعفه في عبور محنة الفقر، والبؤس الإنساني الحلم بثورات الفقراء، تقربها من نبض دمه الصادق ثقافة أصيلة غزيرة، يفتت بمصادرها ليل زمنه البهيم، ممتدة من أغاني الفلاحين، والحكايات الشعبية.. من طرفة وأبي نواس والمعري والمتنبي والشريف الرضي، ومن الشعراء الصوفيين جلال الدين الرومي، وفريد الدين العطار والخيام، وحتى شعراء الحلم الإنساني، والفجر الإنساني العالميين ابتداء من نيرودا، وايلوار، وناظم حكمت ولوركا وحتى مايكوفسكي، واضعا إصبعه النحيل على أهم ثلاثة مصادر لعبت دوراً كبيراً في زاده الثقافي وتكوينه الإنساني والفكري، مبتدئا بكتاب (مقدمة ابن خلدون): «**الذي اكتشفت فيه بعض الأفكار العلمية والمنطقية**» ص ٢٠، وكتاب الأغاني (كأكبر موسوعة ملحمية عالمية في نظري) وألف ليلة وليلة الذي كانت قرأته (من أجل المتعة أو البحث عن شيء ضائع أحسه ولا أعيه).. لأن في هذه الكتب أشياء جديدة: «**ولا أزال أواصل قراءة هذه الكتب واكتشف بعد هذه السنوات الطويلة أشياء جديدة فيها أيضا**» ص ٣١.

الرحيل

ورغم أن الكتب منحته هذه الذهنية المتوقدة وهذا القلب الصوانى الذى تفتت على جدرانه كل حراب الزمن الغادر، يعلن (شعوره بالإشباع) منها أحياناً، فيبدلها، لبعض الوقت، بزاد آخر - الرحيل .. يشعلُ في دقائق جسده حب الحياة أكثر «**فكنت أحاول إيجاد توازن بين حياتي الوجودية وحياتي الروحية، وهذا ما كان يتجلي في قلقي وكثرة أسفاري التي كنت فيها أشبه بمن يبحث عن النور طاف في مدن العالم القديم**



السيرة الشعرية

والحديث، ص ٣٣ .. غير متناس هذا الغذاء الروحي الذى (يحيا عليه شعره ولايزال) ، ولأن الكتب (خلاصة التجربة الإنسانية) استطاع البياتي بالمعية ذهنه، وتفوق حلمه أن يتعامل معها بحنكة، ودربة، وتأن، مضيفا على هذه الكتب التى تشغله ولا تشغله صفات الناس، فمنها الممتع، والغزير، والشيق، والدسم، ومنها الممل، والخامل، والضعيف، واضعا أمامه الهدف الأسمى المتمثل فى قدرتها على إيقاظه بعد كل قراءة، واستعدادها الجنونى (لتنمية مشاعره وموهبته)، فهى إما أن (أقتنيها ولا أقرأها) لأن قراءتها يمكن أن (تخلق حالة عكسية فى داخلى) أو (أقرأها من الألف إلى الياء ولا أعود إلى قراءتها من جديد) معتبراً المعرفة المباشرة من (خلال التجربة الإنسانية).. وهناك من الكتب التي (أعود إلي قراءتها مرات..) ص ٣٥.

فى (ينابيع الشمس) حديث دافيء عن المكان ودوره فى النضج الثقافى فقد اعتبره (البياتى) البذرة الأولى، التى حين توفر لها الماء والهواء والشمس أنبتت هذه الثمرة - الشاعر، الذى شغل بصوته ، وحنجرته الصافية، وإيقاع أصابعه، وأنين قلبه الدافيء، الناس كل هذا الزمن، فكان بحق (نور الشعر ومرآته)، وقد كانت بغداد - الأم ، متمثلة فى (دار المعلمين) مكان وجوده وبداية تفتح مواهبه الشعرية... قاعدته التى بدأ منها المغامرة - الشعر، محدداً فضل هذا المكان فى ثلاثة أقطاب هم كل قوته، وحماسه ، وحافزه الأعلى: (ناحية العمق فى قراءة التراث العربى القديم ودراسته) متمثلاً على وجه الخصوص فى (مقدمة ابن خلدون، وكتاب الأغانى وسواهما من الكتب التراثية المهمة) ص ٣٩، و(علاقتى ببعض الأساتذة الكبار الذين درسوا لنا فى تلك السنوات) متمثلة فى العلامة اللغوى الكبير د. مصطفى جواد، و د. عبدالفتاح السرنجاوى و د. محمد مهدى البصير، ثم هناك علاقته بزملائه من الطلبة الأدباء والشعراء متمثلة فى السياب كأحد شعراء الحداثة الكبار.

يقول البياتى «**فالنفي لدي ليس بالجسد وحسب، بل هناك نفي أشد، وهو الإحساس الداخلي بالنفي والشعور بالاستلاب، فقد أحسست بالنفي قبل حصول النفي نفسه، أي أنني أحسست**

بأني منفي منذ طفولتي، سواء في القرية أم في المدينة، واكتشفت أن العالم ما هو إلا منفي داخل منفي آخر..» ص ٥٧.

«ينابيع الشمس» تكتب هامشاً ضرورياً لهذه القصيدة الملحمية، النفى، التى عاشها الشاعر، وكتبها بكل نبض، وكل دقيقة من دقائق جسده الواهن، وقد كان فرحا به لا لأنه نبوءة العرافة: «إن أمامي أزمنة طويلة للرحيل، وهكذا تحققت نبوءة العرافة هذه عندما غادرت بغداد بعد فصلي من الوظيفة عام ١٩٥٤» ص ٥٢، وإنما «كنت أريد أن أكون سيد نفسي دون أن أطأطيء رأسي لأحد، أو أنحني أمام حاجب أو رئيس دائرة أو أي إنسان» ص ٥٢.. وهذا ما جعل البياتى ابن هذا العالم، عانى ما عاناه من كوارث وهزائم، حتى صار جرحه إضافة جميلة وضرورية لجرح العالم، دون أن يشعر بالغربة المكانية فيه، رغم ما أعلنه فى أكثر من مقام بأنه جاء ليعاكس هذا العالم، فاضحاً مساوئه ومعاصيه. ليبدع على أنقاضه عالما آخر .. عالم الحرية والعدل والإنسان والشعر..!! «فعندما يولد الإنسان ويعيش في ظروف استلاب اجتماعي وثقافي وسياسي، يحس كأنه طائر أو كأنه سحابة، في الظاهر، لأن هذين الكائنين يحصل كل منهما على حريته بالرحيل، ولعلي بسبب ذلك أحسست بأني أكثر حرية عندما جربت النفي في البداية» ص ٥٧.

نفى الشاعر

والنفى قد منح هذا الطائر الجميل - الشاعر جناحين أسطوريين، مكناه من الرقص مع الشمس تارة، وتارة أخرى التعلق فى خاصرة السحابة المطرة لترقيق قلبها، فهناك عواصف هوجاء فى الانتظار.. ومن هنا فإن النفى بقدر ما فيه من غربة روحية وصوفية، فيه من القوة الأزلية والحصانة: «ولم تأخذ الغربة ولا النفي مني شيئا، بل منحاني الحصانة ضد التفاهة والعدمية والمجانية، ومنحاني القوة في مواجهة الشر والذل الكونى..» ص ٦١.

ويقول عنه ناظم حكمت: «إن البياتي شاعر أصيل، من أولئك الشعراء الحقيقيين الذين كان تجديدهم تلبية لدواعي المحتوي الجديد، وليس سعيا وراء بدعة أو حذلقة»..

السيرة الشعرية



حديث صادق

وفى «ينابيع الشمس» صفحات مندأة بطيبة ودفء الشاعر الكبير. خصصها (البياتى) للحديث عن لقاءاته الإنسانية الدافئة والعميقة، بكتاب وشعراء الإنسانية الكبار، متمثلة في: ناظم حكمت، ماركيز، ألبرتي، السياب، خليل حاوى، وصلاح عبدالصبور... وقد كان حديث شاعرنا عن هؤلاء صافيا، صادقا، صباحياً... هو حديث الشاعر والمبدع المتجدد، الحالم أبداً بعلاقات إنسانية صباحية جديدة، تكون نافذة مطر يطل من خلالها ليقاوم بعض قساوة الحياة، وصلافة ورعونة عالمه... ولم تكن علاقته بهؤلاء الكتاب والشعراء الإنسانيين علاقة طارئة، عابرة، قذف بها الزمان، إنما هي علاقات عميقة عمق الشعر والحب، ومتجددة تجدد الإبداع والحياة.. وهو لم يؤجل الحديث عن هؤلاء في كل فرصة، وكل مناسبة، وكأنه التقاهم أمس، واليوم، وربما سيلتقى أحدهم غداً، في زورق من صنع شوقه لهم.. وربما من صنع الشعر... وهذا إن دل على شيء إنما يدل على إنسانية الشاعر البياتي، وشفافيته، وحلمه، وإيمانه بالزمن القادم... زمن الشعراء.. والفقراء.. والثوار.. والعشاق.. والمبدعين..

***

وقد تضمن كتابه (حدائق الشعرا.) أيضا صورة رائعة لهذه الأحاديث وعن هذه اللقاءات. وكأنها منقوشة في ذاكرته نقشاً..!!

و«ينابيع الشمس» رحلة القلب والعقل معا... كلاهما يتحدثان يحكمان الحرف، فتاتي الكلمات في هذا الكتاب الهام إنسانية، دافئة، حميمية، عميقة، يحتفل الشعر في تلك السطور بخلوده، في حضرة التاريخ الذى كاد يصبح منسياً لولا كلمات الشاعر الضوئية... لولا الشعر الذى تفوق في (ينابيع الشمس) على التاريخ كثيراً.. بذاكرته التي كانت الأصفى والأنقى في نقل ووصف هذه المحطات الهامة في حياة شاعر.. هو أكبر شعراء الحداثة الأحياء..

إن السيرة الشعرية لعبدالوهاب البياتي إضافة هامة لكتب السيرة في الأدب العربي الحديث.. والمعاصر يتميز في ثرائه، وعمقه... فهو عرس للزمان والمكان اللذين عاشهما الشاعر، وتكريم للشعر والكلمة، وهما يمنحان هذا القدر من الحرية والدفء والحياة. ■

قراءة متأنية في حديث الرسول

شعر
يسرى خميسى

١ – عندما نزل بشر الحافى
إلى سوق بغداد
هاله ما رأى
فخلع نعليه، ووضعهما تحت إبطه
وجرى فى اتجاه الصحراء
وظل يجرى، يجرى، يجرى
حتى يومنا هذا.

٢ – ولما رأى ذو نواس
(آخر ملوك حمير فى اليمن)
لما رأى افتراق قومه
لما رأى انكسارهم وضعفهم
أمام حثالة الأحباش
لطم فرسه بالسوط
وشق البحر به
وظل يعدو، يعدو، يعدو
حتى يومنا هذا.

٣ – ولما رأى الحاج خليل عقيفى
تاجر الأقطان بالزقازيق
تراخى المصريين وتنطعهم
فى الاكتتاب
لجلب جثمان الزعيم محمد فريد
من غربته فى برلين
سافر بنفسه وأحضره.

٤ – بعض الأقوام
لهم أفئدة كأفئدة الطير
صدق رسول الله.

اللمبى

هازل جداً... جاد جداً

بقلم
صافى ناز كاظم



كنت حريصة على حضور عرض فيلم «اللمبى»، قبل أن يصبح، كما الآن، حديث المدينة والأوساط الثقافية، كان يهمنى أن أشاهد «عبلة كامل»، وكان يهمنى أن أشاهد هذا الممثل الجديد المبهر «محمد سعد»، الذى سبق أن شاهدته أول مرة فى لقطات قصيرة ظهر فيها غريباً لافتا بفيلم «الناظر» لعلاء ولى الدين، وحرصت أن أتابعه فى «٥٥ إسعاف». إنه نموذج لم تعرفه السينما المصرية من قبل، يمثل «نمطا» من البشر موجود فى الحياة، ليس السائد فيها لكنه إذا

قابلك فلن تنسه. هو «حثالة»، هو «عشوائى»، «عاطل»، «أمى»، «مسطول» متعثر فى النطق، عاجز عن صياغة جمله للتعبير عما يريد، منسحق آت من قاع الدمار الإنسانى، كلما حاول أن يستنشق نسمة هواء خارج بلده البائسة، تكالبت عليه الأيدى القوية لتدفع برأسه تغطسه فى الاختناق والفساد والحصار.

هذا «النمط» البشرى صوره الأدب العالمى والعربى، ليس تماماً «اللمبى» لكن شخصيات موازية له فى التفرد الطريف الذى يمكن أن ينشأ من مأساة التدمير الإنسانى. تجده عند «شتاينبك» فى «عن الفئران والرجال» وعند «كارسون ماكيللر» فى «موال المقهى الحزين» وعند «هارولد بنتر» فى مسرحية «الحارس»، وعند «خيرى شلبى» فى «صالح هيصة» وعند «حرافيش» نجيب محفوظ .. الخ. لكن الفنان «محمد سعد» بتجسيده «اللمبى» عرف كيف لايجعله اجترارا لأحد سبقه. لقد تقمص الشخصية حتى لم تعد هناك مسافة بينه وبينها، ومع ذلك فهو غير منحاز لها، غير موافق عليها، وإن تعاطف مع أزمتها . يجعلنا نضحك هذا الضحك الذى ندفع فاتورته فوراً بمعادل من الألم مواز تماماً للمتعة، فلا أنت مستقر فى الاستمتاع بالضحك ولا أنت مستسلم لشكات الوخز بالتوجع، وإن كنت فى الحالتين، الضحك والألم، لاتكف عن مسح دموعك. نضحك مع «اللمبى» قهقهات عالية مانلبث حتى نستعيدها وعيا يشدنا إلى واقع يجلب لنا الخزى والإحساس بالعجز.

***

لا أعرف من الذى ابتكر «اللمبى» ولماذا هو اسمه «اللمبى» - (هل هو استعارة محرفة لاسم اللورد اللنبى Al-lenby - الذى كان أحد رموز الاحتلال البريطانى لمصر فى مطلع القرن العشرين؟) - هل له دلالة خاصة، أم أنه واحد من الاقتباسات الشعبية التى تتعلق برنين الأسماء فتسمى : «فرنسا» و«ويزا» و«كتشنر» و«الجنرال» .. الخ. المهم أن مجموعة الشباب من المؤلف «أحمد عبد الله» والمخرج «وائل إحسان» مع الفنان «محمد سعد» وجدوا أن هذه النواة الصغيرة التى برزت فى «الناظر» يمكن أن يقال بها ومن خلالها «الكثير» الحار والجارح فى أحوالنا التى تتجرف بسرعة متعاظمة نحو «الفظ» و«السوقى» و«القبيح»، متناهى «الغلاظة»، والذى تتبدى ملامحه أكثر ماتتبدى فى شرائح الترف والثراء، قبل العوز والفقر . فهذه الشرائح المترفة تلعب بالفلوس لعبا لا ذوق فيه ولا رقة، فهى بالفلوس والثراء قد شيدت القرى السياحية، والقنوات الفضائية والملاهى والمنتجعات والأبنية الشاهقة باهظة التكاليف شديدة الدمامة - (مثال مبنى نقابة الصحفيين الجديد بشارع عبدالخالق ثروت، هل يمكن لغيره

أن يكون نموذجاً أكثر منه في الدمامة والسوقية والغلاظة والفظاظة؟، إنه قبح متكامل الأركان يجسد مأساة الثراء فاسد الذوق الذى صار معمما كقيمة مطروحة للمحاكاة والاستنساخ).

لقد سادت ذائقة الأثرياء الجدد أصحاب الثراء المباغت، وفرضت هذه الفئة على المجتمع اختياراتها «الجمالية» القبيحة، المتمثلة في التلهف نحو الفخامة الفجة الصارخة ، وشراهة المأكل والملبس والإسراف والتبديد والإهدار والضجيج العالي في كل أوجه نشاطها وقيمها ، مما أدى إلى خلل ملحوظ في اتجاهات المجتمع المصرى الذي وجد نفسه - بدفع الأمواج - مرتمياً في معمعة الاستهلاك بما يفوق قدراته المالية ، فدخلت في مفرداته كلمات مثل «مشروع»، «مشاريع»، «سياحة»، «استثمار»، ولأن هذا المجتمع لم يتدرب جيداً على التعامل مع هذه الجنيات المتطايرة حول رأسه تمنيه وترغبه بـ «مكسب المليون»، تمكن منهج «التلطيش» واضربها وزى ماتيجى تيجى» من



الجميع . وتحت سلطة القبح المتوحشة وامتداد أيديها الطويلة - كأيدى الأخطبوط - من كل الوسائل السمعية والبصرية، التفت حول الأعناق تلح على الأدمغة : هيا قلدونى ، هيا حاكونى، هيا اتبعونى، هيا ..... فماذا يفعل المسكين الجالس في حيه العشوائي، الطافح بالمجاري، يشاهد كل هذا الضجيج على شاشة تليفزيون تئز في مقهى المعسل والكيف والفقر المدقع؟ شهيته تتحرك للطعام الساحر، والحب الملتهب، والبيوت والحدائق والفيلات والقصور، ولم لا؟ عليه فقط أن يختار «المشروع» الذى يجلب الثراء ويصطاد الدولار. وبإمكانيات الأمية والتخطيط العشوائي تخرج الفكرة النيرة . في نموذج «اللمبي» تقنعه أمه «فرنسا» العجلاتية - التي تؤديها عبلة كامل - بأنهما لو حملا «البسكليتات» إلى «شرم الشيخ» حيث «الخواجات» السائحات اللاتي يعشقن ركوب الدراجات، فسوف تنحل - بإذن الله - كل المشاكل المالية التي تواجههما، وتكون مهمة مناسبة لعمل «اللمبي العاطل» . ونرى رحلة الأم واللمبي والدراجات المتجهة إلى شرم الشيخ لتحقيق «المشروع» بـ «الدراع»، فهل أخبر أحد «فرنسا» وابنها «اللمبي» بضرورة التصريحات والأوراق والدمغة والموافقات لكي يحق لهما التمركز على الشاطئ وجذب السائحات إلى استئجار الدراجات التي زينتها «فرنسا» بالألوان والكرانيش؟ وفعلاً ينجح «المشروع» ويجرى الدولار «المقدس» في أيدى اللمبي وأمه، وتتسع ضحكاتهما ويأكلان «الفينو» ويلبسان

«الجينز» و«البرانيط» لكن كل هذا لايدوم، تطاردهما شرطة السياحة وتخرب بيتهما، ويفران فراراً تاركين كل شىء لتصادره شرطة السياحة، رأس المال والمكسب والحلم، ناجيان فقط من الضبط والإحضار للحبس والبهدلة.

ويعود «اللمبى» إلى ما كان عليه من احباط وبطالة من دون أن يفهم ماهو الخطأ الذى ارتكبه ليستحق معه تدمير «مشروعه» الناجح، فلا أحد من هؤلاء المسئولين قد اهتم بالتوضيح والإرشاد. ولا تيأس «فرنسا» فهى وراء ابنها تشجعه نحو «مشروع» عربة الكبدة التى ورثها عن أبيه المتوفى وينهض «اللمبى» ويغسل العربة ويطليها ويزينها كالعروس ويقف بها على الكورنيش، وينتعش بالإقبال على «ساندويتشات» الكبدة اللذيذة، ونرى مظاهر النعمة عليه، وتأتيه حبيبته «حلا شيحة»، «التى قرأ الفاتحة لخطبتها منذ ١٦ سنة» وقد آن الأوان، بنجاح عربة الكبدة، ليتزوجها، ولكن .... مثل كل المرات، بوليس البلدية فى غارة من غارات مطاردته للباعة السريحة يصادر عربة الكبدة و«اللمبى» فى ذهول لايفهم منطق هذا التدمير المستمر لمحاولاته المخلصة فى الخروج من مستنقع البطالة والضياع الذى ينغمس فيه مع المساطيل. ليس من المفترض أن يكون «اللمبى» أكثر نضجاً ووعياً من الدولة التى أسقطته من حساباتها، ولا يرى منها إلا الوجه المتجهم اللاطم بالعقاب، لذلك يكون من المنطقى أن يخترع «اللمبى» لنفسه قانونه الخاص ووسائله للتفاهم مع من يعترض طريقه ولو بمطواة قرن غزال، فهو لم يترب على وسائل أفضل. إنه «فاسد» رغم رغبته الدفينة فى الصلاح. مثل قط الشارع ليس أمامه سوى أن ينشب مخالبه إذا استشعر التهديد، لايخفف من شراسته صداقته بجاره عازف الكمان «باخ» الذى يؤديه «حسن حسنى».

و«باخ» هو نفسه فنان محبط، يعزف بالكمان «فصحى» الموسيقى التى لايتحملها «اللمبى»، لأنه غير مهيأ لمثل هذه الثقافة الناعمة بعد أن عجنته وصاغته الخشونة. لقد دمرت الفجاجة قدرته على التذوق مثلما دمرت المخدرات قدراته على التركيز والفهم والتعبير. والفيلم يشير إلى هذا العجز فى أول مشاهده حين يبدأ بـ «اللمبى» عائداً إلى بيته تائها يردد «وكف الخلْق .. وكف الخلْق..». ولا يكمل، فهذا كل ما استطاع أن يلتقطه ويتذكره من قصيدة حافظ إبراهيم التى يسمعها تغنيها أم كلثوم: «وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى»! وتتبدى السخرية الكامنة فى الدلالة العكسية بين «قواعد المجد» و«اللمبى»، المواطن المنسحق ضحية الخلل الناشىء من «الرأسمالية العشوائية» - (الوجه الآخر لعملة الاشتراكية العشوائية) - التى عاثت فى البلد فساداً بلا حدود.

★★★

هذا الفيلم «اللمبى» الهازل جداً، حتى ليحسبه الجاهل عبثاً، الجاد جداً، حتى

يكون بإمكانى أن أضعه فى مرتبة «أهم» أفلام السينما المصرية منذ «العزيمة» و«سلامة فى خير» و«الكرنك»، بل وأضعه فوق كل «قمة» أفلام يوسف شاهين بأكملها، ليس فيلما «كوميديا»، إنه يدخل تحت «الفارس» الذى ترجمته «فن الهزل» الذى نراه عند شارلى شابلن، والذى نادى به «ألفريد جارى»، أحد رواد المسرح الحديث وقد مات فى باريس سنة ١٩٠٧ وهو مبتدع الشخصية الهزلية «الملك أوبو» ليجسد بها كل مانكرهه فى العالم من دمامة وابتذال، المطلق للقبيح وتجسيم الشراهة والقسوة والنذالة، وقد قدم حسن الجريتلى هذه المسرحية منذ سنوات – فى المركز الثقافى الفرنسى، وكانت «عبلة كامل» من أبطال العرض وقد أدت دور «الأم أوبو» بتشرب دقيق للشخصية كما أرادها مؤلفها «جارى» وفق ملاحظاته التى أرفقها مع مسرحيته المدونة. وقد تقبل وقتها الجمهور «الثقافى» الهزل الجاد لجارى، وضحكوا بقهقهات عالية، ومصمصوا الشفاه فهما لعمق الجدية المستترة تحت الهزل البادى، ولذلك لم أجد مبرراً لكل هذا العنف فى الهجوم الذى انهال على فيلم «اللمبى» من معظم نقاد الصحف والمجلات، وقد ترددت بينهم كلمة «فيلم بلا دراما»! فهل هى كلمات مخطوفة من «اجترارات النقد السفسطائى» للتخويف؟ الحقيقة أنه فيلم يعج بالتكثيف الدرامى، كل جزئية من جزئياته تحمل دراميتها الخاصة، وكل شخصية لها تركيبتها الدرامية المتكاملة، والمخرج «وائل إحسان»، الشاطر جداً، استطاع فى هذا البحر المائج بالدراما أن يؤلف، وينسق، ويفنط، ويدمج، ويرتب ويجمع كل تلك الجزئيات الحادة الوهاجة فى بوتقة متأججة بالتفاعل، تأخذ وتعطى فى انضاج متبادل. ولقد فرحت بما كتبه هذا المخرج الشاب فى صوت الأمة ٢٢/٧/٢٠٠٢، يتكلم بثقة واعتداد عن عمله وبطله «محمد سعد»، نعم هكذا : لاتسكت ولا تخف. أنت فنان، ومعك كل الفريق الذى قدم هذا العمل الصعب والمحكم. وكما كانت بداية الفيلم تشير إلى عجز «اللمبى» عن التواصل مع الثقافة، تشير نهايته إلى عجزه عن الإمساك بخيط التقدم الصحى الصائب، فهو وإن تحسنت أوضاعه المادية والاجتماعية، يسير وراء التشويه العام لحقيقة التقدم فنراه يتابع خطوات إبنه فى تعلم «الكمبيوتر» وحروف اللغة الإنجليزية! ■



أربعة مجلدات
تجمع مقالاته وأبحاثه
في ذكرى رحيله الثالثة

محمود الطناحي (١٩٣٥-١٩٩٩)

إذ يصير الاشتغال بالتراث موقفاً حضارياً

بقلم
أحمد عبد الرحيم



د. محمود الطناحي

لم يكن محمود محمد الطناحي (١٩٣٥ - ١٩٩٩م) مجرد «محقق» عرف بإخراج الكتب «القديمة»، والاهتمام بالتراث .. بل كان نموذجاً للعالم المنتمي إلى حضارة أمته أشد وأعمق ما يكون الانتماء. فقد كان - رحمه الله - يصدر في اشتغاله بالتراث عن موقف حضاري أصيل، يرى فيه إحياء التراث والاستفادة منه بداية النهوض الحقيقي لأمة ممتدة كأمتنا العربية العريقة، وكان يحارب الاعتقاد الساذج بأن الاشتغال بالتراث مجرد نبش في القبور، ونوع من الاهتمام بالرمم والبلى .. كما يشيع كثير ممن لايقدرون هذا الجانب الحي من نسيج الحضارة قدره.

وقد ولج الطناحي إلى هذا العمق الحضاري عن طريق تحقيق النصوص، وكان الطناحي – في تحقيقاته ونشراته – نموذجاً لهذا النمط العالي في الإتقان والتجويد اللازمين لكل محقق جاد، لايتخذ من التحقيق مهنة أو مصدر رزق كيفما اتفق!.. وقد ظهر هذا جلياً فيما أخرج.

***

وفي توقيت واحد موفق – يواكب ذكرى رحيله حيث توفي في ٢٣ مارس ١٩٩٩ الثالثة – صدرت أخيراً أربع مجلدات كبيرة، حوت أبحاث ومقالات الطناحي المتناثرة في المجلات والصحف المصرية والعربية، منذ الستينيات وحتى وفاته – رحمه الله .. فمن دار الغرب الإسلامي (بيروت) صدر مجلدان بعنوان «في اللغة والأدب: دراسات وبحوث» غلب عليهما الطابع العلمي الأكاديمي، إذ حويا ماكتبه الطناحي من أبحاث علمية دقيقة نقد فيها كتباً ومطبوعات نقداً علمياً شافياً، وبحث فيها مشكلات وقضايا في اللغة والأدب بحثاً وافياً .. وكثير منها نشر في المجلات العلمية المتخصصة، أو قدم إلى المؤتمرات والندوات العلمية البحثية.

ومن دار البشائر الإسلامية «بيروت» صدر مجلدان آخران تحت عنوان: «صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب: مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي»، وقد غلبت عليهما صفة المقالة الصحفية الأدبية، التي اهتم بها الطناحي منذ بداية شبابه، ودفع بها إلى عدد من المجلات والدوريات المهمة في مصر والعالم العربي وأهمها: «الهلال» المصرية، و«العربي» الكويتية، وجريدتا «الأهرام» المصرية، «والمدينة المنورة» السعودية.



وحيث تصعب في مقالة كهذه الإحاطة بمثل هذا النتاج الضخم، نظراً لتشعبه وضربه في كل مجال .. فإنه يمكن الاكتفاء – مؤقتاً – بتكثيف الرؤية العامة للطناحي – كما بدت في سائر إنتاجه، ولا سيما في هذه المجلدات الأخيرة – في هذه النقاط.

***

أولاً: تمركزت حياة الطناحي – رحمه الله – على محور اللغة .. وهذا من منطلق إدراكه أن اللغة هي وعاء الحضارة، وأن الاهتمام بها في كل مجال هو بداية النهضة الحقيقية لأية أمة ..فبسلامة اللغة تسلم للأمة – أية أمة – هويتها، وتمتاز شخصيتها. بل إن وجودها المادي ذاته رهن بحالة اللغة فيها، وحال أهلها معها .. وفي ذلك يقول الدكتور محمد سليم العوا – وكان من أخلص أصدقائه –: «كان الطناحي يعيش قضية اللغة وكأنها قضيته الشخصية الوحيدة، وكان يتمثل تراثها كله، وإنتاج النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها كتاباً واحداً متكاملاً، تزداد سطوره بكل جديد صالح. لقد كانت هذه اللغة الشريفة أهله وعشيرته وبيته، وتاريخه الماضي، وعمله الحاضر، وأمله المستقبل .. كما كانت مرآة ثقافة الأمة، وعنوان حضارتها، وسبيل الرقي بتلك الثقافة وتجديد هذه الحضارة».

وفي بحث ماتع جداً بعنوان «استثمار التراث في تدريس النحو العربي» (دار الغرب الإسلامي - الجزء الثاني)، اهتم الطناحي برصد قضية ضعف الأجيال المتأخرة في اللغة العربية - وفي النحو كأبرز معالمها - وردها إلى أربعة أسباب مفصلة، وهي : هجر الكتاب «القديم»، وطغيان المناهج الغربية في الدرس، وما يتبع ذلك من جرأة على النحو وسخرية بالنحاة، والاشتغال بالنظرية واجتواء التطبيق .. والرابع : إهمال جوانب ضرورية في تعليم النحو ، كملكة الحفظ، ومهارات الضبط الصوتي. ثم جمع هذه الأربعة في سبب واحد كلي، هو نبذ التراث والانسلاخ منه، والهزء برموزه، والسخرية من أشياخه.

وهذا البحث جدير بأن يضم إلى بحث آخر في ذات الكتاب بعنوان «لغتنا المعاصرة والثقة الغائبة»، بالإضافة إلى خمس مقالات أخرى (في كتاب دار البشائر) هي: صيحة من أجل اللغة العربية، الحفظ وأثره في ضبط قوانين العربية، الكتب الصفراء والحضارة العربية، البيان والطريق المهجور، النحو العربي والحمى المستباح ..

ثانياً : كلية النظرة إلى التراث .. حيث كان الطناحي - كما سبق - ينظر إلى التراث على أنه شيء واحد، من حيث وجوب العناية به : قراءة وتحقيقاً، ثم نقداً وتقويماً - وقد سبق وأن استفاد هذه النظرة الشاملة من شيخه محمود شاكر.

ومن أجل هذا ، كان الطناحي يهتم في عمله اهتماماً بالغاً بقضية الفهرسة، حيث كان يردد دائماً : «الكتب بلا فهرسة .. كنز بلا مفتاح!».، وهي كلمة حكيمة سمعها - كما يقول - من شيخ حكيم من شيوخ التراث أوائل اشتغاله بالمخطوطات . وذلك أن كتب التراث - كما يقول الطناحي - متداخلة الأسباب، متشابكة الأطراف، وقلما تجد كتاباً منها مقصوراً على فن بعينه دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى، لدواعي الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدي - لامحالة - إلى أن تجد الشيء في غير مظانه.. ولذلك - كما يقول أيضاً - فإنه لن تستقيم لنا دراسة علم من العلوم على الوجه المرضي دون هذه الفهرسة الكاشفة ، التي تضم النظير إلى النظير، وتقرن الشبيه بالشبيه، والتي تستخرج القضايا من غير مظانها . وهو حين يتحدث عن «ثقافة المفهرس» يقول : «ويخطيء كل الخطأ من يظن أن فهرسة الكتب عمل ميكانيكي».. «إن عدة المفهرس عظيمة، ومهمته شاقة!».

وقد ذكرت قضية الفهرسة كمثال فقط على الرؤية الكلية للمكتبة العربية .. ولعل نظرة في فهارس عمله الأكبر «طبقات الشافعية الكبرى» (والذي شاركه فيه صديقه وزميله المرحوم الدكتور عبدالفتاح الحلو) تجلى هذا الجانب بوضوح كامل.. إذ أنك تجد فيها إشارات وفوائد لا حصر لها في فنون متواشجة، ومظان غير متوقعة.. وهي الطريقة التي كان يتميز بها السيدان الجليلان عبدالسلام هارون ومحمود شاكر.

ومما يتصل بهذا الجانب أيضا أنك تجد الطناحي يتنقل في مقالاته بين الموضوعات والعلوم والفوائد - التي قد يظن عدم اجتماعها في المقام الواحد -

بما لا تعتاده عند أحد من المعاصرين.

ثالثا: الاحتفاء البالغ بطرق تلقى العلم.. ويبرز هذا الأمر دور المشافهة فى حياة الطناحى العلمية.. فسنة العلم - لاسيما علم أمتنا الشريف - تلقيه من أفواه الأشياخ والمزاحمة عليه بالركب.. وهذا ما حرص عليه قديما ومن لدن نعومة أظفاره.. وفى ذلك يقول عن نفسه: واتت الباحث ظروف حسنة - بغير حول منه ولا قوة، وإنما هو فضل الله وحده - حين اشتغل بالعلم منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب، حيث إنه التمس رزقه فى نسخ المخطوطات العربية (...) ثم تجمعت له من وراء ذلك خبرات واسعة جاءته من مجالسة كبار أهل العلم، فجالسهم وشافههم وتلقى عنهم وبعض ما تلقاه منهم لا يوجد فى كتاب.. ومن أجل ذلك تجده دائم الثناء على أساتذته هؤلاء ومكثرا من ذكرهم بكل خير، وإسناد ما استفاده منهم إليهم.. وأبرز هؤلاء الأشياخ هو محمود شاكر، الذى لازمه ما يقرب من أربعين عاما.. وعدد من كبار أهل العلم والفضل كالأساتذة الكبار: عبدالسلام هارون، ومحمد رشاد عبدالمطلب، وفؤاد سيد، ومحمد مرسى الخولى، ومحمد محيى الدين عبدالحميد، وشيخ المقارئ الراحل الشيخ الجليل عامر عثمان فضلا عن عشرات آخرين استفاد منهم، وكان دائم الثناء عليهم والتنويه بهم، حتى إنه كثيرا ما استفاض - فى مقالاته - فى تعدادهم حتى بلغوا فى أحد المواطن قرابة الثلاثين (من مصر والمغرب وسوريا والسعودية وتركيا وغيرها).

ومما يتصل بهذا أيضا حرص



الطناحى على تدريس كتب العلم الأصيلة فى أبوابها، التى حفظت شخصية الأمة قرونا متطاولة والتى هى جديرة بأن تؤدى هذا الدور الآن لو تجد لها فى دور العلم أنصارا!.. إذ كان - رحمه الله - يقرئ طلبته شرح ابن عقيل على الألفية في النحو والصرف ويرفض أن يقرر عليهم مذكرة من صنعه، خشية أن يصرفهم بها عن وجه العلم الأصيل.. مع ملاحظة أنه لا وجه لمقارنة بين تحقيقاته وتدقيقاته العلمية وبين كثير جدا مما تسود به أوراق الجرائد الحائلة التى تدعى مذكرات التى يفرض عناء قراءتها فى الجامعات من غير مردود علمى حقيقى وبناء!

رابعا: القلق من حال التعليم الجامعى فى مصر والبلاد العربية والاهتمام الشديد بوجوب تقويم مساره.. وهو متصل بما سبق.. حيث حرفت أجيال الأمة عن السبيل القويم فى الطلب والتحصيل مما أوصلنا إلى هذا المستوى العلمى المتردى من الضعف والضحالة فى جامعاتنا ومدارسنا بل وفى مختلف نواحى حياتنا وقد حذر - رحمه الله - من خطورة استمرار هذا الوضع المخجل ودعا - فى ثنايا كثير مما كتب فى حياته - إلى وجوب المسارعة إلى التصحيح.. ولعل من اللافت أن آخر مقال كتبه (ونشر بعد وفاته فى مجلة الهلال المصرية - يونيو ١٩٩٩) كان فى هذه القضية، وكان عنوانه الرسائل الجامعية وساعة ثم تنقضى!

حيث رصد فيه مظاهر الخلل المعيب الذي شاب الحياة العلمية الأكاديمية، التي يفترض فيها الجد والإتقان.. وفي آخره وجه نداء / وصية إلى أهل العلم بقوله: «فيا زملائنا أعرف أن عندكم علما كثيرا، ولكني أدعوكم أن تخرجوه إلى الناس ولا تضنوا به. واعلموا أن ما تؤجرون عليه من المجلات الفنية وبرامج التليفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطيلسان الجامعي الفضفاض.. فأنتم في الأصل معلمون.. فأعطوا الجامعة حقها عليكم.. ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاءها ووقارها وشرفها. أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم».. ورحمه الله.. فقد أعذر من أنذر!

وبعد..

فهذه إطلالة سريعة مكثفة على ملامح الرؤية الحضارية في تناول التراث والتعامل معه كما تظهر لدى واحد من أبرز أعلام المعاصرين.. وبقي أن أقول أن بيان الطناحي في كل ما كتب بيان صاف مصفى، ينحدر من سلالة عربية نقية، ويتدفق عذوبة ورقة - كما وصف هو بيان شيخه الجليل الأستاذ عبدالسلام هارون - وأعتقد أن من الصعب جدا أن يتسلل إلى قارئ الطناحي الملل أو الشعور بصعوبة الكلام - على رغم دقته فيما يعرض من قضايا علمية - إذ أنه يتنقل بسهولة ولطف ما بين الفوائد والطرائف والنكات العلمية.. كل ذلك ببيان عال، وعقل ذكي، وروح خفيفة.

- أتم حفظ القرآن وتجويده في الثامنة من عمره، وتلقى العلم في الأزهر الشريف وكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.
- عمل عقب تخرجه معيدا بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم خبيرا بمعهد المخطوطات العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة).
- زاول التدريس بجامعة الملك عبدالعزيز (أم القرى الآن) بالسعودية، وجامعتي القاهرة وحلوان.
- اختير خبيرا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وكان مرشحا للعضوية الكاملة بمجمع اللغة العربية قبيل وفاته.
- له أكثر من ٣٥ عملا ما بين تأليف وتحقيق فضلا عن عشرات المقالات والأبحاث التي جمعت مؤخرا في أربعة مجلدات.

التكوين

تشكل وجداني على محاور ثلاثة تجمع بين العلم والتربية الصارمة والإيمان الإسلامي الحنيف

أحمد الطيب



قد يكون من العسير اصطناع الفصل بين التكوين العلمى للشخص واستعداده النفسى أو الوجدانى ، وكثيرا ما يجد الكاتب نفسه يجوس - على رغم منه - فى قلب سيرته الذاتية وهو يظن أنه يتحدث عن سيرته العلمية .. من هنا فإنى أبدأ باعتذارى للقارئ - الكريم - عما قد يبدو من بين السطور من حديث عن النفس - تصريحا أو تلميحا -، قد لا يهم القارئ معرفته أو لا يستحق - فى نظره - أن يكون محل رضا وتقدير وأنا ممن يعتقدون أن «الاستعداد» الفطرى حاكم فى أغلب الأحيان على التكوين العقلى للإنسان ومحدد

لنوعيته، لأن هذا الاستعداد إذا ما استدّ على طريقه الطبيعي، ولم تقسره الظروف الطارئة على تغيير جلده فإنه يتدخل تدخلاً حاسماً في تشكيل هذا التكوين وتحديد هويته ادبيا كان هذا التكوين أو علميا أو فنيا أو خليطا من كل ذلك، على تباين - يقل أو يكثر - في غلبة هذا العنصر أو ذاك، في هذا الخليط اللامتجانس.

نتمى إلى أسرة عرفت بالتدين، وعرف لها أهل القرية والقرى المجاورة مرجعيتها في الدين، وأيضا في الأحداث الاجتماعية التي كانت تشغل الناس أيامئذ فقد كان والدي من الشيوخ الذين أتموا تعليمهم في الأزهر القديم،وكان والده أيضا شيخا أزهريا مهيبا، وكانت الظاهرة الغريبة في هذه الأسرة هي العزوف التام عن الوظائف الرسمية التي تتاح لأمثالهم ممن تخرجوا في الأزهر في ذلك الوقت .. وهكذا لم يشأ الجد بعد أن أنهى فترة المجاورة في الأزهر، أن يسعى وراء الوظائف العامة، بل حزم كتبه وأمتعته وعاد إلى قريته (القرنة) - على البر الغربي من مدينة الأقصر - مكتفياً بما تدره عليه قطعة الأرض التي يمتلكها، ومفرغاً نفسه لتعليم الناس وتنويرهم ومساعدتهم على حل مشاكلهم الأسرية والاجتماعية، وملتزما بالعبادة التي لم تكن لتفارقه ليلاً ولا نهاراً ومن الصور المحفورة في ذاكرتي صورة هذا الجد، الطاعن في السن، وهو محمول إلى المسجد، ومسبحته تلتف حول يده النحيلة المعروقة، والناس يزدحمون من حوله ليسمعوا منه مشورة أو فتوى في الدين ..

ثم جاء دور «الوالد» فحاول أن يتقدم لامتحان العالمية بعد أن تأهل لها قرابة خمسة عشر عاماً في حلقات الأزهر الشريف، إلا أن «الجد» أوصد الباب في وجهه بعبارة حاسمة: [إن تقدمت لامتحان العالمية فأنا غير راض عنك لا في الدنيا ولا في الآخرة] ولم يكن أمام الوالد إلا أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه الجد.. وقد كان

محاور ثلاثة

تشكل وجداني في الطفولة على محاور ثلاثة: محور العلم، الذي كانت تمثله المكتبة والكتب في حجرة والدي، وكانت الكعوب المذهبة للكتب المرصوصة من وراء زجاج المكتبة أول منظر جمالي داعب خيالي الصغير، ومازال منظر الكتب يستوقفني حتى الآن كلما مررت بالمكتبات أو دور النشر في أي مكان ... والمحور الثاني هو محور التربية الصارمة، والتي لا مكان فيها للتدليل أو الملاطفة أو الحنان الغامر، وكان فيصل التفرقة بين طفل مقبول وطفل مرفوض من جيلي - هو الأدب واحترام الغير، وكنا نعير إذا خرجنا على الحدود المرسومة، بأن ابن فلان أو علان أكثر منا أدبا وسرعان ما تنهال عليه عبارات الثناء، والدعوات له بالحفظ والحراسة والوقاية من أعين الحاسدين، وكم كانت هذه المقارنات أليمة على مشاعرنا الغضة وربما بعثت فينا العزم والتصميم

على التفوق على هذا الانموذج الذى يضربه الآباء والأمهات مثلا لابنائهم ... أما المحور الثالث فهو محور الدين، وهو أهم المحاور وأخطرها على الإطلاق، إذ كان له تأثير بالغ ومزدوج فهو إحساس عاطفي ووجداني، ثم هو قواعد وأسس تضبط التفكير حيثما اتجه ، وكائنا ما كان موضوعه .

وثمة بعد رابع عمق كثيراً من التوجه الدينى فى هذه الأسرة ، وأعنى به : روحانية التصوف ، وما تستلزمه من زهد وتقشف شديدين، وقد أثر هذا الجو فى مشاعرى تأثيرا شديدا . وأكسبنى منذ الطفولة ميلا إلى البساطة والبسطاء، وتوجساً من زهوة الدنيا ومباهجها ومن حسن حظى أن « التصوف » الذى تفتحت عليه مدارك طفولتى لم يكن تصوفا نظريا يهوم فى اللامعقول، أو من هذا النوع الذى يروج للخوارق والكرامات، أو يعتمد على الدعاوى للتكسب والارتزاق بل كان «تصوفا» منضبطاً - بشكل صارم - بأحكام الشريعة شكلا ومضموناً وبرغم أن مكتبة «الوالد» كانت تزخر بكتب التصوف وفى مقدمتها إحياء علوم الدين إلا أن الكتب التى اضطلع بتدريسها للناس فى المسجد لم تتعد كتب الفقة المالكى وكتب الحديث الشريف .. وكنت ألاحظ عليه تحكيم الشريعة فى التصوف وميزانه بها ، وكان يتصدى للدروشة التى تخرج على حدود الشرع، ويصفها بأنها من وحى الشيطان ولما تقدمت بى السنون علمت أن الطريقة الصوفية التى أهتم هو ووالده بنشرها فى ربوع الصعيد تشترط فى شيوخها أن يكونوا من علماء الشريعة. وعرفت أن من شيوخها من كان شيخاً للإسلام كالشيخ الحنفى ويكفى أن الشيخ الدردير - الفقيه المشهور - أحد شيوخها، وهو صاحب المصنفات الفقهية التى تدرس فى الأزهر وفى الجامعات الإسلامية حتى وقتنا هذا .. وقد كانت الضوابط الشرعية بمثابة تصحيح مستمر للسلوك فى هذه الطريقة، بناء على أساس من القرآن والسنة النبوية، وحال بينه وبين الخروج على أوامر الشريعة ونواهيها وقد عاصرت بنفسى أبناء هذه المدرسة فى بساطتهم والتزامهم بالكسب الحلال وتفانيهم فى مساعدة الناس إلى جانب العبادة والذكر وتصفية القلب وتهذيب النفس، ورأيت بنفسي أموراً حدثت على أيدى الصالحين منهم، لا يقصدون اليها، وهى من الغرابة بحيث لا يصدقها من لم يشاهدها، ولكن أنى للعاقل أن يتشكك فى يقين رأته عيناه، وحارت فى تفسيره كل قواعد المنطق التى حصلها فى أروقة المعاهد والجامعات ؟!

ولدت فى منزل بسيط، يتصل به مبنى فقير، يسمى «الساحة»، وهو أشبه بعنبر



كبير يأوى إليه الفقراء والعباد والمنقطعون، ويلتصق به مسجد متواضع مفروش بالحصير المتخذ من نبات الحلف، وكان ملمس الحصير قاسيا يؤثر فى وجوه المصلين فيخرجون وقد علق الغبار بجباههم ، وارتسمت فيها تعاريج غائرة من أثر السجود على هذا الفراش ولم تكن مهمة الساحة قاصرة على استضافة الغرباء وأبناء السبيل، بل كانت أشبه بساحة قضاء تعقد فيها جلسات الصلح بين العائلات المتخاصمة ، وكان المحكمون - وأغلبهم أميون - يتمتعون بحنكة خاصة ومهارة عالية فى وزن المشكلات وتقييمها، لأن كلمة واحدة غير محسوبة من أحد الفريقين المتخاصمين قد تشعل نيرانا لا تنطفئ إلا بالدماء ...

وعلى مسافة كيلو متر تقريبا من موقع الساحة والمسجد، يطل من الجهة الغربية - ومن بين أحضان جبل عال - معبد حتشبسوت، أو «الدير البحرى» فى شموخ صامت يتحدى الزمن منذ خمسمائة وثلاثة آلاف عام تقريبا وهو معبد جنائزى شيده المهندس «سلموت» (من أبناء أرمنت) للملكة حتشبسوت، وينفرد هذا المعبد بطراز معمارى وحيد من بين سائر المعابد الفرعونية فى طول مصر وعرضها ويقع فى ثلاثة طوابق، والطابق الثالث منحوت فى بطن الجبل على خلاف المعابد الأخرى، فإنها تبنى وتشيد ولا تنحت فى الصخر وكان وقوع المسجد والساحة على رأس الطريق المؤدى للمعبد مغرياً لراكبى الدرجات من السائحين للاستراحة فى الساحة وشرب الماء والشاى والمشاركة فى الطعام البسيط أحيانا ، وبعضهم كان يعود ليلاً ويحضر مجالس الذكر، ومن



د. أحمد الطيب فى شبابه

هؤلاء من دخل الإسلام متأثراً بإيحاءات غامضة انبعثت فى ربوعه من هذا المكان، كما حدثنى أحدهم فيما بعد.

بدايات التكوين العقلى

استطاع بعض أصدقاء والدى أن يقنعه بأن أسلك نظام التعليم العام، وفعلا تمت الترتيبات اللازمة وشراء الزى الخاص بالمدارس، لكن والدى غير رأيه فجأة فى صباح اليوم الذى بدأت فيه الدراسة، وبدل أن أذهب إلى المدرسة ذهب بى إلى مكتب تحفيظ القرآن الكريم، وكان يسمى «الكتاب» ويسمى المحفظ الخطيب لأنه كان يخطب الجمعة وهكذا كان القرآن الكريم هو أول عناصر التكوين العقلى والنفسى فى غالبية أبناء القرى فى ذلك الوقت، حيث يعيش الطفل أغلب يومه مع هذا الكتاب الكريم فالدراسة تبدأ مبكرة مع شروق الشمس، والبساطة الشديدة هى القاعدة أو الطابع السائد، حيث يجلس التلاميذ الصغار على الأرض، بينما يجلس «الخطيب» على «حصيرة» وإلى جواره أدوات العقاب

والتأديب التي لا تتوانى في التعامل مع أي تلميذ يقصر في حفظ المقرر، أو يحاول الخروج على لائحة السلوك المتعارف عليها في «الكتاب» ولا أنسى درس الوصايا الذي كان يتلى علينا في نهاية اليوم الدراسي قبل الانصراف مباشرة، وأذكر من هذه الوصايا تقبيل يدي الأم والأب ، وأن أقول لهما : نعم حاضر، وأن أخفض صوتي بحضرتهما ، وأن أقرأ «الماضي» - وهو القدر المتراكم الذي تم حفظه من القرآن - وكان علينا أن نذهب بدون إفطار لنبدأ في حفظ اللوح وتسميعه على الخطيب - وكان الاعتقاد السائد أن الحفظ قبل الإفطار يثبت في الرأس وينتقش فيه - وبعد التسميع نؤمر بمسح الألواح .وكتابة القدر الجديد الذي يمليه الخطيب، ثم تأتي عملية «التصحيح» وهي عملية مرعبة، لأن الخطأ .في الإملاء يعرض التلميذ للضرب على الظهر أو الأقدام، ومن الملاحظ أن الخطيب لم يكن ليصفع التلاميذ على وجوههم ولعل هذا التقليد كان مقصودا أو هو أثر للحديث الشريف الذي يأمر بتجنب الوجه في الضرب للتأديب ، وبعد التصحيح يسمح لنا بالإفطار - ثم يبدأ الحفظ والقراءة والتسميع وتعلم الهجاء وشئ من قواعد الحساب ، ويستمر الحال هكذا إلى ما بعد الظهر فإذا ما عاد التلميذ للمنزل وأكل واستراح قليلاً فعليه أن يبدأ رحلة المساء مع الحفظ، مرة أخرى إلى المغرب وهكذا كانت معايشة القرآن الكريم هي «الهم» اليومي للتلميذ من الصباح الباكر حتى المساء، وعلى مدى سنوات تتراوح بين ٥ ، ٦ سنوات، وهي فترة كافية في أن تصيغ عقلية التلميذ ونفسيته صياغة خاصة، فلم يكن شعور التلميذ مبرمجاً على أنه يتعامل مع نص عادي، بل كان يتعلم قدسية هذا النص جنبا إلى جنب مع تعلم قواعد حفظه وتلاوته، وهذه القدسية شكلت ما يشبه الخلفية الثابتة لاحترام هذا النص ، والتعامل مع حروفه- كتابة ومحواً - بقواعد وآداب معينة، مثل المحافظة على الماء الممزوج بالحبر، والذي يتكون بسبب محو الألواح، وتجميع هذا الماء في إناء خاص، وسكبه في مكان طاهر من الأرض ، وأيضا : وضع المصحف في كيس من القماش معد بطريقة معينة، والمسارعة بتقبيل القرآن ووضعه على الأعين إذا ما سقط على الأرض بدون قصد ، وحرق ما تآكل من أوراق المصحف ودفنها في مكان معين من الأرض كل ذلك ألقى في روع التلميذ بثوابت لا تتزحزح من مشاعر الرهبة الممزوجة بالحب إزاء، هذا الكتاب الكريم ... وقد استطاع هذا النمط من التعليم - على فقره ومحدوديته - أن يقوم لسان الطفل منذ نعومة أظفاره في نطق الكلمات ومخارج الحروف ويكسبه القدرة



على النطق الصحيح، وهى ميزة تتميز بها الألسن التى حفظت القرآن فى الصغير، ونفتقدها فى نبرات البعض من المتحدثين والمتحدثات رغم علو منزلتهم العلمية ...

المعهد الدينى الابتدائى

أتممت حفظ القرآن الكريم فى سن العاشرة ، وحفظه معى فى نفس السن بعض أبناء القرية، وظللنا نتدارسه يومياً صباحا ومساءً استعدادا لدخول المعهد الدينى الأزهرى فى مدينة قنا، وكان هو المعهد الثانوى - الابتدائى الوحيد فى مديرتى قنا وأسوان، وتقدمنا لامتحان القبول وفوجئت باستبعاد اسمى من كشوف المقبولين بسبب صغر سنى، لأن لائحة الأزهر تشترط سن الحادية عشرة كحد أدنى للقبول . وكان سنى يومها عشر سنين وستة أشهر، وكان والدى بالقاهرة فى ذلك الوقت ، وفوجئت به يرسل إلى شخصا ليذهب بى إلى مدينة «إسنا» حيث يوجد بها معهد أزهرى ابتدائى أهلى، وبما أنه معهد أهلى فهو غير مقيد بلائحة تحديد السن، ومن ثم فمن حقه التجاوز عن هذا الشرط وجاءت هذه الفكرة كطوق نجاة. وإلا فلا مفر من الانتظار عاما آخر، هذا المعهد أنشأه رجل فاضل من الوجه البحرى أثناء عمله واعظا بمدينة إسنا ، ولاأذكر الآن شيئا من تاريخ هذا العالم الجليل إلا اسمه، وهو : الشيخ عبد الوهاب شارب ، وسمته الوقور واحترام الناس له .. وكانت فكرة والدى أن أحصل على الشهادة الابتدائية من هذا المعهد الأهلى الذى يشرف عليه الأزهر ويباشر امتحاناته من أسئلة وتصحيح إلى آخره، ثم أواصل دراستى بالقسم الثانوى بقنا وقد كان وأذكر أننى سئلت فى امتحان القبول بهذا المعهد ما يقرب من عشرين سؤالا فى القرآن الكريم عن مواضع مختلفة وسور متفرقة، وكان أعضاء اللجنة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولم تكن بين أيديهم مصاحف ينظرون فيها وهم يمتحنون الطلاب كما يحدث الآن، وقد نجحت فى الامتحان الشفهى فى القرآن كما نجحت فى امتحان التحريرى فى قواعد الحساب والإملاء والخط وهكذا انتظمت طالبا فى المعهد الدينى الابتدائى بمدينة إسنا ومعى بعض أبناء القرية وبدأت الدراسة . لكن لم تمض أسابيع حتى قامت حرب ٥٦ ، وجاء أهلنا ليلتقطونا ويقفلوا بنا راجعين إلى الأقصر التى كانت غارقة فى ظلام دامس بسبب الغارات الجوية التى استهدفت مطار المدينة الصغيرة ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عدنا إلى «إسنا» وانخرطنا فى سلك الدراسة ، وكانت دراسة قوية ومعقدة ، ولك أن تتصور تلميذاً فى هذا السن قادماً من كتاب، وليس فى جعبته من المعارف والأفكار غير قواعد الإملاء وعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ثم يطلب منه أن يتعامل مع «متون» «وشروح» «وحواش» صيغت صياغة فنيا غاية فى الدقة والاختصار والإيجاز . وهكذا أصبحنا وجهاً لوجه مع علوم : الفقه والنحو والصرف، والإملاء ومحفوظات الشعر والنثر والرياضة من حساب وهندسة وجبر، ومادة كان اسمها «الصحة» ولها مقرر وكتاب مستقل ، وأيضا كانت هناك مادة للخط مستقلة، ومادة للإنشاء مستقلة كذلك

ومما يجب تسجيله فى هذا المقام أن

استمارة الالتحاق بالمعهد الديني الابتدائي بها خانة لتحديد المذهب الفقهي الذي سيدرسه الطالب ويلتزم بدراسته في مرحلتي الابتدائي والثانوي .. ومنا من كان يختار المذهب الحنفي ومن يختار المذهب المالكي ، والميزة الكبرى في هذا النظام – والتي ربما لاتكون مقصودة الأهداف تربوية – هي أن الطالب الأزهري منذ الخطوة الأولى في تعليمه يتعود على اختلاف الآراء ، وتعدد وجهات النظر في المسألة الواحدة ويتأقلم بهذا الجو ، ويوطن نفسه منذ البداية على مشروعية الرأي الآخر .. فقد كان الطلاب الأحناف والمالكية يعيشون في حجرة واحدة ويصلي بعضهم خلف بعض، وصحيح أن البعض كان يتعصب للرأي الحنفي ويتعصب البعض الآخر للرأي المالكي لكنه كان تعصبا دراسيا ولم يكن عمليا ابدا فلم يحدث أن انتقل من دائرة الدراسة إلى دائرة الواقع ، ولم يحدث أبدا أن نفى أحدنا الآخر وصادر رأيه أو اتهمه بالمروق من الدين، رغم أن التعارض كان يرد على محل واحد ومسألة واحدة، ولكن لأننا علمنا منذ اليوم الأول أن اختلاف الأئمة رحمة، وتبرهن أمامنا علمياً وعملياً تعدد المذاهب والآراء، وأنها كلها حق وكلها مشروع، فقد سقطت منذ الدروس الأولى أقنعة التعصب والتفرقة والتشرذم وماتت الحساسيات المذهبية التي تبعثها المناهج الأحادية النظرة ، وتغذيها الدراسات الموجهة التي تهدف إلي تسويق مذهب معين وترويجه على حساب المذاهب الأخرى وفي يقيني أن الذي لايدرس وفقاً لهذا المنهج المفتوح يصعب عليه جدا أكتشاف وسطية الإسلام عقيدة وشريعة واختلافاً وأن ما نعانيه الآن من رفض الآخر ونفيه ودمغه بالزندقة والكفر ليس إلا ثمرة مرة أثمرها غياب هذا المنهج التربوي في دراسة الإسلام في كثير من الجامعات الإسلامية وهذا هو السر في أنك لاتجد تطرفا بين خريجي الأزهر وهو السر نفسه في أن المتطرفين يتهمون علماء الأزهر بالتفريط والتهاون، بينما يتهمه الآخرون بالتشدد والانغلاق وحدث أن رسبت في السنة الثالثة الابتدائية في مادتي: النحو والحساب ، وكان علي أن ادخل امتحان الدور الثاني قبيل نهاية الإجازة الصيفية، وقد عانيت كثيراً من معاملة الأسرة ونظراتها المزرية بسبب هذا الإخفاق .. وأذكر أن الكتاب المقرر كان نصاً قديما معقداً، عنوانه «قطر الندى وبل الصدى لابن هشام» وهو عبارة عن متن وشرح ، ولم أنجح في فهمه أو استيعابه طيلة العام الدراسي، وفوجئت بوالدي يلزمني بحفظ المقرر من هذا الكتاب ، وتم فعلا حفظه عن ظهر قلب فلما شرح المقرر وجدته سهلاً وأنطبع في ذهني، ورب ضارة



نافعة، فما أذكر أننى حصلت على أقل من الدرجة النهائية فى مادتي : النحو والصرف بعد ذلك وبعد أن نجحت فى الملحق وانتقلت للسنة الرابعة الابتدائية أحببت مادة النحو والصرف، وكنت من ضمن من يثني عليهم الأستاذ فى الفصل، رغم قسوته فى تعليم هذه المادة، فقد كان يلزم الطلاب بقراءة النص بعد فراغه من الشرح من النطق بتشكيل كل كلمة، وعدم اللجوء إلى التسكين حتى فى الوقف ومن يخطئ يدفع قرشا إن كان من أهل اليسار، أو يضرب على يديه بعصا رفيعة ضربتين عن كل خطأ إن كان من الفقراء أذكر أيضا أن من ضمن المقررات فى السنة الرابعة – وكانت تسمى الشهادة الابتدائية حفظ مائة بيت من ألفية ابن مالك ، ويمتحن فيها الطالب شفهياً فى آخر العام، كتجهيز لدراستها فى السنة الأولى من القسم الثانوى ..

المعهد الثانوى

فرغنا من امتحان الشهادة الابتدائية ، وظهرت النتيجة ، ونجح طالبان فقط وكنت أحدهما ورسب الباقون وكان عددنا ٢٥ طالبا فقط وانتقلنا إلى قنا لمواصلة الدراسة بالقسم الثانوى وكان ذلك فى بداية ١٩٦١ ، وفى هذه المرحلة تفتحت أذهاننا على دراسات أوسع ولقاءات ثقافية أسبوعية كان لها أكبر الأثر فى تشكيل عقولنا وأفكارنا فلأول مرة يسمح لنا بحضور الندوات التي كانت تعقد بقصر الثقافة ، ونجلس على كراسى مع جمهور المثقفين ، ويحاضر فينا أستاذ «أفندى» وتصافح عقولنا أفكار جديده لاعهد لنا بها من قبل فى الأدب والسياسة والاجتماع، وكان بعض من شيوخ المعهد يحضرون ويحاضرون أيضا، وكنا نعجب من شيوخنا الذين يفاجئوننا بمحاضرات لا تدور على متون ولا شرح ، يرسلون فيها القول طليقا حراً سهلاً فنعلم أن آفاق العلم واسعة وأنها غير منحصرة فى علومنا التى نكب عليها إكبابا طويلا ولمعت فى عقولنا لفظة الثقافة وكان لها بريق ورواء خاص، وفى قصر الثقافة بقنا تفتحت عيوننا على الكتب الأدبية والروايات ودواوين الشعر وكتب التراث والتاريخ وبدأت بكتب المنفلوطي، عملاً بنصيحة تشبه الوصفة الثابتة لكل شاد أو بادئ فى تذوق الأدب، وتأثرت تأثرا بالغا بكتابة الرائع : العبرات، وألقى على مشاعرى ظلالا كئيبة حزينة لا أبالغ لو قلت إنها مازالت – حتى الآن – تراوح وجدانى بين الحين والحين ولغير ما علة ولا سبب معروف وقد اسلمتنى هذه البداية إلى البحث عن هذا النوع من الأدب الحزين الباكي ودلنى أستاذ الأدب على كتاب الرافعي المساكين، وكان هذا الكتاب نافذة على أدب الرافعي، ولم أستطع الفكاك من بلاغته الاسرة، واشتريت فى هذه الفترة رغم ضيق ذات يدى – كتاب «وحى القلم» وهو الكتاب الذى وصفه أمير البيان العربى: شكيب أرسلان بقوله «بيان كان تنزيل من التنزيل «أو» قبس من نور الذكر الحكيم وما إن طالعت المقالة الأولى، حتى هالنى عقل الرافعي وخياله وفلسفته وعالمه اللامحدود ، والذى تصطخب فيه القوة بالرقة والجمال بالبؤس واليقين بالحيرة والحب بالكبرياء الخ هذه المتضادات التى رسمتها ريشة الرافعي، وبلغت قمة الصراع فى مقالته عن الراقصة التى

امتهنت الرقص وفي الوقت نفسه حافظت على نقائها وصفائها، فكانت إذا فرغت وخلت لنفسها توضأت وصلت، وكانت - على حد عبارته - كأنها تخلع روحا وتلبس أخرى، وأنكر أن عنوان هذا المقال هو : «في اللهيب ولا تحترق » ولم ينحصر .إعجابي في كتاب وحي القلم، بل تعداه إلى كتبه الأخرى : «رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب »و«حديث القمر» ثم كتابه الخالد «تحت راية القرآن » وهو الكتاب الذي دافع فيه عن القرآن الكريم بأسلوب فلسفي أدبي رغم القسوة في الرد على الشبهات التي رددها الدكتور طه حسين في موضوع «الشعر الجاهلي» وأستطيع القول بأن مؤلفات مصطفى صادق الرافعي كانت بالنسبة لي - خاصة : وحي القلم - أول اتصال حقيقي بعالم الأدب والأدباء، وكان أدبه ومنهجه بمثابة بوصلة ظلت تضبط توجهاتي لفترة طويلة حتى استقر عندي أن الأنموذج الأمثل والمحترم للأديب هو الأنموذج الذي يعي تراثه ويفهمه أولا، لينطلق منه إلى المعاصرة والحداثة بعد ذلك، وما أذكر أني خرجت كثيراً عن مؤلفات الرافعي في المرحلة الثانوية، اللهم إلا إلى الصحف والمجلات، والمؤلفات الاشتراكية التي كانت في أوج توهجها في تلك الفترة، وكنا نقرأ يوميات العقاد في أخبار الأربعاء، ونتهيب كلامه، ونعتقد أنه يكتب للأساتذة لا للطلاب، وذلك من كثرة ما سمعنا عن فلسفته المعمقة وكتبه الصعبة وكنت في هذه الفترة أقرأ للأستاذ التابعي والأستاذ محمد زكي عبد القادر، وكنا نترقب مجلة الرسالة في إصدارها الثاني لنستمتع بمقالات العلامة الأستاذ شاكر في النقد والأدب والتراث، وكانت هناك سلسلة تصدر كل أسبوعين مع باعة الجرائد، عبارة عن كتاب باللغة الإنجليزية ومعه الترجمة العربية، وقد ساعدتنا هذه سلسلة على التعمق قليلا في اللغة الإنجليزية، وكانت الإنجليزية تدرس في القسم الثانوي دراسة حقيقة وجادة على مدى خمس سنوات واستطاع الأستاذ أن يحلل لنا قصة «سجين زندا» واستوعبناها سطراً سطراً، وأذكر أنني قرأت في إحدى الإجازات فصولاً كاملة من رواية جين إير للأديبة الإنجليزية الشهيرة شارلوت برونتي وأظن - إن لم تخنى الذاكرة - أنها الرواية الوحيدة التي كتبتها هذه الأديبة، وأنها صورت فيها حياتها وآلامها /.. وكانت هذه القراءات هي «المتعة » الوحيدة في الاجازات الصيفية شديدة الحر أما عن الدراسة فكانت عبئا ثقيلا لا يطاق، وكان حظي أن ادرس الثانوية الأزهرية بعد قرار التطوير مباشرة، وبمقتضاه انقسمت الثانوية الأزهرية إلى شعبتين : أدبي وعملي تبدأن من السنة الثالثة الثانوية وتنتهيان بالسنة



الخامسة، أما السنة الأولى والثانية فكانتا أشبه بشعبة عامة، ولك أن تتصور عدد المواد التى كان يدرسها الطالب الأزهرى فى هذه الحقبة، حيث كان عليه أن يدرس كل ما يدرسه زميله فى الثانوية العامة مادة مادة إضافة إلى المنهج الأزهرى كاملا كان يومنا الدراسي طويلا، وكان التدريس حقيقيا والامتحانات جادة ومخيفة ، وكان الأساتذة نماذج يقتدى بها فى العلم والخلق، ولم تكن بدعة الدروس الخصوصية قد ظهرت للوجود، وكان الطالب يقوم ويقاس بمقدار ما يقرأ وما يحصل، حتى لو كانت ثيابه ممزقة، وكنا نسخر من الطالب الثرى إذا كان جاهلا وكان هو يستشعر ذلك ، ويدارى مظاهر الثراء ، ويتواضع، عله يعوض هذا النقص.

وفى هذه الفترة أعيد تأسيس التكوين الفكرى فى علومنا الأزهرية بصورة موسعة فكان الفقة يدرس يومياً - ما عدا الخميس - طيلة السنوات الخمس ، ودرسنا فيه كتابا مطولاً هو : الشرح الصغير فى الفقه المالكى، وكذلك فى مواد : التفسير والحديث والنحو والصرف والأدب والبلاغة والعروض وصناعة الإنشاء وقد اخترت القسم العلمى ، ولكن والدى أصر على دخول القسم الأدبى، فلم يكن يرضيه أن أكون مهندسا أو طبيبا أو طياراً، بل كان هاجسه الدائم أن أكون - يوما ما - من علماء الأزهر، وقد حاولت مع شيخ المعهد يومها أن يتركنى فى القسم العلمى فأصر على تحويلى للقسم الأدبى تحقيقا لرغبة والدى وكانا صديقين .. ، ورغم أنى كنت أدرس فى حقل مفروض علىَّ فقد وفقنى الله للمضى قدما فى هذا الطريق وكان ترتيبى أما الأول أو الثانى وحصلت على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٦٥، وبدأت مرحلة جديدة .

وقد أهلنى المجموع الذى حصلت عليه بالالتحاق بكليات عديدة، لكن والدى لم يرض، ولم يطب خاطره إلا حين استقر بى المقام فى كلية أصول الدين، وكنت حريصاً على رضاه، لأنه كان بالنسبة لى والداً وأستاذاً، درست على يديه «الفقه المالكى» وكان لا يمل من الغوص فى قضاياه وأحكامه، وقد أفدت منه الكثير فى هذا المجال، وفى كلية أصول الدين انفتحت أمامنا آفاق علمية سرعان ما استهوتنى وتجاوبت معها، ولدرجة أنى حمدت الله على هذا «الاختيار» الذى اضطررت اليه اضطراراً فقد جلست فى هذه الكلية أمام أساتذة كبار وشيوخ أجلاء، منهم من درس فى أوروبا ويحمل لقب دكتور ومنهم من أنضجته العلوم والدراسة التقليدية فإذا تكلم فى مادته فلا أقل من أن تبهرك الدقة والإحاطة وعمق التنظير، ومرة أخرى يترسخ فى وجداننا الرأى والرأى الآخر حين يخرج الأستاذ خروجا صريحاً أحيانا على ما يقرره القدماء فى هذه المسألة أو تلك

وقد تعجب لو قلت إن لك هذه المساجلة أو التلاقح لم يختص بحقل دون حقل آخر من مقررات أصول الدين ، وكان أبرز هذه الحقول هو ميدان الفقه والأصول، ثم الفلسفة، ثم علم الكلام وكلية أصول الدين هى الكلية الوحيدة التى تجمع فى منهجها

بين علوم المعقول والمنقول فمن علوم المعقول : الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وأصول الفقة والأخلاق ، ومن علوم المنقول : التفسير وعلوم القرآن والحديث وعلوم الحديث والسيرة .. وهذا بالاضافة إلى علوم الاجتماع والتاريخ، وبعض مواد أخرى اقتضتها طبيعة المرحلة آنذاك مثل : القومية العربية وما إليها وبعض المواد كان يسند تدريسها لأساتذة من خارج الأزهر ، مثل الأستاذ الشيخ محمد أبو زهره الذى درس لنا الأحوال الشخصية فى عام ، وأصول الفقة فى عام تال، ومثل د. الخشاب الذى درس لنا علم الاجتماع على مدى عامين من الشخصيات العلمية التى تأثرت بها فى كلية أصول الدين الشيخ أبو زهرة والدكتور عبد الحليم محمود الذى كنا نهابه ونحبه فى آن، والدكتور سليمان دنيا الذى استطاع أن يجمع بين عقل الفليسوف وقلب الصوفى ، وهما أمران يعسر الجمع بينهما بحيث يتناغمان ولا يتنافران وكذلك تأثرت بالدكتور غلاب تأثراً بالغاً وهو ممن تلقى دراساته العليا فى باريس مثل د. عبد الحليم محمود و د . عبد الفتاح عفيفى، أما د. سليمان فقد تخرج من لندن .

تخرجت فى كلية أصول الدين عام ١٩٦٩ وجاء ترتيبى الأول فى قسم العقيدة والفلسفة، وكنت أظن أنه سيتم تكليفى معيداً، إلا أن الكلية تباطأت ، وأوهمنى البعض بأن الكلية ليست فى حاجة إلى معيدين، وعلى أن أشق طريقى فى الوظائف الأخرى، ومن المفارقات العجيبة أن بعض المسئولين فى إدارة الكلية نبهنى إلى أن تدبيراً يجرى بالكلية لاستبعادى من القائمة، وأن النية تتجة إلى تكليف الثانى والثالث، لكن لم يمض شهر على تخرجى حتى صدر قرار وزير الأزهر بتكليفى معيداً بكلية أصول الدين مع زملاء آخرين بدأنا الدراسات العليا واستبدت بى الرغبة فى تعلم اللغة الفرنسية رغم نصيحة أصدقائى بدراسة اللغة الانجليزية التى أتيح لى أن أتعرف على شئ منها فى القسم الثانوى، ولكن رغبتى فى تعلم الفرنسية لم تكن لتقاوم، فقد كان الأنموذج الذى يمثله الأساتذة المتخرجون فى السوربون فى كلية أصول الدين مغرياً بالإقتداء وكانت كتب الدكتور طه حسين التى افتتحنا عليها تدفع إلى ذلك دفعاء خاصة ما صوره عن باريس فى قصته «أديب» ، «صوت باريس» وتصادف أن أكتشفت - فى هذه الفترة - مع بعض زملائى «الدكاترة زكى مبارك «واستولى على إعجابنا فترة ليست بالقصيرة، وأذكر أننى اشتريت من كتبه : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى بجزئيه ، وليلى المريضة فى العراق وذكريات باريس والمدائح النبوية وعبقرية الشريف الرضى مرة واحدة، وأثر ذلك



على الميزانية المحدودة .. وبدأت تعلم اللغة الفرنسية في المركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة إلى جوار الدراسات العليا، وواصلت دراستي فيه حتى انتهيت من الرحلة الأولى بعد أربع سنوات تقريبا ثم سافرت إلى باريس أملا في الحصول على الدكتوراه من السوربون، ولكني مرضت ، وتقررت عودتي وبقيت حتى أنهيت رسالة الدكتورة في كلية أصول الدين، ثم سافرت إلى باريس مرة ثانية ولفترة عام تقريبا درست فيها اللغة الفرنسية والتقيت بالأساتذة المتخصصين في الفقه الإسلامي وفي علم الكلام وهالني أن وجدت كثيرا منهم على معرفة دقيقة بعلومنا وهناك رأيت كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا – وهو كتاب غاية في الصعوبة – مترجما إلى اللغة الفرنسية ترجمته الآنسة جواشون، وهي متخصصة في ابن سينا، وكانت رسالتها – على ما أذكر – بعنوان «الفرق بين الماهية والوجود» وهي نقطة بالغة الصعوبة والخصوبة في فلسفة الشيخ الرئيس ... ورأيت في كلية الحقوق اهتماما كبيرا بالفقه والشريعة، والتقيت بالأستاذ «جيماريه» الذي قال : إنه ثاني اثنين في علم الكلام الإسلامي «على مستوى العالم» وأهداني رسالته للدكتوراه وهي بعنوان «نظرية خلق الأفعال » ولما قرأتها عجبت من انتماء الأستاذ للمدرسة الأشعرية ودفاعه المستميت عن عمق المذهب الأشعري واتساقه المنطقي، واستطاع هذا الأستاذ أن يكتشف نصوصا للأشعري لم نكن نعرفها وحققها ونشرها .

وقد أفدت من رحلتي هذه شيئا مهما، هو أنها لفتت نظري إلى قيمة تراثنا الإسلامي وأهميته، وأن الهجوم الكاسح على هذا التراث ليس له من سبب إلا تجاهل قيمته أولا ثم التخلص منه – جملة وتفصيلاً – أو إهالة التراب عليه إن أمكن

وعدت من باريس سنة ١٩٧٧، وأنا أكثر حرصا على التزود من التراث والجمع بينه وبين المعاصرة، وقد أفادتني أعمال عملاق الأدب العربي : العقاد، وتعلمت منها قيمة هذا التراث وأهميته – بعد تهذيبه – في إشكاليات الحداثة وحضارة العولمة، ولم ينفرد العقاد بهذه الخاصية، بل كان هاجس المواءمة – مع المحافظة على الهوية – هو الهم الذي شغل معظم أبناء ومفكري هذه الفترة، وهي فترة تشبه – كثيرا – ما نحن فيه الآن فيه من مواجهة للعولمة ، وربما كان أبناء تلك الفترة أكثر جدية في تقدير الأخطار التي تتربص بالأمة.. وما إسلاميات العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل وأضرابهم إلا خطة عملية محكمة كانت أشبه بمصدات للرياح العاتية التي حاولت قلع الشجرة من جذورها .. ونحن الآن في أمس الحاجة إلى عمل من هذا القبيل حتى لاتغرق السفينة وتستقر في القاع... وأمتنا تنتظر بعث أمثال هؤلاء في أبنائها وكتابها الآن، وهم قادرون – إن أرادوا – أن يفوتوا الفرصة على الاستعمار الجديد كما فوتها العقاد وأصحابه على الاستعمار القديم .

إن هذا القرآن الذي حفظ الأمة من أن تماع في غيرها، هو نفسه، ما سيحفظها الآن – ومستقبلا – كلما هبت الأعاصير وتلبد الأفق بغيوم سوداء كالحة ... ■

القوة المعادية للثورة ودورها في إعدام مصطفى خميس والبقري

كتبت الاستاذة صافي ناز كاظم في عدد يوليو مقالا تناولت فيه إعدام مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى في الأحداث التى وقعت فى كفر الدوار في أغسطس عام ١٩٥٢..

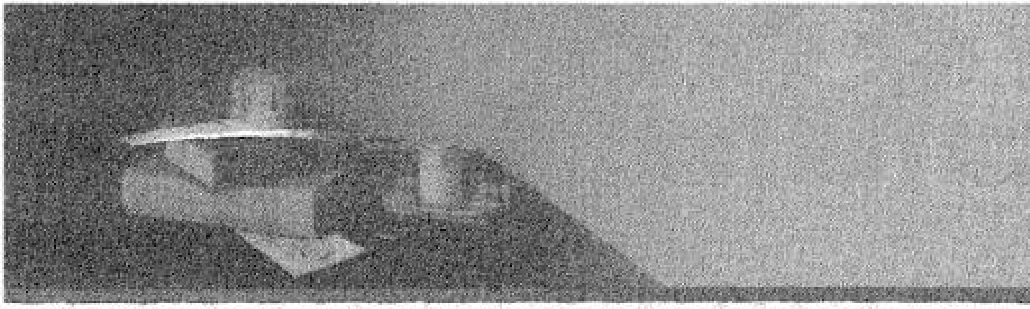
وتظهر من حين لآخر كتابات بعض المشككين من الكتاب فى ثورة ٢٣ يوليو الخالدة بأنها كانت ضد الطبقة العاملة المصرية منذ بدايتها مستشهدين فى ذلك بأن الثورة قبل أقل من شهر من قيامها قامت بإعدام مصطفى خميس والبقرى.

وعمال شركة مصر كفر الدوار للغزل والنسيج كان لهم بعض المطالب العمالية قبل قيام الثورة .. ولم تستجب الإدارة وعندما قامت الثورة بدأ العمال يطالبون بإبعاد عناصر الإدارة العليا بالشركة من النظام القديم «حسين سرى» و«حافظ عفيفى» و«إلياس اندراوس» .. وقد بدأت إدارة الشركة تعد نفسها لوضع خطط لتسوية حركة العمال وبدأت الأحداث الحقيقية فى الساعة العاشرة من مساء ١٢ أغسطس ١٩٥٢ عندما جاءت الوردية الثانية، واجتمع عمال الورديتين وعددهم أكثر من خمسة آلاف عامل، هتفوا ضد الإدارة الموالية للعهد السابق، واضعين في الاعتبار أن الثورة التى أطاحت بالملك سوف تنصفهم ولم يدروا أن الأسماء الكبيرة فى إدارة الشركة كانت لاتزال قادرة على التآمر، وعلى تدبير أمور فى الخفاء ضد الثورة يكون العمال كبش فدائها.

بعد ذلك بدأت عمليات حرق وإتلاف المركز الرئيسي لإدارة الشركة وسياراتها وظلت المصانع وآلاتها سليمة .. وكان الحريق والتخريب بأيدى صبية دفعتهم الأيدى التى من مصلحتها إحداث هذا الدمار لتنسب إلى حركة العمال.

وفى الساعة الثالثة من فجر يوم ٢٣ أغسطس تحركت جماعات متفرقة من المتظاهرين أغلبهم من الصبية والأهالى، وحدثت مصادمات بينهم وبين الأجهزة الموجودة التى كان ولاؤها للنظام السابق، وهنا حدثت المأساة وتم القبض على «مصطفى خميس» و«محمد حسن البقرى» وألحقت بهما تهمة زعامة الحركة وتدبيرها.

محمد حسين



عش ألف عام

بمناسبة مرور إحدي عشر حقبة علي صدور العدد الأول من الهلال سبتمبر ١٨٩٢.

ساد الظلام بأرض الشرق فى زمن ..
فيه الجهالة سارت فى حواشينا
ما للخرافة باتت فى مسامعنا ..
كأنها الحق .. يمضى حكمه فينا
والزيف ينشر فى الأجواء شرعته..
والناس فى ظمأ من سوف يسقينا
لم يبق للعلم من أرض يلوذ بها..
لم يبق للشعر من صوت ينادينا
أين المؤرخ؟ .. أين النقد والأدب ..
بل أين من فسروا القرآن والدينا

***

تطلع الجمع نحو الشرق فى شغف..
لعل فيها ملاذا للمحبينا
كادت عيون الورى تغشى لمولده ..
هذا «الهلال» فذا أقصى أمانينا
سقام دهر مضى فى الروح مسكنها ..
فى راحتيه رحيق سوف يشفيها
ظلام ليل قضى - ما الله مرجعه ..
فالنور أمسى أنيسا فى ليالينا
أحيك يأس ماضينا منقحة ..
كأنهن زهورا فى روابينا
صاغ الحداثة منهاجا وتجربة ..
فأينع الغرس فى أرجاء وادينا
عش ألف عام أنيسا فى نوادينا ...
عش ألف عام تسامرنا وترويِنا

مهندس محمد محمد أبو خشبة - دسوق

أنت والهلال

الهلال وثورة يوليو

أحسست بالسعادة وأنا أقرأ العدد التذكارى الرائع والبديع من الهلال بمناسبة مرور خمسين عاما على ثورة يوليو، التي غيرت وجه التاريخ، ورسمت ملامحه، وحققت منجزات، وحددت أهدافا عزيزة المنال.

إنني لا أبالغ إذا قلت إن هذه الثورة كانت بمثابة النبراس الذى أضاء الطريق لعدد من الدول التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار وتعانى من سطوته وجبروته إلى أن تحررت ونفضت عنها غبار الذلة والمهانة، وحققت استقلالها، وحافظت على مواردها الطبيعية وعلى كرامتها.

ستظل هذه الثورة الشامخة المضيئة على خد الزمان.

إن عدد الهلال التذكارى أعاد لنا خاصة الأجيال الجديدة أن نتعرف على الدور التاريخى والمهم للضباط الأحرار ولجمال عبدالناصر .. فتحية لهذا الجهد. وخير شاهد على أن الهلال كانت سباقة فى مناسبة اليوبيل الذهبى لثورة يوليو بنفاد الطبعة الأولى والثانية.

محمد المصلي - المنصورة

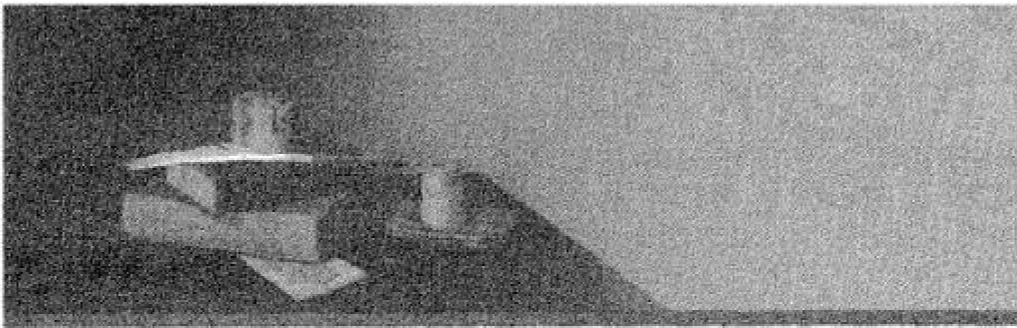
الهلال: نشكر القارىء العزيز وكل القراء الذين انهالت رسائلهم تنوه بالجهد الكبير والتميز تحريرا وإخراجا فى عدد يوليو.

عولمة

يمر اليوم بعد اليوم ...
يأكل جسرى النحر
ويبقى الصمت تبقى الريح ...
يبقى الظلم والقهر
فأنت - تقول أغنية - ...
حياتك للعلا أسر
فليس الشعر باب الشمس ...
يفتح عينه العطر
وما لتجارة الأحلام ...
فى أيامنا قبر
فعصر داس فيه اللب ...
تحت حذائه القشر

وأقلام العطاء الحر ...
فى أيدى الوفا جمر
وأحلام الشباب ترف ...
يحرق ريشها الغدر
وفى أرض النبوة فى ...
فلسطين الدما بحر
ويبقى العالم الحر ...
الذى يبغى فيفتر
ويبقى الحق للطغيان ...
يبقى للهوى النصر

شعر : عبدالرحيم الماسخ -سوهاج



د.مستجير عالم يستحق التكريم

حسنا فعلت الهلال بأن جعلت صورة غلافها لعدد أغسطس للعالم الكبير الدكتور أحمد مستجير، فهو يستحق ذلك وأكثر ليكون قدوة للشباب الجاد.

ود.مستجير هو العميد السابق بكلية الزراعة جامعة القاهرة وعضو المجمع اللغوى والذى قدم للمكتبة العربية ٤ كتب في التحسين الوراثي للحيوان، و٢٠ كتابا مترجما فى مختلف جوانب العلوم والفلسفة و١٢ كتابا فى شئون الثقافة العلمية بمصر فى مختلف فروع العلوم والآداب.

من أقواله المأثورة للشباب «أحبوا الفلاح والنجاح يحبكم فالمهم هو الحب، فأنت لاتستطيع أن تكره شخصا يحبك».

ومن بين الاساتذة الذين تأثر بهم البريطاني الدكتور آلان روبرتربنسون الذى رأى فيه العالم الحقيقى المتواضع غزير المعلومات، بالاضافة إلى الذكاء المفرط.

وهو يطالب دائما بتطوير حقيقى للجامعات، والذى يبدأ أولا وأخيرا بتطوير وضع الاستاذ العلمي فالمادي ، ومساعدته فى توفير الامكانيات لمواصلة البحث العلمى ، تطوير المعامل وتوفير المراجع العلمية ووجود المكتبة العلمية الملائمة فى الجامعات والكليات المتخصصة وألا تغلب الجوانب الإدارية على الجوانب البحثية والعلمية.

فرج مجاهد عبدالوهاب

شربين - دقهلية

القوة التى يحتاج إليها العرب

ماهى القوة التى تنقص العرب والتى نحتاجها؟.. هذا هو السؤال الذى يطرحه اليوم العديد من المفكرين العرب .. فالاتحاديون لهم رأى والوحدويون لهم رأى وأيضا القوميون ورجال الدين والمستنيرين كل له رأيه .. ابتداء من مقولة اتحدوا الآن أو احفروا قبوركم! أو المطالبة بالقومية العربية والتى تعنى الاتحاد والوحدة معا، أو أن القوة التى تلزم العرب ، هى قوة الدين وقوة العقيدة.

ولكن أحد المفكرين يتساءل .. لماذا تنجح الرأسمالية فى الغرب ولاتنجح فى الشرق
- والسبب ببساطة هو حضور القرار الاقتصادى السليم عندهم وغيبته عندنا.

وفى رأيى أن من بين الأسس التى تصلح لدولنا العربية لكى تحقق كل آمالها وأحلامها.

- فتح الحدود بين جميع الدول العربية .

- لاقيود من أى نوع على التنمية الاقتصادية والاستثمار.
- لاتقنين فى العلاقات الاقتصادية الرئيسية كالعلاقة بين المنتج والمستهلك، وبين المالك والمستأجر وبين العامل وصاحب العمل فجميع هذه الأطراف يكون لها هيئاتها المتخصصة التى تخدمها وترعى مصالحها والتى تدعمها الحكومات بالمال فقط.
- الشروع فى انجاز مشروع عملة واحدة لكل الدول العربية، وهو المشروع الذى بدأ الشروع فى تنفيذه على مستوى دول الخليج

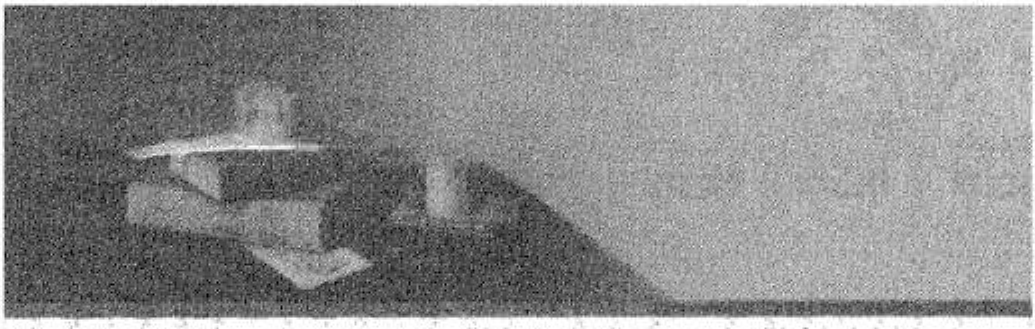
مهندس أمين محمود العقاد - الزقازيق

ياقدس

ياقدس لم يزل صوتك
الجسور يسكن آذاننا
ولم تزل صورتك العربية
تهوى رؤيتها عيوننا
ياقدس أنت العطر
الباقى من أجدادنا
فلن نستسلم لهم مهما
عانت منهم أجسادنا
أنت الأمل الأخضر الذى
يكافح من أجله صغارنا
فلن نتوقف عن نداء الحق
وإن خلعوا ألسنتنا
أنت ياقدس ماضينا
يومنا هذا ومستقبلنا
إليك ياقدس فى كل وقت
تتوجه بالصلاة جباهنا
وفى كل ساعة تدعوا
لك بالنصر أفئدتنا
ياقدس ... ياقدس
يا طاهرة ... يامجدنا



رمضان إبراهيم بشير - قنا - أبو دياب شرق



تحذيرات علمائنا وعدم الاهتمام

شهدنا في الآونة الأخيرة الهلع نتيجة مايصيب الناس من تناول البطاطس المقلية..

وكان عدد من العلماء والأطباء المصريين قد حذروا كثيرا من هذا الأمر، ولكن أحدا لم يستمع إلى هذا النصح.

وقد أجريت بالمعهد العالي للصحة العامة التابع لجامعة الاسكندرية تجارب عديدة على البطاطس، وثبت وجود علاقة مؤكدة بين مادة الأكريلاميد التي تظهر في البطاطس عند قليها في درجة حرارة عالية والإصابة بمرض السرطان.

وبدأت التحذيرات العالمية، عندما توصل علماء من جامعة ستوكهولم في السويد لهذه النتائج وخطورتها على الأطفال، خاصة وأن قلي البطاطس يكون في درجة ٢٥٠ مئوية ويتسبب ذلك في ظهور مادة الأكريلاميد.

ولابد على شركات ومطاعم الوجبات السريعة أن تغير من أسلوبها حتى يتجنب الناس مثل هذه الأمراض الخطيرة.

ما أحب أن أؤكد عليه أن هذه التحذيرات نبه إليها العلماء والأطباء عندنا ولم يهتم أحد بكلامهم!

د.جمال علي العطار

الاسكندرية - كامب شيزار

رحيل أبرز فلاسفة مصر

فقدت مصر واحدا من أهم فلاسفتها ومفكريها هو الدكتور عبدالرحمن بدوي، من مواليد قرية شرباص بفارسكور بالدقهلية (دمياط حاليا) وقد ولد في ١٩١٧/٢/٤، حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٣٨ وكان ترتيبه الأول، وحصل على الماجستير تحت إشراف لالاند وكراريه ١٩٤١ وعين استاذا مساعدا ١٩٤٩ وأستاذ عام ١٩٥٩، وظل رئيسا لقسم الفلسفة بآداب عين شمس لمدة ٢١ عاما.

وقد تنقل في بلاد كثيرة : بيروت وبرن وعمل أستاذا بالسربون ثم ليبيا وطهران والكويت وظل بها أكثر من عشرين عاما وغادرها إلى باريس .. وطوال مشواره العلمي كان يجيد ست لغات وألف ١٥٠ كتابا من بينها «الزمان الوجودي، هموم الشباب دراسات في الفلسفة الوجودية».

أبو رحاب الخولي

ملاحظات تحتاج إلى تصحيح!

من خلال قراءاتي في الكتاب المقدس (العهد القديم خاصة) لاحظت عصبية عرقية عبرانية صهيونية، بل اهانات متكررة لأهل الشام غير اليهود، وخاصة للفلسطينيين وتتمركز هذه السياقات ضمن الأسفار التاريخية.

ومن ذلك كلام إن بني اسرائيل المزعوم لهم ضمن سفر القضاه ١ : «لقد أخرجتكم من مصر وجئت بكم إلى الأرض التي حلفت أن أهبها لآبائكم، وقلت لا أنقض عهدي معكم إلى الأبد، وأمرتكم ألا تقطعوا عهدا مع أهل هذه الأرض، وأن تهدموا مذابحهم»..

إنني أسأل رجال الدين المسيحي .. هل يعقل أن تكون مثل هذه النصوص العنصرية كلام الله .. وهل يمكن أن تتلى هذه النصوص في كنائس فلسطين والأردن وسوريا ولبنان ومصر؟!.

خليفة بن حمده بن كحلاء - تونس

نجيب الذي أحبه الناس

شدتني تحية اللواء محمد نجيب لمجلتنا المحبوبة الهلال، وهي فخر لنا، وقرأت للدكتور عبدالقادر القط مقالا يقول فيه «وجاء الملك فاروق وسلم على أعضاء البعثة ويده داخل قفاز، وبعد أن سلم على آخر طالب خلع قفازه وألقى به على الأرض .. فأي تصرف شاذ هذا؟!

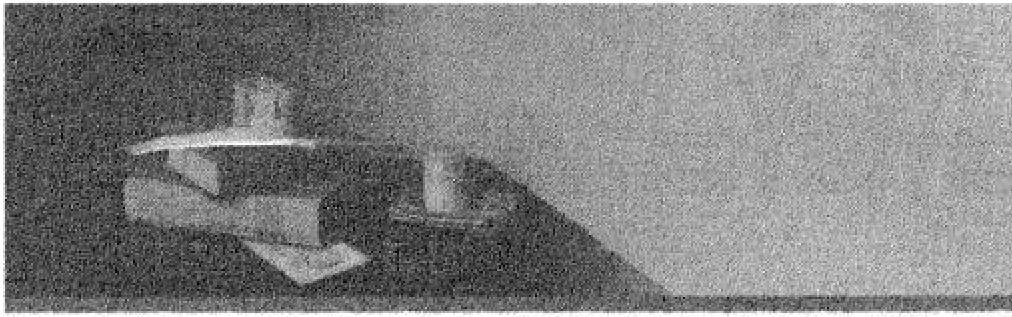
لقد كانت نهايته هي نهاية كل طاغية .. ثم جاء محمد نجيب فأحبه الناس لابتسامته الحنون، وأحبه أخواننا الأقباط وقالوا وقتها «محمد لكم، ونجيب لنا»

لايفوتني أن أنوه بالعدد التذكاري للهلال.

عاصم فريد البرقوقي
الاسكندرية - جليم

ترسيخ سلطة الشعب الدستورية

عن مكتبة الأسرة صدر كتيب بعنوان « الديمقراطية السياسية » للدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) وهذا الكتيب يعتبر وثيقة تاريخية نادرة إذ أنه يمثل نموذجا للخطاب السياسي للمثقفين المصريين ومطالبهم من السلطة السياسية العسكرية لثورة يوليو في شهورها الستة الأولى وأهم مفرداته وبنوده : ضرورة تنفيذ مبدأ سيادة الأمة تنفيذا عمليا ، وأن الديمقراطية لا تعرف وسيلة لتحقيق سيادة الأمة غير إطلاق



حرياتها ، وأن المطالبة باطلاق حريات المواطنين لا تستند إلى حق فحسب ، بل إلى واجب مفروض على كل مواطن وهو الاشتغال بسياسة وطنه ، وأن تعدد الأحزاب السياسية ضرورة ملازمة لطبيعة الديمقراطية ، وأن تقرير الحقوق والحريات العامة للمواطنين وتعدد الأحزاب السياسية أى رد السيادة الحقيقية إلى الأمة هى السبيل الوحيد لخلق حالة الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، فضلا عن ضرورة احترام حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية .

وتبرز أهمية هذا الكتيب اذا وضعناه فى سياقه التاريخى إذ صدر فى غضون اعلان سقوط دستور سنة ١٩٢٣ فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وقبل إعلان الثورة لحل الأحزاب السياسية فى ١٧ يناير سنة ١٩٥٣

عمرو عبدالمنعم حمودة – برما – مركز طنطا

عجبت لهيئة الأمم ...
ومن فيها بلا ذمم ..
من الأوهام قمتها ...
وتستعلى على القمم ...
وكم جارت بأحكام ..
وسات كل محتكم ..
ولم تسمع لآلام ..
ولم تنظر ولم ترم ..
وذى بغداد من زمن ...
على النيران والنقم ...
تعانى هجمة الدنيا ...
عليها وهى فى سقم ...
يحاصر كل ما فيها ...
ويعصر دون معتصم ...
فلا رجل ولا امرأة ...
ولا طفل بلا ألم ...
ولا طير ولا شجر ...
ولا غير بلا تهم ...

إذا سقطت هنا منا ...
فلا نعنا من الندم ...

* * *

وهذى القدس كم تصلى ...
جحيم الظلم والظلم ....
شهادتنا بها أحلى ...
من الإذلال فلنقم ...
لنعمل جهدنا حتى ...
نحررها من الألم ...
بلا عمل سنفقدها ...
من الأقصى إلى الحرم ...
هنا جينين لم تنصف ...
ولم يحكم لها بدم ...
دمانا فى الثرى سالت ...
وما للحكم من حكم ...
وكم للظلم مازالت ...
أياد دوننا كلم ...

حسن أبو الغيط – شبين الكوم

الكلمة الأخيرة

كمال سعد .. وداعاً ..

بقلم : مصطفى نبيل



كمال سعد

رحل من دنيانا الصديق والزميل كمال سعد بعد صراع طويل مع المرض، خاضه ببسالة وكبرياء، وعانى الكثير، وواجه المرض بشجاعته المعهودة وعناده المعروف .

قابلت كمال سعد أول مرة في مجلة آخر ساعة ، التي بدأ فيها حياته الصحفية، وهو نجم متألق من أفضل من يكتب التحقيق الصحفي ، الذي يغطس في خضم الحياة، وهو القادم من أقصى الصعيد ، ويخوض أمواجها بذكاء واقتدار ، وكان من الدفعات الأولى لقسم الصحافة في كلية الآداب ، ورأيت فيه «الشخصية المصرية» الطيبة والذكية في آن معاً . ومن يومها أخذت أتابع تحقيقاته ومقالاته ، فقد امتلك قدرة نادرة على أن يقول ما يعتقد أنه صحيح ، وأن يتبنى كل الأفكار الداعية إلى التقدم .

وعندما تولى أحمد بهاء الدين رئاسة دار الهلال ، انتقل كمال سعد من أخبار اليوم إلى دار الهلال في إبريل ١٩٦٤، وتزاملنا في دار الهلال منذ هذا الوقت . ويميز كمال سعد بقدرته على القيام بكل أنواع الأعمال الصحفية ، وهو مصنع أفكار وأذكر عندما أعلنت أخبار اليوم عن إصدار مجلة نسائية «هي» كمنافسة لمجلة «حواء» ، كونت السيدة أمينة السعيد ، مجموعة لتطوير مجلة «حواء» ، وكان كمال سعد أحد فرسانها .

وهو ككل مواطن ، لا يظهر عليه الاهتمام بالسياسة ، ولكنه يدرك وقائعها ، وله موقف من أحداثها ، ولديه في الوقت نفسه الاقتناع بضرورة العمل في [illegible] كثير من أجل نشر المعرفة وتناول البحث في المفتاح أمام [illegible] .

وكلما دخلت عليه مكتبه وجدته [illegible] أحد شباب الصحفيين [illegible] ويقدم إليه النصيحة ، ولم يكن غريباً أن يحصل على مقعد في مجلس نقابة الصحفيين [illegible] تمتع بحب زملائه في بداية السبعينيات ، في وقت شديد الحرج ، والبلاد تنتقل من عصر عبدالناصر إلى عصر السادات ، وأسفر هذا الذي لا يبدو عليه أي اهتمام بالسياسة ، صلابة رافضاً الخضوع والاستكانة ، واتخذ الموقف النقابي الصحيح في الدفاع عن القوى الوطنية وحقها في التعبير عن نفسها ، ودفع ثمناً غالياً عندما فصل من دار الهلال ومن مجلس نقابة الصحفيين .

كان يدهشني بعمقه وبساطته ، من الهدوء والاندفاع ، تواضعه الجم وقدراته العالية ، شهامته ووقوفه إلى جانب زملائه دون ادعاء ، أو صخب ، يتمتع وباللعجب بالمروءة والصلابة معاً ..

وهو رجل محب لأسرته باذلاً أقصى جهده من أجل كل فرد فيها ، لم ينقطع عن الكتابة حتى في أسوأ حالاته المرضية ، فالقلم رسالة مقدسة ، وقد جمع الكثير من أعماله في كتب ، تحفظ لنا الرسالة التي يدعو إليها ، فكان طموحه بلا حدود، وقد راعه عدم الاهتمام بجمع ودراسة أعمال بيرم التونسي ، فجمع ما استطاع من أعمال ، وألقى الضوء على أعماله، وتناول الكثير من القضايا الفنية والثقافية مثل علاقة الشيخ زكريا أحمد بأم كلثوم .

رحم الله كمال سعد كاتباً مصرياً ، أعطى لوطنه الكثير، وكان مثالاً فريداً للانتماء للوطن ، الذي ينبع من إيمان عميق بحق المصريين في حياة كريمة .



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

إشعاع ثقافى متجدد الأبعاد

تحت رعاية

السيدة الفاضلة سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

أضخم مشروع ثقافى

تواصل إصداراتها من الأعمال الكاملة لكبار الكتاب والمفكرين والأدباء .. ولأول مرة تقدم البطل التليفزيونى :

بكار في سلسلة أدب الأطفال

سعر النسخة جنيه [illegible] من عناوينها :

بكار والعصفورة الصغيرة - بكار يذهب إلى طبيب الأسنان - لا فرق ليحطى ها ها ها ها

هذا وتواصل مكتبة الأسرة إنجازاتها فتقدم لأول مرة :

[illegible]

فى الأقاليم

ودرة هذا العام : موسوعة [illegible]

أعظم موسوعة شاملة كتبها علماء الحملة الفرنسية المصاحبين لنابليون وتحوي وصفاً علمياً بالغ الدقة لكل جوانب الحياة فى مصر المحروسة ... إلى جانب قيمتها التاريخية العظمى

تنشر كاملة فى ٣٠ جزءًا مزودة بالملاحق والصور والخرائط .



الهلال

أكتوبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

الإسكندرية منارة للعالم



- هزيمة النقد الأدبى
- خريطة جديدة للشرق الأوسط
- زيادة نسبة الطلاق وقلة الزواج .. لماذا؟



لوحة وفنان



لوحـــة : أمام الدوار
للفنان : محمود سعيد

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهره ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

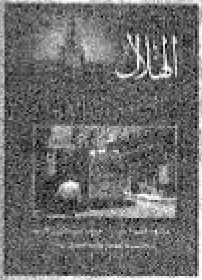
عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

أثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥,١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٢ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدماً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.

وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت د/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com
العام الحادي عشر بعد المائة
رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

مكتبة الإسكندرية

منارة الإسكندرية تبعث من جديد.

ستعود الإسكندرية منارة متألقة للفكر والفن .. ولن تصبح القاهرة مستحوذة على كل النشاط الثقافي، بعد افتتاح «مكتبة الإسكندرية» افتتاحا رسميا خلال هذا الشهر، ولكى تؤكد أن المعرفة ليست حكرا على المدارس والجامعات.

والمكتبة التى أقيمت إحياء لتقاليد مكتبة الاسكندرية القديمة، أحد المفاخر التى يعتز بها سواء، من ناحية العمارة أو الأداء. وهى ليست مكتبة فحسب بل مجمعا علميا وفنيا وثقافيا.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد قامت فى ظل تفاعل حضارى بين الثقافات فى مدينة عالمية هى الاسكندرية، وتقوم - هذه المرة - المكتبة الجديدة فى ظل عالم جديد تميزه ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، وتقدم مصر من جديد ثقافة الحوار التى لاهيمنة عليها سوى للعقل والعلم والمعرفة.

وقد دعت المكتبة - قبل الافتتاح الرسمى - عددا من المشتغلين بالعلم والثقافة، لاجتماع ثان وتقليد سنوى يناقش نشاطات المكتبة كأحد المجمعات الثقافية، وتقدم مجالات عمل المكتبة واقتراح ما على المكتبة أن تقدمه إلى العالم الخارجى، وعلى أن تتميز عما تقدمه مؤسسات دولية مماثلة. كما تناول المجتمعون الأنشطة الثقافية والفنية التى تقوم بها المكتبة على أن تتكامل ولاتتنافس مع المؤسسات الثقافية الأخرى، وحدود حرية المكتبة فى الاقتناء، وإقامة الحوار وبناء جسور التعاون مع العالم، وضرورة أن يشارك المثقفون فى صناعة القرار حول ماينبغى عمله، ومايجب تصحيحه، وما يجب زيادته.

وقدم د.اسماعيل سراج الدين اقتراحا، أن يعتبر المجتمعون بمثابة جمعية عمومية تقدم الاقتراحات ، وتراجع النشاط وتناقش المسائل الرئيسية، وتكون هيئة استشارية أى البعد الثالث وحتى ترتبط ارتباطا عضويا بالحياة الفكرية فى البلاد.

وقد دارت المناقشات على مدى يومين حول ضرورة أن تجد مكتبة الإسكندرية مكانا خاصا ونشاطا مميزا، وأول مهامها الاهتمام بمدينة الإسكندرية فى العصور المختلفة - معرض يتناول صور الإسكندرية ص ١٠٢ - والاحتفاء بكل من أنجبتهم الاسكندرية من مصريين وأجانب، والاحتفاء أيضا بمن كتبوا عنها مثل الشاعر اليونانى كفافى الذي ولد ودفن فى الاسكندرية، والروائى الإنجليزى داريل.

وأكد المتحاورون ضرورة التوازن فى النظر إلى الثقافات والحضارات، وكما عبرت مكتبة الاسكندرية التاريخية عن تعدد الثقافات وضرورة التفاعل والحوار بينها، وهو مايحتاج إلى

إحياء، فلا يكفى الاهتمام بثقافات البحر الابيض بل يجب الاهتمام أيضا بالحضارات مثل حضارة الهند والصين مع العناية بظهير مصر ، و البلدان العربية والدول الإفريقية.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية ساحة للحوار فلابد أن تعتنى بالتراث العربى والفكر العربى المعاصر، وأن تصل إلى التوازن بين المحلية والعالمية.

فالأبعاد العالمية لمكتبة الاسكندرية هى سر عظمتها، وموقع مصر الجغرافى ومكانتها التاريخية ودورها الحضارى أعطى لهذه المكتبة أهميتها.

يؤكد «وول ديورانت» صاحب كتاب قصة الحضارة .. «كانت مكتبة الاسكندرية أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم العلوم والآداب، وظلت إلى آخر أيامها مكانا للحوار ومعهدا للدراسات الراقية أكثر مما كانت جامعة الطلاب».

وزمن مكتبة الاسكندرية هو زمن امتزاج الثقافات وصهرها فى بوتقة واحدة، ويقول وول ديورانت «الشرق هو بداية خلق روح الاستكشاف والاقتحام، وهذه الروح هى التى تعيد الاعتبار للانسان».

ولا توجد روح الاستكشاف والاقتحام دون الحرية، ووقف الجميع إلى جانب حرية التداول والحوار والنشر واتفق الكل على أن حرية البحث العلمى مكفولة، ولاتوجد أى قيود عليها، إدراكا من المجتمعين بدور المكتبة الجوهرى، فى إشاعة قيم الحرية والعقلانية، ووعيا بدورها فى حفز المجتمع على الإطلال على جميع ثقافات العالم مما يتطلب التعبير الحر الأصيل، كما أن فى عالم اليوم يستحيل المنع فى ظل ثورة المعلومات ذلك المنع الذى يقوم على أساس الوصاية على القارىء، وأن المواطن لايستطيع أن يتخذ قراراته!.

وتساءل البعض هل تفتح المكتبة أبوابها للجميع - فى حدود طاقتها - وبالغ صاحب السؤال فى حكايات حول نزع بعض الصفحات والصور من الكتب، وعدم احترام قدسية المكان، وأكد د. سراج الدين أن هذه الحوادث نادرة وهى حالات فردية لايجوز القياس عليها.

وألقيت على كاهل مكتبة الاسكندرية هموم وآمال وطموحات التقنية، ويضع المجتمعون على عاتق مكتبة الاسكندرية، كل قضايا الثقافة، وهو مالاتقدر عليه المكتبة وحدها، والبعض ينكر غلبة الأدب والفن على العلم فى حياتنا الثقافية ويطالبون المكتبة بعلاج ذلك، والبعض يرى أن الشباب لايحصلون على فرص متكافئة فى النشر والانتشار، ينتظرون من مكتبة الاسكندرية أن تعالج ذلك، والباحثون عن الدوريات من صحف ومجلات قومية ولايجدونها فى المكتبات العامة، يطلبون توفيرها وتوثيقها على سى دى وتوفيرها للدارسين.

والبعض يضع على عاتق المكتبة معالجة المثلث المهم الذى يضم الإعلام والتعليم والثقافة.

والبعض يرى ضرورة الاهتمام بثقافة الطفل، وعلى العكس يرى البعض أن ثقافة الطفل، ليست من مهام المكتبة، ولايوجد مكان لمكتبة الطفل فى أى مكتبة عامة مثل مكتبة المتحف البريطانى مثلا.

والمكتبة الرقمية، هى مكتبة المستقبل، والتى تتميز بها مكتبة الاسكندرية وكما قال د. اسماعيل سراج الدين، لايوجد تسجيل دائم على مايظهر على الإنترنت فى مواقعه المختلفة سوى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية وفى مكتبة الاسكندرية، وأى مادة على أى موقع على الانترنت لاتظل مدة أزيد من مائة يوم وسيجد الباحث والدارس كل ماجاء على الانترنت على مواقعه المختلفة فى مكتبة الاسكندرية.

فمكتبة الاسكندرية حلم راود المفكرين والمثقفين فى شتى أنحاء العالم، وبدأ الحلم يتحقق، بإقامة مؤسسة ذات شخصية اعتبارية بعيدة عن متاهة البيروقراطية، لتكون مركز إشعاع حضارى، وبديلا عن منارة الاسكندرية إحدى عجائب الدنيا السبع التى انهارت يوما. ■

المحـــــرر

دائرة الحوار

هزيمة النقد الأدبى

بقلم
د. محمد رجب البيومى

حاولت أن أبرّد عواطفى حين مسكت القلم لأكتب هذا المقال. إن وهجا سخينا قد شب فى عروقى حين سمعت أحد نقاد اليوم يتكلم فى حماسة حارة عن قصة ساذجة لبعض المبتدئات ممن لا يحسن قواعد الإملاء والنطق المتواضع فضلا عن تصوير الأحداث، واستشفاف الخوالج. وقد شاء حظ الكاتبة أن تقع قصتها فى يدى من قبل، فأخذت أقرؤها لأتفقه واستمتع!! فجعلت أتفكه وأسترجع، ثم يجىء الناقد فيرتفع بالقصة وكأنها أثر خالد لبعض العبقريات! هنا شب الوهج فى صدرى، وأخذت أقلّب كفا فوق كف.

وقبل كل شىء أعلن أنى أقدر أدب المرأة الموهوبة، وأعرف من شاعرات الأمس واليوم من يقفن مع كثير من الرجال فى مستوى رفيع! بل أعرف فى شعر المرأة حنانا يفجر الماء من يابس الصخر، ولوعة مكظومة تذيب لفائف القلوب، كما قرأت روائع القصص للمعاصرات من أمثال مى زيادة وسهير

القلماوى وبنت الشاطىء وأمينة السعيد ولطيفة الزيات ووداد سكاكينى وأمينة الصاوى، وإذن فلست خصيما لشعر المرأة وقصصها، ولكننى مشغوف بروائعه، ولست وحدى فى ذلك فإن توفيق الحكيم فى صدر شبابه حين كان يتباهى بأنه عدو المرأة قد أنصف مقدرتها القصصية وقال فيما قال بمجلة الثقافة ١٩٣٩/٢/٢٨:

«إن الشعور والتحليل هما الدعامة التى شيدت عليها المرأة كل آثارها الخالدة، فى تاريخ الأدب والفنون فمن شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام إلى سافو إلى مدام دستال وجورج ساند، وجورج إليوت، إلى كوليت ومارى وب وكاترين وسجريد أندست كلهن قد ارتفعن متألقات فى سماء الفن، على أجنحة العاطفة الرقيقة، وكلهن قد أظهرن من البراعة فى التحليل ما قصر عن إدراكه كثير من نوابغ أهل الفن من الرجال، والتحليل هو الملكة التى لابد منها لكل كاتب يعالج الرواية الخالصة، فهذا النوع من الأدب إنما يقوم على النفوذ الدقيق الى نفوس الناس، وضمائر الأشخاص، وهنا استطاعت المرأة بالفعل أن تظهر من طول الباع ، ومن قوة الجلد على تحليل التفاصيل ما أثبت لنقاد الأدب، أن الرواية الخالصة نوع توشك أن ترفع فيه المرأة علم السيادة».

هذا بعض ما قاله توفيق الحكيم لا كله، وإذا كان ما قال شهادة رائعة للأدب القصصى الذى تبدعه المرأة فإنه من ناحية ثانية جعل هذا الابداع قائما على النفوذ الدقيق الى نفوس الناس، وضمائر الأشخاص ، وعلى قوة الجلد فى تحليل التفاصيل ، والعناية الكبرى بذكر ما يخفى على العين العابرة. ولم يتحدث الحكيم عن جمال التعبير الأدبى لأنه أمر مفروغ منه بدءا. ولابد لكل موهوب أن يمتلك ناصيته قبل أن يلج إلى تحليل المشاعر، وسرد التفاصيل، فإذا جئنا اليوم الى هذا الطوفان المكتسح الذى يتدفق فى السلاسل الأدبية الحكومية، وغير السلاسل الأدبية الحكومية، فهل نجد لدى الفتيات فى قصصهن السانجة، غير ما نجد فى مذكرات التلميذات بالمدارس الثانوية! والهازلات منهن بنوع خاص ، هؤلاء اللاتى يجعلن الحب المبتذل كل شىء فيما يكتبن اذ لم أعرف لدى هؤلاء من عالجت غير مواقف الحب الشريف والداعر معا: ولكن أى معالجة، إنها الرصد لأحاسيس المراهقة فى نشوز أدبى لا يعرف طلاقة التعبير بل لايعرف القواعد الأصلية للإعراب! ثم يجىء ناقد فى البرنامج الثانى، أو على صفحة جريدة يومية فيقرن الشابة المسكينة بالشهيرات من أديبات الغرب، ويمزج الحديث بمختلط ركيك من المصطلحات التى لا يدرك من معناها الأصيل شيئا. وهو فى بعض أموره وأحواله دكتور ومدرس بالجامعة.

وقد قلت فى مقال متواضع نشرته بجريدة «صوت الأزهر» إن كثرة هذا النوع الجسدى المقزز لدى فتيات القصة

يؤكد أن هناك مخططا خافيا يهدف الى تسطيح الفكر الادبي، ويبعده عن النظر فى القضايا الاجتماعية والسياسية والإسلامية التى تصور هموم المجتمع الإسلامى والعربى معا، مع تيسير الوسائل السريعة لنشر هذه المنحدرات الهابطة على نطاق واسع، وما تكاد قصة ركيكة من هذا الطراز ترى النور المطبعى حتى تقام الندوات للإشادة بها فى البرامج الأدبية بالإذاعة وفى الصالونات المظهرية التى تحاول استرجاع عهد الآنسة مى دون كفاءة واعية، وفى أعمدة الجرائد والمجلات التى يحتلها أناس لايقرءون غير العنوان، ثم يخوضون فى تهويمات هى أشبه باللغو السقيم ! ولو قرءوا ما وصلوا إلى شىء.

تبجيل السذاجة

لقد ألزمت نفسى ألا أشير الى أسماء الفتيات والناقدين، وهذا ما يجعل المقال موضوعيا فى اتجاهه الهادف، ولكنى لا أجد مفرا من أن أضحك القارئ بما سمعت فى ندوة بالبرنامج الثانى تتحدث عن قصة تبجل «ايزيس» ذات الشخصية المصرية العريقة، ولكنه تبجيل السذاجة الغافلة التى لا تستند الى منطق، وقد قالت المؤلفة العظيمة عند نفسها، وعند الناقد والمذيعة فحسب ! إنها اختارت «ايزيس» بدل (ليلى) هذه الرِّمة المدفونة فى صحراء العرب ولا يحسها أحد فى مصر، وكنت انتظر من الناقد أن يستنكر هذا اللغو العابث، ولكن القول السخيف مضى دون تعقيب! ان اسم ليلى ياهذه يوجد فى كل صف من صفوف مدارس البنات بحيث يشتمل الصف الواحد على عدة ليلات! وما وجدت ايزيس فى كشف من كشوف الأسماء، فكيف تكون ليلى رمة مدفونة بصحراء العرب لا يحسها أحد فى مصر ولديك أسماء الفنانات وهن أقرب الى التفرنج المبهر، فمن اسمائهن ليلى مراد وليلى فوزى وليلى حمادة ، وليلى طاهر وليلى علوى وليلى جمال وليلى نظمى ومن لا أعرف من حسان هذا الميدان! ولست أجحد مقام ايزيس فأنا مصرى عريق ولكنى استنكر هذه الطفولة العابثة التى تهتف بما لا تعرف! إن اسم ليلى فى الأدب العربى كاسم جوليبت فى الأدب الانجليزى واسم شرين فى الأدب الفارسى، وقد جرى المثل العربى بقول القائل (كل يغنى على ليلاه).

أتريد مثلا آخر لنفاق الناقد غير المستساغ؟ لقد تعرض أحدهم للحديث عن قصة مبتذلة لكاتبة واهنة، كتبت فى مجموعتها قصة شغلت ثلاث صفحات من صفحات الكتاب، وقد جعلت النصف الأسفل من الصفحة أبيض فارغا من أى حرف، وكنت أنتظر أن يسأل الناقد عن سبب هذا التجديد الباغت، ولكنه

تبرع من عند نفسه بالاجابة عن السر الذي لا يعرفه أحد. أيدري القارئ ما قال هذا الناقد المتعمق؟ إنه قرر أن القصاصة المبدعة أرادت أن يتخيل القارئ أشياء نلهمها القصة فتركت له مزيدا من الفراغ، ليأخذ القلم.. ويدون في السطور البيضاء ما أوحى اليه! ومعنى هذا أن فنحا جديدا قد ظهر في عالم التأليف القصصي، اذ على الكاتب او الكاتبة فيما بعد أن يتركا نصف الصفحة بيضاء، ليسجل القارئ ما يتخيل! وياله من فتح!

أترك حديث النوات النقدية الى بعض ما ينشره النقاد في الصحف، إذ تجد من الغرائب ما لايصدق، فالناقد المحترم من هؤلاء لايجد ما يقوله بوضوح، فيلجأ الى تهويمات غامضة تقرأ سطورها فتفهم الألفاظ منفردة، ولكن المراد من السياق لا يسفر عن وجهه أبدا، ثم ينتهي بعد هذا الضباب المتراكم إلى مثل ما قاله ناقد بجريدة الأهرام عن قصة هلامية لا تعطي شيئا ما غير النفور الضائق.

«إن الأسلوب الكتابي ينهل من موهبة صاحبته في التأمل والملاحظة والتقاط الصورة من بين الآلاف المشوشة في الحياة اليومية، وهذه الموهبة تثرى الفن القصصي بنماذج حية، اذ الشحنات الوجدانية مهما كان من قيمتها بالنسبة للأديب فإنه من المؤكد كما يقول (مالرو) انه لن يكون في وسعنا أن نحدد نوع نشاطه الفني بالاقتصار على وجدانه أو إلهامه او خياله».

هذا ما ختم به الناقد تهويماته الغائمة! ! أما كيف جاءت الشحنات الوجدانية بأثرها الفعال في التأمل والملاحظة والتقاط الصور فهو مالم يستطع الافصاح عنه! ولابد أن يذكر (مالرو) في مجال التهويم ليدل على ثقافة الناقد أما صور العبث الجسدي البغيض في المجموعة فهو بعض هذه الشحنات .

أنا لا أمنع التشجيع، والأخذ بالأيدي الضعيفة لتقوى وتشتد، فهذا حق الناقد، ولكن أي ناقد؟ إنه الذي يزن العمل بميزان متزن لا تميل فيه كفة عن وضعها الصحيح، ولكن ماذا تقول في مجلس مداهنة كالحة يتشح ظاهريا بعباءة النقد لينتهي إلى تتويج من تخطىء في الإملاء والقواعد، فتقول، «أخوكي، أرجوكي» مخاطبة زميلتها الأنثى، وتقول: تعرفي حبي لك، وتعلمي موقفي منك! ولا تكاد تنصب مفعولا، وهو أول ما يعرفه تلميذ المدرسة الابتدائية! أيترك هذا كله! ويترك معه تفاهة العرض، وسطحية الحوار، وانحدار الهدف، ثم يقتنع الناقد في غفلة - متكلما أو كاتبا - بأنه أدى دوره الصحيح! وتخرج الكاتبة وقد أصبحت

من رائدات القصة الحديثة، وتقول فى شموخ: لقد جاءنى من سيترجم قصصى! وقد وافقت! هكذا سمعت!.

حديث الترجمة

وحديث ترجمة القصص حديث لافت للنظر، فنحن نعلم أن المستشرقين فى الزمن الماضى كانوا يهتمون بكتب التراث ترجمة وتحقيقا، ونبغ منهم فى هذا المجال من خدم اللغة والأدب صادقا أو غير صادق وفيهم من اهتموا بالقصة الحديثة - على قلة وندرة - فترجموا بعض آثار توفيق الحكيم ومحمود تيمور، ولم يكن نجيب محفوظ قد نال الشهرة معهما، فتريث به الزمن حتى ظفر بالجائزة النوبلية فترجمت آثاره، وتناقلها القراء فى مودة وتقدير! ثم ذهب أساتذة الاستشراق، وخلفهم من أشباه العمل فلم يحذ حذوهم فى شىء، ولكن فريقا من السياح وأشباههم قد اتصلوا بفريق من كتبة اليوم، ومنهم من ألحف فى رجاء ترجمة بعض آثاره باذلا نفقات الطبع فاستجيب له، ومن هنا تداول هؤلاء الناشئة حديث الترجمة على أنه مجد أدبى مرموق، ولن تكون الترجمة ذات مجد إلا اذا سعى اليها المترجم عارفا قدر من يترجم له. أما أن تترجم الدولة بعض الاثار استجابة لرغبة مؤلفيها فحسب، وأما أن يريق المؤلف وجهه طالبا ترجمة ما كتب، فكل ذلك لايجد الصدى الأدبي المنشود، وأنا أعرف أن كاتبة قصة قد ترجمت لها قصتان، وانتشرتا فى نطاق فسيح، ولكن ذلك لم يرجع الى جودة ما كتبت، بل الى انها ارضت اهواء الأوربيين حين هاجمت الشريعة الاسلامية ووصفت بنات جنسها فى الشرق بالتأخر والجمود بغيا دون حق، فوجد القراء والناشرون هناك ضالتهم المنشودة فى استماع الأراجيف، وإلا فلم لم تترجم آثار الملتزمات من أمثال سهير القلماوى ولطيفة الزيات وأمينة السعيد وبنت الشاطىء ووداد السكاكيني وغيرهن ممن يمثلن الفن الصحيح فى يقظة والتزام !.

ولى أن انتقل الى ما يسمى الآن «بالزمن الجميل» والقصد منه زمن الارتقاء السالف فى دنيا الأدب والنقد والفكر والفن حين كان أقطاب هذه الفنون أساتذة حقا، يملأون السمع والبصر، ويحتلون منازل الحب والتقدير. ولا ينكر أحد أن الأستاذ الدكتور طه حسين كان فى طليعة هؤلاء ! وكان فى دروسه الجامعية كما كان فى مقالاته النقدية يعطى النموذج الباهر للنقد المنصف، والتقييم الصحيح. لقد تحدث عن مؤلفات الكثيرين من معاصريه حديث المعلم الموجه، وفيمن تحدث عنهم سيدات فضليات بعثن إليه آثارهن فقرأها قراءة واعية ليضعها موضعها

الصحيح دون تحيف أو مغالاة ! وكتب عن كل أثر من آثارهن فصلا نقديا يجب أن يقرأه الآن أساتذتنا المتصدرون للنقد، ومن حظهم أن الرجل الكبير قد جمع أكثر مقالاته فى أجزاء تعددت طبعاتها، واحتلت قلوب الناس قبل أن تحتل رفوف المكاتب، وسأكتفي بالإشارة هنا الى نموذجين من كتاب واحد كي تسهل العودة اليه لمن يريد الاستقصاء، والكتاب هو «فصول فى الأدب والنقد» وقد طبعته دار المعارف عدة طبعات. ثم انتقل الى دور النشر اللبنانية فبلغ حظا كبيرا من الاشتهار!

النصح والتقويم السديد!

أما النموذج الأول فهو ما كتبه عن قصة «حريم» للسيدة قوت القلوب الدمرداشية، وهى كاتبة مصرية شاءت أن تكتب مؤلفاتها باللغة الفرنسية، فقد أنصف المؤلفة حين ذكر أن كتابها أعطى أدق صورة وأصدقها لحياة كثير من الأسر المصرية فى جدها وهزلها وفى العظيم من أمرها واليسير، فالخطبة مصورة أصدق تصوير وأروعه وحفلة الزواج مصورة أصدق تصوير وأروعه، ويوم الزفاف، ومقدم المولود، وحفلة الأسبوع والحياة اليومية فى أيام الأعياد، والخلاف الزوجى الذى ينتهى إلى الطلاق، وهذه اللوعة التى تصيب الأسر حين يختطف الموت من بينها زعيمها وحاميها، وكل ذلك لا تنظر اليه الكاتبة من عل، وانما تعيش بين الناس وتصور ما ترى وتحس، وبعد أن أفاض النقاد فى تحليل الكتاب، وبسط ما تضمن من صور ومشاهد وأزمات. قال فى عطف تتخلله الرقة الحانية، ولكنه لايغفل واجب النصح الهادف، والتقويم السديد.

«وتسألنى عنه رأيى فى الكتاب، أراض أنا، أم ضائق به؟ فأما من الناحية الفنية الخالصة . فأنا راض عن الكتاب مثن عليه، أسف لأنه لم يكتب باللغة العربية. حريص على أن يترجم الى هذه اللغة. وأما من الناحية المصرية فقد أتحفظ على هذا الرضا بعض الشيء، لأن الأجانب يسجلون علينا ماسجلته، فلندع لهم ذلك. وفى حياة المصريين ما نستطيع أن نسجله للأجانب فنرضيهم ولا نضحكهم. ولست أرى بأسا بأن يترجم هذا الكتاب إلى لغة أجنبية، فيعرف الأجانب أننا لا نشفق من تسجيل عيوبنا، والجد فى إصلاحها، فأما أن نصور هذه الخصائص مباشرة فى لغة أجنبية. لا لنظهر نحن عليها، بل ليظهر عليها غيرنا. فهذا الذى أقف منه موقف التحفظ. ومن المحقق أنى لن أقدم عليه، وليقل الناس إنى ضعيف فإنى أوثر هذا الضعف» ثم قال الدكتور: «وهل تأذن لى الكاتبة فى أن ألاحظ فى رفق أن الذين يقرءون كتابها قد يخدعون عنها أحيانا.

وقد يظنونها فرنسية لأنها تجهل عن المصريين ما لا ينبغى أن يجهل، فشيخ الإسلام مثلا هو الرئيس الأعلى للمؤمنين، وهو عند المصريين شيخ الجامع الأزهر فقط! ومحمد وأحمد اسمان لابنين من أبناء النبى صلى الله عليه وسلم، وهما عند المسلمين اسمان من أسماء النبى نفسه! وأنا شخصيا قد دهشت لما كتبته سيدة هى ابنة شيخ من كبار مشايخ الطرق الصوفية ، وقد نشأت فى جو الذكر والأدعية والأوراد والصلاة على رسول الله. ثم لا تعلم اسم نبيّها الكريم! لقد اكتفى الدكتور بتسجيل هذا الخطأ، ولكنى أرى أن الموقف كان يستدعى أكثر من التسجيل، لأن التى تجهل اسم نبيّها العظيم تجهل من الاسلام كل شىء!

أما النموذج الثانى مما كتبه الدكتور ، فهو ما كتبه عن قصة «سلمى وقريتها» التى ألفتها بالفرنسية الكاتبة مدام «أمى خير» وهى سيدة لبنانية عاشت فى المنصورة بأرض مصر، وثقفت الفرنسية، ولم تتحدث عن مصر بل تحدثت عن موطنها الأصلى فى احدى قرى لبنان، وقد قال الدكتور إنه لا يخفى رضاه عن الكتاب، واعجابه ببعض فصوله، ولكنه اعترف أن القصة التى تتضمن الأحداث ليست غريبة ولا طريفة، بل هى مألوفة نكاد نقرؤها فى كل كتاب من كتب الأدب العربى يتحدث عن العشاق الذين يضنيهم الحب حتى يفضى إلى الموت! فالبطلة قد حيل بينها وبين حبيبها لاعتراض أبيها وقد أرغم الوالد ابنته على الزواج بغيره، كما حدث لقيس بن ذريح تماما ! ثم قال الدكتور : «إن المؤلفة تنبئنا بأن كتابها صورة فتوغرافية لسلمى وقريتها، وقد يكون هذا حقا، وهو فى الوقت نفسه مصدر فضل الكتاب، وكم كنت أود لو أن هذا الكتاب لم يكن صورة فوتوغرافية ، بل كان صورة فحسب، صورة من عمل الإنسان، لا من عمل الآلة الفوتوغرافية. صورة تظهر فيها شخصية الكاتبة ظهورا واضحا نأنس إليه ونستعين به، على إساغة هذه الحقائق التى يشتمل عليها هذا الكتاب، ولكن القصة كانت كما أرادت مدام خير صورة فوتوغرافية فامتازت بالصدق والدقة، وفقدت شيئا كثيرا من الحياة والتأثير».

هذان نموذجان مما كتب الدكتور عن القصة النسوية، وفيهما ما يقدم المثال المنشود لناقد اليوم، فقد وصف الدكتور محاسن القصتين وأشاد بهما إشادة المشجع العطوف، وهذا ما نحرص عليه دون أن نجد اعتراضا ما يتجه اليه، ولكنه مع العطف المشجع. قد أبدى رأيه الناقد فيما وجده مستحقا النقد الجاد. ولم يكن ناقدا فحسب، بل

كان أستاذا موجها يهدى للتى هى أقوم! ولعل الكاتبتين قد أفادتا من توجيهه، فعرفتا موضعي الخطأ والصواب.

وهنا ألفت النظر الى ناحية هى - على ضرورتها الملحة - ليست اليوم بذات شأن عند الكاتب والناقد معا، فكلاهما يعد الخطأ النحوى أمرا شكليا لا صلة له بجودة الفن، بل ربما نظرا باستخفاف الى من يحتم التزام القواعد النحوية، ويعدانه قاصرا عن استيعاب المنحى الفنى للقصة، وللدكتور طه حسين فى هذا المجال موقف حاسم، حكته الآنسة سهير القلماوى فى مقال نشر بمجلة الرسالة الصادرة فى (١٦/٤/١٩٣٤) تحت عنوان (غلطة نحوية) وخلاصته - لأن المقال طويل نسبيا - أن الطالبة سهير، نشرت بمجلة الرسالة مقالا يتضمن غلطة يسيرة فى عودة الضمير لجمع المؤنث، ولم تدر أن الدكتور طه قرأ المقال، ولكنها فوجئت به يتشدد فى طلب رؤيتها، حتى حسبت أن الأمر جد خطير وما حان موعد لقائه فى الغد، حتى نهضت اليه متوجسة، وقد ذهبت الظنون بها كل مذهب، تقول الآنسة سهير القلماوى متحدثة عن نفسها بضمير الغائب:

«ودخلت حجرته، فحيته وحياها، وهى تحاول فى جهد أن تتتبع كلامه، وأن تخفى عجلتها واشتياقها لمعرفة ما جاءت من أجله، وخفق قلبها، ولم تستطع حفظ مظهر الاتزان الذى تكلفته، ثم صاح الدكتور : يافريد، هات عدد الرسالة الماضى، انها غلطة تكبرك بكثير، وقد كلمت الاستاذ الزيات بشأنها، إنها غلطة نحوية كبيرة، إما أن تقعلى عنها ، وإما تطلعى على الناس بمذهب جديد لا يفرق فى الجمع بين المذكر والمؤنث، دونى فى مذكراتك أن أستاذك استدعاك من العباسية الى عابدين، من أجل غلطة نحوية» فقالت . «سأدوّن».

هذا لباب ماجاء فى المقال فماذا يرى الذين يستحسنون من القاصة الناشئة أن تقول لصاحبتها (أبوكى أرجوكى، تعرفى معزتى عندك ! ثم لا تقيم مثلى أوجمع مذكر على وجهه! وهى بذلك تطلع على الناس بمذهب جديد فى النحو، كما تهكم طه من قبل!

لقد كنت أحسب أن موجة التأليف النسائى للقصة المتهافتة ستنجلى حين تعرف الناشئة وجه الصواب فترجع اليه، ولكن (طبل) الناقد وهتافه المتواصل مما جعل الموجة تمتد الى أبعد الآماد، ومما جعلنى أقلل من طمعى فى العودة الى الصواب، وهو طمع لا تقوم الدلائل على يسر تحقيقه، بل دونه أهوال وصعاب، كتلك التى عناها الشاعر الصوفى حين قال :

ولي طمع في قلب ظمياء عهده
بعيد ، وكم خابت لديها المطامع

هيكلة عالم جديد

بقلم
د. مصطفى سويف

الحدث الواسم للثلث الأخير من الثمانينيات (فى القرن العشرين) هو انتهاء الاتحاد السوفييتى ، عمليا ورسميا ؛ فقد أعلن جورباتشوف فى مايو سنة ١٩٩٠ أنه على وشك أن يتقدم إلى مجلس السوفييت الأعلى بمجموعة من القوانين لتحويل اقتصاد البلاد إلى اقتصاد السوق بحيث تحكمه قوانين العرض والطلب ، وبذلك يسدل الستار على عهد عرف بعهد الاقتصاد الموجه الاشتراكى . وفى نوفمبر سنة ١٩٩٠ اجتمع ممثلو حلفى وارسو والأطلنطى ووقعوا بالحروف الأولى على معاهدة تنهى عقبة الحرب الباردة ، تمهيدا لاجتماع يعقده فى اليوم التالى رؤساء الحكومات الأعضاء فى الحلفين للاعتماد النهائى للمعاهدة . ولما لم يكن الاتحاد السوفييتى مجرد دولة ضمن سائر الدول فى العالم ، ولا كان مجرد دولة كبرى ضمن الأعضاء الخمسة الكبار فى مجلس الأمن ، ولكنه كان عاملا رئيسيا فى هيكلة العلاقات الدولية على نحو معين فقد جاءت خاتمته إيذانا بانتهاء طراز الهيكلة العالمية الذى كان قائما حتى نوفمبر سنة ١٩٩٠ ، ودليل عمل نقرأ فيه العلامات المبكرة لعملية هيكلة مغايرة لانزال نعايش أحداثها ومراحلها وهى بعد فى طريقها إلى التبلور فيما عساها تكتسبه من أبعاد مستقرة .

في محاولتي أن أفهم كيف وصل الاتحاد السوفييتي وتركيبة العالم من حوله إلى نهايته المشهودة لجأت إلى استعادة شريط الذكريات عن الثمانينيات وعن السنوات المتأخرة منها بوجه خاص، وقد كانت جميعها سنوات معتمة بالنسبة للاتحاد؛ بدأت بتورط جيوشه النظامية في مواجهة حرب عصابات داخل أفغانستان، وبينما كانت هذه الحرب مشتعلة تستنزف قدرا لا يستهان به من طاقاته المادية والمعنوية، ومن سمعته، توالى على رئاسته أربعة رؤساء في خلال مالا يزيد على أربع سنوات (من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥)، وفي سنة ١٩٨٦ وقع انفجار المفاعل النووي في تشيرنوبل، وأحاطت بهذا الانفجار ملابسات نالت بدورها من البقية الباقية من معنويات الدولة ومن صورتها في الداخل والخارج. هكذا تجمعت معا، وفي محصلة واحدة، ضغوط الحرب في أفغانستان مع التغيرات المتلاحقة في شغل منصب القيادة العليا للدولة في مدى زمني محدود جدا، مع أحداث تشيرنوبل، وتزامنت مع هذه الأحداث جميعا قلاقل قامت في بولنده تزعمتها منظمة عمالية تدعى منظمة تضامن، ونمت واستشرت هذه القلاقل، وبدا واضحا أن موسكو عاجزة عن السيطرة عليها، وأضاف هذا مزيدا من الزخم لاندفاع عوامل الضعف والتآكل في سلطان الاتحاد السوفييتي. حدث هذا كله في غضون السنوات السبع الأولى من عقد الثمانينيات. وانقضى عام ١٩٨٧ في إتمام الإنسحاب من أفغانستان، ويحلول الثلث الأخير من الثمانينيات كانت بقية دول الفلك السوفييتي قد وعت الدرس البولندي، ففي أواخر سنة ١٩٨٨ بدأنا نسمع عن أشكال مختلفة من الاضطرابات تجتاح تشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، وألمانيا الشرقية. وفي منتصف عام ١٩٨٩ أعلن أن الفنيين الغربيين يعتبرون أن الاتحاد السوفييتي أصبح منطقة كوارث نتيجة لما حدث في مفاعل تشيرنوبل، ونتيجة لما تبين بعد ذلك من وجود مظاهر إهمال لا آخر لها في بناء كثير من المفاعلات النووية الأخرى وهو ما ترتب عليه زيادة كميات الإشعاع النووي في أرجاء الاتحاد بنسب تفوق كثيرا النسب المتعارف عليها دوليا. وصحب هذه الأخبار أنباء عن وقوع اضطرابات داخل الاتحاد السوفييتي ذاته.

وفي مارس سنة ١٩٩٠ أعلنت ليتوانيا الاستقلال من طرف واحد. وفي أكتوبر سنة ١٩٩٠ تم توحيد شطرى ألمانيا وأصبح حائط التقسيم في برلين أثرا من آثار الماضي. هكذا غربت شمس الاتحاد السوفييتي، وتداعى سياج الأمان الذى كان قد اصطنعه لنفسه على هيئة مجموعة من الدول تدور في فلكه. واكتملت الجولة في مايو سنة ١٩٩٠ عندما أعلن جورباتشوف عن تحويل اقتصاد البلاد إلى اقتصاد رأسمالي. ثم في نوفمبر سنة ١٩٩٠ عندما أعلن ممثلو الحلفين، وارسو والأطلنطي، عن انتهاء حقبة الحرب الباردة.

أما بعد - فقد بسطت الكلام عن هذه الأحداث في محاولة مني لكي أيسر

لنفسي وللقارىء متابعة الكيفية التي انتهى بها الاتحاد السوفييتي .

ولكني أعترف ، مع ذلك ، بأن الأحداث كما سردتها تلقي بعض الضوء فقط على ما نحن بصدده ، غير أنها لا تكفي لتفسير هذا السقوط . ويقيني أن التفسير المطلوب يلزمه أن تضيف عنصرين إلى ما ذكرنا من وقائع (حتى ولو كانت هذه الإضافة على سبيل الافتراض ، وهو أمر لا غبار عليه ، ونحن نمارسه في تفكيرنا العلمي من حين لآخر) ، العنصر الأول وجود قدر متراكم من التذمر بين فئات الشعب المختلفة ، والعنصر الثاني وجود مخطط كبير من الخيانة .

أما عن التذكر فكنا نقرأ الكثير ونسمع ماهو أكثر ، لكننا كنا دائما (كمواطنين خارج حلبة المؤدين السياسيين) في حيرة حول كيفية الفصل بين ماهو دعاية مغرضة وماهو دعوى صادقة ، وكان حجم ما نكتبه أكبر بكثير من حجم ما نصدقه . هذا عن عنصر التذكر ، وأما عن افتراض الخيانة فمكتوب عليه أن يظل يعامل معاملة الفرض الذي ينقصه البرهان في انتظار ما قد تكشف عنه الوثائق التي هي سرية الآن ، وسوف تخرج إلى العلن ولو بعد حين .

إعادة هيكلة العالم

كان واضحا لكل ذي عينين أن مظاهر الوهن السوفييتي التي بدأت مخففة في أواسط الثمانينيات جاءت مصحوبة بعدد من مظاهر الاستئساد الأمريكي ، هكذا جرت أحوال التوازن الدينامي في أواخر أيام الحرب الباردة . وقد ظل هذا التوازن محتفظا بدرجة عالية من السيولة حتى سنة ١٩٩٠ ، وعندئذ بدأنا نلحظ تزايد سرعته نحو درجة ملحوظة من التبلور . وكان هذا إرهاصا بما سوف تفصح عنه أشكال الهيكلة الجديدة على امتداد التسعينيات . والسؤال الآن كيف كانت تسير هذه الإرهاصات في الثلث الأخير من الثمانينيات ، وكيف انتهت إلى ما انتهت إليه ؟ في غمرة الأحداث المتدفقة حينئذ استطعت أن أتبين ثلاثة بنود رئيسية في هذه الإرهاصات: بندان منهما يجريان بتفعيل واضح عن الولايات المتحدة ، والبند الثالث تتولى أمره إرادات مغايرة .

أما البند الأول فيتألف من محاولات ذكية لترويض الاتحاد السوفييتي على قبول ما آلت إليه أحواله . ففي مايو سنة ١٩٨٨ اجتمع ريجان وجورباتشوف وقاما بالتصديق على معاهدة للقضاء التدريجي على الصواريخ متوسطة المدى عند الطرفين ، وفي يوليه سنة ١٩٩٠ اجتمعت الدول السبع الصناعية الكبرى في تكساس بالولايات المتحدة واتخذت قرارا بتقديم المساعدات المالية للاتحاد السوفييتي لإعانته على اتمام تحويل اقتصاده إلى اقتصاد السوق !! هذا عن البند الأول وهو يشف بوضوح عن

فاعلية التأثير الأمريكي . وأما عن البند الثانى فكان يمضى فى اتجاه مغاير : كان فى ظاهرة حملة إعلامية ضد العراق تكشف من حين لآخر عن أصابع إسرائيلية .

ذلك أن العراق كان قد انتهى فى منتصف سنة ١٩٨٨ من حربه مع إيران ، وقد خرج من هذه الحرب شبه منتصر . وكان اقتصاده منهكا بسبب هذه الحرب فقد كلفته مائة مليار دولار (كما كلفت إيران مبلغا مساويا) حسب ما جاء فى تقارير نشرت فى ذلك الوقت . ومع هذا الإنهاك الذى كانت تسعى إليه الولايات المتحدة (بدليل أنها كانت تبيع السلاح للطرفين) ، ومع امتلاء الخليج بأساطيل أمريكا وانجلترا وفرنسا (والاتحاد السوفييتى أيضا) انتهازا لفرصة الحرب ، ومع توالى بضعة أحداث تمس الصراع العربى الإسرائيلى ، أصبح الجو مهيئا للإيقاع بالعراق فى شرك يبرز اصطياده لتفريغ انتصاره من أى مضمون قد يرغب العراق (وبعض العرب) فيه. هكذا ، مع أواخر سنة ١٩٨٩ وأوائل سنة ١٩٩٠ بدأت حملة إعلامية منظمة فى الغرب ضد العراق . وعلق العراق على ذلك بالقول بأن هذه الحملة تأتى تمهيدا لهجوم عليه بوساطة إسرائيل أو بتحريض منها . وتوالت أحداث وأقوال مريبة من أطراف متعددة . ثم إذا بنا فجر اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ وقد احتلت الجيوش العراقية الكويت . وهكذا وقع الصيد فى الشرك . كان هذا مبررا كافيا لمجيء الجيوش الأمريكية إلى المنطقة ، بدعوى معلنة مؤداها طرد العراق من الكويت ، وبهدف غير معلن مؤداه وضع اليد بالقوة العسكرية المباشرة على أهم مصادر النفط فى العالم ، وهدف آخر أشد خفاء هو تحريك الخطوط الأمامية لما درجت أمريكا على تسميته بالأمن القومى الأمريكى إلى الحافة الجنوبية للاتحاد السوفييتى / الروسى ، والحضور المباشر فى أرض الشرق الأوسط العربى الذى تتوالى فيه النذر بقلاقل تحررية . هذا عن البند الثانى ، وهو يكشف كذلك (ولكن من وراء حجاب تمويهى) عن الأصابع الأمريكية متآزرة مع الجهود الإسرائيلية .

السياق العالمى

أما البند الثالث فيتناول بقية السياق العالمى ، وقد تجمعت معظم خطوط الفعل فيه حول بؤرتين ، تختص أولاهما بالصراع الفلسطينى الإسرائيلى ، وتختص الثانية بردود الأفعال إنهاء الحدث العراقى/ الكويتى..

فقد اندلع الغضب الفلسطينى الأول فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٨٧ ، ويخل الإعلام العالمى عليه بأن يسميه ثورة ، وقال إنه «انتفاضة» ، وفى تلك الأيام ، صيغ فى الإعلام كذلك تعبير «أطفال الحجارة» ، لأن الشباب الفلسطينيين كانوا يرجمون الإسرائيليين بالحجارة .

ومنذ البداية لجأت إسرائيل إلى قواتها المسلحة لمقاومة «الانتفاضة» . وفى نوفمبر سنة ١٩٨٨ اجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر ، وفى هذا الاجتماع أعلن عن قيام السلطة / الدولة الفلسطينية ، وبدأت بعض الدول (الأعضاء فى الأمم المتحدة) تعترف بالوجود الدولى لهذا الكيان الجديد ، وسرعان ما طلب ياسر عرفات تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة لعرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة ، ورفضت الإدارة الأمريكية منحة التأشيرة ، وأثار هذا الرفض نقدا شديدا من عدد من الدول. وقررت الأمم المتحدة الانتقال إلى جنيف حيث تجتمع للاستماع إلى شكوى ياسر عرفات ، وانتقلت واجتمعت واستمعت فعلا الشكوى فى جنيف ، وكان ذلك فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٨٨ . ويدهى أن هذه التحركات كانت تتم على غير هوى الولايات المتحدة ومن ورائها إسرائيل. وفى مايو ١٩٩٠ طلب ياسر عرفات تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ليعرض على مجلس الأمن شكواه من تعسف إسرائيل فى تصديها المسلح للفلسطينيين فى «انتفاضتهم» . ومرة أخرى رفضت الإدارة الأمريكية إعطاءه التأشيرة ، وقرر مجلس الأمن الانتقال إلى جنيف للاستماع إلى الشكوى ، وانتقل واجتمع واستمع فعلا ، وكان ذلك فى ٢٥ مايو سنة ١٩٩٠ ، هذا ما كان من أمر الفلسطينيين وقضيتهم فى الثلث الأخير من الثمانينيات . ويكشف مجمل هذه التحركات عن قدر من الإرادة السياسية المخالفة للإرادة الأمريكية ، وربما كان المقام المشترك وراء الجزء العربى / الإسلامى من هذه التحركات (التى تتراوح بين التحدى والعشم) هو محاولة تحصيل ما يعتبر مكافأة على التعاون العربى / الإسلامى مع الغرب (ومع أمريكا بوجه خاص) فى دحر الغزو السوفييتى لأفغانستان . وربما كان القاسم المشترك الأعظم وراء مجموع التحركات (العربية / الإسلامية) والدولية عموما هو أنها صدرت كرد فعل للحظة مفصلية فى التاريخ بين عهد يزول (عهد الحرب الباردة) وعهد يبزغ ولا يزال فى مرحلة سيولة ومن ثم يمثل فرصة لبزوغات جديدة لإرادات غير متأمركة . على أية حال ، هذا ما كان من أمر الجزء الأول (الفلسطينى الإسرائيلى) من البند الثالث .

أما غزو الكويت بوساطة الجيش العراقى فكان حدثا بالغ السوء بكل المعايير : وكان أسوأ ما فيه أنه أعطى للولايات المتحدة ذريعة لإرسال عشرات الآلاف من جنودها إلى المنطقة ، وحشد جزء كبير من الرأى العام الغربى لساندتها فيما سوف تقدم عليه ، وإحداث فرقة معلنة بين دول العالم العربى / الإسلامى ، بل وبين قطاعات الرأى العام بعضها البعض داخل المنطقة العربية / الإسلامية . وقد رأيت فى هذا الحدث (العراقى الكويتى) برمته

فى تلك الأيام أنه يعيد التوازن للحسابات الأمريكية / الإسرائيلية فى مواجهة ما كان من إعلان قيام السلطة / الدولة الفلسطينية ، وما ترتب على هذا الإعلان من تحركات فى دوائر الأمم المتحدة ومجلس الأمن، كما أنه (الحدث نفسه) يأتى مناسبا لبذل الضغوط اللازمة لإعادة هيكلة هذا الجزء من العالم فى صالح القطب الواحد .

وماذا عن مصر ؟

لم يكن هناك بد من أن تشارك مصر فى مجموع الأحداث العالمية التى جرت فى المنطقة العربية فى الفترة التاريخية التى نحن بصددها . لكننى أتجه فى هذا الجزء من المقال إلى النظر فى بعض الأحداث المصرية ذات التوجه الداخلى ، لا إلى الأحداث المصرية المتوجهة إلى الخارج .

ففى فترة الثلث الأخير من الثمانينيات جرت فى مصر وبالتوازى مع الأحداث العالمية أمور أقل ما يقال فيها إنها لم تكن مرضية ، وأسوأ ما توصف به أنها تثير فى النفس من الأسف ما يلقى بظلال كثيفة على الحاضر والمستقبل المنظور ، لأنها تتعارض ومعانى إرادة الرقى المجتمعى ، وإلى القارىء بعض ما جرى من هذه الأمور . فى مطلع الفقرة التى نحن بصددها (مايو سنة ١٩٨٨) نشرت مجلة الأهرام الاقتصادى سلسلة من المقالات والتحقيقات عن المخالفات المالية والائتمانية الخطيرة التى ارتكبتها شركات توظيف الأموال . وكانت هذه المادة بمثابة دعوة موجهة إلى الدولة للتدخل وإيقاف هذا العبث . وفى يونيه من العام نفسه أمكن للحكومة أن تستصدر من مجلس الشعب (بصعوبة شديدة) قانونا يخضع هذه الشركات لرقابة الدولة ولقواعد تنظيم الأعمال المصرفية ، وقيل حينئذ إن الصعوبات التى لقيتها الحكومة فى هذا الصدد كانت ترجع إلى أن عددا من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب كانوا ممن يستثمرون أموالهم فى تلك الشركات . وقيل إن بعضهم كان يتلقى من هذه الشركات رواتب شهرية تصل أحيانا إلى ١٠٠٪ من إسهاماتهم فيها، على أساس أن هذه الرواتب أرباح لهذه الإسهامات ، وهو أمر بالغ العبث بكل المقاييس المصرفية والاقتصادية . ثم دخلنا بعد صدور القانون فى معركة استصدار اللائحة التنفيذية للقانون . أرجو أن يلاحظ القارىء أن هذه الفترة بالضبط هى الفترة التاريخية التى كانت تتقرر فيها ، على صعيد الأحداث العالمية ، تحولات كبرى فى مصير العالم . ففى منتصف سنة ١٩٨٨ كان جورباتشوف وريجان يجتمعان للتوقيع / معاهدة القضاء على الصواريخ متوسطة المدى ، وفى سنة ١٩٨٨ أيضا كانت هناك اضطرابات تحررية تجتاح تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وألمانيا الشرقية ، وكان المجلس الوطنى الفلسطينى يجتمع فى الجزائر لإعلان

السلطة / الدولة الفلسطينية ، وكان «أطفال الحجارة» في الانتفاضة / الثورة يلقون العذاب على أيدى الغاصبين الإسرائيليين . في هذا الوقت بالذات يدفع المواطن المصرى دفعا إلى مناقشة ألف باء العمل المصرفي كما ينبغي أن يكون بصورته القانونية ، وتلقى الحكومة كل العنت في استصدار القانون لهذه الألف باء من مجلس الشعب !!

هكذا تقضى سلوكيات البعض بأن يظل البلد واقعا «محلك سر» عند نقاط حدوبية بين التخلف والمعاصرة ، في عالم تلهث فيه الأحداث وراء مستقبل تكاد تنفرد الدول المتقدمة بصنعه .

وفي الفترة نفسها حدثت عدة أحداث داخلية لم يكن لها سوى دلالات مكتئبة إذا نظرنا إليها على محك إرادة الرقى المجتمعي . ففي مايو سنة ١٩٨٨ شهدت محكمة جنايات القاهرة معركة بالأيدى (وأنا أنقل هنا عن جريدة الأهرام) بين «مجموعة من ضباط الشرطة كانوا متهمين في قضية تعذيب ، وعدد من المحامين عن المدعين بالحق المدني .. مما دفع هيئة المحكمة إلى الانسحاب حتى تمكنت فرق الأمن من السيطرة على القاعة ...» .

(الأهرام في ١٢ مايو) . وفي مارس سنة ١٩٨٩ ثارت مجموعة من المحامين على مجلس الإدارة في نقابتهم فاحتلت مقر النقابة وأفلت الزمام من الجميع لنصبح أمام شجار جسدى متخلف وانتهى الأمر بتدخل رجال الشرطة . وفي الشهر نفسه وقع حادث مماثل داخل مقر حزب العمل الاشتراكي . وفي الشهر ذاته أيضا وقعت واقعة مماثلة داخل مجلس الشعب بين بعض نواب المعارضة وممثلى الحكومة .

هنا ، في هذا الموضع من المقال الراهن تبدو أهمية أن ننظر في أحوالنا من حين لآخر بهذه النظرة الاسترجاعية : فالأحداث عند وقوعها تقع متفرقة في المكان والزمان ، وهو ما يثير الصعوبات أمامنا في تقييمها (وفهم دلالتها ويجعلنا أقرب إلى أن ندرك كلا منها على حدة وكأنها عالم مستقل عما قبله وما بعده . أما عندما نسترجع سيرتها ونضعها جنبا إلى جنب على هذا النحو فالفهم والتقييم ميسران ، مالم نكن مصرين على مغالطة أنفسنا قبل مغالطة الغير . إن أقل ما توصف به وقائعنا الداخلية المؤسفة التى ذكرتها في السطور القليلة الماضية أنها تنطوى على سلوكيات لا تقيم وزنا للقانون ، أو تشير إلى تزايد التوجه إلى أن يأخذ كلٌ منا «حقه بذراعه» ، وهي بهذا تدل على تدنى هيبة القانون في النفوس إلى مستوى ذى تأثير تدميرى بالغ في حياة الأمة . فإذا أضيفت هذه الأحداث إلى موضوع شركات توظيف الأموال وحاولنا أن نستخلص ما وراء هذه المفردات جميعا من حصيلة دلالية فللقارئ أن يفكر في

الناتج المتوقع ، وأن يقدر أى جهد يلزمنا أن نبذل (جهد وعى وجهد عمل) حتى نستطيع أن نواكب الركب العالمى فى حركته التى لا تتوقف ولا ترحم !

كيف أبصرت طريقى ؟

استمرت حياتى موزعة بين النشاط العلمى، والالتزام الاجتماعى ، والأسفار إلى الخارج . إلا أن تلك الفترة التاريخية تميزت عندى ببروز مقتضيات الالتزام الاجتماعى بصورة لافتة للنظر ؛ ففى مايو سنة ١٩٩٠ منحتنى جمعية علم النفس البريطانية (وأنا عضو عامل فيها أصلا) لقب أخصائى إكلينيكى معتمد ، وهو ما يعنى فى عرف التخصص اعترافا له وزنه فى مجال الممارسة العيادية . وفى يونيه سنة ١٩٩٠ منحت جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية . وفى يوليه سنة ١٩٩٠ شرفت برئاسة لجنة المستشارين العلميين المنبثقة عن «المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان» ، وبدأنا العمل فعلا ، الأساتذة الزملاء وأنا ، فى وضع خطة قومية بعيدة المدى فى هذا المجال . هكذا جاءتنى فى هذه الفترة المحدودة ثلاثة اعترافات بأدوار أقوم من خلالها بتوظيف علمى فى خدمة الحياة الاجتماعية ، واعتبرت هذا الذى تلقيت بمثابة جرعة مكثفة ، فيها الكفاية وأكثر ، لتجديد حالة الرضى فى نفسى عن توجهى العلمى / الاجتماعى الذى اخترت الانخراط فيه منذ بواكير الشباب .

أما عن أسفارى فقد اتصلت ، وكان من أبرزها فى تلك الفترة سفرتان ، إحداهما إلى منظمة العمل الدولية فى جنيف ، للتعاون مع فريق من خبرائها فى تقديم برنامج لتدريب عدد من العاملين فى مجالات الوقاية والعلاج وإعادة التأهيل من آثار تعاطى المخدرات وذلك فى اثنتى عشرة دولة عربية . وكانت السفرة الأخرى للإسهام فى الموسم الثقافى الذى تعقده جامعة الكويت ، وقد أسهمت فيه بمحاضرة عن «رسالة العلماء الوطنيين فى الوطن العربى» .

وإلى جانب الأسفار ومتعلقات الالتزام الاجتماعى استمرت نشاطاتى العلمية (أخذا وعطاء) على إيقاعها المعهود ، واستمر تحركى فى هذا الصدد بين العربية والانجليزية .

وكان أهم ما تفرغت لكتابته فى تلك الفترة مجلدا بالعربية يتألف من خمسة أجزاء أعرض فيه النتائج المفصلة لبحث ميدانى أنجزناه أنا وفريق الباحثين العاملين معى حول تعاطى المخدرات فى حدود عينة كبيرة من التلاميذ البنين فى مدارسنا الثانوية المصرية ، وكان فى مقدمة الأمور التى تروقنى فى إنجاز هذا العمل (من حيث الكيف لا من حيث الكم) إنه باعتباره حصيلة جهد علمى جماعى منضبط يصلح أن يقدم رمزا لمصر الجادة . ■

كتاب جديد

نكد العولمة

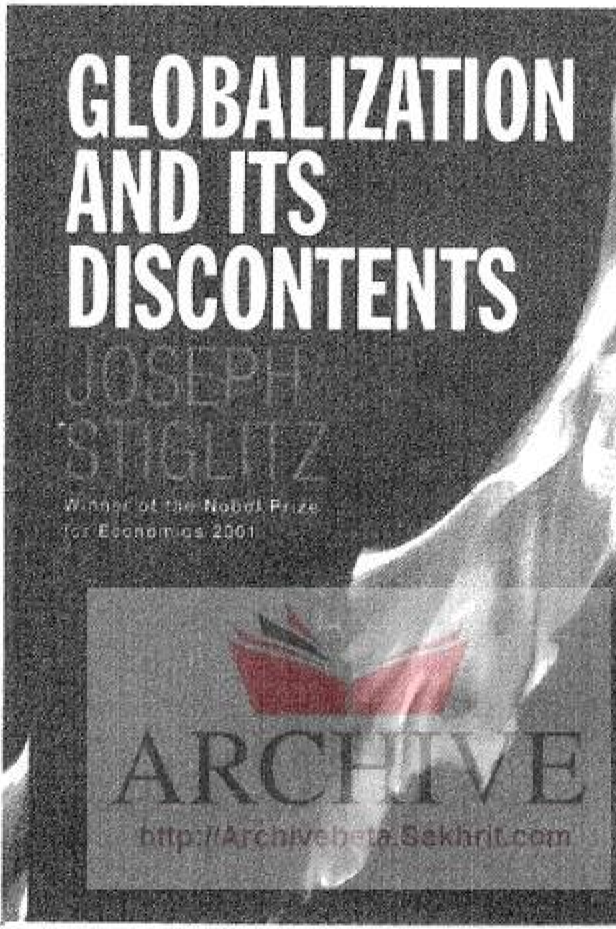
بقلم
د. جلال أمين

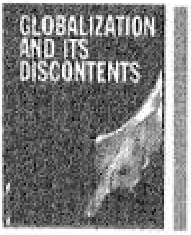
ما أكثر ما كتب اقتصاديون ينتسبون للعالم الثالث ، فى نقد العلاقات الاقتصادية الدولية السائدة، وصندوق النقد والبنك الدوليين ، ولكن كم كان صدى هذا النقد ضعيفا وما أقل استجابة هاتين المؤسستين له. كانت هذه الانتقادات تعامل من جانب المهيمنين على النظام الاقتصادى أو المشتغلين بمثل هذه المؤسسات باستهانة تثير الغيظ وبتكبر وتعال، هذا بفرض أنهم تنازلوا وقاموا بالرد على هذه الانتقادات أصلا.

اقرأ مثلا ما كتبته مجلة مثل الايكونوميست البريطانية عن مظاهرات سياتل احتجاجا على سياسات التجارة الدولية ومنظمة التجارة العالمية فى نوفمبر ١٩٩٩، أو فلتتذكر الردود التى قابل بها رجال صندوق النقد الدولى ما وجه إليهم من نقد عندما وقعت أزمة جنوب شرقى آسيا فى ١٩٩٧، أو عندما قامت مظاهرات الارجنتين فى العام الماضى احتجاجا على ما جلبه اتباع توجيهات الصندوق من مآس للشعب الأرجنتينى، أو السهولة التى يتعامل بها رجال الصندوق مع سقوط «معجزة» بعد أخرى من المعجزات التى زعموا المرة بعد الاخرى أن سياساتهم وتوجيهاتهم تؤدى إليها، فإذا

بهم يجدون لكل سقوط تفسيرا غير اتباع هذه التوجيهات، ويجدون دائما اعذارا ومسببات يلقون عليها بمسئولية الفشل. حدث هذا فيما يتعلق بمعجزة البرازيل ومعجزة أندونيسيا ويحدث الآن فيما يتعلق بمعجزة تركيا .. الخ.

كان كل هذا يثير الغيظ والحنق، ولكن أخيرا جاءت الشهادة من واحد من أهلها، فوضع الحق في نصابه وانتصر للحق الذي طالما نطق به المظلومون فلم يستمع إليهم أحد. حدث هذا بظهور كتاب لاقتصادي أمريكي شهير حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد في العام الماضي، وهو جوزيف استجلتز (Joseph Stiglitz) فأحدث ظهوره منذ شهور قليلة ضجة كبرى مازالت قائمة حتى الآن، ولم تستطع أي مؤسسة من المؤسسات المناصرة لصندوق النقد الدولي أن تتجاهله، وهبت مجلة الايكونوميست البريطانية، الناطقة بنفس الفلسفة التي ينادي بها الصندوق، مذعورة تسب وتشتم هذا المؤلف الذي خان





أصدقاءه وتتكر للعقيدة التي يدينون بها.

كان جوزيف استجلتز قد قضى الجزء الاكبر من حياته المهنية أستاذا وباحثا أكاديميا حتى لا تكاد تكون هناك جامعة أمريكية واحدة من جامعاتها الكبرى وأكثرها عراقة، لم يشغل فيها استجلتز كرسي الأستاذية، ثم اختاره الرئيس الأمريكي السابق كلينتون عضوا ثم رئيسا لمجلس مستشارية الاقتصاديين، ثم شغل في أواخر التسعينات منصب كبير الاقتصاديين في البنك الدولي ، وكأنه بقبول هاتين الوظيفتين الأخيرتين أراد أن يرى بعينيه ويلمس بيده كيف تتم صياغة السياسات الاقتصادية في الواقع بعد أن ظل سنوات طويلة غارقا في العمل الأكاديمي، يفكر في النظريات ويصوغ الأفكار التي قد تكون بعيدة عما يجرى في الحياة الواقعة.

ومن المؤكد ، كما يتضح لدى قراءة هذا الكتاب الأخير، ان الذي رآه في الحياة الواقعية لم يعجبه، وهو ما يتضح أيضا من العنوان الذي اختاره للكتاب (Globalization and its Discon-tents, Allen lane, london 2002) الذي يمكن أن يترجم حرفيا بعبارة (العولمة ودواعي السخط عليها) وقد استوحى استجلتز العنوان بلاشك، من عنوان كتاب سيجمون فرويد الشهير.
(Civilization and its Dis-contents) الذي أيضا أن يترجم حرفيا بعبارة (الحضارة ودواعي السخط عليها) ولكن من الممكن أيضا استخدام كلمة (النكد) في ترجمة كلا العنوانين، نكد الحضارة في حالة فرويد ونكد العولمة في حالة استجلتز، فكلمة «النكد» تعبر تعبيرا جيدا عما يدور في ذهنه، وحيث أن معظم الانتقادات ودواعي السخط التي يذكرها الكتاب موجهة الى صندوق النقد الدولي، فكلمة «النكد» لا تخلو من طرافة. إذ ما أكثر ما استخدمت هذه الكلمة في التعبيرات الجارية في مصر عند الاشارة إلى المآسي التي تجلبها سياسات هذا الصندوق، حتى ورد مرة في حديث لرئيس الجمهورية المصرى اشارة ساخرة الى الصندوق بأنه «صندوق النكد الدولي»

فما هذا الذي يغضب استجلتز في العولمة بصفة عامة ، ومن صندوق النقد

الدولى بالذات؟

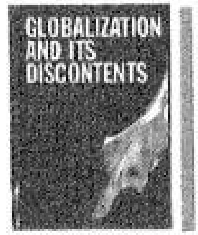
ليست شرا مطلقا ولا خيرا مطلقا

أما العولمة فاستجلتز يرى بحق أن العولمة لا يمكن اعتبارها خيرا مطلقا ولا شرا مطلقا. وهى على أى حال شيء حتمى لا فرار منه. ولابد أن نتفق مع استجلتز فى هذا، فالعولمة هى فيما يبدو النتيجة الطبيعية للتطور التكنولوجى والتطور التكنولوجى هو بدوره نتيجة طبيعية لذلك الحافز القوى الكامن فى الإنسان ويدفعه باستمرار إلى محاولة اكتشاف أى وسيلة جديدة من شأنها تخفيف أعباء الإنتاج ومشاق الصراع من أجل الحياة. هذا التطور التكنولوجى لابد أن يؤدى . ببطء أحيانا وبسرعة أحيانا أخرى، إلى مزيد من التقارب بين الناس (ولو تقاربا ماديا بحتا) وتضاؤل المسافات الفاصلة بين الأمم (المسافات المادية وغير المادية)، وهذا لابد بالضرورة أن يكون خيرا من نواح وشرا من نواح أخرى. العولمة، أو بتعبير أدق، الارتفاع المستمر فى معدل العولمة هى فيما يبدو لى ظاهرة طبيعية مثل هبوب الريح، وهبوب الريح قد يساعد القارب الشراعى على الوصول الى هدفه بسرعة أكبر وعناء أقل، ولكنه أيضا قد يؤدى إلى التهلكة. النتيجة تتوقف على عدة أمور، ليس فقط على قوة الريح، بل وأيضا على حجم القارب ووزنه، ونوع الشراع المستخدم ومدى ملاءمته ، وربما الأهم من هذا أو ذاك، كفاءة الملاح وذكائه.

لابد إذن أن نتفق مع استجلتز عندما يقول أن المهم فى تحديد النتيجة الصافية للعولمة هو مدى كفاءة الإدارة (Managemnent) بأوسع معانى «الإدارة» بالطبع، أى كيفية التعامل مع الظاهرة والتحكم فيها وتوجيهها الوجهة المطلوبة.

صندوق النقد الدولى وإدارة العولمة

ولكن الجزء الاكبر من الكتاب، وعلى الرغم من عنوانه، لا يناقش العولمة بوجه عام ، بل طريقة تعامل المؤسسات المالية الدولية وبالذات صندوق النقد الدولى مع مقتضيات العولمة، أو بعبارة أخرى مع المكونات الاقتصادية للعولمة، أى حركة السلع والخدمات (التجارة) وحركات رءوس الأموال، من معونات وقروض واستثمارات، وفى رأى استجلتز، وهذا هو الذى أثار الدنيا وجلب كل هذا الاهتمام بالكتاب، أن صندوق النقد الدولى بطريقة إدارته للعولمة، قد عاث فى الدنيا فسادا، وأن تدخله فى دولة بعد أخرى من الدول التى اضطرت إلى اللجوء اليه، لم يأت إلا بالكوارث



الاقتصادية والاجتماعية.

إن سبب قدرة الصندوق على إحداث هذه الكوارث لا ينبع فقط من قدرة الصندوق على المنح والمنع، فقدرات الصندوق المالية هي في نهاية الأمر محدودة بالمقارنة بحجم ما تحتاجه الدول التي تتعامل معه، وإنما يرجع السبب إلى نفوذ الصندوق والأثر الذي يحدثه موقفه من دولة ما، على ما تتخذه المؤسسات الأخرى، دولا ومصارف وشركات، من نفس هذه الدولة. فالصندوق عن طريق ما يعطيه الدولة التي تتعامل معه من «شهادة حسن سير وسلوك» أو برفضه إعطاءها هذه الشهادة ، يستطيع أن يفرض إرادته على الدولة وهذا الفرض لإرادة الصندوق هو في نظر استجلتز سبب الكوارث والنوائب. لماذا بالضبط؟

مؤسسة تسيطر عليها الأصولية

يمكن صياغة الإجابة على هذا السؤال صياغات مختلفة، ولكنها كلها تصب في النهاية فيما يلي.

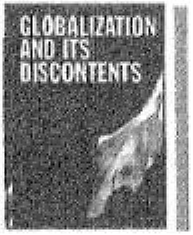
صندوق النقد الدولي في رأي استجلتز مؤسسة تسيطر عليها أيديولوجية معينة لا تحيد عنها، وتحكم قراراتها وتصرفات العاملين بها . وهي مثل أي أيديولوجية ، لم تتكون نتيجة تفكير علمي وموضوعي محايد، بل نتيجة موقف مسبق قد لا تبرره الظروف الموضوعية ولا يستقيم دائما مع ما يتطلبه الواقع إنها أصولية (Fundamentalism) بمعنى الكلمة واستجلتز يستخدم بالفعل هذا التعبير دون تردد، والموقف الأصولي قد يصيب أحيانا ولكنه كثيرا ما يخطئ» .

ولكن الأمر في نظر استجلتز أسوأ من هذا، إذ أن دوافع الصندوق، ليست دوافع أخلاقية أو روحية، كما في حالة بعض الأصوليين الآخرين، وإنما هي دوافع كثيرا ما تكون لا أخلاقية، تتعلق بمصالح اقتصادية لذوي القوة والبأس. فالصندوق إذن كثيرا ما يستلهم قراراته من «واشنطون» أو من «وول ستريت»، أي من مصادر اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الخاضعة لنفوذ أصحاب المصالح المالية والاقتصادية الكبرى ، فإذا فرضت مثل هذه القرارات على دولة من دول العالم الثالث، فإن النتيجة كثيرا ما تكون لغير صالح هذه الدولة بل قد تؤدي إلى كارثة محققة.

والذى يدفع الثمن، ثمن تطبيق هذه القرارات، هم فى رأى استجلتز، فقراء العالم الثالث ، لا أغنياؤه وأولى الأمر وأصحاب النفوذ فيها. فهؤلاء الفقراء هم الذين يتحملون مغبة سياسات الصندوق سواء فى صورة قبض يد الدولة عن التدخل لصالحهم، وإلغاء أو تخفيض ما يقدم من دعم للسلع والخدمات الضرورية ، من صحة وتعليم وسكن.. إلخ.. وشيوع البطالة وارتفاع أسعار الواردات الضرورية، أو زيادة معدلات الضرائب وفاء بديون لم تكن لها ضرورة أو تخفيضا لعجز فى الموازنة ليس من المصلحة دائما تخفيضه.. الخ.

قوى السوق وتدخل الدولة

الصندوق لا يريد أن يعترف ، كما يقول استجلتز، فإن الاعتماد على قوى السوق ليس دائما هو الحل الأمثل. ولا يريد أن يعترف أن هناك حالات كثيرة تستوجب تدخلا من جانب الدولة لإصلاح ما أفسده السوق، أو لسد الثغرات التى تركها السوق دون علاج ، أو باستخدام مصطلحات النظرية الاقتصادية، لمواجهة تناقض السوق (Market imperfections) وحالات «فشل السوق» (Market failuvr) إن النظرية الاقتصادية ، ومعها الصندوق، تعترف بالطبع بوجود مثل هذه الحالات ولكن النظرية كما تعرضها المدرسة الكلاسيكية الحديثة وهى التى لازالت تسيطر على تدريس علم الاقتصاد فى العالم بأسره، تفترض صراحة أو ضمنا، أن هذه الحالات (حالات النقص أو الفشل فى نظام السوق) هى حالات عارضة سرعان ما تصلح نفسها بنفسها ولا تتطلب تدخلا من جانب الدولة. استجلتز يرفض هذا رفضا حاسما، كما رفضه من قبل الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز، فى الثلاثينيات من القرن العشرين، واضطر الجميع إلى الأخذ برأيه ، قبل أن يعود أنصار قوى السوق إلى السيطرة على الحياة الأكاديمية ومصادر صنع القرار على السواء. يقول استجلتز الآن، كما قال كينز من قبل، إن تدخل الدولة ضرورى للتنمية ولمكافحة البطالة ولإعادة توزيع الدخل والقضاء على أسوأ صور الفقر والعوز ولحماية بعض الصناعات.. الخ.. وهذا هو ما يرفضه الصندوق رفضا باتا يترتب على هذا أن استجلتز يرى أن الخصخصة (أى بيع مشروعات القطاع العام) قد تؤدى فى بعض الحالات (وعلى الأخص إذا بيعت للأجانب) إلى أضرار أكبر من نفعها، كما أن الانتقال من نظام التخطيط وتدخل الدولة الصارم إلى نظام السوق، كما حدث بعد سقوط الشيوعية، يجب أن يجرى ببطء وبحذر. وإلا دفعت الدولة



ثمنا باهظا فى صورة انخفاض شديد فى معدل النمو، وزيادة نسبة الفقراء والمعوزين، وارتفاع معدل البطالة، وشيوع الفساد، وهو ما حدث بالفعل فى روسيا وبعض بلاد أوربا الشرقية الأخرى نتيجة تطبيق نصائح صندوق النقد الدولى الذى أوصى بسياسة (العلاج بالصدمة، Shock Thera-py). ويرى استجلتز أن نجاح الصين حيث فشلت روسيا فى الانتقال الناجح من نظام تدخل الدولة إلى نظام السوق، يرجع إلى هذا التدرج وذلك الحذر اللذين التزمتهما الصين، فحققت تلك المعدلات الباهرة فى النمو، ولم تحدث مآس اجتماعية بالدرجة التى شهدتها روسيا ودول أخرى فى أوربا الشرقية.

ولكن استجلتز لا يلقى باللوم والمسئولية على صندوق النقد فيما حدث فى روسيا وأوربا الشرقية فقط، بل يرى الصندوق مسئولا عن حالات فشل كثيرة فى العالم، من الارجنتين الى افريقيا الى شرقى آسيا.. فحيث تدخل الصندوق وقعت اخطاء اقتصادية فادحة، وكان وقعها أفدح على فقراء هذه الدول جميعا.

سيارات المرسيدس وسط الفقر المدقع

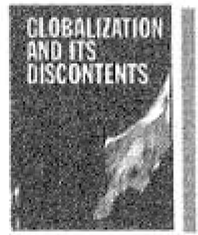
استجلتز يكتب هذا بلغة بالغة الوضوح وأسلوب بالغ السلاسة ، ومن ثم فمن السهل على غير المتخصصين فى الاقتصاد استيعاب كل ما يقول . بل هو فضلا عن هذا يستخدم أحيانا أسلوبا شخصيا فى الكتابة يجعل الكتاب أقرب إلى قلب القارئ من المألوف فى الكتابات الاقتصادية. إن كل المعلومات التى يستخدمها مصدرها خبرة شخصية مباشرة، وليست مستمدة من تجارب الآخرين أو مما يقوله أو يكتبه غيره من المراقبين، وهو يمزج تحليله الاقتصادى ببعض المشاهدات الشخصية التى تضفى جاذبية على ما يقول. فى حديثه عن تجربة روسيا مثلا، يذكر كيف أنه ذهب لمعاينة الحال ومعه بعض زملائه من البنك الدولى فشاهد ، من بين ما شاهده، اكتظاظ الشوارع بالسيارات العاجزة عن الحركة من فرط كثرتها، تحمل الذاهبين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع إلى خارج موسكو، ولاحظ أن كثيرا من السيارات التى تكتظ بها شوارع موسكو ، من سيارات المرسيدس الفاخرة فعلق استجلتز على هذا مشيرا إلى المفارقة بين هذا المنظر،

بالإضافة إلى اكتظاظ المحلات بالسلع الفاخرة المستوردة، وبين حالات الفقر والعوز الشديد التى بدأ يعانى منها فقراء الروس، وهم كثيرون، فى أعقاب سقوط الشيوعية. يقول استجلتز إنه بينما كانت نسبة الروس الذين يعانون من الفقر (أى الذين يحصلون على اقل من دولارين فى اليوم) لا تزيد على ٢٪ من السكان فى ١٩٨٩ ارتفعت هذه النسبة إلى ٢٣.٨٪ فى ١٩٩٨ (ص ١٥٣) عندما علق استجلتز على هذا عارضه زميله الذى يعمل فى البنك قائلا : «إن كثرة سيارات المرسيدس التى تراها دليل على ما جلبته السياسات الجديدة وترك الحرية لنظام السوق من رخاء». كان رد استجلتز على هذا بقوله «إن اكتظاظ الشوارع بسيارات المرسيدس فى بلد لايزيد متوسط الدخل فيه للفرد الواحد على ٤٧٣٠ دولارا فى السنة (كما كان الحال فى روسيا فى ١٩٩٧) هو دليل على المرض والفشل الاقتصادى وليس دليلا على الصحة».

فما الذى يمكن أن يقوله استجلتز يا ترى تعليقا على نفس الظاهرة فى دولة كمصر لا يزيد متوسط الدخل فيها على ١٥٠٠ دولار فى السنة؟

ردود مجلة أمريكية على استجلتز

فى عدد ١٥ أغسطس ٢٠٠٢ من المجلة الأمريكية الشهيرة «New york Review of Books» نشر عرض مفصل وتحليل ونقد لكتاب استجلتز، لخص فيه كاتبه (وهو بنيامين فريدمان الأستاذ بجامعة هارفارد) بأمانة ، رأى استجلتز وانتقاداته لصندوق النقد الدولى، ثم قدم بعض الرود على بعض هذه الانتقادات ، وانتهى إلى قوله إنه على الرغم من كل ما يمكن أن يقال فى الرد على استجلتز فإن كتابة يتضمن «بلا أدنى شك أقوى نقد تعرض له صندوق النقد الدولى وسياساته حتى اليوم» وقال إننا الآن فى انتظار ليس مجرد من يحاول الرد على هذا النقد أو ذاك من الانتقادات التى وجهها استجلتز . بل نحن فى انتظار كتاب يدافع عن سياسات الصندوق من أساسها وعن النظرة العامة التى يتبناها الصندوق فيما يدعو اليه. كما قال الكاتب ان المرجو أن ينهض بهذه المهمة اقتصادى كبير من وزن ستانلى فيشر Stanley Fischer الذى كان استاذا بمعهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا ، والذى شغل، خلال نفس الفترة التى يغطيها كتاب استجلتز، منصب النائب الأول لمدير صندوق النقد الدولى، ومن ثم يعتبره معظم المراقبين المسئول الأول عما طبقه الصندوق من اجراءات وسياسات خلال هذه الفترة.



ولكن في انتظار هذا البقاع الشامل، ما الذي يقوله بنيامين فريدمان نفسه في الرد على استجلتز؟ إن ردوده تنحصر في خمس نقاط:

الأولى: هي أن الصورة التي يرسمها كتاب استجلتز للأحوال الاقتصادية في الدول التي طبقت توجيهات الصندوق ليست في الحقيقة بهذه الدرجة من السوء التي يصورها، ان هناك بعض أوجه التحسن التي لم يشر اليها استجلتز، ومعنى هذا أنه ليس صحيحا أن سياسات الصندوق لم ينتج عنها إلا الخراب، بل هناك أوجه النجاح إلى جانب أوجه الفشل.

والثانية: انه حتى بفرض أن الأحوال هي بهذا السوء، أليس من الممكن أن الأحوال كانت ستصبح أسوأ لو لم يتدخل الصندوق؟

والنقطة الثالثة هي ان صندوق النقد الدولي لم يفعل اكثر من انه تصرف مثلما تتصرف أي مؤسسة تقوم بإقراض الأموال أليس على أي مؤسسة مقرضة أن تفعل مثلما فعله الصندوق من فرض شروط معينة على المقترض؟وهي شروط لا يمكن ان تخلو من شدة وغلظة.

والنقطة الرابعة: ان استجلتز يتكلم كما لو كانت الدول الغنية، ومعها صندوق النقد مسئولة مسئولية اخلاقية عن مد يد المساعدة لفقراء العالم. ولكن الى أي مدى. هكذا يتساءل فريدمان، يمكن ان نعتبر أن هناك حقا مسئولية أخلاقية من هذا النوع، من جانب مواطني دولة معينة. عن التخفيف من متاعب مواطني دولة أخرى ؟ لقد ثبت من كتابات فلاسفة الأخلاق المحدثين من امثال جون رولز ان حسم هذه القضية هو أمر في غاية الصعوبة، إن كان ممكنا على الاطلاق.

والنقطة الخامسة والأخيرة : إن كل الاعتبارات التي يثيرها استجلتز في كتابة ويزعم أن سياسات الصندوق قد خرجت عليها، هي اعتبارات خلافية لا يتفق عليها الرأى بالضرورة . فإلى أي مدى يجب أن تعتبر مصالح الفقراء أهم من مصالح الدائنين ؟ وإلى أي مدى يجب أن يعتبر تخفيض معدل البطالة أهم من تخفيض معدل التضخم؟ وإلى أي مدى يجب أن تعتبر تحقيق تحسن

مباشر فى أحوال الفقراء أهم من رفع معدل النمو فى المدى الطويل.. الخ؟

دفاع عن موقف استجلتز

وأصارح القارىء بأن قرارة هذه الردود على كتاب استجلتز لم تنجح فى تغيير رأيى فى الكتاب ولا فى قوة ما يحتويه من انتقادات فمثلا لا أظن أن استجلتز نفسه سوف يرفض القول بأن هناك بعض مظاهر التحسن والتقدم، رغم تطبيق توجيهات الصندوق، ولكن دون ان يعنى ذلك اعفاء الصندوق من المسئولية عما حدث من أضرار.. وأما الزعم بأن أحوال كثير من بلاد العالم الثالث (وكذلك الدول التى تحولت من الشيوعية إلى نظام السوق) كان من الممكن أن تكون أسوأ فى حالة عدم تدخل الصندوق، فليس لدينا أى طريقة للقطع بصحته، ومن ثم نبقى مضطرين للحكم على سياسة الصندوق بناء على ما حدث بالفعل بعد تطبيقها، مع استخدام ما نعرفه من مبادىء النظرية الاقتصادية لكى يعرف ما اذا كان من المحتمل أن تكون سياسات الصندوق هى المسئولة عما حدث من فشل وأعتقد أن استجلتز قدم فى هذا الصدد حججا مقنعة بما فيه الكفاية.

أما الردود الباقية فتتعلق بالأخلاق لا بالاقتصاد، وهنا يجب الاعتماد على الحس الأخلاقى لدى القارىء للفصل فيما إذا كان استجلتز على حق أو لم يكن هل يحس مثلا بمؤسسة مالية دولية تزعم أنها تعمل لصالح رفاهية الشعوب، ان تتصرف كما يتصرف الدائنون والمقرضون قساة القلب؟ هل يصبح من الناحية الأخلاقية ان تصرف الشعوب الثرية النظر، ومعها المؤسسات الدولية، عن مآسى غيرها من الشعوب، باعتبار أنها تنتمى إلى أمم أخرى أو ثقافات مغايرة او حتى ذات ألوان مختلفة للبشرة؟ وهل يصح حقا أن تعتبر الاختلاف حول أهمية الارتفاع بمستوى معيشة الفقراء والقضاء على البطالة بالمقارنة بتحقيق مصلحة الدائنين أو بتخفيض معدل التضخم، أو حتى برفع معدل النمو فى المدى الطويل، هل صحيح أن نعتبر مثل هذا الاختلاف مجرد اختلافا فى الأمزجة والأهواء ولا علاج له ولا طريقة لحسمه؟

بل وحتى إذا قبلنا كل هذه الردود، هل ينقذ هذا صندوق النقد الدولى مما وجهه إليه جوزيف استجلتز من اتهامات بالنفاق، والعناد، والمكابرة، والرضوخ لضغوط الأقوياء، والسكوت على مختلف مظاهر الفساد فى كثير من الدول التى يتعامل معها الصندوق، بل وبتشجيع هذا الفساد أحيانا؟ ■

قراءة فى مذكرات عبد المنعم واصل ...

هل تقوم جولة جديدة بين العرب وإسرائيل؟

بقلم
د. عاصم الدسوقى



بعد ثمانية وعشرين عاما على حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبعد فيض هائل من الكتابات عنها بأقلام عسكريين وسياسيين وصحافيين وعابرى سبيل أحيانا، وبعد تنظيم عدة ندوات تناولت زوايا مختلفة عن الحرب عسكريا وسياسيا لعل أبرزها الندوة الاستراتيجية التى نظمتها هيئة البحوث العسكرية فى أكتوبر ١٩٩٨ بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على الحرب، كان لايزال فى جعبة قائد الجيش الثالث الميدانى الفريق عبدالمنعم واصل الكثير ليقوله عن هذه الحرب للتاريخ. لكنه آثر أن يؤرخ لها باعتبارها حلقة فى سلسلة الصراع العربى - الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ الذى اصطلح على تسميته بعام النكبة. ومن هنا جاء كتابه مزيجا من الذكريات والمذكرات تخفق سطوره بحب عميق للوطن وإيمان مطلق بحق الفلسطينيين فى وطن ودولة أصدره فى عام ٢٠٠٢ فى أكثر من أربعمائة صفحة مزود بالخرائط والصور

وتبدو أهمية ما كتبه الفريق واصل في عدة نقاط لعل أبرزها أنه جاء بقلم عسكري محترف تعلم مبادىء العسكرية وفنونها، وشارك في المعارك منذ الحرب العالمية الثانية حين كان قائدا لفصيلة خيالة، وتحصل على خبرات عالية من الغرب والشرق في قيادة الدبابات حين تم إيفاده في بعثة عسكرية لإنجلترا في ١٩٥٠ وللولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٢ ثم إلى الاتحاد السوفييتي في ١٩٥٨. وهذا ما يميزه عن بعض الكتاب الذين صبغوا كتاباتهم عن الحرب بلون السياسة بين الأبيض والأسود في أحيان كثيرة والرمادي في أحيان قليلة، فكانت كتاباتهم سببا في تدمير عقل القراء وخاصة بين الشباب وإصابة تفكيرهم بكثير من الاضطراب والتشويش. ولعل إزالة هذا التشويش والاضطراب كان أحد أهداف عبدالمنعم واصل من الكتابة. ومن هنا حرصه على تسجيل الخطط العسكرية وتوضيح طبوغرافية المواقع العسكرية وتقدير القوة العسكرية بالتفصيل ودون مداراة حتى يكون القارىء على بينة من الأسباب والنتائج.

ومع هذا فمن الملاحظ أن واصل حرص على أن يكون متوازنا في أحكامه كما سوف نرى، لا يريد أن يتورط في الاشتباك الدائر مثلا حول هزيمة يونية ١٩٦٧ بين المسئولية السياسية (عبدالناصر القائد الأعلى ورئيس الجمهورية) والمسئولية العسكرية (المشير عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة). ويختار كلماته في النقد السياسي والانتقاد بعناية مفرطة، ولكنه في المسائل العسكرية يكون حاسما وقاطعا بخبرة رجل الميدان.

وهذا الكتاب الذي هو أساسا مذكرات وذكريات ميدانية يصبح في بعض الصفحات مرجعا عاما حين يتناول الإطار السياسي المحلي والإقليمي والدولي لطبيعة الصراع ومعاركه، وهو أمر مطلوب على كل حال رغم عدم جدته، حتى لا تأتي الوقائع العسكرية منعزلة عن إطارها السياسي نظرا للتأثير المتبادل بين القرار السياسي والحركة العسكرية، وحتى يدرك القارىء طبيعة الأمور وحقيقة التوازن بين مسئولية القرار وعبء التنفيذ.

معيار العمل العسكري الناجح

ومن واقع خبرة العمل الميداني (الدروس المستفادة) يضع عبدالمنعم واصل معيارا للعمل العسكري الناجح ويتلخص في وجود خيط رفيع بين السياسة وبين العسكرية في الميدان، وعدم الالتزام به يؤدي إلى الهزيمة أو التعثر، على حين أن الالتزام به يؤدي إلى النصر. وقد قام بتطبيق هذا المعيار على كل معارك الصراع. وفي هذا يقول: إن القائد في ميدان المعركة هو الأقدر على تقدير موقفه، وعلى كل من القيادة العامة

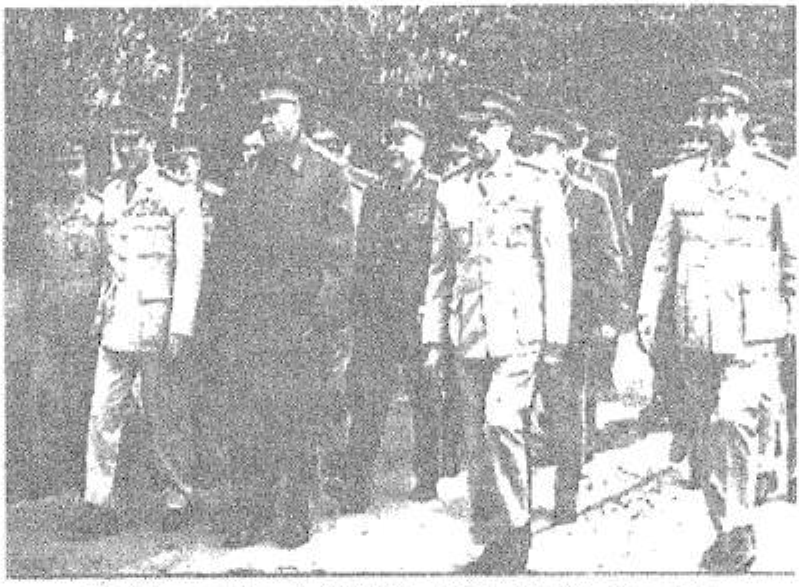


جمال عبد الناصر مع قادة وحدات الفرقة الرابعة المدرعة بعد انتهاء أحد المشروعات التكتيكية

العسكرية والقيادة السياسية العليا تقدير هذا المبدأ واحترامه والعمل على معاونة قائد الميدان على تنفيذ قراره.

وأما الهدنة أو قرار وقف إطلاق النار فإنه عملا سياسيا بالدرجة الأولى، وبالتالي فإنه يتصف بما تتصف به السياسة بصفة عامة من «التفاوض والمراوغة والخداع واختلاق الأسباب والأعذار للتنصل من المسئوليات لكسب الوقت لتغيير ميزان القوى، وعلى القيادة السياسية أن تكون مستعدة لاستمرار القوات في القتال لعدة ساعات أو أيام تحت أى أسباب لتحقيق أوضاع عسكرية أفضل دون التورط في إغضاب المجتمع الدولى». ومن استعراضه لمعارك الصراع اكتشف عدم الالتزام بالحدود بين ما هو سياسى وما هو عسكرى مما كان سببا فى الهزائم أو عدم اكتمال النصر بالمعنى الاستراتيجى.

والصراع العربى -- الإسرائيلى عند عبدالمنعم واصل ذلك المحارب المحترف واضح تمام الوضوح ولا يقبل فيه أنصاف الحلول لأنه صراع وجود وليس صراع حدود، إذ ليس أمام العرب منذ إقامة إسرائيل فى تقديره إلا أحد اختيارين «إما القبول بالقيادة السياسية والاقتصادية الإسرائيلية كما أعلن الرئيس الأمريكى جونسون بعد الخامس



زيارة وفد عسكري للاتحاد السوفيتي في ١٩٧٢ للتعرف على مطالب مصر من السلاح

من يونيـة ١٩٦٧ من أن على العرب أن يبتلعوا ألسنتهم فى حلوقهم ويقبلوا الحياة فى هذه المنطقة تحت قيادة إسرائيل وبرعاية أمريكا، أو إغراق المنطقة العربية فى سلسلة الحروب والصراعات التى تفتت بدورها وحدتها وتستنفد قدراتها الاقتصادية والبشرية».

فى حرب ١٩٤٨ ورغم وقوع معظم العرب تحت النفوذ البريطانى - الفرنسى بدرجات متفاوتة، وضعف الانتماء للحق الفلسطيني عند العرب فى مقابل قوة الانتماء لدى اليهود بحقهم فى وطن، ورغم عدم وجود تنسيق عسكرى بين القوات المصرية والأردنية والعراقية والسورية واللبنانية، إلا أن القوات المصرية كانت على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوب تل أبيب، والقوات العراقية كانت على مسافة ستة عشر كيلو مترا إلى الشرق من تل أبيب وذلك فى أقل من شهر على بدء القتال. وهذا يفسر فرض الهدنة فى ١١ يونيه ١٩٤٨ حيث نجحت إسرائيل فى تعديل مواقعها بالمخالفة لشروط الهدنة إلى أن تم توقيع هدنة رودس فى فبراير ١٩٤٩.

وفى حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثى) كان الضباط الأحرار الذين اشتركوا فى حرب ١٩٤٨ وتعرضوا للحصار فى الفالوجا هم الذين قادوا حركة التغيير

السياسى فى مصر فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالاستيلاء على الحكم، ودخل الحكم الجديد فى أكثر من صراع. فهناك المفاوضات مع الانجليز بشأن الجلاء، وهناك المواجهة مع الاخوان المسلمين، ومع عناصر النظام القديم، ومع بعض رفاق السلاح (أزمة مارس ١٩٥٤). وهناك استفزازات إسرائيل وأبرزها الهجوم على غزة (٢٨ فبراير ١٩٥٥) لدفع مصر فى طريق المواجهة. غير أن عبدالناصر الذى كان يسعى فى ذات الوقت لتقوية الجيش عددا وعدة، وتعاكسه إنجلترا وأمريكا فى هذا السبيل، جعله لا يدفع بقوات نظامية غير مستعدة للرد على الهجمات الإسرائيلية. وبدلا من ذلك قرر إحياء العمل الفدائى للرد على الغارات إلى أن نجح فى كسر احتكار السلاح بصفقة السلاح السوفييتى عن طريق تشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر ١٩٥٥.

فلما وقع الهجوم فى آخر أكتوبر ١٩٥٦ وكان عبدالناصر يظنه هجوما إسرائيليا فقط كانت خطته صد الهجوم ثم القيام بأعمال «تعرضية» باتجاه فلسطين. ولكن بعد الإنذار الإنجليزى - الفرنسى المشترك اكتشف التواطؤ، فتقرر سحب الجيش من سيناء، سلميا، وتركيز الدفاع عن منطقة القناة والدلتا والقاهرة بقوات «الدفاع الوطنى». ويرى عبدالمنعم واصل أن الهزيمة العسكرية فى ١٩٥٦ كانت «محدودة» على اعتبار أن التخلى عن «الأرض» فى شرم الشيخ لقوات الطوارئ الدولية ومرور سفن إسرائيل من مضيق تيران قد تم فى مقابل المحافظة على قوة الجيش ومنع تدميره، وهو «قرار مشروع سياسيا وعسكريا على مختلف المستويات».

النزاع على الزعامة

وأما فيما يتعلق بحرب يونيه ١٩٦٧ والهزيمة فقد تناولها واصل باستعراض الموقف السياسى وعلاقات مصر بعد ١٩٥٦ وتأثير تلك العلاقات على مجريات الحرب. ومن ذلك أن النزاع على الزعامة بين مصر وأنظمة عربية كالسعودية والعراق وسوريا وخاصة بعد الانفصال فى سبتمبر ١٩٦١ وتدخل مصر فى اليمن لتأمين ثورة سبتمبر ١٩٦٢، أحدث شرخا فى النسيج السياسى للوطن العربى زادته عمقا التوجهات الشخصية والحزبية والمصالح المشتركة والمتعارضة وما يتبعها من مناورات واستقطاب هنا وهناك.

ويؤرخ لهذه الحرب اعتبارا من قيام الطائرات الإسرائيلية بالإغارة على ضواحى دمشق فى ٧ أبريل ١٩٦٧ ردا على قيام المدفعية السورية بفتح النيران

على سكان المستعمرات الإسرائيلية وهم يجمعون المحصول. وقد فقدت سوريا فى هذه المواجهة ست طائرات ورسبت فى اختبار القوة. وبناء على هذا صدرت تعليمات المشير عبدالحكيم عامر (لا يذكره بالاسم وإنما يكتفى بقوله القيادة العامة للقوات المسلحة) فى ١٤ مايو برفع درجة استعداد القوات المسلحة، وإعلان التعبئة، والتدريب على الهجوم بالمخالفة للخطة الدفاعية الموضوعة سلفا التى تدربت عليها القوات المصرية، بل لقد نصت التعليمات على الاستعداد لتنفيذ عمليات هجومية محدودة فى سيناء باتجاه رفح والعوجة، ونقل المجهود الرئيسى للقوات البحرية من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر، وهكذا عندما بدأت القوات فى «الفتح والتحرك» إلى مواقعها الجديدة طبقا للتعليمات تبين «ضعف الحالة الفنية للعربات والمركبات وضعف كفاءة عناصر السيطرة على الطرق ومحاور التحركات».

وعمليات «الفتح والتحرك» قائمة على قدم وساق على ذلك النحو تبين أيضا عدم وجود حشود إسرائيلية أمام الجبهة السورية من واقع زيارة الفريق أول محمد فوزى لسوريا وهو ما أكدته تقارير المخابرات وكذا الصور الجوية. ومع ذلك كما يقول واصل «أصمت القيادة العامة آذانها» (أى المشير)، واستمرت أعمال «الفتح»، بل والقيام بتغيير فى الخطة شمل إنشاء وحدات جديدة وتحويل وحدات عاملة إلى احتياطية، فضلا عن إجراء تغيير فى قيادات التشكيلات المقاتلة مجاملة لبعض الضباط وثيقى الصلة بالمشير عامر وشمس بدران وزير الحربية مما كان له أثر بالغ السوء على كفاءة قيادة هذه التشكيلات أثناء الحرب.

وزارة حرب

وبعد ظهور الحشود الإسرائيلية على الجبهتين المصرية والسورية بعد انسحاب قوات الطوارئ الدولية بعد ١٦ مايو بناء على طلب مصر وتأليف وزارة حرب فى إسرائيل فى الأول من يونية ١٩٦٧، أعلن عبدالناصر فى مساء الثانى من يونية لقادة القوات المسلحة أن مصر لن تبدأ الحرب، واحتمال قيام إسرائيل بحرب وقائية خلال يومين أو ثلاثة، وأكد على ضرورة الاستعداد لتلقى الضربة الجوية الأولى وامتصاصها والرد بضربة مضادة، إلا أن القيادات العسكرية «لم تتخذ أية إجراءات بناء على هذا التحذير الواضح من رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة، وربما لم يكن هناك ما تفعله سوى تنفيذ أوامر هيئة العمليات من القيادة العامة فى القاهرة (المشير)». أما الحقيقة التى



السادات يصافح الفريق عبد المنعم واصل فى أحد اللقاءات ويبدو في الصورة اللواء سعد مأمون

حرص عبدالمنعم واصل على إثباتها للتاريخ فى مذكراته قوله «إن جمال عبدالناصر لم يصدر أمر انسحاب الجيش من سيناء وأن الذى أصدره هو المشير عامر، بل إن ناصر طلب من عامر إلغاء أمر الانسحاب، وهو ما يفسر إعادة دفع بعض الوحدات تجاه الشرق لمواصلة القتال، ولكن بعد فوات الأوان».

وبعد الهزيمة العسكرية وتمسك الشعب المصرى بزعامة عبدالناصر، والتخلص من «جماعة» المشير عامر فى أغسطس ١٩٦٧، بدأ عبدالناصر فى إعادة بناء القوات المسلحة وإعدادها لإزالة آثار العدوان بعد فترة قدر لها من ثلاث إلى أربع سنوات، وعلى ثلاث مراحل يتم فيها «الصمود وتحقيق القدرة الدفاعية، ثم توفير القدرة الهجومية، وأخيرا التحول للعمليات الهجومية، وهو ما اصطلح على تسميته مجازا «حرب الاستنزاف».

اغراق المدمرة ايلات

ولقد أثبتت القوات المسلحة فى مرحلة الصمود قدرات ملحوظة ابتداء من معركة رأس العش فى أول يوليو وانتهاء بإغراق الغواصة الإسرائيلية «داكار» فى البحر المتوسط قبالة شاطئ



الرئيس مبارك يصافح الفريق عبد المنعم واصل أثناء افتتاح المتحف التاريخي للجيش الثالث

الإسكندرية فى يناير ١٩٦٨ مرورا بإغراق المدمرة إيلات أمام شاطئ بورسعيد فى ٢١ أكتوبر ١٩٦٧، وفى سبتمبر ١٩٦٨ تم التحول إلى الدفاع النشط بوضع القوات الإسرائيلية تحت الضغط المستمر وإزعاجها وإرهاقها بعمليات الاستطلاع، ونصب الكمائن خلف خطوط العدو، وتطوير خطط الدفاع وصولا إلى الخطة الدفاعية ٢٠٠ للتحول منها إلى العمليات الهجومية، حتى إذا ما كان يوم ٨ مارس ١٩٦٩ بدأت حرب الاستنزاف عمليا بقصف مكثف من المدفعية على مواقع العدو وفيها وقع عبدالمنعم رياض شهيدا بقصف مضاد وهو يراقب العمليات من الخط الأمامي. واضطرت إسرائيل إلى الاحتفاظ بنسب عالية من قوات الاحتياطى لمدة طويلة مما كان له تأثير سلبي على معنويات الإسرائيليين وعلى حياتهم الاقتصادية بشكل عام.

وكان هذا القصف المكثف وراء بناء خط بارليف واستخدام أسلوب الدفاع المتحرك بدلا من الثابت. وقد نجحت القوات المصرية فى الإغارة على إيلات، وإسقاط طائرة هليوكوبتر فى ٣٠ يونية ١٩٧٠ تحمل ثلاثة عشر خبيرا إسرائيليا

واثنتا عشرة طائرة فانتوم فى أسبوع واحد، وبلغت العمليات المتنوعة التى قام بها الجيش الميدانى الثالث ٤٥٠ عملية. ومن هنا فإن مبادرة روجرز فى أغسطس ١٩٧٠ التى وافقت عليها إسرائيل أشبه بقرارا الهدنة فى حرب ١٩٤٨ لأن استمرار حرب الاستنزاف من شأنه إضعاف القوة الإسرائيلية، وبمقتضى هذه المبادرة تمكنت إسرائيل من تخفيض نسبة التعبئة إلى أقل من ١٥٪ بالنسبة للقوات الحربية، وإلى أقل من ٣٠٪ للقوات الجوية.

وفى أثناء حرب الاستنزاف بدأ التدريب على عبور الموانع المائية تمهيدا لعبور قناة السويس منذ نهاية ١٩٦٧ وبداية ١٩٦٨ على ترعة «البعالوة» فى منطقة القصاصين بالشرقية، ثم فى الرياح البحيرى بمنطقة برقاش إلى الغرب من محافظة المنوفية. كما تم تطوير مضخة مياه لتحطيم الساتر الترابى على الضفة الشرقية الذى يخفى وراءه خط بارليف، وبناء ساتر ترابى على الضفة الغربية بفتحات ومصاطب لمرور الدبابات.

وقد اعترف القادة الإسرائيليون أنفسهم بأهمية حرب الاستنزاف وحيويتها فقد قال عنها عزرا وايزمان فى كتابه «النسور الزرقاء» إنها أول حرب لم تكسبها إسرائيل وهى التى مهدت الطريق أمام المصريين لشن حرب يوم الغفران».. ووصفها عبدالمنعم واصل بأنها «الأب الشرعى لنصر أكتوبر ١٩٧٣». ومع هذا تجد جنرالات المقاهى من بعض الكتبة فى مصر يصرون على اعتبار حرب أكتوبر مقطوعة الصلة بحرب الاستنزاف لا لشىء سوى كراهية لعبدالناصر على حساب الموضوعية.

أما بالنسبة لحرب أكتوبر فقد أفرد لها واصل نصف مذكراته تقريبا، وحشد كثيرا من التفاصيل الضرورية ابتداء من السرية التى أحاطت بتحديد ساعة الصفر إلى متابعة يوميات القتال بدقة شديدة على الخرائط. غير أن الفريق واصل يأخذ على السادات بشكل غير مباشر توجيهاته مساء يوم ١٢ أكتوبر بشأن تطوير الهجوم فى اتجاه الشرق نحو الممرات الجبلية اعتبارا من ١٤ أكتوبر وذلك دون أخذ رأى القيادات الميدانية التى هى أدرى بطبيعة الأمور. ومن هنا فشلت عملية تطوير الهجوم بسبب عدم الإعداد الكافى إذ كانت القوات المكلفة بالهجوم تفتقر للصواريخ المضادة للطائرات والمدفعية ذاتية الحركة، ولعناصر الاستطلاع المستمر خلف خطوط العدو، علاوة على الحماية الجوية لتأمين تقدمها. ويضاف إلى ذلك

أن وحدات المدفعية المرافقة كانت مجرورة ولا يتفق استخدامها مع طبيعة الأرض خاصة على محور ممر متلا مما أدى إلى تعثرها فى الكثبان الرملية.

وكان من نتائج هذا التطوير حدوث «الثغرة» الشهيرة التى فصلت الجيش الثاني عن الثالث يوم ٢٠ أكتوبر بعد أن أصبح شرق القناة من كبريت على يسار الجيش الثالث جنوبا إلى تل سلام على يمين الجيش الثاني شمالا تحت السيطرة الكاملة لإسرائيل من يوم ١٧ أكتوبر. وغرب القناة من جنوب الإسماعيلية إلى وادى العشرة وجنوبا حتى منطقة فنارة تحت سيطرة شبه كاملة الجيش الإسرائيلى من يوم ١٨ أكتوبر. كما تعزز هذا الوضع الإسرائيلى بالطائرات الأمريكية التى تدفقت بطياريها. ويستمر الوضع على ما انتهى عليه حتى يوم ٢٢ أكتوبر بقبول قرار وقف إطلاق النار. لكن الجيش الإسرائيلى حاول الاستيلاء على السويس رغم قرار وقف إطلاق النار لتحسين وضعه لكنه يفشل بفضل الجيش الثالث والمقاومة الشعبية إلى أن تتوقف الحرب تماما بتوقيع اتفاقية فض الاشتباك فى ١٧ يناير ١٩٧٤.

وفى الكتاب بعض النقاط الخلافية مع كتابات أخرى كثيرة فيما يتعلق بالنظر إلى بعض قرارات السادات السياسية على طريق الترتيب للحرب.

ومن ذلك تفسير عبدالمنعم واصل لقرار طرد الخبراء السوفييت بعدم استجابة الاتحاد السوفيتي لتزويد مصر بالطائرات الحديثة القادرة على تنفيذ مهام هجومية فى عمق إسرائيل، وتفسيره تنحية الفريق محمد صادق (٢٦ أكتوبر ١٩٧٢) وتعيين أحمد إسماعيل باكتشاف عدم جدية صادق في الاستعداد للحرب!!

غير أن الفريق واصل الذي نشأ عسكريا وتربى ذهنيا وعقليا ووجدانيا فى كنف الصراع العربى - الإسرائيلى لا يعترف بالسلام مع إسرائيل، ويؤكد أن الصراع صراع وجود وليس بصراع حول الحدود فيقول: إنه مهما اتخذت علاقات العرب بإسرائيل شكلا من أشكال السلام فيجب أن يكونوا على يقين من أن هناك وقتا سنحتاج فيه جميعا إلى المواجهة العسكرية. وإذا لم نؤمن بهذا فسوف تستمر المنطقة فى حالة العربدة الإسرائيلية المعتمدة على تقييد بعض دول المنطقة بالمعاهدات والتعهدات والعلاقات إلى غير ذلك حتى تنفرد إسرائيل بالشعب الفلسطيني، وأن المجتمع العالمى لن يجبر إسرائيل على الالتزام بالقرارات الدولية إلا إذا أيقن أن هناك موقفا عربيا واحدا وواضحا وجادا من شأنه أن يؤثر على مصالح تلك الدول مع العرب. ■

أوراق الخريف

بقلم
مصطفى نبيل

• تعمير سيناء

يجدر بنا أن نتذكر في أكتوبر «تعمير سيناء» وهى الغاية التى وضعناها أمام أعيننا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهناك مشروع قائم بالفعل بنقل ثلاثة ملايين مواطن إلى سيناء، فذلك هو الأسلوب الأنجع من أجل تحقيق الأمن القومى، فلا يجوز أن نكتفى بالمنتجعات والقرى السياحية على سواحلها، ويظل قلبها رخوا بلا سكان.

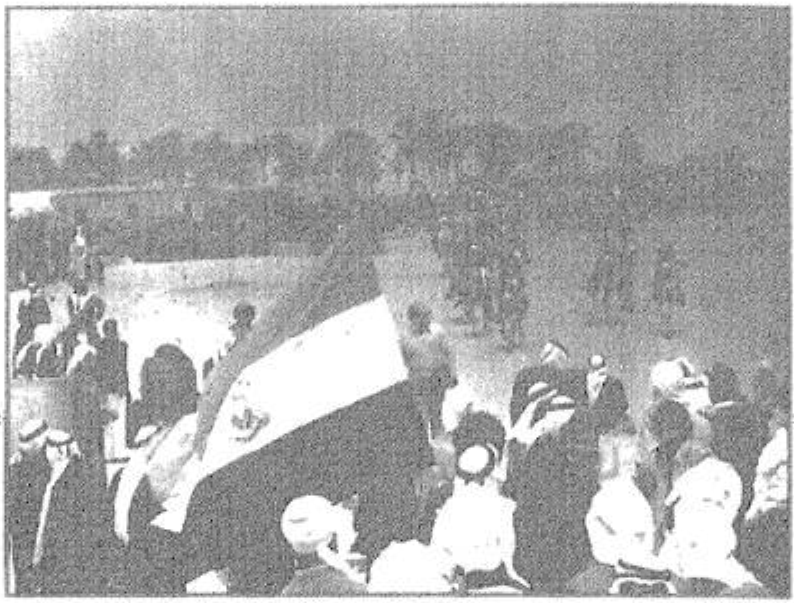
فسيناء قدس أقداس مصر، وأرض التحدى والمستقبل، وهى المشكلة والحل معاً، وحان الوقت لكى تمتص تكدس الوادى وتتحول بأهلها وإنتاجها إلى درع للوطن، وها هو جرس الخطر يدق من جديد، عندما أعلنت الولايات المتحدة عن عزمها على سحب قوات المراقبة الدولية من على حدود سيناء .

●●●

يؤكد الجيولوجيون غنى سيناء بالمياه الجوفية ومياه الأمطار إذا اقيمت السدود المناسبة، كما يوجد مشروع ضخم ، مشروع ترعة السلام الذى سيروى ما يزيد عن ٦٥٠ ألف فدان فى مرحلته الأولى، لم تضخ بعد مياه الحياة فيه رغم طول المدة التى استغرقها المشروع.

ولا أدرى لماذا لا يصبح مشروع تعمير سيناء المشروع القومى رقم واحد، فعلاوة على ما يحققه من أمن وطنى فهو حل جذرى لمشكلة التكدس الذى يعانى منه الوادى، ويزيد من الحياة صعوبة فى هذا الوادى .

ومما لا شك فيه أن التعمير ليس مجرد قرارات فوقية تتخذ، بل هو خطط ومراحل مدروسة، وهو يواكب إن لم يكن يصاحب كافة مشروعات التنمية، والتعمير، وهى مهمة مراكز البحث والجامعات، ولجامعة قناة السويس كلية لعلوم البيئة



العلم المصري يرفرف فوق أرض سيناء بعد التحرير.. لتبدأ ملحمة التعمير التي نرجو أن تتواصل

وأخرى للتربية فى العريش.

وتجربة نقل مجتمعات بشرية إلى أرض جديدة لها شروطها ومقتضياتها، وهو تحد علينا أن نخوضه.

ولقد حان الوقت لكى تشهد سيناء تغييراً نوعيا فى أساليب التنمية والتعمير، وحان الوقت لكى نضع تصورا شاملا لتنمية كل طاقاتها وتوفير كل احتياجاتها، وأن يكون هذا التصور جذابا وملهماً، وأن يتجنب وطأة البيروقراطية وأمراض الوادى المستعصية، وأن ننقذ المشروع من مسالك الروتين المعقد، وخاصة ما يؤكده الخبراء من ثراء سيناء بالأنواع النباتية المختلفة ، فهى الأراضى البكر المقدسة التى فيها ما يزيد عن ٥٢٧ نوعاً من النبات الذى لا يوجد بعضها فى الوادى، وهى مؤهلة لزراعة العديد من النباتات الطبية، وهى الأولى بالرعاية من توشكى .

ولا مستقبل لأى تجمع بشرى لا يقوم على الإنتاج، ولا يبحث عن تنمية موارده، ولا يقتصر على المصانع الكبيرة والتكنولوجيا المتقدمة، بل يشمل قرى الصعيد والرعى وأنواع جديدة من الزراعة، مستغلين ما تتمتع به أرض سيناء من تنوع ، ولا يتم ذلك إلا إذا شهدت سيناء روحا جديدة، وإيمانا عميقا بالمستقبل يستقر فى وجدان أهلها.

ونقطة البداية وجود «خطة حاكمة» يضعها خبراء فى كافة المجالات، لا تمنع المبادرات الفردية، وتقوم على المعلومات

والدراسات الصحيحة والدقيقة، وتوائم هذه الخطة بين الأهداف العمـرانيـة والأمنيـة، على أن تحـدد الأولويات وأشكال مستقلة ذات صلاحيات كاملة، مثل ما حدث في مشروع السد العالى.

ولا حاجة إلى التأكيد على القيمة الاستراتيجية لهذا المشروع، فلا تترك أطراف مصر فراغا، فالحدود الآمنة هى الحدود البشرية التى يعطيها الإنسان صلابة ومناعة.

والاستكمال الطبيعي لمشهد العبور المهيب الذى تحقق فى أكتوبر ١٩٧٣ ، هو تنمية سيناء وتعميرها ، وتعطينا الحافز فيض الصور المتلاحقة فى تلك الأيام التى مازالت حية فى ذاكرتنا، وهى كفيلة بمد الجميع بطاقة للعمل، ولعل عمق اللحظة ومشاعرها تظل حية فى نفوسنا من أجل العمل الدائم والمستمر لتعمير سيناء التى وصفت بأنها «القفر الموحش الجميل».. والتى بقيت طويلا ساحة الصراع والمعركة الدائمة بين الشرق والغرب، عبرته الجيوش المختلفة منذ فجر التاريخ، وشهدت أرض سيناء ما لايقل عن ٥٠ حرباً كبرى، من الهكسوس حتى الإسرائيليين، وامتزجت رمال سيناء بدماء المدافعين عن الدرب الذى يصل إلى قلب مصر.

وعلينا ألا ننسى القائمة الطويلة من شاروهز الهكسوس، وقادش تحتمس إلى قرقميش البابليين، وحطين صلاح الدين، وعين جالوت قطز، ومرج دابق الغورى، وعكا نابليون، وحمص ونصيبين محمد على.

إن هذا الدرب إذا نطق روى الكثير من بسالة دفاع أبناء الوادى عن بلادهم.

●●●

مازالت سيناء، تشكو من إهمال الوادى..

وسنحاسب يوما لا على ما قمنا به تجاهها، ولكن على ما لم نقم به.

ولن نكف عن المطالبة بانجاز هذا المشروع، ولن نمل من المطالبة بتحقيقه حتى نراه على أرض الواقع..

ونرجو ألا نكتب فى العام المقبل مطالبين بذات المطالب، ونخشى عندئذ أن يكون قد فات الأوان.

●●●

شوارع القاهرة

ظل الكاتب الساخر محمد عفيفى يسيطر عليه هاجس ملح ، وكثيرا ما يردده، وهو توقف سير السيارات من الزحام فى شوارع القاهرة، فتتداخل فى الشوارع الضيقة ولا تملك حراكا، وتتوقف حركة المرور تماما.. ويعجز سكان القاهرة من الوصول إلى بيوتهم، أو الذهاب إلى أعمالهم.

وهو ما يبدو أنه نبوءة نقترب منها يوما بعد يوم.

ولا يراعى أحد قواعد البناء.. وهى مسألة ظاهرة للعيان ولا تحتاج إلى دليل

أو برهان. فالعمارات الشاهقة التي لا تكترث بقانون الارتفاعات تؤثر على كافة الخدمات، وتؤدي إلى تكدس الطرقات، وتحولت شوارع القاهرة إلى مرآب عمومي، تقف فيه السيارات على الجانبين، وتحولت الجراجات إلى محلات، وحاصرت العشوائيات الأحياء جميعا، والتي تفاقمت ظاهرتها عندما لم تقدم الحكومة للأهالي . مناطق يستطيعون أن يقيموا عليها مساكنهم.

فمن الطموح الإنساني المشروع ، أن يكون المرء مكان يسكنه، وتبدأ علاقة المرء بمسكنه من الشارع ثم المدينة بكاملها، والأسلوب الذي يقوم عليه تخطيط مدينة من جهة التصميم والبراح، والنغم القائم بين مبانيها، فالمعمار ونظامه ونسقه جزء من العمران على الأرض.

وبدلا من احترام البيئة قامت العشوائيات تحت غواية الحداثة أحيانا، وخرجت مبان لا تحظى بأي جمال أو راحة للعين، وتهادمت شخصية العمارة بخصائصها المميزة.

وحتى المدن الجديدة ، شوارعها ضيقة في بعض أحياء ٦ أكتوبر، ولا مكان فيها للجراجات ولا للحدائق، وحتى الشرفات أخذت في الانقراض وتحولت إلى غرف في معظم العمارات.

●●●

لم نكتف بما شهدته شوارع القاهرة من انفلات في ارتفاعات المباني، ولا غياب الذوق أو التخطيط، ولا الحفاظ على تناغم في المباني المتجاورة كما يحدث في كل عواصم العالم.

بل لايكاد يوجد ميدان أو شارع أو زقاق لم يلحقه تغيير الاسم الذي يطلق عليه أكثر من مرة

وعند زيارة أي عاصمة غربية، لندن أو باريس أو روما ستجد اسماء الشوارع والميادين لم تتغير منذ عشرات السنين أو يزيد، وتقرأ هذه الأسماء في الأعمال الأدبية التي نشرت في القرن التاسع عشر، فسرعان ما يصبح الاسم جزءاً من التاريخ، فإذا كان هدف المسميات هو تيسير التعرف على المكان، فالتبديل المستمر يجعل هذا الهدف صعب المنال.

كما أنه إذا كان مغزى الاسم أنه يسجل واقعة تاريخية أو يهدف إلى تكريم أصحابها وتقدير ما قاموا به، أو أي سبب آخر في زمان إطلاق الأسم، فلا أحد في مقدوره تغيير التاريخ، وينبغي الحفاظ على الذاكرة التاريخية، فإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز محو الأسماء أو تغييرها، ولا يليق استبدالها بغيرها.

ألا يشبه ذلك ما كان يقوم به الفراعنة في العصور الغابرة، عندما يمحو الفرعون تاريخ من سبقه من على جدران المعابد ومن أوراق البردي، ويستبدلون به تاريخا من صنعهم، يعلي

شأنهم وينتقص من السابق عليه!.

وألا يدين هذا العمل صاحبه؟!

وما يثير الدهشة والاستغراب حقا، أنه في الوقت الذى تستبدل فيه بأسماء الشوارع والميادين القديمة أخرى جديدة في قلب القاهرة، نجد أن المدن والأحياء الجديدة لا تجد أسماء ذات دلالة يطلقون عليها، وتحظى مدينة السادس من أكتوبر والعاشر من رمضان الأحياء والميادين والشوارع أرقاما بلا أسماء، والأجدر أن تطلق الأسماء الجديدة الشخصيات ذات العطاء على هذه المدن والأحياء الجديدة.

ومسألة أخرى غريبة تكشف الشح والبخل في التكريم، فهناك الكثير من الميادين التى أعدت لوضع تماثيل فيها، وبقيت قاعدة التمثال خاوية، فمثلا، قاعدة التمثال أمام جامعة القاهرة التى بقيت فارغة منذ زمن بعيد، ألا يستحق أحمد لطفي السيد أو د. طه حسين تمثالا يوضع على هذه القاعدة تحية لدورهما المشهود في إنشاء الجامعة ووضع تقاليد عريقة لها. أيضا ميدان التحرير الذى جمعت التبرعات لوضع تمثال جمال عبدالناصر، وبقيت قاعدة التمثال من غير تمثال طويلا، ثم تمت إزالة القاعدة!.

والأسماء التى نطلقها على الميادين والشوارع والحارات والدروب ينبغى أن تكون ذات قيمة تاريخية بالضرورة، وهى تعبير عن رموز وشخصيات العصر الذى عاشت فيه، فضلا عن أنها تمد المؤرخ بمادة تاريخية، وتساعد على التعرف على معالم العصر. وهنا لا يجوز لنا أن نحب أو نكره، لأننا أمام تجربة تاريخية، والحدث التاريخي لا حب فيه ولا كره.

وبعض هذه الأسماء التى تغيرت أسماء يرجع تاريخها إلى عدة قرون، مثل شارع الخليج المصرى الذى أصبح شارع بورسعيد وقد كان هذا الشارع خليجا حفر أيام الفراعنة ثم ردمته شركة الترام عام ١٨٩٨ .

ولا يجوز في هذا البلد الذى ابتكر تاريخ الخطط أن يعانى من هذا التخبط والعشوائية . والخطط علم وفن أبدعه المؤرخون المصريون الذين عشقوا مدينتهم وكتبوا عنها العديد من الأعمال، وأبرزهم المقريزى صاحب الأثر النفيس «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وجاء بعده على باشا مبارك وكتب رائعته «الخطط التوفيقية» الذى اهتم فيها بالبشر قبل الحجر والذى أفرد ستة أجزاء من خططه المكونة من عشرين جزءا للقاهرة وحدها، وتجد فيه صورة تشبه الصورة الفوتوغرافية لأحياء القاهرة بأسمائها حتى عام ١٨٨٥ م.

وفن الخطط هو فن كتابة الموسوعات، وهو أشبه بتسجيل موسوعة شاملة عن المكان، وينطق من خلاله الأثر

والبشر، ويقدم على باشا مبارك كتابه بالقول: «لما كانت القاهرة المعزية.. كثر ذكرها في كتب الخطط والتواريخ والسير، ووصف ما كان بها من المباني والبساتين، وهي الآن غيرها في تلك الأزمان لتغيرها عما كانت عليه.. بتغير الدول وتقلب الأزمنة.. لم نر من يهدينا إلى تلك التقلبات.. فكم من أمور مرت فدمرت، وعبر جرت فغيرت».. فماذا سيقول اليوم إذا أراد تحديث كتابه؟! وبعد كل هذا التبديل والتخريب الذي تشهده القاهرة؟!

لقد حان الوقت لوضع ضوابط لأسماء الشوارع والميادين والأحياء، وعدم تركها للمحليات وحدها تفعل ما يحلو لها.

فهم لا يعرفون أنهم بذلك يعبثون بالتاريخ.

وأعتبر هذه رسالة إلى كل من محافظ القاهرة والجيزة، وكل من يعنيه الأمر.

●●●

وأصبحت القاهرة كأحد نتائج المركزية الشديدة.. رأسا كبيراً وجسماً هزيلا، تقعده زحام الأحياء الشعبية، وتتضخم العاصمة على حساب البلد كلها، وتعاني القاهرة من هذا التكدس والازدحام، وأخذت مؤسسات القاهرة ومرافقها تئن تحت ضغط هذا الازدحام.

أقول تعاني القاهرة - التي كانت يوما عاصمة الدنيا - من التكدس والزحام، وغياب الذوق العام، ومن قذارة بعض شوارعها، وتحاصرها المتاعب بعد أن تضخمت، وتحولت من مركز التحديث وقلب التطوير إلى عقبة كأداء أمام التطور والتغيير، وتقف القاهرة عاجزة عن وقف زحف القادمين إليها وعادة تنتقل الحداثة من العاصمة إلى ما حولها، أي أن حل مشاكل القاهرة هو المدخل الطبيعي بل والوحيد لحل مشاكل مصر كلها، وهي المدخل الحقيقي لمواجهة المستقبل.

وعلى أية حال.. لم يستطع التتار الجدد بمعاولهم، ولا أكداس العمارات الشاهقة، ولا عشوائية الشوارع الطارئة ولا الأحياء التي نبتت كالفطر وتضخمت كالسرطان، لم يستطع كل ذلك أن ينال من طابع القاهرة، ولم تحجب الأسطح العالية مبانيها التاريخية العديدة، ولم تتمكن الضجة الهائلة من أن تخنق أصوات الحب والجمال، مبان عتيقة بتراكم عليها الزمن، وهي آية في فن العمارة، تصون داخلها نماذج جميلة، تحكي في صمت قصة أجيال من البنائين والمعماريين العظام، بناة الحضارة، الذين عملوا في تبتل وورع، ومضوا..

لم يسجل اسمهم أحد، ولا يكاد يعرفهم أحد، فلم تقم القاهرة في يوم وليلة، وإنما هي عصارة الفن والحب لأجيال متعاقبة، لهذا تفتن القاهرة زوارها. ■

أزمـــة الخِطابُ الإعلامىّ العــربى

بقلم
د. محمود عبدالفضيل

كان «منتدى الإعلام العربى ٢٠٠٢»، المنعقد فى دبى ، قد حدد لنفسه موضوعاً رئيسياً يتعلق «بإشكاليات الخطاب العربى فى الغرب»، وخاصة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وأجمع عدد كبير من المشاركين على ضرورة استخدام «الخطاب الإعلامى الصحيح» لعرض القضايا العربية بمنهج علمى مبادر يخاطب العقلية الغربية باللغة التى تفهمها، بحيث يمكن إبطال مفعول الانحياز الإعلامى الغربى ضد العرب والإسلام.

وليس هناك من شك أنه فى عالمنا المعاصر، أصبحت حرب الكلمة والصورة أقوى تأثيراً فى الرأى العام، فى كثير من الأحيان، من قذائف الطائرة والمدفع والدبابة. وإذا تأملنا فى طبيعة الخطاب الإعلامى العربى الرسمى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، نجد أن هذا الخطاب كان بالأساس خطاباً دفاعياً إعتذارياً، دون أن يحاول أن يتصدى بالجدية الكافية لأبعاد الإطار المفاهيمى الجديد الذى يستخدم لتزييف الوعى العام للمجتمع الدولى، من خلال مايمكن تسميته «حرب المصطلحات».

إذ إن أهم أبعاد تلك الحرب الإعلامية القائمة منذ الحادى عشر من سبتمبر هى محاولة تسويق مصطلحات ومفردات لغوية تحمل معانى ودلالات مغلوطة، يتم توظيفها لصالح الصهيونية والهيمنة الأمريكية. ولقد سبق أن أشار الدكتور محمد نور فرحات فى مقال له منشور فى مجلة المصور تحت عنوان . «لغة الصراع .. وصراع اللغة» إلى تلك القضية . إذ تقوم الاستراتيجية الإعلامية الإسرائيلية والأمريكية إلى صك مفردات ومصطلحات جديدة لتصبح عملة رائجة فى القاموس الإعلامى، تروجها وسائل الإعلام الغربية المسموعة والمرئية والمكتوبة، بهدف تشويه وقلب الحقائق وتطويع الرأى العام الدولى لوجهة نظر أحادية الجانب لتمرير رؤى ومخططات الهيمنة الإسرائيلية، على الصعيد الإقليمى، والأمريكية، على الصعيد الدولى

المصطلحات الجديدة

ودعونا نعطي قائمة بتلك المصطلحات التى راجت فى وسائل الإعلام الغربية، ولم ينجح الخط الإعلامى العربى الرسمى والشعبى فى التصدى لها بالعمق الكافى وبالبراعة الإعلامية الواجبة. ولعلنا نسمع ليل نهار تكرار مجموعة من المصطلحات المركزية التى تنخر بها كل الكتابات والبرامج والمواد الإعلامية الغربية ، يجىء على رأسها:

- مصطلح «الإرهاب» بكل تنويعاته وتخريجاته الأمريكية.
- مصطلح «العنف» و«العنف المفرط».
- مصطلح «حق الدفاع عن النفس» (وفق المفهوم الإسرائيلى).
- مصطلح «العمليات الانتحارية» (بدلاً من العمليات الاستشهادية).
- مصطلح «الدولة المارقة» (المارقة على الإملاءات الأمريكية).
- مصطلح «محور الشر» (ويطلق بصفة أساسية على دول «العتبة النووية» التى تشكل خطراً على إسرائيل).

وهى لاشك مصطلحات ومفردات إعلامية تم صكها بعناية بالغة، لكي تكون مطاطة صعبة التحديد، تحتمل العديد من التأويلات، ولكى يصبح استخدام كل منها «كلمة حق» يقصد بها «باطل»! فعندما يستخدم مصطلح «الإرهاب» هذا الاستخدام الواسع ، فإن المقصود به هو طمس حق الشعوب المشروع فى مقاومة الاحتلال وقوى البغى والعدوان عموماً. ووفقاً لهذا الاستخدام المغرض للمصطلح، كان لابد لنا أن ندين عمليات المقاومة البطولية ضد الاحتلال النازى فى بلدان

أوربا الشرقية والغربية أثناء الحرب العالمية الثانية. وضمن هذا السياق، يتم تمرير مصطلح «حق الدفاع عن النفس» بالنسبة لدولة إسرائيل، بينما يتم إهدار ونفى «حق مقاومة المحتل» من جانب الشعب الفلسطيني.

وينطبق نفس الحديث على مصطلح «العنف»، دون التمييز بين مستخدمى العنف: هل «الجلاد» أم «الضحية»؟ فعندما يلجأ «الجلاد» أو «المحتل» إلى العنف، كما هو الحال فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، يكون هذا العنف «حميداً» .. ويكون المطلوب فقط هو التخفيف من «العنف المفرط»! وعندما تستخدم قوى المقاومة المشروعة ضد المحتل «العنف» كأسلوب لدحر الاحتلال وقض مضاجع المحتل، يصبح هذا العنف، من خلال اللغة الإعلامية المستحدثة، إرهاباً يجب استئصاله!

وهكذا، يتم يومياً المساواة اللغوية بين القمع وجرائم الحرب التى يرتكبها «شارون» وحكومته، من ناحية، وبين المقاومة المشروعة للشعب الفلسطينى الأعزل، من ناحية أخرى، تحت مصطلح واحد هو «العنف» لطمس طبيعة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى. ويتم التركيز فقط على «العمليات الاستشهادية» باعتبارها إرهاباً يوازى ماحدث فى نيويورك يوم الحادى عشر من سبتمبر.

وتحت غطاء «سحابة الدخان الإعلامية» هذه التى يتم تمرير المخططات الإسرائيلية والأمريكية تحت غطائها، كان حرياً بوسائل الإعلام العربية الرسمية وتلك التى تعبر عن «المجتمع المدنى»، أن تسلك نهجاً هجومياً يفتد تلك المصطلحات ويفضح محتواها المزدوج، واستخداماتها المطاطة . وبدلاً من ذلك «النهج الهجومى»، أضاع الخطاب الإعلامى العربى فى الكتابات والندوات والمؤتمرات (بما فى ذلك المؤتمر الذى عقدته الجامعة العربية) وقتاً ثميناً فى محاولة بائسة لما يسمى «تحسين صورة الإسلام لدى الغرب».

ولعله من الاستثناءات القليلة فى هذا المقام، ذلك المقال الهام الذى كتبه الأستاذ فهمى هويدى (الأهرام : ٢١ مايو ٢٠٠٢) بعنوان «الاحتلال أعلى درجات العنف». إذ تضمن هذا المقال صيحة فى الاتجاه الصحيح: إن مصطلح «وقف العنف» بصيغته الفضفاضة التى يسوقها الخطاب السياسى والإعلامى العربى لابد أن يستند إلى تحديد واضح ومحدد، «بحيث نفرق بين ما كان منه عدواناً على الحق، وبين ما كان ضرورياً ومفروضاً للدفاع

عن الحق. والأول هو الذى يستحق منا الإنكار بامتياز حيث يتربع الاحتلال على قمته بحسبانه أعلى درجات العنف».

كذلك أشار الأستاذ مكرم محمد أحمد (المصور . ١٠ مايو ٢٠٠٢) إلى مشكلة القصور الإعلامى العربى فى الخارج بقوله : «إن جدار الإعلام الغربى ليس مصمتا إلى الحد الذى يستحيل على الحق العربى اختراقه. لكن جوهر المشكلة أننا لانملك إدارة واضحة، ولا نملك خطة متكاملة، ولا نعد أشخاصا ذوى كفاءة يتوفرون على تنفيذ هذه الخطة».

بيد أن الخطة الإعلامية العربية الهجومية يجب ألا تقتصر على الدفاع عن الحق العربى، بل يجب أن توجه سهامها إلى المفاهيم والأطر التحليلية والتراكيب اللغوية التى تستخدم لطمس الحقائق وتزييف الوعى، وإلغاء التمايزات بين الحق والباطل. وهذا النوع من العمل يحتاج إلى جهد جاد يشارك فيه مفكرون وباحثون متفقهون فى تاريخ العلاقات السياسية الدولية وفى القانون الدولى لإدارة «لغة الصراع» ضد الهيمنة الإعلامية الصهيونية والأمريكية، على أسس علمية وفقهية سليمة.

لماذا تحارب أمريكا؟

ولعل من أهم حلقات تلك الحرب الإعلامية - الفكرية المشتعلة منذ أحداث «الحادى عشر من سبتمبر» ذلك البيان الهام الذى وجهه ستون من المثقفين والأكاديميين الأمريكيين فى رسالة مفتوحة إلى العالم يوم ١٢ فبراير ٢٠٠٢، تحت عنوان مساند للإدارة الأمريكية: «من أجل ماذا تحارب أمريكا؟».

ويحمل هذا البيان توقيعات عدد من كبار المثقفين الأمريكيين على رأسهم : «فرانسيس فوكوياما» و«صمويل هنتجتون».

ويحاول البيان أن يبرر الحرب التى تشنها الولايات المتحدة الأمريكية ضد مايسمى بالإرهاب على أنها «حرب عادلة» تستند إلى أسس ومبادئ أخلاقية! ويقول البيان: «إذا امتلك المرء إثباتات دامغة على أن هناك أناساً أبرياء ليسوا فى وضع يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأنهم سيتعرضون لخطر كبير ما لم تستخدم القوة لوقف المعتدى، عندها يستدعى المبدأ الأخلاقى القاضى «بمحبة الجار» تدخلنا بقوة».

ثم يسترسل البيان ليتحدث عمن يسميهم «مجرمى ١١ سبتمبر» على النحو التالى . «هؤلاء القتلة المنظمون ذوو البعد العالمى يهددوننا جميعاً . وباسم المبادئ الأخلاقية والإنسانية العامة، وبوعى كامل لقيود ومتطلبات

«الحرب العادلة» ، نؤيد قرار حكومتنا ومجتمعنا باستخدام حد السلاح ضدهم». وتجيء خلاصة البيان لتقول :

«إننا نرفع معاً صوتنا موحدا القول بجدية شديدة إن انتصار أمتنا وحلفائها في هذه الحرب هو أمر حيوي». وهكذا يعطي بيان كبار المثقفين والاكاديميين الموقعين على هذا البيان، غطاء أخلاقيا وفكرياً لانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقرار الحرب وباستخدام الحرب كوسيلة وحيدة للتعامل مع الموقف. وبالتالي إطلاق يد «البنتاجون» ورجاله لتجريب كل أنواع الأسلحة والطائرات والقنابل كما شهدنا في أفغانستان.

ورغم أن البيان يعترف في مقدمته بأنه منذ ١١ سبتمبر، يسأل ملايين الأمريكيين أنفسهم: لماذا نحن هدف لاعتداءات مفعمة بالبغضاء؟ ويرد موقعو البيان على هذا التساؤل بقولهم:

«نحن نعترف بأن أمتنا قد تصرفت، في أوقات معينة، بغطرسة وتجاهل تجاه مجتمعات أخرى. وفي أوقات، اتبعت أمتنا سياسات طائشة وغير عادلة. وكثيراً ما أخفقنا كأمة في اتباع ماننتهجه من مثاليات».

بيد أن البيان لايبذل أدنى جهد لتحليل تلك السياسات التي تعتبر المسئولة عن جذور ما يسمى بالإرهاب، واستهداف الولايات المتحدة والمصالح الأمريكية بصفة خاصة. إذ إن التوصل إلى بناء «سلام عادل ودائم»، على نحو ماجاء في ختام البيان يستلزم بالضرورة التحليل بعمق وأمانة لأسباب الكراهية المتزايدة للسياسات الخارجية للولايات المتحدة عبر بقاع عديدة في العالم، وعلى رأسها بلدان المنطقة العربية.

كانت الأمانة العلمية تقتضي أن يقوم هؤلاء المثقفون والأمريكيون بتحليل عميق للبحث في جذور الأزمة التي تواجه الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمي، بعد انفرادها بعجلة القيادة في أعقاب انتهاء ماسمي «بالحرب الباردة». إذ إن تفويض الحكومة الأمريكية بشن الحرب ضد كل بلد وكل نظام لاينصاع للإملاءات الامريكية تحت شعار «محاربة الإرهاب»، هو بالتحديد ترخيص للإدارة الأمريكية ، وللبنتاجون تحديدا، بممارسة «غطرسة القوة»، واتباع سياسات طائشة وغير عادلة، على النحو الذي جاء في مقدمة البيان.

رد الفعل العربي

ولعل رد الفعل من الجانب العربي على بيان «الستون مثقفاء - على حد علم الكاتب - جاء من السعودية من

تجمع يشمل أكثر من ١٥٠ شخصية، تضم قضاة ورجال دين وأعضاء في مجلس الشورى، ومثقفين ورجال أعمال تحت عنوان : «على أي أساس نتعايش؟!».

وقد اقتصر «البيان السعودي» على رفض «العلمانية» كخيار كما دعا الغرب إلى «انفتاح جاد على الإسلام وقراءة مشاريعه والتعامل بهدوء من الواقع الإسلامي». ومن ناحية أخرى، اقترب البيان من جوهر القضية، عندما أشار إلى . أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أكثر الدول مخالفة لإعلان حقوق الإنسان ولقيم العدل والحق. ويظهر هذا في الوقوف الدائم مع الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، وتبرير كل الممارسات الظالمة ودعمها بأحدث الأسلحة التي تقتل الأطفال والشيوخ والنساء وتهدم المنازل».

وكان من الواجب أن تتعدد ردود الفعل من جماعات الكتاب والمثقفين والأكاديميين العرب للرد بشكل علمي وفقهي على بيان «الستون مثقفاً أمريكياً» ، الذي يبرر الحرب التي تشنها الولايات المتحدة ضد ما يسمى «بالإرهاب» في مناطق عديدة في العالم لفترات طويلة وممتدة تحت شعار «الحرب العادلة»! فلقد أعلن نائب وزير الدفاع الأمريكي «بول وولفوفيتز» أخيراً أن الحملة العسكرية الأمريكية مستمرة وطويلة، ربما أقل طولاً من الحرب الباردة .. ولكن لا بأس أن نفكر بالمشابهة بالحرب الباردة (راجع جريدة الحياة، ١٦ يوليو ٢٠٠٢).

مسئولية الحرب الإعلامية

لاحظنا فيما سبق مدى الارتباك والاضطراب الإعلامي العربي على الصعيدين الرسمي والشعبي، بعد أحداث «الحادي عشر من سبتمبر»، والقصور في رسم سياسة إعلامية هجومية تتناسب مع حجم الهجمة الإعلامية الصهيونية وهيمنة وسائل الإعلام الأمريكية على الرأي العام العالمي.

بيد أن إدراك تلك الحرب الإعلامية بكفاءة ليست مسئولية العرب وحدهم، بل كل القوى الحية في العالم . ونحن نجد إرهاصات وبدايات نقدية جيدة فيما يكتب في بعض الصحف البريطانية مثل «الجارديان» و«الإنديبندت»، بعد أحداث «الحادي
عشر من سبتمبر». كذلك نجد في كتابات «باتريك سيل» الصحفي البريطاني المعروف المتخصص في قضايا الشرق الأوسط محاولات جيدة لتقديم رؤية نقدية للمفاهيم والرؤى

الأمريكية. كذلك هناك مقال مهم للكاتب الصحفى جون بلجر John Pilger يفند به مفهوم «الدولة المارقة The Rogue State» ، كما تطرحه الإدارة الأمريكية .

وهنا لابد من الإشارة إلى أهمية التمايز الأوروبى، سياسياً وإعلامياً بعد عمليات الاجتياح الإسرائيلى لمناطق السلطة الفلسطينية (مناطق «أ») بالضفة الغربية. إذ إنه عندما تمايز الموقف الأوروبى، بدأت آلة الدعاية الإسرائيلية والصهيونية فى توجيه تهمة «العداء للسامية» للبلدان الأوروبية التى رفضت العدوان الإسرائيلى على أراضى السلطة الفلسطينية وأدانته، وخاصة فرنسا وبلجيكا.

وأمام هذه الحملة الشرسة لآلة الدعاية الصهيونية والإسرائيلية، كتب «كريس باتن» (Chris Patten)، المفوض الأوروبى للعلاقات الخارجية والحاكم السابق لجزيرة «هونج كونج»، فى جريدة الهيرالد تريبيون (٨ مايو ٢٠٠٢) مقالاً هاماً بلهجة هجومية ضد تلك الادعاءات الصهيونية. وجاء فى مقال «باتن» الهام أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ المخضرمين فى الولايات المتحدة أخبر زائرا أوروبيا مؤخرا : «إننا اليوم كلنا أعضاء فى حزب الليكود الإسرائيلى، وبالتالى فإن أى انتقاد لفلسفة وسياسات الليكود تستدعى اتهام المرء بالعداء للسامية».

وبعد إيضاح تلك الخلفية لموقف أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ الأمريكيين، أوضح «كريس باتن» أن الموقف الأوروبى لدعم حق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم، والعودة إلى حدود عام ١٩٦٧ ليس موقفا «معاديا للسامية»، حسب صياغات الليكوديين فى أمريكا، بل هو موقف لمناصرة الحق وقيم العدالة.

إذ إن هذا النوع من «الرد الهجومى» (وليس «الدفاعى الاعتذارى» على الطريقة العربية) هو السبيل الوحيد التصدى لتلك الحملة الصهيونية الأمريكية الشرسة التى تقوم على الإرهاب الفكرى والـ Intimida-tion . لقد كانت لهجة المقال نموذجية من حيث «الرصانة»، من ناحية ، و«الهجومية»، من ناحية أخرى. فلقد وصف «باتن» ماكتبه كاتب عمود أمريكى مهم، جورج ويل (George Will) فى جريدة «واشنطن بوست»، من حيث اتهام بعض المواقف الأوروبية «بالعداء للسامية»، بأنه كلام فارغ، لأن تلك هى

اللغة الوحيدة التى يفهمها هؤلاء الكتاب المتبجحون .

تحديات تواجه العرب

وهكذا يتضح أن حجم التحديات السياسية والإعلامية التى يواجهها العرب بعد أحداث «الحادى عشر من سبتمبر» قد ازدادت تعقيداً. ولم يعد مجدياً الاكتفاء بالعبارات الإنشائية والشعارات الرنانة . إذ لابد من الفطام فى الحالة الإعلامية التى تحكمها «ثقافة الغضب» لكى نطلق من خلال استراتيجية إعلامية وسياسية هجومية تخاطب العمق المفاهيمى للحملة الإعلامية الصهيونية - الأمريكية . وإدارة «حرب المصطلحات» بأسلوب علمى يستند إلى قدر كبير من الجهد والإبداع.

واقترح بهذا الخصوص تشكيل فريق عمل مركزى برعاية الجامعة العربية يتولى توجيه إدارة تلك المعركة الإعلامية الكبرى، وتتفرع عنه «فرق عمل» Task Forces متخصصة فى مجالات محددة، وأحسب أن لدينا شخصيات فكرية وأكاديمية لامعة فى الداخل والخارج قادرة على تشكيل فريق العمل المركزى ، وأذكر فقط على سبيل المثال فقط وليس الحصر، شخصيات مرموقة تجيد اللغات الأجنبية ومتميزة فى فهم الفكر الغربى: الدكتور كلوفيس مقصود (لبنان)، الدكتورة حنان عشراوى (فلسطين)، الدكتور جورج أبى صعب (الخبير القانونى الدولى المقيم بسويسرا- مصر)، الدكتور إدوارد سعيد (فلسطين) ، الدكتور كمال أبو المجد (مصر)، الدكتور صلاح عامر (مصر)، وعشرات آخرون من كبار المفكرين ورجال القانون فى المهجر وفى سائر أرجاء الوطن العربى.

وتكون مهمة هذا الفريق المركزى هى تغذية الكتاب والصحفيين والشخصيات العامة، والسياسيين والدبلوماسيين الذين يشاركون فى المناظرات والمقابلات التليفزيونية، ويكتبون المقالات فى الصحف الأجنبية، ويلقون الخطابات فى المحافل والمنتديات الدولية بالمادة الإعلامية المنهجة والمناسبة، التى تقارع الحجة، بالحجة، وتوثق القول بالوثائق والوقائع.. بالإضافة إلى حسن العرض والبيان. وغنى عن القول أن هذه الحملة الإعلامية العربية المضادة يجب ألا تتقيد بحدود السياسات أو المواقف الرسمية للحكومات، لأن المعركة الإعلامية المفتوحة تمس المستقبل والمصير العربى فى الصميم.. ولا تتعلق بقضايا الحاضر والأجل القصير. ودعونا دائماً نتذكر الحكمة القائلة بأن : «الهجوم هو خير وسيلة للدفاع». ■

عام على أحداث سبتمبر
صعود إلى الهاوية؟!

خريطة جديدة للشرق الأوسط

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

لعل الوقت مازال مبكرا لاصدار احكام تتسم بالموضوعية العلمية على تأثيرات أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على جميع المستويات : النظام العالمى، والنظم الإقليمية، والدول ذاتها، غير أن مرور سنة على تلك الاحداث يمثل دون شك حافزا على امعان النظر فيما جرى ويجرى حتى الآن. لاحظت أن كثيرا من الشعارات الاعلامية فى يوم إحياء الذكرى الأولى للاحداث قد ركز على معنى «اليوم الذى تغير فيه العالم». وحاولت أن امارس نوعا من التأملات العقلية الهادئة بهدف العثور على اجابة صحيحة لسؤال التغير: هل أصبح العالم بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حقيقة مختلفا عنه قبله؟ ربما يرجح باحث مثلى أن الأمر ليس كذلك بالتحديد على الرغم من إغراءات هائلة بالتوصل إلى استنتاج مخالف، فكثير مما يحدث فى العالم الآن له جذوره الممتده إلى عقد أو عقود سبقت من الزمن دون أن ننكر أن الأحداث ربما تكون أفضت الى فروق قد تكون كبيرة أو حتى هائلة فى الدرجة، وإن صعب علميا قياسها ومن ثم مقارنتها بغيرها فى أحداث سابقة .

ولاشك فى أن مساواية الأحداث وجدة الأسلوب المستخدم فيها قد ساعدا على اشاعة الانطباع باننا لابد أن نكون إزاء عالم جديد لكن المرء يجد صعوبة حقا فى اثبات ذلك . أتكون الأحداث قد أفضت الى عالم القطبية الاحادية؟ لقد عشنا مع هذه السمة ما يزيد على عقد من الزمان حتى الآن منذ تفكك الاتحاد السوفيتى رسميا فى ١٩٩١ وان كانت القطبية الأحادية الفعلية قد بدأت قبل ذلك بسنوات وهكذا يصبح أقصى تاثير لأحداث سبتمبر أن تكون قد ساهمت فى ترسيخ القطبية الأحادية وليس فى خلقها أتكون الاحداث قد أدت الى توحش أميريكى فى التعامل مع الخصوم الذين يراهم الكثيرون مجرد متهمين لم تثبت إدانتهم حتى الآن، ومن ثم يصعب قبول معاملتهم على هذا النحو؟ واذا كان الحال كذلك بماذا اذن نسمى السلوك الاميريكى فى فيتنام فى ستينات القرن العشرين والذى أحسب أنه تضمن من القتل والتدمير ما يفوق ما حدث فى أفغانستان فى أعقاب أحداث سبتمبر بكثير . أيكون الجديد هو العمل الانفرادى خارج إطار الشرعية الدولية؟ لعل انتهاك هذه الشرعية يمثل على نحو منتظم ومملـ سمة بارزة فى التفاعلات الدولية ويكفى أن نتذكر للمرة الثانية المثال الفيتنامى حين تصرفت الادارات الاميريكية المتعاقبة، حتى دون قرار أميريكى باعلان الحرب، ناهيك عن غياب أى قرار دولى يدعم السلوك الأميريكى فى فيتنام أو حتى يبرره.

غياب الشرعية الدولية

كذلك قد يكون الالتفاف الأمريكى على قرارات مجلس الامن وتجاوزها فى الحالة العراقية مثالا إضافيا مفيدا، كما قد تكون حرب يوغوسلافيا بشرعية أطلنطية مثالا ثالثا يؤكد الغياب المنتظم للشرعية الدولية عن أفعال عديد من القوى الدولية أيكون الجديد هو تلك الردة المقلقة عن بعض ضمانات الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الولايات المتحدة؟ ما القول اذن فى سنوات الرعب الاحمر فى مرحلة المكارثية فى خمسينات القرن العشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية التى عصفت بحقوق الانسان عصفا، استنادا الى مبررات واهية سوغتها الحرب الباردة ضد الشيوعية ومعسكرها ؟

لا يعنى ما سبق بالتأكيد أننا نريد التقليل من شأن ما جرى من قبل الادارة

الاميريكية فى العالم فى أعقاب أحداث سبتمبر، ولكن الهدف منه هو إبراز معنى مهم يتمثل فى أن ما يجرى ليس سوى تعبير عن حقائق بنيوية فى السياسة الأميريكية موجودة قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر بكثير وان كانت الاحداث قد اطلقت قوى اليمين المتطرف، القابعة فى البيت الأبيض، من عقالها فراحت تفعل ما يحلو لها دون أن تجشم نفسها مشقة البحث عن شرعية ولو مزيفة أو كسب الانصار والحلفاء .

ومع ذلك فإن ثمة احتمالا وحيدا لأن تفضى احداث سبتمبر إلى تغيرات جذرية فى العالم فيما لو افضت الى تاكل حقيقى فى القوة الاميريكية نتيجة اتساع نطاق عملها. بعبارة أخرى فان الأمثلة التى سبقت الاشارة اليها على افعال أمريكية مماثلة سابقة على أحداث سبتمبر كانت جزئية ومنفصلة زمنيا، بمعنى أنه أتى على الولايات المتحدة حين من الدهر كانت متورطة فى قتال فى كوريا وحدها أو فيتنام وحدها .... الخ أما الآن فإن الأمر يبدو وكأنها تشعل حربا عالمية تواجه فيها خصوما عديدين، وليس واضحا حتى الآن الكيفية التى ستتطور بها المقاومة الحتمية للسلوك الأميريكى، وإن كان من المؤكد أنها قائمة ومتجهة نحو التصاعد وكلما تسارعت حركة مقاومة السلوك العدوانى الاميريكى اقتربت القوة الأميريكية أكثر واكثر من مقولة بول كنيدى الشهيرة عن صعود الامبراطورية العالمية وسقوطها: فعندما تتجاوز تكلفة تلبية متطلبات حماية الامبراطورية العائد منها يبدأ التآكل فالسقوط .

الانحياز الكامل لإسرائيل

ولو حاولنا أن ننتقل من العام الى الخاص اى من العالمى الى العربى لوجدنا معطيات النموذج التحليلى نفسه تقريبا: اذ ما الجديد فى السلوك الأميريكى تجاهنا؟ انحياز لاسرائيل تعودنا عليه منذ نشأتها فى ١٩٤٨ وتطور دوما وفقا لمنحنى صاعد بغض النظر عن أية متغيرات امريكية أو إقليمية أو عالمية ؟ اعمال للقوة العسكرية ضد العراق نعايش وقائعه على نحو منتظم منذ حررت الكويت فى ١٩٩١، يتصاعد حينا الى حد يقترب من

الضربات الشاملة ويقتصر حينا اخر على ضربات محدودة تزعم الولايات المتحدة أنها وقائية أو حتى روتينية؟ اعلان لنية تغيير النظام فى العراق بالقوة يجسد بكل المقاييس صفاقة الخروج على المعايير الدولية وان كان لايجب أن ينسينا أن محاولات الولايات المتحدة لتغيير النظم فى المنطقة قديمة قدم بروز دورها القيادى فى الشئون العالمية مع فارق ينبغى الاعتراف به وتسجيله توخيا للموضوعية وهو أن تلك المحاولات قد اتسمت فى السابق بالسرية؟ أزمة فى العلاقات مع مصر بسبب مفتعل لايعدو أن يكون غطاء لعدم رضا أميريكى سابق عن السياسة الخارجية المصرية التى تحاول بصعوبة أن تحتفظ لنفسها باستقلالية عن السياسة الاميريكية فى القضايا المتعلقة بمصالحها الحيوية، على نحو افضى إلى أزمات بنيوية متكررة فى هذه العلاقات فى مرحلتها الراهنة . ضغط أميريكى لفرض اتفاق على طرفى الصراع الرئيسيين فى السودان من المرجح أن يفضى حال تطبيقه إلى تفكيك السودان الذى كان دوما هدفا معلنا أو غير معلن للسياسة الأميريكية، تسريب متعمد لافكار خطيرة بشأن مستقبل السعودية بلورتها مؤسسات بحثية وثيقة الصلة بدوائر صنع القرار الأمريكى لايجب أن ينسينا أن اصابع الاتهام قد اتجهت من قبل الى دور خارجى فى اغتيال الملك فيصل بعد أن تبنى موقفا عربيا يتصادم مع المصالح الاميريكية .

قد يرى البعض أن ثمة مبالغة فى الإصرار على القول بأن احداث سبتمبر لم تغير العالم كما يتصور الكثيرون أو أنها لم تحمل ملامح مختلفة جذريا عما ألفناه فى السياسة الامريكية تجاه الوطن العربى، غير أن المعنى الذى يجب التأكيد عليه أو حتى الاصرار على التمسك به هو ما سبقت الإشارة إليه فى الحديث عن تأثيرات الاحداث على المستوى العالمى: فليتحدث المتحدثون عن خطورة السلوك الأميريكى وبشاعته وخروجه عن القانون الدولى كما يريدون غير أنهم لايجب أن ينسوا أن هذا السلوك يجد جذوره فى حقائق بنيوية راسخة فى السياسة الامريكية .

وبالتالى فان القول بأن السياسة

الأميريكية الراهنة تمثل استمرارا بنيويا لنموذج ألفناه منذ عقود طويلة لايعني أننا نتصور أن ما يحدث في المنطقة الآن ليس خطيرا. لقد كان كذلك قبل الاحداث فما بالنا وقد صاحبته فروق في الدرجة تبدو بالنسبة للمنطقة العربية واضحة وبالغة الخطورة ؟

القضاء على المقاومة الفلسطينية

يكفي أن نشير الى ما ترتب على أحداث سبتمبر والاندفاعة الأميريكية في «الحرب ضد الإرهاب» من إعادة تكييف الصراع العربي - الاسرائيلي بحيث أصبح من المنظور الأميريكي حربا ضد الإرهاب الذى تمثله المقاومة الفلسطينية وليس نضال شعب محتل من أجل نيل حقوقه وبالتالى أصبحت افكار التسوية الأميريكية تنطلق من ضرورة القضاء على الارهاب أى المقاومة الفلسطينية والقيادة الفلسطينية التى ترعى هذا الارهاب واذا كانت اسرائيل تتكفل، بدعم اميريكى مطلق، بالمهمة الأولى فلا مانع أن تنجز المهمة الثانية بوسائل «ديمقراطية» تصل بالمسعى الاميريكى المعلن لنشر الديمقراطية فى العالم قيما وممارسة الى الحضيض . واذا كنا نعيب على ديمقراطيتنا أن الفائز يتحدد فيها سلفا فها هى الولايات المتحدة الديمقراطية تحدد الخاسر مسبقا .

قد نضيف الى ما سبق الاستشهاد بالهدف الأميريكي المعلن فى إطاحة النظام العراقى بالقوة والذى من شأنه لو تحقق أن يؤسس سابقة خطيرة فى المنطقة، خاصة وأن اشتراطات بوش المستحيلة فى خطابه أمام الجمعية العامة فى الشهر الماضى (سبتمبر ٢٠٠٢) اذا أراد العراق أن يتفادى الضربة الاميريكية تطول جميع النظم العربية، فمن من هذه النظم لايمكن اتهامه بأنه غير ديمقراطى أو يسئ معاملة أقلية أو أكثر فيه بما يجعلها كافة عرضة لمعاملة مماثلة لتلك التى يهدد النظام العراقى بها اذا ما تعكر صفو المزاج الأميريكى ؟

وقد نتأمل ثالثا، واخيرا فى دلالات الموقف الاميريكى الراهن من كل من مصر والسعودية اللتين لايمكن التشكيك فى متانة العلاقة التعاونية التى تربط كلا

منهما بالولايات المتحدة الاميريكية وحرصهما المشترك على هذه العلاقة، ومع ذلك فالواضح أن اليمين الاميريكي الجامح فى البيت الابيض لم يعد يرضى باقل من الاستتباع الكامل .

إعادة صياغة العالم العربى

لقد خططت الولايات المتحدة السيطرة على هذه المنطقة من العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وبروز دورها القيادي العالمي، وتكفلت الحركة القومية العربية الصاعدة فى الخمسينات والستينات من القرن الماضي بالتصدى لها إلى أن وقعت هزيمة ١٩٦٧ . صحيح أن الصمود قد استمر بعدها حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لكن الآثار البنيوية للهزيمة جنبا الى جنب مع المعالجات السياسية العربية الخاطئة سواء للصراع العربى - الاسرائيلى أو للعلاقة من ايران سمحت للولايات المتحدة الأميريكية بان تعزز ما كانت قد حققته من مكاسب جزئية فى المنطقة، ثم جاء الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠ ليعطى الولايات المتحدة الاميريكية المبرر الذى احتاجته طويلا للوجود العسكرى المباشر والكثيف فى المنطقة، وتكفل تفكك الاتحاد السوفيتى بتأمين هذا التطور الأخير، ثم وقعت احداث سبتمبر لكى تعطى الولايات المتحدة الاميريكية شرعية التفكير فى إعادة صياغة العالم ومنه وطننا العربى، وفق اهدافها ومصالحها . ولو وضعت الأفكار الأمريكية الراهنة موضع التطبيق فسوف يعنى هذا اطاحة نظم وتفكيك دول واختفاء بعضها من الخريطة السياسية أصلا بما يتلاءم والمصالح الأمريكية . بعبارة أخرى سوف تكون أحداث ١١ سبتمبر هى العامل المساعد على وضع الحلم الأميريكى القديم بالنسبة لترتيب أوضاع المنطقة موضع التطبيق وقد أصابت السهام الأمريكية النظم العربية كافة ومن هنا فقد تكون ثمة بارقة أمل فى أن تتمكن هذه النظم من التفكير فى اطار جماعى والتحرك بالطريقة نفسها ومد الجسور مع شعوبها من أجل مواجهة مخططات خطيرة، صحيح أننا ألفناها، لكننا لم نشهد من قبل مثل هذه الاندفاعة المجنونة لتنفيذها... ■

رسالة نيويورك

من أحمد مرسى

أطول يوم فى التاريخ



تحولت مأساة ١١ سبتمبر إلى ورقة ضغط سياسي أكثر بشاعة من الحادث نفسه •

جئت إلى نيويورك في ١٩٧٤ وليس في النية أن نبقى أكثر من خمس سنوات . وقد مضت حوالى ٢٨ سنة ومازلنا نقيم هنا لأسباب كثيرة ومختلفة ، ولكنها يمكن أن تلخص فى سبب واحد ، وهو أنك فى هذه المدينة - بالذات - لا تشعر بالغربة ، على عكس أى مدينة أخرى فى العالم ، وخاصة فى المعاملات الرسمية ، فيما قبل ٢٠٠١/٩/١١ بطبيعة الحال . فالمفترض أنك مواطن حتى لو كنت لا تعرف كلمة انجليزية ، حتى تقول أنك غير مواطن. فالغالبية العظمى من سكان المدينة ، مواطنين أو مهاجرين شرعيين . أو غير شرعيين قد ولدوا فى بلدان أجنبية . أما على المستوى الشخصي ، فقد شعرت منذ بداية إقامتى أن المدينة تحتضنك بقدر إحتضانك لها ، بمعنى أنها لا تكشف عن كنوزها إلا لمن يعرف ما الذى يبحث عنه .

وما الذى يطلبه شاعر ، كف عن كتابه الشعر عمداً لانه شعر بأنه يشذ عن القطيع فى الجوهر والشكل ، ومن ثم كانت غربة روحية امتدت من ١٩٤٩م إلى ١٩٦٧م . وإنقطعت تقريبا عنه قراءة الشعر العربى الذى كان يكتب فى هذه السنوات الطويلة ، ولكننى واصلت قراءته بالانجليزية . وما الذى يطلبه فنان تشكيلى فى مدينة أصبحت عن جدارة كعبة الفن الحديث بكل ما فيه من حركات جادة وأخرى بهلوانية أو حتى عبثية مدينة تحتوى متاحفها على أغلى كنوز العالم . مدينة حولت الفنون والآداب إلى صناعات .

إن كل هذه الميزات لاتعدو أن تكون وسائل إغواء . ولكن هذا الإغواء - الذى لابد فى النهاية أن يفضى إلى التماهى - لايمكن أن يتحقق قبل نجاح عملية البحث ، لا عن المدينة الحقيقية ، ولكن عن الذات داخل المدينة وهذا هو ما فعلته وأستغرق حوالى ٢٣ سنة ، حينما بدأت عودتى إلى كتابة الشعر بقصيدة أهديتها إلى صديق العمر ، إدوار الخراط (١٩٩٧) . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أصدرت ثلاث مجموعات شعرية جديدة ، إلى جانب مجموعتين تحت الطبع . وقد كتبت معظم قصائدى سائراً فى شوارع نيويورك ، حتى أصبح كل شبر فى الطرق المختلفة التى أذرعها من بيتى فى منتصف المدينة إلى داون - تاون يشمل جزءاً عزيزاً من تاريخى ، بما فى ذلك المقاهى المعينة التى أتردد عليها كمحطة نهائية حسب الطريق الذى اختاره ، وحيث أدون القصيدة أو السطور التى تخلقت أثناء المشى وحتى مركز التجارة العالمى قد أودعته جزءاً - مؤلماً - من هذا التاريخ الذى أتردد فى وضع صفة له . فقد كنت أصحب ابنتى فى ساعة مبكرة من صباح الأحد لمدة غير قصيرة إلى أحد البرجين حيث كانت تقضى اليوم فى معمل كمبيوتر ، لقاء ٢٥٠ دولاراً فى كل مرة ، برغم أنها كانت تحمل درجة الماجستير فى الاقتصاد الدولى من جامعة ييل . ولكنها قررت أن تغير مسار حياتها . وهذا سلوك لايمكن أن يحدث فى أى مكان آخر .

مدينة موحشة .. جميلة

لم تكن هذه الرحلة ، بطبيعة الحال ، لمجرد الاطمئنان على سلامة ابنتى ، خاصة وأن قطارات الأنفاق تتحول فى ساعات النهار المبكرة أيام عطلات نهاية الأسبوع إلى مأوى للمشردين الذين ربما يقضون ليلهم داخل القطار ولكنى كنت أنتهز الفرصة لأجوب شوارع قاع المدينة الموحشة والجميلة فى نفس الوقت . خاصة وأن هذه المنطقة بالذات تحتوى على كنوز معمارية يرجع معظمها إلى بدايات القرن العشرين ، بما فيها منطقة مقر العمدة - السيتى هول - والميدان الفيدرالى وبقية المبانى الحكومية الباذخة ، «وول ستريت» بشوارعه الضيقة التى لاتزال تحمل عبق تاريخ المدينة ، منذ كانت عاصمة للولايات المتحدة .

وفى صباح ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، ومثل معظم سكان المدينة . بدأت الكارثة تتكشف لى بخبر من ثلاث أو أربع كلمات سمعته من إذاعة نيويورك تايمز للموسيقى الكلاسيكية - مجرد وقوع ارتطام طائرة بأحد البرجين ، فسارعت إلى التليفزيون لأرى المأساة مشهداً بعد آخر حتى انهار

رسالة نيويورك

العملاقان وتقلصا إلى كومات من الحديد المصهور واللحم البشرى المحروق والغبار كريه الرائحة الذى تسلل إلى جميع أحياء مانهاتن .

لا أستطيع الآن ، بعد عام أن أصف بدقة المشاعر التى انتابتنى لحظة وقوع الكارثة . وكأى إنسان آخر ، تركز قلقى - الشخصى - على مصير أبنتى التى تعمل فى نفس المنطقة ولكن ليس فى البرجين بالذات . ولم يتبدد هذا الخوف إلا عندما اتصلت بى من الشارع وأبلغتنى أن الطريق مسدود وسوف تعود إلى البيت فى سيارة أحد الزملاء .

لاشك أن الذهول شل تفكيرى تماماً ، ولكن وقع الفاجعة على المستوى الإنسانى البحت بلغ من العمق حداً حولها إلى شىء أقرب إلى الواقع الوهمى أو اللاحقيقى ، على الأقل من قبيل التمنى ، حتى لا أواجه ببشاعة ولا معقولية الواقع .

ولم يخرجنى من غيبوبة الرفض إلا السرعة المذهلة التى حولت بها هذه التراچيديا الإنسانية التى اتخذت أبعادا أسطورية إلى أداة شحن سياسى تعرت فيه جوانب لا تقل قبحاً وبشاعة عن الحادث . وإن كانت فى البداية لا تشوبها بقعة دم .

فقد تحولت ماكينات الميديا الجهنمية ، لا أقول فجأة ولكن بسرعة خارقة ، إلى أنياب تنهش فى جسد الإسلام والعرب الذين حملوهم وزر من ارتكبوا هذه الجريمة . وفى غمرة الذهول ونزيف الجرح الدامى ، الذى لم يبرأ بعد ، بدأ يطفو السؤال .. لماذا نحن مكروهون ؟

وقد أدلى كل بدلوه للرد على السؤال ، بما فيهم المسئولون عن إدارة بوش بمختلف المستويات ، وكان الرد المجانى والمريح والساذج هو الحقد عليهم لانهم يتمتعون بالحريات والثروة والقوة . ولكن الذين ساقوا هذا الرد - الجاهز - لم يتعمقوا فى دراسة أوضاع مختطفى الطائرات الثلاث الانتحاريين ،الاجتماعية والثقافية ، ناهيك عن المتهم الأول زعيم تنظيم القاعدة .

وفى الحقيقة لم يقنع هذا الرد - دوافع الحسد والحقد - عددا من المفكرين الذين واجهوا الفاجعة ذات الأبعاد - الخرافية - بما تستحقه من تفكير جاد وعميق ، ولم يترددوا ، مهابة أو جبناً أو حتى لمجرد الخوف من اتهامهم بالانشقاق والخيانة فى محنة لم تواجه أمريكا مثلها من قبل ، فرفع بعضهم المرآة أمام مايرون أنه حقيقة لاينبغى إنكارها .

لقد نشرت الصحف المصرية والعربية الشىء الكثير مما كتب فى تلك الأيام العصيبة التى أعقبت ٩/١١ . ولذلك لن أتعرض لهذه الكتابات وساكتفى فيما يلى بمقتطفات نشرت حديثاً فى كتب أو صحف أو مجلات ، وكان آخر مقال للروائية والمفكرة الجسور سوزان سونتاج .

فيما يلى مجرد سطور منتزعة من مراجعة الكاتب تونى چوديت لكتاب «تناقض القوة الأمريكية : لماذا لاتستطيع القوة العظمى الوحيدة فى العالم أن تفعل ماتريده وحدها» ، تأليف چوزيف ناى ، چونيور - مطبعة جامعة أوكسفورد» .. «قبل ١١ سبتمبر اقترح

الرئيس بوش زيادة ١٤ فى المائة (٤٨ مليار دولار فى إنفاق الدفاع لهذا العام ، وقد كانت الولايات المتحدة فى فئة خاصة بها وحدها . فهى لديها قواعد ، وسفن ، وطائرات ، وجنود فيما حول الكرة الأرضية . وتنفق واشنطن على قواتها العسكرية أكثر من أى بلد فى التاريخ وسوف تزيد ميزانية الدفاع الأمريكية عما قريب عن نفقات الدفاع السنوية للدول التسع التى تليها مجتمعة . حقا ، إن الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبى لديها جنود اكثر من الولايات المتحدة ، وإنفاق دفاعها جماعياً يبلغ مجموعة حوالى ٧٠ فى المائة من ميزانيات واشنطن فيما قبل ٢٠٠٢ ، ولكن النتائج فى التكنولوجيا والمعدات لا تقارن ببساطة . فالولايات المتحدة تستطيع أن تتدخل أو تشن حرباً فى أى مكان فى العالم تقريبا . ولا أحد حتى يقترب من ذلك .

لكن الـ «أمريكا» التى يفكر فيها جانب كبير من العالم لا تعرف بفرض النفوذ ، والقنابل الذكية ، أو حتى قواتها المسلحة . إنها أكثر حصافة وأكثر شيوعاً . وهى فى بعض الاماكن ذاكرة تحرير تتلاشى . وفى أماكن أخرى وعد بالحرية ، والفرصة والوفرة : استعارة سياسية وفانتازيا خاصة . وفى أماكن أخرى ، أو فى نفس الأماكن فى أوقات مختلفة ، تعرف أمريكا بالقمع المحلى . وباختصار ، أمريكا فى كل مكان - الأمريكيون - مجرد ٥ فى المائة من سكان العالم - يولدون ٣٠ فى المائة من إجمالى المنتج العالمى ، ويستهلكون تقريباً ٣٠ فى المائة من إنتاج البترول العالمى ، وهم مسئولون عن نصيب مماثل تقريباً من ناتج غازات الأحتباس الحرارى . إن عالمنا مقسم بطرق مختلفة : فقراء - أغنياء ، جنوب - شمال ، غربيون ، غير غربيين . والاكثر فالأكثر ، أن التقسيم الذى يعمل حسابه هو التقسيم الذى يفصل أمريكا عن أى أحد آخر .

«إن النزعة المعادية لأمريكا التى تشغل الآن المعلقين لاينبغى لذلك أن تعتبر مفاجأة . والولايات المتحدة ، بفضل وضعها الفريد ، معرضة لنظرة العالم النقدية فى كل شىء تفعله أو تفشل فى عمله ، وبعض الكراهية الفطرية التى تثيرها الولايات المتحدة هى وظيفة حقيقتها . وقبل أن ترقى لأمريكا إلى السيادة العالمية كان الزوار الأجانب ينتقدون ثقتها بالنفس الوقحة ، والثقة النرجسية للأمريكيين فى تفوق القيم والممارسات الأمريكية ، وعدم اكتراثهم الذى لا جذور له بالتاريخ والتقاليد - بتاريخهم وتقاليدهم وتاريخ تقاليد الشعوب الأخرى . وقد تضخمت عريضة الاتهام عندما اعتلت الولايات المتحدة المسرح العالمى ، لكنها لم تتغير كثيراً . وهذه المعاداة «الثقافية» للنزعة الأمريكية يتقاسمها الأوربيون ، والأمريكيون اللاتينيون والآسيويون، العلمانيون والمتدينون على حد سواء . إنها ليست كراهية للغرب ، أو الحرية ، أو التنوير أو أى فكرة تجريدية تمثلها الولايات المتحدة .

وإذا كانت أمريكا تثير الأشياء بما تمثله ، فهى تثير الكراهية بما تفعله . وهنا تغيرت الأشياء مؤخراً إلى الأسوأ

رسالة نيويورك

ويعدد تونى چوديت ، نقلاً عن كتاب «تناقض القوة الأمريكية» الأفعال المثيرة للاستياء ، مثل عدم تسديد مستحقاتها للمنظمة الدولية . ويصفها ، فى هذا الصدد ، بأنها مواطن دولى منحرف فهى تتردد فى الانضمام إلى المبادرات أو الاتفاقيات الدولية ، سواء كانت عن ارتفاع حرارة المناخ الجوى ، أو الأسلحة البيولوجية ، والعدالة الجنائية أو حقوق المرأة ، والولايات المتحدة هى إحدى دولتين اثنتين (الآخر الصومال) رفضتا التصديق على إتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩ . وقد سحبت إدارة بوش توقيع الولايات المتحدة على إتفاقية روما لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية وأعلنت عدم التزامها باتفاقية فيينا عن قانون الاتفاقيات ، والتى تحدد التزامات الدول بالتقيد بالاتفاقات التى توقعها . والقائمة التى يعددها الكاتب لا حصر لها . ولكنها فى النهاية ترد فى مجملها ضمنا على السؤال .. لماذا نحن مكروهون .

والمقال الثانى الذى أشرت إليه ، ضمن مجموعة كبيرة من المقالات الأخرى التى فى حوزتى ، هو المقال الذى «نشرته صحيفة نيويورك تايمز تحت عنوان ضخم «حرب» «war» طبع ببنط لم يسبق أن استخدمته الصحيفة من قبل لا فى مانشيتات الصفحة الأولى أو فى صفحة الرأى . ولكنه نشر فى نفس الوقت كعمل فنى يحمل توقيع الفنان الذى نبجه .تستهل سوزان سونتاج مقالها «حرب : معارك حقيقية واستعارات فارغة» بقولها .. منذ ١١ سبتمبر قالت إدارة بوش للشعب الأمريكى أن أمريكا فى حرب . لكن هذه الحرب ذات طبيعة غريبة ، فى ضوء طبيعة العدو ، حرب بلا نهاية منظورة فأى نوع من الحروب هذه ؟

ثم تقول أن هناك سوابق : فالحروب على أعداء مثل السرطان ، والفقر ، والمخدرات ، يفهم أنها حروب بلا نهاية . وسوف يكون هناك دائما سرطان ، وفقر ، ومخدرات . كما سوف يكون هناك دائماً إرهابيون مقززون وسفاحون مثل أولئك الذين شنوا الهجوم منذ سنة -- كما سوف يكون هناك مناضلون من أجل الحرية (مثل المقاومة الفرنسية والكونجرس الوطنى الأفريقى) اللذين كانا يسميان ذات مرة بإرهابيين من جانب أولئك الذين كانوا يعارضونهما ، ولكن التاريخ غير اسميهما .

«وعندما يعلن رئيس الولايات المتحدة الحرب على السرطان أو الفقر أو المخدرات ، نعرف أن «الحرب» استعارة . فهل يعتقد أى أحد أن تلك الحرب هى «استعارة» هل يعتقد أى أحد أن هذه الحرب -- الحرب التى أعلنتها أمريكا على الإرهاب -- هى استعارة ؟

«إن الحروب الحقيقية ليست استعارات . والحروب الحقيقية لها بداية ونهاية حتى الصراع الرهيب مستعصى الحل بين إسرائيل وفلسطين سوف ينتهى ذات يوم . لكن هذه الحرب المعادية للإرهاب لايمكن أن تنتهى أبداً . وهذه علامة على أنها ليست حرباً ، لكنها بالأحرى ، ولاية لتوسيع استعمال القوة الأمريكية .

ثم تقـــول ســــونتـــاج أن وصف السياسية الخارجية الأمريكية بأنها أفعال تنفذ فى زمن حرب هو عائق قوى لعقد مناقشة تيار أساسي عما يحدث بالفعل . وهذا التردد فى توجيه أسئلة كان واضحا بالفعل فى أعقاب هجمات ١١ سبتمبر مباشرة . وأولئك الذين عارضوا لغة الجهاد التى استعملتها الحكومة الأمريكية (الطيب ضد الشرير ، والحضارة ضد البربرية) اتهموا بالتغاضى عن الهجمات .

وأوضحت الكاتبة أن الدعوة إلى التفكير قد تساوت بالانشقاق، وتساوى الانشقاق بالافتقار إلى الوطنية . وبينما ساوت بين ١١ سبتمبر ٢٠٠١ و٧ ديسمبر ١٩٤١ ، فيما يتعلق بتعرض أمريكا لهجوم مباغت . استبعدت أنه كان هناك تفكير فى ١٩٤٢ لتنظيم فعاليات تذكارية لرفع الروح المعنوية وتوحيد البلد وذلك لأن الحرب كانت حقيقية . ولكن الحرب الحالية هى حرب أشباح ، ومن ثم كانت هناك حاجة للاحتفال بالسنوية .

باعدت بين التراجيديا الإنسانية أسطورية الأبعاد ، وبين علاقتى التى ازدادت حميمية بالمكان بعد ٩/١١ وبين الحرب الشبحية التى شككت كل الأقلام الأمينة فى أغراضها .

أكدت «سونتاج» أنها لاتشك فى وجود عدو شرير وبغيض يعارض كل ما نعتزّ به - بما فيه الديمقراطية، والتعددية والعلمانية، والمساواة بين الجنسين، والرجال غير الملتحين والرقص وكل أنواع الملابس الفاضحة، وأيضا المتعة» وأنا لم تشك لحظة واحدة فى التزام الحكومة الأمريكية بأن تحمى حيوات مواطنيها. ولكن الشىء الذى تشك فيه هو «الإعلان - الكاذب لحرب - كائنة فالاجراءات الضرورية لا ينبغى أن تُسمّى حربًا. فهناك حرب لا نهاية لها، ولكن هناك إعلانات بتوسيع استخدام القوة من جانب دولة تعتقد أنها لا يمكن تُتحدّى والبلد يقول بول أوستر «إن أقلية صغيرة فقط من النيويوركيين هم الذين صوتوا لصالح جورج «دبليو بوش» ويميل معظمنا إلى النظر إلى سياساته بتشكُّك. فهو ببساطة ليس ديموقراطيًا بما يكفينا فلا هو ولا حكومته قد شجّعوا عقد مناقشة مفتوحة عن القضايا التى تواجه البلد. ومع حديث الصحافة المستمّر عن غزو العراق، أصبح النيويوركيون قلقين.

وبينما اتهم زبيجنيو بريجنسكى، مستشار الأمن القومى فى إدارة كارتر، إدارة بوش وفى مقال بصحيفة النيورك تايمز، بالدخول فى حرب لا يدرى أحد إلى متى سوف تستمر وإلى أين سوف تمتّد، فى رد فعل انفعالى على أحداث ١١ سبتمبر، وبدون محاولة منهم ومعالجة دوافع كراهية أمريكا التى تجلّت بصورة صادمة ومذهلة فى ذلك اليوم.

... وأستطيع أن أقول أننى لم أكن وحدى حين باعدت بين التراجيديا الانسانية أسطورية الأبعاد، وبين علاقتى التى ازدادت حميمية بالمكان بعد ١١/٩ وتبين الحرب الشبحية التى شككت تلك الأقلام الأمينة فى أغراضها. ■



إشكالية الإبداع
والملكية الفكرية على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

انتقل التاريخ الإنسانى من العصر الحجرى إلى العصر الزراعى إلى الصناعى، والآن نستعد فى تجاوز عصر المعلومات. فى الماضى، كان الانتقال من عهد إلى آخر يحدث ببطء، وتتكشف فصوله على مدى عدة أجيال. ولكن عصر المعلومات الآن هز العديد من المجتمعات، وأحدث هزات مفاجأة فى جميع الاتجاهات. وقد حدث انفجار سكانى فى الفضاء السيبيرى. فتشير التقديرات الحديثة إلى أن حوالى ٦٠٠ مليون شخص فى العالم يستخدمون الإنترنت الآن بصورة متكررة، ويتوقع أن يصل عددهم إلى ٨٠٠ مليون عام ٢٠٠٣

وكما هو معروف أن الإنترنت ولد على يد علماء ومهندسى الكمبيوتر العاملين (DARPA) فى وكالة مشروعات البحوث المتقدمة التابعة لوزارة الدفاع لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى أواخر الستينات، لكن انطلاق وازدهار الإنترنت كان فى الثمانينات، وكان هؤلاء العاملون ينتمون إلى مؤسسات بحثية وأكاديمية فى الأقسام العلمية للحاسبات والهندسة. وهكذا ليس من المستغرب أن يكون تأثير علماء ومهندسى الحاسوب كبيرا على ثقافة الإنترنت، فمعظم المفردات التخصصية والمصطلحات على الشبكة موروثة من هذه المجموعة العلمية، وأكثر من ذلك فإن معظم، وإن لم يكن كل البرامج التى تبقى على جريان الإنترنت كتبت من قبل أعضاء هذه المجموعة. لذلك فإذا كانت ثقافة الإنترنت تملك «أسطورة أصيلة» فتقريبا كل لاعبيها الرئيسيين من علماء ومهندسى الحاسوب! لكن الأوقات تتغير، وتغيرت معها ديموجرافية الإنترنت تماما بطريقة درامتيكية! وتواصل التغيير السريع فى السنوات القليلة الماضية، فانكمش الطابع

الأكاديمي والبحثي والعلمي للإنترنت ، وساد الطابع الترفيهي والتجاري ! وهو ما توقعته بعض المقولات من انفجار وانهيار الشبكة بسرعة وبشكل كبير كما يحدث الآن ! فظاهرة الإنترنت لها ملمس الشهاب، الذي يندلع على غير توقع عبر السماء الليلية ويتوهج كنجم في السماء ، ثم يختفي كما بدأ بشكل مفاجئ! رغم ذلك فكل الشواهد تدل على حدوث انفجار في الابداع المنتج عبر خطوط الشبكة بشكل لم يسبق له مثيل! بفضل خاصية العمومية التي يتميز به الإنترنت ، وتجعله ليس خاضعا لأي نوع من السيطرة ، وهذه الخاصية مهددة الآن مع زيادة سيطرة الطابع التجاري عليه . وربما مع العمومية ، تطبق معها قيود محايدة أو عادلة كالرسوم التي يدفعها مستخدمو الشبكة لقاء الخدمة في توفير المرافق اللازمة للاتصال (مثل ثمن تذكرة دخول إلى منتزه عام ، على سبيل المثال) فهي قيود لا يضعها المالك لتحقيق أهدافه !

فعمومية الإنترنت بهذا المعنى ، تجعل موارد وطاقات وإمكانيات الإنترنت «مجانية وللجميع » وتسمح لهم بالوصول إلى كل مكان يمكن تخيله من أنواع المعلومات ، جامعات ، مراكز بحوث ، مراكز المعلومات ، المكتبات العالمية في أي مكان ، البنوك ، صحف وسائل اعلام المؤتمرات ، الندوات ، متاحف ، حفلات الموسيقى والأوبرا ، المستشفيات والمراكز الطبية .... كل ما يمكن أن يوجد في العالم .

وعمومية الإنترنت توفر ميزات لكل الثقافات ، وخاصة الثقافات خارج الولايات المتحدة الأمريكية ، فمن ثقافات النظم الإقطاعية في سويسرا واليابان إلى مجتمعات الري في الفلبين ، ومجتمعات الزراعة في مصر . لكن الثقافة الأمريكية والمثقفين الأمريكيين يعتبرون عمومية الإنترنت موردا وخاصية معيوبة فيها . فالمثقفون الأمريكيون هم جسم «المأساة» ، كما وصفهم عالم البيئة المشهور (Gar- rett Hardin) جاريت هاردن، فهم يعتقدون دائما أن العالم يدار أفضل بدون الملكيات العامة ، والمشتركة ! ويؤيدون تماما الملكيات الخاصة !

حرية الإبداع في تصميم الإنترنت

وتوصف الهندسة المعمارية لبنيان الإنترنت بأنها ذات ثلاثة مستويات ، المستوى القاعدي وهو البنية التحتية للإنترنت ويسمى المستوى الفيزيقي، وهي أجهزة الكمبيوتر والأسلاك والكابلات التي تربطها ، وفي الوسط مستوى الكود أو الشفرات ، وهي مجموعة البرتوكولات التنفيذية للتصميم ، وهي تمثل شفرات ولغات البرمجة، وهي موارد الإبداع ، ثم المستوى العلوي وهي المحتويات مثل النصوص ، وملفات الوسائط المتعددة المخدومة عبر الشبكة. وهذه المستويات الثلاثة لم تنظم كلها كقاعات عامة للجميع ، بمعنى لا يتوفر مبدأ العمومية في كل تلك المستويات التي تبنى تصميم الإنترنت ! فأجهزة الكمبيوتر والكابلات والأسلاك في المستوى الفيزيقي ملكية خاصة ، وليست مجانية أو تتسم بالعمومية ،



...ظم المحتوى المخدم
...ر الشبكة فى مستوى
المحتويات غالبا يعد
محميا بحقوق الطبع
وحقوق المؤلف ، هو أيضا ليس حرا أو مجانيا ، ولا تتوفر فيه العمومية ! إن العمومية تتوفر فقط فى مستوى الكود جوهر الشبكة ، وتمثل موارد الإبداع ، حيث البرتوكولات التنفيذية ، هنا فقط تتوافر العمومية ! وجاء هذا التصميم عمدا بحيث لا يستطيع أحد أن يسيطر على موارد ومصادر الإبداع ، الموجودة فى المستوى الوسطى وهنا كانت عبقرية الإنترنت ! فقد يسيطر الأفراد على البنية الفيزيقية ، ويملكون ويحكمون فى أجهزة الكمبيوتر والكابلات والأسلاك المرتبطة إلى الإنترنت ، لكن بمجرد دخولهم الإنترنت ، يصبح تصميم الإنترنت الأصلى الكود ، الشفرة ، الموجود فى المستوى الوسطى ، والتى تمثل منطق الإنترنت متوفرا للجميع ، ولا أحد يستطيع أن يسيطر عليه ، فهو مصدر الإبداع للشبكة ، ويوفر المجانية والعمومية للجميع بمجرد دخولهم فضاء الإنترنت . ولا توجد شبكة بهذا الكبر تترك شفراتها مجانا مثل شبكة الإنترنت

وكان هذا التصميم مبنيا على الذكاء فى الشبكة ، فهى تستطيع أن تحدد مواقع أنظمة اتصالات الكمبيوتر التقليدية ومكانها ، وتفرض سيطرتها عليها ، فالإنترنت ولد فى وقت كانت تتشكل فيه فلسفة مختلفة فى علوم الكمبيوتر ، صنفت هذه الفلسفة تواضعا بأنها تعرف كل شئ ، وتوقعت بأن مصممى الشبكة ليس لديهم فكرة واضحة حول كل الطرق والوسائل التى يمكن أن تستعمل فيها الشبكة ! ونصحت تلك الفلسفة المصمم بأن يترك جزءا قليلا منه يستكمل بناؤه بنفسه داخل الشبكة ، وترك الشبكة حرة وعامة لتطويرها عند النهايات ، وهى التطبيقات التى نفترف منها فى الإنترنت ، ونستعملها ونستفيد منها فى تطبيقاتنا !

الحيادية

والإنترنت ما كان ينطلق وينجح وينتشر إذا كان الأفراد العاديون غير قادرين على الإتصال بالشبكة عن طريق مزودى خدمات الإنترنت (ISPS) من خلال خطوط التليفونات الحالية، ورغم ذلك فهذا الحق فى الاتصال لم يقدره أحد ! فقط فى الوقت الحاضر الإنترنت يبرز كمثال تنظيمى مختلف لاحتكارات التليفون. سابقا ، قبل الإنترنت ، كانت إحتكارات الهاتف حرة تماما فى السيطرة على أسلاكها كما تريد . وفى بداية أواخر الستينات ، وبعد ذلك بشدة أكثر على مدار الثمانينات ، بدأت الحكومات تطالب صناعة الهاتف أن تتصرف بشكل محايد - أولا بالإصرار بأن شركات الهاتف يجب أن تسمح للزبون باستخدام أجهزة مثل المودمات وغيرها من أجهزة مساعدة لكى يتصل بالشبكة ، وبعد ذلك طلبت من شركات الهاتف أن تسمح للآخرين بالدخول

والوصول إلى أسلاكهم .

هذا النوع من التنظيم اللوائحى كان شيئا نادرا فى احتكارات الاتصالات حول العالم . فى أوروبا وفى تجميع أنحاء العالم ، كانت احتكارت الاتصالات تسمح لنفسها للسيطرة على كل استعمالات شبكاتهم فى إطار المنافسة البينية بينهم . لكن عندما قسمت الولايات المتحدة أكبر شركة محتكرة الاتصالات فيها، شركة AT & T فى ١٩٨٤، كانت الشركات الناتجة لا تملك حرية التحامل والتميز ضد الاستعمالات الأخرى لخطوطهم .

وعندما أراد مزودو خدمة الإنترنت الوصول إلى الخطوط المحلية لتمكين الزبائن بالاتصال بالإنترنت ، دقت الأجراس المحلية فى طول الولايات المتحدة تطالب بمنح الوصول على حد سواء للجميع ، وهذا مكن من وجود منافسة نشيطة فى الاتصال بالإنترنت ، ومعنى هذه المنافسة بأن شركات الاتصالات والهاتف لا تستطيع أن تتصرف بشكل استراتيجى ضد هذه التقنية الجديدة (الإنترنت) . وفى الواقع ، فإن السوق التنافسية ، والبناء الطبقى لتصميم الإنترنت الذى جعل شبكة الهاتف فى المستوى الفيزيقى التحتى لتصميم الشبكة، أعطى الفرصة لتصميمات متلاصقة يمكن أن تصفف فوقها .

وهكذا هذا الابتكار الذى يتصف بالعمومية ، وهو الإنترنت يرقد على بنية تحتية فيزيقية ، يتوفر فيها من خلال لوائحها التنظيمية ، مميزات مهمة بتتصف بالعمومية ، وهذه العمومية تضمن أن النظام الهاتفى لا يستطيع أن يميز أو يقف ضد منافس له صاعد، هو الإنترنت والإنترنت بنفسها خلقت ، من خلال تصميمها المتلاصق ، لتضمن المساواة وعدم التحيز ضد تطبيق أو استعمال معين لحساب أى إبداعات أخرى . فالحيادية موجودة فى المستوى الفيزيقى التحتى للبنية المعمارية للإنترنت ، وموجودة أيضا فى المستوى الوسطى ، وهو كود الإبداع فى التصميم . وتوجد حيادية مهمة أيضا فى مستوى المحتويات ، وهو المستوى العلوى فى تصميم الإنترنت . ويتضمن هذا المستوى كل المحتوى الذى يجرى عبر الشبكة (صفحات الويب بأشكالها وموضوعاتها ، الفورمات الموسيقية MP3S، البريد الاليكترونى، وأفلام الفيديو ، بالإضافة إلى كل برامج التطبيقات ، وبوابات البحث التى تجرى فى الشبكة وتغذيها بكل تلك الإبداعات .

منطق الكود المفتوح

وهذه البرامج والإبداعات متميزة بالبروتوكولات الموجودة فى مستوى الكود، وهى بشكل جماعى مدعومة باسم نظام السيطرة على الارسال TCP/IP وبروتوكولات شبكة الويب . وبروتوكول نظام السيطرة هذا PCP/IP يعتبر نطاقا عاما أو أملاك عامة للجميع ! وتتوفر فيه العمومية ! لكن الكود الأعلى



... تلك البروتوكولات ... يست نطاقا عاما أو ... ملكية عامة . وهذا الكود عوضا عن ذلك يتكون من نوعين : نوع امتلاكى ونوع غير امتلاكى . النوع الأول تتضمن الملكية فيه أنظمة مايكروسوف المألوفة لتشغيل خادمات الويب ، بالإضافة إلى البرامج من شركات البرامج الأخرى . والنوع غير الامتلاكى يتضمن مصدرا مفتوحا وبرامج مجانية، خصوصا نظم التشغيل مثل لاينكس Linux (or GNU/Linux)، والخادمات الرئيسية ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المضيفات الموجه التى تجعل الشبكة تجرى . والكود غير الامتلاكى هذا يوفر العمومية فى مستوى المحتويات من تصميم الإنترنت . والعمومية هنا ليست فقط فى المورد ، خاصة فى البرامج التى ربما نتزود بها على سبيل المثال نظم التشغيل وخادمات الويب ، لكن العمومية تتضمن أيضا كود البرمجة الأصلية للبرامج التى يمكن أن تسحب وتعدل وتتطور من قبل الآخرين . فالمورد المفتوح والبرامج المجانية يجب أن تتوزع بالكود الأصلى لها. والكود الأصلى يجب أن يكون مجانيا للآخرين، يأخذون منه ويعدلون فيه! هذه العمومية فى مستوى المحتويات ، تعنى أنه يمكن للآخرين أن يأخذوا ويبثوا موارد مفتوحة وبرامج مجانية أيضا ، هو أيضا يعنى بأن الكود المفتوح لا يمكن أن يؤشر أو يمتلك لمنع أى منافس معين ، وأن الكود المفتوح يمكن دائما أن يعدل من قبل المتبنين اللاحقين ، وتستمر المحايدة دائما بين المستعملين اللاحقين ، فليس هناك «مالك» لأى مشروع للكود المفتوح .

بهذه الطريقة ، وللمرة الثانية ، يحدث التوازى الموجود فى مبادئ تصميم الإنترنت فى مستوى الكود ، يجعل الكود المفتوح ابداعا لا مركزيا . فهو يبقى دائما منصة محايدة ، وهذا الحياد تباعا يلهم المبتكرين للبناء وتعديل وتطوير تلك المنصة لانه لا يلزم أن يخافوا من انقلاب المنصة عليهم . ويبقى الكود المفتح فرصة عامة للابداع والمبدعين فى مستوى المحتويات . ومثل العمومية فى مستوى الكود، يبقى الكود المفتوح فرصة للابداع ويحمى المبدعين ضد السلوك الاستراتيجى للمنافسين . فالموارد الحرة المجانية تتضمن إبداعا .

هيمنة الكابل

ولد الإنترنت على خطوط الهواتف ، وبغض النظر عن رغبات شركات الهاتف تمكن مزودو خدمة الإنترنت بالوصول إلى الأسلاك المحلية لتلك الشركات ، وهم لم يسمحوا بالتمييز ضد خدمة الإنترنت . وهكذا ولد الإنترنت على تلك المنصة الطبيعية ليبقى بتنظيم محايد ، بتأثيراته الإيجابية فى توفير عمومية الوصول إلى الإنترنت . لكن حينما انتقلت الإنترنت من الخطوط السلكية الضيقة إلى الخطوط المتعددة الرسائل (الكابل)، تغيرت البيئة التنظيمية ، فتقنية الكابل هى المهيمنة فى الولايات

المتحدة حاليا . ويعيش هذا الكابل تحت بيئة تنظيمية مختلفة . ومجهزو الكابل عموما ليس لديهم التزام للسماح ومنح الوصول إلى تسهيلاتهم . وأعلنت شركات الكابل حقها فى ممارسة التمييز ضد خدمة الإنترنت . ولذلك ، بدأت شركات الكابل بدفع مجموعة مختلفة من المبادئ والأسس فى مستوى كود الشبكة . وطورت ونشرت شركات الكابل تقنيات تمكينهم فى التحكم من سريان الخدمة التى يقدمونها ! شركة سيسكو Cisco، على سبيل المثال، طورت تقنيات تمكن شركات الكابل للتيار بين المحتويات التى تتدفق بسرعة، وأخرى التى تتدفق ببطء عبر الشبكة ، وتقنيات أخرى تمكن شركات الكابل من ممارسة القوة والسيطرة على المحتويات والتطبيقات التى تجرى على شبكاتهم !

فكان الضغط الحادث من مستوى المحتويات على مستوى الكود أكثر دراماتيكية ، حيث جاء هذا الضغط جاء على شكلين . الاول ويتعلق مباشرة بوصف المحتوى ، ضمن انفجار تنظيم براءات الاختراع فى سياق البرامج ، والثانى زيادة استخدام حقوق ملكية الطبع والنشر فى ممارسة سيطرة ورقابة متزايدة على توزيع التكنولوجيات الجديدة.

براءات الاختراع

إن التغيرات فى اللوائح التنظيمية لبراءات الاختراع أكثر صعوبة للتوضيح ، ولكن النتيجة ليست صعبة فى أن تتعقب . قبل عقدين ، بدأت دائرة براءات الاختراع الأمريكية بمنح براءات الاختراع لبرامج الكمبيوتر والإنترنت كانها اختراعات تكنولوجية ، وفى أواخر التسعينات : المحكمة التى تشرف على براءات الاختراع صدقت وأباحت تلك الممارسة وأخيرا صدقت عليها ، والاتحاد الأوربى فى هذه الأثناء ، اتخذ موقفا أكثر تشككا نحو منح براءات اختراع للبرامج ، لكن الضغط من الولايات المتحدة أخيرا جعل الاتحاد الأوربى فى النهاية يؤيد السياسة الأمريكية فى منح براءات الاختراع للبرامج .

من حيث المبدأ ، يعتقد أن براءات الاختراع هذه صممت لتحفيز واستنهاض الابداع فى البرامج . لكن فى البرامج المتسلسلة والمكملة ، مثل هذه البراءات قد تكون جيدة ، ولكن هناك دلائل متزايدة بأنها سوف تسبب ضررا كبيرا . فمثل أى تنظيم ، تفرض عملية منح براءات الاختراع ضريبة على العملية الابداعية عموما . كما هو الحال مع أى ضريبة ، فالشركات الكبيرة تتحملها أكثر من الصغيرة ، والولايات المتحدة الأمريكية تتحملها أكثر من الدول الأجنبية . ومشروعات برامج الكود المفتوح مهددة من هذا الاتجاه السائد ، لأنهم أقل قدرة على المفاوضات فى الترخيص والتسجيل . والقيود الأكثر إثارة على الإبداع ، على أية حال جاءت على يد ملكية حقوق الطبع والنشر أو



...لكية الفكرية . فحقوق الطبع والنشر والتأليف أو ما يسمى بالملكية الأدبية أو الفكرية صممت لضمان حق الفنانين والمفكرين والأدباء من امتلاك والسيطرة على إبداعاتهم لوقت محدود . وإن الهدف هو ضمان حقوقهم المادية والمعنوية حتى يتولد لديهم اهتمام ودوافع كافية لإنتاج ابداع جديد . لكن قوانين حقوق النشر صنعت فى عصر ما قبل الانترنت بفترة طويلة . وتأثيرها على الإنترنت سيكون فى زيادة السيطرة على الإبداعات، وتركيزها فى بضعة مدعين مركزيين .

الحقوق المحفوظة

إن المثال الأوضح لهذا التأثير هو الموسيقى على الخط فى الإنترنت . قبل الإنترنت . كان الانتاج وتوزيع الموسيقى مركزا ومكثفا بشكل غير عادى . ففى عام ٢٠٠٠ ، على سبيل المثال ، كان خمس شركات التوزيع تسيطر على ٨٤ بالمائة من توزيع الموسيقى فى العالم . وكانت أسباب هذا التركيز عديدة منها التكلفة العالية للترويج ، وكان تأثير المركزية فى توزيع وإنتاج الموسيقى عميقا جدا على تطوير وتنمية الفنان . وأصبح هناك فنانون قليلون جدا قادرون على جمع أموال من عملهم بسبب السوق الكبيرة من شركات التسجلات . الإنترنت كان عندها الإمكانية لتغيير هذا الواقع ، لأن تكاليف التوزيع كانت منخفضة جدا فيها ، ولأن الشبكة كان عندها الإمكانية أيضا لتخفيض تكاليف الترويج بشكل ملحوظ . فتكلفة الموسيقى يمكن أن تنخفض ، وعائدات الفنانين يمكن أن ترتفع .

وقبل أكثر من خمس سنوات ، انطلقت سوق الموسيقى بنجاح فى الإنترنت ، وبدأ عدد كبير من مجهزى الموسيقى على الخط فى الإنترنت يتنافسون بالطرق الجديدة لتوزيع الموسيقى ، وزع البعض الفورمات الجديدة لموسيقى MP3s من أجل المال مثل (eMusic. com) ، وبنى البعض تقنية لإعطاء مالكى الموسيقى الوصول الأسهل إلى موسيقاهم مثل mp3.com . والبعض سهل كثيرا للمستعملين العاديين المشاركة بموسيقاهم مع المستعملين الآخرين مثل (Napster). وكما بدأت تلك الشركات بسرعة على الإنترنت ونجحت ، نجح المحامون الذين يمثلون أجهزة الإعلام القديمة ما قبل الإنترنت فى إغلاق تلك الشركات . وجادل هؤلاء المحامون بأن قوانين حقوق النشر أعطى الملاك حقوقا ضمنية للسيطرة على كيفية تنظيم استعمالها . والمحاكم الأمريكية وافقت . ولإبقاء هذا النزاع فى السياق، نذكركم بمثال آخر ، وهو التلفزيون الكابل ، فقد أنشأ مالكو أنظمة التليفزيون الكابل ابريال هوائيا فى الجو واختلسوا وسرقوا البث التليفزيونى المذاع ، وبعد ذلك باعوا تلك «المواد المسروقة» إلى زبائنهم ! لكن عندما طالبتهم المحاكم الأمريكية بوقف هذه «السرقة» ، رفضوا

وعندما رفع الأمر للمحكمة العليا ، قالت المحكمة العليا الأمريكية مرتين بأن هذا الاستعمال لمادة شخص آخر المحفوظة الحقوق غير متناقض مع قانون حقوق النشر .

وعندما تقدم الكونجرس الأمريكي أخيرا إلى تغيير القانون ، عمل عملية توازن ، منح مالكي حقوق النشر المحفوظة الحق في التعويض عن استعمال مادتهم على مواد الكابل المذاعة ، ولكن أعطى الحق لشركات الكابل في إذاعة المادة المحفوظة الحقوق . السبب لهذا الميزان ليس صعب الفهم . المالكون المحفوظ حقوقهم بالتأكيد عندهم الحق في تعويض عملهم . لكن الحق في التعويض يجب أن لا يترجم إلى قوة للسيطرة على الابداع . وبدلا من إعطاء مالكي الحقوق المحفوظة الحق لنقض أي استعمال جديد معين من عملهم) في هذه الحالة ، لأنه يتنافس مع أكثر من مادة مذاعة في الهواء « طمأن الكونجرس مالكي الحقوق المحفوظة على حصولهم على مقابل المادة التي أخذت منهم بدون امتلاك القوة للسيطرة على تلك المادة يعني - تعويض بدون تحكم وسيطرة !

نفس الاتفاق بنفس التوازن كان يمكن أن يتوصل إليه بالكونجرس ضمن سياق الموسيقى على الخط في الإنترنت . لكن في هذه المرة لم تتردد المحاكم في تمديد سيطرة مالكي الحقوق المحفوظة . وكانت الأهداف الاستراتيجية لشركات التسجيل كافية وبسيطة : ألغت النماذج الجديدة والمتنافسة من التوزيع واستبدلتها بنموذج لتوزيع الموسيقى على الإنترنت الأكثر تكيفا مع النموذج التقليدي . هذا الاتجاه كان مدعوما من قبل أعمال الكونجرس في ١٩٩٨ ، وعبر عنه الكونجرس بقانون حماية حقوق الطبع في الألفية الرقمية (DMCA)، الذي منع التقنيات التي تراوغ تقنيات حماية الحقوق المحفوظة ، وخلق حوافز قوية أيضا لمزودي خدمة الإنترنت لإزالة أي مواد منتهكة فيها حقوق الطبع والنشر من مواقعهم .

وتبدو على السطح كل التغييرات مدركة وواضحة بما فيه الكفاية . فتقنيات حماية الحقوق المحفوظة تشبه الأقفال . أي واحد له حق الدخول يجب أن يكسر القفل أولا ؟ وهنا يصبح مزودو خدمة الإنترنت في أفضل حالاتهم للاطمئنان أن انتهاكات الحقوق المحفوظة لا تحدث على مواقعهم ، فلم لا نخلق لهم الحوافز لإزالة أي مخالفات المواد المحفوظة الحقوق ؟

عالمية حقوق الطبع

والازعاج الأكثر حدة ، هو تطبيق قانون حقوق طبع الألفية الرقمي عمليا على قاعدة عالمية . فالمبرمج الروسي ديميتري سكلياروف Dimitry Sklyarov ، على سبيل المثال ، كتب «كود» لتكسير تقنية موقع Adobe's eBook technology لكي يمكن المستعملين لتحريك الكتب الاليكترونية eBook من ماكينة جهاز إلى أخرى



ولإعطاء فرصة المستعملين فاقدى البصر القدرة على القراءة المسموعة للكتب المشتراة ، وعندما كتب سكلياروف الكود وهو فى روسيا وأدخله الإنترنت ، كان ذلك قانونيا ، لكن عندما حاولت شركته بيع هذا الكود فى الولايات المتحدة ، أصبح الأمر غير شرعى . وعندما جاء المبرمج الروسى إلى الولايات المتحدة فى يوليو ٢٠٠١ للتحدث عن ذلك الكود ، أعتقله مكتب التحقيقات الفيدرالى . ويواجه سكلياروف اليوم جملة أحكام قضائية مدتها ٢٥ سنة لكتابة كود يمكن أن يستعمل لأغراض الاستخدام المعقول ، بالإضافة إلى انتهاك قوانين حقوق النشر .

وظهرت مشكلة مماثلة بالبند الذى يعطى مزودى خدمة الإنترنت الحافز لإزالة أى مواد مخالفة أو تنتهك حقوق النشر . فعندما يشعر مزود خدمة الإنترنت بأن المادة الموجودة على موقعهم تنتهك حقوق الطبع ، يقوم بإزالة المادة تفاديا للمسئولية . وهو أيضا لايملك أى حافز لتعريض نفسه إلى تلك المسئولية ، وعلى نحو متزايد ، شركات كثيرة حاولت حماية نفسها من النقد فاستعملوا هذا البند لإسكات النقاد . فى أغسطس ٢٠٠١ ، على سبيل المثال ، استعملت شركة صيدلية بريطانية قانون حقوق الطبع الألفية الرقمى لكى تجبر مزودى خدمة الإنترنت لمنع موقع حقوق الحيوان الذى انتقد الشركة البريطانية .

وقال مزودو خدمة الإنترنت أنه من الواضح جداً أن الشركة البريطانية تريد إسكاتهم ولكننا لا نمتلك أى حافز لمقاومة إدعاءاتهم .

فى كل هذه الحالات ، هناك نمط مشترك . فى الدفع والضغط لإعطاء المالكين للحقوق المحفوظة حقوقا ليسيطروا على مادتهم ، ومنحهم القدرة أيضا لحماية أنفسهم ضد الإبداعات الجديدة التى قد تهدد نماذج عملهم الحالية . ويصبح القانون أداة لتأكيد أن الإبداعات الجديدة لا تزيح الإبداعات القديمة . وسوف تؤثر هذه اللوائح والقوانين ليس على الأمريكان فقط بل على العالم كله . فالسلطة الواسعة للقضاء الأمريكى تضغط وتدفع المنظمة العالمية للملكية الفكرية World intellectual property organization لتشريع تشريعات مماثلة فى كل أنحاء العالم ، وهذا يعنى أن السيطرة على إبداع الإنترنت سيكون على مستوى العالم كله . فليس هناك «محلى» عندما يتعلق الأمر بفساد مبادىء الإنترنت الأساسية . وهذه التغييرات ستضعف حركة المورد والكود المفتوح والبرامج المجانية ، والبلدان الكثيرة فى العالم التى كانت تكسب من منصة الإنترنت المفتوحة والمجانية سوف تخسر كثيرا أيضا ، وتلك الدول المتأثرة أغلبيتها من الدول النامية خاصة عندما تتم السيطرة على المحتويات ! ■

أقوال معاصرة

● «الإرهابيـون لايسـقطون من السـمـاء، بل تفرضهم سياسات»

زيجينو بريجنسكي

مستشار الامن القومى الامريكى الأسبق



زيجنيو بريجنسكى

● «العلم ليس الا مظهرا واحدا من الحقيقه، ولا يجوز اهمال المظاهر الاخرى، وأولها الشعر»

شايلا جازانوف

الاستاذة فى جامعة هارفارد

والهندية الاصل



جيسواف ميووس

● «التـفكير يمثل قوة معنوية للمتشدد الدينى، تجعل حياته معه محتملة فى وسط كافر »

مليزى روثڤن

مؤلف كتاب غضبة من أجل الله

● «قدر الشعراء ان يعيشوا فى قلب الظلام »

جيسواف ميووس

الشاعر البولندى الفائز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٠



إيزابيل هوبير

● لايوجـد اشـخـاص عطوفـون . هـناك فـقط اشـخـاص يصنعون بمهـارة أعمـال عطف بأيديهم وأفواههم وأقلامهم»

دونا مارس اوكونون

مفكرة أمريكية

● «التمثيل افضل من كل المسكرات، افضل من الكوكايين أو الهيروين، انه سم ساحر .»

النجمة الفرنسية ايزابيل هوبير



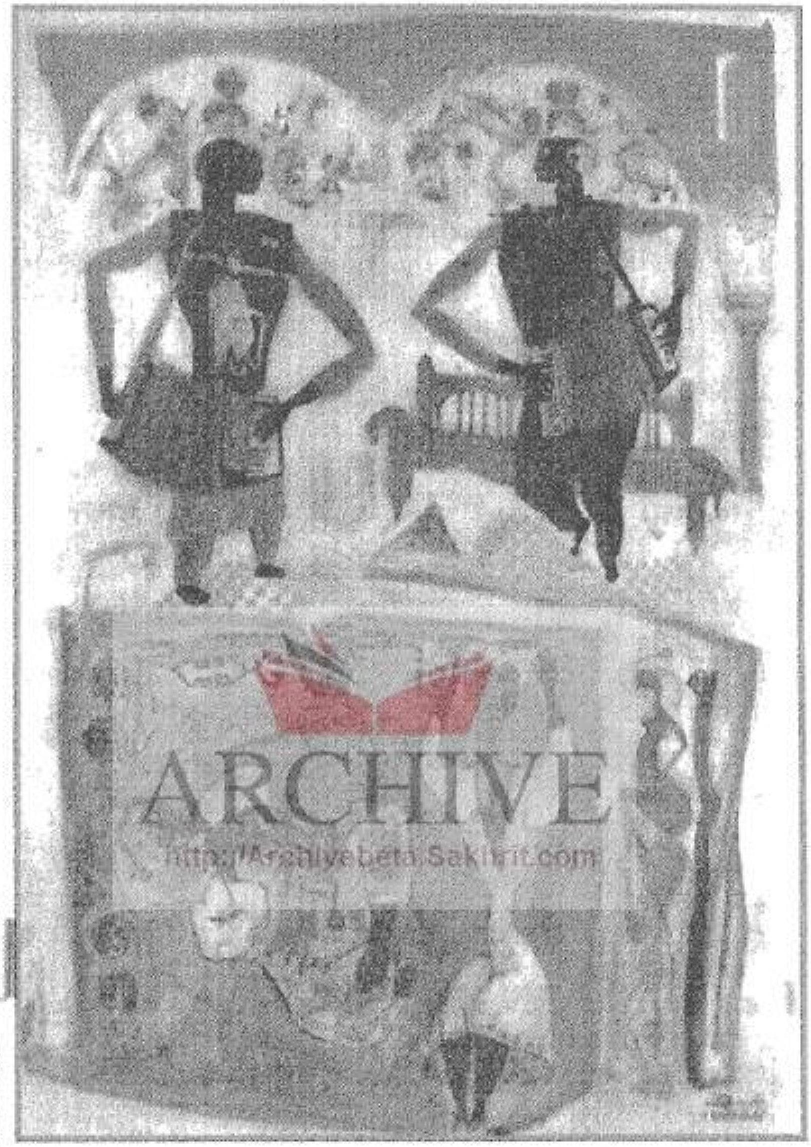
فارس التجريد في التصوير المصرى المعاصر

حامد ندا

بقلم

د. صبرى منصور

فى شهر نوفمبر القادم تحل ذكرى ميلاد الفنان حامد ندا الذى يمثل إبداعه الفنى علامة مميزة وظاهرة فى تاريخ الفن المصرى المعاصر قل أن تجد له نظيراً، فهو نموذج لما يمكن أن يجسده فن التصوير المصرى ؛حين يجمع بين رؤية أصيلة تتصل اتصالاً وثيقاً بروح المكان، وتضرب بجذورها فى أعماق التراث المصرى، وبين الصياغة الحديثة المبتكرة التى تشى برهافة الحس والسيطرة على عناصر التشكيل بفهم ووعى وذوق فنى سليم.



من وحي الموسيقى الشعبية ١٩٨٥

ولقد ساهمت عوامل عديدة - والتي نادراً ماتكتمل - في تكوين تلك الشخصية الفنية الفريدة التي تصلح كدرس لشباب الفنانين الذين يطمحون إلى أن يبلغوا تلك المكانة الرفيعة التي يحتلها فن حامد ندا.

اكتشاف الموهبة

كان الفنان والمربي حسين يوسف أمين يعمل مدرساً للرسم بمدرسة الحلمية الثانوية ، وفي عام ١٩٤٦ بدأ تجربته العبقرية - التي لم تتكرر في حياتنا الفنية - حين وقع اختياره على مجموعة من تلاميذه الذين توسم فيهم الموهبة ، وكون منهم جماعة «الفن المعاصر» ، وكان بين هذه المجموعة اثنان قدر لهما ريادة التحديث ، وتخليق فن مصري قلباً وقالباً، وهما عبدالهادي الجزار وحامد ندا . ولقد قام حسين أمين ذو الثقافة الموسوعية بدور الناصح الأمين والموجه الواعي القادر على تنمية المواهب الشابة، واستنفار قدراتها الإبداعية الذاتية، ومساعدتها على العثور على ملامح خاصة للفن المصري، وكان من أهم توجهات الجماعة تأكيد العلاقة بين الفن والفكر، واعتبار الفن وسيلة - كالأدب - لنقل فلسفة ورؤية فكرية محددة، وأن الفن يجب أن يعبر عن حقيقة الواقع وعن طابع الشخصية المصرية وما تحويه داخلها من أصالة، ولاشك في أن تلك التوجهات قد وجدت الصدى، وأحدثت الأثر في نفس الفنان الشاب حامد ندا الذي عاش طفولته في أحياء الخليفة والقلعة، واختزنت ذاكرته العديد من المشاهد والصور التي تعكس حياة البسطاء في حواري وأزقات القاهرة الشعبية ، فكان أسبق الجميع إلى تناول الموضوع الشعبي من منظور درامي يعكس معاناة الفقراء والمطحونين والمهمشين وأحلامهم المرتبطة بالسحر والشعوذة، وتظهر لوحاته الأولى مقدرة واضحة في التشكيل والتصميم، وقد اختلف بهذه القدرة وتميز عن زملائه من أعضاء جماعة الفن المعاصر الذين شغلهم الموضوع، واستغرقهم التعبير عن المضمون الأدبي فانصرفوا عن الاعتناء بلغة الشكل ، ولقد ظلت تلك سمة من سمات فن ندا المهمة ، والتي قام بتطويرها وتعميقها فيما بعد، حتى أوصلته إلى ابتكار لغته التشكيلية ذات الخصوصية الشديدة ، ومن أهم أعمال تلك الفترة المبكرة من إبداع ندا لوحات : «العصافير» ١٩٤٦ «الدراويش» و«ظل القبقاب» ١٩٤٧ و«العرافة» ١٩٤٨ و«الزير» ١٩٥٤.

الدراسة في الفنون الجميلة

وحين التحق ندا بالفنون الجميلة عام ١٩٤٦ كان لديه من الخلفية الثقافية ماجعله قادرا على الدراسة الاكاديمية بفهم ووعي بتحديد الأهداف التي تخدم فنه وتثريه، فلم تجرفه الرؤية الأكاديمية التي كان يقوم عليها منهج الدراسة بالكلية آنذاك، وكان الأساتذة من أساطين الفن الأكاديمي التقليدي أمثال أحمد صبري ويوسف كامل وبيكار يكرسون تجسيد الشكل الواقعي بحرفية الصانع ومهارته. ولقد جاءت استفادة ندا من دراسته استفادة مثالية هي نموذج لما يجب أن يلم به طالب الفن من التعرف على القواعد الأساسية لفن التصوير وقيمه الجوهرية، والتي انعكست فيما بعد على أعمال ندا الفنية حين استطاع أن يبلور أسلوبه الخاص وطريقته المميزة في التحوير والاختصار، فعلى الرغم من المبالغات الشديدة في



امرأتان وديك ١٩٧٩

تحريف الأشكال إلا أنها تأتى فى صورة وعلاقات تشكيلية مريحة للعين، مقبولة للذوق. وتستحق تجربته فى هذا المجال أن تكون درساً للعديد من الفنانين المصريين المعاصرين الذين يتوهمون أن الدراسة الأكاديمية المنظمة لقواعد الفن غير مطلوبة حيث سمح الفن الحديث للفنان بأن ينطلق بعيداً عن دنيا الواقع وتمثيلها، ويعتقدون بأن الفنان يستطيع إجراء تحريفات وتحويرات فى الشكل كيفما اتفق، ودون أن تكون لديه خبرة تدرك العلاقات والنسب الطبيعية التى تحكم أشكال الواقع.

وقد يكون من المفيد هنا إجراء مقارنة بين ندا والجزار من ناحية وبين سمير رافع زميلهما فى جماعة الفن المعاصر من جهة أخرى، فالاثنان قد درسا فن التصوير دراسة منهجية أتاحت لهما الإلمام بأصول هذا الفن التى منحت فنهما ثقلاً وثراء، أما سمير رافع - الذى اتجه فى دراسته الأكاديمية لفن الديكور - فعلى الرغم من خلفيته الثقافية الواضحة فى موضوعات لوحاته، إلا أن صياغتها التصويرية جاءت فى معظم أعماله بسيطة الأداء حيث تفتقد أساسيات فن التصوير، كطريقة بناء الشكل، وقيم الظل والنور، وأسلوب التلوين السليم.

تأثير الفن المصري القديم

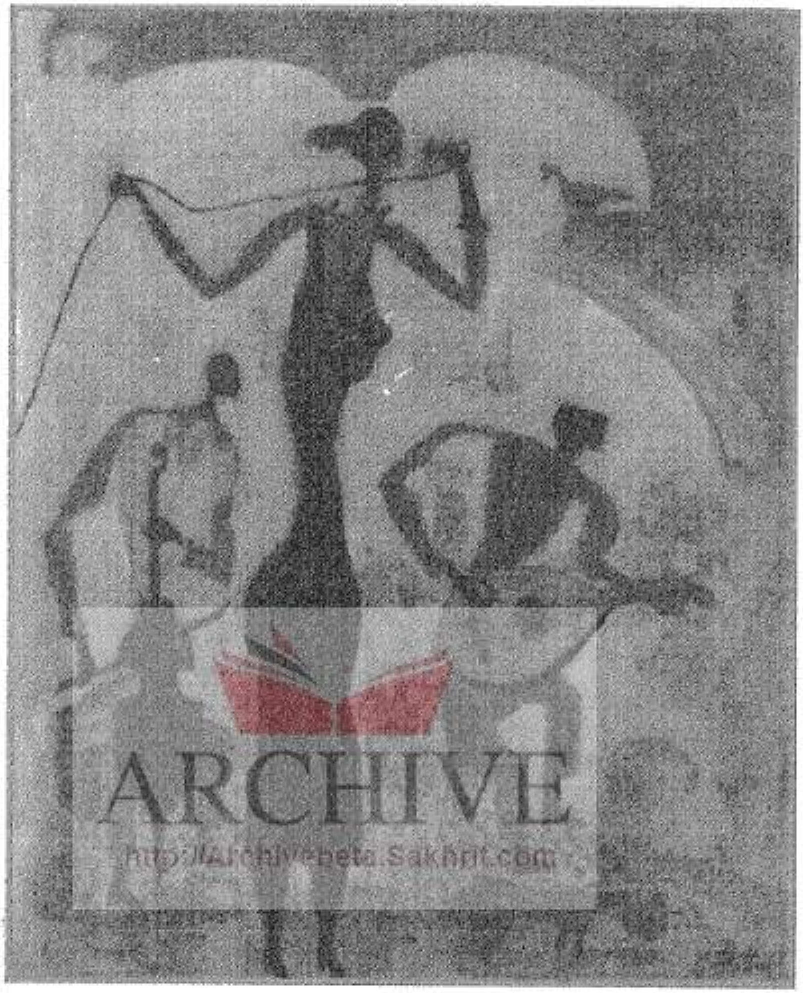
ولقد قاد انشغال ندا بإبداع فن مصرى صميم نحو البحث عن جذور فنية فى تراث مصر الفنى، فالفنان لا يبدأ من فراغ، وإنما عليه أن ينطلق من تقاليد فنية بعينها يتصل بها ويكون حلقة من حلقاتها، لهذا كان طبيعياً أن ينجذب ندا - الرافض لفكرة تقليد الفن الغربى واتباع مدارسه كما كان شائعاً - لجماليات الفن المصرى القديم، وأتيحت له فرصة التفرغ للإبداع الفنى بمرسم الأقصر عام ١٩٥٧، ومنذ تلك الفترة اتخذ أسلوبه منحى جد مختلف عن توجهات زملاء جماعة الفن المعاصر، وهجر التجسيم والبعد الثالث، وتحولت أعماله إلى ما يشبه الأبحاث المعملية التى تهدف إلى خلق لغة فنية معاصرة ذات جذور مصرية موغلة فى القدم، وجاءت تجربته فى تحديث الأسلوب الفنى فى مصر القديمة نموذجاً فريداً لما يمكن أن يكون عليه التحديث على هدى القديم. فقد استطاع ندا أن يقدم بمهارة رؤيته وأشكاله المعاصرة فى تكوينات ذات صلة حميمة بالإيقاع الفنى فى الرسوم الفرعونية، كما أنها فى نفس الوقت على صلة بمعطيات الفن الحديث وما سمحت به للفنان من حرية فى المزج والتوليف والاختصار والتحريف، وهو لم يبتعد عن عناصره المحببة كالقط والمرآة والزير والديك ولكنه جعلها تعيش وتتحرك على سطح اللوحة فى فلك فنى يتصل بفن القدماء، وقد اهتدى إلى استنبات إيقاع خطى ولونى يترسم خطى الإيقاع المصرى القديم ولكن فى صياغة شخصية تتسم بالحرية والتجديد، كما استطاع أن يوظف اللون البنى المائل للحمرة واللون الأزرق فى أشكاله ذات الخلفية البيضاء المسطحة فى تذكرة برسوم الجداريات المصرية القديمة، وهو فى النهاية يبدو كفنان مصرى قديم عاش منذ ثلاثة آلاف عام واستيقظ فى القرن العشرين ليتكلم بلغته التشكيلية الجديدة. ولعل أصدق مثال من أعماله يوضح ذلك لوحة «العمل فى الحقل» التى أنجزها عام ١٩٦٢.

أسلوب ندا الجديد

وفى أوائل الستينات بدأت تتبلور معالم الشخصية الفنية الجديدة والمتفردة لحامد ندا، والتى خلقها من مزيج أجاد تأليفه، وقدم من خلاله أسلوباً فنيا ليس جديداً على الفن المصرى فحسب وإنما على ساحة فن التصوير العالمى، وقيمته لاتكمن فى أصالته وحداثته فقط، وإنما فى المستوى الفنى الرفيع الذى بلغه فنان من دولة مازالت حديثة العهد بالأشكال الراقية من التعبير بلغة فنان من دولة مازالت حديثة العهد بالأشكال الراقية من التعبير الفنى.

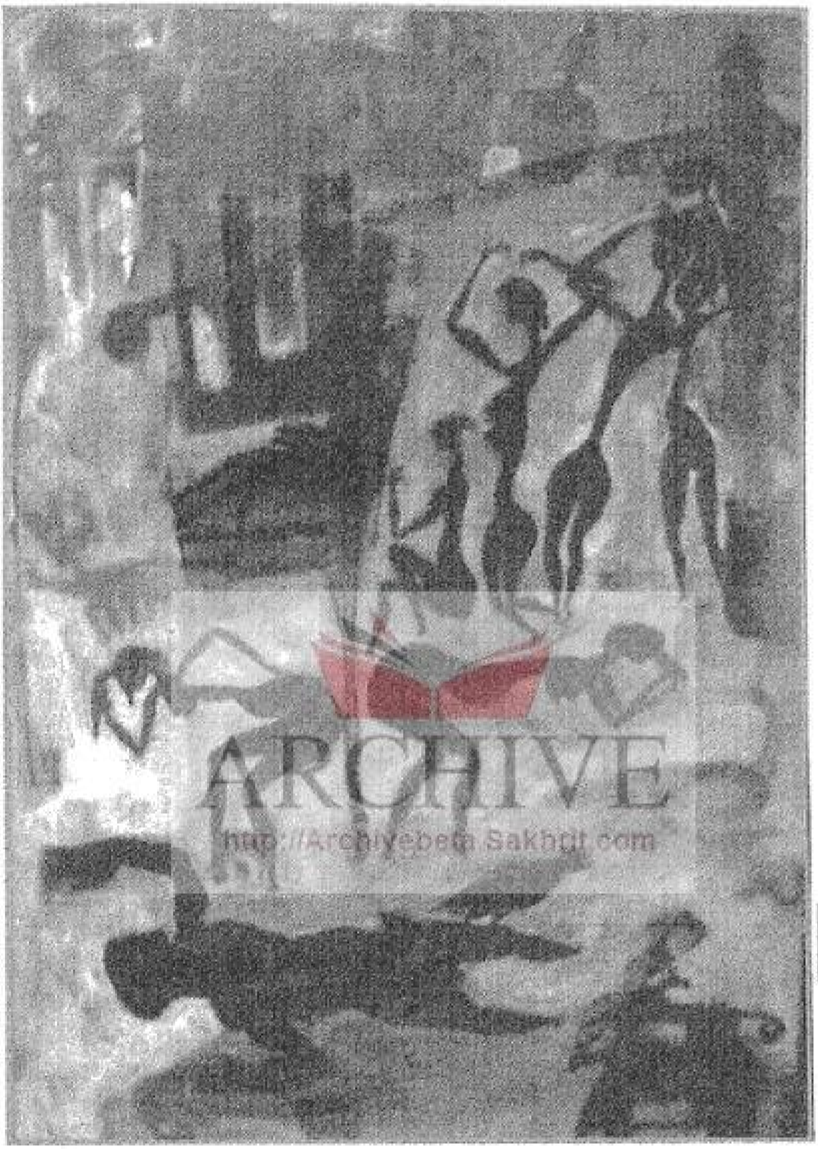
فلقد سمحت مراحل التكوين التى مر بها ندا بانطلاقه الفنى بثقة وثبات، وصياغة لأشكاله بحرية، كما سمحت له بالابتكار فى نسب الأشكال والتأليف الحر بين الوحدات والعناصر، وتضمنت صياغته الفنية توليفاً بين أساليب وطرز فنية عديدة من بينها الفن الشعبى والفن المصرى القديم والإسلامى والفن البدائى والأشكال المعاصرة، وكل ذلك نسجه ندا بأسلوب حديث يتسم برهافة الحس وبراعة التشكيل.

وخلال عشرين عاماً من ١٩٦٠ - ١٩٧٠ استطاع ندا أن يؤكد جماليات لغته التشكيلية المبتكرة التى تضمنت مفرداته الفنية السابقة فى ثوب تشكيلى جديد. وفى سنواته الأخيرة تسببت



المغنية والعازفون ١٩٨٧

لوحاته موضوعات الرقص والغناء والموسيقى وكأنه - وهو المصاب بضعف السمع الشديد - يتوق لسماع أصوات بهجة الحياة وفرحتها، مثل لوحته «الموسيقى الشعبية» و«البيانولا» و«الراقصات والبيانو» عام ١٩٨٦، و«من وحي الموسيقى» ١٩٨٨، حيث تنثنى فى هذه اللوحات الراقصات، ويطير الديك، وتعزف الحيوانات، وتتجسد الآلات الموسيقية فى أشكال البشر. فإذا كان ندا قد بدأ حياته الفنية بموضوعات درامية تعكس قسوة الحياة على



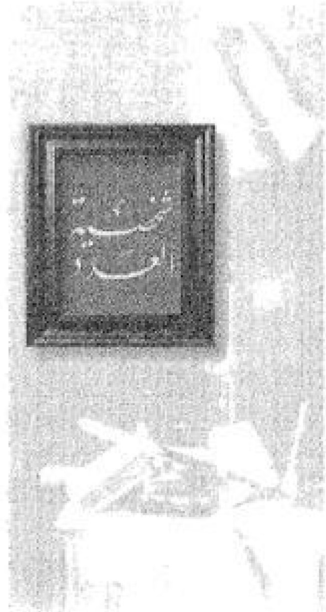
إيقاع راقص ١٩٨٨

شخصياته الواقعية المكروبة والمقهورة، فإنه قد أنهى هذه التجربة بموضوعات تجسد عالماً خارج إطار الزمان وحدود المكان، عالماً مفعماً بالحياة، نابضاً بالرغبة الحسية والمتعة ، وتعيش شخصياته أحلاماً خيالية، وتختلط عناصره البشرية برموز وكائنات خرافية فى سيمفونية كونية غريبة التركيب فريدة التوليف .

القيمة والتقدير

ويعتقد بعض الدارسين أن أسلوب ندا الفني هو أسلوب سيريالي لتجاوزه حدود الواقع، ويرى البعض الآخر أنه فن رمزى حيث يتضمن العديد من الرموز الموحية، ولكننا نرى أن فن حامد ندا يتعصى على التصنيف وفقاً لمعايير المدارس الفنية الغربية المعروفة، وحامد ندا نفسه لم يكن حريصاً على الانطواء تحت أى منها، ونعتقد أنه كان متمرداً على قولبة الإبداع ضمن حدود بعينها، ولعل أصدق تصنيف لفنه هو أنه يأتى ضمن إطار المدرسة المصرية المعاصرة فى الفن، تلك المدرسة التى لم تحظ باتباع كثيرين - فى ظل عوامل ثقافية وحضارية غير مواتية - ويظل ندا - إلى جانب محمود سعيد وراغب عياد وعبدالهادى الجزار - أحد أركانها الأساسية .

لقد كان ندا فناناً ملتزماً بالقيمة الفنية العالية بصرف النظر عن مدى استجابة الجمهور العادى لها، كما كان ولاؤه لفنه دافعاً نحو قيامه بمغامراته التشكيلية التى لايدرك جمالياتها إلا من كان له ذوق فنى رفيع، فلقد كان ندا مؤمناً بأنه على الرغم من أن الفنان التشكيلي يجب ألا يعيش فى برج عاجي منفصلاً عن واقعه ، إلا أنه ليس من الضرورى أن يمنح الناس الجرعة الثقافية التى نريدها ، والتى سوف تأتى - فى حالة مجتمع كمجتمعنا الأمى الثقافة - ذات مستوى متواضع ولهذا كان يؤمن بأن الفنان يجب أن يحترم القيمة الفنية الرفيعة ، ومادام فنه يأتى نابعاً من البيئة والتراث والزمن الذى يعيشه، فإن هذا الفن سيصبح مرتبطاً بالمجتمع وإن قصرت ثقافة العديد من أبنائه عن تقبل وتذوق لغة الفنان، مثل رواية رمزية يدرك أبعادها المثقفون ويجهل مراميها القراء السطحيون، **كما كان ندا مؤمناً بأن الفن حين يصبح مباشراً فإنه لاقيمة له ، فوظيفة الفن إيقاظ الفكر وإثارة الخيال وإثراء الوجدان . ولهذا فإن فن حامد ندا مع تلك القيمة التى يمثلها كإضافة مهمة فى ثقافة مصر المعاصرة لم يلق مايستحقه من تكريم وتقدير، وغالباً لن يتم تقديره وإدراك قيمته إلا بعد أجيال عديدة - وهو لم يحصل على جائزة الدولة التقديرية إلا بعد وفاته ، كما أن أعماله تشتتت وكان يجب جمعها وتخصيص إحدى قاعات متحف الفن المصرى الحديث لعرضها ، أو على الأقل أن يتم نشرها فى كتاب لائق يحفظ إبداع فنان لن يسهل على مصر أن تحظى بمثيل له لفترة طويلة من الزمان.** ■



علاء الديب

سحب وسماء

بقلم
د. ماري تريز عبد المسيح*

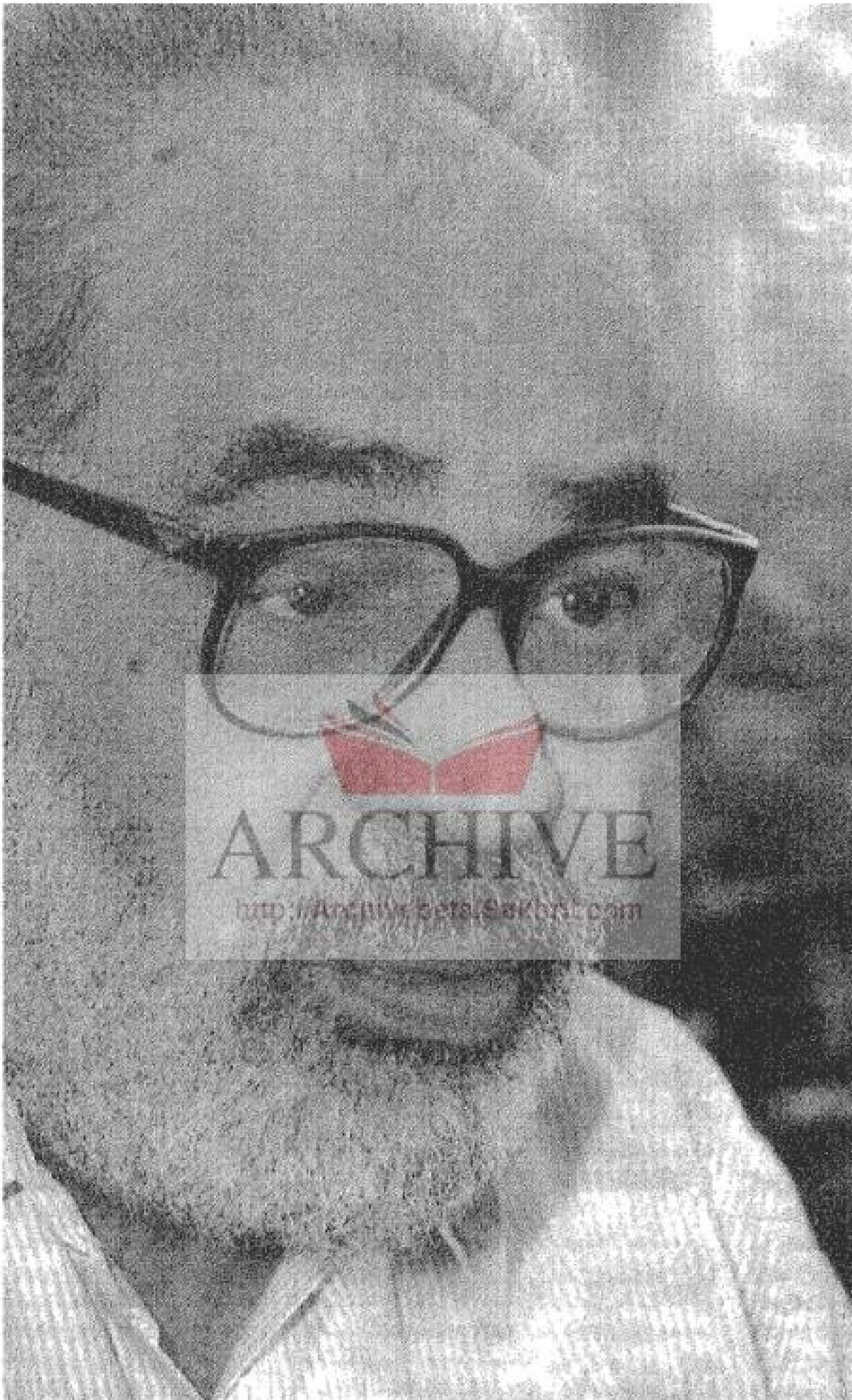
بحصول الأديب الناقد علاء الديب على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب يكون قد توج مسيرته الابداعية التى بدأت قبل أكثر من أربعة عقود ومازال يواصل رحلة العطاء والإبداع حتى الآن بدأب وإصرار .

وقد جمع علاء الديب بين فن الرواية والنقد الأدبى ، فتواصلت أعماله الروائية مثل «أطفال بلا دموع» و«زهر الليمون» و«قمر المستنقع» و«أوراق وردية» لتشكل علامات على طريق مسيرته الروائية الابداعية .

وفى نفس الوقت كان كتابه «وقفة قبل المنحدر - من أوراق مثقف مصرى» بمثابة واحدة من أرق وأعذب وأصدق ما كتب فى باب فحص النفس، وامتحان البشر على حد تعبير الناقد الكبير الراحل د . على الراعى .

ومازالت أعمال علاء الديب الإبداعية تكشف عن مكنوناتها ومدلولاتها العميقة.

* استاذ الأدب الانجليزي المقارن كلية الآداب جامعة القاهرة





● جمع علاء الديب باقتدار بين فن الرواية والنقد الأدبـــــــــى

كان لقائى الأول مع أعمال علاء الديب عند زهر الليمون . كنت عائدة من البحث فى أزمنة العصور الوسطى عن كيفية تشكل هويتنا إزاء الآخر ، وكيفية تفاعل الثقافات عبر الحدود الجغرافية والمعرفية . كان على البحث في كيفية انطلاق الثقافة العربية الآن لإيجاد مكانا على الخريطة الثقافية بين بلدان العالم . لذا تطلعت إلى قراءة أدبنا المعاصر فى سياق أدب الجنوب بعامة ، وفى إطار سياقه الإفريقى بخاصة ، لتقارب التجربة التاريخية الآنية . وهذا لا يعنى انفصال الإبداع الثقافى العربى الأفريقى عن الثقافة العالمية ، ولكن حاولت دراسة أوجه استقلاليته وكيفية إبراز خصوصيته ليوجد لنا صوتا ومكانا يمثلنا فى الساحة الثقافية العالمية .

وما جذبنى إلى زهر الليمون بخاصة ، وأعمال علاء الديب بعامة، هو ما أسميته بجماليات المقاومة . والمقاومة هنا لا تقتصر على النضال ضد الاستعمار الآخر ، فروايات الديب تدور فى زمن ما بعد الاستقلال فى المرحلة الحرجة التى تسعى فيها الشعوب التى استقلت فى النصف الثانى من القرن العشرين لتحقيق الهوية القومية ، فتصطدم بالسلطة السياسية من جهة وسلطة الأعراف الاجتماعية التقليدية من جهة أخرى ، مما يؤكد الفرد حتمية المقاومة على المستويين السياسى والوجودى . لذا، فالشخصيات الرئيسية فى أعمال الديب لا تعد أبطالا تجيد طنطنة الشعارات وليس لديها القدرة على تحطيم الأغلال ، بل معظمها أسير حوار جدلى لا ينتهى ، تسعى الشخصيات من خلاله على تعرف ملامح هويتها . وبفعل آليات النص يمتد هذا الحوار الجدلى إلى القارئ فيجد نفسه مشاركا فى محاولة التوصل إلى مفهوم جديد للقومية ، ينطلق من خطاب مغاير ، قادر على مقاومة الخطاب السائد المعوق للنشاط المجتمعى المتوقع تفعيله لمصلحة الفرد والجماعة فى آن.

ظهرت كتابات علاء الديب فى مرحلة تاريخية حرجة تموج بالصراعات بين السلفيين المتشددين والتقدميين ، وهى ثنائية تتكرر فى روايات الديب ، حيث عملت المؤسسات الرسمية على تأكيدها ومطاردتها فى آن ، بينما أخفقت فى إيجاد مسار بديل

هذا على المستوى السياسى ، أما على المستوى الوجودى فقد افتقدت الشخصيات الرئيسية فى رواياته القدرة على التواصل لغياب الرؤية المشتركة بينها ، نتيجة وقوعها تحت أسر أنماط اجتماعية متكلسة تحدد العلاقات بما لا يتيح لها الانطلاق فى آفاق أرحب من التعاملات الإنسانية ، حيث يتطلب ذلك الاعتراف بضرورة توفير الحرية الشخصية للفرد، فمن دونها يستحيل الحرية العامة التى تؤهل الجماعة الاختيار الموفق . تنقل لنا روايات الديب تلك التناقضات، لا لمجرد تأملها تأملا فلسفيا، أو التعاطف مع الشخصيات والتماهي معها، بوصفها ضحايا أو أبطالا ، بل يمنح أسلوبه السردى للقارئ مجالات للرؤية تسمح بترتيب الأوراق المبعثرة ، والحقائب والصناديق التى تنفض عنها أشياء متناثرة . فمزج الماضى والحاضر، العام والخاص، الطنطنة المفتعلة للشعارات والمواقف الحياتية العابرة فى السياق السردى مما يدفع القارئ إلى إعادة ترتيب تلك النتف لايجاد نسق ذا دلالة بتعرف المأزق الوجودى - السياسى الذى تخفق الشخصيات الرئيسية فى اجتيازه . وتعرف هذا المأزق يحث القارئ على إعادة تقييم المفاهيم المعوقة للإبداع التى نشأ عليها ، والسعى لطرح بديل ثقافى برأب الصدع المجتمعى الواقع ، حتى يغدو فعل القراءة مشاركة من القارئ فى نقض الواقع ومحاولته فى التوصل إلى البدائل هو بمثابة فعل مقاومة . تلك هى مقومات الوعى التاريخى التى تساعد الفرد على إفساح موقع له فى المجتمع والمشاركة فى إعادة صياغته مما يوطد مكانته ويؤكد هويته على المستوى القومى ، وبدون ذلك التحقق الفردى يستحيل المجتمع بأكمله تمثيل هويته على المستوى العالمى .

إشكالية اللغة

يختلف موقف النقاد من لغة الإبداع ، باختلافهم حول مفهوم اللغة . ينصب على اهتمام التيار المحافظ على التراكيب اللغوية الصحيحة ، حتى غدت اللغة مجرد طنطنة لفظية ، بلاغة جوفاء ، عند خضوعها لتعريف هذا التيار ، وأهم ما قدمه علاء الديب فى رواياته هو مفهوم جديد للغة بوصفها خطاب ، يستخدم إما للهيمنة السياسية أو الاجتماعية ، ودور المبدع هو نقض هذا الخطاب . ويتحقق ذلك لا بصقل لغة الكتابة لتحقيق مقياس جمالى اصطفائى ، بل بشحذ الحس الابداعى لاقتناص لغة الشخص العادى المتداولة فى الأحاديث الداخلية - أى المونولوج - والمحادثات مع الآخرين . فقد جعلنا الكاتب ندرك كم تلمح عاديات الحياة إلى ما يتجاوز السطح ، وكم تحمل الجمل المتقطعة المتبادلة بشكل عابر ، من جماليات بوسعها تمثيل أرفع درجات الحس ، كما تعبر عن مكنون النفس بما لا



تستطيعه معاجم اللغة الرسمية المركبة بأكملها . قد يهتم البعض بما يرمز إليه «زهر الليمون» ، أو «نبات الجهنمية الملتف حول شجرة السنديان» ، وهي قراءات قد تثرى تذوقنا للرواية ، ولكنها أيضا مفردات قابلة للتشكل وفقا لمنظور القارئ، ولا تتحدد بمعني واحد ، فبتعدد مستويات القراءة تتعدد دلالات الصورة أو الموقف في النص السردى ، بل تتغير علاقات الشخصيات بتلك المفردات وفقا للمتغيرات التي تطرأ على المكان أو في زمن السرد .

إلى جانب ذلك ، تختلف روايات علاء الديب عن الرواية الواقعية التي تتركز حول تطور الشخصيات ، أما في روايات علاء فلا تنمو الشخصيات بحيث تنجح في صياغة مفردات التواصل مع المجتمع ، فهي تعيش عالما مليئا بالتناقضات ، وعند الاقتراب من مفتاح أية قضية سرعان ما تتبدد مقوماتها ،تغيب دلالاتها . وعجز الشخصيات للتوصل إلى دلالة محددة يعود لقلقها الوجودى الدائم الذي أوقعها في عقدة الارتياب الراجعة إما إلى قصور شخصى ، أو إلى مؤامرة سياسية غير معلومة المصدر . وهنا يأتي دور القارئ لاكتشاف خبايا الأمور المختلطة ، فتعدد المواقف التي تتعرض لها الشخصيات وتنوع الأساليب السردية التي يلجأ إليها الراوى ، تتيح للقارئ خيارات متعددة لتشكيل السياق ، مما يفضى إلى صياغة خطاب لغوى مغاير . فإن كانت الشخصيات الرئيسية قد عوقتها الخيارات المحدودة ، المتباينة مما أودى بها إلى مهاوى الانغلاق الذاتي والانفصال عن الجماعة يظل القارئ في مكان أفضل لما توفر له من خيارات متنوعة ، فآليات الكتابة لدى علاء الديب توفر له إمكانية قراءة الحدث بأكثر من منظور واحد مما يساعده على موازنة الملامح السلبية للخطاب السياسى والاجتماعي بمنظومته اللغوية المغلقة .

● ظهرت كتاباته في مرحلة تاريخية حرجة تموج بالصراعات السياسية

زهر الليمون

يمثل الحدث في رواية زهر الليمون رحلة عبدالخالق المسيرى في عطلة نهاية الأسبوع لزيارة أهله في القاهرة ، بعد انتقاله للعمل موظفا بمكتبة أحد قصور الثقافة المهجورة بالسويس ، وعبدالخالق اختار السويس ظنا منه أن العزلة سوف تعينه على ترتيب أوراقه ، وتتيح له فرصة التفرغ لكتابة الشعر ، ولكن ساعدت عزلته على هدم قدرته على التواصل مع الجماعة ، بينما

أدت وظفيته العقيمة إلى جفاف قريحته الإبداعية قبل الأوان . والرحلة إلى القاهرة تمثل محاولة عبدالخالق للخروج من عزلته ، ولكنها تأتى بنتيجة عكسية حيث يصاب بسلسلة من المحبطات بدءا من موقف الأوتوبيس وانتهاء برحلة العودة . فهو يلتقى فى كل مكان برفاق النضال أيام الحلم الاشتراكى وقد ابتعدوا عن كافة المثل بل امتهنوا الآن الاتجار بكل شئ . واختلاف منظور الرؤية بين عبدالخالق وزملائه يفضى إلى اختلاف لغة التعاطى بينهم ، ويضاعف من عزلته ، فهو محاط بالتناقضات التى تفرض عليه ثنائية متضادة ، فإما التأقلم أو الانسحاب ، وذلك يؤكد مأزقه الوجودى .

فى الماضى تحققت لعبد الخالق القدرة على الموازنة بين الأضداد حيث أمدته علاقة الحب التى عاشها مع زوجته « منى المصرى» بطاقة خلاقة ساعدته على نظم الشعر . فاللغة المشتركة مع الحبيبة ساعدته على التواصل مع الجماعة عبر الشعر . ومتى انقطعت اللغة المشتركة بينه وبين الحبيبة ، برحيلها عنه عجز عبدالخالق عن التواصل مع الجماعة . وتتكشف للقارئ علاقة عبدالخالق ومنى عبر مشاهد مقتطفة تمثل مراحل علاقتهما المختلفة والصورة التى تتكون عن هذه العلاقة تحتمل عدة تفسيرات ، فالتفسير الوجودى قد يؤكد على العطب الذى أصاب العلاقة نتيجة تشكك الطرفين فى إمكانيات الآخر . أو قد يرجع سبب التفسخ للوضع السياسى العام ، فالحالة الاقتصادية لا تسمح بحياة إنسانية عادلة لزوجين فى أول الطريق ، والأعراف الاجتماعية قد غرست الفوارق بين البشر لتقف حائلا أمام كل من يسعى لتغييرها .ومن ثم يستشف القارئ العقم الذى أصاب تلك العلاقة الواعدة مثلما أصاب شجرة الليمون التى لم تعد تطرح زهرا يمتزج بالتربة ليجدد الثمار . كما تنهار علاقة عبدالخالق مع أصدقائه وعائلته ، ويضاعف ازدياد الفجوة الصراع بين الأجيال الناتج عن علاقات مبتورة لم تنمو وتتفاعل مع تغيرات الزمن، حتى يستسلم عبدالخالق تماما لعجزه اللغوى ، ويصير أسيرا لخيالاته وذكرياته، حتى أصبح الشعر أيضا أحلاما زائلة .

يعود عبدالخالق إلى السويس ليستلقي على السرير دون حراك ، كما يظل القارئ يتساءل عن كيفية التغلب على هذا المأزق الكونى الذى يعانى منه المجتمع بأكمله ، وإن كان عبدالخالق هو نقطة الربط بين الأحداث كافة، فالشخصيات الأخرى فى الرواية تشاركه البطولة لأنها تمثل التفكك الذاتى والاجتماعى والسياسي . يتتبع القارئ الأحداث فى رواية زهر الليمون على ثلاث مراحل : فى المرحلة الأولى يتبين لعبدالخالق - الشخصية الرئيسية - حتمية إيجاد دلالة لحاضر يفتقد دلالاته ، بعدما انفصل عن زوجته وأهله وأصدقائه . وفى المرحلة الثانية يظهر البعد الاجتماعى والسياسى للمدلول

اللغوى الذى يتعارض ورؤية عبدالخالق الشخصية ، وفى المرحلة الثالثة يتبين للقارئ ضرورة نقض الخطاب السائد المعوق لفهم الذات ، وفهم الآخر . وبقراءة التجربة المروية فى مستوياتها المتباينة يستمد القارئ الوعى التاريخى الذى يساعده على إعادة صياغة الواقع - أى التملك من ناصية اللغة - وصياغة الموقف بمفردات جديدة تنقض التنميط السياسى والاجتماعى المعتاد ، وبالتالى يشارك القارئ فى خلق خطاب بديل .



● صورة المرأة فى (أيام وردية) تتوازى وصورة فلسطين، توأم الروح،

أيام وردية

يظل علاء الديب مهموما بقضية الهوية، وما أصابها من تفكك نتيجة قصور اللغة المشتركة فمن دونها يستحيل التوصل إلى صياغة الحوار القومى تمهيدا للحوار مع الآخر . كما تفتقد أيام وردية أيضا تطور سردى خطى ساذج يفتعل السببية - وهى التقنية المستخدمة فى كافة رواياته ، حيث تتداخل الأزمنة والأمكنة لتمثل تشابك مقومات المعيشة اليومية ، وفشل محاولات تنسيقها فى تسلسل خطى ساذج - وهو ما سعت إليه الرواية الواقعية . تكاد تنعدم الأحداث فى الرواية . فهى تتبلور فى الانفصال التدريجى للشخصية الرئيسية عن المحيط التاريخى والجغرافى والبشرى إلى حد الاعتلال ، والنقل إلى مصحة «نابلس» الكائنة بإحدى ضواحى القاهرة ، لصاحبها الدكتور ألبير بشاى للاستشفاء. تمر مرحلة الاستشفاء الأولى بتحسن صحى ومعنوى وقدرة على التعاطى مع الآخرين ، بل التواصل على المستوى الإنسانى مع نزيلة فلسطينية بالمصحة . ويرتد المسار بعد أول صدام مع عالم القاهرة ، يتزامن مع انفصال عن الزوجة والأولاد ، لينتهى المطاف بأمين الالفى خارج الأمكنة هائما فى قرى مصر إلى أن يستقر به المقام فى مأوى خشبى أقامه أحد المعارف القدامى للسكنى ، فيشاطره أمين المكان ليواجه فيه فناءه .

ومن المحاور الرئيسية فى أعمال علاء الديب علاقة الرجل بالمرأة ، فهى الأساس الذى يتحرك منه الفرد نحو أى شئ يصبو إليه ، فهى مرآة الذات ومحركها ، وبدونها لا يتحقق للفرد اتزانه ، وفى أيام وردية تشكل علاقات أمين مع المرأة

أساس مأزقه الوجودي . فعلاقة الحب التي لم تكتمل بين أمين الالفي و«وف» في الماضي لاتزال تحضره في الذاكرة ، كلما راجع علاقته الحالية مع زوجته «مس شادن البيلي» التي تزداد عنه اغترابا لانعدام الحوار بينهما ، ونضوب المشاعر الدفينة التي تجمعهما ، لامتثال زوجته إلى الأعراف والطقوس السلفية ، رضوخا للخطاب السائد والمستخدم كمظلة واقية لحماية المكانة الاجتماعية لمروجيه . فإن كان أحد أسباب تدهور العلاقة الحميمة بين الزوج والزوجة في زهر الليمون يرجع أيضا للضغوط الاجتماعية لاختلاف عقيدتهما ، ففي أيام وردية يشترك الزوجان في العقيدة ، ولكنهما يختلفان في كيفية تفعيلها في حياتهما . بإيجاز تدهور العلاقة بين الحبيبين في معظم أعمال علاء الديب ترجع لعدم اتفاق الخيارات الخاصة مع الفكر العام ، فيستحيل دوام الحب - كخيار ذاتي - بين شخصين في مجتمع لا يحترم خصوصية الفرد ، مجتمع انتزع عن أفراده «الرأس والزعانف للزج بهم في علبة سردين » مما يؤكد في النهاية استحالة الفصل بين الخاص والعام ، أو الوجودي والسياسي عند تناول أية قضية.

وصورة المرأة في أيام وردية تتوازى وصورة فلسطين «توأم الروح» فتاريخها وتاريخ مصر يتزاوجا على مر العصور ، وهي الحلم الوحيد الباقي بعد تداعي الأحلام الأخرى ، يتمسك به أمين الألفي والطبيب البير بشاي - مدير «مصلحة نابلس» الذي يتولى علاج أمين - فـفلسطين هي الأرض المشتركة التي تعنياهما وتربطهما ، حتى وإن اختلف منظور رؤيتهما لها . صارت فلسطين لهما الحرمة التي ينبغي أن تصان ، والهيكل الذي يوحد العبادات ، يبكيانه لأن هناك من يسعى لتدنيسه بطمسه في خطاب دعائي ادعائي استباح كافة الحرمات مما أضاع القضية . ويتمثل ذلك التدنيس السياسي لقضية فلسطين على المستوى الذاتي في الموقف الساخر الذي يقع في مقهى «نابولي» أحد المقاهي التي يرتادها «المثقفين » (المتثاقفين) في وسط العاصمة.

يصطحب أمين الألفي عفاف ، السيدة الفلسطينية نزيلة مصحة «نابلس» ، ورفيقته في رحلة العلاج - يصطحبها إلى هناك تلبية لرغبتها في التنزه بعيدا عن المصحة ، والحوار مع «ممثلي الفكر» من «المثقفين» المصريين ، فالرغبة في التواصل هنا يثيره الاحتياج الشخصي وبالطبع له صدى سياسي . يسعد أمين بتلك الصحبة، فهو في احتياج إلى بعض من المودة خاصة بعد أن طلبت منه زوجته الانفصال وانتزعت أولاده عنه ، وتطلع إلى أن يكون في لقاء رفاق الأزمنة الوالية عهدا متجددا، وترحيبا بمناضلة



فلسطينية تعرضت للأذى . ولكن تنقلب محاولة التواصل الشخصي والجمعي إلى موقف فاضح ، ففي أثناء وجودهم بالمقهى يتقرب أحد الصحفيين إلى عفاف ، منجذبا لاسم عائلتها المعروف ، محاولا الاستئثار بها ، وبعد تعارف لم يدم سوى دقائق يفصح بها عن شهوته بفجاجة ، وهو موقف قد يثير ثائرة بائعات الهوى . فالتدنيس السياسي للقضية على المستوى الإعلامي يتمثل هنا في محاولة تدنيس جسد المرأة على المستوى الشخصي . وينتهي الموقف كما يصفه الراوي «بجنازة الطفل الرضيع الذي مات مباشرة وهو يولد » ، جملة الراوي تلخص حالة البتر التي أصابت العلاقات الشخصية والجماعية لاختلاط كافة القيم والمفاهيم ، و«ممارسة كل الرذائل الأخلاقية والإنسانية بعد دهانها بكلمات الفن والثقافة» ، عمليات قتل على المستوى المحلي لا تختلف عن الجرائم التي ارتكبتها اسرائيل ضد العرب ، كما يجيء في كتاب «اعترافات القتلة» التي أعطته عفاف إياه بعد تلك الواقعة ، مما جعل أمين يستنتج أن المنطقة كلها مريضة بالسرطان . فالقارئ يستنبط من تداعيات المواقف في الرواية أن التشدد الاسرائيلي - الناتج عن فكر قومي متشدد - يولد بدوره التشدد العربي إزاء الآخر الاسرائيلي الغربي ، كما ينشط خطاب التشدد في الداخل الذي يستبيح القمع والبطش تحت دعاوي الحفاظ على الهوية القومية ، أما من يزعمون التحرر والانفتاح فقط سقطوا إلى أسفل مستويات الدونية - أي أن الجميع يحتويهم خطاب العنف الذي يتم التداول بموجبه وفقا لثنائية الغالب / المغلوب .

● تنقلنا روايات الطيب التناقضات والصراعات في المجتمع

في أيامه الأخيرة في المصحة يتكشف لأمين الألفي أن «الحياة الوردية» التي عاشها برهة هي وهم آخر حان إزاحته ، ولكن ازاحته تعني ارتداده لما كان عليه من تمزق ، واغتراب عن الذات وعن الآخر . يلاحقه الاغتراب أينما ذهب ، حتى عند لجوئه إلى قريته فالمنازل الأسمنتية التي تلبس رداء التمدين تؤكد البؤس وتدني المحيط البيئي . تنوء القرية بما لحقها من استنزاف مادي ومعنوي في الحقب السالفة تحت شعارات متباينة : الثورة - الإصلاح - التعمير - الالتزام بالطقوس ، وكلها مراحل لسيرة واحدة يتبدل أبطالها وروادها تبعا لتفوق

الغالب على انتزاع الدفة من المغلوب الذى قد أصابه الوهن نتيجة الترف الذى أودى به إلى التراخى . يتتبع القارئ المتوازيات بين صورة القرية وصورة المدينة ، حيث يمارس فى القرية أنواع مغايرة من الفساد ، كما ضاعت هويتها بما لحقها من تغيرات سطحية خضعت للتحولات التاريخية الطارئة، وما ترتب عليه من تشويه لجغرافيتها . فالقرية ملحقة بالمدينة مثلما المدينة ملحة بالوطن الام ، والوطن الأم بالجسد العربى ، والجسد العربى بالغريب المجاور للديار .

عالم تغمره السحب أم يكشف السماء؟

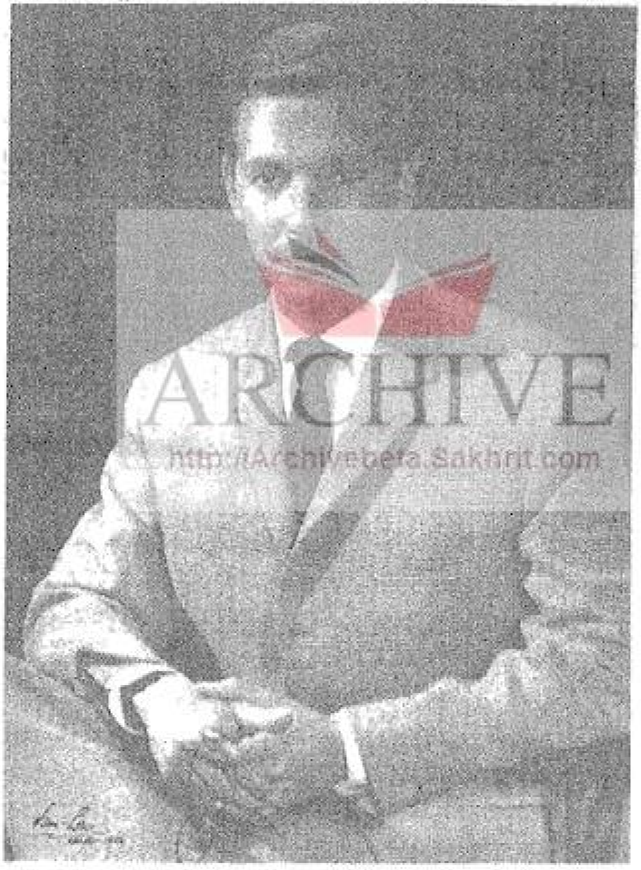
تزخر أعمال علاء الديب بعالم ينوء بالفساد ، ولكن إن ازداد نطاقه وتوغلت أنيابه يتضاءل أحيانا قبالة نفحة زهرة ، أو حلم جميل ، أو لحظة عشق ، حتى يظل القارئ يتساءل بعد قراءة أعماله أيهما الأرسخ ، سلبيات الحياة أم إيجابياتها حيث تظل نهايات الروايات مفتوحة حتى وإن انتهى المشهد الختامى بصورة عبدالخالق المسيرى مستلقيا بلا حراك ، أو أمين الألفى متأملا لحظات احتضاره . وليس المقصود بهذا التساؤل اتخاذ موقف تأملى متباعد فحسب ، ففى الأوراق الملحقة بروايته أيام وردية يبوح لنا الكاتب إن هدفه فى الحياة هو الكتابة ، وبالفعل تنطوى كتاباته على شحنة دافعة لتجديد الخطاب اللغوى . يغدو فعل الكتابة مثل العشق الذى يطلق طاقة متجددة تدمج الذات مع الآخر فى نطاق العلاقات البشرية المقربة ، والكتابة لها تأثير التفجير الفدائى الذى يجدد الإحساس بقضية فلسطين على المستوى السياسى ، ففعل الكتابة يشعل شحنة الإبداع لدى القارئ الذى يعيد إنتاج النص أثناء القراءة مما يؤهله للمشاركة فى صياغة الكيان القومى ، ويهيئ الأمة للمشاركة فى الكيان العالمى . لم نعد فى زمن «الثورات الكبرى» ولم تعد تجرى محاولات قلب الأنظمة ، فقد كشف لنا التاريخ خطاب العنف المتخفى وراء ستار البطولة . فالأمة ليست مجرد كيان سياسى تصنعه الحروب والانتصارات ، بل هى جماعة حققت الترابط لتجتاز ثقافتها مرحلة الارتجال لتصل إلى مرحلة الوحى بكيفية بناء الذات .

وأنا أطوى الصفحة الأخيرة من كتاب أيام وردية - متتالية العنف والعشق ، الغفوة والصحوة ، البقاء والفناء - تستحضرنى كلمات من الأناشيد المصرية القديمة قد تزيح غيوم التساؤلات ، أو تحملنا فى رحاب السماء لنستطلع ثنائيات المتتالية فى سياقها المتكامل ، والكلمات مأخوذة عن نصوص الأهرام : «نغفو لكى نصحا ونموت لكى نحيا» . ■

المكتبة ومتحف

شادي عبد السلام

فرعون السينما المصرية



شادي عبد السلام - ١٩٦٢

٩٨

الهلال

رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

توجهت إلى مكتبة الإسكندرية، أزورها لأول مرة، وذلك قبل بضعة شهور، والربيع على وشك الرحيل .

وكانت المناسبة الاحتفال، فى حضور الدكتور أحمد زويل، بنشر سيرته الذاتية بالإنجليزية، رحلة فى الزمان .

وبينما أنا ونفر من المحتفلين فى مجمع المكتبة، حيث متاحف العلوم والخطوط والآثار .

قال المرشد ، والآن إلى متحف فرعون السينما المصرية.

وتساءلت، مندهشا، هل للسينما فرعون، وإذا كان لها، فمن هو يا ترى ؟

وما هى إلا ثوان، حتى كنت قد استرجعت على شاشة ذاكرتى الكتاب الذى أصدره معهد العالم العربى بباريس تحت عنوان «شادى عبدالسلام فرعون السينما المصرية» .

وهو كتاب زاخر بصور ملونة، رائعة الجمال، من بينها رسومات للأفلام التى أبدعها، ورسومات أخرى للأفلام التى كان يرنو إلى ابداعها .

وعلى رأسها فيلمه حول مأساة اخناتون، ذلك الفرعون الملعون الذى عاش فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

واعتلى عرش مصر، بعد وفاة والده أمون حوتب ومما يميزه عن الفراعين الآخرين الثورة الفكرية والدينية التى شاركته فيها زوجته نفرتيتى، وتغنى بالفرعونية الجميلة تتهادى.

وانتهت بفشل وردة إلى عبادة أمون.

إذن فالمقصود بفرعون السينما المصرية هو شادى عبدالسلام.

ومرة أخرى تساءلت ، كيف صار لشادى متحف، وهو الذى عاش مضطهدا، منذ نجاح فيلمه الروائى الطويل، الأول والأخير، المومياء، أو ليلة حساب السنين.

وبقى مضطهدا، شبه ممنوع من ابداع فيلمه عن اخناتون، إلى أن أصيب بالسرطان ، وجاءه الموت، قبل ستة عشر عاما بالتمام (٨/١٠/١٩٨٦) ودون أن أصل إلى جواب، وجدتنى فى متحف فرعون السينما المصرية، أتنقل بين أشياء ثمينة، كنت أراها، فى أثناء زياراتى لمكتب شادى فى شارع ٢٦ يولية (فؤاد سابقا) . رسوماته، صوره، كتبه، أرائكه، سجاجيده، جوائزه التى توجت المومياء وأفلامه القصيرة.

وأحسست وكأن روحه قد عادت، ومعا نسترجع الماضى.

وخرجت من المتحف بنفس مطمئنة على كل حال لأننى بعد مشاهدة أشيائه معروضة فى متحف جميل، وأين؟ فى مكتبة ذات تراث مجيد، أستطيع أن أقول أن معركتى من أجل المومياء، وأنا رقيب، قد توجت بنجاح منقطع النظير.

فعطاء الفنان يقاس لا بكم، بل بكيف

الأفلام.

ورب فيلم واحد أثمن وأبقى من مائة فيلم وهنا أرى لزاما أن أعود بالحديث إلى عام ١٩٦٧.

كان أول لقاء بيني وبين شادى بمكتبه، وأنا رقيب جاء ، ومعه سيناريو المومياء، ملتمسا إجازته في أسرع وقت ممكن.

والشيء الذي استرعى انتباهي في هذا اللقاء الأول هو مستوى شادى الثقافي الرفيع.

وما كان يمكن أن يدور في خلدي، أن مستواه هذا، وعشقه لتاريخنا، سيكون وبالا عليه.

يتحول بأحلامه إلى كوابيس.

وعلى كل، فالتماسه الاسراع بإجازة السيناريو لم يكن أمرا غريبا.

الأمر الذي أثار دهشتي، وأدخل كل ما يتصل بالمومياء في باب الغرائب، هو أن يكلمني هاتفيا، فور زيارة شادى، رئيس مجلس إدارة شركة الإنتاج السينمائي، كي يطلب ما خلاصته الامتناع عن الموافقة على سيناريو المومياء، لا لسبب سوى أن الفيلم، فيما لو رأى النور، سيكبد الشركة خسائر فادحة، هي في غنى عنها، خاصة انها تعاني من ضائقة مالية، لن يكتب لها منها نجاة، إلا بفضل أفلام تحقق نجاحا في الشباك.

والشيء الذي ليس فيه شك أن المومياء، بحكم موضوعه الجاد، لا يدخل في عداد تلك الأفلام.

وقد يكون من الخير أن يمنع من المنبع، أي وهو في مرحلة الرقابة، وذلك حتى تجنب الشركة خطر الإذعان لأمر وزير الثقافة، الواقع تحت تأثير نفر، لا يعنيه مصلحة الشركة في قليل أو كثير.

وعندئذ ذكرت له أن احتمال فشل الفيلم تجاريا ليس من الموانع الرقابية التي تحول دون إجازة السيناريو، فالمنع وفقا للقانون محدود بمخالفة المصنف الفني للنظام العام أو لحسن الآداب.

ومن الاكيد أن احتمال فشل الفيلم تجاريا لا يشكل مخالفة لكليهما لا من قريب ، ولا من بعيد.

وانتهى حديث الهاتف وديا، أو هكذا ظننت مدفوعا بحسن النية، وكم كنت واهما.

فما هي إلا أيام ، حتى كان قد عاد الحديث الهاتفي مرة ثانية، لاسمع صوت رئيس مجلس الإدارة يكرر المطالبة بعدم الموافقة على السيناريو، ويقيم طلبه في هذه المرة على سبب متصل بالنظام العام ، لا بالشباك، هو اكتشاف أن الأفكار المنطوى عليها السيناريو معادية للقومية العربية.

ولأنني وجدت أنه لا جدوى من التحاور معه في ذلك الاتهام الواضح الافتعال، فقد وعدته خيرا، وكان خير ما فعلته أن أسرعت بالموافقة على سيناريو المومياء .

وتمر الأيام أعواما بعد أعوام، ويصبح المومياء درة السينما المصرية.

ويصير لشادى في مكتبة الإسكندرية متحف فرعون السينما المصرية !!

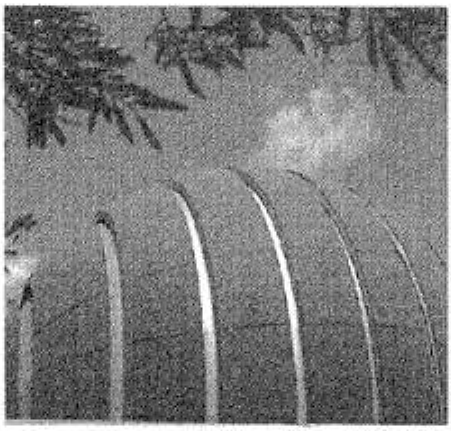
ميم . دال



شادي عبد السلام وفريق العمل أثناء تصوير فيلم المومياء



مشهد من فيلم المومياء يجمع بين نادية لطفي وأحمد مرعي



منارة الإسكندرية

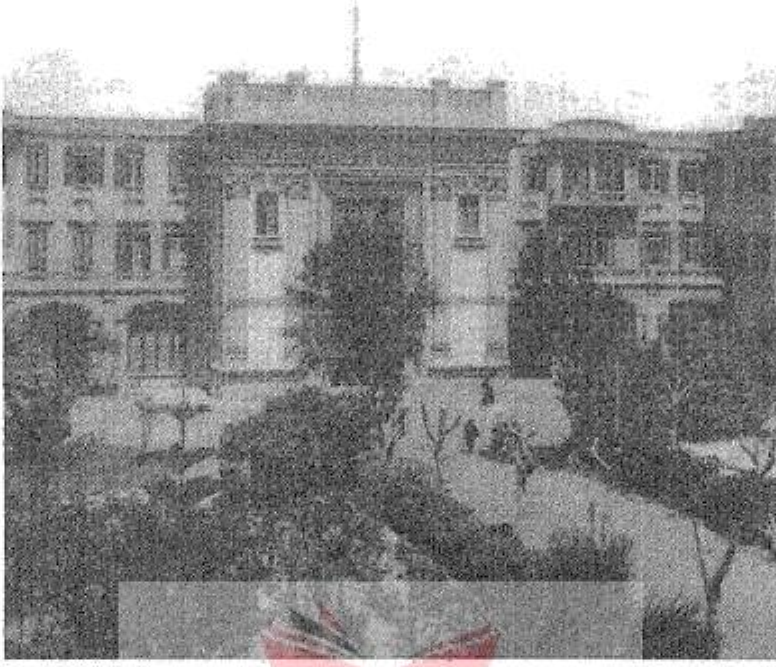
ومكتبة الإسكندرية



بقلم
عدلى رزق الله

العبور..
يفعلها المصريون أبدا.
يفاجىء الانسان المصرى والذى يبدو نائما ومستتيما إلى اليأس المطبق حيث تتفاقم المشاكل وتزغرد اللامبالاة منطلقة فى كل مناحى الحياة. التلوث البصرى والسمعى يقتحم علينا حياتنا فى الشارع والبهت ويقتحم حياتنا حتى المخادع وأماكن الراحة. الاستسلام لتعليم تفاقمت مشاكله وتملأ بيوتنا شهادات وأوراق لاتنفع ولاتضر! .. إلخ منظومة التخلف وأنا فى غنى عن سرد ماتعرفونه أفضل منى، ينزوى الانسان المصري بعيدا، يائسا وصامتا، أو منفجرا بالشكوى الدائمة التى تتحول من فرط تكرارها فى مجالسنا إلى لغو لامعنى له، فالجميع يشكو وكأنه غير مسئول.

فى مثل هذا الجو «عبر الجيش المصرى» بعبقرية وخيال خلاق وتعجب الصامتون اليائسون والشكاءون البكاءون.



كازنتو الرمل «سان استيفانو» أحد أهم فنادق المدينة - أواخر القرن التاسع عشر

في مـــثل هذا الجـــو بنى المصريون السد العالي.

في مـثل هذا الجو يعبر الانسان المصري ببناء صرح ثقافي هو «مكتبة الاسكندرية» أول «علامة» لدخول القرن الـ ٢١.

اللقاء والعمارة الحديثة

في أحـد أيام الربيع يصـحـبني المهندس الفنان محمد عوض في أولى زياراتي للمكتبة . بناء دائري مرصع بكتـابات ورمـوز ويغلب عليـه اللون الرمـادي الكابي بلفح تأثير مـعدني طاغ. أنظر إلى السماء الزرقاء شديدة الصـفـاء. تتـجـول عيناي في مـيـاه لازوردية يتمـاوج فـيـهـا الفـيـروزي بالتركوازي الذي يميل اخضراره إلى الزرقـة، تتكسـر أضـواء الشـمس البرتقـاليـة في دلع تتميز به طبيعة عروس البحر الأبيض. أغمض عيني العائدة من دلع الطبيعة السكندرية الطاغية، حينئذ تغيب الشمس - في مـخـيلتي - وتبرق وترعـد السـمـاء، وتتكسـر الرعـود صـاخـبـة مـجلجلة، وتتكاثر سحب تمطر على اللون المعدني الكابي. أفيق من هذا الخيال الجامح

لأقول لصديقى هذا البناء بليق ببحور الشمال، يبتسم المعمارى الوقور ناصحا إياى بمشاهدة المبنى من الداخل.

ملاحظة : لوحة ركيكة تجاور المبنى من الخارج تخدش روعة البناء وبها العزيز ميكى ماوس وآخرون، مستوى أدائها يحتاج إلى مراجعة.

تدلف إلى داخل المبنى، يأخذنى الفراغ الهائل، والذى لم أر له مثيلا من قبل حتى فى زياراتى لمتاحف ومكتبات عالمية، أتحمس لكل ما أرى وأدعو أصدقاء «بيت المائيات» لرؤية المجموعة التى أهداها المهندس الفنان محمد عوض الى المكتبة لمدة خمس سنوات قابلة للتجدد، وأترك المكتبة واعدا نفسى بضرورة العودة.

لقاء المثقفين

وراء كل عبور عظيم خيال أعظم، إيمان، قدرة على الإنجاز تصل إلى حد الإبداع . قيادة تتميز وتملك كل تلك المواهب بل وقادرة أيضا على استقطاب القادرين.

إسماعيل سراج الدين

يمثل لى هذا الرجل نموذجا جديدا من القيادات المسلحة بالعلم الحديث فى آخر تجلياته متزاوجا مع ثقافة موسوعية تلم بكثير من الفنون القديمة والحديثة، يضاف إلى كل هذا خبرة على مستوى العالم غربه وشرقه، قدرة على العمل المتواصل بتركيز لايصيبه الوهن أو الشحوب دون السقوط فى وهدة العاطفية. نموذج لو تكرر فى قياداتنا لدخلنا القرن الـ ٢١ بخسائر أقل.

عادل أبو زهرة

نحيل، نحيف، دقيق الحجم والملامح، متحمس أبدا لقضايا الجمال وضرورته لحياة البشر، مثلما هو متحمس لقضية بناء الإنسان الحر والخلاق، يعمل بلا كلل من أجل إنجاح لقاء المثقفين بمكتبة الاسكندرية.

اللقاء

تقليد جديد من قيادة جديدة. تعودنا أن يهرب المسئول من المثقفين، واقعا فى أحضان أصحاب المصالح ويستحسن أن تكون شخصية حتى يضمن المسئول عادة عدم خروج المحيطين به عن الطاعة الواجبة، أو سماع مايكره أحيانا، لقاء بدأ فى التاسعة والنصف صباحا واستمر حتى السادسة من اليوم التالى، الجميع حاضرون فاللقاء جديد، والحماس يعدى، والكل فرح بما يرى ويعيش. عرض جاد لما تم وما سيتم ، ونستمع إلى تعليقات الحاضرين، يضع الحالمون منا على عاتق المكتبة حل كل قضايانا من التعليم إلى محو الأمية، من التنمية إلى وصول صوت



شارع باب رشيد ، أحد شوارع المدينة الرئيسية - أواخر القرن التاسع عشر

المكتبة إلى النجوع والكفور، ويرى المعتدلون - وأنا منهم - ضرورة تصدى المكتبة للصناعة الثقيلة فى الثقافة والتصدى للمشاريع الجادة والأبحاث المتعمقة والمعارض التى لايمكن إقامتها إلا بجهد غير متوافر فى مناخنا الثقافى.

ونزور الأجنحة والمعارض القائمة والتى أرى أنها تتوافق حقا مع ماندعو إليه ونرى :

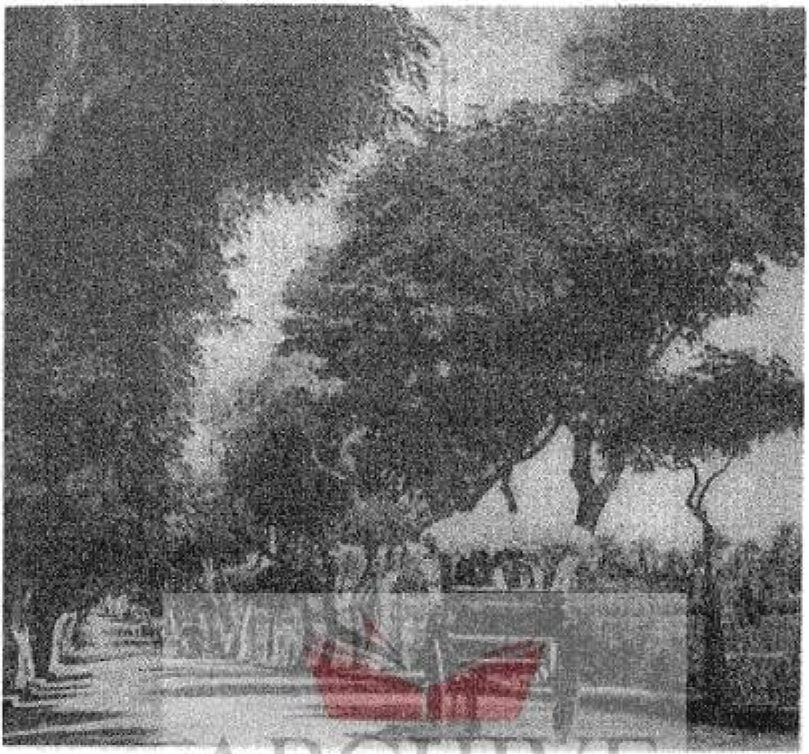
● متحف العلوم والتاريخ وهو هدية من فرنسا.

● متحف المخطوطات النادرة والأثرية، وما يلحق به من محاولة إخراجه إلى العالم المرئى بالوسائل التقنية الحديثة، وطباعة الكترونية يمكن اقتناؤها.

● معرض الخط العربى وأعتبره لبنة لمعرض أشمل.

● متحف الحضارات والمجموعة المستنقذة من بحر الاسكندرية.

● عرض تكون الكون وبداية



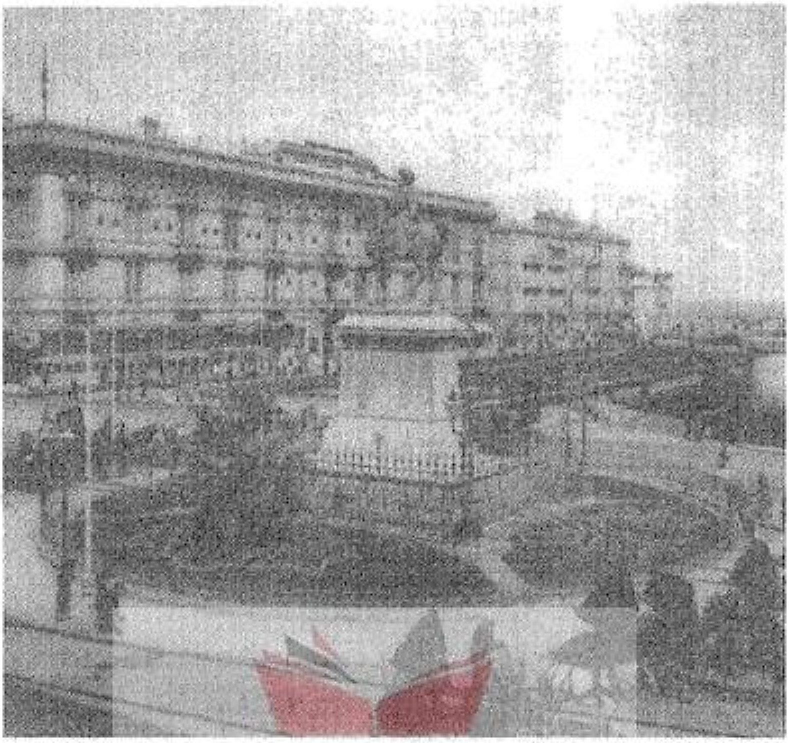
شارع «أبو قير» بمنطقة الرمل - أواخر القرن التاسع عشر

الخليقة.

أما العنصر الذى يستحق منا عناء كثيرا فهو الخاص بالأطفال وقد وعد الدكتور سراج الدين بندوة تخصص للأطفال ومايقدم لهم بناء على دعوة السيدة نعم الباز، أما الدعوة الثانية العاجلة فهى تتلخص فى ضرورة وجود وحدة طباعية - وهو ما اقترحته فى اللجنة الثقافية - متطورة التقنية حديثة وصغيرة الحجم.

فى العمل الأخير الذى قدمه لنا الدكتور سراج الدين والذى يدلل فيه على أهمية لقاء الحضارات، ومحاولة إيجاد «الطريق» أو «الكود» للتعامل مع الآخر، ونحن نتفق تماما مع الدعوة، بل ولا حل لدخولنا عالم اليوم إلا ذلك المنهج الذى يدعو له الدكتور سراج الدين، وفى اعتقادى أن فى تكوينه العلمى والثقافى خير نموذج لما يدعو إليه.

لكنى أختلف مع الدكتور فى بعض

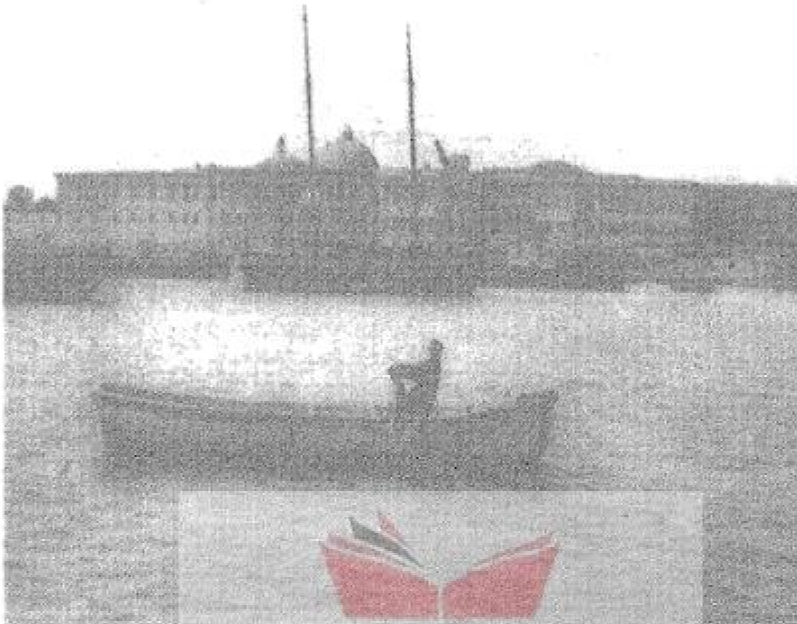


ميدان محمد علي بعد إعادة بنائه - أوائل القرن العشرين

ما أثارته أمثلة الالتقاء التشكيلية التي قدمها لنا غير مخفٍ لإعجابي بمعرفته الواسعة بفناني الغرب والبلاد العربية.

«الشكل والمضمون لحمة واحدة، لايمكن فصل أحدهما عن الآخر، وإذا حدث وقعت الجريمة التشكيلية وسقطنا في مستنقع التقليد، هضم التراث عالميا أو محليا ضرورة.. ثم انتاج الجديد. عندما قلد بيكاسو القناع الأفريقي في «آنسات أفينيون» لم تستطع معدته الفولاذية هضم طبول الغابة الأفريقية - المضمون - ولكنه اكتفى بتقليد الظاهر في عمل تجريبي تكمن قيمته في تاريخيته فقط. ولم تنجح التكعيبية إلا حين لجأت إلى أبحاث سيزان وطورتها وحينئذ ابتعدت عن «تقليد الشكل». كما ان إفراغ الخط العربي من مضمونه وتحويله إلى شكل جرافيكي أفقده ويفقده القيمة التعبيرية الجمالية وإن أبقى على قيم زخرفية شكلية.

هذه عجالة وجب تسجيلها احتراما

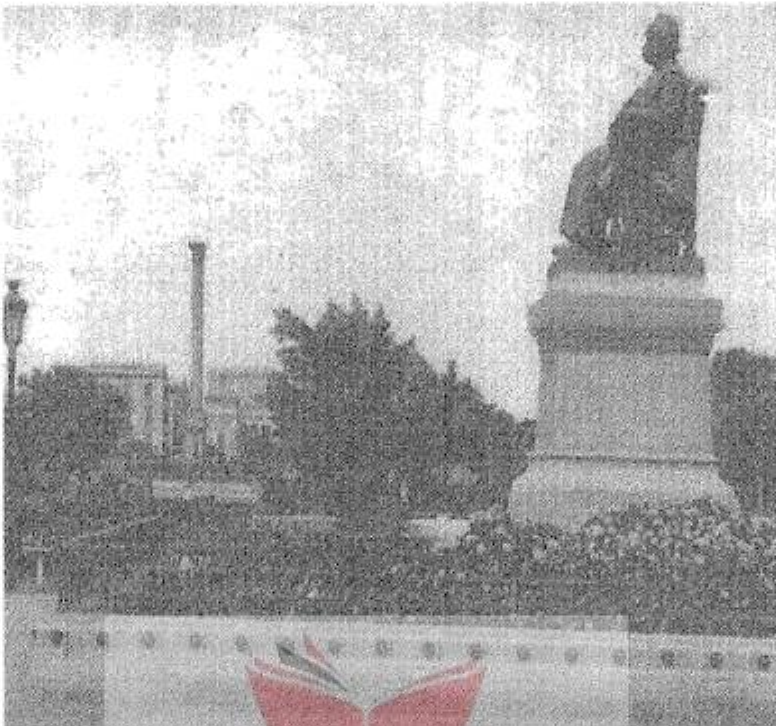


قصر رأس التين الذي بناه محمد علي ١٨١٨ . والصورة من بدايات القرن العشرين بعد تجديده وتوسيعه في عهد الخديو اسماعيل

منا لما مثلته أعمال جادة حقا تستحق مناقشة يتاح لها الوقت وإمكانية الحوار وقد يكون هذا أحد الموضوعات الصالحة لأبحاث جادة، فما أحوجنا إلى «المضمون» ولانحتاج حقا إلا تقليد «شكل» الحضارة، وأعتقد أن في هذا يكمن لب دور مكتبة الاسكندرية.

محمد عوض ومجموعته

يمثل لي المعرض الدائم لمجموعة محمد عوض المجاور لجناح المخطوطات النادرة – الذي يحتاج للكتابة عنه إلى زيارة خاصة لفرط أهميته – نموذجا جيدا لعرض تنفرد به المكتبة، كما يلقى الضوء على عاشق الاسكندرية محمد عوض، عاشق يتتبع أخبار محبوبته على كل المستويات، يوثق لها منذ أن رسمت خرائط متخيلة، ثم خرائطها الحقيقية، رسوم المستشرقين المتخيلة ثم الرسوم الحقيقية التسجيلية، تتبع لكل صورها



حدائق نوبار وميدان الخرطوم فى أوائل القرن العشرين

الفـــوتوغـــرافـيـــة منذ أن بدأت الفوتوغرافيا. والجزء الأخير يتمثل فى عـشـاقـهـا من الشـعـراء والكتـاب والفنانين، من لورانس داريل إلى ادوار الخراط وإبراهيم عبدالمجيد - جارى هذا العمل الآن - من كليابدارو إلى مارينتي، خرائط، وثائق، رسوم، صور فى سيناريو سلس أخاذ. ينبض حياة ومازال العمل مستمرا وما أجمل أن يستكمل هذا العمل - كنموذج - بفيديو يستمع فيه كل زائر إلى العاشق بنفسه يتحدث عن مجموعته، وعن بعض طرائف وقصص جمعتها تلك المجموعة الفريدة، هذا لمن لديه وقت للبحث والاستقصاء وليس الزائر المتعجل للهرم الرابع كما تقول ملصقات المدينة.

وبعد فهل نحلم بكلية فنون أو جامعة تتخلص من الروتين مثلما رأينا فى مكتبة الاسكندرية؟ هل أحلم، وهل الحلم مشروع!! ■

الحيوان

مجرد أصداء وألوان

بقلم
د. محمد المهدى

- استسلم الطين فبقى أثره وتمرد الحيوان فطمست معالمه

- جواتييه فى القرن الـ ١٩: الحمار المصرى يختال.. كأنه يعرف أن أحد سلالته حمل العذراء والمسيح الى مصر

الحيوان حالة وسط لا هو بالصامت المستسلم بحيث تشكل منه ماتشاء، ولا هو بالناطق المعبر بحيث لاتستطيع أن تفرض عليه ما تشاء .

وتستطيع أن تتحدث عن شخصية عمارة الكرنك ، أو بوابة عشتار، أو البتراء ، أو البارثينون، أو مسجد ابن طولون، أو الفاتيكان، أو نتردام.. ولكنك لاتسطيع أن تتحدث عن شخصية حيوان محدد الاسم والتاريخ.

استسلام الجماد للإنسان صنع له شخصية . قد تكون تابعة، ولكنها أيضا متفردة، وتمرد الحيوان بالغريزة غير الواعية أضاع تاريخه، وطمس معالمه.



من تناقضات الفنان روبنز -الذئب الذى يحمى الأطفال (١٦١٧-١٦١٨)

وتستطيع أن تتحدث عن جمال القط المصرى، أو عظمة الثور المجنح البابلي، أو هيبة الميناتور اليوناني، أو حكمة الحمار المسيحى، أو رشاقة الحصان العربي، أو وداعة الفيل الهندى، أو مرونة النمر الصينى، لكنها مجرد رموز تستدعى لك بالضرورة في الذاكرة عملا نحتيا، أو تصويريا، أو أدبيا، أو أسطوريا، أو دينيا معنيا.

الحيوان على لسان الإنسان وجدناه في أغانيه، وكتبه، وحكمته، وقصصه، ورواياته، وأساطيره، ولوحاته، ومنحوتاته.. مجرد أداه، رمز الحالة مكانية زمانية معنية.

حالة القط

للكاتب التركى «عزيز نسين» قصة اسمها «قصة القط السعيد» تحكى فيها فتاة عن حلم رأت فيه نفسها مع جماعة يسيرون فى الطريق، وفجأة يصدر صوت يأمرهم بالتوقف، ثم يأمرها بأن يخرج كل واحد منهم قطعة طباشير ويرسم دائرة حول نفسه.

يطيعون الأمر، ومن اعتذر منهم بعدم وجود قطعة طباشير أمر بأن يرسم الدائرة حول نفسه بأى قلم، ومن يعتذر منهم بعدم وجود قلم أمر بأن يرسم الدائرة فى الهواء.

وبعد أن قام الجميع بتنفيذ الأمر وجدوا أنفسهم محصورين في دوائرهم، حتى الكسيح، والميت، والمشلول قاموا برسم دوائرهم في أذهانهم تنفيذا للأمر، ظلوا فى حيرة لايستطيعون الخرج إلى أن ظهر القط، ظل يتجول بين دوائرهم فى حرية يدخل ويخرج حسب هواه، وفى سعادة تنتهى القصة بأن يصرخ كل واحد بدوره قائلا : لو أن واحدا فقط خرج من دائرته فإننى سأخرج.

ولم يخرج آحد.

ونترك قصة «نسين» الفلسفية الى قصة الأديبة الفرنسية «كوليت» الواقعية، حيث كتبت الكثير عن عالم الحيوان، وخاصة القطة، فى قصتها «القطة» نرى شابا يحب قطته «ساها» ولا يستطيع أن يفارقها حتى بعد أن تزوج، تتبع الكاتبة الزوج والزوجة والقطة خلال ثلاثة أشهر القطة يصيبها القلق، فقد استبعدت من ارتياد فراش الشاب، فى داخل الزوجة شيء يلتهب لاتعرفه هل هى الغيرة.. الغيرة من قطة؟

تتوتر العلاقة بين الزوجة والقطة، وفى لحظة عصبية تطارد القطة وتلقى بها من تاسع دور، لكنها تسقط على ساتر فى الدور الثانى فلا تصاب إلا بخدوش، تعترف الزوجة بحالتها، يصاب الشاب بذهول ، يقرر الرحيل مع قطته، وتقول الزوجة لو إننى حاولت أن أقتل أو قتلت امرأة تنازعنى حبك، وتنتزعك منى، كنت ستغفر لي . ينظر إليها الشاب فى صمت ويرحل.

الصمت علاقة راقية، أن أعظم

الإبل فى لوحة نقاش بالقرب من قرية وردت فى مقامات الحريري (يحيى الواسطى ١٢٣٧) - المكتبة الوطنية باريس



الفنون هى الموسيقى ، ففيها هذا التجريد الصامت، العالمية، الكونية، تتحدث بكل اللغات، ولكل الأجناس والطبقات، لغة لاتعرف وساطة الحروف، والجمل، وتحايل الصياغة، وبالتالى التأويل، تخترق الأعماق دون سدود أو حدود، هى أقرب إلى الصمت المعبر، أو القول دون صوت، لقد أصيب الحيوان بهذه العاهة، فى نظر الإنسان، ولكنه حين يدرك قيمتها عند الحيوان يألفه، يشعر أنه حصل على ثروة معنوية، وكانت هذه مشاعر الزوج فى قصة «كوايت» .

لكل زمان حماره

ويحدثنا الدكتور عبدالحميد يونس فى مقدمة ترجمته لـ «البنجا تنترا» أن قصة وفاء الكلب «جلبرت» المشهورة فى إنجلترا لها أصل هندى، يقول إن البرهمى ترك طفله فى حراسة النمس الأليف، وجاء الثعبان فقتله النمس .. وتستمر القصة الى النهاية، كيف وصل الأصل الهندى الى إنجلترا؟ هل هى مجرد توارد لخواطر الشعوب؟ ولماذا الكلب والذئب فى الرواية الإنجليزية، والنمس والثعبان فى التراث الهندى؟

والحمار من أشهر شخصيات مسرح الحيوان العالمى، لكل زمان حماره الخاص، فهو إما غافل، أو بليد، أو صامت، أو حكيم، أو خبيث .. أو متنبىء

تحكى «البنجاتنترا» أو الأسفار الخمسة الهندية، أن الأسد العجوز مرض وطلب من مستشاره الثعلب أن يحضر له قلب وأذنى حمار ففيها شفاؤه، يستطيع الثعلب أن يخدع الحمار فيصور له الغابة مليئة بالأتن. يطاوعه الحمار، وما يكاد يصل إلى عرين الأسد حتى يخرج له مهاجما فيفر الحمار يسعى الثعلب من جديد لخديعة الحمار فيقول له إن نظره قد خدعه، وأنه تصور الأتان أسدا لشدة تعبه. يصدق الحمار، ويذهب معه ويقتله الأسد، يذهب الأسد ليؤدى طقوسه قبل الشروع فى أكل قلب الحمار وأذنيه، وحينما يعود لايجد للحمار قلبا، ولا أذنين فقد أكلهما الثعلب، يثور فيهدىء الثعلب من روعه، ويقنعه بأن هذا الحمار كان خاليا من القلب والأذنين.. ألم يكن أبلها خدعناه مرتين فكيف تكون له أذنان تسمع، أو يكون له قلب يعى؟

لكن الحمار فى ألف ليلة وليلة يأتى خبيثا، لقد نصح الثور المرهق بالعمل أن يتمارض حتى يتركه سيده، فعلها الثور فجاءت فوق رأس الحمار، لقد تحمل أعباء العمل وحده، جاء الحمار للثور وحدثه أنه سمع سيده ينوى ذبحه لأنه مريض، هب الثور لفوره واستأنف العمل.

والحمار الشهير الذى حدثنا عنه الكاتب الإسبانى «خوان رامون خمنيث» فى منظومته «أنا وحمارى» كائن بقلب كبير، ونفس رحبة، يحب الناس ويحبونه يدير الحوار فى صمت وحكمة، يعرف مصير الأشياء، ويدرك الأعماق، ولايطمع إلا فى القليل، وهو تقريبا «حمار



الحمار المصري يحمل الأسرة - من أعمال محمود سعيد ١٩٢٨



أسد الفنان روسو في لوحة الغجرية النائمة - ١٨٩٧
متحف الفن الحديث - نيويورك

الحكيم»، وإن كان توفيق الحكيم قد أضاف للتأملات طابعا واقعيا لزمانه.

وكان الحمار المصرى قبل أن يلحقه احتقار واستغلال زماننا، مثار اعجاب الكثير من زوار مصر فى القرن ١٩، فى أوائل القرن يصوره «ادوارد وليم لين» فى كتابه الشهير «عادات وتقاليد المصريين المحدثين» مزدانا ببردعته ولجامه، شامخا بعنقه ورأسه. ويحدثنا الناقد الأديب «تيوفيل جوتييه» فى آخر القرن فيقول إنه عرف أن القاهرة ثمانية آلاف حمار، تحظى بالرعاية والعناية، تسير متبخترة وكأنها تعرف أن أحد سلالتها قديما قد حظى بحمل العائلة المقدسة على ظهره من فلسطين وإلى مصر.

وفى التراث العربى

ونعرف فى تراثنا حصان عنترة العبسى، ونعرف داحس والغبراء، لقد كان زعيم عبس يملك حصانا اسمه «داحس» وزعيم ذبيان يملك فرسا اسمها «الغبراء» جرى بينهما سباق سعى فيه زعيم ذبيان الى تعطيل داحس حتى تسبقه الغبراء، كشفت المحاولة ودارت الحرب.

ولكن هل كانت قضية حصان وفرس، أم كانت صراعا حول امتلاك الأرض؟

ونعرف من تراثنا العربى كتاب «الحيوان» للجاحظ، وربما نعرف أن أبا العلاء تحدث مع الحيوان فى رحلته الشهيرة إلى العالم الآخر فى «رسالة الغفران» تحدث مع الأسد، يجده مستمتعا بفريسته فيسأله ويجيب الأسد:

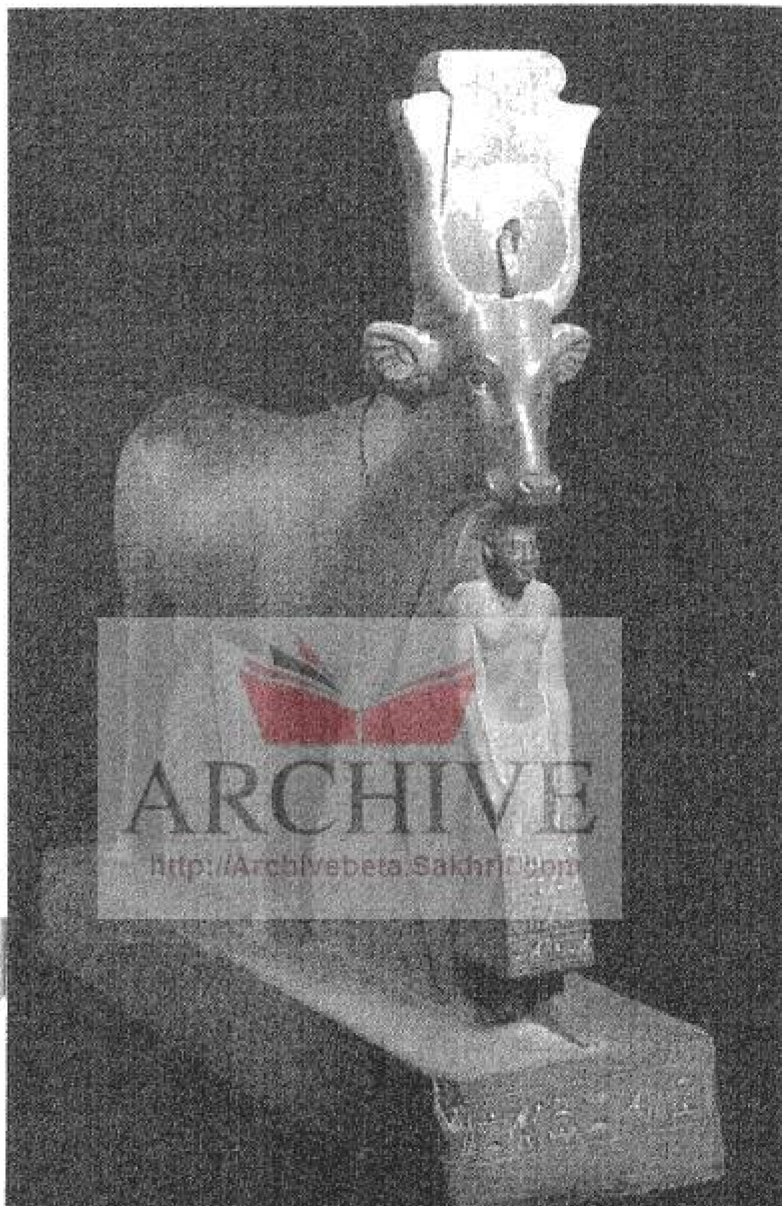
- أنا الأسد الكاسر الذى كان فى طريق مصر فلما سافر عتبة بن أبى لهب يريد تلك الجهة وقال النبى: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، الهمت أن أتجوع له أياما، وجئته وهو نائم بين الرفقة، فتخللت الجماعة إليه .. وادخلت الجنة بما فعلت.

ويقابل أبو العلاء وأيضا الذئب، والحية فيكتشف أنها تقرأ الشعر، وتسكن بيوت الصالحين فتعرفهم، وبيوت الطالحين فتنفر منهم وللعقاد رأى خاص فى الحمار اليهودى، يقول إن القبائل العربية استأنست الجمل، وأن الجمل بايقاعات أقدامه المنتظمة على الرمال ساعد الحادى على إخراج اللفظ المقفى، واختيار الكلمات المنظومة، تفوق فى الشعر، وهو أقرب الفنون الى الموسيقى.

أما القبائل اليهودية فقد استأنست الحمار، والحمار متعثر الخطى فى الرمال، فخرجت لغتهم خالية من الايقاع والخيال، واعطت فرصة للتزود بما يناسب مزاجهم من العد والحساب.

ومن أشهر من رسم الابل، والخيول، والثيران، والبغال «الواسطى» فى مقامات الحريرى «١٢٣٧م» تميزت رسومه للابل أكثر، فقد ظهرت فى المقامات ٤/٥/٧/١١/١٩/٢١/٢٤/٢٥/٣١/٣٢/ ٤٣/٤٤/٤٧.

ويقول الدكتور ثروت عكاشة فى كتابه «الواسطى» عن الابل فى المقامة



البقرة المصرية حتحور (ربة المرح والصفاء) وبسماتيك - سقارة ٥٢٠ ق.م

١٢ «نراها هنا وقد رسمها متجمعة، وكانت ايقاعاته تتفق ووقع خفاقها على الأرض، وحركات سيقانها، واضطراب أعناقها وتطوح رؤوسها، وخفق أذنابها»

الحيوان والتشكيل

وإذا أردت تأمل عالم ساحر عن الحيوان أو الطيور قلب كتاب عن تاريخ الفن من عصر الكهوف الآن . ثيران كهف «لاسكو» أو لوحة الأسد السومرى الجريح، أو شموخ تمثال القط المصرى «باستت» أو لوحه «اوزات ميدوم» أو النحت اليونانى لصراع الإنسان مع السنتورس «كائن نصفه حصان، ونصفه إنسان» أو لوحة الفنان «دومينكو جيرلندو» من فلورنسا تصور البقرة، والحمار، والكبش، تشارك الإنسان وداعه تأمل الطفل المعجزة، تأمل الحصان التائه مع الإنسان الضئيل وسط جلال الطبيعية فى لوحات أهل الصين، أو القطة الارستقراطية فى منسوجاتهم.

تأمل فى عصر النهضة الأوربية أرنب «ديرر» أو فيما بعد أحصنة «ديلاكروا» أو ثيران «جويا» أو أسد «هنرى روسو» أو صرخة حصان «بيكاسو» أو فيل «ماكس ارنست» أو زرافة «دالى» المحترقة، والعديد مما لايحصى.

ورغم ذلك ظل الحيوان يمثل حالة الوسط، بكل طاقاته الغامضة .

لحظة الميلاد، ولحظة الموت لم ولن يقدر لإنسان أن يسجلها، والحيوان جزء



أرنب الفنان (ديرر) - فيينا ١٥٠٢

من دائرة أسرار الوسط، الوسط الحائر، حاضر غائب، أو غائب حاضر.

مسكين الحيوان لا هو بالناطق المتحدث عن حالة يعرفها، ولا هو بالخامة التى تتشكل فى يد الصانع الماهر، وأسوأ مايصيب جماعة هو أن تصير فى درجة الأنعام، لا هى بدائية يمكن إعادة عجنها وتشكيلها، ولاهى بحادة المعالم يصعب أن تنحت فيها عوامل الزمن، وتسقط عنها الألوان، وأقصى ماتصل إليه حالة الوسط هى أن يحسن الغير تدريبها فى سيرك الحضارة . تسلية للزمن العابر، وسطور معدودة فى موسوعة العالم الواسع. ■



فيل الفنان السريالي (ماكس ارنست) ١٩٢١ - تيت جاليرى - لندن



كراسات
جميلة
صبري

١٢٠
الهلال
رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

رائدة مصرية

في النهضة النسائية

بقلم
صافي ناز كاظم

سبع كراسات ، كل كراسة ، «كنظام وزارة المعارف العمومية» ، ٣٠ صفحة تقريبا ، مكتوب على واحدة منها : «حياة حافلة» ، دونت فيها ، بالقلم الرصاص أحيانا وبالريشة المحبرة أحيانا أخرى ، جميلة هانم صبرى ، ١٨٨٧ - ١٩٦٢ ، مذكراتها بصفتها رائدة مصرية فى النهضة النسائية والوطنية منذ مطلع القرن العشرين . وقد دونتها بعد بلوغها الستين ومقاربتها السبعين بناء على مناشدة المحيطين بها فعل ذلك . والكراسات ، على الرغم من التكرار فى سرد بعض الحوادث والوقائع ، على درجة كبيرة من الأهمية ، فقد احتوت على وصف شبه تفصيلى لشكل من أشكال الحياة فى البيت المصرى نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن العشرين ، وأظهرت التأكيد على هاجس النهضة الوطنية والاجتماعية الذى كان يعتمل فى الصدور ، والتصورات المتناقضة والمختلفة لشكل هذه النهضة وعواملها وكيفية التحضير لها .

كما أن بها تصحيحا وثبتا لبعض الأمور الخاصة بتاريخ الحركة النسائية ونشاطها الاجتماعى وحكاية تأسيس جمعية «ترقية الفتاة» وإنشاء مدارس بنات الأشراف التى اشتركت فى إقامتها بالإسكندرية بعد سنة ١٩١٤ مع السيدات : بلقيس يسرى ، وزكية هانم حرم اترببى بك أبوالعز ، والسيدة منيرة حرم عبدالرحمن بك السيد أحمد ، والسيدة خديجة حرم مصطفى بك الخادم ، وحرم أمين بك شرين ، وحرم عبدالسلام رجب ، وكيف استولت عليها الأستاذة نبوية موسى ونسبتها خطأ إليها .

وقد أسهبت كراسات السيدة جميلة صبرى فى تفصيل هذا الخطأ التاريخى وحكاية أصله وفصله فيما يمكن أن نورده فى مكانه المناسب من هذا التعريف المبدئى بهذه الرائدة المجاهدة ، وبمذكراتها التى لم تنشر من قبل ، فقد ظلت لسنوات صفحات مطوية مجهولة فى ملفات أصغر أبنائها زميلنا وصديقنا فنان الرسم والتصوير الضوئى محمد صبرى (٨-١٠-١٩٢٥) - رئيس قسم التصوير السابق بدار الهلال ، قبل أن يتفضل بإهدائها إلىّ لتكون أمانة بعنقى ، رغم اكتشافى - بعد قراءتى لها - أن السيدة الجليلة كتبت هذه الكراسات للنشر والذيوع ، كما عبرت عن ذلك فى أكثر من

موقع بها حين أكدت أنها تسجل هذه المذكرات لكي يستفيد الوطن من تجاربها وخبراتها وآرائها وشهاداتها، ونراها ، حين ترصد قدرتها على تذكر أشياء حدثت لها وهى فى الثالثة من عمرها، تؤكد أنها تسجل الظاهرة لعلها تكون مفيدة لبحث طبى! ولا تتردد فى تدوين الوصفة المغربية التى عالجت وليدها وأنقذته من موت محقق بعد علة حار فيها الأطباء.

وتشيد كراسات جميلة صبرى بالمجاهد أحمد عرابى وبنهضة مصطفى كامل الذى انتمت إلى حزبه الوطنى حتى ثورة ١٩١٩، وسعد زغلول ، وتذكر بالاحترام والتقدير محمد فريد وجدى وزوجته الكاتبة فاطمة راشد، وبنات جيلها النابغات ملك حفنى ناصف، والآنسة مى، ونبوية موسى، وعلاقتها الوثيقة بهدى شعراوى وسيزا نبراوى، ولا تشير من قريب أو بعيد إلى قاسم أمين، وتعبر بالنهاية عن فرحتها بقيام الجيش بحركته فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مستبشرة بالاتحاد والنظام والعمل، هذا الشعار الذى وجدت فيه التلخيص لسيرة حياتها منذ نشأتها: صبية وفتاة وزوجة وأما أنجبت عشرة عاش لها منهم ثمانية، خمسة ذكور وثلاث بنات. وبفضل هذا الشعار لم تعوقها مشغوليتها الوطنية وجهادها فى سبيل نهضة الفتاة المصرية، عن مشغوليتها الأسرية، كما لم تعوقها أعباؤها الأسرية الثقيلة عن الانخراط فى دعم حركة التوعية النسائية. فجميلة صبرى هى نموذج فذ من تلك النماذج المصرية الرائدة التى لم تستطع أن تفصل بين واجباتها فى الجبهتين لأنها عرفت جيدا ومبكرا جدا أن الوطن والبيت حقل واحد يستدعى جهد القادر على الحرث والزرع.

***

فى صفحة من إحدى كراساتها تقول «جميلة صبرى» هذه الشهادة:

«.. دعيت يوما مع السيدة هدى شعراوى لسماع محاضرة من الآنسة مى بقاعة يورت وكان موضوعها الجمعيات النسائية وتاريخ تكوينها ومن أنشأها، وعند ذكر جمعية ترقية الفتاة بالاسكندرية قالت إن المنشئ لها هى نبوية موسى، وتكلمت ما شاء وشاء من أملاها، فقامت على الفور هدى هانم وأرسلت سيزا نبراوى تقول لى يجب حتما أن تكتبى تكذيبا لهذا القول على صفحات الجرائد لأنها سرقت جهادك وتعبك فى تأسيس المدرسة ونسبتها لنفسها - (تقصد هنا نبوية موسى) - ولما كان هذا ليس من مبدئى أن أزاحم أحدا فى نهضة قامت فى بلدى منى أو من غيرى، فوافقتها ليلتها ، بعد أن قالت لى اكتبيها باسمى - (أى باسم هدى شعراوى) - وأنا سأبين الحقيقة ولا



الرائدة جميلة صبرى مع زوجها القاضى أحمد صبرى فى عرسهما سنة ١٩٠٠



.. ومعه عام ١٩١٠

أهضم لك تعبا. فكبر علىّ أن أكذب مىّ، تلك الأنسة البارزة الأديبة فى مثل هذا الموقف، ورأيت أن أتصل بها وأصحح الموضوع بطريقة مقبولة، وفعلا اتصلت بها - (بالأنسة مىّ) - تليفونيا لمقابلتها وقالت لى: إن يوم مقابلتى كل ثلاث - (ثلاثاء) - فأهلا وسهلا تفضلى، فذهبت إليها ووجدت عندها اجتماعا أدبيا غاية فى الاحترام ، قد جمع كثيرا ممن اشتهر بذلك، فصارحتها القول وقلت لها إننا سبع المؤسسات لهذه الجمعية، وبرزت بإشراف السيدة هدى هانم، وصدق على ذلك المرحوم داوود بركات

وقال لها إن دخول نبوية موسى كان لإدارة المدرسة فقط، وقد تكررت زيارتى للآنسة مىّ وطلبت منى أن آتيها يوما وأبين حقيقة هذه الجمعية - (جمعية ترقية الفتاة بالاسكندرية) - لأنها تنوى أن تؤلف كتابا فى تاريخ نهضة المرأة وتأسيس جمعياتها، فقلت لها يمكننى أن أساعدك فى ذلك لأن لى إلماما بمعظم هذه الجمعيات وبيان تاريخها لصلتى بمعظمها صلة صادقة، مبينة عندى فى دوسيه خصوصى، فطلبت منى هذا الدوسيه لتقتبس منه ما تريد، فوافقتها وفعلا قدمته لها - (ربما تكون هذه



جميلة صبري فى ٢٣ أغسطس ١٩١٤



ابنتها الكبرى فتحية مع الصغرى دعاء، فى عيد الفطر ٢٣ أغسطس ١٩١٤

المقابلة عام ١٩٢٩) - وبعد زمن قصير بلغنا نبأ وفاة والدها - (سنة ١٩٣٠) - فذهبت لتعزيتها فوجدتها مقفلة فى حجرتها لا تقابل أحداً، فقالت لى والدتها: ادخلى إنها تميل لك كثيراً وربما كان فى مقدورك تعزيتها وتهدئة أعصابها، فقلت لها دعيها فأحسن تعزية للعاقل انفراده، وإن شاء الله أعود لها ثانية، فلم يمض وقت طويل حتى توفيت والدتها - (سنة ١٩٣١) - وكان من مبدئى ألا أعزى الشخص فى وقت مصابه حتى يهدأ، فسألت عنها تليفونيا، قيل لى إنها مريضة وستسافر إلى أهلها. فتكلمت فى جريدة الأهرام وقلت لهم: لى دوسيه مهم جدا طرفها وأود أن آخذه منها فقيل لى إنها أحرقت كل أوراقها فى حالة عصبية ولا يمكن الحصول عليه، فكان أسفى على هذا الدوسيه عظيما جدا لما حواه من اتصالى بكل جمعية ونشاطى فيها وأوراق واكتتابات وإيصالات الجمعية، جمعية ترقية الفتاة، وما حواه من تواريخ مهمة جدا لا يمكن أن أتذكر منها شيئا الآن بعد شيخوختى..» - (والواضح أن حرق الآنسة مىّ لأوراقها كان من الكذبات التى أشيعت فى ذلك الوقت من عصابة أهلها الذين استدرجوها فيما بعد ذلك إلى مستشفى الأمراض العقلية



المستشار أحمد صبري مع الهيئة القضائية ١٩٢٠

بالعصفورية بلبنان، تمهيدا لإعلان جنونها والحجر عليها، ومعظم أوراق الآنسة ميّ ومقتنياتها استولى عليها من استولى من أهلها وباعوها حين أصبحت مكسبا للباحثين. وتذكر الأستاذة سلمى حفار الكزبري في أبحاثها عن الآنسة ميّ «إن الآنسة ميّ قامت بإعادة خطابات كل من راسلها إليه، فكيف يمكن أن تقوم بحرق دوسيه هام لا يخصها مثل دوسيه جميلة صبري؟).

***

تحكي السيدة جميلة صبري حكاية تأسيس جمعية الترقي فتقول في إحدى كراساتها:

«.. كنت أهتم بكل ما يهم المرأة، من كل ناحية، خصوصا في الوطنية ، واتفق وقتئذ نشر مقالات ملك حفني ناصف باحثة البادية، فكنت أقرأها عليهن – (تقصد النساء اللاتي تجتمع بهن لتوعيتهن في الوطنية والثقافة) – وأشرح لهن القصد من كلامها لفائدة المرأة، وكنت أقرأ لهن أيضا ما تحويه مجلة ترقية المرأة للسيدة فاطمة حرم مدير جريدة الدستور إدارة الأستاذ فريد وجدي، وكنت مشتركة فيها، كما كنت أشرح لهن أيضا ما تحتوي عليه جريدة اللواء، وقد كنت مشتركة فيها من أولها إلى آخرها، ومن يومها لم أغير تبعيتي

إلى الحزب الوطنى - (مصطفى كامل) - حتى ظهرت الثورة، وهي وطنية حقيقية، فنقلت من الزقازيق واستمررنا (هي وأسرتها تبعا لعمل زوجها) - من بلد إلى بلد وأنا على نشاطى النسوى بقدر ما يسمح به وقتى مع عملى المنزلى ورعاية أولادى الأربعة..» وتكمل فى كراسة أخرى: «نقلنا إلى الاسكندرية - (١٩١٢) - وكان معى ثلاثة أولاد وبنتان، وبعد أن نقلنا بسنة تقريبا توفى حماى وترك لنا أولاده الثلاثة، وكنت قد رزقت فى تلك الأثناء ببنت سادسة ، فكنت أحضر لأولادى دراستهم وألحقهم بالابتدائى على طول، ولما كان غرضى أن أعلم البنت مثل الولد، ولم تكن هناك مدارس للبنات ابتدائية غير مدرسة العروة الوثقى للبنات، وكانت أهلية وليست على نظام الحكومة الابتدائى، ومن حسن حظى أن كان الأستاذ عبدالقادر حمزة مدير جريدة الأهالى صاحب زوجى، فساعدنى أن أنشر بجريدته سلسلة مقالات تحت عنوان (فى سبيل المرأة) أبين فيها رغبتى فى ضرورة تعليم البنت مثل الرجل وقد نفعت تلك الحملة منى ومن المعضضين، وفعلا فتحت مدرسة محرم بك الأميرية الابتدائية للبنات، وكان ذلك وقت الحرب العظمى الأولى، فلما شملت المظاهرات البنات، وتظاهرت مدرسة محرم بك للبنات أساءت إليهن ناظرتها الإنجليزية فعز علينا ذلك ودعونا على صفحات جريدة الأهالى لاجتماع نسائى بمنزل حافظ باشا المحافظ بمحرم بك، وألقينا الخطب الوطنية والحماسية ضد الاستعمار وتحكمه فينا، وأظهرنا سبب الاجتماع والقصد منه هو تأليف جمعية نسائية لتقوم بعمل مدارس أهلية راقية تتعلم فيها بناتنا التعليم الابتدائى والثانوى وبجانبها مدرسة عامة مجانا تدرس فيها الفقيرات مبادىء التعليم وبجانبها مشغل تشتغل به الفقيرة وعلينا مساعدتها.. وعندما ناقشنا الموضوع.. كان هناك تعاون أكيد واتحاد صادق لنصل إلى ما نريد، وتقدمت من المجتمعات نحو خمسين سيدة من ثريات الثغر وقيدن أسماءهن عندى بصفتى السكرتيرة.. واتفقنا أن نقيم أول اجتماع بمنزل حرم سليمان بك يسرى، بلقيس هانم لترتيب القانون اللازم للتنفيذ وقد جمعنا.. فى منزل الباشا المحافظ نحو أربعين جنيها، وبعدها بأسبوع اجتمعنا بمنزل بلقيس هانم.. وافتتحت صاحبة المنزل الاكتتاب بخمسين جنيها.. ووصل الاكتتاب إلى أكثر من مائة جنيه أضيفت إلى المبلغ الأصلى وأعطى لسليمان يسرى لوضعه باسم الجمعية بالبنك، وبعد ثلاثة أشهر فقط انسحبت معظم العضوات بأسباب

تافهة ولم يبق منهن إلا سبعه فقط، عز علينا ذلك الفتور جدا والرجوع عن العزم الصادق .... جمعنا خمسمائة جنيه، فكرنا في أن نجرب استثمارها حتى تنمو فاشترينا بالمبلغ أقمشة وخيوط. ولوازم تلك الأشغال ووزعناها علينا.. ولما كنا كلنا خريجات الراهبات ونتقن هذا العمل تماما .... رأينا أن نقيم سوقا خيرية تحت إشراف السيدة هدى هانم شعراوى......... فقبلت .. وطلبت من كل التجار تقديم الهدايا المشجعة لنا ....

وكنت عندما شرعنا في فتح المدارس قد طلبت من السيدة نبوية موسى أن تقبل.. أن تديرها شرطا بعد استقالتها من تفتيش الحكومة....... جمعنا نحو خمسة آلاف جنيه .... فعزمنا فورا فتح المدرسة من ابتدائية وثانوية ومشغل ، وفعلا استأجرنا منزل شقيقة منشة، بشارع منشة واشترينا كل ما يلزم من الأثاثات وتبرعت معظم السيدات الأعضاء بالشيء الكثير من عندهن، لأننا نوينا أن نقيم فيها قسما داخليا.. لبعض التلميذات والمعلمات الأجنبيات ... وانتقينا مدرسات راقيات ممتازات، وعينا الفراشات . كان ذلك في زمن رجوع الوفد من سيشيل، وكنا قد سحبنا بنات العائلات الراقية من المدارس الأجنبية ، فانتخبت السيدة نبوية موسى منهن البعض وعلمتهن نشيدا مناسبا ليلقينه في الجمرك عند وصول الوفد من سيشيل، أما نحن فقد أقمنا بالمدرسة بوفيه جميلا ودعونا كل الطبقات العالية، ولو أن السيدة نبوية لم تتركهن من غير أن يدفعن شيئا وقد كان ولو أنه على غير إرادتنا.. ولضرورة إلحاق إبني بالجامعة نقلت إلى القاهرة، وأخبرت السيدة نبوية موسى أن تفي بوعدها معي لأن المدرسة مدرسة راقية لبنات الأشراف.. ولكن للأسف ذهبت لهن - (بعد سفرى) - وعملت الشروط التي تريدها قائلة لهن إنني أنا التي حررتها وعندما أتمت شغلتها جاءتني وقالت لي إمضي هنا فقلت كيف ذلك؟ لأنني فهمت أن الشروط تجعل المدرسة بما فيها من أثاث ومنقولات وإدارة وجداول لها ولا شريك لها في شيء.. ولم تستقل- (من وظيفتها بالحكومة كما سبق ووعدت) - ووضعت بنت أخيها منيرة ناظرة، وغيرت بها كل شيء.. واستبدلت المعلمات بغيرهن، ممن تعرفهن، المبعدات عن مدارس الحكومة، وطردت الطباخ وجاءت بغيره أرخص، فضجت العضوات وتأثرن وعندما عاتبنها قالت لهن: كل من له شيء يأخذه . فهي لي وأنا لي مطلق التصرف.. وما أشعر إلا وبلقيس قد حضرت إلى

بمصر. وقالت لى إن نبوية موسى أهانتنا وأهانت بنات الطبقة الراقية عندها. وعندما كلمتها قالت. إن كان لك كرسى ولا كنبة خذيها لأن المدرسة ملكى وليس لكم فيها شيء. وطلبت منى السيدة بلقيس كل الأوراق والشروط التى أخذوها عليها. فقلت. أما الشروط فلها وتلك غلطتنا أننا لم نقرأها. ويعز علىّ أن أشوش حول سيدة مربية مثل نبوية موسى بما لا يفيدنا، ونحن كلنا أرباب عائلات وأصحاب أولاد، فدعيها تفعل ما تشاء، وعلى كل حال هى ستنفع البنت بأى وجه وكل ما هناك هو طمع منها فيما جمعناه. لا يصح محاسبتها عليه، وهى - (نبوية موسى) - لما شعرت ان بلقيس حضرت إلى مصر لتأخذ منى ما يثبت ملكيتنا للمدرسة وما فيها باعتها لوزارة المعارف، حيث إننى طلبت بالتليفون من الربية الكبيرة السيدة سنية عزمى قائلة لى إن نبوية موسى قد باعت مدرستك (ترقية الفتاة) إلى وزارة المعارف اليوم بستة آلاف جنيه (الاسم والتخت) فقط من غير الأثاث والمنقولات الدهشة، فسكت وقررت ألا أعاونهن فى شيء يحط من قدر نهضة المرأة واتحادها، وقلت إن كل شي- قد انتهى فدعوها تتصرف بدلا من عمل شوشرة حول تلك السيدة التى فى الحقيقة نحترمها لمركزها الحكومى وعلى كل حال هى ستأتى بنفع ولو كان بسيطا.. ولا يمكن أن نأخذ من تلك السيدة أكثر من ذلك ولا يليق مشاكستها حيث إنها ستغلب فى النهاية.........»

لماذا جميلة صبري؟

اختارت أن يكون اسمها جميلة صبرى، تبعا لاسم زوجها الحقوقى أحمد صبرى، أحد المحققين فى قضية ريا وسكينة الشهيرة عام ١٩٢٠ اسمها بالميلاد. جميلة حكمت محمد آغا الأرناؤوطى، ولدت بالزقازيق فى ١٨٨٧/٤/٢٠، أو كما تقول فى مذاكرتها. «ابتدأت حياتى عقب ثورة عرابى ببضع سنين، وكان الشعب لايزال ثائرا لما مر عليه من حوادث، وما كدت أن أفتح عينى إلا ووجدت عائلتى مهتمة بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية، تطالع الاهرام يوميا ومعظم المجلات كالهلال والمقتطف وطبيب العائلة وغيرها من الصحف المتزنة، فسرت معهم فى هذا التيار من الوطنية المشتعلة والاجتماعات الأدبية والعلمية والسياسية، فاختلطت بدمى من طفولتى، وشعرت بعد زواجى - (١٩٠٠) بضرورة مساعدة المرأة أخلاقيا ووطنيا حتى يتم وعيها وتبرز مواهبها لأنها، كما أفهمونى - (فى محيط عائلتى) - أنها حجر الزاوية فى حياة المجتمع وعليها يدور رقى الأمة وتقدم

البلاد..»

وقد كانت في الثالثة من عمرها عندما توفي والدها، الألباني المتمصر، وأوصى بها إلى أخيها الأكبر يوسف شهدي ليحسن تعليمها وتربيتها، إذ إنه كان ينوي إرسالها إلى استانبول لتتلقى التربية «العثمانلي» ، ولكن الأخ يوسف شهدي الذي حمل تبعات ومسئوليات الاسرة بعد وفاة الوالد رأى أن مصر، وفي الزقازيق، هي الأولى برعاية وتربية شقيقته الصغرى، والبنت الوحيدة للأسرة، فهيأ لها، بل وللأسرة كلها برنامجا تربويا وثقافيا منفتحا على كل الأفكار والعقائد واللغات والثقافات، أدخلها مدرسة الراهبات الفرنسية بالزقازيق، وظلت بها من عمر الخامسة ١٨٩٢ حتى عام زواجها سنة ١٩٠٠ ، تعلمت فيها اللغة الفرنسية وأتقنتها، وأشغال الإبرة والتطريز، وأحضر لها بالمنزل من يعلمها اللغة العربية والقرآن الكريم، وأرسلها إلى أسرة مغربية تخصصت في صناعة السجاد والتطريز الشرقي فتعلمت منها النسيج والطبيخ المغربي وتلامست مع البعد الإنساني العربي إلى جانب ما عرفته من العادات الغربية الطيبة عن الراهبات الفرنسيات وعن أسرة تاجر أقطان إنجليزي كان جارا لهم بالزقازيق وكان قد أرسل ولديه إلى أخيها يوسف شهدي ليتعلما العربية في مقابل أن يتعلم هو وأخته اللغة الانجليزية ، كما علمها أخوها ركوب الحمار ثم ركوب الخيل! وفي ندوة أخيها التربوية التعليمية كان لها زملاء وزميلات من المعارف والاقارب والخدم وكل من نقدم برغبة في التعلم! وهي تذكر من زملائها محمد أمين يوسف، ابن الشيخ أمين أبويوسف، المحامي بالزقازيق وتنوه بأنه والد الاخوين علي ومصطفى أمين أصحاب دار أخبار اليوم. عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها كثر خطابها فاختار لها أخوها زوجها متبعا نظرة فلسفية تعبر عنها قائلة في مذكراتها.. «طلبت للزواج بمجرد ما شببت وكان الطالبون طبعا وقتئذ كثيرين ولكن لم ينتق لي - (أخي) - زوجا رزينا عاقلا مستقيم السير والسلوك، كما يزعم ذلك بعض الناس، بل كان ينتقي المنزل والعائلة التي سيصاهرها وسأكون بين أفرادها ، وذلك لشدة اعتقاده أنني أنا المرأة التي قد اهتم بتربية أخلاقها وبث روح الفضيلة والنظام في نفسها لذلك سيكون عليها إصلاح أخلاق الرجل مهما كان عويصا».. وبناء على هذه الفلسفة زوجها من ابن رئيسه في العمل وتقول هي في هذا الأمر.. «انتقى لي أخي الشاب الصحيح الجميل الداير القادر على إخضاعي لقوة ذكائه وكبر عقله ، والمنزل النظامي النظيف المرتب



الرائدة جميلة صبرى فى منزل أكبر أبنائها السيد صبرى ١٩٥٠

فى صرفه وخدمه حتى كنت عنده فى وسط معقول لا يحط مما تعلمته من التوضيب والنظام ولين المعاشرة وعفة اللسان».

لكنها حين تكتب تحت عنوان «حياتى الزوجية» تقول: «تزوجت فى الرابعة عشرة من عمرى وكان زوجى فى الثانية والعشرين - (سنة ١٩٠٠) - جميل الطلعة ، خفيف الظل، محبوبا لدى الكثيرات، ولكنه كان قوى الإرادة، شهما ، نقادا، يدرك الصح من الغلط متوقد الذكاء، نبيها، بالرغم من أنه كان سهيرا سكيرا حاد الطباع، سريع الغضب، فقد هبته من أول مرة... فأنا لم أختلط به قط، وكان والده رجلا فى التقى والاستقامة والفصاحة وحائزا على كثير من مكارم الأخلاق، وكان موظفا مرموقا محبوبا من الجميع، فقد تعهد أن يرعانى هو بنفسه لأنه كان رئيسا لأخى وكان يحبه كثيرا ومطلعا على كل ترتيباته المنزلية، وكان يطلع من وقت لآخر على درج أعمالى المنزلية وجداول الترتيب والصرف، فكان ترتيب منزله من خدم ونظافة ورعاية على الطريقة العثملى وقد اتخذت كثيرا من .... النظام الانجليزى الذى اقتبسناه من جيراننا الإنجليز، فقد خرجت من عائلة هادية وموزونة كل الاتزان إلى تلك العائلة التى .. بها زوجى الثائر على الجميع، كان يحبنى



كاريكاتير رسمه لها الفنان محمد صبري أصغر أبنائها يعبر عن اختلاط مشغولياتها ما بين الخاص والعام



وآخر صورة لها قبل وفاتها في ١٩٦٢

ويعزني ولكن طباعه الحادة لا يمكن إخفاؤها.. فقد فوجئت بذلك وأنا صغيرة لا أفهم لهذا الهياج سببا فكنت أقضي أوقاتي وأنا حيرانة ولا أفهم لهذا الاختيار - (الذي اختاره لي أخي) - سببا ولا معنى، فكنت أبكي وأستغيث بأخي في بعض الأوقات بدون أن يعلم أحد، فتفهمني أخي أنه - (زوجي) - معقول جدا وغلطاته كلها سطحية - (وقال) - يمكنك بحسن تصرفك إصلاحها هذا وإن هذا الزواج لا مفر منه فعالجي موقفك ولا تجعلي أحدا ينتقدك، عالجيه بالصبر وطول البال واللطف المتناهي مع الجميع، أنت والحق يقال محبوبة محترمة من جميع العائلة.

ولكن حدة طباعه - (زوجي) - مع أهله والخدم كانت لا تطاق واستمراره في السهر والشرب كانت علتي التي طال بي مقام المحاولة لإنهائها وقد تحسنت كثيرا وكثيرا جدا فكنت لا أؤاخذه على تغيبه وأظهر له كأنني كنت قد طلبت منه ذلك وكأنه صديق لي أعلم كل العالم بسريرة أخلاقه، وإذا ألقى لي حكاية صدقته، وإذا توعك من الشرب عالجته بقلب صادق وإخلاص كلي وذلك لأجذبه لي حتى يمكنني أن أتمكن من تنفيذ أغراضي المصلحة لحالته..». ■

ماذا حدث للمصريين ؟

معدلات الطلاق زادت... ونسبة الزواج تقل !

بقلم
د. هدى زكريا.

الطلاق نظام اجتماعى يترتب على الزواج، ويمثل أحد صمامات الأمن لتعاظم الخلافات الزوجية إلى درجة لايمكن تداركها فيصبح الطلاق هو الحل.

لكن الطلاق يمثل أهم أشكال التفكك الأسرى فى جميع المجتمعات بلا استثناء، فرغم ان الزوجين يرتبطان فى معظم الأحيان برباط الحب والميل العاطفى ويعيشان معا بهدف الاستمرار، إلا أن تباين احتياجات كل منهما يسمح بمساحة من الخلاف الذى قد يأخذ أشكالا بسيطة يمكن التعايش معها، أو أن تتفاقم الصراعات وتتعقد ومن ثم تحدث الرغبة فى فسخ الزواج والرحيل الإرادى.

وتختلف نظرة المجتمعات فى تحديدها للمستوى الذى يصبح معه الخلاف بين الزوجين أمرا لايطاق، ففى الولايات المتحدة يعد عدم الانسجام سببا جوهريا فى إنهاء علاقة الزواج بالطلاق بينما يعد هذا السبب «أمراً تافهاً» فى المجتمعات البسيطة كالفلاحين وسكان الواحات.

وبصفة عامة يعد الطلاق حادثا مشئوما بالنسبة للأشخاص الذين يشملهم كما يعتبر مؤشرا واضحا لفشل نسق الأسرة بالإضافة إلى كونه محنة شخصية، فالمتزوجون الهاربون إلى الطلاق يظهرون كمن يستجير من الرمضاء الزوجية بنار النظرة الاجتماعية.

ويعد ارتفاع معدلات الطلاق فى مجتمع ما دليلا على أن نسق الأسرة لايعمل

• أستاذ مساعد علم الاجتماع كلية الآداب

بصورة مرضية ويهدد شبكة العلاقات القرابية المترتبة على الزواج، ويحرم الأبناء من الحصول على احتياجاتهم الإنسانية فى ظروف طبيعية حيث يحرمون من رعاية أحد الأبوين الذى ينفصل عن الأسرة، إن لم يكن من كليهما خاصة إذا اتجه كل منهما للزواج من جديد وتكوين أسرة جديدة وهنا «يأكل الآباء الحصرم .. والأبناء يضرسون».

أبغض الحلال في الأديان المختلفة

يحرم المذهب الكاثوليكى الطلاق تحريما قاطعا ولايبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه اعتماداً على قول السيد المسيح «لايصح أن يفرق الانسان ما جمعه الله».

لكن الكنيسة الروسية تتيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية وتحرم على من ارتكب جرم الخيانة أن يتزوج بعد ذلك.

أما المذهب الأرثوذكسى فلا يبيح الطلاق إلا للخيانة أو العقم والمرض المعدى، والخصام الذى يمتد أجله ويتعذر الصلح معه بينما لايبيح المذهب البروتستانتى الطلاق إلا فى حالات خاصة كالخيانة الزوجية والقسوة وسوء المعاملة وجنون أحد الزوجين.

أما الدين الاسلامى فرغم إباحته للطلاق لكنه ينصح الأزواج بألا يقدموا عليه لأسباب تافهة يقول تعالى «وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» صدق الله العظيم.

وقد رتب الإسلام على الطلاق نتائج خطيرة من شأنها أن تحمل الزوجين على ضبط النفس وتدبر الأمر طويلا قبل الإقدام على الطلاق.

كما قرر الاسلام أن الطلاق لاتقع به الفرقة النهائية بل يجوز للزوج بعده أن يسترد زوجته بدون أى إجراء اذا كان الطلاق رجعيا، أى وقع بلفظ صريح فى الطلاق ولم تمض العدة بعده، أو يستردها بعقد جديد ومهر إن كان الطلاق بائناً.

وللمرأة فى الاسلام حق تطليق نفسها إذا اشترطت فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق فى حالة قبول زوجها ذلك، وكذلك حق «الخلع» وهو طلاق تطلبه المرأة مقابل تنازلها عن بعض الحقوق وردها لصداق الزوج.

الطلاق وتقسيم العمل حسب الجنس

شاعت ظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى حسب الجنس Sexual division of labour فى جميع المجتمعات البشرية على اختلاف درجات تقدمها وتطورها وذلك نتيجة لسيادة بعض الثقافات التى تؤكد أنه على الرجال أن يختصوا بالأعمال المرهقة لما لديهم من إمكانيات فيزيقية أكبر من النساء.

ويؤكد دوركايم أن هذا التقسيم يؤدى وظيفة اجتماعية محددة وهى خلق الشعور بالتضامن والتماسك بين الأشخاص الذين يمارسون أعمالاً مختلفة، وأنه على الرغم من أن كل ما يقال عن الاختلافات الفيزيقية والبيولوجية بين الرجل والمرأة فإنهما يؤلفان فى حقيقة الأمر كلا واحداً عن طريق ما بينهما من اتحاد وروابط بما ينشأ عنه

الترابط بين الزوجين.

لكن ماركس يرى فى تضامن الزوجين الظاهر صورة أخرى من تقسيم للأدوار حسب الجنس بشكل يجعل الرجال يختصون بالأعمال المأجورة ذات الأجر المرتفع بينما تصبح النساء مسئولات عن الأعمال غير المأجورة Non-Waged بالإضافة إلى الوظيفة الأساسية للمرأة وهي إنجاب قوى الإنتاج (الاطفال) وكذلك العمل المنزلي، وكلها أعمال مجانية لاتحصل المرأة فيها على شيء نتيجة لجهدها بينما يكسب الأزواج من .

١- الخدمة المنزلية المجانية، ومن الهيمنة الناجمة عن تبعية الزوجة الاقتصادية للزوج.

٢ - من سوق العمل بحصولهم على أعلى الأجور وأرقى المهن. فلاشك أن أعمال المرأة المجانية أو الرخيصة الأجر تربط بين الأزواج والزوجات بعلاقات هيمنة من جانب الأزواج وخضوع من جانب الزوجات.

ويفترض جارى ببكر Gary Baker أن تقسيم العمل فى البيت إنما يأتى نتيجة اختيار عقلانى ، فطالما أن الرجال ينالون أعلى أجر فى السوق فإنه من المنطقى أن يخصصوا معظم طاقتهم لعمل السوق وليس العمل المنزلى الذى يجب أن يترك للنساء إذا كان الهدف هو جلب المنفعة للأسرة، خاصة أن الزوج سيقوم بتعويض الزوجة عن العمل المنزلى بجلب الهدايا وإظهار الاهتمام مما يدفع الزوجة للشعور بالدين فتسهب فى التفانى اللا نهائى من أجل الزوج.

كما يؤكد هوتشى تشايلد Hotchy child أن الأنوثة ترسخ حالة من الدونية لدى النساء اللاتى سيعانين من افتقاد الثقة بالنفس بما يجبرهن على التعامل بمهارة وذكاء مع احتياجات الرجال فيحرصن على إخفاء مشاعرهن بهدف إسعاد الآخرين ويحرصن على استخدام لغة الجسد لإرضاء نوازع الرجال الذين سيعاملونهن كأشياء وليس كأشخاص.

وكلنا يذكر كيف كان النموذج الرجالى فى رائعة نجيب محفوظ الثلاثية «السيد أحمد عبدالجواد» وكيف كان يتصرف إزاء زوجته «الست أمينة» التى مثلت نموذج الخضوع والاستكانة والاستسلام التام للزوج الذى قام فى المقابل بدور القاهر المسيطر القوى الفاعل.

ويأتى دور الكاتب فى ترسيخ صورة الزواج المثالى بين الست أمينة والسيد عبد الجواد عندما يسوق الصورة البغيضة للزوجة السابقة للسيد أحمد عبدالجواد وكيف طردها «السيد» من جنته الزوجية إلى جحيم الطلاق لتفقد مكانتها وتتعدد زيجاتها من رجال لاقيمة لهم ولامكانة، لتبرر لولدها ياسين بصوت ملؤه الحزن والعذاب كيف أن أباه طلقها لأنها لم تكن تقبل اليد التى كان يضربها بها!! فالعنف الأسرى هنا ظاهرة طبيعية يستكمل بها الرجال مظاهر القوة والهيمنة فى مجتمعات تتدنى فيها

أوضاع النساء ، ويعيد تأديب الزوجة سلوكا لاغبار عليه مادامت الثقافة الرجالية السائدة تعطي الرجل الحق فيه.

قواعد الزواج

وقد اطمأنت مجتمعاتنا إلى صلابة الأسرة كوحدة أساسية في بنائها المتماسك. ومن خلال تاريخنا الطويل أرست قواعد الزواج كنظام مقدس يربط رجال المجتمع ونساءه في أسمى علاقة تثمر فلذات أكباد المجتمع وأجياله الناهضة .

لذا لم يتوقع أحد أن نفاجأ بارتفاع نسبة أبغض الحلال عند الله بهذه الصورة خاصة في السنوات الاخيرة وبالذات بين من لم يمض على زواجهم سوى عام واحد

ونسائل الناس بقلق لماذا يسرع الازواج الشباب بقول أنت طالق للحبيبة التي سهروا من أجلها الليالي قبل الزواج ؟ ولماذا تسرع الزوجة الشابة للخروج من باب «بيت العدل» قبل أن تستقر إقامتها فيه .. فهل فقد الزواج قداسته .. أم أن الطلاق هو الذي فقد رهبته ؟!

قيمة الزواج ووظيفته الاجتماعية

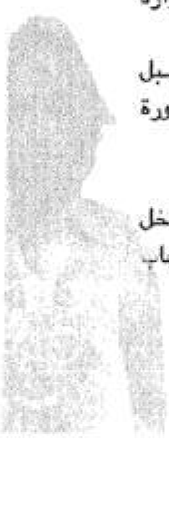
تهدف كل جماعة انسانية للاستمرار والبقاء مع الاستقرار فيصبح الزواج هو النظام الاجتماعي الذي من خلاله يقوم المجتمع بإعادة إنتاج نفسه ، حيث يأتي نظام الزواج بأبناء المجتمع الجدد من خلال العلاقات الشرعية التي تقوم بين رجال المجتمع ونسائه.. ثم تتولى الأسرة المهمة الأساسية في تنشئة المواليد الجدد وفقا لشروط المجتمع وقواعده فيكتسب الجيل الجديد سمات مجتمعه الشخصية وديانته وثقافته السائدة ونسقه القيمي وعاداته وتقاليده وعندما يصبح الزوج أبا والزوجة أما فإن ذلك لايحدث بالمعنى البيولوجي للكلمة ، وإنما أيضا بالمعنى الاجتماعي العميق، حيث تصبح الأمومة والأبوة أدوارا ووظائف اجتماعية مهمة، يحصل في ظلها المواطنون الجدد على الرعاية والحنان والأمان فضلا عن التربية والتهذيب .. الخ

وترتبط علاقة الزواج ليس فقط بين الشاب والفتاة ، وإنما أيضا بين أسرتيهما في علاقة نسب وصلة قرابة تجعل من اخ الزوج عما ومن أخ الزوجة خالا، ومن أم الزوج «حماة» وهكذا يظهر لنا بقاء المجتمع واستمراره رهنا بنظام الزواج واستقراره ونجاحه في أداء وظائفه العديدة وأدواره المتميزة .

لذا نلاحظ التكاتف الاجتماعي الواضح لحماية الزواج وصيانته بكل السبل والوسائل التي تمنع تعرض هذا النظام للخطر أو الانهيار لما يمثله ذلك من خطورة على النظام الاجتماعي كله..

ويؤكد بعض الأنثروبولوجيين مثل روسالدو وأوثر الفكرة الآتية :

إنه بسبب وظائف المرأة الإنجابية والتقسيم الجنوسي gender للعمل داخل المنزل وخارجه أصبحت النساء مقرونات بالمهمات الطبيعية Natuve كالإنجاب والخدمة أما الرجال فمقرونون بالثقافة cultuve والمجالات العامة .



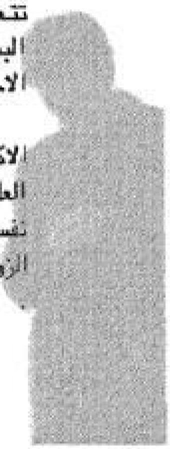
وبالتبعية تعطى المجتمعات للمجالات الثقافية والعامة قيمة عالية اذا ما قارناها بأعمال الخدمة والمرتبطة بالطبيعة ، فلكل مجتمع خطته الخاصة بتقسيم الادوار الجنسية والتى تحدد الكيفية التى ستبنى على أساسها علاقات نساء هذا المجتمع برجاله وهى خطة تتبع أساسا من التوجه الثقافي للمجتمع ، فيصبح هناك عالمان، داخلى تكون فيه الطبيعة المقدسة التى تؤكد على الابدا ع النسائى، وعالم خارجي: تعلو فيه قيمة الانشطة الرجالية كمغامرين مهرة فترتفع قيمة كل ما هو إنسانى بالمقارنة بكل ما هو طبيعى .

وتتأسس هذه التوجهات الثقافية على ا لرعب البيئى الذى يرسم الأساطير المرتبطة بطرفى القوة الأساسيين فى العالم الأنوثة / الذكورة وكلما زادت ألوهية وسيطرة الرجال برز الفرق الجنوسى gender كنتاج مباشر لحظة تقسيم الادوار الجنسية فى المجتمع .

من كل ما سبق نلاحظ ان تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية قد طرأت على القطا ع النسائى فدخلت المرأة مجالات العمل المختلفة وحققت قدراً واضحا من الاستقلال الاقتصادى دون أن يترتب على ذلك التحول تطور طبيعى مواكب فى تقسيم العمل حسب الجنس من حيث ملامح الادوار الرجالية والنسائية، فلا زالت مفاهيم الرجولة والأنوثة ثابتة لا يلمسها التغيير ومازالت الأدوار الرجالية والنسائية تحظى بثبات نسبى وسط أنواء التغيير .

وغالب الظن أن الرجال الذين تمتعوا قديما بمواقع اقتصادية وأدوار اجتماعية ميزتهم وصنعت مكانتهم قد حوصروا بين ما تطالبهم به الثقافة السائدة من تحمل المشاق وبذل الطاقة والقيام بالدور الاساسى فى تحمل الاعباء الأسرية، وبين تقلص المساحة المتاحة لهم فى ظروف المنافسة فى سوق العمل خاصة أن الزوجات اللاتى يمارسن العمل خارج المنزل ويحصلن على دخول مرتفعة لا يعانين من ضغوط النسق القيمى أو الايديولوجى السائد والذى يعفيهن من المؤاخذة الاجتماعية اذا ما رفضن الإسهام بنصيبهن فى الانفاق على الأسرة .

إن ما يسميه علم الاجتماع العائلى «توقعات الدور الاجتماعى» والتى ترسم حدود الادوار التى تمارسها الزوجات فى مقابل الأدوار التى يمارسها الأزواج تتعرض لحالة من الارتباك الناجم عن تغير بعض ملامح البناء الأسرى ، وثبات البعض الآخر، مما يدفع بكل طرف من أطراف العلاقة الزوجية الى تفسير التحولات الاجتماعية لصالحه .



فلا يزال العديد من الرجال حملة المؤهلات العليا - يشترطون على الزوجة الاكتفاء بالعمل المنزلى لرعاية الاطفال مهما كان ما حصلت عليه من نصيب وافر من العلم يؤهلها النزول لسوق العمل والحصول على المكانة المهنية والمرتب المرتفع فى نفس الوقت، ويضعون العودة إلى العمل المنزلى شرطاً من شروط استمرار الحياة الزوجية، ويصبح الطلاق هو نتيجة تحيزها لطموحها وآمالها فى العمل خارج المنزل

كما يشترط البعض على زوجته العاملة أن تسمح له بالسيطرة الكاملة على القرارات الخاصة بالانفاق بحيث لا تحصل من راتبها الا على مصروفها الشخصي الذى يخضع لمراقبة الزوج مما يضيق على الزوجة فرصة الشعور بالأمان والاستقلال المادى فيتراءى شبح الطلاق كنتيجة لاختيارين أحلاهما مر .

وفى المقابل تسعى بعض الزوجات لممارسة «الكيد العظيم» الذى تنميه لديهن الثقافة السائدة بتجريد الأزواج من كافة مظاهر السيطرة نتيجة لفقدانهن الثقة فى انفسهن وخوفهن مما تخفيه الايام من احتمالات غدر الزوج الذى قد يندفع وراء نزواته لزيجة ثانية، فيسعين إلى التأكد من «قصقصة ريش الزوج» باستمرار .

كما تمثل الهجرة للعمل ببعض دول الخليج سببا واضحا من اسباب الطلاق ، رغم ان الهدف من الهجرة يبدأ من أجل رفع مستوى معيشة الاسرة إلا أنه ينتهى بالصراع بين الزوجين على السيطرة على تحويشة العمر وثمن الغربة . والاسرة التى تهاجر الى العمل وفى يدها عقد العمل باعتباره جواز المرور الى الرفاهية تفاجأ كثيرا بأنها دفعت فاتورة الحساب من استقرارها وهنائها .

الزواج إضافة وميزة أم ضرر ونقصان ؟

والواقع أن الزواج فى صورته الحديثة اذا قام بين رجل وامرأة بعد أن حقق كل منهما شوطا فى تحقيق طموحه وآماله، فإن خوف كل طرف على ما حققه من مكاسب يجعله يتوجس من الطرف الآخر الذى رغم ما يكن له من عواطف قد يمثل أحد معوقات استمرار الطرف الآخر فى نجاحه الذى بدأه ، لذا فبمجرد تأفف احد الاطراف من حدة طموح الطرف الاخر ، يجعل الرفيق يبدأ العد التنازلى للزيجة التى تهدد المسيرة الفردية رغم استخدام كل منهما لتعبيرات الكيان الوحيد والشريك إلا أن «تضخم الذات » يمنع كل طرف من قبول فكرة الذوبان فى الكيان الواحد والتنازل عن بعض الانجازات .

تربية جديدة .. وتدريب

لا شك أن تطوير أسلوب جديد فى التربية تكون ضمن أساسياته تكوين شخصيات اجتماعية بطبعها تشعر بقيمة الزواج وتقدر مسئولياته ولا تقدم على الذهاب إلى المأذون إلا وقد تسلحت بالخبرة والمعرفة والتدريب اللازم لإنجاح مؤسسة الزواج وإتاحة كل فرص الاستقرار لها، فالحب لن يكفى لصيانة العلاقة الزوجية من الانهيار أمام ما تتعرض له من عواصف سواء من داخل الاسرة او من خارجها .

وانما النضج والشعور بالمسئولية والقدرة على التكيف مع «الحبيب» المختلف فى سماته الشخصية والاجتماعية والثقافية .



وهي مهمة تستحق ان تحتشد لها مؤسسات المجتمع والدولة وليس فقط الاسرة التى قد يفتقد فيها الكبار الى خبرات لا تكون الا لدى اخصائيين فى علوم الاجتماع والنفس يتمكنون لامن خلال محاضرات أكاديمية ، وإنما من خلال مؤسسات تدريب توفرها الدولة والمجتمع المدنى لحماية أهم كيان اجتماعى من التفكك والانهيار .

طبيبة فرنسية

وهبتها اليمن الحياة

بقلم

أمين يسرى.

هل الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا ؟ وماذا لو حدث اللقاء وكان إنسانيا صرفا خالصا ، ليس مشوبا برأى مسبق فى الآخر ، وليس مدفوعا بأى رغبة شخصية أو مصلحة ذاتية للافادة من الآخر أو الحصول على منفعة ؟ هنا إذا حدث ، وهو نادر الحدوث ، ستنمحى الفوارق سواء أكانت ناتجة عن الطبيعة المختلفة لكل منهما ، أو كان وراءها فوارق مراحل التطور بين الشرق والغرب ، وهى متباعدة بضع مئات من السنين ، ساعتها سيولد هذا اللقاء ويفجر نبعا صافيا من الخير ينهل الطرفان من عذب مائه ، ويتحقق للشرقى وللغربى على السواء هذا الصفاء النفسى الذى هو الأساس الوحيد لقيام سلام عالمى .

كتاب الدكتورة كلودى فايان - الطبيبة الفرنسية - عن رحلتها إلى اليمن فترة حكم الإمام أحمد ، وإقامتها فيه لفترة من الزمن ، تجسد هذا اللقاء الإنسانى بين الغربى والشرقى مئات المرات ، وفى كل لقاء مع مريض أو مريضة بل مع حراسها ومرافقيها وهى تجوب اليمن ، وتعيش متعة هذه المشاعر الإنسانية الدافقة ، وتمتلىء اعجابا يتجدد كلما عاودنا قراءة هذا الكتاب رغم أنه قد مضى على صدوره ما يزيد على نصف قرن من الزمان .

فى أول الكتاب نتعرف على مادية الغرب، التى هى فى بعض أوجهها ناتجة عن نشاط الروح ويقظة العقل وخصوبة الخيال ، وذلك من خلال تفسيرها لرغبتها الجامحة فى السفر إلى البلدان البعيدة ، فهى تعتبر من محاسن الصدف ان وقع بين أيديها مجلة علوم ورحلات مصورة ، وقد وجدت فيها عرضا واضحا وأمينا لظروف الطبيعة وما يمكن أن يرجوه الإنسان من الفنون الإنسانية ولذلك كما تقول حتى أحمل للبلدان البعيدة أفضل مافى حضارتنا قررت أن أصبح فيما بعد

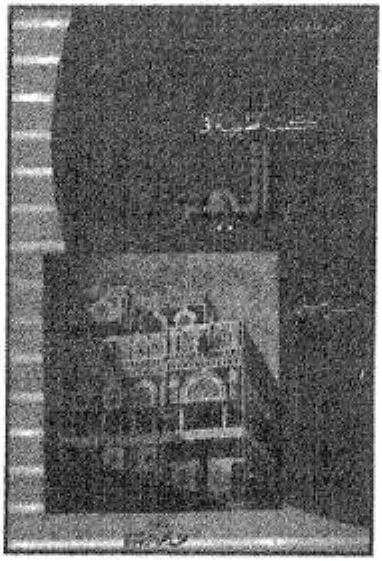
* سفير مصر الأسبق فى اليمن

طبيبة .

زوج وعدة أطفال ووظيفة ثانية لطبيبة فى العقد الرابع من العمر ، هذا ما يجعل فى العادة أية مغامرة بعيدة فى عداد المستحيلات .

وأى زوج هذا . إنها تحبه ، ولها منه أربعة من الأبناء ، ونستطيع أن نتعرف على نوعية هذا الحب .. عندما اعتقل الألمان المحتلين لفرنسا - زوجى وقرروا اعدامه رميا بالرصاص ، واستطعت أن انفذ سلسلة من الحوادث أدت إلى إطلاق سراحه وانقذته من أيديهم فى الوقت المناسب . وكانت موافقته على رحلتى أكثر من مكافأة { ، أنها فضلا عن ذلك دليل على الوفاق الحقيقى . فبعد سنوات كثيرة كنت فى أمس الحاجة إلى هذه الجرعة من الجمال والفائدة والعناء التى تعطى للحياة معناها الكامل ، وإذا كان رفيق حياتى مدركا أسبابى العميقة فقد سمح لى بالغياب عاما كاملا .. عام من الحرية وأنا فى سن ما أزال اتمتع فيه بالشباب فقدر، وكبيرة فقدرك .. يالها من ثروة .. »

وكان على الدكتورة كلودى أن تستعد استعدادا جديا لهذا السفر . وهنا مرة أخرى تتعرف على مادية الغرب التى فى بعض أوجهها نشاط الروح وتغطية العقل فقد بدأت فى متابعة دروس الدبلوم فى أصول السلالات البشرية ومميزاتها فى متحف الإنسان عام ١٩٥٠ . وهى تعترف أن هذه الدراسات لم تكن بالنسبة لها فى أول الأمر إلا مبررا . فعلم أصول السلالات البشرية ومميزاتها كانت هى الحجة للمغامرين ، إذ من هو الذى يخرج فى



رحلة طويلة دون أن يقوم بتحقيق صغير يصف فيه الشعوب المختلفة ومظاهرها المادية ونشاطها ؟ إن هذا يشغل حيزا فى حقيبة الرحلة الحقيقى .

... « وعندما كانوا يلوموننى لهجر أسرتى سنة كاملة كنت أستطيع الاحتجاج بالفائدة العظمى التى نجنيها من معرفتنا لحياة الحريم . ولم يجرؤ أحد على الاعتراض خوفا من أن يتهم بأنه ضد العلم . وقد استصلت الإدارة التى أعمل فيها أمام هذا الباعث المحترم، ومنحتنى إجازة سنة كاملة بدون مرتب ...» .

العلم واحترامه هو الذى جعل الغرب الأكثر تقدما حتى إن اتهام إنسان بأنه ضد العلم فيه ما يخيف .. والمغامرة من أجل العلم باعث محترم .

فى هذا الوقت كانت الدكتورة كلودى تبحث عن وظيفة طبيعية فى خارج

فرنسا أو عن بعثة إلا إن فرصا عديدة فاتتها وكانت السبل تغلق أمامها الواحدة تلو الأخرى حتى سمعت عن اليمن .

وتعترف الدكتورة كلودى أنها كانت تجهل كل شيء عن اليمن حتى موقعها وهذا جعلها تقترب مما تصبو إليه فالناس لا يذكرون اليمن إلا قليلا وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون مثلها عنه شيئا كثيرا وهذا ما يدفعها إلى الذهاب إلى اليمن التي كانوا يطلقون عليها العربية السعيدة لجبالها الشاهقة التي تصطدم بها سحب المحيط الهندى وتسقط أمطارا غزيرة منتظمة تضمن لها الخصوبة والرخاء ، وقد ازدهرت فيها قبل ثلاثة آلاف عام حضارة ومدنيات بمعابدها ومدنها ولغتها وكتابتها أنها موطن بلقيس ملكة سبأ .

وحسب أقوال الذين سبقوها يكون السفر إلى اليمن بحثا عن المتاعب ولكن واحدة فقط رأت فى صنعاء مدينة جميلة وأن اليمنيين قوم طيبون وأن الصعوبات يمكن تذليلها لاسيما والمهمة عظيمة تبرر الاقدام على المخاطرة . لقد بدا هذا البلد للدكتورة كلودى محققا تماما لما تهفو إليه فقدمت ترشيحها إلى وزارة الخارجية فى يناير ١٩٥٠ . وكانت الوحيدة . وأخذوا ترشيحها هذه المرة مأخذ الجد وحولوا طلبها إلى الجهات المختصة . وبعد ستة أشهر جاء الرد : « صاحب الجلالة الامام أحمد ملك اليمن يوافق ويأذن للدكتورة كلودى فايان المحترمة بالوصول» وهنا مرة أخرى نرى هذه المرأة الغربية تأخذ الأمر مأخذ الجد فقضت الشهور الأخيرة لسنة ١٩٥٠ وهى تكمل استعدادها بالعناية بتزويدها نفسها بمزيد من العلم فعنيت بالاختبارات المتعلقة بعلم النفس فى مصحة الصحة الفعلية بمستشفى أمراض الأطفال وبالحصول على دبلوم فى طب المناطق الاستوائية وفى دراسة اللغة العربية وركوب الخيل إذ كانت تعلم أنها سوف تستعمل الحصان فى تنقلاتها . هكذا تتصرف المرأة الغربية .

ووصفها للرحلة من باريس إلى تعز عبر القاهرة ، جدة ، أسمره ثم جزيرة كمران ثم عدن هو مشوق للغاية ، فهى لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتتوقف عندها فتعيش معها تفاصيل الرحلة وكأننا نشاهد فيلما سينمائيا يحوى مشاهد مبهرة ليس فقط فى الوصف الدقيق للمناظر الطبيعية بل للبشر الذين التقت بهم فى هذه الأماكن سواء من الأجانب أو اليمنيين حتى إن المشاهد - القارىء - يحس بأنه هو أيضا قد التقى بهم وتعارف عليهم .

الحضارة فى المشاعر الصادقة

وعندما بدأت الدكتورة فايان مهمتها كطبيبة تبدأ فى التعرف على الشرق الذى التقت به هذه الغربية . وهى تصف لنا بدقة الطبيعة والمبانى والعادات والتقاليد خاصة فى هذه الفترة التى سبقت الثورة اليمنية حيث كان الاستبداد والتخلف والفقر هو السمة الغالبة . لكن الدكتورة فايان عندما تعاملت مع هذا الشرق بأحواله المتردية وجدت فى لقائها الإنسانى مع مرضاها ومع حراسها وأعوانها من اليمنيين شيئا آخر مختلفا تماما وخلصت إلى حقيقة إن الحضارة ليست فقط فى المدن

الحديثة والشوارع المرصوفة المعبدة والسيارات الفارهة ولكنها أيضا فى المشاعر الرقيقة والأنفة والصدق والتحمل بكبرياء .

ويتجدد بطول الكتاب وكلما التقت بمرضاها هذا اللقاء الإنسانى بين هذه الغربية وبين هؤلاء الشرقيين اليمنيين وتتوحد ذاتها مع ذواتهم فى صفاء ربانى يضفى عليهم وعليها سعادة كم كانت وكم كانوا فى أمس الحاجة إليها .

.. ذات يوم طلب منى عبده - مساعدها - أن أقوم بزيارة امرأة فقدت عقلها فى اليوم الذى غرق فيه ابنها فى بئر . وقد قال لى « أنى أعرف يا حكيمة أنك لا تستطيعين أن تفعلى شيئا ولكن زوجها تعس جدا فانهبى .. وكان البيت متواضعا وقد ادخلونى حجرة طويلة خالية من كل شيء وفى أحد أركانها تستلقى المجنونة مدثرة بالأغطية .. رفعت الغطاء فوجدت وجها معذبا بالهم والرعب ونظرات شاردة استقرت على فيما بعد . وقد قال عبده « أنها تنظر إليك يا حكيمة .. أنها لم تكن ترغب فى رؤية أحد منذ مدة طويلة » ولعل مظهرى غير العادى وبدلتى الكاكى وعينى الزرقاوين .. لعل كل هذا قد أثارها فى أعماق غيبوبتها . ماذا استطيع أن أفعل من أجلها ؟ ولما كنت لا أملك شيئا فقد أخذت رأسها بين ذراعى وتحدثت إليها طويلا وباهتمام وباللغة الفرنسية . ولما لم يكن أحد يفهم ما أقول ، فقد قلت لها كل شئ يفكر فيه الإنسان ولا يقوله .. واجتمعت الأسرة ورائى فى نهاية الحجرة واستمعت إلى كلماتى باهتمام صامت .. وليس غرورا ولا وهما إذا قلت إن هذا الوجه المعذب قد أصبح أكثر هدوءا .. وتركتهم وقد استعادت من جديد نظرة الإنسان الحى .

وفى اليوم التالى انتظرنى عبده وقال لى بسرور عظيم «إن المجنونة قد تحسنت حالتها .. لقد نهضت .. وخرجت من غرفتها وذهبت بمفردها إلى دورة المياه وكانت قبل هذا لا تستطيع حراكا » .. وقد فرحت الأسرة لهذا ووجدت أنه لابد من الاستمرار حتى لا تعود المسكينة من جديد تحت هذا الكابوس . وكان متعذرا على ان أعالج مرضا عقليا بالإضافة إلى عملى اليومى وكان الحل الوحيد إن أجمع مرضاى بجوارها ، وقد قبل هذا زوجها راضيا وكان رجلا طاعنا فى السن ذا وجه طيب وكريم .

وقد بقيت فى ركنها المعتاد وأنا إلى جوارها والمرضى مزدحمون فى نهاية الحجرة يتقدمون الواحد بعد الآخر ويستلقون أمامى وقد أردت بصفة خاصة إن أجعلها تتقبل وجود شخص آخر معها وإن تقبل على حد أدنى من الحياة الاجتماعية وكانت تنظر إلى ما أمامها باستغراب وتعود إليها أحيانا مخاوفها وفزعها فتخفى نفسها من جديد تحت جلد الخروف وكان علينا إن نخرجها من تحته وأن نتحدث إليها وما أن تهدأ حتى أعود إلى فحص مرضاى .. وفيما عدا المجنونة كل ما كنت أفعله لا يجدى شيئا فالعلاجات باهظة الثمن بصورة مزعجة وقد اخبرنى المرض أنه لا يكاد يقدر على شراء العلاج إلا

لخمسة من كل عشرين مريضا وهؤلاء الخمسة لن يستطيعوا شراء العلاج مرة ثانية ولن يجدوا من يشرف عليهم وبالتالي لن يشفى أحد منهم بدون شك .

ماذا تبقى من جهودي كلها ؟ .. لقد تقدم منى طفل بعد عملى ذات يوم وكان يبدو فى صحة جيدة فسألت دهشة ما حكاية هذا الصغير ؟ وبحثت عن أمه بين الحاضرين لكنهم جميعا ابتسموا وقالت لى امرأة بلطف «أنه يريد أن يقبلك يا حكيمة» .. إن قبلة من طفل تبعد عن الإنسان القنوط والكآبة .

أعجوبة هذا البلد .. اليمن إن السلام يأتى دائما بعد الشدة لقد خرجت يوما من البيت بعد جلسة طويلة ، وكنت متعبة وأشد ارهاقا من أى يوم مضى ورأنى رجل عجوز يجلس على الأرض أمام بيته وكانت نظراته براقة وهاربه حتى لقد توقفت مبهورة أمام هذا الشعاع كما يقف الأرنب أمام ضوء سيارة فى الليل .. قال لى هذا العجوز « تفضلى وشاركينى طعامى .. » وقد أجبت عليه بأسف « لا أستطيع فلا يزال أمامى عدد من البيوت والمرضى لابد من زيارتها » فقال .. « إذن سيرى والله معك .. » لم يكن فى فمه وصفه عميقة .. لقد شعرت على الفور إنى أتخلص من التعب كله .. وقد أمضيت النهار يخالجنى الفرح والرضاء ..

ثم تكشف لنا صاحبتنا عن سر هذا الشرق الذى لم تعرفه فقط ولكنها تأثرت به .. « فقد قصصت بكل بساطة ما استطعت أن أعرفه عن حياتهم (اليمنيون) وفى أى مناسبات التقت حياتهم بحياتى ولكن قبل أن أتناول تلك الاقاصيص أجد من اللائق أن أحيى المؤثر الرئيسى فى حياتهم .. ذلك الموجود فى كل مكان ، الذى يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء .. أنه يعرف كل شىء ، ويعلم أنه على كل شئ قدير ، أنه أكبر من كل شئ ، متكبر ، غيور ، خبير ، له الحمد ، وله الثناء .. فهو بالإجمال ذات تجب معرفة الوصول اليها .. وقد انتهى اليمنيون إلى معرفة ذلك .. أنهم يفزعون إليه قبل كل شىء ويحمدونه فى السراء والضراء، إنه شاهد أبدى ورفيق لا يمل ، وهم يرددون اسمه فى كل وقت .. وبلا انقطاع ولربما التقيت به مرة لكنى قليلا ما أعرفه ولا أستطيع أن أتحدث عنه أكثر مما فعلت .

● ● ●

هذا عن الكتاب .. فماذا عنه وعن كاتبته بعد نشره .. هنا يحدثنا مترجمه الدكتور محسن العينى رئيس وزراء اليمن الأسبق ..

مكالمة هاتفية فى منتصف الليل فى باريس نقلت الخبر الحزين .. كلودى فايان انتقلت إلى جوار ربها فى الرابع من يناير عام ٢٠٠٢ وقد تجاوزت الثمانين . أثق أنها كانت منفعلة لما يجرى فى أفغانستان وفى فلسطين وما يشهده العالم فى بداية العام الثانى لهذا القرن .

سيرة انسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .... من إذاعة باريس فى بداية الخمسينيات سمعت لحنا يمنيا جميلا شجيا والمذيع يسأل كلودى فايان

بماذا يذكرك هذا اللحن ياسيدتى ؟ فتسترسل فى حديث شيق عن اليمن واليمنيين .. عن صنعاء وسكانها .. والعجوز الذى يجلس ويواظب على الجلوس تحت نافذتها كل مساء ليسمع فى الظلام ألحان بيتهوفن وبرامز وعن مرضاها وكبريائهم وتحملهم للآلام وصبرهم ومعاناتهم .

وبحثت عنها ، وكانت هى تبحث عن هؤلاء الطلاب اليمنيين الأربعة الذين سمعت أنهم قد وصلوا للدراسة فى باريس.

والتقينا وسمعنا قصة حبها لليمن وتجولت بنا فى باريس وحدائقها ومتاحفها ومعالمها وأصدرت كتابها الذى لاقى رواجا فى فرنسا وترجم إلى عدد من اللغات . وأقدمت على ترجمته إلى اللغة العربية تحت عنوان «كنت طبيبة فى اليمن» وكما قال الاستاذ محمد محمود الزبيرى أنه كتب بلغة المحب البعيد عن التعالى الذى تعودناه من بعض المستشرقين والغربيين » كنت قد سألتها فى باريس عن سر حبها لليمن وتجشمها السفر فى باريس إلى ذلك القطر العربى النائى فلم تجب . وبعد صدور الكتاب فى ترجمته العربية كتبت لى رسالة أجابت فيها على سؤالى وقالت ان زوجها وصديقا آخر وحدهما يعرفان سر ذهابها إلى اليمن وإن من حقى الآن أن أعرف السبب وأن أتلقى الجواب على سؤالى .

وروت فى الرسالة ما تعرضت له من متاعب عاطفية ونفسية كادت تدفعها إلى الانتحار

ولكنها وهى المناضلة الاشتراكية لا يمكن أن تقدم على الانتحار وإذا كان لابد من الموت ففى الميدان وفى سبيل الواجب..

وقالت أنها أطلعت على أخبار انتشار أمراض معدية فى اليمن فطلبت من الحكومة الفرنسية إرسالها إلى اليمن لمقاومة هذه الأمراض وكانت تتوقع أن تموت فذهبت ولكنها بدلا من أن تتعرض للموت وهبتها اليمن الحياة ... فقد نجحت فى عملها وعلمها اليمنيون المرضى الرجال والنساء الأطفال والشيوخ حب الحياة فرغم ما يعانونه ويقاسونه من الام وبؤس وشقاء كانت معنوياتهم عالية وتمسكهم بالحياة مثار الإعجاب . فلما أنهت مهمتها عادت إلى باريس إلى زوجها وأطفالها وأسرتها وأصدقائها محبة للحياة متفائلة مستعدة للعيش والنضال والعمل من جديد .

هذا ما كتبه الدكتور محسن العينى

وأضيف من عندى إن كتاب الراحلة الدكتورة كلودى فايان - الذى أعارنى إياه صديق - قد أصبح أليفا إلى نفسى وقرأته مرات ومرات ، حتى إنى أفكر ألا ارتكب حماقة اعادته إلى صاحبه لفرط ما سجله هذا الكتاب من مواقف وأصوات إنسانية عندما يكون اللقاء إنسانيا صرفا بين الغرب والشرق .

وأيضا لأنى عشت فى اليمن قبل الوحدة مع الجنوب وبعدها ولأنى أيضا تعرضت أثناء اقامتى فى صنعاء إلى فقد ابنى الأكبر ولكن كما وهبت اليمن للدكتورة فايان الحياة فقد وهبنى اليمنيون عزاء خلت معه أنه بات لى بعدد أبنائهم أبناء

كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي

بقلم
د. ايمن فؤاد سيد

ظهرت البدايات الأولى لنَمط التأليف الموسوعى منذ القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى بفضل التفوّق الثقافى الذى شهده العراق فى العصر العباسى على أيدى كبار العلماء المسلمين الذين شاركوا فى إذكاء هذا التيار، ونتيجة لحركة الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية التى ازدهرت على الأخصّ فى زمن خلافة المأمون العباسى.

وتمثّل مؤلفاتُ الجاحظ وابن قُتَيْبَة وأبى الفَرج الأصفهانى نَمَط التأليف الموسوعى القديم، ويبدو هذا النَّمط أكثر وضوحاً في كتابى «الحيوان» للجاحظ و«عيون الأخبار» لابن قُتَيبة، كما أن مؤلفات مثل «الأنساب» للسمعانى و«معجم البلدان» لياقوت الحموى تمثّل مرحلة «تالية» من هذا التأليف الموسوعى.

ومع قيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى وسقوط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ثم انتقالها إلى مصر فى زمن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس، تحوّل الثّقل السياسى والثقافى والحضارى إلى القاهرة حيث انتقل إليها عدد غير قليل من علماء المشرق الإسلامى بعد اجتياح المغول للعراق، ساعد على ازدهار مناخ علمى أنتج العديد من المؤلفات فى فنون كثيرة.

وحقيقة الأمر أن العدد الأكبر من المصنفات التى كتبت فى هذا العصر كانت مؤلّفات نقلية مثل «الشامل فى الطب» لابن النّفيس، والقليل منها يمثل أصالةً فى موضوعه. واشتهر القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى بما ألّف فيه من موسوعات بداية بموسوعة «مباهج الفكر ومناهج العبر» لابن الوطواط الكتبى وانتهاء بموسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» للقلقشندى، التى تعد خير ما انتجه هذا العصر.

فقد أسفَرَ النشاط الهائل لعلماء المسلمين على مدى ستة قرون عن تأليف عدد ضخم من الكتب فى كل حقل من حقولِ المعرفة، بحيث أن عمر العالِمِ المختص لم يكن يكفى لقراءة كل ما كُتبَ فى ميدانه، ناهيك عن دراسته. ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية المختصرة، وإن عارض ابن خلدون فى «مقدمته» الشهيرة هذه الظاهرة واعتبرها



دليلاً على التدهور الذى وصلت إليه الحياة العلمية فى عصره.

وظهرت كل هذه الموسوعات فى مصر والشام، كتبها عمال وعلماء حكومة سلاطين المماليك بغرض خدمة كتبة الدواوين للاستفادة بها فى مجال عملهم، ولكن واقع الأمر أنها أفادت جمهوراً أعظم من المثقفين لأنها عالجت مسائل أعم وأكثر شمولاً فى جميع فروع العلم التى يريد المؤلف أن يُعرف بها.

والظاهرة اللافتة للنظر أن مؤلفى هذه الموسوعات لم يروا فى أنفسهم علماء، بل كانوا فى حقيقة الأمر كتّاباً نابهى الشأن فى ديوان الإنشاء المملوكى واكتسبوا خبرةً كبيرةً فى هذا المجال. وأدت وحدة الوسط الذى نشأت فيه هذه الموسوعات إلى تشابهها فى الترتيب، وهو ترتيب

يعكس أحياناً بوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشئون الديوانية. ويبدو هذا واضحاً أكثر ما يكون في موسوعة القلقشندي «صبح الأعشى في صناعة الإنشا».

وأول موسوعات عصر المماليك كتاب «مباهج الفكر ومناهج العبر» لجمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي الوراق المعروف بالوطواط، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م. ولم يكن الوطواط من عمال الحكومة الذين مارسوا العمل في دواوينها، بل كان، كما يدل على ذلك لقبه، من المشتغلين بتجارة الكتب وأعمال الوراقة، يقول الصفدي: «له معرفة بالكتب وقيمها.. وملكت بخطه تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل وقد ناقش المصنف في حواشيه وغلّطه وواخذه (الوافي بالوفيات ٢:١٦).

وكتاب «مباهج الفكر» موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوب أدبي وموضحة بالشواهد من شعر ونثر. وتنقسم إلى أربعة فنون الأول: في الفلك والأجرام السماوية، والثاني: في الجغرافيا والأجناس، والثالث: في الحيوان، والرابع: في النبات. وأهم فنون هذه الموسوعة الفن الثاني الخاص بالجغرافيا والذي أمدنا فيه ابن الوطواط بمعلومات كبيرة القيمة عن نظام الزراعة والتقسيم الجغرافي للقطر المصري وعلى الأخص في العصر المملوكي الأول.

ولعب مصنف الوطواط دوراً كبيراً في تطوير نمط التأليف الموسوعي في العصر المملوكي. فقد نقل عنه مرارا معاصره شهاب الدين النويري في كتابه «نهاية الأرب» واستعار منه طريقة التبويب إلى فنون محتفظا أحيانا بمحتويات كتابه وخاصة في القسم الخاص بالنبات.

وكتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» موسوعة ألفها شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب البكري النويري، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. ويعد النويري خير ممثل للوسط الذي عملت فيه ومن أجله موسوعات عصر المماليك. وقسم النويري موسوعته إلى الفنون الأربعة نفسها التي قسم إليها الوطواط كتابه وأضاف إليها قسماً خامساً عن «التاريخ» يعد أكبر أقسام الكتاب قيمة سواء بالنسبة للفترة التي عاصرها، أو للفترات السابقة عليه بفضل اعتماده على مؤرخين فقدت اليوم مؤلفاتهم التي حفظ لنا النويري نقولاً مطولة منها.

وتعد موسوعة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م من أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك ووصفها الصفدي معاصر ابن فضل الله العمري بأنها «كتاب حافل ما يعلم أن لأحد مثله». (الوافي بالوفيات ٨:٢٥٥).

ونقتصر مادة كتاب «مسالك الأبصار» على الجغرافيا والتاريخ فقط - كما يدل على ذلك عنوانها - يعكس

موسوعتي الوطواط والنويري اللتين عالجتا فنوناً أخرى غيرهما. وتبدو ثقافة ابن فضل الله العمري أكثر وضوحاً في موسوعته عن الوطواط والنويري اللذين تمثل موسوعتاهما مؤلفين نقليين بمعنى الكلمة. فكتاب «مسالك الأبصار» يعد من أهم آثار عهده بالنسبة لنظم دولة سلاطين المماليك ورسومها ووصف قلعة الجبل وآثارها، واعتمد عليه كثيرٌ من مؤرخي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي مثل القلقشندي وابن شاهين الظاهري والسيوطي ونسبوا إليه ما نقلوه عنه. أما شيخ مؤرخي مصري الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م فقد اعتمد عليه كثيراً في كتابه «المواعظ والاعتبار» المعروف بالخطط ونقل عنه أكثر معلوماته عن عصور سلاطين المماليك السابقة عليه، وأكثر عباراته وضوحاً في وصف قلعة الجبل.

وموسوعة ابن فضل الله العمري مصدرٌ من الدرجة الأولى لدراسة عصر سلاطين المماليك، وعلى الأخص في فترة السلطنة الثالثة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م)، ودراسة البلاد التي كانت تربطها صلات دبلوماسية منتظمة أو متقطعة بدولة المماليك. فقد هيّأ له عمله الحكومي في ديوان الإنشاء الاطلاع على الوثائق الرسمية ولقاء الكثير من الرجال والسفراء، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكّنه من إخراج لوحة مفصّلة في وصف العالم المعاصر له.

أمّا كتابُ «صُبحُ الأعشى في صناعة الإنْشاء» لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي الفزاري القَلْقَشَنْدي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م فيعدُّ آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليك. وموضوع هذه الموسوعة الرئيسي - كما يبدو من عنوانها - هو الكتابة الديوانية. وقد بدأ القلقشندي في تصنيف هذا الكتاب الضخم فور التحاقه بالعمل بديوان الإنشاء المملوكي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م (صبح الأعشى ١:٨) وانتهى من تأليفه في شوال سنة ٨١٤هـ/١٤١١م (نفسه ١٤:٤٠٤)، ولكنه ظل يزيد عليه إلى حين وفاته سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

مهنة الكتابة

وينقسم «صبح الأعشى» إلى مقدمة، وعشر مقالات، وخاتمة. في المقدمة حلل القلقشندي مهنة الكتابة وفضلها في المجتمع البشري. وفي المقالة الأولى (الأجزاء من الأول إلى الثالث من طبعة دار الكتب المصرية) عالج المؤلف الكلام فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من المعلومات المتعلّقة بالخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له.

وأفرد المقالة الثانية (بقية الجزء الثالث إلى الجزء الخامس) للحديث عن الجغرافيا وتاريخ ممالك الإسلام. وتتميز هذه المقالة التي تناول فيها القلقشندي ذكر عواصم مصر الإسلامية منذ

الفسطاط وحتى قلعة الجبل وترتيب الدولة الفاطمية ونظام ورسوم الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية في مصر، بتنوّع وغنى المصادر التي اعتمد عليها في كتابة هذه المقالة، وبينها مصادر كثيرة فُقِدَت اليوم مثل مؤلّفات: القُضاعي وابن المتوّج وابن الطُّوَيْر والمُسَبِّحي وعلي بن خَلَف.

أمّا المقالة الثالثة (الجزءان الخامس والسادس) فتعالج المسائل العامة التي تشترك فيها كل المكاتبات والولايات، حيث يعرض للناحية الشكلية المتعلقة بنوع الورق المستخدم والأقلام التي يكتب بها ونوع الخط، كما يبحث في الأسماء والكنى والألقاب ومواضع ذكرها واستعمال الصيَغ المختلفة في المكاتبات والمخاطبات.

الاستشهاد بأسلوب الكتاب

وتناول في المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) المكاتبات وأنواعها ومصطلحها مع إيراد عدد كبير من الوثائق الرسمية برمتها للاستشهاد بأسلوب الكُتّاب وطرق المخاطبة، وتُمَثّل هذه الوثائق - سواء في هذا القسم أو في الأقسام الأخرى - عنصراً جوهريا في أهمية هذا المصنف، فقد أتاح له عمله بديوان الإنشاء والمكاتبات الاطلاع على العديد من السِّجلّات والمناشير والمُخاطَبات الرَّسْمِيَة الصادرة عن الخُلَفاء والسلاطين والوُزَراء وكبار الكُتّاب، ممّا يمثل لنا - في غياب أرشيف لوثائق هذه العصور - مادة لا نظير لها لدراسة مختلف جوانب نظام الدواوين والإدارة وتولي المناصب وواجباتها في مصر الإسلامية وتقدم المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع إلى الثاني عشر) لنا بعض المعلومات النظرية ونماذج لكُتُب الولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها، وتحتل هذه المقالة مكانة هامّة في الكتاب لأنها تلقي ضوءاً على النظام الإداري المعقّد الذي ساد في دولة المماليك، والنماذج التي أوردها في هذه المقالة حافلةٌ بالكثير من المعلومات بشكل غير مسبوق.

أما بقية مقالات الكتاب فإنها صغيرة الحجم بمقارنتها بالمقالات السابقة، فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) تقدم صوراً من المكاتبات ممّا لا يخضع للتصنيف، وتحلّل المقالة السابعة (من نفس الجزء) الوثائق المتعلقة بالإقطاعات، وتبحث المقالة الثامنة (في نفس الجزء أيضاً) في الأيمان وصُوَر الأقسام (جمع قَسَم) المختلفة واليمين، بينما تتحدث المقالة التاسعة (الجزءان الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الهُدْنة بين المسلمين والكفار، وتتناول المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فُنوناً من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية لها.

أمّا خاتمة الكتاب فتحتوي على أبواب تبحث أساساً في وسائل النقل والمواصلات والبريد وعلى الأخص في عصر المماليك.

ونظرا لأن مصنف القلقشندي يمثل

مصنفاً نقليا فقد ضم بين دفتيه مادةً ضخمة جعلت منه مصنفاً فريداً فى نوعه، خاصةً بالنسبة للمقالة الرابعة (الأجزاء من السادس إلى التاسع) التى اشتملت على نماذج للمكاتبات الدبلوماسية المتبادلة بين سلاطين مصر وملوك الدول الأخرى المعاصرة، وقرارات تعيين الممثلين الرسميين، ولم يكتف القلقشندى بإيراد هذه المكاتبات فى صيغها الكتابية الخاصة، بل أورد نماذج من الوثائق الأصلية المحفوظة في ديوان الإنشاء، الأمر الذي يجعل من كتابه مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية للعالم الإسلامى - مع وضع مكانة خاصة لمصر - والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس وحتى أوائل القرن التاسع للهجرة.

وأمام طول هذا الكتاب وغزارة المادة التى احتوى عليها، رأى القلقشندى أن يقوم بنفسه باختصار موسوعته فى مجلد واحد سماه «ضوء الصبح المسفر وجَنَى الدَّوح المثمر» طبع فى مصر سنة ١٩٠٦.

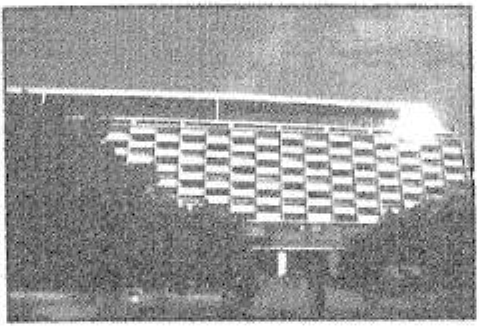
مضبوطة صحيحة

وبفضل جهود العالم المحقق شيخ العروبة أحمد زكي باشا (١٨٦٧ - ١٩٣٤م)، الذى كان دائم السفر إلى أوروبا وتركيا بحثاً عن المخطوطات النادرة، وَفَّرَ لدار الكتب المصرية فى مطلع القرن العشرين نسخة كاملة من هذا الكتاب من مكتبات إستانبول، فأخرجت لنا فى باكورة منشوراتها نَشْرَة مضبوطة صحيحة لكتاب «صبح الأعشى» صدرت فى أربعة عشر جزءاً بين سنتى ١٩١٣ و١٩١٩، وأعيد طبع بعض أجزائها فى عام ١٩٢٨، كما نشرتها وزارة الثقافة بالتصوير فى عام ١٩٦٥. ومنذ صدور الطبعة الأولى للكتاب توفر على دراسته عدد كبير من العلماء، وظهرت أول دراسة جادة لمحتويات هذا الكتاب عام ١٩٢٨ حيث كتب المستشرق الألمانى بيوركمان Bjorkmannكتابه المهم عن تطور النثر الدواوينى فى مصر الإسلامية.

وبمناسبة مرور ٥٥٠ عاماً على وفاة القلقشندى عقدت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨ ندوة علمية فى القاهرة لدراسة شخصية القلقشندى وإسهاماته العلمية والثقافية شارك فيها عشرة من كبار أساتذة التاريخ والجغرافيا والأدب، نشرت أبحاثها فى مجلد بعنوان «أبو العباس القلقشندى وكتابه «صبح الأعشى» صدر فى القاهرة عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٤.

كذلك قام الأستاذ محمد قنديل البَقْلى بوضع فهارس متنوعة للكتاب بأجزائه الأربعة عشر صدرت عن مكتبة عالم الكتب سنة ١٩٧٢ يسرت الاستفادة من معلومات الكتاب الغزيرة، وإن كانت فى حاجة إلى مزيد من العناية والتدقيق، ثم أصدر فى عام ١٩٨٤ دراسة مفيدة عن «مصطلحات كتاب «صبح الأعشى».■

خفايا مخازن دار الكتب

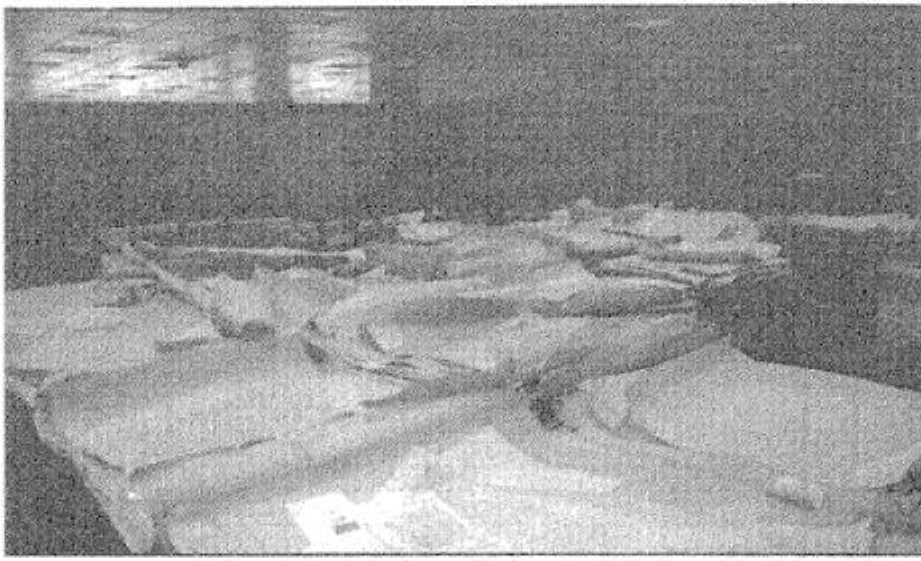


العثور على ٨ آلاف خريطة أثرية

• المخازن بلا تنظيم منذ مائة عام وتنتظر إعادة اكتشافها من جديد

أمانى عبد الحميد

أعلنت دار الكتب والوثائق القومية خبراً مضحكاً عن اكتشافها لثمانية آلاف خريطة أثرية نساها الزمان داخل مخازنها دون أن يدرى أحد بوجودها هناك . الأمر الذى يفتح ملفاً جديداً، محزناً ويطرح عدة تساؤلات .. ماذا يوجد داخل مخازن الدار ولم يتم اكتشافه حتى الآن؟ هل قامت الدار بدورها كما ينبغى فى الحفاظ على تراثنا القومى؟ وهل يمكن إعادة اكتشافه مرة أخرى قبل أن يسقط فى بئر النسيان؟



ثمانية آلاف خريطة أثرية وكنز من المخطوطات والبرديات والوثائق تم اكتشافها مصادفة في دار الكتب !!

على مدى ما يزيد على ١٣٠ عاما ظلت دار الكتب والوثائق القومية تمثل ذاكرة الوطن ووعيه وتحكي وتحفظ تاريخه الطويل. بكل أعماله الفكرية وانتاجه العلمي والأدبي والصحفي والوثائقي. وطوال عمرها المديد، كانت خير شاهد على حضارة الأمة المصرية بتعاقب أجيالها، بل وحفظت داخل جدرانها تاريخ أمم وحضارات خلت، ولم يعد هناك ما يؤرخ لها سوى برديات ومخطوطات دار الكتب الثمينة، حتى يقال عنها أنها تحوي ما يزيد على ثلث الذاكرة التراثية للعالم أجمع.

نظرا لهذا العمر الطويل والدور الحيوي والخطير في الحفاظ على تراث الأمة وتاريخها. احتلت دار الكتب مكانة سامية ورفيعة جداً. مما جعلها دائماً مركز الاهتمام ومحط الخطورة في آن واحد. فأي تلاعب أو خلل في أداء الدور المنوط بها، سواء عن طريق الإهمال والتقاعس أو حتى الأداء بطريقة غير مرضية فإن ذلك يؤدي بالضرورة إلى تلاعب في تاريخ بلادنا وتراثها الذي لا يقدر بثمن ونحن أمة نتباهى بين الأمم بعراقتنا وتاريخنا القديم.. فمصر أم الدنيا ومهد الحضارات».

خرائط أثرية مجهولة

طالعتنا الصحف بخبر اكتشاف ٨ آلاف خريطة أثرية . علت الفرحة على تصريحات المسئولين. نتيجة اكتشافهم لهذا الكنز داخل مخازنهم لكن

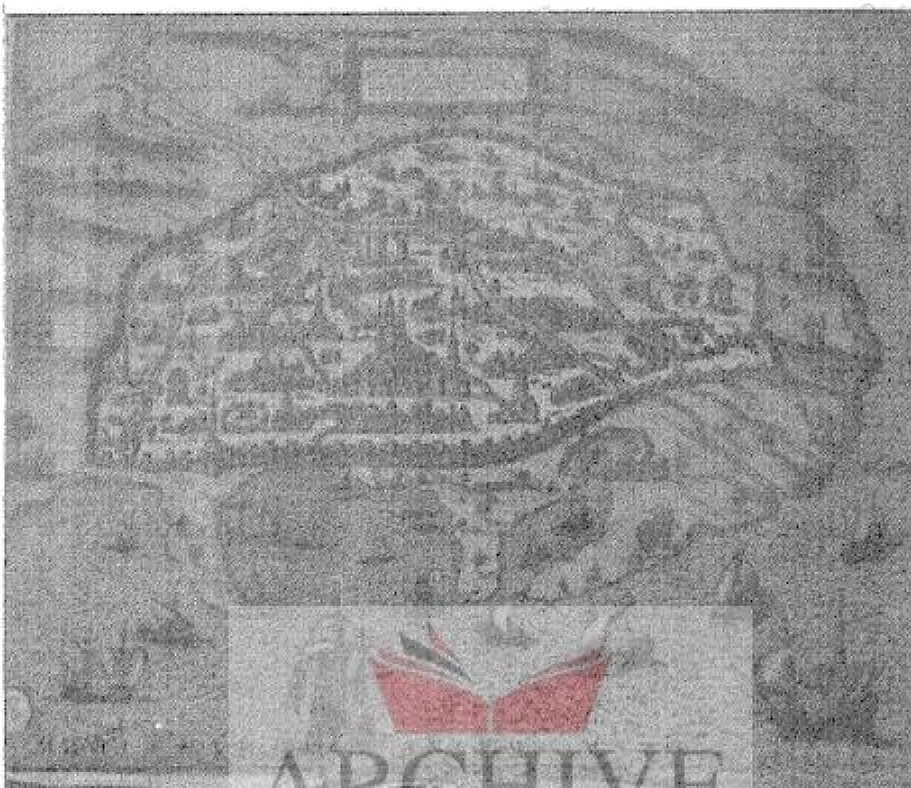
للأسف لم يكن وقع الخبر على نفوسنا وقعاً مفرحاً كما كان من المفترض أن يكون. فالاكتشاف الجديد يعيد فتح باب الجدال حول ماذا تحوى مخازن الدار من مخطوطات وبرديات ووثائق ومقتنيات لم يتم اكتشافها حتى الآن.

الأمر المحير أنه فى كل فترة تتوالى علينا الأخبار عن العثور على كنز جديد داخل دار الكتب الوثائق. وكأننا أمام صحراء تقوم فرق البحث والتنقيب عما يختبىء فى باطنها. وليس دارا بعراقة وتاريخ دار الكتب. ففى عام ١٩٩٦ أعلنت دار الكتب عن العثور على كنز مجهول أثناء عمليات ترميم مبنى باب الخلق، والكنز عبارة عن خزينة مغلقة ولا أحد يعلم ما بداخلها! وكيف يتم فتحها! وبعد فتحها تم اكتشاف ما يزيد على ١٣ ألف قطعة نقدية ذهبية وفضية. ويرجع أقدمها إلى بدايات العصر الإسلامى. حيث تؤرخ لبداية سك النقود فى عهد الدولة الأموية عام (٤١ هجرية - ٦٦١ ميلادية). وها نحن اليوم نعثر على كنز آخر اختفى داخل غياهب المخازن لفترة لا نعلم مداها دون أن يدرى أحد، أن دار الكتب تمتلك ثمانية آلاف خريطة أثرية يعود أقدمها إلى القرن السادس عشر الميلادى.

لا أعلم السبب الحقيقى وراء الفرحة التى تعلو وجوه كل من قابلناه داخل دار الكتب القومية. فالحقيقة غير مفرحة على الإطلاق بقدر ما هى محزنة بل مفزعة. فنحن نتحدث هنا عن تاريخ أمة. وتراث عريق من المخطوطات والبرديات والوثائق والمقتنيات علاوة على الخرائط بما يمثل ذاكرة الأمة. والخوف يتجلى عندما نكتشف أننا بدأنا فقط خلال عام ٢٠٠٢ باعادة اكتشاف ما تمتلك دار الكتب من كنوز تراثية. وأننا لا نعلم حتى الآن حجم ما تحتويه مخازنها. خاصة أن تصريحات د. صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب توضح «أن الدار تقوم كل عام بجرد مخزن واحد أو اثنين فقط» على أن تظل باقى المخازن البالغ عددها ثمانية على قائمة الانتظار تمهيدا لجردها خلال الأعوام القادمة، وإن كان د. فضل قد أكد أن عمليات الجرد تلازمها عمليات تطوير وتجهيز وترميم أيضا. لكن هذه التصريحات تشير بوضوح إلى إمكانية وجود مقتنيات غير مصنفة أو حتى معلومة داخل باقى المخازن التى لم يسعدها الحظ وتنالها يد التطوير والجرد حتى الآن.

كنز الكنوز

تعتبر دار الكتب أقدم المكتبات العامة على الاطلاق فى مصر وفى قارتى آسيا وأفريقيا. وطوال عمرها تفتخر مصر بما لديها من أكبر ثروة من المطبوعات والوثائق والمخطوطات. بل تعتبر الدار موطن كنز الكنوز. فتمتلك ما يزيد عن ١١٠ آلاف مخطوط قديم وأكثر من أربعة آلاف بردية ترجع إلى أبعد من ثلاثة آلاف عام. كذلك مجموعات نادرة من المخطوطات الفارسية المزينة بالصور وبماء الذهب. أقدمها تلك التى أهداها مصطفى باشا فاضل



الإسكندرية القديمة وميناؤها وتبدو أسوار المدينة القديمة

للدار وهى النسخة الوحيدة الباقية فى «الرسالة فى أصول الفقه» للإمام الشافعي والتي تحمل إجازة بخطه بنسخ الكتاب وهى مؤرخة بسنة ٢٦٥ هجرية. إلى جانب عدد ضخم من الوثائق التاريخية التى يزيد عمرها على الألف عام، ومئات المصاحف والمخطوطات التى تعود إلى العصور القبطية والإسلامية.

والمعروف أن وجود تلك الوثائق قد لعب دوراً فى إثبات كثير من حقوقنا المشروعة دولياً مثل قضايا تأميم قناة السويس، ومشكلة طابا، إلى جانب وجود وثائق الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨. والحملة الانجليزية ١٨٠٧، والاحتلال الانجليزى ١٨٨٢. وثورة ١٩١٩. علاوة على ١٥٨ ألف دورية (صحيفة ومجلة) عربية وأجنبية، أقدمها صحف نابليون بونابرت أثناء حملته

على مصر والشام.

ويكفينا ما قاله له د. جلال غندور رئيس الإدارة المركزية لدار الكتب أن هناك دولاً أو مكتبات وطنية تفتخر بوجود مخطوط أو بردية واحدة فقط. بل وتخصص لها قاعة أو طابق كامل ليتناسب مع مكانتها الأثرية، كما هو الحال في المكتبة الوطنية باسكتلندا. فما بال مصر التي تمتلك هذا الكم من المخطوطات والوثائق.

في البداية قابلنا المهندسة عايدة حنفي المدير العام لخدمات القراء. وهي المسئولة عن عمليات البحث عن الخرائط وفهرستها وتصنيفها وأرشفتها. والفرحة تعلو وجهها أكدت لنا أن فريق العمل اكتشف موقع إقامته «كندا» على شبكة الانترنت خاص بالخرائط النادرة. اكتشفنا أن بعض أصولها تمتلكها دار الكتب!! وأوضحت أن الخرائط المكتشفة تنقسم إلى ثلاث أقسام الأول يصل عددها إلى ٦ آلاف خريطة تتعلق «بالزمام» أي المحافظات والمدن داخل الحدود المصرية. والقسم الثاني خاص بالدول العربية مثل بعض الخرائط الخاصة بفلسطين يرجع أقدمها إلى عام ١٩١٦ كذلك خرائط للحجاز والسعودية وسوريا والمغرب والسودان ومنطقة شبعا في لبنان. والقسم الثالث وهي الخرائط الأجنبية وعددها ٢٥٠ خريطة بلغات الانجليزية والفرنسية والايطالية والألمانية والفارسية والتركية والإسبانية. يعود أقدامها إلى عام ١٥٠٥ وهي خريطة مكتوبة باللغة الكاتولونية (الإسبانية القديمة) عن الموانئ والبحار والمحيطات وقارات العالم القديم. ويضم الكنز خريطة نادرة لمنابع النيل في مصر والسودان. وتمتلك الدار خريطة مارتين والسيمولر الجغرافي الألماني الذي نشر في عام ١٥٠٧ خريطته للعالم محفورة على الخشب. استمد المادة العلمية من تعاليم بطليموس الجغرافية عن العالم ومن رحلات الرحالة خاصة أمريكو فيسوبتشي مكتشف أمريكا الجنوبية، لتكون خريطة والسيمولر أول خريطة ورد فيها اسم «أمريكا» وهو أول من أطلق هذا الاسم على الجزء الجنوبي من القارة الجديدة. مما أثر على رسم الخرائط خلال القرن السادس عشر الميلادي والذي ظهرت من بعدها أمريكا كقارة مستقلة وليس متصلة بقارة آسيا. ومن الخرائط الملونة الجميلة خريطة توضح رحلة الاسكندر الأكبر في بلاده حتى وصوله لإيران يرجع تاريخها إلى (١٥٩٥ ميلادية) كذلك أول خريطة تظهر فيها مصر منفصلة عن باقي الدول المجاورة لها وهي بعنوان مصر الحديثة مؤرخة في عام ١٦٦٢ ميلادية.

وعن مستقبل هذا الكم الضخم في الخرائط أوضح الدكتور غندور أنه يحلم بإقامة معمل جغرافي متطور يقوم بحفظ الخرائط بأنواعها وأشكالها (جلد/ ورق/زجاج) وتبويبها وتصنيفها طبقا للأساليب العلمية الحديثة. ويحلم بنقلها على وسائط أخرى (اسطوانات ليزر) حتى تكون متاحة للجميع



خريطة توضح رحلة الإسكندر الأكبر حتى وصوله إلى إيران مدونة بتاريخ ١٥٩٥

بشكل آمن حتى لا تتعرض الأصول للتلف. وبادرته بالسؤال الذى يحيرنا جميعا. لماذا تأخر اكتشاف هذا الكم من الخرائط فجاء رده بسيطا فهو أيضا يتساءل عن السبب. وإن كان يرى أن مخازن الدار انتظمت إلى حد ما «فنحن لانزال فى طريقنا ولا نستطيع أن ننظم جميع الأشياء خاصة أنها لم تخضع للتنظيم لمدة تزيد على المائة عام» والكلام هنا للدكتور غندور الذى يقول: إن الدار تأسست فى عام ١٨٧٠ وطوال عمرها بذلت مجهودات لكنها غير كافية نظراً لقلة الامكانيات» لكنه يؤكد «اليوم لدينا جميع الامكانيات سواء الفكرية أو التقنية، فإذا أن لم نورث الأجيال القادمة تراث قومى موثق فنحن سنصبح مقصرين ولا نملك العذر؟ لكنه يتعهد بـ «لن نجد بعد اليوم مخطوط تائه أو غير محصور أو بردية أو ورقة غير معلومة أو مصورة أو

مصنفة بعد اليوم!!

وهنا كان لنا وقفة، فعند زيارة القاعة المخصصة للخرائط الأثرية، فوجئنا بأنها متراصة أكوام فوق بعضها على طاولات ومقسمة إلى أقسام طبقا لنوعها، وإن كان المنظر يميل إلى العشوائية أكثر من التصنيف العلمى الدقيق.. صحيح كان الجميع يسارع بامدادنا بالمعلومات التى نريدها أو عرض أية خريطة نريد تصويرها، لكن الأمر كان غير منظم على الإطلاق، وكنا نأمل أن نرى الخرائط فى وضع أفضل إلى حين اعتماد الأموال المخصصة لإقامة المعمل الجغرافى المأمول.

مشكلة الترميم

وكان لابد فى مقابلة د. صلاح فضل الذى دافع عن أداء الدار بهمة بقوله «كان لدينا معلومات إجمالية عن وجود بعض الخرائط بمخازن الدار. لكن المعلومات التفصيلية عن محتواها لم تكن متوفرة بدقة حتى تاريخ رسم الخرائط لم يكن معروفا وهو ما نقوم به حتى الآن». بل يوضح «إن مسألة الاكتشاف مسألة نسبية. فالخرائط موجودة بالفعل لكننا سنعيد اكتشافها عندما نخصص لها طابقا كاملا لإتاحتها للباحثين. «بالإضافة إلى محاولة توفير التمويل المالى اللازم لإقامة المعمل الجغرافى. وهنا يطرح د. فضل مشكلة حرجة تعانى منها دار الكتب وهى مشكلة الترميم حيث يوضح أن «عملية حفظ المواد الورقية مثل الخرائط عملية مكلفة جدا نظراً لتعرضها للتلف والتدهور مع مرور الوقت، وهنا تتجلى مشكلة الترميم التى تواجهها الأصول بشكل متواصل. فلاتزال امكانيات الدار أقل بكثير لما تحتاج إليه من عمليات الترميم. فيقول «طاقة عمل معامل الترميم سواء الآلية واليدوية لا تسد سوى ١٠٪ من احتياجات الدار». أى أن الدار تحتاج إلى عشرة معامل ترميم لتقوم بواجبها على أكمل وجه تجاه المادة التى تحتاج لترميم متواصل. ويشرح «أن المشكلة لا تنحصر على ترميم مقتنيات الدار بل يقع على عاتقنا ترميم مقتنيات جهات أخرى مثل مقتنيات رئاسة الجمهورية، هيئة قناة السويس...» لذا فهو يرى أن الدار تواجه تحديات أهمها التمويل المالى اللازم لاستكمال مشروعات التطوير وإقامة معامل الترميم واستكمال البنية المعلوماتية والالكترونية.

ويرغم كافة الجهود المبذولة إلا أن ملف دار الكتب يجب أن يظل مفتوحاً طوال الوقت خاصة أن المفقود داخلها كنز لا يقدر بثمن والموجود ثروة نفيسة، وأى تهاون أو تخاذل معناه فقدان جزء من تاريخ الأمة المدون. فلاتزال العديد من القضايا التى تتعلق باختفاء بعض الوثائق قيد التحقيق، مثال ذلك قضية اختفاء نحو ٨٠٠ وثيقة من أحد مخازن الدار وهى وثائق تتعلق بعلاقة محمد على بالجزيرة العربية والدولة الحجازية الأولى المعروفة باسم «الحجاز»، علاوة على ارتفاع أعداد المخطوطات والوثائق المتهالكة



أول رسم لمصر منفصلة عن آسيا وافريقيا يعود إلى عام ١٦٦٢

التى تحتاج لترميم عاجل فى مقابل النقص الحاد فى معامل الترميم كما يؤكد د. فضل. فضلا عن سوء الأحوال داخل قاعات المطالعة والبحث التى تتزايد كل يوم الشكوى منها. وبرغم كافة الأموال التى صُرفت على عمليات التجديدات والتى مر بها المبنى المطل على كورنيش النيل.

ويكفينا أن نعلم أن ميزانية تطوير مبنى باب الخلق تعدت الخمسين مليون حتى الآن والتى لم يتم الانتهاء منها بعد

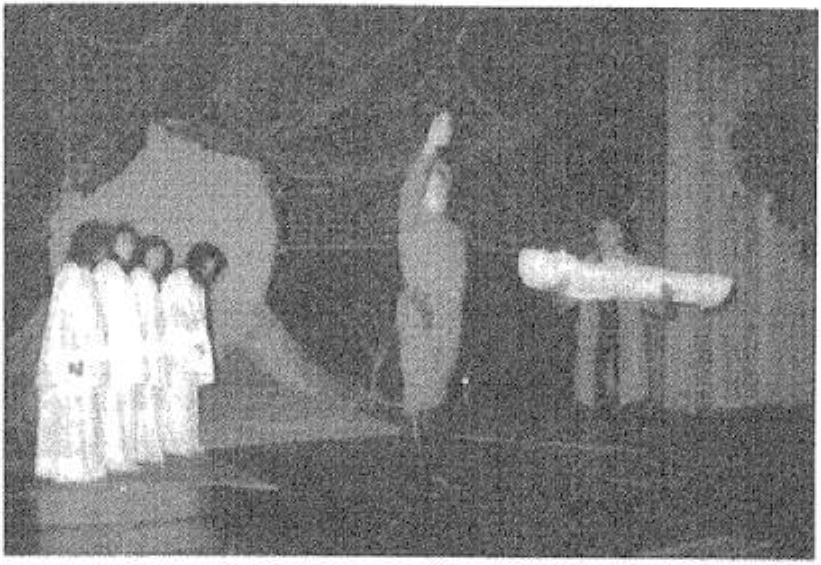
ونأمل أن تحرك عملية العثور على الثمانية آلاف خريطة الأثرية المياه الراكدة مرة أخرى. ونحلم كما يحلم د. فضل بدار كتب ووثائق قومية أكبر من حيث الامكانيات والتمويل ومن حيث الاتساع لتشمل كافة التوسعات المقترحة والأقسام الجديدة خاصة القسم الخاص بالخرائط القديمة. ■

المسـرح التـجـريبى وإعــادة تــرتيب الأوضـــاع الثقافية



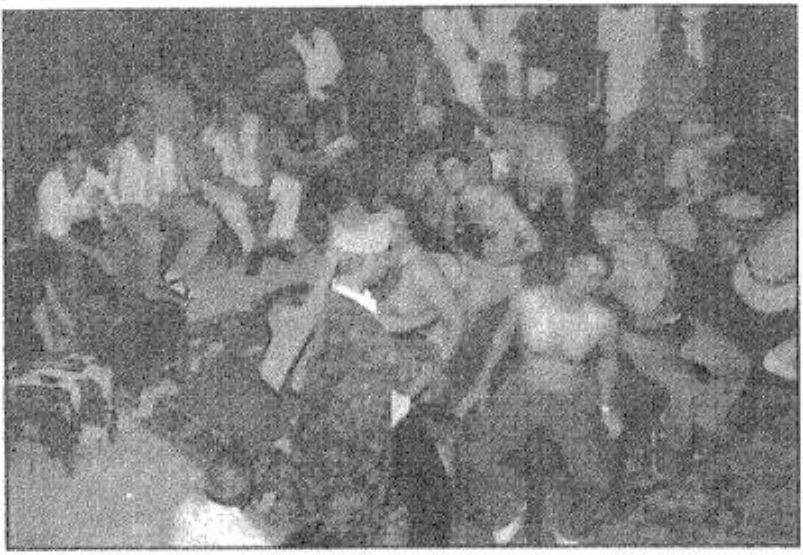
افتتح مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى فعاليات دورته الرابعة عشر مساء الأول من سبتمبر الماضى، والحياة الفنية فى مصر وفى العالم العربى مشغولة بالحديث عما حدث للذوق العام من تدهور، تجلى أخيرا فيما سمى بظاهرة (اللمبى) وما طرحته بين المثقفين من ضرورة إعادة النظر فيما حدث لهذا الذوق وعلاقته بالمتغيرات الاجتماعية والفكرية التى مرت بالمجتمع: بهدف إعادة تنظيم حركة الثقافة المصرية حتى لا تتعثر خطواتها ويشوه مستقبلها،

وأنهى المهرجان فعاليات دورته الأخيرة مساء الحادى عشر من سبتمبر الملتهب، والعالم يقف على ذنبه رعبا من حدوث فعل كدموى آخر على الولايات المتحدة فى ذكرى مرور عام على نسف رموز الرأسمالية التجارية والسلطة السياسية فى قلب نيويورك وواشنطون، أو حدوث هجوم كاسح مضاد من الولايات المتحدة على أية بقعة فى العالم باسم ضرب الإرهاب بالإرهاب، وبهدف إعادة ترتيب أوضاع العالم لكى تسلم كل دولة أوراق سيادتها للقطب الأوحد.



المحطة الجانبية العاصفة - كازاخستان

فيما بين يومي الافتتاح الذي دشن بالعرض المصري الراقص (تحت الأرض) لوليد عوني، والمعبر عن توجه نخبوي يتناقض تناقضا حادا مع منجز (اللمبي) وملايينه الساخرة بذاتها وبلسان منتجها لكل فن واقعي ولكل قيمة علمية في حياتنا، والختام الذي أعاد تقديم العرض الفائز بجائزة أفضل سينوجرافيا أو ما يسمي بالتقنية المسرحية، وهو العرض التشيكي (عرائس خارون) ، والذي يقدم بالرقص عالما متوترا بين الموت والحياة، مانحا الجسد البشري وضعا متشيئا اقرب لوضع التمثال الحي المقاوم لسكونية النهاية بانفعالات صحوة الموت، وفيما بين هذين العرضين الراقصين قدم المهرجان ما يقرب من ١١٥ عرضا مسرحيا ، بواقع عرضين لكل مسرحية، وصولا لثلاثة مع العرض الإنجليزي (مؤتمر هاملت) الذي فاز بجائزتي أفضل عرض وأفضل مخرج، حصل عليها المخرج الكويتي الأصل «سليمان البسام»، وذلك بسبب الهرج الذي تم أمام قاعة مركز الإبداع الصغيرة التي تقدمه (١٢٥ مقعدا)، وصل للتلاحم بالأيدي والأجساد بين المشاهدين ورجال الأمن، وتقلصا لعرض واحد مع المسرحية العراقية (البديل) على مسرح النيل العائم بالجيزة، والتي رفضت مجموعة عرضها تقديم ليلة ثانية لها، دون أدنى احترام لمن حضر من الجمهور والنقاد، وقدم المخرج لمدير دار العرض اعتذاره بسبب عدم ملاءمة دار العرض «جغرافيا وبيئيا»!! لمقتضيات عرضهم



حلم السمك العربي - الكويت

التكنيكية، فى مفارقة تقدس شكل الفعل على الفعل ذاته، وتحرص على كلاسيكية الصياغة فى مهرجان تجريبى، ووصل الأمر ذاته مع العرض المغربى (سوق العفاريت)، لولا وجود مجموعة صغيرة من النقاد المصريين والمغاربة، احترم المخرج وفرقته حضورهم وقدموا العرض لهم.

فنانو الفنادق

شارك فى المسابقة الرسمية للمهرجان ١٨ عرضا تم اختيارها من بين ٦٥ عرضا شاهدتها لجنة الاختيار والفرق الغربية، بواقع عرض واحد من كل من كوريا الجنوبية (ذكرى السماء) وألبانيا (الملك يموت) والصين (ووشانج ونووديار) وانجلترا (مؤتمر هاملت) والتشيك (عرائس خارون) واليونان (خاب سعى العشاق) واليابان (الجبل) وبلغاريا (كلب نائم). ثم هولندا التى مثلها على غير المتعارف عليه عرضان هما: (تاجر البندقية) و(أرض المستحيل)، إلى جانب ستة عروض عربية لكل من ليبيا (سرحان) والكويت (حلم السمك العربى)، والأردن (الزائر)، والمملكة السعودية (السيمفونية)، وسلطنة عمان (تحت الرماد)، وقطر (القادم)، بالإضافة إلى العرضين المصريين (تحت الأرض) و(إنسان الطبيعة)، بصفتها الدولة المنظمة، بينما خرجت من المسابقة لبنان بعرضيها (بيروت صفرا) لفرقة (مقامات مسرحية) و(لوسى المرأة العمودية) لفرقة مسرح (شمس)، ومن إخراج المخرج المسرحى والسينمائى المعروف «روجيه عساف»،

الذى أعلن قبيل تقديم عرضه بمسرح (العرائس) استياءه من عدم دخوله المسابقة الرسمية ، ومما زعمه من الكيل بمكيالين في المهرجان فهناك كما قال (فنانو الشيراتون) و(فنانون سفير) و(فنانو سميراميس) نسبة إلى نوعية الاستضافة للضيوف فى الفنادق، فضلا عن التفرقة فى توزيع العروض على المسارح المجهزة والأقل تجهيزا، ثم زايد بادعائه أن ثمة تعمد لتغييب فلسطين فى هذه الدورة، والتأكيد على حضور المساندة لأحداث ١١ سبتمبر، خاصة فى كلمة رئيسة لجنة اختيار العروض للمسابقة الرسمية، الأمريكية «مارثا كوانييه»، في حفل الافتتاح ، وقد رد الكاتب والناقد الكبير «نبيل بدران» على تلك المزايدة بقوله: إن فلسطين لم تغب يوما عن المهرجان ، بدليل حضورها بقوة فى السنوات الماضية، وحصولها على جائزة أفضل عرض مسرحى فى دورة العام الماضى، بمسرحية (قصص تحت الاحتلال)، كما أوضحت نشرة المهرجان (التجريبى) اليومية أن الدعوة قد وجهت من المهرجان رسميا لفلسطين للمشاركة ، افاد المستشار الثقافى لدولة فلسطين «غازى فخرى» بخطاب لإدارة المهرجان جاء فيه «برجاء التكرم بقبول اعتذارنا عن المشاركة فى هذه الدورة لظروفنا الحالية».

خصوصية التعبير الحركي

أكد المهرجان أنه مازال على العهد مهرجانا مفتوحا للتجريب، تنفتح فيه العين على اجتهادات شبابية تقتحم عوالم جديدة، وتسعى التعبير عن أفكارها ورؤاها بشكل مغاير، خاصة التعبير الحركي بلغة الجسد، الذى ساعدت مجموعة من العوامل على تكريسه دون بقية أشكال ومناحى التجريب الأخرى، بداية من طبيعة المهرجان الدولية، حيث تقدم العروض القادمة من شتى أنحاء العالم بلغاتها الخاصة لجمهور لا يعرف الروسية واليابانية والإسبانية والكورية واليونانية وغيرها، بل ويصعب عليه تفهم بعض اللهجات العربية، ومنها اللهجة المغربية على سبيل المثال، مما دفع بمخرج العرض المغربى (التسر سيرة) (أى «الجرس»)، إلى الإعلان فى إحدى رسائل التليفزيون المتشابهة لدرجة الملل إلى أن «العائق الآن بين المسرح المغربى والجمهور العربى هو اللهجة المغربية، فاللهجة المغربية غير مفهومة فى كثير من الأقطار العربية، لذلك على المسرح المغربى لكى يتجاوز هذا العائق أن يعتمد كثيرا على السينوجرافيا، وعلى لعب الممثلين، وعلى اللغات الدرامية أو ما تسمى باللغات غير الكلامية، التى دشن المهرجان وجودها بتوجهه وتوجه جوائزه خلال السنوات الخمس عشرة السابقة.

إن غياب القدرة لدى المتلقى المسرحي على فك (كود) أو شفرة اللغة المنطوقة بألسنة الممثلين أدى لبروز اللغات غير المنطوقة أو غير الكلامية من سينوجرافيا وإضاءة وحركات الممثل وإيماءاته ، وقد ظن البعض أن تلك



وقت بدل ضائع- مصر

اللغات غير الكلامية سهل على المتلقى العربى - أو غير العربى - القيام بفك شفراتها وإعادة تركيبها فى ذهنه لإدراك معانيها والإمساك برسالتها أو خطابها الثقافى المبثوث بشكل فنى جمالى فى العرض المسرحى، رغم كراهية البعض من مروجى فنون التخريب لمصطلح (الرسالة) وتفضيله أحيانا لمصطلح (الخطاب) ، بل ونسفه لوجود خطاب أصلا للعمل الفنى، واكتفائه بتحقيقه لـ (حالة) وجدانية يسلب عقل متلقيها داخلها، تماثل فى شكلها الأرقى حالة الاستلاب العقلى التى تحققها أعمال مثل فيلم (اللمبى) ، وتشابه فى شكلها الأدنى جلسات تعاطى المخدرات.

فيما بعد أدرك هذا البعض المتحدث عن (عالمية) أو (عولمة) لغة الجسد ولغات المسرح غير المنطوقة، أن الجسد البشرى ليس منفصلا عن عقل صاحبه، وأن هذا العقل يخضع لثقافة مجتمعه الذى يعيش فيه ويعايشه، ومن ثم تصبح الحركة واللفتة والإيماءة دلالات خاصة لدى كل مجتمع، وتختلف بالضرورة عن بقية مجتمعات الأرض، فضلا عن أن النظر للجسد البشرى يختلف من مجتمع لآخر، ومن زمن لآخر داخل نفس المجتمع، فما تفعله الممثلة اللبنانية الأصل «سلمى حايك» على شاشات السينما المكسيكية والأمريكية لا تستطيع أن تفعله فى فيلم إيرانى أو حتى عربى، وإلا كان الموت رجما جزاء تعبيرها بجسدها المتوهج على الشاشة الفضية، والفتاة المصرية التى كانت تخرج للشارع أوائل السبعينيات مرتدية

(الميكروجوب) دون حرج أو تعدى على حريتها ،لا تجرؤ اليوم على ارتدائه حتى داخل منزلها، والأمر كذلك بالنسبة لحركة الجسد وأطرافه ، فالألماني أو الإسباني يعبر عن ذاته بحركات تختلف عن حركات المصرى أو الكويتي، واللون الأبيض له دلالته فى الهند اختلافا مع دلالته المعروفة فى مصر.

أدى هذا الإدارك لمجتمعية التعبير الجسدى وخصوصية اللغة غير الكلامية مثلها في ذلك مثل اللغة الكلامية ذاتها، إلى محاولة نسف كل شيء، بدءا من النظرية، التى أعلن أحد المشاركين الإنجليز فى دورة العام الماضي ضرورة تدميرها، وانتهى المهرجان وبرجا التجارة فى نيويورك يخترقا ويتداعيا كقصرين من رمال، مرورا بإلغاء قيمة الكلمة المنطوقة فى كافة عروض المهرجان ، بما فيها العرض العراقى (نار من السماء) لفرقة (مردوخ للرقص الدرامى) والتى تجمع مجموعة من الراقصين غير الدارسين لفن الدراما المسرحية، مع آخرين من الدارسين، والذين يقدمون عرضا راقصا، يتصورون أنه تجريبى ومرسل من دولة تعانى ما تعانيه لكي يدخل المسابقة الرسمية، التي تختار المحظوظين فيها لجنة غربية لا تعرف اللغة العربية، وتقييمها، إذا ما سعدت باختيار اللجنة لها، لجنة أجنبية في غالبيتها ، ولا يمثل فيها غير عربى واحد، هو المخرج التونسى «المنصف السويسى» هذا العام ، والكاتب والناقد الروائى «إدوارد الخراط».

موت المؤلف المسرحي

المشكل فى أمر عروض المهرجان أن فرقها الغربية لا تمثل قيمة كبرى فى بلادها من جهة، وفيما تقدمه من تجريب على ساحة الإبداع المسرحي الدولي، فكل من يقرأ الجمهور عنهم ويترجم المهرجان نفسه كتبا لهم وعنهم لا نراهم بالفعل داخل فاعليات المهرجان، والمشكل الأعمق أن المهرجان دعم توجها فى المسرح، صار له القدح المعلى، فغيب الأشكال الأخرى تجريبية وغير تجريبية، وقضى على وجود المؤلف المسرحى المصري، وكأنه تطبيق عملى لمقولة (موت المؤلف) التى راجت فى السنوات الأخيرة، فلم تظهر خلال العشرين سنة الماضية قامة تماثل قامات من قدمتهم الحياة المسرحية خلال العقود السابقة، بل ولم يستطع مخرج مسرحي، رغم قتل المؤلف ونصه، أن يؤكد وجوده المتميز بملامح فكرية فنية محددة خلال الفترة المنصرمة، وأدى الاستغراق فى مفهوم التعبير الحركي، إلى صعود نجم الراقص، وهبوط نجم الممثل، بل وغاب فن التمثيل ذاته، وندر بالتالى وجود الممثل المتمكن من أدواته، الواعي بحرفية الممثل وتكنيك الأداء الصوتي.

والمشكل الأكثر عمقا في كل ذلك، أن التجريب فى مسرحنا العربي أصبح (تقليدا) لتجريب الفرق الأجنبية، وجذب لساحته جمهورا صغيرا لا يعرف عن

شكسبير وميلر وبريشت ومحمود دياب وعز الدين المدنى شيئا، وابتعد عن مساره الذى انتهجه من قبل بالتجريب مع الجمهور ومن أجله وليس ضده، وبالبحث عن أفضل سبل التواصل المسرحى مع جمهورنا العربى ولعل العرض الكويتى (حلم السمك العربى) للمؤلف والمخرج «حسين المسلم» ، يعد بوجوده داخل المهرجان استثناء لا يلغى القاعدة المشار اليها توا. حيث قدم رؤيته داخل باحة بيت زينب خاتون، فى شكل المقهى الشعبى أو (الديوانية) التى يلتقى داخلها الجمهور بالممثلين لقاء حميميا، يشربون معا الشاى ويدخنون النارجيلة ويتحدثون عن أحوالهم . فيدخلون معا عالم المسرح بحيويته المتدفقة ، مناقشين قضية صغرى هى نفوق السمك على شواطىء الخليج، صاعدين بالدلالة المحلية لهذا (النفوق) والموت القادم من الخارج لدلالات أكثر عالمية، ويقف العرض المصرى (ميدان اسكتش) المخرجة «عبير على» إلى جوار العرض الكويتى فى تأكيد أن المسرح لا ينفصل أبدا عن لحظته الزمنية وشرطه الجغرافى، هاربا لدنيا التجريد والعميات، ورغم أن العرض المصرى يعتمد على نص للكاتب الالمانى «بيتر هندكة» ، ترجمة د. محمد شيحة، إلا أن المخرجة قامت بتمصيره، لتضعنا مع المواطن المصرى خلال يوم كامل فى احد ميادينا المزدحمة بالحياة، غير أن الاستثناء لا يلغى كما أشرنا القاعدة التى كرستها عروض المهرجان ، وأتت لترك الساحة فارغة، يتخبط داخلها الجمهور الأكبر بين «شعبولا» و«بابا أوبح» و«اللمبى»، ويخرج علينا شبابنا معلنين فى فرح حينا وفى حزن حينا آخر أن تلك (التعبيرات) المنتسبة للفن (تشبهنا) وتحاكى ما هو قائم فى حياتنا، ولولا البطالة والفراغ الثقافى لما وجدت تلك التعبيرات التى تبدو كظاهرة تعكس واقعا مترديا . وهو ما يتطلب منا العمل على إعادة النظر فى الدور الذى تلعبه مؤسساتنا الثقافية والتعليمية والسياسية، فالتجريب على الطريقة الغربية لم ولن يجعلنا عولميين فى زمن الكوكبية المزعومة، ومجاراة الذوق المتردى بحجة أنه قائم فى شوارعنا وحوارينا ، لن يدفعنا خطوة للأمام ، فالفن ليس محاكاة للواقع، ينقل ما هو قائم دون نقده، وهو أيضا ليس هروبا من هذا الواقع فى معميات ملتبسة المعنى، وكما تسعى الولايات المتحدة اليوم لترتيب أوضاع العالم، عالمها كما تود أن يكون، مطلوب منا أيضا أن نقف بموضوعية ودون أدنى حساسية من النقد، لنعمل على دراسة ما قدمناه حتى اليوم، علنا نعى إيجابياتنا فندعمها ونطورها، ونترك سلبياتنا، وهى سلبياتنا جميعا بلا استثناء ، لنتلافاها ونضع مكانها الجديد الواعى بقيمة الفن المتنور، وحاجة المجتمع إليه. ■



الرجـــل العنكبــوت وأمريكـا

بقلم
مصطفى درويش

أغرب ما عجبت له، عند انهيار البرجين التوأم فى مانهاتن، قبل عام من عمر الزمان (٩/١١)، هو جنوح نفر من نقادنا فى مصر الى الجزم بأن عجلة الانتاج فى هوليوود سوف تتوقف عن صنع أفلام حركة من نوع السوبرمان، الرجل الوطواط ويوم الاستقلال.



واللمبى ومصر..

فشجيع هذه الأفلام الذى يقف وحده صامدا فى مواجهة الاشرار، حتى يلحق بهم الهزيمة، قبل ظهور كلمة النهاية بثوان، ذلك الشجيع الوحيد نوعه، لم يعد يقنع أحدا، بعد انهيار البرجين العملاقين، خلال دقائق معدودات ، بفعل فئة قليلة من الإرهابيين.

وعلى مصنع الأحلام فى هوليوود، اذا كان لا يريد لبضاعته أن تبور، أن يغير من مفهومه للبطولة، بأن يكف عن الزعم.

أولا : بأن البطولة أمر ينفرد به الأمريكى دون غيره من البشر .

وثانيا : بأن إلحاق الهزيمة بقوى الشر، أمر يرتهن بإرادة وفعل البطل الفرد وحده، دون غيره من الأفراد والحق، أن منطق ذلك النفر من النقاد جاء مسكونا بالتبسيط المخل.

فانهيار البرجين المناطحين للسحاب، وإن كان يعد، ولاشك، حدثا جللا، إلا انه فى التقدير النهائى لا يعدو أن يكون حادثا على الطريق، سرعان ماتزال آثاره، دون أن تترك تأثيرا كبيرا على طبيعة نظام، ذى مؤسسات مستقرة، راسخة رسوخ الجبال.

فلقد مرت الأيام، بعد الانهيار، شهرا بعد شهر، حتى جاء صيف هذا العام

بأفلامه الدائر أغلبها حول الحركة والمغامرات والأساطير.

ربما وعادتها القديمة

فاذا بها ، ودون استثناء، تمجد البطولة الفردية، على الطريقة الهوليودية المألوفة في هذا النوع من الأفلام واذا ببعضها المتسم بالغلو في التمجيد للأبطال صانعي المعجزات، يحقق أعلى الايرادات.

فالأفلام الأولى في سباق الايرادات كانت الرجل العنكبوت، حرب النجوم «هجوم المستنسخين» وسيد الخواتم وتمجيدها للبطولات الفردية، أمر لا يختلف فيه اثنان.

هذا ، وقد جرى ترشيح ثالثهم، سيد الخواتم، لثلاث عشرة جائزة أوسكار، فاز، من بينها، بأربع جوائز وعلى كل، فقد كان الرجل العنكبوت أكثر الأفلام الثلاثة تمجيدا لهذا النوع من البطولات، ومحققا، في نفس الوقت أعلى الايرادات (أكثر من أربعمائة مليون دولار من العروض داخل الولايات المتحدة وحدها).

وعنده أقف قليلا، لا لسبب، سوى إنه يعبر بفضل موضوعه وبطله، أحسن تعبير عن الاتجاه السائد في السينما الأمريكية الآن.

القاعدة والاستثناء

بداية، الفيلم من إخراج «سام رايمو». ويؤدي الدور الرئيسي فيه، اي دور الرجل العنكبوت «توبي ماكجواير»، ذلك النجم الصاعد، الواعد، والسابق له أن امتعنا بأدائه الطبيعي، التلقائي في الرائعتين «بلزنت فيل» (المدينة الممتعة)، «ومنزل عصير التفاح».

ولم يعرف عنه أنه من نجوم أفلام الحركة، فلا أوجه شبه بينه وبين نجوم على شاكلة شوار زنجر ، ستالوني وفان دام.

فلا وجه قاس، صارم، خال من الابتسام ولا عضلات مفتولة، وعملقة في القوام.

«توبي» باختصار فتى عادي، مثله مثل أغلب من له نفس سنه من الشبان.

وبالتالي لا يمكن تصوره متقمصا شخصية بطل أسطوري، منتصرا بمفرده للاخيار ضد جحافل الأشرار.

اختيار فريد

ومع ذلك، وقع اختيار المخرج «رايمو» عليه، كي يتقمص تلك الشخصية في الرجل العنكبوت.

وأحداث الفيلم تبدأ به فتى عاديا «بيتر باركر» يعيش يتيما مع عمه الطيب القلب «بن باركر» ويؤدي دوره «كليف روبرتس» الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسي عن أدائه لدور «شارلي» المعوق في فيلم بنفس الاسم (١٩٦٨) وهو، أي «بيتر»، يدرس في أحد معاهد بنيويورك وفي أولى مشاهد الفيلم، نراه معجبا ، أو بمعنى أصح محبا، لجارته وزميلته في المعهد «ماري واطسن» ، وتؤدي دورها «كريستين دانست»، التي بهرتنا وهي صغيرة ، بتقمصها لشخصية مصاصة دماء في فيلم «حديث صحفي مع مصاص دماء».

ولكن هيامه بها، لا يثير انتباهها

ربما لأنه يفتقد أهم مقومات النجاح مع الفتيات الطموحات.. الثراء، العيون الجريئة، والعضلات.

اللدغة الحاسمة

أما كيف تحول من فتى عادى، غير مثير، الى بطل أسطورى، نصير الأبرياء الأخيار، ومنقذ نيويورك من الدمار، فذلك كان بفضل لدغة عنكبوت، من نوع فريد.

فبعدها، حدثت تحولات فى جسمه، انتهت به رجلا خارقا، ولا كل الرجال، بطلا تضرب بشجاعته الأمثال.

وفى مشهد يذكرنا بمأساة البرجين التوأم، ينقذ فتاة أحلامه، مع آخرين، من هلاك أكيد.

وكما سبق القول، فالرجل العنكبوت ليس استثناء انه القاعدة، وما قصرت الحديث عليه الا لأنه أولا لأن بطله، ولأول مرة، انسان أمريكى عادى غير مفتول العضلات، ومع ذلك صانع معجزات ثانيا لأن الايرادات التى حققها لم تحقق لأى فيلم آخر جرى عرضه خلال فصل الصيف، شأنه فى ذلك شأن اللمبى عندنا.

واذا كانت قد أثارت عجبى الكتابات التى تنبأت بحتمية قيام مصنع الأحلام بتغيير مساره، فقد أثارت عجبى اضعافا مضاعفة الهجمات الشرسة التى شنتها أقلام نفر من النقاد، مقت فيلم اللمبى مقتا شديدا، وود لوحيل بينه وبين أعين المتفرجين.

ضجة كبرى

وربما من طرائف الاشياء ان الفيلم كان يستقبل من الناس أحسن استقبال، وآية ذلك الاقبال منقطع النظير على مشاهدته، والرضا عنه كل الرضا، الى درجة الافتتان، ومشاهدة البعض له بدل المرة، مرات.

وفى نفس الوقت، كان يتعرض لنقد حاد، كاد ينحدر الى حد المطالبة بسحب الترخيص الرقابى له بالعرض العام، وحظر تصدير أية نسخة منه الى الخارج، حفاظا على سمعة البلاد.

وقد تجرعت، مندهشا، الحملة ضد اللمبى مثلما تجرعها غيرى.

ولأننى كنت على وشك السفر الى شمال ألمانيا، فقد أجلت مشاهدته الى حين عودتى الى مصر.

وما أن عدت، بعد أسبوعين، حتى وجدتنى محاصرا بنفس الحملة، وقد ازدادت ضراوة، بسبب استمرار الاقبال على مشاهدته، وسقوط الأفلام الأخرى المنافسة له سقوطا مروعا.

ووسط هذه الحملة وضجيجها الذى انحدر الى درك المطالبة بمعاقبة الرقباء من جرم الترخيص بعرض الفيلم المتهم، رأيت اللمبى مرتين، مع الجمهور، فى دار سينما كاملة العدد، تباع تذاكرها فى السوق السوداء.

الجمهور عايز كده

وفى كل مرة كنت ألاحظ تفاعل الجمهور مع أسلوب أداء محمد سعد نجم الفيلم.

أما لماذا وقع الجمهور فى حب اللمبى، وتفاعل مع تمقص سعد لشخصيته، وآثر فيلمه على كل أفلام

موسم الصيف، بما فى ذلك أفلام كل من هنيدي، والسقا وعادل إمام . فذلك أمر الاجابة عليه من الصعوبة بمكان، وليست من شأن النقاد. وإنما من شأن علماء النفس والاجتماع .

وفى اثناء الرؤية الثانية للفيلم لمحت فيه أبعادا لم ألمحها، وأنا أراه لأول مرة، ربما تأثرا بزعم بعض الأقلام المشهرة ضده، أنه فيلم تافه، وبعضها الأخر انه لا فيلم، ولا علاقة له بفن السينما لا من قريب، ولا من بعيد.

السخرية والهلامية

فاللمبي، والحق يقال، زاخر بدلالات، تجعل منه فيلما ساخرا بالماضي والحاضر معا .

والسخرية نلمسها بدءا من اللقطات الفاتحة له، حيث نرى اللمبي مترنحا، مرددا كلمتين «وكف الخلق» ويقصد بهما «وقف الخلق» مطلع قصيدة «مصر تتحدث عن نفسها» ، حيث يفاخر شاعر النيل «حافظ ابراهيم» الامم باسم مصر، قائلا «وقف الخلق جميعا ينظرون الى كيف ابني قواعد المجد وحدى».

فهذه اللقطات بقدر ماهى فاضحة لتدني مظهر اللمبي، وتردى قدراته الحسية.

بقدر ماهى معتزة، متفاخرة، بلسانه المتعثر، الفاشل فى محاكاة شدو أم كلثوم لقصيدة شاعر النيل بأمجادنا التي بنينا قواعدها نحن المصريين، على مر آلاف السنين.

وبطبيعة الحال، يفاجئنا الجمع فى شخص واحد، وتدني المظهر، وتدني القدرات بين هذين الضدين، ويدهشنا بغرابته، إلى حد انه يدفعنا الى التساؤل، كيف اجتمع فى شخص مثل اللمبي هذان الضدان.

وسرعان ما تزداد دهشتنا، عندما يقطع ضابط شرطة انيق، وكأنه قادم من كوكب آخر، الطريق على اللمبي، ويأمره باثبات هويته.

فاذا ما عجز عن تقديم البطاقة المثبتة له، واستفسر منه الضابط عن السبب ارجعه اللمبي، وبالعجب، الى خلو سرواله من جيب.

والأغرب، انه عندما أمره الضابط، بدون سند من القانون، بالابتعاد عن الطريق، مع الامتناع عن المرور فيها مستقبلا، أطاع، دون اعتراض.

وفى نفس الوقت تساءل مستهبلا، وكأنه يسخر من عبثية الضابط، هل الغى الطريق؟

اختلال عام

هكذا، بدأ الفيلم، وقد رسم شخصيته المحورية، وحدد ملامحها الاساسية، على نحو لابد وأن تخلص معه الى أن صاحبها لا يعدو أن يكون كتلة هلامية، مادتها عبارة عن مجموعة من المعاني المشوهة، تغلفها ألفاظ ينقصها الكثير من قواعد الربط والتسلسل المنطقي، بل ينقصها الكثير من أحكام التطابق بين اللفظ المنطوق والمعنى المقصود.

وهذا الاختلال، ومرده عيوب تشرب النفس عند التنشئة ، يبقى ملازما

اللمبي، طوال الفيلم.

فهو آبدا لا ينطق الا متهتها بكلمات عبيطة، مكسورة، مضروبة، معروجة، ملخبطة، مثلها في ذلك مثل طريقة مشيه، ومثل المحاور التي تتحرك عليها رقبته، ومثل نظرات عينيه الزائغة وقد يذهب الظن ببعضنا الى أن اللمبي ينفرد بهذا الاختلال في الياقة النفسية ولكن لا توجد شخصية في الفيلم، الا ولها من هذا الاختلال نصيب، بدءا من ضابط الشرطة، ومروا بنوسة (حلا شيحة) حبيبة اللمبي وزوجته في نهاية الفيلم. وباخ (حسن حسني) جاره عازف الكمان وصديقه وخطيب أمه، وانتهاء بفرنسا الأم وتؤدي دورها بجدارة (عبلة كامل).

انفلات السلوك

فهذه الأم، وهي ثاني أهم شخصية في الفيلم، علاقتها بابنها اللمبي تتسم بالانفلات والاضطراب فهي تخفي عنه اشياء، فمثلا تدعي الافلاس في حين انها في سبيلها الى أداء العمرة، وتدعي الزهد في الارتباط برجل في حين انها وعدت بالزواج «باخ» الجار وصاحب البيت، حيث تقيم.

إنها يقينا، ليست أما مثالية، تلك الأم المدرسة التي نادى بها شاعر النيل، وتغنى بفضائلها.

إنها على العكس من ذلك تماما، أم فهلوية، بشوشة، تلعب بالبيضة والحجر، تشع مشروعات فاشلة، مثل مشروع تأجير الدراجات في شرم الشيخ، ومشروع العربة المطعم لبيع الكبدة في القاهرة.

وليس أدل على انفلات سلوكها من ضوابط القيم الأساسية التي تراكمت على مر العصور، ليس أدل على ذلك، من المشهد الذي يحمل فيه اللمبي حقيبة كتبه على كتفه، مثل الاطفال، فنسمعها تقول له : قبل ذهابه الى فصل محو الأمية ، ناصحة .

«ساندوتشك أهم، وكتبك معاك، ومطوتك في جيبك، اللي يغش منك قطعه، غش انت!!» ثم تمنحه نقودا كي يشرب بها بيرة.

تعاطف لا ارشاد

وعلى غير عادة في أفلام الصيف نجح المخرج وائل إحسان، واللمبي اول فيلم روائي طويل له، مع كاتب السيناريو أحمد عبدالله في عرض شخصيات الفيلم بكل انفلاتها واضطرابها من منطلق التعاطف معها، وليس من منطلق التعالي والوعظ والارشاد، أخذين في الاعتبار تردي الأوضاع الاجتماعية على نحو كان لابد وأن يؤدي الى اختلالات الياقة في اللمبي وأمه والشخصيات الأخرى.

وختاما، لايفوتني أن أشير إلى مهارة المخرج الشاب في تقطيع اللقطات واختيار الزوايا وتحريك الممثلين ، وأن أشيد بأداء عبلة كامل لدور أم اللمبي على نحو أتاح لنا أن نضحك من القهر والشر وكلاهما، كما هو معروف، يضحك في بعض الأحيان.



منزل الجاسوس

بقلم : مختار العطار

...زمان .. أيام الفرنسي .. كانت ... القاهرة تشبه مونت كرلو .. ... كانت مهبطا للجواسيس ... من أنحاء العالم .. يحتمون ... من يسبغ عليهم حماية تركية ... أو للتخفي دون التعرض ... ويتقاضون مقابلا سخيا من ... التي ينتمي إليها هؤلاء الجواسيس.

... لم أقابل جاسوسا في حياتي ... سطور الروايات البوليسية ... استأجرت منزلا صغيرا في ... شارع الهرم في ترعة السمان ... لدي أدنى فكرة عن تلك القرى ... عن العمران - القريبة من قلب المدينة في نفس الوقت - لم يخطر في ذهني أنها أفضل الأماكن التي يلوذ بها هؤلاء الجواسيس بمجرد أن تترك الترام التي كان يصل إلى هناك في ذلك الزمان لا تكاد تنحرف إلى منحنى من يمين أو يسار، حتى يغمرك الغبار، وتجد نفسك تضرب في دروب قروية لا تختلف من مثيلاتها في الريف إلا ببعض الفيلات التي تطل واجهتها على شارع الهرم نفسه مما خلا ذلك لا ترى سوى بيوت الطين والدة .. والبهائم، و كانت البطالة الخيمة يقوم بها بائع الثلج والبيرة، كشيء مكمل لوجود الفيلات

وما كان أهل أي قرية يتعرفون

على بعضهم ولو بالشكل، فقد كنت أعرف سكان «نزلة السمان» حتى حين يركبون الترام معي من الجيزة . وكان بين من استلفتوا نظري رجل قصير، أبيض له لحية حمراء ويلبس طربوشا كنت أشاهده أحيانا يتطلع الى لاشئ من خلال نافذة الترام. وبعد استقراري في مسكني بالقرية رأيت معه سيدة في مثل قامته بيضاء بدورها بضة ترتدي فستانا أسود على الدوام ولاتضع على وجهها مساحيق للتجميل لكن ذلك لم يكن يخفي جمالها الرائع بل كان يزيدها سحرا، ويزيدني رغبة في تأملها كلما صادفتها مع زوجها حتى أن الدقائق التي كان يستغرقها الترام حينذاك تتحول الى دقيقة ، أقضيها في امتاع عيني بتقاطيعها المنمنمة، والغموض الذي يكحل عينيها ويثير في خيالي هواجس متضاربة تأملتني مرة في أول لقاء لنا في الترام ثم مضت الشهور بعد ذلك وكأنها



لاتلاحظ وجودي أما زوجها فقد حدجني بنظرة فاحصة ثم أهملني بدوره إهمالا. ولم يكن لي مأرب - عندهما على أي حال سوى أن يبقى الباب الذي يفصل بيننا في الترام مفتوحا فقد كانا يفضلان الدرجة الأولى والواقع أنهما لم يحاولا مرة واحدة أن يغلقاه أو يفتحاه اذا أغلقه الكمساري من خلفه وكانا لايتحركان أو يتحدثان في الترام، بل يجلسان كتمثالين حتى يهبطا معي الى الطريق المترب بجوار ملعب الجولف .

.. على مر العامين الذين قضيتهما في ريع القرية، فكرت فيما يسكت الزوج على اصراري على تفرس زوجته الفاتنة لكني عزوت ذلك الى أنني فتى قوي لاقبل له بي . أو لأنه أوسع مني أفقا ويراني تافها بالنسبة إليه وحين علمت أنه أستاذ في الجامعة، خيل الى أنه لا يبغي الاهتمام بمسائل، تلهيه عن أبحاثه ومحاضراته .

كان بريطاني الجنسية أشهر اسلامه وأسمى نفسه «أبو بكر» سمعته مرة يلقي بالتحية لبعض الأعراب في القرية فأدهشني أنه يتحدث بالعربية الفصحى وأنبأني البستاني الذي يرعى حديقتي أن الشيخ أبا بكر لايتحدث إلا بها . ولقد أضاف القرويون إلى اسمه لقب «شيخ» لأنه يختلف الى الجامع في أيام الجمعة فيتوضأ معهم في الميضة فيصلي ركعتين تحية المسجد .. ثم لايترك مسبحته حتى تقام الصلاة .

علمت فيما بعد أن أهل القرية كانوا يلتمسون عنده البركة فيقبلون يده ويطلبون منه الوساطة عند الله . وكان من ناحيته لايدخروسعا في الدعاء لهم وطمأنتهم

وذات يوم بينما كنا عائدين من أعمالنا ظهرا هبط من الترام قبلنا جميعا وفيما يسرع كعادته فى الطريق المترب شاهد شحاذا يجلس فى ظل سور الملعب فأخرج قرشا وضعه فى اليد الممدودة، وسمعت السائرين من حولى يمجدون أريحية الرجل الطيب، الذى عشق أرضنا ودان بديننا ثم لاحظت أن الاحسان عادة فيه كلما صادف وغادرنا الترام سويا.

لم تشغل بالى حياة الشيخ أبى بكر بنوع خاص وكل ما عرفته عنه كان بطريق الصدفة أو أن يقص على الخادم أو البستانى شيئا من كراماته. حتى أقبل يوم ظننت فيه أننى اكتشفت منزله فقد استيقظت مبكرا فى شم النسيم، ودعوت صديقا لمشاهدة رأس أبى الهول فى الفجر، وكيف يبدو جليلا حين تسقط عليه أشعة الشمس فى لحظة الشروق وفى عودتنا من فوق الهضاب والرمال سلكنا طريقا تختلف عن تلك التى ذهبنا منها. فطالعنا بين الرمال بناء صغيرا جميلا تصميماته وزخارفه غربية خالصة يتفرد كالواحة الفيحاء بين الرمال الضارية فى أنحاء الجبل تحوطه حديقة مزهرة يسهل عليك أن تخطو فوق سياجها والبيت من الرقة بحيث يخيل اليك أن بابه لايحتمل دفعة حتى ينفتح على مصراعيه وأنبأنى صديقى وكان طالبا فى الجامعة أن الشيخ ابا بكر هو الذى يقطن هذا العش فسألت خادما أسمر كان يجلس أمام الباب إن كان السيد موجود فأجاب بالنفى فمضيت يومها تأكلنى الرغبة فى أن استطلع حياة الرجل الغريب عن



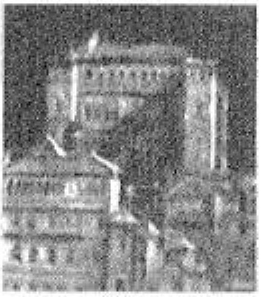
كثب لكننى علمت فيما بعد أن المكان ملك لمصلحة الآثار وأن الشيخ يتخذه معملا للأبحاث التاريخية .

... رغم اهتمامى الذى تزايد على مر الشهور بالانجليزى الذى يلبس الطربوش ويطلق لحيته ويتحدث العربية الفصحى، فشلت كل محاولاتى للتقرب اليه حتى أحسست أننى أغازله كلما سألته عن الساعة أو طارحته تعليقا أثناء ركوبنا الترام كان يقتضب الحديث آنذاك ويسرع بالتطلع من النافذة شأن الفتيات الصغيرات ولما ثرثرت مع أصدقائى من المثقفين والأثرياء فى القرية علمت أن حالهم يشابه حالى واتفقوا فى أن الرجل يخشى على زوجته الحلوة الصبية من رجولة المصريين وخفة دمهم وقدرتهم على اجتذاب النساء الاجنبيات بنوع خاص . الا أن الرجل كان يخالط عامة القوم فالأعراب أصدقاؤه

والبقالون وصغار التجار والمزارعون بوجه عام . لكنه في علاقته معهم لم يستضفهم في منزله مرة واحدة كان يسلم أذنيه ولايجيب عليهم الا بابتسامات وديعة كابتسامات الطفل .

بعد عامين غادرت القرية الى القاهرة إذ تزوجت ولم تعد نزلة السمان تصلح مقرا لعروس تعيش وحدها طوال انشغالي بعملي .

حدث ذلك قبل الثورة بسنتين وبضعة شهور وكان التمرد يسود البلاد العربية ومصر خاصة بعد ان عاد جيشنا من فلسطين وقد خدعه الملك وعصابته وأسلموه للخيانة دون أسلحة تصلح للقتال واستثارت الروح الوطنية بين طلبة الجامعة حتى تلاحقت الاضطرابات والمظاهرات وفيما أتصفح جريدة ذات صباح علمت أن الحكومة قد استغنت عن خدمات الشيخ أبي بكر، بعد أن افتضح امره بين الطلبة وصار ابعاده مطلبا جماعيا ولما كان لي أصدقاء بين هؤلاء الطلبة استوضحت منهم أمر الشيخ فاخبروني أنه جاسوس ودارت مناقشة طويلة بيننا كشفوا خلالها عن قرائن وادلة استقوها من المحاضرات التي كان يلقيها، والجدال الذي كان ينشب بينه وبين النابهين منهم. ومع أنني لم أفهم كثيرا من حديثهم الطويل، الا أنني راجعت في ذاكرتي كل حركة وسكنة لاحظتها ابان اقامتي معه في قرية واحدة واتضحت في ذهني تفسيرات لعلامات الاستفهام التي حيرتني طوال العامين ابتعاده عن المثقفين وانعزاله ولبس الطربوش واطلاق اللحية على الطريقة التي تخيلها هو عن حياة المصريين ثم



ضاع اهتمامي بالأمر بين طيات الحياة اليومية وأسرعت الشهور من جديد تمحو آثاره من ذاكرتي .

.. وذات يوم أقبل أخي من الريف يبحث عن مسكن في القاهرة وكانت الايجارات آنذاك مرتفعة حتى أن الانسان ليحصل على غرفتين ضيقتين تستنزفان نصف مرتبه فاقترحت على شقيقي وزوجته وأولاده أن يشاركوني وزوجتي منزلا فسيحا جميلا، يمكن تيسيره بأجر زهيد في قرية نزلة السمان حيث كنت أعيش وأنا أعزب وراقت الفكرة لنا. فشددنا الرحال لنزور صاحب مسكني القديم وسألناه أن - كان يملك من منازل مسكناً يتسع لنا. فاعتذر ونصحنا أن نتفرج على البيت العظيم الذي كان يقطنه الشيخ أبو بكر ثم ظل خاليا قرابة العام، ولاشك في أن صاحبه سيرضى بأجر بسيط لايجاوز السبعة جنيهات واشتعلت

الرغبة فى نفوسنا ورجوناه أن يفعل قبل أن تضيع الفرصة وفى اليوم التالى بكرنا فى الذهاب الى القرية .

لم تكن أرضها ممهدة، ومنازلها وطرقاتها لم تكن على مستوى واحد فبعضها عال وبعضها منخفض وعلى ربوة فى وسط البيوت داخل القرية، كان المنزل المقصود . أمامه ميدان يشبه الهضبة تنحدر من حوله السبل والمنزل يحوطه سور يبلغ ارتفاعه قامة الرجل مرتين وفى منتصفه باب من الخشب السميك، عريض بارتفاع السور، مطلى بلون زيتى داكن ومكتوب عليه من أعلا وبالخط الثلث «لا اله الا الله».

الواقع أن السور، والباب الهائل بلونه القاتم، دفعا بالاكتئاب الى صدورنا لكن الايجار كان مغريا للغاية فنادينا الخفير يفتح الباب، وكان أن طالعتنا حديقة فسيحة الأرجاء تسمق فيها أشجار عملاقة ونخيل .



الى جوار شجيرات عديدة تفصل بينها أحواض الخضر والأزهار إلا أن - الاهمال كان يضرب خمارا رماديا على كل شئ؛ فالاحواض تضيق فواصلها والأتربة تغمر المزروعات والجفاف يضرب الأرض فى قسوة فيشقها فى كل خطوة الا أن المانجو والبرقوق والخوخ، كانت لاتزال عالقة بالأشجار والتكعيبة التى تصنع ممرا بين الباب الهائل ومدخل الدار، كانت مرصعة بقطوف العنب المتوهج كالنبيذ فى أضواء الشمس

مضينا ندوس الاوراق الجافة وقد تحول الأمر فى أنظارنا الى رحلة فى بلاد عجيبة وحين صعدنا درجات السلم الخشبى المفضى الى المنزل، استقبلتنا شرفة خشبية طويلة عريضة تسمح لك بأن تركب دراجة وتسرع فى إرجائها . وكانت الشرفة، شأن الحديقة والبيت بطابقيه، قديمة متهالكة، يسقط الطلاء الأخضر القاتم عن أعمدتها التى تسند أختها فى الدور العلوى .

دلفنا بعد ذلك الى البهو الفسيح، المهيأ بالبلاط المعصرانى المتآكل وتناثرت الغرف عن يميننا وشمالنا أبوابها مطلية باللون الكئيب مكتوب عليها آيات قرآنية تصلح لاستراحات المقابر، مثل «إنا لله وإنا اليه راجعون» أو يا أيتها النفس المطمئنة كلما دخلنا غرفة طالعتنا الآيات خلف الأبواب أيضا .. ثم تستمر فى اعلان الجداول فى إطار يدور حول السقف، بالطريقة التى تلاحظها فى المساجد .

داخلت الرهبة قلب زوجتى وزوجة شقيقى

ويكى الأطفال الا أن الخفير قاد خطواتنا فى ذلك التيه وظل طوال الوقت يقص علينا نوادر عن طيبة الشيخ أبى بكر وتنسكه وانصرافه للعبادة فى جوف الليل وأنه كان يعيش مع زوجته دون بنت أو ولد أو خدم يقومون على راحتهما فى الطابق العلوى فقد اقتصر عمل الخفير وزوجته على رعاية السلاملك واعداد الطعام فى احدى حجراته، يصعدان به الى غرفة بابها على السلم، يضعانه على المنضدة ثم يعودان كلاهما أو أحدهما ليرفع بقاياه! ولم يحدث أن شاهد الخفير باقى الدور العلوى طوال السنين التى عاشها مع الساكن الناسك وكان يعيش مع أسرته فى حجرتين فى الحديقة بجوار الباب الهائل الذى نفذنا منه أول مادخلنا.

ومن ثم صعدنا الى الطابق الثانى.

وكان درج خشبى يصعد من وسط البهو



الأرضى حتى يبلغه، ثم يستمر فى تصعيده حتى يفضى الى السطح، مضينا نشب على الدراجات الخشبية المتوجعة تحت أقدامنا وخشينا أن نتكئ على السياج فيتهاوى تحت أيدينا. اذ كان بادى القدم، مقشورا فى أكثر من مكان وكنا كنت أستشعر أنفاس الشيخ أبى بكر تختلط بأنفاسنا وتصورت أن خياله يطوف معنا بالبيت مسترجعا ما كان يجرى بين أرجائه، وتمنيت أن أسأله عن ذكرياتى عن آلات الاستقبال والارسال اللاسلكى عن التقارير التى سهر طوال الليالى يفحصها ويبحثها ويصوغها فى رسالة واحدة مكتوبة بالشفرة، يضمنها تفسيراته واقتراحاته عن أسماء أولئك الخونة الذين كانوا يمدونه بمعلوماتهم مهما كانت تافهة وتساءلت، ترى ما الذى كان يسعى لمعرفته جاسوس مثل الشيخ أبى بكر؟ ثم التمعت فى مخيلتى طلعة زوجته الحلوة الفاتنة التى تشبه العذراء فى الصور المقدسة بادية الطهارة والرقة ترى أى شيطان كان يتقمص روحها ابان الليل؟ .. الليل.. الذى يخفى كل شئ .. حتى الحقيقة! ثم الخفير وزوجته وباقى الأعراب وايمانهم الراسخ بالشيخ المبروك لو أنه مات قبل أن يفتضح أمره، ربما أقاموا له ضريحا ينافس ضريح «الشيخ السمان» وأقيمت الموالد من حوله وعقدت الزيجات فى ذكراه مستجلبة بركته وشفاعته..

.. صعدنا الى الدور العلوى وكانت غرفه أشد منطقة للعجب فنوافذها مربعات صغيرة فى أعلا الجدران عند

السقف تسدها بالطول وبالعرض قضبان حديدية تتقاطع فى عقد كبيرة بنظام نوافذ المساجد والآيات القرآنية تنتظم الجدران أيضا وخلف الأبواب واللون الحزين يكسو كل شئ ويخلع على الحجرات رداء تعساء مما خيل الىّ أن غرف الاعدام بالسجين لابد وأن تكون على تلك الهيئة الموحشة وتساءلت مرة أخرى، ترى لماذا يفعل ذلك بحجراته التى لايرتادها أحد غير زوجته؟ربما لكى يسمح للخفير بمشاهدتها مرة واحدة يتركه بعدها ليمضى بالسيرة فى أنحاء القرية، متخذا منها دليلا على قداسة الشيخ فالرأى العام لو آمن بأكذوبة تحولت الى حقيقة على مر الزمن .

.. وقطعنا البهو العلوى فبلغنا الشرفة الطويلة العريضة مرة أخرى لكنها كانت أبدع وأجل من زميلتها فى أرض الحديقة، يسورها الياسمين البلدى وفروع



الجهنمية تصنع منها عشا كبيرا مبهجا ملهما بالافكار الحلوة الانسانية الا أن شيطانين كانا يطلان منها فى الليالى المقمرة يفكران فى أفضل الوسائل لتسديد طعنة محكمة الى الشعب البسيط الكريم، الذى أحبهما وافسح لهما هذا المكان الرائع فى أحضانه.

.. ربما أحس المستعمرون بأن جذوة الحرية المقدسة تضطرم فى صدر أبى الهول الهادئ وتنسموا روائح الدخان تنبئ باقتراب اندلاع النار على ضفاف النيل بعد شهور وطمعوا أن تغفل عين الثورة عن أبى بكر وزوجته فبقيا فى وكرهما كالجرثومة الخبيثة فى الجسد الالهى.

ظل الخفير يثرثر بحكايات الشيخ الطاهر وأساطيره وروى عن طيبته وبركته وحبه للناس مائة قصة وقصة .

.. ومع أن البيت كان زهيد الأجر، فسيح الأرجاء، تترامى من حوله حديقة تغل فاكهة وثمرا وخضرا ومع أن برجين للحمام كانا يرتفعان فى آخر البستان، وحجرات تتخلل الأسوار بعضها مخصص للدواجن وبعضها للمدخر من الحبوب والغذاء فضلا عن غرفة واسعة مهيأة كيما تصلح فرنا للخبيز ... مع كل ذلك أحسست بشئ دنس يطوف بالمكان برفقته وشممت رائحة الغدر والتربص تفوح من كل طوبة وكل شجيرة فرفضت استئجاره .

وعلمت بعد ذلك أنه سيهدم ليقام مكانه منزل نظيف جديد .. قد أفكر فى سكناه...

قراءة جديدة في عمل قديم



الأفيال لفتحي غانم

والنبوءة المبكرة لأحداث ١١ سبتمبر

بقلم
د. فهمي عبد السلام

«إن ما تفقده في ملكوت الله سنعوضك عنه لكن ما تفقده في عالم البشر فالويل لك من عالم البشر».

صدرت «الأفيال» رائعة فتحي غانم عن دار روز اليوسف عام ١٩٨١، وقد استلهم كاتبنا الكبير العمل الهام والجميل عن واقعة حقيقية اهتز لها المجتمع المصري آنذاك، وهي إغتيال الشيخ الذهبي عام ١٩٧٨ بأيدي جماعة التكفير والهجرة. وتأتي أهمية الرواية من كونها صيحة تحذير مبكر من خطورة هذه الجماعات. والرواية تتضمن إدانة للغباء السياسي والبراجماتية القصيرة النظر التي تعالج بها الأنظمة السياسية أزماتها، فالعمل يظهر أن جماعات العنف السياسي كانت صناعة السلطة آنذاك، كي تستخدمها في ضرب خصوم النظام من الناصريين والشيوعيين.

وما حذر منه فتحي غانم تحقق بشكل فاجع مأساوي، إذا انقلب السحر على الساحر، والمارد الذي أخرجته السلطة وشجعته

على أن يتوحش، سرعان ما انقلب عليها، وكان العقاب سريعاً ومن جنس العمل، وتجلى العقاب في حادث المنصة الرهيب، وبعدها شهدت مصر ما يشبه الحرب الأهلية بين الدولة وبين الجماعات، وأريقت الدماء البريئة، ولم تتوقف النيران إذ سرعان ما امتدت إلى دول الجوار، ويكفي ما جرى على أرض الجزائر من مذابح رهيبة.

وعندما قام الاتحاد السوفييتي بغزو أفغانستان، إذا بالولايات المتحدة الأمريكية ترتكب الحماقة نفسها، فقد استعانت بالجهاد الإسلامي «لجهاد «الإلحاد الروسي» في أفغانستان، وخرج الاتحاد السوفييتي من أفغانستان مثخناً بالجراح، وكالعادة سرعان ما انتهى شهر العسل بين حلفاء الأمس، فأعلنت الجماعات حربها المقدسة ضد الولايات المتحدة، وكما عاقبت الجماعات السادات بحادث المنصة، عاقبت الجماعات في ١١ سبتمبر بمنصة جديدة، منصة هائلة تليق بالمقام الأمريكي، وكان التنفيذ المذهل يليق بالمنفذين الذين تلقوا تدريباتهم في الـ CIA . في رواية الأفيال حذر فتحي غانم من اللعب بالنار، ورأى بعين الفنان خطورة هذه التركيبة المدهشة من البشر المغسولة أدمغتهم بأشياء عجيبة شاذة، وحتى يتخيل القارئ الكريم بشاعة المسألة، لازلنا نذكر ذلك الشاب المتفون الذي حاول قتل أديبنا الكبير نجيب محفوظ حفظه الله من كل سوء، إنه لم يقرأ الرواية، وأن نجيب محفوظ نجا ولم يمت، لأنه نسي أن يسمي باسم الله وهو يذبح شيخنا الجليل. هذا هو الفكر الذي أتاحت له سلطات ذلك الزمان أن ينمو وأن يتوحش، الأمر الذي رصده فتحي غانم منذ الطعنة الأولى، ومن الروح الأولى التي تم قتلها وإزهاقها بسبب الغباء السياسي، وها هو الغباء السياسي يتكرر، وها هي منصة جديدة يتم ارتكابها، وها هي الأموال تنهال على شعوب بأسرها.

***

وتتجلى قدرة فتحي غانم الروائية المذهلة في البناء العظيم لرواية الأفيال، وفي قدرة فتحي غانم على التركيب في الشخصيات والأزمنة والتداعيات والفلاش باك وتحريك الشخصيات والأحداث. فالعمل يمتلأ بالشخصيات الروائية التي تتقاطع كلها في شخصية الرواية المحورية «يوسف منصور». والأحداث كلها تفضي إلى الحدث الأساسي في الرواية، وهو اغتيال د. عبدالفتاح أبوالفضل بخناجر جماعة التقوى والتقية، فالمتهم الثاني في القضية هو حسن يوسف منصور الابن الأوحد ليوسف منصور، وفي محكمة الجنايات تلقى القاتل الغلام ابن السابعة عشرة من عمره الحكم بثبات وقال لأبيه «المؤبد أحب إلى نفسي مما تدعونني إليه».

الأحداث تبدأ بيوسف منصور منهاراً ضائعاً، كل المصائب تهون إلا مصيبة

حسن، وعندما يرى صديقه المليونير أن يوسف لا يستطيع أن يستأنف الحياة ، يدبر له مراد حسنين رحلة إلى منتجع س . د السياحى الخيالى، يذهب يوسف كى ينسى الماضى كله، فالمنتجع مقطوع الصلات بالدنيا، فلا تليفونات ولا إذاعة ولا تليفزيون، حتى مكان المنتجع مجهول للنزلاء، ويذهب يوسف كى يستريح من كل ماضيه، كى ينسى أنه زوج فاشل، ومؤلف تليفزيونى فاشل، وأن حسن وحيده قد ضاع. قبل ضياع حسن كان البيت قد تحول إلى جحيم، وكان حسن يشاهد أمه زينب وأبوه يتصارعات ويتشاتمان، واستيقظ حسن وهو فى الثانية عشرة من عمره على أمه واقفة تصرخ وهى هائشة الشعر وتمسك بسكين المطبخ والأب يقف يصرخ فيها قائلاً عايزة تقتلينى يا مجنونة. كان حسن قبلها قد بدأ التدين، وبدأ يوجه الاتهامات لأمه ولأبيه فى وقاحة فالصور المعلقة على الجدران كفر، والأم التى تعمل فى فندق برستيج كافرة، والأب الـــذى لا يصلى كافر.

دخل يوسف في مناقشات مع حسن فيقول لابنه:

«بأى حق تحكم على أمك التى ولدتك وعلى أبيك الذى أنجبك بالكفر.. ومن الذى يقوم بالحساب قبل يوم الحساب.

أنت تطلق الأحكام وتميز نفسك، وإبليس وحده الذى طلب التميز فناله وخرج من رحمة الله .

كان حسن لا يستطيع أن يرد فينهى المناقشة قائلاً هذه الأسئلة من وسوسة الشيطان.

ذهب يوسف ينسى الليلة الأليمة التى خرج فيها حسن، ولم يظهر بعدها إلا فى محكمة الجنايات، كانت ليلة عيد الأضحى حينما عاد يوسف حاملا علبة الحلوى ليجد زينب قد أغلقت باب الحجرة على نفسها، كان حسن قد اتهمها بالكفر لأنها متبرجة وعندما حاولت أن تنهره ازداد تطاولاً عليها وقال لها «لست قليل الأدب.. التبرج هو قلة الأدب» حاولت أن تصفعه فأمسك حسن بيدها بقوة. وقالت زينب ليوسف أنت أبوه وفى هذه السن أنت المسئول عن تربيته.

وانفجر بركان الغضب فى صدر يوسف، فضرب حسن، وانهال بالصفعات والركلات والولد يتحاشى الضربات، قال له حسن اخرج من بيتى، تحداه حسن وقال هذا بيتى ولن أخرج منه، وخرج حسن بالبيجامة والشبشب. وجلس يوسف يلهث. استطاع أن يفرض إرادته فى هذا البيت. وعاقب زينب التى تهينه وتذله بطرد ابنها، وأثبت لها أنه قادر على اتخاذ القرارات الحازمة، وأن زينب فهمت إذا كان يستطيع أن يطرد ابنه كما فعل، فهو قادر على أن يطلقها وأن يطردها. وعند الفجر أفاق يوسف من أوهام القوة وانتصاره على زينب وهاجس قلبى يؤكد له أن حسن قد ضاع. وكان التناقض فى ذروته، بين المصلين وهم يحتفلون بالعيد وتكبيرات العيد

الجميلة تصل إليه، وبين الحزن الكبير الذى يملأ بيته. راح يوسف يطمئن نفسه قبل أن يطمئن زينب أن حسن لا شك قد ذهب إلي عمته كريمة وأنها بعد ساعات ستتصل بهم كي يعود حسن، ومرت الساعات ولم تتصل كريمة، وبوجه متنمر قالت زينب لا تعد إلا وحسن معك.

ذهب يوسف إلى كريمة فى مصر الجديدة. ولم يجد حسن عندها وقالت له كريمة أنه سيعود ولا شك وأنه زهق من مشاجراتهما، ومن يأسه فى مصالحتهما. كانت كريمة تتحدث فى عصبية وهى تبتسم، إنها تلومه أنه جاء يفسد عليها العيد، بيته خراب أما بيتها فقد استعد للعيد وانتظروه، حولها أولادها ومع زوجها وأمامهم الملبس والشيكولاته وحديث كامل زوجها عن خوف حمادة من أكل اللحم المسلوق على الإفطار لانه رأى ذبح الخروف، وسلوى تصرخ فى أذن يوسف أنها ستاكل اللحم كله. واستسلم يوسف للتفاؤل الذى فرضته عليه كريمة وزوجها والأولاد، انهم يدافعون عن عيدهم. ولم يكن لديهم أى رغبة أو استعداد للتورط فيما يعكر عليهم فرحة العيد. وكان على يوسف أن يكتم الصراخ والأنين الذى يتمنى لو استطاع أن يخرجه من صدره.

ذهب يوسف إلى مبنى التليفزيون، كى يساعده أحد فى العثور على حسن. ولم يجد أحداً يستمع إليه. الكل مشغول بنفسه فحكاية خروج حسن لا تثير إنزعاج أحد. كان البعض يتركه يروى حكايته وهو لا يستمع أو يقاطعه ليروى له خبراً أو نكتة. وقف يوسف معهم فى غرفة الكونترول بالاستوديو وخمس شاشات متراصة تجمد مشهد الممثلة الكوميدية «بطة» وهى تخرج لسانها، والمشرف العام على الأفلام يهرش رأسه ويعبر عن عدم ارتياحه لإخراج اللسان. إنه يخشى أن يكون التعبير بذيئاً. أيقطع المشهد!؟. أيحذف الصوت!؟. والتعليقات لا تنتهى. وبطة تختفى وتعود إلى الشاشة، ولم يستمع صفوت مخرج الأفلام إلى يوسف إلا بعد ساعة كاملة. وعاد يوسف إلى البيت، لم يجد زينب. لقد اختفت هى الأخرى. لا أكل ولا شراب فى البيت المهجور. لا لحم مسلوق أو مشوى وأضحية هذا العيد لحمها لا يؤكل. فجر هذا اليوم ضحى يوسف بابنه. وعندما أطل يوسف من النافذة لعله يرى حسن عائدا. وجد أن الشارع ممتلىء بالأولاد. ضجيجهم مرتفع. صراخ وبالونات وبمب. أصوات تملأ الشارع والكون إلا صوت حسن.

★★★

... لم تكن كارثة ضياع حسن إلا ذروة لسلسلة من المآسي التى ألمت بيوسف منصور، إنها لعنة المصير الذى كتب عليه وعلى طبقة كاملة بالإبادة. فيوسف منصور هو آخر سلالة الطبقة الارستقراطية المصرية، فالأب هو منصور بك الذى تعلم فى فيكتوريا كولدج، وفى أكسفورد، وفى جاردن سيتى بنى الأب منصور ڤيلا رائعة بأبراج كأنها القلعة، بناها مهندس إيطالى صديق. كان منصور بك يفتخر بأنها الڤيلا

الوحيدة المقامة على طراز الباروك، وعندما سأله يوسف عن معنى الباروك أجاب الأب بأنها كلمة برتغالية تعنى اللؤلؤة الكبيرة.

كان يوسف يقضى الصيف فى سرايا سالم باشا جد يوسف، وكان الباشا المهيب يحول السجاجيد الحمراء إلى أنهار وأحراش وجبال. كان قائداً بحرياً حارب فى ثلاث قارات تحت امرة إسماعيل باشا وسعيد باشا، كان يحكى أمجاده للحفيد يوسف على السجادة، هنا حاربنا فى المكسيك، وهنا حاصرنا الأعداء فى جبال اليونان، هكذا قاتلنا فى أحراش الحبشة.

وعندما حدثت الثورة العرابية، وطلب توفيق الخائن حماية الإنجليز، وانضم سالم باشا إلى الخديو وبعد هزيمة عرابى. كافأ الخديو رجاله الذين وقفوا معه، فمنح سالم باشا إقطاعية كبيرة بأرض البحيرة، هذه الثروة الملوثة بالخيانة كانت بمثابة لعنة حاقت بسلالة الباشا.

بدأت اللعنة بوفاة منصور بك المفاجئة، وبعدها بقليل لحق سالم باشا بالابن، فقام أعمام يوسف بالاستيلاء على التركة. والوصية التى تركها الباشا لحفيديه وأرملة ابنه، أنكرها الأعمام ولم يعترفوا بها، وعرف يوسف الحقد الأسود ينهش صدره الصغير وهو يرى أمه كوثر هانم تقف ذليلة عاجزة أمام جبروت الأعمام. فلجأت إلى شيخ الأزهر الشيخ عبدالسلام صبرى جارهم فى الشارع كى يتولى لها قضية الميراث.

... والمصير هو كلمة مرادفة للقضاء والقدر، والقدر عند فتحى غانم أشبه بالخيط غير المنظور الذى يغزل المأساة ، فالقدر أن الحرب العالمية الثانية كانت تدور رحاها، وهذه الحرب منعت لطيف بك صبرى من مغادرة البلاد للعمل كسفير مفوض خارج مصر، فمكث لطيف صبرى شقيق شيخ الأزهر عبدالسلام صبرى فى الخارجية بالقاهرة، تعهد الشيخ عبدالسلام إلى شقيقه لطيف صبرى بأن يتابع قضية ميراث أرملة منصور بك جارهم، لا سيما أن لطيف صبرى كان صديقاً حميما لمنصور بك.

وشعر المراهق يوسف بكراهية وبالنفور من اقتحام لطيف صبرى لحياتهم، ولظهوره الكثير فى اللؤلؤة ومن الأحاديث التى تدور بين لطيف وبين الأم، ومن الانتقادات التى كانت كوثر هانم توجهها إلى سلوك المرحوم لو كان يعلم أن النقود التى كان يبددها بهذا الشكل، سوف نحتاج إليها هذا الاحتياج الآن.. فيرد لطيف بك بالدعابات الارستقراطية فيقول :

«هناك مثل يونانى يقول إن من عدم اللياقة أن يعطى الابن ظهره لأبيه. لقد أخطأ منصور بك كجنتلمان عندما مات وأعطى ظهره لسالم باشا».

شعر يوسف بالمرارة وهو يرى أمه تبتسم للدعابة التى تنال من الأب الغائب .

وذات صباح تسلم يوسف خطاباً باسمه، وشعر يوسف بالسعادة وكان فى

الرابعة عشرة من عمره، أن يصله أول خطاب باسمه، أول خطاب يعترف بكينونته، ولم يكن فى الخطاب سوى قصاصة ورقية مكتوب عليها سطر واحد ، ظل هذا السطر يعذب يوسف إلى آخر حياته. «أمك كوثر هانم على علاقة آثمة بلطيف صبرى. الذى يتسلل كل ليلة كى يضاجعها على سرير والدك».

ستظل هذه القصاصة التى حملت توقيع جماعة اليد السوداء تلعب دوراً مشئوماً فى حياة يوسف، تلك الكلمات ستحطم يوسف وستورد حياته موارد التهلكة حمل يوسف القصاصة ونيران الغضب تحرقه، مشتتا بين رغبتين الاولى أن يمد يده كى يقتل أمه، وأن يغسل عاره، وفى الوقت نفسه يتمنى أن يهرع إلى صدرها باكياً لائذا بها أن تحميه من الدناءة والسفالة التى تتهدده وتترصده.

ولم يمد يوسف يده إلى أمه، ولم يهرع إلى صدرها، لقد قدم لها الورقة، وفى اليوم التالى اقتحم يوسف مكتب لطيف بك فى الخارجية، وانقض يوسف على عنق عشيق الأم، واجتمع الشيخ عبدالسلام بيوسف وقال له أمك سيدة فاضلة، وكاتب هذه الورقة مجرم ولا يريد إلا الفضيحة، والورقة كلها أكاذيب وافتراء، وحتى تقطع ألسنة السوء سيتزوج لطيف من والدك، وأذعن يوسف وهو يتمنى أن تنهال الصواعق تحرق هذه الدنيا البشعة، ورأى العالم كمخلوق بشع، وفى الوقت الذى خرج حسن متمرداً على يوسف وزينب، وفى الوقت الذى كان يوسف يشعر بالحزن الكثيف. على ضياع حسن، شعر يوسف فى وقت من الأوقات بالراحة لسلوك حسن، فقد تمرد حسن وعجز يوسف المراهق عن التمرد، وعاش يوسف بهذا العجز طيلة حياته، وهذا العجز الذى خرب العلاقة بين يوسف وزينب.

***

عندما تزوج يوسف من زينب ، كانت زينب الحادة الطباع ابنة الطبقات الشعبية تحب يوسف، وعندما اقتربت منه وجدته عاجزاً عن تبادل عاطفة حارة مفتوحة، اكتشفت زينب أنها حيال شخص غير حقيقى، شخص يحصن نفسه خلف الكلمات والمجاملات، تتدفق عواطفها فتتدفق كلماته، اكتشف أن كل همه هو أن يكسب العلاقة بالكلمات، كان هذا أهم عند يوسف من أن يتورط فى العلاقة فيتعرى أمامها، لقد لجأ يوسف إليها كملجأ وهو يحتفظ بالسر، يحتفظ بالخيبة داخل نفسه، لو بادلها المشاعر الحقيقية سيعرى نفسه وسيفضح أعماقه، وسترى حجم الهزيمة التى حاقت به عندما تحولت أمه من كوثر منصور إلى كوثر صبرى. سترى سبب عدم اكمال تعليمه الجامعى، وستعلم أنه كان يعاقب أمه بالرسوب فى الامتحان، يتشفى فيها عندما يرى دموعها وهو يرسب، إنه يقدم هدية الزواج لأمه بالرسوب، بعد زواج الأم قامت حوله هوة هائلة تفصل بينه وبين كل البشر، تفصل روحه عن أى روح أخرى، إنه محاصر بالفراغ الذى تعود عليه منذ زواج كوثر هانم، فراغ لم يدخله صديق ولا حبيب.

كرهته زينب الحادة الطباع وأحالت حياته إلى جحيم. ولم تفهم أنه ضحية عجزه، تقول له:

- انت خدعتني بانك مثقف وأنك كاتب.. أنت مجرد تاجر، تاجر كلمات، سيناريوهاتك باردة لا روح فيها، مسروقة من ملفات تحقيقات إدارة التربية والتعليم.

لم تدر زينب الثمن الذى دفعه من كرامته واحترامه لنفسه حتى يفرض اسمه فى عالم التأليف التليفزيونى، أراق ماء وجهه، لقد عمل بواسطة الشيخ عبدالسلام صبرى فى إدارة التحقيقات بوزارة التربية والتعليم، وبدأ بقراءة ملفات التحقيق من باب التسلية، حكايات مدارس البنات المثيرة والفضائح، نصحه مراد حسنين أن يستفيد من هذه الهواية، أن يحول ما يقرأه إلى مسلسلات وإلى روايات، ودخل يوسف منصور إلى حلبة جهنمية، حلبة الوسط الثقافى والفنى، كان عليه أن ينافق وأن يبتذل نفسه وأن يتحول إلى مهرج للمنتج والنجم ولمدير أفلام التليفزيون، وكان عليه أن يبتسم وأن يرضى الجميع وأن يقبل اقتسام أجره مع المخرج كى يرضى بإخراج مسلسل من تأليفه، وأن يدفع ويرشو النقاد من أجل سطرين فى جريدة أو صورة وخبر عنه.

لم تكن زينب تعلم السر فى برود مؤلفاته ولا الثمن الذى دفعه يوسف فى غابة الثقافة أو غابة التليفزيون، فالعجز الذى حرم يوسف من القدرة على الحب، هو نفسه الذى حرم يوسف من وهج الإبداع الحقيقى وحرمه من حرارة الابداع الأصيل، وبعد سنوات الكراهية، جاءت سنوات الإذلال والمعارك، لقد أكملت تعليمها الجامعى، حصلت على شهادة لم يحصل عليها يوسف، وبدأت حرب الاستقلال، لا تريد أن ينفق عليها، وعملت فى فندق برستيج رغما عن يوسف، لها عملها ولها نقودها ولها سيارتها، انتهت الكراهية وانتهت حرب الاستقلال، وأصبحت لا تأبه به ولا تعيره أدنى اهتمام، أغراب فى منزل واحد، ثلاثتهم يوسف وزينب وحسن، التربص فى العيون والنظرات، التحفز للانقضاض فى الحركات، حتى ضاع حسن، ثلث الأسرة ضاع وترك الثلثين لا يطيق أحدهما الآخر، لا تراه سوى إنسان كريه لا يطاق، وهو لا يرى فيها إلا مصدراً للتحدى وللإهانة.

* * *

من هذا البيت المخرب بأثر رجعى خرج الإرهابى حسن يوسف منصور، ليس الفقر أو التدين الاجتماعى، المسئولان عن صناعة الارهاب كما يحدث فى المعالجات التليفزيونية التافهة، أو فى الروايات السطحية المباشرة، فالحياة لا تحكمها قوانين الميكانيكا، وأيمن الظواهرى لم يكن ابناً لبواب، ومن هذه التركيبة المدهشة فى الأفيال لبث الإرهابى، تتبدى عظمة فتحى غانم وعظمة رؤيته المركبة لواقع شعبنا.

ذهب يوسف إلى منتجع س. د السياحى لينسى هذا الماضى الأليم، وإذا

بالماضى يواجهه على هيئة نزلاء فى المنتجع، أولهم ميرزا الفلكى، وفى لقاءات يوسف وميرزا الفلكى، يعرف يوسف - كما يعرف القارئ - الأبعاد التى خفيت عليه وأن كارثته لم تبدأ بالقصاصة، فالمأساة بدأت قبل هذا.

كان ميرزا صديقاً من أصدقاء منصور بك، بدأت صداقتهما فى فيكتوريا كولاج، كانت البداية تحدياً سافراً بين الاثنين، والحكاية أن الحاج الفلكى والد ميرزا كان قد ورث أرضاً آلت إليه فى البحيرة، وقالوا له أن الأرض عليها رهونات ومشاكل، وذهب الفلكى إلى المحكمة المختلطة بالإسكندرية، كان القاضى ومحامى البنك العقارى والمحامى الذى يدافع عنه من الأجانب، وتكلموا بالافرنجية، ولم ينطق بحرف واحد، ولم يفهم كلمة واحدة ، الشيء الوحيد الذى فهمه أنهم قالو له وهو يخرج من المحكمة أن الأرض لم تعد ملكه لأنه خسر القضية.

أقسم الحاج الفلكى أن يسلح أولاده بأن يعلمهم اللغات الأجنبية، والإنجليزية والفرنسية بصفة خاصة، وخرج ميرزا من قريته بالبحيرة إلى فيكتوريا كولاج، وقال الأب لابنه ميرزا:

- ستجد من يسخر منك ومن ثيابك ومن لهجتك، وستجد من يقول لك أنا ابن فلان باشا وجدى فلان باشا ، فلا تخف ولا تضعف أمامهم فهم من نسل بزرميط، ستجد الواحد منهم ينتسب إلى صعلوك من الاناضول أو إلى خادم من التركمان أو من نسل عسكرى من الأتراك، فإذا سخر منك أحدهم فقل له أنا أعرف أجدادى بالاسم حتى الجد العشرين، وأطلب منهم أن يقول اسم جده الرابع فلن يعرفه.

وعندما سخر منصور سالم من ميرزا قائلاً فى تعال:

- لا أعرف كيف يدخلون شخصاً مثلك فى المدرسة .

كان ميرزا قد استعد للنزال بالاسلحة التى زوده بها الحاج الفلكى، فقال لمنصور سالم :

- أنا أعرف جدودى حتى الجد العشرين.. فهل تعرف اسم جدك الرابع.

ارتبك منصور سالم وحار جواباً معترفاً بالهزيمة، وتحولت العلاقة إلى صداقة متينة، وشعر ميرزا بالفخر وبالثقة فى نفسه، وقام الحاج الفلكى بزيارة إلى المدرسة وقد اصطحب معه عمتين لميرزا وهن بثيابهن الريفية، وعندما رآهم ميرزا فى الفناء بين التلاميذ، ود لو أن الأرض انشقت وابتلعته لكن الفاس كانت قد وقعت فى الرأس، وقال له الحاج الفلكى.

- قصدت وتعمدت أن أحضرهن بثياب الفلاحين، كى لا تبدد جهدك وتشتت نفسك أمام زملائك بأكاذيب عن أصلك، فيجب أن يعلموا وأن تعلم أنك فلاح ابن فلاح، وكى تعلم أن لا مهرب لك من هذا فنحن أسياد البلد والأرض ستكون لنا، أحضرتهما حتى تعلم أن لا معنى لتعليمك هذا التعليم إلا لكى تحافظ على أرضنا وعلى أقدارنا فى

بلدنا، ولن يصمدوا أمامنا طويلاً، وسوف يأتى يوم قريب سيعرفون من له الكلمة فى هذا البلد.

بعد انتهاء الدراسة الثانوية فى فيكتوريا كولدج ، ذهب ميرزا إلى باريس وذهب منصور إلى أكسفورد، ولأن ميرزا كان قد حدد الهدف، عاد إلى مصر حاملاً شهادة فى الاقتصاد السياسى، أما منصور سالم فلم يعد يكمل تعليمه فى أكسفورد، ولم يحصل على شهادة ، اللهم إلا شهادة بأنه جنتلمان، يرتدى أحدث الأزياء ويتعطر بأفخر العطور وحريص على احتساء شاى الساعة الخامسة، وبالوساطات عمل منصور سكرتيراً خاصاً لرئيس وزراء مصر ، وعندما استقال الوزير قدم منصور استقالته، ولم يعمل، ونصحه ميرزا بأن يعمل فى أرض البحيرة، أرض سالم باشا، لكن منصور لم يكن يحب الأرض، ولا يهتم بها ، كان يهتم بالإيراد الذى يأتى منها.

... فى الوقت الذى كان منصور بك يزجى الوقت فى النادى ومع عشيقته فاطمة هانم شريف، التحق ميرزا بوظيفة فى بنك مصر ، وبينما كانت أرض سالم باشا تنكمش وتدور عليها النزاعات بين الأولاد (أعمام يوسف واخوة منصور غير الأشقاء)، كان الحاج الفلكى حريصاً كل الحرص على الأرض، وكان قد أعد نفسه وأولاده لاسترداد الأرض التى أخذها الخواجات، كان يشترى أى أرض يضعف مالكها ويوشك أن يفرط فيها، يشتريها ويضمها إلى ملكيته، وكان يركب الفرس ليطمئن على الأرض البعيدة، ويركب البغل ليطمئن على الأرض القريبة، كان يخرج من داره ساعة شروق الشمس، يسير على الأرض بقدميه ويقول أن أحسن سماد للأرض هى أقدام صاحب الأرض.

وتتجلى الحقائق أمام عينى يوسف، فيعلم من ميرزا الفلكى أن الورقة التى كانت سبباً فى تدمير حياته كانت ورقة ظالمة، وأن أمه لم تكن على علاقة بلطيف صبرى، وأن جماعة اليد السوداء لم تكن إلا فاطمة هانم شريف عشيقة والده، امرأة مجنونة لا أحد يوقفها عما تريد، لا تعرف أخلاقاً ولا تقاليد ، بعد موت منصور قررت أن تقيم علاقة مع لطيف صبرى، وعندما رفضها لطيف، انتقمت من لطيف صبرى واستخدمت يوسف فى انتقامها.

وقال ميرزا له :

- أبوك كان السبب فى نكبتك... هو وأمثاله كانوا السبب فى ضياعنا وضياع البلد.. تعاملوا مع الحياة بخفة وبذروا فى سفه، لم يراعوا حرمة ولا تقاليد. اكتفوا بالمظاهر ونحن لم نكرههم، بالعكس حاولنا مساعدتهم، وتحملنا أوزارهم، وبسببهم فقدنا أملاكنا أولاً وبعدها فقدنا سلطتنا وهيبتنا بعد ذلك، لأنهم وضعونا معهم ومع فاروق فى مركب غارقة واحدة.

★★★

قدم لنا فتحي غانم البيت الذى أخرج الإرهابي، والانحدار السريع في سلالة الطبقة التي حملت داخلها عوامل انحلالها وفنائها، والتي بدأت بقائد مهيب يملك آلاف الأفدنة بمن عليها، مروراً بجنتلمان زائف لم يأخذ من الغرب إلا القشرة الزائفة، لنصل إلى سيناريست ضائع يحمل عجزه حيثما حل، لننتهي بالمأساة تكتمل بإرهابي قاتل لم يتعد عمره السابعة عشرة.

وكما التقى يوسف منصور بميرزا الفلكي ممثل طبقة كانت تحمل مشروعاً حقيقياً للنهضة، وليكشف ليوسف ما كان يجهله عن والده، يلتقي بسعد الحوت اللواء السابق ومسئول التطرف الديني في مباحث أمن الدولة، ليكشف للأب كيف صنعت أجهزة الأمن من حسن المتمرد إرهابياً قاتلاً باسم الدين.

يقدم اللواء الحوت فلسفته الأمنية، أن البلاد مليئة بتنظيمات لا أول لها ولا آخر، تنظيمات شيوعية وناصرية وبعثية وقومية وجماعات تبع إيران وشيوعيون تبع ماو... وهم أكثر من الجن والعفاريت الزرق، تنظيمات من كل لون، فلا توجد قوة تمنع وجودهم، مهمة الأمن هي الاختراق أولاً، ثم ايجاد توازن ما بين هذه التنظيمات وبعدها السيطرة عليها، من ناحية الاختراق يؤكد الحوت أن ما من جماعة سياسية أو منظمة تظن نفسها سرية أو لجنة نقابية أو جمعية ثقافية أو جلسة في منزل أو مقهى أو ندوة أسبوعية بعيدة عن نظر الأجهزة، كلهم مخترقون ولدينا مصادرنا، والمصادر من نفس الجماعة، هذه هي البداية، إذا لم نستطيع في ظروف نادرة أن نجند أحدهم، علينا بزراعة مصدر، وسلاحنا هو التقارير، وتأتينا التقارير من كل مكان، وهكذا تصبح هذه الجماعات تحت السيطرة، فنعلم من المصدر ماذا سيفعلون وخططهم، أما السيطرة الفعلية فهي استخدام هذه الجماعات ضد بعضها البعض، إذا ما قويت شوكة الشيوعيين نقوم بتحريض الإخوان عليهم، وإذا ما اشتد عود الإخوان أخرجنا لهم الجماعات.. وهكذا، فالمهم أن يكون الجميع تحت السيطرة وبهذا يحدث التوازن وإلا تحولت إلى فوضى.

وعندما طرد يوسف ابنه حسن، كان حسن جاهزاً للتطرف، يمين أو يسار لا يهم، فحسن كمراهق فقد احترامه لمجتمع الكبار، ورآهم يفشلون في إقامة علاقات إنسانية بينهم، الأم والأب يتشاجران ويتعاركان، وكما فقد حسن احترامه للبيت فقد احترامه للمدرسة، وقد عرف أن الناظر والمدرسون كاذبون ولا هم لهم إلا الدروس الخصوصية، وبعد هزيمة ٦٧ كان حسن قد فقد احترامه للمجتمع كله، وعندما خرج حسن من البيت بالبيجامة والشبشب كانت الجماعات في الانتظار.

يتحدث اللواء الحوت عن جماعة التقوى والتقية التي انضم لها حسن، كانت التقارير عند اللواء الحوت تفيد بأن هناك جماعة إسلامية تدعى التقوى والتقية، وكان بإمكانه أن يضربها ضربة قاصمة، ووفقاً لاستراتيجيته الأمنية قرر اللواء الحوت أن

يتركهم، وأن يسيطر عليهم كي يستخدمهم بعد ذلك في تحقيق التوازن، وسارت الخطة على ما يرام ، فقد قام الحوت بزراعة مرءوسه زياد الطويل وهو ضابط شرس غليظ خلق للاستبداد وللتسلط في التقوى والنقية، ولم يشعر اللواء الحوت بالدهشة عندما أصبح زياد زعيماً للتنظيم خلال مدة وجيزة، وراح زياد يؤدي المهام المطلوبة بهمة عالية، إذا جاءت التقارير إلى الحوت أن الناصريون في الجامعة يدبرون لظاهرة حاشدة ضد النظام ، اذهب يا زياد وامنع قيام المظاهرة، يأخذ زياد الشباب وقد سلحهم بالسنج والجنازير والسيوف والمطاوي، يازباد الشيوعيون يدبرون حشداً بدعوى إقامة أمسية شعرية، يذهب زياد وأتباعه.

.. سارت الأمور على مايرام، وعندما خرج حسن من البيت مطروداً، طلب زياد رأى اللواء الحوت في ضم حسن إلى «التقوى والنقية»، وكان على اللواء الحوت الدقيق في عمله أن يقرأ ملف الأب، كان التقرير الأول يفيد بأن يوسف منصور شيوعي يلتقي بالشيوعيين كثيراً ويظهر معهم، لو كان الحوت ضابطاً غير دقيق لاكتفى بالتقرير الأول، ولكان قد طلب من زياد أن لا يضم حسن إلى التنظيم كي لا يحدث تسلل شيوعي إلى التنظيم، ولتغير مصير حسن ووالده، لكن دقة اللواء الحوت أضاعت حسن.

التقارير هي كومة أوراق وضابط أمن الدولة العادي يريد أن ينتهي، فيكتفي بالتقرير الأول، لكن الحوت لم يكتف، قرأ كل التقارير بعناية، واكتشف أن تقرب يوسف من الشيوعيين لأسباب انتهازية، كان يتقرب منهم في الفترة التي سيطر فيها الشيوعيين على وسائل الإعلام والصحافة، من أجل تمرير أعماله، بقية التقارير أثبتت أن يوسف مجرد انتهازي، فالتقارير التالية أكدت أنه هاجم الشيوعية، وفي تقرير ثالث أنه بكى في أمريكا كي يحصل على فرصة تأليف سيناريو عالمي يهاجم الشيوعية ويمجد المجتمع الأمريكي، وخلص اللواء الحوت أن الأب لا يعرف ولاءً ولا انتماءً لأي مذهب، فهو مجرد انتهازي لا أكثر، وبناء عليه أعطى اللواء الحوت موافقته على تجنيد حسن، وهكذا كانت دقة اللواء الحوت السبب في ضياع حسن.

... حكى اللواء الحوت في المنتجع السياحي أنه عندما وصلت إليه الأخبار من مدير أمن التليفزيون أن الأب يبحث عن ابنه، شعر بالشفقة على الأب، فاللواء الحوت أب في النهاية وهكذا يقول عن نفسه... فلم يشأ أن يصدم الأب بأن حسن قد ضاع، وقال لنفسه فلنعطه بعض الأمل من باب الإنسانية، ومن هنا أخبر مدير أمن التليفزيون يوسف منصور أن حسن على قيد الحياة.

لكن إصرار الأب على البحث عن الابن الغائب ، ورحلته إلى السودان ليقتفي أثر حسن، جعلت اللواء الحوت يشعر بالقلق، أن يحدث هذا البحث لغطاً يفسد الأمر كله، فطلب اللواء الحوت مقابلة مع زياد على الرغم من خطورة هذه اللقاءات، وعندما

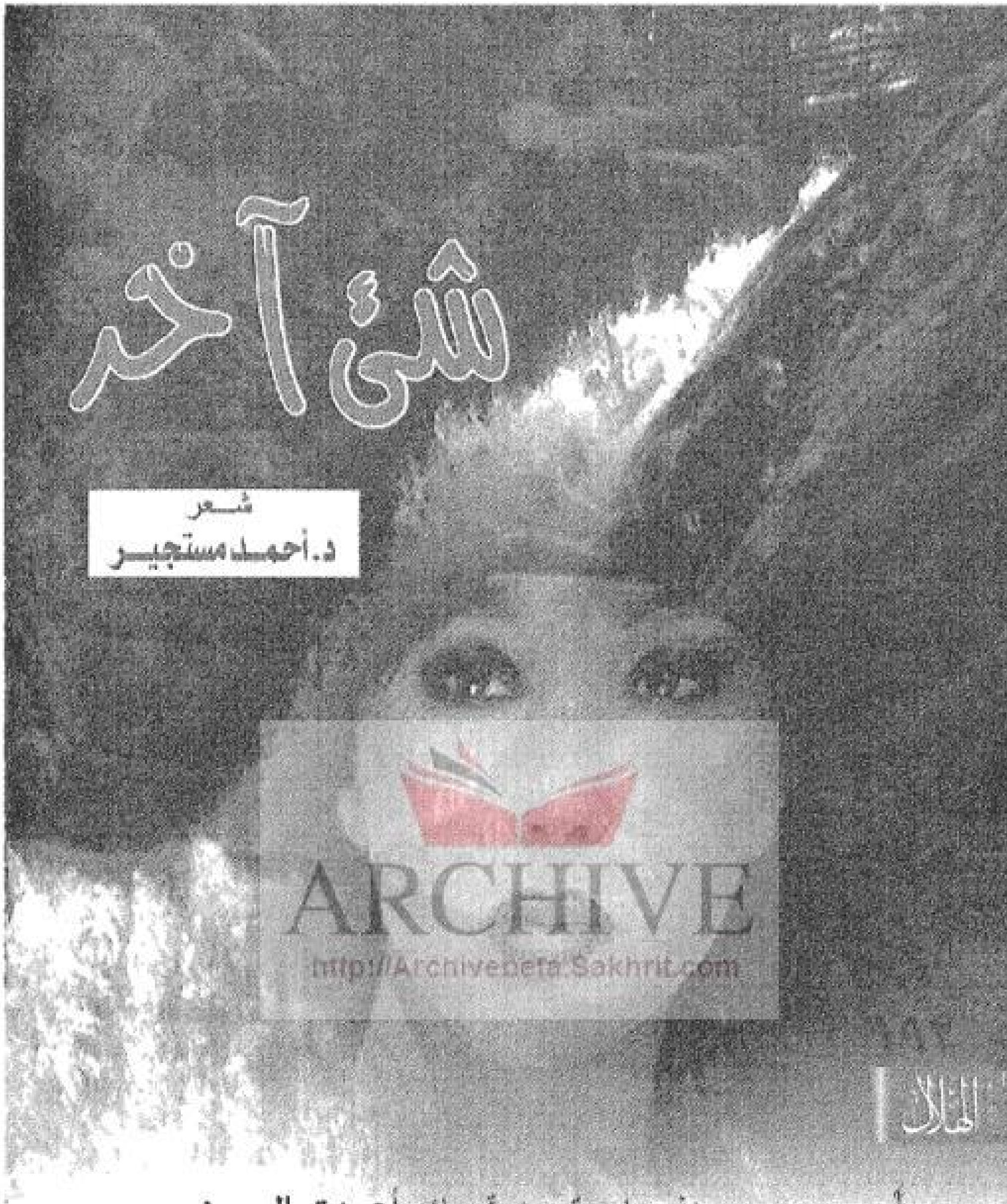
التقيا، طلب الحوت من زياد أن يخرج حسن من التنظيم، فرفض زياد، لأن حسن مستعد الآن لأن يغمد الخنجر فى صدره لو تلقى الأمر، وأنه يعرف كيف يغمده، حتى لو تم طرد حسن من التقوى والتقية، فلن يعود إلى أبيه، سيخرج حسن كى يكون تنظيمه الخاص، فالمسألة فات أوانها .

ويستمر اللواء الحوت فى اعترافاته، يقطعها بالصلاة وقد خرجا هو ويوسف منصور إلى الخلاء خارج مبنى المنتجع، أن أنظف ملف خدمة فى الداخلية كلها كان ملف الحوت، دقة وانضباط وقد درب نفسه على أن تعرف قدرها، انت مجرد خادم للسلطة ياسعد، لا تغتر فى يوم وتظن أنك سلطة، إلا فى هذه المرة، اعتاد الحوت ألا يخلط هدفين فى العمل، لكنه فى التقوى والتقية ارتكب هذه الجريمة المهينة، فقد أراد أن ينتقم من زياد الطويل لشراسته وجبروته، فزرعه فى الجماعة، حتى تشذب من شراسته بالخضوع لها والإذعان، وأن يستخدمه فى الوقت نفسه كعين على الجماعة، وهذا الخلط الذى لم يحدث للواء الحوت من قبل، حدث هذه المرة، ونسى نفسه وحول نفسه إلى سلطة، فكانت النهاية.

.. خدعه زياد، الذى خيل له الغرور أنه قادر على الاستيلاء على السلطة بمجموعته، وحينما جاءت التقارير أن الجماعة على وشك الانتقام من عميد الحقوق، رد الحوت على الوزير أن كل شىء على مايرام، وأن الجماعة كلها تحت السيطرة، وتكلم مع زياد الذى طمأنه، وإذا بسماعة التليفون تحمل إليه الخبر المشئوم، أن التقوى والتقية قتلت عميد الحقوق.. وكانت نهاية خدمة الحوت فى الداخلية، الذى ظن للحظة أنه سلطة وليس خادما لها ...

وتنتهى الرواية الفاتنة، ويوسف منصور ومن صنعوا ماضيه ودمروا مستقبله المتجسد فى حسن، وكلهم فى المنتجع السياحى الخيالى، مثل الأفيال (عنوان الرواية) ، عرفوا أن دورهم على مسارح الأحداث قد انتهى ولم يتبق إلا انتظار الموت فى كبرياء وشجاعة لا شىء أمامهم إلا المنتجع، يزجون الوقت بالكروكيه وبالدومينو، لا أحد منهم قادر على العودة، ويمكث يوسف منصور فلماذا يعود؟، هل من الممكن أن تشعر زينب نحوه بالحب ثانية؟، هل سيعود حسن؟ هل يعود لينافق ويدجل ويكذب ويؤلف المسلسلات الباهتة؟.. لم يتبق أمامه سوى البقاء ينتظر النهاية بشجاعة .

هذه رؤية فتحى غانم العذبة العميقة ، رؤية تختلط فيها السياسة بالمصير، ويختلط التاريخ بالأقدار، ويختلط الفن فيها بالرؤية السياسية النافذة، كل هذا وهم وطنى لا يفارق العمل، إنها رؤية لا تتأتى إلا لفنان كبير دانت له الصنعة ورأى الخلل الجسيم، فشاء أن يطلق صيحة تحذير من مغبة اللعب بالنار، لكن لا أهل السياسة ولا الرؤساء يقرأون الروايات، وآية ذلك أحداث ١١ سبتمبر والأهوال التى ستدفع الشعوب والأبرياء ثمنها الباهظ. ■



١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

هذه واحدة من قصائد أعيدت إلى من شهور قليلة، كنت كتبتها فى الزمان العذب الجميل اما ترى انا نبحث فى أيامنا هذه عن نسمة رومانسية رقيقة تعيد الينا شيئا من بهجة نفتقدها ؟

لا شــى آخــر فيــك

شــــئ آخــــــر !

شــــئ أعمــــق

لا ! ليســــت عيــــنك

ليست تلك الدعوة فى نظراتك

لا ! ليســـت شفـــتــــك

ليست تلك البسمة، تلك القبلة تلك الهمسة تحمل عطرك

ليــس الحــزن الآســر يتخــفى تحــت البسمـــة

تحت الهمسة، فى عمق القبلة !

لا ! ليس الشلال الهادر فى صوتك كالأطيار يزغرد

شئ فيك غريب لا يوصف

شــــــئ معجــــز

أتلاشى فيه وأغــــــو..

طيفا سحريا شفافا ينبض

طيفا من موسيقى وأغــان

يلتـــــــف ويغمــــر

كلا! شئ آخر فيــــــك

يمتص وجودى شئ أكبــر

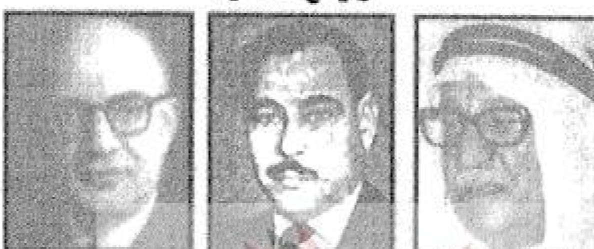
لب الكون، المعنى الجوهــر

الأسمـــــى والأطهــــر

الكـــل .... وأكـــثر !

غابوا.. وما غابوا

بقلم
وديع فلسطين



إبراهيم العريض رضوان إبراهيم جورج صبدح

إن اهتمام صحفنا وصفحاتنا الأدبية بالذين رفعوا راية العصيان على الشعر بأصوله التى قررها الخليل بن أحمد الفراهيدى، من أمثال أدونيس والماغوط وشعراء المقاومة بمنشوراتهم السياسية، قد صرفها عن الاهتمام بشعراء العصر الكبار الذين غادرونا فى سنوات قريبة مثل بدوى الجبل محمد سليمان الأحمد (١٩٠٤ - ١٩٨١) ومحمد مهدى الجواهرى (١٩٠٣ - ١٩٩٧) والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧ - ١٩٨٤) وآخرهم شاعر البحرين الكبير إبراهيم العريض (١٩٠٨ - ٢٠٠٢)، وكأن هؤلاء الشعراء غير معروفين لسدنة الأدب المهيمنين على صحافتنا المصرية.

إبراهيم العريض

فقد غاب في التاسع والعشرين من شهر مايو الماضي وجه الشاعر إبراهيم العريض عن ٩٤ عاما وهو بشخصيته وانتاجه الغزير يعد ظاهرة لا تتكرر في الأدب العربي. فهو قد ولد في بمباي بالهند في عام ١٩٠٨ وتعلم في مدارسها اللغتين الأوردية والانجليزية، وأتقن الفارسية، وتوفيت والدته بعد عام من ولادته فتعهدته سيدة هندية. وعندما نال شهادة الثانويه في عام ١٩٢٦، وكان قد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، انتقل مع والده من الهند إلى البحرين. وكان حتى هذه السن العالية نسبيا يجهل اللغة العربية جهلا تاما. فعمل بتدريس اللغة الانجليزية، ولكنه عقد العزم على اتقان اللغة العربية إتقانا معجميا بدراستها في كتب التراث ودواوين الشعراء حتى دانت له هذه اللغة بكل عبقرياتها. وعندما اكتشف موهبته الشعرية أخرج طائفة من الدواوين هي «ذكرى» و«العرائس» و«قبلتان» وملحمة «أرض الشهداء» عن فلسطين و«شموع» و«امعتصماه» وديوانه الجامع. كما ترجم عن الفارسية رباعيات عمر الخيام، ثم أصدر آخر مؤلفاته وهو «اللمسات الفنية عند مترجمي الخيام».

أما مؤلفاته الأخرى فمنها «الشعر والفنون الجميلة» و«فن المتنبي بعد ألف عام» و«الشعر وقضيته في الأدب العربي الحديث» «ونظرات جديدة» في الفن الشعري عدا مختاراته من الشعر وقد صدرت في كتابين هما «جولة في الشعر العربي المعاصر» و«من الشعر الحديث ١٩٠٠ – ١٩٥٠».

وعلى مدى عمره الطويل كان إبراهيم العريض سفيرا لبلاده في دنيا الأدب قبل أن يمنح هذا اللقب فعلا ويعتبر سفيرا واسع السلطات. عدا أنه اختير أول رئيس للمجلس التأسيسي في البحرين. ومن آيات سفارته للأدب أنه كان على مدى أكثر من خمسين عاما يتواصل مع كثير من الهيئات الجامعية والأدبية والفكرية في العالم العربي والخارج ومع أعلام الأدباء حتى بلغ عدد الرسائل التي تلقاها – ودع عنك ردوده عليها – أكثر من ٦٠٠ رسالة نشرت مؤخرا في كتاب ضخم بعنوان «مراسلات إبراهيم العريض الأدبية ١٩٤٣ – ١٩٩٦» أشرف على إعداده منصور محمد سرحان بالتعاون مع إدارة المتاحف والتراث بوزارة شئون مجلس الوزراء والإعلام، ونشره نادي العروبة في البحرين. وكنت شخصيا من جملة مراسليه بين عامي ١٩٥١ و ١٩٦٨ كما يتبين من رسائلي المثبتة في هذا السفر.

وعندما عقد أول مؤتمر للأدباء العرب في القاهرة في عام ١٩٥١، دعي الشاعر إبراهيم العريض لتمثيل البحرين فيه. ولما توجه العريض إلى قاعة المؤتمر للالتقاء بالمدعوين، بحث عني دون أن يعثر لي على أثر. وأبدى دهشته لمن التقى بهم من سدنة المؤتمر، حيث تبين أنهم لا يعرفونني أصلا، ولهذا لم توجه إليّ دعوة لحضور هذه المؤتمر ولو كمتفرج . فقال لهم العريض كيف لا تعرفونه في مصر، مع أننا في البحرين نعرفه ونتابع آثاره في المجلات الثقافية الصادرة في مصر ولبنان وغيرهما؟ وعندئذ قرر أن يزورني في مكتبي في الجريدة التي كنت أعمل فيها، وقال لي: إذا كان مؤتمر الأدباء لم يسع إليك فنحن نسعى إليك. ولم أكن حتى هذه اللحظة أعرف العريض شخصيا، وإن كنت تابعت آثاره، سواء في مجلة «صوت البحرين» أو في مجلة «الأديب» اللبنانية. وطلب مني أن أقدمه إلى ندوة نجيب محفوظ التي كانت تعقد صباح كل يوم جمعة في كازينو الأوبرا، وفعلا رافقته إلى هناك حيث قابل مجموعة غير قليلة من الأدباء ، لكن نجيب محفوظ تخلف في ذلك اليوم لظروف خاصة وكأي سائح يسجل ذكرياته بآلة التصوير، قام بالتقاط صورة للجمع الحاضر، ثم قمت بدوري بالتقاط صورة لهم يتوسطهم العريض. وكنت أحتفظ بهاتين الصورتين إلى أن «استعارهما» صحفي وأبى أن يردهما إليّ!

بعد ذلك سافر العريض إلى الاسكندرية ومن هناك كتب إليّ شاكرا صحبتي، ولما عاد إلى البحرين أخذ يوافيني تباعا بآثاره الأدبية بل كان يكلفني بأن أهديها إلى أدباء بعينهم يود أن يواصلهم، وكان في كل مرة يضع تحت تصرفي نسخا زائدة من كل كتاب تاركا لي حرية إهدائها لمن أحب.

ولست هنا بسبيل دراسة شعر إبراهيم العريض، فقد خصصته بفصل من كتابي «مختارات من الشعر المعاصر وكلام في الشعر» الذي نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر، وإنما أحاول تصوير هذه الشخصية الأدبية الفذة للقارئ الذين حرمته صحافتنا من معرفتها.

ومن سنوات صدر عن العريض كتاب تذكاري بعد حفل أقيم لتكريمه، ومن أسف أنني لم أطلع على هذا الكتاب. ولو سئل العريض إلى من يهدى هذا الكتاب، فمن

المؤكد أنه كان يشير باهدائه إلىّ.

يغيب إبراهيم العريض، وهو شاعر الخليج الأكبر، فلا يحرك غيابه ساكنا لدى صحفنا المهتمة بالأدب، باستثناء مقال منصف نشره فاروق شوشة في ركنه في «الأهرام». ولا عجب، فهو قد كان غائبا عن مصر حتى في حياته، ولست أذكر أنني طالعت شيئا ذا بال عنه في صحفنا منذ ربع قرن على القليل، مع أنه كان غزير الإنتاج، وربما كان سبب ذلك أن العريض بقي شاعرا ملتزما الأصول الشعرية التي منها تألف ديوان العرب.

وإذا كان نجله الدكتور جليل العريض قد تخصص في التربية وعلم النفس، فقد آثرت ابنته أن تعمل في الصحافة العربية من حيث تقيم في المملكة العربية السعودية. وقد أطلق اسم إبراهيم العريض مؤخرا على شارع في المنامة.

رضوان إبراهيم

من الأسماء التي طواها النسيان تماما فلم يعد أحد يذكرها الأديب المصري رضوان إبراهيم (١٩١٩ - ١٩٧٥) الذي بدأ حياته بعد تخرجه في كلية دار العلوم مدرسا للغة العربية، ثم انتقل إلى وزارة المعارف حيث عمل في مكتب الوزير أحمد نجيب هاشم، وانتقل بعد ذلك إلى وزارة الحكم المحلي ثم إلى هيئة الخدمات الحكومية. هذا عن وظائفه، وهي لم تضف شيئا إلى سيرته العملية، فالأدب لا يطعم خبزا، ولابد من التوكؤ على وظيفة سواء في أجهزة الحكومة أو في سواها، وأدرك رضوان إبراهيم أن جهل اللغات الأجنبية يؤود مسيرته العلمية، فاختار أن يتعلم الروسية حتى أجادها، ثم اتصل بالمستشرقين الروس وترجم طائفة من آثارهم منها «نظريات ابن خلدون» للمستشرقة الدكتورة سيفتلانا باتسيفا و«العمران البشري في مقدمة ابن خلدون» لنفس المستشرقة، وسبق له أن قام بتيسير مقدمة ابن خلدون ضمن سلسلة تيسير كتب التراث التي كانت وزارة الثقافة تتبناها. ومن مؤلفاته «أزمة التعبير الأدبي» بالاشتراك مع إبراهيم الابياري و«جراح شعب» وهي مجموعة من الأقاصيص وسلسلة من الأقاصيص للأطفال، كما حقق ونشر ثلاثة كتب من مؤلفات راعي ابولو الدكتور أحمد زكي ابي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وهي: «شعراء العرب المعاصرون» و«عظمة الإسلام» و«الإسلام الحي». وله كتاب عن فيلسوف الفريكة أمين الريحاني (١٨٧٦ -

١٩٤٠) مترجم عن المستشرق الروسى ليفين إيزاكوفيتش وهو مازال مخطوطا. كما أصدر كتابا عن أنباء تونس، ولهذا يعرفونه فى تونس معرفة وثيقة ولاسيما لأنه زار هذه البلاد وعرف أعلامها.

كما كان رضوان إبراهيم شاعرا، وإن يكن مقلا، ولهذا لم يحاول جمع قصائده القليلة.

فى صباح يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٥ هاتفنى صديقى محمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) قائلا: هل سمعت أن رضوان إبراهيم لقى وجه ربه ؟ فقلت له : لم أسمع ذلك، وكنت حتى يومين مضيا أتحدث معه على الهاتف. فقال: انظر صفحة الوفيات فى جريدة الصباح. فقلت له إننى قرأت الجريدة ولم ألحظ فيها نعيا لرضوان، ثم تنبهت إلى أن نسختى من الجريدة هى الطبعة الأولى وأن النعى نشر فى الطبعة الثانية. فسألت عبد الغنى عن موعد الجنازة ومكانها، فقال إنها تخرج من مسجد القبة الفداوية فى العباسية صباح اليوم. وهرعت إلى هناك، فإذا حفنة من الأدباء اجتمعت لوداع رضوان إبراهيم هم الشاعر طاهر أبو فاشا (١٩٠٨ - ١٩٨٩) ومحمد عبدالغنى حسن وعامر العقاد (١٩٨٥) والدكتور كامل السوافيرى (١٩١٧ - ١٩٩٢) وأنا واثنان من أسرة الفقيد حيث لم يكن له أولاد من زوجته الأولى التى توفيت فجأة ولا من زوجته الثانية. ونقل جثمانه إلى سيارة توجهت إلى قريته طوخ أو قليوب (فلست أذكر على وجه التحديد). وعلمت بعدها أن رضوان كان فى اليوم السابق يؤدى عمله فى هيئة الخدمات الحكومية فى الدقى، وأنه قاد سيارته الصغيرة بنفسه بعد انتهاء عمله ليعود الى بيته فى العباسية. وفى الطريق هاجمته أزمة قلبية، فتحامل على نفسه وظل يجاهد وراء مقود السيارة إلى أن وصل إلى مدخل العمارة التى يقع فيا بيته فى آخر نفس. وعندئذ تهاوى على مقعد السيارة غائبا عن الوعى تماما. فنقل إلى بيته وظل الأطباء يصارعون لإنقاذ حياته وإنعاش قلبه ساعات طويلة دون جدوى، ولفظ أنفاسه قرب منتصف الليل. مما أخر نشر نعيه فى الطبعة الأولى من الجريدة.

وقد كان الفضل فى تعريفى برضوان إبراهيم راجعا إلى رائد ابولو الدكتور أحمد زكى أبى شادى، فأحببت فيه دماثة خلقه وعفة لسانه وسعيه بين الأدباء بالخدمة والمشورة، ومتابعته الحثيثة للحركة الأدبية فى العالم العربى والمهاجر. وعقد

صلات وثيقة مع كثيرين من الأدباء فى الداخل والخارج، كما كان عضوا نشطا فى رابطة الأدب الحديث ينتظم فى حضور جلساتها. ويعز عليّ كثيرا أن ينسى رضوان إبراهيم مع أنه كان شخصية أدبية لها وزنها، وكان مرجوا الكثير من المآرب الأدبية لولا أنه لم يعش أكثر من ٥٦ عاما.

لقاء بعد أربعين عاما

بعد أربعين عاما اجتمع التلميذ جورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) الذى أصبح من أكبر شعراء المهجر ومؤرخيه مع معلم الدكتور فارس الخورى (١٨٧٩ - ١٩٦٢) الذى كان رئيسا لوزراء سورية وممثلا لها فى الأمم المتحدة برأس مجالسها. أما اللقاء فكان فى مأدبة أقامها التلميذ لأستاذه فى نيويورك عام ١٩٤٧.

وعندما اجتمع الشاعر مع معلمه الذى لبى دعوته إلى الغداء، فاضت قريحة الشاعر بأبيات سجل فيها هذه المناسبة، وهى لا تخلو من روح الفكاهة. ولأن دواوين الشعراء لا تضم امثال هذه القصائد الاخوانية، فقد أخرجتها من بين أوراقى التى علتها الصفرة، عسى أن يجد فيها القارىء طرفة أدبية.

الدهر بدد شملنا
فأخذت أندب حظنا
وأقول للدنيا اغلطى
يوما، وجودى بالمنى
حتى تفتق ثغرها
عن مثل بارقة السنا
ورأيت - ياللحلم!
أستاذى بقربى. هاهنا.
حملقت فيه فلم أجد
فى الوجه آثار الضنى
لا صوته عن قبل مختلف. ولا الظهر انحنى
والرأس تثقله الهموم، فيشرئب مفرعنا
ولى الشباب لم يزل
بردائه متزينا
فكأنه يحيا حياة الخلد فى دار الفنا.
لكن تغير طبعه القاسى، فأصبح لينا
أدعو فيقبل دعوتى متسامحا ما أمكنا
يدرى بأن صداقة الشعراء خير المقتنى
فيُنيلنى شرفا أهيم به
على هام الدنى
أهلا بأستاذى الكبير ومرحبا ياضيفنا
لولا وجودك لم يكن
هذا الغداء مطنطنا

وعلى الموائد لم نجد
إلا حديثك مسمنا
فكأنما أنت المضيف
شكرت منه أنا
زادى تزود بالمحبة
فهو مأكول الهنا

وقد خلف فارس الخورى أوراقا كثيرة سجل فيها مواقفه من قضايا أمته، بما فى ذلك دفاعه عن هذه القضايا من على منابر الأمم المتحدة. وتعكف حفيدته الأديبة السورية توليت خورى على نشر هذه المذكرات لقيمتها التاريخية.

نظير زيتون وسجعه المرسل

عرف الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) بأسلوبه الذى يترسل فيه سجعا حتى يملأ صفحات كاملات بسجعة واحدة، وهو أسلوب لم يكن يفارقه حتى فى الرسائل التى يبعث بها إلى أصدقائه ، وعندى منها عشرات.

وكان من أصدقاء نظير زيتون العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) الذى جاءه ساعى البريد برسالة زيتونية مسجوعة يقول فيها «ألا إن الود ودك، والنبل شهدك، والعهد عهدك، والخير قصدك، والعلى وردك، والعبير وردك، والوفاء مجدك». ورغب الخليلى فى امتاع رواد ندوته بهذه الرسالة المسبوكة بالتبر التى تلقاها من كبير خطباء المهجر نظير زيتون، فتلاها عليهم وكلهم معجب بهذه المعانى النضيدة. واتفق ان كان من رواد الندوة الشاعر العراقى آنور شاؤول الذى أكد للحاضرين أن هذا الكلام المنثور هو فى حقيقته شعر موزون مقفى. وعلى الفور ارتجل قصيدة مستشهدا فيها بكلام نظير زيتون نصها.

أنا إن سئلت عن المودة،
قلت إن «الود ودك»
ولكم عهود أهملت
وتنوسيت و«العهد عهدك»
إن المقاصد لا تعد
دروبها و«الخير قصدك»
ورد الأنام مغانم
ومن «العلى قد كان وردك»
أما العبير وقد تضوع
فى المعانى «فهو وردك»
إنى أمجد بالوفا
و«وفاؤك» المشهود «مجدك»

فليقرأ هذا الأدب الجميل شعارير هذا الزمان إن استطاعوا أن يأتوا بمثله ■

كتاب الهلال

الإنسان والحضارة

بقلم

د. عبد الوهاب المسيرى

يصدر ٥ أكتوبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٢٠١
الهلال

رجب ١٤٢٣هـ - أكتوبر ٢٠٠٢م

حلم ليلة أفريقية

تأليف : **سبريان إكوينسى**

ترجمة : **د. صبرى محمد حسن**

تصدر ١٥ أكتوبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

جسر روحي بين الشرق والغرب

الشيخ عبد الرحمن عليش

بين القاهرة ودمشق وباريس

بقلم

سامي محمد عبد الحميد

يحفل تاريخ مصر المعاصر بالعديد من الأحداث المهمة التي صنعها بعض الأعلام الأفذاذ في شتي المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية..

وكان من هؤلاء الأفذاذ الشيخ عبدالرحمن عليش الذي لعب دوراً مؤثراً وعميقاً علي المستويين الوطني والعالمي.

لقد كانت تلك الثورة نتاج عوامل شتى أهمها تطلع مصر إلى النهوض منذ محمد على الذى وقفت له أوروبا بالمرصاد خوفا من قيام دولة قوية فى هذه المنطقة وهى التى كانت تتربص بالدولة العثمانية «الرجل المريض» الدوائر آملا فى سقوطها حتى تصبح المنطقة فريسة سهلة.

وقد أشار إلى ذلك رشيد رضا حين قال: إن محمد على أراد أن يجدد شباب الإسلام بدولة عربية.

ووقف الثائرون فى مواجهة الاستعمار البريطانى وظنوا أن فرنسا ستقف معهم فخابت ظنونهم لأن الدول الاستعمارية يومئذ لم تكن تفكر إلا فى مصالحها ولا تعنيها مصالح الشعوب

محمد رشيد رضا



جمال الدين الافغاني



محمود سامي البارودي



الأخرى بأى حال من الأحوال.. ووقفوا أمام الخديو توفيق الذى انحاز إلى المحتل رغم أن أباه إسماعيل قد عزل من الحكم وكان أمل الثائرين فى توفيق أنه رجل الإصلاح فكان من قراراته الأولى قرار نفى الثائر جمال الدين الأفغانى بإيعاز من حاشيته التى لا تريد لمصر صلاحاً ولا إصلاحاً.

وكان فى مواجهة الثائرين بعض الخونة كباراً وصغاراً ومنهم محمد سلطان باشا الذى قام بدور كبير فى تجنيد الخونة ضد جيش مصر لصالح الإنجليز مقابل ثمن زهيد وإهمال شديد بعد الاحتلال حتى قضى نحبه وهو يشعر بالأسى والحزن لأنه لم يقبض الثمن الذى كان يظن أن سادته سيؤدونه إليه.

أما الرجال.. أما الثائرون فإنهم مضوا فى طريقهم دون أن يفكروا طويلا فى حساب الأرباح والخسائر.. ومنهم رب السيف والقلم محمود سامى البارودى الذى لم يكن يريد أن يغمد سيفه رغم الهزيمة واقترح على عرابى الإنسحاب إلى الصعيد واستئناف المقاومة من هناك وهذا هو موقف الشاعر الفارس الذى يرفض الاستسلام والنكوص أمام الأعداء.

وقبل ذلك كله كانت وقفة الأمة كلها فى يوم مشهود من أيام مصر الخالدة .. إنه يوم ٢٢ يوليو ١٨٨٢ الذى صدرت فيه كما قال الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته : «فتوى شرعية من الشيخ العارف بالله شيخ الإسلام والمسلمين السيد محمد عليش وشيخ الإسلام الشيخ حسن العدوى والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء بمروق الخديو توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه وانحيازه لعدو بلاده» .

وبعد الاحتلال صدر أمر الخديو بإلغاء الجيش المصرى واعتقال الثائرين ومنهم علماء الأزهر شيخ الإسلام الشيخ محمد عليش وولده الشيخ عبدالرحمن عليش والشيخ حسن العدوى وآخرون ، وأبدى الشيخ حسن العدوى شجاعة نادرة عند محاكمته عندما سئل عن توقيعه على الفتوى بعزل الخديو فانكر ذلك ولكنه استدرك قائلا : «ومع ذلك فإذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنى أوقعه ، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج

أحمد عرابى



محمد عبده



عبد القادر الجزائرى





عن الدين والوطن» .

كما اعتقل في تلك الفترة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذي صدر حكم بنفيه ثلاث سنوات .

وحكم بتجريد عدد كبير من علماء الأزهر من رتبهم وامتيازاتهم ومنهم الشيخ حسن العدوى .

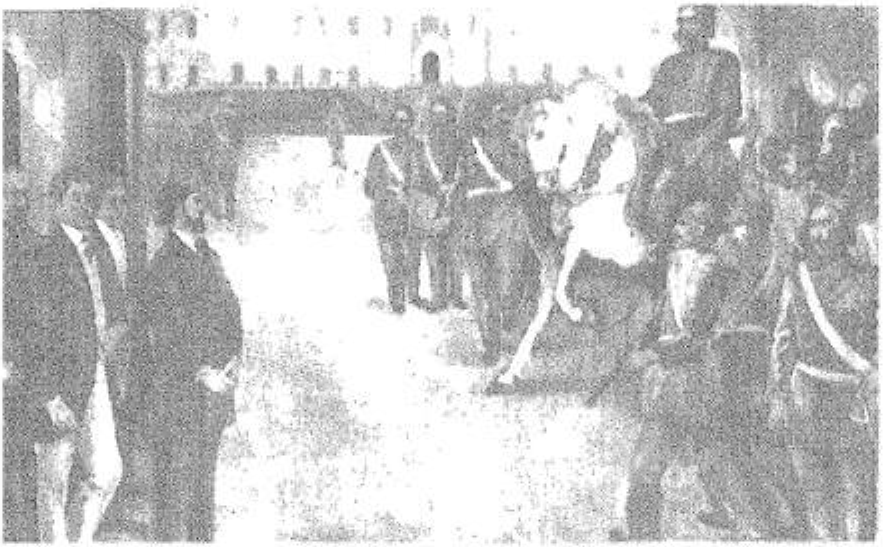
في دمشق

كما نفى الشيخ عبدالرحمن عليش حيث توجه إلى دمشق وهناك نزل ضيفاً على الأمير عبدالقادر الجزائرى بل إنه هو الذي تولى تجهيزه ودفنه في عام ١٨٨٣ ، ومعروف أن الأمير عبدالقادر عاش سنواته الأخيرة في دمشق حيث كان أول من نشر كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي كما أنه دفن إلى جواره .

وكذلك كان الشيخ عبدالرحمن عليش الذى أفتى بعزل توفيق من أقطاب التصوف وله في ذلك دور لا يعرفه إلا الأقلون ، ولابد أن نشير هنا إلى والده الشيخ محمد عليش الذي ولد بالقاهرة سنة ١٢١٧ هـ وتعلم في الأزهر حتى صار من كبار العلماء ، ويقول خليل مردم بك في كتابه «أعيان القرن الثالث عشر» إن الشيخ محمد عليش كان أحد مشايخ المالكية في مصر وتعلم على يديه كثير من الأزهريين وله مؤلفات عديدة في الفقه وقد توفي سنة ١٢٩٩هـ (التي توافق سنة ١٨٨٢م التي شهدت احتلال إنجلترا لمصر) .

ونشير أيضا إلى أن الشيخ عليش اتهم بالجمود لأنه لم يكن من الذين تقبلوا آراء جمال الدين الأفغاني .. وهذه مسألة تستحق البحث لأن إلقاء التهم والألقاب جزافا في تاريخ مصر أمر يستحق التمحيص حيث يوصف البعض بأنه من المجددين والبعض الآخر بأنه من الجامدين .. ويحلو للبعض ترديد ذلك دون فهم أو تعمق للأمور .

فالشيخ عبدالرحمن عليش الذى رفض إنشاء محفل ماسوني في مصر لم يكن جاهلا بالماسونية بل إنه كان على معرفة بأوضاعها ورموزها ودورها في أوروبا وأراد أن يستفيد من ذلك عن طريق شخصية فرنسية كبيرة لدفع الماسونية إلى القيام بدور نافع في الغرب بدلاً من دورها الهدام ، وهكذا تكون أصالة الفكر وسداد الرأى وبعد ذلك فليقل من شاء إنه مجدد أو جامد أو زعيم



كانت وقفة عرابي الصامدة ضد الاحتلال الإنجليزي إحدى العلامات البارزة في تاريخ مصر المعاصر

للمجددين أو للجامدين .. فهذه الألقاب لا تجدى نفعا إنما الذى يجدى هو العمل الجاد وخدمة المبادىء والمصالح العليا لهذه الأمة بل للإنسانية كلها .

الشيخ «رينيه جينو»

أما الشخصية الفرنسية المهمة التى سبقت الإشارة إليها فهى شخصية فذة فى التاريخ المعاصر ويعتبر صاحبها من أكبر العقليات فى القرون الأخيرة فى أوروبا وهو العلامة الفرنسى رينيه جينو المعروف بالشيخ عبدالواحد يحيى الذى ولد عام ١٨٨٦ وجاء إلى القاهرة عام ١٩٣٠ ومكث فيها حتى رحل عن دنيا الناس فى مطلع عام ١٩٥١ ، وقد اعتنق جينو الإسلام في عام ١٩١٢ ، ويعتبر من أقطاب التصوف على مدار التاريخ وهو يؤمن بالوحدة الجوهرية للعقائد الدينية لقيامها على أساس الإيمان بالوحدانية وقد تأثر أكبر الأثر بالشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى ، ومن مؤلفاته المهمة «شرق وغرب» الذى استعرض فيه إمكانيات الاتفاق بين الشرق والغرب على أساس المبادىء حيث أشار إلى إمكانية هذا الاتفاق إذا تنازل الغرب عن زهوه وادعائه أنه «الحضارة» الوحيدة فى العالم، ومن مؤلفاته كتابه «أزمة العالم المعاصر» الذى

حلل فيه المنطلقات الفكرية للحضارة الأوروبية التى تنكر إسهام الحضارات الشرقية وتغمطها حقها بل إنها تستخف بالحضارة الأوروبية المسيحية فى العصر الوسيط .

يقول صادق سلام فى كتابه «الإسلام والمسلمون فى فرنسا» الذى صدر في باريس سنة ١٩٨٧ إن رينيه جينو عنى فى مطلع شبابه بالعقائد الصينية والهندية والتصوف الإسلامى .. وأنه اتصل بالشيخ عبدالرحمن عليش الكبير منذ عام ١٩١٢ عن طريق رسام سويدى كان قد درس العربية واعتنق الإسلام .

ولكن الذى أفاض فى الحديث عن العلاقة بين رينيه جينو والشيخ عبدالرحمن عليش هو الكاتب الأوروبى المسلم ميشيل ڤالسان الذى رحل عام ١٩٧٤ فى كتابه «الإسلام ودور رينيه جينو» حيث أشار إلى أن جينو سلك طريق التصوف على يد الشيخ عليش الذى أهدى إليه جينو كتابه المهم «رمزية الصليب» الصادر عام ١٩٣١ بقوله : «إلى ذكرى الشيخ عبدالرحمن عليش الكبير .. العالم المالكى المغربى الذى يرجع إليه الفضل فى الفكرة الأولى لهذا الكتاب ، مصر القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٤٩هـ» .

ويقول ڤالسان . لقد كتب إلينا جينو ذات يوم قائلا «إن الشيخ عليش هو شيخ طريقة شاذلية كما أنه فى عالم الظاهر شيخ المذهب المالكى فى الأزهر» .

ويتحدث ڤالسان عن دور جينو قائلا «إن الذين فهموا أعمال جينو يعلمون أن القوى الروحية فى الشرق قدمت من خلال هذه الأعمال مساعدة مهمة للغرب فى محاولة لتصحيح أوضاعه لصالح الإنسانية كلها» .

ويشير ڤالسان إلى العلاقات القديمة بين الطرق الصوفية فى الشرق والغرب وهى علاقة بين الصفوة ربما لا يشعر بها أحد مثلما حدث فى العصر الوسيط بين جماعة «أمناء الحب» الإيطالية والجماعات الصوفية الإسلامية والتى ظهر أثرها فى الدراسات الحديثة عن تأثر دانتى بالشيخ الأكبر ابن عربى أو أعمال أبى العلاء المعرى .

عبدالهادى أجيلى

أما دور الرسام السويدى جون جوستاف أجيلى (عبدالهادى أجيلى) كوسيط بين الشيخ عليش وجينو فإنه يتسم بأهمية كبيرة لأن

أجيلى أصدر فى العقد الأول من القرن العشرين مجلة اسمها «النادى» بالعربية والإيطالية وقد اتجهت إلى الاهتمام بالتصوف بصفة عامة وابن عربى بصفة خاصة وكان لها أثرها الكبير على مجلة «لاجنوز» ومجلة «فوال ديزيس» اللتين صدرتا بعد ذلك فى باريس وكان أهم كاتب فيهما هو جينو ، وقد نشر الشيخ عليش فى هذه المجلة «النادى» مقالا موجزا عن ابن عربى فى عام ١٩٠٧ .. كما تحدث عبدالهادى كثيرا عن الشيخ عليش فى المجلة وعن والده «مجدد المذهب المالكى» مشيدا باستقامتهما ونزاهتهما وبعدهما عن المؤامرات السياسية ، وأوضح عبدالهادى أن الشيخ محمد عليش وابنه الشيخ عبدالرحمن قد اتهما بالتعصب لمشاركتهما فى الفتوى الشهيرة فى عام ١٨٨٢ إبان الثورة العرابية مما أدى إلى سجنهما والحكم عليهما بالإعدام ولكن الشيخ محمد عليش قضى نحبه فى السجن بينما خفف الحكم عن ابنه إلى النفى ، ورغم ذلك فإن الشيخ عبدالرحمن ظلت تحوم حوله الشبهات حيث اتهمه البعض بأنه يسعى لكى يصبح خليفة للمسلمين أو إلى تولية سلطان المغرب الخلافة وانتهى الأمر بسجنه عامين ثم نفى إلى رودس ، إلى أن عفت عنه الملك فيكتوريا فعاد إلى مصر .

ويقول فالسان إن المجموعة التى كانت تصدر مجلة «النادى» بالقاهرة كانت تتبع النصائح الروحية للشيخ عليش حيث قررت إنشاء «جمعية لدراسة ابن عربى فى إيطاليا والشرق» تحت اسم «الأكبرية» ، ولكن بعض الدوائر فى القاهرة سعت ونجحت فى مسعاها إلى فرض حظر على المجلة التى صدرت منها أعداد محدودة ، وقد سافر عبدالهادى أجيلى إلى فرنسا حيث التقى مع جينو الذى كان يصدر مجلة «لاجنوز» التى توقفت عام ١٩١٢ .. بينما توقف نشاط عبدالهادى بعد نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ثم توفى فى برشلونة عام ١٩١٧ ، وخلاصة القول أن جينو سعى بتأثير الشيخ عليش إلى تذكير الغرب بتراثه مستفيدا من الإسلام الذى يعتبر الوسيط الطبيعى بين الشرق والغرب فى محاولة لإقامة جسر روحى بين العالمين مع الاعتماد فى ذلك على الصفوة من العقلاء .. وهكذا كان تأثير العالم الأزهرى المصرى الشيخ عبدالرحمن عليش على المستويين الوطنى والعالمى دون صخب أو دعاية جوفاء . ■

هذه لوحة نفسية من رسالة لم يقدر لها ان تصل إلى صاحبها والحمد لله

من هو؟

بقلم
د. يحيى الجمل

سيدى...

لا أحد يستطيع أن ينكر عليك حده ذكائك أو مقدرتك الفائقة على العمل والتنظيم . حتى أولئك الذين كانوا لا يحبونك ولا يرتاحون لتصرفاتك وقد يرميك بعضهم بما قد يكون فيك أو لا يكون من فساد لم يستطع أحد منهم أن ينكر عليك تلك الصفات .

وهذه الصفات هى التى جعلت ذلك الرجل المخلص المحدود التجربة القليل الخبرة بالناس يأنس إليك ويختارك إلى جواره فى ذلك المنصب ذى الشأن لكى تكون عونا له فى حمل ما عهد إليه به من مهام جسام .

وكنت تدرك جيداً أن بقاءك مرهون ببقائه وأن اختفاءه سيؤدى حتماً إلى اختفائك وجعلك ذلك تحرص على بذل مزيد من الجهد ومزيد من التنظيم ولكنك رغم كل هذه المزايا التى لا يستطيع أحد أن ينكرها كنت تشيع حولك جواً من النفور والكراهية والحقد الشديد.

لم يكن أحد قط يشعر نحوك بالحب أو الرضا أو الأمان. كان القريب منك كراكب البحر لا يعرف متى سيرغى ويزبد ويثور موجه كالطوفان. كانوا يخشونك ولا يحبونك وكنت أنت بطبيعتك المنحرفة سعيداً بذلك .لم تكن تسعى إلى المشاعر الراقية النبيلة فليس بينك وبينها صلة . كان كل همك أن يشعر الآخرون بأهميتك ومقدرتك على الإيذاء متى تريد وكثيراً ما كنت تريد .

كنت تحب أن تظهر بمظهر «الديك» المنفوش الريش المختال الذى يسير فى الأرض مرحاً وكأنه قادر على أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا.

وخيل إليك غرورك وفرط اعتدادك بنفسك أنك لاغنى عنك وأن القافلة لن تسير بغيرك .

كان الناس يدعونك فى أفراحهم وولائمهم لأنهم يتملقونك ولأنهم إذا دعوا سيدك الذى يثق بك ثقة لا حدود لها فإنه كان عليهم أن يدعوك معه أو حتى يبادروا بدعوتك قبل دعوته مرضاة له ودرءاً لشرك

ورغم ذكائك الشديد فإنك لم تعرف قواعد اللعبة جيداً .

جاوزت الحدود التى يسمح لمثلك أن يتحرك فى إطارها

كـــان هناك في الملعب عـــدد من اللاعبين وكان بعضهم أقرب إلى أماكن أخرى من أماكن النفوذ والمال والسطوة الظاهرة والخفية ويبدو أنك حاولت أن تبدى لهم أنك تعرف من أمرهم ما كانوا حـريصين على إخـفـائه عنك حـتى لا تشاركهم فيه أو حتى لا تنقله إلى سيدك الذي جاء بك إلى حيث كنت .

وقيل إنك تطاولت مع بعضـهم في الحديث .

وقيل إنك نسيت حجمك

وقيل غير ذلك كثير .

وأدركت في وقت من الأوقـــات أن الاستمرار قد لا يكون مأمونا وأن بقاءك في موقعك قد لا يطول .

وشمرت عن ساعد الجد . ولم تترك فرصة إلا واهتبلتها . وكانت الفرص كثيرة ودسمة .

وحان ما كان لابد وأن يحين

وانطفـــاء النور ولفك ظلام دامس وكئيب .

ولم يعد أحد يدعوك إلى فرح أو إلى وليمة .

ولم يعد أحد يتملقك أو يسأل عنك أو يحادثك إذا رآك .

وفي البداية كنت تغشى مناسبات العزاء . وفي بلدنا فإن الأفراح والمعازي هي من أكثر الأماكن التي يلتقي فيها الناس وهي من أكثر الأماكن التي يعامل فيها الناس معاملات متباينة ومختلفة أشد الاختلاف.

وكنت قد اعتدت أن تكون في صدر المكان وأن تكون محل ترحيب وتقدير .

ولكن الصورة تغيرت تماماً .لم يعد الجالسون في الصدارة يرحبون بك . ولم يعد أهل « المعزى» يدعونك للجلوس إلى حيث كانوا يدعونك من قبل . بل إنهم أصبحوا لا يحفلون بك ولسان حالهم يقول ما الذي جاء بك .

وأدركت بذكـــائك هذا الذي حـــدث وبدأت تتــحـــاشى أن توجـد في هذه التـجـمـعات التي كنت في يوم من الأيام أحد نجومها الكبار .

وانسحبت من الحياة العامة ولم يعد لك إلا بعض ملذاتك الخـاصـة وإلا تلك الأموال الكثيرة التي قيل إنك جمعتها من حرام .

وقد قدر لي أن أراك في حاليك .

ولم أشعر قط في الحالين نحوك بغير الرثاء .

وقد يعجب البعض من أن أشعر نحوك بالرثاء حين كنت فيما خيل لك أنه مجد ومقام كبير .

ولكن هذه هي الحقيقة فأنا أقيس الناس بمقياس مختلف عما تتصوره وتعتقده .

أنا أقيس الناس بقدر ما يحيطهم من ود وحب وعـرفـان وأنا أقـيس الناس بعملهم وإخلاصهم فيه وحبهم لهذا البلد المسكين وعطائهم له وتفانيهم في خدمته ومحاولة إقالته من عثرته .

وقد أكون مخطئاً إذا قلت لك إني لم أجد فيك شيئاً من هذا كله . فلا وجدت أحداً يحبك أو يشعر نحوك بود وعرفان . ولم أعلم قط أنك كنت حريصاً في يوم من الأيام على هذا البلد ومصالحه العليا قدر حرصك على المكاسب الرخيصة والقريبة . من أجل هذا كله كنت أحس بالرثاء لك وأنت منتـفـخ الأوداج منفـــوش الريش وازددت رثاء لك والناس ينكرونك أشـد الإنكار ويزورون عنك أشد الازورار بعد أن انطفأ النور وانفض السـامـر وحـان الحين .

والبقاء لله» ■

التكوين

تاريخ مصر كان مصدر ثقافتي وإلهامي

د. إبراهيم سعد الدين

حرصت منذ بداية تكويني علي قراءة تاريخ مصر كله وبصفة خاصة الإلمام بتاريخها الحديث وعلي مدار رحلة الحياة.

قرأت هذا التاريخ في مصادر علمية رصينة، وذلك مكنني التعرف علي تاريخ الحركة الوطنية المصرية، بدءا من ثورة عرابي ومرورا بثورة ١٩١٩ والفترة ما بين ١٩١٩ حتي ثورة ١٩٥٢ وحتي وقتنا هذا.

والدي من رجال القضاء ، وكان يتنقل في بلاد كثيرة داخل القطر المصري.. ولهذا تنقلت في مدارس عديدة.

ففي المرحلة الابتدائية أمضيت السنة الأولي في الزقازيق الابتدائية، وقضيت السنة الثانية في أسيوط ، وفي الصف الثالث الابتدائي بمدينة طنطا، ثم عدت لألتحق بالسنة الرابعة بمدرسة الزقازيق الابتدائية.

وفي المرحلة الثانوية التحقت بمدرسة القبة الثانوية بالقاهرة ثم عدت مرة أخري إلي مدرسة الزقازيق الثانوية وسبب ذلك كما أشرت في البداية أنني والأسرة كنا نرافق والدي إلي حيث ينتقل كرجل قضاء.



حصلت على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، ومعنى هذا أننى التحقت بالتعليم الابتدائى عام ١٩٣٢، وقبيل ذلك كنت فى رياض الأطفال بالزقازيق.

كانت العودة دائما إلى الزقازيق موطن الأسرة، فأنا من قرية مشتول القاضى، مركز الزقازيق وهى على بعد أربعة كيلو مترات من مدينة الزقازيق، ولنا منزل نقيم به حتى أننا فى تنقلاتنا خارج المحافظة الزقازيق كنت أعود لقضاء اجازة الصيف فى قريتى.

والدى كانت لديه مكتبة محدودة، لانه كان ضعيف النظر، فكان بالكاد يقرأ القضايا، ولم يكن يقرأ قراءات خارج عمله كثيرا إلا قراءة الصحف وبعض المجلات.

ولكن زوج خالتى الشيخ أحمد شاكر كانت لديه مكتبة كبيرة أغلب ما تتضمنه الكتب الدينية والأدبية بما فيها الشعر وكثيرا ما كنت أستعير بعض الكتب من هذه المكتبة للقراءة خصوصا فى الإجازات الصيفية.. حيث لم يكن لدى وقت أثناء الدراسة سوى المذاكرة ومتابعة مناهج الدراسة. ولم تبدأ قراءاتى خارج نطاق التعليم إلا فى المرحلة الثانوية ومن أهم الكتب التى أثرت فى أثناء هذه المرحلة كتاب المنتخب فى الأدب العربى، وهذا الكتاب كان يتضمن شعرأ بدءا من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، وما لم نكن ندرسه فى المنهج الدراسى كان موضع اهتمام كبير، وكثيرا ما كنت أطلع عليه وأقرأه، وفى بعض الأحيان أحفظه حيث كان من شعرائه الذين أحببتهم عمرو بن كلثوم وجرير والفرزدق والبحترى وأبى تمام وأبو نواس وأبو العتاهية وأبوالعلاء المعرى وأبوفراس الحمدانى وغيرهم من الشعراء.

مثل هذه الكتب كانت تجعلنا نتشوق للاطلاع والمعرفة خاصة فى فصل الصيف وهى اجازة طويلة، وكانت القراءة هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن نفعله فى زماننا، أيضا كان كتاب «الأدب التوجيهى» من أبرز الكتب التى أحببت قراءتها ودرسناه فى الصف الخامس الثانوى عام ١٩٤٠، وهو كتاب رائع لأن مؤلفيه كانوا جمهرة من علماء وأساتذة اللغة العربية من أمثال د. طه حسين وأحمد أمين ود. شوقى ضيف.. تضمن هذا الكتاب النقد ومقدمة فى النقد ثم الكتاب والقصص والمقامات.. كنت أسعد بقراءته، فهو موسع للمدارك، ليس فقط فى الأدب العربى، ولكن فى الآداب العالمية.

ولو عدت مرة أخرى للحديث عن

التكوين

مكتبه الشيخ أحمد شاكر وهو الشقيق الأكبر للشيخ محمود شاكر أذكر أنها كانت تضم كتباً من بينها كتاب الأغاني الذى أحببت قراءته كما كان للشيخ أحمد شاكر كتاب عن الشعر والشعراء وكتابات مختلفة عن الشعراء .. كنت أحرص أيضا على قراءتها وما بين وقت وآخر وأنا أزور بيت خالتى ، كنت أحصل على بعض الكتب لقراءتها ثم إعادتها.

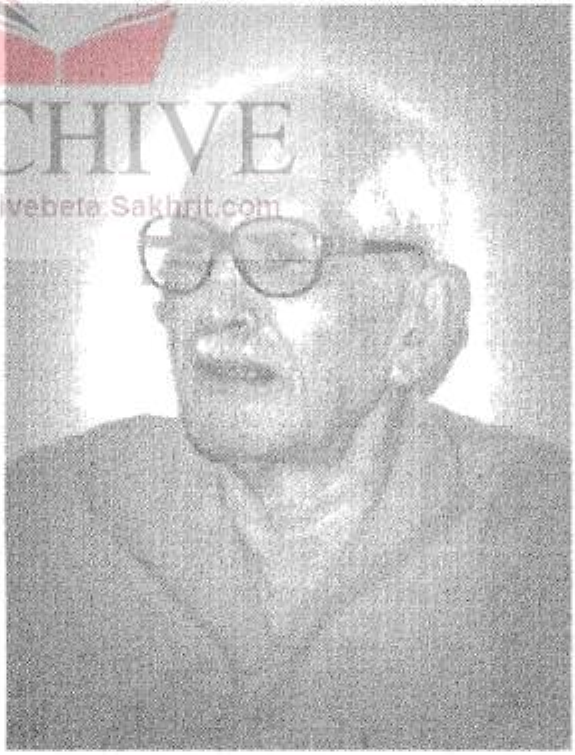
صحيح أنها لم تكن قراءة منهجية ولا منظمة ، إنما كانت تجيء نتيجة ما يستهوينى من الكتب التى تقع عليها عيناى.

تنوع الثقافات

فى فترة الشباب استهوتنى قراءة بعض المجلات من بينها مجلة المقتطف وكانت تحوى مقالات علمية متنوعة ، ثم بدأت أقرأ مجلتى الثقافة والرسالة بصفة مستمرة كما قرأت «اللطائف المصورة» وقصص جورجى زيدان التاريخية والإسلامية.

وكل هذه القراءات كانت تعد أبرز المصادر التى أستقى منها المعرفة العامة بالإضافة إلى دراستى، والتى اكتشفت من خلالها عشقى لقراءة التاريخ المصرى، وكانت تستهوينى قراءة الفترة الفرعونية والفترة الخاصة بتاريخ مصر الحديثة ابتداء من عهد محمد على وما بعدها.

ومما فتح لى المجال لقراءة الكتابات عن الفترة الفرعونية كان زوج أختى، وكان مدرسا للجغرافيا والتاريخ وفى الوقت نفسه كان قد التحق بالجامعة قسم الآثار لدراسة الآثار المصرية، وكانت مكتبته حافلة بالكتب التى تتناول التاريخ الفرعونى ولهذا وجدت فى مكتبته ذخراً كبيراً لقراءة هذا الجانب المهم من تاريخ



مصر.

فى المدارس كانت دراستنا للتاريخ بشكل محدود . لكن ما أذكره أن أستاذ مادة التاريخ في السنة الخامسة الثانوية كانت لديه شخصيته المحببة لدى، من خلاله أحببت القراءة فلم يكن يكتفى بإلقاء دروس التاريخ من الكتاب وينتهى الأمر، ولكنه كان دائما يحثنا على القراءة والتحصيل. ومن الكتب المهمة التى حرصت على الاطلاع عليها كتب عبدالرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديثة ، بدءاً من محمد على إلى ثورة ١٩١٩، وهى كتب تتميز بجمع المعلومات وتدقيقها وتغطيتها للفترات المختلفة تغطية دقيقة، بحيث تعد هذه الكتب مرجعا لكل من يودون التعرف على تاريخ هذه الفترات

كما أتيحت لى قراءة كتب سليم حسن وعدد من الكتاب الذين تناولوا بالكتابة التاريخ الفرعونى وتاريخ مصر القديمة وكل هذه الكتب وغيرها كانت تمدنى بالمعرفة والثقافة في المجالين اللذين كنت شغوفا بهما.

الاهتمام بثقافة الغرب

كان اطلاعى على الثقافة الغربية قليلاً إلا ما قدمه عنها الأدباء المصريون من ترجمات ، فمثلا جاءت معرفتنا بشكسبير من خلال ترجمات د. محمد عوض محمد بالفة العربية، حيث كانت لغتنا الثانية هى اللغة الانجليزية ونحن طلاب بالمدارس الثانوية محدودة، ولا نستطيع أن نطلع على هذه الكتب بلغتها الأصلية وفى هذه الفترة أيضا كان من أجمل ما يقرأه المصريون «روايات الجيب»، وكان يتم من خلالها ترجمة كثير من القصص الفرنسية والانجليزية.

قرأنا الأدبيات لبلزاك وفولتير وجان جاك روسو وتولستوى وديستويفيسكى خاصة ما ترجم لهؤلاء ، خاصة أن هذه الفترة قد نشطت فيها حركة الترجمة، وكان المترجمون على مستوى عال.

وكان السبب الرئيسى لانصرافنا للقراءة فقط عدم وجود وسائل تسلية أخرى، فلم نكن نهتم بالسينما أو المسرح ،ولم يكن التليفزيون موجوداً، ولم يكن متاحا سوى ما نسمعه في الراديو لعبد الوهاب وأم كلثوم وبعض تمثيليات لنجيب الريحانى.. فضلا عن شغفنا خاصة فى فترة الحرب العالمية الثانية بمعرفة ماذا يفعل هتلر من غزوات والاطلاع على ما يحدث فى هذه الحرب.

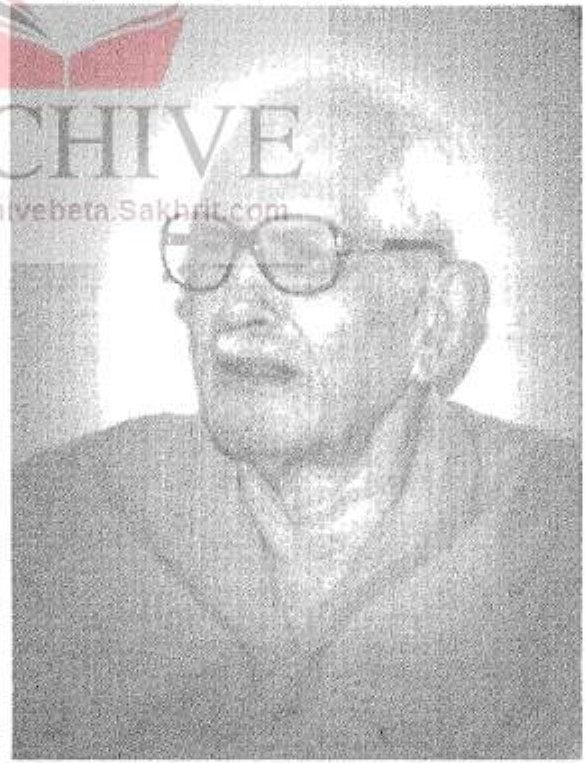
الجامعة.. مرحلة جديدة

التحقت بكلية التجارة فى عام ١٩٤١ وتخرجت عام ١٩٤٥ ، وكان من بين الدراسات التى درسناها مادة الاقتصاد.. وفى هذه المرحلة الجديدة من حياتى بدأت

التكوين

تشدني دراسات الاقتصاد والقراءة في الاشتراكية ، وكان أحد أساتذتي المهمين جدا في تلك الفترة الدكتور نظمي عبدالحميد، كان عالما وله توجهاته الاشتراكية ، حببني في دراسة علم الاشتراكية، وقراءة بعض الكتاب سواء باللغة العربية أو الانجليزية حول الموضوعات الاشتراكية على وجه التحديد.

في هذه الفترة كنت اكثر تعلقا بحبي لكتب الاشتراكية حينما بدأت تعرف على النشاط الثقافي الذي كانت تمارسه عناصر اليسار، وتعرفت على لجنة نشر الثقافة الحديثة وكان مقرها شارع قصر العيني ، حيث كانت تقام فيها المحاضرات التي تتناول قضايا فكرية ودولية يقوم بها محاضرون من كبار المثقفين في مقدمتهم الدكتور محمود عزمي وغيرهم ، كما كنت أذهب إلى دار الأبحاث العلمية بشارع نوبار، حيث كانت تتم مناقشة الموضوعات العلمية المختلفة، وكان يشارك في نشاطها مجموعة من أساتذة كلية العلوم ومن بينهم د. عبدالمعبود الجبيلي ود. محمد القصاص ود. عبدالعظيم أنيس ود. عبدالرحمن ناصر ، ونشط هؤلاء الأساتذة في مناقشة الموضوعات الاقتصادية والسياسية والأدبية أيضا.



وأتذكر على سبيل المثال من زملائنا الذين كانوا يشاركون معنا في لجنة نشر الثقافة الحديثة الشاعر كمال عبدالحليم ود. عزالدين فوده ويوسف الشاروني وأحمد رشدي صالح وأحمد صادق سعد.

وابتدأت في هذه الفترة أتعرف على الثقافة الماركسية والاشتراكية وكان اهتمامي بها كبيرا.

الانفتاح على ثقافات العالم

حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الدكتوراه عام ١٩٥١ بجامعة الينوى فى إدارة الأعمال، شدتني تماماً مكتبة هذه الجامعة هذه الجامعة العريقة، خاصة وأنه قد خصص لكل طالب من طلاب الدكتوراة غرفة صغيرة يستطيع فيها أن يحصل على ما شاء من الكتب فى جميع الثقافات، وإذا احتاج هذه الكتب لمدة أطول يمكنه ذلك، بحيث لا تعود إلى المكتبة، وتظل داخل الغرفة، ومن حسن حظى أن مكتبى الصغير داخل غرفتى كان مجاورا للجزء الخاص بالدولية الثالثة والكتابات الخاصة بالماركسية واللينينية، فيمكنني أن أمد يدى فى أى وقت لأحصل على الكتاب الذى أريده.

وكلما شعرت برغبة فى الخروج من الانكباب على موضوع رسالة للدكتوراة، والترويح النفسى، كنت أقرأ فى هذه الكتب، خاصة أن مكتبة جامعة الينوى كما أشرت مكتبة غنية بالكتب فى مجال الثقافات المختلفة وبالتالى كان هذا متاحا لى.

كنت قد أيقنت اللغة الانجليزية، وذلك سهل على قراءة كل ما تقع عليه عيناى. وفى أثناء الدراسة كنت أخرج من مجال الدراسة لقراءة الأدب المتاح، سواء فى الأدب الانجليزى أو الأدب الأمريكى خاصة الكلاسيكيات فيما عدا شيكسبير، لأن ذلك كان يستلزم دراسة خاصة.. وكل هذه القراءات التى شدتنى أثناء البعثة كانت فى فترة التكوين.

... بعد حصولى على الدكتوراه عام ١٩٥٥ عدت إلى القاهرة، وكان اطلاعى المستمر على ما ينشر فى مصر من كتابات أدبية أو تاريخية أو سياسية.

ففى الأدب بدأت أقرأ لطه حسين وتوفيق الحكيم، وأذكر أننى قرأت العبقريات للعقاد وأنا طالب فى المرحلة الثانوية ولم تشدنى كتاباته.. لأننى أحسست أن هذه العبقريات ليست كتبا علمية بالمعنى العلمى الصحيح، فمثلا فى عبقرية عمر نجده يختار مواقف عمر بن الخطاب، ليثبت أن عمر عبقريا.

وقس على ذلك فى كل العبقريات التى كتبها!

وذلك على عكس «على هامش السيرة».. لطه حسين، فنجد هذا الكتاب مشوقا تماما للقراءة وأيضا «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، فهو كتاب جيد.

وفى رأيى أن كتاب عبقرية محمد للعقاد لا يرقى إلى نفس قوة وتأثير كتاب

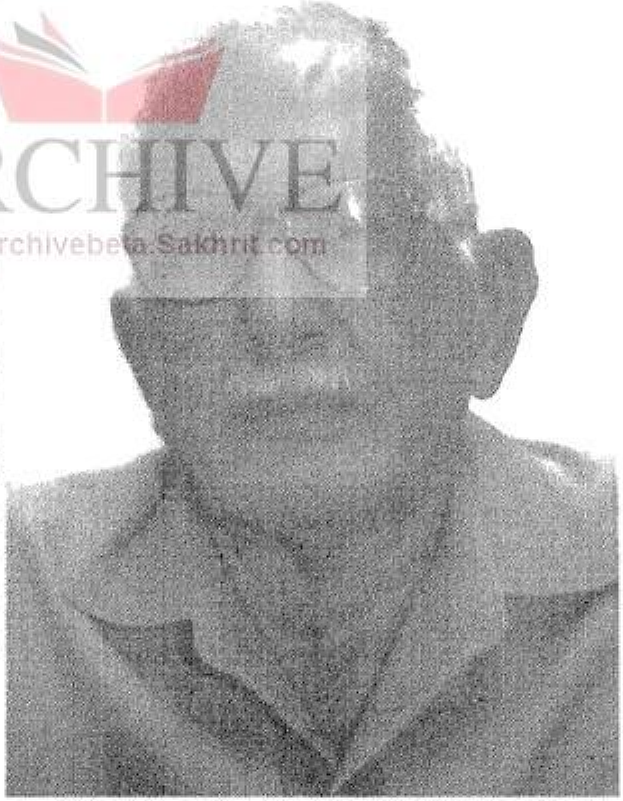
التكوين

«حياة محمد» للدكتور هيكل.

فحينما تقرأ كتاب «حياة محمد» يعطيك هذا الكتاب تاريخا إنما العقاد يختار مواقف هو يقدمها باسم العبقرية، ولذلك لم يشدني العقاد كثيرا لقراءة كتاباته.

أيضا حرصت على الاطلاع على أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس ، وكنت صديقا لنعمان عاشور ، وكنت أتابع كتاباته أولا بأول، وحضور جميع مسرحياته . وكنت على صلة مستمرة بأحمد رشدى صالح، وأحمد صادق سعد، فضلا عن أننى مارست الكتابة فى «الفجر الجديد».. كما شاركت فى النشاط الثقافى فى لجنة نشر الثقافة الحديثة، وقد قدمت دراسة عن ثورة ١٩١٩، ودراسة حول مشكلة الأرصدة الاسترلينية.

ففى أثناء الحرب العالمية تراكم لمصر حوالى أربعمائة مليون جنيه استرلينى كديون على بريطانيا كنتيجة لما حصلت عليه بريطانيا من خدمات فى مصر أثناء الحرب، منها خدمات السكك الحديدية، وغيرها، ووصلت مصر فى مفاوضات الحصول عليها، ورفضت بريطانيا دفع هذه الديون إلا بالتقسيط، بحيث ندفع ٢٥ مليون جنيه كل سنة وتناولت هذا الموضوع فى شكل محاضرة ، ثم نشرتها فى كتيب، وبعد أول اصدار باسمى فى عام ١٩٤٩ وكنتيجة طبيعية لدراساتى فى الخارج بدأت أقرأ بالانجليزية كل ما أحب الاطلاع عليه، وأصبح متاحا فى قراءة الكلاسيكيات الانجليزية ، وكذلك متابعة ما يصدر من كتابات سواء



فى السياسة او فى بعض المجلات الخاصة بالسياسة الدولية، ومن بين ما تابعته نشرة سوفييتية كانت تصدر بعنوان New Times بالإضافة إلى المجلات الأمريكية التى تصل إلى مصر.

كما حرصت دائما على متابعة وقراءة كل ما يختص بالاشتراكية والتطور الاشتراكى والتخطيط الاشتراكى والتحولات الاشتراكية، والخلافات التى كانت تنشب بين الصين والاتحاد السوفييتى!.

.. إن ما أنصح به كل المصريين وخاصة الشباب.. هو معرفة تاريخ أمتهم.. فدراسة التاريخ المصرى ومعرفته مسألة أساسية بالنسبة لكل شاب.

د. إبراهيم سعد الدين

- ولد بقرية مشتول القاضى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية
- حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦ من مدرسة الزقازيق الابتدائية بعد أن تنقل بين عدة مدارس بسبب طبيعة عمل والده بالسلك القضائى كان كثير التنقل بين محافظات مصر
- شغف بقراءة كتب التاريخ منذ مطلع شبابه خاصة مؤلفات عبد الرحمن الرافعى عن تاريخ مصر الحديث ومؤلفات سليم حسن عن تاريخ مصر الفرعوني
- تخرج في كلية التجارة جامعة القاهرة عام ١٩٤٥ وشغف فى هذه المرحلة بدراسة الفكر الاشتراكي
- حصل على درجة الدكتوارة فى إدارة الأعمال من جامعة إلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٥
- بعد حصوله على درجة الدكتوراة عاد الى مصر ليشارك فى الحياة السياسية والفكرية وذلك فى مرحلة التحول الاشتراكي فى الستينيات من القرن العشرين ومازال يواصل العطاء حتي الآن لوطنه ولأمته العربية.

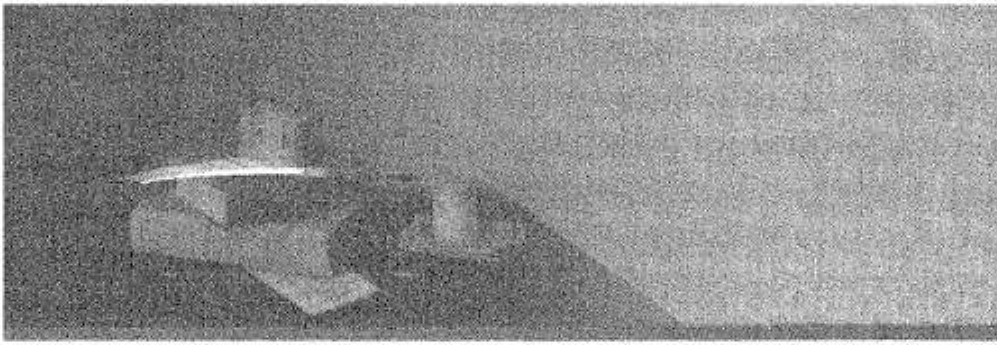
دور بناء للشباب المصري

يبدو أنه قد آن الأوان لنقلب معاً صفحات الهلال فى مسيرته الطويلة، دون أن نهمل أو نغفل قضايا الإنسان المصرى المعاصر، ربطا الماضى بالحاضر استشرافا للمستقبل ، فمنذ أكثر من خمسين عاماً طرح الهلال قضية المشاركة السياسية للشباب فى المجتمع المصرى بصورة أكثر طموحاً مما تطرح به اليوم ، ففى العدد الممتاز من الهلال – يناير سنة ١٩٤٨ – شباب الجيل ، أجرى الهلال استفتاء شارك فيه صالح حرب ، وعزيز المصرى ، ومنصور فهمى ، وعلى أيوب، وفتحى رضوان بعنوان «وزارة من الشبان» ، وقدم الهلال للاستفتاء بقوله «نحن اليوم قادمون على حياة جديدة .. لابد أن تدب فى جميع مرافقها روح فتية جديدة ، ومناصب الحكم فى الشرق تكاد تكون مقصورة على الشيوخ والكهول». وتضمن الاستفتاء ثلاثة أسئلة. هل يصلح الشباب لتولى مناصب الوزارة؟ وكيف نعد الشباب للحكم؟ وإلى أى حد يجب أن نستفيد من عناصر الشباب؟ وكانت نتائج الاستفتاء تشير إلى أن الشباب المصرى ذو همم واستعداد وكفاية ويصلح لتولى مناصب الحكم والوزارة إلا أنه يحتاج إلى كثير من التجارب والمران والخبرة ، وأن يفسح المجال له فى ميدان الخدمة العامة والعمل الوطنى . وعن طرق وأساليب إعداد الشباب للحكم يرى البعض تعيين الشبان الأكفاء فى مناصب وكلاء برلمانيين للوزارات ، أو عن طريق التنشئة السياسية فى الأحزاب السياسية أو فى مكاتب الوزراء . أما عن مدى الاستفادة من عناصر الشباب فيرى البعض ألا تزيد نسبتهم الآن (سنة ١٩٤٨) عن الثلث فقط، والبعض الآخر لايرى تحديد نسبة خاصة للشباب أو للشيوخ ، ورأى ثالث يرى ألا يجعل لنسبة الشباب أو الشيوخ أى اعتبار فى تولى مناصب الوزارة.

ولنا أن نتساءل أين نحن الآن سنة ٢٠٠٢ من الأفكار التى طرحها الهلال فى قضية مشاركة الشباب السياسية فى المجتمع المصرى سنة ١٩٤٨. لقد أثبت الهلال أنه سابق لزمانه، وأنه مجلة الغد وبعد الغد.

عمرو عبدالمنعم حموده – برما – طنطا

الهلال : الفرصة متاحة الآن للشباب ليثبت قدرته على المشاركة، وكما فعل الهلال عام ١٩٤٨ نحن نطالب الشباب بأن يقوم بدوره كاملاً ويشحذ أسلحته بالعمل والتفانى وإثبات قدرته وكفاءته لتحمل المسئولية وهنا سوف تفتح له الأبواب المغلقة لأننا فى أمس الحاجة لهذه الكفاءات.



الأهرامات.. تغنى

مصر التى لاتعرفونها.
هى الندى،
الحواديت التى لاتأسر العير
انتقاماً للحداء
(أزهرها) المنيف يزهو باسقا
على قباب النور..
يتلو كل أسرار السماء
مصر السواقى ..
لا تضخ غير حلمنا الشفيف..
كم تروم رشفة الزيتون
فى حضن الذرا
لتستعير من شذاها
من أجل نوات الفداء
مصر الفراعين،
المماليك،
الأجاويد،
العروبة
التى تفور فى عروقنا بالانتماء
والوافدون
من ممرات الحنين ..
عاودوا
ملء الفؤاد
من ينابيع الإباء
من لاينام فى جنان دفتها
من لا يؤوب حيث فاء ظلها
مشرد
يعيش دوما بالأسى
محروم من
ترنيمها عند المساء!!

عبد الناصر أحمد الجوهري
دكرنس - الدقهلية

اضرب الضعيف.. يخاف القوى؟

تخوض الولايات المتحدة الأمريكية حروبها خارج أراضيها، ولم يحدث أن خاضت حربا داخل أراضيها ، وما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وأسفر عن ٣٤٠٦ قتلي ومفقودين يعد زلزالا فى معنويات العسكريين الأمريكيين بدرجة غير مسبوقة.

وما حدث يعد انفجارا يستلزم الدفاع ضد أخطار مجهولة وغير مؤكدة وغير مرئية أو متوقعة.

ولهذا كله تعتمد أمريكا على إرهاب العالم كله بالقوة الجبارة التى تملكها من طائرات وصواريخ وقنابل وجنود وحاملات طائرات عملاقة تجوب البحار والمحيطات.

إنهم بدأوا يفكرون فى الآتى : اضرب الضعيف أولا حتى تظهر القوة للعالم ولذلك بدأوا بضرب أفغانستان بالقوة الجبارة وبكل أنواع الأسلحة برا وجوا وبحراً ، وبدا

الدمار للعالم كله ودون رحمة أو شفقة لشعب أعزل لايملك من نفسه أمرا.

ولابد من جولة أخرى للتخويف والإرهاب . ضرب العراق مع أنهم يعرفون جيداً أن العراق ليس له أية علاقة بما يحدث .. ويقولون إنهم يحاربون الإرهاب لا .. إن منابع البترول هى الهدف .. وانهم سوف يضربون «المربوط» الضعيف حتى يخاف «السايب» القوى منهم.

والسؤال .. إلى متى العدوان والعالم يتفرج ليس على العراق، ولكن على فلسطين؟!

جمال العطار

الاسكندرية - كامب شيزار

الكيل بمكيالين

والضحية هم العرب!

حول نفس الفكرة وبعد أحداث ١١ سبتمبر يتناول د. صمويل لبيب سيحه التداعيات التى حدثت بعد حرب أفغانستان وشن حرب لاهوادة فيها على تنظيم القاعدة وطالبان وتشريد مئات الآلاف ووقوع الضحايا ، ومع ذلك لم تؤت تلك الحرب ثمارها التى كانت ترجوها أمريكا بل أخذت أمريكا تكيل التهم لدول إسلامية بعينها واتهامها بالإرهاب، وظهرت مفاهيم مغلوطة تحت مسمى صراع الأديان مرة وصراع الحضارات وصراع الثقافات مرات أخرى. إن الإصرار على شن حرب ضد العراق مازال قائماً ، ونرى الرئيس بوش ليل نهار يصرح بذلك فى الوقت الذى نرى فيه نزيف الدم فى فلسطين ودون أن يقال عن إسرائيل بأنها دولة عنصرية تستحوذ على أسلحة الدمار الشامل كما يتهمون العراق بذلك..

لماذا يقف العالم مكتوف الأيدى وهو يرى مايحدث من أمريكا .. ولماذا لايتخذ العرب موقفاً موحداً تجاه هذا الغرور والصلف الأمريكى ؟

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا



كـرامة



مهداة إلى روح الشهيدة (وفاء إدريس)

العمر عمر واحد

دوما نكابد للوصول ..

وفى النهاية لانصل

وطن حزين مجهد ..

متفرق

وجراحه لاتندمل

الموت موت واحد

الموت آت .. ما العمل؟!

الموت آت.. .

مت ياوطن

مت مثلما ماتت وفاء

مت فى اعتزاز النخل .. مت هذا المساء

مت فى بكاء القناديل التى لاتحتمل

مت فى انحسار البحر .. مت

مت فى مقاومة البلاد

مت في صمود المسجد الأقصى

الذى كشف الغطاء

مت فى شموخ «محمد بن الدرة»..

المذكور فى سفر الولاء

فى رمية الحجر المقاوم مت

ومت

فالموت ليس له انتهاء!!

محمود أحمد المصلي

شربين

ملحمة ثقافية

جاء عدد سبتمبر الماضي ليضفي علينا ضياء وقبسا من تزاوج الماضي بالحاضر، وليصنع ملحمة ثقافية حملها الهلال خلال رحلة طويلة عمرها مائة وعشر سنوات من العطاء الثقافي والفكري والعلمي المتنوع.

إن الهلال مجلة تميزت بتنوع هذه الثقافة التي يمكن أن يستفيد منها الأديب الشاب والعالم المتخصص، وفي رأيي أن ذلك هو السبب في تجدد شبابها ومسيرتها التي لم تتوقف على مدى هذه السنوات الطويلة.

والهلال من مصطفى مشرفة إلى أحمد مستجير، ومن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم إلى محمد رجب البيومي ومن سلامة موسى ود. أحمد زكي إلى مصطفى سويف، سوف تظل هذه المنارة التي تضيء حياتنا الثقافية، مهما توالت السنون والأيام، بفضل التطوير الذي نشهده فيها، والحرص على التنوع في مقالاتها وبحوثها وبفضل جهود القائمين عليها والبحوث المتميزة لكتابها.

فتحية لمجلتنا التي تبعث فينا الأمل دائماً بأن الفكر العربي سوف يظل شامخا بفضل كتابنا ومفكرينا، وكل مانرجوه أن تواصل الرحلة تحمل لنا عطر الماضي الجميل، وترسم لنا طريق المستقبل المليء بالخير، وتثبت للعالم أن حضارة العرب سوف تظل باقية مادامت ثقافتهم نابضة وأقلامهم حرة تشارك في صنع حضارة الإنسان.

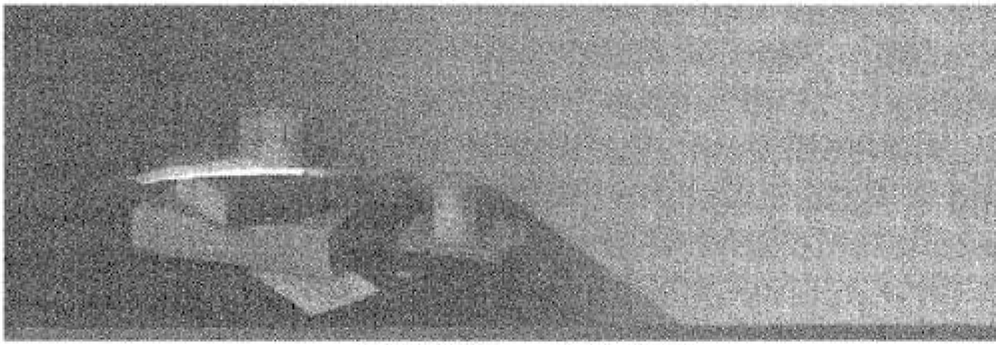
عبدالرحمن الدعليس - فلسطين

أكتوبر

أكتوبر يافرحة مصر
ياتاريخ النهضة والنصر
كم ضحى بنوك وأحبابك
ياأكتوبر في وجه الشر
كم جاد بنوك بحياة
ونفوس في يوم العسر
واقتحموا خطوط الأعداء
أولهم بارليف خر
وهزمنا جيشا لايقهر
ودعاوى من أهل الغدر
وابتسمت شمس عربية
وانتشر النور من النصر
إن كان تاريخك ياوطني

معهود قد فاق الحصر
فتاريخك في يوم أكتوبر
تيجان في هذا العصر
مانسى أبداً أيامك
أكتوبر يا أعظم شهر
أكتوبر مولد أمة
عربية في هذا الدهر
أكتوبر كي يصبح وطنك
عربي مقدام حر
لابد علينا من وحدة
في وجه عدو مغتر

أحمد نادى عبدالرحمن
ديروط - أسيوط



العشوائيات.. ومشكلات المرأة

جمعية نهوض وتنمية المرأة (٨ ش: متحف المنيل) قامت بدور مهم من خلال عملها بالمناطق العشوائية والتى تمثل أهمها فيما يلى:

قضايا المرأة المعيلة والتى تمثل ٢٠٪ من النساء فى مصر و٤٪ من النساء فى المناطق العشوائية مثل منشأة ناصر، وهذه الفئة تعانى من العديد من المشكلات فى مقدمتها المشكلات الاقتصادية الناتجة عن الفقر الشديد وعدم الوصول إلى الخدمات ومشكلات أخرى ثقافية واجتماعية ناتجة عن غياب المساواة والفروق الثقافية والاجتماعية ، وغياب الوعى الصحى والبيئى.

وتبرز قضية مهمة وهى حق الجنسية لأبناء المصرية المتزوجة من أجنبى وخاصة ، بالنسبة لتعليم أولادهن وعدم قدرتهن على دفع المصروفات واضطرارهن لتزويج بناتهن مبكراً للتخلص من هذه المشكلات .

أيضاً مشكلة الفتيات المراهقات المهمشات فى هذه المناطق واللاتى يتسربن بنسبة (٥٠٪) من التعليم.

هذه الفئات تعانى من عدم القدرة الوصول إلى صانعى القرار .. فهل نجد من يتقدم لحل تلك المشكلات وحتى لانفاجأ بظواهر عنيفة فى تلك المناطق العشوائية؟!

د. إيمان بيبرس
رئيس مجلس إدارة الجمعية

أمر لايدعو للعجب «قصة قصيرة»

فى حركة تمثيلية فيها الكثير من البهلوانيه ... شمر عن زنديه .. قدم رأسه إلى الأمام .. أطلق صيحة أيقظت عنكبوت السبورة ... وحركت الغبار المتكدس على الطاولة والمقاعد وفى زوايا الغرفة .. صرخة وحركة أشعلت المدفأة التى لم يزرها الوقود منذ تركيبها وقال . أنا أبو الورد .. إياكم من غضبى ووضع يده على شاربيه المحلوقين واستسلم الطلاب للضحك ، وصار فى الصف هرج ومرج.

قد لفت أنظار الطلاب الذين يترقبون مثل هذه النماذج البشرية .. شعروا بشيء ما سرق قنسية الصف والعلم فتثاءبت السبورة والكتب ، وامتد عليها العنكبوت . الصف حركة والسبورة جامدة .. الأصوات متداخلة والكتب مغلقة. الكرسى يئن من الحركة ومن ثقل أحاديثه المثقلة بالكذب والخيال المولد ..

أبو الورد وهناك من يقول : أبو القرد ، أضحى حديث الطلاب فى المدرسة ، ووصل الخبر إلى المدير والمدرسين ، وأعان الله.المدرس الذى يدخل القسم بعده ... سامهم وضايقهم

أنت والهلال

مايسمعونه وما يتناقله الطلاب وذووهم ... أبو الورد حكواتي جيد ... ومتكلم مقنع .. وفوق هذا ملاكم ومصارع رشيق ... ازدادت حركة الخبر ، وتنامت مفرداته، فسيطرت الدهشة والغرابة عندما علم الجميع أن أبا الورد مكرم ومحتفى به نظراً لخدماته وعطائه وإلمامه باختصاصه ... ازداد تأثيرهم عندما كرمه الموجه ونصبه على رأس مجموعة في التصحيح ، فهذا هو على حد زعمه قدير ومعطاء ، ولذلك فضله مع بعض الصبية المدللين وأصحاب الحظوة لتمثيل المدرسين في معالجة ومناقشة الأسئلة في الندوات والامتحانات ... إزدادت دهشتي أكثر عندما عثرت على «أبو الورد» وقد سلمه الموجه مفتاح غرفته ونصبه بواباً وحارساً للغرفة على مرأى من الآخرين وهو راض فعرفت السبب بعد أن أدرت ظهري ونخبت وجهي عندما شاهدته يقود أولاد الموجه بل أحفاده والموجه أمامه..!

محمود أسد - حلب - سوريا

تباين

لا أنا أنت وإلا
كنت يوما قاتلي
إن تكن أنت أناك
يستقر الوطن
يستفيد البدن
تنتهي كل القضايا
تبتدىء جنات عدن
في عناق الأبد
إن أكن إياي
لا أخشى تفاصيل التوتر والقلق
أو يجافيني منام المكره
إن يكن كل أناه
لن ترى لوني تغير
لن أقصر في اجتيازي للمسافات المقيمة
في طحالك
بين جلدك
فوق نفسك
لن تراني أتنفس
عندما يفتر دمي
أو تراني أتقلص

بين أوشاجي ودمي وعظامي
لن أعاني من قيودك
إنني إن صرت يوماً ذات نفسك
سوف أفنى .. أتبدد
إن يكن يوما كلانا في توحد
سوف نصلب
في ميادين الحقيقة
سوف نرجم
بالتفاصيل العقيمة
سوف نطعن بنصال
من تواريخ سقيمة

***

إن تباينا وأصبحنا كيانين
اكتشفنا
إننا دوما خلقنا في تباين
لم نكن كلا موحد
لن يكون الكون كلا متجمد
لن يكون
لن يكون

د. حسنه عبد الحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس



المسيرى أديبا

مرت ذكرى وفاة الأديب عبدالمعطى المسيرى (١٩٧٠/٩/٢٧) كاتب القصة الذى علم نفسه القراءة والكتابة، وصاحب مقهى المسيرى بدمنهور والذي كان مكتبة عامة ومعرضا للفنون، يرتاد حلقاتها الأدبية وندواتها المثقفون والفنانون من القاهرة: محمود تيمور، يحيى حقى - على أدهم - محمود البدوى - زكريا الحجاوى - محمود حسن إسماعيل، بالإضافة إلى توفيق الحكيم الذى كان أحد روادها الدائمين طوال فترة عمله وكيلاً للنيابة بمدينة دمنهور.

والمسيرى عالج كتابة القصة الواقعية التى أثارت انتباه القراء والنقاد حيث كتب عميد الادب العربى د. طه حسين مقدمة لمجموعته القصصية (على رصيف المقهى) عام ١٩٢٢ مشيدا بفكر صاحبها ومدى احتضانه بالوعى والحب لأبطال قصصه من عامة الناس.

نشر المسيرى أيضاً (الظامئون - الصعاليك - روح وجسد)

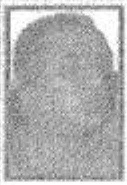
أحمد إبراهيم خضير - فوه - كفر الشيخ

ليلة الإسراء

بأطياف من الذكرى ... تطوف الرحلة الكبرى
لعل قلوبنا تحيا ... وتحيى ليلة الإسرا
رسول الله كم عانى ... وكان عناؤه نصرا
أتاه الروح فى ليل ... وسبحان الذى أسرى
تحرك ساريا ركب ... من الأنوار كم سرى
فصار الليل فى صحو ... يريح بنوره [illegible]
ودار العطر فى جو ... فكل واجد عطرا
ووسل الله فى الأقصى ... بدور تنتظر البدرا
بهم صلى قضى أمرا ... ودار ليكمل الإسرا
بأمر الله ما يجرى ... فسبحان الذى أجرى
وخير خيرنا فاختار ... منهما الفطرة الخيرا
فذا لبن وذا خمر ... تحاشى منهما الخمرا
هداه الله لم ينظر ... لغير الفطرة العذرا
ويعرج كى يرى ربا ... ومن آياته الكبرى
رأت مولاه عيناه ... أو القلب استمع واقرا
فهذا قال بالأولى ... وقال سواه بالأخرى
وخاطب ربه الأعلى ... خطاب السر أو جهرا
سماء كان تحمله ... سماوات بها مرا
ومن فوق الطباق السبع ... أكمل بدرنا الأمرا
ليصبح ليلنا السارى ... صباحا سائرا فجرا

حسن أبو الغيط - المصيلحة - منوفية

الكلمة الأخيرة



ذو الجين.. المصرى!

بقلم: محمد مستجاب

والجين هو الوحدة الاساسية فى الخلية الحية التى تنقل الصفات الوراثية فى الكائن (النبات والحيوان بانواعه المختلفة - شجرة أو انسانا أو بقرة أو قردا - ويمكنك أن تضيف الملائكة والشياطين دون اهتمام بأن ذلك خارج تخصصك وتخصصى أيضا وذو الجين لقب لم يطلقه بعد واحد من الخصوم أو الأصدقاء على عالم وراثة مصرى يعتقد أن اسمه الاصلى أحمد مستجير ولد فى مصر وتلقى تعليمه بين حوائطها وألواح كتاتيبها وجداول ضروبها، ثم لم يلبث أن وقع فى غرام علوم الزراعة ليقضى حياته فى التنقل والارتحال سعيا لاختراق الخلية الحية بين المنصورة والقاهرة وانجلترا وألمانيا وسويسرا وجبل المقطم وأسيوط وكل أنواع الدروب والسطوح وقنوات الرى أو البحيرات أو المستنقعات بين ادغال الذرة والقصب والارز والقمح والنخيل والجميز ويلح الواحات وتين الاشواك، يمعن ويفحص ويبتسم ويحتكم إلى اشعار أمثاله الذين ادمنوا الارتحال كالمتنبى وامرؤ القيس، ليقع فى شرائح فردوس الشعر وعزائه علاجاً لأحزان الفؤاد وارهاق مدرجات الجامعة وجهنم تحليل الخلايا بالعقل أو بالمجهر، مع إضافة قليل من الشجن الوطنى الذى يلازمه فى الاطلاع على البحوث العلمية أو مصادقة علماء الغرب ببساطتهم وهدوئهم ونجاتهم من اختناق الروتين المصرى العتيد، وإذا كان ثمة فرق بينه وبين زميل له يعرفه أصحاب المعرفة الاصيلة

- وأعتقد ان اسمه ذو النون المصرى والذى ظهر قبل ذى الجين المصرى بأحقاب قليلة لاتتعدى أثنى عشر قرنا من الزمان - فإن هذا الفرق يظهر واضحا فى قدرة ذى النون على ادراك علوم الشريعة وهى علوم الفقهاء من أهل الظاهر، ثم قدرته على اختراق علوم الحقيقة (وهى علوم الصوفية من أهل الباطن)، مع قدرته الفائقة على البحث فى الصنعة - وهى الكيمياء، والتى له فيها مصنفات منها (كتاب الركن الاكبر وكتاب الثقة فى الصنعة وكتاب العجائب) - مع عديد من العلوم والمعارف الاخرى، فإن ذا الجين المصرى له قدرات أخرى افترشها عقله العصرى الحديث لتصبح علوم لوراثة حديقته وغاباته وأدغاله وموطن نومه وهجوعه ويقظته وفطنته وذكائه وبساطته وانسانيته التى تزداد رقة كلما تحرك وبحث وترجم وحاضر وحاور وأشرف على الرسائل وعاد إلى زيارة كل عواصم الدنيا، ليصبح ذو الجين المصرى رسالة عصرية إلى قلوبنا التى تسعى كى ترتاح أو تهدأ أو تفخر بعض الوقت، وأن يحوز جائزة ذات شأن وطنى تصلح شأن الجين الجديد لثروة مقبلة .


Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة فى رصيدك...
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privileges
إشترك الآن في برنامج المسافر الدائم لمصر للطيران لتتمتع بالخدمة الخاصة والوزن الإضافي للأمتعة والرحلات المجانية وتعلية درجة السفر والعديد من المزايا الأخرى
EGYPTAIR Plus



أدبيات
رفاعة الطهطاوي
سيكولوجية الإرادة
غاندي
مقاتل بلا حروب
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون: ٥٩٠٨٤٥٥ ٦٨٣٥٥٥٤ ٢٥٨٦١٩٢ فاكس: ٨٢٧٠٠٢


الهلال
ديسمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
من هم الأغنياء فى مصر؟!
التقريب بين المذاهب الإسلامية
القدسية فى عمارة المسجد
شاعر الربابة فى رمضان



لوحة : عازف الربابة
للفنان : إيهاب شاكر
٢٠٠٠م

لوحة وفنان

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩٠ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير
محمد أبو طالب المستشار الفني
عاطف مصطفى مدير التحرير
محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥,١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية. البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوروبا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٢٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤٩٩٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادى عشر بعد المائة
شعبان ١٤٢٣ هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



رحلة نجاح مطابع دار الهلال

رحلة طويلة مرت بها مجلة الهلال لكي تحقق ما وصلت إليه من تطور كبير فى فن الطباعة ، والذى استلزم جهودا كبيرة منذ صدورها عام ١٨٩٢م .

كانت مطابع دار الهلال فى عهودها الأولى مشهودا لها بالدقة والإتقان ، ولذلك كانت الصورة أهم ما يميزها . بل وكانت العنصر الذى وضع الهلال فى تحدٍ مستمر بأن تساير تطور فنون الطباعة فى العالم ، فاستوردت دار الهلال أحدث ماكينات الطباعة، خاصة بعد انتقالها إلى مبناها الجديد فى شارع المبتديان والذى تم بناؤه عام ١٩٤٥م. وكانت تضم فى جميع الأقسام أمهر العاملين فى مجالى المونتاج والرتوش ، ومع هذا التطور صدرت أهم المجلات فى مصر فى ذلك الوقت ، ومن بينها المصور والاثنين والدنيا، والكواكب وحواء ، وسمير وميكى وروايات الهلال وكتاب الهلال ، ووصل الأمر بهذه المطبعة العملاقة أن تطبع يوميا ست مجلات تجارية بالاضافة إلى إصدارات الهلال والتى صدر عنها بعد ذلك مجلة طبيبك الخاص والكتاب الطبى.

وجاءت الطفرة الكبرى مع بداية عام ١٩٦٥، حينما حصلت دار الهلال على أحدث ماكينات الطباعة، وليتواصل هدير المطبعة ما بين شارعى المبتديان وبورسعيد، ولتكون دار الهلال هى المنارة التى تضم كبار كتاب السياسة وأساطين النقد والشعر فى مصر ، وهم يؤدون فى تلك الحقبة دورا مهما لتسجيل تاريخ مصر ، ويصنعون حضارة سوف تظل الأجيال المتعاقبة تحمل مشعلها ، دليلا على الدور الهام لمطبعة دار

الهلال التى كانت لها الريادة ومازالت حتى الآن .

لم يهدأ العمل ، ولم يتوقف التحديث ، خاصة فى السنوات العشرين الأخيرة ، فبعد الاحتفال بالعيد المئوى للهلال عام ١٩٩٢ زودت مطابع دار الهلال بأحدث أجهزة الكمبيوتر فى الجمع التصويرى والمونتاج ، وأحدث ماكينات الطباعة وخطوط التجميع والتغليف ، لمواجهة التطور فى المجلات والكتب التى تصدرها الدار ، وليتحقق لها العديد من جوائز معرض الكتاب .

عزيزى القارئ ..

تتواصل رحلة النجاح للمطبعة ، وما نود الإشارة إليه ، ذلك التطور الفنى الكبير الذى تشهده مجلة الهلال منذ بداية عام ٢٠٠١ ، حيث فاز عدد يناير وهو أول عدد فى التطوير بجائزة معرض الكتاب ، وتسلم رئيس مجلس الادارة الجائزة من الرئيس مبارك ، والذى أثنى على الدور الكبير الذى تؤديه الهلال مجلة العرب الأولى ، والتى تواصل رسالتها نحو الحفاظ على الثقافة وحرية الكلمة ، لتثبت أنها مع تطور الزمن تزداد تألقا ، وتسطع فى سماء أمتنا العربية ، وهى تحمل عبء الحفاظ على اللغة العربية الفصحى ، وتناقش كل ما يستجد من آراء فى فكر الآخر وثقافته.

... الهلال حققت هذه القفزة النوعية من خلال جهود أبناء دار الهلال العاملين فى المطبعة وفى الأقسام الفنية ، فالمدير العام المهندس ماهر سلام ورجاله لا يألون جهدا فى تحقيق كل ما يتطلبه نجاح هذه المجلة الرائدة باختيار الورق المناسب والاهتمام بالجمع التصويرى والمونتاج والطباعة . وكل الجنود المجهولين فى المطبعة نوجه لهم الشكر، ولا ننسى مطبعتنا الجديدة بمدينة ٦ أكتوبر ، والتى تعد إضافة جديدة نوجه لهم أيضا التحية فجهد المهندس مصطفى قطب ورجاله لمسناه فى العدد الذى صدر الشهر الماضى، حيث طلبنا منهم التحسين والعناية ، فكانت رعايتهم واهتمامهم بالهلال دليلا على روح الفريق وحبهم وتفانيهم لمؤسستهم ، وتلك صفات أبناء هذه الدار العريقة التى تربعت على عرش الصحافة العربية ، وحققت أبرز أدوار الإعلام لأكثر من مائة وعشر سنوات لمصرنا الغالية . ■

المحـــــرر

العراق

بين الأمس واليوم

بقلم
د. مصطفى سويف

رحم الله ابن خلدون بقدر ما أنار بصيرتنا بدروسه فى تمحيص التاريخ ، تمهيداً للإفادة مما ينطوى عليه من موعظة واعتبار ؛ وهو القائل فى مقدمته : « ... فإن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، ... إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول .. وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق » ..

أما بعد .. فما أشبه الليلة بالبارحة، نشاهد فى هذه الأيام حلقة جديدة من مسلسل «العراق - أمريكا»، وقد جرت أحداث الحلقة السابقة فى سنة ١٩٩١ ، أى منذ ما يزيد قليلا على عشر سنوات ، فهى ماض قريب ، يقف فى الصف كجزء من التاريخ ، لكنه تاريخ يسمح بالنظر فى قسماته عن كثب ، والمقارنة بين هذه القسمات وملامح الحاضر مقارنة كاشفة عساها أن تكون معلمة صحيح أن كثيرا من بواطن الأمور فيها لا يزال رهين محابس الوثائق السرية ، وسوف يظل كذلك إلى حين ، لكن مطلبى فى هذا المقام شديد التواضع، فكل ما أرجوه هو تيسير المقارنة بين الوقائع

كمـا وقـعت فى ذلك الماضى القـريب ، والوقائع كما يتوالى حدوثها فى هذه الأيام ، وفى زعمى أن هذه المقارنة كفيلة باستـحداث نوع من البـصـيرة تورث صاحبها أقداراً متنامية من الثقة بالنفس فى أبعادها الوطنية والقومية . وفى زعـمى كـذلك أن بعث الذاكـرة من خلال هذه المقارنة يمكن أن يكون وقاء ضـد الكثـيـر من أضـرار ألاعـيب السياسيين الذين يعتمدون أساساً فى تحريك مواطنيهم على غياب الذاكرة المدققة عند هؤلاء المواطنين الأبرياء . ولا أزال أؤكد للقارىء أننى لا أدعى فى هذا الحديث أستاذية فى شـرح التاريخ ، ولكن كل ما أدعيه أننى أكتب عن تاريخ عايشته ، كما جرت هذه المعايشة : وقد جاء الدور على عقد التسعينيات فى مجال الكلام عن مسيرتى ومصر والعالم فى دروب القرن العشرين ، ورب صدفة خير من ألف ميعاد .

الأمس القريب .. والأمس الأقرب

قـرأت دلالة الأحـداث فى الأمس القريب (الثمـانينيات) والأمس الأقرب (التسعينيات) على أن مفتاحها الرئيسى يكمن فى أفول نجم الاتحاد السوفييتى والتلاشى المتسـارع لتوترات الحرب الباردة ، وما صحب ذلك (دون ايهال ولا إهمـال) من تنام مـتـسـارع لمظاهر الاستئساد الأمريكى ، وما تناثر حول هذه المظاهر من بؤر جـديدة تؤذن بانبثاق نوع جديد من التوترات أقرب فى طبيعتها إلى شواظ الحرب الساخنة .

فـمع بداية العـام ١٩٩١ أصـبح واضحا للجميع أن بؤرة ساخنة تتخلق، وأنها فى سبيلها إلى مزيد من السخونة ، وأن هذه البورة تضم فى التهاباتها شئون العراق والولايات المتحدة أساساً ، وأن خطوط القوى الفاعلة فيها شديدة النشـاط ، ومن ثم فـإن عـمليـات الاستقطاب المتداعية حولها جارية على قدم وساق ، كما أن المساومات التى تصحب هذه العمليات لإكسابها ملامحها المفصلة تجرى هى الأخرى على قدم وساق .

وفى إدارتهـا شـئـون هذه البـؤرة حرصت الولايات المتحدة على أن تقوم بدور «الفاعل» (فـهى تهب للدفـاع عن الكويت أولا ، والمصالح الغربية البترولية ثانيا) ، وحرص العراق على أن يقوم بدور «المفعول به» (الذى تهدده الولايات المتحدة لأنه - فيمـا يدعى - يقوم بتصحيح تاريخى لخريطة العراق). وكان من أهم مصاحبات الدور الذى تقوم به الولايات المتحدة الغطرسة والسربعة . وفى مقابل ذلك كان من أهم مصاحبات الدور كـمـا يقوم به العراق ما يمكن تسميته بالعناد الذى يفتعل عقلانية جوفاء .

وفى العاشر من يناير سنة ١٩٩١ ،

وتحت ضغوط عالمية ، التقى وزير الخارجية الأمريكية (جيمس بيكر حينئذ) مع وزير خارجية العراق (طارق عزيز حينئذ) فى جنيف بدعوى التفاوض بغية إيجاد حل سلمي للأزمة، وفي الطريق إلى جنيف كان بيكر يلقي بالكثير من التصريحات الاستفزازية ، وكان يلقى كذلك بالنداء تلو النداء مخاطبا أوروبا أولا والعالم بأسره ثانيا بأن يقف صفا واحدا تحت قيادة الولايات المتحدة ضد العراق الذى يتحدى بغزوه الكويت الشرعية الدولية ، وفي مقابل ذلك كان طارق عزيز يقول إنه ذاهب إلى جنيف بعقل مفتوح للحوار البناء ، وانتهى الحوار بعد اجتماع دام سبع ساعات . وكان لبيكر ما أراد ، ذلك أنه أراد الفشل ، فحصل عليه . وفى الوقت نفسه وقبيل عقد هذه المفاوضات كانت الإدارة الأمريكية قد طلبت إلى الكونجرس الأمريكى أن ينعقد ويخولها الحق فى الهجوم المسلح على العراق إذا لم ينسحب من الكويت فى موعد أقصاه ١٥ يناير (السريعة) ... هذه وقائع وتواريخ بالغة الأهمية ، أذكرها بقدر معقول من التفصيل لأنها تشرح القول «ما أشبه الليلة بالبارحة» وتقوم فى شرحه مثالا على البلاغة والإيجاز . جدير بالذكر أيضا فى هذا المقام ما يرويه بوب وودوارد فى كتابه بعنوان «الجنرالات» (وقد نشره سنة ١٩٩١) عن الرئيس بوش (الأب) أنه طلب فى تلك الأيام إلى المخابرات المركزية أن تعد خطة سرية لزعزعة نظام صدام حسين عساها تستطيع أن تزيحه من الحكم . ويستطرد المؤلف قائلا إن بوش كان يريد أن يتمكن من خنق الاقتصاد العراقى ، وتحريض معارضى النظام سواء فى الداخل أو فى الخارج ، والبحث عن زعماء جدد يحلون محل صدام ورجاله (هكذا !!) (ص ٢٣٧) .

الحرب وتداعياتها

فى الصباح الباكر من يوم ١٧ يناير سنة ١٩٩١ (أى بعد انقضاء سبعة أيام فقط على مفاوضات جنيف) بدأ الهجوم الجوى على العراق . وقد مضت هذه الأيام السبعة تتخللها مفاوضات ومساومات محمومة تقودها الولايات المتحدة لتتضح فيها مواقف الدول المختلفة على نار لا تهدأ . وعندما بدأ الهجوم الجوى كانت القوات الأساسية فيه أمريكية أولا وبريطانية ثانيا ، وشاركت الدول الأخرى بدرجات متفاوتة من الفاعلية . فشاركت فرنسا بحجم من القوات أكبر مما شاركت به ايطاليا ، وهذه بقوات أكبر مما أسهمت به تشيكوسلوفاكيا ... الخ . وبعد أربعة أسابيع من بدء القصف كان عدد الغارات الجوية التى تلقاها العراق ٦٥ ألف غارة (أى بمعدل يبلغ حوالى ٢٣٠٠ غارة يوميا تقريبا .

وجاءت التداعيات التى أثارتها هذه الحرب لافتة للنظر بما تكشف من إصرار سواء في المساندة أو في الرفض : كانت بريطانيا أكثر الحلفاء تحمساً للموقف الأمريكي ومشاركة في تنفيذه (لاحظ أن بريطانيا كانت حينئذ تحت إدارة المحافظين ولم تكن تحت إدارة العمال كما هو الحال الآن . وهو ما يعني أننا كنا ومازلنا أمام توجه استراتيجي في السياسة البريطانية) . أما فرنسا فقد تغير موقفها من المراوغة (من خلال تصريحات ميتران رئيسها حينئذ) قبيل الحرب إلى المساندة والمشاركة بعيد وقوعها . وأعلنت اليابان أنها ستقدم معونة إلى المجهود الحربي للحلفاء يصل حجمها إلى تسعة آلاف مليون دولار ، وصدر عن ألمانيا إعلان مماثل (دون ذكر لحجم إسهامها) .

وفي مقابل هذا الموقف الغربي الذي ينضح بمظاهر التكالب على افتراس العراق (بدوافع الرغبة والرهبة معاً) جاء الموقف في المنطقة العربية يكشف عن قدر كبير من التأزم والتشرذم : فكان في مقدمة المتوجهين ضد العراق المملكة العربية السعودية ومصر ، ولم تشارك مصر في الحرب الجوية ولكنها وقفت على الحدود السعودية / العراقية للإسهام في الدفاع عن المملكة إذا قرر العراق مهاجمتها ، وعلى النقيض من ذلك أعلنت حكومات عربية أخرى أنها تقف ضد هذه الحرب ، وكان في مقدمة هذه الدول الأردن واليمن والسودان والسلطة الفلسطينية .

ولم تتوقف حصيلة ردود الأفعال التي أثارتها الحرب عند هذا الحد من التضارب ، بل تجاوزته إلى ما هو أشد تعقيدا . فقد انطلقت تحركات دولية في السبيل إلى طرح مبادرة سلام تدعو إلى إيقاف الحرب فوراً ، والبدء في مفاوضات جديدة ، وكان في مقدمة الدول الداعية بهذه الدعوة الهند وباكستان ودول المغرب العربي . وبالإضافة إلى ذلك بدأت أصوات لمؤسسات إعلامية وغير إعلامية تعلن عن مواقف معارضة للحرب (رغم مواقف حكوماتها) لاعتبارات مختلفة . وصدر نداء قوي من بابا الفاتيكان يدعو جميع رؤساء الكنائس الكاثوليكية في بلاد التحالف الأنجلو أمريكي وفي القدس وفي بغداد إلى اجتماع يعقد في روما للنظر في أمر هذه الحرب ، وقال البابا في دعوته إن من حق شعوب الشرق الأوسط أن تنعم بسلام دائم . وصدرت كذلك ردود أفعال معارضة من أشخاص كانوا يقومون بأدوار هامة في حكوماتهم في تأجيج الصراع ، وكان في مقدمة هؤلاء وزير الدفاع الفرنسي الذي استقال من منصبه في ٢٩ يناير سنة

١٩٩١ وقال فى كتاب الاستقالة إن كل يوم يمر يبعد بقوات الحلفاء عن الهدف الأصلى المعلن للحرب وهو تحرير الكويت ... وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٩١ صدرت الأوامر (الأمريكية أولا ثم من حلفاء أمريكا واحداً بعد الآخر) بوقف جميع العمليا الحربية ... ويقول بوب وودوارد فى كتابه «الجنرالات» إن الحرب استغرقت ٤٢ يوما ، قتل خلالها عشرات الآلاف من العراقيين ، أما الخسائر الأمريكية فكانت ١٣٧ قتيلا وسبعة أفراد اعتبروا من المفقودين .

أوجه الشبه بين الأمس واليوم

تكشف قصة حرب الخليج للعام ١٩٩١ كما رويتها فى الأسطر القليلة السابقة عن عدد من أوجه الشبه الزاعقة مع ما نشهد اليوم ونسمع حول حرب خليجية جديدة تناسب العام ٢٠٠٢ . وإلى القارئ ذكر بعض هذه التشابهات

أولا ، هناك الرغبة الأمريكية المشبوبة فى تغيير نظام الحكم وتغيير الحكام فى العراق .

وثانيا ، هناك الإعلان (الذى ازداد سفورا) عن محاولات لتجنيد أعضاء المعارضة المهاجرين خارج العراق للعمل (على أنغام أمريكية) ضد نظام الحكم فى بلدهم .

وثالثاً ، من الحجج التى تعلنها الولايات المتحدة ضد العراق استبداد نظام الحكم فيه (كأنما هذا شأن أمريكى قبل أن يكون شأنا عراقيا) .

ورابعا ، لا ذكر ولا حساب إطلاقا للمواطن العراقى العادى وما يقع عليه من موت ودمار وخراب ديار نتيجة الحرب . والسؤال الآن : وماذا فى هذا التشابه ؟ فيه الكثير : فقد كان السبب المباشر والمعلن لقيام حرب ٩١ هو تحرير الكويت ، ولكن بقدرة قادر دفعت إلى السطح أسباب أخرى توحى بفرض الوصاية على الشعب العراقى ، حتى ولو كان ذلك عن طريق تدميره وتدمير مقدراته ! وهذا بدوره يوحى بأن موضوع تحرير الكويت إنما اتخذ ذريعة جرى توظيفها لأغراض أمريكية أخرى ، تماما كما يستغل اليوم موضوع الإرهاب لإعادة ضرب العراق (والتلويح باحتمال ضرب جهات أخرى فى المنطقة) فى حين أن السعى يتصل نحو تحقيق الأغراض الأمريكية الأخرى . والسؤال الذى يفرض نفسه بعد ذلك هو: وما هى هذه الأغراض الأمريكية الأخرى ؟ هذه الأغراض هى إعادة هيكلة منطقة الشرق الأوسط كلها . وهذه الإجابة نفسها جزء من إجابة أوسع مساحة وأشد جذرية ، هى فى نهاية المطاف إعادة هيكلة العالم بما يتناسب

ومقتضيات الأحادية القطبية الأمريكية . ومعنى ذلك أننا هنا بصدد خطط بعيدة المدى للهيمنة الأمريكية علينا فى هذه البقعة من الأرض ، وعلى جميع البقاع فوق الكرة الأرضية كاملة، ومع أننى أرى هذا التوجه / الحلم الأمريكى الأساس وقد أخذت تفعله أعداد متنامية من الأدمغة والألسنة الأمريكية والمتأمركة (المؤمنون منهم بالمرجعية العليا للقوة بوجه خاص) فلا يعنى ذلك فى رأيى حتمية تحققه فى المستقبل المنظور ، بل على العكس من ذلك ، أرى عوامل كثيرة تتهدده ، يتمثل بعضها فى قوى وتناقضات تنمو وتختمر داخل المجتمع الأمريكى نفسه . ويتمثل بعضها الآخر فى إمكانيات أقطاب متناثرة حول العالم آخذة فى التبلور ، ويتمثل بعضها الثالث فى إرادات تملأ الأرض بتحركاتها وأصواتها وإبداعاتها فى الطريق إلى مقاومة لا تتكسر . والمسألة فى نهاية الأمر مسألة إرادات ، أكثر منها مسألة حشود وأساطيل وتهديدات .

الأحوال فى مصر

أما عن الأحوال فى مصر فى تلك الفترة العصيبة فكانت تكشف عن كثير من أبعاد الأزمة التى تعصف بالمنطقة، هذا عن أحوالها المتوجهة إلى الخارج، وكانت لمصر أحوالها المتوجهة إلى الداخل أيضا لأن الحياة فى مصر أغنى وأثقل من أن يطغى فيها الخارج على الداخل ، لكننى لا أجد للحديث عن الداخل متسعا فى هذا المقال .

فى مصر تعالت أصوات مدنية ضد الحرب : وتزايدت مع الأيام أعداد القائمين على هذه الدعوة وتنوعت فصائلهم: فقد أعلنت جريدتا «الشعب» و «الأهالى» معارضتهما الحرب منذ البداية ثم نشرت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية كراسة فى رفض الحرب والتنديد بها تحوى العنوان الفرعى الآتى : «مجموعة وثائق تحمل وجهات نظر تعارض الحرب فى الخليج» .

وقد صدرت هذه الوثائق عن ٢٢ منظمة نذكر منها : «منظمة تضامن الشعوب الأفرو أسيوية» و «اتحاد المحامين العرب» و«المنظمة العربية لحقوق الإنسان» وممثلى النقابات المهنية بمصر» ، «والنقابة العامة للأطباء» و «الجمعية العمومية لقضاة جمهورية مصر العربية» ، و «مجموعة من أساتذة الجامعات» و «مجموعة من المثقفين والكتاب» ، و «مجموعة من الصحفيين المصريين» و «اللجنة الشعبية المصرية لمقاومة الغزو الأمريكى الصهيونى للخليج العربى» . و «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ... الخ .

واندلع العديد من المظاهرات الطلابية ... وتشاكى الناس من تعطل

السياحة ، وساد الاعتقاد بأن عددا من الفنادق الكبرى سوف يغلق أبوابه . وتجولت بنفسي في بعض هذه الفنادق، دخلت ميناهاوس ، ودخلت الماريوت ، ووجدت المطاعم في الفندقين خاوية إلا من مائدة أو اثنتين . وسرعان ماتشاكى الناس من كساد يعم السوق كله ... وما من أحد من الأصدقاء أو الزملاء صادقته في الطريق أو في العمل أو على الهاتف إلا وكان حديثه مشبعا بالتعبير عن الغضب المكتوم ، والإحباط والاكتئاب من جراء ما يحدث في العراق ... وفي حدود ذاكرتي وما تسترجعه عن تلك الأيام لم تكن هذه المشاعر والتعبيرات وقفاً على المثقفين أو ذوى التعليم رفيع المستوى ، ولكنى شهدتها وخبرتها عند بسطاء المواطنين ... وكنت أردد في خاطري بين الحين والحين : كم نتعرض للخداع ليل نهار ... أليست هذه هي الحرب على حقيقتها ؟! أم الحرب ما تقدمه لنا السينما الأمريكية من خلال مضغ اللبانة ، وارتداء «التيشيرت» ؟! عشرات الآلاف قتلى عندنا ، و ١٣٧ قتيلا وسبعة مفقودين ... عندهم .

الأنا والنحن

علاقة الأنا بالنحن علاقة بالغة التعقيد في صدري . فهما قطبان على تدريج متصل واحد ، وكلاهما دائم الحركة قربا وبعدا نحو القطب الآخر .

ومع اشتداد حدة الأزمات المجتمعية من حولي يزداد توجه النحن إلى اجتذاب الأنا والسيطرة على مقدراته .

وقد تنبهت إلى عمليات ترسب أزمة العراق مع الولايات المتحدة منذ بدأت نذرها المبكرة في سنة ١٩٩٠ . وكانت متابعتي إياها تزداد كثافة مع مرور الأيام . وكنت أشعر أننا مقبلون على زلزال اجتماعي عنيف . وأسوأ ما تصيبنا به هذه الزلازل وأمثالها أنها (على غير وعي منا) تغير الأوزان النسبية لاهتماماتنا وتوجهاتنا . وقد تعلمت على امتداد عمر الوعي والنضوج كيف أروض آثار هذه الزلازل في نفسي حفاظا على صيغة التوازن الأمثل بين الأنا والنحن . وكان من أهم معالم الطريق أمامي في هذا الشأن تفعيل قواعد المقاومة طويلة المدى .

في فترة الحرب نفسها اشتد حرصي على أداء واجباتي العلمية والبحثية بوجه خاص . وازداد وعيي بأنني بذلك أقيم استراتيجياتي بكل مكوناتها في مواجهة استراتيجيات قهر الإرادة وتدمير إمكانات الرقي بل وإمكانات الحياة .

في تلك الفترة حرصت أنا والزملاء الأعضاء في فريق البحث بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية على مواصلة أعمالنا الميدانية والمكتبية بأعلى

درجة من كثافة الوعى وكثافة التجويد وأنا أقرأ الآن محاضر اجتماعاتنا فى تلك الأيام وأعيد قراءتها وأعجب بشهادتها بأننا لم نترك لوهن الاكتئاب منفذا إلى نفوسنا بل على الضد من ذلك انطلقنا نعمل بإصرار يحدوه قدر محكوم من الغضب . كذلك اتصل عملى مع الأساتذة الزملاء فى لجنة المستشارين العلميين المنبثقة عن المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان. وعلى هذا النحو أيضا قمت بواجباتى التعليمية فى الجامعة .

وأقرأ الآن فى مفكرتى حول تلك الفترة ما نصه : « ... ربما كانت الفترة التى أعيش فيها الآن من أخصب فترات حياتى فيما يتعلق بالنشر باللغة العربية ... وفى هذا الإطار من الهم العام ، المحزن فى الحاضر ، والمهدد للمستقبل أواصل أعمالى ... ولا أزال أرجو لمواطنى (المصريين والعرب جميعا) أن يتقنوا مهارات المقاومة الخلاقة ، (مزيد من التشبث بالعمل ، مصحوبا بتأكيد الهوية) ، وألا يتركوا نفوسهم مستباحة لهبات الهم العام وما تجلبه معها أحيانا من سموم موجهة أساساً لاقتلاع إرادة الحياة الكريمة . ■

الأغنياء والدولة

من هم الأغنياء فى مصر؟!

بقلم
د. جلال أمين

من المبادىء المشهورة فى الماركسية أن الدولة هى دائما أداة الطبقة العليا فى قهر سائر الطبقات، ليس هناك فى نظر الماركسية «دولة محايدة» بين الطبقات. بل الدولة دائما وسيلة تستخدمها الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية لحماية هذه الامتيازات ضد الطبقات الأخرى المحرومة منها.

والذين يتصورون أن الدولة يمكن أن تقوم بدور «الحكم» بين الطبقات أو أن من الممكن «إقناعها» بأن تتصرف لصالح الطبقات الدنيا، ولو كان هذا على حساب الطبقات العليا، الذين يتصورون هذا واهمون، فهم يطلبون المستحيل.

معنى هذا أن السلطة السياسية لابد أن تئول، عاجلا أو آجلا إلى أصحاب السلطة الاقتصادية، فإذا حلت طبقة محل أخرى فى اعتلاء أعلى درجات الثراء والقوة الاقتصادية فلابد أن تعتلى أيضا أعلى درجات النفوذ والسلطة السياسية.

ليس من الصعب أن نرى قوة هذه الفكرة وجاذبيتها. فالتاريخ يمدنا بأمثلة عديدة على صحتها، والمنطق البسيط يدعمها.

في أوربا الاقطاعية كانت السلطة السياسية والقضائية والعسكرية في أيدي كبار الاقطاعيين من ملاك الاراضي، فلما نمت ثروة التجار خلال ماعرف بعصر النهضة، تمتعت المدن الأوربية باستقلال نسبي ونما النفوذ السياسي للتجار مع نمو ثروتهم، بينما ضعفت سلطة الاقطاعيين مع زيادة احتياجهم لأموال التجار، وأخذ نجم الاقطاعيين في الأفول، وعندما اشتد معدل نمو الصناعة في القرن الثامن عشر وأصبحت هي والتجارة أهم مصادر الثراء ونمو الدخل، قامت الثورات السياسية لتضع أرباب الصناعة والتجارة محل ملاك الأراضي على عرش السلطة، وكانت أشهر هذه الثورات الثورة الفرنسية في ١٧٨٩ التي سماها ماركس «ثورة البورجوازية» والدولة الحديثة في الغرب تستلهم سياساتها وقراراتها من مصالح أصحاب الشركات والبنوك، إذا احتاجوا إلى الحصول على مواد أولية رخيصة وأسواق جديدة لتصريف السلع أو لاستثمار فوائض رءوس الأموال، قامت من أجلهم بمهمة قهر شعوب دول أخرى فيما يسمى بالاستعمار، فإذا تطلب هذا احتلالا عسكريا سافرا شنت الدولة من أجلهم الحروب اللازمة، وإذا استلزم مجرد إغراق الدولة الأجنبية بالديون قامت دولتهم بتقديم الديون اللازمة تحت اسم «المعونات الأجنبية». وهكذا.

الأمثلة التاريخية على ذلك لانهاية لها، ولكن المنطق البسيط أيضا يدعم هذه النظرية ويؤيدها، إذ ما الذي يمكن أن يجبر أصحاب الثراء في دولة ما، وأغنى أغنيائها، والمتحكمين في مصادر الرزق فيها، على أن يقبلوا أن تصدر القوانين والقرارات الإدارية الحاسمة من وراء ظهورهم ودون استشارتهم؟ لماذا يترك أغنى الأغنياء في دولة ما، موظفا أو سياسيا صغيرا يتحكم فيهم ويضع القيود على حركتهم ويوجه استثماراتهم كما يشاء، ويخضعهم لما أراد فرضه من ضرائب بينما هم قادرون، بما يتحكمون فيه من أموال أن يعزلوا هذا الموظف أو السياسي وأن يأتوا بغيره ممن يأتمر بأمرهم؟

فإذا لم يستطيعوا عزله فلماذا لايحاولون شراءه؟ وإذا لم يستطيعوا عزله ولاشراءه فلماذا لايدبرون مؤامرة لقتله؟ هذا إذا افترضنا أن جاذبية المال وفتنته لم تكونا كافيتين وحدهما لإخضاع السياسي من البداية وترويضه.

كل هذا مفهوم ويكاد يكون بديهيا، ولكن لابد أن نلاحظ أن قيام أصحاب السلطة السياسية بتحقيق مصالح أصحاب القوة الاقتصادية والسهر على خدمتهم لابد أن يتخذ صورا متعددة باختلاف الظروف والأحوال، ودرجة القهر التي يمكن أن تستخدمها الدولة

ضد الفقراء ولصالح الأغنياء لابد أن تختلف وفقا لما إذا كانت الظروف الاقتصادية مواتية أو غير مواتية، ظروف رخاء أم كساد.

نعم، الدولة دائما «في الخدمة»، ولكن هذه الخدمة يمكن أن تتخذ ألف صورة، من أكثر الصور وداعة إلى أشدها شراسة.

حماية الملاك!

لنفرض مثلا أن المجتمع يعيش أساسا على الزراعة ويتكون من نسبة ضئيلة جدا من السكان، هم الصفوة الثرية من ملاك الأراضي الكبار - وغالبية عظمى، قد تصل إلى ثمانين في المائة أو أكثر، من المزارعين المعدمين أو شبه المعدمين، يعيش أغلبهم عند حد الكفاف، لابد في هذه الظروف أن تسهر الدولة على حماية الملاك الكبار من أي عمل عدائي ضدهم قد يخطر ببال أحد من المعدمين أو أشباه المعدمين، ولابد لهذه الدولة أيضا السهر على تنفيذ مشروعات الري والطرق اللازمة لاستمرار الإنتاج الزراعي وتجدده وربما أيضا لزيادته ونموه مما يعود على كبار الملاك بالنفع. ولكن في ظروف الفقر المدقع التي يعيش في ظلها الغالبية العظمى من السكان لايتصور بالطبع أن تفكر الدولة في تمويل هذه المشروعات باقتطاع جزء من دخول هؤلاء المساكين، فالحقيقة أن هؤلاء ليس لديهم أي فائض يمكن أن تقتطع منه ضريبة أو إتاوة من أي نوع، إذ إن تحميلهم بأعباء هذه المشروعات لابد أن ينتهي إلى موتهم جوعا.

التمويل اللازم إذن لابد أن يأتي من جيوب نفس المستفيدين منه: كبار الملاك يدفعون ضريبة تقوم الدولة باستخدامها لتغطية تكاليف المشروعات اللازمة لخدمة نفس هؤلاء الملاك الكبار.

كانت هذه في خطوطها العريضة الصورة العامة لدور الدولة في مصر قبل ١٩٥٢ : دولة تقوم بحفظ الأمن وتسهر على سيادة النظام حماية للأغنياء الذين كانت الغالبية العظمى منهم من ملاك الأراضي الكبار. والسياسة الاقتصادية تكاد تنحصر في حماية الانتاج الزراعي وتنميته في الحدود الممكنة، فإذا احتاج هذا إلى أموال فالمصدر الأساسي لهذه الأموال هو «ضريبة الأطيان» (التي كانت تسمى باختصار «المال») وكان يدفعها كبار الملاك ويعفى منها صغارهم.

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ بتنحية هذه الطبقة من الأغنياء عن السلطة السياسية بل وقلمت أيضا أظافرهم الاقتصادية بقوانين الإصلاح الزراعي المتتالية وقوانين الحراسة والمصادرة ثم التأميم .. فلمن آلت السلطة؟ لقد آلت السلطة السياسية لعدة شرائح من الطبقة الوسطى، أو بالاحرى للطبقة التي كانت «وسطى» عند قيام الثورة من الضباط والمهنيين والتكنوقراط، من مهندسين وقانونيين ومديرين واقتصاديين ومحاسبين وأساتذة الجامعات .. الخ، ممن كانوا محرومين تماما من المشاركة

فى السلطة السياسية قبل الثورة مالم يكونوا هم أنفسهم من كبار ملاك الأراضي، كما كانوا بعيدين تماما عن فرص الإثراء الواسع. فتحت الثورة لهذه الطبقة (أو الشرائح الاجتماعية) فرص الارتقاء الاقتصادي، ولكنها فتحت لهم في نفس الوقت، وبالضرورة فرص الارتقاء السياسي أيضا. فإذا بالسلطتين السياسية والاقتصادية، تتحدان من جديد، بعد انقضاء وقت قصير على قيام الثورة، كما كانتا متحدتين قبل الثورة، وتوجهت الدولة، فيما تصدره من قوانين وما تتخذه من إجراءات إلى خدمة هذه الطبقة الجديدة والحديثة العهد بالثراء والسلطة، طبقا للقانون العام: الدولة فى خدمة الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية.

إحلال طبقة محل طبقة

الحقيقة التى لايمكن الاختلاف عليها هى أن ثورة يوليو كان من أهم نتائجها إحلال طبقة محل طبقة فى الامتيازات الاقتصادية والسياسية على السواء ،ولعل هذا هو المبرر الأساسى لتسميتها «ثورة» على الإطلاق، ولكن من الواجب أيضا الإقرار بأن القوانين التى أصدرتها الثورة فى الخمسينات والستينات، وما اتخذته من اجراءات عادت بالفائدة على شرائح واسعة من السكان تتجاوز الطبقة الوسطى من الضباط والمهنيين وأصحاب الملكيات المتوسطة فى الريف والمدن، فمجانية التعليم مثلا، ومختلف صور الدعم التى قدمتها الثورة للسلع والخدمات الضرورية، وتوفير فرص العمل لأبناء الفلاحين فى الاستصلاح الزراعى وبناء السد العالى والصناعات الجديدة التى أنشأتها الدولة، كل هذا يجعل وصف الدولة المصرية فى الخمسينات والستينات بأنها كانت «فى خدمة الطبقة الوسطى» أو شرائح معينة من هذه الطبقة وصفا غير منصف تماما، ومع هذا فلا بد من الاعتراف أيضا، إحقاقا للحق بأن الدولة المصرية خلال هذين العقدين اتخذت كثيرا من الإجراءات التى كانت تحقق مصالح هذه الطبقة بالذات، أو شرائح معينة منها حتى او تعارضت هذه الإجراءات تعارضا واضحا مع مصالح الطبقات الدنيا. كما أنها تجاهلت تجاهلا معيبا بعض الحاجات الأساسية لهذه الطبقة الدنيا عندما كان إشباع هذه الحاجات يتعارض مع مصالح الطبقة الوسطى أو تلك الشرائح منها التى كانت تملك مقاليد الحكم. أنظر مثلا إلى ما أعطته الصفوة الحاكمة لنفسها وللطبقة التى أتت منها من إمتيازات فى الحصول على أراضى البناء والشقق السكنية ، وفى بناء المصايف الجديدة والحلول محل أبناء الطبقات العليا (التى أزاحتها الثورة عن مكانها) فى احتلال المصايف القديمة، بل وفي تحديد مايتم إنتاجه واستيراده من سلع، وتقديم الدعم إلى بعض السلع والخدمات التى لا يستفيد منها إلا الطبقات متوسطة الدخل ولايمكن أن تطمح إلى شرائها الشرائح

الدنيا، كالسيارات وأجهزة تكييف الهواء والثلاجات، والسخاء المبالغ فيه في تحديد ماتحصل عليه الشرائح العليا من الطبقة الوسطى من مرتبات أو مكافآت أو بدلات السفر، أو في إنشاء النوادي المخصصة لاستخدام هذه الشرائح، مما لايمكن تبريره في ظل متوسط الدخل للدولة الكل في ذلك الوقت.

نعم، كان هناك الكثير من الخدمات المجانية أو المدعومة التي تقدم للطبقات الدنيا كذلك، ولكن كان هناك تفضيل واضح عند تحديد الأولويات لمطالب الطبقة الوسطى مما كان عليه التضحية به من أجل حاجات أكثر إلحاحا لأقل الناس دخلا، كتدشين برنامج طموح مثلا للقضاء على الأمية في وقت قصير (وهو مالم يحدث حتى الآن) أو لتحسين مستوى الحياة في القرى بمعدل أسرع بكثير مما كان يحدث بالفعل، سواء في توفير المياه الصالحة للشرب في بيوت الفلاحين أو تزويدها بالكهرباء أو في تعميم وسائل نشر الثقافة والترفيه، إلخ .

منافع الطبقة الجديدة

بهذا المعنى إذن تتأكد من جديد صحة قول ماركس : لابد أن تكون الدولة طبقية في الأساس، وليس هناك دولة محايدة.

ولكن من أين أتى للدولة المصرية في هذين العقدين التاليين للثورة مصادر التمويل اللازم لتحقيق هذه المنافع لهذه الطبقة الجديدة، ولشرائح واسعة كذلك من الطبقات الدنيا في نفس الوقت؟.

كان المصدر الجديد للثروة في هذين العقدين يتكون أساسا مما سمي «بمشروعات التنمية» في الصناعة والزراعة والخدمات، مصانع جديدة من كل نوع، والسد العالي، ومشروعات كبرى لزيادة إنتاج الكهرباء، وخدمات المواصلات والصحة والتعليم ... الخ .. فمن أين المال اللازم لتمويل هذا كله؟

الأغنياء القدامى قد أصابهم ما أصابهم ولم تبق لديهم قدرة تذكر على تمويل هذه المشروعات، والثورة لم تكن لديها لا الأيديولوجية الملائمة ولا القسوة اللازمة لاستخلاص أي فائض من الشرائح الاجتماعية الدنيا أو ملاك الأراضي الصغار أو مستأجريها الذين استفادوا من إعادة توزيع الأراضي الزراعية ووضع حد أقصى للإيجار الزراعي (كما فعلت روسيا السوفييتية مثلا) لقد لجأت الثورة، من أجل توفير المال اللازم لهذه التنمية، إلى مصادر «أجنبية» إما بمصادرة مشروعات كانت مملوكة لأجانب داخل مصر (كقناة السويس) أو البنوك والشركات الأجنبية التي جرى تأميمها أو تمصيرها، أو بالاقتراض من الخارج.

وليس من قبيل الشطط في رأيي القول بأن هذا التدفق للأموال من مصادر «أجنبية» هو الذي سمح للدولة المصرية في الخمسينات والستينات بأن تبدي هذا السخاء إزاء شرائح اجتماعية تقع في أسفل السلم الاجتماعي ولا تتمتع بتمثيل حقيقي في السلطة

السياسية التى كانت تحتكرها شرائح من الطبقة الوسطى مهما قيل وقتها عن اشتراط نسبة معينة من أعضاء المجالس النيابية لتمثيل العمال والفلاحين. كان من الممكن إذن أن تسمح الطبقة الممسكة بمقاليد السلطة فى الخمسينات والستينات، لشرائح واسعة من الطبقات الدنيا، بمشاركتها فى هذه المصادر الجديدة للرزق، دون أن يتجاوز هذا بالطبع حدا معينا، إذ يظل من الضرورى دائما أن تستأثر هذه الصفوة بنصيب الأسد، بحكم انفرادها بالسلطة السياسية.

ولكن إذا كان هذا التحليل الطبقى للدولة ينطبق على مصر حتى العقدين التاليين مباشرة لقيام ثورة يوليو، فما بالك بما أتى بعد ذلك من عقود؟

تغير الصورة

لقد استمر انطباق القاعدة نفسها، وبحذافيرها، فى العقود الثلاثة التالية (١٩٧٠ - ٢٠٠٠): الطبقة التى تمسك بمقاليد السلطة السياسية لابد أن تخدم نفسها فى الأساس. ولكن من الشيق جدا فى رأيى أن نلاحظ ما طرأ من تغير على الصورة التى اتخذتها هذه القاعدة بين فترة وأخرى.

لقد رأينا كيف اقترن تطبيق هذه القاعدة فى الخمسينات والستينات بالسماح بالنهوض بأحوال الطبقات الدنيا فى المجتمع، وقد زعمت أن هذا «السخاء» لم يكن ممكنا لولا توافر مصادر خارجية للدخل والثروة. والذى حدث فى السنوات العشر الواقعة بين منتصف السبعينات ومنتصف الثمانينات (بعد بضع سنوات كئيبة من الركود الاقتصادى ٦٧ - ١٩٧٥، أصيبت فيها هذه المصادر الخارجية بالجفاف الشديد) هو أن تدفقت على مصر مصادر جديدة للدخل، كانت هى أيضا مصادر خارجية، سمحت ايضا للجميع بالمشاركة فى الوليمة: الأموال المحولة من الخارج بسبب الهجرة والقروض السخية الآتية من الخارج كمقابل لتغيير اتجاه السياسة الخارجية والاقتصادية للدولة، وإيرادات سخية ايضا مقابل بيع البترول بعد الارتفاع الكبير فى أسعاره فى أعقاب حرب اكتوبر فى ٧٤/٧٣ ثم فى أعقاب الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩، وايرادات قناة السويس بعد إعادة فتحها فى ١٩٧٥، بل وإيرادات وفيرة أيضا من السياحة. لقد حققت مصر خلال هذه الفترة (٧٥ - ١٩٨٥) معدلا لنمو الدخل القومى غير مسبوق فى تاريخها الحديث (٨٪ أو كثر)، وهو ما سمح للأثرياء بتحقيق ثروات إضافية غير مسبوقة ايضا، وللنشطين والشطار وقناصى الفرص من غير الأثرياء، بالانضمام إلى زمرة الأثرياء، ولكنه سمح أيضا بارتفاع عام فى مستوى المعيشة لشرائح واسعة من الطبقات الدنيا كان مصدره فى الأساس ما خلقته لهم الهجرة من فرص جديدة لزيادة الدخل.

هل استمرت الدول المصرية حتى منتصف الثمانينات تعمل لخدمة الطبقة صاحبة الامتيازات الاقتصادية؟ نعم

بالطبع، بل وبدرجة ربما لم تعرف مصر مثيلا لها منذ أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة.

كان الرئيس الراحل السادات يفخر علنا بأن عهده شهد تضاعف ثروة الأغنياء بسبب تضاعف أسعار الشقق والعمارات وأراضى البناء، بل كان يميل الى قياس نجاح سياسته الاقتصادية بمثل هذا المقياس. وقد أخذ يقرب اليه ويضم إلى حكومته أكثر فأكثر، أشخاصا معروفين بأنهم حديثو الثراء، ومتربعون على عرش التجارة والمقاولات، وأصبح من المعتاد أن يفتح أبناء المسئولين السياسيين الكبار، بمجرد حصولهم على الشهادة الجامعية، مكاتب للتصدير والاستيراد (كانت فى الأغلب للاستيراد أكثر منها للتصدير)، وأن يحصلوا بسهولة فائقة على التوكيلات اللازمة لممارسة هذا النشاط، وعلى التصريحات والتسهيلات اللازمة للإثراء السريع، من حصول على مواد البناء بالأسعار المدعمة، أو على إعفاء من الضرائب الجمركية، أو على أراض مملوكة للدولة بأثمان بخس.. إلخ.

التضخم.. وطبقة الأثرياء

كان معدل التضخم فى هذه الفترة (٧٥ - ١٩٨٥) قد بلغ مستوى لم تعرفه مصر لا قبل ذلك الوقت ولا بعده (حتى تجاوز فى كثير من السنوات ٢٠٪ سنويا) وأفاد التضخم هذه الطبقة من الأثرياء الجدد، ولم يضر إلا بنسبة صغيرة من السكان، وهم أصحاب الدخول الثابتة، إذ سمحت الهجرة وتدفق الأموال من كل جانب الغالبية العظمى من السكان بزيادة دخولهم النقدية، بل لقد أفاد من التضخم شرائح واسعة من الحرفيين والعمال الزراعيين الذين ساهمت هجرة أعداد غفيرة منهم فى رفع أجور من تبقى منهم فى مصر بمعدلات أعلى من معدلات التضخم. ومن ثم ربما لم تزد نسبة الذين أضيروا من التضخم على نحو العشرين فى المائة من إجماع السكان.

تغير الأمر تغيرا جذريا ابتداء من منتصف الثمانينات.. نعم، استمرت الدولة فى خدمة الأغنياء (إذ هل من الممكن أن يحدث شيء آخر؟)، ولكن حدث ما جعل الصورة أكثر قتامة بكثير.. فابتداء من منتصف الثمانينات انخفض بشدة معدل نمو الناتج والدخل القومى فى مصر، بسبب تضافر مجموعة من العوامل غير المواتية: انخفاض شديد فى أسعار البترول، وانخفاض شديد فى معدل الهجرة بل واتجاه أعداد كبير من المهاجرين الى العودة الى مصر، واتباع الحكومة لسياسة انكماشية قاسية تنفيذا لتوجيهات صندوق النقد الدولى، بالاضافة الى تقلبات عنيفة فى ايرادات السياحة بسبب ما سمى «بالأعمال الإرهابية» نتج عن كل هذا أن الخمسة عشر عاما الأخيرة من القرن العشرين (١٩٨٥ - ٢٠٠٠) كانت أعواما شديدة الوطأة، اتسمت بمعدل نمو يقل عن نصف المعدل الذى ساد فى السنوات العشر السابقة عليها (٧٥ - ١٩٨٥)، وارتفاع كبير فى معدل البطالة المكشوفة او السافرة، خاصة بين خريجى الجامعات والمعاهد المتوسطة.

فى ظل هذا التدهور الاقتصادى

للبلد ككل، يمكن أن يتصور المرء أن يقع الضرر على الجميع أغنياء وفقراء. فحجم الكعكة لايكاد يزيد بنسبة زيادة السكان. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة. فالنتيجة الصافية لابد أن تتوقف على مدى قدرة الشرائح الاجتماعية المختلفة على المحافظة على مستوى معيشتها ومنع تدهوره، أو حتى رفعه على حساب الآخرين. والقادرون على ذلك هم بالطبع من يملكون مقاليد السلطة أو القريبون منها والمؤثرون فيها. ومن ثم فإنه من الممكن جدا، حتى في ظل كساد عام ونمو بطيء للغاية، أن يحقق البعض مكاسب كبيرة، وأن يضيفوا إضافات محسوسة إلى ثرواتهم ودخولهم ، ولكن الثمن لابد أن يدفعه هذه المرة الفقراء أنفسهم، إذ ليس هناك مصادر جديدة لزيادة الدخل زيادة محسوسة، يمكنها ان ترفع من مستوى معيشة الجميع.

الأغنياء يزدادون غنى !!

قد يستغرب البعض ان يكون هذا ممكنا .. هل يمكن حقا، في ظل ركود عام، ان يزيد الأغنياء غنى ويضيفوا إلى ثرواتهم عن طريق الاقتطاع من دخول الفقراء ونهب ممتلكاتهم؟ الحقيقة أن هذا ممكن جدا، وهو يحدث بطرق مألوفة ومعروفة للجميع. إذ ما معنى ان تفرض ضريبة جديدة (كضريبة المبيعات مثلا) يقع عبئها اساسا على الفقراء، وتحصل منها الدولة أموالا طائلة في الوقت الذي تباع فيه أراض مملوكة للدولة للأغنياء بأثمان أقل من قيمتها الحقيقية؟ أليس في هذا أخذ من الفقراء لإعطاء الأغنياء؟ أو ما معنى تعبئة الأموال من صغار المدخرين ثم قيام البنوك بإقراضها للأغنياء بأسعار فائدة أقل بكثير مما يتفق مع المخاطر المتوقعة والربح المنتظر من استغلالها، ودون ضمانات كافية مما يسمح للمقترضين بالهرب دون سداد ما عليهم من ديون؟ أليس هذا أيضا أخذا من الفقراء لكي يعطى للأغنياء؟ بل حتى مامعنى بيع مشروعات مملوكة للقطاع العام بأقل من قيمتها بكثير لأثرياء المصريين والأجانب وقد بنيت هذه المشروعات بأموال يشترك في ملكيتها المصريون جميعا. فقراؤهم وأغنياؤهم؟ وما معنى حصول موظف كبير وثري على رشوة من جل تسهيل صفقة معينة يفيد منها ثرى آخر وتكون نتيجة هذه الصفقة ضررا محققا على فقراء المصريين سواء بتغذيتهم بغذاء فاسد، أو باستخدام مبيدات ضارة بالصحة، او حتى ببناء عمارة شاهقة على حديقة كانت من قبل متاحة للاستخدام العام؟

كل هذا يدخل فيما يسمى عادة «بالفساد» ولكن كثيرا من صور الفساد يمكن أن تسمى أيضا أخذا من الفقراء لإعطاء الأغنياء، وهو ما يكثر بوجه خاص في أوقات الركود الاقتصادي، عندما يصبح من الصعب ان يتحسن حال الجميع، ويصر الأغنياء على تحسين أحوالهم مع ذلك، ولو على حساب الفقراء ولتحقيق هذه المهمة لا يمكن ان يستغني الأغنياء عن الدولة، فهي التي تقوم لهم بدور الوسيط الذي يغترف من جيوب البعض ليملأ جيوب الآخرين. ■

كتاب جديد

حوارات مكرم محمد أحمد في سجن العقرب

هل تراجعت «الجماعة الإسلامية» حقاً وصدقاً؟!

بقلم

د. عاصم الدسوقى

بعد حوار طويل مع أقطاب الجماعة الإسلامية (مجلس شورى الجماعة) فى سجن طره امتد ساعات، ومع قواعد الجماعة فى سجن وادى النطرون (أكثر من خمسمائة عضو) بحضور قادتهم من طره امتد إلى منتصف الليل، ثم فى دار الهلال مع خمسة من القياديين الذين تم الإفراج عنهم، خرج كاتبنا باقتناع واضح مفاده أن هذه الجماعة تابت عن أفكارها بعد أن عكفت على مراجعتها وهى فى المعتقل على مدى ستة عشر عاما، واعترفت بأخطائها بعد قراءة كل أمهات الكتب الإسلامية وكل مراجع الفقه وكل تفاسير القرآن والحديث. وخلص بعد هذه اللقاءات إلى ضرورة أن يستثمر المجتمع هذه الفرصة المواتية إذا ثبت بالفعل أنها حقيقية لإنهاء «دورة الشر» التى سحبت معها آلاف الشباب واستنزفت عمرهم هدرا، وأنه ما لم يتم استثمار هذه الفرصة المتاحة الآن فإن مصر سوف تفوت على نفسها فرصة التاريخ.



مكرم محمد أحمد

ولقد كان أساس الحوار الكتب الأربعة التى وضعتها الجماعة وأجازها الأزهر وهى: حرمة الغلو فى الدين، والنصح والتبيين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين، وتسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء، ومبادرة وقف العنف: رؤية واقعية ونظرة شرعية.

غير أن مكرم الذى تعرض فى ١٩٩٣ لمحاولة قتل بتهمة العلمانية من أحد أفراد جماعة «الناجون من النار» وهم فرقة منشقة عن تنظيم «الجهاد» ارتفع فوق الامه، وصفح عن مهاجميه ، وتنازل عن ثأره، واقتنع بصحة توبة الجماعة الإسلامية توبة نصوحا، وأنها ضحية فكر أضل المجتمع، وضحية الالتباس الذى يقدمه النص الدينى حين يأمر بالفعل دون حساب لنظام. هذا الفكر الذى تبلور كما يرى كاتبنا فى سجون «الفترة الناصرية ومن تحت عباءة الإخوان المسلمين، والتقطته عناصر مختلفة ابتداء من جماعة الفنية العسكرية (صالح سرية) إلى جماعة التكفير والهجرة (شكرى مصطفى) إلى الجهاد (عبدالسلام فرج)، وجميعهم تلاميذ لمؤلفات سيد قطب التى أشاعت فكرة جاهلية المجتمع ليصارعوا الدولة تحت راية الدين.

ويبدو من سياق حديث مكرم أن الجماعة أخذته إلى أرضها فى براعة واضحة بسحر البيان ونعومة الألفاظ وأدب الحديث. وفى خضم أدب الضيافة لم يلتفت كاتبنا إلى كثير من حقائق الموقف التى تاهت بين مترادفات اللغة وتنويعاتها ، وأخذ بظاهر الكلمات التى تحتمل أكثر من معنى، وغاب عنه أن التوبة كما جاءت فى أجزاء متفرقة من الحوار هى توبة عن الوسائل والطرق التى اتبعتها وليس عن الهدف الذى يتلخص فى «السعى لإعلاء دين الله وإقامة شريعته».

لماذا تم التراجع ؟

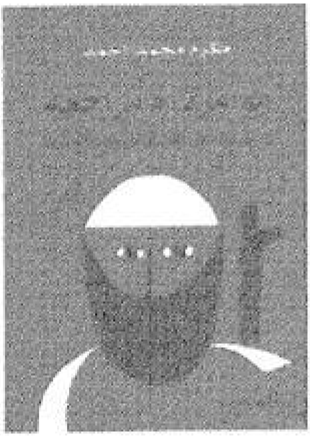
لماذا تراجعت الجماعة عن فكرة الجهاد وحلت الجناح العسكرى أخيرا؟.. لقد اكتشفت الجماعة - كما جاء فى الحوار - أن «الجهاد وسيلة لتحقيق غاية أسمى

هى هداية الخلائق إلى الحق.. فإذا تعارضت الغاية (الهداية) مع الوسيلة (الجهاد) وجب تقديم الغاية على الوسيلة خصوصا ان كان الجهاد قد أسفر عن مفاسد عظيمة وجرائم كبيرة استهدفت الشرطة والأقباط والسائحين» (ص ١٥٧). ولكن لم يأت فى الحوار أى ذكر لوسيلة أخرى غير الجهاد لتحقيق الهداية مما يعنى أن الهدف قائم..

وفيما يتعلق «بالحسبة» انتهت الجماعة إلى القول بأن الحسبة ليست لآحاد الناس فضلا عن أن المحتسب يجب أن يكون قد درس الدراسة الصحيحة وعرف ضوابط الحسبة. ولكن لأن الشرطة التي تقوم بدور المحتسب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتعذر وجود رجالها فى كل متر من أرض مصر للحيلولة دون وقوع جريمة واقعة لا محالة فإن مسئولية الفرد المسلم أن يتصدى للمنكر مساعدة للحكومة (ص ١٥٦). وهذا الفهم الجديد لا يلغى تطبيق مبدأ الحسبة وإنما يضفى عليه بعض التعديل بمعنى أنه لا ضرر من أن يقوم نفر من الناس بمساعدة الشرطة فى أداء واجبها بضوابط شرعية!!.

وتعترف الجماعة - طبقا للحوار - بأن الخطأ الذى وقعت فيه أنها كانت تقدم النص على المصلحة الشرعية وتجعل النص يتحكم فى المصلحة فكانت تجاهد دون أن تحسب حساب المصلحة والمفسدة التى سوف تترتب على هذا الجهاد. ولكن بعد المراجعة تغير فهم الجماعة وأصبحت المصلحة هى التى تحكم النص.. وأعطت مثلا لذلك بأنه إذا كان النص يقول مصلحتى سوف تتحقق منْ القتال أم من عدم القتال (ص ١١٨)!!.

وفى هذا تقول الجماعة إن الفكر الجديد لها يقوم على الفتوى الشرعية المتأصلة من كتاب الله وسنة رسوله التى تنظر إلى الواقع لأن الحكم الشرعى لا ينفصل عن الواقع.. أى يتعين قراءة الواقع وقراءة النص، وبعد ذلك يتم تطبيق النص على الواقع الحقيقى. لأن الخطأ يأتى من أن النص يكون صحيحا لكن تطبيقه يتم على واقع غير الواقع الذى يجب أن يطبق عليه. وأظن أن هذا ليس فكرا جديدا وإنما هو من باب المراوغة ذلك أنه لا يمكن تخطئة النص بحال من الأحوال ولا يمكن تعديله لصالح الواقع.. ولكن



تعديل الواقع هو الممكن حتى يحدث التطابق مع النص.. وتلك هي إشكالية الدعوة الدينية منذ بدأت في مواجهة الحكومة المدنية وتقوم على تطويع المجتمع لصالح النص وليس العكس ، فضلا عن أن هذا الفكر الجديد لا يعنى تخلى الجماعة عن النص بسبب أن الواقع غير الواقع، بل يعنى أن تطبيق النص هدف قائم، ويبقى كيفية ايجاد الواقع الذى يتلاءم معه.

أما فيما يتعلق بالتراجع عن الغلو فى الدين وحرمته الذى قاد الجماعة إلى تكفير الحكومة ووصف المجتمع بالجاهلية اعتمادا على الآية الكريمة «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» فإن الفكر الجديد للجماعة قام على أساس شرح جديد أو تفسير للآية خلاصته أن هناك نوعين من الكفر.. كفر أكبر وكفر أصغر.. فالأكبر يخرج صاحبه عن الإيمان وذلك إن أنكر الحاكم ما هو معلوم من الدين بالضرورة.. أما الكفر الأصغر الذى لا يعدو أن يكون معصية لا تخرج صاحبها عن الإيمان، وربما يقع إذا وجدت ظروف ضاغطة تمنع الحاكم من تطبيق قواعد الشريعة حفاظا على الأمة أو مسايرة لروح العصر مثل الامتناع عن قطع يد السارق لأن قيم العصر لا تجيز ذلك، أو بسبب وجود اعذار تمنع الحاكم من تطبيق هذه الشرائع مع علمه بأنها من صميم الدين (ص ١٥٣).

وهذا معناه ببساطة شديدة أن امتناع الحاكم عن قطع يد السارق أو تطبيق حد السرقة مع علمه بأنه من صحيح الدين يعد معصية منه أو كفراً أصغر، بل إن أحد المفرج عنهم قال لكاتبنا فى دار الهلال إن بعض القوانين خاصة فى قانون العقوبات تخالف الشريعة الإسلامية مثل عقوبة جريمة الزنا والسرقة لأنها أحكام شرعية لا نستطيع أن نلغيها ونخالف الشريعة.. هى أحكام شرعها الله .. وهى باقية إلى قيام الساعة لا يمكن أن نغيرها. ولكننا نقبل عذر الحاكم عن عدم تطبيق الشريعة لعوامل أو ظروف مثل

كتاب جديد

الخوف من قيام فتنة بين المسلمين والمسيحيين، أو أن هناك قوى تتربص بنا.. أو أننا لسنا وحدنا في هذا العالم.. (ص ١٢٩ - ١٣٠) . فما هو الجديد في هذا الفكر.. وأين هو التراجع؟

وفي حديث الفتنة الطائفية التي رأت الجماعة في الحيلولة دون وقوعها عذرا للحاكم في عدم تطبيق الشريعة نلاحظ أن خطاب المراجعة لا يحمل تراجعا حقيقيا.. فالجماعة لا تستخدم مصطلح المواطنة وإنما تستخدم خطاب أهل الذمة بلغة معاصرة.. فهم يقولون «إن الأقباط من نسيج الوطن ولهم حقوق كفلها الإسلام أكثر من الحقوق التي يكفلها لهم أي نظام آخر.. وأن الجماعة مع الحقوق التي يتمتع بها المسيحيون في مصر وليست ضدها.. فالواقع يقول إن الأقباط أهل كتاب لهم ما لنا في المجتمع وعليهم ما علينا» (ص ٣٤).. وأن استباحة أموال الأقباط كما حدث جاء بسبب خطأ البعض في فهم «حكم الغنيمة من الكفار» الذي ينطبق على الحرب مع اليهود مثل حرب ١٩٧٣!!.

والحال كذلك فإن هذا الخطاب يقوم على التسامح وليس على المساواة.. ولا يقوم على أساس المواطنة بل يقوم على أساس قسمة المصريين إلى طائفتين إذ يقول إن العمل الإسلامي ليس مقصورا على أمور معينة كما يتخيل الناس بل إن رعاية اليتيم والإحسان إلى الفقراء وتحفيظ القرآن من العمل الإسلامي.. ولهذا يطالبون بتكوين جمعيات إسلامية تحض على الخير وتعلم الناس وتساعدهم اجتماعيا.. وهذا معناه أن يقوم مسلمون بمساعدة مسلمين ويقوم مسيحيون بمساعدة مسيحيين من خلال مؤسسات خاصة بكل منهم ولتذهب الدولة إلى الجحيم.

ويلاحظ في هذا المقام أن الجماعة في فكرها الجديد تعتبر أن دخول غير المسلمين البلاد بجواز سفر يعد أمانا لهم وذلك بمقتضى «فتوى عصرية تطبق على الكافر الذي يدخل بلادنا بجواز السفر وتطبق على المسلم عندما يدخل بلاد الكفر بجواز السفر والتأشيرة» (ص ٩٥).. أين الجديد.. وأين التراجع .. وأين المراجعة!!.

قتل التجار خطأ!

وعطفا على هذه النقطة فى العلاقة مع الآخر فإن الحوار مع الجماعة تناول رأيها فى تدمير البرجين الشهيرين للتجارة العالمية فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر فقال أحدهم «إن قتل المدنيين وخاصة التجار خطأ.. وأنه فى يوم من الأيام كان سببا فى مصائب كثيرة حلت بالإسلام من قبل.. ومن هذه المصائب غزو التتار الذى كانت بدايته قتل المسلمين للتجار التتار» (ص ٨٨). فمن أين استقى هؤلاء معلوماتهم عن أسباب غزو التتار لديار المسلمين.. هل لو كان القتل قد طال رعاة أو مزارعين ما وقع الغزو؟؟.. ومن ناحية أخرى قالت الجماعة إن هدف ابن لادن مستحيل «لأنه يريد إخراج روسيا من الشيشان والهند من كشمير وضرب الجزائر وتونس وفرنسا وليبيا وإخراج أمريكا من الخليج».. ووجه الاستحالة هنا «أنه يحارب فى أكثر من جبهة والرسول طيلة عمره لم يحارب على جبهتين فى وقت واحد» (ص ٨٩). وهذا معناه أن الهدف مشروع لكن التكتيك خاطىء لتعدد جبهات المعارك فى وقت واحد!!. هل من تعليق آخر؟

أما فيما يتعلق بمبادرة وقف العنف دون قيد أو شرط التى لفتت الأنظار إليها عندما أعلنت فى يوليو ١٩٩٧ وتعطلت بسبب حادث الاعتداء على السياح فى الأقصر ثم تأكدت فى مارس ١٩٩٩. فإنها عند الجماعة ليست من باب التكتيك بل إنها استراتيجية «لأننا نصالح أقواما مسلمين هم إخواننا وأبناء عمومتنا.. وكجماعة إسلامية لا نكفر أحدا.. إذ نحن فى صلح مع المسلمين ولا يمكن أن يكون هذا الصلح مؤقتا أو تكتيكيا» (ص ٤٥ ، ٨٨) والمعنى أن الجماعة بعد الاجتهاد والمراجعة اكتشفت أخيرا أن الحكومة تتكون من قوم مسلمين وأن الشعب المصرى كذلك وأن الجماعة بالتالى أصبحت فى حالة صلح مع الحكومة والشعب». هكذا.. وبما أن الجماعة استخدمت مصطلح «الصلح» فيتعين الإشارة إلى أن التاريخ يقول لنا إن الصلح لا يمكن أن يكون دائما أو استراتيجيا.. ولو كان كذلك لما تجددت حروب بين دول عقدت فيما بينها اتفاقيات صلح وسلام.

وتقول الجماعة فى كتابها (مبادرة وقف العنف) أن «هدف المبادرة

الأصيل وقف اقتتال منعته الشريعة الغراء لمفاسده العظيمة وواجب شرعي تصدينا له بكل شجاعة ولكنها تتحفظ على هذا الإيقاف بعبارة لها دلالتها عندما تقول إن وقف القتال «أمر لا يتنافى مع واجب آخر يلزمنا جميعا هو السعي لإعلان دين الله وإقامة شريعته». ولقد تنبه الأزهر عند مراجعته لمخطوطة هذا الكتاب إلى اللغة المستخدمة ، إذ قال الذى راجع الكتاب إن المبادرة اسمها «وقف الأعمال القتالية والأفضل أن تسمى «منع»، لأن «الوقف» يوحى بأنها هدنة وممكن قيام القتال بعد وقفه.. وأيضا القول بأن الجماعة «ستوقف القتال الدائر لأن الشرع يأمرنا بإيقافه.. ويقول المراجع إن الأصح أن يقال سنمنع القتال الدائر لأن الشرع يأمرنا بمنعه ، كما لاحظ الأزهر أيضا أن المبادرة تقول «هدفنا تعبيد الناس لربهم.. أى هداية الخلائق.. والأصح أن يقال «نسعى للدعوة ليهدى الله الخلائق» لأن الهداية من الله تعالى (ص ٢١٣).

وبينما صدق مكرم محمد أحمد الجماعة الإسلامية فى مراجعاتها الفكرية نراه لا يصدق الإخوان المسلمين وخاصة عندما وقفوا صامتين عن تأييد مبادرة وقف العنف. فالإخوان المسلمين عنده يمثلون الحلقة الأولى فى دورة الشر منذ ١٩٤٨ وهم «تنظيم انقلابى لا يؤمن سوى بالعمل السرى مهما تعددت واجهاته العلنية» وقد ثبت له هذا من وثيقة «التمكين» التى تم ضبطها فى قضية تنظيم «سلسبيل».

إن الحوار مع الجماعة الإسلامية كشف أشياء كثيرة من بينها الخلط بين الدين والسياسة، والمطلق والنسبى، والبشرى والإلهى، وإساءة لفهم كثير من النصوص والمعانى، وهو خلط تحتاج إزالته إعادة تثقيف ذاتى لأفراد هذه الجماعة وغيرها وذلك بقراءة أمهات الكتب مصادر الفقه والتفسير والحديث ليس بمعرفتهم كما فعلوا وإنما على يد شيوخ هذه العلوم المعتبرين.. والتفكير فى كيفية إعادة صياغة هذه المصادر المعتمدة فى لغة عصرية تناسب العقول الشابة التى يخاطبها «أمراء» الجماعات، أولئك الذين انتحلوا صفة ليست فيهم. واعتلوا منابر لم يعدوا لها، ووجدوا فى الأقاليم البعيدة المغلقة على أهلها إلا من شاشات التليفزيون وخاصة فى الصعيد فرصة مناسبة وتربة صالحة لبث أفكارهم بكل ما فيها من خلط وسوء فهم وتقدير مستثمرين فى هذا الأزمة الاقتصادية وضيق فرص العمل ومجتمع التقاليد المحافظة. ■

أقوال معاصرة

● «ليس ثمة مبرر لكره الولايات المتحدة غير أنه لن يكون في وسعها إزالة هذا الكره بالقاء القنابل على من يكرهها»

كريس باتن

آخر حاكم انجليزي لهونج كونج قبل عودتها إلي الصين الأم

● «الحرب التي يشنها مسلمو اليقظة الطالبانية على الولايات المتحدة إنما هي موضوعيا وعمليا حرب إلى حسابها وفي صالحها وفقا لميزان القوى»

الشاعر أدونيس



أدونيس

● «الأساس السيكولوجي للعزل المطلق هو نفسه الأساس السيكولوجي للاستسلام المطلق»

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

● «أقل ما يمكن أن يقال عن أيامنا بأنها محبطة وبائسة للملايين»

ميخائيل مارجيلوف

رئيس لجنة الشئون الخارجية بالمجلس الاتحادي (الشيوخ) الروسي

● «القضاء لا يفرق بين الوزير والخفير، ولا يقبل كبش الفداء»

المستشار سعيد عبدالواحد

رئيس محكمة جنايات الجيزة التي قضت ببراءة **صغار العاملين** المتهمين بالاهمال الذي أدي إلي **فاجعة قطار الصعيد**



محمود درويش

● «الشعر في أحد أشكال تعريفه هو لغة الحلم»

الشاعر محمود درويش

● «إذا لم نقم نحن بالتغيير الضروري من داخل النظام، فإن الأعداء سيتدخلون لفرض الحلول على النظام من خارجه»

ابراهيم يزدي - وزير خارجية إيران الأسبق

● «إذا فكرت كثيرا فسيحملك ذلك إلى التهرب من القيام بأي شئ»

الممثلة الاسترالية كيت بلانشيت



مهاتير محمد

● «النفط هو الشئ الوحيد الذي يملكه المسلمون!»

ماهاتير محمد - رئيس وزراء ماليزيا

● «لن تغسل الشعوب العربية إذلالها الذي عمره قرنان إلا إذا أدركت تخلفها»

جان بير شيفنيمان - وزير فرنسي سابق

● «الخطوة الأولى في عملية تجريد الآخر المكروه من صفاته الإنسانية تتمثل باختزال وجوده إلى بضع عبارات وصور ومفاهيم بسيطة تكرر بالحاح»

المفكر الفلسطيني الأصل - ادوارد سعيد



سهرات رمضان وشاعر الربابة

بقلم
د. محمد رجب البيومي

في يناير من سنة ١٩٣٩ كتب الأستاذ الكبير عبدالعزيز البشرى مقالا بمجلة الثقافة تحت عنوان (اسعفوا التاريخ) ، فحواه أن مصر تغيرت في أيامه تغيرا كبيرا من حيث العادات والتقاليد، فاختفت من الوجود صور أمة لتحل بعدها صور أمة أخرى ، بحيث صار من عاش قبل ثلاثين عاما ينكر ما يشاهد اليوم بعد اختلاف الأوضاع ثم دعا من سماهم مشيخة المؤرخين أن يسعفوا الناس بتسجيل ما انقرض من العادات، وأخذ الكاتب يعرض نماذج من التقاليد المنقرضة التى لابسها فى صدر شبابه ويرى تسجيلها من ألزم اللوازم ليكون التاريخ الاجتماعى موصول الحلقات .

أبو زيد الهلالى ، عنترة العبسى و الزير سالم كلها بطولات أثارت الشوق دائما لحكايا شاعر الربابة





وقـــد طاف بذهني حين أردت أن أكتب مقالي عن رمضان المعظم، مشهد من أجمل مشاهده التي انقرضت منذ أمـد طويل ، والتي لا يزال أثرها في نفسي قويا مجلجلا ، بحيث لا أقدر على تناسيه، هذا المشهد هو دور شاعر الربابة الذي يجد من ليالي هذا الشهر أجمل مناسباته في الريف وفي الأحياء الشعبية بالقاهرة، إذا اتيح له أن يملك من عواطف الجماهير ما تملكه الآن مسرحيات التليفزيون ومسلسلاته في هذا الشهر، بل إن كثرة هذه المسرحيات وتواليها المتوارد على شتى القنوات في سرعة تنقطع معها الأنفاس مما زهد الكثيرين في متابعتها، أما شاعر الربابة في عهده المزدهر فقد كان قبلة الانظار ، تحتفل الجماهير بمقدمه كما يحتفلون بفنان مرموق ملك قلوب السامعين .

كـان عيد الفطر في الريف خـاتمة لثلاثين يوما من الأعياد هي أيام رمضان المبارك ، إذ كان كل يوم بفرحته الغامرة ، وبمصابيحه التي يحملها الأطفال في الشـوارع ، وبموائده التي تقام قـبيل الغروب أمام منازل الموسرين، وبدروسه الدينية في ساحة المسجد بعد العصر وبعد صلاة المغرب، وبالمئذنة المتألقة بالضياء، الصادحة بالأذان والتواشيح ، وبالزيارات الليلية المتصلة في سهرات المقارىء بالمنازل المترفة.. كان ذلك كله بعض مظاهر الاحتفال ، أما الليالات الثلاث التي يحييها شاعر الربابة بالمقهى فهي تتويج لهذه النشوات الغامرة، اذ كان من المصطلح عليه أن يختص كل شاعر في هذا الموسم الجهير بعشر قرى من قرى الريف، يزور كل قرية في ثلاثة إيام متفرقة قد حددت مواعيدها ، وأبرم الاتفاق عليها بين صاحب المقهى والشاعر على نحو لا يقبل التراجع ، ولم يكن للراديو وقد بدأ في الظهور أثره الخالب في جذب الجمهور إلا ما كان من سماع المشاهير من القراء، وأميرهم يومئذ هو الاستاذ الشيخ محمد رفعت ، فإذا انقضت ساعة القراءة ، كان المقهى بروداه في شأن آخر من شؤون الاستمتاع ، أما الشاعر فقد اعتاد ان يصل بعد أداء صلاة العصر قادما من القرية المجاورة على جناح حمار مطهم، يقوده ريفي متطوع، حتى يبلغ المكان المحدد ، ويتناقل القوم أخبار مجيئه فيتهيأون لليلة حافلة ، فاذا استراح بعض الأمد، وأذن المغرب تناول طعام الإفطار عند من يتطوع مرحبا باستضافته من الموسرين بعد استئذان

صاحب المقهى لأنه الداعي المضيف، ويفضل الزائر الكريم ان يصلي المغرب والعشاء بمنزل المضيف لا بالمسجد كي يكون استقباله بالمقهى عند بدء السهرة مما يليق تماما بمقامه الجهير ، وهو روح الاحتفال !

وكانت ليالي الصيف في رمضان أبهج رونقا وأروح جلوسا من ليالي الشتاء ، إذ إن شتاء رمضان يجبر السامعين على الانكماش في المقهى وهو على سعته النسبية لا يتيح مجال الانبساط والتبحبح ، أما صيف رمضان فتنتقل المقاعد فيه إلى الفضاء الفسيح خارج المقهى ، وتنتظم صفوفا متراصة وفق ترتيب يحبذه القائمون على شئون السهرة ، ويأخذ الشاعر راحته النفسية حين يجلس على أريكة عالية، يقلب نظره في جمهوره وبين يديه ربابته الموسيقية التي يعشق الحاضرون أنغامها ، وكأنها وحي سماوي خالد ، وهنا يتسع المجال لسيدات المنازل المجاورة كي يملأن النوافذ مصغيات، إلى ما يهتف به الشاعر، وقد تزغرد إحداهن اذا استمعت إلى مواقف الابتهاج بين عبلة وعنترة ، فيتردد التصفيق مجاوبا هذه الزغاريد ! ويطلب من الشاعر أن يعيد ما حكاه عن فرحة اللقاء بين الحبيبين فيستجيب وفي عينيه بريق النشوة والابتهاج !.

كان الريفيون في هذا العهد يتلقون ثقافتهم المتواضعة من منبعين لا ثالث لهما، فالمسجد يتولى إمامه شرح المسائل الدينية وأهمها العبادات ثم سيرة الرسول ﷺ وبعض الاحاديث والآيات الداعية الى الاخلاق الحميدة، اما النبع الثاني فهو الشاعر المحتفل به إذ يتولى إذاعة الثقافة التاريخية الاسطورية فأقاصيص ابى زيد الهلالى وعنترة العبسى والزير سالم (المهلهل) هى مجال سمره، وموضع حديثه، وفى قرى أخرى تمتد هذه الأساطير فتشمل قصص سيف بن ذى يزن ، والظاهر بيبرس وحمزه البهلوان كما قد علمت من أبناء هذه الربوع، أما الريف في الدقهلية فقد اكتفى شعراؤه بهؤلاء الثلاثة، ومع تكرار ما يقولون دائما كل عام، فإن الشوق لحديث شاعر الربابة لا ينقطع، بل إننا نجد من يتعقبه في القرى المجاورة بعد أن سمعه في قريته بالأمس ليستعيد لذة الإنشاد ونغم الربابة ، ثم يرجع ماشيا على قدميه. في الليل وكأنه ظفر بمغنم كبير!.

الليلة الأولى

تعود القرويون ان يسمعوا في الليلة الأولى قصة أبي زيد الهلالي ، وما يحوط بها من أنباء دياب بن غانم والزناتي خليفة، هذه الليلة هي أهم الليالي الثلاث، وأكثرها احتشادا،



اختصاما وأقول اختصاما لأن السامعين يمثلون عدة أحزاب متناحرة، فالفريق الكثير العدد يتشيع لأبى زيد ويراه البطل الذى لا يقاوم، ويتناول بالتحقير منافسيه ومن أشهرهم الزناتي خليفة، وله أيضا فريقه الذى يتعصب له ويصفه بالأصالة ورفعة النسب وشهامة الملوك ، وأما الفريق الثالث ففريق دياب بن غانم، وقد استقر الوضع على أن يجلس كل فريق فى صف أو صفين دون أن يتحاور مع احد من انصار خصومه ، ويأتى الشاعر بعد صلاة التراويح مهيبا جليلا ، وقد خرج على قومه فى زينته، فهو طويل القوام ممشوقه ، وعليه جبة صوف غالية، من تحتها قفطان براق اللون مع حزام حريرى مزركش، وفوق رأسه طربوش ينسجم وضعه انسجاما يدعو الى الالتفات لأنه لا يتحرك ولا يتقلقل مهما اهتز صاحبه فى نشوة الإنشاد، وبراعة التمثيل ، وحين يشرق بطلعته على الحفل، يثب الجموع وقوفا، وكأنهم يستقبلون زعيما سياسيا يؤمنون بمبدئه الحزبى، والرجل يرفع يديه معا إلى رأسه محييا، وشاكرا لهم حفاوة الاستقبال ويأخذ الربابة بين يديه ويكون ايقاعها إرهاصا حسنا لما يتلوه من قص محبوك، والشاعر يعلم أن القوم أشتات لا يجتمعون على محبة بطل واحد، وهو مضطر لأن يأتى بالأحداث على نمط يشبع جميع الاهواء قدر المستطاع ، والعيون شاخصة والأسماع متيقظة تترقب كل نبأة وصوت والقصة بطبيعة سياقها تعطى آبا زيد اكثر مما تعطى رفيقيه من أدوار الشجاعة والاستبسال ، فإذا تحدثت عن بطولة خارقة لأبى زيد وبطولاته خارقة دائما فإن موجة من الحماسة الدافقة تغمر مشاعر مؤيديه، وإن أصوات الإعجاب والاستزادة لتعلو علوا يتضايق منه المعارضون وهنا يميل الشاعر بحنكته الى حديث موقعة يحتلها الزناتى أو دياب ، فتتطلع إليه الانظار حتى إذا أسفر الموقف عن بطولة بارزة انتقل الضجيج إلى الصف المجاور وعلت الأصوات طالبة الاستعادة وقد رأيت من نوادر التشجيع مازلت أذكره مع انى كنت صبيا فى السابعة او الثامنة، اذ كانت ليالى الصيف فى رمضان تدفع صانعى العرقسوس الى بيعه وتوزيعه على المجتمعين بارتياح من صاحب المقهى وتسامحه ، وكنت انظر فأجد شابا ضخما يحمل على صدره إناء زجاجيا يتسع محتواه لأكثر من ستين كوبا ، وقد تسمر فى مكان ليسعى اليه



أنغام الربابة من الماضى إلى الحاضر تجذب عشاق السير الشعبية فى ليالي رمضان

من بريد الارتواء ، وكان الكوب بمليمين فحسب أى أن التجارة كلها لا تتجاوز اثنى عشر قرشا! فإذا عرف ان ثمن السكر والعرقسوس يبلغ ثمانية قروش فالليلة جميعها لا تدر على المسكين أكثر من اربعة قروش يأخذها سعيدا وينقلب إلى أهله مسرورا، أما ما أريده من تسجيل ظاهرة التشجيع الحماسى، فهو أن أحد المتحمسين للزناتى طرب لبعض ما سمع من مواقفه البطولية، فوقف صارخا ينادى بائع العرقسوس ويطلب منه ان يوزع كل ما معه على الجمهور مجانا على حسابه الخاص ابتهاجا بالنصر الحاسم ، وتم ذلك فى دقائق استراح بعدها البائع من عبئه الثقيل .

ثم استأنف الشاعر حديثه فانتقل إلى احدى بطولات ابى زيد ، وما كاد يفرغ من ابداعه، حتى نهض احد الانصار وهتف بصاحب المقهى ان يوزع كأس القرفة الساخنة على الحاضرين جميعا.

وكانوا أكثر من مائة وخمسين واشتغل صاحب المقهى فى جد عاجل مستعينا بذوى الخبرة من الجالسين، حتى تهيأت الكؤوس ! وإذا علم أن ثمن المشروب خمسة مليمات ! فقد دفع الرجل خمسة وسبعين قرشا ! وخمسة وسبعون فى هذا الزمن مما يرهق ميزانية فلاح متواضع، ولكنه أرضى نفسه حين طمس مأثرة سابقة قام بها من تحمس للزناتى فأغاظه وأغضبه.



والسؤال الذى يتردد على ذهنى ، يدور حول إعجاب هؤلاء القرويين البالغ بأحداث القصة ، وإقبالهم على استماعها كل عام، وكأنها شىء جديد مع أن الشاعر يعرض ما سبق أن كرره دون أن يكون له من الخيال القريب أو البعيد ما يضيف به الطريف، لماذا هذا النهم المحتد اشتياقا لشىء تعرفونه من قبل ؟ إن الجواب المتبادر هو أن القصة أصبحت أغنية . لاسيما بما تتمتع به من جمال الصوت لدى الشاعر، ومن ايقاع الربابة الساذج ذى التأثير البالغ فى النفوس الهادئة غير المركبة ! والأغنية اذا كررت مئات المرات لاتسأم، لذلك تسجل فى الأشرطة لتستعاد فى ساعات القلق والحيرة ! على أن القوم فى حاجة ماسة الى تجديد الرتابة المنتظمة طوال العام فإذا سمحت فرصة ما بليلة ذات غناء وقصص وسمر فلابد من انتهازها على أكمل وجه يتاح !

هذا وسامع حديث أبى زيد من هؤلاء يعتقد أنه تاريخ حقيقى لا شك فيه كما كان يعتقد أجداده منذ ثمانية قرون حين أخذت أحداث القصة تتداول فى أواسط العصر الفاطمى ثم تهيأ لها من الخلود الشعبى ما جعلها الملحمة الأولى لدى أبناء الشعب منذ هذا الزمن البعيد. وقد قلت إن السامعين يعتقدون أن أحداث أبى زيد الهلالى ورفاقه واقع تاريخى وإذن فلا مجال للشك فى بطولة خارقة أو إعجاز نادر يؤكد ذلك ما سمعته من ريفى ساذج جاوز الثمانين، وقد كللته لحية بيضاء أضفت مهابة فائقة على حديثه، إذ كان القوم فى مبدىء الحرب العالمية الثانية، وقد عظم صيت هتلر حتى مايفوقه أحد . وكان المهاجرون من الاسكندرية يملأون الريف فرارا من طائرات روميل . وقنابل الشر البيدة ، وحديثهم للعامة عن الطائرات مما يرعب ويهول، وقد استمع اليه الحاج عقل، هذا الريفى المعمر الذى اشرت إليه من قبل، فقال فى هدوء الواثق المطمئن : عليه العوض، لو كان ابو زيد الهلالى حاضرا اليوم لقطع رقبة هتلر الملعون.. وأمن بعض الناس على ماقال! ومهما يكن من شىء فإن ليلة أبى زيد هى الليلة الأولى بين الليالى الثلاث .

الليلة الثانية

أما الليلة الثانية وقد حلت بعد تسع ليال من الليلة الاولى ، فكانت خاصة بقصة عنترة ، ولهذه القصة حينئذ، ذيوع عام بين الريفيين، والسامعون جميعا يحبون عنترة ويقدرون رجولته وفروسيته

وإذن فليست هناك أحزاب تتعصب لفريق دون فريق كما فى ليلة أبى زيد وإنما الكل على وفاق تمام، وسرور متبادل ، وقد ابتدأ الشاعر بعد ان قال عبارته المشهورة (اول مانبدى اليوم نصلى على النبى) بذكر المعركة الاولى بين عبس وذبيان، وظهور ذبيان على عبس ظهورا كاد يؤدى الى أسر الرجال وسبى النساء ونهب الاموال ، ثم ظهر شداد والد عنترة متوسلا ضارعا لابنه كى يشارك فى الحرب ببسالته. ويطلب عنترة حريته فيجاب لها ، ويهجم هجوم الأسد الجسور فتفر ذبيان مندحرة، وتتحلق صبايا عبس حول عنترة وفيهن عبلة التى يعرف الناس شغف البطل بها ، فتسلم عليه وتعصبه بمنديل الفروسية بين التصفيق والهتاف ، ويأتى النبأ الى والد عبلة فتضيق به الارض، ويؤذن عنترة بالاغتيال ناسيا انه البطل الذى لايقاوم، وينجح الشاعر فى استدرار الدموع حسرة على عبلة وعنترة معا من الموقف المتأزم ، وهنا يهتف الشاعر بأبيات من الشعر الفصيح المنسوب تاريخيا إلى عنترة ، وأذكر مما انشد :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ولا أدرى كيف تذوق هؤلاء الاميون السذج حلاوة هذا الشعر العربى الفصيح فصاحوا يطلبون الإعادة، وهى عبرة نذكرها لمن يتحدثون اليوم بالعامية فى الندوات الثقافية على الشاشة ويقولون إن الجمهور بعد انتشار المعاهد والكليات والصحف والمجلات والكتب والدوريات لايفهم لغة القرآن !! وهى خيبة كبيرة يوصم بها هؤلاء الغافلون ! ثم يسلسل الشاعر الاحداث فيتحدث عن تعجيز والد عبلة لعنترة حين طلب المهر مائة من النوق العصافير وهى لاتوجد إلا فى العراق عند النعمان بن المنذر وبقدرة قادرة سافر عنترة وأحضر النوق بعد لقاء ودى مع النعمان وتم له ما أراد فسمح الوالد بالاقتران، وهنا تدوى الزغاريد من اللاتى يستمعن على بعد كما أشرت الى ذلك من قبل ، ومن طريف ما حدث فى هذه الليلة، وكانت ليلة جمعة أن عرسا ريفيا لبعض الأثرياء كان يقام فى الشارع المجاور، فنهض بعض الشباب إلى العرس واحضروا من الاطفال ولدا وبنتا صغيرين وهما فى زى الفرح البهيج ، وتقدموا بهما بين تصفيق الجميع ليجلسا على الأريكة ممثلين لعنترة وعبلة فكان المشهد المتواضع على سذاجته آخذا بالب، ولم تنقطع الزغاريد من الخارج إلا بعد أمد، وقبل أن ينتهى الحفل حضر القائمون



على العرس فدعوا الشاعر ونفرا من أصحابه الى تناول السحور فسار الموكب إلى مكان الدعوة وكأنه يبدأ باحتفال جديد !

أعود إلى بقية ما قال الشاعر عن عنترة ، فأذكر انه ختم حديثه بمأساة أليمة تتحدث عن مصرع البطل حين ذهب من سماه (الأسد الرهيص) وهو أحد خصوم البطل، إلى خيمة عنترة فرماه غيلة بسهم مسموم ، فأدركه الألم الحاد ، ولكنه نهض الى فرسه، وأمسك رمحه، وجعل يتعقب الحاقد ، حتى أدركه الموت، وهو على صهوة جواده دون أن يترجل ، وقد هابه العدو فلم يستطع الاقتراب منه، ثم لما طال وقوفه فوق الجواد دون حراك رتقدم منه فعرف ان الموت حق !! قال الشاعر هذه العبارة ، فتنهدت صدور بالزفرات، وترقرقت جفون بالعبرات لأن القوم يصدقون كل كلمة تقال وهنا صعد من يتلو بعض آيات القرآن !

الليلة الثالثة

أما الليلة الثالثة فهي ليلة الوداع يشعر المستمعون أنهم لن يسعدوا بمثلها إلا في العام القادم، ويحس الشاعر ذلك الاحساس فتظهر على ملامحه سمات تدل على الرفق والتساؤل ، وقد اعتاد ان يقص في هذه الليلة سيرة (الزير سالم) والمراد به المهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس، والسيرة التي يرويها تتضمن عناصر ثابتة في تاريخ أيام العرب في الجاهلية ولكنها تضم كثيرا مما اخترعه الخيال ، وصادف هوى في النفوس ، فكليب ملك العرب قد حارب تبعا الملك اليماني واسمه حسان، مع ان بينهما من الزمن قرابة قرنين كاملين وزرقاء اليمامة قد اخبرت أعداء المهلهل بقدوم جيشه متسترا بأغصان الشجر مع انها لم تكن في بلاد بكر ولا في زمن الحرب، بل كانت قصتها باليمامة مع عدو بلدها جذيمة الابرش، وهكذا أضيفت روايات تنتمي الى قصة المهلهل وقد التزمت الصدق فيما تحدثت به عن مصرع كليب على يد جساس ، وعن موقف جليلة الحزين بين أهل زوجها وأسرة ابيها ، وهي عند رهط كليب عدوة أخت عدو، وعند أهلها ضالعة مع أقارب الزوج ! ولا أكتم القارىء ان الشعور العام أثناء تلاوة القصة كان ضد جساس باعتباره مجرما سفاحا ، وقد كنت أشعر بالبغض له أثناء إنشاد الشاعر، ولكنني فيما بعد

اخذت أقلل من هذا البغض حين أدركت من قراءاتى المتأنية ان كليبا كان ظالما متجبرا ، يحمى الأبعاد الشاسعة من الارض فلا يقربها احد سواه ، او من يلوذ به ، ويمنع الابار المائية عن الناس فلا يردها غير خاصته وحرام على الظمآن ان يرتوى منها ، وهذا كله مما حز فى نفس شاب أبى من أسرة مماثلة هى أسرة قرة بن بكر ، فاندفع الى الانتقام تحت تأثير جارة له استجارت بشهامته ولم تكن فى حاجة إلى ايغار صدره لأن الزيت كان قريبا من الوقود ! اما المهلهل فقد حاز رضا الجميع منتصرا ، وأسفوا عليه منهزما ، ولا أنكر انه فى القصة جاوز الحد فى الانتقام وكان عليه أن يقبل الصلح بعد مقتل جساس ووساطة الحارث بن عباد التى أجاد الشاعر تصويرها فى حماسة دافقة ! لقد كان الرجل مصورا بارعا، وكان الجمهور فى أشد مواقف اليقظة والانتباه ! والذى أعجب له هو وصف المهلهل «بالزير سالم» ، اذا أجهل منشأ هذا الوصف وقد يكون زيرا لأنه كان جليس النساء قبل مقتل كليب ، ولكن من أين كان الزير سالما !! .

وكما قلت فى قصة عنترة أن الجمهور كان يتذوق الشعر الجاهلى الذى قاله البطل ورواه الشاعر فإنى أقول إن الجمهور كان يطرب لشعر المهلهل الحقيقى الذى رواه الشاعر منقولا عنه، ومنه قوله فى رثاء أخيه حين فوجىء بمصرعه الاليم ...

كأنى إذ نعى الناعى كليبا

تطاير بين جنبى الشرار

فسرت اليه من بلدى حثيثا

وطار النوم وامتنع القرار

ولست بخالع درعى وسيفى

إلى ان يخلع الليل النهار

وقبل ان يغادر الشاعر اريكته الى منزل المضيف يقبل السامعون عليه فردا فردا وهم بين معانق ومحتضن ومقبل ومكتف بالمصافحة ! ولكل سائلة قرار ..

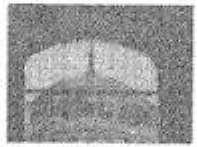
وبعد ..

فقد زرت القرية فى رمضان منذ عامين وتذكرت ما كان فى غابر السنين، وعن لى أن اذهب الى المقهى المتواضع فإذا بناء من أربعة طوابق وإذا الساحة الرحيبة من قبل صارت شارعا ضيقا، وإذا وجوه الناس غير الوجوه اذ لم يكد يعرفنى أحد ! وإذا أقاصيص الشعر عن أبى زيد وعنترة والمهلهل قد توارت طى السنين وغمرها النسيان، فكدت أهتف بقول أبى تمام .

لا أنت أنت ولا الديار ديار

خف الهوى وتقضت الأوطار .

رمضان كريم



جزء خاص

القدسية
في عمارة المسجد

بقلم

د. طارق سويلم

المسجد هو الرمز المادى الظاهر للإسلام، وهو يشمخ بمئذنته السامقة فى كل مكان يتجمع فيه مسلمون ، ومنذ نشأته الأولى فى المدينة ومكة على أيام الرسول (ﷺ) مر المسجد بمراحل مختلفة سواء من ناحية دوره الدينى والتعليمى التقليدى فى المجتمع الإسلامى أو ما طرأ من تحضر على طرازه المعمارى والنقوش التى تزينه وفى محاولة علمية جادة لتتبع تاريخ المسجد وتطوره المعمارى والدور الذى يلعبه اليوم فى حياة المجتمعات الإسلامية أصدرت الجامعة الأمريكية فى القاهرة كتابا مصورا رائعا يحمل نفس الاسم «المسجد» ضم بين دفتيه دراسات للعديد من المتخصصين واساتذة الجامعات من الأجانب والمسلمين فضلا عن عشرات الصور التى تعتبر كل منها فى حد ذاتها لوحة فنية بديعة توضح إلى أى مدى برع المهندس والفنان المسلم فى التعبير عن ايمانه الروحى وثقافته المحلية من خلال اللجوء الي الرسم الهندسى والنقوش والخطوط وقوة المعنى فيها مبتعدا عن تصوير المحاذير التقليدية الثلاثة (الشخصيات الانسانية والحيوانات والطيور) .

نموذج للتطور الذى طرأ على عمارة الصحراء في مسجد «دجيني» الكبير في مالى ~١٩٠٩ م ◄



ويلعب المسجد دورا مهما في حياة كل مسلم، بل وكان للمسجد عبر التاريخ دور مهم في تطور المجتمع المحلى فى العالم الإسلامي ولكي يلعب أى مبنى الدور التقليدي للمسجد لابد من توافر عناصر معينة، المئذنة التي يمكن رؤيتها من خارج المسجد والتي يرفع منها الأذان. و المحراب الذي يحدد اتجاه القبلة والمنبر الذي يعتليه خطيب صلاة الجمعة ودكة المبلغ الذي يردد بصوت مرتفع تكبيرات الإمام خلال صلاة الجمع والأعياد التي يمتلئ فيها المسجد بالمصلين والعنصر الخامس هو الميضة لوضوء المصلين قبل شروعهم فى الصلاة.

وبالنسبة للطرز المعمارية للمسجد يوجد بوجه عام ثلاث أو أربع طرز. طراز الرواق الذى تحيط فيه صحن المسجد أروقة من جميع الجهات، والطراز الإيواني حيث المسجد عبارة عن بناء به ساحة مفتوحة ولا يحتوى على أية أقواس (قناطر) وإنما تضم إيوانات كبيرة تفصل بين مدارس مذاهب الفقه الأربعة وقد ظهر هذا الطراز من البناء في فترات لاحقة في حوالى القرن الثاني عشر مع تطور الفقة واحتلاله مكانة مهمة لدى جمهور المسلمين وطراز القبب هو الطراز الثالث حيث تعلو القبب ساحات الصلاة وهو الطراز الأكثر شيوعا فى الدولة العثمانية. وإلى جانب تلك الطرز قد تضاف للمسجد عناصر أخرى مثل ضريح تعلوه قبة يدفن فيه غالبا الشخصية التى أنفقت على بناء المسجد وأوقفت بعض ثروتها للإنفاق عليه بعد وفاتها وربما إلحق بالمسجد سبيل يروى عطش عابر السبيل في الأيام الحارة وأحيانا كتاب يحفظ فيه الأطفال القرآن الكريم .

وقد ينظر البعض إلى التنوع فى بناء المساجد وزخرفتها المغالى فيها على أنه شكل من أشكال البدع، إلا أن البعض الآخر يرى فى هذا التنوع وتلك الزخرفة انعكاسات للهوية الثقافية للمجتمع وتجسيدا لها .

ويسير محمد الأسد المؤرخ المعمارى الأردني في دراسته فى هذا الكتاب إلى أن الرسوم والنقوش الهندسية لعبت دورا مهما فى الفن المعمارى للمساجد ومع أن التصميمات المعمارية التي تنطوى على تعبير هندسي كانت معروفة قبل ظهور الإسلام بوقت طويل إلا أن الفنان المسلم قدم اسهاما عظيما للتقاليد البيزنطية والفارسية فى هذا المجال. والكعبة المشرفة فى مكة المكرمة وقبة الصخرة فى القدس ومسجد شاه في أصفهان وجامع دلهى الكبير ومسجد أمية فى دمشق هى أمثلة واضحة على التصميمات الهندسية . إلا أن المقرنصات هى من إبداع الفنان المسلم

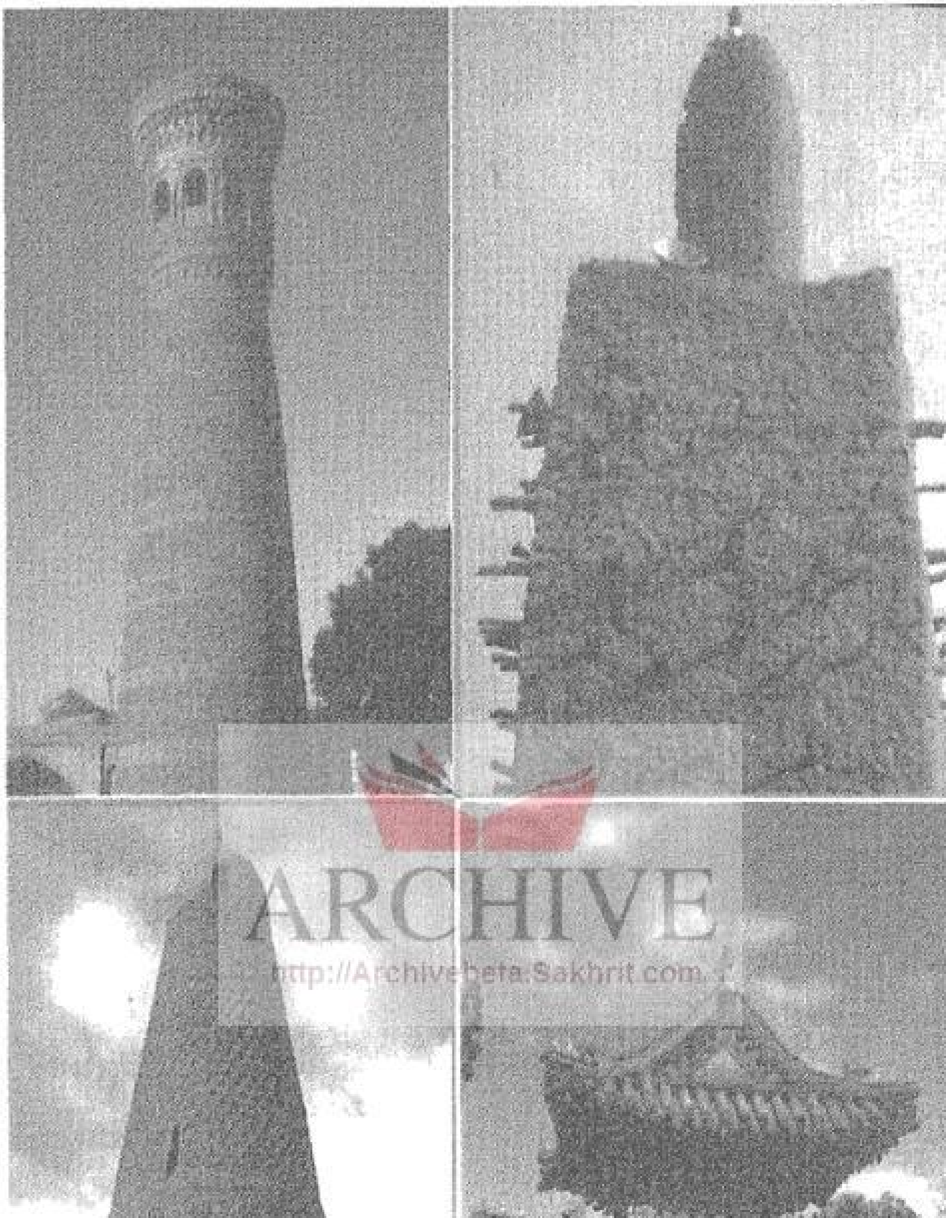
وقد نظر المسلمون إلى الهندسة على أنها حقل مهم للمعرفة واستمروا في وضعها على نفس مستوى الحساب والفلك والموسيقى . ولكن على الرغم من أن معرفتنا بتطور علم الهندسة فى العالم الإسلامي تعد كبيرة إلى حد ما ، إلا أن

١- مئذنة مسجد دجينجيبور بر فى مالى والذى يعود إلى القرن الرابع عشر

٢- مئذنة مسجد الجمعة فى بخارى بأوزبكستان من القرن السادس عشر

٣- مسجد نو جي في بكين - الصين١٣٦٢ م

٤- مئذنة مسجد أمين الذى يعود إلى ١٧٧٨ م في مقاطعة زينجيانج بغرب الصين



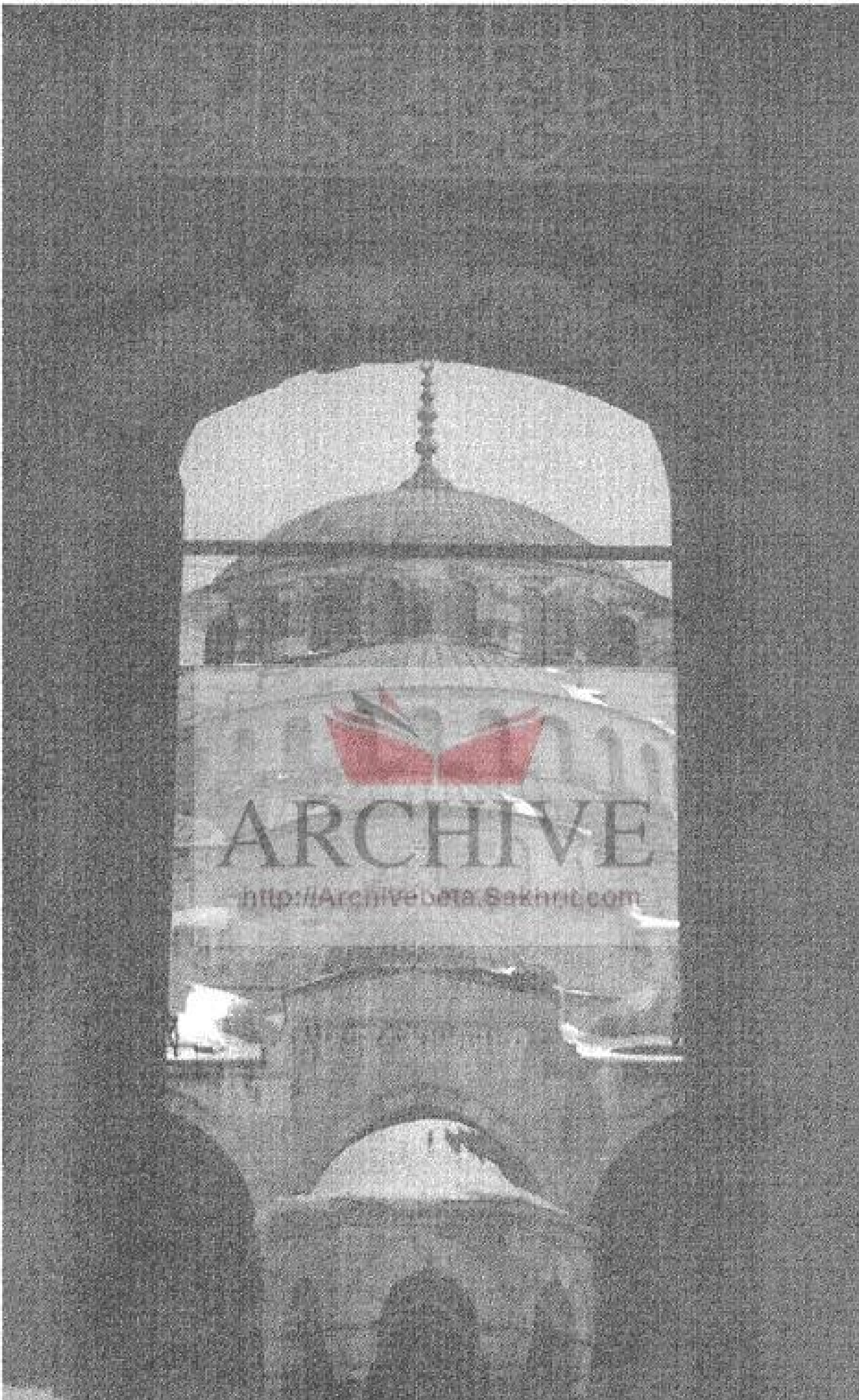
معرفتنا ليست كافية بالعمليات والمراحل التى انتقلت فيها المعرفة الهندسية النظرية إلى الحقل التطبيقى كهندسة معمارية . ويظهر تطبيق المبادئ الهندسية على الفن المعمارى فى العالم الإسلامى نهجا يتسم بالمرونة والشمول . وتتبدى هذه المرونة بوجه عام فى تصميم المساجد . غير أن فهمنا للتداعيات المحتملة التى يمكن أن تكون لها صلة باستخدام الهندسة فى فن العمارة فى العالم الإسلامى مازال ناقصا . كما أن هناك مسألة غامضة أيضا تتعلق بالتأثيرات النفسية للنماذج الهندسية . فهناك من يجادل من أن الفنون المعمارية مثل النماذج الهندسية يمكن أن توفر داخل المسجد جوا من التأمل يساعد على العبادة، غير أن هناك من أصحاب وجهات النظر المتزمتة من يذهب إلى أن مثل هذه النماذج الهندسية تشتت تركيز المصلين ودعوا بدلا من ذلك إلى استخدام الأسطح الملساء .

ولكن هل تؤثر المفاهيم الاجتماعية والتراث الثقافى والبيئة فى إقليم أو منطقة ما على الطراز المعمارى للمسجد؟ هذا التساؤل يحاول الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الاسكندرية المعروف بولعه بالعمارة الإسلامية الإجابة عليه فى بحثه المنشور بالكتاب حيث يشير فى معرض تأكيده لمحلية الطراز المعمارى للمسجد إلى مفهومين هما الخصائص الاجتماعية والطبقة الخارجية . إذ بينما تتحدد الخصائص الاجتماعية من خلال الظروف الجغرافية والمناخية والملامح الشكلية / المورفولوجيا / المحلية والممارسات الاجتماعية التى تمنح «الإحساس بالمكان» لواقع بعينها و«الشخصية» لبيئة ما . فإن الطبقة الخارجية تشير إلى العملية التى يتفاعل فيها المظهر الثقافى للمبادئ الإسلامية فى أى مجتمع إسلامى مع الثقافات القائمة وإثراءه لتلك الثقافات التى يتصل بها سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية .

ويستند محتوى أى عمل معمارى على مستويين أولهما محتوى مادى مباشر يحدد الطراز، أما الثانى فهو إطار مرجعى أشمل ينطوى على أبعاد اجتماعية وثقافية واقتصادية يمنح العمل المعمارى معناه . وهو ما يفيد فى فهم الاختلافات المحلية / الإقليمية / فى المسجد كنموذج للبناء . فعلى سبيل المثال يرتبط الفن المعمارى السودانى بصلات قوية بمثيله فى جنوب الصحراء الكبرى ولفهمه يجب على المرء أن يتعرف على التفاعل الثقافى بين المنطقتين . ويقول الدكتور سراج الدين إن الفهم الواضح للمحتوى يجب أن يسبق محاولة إيجاد تفسير مناسب للمعنى الكامل لمحتوى الفن المعمارى للمجتمعات الإسلامية التى يعد المسجد واحدا من أبرز ملامحها .

ومن المعروف أن العمل المعمارى له بعدان واحد وظيفى والآخر فنى . إذ أن صحن المسجد يجب أن يكون مناسبا للغرض منه ، غير أن المبنى نفسه يجب أن يعكس سمو المجتمع المحلى الروحى وشخصيته الخاصة . والطريقة التى ينقل بها أى مبنى رسالته للمجتمع المحيط به تعتمد على الشفرة الخاصة التى صاغها تطور المجتمع فى حقبة ما . غير أن اختلاف هذه الشفرات من منطقة إلى أخرى لا ينفى وجود روح مشتركة ، غير أن التنوع الإقليمي أوجد

«الجامع الأزرق» أو جامع السلطان أحمد فى استانبول ، يرجع إلى بدايات القرن السابع عشر



لغة معمارية متميزة .

والاعتراف بالخصائص الاجتماعية يبدو جليا فى أعمال الإمام الشافعى (٧٦٧ - ٨٢٠) إذ أنه من المعروف أنه عندما أقام فى مصر أفتى بصورة مختلفة عما كان قد أفتى به خلال وجوده فى العراق ، فهو بذلك يعترف بتلك الاختلافات ويدافع عنها انطلاقا من الخصائص الاجتماعية . وإذا كان هذا الاختلاف مستساغا عند التعامل مع الشريعة ، فلابد وأن يلقى قبولا فى العمارة الإسلامية نظرا لانتشار الإسلام فوق رقعة واسعة من كوكبنا . ومع غياب أى نص لتصميم المسجد فلا غرابة أن يسمح بوجود تنوع هائل فى التعبير المعمارى فى بناء المسجد . ولا شك أن هناك أساسا مشتركا دينيا وتاريخيا يجمع بين المساجد يميزها عن غيرها من المبانى غير أن هذا الأساس المشترك لم يقف أمام التعبير عن الاختلاف الإقليمى فى الفن المعمارى للمسجد .

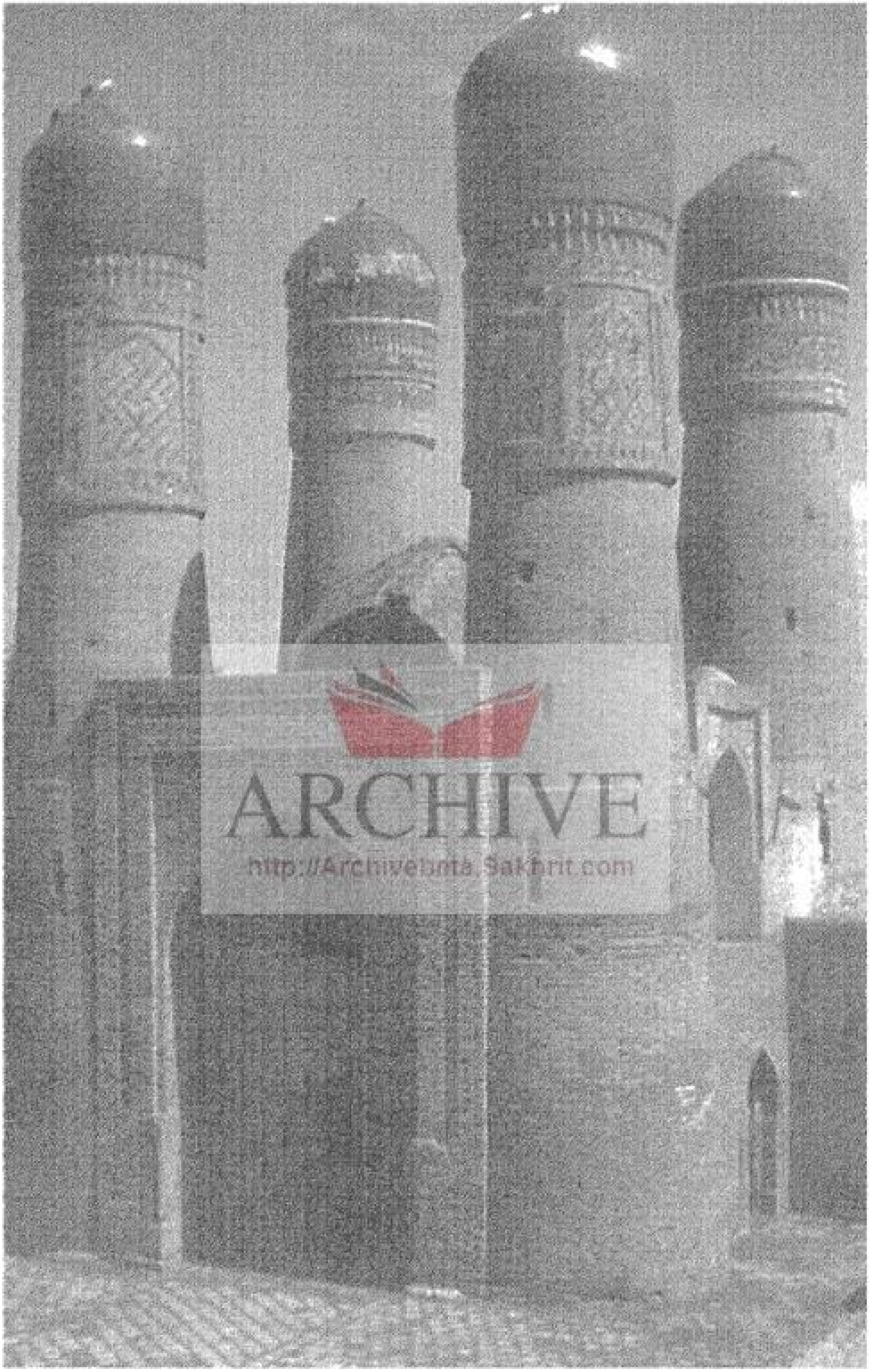
وفى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى تأثر الطراز المعمارى للمسجد ، كما يقول لابيل بيل بورسين الخبير المعماري والباحث في المتحف الوطني للفنون الإفريقية في واشنطن ، بالنوعية البسيطة للمواد المستخدمة فى بنائه . ويجمع الطراز المعمارى لمساجد هذه المناطق بين المفاهيم الإسلامية العامة والفن المعمارى التقليدى لأفريقيا حيث جرى استخدام قوالب الطوب اللبنى والأخشاب وأخذ البناء الشكل المخروطى مما أعطاه مظهرا متجانسا .

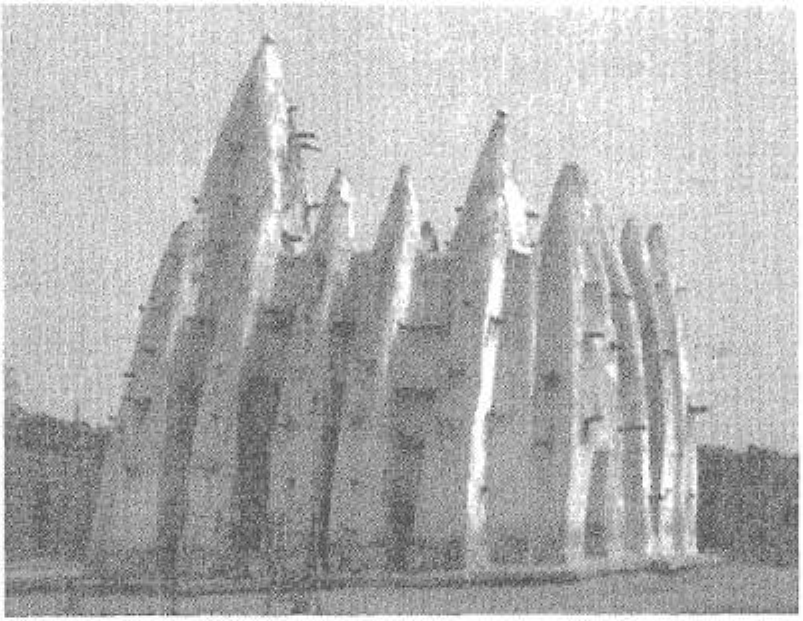
أما فى الهند فقد ساد طرازان معماريان ، طراز (ملكى) يميل إلى الفخامة والضخامة من القرن الثانى عشر إلى منتصف القرن السادس عشر . وطراز محلى يشير إلى مبان تتسم بطابع يشى باستقلال محلى أكبر . وفى الصين يشير ليو تشاوى أستاذ العمارة فى جامعة تونجى بشنغهاى إلى وجود طرازين معماريين للمسجد ، واحد جلب من الشرق الأدنى وينتشر فى المنطقة الواقعة شمال غرب الصين والآخر يرتكز على الطراز المعمارى الصينى التقليدى الذى عدل ليتلاءم مع متطلبات الشعائر الإسلامية وهو ينتشر في منطقة واسعة من الصين . ودمجت المساجد التى بنيت علىالطراز الصينى ببراعة بين تأثير إسلام الشرق الأدنى مع التقاليد المعمارية المحلية وهو ما أثمر طرازا مميزا من تلك المبانى . وبشكل عام يبدو المسجد فى الصين مثل المعبد الصينى وإن كان بالداخل يزخر بنقوش الخط العربى الجميل .

وعن المساجد فى المجتمع الإسلامى اليوم يقول أوليج جرابر الأستاذ بجامعة برينستون إن مظاهر الحياة الحديثة لابد وأن تؤثر على المسجد إذ أن استخدام مكبرات الصوت جعل من السهل وصول الأذان إلى منطقة أكبر بصرف النظر عن طول المئذنة ، كما أن أجهزة التكييف ألغت الحاجة إلى الفناء المفتوح خلال الأيام الحارة ، وقلل استخدام أجهزة التسجيل من الوظيفة التقليدية للمؤذن ، غير أنه يبدو أن رعاة بناء المساجد غير مستعدين بعد لمراعاة هذه التطورات الجديدة فى تصميم المسجد فى الوقت الذى يسعون فيه وراء أحدث التطورات التكنولوجية سواء فى منازلهم أو أماكن عملهم .

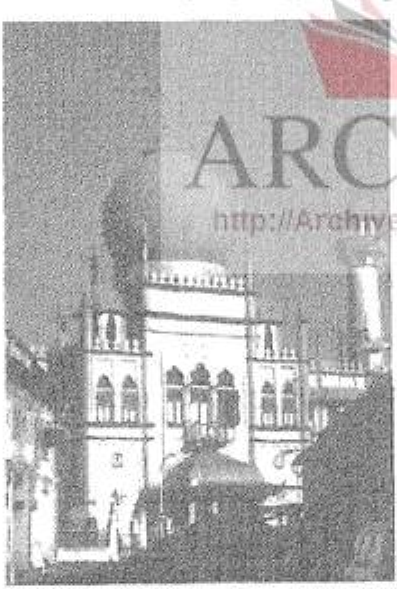
ولكنه يقول إن أوجه الحياة الحديثة

نموذج فريد للمآذن الأربع التى تحيط بجامع بخارى بأوزبكستان ، وقد بنيت فى ١٨٠٧ م وكل منها مغلقة تماما ، ولا تؤدى وظيفتها كمئذنة





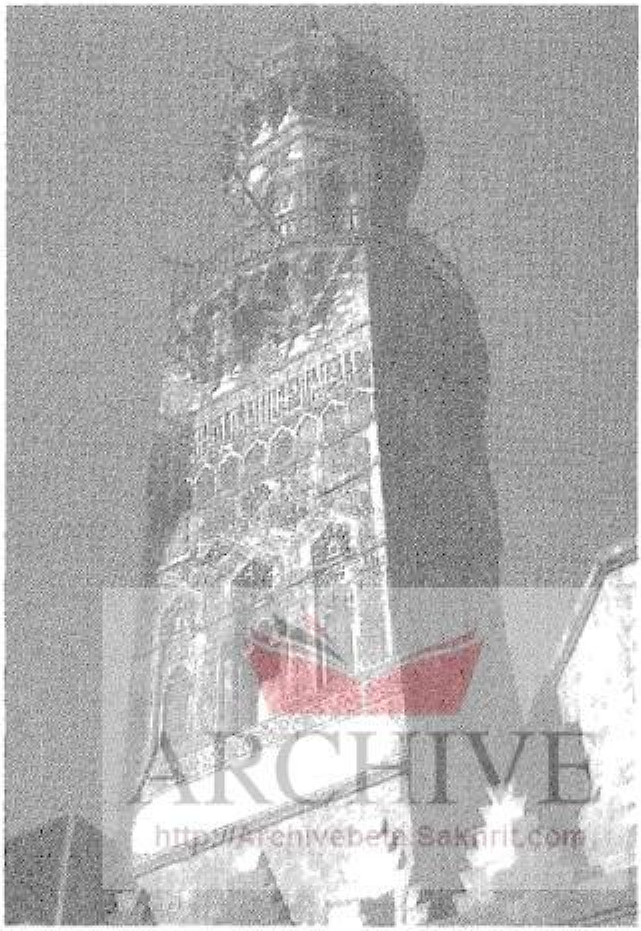
نموذج لمساجد شمال غانا فى أواخر القرن الثامن عشر



مسجد « السلطان » شيد في ١٩٢٤م بسنغافورة - ويبدو على عمارته التأثر بالعمارة الهندية



مسجد الجمعة فى سنجكارك بجزيرة سومطرة بأندونيسيا - القرن التاسع عشر



مئذنة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٣ م تعد نموذجاً رائعاً لعمارة المساجد

مثل الانتقال اليومي المعتاد بين المنزل ومكان العمل وتأثير التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى قد ساهمت في تغيير الأنماط التقليدية لسلوك العديد من المسلمين وإن عاجلا أو آجلا سيضطر المسجد إلى التلاؤم مع هذه الظروف الجديدة . وسيعود الأمر إلى المهندسين المعماريين لتطوير أشكالا مناسبة تتلاءم مع النظرة المستقبلية للمؤمن فى القرن الحادى والعشرين إذ يجب أن يستلهم النمط الجديد للمسجد الاحتياجات الحديثة للحياة وليس بالضرورة أن يحاكى المساجد التى بنيت فى الماضى حتى لا يبدو غريبا عن بيئته الحضرية الحديثة . ■

الإسلام واكتشاف الحرية

بقلم
محمد يوسف عدس

«مايكل موركوك، مواطن أمريكي عادى من تكساس مسقط رأس عائلة بوش، بعث برسالة مطولة الى صحيفة الإندبندنت البريطانية استحوذت على اهتمامى لفترة من الوقت، كان حافزه لكتابة هذه الرسالة - كما أوضح - أمرين : أولهما الثناء على الصحفى والكاتب البريطانى «روبرت فيسك» مشيرا بسلسلة من المحاضرات الكاشفة التى ألقاها فى الولايات المتحدة حول حقيقة الصراع العربى الإسرائيلى، ثانيهما الاعتذار الى اخوانه البريطانيين عما ترتكبه أجهزة الاعلام الأمريكية من أكاذيب وتسطيح للحقائق، ويؤكد أن كل من يعرفه من الناس فى منطقته لا يصدقون تصريحات واشنطن فيما يتعلق بمشكلات الشرق الأوسط، مما تروجه هذه الأجهزة، لذلك انصرفوا عنها الى الفضائيات البريطانية والى ما ينشر فى شبكة الإنترنت من صحف أجنبية بحثا عن المعلومات الصحيحة.

ويختتم موركوك رسالته بمعلومة مثيرة يقول : «إن الناس هنا يتندرون فى مجالهم بنكات ساخرة حول الشعارات التى تنطلق من الإدارة الأمريكية فيقولون (إن محور الشر الحقيقى هو إنرون ومونسانتو وإدارة بوش)».

ليس كلام «مايكل موركوك» فريدا فى بابه، ففى الولايات المتحدة اتجاه

يتنامى على مهل ولكن بإصرار وقوة في مواجهة جنون السياسة الأمريكية وتجلياتها الإمبريالية. ومعنى هذا أن صوت العقل والحكمة لا يزال ينبض بالحياة ولا يصح تجاهله أو التغاضي عنه.

في إطار هذا المناخ العقلي أهداني ابني وصديقي كتابا أثار إعجابي ودهشتي، ذلك هو كتاب «الإسلام واكتشاف الحرية» من تأليف روز ويلدرلين Rose Wilder lane.

روز ويلدر لين

تردد هذا الاسم مجددا في الدوائر الأدبية عندما اكتشف أحد الباحثين أن صاحبته هي المؤلفة الحقيقية لسلسلة كتب الأطفال الشهيرة بعنوان "Little House on the Prairie"، تلك الكتب التي تحولت إلى عشرات من المسلسلات التليفزيونية، وكانت قد سبق نشرها تحت اسم أمها «لورا إنجلز ويلدر».

اشتهرت روز ويلدر لين في حياتها الفكرية والعملية بالتزامها الأخلاقي بقضية الحرية فكرست حياتها الصحفية للدفاع عن هذه القضية، وألفت في هذا الموضوع كتابا بعنوان «اكتشاف الحرية» وجعلت له عنوانا فرعيا يدل على محتواه «صراع الإنسان ضد طغيان السلطة».

تقول المؤلفة: «لقد أودعت حرارة قلبي في هذا الكتاب»، ومع ذلك ماليثت أن سحبته من السوق بعد أن تبين لها أنها وقعت في بعض أخطاء تاريخية. ولكن وكيلها الذي أعاد نشر الكتاب فيما بعد يؤكد أن هذه الأخطاء لم يكن لها أي تأثير سلبي علي جوهر الرسالة التي تضمنها الكتاب، ويرر موقف المؤلفة بأنه شعور فائق بالمسئولية الأخلاقية هو الذي جعلها تسحب نسخ الكتاب من التداول.

ولدت روز ويلدر لين سنة ١٨٨٦، أمها «لورا» كما سبق أن ألمحنا، أما أبوها «ألمنظو ويلدر» Almanzo Wilder، ولهذا الاسم قصة مثيرة سنتبينها في حينها. وبلغت قمة شهرتها سنة ١٩٣٦ عبر سلسلة من المقالات نشرت في مجلة «ساترداي ايفننج بوست».

الاتصال بعالم المسلمين

كانت روز لين قد تطوعت للعمل كمراسلة صحفية مع منظمة الصليب الأحمر الدولية بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك لكي تشاهد بنفسها وتسجل تقاريرها عن أنشطة هذه المنظمة في مناطق البلقان وروسيا والشرق الأوسط، وقد أتاح لها هذا العمل فرصة الاتصال المباشر بالعالم الاسلامي والمسلمين، وأكسبها خبرات

ثرية عمقت رؤيتها لحقائق هذا العالم الذي شغل عقلها ووجدانها زمنا طويلا منذ وعت في طفولتها حقيقة مثيرة جرت تقليدا ثابتا في أسرتها على مر العصور، ولعل هذا هو الذي فتح عقلها على الإسلام وتاريخه ومآثره، ذلك لأن روز لين كانت تعلم أنها لم تكن لتولد أو تظهر على وجه الدنيا لولا شهامة فارس عربي مسلم أنقذ جدها الأعلى من الموت أثناء الحروب الصليبية في فلسطين .

كشف عن هذه الواقعة «هنري جراي ويفر» في كتاب له بعنوان «ينبوع التقدم الإنساني» نشر سنة ١٩٥٢ ، يقول فيه إن جنديا إنجليزيا جرح في الحروب الصليبية وكاد يهلك فأنقذه فارس عربي وعالجه ثم أطلق سراحه، واعترافا منه بهذا الجميل أوصى بأن يحمل أحفاده جيلا بعد جيل اسم منقذه، ومن هنا فإن والد روز ويلدر لين كان يحمل أسم المنقذ. يقول ويفر: ويبدو أن أصل الاسم كان هو «المنصور».

صراع أم حوار؟

رأى الدكتور عماد الدين أحمد ان ينشر الفصل المتعلق بالاسلام من كتاب «اكتشاف الحرية» لأنه في تقديره - قد أصبح على جانب كبير من الأهمية خصوصا بعد ظهور كتاب صامويل هانتنجتون الذي ينذر فيه بصراع الحضارات، ذلك لأن كتاب اكتشاف الحرية يبشر - على العكس من ذلك - بحوار الحضارات واتصالها وتلاقحها ، ومن ثم قام بنشر هذا الجزء من الكتاب تحت عنوان «الاسلام واكتشاف الحرية» دون مساس بالنص، وانما قام بالتعليق في هوامشه شارحا ومصححا حيث لزم الشرح والتصحيح .

والدكتور عماد من خريجي جامعة هارفارد وحاصل على درجة الدكتوراه في علم الفلك والطبيعة الكونية من جامعة أريزونا وهو الآن رئيس معهد منارة الحرية للبحوث الإسلامية في واشنطن، كما أنه يقوم بالتدريس في جامعتي «جونز هوبكنز» وميرلاند»، وأول كتاب صدر له كان بعنوان آيات في السماوات (سنة ١٩٩٢) ضمنه رؤية عالم مسلم في الدين والعلم، وحول الموضوع نفسه قدم بحثا في مؤتمر عقد بالفاتيكان سنة ١٩٤٤ تحت رعاية مؤسسة مراصد الفاتيكان الفلكية، وله جهود فكرية متعددة في مجالات الحوار بين الإسلام والحضارة الغربية، ومن هنا جاء اهتمامه بنشر الجزء الخاص بالإسلام من كتاب روزلين، وهو كتاب يستحق منا كثيرا من التأمل والاهتمام .

ثلاث محاولات كبري في التاريخ

تبرز المؤلفة في كتابها حقيقة ظهور محاولات جادة لبناء مجتمعات حرة في

التاريخ الإنساني وتؤكد أن أهم هذه وأعظمها شأنا ثلاث محاولات بعينها :

● المحاولة الأولى : قام بها سيدنا ابراهيم عليه السلام، فقد نشأ هذا النبى العظيم فى مجتمع وثنى كان الناس فيه يؤمنون بأن كل شيء خاضع لسطوة آلهة وثنية وأن البشر ليسوا أكثر من دمى فى أيدى هذه الأوثان، فجاء النبى إبراهيم ليعلن للناس أن هذه الأوثان ماهى إلا حجارة صماء وأوهام لا قيمة لها ولا قدرة بها، وأنه لاإله إلا الله الواحد الخالق الذى إليه المرجع والمآب.. وأن الله هو الحق وأنه هو الذى خلق الكون والانسان بالحق، وهو الذى سيحكم على أفعال عباده يوم تقوم الساعة.

وبدلا من خضوع البشر لكائنات أرضية فانية فإن الله قد تفضل عليهم ومنحهم إرادة حرة وأنهم مسئولون عن نتائج أفعالهم الحرة أمام الله وحده.

وتلخص المؤلفة فكرتها عن التاريخ باعتباره المجال الذى يدور فيه الصراع بين الفكرة الإبراهيمية عن المسئولية الإنسانية الفردية وبين محاولات السلطات الأرضية اخضاع البشر وفرض العبودية عليهم، ومن ثم اعتبرت رسالة ابراهيم عليه السلام أول محاولة للثورة على الوثنية وعلى السلطة الجائرة فى آن واحد .

● أما المحاولة الكبرى الثانية لتحرير الإنسانية فتتمثل ـ عند المؤلفة ـ فى رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وهى لا تغفل بل تعى تماما عظمة الرسالتين اللتين جاء بهما كل من النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، ولكنها تعتبرهما - مع ما جاء به أنبياء آخرين - تفصيلا وتأكيدا للرسالة الأصلية التى جاء بها أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام.

تقول المؤلفة إن رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) تميزت بشيء جديد، ألا وهو أنها أقامت حضارة على أساس من التعاليم الدينية والتى تضمنتها هذه الرسالة الخاتمة، فكانت أول حضارة ناجحة فى التاريخ تؤسس على قاعدة من المسئولية المباشرة أمام الله، آمن أتباعها أن الله قد استخلف الانسان فى الأرض وأوكل إليه مهمة عمارتها وإقامة العدل والخير فيها .

● ثم تأتى المحاولة الثالثة الكبرى متمثلة فى الثورة الأمريكية، ولم تتردد المؤلفة أن تقرر صراحة أن هذه الثورة قد أقيمت على قواعد من الثورتين السابقتين الإبراهيمية والمحمدية.

لم أجد فيما كتبته روزلين شرحا أو توضيحا لهذه النقطة التى تربط فيها الثورة الأمريكية بالثورتين السابقتين..

وهل حدث هذا عن وعي وتدبر أم أنها الفطرة والتوفيق؟.. تحتاج هذه النقطة الى نظر ومناقشة لا مجال لها هنا .. لذلك نمضى فى متابعة أفكار المؤلفة عن الرسالة المحمدية ونكشف عن مصادر إعجابها بهذه الرسالة .

المساواة والحرية

تقول روزلين: عبّر النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) عن فكرته بقوة عندما أعلن أنه لايوجد صنف من البشر متفوق على صنف آخر، بل إن الناس جميعا سواسية كأسنان المشط.. لقد أفسد الكهنة دين إبراهيم عندما افترضوا لأنفسهم حق الهيمنة على اليهود فجاء المسيح عليه السلام يفند مزاعم الكهنة الذين حرفوا الدين، ثم أتى من بعده القساوسة الكاثوليك واليونانيون ليفسدوا تعاليم المسيح حيث جعلوا من أنفسهم أوصياء على الناس ووسطاء بين الإنسان وبين ربه، تقول المؤلفة : «من أجل ذلك حرم النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه الوساطة المزعومة بين الله والإنسان».

يزعم الكذابون أن الإسلام انتشر بالسيف ولكن «روز لين» ترد على هؤلاء قائلة : إن القوة الحقيقية الكامنة فى الإسلام هى الحرية الإنسانية، وهى بعينها السر فى سرعة انتشاره المذهل.. وتذكر روز لين أن هذا الانتشار المثير لم يستطع المؤرخون الغربيون فهمه.. والسبب عندها هو أنهم لم يدركوا حقيقة القوة الكامنة فى الرسالة المحمدية البسيطة، التى أخرجت الناس من عبودية البشر الى عبادة الله وحده.. وحررت الضمير الإنسانى من كل سلطة جائرة.. ولم يكن عجيبا - على حد قول المؤلفة - أن يصبح العالم مسلما فى عقود قليلة من المحيط الهندى الى المحيط الأطلسى، وأن يتحول البحر المتوسط الى بحيرة إسلامية، وأن تتخذ البوابة الغربية للعالم الأوربى اسما عربيا حيث اطلق عليها «مضيق جبل طارق» .. وأن يتلو هذا الفتح الواسع أول وأعظم جهد خلاق للطاقة الإنسانية المتحررة ليتبلور فى إبدا ع أول حضارة علمية ظهرت على وجه الأرض .

الجامعات الإسلامية والتعليم الأمريكى

تنتقد المؤلفة نظام التعليم الامريكى فى عبارات محددة وواضحة فتقول :

فى المدارس الأمريكية يتعلم التلاميذ التاريخ الأوربى بدءا من الوثنية اليونانية والرومانية.. مرورا بالتحول الأوربى من سلطة الامبراطورية المقدسة الى سلطة الكنيسة فى العصور الوسطى .. ثم ينتقلون الى عصر النهضة فيتعرفون على الملوك والبارونات.. ثم يتريثون قليلا عند عصر الإصلاح ليعبروا بعده الى

أوربا الحديثة حيث ارتفاع الطبقة الرأسمالية وثورة الجماهير .

تقول روز لين: لما كان هذا هو كل ما يتعلمه الأمريكيون عن تاريخ أوربا فلابد أن نحكم عليه بأنه تعليم ناقص لأنه يتجاهل تماما دور الحضارة الاسلامية فى تطوير أوربا واخراجها من ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والتقدم، فلا أحد يستطيع أن ينكر أنه فى الوقت الذى كانت أوربا غارقة فى الظلام والتخلف كان العالم الإسلامى يزدهر ويتألق بحضارة خصبة مبهرة هى أقرب الى نوع الحضارة التى نشأت فى الولايات المتحدة، حضارة تمتع بثمراتها كل إنسان حى على غير مثال سابق فى التاريخ البشرى.. عاش فى كنفها ملايين بعد ملايين من الناس أمنوا جميعا إيمانا راسخا أن الله قد خلق البشر كلهم أحرارا متساوين، لذلك استطاعوا أن يبدعوا حضارة متميزة وظلوا قائمين على الإبداع فيها ثمانية قرون، فكان لهم الفضل فى نشأة الرياضيات والعلوم الحديثة مثل علم الفلك والملاحة والطب والجراحة والزراعة. بل تذهب المؤلفة أبعد من هذا فتقول : «إن العالم مدين لهؤلاء المسلمين باكتشاف القارة الأمريكية».

التعددية الحقيقية

كان هؤلاء المبدعون ينتمون الى جميع الأجناس والألوان والشعوب، ويمثلون الأديان والثقافات القديمة كلها.. نعم كان الإسلام هو السائد المهيمن ولكن هؤلاء المبدعين لم يكونوا جميعا من المسلمين بل كان منهم المسيحيون واليهود وغيرهم.. انصهروا فى بوتقة مجتمع واحد قائم على التعددية الحقيقية.. كانوا رعايا لإمبراطوريات سابقة فاختلط على الأوربيين جمعهم تحت اسم واحد فأطلقوا عليهم اسم «سراسين» بدلا من المسلمين. و«سراسين» كما تقول المؤلفة اسم ينطوى على صفات سلبية كريهة أسبغها الأوربيون تعبيرا عن الحقد والكراهية .. «وهى مشاعر ورثها الأمريكيون من الأوربيين فلم يروا المسلمين الا بعيون كارهة».

فما الذى حدث فى التاريخ ليجعل من بلاد المسلمين نورا ومن بلاد أوربا ظلاما وتخلفا؟، تحاول روزلين الإجابة على هذا السؤال فتفيض وتتألق فى حديث نحاول التركيز على أبرز معالمه :

لم يكد محمد (صلى الله عليه وسلم) يتخلى عن تجارته ويتفرغ لرسالته حتى كانت شرطة السلطة الإمبراطورية قد أغلقت جميع المدارس العلمية فى بيزنطة، فكان على العلماء إما أن يغلقوا أفواههم أو يعتزلوا الدنيا ويلجأوا الى صوامعهم بعيدا عن الناس والحياة، وإما

أن يخرجوا نهائياً من أرض الإمبراطورية المقدسة.. وقد آثر عدد كبير من هؤلاء العلماء أن يرحلوا بعيدا عن الإمبراطورية البيزنطية .. في ذلك الوقت كان الشق الغربي من أوربا - حيث العاصمة هي روما - يعج بعصابات المجرمين التي انتشرت في أنحاء أوربا، وكانت القبائل الشمالية تعيش في حالة بدائية بربرية.. أما روما نفسها فقد كانت مدينة للأشباح .

لكن اختلفت الصورة قليلا في الشرق حيث كان الفرس يمارسون حرية نسبية أكثر .. لذلك توجه اليها علماء بيزنطة الفارين من الإرهاب .. فلما انهارت دولة الفرس أمام الزحف الإسلامي وارتفعت راية الحرية في أنحاء الدولة الوليدة استقر هؤلاء العلماء في هذا المناخ الحر وبدأوا يترجمون كتبهم وعلومهم الى اللغة العربية.

وفي غضون قرن واحد أصبح العالم الإسلامي ممتدا من شمال الهند شرقا الى المحيط الأطلسي غربا، مشتملا على بلاد الفرس والجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر وشمال افريقيا وأسبانيا وجنوب ايطاليا وجنوب فرنسا، وأصبح الخليج الفارسي والبحر المتوسط والبحر الأحمر وبحر قزوين كلها بحيرات إسلامية .. في هذه المساحات الشاسعة كلها سقطت الحواجز التي كانت تعوق حركة الإنسان فأصبح الناس يتنقلون فيها بحرية كاملة من مكان الى مكان آخر بدون تأشيرة دخول ولا جواز سفر .. وهي ظاهرة فريدة من الحرية لم يسبق لها مثيل في التاريخ، ولاتكررت في العصور اللاحقة.

تحرير الطاقة وعشق المعرفة

تقول المؤلفة تفسيرا لإقبال المسلمين على المعرفة والبحث العلمي: عندما تتحرر الطاقة الإنسانية من طغيان السلطة سواء كانت هذه سلطة الملك أو سلطة رجال الدين تتحول هذه الطاقة الى غزو للطبيعة لتجعل من الأرض بيئة صالحة لحياة الناس.. ومن ثم يأتي دور المعرفة العلمية.. ولم يكن هذا ليتحقق لولا أن المترجمين والعلماء والكتاب قد وجدوا طريقهم ميسرا ، في مجتمعات نشأت على احترام العلم وعشق المعرفة، كما وجدوا من السلطة الحاكمة التشجيع والمكافأة، ولم تطاردهم شرطة الحكام ولا محاكم التفتيش الكنسية كما كان الحال في أوربا.. من هنا كان الإبداع وانتشار المكتبات والمدارس في بقاع العالم الإسلامي من طشقند الى بغداد الى غرناطة .. ثم تحولت هذه المدارس الى جامعات ، فأصبحت جامعات المسلمين هي أولى جامعات العالم في الوجود .

الجامعات الإسلامية

تقول المؤلفة : «عندما زرت القاهرة

كانت جامعة الأزهر العريقة قد أتمت ألف سنة من عمرها .. وكانت تضم في ذلك الوقت أربعـــين ألف طالب».. ثم تطرقت الى أسلوب التعليم وادارته في الجامعات الإسلامية فقالت: «لم تكن هذه الجامعات في الماضي تمنح درجات علمية ولا تخضع لنظم جامدة ولا قواعد متحجرة، وإنما كانت مؤسسات للتعلم لا للتعليم فقط.. بمعنى أن الطالب - شابا كان هو أو شيخا - يذهب اليها ليتعلم ما يريد هو أن يتعلمه لا ما يراد له أن يتعلم من جانب الآخرين.. كان الأمر - ببساطة - يشبه ما يفعله الأمريكيون عندما يذهب أحدهم الى البقال ليشترى من الطعام ما يريد لغذائه».

«في هذه المؤسسات التعليمية تجد أناسا يعلمون أو يعتقدون أنهم يعلمون علما ما، ويرغبون أن يعلموه للآخرين الذين هم في حاجة الى المعرفة.. نمت هذه المدارس ولحق بشيوخها علماء ومعلمون آخرون» .. وظهر أناس محبون للعمل العام فبنوا مدارس جديدة وأنفقوا عليها من أموالهم الخاصة.. وهذا نموذج راق للمجتمع المدني الذي نفخر به في أمريكا اليوم».

كان المعلمون يدرّسون في فصول مفتوحة (أروقة) وأي شخص كان مسموحا له أن يجلس للاستماع بدون قيود. وكان طالب العلم يتنقل من شيخ الى شيخ آخر يستمع من هذا وذاك .. وعندما يستقر اختياره على شيخ بعينه يجلس اليه ليتناقش معه فيما يريد أن يتعلمه .. ثم ينتظم بعد ذلك في حلقة الدرس، فإذا انتهى من تحصيل ما يريد من علم أستاذه انتقل الى أستاذ آخر ليدرس موضوعا آخر .. وعندما يشعر بالامتلاء والثقة يستطيع أن يحصل من أساتذته على «إجازة» تفيد أنه قد أتقن هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة .. وأنه قد أصبح قادرا ومؤهلا للتدريس لغيره من الطلاب.

التجربة الأمريكية

تنتقل المؤلفة بنا من هذه الصورة التعليمية المبهرة في بلاد المسلمين الى التجربة الأمريكية الحديثة في هذا المجال فتقول: «بعد ألف سنة من بناء المسلمين لهذه الجامعات النموذجية الحرة، وفي قارة لم يرد على خاطرهم وجودها وهي القارة الأمريكية ظهر قائد ثوري هو توماس جيفرسون .. كان بدوره لا يعرف الا قليلا وربما لاشيء على الإطلاق أن المسلمين قد استطاعوا قبل ألف عام أن يحققوا حلم حياته عندما أنشأ جامعة فرجينيا .. وقد تمثل حلمه في نوع جديد من التعليم غير معهود من قبل (في أوربا).. كتب عنه

بفخر واعتزاز الى صديق له فى جامعة هارفارد التى كانت تتبع نظاما تعليميا من مخلفات العصور الوسطى : «سوف نتيح لطلابنا اختيارا غير مقيد للمحاضرات التى يرغبون فى حضورها، فجامعتنا سوف تعمل على أساس أن يترك لكل طالب الحرية لكى يأتى ويستمع لأى شيء يعتقد هو أنه يحسن حالته العقلية».

تعلق المؤلفة على ذلك فتقول: « ».. لم يعلم جيفرسون أن جامعة الأزهر قد اعتمدت منذ الف عام هذا المبدأ فى أسلوب تعليمها .. أما فى أوربا حتى الى عهد قريب فلم يعرف فيها هذا النظام من التعليم الذى يسعى فيه العقل لتحصيل ما يريد من المعرفة بالبحث النشط الدءوب .. وإنما اتبعوا نظاما سلبيا تفرض فيه السلطات الحاكمة ما ترى أنه ينبغى على الطلاب أن يتعلموه .. أحبوا ذلك أم كرهوه».

الإسلام والنهضة

ثم تتطرق المؤلفة الى حقيقة أخرى كاملة مهمة طالما تجاهلها المؤرخون الأوربيون عمدا، تتعلق بتأثير الحضارة الإسلامية على النهضة العلمية الحديثة فى أوربا حيث تقول : «من أبرز المؤسسات التى عنى بها المسلمون المدارس الطبية والمستشفيات العلاجية التى أقاموها فى بلاد الاسلام الممتدة من نهر الجانج الى المحيط الأطلسى .. ومن المعروف أن أول مستشفى للطب والجراحة فى أوربا قد تم إنشاؤها فى إيطاليا بالذات دون غيرها من البلاد الأوربية .. فكان الإيطاليون أول من أجرى جراحة فى أوربا (بعد المسلمين) ، ويرجع السبب فى معرفتهم بالجراحة أنهم تعلموها فى المدارس الطبية الكبرى بالأندلس.. وكانت على مسيرة أسبوع من السفر .. ولم يكن فى استطاعة الإيطاليين أو غيرهم أن يتعلموا الجراحة فى أى مكان آخر بأوربا لأن الجراحة كانت محرمة حيث اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية رجسا من عمل الشيطان».

تزيد المؤلفة هذه النقطة ايضاحا عندما تكشف لنا عن أسباب سبق الإيطاليين غيرهم من الأوربيين بدخول عصر النهضة حيث تقول : «كان الإيطاليون هم الوسطاء التجاريون بين عالم المسلمين وبين أوربا، ومن ثم كانوا أكثر الشعوب الأوربية احتكاكا بالمسلمين وكانوا اول من أقبل على التعليم فى مدارسهم .. لذلك لم يكن غريبا أن تكون عناصر النهضة (من علوم وفنون وفلسفات) التى نمت وترعرعت فى الأندلس الاسلامية ثم انتقلت على أيدى الايطاليين وغيرهم الى

أوربا، هي التي فجرت عصر النهضة الأوربية.. بل إن المنهج التجريبي في البحث العلمي الحديث كان ابداعا اسلاميا غير مسبوق نقله روجر بيكون الانجليزي من الأندلس ثم جاء فرانسيس بيكون بعده فقام بتطويره .. والى هذا المنهج التجريبي يرجع الفضل في التقدم العلمي الهائل في أوربا الحديثة».

الصدمة الثقافية في الحروب الصليبية

تتناول المؤلفة موضوعا آخر على جانب كبير الأهمية فقد عنيت بدراسة وجه من وجوه الحروب الصليبية طالما أغفله المؤرخون الأوربيون بل أنكروه، ذلك هو الوجه الحضاري من هذه الحروب فنراها ترسم لنا بدقة وتفصيل الصدمة الثقافية التي واجهت جنود الحملات الصليبية عندما اطلعوا على أحوال المسلمين ورأوا انها تختلف عما سمعوه في بلادهم من أكاذيب، رأى الجنود الصليبيون كيف تعايشت طوائف المسيحيين واليهود مع المسلمين في نسيج مجتمع واحد يتميز بالتسامح والإنسانية والازدهار وتعجبوا أن يظل المسيحيون أحياء مع الحكم الإسلامي لعدة قرون دون أن يتم القضاء عليهم، وهو الأمر الذي لم يكن ليحدث في أوربا نفسها بين الطوائف المسيحية المختلفة..

تقول «روز لين» :إنها أوربا التي يقتل فيها المجدفون المختلفون في عقيدتهم الدينية الى آخر طفل رضيع.. أما في بلاد المسلمين فإن الناس أحرارا في اختيار عقيدتهم لا سلطان لأحد عليهم، فشعار المسلمين المستمد من كتابهم المقدس هو (لا إكراه في الدين) .. ثم تستطرد فتقول : «كان هذا الوضع الحضاري هو مصدر الصدمة الثقافية التي أذهلت الصليبيين الذين جاءوا من بلاد العنف والغضب والشراسة البدائية وقد امتلأت عقولهم بأكاذيب عن ذئاب همجية تفترس المسيحيين افتراسا، فإذا بهم يجدون المسيحيين ينعمون بسلام وأمن ورخاء يستحيل أن يجدوه في أوربا .. ولم يلبث الصليبيون بعد أن استقروا في مجتمعات المسلمين أن يندمجوا في حضارتهم فبدأوا يحيون ويسلكون مثل المسلمين.. يأكلون طعامهم ويرتدون مثل ملابسهم.. ونشأ أبناءهم وقد تمثلوا كثيرا من روح التسامح الإسلامي فلما عادوا الى بلادهم بعد ذلك كانوا نشازا في مجتمعات متعصبة ترفض التعددية الدينية ولا تعرف التسامح مع الآخرين».

ذو النون المصرى

من خلال «الكوكب الدرى» لابن عربى

بقلم
د. أحمد الطيب
مفتى الديار المصرية

كتاب «الكوكب الدرى» فى مناقب «ذى النون المصرى»، الذى ألفه الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى نص متميز من نصوص مناقب الصوفية، وهو يكتسب أهمية مزدوجة من حيث المؤلف، ومن حيث صاحب الترجمة أيضا، وحسبنا بهما قمتين سامقتين من قمم الحياة الروحية فى الإسلام.

وقد لا يكون من المفيد فى شىء الحديث عن مؤلف الكتاب: الشيخ الأكبر فى هذا البحث المختصر، خصوصا إذا لاحظنا أن الشيخ الأكبر يحظى من الاهتمام بدراسته ودراسة تراثه وتصوفه على يد أساتذة الغرب بأكثر وأعمق مما يحظى به على يد زملائهم الشرقيين عامة، وفى مصر على وجه الخصوص، يدلنا على ذلك كتاب «الكوكب الدرى..» نفسه، والذى ترجم إلى اللغة الفرنسية ترجمة ممتازة بقلم الأستاذ Roger Deladriere، وقرأه الناطقون باللغة الفرنسية فى طبعته التى صدرت سنة ١٩٨٨، بينما لايزال هذا النص فى لغته الأم: اللغة العربية حبيس المخطوطات حتى يومنا هذا، والنتيجة هى أن شخصية «ذى النون» ربما تكون الآن معروفة فى الغرب بتفصيل أوسع مما هى معروفة به فى الشرق العربى.

وتتفق الروايات كلها على أن ذا النون كان من قرية يقال لها: «إخميم» بصعيد مصر، وقد نُسب إليها في كثير من مصادر ترجمته فكان يقال «... الإخميمي»، ومن هنا تؤكد هذه المصادر أنه وُلد بإخميم، وإن كان يحتمل - فيما نرى - أنه ولد ببلاد النوبة ثم رحل إلى إخميم في مرحلة تالية من حياته، وهذا الاحتمال قائم على أمرين: أولهما، أن أسرته من بلاد النوبة، وثانيهما ما يرويه ذو النون نفسه من أنه كان بالعلاقية والتقى فيها ببعض الزهاد. والعلاقية أو العلاقي واد بجنوب شرق مدينة أسوان، يقع منها على مسافة ١٧٠ كم تقريباً، ولا يزال يتسمى بهذا الاسم حتى الآن، كما يروى أيضاً أنه كان بمدينة قفط وبمدينة قوص، مما يشير إلى أن شأن ذي النون إنما بدأ ببلاد النوبة، وأنه انتقل أخيراً إلى إخميم ماراً ببعض المدن التي أشار إليها.

ثم تصمت المصادر من جديد عن تحديد تاريخ ولادته، وإن كان كثير من الباحثين يرجح أنه ولد حوالي سنة ١٥٥ هـ ، استناداً إلى ما تقوله أكثر الروايات من أنه توفي سنة ٢٤٥ هـ عن عمر ٩٠ عاماً.

كتاب «الكوكب الدري»

وكتاب «الكوكب الدري» مأخوذ من كتاب كبير، اسمه : أنس المنقطعين إلى الله تعالى، انتخبه الشيخ الأكبر لنفسه، كما يقول، من كتب المناقب والتراجم التي وقعت في يده، وشكلت المصادر الأساسية لمعلومات هذا الكتاب.

من هذه المصادر:

١ - كتاب حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم المتوفى ٤٣٠ هـ .

٢ - كتاب صفة الصفوة لأبي الفرج بن الجوزي المتوفى ٥٩٧ هـ .

٣ - كتاب بهجة الأسرار ولوامع الأنوار لأبي الحسن علي بن جهضم الهمذاني، وهو كتاب في أخبار الصوفية وأحوالهم وتراجمهم . توفي ابن جهضم - فيما يقول الذهبي - سنة ٤١٤ هـ .

٤ - كتاب تهذيب الأسرار للإمام القدوة شيخ الإسلام أبي سعيد الملك ابن أبي عثمان الخركوشي، وهو كتاب في طبقات الأخبار، مات أبو سعيد سنة ٤٠٧ هـ.

٥ - كتاب الرسالة لأبي القاسم القشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ، وهو كتاب معروف.

٦ - كتاب مناقب الأبرار ومحاسب الأخيار لتاج الإسلام أبي عبدالله الحسين بن خميس المتوفي سنة ٥٥٢ هـ . وقد حصلنا على نسخة مصورة من هذا المخطوط من دار الكتب المصرية.

كما يشير ابن عربي إلى مصدرين آخرين هما: كتاب المنقطعين لابن مغيث، وكتاب الذخائر والأعلاق لابن سلام الشلبي.. وهذان المصدران لا زالا مجهولين بالنسبة لي حتى هذه اللحظة. ولابن عربي مصدر آخر لمناقب الأولياء غير الكتب والمؤلفات هو: ما شاهده بنفسه من كرامات الأولياء، أو ما حدثه به شيخ من شيوخه من أخبار الصالحين

وحكايتهم. ونلاحظ أن الشيخ الأكبر – وهو ينقل عن هذه المصادر – يوثق رواياته التي ينقلها بسلاسل من الأسانيد والإجازات والسماعات من هذا النوع الذي يستخدمه الحفاظ في توثيق الأحاديث النبوية.

ويتميز عمل ابن عربي في هذه المناقب: بمنهجية وتنظيم نفتقدهما كثيراً في كتب المناقب الأخرى حيث درج هذا النوع من المصنفات على تجميع المناقب الخاصة بكل ولي وسردها مجتمعة دون ترتيب بالأخبار المنقولة عنه والمنقولة عن غيره، ودون فصل بين الأخبار التي تختص بمولده وحياته أو التي تتعلق بأقواله ومذهبه، وعلى العكس من ذلك نجد أخبار ذي النون في كتاب الكوكب تتمتع بتنسيق يدور حول أقسام ثلاثة رئيسية وخاتمة.

القسم الأول: في حياة ذي النون الشخصية والروحية، وهذا الباب يشغل ٤٠ ورقة من أوراق المخطوط، عرض فيها ابن عربي لكل ما يتعلق بهذا الجانب من حياة ذي النون من اسمه ولقبه وصفته وتاريخ وفاته وفضله وعلمه وروايته للحديث وسبب توبته ومحنته وكراماته.

القسم الثاني: فيما يتعلق بطريق القوم وما ورد من مفاريد أقوال ذي النون حول ما يقرب من ٦٥ باباً من أبواب الأخلاق والآداب الصوفية. ويشغل هذا القسم من ورقة ٤٠ إلى ورقة ٩٩.

القسم الثالث: وهو قسم الأولياء، وقد خصصه ابن عربي لما ورد من كلام ذي النون في نعت الأولياء ووصفهم وتقسيمهم إلى طوائف مختلفة لكل طائف اسمها الخاص بها: كالنجباء والسائرين والعابدين والخائفين والثائرين والمهمومين والعارفين.. من الذين لقيهم ذو النون في سياحاته أو رحل هو إليهم من الرجال والنساء، العابدات والسائحات العجائز من أهل الله في البلاد والسواحل والجبال والشعاب.

ويتحدث «ابن عربي» في هذا القسم عن شيخه «ذي النون المصري» وأستاذته: فاطمة النيسابورية، تلك التي يقول عنها أبوزيد البسطامي: «ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا وكان الخبر لها عياناً». كما يتحدث عن شخص بالمغرب سمع عنه ذو النون ورحل إليه، لكنه لم يحدد اسمه ولا شخصيته، غير أن الأستاذ «دلادرييه» استطاع عن طريق كتاب «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي المتوفى ٢٥٦ هـ وكتاب معالم الإيمان لأبي زيد المغربي أن يحدد هذا الشخص هو «شقران العابد»، وأنه أستاذ «ذي النون» ويقع هذا القسم في حوالي ٥٤ ورقة من ورقة ١٠٠ إلى ورقة ١٥٤.

أما الخاتمة: فهي باب جامع لأقوال ذي النون في قضايا متفرقة من أمور التصوف والعرفان، وقد نقل «ابن عربي» غالبية أقوال «ذي النون» في هذه المسائل من «ابن

باكويه» دون أن يذكر أسانيده المستعملة في الأقسام السابقة، وهذا القسم يبدأ من ورقة ١٥٤ وينتهي بنهاية الكتاب في ورقة ١٩٥.

ولم يكن الشيخ الأكبر، فيما يقصه عن «ذي النون»، مجرد راو المناقب والأقوال والحكايات، يحشدها وينقلها من مصادرها ثم يتركها دون تعليق، بل كان يتدخل لتوضيح معنى أو عقد مقارنة أو إشارة في لمحة خاطفة تكثف ظلالاً لا نهائية من أنظار الشيخ ورؤاه: فقد نقل قول «ذي النون» في تعريف حقيقة التوكل «بأنه علم العبد بأن الله يعلم ويرى ما هو فيه» ثم علق عليه بأن ذا النون يتابعه كثير من العلماء، مثل أبي حامد الغزالي، ولكن المراد بالعلم هنا ليس المعرفة، بل العمل بالعلم، وإلا فالكل من أهل الإسلام يعلم أن الله يعلم ويرى الخلق وأحوالهم، ومع ذلك لا يصح لكثيرين منهم حقيقة التوكل، ومعرفتهم هذه ليست علماً، بل الأحرى أن تسمى رسما ودراية .

ولا ينسى «ابن عربي» أن ينبه من خلال تعليقاته التي يتدخل بها في الوقت المناسب على الاختلاف الدائم بين مستوى الفقيه ومستوى الصوفي.

كل هذه التعقيبات والإيضاحات والإرشادات - وهي قليل من كثير - تثبت للقارىء وجود الشيخ الأكبر وحضوره الدائم بين السطور، وفي ثنايا الروايات، وأنه ليس مجرد مترجم ناقل. وأن المترجم هنا هو في ذات الوقت من أكابر الأولياء. وهو إذ يكتب ما يكتب وينقل ما ينقل يضع في حسبانه منظوراً آخر، هو منظور التماثل والتناظر بين المترجم وصاحب الترجمة ، فكلاهما مغرد في ذات السرب، وهما وإن كان يفصل بينهما قرابة أربعة قرون من حساب الزمن إلا أنهما في صفحات هذا الكتاب شقيقان، بل توأما روح واحدة، ورضيعا لبن واحد. ولعل «ابن عربي» في كثير من مواضع كتابه هذا ما كان يتحدث عن «ذي النون» بل كان يتحدث عن نفسه وعن تجارب شبيهة بتجاربه، وأكبر الظن أن الشيخ الأكبر لم يضع كتابه هذا تاريخاً لفترة من فترات الحياة الروحية في الإسلام وضعه تاريخاً «لذي النون» كشخص، وإنما وضعه ليلبي حاجة أساسية في مذهبه الصوفي، هي أثر ذكر الصالحين في تنزل الرحمات وفي انكسار القلب ورقة النفس وحفز السالك على العزوف عن الدنيا ، وكلها أصول وأنهاج ثابتة في طريق القوم، وهو إذ يتحدث في كتابه هذا عن «ذي النون المصري» فهو في واقع الأمر إنما يتحدث عن حقيقة الولاية المتعالية على الزمان وعلى المكان أيضاً.

«ذو النون» ساحراً

ويبقى جانب غامض - إلى حد ما - في حياة «ذي النون» الروحية والعلمية، وتعني به: معرفته بالسحر والطلسمات واستخدامهما فيما كان يسمى بالكيمياء وتحويل المعادن، ومعرفته باللغة السريانية التي كان يفك بها الرموز والطلاسم المنقوشة على بعض الجدران والحوائط في الأبنية والمعابد الأثرية. ونقول بداية: إن كتابات «المسعودي» و«ابن النديم» و«ابن القفطي» تدل على أن «ذا النون» كان عالما بالكيمياء

وله مؤلفات فى هذه العلوم، ولا يزال بعض منها محفوظاً ضمن مخطوطات دار الكتب المصرية، وقد أتيح لى أن أطلع على قصيدة رمزية فى الكيمياء منسوبة إليه، ووجدت الفرق بعيداً جداً بين أسلوب القصيدة وشرحها المعقد، وأسلوب «ذى النون» البديع الأخاذ، مما يدلنا على أن مثل هذه المصنفات منحولة على «ذى النون» . ولعل ما كتبه «المسعودى» وغيره فى هذا الموضوع هو ما شجع نيكولسون على التوسع فى أوهام وممارسة هواياته المفضلة فى محاولة إثبات تأثر التصوف الإسلامى بمصادر يونانية مسيحية ، وذلك من خلال إثبات أن «ذا النون» - وهو أول رائد للتصوف فى مصر - قد استقى أنظاره ورؤاه من هذه المصادر اليونانية والمسيحية ونحن نستطيع أن نستنتج من الروايات العربية فى هذا الشأن أن «ذا النون» كان على معرفة بالحكم القديمة المنقوشة على حوائط «بربا» «إخميم» و«دندرة» وغيرها، وأنه كان يقرأها بلغتها المكتوبة فى هذه الآثار القديمة. وينقل «أبو نعيم» عن «ذى النون» أنه قال: «قرأت فى باب مصر بالسريانية فتدبرته فإذا فيه: يقدر المقدرون والقضاء يضحك» .. ومعنى هذا أنه كان يعرف السريانية، لكن هل كان يعرف اللغة الهيروغليفية أو القبطية؟ القول الفصل فى ذلك يتوقف على تحديد اللغة التى نقشت بها هذه الحكم فى برابى إخميم و«دندرة» على وجه الخصوص. وهذا أمر لا سبيل إلى معرفته الآن بعد ما طمرت هذه البرابى وأصبحت أثرا بعد عين، وكل ما يمكن أن نخرج به من موضوع قراءة «ذى النون» النقوش على جدران المعابد لا يتعدى بحال من الأحوال الدلالة على معرفته بلغات أخرى غير اللغة العربية، لكن هذا شىء، والقول بأن «ذا النون» كان يمارس سحر الطلسمات شىء آخر، ولذا لم يتحرج «ابن عربى» فى كتابه «الكوكب الدرى» أن يثبت روايات النقوش وقراءة «ذى النون» لها، لكن لم يرو فى طول الكتاب وعرضه ما يشير - ولو من بعيد - إلى معرفة «ذى النون» بالسحر والطلاسم وممارسته لهما. وأكبر الظن أن هذا الاعتقاد إنما كان أمرا مقصوداً سعى إليه «نيكولسون» ليخلط عن عمد بين مفهوم الكرامة من ناحية، وشعوذات السحر والطلسم من ناحية أخرى، وبينهما بعد المشرقين فى تشريعات الإسلام وأحكامه.

محنته

لم تكن حياة ذى النون من هذا النوع الهادىء الذى أتيح لكثير من العباد وشيوخ التصوف فى العصور المختلفة، بل كانت حياة مملوءة بالصعاب والتحديات ومواجهة الفقهاء والوشاية عند السلاطين والأمراء. ونحن وإن كنا لا نعلم كثيراً عن تفاصيل الحياة القاسية التى عاشها ذو النون إلا أن أقواله - وما يرويه عنه المؤرخون - تشير إلى نوع من الاغتراب والتوحد عاشهما هذا الولى ولازما حياته. ودخل بسببهما فى

صراع لم يتوقف حتى وهو محمول على النعش إلى مثواه الأخير. ويحدثنا ابن عربى فى الباب الذى عقده لمحنة ذى النون، أن السبب الأساسى فيما تعرض له هو انفراده بأنظار دقيقة فى العلوم ميّزته عن غيره، وقد حصلت له هذه الأنظار نتيجة المزج بين العلم والعمل، حتى «سما على المجتهدين فى العبادة، وفتح عليه فى المعرفة، وظهر عنه من العلم ما لم تبلغه أفهام أهل وقته». ويبدو أن ذا النون قد تعرض لهذا الصدام فى وقت باكر من حياته، فقد عقد «السراج» فى كتابه: اللمع، بابا خصصه لذكر جماعة المشايخ الذين رموهم بالكفر، وكان ذو النون أول من تصدر قائمة الاتهام بالكفر فى هذا الباب. ونستنبط مما يذكره السراج أن ذا النون واجه هذا الصدام وهو فى إخميم، إذ اتهمه فقاؤها بالزندقة والكفر ورفعوا أمره إلى سلطان مصر، لكن السلطان عرف له قدره ومنزلته. يقول ابن الفرجى: «كنت مع ذى النون فى الزورق، وإذا بزورق آخر فيه جماعة من الناس، فقيل لذى النون، هؤلاء هم ذا يمضون ليشهدوا عليك عند السلطان بالزندقة، فقال ذو النون: اللهم إن كانوا كاذبين فخذهم!، قال ابن الفرجى: فما استتم كلامه حتى انقلب الزورق وغرق القوم، قال: فقلت لذى النون: أحسب أن القوم فسقوا فى ممشاهم، فما ذنب الملاح؟. قال: - لم حمل الفساق؟. ثم قال: إذا قام هؤلاء يوم القيامة شهداء الغرق خير لهم من أن يقوموا شهداء الزور. قال: ثم انتفض انتفاضة ، وقال: وعزتك وجلالك لا أدعو على خلقك أبداً».

ولم يكن حال ذى النون بعد أن انتقل إلى القاهرة بأسعد حظا مما كان عليه فى إخميم، والسبب هو السبب ، أعنى ما ذكره ابن عربى من مواجهة ذى النون للفقهاء والعلماء بما يطيقون وما لا يطيقون من اشارات أهل الإلهام، وهذه حقيقة يؤكدها مؤرخو التصوف قبل ابن عربي من أمثال السلمى الذى ألف فى هذا الموضوع كتابا بعنوان «محن الصوفية»، ذكر فيه أن ذا النون كان «أول من تكلم ببلدية فى ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء، فأنكر عليه عبد الله بن عبدالحكم، وهجره علماء مصر. وشاع أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف، وهجروه حتى رموه بالزندقة. فقال أخوه: إنهم يقولون: إنك زنديق. قال :

وما لى سوى الإطراق والصمت حيلة
ووضعى كفى تحت خدى وتذكارى

ويؤكد المؤرخون - أيضا - بعد ابن عربى ريادة ذى النون، للحياة الروحية في مصر وانه أول شيخ مصرى يتحدث فى علوم التصوف وفقه القلوب ويرقب دقائق النفس وخطراتها، ويشخص أدواءها وعللها، ويخرج على المألوف والمعهود من حدث العلماء والفقهاء والمحدثين، يقول ابن تغرى بردى: «وذو النون» هو أول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، فأنكر عليه «عبدالله بن الحكم».

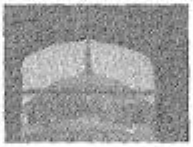
ويقول ابن حجر: «هو أول من تكلم فى مصر فى ترتيب الأحوال وفى مقامات

الأولياء» فقال الجهلة هو زنديق»، ويطول بنا المقام لو رحنا نسرد كل الروايات التى ذكرها المؤرخون فى هذا المقام . ونكتفى بالقول بأن هذه الروايات تؤكد على حقيقتين: الأولى : أن ذا النون هو أول شيوخ التصوف فى مصر. والثانية: أن فقهاء مصر بقيادة مفتي الديار المصرية في ذلك الوقت: عبدالله بن عبدالحكم رفضوه ورفضوا علومه واتهموه بالزندقة والكفر. ولم يقف أمر الصراع بين ذى النون والفقهاء عند حد الاتهام بالمروق والخروج من الدين. وأنه أتاهم بعلوم لم يتحدث فيها السلف. بل تطور الأمر إلى الوشاية به عند الخليفة العباسي: المتوكل. وهنا تحدثنا الروايات أن ذا النون واجه محنة مؤلمة كلفته كثيراً وحُمل بسببها من مصر إلى بغداد مكبلاً بالقيود حتى دخل على الخليفة المتوكل. وقد سجل ابن عربى بعض المشاهد المؤثرة التي حكاها ذا النون نفسه والتي وصف فيها كيفية دخوله على المتوكل، حيث رمي به مقيداً على باب السلطان بعد وصوله إلى بغداد، ثم رأى سقاء يسقى الناس متزراً بمنديل مصرى فسأل ذو النون: هذا ساقى السلطان؟ فقيل له: لا، بل ساقى العامة، فأومأ إليه ذو النون فتقدم وسقاه، وشم ذو النون رائحة المسك من الكيزان فعرف أنه يسقى الناس لقاء أجر. فقال لمن معه: ادفع له ديناراً! فأعطاه الدينار وأبى السقاء أن يأخذه. فلما سأله ذو النون قال: أنت أسير، وليس من المروءة الأخذ من الأسير. ثم ينتقل ذو النون إلى مشهد امرأة زمنة، استحكمت علتها وطال عليها مرضها، وهى مقعدة فى كوخ يتصدق عليها فيه.. يقول ذو النون: «فالتفت فإذ امرأة زمنة فى كوخ يتصدق عليها، فقلت لها: أنا مظلوم. فقالت: فاقبل الآن منى إذ دخلت على هذا الرجل «الخليفة المتوكل» فلا تهابنه ولاترى إنه فوقك، فإنكما مخلوقان من نطفة واحدة، ومن طينة واحدة، (وهو) فقير إلى مَن أنت إليه فقير. ولا تحتج عن نفسك محقاً كنت أو متهماً، قلت: ولم؟ قالت: إن هيبته سلّط عليك، وإن احتججت عن نفسك لم يزدك إلا وبالاً، لأنك تباهت الله تعالى فيما يعلمه منك، وإن كنت بريئاً فادع الله تعالى ينتصر لك، ولا تنتصر فيكلك إليها». ثم يصور ذو النون مشهد محاكمته أمام المتوكل بأسلوبه المؤثر وكلماته المشعة، فيقول: «فلما دخلت عليه سلمت بالخلافة، فقال لى: ما تقول فيما قيل فيك؟ فسكت. قال وزيره: هو عندى حقيق بما قيل فيه. ثم قال لى: لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين: إن قلت : لا، أكذبت المسلمين فيما قالوا، وإن قلت: نعم، كذبت على نفسى بشىء لا يعلمه الله تعالى منى. فافعل ما ترى ، فإنى غير منتصر لنفسى. فقال أمير المؤمنين: هذا رجل برىء مما قيل فيه». لقد أدرك المتوكل على الفور أن الذى يقف أمامه موقف المتهم بالزندقة هو ولى من كبار الأولياء، فأمر بفك قيوده ورده إلى مصر معززاً مكرماً. وهنا تذكر المصادر أن المتوكل كان إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكى ويقول: «إذا ذكر أهل الورع فحيَّ هلا

بذي النون». وقد حدثت هذه المحنة عام ٢٤٤ هـ فيما يحدده ابن عربي في كتاب الكوكب الدري. وإذا كان ذو النون قد نسي آلامه ومتاعبه ومأساته بين القاهرة وبغداد وأمام المتوكل، فإنه ظل يذكر درساً مستفاداً من هذه المحنة تلخص عنده في لقاء السقاء ولقاء المرأة الزمنة، فقد روى الشيخ الأكبر أنه كان يقول بعد ذلك: «من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاء الماء ببغداد، ومن أراد أن يسمع تجريد التوحيد وخالص التوكل فعليه بالنساء الزمني بها»، وأحرى بذي النون ألا تقف همته العالية إلا على أبواب الحقائق الخالدة، والتي نذر حياته للبحث عنها. واستعذب الآلام والمحن والبلايا من أجل اكتشافها ومعانقتها. ويكفينا أن بدء شأن هذا الولي - أو ما يسميه بعض الشيوخ: سبب توبته - كان درساً من عالم الغيب وجه حياته كلها وجهة التوكل الخالص وإلى الأبد. فقد سأله أحد أصحابه يوماً: يا أبا الفيض! ما كان سبب توبتك؟ فقال: (...) أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى فنمت في الطريق في بعض الصحاري، ففتحت عيني فإذا أنا بقنبرة عمياء فسقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان (إناءان صغيران)، إحداهما ذهب، والأخرى فضة، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء، فجعلتْ تأكل من هذا. فقلت: حسبي، قد تبت، ولزمت الباب إلى أن قبلني».

وفاته

أغلب الروايات على أن وفاته كانت سنة ٢٤٥ هـ . ويقول ابن عربي نقلاً عن أبي الفرج ابن الجوزي: إن وفاته كانت في يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة ٢٤٦ هـ . ثم يذكر ابن عربي رواية أخرى تقول: إنه توفي سنة ٢٤٨ هـ. ويبدو لنا أن الروايتين الأخيرتين أدق وأضبط ، لأننا في حلية الأولياء رواية عن يوسف بن أحمد المكفوف يقول فيها: «حدثنا أبو الفيض بن إبراهيم المصري ذو النون سنة خمس وأربعين ومائتين بسر من رأى... إلخ ما قال» مما يدل على أنه مكث بعد محنته في عام ٢٤٤ هـ عاماً آخر ظهر فيه بمدينة سر من رأى»، وأنه قفل راجعاً إلى مصر بعد ذلك فمات بها سنة ٢٤٦ هـ أو ٢٤٨ هـ. وقد توفي ذو النون بالجيزة وحملت جنازته في قارب إلى الفسطاط، وذلك خوفاً أن تنقطع الجسور من كثرة الناس مع جنازته، ويقول ابن زيان - فيما ينقله ابن خميس - إنه رأى طيوراً خضراً تكتنف جنازة ذي النون وترفرف عليها، غير أن الفقيه أبا الحسن صاحب الإمام الشافعي يروي رواية أخرى يقول فيها: «حضرت جنازة ذي النون فرأيت الخفافيش تقع على نعشه وبدنه وتطير»، أما أبو عبدالرحمن السلمي فيقول: لما مات ذو النون وجد على قبره مكتوباً : «مات ذو النون حبيب الله من الشوق، قتيل الله» ، ويعلق ابن عربي بقوله: «يريد كتابة غير معهودة». ■



التقريب

بين المذاهب الإسلامية

بقلم
د. محمد عمارة

فى الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التى يستخدمها الباحثون فى هذا الميدان .. «فالتقريب» بين المذاهب غير «التوحيد» للمذاهب .. وكلاهما متميز عن «احتضان» جميع المذاهب والاستفادة من الملائم فى أحكامها واجتهادات مجتهديها.

ثم إن «المذاهب» قد يراد بها «المذاهب الفقهية» .. وقد يراد بها «المذاهب الكلامية» .. لذلك، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات.

«فالتقريب»: هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة، والحفاظ على تمايزها واختلافها، مع العدول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى، بالتعصب لمذهب واحد، ورفض ماعداه.. فهو - التقريب - تعايش بين المذاهب المختلفة، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها، ومناطق الاتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف.

أما «التوحيد» بين المذاهب: فإنه يعنى دمجها جميعاً فى مذهب واحد،

ونفى قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف..

وبين هذين المصطلحين يأتى «الاحتضان» والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة، باعتبارها اجتهادات إسلامية فى إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد، والنظر إلى الأحكام التى أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها، الذى يلبى حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف .. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها .. ومفهوم «الاحتضان» هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات «التقريب».

أما مصطلح «المذاهب» ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية، التى هى علم الفروع ، واجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة ، التى هى وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح - «المذاهب» - على المذاهب الكلامية ، أى التصورات والاجتهادات التى أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية، وخاصة «الألوهية» وصفات الذات الإلهية .. و«النبوات والرسالات» ومايتعلق بها من المعجزات .. و«فلسفة العلاقة بين الحق والخلق» ، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون، وأفعال هذا الإنسان ..الخ.

هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامى.

☆☆☆

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التى بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ماعداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها، لتلبية احتياجات التشريع للمستجدات العصرية .. فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) - فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى - أن تكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا الحديث، لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى ، والاستفادة من اجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢هـ، ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م) تلتزم المذهب الحنفى وحده ، وبفقهه وحده يحكم القضاء، ويفتى المفتون فى ولاياتها ، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : الحنفى .. والمالكى .. والشافعى .. والحنبلى .. وللمذهب الحنفى وحده تم التقنين فى «مجلة الأحكام العدلية» عام ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩م - .. فلما درس الإمام

محمد عبده حال القضاء الشرعى بمصر ، دعا فى التقرير الذى كتبه فى نوفمبر عام ١٨٩٩م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهديها، لما فى ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس، وتلبية حاجات المستجدات - (الأعمال الكاملة جـ٢ ص٢٠٩ - ٢٨٨).

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامى بمصر ، فى مقدمة الحركات التى وضعت دعوة الإمام محمد عبده فى الممارسة والتطبيق .. ففى التعديلات التى أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة، بما فى ذلك المذهب الجعفرى - للشيعة الاثنى عشرية - والمذهب الزيدى - للشيعة الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامى - موسوعة جمال عبدالناصر - اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها ، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديها جميعاً - وهى المذاهب السنية الأربعة . مع المذهب الجعفرى ، والمذهب الزيدى، والمذهب الإباضى، والمذهب الظاهرى .. فكانت «للفقه المصرى» - إذا جاز التعبير - الريادة فى انتهاج هذا الطريق ، الذى لايكتفى ، فقط «بالتقريب» بين المذاهب الفقهية، أى رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه ، وإنما تجاوز «الموقف المصرى» هذا «التقريب» إلى «احتضان» كل المذاهب، والعمل على الاستفادة من الملائم الملبى لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعاً .

***

وفى أربعينيات القرن العشرين، قامت فى مصر «جماعة التقريب بين المذاهب» ، مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص.

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد على علوبة باشا (١٢٩٢ - ١٣٧٥هـ، ١٨٧٥ - ١٩٥٦) .. وكان فى مقدمة مؤسسيها والعاملين فى ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ، ١٨٨١ - ١٩٤٥م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ، ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣هـ، ١٨٩٣-١٩٦٣م) والشيخ محمد المدنى (١٣٢٥ - ١٣٨٨هـ، ١٩٠٧ - ١٩٦٨م) والشيخ على الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨هـ، ١٨٩١ - ١٩٧٨م) والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥هـ،

١٩٠٩ - ١٩٩٤م) والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ، ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) والشيخ سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة.

كما ضمت هذه اللجنة - في إطار «دار التقريب» - كوكبة من كبار علماء الشيعة الاثنى عشرية .. من مثل آية الله أقا حسين البروجردى .. والسيد محمد تقى الدين القمى - الذى تولى الأمانة العامة للجماعة - والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء .. والسيد شرف الدين الموسوى .. والسيد محمد جواد مغنية .. والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم ..

وكانت مجلة «رسالة الإسلام» لسان حال هذه الجماعة، من أبرز المنابر الفكرية التى تجسدت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفى إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص.

كذلك، كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ماتمخضت عنه اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة، وجهود هذه الجماعة فقال :

«إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول . فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذى لاريب فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول : «هذا مذهبى، وما وصل إليه جهدى وعلمى، ولست أبيح لأحد تقليدى واتباعى دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ماقلت، فإن الدليل إذا استقام فهو عمدتى، والحديث إذا صح فهو مذهبى».

«ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة، ثم تهيأ لى بعد ذلك، وقد عهد إلى بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية .. وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها فى الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى

المتــوضـــحين، أو أرد به على شـبــه المعترضين، وفيما أنشىء من مقال ينشر أو حــديث يذاع، أو بيــان أدعـو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام ، ونسيان الضغائن والأحقاد، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مـقـررة تجـرى بين المسلمين مـجـرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون فى مـخـتلف عـهـود الضـعف الفكرى والخـلاف الطائفى والنزاع السـيـاسى، يثيرون فى موضوعها الشكوك والأوهام بالبـاطل، وها هو ذا الأزهر الشـريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة ، فـيـقـرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشـيـعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبـرهان ، وتخلو من التـعـصب لفلان وفلان» - (كتاب مشيخة الأزهر) للشيخ على عبد العظيم ـ جـ٢ ص ١٨٧، ١٨٨.

هكذا تحدث الإمام الأكبر الشيخ محـمـود شلتوت ، عن فكرة التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية ، والتقريب بين أرباب هذه المذاهب - أى بين علمـاء السنة والشـيـعـة .. وعن شـمـول هـذه الدعـوة لكل المذاهب الفـقـهـيـة الثـابتـة الأصـول، المعـتـمدة المصـادر ، المتبـعـة لسبيل المؤمنين .. وعن جواز التعبد بفقه جميع هذه المذاهب دون استثناء.. كما تحدث عن الجدل الذى دار حول فتواه بهـذا الخـصـوص .. وعن تبنى الأزهر الشريف لهذا الاتجاه فى التقريب بين مذاهب الفقه الإسلامى.

☆☆☆

أمـا نص الفـتـوى التى أصـدرها الشيخ شلتوت، والتى أثارت جدلا فكريا حـول هذا الموضـوع .. فلقد جـاءت رداً على سؤال نصه :

«إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عبادته ومعاملاته على وجـه صـحـيح، أن يقلد أحـد المذاهب الأربعة المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلا؟»..

فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال:

«إن الإســلام لا يوجب على أحـد اتباع مذهب معين، بل نقول : إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادىء ذى بدء أى مذهب من المذاهـب المنقـولة نقـلا صحيحاً، والمدونة أحكامها فى كتبها الخـاصـة، ولمن قلد مـذهـبـاً من هـذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أى مذهب كان - ولا حرج عليه فى شىء.

إن مـذهب الجـعـفـرية ، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهـل السنة ، فينبغى للمسلمين أن يعـرفـوا ذلك، وأن يتـخـلصـوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معـينة ،

فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات» - كتاب (مشيخة الأزهر» جـ ٢ ص ١٨٨ ..

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية . وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ماعداه .. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنة - وفق فقه المذهب الجعفري للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد .

ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيما وواسعاً ومستمراً في الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردي - في طهران عام ٢٠٠١م.. ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أي مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعي وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثاني!..

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية - الصادر بعد الثورة الإسلامية - قد ذهب إلي الحد الذي جعل المذهب الجعفري وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التي تقرر ذلك لايجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات !.. الأمر الذي يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور!..

***

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التي بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتي أثمرت ثمرات طيبة في ميدان التقريب بين السنة والشيعة .. وهي الجهود التي يحاول مواصلتها - قدر الإمكان .. وعلى نحو من الأنحاء - «المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب» - بطهران - فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها في هذه النقاط.

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جهاد في غير الميدان الحقيقي الأولى بالجهاد .. أو - على أحسن الفروض - هو جهاد في الميدان الأسهل، الذي لايمثل المشكلة الحقيقية في الخلافات بين المذاهب الإسلامية .. وبين السنة والشيعة على

وجه التحديد – فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد فى الفقه الإسلامى كلما تمايزت الاجتهادات فى الأحكام الفقهية .. ففتح الآفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذى يحرك العقل الإسلامى المجتهد، وليس التقريب – فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات – فقط يزيد احتضان الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة، والاستفادة بالملائم من أحكامها للتيسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات .

وثانياً : إن الفقه هو علم الفروع .. وتمايز الاجتهادات فيه واختلاف المجتهدين فى أحكامه لم يكن فى يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة ، بل كان مصدر غنى وثراء العقل الفقهى والواقع الإسلامى على السواء .. وفى الفقه كان الأئمة والعلماء .. المختلفون فى المذاهب، يتتلمذ الواحد منهم على من يخالفه فى المذهب.. بل ورأينا فى تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة فى فقهه وعطائه، فيفتى وفق مذهب، ويقضى وفق مذهب ثان ، ويدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه!..

فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية فى الفكر الإسلامى، وهو مصدر من مصادر الغنى والثراء لهذا الفقه، ولا يمثل أية مشكلة لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقى والأولى للجهاد الفكرى فى التقريب بين مذاهب المسلمين..

وثالثاً : إن الميدان الذى كان ولايزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة – التى هى فريضة إلهية وتكليف قرآنى – هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية فى المذاهب الكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام «التكفير» و«التفسيق» التى نجدها فى تراث هذه المذاهب ، والتى ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد..

إن اختلاف مذاهب الفقه – السنية والشيعية – حول «نكاح المتعة» مثلاً ، لايمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التى تكفر الصحابة الذين أخروا خلافة على ابن أبى طالب هى التى تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التى تكفر الشيعة فى بعض كتب التراث السنى، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨هـ، ١٢٦٣ – ١٣٢٨م) وبعض الأئمة «السلفيين».. ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التى توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة فى ميدان التصوف والصوفيين.

فالتقريب بين المذاهب، والذى يمثل الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى المطلوب، هو الذى يوحد الأمة فى الأصول

والثوابت، وفى أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهد التقريبى - الغائب والمطلوب - هو نزع «الألغام الفكرية - التكفيرية» التى تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذاهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفى للآخر، يقصم وحدة الأمة .. وهو خطر لاعلاقة به بالفقه، الذى هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التى هى ظاهرة صحية ، تثمر الغنى والثراء فى الأحكام، واليسر والسعة للأمة كلها فى تطبيق هذه الأحكام.

وإذا كانت هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية»، التى تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء، فى بعض الحوزات العلمية ، وفى بعض الدوائر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة .. إذا كانت هذه «الألغام» قد غدت راسخة، بل و«متكلسة»!.. فإن الموقف الممكن والعملى إزاءها يمكن تصوره فيما يلى:

١ - تحديد نطاق هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية» .. وأغلبها - لحسن الحظ - نابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق «أصول الاعتقاد»، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل «نفى .. وتكفير» للمخالفين..

٢ - اعتماد منهاج وسنة التدرج فى تطبيق خطة إزالة هذه «الألغام الفكرية - التكفيرية» من الكتب التراثية، وخاصة الذى يدرس منها فى الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه فى «تهذيب» كتب التراث ..

٣ - الاتفاق - فى إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية - على منع تدريس هذه «الاجتهادات التكفيرية» فى الحوزات والجامعات الإسلامية التى تكون عقول العلماء فى مختلف بلاد الإسلام .. ولنا فى منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة فى هذا الميدان، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة - الفقهية والكلامية - سلفها وخلفها على حد سواء، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأى مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ، حفاظاً على وحدة الأمة، التى هى فريضة إلهية، تعلو فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين.

وصدق الله العظيم : ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ - الأنبياء : ٩٢ ..

ذلك هو الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى فى التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول فى الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية، التى تتخصص فى الفروع، واختلافاتها رحمة واسعة، ولا تفسد الود بين المسلمين. ■

ترويض الرأى العام

بقلم
محمود أحمد

تدريجيا تتهاوى أمام أعيننا اللافتات والشعارات والدعاوى التى يرفعها أصحاب سياسات العولمة ولا يملون الترويج لها بهدف فرضها فى النهاية على الناس فى كل أنحاء الدنيا معتمدين على مالهم من قوة وقدرة على الإملاء وغير مبالين بصيحات الاحتجاج والرفض التى تتعالى ضدهم فى كل مكان .

ويوما وراء يوم تتكشف دعاوى وشعارات مروجى العولمة عن حقائق تثبت أن معظم ما تقوم عليه سياسات العولمة المفروضة ما هى ألا مجرد أضاليل وأوهام تخفى وراءها مصالح وأهدافا يراد فرضها على العالم .. حتى ولو أدى فرضها الى تكدس الملايين من الضحايا ولا يكاد مجال واحد من مجالات الحياة ينجو من هذا الاستهداف من جانب مروجى العولمة الذين لا يتورعون عن استخدام الوسائل الممكنة لفرض ارادتهم على المجتمعات والشعوب بدءا من التجارة والديناميكيات الجديدة للسوق المفتوحة واسقاط الحواجز التى تعترض استشراء الشركات العملاقة ومرورا بالملكية الفكرية التى تسمح بالتغلغل الثقافي وتحقيق غسيل الدماغ لشعوب بكاملها وحجب مقومات الحضارات الأخرى مهما بلغت عراقتها وانتهاء بفرض شروط السلام وترتيب أوضاع جديدة - تكون ضامنة للمصالح - فى هذا الركن أو ذاك من العالم !

إلا أنه على الرغم من انكشاف دعاوى أصحاب العولمة ومروجيها وهتك الاستار عن الأهداف الحقيقية في كل يوم، ورغم تزايد الاحتجاجات ضد شراسة العولمة ولا انسانيتها - وهي احتجاجات انتشرت من سياتل إلى واشنطن، ومن جوهانسبرج إلى مونتريال - إلا أن قوى العولمة مازالت تصر على رفع شعارات الرخاء القادم مع رياح العولمة وما ستحققه ثورة المعلومات وانتشار الديمقراطية والشفافية من واقع جديد تسخر في خدمته كل انجازات التطور التكنولوجي الهائل الذي تحقق في العقود الأخيرة .

لاشك أن القوى العالمية العاتية التي تعمل بدأب لفرض سياسات العولمة، وفي مقدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تحاول باستمرار أن تطمس أي مغزى للاحتجاجات المتنامية ضد الاتجاهات الكاسحة للعولمة والتحذيرات من الكوارث التي سترافقها ومع ذلك فإن الناس أخذوا ينتبهون إلى هذه التحذيرات في كل مكان ذلك أنه من الصعب على أمة فقيرة أو حتى متوسطة الدخل أن تتجاهل تحذيراً من أن الفارق في دخل الفرد اليوم في دولة صناعية غنية (مثل سويسرا) وبلد غير صناعي فقير (مثل موزا مبيق) قد اتسع إلى حد أن نسبته بلغت ٤٠٠ إلى واحد، بينما كانت هذه النسبة عند بدء العصر الصناعي قبل قرنين ونصف القرن لاتتجاوز ٥ إلى واحد ! كذلك فإنه يتعذر تجاهل تحذير كالذي أطلقه الباحثان الألمانيان هانز - بيتر مارتن وهارالد شومان وهما يسجلان في مؤلفهما فخ العولمة أنه : «اذا سارت الأمور على منوالها الراهن فإن ٢٠ في المائة فقط من سكان العالم هم الذين سيكونون في إمكانهم العمل والحصول على الدخل والعيش في رغد وسلام أما البقية أي ٨٠ في المائة من السكان فستمثل الفائضين عن الحاجة الذين لن يمكنهم العيش الا من خلال الاحسان والمعونات والتبرعات». (فخ العولمة سلسلة عالم المعرفة - أكتوبر ١٩٩٨)

عن الاعلام المستقل

والتحذيرات كثيرة ومتواصلة. ومن حسن الحظ أنها تصدر غالبا عن دارسين جادين لا ينقصهم العلم والرصانة ومع ذلك ورغم ما يتكشف بوضوح كل يوم من أن شعارات العولمة لا تخفي وراءها غالبا سوى الأكاذيب والأوهام، فإن قوى العولمة لا تزداد مع الأيام الا شراسة وتصميما وللأسف فإن امتلاك هذه القوى للجانب الأكبر والأشد

تأثيرا من وسائل الإعلام الحديثة التقليدية والالكترونية واعتمادها المنهجي على تكنولوجيا المعلومات يجعلها في وضع يمكنها من المضي في تطبيق السياسات وتحقيق الأهداف والمصالح التي تريدها .. وهو ما يؤدي في الوقت نفسه إلى إضعاف تأثير التحذيرات والاحتجاجات التي تطلق في وجهها ولذا فإن هذا الجانب جدير بأن نوليه مزيدا من التدقيق والعناية والفحص، وسيكون من المفيد أن نركز بوجه خاص على الأساليب والتكنيك الذي تتبعه وسائل الإعلام العملاقة والخبرة الطويلة التي يعتمد عليها مروجو العولمة في إفساح الطريق – والعقول – أمام فرض السياسات وتحقيق الأهداف

وينبهنا الباحث الأمريكي جاك شاهين أستاذ الاتصال الجماهيري بجامعة الينوي الأمريكية إلى أمر مهم فيما يتبعه الإعلام الغربي – والأمريكي خصوصا – من تقنيات يطبقها بمهارة وإحكام للتعبير عن تلك المصالح وتحقيق الأهداف المتوخاة مستخدما في ذلك قوة تأثيره وانتشاره على نطاق عالمي لايقاوم ويرى جاك شاهين – في بحث له عن الصورة النمطية في الثقافة الامريكية stereotype أن الإعلام الأمريكي يعتمد بشكل واسع على خلق صورة نمطية معينة،، ثم يأخذ في تغذية هذه الصورة النمطية ويكررها ويعيد انتاجها باستمرار إلى أن يفرضها وكأنها حقيقة لا تقبل الجدل وهو يقول انه إذا كان تأثير الصورة النمطية السلبية قويا في كل وقت فإنه الآن أصبح أشد خطورة وأشمل تدميرا بعد أن أصبح بإمكان أجهزة الإذاعة والتلفزة والصحافة وتقنيات الطرق السريعة للمعلومات نقل الكلمة والصورة على نطاق واسع وبشكل فوري كما يؤكد أن آخر ما يفكر فيه صانعو الصورة النمطية عند توظيفها في أي عمل دعائي – هو الموضوعية فهم يخصون الذات بكل السمات الحميدة: النبل والشجاعة والكرم والإنسانية (وبالطبع التزام الشفافية والأخذ بالديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.. الخ) بينما يلحون بالعكس– على تصوير (الآخر) على أنه يجسد كل السمات الكريهة .. من القبح الجسدي إلى البشاعة الأخلاقية (وأيضا الدكتاتورية وخنق الحريات الدينية وانتهاك حقوق الانسان.. الخ) .

ويسجل جاك شاهين، في بحثه المشار إليه أن هناك إشكالية خطيرة تنجم عن اللجوء إلى خلق الصورة النمطية التي ينتجها الإعلام الأمريكي

وتكريسها وهذه الاشكالية تتمثل في أن صنع الصورة النمطية هذه لا يعدو أن يكون ترسيخا لحكم مسبق وذلك عن طريق التلاعب بالعاطفة حتى ولو تطلب ذلك استخدام التزوير .. عن طريق تقنية المونتاج مثلا في ابتكار صور ثابتة أو متحركة ويمكن أن تضيف إلى ذلك أن توليف صوت معين في المعامل أصبح أمرا ممكنا بفضل تلك التقنيات الحديثة وهو ما يثير شكوكا حول كل ما يعرض ويراد منا تصديقه بما في ذلك ما يقال عن الرسائل الصوتية المنسوبة لشخص مثل أسامة بن لادن الذي يطارده العالم كله !

الحرب الباردة .. الثقافية

وواقع الأمر، أن الآلة الجهنمية التي تبتكر - وتستخدم - هذه الأساليب كان لها باع طويل، وخبرة وتجارب تراكمت على مدى السنين، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن في هذا المجال - الرجوع إلى كتابين مهمين صدرا في الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة.. وتضمنا حقائق كانت بمثابة أضواء قوية وكاشفة (وقد كان مفيدا أن يتنبه المجلس الأعلى للثقافة إلى أهمية الكتابين وأن ينشرا في ترجمة كاملة لهما في إطار سلسلة المشروع القومي للترجمة).

الكتاب الأول: من تأليف فرانسيس ستونر سوندرز وقد صدر عام ٢٠٠٠، وهو يكشف عن أساليب وكالة المخابرات الأمريكية «سي . آي . إيه» في التلاعب بالثقافة والفكر لتحقيق أهداف سياسية خلال سنوات الحرب الباردة. ويكشف الكتاب كيف لجأ جهاز المخابرات الأمريكي الأخطبوطي إلى أساليب التزوير والخداع والتلفيق والكذب لخلق الصور النمطية التي استخدمها الإعلام الأمريكي ببراعة لتحقيق الأهداف المتوخاة وفي هذا السبيل لم تتورع السي اي إيه عن استغلال كبار رجال الثقافة والفكر والأدب - سواء بموافقتهم أو دون علمهم في أغلب الأحيان - لتنفيذ برامج إعلامية ودعائية ذات أهداف ومردود سياسي مؤكد ويؤكد مؤلف الكتاب فرانسيس سوندرز أن الهيئات والاتحادات والنوادي واللجان والتي تعاقب تكوينها بالمئات وربما بالآلاف على مدى الخمسين سنة الماضية، قد ساهمت إلى حد كبير في تقويض صورة الاتحاد السوفيتي ثم انهياره كما أنها ساعدت على تحقيق ما وصلت اليه الولايات المتحدة اليوم عندما نجحت هذه الأنشطة المتواصلة والمتراكمة في

الترويج لفكرة أن العالم فى حاجة إلى سلام أمريكى وإلى عصر تنوير جديد تقود اليه وتهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية ولاشك أن قارئ الكتاب ستأخذه الدهشة وهو يطالع المعلومات الموثقة عن المشاهير الذين أمكن لجهاز المخابرات الأمريكى استخدامهم - حتى دون أن يفطن بعضهم - فى تنفيذ مخططاته.. من سكوت فيتزجيرالد وارنست هيمنجواى إلى اريك بليير وجورج أورويل، وحتى بعض أدباء فرنسا العظام من أمثال جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار وأندريه مالرو!.

ويروى كتاب سوندرز - الذى حمل عنوان : الحرب الباردة الثقافية - تفاصيل مذهلة عن الأفكار التى نبتت فى عقول رجال المخابرات الأمريكيين، وكيف تحولت هذه الأفكار إلى حملات منظمة جرى تنفيذها ومتابعتها بدأب وكيف نجحت فى فرض أغرب الآراء مثل إشاعة اعتقاد بأن هناك ضرورة للتمييز بين قنابل ذرية مفيدة يملكها الغرب الذى لا يريد بالعالم إلا الخير والازدهار، وأخرى مؤذية هى التى يحوزها السوفييت الأشرار ومن يدور فى فلكهم

ويتحدث الكتاب بإسهاب عن العديد من المنظمات التى أنشت لتكون واجهة للأنشطة المتعددة التى كان يديرها جهاز المخابرات الأمريكى منذ وقت مبكر. ومن خلال هذه المنظمات - مثل منظمة الحرية الثقافية - أمكن إصدار العديد من المجلات ذات الصبغة الثقافية ومنها كومنترى، ونيوريدر، وبارتيزان ريفيو وإنكاونتر وغيرها .. والتى استكتب فيها مفكرون وأدباء ذوى شهرة واسعة من أمثال أرنولد توينبى وبرتراند راسل وهربرت سبنسر .. وهى مجلات صدرت فى شتى أنحاء العالم من انجلترا إلى استراليا ومن إيطاليا إلى الهند، وبالطبع فى الولايات المتحدة نفسها .

ويقول سوندرز انه بلغ من تأثير منظمة الحرية الثقافية التى أنشأها السى آى إيه أنها استطاعت الحيلولة دون فوز شاعر شيلى بابلو نيرودا بجائزة نوبل فى عام ١٩٦٤ وأخرت فوزه بالجائزة حتى عام ١٩٧١ ومع هذا دبرت المخابرات الأمريكية قتله بعد عامين من فوزه بها .

كما بلغ من نجاح عمل جهاز المخابرات، فى هذا المجال، أن أنشأ ما عرف بنادى القلم الدولى pEN وحقق له من الانتشار أن أصبح له ٧٦ فرعا فى ٥٥ دولة، واستطاعت السى آى ايه تحويله إلى منبر لخدمة المصالح

الأمريكية والأكثر من ذلك أنها نجحت أيضا في إخضاع متحف الفن الحديث في مدينة نيويورك لعرض أعمال فنية متحررة من القواعد الفنية المتعارف عليها بزعم أن التحرر من القوالب واعتماد التعبير التجريدي يعد من رموز الديمقراطية، وهكذا تمكنت المخابرات الأمريكية، إلى حد كبير، من أعادة بناء البنية الثقافية في العالم وفرض النموذج الأمريكي لضمان انتشار الثقافة الأمريكية وتأثيرها على الوعي والوجدان من خلال الرواية الأدبية والدراما في السينما والتليفزيون .. بل ومن خلال المعارض الفنية والحفلات الموسيقية. وكان الهدف دائما هو تحقيق تخلي الشعوب والمجتمعات عن أنماطها الثقافية الموروثة واكتسابها نمطا آخر أكثر جاذبية وعصرية .. هو النمط الأمريكي .

ويخرج سوندرز من ذلك كله بنتيجة مهمة يسجلها بقوله : والحق أن التغيير في الثقافة هو ما اعتمد عليه ما سمي بالنظام العالمي الجديد أو العولمة وأداته الرئيسية منظمة التجارة العالمية التي أنشئت عام ١٩٩٥ والتي لم تعد مهمتها تقتصر على حرية التجارة وإنما أضيف لبرنامجها مبدأ الحرية الثقافية. أما الهدف الحقيقي، وربما النهائي فهو تحويل العالم كله إلى النموذج الأمريكي

قوى التحالف الأسود

والكتاب الثاني المهم : هو ذلك الكتاب الذي صدر عام ١٩٩٩ بعنوانwhitcout والذي حملت ترجمته العربية التي صدرت هذا العام اسم : التحالف الأسود والمقصود هو التحالف بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ومافيا المخدرات وأيضا الصحافة والإعلام من جهة ثالثة .

في هذا الكتاب أيضا نجد أنفسنا أمام طوفان من التفاصيل المذهلة حول انغماس جهاز المخابرات في عمليات أقل ما توصف به بانها عمليات قذرة تشمل بصورة خاصة تجارة المخدرات وتستغل أرباحها في محاربة الأنظمة المناوئة للولايات المتحدة في بلدان أمريكا اللاتينية وغيرها، ثم تلجأ إلى استخدام الصحافة وأجهزة الإعلام ذات الانتشار الواسع في التغطية على هذه العمليات والتعتيم على أية تفاصيل يمكن أن تتسرب عنها .. بل ومطاردة و تدمير كل من يحاول كشفها وهذا بالضبط ما حدث لصحفي أمريكي يدعى جاري ويب كان قد حصل على أسرار صفقات مخدرات تمت بمساعدة رجال السي . آي. إيه وتجرأ على نشر هذه التفاصيل

في سلسلة من ثلاث مقالات في صحيفة سان خوزيه ميركوري نيوز التي تصدر عن مؤسسة وادي السليكون في ولاية كاليفورنيا وقد تعرض الصحفي سيئ الحظ إلى حملة رهيبة شاركت فيها - بإيعاز من وكالة المخابرات - كبريات الصحف مثل الواشنطن بوست والنيويورك تايمز فضلا عن شبكات التليفزيون ذات الانتشار الجماهيري الواسع .

وبغض النظر عن مقدار الإثارة فيما تضمنه الكتاب من تفاصيل فإن ما يعنينا - في هذا السياق - هو ما يثبته المؤلفان ألكسندر كوكبرن وجيفري سان كلير، من أن ما يروج عن الحياد والاستقلال والموضوعية التي يتمتع بها الإعلام الأمريكي لا يبلغ، في أفضل الأحوال، هذه الدرجة التي يتوهمها الناس في معظم أنحاء العالم خارج الولايات المتحدة بل يدفعنا إلى القول إنها - في الأغلب الأعم - لا تعدو أن تكون مجرد خرافة !!

خدع العولمة وأضاليلها

هذه الخلفية الواسعة للأساليب التي ابتكرها وأتقنها خبراء الأجهزة الأمريكية ربما تكشف إلى أي مدى يبلغ حجم الخطر الذي تواجهه المجتمعات والشعوب وهي تتعرض للهجة الشرسة التي تقودها القوة الأعظم في العالم اليوم وهي تسعى لفرض سياساتها وتحقيق مصالحها من خلال العولمة التي تحاول إجبار الجميع على الخضوع لها .

ونحن نسمع بين الحين والآخر، من بين خبرائنا ومفكرينا من يقول - مع ذلك إنه لا ينبغي النظر إلى العولمة على أنها شر مطلق أو أنها خير صاف وربما يضيف البعض أن على المجتمعات والشعوب، في بلدان العالم النامي خصوصا، أن تتعامل مع العولمة بقدر من الواقعية لأنه لا قبل لها في الحقيقة بمقاومتها . ولكن ذلك لا يعني أن على هذه المجتمعات والشعوب أن تقبل ما تنطوي عليه سياسات العولمة، بينما هي تفرض عليها فرضا، مستسلمة لما يلقى إليها من خدع وتلفيق وأضاليل فالأجدر بهذه الشعوب أن تقبل على ما هو آت - على الأقل - بعيون مفتوحة وعقول واعية

وربما يكون من المفيد ، ونحن نتعامل بحذر مع كل هذه النذر التي تحملها إلينا سياسات العولمة، أن نفطن إلى ما تنطوي عليه من خدع وأضاليل كالقول إن النظم التي تقوم عليها إنما هي نظم حتمية لا سبيل إلى مقاومتها . ويحسن أن نستمع، في هذا المجال إلى

أصوات المعتدلين من أمثال الالمانيين مارتن وشومان صاحبي كتاب فخ العولمة الذي سبقت الإشارة اليه فهذان الباحثان ينتقدان ما يروجه المنظرون الذين يقولون إن العولمة ذات الاتجاه الليبرالي هي من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية الشبيهة بالأحداث الطبيعية (كالزلازل والأعاصير) التي لا يمكن الوقوف في وجهها وهما يعتقدان على العكس بأن حتمية العولمة إنما تنبع من سياسات معنية خلقتها - بكل التصميم والإرادة حكومات ودول أقرت قوانين ونظما ألغت بها الحدود والحواجز أمام حركة تنقل البضائع ورءوس الأموال وسحبت في الوقت نفسه المكاسب التي حققها العمال والطبقة الوسطى في السنين الماضية ففي كل هذه الأمور، لم تكن هناك حتميات لا يمكن تجنبها، بل سياسات واعية بما تفعل وتعبر عن أهدافها ومصالح الشركات العابرة للقارات التي تمثلها .

بل أن مارتن وشومان ينكران بإصرار ما يقال من أن العولمة قد أدت إلى انصهار مختلف الاقتصاديات القروية والوطنية والإقليمية في اقتصاد عالمي موحد بعد أن صار العالم كله سوقا واحدة .. وأن التجارة العالمية تنمو باضطراد ليستفيد منها الجميع بعد أن أصبح العالم قرية كونية متشابهة، وخاصة بعد الدور الذي تلعبه الأقمار الصناعية وشبكة الانترنت ومختلف أشكال ثورة الاتصالات. وهما يؤكدان أنه باستثناء التوحد التليفزيوني الذي يربط من يعيشون في أفريقيا وآسيا وأمريكا، وبخلاف بضع مدن تتركز فيها الصناعة الحديثة و التقنيات العالية وتتصل ببعضها البعض وبالعالم الخارجي بأكثر من اتصالها بالبلاد التي تنتمي إليها، فإن الجزء الأكبر من العالم يتحول - خلافا لما يقال - إلى جزر منفصلة وإلى عالم بؤس وفاقة ويكتظ بالمدن القذرة والفقيرة !

وفي هذا الصدد، وبسبب ما أطلق عليه «التوحد التليفزيوني»، وبتأثير الميديا العملاقة التي يوظفها أصحاب سياسات العولمة على اتساع المعمورة .. فإنه يجدر الانتباه إلى أقصى حد للحيل والخدع التي يحاول هؤلاء تسريبها إلى الوعي الجماعي لشعوب العالم الفقيرة خصوصا باسم الشفافية والديمقراطية حينا، وباسم الحريات الدينية وحقوق الإنسان في أحيان كثيرة أخرى، فالهدف الواضح هو إخضاع شعوب ومجتمعات بأسرها في سبيل تحقيق مصالح وأهداف هذه القوى الغلابة .. والعاتية ! ■



كيف تواجه الصين

العولمة ؟

بقلم
د. محمد عبد الشفيع عيسى *

فى أجواء العولمة والأزمة ، حدثت تطورات هائلة فى القارة الاسيوية وقد تضررت من الأزمة الاسيوية (١٩٩٧ - ٩٩) دول عديدة بفعل العولمة المالية .

وفى هذا المقال نعرض للدول الاسيوية غير المتضررة مباشرة من الأزمة المالية الاسيوية لعام ١٩٩٧ ، أو التى لم يمسها الضر بنفس القدر الذى مس به مايسمى بالنمور الآسيوية . ونقصد هنا حالة الدولتين الآسيويتين الكبيرتين : الصين واليابان لما لهما من أهمية عظمى فى سياق تقرير مستقبل النظام العالمى .

* استاذ العلاقات الاقتصادية الدولية معهد التخطيط القومى.

من أجل إلقاء الضوء على موقف الصين من العولمة ، حالاً ومآلا ، فى سياق الجدل الفكرى العالمى السائد فإننا نعرض فيما يلى ثلاثة إتجاهات معبرة عن زوايا مختلفة فى النظر إلى الموضوع وعن وجهات نظر متباينة إزاءه ، ونبدأ بعرض وجهة نظر من اليسار العربى والعالمى يمثلها المفكر الدكتور سمير أمين فى أحد أعماله الأخيرة ، ثم نقدم وجهة نظر من الولايات المتحدة الأمريكية يمكن وصفها بأنها (معتدلة) أو صديقة للصين ، بمعنى ما ، وإن كانت تصب - فى التحليل النهائى - فى المجرى الرئيسى للمصالح الأمريكية التى تمثها شركاتها العاملة على المستوى الدولى عموما وفى الصين خصوصاً . وأخيراً نقدم عينة لوجهات نظر بعض الدارسين الأكاديميين وأطلقنا عليها (وجهات النظر المدرسية) .. ثم نعقب عليها جميعا .

● وجهة نظر يسارية - راديكالية

يذكر سمير أمين فى دراسة حديثة له عن الصين مايلى :

(إنطلاقا مما تحقق فى الصين حتى الآن فإن هناك ثلاثة مشروعات أو إمكانات مستقبلية محتملة فى طياتها تطورات متباينة فى مطلع القرن الحادى والعشرين :

- مشروع إمبريالى لتفكيك البلاد وتحول مناطقها الساحلية إلى النظام الكومبرادورى .
- مشروع رأسمالى «قومى» للتنمية .
- مشروع قومى وشعبى للتنمية ، يجمع بصورة «تركيبية» بين مبادىء مستقاة من رأسمالية السوق ومبادىء أخرى نابعة من منظور اجتماعى بعيد الأمد) .

ويضيف سمير أمين - من منظوره الراديكالى - مايلى :

(بالنسبة للخيار الأول المؤيد لقيام سوق «متحرر» إلى أقصى الحدود وللانفتاح الخارجى إلى أبعد مدى - وهو خيار الليبراليين الصينيين والأجانب - فإنه يتلاءم مع الاستراتيجية الإمبريالية ، ومن ثم يؤدى إلى مزيد من خنق الإرادة الشعبية ويعزز الهشاشة الخارجية للأمة والدولة الصينية .. أما بالنسبة للخيارين الثانى والثالث فبرغم صعوبة التمييز بينهما للوهلة الأولى ، إلا أن هناك فارقاً رئيسياً يتمثل فى مدى سيطرة الدولة على العلاقات الخارجية وفى نمط توزيع الثروة والدخل القومى بما يحقق مستوى مقبولاً من التضامن الاجتماعى والتوازن بين المناطق المختلفة للبلاد . وفى هذا المجال فإنه بينما يقوم الخيار الثالث - القومى التقدمى - على إعطاء الأولوية للتنمية الموجهة للداخل ، أى للسوق المحلية ، مع تنظيم العلاقات الاجتماعية بطريقة تقلص الفوارق بين القوى الاجتماعية والمناطق



الجغرافية إلى أقصى حد ممكن، وبالتالي يخضع العلاقات الخارجية إلى متطلبات هذا المنطق المحرك. فإن الخيار الثاني – الرأسمالي «القومي» – مناقض لذلك: فهو يعتبر الإندماج المترسخ في النظام الرأسمالي العالمي المحرك الأساسي للتنيمة الاقتصادية. ويرتبط هذا الخيار الأخير بالضرورة بتفاقم الفوارق (المناطقية) والفوارق الاجتماعية عموما.

ويذهب سمير أمين إلى القول:

(ليس هناك سوى هامش ضيق يسمح بنجاح خيار «رأسمالية قومية» قادرة في النهاية على اللحاق بالعالم الثالث الرأسمالي المتقدم، وتحويل الصين إلى قوة عظمى جديدة ودع عنك قوة عظمى ترغم القوى العظمى القائمة على العدول عن نزعتها للهيمنة. والحق أنه من غير المرجح أن تتمكن أية سلطة سياسية من المحافظة على وجهتها – القومية – ضمن هذا الهامش الضيق. ولذلك فإن خيار قيام نموذج رأسمالي قومي للتنمية يبقى خياراً نظرياً فقط. وبالتالي فليس هناك من الناحية العملية ما يحول دون الانحراف إما اليمين (ومن ثم الخضوع للمخطط الإمبريالي في نهاية الأمر) أو إلى اليسار (بالتطور نحو النموذج الثالث).

ثم ينتهي إلى القول، مؤكداً حتمية الحل الاشتراكي في الحالة الصينية من أجل إحداث التنمية وفق المشروع القومي والشعبي: (إنني من الذين يعتقدون بان الخيار المطروح أمام البشرية جمعاء هو: إما الاشتراكية أو الهمجية. وأن الرأسمالية لم يعد بإمكانها طرح آفاق مقبولة إنسانيا لأنها استنفدت دورها التاريخي التقدمي.. ولكن تحقيق ذلك يتطلب وقتاً طويلا – عبر مسيرة انتقالية بعيدة الأجل. ومن هذا المنظور أحاول أن أحكم على القدرة المحتملة لمشروع «اشتراكية السوق» الذي يتبناه النظام الحاكم في الصين حاليا، على التحول إلى مرحلة إيجابية في المسيرة الانتقالية الطويلة المقترحة.

إن التسمية باشتراكية السوق ليس هو الأمر المهم.. ولكن المهم هو الإنطلاق من تطلعات الطبقات الشعبية نحو إقامة ديموقراطية حقيقية تتجاوز الإيديولوجيا الغربية السائدة (حول تعدد الأحزاب) أو أطروحات المجتمع المدني المزعوم التي يروج لها دعاة ما بعد الحداثة ويستعيده «الشعبويون» في العالم الثالث والصين.. وللأسف فإن الأدبيات الصينية التي أطلعت عليها تغفل هذه القضايا الجوهرية إلى حد كبير).

(راجع «اشتراكية السوق الصينى بقلم سمير أمين) .

●وجهة نظر أمريكية (صديقة) :

يتضمن أحد الكتب الحديثة وجهة نظر من الولايات المتحدة الأمريكية ، تعتبر من ناحية أولى (صديقة) - بمعنى ما - للصين ، أى متفهمة للسياق التاريخى والعقائدى للصين الحديثة ، ومن ناحية ثانية ، توفيقية الطابع ، أى قادرة على إدماج عدة عناصر متناقضة معاً فى بناء غير متناسق تماماً وإن كان يبدو كذلك فى الظاهر .

وفى هذا الكتاب نقرأ مايلى ، على لسان مؤلفيه : (نحن نرفض فكرة أن الصين ستسعى إلى الهيمنة على العالم ، باعتبارها القوة العظمى فى القرن الواحد والعشرين ، بيد أننا نرفض كذلك فكرة أنها سوف تنهار تحت ثقل أعبائها وسوف تفشل فى ملاءمة نفسها مع النهج الغربى فى بناء الرأسمالية والديمقراطية) .

ويضيف المؤلفان (.. إن الصين لن تكون ، ولزمن طويل ، شمولية بالكامل ولا ديموقراطية تماماً ، ولن يكون اقتصادها خاضعاً للأوامر العليا ولا اقتصاد سوق حرة . كذلك وفى ضوء علاقات الصين مع الولايات المتحدة واليابان والبلدان الأخرى والنظام المؤسسى العالمى ككل ، لن تكون الصين مجرد فرصة اقتصادية كبرى ، ولا مجرد تحد استراتيجى واقليمى مشئوم ، لذلك فالإجابة عن سؤال : أيهما وعلى مدى المستقبل البعيد هى : كلاهما) . (راجع : الصين فى القرن ٢١) .

ويكمن الهاجس الأمريكى الرئيسى وراء صياغة السؤال المتعلق بمستقبل الصين على النحو التالى :

(لم تعد المسألة هى ما إذا كانت هناك قوى ستجر الصين إلى الخلف لتسقط فى هاوية العقيدة الماوية الجامدة ، فهذا سيناريو بعيد الاحتمال ، ولعل الأصح هو السؤال عما إذا كانت الصين يمكنها أن تتجنب ثمرات الغلو الوطنى ، ومعاداة الأجانب ، وعملية إصلاح صماء وغلق الأبواب التى فتحها دنج هسياو بنج) .

الصين - وفق وجهة النظر هذه - تعيش صراعها الفكرى - السياسى الأساسى خلال العقدين الأخيرين ، بين معسكر تقليدى محافظ وفريق الإصلاح الأكثر ليبرالية .

وتجدر الإشارة إلى أن ما يطلق عليه المؤلفان المعسكر التقليدى المحافظ إنما يقصد به - بتعبيراتنا نحن - الفريق الاشتراكى القومى من ورثة الماوية «العصرية» الساعية إلى المواءمة بين الدور المركزى للدولة وقوى السوق ذات الطابع الاجتماعى ، بينما يقصد بفريق «الإصلاح



الأكثر ليبرالية» : دعاة الليبرالية الجديدة الذين تتراوح دعاواهم بين الإندماج الكلى فى النظام الرأسمالى العالمى ، وفق ما يطلق عليه سمير أمين : المشروع الأمبريالى لمستقبل الصين ، وبين الخيار الرأسمالى ذى المسحة القومية .

وبينما تتجنب وجهة النظر التوفيقية المذكورة وصف التوجه الصينى الخارجى إزاء الاقليم الأسيوى خصوصاً ، والنظام العالمى عموما بالسعي إلى الهيمنة على الطريقة التى توصف بها الهيمنة الأمريكية لدى نقادها ، فإنه مع ذلك لايستبعد منطق الهيمنة كليا كمحرك للسياسة الصينية - وفى هذا يذكر المرجع المشار إليه بوضوح (أصبحت الصين الآن قوة الهيمنة الرئيسية فى أسيا ، وإن ظلت ترفض الاعتراف بذلك)

وفى عبارة موجزة إن مستقبل الصين كما يتخيله أفضل الدعاة الغربيين وفق المثال الذى نعرضه هنا - لايتجاوز منظور «الرأسمالية» وفق المفهوم الليبرالى للأسواق وللديموقراطية حسب الأنموذج الغربى ، مع خشية عميقة من النزعة القومية المتغلغلة فى الثقافة الصينية والتى تعتبر - من وجهة النظر الأمريكية والغربية عامة - محركاً محتملاً على الدوام للسعى نحو الهيمنة ، ونحو الانغلاق بما يجره هذا وذاك من مظاهر عديدة فى مقدمتها العداء لـ (الأجانب) ..!

● الأكاديميون

يسوق الدارسون الأكاديميون ، وإن تم ذلك بمستويات مختلفة من التحليل ، وجهات نظر متباينة إزاء وضع الصين أمام واقع (العولمة) وإزاء مستقبلها فى الأجل الطويل ..

ووفق مثال معبر عن بعض وجهات النظر من هذا القبيل ، نجد عرضا تحليليا للموقف الصينى المستقرأ من الوثائق والتصريحات وغيرها من مصادر (الخطاب الصينى) على النحو المتسلسل التالى : (راجع : الصين وتايوان والعولمة ، د. حنان قنديل) .

تتحدد الرؤية الصينية لظاهرة العولمة فى جانبين : أولهما أن العولمة باتت تمثل واقعاً موضوعياً يتعين على مختلف دول العالم التعامل معه ، وأنها تقدم فرصاً حقيقية لابد من إنتهازها وخاصة من الرؤية الاقتصادية والتكنولوجية .

والثانى أن العولمة تحمل من المخاطر بقدر ما تشتمل عليه من فرص . ولذا ينبغى للصين أن تتحسب جيداً للجوانب السلبية من العولمة وبحيث لا تمتد بأثارها لتطال مبدأ الاستقلال والسيادة الدولية الصينية .

وتأسيسا على ذلك فقد انتهت القيادة

الصينية - حسب المثال المشار إليه - إلى إتباع (استراتيجيتين) للإفادة من إجيابيات العولمة : أولاهما تهدئة الخواطر وطمأنة دول العالم إلى نوايا الصين إزاء أسلوب إدارتها لقوتها الصاعدة . وثانيتهما تأكيد الالتزام الداخلي بسياسة الانفتاح ، بما يستتبعه ذلك من تغيير في هيكل الاقتصاد الصيني .

وأما على صعيد مواجهة سلبيات العولة فقد صممت القيادة الصينية استراتيجيتين أخريين هما : الالتزام باستقلالية السياسة الخارجية الصينية ، والتأكيد على الجوهر القومي للصين والإصرار على خصوصية تجربتها .

ويبدو - حسب المثال الدراسي السابق - أن استراتيجيات التعامل مع إيجابيات وسلبيات العولة على النحو المذكور ، اشتقت منها سياسات محددة أعلنتها وطبقتها القيادة الصينية . فمن أجل الإفادة من فرص العولة وضعت سياستين: -

١ - الإنضمام للمؤسسات الدولية والاقليمية ، خاصة منها ذات الطابع الاقتصادى ، وعلى وجه التحديد صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والجات ثم السعى إلى اكتساب عضوية منظمة التجارة العالمية .

٢ - القيام بالإصلاحات الداخلية الضرورية التى تتفق مع التزامات العضوية فى المؤسسات المذكورة ، ويتمثل ذلك أساسا فى سياسة (الانفتاح الاقتصادى) .

ومن أجل تجنب سلبيات وأضرار العولة تبنت القيادة الصينية سياستين : -

١ - تفضيل المشاركة فى التنظيمات والاتفاقات الأمنية غير الملزمة مثل «المنتدى الاقليمى الأسيوى) .

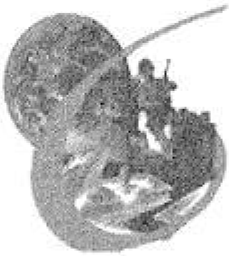
٢ - رفض تدخل الدول الأخرى فى الشئون الداخلية للصين ، لاسيما بالنسبة لقضيتي : تايوان ، و«حقوق الإنسان» .

وفى مثال آخر لتطبيق المقترب المدرسى القائم على استقراء المنطوق الظاهر لمخرجات السياسة الداخلية والخارجية الصينية وتوجهات قياداتها السياسية - نقرأ عن دعوة الصين إلي إقامة (نظام دولى جديد) معاكس لذلك النظام الذى دعا إليه جورج بوش غداة حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ (النظام الدولى الجديد : الأهرام ٢٠٠١/٨/٧) .

فماذا نستنتج من هذه الرؤى الثلاث المتضاربة حول الصين والعولة ، فى الحاضر والمستقبل ؟ أو : ماذا نرى نحن بشأن ماضى الصين القريب ومستقبلها فى ظل العولة ؟ هذا ما نعقب به فيما يلى:

الصين : بين ماضيها القريب ومستقبلها :

لا ريب فى أن الصين تواجه خيارات صعبة ، بفعل إرث تاريخها المعاصر



وبيئتها الإقليمية والعالمية .

ويتحدد إرثها المعاصر فى إرث الماوية على وجه التحديد ، وإن شئت فقل إرث التجربة الاشتراكية التى حققت إنجازات لايمكن نكرانها ، ولكنها انتهت إلى فوضى سياسية وفكرية عارمة فى غمار ماسمى بالثورة الثقافية قبل وبعد وفاة ماو.

ومن قلب الفوضى العارمة برز دينج هسياو بنج ، داعيا ، ومن حوله لفيف كثيف من كوادر الحزب وقادة الرأى والمثقفين ، إلى نوع من تجاوز التجربة الماوية القائمة على التخطيط المركزى ووحدانية الملكية الاجتماعية بصيغها المختلفة - قطاع عام - جماعيات ..) وتوجه التنمية نحو الداخل (من حيث مصادر التراكم وتوليد الطلب) .

وفى مقابل ذلك دعا بنج إلى إدخال عنصر اقتصاديات السوق ، دون إخلال جوهرى مباشر بقاعدة الملكية العامة وبآلية الخطة ، وفتح الاقتصاد الصينى على العالم الخارجى للحصول على إمدادات الاستثمار والتكنولوجيا من جهة، والتوجه إلى الأسواق الدولية (خاصة السوق الأمريكية) بانتاج مخصص لهذا الغرض : الإنتاج للتصدير.

وقد حققت استراتيجية تجاوز الماوية إنجازاً باهرا ، من حيث حصيلة الاستثمارات الوافدة ونقل التكنولوجيا الغربية ومعدل نمو الصادرات والدخل القومى . والأهم من ذلك أن الصين قد نجيت إلى حد بعيد من الآثار التدميرية للأزمة الآسيوية عام ١٩٩٧ .

وفى مواجهة عواصف العولمة ، صمدت القيادة الصينية حتى الآن فى مواجهة تيار الليبرالية الكاملة وخاصة فتح حساب رأس المال ، وقاومت التوجه الأمريكى نحو الهيمنة وخاصة فى الاقليم الآسيوى ، ولكنها أبدت تصميما ملحوظا على الانضمام إلى عضوية منظمة التجارة العالمية ، ناهيك عن تثبيت قواعد النموذج الإنمائى القائم على استقبال الاستثمار الأجنبى وإرسال الصادرات نحو الخارج .

والحال أن النموذج الإنمائى المذكور يرتكز إلى مصالح مستقرة لجماعات طبقية بالغة القوة ، على قمة هرم الثروة والدخل ، وإن لم تنعكس هذه المصالح بوضوح - حتى الآن - على هرم السلطة والحزب . وبذلك ولدت إزدواجية قوية : ما بين اقتصاد مخترق من النتوءات «الرأسمالية» الطاغية ، المفتوحة على (الخارج) ، ونظام سياسى ذى بنية متمركز حول الحزب والجماعة القيادية المتنفذة . ودع عنك أن النموذج الإنمائى قد ولد تفاوتات عميقة بين الطبقات الاجتماعية فى توزيع الثروة والدخل وفى مستويات المعيشة ، وكذا بين

المناطق الجغرافية المختلفة على امتداد رقعة البر الصينى .

لذلك يبدو مستقبل الصين وقد لفه الغموض لدرجة يستحيل معها التنبؤ بصورة قاطعة بالاتجاه الرئيسى للتطور فى المستقبل المنظور ، ولذا تكفى الإشارة إلى الخطوط الرئيسية التى سيجرى من حولها الصراع الاجتماعى والسياسى فى الصين ، والتى يتوقف على حسمها تقرير نوع المستقبل : -

١ - خط الصراع حول استراتيجية النموذج الإنمائى : ما بين التوجه نحو الداخل ، والتوجه نحو الخارج .

٢ - خط الصراع حول اقتصاد السوق ، فى مواجهة الدور المركزى للدولة والخطة .

٣ - خط الصراع حول الملكيات الخاصة المرتبطة بالمصالح الخارجية ، والقابعة فى نطاقات الإنفتاح : المناطق الاقتصادية الخاصة ، المناطق الشاطئية .. الخ .

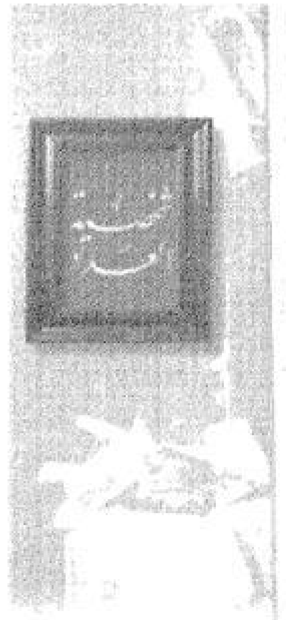
٤ - خط الصراع حول استقلالية الصين القومية ، وخاصة فى مواجهة التدخل الغربى - الأمريكى من بوابات تايوان ومسألة حقوق الإنسان .. الخ .

٥ - خط الصراع على السلطة السياسية : ما بين القوى الدافعة إلى خوض تجربة الليبرالية على النموذج الغربى (تعددية حزبية - مجتمع مدنى «حر» .. الخ) والقوى المتمركزة حول بنية السلطة الموروثة من المرحلة الماوية - وما بين القوى التى هى - بتعبير سمير أمين - وريثة أفضل ما فى الماوية ، أى الساعية إلى العمل وفق تطلعات الطبقات الشعبية وتطبيق نوع من الديمقراطية الحقيقية التى تتجاوز قشور الليبرالية الغربية .

هذه هى الخطوط الخمسة للصراع القادم فى الصين . ومن حولها سوف يتقرر المستقبل القريب والبعيد . وإنا لنراها وقد أسفرت عن تجمع للقوى الاجتماعية الممثلة للطبقات الشعبية فى سعى نحو صيغة للاشتراكية ذات الخصوصية الصينية ، وديمقراطية ملائمة ، واستقلالية ساعية إلى نظام دولى متعدد الأقطاب قابل للتطور نحو صيغة جماعية للعلاقات الدولية فى الأجل الطويل . ■

من الحكم الفرعونية

* المرأة الفاضلة صندوق مجوهرات يكشف يوما بعد يوم عن جوهرة جديدة
* ليست الحكمة أن تعرف الطريق بل أن تمشى فيه
* تهرب العصافير عندما تسقط الشجرة وتهرب الحشرات عندما تروى الأرض



محمود أمين العالم

وتصعيد الواقع إلى مثال

بقلم

د. صلاح قنصوه

للاستاذ العالم - شأنه شأن عظام الرجال - جوانب كثيرة منوعة يجدر كل منها بالحديث المستفيض عنها ، والثناء البالغ عليها ، فهو فيلسوف ، وشاعر ، وكاتب ، وناقد ، ومناضل ، فضلا عن كونه إنسانا عذبا يفيض محبة وحنانا لكل من يتصل بهم ، أو من يصطدم معهم فى خلاف أو نزاع سواء كان مصدره الفكر والرأى ، أو الموقف والسلوك .

ومن ثم ، فلا مفر لى من اجتزاء جانب واحد من بين جوانبه الخصبة والرحبة ، وهو اجتزاء سأجتهد فى تناوله موضوعيا ، وربما تسرب إليه شئ من النقد الحميد ، إلا أنه فى كل الحالات صادر عن كل الإعزاز والتقدير





وينبغي أن أعترف بأن هذا الاجتزاء إنما يضمر اقرارا وإعلانا بأن شخصية العالم لا ينصفها مقال واحد يختزل جوانبها التي تفيض عن الحصر ، فيحبسها بين سطوره ، ويغلق عليها صفحاته .

بل هبني كتبت عنه مزيدا من المقالات فلن يفي ذلك بالاحاطة بشخصيته ، ولابد من مؤلفين آخرين يلمون بجوانب أخرى من تجاربه ومواقفه .

وأكبر الظن ، أن استاذي «العالم» وصديقي في آن واحد ، قد تعتريه الدهشة عندما يتصفح حديثي ، ولكن ذلك أمر طبيعي ، فصورة الإنسان عن نفسه ليست هي بعينها ما تتجلى أو تنعكس على مرايا الآخرين ، والنص العظيم هو النص الذي يتداوله الناس ويتناقلونه ولابد أن يخضع للتأويل لأن النص الباهت الفقير الدلالة لا يدفع قط إلي بذل أي جهد في تفسيره أو تأويله ، والاختلاف حول دلالاته الثرية .

● تقدير محمود أمين العالم لعبد الناصر ليس نوعاً من تبعية المثقفين القدامى، لكنه اعتقد بأنه متوحد مع عبد الناصر ومشارك لنفس اهدافه السياسية

وينبغي لي أن ألفت النظر إلى أن اجتزائي أو انتقائي لجانب دون جانب آخر لا ينزع عن هذا الجانب المختار صلته الحميمة بسائر الجوانب ، سواء كانت سمات شخصية ، أو إبداعات فنية ، أو أدوات منهجية ، أو أرصدة ثقافية ، أو مواقف سياسية ، ولا مندوحة لي من الاعتراف مقدما بأن أحد الأعراض الناشئة عن أمراض المهنة التي أتكسب منها ، وهي الاشتغال بالفلسفة ، وهو الإسراع إلى التجريد واللهفة على التعميم، اعترف أنه غلبني على أمري في حديثي عن الأستاذ «العالم» ولابد أن هذا الاعتراف من جانبي ينطوي على اعتذار صريح عما قد أنزلق إليه من اسراف في التأويل .

الواقع الرمز

لا ريب في أن انحياز «العالم» اليساري إلى مصالح الجماهير ومطالب الشعوب قد حملته على التلمذة على أساليبها وطرق أدائها في توصيف الأمور وتفسيرها وهذا هو ما يبدو جليا في تحيزه الصارم لجمال عبدالناصر ، رغم التزامه بالنظرة الماركسية التي لا تولي الفرد البطل تلك الأهمية الخارقة في حركة التاريخ . وربما يكون رأي «العالم» هو أن جمال عبدالناصر لو لم يكن قد ظهر في تلك اللحظة التاريخية ، لاستبدل به التاريخ شخصا آخر يحل مكانه ويقوم بدوره .

ولسنا في حاجة إلي تفسير معين للماركسية لكي نبرز تلك المكانة التي أولاها «العالم» لعبدالناصر ، وذلك لأن طريقة

الشعوب ، على مر التاريخ الإنساني كله ، هي صنع الرموز .

ويتم هذا الصنع أولا بتهميش السيرة الشخصية ، فتفرغها من أحشائها وجوارحها ، أي من محتواها الأصلي الذي تكون من أفعاله وردود أفعاله إزاء مواقف معينة ، وبشر ، في لحظات ، ومواقع بعينها ، ليبقى الهيكل الذي يعاد حشوه ، ورسم معالمه وتشكيله بتطلعات الجماهير وأمانيها وأهدافها لتغدو رمزا مستقلا عن الوقائع الحقيقية للسيرة الشخصية .

ويمتاز المصريون بعراقتهم في صنع السير الخارقة فهم مبتكرو الأيقونات «الصور المقدسة» ، والأضرحة ، والقباب التي قد لا تضم تحتها مشايخ أو قديسين .

ولا يدل ذلك على سذاجة ، أو غياب وعي جماهيرنا ، بل يؤكد سخاءها وإسرافها في إهداء دورها لرموزها التي تختارها وتصنعها على أعينها ، وما تلبث أن تتوحد معها ، فلا تتسامح قط مع من يمسها بالنقد أو التشكيك لأنها تحمل الشخصية المختارة ما تتمنى أو ما ينبغي أن تقوم به .

ولا يعني هذا أن الرمز مجرد وهم ، لأنه سرعان ما يغدو واقعة حية تشق مجراها المؤثر في حركة التاريخ . بل تكاد السيرة الخارقة أو الرمز أن يدنو من الانتماء إلى المجال الرفيع الذي تقف العقائد على قمته ، وتندرج معه أو توازيها الأفكار الملهمة ، والميول القومية .

والسيرة الشخصية واقعة موضوعية في محتواها لأنها تستند إلى وثائق وشهادات بينما السيرة الخارقة ، التي تحولت رمزا ، ليست موضوعية المحتوى ، ولكنها تكتسب موضوعيتها من تأثيرها ونفوذها فيما بعد في وجدان الجماهير . وذلك بمعنى أن ما تعتقده الجماهير في صحة ماتصنعه من الرموز ، وإذا ما تحول إلى حركة ملموسة ، فإنه يندرج في سلك الوقائع المادية ، أي الموضوعية ، التي تجدر ببحث المؤرخين والمحللين .

فتقدير «العالم» إذن لعبدالناصر لايمكن تفسيره بنوع من الولاء أو التبعية الذي يميز المثقف «الأميري» الذي يطوع قلمه لتجميل قرارات السلطة تحت أبهى الشعارات ، فهذا النوع من المثقفين مساير لكل سلطة وسرعان ما ينقلب عليها إذا ما تغيرت .

كما أنه ليس من المنتفعين القدامى الفاقدي الأهلية والموهبة الذين إذا ما انتهت فترة صلاحيتهم ، تشبثوا بالناصرية لإيهامنا بأنهم كانوا أصحاب مبدأ ومذهب . ولكنه أعتقد ، عن ثقة وإيمان ، وربما عن حسن نية ، بوصفه شخصا مخلصا عازفا عن المصلحة الشخصية ، اعتقد بأنه متوحد مع عبدالناصر طالما كان يحسبه مشاركا لنفس أهدافه السياسية ومنجزا لها . ولذلك يضفي «العالم» على تحليلاته ، سابقا ولاحقا ، مزيدا من الجدية والعقلانية ، في ذات اللحظة التي يفيض فيها رومانسية وشاعرية على ما يعتقد أنه تجسيد واقعي مادي لرؤيته الأصلية .

غير أن عبدالناصر ليس كائنا واحدا ، بل شأنه شأن الشخصيات التاريخية المهمة كائنين اثنين .

الأول هو السيرة التاريخية الشخصية التي صنعها بنفسه نتيجة نزعاته وطموحاته ،



وانتصاراته وإخفاقاته ، وصعوده وانتكاساته ، وكذلك صورته عن ذاته ، ومقاصده الشخصية المباشرة .

أما الكائن الثانى ، فليس من صنع عبدالناصر نفسه ، بقدر ما هو من صناعة الجماهير التى تحوله إلى أسطورة أو سيرة خارقة Leyend فالجماهير تتغذى ، وتهضم، وتتمثل ما بلغها أو أتيح لها من علامات ، وإشارات ، وشعارات تجاوزت لحظتها التاريخية الواقعية الأصلية ، وكأنها نص من النصوص الذى أعلن فى مناسبة خاصة جدا ، ولكنه ما لبث أن انفصل منها ليصبح رمزا أو مثالا صاغته عمليات خيالية أقرب إلى الإبداع الفنى . وهى عمليات التأليف والتركيب التى تتطلب حذفا واستبعادا ، وكذلك إضافة واختراعا .

ولقد استلهم «العالم» روح الشعب فى انحيازه لهذا الكائن الرمزى الأسطورى لعبد الناصر حتى كاد يسقط الكائن الآخر ، التاريخى الشخصى ، من حسابه وتأملاته .

وكان فى ذلك مخلصا أمينا لما يتقنه الشعب المصرى فى صنع الأساطير ، سواء على المستوى السياسى ، أو المستوى الفلكلورى

يصف العالم فكره بالواقعية العلمية، فهو يتعامل مع الوقائع الموضوعية بالمنهج العلمى غير أنه يدعو إلى «العقلانية» كمثل أعلى للفكر والسلوك

فعلى المستوى السياسى صنعنا مثلا صلاح الدين ، ومصطفى كامل ، وعلى صعيد الموروث ، مجدنا أبا زيد الهلالى وأدهم الشرقاوى رغم أن الأول ناهب مغتصب لأملاك غيره ، والثانى قاتل قاطع طريق .

فصلاح الدين الأيوبى هو الذى كتم آخر أنفاس الدولة العربية بقضائه على الخلافة العربية الفاطمية ، والحاقه مصر بالدولة التركمانية التى كان يعمل لحسابها فى الشام والجزيرة تحت إمارة «نور الدين بن زنكى» وإليه يرجع الفضل فى تمهيد السبيل لحكم المماليك فى مصر حتى تسلم التركمان الجدد من العثمانيين مقاليد الحكم ، فاستسلمت الجماهير لرقاد طويل تخللته الكوابيس ، ورغم كل ذلك ، صنع الشعب من صلاح الدين ناصرا العروبة وبطلا لها تترقب وصوله لتحرير الوطن العربى .

أما مصطفى كامل ، فكان تابعا للخديو عباس حلمى وخادما للسلطان العثمانى الذى أنعم عليه بالباشوية ، وكان يشن حملة مغرضة على الثورة العرابية فى جريدته تقربا من الجناب العالى . كما اتخذت موقفا محقرا للمصريين ضد زواج على يوسف بكريمة السادات لأن على يوسف من علوج المصريين الذين لا يملكون شرفا أو حسبا .

ولعل وقوفنا عند حالة مصطفى كامل يكشف عن أهمية الفصل بين السيرة الشخصية والرمز .

فقد كان سعد زغلول معاصرا له وكان يصفه بالنصاب . غير أن قاسم أمين الذى كان يشن عليه مصطفى كامل حملة غير نزيهة فى جريدة اللواء زلفى للدهماء والسلطان ، اتخذ قاسم أمين موقفا مخالفا عن رأيه السابق الذى شارك فيه سعد زغلول عقب وفاة مصطفى كامل فقال لسعد زغلول : «إن اهتمام الناس بوفاته لدليل على تنبيه عام ، وحياة فى الناس جديدة ، وهذه قيمة تستحق الإعجاب» فقال له سعد زغلول ، «ولكننا نعلم أن الرجل ليس بشئ وأنه نصاب» فقال قاسم أمين هو كذلك ، ولكن النتيجة التى ترتبت عليه تستحق الاعجاب ، ويعبر سعد زغلول عن دهشته من قاسم أمين الذى رأى ، عقب وفاة مصطفى كامل أنه «موجد الحركة الوطنية فى مصر» . ماذا حدث إذن لقاسم أمين ، وهو الوطنى المستنير والجسور الذى ناصبه مصطفى كامل العداء فى حياته ؟

الذى حدث أنه أسقط السيرة الشخصية ، واكتشف أو وقف عند الرمز الباقى الذى صنعه الشعب المصرى لمصطفى كامل .

وهكذا فعل «العالم» مع عبدالناصر. ولا يعنى الرمز الخاص به أكذوبة ملفقة لأنه يتحول إلى واقعة مؤثرة . كالتى نجدها اليوم عند كثير من الشباب .

الواقع والعقلانية

يفضل «العالم» وصف فكره بالواقعية العلمية ، وهو وصف محمود لأنه يعنى أنه يهيب دوما بالوقائع الموضوعية ، ويتعامل معها بالمنهج العلمى . غير أنه يدعو كثيرا إلى «العقلانية» كمثل أعلى للفكر والسلوك الإنسانيين .

وهنا أحسب أن نزعة مثالية فلسفية تتسلل إلى ماديته أو واقعيته عبر نواياه النبيلة ، فهو لا يقف من هذه «العقلانية» موقفا نقديا ، بل يصعدها من مستواها أو دلالتها الاجرائية إلى مستوى المثل الأعلى والمذهب المكتفى بذاته . فأما الدلالة الإجرائية المقبولة لاستخدام العقل هى رفض الوصاية على أمور المعرفة والممارسة من قبل سلطة أو قوة تفرض الإذعان والتسليم. وكذلك إنكار الوساطة المصطنعة للتفريق بين مجالات التواصل والتداول المختلفة حتى يتاح للإنسان القدرة على توجيه النقد إلى كل ما لا يخضع لفهم الإنسان والاقتناع به وتفسيره .

على حين تزعم الدلالة المثالية أن العقل ، طالما كان واحدا مشتركا بين البشر ، فإن استخدامه على أفضل وجه سيؤدى بالضرورة إلى نتائج لا يختلف عليها الناس جميعا ، ومن ثم تتحقق الموضوعية تلقائيا بانجاز الاتفاق بين الذين ثار الخلاف بينهم أول الأمر . وهذا هو ما يطالعنا صريحا معلنا لدى ديكارت وليبنس وكانط وهيجل وسائر العقلانيين على اختلاف مذاهبهم الميتافيزيقية .

وعلى هذا النحو ، لا يتيسر لنا تجنب مزالق خطيرة فى استخدام مصطلح «العقلانية» ، وذلك لأنها تفترض منذ البداية أن ثمة أفكارا أو مبادئ أو تصورات أساسية صحيحة هى الأصل والمصدر الذى ينبغى أن نستمد منه ما يضمره من نتائج لابد أن يسلم بها الجميع باعتبارها حقائق يقينية ، وإلا كانت أراؤنا ومواقفنا زائفة



خاطئة .

فإذن شرط صحة العقلانية هو صحة مبادئها ، وصحة مبادئها مردودة إلى عقلانيتها ، أى أنها صحيحة لأن العقل يمليها علينا ، ومن هنا نتبين ما يسمى بالدور المنطقى» فى الاستدلال الذى يتوقف بمقتضاه ثبوت النتيجة على ثبوت المقدمة ، وثبوت المقدمة على ثبوت النتيجة .

ويخشى أيضا ، إذا ما ألححنا على أهمية العقلانية ، أن يتولد الاعتقاد بأن ثمة مبادئ مفطورة فيما يسمى بالعقل ، وهى التى تستمد مشروعيتها بأنها ليست فى حاجة إلى التجربة أو الخبرة أو الممارسة فى التحقق من صحتها وصدقها ..

بيد أن الأمر لا يجرى فى الواقع على هذا النحو ، فالأشياء جميعا تحدث فى خضم أو سديم ، ثم يتناولها الإنسان ، المشروط بالزمان والمكان والمصلحة والقرارات الذهنية فيعيد تصنيفها وترتيبها وفقا لخانات وفئات وأولويات ليست أصلا فى الأشياء ، ولكنها تنتمى إلى عالم الإنسان المصنوع ، المتغير والنامى ، وعندما يتم للإنسان ذلك التنضيد الذى يجريه على منوال «كلية» أو «شمولية» أى «معقولية» معينة ، يكاد ينسى أصلها » فيعيد ترجمة العالم أو الواقع حسب لغة العقلانية الراهنة .

فالمعقولية هى جمع ما تشتت أو تفرق من معطيات أو وقائع أو حوادث ، فى نسق واحد يؤدى بتلك المتفرقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع إلى أن تتخذ مواقعها ومنازلها فى هذا النسق دون أن تترك متبقيات خارجة لكى يفى النسق بشرط الاستيعاب والكلية والشمول ، وهو ما ينتج كل أنواع التعميم .

فهذه الكلية وهذا الشمول ليس فى الواقع ، ولكنه أداة لكى تجعل من الواقع أمرا مفهوما ، فالفهم عملية لا تتم إلا إذا أدرجنا الأمر المراد فهمه فى تعميم أو كلية سابقة : أى سبق الاعتقاد فى صحتها .

وأنا أعرف أن «العالم» ينكر القول بإضفاء الكلية من عندنا دفاعاً عن الاعتقاد بأن ثمة موضوعات خارجية علينا أن نعرفها على ما هى عليه ، ولكن ألا يفترض ذلك أننى أعرف مسبقاً «ما هى عليه» فى الواقع لكى أقارن بين رأى وآخر ؟ بعبارة أخرى لكى أتحقق من صحة معرفتى ، أى مطابقتها للواقع على ما هو عليه ، لابد أن يفترض أننى أعرف ما هو عليه الواقع لكى أعود

الحوار المشاغب مع العالم ينبئ عن تقديرى البالغ لروحه الشعرية المرهفة التى يشغلها التزام عقلانى ينتسب إلى نزعة فلسفية عميقة

فاقرر أن معرفتي صحيحة . ما الجهة أو المصدر المفوض عن الواقع الذى يضمن لى ذلك ، فكأننى أدعى علم الله لأنه وحده الذى يعلم الواقع الذى خلقه .

وإذن فتلك «الواقعية العلمية» وتلك «العقلانية» غارقة فى أحد أطياف المثالية لأن الفرق بين «الكلية» التى أزعم أنها موجودة موضوعياً فى الخارج ، وبين «الكلية» (أو المعقولية كما أسلفنا بيانها) التى نرى أنها أداة وأسلوب لفهم الواقع يمكن أن نعدل عنها إذا ما وجدنا أنها لا تستوعب كل ما تخضعه للبحث والنظر ، نعدل عنها إلى غيرها ، وهكذا إلى يوم الدين ، الفرق بين الكلية الخارجية والكلية المفروضة مؤقتاً ، فرق فيما يؤلف النسق المعرفى من وحدات التحليل والعلاقات التى تضم النسق بعضه إلى البعض لكى يقيم كلا شاملاً يتيح القدرة على التفسير . والقول إذن بكلية موضوعية خارجية تكتشفها العقلانية هو عودة أو ردة إلى مقولة هيجل الشهيرة : «كل ما هو عقلى واقعى ، وكل ما هو واقعى عقلى» .

ومثل العقلانية مثل النزعات الفلسفية أو الآراء والنظريات بوجه عام، قد تقوم بوظيفة ثورية فى مرحلة ، ولكنها قد لا تكون كذلك فى مراحل أخرى . وعلينا أن نخرج من الدائرة الخانقة للمصطلح الواحد ، وأن نغترف من معين اللغة الدافق ما يحدد لنا بدقة ما نطلبه من المصطلح القديم الذى ابتذلته كثرة الاستخدام لأهداف متعارضة . فلقد بدت العقلانية مفتاحاً عمومياً لكل الغرف ، و«وصفة مجربة» بكل ما يحدق بنا من مشكلات . فالمنشود إذن هو تفكيك مصطلح العقلانية أو مطلبها ليغدو عملة قابلة للتداول ، وذلك بالتصريح بالأهداف الحقيقية التى تغرينا باستخدام ذلك المصطلح اليتيم . ينبغى إذن أن نصوب نحو مطالبنا مباشرة مثل : حرية البحث والحوار والنشر ، ورفض الوصاية مهما كانت سلطاتها ، والمواجهة الجسورة لمشكلاتنا الحقيقية، وإعلاء كرامة المواطن، وهذه الأخيرة أهمها جميعاً . ولم يعد من الناجع مواجهة مشكلاتنا ومتغيراتنا الجديدة بوصفات جاهزة ، قديمة .

ومهما يكن من أمر دفاع الأستاذ العالم المشبوب عن الناصرية والعقلانية، إلا أنه دفاع ، إذا ما حاكينا أسلوبه الجميل من تصعيد الواقعى إلى المثالى ؛ دفاع عن «أفلاطونية» أقامها على قدميها بدلا من وقوفها على رأسها ، فبدلاً من أن يكون الواقعى فى نظر أفلاطون تقليدا وتشويها للمثال ، صار المثال لدى أستاذنا محمود أمين العالم واقعاً حياً بيننا .

ومهما يكن من أمر ما قد يبدو من حوار مشاغب مع الأستاذ العالم الذى يشغف دوما بالمشاغبة حيث يردد قولته المأثورة : «شاغبوا تصحوا» ! ، مهما يكن من أمر ذلك ، فإنه ينبئ ، أو يكشف عن تقدير بالغ منى لروحه الشعرية المرهفة التى تصوب نحو الرمز والمثال ، ويعمرها التزام عقلانى ينتسب إلى نزعة فلسفية عميقة . ■

عشرة قروش اشتراك لجنة التأليف والنشر

بقلم
حسين أحمد أمين

« من لم يعرف غير بلده لم يعرف بلده، ومن لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته..»



أحمد أمين

كان عام ١٩١٤ عاما حاسما في حياة أبي.

كان وقتها في الثامنة والعشرين .. أحس من خلال صلته الوثيقة بناظر مدرسة القضاء الشرعي ، عاطف بركات ، (وهي المدرسة التي كان والدي يدرّس فيها مادة الأخلاق) ، ومن خلال علاقته بأصدقائه ، وبزملائه في هيئة التدريس ، وبفضل قراءاته في بعض الكتب الهامة لكبار المستشرقين مما كان مترجما إلى العربية ، بحاجته الشديدة إلى تعلم لغة أجنبية .. فهاهم أصدقاؤه يقولون له إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة، فإن تعلم لغة أخرى رأى الدنيا بعينين ، ويكررون أمامه المثل العربي القديم : «من لم يعرف غير بلده لم يعرف بلده، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه ، ومن لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته» .

وهاهم زملاؤه فى مدرسة القضاء يعتمد البعض منهم فى تحضير دروسه على مراجع فرنسية أو إنجليزية ، ويذهبون إلى أنها أكثر مسايرة للزمان من المراجع العربية . «فالكتاب المؤلف فى علم منذ عشر سنوات لا يصلح أن يكون مرجعا اليوم إلا بعد التعديل ، لا كالكتب الأزهرية التى يدعى أنها تصلح لكل زمان».

اهتدى إلى سيدة إنجليزية فى نحو الخامسة والخمسين تدعى مس بور ، لم تكتف بتدريس قواعد الانجليزية ومفرداتها له ، بل كانت تحادثه طويلا وتروى له ذكريات إقامتها فى فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ، وتدعوه مع بعض أصدقائها الانجليز من رجال ونساء إلى الشاى ، ليتحدث إليهم ويتحدثوا إليه ، ويتعود سمعه نطقهم ، ويقف على تقاليدهم، ويصغى إلى آرائهم ، وأحيانا ترسله إلى سيدة إنجليزية مسنة أقعدها المرض ، ليفرج عنها وحدتها وكربتها ، ويستمع هو إلى ثرثرة منها لا تنقطع ، فيفيد من مفرداتها ونطقها .

كتب فى سيرته الذاتية «حياتى» يقول: «أصبحت ذا عينين .. كنت أعيش فى الماضى فصرت أعيش فى الماضى والحاضر . وكنت آكل صنفا واحدا من مائدة واحدة فصرت آكل من أصناف متعددة على موائد مختلفة ، وكنت أرى الأشياء ذات لون واحد وطعم واحد، فلما وضعت بجانبها ألوان أخرى وطعوم أخرى تفتحت العين للمقارنة وتفتح العقل للنقد .. ولو لم أجتز هذه المرحلة ثم كنت أديبا لكنت أديبا يعنى بتزويق اللفظ لا بجودة المعنى ، ويعتمد على أدب الأقدمين دون أدب المحدثين، ويلتفت فى تفكيره إلى الأولين دون الآخرين . ولو كنت مؤلفا لكنت جماعا أجمع مفترقا ، أو أفرق مجتمعا ، من غير تمحيص ولا نقد . فأنا مدين فى إنتاجى لهذه المرحلة بعد المراحل الأولى، ولهذه الزهرة الجديدة التى ألفت باقة مع الأزهار القديمة » .

أصدقاء جدد

ثم كانت خطوة أخرى فى نفس الاتجاه ، وفى نفس العام ، حين تعرف إلى أصدقاء جدد من صنف غير الصنف الذى كان يعهده .. فقد تخرج عام ١٩١٤ من مدرسة المعلمين العليا بضعة من خيار الطلبة، عرفوا بالتفوق فى العلم والخلق ، وكان أكثرهم مرشحا للبعثة



أحمد زكى



محمد فريد أبو حديد



يوسف الجندى



صبرى أبو علم

إلى انجلترا ثم حال نشوب الحرب العالمية الأولى بينهم وبين السفر . كان من بينهم أحمد زكى ، وأحمد عبدالسلام الكرداني ، ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد كامل سليم ، ومحمد عبدالواحد خلاف، ومحمد كامل سليم ، ومحمد أحمد الغمراوى .. شاءت الظروف أن يتعرف بهم ، ثم صار صديقا حميما لهم ، فإذا هو يرى ثقافتهم من غير جنس ثقافته : ثقافته أزهرية شرعية في معظمها ، عصرية في قليلها ، وثقافتهم عصرية بحتة. هذا تخصص فى الأدب الإنجليزى، وهذا فى الكيمياء ، وهذا فى التاريخ العام، ورابع في الجغرافيا ، وخامس في الرياضة، وغيرهم فى الطبيعة ، وكلهم يعرف من العالم الجديد والمدنية الحديثة أضعاف ما يعرفه .

اختاروا للقاءاتهم قهوة في ميدان عابدين .. هذا يعرض على الآخرين فحوى مقال سياسى قرأه مؤخرا فى مجلة «نيشن» البريطانية .. وهذا يلخص لهم رواية لتشارلز ديكنز فرغ من قراءتها فى اليوم السابق . وهذا يتحدث عن الطابع الخاص للنوادر والفكاهة الانجليزية واختلافه عن طابع الفكاهة عند الفرنسيين أو المصريين . وهذا يثنى على قدرة المؤرخين الأوروبيين على التحليل الدقيق ، وإرجاع الجزئيات إلى كلياتها ، وحريتهم في تقويم الشخصيات التاريخية ، وفي الشك في بطولة وعظمة أناس أجمع الناس على بطولتهم وعظمتهم ، وينتقد كتابة التاريخ عند العرب ، ويبين كيف أنهم أحسنوا فى رواية الأحداث ولم يحسنوا فلسفتها ، إلا ما كان من ابن خلدون .. وهذا عالم كيميائى عظيم الولع بشعر المتنبى وأبى فراس الحمدانى ، يحفظه وينشده . أو عالم رياضى ثقافته الأدبية لاتقل عن الثقافة الأدبية لدى المختصين فيها، يقرأ فى «الأغانى» و«العقد الفريد» كما يقرأ أبى فيهما ويتذوقهما وينقدهما ..

كل هؤلاء كانوا مدرسة لأبى . مدرسة خلت من عبوس الجد ، وثقل المدرس ، وسماجة تحديد الموضوع والزمان ، وصداع الامتحان . مدرسة فيها الجد والفكاهة ، والعلم والأدب ، والدين والشعر، والتقريظ والنقد الحر ، وحرية القول وحرية السماع وحرية الموضوع . مدرسة كل من فيها أستاذ تلميذ ، يفيد غيره بعلمه الذى تخصص فيه ، ويستفيد من العلوم الأخرى التى تخصص فيها غيره .

ثم كان أن نبههم أحدهم إلى ضرورة العناية بتقويم البدن والترويح عن النفس عنايتهم بتقويم العقل . فإذا بهم عن بكرة أبيهم يشتركون فى أحد النوادى الرياضية بالجزيرة ، (كان والدى أول معمم يشترك في مثل هذه النوادى ، له في النادى خزانة يودعها العمامة والجبة والقفطان ، ويأخذ منها الفانيلا والشورت والحذاء الكاوتش ، ثم يمضى ليلعب كرة القدم مع رفاقه!.

وفى أيام الجمعة يخرجون معا فى رحلات إلى جبل المقطم ، أو الغابة المتحجرة ، أو وادى دجلة ، أو وادى حوف قرب حلوان ، أو العين الساخنة . كما كانوا أحيانا يقصدون صالة منيرة المهدية لمشاهدة تمثيلياتها وسماع غنائها ، «فكان بعض أغنياتها يرن فى أذنى طوال الأسبوع» .

وانضم إلى تلك الجماعة بعد حين ثلاثة من توابغ خريجى مدرسة الحقوق من ذوى الثقافة القانونية والسياسية ، هم صبرى أبو علم ، ويوسف الجندى ، وحسن مختار رسمى ، فأحدث انضمامهم تأثيرا عميقا فى اتجاهاتها . فهم الآن يناقشون أسباب

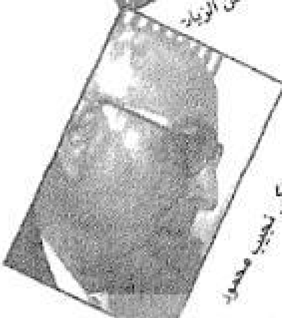
تخلف مصر وضعفها فى كافة الميادين ، ويقترحون سبل التصدى لهذه الأسباب ، ثم لا يكتفون ببيان الأدواء واقتراح الدواء ، أو بالنقاش والجدل وإبداء الآراء . بل يأخذون على عاتقهم مهمة الإسهام إسهاما إيجابيا فى البناء ، إسهاما يتفق مع مؤهلاتهم وإمكاناتهم .



أحمد حسن الزيات

لجنة التأليف والترجمة والنشر

قرروا أن ينشئوا لجنة باسم «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ، سن قانونها أحد الأعضاء القانونيين ، وقرأه على الأعضاء مجتمعين فعدلوه ونقحوه . والتزم كل عضو أن يدفع عشرة قروش فى كل شهر ، وانتخبوا أعضاء مجلس الإدارة يجتمعون فى بيت عضو من أعضائها بصفة دورية . وبدأ بعض الأعضاء العلميين يؤلفون كتبا فى الكيمياء لطلبة المدارس الثانوية ، يحضر كل منهم فصلا ويقرؤه على الآخرين فينقحونه ويهذبونه ، فإذا فرغوا قدموا الكتاب للطبع ، فإن لم يكف ما جمع من عشرات القروش أقرض اللجنة بعض الأغنياء من الأعضاء ليتم طبع الكتاب .



زكي نجيب محمود

كان هذا أول حجر فى بناء اللجنة عام ١٩١٤ . وكان والدى أول رئيس ينتخب لها ، وظل رئيسا لها أربعين عاما يعاد انتخابه كل عام حتى وفاته عام ١٩٥٤ . وقد زاد عدد أعضائها بمرور السنين إلى أكثر من ثمانين عضوا من صفوة الأدباء والكتاب والعلماء ورجال التربية والقانونيين والسياسيين البارزين ، وتمت رابطة الألفة بين الأعضاء حتى شبهها الناس بالماسونية .. كل عضو يسهم من أجل شد أزرها بما يقدر عليه من مال وجهد . فإن تقدم أحدهم إليها بكتاب من تأليفه أو ترجمته حولت اللجنة الكتاب إلى خبيرين اثنين بالموضوع يبديان فيه رأيا بالصلاحية أو عدم الصلاحية أو الحاجة إلى التعديل



كريم ثابت

ثم كان أن احتاجت اللجنة إلى أن يكون لها مطبعة خاصة بها . غير أن المطبعة فى حاجة إلى مقر غير بيت العضو الذى كان أعضاء اللجنة يجتمعون فيه . فاستأجرت اللجنة مبنى متواضعا هو رقم ٩ من شارع الكرداسي بحى عابدين ، تشغل المطبعة والمخازن منه الطابق الأرضى ، ويخصص الطابق العلوى لموظفى



أحمد لطفي السيد

اللجنة، ولمكتبتها، وصالة لاجتماعات الأعضاء. ثم نمت ميزانية اللجنة من قروش الاشتراكات ومن أرباح الكتب التى تنشرها حتى بلغت أكثر من ستين ألفا من الجنيهات، فقرر الأعضاء الانتقال من حىِّ عابدين الشعبى إلى حى جاردن سيتى، واشتروا مقرا فاخرا للجنة فيه بنحو عشرين ألف جنيه ، وإذ لاحظت الحكومة نجاح اللجنة فى عملها خصصت لها منحة قدرها تسعمائة جنيه كل سنة، أفردت اللجنة لها دفاتر خاصة، وطبعت منها كتبا تأتيها من الخارج كانت تبيعها بسعر التكلفة، ثم تحاسبها الوزارة على هذا البند وحده.

كذلك أسست اللجنة مجلة «الثقافة» الأسبوعية عام ١٩٣٩، وكان والدى صاحب امتيازها والمسئول فى واقع الحال عن تحريرها. وقد استكتبت المجلة كبار المفكرين والأدباء فى العالم العربى كله، فكانت طوال الأعوام الأربعة عشر التالية - إلى جانب «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات، ومجلة «الهلال»، ومجلتى «الآداب» و«الأديب» البيروتيتين - إحدى المنارات القليلة للفكر العربى الحرِّ المستنير. ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ فتقرَّر إغلاقها، واحتجبت عن الصدور عام ١٩٥٣.

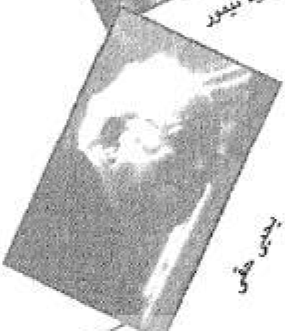
لم تكن المجلة - رغم ذيوع صيتها، وإقبال المثقفين على قراءتها - تحقِّق أرباحا ذات شأن، وكانت تعتمد اعتمادا كبيرا من أجل تغطية نفقات طباعتها وإصدارها ومكافآت كُتَّابها على ما تدفعه لها وزارة المعارف من قيمة الاشتراك فيها لجميع المدارس الثانوية بالقطر المصرى كله. وأذكر بهذه المناسبة أنه حين وُلد للملك فاروق عام ١٩٥٢ ابنه أحمد فؤاد، طلعت كل الصحف والمجلات المصرية تهلِّل كالعادة وتبارك، وتتظاهر بالفرح وتنافق، عدا مجلة «الثقافة» فكان أن اتَّصل المستشار الصحفى للملك - وهو كريم ثابت باشا - بوالدى تليفونيا، يخبره أن جلالة الملك غاضب حانق (وكأنما الملك يقرأ «الثقافة»!)، وهدَّده بأنه ما لم تنشر المجلة تهنئة لجلالته فى العدد التالى، فسيصدر الأمر إلى وزارة المعارف بوقف اشتراكات المدارس فيها، وهو ماكان سيؤدى فى واقع الأمر إلى إفلاسها.. فاجتمع أبى برئيس التحرير، زكى نجيب محمود، وأطلعه على حقيقة الموقف، وأخبره أنه شخصيا عاجز عن أن يخط بقلمه تهنئة للملك، أو أن يعبِّر عن «فرح» لا يشعر به، وعن «أهمية» حدث لايراه هاما.. ثم ترك الأمر برمَّته لزكى نجيب محمود ليرى فيه رأيه، فإن شاء تجنُّب إفلاس «الثقافة» كتب الدكتور زكى تهنئة قصيرة، وإن رأى أن ضرر النفاق يفوق ضرر إغلاق المجلة لم يكتب.. وكان أن طلع العدد التالى يحمل فى صدارته مقالا بالغ القصر بعنوان «مولد أمير» بقلم زكى نجيب محمود، اتَّسم بالفتور الجلىِّ فى عبارات التهنئة فيه، وبدا واضحا أن هذا المقال المتأخِّر قد خرج «من تحت ضرس» كاتبه ورغما عن إرادته!

اجتماعات الخميس

كان والدى طوال الأعوام الأربعين التى رأس اللجنة خلالها، عمادَ اللجنة وروحها ومحركَّها الأول: يذهب إليها كل يوم يدير شؤونها، ويطَّلع على مشاكلها، ويقرأ بريدها، ويؤشر بما يلزم على ما يعرض عليه من أوراق.. أما عنَّا نحن، أولاده، فلاتزال اللجنة، بعد عشرات السنين من اندثارها، تشكل جانبا ضخما من تكويننا وذاكرتنا . لقد تفتَّحت أعيننا أول ما تفتحت على نسخ التصحيح من كتب والدى تصل إلى منزلنا

لتراجع، وسُعاة ينتظرون بالباب ليعودوا بها، ومطبعة اللجنة نمرّ عليها كل خميس حين كان والدى يصطحبنا إلى اجتماعاته بزملائه من الكُتّاب، فنراقب العمال يرصّون الحروف، ويديرون الآلات، ويبعثون الطرب فينا إذ يطبعون أسماءنا على بطاقات.. وكان لمنظر الورقة الكبيرة ناصعة البياض تمرّ بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج في مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره الغريب في نفوسنا، نرقبه مأخوذين مفتونين.. فعرفنا وقتها الملزمة وعدد صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطيّها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمته، وأوجه استخدام القصاصات المتخلّفة منه. فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا أن نجرّب أيدينا في رصّ الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة.


محمود تيمور


يحيى حقى

غير أن أهم ما كان يعنينا من أيام الخميس تلك هو الالتقاء بقادة الفكر والرأى والأدب في مصر في اجتماعهم الأسبوعي. رجال من مختلف الأحزاب والمذاهب، والاتجاهات والتخصصات والمشارب، نستمع إليهم يتناقشون في هدوء وتحضر. فهنا أحمد لطفى السيد، وعبدالعزيز فهمي، وطه حسين، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الوهاب خلاف، وفريد أبو حديد، وصبري أبو علم، وزكي نجيب محمود، ويحيى حقى، وإسماعيل القبّاني، وأحمد زكي، وكامل الكيلاني، وإبراهيم مدكور، ومفيد الشوباشي، وفتحي رضوان، وعبد الرزاق السنهوري، وسليمان عزمي، والعشرات غيرهم، يكرّرون ما كان يفعله الأوائل في قهوة ميدان عابدين، على مستوى أكثر نضجا وإحاطة بالأمور، ومع اهتمام أعمق بمشكلات مصر، وبقضاياها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية.. غير أن ثورة يوليو جاءت إلى الحكم بضباط يرون مثل تلك المناقشات «بيزنطية»، ويصفون أصحابها ساخرين بأنهم «بيتفلسفوا»، ويشيعون في مصر مناخا لا يمكن لمثل تلك الجذوة فيه إلا أن تنطفىء، ولأفراد مثل تلك النّخبة إلا أن يتبعثروا، وأن يهيّئوا أنفسهم للرّحيل، وأن يفسحوا الطريق لجيل «كامْتّنا» وشعبان عبد الرحيم. ■


فتحى رضوان


عبد الرزاق السنهوري

الكتابة الأنثوية

بقلم
عبد الرحمن أبو عوف

الراصد والمحلل للحياة الأدبية والثقافية المصرية عبر العقدين الأخيرين من الألفية الثانية يلاحظ نهوض وثراء متعدد الرؤى والدلالة والأشكال والأساليب للكتابات الأنثوية فى أشكال القصة القصيرة والرواية بالذات وأيضا الشعر.

هذا النهوض المتميز والجدير بالدراسة والتقييم للكتابات الأنثوية ثمرة عوامل وإعتيادات متداخلة تتعلق بالتحولات السياسية والسيسيولوجية والاقتصادية والثقافية والأهم حساسية الكتابة وتقنيات الابداع شهدتها المرحلة التاريخية من أعوام التسعينات وحتى الوقت الحاضر على مستوى الأفق المصرى والعربي والعالمى.

وسوف يتوقف بحثنا عند دراسة مقارنة للقصة القصيرة المصرية عند كل من كاتبات السبعينات وكاتبات التسعينات.

ولا يزعم هذا البحث أنه يشتمل على دراسة كل الكاتبات من كلا الجيلين بل اختار وبمنهجية موضوعية ودراسة شاملة بعضا من (الرموز) المجتهدة والموهوبة منهن والأكثر قدرة وتعبيرا جماليا عن جدل العملية الاجتماعية وروح المرحلة التاريخية وسماتها السياسية والسيسيولوجية والاقتراب من إدراك تغيرات الواقع المصرى والمشهد العالمى.

فى ضوء هذا الاعتبار اخترت من (جيل كاتبات السبعينات) كلا من

(١) إبتهال سالم
(٢) سلوى بكر
(٣) نعمات البحيرى
(٤) اعتدال عثمان
(٥) حورية البدرى من الاسكندرية.

ومن جيل التسعينات كل من

١ - أمينة زيدان
٢ - نورا أمين
٣ - منار فتح الباب.
٤ - حنان سعيد من الإسكندرية.

ولكن وقبل أن نخوض فى التحليل النقدى لأعمال كاتبات السبعينات والتسعينات نعود للخلفية النظرية والفكرية والجمالية لعوامل صعود ونهوض الكتابات الأنثوية ككل فى أشكال القصة والرواية والشعر.

الخلفية النظرية لصعود ونهوض الكتابات الأنثوية

لا يمكن فهم حيوية نهوض الكتابات الأنثوية إلا فى ضوء التحولات الشاملة التى نعيشها منذ عقدين من الألفية الثانية وحتى الآن والتى تتسم بالقلق السياسى والاجتماعى والثقافى والعشوائية والقلقلة فى مفاهيم القيم الثقافية والفكرية والأدبية والأخلاقية كحصاد وثمرة لجدل تغيرات وتحولات الواقع المصرى والعربى والعالمى.

فبلادنا الآن تعيش مخاضا اجتماعيا صعبا ومعقدا حيث تتحول ببطء وحذر سلطوى من النظام الشمولى لثورة يوليو ١٩٥٢ بكل ايجابياته وسلبياته وانتصاراته وإنتكاساته إلى التعددية الحزبية وهامش من حرية التعبير وحق الاختلاف واحترام المعارضة والرأى الآخر وسيادة القانون مع (التحفظ على بقاء قانون الطوارىء) واستكمال العقد الاجتماعى المدنى الجديد الذى يحترم الحرية الفردية فى الاقتصاد المفتوح وكل البنى الحقوقية والسياسية والثقافية ولكن فى إطار وسياق الوحدة الوطنية والممارسة السياسية الشرعية العلنية.

وهى بذلك تستجيب وتحاول أن تتكيف مع التأثيرات اللاهثة الإيقاع فى العالم العربى والأوروبى وحتى الآسيوى من تأثيرات الثورة التكنولوجية وعلوم الاتصال والمعلومات والكومبيوتر والإنترنت



ابتهال سالم



سلوى بكر

والفضائية والقرنية الكونية وبلبلة وخلط مفاهيم العولمة وهيمنة القطب الأوحد ونمط الحياة والثقافة الأمريكى والمركزية الأوروبية بجانب أزمات النظم الشمولية الماركسية الإستالينية والفاشية والبحث المضنى عن طريق ثالث بين الليبرالية والاشتراكية وثورات ما بعد الحداثة وتحطيم النظريات الفلسفية والفكرية والجمالية ذات النسق والمنظومة الكاملة المغلقة وحيدة الجانب وسيادة النسبية وتشظى كلية ما كان يسمى نظرية معرفة أو (استوملجى).

فى ضوء كل هذه العوامل يمكن القول نسبيا أن نوعا من حساسية وخصوصية الكتابة الأنثوية بدأت تتشكل وتتكون سماته وملامحه ومفرداته ومضامينه وجمالياته تنهض به المرأة المصرية المعاصرة فى كبرياء وتمرد لتواجه به كل ندوب الوهن والتآكل والتدنى والتخلف وأدران بقايا المجتمع الذكورى الشرقى البطريركى حيث تراتب القمع المراوغ مازال يمارسه الرجل الشرقى ويستلب حريات وإنسانية واستقلالية المرأة خاصة فى مواجهة المد الأصولى الإسلامى المتطرف والدعوة للحجاب والنقاب وعودة المرأة إلى البيت.

فمازلنا للأسف ونحن في مطلع القرن الحادي والعشرين وفي مجتمعنا الشرقي رغم اختلاف ألوان الطيف والتطور السياسي وتحديث المجتمعات والنظم العربية نعاني من وجود بقايا رواسب قديمة مريضة للمجتمع الذكوري (الرجالي) ومشكلة ازدواجية أخلاقيات وتربية الرجل الشرقي في نظرته المتشيئة للمرأة كجسد ومتعة حسية حيوانية في الفراش بقايا نظرة مجتمع الجواري والحريم.

عن كاتبات السبعينات في القصة القصيرة المصرية

ولد وتكون وعي جيل كاتبات السبعينات في عتامة أزمة النظام الناصري الشمولي وتداعيات هزيمة ٦٧ والرحيل المبكر لعبد الناصر بعد ان حاول أن يعيد ترتيب واستعادة القدرة العسكرية للجيش وخاض حرب الاستنزاف وتولى السادات السلطة فقد عينه عبدالناصر لأسباب غامضة حتى الآن نائبا له وبدأت التراجعات وأعوام الضباب واللاحرب واللاسلم وانفجرت الانتفاضات الطلابية والعمالية وتحت ضغطها إتخذ السادات القرار التاريخي بالعبور المجيد في حرب ٦ أكتوبر وما أعقبها من مفاوضات وتغيرات في السياسة الخارجية والداخلية أدت لصراعات معقدة بين قوى سياسية متنازعة تراوحت بين اليمين والأصوليين الإسلاميين والقوى اليسارية الماركسية والناصرية والقومية، وازعج الأجيال التي عاش أباؤها على الحلم القومي الناصري وانتصارات ثورة ١٩٥٢ في صعودها ازعجهم وصدمهم ما حدث من تقارب بل الارتماء في احضان امريكا حيث تعبير السادات المستفز (٩٩٪ من اوراق اللعبة في ايدي الولايات المتحدة الأمريكية) وتم الصلح مع إسرائيل واسترداد سيناء منزوعة السلاح وعشنا لنرى العلم الإسرائيلي يدنس ويرتفع على السفارة الإسرائيلية في القاهرة ومصر المحروسة.. وبدأ التحول الاقتصادي من المركزية والاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق والانفتاح الاستهلاكي أو (السداح مداح) على حد تعبير احمد بهاء الدين وظهور طبقة شرسة من الرأسمالية الطفيلية والسماسرة والكومبادادور كل هذا أحدث تدنيا في مجالات وقيم الأبعاد الاجتماعية والثقافية ومفاهيم القيم وما يهمنا هو الانعكاس والتعاكس الجدلي بين تغيرات الواقع والتجربة القصصية عند كاتبات السبعينات.

سنجد عند كل من ابتهال سالم وسلوى بكر وحورية البدري نوعا من التقارب في المنظور والموقف الاجتماعي وشيء من تجربة الانتماء السياسي باختلاف ونسب تعود للتكوين والتجربة والموهبة ودرجات الصدق أو الادعاء ومدى إتقان تقنيات وحرفيات البنى الجمالية والأسلوبية التعبيرية واقتراب من استيعاب منجزات التعبير الحديثة والمعاصرة كالسينما والدراما والفنون البصرية والتشكيلية وتأثيرها على الأسلوب والصياغة اللغوية وحساسية الكتابة الأخرى المتجاوزة للأسلوب التقليدي والواقعية النقدية او التسجيلية.

عن ابتهال سالم وانكسار الحلم

في كل من مجموعات (النورس) و(مدينة صغيرة) و(تحت القمر) إبداع

قصصى يمتلك صوته الخاص ويعطينا اليقين أن ابتهال سالم قد أدركت بتلقائية ووعى مرهف أن كاتب القصة القصيرة لايبنى عالما بل يشق طريقا لا يرفع هرما، بل يصنع مسلة لا ينقلنا إلى صوره بمئات التفاصيل التى تحيط بالمشكلة بل يقنعنا بالمشكلة نفسها ولهذا كانت القصة القصيرة شبيهة بالشعر، فهى ليست صنعة تفكير ولا صنعة هندسة بل، ولا صنعة خيال بقدر ما هى صنعة حساسية .

إن قدرا عديدا من قصص - إبتهال سالم - يلتقط من العالم المحيط به - عن طريق العطف والفهم - نظرة خاصة إلى الأشياء - إدراكا بديهيا لما هو قيم وما هو تافه، وهذا الإدراك هو لب فنها هو الخلاصة الشعرية التى تكمن خلف كل قصصها.. ويبدو أنها ادركت لعمق شجاعتها كامرأة مثقفة وكاتبة مقهورة انه من غير هذا الإداراك الذكى العطوف لن تكتب قصة لها وزن، ولن يوجد أسلوب له أصالة.

ووحدة المكان كفعل قصصى عند ابتهال سالم هو مدينة بورسعيد التى انهكها وسلب بكارتها وأفزع النوارس على شاطئها الانفتاح الاستهلاكى الاقتصادى والمدينة الحرة وعبر النمط الاستهلاكي وأيضا مدينة القاهرة الوثنية وحوارى وأزقة أحيائها الشعبية المختنقة.

فى قضية (النورس) تصرخ الراوية فى وجه رئيسها فى العمل الذى يمارس سادية قهرها تعرف إيه عن الحرب، الحرب عند اللى زيك انتهت . لكن عندنا لسه) وتهرع باكية شاكية لزميلها يوسف - المهاجر أبدا فى البحر وهو يتكرر ظهوره دائما فى كل القصص .. وعبر



اعتدال عثمان



نعمات البحيري

حوار بجوار البحر الذى تتناقص النوارس على شطئانه يدور حوار عن إغتيال الأحلام وضياع الأمل فى طريق مصر السياسى وسط انهيارات الثورة المضادة للسادات .

وفى قصة (الصدى والحب) تقول الراوية (فيتغير العالم فوق جسدى وأنا ملقاة.. كهيكل عظمى على سريرى، إنها إنسانة تعيش فى حجرة / زنزانة والراديو صامت والتليفزيون يفتح عن حرب الخليج وصواريخ بيروت وإعلان عن بيرون الذى يغسل اكثر بياضا.. ودائما تهب رائحة العبيثين وتتلاشى ظلال الأشياء فى عقم الواقع وجهامته وسطوته الخانقة. إن قصص - إبتهال سالم - تكشف عن تداعيات القهر والسقوط غير أنها وعبر لغة الفن - تستعيد الواقع لكى يصبح أكثر إشراقا وبهجة واهم من ذلك انها تقدم الكتابة الأنثوية التى ترفض الثرثرة عن الحب والجنس والطلاق والوجاهة الاجتماعية وتنحو نحو التمرد.

عن سلوى بكر

إن الإبداع القصصى المميز والجاد لسلوى بكر يشكل لحد ما بصيرة جدلية واعية وشجاعة بقضايا وهموم وأزمات حياتنا وتكشف عن قدرات متعددة

تعبيرية وتمرس على البناء الجمالي وإتقان صياغة وتفجير اللحظة القصصية الدالة والكاشفة عن غنى وزخم وسيولة وجدل العملية الاجتماعية في مجتمعنا الذي عاش وعاني انهيارات وقلقلة في الأبنية الاجتماعية والسياسية والاخلاقية أحدثتها الثورة المضادة والتراجع والمهادنة والتبعية.

إن مجموعات (زينات في جنازة الرئيس) ١٩٦٨ (ومقام عطية) ٨٨ وعن (الروح التي سرقت تدريجيا) ٨٩ ، كل قصص هذه المجموعات تؤكد التصاقها بالواقع الإنساني المصري وتصويرها الصادق الأمين العنيد للحياة بالفعل لا بطريقة جامدة او ساخرة ولكن بمحاولة نضالية لإظهار الواقع في مرآتها كخطوة أولى لتخليصه واسترداده من جديد لقوة الحقيقة.

في مجموعة (عجين الفلاحة) لسلوى بكر نجد في قصة (النوم على الجانب الأريح) لقطة عن التناقض الطبقي في المدينة حيث تعطي سيدة البيت الي الخادمة التي رزقت بمولود كتاب عن تربية الأطفال وعندما تحاول الخادمة أن تلتزم بما فيه من تعليمات تكتشف عالما آخر يعيش فيه أطفال آخرون وأمهات آخر يتمتعون بإمكانيات وسعة في العيش والتغذية والنظافة وتقارن بين تكاليف هذه التعليمات ودخلها المحدود.

وفي قصة (شال الحمام) يسطو اللصوص على أتوبيس ركاب خط ابو السعود وعندما يقبض على اللصوص يكتشف المبلغ المسروق حوالي ثمانية وستين جنيها يرمز لتدهور الدخل القومي لحوالي ثلاثين راكبا.

إن الواضح ان وراء الواقع وأبعاده في قصص سلوى بكر تنبعث في بعض الأحيان حمى من السرد، حمى تنتزعه من التفاهة في بعض الأحيان وتعطيه نفحة ليست نفحة النقل الماهر. وهنا تكتسب قصة غنائية تتنفس كالجسد وتدور حول نفسها لتعرى ندوب الواقع وينكشف وتكشف عن انسانية وجوهر الانسان المغمور في مدينة وثنية تعيش وتتنفس وحل وكآبة التدني والتفكك والانهيار والفساد.

عن حورية البدري وترنيمات الكناريا وأصوات الجوارى.

في مجموعة حورية البدرى وهي قصاصة من الاسكندرية (ترنيمات الكناريا وأصوات الجوارى) تصرخ بطلتها الأساسية في مجموعة قصص ينتظمها خط واحد رغم تقديم أحداثها وشخصياتها في لقطات منفصلة مركزة مكثفة، تصرخ البطلة (جهاد) وهي شاعرة نقية تزوجت احد نماذج المرحلة المتدنية (جاد البحيرى) الذي يلوث حياتها بغرامياته وخياناته وسلوكياته المنحرفة في العمل ورشوة (محاسن الدجوى) موظفة لجنة التسويات بالجمرك والمرتشية المحترفة عندما تسمع (جهاد) صوت (محاسن الدجوى) ساقطة الجمرك المرتشية صوتها المشروخ يبدأ بالطلبات والتوجيهات وعرض التسهيلات التي سوف تقدمها لجاد البحيرى.

اتفقنا يا باشا؟

فيرد جاد مزهوا باللقب:

- اتفقنا.

تردد جهاد لنفسها (هل هذه هي

الباشاوية؟ الحمد لله انى ابنتك ياعبدالناصر ، لقد كان عصرا مدانا ورديئا ومازال يلوث بيتى حتى الآن.. هل ترى هذا الباشا يا عبد الناصر لا عجب إنه لايحبك.. يتحامل عليك ويتهمك بكل ما يستطيع من الدنايا» .

تبتسم يا عبد الناصر فى عينى (جهاد) فتتحامل وتقف ويتردد صوتك فى بيتها بنبرات الكرامة والكبرياء فتطهو الطعام الطيب وتطلب الطلاق فى كل يوم وترفض التطبيع مع إسرائيل وتفرح لرفع العلم الفلسطينى على جزء من الأرض المحتلة وتصلى الصلوات الخمس وتدعو لبيتها ولكل شبر على أرض مصر الطيبة بالخلاص من دنس التطبيع.. يبتسم للبسمة الصادقة على وجه عبدالناصر الشامخ فى إباء وتردد هامسة : لا يا يامى ليس كل الرجال كذلك ليس كل الرجال.

ويؤخذ على السرد القصصى عند حورية البدرى المباشرة وعلو النبرة ووضوح الدلالة دون لجوء إلى الرمز والاستعارة والشاعرية كذلك رغم ان قصصها تدور فى مدينة حضارية لها خصوصيتها وطبيعتها الساحرية وانفتاحها على البحر والعالم وتعدد الأجناس رغم كل ذلك لم تضمن آليات السرد والبناء المكان كعنصر فنى وفكرى فى عملية السرد القصصى.

عن نعمات البحيرى (وضلع أعوج) ونساء وحيدات

إن الموضوع القصصى الأثير والأساسى عند نعمات البحيرى فى قصصها وخاصة مجموعة (ضلع أعوج) موضوع موحى بعديد الدلالات والرؤى والرموز والمجاز والشاعرية وتكتبه بحساسية أنثوية، هذا الموضوع هو عالم النساء الوحيدات ، الأرامل والمطلقات والعوانس، اشجار الصبار المتعطشة للرى والندى ويقين الاستقرار فى صخب وملهاة ومأساة الحياة الهادرة الوثنية، ونعمات البحيرى تدرك بموهبة غريزية تلقائية ان فن القصة القصيرة هو فن الوحدة والإحساس بالغربة والضياع والصراع الباطنى والتركيز على اللحظات العابرة التى قد تبدو عادية لا قيمة لها ولكنها تحوى من المعانى قدرا كبيرا.

فى قصة (سرقات نهارية) تتعرف على حياة وعالم المرأة الوحيدة النموذجية لدى الكاتبة عبر جولة لص فى شقتها لتتعرف على هويتها السياسية والثقافية عبر كتبها وصورها التذكارية ومكونات الأثاث والقضية تعلوها صورة عبدالناصر .

وفى قصة (صدفة) يتواطأ الجهل وقمع المفهوم الغيبى على قمع النساء فى القرية متجسدا فى شخصية (الشيخة صدفة) التى تتصدر المأتم (تبث الوصايا والعظات، وتروى سيرة الأنبياء والأولياء مشفوعة بالمصمصات للشفاه مثل نقيق الضفادع وإذا ما غضب رجل على امرأته ساقها أمامه حتى بيت (الشيخة صدفة) وعيال الكفر يزفونها (من ده بكره بقرشين).

ورغم ذلك التميز فى إختيار موضوع موحد مما اعطى المجموعة وحدة عضوية ووحدة انطباع فى الموضوع وتقنيات السرد الحداثى المركز والشاعرى الا ان

نعمات البحيرى في عرض همها وموضوعها لازمة المرأة الوحيدة وقمع الرجل لها في مجتمعنا ثمة تقصير في إدراك شمولية القمع عندها.

ذلك ان قمع المألوف والعرف والدين والتراث والسلطة هو المسئول في الاساس عن وجود ازمة يعانيها كل من الرجل والمرأة في مجتمعنا ولن تتحقق حرية واستقلالية المرأة الا في سقوط وانتهاء هذا القمع على الاثنين معا بحيث يتجرد الرجل والمرأة معا وهنا تتخفف النساء الوحيدات من وحدتهن.

من اعتدال عثمان ومحاولة في التجريب في وشم الشمس

قص اعتدال عثمان تتميز بالمزج الماهر والمصطنع بين الأسطورة والفانتازيا والتناصي والغنائية الشعرية وموسيقى اللغة في تشكيل مادة ونسيج ومكونات النص القصصي.

إن مجموعة (وشم الشمس) تتكون من ثلاثة اقسام تهاوين المحار، طرح البحر، مرج البحرين.

والقسم الأول والثاني يشتملان على نصوص تجريبية تعتمد على منجزات الأسطورة الشيئية والفانتازيا والتنامى، إنها قصص تعتمد لغة الشعر والعودة بها أحيانا للغة السحر.

وأوضح نموذج لذلك القسم الثاني في نص (مرايا الرمال) تدرس الكاتبة بقدر من الملحية. ازمة الطبقة المتوسطة في نموذج اسرة (الأب) ضابط عانى هزيمة ٦٧ وهاجر للعمل في دول الخليج والأم وهى الراوية تعانى الفراغ وامراض الانفتاح حيث الاستهلاك والتجمل الزائف والإبنة الكبرى التى عادت مشوهة مجروحة الكبرياء بعد زواج عقيم في دول النفط، فاتجهت إلى اقيون الجمعيات الإسلامية اما الأبنة الوسطى فهى النموذج الصحي في هذا العفن الانفتاحي تتجه للدراسات العليا والحب النقى في حين يغرق الابن في المخدرات وهلوسة الحبوب المخدرة والضياع ورمز الضياع في المجتمع.

جيل التسعينات ورفض الانتماء

على عكس الخطاب القصصي لجيل التسعينات من اهتمام وتركيز على قضية الانتماء وبروز الموقف السياسي والاجتماعي والوعي بالقضية الاجتماعية والايديولوجية بمعنى اكثر تحديدا علاقة النص القصصي بالسياق السياسي والاجتماعي والتاريخي، على عكس كل ذلك نجد أن الخطاب القصصي لغالبية كاتبات التسعينات مع استثناءات قليلة وبعد ما حدث من تحولات سياسية واقتصادية وثقافية في قلب جدلية المجتمع المصري كجزء من اللوحة العالمية من تغيرات.

نجد خطابهن القصصي يتجنب قضية الانتماء ويبدو لامباليا بالصراع السياسي والاجتماعي ، ليس له موقف يرفض المؤسسة واليسار الاصولى واليمني الاصولى الاسلامى المتطرف وابداعهن ليس ملتحما بالسياق السياسي والاجتماعي والتاريخ يضعهن في غالب تجاربهن ابداع منكفىء على ذاته وهمومه وإشكالياته الخاصة، الوجودية ، ويتضخم الأنا الأنطولوجي على حساب العلاقة مع الآخر والتى تبدو

جحيما وقيدا لذلك يبرز فى آليات السرد المونولوج على حساب الديالوج والاستبطان للنفس والتنفيس عن الذات والعالم الداخلى.

إن إبداع كاتبات التسعينات يعكس ويتعاكس مع الواقع ويحاول أن يعبر عن ظهور جيل من المرأة المثقفة المتحررة التى تحطم تابو وقيود واخلاقيات وقيم الطبقة المتوسطة المأزومة المنفصمة الشخصية بين رواسب التقاليد والمعاصرة غير ان تجربة هذا الجيل فى الحب والتواصل.. والصداقة مع الرجل محبطة تقترب من الضياع والبوار.. لبنات غير مستقرات فى مجتمع مفتوح متضخم الثروات والفقر فى نفس الوقت يشهد شكل خيولى من الاستقطاب الطبقى حيث هيمنة رأسمالية طفيلية (نهب وتهرب) وخصخصة غير محكومة الضوابط وعدم استقرار بالاخذ بنظام آليات السوق مع بقايا الهيمنة للدولة على الاعلام والعمل السياسى. وانبهار بكل ما يصدره الغرب والسيد الجديد للعالم الهيمنة الامريكية والعولمة على الاقتصاد والثقافة ونمط الحياة ومحاصرة للهوى توالشخصية القومية.

كل هذا يشكل المناخ الذى اثمر تجربة فى القصة القصيرة المصرية تكتبها المرأة الجديدة.

ومحور الكتابة الأنثوية لجيل التسعينات فى القصة القصيرة هو الحضور الساطع للأنثى بخصوصيتها ولغتها ، وحساسيتها لغة الجسد ورهافة المشاعر والعواطف والغرائز التى هى نبع الحياة والخصوبة والتجدد والاستمرارية الخلاقة ولعل أخطر وأهم



نور أمين



منار فتح الباب

ما اضافة بعض رموز جيل كاتبات التسعينات فى القصة القصيرة يتعلق بالأسلوبية التعبرية حيث تتم هنا محاولة تأسيس نوع من الكتابة الأنثوية تنحى المتفق عليه والسائد والروح والجسد ليكون النسق والبناء الجمالى خارج النسق البطريركى الذى ظل مسيطرا على عمليات الإبداع القصصى للمرأة المصرية العربية.

فى ضوء كل هذه الاعتبارات نتوقف عند ابداع بعض رموز كاتبات التسعينات ولا نزعم أننا وقد تركنا لضيق مجال البحث رموزا أخرى أعطت ابداعا جديرا بالنقد والتقييم مثال هناء عطية، ومنال القاضى؟

نتوقف عند كل من

١ - منار فتح الباب

٢ - نورا أمين

٣ - أمينة زيدان

٤ - حنان سعيد من الاسكندرية.

عن منار فتح الباب وترنيمة الجسد والمهمشين

إن الانطباع الأولى من قراءة نصوص وقصص مجموعة (القطار لا يصل إلى البحر) لمنار فتح الباب يعطينا اليقين النقدى بحضورها الأنثوى

وخصوصيتها ولغتها الشاعرية وإحساسها بلغة الجسد وعمق وتعقد حساسية المشاعر والغرائز لذلك نلمح نوعا مركبا من التشبيهات المجازية والوصف البصرى والتعبير بالصورة والرمز والمحسوس والوجود التشكيلي للسرد.

فى نصوص هذه المجموعة نوع من الشبق الجنسي والايروتيكية يؤكد الجسد والايروس وهيمنته على هواجسها وتجربتها الوجودية والحياتية مع عالم الرجل والذكورة والفحولة .

فى النص القصصى أجنحة الشاطىء المهجور صورة مركبة من الغرائزالشبقة المفعمة. بالرغبة الحسية حيث لغة الجسد تتقن بناها التشكيلي المكثف السريالي لتجسد تعقد عملية لقاء جنسي بين زوج ظامىء وزوجة باردة الإحساس فى بيت مهجور على شاطىء البحر بأمواجه الهادرة، حيث يحوم فى اجوائه الخفافيش ، وخلال الملامسة والاحتواء وبداية الممارسة البشعة حيث اللذة والألم يحاصرهما لزوجة جسد الخفافيش فبعد شهوة اللقاء تتدحرج اصابع زوجهاوتلتوى وتتوغل رويدا رويدا فى جسدها لكنها لا تشعر بها ولا تبدى اى انفعال» ومنار هنا تقترب برؤيتها وفنيتها بعض الاقتراب من كتاب الجنس الكبار ولكن بخصوصيتها المصرية، وبدايات تجربتها .

عن نورا أمين

حالات التعاطف هى المجموعة الثالثة لنورا أمين سبقتها بدايات واعدة تتميز بتحطيم التابو والحرام والمسكوت عنه فى علاقات المرأة بالمرأة خاصة فى مجموعتها الأولى جمل اعتراضية.

ان بعضا من قصص الكاتبة تتخلص من قيود الميراث المعرفى الذكورى ليؤسس بوعي وتلقائية ورهافة حس للغة جديدة للكتابة الأنثوية ، ويتوارى فى البنية القصصية لنصوص حالات التعاطف ما يمكن اعتباره أحداثا ووقائع وعلاقات وأنماط إنسانية بالمعنى التقليدى ويتم استبداله بنهج حداثى حيث الحدس مقابل المنطق والشعور مقابل الوعي والتركيب، مقابل التحليل.

وتقدم نصوصها غالبا على لسان الراوية.. المرأة المتمردة الغارقة فى نوع من الضياع والبوار والغربة والا تحقق لترنيمات الجسد الجائع، تقول الكاتبة بصراحة قاتمة «تتبهت إلى شوقك إلى طفولتك ورجولتك وشهوتك المحبوسة ، ارسم وبين انفاسي وهمك فى امرأة مأمولة فأنطق لك بالكلمات التى نودها انصب عنقا كالذى تريد وظهرا يتحملنا عصبا لايلين امرء اليك نشوتك وعنقك.. الخ.

وهى كاتبة لها خصوصيتها ومفرداتها الجمالية فى اكتشاف عالمها الوجودى الملتبث والملىء بالهواجس والرؤى والظنون، غير انها تفرط فى الانكفاء على ذاتها واحباطاتها وانكساراتها أمام الذكر الرجل كذلك هى منكفئة على جسدها وانوثتها المنتهكة هذا ربما يعطى انطباعا بمحدودية تجربتها الحياتية بعمق الحياة وشمولها.

عن أمينة زيدان

فى نصوص مجموعة امينة زيدان (حدث سرا) نجد الكلمة المعتنى بها مركز استقطاب لعلائق عديدة نفسية

ووجدانية واجتماعية وسياسية عن معنى الموت والفقدان وشهوة وشبق الجنس وجوع الجسد وانكسار الروح والحب والوهن وفقدان المعنى للمحاربين المتقاعدين لحرب اكتوبر ٧٣ يعوضون صناعم بالغرق فى الجسد وتذوق الفن، كل ذلك فى التحام حميم بجسد شخصية مدينة السويس كفعل قصصى حيث لا نهائية البحر وسطوة وحضور جبل عتاقة بجهامته، والبيوت القديمة المتآكلة المتساندة تضم فى جوفها البسطاء المغمورين من الصيادين والمهمشين يسعون فى دروبها المختنقة بالغبار والملح وقد جرحتهم ندوب وويلات الحروب والتى عمدت المدينة بالدم، كل ذلك يدفعنا فى بحث دلالتها الى التنقل من الكلمة الى ما يتجاوزها الى العبارة ومحاولة التقاط هذا العالم النسبى الواقعى والعينى والوهمى والمتخيل فى الصورة. المجاز التى هى بدورها عالم كامل من الاشعاعات . وقراءة امينة زيدان، تشعرك بأن فى النص كما فى الإنسان فائضا للقراءة الأصح هى التى تعيد اعتياده.

عن حنان سعيد وأمطار تموز

نجد فى قصص حنان سعيد تنويعات على لحن تفجر العلاقات بين الرجل والمرأة فى قصة حقائب زوجان لا يلتقيان الا على فراق. وتجسد الكاتبة غياب العلاقة بينهما فى حديث الحقائب.. حيث الزوج دائما على سفر والزوجة دائما تعود الى منزل ابيها.. والحقائب هى المعادل الموضوعى لمعنى عدم التواصل.

وفى قصة متقنة البناء وطازجة فى فكرتها (خصلات الشعر) ترصد الكاتبة بمهارة وشاعرية علاقة حب تنمو بين كوافير وفتاة يصفف شعرها.. هذا الكوافير الفنان يتعامل مع المرأة والفتيات من خلال شعرهن. فالشعر فى رأيه وجه المرأة الخلفى وتعترف الفتاة (وكنت استريح اليه واشعر أن شعرى قد خلق من أجل شطحاته).

إن الكاتبة فى رصد هذه العلاقة العاطفية تقدم معادلا موضوعيا هو حركة اصابع الكوافير فى شعر الفتاة التى تشكل لغة هامسة شاعرية تنتهى بالاكتمال والتواصل والذوبان فى الحب الجميل البرىء بمعنى الامتلاء الحميم.

وأخيرا فقد حاولنا فى هذه القراءة المقارنة لكل من جيل السبعينات والتسعينات فى مجال القصة القصيرة المصرية أن نؤكد ونبرز أن المرأة المصرية العربية المعاصرة عضو فعال ونشيط من أجل تدعيم اسس وقيم المجتمع المدنى التعددى الحر الليبرالى الديمقراطى العقلانى فى عقده الاجتماعى وسط عالم يموج بالتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية.

لذلك يجب أن نستمع ونرحب بقصتها القصيرة الجديدة وبتمردها على قهر الرجل وقيم ورواسب المجتمع الشرقى مجتمع الحريم وإجباره على تغيير نظرته اليها. ■

المغرب

بعيـــون فرنســـية

بمناسبـــة مـــرور ١٧٠ عـــامـــا على رحيـــل ديلاكروا:

ماذا استوحى من بلاد البرتقال والورود والشمـس والعيـــون الجميـلة

بقلم
د. محمد المهدى

تميز أهل الرومانسية فيما كتبوه، أو صوروه بإخلاصهم. قد لا يتفق مزاجنا الآن مع الروح الرومانسية، ولكن الحق يقتضى منا أن نسجل لهم الإعجاب بلحظات الإخلاص فيما سجلوه.

ومن الإصدارات المهمة لـ (معهد العالم العربى) فى باريس كتاب «ديلاكروا» الرحلة إلى المغـــرب (DELACROIX,LE.VOYAGEU,MAROC) بمناسبة إقامة معرض تحت نفس العنوان عام ١٩٩٥. استمر تقريبا ستة أشهر، وهى مدة رحلة (ديلاكروا) إلى المغرب من ٢٤ يناير عام ١٨٣٢ إلى يوليو من العام نفسه، أى أنه مر الآن ١٧٠ عاما على ذكريات هذه الرحلة.

غلاف كتاب ديلاكروا «الرحلة إلى المغرب» وعليه لوحة «بائع البرتقال»



يقع الكتاب فى ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير، والطباعة الفاخرة، مع ما يقرب من ٢٠٠٠ صورة بين لوحات زيتية، ومائية ، ورسوم أولية أو سريعة.
تناولت فصول الكتاب (ديلاكروا والشرق) لـ موريس سيرلاز. و(الرحلة) لـ موريس أراما. و(أثر الرحلة على فتى ديلاكروا) للبروفيسير (لى جونسون) و(يوميات الرحلة) لـ أرليت سريان.

كتب المقدمة ابراهيم علوى، وكتب التمهيد الأديب المغربي الطاهر بن جلون.

ألف شيء جميل

أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر كانت عيونها تلمع فى الليل تحاول غزو الشاطيء الآخر. أو تتخابث فى النهار تحاول التسلل إلى القلوب اللينة. ووسط العيون الطامعة، والعيون الخبيثة ضاعت جهود البعض من أهل أوروبا ممن أحبوا شرقنا العربى، وسجلوا اعترافاتهم كتابة، أو رسما.

(ديلاكروا) كان يحمل عدته معه دائما: الأوراق، الأحبار، الأقلام، وعلبة ألوان مائية صغيرة، يسجل انطباعاته أولا بأول.

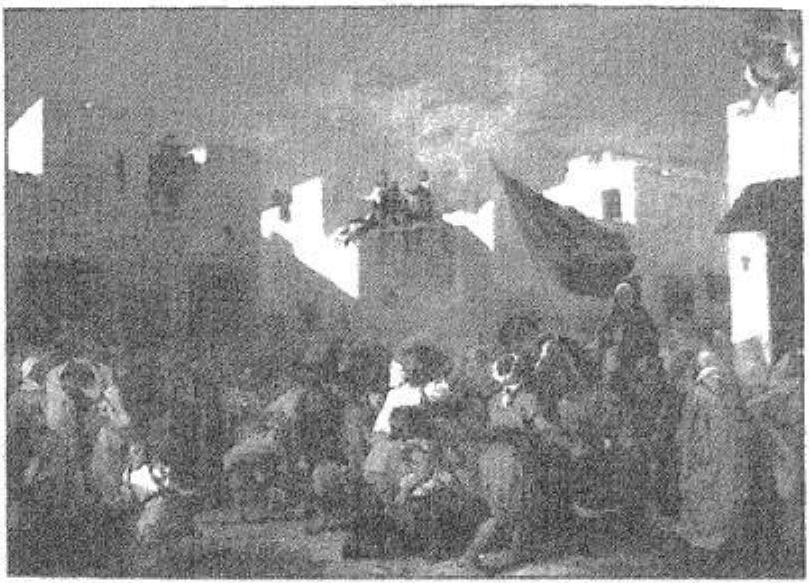
دعى عام ١٨٣٢ لزيارة المغرب العربى من قبل صديقه (شارل مورنيه) الذى عينه الامبراطور (لويس فيليب) قنصلا لفرنسا لدى مولاى عبد الرحمن حاكم المغرب.

وصل (ديلاكروا) إلى ساحل طنجة فى ٢٤ يناير عام ١٨٣٢. ثم زار مكناس، وعاد لطنجة. قضى ستة أشهر انتهت بزيارة مدينتى (وهران) و(الجزائر). اكتشف (ديلاكروا) الشرق. الضوء القوى، والألوان الصريحة. أخرج عدته منذ اللحظة الأولى وأخذ يسجل، رسم ستة (ألبومات) بين الخطوط الأولية بالحبر، أو الخطوط النهائية بالألوان المائية. ضاع للأسف منها الكثير، ويقول فى رصد أعماله: إنها تغطى رحلته تقريبا يوما بيوم، يوميات الفنان بقيت حية فى ذاكرته. ففى أثناء الإقامة الجبرية الصحية فى (طولون) بعد العودة، رسم ثمانية عشر عملا مائيا، وأهداها لصديقه (شارل مورنيه) صاحب الفضل فى رحلة شحنته بالأضواء، والألوان، والتكوينات الخصبة.

سجل ديلاكروا أيضا انطباعاته عن المغرب تحريرا، وعلى طريقته الخاصة.

أرسل لصديقه (بيير) فى ٢٩ فبراير ١٨٣٢ رسالة يحدثه فيها عن سحر مغيب الشمس، حركة الناس فى الأسواق، بساطة العامة فى ملابسهم وتعاملهم، مع عجرفة القناصل، وأهل الغرب المتأنقين، وتأففهم وسط الناس.

وحينما كان قلمه يقصر عن متابعة الصور الحية الآخاذة فى خياله، كان يتوقف بين سطور الرسائل ليسجل بالرسم.. (انك لن تستطيع أن تصدق ما حصلت عليه ، لأنه أبعد بكثير عن الحقيقة. عن نبل الطبيعة) رسم (ديلاكروا) موضوعات عديدة



موكب إحدى الطرق الصوفية



«نساء الجزائر فى جناحهن» - اللوفر ١٨٣٢

«فرسان المغرب. المناظر الطبيعية . الناس في الأسواق. الملابس، حرس السلطان كما يسميه. الوجوه المغربية. العيون الساحرة. الحياة الخاصة. الآثار القديمة. الآثار الإسلامية... (بلاد أشجار البرتقال الجميلة مغطاة بالورود، والفواكه، الشمس الجميلة.. العيون الجميلة ... وألف شيء آخر جميل).

انجازات المغرب

دهش (ديلاكروا) لنبالة مسلك وهيئة طبقات المجتمع المغربي، تخلص سريعا من تصنيفات مسبقة ظالمة شاعت في أوروبا عن الشرق المتخلف. بدت له الشخصيات المغربية وكأنها خرجت لتوها حية من التاريخ القديم. كتب يقول (روما لم تعد في موضع روما.. والقديم ما عادا فيه ماهو جميل. الألوان مرتعشة، والضوء المتفجر يحركها بعمق. ويدفع لحماس استخدامها كعنصر أساسي كون مسبقا على سطح الباليتة).

وعلى طول فترة اقامته في المغرب كان (ديلاكروا) ينجز كل يوم مجموعة من رسومه الأولية بالقلم، أو بالألوان المائية مع تعليقات، كون هذا الإنجاز سبع مفكرات صغيرة بيعت مع بيع مرسمه. واحد منها الآن في متحف (كونديه) في شانتلي، واثنتان في مكتبة الرسوم بمتحف (اللوفر) بباريس. والرابعة بيعت في يونيو ١٩٨٣ في مزاد (مونت كارلو)، وآلت بالشفعة لمتحف اللوفر. هذه الرسوم الأولية شكلت لـ (ديلاكروا) منبعا لا ينضب لمدة ثلاثين عاما قادمة من حياته.

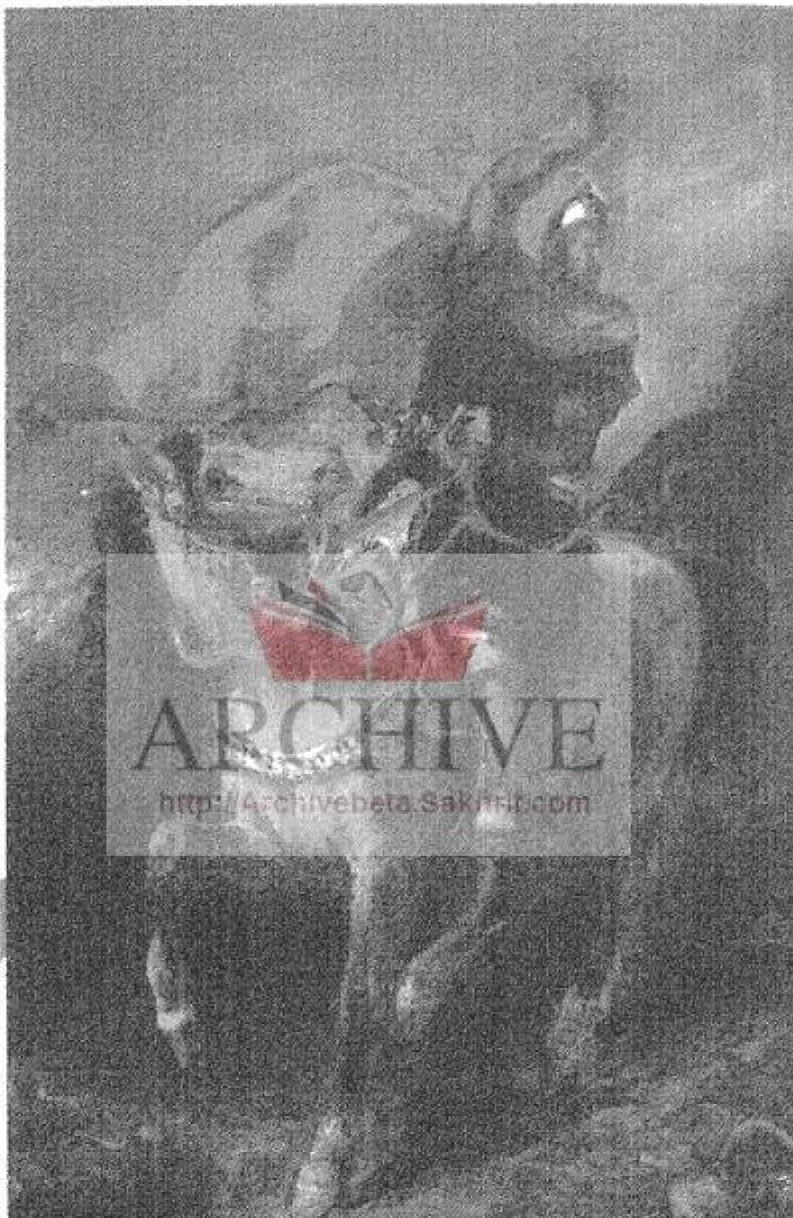
وفي ذلك الوقت كان من الصعب جدا على الفنانين عمل دراسات عن المسلمين لولا دعوة نائب القنصل (فرانس جاك دي لابورت) لشخصيات محلية إلى القنصلية حتى تتاح لـ ديلاكروا مقابلتهم. وعلى العكس كان من السهل الحصول على شخصية يهودية ليرسمها. ومن بين الوجوه العديدة التي رسمها بورتريه لابنه ابراهيم بن شيمول المترجم اليهودي للبعثة. وقد أهديت مع ١٧ لوحة غيرها إلى الكونت (دي مورنيه) وبيعت بالمزاد العلني بعد موت الكونت.

رحلة بعثة (ديلاكروا) في مارس عام ١٨٣٢ إلى (مكناس) مع ١٢٠ فارسا و٣٠ جملا و٤٢ بغلا. وأتيح للفنان أن يرسم رسوما أولية للسطان (كما يسميه) . والذي أهدى بعد نجاح المفاوضات أسدا، ونمرا، ونعامة، وغزالين، وأربعة خيول للأمبراطور لويس فيليب.

رسم (ديلاكروا) مكناس رغم الظروف الصعبة، فقد كان ملاحقا من بعض من يهددونه. وكان يضطر أحيانا لقذف الحجارة، أو إطلاق الأعيرة النارية في الهواء لمجرد الخروج إلى الشرفة.

على أن هذه الحوادث العابرة لم تذهب بمجمل تجربة كبيرة فكتب يقول :

فارس عربي يعطي الإشارة



١٢٣

الهلال

شعبان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م



الخطوط الأولية للوحة «تجمع مغربي»

لم أبدأ فى عمل شىء له أهمية إلا ابتداء من رحلتى إلى شمال أفريقيا.
وابتداء من اللحظة التى نسيت فيها التفاصيل الصغيرة. ولم أعد أتذكر فى لوحاتى إلا الجانب المثير والشاعرى. فحتى ذلك الوقت كنت مهتما بحب الدقة. تلك الدقة التى يعدها كثير من الناس الحقيقة بعينها).

هجرة شكسبير

رحلت بعثة (ديلاكروا) إلى الجزائر فى ٢٥ مارس ١٨٣٢. ويبدو أنه أثناء الأيام الثلاثة التى توقفوا فيها نجح فى زيارة حريم (الداى)، وأنجز لوحته الشهيرة (نساء الجزائر فى جناحهن) والمحفوظة فى (اللوفر)، تبدو النساء فيها مسترخيات غير مشغولات بعمل، يستعرضن مظاهر الإثارة فى جو شديد الملل.

هنا نتوقف مع (ديلاكروا) الأديب، وصاحب الموقف الفكرى والتشكيلى من القديم، جاءت رحلته إلى الجزائر كخاتمة لرحلته المشرقية، وبعدها تبلورت فى نظره التجربة. فبقدر هجرته التفاصيل الفاخرة على طريقة الفنان (دافيد)، سعى أيضا لهجرة التعبيرات الفاخرة على طريقة شكسبير.

كتب عام ١٨٣٣ يقول عن (جوته) فى (شخصياته مغالطات). أما أبطال (بيرون) فهى أشبه بالدمى لا جود لهم فى الحياة. وشخصيات شكبير (منتفخون متضخمون).



«تجمع مغربي» بعد التنفيذ بالألوان المائية مع بعض التعديل

ويسجل لـ (ديلاكروا) الكثير من الأعمال الأدبية، وإن اختفت أمام انجازاته الفنية، لقد شملت مراسلات عامة، وتقع في خمسة أجزاء، ويومياته مكونة من ألف وخمسمائة صفحة، وتعد على حد قول (جويان) عملا أساسيا في الفن الفرنسي، وتقع في ثلاثة أجزاء، ومقالاته أدبية تضم آراء في الفن، وانطباعات، وتأملات. إلى جانب عدة أبحاث عن مشاهير الفنانين وتقع في جزأين.

بالإضافة إلى عدة قصص ومسرحية، وقصائد شعرية. فضلا عن عدة دفاتر، وأبحاث، وخطابات مازالت مجرد مخطوطات.

ويمكن أن نجمل تجربة (ديلاكروا) في ثلاث من كلماته:

- بلا جرأة، وبجرأة متطرفة.. لا يوجد جمال.
- إذا واليت الاعتناء بذهنك، لابد له أن ينجلي ذات يوم.
- من المؤسف أن الخبرة لا تأتي إلا عندما تذوب القوة.

ديلاكروا .. السلب والايجاب

أما عن السلب في تجربة (ديلاكرو) فتحدثنا عنه الباحثة (رنا قباني) في كتابها (أساطير الغرب عن الشرق).. تأخذ على الاستشراق بشكل عام استغراقه في تصوير عالم الحريم الشرقي بصورة مبالغة، وتأخذ لذلك مثلا من لوحة ديلاكروا



ملاحظات ورسوم من مكناس وطنجة

(موت سردانا بال) التي رسمها عام ١٩٢٧ أي قبل ذهابه إلى المغرب.

يصور فيها مخدع مستبد شرقي هو سردانا بال وهو يعاني سكرات الموت وعبيده من حوله يقومون بذبح محظياته وحريمه أمام عينيه لأنه لا يحق لهن العيش من بعده. ومع رنا قباني الحق في هذا النقد.

أما عن الايجاب في تجربة ديلاكروا فيحدثنا عنه الناقد المعروف (هربرت ريد) في كتابه (معنى الفن)، يقول عن صياغة الطبيعة التي سحرته في الشرق كان التصوير مثل أي عنصر حيوي آخر بالنسبة له، وربما لم يوجد سوى (روبنز) من قبله، و(ماتيس) بعده اللذين استخدما التصوير بنفس الطريقة المباشرة، بمعنى أنهم استخدموا التصوير لا باعتباره وسيلة لنقل الفكر بطريقة واعية، وإنما باعتباره نشاطا غريزيا مصاحبا لنفس عملية الفكر وقد تبدو هذه التفرقة تفرقة ثابتة، ولكنها من الممكن أن تقارن بالتمايز القائم بين التركيب الشكلي، وبين الموسيقى. إذ نفترض أن العازف الذي يرتجل قد نظم نفسه أولا عن طريق التدريبات الشكلية المجهدة، ويمكننا أن نكتفي تماما بالمتشابهات الموسيقية في حالة ديلاكروا، لأنه كان عاشقا للموسيقى. وقد تحدث دائما عن لوحة ألوانه كما لو كانت سلما موسيقيا يؤلف عليه تناغماته، وهو يدين بالكثير لـ (كونستابل) بوصفه ملونا، ولكنه أمعن في ذلك أكثر من (كونستابل)، كما أنه استخدم الأساليب التي استخدمها كونستابل في

تحليل الطبيعة، استخدمها فى تكوين تركيب خيالى من إبداعه هو، وكان مغرما بقول أن الطبيعة ليست سوى قاموس.إننا نبحث فى الطبيعة عن النغم الصحيح، والشكل المعين تماما مثلما نبحث فى القاموس عن المعنى الصحيح لكلمة ما، ولكننا لا ننظر إلى القاموس باعتباره مؤلفا أدبيا مثاليا لابد من النقل عنه، ولم يعد من الواجب علينا أن ننظر إلى الطبيعة باعتبارها نموذجا لابد من النقل عنها، أن المصور يتوجه من أجل الإلهام إلى الطبيعة وما توحيه إليه من أفكار. وخاصة لكي يجد فكرته الرئيسية أو (القرار) الموسيقى لمؤلفه.

أما النغم الذى يشيده هو فوق القاعدة، فهو من صنع خياله وحده؟؟

فماذا كان نغم (ديلاكروا) التشكيلى الجمالى؟

كانت خطوته لقراءة الضوء والطبيعة، ووصوله إلى فكرة الخلق الخاص بالفنان مستقلا عن المرئيات فى صورتها المباشرة من نتاج احتكاكه بالشرق العربى. وهى خطوة اقتراب غير مقصودة من منطلق الحضارات العربية القديمة. ثم الحضارة العربية الإسلامية. وكانت هذه الخطوة هى مفتاح القراءة الجمالية الحديثة.

إصدار (معهد العالم العربى) فى باريس لكتاب (ديلاكروا .. الرحلة إلى المغرب). إنجاز علمى وفنى عظيم. نتمنى أن يستمر ليملأ ثغرات عديدة مهمة فى ثروة القرن التاسع عشر الفنية.. فقد كان قرنا ولا كل القرون. ■

نوبل ٢٠٠٢

إيمري كيرتش

الهولوكوست.. يفوز بالجائزة

بقلم
محمود قاسم

في بعض الأحيان تُمنح جائزة لنوبل في الأدب لظاهرة ما أو مناسبة، أكثر مما تمنح لكاتب.

بالطبع لأن الكتب القليلة العدد، والقيمة التي ألفها المجري إيميري كيرتش لا تستحق أن تحصل على الجائزة، وإلا صارت الجائزة التي منحت لهذا الأدب تقديراً هامشياً لا يجب أن تنال هذا القدر من الاحترام، والترقب والانتظار..

الأرجح أن الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب لعام ٢٠٠٢ هي معسكرات الاعتقال النازية التي يمر الآن ستون عاماً على انشائها، وهي لم تكن معسكراً واحداً، بل كانت أكثر من معسكر منها الاوسفتش والشواخ، والبنشوالد، ولم تكن كلها لتجميع اليهود، بل إن عناصر كثيرة دخلت إليها، ولاقت ما لاقاه اليهود هناك .

ولعل ماحدث من جائزة نوبل هذا العام، يذكرنا بما حدث قبل عشر سنوات في سنة ١٩٩٢، حين حصل الترندادي ديرك والكوت على الجائزة، ليس أبداً لقيمته، ترى أين هو الآن، لكن لأنه يمثل ثقافة منقرضة، كان سبب انقراضها مرورخمسة قرون على اكتشاف القارتين الأمريكيتين.

جائزة نوبل لعام ٢٠٠٢ منحت للأدب الذي تدور أحداثه في هذه المعسكرات، كنوع من الاحتفاء، وتذكير الناس، بأن النازية اعتقلت أشخاصا مدنيين أبرياء، من جنسيات وعقائد عديدة على رأسهم اليهود، وأن الكثير



ايميرى كيرتش

ممن عاشوا هناك قد تفجرت فيهم موهبة الابداع، تبعا لما لا قوه، فكتبوا الروايات، واليوميات، والأفلام والمسرحيات التى ستظل تذكر الناس بما حدث فى هذه المعسكرات.

والدليل على ذلك ما صرح به كيرتش نفسه، أو ما كتب عنه عقب تلقيه خبر الفوز، انه ليس متدينا، وأن الأمر لا يهمه، وأنه ليس اليهودى التقليدى المعروف فى وسائل الاعلام، والابداع، لكن من الواضح انه كتب عن المعسكرات بواقع تجربته، فالكاتب الذى روى مثل هذه القصص لم يحقق أى شهرة، وكانت رواياته تقليدية للغاية قياسا إلى ما قرأنا من روايات عن نفس المعسكرات، ومنها «يوميات آن فرانك» التى ألفتها طفلة صغيرة فى الثانية عشرة، وماتت قبل اكتشافها، وهى اليوميات التى تم الاحتفاء بها فى الاعلام الغربى دوما، وأيضا رواية «هولوكوست» لداڤين جرين التى تحولت إلى مسلسل تليفزيونى أمريكى روج لنجاحه مثلما حدث مع كبريات المسلسلات ومنها «ديناستى» على سبيل المثال.

لتبادل التحية

ولو أن جائزة نوبل أرادت أن تمنح نفسها حقيقة لكاتب مجرى موهوب، لذهبت بدون تردد إلى بيتر استرهازى الذى شارك كيرتش تأليف أحد كتبه - انظر موسوعة أدباء نهاية القرن العشرين لكاتب هذا المقال - فهو يستحقها عن جدارة، وهو صديق لكيرتش، ومقروء خارج المجر بقوة، بينما قيل فى الصحف الفرنسية على سبيل المثال عقب إعلان الجائزة، أن الطبعات المحدودة لروايات كيرتش قد نفدت، وأن هذا ساعد فى تهميش الكاتب.

لكن جائزة نوبل التى تحتفل بمرور ستين عاما على معسكرات الاعتقال على طريقتها، اختارت كاتبا أقل أهمية، ومغمورا كى تلقى الأضواء على هذه المعسكرات فى سنة الاحتفال بها، وفى وقت قلت فيه الكتابة عنها بشكل ملحوظ، وقد صار بيننا ستون عاما، رحل أغلب شهودها عن الدنيا، لكن الصغار الذين

كانوا هناك أمثال كيرتش قد بلغوا السبعين.

ذلك بالطبع لأن الأفلام والروايات المكتوبة عن هذه المعسكرات قد استنفدت أغراضها وصارت متكررة. بدليل أنه في الليلة التى استقبل فيها كيرتش نبأ حصوله على نوبل، كان قد استلم جائزة ألمانية تحمل اسم الكاتب هانس ساهل، وهو مفكر ألمانى ضد النازية منفى فى الولايات المتحدة، والذى بعث له يقول: «نحن آخر الأشخاص . فلنتبادل التحية..»

هناك الكثير من الروايات التى عن هذه المعسكرات كتبها أدباء غير يهود، ونالوا تقديراً وجوائز وتكريمات، مثلما فعل ويليام ستايرون فى روايته «اختيار صوفى» عام ١٩٧٨ ، ومثلما فعل الأسبانى خورخه سمبرون الذى كتب عن معسكرات البنشوالد..

وقد نشر فى وسائل الاعلام أن الكاتب كان محتجزاً فى معسكر الاوسفتش، وهذا غير صحيح. فالمعسكر الذى دخله وهو صبى صغير كان «شواح»، وهو المعسكر الذى أخرج عنه الأديب والسينمائى الفرنسى كلود لانزمان فيلما روائيا أقرب إلى الوثائقى عام ١٩٨٥ مدته سبع ساعات، رصدت له ابان عرضه حملة اعلامية ضخمة. إلا أن هناك مصادر أخرى تقول: إنه تنقل بين أكثر من معسكر.

يقول كيرتش، المولود فى بودابست عام ١٩٢٩، انه لا يكتب رواية إلا كلما تذكر المعسكرات وما كان يجرى فيها، وقد اختار الكاتب أن تدور أحداث رواياته فى الاوسفتش دونا عن غيرها.

لكن الغريب أن الكاتب قد نسى هذه الأحداث تماما لأكثر من ثلاثين عاما، باعتبار أن روايته الأولى «بلا مصير» قد نشرت عام ١٩٧٥ ، أى وهو فى السادسة والأربعين من العمر، إذن فهى رواية تنتمى إلى الحنين، حول صبى يعرف من الشارة الصفراء التى يعلقها على صدره أنه يهودى، وبسبب هذه الشارة قضى عاما بأكمله فى معسكر الاعتقال، وراح يتقدم الخطوة تلو الخطوة نحو دهاليز الألم أنه: «يتجول بنظرة طفل نحو الأحداث، دون أن يفهمها، ودون أن يراها شيئاً مألوفاً، أو فرداً».

قداس للطفل الذي لم يولد

والغريب أن الكتابة عند كيرتش كانت حالة من التذكر، أكثر منها ابداعاً حقيقياً، أو أن يكون لديه مشروع الكتابة. فالروايات الإحدى عشرة التى كتبها بين عامى ١٩٧٥ و١٩٩٨ ليست سوى رواية واحدة تعاد كتابتها بتفاصيل مختلفة. هناك تقريبا نفس الأشخاص، يعيشون فى أماكن متشابهة، وقد اختلفت الأسماء من رواية إلى أخرى. وقد أدهشت هذه الوتيرة الواحدة النقاد الذين يتابعون هذا النوع من الأدب، وتساءلت الناقدة كلير دفاريو: ولماذا لم يختاروا بريمو ليفى؟

بريمو ليفى كاتب إيطالى يهودى أكثر موهبة، لكن القدر لم يمهله حتى يبلغ الهولوكست سن الستين. أما كيرتش فقد أعلن دوما أن ضعف نصوصه قد جعل الكثير من الناشرين يرفضونها، وهو أمر من النادر أن يحدث فى أوروبا خصوصا بالنسبة للأعمال المكتوبة عن هذه المعسكرات، لذا تأخر التعرف عليه خارج بلاده إلى عام

١٩٨٩. حين انتقل للعيش في ألمانيا، ومنها إلى فرنسا، لكنه ظل محدود القراء، حتى وإن كتب عن معسكرات الاعتقال.

وقد اعترف الكاتب لجريدة ليبراسيون الفرنسية (١٥ يناير ١٩٩٨) انه اختار الشكل الروائي بدلا من السيرة الذاتية، لأنه في الرواية يوجد تخيل، ويمكن للكاتب أن ينوع صياغاته. أما السيرة الذاتية فتكتب في العادة مرة واحدة.

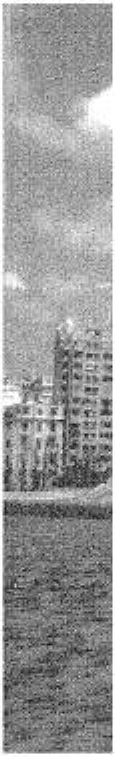
وفي هذه الروايات، ومنها «الفشل» عام ١٩٨٨، و«قداس للطفل الذي لم يولد بعد» عام ١٩٩٠، و«شخص آخر» ١٩٩٧، و«لحة صمت» ١٩٩٨، فإن كيرتش الذي يصير عجوزاً كلما مر الزمن، يحس أن المسافة تبتعد بينه وبين المعسكرات، والصبي الصغير الذي كان هناك، ومن أجل أن يقرب الزمن، فانه يصطنع حواراً بين الطرفين: العجوز والصبي، وغالبا ما يدور الحوار عما شهدته المجر خلال هذه السنوات، من الشيوعية إلى انحسارها، والرأسمالية التي صارت عليها المجر الآن، وقد بدا الحوار بين العجوز والصبي بالغ الوضوح في الثلاثية التي دارت أحداثها في المعسكر النازي: «اسمعني جيداً فإن ما يبدو لي غير عقلاني، وما ليس له تفسير ليس هو الشر، بل على العكس: الخير».

بدت مدينة بودابست غامضة وغريبة عندما عاد إليها كيرتش وهو السادسة عشر، أي عام ١٩٤٥، قرر في البداية أن يعمل في الصحافة، فكتب المقال إلى العديد من الصحف قبل أن يتخرج في الجامعة ثم يذهب إلى التجنيد. وعاد مرة أخرى إلى الصحافة ليعمل بها فترة طويلة في أعمال غير الكتابة.

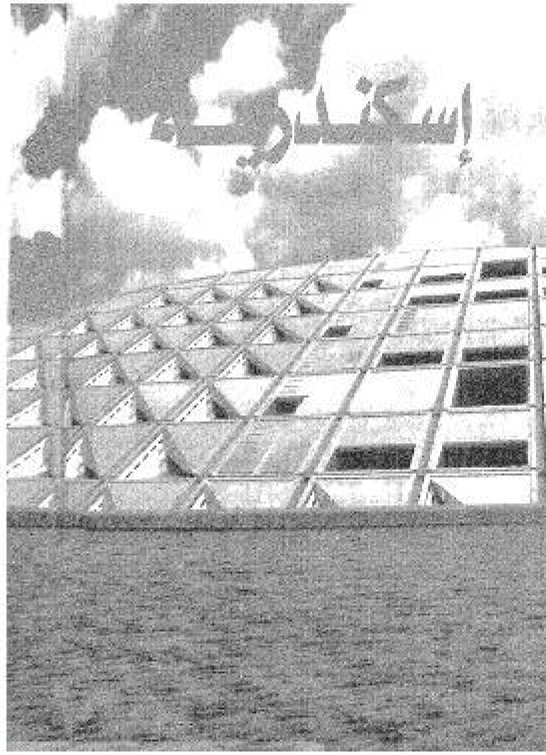
والمعروف عن كيرتش انه انطوائي، ليست له صداقات في الوسط الأدبي، كما أنه لم يقترن بامرأة، بغية العزلة، وعن تجربته يقول: «وأنا في سن الخامسة والعشرين قررت أن أصير كاتبا لكن لم يكن لدى أدنى مشروع، وكانت تجربتي الكبرى تنحصر في قراءة البير كامي. كان مجهولا بالنسبة لي عندما تصفحت رواية (الغريب) في إحدى المكتبات، شدني العنوان الذي كان يعني بالمجرية «المختلف» وأحسست أن هذا الكتاب كُتب من أجلي. لم أكن أقرأ الأدب المجري المعاصر. فهو أشبه بالعدوى. كان يجب أن أبحث عن لغز، وأن أخلق لنفسي عالمي الأدبي، فعشت في عالم ليست الكلمة فيه حقيقة، وكان يجب أن أبقى على مسافة منها.

الفلسفة تفسد الإبداع

وعندما أراد اميري كيرتش أن يترجم كتابات بعض الكتاب والفلاسفة إلى المجرية، فانه اختار أقرانه من اليهود، ومنهم إلياس كانيتي (نوبل ١٩٨١)، وفيليب روث، وفرويد، وشنتزلر، عجوز وصبي، هما نفس الشخص، بالاضافة إلى نيتشه، وغيره، وهذا يفسر لجوء الكاتب إلى أن يجعل بعض رواياته بمثابة حوار من أجل أن يتسنى له أن يضع فلسفته الخاصة، أو الفلسفة التي ينتهجها لنفسه، أو تعجبه بين ضفاف الحوار، وهو أمر قد يفيد الابداع أحيانا، لكنه يحوله إلى حوارات فلسفية في أحيان كثيرة. ■



إسكندرية



شعر : مليم الرافعي

اسكندرية .. في ثراك ثراي بعـد تبـحـر
أغريتني بالسحر حين مشيت بين الأعصر
الروم في شرح الشباب من العجم المتفجر
بين لسقراط الحكيم حكيم في المهجر
نزلوا على الحقل الخصيب من الغمام الممطر
ولد الفلاسفة الكبار العالمون الحضر
وأكاد أسمعهم وأحسب أنني في محضر
أشجار تاريخ تفرع من الذكاء الأنضر
لون القصص رأيت إقليدس على المنبر
والقبة الأقداح طائر الذي من مصدر
ماذا يقول العقل عقل مدينة الإسكندر؟
هذا التراب المستنير هو التراب العبقري
أحببت ... لأم التي تبني .. ولم تتنكري
يا قبلة بيضاء : هل دويت عش الأنسر ؟
ما الفن إلا الروح .. والتاريخ فن العسكر
يتسابق الرومان بين هياكل في مظهر
رهم البناة الصاعدون على الثرى المتحجر
لمحوا الجمال والروائع باهتداء العبقري
إن الخلود بمعزل مثل الخلود بأسطر
أسمى من الإبداع بين روائع لم تقهر
الحرب بطلة بيننا .. والشرق غير مغير
اسكندرية بحرها في الفكر بحر الجوهر

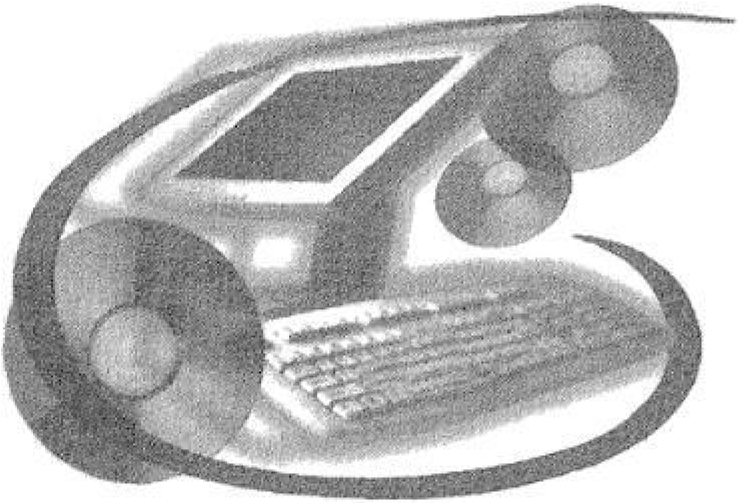
معارك البشرية بالأفكار وليس بالسلاح

بقلم
د. أحمد محمد صالح

منذ حوالى ٢٦ عاما يعنى ربع قرن ويزيد، فى خريف عام ١٩٧٦، تحدى دكتور كينيث بودينج مجموعة العلماء فى جامعة ولاية آبوا بالتصريح الاستفزازي التالى:

«عوامل الإنتاج لم تعد هى الأرض، والعمل، والرأسمال. وإن عوامل الإنتاج هى مبادرات الأعمال الحرة، وهى تتكون من المعلومات والإبداع. وهكذا فإن عوامل الإنتاج فى عصر الاقتصاد الجديد هى المعلومات والإبداع، -Information and creativi ty». واختلف معه مجموعة العلماء، وبعضهم اختلف معه بقوة! ويعتقد أن دكتور بودينج وهو الاقتصادى العالمى، كان يعطى تصريحات جريئة، لجذب ردود فعل جمهور الحضور! ولكنه بالطبع كان جادا فى تصريحه!

وأخذ يثبت بالدلائل والأرقام والأمثلة لحالات عالمية على صحة مقولته، ووصل به الأمر إلى إثبات أن المعلومات نفسها لم تعد عاملاً محدداً لمعادلة الإنتاج، وأن الأفكار المبتكرة، والمستحدثات التكنولوجية أصبحت هى عامل الانتاج! وسنتناول اليوم موضوع الأفكار الجديدة، والمستحدثات التكنولوجية.



إن المعارك الكبرى التى خاضتها البشرية لم يكن سلاحها السيف بل الأفكار تغلغلت فى حياة الناس، وظهرت فى صورة تطوير اجتماعى ، فالتغيرات التى تحدثها الأفكار المستحدثة فى سلوكيات الناس لا تحتمل الشك، والأفكار العظيمة تملأ الفضاء حولنا، ولكنها لاتستقر إلا فى العقول المهيأة لاستقبالها، واستقبالها للأفكار الجديدة ليس عملا عفوياً أو طارئاً وإن كان يظهر كذلك أحياناً، فطبيعة الفكرة هى فى ذاتها عامل أساسى من العوامل التى تحدد موقفنا حيالها. والمشكلة دائماً هى إعادة التفكير فى الأفكار التى نؤمن بها من قبل لأنه لايوجد شىء جديد تحت الشمس.

ودائماً العقول العظيمة تناقش الأفكار، والعقول العادية تناقش الأحداث، فى حين أن العقول الضيقة هى التى تناقش أفعال الناس. ومن أعظم الآلام التى تعانى منها الطبيعة البشرية هى آلام خروج الأفكار الجديدة التى تعنى دائماً التغيير.

والفكرة الجديدة أو المستحدثة هى أى شىء يدركه الفرد على أنه جديد بمعنى أنه يسمع عنه لأول مرة وليست العبرة بوقت اكتشاف الفكرة أو الخبرة، إنما العبرة بإدراك الفرد لها عند سماعه عنها، فكلما كانت الفكرة والخبرة تبدو جديدة فى نظر المستمع أو الذى يراها لأول مرة فإنها تعد شيئاً مستحدثاً بالنسبة له، سواء كانت تلك فكرة تتناول مضموناً اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً أو تكنولوجياً ... الخ.

موجات التغيير التكنولوجي

والعالم مر بعدة موجات متتالية ومتعاقبة من المستحدثات الإبداعية التكنولوجية التى أحدثت تغييرا عميقاً! واتفق الاقتصاديون على وجود موجات طويلة «من التغيير أو دورات كوندراتيفية Kondratieff ، وتدوم الدورة الواحدة حوالى نصف قرن ! وهذه الموجات لها فترات كساد متعاقبة وفترات تحسن ونمو ونضج، تعتمد على تنمية وتطوير وانتشار المستحدثات الإبداعية التكنولوجية. وتبدو تلك الموجات فى المراحل المبكرة أنها ذات اتجاه صاعد، ويقوده بشكل كبير علم الإلكترونيات الدقيقة وشبكات الحاسوب.

وأول هذه الموجات كانت فى الفترة بين عام ١٧٨٠ حتى عام ١٨٤٠ ثمانينات القرن الثامن عشر حتى أربعينيات القرن التاسع عشر) وهى الموجة الأولى المبكرة

من التغيير التكنولوجي، وكان ملمحها الأساسي هو الثورة الصناعية، وتنحصر وسائل اتصالاتها في الطرق البرية والقنوات المائية، ومصدر الطاقة المميز لتلك الفترة كانت الطاقة المائية ، والعامل المحدد لتلك الموجة كان القطن، زراعة وتجارة وصناعة .

ثاني موجة تغيير تكنولوجي مر بها العالم ، كانت في الفترة بين عام ١٨٤٠ حتى عام ١٨٩٠ أربعينيات القرن التاسع عشر حتى تسعينيات نفس القرن) وكان ملمحها الرئيسي هو طاقة البخار والسكك الحديدية ، وانحصرت وسائل اتصالها في التلغراف والسكك الحديدية ، ومصدر طاقتها كانت قوة البخار ، وكان العامل المحدد في هذه الموجة هو صناعة الحديد والفحم.

موجة التغيير التكنولوجي الثالثة التي مر بها العالم ، هي الفترة بين عام ١٨٩٠ حتى عام ١٩٤٠ (من تسعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين) وكان ملمحها الحديد والصلب والكهرباء ، ووسائل اتصالها كانت التليفون والسكك الحديدية المصنوعة من الصلب ، ومصدر طاقتها كانت الكهرباء، والعامل المحدد في تلك الفترة كان صناعة الصلب.

موجة التغيير التكنولوجي الرابعة، هي الفترة بين عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٩٠ (أربعينيات القرن العشرين حتى تسعينيات القرن نفسه)، وملمحها الأساسي كان الإنتاج الضخم الشامل، وانحصرت وسائل اتصالها في الطرق السريعة والراديو والتليفزيون، وشركات طيران ، ومصدر طاقتها المميز كان البترول، والعامل المحدد في تلك الفترة صناعة النفط والبلاستيك.

موجة التغيير التكنولوجي الخامسة هي الفترة بين ١٩٩٠ وحتى الآن (منذ تسعينيات القرن العشرين وحتى الفترة التي نعيشها في بدايات القرن الحادي والعشرين، وهي موجة مستمرة من التغيير لحين إشعار تكنولوجي جديد في المستقبل) هذه الفترة تميزت بملمح رئيسي هو الإليكترونيات الدقيقة وشبكات الكمبيوتر Micro-electronics & computer net-works ، وسيلة اتصالها الرئيسية حتى الآن هي الشبكات الرقمية، ومصدر طاقتها المميز حتى الآن هو النفط والغاز، والعامل المحدد في تلك الموجة التي نعيشها الآن هي صناعة الإلكترونيات الدقيقة. والله أعلم بما يحمله لنا مستقبل الإبداعات التكنولوجية في الخمسين سنة القادمة !

الاختراع والابتكار

منذ البداية المبكرة لحياة البشر على الكرة الأرضية، تشكل عالمنا بسلسلة طويلة من الإبداعات التقنية أو المستحدثات التكنولوجية، مثل :النار العجلة، الزراعة، الآلة البخارية، الكهرباء، السيارة، الحاسوب، الإنترنت. ودخلت الكثير من الطاقات التي يستعملها الإنسان لتطوير هذه التقنيات، التي تكون الحضارة التي نعيشها الآن. وخلقت هذه الإبداعات التقنية الكثير من الثروة - أحيانا للمخترع، وأحياناً للمبتكر - وهو الشخص الذي يأخذ الفكرة ويجعلها ناجحة تجارية - لكن في الغالب للمستعملين، والمجتمع ككل.

وجاء مصطلح Innovation وهو المستحدث أو المبتكر على يد عالم الاقتصاد النمساوي، شومبيتر Schumpeter وهو يعني المنتجات الجديدة، العمليات والإجراءات والمعالجات الجديدة، نماذج البزنيس الجديدة. ويجب ملاحظة الفرق بين مصطلح الاختراع Invention وهو خلق الأفكار والمفاهيم الجديدة ، وبين مصطلح Inno-vation وهو الإبتكار أو الإبداع الذي يأخذ تلك الأفكار والمفاهيم التي اخترعت ويجعلها



صالحة للتطبيق والممارسة، ويجعلها أيضاً ناجحة تجاريا. ونركز فى تلك العجالة على المبتكرات أو المستحدثات التكنولوجية Technological innovation. والبعض يسميها الإبداعات التقنية، مع استثناء إبداعات الفن والأزياء..

أنماط المستحدثات التكنولوجية

وحتى فترة قريبة، كانت طريقة نشأة وتشكيل المستحدثات أو الإبداعات التقنية وطريقة انتشارها خلال اقتصاد معين يعتبر لغزا محيراً للعلماء. لكن فى الـ ٢٠ - ٣٠ سنة الأخيرة، بدأت دراسة المستحدثات على قاعدة منهجية منظمة، ومعرفتنا بكيفية نشأة وانتشار المستحدثات زادت وقفزت بسرعة فائقة. ومعظم هذه المعرفة لم تصل إلى عامة الناس. وتقدمت فى هذا المجال إلى النقطة التى ميزت العديد من الأنماط التى تفسر تلك العملية، وبدأت تفهم بعض القضايا الهيكلية التحتية التى تحرك عملية نشأة وانتشار المستحدثات، ويحاول هذا المقال أن يغطى المفاهيم الأساسية لتلك العملية. فيمكن أن تصنف أنماط المستحدثات التكنولوجية إلى ثلاثة أنماط رئيسية:

١ - مستحدثات تدريجية أو تزايدية.

٢ - مستحدثات جذرية وراديكالية.

٣ - مستحدثات تكنولوجيات الأغراض العامة. فالمستحدثات تأتى فى العديد من الأشكال والحجوم، والتصنيف الثلاثي المذكور ينظر إلى المستحدثات كأصناف صغيرة متوسطة كبيرة. فالمستحدثات التدريجية التزايد تحدث تحسينات وإصلاحات صغيرة ربما لاتتعدى ١-٢٪ فى السنة. وتوصف عملية انتشارها وتبنيها بمنحنى التعلم، وبمصطلحات مثل التعلم بالعمل. مثل عمليات تطوير وتنمية قدرات الصناعات الكيماوية، ومثال آخر هى تطور قانون مور، فالتحسينات والتطورات فى تلك الأمثلة مستمرة، وهى تمثل إحدى المناطق القليلة التى يمكن أن تتوقع لها التحسينات المستقبلية باطمئنان. النوع الثانى من المستحدثات الإبداعية وهى الجذرية أو الراديكالية وهى التى تحدث وضعية جديدة تماماً حيث تصل تقنية جديدة كليا وتزيح تماماً التقنية القديمة، مثل الترانزستور الذى استبدل بالأنبوب المفرغ، والقرص المضغوط الذى أزاح سجلات الألعاب الطويلة، هذه التغييرات والتحسينات متقطعة وغير مستمرة، وكثيراً ماتسبب هذه التكنولوچيات الجذرية الكثير من التغييرات فى القيادات الصناعية! والنوع الثالث هو تكنولوچيات الأغراض العامة، وهو الاسم الذى سك وصيغ لوصف المستحدثات الإبداعية الكبيرة جداً مثل النار، والسواقى أو عجل المياه، وطاقة البخار، وطاقة الكهرباء، ومحركات الاحتراق الداخلي، والسكك الحديدية، والإنترنت .... الخ. وهذه المستحدثات الإبداعية الكبيرة لها أربع خصائص تميزها: إحداث تأثيرات وإسهامات واسعة وعميقة، لها مدى واسع من الاستعمالات أو تملك تشكيلة واسعة من الاستعمالات، وإمكانيات وطاقات استعمالها تظهر فى مجموعة واسعة ومتنوعة من المنتجات والعمليات والمعالجات، وأخيراً تعتمد بقوة على التكامل مع تكنولوچيات أخرى عديدة.

وتطور ونمو المستحدثات الإبداعية له حدود يصل إليها، فالمستحدثات الجذرية الراديكالية يأخذ تطورها على مر الزمن شكل منحنى على شكل حرف S حيث يصل تطور تلك التكنولوچيات لحد معين، وهناك طرق كثيرة لقياس التطور فى أداء تلك التكنولوچيات مثل قياس كفاءة وتكلفة فرن معين، أو قياس كفاءة وقود السيارة، وقياس مدى دقة صاروخ مثلا، وأيضاً ممكن قياس مدى راحة واستفادة المستعمل لتلك التكنولوچيا المستحدثة، ومن أهم الخصائص الرئيسية لهذا المنحنى أنه

يمر بثلاث مراحل : المرحلة المبكرة وفيها يوصف أداء المستحدث بالضعف فى أول الأمر، وتفشل عملية استبدالها بشكل دائم بدلاً عن التقنيات القائمة، وهى تمثل مرحلة مهمة ومغزوية فى المنحنى حيث تحل فيها ببطء جميع مشاكل التقنية المستحدثة، وبالكاد يتحسن اداؤها تدريجيا، وفى تلك المرحلة يستخف عادة من تلك التقنيات ويقلل من شأنها من قبل التقنيات المنافسة! وفى المرحلة المتوسطة للمنحنى تحل فيها مشاكل التقنية الجديدة ، وتبدأ الزبائن فى تقبل انجازات تلك التقنية بشكل نهائى، وتبدأ أيضاً فى الانطلاق بشكل واسع بمساعدة خصائص منحنى التعلم.

وفى المرحلة الثالثة من المنحنى يصل المستحدث الإبداعى إلى حده الأعلى من التطور والانتشار، وتستنزف فى تلك المرحلة كل دروب تحسين الاداء ، ولا يمكن إضافة أى تحسينات ممكنة!

وإذا ركزنا فى المرحلة المبكرة من المنحنى سوف نلاحظ : العديد من التقنيات المستحدثة المتنافسة، والتى تسلك طرقا صعبة ومختلفة ، وهى فى حيرة وعدم استقرار حول من سيربح على المدى الطويل، ففى المراحل المبكرة فى تطوير صناعة السيارات كان هناك ٧٥ منتجا جديداً من السيارات فى الولايات المتحدة الأمريكية، مابين سيارات بخارية وسيارات كهربائية! وكان التقدم بطيء فى إيجاد حلول مميزة لمشاكل تلك التقنيات المستحدثة، وكثرت شكوك المنتجين المؤسسين، على سبيل المثال رفض المنتجين الأمريكيين للإطار الخارجى للعجلة طية داخلية من نوع راديال، حتى اقتحمت تلك الطية السوق بواسطة صناع السيارات أنفسهم! فالتكنولوجيات الجذرية تأتى كثيراً من خارج الإطار العام السائد، وغالباً من شركات تجارية صغيرة! فـ ٧٠٪ من المستحدثات الإبداعية الجذرية تأتى من خارج إطار الصناعة.

والمرحلة المتوسطة فى المنحنى تتميز بعدة خصائص منها: فترة النمو السريع للتقنية الجديدة، وفيها تحل أغلب مشاكلها! وفى هذه الفترة تظهر التقنية فى تصميم مهيمن على السوق ويعتبر أكثر تصميمات تلك التقنية نجاحاً، ويستحوذ غالباً على حصة الاسهم، ويختاره السوق كأفضل تقنيات معروضة، فعندما دخلت شركة IBM سوق أجهزة الكمبيوتر الشخصية PC اصبح تصميمها هو المهيمن على السوق، فهم نجحوا فى تجميع أفضل العناصر، من شاشة تليفزيونية ، ومحرك قياسى للأقراص، ورقاقة انتيل فى اللوحة الأم للجهاز، ولوحة مفاتيح مناسبة، وماوس مايكروسوفت، ونظام تشغيل دوس dos ، كان وقتها يمثل ثورة ضخمة، وهندسة معمارية للبرامج حرصوا أن تكون مفتوحة تتقبل كل الإبداعات والإضافات، كلها عوامل جعلت تصميمهم يسيطر على السوق! خاصة بعد أن نجحت IBM فى جلب أصول مالية محترمة متعددة إلى منضدة السوق، وأمثلة أخرى مثل نجاح نظام تشغيل النوافذ Windows ، والجسم الفولاذى الخارجى للسيارة، والطائرة دى سى ٣ Dc3 ، كلها تصميمات هيمنت على السوق. وبعد أن يظهر هذا التصميم المهيمن تتجه كل المنافسات نحو تحسين وتطوير هذا التصميم المهيمن، وينخفض عدد اللاعبين فى السوق فى أغلب الأحوال بشكل مثير، فمثلا، ظهر فى عام ١٩٢٣ الجسم المغلق الفولاذى للسيارات، وكان هناك فى تلك السنة حوالى ٧٥ مجهزاً لتلك التقنية، فى السنتين التاليتين هبط بنسبة الثلث، نفس الموضوع حدث فى صناعة الحاسبات، وشاهد اليوم مايحدث فى شركات التقنية العالية الدقة، حيث اتهمت مايكروسوفت بأنها قضت على الكثير من المنافسين لها!

وفى المرحلة الأخيرة من المنحنى تصبح

التقنيات الجديدة في حالة تمام النضج، حيث اكتشفت كل طرق تحسينها وتطويرها، وتصل التقنية إلى ذروة حدودها، وتتباطأ التحسينات فيها لدرجة الزحف. ومن أهم خصائص تلك المرحلة أن المنتجات تصبح سلعة تتنافس مع سعرها منتجات أخرى، حيث تنتقل وجه المنافسة من اداء التقنية إلى سعرها! وهنا تصبح المنتجات قياسية، وتصبح الكلفة عاملاً محدداً في شراء المنتج وأساساً لقاعدة التنافس. وتقول الدراسات ان ٨٠٪ من قرار المشترين يستند على السعر! ويطبق عليها هنا قانون الغلة المتناقصة ، حيث لايمكن للبحث العلمي وعمليات تنمية المستحدث أن تحسن اداءه في تلك المرحلة، فهو وصل لحدوده الطبيعية، وتظهر البشائر الأولى لمنافس جديد، وغالباً هذا المستحدث الجديد المنافس للتقنية السائدة في السوق غالباً مايكون مادة للسخرية من قبل اللاعبين الرئيسيين للتقنية الحالية، ويعتقدون أن أداءها أقل كثير من اداء تقنيتهم الحالية.

والمنتج مرتبط بعملية الإبداع والابتكار، لكن ليس كل منتج جديد على أن يتبع نفس النمط في عملية الإبداع، ولكنه يزود بصيرة المنافسة في الصناعة ، ويضيف لاستراتيجيات العمل، فعندما تظهر تقنية جديدة، تصاحبها كمية كبيرة من محاولات تجريب المنتجات الجديدة الناتجة عن تلك التقنية، ففي الفترة المبكرة في صناعة السيارات، كانت هناك سيارات بخار، وسيارات كهربائية ، وكل أنواع العروض، في تلك المرحلة لايعير أحد اهتماماً إذا كان المنتج الجديد مجنوناً أو منخفض الإبداع. وبينما يقرر السوق أي المنتجات تفضل، نجد معدلات إبداع المنتج تتباطأ، وتظهر تصميمات قياسية، وواحد من تلك التصميمات يهيمن على السوق، وعند هذه النقطة تصبح عملية التطوير مهمة للغاية ، وتصبح الكلفة وحجم التقنية أكثر مرئية، كما حدث في ظهور نموذج السيارة فورد ذاتية الحركة، فهناك موجات من التغيير التكنولوجي تتم في عملية ثابتة تتسم بالتعاقب والتتالي المستمر في السوق، وتميل موجات انتشار المستحدثات إلى المرور بفترات استقرار وتعزيز. وعندما تكتسح تقنية جذرية الصناعة، فهي تلغي واحداً أو أكثر من التقنيات الحالية! وتصبح مشكلة استراتيجيات الشركات وقتها هو كيفية الانتقال إلى التقنية الجديدة، وتكون وقتها أهم أسباب فشل الشركات هو عدم قدرتها على الانتقال للتقنية الجديدة. وتبدأ كل تقنية جديدة بأداء دون المستوى، وتتحسن معدلات الأداء تدريجيا وتتسارع في النهاية لتصل معدلات الأداء إلى التفوق في النهاية. ويأخذ دورته ويستبدل في النهاية بالتقنية الموجودة وهكذا. عموماً اداء أي تقنية جديدة يتحسن تدريجياً مع المستعملين. وأحياناً قدوم تقنية تكنولوجية جديدة يحفز وينشط الاستجابات المنافسة! وتبذل جهود جبارة، يقودها اليأس من عدم القدرة على مواجهة التقنية الجديدة ، فتتمكن التقنية الحالية من تحسين أدائها، وتتجاوز حدودها الطبيعية في تحسين الأداء ، على سبيل المثال، في الخمسين سنة بعد تقديم السفن البخارية، أجري على المراكب الشراعية تحسينات وتطوير أكثر بما حدث لها في الـ ٣٠٠ سنة السابقة لظهور السفينة البخارية! لكن هذه الجهود منكوبة ومدانة دائماً! لأن التقنية الجديدة عادة تملك طاقات وإمكانيات لتحسين الأداء أكثر بكثير من التقنية السائدة، وقد تنجح هذه الجهود الجبارة في تأجيل انقراض واختفاء التقنية الحالية لفترة ما، ولكنها تفشل في النهاية، حيث ينتصر التغيير! وأحداث مشابه حدثت في مشروع الجينوم الممول من الحكومات أمام منافسة مشروع الجينات البشرية الممول من القطاع الخاص.

وفي كل تلك الموجات يظهر الدور المتغير للمعرفة المتراكمة، الذي يمكن أن

نفهمه بشكل واضح من قبل حالة الماكينة البخارية والترانزستور. فالماكينة البخارية طورت بسلسلة اختبارات تجريبية قامت على التجربة والخطأ، وبينما جيمس وات كان الفرد الذي وضع اللمسات الأخيرة في الماكينة البخارية وجعلها ناجحة بشكل تجاري، فإن هناك العديد من الآخرين الذين ساهموا قبله منذ سنوات. فنظرية عمل المكائن البخارية جاءت بعد العديد من السنوات، كان فيها التطوير قائم على التجارب تماماً. وهناك قصة تطوير الترانزستور التي حلت بشكل رائع من قبل ريتشارد نيلسن، وهي قصة مختلفة، فقد اخترع الترانزستور في مختبرات هاتف بيل في عام ١٩٤٦. ومثل الماكينة البخارية، كان تطوير الترانزستور انطلق من قاعدة المعرفة التي كانت قد طورت من قبل من خلال عدة أجيال من العلماء في ذلك المختبر.

وأي مستحدث يستلزم وجود نظم تساعد على نجاحه، وهناك العديد من اللاعبين يشتركون في نجاح أي تقنية مستحدثة مفردة، واللاعبين هم المخترع، وشخص يمول عملية تطوير المستحدث، قد يكون شركة، أو رأسمال مغامر، وهناك أيضاً المزودون والمجهزون لتلك التقنية للسوق، والزبائن المستعملين لتلك التقنية، وهناك أيضاً المنظمون، والمحامون، ووكلاء براءات الاختراع، وأفراد مدربون جيداً على استعمالها وصيانتها، ومحاسبون، وبورصة سوق الأوراق المالية، ورجال الأعمال أو المبتكرون الأوائل الذين أول من يتبنى التقنية الجديدة للسوق، الخ كلهم لاعبون في عملية نجاح أو عرقلة المستحدث. مثال واحد في دور الحكومة في عرقلة مستحدث، كحالة النزاع بين الحكومة الأمريكية مع اليابان ضد ظاهرة إغراق السوق بالحواسب العملاقة! حيث اشتكت شركة كراي الأمريكية من منعها من بيع حواسبها في اليابان، لأن الحكومة لم ترغب في أن تنج شركة NEC اليابانية من بيع حواسبها العملاقة المتفوقة في الولايات المتحدة الأمريكية، وظهرت النتيجة في دراسة للبيت الأبيض بأن علماء المناخ ومتوقعي الطقس الأمريكيين كانوا سيئون جداً وسببوا اضراراً بالمقارنة بنظائرهم الأوربيين لمدة ٣-٥ سنوات، نتيجة عدم استطاعة الأمريكان الوصول والدخول على حواسيب NEC اليابانية المتفوقة.

تبني المستحدثات

وبعد تلك البانوراما السريعة للدورة الاقتصادية للمستحدثات التكنولوجية من حيث النشأة والتكوين والتطور، يستدعي اكتمال الصورة، تناول عملية انتشار وتبني تلك المستحدثات Diffusion and adoption . فالمستحدثات تميل إلى أن يتم تبنيها وانتشارها من خلال نمط منتظم جداً. لكن الأحداث العشوائية المبكرة التي حدثت في تطور المستحدثات، أصبحت مغلقة إلى الأبد ولا تتبع هذا النمط، مثل : ترتيب لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة، اتجاه دورات عقارب الساعة، عدد الساعات التي يتكون منها اليوم الواحد ٢٤ ساعة، قياس زاوية الدائرة ٣٦٠ درجة.

وعملية الانتشار Diffusion of Innovation هي عملية خروج المستحدثات من مصادرها إلى أكبر عدد من المستهدفين، وعملية الاقتناع والتبني للأفكار المستحدثة Adoption of Innovation هي العملية العقلية التي يمر بها الفرد من لحظة سماعه عن المستحدث لأول مرة حتى مرحلة الرفض أو الاقتناع والتبني عمليتان مرتبطتان ومتداخلتان، إلا أن عملية الانتشار ذات طبيعة جماهيرية تتم على مستوى التنظيم الاجتماعي، بينما

عملية التبنى تتم على مستوى الفرد، وتعتمد العمليتان على قواعد وشروط عملية الاتصال، وتتكون عملية نشر المستحدثات الجديدة: من أربعة عناصر أساسية هى :المستحدث، قنوات الاتصال، الزمن، النظام الاجتماعى. وتعتمد عملية الانتشار على وسائل الاتصال الجماهيرية: مثل الراديو التليفزيون الصحف المجلات .... الخ فى توفير المعلومات العامة عن المستحدث، فى حين أن المصادر الشخصية (الأعضاء الآخرين، والأقارب، الأصدقاء والجيران) وظيفتها تساعد فى عملية اتخاذ القرار بالقبول أو الرفض.

وعملية التبنى أو اتخاذ القرار حول قبول أو رفض المستحدث، ولغرض الملاحظة تتكون عادة من خمس مراحل:

١ - مرحلة الوعي والتنبيه والإدراك وفيها يتعرض الفرد للأفكار الجديدة من وسائل الإعلام المختلفة ، ولكن تنقصه الدراية والمعلومات الكاملة عنها.

٢ - مرحلة الاهتمام يصبح فيها الفرد على درجة من الاهتمام بالمستحدث بحيث يبدأ فى البحث عن معلومات عنه تشبع عنده حاجات حب الاستطلاع والمعرفة.

٣ - مرحلة التقييم وفيها يقوم الفرد بالتطبيق الذهنى والعقلى للمستحدث على موقفه الحاضر والمستقبلى، ومن ثم يقرر ما إذا كان ينوى تجربة الفكرة المستحدثة أم لا.

٤ - مرحلة التجريب أو المحاولة وفيها يستخدم المستحدث على نطاق ضيق ويقرر مدى فائدتها بالنسبة لموقفه.

٥ - مرحلة التبنى بالقبول أو الرفض وفيها يقرر قبول المستحدث أو الاستمرار فى القبول أو رفض المستحدث.

والفكرة المستحدثة قد ترفض فى أى مرحلة ، والتوقف عن قبول الفكرة المستحدثة هو قرار بالامتناع عن القبول بعد الإيمان بالفكرة المستحدثة وممارستها. وعموماً فإن أى قرار يتخذه الفرد بشأن الفكرة أو الخبرة الجديدة سواء بالقبول أو الرفض سوف يتوقف على :

أولا : خصائص الفرد الشخصية مثل العمر والتعليم والدخل والمعلومات، وسماته النفسية والاجتماعية مثل اتجاهاته ودوافعه ومكانته الاجتماعية ودرجة مشاركته الاجتماعية وانفتاحه على العالم، وسلوكه الاتصالي.

ثانياً : خصائص النظام الاجتماعى: من العادات والأنماط السلوكية المعتادة وأهداف وقيم ومعايير الأفراد ودرجة تقدمية المجتمع وإمكانية الانحراف على السلوك المعتاد.

ثالثاً : خصائص الفكرة المستحدثة نفسها، وهى :

١ - الميزة النسبية للفكرة سواء اقتصادية أو اجتماعية، وهى مدى أفضلية الفكرة الجديدة على الأفكار الأخرى التى جاءت لتحل مكانها . والأزمات المفاجأة قد تؤكد الميزة النسبية للفكرة وتؤثر فى معدل انتشارها، أو قد تعوق لازمة المفاجئة هذا المعدل.

٢ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع القيم الاجتماعية .

٣ - درجة تمشى الفكرة مع نظم المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

٤ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع ماسبقها من أفكار.

٥ - درجة تمشى الفكرة المستحدثة مع احتياجات الفرد.

٦ - مدى تعقد الفكرة المستحدثة أو

تشابكها وصعوبتها على الفهم.
٧ - إمكانيــة التــجـربة على نطاق ضيق..
٨ - إمكانية التجزئة.
٩ - إمكانية المشاهدة.
١٠ - القابلية للانتقال.

وعند ظهور أى فكرة مستحدثة أو خبرة جديدة، لايقوم كل أفراد المجتمع بتبنيها فى وقت واحد، ولكن عادة ماتبدأ أقلية منهم فى قبولها وتطبيقها، ثم تأخذ الفكرة أو الخبرة الجديدة بعد ذلك فى الانتشار بين بقية أفراد المجتمع على مر من الزمن.

وقد تأخذ الفكرة أو الخبرة الجديدة وقتا يطول أو يقصر حتى تنتشر بين جميع الأفراد، ويتوقف ذلك على طبيعة الفكرة المستحدثة، والنظام الاجتماعى السائد وغير ذلك من العوامل السابقة.

ويعد هؤلاء الأفراد الذين يقومون بتطبيق الفكرة المستحدثة عند ظهورها أكثر تقدمية من غيرهم، فدرجة التقدمية إذن هى درجة ميل الأفراد فى نظام اجتماعى معين لقبول وتبنى الأفكار والخبرات المستحدثة عند ظهورها.

وبينت الدراسات التى اهتمت بموضوع نشر وتبنى المستحدثات أن وسائل الإعلام الجماهيرية والمصادر الخارجية (الصادرة من خارج التنظيم الاجتماعى) تكون على أكبر درجة من الأهمية فى مرحلة الإدراك والوعى والاهتمام بالفكرة المستحدثة، فى حين أن وسائل الاتصال الشخصية ومصادر المعلومات المحلية (الصادرة من داخل التنظيم الاجتماعى) تكون مهمة فى مرحلة تقييم الأفكار المستحدثة .

وإذا كانت فترة التبنى هى الفترة اللازمة للفرد لكى يمر فى عملية التبنى متنقلا من مرحلة الإدراك إلى مرحلة قبول الفكرة المستحدثة، فقد أوضحت الدراسات العلمية أن الإدراك يتم بمعدل أسرع من معدل التبنى أو إقرار القبول والرفض. والنقص فى المعلومات المتعلقة بالأفكار المستحدثة من شأنها أن تؤخر تبنى الناس لها ، والمسافة الزمنية الواقعة بين مرحلة الإدراك والتجريب أطول دائماً من المسافة الزمنية بين التجريب والتبنى.

ورغم الأهمية الكبيرة لوسائل الإعلام، إلا أن التأثير الشخصى ووسائل الاتصال شبه شخصية مثل (التليفزيون والإنترنت) لها فعالية أكبر فى مجال التغلب على مقاومة التغير التى تعوق التأثير السريع لوسائل الإعلام الجماهيرية مثل عمليات التعرض الانتقالي والإدراك الانتقالي والحفظ الانتقالي. والمعايير الاجتماعية السائدة فى التنظيم الاجتماعى لها دور محورى فى درجة القابلية لتبنى المستحدثات الجديدة حيث تكون أسرع فى التنظيم الاجتماعى الذى تسود فيه معايير تشجع على ذلك.

المستقبل

والآن بعد هذه العجالة السريعة عن موجات التغيير التكنولوچى التى يمر بها العالم، ماذا عن الخمسين سنة القادمة بعد ثورة الجينات، وثورة الإنترنت، ماهى موجة التغيير التكنولوچى القادمة؟.

من المؤكد هناك قادم تكنولوچى جديد سيحدث تغييره المعتاد فى العالم ، فدروس التاريخ تقول ان الأزمات الاقتصادية التى يمر بها العالم منذ سنوات تحفز بيئة الإبداع! فالدوائر المدمجة فى السبعينيات ، وتطوير المعالجات الدقيقة والكمبيوتر الشخصى فى الثمانينات، وتطبيقات الإنترنت فى التسعينيات . والتاريخ يقول لنا أيضاً أن الصدمات الطارئة والأزمات التاريخية تحفز موجة الإبداعات فى العالم ، فأحداث

مثل : الحرب العالمية الثانية ، الحرب الباردة ، اطلاق الأقمار الصناعية، حرب فيتنام ، الحظر البترولي، الزلزال، وأحداث دراماتيكية مثل الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر، يمكن أن تحفز اقتصاديات إقليمية إلى مرحلة جديدة ! فالحاسبات، والاتصالات الرقمية، والإنترنت، والتقنيات البيئية، وتقنيات الأمن الجديدة، كلها نشأت وانتشرت متأثرة من تحفيز صدمات وأزمات العالم! والموجات القادمة من الإبداعات المستحدثة، والتى تحدث الآن، هى عادة تحدث فى نقط مجالات التغيير الاقتصادى، فالعالم يتطلع الآن إلى تعميق تطبيقات تقنيات تكنولوجيات المعلومات والاتصال فى كل من الاقتصاد والمجتمع ، فينتقل بعد المرحلة الأولى من الإنترنت نحو الإنترنت النقالة Mobile Internet ، وأدوات الإنتاج المعدلة والجديدة، وتطبيقات جديدة لتقنيات الاتصالات والمعلومات فى مجالات التعليم، والحكومة، والمجتمع، ويتوقع تقدم رئيسى فى التقنيات الحيوية، وأن تتلاقى وتدمج بتقنيات المعلومات والاتصالات فتخلق فرص جديدة فى الحقول التكنولوجية الصاعدة مثل: Biochips , biomaterials ، وهى تحمل معها تتجير النانو تكنولوجيا ، Nanotechnology ، بمعنى تحويل تطبيقات النانو تكنولوجيا إلى صورتها التجارية، والتى ستحدث ثورة جديدة فى صناعة رقائق الحاسوب، هذه الموجات المقبلة للتغيير التكنولوجى ستعجل بالمنافسة الاقتصادية فى العالم ، وخاصة بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية!

لكن ماذا عن منطقتنا العربية بعد خمسين عاماً. ببساطة شديدة المنطقة العربية بعد خمسين عاماً لن يتغير فيها شىء يذكر لأنها تعيش فى سجن الماضى، ومن يتمسك ويعيش فى الماضى ليس له مستقبل! فالمنطقة العربية بعد خمسين عاماً وهى فترة قصيرة فى حياة الشعوب ستصبح أحوالها كما هى الآن، سنجد نفس الأسماء والعائلات والمؤسسات التى تحكم كما هى، نفس الأفكار الجامدة، نفس المنظومة التى تحكم سلوكيات المجتمع حكاماً ومحكومين ، نفس البيانات الرسمية والإعلانات الإعلامية التى تبشر بالرخاء وعودة القدس عام ٢٣٠٠، سنجد نفس رجال الأعمال الذين ينهبون المال العام من البنوك مستمر بعد خمسين عاماً ، وسوف تأخذ مشاكل المنطقة الاقتصادية عمقاً اجتماعياً ، وسوف تتكرر نفس معارك وقضايا الإرهاب والفتنة الطائفية وحقوق المرأة ، والحجاب ، وحرية التعبير ، وستتكرر نفس المطالب بالديمقراطية، والغاء قوانين الطوارىء، والشفافية، والعجيب سنجد نفس رؤساء الأحزاب بعد خمسين عاماً ينتظرون ويتكلمون عن مستقبل الأحزاب المصرية ، وسنجد أيضاً نفس أعضاء مجلس الشعب المصرى سيد قراره فى نفس أماكنهم وأصبحوا أكثر شباباً، ونفس أصحاب الأعمدة الصحفية، وإسرائيل أيضاً ستكون موجودة بعد خمسين عاماً، والانتفاضة مستمرة أيضاً، وبيانات الشجب والغضب مستمرة أيضاً من الدول العربية ، وسنجد من يقول عام ٢٠٥٠ إن الفلوس التى وعد بها العرب فى مؤتمر القمة الأخير عام ٢٠٠٠ لدعم الانتفاضة لم تصل حتى الآن !! وسوف نقرأ فى الصحف تمنيات عن سوق عربية مشتركة فى الألفية الرابعة إن شاء الله، بصراحة شديدة الوطن والمنطقة العربية بعد خمسين عاماً هو نفس الوطن الذى كان منذ مائة عام.. لا جديد؟! ■

ذكريات صحفية

رحلة فى أحراش جنوب السودان

بقلم
د. صلاح عبد اللطيف

من خلال واحدة من رحلاتى لزيارة جنوب السودان ضمن وفد سياسى مصرى بدعوة من «جوزيف لاجو» الذى كان يشغل منصب النائب الثانى للرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى ، شاهدت عادات وتقاليد خاصة لأهل الجنوب ، والصراع من أجل وقف العمل فى قناة جونجلى حيث اعتبروا أن القناة مشروع لفائدة المصريين والسودانيين فى الشمال وليس لفائدتهم .

نقلتنا طائرة عسكرية من طراز C 130 إلى مدينة «واو» بأعالى النيل أمضينا فيها يومين ، وتم الترحيب بالوفد المصرى بذبح العجول مع دق الطبول والرقص المستمر طوال الزيارة من قبل الجنوبيين ، وتقتضى التقاليد الجنوبية بأن تذبح هذه العجول أمام الوفد الزائر الذى عليه أن يتخطى هذه العجول كما يفعل نائب رئيس الجمهورية وكبار المسئولين ، وتوجه الوفد إلى استراحة خاصة هى عبارة عن منزل من دورين به قاعة فسيحة تحيط به الأشجار وعرفنا أن هذا هو مقر نائب الرئيس . ففى عام ١٩٨٣ قدمت القوات المصرية المسلحة دعما لأبناء الجنوب تمثل فى إقامة كوبرى على نهر السوباط ، وإنشاء مستشفى عسكرى فى «جوبا» ، وجرت وقتها اتصالات بين السيد «جوزيف لاجو» والمشير «عبدالحليم أبوغزالة» وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة حول تقييم هذه المساعدات ، وكان من الواضح أن علاقة صداقة نشأت بين «جوزيف لاجو» والمشير «أبوغزالة» حيث وجد له دعوة لزيارة الجنوب لكن الزيارة لم تتم ربما لإنشغال المشير «أبوغزالة» فتحولت الدعوة إلى وفد مصرى يضم السفير الراحل «أحمد عزت عبداللطيف» الذى كان سفيرا لمصر فى الخرطوم وقتها والملحق العسكرى المصرى بالخرطوم وأنا .

وكانت زيارة مثيرة استغرقت عدة أيام وبدأت فى ١٣ يناير ١٩٨٣ .

لفت نظرنا من بين الوفد المرافق للسيد «جوزيف لاجو» شخصية جنوبية محاطة بالاهتمام وهو رجل طويل القامة



كانت الندوات والمؤتمرات السياسية والاحتفالات القبلية تقام تحت أشجار النيك المعمرة

قوى البنية يرتدى نظارة سوداء ، أحد كتفيه عار وظهرت عليه رسومات منحوتة بعناية على جسده ، محاطا بمجموعة من الحراس الأشداء ، من بينهم واحد على يمينه والآخر على يساره كلاهما عارى الصدر والكتف وعلى أجسادهم رسوم منحوتة وكل واحد يحمل فى يده حربة وعلى استعداد للدفاع عن هذا الرجل المهم فى أى وقت . ولاحظنا أن أحد الحراس الذى يقف وراء هذه الشخصية الجنوبية المهمة يحمل فى يده آنية من الفضة ملفوفة فى قطعة من القماش ، وعرفنا أن هذه الآنية هى عبارة عن «مبصقة» خاصة للرجل المهم ، إذا كح أو عطس أو أراد أن يبصق يسرع إليه الحارس بهذه الآنية التى يحملها ليبصق فيها الرجل المهم .

عرفنا أن هذا الرجل هو زعيم قبيلة «الشيلوك» التى تعيش فى أقليم أعالى النيل وهذا هو ملك القبيلة ويسمى (الملك) وله سلطة مقدسة على القبيلة وهى سلطة روحية وسياسية وقضائية لم يكن يتحدث مع أحد من الوفد المصرى وإنما حديثه كان مع السيد «جوزيف لاجو» ، وكان يبدو عليه أنه لا علاقة له بالقضايا السياسية التى تشغل السودانيين أو القضايا العامة الأخرى مثل قضية الشرق الأوسط ، أو قضايا السودان وإنما يشغله الأوضاع فى قبيلته والدعم المادى الذى يحصل عليه من الحكومة والذى كان هو محور الحديث مع

السيد «لاجو» .

وملك «الشـــيلوك» رغم أنه سلطان القبيلة ويملك كل شيء إلا أنه مهدد بالموت في كل وقت ، ولذا فإن له حراسة مشددة ، أما ذاك الذي يحمل «المبصقة» فهي لمنع السحر عنه ، فأي أثر منه قد يستخدمه أعداؤه في عمليات السحر ضده ، لذلك فله الحق في أن يقتل من يعاديه ويشيع في القبيلة أن ثعبانا قد لدغه .. أما من هم أعداؤه فهم عادة من نفس القبيلة ومن أخوته الذين ينافسونه في الوصول إلى قمة السلطة فإذا ما حدث عليه انقلاب بأن تعرض للقتل من قبل منافسيه فلا يبكي عليه أحد ، ويقام احتفال لمنافسه بتنصيبه ملكا على القبيلة أي أن التنافس على الوصول إلى منصب الملك في القبيلة مشروع والبقاء للأقوى.

وهناك شروط لمن يخلفه أو من له حق المنافسة فملك قبيلة «الشيلوك» يجب أن يكون ابن ملك ، وألا يكون «أشول» أي يستخدم يده اليسرى وأن يكون قوي البنية . ولم يحدث في تاريخ قبيلة «الشيلوك» أن تعرض أحد ملوكها لانقلاب عليه إلا مرة واحدة . ومن تقاليد القبيلة أيضا فيما يتعلق بملكها فإنه لايجب أن يمرض مرضا عضالا يمنعه عن ممارسة سلطاته ، وكأن الملك ليس من صفاته أن يمرض أو ينتابه الاعياء والضعف فإذا تعرض لمرض أفقده القدرة على الحركة وجعله عاجزا عن أداء عمله يتم الإجهاز عليه عن طريق أكبر سيدة مسنة في القبيلة حيث تقوم بخنقه حتى الموت في صمت ، ويعلن عن وفاته ليدفن في كوخ صغير دون اجراءات احتفالية بينما تجرى الاحتفالات لتنصيب الملك الجديد ، وبعد ستة أشهر يجرى له احتفال جنائزي كبير ويتم دفنه مرة أخرى في كوخ كبير .

والغريب أن الملك يعلم عند تنصيبه ملكا بهذا المصير ، ولذلك عليه أن يحتاط في كل تحركاته وأن يحافظ على قوته الجسدية وصحته ، وألا يمرض مرضا عضالا .

وملك «الشيلوك» يملك القبيلة كلها وله سلطات مطلقة ومعروف بتعدد زوجاته ، وإذا وقعت عيناه على أي امرأة أو فتاة ورغبها تضم إلى زوجاته حتى لو كانت متزوجة لذلك فإن نساء القرية يهربن عادة من الاحتفالات والمواكب التي يظهر فيها «الملك» خوفا من أن يستولي على واحدة منهن ويضمها إلى زوجاته، أما من ترغب في أن تكون إحدى زوجاته فلا تخفي نفسها فربما يقع عليها الاختيار .

عادات وتقاليد

وللقبيلة عادات وتقاليد فأفرادها متعاونون ومتكاتفون ، ويشتهرون بتعدد الزوجات وتربية الأبقار ، والصغير يحترم الكبير والكبير يحنو على الصغار من أفراد القبيلة ، ويكون مسئولا عنهم ، ومن هذه التقاليد أنه إذا مات الأب فإن الابن الأكبر يرث زوجات أبيه ماعدا أمه وينجب منهن ويسمي الأبناء بأسماء أبيه أي أنهم يكونون بمثابة أخوته وإذا لم يكن له ابن فإن أخيه الأكبر هو الذي يرثه وذلك الحفاظ على ثروات القبيلة ومنعها من التفتت .

ولا يعتبر تاريث الزوجات زواجا ولكنه واجب عائلي على أكبر أفراد العائلة .

***

أعطى «جوزيف لاجو» تعليماته بترتيب احتفالات اليوم التالي لزيارة الوفد المصري حيث كان علينا أن نتوجه بعد ذلك بالطائرة إلى «جوبا» عاصمة الإقليم



عندما يموت ملك الشيلوك يدفن في كوخ صغير وبعد ستة أشهر تقام له الاحتفالات الجنائزية، و يدفن مرة أخرى فى كوخ أكبر

الاستوائية .

فى اليوم التالى توجهنا بنفس الطائرة العسكرية إلى «جوبا» ، وعندما وصلنا المطار أجريت لنا نفس إجراءات الاستقبال من ذبح العجول ودق الطبول والرقص المستمر فذلك يعني أن زائرا على مستوى كبير من الأهمية أو ضيفا عزيزا قد حل عليهم . توجهنا فى موكب من السيارات إلى استراحة الرئاسة وهناك تناولنا الافطار ثم قمنا بجولة فى المدينة وهي مدينة استوائية عامرة تبدو عليها القدم وبها جامعة جوبا ومكاتب للأمم المتحدة وبعض منظماتها مثل منظمة شئون اللاجئين واليونسيف وهى تمثل عاصمة الجنوب بها عدد من الكنائس وجمعيات تبشيرية تعنى بتعليم أبناء الجنوب وتدريبهم على الزراعة والصناعة وارتداء الملابس الأوروبية . وهناك أيضا مساجد وزوايا إسلامية . وتتميز المدينة بالغابات المحيطة بها والأشجار الاستوائية المثمرة والفواكه مثل المانجو والعرديب (التمر هندى) والباباى و، وأشجار التيك والصندل وتكثر فى الغابات الحيوانات البرية مثل الأسد والنمر والفيل والخرتيت والحمار الوحشي والجاموس الوحشي وثعابين الأصلة التى يصطادونها بسهولة رغم ضخامتها ويحصلون منها على الجلد الذى يصنعون منه الحقائب والأحذية .

كان الجو والطبيعة ساحرين فرغم أننا كنا فى شهر يناير كان جو المنطقة استوائيا وتبلغ درجة الحرارة ٣٠ درجة

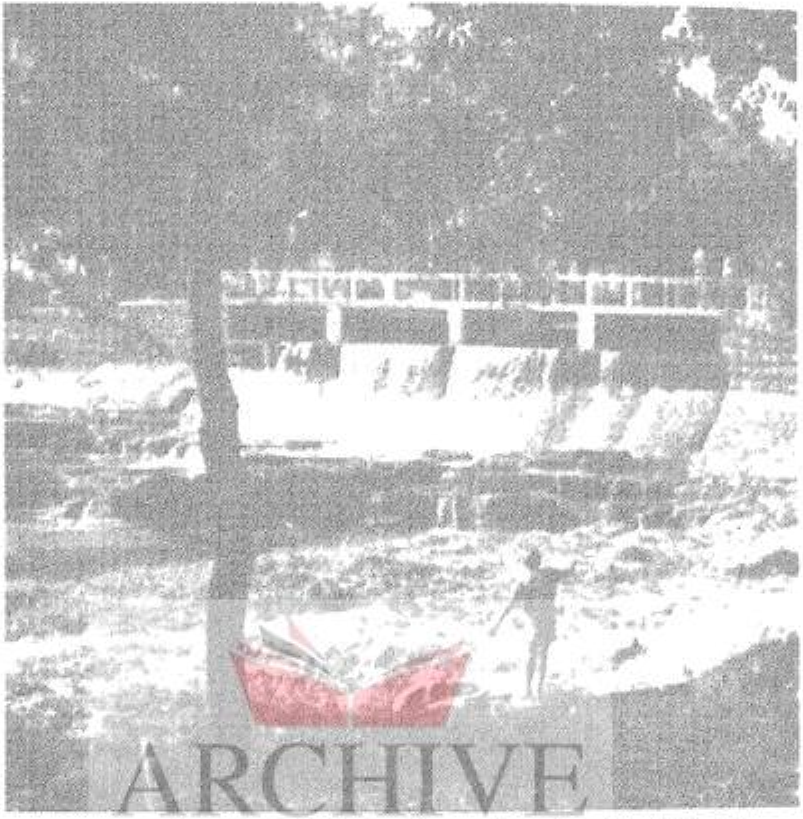
والسماء ملبدة بغيوم خفيفة يسقط منها رذاذ خفيف .

قبل أن نغادر «جوبا» حرص «جوزيف لاجو» على أن نزور موقع «قناة جونجلى» التى كان يجرى بها العمل ومع وجود عمليات عسكرية من قبل منظمات جنوبية عسكرية ترفض حفر القناة وتعتبرها تعديا على أراضى الجنوب وتغير طبيعة البيئة التى تقوم على المستنقعات والغابات والتى يتربى فيها الحيوانات البرية ويتكيف الجنوبيون معها ، ويعرفون كيف يتعاملون مع هذه الطبيعة بالصيد والزراعة ، وكانوا يعتقدون أن حفر القناة سيجلب عليهم المصاعب بظهور أراض جديدة ومجتمعات جديدة لم يألفوها ولا يعرفون كيفية التعامل معها ، واعتبروا أن القناة مشروع لفائدة المصريين والسودانيين فى الشمال وليس لفائدتهم ، ولاحظت بالفعل أنه لم تحدث أى توعية للجنوبيين من قبل المصريين أو السودانيين الشماليين بفائدة حفر قناة جونجلى عليهم . وحكى لى مدير مكتب الكويت فى «جوبا» وقتها المرحوم عبدالله السريع الذى أصبح سفيرا لبلاده فى الخرطوم بعد ذلك أنه عند بداية حفر القناة تعرض المكتب لمظاهرة عنيفة من الجنوبيين احتجاجا على حفر القناة واعتقادا منهم أن مكتب الكويت هو مكتب تابع للسفارة المصرية .

كان المشروع ضخما يعمل فيه خبراء فرنسيون وساهمت مصر فيه بمبلغ ٩٠ مليون دولار بالتعاون مع دول أوروبية هى (فرنسا وبلجيكا) وهو عبارة عن حفر قناة طولها ٣٦٠ كيلومترا كان قد تم حفر ١٦٠ كيلومترا منها ، ويقوم بالحفر أضخم حفار فى العالم عمل مرة واحدة قبل أن يصل إلى الجنوب فى باكستان، واستغرق نقله إلى الجنوب عاما كاملا حيث قطعت أجزاؤه ونقلت بالبحر ، ثم أعيد تجميعها مرة أخرى عندما وصلت هذه الأجزاء إلى موقع العمل ، لكن الحركة الشعبية لتحرير السودان التى يتزعمها «جون جارانج» اعتدت على المشروع وقامت فى البداية بخطف اثنين من الخبراء الفرنسيين عام ١٩٨٤ ثم أفرجت عنهم ، وتوقف المشروع بعد ذلك تماما وبقى الحفار فى مكانه وأصبح الآن عبارة عن كتلة ضخمة من الحديد الصدىء .

***

وكان علينا بعد أن أمضينا يوما فى «جوبا» أن نتوجه بالسيارات إلى مدينة «نيمولى» التى تقع على الحدود مع أوغندا وكنا ضيوفا على السيد «جوزيف لاجو» لأن هذه قريته التى حرص على أن نزورها ويحتفل بنا هناك ويرينا كرم ضيافة الجنوبيين ، وحبهم لأهل مصر. تبلغ المسافة بين «جوبا» و«نيمولى» نحو مائة كيلومتر وهى تقع شرقى مدينة «جوبا» على الحدود مع أوغندا التى يربط بينها وبين الأراضى السودانية كوبرى على النهر نصفه للأراضى السودانية والنصف الآخر للأراضى الأوغندية ، وفى المنطقة شلالات ومياه متدفقة وأشجار وغابات تعطى جوا ساحرا وخلابا للمنطقة كلها ، وواصلنا رحلتنا بالسيارات فى طرق صخرية وجبلية شديدة الوعورة تحيط بنا الغابات والأكواخ وكان من السهل علينا أن نرى تلك الحيوانات البرية ترقد على جانبى الطرق فى وداعة مثل الفيلة والحمار الوحشى ومن بعيد نرى قطعانا من الجاموس الوحشى الخراتيت ذى

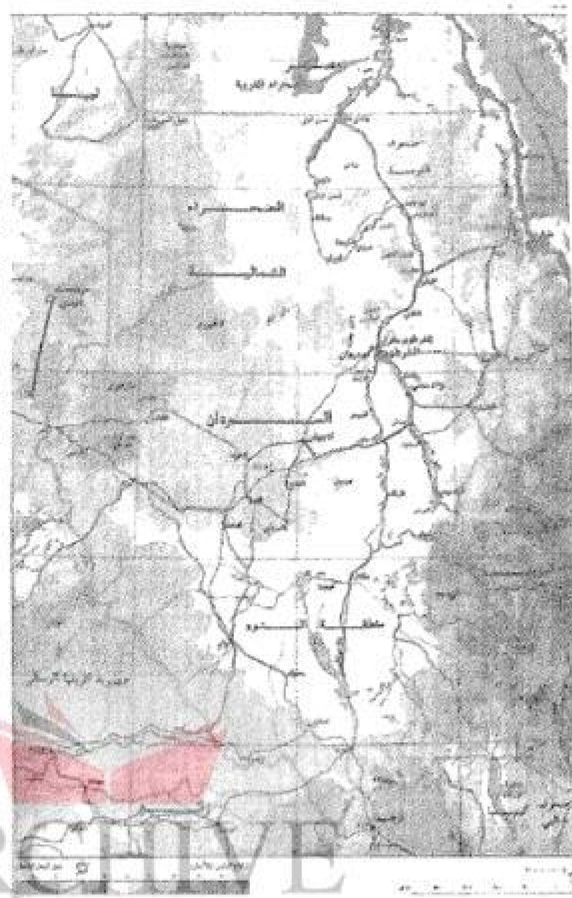


الجو الساحر في منطقة «نيمولي» حيث الشلالات والمياة المتدفقة بين الأشجار والغابات

القرن الواحد .. كان يرافقنا في هذه السيارات وزراء جنوبيون مثل «صمويل أرو» ، وضباط عسكريون من الجيش السوداني ، فالزيارة في حقيقتها عسكرية لتكريم رموز القوات المسلحة المصرية التي قدمت دعما للجنوب تمثل في انشاء كوبرى على نهر السوياط وإقامة مستشفى عسكرى متنقل .

كانت السيارة تتوقف عند كل قرية تمر بها ، وكان علينا أن نهبط من السيارات ونستمع إلى «جوزيف لاجو» وهو يشرح لنا طبيعة المنطقة وذكرياته العسكرية عندما كان قائدا لحركة «الأنيا - أنيا» عام ١٩٦٤ ، كان سعيدا بوجوده في هذه المناطق ، يقفز فوق الصخور ويحمل عصا يشير بها إلى المواقع العسكرية التي قادها في هذه المناطق .

وصلنا إلى قرية تقترب من «نيمولي» .. وقد أعد بفناء مدرستها الابتدائية مهرجانا شعبيا ، كان علينا أن نحضر هذا المهرجان ونستمع إلى خطاب من السيد «جوزيف لاجو» .. الذي قدم الوفد المصرى



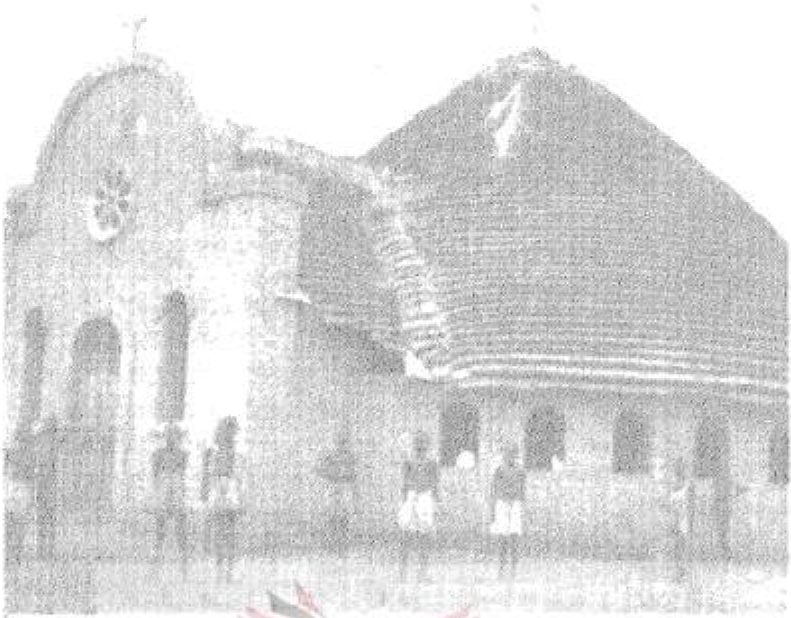
لجمهور الحاضرين من أبناء الجنوب الذين وفدوا إلى المكان من القرى المجاورة .. في هذا الخطاب تحدث «لاجو» بلهجة عربية مكسرة وهي اللهجة العربية التي يتحدث بها أبناء الجنوب إضافة إلى لغاتهم المحلية حيث يوجد ١٢ لهجة في الجنوب موزعة على القبائل ، فلكل قبيلة لهجتها التي تختلف عن قبيلة أخرى .

تحدث «جوزيف لاجو» عن أصوله القبلية وذكر أن في عائلته مسيحيين ومسلمين ووثنيين وعمه «يوسف» مسلم وزوجته مسلمة من الشمال .. قال في جو صاخب أن والده كافح ضد الاستعمار الإنجليزى فقد كان والده رجل ديني مسيحي ومتزوج لكنه أحب فتاة في هذه القرية كانت بمثابة ملكة جمال وأراد أن يتزوجها فمنعه الانجليز ، ولكنه تحدى أوامر الانجليز وتزوجها في قرية أخرى وأنجب منها «جوزيف لاجو» فقد كانت هذه الفتاة هي والدته ، «ولاجو» بلغة قبيلة المادي تعني «الرجل الضاحك» وكانت هذه الصفة هي الغالبة على السيد «جوزيف» الذي بطبيعته لايكف عن الضحك .

كان الجو صاخبا ومثيرا وأقرب إلى الجو الكوميدي ، ففي نهاية المؤتمر الشعبي سألت «جوزيف لاجو» تعليقا على حديثه ، «ولكنك لم تذكر اسم والدتك» فقال اسمها راحيل وحرص على أن يقدمها لنا عندما وصلنا إلى بيته في «نيمولي» ، وهي سيدة جنوبية مسنة نحيفة الجسد ، تبدو عليها الحيوية .

عندما وصلنا إلى «نيمولي» كان في استقبالنا عدد من الشخصيات الجنوبية من سياسيين ووزراء ، كانت الشمس تقترب من المغيب ، ومعنى ذلك أننا قطعنا نهارا كاملا في الطريق من «جوبا» إلى «نيمولي» لايزيد على مائة كيلومتر .

القرية ترقد وسط الغابات على منطقة جبلية تضم عددا من المنازل المبنية على الطراز الحديث كان من بينها منزل بسيط من دور واحد على ربوة عالية يضم ثلاث غرف وصالة وحمام وستائر على نوافذه تكشف عن مناظر خلابة تحيط بالقرية ، ومنها تبدو شلالات النيل الأبيض



تعتبر « جوبا » عاصمة الجنوب ، بها عدد من الكنائس و الجمعيات التبشيرية التي تدرب أبناء الجنوب على الزراعة والصناعة

والأشجار الأستوائية . عرفنا أن هذا المنزل بنى عام ٦٣ كاستراحة خاصة للرئيس الراحل جمال عبدالناصر عندما زار جنوب السودان عام ١٩٦٣ ، وقد بنى المنزل خصيصا للرئيس عبدالناصر ومن يومها أعتبر استراحة لكبار الزوار ، وكانت الاستراحة من نصيب السفير أحمد عزت عبداللطيف والملحق الحربى للإقامة فيه أما بقية الوفد من مراقبين عسكريين وضيوف أخرين من الوزراء الجنوبيين فقد وزعوا على منازل أخرى .

بعد غروب الشمس بدأنا نسمع من بعيد دقات الطبول القادمة من قلب البلدة نفسها ورأينا سيارتين تحملان عددا من نساء وفتيات البلدة تصعدان الجب لتصلا إلى الموقع الذى نحن فيه اعتقدنا لأول وهلة أنها ربما تكون فرقة للفنون الشعبية قادمة لتقدم عرضا فولكلوريا للوفد المصرى .

امتدت الموائد فى ساحة فسيحة وجلس الضيوف على مصاطب ، ودقات الطبول تقترب من المكان والسيارتان تصعدان الجبل تنطلق منها صيحات النساء ، «وجوزيف لاجو» يرحب بضيوفه سعيدا بحضور الوفد المصرى ، ويبدو عليه الزهو أمام أبناء قبيلته من الجنوبيين وأمام سائر الوفود والشخصيات السودانية .

لقد نجح فى أن يأتى بمصر إلى هنا ممثلا فى وفد كبير دبلوماسى وعسكرى

وصحفي بعد أن قدمت مصر لأبناء الجنوب هذا الدعم الذي تمثل في بناء مستشفى عسكري متنقل وكوبري على نهر السوباط ومعنى ذلك أن الجنوب ليس معزولا أو مجهولا ولكنه واقع في دائرة الاهتمام من قبل المصريين كان هذا المعنى هو الرسالة التي يريد أن يبلغها «جوزيف لاجو» لأهله من سكان الجنوب .

وصلت السيارتان اللتان تقلان عددا من نساء القرية اللاتي ارتدين الملابس المزركشة بألوانها الزاهية ، وبدا على وجوه الحاضرين من الجنوبيين البهجة .

لم تكن النساء اللاتي أقلتهن سيارتان كبيرتان أعضاء في فرقة للفنون الشعبية ولكنهن مجموعة مختارة من فتيات ونساء القرية جئن للترحيب بالوفد المصري وإقامة حفل «تريم ترم» كما يسمونه ، وهي عادة وتقليد من تقاليد بعض القبائل في الجنوب للترحيب بضيوفهم ، وهو بمثابة حفل زواج . فالنساء ينزلن إلى هذه الساحة المحاطة بالمصاطب التي يجلس عليها الضيوف وأمامهم الموائد عليها مالذ وطاب من الطعام والشراب . يرقصن تلك الرقصات الجنوبية وكل واحدة من حقها أن تشير إلى من تختاره للرقص معها وإذا استجاب لإشارتها فمعنى ذلك أنها ستكون زوجته في هذه الليلة فليس الأمر مقصوراً فقط على الرقص والطعام .

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل وحفلة «تريم ترم» على أشدها ، ينزل الرجال يرقصن مع النساء تلك الرقصات الأفريقية ودقات الطبول لا تتوقف . فجأة أشارت إحدى السيدات إلى السفير المصري للرقص معها فنظر إلى من حوله مرتبكا متسائلا : «هل تقصدني أنا»

ضحك «جوزيف لاجو» ومرافقوه في سعادة قائلين «نعم تقصدك أنت» .

مهمة صعبة

أدرك السفير ساعتها أن أمامه مهمة صعبة فهو أمام موقف دبلوماسي عليه أن يتصرف فيه دون أن يدخل العامل الشخصي فيه أي أعتبار ، وكان عليه أن ينزل الساحة إستجابة لهذه السيدة نظر إلي وقال في لهجة اختلط فيها الجد بالمزاح : «أياك أن تلتقط لي أية صورة .. الوحيد الذي رقص هنا هو «صلاح سالم» ، ونزل إلى ساحة الرقص وقد تخلص من جاكتته فصفق له الحاضرون واستجاب للسيدة الجنوبية ورقص معها كما يرقص الجنوبيون لمدة خمس دقائق ، بعدها أسرع إلى غرفته بالأستراحة معتذرا من «جوزيف لاجو» ومساعديه ، فلم يلحوا عليه ، وبقيت أنا .. وبجواري العقيد محمود .. الضابط العسكري الشمالي الذي رافقنا في هذه الرحلة منذ أن خرجنا من الخرطوم .. طوال الرحلة كان وقورا متحفظا منضبطا يتحدث معنا في أمور جادة خاصة أنه حصل على دورة عسكرية في أمريكا . ما أن بدأت حفلة «تريم ترم» حتى رأيت العقيد «محمود» شخصا آخر ، تبدد منه الوقار والتحفظ والانضباط ، وانطلقت الضحكات وفكت القيود، مثله مثل غيره من الحاضرين من وزراء ومرافقين شماليين وجنوبيين فالليلة ليلة الـ تريم ترم» .

وهممت بالانصراف والتوجه إلى غرفتي مثل السفير والملحق الحربي .. ولكني منعت بتعليمات من «جوزيف لاجو» .

أدركت أنني في موقف على أن أبذل كل جهدي للتخلص منه .. تأملت وجوه النساء وأجسادهن .. فحدث داخلي نوع من التراجع أدى إلى إستحالة قبول

الدعوة .. تظاهرت بأنى جالس فى مكانى ولن أتوجه إلى غرفتى ، وحمدت الله أننى لم أتلق حتى الآن إشارة من أى واحدة لكى أرقص معها ..

كانت الدعوة التى وجهت لى من قبل الجنوبيين يتمناها كل من جاء إلى هذا المكان من السودانيين سواء كانوا شماليين أو جنوبيين . عدت أتأمل مرة أخرى وجوه النساء بشكل محايد ، وجوه سوداء أبنوسية ، واضحة المعالم ، العيون واسعة والأنف كبيرة والشفتان كبيرتان .. يرقصن والابتسامة على وجوهن .

وفعلت ما فعله السفير .

استجبت لدعوة الرقص ، ونزلت إلى الساحة ملتزما الصمت وعدت إلى مقعدى راجيا السيد «جوزيف لاجو» ومساعديه أن يعفنى من قبول بقية الدعوة والاكتفاء بتلبية جزء منها ، وبعد محاولات معهم لاقناعهم بالاكتفاء بهذا القدر استجابوا لرغبتى وبذلك تحررت من أثار «تريم ترم» بينما اندمج رفاقنا من الشماليين فى هذه الاحتفالية الصاخبة التى امتدت لساعة متأخرة وامتلأ المكان بالضحكات والصخب والإثارة .

كسر البيت !

شرح لنا أحد الجنوبيين معنى هذا الاحتفال فقال: إنه يقام فقط لتكريم ضيف عزيز وأنتم كمصريين ضيوف وأخوة أعزاء ، ويعتبر هذا الاحتفال بمثابة زواج جماعى ، والفتاة هى التى تختار الرجل الذى تريده وهناك شرط قبل أن يدخل عليها وهو أن يدفع لها مايسمى .. «كسر البيت» وهو بمثابة مهر لها يتمثل فى مبلغ من المال أو هدية تلائم المناسبة ، وفى بعض القبائل يكون «كسر البيت» كمية من الأبقار أو قطعة حديد تستخدم فى الزراعة بديلا عن المال .. ومن يرفض قبول هذه الدعوة من الضيوف فكأنه أهان القبيلة وصاحب الدعوة .

فهمنا من الجنوبيين أن مثل هذا الاحتفال ليس احتفال «مسخرة» واختلاط الحابل بالنابل، ولكنه وفق تقاليد القبيلة زواج جماعي تقام فيه الأفراح والتعبير عن الفرحة والبهجة بالرقص المستمر ودق الطبول وتناول الطعام والشراب .. ومادام الرجل قام بما عليه وهو «كسر البيت» فالمرأة تصبح زوجته ولو لليلة واحدة وحتى لو انصرف كل واحد بعد ذلك إلى حال سبيله وإذا أنجبت منه يصبح الطفل ابنا لها هى التى تربيه وترعاه حتى لو اختفى ذلك الزوج .

أمضينا ليلتنا وسط أجواء وصفها السفير عزت عبداللطيف بأنها أجواء أوبرالية كوميدية، وأستقيظنا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، تناولنا افطارنا مع السيد «جوزيف لاجو» والوزراء تحت شجرة ضخمة يبدو أن عمرها تجاوز مئات السنين ، هى من نوع شجر «التبلد» وهذا النوع من الأشجار معمر، وكان المستكشفون الاوائل فى القرن التاسع عشر يستظلون تحت هذه الأشجار ولا ينسوا أن يكتبوا عليها أسماءهم التى ظلت مكتوبة لفترات طويلة ، وتحت هذه الأشجار تقام الندوات والمؤتمرات السياسية والاحتفالات القبلية .

***

عدنا بالسيارات مرة أخرى إلى مدينة «جوبا» لنبيت فيها وفى اليوم التالى استقلينا نفس الطائرة العسكرية التى حملتنا من الخرطوم وعدنا إلى الخرطوم مباشرة دون التوقف فى مدينة أخرى . ■

نص تشكيلي

نذير وشلبية

وصفاء القلب

قصة حب في الفن وفي الحياة

بقلم
عدلي رزق الله

«الفتى نذير» ابن البستان الدمشقي، في عنفوان سنوات الشباب الأولى حيث تدفق نبع الصبا في بساتين دمشق الفيحاء، ومقاهيها الحنونة آنذاك، وتلك الدندشة في المطرزات وذلك الوشي في المجوهرات والمشغولات الذهبية وبريق الخزف الاسلامي الذي تألق في الشام و.. و.. إلخ. جاء «الفتى نذير» الذي تربى على كل هذا الى القاهرة عام ١٩٥٩ لدراسة الفن بها. نذير ربع القامة، يميل الى الاعتدال في كل شيء. معتدل الطول، معتدل القوام، معتدل الطبع، لا تفضحه إلا لفحات عشق وشبق للجمال في الحياة. تشتعل عيناه ويلفح وهجها بريق عينيه لمن يريد أن يرى بقلبه. هذا كان حال فتانا حين جاءنا عام ١٩٥٩ .

شعبان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

كل ما أكتبه ليس نقدا في الفن التشكيلي ولو أن به بعضا منه، كما أنه ليس تاريخا ولو أن به بعض التوثيق الصادق لمن يريد. كتابتي يحلو لي أن أطلق عليها «نصا تشكيليا» وهذه التسمية ليست من عندي تماما.

الفتاة شلبية

«الفتاة شلبية» ابنة الدلتا الخيرة..

(الفتاة والطائر) للفنان نذير نبعة ◀



ولدت وتربت فى أحضان طبيعة يرويها ماء النيل. تمرغت فى تراب أرض جزى إحدى قرى المنوفية. جنية لعوب بغواية طفلة شقية. عطشة الى الحكايات وخاصة تلك التى كان يرويها الأب. تقول شلبية: كان أبى يضفر لى شعرى فى جدائل طويلة. ما أرق الفلاح المصرى حين يحب. شلبية غجرية الملامح، صاعقة الجمال فى خفر وحياء، مقتحمة ولائذة بالخجل الرمانى، يتجلى كل هذا فى تتابع وتناغم يأسر القلوب التى «ترى» والعيون التى «تحس».

الشبه :

يلتقى لفح العشق وشبق الحياة فى الفتى الدمشقى بغجرية الملامح، صاعقة الجمال بخفر وحياء فى الفتاة المصرية.

وكان لابد أن يحدث !

ماخلق الحب الا من أجلهما .

وصرع الحب قلب الفتاة، وذاب قلب الفتى وجدا. صريحة كأرض الدلتا المعطاءة. تدفق دفق الحب طبولا الى القلب الغجرى. لابد من البوح. أين لها من كلمات لا تملك حقا القدرة على التعبير عما يجيش فى داخلها؟ فتاها يرسم، فلترسم له رسالة حب .

وترسم له ..

خطوط تلقائية بها من جرأة رسوم الأطفال ما بها. رسوم بها من أحلام فتيات ريف مصر مابها . رسوم بها جنيات النيل وساحرات الحكى مابها. ويولد للفن المصرى إحدى جنياته ..

عاشقة للفن لا تعرف الحدود الفاصلة بين واقع وحلم. أتخيلها وهى تقدم له رسمها الأول. يتراقص قلبها دلعا وشقاوة. تحنى فتاة السابعة عشر رأسها فى خجل هاربة من عرامة حسية لا تملك لها دفعا حتى يومنا هذا .

بطرف عيون الأنثى ترى ألق عينين اشتعلت بشرارات حب ولدت متوهجة منذ الآن والى الأبد. يحتضن «الفتى نذير» «رسوم شلبية»، ولم يرض ابن البستان الدمشقى أن يسجن كل هذا الجمال فى رسائل حب شلبية له فشاركنا نحن زملاؤه فى هذا النعيم. يهمس استاذنا بيكار كعادته - وهمس بيكار أقوى من قرع الطبول - قائلا :

- اتركوها ترسم بكامل حريتها. لا تفسدوا تلقائيتها بالتعاليم الأكاديمية ذلك الطريق الوعر الذى هو لكم.

الزواج الفني

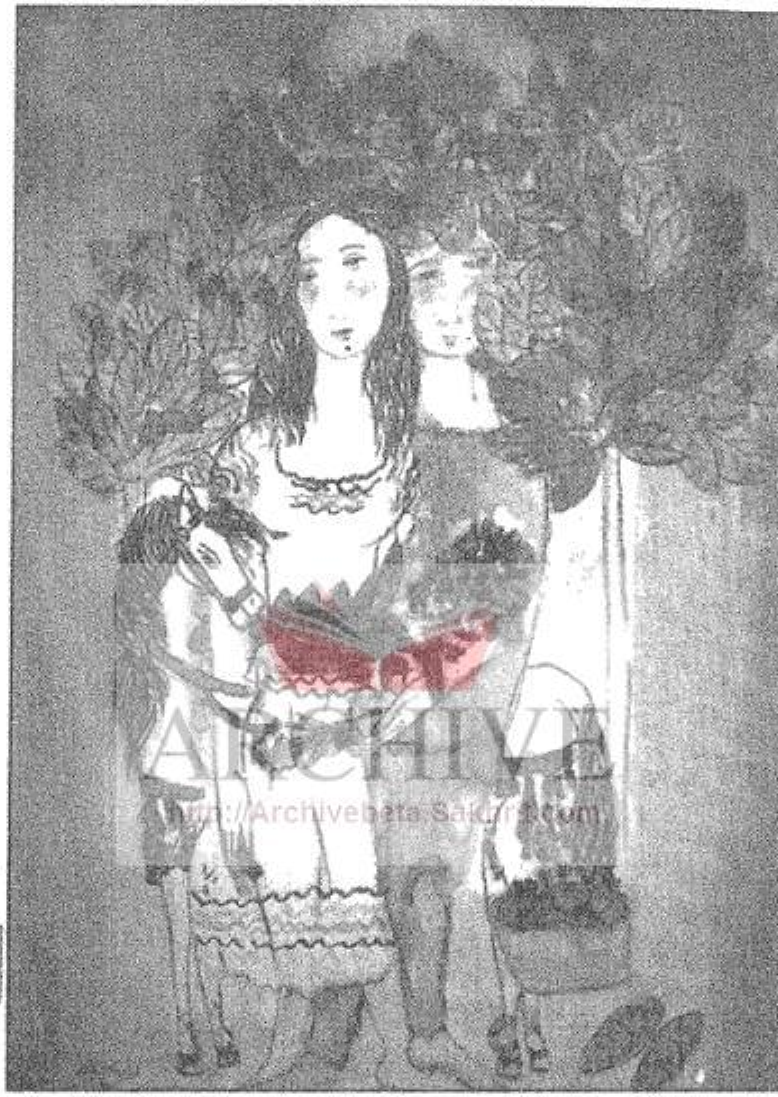
أحب نذير شلبية الى حد الزواج..

وأصبح لأصدقائه بيتا يتجمعون فيه على مائدة ثرية الى حد البذخ «طبلية» مشتراة من سوق إمبابة الشعبى القريب من المساكن الشعبية والتى اقتسم فيها نذير المكان مع عائلة عامل مصرى. حلة العدس العبقة، واللبنة الدمشقية هى والحمص يرتعان فى زيت الزيتون. بعض الجرجير الطازج والفجل الأخضر اليانع، أكواب الشاى المنتقاة بعناية والتى تلمع من فرط نظافة الأنثى الفنانة تفوح منها روائح الشاى مختلطة بروائح النعناع العطرة. يلفحنا بخار الشاى الساخن والذى يزيل برودة صقيع ليالى الشتاء .

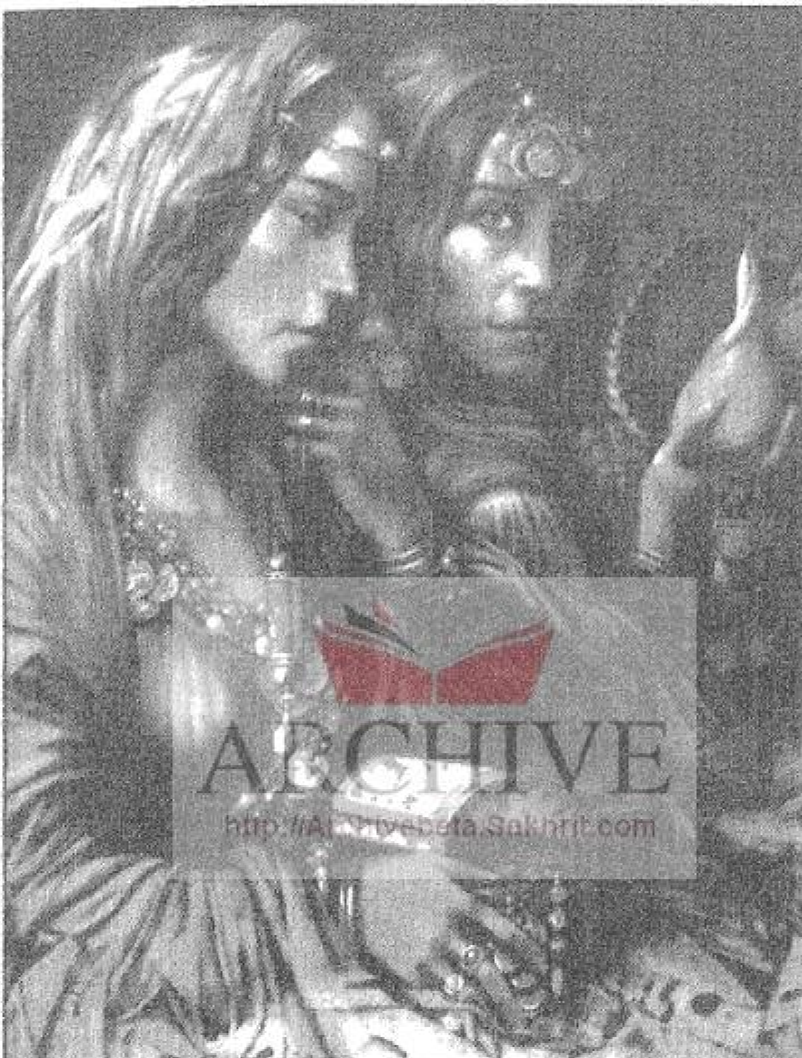
الى جوار كل هذا الدفء الانسانى تقدم لنا شلبية وجبة دسمة من رسومها وأشترى أول عمل منها بخمسة جنيهات مصرية وكان ذلك عام ١٩٦٢ .

طريق نذير الفني

كان نذير رساما متمكنا منذ بداية الدراسة. لفتت قدراته العالية فى الرسم



«الفتاة والحبيب» - شلبية ابراهيم



«دمشقيات» - نذير نبعة

١٥٨
شعبان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

أنظار الأساتذة وأنظارنا أيضا. أحب الفتى الدارس أستاذه «درويش» - رحمه الله - وكان سيزاني الهوى. ذهب الى حسين بيكار والذى كان قد تفرغ لمعشوقته الصحافة تاركا التدريس، ولم يبخل بيكار عن إرواء عطش نذير الى التعلم ويذكره نذير دائما بكل خير. يعود نذير الى دمشق ويبدأ طريقه الفنى الذى تميز دائما بالتدفق، والجدية، والاستمرارية والتميز أيضا . بحث فى البداية عن وجه عربى لفنه وكان له ما أراد. يسافر الى باريس عام ١٩٧١ بعدى بشهور قليلة. كان لى شرف إخراج وتنسيق مجموعة اللوحات التى قدمها كمشروع للتخرج، وفاز نذير بالمرتبة الأولى على جميع أقسام كلية الفنون بباريس. تقلب طريق نذير بين تشخيص مخلص للطبيعة الى حد محاكاتها ، وتجريد شاعرى يذكرنا ببعض أعمال رمسيس يونان الأخيرة دون أى شبهة تأثر أو تأثير فالأصالة كامنة فى أعمال فناننا .

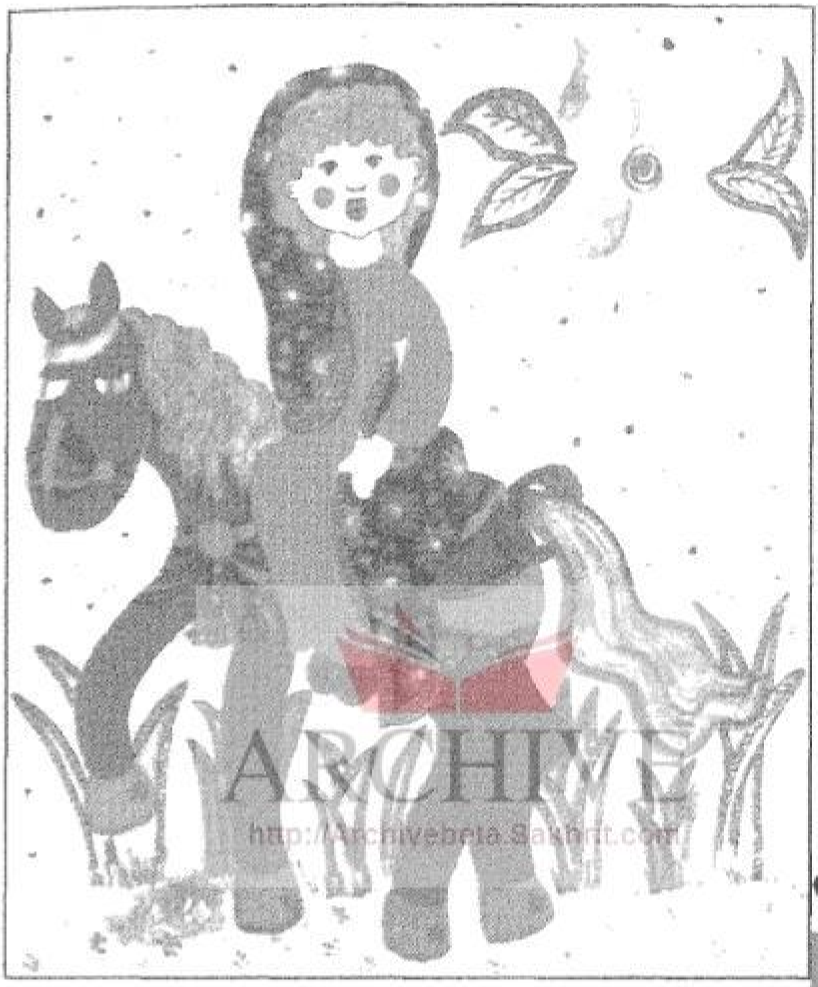
صفاء ابنة الفن

حين تزوج نيل مصر أرضها وهبتنا الحياة شلبية، وحين تزوجت الفلاحة المصرية البستان الدمشقى أعطتنا الحياة «عمار» الذى وهبنى حب الابن وتدفق احساس الأبوة. حين كنت أضيق بعالم الكبار كنا نصرخ معا «إحنا بتلعب بعيد» وكان لنا هذا العالم البرئ أهرب مع عمار إليه. قلت يوما لنذير: تركتما تعملان أنت وشلبية وصار لى إبنا .

أما عن صفاء فحدث ولا حرج. ولدت عام ١٩٧٠. درست الأدب الفرنسى. عادت بحنين الى مصر - الدم يحن - لتتزوج شابا مصريا . ترسم للأطفال وتمتهن تلك الحرفة التى برع فيها الأب والأم وورثتها الفتاة وراثة طبيعية حقا . يقع الاستاذ عبدالوهاب المسيرى - شفاه الله - فى هوى رسومها ويختارها لترسم له كتبه فى دار الشروق. لقاء أجيال ورمز للحب أيضا تستحقه الفتاة ويقدر عليه القادرون وفى مقدمتهم صديقى عبدالوهاب المسيرى. فى العادة لا يعجبنى العجب كما يقولون، لكننى أحببت ما تفعله صفاء لأنه بعيد كل البعد عن غوغائية تجارية طغت على حال الرسم للأطفال. أحسست تجاهها بأبوة فنية فيما يخص الرسم للأطفال مثلما أحسست تجاه عاصم شرف الفنان التشكيلى فيما يخص اللوحة . أقدم لكم نماذج من أعمالها لكننا ننتظر منها الكثير وهى فيما أرى قادرة وواعدة.

عائلة فنية انتنست بها فى الفن والحياة. قلت لنذير بعد أن زارنى هو وشلبية فى «بيت المانيالى»: البيت بعد زيارتكم ليس هو ما كان قبل الزيارة رسمت شلبية رسالة حب للمكان وصاحبه - ذكرتنى برسائل حبها الأولى - وقالت لى : هذا هو هدهدى الذى جاءنى فى الحديقة، وهذا هو الطاووس الملون رأيته حين أغمضت عينى. هذه - أنا - ضحكت فقد كانت لا تتعدى السابعة عشرة فى الرسم - وهذه وردة لك .. ونظرت اليها شاكرا . كلما كتبت عن تلك العائلة أحسست بعجز قلمى عن تعبير مستحق لذا سألجأ فى نهاية هذا المقال الى صناع الكلمة ومحترفيها فماذا قالوا :

يقول حسين بيكار



« عبلة » - صفاء نبعة

.. أمام لوحات شلبية يدرك الانسان قيمة الموهبة الجوهرة الكامنة فى أعماق الذات وتلافيف اللاشعور .. ويدرك أيضا معنى الثقافة بمفهومها العميق ومدلولها الأصيل.

وهذا الفيض المتدفق والسهل الممتنع. وهذه الشاعرية غير المفتعلة. هذا النقاء العذرى والصفاء الطفولى، هذه الرؤية التى تفيض كالنبع لتحيل الكون الى جنة وتحيل الحياة الى حلم جميل هى السر الذى يفتقده فنان العصر ..».

ويقول عبدالرحمن منيف :

«.. حين التقيت أول مرة بلوحة شلبية إبراهيم، ارتددت الى طفولة منسية، تيقظت فى داخلى مشاعر خلتها قد انتهت لفرط ما مر عليها الزمن ..

.. الأشياء فى لحظة تكونها، الحياة فى براءتها الأولى .

ويقول علاء الديب

«.. فى أعمال شلبية ابراهيم نجد أنفسنا حيال عالم حر يتكون لوحة بعد لوحة، وتمتد حدوده مع اتساع قدرة الفنانة على اكتشاف نفسها وعالمها اكتشافا حقيقيا لا زيف فيه ولا تقصير ولا افتعال، إنها لا تتوقف عند قواعد أو حدود لوحاتها. لا تقيم رمزا ولا تطلق شعارا .

إنها ترسم.. لكى تخاطبنا جميعا فى لغة قديمة جديدة، لغة هى فيها - وحدها - الناطقة، وهى وحدها المرجع والقاموس..»

وتقول نادية خوست :

«.. لا شىء ساكنا فى لوحاتها. ولا شى سجينا. أعضاء المرأة حرة وجسمها لين. لذلك تبدو كالطيور والأسماك والجنيات. وينساب شعرها المرسل كأعشاب البحر أو ذؤابات الخيول. ويتجول القمر فهو شاهد على سحر المرأة وهو لون وجهها . وهو الشريك فى العناق. يطل من النافذة وينام معها فى السرير، ويغسلها بالضوء..».

ويقول أسعد عرابى عن نذير:

«.. محترف نذير نبعة وعرض دائم، والعبور الى محرابه أشبه بالسفر فى حنايا منمنمة أو تحلية أو رقش إسلامى، أو محفورة زخرفية دمشقية، يعانق كل ما يحتشد فى البيت المحلى من مناخات حميمة وعناصر تعويذية أو مباركة، تتسرب من المحترف الى بواطن لوحاته. تسكن زواياها الحنونة وأجساد الراقصات اللواتى يمتثلن بالأضاحى أمام المذبح، يغلفهن مع المعبد والقصر سحاب من البخور المشتعل بفوانيس ليلية، نعثر فى طقوس هذا الفراغ على أكداس الأرائك والطنافس. على أنواع الريحان والياسمين، على أصناف العقود والأحجبة والغطاءات الحريرية والسراويل المملوكية، والنحاسيات وأنواع الآلات الموسيقية الشرقية .. وعلى جماهير الفواكه العجائبية المحمولة على بساط الريح مما تحفل به غبطات ألف ليلة وليلة، ومما تزدان به مذكرات وذخائر طوق الحرير والبخور والعطور والتوابل والحكايات المنقولة على قوافل رحلات الشتاء والصيف. من أغوار الشرق البعيد المدفون خلف البحرات والأوانى والشربيات الدمشقية المنهارة والمندثرة فى بواطن الأسمنت..».

قصة قصيرة

نقوش طباشيرية

بقلم
نعمات البحيري



ذات ليلة حين كنت أشب لأرفع [illegible] لم [illegible] سمعت أمي وهي عائدة من عند الجيران تقول لهم

- تصبحوا على خير.

كان صوت [illegible] شاحبا الغاية وكذلك وجه أمي وكذلك صار صوت [illegible] وأنا أسمع الجارة ترد..

- وأنتم من أهله..

لم أكن أفهم ما هو الخير وكيف يصبح الجيران عليه وكيف يمكن أن نصبح من أهله، كما لم أفهم لماذا طلبت أمي توزيع [illegible] الكبرى على [illegible] بعد [illegible] لها، وحين أتيت أختي باكية، عادت إليها أمي [illegible] شديد [illegible] الليلة، وانكسر [illegible] أمي وبدا ذلك واضحا في عينيها وفي [illegible] على كتف أختي قائلة:

- [illegible] عليكي من كلام الجيران.. [illegible] سمعة.

أربكني كلام أمي كثيرا ورحت أفكر كيف نخشى من الجيران وأنا أرى أختي فتاة [illegible] للشباب وأرى أبي رجلا [illegible] وأمي كذلك وأرى الجيران يحبوننا ويحبهم.

في الصباح حين نزل [illegible] كل إلى [illegible] ومدرسته وكليته، كانت الأسئلة مازالت تعبث في دماغي [illegible] وظللت وأمي في البيت على الرغم من أن [illegible] الماضي لم يكن [illegible] بيننا وبينها [illegible] من [illegible] محدودة [illegible] ما [illegible] تجلس مع أمي [illegible] [illegible] بالثلج والعطر.

كان [illegible] على [illegible] أمي [illegible] عرض [illegible] [illegible] ولم يعن [illegible] [illegible] والثلج.

كنت [illegible] الطباشير وأعلى السطح لأرسم على البسطة الممتدة بين شقتنا وشقة الجيران مستطيلا [illegible] من الطباشير، وأظل [illegible] للعشاء إلا أن [illegible]

مكانا ليمر النازل أو الطالع، كنت أسمع من خلال لعبتي أصوات الضحك والبكاء والشجار والحوارات القادمة من كل شقق الجيران.

لم يمض وقت طويل حتى عرفت كل قصص الحب، المعلنة والمستترة بين بنات الجيران وأبنائهم كما عرفت قصصا أخرى عن الفقر والحاجة والعوز. وكانت حاسة السمع عندي أقوى الحواس. كنت ألقى الحجر وأحجل حجلاتي فتأتيني قصص أخرى، ظلت اللعبة وظل الحجر هما المفتاح السحري لعالم حكايات الناس، ألقيه وأحجل فتصلني حكايات وأصوات ومشاجرات لا أفهم أغلبها لكنني كنت أتعاطف مع الناس جميعا.

كان الحجر يتجاوز المربعات الطباشيرية على البسطة ليخبط باب شقة الجيران. وحين أجري لآتي به، تخبط أذني كلمات الجارة بما يشبه كلام أمي لابنتها التي



تبكي وتذكرني ببكاء أختي وتختمه الجارة بالجملة التي صارت قدر بنات الجيران في البيت والشارع وربما الحي كله «البنت سمعة»..

كنت أنحني لأحمل الحجر وأعود به إلى بداية المستطيل الطباشيري الممتد وقد فهمت أن الجيران يخافوننا كما نخافهم، لكنني أيضا لم أفهم من «سمعة» هذا؟

ولما زاد بكاء بنات الجيران واحتد صوت الأمهات أخذت إصبع الطباشير وحجري الصغير ونزلت الدرج بحثا عن حكايات مبهجة، وفي البسطة ما بين شقتين في الطابق السفلي رسمت مربعا طباشيريا آخر، ووقفت ألعب لعبتي، ألقي بالحجر ثم أحجل خلفه حتى أدركه، وما أن أبلغ المربع الأخير حتى أسمع جارنا الذي ماتت زوجته منذ عام تقريبا يزجر ابنته التي تحادث ابن الجيران وزميلها في الجامعة وهو أخي.

قال جارنا كلاما يشبه ذلك الذي قالته أمي لأختي وقالته جارتنا لابنتها وكان «سمعة» هو العامل المشترك في حالة خوف البنات وهلع الأمهات والآباء.

فهمت أن الجيران يخافون بعضهم البعض، كما فهمت أن «سمعة» هذا الذي لم أره أبدا يحتل الأحاديث السرية بين البنات والأمهات، سألت أخي عن «سمعة» فلم يضف إليّ كثيرا، فقد كان مشغولا عني بأحواله مع بنت الجيران.

وحين سألت خالي الذي أحبه ربما أكثر من أبي وأمي أو هكذا خيل إليّ، ضحك وأخبرني أنني مازلت صغيرة.

حين نزلت الشارع سألت صاحب محل «خردوات النهضة» ذلك

الذي لا تخلو دكانه من البنات، فضحك وأخبرني أن «سمعة» هو اسم التدليل لإسماعيل، ولم يكن بين جيراننا وفي الحي كله ما نعرفه بهذا الاسم.

وفي وقت العصاري جلست أختي مع بنات الجيران، ورحن يشربن الشاي ويسمعن أغنيات محطة أم كلثوم وكل واحدة ترتب أن الأغنية القادمة هي حظها القادم. كانت الأغنية لعبد الحليم ولم أفهم معنى الكلمات لكنني كنت أحس بحزن وشجن ورأيت البنات يخرجن المناديل ويبكين مع الأغنية فسألتهن جميعا.

الغريب أنهن ما أن سمعن سؤالي هذا حتى تحولت حالة الشجن إلى ضحكات بعيون دامعة وتلا ذلك صمت مهيب.

لم تجبني واحدة، حتى قطتي راحت تهز ذيلها رغبة في أن تبول في المكان المخصص لذلك، فأوصلتها إليه وسرت نحو سريري وفي جيب فستاني نسيت الحجر.

في الليل رأيت «سمعة» هذا الذي يخيف الآباء والأمهات ويبكي البنات، هو بعينه، رجل قبيح، طويل، عريض، ومثل قطتي رحت أتشبث في ثيابه وأتسلقه حتى أدركت منطقة قريبة من رأسه، وكنت قد تعبت فجلست في ركن ناء من كتفه لأستريح ولو قليلا ثم بدأت أكسر رأسه بحجري حتى حطمتها تماما، وكنت أسمع دقات قلبي وصوت أنفاسي وأنا ألهث من شدة التعب والفرح لأنني حطمت رأس «سمعة».

وفي لحظة رأيت الرجل وقد نبتت بين كتفيه رأس أخرى، وما



أن بدأت في تكسيرها بحجري حتى رأيت رأسا أخرى تنبت إلى جوارها ثم روساء، فتنشط في نفسي الرغبة في تكسير كل الرؤوس واحدة واحدة.

كان الرجل يضحك مثل مارد ضخم تتطاير النيران من عينيه وفمه وفتحتي أنفه.

وعلى مبعدة من منطقة الحلم كبرت ودخلت الجامعة وانتميت إلى جمعية نسائية وعملت كصحفية في إحدى المجلات وقرأت وعرفت وثرت وتحررت وكتبت كثيرا في تحرير البنات من الخوف من رجل يدعى «سمعة» وكنت حقا هشمت رأس سمعة تماما.

كان صوت أمي يصرخ في أذني، كانت ترجني بشدة لتوقظني وهي تنهرني لأنني قمت بتجريح طلاء الجدار الذي أنام إلى جواره. ■

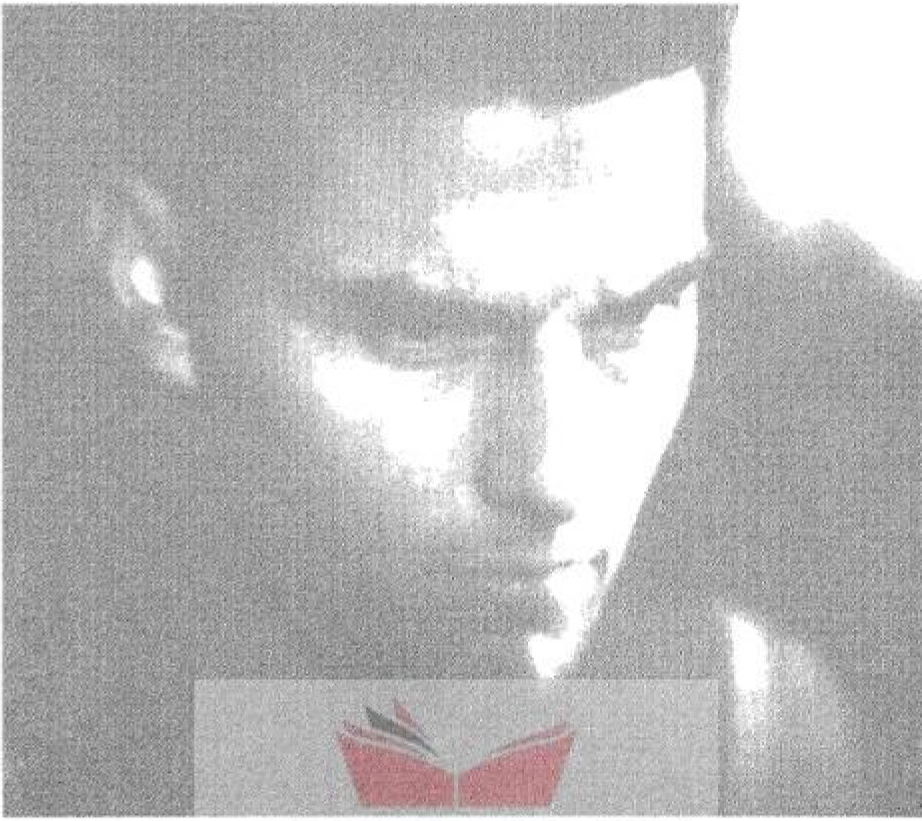


الواقع الذى ليس فيه شك هو ان السينما فى مصر تعانى من حالة فوضى، ضربت بجذورها فى مجال عرض الفيلم، على نحو غير مألوف، فى بلد عنده صناعة سينما، لها من العمر سبعون عاما، أو يزيد.

ولكن نظرة يسيرة سريعة فى مسيرة السينما عندنا، بدءا من منتصف القرن العشرين، تكفى لاقناعنا بأن حظ حالة الفوضى هذه من الجدة، يوشك ألا يكون شيئا.

كل ما استجد هو استفحالها إلى حد، قد لا يرجى معه شفاء.

وليس أدل على ذلك، ما طرأ على مواعيد طرح الأفلام للعرض فى دور السينما.



فأيام زمان كان الصيف يعتبر فصلا ميتا، لايعرض في أشهره الا الساقط من الأفلام، لا لهدف سوى سد الفراغ.

وبالعكس كان رمضان شهرا مفترجا، تعرض في أسابيعه أهم الأفلام.

الغزو الفكري

غير أنه، تحت تأثير البث التليفزيوني المجاني، بدءا من عقد الستينات.

وتأثير الغزو الفكرى المؤثم للصورة المتحركة، حال عرضها في دور سينما - وليس داخل البيوت، حيث لا تأثيم، مثلما يحدث في السعودية، حتى يومنا هذا.

ضلت السينما في مصر السبيل.

فاقتصرت عروض الأفلام المصرية على أشهر الصيف والاعياد.

وتوقف طرح أفلام جديدة، سواء كانت مصرية أم اجنبية، في أثناء شهر الصيام.

هذا إلى جنوح اصحاب هذه الدور، خاصة ما كان منها لايزال



مملوكا للقطاع العام، جنوحهم أثناء الشهر الكريم، إلى اغلاقها بالضبة والمفتاح.

ومن الأعاجيب الناجمة عن هذه الفوضى الخانقة، إنه ما أن يأخذ رمضان في الاقتراب، حتى يكاد يصل إلى العدم عدد الأفلام المطروحة للعرض في دور السينما.

وفي نفس الوقت، يزداد عدد الأفلام الأجنبية المطروحة، انتهازا من اصحابها لفرصة لا تعوض، هي سد الفراغ الناتج عن اختفاء الفيلم المصري، وضرورة الإسراع بملئه بأفلامهم، وذلك قبل انتهاء الفسحة السابقة على ظهور هلال رمضان.

صعوبة الاختيار

ومن هنا كانت ظاهرة كثرة عدد الأفلام الأجنبية المطروحة في دور السينما، على نحو يصعب معه الاختيار بين جيدها ورديئها.

ومن آثار هذا الطرح غير المحسوب حسابا علميا، ضياع كل ماله قيمة، وسط ركام الافلام.

وهذا ما حدث بالفعل لاربعة افلام قيمة هي محمد على، الهوية المجهولة، قبل وقوع الجريمة، وطريق الهلاك.

فلقد مر عرضها مر الكرام، رغم أن من بينها فيلمين لمخرجين سبق لهما الفوز بالاوسكار، هما ستيفن سبيلبرج وسام مندز.

والأول يعرف عنه ترشيحه أكثر من مرة، هو وبعض أفلامه للأوسكار، وفوزه بها هو وفيلمه قائمة شندلر، ثم فوزه بها عن اخراجه لانقاذ النفر رايان.

اما الثاني، فقد فاز بها، أي الأوسكار، هو وفيلمه الجمال الأمريكي.

وكم كنت اتمنى أن أعرض لفيلميهما الاخيرين تقرير الأقلية، وترجمته التجارية عندنا، قبل وقوع الجريمة، وطريق الهلاك. غير أن ضيق المكان والزمان، لا يتيح لي فرصة ان اعرض لهما في حديث واحد.

وتبعا لذلك، كان لزاما على أن اختار.

وظل الاختيار بينهماأمرا متأرجحا تارة لصالح تقرير الأقلية وتارة أخرى لصالح الطريق الى الهلاك، إلى أن رجحت الكفة لصالح فيلم سبيلبرج، بفضل حادث عابر، ربما لولاه لكان

فيلم مندز هو الفيلم المختار ، لا لسبب سوى أن صاحبه مخرج شاب، لايزال فى بداية الطريق، لم يبدع للسينما حتى الآن إلا فيلمين، أولهما الجمال الأمريكى الذى أهله، بحق للفوز بالأوسكار.

قوة القدر

ورغم هذا الفوز الذى قل ان يجود بمثله الزمان السينمائى، رغم ذلك، فلا نعرف من امره الا أقل القليل.

وقد يضيف الحديث عن فيلمه الثانى الذى يتقاسم بطولته توم هانكس وبول نيومان، وكلاهما من كبار نجوم هوليوود المتوجين بالأوسكار.

اقول قد يضيف بعض الشيء إلى القليل الذى نعرفه عنه لماذا صعد صعودا مفاجئا، وهل سيكتب له الاستمرار نجما فى الإخراج لا يشق له غبار.

فى حين أن سبيلبرج عكس ذلك تماما ، مخرج غنى عن التعريف أفلامه وسيرته ملأت الدنيا، وشغلت الناس ورأى فى حياته موكب صيته يطوف من مشارق الأرض إلى مغاربها، وكأنه قيصر بعث حيا.

والسؤال، بعد هذا الاستطراد، ماهو الحادث العابر الذى غير الميزان؟

بينما كنت ابحث عن شريط فيديو صحراء التتار، فيلم المخرج الإيطالى الراحل «فاليريو زورلينى»، وهو بحث استغرق ساعات.

إذا بى اعثر على شريط لفيلم آخر، كنت أظنه ضمن اشرطة ضاعت، دون امل فى ان اجدها .

هذا الفيلم هو اوديسا الفضاء ٢٠٠١ لصاحبه المخرج الراحل ستانلى كوبريك.

وحتى أطمئن على حالته أدرت الشريط .

وعلى غير المعتاد، كان فى حالة جيدة، تبعث على الإطمئنان.

فجر الإنسانية

ولم يكن فى وسعى وقف عرض الفيلم، إلا بعد فوات عشرين دقيقة، المدة المذهلة التى خصصها كوبريك من فيلمه لما قبل التاريخ، تحت عنوان، فجر الإنسان.

ففى هذا الفجر نرى الإنسان كائنا بدائيا أقرب فى شكله إلى فصيل الغوريللات.

وبعد بضع لقطات، محكمة التوليف، يستوقفنا ظهور لوح غامض، مستطيل، وسط طبيعة أشبه بصحراء جرداء، ومن حوله تقفز الكائنات



الشبيهة ببنى الإنسان.

وما هى إلا بضع لقطات، حتى نرى بعض هذه الكائنات.

وقد اتخذ من العظام أدوات واسلحة.

وكأن صاحب الفيلم اراد أن يقول إن اللوح الذى استوقفنا ظهوره يمثل الذكاء.

وإن الإنسان باكتسابه الذكاء، على وشك أن يدخل مرحلة قتل أخيه الإنسان.

وفى لقطة رائعة، مع خلفية، موسيقية من القصيد السيمفونى «هكذا قال زارا دشت» للموسيقار الألمانى ريتشارد شتراوس، يدفع القاتل بالعظمة أداته فى الانتصار على خصمه، فى الجو إلى أعلى.

فإذا بها تتحول ، وهى معلقة فى السماء، لا إلى رميم، وإنما إلى سفينة فضاء، تتهادى سابحة على أنغام الدانوب الأزرق للموسيقار النمساوى يوهان ستراوس.

وما أن مرت الدقائق المخصصة من الفيلم لفجر الإنسانية حتى كنت على يقين من أمرين.

تشاؤم وإيمان

ايمان كوبريك بأن وراء المحسوسات قوة لا يطالها الحس، فهى الجوهر، والمحسوسات أعراض لا غير، وهى المصدر والمآب.

وتشاؤمه من مصير الإنسان، وإن كان تشاؤمه ليس سوادا كله، بل فيه شيء من الاشراق لأن فيه شيئا من الأمل الذى يأتى من معرفة الإنسان بنفسه، انطلاقا من الذكاء.

والقدرة على المقاومة ، تأتيه من الإرادة، لا من شيء آخر .

ويبدو أن امل حياته، وهو فى سنى النضج الحكيم، انحصر فى إخراج فيلم يبثه ايمانه وتشاؤمه.

وبه يستكمل فيلمه اوديسا الفضاء الذى اخرجه قبل خمسة وثلاثين عاما.

ومن هنا قيامه بشراء قصة قصيرة من ذلك النوع المسمى بالخيال العلمى، للأديب براين الديس.

ويغلب على الظن انه احس بأنه ليس فى وسعه ترجمتها إلى لغة السينما.

سرّ النجاح

فاختار بديلا مولعا بتجاوز امكانياته وتجريب قدراته والانفراد عن معاصريه فضلا عن جمعه بين الايمان

بما وراء المحسوسات، والتشاؤم غير المسبوغ بظلمة قاتمة، ولا بسواد مخيف.

وكان هذا البديل سبيلبرج الذى حقق امل حياة كوبريك فى فيلم اختار له اسم الذكاء الصناعى.

وكعهدنا بأفلام كوبريك، كان الذكاء الصناعى. وإن كان من ابداع سبيلبرج، فيلما صعبا، عميقا، متحديا، من بين مشاهده التى لا تنسى، مشهد مانهاتان فى نيويورك، غارقة تحت مياه المحيط، بعد أن ذابت الثلوج، وغمرت بمياهها الأرض، ومن عليها.

ولأنه أى سبيلبرج، محب للعمل الى حد العبادة، وربما هذا هو سر العظمة فيه، والخيال العلمى صادف هواه، فقد عمل على إخراج فيلم تقرير الأقلية، فى نفس وقت قيامه بإخراج الذكاء الصناعى.

السلطة والاستبداد

وفيه عرض لمشكلات الإنسان المتصلة بعلاقته بالسلطة خاصة بعد الهول الذى انتشر فى العالم، بحكم الحرب المعلنة ضد الإرهاب

فهذه السلطة تبدو لنا قوة قاهرة، ماكرة، ليس لاحد عليها سلطان، لا من الناس، ولا من الحكام انفسهم وهذه القوة هى القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لا حكامه نقضا، ولا تغييرا.

ومكانها واشنطن العاصمة الامريكية، في زمن غير زماننا، وبالتحديد بعد منتصف القرن الحادى والعشرين باربعة أعوام.

ففى ذلك الزمن الموغل فى المستقبل تنجح وزارة العدل الأمريكية فى امر كان يعد إلى عهد قريب من رابع المستحيلات.

فنهاهم ضحايا القتل العمد، قد انخفض عددهم حتى اصبح والعدم سواء بسواء.

وبطبيعة الحال، لم يكن هذا النجاح المذهل وليد صدفة، وانما وليد وتدبير ابحاث علمية، بفضلها اصبح فى الامكان الحيلولة بين الشخص الذى انصرفت نيته إلى ارتكاب جريمة القتل، وبين ارتكابها بالفعل.

العلم بالغيب

اما كيف تحقق هذا الاعجاز فى كشف ابشع الجرائم، قبل ارتكابها، ثم افشالها فى نهاية المطاف، فذلك كان بفضل ثلاث عرافات، فى وسعهن رؤية جرائم المستقبل، يقمن فى مكان امين،



بمعــــزل عن الناس، عائمات فى مـــسبح بيــضــاوى الشكل، معماره ذو طـــابـــع اغريقى، يذكرنا بالمعابد اليونانية حيث كانت تقدم القرابين.

ويتبع هذا المكان الأمين إدارة اطلق عليها وحدة تدارك الجريمة برأسها الضابط جون اندرتون، توم كروز الذى يعمل تحت امرة رئيس اعلى لامار برجس ويؤدى دوره ماكس فون سيدو الممثل السويدى الذائع الصيت .

وفى محاولة من إدارة المباحث الاتحادية للتعرف على طبيعة نظام تدارك الجريمة، ومقدار نجاحه فى واشنطن ، حتى إذا اقتنعت به نظاما جديرا بالتطبيق عى نطاق قومى عملت على اعماله بطول وعرض البلاد.

اسندت إلى أحد ضباطها سدانى وتور» – كولين فارل – مهمة تفتيش وتقويم هذا النظام.

والفيلم يبدأ بمشهد رائع لزوج متربص لزوجته الخائنة، وكيف حالت وحدة تدارك الجريمة بينه وبين قتل زوجته، وهى فى احضان العشيق.

انقلاب الأوضاع

وما نكاد نفيق من هذا المشهد اللاهث ، حتى نفاجأ مع «اندرتون» - توم كروز - بصوره على الشاشات تبثها عقول العرافات.

وهاهو ذا متهم بجريمة قتل، سيقوم بارتكابها بعد ستة وثلاثين ساعة بالتمام.

وطبعا، يهرب ، وهو غير مصدق ، محاولا تبرئة نفسه من الاتهام.

وتتصاعد الاحداث على نحو نكتشف معه فى نهاية الامر أن حرية الإنسان امام نظام تدارك الجريمة ليست شيئا جديرا، فى نظر سدنته، بالحماية والاحترام.

وان مستقبل الإنسان ليس فى محاولة معرفة ما هو آت، فذلك لن يؤدى إلا إلى مزيد من الاستبداد.

شبح الديكتاتورية

وختاما ، يبقى لى ان اشير إلى ما قاله سبيلبرج عن فيلمه الذى يعتبر واحدا من احسن اعماله وهو فى مجال الاجابة عن بعض الأسئلة الموجهة إليه من المجلة الفرنسية استديو.

بعد ١١ سبتمبر اصبح موضوع الفيلم، لسوء الحظ، موضوع الساعة.

فلأننا فى حالة حرب مع الارهاب، حصل كل من مكتب المباحث الاتحادية والمخابرات المركزية الأمريكية على سلطات جديدة تفوق ما كان لهما من قبل.

والآن اصبح لوزارة العدل حق التدخل فى حياتنا الشخصية، فى كنائسنا ومدارسنا، من اجل التجسس علينا، اذا ما ذهب بهم الظن باننا نشكل تهديدا ما.

كان فيلمى قبل سنة، مجرد خيال فى خيال، وإذا به يصبح فى هذه السنة اقرب إلى الواقع منه إلى الخيال!!

كلمات عاشت

* ليس من الضرورى أن ينحط الأدب ليصبح شعبيا وليس من الضرورى أن يبقى الشعب حيث هو جاهلاً غافلاً يشقى بالخمول والجمود .

طه حسين

* لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا ألا يفكروا فيه، ليعيشوا سعداء.

باسكال

* عندما أفتش نفسى باحثاً عن أعمق أعماق ذاتى ، فانا لا أعثر إلا على حب السعادة وتذوقها. هناك شمس لا تغيب فى قلب ما أكتب.

البير كامى

* لا يكون للمرء صبر على الجد ، حتى يأخذ من الهزل قدراً.

معاوية

* يجب على الاديب أن يهدم دون أن ينسى البناء.

سلامة موسى

* **العقل إذا تخلص من سكر الغضب ، أصابه ما يصيب المخمور إذا خرج من سكر شرابه.**

الجاحظ – رسالة في الجد والهزل

جولة بين

الشعر والنثر

بقلم
وديع فلسطين

حديث الشعر والشعراء لا ينقضي ، فهم فصيلة من الناس عبر عنها الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ - ١٩٣٢) خير تعبير بقوله: أنتم الناس أيها الشعراء، فهم يحملون معيم قرائح الشعر مهما طوحت بهم الحياة فى دنيا الله الواسعة . ولئن كان منصب السفير منصبا سياسيا لا مجال فيه للشعر بخيالاته ورؤاه ومشاعره ، لأن الحياة الدبلوماسية تفرض على صاحبها أن يتكلم بقدر وأن يراعى فى كل ما يقول نواميس البروتوكول التى تكاد تلجم اللسان ، فقد عرفت الحياة العربية شعراء من بين رجال الدبلوماسية نذكر منهم من الراحلين الشاعر السورى عمر أبو ريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) الذى مثل الجمهورية العربية المتحدة فى أمريكا اللاتينية والشاعر السورى خير الدين الزركلى (١٨٩٣ - ١٩٧٦) الذى كان سفيرا للسعودية فى المغرب والشاعر الدكتور عبدالمنعم الرفاعى (١٩١٧ - ١٩٨٥) الذى كان سفيرا للأردن فى مصر. ونذكر من المعاصرين الشاعر عيسى درويش الذى كان حتى وقت قريب سفيرا لسوريا فى مصر ، والشاعر حسين سراج الذى كان سفيرا للأردن فى القاهرة والشاعر الدكتور غازى القصيبى الذى كان سفيرا للسعودية فى لندن والشاعر الشاذلى نوكار الذى كان سفيرا لتونس فى اليمن والشاعر حسن عبدالله القرشى الذى كان سفيرا للسعودية فى موريتانيا والشاعر تقى الدين البحارنة الذى كان سفيرا للبحرين فى مصر بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٤ .

الوجه الآخر لمؤتمر عربي

وقد التقيت فى البحرين فى زيارة سريعة للمشاركة فى حفل تأبين الشاعر إبراهيم العريّض (١٩٠٨ - ٢٠٠٢) بالشاعر السفير تقى الدين محمد البحارنة الذى أسمعنى

بنفسه قصيدة جميلة نظمها فى عام ١٩٩٥ عندما توجه إلى الرباط فى المغرب للمشاركة فى المؤتمر البرلمانى العربى .

فقد اجتمع ممثلو الدول العربية لمناقشة القضايا المطروحة أمامهم ، ولم يلبث ضجيجهم أن تعالى وتفرقوا شيعا وأحزابا ، واتسعت رقعة الخلاف بينهم . فلما عضهم الجوع بنابه وتململت بطونهم الخاوية ، انعقد إجماعهم على طلب الطعام ، فالطعام قضية لا يختلف عليها أحد ولا تنتطح عليها عنزتان - كما يقال فى المثل الدارج .



محمد البحارنة

وغزا المؤتمرون غرفة الطعام ، لم يتخلف منهم أحد ، وطافت بالمدعوين فتاة مغربية بارعة الجمال تقدم لهم صنوف المأكل والمشارب ، فهفت جميع القلوب إلى « نادية » ، وإليها اشرأبت كل الأعناق دون أن يصرفهم ذلك عن الاغتراف من صنوف الطعام ومشتهياته . وقد أوحت هذه المفارقة ، وهى الخلاف على قضايا الأمة والاجماع على قضايا البطون ، إلى الشاعر تقى الدين محمد البحارنة بالقصيدة الجميلة التى صور فيها الوجه الآخر للمؤتمر والتى حرص على أن يسمعنى إياها ، وفيها يقول :

مرحى لأقطار العروبة   تسعة وثمانيه
جاوا من الشعب الغريب   مزارها والنائيه
للمغرب المضياف فى   كنف «الرباط» الزاهيه
وتحملوا تعب المسير   بهمة متناهيه
يرجون وحدتنا   وتحقيق الأمانى الغاليه
وتضامنا فى السر   تخشاه العدى - وعلانيه
فى البرلمان تجمعوا   وتفرقوا فى الزاويه
وعلا ضجيجهم ونادى   كل رهط ناديه
حتى إذا تعبوا   تململت البطون الخاويه
ومشوا إلى غرف الطعام   مع الهنا والعافيه
فالكل يدعو (نادية)   ويقول هاتى زاديه
إلا أنا ، فلقد فتنت   بها ، وليست داريه
فأقول قد تأتى عساها   صدفة وعسانيه
تشتاق نفسى للطعام   إذا مشت بازائيه
وافتر مبسمها وضوع   عطرها فى الآنيه
فيقال : ذلك أشعب   ويقال : بل كمعاويه
لاموا ولو عرفوا   الحقيقة ما تجنوا ثانيه
إن الطعام يلذ من   أيد لطاف حسانيه

ويسوء إن جاءت به	حوشية وزبانيه
كرم الموائد زائل	والابتسامة باقيه
وطن العروبة سوف يبقى	والمصالح فانيه
إن أشرقت شمس العروبة	من سماء صافيه
فلها القلوب منازل	ولها المآذن سارية
ولها الخليج مشارق	ولها الكنانة راعيه
والنيل عذبا والفرات	ودجلة والباديه
ولها قلاع الشام حصنا	والأسود الضاريه
ومرافئ في المغرب	الأقصى عليها حانيه
بالدفء تمنحه عيون	ساهرات صاحيه
حلم تراءى في الضمير	وفي محاجر (ناديه)

مسابقة بين المعالقة

اجتمع في منزل جورج معلوف (١٨٩٣ - ١٩٦٥) بالبرازيل رهط من الشعراء المعالقة وعدد من الأدباء ، كان من بينهم شاهين معلوف (المتوفى في ١٩٥٤) وميشال معلوف (١٨٨٩ - ١٩٤٢) وشفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) وفوزي معلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) والمؤرخ المهجري توفيق ضعون (١٨٨٣ - ١٩٦٦) .وجورج معلوف هو شقيق شاهين وميشال وخال كل من شفيق وفوزي معلوف .

وجاءت الخادمة حاملة صينية القهوة، وتقدمت إلى زوجة جورج معلوف لتأخذ حصتها من الفناجين باعتبار أن السيدات مقدمات على الرجال . فوقع الفنجان من يدها على الأرض وانكسر ، مما أورث صاحبي الدار حرجا شديدا . ولكن ربة البيت رغبت في تدارك الموقف . فاقترحت على الشعراء أن يرتجلوا شعرا في هذه الواقعة ، وقالت إنها ترصد ساعة ذهبية ثمينة لصاحب القصيدة الفائزة واختيرت لجنة من الحاضرين لتكون حكما بين المتسابقين .

وهنا عرض كل من الشعراء بضاعته ، فقال شاهين معلوف :

ثمل الفنجان لما لامست شفتاه شفتيها واستعر
فتلظت من لظاه ، وهو لو يدري بما يجني اعتذر
وضعته عند ذا من كفها يتلوى قلقا أني استقر
وارتمى من وجده مستعطفا قدميها وهو يبكي فانكسر

وقال ميشال معلوف :

عاش يهواها ولكن في هواها يتكتم
كلما أدنته منها لاصق الثغر وتمتم
دأبه التقبيل لا ينفك حتى يتحطم

وقال شفيق معلوف :

إن هوى الفنجان لا تعجب وقد ظفر الحزن على مبسمها
كل جزء طار من فنجانهـا كان ذكرى قبلة من فمهـا

أما فوزي المعلوف الذي فاز بالجائزة فقال :

ها هو الفنجان مختارا ولو خيروه لم يفارق شفتيها
هي ألقته وذا حظ الذي   يعتدي يوما بتقبيل عليها
لا، ولا حطم اليأس فها هو يبكي شاكيا منها إليها
والذي أبقاه حيا سالما   أمل العودة يوما ليديها



روكس بن زائد العزيزي

واقترح توفيق ضعون أن يكتفي الفائز ببهجة الفوز وأن تؤول الساعة إلى صاحب أحقر ساعة بين الحاضرين ، والأرجح أنه يقصد نفسه . ولكن شفيق معلوف، وهو واسع الثراء لأنه يملك مصانع كبرى للحرير، أسف لعدم فوزه بالساعة وعزى نفسه قائلا :

ياساعة ، ما أنت أول ساعة   ضيعتهـا من ذكريات حياتي
ما دمت ضيعت السنين فما أنا   بمحاسب دهري على الساعات

كانت أمثال هذه الندوات الشعرية تعقد في المهاجر في العصر الذهبي للشعر العربي هناك، فلما تساقطت نجوم الضاد واحدا بعد واحد، وعمت الرطانة، اختفت هذه المساجلات الجميلة وضاعت أخبارها في بطون الصحف المهجرية المندثرة .

روكس بن زائد العزيزي

في شهر أغسطس الماضي بدأ علامة الأردن الكبير روكس بن زائد العزيزي عامه المئة ، فهو من مواليد عام ١٩٠٢ ، ولكنه مازال ينشغل بالترب الأدبية على الرغم من هذه السن العالية، ومازال يشارك في أعمال مجمع اللغة العربية الأردني لأنه عضو شرف فيه . ولم يكن غريبا أن يزوره في بيته جلالة الملك عبدالله الثاني ملك الأردن أسوة بأبيه الراحل الملك الحسين ابن طلال .

ولعل العزيزي هو أكبر المعمرين من رجال الفكر، يليه المؤرخ الكبير الدكتور نقولا زيادة وحسن الكرمي صاحب المعاجم الضخام، وكلاهما في الخامسة والتسعين من العمر :

وإذا كانت برامج السنة الثقافية للعاصمة الأردنية لم تتسع لتكريم العزيزي الذي تعرفه الأمة العربية كلها ، فلتكن الكليمات المتواضعة تعبيرا عن الاعتراف له بأياديه المترامية الفضل ، وحسبي هنا أن أورد بعضا من مؤلفاته التي أربى عددها على السبعين :

فهو قد أصدر «قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية» في ثلاثة أجزاء ، و«معلمة للتراث الأردني» في خمسة أجزاء ، و«المنهل في تاريخ الأدب العربي» في ثلاثة

أجزاء ، و«الزنابق» في سبعة أجزاء، وكتاب «سدنة التراث القومي» وكتاب «شاعر الانسانية» وكتاب «الخلاصة التاريخية» في جزء ين وكتاب «المساعد في الإعراب» وأربعة أجزاء بالاشتراك مع زميلين ، كما حقق بالاشتراك مع العلامة العراقي الأب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ - ١٩٤٧) ثلاثة كتب هي : « نخب الذخائر» و«علم النميات» و«تاريخ اليمن» ، ونشر كذلك مذكرات الدكتور أحمد زكي أبي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) .

وهو ذو بصر بالشعر وينظمه في مساجلات بين أصدقائه الذين يتوزعون في أنحاء العالم ، وإن كان عددهم تقلص بحكم ناموس الانقراض .

وفيما عدا فترة قصيرة قضاها العزيزي في التعليم في شبابه ، فقد أعلن رهبانية الفكر ، ورفض الوظائف، وتفرغ تفرغا كاملا لأعماله في التأليف والتحقيق والنقد الأدبي ، حتى أنه نقد قاموس «المنجد» في طبعته الأولى لأنه وجد فيه بعض المآخذ التي تدوركت في الطبعات التالية .

وقد صافاني العزيزي موداته الغالية على مدى سنوات طويلة، وأكرمني بأن زكاني هو وأكرم زعيتر (١٩٠٩ - ١٩٩٦) والدكتور همام غصيب أطال الله بقاءه لعضوية مجمع اللغة الأردني فأسبغ على بذلك شرفا وفضلا لا أنساهما ، فقد عز عليه أن يكون هو من الخالدين وأن يبقى صديقه المصري خارج هذه العصبة الكريمة ممن يطلق عليهم لقب «الخالدين» فليتقبل أستاذنا روكس بن زائد العزيزي هذه التحية الخالصة مني ، وهي لا توفيه حقه من الإعظام والتكريم وفرط الإعزاز .

الأديب البركاني سعيد تقي الدين

قد تتكرر شخصيات بعض الأدباء ، ولكن لا أظن أن أديبا في أي لغة يمكن أن يكون شبيها بالأديب اللبناني المهجري سعيد تقي الدين (١٩٠٤ - ١٩٦٠) الذي وصف نفسه عندما هاجر إلى الفلبين بقوله : « في الفلبين عشت ومت ٢٣ سنة ونصف . هناك استوردت كل ماتعرف من أصناف البضاعة . فتحت محطة بنزين . فتحت سينما . كنت «دوارا» - أي بائعا متجولا . أبحرت . طرت . سافرت على الخيل. ركبت على الجاموس. اغتنيت. افتقرت . لعبت بالبورصة . فتشت عن الذهب. كنت حانوتيا . مستوردا مصدرا. كومسيونجيا . اتجرت بمخلفات الجيش. بمخلفات الحيوانات . سوكرت (أي أمنت على حياتي) لأنتحر . أفلست ودفعت ديوني . سجنني اليابانيون ٥٣ يوما و٥٤ ليلة خلال سني الحرب . واجهت الموت في أكثر الأحيان مختبئا . عينت قنصلا للبنان ، ومشيت بالقنصلية على أصول دبلوماسية لم تطبع في الكتب !» .

وصفه مواطنه يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ - ١٩٨١) بقوله : «نشاط محموم مستمر ، وخاطر سريع ، مع ملاحظة دقيقة . وخيال رحب خلاق .. كانت كتاباته كانفجار



سعيد تقي الدين

البركان . يحمم الكلام . كل ذلك في أسلوب شفاف جذاب بكر . فهو مدرسة خاصة في النثر سهلها ممتنع . كان أخلص شاهد على جيله القلق المضطرب » .

قابلت سعيد تقي الدين للمرة الأولى في القاهرة في عام ١٩٤٨ ثم لقيته في بيروت وللمرة الأخيرة في عام ١٩٥٥ ، وكان قد أهداني طائفة من مؤلفاته من الروايات والمسرحيات والخطب منها «لولا المحامي» و«نخب العدو» و«حفنة ريح» و«غابة الكافور» و«تبلغوا وبلغوا» و«سيداتي سادتي» و«رقات جناح» ، وهي كتب أصدرها في خضم حياته المضطربة التي وصفها بصراحة جارحة كما أسلفنا . فمع أنه ينتمي إلى أسرة ميسورة الحال، ومع أنه كان يحمل درجة علمية محترمة من جامعة بيروت الأمريكية، فقد ركب مراكب الهجرة واختار الفلبين محطة لنشاطه فتعرض فيها لذل البحث عن عمل حتى كحانوتي . ولما كون ثروة طائلة عاد إلى لبنان فبدد هذه الثروة في جريدة «الزوابع» التي أصدرها لتكون لسان حال الحزب القومي السوري . ولما أصبح خاوي الوفاض ، قرر الهجرة من جديد ، ولكن إلى المكسيك ثم إلى كولمبيا حيث وافته منيته .

ولأن لبنان يكاد يكون أحرص دولة عربية على إحياء آثار الراحلين من أبنائه ، فقد سرني أن أرى أديبا لبنانيا - هو جان داية - يتوافر على نشر تراث سعيد تقي الدين وتسجيل الفصول التي كتبت عنه والتي تناثرت في الصحف والمجلات . وقد تلقيت بفضل السيدة سامية حلبي قرداحي ثلاثة كتب جديدة من منشورات جان داية هي «سيداتي سادتي» و«من شرفة المرصد» وهما من تأليف سعيد تقي الدين . أما الكتاب الثالث فيضم ما كتبه الأدباء عن هذا الأديب المتفرد . وسبق لجان داية أن أصدر ثلاثة كتب عن سعيد تقي الدين .

ومن طريف ما أذكره عن سعيد تقي الدين أنه اصطنع لنفسه خاتما عليه عبارة «هذا كتاب أهديه لأنني لا أجد من يشتريه» وختم به آخر كتاب تلقيته منه قبل وفاته .

وفي حين كان شقيقه السفير القاص خليل تقي الدين (١٩٠٦ - ١٩٨٧) رجلا أرستقراطيا صبغته الدبلوماسية بالوقار والتؤدة، كان سعيد تقي الدين فوضويا - ربما بتأثير الحزب القومي السوري - فجنت عليه السياسة واختصرت عمره فلم يعش إلا ٥٦ عاما . ■

صمت الزامر وانفض سامر الشعر الحر

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

لا يواجه الشعر العربى المعاصر من صعوبات اللغة ما تواجهه أحيانا فنون النثر من قصة ورواية ومسرحية، حين يتصل موضوعها بأحداث الحياة اليومية، ولغتها العامية، وتبدو الفصحى وكأنها لا توفق فى التعبير الواقعى الدقيق عن هذه الأفكار والجوانب إلا من خلال ازدواجية الفصحى والعامية بين السرد والحوار.

ذلك أن للشعر على الدوام لغته المميزة موحية ومتوترة وقادرة على الإثارة، حتى حين ينبثق من مشكلات الحياة اليومية لأنه يصدر عن وجدان عميق، والتعبير عن الوجدان يستلزم ألفاظا ذات دلالات نفسية وشعورية خاصة، قادرة على تصوير إحساس الشاعر وعلى التأثير فى نفس القارىء أو السامع، لتحدث عنده إحساسا مماثلا، وتنقل إليه تجربة الشاعر كاملة.

كلمة لفظ هنا لا تعنى الكلمة مفردة لأن هذه لا توحى إلا بخواطر مبعثرة، لا تربط بينها صلة نفسية أو ذهنية واحدة، وإنما تستمد حياتها من وجودها فى سياق خاص، ومن اتصالها بكلمات

أخرى تتفاعل معها، وتؤثر فيها، وتتأثر بها.

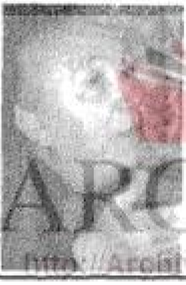
مع أيام الشعر الأولى كان من السهل على الشاعر أن يقع على اللفظ الذى يريده، للمعنى الذى يفكر فيه، وللصورة التى يريد أن يرسمها، واللفظ محمل بمعناه، ولا يمكن أن نتصور لفظا من غير فكرة، والطفل يفهم قبل أن يتكلم، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك، ولم تكن أمام الشاعر الجاهلى نماذج يحتذيها، ومن ثم كانت لغة الشعر إذ ذاك قريبة من لغة الحياة، ومع الزمن كثرت النماذج وتعددت الأساليب، وأصبح فى مكنة الشاعر وبين يديه تراث سخى منها، يسترفده وينتفع به، ولم تَعُد الملكة الشعرية وحدها منبع الإلهام، وأصبح للشعر تقاليد معروفة ولم يعد الشاعر يختار ألفاظه وعباراته من لغة الحياة العادية، وإنما يستمدها من التراث السابق الذى درسه، وارتوى منه أساليب وأفكارا.

حركة البعث الشعرى

غير أن الألفاظ تخضع فى استخدامها، كأى ظاهرة إنسانية أخرى، لقانون «الفعل ورد الفعل»، فحين انحدرت اللغة العربية مع الغزو العثمانى، وأصبحت السهولة ابتذالا، والرقة تزايلا، وضاق حظ الشعر منها فأصبح لعبا بالمحسنات، وغرق فى البديع والزخرفة، وغاضت ينابيع الفكر والقوة فيه، وتعلق منها بكل ساقط وتافه، وجاءت حركة البعث على يد البارودى بالنقيض من ذلك كله: أحيا رائع القدامى، واختار الكلمة القوية، وآثر اللفظ الموحى، وأدار ظهره للشائع



أحمد شوقي



نزار قباني

الجارى على ألسنة العامة، ورد العربية إلى غابر مجدها، وزاهى عصورها. وسارت المدرسة الكلاسية بدءا بأمير الشعراء، أحمد شوقى، وحتى أيامنا هذه، على الطريق نفسه، على حين اختار الرومانسيون الجانب المقابل، ويؤثرون البساطة، ويفضلون لغة الحياة، ويُحيون ما سقط منها جثة هامدة، واللغة تربة مهددة بالجدب والجفاف، مهما تكن

خصبة، ما لم يُقيض لها من يحيى مواتها، ويبعث فيها الخصوبة والنماء، يجدد ما شاخ من ألفاظها، أو اندثر من مفرداتها، وليس مثل الشعر فى القيام بهذه المهمة، إنه القادر على صون اللغة وإثرائها، والشعراء الغابرون بمدوننا بتراث لا ينفد من التقاليد الرائعة، تعيش بيننا منحدرة من الماضى، على حين يدفع الشعراء المحدثون باللغة إلى الأمام.

التجديد اللغوى

من المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق، وما من جيل يمكن أن يحس بنفس الطريقة التى كان يحس بها من سبقوه، وكل جيل يستخدم الألفاظ على نحو مغاير، وإذا كان من غير الصواب أن يقال أن التجديد اللغوى يصدر عن الفرد، فمن الحق الذى لا ريب فيه أن كل فرد يدخل فى اللغة شيئا من التجديد خاصا به، وليس مبالغة القول بأنه يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد، وتاريخ الشعر فى جانب منه، إنما هو تاريخ متعاقب لأدوار من ولادة ألفاظ الشعر ونضجها وموتها ، وهى تولد دائما فى ثورة، ثم تتطور وتتسع قبل أن تجمد فى قوالب ، لتجف وتذبل، إلى أن يتاح لها شاعر يبعث فيها الحياة من جديد، فهو القادر على إثراء اللغة اشتقاقا، وإحياء مفردات وصورا ربما تكون قد توارت وانسحبت من حياتنا الثقافية، وإضافة ألفاظ جديدة، ذات دلالات معاصرة ، بما للشعر من حلاوة إيقاع، وعذوبة موسيقا، يجعلها مقبولة فى الأسماع، ومن هنا كان الشعر المورد الأول فى إثراء اللغة وتجديدها.

وهذا الدور يدعونا إلى احترام رؤية الشاعر، وإعطائها قدرها من التقدير، وإدراك دوره الإصلاحى، من خلال فهمه الواعى للماضى، وتفسيره الدقيق لقضايا الحاضر، وبصيرته الواعية فى استشراف المستقبل، وأثره فى ضبط حركة المجتمع وتحديثه ، وتشكيل عقول أبنائه وصياغة وجدانهم، ومن ثم فالشاعر الحق هو الذى يكون على مستوى الحدث، يصدق مع ذاته، وينطلق من واقعه، وله موقف جاد وواضح من مشكلات أمته، ويعرف قدر نفسه ورسالته ويمسك بها أن تنزلق فى مهاوى النفاق والرياء والمداجاة والرِّشى.

إن ولاء الشعر يجب أن يكون للغة التى ورثها، مهمته أن يحافظ عليها، وأن ينميها بابتداع أسلوبه الخاص، وأن يكون سيد ما ابتدعه وخادمه فى الوقت نفسه، وليس ثمة طبع، مهما كان قويا، يمكن أن يرتجل شعرا صادقا لا تكلف فيه، وفى القمة من الصياغة أيضا، دون أن يملك معجما لغويا ثريا ينتقى منه، لأن الشعر سهلاً أو معقدا يحتاج إلى جهد فى اختيار ألفاظه وتنقيحها ، حتى يصبح قدر المستطاع عذبا طريفا،

وحوليات زهير ابن أبى سلمى أشهر من أن أشير إليها.

وظيفة الشعر

إن وظيفة اللغة فى الشعر أن تعبر وتبين، ولكن تجارب الإنسان التى وجد الشعر للتعبير عنها دائما التغيير والتبديل، لأنها آخذة أبدا فى الازدياد، ولما نمت التجارب وازدادت وجب على لغة الشعر أن تجاريها، وأن تتماشى معها إذا أريد منها أن تكون صادقة التعبير، واللغة هنا بمنزلة الشجرة، والألفاظ منها بمكانة الورق، وعلى مدى السنين تتساقط الأوراق القديمة، وتنمو بدلا منها أوراق جديدة، والشجرة باقية كما هى. وهذا التشبيه الذى ساقه «هوراس» يمثل اللغة والألفاظ فى الشعر تمثيلا حسنا، ولكن يجب ألا ننسى أن الشجرة التى عناها هوارس لم تكن تفقد أوراقها جملة واحدة، بل كانت تشتمل دائما على أوراق قديمة وأوراق جديدة، وكذلك الحال فى لغة القريض، لابد من أن تستحدث أبدا ألفاظا جديدة وتهمل ألفاظا قديمة. ولا ينبغى أن نطالب الشاعر بأن يعتمد كلية على الألفاظ الشعرية المأثورة عن أسلافه، ولا جناح عليه أن يكون البادىء باستخدام ألفاظ شعرية جديدة، ومن الممكن - بالطبع - أن يصبغ الشاعر الألفاظ العادية المألوفة بصبغة شعرية رائقة، بأن يأتى بها بمهارة فى جمل وعبارات .

فكلمة «فستان» وهى أجنبية ، حين استخدمها نزار قبانى جمعا، منحها جنسية عربية قبل أن يقر ذلك مجمع اللغة العربية:

حتى فساتينى التى أهملتها
فرحت به، رقصت على قدميه

وكلمة «أسمنت»، وهى أجنبية، وعيال «جمع عيل» وهى دارجة، ارتفع بهما عبدالله البردونى، وهو شاعر كلاسى، إلى مستوى الكلمة الشعرية حين استخدمهما:

من أين يا أسمنت أمشى
ضاعت الدنيا حيالى
بيت ابن أختى فى «معمر»
فى «الفليحى» بيت خالى
أين الطريق إلى «معمر» ؟
يابناتى ياعيالى.

والشعراء فى هذا مستويات ، كل واحد منهم نمى أسلوبه تبعا لذوقه وإمكاناته ، فمنهم المقتصد والمسرف، والهادىء والصاخب والجادون منهم وجهوا طاقاتهم واعين لإيجاد التعادل المحكم بين ما على الشاعر أن يستخدمه من ألفاظ ومايحدثه من تأثير، دون قيد يعوقه عن توظيف كل إمكانات اللغة، من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة، فهناك من يؤثر الإيجاز أو يميل إلى الإطناب والتكرار، ومن يفضل القفز فوق التفاصيل.

غير أن قيمة الألفاظ ليست فى

بساطتها أو جلالها، وإنما فى الطاقة أو العاطفة أو الحركة التى يسبغها عليها الشاعر، والشاعر الأصيل تتضح ألفاظه بالقيم، وتتشع منها الموسيقا والمعنى، والبساطة والزخرفة والصورة والقوة الدرامية، والتكثيف الغنائى، والكناية واللون والضوء.

يخاطب الشاعر دائماً شخصاً آخر بطريق مباشر أو غير مباشر، هذا الشخص قد يكون القارىء، أو إنساناً ما ذا دور فى حياته، أو عواطف متباينة تتزاحم فى أعماق وعيه، أو ورائه، وقد يتقمص الشاعر شخصية ما، نبى أو محب أو مفكر، أو راث أو ساخر أو هجاء، وقد يكون دوره الذى يختاره فرحاً، أو تحديا أو يائسا أو حاقداً أو متسائلاً أو مطمئنا راضيا. وفى كل الحالات نحن نقوم القصيدة فى ضوء ما نحس من صوت الشاعر نفسه، وهو يسم الألفاظ بطابع يجعلها معبرة عن حقيقة مشاعره فى اللحظة التى أبدع فيها.

خصائص مميزة

مهما يكن تنوع لغة الشعر، فإنها يجب أن تتوفر على خصائص مميزة تتمثل فى :

- كثرة الألفاظ ذات الإيقاع الموسيقى، والقوة التصويرية، مما لاتتطلبه الأجناس الأدبية الأخرى ضرورة، وإن تضمنت شيئاً منه تجملاً.

- استخدام عبارات ذات طابع نحوى معين، بناء واشتقاقا، لتطويع الألفاظ لقانون الإيقاع، عروضا وقافية، فتجىء فى صيغ وأبنية لم نتعودها، وفى تراكيب قد لا يرضى عنها نحو العربية الصارم، وأحسب أن الشعراء كانوا، فى البدء، وراء هذه الجمهرة من جموع التكسير فى اللغة العربية، لا مثيل لها فى أية لغة أخرى، وبعضها لايندرج تحت قاعدة محددة، ابتدعها الشعراء ونموها، وسلك الآخرون بعدهم طريقهم وتجاوزات أخرى أصطلحنا على تسميتها «الضرورات النحوية»، أى تجاوز قواعد اللغة، وهو أمر مسموح به للشعراء دون غيرهم.

الصورة الشعرية

- وأخيراً فالملمح الجوهرى للغة الشعر يتمثل فى الصورة الشعرية، وهى والإيقاع يجريان سوياً فى حلبة الشعر، ويرتبطان على نحو لاينفصم، وهما الخاصيتان اللتان تميزان الشاعر عن غيره وتجعلان الشعر يختلف عن غيره من بقية أنواع الفنون، فالموسيقا والرسم - مثلا - ليس لهما معان، يدركها الذهن عند سماع اللحن، أو تأمل خطوط اللوحة، وإنما تأخذان طريقهما مؤثرتين إلى الوجدان مباشرة، فيدركهما الإحساس، وينفذ بهما إلى الشعور، ودور العقل فى هذا محدود، أما الشعر فيخاطب الوجدان، ويحيل الأفكار

الذهنية إلى أحاسيس، وهو يستخدم الألفاظ، ولها دلالات عقلية ونفسية خاصة، وإدراكنا لها يتم عن طريق الشعور والعقل، ولأن إدراك الألفاظ عقلية يقف في طريق الشعر إلى نفوسنا، يستعين الشاعر بأدوات الفنون المجردة، ليغلب دلالات الألفاظ الشعورية على دلالاتها الذهنية، فيتخذ من إيقاع الوزن، وجرس اللفظ، وموسيقا الجملة، وسائل ينفذ بها إلى عواطف سامعه أو قارئه، وكما تعتمد اللوحة على الخطوط والألوان فى إبراز إحساس الرسام، كذلك تعتمد صورة الشاعر على جزئيات مؤتلفة، لو نظرت إلى كل جزئية منها مفردة لم تجد لها دلالة نفسية أو ذهنية، إنما باجتماعها فترسم لوحة شعرية متكاملة الجوانب.

ترتبط الصورة الشعرية بتجربة الشاعر، تجسد فكرة أو عاطفة، وذات صلة قوية بالمشاعر التي تسيطر على القصيدة، وتتآزر مع بقية الأجزاء الأخرى لتنقل لنا التجربة كاملة، ويقوم الخيال بالدور الأساسى فى تشكيلها، يلتقطها ببراعة من مشاهدات الواقع، وملابسات الحياة اليومية، أو يستمدها من مناظر الطبيعة ومهابط الجمال الرفيعة، ويمزج بين عناصرها المختلفة فتجيء خلقا جديداً يختلف فى طبيعته وخواصه عن العناصر الأولية التى تألف منها، فالمهمة الأولى، والأشد بساطة لدور الصورة الشعرية أن تجسد ماهو تجريدى، وأن تعطيه شكلا حسيا.

قضية اللغة

علينا ونحن نعرض لقضية اللغة فى الشعر أن نأخذ فى الاعتبار الأفكار التالية :

- الشعر يتجه إلى الوجدان.
- المفاهيم التجريدية تتجه بنفسها مباشرة إلى العقل والفهم.
- كل مايحرك المشاعر، ويتجه إلى الوجدان يصلنا عن طريق إحدى الحواس الخمس، أو من خلال أكثر من حاسة، ومن ثم فإن الشعر الحق يجب أن يؤثر في الحواس أولاً، ولا يرد على هذه الفكرة الأخيرة أن ثمة ألفاظاً ذات مضمون تجريدى، كالحب والجمال والموت مثيرة للغاية، ولا يكاد يخلو ديوان شاعر من إحداها.

وهذا حق، ولكن هذه الألفاظ، وما يشبهها تذكرنا رغم تجريدها بتجربة محددة حدثت لنا أول مرة عن طريق الحواس، لأننا لانحب معنى مجرداً، وإنما أشخاصاً أو كائنات أخرى محددة، رأيناها بأعيننا، أو سمعناها صوتاً، وربما لمسناها أو تحسسنا كيانها، أو احتضناها، فعن طريق النظر أو السمع أو اللمس فحسب يتحقق الحب تجربة، وقديما قال بشار ابن برد، وكان أستاذاً فى الغزل، وكفيفا: الأذن تعشق قبل العين أحياناً.

ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الجمال. لايكفي في إدراكنا له أن نعرف أكثر من تعريف، أو أن نقرأ عنه أكثر من كتاب، وأن نقول : «الجمال كل مايمدنا بالمتعة» فسيظل ذلك معنى تجريديا لاقيمة له في مشاعرنا، ولا يتجاوز المفهوم الثقافي الخالص، ما لم نجرب هذه المتعة حقاً، بتأمل شيء جميل، أو تذوقه، أو بسماع موسيقا حلوة .

وبقدر مايكون الانطباع الحسي أكثر دقة وأشد خصوصية، بقدر مايتضاعف تأثيره، ولهذا قلنا إن الكلمات العاطفية المجردة لاتصلح للشعر إلا على النحو الذي أشرنا إليه، لأن إدراكها عام وغامض، وهو أمر لايدركه الشادون في الشعر حديثاً، أما كبارهم فيدركون تجربة وواقعا أنهم في حاجة إلى شيء دقيق محدد.

ولكي ندرك مايمكن أن يحدثه تجريد الفكرة وتعميم الدلالة من تدمير للإبداع الشعري، يكفي أن نتصور شاعراً تدور قصيدته حول الحكمة القائلة: «الجمال في الحقيقة، والحقيقة في الجمال»، يعرضها لنا عبر أبياته، في تعريفات تجريدية ، أية إثارة يمكن أن تحدثها فينا هذه الأبيات غير تصور فكرة الجمال نفسها.

الشعر والوجد

منذ أقدم العصور التي استخدم فيها مصطلح الشعر للدلالة على هذا الفن ، كان مفهوم الوزن جزءا منه. يقول أفلاطون في رسالة «أيون» التي نقلها عنه سقراط: «إن الشعراء عندما ينشدون أشعارهم العذبة يكونون في حالة من الوجد، فتفتنهم أوزانها وموسيقاها وتأخذ بمجامع قلوبهم» وكان أرسطو يجعل الشعر في مقابل النثر، ويعني به الكلام الموزون.

وموقف علماء العربية من الوزن والقافية وأنهما من عمد الشعر الأساسية معروف، أما الشعر الخالي من الوزن ، أو المنثور، فهو من ابتكار شعراء القرن التاسع عشر في فرنسا، قلدهم فيه المتشاعرون في البلدان الأخرى، وحين مات في فرنسا مات في البلاد المقلدة أيضاً.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت في أوروبا حركة الشعر الحر، قام بها الشعراء أنفسهم، وهي لاتنكر الوزن، وإنما تدعو إلى التجديد، وانساق وراءها فريق من شعراء العالم الثالث أيضاً.

وماتت الحركة في أوروبا، وحلت مكانها الدعوة إلى قصيدة النثر.

مع مضي نصف قرن من الزمان على حركة الشعر الحر في مصر، صمت الزام، وانفض السامر، اختنق صوتها، وتبدد صداها، وخلفتها قصيدة النثر،

يلفها ادعاء عريض، وزهو مريض، وبعد مضى ربع قرن على مولدها، تخلى عنها الناقد الكبير د. محمد عبدالمطلب، بعد أن احتضنها، وعرف بها فى كتابه «قصيدة النثر» وسرعان ما أدرك هزالها وعبثها ووهنها، فعاد إلى الحق والرجوع إلى الحق فضيلة فتخلى عنها، وكتب: «من قصيدة النثر إلى نثر القصيدة»، وكان أستاذ المرحوم أحمد الشايب يسمى «نثر القصيدة» «حل الشعر»، وحل الشعر كحل النسيج يفك تماسكه، ويذهب بجماله، يخنق موسيقاه ويفتت كثافته، ويجعله غبارا تذروه رياح الزمان.

سقطت الحركتان رغم الزفة الصاخبة، غير البريئة، التى أحاطت بهما، لأن كلتيهما كان وافداً من وراء البحر، ولم يكن مبتكراً أصيلاً، وكل تقليد مآله إلى زوال، وكل ميلاد غير طبيعى نهايته الضعف والهزال والتلاشى، ولا يجدى معه العناد والادعاء.

قالوا فى المرأة

* قال أعرابى حكيم : لا تتزوجوا من النساء سبعاً هن : الأنانة والمنانة والحنانة والحداقة والبراقة والشداقة والكنانة . فالأنانة هى التى تكثر من الأنين والشكوى وعصب رأسها تظاهرا بالمرض، والمنانة هى التى تكثر من المن على من فعلت فيه معروفاً، والحنانة هى التى تحن الى زوجها الأول . والحداقة هى التى تنظر الى كل شئ وتشتهيه ولا تشبع . والبراقة هى التى تقضى معظم يومها فى صقل وتزيين وجهها . والشداقة هى التى تتشدق بالكلام على الفاضى والمليان . والكنانة هى التى دائما تقول كان أبى كذا وكان يعمل كذا.

* يستطيع الرجل أن يجمع بين حب ثلاث نساء، فهناك امرأة يحبها ، وامرأة يعبث بها ، وامرأة يشكو إليها ، ولكن المرأة لا تؤمن إلا برجل واحد تحبه وتعبث به وتشكو إليه .

بلزاك

* قبل أن أتزوج كان عندى ست نظريات فى تربية الأطفال . وأما الآن فعندى ست أطفال وليس لهم نظريات !

جان جاك روسو

أنا والشعر

بقلم
الشاعر: د. حسن فتح الباب

تسقط من الشجرة المسحورة المقدسة أوراق كثيرة حتى في أثناء زهو الربيع وتوهج الاخضرار.. ولكن الرمال الصفراء الزاحفة على خصب الذاكرة ترتد حسيرة على حافة أيام تتحدي قهر النسيان، لتغدو هي الحياة سامقة رغم قصرها، منتصرة على قوى الهدم والفناء، بهية وضاءة وهى خارجة من رحم العتمة وكهف الظلمة.

يوم يعدل أعواما، كل سنة تدور بسرعة ضوئية في فلك الأبدية.. يوم مثل سفينة فضائية تبحر في فضاءات الكشف ولا يرتل ربانها إلا صلوات المجد للإنسان الصاعد يغزو طلسم المجهول، منسوجة من براءة الحلم وصلابة الإرادة ، مغفورة بخلايا الوجد وأنفاس الشاعر العاشق في رحلة القمر عبر الآفاق القطبية فوق ضفاف الأرض الأم.

عرف الغلام اليتيم هذا اليوم غير مرة، ولولاه لظلت صخرة سيزيف معلقة على تخوم الحياة والعدم، ولاستمر سيزيف يصعد هاويا ويهوى صاعدا ولا خلاص.. تراها المصادفة التي تمد يدا رحيمة للغريق؟ أم هو النجم الثاقب يهدى إلى درب الحرية ويغسل جراح القلب المكلوم؟.

تلك هي الايام الخصبة في سنوات الفقر كل يوم بألف عام مما يعدون تتكاثف الغمرات ثم تنجلي ويصرخ القلب الشجي للشاعر الغض الاهاب المحروم من معطف دافئ حنون: أكون أولا أكون وتتلاطم الأمواج ولكن صخرة الإصرار لا تلين لأنها محمولة على أكتاف العتاة وايدى الصابرين الايدى القوية أيدى الرجال كما يصفها ناظم حكمت



حسن فتح الباب

قطرات الغيث الأول

بين الأيدى الصابرة يستنشق الصغير اليتيم عبير الحنين إلى بهجة الحياة، غير أن الأبواب تظل موصدة أمام وجهه الأسمر في لون رغيف الفقراء.. ويكاد يلقفه المد الجارف لولا يد بيضاء في ظلمات المقدور، يد معلم شاعر في مدرسة التوفيقية الثانوية تلقى عليه الغلام دروس اللغة العربية في مستهل الأربعينات وهو في الخامسة عشر من عمره.

ذات يوم لاينسى انتشلته هذه اليد من وهدة المغمورين ومدت له سلما يرتقى به إلى السماوات السبع، سماوات الشعر والمجد الذى لا يهون ولا يشحب جبينه رغم مرارة الأيام وجهامة الليالى القاسية، في الفناء الكبيرين «حصنتين» والمعلم المهيب يسير وانى الخطى اقتربت منه في تردد خجول، شجعتني ابتسامته الحانية، فاقتربت أكثر حتى جاورته.. غالبت حيائى فعرضت عليه قصيدة كتبتها وكدت أطير بها نشوة كأننى حقا حفيد المتنبى. ضمت الورقة الصغيرة نبض قلبى وسر فرحتى بالحياة، ولا أدرى حتى اليوم من أين جئت بهذه الصور العجيبة ولم أكن حينها أعرف العشق الذى تحدثت عنه أبيات القصيدة، ولا عرفت هوى النواسى بالصبوح والغبوق.. لا ريب أنها كانت من تراكمات الذاكرة اللغوية ونضج دروس «الإنشاء» «والمحفوظات». ولكنها انبثقت فجأة كأننى لست قائلها:

هات كأس الراح ياصنو السنى
واسقنيها إننى بضوضنى
إن شكا أغيد فى طرق الرياح
عبثات الريح فالشاكى أنا
إن مصباحى جفاه نوره
ما لمصباحى يجفوه السنا

وغص حلقى بالكلام بعد أن رأيت إمارات الارتياب ترتسم على وجه معلمى الجليل، وأنا الذى سعيت إليه ملتمسا على يديه بابا للنجاة من قدرى ويتمى. بابا أبز به أقرانى ممن كان بعضهم يتفوق على بالملبس وأتفوق عليه بالمرتبة الأولى فى النجاح.. وتجسدت ريبته فى قوله: «أحقا أنت ناظم هذه الأبيات؟» وجمت وكادت الأرض تغوص بى لولا أن أدركتنى أبوته، فربت على كتفى بعد أن استجمعت عزيمتى وقلت بحسم: «أنا صاحب هذه القصيدة». فهنأنى فاستعدت نفسى. فكان ذلك يوما بهيجا فى حياتى النفسية والأدبية.

أنا والشعر

بعثت بالقصيدة إلى مجلة (المجلة الجديدة) التي كان يصدرها ويرأس تحريرها الكاتب الكبير سلامة موسى، وإذا بيوم آخر أغر من ثمار يومي مع الشاعر المعلم علي الجندي، فلقد اكتحلت عيني بنور قصيدتي منظورة على صفحات هذه المجلة التي كان لها شأنها في الثلاثينات والأربعينات. ومازال رحيق الفخر على لساني منذ ذلك الزمن البعيد.. أول نبتة خضراء في صحرائي الموحشة. أول زهرة وأول حب في محراب الإبداع.

ضابط في القرية

الإرهاصة بالشعر الحر في ديواني الأول «من وحي بورسعيد» قدر لها أن تتجذر حتى تبلغ أوجها في قصيدة التفعيلة عندي منذ عام ١٩٥٧، ولم يكن هذا التطور الدرامي ليتاح لي لولا تجربة عاصفة خضتها وكانت أهم تجارب حياتي وشعري، ذلك أن المشيئة الإلهية كانت تدخر لي طريقا آخر غير الحقوق وغير الآداب، طريقا لم يذهب خيالي يوما إليه، وهو وظيفة ضابط شرطة.

ولكن سفينة الشاعر الضابط كانت منذورة لخوض أمواج عالية كالجبال، ورياح عاتية لا قبل لي بمقاومتها بأشرعة سفينتي الشاعرية وأجنحتها الرقيقة، فكانت مركبا للعذاب، وإن جاءت في الوقت نفسه مشحونة بالإبداع. لقد أسندت إلي وزارة الداخلية رئاسة نقطة شرطة في الأقاليم، فوجدتني غريبا في زي غريب بسبب تلك العقدة التاريخية المتأصلة في أعماق الريفيين، وهي كراهية الشرطة باعتبارها ممثلة للسلطة التي طالما اغتصبت أرضهم التي رووها بالدمع والدم، وفرضت عليهم الإتاوات، واختطفت الأبناء والآباء لتسخيرهم في مزارع العثمانيين والمماليك والإنجليز دون مقابل إلا السياط تلهب الظهور، وجندتهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

لقد طاردني الفلاحون الفقراء بنظرات صامتة ولكنها أشبه باللعنات رغم محاولاتي الدائبة أن أقنعهم أنني ما جئتهم إلا للحفاظ على أمنهم ودرء الجرائم عنهم:

شربت أحزان القرى، ولم تتبعني
لم أكن بتابع أمين
كان رداني صفرة تزفتها
من عرق السنابل
ولمن يكن لخطوتي إلتي جهدت كي تلين
غير أصداء السلاسل

وهكذا أشعل التناقض بين مهنتي كضابط شرطة وهويتي كشاعر خرج من صلب فقراء مصر شرارة قصيدتي (ضابط في القرية) ١٩٥٧ وكثير من القصائد التي تضمنها ديواني الثاني (فارس الأمل) سنة ١٩٦٥. كما تغنى هذا الديوان بالانتفاضات والثورات وحركات المقاومة في الجزائر وفي فلسطين والعراق والأردن وفي أمريكا اللاتينية، فرثى أبطال الحرية الشهداء، وأشاد بالمناضلين الأحياء، في نسيج شعري كتب عنه الناقد الكبير مصطفى عبداللطيف السحرتي يقول: (يتمكن الشاعر حسن فتح الباب في أداء قصائده من التجرد من التقريرية، والابتعاد عن الخطابية والتأدية الصاخبة المثيرة، وهي العيوب الشائعة في شعرنا السياسي والنضالي. إن قصائده

تكتب نفسها بنفسها).

والقصيدة الثانية التى استقطبت أفكار النقاد المصريين والعرب بعد قصيدة (ضابط فى القرية) هى قصيدة (دم على البحيرة) وقد كتبتها أيضا سنة ١٩٥٧ ونصها :

لا تهبط أدنى الجسر
لا تهبط
ما أشقى صيادا ألقى شبكهْ
لكن الشبكة لم تنزف دم

...

(متولى) سأمان الليلة
لم يطعم زادا فى يومه
لم يخل إلى أولاده
منذ تبين أول خيط أسود
لم يسلم للظلمة نفسه
ومضى يمشى فوق الماء
صدر عريان وجبين ينتشح الهم
والقارب أشلاء عظام منخوبة
فوق بحيرة:

وتتوالى الأحداث فى القصيدة حتى تنتهى بمثل ما بدأت به فى مقطعها الأول.

وهذه القصيدة مثل قصيدة (ضابط فى القرية) وغيرهما مما تضمنه ديوانى (فارس الأمل) من نضج الواقع الذى عشته فى القرى وعزفت فيه على قيثارة موالها الشجى. فالجسر أو السد الذى يلعب دوراً أساسيا فى تلك القصيدة وتتمحور حوله الرؤيا عائق فى البحيرة التى تفصل بين قرية (فيشا الكبرى) مقر نقطة الشرطة التى كنت أرأسها وبين قرية (فيشا الصغرى) بمحافظة المنوفية، وهو مبنى من الحجارة والأسلاك وأكوام التراب، وقد أقامه الإقطاعيون عند أضيق موقع فى مجرى البحيرة كى ترتطم به الأسماك فى حركتها فيسهل عليهم صيدها، على حين يضار الصيادون الفقراء من نقص الثروة السمكية فى سائر أجزاء البحيرة، ولا يجرءون على هدم السدود المحظورة قانونا مخافة بطش الإقطاعيين.

وكانت الشرارة التى فجرت هذه القصيدة هى استنفارى من خفراء البلدتين المذكورتين للحيلولة دون اشتباك أوشك أن يقع بين الإقطاعيين العتاة وبين الصيادين الصغار، ومنهم (متولى) الذى دلنى فى إحدى الدوريات الليلية التى كنت أقوم بها ممتطيا صهوة جواد وعن يمينى ويسارى جنديان من (الخيالة)، دلنى الرجل الذى يحمل اسم أحد أولياء الله الصالحين فى المعتقد الريفى إلى السد أو الجسر. واستطعت أن أفرق بين الجانبين المتنازعين. وتحولت الشرارة إلى قبس من نار الشعر المقدسة ومزج بين الواقع والخيال ، فتصورت أن المعركة قد نشبت وسالت فيها دماء أهل القريتين دون أن تقع المذبحة الضارية، وتخيلت متولى رسول سلام بين الشر والخير، وكأنه نبى يوحى ويوحى لى بصوته الضارع الصارخ فى البرية.

ومنذ تلك الليلة أصبح الصيادون الفقراء أبطالا لقصائدى. تتعدد أسماؤهم ويتوحد

مسارهم ومصيرهم حتى يتحقق العدل على الأرض بثورة الجموع ضد جلاديهم ومستغليهم، وشعارهم: الواحد للكل والكل فى واحد، وقد رسمت ملامح أحد هؤلاء الصيادين الكادحين المجهولين فى قصيدة بعنوان (شعبان الصياد) مطلعها:

صياد فوق بحيرة
وجه يحكى شبكة صيد
وقميص من زبد الموج

وقصائد أخرى من وحى هذه الفئة المغمورة التى تعيش على صيد الأسماك من مياه النيل ولم يلتفت إلى معاناتها الأدباء والشعراء والفنانون .

تجربة المدينة

لم تكن القرية فى شعرى هى المطهر الذى لذت بصفائه ونقائه، ولا كانت الفردوس الذى حرمته حين عدت إلى المدينة الجحيم، أو كانت هى الأعراف التى تقع بينهما. ذلك أن تحولى من الرومانسية إلى الواقعية قد فتح عينى على التساوى بين القرية والمدينة، إذ لم أنظر إلى الطبيعة الخلابة فى الأولى ولا إلى الصخب والضجيج والزحام فى الثانية، وإنما نظرت إلى وجوه المتعبين المقهورين الصابرين فى الريف وفى قاع المدن على السواء، فعرفت عمق المأساة. وهكذا لم أكن شاعر الصدمة الحضارية التى تصيب من ينزح من القرية إلى القاهرة، فليست هذه إلا السطح الظاهرى وجانبا صغيرا من الحقيقة بل جانبا مخادعا، فالإنسان لا المكان هو الذى يسكن بصرى وبصيرتى، ولا يختلف إلا الإطار.

ومثل الشيخ العازف عرفت فى العاصمة باعة الفل والياسمين القادمين من الحوارى مثلى ومن الأزقة، وكتبت من وحيهم قصيدتى (شوارع المدينة)، كما كتبت عن عمال التراحيل الذين يبيعون عرقهم لقاء دراهم معدودة. وتخيلت أن أبناء متولى قد فارقوا قريتهم إلى القاهرة ابتغاء فرصة عمل، فدهمت أحدهم سيارة فارهة لأحد أبناء السراة المترفين وهو يبيع الياسمين أو يتجول ماسحا للأحذية. هكذا كتبتنى قصيدة (متولى) بعد خمسة عشر عاما من قصيدة (دم على البحيرة):

آه ماذا بعث الذكرى
آه (متولى) لماذا لا أقول:
إننى شاهدته كوما من اللحم مدلى
قمرا تحت الأفول
تحت أقدام السراة الراكبين
لم أكن أملك إلا أن أقول:
إننى شاهدت (متولى) صريعا فى المدينة
قمرا تحت الأفول
بينما كنت أغنى !!

مدينة الدخان والدمى

اتسع الأفق أمامى واكتسبت خبرة جديدة، وتعمقت رؤيتى للعالم حين أوفدتنى وزارة الداخلية سنة ١٩٦٥ فى بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لبحث أساليب

مكافحة الجريمة. وهناك فى هذه الدنيا الجديدة العجيبة - كما كنا نسمى أمريكا - رأيت وسمعت ووعيت، وكتبت ديواني الثالث (مدينة الدخان والدمى) الذى أصدرته هيئة الكتاب سنة ١٩٦٧.

وقد سميت بعض الشخصيات بأسمائها فى هذا الديوان مثل (إيفون) الجميلة، تلك الفتاة الأمريكية التى ترمز لعدم الانتماء إلا إلى ذاتها وتطلعاتها، وقد اقتلعتها من جذورها الأسرية النزعة المادية الاستهلاكية فى بلدها فافتقدت الدفء، وأصبح همها اقتناء سيارة واللهاث بعد الكدح اليومى الرتيب خلف هذا السراب والخواء الروحى:

(إيفون) لم توقد لنا الشموع
أوقدت الضلوع
لما احتوتنى نارها
وانسدلت أستارها
وذابت الأحلام والدموع
والهفتنى
تناثر العبير
ورقرق الغدير

أما الشخصيات الأخرى التى فجرت قلبى بمأساتها أو بضياعها فلم أذكر فى شعرى أسماءها لأنها نماذج لكثيرين في الموقع الاجتماعى ذاته، ولكنى ذكرت الشاعرة الأمريكية چيسى هاتكوك Gessie Hathcock عضو لجنة الحقوق المدنية المطالبة بحقوق الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية فى ولاية (أوهايو)

عيون منار

مرة أخرى يبتسم لى طالع الإبداع الشعرى إذ أرانى سنة ١٩٧٠ على ربى بيروت فى صحبة وفد المحامين المصريين الذين شرفونى بصحبتهم باعتبارى أحدهم مادامت كلية الحقوق هى بيتنا وأمنا التى وهبتنا للدفاع عن أصحاب الحق المهضوم. غير أن فرحة الإبداع قد تنبثق من مرارة الواقع، وكان هذا الواقع هو مأساة الفلسطينيين اللاجئين إلى لبنان، وليس لهم إلا الخيمات مأوى فى قيظ الحرور وفى برد الشتاء وعواصفه بعد أن طردهم أحفاد يهوذا من أرضهم واغتالوا أوطانهم وحاولوا أن يزوروا تاريخهم .

مسرات التنقل بين الروابى الخضر وأشجار الزيتون والأرز اللبنانية والوجوه النضرة ذابت في تلك المأساة التى زلزلت روحى، وأشعرتنى مرة أخرى بمرارة العجز عن تغيير الأمر الواقع المفروض على اللاجئين إلا بأشعارى التى ذكرتنى ببيت أبى تمام الطائى المشهور: «السيف أصدق أنباءً من الكتب» فانتكأ الجرح الغائر الذى ألهمنى قصيدتى: (أغنية إلى جمال عبدالناصر) و(صوت منار) اللتين كتبتهما بدمى فى أعقاب كارثة حرب الساعات الست ١٩٦٧.

فكانت قصائد (عيون منار) امتدادا لهاتين القصيدتين وأن غلبت عليهما الأشجان الفلسطينية وجماليات المكان متمثلا فى الطبيعة اللبنانية الشاجية بهذه الأشجان وهى التي لا تروى العين من النظر إليها ولا يمل السمع من أغاريدها.

ولم يكن اختيارى هذا العنوان للديوان نسجا على منوال الشاعر الفرنسى العاشق

والمقاوم لويس أراجون في ديوانه (عيون إلزا)، ولكنه جاء من وحي أبياتي الآتية :

رأيت في «عين الصفا» عيني «منار»
وألهفتي يا وردتي على النهار
ينساب في مرآته الصغار
والهفي على العيون المشرعات والشهيد
منحدر على محفة الغروب
في عبق الزيتون والبارود
وخفقة الصدور والصخور والشجر
مصعد بين أغاريد النساء والرفاق
سواعد ممدة
بنادق مسددة
في وهجها يلتئم الجرح الدفين

وينتهي اللحن الجنائزي الثائر، ولكن المعزف سيظل بعد ذلك يغني لفلسطين بعد أن أصبحت وترا أساسيا في هذا المعزف يشدو للفجر القادم في آخر النفق المعتم. ويتطور النفس الملحمي والسمة الدرامية في ديوان (عيون منار) إذ يتوجه النص من خلال الشخصيات والأحداث بعيدا عن التهويم والتجريد، مما يجعل الفنان ممدوح عقل يحول نص قصيدة (شدوان) الملحمية التي كتبتها سنة ١٩٧٠ إلى عمل مسرحي، وهي إحدى قصائد الديوان التي تصور عذابات احتلال سيناء وبطولات حرب الاستنزاف. ويظل الحب أيضا مثلما في سائر الدواوين وترا أساسيا آخر في القيثارة الشعرية، وهو ما تصوره قصائد (لماذا تبعدين؟) و(ليلة صيف) و(عطر الياسمين) و(زيارة) و(غياب) مجدولا بخيوط من بهاء الطبيعة والإيمان بقدرة الإنسان على امتلاك مصيره، كما يتضح في الديوان عبر المكان:

تخرج اليوم عصافير الخميلة
كلما طوقها الليل بعطر الياسمين
فتعالي نسمع الآن أغاريد الطفولة
وتعالي نرقب الآن شعاع الليل
يرتد على طول الأفق
وعلى الشرفة ظل الشمس يمتد
ويصحو الياسمين
ساكبا أنفاسه فوق الرماد المحترق

حبنا أقوى من الموت

كان الشعر ملاذي وصخرة النجاة التي أتشبث بها في المحن، ولكنه كان همي ومحنتي أيضا، فلم أكد أمضي إلا عامين في القاهرة وأستقر بها مع أسرتي بعد إصدار ديواني الأول (من وحي بورسعيد) حتى طوحت بي قصيدتي : (أغنية إلى رائد الفضاء) إلى أقاصي الدلتا في محافظة كفر الشيخ، وأسند إلى العمل في (بندر كفر الشيخ). ولم يكن مقامي بالمدينة الريفية عند الظالمين محمودا، فنقلت منها إلى مركز

شرطة (سيدى سالم) حيث كان جوادى يكاد يطرحنى أرضا فى توثبه فزعا من عواء الذئاب فى البرارى الشاسعة المفروشة بالأشواك، وذلك فى أثناء قيامى مع شرطيين من رجال (السوارى) بالدوريات الليلية.. كان إبداعى الشعرى يشتتنى، فى حين يثاب شعراء آخرون بإيفادهم فى نزهات ورحلات أو أعمال رسمية بالخارج. ولكن العام الذى قضيته فى (سيدى سالم) كان نهاية عهدى بعذابات العمل بالريف، وأن للطائر أن يعود إلى عشه، وأن يتحفظ كما أمر فى مخالطته للأدباء لأن منهم من يخرج بقلمه على السلطة أو يضمر بها شرا. غير أنى لم أحلف يمينا بتطليق عربة الشعر أو عدم النشر كما أريد بى، لأن فى هذا فراقا لحياتى وحكما بإعدامى دون جريرة.

وقد أتيح لى بعد أن انتقلت إلى القاهرة أن أصحب بعض الضباط إلى بعض مناطق الإشعاع والفخار الوطنى فى بلادنا، ومنها مدينة (السويس) وأطلال (خط بارليف) فى الضفة الشرقية لسيناء، وذلك فى أثناء الهدنة التى أعقبت وقف إطلاق النار وصدور القرار ٢٤٢ الشهير، ومهما أصف وأصور فلست بمستطيع أن أعبر عن حزنى حين مررنا بتلك المدينة الخالدة فى تاريخ المقاومة الشعبية فوجدناها قد تحولت إلى أنقاض وأشباح، وباتت أثرا من بعد عين. كما أعجز أيضا عن التعبير عما شاهدت من آثار بطولات أبناء مصر الأكرمين والذين عبروا ودمروا الحصون المنيعة بأرواحهم الفدائية قبل أجسامهم وأسلحتهم فغسلوا عار ١٩٦٧، واستعادوا كرامة الشعب العربى كله وشرفوا الجندى المصرى خير أجناد الأرض كما جاء فى الحديث النبوى، وعدلوا ميزان التاريخ الذى اختل.

لقد حاولت أن أرتفع بشعرى إلى مستوى الحدث التاريخى العظيم، فكتبت قصيدتى الملحمية الطويلة (إلى الملتقى يا نخيل السويس) واستهللت بها ديوانى (حبنا أقوى من الموت) الذى صدرته بكلمة إهداء إلى زوجتى، تلميحا لا تصريحا، وربما لم أذكر اسمها الحبيب على عادة معظم شعراء العرب، فلعل بى أثرا جاهليا بالنظر إلى أصلى العربى الصعيدى. فكانت هذه الكلمة: (إلى التى علمتنى أن الحب عطاء يسع العالم كله، والذين علمونى أن الحرب دفاعا عن الحب شرف للإنسان ومنار الغد) وهكذا جمعت بين كل أحبابى عشاق الإنسان وأبناء الأرض الطيبة.

وظلت الروح بعد العودة من السويس وسيناء تجيش بالنغم المتفجر حينا والمنساب حينا آخر، وتفيض شعرا كلما عدت إلى بيتى بعد يوم عمل شاق. فلم تبرح المشاهد خيالى وأصداء تكبيرة الجنود - كأننى حضرت المعارك - سمعى. وضممت القصيدة المذكورة إلى أخريات كنت قد كتبتها من وحى حرب الاستنزاف فاجتمعت لى مخطوطة ديوان عرضته على الناقد والكاتب المسرحى الدكتور رشاد رشدى إذ كان يرأس تحرير مجلة (الجديد) ويشرف على إصدار سلسلة شهرية تتناول الشعر والقصة والرواية، وتتبع المجلة و(مطبوعات الجديد) الهيئة المصرية العامة للكتاب. وكان الرجل يدفع ما أقدمه إليه من أشعار إلى الطبع معبرا لى عن إعجابه، وكتب على غلاف ديوانى (حبنا أقوى من الموت) الذى استلهمته من ملحمة أكتوبر شهادة سأظل معتزا بل فخورا بها: «بهرنى شعر حسن فتح الباب بطابعه الفنى والإنسانى.. إنه شاعر عالمى بكل المقاييس» والمقطع الآتى من القصيدة التى يحمل اسمها الديوان:

ثم كانت هجرتى إلى الجزائر منعطفا قاسيا فى حياتى وعلامة فارقة فى شعرى،

فما عانيت من قبل رغم تتابع الهموم محنة ، بمثل هذه الحدة، إذ اختلط الشعر عندي بالسياسة، وإن لم تكن تلك إلا سبيلا للمقاومة التي عرفها شعري من قبل. ولم أهدأ أبدا في تلك المرحلة من المسيرة . فكأنني كنت أتعجل الأحداث لأرى نهايتها قبل أن تؤذن شمس حياتي بالمغيب، وفي ظل المنفى الاختياري كسرت كوابح القلم فأفصحت عما كان رمزا في قصائدي. وعرفت رجالا كما شاهدت أنصاف رجال، ووعيت كيف يشوه العمل السياسي صاحبه إذا كانت الأهداف فيه مشروعة، ولكن الأساليب ميكافيلية. وزرت من البلدان في أوقات متقاربة ما لم أكن أحلم بزيارته في سنوات، ولم أخضع لمحاولات الاحتواء استغلالا لعاطفتي الوطنية والقومية وإحساسي الإنساني. وكان فضل الجزائر أنها وطن الحرية للجميع، فلا محاولات للاحتواء سواء بالإغراء أو الوعيد لأن جذور الحرية ممتدة في أرضها منذ ثورتها العظمى، ولتأثرها بحركات الحرية في العالم وتأثيرها فيها ولإطلالها عبر البحر الأبيض على أوروبا حيث النظم الديموقراطية.

هكذا عشت عددا من السنين - والعمر قصير - أضعافاً مضاعفة معاناة وإبداعا، كأنما أفر من قدري الموسوم بالأشباح خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلى قدر مجهول، أو من قدر مجهول إلى قدر معلوم. وكان ديواني (وردة كنت في النيل خبأتها) الذي صدر في تونس في ديسمبر ١٩٨٥ الثمرة الأولى لتلك التجربة ، تجربة المنفى الاختياري الذي انقطعت فيه عن بلادي عدة أعوام متوالية ولم أعد إلا بعد أن تغير النظام.

وكانت قصيدة (إسكندرية) هي أولى القصائد التي كتبتها في وهران، أما القصيدة الثانية التي بعثت فيها من شدة وجدي على مصر وقد فارقتها مضطرا ومختارا، فكانت (أمسية في وهران) التي كتبتها في ٢٠ أكتوبر ١٩٧٧، فكانت أول القطر الذي انهمر بعد ذلك حتى أصبح ديوان (وردة كنت في النيل خبأتها)، وقد استوحيتها مثل كل قصائدي من حدث صغير فجر الأحاسيس والذكريات الكامنة عن ثورة التحرير الجزائرية ممتزجة بذكرياتي عن وطني.. فجأة ، وانبثق المكان عن فتى عرفني إذ كان من طلاب الحقوق فكان دليلي إلى حيث قصدت، وفجأة لمحت لافتة زرقاء صغيرة على رأس الطريق.. ويا للروعة إذ حملت اللافتة حروفا عربية باسم البطل الجزائري الأسطوري (العربي ابن مهيدي) الذي دوخ الجيش الفرنسي الاستعماري.

مواويل النيل المهاجر

تعددت رحلاتي إلي مختلف البلدان شرقا وغربا خلال سنة ١٩٨٦ ولاسيما في عطلة الصيف، إنطلاقا من الجزائر حيث أستطيع أن أستقل طائراتها بتذكرة سفر أدفع ثمنها بالعملة المحلية مما يتبقى معي من مرتبي، في حين أدخر العملة الصعبة المستحقة لي بمقتضى عقد العمل المبرم بين الجامعة وبيني، ريثما أعود إلى مصر فأعيش على هذا المدخر حيث كنت قد استقر رأيي على التفرغ للشعر وللأدب عامة بعد استقالتي من الوظيفة الجامعية . وكنت قانعا بالمرتب الجزائري وإن كان أقل المرتبات في الدول العربية، نظرا لما وفرته لي الإقامة في هذا الوطن العربي الذي أحببت مقاومته التاريخية للاستعمار، ولما منحته الطبيعة من جمال يعدل وربما يفضل أجمل البلدان الأوروبية، لأنني دخلت أخيرا في قلوب كثير ممن عرفت من الوهرانيين بعد اختبار طويل، بالنظر

إلى ما طبع عليه الجزائريون من توجس وارتياب في الأجانب والغرباء ولو كانوا عربا بل ربما لأنهم بعض العرب الذين لم يعينوا الجزائريين في كفاحهم كما أعانتهم مصر.

لقد اتيحت لي فرصة عمل في ليبيا والكويت وكان في مكنتي أن أجد مثلها في دمشق أو بغداد، ولكنى آثرت الجزائر التاريخ والطبيعة والأمل في ولادة الثورة، آثرت مجتمعا يقوم على العدالة الاجتماعية والحرية، ويطمح إلى المشاركة بقسط موفور في التقدم الحضاري، وفيها أحببت شخصيات نعمت بصداقتها، ولم أجد عناء مثل الكوابيس أحيانا إلا في دهاليز البيروقراطية، وفي كثير ممن استلبتهم الحضارة الفرنسية في قشرتها، فأعرضوا عن العناصر الوطنية من موروثهم وعن أشقائهم العرب ممن أوتوا وعيا متقدما وأحبوهم.

وولد ديواني (مواويل النيل المهاجر) من رحم الحنين إلى الوطن ومن عذابات المخاض العربي والانكسارات المتعاقبة. كما ولد من بطولات المقاومة الفلسطينية والجنوب اللبناني. فلم يكن تهويما رومانسيا، بل كان نضجا للواقع ذابت فيه آلامي في بوتقة الهم الإنساني، وتوحدت فيه بالوطن وبالعالم، وتغنيت بالحب الذي تركت على ضفاف النيل، والعشق الذي شهدت على ضفاف الدانوب حين قدر لي أن أمضي بعض شهور الصيف في بودابست. ولكن النيل كان يشع دائما على نهر السين في باريس حين زرتها وعلى نهر الدانوب في المجر وعلى طيفي دلال المغربي وسناء محيدلي وهما يصبغان أمواج النهرين بلون الورد والشفق والدم. مما انعكس على شعري ألوانا للطبيعة وللنفس وللناس، للحب وللموت، للماضي والواقع الآتي، واحدة من التقائض المتصارعة زمانا ومكانا وإنسانا.

ومن وحي السؤال الذي ألح علي بالجزائر عام ١٩٨٢ - وللتواريخ دلالتها - أن أقطع الغربة والمنفى الاختياري فأعود إلى تراب مصر المضمخ بالطيب أو أواصل رحلة التشرد، كتبت قصيدتي (الجذور) التي طالت كأنها ملحمة مختزلة التجربة المرة، ومفعمة بالنغم الذي لم يتم، ومصحوبة في شكل القصيدة المدورة:

يراودك السابقون الألى أنكرونا
لأنا عشقنا وميض الرماد القديم
وطيب المساء على بيتنا المشرقي
وعينين في المشربية أغنيتين
لطفل يتيم.. عشقت حصى قريتي..

وفي عام ١٩٩٠ أصدرت لي هيئة الكتاب ديوان (أحداق الجياد) وبعده في عام ١٩٩٣ (كل غيم شجر.. كل جرح هلال) ثم نشرت لي هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٥ ديوان (سلة من محار)، وبعده صدر لي ديوان (الخروج إلى الجنوب) سنة ١٩٩٨. كما نشرت لي مسرحية شعرية بعنوان (محاكمة الزائر الغريب) وكانت ثالث مسرحية كتبتها، ولكن الأولى والثانية مازالتا مخطوطتين بين أوراقي ومازالت - وأنا في شتاء العمر - أتنفس شعرا، فقد صدر هذا العام (٢٠٠٢) ديوانان، أولهما (العصافير تنفض أغلالها) عن هيئة قصور الثقافة، والثاني (البلبل والجلاد) عن هيئة الكتاب، وأتمنى أن ألفظ آخر أنفاسي وعلى صدري ديوان شعر كما مات الجاحظ بعد أن سقطت عليه أكوام كتبه. ■

لا تزال كفها تغسل وجهي

بقلم
صافي ناز كاظم

في واحد من صباحات عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣، صحوت وكفها تغسل وجهي على حوض الحمام بمنزلنا ١٦ شارع الرصافة بالإسكندرية، نظرت مستفهمة، ضحكت وهي تقول: «رايحين مصر». هي وأنا فقط ذاهبتان إلى «جماعتنا» في مصر. «جماعتنا» كان تعبيرها المقصود به «بيت خالي» الذي به جدتي وخالتي. فرحانة هي بالسفر وأنا غير مهتمة سوى بالتساؤل: «طيب وفاطمة؟».. «فاطمة» شقيقتي وصاحبتي تكبرني بعامين، ولا أظن أنني كنت - قبل ذلك - قد افترقت عنها في مشوار أو فسحة أكون فيها وحدي بدونها، قالت ماما: «فاطمة هذه المرة قاعدة مع بابا ومعصومة وإبراهيم وإسماعيل». كنت أعرف أن «فاطمة» ستغضب وستبكي وستقول: «اشمعنى صافي..» ولم يكن لدي مانع البتة من أن تأخذ ماما معها «فاطمة»، وأظل أنا نائمة في سريري.

كانت هذه الرحلة أول وعي لي بـ«السفر». كان «السفر» بين القاهرة والاسكندرية يتم ولا أدركه. أذكر أننا كنا بالقاهرة، أذكر أننا بالإسكندرية، لكن كيف تم الانتقال؟ لا أذكر. هذه كانت المرة الأولى التي أذكر فيها الحنطور الذي ركبناه مع والدي إلى «محطة مصر» ركب معنا والدي القطار وجلس قبالتنا أنا وماما حتى تصورت أنه آت معنا إلى «مصر»، لكنه بعد أن دردش مع ماما قال: «سيدي جابر.. يا الله.. مع السلامة»، ونزل من القطار وأنا أحسب أن «سيدي جابر» صاحبه وهو ذاهب للقائه. ماما كانت منشرحة مبتسمة ممنونة. أنا قريبة منها وهي مهتمة بأن تنقل إليّ إحساسها بالفرح،



الرضيعة صافى ناز على حجر أمها بين آل كاظم - ديسمبر ١٩٣٧

وأنا غير مكترثة بالتميز الاستثنائى الذى حصلت عليه ولم تحصل عليه «فاطمة». قالت لى : «ح تشوفى أختك أمينة». «أمينة» كانت تقضى الإجازة السنوية فى «بيت خالى» مع صديقتها «ليلى بنت خالى» .كنت كأنى نسيتها خلال أشهر الإجازة . حين وصلنا كان الجميع مشغولا بالترحيب بأمى وأنا تائهة بين الأرجل الطويلة، أرسلونى مع الأسطى نصرى السائق لإحضار «أحمد» من المدرسة. بدا «أحمد» فرحا فرحا غامرا بى. أخذ يضحك ويلوح لزملائه: «صافى بنت عمتى». أبيض بدينا أحمر الخدين، لم يتجاوز العاشرة، إذ كنت أنا قد تجاوزت الخامسة بقليل. ظل يضحك بفرح حتى عدنا إلى البيت فجرى إلى عمته يرحب بها وعدت أنا إلى الإحساس بالغربة والوحدة. لو كانت معى «فاطمة» كان حالى سيكون أفضل. «أمينة وأحمد وليلى» رابطة فى عمر متقارب، أصدقاء، وأنا وحدى منكمشة بدون «فاطمة» المقتحمة القادرة على فرض مطالبها ووجودها . بين حين وآخر ماما تربت على، ولكنها مع والدتها وشقيقتها وشقيقها وبقية أقاربها، أأتنس بها فقط ساعة النوم إلى جانبها، وفى الصباح حين تحممنى وتغسل بكل كفها وجهى، بعدها يبدأ برنامجها الذى لا أذكر أننى كنت أصاحبها فيه، تتركنى مع جدتى وخالتى. حاولت أن «أشبط» فى الذهاب إلى بيت ابن عمها «الدكتور نشأت»

معها ومع «أمينة وليلى وأحمد» لكنها «حايلتني» باعتذار لطيف، وحين تشبثت - كما تفعل «فاطمة» عادة - نهرني خالي ففزعت وجفلت وأحسست بالإهانة التى لم تخففها محاولات جدتى وخالتي: «تعالي ياصافي؛ خذي ملانة واقعدي فى البلكونة...» .كانت «البلكونة» فى الطابق الثانى وتطل على الحديقة والنخل وشجر الجوافة والمانجو والنارنج، وحين جلست بها لم أكف عن البكاء من دون صوت، كما أننى لم أتوقف عن طرقعة «الملانة» وأكل حمصها الأخضر، بكاء وأكل متواصلان حتى غلبني النوم، وصحوت فى الصباح وماما تضحك وجدتى وخالتي تتندران لأننى رغم البكاء لم «أعتق الملانة».



حامد فى شبابها عام ١٩٤١

***

أذكر الحنطور الذى أعادنا إلى بيتنا بشارع الرصافة. وأذكر وجه «فاطمة» غضبان حاسدا رحلتي، وأنا فى شوق إلى صحبتها ولعبنا وتكاملي مع شخصيتها القائدة. هى صديقة لوالدي وأنا أحبه ولكنني أهاب الاقتراب منه. لقطة واحدة حين أذكرها تدمع عيني حتى الآن، صوّرتها في شعر المراهقة:

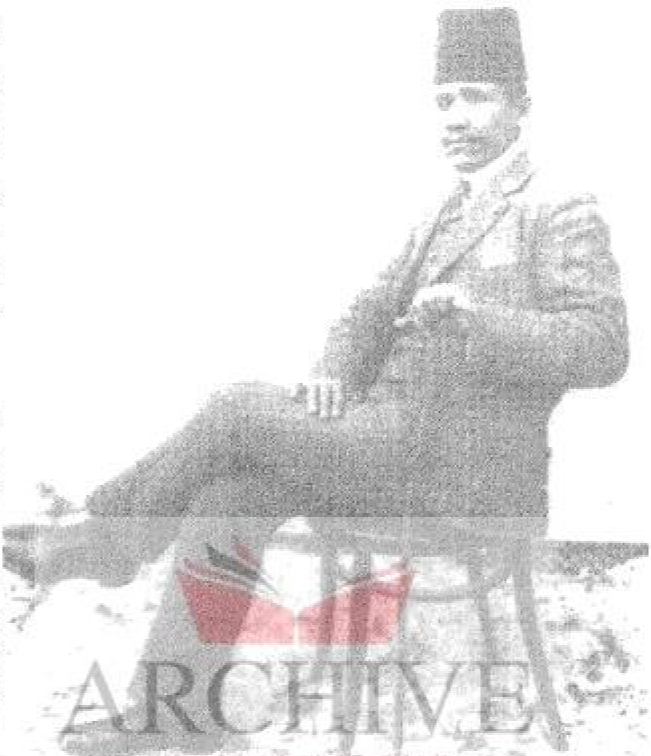
كسيفة، فلم تكن «فاطمة» معي، التي بإمكانها أن ترهب الجميع وتأخذ لي حقي، فناداني، بإشارة من يده، ثم قال «صافي»؟، لا أذكر، وحين ذهبت إليه أعطاني «دوبارة» وكأنه قال: «نطي بها وحدك». فرحت بالاهتمام والعناية وتأثرت لتأثره من موقفي المهزوم. أخذت «الدوبارة» شاكرة بهزة رأسي وأنا أعلم أنها لاتصلح لـ «نط الحبل»، لكن لحظتها، لم يعد «نط الحبل» يهمني، كان «جبر خاطري» هو العصا السحرية التي غسلت هزيمتي وشدت قامتي. كيف أحسست في طفولتي تلك، وأنا بنت خمس أو ست سنوات، بكل هذا الاحتشاد العاطفي الحنون في لقطة صامتة لم تستغرق دقيقة أو دقيقتين؟



صورة زفافهما
«بابا» و «ماما» في ١٨ فبراير -١٩٢٦

«أبي بعيونه الحلوة، يدلي الحبل لي لما، رآني وحيدة أبكي، وكنا شلة تلعب، وأهتف: لن أكلمهم، فقد عدوني مخطئة، وقالوا هذي حمرقة، لما قلت: لم أخطيء..».

وأصل الحكاية أن والدي كان يجلس في الشرفة، ورآني في حوش اللعب مستبعدة من لعبة «نط الحبل»، وأقف



والدي محمد كاظم أصفهاني نموذج لأناقة شباب سنة ١٩٠٠!

***

دائما كنت أقرب إليها منه، ولعلي كنت أحبه لحبه لها.

كتب في مفكرته "الزرقاء لعام ١٩٣٧ في صفحة: "الثلاثاء ١٧ أغسطس ولدت لي إبنة من زوجتي خديجة هانم أسميتها صافي ناز جعلها الله من أبناء السعادة"، لم يكن لديه زوجة أخرى غيرها فلماذا أصر على تحديد "من زوجتي خديجة هانم" .. سوى أنه أراد أن يسجل لها هي "الولادة" قبل أن يسجل لي "الميلاد"؟

***

هو محمد كاظم أصفهاني، أحد رواد فن الخط العربي، لكنه كان يعتز بكونه "الخبير الفني في تحقيق الخطوط والأختام أمام الاستئناف العالي الأهلي والشرعي والمختلط وعموم النيابات"، حتى أنني وأنا طفلة كنت أجيب من يسألني عن اسمي، قائلة: صافي ناز محمد كاظم أصفهاني الخبير، إذ تصورت أن "الخبير" لقب أصيل للعائلة. توفي في ١٩٤٤/٤/٤ قبل أن أبلغ السابعة بأربعة أشهر ونصف، لكنني مازلت أذكره وهو جالس يكتب بالقلم "البسط" والحبر الشيني،

ويجرب القلم فى عبارات ظريفة يلاطف بها أمي، خديجة أحمد على أبوحديد، مثل : «أنت فلة»، و«معلهش»، و«ماتزعلش»، و«إنت كويس». وأحيانا يكتب «زهقت جدا»، و«زهقت قوى»، و«آه من الحب» كان معروفا بالتهذيب والمرح والقدرة على إطلاق النكتة يخاطب أمي فى خطاباته: «عزيزتي خديجة هانم حفظها الله...» و«حضرة حرمي العزيزة السيدة خديجة هانم حفظها الله وأبقاها بصحة هي والأنجال الكرام آمين..». ذاعت شهرته فى الفترة مابين ١٩٠٠ حتى وفاته ١٩٤٤، وكانت ذروة هذه الشهرة عندما تم اختياره عام ١٩٢٠ على رأس الخبراء الذين انتدبهم الدفاع لتحقيق الخطوط فى قضية «المؤامرة الكبرى» .عندما تزوج أمي فى ١٩٢٦/٢/١٨ قالوا إنه كان فى الأربعين وكانت فى العشرين، ولكنني رأيت أخيرا رؤيا منامية كان بها وسألته : «بابا حضرتك اتولدت سنة كام؟» فقال : «١٨٨٠»، وأنا أعتقد أن هذا التاريخ هو الأرجح لأن أوراقه تقول إنه كان نشطا فى التدريس والكتابة والعمل منذ ١٩٠٠، وبعد وفاة والده عام ١٩٠٢، أصبح هو المسئول مسئولية كاملة عن الأسرة: والدته وشقيقه الأصغر وشقيقته وابنة شقيقته، ولا يضيره أنه، بعد كل هذه المسئوليات، وجد فرصته للزواج وهو فى الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين، وقد عاشت أمي معه حياة سعيدة عزيزة، واحتفظت ، بعد وفاته، بكل أوراقه ومعظم آثاره، حتى ولو كانت زرا واحدا من أزرار قمصانه .

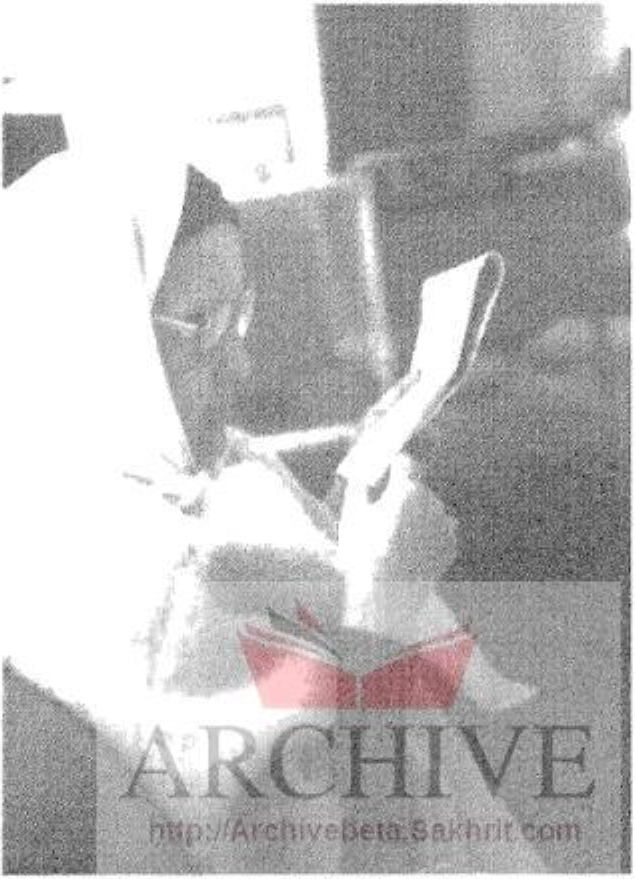
★★★

يبدو والدي فى صوره قبل الزواج من أمي وبعده، أنيقا أناقة عصره : الطربوش والمنشة والعصا والكتينة – (وهي سلسلة من الذهب نهايتها ساعة جيب بغطاء ذهب مزركش) – والشارب المفتول إلى أعلى. أصبحت أمي أرملة فى الثامنة والثلاثين، مسئولة عن الحفاظ على مستوى معيشتها ومعيشة أولادها كما كانت قبل رحيل الوالد، فابتكرت منطقا زرعته فى نفوسنا مفاده أنه من قلة التهذيب أن نأخذ مصروفا لنشترى به الحلوى، التى تعود التلاميذ شراءها فى المدرسة، وكان المصروف اليومي فى طفولتي حده الأقصى قرشين صاغ وحده الأدنى نصف قرش، أى خمسة مليمات، كانت هناك شيكولاتة تسميها «شيكولاتة العفريت» تتضمها زميلاتي فى الروضة والابتدائي بتلذذ وتمط معهن بحشو العسل والكراميل. كانت تستهوينى حركة المط والمضغ، لكننى كنت أعرف أن «ماما» تستطيع أن تصنع لنا فى البيت شيئا مشابها أنظف وألذ .

ترسخ فى أعماقى احتقار «الشبرقة» – أى شراء كل ماتهواه النفس، وماما تردد ليل نهار على مسامعنا بيت الشعر: «وخالف النفس والشيطان واعصهما، وإن هما محضاك النصح فاجتنب!» –

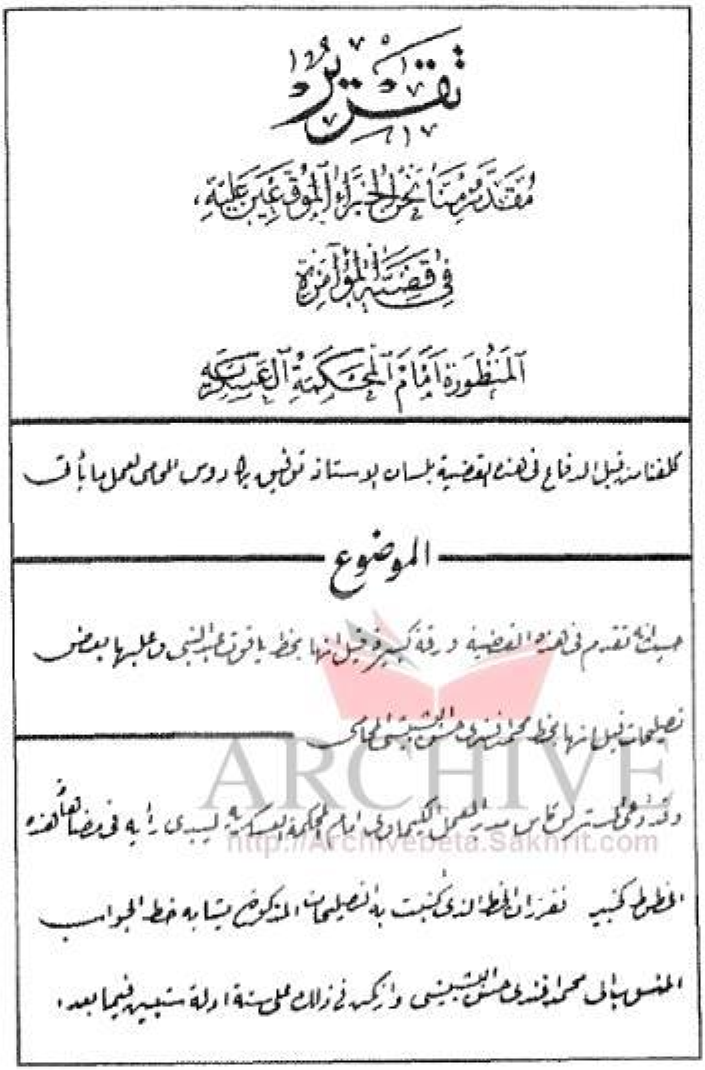
ومن عمق هذا الاحتقار للشبرقة كنت أتعجب من البنات أولاد الناس الطيبين اللاتي يهرعن - مثل «الفجر» - في كل فسحة بين حصص اليوم الدراسى لشراء الأيس كريم والبطاطا «المعسلة قوى»، واللب والسودانى وسائر بضائع عم أبو العلا الذى كان يقف بعربته خارج سور المدرسة. كان اهتمام أمى من بداية مسئوليتها، بعد وفاة أبى، بقيمتين : النظافة والتحصيل العلمى والثقافى. تحترم التقشف، وتحتقر الإهدار، وتتقزز من الإسراف، وشعارها : «ليس عيبا أن ترتدى قديمك، العيب أن ترتدى القذر». أما استراتيجيتها فتتلخص: «لا زواج لبنت أو ولد قبل الحصول على الشهادة العليا». تعمل فى البيت من الفجر حتى العشاء، تطهو وتكوى وتخيط ملابسنا وتراجع مظهرنا العام قبل الخروج لتتأكد من النظافة والانضباط، وكنا بعد وفاة والدى قد انتقلنا إلى القاهرة مباشرة إلى حى الأجداد «العباسية»، نسكن فى الشارع العمومى، شارع العباسية. كان بيتنا - الذى مازلت أحبه وأحن إليه رغم زواله من الوجود بالهدم عام ١٩٤٩ - مكونا من طابقين فى كل طابق شقتان، وكان من حق سكان الدور العلوى الحصول على غرفة إضافية بالسطح، استغلتها والدتى فى تربية الحمام والفراخ والأرانب، وكانت مهمتى هى إطعام هذه الدواجن، أحمل لها البرسيم وحب الفول والذرة والجزر وأمارس هوايتى للغناء بترديد ما أحب من الرصيد الفنى لحديث الأطفال لبابا شارو، أداعب الحمام وأغنى : «لاتخافى ياحمامة والقطى الحبَّ الكثير، ثم عودى بالسلامة واشكرى الله القدير» . لاحظت أمى عشقى للغناء، وكنت قادرة عليه، تبتسم من ورائى وتقول بفخر : «صافى تحفظ سلوا قلبى لأم كلثوم» . تنقل لى «فاطمة» هذا الكلام لأن ماما لاتبديه أمامى أبدا حتى لا أطمع وأصير مغنية! هى نفسها كانت تغنى بحلاوة «على بلد المحبوب ودينى، زاد وجدى والبعد كاوينى»، ذلك قبل وفاة أبى، فى بيتنا بالاسكندرية وكنت أسمعها بشغف وهى منهمكة فى قلى «السمك والبساريا»، وكنت أقول : «ماما عاوزة تزور جماعتها فى مصر!». كانت تعتز بحفظها لثلاثة أجزاء من القرآن الكريم : «قد سمع»، و«تبارك»، و«عم». وتعتز بأنها تستطيع أن تراجع معنا دروس اللغة الإنجليزية بتسميع الكلمات، وتتأسف مرارا لأنها أضاعت - بنفسها - من يدها فرصة التخرج من معلمات السنية، وكان بإمكانها أن تكون مدرسة وناظرة ومفتشة! تقرأ جريدة «المصرى» و«أخبار اليوم» وكل مؤلفات شقيقها الأكبر - ومربيها بعد وفاة والدها - الأديب الرائد محمد فريد أبو حديد - تفتخر به وتحبه كأنه وطن، وقد ورثتنا هذا الافتخار الذي تعمق لدى بعد قراءتى المتأملة الدارسة لمؤلفاته الكاملة

- تحب المجاهد الـوطـنـي مصطفى كامل - وغضبت من د.محمد أنيس عندما قال عنه كلاما لم توافق عليه! - تحفظ الكثير من الشعر والأمثلة الشعبية وتستخدمها في اللوم والتقريع والتأديب، وإن كان معظم شخطها فينا باللغة الفصحى! خفيفة الظل جدا ولاذعة ، لماحة، تطلق الدعابة من دون أن تضحك تطبيقا لإيمانها العميق بأن «كثرة الضحك تميت القلب»، وكانت عندما تفلت منها أحيانا ضحكة لمفارقاتي ومشاغباتي معها تسارع بقولها: «والله مابضحك!» تكره السوقية واللفظ الفاحش ورفع الكلفة - ولو بين الأصدقاء والأنداد - وتحذر من «الدفلقة»، وتقول : «زد غبا تزدد حبا»، بمعنى أنه من الأفضل عدم تكثيف



ماما خديجة أبو حديد في رحلة علاجها ١٩٧٦

الزيارات حتى مع الأقارب ليظل كل واحد «حافظ مركزه» على حد تعبيرها، فهي شديدة التمسك بكرامتها وكرامة أولادها وتحتاط حتى لايمس أحد هذه «الكرامة» من بعيد أو قريب. ولها مقولة تكررها : «اعرف صاحبك والزم» - وكنت أفهم من هذه المقولة أن معناها



تقرير

مقدم منا نحن الخبراء الموقعين عليه

في قضية المؤامرة

المنظورة أمام المحكمة العسكرية

كلفنا من قبل الدفاع في هذه القضية بلسان الأستاذ توفيق بك دوس المحامي لعمل ما يأتي

الموضوع

حيث أنه تقدم في هذه القضية ورقة كبيرة قيل أنها بخط [illegible] وعليها بعض

تصليحات قيل أنها بخط محمد أفندي حسن الشبشيني المحامي

وقد [illegible] أمام المحكمة العسكرية [illegible] في هذه

الخطوط [illegible] نقرر أن الخط الذي كتبت به التصليحات المذكورة مشابه لخط الجواب

المنسوب إلى محمد أفندي حسن الشبشيني [illegible] فيما بعد،

الصفحة الأولى من التقرير التاريخي لخبراء الخطوط الخمسة : محمود حسني ، والشيخ على عوض، والشيخ عبد الرزاق والشيخ حسن شهاب ، والذى تمت كتابته وتحريره بخط الخبير الخامس والذى محمد كاظم أصفهاني الخبير - راجع مقال د. يونان لبيب رزق من قضية المؤامرة الكبرى أهرام ١٩٩٩/٨/٥-

بالتقريب هو: إذا بدر من أحد أى تصرفات جارحة أو غير مناسبة لايجوز أن نقترب منه مرة أخرى حتى لاتتكرر الإساءة. اتجه كل إخوتى للفرع العلمى وارتاحت لاتجاهى إلى الفرع الأدبى، وآمنت، منذ محاولاتى الصبيانية فى الكتابة، بموهبتى الأدبية وقدرتها بأكثر مما كنت أستحق. عندما قدمت لها كتابى الأول «رومانتيكيات» ، الذى أصدرته دار الهلال عام ١٩٧٠، وكانت كلمة الإهداء المطبوعة فيه «إلى أمى التى حملتها وطفت بها العالم»، قرأته فى جلسة واحدة وقالت بفخر : «زى أسلوب خالك!» والذى يعرف منزلة خالى أبوحديد لديها يعرف أنها رفعتنى بقولها فوق أعلى قمة من قمم الأدب، لكن الذى أضحكنى ساعتها أنها عادت وأردفت بجدية : «لازم عبدالناصر يقراها!».

★★★

استطاعت بجهادها ودعمها المعنوى أن تحقق بنا طموحاتها الثقافية وأحلامها العلمية فرأت ابنتها الكبرى «معصومة» حاصلة على دكتوراه فى طرق تدريس الرياضيات، ورائدة فى هذا الحقل سابقة فى عديد من أبحاثها العلمية للنساء والرجال، ومؤلفة مشاركة لأول كتاب فى الرياضيات الحديثة باللغة العربية، وابنها الغالى ابراهيم - «محمد ابراهيم كاظم» - دكتوراه فى أصول التربية ومؤسس وأول رئيس لجامعة قطر، و«اسماعيل» دكتوراه فى الطب وعلاج السرطان، و«أمينة» دكتوراه فى علم النفس، و«فاطمة» دكتوراه فى الاجتماع الريفى، وحين اكتفيت أنا بالماجستير فى النقد المسرحى انحدرت من عينيها الدموع فى حسرة!.

★★★

حملت همّى فترة أزمتى المهنية حين صدر قرار بمنعى من النشر أغسطس ١٩٧١، وصعب عليها رؤيتى تحت وطأة الظلم الذى أوصلنى إلى المعتقل، وحين جاءتنى زائرة فى سجن القناطر للنساء - يناير ١٩٧٣ - مستبدا بها الهلع، قلت أخفف عنها: «عارفة ياماما السرير الذى كان ينام عليه سيدنا يوسف فى سجنه؟»، قالت: «ماله؟»، قلت : «أنا أنام عليه!» قالت بفرح ولهفة : «بجد والله؟!».

بعد اعتقالى الأول، جاء اعتقالى الثانى يناير ١٩٧٥، فتكالب عليها الحزن الثقيل وتولد عنه مرضها بالسرطان فى الغدد الليمفاوية، عالجها شقيقى «اسماعيل» لكن أمنيتها تحققت بألا تتعذب طويلا، لأن الموت كما كانت تردد دائما «مكبّة من ذهب»؟ رغم مرضها العضال وآلامه، لم يبد عليها شكل المرضى، فقد ظلت لآخر لحظة تمارس الرعاية لنا جميعا وتتقدم بالمساعدة. صعدت روحها إلى بارئها فى ١٩٧٦/١١/١١ بعد أن ظلت تتمتم : «لبيك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك»، وبدت ابتسامة الفرح بلقاء الله مرتسمة على وجهها إلى الأبد، ولاتزال كفها - حتى الآن - تغسل وجهى! ■

التكوين

قدر غريب يؤلفني!

خيري شلبي



الخزنة التى وصفتها فى قصة لى بعنوان : أيام الخزنة - ضمن رباعية رواية : الوتد - كانت قريبة الشبه إلى حد كبير جدا بالحجرة التى كان علينا أنا وإخوتى أن نرقد فيها فى ليالى الشتاء. فيها - شأن معظم حجرات دارنا وكل دور القرية - دولاب غائص فى الحائط يتكون من قاع وعدة رفوف ، وله باب مشغول بزخارف شملها الهباب المتصاعد أبداً من مصباح الجاز نمرة عشرة الموضوع على رف معلق فى الحائط حيث أسود منه السقف والباب والحوائط والمحيط الخشبى لباب الدولاب حتى لكأنه مصنوع من الفحم. تحت هذا الدولاب مصطبة من الطين المخلوط بالتبن عبارة عن شريحة لايزيد عرضها على ستين سنتيمترا ، كان أبى ينام عليها مفترشا حصيرا على مقاسها ومخدة محشوة بقش الأرز وبطانية من أحرمة صوفية تصنعها مدينة فوه

في أعماق بئر الوعى البعيدة جدا ، فيما بين الخامسة والسادسة من عمرى ، تبرز صورة أبى وقد أتى بالمصباح وعلقه فى مسمار مدقوق فى أسفل خشب الدولاب ، وقد اندمج فى القراءة رغم أنه بالكاد يرى أصابع يديه ، عينه تكاد تلتصق بالورق حيث اقترب به من المصباح ، وكثيرا ما يستخفه الطرب فيرفع صوته بالقراءة فيما نحن ممددون بالعرض أسفل المصطبة بعضنا يتأهب للنوم والبعض الآخر غاطس فى غيبوبة من التعب . لا أظن أن يوسف وهبى وجورج أبيض وعبدالوارث عسر ونجيب الريحانى كانوا ممثلين حقا إذا ما قورنوا بأبى فى مثل هذه اللحظات ، صوته فى تلون مستمر مع كل مفردة ينطقها ، إحساسه مشع فى صوته كأنه مؤلف هذا الكلام فى لحظة تأليفه المخترة بالشفافية ، ما أن تعلمت فك الخط فى كتاب القرية وعرفت كيف تتكون الكلمات من الحروف عرفت أن هذه الكتب التى يقرأها أبى كتب حديثة: المكافحون لعبد الرحمن الخميسى ، يوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، المعذبون فى الأرض لطه حسين ، فى منزل الوحى لمحمد حسين هيكل ، السحاب الأحمر لمصطفى صادق الرافعى ، سعد زغلول لعباس العقاد ، الشوقيات لأحمد شوقى ، وكتب أخرى كثيرة تمتلئ بها رفوف دولاب الخزنة ودولاب المندرة وأرضية الشبابيك ، كان مواظبا على شراء مجلات : الهلال والمقتطف ومجلتى لأحمد الصاوى محمد والمجلة الجديدة لسلامة موسى ، أما مجلات المصور وروز اليوسف والمسامرات والبعكوكة فقد كان له صحاب من علية القوم يشترونها بانتظام وبعد قراءتها يستعيرها أبى ليقرأها فى المندرة مع شاى العصارى فيما بين أذان العصر وآذان المغرب ، فما أن يخرج المصلون من صلاة العشاء حتى تمتلئ مندرتنا بالرجال المولعين بالكلام فى السياسة ، وهم جميعا من طبقة المتنورين فى البلدة : أنصاف أزهريين ، معلمين ، أعيان فى غير وظائف ، تجار ، فيما عدا زوج ابنة عمتى الشيخ عبدالمقصود أبو غلاب فقد حصل على عالمية الأزهر وعاد إلى القرية يشتغل بالفلاحة وإن أبقى على الجبة والقفطان والعمامة ، وكان خطيبا منبرياً لا يشق له غبار ، وكان إلى ذلك نصف فنان يعرف كيف يربط واقعنا المعاصر فى القرية بما تضمنته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيشنف آذان القوم يدفعهم إلى التفكير بدلا من البكاء من شدة الورع الزائف . وكان لى ابن عم

تخرج هو الآخر فى الأزهر ويملك مكتبة تحتل قاعة بأكملها فى دارنا الكبيرة .. دار العكايشة .. وفى نفس القاعة ينام هو وعياله على وتحت سرير بعمدان تحف به دواليب الكتب من جميع الجهات فتجعل من القاعة منظرا فريدا فى دارى العكايشة : دار أبى ودار أعمامى الكبيرة دار العائلة ، ولهذا كنا نحن عيال الدارين مغرمين باللعب فى هذه القاعة والمكوث فيها لوقت طويل ، وكان ابن عمى ينظر لنا بإعجاب وإلى الكتب بامتنان مرددا أن المكتبة فرضت علينا أن نكون عيالا محترمين لا نعبث بأى شىء فيها ولا نصخب فى اللعب ، وكانت هذه المكتبة هى فرجتى، متعتى ، عالمى .. ما أن يلتقى ابن عمى وأبى والشيخ عبدالمقصود فى مندرتنا حتى يحدث بينهم اشتباك عنيف يوهمنى أن العراك على وشك أن يتحول إلى ضرب ، وأسمع فى مناقشاتهم أسماء ابن خلدون وابن كثير والطبرى والقرطبى والجلالين وصحيح البخارى وصحيح مسلم ولسان العرب ومختار الصحاح والمصباح المنير ، والبيان والتبيين للجاحظ والأمالى لأبى على القالى والمعارف وأدب الكاتب لابن قتيبة وطبقات ابن سلام و يتيمة الدهر .. الخ الخ ، فما أن يطلع الصباح حتى أجرى إلى قاعة ابن عمى وأتأكد من أننى رأيت الأسماء التى سمعتها بالأمس مكتوبة بماء الذهب على هذه المجلدات ، فأشعر بمتعة فائقة . متعة أخرى موازية حينما أختلى فى المندرة مع تل هائل من مجلات المصور على أرضية الشباك أروح أتصفحها بشغف عظيم لاهث الأنفاس برؤية الملك والوزراء والفنانين والأدباء مفرودة على الصفحات ، أقرأ ما حولها من كلام ، أفتتن بمقالات فكرى أباظة وحلمى سلام وأمينة السعيد وحبيب جاماتى الذى كان يشعل خيالى بكتابته لتاريخ ما أهمله التاريخ . لقد لعبت مجلة المصور أكبر دور فى تقريب صورة العاصمة إلى خيالى ، ومجريات الأمور فى الحياة السياسية والأدبية والفنية والاجتماعية . وعلى أرضية شباك آخر كانت تلال من أجزاء السير الشعبية الساحرة.

سر كلمات أبي

شغفى بالقراءة كان مصدره رغبة دفينة فى اكتشاف سر الكلمات التى تجعل أبى يكاد يبكى وهو يقرأها من فرط التأثر ، وتجعلنى أنا شخصيا أنتفض ويقف شعر رأسى حينما أسمع القارىء يقرأ للناس أحداث السيرة الهلالية أو سيرة عنترة أو سيرة حمزة البهلوان ، من لى بمن يشرح لى ذلك السر الخفى وراء الكلمات ، ما الذى يجعلنا جميعا ننصت فى شغف وانتباه معلقى الأنفاس لقارىء يقرأ علينا

تفاصيل أحداث سمعناها مئات المرات وكأننا فى كل مرة نسمعها لأول مرة ؟ هل هى حرارة الأحداث ؟ أم طلاوة اللغة وسيولتها ؟ أم هى صنعة الراوى وحرفنته فى الحكى فى الوصف فى تجسيد المواقف ؟ أم لعلها كل هاتيك الأسباب ؟ ولكن لا . فهناك كتب توفرت فيها كل هذه الأسباب مضافا إليها بعض البهارات والزخارف ومع ذلك قد لا نكمل قراءتها وإن قرأناها فمرة واحدة لا نعود إليها بعدها . هنالك إذن سر خفى فى صياغة هذه السير الشعبية جعلها تصبح قطعة من لحم الحى ، من قلوب المصريين ووجدانهم .

على أننى سرعان ما اكتشفت أن هذه الخصيصة الكامنة فى السير الشعبية ، خصيصة احتواء القارىء والسيطرة عليه ممسكة بكل مفاتيح ذهنه وعواطفه .. موجودة فى أعمال فنية أخرى كثيرة .

كان ابن عمتى - حماى فيما بعد - يملك دكان بقالة فى القرية ، حركة البيع فيه بطيئة يمكن أن يديرها واحد من عياله ، أما هو فينزوى فى ركن مجاور لشباك على الشارع العمومى ، منفردا بصديق عمره الشيخ الضرير محمد زيدان عصر ، الذى لم يكمل تعليمه فى المعهد الدينى لكنه بات أكبر مثقف حقيقى فى بلدتنا ، ثراؤه فى المعلومات فاحش، وقدرته على الحديث والخطابة فذة ، يتكلم فى أى موضوع بإفاضة ، بلغة لا تقل بحال عن لغة طه حسين بنفس الفخامة فى النطق ، وكان متذوقا للأدب العربى الحديث والمعاصر بصورة لا ينافسه فيها أحد .

ابن عمى أنور مصطفى السنهورى هو الآخر علم نفسه القراءة فأصبح مشغوفا بالأدب يستعير كتب طه حسين والعقاد والمازنى ومحمود تيمور ومصطفى صادق الرافعى ليقرأها وحده على انفراد قبل الإخلاد إلى النوم ، أما فى النهار ، من الضحى إلى أذان المغرب فإنه ينفرد بالشيخ محمد زيدان ليقرأ عليه واحدة من روايات تاريخ الإسلام لجرجى زيدان ، لم يكن للراديو أى وجود فى القرية ومع ذلك لا أدرى كيف تأتى لابن عمتى أن يقلد المذيع حسنى الحديدى فى القراءة السلسة المتدفقة فأشعر أنه فرح بقدرته على النطق السليم دون أخطاء فى التشكيل من فرط ما راجعه الشيخ محمد زيدان . وفى البداية كنت أرقب وجه الشيخ محمد زيدان أثناء استغراقه فى الاستماع فأرتاع من التأثيرات التى تتركها القراءة على وجهه القمحى المحروق ، وعلى كيانه كله فينقبض وينبسط ويبتهج ويتجهم ويقهقه أحيانا وأحيانا أخرى يرفع المنظار الأسود ليمسح دموعا تدفقت من عينيه وقد يجهش بالبكاء . شيئا فشيئا بدأت أدخل معهما فى نسيج الأحداث وسياقها فيحدث لى ما يحدث للشيخ محمد زيدان ، بل كانت العصبية تجتاحنى وتكاد تخرجنى عن طورى إذا ارتفع صوت أحد

وشوشر على صوت القراءة ؛ ثم بدأت أمسك بالرواية لأواصل القراءة ريثما يقضى ابن عمتي حاجته ويعود . على هذه الوتيرة قرأت سلسلة روايات تاريخ الإسلام كلها أكثر من مرة ، وتأكدت أنها تشترك مع ألف ليلة وليلة والسير الشعبية في جذب القارىء وإمتاعه .

حكايتي .. شخصيتي

لم أكتشف سر هذه الخصيصة الفنية إلا بعد أن اشتغلت «نفرا» ضمن عمال التراحيل وكنت صبيا فوق العاشرة من عمري بثلاث سنوات فحسب . مجاميع هائلة من أنفار جيء بهم من جميع أنحاء القرى في الوجه البحري، يتم شحنهم في اسطبل مهجور يبيتون فيه ، كل واحد منهم حكاية مروعة ، والحكي عند المصريين بطاقة هوية ، أن أقدم لك إثبات شخصيتي يعني أن أحكي لك أطرافا من قصة حياتي ، وأنت بمجرد استماعك لي تقدم إثبات شخصيتك فتحكي أطرافا من قصة حياتك ، هنالك من هو شغوف بالحكي وموهوب فينخرط في بوح حميم لا ينتهي ، وهنالك الحكيم المجرب الذى يحكي لك تلخيصات حياته في مجموعة من الدروس والمواعظ والحكم ، وهنالك من يعمد إلى الثرثرة والدردشة للتسلية فيخترع مواقف ضاحكة ويبرع في وصف شخصياتها لتحسيسك بعمق الورطة التى وقعوا فيها لكى تضحك من أعماقك .

الحكي للتعارف ، الحكى للتصافى ، الحكى للاتعاظ ، الحكي لاستقطاب رأيك فى مشكلة ، الحكي للشكوى من الظلم ، الحكى لتخفيف الآلام عن الحاكى وعن المستمعين معا ، الحكى لاستثارة المشاعر العامة ضد خروج الخولى عن السلوك السليم ، الحكى للضحك والتسلية والترويح عن النفس .

لكل حكي من هذه المحاكي فنونه الخاصة المتسقة مع أغراضه وأهدافه ، فالحكي في المعازى لاستجلاب دمعك على الفقيد يختلف بالضرورة عن الحكى في الأفراح لاستجلاب البهجة والفأل الحسن . حينئذ عرفت أن جوهر الشخصية المصرية قد صيغ فى حكى بقدر ما صاغه الحكى عبر العصور المتعاقبة . وقد تجمع ميراث الحكي بجميع مقاصده في الفولكلور المصرى الغنى ، حيث يكمن الحكي في الأغنيات والمواويل والحواديت والألغاز وحتى فى الأقوال المأثورة تجد - على إيجازها الشديد - طاقة حكى عبقرى قادر على الاختزال ، بل ربما يكون المثل الشعبى نفسه جملة حوارية في حدوتة أو في موقف حياتى ثم انتشر بقدرته على النفاذ . الفولكلور المصرى لايزال حيا في شخصيات عمال التراحيل وأبناء القرى عامة والأحياء الشعبية فى الحواضر ومن لم يقرأ الفولكلور المصرى ويلحظ منطوقه الحى لدى الطبقات الشعبية لا يحق له

الزعم بأنه يفهم الشخصية المصرية .

الصدق معبر الحكاية

اكتشفت – وفى وقت مبكر جدا – أن القاسم المشترك الأعظم بين كل هذه الألوان من الحكى الشعبي وفنونه المختلفة ، وبين السير الشعبية وألف ليلة وليلة والروايات والأشعار الجذابة هو .. الصدق فى الأداء ، فى البناء ، الصدق مع النفس أولا ، مع الحقيقة، مع المتلقى ، إن حرارة الصدق هى الموصل الجيد للعمل الفنى ، فإن اشتبك المتلقى فى تفصيلة معينة واستشعر الكذب فيها بأى قدر على أى نحو سقط فى نظره العمل الفنى كله . الصدق الفنى هو الإحساس بالجوهر الإنسانى فيما يرشح للكتابة ، ومتى أحس الفنان بقيمة التجربة التى لفتت نظره فإن الصدق فى التناول هو الذى يدفعه لاقتفاء الآثار واستكناه التفاصيل الدقيقة التى تجمعت فكونت الحدث ، إن الحدث بغير هذه التفاصيل الدقيقة لا يكون حدثا بل يكون مجرد خبر مبهم لا يصدقه أحد ، بل إن التفاصيل فى الفن أهم من الحدث فى أحيان كثيرة جدا .. ذلك أن هذه التفاصيل هى القاسم المشترك الأعظم بين جميع البشر فى جميع أنحاء الأرض ؛ والناس تتعرف على بعضها البعض من خلال هذه التفاصيل إذ هى المشترك الإنسانى ، فمثلا حينما كان أحد الأنفار يغنى لنا موال حسن ونعيمة الذى ألفه رجل أمى مجهول ، كان جسمى يقشعر فى المشهد الذى جيء فيه بأم حسن لكى تتعرف على جثة ولدها القتيل ، وها هى ذى ترفع الغطاء عن وجهه : عندئذ يقول المغنى : «شافت ولدها بزازها باللبن حنت» . وكنت أنتفض من نداء الفكهانى على العنب بقوله مغنيا : « بلدك بعيدة يا عنب والغربة خطفت لونك» . وأهتز من أعمق أعماقى من تعديد المعددة حين تقول : « دخل الحكيم يركز على النبوت .... روح بلادك يا غريب لتموت» .... الخ.

أبى وأبطال الملاحم

تعلمت من عمال التراحيل كيف أكتب. إنهم كائنات طالعة من كتاب الفولكلور مشبعة بزخم المشاعر المعاشة على الحقيقة حيث الحزن حزن والفرح فرح والزعل زعل والغضب غضب ، حيث كل شيء حقيقى غير مستعار غير مصطنع . لقد كنت أحلم بتعلم الكتابة لكى أكتب قصة حياة أبى ذلك العملاق الجبار المذهل ، الذى استأنف حياته بعد الستين من عمره فتزوج فتاة فى عمر أحفاده لينجب منها سبعة عشر ابنا وابنة كان ترتيبى الرابع فيهم، فكيف تأتى لمثل هذا الشيخ أن ينهض بهذه المسئولية الجسيمة وهو فى نهاية العمر ؟! هذا ما شغلنى فى طفولتى وصباى حيث ربط خيالى بين أبى

وأبطال الملاحم والسير الشعبية التى فتنت بها وحفظت الكثير من مقاطعها عن ظهر قلب ؛ وقد واكب هذا الحلم ظهور أستاذ من معلمى بلدتنا تم نقله من بلدة بعيدة إلى مدرسة بلدته ؛ ذلك هو الأستاذ محمد حسن ريشة عليه رحمة الله ؛ كان مدرسا كشكولا يعنى يدرس جميع المواد ، وكان ضليعا فى اللغة العربية إلى درجة فاتنة ، ضلوعا يحببك فى لغة القرآن ، يشرح معانى المفردات الجميلة فإذا بالمفردة عالما كاملا من المعانى والرموز والإشارات ؛ ويشرح لنا قواعد النحو والصرف والبيان والبديع ببساطة مذهلة لدرجة أن فصلنا كله - ستة وثلاثون تلميذا بنينا وبنات - طرأت عليهم أعراض كتابة الشعر والقصص والخواطر والمقالات فأرشدهم الأستاذ إلى ما يسمى بمجلة الحائط وهى شىء لم نكن نسمع عنه من قبل فكان اكتشافنا هذا أروع شىء فى حياتنا ، كنا فى السنة السادسة الابتدائية وقد تكفل الأستاذ ريشة بأن يؤهلنا جميعا للتفوق فى امتحان الشهادة الابتدائية التى كانت ستمنح من مدرسة بلدتنا لأول مرة وهى فى الأصل أولية الزامية .. إلى هذا الرجل العظيم يرجع الفضل الأكبر فى تأسيسى لغويا ، وفى إثارة خيالى اللغوى وتدريبى على الاشتقاقات الصحيحة للمفردات، وعلى المفاضلة بين المترادفات لاختيار المفردة الأقرب إلى المعنى الذى أريد التعبير عنه ، ومن حسن الحظ أن مكتبة ابن عمى الأزهرى كان فيها كتاب صغير الحجم سرعان ما سطوت عليه وتشبثت بامتلاكه إلى اليوم ، ذلك هو كتاب (الألفاظ الكتابية) لبديع الزمان الهمذانى، حيث يورد المفردة فى وسط السطر، وتحتها عديد من المفردات تحمل كلها نفس الغرض المعنوى ولكن فى حالات مختلفة وأطوار متعددة ، من قبيل ذلك مفردة الأسد : حوالى مائة مفردة أو أكثر تطلق على هذا الحيوان المفترس ملك الغابة ولكن فى أطوار مختلفة من حياته حيث الشبل غير الأسد غير السبع غير الليث غير الضرغام .. الخ .

فصاحة العامية

أقول كانت أمنيتى من تعلم الكتابة أن أكتب ملحمة عن أبى شرط أن تكون كلها شعرا موزونا بقافية واحدة ؛ فما أن خالطت عمال التراحيل حتى نسيت قصة أبى أمام قصص حية تخالطنى ، كل قصة منها تفوق ما فى قصة أبى من أهوال . اندمجت فيهم بمعنى الكلمة ، صرت واحدا منهم ، كنت اكتبُ لهم الخطابات إلى ذويهم والشكاوى إلى المسئولين فى تفتيش الوسية أو فى مركز الشرطة ، وحين أقرأ على الواحد منهم ما كتبته باللغة العربية

الفصحى ينفجر صائحا في ضيق وغيظ : « بنمـتك ! هل أنا قلت لك هذا الكلام ؟ اتق الله يا رجل ؟!» . فأقول : «هو كلامك بنصـه إلا أنه باللغة العربيـة الفصـحى! وحينئذ قد يكون عصبيا غليظا فيشوح في وجهي مدمدما : « ديك أم الفسحى هذه ! يا بنى آدم أنت تكتب ما أمليه عليك ! لا تضع من دمـاغك كلمـة واحـدة!» هذه المشـادات علمـتنى أن اللغـة ليست هي المفـردات التي درسناها في المدرسـة أو التي نقـرأها في أدب مـصطفى صـادق الرافعي وطه حسين ومحمود تيمور ، إنما اللغة التي يجب أن أعبر بها لابد أن تكون فنية وبعيدة عن لغة الأدب الصرف ، أن تكون لغة الحياة ، تقوم موهبة القص بتفصيحـها ووضـعها في مواقع من الاعراب؛ وكـان أن اكتـشفت ذات لحظة مشرقة أن جميع المفردات التي نستخدمها في حياتنا اليومية كلها فصحى ، كل ما هنالك أننا نتجاهل مواقعها من الاعراب ولهذا سميت بلغة العامة أو اللغة العامية ! وإذن فـعلى من يريد اسـتـخـدام هذه المفـردات في عـمل فني عليـه أن يكون خبيرا بقواعد النحو والصرف ليضع هذه المفردات في مواقعـهـا الصـحيـحـة من الإعراب ، ويكون قد كسب لغة الحياة وفي نفس الوقت ارتقى بها وأخضعها لقواعد اللغة بدون ترخص أو ابتذال . وقد جربت هذا الاكتـشـاف في عمـال التـراحيل ، فحينما يطلب منى أحدهم أن أقرأ عليه ما أملاه على ، اقرأه بالعامية فيجد الرجل أن المفردات هي نفس مـا قالـه ، في حين أنك لو درست المكتوب ستجده صحيحا تماما من الزاوية اللغوية من تطبيق لقواعدها .

بعد حوالى عشرين عاما من هذه التجارب قـدر لي أن أمـارس نفس التـجـربة مع الدكتـور طه حسين ، فـقد كلفتنى إذاعـة صوت العرب - في أواسط ستينيات القرن الماضى - أن أعد رواية الأيام في تمثيلية إذاعـيـة ؛ فرفـعت الأمر إلى الدكـتـور طه حسين طالبا موافقته ، فمكث بضع دقائق يسألنى أسئلة عامة وأجيبه عليها فيما خيل لي أنه اختبار لهذا الفتى الذى يراه لأول مرة وهل هو قـادر على القيـام بهذه المهمة أم لا ! فلما اطمأن أبدى موافقته مشـترطا شرطا واحدا : أن يكون حـوار التمثيلية باللغة العربية الفصحى ! فوافقت في الحـال وإن أسـقط في يدى كـمـا يقـول بلغاء العرب . أيامـهـا كنت أقضى فـتـرة تمرين في جريدة الجمهورية ، ومن حولي كبار النقاد ، طلبت رأى الدكتور محمد مندور والأسـتـاذ رجـاء النقاش والأسـتـاذ أحمد عباس صالح - وله تجربة إذاعـيـة مـهـمة - فاستنكروا جميعـا أن يتحدث صعايدة معاصرون في الإذاعة بالعربية الفصحى فهذا معناه ببساطة أن أحدا من المستـمعين لن يصدق التمـثيلية وسـوف يبوخ العمل الأدبى ويسقط العمل الإذاعي

التكوين

، وقالوا إن لكل مجال فني مقتضياته الفنية المحتومة . عندئذ تذكرت تجربتي مع عمال التراحيل فاسترحت في الحال ، وعكفت على الرواية حتى استوعبتها جيدا ، ثم كتبت الحوار بلغة يمكن نطقها باللهجتين الفصحى والعامية دونما خلل في بنيان اللغة ودونما أي ركاكة في التعبير . وقد حدث ، وحينما ذهبت إلى الدكتور طه حسين لأقرأ عليه نص التمثيلية قرأت بالفصحى في الوقت الذي يعرف فيه الممثلون المشاركون في التمثيلية أن الحوار مكتوب بالعامية وأنهم سينطقون كما ينطق عامة الناس في الحياة . من قبيل ذلك مثلا أن أقرأ على الرجل بالفصحى هكذا : «الأب : معي جواب أحلف بالله لو شافه مخلوق لرحت في داهية» . أما الممثل عبدالوارث عسر - ممثل دور الأب - فسوف ينطقها في استديو التسجيل بالعامية على هذا النحو : « الأب : معاى جواب .. أحلف بالله .. لو شافه مخلوق .. لرحت ف داهيه» . وهكذا جميع الحوار. وكنت أثناء القراءة أرقب وجه الدكتور مرتعشا وأرى ابتسامة تتسع على شفتيه فيما هو مستغرق في الإنصات ، وأخيرا رفع رأسه صائحا : « الله يفتح عليك ! بديع بديع ! توكل على الله ! لقد أشفقت عليك ولكنى فرحت بك وبالنص !» . وفيما بين تجربتي مع عمال التراحيل وتجربتي مع الدكتور طه حسين كنت قد تلطمت في الحياة : تعلمت النجارة والحدادة والسمكرة والخياطة والمكوة ، اشتغلت بائعا سريحا في الاسكندرية وبائعا في محل أقمشة في دمنهور ، فتجمعت في خزائني تجارب حياتية لا حصر لها .

الطرب أهم مكوناتي

على أن مرحلة التكوين - من الطفولة إلى سن الخامسة عشرة من العمر - لا تكتمل صورتها بدون الإشارة إلى ماكينة الغناء كما كنا نسميها في بلدتنا ، وهي جرامفون بنفير كبير كان من ممتلكات أبي ، ويوجد معه أربعة صناديق كبيرة تحتوي على أربعة آلاف أسطوانة ، كل أسطوانة محفوظة في جراب من الورق المقوى ، مكتوب عليه - وعليها في دائرة حمراء - اسم الأغنية واسم المطرب والمؤلف والملحن . في طفولتي - باعتباري أول ولد ذكر ينجبه أبي بعد طول انتظار وتمن - كان مسموحا لي أن أعبث بأي شيء إلا هذه الصناديق وهذه الماكينة ، ولم يجد أبي مفرا من أن يعلمني كيف افتح علبة الإبر ، كيف أنزع الإبرة المتآكلة من ذراع الجرامفون وأركب بدلا منها إبرة جديدة مسنونة ، كيف أرفع الأسطوانة برفق وحرص لأقرأ ما عليها ثم كيف أضعها على جنب في مساحة واسعة آمنة ، كيف أنزعها

من الجراب بأصابع تمسكها جيدا ، كيف اثبتها فوق الطارة التى ستدور بها ، كيف أدير يد الزمبرك لكى تمتلىء علبته بالحركة التى ستدور الاسطوانة بناء على رجوعها ، كيف أميل بالذراع لأجعل الإبرة تلامس حافة الاسطوانة .... الخ .

كانت متعة فائقة ، وقبل مجىء الراديو إلى قريتنا بعد ثورة يوليو كنت فى أواخر الأربعينيات قد أصبحت أعرف أم كلثوم وعبدالوهاب وسيد درويش وفتحية أحمد مطربة القطرين وحبيبه رشدى ومنيرة المهدية والشيخ أبو العلا محمد والشيخ



درويش الحريرى والشيخ المسلوب ومحمود صبح وعبدالحى حلمى وابن شقيقته صالح عبدالحى ومحمد عبدالوهاب ومحمد العزبى وفايد محمد فايد وليلى مراد ورجاء عبده وأحلام وعيشة حسن وحورية حسن وشافية أحمد ومحمد أمين وجلال حرب وعبدالغنى السيد وإبراهيم حموده وكارم محمود وبعدالعزيز محمود وسعاد محمد ونور الهدى ونازك ولورد كاش وصلاح عبدالحميد ومحمود الشريف وأحمد صدقى وعزت الجاهلى وحليم الرومى ومدحت عاصم وفريد الأطرش وفريد غصن وزكريا أحمد وبيرم التونسى ويوسف بدروس وبديع خيرى ... الخ الخ .. كان عالم الغناء ولايزال يشكل ركنا مشرقا فى وجدانى ، وقد بلغ ولعى بالغناء إلى درجة جعلتنى أحاول تعلم العزف على بعض الآلات لعلنى أستطيع التنفيس بالآلة الموسيقية عن الغناء المتفجر بداخلى ، ولم يكن صوتى بقادر على نقل ما يتدفق فى صدرى من أنغام ، فلما فشلت فى المثابرة على تعلم العزف على آلتى العود والرق خيل إلى أننى أستطيع أن أعوض ذلك فى الكتابة . وفعلا ، فكثيرا بل كثيرا جدا ما يكون الدافع الواضح للكتابة هو رغبتى العميقة فى الغناء .

عاطف مصطفى

هزيمة النقد الأدبي.. لماذا؟

«هزيمة النقد الأدبي» مقال الدكتور محمد رجب البيومي في العدد الماضي حظي بالعديد من خطابات القراء نجتزيء بعضا مما تضمنته تلك الخطابات، يقول الأديب حمدي البطران: كتب الدكتور محمد رجب البيومي مقاله الرائع «هزيمة النقد الأدبي .. في عدد اكتوبر الماضي قارن فيه بين نقاد الأمس من عمالقة الأدب ونقاد اليوم ، والواقع أن نقاد اليوم استهوتهم الصحافة والتليفزيون والمنتديات الناعمة ، ولم يعد هناك وقت لإعداد الدراسات الأدبية الرصينة التي تفيد الكاتب والقاريء معا ويقول البطران: إن الأجيال الحديثة من الكاتبات تثقفت وتكون وعيها في ظروف بالغة الصعوبة، سواء في الأحوال المعيشية أو السياسية، وشهد هذا الجيل الانفتاح الاستفزازي وسلب أموال البنوك والهروب وربما قرأ هذا الجيل عن ثقافات غربية ، كما عاصر الصفعات المتتالية لرموز الثقافة المصرية ومن بينها محاولة اغتيال نجيب محفوظ ، واغتيال فرج فوده بسبب كتاباته.

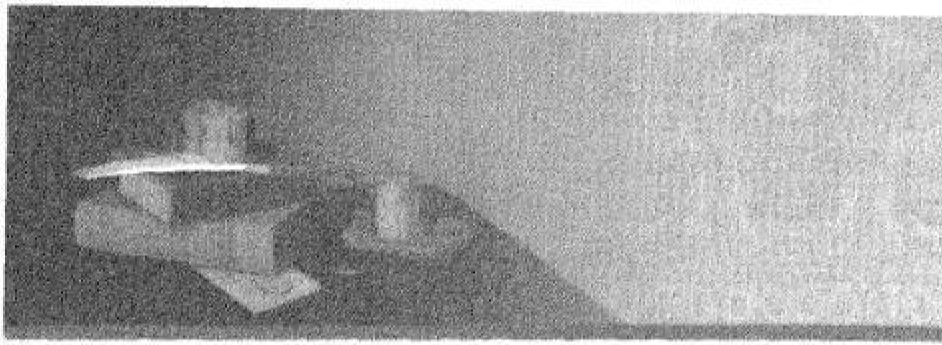
لقد لمس د. البيومي عصبا في كل الكتاب الذين يشعرون بتجاهل النقاد لهم وجريهم وراء أنصاف الموهوبات وعديمات الموهبة ، وكنا ننتظر منه أن ينظر إلى نصف الكوب المملوء.

أما سامي منير عامر من الاسكندرية فقال : هزني مقال د. محمد رجب البيومي هزا يخلع ماقد تبقى لي من أنفاس لاهثة بذلك العنوان المجتاح هزيمة النقد الأدبي.

وسبب هذا العنوان في رأيي هو افتقاد سماع اللغة العربية سماعاً سليماً وافتقاد تصحيح اعوجاج نطق الألسن بها في مراحل التعليم المختلفة، وصولاً إلى أقسام اللغة العربية بالكليات ولا يخفى عليكم أن النماذج التي يمكن أن تستظهر ليحتذى بها في تصويب لغتنا قد انتفت معظمها من كتب وزارة المعارف سابقاً والتي تسمى الآن وزارة التربية والتعليم .

والنقد الأدبي لايهزم أبداً، فهو موجود، شامخاً بكم ياأستاذنا البيومي، إنما المفتقد فهو اللغة التي يتحدث بها هؤلاء الأدعياء الذين يشجعهم بعض من ليسوا أهلا للنقد .

ويقول صبري عبدالله قنديل إن الدكتور البيومي يعلم أن المناخ الثقافي الذي كان سائدا في عصر الدكتور طه حسين كانت من أهم ملامحه رعاية المواهب من وقت



مبكر وتتبع خطواتها حتى تأخذ طريقها الطبيعي ليس هو المناخ السائد اليوم، والا لكانت القاصمة التى أشار اليها د. البيومى قد وجدت يد الرعاية الحقيقية، لكن وبعد أن اخترقت ثورة الاتصال كل المعاقل الفكرية والثقافية ، فقد أحالت المثقفين إلى جزر منعزلة ، كما أن العنصر البشرى المتمثل فى المذيعين والمذيعات يعتدى على حرمة اللغة العربية فى عشرات البرامج التليفزيونية المؤثرة حتى التى تناقش قضايا ثقافية وتمر هذه الاعتداءات دون مراجعة، كأن هذه اللغة بلا أهل حتى تحولت بفعل السكوت عليها عند المتلقين إلى يقين شبه مسلم به وهو مايكشف عن مبرر مغاير لفزع د. البيومى بعيداً عن هزيمة النقد الأدبى ، ألا وهو انحدار اللغة العربية ، فضلاً عن المناخ الثقافى السائد الآن والشللية والمصالح الشخصية.

ياليته خطيبى

ياليته .. ياليته خطيبى — نظرته لحن من المغيب
بسمته تجعلنى سماء — أنجمها من عسجد الغيوب
صديقتى محظوظة وحظى — شوك على أنامل السهوب
فى كفها خاتمها كنجم — يضىء ضوء البدر والدروب
وإن مشت مشى على يديها — زمرد من كوكب غريب
تعرف أننى أغار منها — وأننى كالسيف فى الحروب
وأننى حاولت قبل شهر — أن ألثم الجميل فى الغروب
أن أسرق الذى أراه بحراً — أقول للسماء ذا نصيبى
سحقاً لمن تشرى الرجال دوماً — بمالها الحراق كاللهيب
ياليته يخطبنى وينسى — قبيحة كالسم فى الزجيب
أكاد من غيظى أموت، ماذا — تخبىء الأقدار ياحبيبى؟
أأنت لى أم أننى سأبكى — مع الندى والغصن والطيوب؟

د. هيثم الحويج العمر
دمشق

شاعر وقصيدة

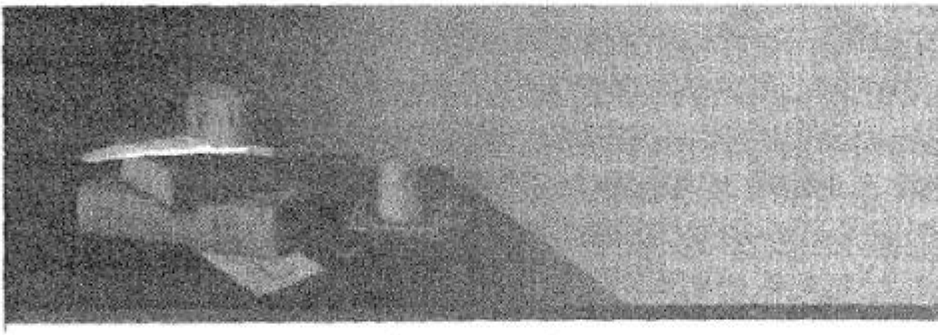
الراحل فتحي سعيد شاعر قال عنه الناقد الدكتور على شلش : فى شعره روح القدامى وشجن المحدثين وثورتهم تلك الروح هى التى أكسبت حياته خصوية وقلبه رحابة وشعره مذاقاً خاصاً. يقول فتحى سعيد فى أحد أشعاره:

له الحب نبع عميق المدى
وفيه الأماني لاتندثر
وقلب ترامى بقلب الوجود
حوى الكون والكائنات الأخر
تفجر فى جانبيه الصفاء
كنور الصباح إذا ما انتشر
فغايته فوق هام النجوم
وان عاش فى الأرض بين البشر


فتحى سعيد

عمل بجريدة الجمهورية ومجلة بناء الوطن وتولى رئاسة تحرير مجلة الشعر ونشر أشعاره فى معظم الصحف والمجلات التى تصدر فى مصر والعالم العربي ومثل مصر فى مهرجانات الشعر والأدب التى أقيمت بالخارج ونالت أشعاره جوائز عديدة وترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية .. أصدر فتحى سعيد عدداً من دواوين الشعر منها فصل فى الحكاية ، أوراق الفجر ، مصر لم تنم، مسافر إلى الأبد، عصافير الحجارة. ومن دراساته الأدبية الغرباء، عشاق لكن شعراء، شوقى أمير الشعراء لماذا؟ ، دراسة عن الشاعر محمود أبو الوفا وله بعض الأشعار المغناة.

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية



كفاك.. رحيلاً!!



لماذا تذيعين سراً قصيدى؟!
وكل القصائد ماتت بثغرك..
قبل انبلاج النهار
كفانا رحيلاً
فهذى طيوفك ضلت حنايا الديار
وقلبك ماعاد يهفو لطيرى
وما عاد يرنو انتظارى
كأنك مثل النجوم .. تدورين حولى
وتمضين بين المدار
بربك من ذا يمور بباب المساء؟!
ومن ذا يحن لدفء الأوار؟!
بربك من ذا يقبل وجه الشوارع..
هدء الحدائق
حتى رصيف القطار
فإنى أتيتك عند الغروب
أتيتك أشعل شوق المشاعر .. سهداً .. ووجداً
أتيتك قبل نزوح البحار

عبد الناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

الأديب وديع فلسطين

أحرص دائماً على متابعة كل مايكتبه الأديب وديع فلسطين فى «الهلال» وموضوعاته تنال كل اهتمامى نظراً لطرافتها، وحرصه على تقديم شخصيات أدبية وشعراء يستحقون منا الاهتمام.

هل يمكن أن أتعرف على بعض جوانب هذا الأديب المتميز.

محمد الجفيرى
دولة قطر

أنت والهلال

الهلال : وديع فلسطين مصرى صعيدى، تخرج من الجامعة الأمريكية بقسم الصحافة عام ١٩٤٢ بدرجة بكالوريوس الصحافة والأدب .. وعمل بالصحافة في مختلف فروعها، فاشتغل مدرساً بالجامعة الأمريكية لعلوم الصحافة على مدى عشر سنوات. وعمل بالتأليف والترجمة ، وصدر له أكثر من ثلاثين كتاباً بعضها يحمل اسمه والبعض الآخر لايحمل اسمه .. من أشهرها :

قضايا الفكر فى الأدب المعاصر، وثلاثة كتب عن فنون الصحافة وكتاب اسمه مختارات من الشعر المعاصر – وكلام فى الشعر، واشتغل في إعداد بعض الموسوعات ، من بينها الموسوعة العربية الميسرة والموسوعة القبطية التى صدرت فى أمريكا فى ثمانية أجزاء باللغة الانجليزية .

وانتخب وديع فلسطين فى مجمعى دمشق والأردن، وكرم أخيراً فى ندوة الاثنينية التى يعقدها الشيخ عبد المقصود خوجه فى جدة، كما فاز بجائزة فاروق الأول للصحافة عام ١٩٤٩ .

الشعر والأخطاء

تصلنا أعمال شعرية كثيرة .. أحيانا ننشر بعضها على سبيل التشجيع ، مع التجاوز عن أخطاء في العروض .. وينبغى ألا يتم ذلك .. ولذا نود أن نلفت نظر أصدقاء «أنت والهلال» أننا سوف نحرص تماما على نشر الأعمال الجيدة.

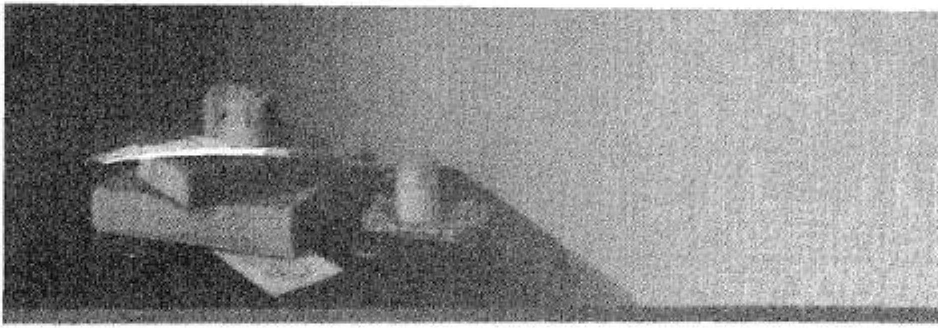
مثال لبعض مايصلنا هذه الكلمات:

كالموج يقذفنى يصفعنى من موجة حبك.
إلى موجة الحرمان
تحدثنى عيناك فى الغروب كالعشاق وفى الليل
تعلنى الإباء
عجيب حبك امرأة ملك القلب والروح والوجدان
وفى ساعات الموج تقذفنى بالحرمان

ولدينا نماذج كثيرة لاهى شعر ولا هي نثر ، وإنما خواطر فقط وقد نجد أحياناً قصيدة موزونة فى أول بيتين، ثم بعد ذلك تكسر الأوزان، وتبدأ الأخطاء النحوية.

وطالما أشرنا إلى ضرورة الاهتمام بقراءة الشعر كثيراً والاهتمام بدراسة العروض ، وكل ذلك لابد معه من موهبة حتى تكتمل عناصر الشاعر.

المحرر



كلمات



المجد

فى غير الهزل المتردى
هو فى الجد
يحسبه بعض موجوداً فى أى تحد..
يخطفه ند من ند
ذبلت أوراق الورد
ياند كفى

السلام

ذبحوه على ثغر حمامه ..
لن يسلم من ذبح سلامه ..
قد سقط الغصن على الأرض..
من قال بلا يسلم مجد؟!..
من قال بلا سلم مجد؟!.

حسن أبو الغيط
كفر المصيلحة - منوفية

الهولوكوست سلاح إرهابى ضد الفلسطينيين

لقد اتخذت إسرائيل من الهولوكست سبيلاً للمتاجرة ، حتى وصل الأمر إلى اتهام العرب جزافاً بمعاداة السامية ، وأمام التقاعس والصمت العربى تجاه «الهولوكوست» الجديد الذى تمارسه إسرائيل فى الأرض المحتلة الآن .. أناشد العرب للتصدى لذلك الخطر الزاحف بعد أن أصبح الهولوكوست الإسرائيلى سلاحاً إرهابياً ضد الشعب الفلسطينى، فإسرائيل تقيم المحرقة للفلسطينيين والتى أتت على الأخضر واليابس «تجريف الأراضى الزراعية وأشجار الزيتون والبساتين .. وتجريف المنازل وهدم الطرقات» .

وعلينا من خلال مؤسساتنا الثقافية والسياسية بدءاً بجامعة الدول العربية ومؤسسات حقوق الانسان ومراكز البحوث والأحزاب السياسية

والجامعات وأجهزة الاعلام مواجهة مايحدث الآن للفلسطينيين وحتى لانندم بعد فوات الأوان»!

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا

مع قراء الهلال

● الكاتب محمد يوسف عدس يسأل: لماذا لا تصل «الهلال» بانتظام إلى لندن، حيث يذهب إلى عدد من المكتبات بحثا عن الهلال، ويقولون له لقد وصلنا عدد قليل من النسخ ونفذت .. وفي الشهر التالي حاول حجز نسخة، ولكنه أيضاً عجز عن الحصول عليها.

يطلب أن تزداد الأعداد المرسلة إلى هذه العواصم الأوربية المهمة والتى تضم أعداداً كبيرة من العرب ومحبي الهلال.

ونحن بدورنا أحلنا هذا التساؤل إلى إدارة التوزيع لكى يتم تدارك هذه المشكلة، والتى تحدث فى بعض الأحياء فى القاهرة وحتى فى الاسكندرية وبعض محافظات الصعيد.

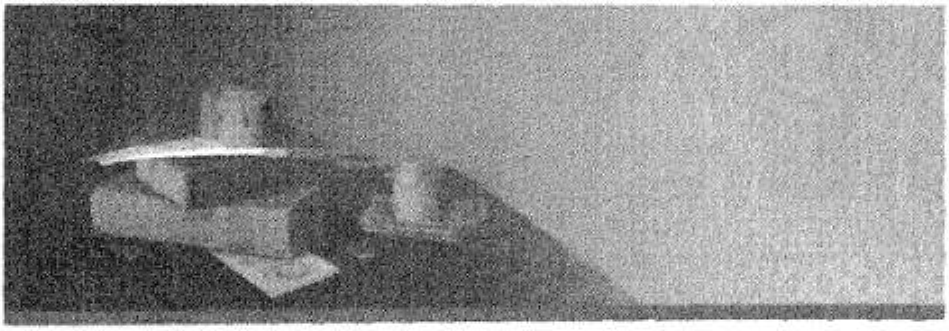
●● نظرة بالتوزيع .. ومزيد من المراقبة الشديدة على توزيع الهلال خاصة فى الأماكن الحيوية.

مطلوب من الشركة القومية للتوزيع زيادة الأعداد المرسلة إلى لندن وبلاد أوربا.

● محمد المناصرة من فلسطين، وإبراهيم السيد أحمد من الاسكندرية، وعدد من القراء اتصلوا بالمجلة هاتفياً يعلنون استياءهم من الألوان التى تطغى على صفحات الهلال، بحيث لايمكن قراءة الموضوع، فضلاً عن تفكك المجلة عند قراءتها..

أعلنوا أن الهلال هى أجمل مجلة عربية على الإطلاق ومن الضرورى تلافى هذه الأخطاء.

●● بدأ تدارك الأمر فى عدد أكتوبر، وتم عمل عدة لقاءات مع المدير العام



للمطابع ماهر سلام، والذى يحرص حالياً على متابعة سلامة كل الأعداد التي يتم توزيعها على موزعى الهلال ونرجو أن يكون العدد الذى بين أيديكم قد نال جزء كبيراً من العناية.

● بعد أن قرأنا مقال رئيس التحرير الذى مس شغاف القلب عن سيناء أرض الفيروز والتى ينبغى الاهتمام بها وعدم إهمالها باستثناء بعض المشروعات السياحية التى نراها الآن ، نطالب الهلال بألا تكف إطلاقاً عن متابعة تعمير سيناء.

سامح عبد الحميد عمران

مينا القمح - شرقية

●● نحن معك ، والهلال تفتح صفحاتها للكتاب لتناول كل المشكلات التى ينبغى تذليلها حتى يتم تعمير سيناء والاستفادة، بكل الثروات الموجودة بها، ولماذا اهتم غيرنا بها ، ولم نحاول نحن أن نسير على خطاه ، على الأقل!.

● من الغريب جداً أن نشهد نقصاً فى بعض الكتب والدوريات المصرية بدار الكتب، ونحن نعلم أن دار الكتب كانت فى يوم من الأيام من أبرز الأماكن التى يعثر فيها الباحث على ضالته ..

وأقترح سد هذا النقص بتصوير الكتب التى لاتوجد بالأسواق لتستكمل هذه الدار العريقة أدواتها من جديد ولتواصل دورها الريادى فى المنطقة.

نور محمد كامل

الزيتون - مصر

●● فى زيارة لرئيس التحرير لدار الكتب ، حرص على مناقشة قضية مماثلة مع الأديب والكاتب الدكتور صلاح فضل، ونرجو أن يتحقق على يديه مطلب صديق الهلال نور كمال.

● الأخ مدير عام ثقافة بورسعيد ، الأعمال تصلنا من خلال أصدقاء الهلال، وننشر منها ماهو جيد ، ونحرص على أن ننشر لكل المبدعين من جميع أقطار الوطن العربى.

الكلمة الأخيرة

اسئلة عطية الصيرفى!



بقلم: صنع الله إبراهيم

من الظواهر اللافتة للنظر أن جانبا مهماً من الدراسات التاريخية المصرية الحديثة ذات الطابع الموسوعي جرت على أيدى مؤلفين من خارج الجامعة، مثل طارق البشرى وإبراهيم عامر وشهدى عطية وفوزى جرجس وأحمد صادق سعد. ظاهرة أخرى لافتة للنظر أن اثنين من المؤرخين المحدثين استهلا الحياة العملية بالعمل كمساريا فى سيارات النقل العام، لكن أحدهما وهو «عبدالعظيم رمضان» أتاحت له الثورة استكمال تعليمه الجامعي والحصول على الدكتوراه بينما أتاحت للثانى وهو عطية الصيرفى -الذى ظل عاملا حتى يومنا هذا- دخول السجن.

خلال ذلك كله تمكن «عم عطية»، كما يخاطبه أصدقاؤه من تأليف عشرة كتب عن تاريخ الحركة العمالية والتاريخ المصرى عموما، معتمدا على قراءات واسعة فى المراجع الأساسية بالرغم من ضعف بصره.

ومنذ بضعة شهور أصدر على نفقته الخاصة كتابا ضخما استعرض فيه التاريخ المصرى كله فى محاولة للإجابة على الأسئلة التالية:

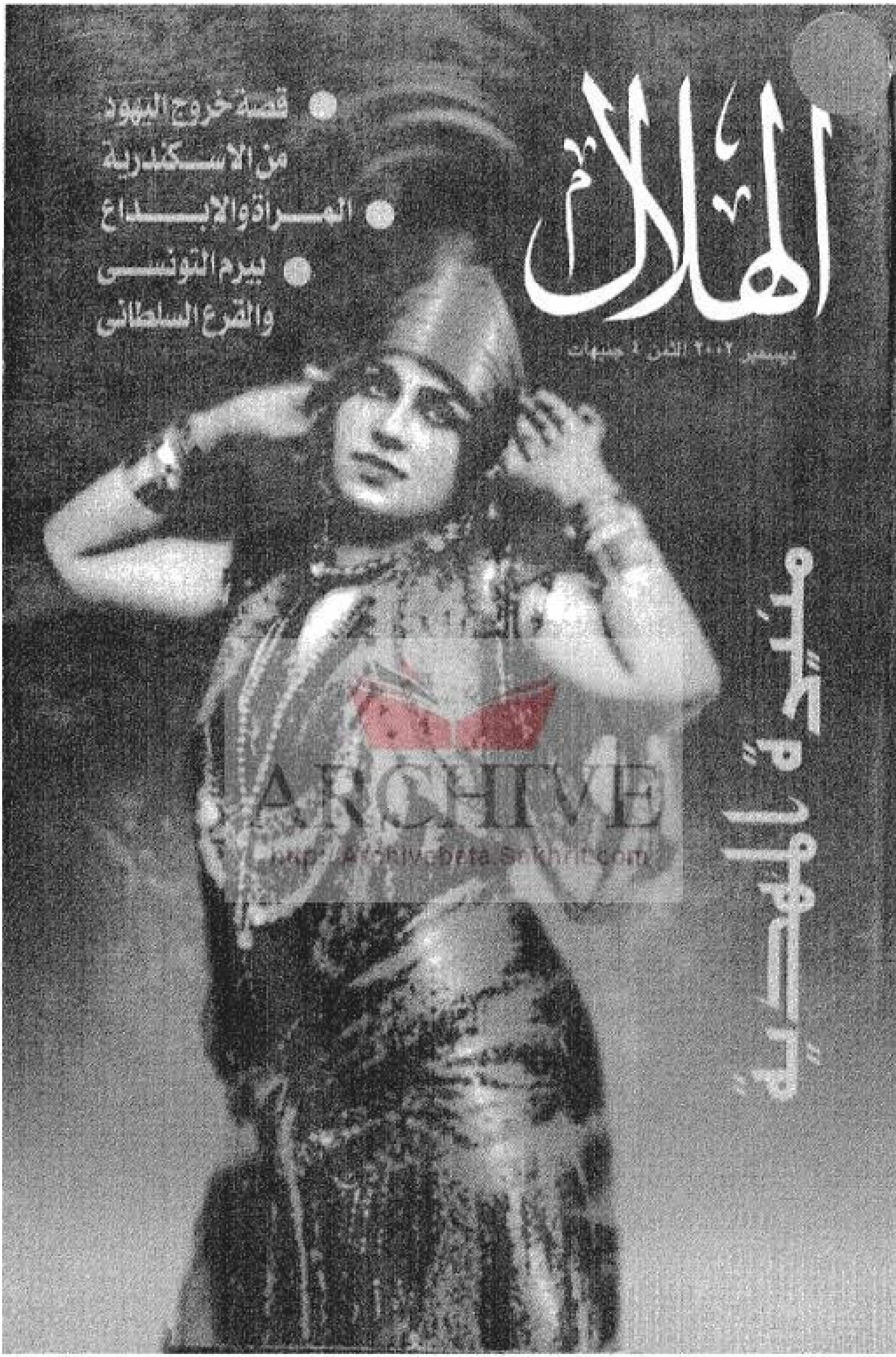
- لماذا انهارت الدولة الفرعونية؟
- لماذا ظل المصريون متمسكين بديانتهم طوال قرابة عشرة قرون تحت سيطرة الفرس والاغريق والرومان ثم اجتذبتهم المسيحية وغيروا ديانتهم ثم تغيروا إلى الإسلام وتغيرت لغتهم؟
- لماذا قاوموا روما المسيحية بالاستشهاد؟
- لماذا تفشت السلبية فى الحياة المصرية حتى يومنا هذا؟ عشق الموت.. الهروب والتواكل وتجنب الاصطدام مع الطغاة؟.. «إن الانتحار حالة مزاجية حادة من العدم والعدمية والغربة الاجتماعية السحيقة واليأس والقنوط والمخاطرة والاحتجاج والفدائية والمقاومة والخوف والهوس والجنون».. وهل هو المسئول عن ضآلة روح المقاومة والصمود فى مواجهة الطغاة والغزاة مما أدى إلى وهجرة المثقفين إلى الأديرة أو المهجر البعيد؟

ويستعرض المؤلف المكتسبات الاجتماعية التى تحققت فى ظل عبدالناصر وكيف جرى التراجع عنها دون أن ينفعل الشعب الذى سيطرت عليه اللامبالاة من جراء تغييبه وتغريبه بمساعدة المثقفين.



Earn your first 1000 points...
احصل على ١٠٠٠ نقطة في رصيدك...
Subscribe now with EgyptAir's frequent flyer programme to enjoy personalized service, extra baggage allowance, reward tickets, reward upgrades & many more privileges
إشترك الآن في برنامج المسافر الدائم لمصر للطيران لتتمتع بالخدمة الخاصة والوزن الإضافي للأمتعة والرحلات المجانية وتعلية درجة السفر والعديد من المزايا الأخرى
EGYPTAIR Plus


أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
سيكولوجية الإرادة
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس: ٦٨٢٧٠٠٢٠


الهلال
ديسمبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات
قصة خروج اليهود من الاسكندرية
المرأة والإبداع
بيرم التونسى والفرع السلطانى
منيرة المهدية



لوحة
كاتب الخطابات
للفنان العالمي
ديفيد روبرتس
(١٨٣٨م)

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
تلكس: ٣٦٢٥٤٦٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

---

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٥ دولاراً. باقي دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادي عشر بعد المائة
رمضان ١٤٢٣ هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

المرأة والإبداع

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

الهلال.. والحدث الثقافى لعام ٢٠٠٣

مع التطور الهائل فى تكنولوجيا المعلومات حرصنا على وضع الهلال على أسطوانات رقمية ممغنطة «C.D» وليكون فى متناول الباحثين والدارسين والمراكز البحثية فى الجامعات، وقد واجهتنا صعوبات كثيرة فى رحلة البحث لتحقيق هذا المشروع الثقافى الكبير.

وجاء الاتفاق مع مكتبة الإسكندرية والذى يعد الحدث الثقافى الهام لعام ٢٠٠٢م ويتضمن طبع الهلال منذ صدورها فى سبتمبر ١٨٩٢ وحتى الآن، أى ما يزيد على ١١٠ سنوات.

وفور تسلم المكتبة الميكروفيلم الخاص بمجلة الهلال فى ٢٠ نوفمبر الماضى منذ صدورها حتى الآن ، أبدى الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة سعادته بهذا التعاون البناء مع دار الهلال، وحرصه على أن ينتهى مشروع طبع الهلال على C.D خلال عام ولتؤدى المكتبة واحدا من أهم أدوارها فى مجال الثقافة المصرية.

كما حرص الدكتور يوسف زيدان مدير إداراتى المخطوطات والتزويد بالمكتبة على شرح الاستعدادات التى بدأت بعمل توسع فى قسم الميكروفيلم لاستيعاب هذا المشروع، حيث تم التعاقد على شراء أجهزة لعمل «رقمنة» لهذه المادة خصوصا على الميكروفيلم بتقنيات متقدمة جدا بحيث تستطيع أن تنجز أكبر عدد من الصور والصفحات فى أقل وقت وبدقة عالية، كما راعت المكتبة بمجرد الاتفاق على هذا المشروع أن تبدأ فورا فى القيام بواجبها، تقديرا لمجلة الهلال ودورها الثقافى على مدى ١١٠ سنوات وذلك فى إطار خطة مكتبة

الإسكندرية لحفظ ذاكرة الوطن وخدمة الباحثين الذين من المتوقع أن يزداد طلبهم على الهلال التى تحمل الذاكرة المصرية منذ صدورها حتى الآن.

فلم تكن مصادفة أن تحتفل الهلال عام ١٩٩٢ بمرور مائة سنة على صدور العدد الأول منها، وأن يكون هذا الأحتفال احتفالا قومياً إلا لأنها تضم سجلا حافلا للحياة المصرية خلال قرن كامل، وحملت بين طياتها مقالات وبحوثا وقصائد شعر لكتاب ومفكرين وشعراء نذكر منهم جرجي زيدان وطه حسين والعقاد ود. محمد حسين هيكل وسلامة موسى والمنفلوطي وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم إضافة إلى الأعداد الخاصة المتميزة لطه حسين والعقاد وشوقى ونجيب محفوظ وكان العدد الأخير بمثابة إشارة من الهلال إلى ما ينتظر محفوظ من العالمية التى حصل عليها عام ١٩٨٨م.

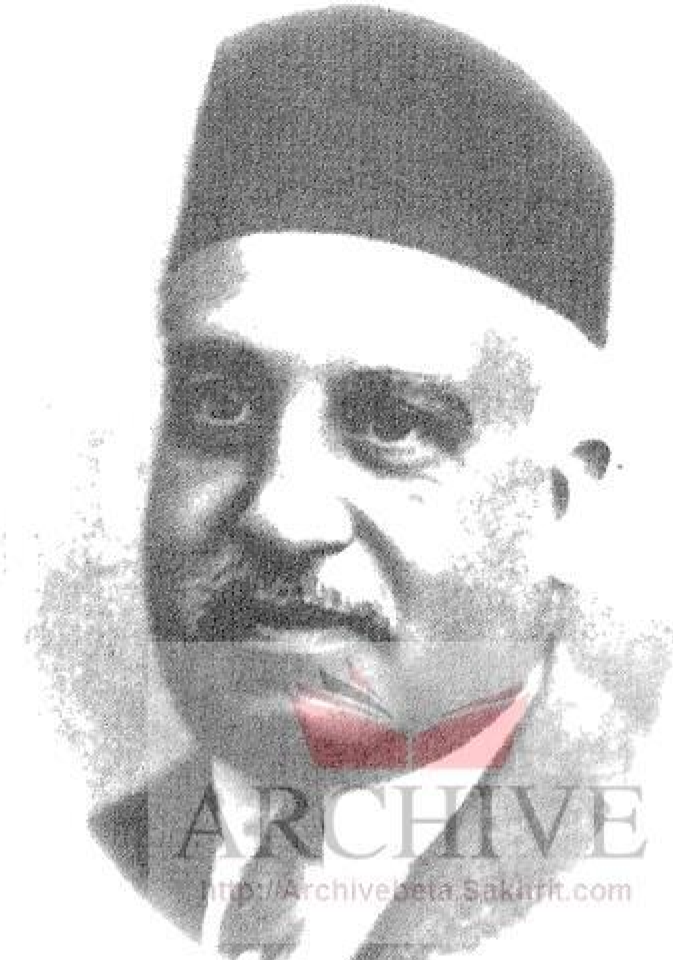
وفى مناسبة هذا التوسع الذى تم فى مكتبة الإسكندرية لمشروع طبع الهلال على C.D «إسطوانة ممغنطة»، يدخل مشروع أخر هو عمل نسخة رقمية تضم ١٤ ألف مخطوطة نادرة موجودة فى المكتبة البريطانية وقد وصلت الشهر الماضى على ميكروفيلم إلى مكتبة الإسكندرية، وسوف يتم نفس العمل، مع إضافة واحدة أنه فى مجلة الهلال سوف تتم عمليات تبويب من واقع الاعداد نفسها وبذلك يمكن للمراكز البحثية وللباحثين الحصول على ما يحتاجونه من المواد المنشورة فى الهلال.

عزيزي القارئ،

ومع هذا الاتفاق مع مكتبة الإسكندرية وعد الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب المصرية مشكورا بعمل فهرس للهلال يتم تنفيذه حاليا ليتحقق هذا الحلم الثقافى الكبير طبع الهلال على C.D وفهرس الهلال الذى يتضمن كل المواد التى نشرت وفهرستها وليكون ذلك بحق هو الحدث الثقافى لعام ٢٠٠٢.

إن الطموحات كثيرة والتجديد والتطوير سوف يستمر فى مجلة الهلال أولى المجلات الثقافية فى الوطن العربى، من منطلق الحرص على أن يتواصل دورها الثقافى الكبير ولتظل منبر الثقافة الرفيعة وصاحبة الريادة فى كافة مجالات المعرفة. ■

المحـــــرر



٨
الهلال
رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

طلعت حرب

كلمة السر لحل الكثير من المشاكل المعاصرة؟

بقلم
مصطفى نبيل

ليس هذا حديثا عن الماضى بل يتناول الحاضر والمستقبل، يدور حول تجربة طلعت حرب وما تقدمه من نموذج فذ، نحن فى أشد الحاجة إليه، ففيه حل الكثير من القضايا الاقتصادية المعاصرة، فالوصفة التى كتبها فى العشرينيات من القرن الماضى مازالت صالحة فى القرن الحادى والعشرين .

وهى مبادرة قامت فى ظروف صعبة، وفى ظل هيمنة الأجنبى. وسيطرة المحتل البريطانى، وتقوم على بث الروح فى القطاع الأهلى، أى القطاع الخاص، وهى تدرك هدفها فى زيادة «الكعكة» التى يشترك فيها الجميع، أى زيادة الاستثمارات..

وتتعامل هذه التجربة مع الواقع ، وليس لديها بقرات مقدسة، ولا قوالب جاهزة أو تحيزات فكرية، بل تنصت للواقع وتتابع خطاه.

من ليس له ماض، ليس له مستقبل..

هذا الكتاب وثيقة مهمة، حجبت طويلا، رغم ما يحمله من تجربة وعبرة، قام الدكتور رءوف عباس ومركز تاريخ مصر المعاصر فى كشف الغطاء عنه. وتقديمه للقارئ، وكأنه رد على الجدل الواسع الذى يدور فى مجتمعنا حول زيادة الاستثمارات وتحقيق التنمية.

وقد تحولت كلمات الكتاب الى أخطر مشروع تم إنجازه عقب ثورة عام ١٩١٩ .

ومن الملاحظات الجديرة بالاهتمام، وفرة الدراسات التى تتناول التاريخ السياسى، وندرة الدراسات التى تتناول التاريخ الاقتصادى والاجتماعى. وعندما شرعنا فى نشر «أهم مائة كتاب فى مائة عام»، كان كتاب طلعت حرب (١٨٦٧ - ١٩٤١) على رأس القائمة.

وسبق أن صدر هذا الكتاب سنة ١٩١٢، يقدم خلاله طلعت حرب مشروعه الكبير، ويعبر هذا الكتاب بحق عن فكر وحلم كاتبه، ويستعرض تطور الاقتصاد المصرى ويرسم ملامح

مستقبله.

ويطالب الاقتصادي الكبير - في هذا الوقت المبكر من القرن العشرين - بأداة فاعلة من أجل تراكم رأس المال الوطني وتوظيفه من خلال بنك وطني يلبي الاحتياجات الاقتصادية، خاصة بعد أن زاحمت البضائع المستوردة، المنتجات المحلية، مما أدى الى فقدان التوازن بين الصادرات والواردات. ويطالب بعدم اقتصار إنفاق المدخرات المصرية على شراء الأراضي الزراعية والعقارات، وينادي بالتصنيع وعدم الاعتماد على المحصول الواحد وهو القطن. وأكبر دوافعه جاءت من استيلاء المرابين والأجانب على أراضي الفلاحين عن طريق النظام الربوي المتبع.



كما أدرك أن وجود البنك في عصر الخديو اسماعيل كان يمكن أن يجنب مصر «صندوق الدين»، ونهب واحتلال مصر بعد ذلك.

وهو يدرك أن الاستقلال السياسي، لابد أن يصاحب الاستقلال الاقتصادي.

ولد طلعت حرب وترعرع في «قصر الشوق» بحي الجمالية، وهو ابن شرعي للطبقة المتوسطة الصغيرة، وللحركة الوطنية المصرية، اختزن أهدافها، وعمل على تحقيقها، وجاءت فرصة تنفيذ مشروعه بعد قيام ثورة ١٩١٩ التي ألهبت الشعور الوطني.

ومن المفارقات اللافتة للنظر أنه عمل في بداية حياته في بقالة صغيرة بالعباسية، وعندما لم يوفق انتقل الى تجارة الألبان ، ومرة أخرى لم يحالفه الحظ..

أول بنك وطني

ونجح في إقامة بنك وطني مصري، وهو المطلب القديم، الذي أخذ يتجدد مع تتابع الأزمات الاقتصادية، فارتفعت الدعوات بإنشاء البنك مع قيام صندوق الدين، وزادت إلحاحا بعد قيام الثورة العرابية، وتبنى الفكرة عبدالله النديم الذي دعا الى ضرورة تأسيس بنك وطني. وجاءت هزيمة الثورة العرابية لتجهض هذه المحاولة وتزيد السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد .

وكان من حظ طلعت حرب أن يحقق هذا الهدف الوطني القديم، بعد أن أخذ ينادي بإقامة بنك مصري منذ عام ١٩٠٧، وتحدث حول مشروعه في المحافل الوطنية، وكتب في الصحف، وكان من كتاب «الجريدة» - صحيفة لطفي السيد - وتناولت مقالاته القضايا الاقتصادية والاجتماعية المختلفة.

وساهم طلعت حرب عام ١٩١٠ في الحملة ضد مد امتياز قناة السويس .

***

وعادة تقوم الاحتفالات ، وتعقد الاجتماعات في ذكرى القادة السياسيين

أو كبار الكتاب أو الفنانين، ولا نحتفى بنفس القدر بالعلماء أو الاقتصاديين، أولئك الرواد الذين يقتحمون مجالات جديدة نحن فى أشد الحاجة اليها ..

وجاءت ثورة يوليو بعد ستة عشر عاما من رحيله وأقامت لطلعت حرب تمثالا فى أهم ميادين القاهرة..

وظاهرة طلعت حرب تؤكد أن أصحاب الأعمال الكبرى - عادة - يتمتعون بالحس العام، والاهتمام بشئون بلدهم، فهو من القلة النادرة الذين جمعوا بين الفكر والعمل.

قضية تحرر المرأة

يكتب فى الصحف، ويؤلف الكتب، وأول مؤلفاته كتاب تناول قضية المرأة سنة ١٨٩٩، عندما كانت هذه القضية محل جدل واهتمام الجميع، ورغم أن طلعت حرب، عارض دعوة قاسم أمين الى السفور ورد على ما طرحه فى كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بكتابيه «تربية المرأة والحجاب» و«فصل الخطاب فى المرأة والحجاب»..

ويلاحظ أنه لم يكن ضد المساواة بين المرأة والرجل، ولكنه كان يؤكد أن «الاسلام» كان سباقا فى إعطاء المرأة حقوقها، وفسر رده على قاسم أمين بالقول: «كنت أقصد ضرورة الابتعاد عن التقليد الأعمى، وعن الطفرة حتى نحافظ على شخصية الأمة وانعكس ذلك على ما قام به بعد ذلك، فتخرج فى مدرسة الطيران التى أنشأها بنك مصر أكثر من امرأة تعمل طيارة، وقامت النساء بالتمثيل على مسرح حديقة الأزبكية، كما عملت الكثير من الفتيات فى مصانع شركة مصر للغزل والنسيج.

الاسلام والنهضة

كذلك نشر كتابه حول «دور العرب والإسلام» سنة ١٩٠٥، وترجم كتاب الشيخ محمد عبده فى الرد على هانانو الى اللغة الفرنسية. وكان واحدا من النخبة المثقفة التى تسعى لنهضة البلاد، وكتب مصطفى كامل فى ١٠ يوليو ١٩٠٥ مقالا يقرظ طلعت حرب فى جريدة اللواء.. يقول .. من الأشياء التى تسر كل مصرى يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصرى فى الأعمال الجسيمة، وتقدير الأوروبيين له حق قدره، فعزتلو حضرة المقدام محمد طلعت حرب، مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقا، هو أول مصرى، نقدمه للقراء، انتخب مديرا لشركتين، هما شركة العقارات المصرية، وشركة كوم أمبو.. إن الثقة بهذا المصرى عظيمة، وستصل هاتان الشركتان الى شأن بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرها الجديد من سمو الإدراك، وسعة الاطلاع فى المسائل المالية».

وبعدها سجل اسمه فى التاريخ مقرونا بأهم آثاره وهو إقامة «بنك مصر»، أول بنك مصرى يقوم على الاكتتاب العام الذى يقتصر على أبناء الشعب من المصريين، وبلا معونة من



الحكومة وكعمل أهلي، بل ودون عطف منهـــا على المشروع .

كـــان فى قلب الرجل جـذوة الوطنيـة المقـدسـة، وأقيمت بالجهد الأهلى مؤسـستان تعبران عن الحاجة الى نهضة شاملة، هما الجامعة المصرية وبنك مصر .

ومع أن نظام البنوك نظام أوربى، إلا أن لغة وأموال البنك عربية ويخدم البنك أهل المحروسة.

وأصبح بنك مصر هو طلعت حرب، وطلعت حرب هو بنك مصر.

النظرة العربية

وأدرك طلعت حـرب بحـاسـتـه السـيـاسـيـة والاقـتـصـادية مـعـا ، أن البلدان العربية وحدة اقتصادية بقدر ما هى وحـدة ثقافـيـة، وأدرك أيضـا من خلال ممارساته عمق الفكرة العربية.

فـقـد بدأت البنوك فى البلدان العربية بنوكا أجنبية مالا ولغة وإدارة ، ثم أقام بنكا وطنيا يسير على الأنظمة والأصول الأوروبية، ولكنه يستخدم اللغة العـربيـة ويعمل لصـالح الاقـتـصـاد المصرى لا صالح الدول الأوروبية.

وتثبت تجربة طلعت حرب أن من يتلمس الواقع ويعرف حقائقه ، يقوده الى الإيمان بالعروبة ، فعندما اتسعت أعمال بنك مصر امتدت الى الخارج، ونشـأ بنك مـصـر ـ سـوريا ـ لبنان، وامتدت أعماله الى الحجاز ..

وهناك صفحة مجهولة عن دور طلعت حـرب فى انشـاء البنك العـربى يرويهـا توفـيق الشـاوى نقـلا عن عـبدالحـمـيد شـومـان مؤسس البنك العـربى (مـجلة العربى عدد ٢٨٢ مايو ١٩٨٢) .

يقـول شـومـان .. «إن فكرة إنشاء البنك العربى كانت ثمرة اتصاله وإعجابه بطلعت حرب.. فـقـد خرجت من القدس متوجـهـا الى نيويورك . معـتـمـدا على ذراعى . فلم أدخل مدرسة ولا أحمل أية شهادة .

وعندمـا بدأت رحلة العـودة، أخـذت أحسب ما ادخرته، وأفكر فى المشروعات التى يمكن أن أقوم بها فى بلادى.

وسمعت حوارا بشأن رجل ظهر فى مـصـر، دعـا الى إنشـاء «بنك مـصـر»، وخطر لى أن أساهم فى هذا البنك بالمال الذى ادخرته، وكتب صديقى رسالة بهذا المعنى لطلعت حـرب ، واقـتـرحـت أن يشـتـرك مـعى فى تأسيس بنك حـتى نستفيد من خبرة المصريين ومعاونتهم، واقـتـرحت أن يكون اسـمـه «بنك مـصـر فلسطين»، وعندمـــا تلقـــيت رده على رسالتى، كانت إجابة مشـجـعـة، ورحب بالفكرة وقـال : «إنه يتـمـنى أن ينشـأ فى كل بلد عـــربى مـــثـل هذا البنك، وان فلسطين هى الأقـرب لبـلادنا وقلوبنا .. وأنه يسـعـده أن يعـرف أن المهـاجـرين

مازالوا يفكرون فى النافع لبلادهم».

وقام أول بنك عربى يولد فى رعاية وحضانة مؤسس بنك مصر .

ويختتم حديثه بالقول : «إن طلعت حرب كان المثل الذى أقتدى به، فالبنك العربى الذى انشأناه فى القدس ، كان امتدادا لبنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب فى القاهرة».

تكامل البناء

وأدرك طلعت حرب ضرورة تكامل البناء، فلا يكفى أن يقوم على أساس مادى دون الوجدانى لذا اهتم باقامة المصانع كما اهتم باقامة المسارح والمطابع .

وإذا كانوا اليوم يتحدثون عما يطلقون عليه «التنمية المستدامة» فقد سبق وعمل طلعت حرب على تحقيق ذلك، وأكد على وحدة العمل والتجربة ، فجمع بين ماهو مادى وماهو معنوى، وإحدى شركات البنك دار الطباعة وأخرى للسينما، وفى فترة مبكرة مهد طلعت حرب الطريق للسينما وفتح لها الأبواب، ووضعها على عتبة فن مصرى أصيل، وأقام مسرح الأزبكية على الطراز العربى ، وكان ثانى مسرح أقيم للتمثيل بعد الأوبرا، وحول الاهتمام بظاهرة تكامل حلقات التقدم إلى حقيقة واقعة. استمع اليه وهو يقول .. «المطبعة والمكتبة والشركة المساهمة لصنع الورق حلقة.. ومن النقل تكونت حلقة أخرى بين النقل فى النهر، والنقل فى البحر والنقل فى الجو..» وهكذا .

★★★

وتظل عمارة بنك مصر تعبيرا صادقا عن شمول معنى النهضة، واختياره الطراز العربى حتى تتطابق الفكرة على المبنى .

وكان يحتفى بكل ماهو جديد. صناعة جديدة أو علم جديد ، ويشعر بمسئوليته عن زراعة الجديد فى التربة المصرية، هكذا تعامل مع السينما والطيران وغيرهما ، وهو أول من نادى بالتخطيط فى الاقتصاد يوم كانت فكرة التخطيط مازالت بعيدة وغير معلومة.

وسبق زمانه فمنذ أن طرأت عليه فكرة إنشاء أول بنك مصرى ، وهو لا يأتى عملا الا بناء على تخطيط دقيق.

وكل منشأة أقامها كان الدافع وراءها غيرة وطنية وحاجة ضرورية.

وهو القائل «لم يكن الذين اتفقوا على ضرورة إنشاء بنك مصر، إلا بضعة نفر آمنوا بالفكرة، وكان كل شىء قليلا الا الإخلاص والعزيمة».

بناء الاقتصاد أولاً

ونأى بنفسه عن السياسة مثله فى ذلك مثل الشيخ الإمام محمد عبده والدكتور أحمد زكى وغيرهما من الشخصيات، وقد رأى كل منهم أنه لاجدوى من السياسة بدون بناء الإنسان، فمن الضرورى أن يسبق الاهتمام بها بناء الوطن.

فبعد التجارب السياسية الفاشلة للأستاذ الإمام، رأى أن إصلاح التعليم وتجديد الدين يسبق أى عمل سياسى، رأى ذلك أيضا د. أحمد زكى، الذى أقام المركز القومى للبحوث ورأى أن نشر



العلم وخاصة المنهج العلمى فى التفكير يسبق أى عمل سياسى.. ورأى طلعت حرب أن بناء الاقتصاد المصرى يسبق بالضرورة العمل السياسى.. حقا .. إن أى عمل يصب فى النهاية فى السياسة، الا أنه سعى لحماية الصيرفة من بحر السياسة الهائج.

وكما قال محمد عبده «لعن الله السياسة»! يقول طلعت حرب : «تبا للسياسة مادخلت شيئا الا أفسدته».

وكما اهتم باقتصاد البلاد اهتم أيضا بلغة البلاد، لذلك نجده يؤكد «جاء بنك مصر لكى يثبت عمليا أن اللغة العربية يمكن أن تكون لغة بنوك ومحاسبة وأعمال وإدارة.. ويقول .. «أدعو من حيث يجهلون أو يتجاهلون منزلة لغتنا - أن العربية لا تصلح للتعليم، لأنها تقصر عن استيعاب علوم العصر..» وطالب باقامة مجمع اللغة العربية.. يقول .. «واجب الجماعات العربية جعل اللغة الفصحى، واسطة النقل، وأن يعملوا دائما على توجيه اتجاهاتها بمجمع علمى عام مشترك».. وهو ما تحقق بعد ذلك.

الإيمان بالمؤسسات

وكان من الأوائل الذين أدركوا معنى المؤسسة، ككيان معنوى، ذاتى الحركة، لا يرتبط بالأشخاص وإنما الأهداف، وعمل على ألا يكون البنك مشروعا فرديا بل مؤسسيا، فلا ينتهى بحياة صاحبه ، وإنما يهدف الى إقامة هياكل وكيانات قادرة على الاستمرار.

هذا بعد أن رأى أمام عينيه اختفاء صحيفة «اللواء» باختفاء مصطفى كامل، واختفاء «المؤيد» بموت على يوسف لذلك كان هدفه إقامة مؤسسة تبقى ويطول عمرها .. وقد تحقق له ذلك.

ونجح الرجل فى إقامة وإدارة أكبر مشروع اقتصادى شهدته مصر، وفشل فى إدارة محل بقالة أقامه فى العباسية فى بداية حياته ..

ضحية المؤامرات

ولم يسلم الرجل بعد كل ما أداه لوطنه، من مؤامرات الحاسدين والحاقدين.

وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية، وما وقع من اضطراب اقتصادى، سحب عدد من المودعين الكثير من ودائعهم، وتدخلت الحكومة وأصدرت القانون رقم ٤٠ سنة ١٩٤١، لدعم البنك، وكان ثمن تدخلها تنحية طلعت حرب لسبب غريب انه استثمر أموال المودعين فى بناء المصانع واقامة الشركات!!

و تمضى الأيام ، وتذهب المناصب بحلوها ومرها ، ويبقى خالدا ذلك الصرح الكبير، الذى كان خطوة كبيرة على طريق النهضة ونحو آفاق المستقبل. والذكرى العطرة لصاحبه. ■

أقوال معاصرة

● «كل سلطة تقمع شعبها تجد نفسها مقموعة أمام أعدائها في نهاية المطاف»

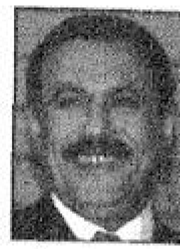
الكاتب السعودي عبدالله الحاق

● «الهزيمة أشد من القتل»

الأديب الفلسطيني أحمد رفيق عوض
صاحب رواية آخر القرن

● «الولايات المتحدة تبدو بتفكك الإتحاد السوفييتي إلى شظايا وكأنها اشترت ورقة يانصيب بدولار واحد فهبطت عليها من السماء جائزة بمليون دولار»

جورج كينان
السياسي الأمريكي المخضرم صاحب مذهب الاحتواء



علي عبد الله صالح

● «مشكلة اليمنيين أن كل واحد منهم يريد أن يكون وزيرا»

الرئيس اليمني علي عبدالله صالح

● «عندما تتقدم المرأة صفوف المجتمع فاشهدوا له بامتلاك إرادة التقدم»

بثينة شريط
وزيرة الأسرة والمرأة في الجزائر



وودي آلن

● «أنا فنان فاشل لا أعرف كيف أمثل ولا أتمتع بالموهبة كأحد عازفي الجاز أنا عادي للغاية وفي الواقع أقل من العادي»

وودي آلن الممثل والمخرج الفائز
بأوسكار عن فيلمه آني هول

● «لا ينبغي على المسلمين أن يتبعوا بشكل أعمى رجل الدين»

الكاتب الإيراني المحكوم عليه بالإعدام
هاشم اغاجاري



محيي الدين عميمور

● «أزمة العالم كله بمن فيهم العرب والمسلمون، تكمن في التناقض بن الأفعال والتصريحات والسياسات»

د. أحمد راسم النفيس

● «حماس المثقف والتزامه ليس توقيعا على بياض»

المفكر الجزائري د. محيي الدين عميمور

● «في السماء الحقيقة واحدة، في حين أنها على الأرض حقائق متعددة»

جوناثان ساكس رئيس حاخامي
بريطانيا

● «لا شيء خال مائة في المائة من المخاطر، ولكن المكسب من ركوبها يستحق الأقدام عليها»

رائد الفضاء الأمريكي جون جلين

بقلم

د. محمد رجب البيومى



كلنا نحب الطفل ونحب إسعاده، فهو رجاء الغد، ورجل المستقبل، وها هو ذا ينوء بأثقال وقفت أمامه وألقيت عليه من حيث لا يحتسب فهل فعلنا له شيئا يقيه هذه الأهوال.

لقد كان الطفل فى أمسه خيرا منه فى يومه، بحيث لا يوجد وجه للمقارنة بين الأمس واليوم، فطفل الجيل الماضى ينشأ فى بيت يرعاه، ويعمل على أن ينبت نباتا حسنا، فهو يصد عنه كل مايوحى إليه بما يسوء، وقد فرغ المربون من تقرير قولهم إن الطفل هو الرجل، وأن الرجل فى كل أدواره متأثر بما كان عليه فى طفولته، فرغ المربون من ذلك حتى يعتبر الحديث عنه من قبيل تحصيل الحاصل، وهذا ما كان يعرفه الأب والأم معا، فيجتهدان ألا تمس طبيعته الخيرة، وفطرته النقية البريئة بما يعكس براءتها، إذ لا يرى إلا الحسن، فإذا اقترف بعض الهنات كان التهذيب الحانى أقوى الوسائل لهدايته، ومهما قلت ثقافة الأب والأم فهما يعرفان الضرورى من قواعد السلوك الصحيح، فيقولان له إن الكذب وبال، وإن السرقة جريمة وأن محبة الأخوة والأخوات واجب محتوم، وقد يسمع أحاديث لطيفة من الأم والجدة تدعو إلى الخير فى قصص ساذجة لها وقعها الطيب فى نفس ساذجة لم تتعلق بأوضار الحياة، فيتجه بما يسمع وما يعامل به إلى السلوك السوى

ويذهب إلى المدرسة وهو مهيأ تهيئة تامة للسلوك الحميد، ويجد زملاءه الصغار على شاكلته، تربوا تربيته، ونهلوا مما نهل من قصص هادفة، وتربية صالحة، فيتم التعارف على نسق من الحب الواعي، والود الذى يحذر النقائص، ويرتفع إلى الفضائل ثم تجيء دروس التربية الدينية لتنمى هذه البذور المغروسة فى النفوس فتشب الأعواد ناضرة خضراء، وارفة زاهية، وتترعرع السيقان، فلا ذبول ولا ظمأ، وإنما التشذيب والتهذيب! وقد يوجد من يشذ لعارض اعترض حياته المنزلية، ولكنه حين يجد الجو العام نفاحا بالطيبة رفافا بالمودة. يحاول أن يقتدى بالجمهرة الراضية المطمئنة والمعلم من ورائه يقوم ما أعوج، ويهدى للتى هى أقوم.

هذا طفل الأمس، يصل إلى مدرسته طاهرا نقيا، لا يعرف بابا للشر، ولا تهجس فى نفسه هامة بالأذى، وطبيعته فى أصلها خيرة ترحب بكل سار بهيج وتنأى عن كل شين يعيب، فهو إلى السلامة أقرب، وإلى النجاة أهدى، فلنترحم عليه الآن فى أمسه الغابر. ثم نكر النظر إلى طفل اليوم لنخبر شأنه، وندرك ما ارتطم فيه من عثرات، إنه حين يعى ما حوله، يتجه إلى التليفزيون، وأمه فرحة بالتهائه واشتغاله لتفرغ إلى شأنها بعيدا عنه، وأبوه المرهق بأعبائه لا يجد فراغا لمحادثته وتسليته، وينظر الطفل إلى ما أمامه، فيجد مشاهد من الرعب تصل أحيانا إلى حد القتل، حيث تتوالى الجرائم آخذة بعضها بذيل بعض، كما يجد أحيانا مشاهد من الخلاعة تريه فنونا من التبذل فى الضم والتقبيل والعناق، وقد يسأل الكبير من أخوته فيشرح له شرحا يضل ولا يهدى، ثم يرى مرة أخرى فنوناً من المكر والاحتيال، ويقف على أساليب من الغش والخيانة ويسأل عن ذلك فيجد الإجابة التى تضل ولا تهدى! فقد أدرك المسكين فى عمره البض وبرعمه الغض شرورا موبقة تجسد له الرذيلة، وتصورها بالتمثيل والتشخيص، وبعد أن كان أخوه من قبل يسمع حديث الجدة الضاحك، ولا ينظر إلى مشهد من مشاهد الشر يوجهه إلى مسلك شاذ، بعد أن كان أخوه فى الجيل الماضى ذا حصانة واقية، نشأ المسكين وقد عرف من الشرور والآثام ما لا طاقة له باحتماله، فإذا توجه إلى المدرسة فإن زملاءه أيضا قد وردوا مورده، وجاء الجميع إلى المدرسة مزودا بأساليب الاحتيال، عارفا من موبقات السقوط والانحدار ما لا مزيد عليه، وقد يستمع إلى من يزين له اقتراف السوء، من سرقة أو شهادة زور أو اتهام البرئ أو ما يعجز القلم عن تسطيره، فسرعان ما يستجيب، ولم لا؟ وقد تلقى من التليفزيون دروس الحرية بمختلف أنواعها، وعرف أسماء الممثلين

والمثالات، وسمع عنهم عبارات الاطراء، فلم يفرق بين الواقع والتمثيل، بل تأكد أن هؤلاء الذين يظفرون بالثناء، وتظهر صورهم باهرة مبهرة فى الندوات، هم أساتذته الذين فتحوا عينيه، وأن كل ما قاموا به من الأدوار الأليمة كان وساما يتألق على صدورهم، ويجيء مدرس اليوم فلا يؤدى واجبه كمدرس الأمس، لعوامل ندركها تماما، وقد تحدثت عنها من قبل، يجيء ليوصى فى درس الدين بحفظ آية لم يشرحها، فإذا سئل عن معناها قال أمامكم الكتاب! وهكذا تفقد المدرسة دورها فى التربية الدينية، كما فقد المنزل دوره فى التأديب والتهذيب! ولنواجه الحقيقة المرة، حين نقرر أن تسعين فى المائة من المدارس لا تقوم بدورها الجاد، لأن الدرس الخصوصى أصبح كل شىء! والذين يحاربون الدروس الخصوصية من الكبار يعطون أولادهم هذه الدروس إذ لا مفر منها لمن يريد النجاح! ففيم الخداع؟

تأثير وسائل الإعلام

إن معضلة التليفزيون والنشأة الأولى للطفل معضلة عسيرة، تتطلب الحل الجرىء لأن خطرها الداهم سيجعل من طفل اليوم مجرما فى الغد، وعندنا أكثر من مائة وخمسين كلية للتربية، بعد أن أصبحت مدارس المعلمين والمعلمات كليات التربية النوعية فصارت ضغثاً على



أباله ، هذه الكليات الواسعة الانتشار فى العواصم والأقاليم تتحدث عن الاهتمام بالطفل ونشأته الأولى لا حديث من يرى المشكلات الواقعية تأخذ الطريق على الناشئة فيجد لها الحل الموائم، بل الحديث التقليدى الذى يقسم مراحل الطفولة إلى ثلاث مراحل، ويحدد خصائص كل مرحلة مما هو مكرر مسئوم، ثم حديث عن الخيال والواقع عند الطفل، والعالم الخارجى بالنسبة للطفل، والطفل ومنزلته فى الأسرة ذات العدد الكبير أو العدد المناسب، وكل ذلك قد يكون مطلوبا بقدر ما دون أن نغفل مشكلة المشاكل التى طرأت على واقع الطفل، فنجد لها الحل السريع، ثم نقول بعد ذلك إن كليات التربية النوعية أنشئت لتساعد على النمو الطبيعى، وتقضى حاجات البيئة! واترك هذه المقررات المسئومة لنبحث عن رسائل الماجستير والدكتوراه فى كليات التربية لنجد عشرات الرسائل فى ذكاء الطفل، وموقف الطفل من والديه، والغيرة عند الأطفال، وأكثرها مكرر فى مضمونه، مختلف فى عنوانه فحسب، لماذا لا نعقد مؤتمرا خاصا بتأثير وسائل الإعلام على الأطفال، ولماذا لا يدعى إليه الأصلاء المعتزاون من أعلام التربية دون أن نخص أصحاب المناصب وذوى الوجاهات، ثم يكون للمؤتمر توصياته التى تكون موضع التنفيذ العملى

الســــريع، لا التى تلقى فى الأدراج كأخواتها من قبل، دون أن يسأل سائل عن نتائج مؤتمر تعددت حلقاته، وانتفخ المقررون فى جلساته يوصون بضرورة مراعاة الوقت نظرا لكثرة البحوث، وإذا هم معترض بالتعقيب على موضوع يمس المتعارف عليه من الاتجاهات، قيل إن الوقت لا يســـمح، وإن أجل المؤتمر محدود! ثم ينقضى المؤتمر كما ينقضى المؤتمر الشعبى للأولياء، بل إن المولد الشعبى يحدث من أدوات الترفيه ما لا يحدثه المؤتمر العلمى، ويسعد الأطفال بما يحـــمله الزائرون من الحلوى والمسليات!!

إن تأثير المسلسلات التليفزيونية التى أدمنها الأطفال إدمانا لا فكاك منه قد أصبح موضع الخطورة الحقيقية، وصفحات الحوادث تمتلىء بمزعجات إجرامية أساسها تقليد حلقات المسلسلات! وأنا أضرب مثلا شخصيا لتأثير القصة السهلة اليسرة فى نفس الطفلة الناشئة، وكيف أخذت تفكر فيها على مدى يومين دون انقطاع، ليعلم أولو الأمر ما تقدمه هذه المسلسلات الإجرامية من أوهام لا حد لتأثيرها بين الأطفال والشباب!

قصة خيالية

لقـــد مـــرضت ابنتى رباب ذات السنوات التسع - وكان ذلك منذ ربع قرن فأكثر، ورأيت أنها فى حاجة إلى من يؤنسها بالحديث بعد أن أخذت الدواء، وأنا أب وأم معا فلا مناص من الجلوس معها، فذكرت لها قصة واقعية ذكرتها بالتفصيل من زمن فى مجلة الأديب اللبنانية وأشير إلى موجزها الآن، وفحواها أن تاجرا كان يحمل بضائعه على عربة ينتقل بها من قرية إلى قرية، ومعه كلبه الأمين، وقد اضطر فى عودته ذات يوم إلى الاستراحة فى ظل شجرة، حتى ينقضى وهج الظهيرة، فهيأ لنفسه مضجعا للرقاد وطال به الوقت أكثر مما كان يقدر، فنهض فزعا من أن يدهمه الظلام، فيتعرض للصوص الطريق، وقد سقطت حافظة نقوده دون أن يدرك، وحين هم بالرحيل أخذ الكلب يعترضه ويقف أمامه وينبح نباحا شديدا، والتاجر حريص على السير العاجل، فلما أبرمه الكلب باعتراضه المتصل ونباحه المتكرر ضاق صبره وخاف سطوة الأشرار إن تأخر، فيفقد ثروته لحماقة هذا الكلب النابح، فأخرج مسدسه وأرداه قتيلا، وحين رجع إلى مأواه بعد العشاء التمس الحافظة فلم يجدها، فأسرع إلى المكان قبل أن يلتقطها أحد، واستعان ببعض أقاربه المسلحين، فلما بلغ الشجرة، وجد الأمر الهائل!! وجد الكلب صريعا وقد نام فوق حافظة النقود!! وكأنه فى لحظاته الأخيرة خاف عليها أن تغتصب فواراها بجسده الصريع، قلت هذه القصة ظانا

أنى أرفه على ابنتى بحديث مستطاب، ولكنى فوجئت بالدموع تنهمر من عينيها، ثم صاحت! بابا بابا، ماذا جنى الكلب المسكين؟ أهذا جزاؤه؟ واستمرت فى البكاء، فأدركت أنى لم أحسن اختيار ما أحكيه وأخذت أحاول الانتقال إلى موضوع

آخر، ولكن دموع المسكينة قد زادت فأقلقتنى، وتصابرت منزعجا حتى نامت بعد أرق أليم وفى الصباح كانت أول كلمة قالتها: بابا التاجر فظيع، التاجر فظيع، والكلب مسكين، فقلت إن القصة خيالية فلا تهتمى، قالت أنت قلت إنها حدثت فعلا قريبا من قرية دكرنس! وواصلت بكاءها، وأدركتنى رهبة الموقف فبكيت أنا الأب الكبير متأثرا ببكائها فليت شعرى إذا كانت رواية قصة عابرة تترك فى ذات السنوات التسع هذا التأثير الحار الذى سقط بالدموع مرة خلف مرة، فماذا تفعل قصص الرعب، ومناظر المجون، ومشاهد السفه والبذخ فى نفوس غضة ترى ما يزعج المشاعر، ويوقد الأحاسيس. أعجب العجب أنى رأيت فى إعلان التليفزيون حلوى تصنع على هيئة السيجارة، ثم قرأت فى الصحف أن هذه الحلوى بيعت لتلاميذ إحدى المدارس فأصابت بعض الأطفال بالتسمم وحلت



الحلوى فوجد فيها ما يضر تماما بالطاعم! أو ليس فى اختيار السيجارة بالذات إغراء حقيقى بالرجوع إلى الأصل، وهل منعت إعلانات التدخين، حتى نأتى بإعلانات الحلوى مؤكدة لها دون خوف من النتائج ذات الأثر البعيد.

أين القدوة الصالحة ؟

أعود إلى المدرسة التى ينتقل إليها التلميذ من البيت مباشرة، فأتساءل: أيجد الآن فيها الدرس النافع أو القدوة الصالحة ؟ إن المدرسة ابتدائية وغير ابتدائية لم تعد مكانا لتربية السلوك وتنمية الشخصية بوجه من الوجوه، فهى دروس صورية تلقى على التلاميذ فى كثافة مفرطة ترهق الذهن الغض، وتأتى الامتحانات الشهرية لتكون إزعاجا لأولياء الأمور كى يدفعوا بلاءها بالدرس الخصوصى، أما المدرس القدوة فكيف يوجد؟ وهمه الأول حتى التلميذ المجتهد الذى لم يأخذ درسا عند مدرس المادة درجته هابطة، وأحيانا يفاجأ بالرسوب عن عمد، كما ينظر فيجد زميله المهمل قد أخذ الدرجة النهائية لأن المدرس شمله بعطفه إذ كان مدرسه الخاص! أى قدوة يمثلها هذا المدرس الذى ينظر إلى التلميذ كما ينظر الصائد للعصفور! وأى تقدير يناله من تلميذ

يلمس الظلم صارخا أمام عينه، ولا حيلة إلا أن يلجأ إلى أبيه كي يسعفه بدرس يرفع درجته في الامتحان، ويعفيه من نظرات المدرس القاسية، وتربصه إذا بدأ بحركة يعدها غير طبيعية في رأيه إذ يتناوله بالسباب المفرط دون احتشام، وبهذه المناسبة أنكر ما علمته بأن بعض المدرسات في كثير من المدارس رأت أن تكون أما لجميع التلميذات، لا بمعنى أن تبدى حنان الأم ورأفتها بالزهرات الغضة، بل بمعنى أن يكون لها هدية خاصة في عيد الأم تحرص كل تلميذة على إهدائها، ومن التلميذات من يستطعن إهداء الشيء النفيس، ومنهن من لا يجدن غير الإهداء وهو يعد ذو قيمة مادية مهما انحدر مستواه. ولكن المدرسة تستعرض الهدايا في الفصل، وتقرع صاحبة الاهداء المتواضع، صار ذلك عرفا متواضعا في أكثر مدارس البنات، وللناظرة حظها من الهدية إذا رأت المدرسة مجاملتها كي تسكت! أليس هذا مثلا شاذا، ولكنه عام قد انتشر عاما بعد عام حتى أصبح ضريبة مفروضة، فإذا كان ولى الأمر أبا لثلاثة فماذا يصنع حين يجابه بالدرس الخصوصي ويصبح أمرا لا فكاك منه، وحين يجابه بهدايا عيد الأم ثم يقال له إن التعليم مجاني، ولن تمس المجانية بحال!

في هذه البيئة المدرسية تنحط القدوة إلى أسفل درجات الانحطاط وفيها يتحرش التلاميذ بمدرسهم إذا استطاعوا، فقد سقطت الهيبة، وضاع التوقير، لقد مضى عهد كان فيه الأستاذ أبا رحيما، يعرف تلاميذه معرفة الوالد المشفق، ويتحسس مشاعر كل ولد من أولاده، فإذا شاهد ما يدل على الحزن في سحنة تلميذ، دعاه إلى مكتبه وسأله عما به! وإذا لمس من مظهر التلميذ ما يدل على الحاجة سعى إلى ناظر المدرسة كي يمنح التلميذ ما يحتاج من صندوق الرعاية مالا أو كساء أو حذاء، كان هذا التكافل الاجتماعي الفريد مصدر عزة للمدرسة وموضع مهابة وإجلال من التلاميذ، وكانت المدرسة برحلاتها وندواتها موضع استرواح الطلاب، وموئل متعة بما تقدم من ألوان النشاط! أين ذهب ذلك كله!! وهل سيعود؟

أطفال القرى والنجوع

ونترك أطفال المدارس إلى الأطفال الذين لم تتهيأ لهم سبل التعليم، وخطرهم أفدح وأوجع، وقد ابتليت بهم المدن الكبيرة، كما انتشروا في القرى والنجوع، فإذا كانت العشوائيات في المدن تضم أسرهم المسكينة فإن أكواخ القرى تعج بهم كالذباب الطائر في كل

مكان، ومصيبة هؤلاء أن أولياء أمورهم لا يشعرون نحوهم بأدنى مسئولية.. بل يتخذونهم أداة للعيش بما يسلكون من أعوجاج، وقد جدت ظاهرة أليمة فى هذا الوسط البائس تلك ظاهرة الأب الخامل، الذى لا يتحمل أدنى مسئولية تجاه أسرته، ويدع للأم أن تبذل جهد الجن فى جمع الفتات مما يصلح للزاد، فتارة تكون خادمة، وتارة بائعة ألوان من الخضار ذى الثمن الزهيد، وتارة سائلة تتكفف، وفى يدها غلام، وعلى كتفها طفل، والأب حين يأنس من أطفاله بعض القوة يدفعهم إلى الكسب غير المشروع، عن طريق النشل أو التسول.. فترى الأطفال فى الأسواق وفى المقاهى، وفى عربات الترام يتسولون ، ويتعرضون لأقوى الأخطار فى القفز من عربة إلى عربة، وفى الوثب إلى الرصيف إن وجدوا من يحاول ايذاءهم، وقل بعد ذلك ما مستقبل الواحد من هؤلاء وقد شب على السرقة، ووجد الازدراء والإيذاء من الجمهور؟ كم يحمل من شحن الغضب والكراهية لكل من يراه مكفول الرزق، وطبيعى أن أمثال هؤلاء لم يسمعوا نصيحة تهدى إلى الخير ولم يعرفوا أى معنى للفضيلة، فإذا شبوا عن الطوق كان الإجرام أقوى وسائلهم للكسب ، وقد يجد الأطفال (معلما) خطيرا يجمعهم طوائف شتى ليرسم لهم طريق السلب، ويدفعهم إلى أماكن يعرف أنها ذات ازدحام ييسر الجريمة، ثم يأتون بما نهبوه لينالوا منه الفتات – ومن تقاعس عن أداء مهمته لقى العذاب، وشهر به بين زملائه الذين فهموا الشجاعة فهما خاطئا غرسه فى نفوسهم الأب الكسول الذى دفعهم إلى الموبقات المنكرة والمعلم الحقير الذى جعل السرقة أمرا مشروعا لا شىء فيه!!



إننا نعلم أن أبواب الخير قد اتسعت لإيواء بعض هؤلاء المشردين من الملاجىء والمبرات، ولكن طوفان النسل المتزايد يجعل هذه الأبواب قطرات متساقطة لا تسقى ظمأ، وأكبر الآفات أن تجد هذا الأب الكسول الخامل ذا الأولاد الخمسة، يسعى إلى أن يتزوج امرأة أخرى تأتى بخمسة آخرين ليؤدوا الرسالة المشروعة لديه، إذ نشهد – للأسف – فى الريف من يتزوج اثنتين أو ثلاثا دون أن يتحمل أدنى مسئولية فى الانفاق وعلى الأم أن تنفق عليه أولا، وعلى أولاده ثانيا وقد كنت أحسب أن السيدات اللامعات اللاتى يطالبن بحقوق المرأة فى الوزارة والنيابة، والقضاء يجعلن من رسالتهن العمل على إسعاد الأم البائسة!! أليست حقوق المأكل والمشرب والمأوى تقتضى اهتماما بالمرأة المسكينة ، يكون فى

الواقع ميدان العمل الجاد، وقد قال حافظ إبراهيم (الأم مدرسة) ليصور رسالة الأم فى نهضة جيل يشرئب إلى الكفاح الجاد . فكيف تكون الأم مدرسة، وهؤلاء البائسات لا يجدن من يأخذ بأيديهن ممن ينادين بحقوق المرأة فى النيابة والوزارة والقضاء! وكان ذلك كله هو الأمل المنشود لربات الأزياء ورائدات الصالونات ، إن بائعة الخضراوات تتعرض لابتزاز بعض الفتوات ولا تجد من يحميها ، وإن الخادمة فى المنزل قد ترهق بأعباء ، لا تستطيع القيام بها فإذا توانت فالضرب والكى بالنار والحبس القهرى ولا تجد من يحميها، وإن جرائم الاغتصاب قد تعددت حتى زكمت رائحتها الأنوف ولا تجد من يأخذ بناصر الضحية فينادى بتشديد العقوبة على الجريمة النكراء! ألا تكون بائعة الخضراوات والخادمة والمغتصبة موضع عناية من ينادين بحقوق الوزارة والقضاء والنيابة! ويتصدرن الندوات ويملأن الصحف للإعلان عن ذواتهن ، وهن بعد زعيمات يسعين إلى تأكيد حقوق المرأة، وإنصافها من الرجل الظالم!

لقد طفح الكيل دون أن يعرف هؤلاء الرسالة الحقيقية للإصلاح النسوى المنشود!

قد لا نستطيع معالجة هذه الأوبئة على نحو سريع، ولكن السير خطوة خطوة مما يسعف بهذه المعالجة، وأول هذه الخطوات أن نفرض على الرجل ألا يتزوج بأخرى إلا إذا اتسعت موارد رزقه وقدم ما يثبت أنه ذو اقتدار على أن ينفق على منزلين لا على منزل واحد، كما نفرض على العاطل أن يبحث عن عمل قبل أن يقدم على الزواج!

وليس فى ذلك مخالفة للشرع الحنيف، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فالصوم له وجاء! وبذلك نحد من طوفان التشرد من منبعه وترحم الأمة من وجود جيل قادم سينخر فى كيانها بما يرتكب من موبقات!

ويلى! لقد صرت خطيبا منبريا، ولا بأس، فاللسان والقلم سيان فى النصح التوجيهى، بل قد يتاح للسان من الحرية ما لا يتاح لصالح القلم، إذ يتكلم فى مجتمع محدود، وله تأثيره الذى يقضى مجاملته، أما أنا فقد أغفلت الكثير من الأسماء، والأماكن، والأحداث عامداً كيلاً أثير ثائرة من أخصهم بالانتقاد، أغفلت ذلك متألما، وأنا أردد قول الشاعر الجاهلى:

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة

أمعشر تيم أطلقوا من لسانيا ■

مؤسسة الفكر العربي

ورؤى المستقبل



بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

شهد شهر أكتوبر الماضى انعقاد المؤتمر الأول لمؤسسة الفكر العربى التى تشكلت بمبادرة من الأمير خالد الفيصل لتضيف إلى المؤسسات الفكرية العربية مؤسسة جديدة بدا أنها ولدت عملاقة - أو على الأقل قوية - بما يعالج جانباً مهما من جوانب القصور فى المؤسسات الفكرية العربية القائمة.

يعرف الوطن العربى عدداً من هذه المؤسسات التى عانت دونما استثناء من مشكلتين مزمنتين هما: شح التمويل وضآلة التأثير. أما المشكلة الأولى فقد ألجأت بعضها إلى التمويل الأجنبى بما يثيره من علامات استفهام فى بعض الأحيان، وشبهة عمالة فى أحيان أخرى، وكان أقل الاتهامات التى توجه عادة لهذه المؤسسات من قبل خصوم التمويل

الأجنبى أنها تعمل وفق جدول أعمال يفرض عليها من الخارج ، وبما لا يتفق بالضرورة مع الأولويات الوطنية، وحاول البعض الآخر الاعتماد على عائد جهوده الذاتية - كمركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية - مع قدر من التمويل العربى الذى خضع لتقلبات السياسة العربية، وعانى هذا الفريق عادة من أزمة مالية خانقة ومستحكمة بدا معها استمراره وكأنه نوع من المعجزات.

وأما المشكلة الثانية فتشير على نحو واضح إلى ضآلة التأثير الذى مارسته هذه المؤسسات على دوائر صنع القرار فى الوطن العربى نتيجة للفجوة بين الطرفين ، ومع ذلك فقد شهدت الخبرة العملية من حاول من هذه المؤسسات التقرب إلى دوائر صنع القرار فنجح، وتحول أو كاد إلى ترس صغير لدى هذه الدوائر، أو أخفق فظل يحوم حولها حتى ولو أدى ذلك إلى احتراقه. وشهدت الخبرة العملية أيضا من ترفع عن السعى إلى علاقة أصلاً - كما فى حالة المركزين السابقين بالإضافة إلى المركز العربى لبحوث التنمية والمستقبل - مركزاً جهوده على محاولة تنوير الصفوة وتثقيفها، آملاً أن يمتد هذا التأثير تدريجياً إلى قطاعات أوسع من المتعلمين، مدركاً أن هذا كله من شأنه أن يولد تحولاً إيجابياً ما، ولو بعد حين.

الميلاد

فى هذه الظروف ولدت مؤسسة الفكر العربى، غير أن متغيراً جديدا أضيف إلى ما سبق، فقد ولدت فى عصر القطبية الأحادية والعولمة وعالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر وحالة من الضعف لم يصل إليها النظام العربى قبلاً، أو لنقل - على سبيل تحرى الدقة العلمية - أنها من أشد حالات الضعف منذ ميلاده ، وبدا وكأن هذه المؤسسة تحمل حلولاً ممكنة ومعقولة للمعضلات التى سبق للمراكز البحثية العربية أن واجهتها، فرئيسها الذى بادر بفكرتها رجل ينتمى إلى الأسرة الحاكمة فى بلد عربى غنى، وهو نفسه رجل حكم وليس مجرد عضو فى الأسرة، يشهد من يعرفونه بأنه يتمتع بشخصية أهلته لأن يجتذب حول فكرته نفراً من أبناء الأمة العربية من رجال

الحكم مثله ورجال المال والفكر أيضا.. من هنا مكمن قوة مؤسسة الفكر العربى ومصدر التحديات التى ستواجهها فى آن واحد.



وفقاً للتركيبة السابقة تبدو مؤسسة الفكر العربى متفردة بين مؤسسات الأبحاث العربية، قد يقترب منها إلى حد ما منتدى الفكر العربى الذى أسسه ورأسه ومازال الأمير الحسن بن طلال ولى عهد الأردن السابق أو المركز العربى للدراسات الاستراتيجية الذى يرأسه السيد على ناصر محمد الرئيس الأسبق لما كان يسمى بالجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية، لكن الفارق الكبير بينهما وبين المؤسسة الوليدة أنهما لم يسلما من مشكلة التمويل على العكس من مؤسسة الفكر العربى التى تتشكل بنيتها على أساس من مثلث أحد أضلاعه رجال الحكم والثانى رجال المال والثالث رجال الفكر، ولا ندرى حتى الآن ماهية العلاقة بين هذه الأضلاع وإن كنا نفضل أن تكون متساوية.

التحديات

تستطيع مؤسسة الفكر العربى ببنية كهذه أن تحل مشكلتى التمويل والتأثير فى الوقت نفسه ، صحيح أن التأثير ليس مضموناً أن يكون شاملاً أو حتى قوياً، لكن فرصه بالتأكيد سوف تكون أكبر من المراكز التى تقوم على رجال الفكر وحدهم، غير أن هذه البنية ذاتها تفضى دون شك إلى تحديات تواجه المؤسسة لعل أولها تحدى الانتهازية، فالسلطة والمال يغريان بمحاولات التقرب، بل والاستماتة فى ذلك، والانتهازيون يملكون عادة من القدرات والوسائل ما يمكن بعضهم على الأقل من النجاح، وبالتالى فإن بعض السوس قد يبدأ مبكراً فى نخر عظام المؤسسة الوليدة . كما أن المؤسسة سوف تواجه أكثر من غيرها بمشكلة بناء علاقة صحية بين أضلاع المثلث الذى قامت عليه، بعيداً عن أن يسيطر ضلعا الحكم والمال على ضلع الفكر، ناهيك عن أن ضلع الفكر لا يبدو فى الوضع الراهن فى الحال الذى يمكنه من توجيه المؤسسة خاصة أن ضلعى الحكم والمال يبدو أنهما متحالفان أو

على الأقل متعايشان في وئام منذ البداية ، وبعد هذين التحديين يبدو تحدى الكفاءة التنظيمية مهما، وإذا حكمنا بالمؤتمر الأول للمؤسسة فإن عدداً من الملاحظات المهمة يرد على تنظيمه لاشك أنه ليس بخاف عن دوائر صنع القرار في المؤسسة ، غير أن هذه قصة أخرى.

الرؤى المستقبلية

غير أن الأهم من كل ما سبق يبدو متعلقاً برؤية المؤسسة لدورها لقد عرض على الحاضرين في افتتاح المؤتمر الأول للمؤسسة فيلم قصير حمل رسالة مؤداها أن المؤسسة قامت لتواجه الخلافات العربية - العربية التي عانينا جميعاً منها، وكادت تقضي علينا ، يحكي الفيلم عن بناية سكنية تواجه مشكلات حقيقية يبادر أحد سكانها بالدعوة إلى اجتماع عاجل للنظر في هذه المشكلات فيتصارع السكان حول أشياء مثل: من يرأس الاجتماع ؟ وأين يعقد؟ ومن يملى التوصيات؟ ثم تشتعل الخلافات على النحو الذي يؤدي إلى كوارث (أحد السكان الطيبين ينتهي به الأمر إلى أن يصاب بالاختناق ويسقط مغشياً عليه وتدهسه الأقدام) ، وينتهي الاجتماع بتوصيات مضحكة مثل التشكيل الفوري للجنة للنظر في الأمر تجتمع كل عشر سنوات .. وهكذا . ويختتم الفيلم بلقطة توقفت عندها كثيرا ظهر فيها أبناء سكان البناية - جيل الشباب - وهم يتابعون هذه الخلافات باستياء وامتعاض، وتتشابك أياديهم من أجل مستقبل أفضل.

وعلى الرغم من هذه النهاية الجميلة للفيلم فقد أثارت لدى معضلة الرؤية التي تتبناها المؤسسة بالنسبة لفهم الحاضر وبناء المستقبل، ولو كانت هذه الرؤية تتشكل على هذا النحو المبسط الذي ذهب إليه الفيلم فإن المعنى الوحيد لذلك أن المؤسسة تواجه أزمة مبكرة، فلا العرب مختلفون لأسباب بينية مضحكة فحسب، ولا أجيال شبابهم للأسف خلو من أمراض الآباء. إن لم تكن هذه الأمراض قد ظهرت بأطوار أخطر فيهم نتيجة التعليم الأجنبي والاختراق الإعلامي الخارجي وفوارق الثروة ونمو الوعي القطري.. الخ.

لا أريد أن أحمل الأمور أكثر مما



تحتمل ، ولكنى أشدد على أن نقطة البداية السليمة التى سوف تمكن من استخدام الوقود الممتاز الموجود لدى المؤسسة فى المحرك القوى الذى تمتلكه هى أن يعرف الركاب بدقة إلى أين يريدون أن يذهبوا.

ويخيل إلى أن النقطة التى يجب أن تنطلق منها المؤسسة فى الاضطلاع بدورها ومسئولياتها هى تغيير الواقع العربى الذى ينطوى على جزر من النضال والتضحيات والصمود، غير أنها للأسف جزر معزولة بحواجز القطرية والخوف من قوى الهيمنة العالمية وإسرائيل ، مع أن الأمة تملك من الإمكانات ما يجعلها قادرة على أن تمد الجسور بين الجزر المعزولة ، وتحيل الوطن العربى كله إلى قاعدة صمود وبناء وحضارة. هذا الواقع العربى لا يمكن أن يكون مقبولاً فى الحاضر، ناهيك عن أن يكون صورة مستقبلنا ، ولذلك لابد من تغييره.

ولكى يتغير الواقع العربى لا يوجد سوى منهجين: إما الثورة وإما الإصلاح، وليست للثورة العربية فى الوقت الراهن أو الأمد المنظور قوى اجتماعية متبلورة وقادرة تستطيع أن تحمل مشروعها أو تتحمل تبعات تنفيذه وحمايته، فضلاً عن أن السياق العالمى الراهن سوف يكون معاكساً إلى أبعد حد لأى تطوير ثورى فى الوطن العربى، ومن هنا لابد - بالإضافة إلى التفكير فى معضلات التغيير الجذرى والسعى إلى إيجاد حلول لها - من أن نتشبث بالأمل فى إصلاح حقيقى للواقع العربى، وهو أمل تذكيه بعض الخطوات المتواضعة التى تمت على طريق التحول الديمقراطى فى الوطن العربى، فهل تستطيع مؤسسة الفكر العربى أن تحمل مشروعاً للإصلاح لعلها أكثر المؤسسات العربية البحثية ملاءمة له بحكم تركيبها؟

ولكى لا يكون مشروع الإصلاح العربى هذا فاقداً للمصداقية منذ بدايته، فلابد من أن يتضمن رؤية مستنيرة لقضايا الحكم والتنمية والعدالة الاجتماعية والعلاقات العربية - العربية والعلاقات مع الخارج. فهل يتحمل رجال الحكم المشاركون فى المؤسسة هذه الرؤية؟ من الانصاف أن نسجل أنهم دعوا للمشاركة فى المؤتمر

الأول للمؤسسة من يتبنون ما هو أكثر من رؤية للإصلاح واستمعوا إليهم، لكن من حقنا أن نتساءل : وماذا بعد؟ وهل يملك رجال المال المشاركون فى المؤسسة مشروعاً رأسمالياً عربياً مستقلاً؟ أو على الأقل غير تابع، بعيداً عن الأنشطة العقارية وأعمال التوكيلات التجارية وغيرها - يمكن أن يكون أساساً لإصلاح عربى شامل؟ أو على أقل تقدير هل نحن إزاء اتساع دور رأس المال العربى فى تمويل العمل البحثى بعدما اعتدنا فى الماضى على محدودية هذا الدور وارتباطه بالرؤى السياسية للاعبيه؟ هل يشكل بعض النماذج الموجودة فى عدد من الأقطار العربية رافعة لنشاط بحثى يسلمنا إلى بلورة مشروع نهضوى عربى.. أم أن طزاجة التجربة تحول دون موضوعية التقييم؟ وهل يملك المثقفون والمفكرون المنخرطون فى ميلاد المؤسسة وتطورها جرأة طرح ما يجب أن يطرح لوضع رؤى المستقبل موضع التطبيق والاختلاف مع ضلعى المثلث الآخرين عندما يكون ذلك ضرورياً؟

***

دار نقاش ممتد بينى وبين واحد من صفوة المثقفين العرب على هامش المؤتمر تساءل فيه عن ماهية المشروع الذى تحمله المؤسسة: أهو مشروع فرد؟ أم نظام حاكم؟ أم أنه أقرب ما يكون إلى «شركة فكرية متعددة الجنسيات» على الصعيد العربى؟ قد لا يكون مستقبل المؤسسة مرهوناً بالإجابة عن الأسئلة السابقة قدر ارتهانه بوجود رؤية واضحة ومتكاملة للمستقبل العربى تقيل الأمة من عثرتها التى تتفاقم يوما بعد يوم. ■

قالوا

* إن عظماء الرجال هم عظماء العواطف .. وأقوياء الرجال هم أقوياء العواطف

توفيق الحكيم

* كل الأفكار الجديدة يشتبه فيها ، ثم تقاوم ، لا لسبب الا لانها لم تصبح عادية بعد

جون لوك

*لن أعدل شيئا فى اقتناعى بأن الناس فى كل مكان يمكن أن يكونوا أحرارا

لنكولن

يؤمن الألفيون أن نهاية العالم فى القرن الواحد والعشرين





بارانويا السياسة الأمريكية

بقلم
محمد يوسف عدس

منذ عقود ثلاثة ألقى المؤرخ ريتشارد هوفشتاتر محاضرة بجامعة أكسفورد حول بعض الخصائص الكامنة فى السياسة الأمريكية لم يلتفت إليها المؤرخون أو لم يعيروها ما تستحق من اهتمام وكان عنوان المحاضرة هو «أسلوب البارانويا فى السياسة الأمريكية» ، وتحت هذا العنوان نفسه نشرت له جامعة أكسفورد كتابا ضمنته محاضرات أخرى سنة ١٩٧٩ .

رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر ٢٠٠٢م

يؤكد هوفشتاتر أن أسلوب البارانويا ظاهرة متكررة فى السياسة الأمريكية تأتى على شكل موجات أو «نوبات» مختلفة الحدة عبر التاريخ مما يوحى بأن هذه السياسة تعانى من داء مزمن يتعذر استئصاله . وتشبه أعراض هذا المرض الأعراض الإكلينيكية للبارانويا التى تصيب عقل الإنسان ، مع فارق واحد وهو أن الشخص البارانوى يؤمن بأن عالما أو كائنا عدائيا يتربص به ويتآمر عليه بصفة شخصية ، بينما يؤمن المتحدث الرسمى للنظام الأمريكى بأن هذا العدو المتآمر لايخصه وحده كفرد وإنما يستهدف ملايين المواطنين .

لعلنا فى ضوء هذه الفكرة نستطيع أن

نفهم المناخ العقلى الذى كان مسيطرا على الإدارة الأمريكية فى أعقاب حادثة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م عندما أعلن الرئيس بوش أن العدو الذى قام بالعمل الإجرامى كان يستهدف الديمقراطية والحرية والرخاء الذى ينعم به الشعب الأمريكى .

نظرية المؤامرة

يتسق هذا الوصف مع نظرية المؤامرة التى تعاقب ظهورها فى التاريخ السياسى الأمريكى منذ تسعينات القرن الثامن عشر ، يرصدها هوفشتاتر فى كتابه بالتفصيل واحدة بعد الأخرى حتى ينتهى بالمؤامرة الشيوعية التى أتخذها ماك أرثر ذريعة له بعد الحرب العالمية الثانية ليشن حملة تطهير إرهابية شملت العديد من المفكرين والمثقفين والمنظمات الأمريكية ، فأشاع بذلك الرعب بين المواطنين وانتهك الديمقراطية وحقوق الإنسان .

هذه المخاوف والهواجس الملحة التى تكمن فى نظريات المؤامرة يمكن فهمها جيدا فى إطار التقليد البارانوى فى السياسة الأمريكية وهى فى الحقيقة تعكس القلق الذى يؤرق قطاعا ربما يكون صغيرا نسبيا ولكنه يتمتع بصوت مرتفع ومسموع بين الجماهير الأمريكية ولكى يضرب «هوفشتاتر» مثلا قريبا على تجليات نظرية المؤامرات الوهمية التى تعصف بالعقل الأمريكى بين الحين والآخر يستعير قصة (هى فى الحقيقة إشاعة قوية) كان الأمريكيون يرددونها فى الستينات من القرن العشرين ، نشرتها نيويورك تايمز فى ٢١ يولية ١٩٦٣ .. تقول القصة : إن خمسة وثلاثين ألفا من القوات الشيوعية الصينية يحملون أسلحتهم ويلبسون زيا عسكريا بلون أزرق إمعانا فى التمويه وأنهم يقتربون حثيثا من الحدود المكسيكية حيث يتأهبون لغزو سان دياجو .. وأن الحكومة الفدرالية الأمريكية قد سلمت أو هى فى سبيل تسليم زمام قيادتها البحرية والجوية إلى كولونيل روسى يعمل فى الأمم المتحدة .. وتقريبا كل أمريكى مشهور أو قائد كبير فى العالم الحر هو فى الحقيقة عميل شيوعى .. وأن الجيش الأمريكى الذى يقوم بالتدريب على حرب العصابات فى جورجيا فى عملية تسمى «أفعى الماء الثالثة» هو فى الحقيقة جيش للأمم المتحدة يلبس الزى العسكرى الأمريكى .. تمهيداً للاستيلاء على بلادنا ...!» .

النبوءات الدينية

نلاحظ فى ذيوع هذه الشائعة بين الجمهور الأمريكى هواجس غريبة وشكوكا راسخة ضد الأمم المتحدة وضد الحكومة الفدرالية نفسها ، هذه الهواجس ذات علاقة وطيدة بنبوءات دينية تسيطر على عقول الأصوليين البروتستانت مصدرها تأويلات لسفر دانيال وسفر النبوءات من العهد القديم والعهد الجديد ، لا مجال هنا لشرحها .

لاشك فى أن المزاج الأمريكى الجديد السائد الآن جذور نبوئية إنجيلية يروج لها جيش من الدعاة الأصوليين شرع يعمل بنشاط غير مسبوق بعد إنهيار الشيوعية ، فقد أحدث هذا الانهار المفاجىء أزمة هوية حادة فى المجتمع الأمريكى ، فمن أين جاءت هذه الأزمة وماهى طبيعتها ؟

الشيوعية

كانت الصورة الثابتة للاتحاد السوفييتى الشيوعى - على مدى عقود من الزمن - تمثل عند الأمريكيين الشر

المحض ، وفي مواجهته ثبتت صورة الولايات المتحدة تجسيداً للخير المحض .. في هذه الدائرة المحكمة كانت الطاقة تنساب بتلقائية طبيعية كما ينساب التيار المغناطيسى بين القطبين السالب والموجب ، ولكن باختفاء الخطر الشيوعي فجأة انكسرت هذه الدائرة وحدثت الأزمة ، ومن ثم شرع الأمريكيون يبحثون عن عدو آخر يتقمص دور الشيطان الأكبر ويكون على درجة من الشر والضغينة تؤهله لكى يضطلع بدور الشيوعية التى تبخرت .

الإسلام

كان عقد التسعينات سنوات ارتباك فى أوساط الأصوليين الأمريكيين الذين أجهدوا أنفسهم فى البحث عن عدو بديل مقنع ينطبق عليه نبوءة «نهاية الزمن» لتوجيه النضال النبوئى ضده . ولم يكن الأصوليون وحدهم هم الذين يبحثون عن عدو مناسب يوجهون إليه طاقة الغضب ويعيدون به ذلك التوازن المفقود إلى دائرة الطاقة الجهنمية ، فكانت أجهزة الاستخبارات فى أوج نشاطها وكانت المناقشات الحامية تدور فى حلف شمال الأطلنطى وفى شركات صناعة الأسلحة العملاقة ، والتحق بالركب كتاب انتهازيون من أمثال صامويل هانتنجتون وفوكوياما جاءوا يضخون أفكارهم السامة لتوجيه الإنتباه إلى العدو الجديد ، وكان الاتفاق مذهلا فقد أجمع الكل على أن العدو المناسب هو الإسلام والعرب جزء منه .

بات روبرتسون
والتحالف الأصولى

يعتبر «بات روبرتسون» مهندس الاستراتيجية الجديدة لاندفاع الأصولية البروتستانتينية ، وهو مع مجموعة أخرى من المفكرين الدينيين يتحملون مسئولية إحياء البارانويا التقليدية فى السياسة الأمريكية التى نشهد إفرازاتها الحالية عند اليمين السياسى المتطرف الذى يحكم الولايات المتحدة ، وفى ذلك يقول الكاتب الصحفى «مايكل ليند» فى مقال له نشر فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» سنة ١٩٩٤ بأنه لم تظهر فى التاريخ الأمريكى الحديث حركة شعبية متطرفة فى السياسة الأمريكية بهذه القوة التى ظهر بها التحالف المسيحى الأصولى الذى أنشأه بات روبرتسون.

ويصف لنا المناخ الذى ساعد على انتشار هذه الحركة والتمكين لها فى المجتمع الأمريكى، وهو مناخ سادت فيه الاضطرابات الاقتصادية وشاع القلق فى الحياة الأسرية لهذه الأمة . وهو يعترف بأن الأزمة الاقتصادية التى تمر بها أمريكا الآن أقل حدة من سابقتها التى حدثت فى ثلاثينات القرن العشرين ، ولكن لاينبغى الاستهانة بحدة القلق الذى تشعر به الطبقة العاملة خصوصا فى مجال الصناعة التى أسرعت بإعادة هيكلة نفسها لتواجه المنافسات الرهيبة التى جاءت من الشرق الأقصى والعالم الثالث ، فقد بدأت هذه المناطق تنتج نفس السلع بنفس الجودة ولكن بأسعار أرخص وبقدرة على الانتشار أوسع .

ولذلك يرى المراقبون أن غياب الأمن الاقتصادى مع تفكك الأسرة قد أسهما معا فى تشكيل المزاج البارانوى النبوئى خلال عقد التسعينات ، حيث اشتدت المخاوف من بلقنة الولايات المتحدة وانشقاقها إلى مجموعات عرقية متنافرة ، وهو هاجس أصبح يطوّق حياة الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا ، وهما يشكلان نصف المجتمع الأمريكى ، فأعضاء هاتين الطبقتين يفقدون وظائفهم

بصفة مستمرة ومن ثم يسقطون فريسة للتيار الدينى الأصولى .. إنهم يوجهون أصابع الاتهام إلى السلطات الفدرالية ويعتبرون الإدارة الأمريكية هى المسئولة عن سوء إدارة الاقتصاد ، كما يوجهون اللوم - بنفس القدر - إلى غول التكنولوجيا الحديثة التى أسهمت فى خلق الارتباك الاقتصادى وأصبحت بذلك عاملا أكيدا فى انتشار المزاج البارانوى

نهاية الزمن

هنا يلفت نظرنا «داميان تومسون» فى كتابه «نهاية الزمن» إلى حقيقة أخرى مهمة حتى لايتسرب إلى ظننا أن اليمين الأمريكى المتطرف مجموعة من الجهال أو ناقصى التعليم بل على العكس ، ومن ثم يبرز لنا حقيقة أن هؤلاء الناس من محترفى تجميع المعلومات ، حيث يقضون معظم أوقاتهم يتفحصون الصحف والمجلات والأناجيل والكتب الأخرى يلتقطون المعلومات لينسجوا منها السناريوهات المختلفة . كما أنهم يدمنون زيارة المواقع الكثيرة فى شبكة الإنترنت التى تبث الشائعات والنبوءات المستندة إلى تأويلات إنجيلية مما يجعل هذه الشبكة مصدرا هائلاً لدعم أصحاب نظريات المؤامرة .

فى تحليلنا للمزاج الأمريكى الجديد نود أن نلقى الضوء على النقاط المهمة التالية :

أولا - لاشىء يقلق سلطات الأمن الأمريكية أكثر من نمو حركات من يطلق عليهم «الألفيون» الذين يبثون أفكارهم النبوئية الآن خلال شبكة الإنترنت ، وكانوا من قبل يشكلون مجموعات أو مليشيات منعزلة لايكاد الجمهور يشعر بوجودها إلا عندما تتفجر أحداث عنف كبيرة مثل الهجوم على مبنى المخابرات العامة المركزية فى أوكلاهوما ، وعمليات المواجهة التى نتج عنها كارثتا «واكو» و«روبى ريدج» فى التسعينات ، حيث جرى عليهما تعتيم إعلامى ووصفتهما التقارير الأمنية بأنهما عمليات إنتحار جماعية .

والألفيون - باختصار - هم الذين يؤمنون بأن نهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وأن تجلياتها مع شروق مطلع القرن الواحد والعشرين تتعاظم بشكل متسارع ، وأن أبرز هذه التجليات يتمثل فى تدفق يهود العالم إلى الأرض المقدسة باعتباره شرطا أساسيا لعودة المسيح الثانية إلى الأرض ، ليحكم العالم من القدس لمدة ألف عام ينشر فيها العدل والسلام والمسيحية .

وهم نبوئيون لأنهم يستمدون سناريوهات عودة المسيح من تفسيراتهم الخاصة للكتب المقدسة .

ثانيا -مع اقتراب حلول الألفية الثالثة اشتعلت شرارة الحماس الدينى فى الأوساط البروتستانتينية الأصولية وظهر فى الولايات المتحدة خلال العقود الثلاثة الأخيرة صحوة دينية لم يسبق لها مثيل ، حيث انخرطت الكنائس فى نشاط تبشيرى محموم يستهدف تنصير أكبر عدد من البشر وإعادة المسيحيين المارقين إلى حظيرة الإيمان ، وكان من نتائج هذا النشاط نشوء ظواهر جديدة فى المجتمع الأمريكى مثل ظاهرة «المسيحيين العائدين» «Barm again» عرفنا منهم شخصيات كبيرة فى قمة السياسة الأمريكية كالرؤساء : چيمى كارتر ورونالد ريجان وبوش الأب وبوش الإبن ، تصاعد التأييد فى عهودهم للكيان الصيونى والعداء للعرب والمسلمين إلى المستوى المذهل الذى نشهده اليوم .

ومن الظواهر الأخرى استحداث الكنائس لوسائل جديدة في التبشير المكثف ، وتبنيها لممارسات تعبدية غريبة لاجتذاب الجماهير كما تفعل كنيسة الـ «بنتكوستليست» التي توحي لرعاياها في الصلاة بتجلي الروح القدس عليهم واتصالها بهم اتصالا شخصيا يستشعرونه عندما تتدفق في أرواحهم كتيار سحري مفعم بالبهجة والسعادة وتستجيب أجسادهم بالرعشة والانجذاب والخفة فتصدر عنهم صيحات غريبة وقهقهات كضحك الأطفال الذين تداعبهم أمهاتهم حتى يستلقون على الأرض من فرط الانفعال .

وفي كنائس أخرى مثل كنيسة «العصر الجديد» New Age في غمرة البهجة الروحية تنطلق ألسنة المتعبدين بلغات لم يعدوا التحدث بها من قبل وتحل في أجسادهم الروح القدس فتبرئهم من العلل والأسقام والأمراض المستعصية التي لم يجد الطب لها علاجا .

تجتذب هذه الكنائس أعداداً هائلة من البشر الهاربين من الخواء الروحي والاضطرابات النفسية والقلق الاجتماعي ، الذين يتطلعون إلى بعض نسمات من النشوة الروحية والتخلص من الآلام والأمراض «النفسجسدية» التي تنغص حياتهم .

أما سر هذا النشاط الديني المحموم فهو أن هؤلاء الناس جميعا يعتقدون أن عودة المسيح قد حان أوانها وأن احتمال وقوعها في زمنهم احتمال مرجح ، وهم يريدون أن يقدموا خيرا يؤهلهم للخلاص ورضاء المسيح عليهم وصحبته في ملكوت السعادة الأبدية لذلك يسابقون الزمن ويشمرون عن سواعد الجد في هذه الفسحة الضئيلة من الزمن الذي يوشك على نهايته !

ثالثا - برهنت كارثتا واكو وروبي ريدج على أمرين : برهنت للسلطات الأمريكية أن العنف أصبح إمكانية واردة مع ازدهار وتشعب الجماعات والميليشيات المسلحة ، خصوصا أولئك النبوئيون المتطرفون في المجتمع الأمريكي ، وبرهنت لهذه الجماعات على صحة عقائدهم ، لأن التدخل المسلح من جانب السلطات في حد ذاته متوائم مع التوقعات التقليدية الواردة في نبوءاتهم ، ويبدو هذا أكثر وضوحا عند جماعة معروفة باسم «مابعد الكارثة» - Past trilrlationists كما يسمون أنفسهم أيضا باسم «الفرقة الناجية» ، هؤلاء يؤمنون بأن عليهم أن يقاتلوا قتالا طاحنا خلال فترة الاضطراب العظيم الذي سيحل بالأرض كإرهاص ومقدمة لعودة المسيح .

تزايد عدد (الميليشيات الانفصالية في الريف الأمريكي المحافظ حتى بلغ وفقا لبعض التقديرات ثمانين ألف عضو انضم معظمهم إلى هذه الميليشيات خلال عامين اثنين انقضى بين مجزرة واكو (١٩٩٢م) وتفجيرات أوكلاهوما (١٩٩٤م) .

لم تخلق مجزرة واكو مناخا جديدا فيما يتعلق بشيوع نظرية المؤامرة وموقف العداء من الحكومة الفدرالية ، فقد كان هذا المناخ سائدا من قبل ولكن «واكو» أكدت هذا المناخ وعززته ووجد الانفصاليون في الالتحاق بالميليشيات التي تتدرب على العنف تعبيرا عن غضبهم المكبوت وشعورهم بالتهديد والتآمر المستمرين من جانب السلطات الفدرالية .

تعاظم نشاط هذه الجماعات والميليشيات خصوصا في شمال الغرب الأمريكي على طول ساحل المحيط الهادي

، وهى مناطق غابات توفر ملاذات آمنة وحصينة لهذه الجماعات الثورية الانعزالية من اليمين المتطرف .

يقول داميان تومسون فى كتابه «نهاية الزمن» فى تصنيفه لهذه الجماعات : «إنهم يمثلون تفككا لثلاثة مدارس فكرية ، فمنهم «النازيون الجدد» المعجبون بالرايخ الألمانى الثالث (على عهد هتلر) ، ومنهم «المسيحيون الوطنيون» الذين يستشهدون بالانجيل والدستور الأمريكى ، وإلى جانبهم يوجد عشرون ألف عضو فى حركة تعرف باسم «الهوية المسيحية» تقف عقيدتهم فى موقع مابين النازيين والوطنيين ، ويؤمن هؤلاء بأن الآريين البيض هم الأحفاد الحقيقيون المباشرون للقبائل الإسرائيلية القديمة ، بينما اليهود هم «بذرة الشيطان» الدخيلة . وترجع جذور هذه الجماعة إلى نهاية القرن التاسع عشر وكان يطلق عليها فى ذلك الوقت اسم «البريطانيون الإسرائيليون» ، عبرت هذه الجماعة خلال القرن العشرين المحيط الأطلسى لتستقر فى العالم الجديد وتتخذ هوية أمريكية ، وقد حملت معها كراهية شديدة لليهود .

يستطرد داميان تومسون فيوضح لنا أن هذه الاختلافات الأيديولوجية لا تمثل حاجزا حقيقيا عند هذه الجماعات من الناحية العملية، ذلك لأن العنصر المشترك والحاسم كمؤهل للالتحاق بها هو الشعور المشترك باقتراب نهاية العالم والخوف من أن يقع العالم فى أيدى القوى الشريرة ، وهم يعتقدون أن الحكومة الفدرالية جزء منها .

لذلك يرى بعض المحللين أن أحد عوامل هزيمة جورج بوش الأب فى إنتخابات تجديد الرئاسة يرجع إلى أنه – فى لحظة حماسه – أطلق عبارة «النظام العالمى الجديد» وهى عبارة سيئة السمعة فى الكتابات التقليدية لأصحاب العقائد النبوئية ، الذين تخلوا عن تأييده فخسر المعركة الانتخابية بعد أن خسر رصيده الذى اجتهد فى بنائه فترة من الزمن باعتباره «مسيحى عائد» .

حرب الثقافات

فى تحليل المزاج الأمريكى الجديد صدر كتاب بعنوان «حرب الثقافات» من تأليف جيمس دافيسون هنتر (١٩٩١م) من جامعة فيرجينيا . يرصد المؤلف فيه الانقسامات الحادة التى وقعت خلال القرن العشرين فى الحياة الأمريكية العامة فمزقت الأحزاب السياسية والمؤسسات الدينية والمهنية ، حيث تدور حرب ثقافية ضارية بين التقليديين المحافظين من ناحية وبين الليبراليين من ناحية أخرى .

ظل هذا الكتاب موضع أخذ ورد ومناقشات واسعة فى الحياة الفكرية العامة لفترة طويلة . يعتبر هذا الكتاب إطارا فكريا لتحليل المعارك الدائرة بين الأطراف المتعارضة حول قضايا المرأة والإجهاض والقانون ، ولكنه إلى جانب هذا يلقى كثيرا من الضوء على القلق العام الذى يسيطر على كثير من الأمريكيين فى السنوات الأخيرة . هذا القلق ليس صادرا عن قصور أو عدم وضوح فى الرؤية وإنما تولد من الصرا ع المستعر بين رؤيتين مختلفتين لمستقبل أمريكا : رؤية ليبرالية ورؤية تقليدية ، يحاول أصحابها كل من ناحيته فرضها على المواطنين وبالتالى إجبارهم على أنماط جديدة من السلوك بإزاء القضايا المطروحة ، قد تكون قضية مفردة تدور حولها المعارك مثل حق المرأة فى الإجهاض أو حق الشواذ جنسيا فى

الالتحاق بالجيش أو حق الزواج المثلى (الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة) أو إلغاء عقوبة الإعدام .

وقد تدور المعارك حول قضية شاملة كالإصلاح السياسى أو غير ذلك من القضايا ، حيث يشعر الملايين من الأمريكيين الذين لاينتمون إلى أى من هذين التيارين بالتهديد الواقع عليهم من كلا الجانبين ويرون أنفسهم فى بؤرة الهدف الذى تصوب إليه سهام المتقاتلين فى هذه المعارك ، وهذا هو مصدر قلقهم الدائم .

كانت كارثة «واكو» تصويرا كلاسيكيا لهذا الموقف فى حرب الثقافات بين مؤسسة حكومية علمانية وبين الثائرين النبوئيين ، حيث يجهل كل من الطرفين العقيدة التى تحرك الآخر .

ويمكن النظر إلى كارثتى «واكو» و«روبى ريدج» باعتبارهما معركتين ساخنتين فى عملية صراع طويلة المدى ، كما يمكن النظر إليهما كزلزالين عند خط الانزلاقات الأرضية الذى يشق الأمة نصفين ، فهناك هوة سحيقة آخذة فى الاتساع بين كل من العقيدتين المتصارعتين، يرى جيمس هنتر أن الصراع بينهما ليس له نظر - من حيث الحدة والتشعب - فى أى أمة أخرى .

أمامنا حقيقة لاينبغى أن نستهين بها وهى أن عوامل التفكك فى المجتمع الأمريكى واقع وليس خرافة ، وأن القادة الأمريكيين يدركون هذا الواقع ويحاولون احتواءه أو التقليل من مخاطره، وليس السيناريو الإمبريالى الذى تتبناه الإدارة الأمريكية الحالية مقطوع الصلة بهذه المحاولات ، ذلك أن حشد الجماهير الأمريكية وراء حرب الإرهاب العالمى المزعوم من شأنه أن يجمد الصراعات الداخلية ويركز الانتباه على عدو خارجى قد يكون وهما ، ولكنه ليس هو الوهم الوحيد الذى يعشش فى عقول الأمريكيين

كانت تفجيرات أوكلاهوما هى التى نبهت الجمهور الأمريكى إلى وجود جماعات أمريكية من أشرس الأصوليين وأكثرهم تعصبا وأشدهم وطأة فى العالم ، وهى التى نبهت الأذهان إلى وجود مليشيات مسلحة منتشرة فى ٣٨ ولاية على الأقل . وقد سارعت وسائل الاعلام الأمريكية بإلصاق التهمة بالإرهاب الإسلامى ، وظلت كذلك معلقة فى رقاب المسلمين حتى تم اكتشاف الإرهابيين الحقيقيين ، وكان هذا بالصدفة المحضة وليس بالسعى والاجتهاد ولولا ذلك لبقيت مسئولية هذه الجريمة معلقة بالمسلمين إلى الأبد .

الجماعات الانفصالية

هذه الجماعات أخذت على عاتقها تنفيذ التعديل الثانى للدستور الفدرالى الذى ينص على «أن المليشيات المنظمة تنظيما جيدا ضرورة أمنية لأى ولاية حرة ، وأن حق الناس فى أن يحملوا أسلحة ويحتفظوا بها حق لاينبغى إنتهاكه» ، وبسبب هذا النص الدستورى فشل الرئيس السابق بل كلينتون إقناع الكونجرس بإصدار تشريعات تحرم على الأفراد حمل الأسلحة بعد أن تعددت حوادث القتل العشوائى فى المدارس وفى الأماكن العامة .

تؤمن هذه الجماعات بأن الحكومة الفدرالية حكومة فاسدة بطبعها وأن عملاءها فى حكومات الولايات إرهابيون متآمرون معها ولذلك فإنهم لايدينون بالولاء لهذه الحكومات .

تبدو هذه الظاهرة غير مفهومة وهى

غير معروفة في العالم الخارجي بل كانت بعيدة عن بؤرة الاهتمام حتى بالنسبة للجمهور الأمريكي نفسه قبل حادثة أوكلاهوما ، ولكنها خضعت للدراسة والتحليل أخيرا وأفاض في الكتابة عنها كثيرون لعل من أبرزهم «ستيفن روبنسون» الذي كتب عنها مقالا بعنوان «الأصوليون الأمريكيون» في صحيفة «ديلي تلغراف» بتاريخ ٢٤ إبريل ١٩٩٥م ، وإيفانز - بريتشارد أمبروز الذي كتب عنها مقالا آخر بعنوان «الحرب المقدسة» في «صنداي تلغراف (إبريل ١٩٩٥) «وصدر في نفس السنة كتاب عن الموضوع نفسه بعنوان «من داخل حركة الميليشيات» ألفه وليام فولمان الذي التقى بعدد من أعضاء هذه الميليشيات وتحدث إليهم . يصف فولمان أحدهم (يسميه مستر فليتشر) بأن كراهيته للحكومة الفدرالية تتوارى أمامها كل كراهية عرفتها في حياتي ، ويكتب على لسانه يقول : «ليكن أعداؤنا على يقين بأن المتعاونين مع حركتنا موجودون في الجيش والأسطول على جميع المستويات حتى أعلى القيادات» ويضيف متذكرا : «إننا نريد أن نفهم لماذا يبنى جيش الولايات المتحدة سجونا في داخل قواعده ؟ ولماذا ينزلون تحت الأرض ويضعون كاميرات في الأنفاق للمراقبة تحسبا من أن يلجأ إليها الوطنيون ... إنني أفكر في هذه الأمور منذ عشرة أعوام ولا أجد لها جوابا شافيا» .

يقول جارى ويلز في مقال له بعنوان «الثوريون الجدد» :

«لقد أصبحت الحكومة الفدرالية هي العدو الأول للحرية في نظر الثوار الجدد على اختلاف مواقفهم الأيديولوجية» .

وبعد ..

إن الشك وانعدام الثقة في الحكومة الفدرالية والكراهية الشديدة لها تجرى في أعماق قطاعات كبيرة من المجتمع الأمريكي ، فلم تعد مقصورة على جماعات منعزلة أو هامشية . كذلك فإن شيوع نظرية المؤامرة والهواجس التي تتصل بفكرة «النظام العالمي الجديد» وعودة الحماس لتأكيد حقوق الولايات واستقلالها في مواجهة الغول الفدرالي ، وانتشار الميليشيات المسلحة التي تعمل تحت الأرض ، وانتصار اليمين الأصولي المتطرف وسيطرته الحالية على الإدارة الأمريكية والبنتاجون ، كل هذه مؤشرات تدل على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت منعطفا خطيرا في تاريخها السياسي .

ولم يعد الأمر مجرد تكهنات فقد خرجت أمريكا بعد حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م في حملة إمبرالية للسيطرة على العالم تحت ستار حرب الإرهاب ، وحتى في داخل المجتمع الأمريكي نفسه أسفرت اليد الباطشة عن نفسها في سلسلة من القوانين الاستثنائية والإجراءات التعسفية ضد فئة من المواطنين الأمريكيين والمقيمين لمجرد أنهم مسلمون ، بحجة البحث عن إرهابيين !

هذه الهستيريا الهائجة والمصحوبة بنذر كارثة اقتصادية في الأفق تعزز - في نظري - فكرة «ريتشارد هوفشتاتر» بأننا نشهد اليوم نوبة جديدة عارمة من نوبات البارانويا في السياسة الأمريكية ، ويبدو لي أن الذين سيدفعون فاتورة إعادة التوازن العقلي لأمريكا هم المسلمون في كل مكان ، لا من ثرواتهم فحسب بل من حريتهم وثقافتهم ووجودهم . ■

الدين والسياسة

في الولايات المتحدة الأمريكية

بقلم
د. منار الشوربجي

حين استخدم بوش تعبير «الحرب الدينية» بعد أحداث سبتمبر، ثم تراجع عنه بعد أن أثار صدمة لدى الكثيرين، فإن تراجعه انما جاء نتيجة لما اتخذه ذلك التعبير من معان محددة بعد الحروب الصليبية فقد كان استخدامه من جانب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في سياق أحداث سبتمبر له دلالات بعينها لم تكن الادارة الأمريكية تريد تأكيدها لدى حلفائها في العالم الإسلامي. إلا إن استخدام التعبير في حد ذاته لايمثل حالة استثنائية في السياق الأمريكي. ولا ينبغي لنا أن نندهش إذا ما أعيد استخدام ماشابهه. فهو جزء من منظومة كاملة من الأفكار والمعتقدات التي تضرب بجذورها في عمق الثقافة الأمريكية ذاتها.

فرغم «علمانية» الدولة التي ينص عليها الدستور الأمريكي صراحة، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية، كما وصفها صامويل هانتنجتون «أمة تحيا بروح الكنيسة» A nation with the soul of a church

فالعلمانية المنصوص عليها في الدستور معناها حظر اعلان دين رسمي للدولة ، ولكنها لاتعني حظر التدين ولا حظر دوره في الحياة السياسية. والخطاب العام في أمريكا حافل بعبارات ورموز وصور ذات دلالات دينية واضحة.

وتصف عبارة هانتنجتون في كلمات قليلة ظاهرة مهمة كتب عنها عدد كبير من الباحثين . «فالكنيسة» في عبارة هانتنجتون لاتعني المسيحية وانما هي ما اتفق الباحثون على تسميته «بالدين المدني» .

و«الدين المدني» لايعني أنه تعبير عن دين الأغلبية، أي المسيحية، ولا هو تابع لمعتقدات كنيسة معينة. كما أنه – في الوقت ذاته – ليس في تنافس مع أي من الأديان أو المذاهب الدينية، وانما هو منظومة من القيم والأفكار والمعتقدات التي يؤمن بها العقل الجمعي الأمريكي.

والوظيفة الرئيسية لتلك المنظومة هي أنها تبني صورة خاصة متفق عليها للعالم وتنتج معنى محددا يساعد الجماعة على فهم معطيات الواقع والتعامل معها

أمة مختارة

أما عن مفردات تلك المنظومة فهي باختصار أن أمريكا «أمة مختارة» يحميها الله ويباركها بل وكلفها برسالة سامية في هذا العالم . وكما هو واضح، فإن هذه الأفكار ذات طابع سياسي ولكن أساسها ديني في واقع الأمر. بعبارة أخرى، فان «الدين المدني» هو في الحقيقة منظومة فكرية سياسية ولكن جذورها دينية ولعل هذا هو السبب الرئيسي في صعوبة الفصل بين ماهو «ديني» وما هو «سياسي» عند فرز مفردات الخطاب الأمريكي رغم العلمانية المعلنة للدولة.

أما الأصول الدينية لهذه المنظومة الفكرية، فهي ترجع في الواقع إلى نشأة الدولة الأمريكية ذاتها . فالمهاجرون الأوائل إلى الولايات المتحدة الذين جاءوا من انجلترا كانوا من مذاهب بروتستانتية شتى. ولكن بعد فترة من الوقت صارت للبيوريتانية الهيمنة. فالثابت أن حوالي ٧٥٪ من السكان الذين ثاروا على انجلترا واعلنوا استقلال الدولة الأمريكية في ١٧٧٦ كانوا من البيوريتانيين.

والبيوريتانية ، أو التطهير، سميت بهذا الاسم لأنها سعت إلى «تطهير» الكنيسة في انجلترا مما اعتراها في ذلك الوقت . وقد هاجر الكثير من هؤلاء إلى «العالم الجديد» هرباً من الاضطهاد وأملاً في بناء حياة جديدة يعيدون فيها للمسيحية نقاءها الذي فقدته في أوربا. بعبارة أخرى كان هؤلاء المهاجرون الأوائل عميقي التدين، سعوا إلى بناء أمة أكثر تدينا ونقاء من تلك التي تركوها وراءهم في أوربا.

الاضطهاد لحكمة إلهية

وأثناء رحلتهم عبر الاطلنطي، تأمل هؤلاء التجربة الجديدة التي

يعيشونها، على أسس دينية أيضاً.

فقد نظروا إلى رحلتهم تلك باعتبارها رحلة حجيج واعتبروا أنفسهم جماعة «مختاره» اصطفاها الله لتعيد البشرية إلى رشدها. ومن ثم اعتبروا الأرض الجديدة التى وطأوها هى «إسرائيل الجديدة» New Israel، وخروجهم من أوربا بمثابة خروج اليهود من مصر ونظروا إلى تعميرهم للأرض «الجديدة» باعتباره عقدا جديداً مع الله مثل عهده مع نبيه إبراهيم، بما يعنى أن الله سوف يباركهم ويبارك ذريتهم - كما فعل مع نبيه إبراهيم - مقابل تنفيذهم لأحكامه فى تلك الأرض الجديدة.

وقد آمن هؤلاء بأن خروجهم مضطهدين من أوربا كان لحكمة إلهية. فقد اختارهم الله لمهمة محددة وهى أن ينجحوا فى اقامة مملكته على تلك الأرض الجديدة فيضربون بذلك المثل للبشرية ويؤكدون على أن الله يكافىء عباده المخلصين.

هذه المنظومة الفكرية الأصلية ذات الطابع الدينى الخالص تطورت عبر التاريخ الأمريكى وصارت تتخذ أشكالاً مختلفة فى العقل الجمعى الأمريكى هو ما يطلق عليه الباحثون «الدين المدنى»، و صارت جزءاً من الثقافة السياسية لكل الأمريكيين.

فكما سبق القول، أمريكا «أمة مختاره» يحميها الله، هذه الفكرة ذات الأصل الدينى صارت لها تنويعات وصيغ شتى من بينها مثلاً أن أمريكا «مدينة على التل» City on the hill أى هى ذات طابع «استثنائى» يفصلها عن باقى الشعوب والحضارات فهى أسمى من كل تلك الأمم الأخرى.

وهى أيضاً قد وصلت إلى ماوصلت إليه لأنها بشكل ما تحظى بعناية الهية خاصة.

ويأتى الإيمان «بالعصر الألفى» الذى سيحكم فيه السيد المسيح على الأرض ليضيف إلى ذلك المعنى.

فالفكرة أصلها دينى بالتأكيد. ولكنها - مرة أخرى - قد أعيد إنتاج معناها سياسياً. فهى ليست بالضرورة اقامة مملكة الله على الأرض (وإن كان لهذه الفكرة من يؤمنون بها حرفياً ومن ثم يؤيدون بمقتضاها إسرائيل تأييداً مطلقاً على أساس أن بقاءها هو الخطوة الأولى نحو عودة السيد المسيح) وإنما هى تعنى أن السلام والرخاء سيعم الأرض، وهو سلام لايمكن أن يجلبه للعالم إلا أمريكا لأنها الأمة المختارة.

ومن هذا الأصل الدينى نفسه تم انتاج معنى زعامة أمريكا للعالم. فهى زعامة «يحتاجها» العالم ولا تملك أمريكا إلا توليها.

بعبارة أخرى فإن هذه المنظومة الفكرية تستخدم لإعادة انتاج المعنى

. فهى عملية حية، بمعنى انها تعيد إنتاج ذلك المعنى فى كل مرحلة تاريخية بناء على معطيات الواقع. وهى من ثم انتقائية بالضرورة أى يتم فى كل مرحلة استدعاء رموز بعينها وصبغها بصبغة تناسب الحاضر المعاش.

وهى لذلك تغذى نفسها بنفسها الأمر الذى يضمن استمرارها أيضاً.

فالتفوق الأمريكى التكنولوجى والعسكرى الراهن يغذى المنظومة نفسها . فالزعامة الأمريكية الحالية للعالم «نبوءة تحققت» وهى تؤكد صحة المنظومة الفكرية ذاتها .

ولأن أمريكا أمة مختاره وتباركها العناية الالهية فإنها بالضرورة تتسم «بالبراءة». ومن ثم فإن الثقافة السياسية الأمريكية تسقط من الذاكرة الجمعية ماقد يشوه هذه البراءة أو يدحضها فالقتل الجماعى للهنود الحمر فصل من التاريخ الأمريكى مسكوت عنه فى الثقافة السياسية الأمريكية. والخطاب السياسى المعاصر لايكف عن الاحتفاء بالتعددية الأمريكية باعتبارها أحد المصادر المهمه لثراء التجربة الأمريكية، بينما يسقط من هذا الخطاب الاعتراف بالاضطهاد الذى وقع على كل الاقليات حين هاجرت لأمريكا بل وبالعنصرية المؤسسية الموجودة حتى الآن فى الولايات المتحدة.

ويصدق الشيء نفسه على السياسة الخارجية الأمريكية. فكل حرب تدخلها الولايات المتحدة هى بالضرورة «حرب أخلاقية» تقف فيها الولايات المتحدة فى جانب «الخير». واللفظ الذى استخدمه بوش بعد أحداث سبتمبر استخدم على مدار التاريخ الأمريكى كله كلما دخلت أمريكا حرباً جديدة. والدلالة الأصلية للتعبير فى العقل الجمعى الأمريكى هى الطابع «الأخلاقى والرسالى» لأمريكا. فهى حرب أخلاقية تقف أمريكا فيها ضد الشر. وهو تعبير استخدم ضد كل «الاعداء» بمن فى ذلك الانجليز أثناء الثورة الأمريكية، والذين كانوا يعتنقون نفس الدين .

إن هذه المنظومة الفكرية - عميقة الجذور فى الثقافة السياسية الأمريكية - تلعب دورا مهماً فى المجتمع الأمريكى فهى تعطى معنى وهدفا تتوحد حوله أمة تتسم بتعددية شديدة فالمجتمع الأمريكى مجتمع مهاجرين أتوا ومن شتى انحاء المعمورة ومن ثم فإنه لا يوجد أصول مشتركة تمثل اساس الهويه الأمريكيه لذلك كان لابد من خلق ذلك العامل الموحد فكان هو السياسة فى الواقع. فالامريكى يعرف نفسه سياسيا . وهو ما يطلق عليه الأسلوب الأمريكى the American Way

أو العقيدة الأمريكية وهى عقيده كل مفرداتها بلا استثناء سياسية فالأمريكى هو الذى يؤمن بالحريات السياسية والديمقراطية والفردية .. الخ.

إلا أن هذا الدين المدنى، كأحد مكونات الثقافة السياسية له أيضا تداعياته الواضحة على السياسة الخارجية الأمريكية. فهو المسئول عن ذلك الطابع الرسالى الواضح فى الخطاب الأمريكى بشأن دور الولايات المتحدة فى العالم فليس صحيحا مايردده البعض من أن هذا الخطاب المستمر الذى يتسم بطابع رسالى واضح هو من باب التغطية فقط على أغراض اخرى ، فهو خطاب له قيمة فى ذاته وموجة للداخل الأمريكى وله وظيفة حيوية بل ويلقى استجابة تلقائية لدى الأمريكى العادى، بغض النظر عن تداعياته فى العالم أو عن زيفه ونفاقه فالثقافة السياسية لكل أمة تحوى تناقضات عدة، وصورة الامة عن نفسها ليست بالضرورة أمينة، فهى صورة انتقائية يعاد انتاجها باستمرار لتوحيد ابنائها حول اهداف ما

الحرب الدينية !

غير أن أخطر ما فى هذه المنطوق فى مجال السياسة الخارجية هو ما ينتج عنها من حدية مطلقة وقت الازمات مع أمم أخرى. فالمسأله عندئذ لاتكون خصما يمكن التفاوض معه للتوصل إلى حلول «وسط» فالخصم يكون عدوا يمثل الشر المطلق، والشر بالضرورة لايجوز التفاوض معه والإ صار ذلك تنازلا عن قيم جوهرية .

ومن هنا تأتى التعبيرات التى يزخر بها الخطاب الأمريكى بدءاً من تعبير«أمبراطوريه الشر» الذى اطلقه ريجان، ومروربتعبيرات «محور الشر» و«الوضوح الاخلاقى»، ووصولاً إلى تعبير «الحرب الدينية » الذى استخدمه بوش .

إن استخدام مفردات مثل «الخير والشر»، «معنا أو ضدنا» ليس جديدا فى الحالة الأمريكية فهى مفردات ذات جذور ثقافية وتاريخية عميقة كل ما فى الامر انها تتوارى احيانا ثم تعود لتبرز على السطح من جديد .

ولأن الهوية الأمريكية ذات طابع سياسى بالأساس، فإن الدينى يختلط بالسياسى بشكل واضح فى لحظات الأزمات الكبرى، وهو ما يفتح ابواب الخطر إذا ما استغلته قوى امريكية بعينها ليتغلب الدينى فيه على السياسى عمداً. ■



شعر: سليم الرافعى

يقول الهوى الموتور: جرح تنسما ... إذا نام جرح الحب أيقظ نوما

ترقرق بعد الأربعين بكأسه ... ومن يحتسى الكأس التى خضبت فما؟

فهل لاح نهر غارق فى حبابها ... وهل سال من حر الينابيع مفعما؟

أما كان مختالا على ضفة الصبا ... أما كان صداح الهتاف.. محوما؟

جرى عارما يروى الثلاثين قصة ... وفى غابة عذراء صلى وسلما

يدين لمعبود قديم بوقفة ... تكلل منها الزهر وازدانت السما

يدين لعينين اكتسى محجريهما ... إلهان فتانان زانا وأنعما

تقدس حلم فى الربيع ونسمة ... سرت بين أدواح تهز متيما

تؤرقه الذكرى.. فيرجف موجه ... فهل تشعل الذكرى إذا خطرت دما؟

مضى النهر بالمجد المحطم ذاهلا ... كأن الهوى مجد إذا ما تحطما

يقولون للنهر استرح من عرامة ... فمازلت أندى فى الخريف وأكرما

ودع فلتات الزيغ فى ميعة الصبا ... وطيفا تلاشى فى العواصف مبهما

وهل عادت الأمواج بعد اندفاعها ... إلى مصور الإبداع إلا توهما؟

تلفع كوخ الورد بالشوك واكتسى ... تلاوين بركان غفا وتصرما

دم فى شظايا الورد شع معبرا ... عن العاصفات الهوج حين تضرما

وهل قسمات الحب دامت لعاشق ... فيخطر فى ضوضائها مترنما؟

أفق أيها النهر الحزين لدمعة ... مجنحة تسقى شعاعا مهشما

فقد كان ذاك الحب زورق قبلة ... ورن الصدى فى اللازورد وهينما

تحن السماوات الحسان إذا سرى ... أو اختال فى آفاقها أو تكلما

ستنظمه الأطياف عنقود كرمة ... ويشربه العشاق فى الكأس ملهما

وترتعد الأشواق منه وتنحنى ... له قمم مبهورة.. كلما انتمى

هيمنة أمريكية وخيانة وإجرام

بقلم
مصطفى درويش

تعذر علىّ مشاهدة أفلام مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.. أما لماذا تعذر علىّ الأمر، فذلك لأننى آثرت مغادرة القاهرة، تحت تهديد سحابة سوداء، تعيث فى عيوننا وصدورنا فسادا، على البقاء سجين قاعات مغلقة، أشاهد أفلاما، يجرى عرضها بطريقة عشوائية، ودون احتفال بشعور المتفرجين.

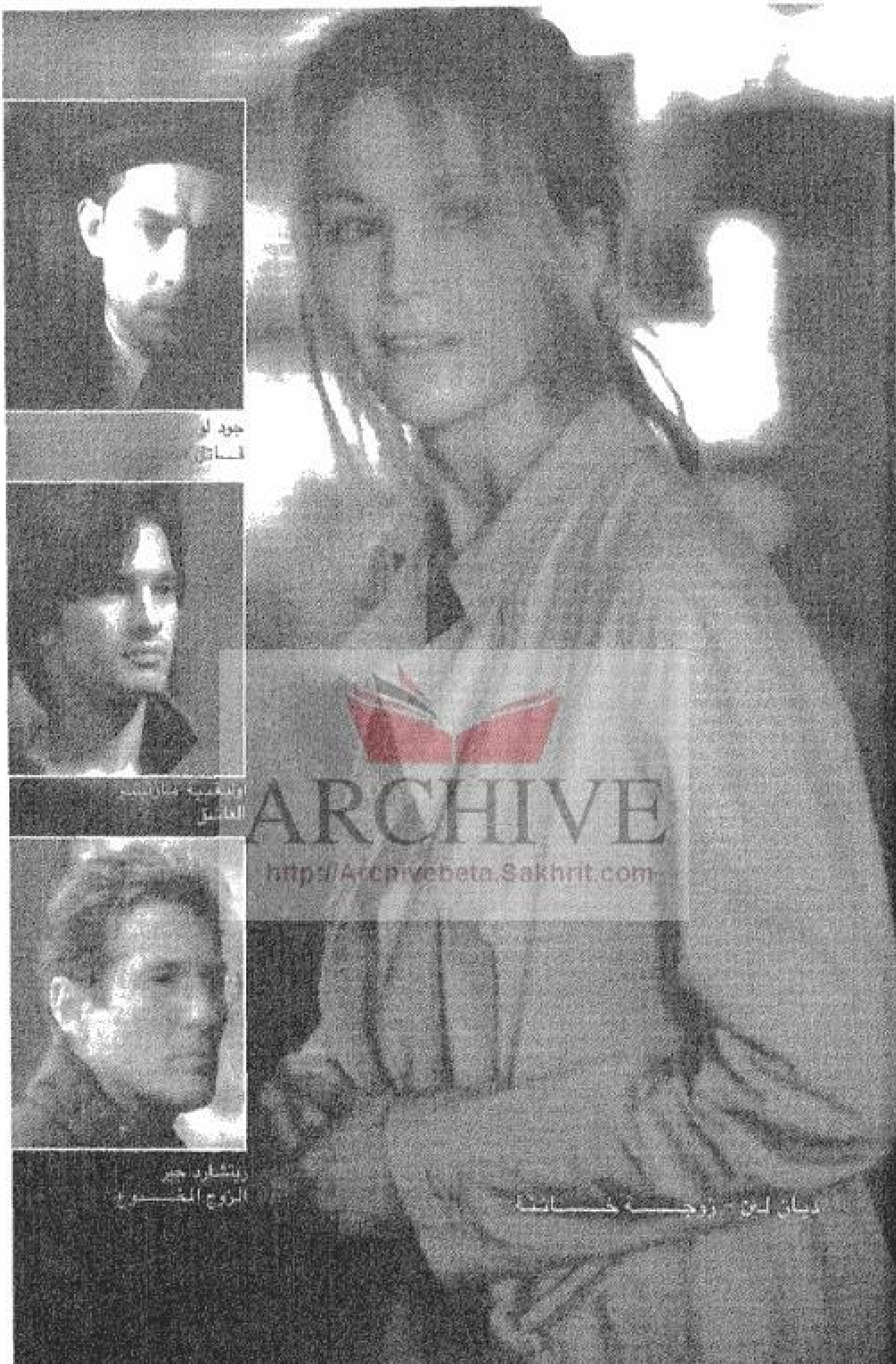
وفعلا غادرت المدينة البدينة، متجها صوب منتجع الجونة، المطل على بحر الأساطير، حيث أتيح لى أن استنشق هواء نقيا، أرى شروقا ذهبيا، أقضى سحابة النهار سابحا، تحت سماء زرقاء صافية، لا أسمع من الأصوات سوى هديل اليمام.

وفى سكون الليل، ووسط ظلام تزينه نجوم على بعد ملايين السنين الضوئية، أتابع قمرا فضيا.

الفردوس المفقود

كل هذا عشته أياما، فى أحضان طبيعة سخية، صفوا من الآلام والأحزان وما أن ذهبت تلك الأيام كالأحلام، حتى وجدتنى طريد الفردوس، أبحث فى عاصمتنا عن أفلام تستحق المشاهدة، فلا أصادف منها شيئا

وفيما أنا حائر، وجدت ما أنشده فى فيلم لادريان لين، وهو مخرج انجليزى، جذبه مصنع الأحلام فى هوليوود إلى فلكه، شأنه فى ذلك شأن الموهوبين من المخرجين الانجليز، بدءا


جود لو
قاتل
ريتشارد جير
الزوج المخدوع
ديان لين - زوجة خائنة

من الفريد هتشكوك، وعقد الثلاثينات فى عامه الأخير، وانتهاء بسام منذر، والقرن العشرون على وشك الرحيل.

وفيلم لين اسمه الزوجة الخائنة.

وإذ شاءت لى المقادير أن يكون آخر فيلم، كتب لى أن أشاهده قبل مغادرتى القاهرة، هروبا من السحابة السوداء، هو الطريق إلى الجحيم، وصاحبه سام منذر، هو الآخر مخرج انجليزى، فقد رأيت أن الجمع بين فيلمى لين ومنذر فى عرض واحد، قد يفيد فى إلقاء بعض الضوء على ظاهرة هيمنة مصنع الأحلام، بعد أن أصبحت أشبه بأخطبوط التف بأذرعه حول كوكبنا، على نحو صار الفكاك منه، أمرا صعب المنال.

وابدأ بالطريق إلى الجحيم، لاقول ان بطولته يتقاسمها النجمان توم هانكس، وبول نيومان.

ولا أعنى بتقاسمهما أن دور نيومان، وسنه الآن ثمانية وسبعون عاما، مساو لدور هانكس.

فالذى ليس فيه شك أن الزمن الذى يشغله هانكس بوجوده أطول بكثير من زمن نيومان.

ومع ذلك، فدور كليهما مكمل للآخر، بحيث لا يتصور الفيلم بدونه حتى ولوكان صغيرا.

دور جديد

وعكس نيومان، فتقمص هانكس لشخصية مجرم أجير لزعيم إحدى العصابات، يعد تجربة جديدة، لم يسبق له أن مر بها، طوال مسيرته السينمائية، وعمرها قارب ربع قرن من عمر الزمان.

«فهانكس» السابق له الفوز مرتين بجائزة اوسكار أفضل ممثل رئيسى، ها هو ذا، يلعب، لأول مرة، فى ثانى فيلم للمخرج منذر، السابق له هو الآخر، الفوز مع فيلمه الجمال الامريكى بنفس الجائزة، دور قاتل «مايكيل سوليفان» فى زمن الأزمة الاقتصادية الكبرى، حيث انتشرت كعش الغراب، عصابات إجرامية، ليس للرحمة فى قلوب أعضائها مكان.

يصدع لأوامر زعيم عصابة «جون رونى»، من أصول ايرلندية، ينفذها بصرامة وكفاءة منقطعتى النظر.

أدى دور رونى النجم «بول نيومان» بجدارة ومهارة، قل أن يكون لهما مثيل.

وكما رسم سيناريو «دافيد سلف» العلاقة بينه وبين مرؤوسه سوليفان، بدت لنا فى الفيلم علاقة حميمة، أشبه بعلاقة أب بأبنه، بل ربما أقوى من علاقته بابنه من لحمه ودمه «كونور» ويؤدى دوره الممثل الانجليزى دانييل كريج الذى سبق لنا مشاهدته هنا فى القاهرة، فى فيلم تافه اسمه «لارا كروفت، غازية المقابر» ويقصد بها مقابر قدماء المصريين.

ولقد جرى التعبير عن العلاقة الحميمة بين الاثنين، بجمال، ودون كلمة تقال، فى مشهد جمع بينهما،

بطريقة شبه عفوية، فى أولى لقطات الفيلم، حيث نراهما جالسين الى البيانو، يعزفان قطعة ثنائية، هادئة، وكونور الابن يرقبهما كاظم الغيظ، ونار الغيرة تنهش قلبه المريض».

أصل الحكاية

والفيلم يبدأ بصوت مايكيل الصغير، يقول، وقد أصبح رجلا «هناك حكايات كثيرة عن مايكيل سوليفان (يقصد أباه) بعضها يقول أنه كان رجلا فاضلا، وبعضها الآخر يقول أنه على العكس من ذلك تماما.

ولكنى مكثت معه ستة أسابيع، فى اثناء شتاء ١٩٣١ وهذه هى حكايتنا».

وكما يليق بحكاية مدارها عنف بلا حساب، استهل السيناريو أحداث الفيلم بمشهد فى أحد أكبر بيوتات روك، أيلاند يمتلكه رونى (نيومان)، حيث نراه فى إحدى اللقطات، محتضنا ولدى سوليفان الاكبر مايكيل «تايلور هوشلين» والأصغر بيتر «ليام ايكن»، على نحو بدا معه وكأنه جد عطوف.

فى حين أنه، على نقيض هذا المظهر الخادع، كان واحدا من أقطاب الجريمة فى العالم السفلى، ساعدا أيمن لآل كابونى، ذلك المجرم الذى ذاعت شهرته، حتى صار اسمه رمزا للاجرام، فى أشد صوره بأسا.

نصيحة مجرم

وللتدليل على متانة العلاقة بين الاثنين رونى وآل كابونى أورد على لسان الأول، من باب التناحر، ان الثانى نصحه قائلا «أنت تحكم هذه المدينة «شيكاغو» مثلما يحكم الرب الأرض، تعطى وتأخذ كيفما تشاء».

وأعود إلى العلاقة الحميمة، لاقول ان ولاء سوليفان لرونى، وأحد مظاهره الطاعة شبه العمياء، انما يرجع إلى أيام الصبا، وقت أن كان سوليفان يتيما، وتولى رونى أمر رعايته، والصعود بمستواه حتى أصبح له اسرة محترمة، من زوجة جميلة وولدين، لاينقصهما شيء من متاع الحياة.

عبث الأقدار

وهنا يتدخل القضاء قاهرا، ماكرا، ليس لأحد عليه سلطان، كي يدمر من ناحية تلك العلاقة الحميمة بين رونى وسوليفان ومن ناحية أخرى علاقة رونى بآل كابونى.

فكان أن أوحى لولدى سوليفان أن يتساءلا عن طبيعة المهام التى يقوم أبوهما بها بغتة بين الحين والحين.

ومازال يغرى الولد الأكبر بضرورة التوصل إلى معرفة مهنة أبيه، حتى دفع به إلى التسلل من غرفته مساء، والاختباء فى سيارته، لا يغادرها إلى أن تصل بهما إلى مكان، حيث يراه مع كونور ابن الزعيم، وهما يطلقان النار فيسقط خصومهما قتلى، فى بحر من الدماء.

وسرعان ما يكتشف سوليفان أن مايكيل ابنه كان فى مسرح الجريمة، فيصطحبه إلى السيارة، مهموما.

وفى الطريق ، يطلب إليه أن يمحى من شاشة ذاكرته كل ما شاهده ، قبل ثوان، وألا يبوح به لاى كان.

ورغم الوعد الذى قطعه سوليفان على نفسه، بأن ابنه لن يبوح بالسر، الا أن كونور انتهز الفرصة للتخلص من الاب والابن معا.

وهاهو ذا ، ينصب لغريمه كمينا، كان لابد أن ينتهى به وابنه مقتولين.

ومرة أخرى ، يتدخل القضاء المتسلط، بحكم لا معقب لحكمه، فيكتب النجاة لهما، وفى نفس الوقت يعبث بكونور، فيضلله حتى يدفع به إلى قتل الأم زوجة سوليفان، والابن الصغير.

ويثبت سوليفان للكارثة، وبحكم تركيبته الشخصية، واحد عناصرها إرادة من حديد، وعزم أكيد، يجد نفسه مجبرا على الانتقام، لا مختارا

الهروب الكبير

وكما عبث القضاء بكونور وسخر منه، مضى يعبث بأبيه رونى، ويسخر منه.

فإذا به، يجد نفسه، بعد حيرة، مجبرا هو الآخر على تدبير أمر قتل سوليفان، انقاذا لابنه كونور من الانتقام.

وفى سبيل تحقيق ذلك، أجر قاتلا محترفا، مهمته تعقب سوليفان، حتى قتله، مع تقديم الدليل.

أدى دوره النجم الانجليزى جود لو، وقد سبق أن شاهدناه قبل بضعة شهور بائع هوى فى الذكاء الصناعى، وقناصا روسيا فى العدو على الابواب.

ويمضى القضاء مسخرا الجميع، حتى نهايتهم المحتومة، لا يفلت من ارادته الا من استثناه، وهو مايكيل بن سوليفان وما كتب له النجاة استثناء، الا ليكون شاهدا، يحكى حول ما حدث لابيه ومطارديه، اثناء بضعة اسابيع من شقاء عام استشرى فيه الاجرام، وهو هول بحتميته اشبه بمآسى المسرح الاغريقى القديم.

يبقى لى أن أقول أن الفيلم بأداء ممثليه، وتصويره وموسيقاه، وتصميمات مناظره المعبرة أصدق تعبير عن عصر الأزمة الكبرى التى مهدت الطريق للحرب العالمية الثانية، انما يؤكد ، بكل هذا، موهبة مخرجه مقدر، ويثبت بعد نظر المخرج والمنتج الأشهر «ستيفن سبيلبرج» عندما اسند له، بعد اكتشافه فى لندن، حيث كان يعمل مخرجا مسرحيا، إخراج الجمال الأمريكى، وذلك رغم عدم وجود أية صلة بينه وبين السينما، لا من قريب، ولا من بعيد.

فهو لم يسبق له الالتحاق باحد معاهد السينما، فضلا عن انه لم يسبق له، قبل الجمال الامريكى، إخراج أى فيلم، طويلا، كان ام قصيرا.

والآن إلى آدريان لين، لأقول أن



الـــزوجـة والعشيـق

موهبته لا ترتفع إلى مستوى موهبة منذر.

خيانة وقتل

ولكن الزوجة الخائنة، فيلمه الأخير، يشهد له بالصعود إلى مستوى فنى رفيع، فى ذلك النوع السينمائى، الذى يؤثره على غيره من الأنواع، وهو العلاقات غير السوية بين الرجل والمرأة.

وبيانا لذلك يكفى أن نسترجع، على سبيل التمثيل، بعض الأفلام التى قام بإخراجها لحساب مصنع الأحلام، أثناء وجوده فى بلاد العم سام، وهى الإغراء المميت، ثمانية أسابيع ونصف، عرض غير مهذب، ولوليتا.

يكفى ذلك، حتى يستبين لنا أن عالمه يدور وجودا وعدما حول ما يسمى بالحب المجنون، ذلك النوع من الحب الذى ما يكاد يبلغ القلوب، حتى يصبح فتنة ومحنة، لاتجد القلوب الى التخلص منه سبيلا.

والزوجة الخائنة، مأخوذ عن قصة وسيناريو للمخرج الفرنسى كلود شايرول، أحد أشهر مخرجى الموجة، وأكثرهم نجاحا ودواما، فهو لايزال

يصنع أفلاما، حتى يومنا هذا.

ولقد سبق له ترجمة قصته هذه، السيناريو بطبيعة الحال، إلى لغة السينما في فيلم أسماه المرأة الخائنة، وذلك قبل ثلاثة وثلاثين عاما.

وفيلمه يعرض لأسرة برجوازية، تجنح فيها الزوجة إلى الخيانة مع عشيق يقتله الزوج.

وكلاهما الخيانة والقتل، يعكس على الزوجين ظلالا ثقيلة، تصبح معها الحياة كابوسا.

عولمة القيم

وانتقال معالجة كاتبي سيناريو الفيلم الأمريكي «ألفين مولر» و«ويليم برويز» بمكان الأحداث من فرنسا إلى الولايات المتحدة، وبالذات نيويورك وضواحيها، هذا الانتقال لم يغير شيئا من جوهر الفيلم القديم.

فأخلاقيات البرجوازية تكاد تكون واحدة في كل مكان، لا تختلف في فرنسا، عنها في الولايات المتحدة كثيرا، رغم فاصل المحيط.

قد تكون البرجوازية الأمريكية أكثر وحشية، كما يذهب في كتاباته نفر من مثقفي فرنسا.

غير أن هذه الوحشية ليس لها تأثير كبير على أخلاقيات البرجوازية الأمريكية، بحيث تجعلها مختلفة اختلافا كيفيا عن أخلاقيات البرجوازيات الأخرى، لاسيما البرجوازية الفرنسية.

ومن هنا كان انتقال هذين الكاتبين بالأحداث إلى نيويورك وضواحيها انتقالا مقنعا، غير مشوب بالتغريب وعندي أن فيلم الخائنة الأمريكية بإيقاعه المواكب للعصر، أشد وقعا، وأكثر تأثرا من فيلم الخائنة الفرنسية.

حرارة الجسد

ومما جعله متميزا عن الفيلم القديم، اختيار «ديانا لين» لأداء دور «كونستانس سمنر» الزوجة التي خانت زوجها أدوارد (ريتشارد جير)، في لحظة ضعف، ندمت عنها كثيرا.

وكانت تلك اللحظة، وما تبعها من آثار، مع شاب فرنسي، «بول مارتل» يصغرها سنا، بتسعة أعوام، ويؤدي دوره أوليفيه مارتنيز ذلك النجم الذي تعلق عليه السينما الفرنسية، آمالا كبار فهي، والحق يقال، ادت دور الزوجة قبل الخيانة، وفي أثنائها وبعد انتهائها بقتل العشيق، أدته على خير وجه.

فكم أحسنت التعبير في البداية، عند أول لقاء بالصدفة، مع بول مارتل، عن ترددها، أتستجيب لإغرائه، فتخون زوجها، أم لا.

وكم أحسنته، عندما خانت، فلم تكبح جماح غرائزها، وقد أطلقها من عقالها الالتصاق بجسد يشع حرارة الشباب.

وكم أحسنته، وعواطفها الجياشة، تعتمل داخلها، يتنازعها الرضاء على فعلتها تارة، والندم تارة أخرى.

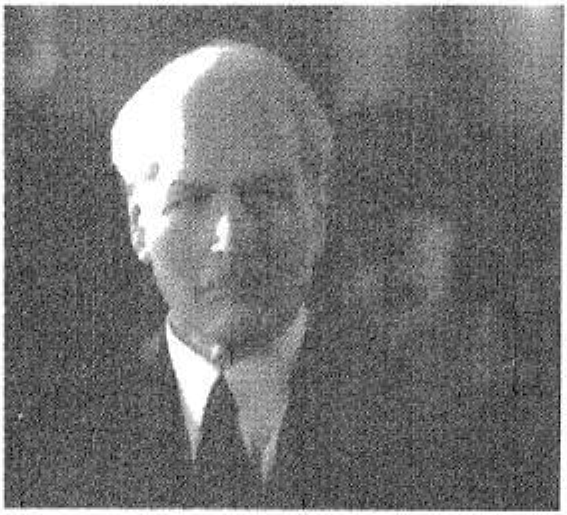
النفس الطويل

ومما يثير الدهشة، وفى نفس الوقت، يؤكد توغل هوليوود، فى مجالات السينما الفرنسية، إلى حد نقل أفلامها بحذافيرها إلى السينما الأمريكية، أن الزوجة الخائنة ليس أول فيلم منقول عن فيلم فرنسى يمثله، النجم ريتشارد جير.

إنه ثالث فيلم، اذ سبقه على آخر نفس «١٨٨٣» وسومرسباى «١٩٩٣»، وكلاهما إعادة لفيلمين فرنسيين الأول بنفس الاسم، أخرجه جان لوك جودار أحد رواد الموجة الجديدة الفرنسية، وذلك قبل ثلاثة وأربعين عاما والثانى باسم آخر، هو عودة مارتين جوير «١٨٨٢» للمخرج الفرنسى «دانييل فينيى».

ومن الأكيد أن هذه الاعادة الامريكية المتكررة لأفلام فرنسية، وهى ظاهرة تستفحل على مر الأعوام، مؤداها على المدى الطويل، تقلص نفوذ السينما الفرنسية، وازدياد هيمنة هوليوود.

وختاما ، لا يفوتنى أن أذكر أن مقص الرقابة مزق المرأة الخائنة شر ممزق، باسم حمايتنا من أنفسنا الأمارة بالسوء وربما كان أكثر حماية لنا . ألا يتدخل المقص بالتمزيق ، تاركا لنا، نحن المتفرجين، حرية التقدير. ■



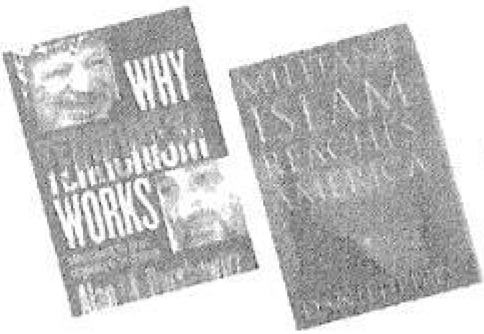
بول نيومان – زعيم العصابة



توم هانكس – قاتل محترف

صلاح المراكبى

طوفان من الكتب

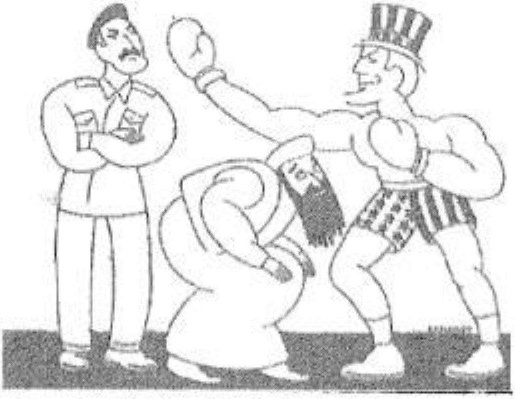


فى سنوية الانكسار الأمريكى

- كتاب يتساءل: لماذا لم يقف الله معنا في ١١ سبتمبر؟
- كل الكلمات التي قالها الضحايا قبل موتهم كانت كلمات فارغة!!

الميليشيات الاسلامية تغزو أمريكا !! مركز التجارة العالمى المدمر!! أمريكا من الأعماق!! عصر الرعب!! كيف حدث ذلك؟. كل الدلائل كانت موجودة هناك!! على نحو غير متوقع!! هل هو الترهل؟ دعونا نتطوح!؟ القدرة على التحمل !! لماذا فشلت الـ F.B.I والـ CI.A؟

هذه عينة بعض عناوين الكتب التى حاولت ملاحق الصحف الأمريكية تلخيص ١٥٠ كتاباً من بين طوفان من الكتب، صدرت خلال العام الماضى، وأهمها ماصدر في الأسابيع الأخيرة قبيل الحادى عشر من سبتمبر، الذى أسمته أجهزة الاعلام الأمريكية «اليوم الذى غيرّ أمريكا» وأسمته احدى أجهزة الاعلام العربية «اليوم الذى هز العالم»!؟



العرب والمسلمون بعد ١١ سبتمبر كما يصورهم الكاريكاتير الأمريكي

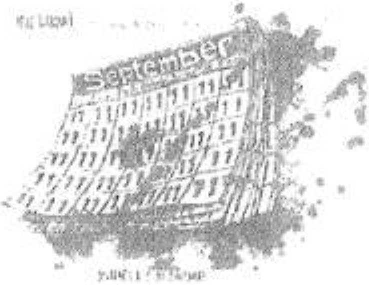
ربما الأهم بين هذا كله، هو تلك الابحاث والدراسات التربوية والنفسية ، والتى قام بها رجال التعليم والمهتمين به، وتركزت كلها حول سؤال يقول : ما الذى نقوله لأبنائنا الطلاب فى ذكرى هذا اليوم حيث تكون الدراسة فى بداياتها هذا العام؟! ماهو الدرس الذى نقوله لهم خلاصة لكل ما جرى؟ ما الذى نقوله لهم عن الذين قاموا بالعمل؟. وعن أنفسنا ومستقبلنا ؟! كيف نساعدهم للسيطرة على أنفسهم بين الذاكرة والأمل .. بين الحدث ونتائجه المستخلصة؟!

يقول رجال التعليم : إن هذه المرحلة ، مرحلة الطفولة والصبا وبزوغ الشباب — وهى أعمار طلاب المدارس هى الأهم فى شحنهم بأقصى درجات الفخر الوطنى والانتماء .. لتصبح هى أساس تكوين شخصية المواطن ، ليكون قادراً بعد ذلك فى سنوات نضوجه وعمله، على مواجهة مشكلات الحياة داخلية وخارجية .. وانطلاقه من أساس وطنى قوى، وليكن حتى مبالغا فيه .. فالحياة ووقائعها بعد ذلك تستفيد من هذه الطاقة ، وتدخل به فى معترك الصراع الذى يضع هذه الطاقة فى أماكنها الصحيحة.

هناك كتاب شغل رجال التعليم خلال الشهرين الماضيين وهو كتاب «فهم القرآن» لمايكل سلس الأستاذ بكلية هارفارد والمتخصص فى مقارنة الأديان .. والكتاب يركز على فترة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة ليبين مقدار الحرص والرحمة والموعظة الحسنة فى الدين الاسلامى .. وقد ثار خلاف نقاشى فى الصحف والمجلات، كان يتراوح بين رفض تدريس الكتاب وبين تأييد دراسته .. أغلب الذين طالبوا بتدريسه كانوا من الشباب والطلاب، وأبرز الرافضين كان توماس فريدمان الذى أشار إلى أنه بالمقابل يمكن طلب تدريس الانجيل فى مدارس المملكة السعودية على سبيل المثال! وقد حسم القضاء الأمريكى الخلاف بالموافقة على تدريسه..

بالطبع .. فإن أغلب الكتب التى ظهرت بهذه المناسبة كانت معادية للعرب والمسلمين .. إضافة إلى كتب عن الضحايا ، وعمال الانقاذ ، والناجين ، وكتب عن فشل المخابرات الأمريكية، وبطولة عمال الحريق ، وكتب لأساتذة الجامعات، ومراسلى الصحف والإذاعة والتليفزيون .. وكتب للأطفال والشباب، وكتب للمرأة ، وكتب قانونية ، ورجال دين، ورجال بيئة وتقنية ، وكتب تصور برجى التجارة العالمى من الداخل

والخارج قبل انهيارهما بالطبع .. ودواوين شعر .. وصور لأعلام لأمريكا والولايات المختلفة .. وكلمات وانجازات لمحافظ نيويورك السابق رودلف جولياني : وهو الرجل الذى استطاع خلال سنوات عمله أن ينقل نيويورك من مدينة كانت تعانى من نقص الأمن والنظافة والبطالة إلى مدينة تخلصت من أكثر هذه المشكلات .. وترشحه بعض أجهزة الاعلام للرئاسة الأمريكية.



الأيام كلهاأصبحت «١١ سبتمبر» يوم المأساة، فى فكر رسام الكاريكاتير الأمريكى

كتاب عنوانه «لن ننسى» وهو يناقش فكرة : (ماهو الخط الفاصل بين القدرة على حفظ التاريخ وضمان ذلك على وجهه الصحيح ..... وإذا كانت الذكرى تفتح الجروح فهل يقودنا ذلك إلى الخوف أم يعطينا طاقة عبور إلى ماهو أفضل).

أغرب الكتب وأكثرها جرأة هو كتاب لجون مورجان عنوانه (Where was God) ولترجمته بشكل لائق فان العنوان يقول : لماذا لم يساعدنا الله فى ١١ سبتمبر؟! والرجل يطرح أسئلة كثيرة يقول: إنه يطرحها غير المؤمنين، الذين اهتز إيمانهم بمفاجأة ما حدث!. ويجيب هو عن هذه الأسئلة بقوله : إنه يجب أن نسأل أنفسنا أين كنا نحن؟، لا أين كان هو ؟! يقول: اسأل نفسك أين كنت مساء أمس؟ ألم تكن فى غاية السكر تقود سيارتك وتكاد لاترى الطريق؟! أين كان الذين يموتون بالآلاف من مرض الايدز فى أفريقيا؟ أليسوا أكثر من ضحايا نيويورك وواشنطن؟! وأين كنا يوم ٢٦ يناير ٢٠٠١ قبل حادث نيويورك بتسعة أشهر عندما هز زلزال جوجارات فى الهند وقتل فيه ٢٠ ألفا وتشرد ١٥٠ ألفا؟!

– كتاب «وسط الغبار» وهذا هو عنوانه ، وهو لرجل دين ، كتبه بأسلوب قصيدة شعر أكثر منه موعظة دينية! يصور فيه الحدث من داخل البرجين .. ويقول ساخراً : هل تعرفون ماذا كانت مئات الكلمات الأخيرة التى سجلتهامن خلال الاتصالات التليفونية التى تمت فى دقائق ماقبل السقوط بين الضحايا وأهاليهم؟! إنها كلمات لا صلة لها بالله .. ولا بالدين كلها كلمات تافهة .. حمقاء: ياحبيبتى .. هناك أصوات فى الخارج سأحاول المجىء.. أتذكرك الآن أنت وحدك ياحبيبى..

الرجل يقول: إذا تكرر الحدث – لتضحكوا – إذا تكرر فاعلموا أنها لحظات تدعو إلى إعادة اكتشافنا لله .. ليكون معنا .. ونكون معه .. ان الله مع الذين يعملون .. – كتاب «الميليشيات الاسلامية تغزو أمريكا» لدانيال بايبز يقول : الأمريكيون لايعرفون المسلمين جيداً .. انهم يعرفون البترول فقط .. نحن لسنا كالاستعماريين الأوروبيين القدامى ، الذين عاشوا مع الشعوب التى استعمروها .. نحن نعرف إسرائيل فقط .. والحرب الباردة .. وكيف أصبحنا قوة عظمى .. والعولمة .. حتى جاء يوم الثلاثاء الحزين .. إن المسلمين غير مسئولين عما حدث!. أتصور أنهم نحو ٧٠ ألف متطرف من ٥٠ دولة .. ولذلك يجب أن نقف مع المسلمين المتحضرين المعتدلين ، ونساعدهم حتى لا يسيطر عليهم المتطرفون ويسيطروا علينا!.

- «زوجة رجل إطفاء» كتبته كيني مارينى التى فقدت زوجها فى الحادث ، سجلت سيرة حياته وأفكاره ودعت أصدقاءه وزملاءه يشاركون فى الكتاب.

- نيل هيرمان الذى كان رئيساً لـ : F.B.I يقول فى كتابه «صدمة فقدان القدرة»: نعم .. هذا ما أرادوا فعله .. ولكن استغرق ذلك منهم وقتا طويلاً .. لقد انتصروا .. لقد كنا نعرف بعضهم .. وحاولنا أن نتغلغل بينهم ونكتشفهم .. لكنه كان ينقصنا المترجمون .. حاولنا تشغيل البعض .. لكنهم لم يكونوا كافين).

- ريتشارد برنسين مراسل صحفى يقول فى كتابه «على نحو متوقع» Out of Blue إن الصحف هى مسودات التاريخ .. الآن أعيد نشر ماكتبت فى الصحف ، ولكن من خلال بانوراما هائلة وبأحاسيس وتحليلات أوسع من مجرد الخبر والمقال .. إنه يجب أن نستقرىء التاريخ مروراً بالجهاد ووصولاً إلى مركز التجارة العالمى!.

إن الأمر يبدأ من جمال عبدالناصر الذى أفرخ سيد قطب ، ويبدأ من الشاه الذى أفرخ الخمينى ، وأحمد بن بيلا الذى أفرخ الكثير.. ويركز برنسين على (عبد الله عزام) الذى يحكى تاريخه كله ، منذ ولد عام ١٩٤١ فى جنين بفلسطين ، وبدأ يناضل الإسرائيليين ، ويقول : يقولون: إنه هو الذى أسس حماس ، وأنه فى عام ١٩٧٩ ذهب إلى بيشاور وبدأ تجنيد المتطوعين من مختلف البلاد لتكوين جيش إسلامى دولى لحرب السوفييت ، ثم ذهب عزام إلى أفغانستان .. ويسرد مايراه تاريخ الإرهاب الإسلامى حتى يصل إلى عمر عبد الرحمن .. وأحداث نيويورك وواشنطن..

فيلم يحرج أمريكا

١١ سبتمبر بعيون ١١ مخرجا عالميا

قرر المنتج والمخرج الفرنسى إيليان بريجاند أن يقدم رؤية فنية لأحداث ١١ سبتمبر من خلال فنانين من أنحاء العالم . وحتى يستغل أرقام الحدث ، فقد طلب من ١١ مخرجاً عالمياً أن يقدم كل منهم فيلماً قصيراً ، مدته ١١ دقيقة و٩ ثوان، ليجتمع عنده فى النهاية فيلم واحد طوله أكثر من ساعتين بدقائق قليلة .. على أن يحمل الفيلم تجسيداً يرمز للحدث..

ترك بريجاند للمخرجين - ومنهم يوسف شاهين ، الحرية الكاملة فيما عدا ٣ شروط : موعد الانتهاء ، وميزانية لاتزيد على ٤٠٠ ألف دولار لكل منهم ، وعدم اثارة الكراهية والعنف أو التهجم على أى دين أو ثقافة أو تقاليد . وحدد المنتج الفرنسى الفكرة العامة بأنها: (حقاً لقد كان الحدث صدمة للعالم كله .. ولكن ما الذى أثاره الحدث عندك) .. تحقق الانتاج الكبير ، واكتمل الفيلم ، الذى أصبح فى رأى المنتج (هو فيلم مركب .. أو شىء كالفسيفساء.. رؤاه المتعددة تصب فى فكرة واحدة هى صدى ١١ سبتمبر فى أنحاء الدنيا .. لكنه ليس ضد أمريكا) !؟



تمثال الحرية شاهد عيان على الأحداث فى نيويورك

عرض الفيلم فى مهرجان فينسيا - خارج المنافسة - وفى مهرجان تورنتو..

فى سطور قليلة نقدم الفكرة العامة لكل فيلم قصير ، والذى رأى فيها فنانون وصحفيون أمريكيون ، أن الفيلم بكل هذا الذى قدمه، هو خروج عن الهدف الرئيسى للموضوع وأنه يقصد به إحراج أمريكا ، والسخرية من آلامها على ما جرى وحدث!!

● المخرج يوسف شاهين - ٧٦ سنة ، أطلق واحدا من قتلى الأمريكيين فى عملية بيروت عام ١٩٨٣ ، يتحرك كشبح ، ويذهب فى زيارة أسرة فلسطينية فى الضفة الغربية المحتلة.. بينما شاب صغير ينطلق ليقوم بعملية فدائية .. والد الشاب وهو رجل عجوز يلوم أمريكا على دعمها لإسرائيل ويقول: على الرئيس بوش أن يحدد موقفه : من هم الإرهابيون؟

● المخرج الإسرائيلى أموس جيتاى صور عملية تفجير سيارة فى تل أبيب ، والمراسلة الإسرائيلية التى تغطى الحدث تليفزيونيا تحث المخرج فى الاستوديو أن يأخذ تقريرها على الهواء .. ولكن الارسال يتوقف ويقول المخرج للمراسلة : إنك لست على الهواء .. لأن شيئاً فى غاية الخطورة يحدث الآن فى نيويورك .. وكان التوقيت هو اللحظات نفسها التى يظهر فيها الحدث فى ١١ سبتمبر بنيويورك..

● المخرجة الإيرانية سميرة مخملباف - ٢٢ سنة ، بدأت بصورة انطلاق الهجمة على مركز التجارة فى نيويورك ، لتجعل الهجمة تصل مباشرة إلى مخيم اللاجئين الأفغان فى إيران!. مدرسة شابة تقف بين تلاميذها تسألهم : عليكم أن تتخيلوا ماحدث فى نيويورك .. وضحايا هذا الحدث .. بعد لحظات سألتهم فوجدتهم لم يفهموا ماحدث .. أرادت أن تشرح لهم أكثر، فأخذتهم خارج الفصل .. وأشارت لهم إلى مدخنة عالية قريبة .. تطلق دخاناً كثيفاً!؟

● المخرج البوسنى دانيس تانوفتش - ٣٣ سنة والذى فاز هذا العام بجائزة الأوسكار عن فيلمه «No Man's Land» كأفضل فيلم أجنبى، قدم فيلمه بذكر ماحدث فى مذبحة سربرنيسا فى البوسنة والتى كان ضحاياها ٧ آلاف تركوا خلفهم ٧ آلاف من الأرامل، وكان ذلك فى ١١ يولية ١٩٩٥ تقول بطلة الفيلم وهى تشير إلى

ضحايا البوسنة بينما صور حدث نيويورك تتوالى .. إنهم يتذكرون ضحاياهم كل يوم ١١ من كل شهر .. وتقول في نهاية الفيلم : (ولكن في هذا الوقت : إنه زمانهم .. وزماننا أيضاً)!؟

● المخرج البريطاني الشهير كين لوتش قدم في فيلمه خطابا جلس السياسي التشيلي فلاديمير ڤيجا يكتبه وهو في لندن ، حيث يعيش لاجئا ومبعداً عن وطنه .. الخطاب يكتبه إلى عائلات ضحايا مركز التجارة في نيويورك ، متذكرا اليوم نفسه ١١ سبتمبر ولكن سنة ١٩٧٣ ، حيث تم انقلاب على الرئيس التشيلي المنتخب سلفادور الندي وساندت الولايات المتحدة هذا الانقلاب، يقول ڤيجا في نهاية خطابه : (أيها الاصدقاء: إن رؤساكم قد شرعوا في تدميرنا .. سوف نتذكر مأساتكم .. وآمل أن تتذكرونا)!.

● «١١ دقيقة من الصمت» للمخرج الفرنسي كلود ليلوش، يقدم فتاة صماء وعمياء جالسة تبكي وهي تنعى نهاية حبها .. بينما الهجوم على برجي التجارة ظاهراً على شاشة التليفزيون .. وهي لا ترى ولا تسمع!.

● اليهاندرو إيناريتو المخرج المكسيكي قدم «١١ دقيقة من صمت مثير» حيث تتساقط أجسام بشرية من برجي نيويورك على خلفية شاشة سوداء، بينما صوت صلاة يقطع الصمت مع تقارير إذاعية وأصوات متداخلة في شوارع نيويورك.

● فيلم المخرج «شان بن» ينشر الأسى .. هذه المرة من خلال أرمل كبير السن يبكي وينتحب، ينام وإلى جواره ملابس نوم زوجته التي ماتت في سقوط البرجين في نيويورك .. يضم ملابس زوجته إلى صدره .. وينعس .. ثم يفيق ، ليعيد الاختيار بين ملابسها .. بينما صور الحادث تتوالى .. في اللحظة نفسها التي تشرق الشمس وتدخل مقتحمة عليه غرفته.. بمعنى أن الحياة يجب أن تستمر .. وأن نعيشها مع إشراقة شمس تمسح أحزاننا .. الفيلم أمريكي!!

● جيرانير المخرج الهندي صاحب فيلم «الزواج العاصف» قدم قصة واقعية نشرت في الصحف الأمريكية ، وهي عن شاب باكستاني يقيم مع أسرته المهاجرة والتي تعيش في نيويورك وكان خارج بيته .. وأعلنت أسرته اختفاءه .. وقيل فيما أشيع أنه كان مع «الإرهابيين الذين فجروا البرجين» .. ثم تبين أنه كان يقف في الشارع فلما رأى الانهيار أسرع داخل البرج في اللحظات الأولى يحاول انقاذ بعض الذين يسقطون مهرولين خارج المبنى هاربين .. فيكون مصيره سقوط المبنى عليه .. ثم ينشر عنه بعد معرفة دوره ومصيره أنه مات بطلا!.

● من بوركينا فاسو كان فيلم إدريسا أو يدراوجو، ويدور حول خمسة أولاد يحلمون بالحصول على جائزة ٢٥ مليون دولار إذا استطاعوا القبض على أسامة بن لادن .. وتسليمه للأمريكيين .. ومع كل واحد من الخمسة يختلف الحلم .. وتختلف أحداثها الساذجة!.

● الفيلم الأخير للمخرج الياباني إمامورا يلاحق بالكاميرا محارباً قديماً من الحرب العالمية الثانية ، تخيل نفسه ثعباناً يفر هارباً دون أن يصاب في تفجير القنبلة الذرية .. في نهاية الفيلم جملة تقول : (إنه لا توجد حرب مقدسة)!؟

وهكذا يقدم هذا الفيلم الذي أنتجه الفرنسي إيليان بريجارد .. ردود فعل مختلفة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر .. الفيلم الأمريكي هو الوحيد الذي جعل الشمس تشرق خروجا من الام الحدث .. لأنهم أول من يرغب في النسيان!! ■

في الإبداع الحضاري



بقلم
د. محمد عمارة

الخصوصية الحضارية، هي مرتبة وسطي في نظرة أبناء حضارة من الحضارات إلى علاقة حضارتهم بغيرها من الحضارات.. وسطى بين «المغايرة الكاملة»، وبين «التماثل والتطابق التامين»..

فالخصوصية الحضارية تعنى «التمايز» الحضارى، و«التمايز» وسط بين «الوحدة» وبين «الفصل» التام.. وهذا يعنى وجود مشترك إنسانى عام بين مختلف الحضارات، لا تتمايز حقائقه وقوانينه ومعارفه باختلاف الحضارات وتعددها، ووجود خصوصيات تتمايز فيها وبها كل حضارة عن غيرها من الحضارات.. كمثل الإنسان، يشارك كل بنى جنسه، فى الإنسانية والخلق وفى كثير من معارف وحقائق الأعضاء ووظائفها، لكنه يتميز ويتفرد بالنفس والروح والمشاعر المميزة لذاته، وبالبصمة التى لا يشاركه فيها سواه من بنى الإنسان..

وإذا كانت التجارب في علوم المادة - الطبيعية.. والدقيقة.. والمحايدة - قابلة للتكرار دون تغيير، ودون تبدل في ثمرات هذه التجارب، من المعارف والحقائق والقوانين، وبصرف النظر عن القائم بهذه التجارب، شرقيا كان أو غربيا، متدينا أم غير متدين، مسلما كان أم غير مسلم.. فإن نطاق هذه المعارف والحقائق والقوانين، التى هى ثمرات التجارب فى العلوم ذات الموضوعات الثابتة.. هو إطار المشترك الإنسانى العام بين كل الحضارات الإنسانية، الذى لا تتمايز فيه أية حضارة من الحضارات..

وليس الأمر كذلك فى نطاق العقائد والفلسفات والآداب والفنون وعلوم الاجتماع والإنسانيات..

فالتجربة الروحية، والمجاهدة القَلْبِيّة، والخاطرة النفسية، والتجربة الشعرية والفنية، لا تتكرر - على ذات النمط - لدى الإنسان الواحد، فضلاً عن الأناسى داخل الحضارة الواحدة، ناهيك عنها بين أبناء مختلف الحضارات..

ذلك أن موضوعات هذه التجارب - الروحية والفنية والنفسية - ومثلها التجارب فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا تتم على مادة ثابتة - كحال التجارب على المادة الثابتة، فى العلوم الطبيعية والمحايدة - وإنما تتم هذه التجارب على «نفس إنسانية» تتميز وتتفرد لدى كل إنسان، وتتكون معارفها وثمرات تجاربها بخلفيات الاعتقاد والموروث والعادات والتقاليد والأعراف والطبيعة والبيئة والمحيط وأساليب التربية والتنشئة والتهذيب.. وهى خلفيات ومواريث تقارب بين أبناء الحضارة الواحدة بالقدر الذى تمايز بينهم فيها وبين غيرهم من أبناء الحضارات الأخرى ..

وهكذا، يثمر الوعى بهذه الحقيقة - حقيقة اشتراك كل الحضارات فيما هو مشترك إنسانى عام، وتميز كل منها بخصوصيات - يثمر تصورا للعلاقة المثلى والحقيقية بين مختلف الحضارات الإنسانية.. هو تصور «التمايز» بين الحضارات، الجامع «للاشتراك» و«الخصوصية» فى آن واحد، والرافض «لوحدة التماثل التام»، و«لتناقض المغايرة الكاملة» فى سمات وقسمات هذه الحضارات..

* * *

وهذا التصور لموقع «الذات الحضارية» - وهى العربية الإسلامية فى حالتنا - فى علاقاتها بالذوات الحضارية الأخرى - غربية.. وصينية.. وهندية.. ويابانية .. إلخ - هو الذى يستدعى ويستوجب إعمال القانون الإسلامى فى علاقة «الذات» بـ«الآخر» - كل «ذات» بأى «آخر» - وهى علاقة «التدافع» - أى الاستباق والتسابق فى الخبرات - أى الفاعلية والإبداع - مع مراعاة أن هذا «التدافع» هو بين من يجمعهم - مع تمايزهم - مشترك إنسانى عام فهو تدافع لفرقاء لن يتم استباقهم إلى الخيرات إلا فى وجود الآخرين السابقين والمنافسين.. فبدون التعددية، التى هى

ثمرة التمايز، لن تتولد لدى أى منهم دوافع وحوافز الاستباق، ولن توجد دواعى الفاعلية والإبداع..

لهذه الحكمة، كان الانحياز الإسلامى إلى «التدافع»، فى ذات الوقت الذى رفض فيه «الصراع»!..

ذلك أن «الصراع» هو درجة من علاقة «الذات» بـ «الآخر» مقاصدها «نفى» الآخر، والانفراد دونه بالميدان.. فهو يتغيا - موضوعيا - نفى التعددية، وطى صفحات «التمايز»، وقسر الجميع على قالب واحد ومركز واحد.. وإذا غاب التمايز غابت دوافع الحراك ودواعي الفاعلية والإبداع.. بينما «التدافع» هو «حراك» - وليس صرْعا ولا إفناء - يتغيا تحريك المواقع وتعديل المواقف - من الظلم إلى العدل - ومن الغلو إلى الاعتدال والوسطية - دون نفى للآخرين .. فتظل سمات التمايز وقسمات التعددية معايشة للمشترك الإنسانى العام، ليظل التدافع والحراك حوافز للتسابق والفاعلية والإبداع، دائما وأبدا .. وليظل الفرقاء المستبقون إلى الخيرات بمنجاة من الصراع الذى «يسوِّد» ذاتا على الذوات الأخرى، فينهى التعددية، ويلغى التمايز الحضارى، ويُغيب حوافز التسابق والفاعلية والإبداع فى علاقات شعوب وأمم الحضارات..

لقد استخدم القرآن الكريم مصطلح «الصراع» بهذا المعنى - إفناء الآخر.. (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية) - الحاقة: ٧ ، ٨- .. فهو إهلاك.. فلقد (أهلكوا بريح صرصر عاتية) - الحاقة: ٦ .

بينما كان الاستخدام القرآنى لمصطلح «الدفع .. والتدافع» - بالمعنى الايجابى - لأنه هو التعبير عن «الحراك» الذى يحفز إلى الاستباق فى الخيرات، بين فرقاء، تتعدل مواقعهم، على طريق الاستباق إلى الخير، مع الحفاظ على تعددية التمايز التى تنيم حوافز الفاعلية والإبداع دائما وأبدا على هذا الطريق (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) - فصلت : ٣٤ -.. فالغاية من «الدفع» و«التدافع» ليست إفناء «الآخر»، وإنما تحويل موقعه - من موقع «العداوة»، إلى موقع «الولى الحميم».. فهو آلية الإصلاح (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) - البقرة : ٢٥١ - (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات.. مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا.. ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز) - الحج : ٤٠-.

فالعروة وثقى بين التمايز الحضارى، وبين التعددية الحضارية، التى تجعل علاقات الحضارات فى إطار «التدافع»، الحافز على الاستباق إلى التقدم والرقى، والمحرك لطاقات الفاعلية وملكات الإبداع..

وهى وثقى، أيضا، بين غيبة الإيمان

بهذا التمايز الحضارى - سواء بعزلة وانغلاق «المغايرة الكاملة» و«التناقض التام» - ومعه تنعدم ميادين التدافع والاستباق - أو «بتبعية التماثل والوحدة الحضارية» - ومعها يفقد التدافع دواعيه - .. ليثمر هذا الموقف، فى النهاية، ذبول طاقات الفاعلية ودواعى الإبداع الذاتى ..

خصوصية العصر .. وفاعلية الإبداع

وإذا كان هذا هو الدور التأسيسى للإيمان بالخصوصية الحضارية - خصوصية التميّز - فى الإيمان بالحاجة إلى نمط حضارى خاص - والحاجة هى داعية الفاعلية والإبداع - .. فإن الايمان بخصوصية «العصر»، هى الأخرى ذات دور تأسيسى فى خلق دوافع الفاعلية وتحريك ملكات الإبداع..

فكما أن الذين لا يؤمنون بتميز حضارتهم عن الحضارات الأخرى، سيستعيضون عن الفاعلية والإبداع بنقل وتقليد ومحاكاة النماذج الحضارية الأخرى، ومذاهب الغير فى التقدم، وطرائق الآخرين فى النهوض.. فإن الحال سيكون كذلك عند الذين لا يؤمنون بخصوصية عصرهم وتميز زمانهم عن عصور وأزمنة الاسلاف فهم - إذا غاب عنهم الإيمان بخصوصية العصر وتميز الزمن - سيكتفون بنماذج السلف فى حل مشكلات التاريخ، وبطرائق القدماء فى العيش، وبأنماطهم فى التعامل مع وقائع المجتمعات التى عاشوا فيها.. ومن ثم ستذبل فيهم ملكات الفاعلية وتتوارى الدوافع للإبداع..

فالنماذج مسطورة فى الكتب التراثية، والنقل والتقليد أكثر أمنا عند البعض، وأخف كلفة من معاناة فاعلية الإبداع!.

لكن .. كما أن الحالة المثلى لعلاقة «الذات» الحضارية بـ «الآخر» الحضارى، هى تلك التى تقف عند حدود «التمايز» - الذى يرى «المشترك الإنسانى العام» مع «الخصوصية الحضارية» - فيبرأ الموقف من «تبعية الذوبان» ومن «عزلة الانغلاق» - .. كذلك تكون الحالة المثلى فى علاقة «العصر الحاضر» بـ «الزمن السالف»، هى التى تبرأ من «القطيعة المعرفية» مع الموروث الفكرى، براءتها من «الاكتفاء بهذا الموروث»!..

وإذا كانت «الحداثة الغربية» هى داعية «القطيعة المعرفية» مع الموروث - لأنها تتغيا إحلال «عصرها الغربى» محل «موروثنا الإسلامى».. فإن «الجمود والتقليد» - لدى البعض منا - هو الغلو المقابل لغلو هذه «الحداثة الغربية».. وبين هذين الغلوين يقف المنهاج الوسطى فى علاقة «العصر» بـ «الماضى» وعلاقة «المعاصرين» بـ «الأسلاف»..

فكما يميز منهاج «التفاعل الحضارى» - فى علاقة «الذات» بـ «الآخر» - بين «المشترك الإنسانى العام» وبين «الخصوصيات الحضارية» .. كذلك يميز منهاج «التجديد» - وهو وسط بين «حداثة القطيعة المعرفية مع الموروث» وبين «التقليد لكل الموروث» - يميز «التجديد»، فى الموروث، بين «المقدس الإلهى» - كما تمثل فى البلاغ الإلهى وفى بيانه النبوى

- الكتـــاب.. والسنة - وبين «الفكر البشرى»، الذى هو ثمرة للاجتهاد.. ففى المقدس : المعلم الإلهى، الكلى، والمطلق، والمحيط، والخالد.. وهو الذى يحفظ إسلامية الأمة، وإسلامية حضارتها، وإسلامية اجتهادها وإبداعها عبر الزمان والمكان، وبدونه تتحـول إلى أمم وإلى حضارات، بتغاير الزمان والمكان..

يميز «التجديد» بين هذا «المقدس الإلهى» وبين الاجتهاد الفكرى والتجارب الإنسانية، فيلتزم بالأول - مع فقهه - ويحتضن الثانى - مع النقد له والاختيار منه، والبناء عليه، والتجديد فيه -..

كذلك يميز منهاج «التجديد» بين «ثوابت» الموروث وبين «المتغيرات» فيه.. فـ«المناهج» غير «التطبيقات».. وما اجمعت عليه الأمة وتلقته بالقبول مغاير لما مثل مذهب فرقة، أو تجربة دولة، أو أعراف جماعة أو تقاليد ميزت إقليما من الأقاليم..

«فالتجديد» تطور - لكنه يتم داخل النسق الفكرى، وانطلاقا من ثوابته، والتزاما بالمقدس الذى تخلق من حوله ذلك النسق الفكرى.. وبهذا يفترق عن كل من «الحداثة» و«التقليد» .. ففيه «اتباع» فى «الثوابت»، وتجديد فى «المتغيرات»، على حين تقيم الحداثة قطيعة معرفية مع الكل الموروث.. ويحاكى المقلدون كل الموروث.. وإذا كانت الحداثة لا تثمر إبداعا، لأنها تحل «عصر» الآخر الحضارى محل «ماضينا».. فإن «التقليد الجامد» لا يحدث فعالية مبدعة، لأنه يكتفى بمحاكاة الموروث.. بينما التجديد هو الذى يحرك فى الأمة طاقات الفعل الإبداعى لبلورة «معاصرة متميزة»، محكوم تميزها بتميز «الأصالة» المتمثلة فى مقدسنا وفى ثوابتنا التراثية.

لقد عرفت معاجمنا وكشافات اصطلاحات الفنون فى حضارتنا «الهوية» - والتى اشتق مصطلحها من «هُو.. هُو» بمعنى أصل الشىء وجوهره - بأنها «الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق.. فهى حقيقة الشىء، أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتى تميزه عن غيره..» - (التعريفات) للجرجانى - و(المعجم الفلسفى) مجمع اللغة العربية .

وهذه «الهوية».. التى تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارات الأخرى، هى المقدس الموروث - الوحى وميراث النبوة - والثوابت الفكرية التى اجتمعت عليها مذاهب الأمة وتلقتها شعوبها بالقبول من تراث الأسلاف.. وخصوصية هذه «الهوية» هى التى تجعل لنا - نحن «الخلف» - معاصرة متميزة - تبعا لتميز هويتنا الحضارية - ومن ثم، فإنها هى التى تدعونا إلى إبداع فاعل وفاعلية مبدعة لصنع وبلورة خصوصية معاصرتنا، ونمطنا فى التقدم، ومذهبنا فى النهوض.. وبدونها نقع فى تقليد «الآخر»، أو محاكاة «السلف» ، فتذبل فينا ملكات الفاعلية وطاقات الإبداع. ■

كتاب الهلال

الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية

بقلم

د. رشاد الشامى

يصدر ٥ ديسمبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٦٣

الهلال

رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

رجل أبلة إمرأة تافهة

بقلم

محمد ناجى

تصدر ١٥ ديسمبر
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

دائرة حوار

هل الحوار بين الأديان ممكن؟ وإذا كان ممكناً، فهل هو مفيد؟

بقلم
حسين أحمد أمين

لطالما لمسنا فى العالم الإسلامى، وفى غيره، أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هى تلك التى تسود بين من تلاشت لديهم العقيدة. هنا يختفى التعصب وضيق الأفق والشك المتبادل والحيطة والحذر، ويصبح من المتصور ومن الممكن أن تقوم الصداقة الحرة، والألفة الحقيقية، حين يكون شعارهم بيت الشاعر القروى:

سلام على كفر يوحد بيننا
وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم!

وربما وافقنى الكثيرون على أنه من المؤسف أن يكون للإلحاد مثل هذا الفضل ولايكون للعاطفة الدينية، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين فى جميع الطوائف وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك إزاء متديني الطوائف الأخرى، فى الوقت الذى تجابه الأديان جميعا قوى عاتية تعارضها وتسعى إلى هدمها، تتمثل فى المادية المفرطة، وفى نمط الحياة المعاصرة، وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لايلعب دورا كبيرا أو صغيرا فى حياتهم، ولايعرفون القيم الدينية التى هى إحدى الوسائل المهمة لمقاومة فقر الحياة الروحية فى المجتمع الحديث، فبدون هذه القيم

يصعب أن يكون ثمة سلوك متجانس ويضحى سلوك الفرد فى أغلب الأحيان مجموعة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها.

وقد أحست الكنائس المتصارعة فى الغرب بهذا الخطر الذي بات يتهددها جميعا، فسعت بقدر كبير من النجاح إلى رأب الصدع بينها، وفتح باب الحوار من أجل إقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقى، بل ومدت يدها إلى اليهودية وإلى الإسلام للمشاركة فى الدفاع، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين فى حد ذاته، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت، وأيا كان موضوعها، فى سبيل إحداث التقارب، وتحقيق التلاقى.

تعزيز التسامح الدينى

غير أن بعض هؤلاء يخطئ حين يذهب من أجل دعم هذا الحوار إلى أن الاختلافات بين الأديان ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأنها جميعا متفقة فى جوهر تعاليمها، وأنه بالوسع التوفيق بينها، وتوحيد أسسها، كخطوة فى سبيل تعزيز التسامح الدينى .. مثل هذا الموقف التوفيقى يضع نفسه فوق الأديان جميعا، وينتحل صفة الإله وامتيازاته، ويحل الفلسفة محل الدين، وهو بالتالى موقف لادينى، وعندى أن كل معايشة، وكل حوار بين الأديان، يفقدان مغزاهما مالم يكونا دينيين، ولو صح هذا الرأى منهم لصارت حصيلة الفكر البشرى أشد فقرا وضحالة مما هى عليه اليوم، فلو كانت الأديان جميعا على اتفاق لما كانت ثمة حاجة إلى أكثر من دين، وإنما هى رؤى متباينة يعكس كل منها مفهوما مختلفا عن الكون والحياة والسلوك البشرى الواجب، وليس إله هذا الدين بإله ذاك، فما الإله غير حصيلة مكونات هذه الرؤية المباينة للرؤى الأخرى.

والاعتراف بهذه الحقيقة يدركها فى قرارة نفسه كل ذى دين يأبه له، خطوة إيجابية فى سبيل أى حوار بناء بين أتباع الأديان المختلفة، شريطة أن يستقر فى النفوس مبدأ أساسى: هو أن كل رؤية تحمل جانبا من الحقيقة لم تركز عليه سائر الرؤى، وأن ثراء الروح البشرية والفكر الإنسانى هو فى الإطلاع على كنه تلك الرؤى المباينة، ومحاولة الغوص إلى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الإبداعى المتميز فيها، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره لكل ضروب الفكر التى أسهمت فى تشكيل البشرية.

هنا فقط يمكن أن يكون الحوار بين الأديان مجديا .. ذلك أنه ما من امرىء يدخل فى حوار - دينى أو غيره - دون أن تحدوه من البداية الرغبة فى إدراك

دائرة حوار

الحق، إلا خرج من الحوار وهو على رأيه الأول الذى دخله به .. يقول الإمام الشافعي: «ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطيء، وما كلمت أحدا وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه» . فهناك إدراك لحقيقة أن الاستفادة لا الانتصار على «الخصم» هى ما ينبغى أن تدور المناظرة من أجله، وما من شأنه أن يهيء أنسب مناخ للحوار، أما الرغبة فى الانتصار، والإفحام، وفضح حجج الخصم وتفنيدها، فلا مفر معها من لجوء المحاور إلى إخفاء الحقائق، وإلى الاختراع والتلفيق، وإلى الكذب .. وقد قرأنا فى التاريخ كيف أن مسلمى عصر الفتوحات فى زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموى حين شرعوا يدخلون فى حوارات مع أهل الذمة فى الأقطار المفتوحة، اضطروا حين حدثهم هؤلاء عن معجزات لأنبيائهم وعن نصوص فى كتبهم المقدسة، اضطروا إلى نسبة عدد متزايد من المعجزات إلى نبى الإسلام لم يذكرها قرآن أو رواية موثوق بها من السيرة، واقتبسوا من الكتاب المقدس من الأحاديث مانسبوه أيضا إلى النبى وركزوا أحيانا أخرى على القول بتحريف ذلك الكتاب المقدس.

هنا يمكن أن يكون الحوار بين الأديان ضارا ومضللا، غير أن ثمة آفة أخرى فى الحوار من أجل الانتصار نجدها فى الالتجاء أثناءه، من أجل إفحام الخصم، إلى الاستشهاد بنصوص من كتب مقدسة لايعترف الخصم بمصدرها الإلهى، وكأنما فى مجرد إيرادها حجة دامغة على صحة الرأى، عندئذ يُنسف أساس الحوار نسفا، وهو ما نلحظه يوميا تقريبا فى المناظرات التليفزيونية والحوارات الصحفية والندوات عندنا بين علماء الدين والمفكرين العلمانيين حين يواجه الأولون الأخيرين بنصوص دينية لايجرؤ العلمانيون على انكار صحتها والمجادلة بشأنها وإلا أصابهم من وراء ذلك شر مستطير .. وأرى هنا مناسبة أن أذكر نصا فريدا أورده الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس» عن كيف أن العالم الأندلسى أحمد بن محمد بن سعدي زار بغداد فى عصر البويهيين وحضر مجالس أهل الكلام فيها، وهى مجالس جمعت الفرق كلها، من مسلمى السنة والشيعة والمجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر

الأديان والمذاهب، لكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه وكان شرط الحوار والمناظرة ألا يحتج أحد على غيره بكتابه المقدس ولابقول نبيه، حيث إن الآخرين لايصدقون بذلك أصلا ولايقرون به، وإنما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس.

خطأ المتعصب

وأخيرا فإنه لابد من الاعتراف - رغم كل شيء - بأن الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر. وهي بالضرورة غيورة متميزة شأن مشاعر القبلية والوطنية. ولايكمن خطأ المتعصب في اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان، فهو أمر طبيعي ومشروع، ولو لم ير المرء لدينه الحق في الشمولية والعالمية لما كان هذا دينه، فهو لايلتمس لنفسه طريقا، وإنما يلتمس الطريق، ولا يسعى وراء حقيقة وإنما يسعى وراء الحقيقة وإنما يكمن خطؤه في عجزه عن إدراك مايدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى، وعن فهم حقيقة أنه ليس ثمة دين خاطئ إن كان معتنقوه يرونه كافيا لسد احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه، كذلك يكمن خطأ المتعصب في عزله نفسه عن الجوانب الإيجابية في الأديان الأخرى، واتخاذه لمعتقده مقياسا للحكم على معتقدات الآخرين. ومن هنا تأتي أهمية الحوار وضرورة التلاقح والتلاقي فما تلاقي الأديان غير مظهر واجب آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقي الحضارات والشعوب في عصرنا هذا، ولايعني ذلك مطالبة أتباع أي دين باطراح أية حقيقة جوهرية فيه، وإنما يعني تجاوزنا الاستماع في صبر، والجدال في أدب، إلى التفتح الذي يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين، بل وإلى تصحيح بعض مفاهيمنا عند الضرورة، وإلى التفرقة بعناية أكبر بين الجوهري وغير الجوهري في الدين، وبين الرمزي وغير الرمزي، ثم إعادة صياغة الجوهري، وإعادة تفسير الرمزي.

***

وهنا يكمن الأمل في أن يدرك هؤلاء وأولئك أن إقدام المرء على تعميق فهمه لديانات الآخرين يعني تعميق فهمه لدينه هو، وأن المتدين الحق ليس من كان بوسعه تفنيد الأديان الأخرى، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجالين في كتاباتهم وبرامجهم التليفزيونية والإذاعية وإنما المتدين الحق هو من كان بمقدوره أن يميز الحقائق الواردة في الديانات المباينة، ثم ينتقل بعدها إلى ماهو أبعد من ذلك. ■

دائرة حوار

نحو آفاق جديدة

بقلم
د. رشدى سعيد

فى هذا المقال مناقشة لبعض القضايا التى شغل الكثير منها مصر عبر سنوات طويلة مثل قضايا السكان والتعليم والديمقراطية وكانت محل دراسات وكتابات الكثيرين منذ وقت طويل* .

والمشاكل التى تواجهها مصر اليوم كثيرة فمن الواضح أن النظام الذى تسير عليه لم ينجح فى توظيف موارد البلاد لصالح أبنائها وبناتها حتى يكون لكل واحد عمل ونصيب فيها ، وربما عاد هذا الفشل إلى أنه ليس للنظام أهداف محددة أو استراتيجية واضحة فهو يسير بلا هدى تقوده الأحداث وما تمليه عليه المصالح الآنية للنخب المستفيدة منه أو ضغوط القوى الخارجية التى أصبح معتمدا عليها . وليس لدى شك فى أن الخروج من الأزمة التى تمر بها البلاد فى الوقت الحاضر ومجابهة عالم المستقبل الملىء بالتحديات يحتاج أولا إلى إعادة النظر فى الكثير مما درج عليه النظام تمهيدا لتحديد طريق إصلاحه أو إحلاله بنظام جديد

وليس لدينا نحن المصريين المغتربين الذين مازلنا نحمل هموم الوطن ونرجو له الرفعة والنجاح إلا أن نشجع النخبة المصرية على فتح هذا الملف الهام للحوار ذلك لأنى أخشى أن تدفع صعوبة الموضوعات التى يثيرها فتحه إلى تركه جانبا وعدم الاقتراب منه مما

سيكون له أوخم العواقب .

فلنفتح الملف

ولست فى حاجة لأن أبين هنا أهمية فتح هذا الملف فالأمثلة عديدة فى التاريخ الحديث عن ما فعلته عملية تحديد الأهداف فى حياة الأمم .. ولعل أبرز هذه الأمثلة هو ما حدث فى اليابان فى القرن التاسع عشر عندما رأت النخبة فتح ملف تحديد الأهداف التى ترغب فى تحقيقها واتخذت قرارا بقبول وتبنى مبادئ وطرق الحضارة الغربية الحديثة وتطبيقها في بلادها وغنى عن القول فقد كان هذا القرار ثوريا بحق فقد كانت اليابان وحتى وقت اتخاذ هذا القرار مغلقة عن العالم الخارجى ومنكفئة على نفسها وليست لها رغبة فى الانفتاح على أحد فلم يكن يدخلها أحد أو يخرج منها أحد، وقد تسبب اتخاذ هذا القرار فى تغيير كامل لحياة هذه البلاد التى دخلت العالم الحديث بقرار موجه وباستراتيجية مخططة لم تكن وحى ساعة أو استجابة لطارئ فجاء دخولها وهى ممتلئة ثقة بالنفس وسببا فى تحقيقها نجاحا كبيرا فى وقت قصير .. وفى القرن العشرين كان قرار النخبة فى كوريا الجنوبية لبناء صناعة حديثة على الطريقة الغربية سببا لاقتحام هذه البلاد عالم التجارة الدولية بنجاح منقطع النظير .

وما لنا نذهب بعيدا ولدينا فى مصر نفسها مثال فقد دخلت مصر القرن العشرين بأهداف واضحة ومحددة اختارتها نخبتها التى كانت قد بزغت بعد الأحداث العاصفة التى مرت على البلاد خلال القرن التاسع عشر .. وكان الاستقلال أول هذه الأهداف وأهمها فقد ألح على النخبة إلحاحا لم تر لمصر أى مستقبل لها دون تحقيقه . وقد تفرع عن هذا الهدف هدفان آخران كان لهما أهميتهما فى تحقيق هذا الهدف وهما بناء الديمقراطية ونقل مصر إلى العصر الحديث . وكانت هذه الأهداف الثلاثة مترابطة فلم يكن الاستقلال ممكنا دون أن يتاح للناس الانتظام فى الأحزاب وغيرها من مؤسسات المجتمع المدنى ولم يكن من الممكن إنشاء هذه المؤسسات دون الأخذ بمبادئ الحرية والعدالة والمساواة وما جاءت به من حريات سياسية كمبدأ فصل السلطات والمشاركة فى الحكم عن طريق التمثيل النيابى ، كما لم يكن من الممكن أن يتم الحصول على هذه الحقوق دون إنشاء الدولة الحديثة بكافة أجهزتها . والناظر إلى أحداث النصف الأول من القرن العشرين الذى شغلت فيه مصر بالكفاح للحصول على الاستقلال أنها كانت مرتبطة بطريق أو بآخر بهذه الأهداف .

محاولات الاستقلال

ففى مجال هدف الاستقلال كانت هناك حركة مصطفى كامل ثم ثورة سنة ١٩١٩ ونشوء حزب الوفد وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ والذى أعلنته بريطانيا من جانب واحد ليعطى لمصر بعض الحقوق السيادية ثم معاهدة ١٩٣٦ التى وقعتها جميع الأحزاب وتقررت فيها طبيعة التحالف بين مصر وبريطانيا والتى استفاد منها البريطانيون فى الحرب العالمية الثانية التى خاضوها مع حلفائهم ضد قوات المحور ثم إلغاء هذه المعاهدة فى سنة ١٩٥١ واستبدالها باتفاقية الجلاء فى سنة

١٩٥٤ ثم بخروج الانجليز من مصر بعد خذلانهم فى حرب سنة ١٩٥٦ . وفى مجال بناء الديمقراطية كان هناك صدور دستور سنة ١٩٢٣ الذى صيغ على مبادئ ليبرالية أكدت هوية مصر القومية كما كان هناك كفاح حزب الوفد للحفاظ على النظام البرلمانى ضد الملك وأحزاب الأقلية . وفى مجال التحديث فقد كانت هناك عملية إنشاء مؤسسات الدولة الحديثة بدءا من القضاء الذى بدئ فى تحديثه وتوحيده ونهاية بالمدارس والجامعات التى بنيت على أساس حديث .

الديمقراطية والتحديث

ومن الملاحظ ان هذه الأهداف لم يتم تنفيذها بالجدية اللازمة أو بعزيمة المؤمنين بها فحتى هدف الاستقلال كانت هنك الكثير من العراقيل التى عطلته والتى جاء بعضها من أبناء النخبة نفسها والتى خشت من تحقيقه . أما عن هدفى الديمقراطية والتحديث فقد كانت أمام كل خطوة فى اتجاه تحقيقهما خطوتان تعودان بهما إلى الوراء. والأمور واضحة ولاتحتاج إلى بيان فى حالة الديمقراطية التى نالت مؤسساتها التعطيل وراء التعطيل مما أفقد الأحزاب والبرلمان كل مصداقية وتم التضييق على الأحزاب والنقابات وحل كل برلمان قبل أن يتم دورته وأبعد عن الحكم حزب الأغلبية البرلمانية فلم يتولاه إلا لسنوات قلائل وتحت ظروف صعبة خلال الثلاثين سنة التى طبق فيها دستور سنة ١٩٢٣ . أما عن هدف التحديث فقد كانت أمام كل خطوة تتم خطوات تعيده إلى الوراء ، ولعل التعليم هو أفضل مثال على هذا التخبط الشديد ففى الوقت الذى أدخلت فيه مصر نظام رياض الأطفال والمدارس المدنية والجامعات الحديثة كانت تقوم أيضا بالتوسع فى إنشاء الكتاتيب والمدارس الدينية ذات البرامج القديمة والنابعة من العصور الوسطى دون أى تعديل .

وأدى هذا التضارب إلى حالة من العجز والفوضى وإلى سقوط النظام بأكمله فى سنة ١٩٥٢ عندما جاءت ثورة الجيش بنخبة جديدة استهدفت تحقيق الاستقلال على كل من المستويين السياسى والاقتصادى وهو الهدف الذى استغرق جهود مصر العشرين سنة التالية والذى أخذها لمساندة حركات التحرير والوقوف مع دول عدم الانحياز ولإحياء مبدأ القومية العربية بغرض إيجاد تجمع إقليمى ودولى يمكن أن يسند هذا الاستقلال . وفى هذه السنوات العشرين توارى هدف الديمقراطية السياسية وراء هدف الديمقراطية الاقتصادية والتى حاولت النخبة تحت شعارها أن تعيد توزيع الثروة وأن تذيب الفوارق بين الطبقات وأن تعطى بعض الحقوق للفئات الكادحة .

الانفتاح على العالم

وفى سبعينات القرن العشرين تغير التوجه للمرة الثالثة وأصبح الهدف كما

يبدو وحتى الآن هو الانفتاح على العالم فى محاولة للدخول فى الاقتصاد العالمى . وتجتاح تحقيق هذا الهدف فى الوقت الحاضر صعوبات جمة حتى ليمكن القول أن الأمور قد وصلت اليوم إلى طريق مسدود - فالدخول إلى الاقتصاد العالمى يحتاج إلى خلق المناخ المشجع لاستقبال الاستثمارات الأجنبية وهو الأمر الذى لم تستطع مصر أن تحققه لأسباب كثيرة بعضها ليس بيدها كل مفاتيحه كمسائل الحرب والسلام وبعضها يتطلب تعديلات وتنازلات كبيرة يصعب تصور أن يقبلها الحكم ذاته الذى يحتاج إلى قبول تعديل نظامه لكى يتواكب ونظام السوق ويصبح أكثر انفتاحا وقبولا للمشاركة من القوى الجديدة التى سيفرزها مثل هذا النظام فيسمح بتبادل السلطة وتقبل الدور المتعاظم لمؤسسات المجتمع المدنى. والكثير من هذه التعديلات لازم بسبب طبيعة حركة انتقال رؤوس الأموال عبر الدول والتى تتجه إلى تلك البلاد التى تتمتع بميزات لا يبدو أن مصر لديها الكثير منها .

معوقات الاستثمار

أما الأسباب التى ليس لمصر كل خيوط حلها فهى الأسباب المتعلقة بالحرب والسلام فى المنطقة ذلك أنه على الرغم من الجهد الكبير الذى انفقته مصر والدول العربية لإنهاء النزاع وإقرار السلام فى المنطقة فإن شيئا لم يتحقق فى هذا المجال. وغنى عن البيان فإن استمرار النزاع هو من أهم الأسباب لتراجع تدفق رؤوس الأموال الأجنبية إلى المنطقة . والحق فقد راهنت مصر على السلام ووضعت كل آمالها عليه وقامت بكل ما يمكن أن يساهم فى تحقيقه وامتنعت عن القيام بأى عمل عدائى ضد إسرائيل بدءا من تغيير برامج التعليم ونهاية بإنهاء المقاطعة وتبادل التمثيل السياسى وقبول تحييد شبه جزيرة سيناء وإرساء قوة دولية فيها. كما أنها قامت بتشجيع الفلسطينيين على الجلوس مع إسرائيل على مائدة واحدة على الرغم من التفاوت الكبير فى القوة بينهما على أمل أن تقف أمريكا موقف الحكم النزيه فتساعد الضعيف حتى يحدث الاتزان اللازم لابرام أى اتفاق يمكن أن تكون له صفة الدوام ، وقد خاب هذا الأمل .

أما الأسباب الأخرى التى تعيق تدفق الاستثمارات إلى مصر فهى تتعلق بحركة انتقال هذه الاستثمارات عبر الحدود . وقد فعلت مصر الكثير لتشجيع تدفق هذه الاستثمارات فغيرت من قوانينها وأوفدت البعثات لطرق الأبواب الترويج للميزات الكبيرة التى يمكن أن يجتنيها المستثمرون حال استثمارهم لأموالهم فى مصر ومع ذلك فقد كان حجم تدفق الاستثمارات صغيرا تركز الجزء الأكبر منه فى عمليات البحث عن البترول والغاز واستخراجهما . والناظر إلى حركة انتقال رؤوس الأموال وعلى الأخص خلال العقد الأخير حين تزايدت بدرجة كبيرة يجد أنها تذهب إلى تلك البلاد التى تتمتع بإحدى الميزات الثلاثة الآتية والتى يجئ فى مقدمتها تلك البلاد التى توجد بها خامة أولية وفيرة وقابلة للاستخراج الاقتصادى ومطلوبة

بالأسواق ، وهي الميزة التي تتوافر لمصر في حالة البترول والغاز واللذين لايجدان أي صعوبة في جذب رؤوس الأموال لاستخراجهما فهما موجودان بمصر بوفرة نسبية ووسط سوق هام. ولا تتوافر بمصر أية خامة أولية أخرى يمكن أن تجذب رؤوس الأموال الأجنبية على أي مقياس .

أما الميزة الثانية التي يمكن أن تجذب رأس المال الأجنبي فهي إمكان إنتاج سلعة ما بطريقة رخيصة وهو أمر لا يمكن أن يحدث دون أن يكون هناك المناخ المناسب والذي لا يبدو أنه يتوافر في مصر حاليا فليس في مصر كوادر للعمالة المدربة والرخيصة لتخلف نظامي التعليم والتدريب المهني فيها كما أن الخدمات مازالت على غاية البدائية فلم يتم بعد تطوير نظم الموانيء والجمارك والبريد والضرائب والتقاضي والتوثيق وغير ذلك من الخدمات حتى يمكن الإقلال من التكلفة واقتصاد الوقت .

والميزة الثالثة التي يمكن أن تجذب رأس المال الأجنبي هي وجود سوق محلية كبيرة تسمح بانتاج السلع على مقياس كبيرة وهو أمر لا يتوافر في مصر فعدد الذين لهم دخول تسمح بالاستهلاك الترفي لايزيد بحال عن مليوني عائلة وهو عدد غير كاف لتبرير وضع الاستثمارات فيها.

وفي الوقت الذي كانت تنتظر فيه مصر قدوم الاستثمارات الأجنبية كانت قد مهدت لها بقبول الكثير من شروط الدخول في الاقتصاد العالمي والتزمت لذلك أمام العالم بتوقيع العديد من البروتوكولات ومذكرات التفاهم الخاصة بتنظيم الخدمات وبالانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وقبول توصيات المؤسسات المالية الدولية .. والدخول في الاقتصاد العالمي هو في حقيقته الدخول في عالم حرية التجارة والمنافسة على الأسواق في ظل قواعد صارمة تضبط مواصفات الإنتاج وتنظم حقوق العمال ونوعية البيئة .

وأسعار الطاقة ونظام البنوك والائتمان ومختلف الخدمات .. ولا يشك أحد في أن الانفتاح على العالم أمام التجارة هو أمر حسن ومفيد للمنتج القادر على غزو الأسواق والمنافسة فإن رغبت مصر في الإفادة من هذا الانفتاح فعليها أن تقوم بإعادة تنظيم أحوالها حتى تستطيع أن يكون لها هذا المنتج وهو أمر يبدو حتى الآن صعبا .

مواجهة التحديات

ولست في حاجة إلى أن أذكر النخب المصرية التي اتخذت قرار الدخول في الاقتصاد العالمي بالتحديات الكبيرة التي عليها الآن أن تواجهها فالصعوبات التي يجدها المنتجون في مصر سواء في حقل الصناعة أو الزراعة كبيرة وتتردد على كل لسان . فقد فرض الدخول في هذا العصر على الفلاحين والصناع أن يدخلوا في

منافسة حرة مع فلاحي وصناع أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى دون أن يكون لهم ما يمكن أن يدعمهم ويعطيهم هامشا في هذه المنافسة . وتمتلئ الصحف في مصر من شكوى المزارعين والنساجين وصانعي السيارات والصلب وغيرهم من المنافسة غير المتكافئة التي يجدون أنفسهم فيها كما تمتلئ أيضا بالشكوى من تراجع الصادرات وتزايد عجز الميزان التجاري على الرغم من الجهود الكبيرة التي تبذلها الحكومة ومنظمات رجال الأعمال دون جدوى فكلها تجئ في إطار أحوال مصر الحالية التي لا يمكن لأي عمل مجد أن يحقق هذا الهامش النبت فيها .

مواجهة الحقيقة

وهكذا فإن رهان الدخول في الاقتصاد العالمي قد راح ولم ينب مصر منه غير خسران القليل من الصناعات التي كانت لديها ، بل وخسران وزنها الاقليمي بعد أن تبدد حلم السلام في الشرق الأوسط وتوترت علاقاتها مع جيرانها في الشرق والغرب والجنوب وأصبحت معتمدة وإلى حد كبير على دول النفط مع كل ما يأتي به هذا الاعتماد من فكر .

كل شئ في مصر يدعو إلى المراجعة والوقفة مع النفس . هل كان قرار الدخول في الاقتصاد العالمي مصيبا؟.. هل كان أمامنا خيار آخر.. وهل يمكن العودة عن هذا القرار ؟.. وإذا لم تكن العودة عنه ممكنة فهل يمكن إصلاح حاله حتى يمكن الدخول فيه بثقة أكبر والاستفادة من الفرص التي يتيحها ؟.. هل مازال موضوع التنمية المستقلة واردا في مصر؟.. هل يمكن أن نعيد التفكير في العودة إلى سياسة الاعتماد على المدخرات المحلية والعمل على زيادتها والاستفادة منها لتنمية اقتصاد مصر؟.. هل يمكن أن يكون لمصر مشروع قومي تتكفئ فيه على نفسها وتعيد رسم خريطتها ؟.. هل يتيح حجم السوق المصرية الفرصة لتنمية صناعة وطنية لا تعتمد على التصدير ؟.. ما هو أفضل طريق لتطبيق الديمقراطية في مصر؟ هل نبدأ بإطلاق حرية التجمع أم ننتظر حتى نضع الضوابط المنظمة لهذه الحرية ؟.. كيف يمكن أن نعيد لعملية الانتخاب احترامها ولصوت الفرد قيمته بمنع التزوير والاستغلال الفج للمال ؟.. من تكون له حق ملكية وسائل الاعلام؟ هل نطلق حرية ملكيتها أم نضع الضوابط لها ؟ كيف نصلح تعليمنا حتى يصبح متاحا للجميع دون تمييز ؟

هذه وعشرات الأسئلة الأخرى تحتاج إلى أن يدور حولها نقاش في إطار ميثاق للعمل الوطني يحدد المبادئ الأساسية لضوابط العمل الوطني حتى يجئ متمشيا مع بناء دولة ديمقراطية مدنية تأخذ بالطرق الحديثة في الإدارة والتنظيم. ■

• هذا المقال هو مقدمة ملف «القضايا التي تلح على مصر» أحد ملفات الطبعة الجديدة لكتابي «الحقيقة والوهم في لواقع المصري المعاصر» والذي ستنشره قريبا مؤسسة دار الهلال .



جزر النيل

البشر والنهر

حياة مختلفة وروح مليئة بالتفاؤل

أماني عبد الحميد

رسوم محمد عبله

الحياة تبدو مختلفة فوق جزر النيل ، أهلها ونهرها يعيشون وفاقا نادرا ينعكس على كل شئ فالبشر ليسوا كسائر البشر، نوع خاص تتحول معاشرتهم ومصادقتهم إلى تجربة فريدة تثرى النفس أمكنتهم أسرة تظل ذاكرها مختزنة لا تمحى ، أرضهم ليست كباقى البقاع إنما جزر سابحة داخل ذلك النهر العظيم الذى ينبعث النور من أعماقه فينتشر الخير والسلام . فى هذا التحقيق نقوم برحلة غوص نرصد خلالها آخر أيام الفلاح المصرى على أرض جزر النيل قبل أن يجرف خضرتها السيل الطامع ويجتز حياتهم من الجذور.

النيل يجرى منذ آلوف السنين إلى البحر نفسه مارا من الصحراء بلا مطر أو صديق، لا ينحسر بأسه يشق لنفسه طريقا من بين الرمال يقاوم الجفاف كما يقاوم الأغوار ويصل مصر إلى الدلتا إلى الوزنج إلى البحر إلى مهد جميع الأنهار. يقول عنه الدكتور رشدى سعيد فى كتابه نهر النيل نهر ذو جاذبية خاصة بلا نظير لنهر وحيد استطاع أن يحمل جزءا من مياه أفريقيا الاستوائية إلى البحر الأبيض عبر الصحارى والقفار على الرغم من قلة المياه التى يحملها بالنسبة لمساحة حوضه الكبير وطوله الهائل ينفرد بانتظامه الرتيب وبقاعه المنتظم الذى جعل العيش فى ظله آمنا والتنبؤ بأحواله سهلا .

هو نهر يرصع مجراه على امتداده من الشلال حتى البحر عدد من الجزر يختلط بحوالى ٢٠٠ جزيرة من أنهار [illegible] أحسين أطلق عليه د. جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر بأنه نهر جزرى تتسم جزره بالديناميكية فهى متحركة أو قابلة للتحرك وعرضة للتغير والتآكل تبعا للزحف والهجرة بالتدريج مع التيار تبعا منفردة أو متقاربة داخل النهر منها ما يندغم فى جزيرة واحدة ومنها ما ينشق إلى عدة جزر ومنها ما يختفى تماما مع الزمن.

ويرى الدكتور حمدان أن واقع جزر النيل أصبح أكثر تغيرا وعدم ثبات بعد إقامة السد العالى تمزقت الجزر الكبيرة إلى مجموعات من الجزر الصغيرة بفعل النحر المتزايد وتوالت جزر جديدة بفعل الأمر لا يلقى ما كان النهر يلقاه معه خلال جريانه.

والجزر أنواع منها ما هو صخرى ويقتصر على شلال أسوان وبعض أجزاء

النوبه مثل جزر الهيسا - فيله أو أنس الوجود، والفيل أو ما تعرف بأسوان والتي تضم مقياس النيل الشهير ومن الجزر ما هو رسوبي يبدأ مع بداية السهل الفيضي ويزداد طينية كلما اتجهنا شمالا ويبدأ هذا النوع بجزيرة بهريف.

وتحتوى منطقة القاهرة الكبرى على أكبر أرخبيل نهرى فى مصر فمن جزيرة الشعير والذهب عبر جزيرة الروضة والجزيرة الزمالك والتي تؤلف جزءا أساسيا من نسيج العاصمة وتلعب دورا فى جغرافية المدينة إلى جزيرة الوراق وغيرها فى القناطر الخيرية.

وعندما تضعف قوة التيار ويتغير معدل الانحدار بصورة محسوسة يذكر لنا د. حمدان أن قدرة النهر على حمل حمولته تقل فيلقى بها على شكل كوكبه من الجزر الضخمة فتظهر منفردة أو تتجمع فى أسراب فى الموضع الواحد وأحيانا تميل مع التيار يمينا أو يسارا فتجنح إلى الوقوع قرب الضفة الشرقية وبعدها تمثل جنب الضفة الغربية حتى أن جزر النيل تبدو كسلسلة أو خط متقطع يتوسط النهر تماما كما تتوسط جزر المرور شوارع المدن.

كما أن للجزر أشكالا متعددة فمنها ما هو طولى يتخذ شكل العين أو اللوزة مثل جزر الكلح وإسنا والقوصية وغيرها وإن كانت جزيرة العياط أكثر الجزر طولا حيث يصل طولها إلى حوالى ٢٠ كم لدرجة بدت معها كنمط الدودة النحيلة وهناك أيضا جزر عرضية مثل جزيرة منيل عروس فى بداية فرع رشيد وجزيرة



الرملة جنوب بنها بفرع دمياط وجزر أخرى يطلق عليها معششة أو خليجية أى أنها ذات أحجام صغيرة مثل الدميز جنوب إسنا وأخرى جزر قوسية مثل جزيرة الوراق، ووردان أعالي فرع رشيد، وميت أبو غالب فى نهايات فرع دمياط.

فطرة نقية

وإذا كانت تلك الجزر ذات أشكال وأحجام متباينة فإن الحياة داخلها تختلف كثيرا عما تبدو عليه فى الخارج فهى تعج بحياة بشر ينطبق عليهم وصف فيدن فى كتابة أرض مصر : «أمامك ترقد مصر القديمة بلا تحنيط وإنما محفوظة فى بلسم الشمس، فى غرائز السكان المحافظة» فالبشر نوع فريد استطاع أن يحافظ على الروح المصرية النقية القديمة. وهو الأمر الذى دفع الكثيرين ليتحدثوا عن عزلة الجزر النيلية سواء عزلة موقعها أو عزلة شخصية قاطنيها لكن الأمر عن قرب يختلف كثيرا فالعزلة هنا نوع من الاعتزاز بالشخصية اعتزازاً يحافظ على كيانها المتميز وإن كان لا يحرمه من الانخراط فى حياة المدينة . أهل الجزر أغلبهم أنماط بشرية بسيطة (فلاح - صياد - بائع اللبن - مراكبى - موظف وحتى من لا عمل له)

وأهم ما تمتاز به الحياة فوق الجزر أنها أمكنة لا تحكمها القوى التى تحكم عالمنا نحن ساكنى المدينة على الشاطئ المقابل بل إن أهلها لا ينطبق عليهم تصنيفاتنا الطبقية الحديثة ، فهم أناس قد نتشابه معهم فى الملامح أو فى الشكل الخارجى فقط لكنهم مواطنون تختلف الحياة داخلهم ذوى فطرة نقية انقرضت داخل مجتمعنا الذى يقابلهم ولا نملك أمامهم سوى الشعور بالتقصير فلم نعط تلك الأمكنة ولا أولئك البشر حقهم من التأمل والدراسة وأجحفنا حقهم فى الدفاع عن حياتهم وموروثاتهم التى رضوا بها وارتضوها منهاجا لحياتهم فبدت رؤاهم وأفكارهم بسيطة فطرية وكان النهر هو العنصر المحرك لها على طول الدرب.

الذهب.. الحنين القديم

مشهد الخضرة الزاهية حرك داخلنا فطرة الفلاح الذى يتملكه الحنين لأرضه الخصبة، جزر الذهب إحدى الجزر النيلية اللصيقة بالعاصمة وهنا مكمن أهميتها وخطورة وضعها، النيل يحتضنها بذراعيه فشرقه قلب القاهرة وغربه تقع ضواحى الجيزة أهلها يصل عددهم إلى حوالى ٢٠ ألف مواطن أغلبهم يعملون بالزراعة والصيد. لكن الكثيرين من حولها يطمعون فى الاستيلاء على ما تبقى من أرض خضراء داخل زمام القاهرة وكأن منظر الخضرة والبيوت البسيطة تثير غضبهم كما يذكر لنا أحد سكانها لذا جاءت زيارتنا للجزيرة ومصادقة أهلها بهدف التعرف عليها وعليهم كمحاولة للتقليل من الشعور بالتقصير تجاههم ولتكون نموذجا للحياة على جزر النيل التى يحيط بها نهر النيل من كل جانب.

بل إن الحياة داخلها كشفت أننا نعيش داخل بلد عجيب تعاقبت عليه سنين طويلة أحدثت خلالها معاول التغيير انقلابات مثيرة فى حياته.. تغييرات فى المدن، فى البيوت، فى الآلهة، وحتى نفوس البشر تبدلت إلا ذلك الفلاح بقى فلاحا على حاله لا يعرف سوى الحرية وأرضه وزرعه وجاموسته . معظم أهل الجزر يحترفون الزراعة تلك المهنة التى مثلت العمود الفقرى فى تاريخ الحضارة المصرية. فوسط غيطان الخضرة ترى على مرمى البصر بطلا من أبطال الجزر هو الفلاح ذلك الحلم الخالد كما كان عليه من زمن يفلح أرضه فى صمت متصل بلا

انقطاع منذ شروق شمس الصباح وحتى غروبها وقت الأصيل.

كذلك احترف أهل الجزر حرفة الصيد ظلوا على حالهم يصطادون أسماك النيل من البلطي والقرموط وقشر البياض ليشكلوا حلقة السمك التى تتلقف الزائر، تجتمع داخلهم حياة البشر على وجه الأرض وعلى سطح الماء. عالمهم دائما فى النهر. مراكبهم هى البيت والرزق والمأوى، والأمل. ينامون فيها ويعملون وزادهم شباكهم. وداخل العالم العجيب الذى يعيشون فيه. ترتفع عيونهم لترى ناطحات السحاب تطل عليهم من أعلى السماء. لكنهم برغم برودة المياه وحرارة الشمس يقيمون وسط عالم ساحر يتمتع بأجمل مناظر النيل.

منهم من يسكن أرض الجزيرة داخل عزب خاصة بهم «عزبة الصيادين» أغلبهم نزحوا من الجنوب من أسيوط. قدموا ليمارسوا مهنة الصيد. ومنهم من قدم من الشمال من الدلتا. لكن هؤلاء ينطبق عليهم وصف أنهم قدموا فى مهمة عمل. حيث يسكنون القوارب الصغيرة ينامون فى الخن الصغير داخل بطن المركب. يصطادون طوال اليوم فى عرض النهر وفى الليل يسكنون إلى شاطئ الجزيرة لقضاء الليل داخل مركبهم الخشبى حتى طلوع النهار. فى الأعياد تنتهى مهمة العمل ويأخذون إجازاتهم ويرحلون إلى بلادهم فى الشمال. ينتظرهم القارب عند شط الجزيرة. وهنا تتجلى العلاقة القائمة على بروتوكول التعامل فيما بين أهل الجزر وأهل المراكب فلا يتعدى أحدهم على الآخر ولا يتطفل على حياة الآخر برغم انعدام أية حواجز فيما بين الحياتين.

وإن كنا نجدهم يعيشون منفصلين داخل الجزيرة على هيئة قرى نوعية واحدة للصيادين وأخرى وسط الغيطان للفلاحين. وبعض البيوت الخاصة بالغرباء القادمين من البر الثانى والذين نالوا استحسان أهل الجزيرة والتزموا ببروتوكولات التعامل التى أقروها - فاشتروا عددا من الأراضى وبنوا عليها بيوتهم على نفس الطابع الفلاحى القديم. وبرغم كل شئ لم يفقدوا الصلة بالمدينة والمدنية. فعلى الشاطئ المقابل مدارسهم وأعمالهم ووظائفهم وأحلام بعضهم. فالمدينة رمز الراحة والثراء بالنسبة لبعض شبابهم. وإن كان ارتباطهم بالأرض والخضرة نابعا من ارتباطهم بذلك النهر النيلى الرزين.

حياة مختلفة

لم يكن دخول الجزيرة بالأمر الهين. فلا توجد وسيلة مواصلات حقيقية سوى «المعدية» - ذلك القارب الخشبى المتهالك الذى يشق طريقه كل يوم وكل ساعة داخل مياه النيل ذهابا وإيابا لينقل البشر بين البرين.

وعلى مقربة من الشاطئ، يفترش باعة السمك مكونين حلقة صغيرة تتلقف عيونهم الزائر الغريب.

ننتظر برهة ولا يشغلنا سوى رائحة السمك الفواحة سواء المرصوصة على طاولات الشادر أو حتى التى تنتظر خروجها من المياه المعكرة قابعة داخل الشبكة المحكمة الغلق «الجوبية». وتأتى المعدية تتهادى على مهل. تتصل بالشاطئ بجنزير حديدى. يقوم فتى يافع بجذبه، وجهه غامض يقف دائما عند الحافة يقود المركب بلا كلام أو أمر فهو دائما صامت. ننزل إلى المعدية ونختار مقعدا بعيدا عن الجنزير حتى لا تبللنا



المياه المتناثرة من حركته الدائبة ولتأخذنا المعدية لمسافة قصيرة لا تتعدى المائة متر ، لكنها فى مفهومنا الثقافى تتعدى ذلك بكثير . فبعد نهاية تلك المسافة داخل النهر العظيم نصل إلى نقطة بداية مختلفة تماما عما خلفناه وراء ظهورنا . فخلف هذا الستار المكون من ورد النيل وزرع الهيش تكمن حياة مختلفة .

شاطىء الانتظار

يبدأ المشهد صباحا . أعداد كبيرة من أطفال الجزيرة تتلاعب رياح الصباح بأطراف ملابسهم المدرسية (مرايل صفراء حكومية) . تتداعب أطرافهم بشقاوة فالانتظار ليس من سمة الطفولة .. أحيانا المعدية تتأخر قليلا على البر الثانى .. فيجدون الوقت للعب والمزاح .

كان عم يوسف أبو جمعة أكبر أهل الجزيرة سناً فى انتظارنا وجهه منحوت تملؤه خطوط أزمنة متعاقبة نظراته شاردة برغم حدتها مبحرة نحو مكان بعيد . حافظ للقرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، تمثل له قناعاته فى الحياة . وبرغم لحيته البيضاء فمازال حب الحياة يملأ أنفاسه الصاعدة والهابطة . حكى لنا أن أبيه هو الذى زرع الأمل داخله ، الأمل فى الفوز بمحصول ناضج ، فى غد يشرق على أرضه من جديد ، الأمل فى الرحمة التى يبعث بها النهر كل عام «لا يقسو لا يسطو على حصادنا ولا خزينتنا ولا على أملنا الكبير فى الحياة » . أبيه «أبو جمعة» أول من سكن جزيرة «القرصة» . ورغم أن مياه النهر كانت تغمرها لفترات طويلة . وتحاصر منزله الطينى الصغير . فاعتلائه للربوة العالية كان يحميه طوال فترة الفيضان . وحتى يومنا هذا لا يزال منزل أبو جمعة قائما فوق الربوة . ذات الشموخ القديم . فتربتها غير سائر الأرض من حولها . سوداء قاتمة من طين النيل المدكوك والمتراكم على مدى السنين . تتزين بشجرتى صفصاف على جانبى

المنزل . يتعدى عمرهما السبعين عاما . فالذي يريد صعود الربوة عليه أولا تسلق جذع إحدى الشجرتين الضاربتين في أنحاء المكان . لكي يصل إلى البيت الصغير المكون من غرفتين فقط والذي شهد فيضانات النيل واحداً تلو الآخر قبل بناء السد العالي . وكان لقاء عم «يوسف» هو جزء من بروتوكول التعامل المنصوص عليه بين أهل الجزيرة . فلقاء كبيرهم واستحسانه للشخص الزائر معناه قبوله كضيف عزيز من داخل بيوتهم . لم يتحدث معنا كثيرا سوى بضع جمل عن النهر والحياة . كلماته ذكرتنا بأنشودة النيل التي تغنى بها أجدادنا تقديسا للنهر الذي يهب مصر الحياة :

تنهمر عليك الحياة من السماء .
وتتدفق إليك مياه الحياة من الأرض
وتتوهج السماء بالبرق من أجلك
وقد اهتزت لك الأرض قبل ظهور الإله.

الابن الآخر هو عم أحمد أبو يوسف . تعدى السبعين من عمره ولا يزال يحرث أرضه بنفسه حتى اليوم . حديثه معنا كان عبارة عن رثاء لأيام الفيضان الذي كان يأتي ومعه الخير والطمي والرخاء . فيقول «ليت أيام الفيضان تعود . كانت الأرض خصيبة عفية .. نبذرها فينمو الزرع بقوة .. نحصدها فيأتي المحصول وفيرا يكفينا جميعا .. أما اليوم فقد هجرنا الفيضان فأصبحت الأرض مالحة . كل عام تفقد نضارتها . وعاما بعد عام ستشيخ وتبور الأرض .

قناعات الماضي

ويبدو أن الفلاحين المصريين لا يغيرون معتقداتهم بسهولة فتظل راسخة داخل قناعاتهم . ففي الماضي كانوا



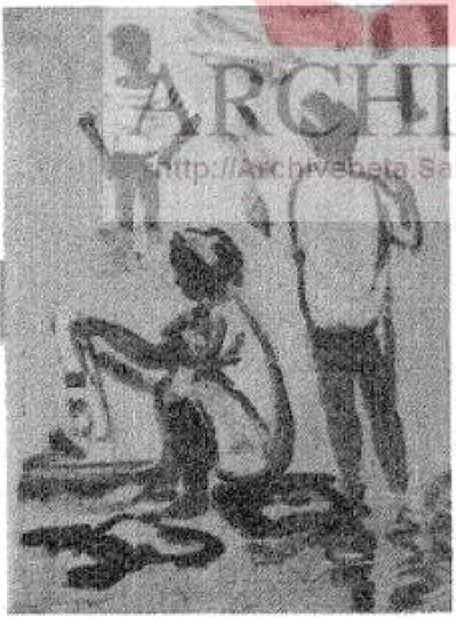
يحتفلون بالفيضان ويقيمون له الطقوس . « منادي النيل » يطوف الشوارع بالقاهرة ليعلن كل يوم عن ارتفاع مياه النيل . وفي ليلة الثاني عشر من شهر بؤونة يحتفل الأقباط بعيد «القديس ميخائيل» الذي يشفع للمصريين من أجل زيادة مياه النهر . وحتى بعد دخول العرب والإسلام احتفظ النهر بقداسته . فيذكر لنا العلامة ابن عبدالحكم عما جاء في كتاب «تقويم النيل لأمين سامي باشا» أن الأقباط جاءوا إلى عمرو بن العاص وقالوا له «إن لنيلنا سنة لا يجري إلا بها . وهي القاء جارية مليحة في نهر النيل في مكان معلوم» . وعندما رفض لم يزد النيل طوال فترة ثلاثة أشهر . فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. الذي أرسل خطاباً يخاطب فيه نهر النيل يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك. أما بعد فإن كنت تجري من قبلك

فلا تجر. وإن كان الله تعالى هو الذى يجريك. فنسأل الله تعالى أن يجريك» وألقى «ابن العاص» الخطاب فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد «فى ١٧ توت» فأجرى الله النيل فى تلك الليلة ستة عشر ذراعاً دفعة واحدة.

روح عازفة

وهكذا كانت تسير الحياة بين البشر والنهر.. ومن الغريب ألا نجد نظرة الأمل تلك، التى تملأ عيون كبارهم ، داخل عيون كثيرين من شباب الجزيرة حيث رأينا بعضاً منهم تملأ عيونهم الحسرة والحزن وقلوبهم تجرحها غصة. فالأرض لم تعد بالنسبة لهم مجرد محصول يأمل صاحبه حصده كل عام. لكنها كالجمرة، الاحتفاظ بها صعب والتخلى عنها أصعب. فهى بيتهم وطفولتهم وذكرياتهم الأولى. لكنها تحمل أيضا ملامح شظف العيش والبطالة الخانقة.. وإن كانت حياتهم تظل دوما دون أن تمس عازفة عن أن تكون اى شىء آخر غير ذاتها، الوسيطة بين المدينة والنهر.

وهناك مشكلة تواجه ساكنى هذه الجزر وتكمن المشكلة فى قانون ١٠٠ لعام ١٩٦٤ والذى ينظم ملكية الجزر وأراضى طرح النهر. ويحيل ولايتها وملكيتها لوزارة الزراعة. فتقوم الوزارة بإصدار عقود حق انتفاع - فقط - للفلاحين والمقيمين عن طريق «وضع اليد» وفى المقابل يدفع هؤلاء أموالا تقدر سنويا نظير ذلك. فتتقاضى الوزارة عن الفدان الزراعى حوالى ٨٠٠ جنيه سنويا وعن متر الأرض البور أو المبانى حوالى جنيهين سنوياً للمتر الواحد، دون أن يكون لهم حق امتلاك الأرض. وبالتالى تسقط عنهم بقية الحقوق مثل الحق فى مياه شرب نظيفة وصحية، وإقامة شبكة صرف صحي وتوفير بعض الخدمات الصحية والتعليمية وكأن المسئولين يستكثرون على الفلاح والصياد العيش وسط القاهرة بطريقتهم البسيطة. لذا قام سكان تلك الجزر بتوصيل كافة الخدمات عن مياه وكهرباء على حسابهم الشخصى. إلا أن الجهات الحكومية لاتزال تعترض على وجودهم برغم أنها لا تمنع ذلك بشكل حقيقى! فوزارة الزراعة تمنح عقود حق الانتفاع، ووزارة الاسكان تمنح تراخيص البناء والمجالس المحلية لا تعترض على أية تجاوزات ووزارة الرى تباشر مهامها من بعيد، وينحصر فى حماية شواطىء النيل دون أن يكون لها



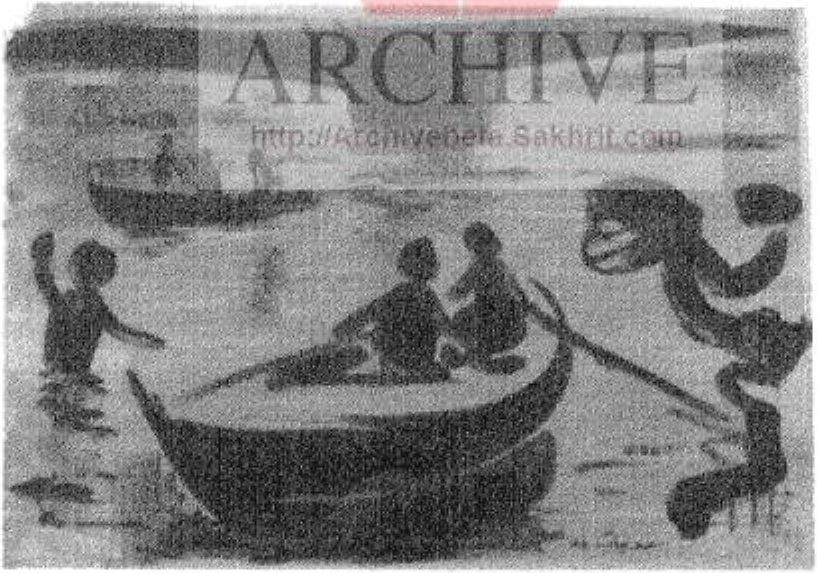
دور تمارسه على أرض الجزر بل إن كافة الجهات تتهم سكان الجزر بالتسبب فى التلوث البيئى والعشوائى دون أن تكون هناك خطة لديهم لوقف أى تلوث ولا معالجة ولا حتى النهوض بحياة سكان تلك الجزر . وطبقا للاحصائيات الواردة فى وزارة الزراعة فإن المساحة الإجمالية للجزر تبلغ حوالى ٣٣ ألف فدان منها حوالى ٢٧ ألف فدان مساحات مزروعة. ومعنى ذلك أن أغلبها مساحات لا تسبب التلوث البيئى المقصود فهى أراضى زراعية.

آخر أيام الفلاحين

وكان من أهم من قابلناهم داخل «جزيرة الذهب» الحاج ماهر الشهير بلقب «العمدة» وعلى الرغم من أنه ليس أكبرهم سناً لكنه أكثرهم رجاحة عقل وقدرة على الاتصال بالمسئولين من الوزارات المعنية المترددين على الجزيرة وقد اختاره سكان هذه الجزيرة لكى يمثلهم لدى دوائر الدولة المختلفة ويكون حكمهم خلال النزاعات التى قد تنشب بين أفراد العزب المتناثرة. ويصفه أهل الجزيرة بالقول أنه «حلو اللسان رزين العقل» فاستحق مكانته عن جدارة بلا انتخاب أو ترشيح حكومى. يحدثنا عن أحول أهل تلك الجزيرة «نحن نزرع الطماطم والخيار فى الشتاء فأرضنا دافئة بعكس أراضى البر المقابل» «كما نزرع اللوبيا والباذنجان والبطاطس والملوخية والذرة والبرسيم».. وإن كان يرى الموت قريبا إذا خرج من أرضه.

«ماذا أعمل وأنا أعيش داخل شقة داخل عمارة بعيداً عن الخضرة والزراعة وزرايب المواشى».

«أموت بالطبع» «فلا عمل لى ولا حياه بعيداً عن أرضى».



ويبدو أن ما يكسبه الحاج ماهر يكفيه ليومه. ولكن السؤال المقلق هل سيكفي العائد أبناءه من بعده؟ وبما يضمن بقاءهم على ولائهم للأرض وللزراعة. أم أننا أمام آخر أيام الفلاحين في القاهرة خاصة مع تصاعد الصخب من حولهم؟

أما «سيد» الابن الأصغر لعائلة أبو جمعة فهو يمثل أحد أفراد الجيل الجديد. تعليمه متوسط. اختار العمل كبائع للألبان ومسئول عن «زريبة المواشي» التي تغذي محل الألبان الذي تملكه العائلة على البر الثاني. فضل البقاء بالجزيرة بعكس أخيه الذي فضل السكن داخل عمارة على البر الثاني لكن سيد يقول «لا مكان لي داخل متاهة المدينة.. فلا فرصة عمل وسط الزحام.. لكنني هنا داخل بيتي وأرضي وأعمل مهنة أجدادي.

وفي المساء فوق الجزيرة، وفوق النيل، يبوح النيل ببعض جماله الغامض وإن كان لايزال يحتفظ بأسراره. فهو كما يصفه اميل لودفيج في كتابه «النيل : حياة نهر» «كالقسيس الذي يمنع المؤمنين من رؤية وحب الله». وتضاء قبة السماء بأنوار المدينة المقابلة بواسطة خطوط صفراء فاقعة اللون - وتتحول كافة الألوان إلى اللون الليلكي ويستولي السواد على السماء. ولا يملك السهران وسط السواد إلا أن يتأمل هذا النهر الخالد الذي شهد زوال كل شيء.. الحضارات والديانات والمعابد والحصون والفاتحين والمغلوبين. إنه النور، إنه النهر ينعكس على كل شيء، وياله من نهر، ويالها من أمكنة .. ويالهم من بشر! ■





إيهاب شاكر

٥٠ عاما من الكاريكاتور ورسوم الكتب وأغلفة المجلات واللوحات والأفلام والعرائس

بقلم
محيي الدين اللباد

ضمن احتفال المجلس العالمي لكتب الأطفال (IBBY) بعيده الخمسين في الشهر الماضي ، أعلنت قائمة الشرف لهذا العام، والتي ضمت ٣٨ كاتباً ورساماً ومترجماً في ميدان كتب الأطفال، تم اختيارهم من قائمة أطول تضم الأسماء التي رشحتها المجالس الوطنية في كل دولة من دول العالم . وضمت قائمة الشرف «المصفاة» اسم الرسام «إيهاب شاكر» (١٩٣٣) ، الذي زكته للقائمة رسومه في كتاب «حكاية الأراجوز» (قصة : سميرة شفيق ، دار الشروق ٢٠٠٠)

«إيهاب» واحد من جيل الكتاب والرسامين والصحفيين الذين ظهروا مع التغير السياسي / الاجتماعي / الثقافي الذي وقع عام ١٩٥٢، وأحد أوائل من شغلوا الأماكن المستحدثة في المشروع الثقافي / الإعلامي الجديد لتلك الفترة .

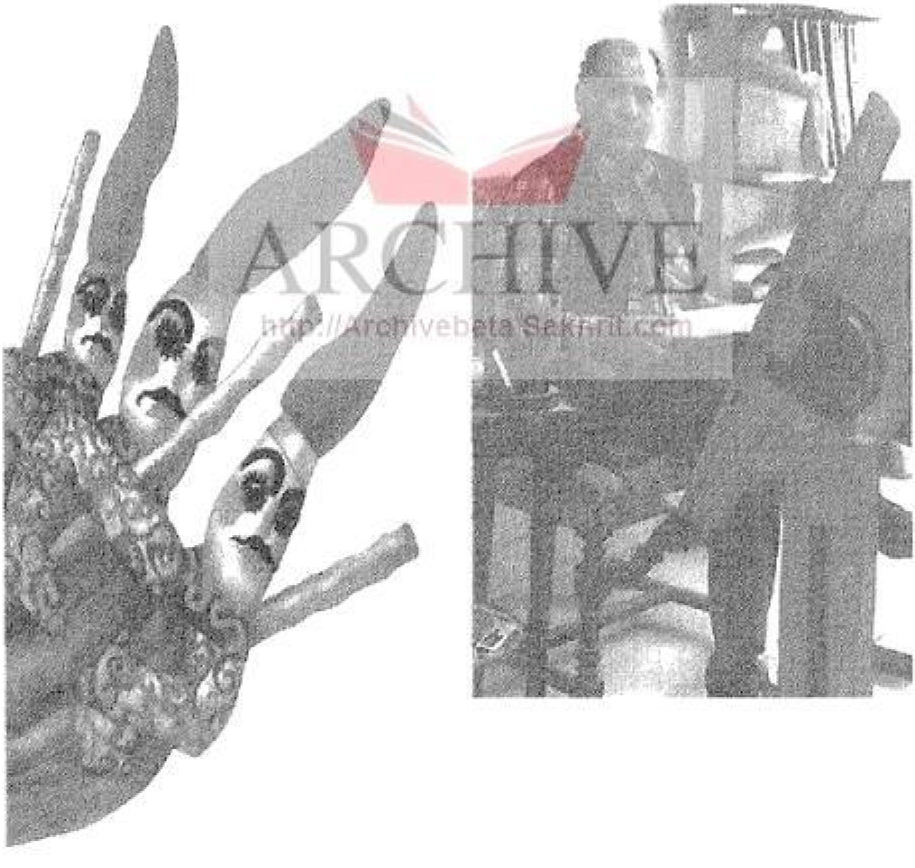
كان في سن العشرين ، وفي عامه الدراسي الثاني في كلية الفنون الجميلة ، حين اختاره أستاذنا «عبدالسلام الشريف» ليرسم كاريكاتوراً يومياً لجريدة «الجمهورية» التي كانت أول «لسان حال» لرجال ١٩٥٢ . وهكذا طلع «إيهاب» على قراء الجريدة كل صباح بكاريكاتوره على الصفحة الأخيرة ، ويرسم آخر مصاحب للزجل الذي كتبه على الصفحة الشاعر محمود بيرم التونسي على الصفحة نفسها كل يوم .

كان كاريكاتور «إيهاب» رسماً بسيطاً به كثير من الطزاجة والانشراح والفكاهة البريئة، وكان به - أيضاً - إدراك وتمثل لجديد «والت ديزني» الذي اكتسح به الدنيا

عقب الحرب العالمية الثانية . كان رسم «إيهاب» – حينذاك – مختلفاً ، وكان واضحاً أنه لم يخرج من معاطف المعلمين الكبار «صاروخان» و«رخا» و«عبدالسميع» و«طوغان» ، ولا أى من رسامى دار الهلال وقتذاك (وأغلبهم من الخواجات المتمصرين) . ولم يكن «چاهين» و«البهجورى» قد نشر شيئاً من الكاريكاتور بعد .

ولا يعد اختيار «عبدالسلام الشريف» لإيهاب رساما للصحافة فى عامه الدراسى الثانى مبكراً أو سابقاً للأوان . إذ كان «إيهاب» – طوال دراسته الثانوية – دارساً منتظماً فى مرسم الطليانى «كارلومينوتى» بمصر الجديدة . ويتذكر «إيهاب» أنه وزملاءه فى مرسم المعلم «مينوتى» كانوا يجلسون إلى حوامل لوحاتهم ، بينما تملأ فضاء حجرة الدراسة مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية الغربية آتية من الحجرة المجاورة التى يشغلها موسيقار طليانى .

ايهاب شاكر فى مرسمه



جذورة الفنية



ولم تكن تلك هى معرفة «إيهاب» الأولى بالموسيقى الكلاسيكية الغربية ، بل كان والده الموظف الحكومى الكبير منشداً ضمن كورال الكنيسة فى رداء كنسى ، وفى كورال الأوبرا فى بدلة «فراك» . وكان هذا الوالد مشتركاً فى مجلة الرسم الفرنسية الشهيرة «إلستراسيونIllustration» ، التى تصله بالبريد كل شهر .

وفى الأمسيات ، كان جار العائلة ، فى ضاحية الزيتون ، يدخل عليهم مصطحباً آلة عرض سينمائى صغيرة ، ومحملاً بالأفلام القصيرة الصامتة لشابلن وكيتون ولوريل وهاردى وغيرهم ، يعرضها لجيرانه فى ليالى الصيف .

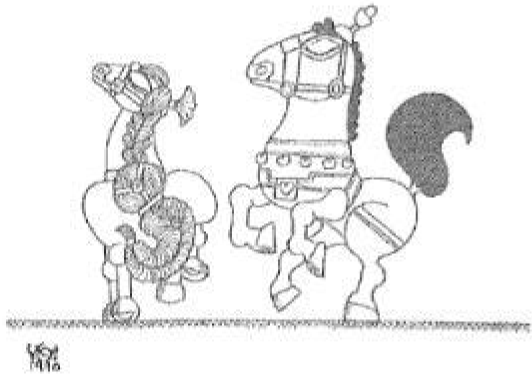
ظلت أضواء الموالد الشعبية تشاغل أنظار إيهاب طوال ممارسته الرسم والتصوير

كان هذا جانباً من صورة من صور الحياة الثقافية لقطاع من الطبقة الوسطى القاهرية التى عاشت العاصمة الكوزموبوليتانية حتى النخاع . كانت العاصمة تضم عالمين : أحدهما غربى كامل ، والآخر بلدى قح ، ولا يفصل بين العالمين حاجز قوى . وكان ذلك القطاع من الطبقة الوسطى قادراً على التنقل ، بخفة ورشاقة ، بين العالمين ، وعلى الاستمتاع بمحاسن كل منهما .

تستطيع أن تتصور - فى ذلك الزمان - صبياً قاهرياً خارجاً من «جروبى» أو «الامريكين» وسط القاهرة ، بعد أن استمتع بالجلاس الشهير - آنذاك - والمسمى : «ثلاثة خنازير صغيرة Trois Petits Couchons» ، متجهاً إلى حديقة الأزبكية (الغناء حينذاك) حيث ينادى ، من مجلسه على إحدى الآرائك الخشبية ، على بائعة حلاوة «على لوز» لتناوله الصحن المسطح ليلحس منه بملحسة عامة (تتداولها ألسنة الزبائن) عدة مربعات من تلك الحلاوة الشعبية .

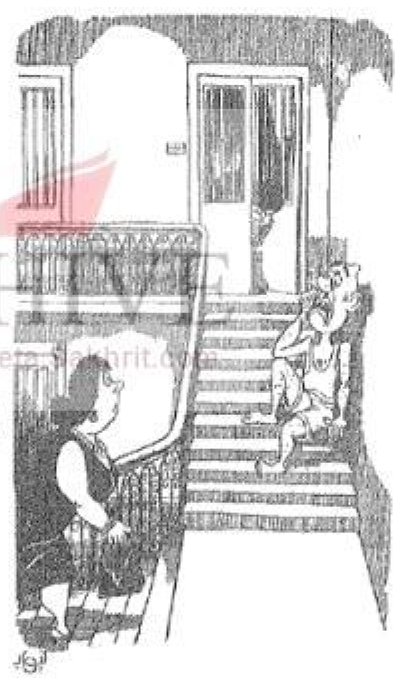
وتستطيع أيضاً أن تتصور شاباً هاوياً يجول بين المكتبات الأوروبية فى وسط المدينة : «منجوتسى» و«لاندوروك» و«هاشيت» التى كانت تبيع الكتب الصادرة فى أوروبا وأمريكا فى ذات الشهر ، ومجلاتها الصادرة فى الأسبوع ذاته . ثم





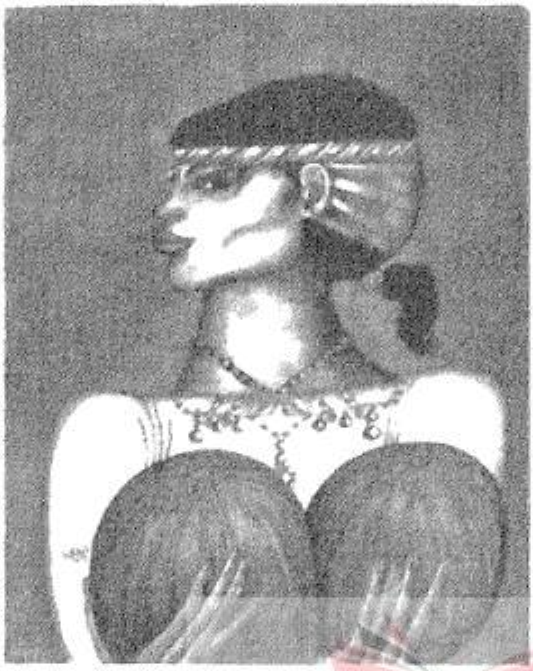
رسم تحضيرى لفيلم «رقصة الهوى» ١٩٩٧

• جيل التليفزيونجى •



كاريكاتير من سلسلة «جيل تليفزيونجى» ، صباح الخير ٦٣-١٩٦٨





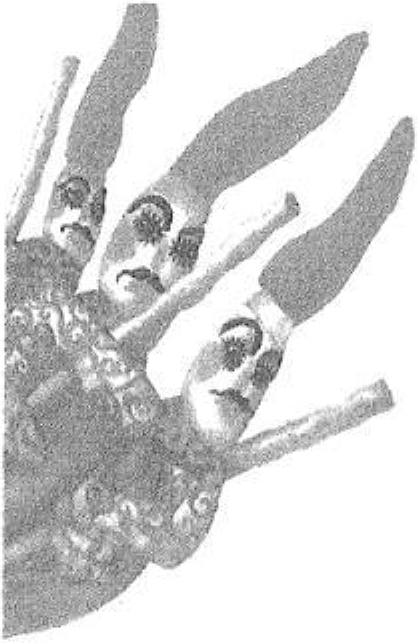
● استثل إيهاب دائمــــا لنداء الكاريكاتور ورسوم الكتب والمجــلات والرسم للأطفــال

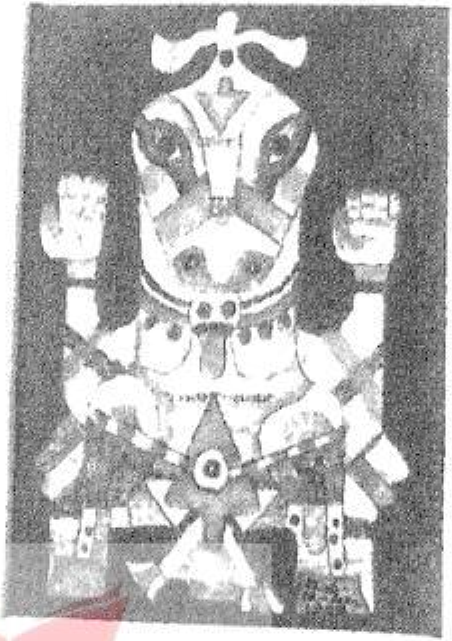
غلاف لمجلة «صباح الخير» - ١٩٩٢

يخرج ليشترى مجلة «البعكوكة» ، ويتجه إلى حى الحسين ، ليواجه بالحاح باعة الكتب الجائلين فى المقاهى عليه بكتب السير الشعبية وألف ليلة وليلة ورجوع الشيخ ، ولا بأس ببعض الرسوم المطبوعة الملونة لأبطال السير والبراق النبوى .

وبدون أن تكون قد ارتكبت أى تعسف ، تستطيع أن تتصور فتى يخرج من دار الأوبرا القديمة بعد مشاهدة عرض أوبرا طليانية أو مسرحية لفرقة «الكوميدى فرانسيز» ، ثم ينعطف خلف الدار القديمة إلى شارع البيدق، حيث يستوقفه أحد عروض مسرح خيال الظل المتجول ، يضج بالعرائس المسطحة المتحركة رائعة الجمال ، وبالغناء والشتائم والهزر السوقى البذىء الرائع . يحرك العرائس ويؤدى حوار الشخصيات ، على تعددها ، فنان شعبى نصف جائع ودائم السعال ، لا يعلم أنه آخر تلاميذ الأسطى ابن دانيال أستاذ فن خيال الظل القاهرة قبل عدة قرون .

وبعد خيال الظل بخطوات قليلة ، لا بأس فى أن يمر الفتى على سور الأزبكة الشهير - والحقيقى حينذاك - ليتصفح بعضاً من الاف الكتب والمجلات والصحف





لوحة ١٩٨٩

القديمة ، عربية كانت أم أعجمية .

معالمه الفنية

ومن هذه الخلطة المعقدة والغنية ، تكون «إيهاب» (مثلما تكون بعض مجايليه) رساماً مصوراً ملوناً بالزيت وما بعده (٧ معارض فردية) ، ورساماً للكاريكاتور الصحفى (الجمهورية ، التحرير ، روزاليوسف ، صباح الخير) ، ورساماً لكتب الأطفال (١٩ كتاباً : دار المعارف ، دار الفتى العربى ، دار الشروق، بالإضافة إلى عدة دور فرنسية) ، ورساماً لمجلات الأطفال (سندباد ، سمير ، ميكى ، ماجد ، العربى الصغير ، علاء الدين)، وصانعاً لأفلام الرسوم المتحركة («الزجاجة» – ١٩٦٨ ، «١-٢-٣» ١٩٧٤ ، «أغانى الحيوانات» – ١٩٨٧ ، «رقصة الهوى» – ١٩٩٧) . ولم يترك «إيهاب شاكر» مسرح القاهرة للعرائس فى حاله ، بل كتب له مسرحية «عقلة الصباع» وصمم عرائسها (١٩٦١) ، كما صمم عرائس وديكور «دقى يامزيكا» (١٩٦٦) .

ومن عالم مؤثث بثنائية الثقافة الغربية والحياة البلدية ، اختار إيهاب أن يكون



موضوع مشروع تخرجه «السيرك الشعبي القاهري» ، الذي تتبعه في تجواله بين احتفالات الموالد الكبرى . وظلت أضواء تلك الموالد تشاغل أنظار «إيهاب شاكر» طوال ممارسته الرسم والتصوير التي امتدت ٥٠ عاماً .

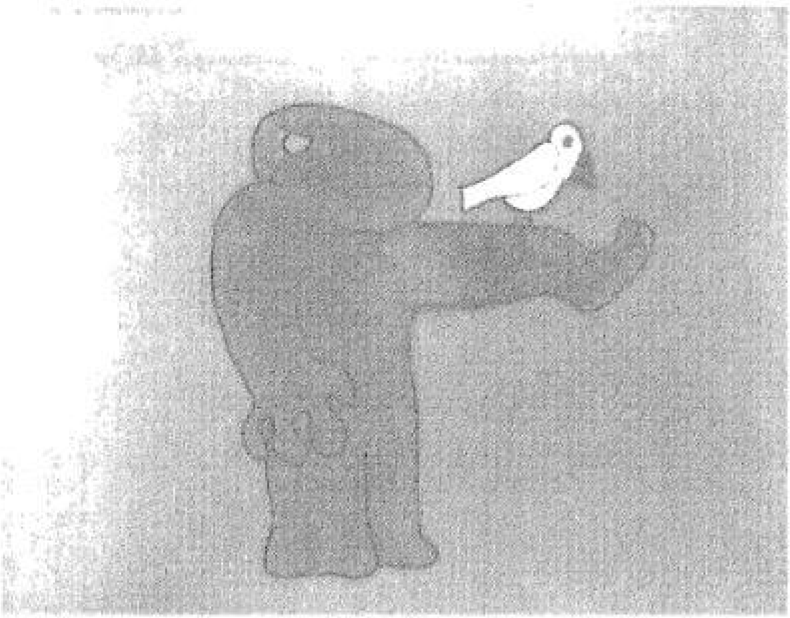
لم يترك «إيهاب» حامل اللوحة الخشبي والباليت والفرشاة إلا لماماً ، واهتم بعرض لوحاته في معارض فردية وجماعية ، في مصر وخارجها . لكن «نداهة» الكاريكاتور ، ورسوم الكتب والمجلات والرسم للأطفال ظلت دائماً تلح عليه بندائها . وامتثالاً لهذا النداء ، جلس «إيهاب» خمسين عاماً إلى طاولته ، يراكم - بأنفاس منتظمة هادئة - آلافاً من رسوم الكاريكاتور ورسوم الكتب والمجلات : متنوعة ومتعددة التجارب . و«إيهاب» رسام دؤوب لايمل ، ولا ترهبه الورقة البيضاء ، فعنده دائماً ما يملؤها : فقط أطلب منه واعطه فرصة وبعض الوقت .

أسس الاتجاهات ، ومهد طرقاً ، وصاغ شخوصاً وأساليب وأشكالاً للتناول

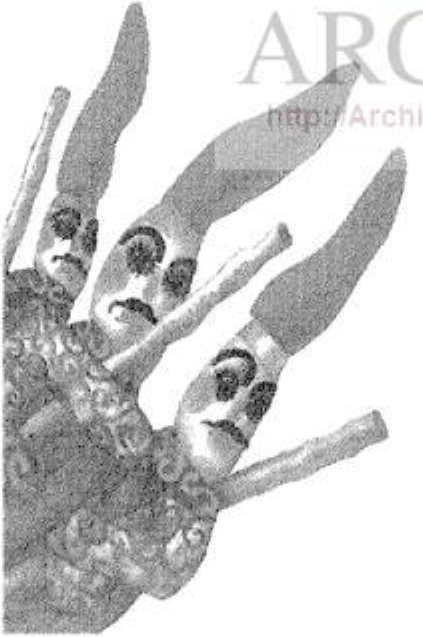
أسس «إيهاب» بدأبه وبتراكم عمله اتجاهات ، ومهد طرقاً ، وصاغ شخوصاً وأساليب وأشكالاً للتناول ، نهل (أو نزح) منها الكثيرون من الشباب ومن مجايليه . وخلع صفة «التأسيس» على إيهاب» ليس مجرد إطراء ، فاللقب لا يستحقه إلا من أسسوا بالفعل ، وهم ليسوا كثر . ورغم حيازة «إيهاب» لقبه بجدارة ، إلا أنك - أيضاً - ترى فيه الشاب المجرب طالب التعلم الدائم ، وترى فيه الأخرق المزدحم بمشروعات كثيرة يكتمل بعضها والآخر لا يكتمل . يحرص على متابعة دؤوب للشباب الطالع ، ويأخذ بأيديهم ، ويرشحهم لمن بيده إعطاءهم فرصة العمل .

في آخر كتبه «حكاية الأراجوز» ، رسم «إيهاب» محاولاً التعبير عن الخشونة و«الكيتش» ، ربما للرد على أناقة وصنعة وحرفية وأسلوبية أجادها جميعاً وأنجزها بيسر منذ مراهقته . وها هو يزهق من كل تلك الخبرات ، ويرغب في «العودة إلى نفسه» - ذلك الحنين الذي يعصف بكل جنتلمان له بعض قلب وشيء من البصيرة .

عاد «إيهاب» إلى صباه : إلى الموالد وعربات الكشري وحمص الشام والنشان والبطاطا ونصبة الحلواني المزدحمة بالعرائس الحلاوة . وإلى الجوار ، دروة الأراجوز التي تطل من أعلاها



لقطة من فيلم «١-٢-٣» عام ١٩٧٤



دميتان فقيرتان لأراجوز بطاقية طويلة ومدببة حمراء كقرن فلفل حار ، وشرطي مفتر ، صنعهما الحرفي الفقير ، وكساهما على قدر حاله ، وحملهما خفة في الروح وطولاً في اللسان وإدراكاً لبهجة الحياة الحريفة . ومن ذكرياته مع مثل هذه العائلة الأراجوزية وعرائس المولد الحلاوة ، صنع «إيهاب» كتاباً للأطفال كبير المقاس (٢١×٣١سم) ، وكبير التأثير .

كتاب «حكاية الأراجوز» يستحق منا الاهتمام والفرجة المتأنية وبعناية . مثلما يستحق منا رسامه «إيهاب شاكر» كل الالتفات إليه والاهتمام بما يعمل ، وبالعناية به شخصياً . «إيهاب» رسام مهم ، وعمود من أعمدة النمو الرأسي القليلة في حقل كتب الأطفال العربية . ■

من هو المقصود في قصيدة بيرم

القرع السلطانى

بقلم
شكرى فؤاد



الملك فؤاد



الملكة نازلى

هل كان السلطان فؤاد على علاقة بنازلى قبل الزواج ؟!

القصة الشائعة والمتداولة عن سبب نفى محمود بيرم التونسى من مصر تتلخص فى أن الملك فؤاد (السلطان فؤاد فى ذلك الوقت) تزوج من نازلى كريمة عبد الرحيم باشا صبرى (الملكة نازلى فيما بعد) فأنجبت له ابنهما الأول فاروق بعد ستة شهور من الزواج كما يقول بيرم فى «مذكراتى»، أو بعد أربعة شهور من الزواج كما يقول الأستاذ كمال سعد فى كتابه «صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسى» فنشر بيرم قصيدته المشهورة «القرع السلطانى» أو «مرمر زمانى» فى مجلة «المسلة» التى كان يصدرها فى القاهرة بعد انتقاله إليها من الاسكندرية

وهاجم فى قصيدته السلطان فؤاد واتهم بأنه كان على علاقة غير شرعية بخطيبته قبل الاقتران بها «الوزة قبل الفرح مدبوحة» فاشتد غضب السلطان فؤاد وأصدر أمراً باغلاق المجلة ولم يتراجع بيرم فأصدر مجلة جديدة سماها «الخازوق» استمر يهاجم فيها السلطان فؤاد وأسرته وإذ كان بيرم تونسيا يتمتع بالحماية الفرنسية فقد طلب السلطان فؤاد من قنصل فرنسا ابعاده عن مصر فألقى القبض عليه وتم ترحيله إلى الاسكندرية ليستقل الباخرة من هناك فى طريقه إلى فرنسا وكانت تلك بداية سنوات طويلة فى المنفى.

ولأن فاروق ولد فى ١١ من فبراير ١٩٢٠ فلابد أن يكون بيرم - طبقاً لهذه القصة - قد نفى من مصر بعد هذا التاريخ ولأن بيرم يقول : إنه نفى مع بداية أيام عيد الأضحى كما جاء فى

قصيدته التي مطلعها

يوم الدبايح كان
آخـــر مواعيدك

فلابد أن يكون قد نفي في أغسطس ١٩٢٠ . هذه القصة كان مصدرها الأساسي بيرم نفسه سواء في مذكراته التي كتبها في حلوان وانتهى منها في أول يناير ١٩٦١ أي قبل وفاته ببضعة أيام.

أو رواها قبل ذلك لأصدقائه والمعجبين بشعره وهم كثر ، أصبحت هي الرواية «الرسمية» لنفي بيرم يتناقلها كاتب عن آخر ممن كتبوا عن حياة بيرم في مصر دون أن يكلف أحد نفسه عناء توثيقها والتأكد من تفصيلاتها .

شكوك حول موضوع القصيدة

ومنذ بدأ اهتمامي بهذا الفنان العبقري واستمتاعي بما كتب من قصائد ومقامات وأغان وما نشر عنه من كتب ومقالات ، ساورتني شكوك كثيرة في صحة هذه الرواية ومصداقيتها لأسباب كثيرة منها :

أولاً : أن السلطان فؤاد تزوج من نازلي في ٢٤ من مايو ١٩١٩ وفاروق ولد في ١١ من فبراير ١٩٢٠ أي بعد الزواج بثمانية شهور ونصف شهر وهو زمن كاف علمياً وطبياً للحمل والولادة دون حاجة إلى تبرير ذلك بعلاقة غير شرعية .

ثانيا : أن السلطان فؤاد بحكم وضعه وشخصيته وعقليته المحافظة لم يكن ممن يتورط في علاقة نسائية ثم «يصلح غلطته» بالزواج من ضحيته .

ثالثا: ليس هناك ما يشير إلي أن زواج فؤاد من نازلي كان عن حب جارف أو علاقة سابقة علي الزواج بل يبدو أنه كان زواجاً تقليديا تم ترتيبه بين العائلتين إذ يقول الزعيم محمد فريد في مذكراته «من الأمور السارة ما بلغني من توفيق بك زاهر أن بنت عبد الرحيم باشا صبري (نازلي) التي كان خطبها السلطان فؤاد لتكون زوجة له رفضت بتاتاً الاقتران به عقب هذه الحوادث (ثورة ١٩١٩) لما علمت أن فؤاد طلب من الانجليز حرسا لحمايته ولم تكتف هذه الشابة بذلك بل دخلت في الحركة الوطنية واشتركت في مظاهرات السيدات وفي الأعمال الوطنية مثل تأسيس جمعيات أو ملاجيء للأيتام أو ما شاكل». ويعود محمد فريد بعد ذلك فيقول «بكل أسف لم يتأكد خبر رفض ابنة عبد الرحيم صبري الاقتران بالسلطان فؤاد كما كان قد بلغنا من توفيق زاهر ومن الأميرة أمينة هانم حرم حسين شيرين بك بل ذكرت الجرائد تلغرافاً من العاصمة بأنه عقد عليها» . يفهم من ذلك أن نازلي كانت مخطوبة لفؤاد ثم ترددت في اتمام الزواج ولكنها قبلت في النهاية ولعل شرف مصاهرة سلطان البلاد كان أمراً يصعب رفضه من جانب أسرتها وربما منها هي شخصيا أيضا، خصوصا أن عبد الرحيم صبري باشا تم تعيينه وزيرا للزراعة في وزارة محمد سعيد باشا في مايو ١٩١٩ .

رابعا: أن أي قراءة متأنية مدققة لقصيدة «القرع السلطاني» يستبين منها أن المقصود ليس السلطان فؤاد وخطيبته بل السلطان فؤاد وابنته إذ تقول القصيدة:

يا راكب الفيتون وقلبك حامي

حوّد على القبة
وسوق قدامى
تلقى العروسة مثل
محمل شامى
وأبوها يشبه فى
الشوارب عنتر

والإشارة إلي القبة المقصود بها سراي القبة، كما أن والد العروسة الذي يشبه في الشوارب عنتر إشارة واضحة إلي السلطان فؤاد، فلم يكن عبد الرحيم صبري «عنترا» في شيء بل كان فيما يبدو رجلاً لطيفا فكما يقول سعد باشا زغلول في مذكراته (الجزء الثامن) انه حضر «احتفال جمعية الاسعاف في الأوبرا وكان التمثيل في الغالب رقصا وغناء قام به جماعة من غواة وغاويات الاسرائيليين (يعني اليهود)..... وكنت مع عبد الرحيم صبري ونجله حسين، واسماعيل صدقي في لوج واحد وكانوا كلما لاحت فتاة تعجب الأب يتكلم مع الأبن عنها وعن جمالها».

من المقصود بالقصيدة؟

وحقيقة الامر في أصل هذه القصيدة أنه شاع في ذلك الوقت أن فوقية ابنة فؤاد من زوجته السابقة شويكار كانت علي علاقة عاطفية بجعفر فخري ولما رفض أن يتزوجها اقترن بها بدلاً منه شقيقه محمود باشا فخري وعينه السلطان فؤاد محافظاً للقاهرة، وهو الذي يعنيه بيرم في مقالة بعنوان «لعنة الله علي المحافظ» الذي نشره في العدد الأول والأخير من مجلة الخازوق كما سبقت الإشارة، وبعد إعلان استقلال مصر عام ١٩٢٢ أرسله الملك فؤاد وزيراً مفوضا لمصر في باريس وبقي في هذا المنصب أربعة عشر عاما وقيل أن سبب نقله إلي باريس وبقائه فيها كان بهدف إبعاد فوقية عن القاهرة نظراً لما عرف عنها من جرأة في سلوكها الاجتماعي لم تكن مما يتقبله مجتمع القاهرة في عشرينات القرن الماضي.


بيرم التونسي

هذه هي المناسبة التي ألف فيها بيرم قصيدة «القرع السلطاني» كما جاء في كتاب ابن بيرم التونسي عن أبيه وكما أورده أكثر من واحد ممن كتبوا عن حياة بيرم.

خامساً: أن اعتذار بيرم عن مهاجمته للسلطان فؤاد وأسرته لم يبدأ بقصيدته المعروفة:

غلبت اقطع تذاكر
وشبعت يا قلبى غربة

التي وجهها إلي الملك فاروق ونشرها بعد عودته الثانية إلي مصر عام ١٩٣٨ كما يظن كثيرون بل له قصيدة واحدة علي الأقل . حاول فيها الاعتذار للملك فؤاد نفسه وسعي إلي استرضائه وهي قصيدة طويلة عنوانها «وأنا اللىّ جيت من سيالة» يبدأها بقوله

يا ابو الفاروق لما اسكندر
حكم على الدنيا ودبر

ثم ينتقل إلي الحديث عن الاسكندرية والاسكندرانية وانهم جميعا «شُضلية» ينفعلون فيخطئون ويندفعون في الخطأ حتي ينالهم من الأذي ما لا يطيقون:

الاسكندرانى إذا تحمس

يفقد صوابه ويتطلمس
لحد ما يروح متكريس
فى نقرة ابليس يخشاها

ويخاطب الملك فؤاد بعد ذلك قائلاً:

والحق نقطع له رؤوسنا
نقطعها احنا بأنفسنا
ما دام مليكنا وريسنا
عالدفة ماسك مجراها

....

ومين يا ريسنا يفوقك
دم الملوك مالى عروقك
وصل جدودك بفاروقك
ورعرع الشجرة اياها

ومن المستبعد أن يكون قد اتهم فاروق بأنه «ابن حرام» كما يقول الأستاذ كمال سعد ثم يأتي بعد أقل من عامين ليتوسل إلي الملك فؤاد ليعفو عنه .

حقيقة القصة

استمرت هذه الشكوك تساورني حتي اطلعت في السنوات الأخيرة علي بعض الكتب والدراسات التي نشرت عن بيرم التونسي خارج مصر فقطعت الشك باليقين وتأكد لي أن بيرم نفي من مصر عام ١٩١٩ أي قبل مولد الملك فاروق بشهور.

أول هذه الكتابات هي مذكرات بيرم التونسي نفسه، ولبيرم ثلاث مجموعات من المذكرات المنشورة هي «مذكراتي» التي كتبها في حلوان وانتهي منها في أول يناير ١٩٦١ أي قبل وفاته بخمسة أيام وهي أقرب إلي السيرة الذاتية منها إلي المذكرات اليومية. والمجموعة الثانية بعنوان «مرسيليا» وقد نشرها في حلقات أسبوعية في جريدة «الزمان» التونسية بين ٢٣ من مايو ١٩٢٣ و١٨ من يوليو ١٩٢٣ وتناول فيها فترة اقامته في مرسيليا عندما وصلها منفيا من مصر. أما المجموعة الثالثة - وهي التي تعنينا في هذا المقام - فعنوانها «مذكرات المنفي» نشر منها تسع حلقات في جريدة «الشباب» التونسية في الفترة بين ٢٩ من أكتوبر ١٩٣٦ و٥ من مارس ١٩٣٧ ثم حلقتين في جريدة «السردوك» التونسية في ٥ من أبريل ١٩٣٧ و١٤ من أبريل ١٩٣٧ ويستهل بيرم هذه المذكرات - علي أسلوب اليوميات - بتاريخ ١٧ أوت (أغسطس) ١٩١٩ قائلا «وجدت تذكرة السفر التي صرفها لي قنصل فرنسا في الاسكندرية من تذاكر الدرجة الرابعة التي تتكرم بها الحكومة للمسافرين علي حسابها. قدمت الباخرة «تشيلي» وهي من بواخر «المساجيري ماريتيم» إلي الاسكندرية مشحونة بعشرات العائلات السورية الفقيرة المهاجرة ويبدأ الجزء التالي من المذكرات بتاريخ «٢٠ أوت» وهو مازال علي ظهر الباخرة ويستمر في الكتابة بعد ذلك ولكن بدون ذكر تاريخ لما يكتب فيتناول وصوله إلي مرسيليا ووصف احيائها وسكانها ومعاناته في البحث عن عمل .. إلخ.

ثم اطلعت بعد ذلك علي الدراسة القيمة التي نشرها الدكتور محمد صالح الجابري بعنوان «محمود بيرم التونسي في المنفي» وهي أطروحته التي نال عليها درجة الدكتوراه ويقول في ص ٦١ من الجزء الأول انه عثر «علي برقية في أرشيف وزارة الداخلية بتونس واردة من قنصل فرنسا بالاسكندرية موجهة إلي مصلحة الدولة التونسية مؤرخة بتاريخ ١٩١٩/١٢/٢ جاء فيها : يعلم قنصل فرنسا بالاسكندرية انه أبحر يوم ٢١ أكتوبر الماضي علي متن الباخرة «تشيلي» تونس يدعي محمود بيرم، مطرود من التراب المصري بسبب

تصرفاته التي من شأنها أن تسيء للسمعة الطيبة للجالية الفرنسية» ويضيف الدكتور الجابري أيضا «أنه يبدو حسب تلغراف صادر من مصلحة الأمن بمرسيليا بتاريخ ١٩١٩/١٠/٣١ إلي مدير الأمن بتونس أن بيرم غادر هذه المدينة (مرسيليا) في هذا اليوم في اتجاه تونس علي متن الباخرة «سترافانيل» وتفيد وثائق أرشيف وزارة الداخلية بتونس من خلال تقرير مؤرخ في ١٩١٩/١١/٦ لأحد المخبرين الذي كلفوا بتعقب بيرم «انه تم التعرف علي هذا الأخير وانه قضي المساء في مقهي فرنسا صحبة مختار الزواوي.. والمراقبة مستمرة» وأخيراً جاء كتاب الباحثة «مارلين بوث» باللغة الانجليزية وعنوانه «مصر بيرم التونسي» فأكدت في ضوء ما رجعت إليه من وثائق في محفوظات إدارات الأمن في مرسيليا وفي تونس أن بيرم غادر مصر منفيا في النصف الثاني من عام ١٩١٩.

جملة القول أن بيرم نفي من مصر في المرة الأولي عام ١٩١٩ أي قبل مولد فاروق الذي كان عام ١٩٢٠، وفي غياب مايفيد بتواريخ نشر قصائد بيرم يمكن تصور الأحداث علي الوجه التالي: انه نفي في المرة الأولي عام ١٩١٩ بسبب قصيدة «القرع السلطاني» ثم عاد إلي مصر متسللا عام ١٩٢٢ وقبل وصوله أو بعده حاول استرضاء الملك فؤاد فمدحه بقصيدة «وأنا اللي جيت من سيالة» ليعفو عنه، فلما لم يفلح مسعاه وأعيد نفيه ، بعد بضعة شهور علي الأرجح، قضاها في مصر



عبد الرحيم باشا صبري

متخفيا، ثار غضبه فعاد إلي مهاجمة الملك فؤاد وكتب قصائد «ولما عدمنا في مصر الملوك» و«ما تلتيش يا راعي الرعيان» أما قصيدة «إسمع حكايتنا وبعدها هأ هأ» التي يقول الأستاذ يسري العزب إنها لم تنشر في الصحف وإنما شاعت بين الناس فإذا صحت نسبتها إلي بيرم فربما يكون قد أرسلها من فرنسا قبل أن يفكر في العودة إلي مصر أو بعد نفيه الثاني. الذى استمر حتي عام ١٩٣٨ عندما تسلل إلي مصر مرة أخري ومدح الملك فاروق فعفا عنه .

سبب نفي بيرم

أخيراً يبقي تساؤل عما جاء في مذكرات بيرم من أنه نفي من مصر بسبب قصائده عن الفضائح السلطانية - علي حد تعبيره - ولم يذكر من هذه الفضائح إلا قصة فؤاد ونازلي وأن فاروق ولد بعد ستة شهور من الزواج وهو ما نقله عنه عدد ممن كتبوا عن حياته . والأمر فى تقديرى لا يخرج عن احتمالين الأول أن تكون الذاكرة قد خانت بيرم أو اختلط الأمر عليه خصوصا وانه كتب المذكرات فى أيامه الأخيرة وكان يعانى من المرض وأزمات الربو، والثانى يكون قد شعر بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بالحرج بسبب قصائده فى مدح الملك فاروق واستعطافه فأراد أن يؤكد أنه أحد ضحاياه وأنه أول من هاجمه هو ووالده فؤاد . ■

المرأة والإبداع



98
الهلال
رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

منيرة المهدية

سلطانة عصر السلاطين

بقلم

مؤمن حسين

شهدت السنوات السابقة على ثورة ١٩١٩ مرحلة تطور فى الحياة الاجتماعية المصرية، عندما نضج الشعور الوطنى ونما فى وجه الاحتلال الإنجليزى، وعبر عن نفسه أروع تعبير من خلال وحدته الوطنية وإدراكه للأحداث الدولية من حوله.

انعكس هذا النضج أيضا على كثير من الفنون التى تجسدت فى إهابها المصرى، ورسخت مكانتها على أيدى جيل من الرواد فى المجالات المختلفة من شعر ورواية وموسيقا ومسرح. فعندما كان سلامة حجازى ومنيرة المهدية يتناوبان النجاحات على خشبة المسرح الغنائى كرائدين لهذا الفن، أصدر الدكتور محمد حسين هيكل أول رواية مصرية بالمفهوم الفنى للرواية «زينب» عام ١٩١٢، ونشر محمد تيمور أول قصة مصرية «فى القطار» عام ١٩١٧.

كانت ريادة منيرة المهدية للمسرح الغنائى ريادة ذات ملامح خاصة، فابنة الريف المصرى الآتية من محافظة الشرقية، وبالتحديد من قرية المهدية، هى أول امرأة مصرية تعرفها مسارح القاهرة، وعندما وقفت لأول مرة على خشبة مسرح «الشانزليزيه» بالفجالة، مع فرقة عزيز عيد صيف عام ١٩١٥ لتغنى بين فصول مسرحية «صلاح الدين الأيوبى»، كان المسرح يمتلئ عن آخره بالحضور. وعلى الرغم من شهرة عزيز عيد وفرقته ورسوخ قدمه، فإن واقع الأمر أن من تجمعوا فى مسرح «الشانزليزيه» وملأوا كل مقاعده إنما جاءوا ليسمعوا هذه المطربة المصرية ذات الصوت القوى الجميل.

مسرح منيرة المهدية

أدركت منيرة المهدية بذكائها الفطرى مدى تأثيرها فى المستمعين، فلم ترض بهذا الوجود الهامشى الذى يقف بها عند الغناء بين فصول المسرحية فقط، دون المشاركة فى الأداء التمثيلى على خشبة المسرح، ففكرت فى تكوين فرقة خاصة بها، تستوعب طاقاتها الفنية وطموحها المتدفق، وتقدم من خلالها مايشبع جمهورها الذى كان يزداد يوما بعد يوم.

ومع حلول خريف عام ١٩١٥ كانت

منيرة المهدية قد استقرت بها الحال على رأس فرقة من تأسيسها ، تقدم مسرحيات أستاذها وزميل ريادتها المسرحية الشيخ سلامة حجازى.

قدمت فرقة منيرة المهدية أعمالا ضخمة، لعبت فيها البطولة، ولكن فى أدوار الرجال، فقد كان التمثيل المسرحي حتى ذلك الحين رجاليا، والأدوار النسائية إما أن تسند لرجال يجيدون تقمص هذه الأدوار أو لنساء شاميات أتين وافدات على خشبة المسرح المصرى، فما كان أمام الست منيرة إلا أن تلبس ملابس الرجال، وتؤدى دور البطولة الرجالية فى عدة أعمال منها دور «روميو» فى مسرحية «شهداء الغرام»، ودور «راول» فى مسرحية «صلاح الدين الأيوبى» .. وغير ذلك من المسرحيات.



السلطانة تزين صدرها النياشين

أزمة المسرح

استطاعت منيرة المهدية أن تستفيد من أدائها لهذه الأدوار الرجالية، التى أظهرت ملكاتها التمثيلية إلى جانب إمكاناتها الغنائية، فى الوصول الى قاعدة كبيرة من الجمهور، وملأت فراغا كبيرا من غياب الصوت النسائى المصرى، شغلته بصوت قوى معبر وذكاء أنثوى ، ومع بداية عام ١٩١٧ كانت منيرة المهدية ملء السمع والبصر، ولم يعد هناك من مطمح إلا الاستمرار والحفاظ على ما وصلت اليه من نجاح.

لم يكد الأمر يستقر حتى مثلت أشباح الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الحرب



سلامه حجازى



كامل الخلعى

تخايل الناس، فانصرفوا عن المسارح، وباتت فرق كل من جورج أبيض وسلامة حجازى وعبدالله عكاشة تعانى آثار الأزمة، وأصبحت فى وضع يهدد بالإغلاق، وما كان من منيرة المهدية الا أن تعاونت مع الكاتب المسرحى «فرح أنطون» فى محاولة للتغلب على الركود، فقدم لها مجموعة من الأوبرات العالمية لعلها تكون طوق نجاة فى بحر الكساد المتلاطم، فمثلت أوبرا «تاييس» وأوبرا «كارمن» التى كانت بداية لظهور المهدية كامرأة ممثلة لا تستتر وراء أردية الرجال، ولتصبح بحق أول ممثلة مصرية تقف على خشبة المسرح.

تعريب الأوبرا

ترجم فرح أنطون عدة أوبرات عالمية وقدمها لمنيرة المهدية، بعد أن قام بإجراء بعض التعديلات على أحداثها ومشاهدها حتى تتناسب مع إمكانات منيرة ومستمعيها، غير أن أهم مافى الأمر هو أن هذه الأوبرات قام بتلحينها كامل الخلعى، الذى عرب موسيقاها وأخضعها للمقامات الشرقية، ودونها لأول مرة فى نوتة موسيقية.

وبعيدا عن الاقتباس قدمت منيرة المهدية مجموعة من الأعمال المحلية تأليف الشيخ يونس القاضى. ونظرا لمواكبة هذه الأعمال لفعاليات وتوابع الثورة، ودعوة طلعت حرب لبناء اقتصاد مصرى، فقد امتلأت بالإسقاطات والتلميحات السياسية التى تُعرِّض بالاستعمار وخطورة سلعه ومنتجاته الوافدة على سوق المنتج المحلى، فكانت مسرحيات «كلام فى سرك»و «كلها يومين» من تلحين سيد درويش، «والتالتة تابتة» من ألحان كامل الخلعى والتى غنت فيها منيرة :

يابويا اديني عقلك
الأجنبي بدو يكلك
لو شفته في البورصة وقابلك
سلم عليه وعد صوابعك

انفعلت منيرة بثورة ١٩ ، فهى مصرية تعيش نبض المصريين وانفعالاتهم وحبهم لزعيم ثورتهم، ومن هنا كان فى بعض أغانيها رجع صدى لهتافات الشعب، وانطلقت حنجرتها فى غناء حماسى، يشبه فى ايقاعاته المارش العسكرى.

شال الحمام حط الحمام
من مصر لما للسودان
زغلول وقلبي مال اليه
انده له لما أحتاج اليه
يفهم لغاه اللي يناغيه
ويقول حميحم ياحمام

وتلتهب أكف السامعين تصفيقا لمنيرة التى تعيد وتكرر اسم زعيم الثورة فى تنويعات شجية، تستعرض فيها إمكاناتها الصوتية. لقد تجاوبت المهدية مع مشاعر الناس، واستطاعت أن تمرر هتاف

الثورة، وهذه المشاعر الجياشة فى سياق غنائى، بعيدا عن رقابة السلطات البريطانية.

وفى أوائل العشرينات، عندما تم اكتشاف مقبرة الفرعون الشاب توت عنخ آمون، عبرت منيرة عن فرحة الشعب وافتخاره بآثار أجداده، وكأنه أراد أن يقول للمستعمر الذى أجهض ثورته، ها نحن أولاء أصحاب مجد وحضارة منذ آلاف السنين، وها هى آثارنا تدل علينا.

كانت منيرة لسان حال الشعب فى التعبير عن ما يجيش فى نفسه، عندما جاء إليها أحد مؤلفى الأغانى عارضا عليها طقطوقة «توت عنخ آمون» تتحدث عن هذا الملك الشاب باعتباره جد المصريين، فما كان منها إلا أن أخذت الكلمات، ولم تمض أيام حتى كانت طقطوقة «توت عنخ آمون» مسجلة على أسطوانات شركة بيضافون وتقول كلماتها:

مابحبش زيى إن لف الكون
واحنا أبونا توت عنخ آمون
اسأل من التاريخ ينبيك
عن مجدنا ويعدين أماشيك
انت تورى الناس حتاويك
واحنا أبونا توت عنخ آمون

لقد غنت منيرة المهدية فى كل مناسبة، ولحن لها سلاطين الموسيقا فى



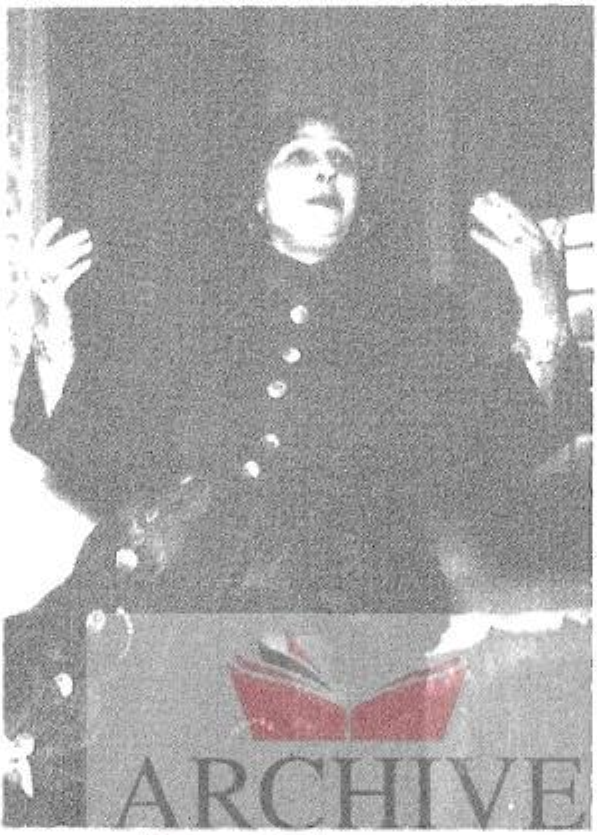
لعبت منيرة المهدية دور البطولة الرجالية فى مسرحيات عديدة مثل «شهداء الغرام» و «صلاح الدين الأيوبى»

عصرها.. سيد درويش، داوود حسنى، كامل الخلعى، سلامة حجازى، محمد عبد الوهاب.. وتنوعت أعمالها المسرحية بين المحلى والمقتبس المترجم، وغنت مع التخت

وعلى خشبة المسرح، وتنوعت كلمات أغانيها وأصابت كل غرض،

سلطانة الطرب

ظلت منيرة المهدية، لحوالى ثلث قرن من الزمان، مالكة أمر الطرب، وسلطانة مملكته المتوجة دون منافس، وعندما ظهرت أم كلثوم فى عشرينات القرن الماضى، لم تلق النجاح المرجو، فلم يطرب لها سميعة منيرة، وظلوا على وفائهم لسلطانتهم. وهاهو بطل ثلاثية نجيب محفوظ «السيد أحمد عبد الجواد»، هذا العاشق للطرب الأصيل الذى لم يسلم أذنه إلا لأصحاب الموهبة الكبيرة، فى جلسة مع ندمائه وجليلة العالمة، يتحاورون حول أم كلثوم ومنيرة ..



السلطانة فى سنواتها الأخيرة

- البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهدية، ومنهم من يقول بأن صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها.

- كلام فارغ.. أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟!

وعندما غنت منيرة أمام الخديو عباس الثانى، أغدق عليها المال وقال لها «لو كنت رجلا لما ترددت فى الإنعام عليك برتبة الباشوية»..

وأخيرا.. هذه هى منيرة المهدية، وهذه ملامح ريادتها للمسرح الغنائى خاصة والغناء المصرى عامة فى مطلع القرن الماضى، وإذا كان الخديو عباس الثانى قد تردد فى الإنعام عليها بالباشوية فإن جمهورها لم يتردد فى منحها لقب «السلطانة».. فهى بالفعل سلطانة .. سلطانة لعصر من السلاطين. ■


المرأة والإبداع
قصة قصيرة
إنها إمرأة
بقلم
نفيسة عبد الفتاح

هزتها السيارة بعنف .. ياله من سائق أجبرها الخبر على الركوب معه.

تنفست بعمق وضيق فالحقيقة أنها لم تكن لتستطيع الانتظار لمدة ساعة أخرى موعد انطلاق أول أوتوبيس إلى السويس.

كيف طاوعه قلبه فى أن يخفى عنها مثل هذا الأمر؟ أليست هى زوجته وحبيبته التى ستزف إليه بعد أقل من شهر؟!!.

هزتها السيارة ثانية.. تافقت مفتقدة سيارتها.. ماذا لو أن والدها مهندس الميكانيكا قد علمها السمكرة والدوكو فى أى ورشة مثلما علمها كل شىء عن السيارة حتى تصلح سيارتها فى هذه الناحية أيضا بنفسها؟.

شعرت أنها ربما كانت نعمة من الله أن لاتقود السيارة لهذا السبب وهى فى مثل تلك الحالة العصبية



السيئة.

كانت الفرد الأخير المتمم لركاب السيارة، اضطرت إلى أن تركب على مقعد غير مريح بالمرة فوق الإطار الخلفى تماما .. هكذا المضطر يركب الصعب، الرجل إلى جوارها يحرك ساقه بطريقة تجعلها تحتك بساقها، حاولت أن تتحرك مبتعدة بقدر ما يتيحه ضيق المكان ثم نظرت اليه كى تنبهه، ابتسم وأومأ بخبث واسكن ساقه. استشعرت نواياه، ذكرت كيف كانت فى بداية المرحلة الثانوية مع أول تعامل لها مع المواصلات العامة تلتمس اعذار إرغام الزحام أو المصادفة أو ... أو ... لكل من يتعدى خط الاقتراب الأحمر مثيرا هواجسها فكانت رحلتها من المدرسة إلى البيت وبالعكس - فى معظم الأوقات - سلسلة من التحركات المراوغة لتفادى تلك الملامسات حتى كانت تلك المرة التى تركت فيها أثرا لا يمحى، تركت لديها رادارا خاصا تستطيع أن تميز به بين المقصود وغير المقصود، يومها ألجمها الخجل وأعجزها الزحام عن المراوغة لكنها لم تصمد طويلا فقد صرخت فيه وانهارت باكية. ألهبتها التساؤلات الصامتة عما حدث .. انفجارات السباب المساندة .. كلمات الشفقة المتألمة وحتى محاولات الفاسق فى الدفاع عن نفسه بإتهامها بإلقاء التهم جزافا على الناس .. «وعشان ما أنت حلوة شوية فاكره كل الناس تبص لك» كل هذه

الأشياء مجتمعة جعلتها تتمنى لو لم تبك. كل قطع الحجارة التى تمر عليها السيارة تجعلها تقفز خفيفا فى جلساتها فتتشبث بظهر المقعد المواجه محافظة على أقصى درجات الثبات الممكن. الرجل إلى جوارها يحاول الاقتراب ولكنها تتكمش بجسدها حتى تلتصق بجانب السيارة. تذكرت كيف كرهت ضعفها يوم بكت وبدأت علامات الغضب فى الإرتسام على ملامحها فمن المؤكد أن حالة القلق الشديد على زوجها لاتحتاج إلى مثل هذا الرجل المستفز .. ارتسمت صورته أمام عينيها باسما مشجعا - هو كذلك دائما - رنت فى أذنيها ضحكته الصافية وهو يقول أمى تخاف على منك تقول لى دائما أنك امرأة شديدة فأقول لها ابنك أسد كان ورائها دائما .. لم يثبط عزيمتها يوما وهى



تتصدى للصوص وتتسبب فى إيقاف المشروع الهندسى الضخم الملىء بالسلب والنهب وإحالة القائمين عليه إلى النيابة، ابتسمت بمرارة وهى تتذكر كل الإغراءات التى عرضت عليها وكل التهديدات التى تعرضت لها بوصفها مهندسة الحكومة المسئولة عن متابعة تنفيذ العملية، أين هم الآن بإغراءاتهم وتهديداتهم؟ لعل الوحشة والبرودة وضياع العمر خلف جدران السجن هم العقاب الأمثل لكل من هم على شاكلتهم. استغل الرجل شرودها وأعاد تحريك ساقه بنفس الطريقة، بغضب التفتت إليه ثم تراجعت وابتلعت بعضا من غضبها وضغطت على أسنانها .. يا استاذ!!!. ابتسم وأسكن ساقه مرة ثانية، أطلقت زفرة نفثت فيها غضبها. بالتاكيد كان يعلم أنها ستتوتر لهفا عليه ولهذا أخفى عنها الأمر .. وعكة صحية؟! ماحدود تلك الوعكة؟ ولماذا لم يعد إلى القاهرة؟ ربما كان الأمر أكبر بكثير مما قالته أخته وإلا ما احتاج إلى دخول المستشفى .. سترك يارب. من الواضح أن الأخت العزيزة قد هونت عليها الأمر بعد أن فوجئت بها لاتعرف شيئا على الإطلاق عن الموضوع.

يا الله .. السيارة تزمجر وتتلكأ منتفضة بين الحين والحين ثم تتوقف هذا التوقف هو ماكان ينقصها. ارتفع صوت السائق يسب ويلعن فيمن أصلحها له من قبل وخرج ليعمل

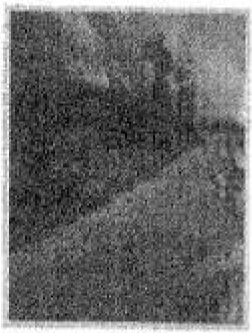
فى بعض أجزاء المحرك علها تسير. الدقائق طويلة طويلة والقلق لايسمح لها بمزيد من الصبر.

تحركت من مقعدها وخرجت اليه ووسط دهشته ودهشة الركاب طلبت منه أن يترك الأمر لها، أقل من خمس دقائق وكانت السيارة تعمل.

عادت إلى مقعدها محاصرة بنظرات الإعجاب والتعجب ودعوات السائق بعمار بيتها وسلامة يمينها، دقائق وعاد الرجل المجاور الى محاولاته، نفرت عروقها واندفعت الدماء إلى وجنتيها استدارت إليه وفى صمت رفعت قبضتها غاضبة مردعة وهوت بها فوق أنفه ثم اعتدلت في مكانها. ألجمته المفاجأة .. انحشرت آه مكتومة فى حلقه. الرجل الثالث على نفس المقعد شاهد الموقف متسع الحدقتين فاغر الفاه ..لم ينبس بكلمة

.. كانت صدمة سال خيط رفيع من الدم القانى تحت أنف الرجل أخرج منديلا ووضعه على أنفه فى صمت ووجوم. ظهرت سنتيمرات فاصلة بينهما جمد الرجل عن تقليصها، تنفست محاولة الاسترخاء بترقب الطريق السويس أخيرا .. قفزت درجات سلم المستشفى قفزا بعد أن سألت عن غرفته، كل شيء فيها يرتعد، هذه هى الغرفة .. إحدى المرضات فى الممر الخارجي لاحظت وقفتها المرتبكة .. سألتها إن كانت تريد شيئا.

– مهندس محمود من شركة البترول .



– نعم هنا

فتحت لها الباب. ما أن رأته بأربطته وضماداته حتى أطلقت صرخة فزع مكتومة، طمأنتها الممرضة كسر فى الذراع وبعض الرضوض البسيطة، أعصابها لاتحتمل. كان نائما .. إقتربت منه ومدت يدها المحملة بلهفتها من خصلات شعره تتحسسه. اصطدمت أصابعها بضمادات رأسه الرطبة، أخرجت أصابعها المرتعشة مخضبة بالحمرة .. حملقت فى يدها مذعورة غابت عن الوعى، فتحت عينيها على محاولات الممرضة لافاقتها . التفتت إليه فأطلق زفرة ارتياح، ابتسم لها فى تودد .. افزعتنى .. أهكذا .. أهكذا تفعل بك بعض الضمادات .. يالها من صلابة يا أعظم مهندسة . ■



سحر الشرق ونفوذ الجارية

بقلم
حمدي البطران

منذ بداية القرن السابع عشر ، بدأ المغامرون الأوروبيون يفدون إلى مصر بصفة خاصة ، والشرق بصفة عامة ، كل منهم له هدف ، سوء جاء بمبادرة شخصية منه للاستمتاع بسحر الشرق والجو الصحي والعلاج مثل لهدي أوف جوردون ، أو من جاء منهم مكلفا بمهمة من قبل جمعيات أو دول مثل ريتشارد . ف بيرتون ، أو يكون الرجل مغامرا وله طموح سياسي مثل ستانلي وبيكر مكتشفا منابع النيل ، وفي أحيان أخرى يكون الرحالة من الكتاب أو الأدباء مثل الانجليزية إميليا إدواردز ، وجيرار دي نرفال الفرنسي .

كتبت إميليا إدواردز تحت عنوان رحلة الألف ميل ، وكتب نرفال رحلة إلى الشرق وكل من الكتابين يعتبر من روائع الأدب حيث يمتزج الأدب بالتاريخ وسحر الشرق ، والعشق ، سجل كل منهم تجربته بين المصريين .

رحلة نرفال لمصر

أما رحلة جيرار دي نرفال فقد كانت في منتصف القرن التاسع عشر بعد وفاة محمد علي وتولي عباس . بدأ نرفال رحلته إلى القاهرة من باريس ، وعندما وصل إلى القاهرة استأجر ترجمانا اسمه عبدالله ، وكان عبدالله ككل التراجمة في تلك الوقت مسلحا بكل الأبهة والفخامة ، وكان معه ترجمان آخر صغير وزنجي يحمل له غليونه ، وقاده الترجمان إلى الفندق الإنجليزي في ميدان الأزبكية ، ورفض جيرار الإقامة فيه لارتفاع تكاليفه ، وعرض عليه عبدالله الإقامة في فندق دومرجو الفرنسي ، ورفض عبدالله أن يقيم معه في هذا الفندق الرخيص لأنه يريد أن يحافظ على مستواه ولا يقيم في فندق فرنسي

رخيص ، ومع ذلك فلم يكن الفندق رخيصاً في نظر نيرفال الذي يريد أن يقيم في القاهرة بأقل التكاليف ، ولا سيما في بلد يقل سعر كل شيء فيه ست مرات عن نظيره في فرنسا ، وعرض عليه عبدالله أن يستأجر له بيتا في المدينة ، ولما كان نيرفال يريد أن يحيا حياة شرقية تماماً فقد عرض عليه عبدالله عدة منازل مكونة من عدة طوابق ، وقاعات ازدانت بزينة رائعة مثل الأرضيات الرخامية والنافورات والدهاليز والسلالم على غرار قصور البندقية وجنوا ، هذا فضلا عن الأفنية المحاطة بالأعمدة والحدائق التي تظللها الأشجار النادرة ، ومع ذلك رفض نيرفال لأنه لايريد أن يعيش حياة المعسكرات بمفرده في ركن من أركان قصر شاسع ، وانتهى الأمر بمنزل أقل اتساعا .

وجاء شيخ الحارة لحضور عقد الاتفاق مع السيدة القبطية التي تمتلك المنزل بالوكالة عن بعض الأجانب حيث لم يكن لهم حق الملكية العقارية في ذلك الوقت ، كتب شيخ الحارة العقد باللغة العربية ، وكان على نيرفال أن يدفع نفقات العقد وهدايا لشيخ الحارة ومسجل العقود ورئيس أقرب نقطة لحراسة المنزل ، وسلمه شيخ الحارة مفتاح المنزل الخشبي ، وكان ضخماً لا يمكن وضعه في الجيب ولكنه يعلق في الرقبة ، وكان على نيرفال تأثيث المنزل وجاء المنجدون والنجارون وأحالوا المنسوجات الإيرانية في بضع ساعات إلى أرائك ووسائد ، وصنعوا له قفصاً طويلاً من جريد النخيل يستخدم كسرير ، ويقول نيرفال أن الباشا فقط هو الذي يمتلك أثاثاً كهذا ، وبعد أن جهز البيت فوجيء نيرفال بشيخ الحارة ومعه كاتبه والزنجي حامل النرجيلة ، وبدأ معه الحديث الذي ترجمه عبدالله :

- يجب ترك البيت .

- لماذا ؟

- يقول أن أحدا لايعرف على أي نحو، وماهي أخلاقك .

هل لاحظ أن أخلاقي سيئة ؟

ليس هذا مايقصده ، فهو لايدرى شيئاً عن هذا الموضوع .

إذن فرأيه في هذا ليس طيباً .

يقول أنه كان يظن أنك سوف تعيش في المنزل مع امرأة .

ولكنني لست متزوجاً .

إنه لايعنيه في شيء أن تكون متزوجاً أو لا تكون ، ولكنه يقول إن جيرانك لهم نساء ، وسوف يقلقهم ألا تكون لك امرأة ، مهما يكن فهذا هو العرف هنا .

وماذا يريد مني أن أفعل ؟

- عليك أن تغادر البيت ، أو تختار لك امرأة لتعيش معك .

قال أنه ليس من اللائق في بلادنا أن يعيش المرء مع امرأة لا يكون زوجها .

ويقول نيرفال إن رد الشيخ على تلك بالحوطة الأخلاقية جاء مصحوباً بتعبير أبوي لم تستطع الألفاظ المترجمة أن تؤدي معناه فيما يبدو إلا بشكل ناقص ، وأخبره عبدالله أن شيخ الحارة يسدي له النصيحة، فهو يقول له أن أفنديا مثلك لاينبغي أن يعيش بمفرده ، وأنه من المشرف دائماً أن تأوي امرأة وتطعمها وتسدي لها الخير ، وأحسن من ذلك أن تطعم الكثيرات منهن ، إذا سمح لك الدين الذي تعتنقه بذلك .

وبعد ثمانية أيام أرسل شيخ الحارة بعض العمال صعدوا إلى سطح البيت ، وكان نيرفال نائماً نوم القيلولة ، وأيقظه صخب العمال ، وقال له الترجمان عبدالله:

- لقد أنذرتك هذا الصباح ؟

- إنك تخطيء بجلوسك فوق سطح المنزل .

– لقد قلت لي أنه من الأفضل ألا أصعد إلا ليلاً حتى لا أزعج الجيران .

– ولكنك بقيت نائماً حتى طلوع الشمس

– وماذا حدث ؟

– يوجد الآن عمال يعملون لحسابك فوق السطح ، وقد بعثهم شيخ الحارة منذ ساعة .

وبالفعل كان العمال والنجارون يعملون على إقامة حاجز يحجب الرؤية عن ناحية يسرها عن سطح المنزل ، وقال له عبدالله الترجمان :

– من هذه الجهة توجد حديقة إحدى ربات البيوت (خانون) وقد تقدمت بشكوى أنك نظرت إلى منزلها .

– ولكني لم أرها .

– أما هي فقد رأتك ، وفي هذا الكفاية.

– وكم تبلغ هذه السيدة من العمر .

– إنها أرملة فوق الخمسين .

وبدا هذا الأمر «لنيرفال» سخيفاً ، وقام بانتزاع العرائش التي أحاطوا بها السطح وقذف بها للخارج ، وانسحب العمال للخارج ، لأن أحدا في القاهرة اللهم إلا إذا كان الجنس التركي لايستطيع أن يقاوم الإفرنج . وبعد ساعة جاء شيخ البلد وأخبره عن طريق الترجمان عبدالله أنه قد أساء تقدير معروفه عندما أجر له البيت . وقال له إن الخانون ثائرة لاسيما أن نيرفال قذف بالعريشة التي أقاموها فوق السطح إلى حديقة منزلها . وأنه في إمكانها تقديم شكوى للقاضي . وأدرك نيرفال أن الأمر سيسبب له سلسلة من المضايقات ، وقال له الشيخ :

– من اللائق أن تقوم زوجتك بزيارة الخانون ، وتقدم لها بعض الهدايا .

قال نيرفال بارتباك :

– ولكنك تعلم أنني حتى الآن ....

وصاح الشيخ وهو يضرب الأرض بقدميه :

– ما شاء الله . إنني نسيت هذا أي قدر جعل الإفرنج يسكنون هذا الحي . لقد أمهلتك ثمانية أيام .

في سوق الجواري

وكان أحد أصدقاء نيرفال قد نصحه بالزواج حسب تعاليم الديانة المسيحية ولكنه رفض لأن الزواج حسب هذه الطريقة يكلفه الكثير ، وقاده عبدالله إلى وكالة النخاسين وهناك وجد أثنا عشر عبدا مصطفين ، وكان القلق يبدو عليهم أكثر من الحزن ، وكانوا يرتدون القمصان الزرقاء التي يرتديها عامة الشعب ، وأحاط بهم عدد كبير من التجار ، ووجدا هناك خمس أو ست زنجيات جالسات في دائرة على الحصير ، وكان العدد الأكبر منهن يدخن ، وكن يقهقهن ضاحكات . ولم تعجب أي واحدة نيرفال الذي طلب مشاهدة أخريات تكون زاوية الوجه لديهن أكثر اتساعاً واللون الأسود أقل وضوحاً ، وقيل له إن الأمر يتوقف على السعر الذي تريد تقديمه ، والواحدة ممن تراهن هنا لن تكلفك سوى مائتين وخمسين فرنكا ، وهن مضمونات لمدة ثمانية أيام إذا ظهرت فيهن عيب أو عاهة . وكان التجار يعرضون أن يعروهن من الثياب ، وكانوا يفتحون شفاههن حتى لرؤية أسنانهن ، وكانوا يأمرونهن بالمشي ويولون اهتماما خاصاً لما تمتاز به نهودهن من مرونة ، ولم يعجب نيرفال ما رآه ، وذهب به عبدالله المترجم إلى عبدالكريم أشهر تاجر جواري في مصر ، وهناك شاهد خمس نساء على قدر من الجمال ، وكان الخيار شاقا فقد كن متشابهات ، ولما رأى التاجر حيرته ، أمر بإدخال جارية أخرى ، وعندما شاهدها نيرفال صدرت منه صيحة إعجاب ،فقد تعرف على العين اللوزية الشكل ، والجبين المائل المميز للجاريات اللاتي رأى رسومهن في هولندا ، وكانت وصلت البارحة في القافلة . وقال نيرفال للمترجم إنها قضت الليل في بيت عبدالكريم التاجر ، وفهم عبدالله المترجم مايعنيه نيرفال ، وأخبره أن

نساء عبدالكريم الشرعيات لن يتركنه يغازل امرأة أخرى غيرهن ، وفوق ذلك فهو تاجر، ولو عرف عنه ذلك فإنه سيفقد عملاءه جميعاً ، واشترى نيرفال الجارية ، وعندما عاد بها من السوق إلى البيت وجد نفسه محاصراً بطائفة من الأفكار التي لم تكن قد خطرت بباله عند الشراء ، فقد أكتشف أن عبدالكريم غشه ، فقد وجد تحت الشريط الأحمر الذي يحيط بجبتها موضع حرق في عرض القطعة الذهبية من فئة الخمس جنيهات تبدأ من منبت الشعر، وحرق آخر بنفس الشكل على صدرها وفوق هاتين العلامتين كان هناك وشم في ذقنها ، وكان منخرها الأيسر مثقوباً ، وشعرها مقصوصاً ، وعندما قدم لها الطعام في الصباح رفضت تناوله ، ورآها تنظر من النافذة إلى بعض الشبان في الملابس العسكرية كانوا يدخنون أمام البيت . أخذته الغيرة كالشرقيين ولم يعثر على كلمة بالعربية يستطيع بها أن يفهمها أن ليس من المستحب أن تنظر إلى العسكريين في الشارع ، وقرر الاستعانة بمدام بونوم الفرنسية والتي تعمل ممثلة لتقوم بدور المترجمة لعبدالله لأن أحد اليهود أخبره بأن المترجم لن يتورع عن نقل أفكار سيئة دون أن يشك في الأمر . وقامت السيدة بدور المترجم ، وطلب منها أن تسألها عن اسمها وديانتها ومغامراتها قبل أن تصل إليه وسبب امتناعها عن تناول الطعام في الصباح . أخبرته أن اسمها زينب وأنها اختطفت وهي صغيرة من على شاطئ البحر وبيعت لرجل طاعن في السن ، ولما مات بيعت في القاهرة ، وقال إنها مسلمة ، ولم تتناول الطعام في الصباح لأنها صائمة ، كان القنصل قد دعا نرفال إلى رحلة الريف ، ولم يكن من اللائق أن يصحبها معه ، كما خاف أن يتركها ليوم كامل مع الطاهي والبواب . دله القنصل على منصور القبطي ، وكان من الأقباط الذين تبعوا الحملة الفرنسية عقب رحيلها ، وأقام في مرسيليا ، وعندما استولى آل بوربون على الحكم طردوه بعد أن أبدى ولاءه للإمبراطور ، وعاد إلى القاهرة من جديد هو وزوجته . كان حلول القبطي في المنزل كافيا لحمل الطاهي على مغادرة منزله لاعتقاده أن منصور وزوجته سيحلان محله ، ولم يكن الزوجان يعرفان فنون الطهي . طلب نرفال من منصور أن يخبر الجارية بأن دورها قد حان للقيام بالطهي ، وقال نرفال أنه عجز عن وصف تعبير الكبرياء المجروحة أو الكرامة المهدرة الذي بدا عليها . وقالت المترجم :

– قل لسيدي : إنني سيدة لا خادمة ، وأنني سأكتب للباشا إذا لم يضعني في الموضع اللائق .

وصاح نرفال قائلاً :– الباشا .!. وما دخله بهذا الموضوع .؟... لقد اشتريت الجارية لخدمتي ، فإذا لم يكن لدى القدرة على كراء الخدم، فإنني لا أرى سبباً يجعلها تحجم عن القيام بأعمال المنزل ، كما تفعل النساء في كل البلاد .

وقال منصور :

– أنها تقول : إن لكل جارية الحق ، بتوجهها إلى الباشا ، وطلب إعادة بيعها ، وتغيير سيدها ، وأنها مسلمة ، ولن تقبل أبداً أداء الأعمال المهينة .

وشعر نرفال بالندم لأنه سيضطر للأنفاق عليها فيما تبقى له من الرحلة ولن يستفيد منها . وقرر أن يعلمها اللغة الفرنسية ليوفر نفقات المترجم ، وبالفعل بدأت خطوات بطيئة في تعليم اللغة ، وطلبت منه أن يعطيها ورقة وقلما لأنها تريد أن تكتب بعض الطلبات التي تريدها من سيدها

ولم تكن تعلمت الكتابة . أخبرها عن طريق منصور أن تملي طلباتها ، كان البند الأول في أنها تريد أن تلبس حبره من التافتاه الأسود على شاكلة نساء القاهرة في ذاك الوقت . والبند الثاني رغبتها في الحصول على فستان من الحرير الأخضر ، والثالث يعبر عن رغبتها في الحصول على حذاء أصفر برقبة !

ذات صباح عاد نرفال إلى المنزل فوجد الجارية قد وضعت في غرفتها إكليلا من البصل معلقا بعرض الباب ، ومجموعة أخرى من رؤوس الثوم مرصوصة بانتظام فوق الموضع الذي تنام فيه ، فما كان منه إلا أن أنتزع تلك الزينات غير اللائقة وقذف بها إلى الفناء . وما كاد يفعل ذلك حتى صاحت الجارية ثائرة ، وهرولت لالتقاط البصل وهي تبكي عندما حضر منصور القبطي الذي يعلمها الفرنسية أخبر نرفال أنه عندما ألقى البصل على الأرض فقد أهان طقسا من الطقوس المصرية من شأنه أن يمنع الأمراض والأوبئة عن المنزل وسكانه . وسرعان ما تحققت مخاوف الجارية وأصيبت بمرض غامض حاول نرفال من جانبه علاجها ولكنها لم تستجب لعلاجه أو نصائحه الطبية ، واستدعيت سيدتان من البيت المجاور وشيخة مشهورة أحضرت موقداً وأشعلت فيه النار وأحرقت عليه حجراً ، ومن شأن هذا الدخان أن يضايق الشياطين . وقامت الجارية وانحنت على الدخان ، مما سبب لها سعالاً شديداً ، والغريب أنها بدأت في التحسن حتى شفيت تماماً .

كانت أموال نرفال قد بدأت تتناقص ، وفكر في استكمال رحلته إلى لبنان وتركيا وكان يريد أن يتخلص من الجارية وقال لها

– يا طفلتي الصغيرة : إن كنت تريدين البقاء في القاهرة أنت حرة .

وكان يتوقع منها الاعتراف بالجميل ، ولكنها قالت :

– حرة !؟... ماذا تريد أن أصبح . وأين أذهب ؟ .. من الأوفق أن تبيعني مرة ثانية إلى عبدالكريم .

– لكن ياعزيزتي الأوروبي لايبيع النساء ، وقبوله مثل هذه النقود أمر شائن.

قالت باكية :

– وماذا إذن .. هل أستطيع أنا كسب عيشي . وهل أستطيع القيام بأي عمل ؟.

– ألا تستطيعين الالتحاق بخدمة سيدة من دينك ؟

– أنا أصبح خادمة . أبداً بعني مرة ثانية إلى عبدالكريم ، فيشتريني باشا من الباشاوات وأصبح عنده سيدة عظيمة .

وشعر نرفال أنها على حق ، ولما كان يعتبر نفسه مسئولا عن مصيرها فقد قال لها :

– حيث أنك لا ترغبين في البقاء في القاهرة ، فينبغي أن تتبعيني إلى بلاد أخرى

فقالت :

– أنا وأنت . سوا سوا .

على ظهر الباخرة

وأسعده هذا القرار ، وذهب إلى ميناء بولاق وحجز زورقا ليبحر إلى دمياط ومنها يستقل الباخرة «سانتا بربارا» إلى لبنان وتركيا . وكان على ظهر سانتا بربارا قبطان وساعده ينتميان إلى الكنيسة الرومانية ، وأرمني ، أما باقي النوتيه والملاحين فهم أتراك مسلمون . وعند غروب الشمس لاحظ نرفال أن المؤذن يؤذن للصلاة ، ويتجمع النوتيه ويولون وجوههم شطر مكة ويؤمهم في الصلاة أحد النوتيه له لحية شهباء ، وكان نرفال قد قرر بينه وبين نفسه أن يعتبر الجارية حرة بمجرد مغادرة مصر ، لذا فإنه لم يمنع الجارية من الصلاة مع النوتية الأتراك ، ولكنه لاحظ أن التركي ذو اللحية الشهباء يكثر من الحديث مع الجارية أكثر من غيره ،وفي أول الأمر لم يلفت الأمر

اهتمامه لأن النوتى فى عمر جدها ، ولكنه مع تطور الأمر بدأ القلق يساوره ، وهو لايعرف فيما يتحدثان ، وكلف الأرمنى أن يراقب الموقف ويخبره بما يسمعه . وبعد فترة عاد الأرمنى إلى نرفال قائلاً :

- هؤلاء الناس يقولون : إن المرأة التى برفقتك ليست ملكاً لك .!

قال نرفال :

- إنهم مخطئون ، وفى إمكانك أن تخبرهم أن عبدالكريم قد باعنى إياها فى القاهرة بخمسين كيساً ، ومعى إيصال البيع ، ومع ذلك فهذا أمر لايعنيهم .!

- إنهم يقولون أن النخاس لايملك حق بيع امرأة مسلمة لرجل مسيحى .

- إن رأيهم هذا لايهمنى ، وفى القاهرة يعرف القوم عن ذلك أكثر منهم ، وكل الإفرنج يقتنون العبيد والجوارى سواء كانوا من المسلمين أو من المسيحيين.

- ولكن هؤلاء العبيد والجوارى ليسوا زنوجاً ، فهم لايستطيعون الحصول على عبيد من الجنس الأبيض .

- أتراها بيضاء ؟

وهز الأرمنى رأسه دلالة الشك ، وقال له نرفال :

- أصغ إلى ، أما عن حقى فإنا لا أشك فيه ، فقد قمت قبل ذلك بالاستعلامات اللازمة ، ولأن عليك أن تقول للقبطان : أنه من غير اللائق أن يتحدث النوتية إلى الجارية .

وبعد أن ذهب الأرمنى وتحدث مع الأخير عاد إلى نرفال قائلاً له :

- إن القبطان قال له إنه كان فى مقدورك أن تبدأ بنهيها هى عن ذلك .

أجاب نرفال :

- لم أشأ أن أحرمها متعة الحديث بلغتها ، أو أن أمنعها من الانضمام إليهم فى الصلاة ، وأياً كان الأمر فإن الحياة على ظهر السفينة تضطر الجميع إلى أن يكونوا معاً ، ومن الصعب منع تبادل بعض الكلمات

وكان نرفال يحمل خطاب توصية لوالى عكا من صديقه «أى» ، ومنذ تلك اللحظة عرف النوتية أن ضربات العصى التى وعدهم بها لم تعد خيالا ، وأحنوا رءوسهم له . ويقول نرفال : إنه بعد تلك المشادة بينه وبينهم ظهر نوع من البرود بينه وبين الجارية ، وعندما وصلت السفينة إلى بيروت وأثناء إقامتهم فى الحجر الصحى أخبره القبطان أنه قد نمت علاقة بين الأرمنى والجارية ، وكانا يتحدثان ، ويقول نرفال :

- لم أستطع أن أغفل مافى الأرمنى من مزايا ، فهو مازال فى ريعان الشباب ، وتميزه الوسامة الآسيوية ذات الملامح الواضحة النقية التى تميز تلك الشعوب التى ولدت والعالم لم يزل فى المهد ، فقد كانت له سيما فتاة ساحرة تخفت فى ملابس الرجال ، وها أنا ذا أصبحت فى موضع ازدراء مزدوج ، إذ أننى علاوة على ذلك سيدها ، لقد كان من نصيبى أن أكون فى آن واحد مخلوعا ومسروقا .

وقرر فى نفسه أن يتخذ قراراً حاسماً وقال للأرمنى :

- أى عمل كنت تقوم به فى مصر ؟

- كنت سكرتيرا لطوسون بك ، كنت أترجم له الكتب والجرائد الفرنسية وكنت أحرر خطاباته للموظفين الأتراك ، وقد مات فجأة ، وطردت من عملى .

- والآن ماذا تنوى أن تفعل ؟

- أمل فى الدخول فى خدمة والى بيروت ، أنى أعرف أمين خزانته وهو من قومى .

- ألا تفكر فى الزواج ؟

- لست أملك مالا لكى أقدمه مهراً ، ولن تقبل أى أسرة تناسبنى ، تزوجنى بناتها بغير هذه الطريقة .

يقول نرفال : وبعد فترة سكون قلت لنفسى : لنظهر كرم أخلاقنا ونمنح السعادة للاثنين ، وأشعرتنى تلك الفكرة بالسمو والنبل ، فسوف أعتق جارية ، وأتسبب فى عقد زواج شريف ، وأمسكت بيد الأرمنى وقلت له :

- إنها تروق لك ، تزوجها فهى لك .

وكانت الجارية حاضرة ، ولكنها تجهل موضوع الحديث ، ورفع الأرمنى ذراعه فى الهواء ، كما لو كان قد ذهل لتصرف نرفال هذا ، وقال له نرفال :

- أتتردد فى القبول ، أبعد أن تغرى امرأة فى حوزة غيرك ، وتنحيها عن واجباتها ، ترفض أن تتكفل بها بعد أن أعطيتها لك ؟

ولم يفهم الأرمنى شيئاً من عبارات اللوم تلك وقد عبر عن دهشته بسلسلة من الاعتراضات القوية ، وبلغ من استيائه من تلك الافتراضات أن أسرع إلى الجارية وأحاطها علماً ، ولما علمت الجارية بما قاله نرفال ، بدا لها أن ذلك قد جرح كبرياءها .

عندما وصلا بيروت استأجر نرفال منزلا وسط منازل المسيحيين المارونيين ، ولكن الجارية لم تتوافق معهم ، وكانت تعتبر نفسها محاطة بمن هم أقل منها شأنا وكانت تطلب منهم خدمتها ، وذات صباح استيقظ نرفال فوجد فوق رأسه قسيساً مارونيا جاء إلى منزله بطريق الخطأ ، ولكنه تحدث معه وكانت الجارية حاضرة ، وأخبره نرفال بتاريخها ، كما أخبره بأنه سوف يمنحها حريتها ، لأنه لايستطيع أن يدخلها إلى فرنسا . وأخبره عن شدة تبجيلها للدين الإسلامى ، وأنه فى حقيقة الأمر شعور فطرى وطبيعى ، ولكن المارونيين الذين استضافوهم ، لم تعجبهم حركاتها ، وألحوا عليه فى بيعها ، وعرضوا عليه استحضار تركى لأتمام الأمر ، وكان الأب بلا نشيه قد عرض استضافتها فى الدير ، ويقول نرفال

- كنت أخشى أن يندفع الأب «بلانشيه» فى الخيال بدافع من قوة إيمانه، ويفكر فى أن يمنح الدير شرف تنصير إحدى المسلمات ، وكنت أخشى أن يصبح مصيرها فى منتهى التعاسة .

وحدث أن دعاه أمير بيروت لقضاء عدة أيام فى الجبل ، ودلوه على مدرسة فى بيروت للبنات تديرها سيدة من مرسيليا اسمها كارليس ، وكانت تلك المدرسة هى الوحيدة التى تمارس بها اللغة الفرنسية ، وبعد أسابيع من إقامتها فى المدرسة ، انتحت به مدام كارليس وقالت له : لن أيأس من الوصول إلى تبشيرها بالمسيحية .

غير أن الجارية أصرت على موقفها ويقول نرفال فى خاتمة كتابه الذى نشر فى سنة ١٨٥١ :

- يبدو أن الجزء الأول من هذا المؤلف لقى ما لقى من نجاح بسبب ما اتسمت به قصة الجارية الهندية ، وهى حية ترزق ، وقد اضطررت إلى تغيير اسمها فى المطبوعة ، وهى الآن متزوجة فى إحدى مدن الشام ، وأن مصيرها استقر بصورة سعيدة إن الرحالة الذى ألقى نفسه دون تفكير عميق تسبب إلى الأبد فى تغيير حياتها ، لم يطمئن بالا على مستقبلها إلا حينما علم أن وضعها الحالى كان من اختيارها المطلق وقد ظلت على عقيدتها الإسلامية ، رغم كل الجهود التى حملتها على اعتناق الأفكار المسيحية ، ولن يستطيع الفرنسيون من الآن فصاعدا شراء الجوارى من مصر لأن أحداً منهم لن يجازف بإلقاء نفسه فى المتاعب التى تجرها مثل تلك المسئولية الأدبية . ■

تقارير السيدة راء

أعمال رضوى عاشور...

والتاريخ بين الواقعية والتجريب

بقلم
د. عزة مازن

تقارير السيدة راء للدكتورة رضوى عاشور . يستوقفك العنوان فيستغرقك التساؤل هل هى مجموعة قصصية كما يطالعك الغلاف، أم سيرة ذاتية للكاتبة كما يدل العنوان، أم أنه نص جديد يجمع بين خصائص النوعين؟ تحملك الدهشة لتدلف داخل صفحات الكتاب فإذا بك بصدد نصوص بعضها ساخرة ضاحكة، ولكنها السخرية التى تغلف النقد اللاذع والرؤية الثاقبة، وبعضها الآخر يتدثر فى غلالة شفافة من الحزن

على مدى اثنى عشر تقريرا تطالعك راء نفس الاسم ونفس التكوين النفسى والأخلاقى ونفس الشخصية، ولكنها فى كل مرة فى محيط اجتماعى مختلف وفى مكان مختلف فهى تارة امرأة عاملة، وتارة امرأة وحيدة وأخرى أم العدد كبير من الأطفال وأحيانا أخرى هى شخصية اجتماعية مرموقة أو أستاذ أكاديمى متميز كل مرة شخصية جديدة ومكان جديد ولكن نفس الملامح النفسية والأخلاقية والعقلية، تتوقف التقارير عند أحداث مهمة فى تاريخ الأمة العربية، تتناولها فى تحليل عميق يكشف المتناقضات ويربط الأحداث.

تقارير السيدة راء، نص تجريبى جديد يناقش الحاضر بأبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويتوقف عند التواريخ المهمة فى حياة الأمة العربية ولكنه ليس النص التجريبى الأول للكاتبة. ففى روايتها أطياف (١٩٩٩) تقدم رضوى عاشور تجربة إبداعية جديدة تجمع بين الرواية والسيرة الذاتية فتدخل الكاتبة النص بوصفها أحد أبطاله، وعلى الجانب الآخر تقف شجر، الشخصية الأخرى

المتخيلة لتكون الصوت الآخر أو القرين الذى يسهم فى التعليق على الأحداث والتفاعل معها، فبين رضوى وشجر نقرأ صفحات مهمة وفاصلة فى حياة الأمة العربية فهل بهذين العملين الجديدين تدخل رضوى عاشور مرحلة إبداعية جديدة ومختلفة تاركة وراءها القالب الواقعى؟ وما موقع التاريخ فى هذه المرحلة الجديدة؟ هل يظل التاريخ محوراً أساسياً للعمل الأدبى كما كان الأمر فى رواياتها السابقة ذات القالب الواقعى؟ وما هى أهم السمات المميزة لهذه التجربة الإبداعية الجديدة ؟

لماذا العودة للتاريخ؟ سؤال طرحته على نفسى ولم أجد له إجابة صريحة، هل أحتمى بالتاريخ على ما فيه من ألم، من واقع تستريح النفس منه ولا تملك التعامل الهادئ معه؟ هل أبحث فيه عن سند، عن فهم عن إجابات، هل هروب أم مواجهة ؟"

الأحداث محور أساسى

تطرح الأديبة والناقدة د. رضوى عاشور هذا التساؤل فى مقال لها بعنوان تجربتى فى الكتابة نشر عام ١٩٩٢ فى نهاية روايتها سراج يحتل التاريخ بؤرة اهتمام الكاتبة منذ روايتها الأولى «حجر دافئ» (١٩٨٥) وكان محورها مصر السبعينيات، تلتها خديجة وسوسن (١٩٨٩) لتركز على نفس الحقبة الزمنية فى تاريخ مصر. كانت هذه الفترة المضطربة المفعمة بالأحداث من تاريخ مصر محوراً أساسياً فى هاتين الروايتين، ولكن فى «سراج» (١٩٩٢) تعود الكاتبة إلى نهاية القرن التاسع عشر لتدور أحداث روايتها فوق جزيرة متخيلة لكنها تلقى بظلالها على



رضوى عاشور



واقع الأمة العربية فى تاريخها الحديث، وتمتد هذه الظلال لتتكاثف وتتشابك فى غرناطة (١٩٩٢) حيث تدور الاحداث فى مدينة غرناطة فى نهاية القرن الخامس عشر، فيتتبع النص المرحلة التالية لمعاهدة تسليم غرناطة وما شهدته من قمع الاحتلال وحرق الكتب وثورة البيازين، ومدى تأثير هذه الأحداث على تفاصيل الحياة اليومية لأسرة عربية مسلمة وتمتد غرناطة لتتواصل أحداثها فى «مريمة والرحيل» (١٩٩٥) رواية من جزءين تتابع حكاية الوجود العربى فى الاندلس بعد سقوط غرناطة، وفيها تتشكل مصائر شخصيات رواية غرناطة وشخصيات أخرى تظهر فى النص الجديد، لم تكن ثلاثية غرناطة ومريمة والرحيل مجرد نص روائى تدور أحداثه فى حقيبة تاريخية بعيدة فى أعماق الزمان، ولكن تحاور أحداثها واقع الأمة العربية فى تاريخها الحديث والمعاصر وتستحضر شواغلها ومخاوفها، يبقى التاريخ وظلاله وإيحاءات أحداثه إطاراً ومحوراً أساسياً الأعمال رضوى عاشور، فى رواياتها الخمس الأولى (حجر دافئ خديجة سوسن، سراج غرناطة مريمة والرحيل) يتخذ السرد

الطابع الروائي التقليدي، الأقرب إلى الشكل الواقعي من حيث الحدث الدرامي والتسلل الزمني وتعدد الشخوص، وحيث يتوارى الكاتب خلف شخوص روايته ويبرز صوت الراوي العالم بكل شئ بين حين وآخر في أرجاء النص .

في أطياف (١٩٩٩) تتمرد رضوى عاشور على القالب السردي التقليدي لتقدم تجربة روائية جديدة تمتزج فيها الرواية بالسيرة الذاتية، ويلتقي الجانبان في قراءة متانية ويلتقي الجانبان في قراءة متانية لاوراق جيل، فيعود الاهتمام بالتاريخ العربي المعاصر يستغرق النص ولكن بأسلوب جديد .

يبدأ النص بالحيث عن الأطياف في صورة شعرية تستلهم أسطورة البعث المصرية القديمة، إنها أطياف عمال حفر قناة السويس الذين تم جلبهم للعمل بالسخرة في حفر القناة، ومن بينهم كان زوج شجر الجدة وأخوها، ومع تكثيف الايحاء الاستعاري لهذه السطور قد يظن القارئ ضرورة انفراج الخطوط المتشابكة في إطار من السرد الروائي التقليدي، حيث يبدأ النص ليحكي قصة شجر الجدة التي تحدث وصبرت ووقفت لتربي الأبناء بعد وفاة الأب، يدركها الكبر فتزورها الأطياف، ولكن فجاة يقفز النص من شجر الجدة إلى شجر الحفيدة، ثم من طفولة الحفيدة إلى كهولتها، وقبل أن يتساءل القارئ يفاجئه الحضور الواعي للمؤلف وتدخله في السرد ليس بوصفه الراوي العالم بكل شئ ولكن بصفته المؤلف الذي يعي كتابته لنص أدبي .

ويبدأ انفراج الخطوط، ولكن في اتجاه آخر غير ما يمليه نص تقليدي، في إطار من التداعي الحر نبدأ التعرف على شجر الحفيدة، فنراها تحمل نفس سمات شخصية رضوى، بل ونفس تاريخ الميلاد، فقد ولدت شجر في نفس يوم ميلاد رضوى في بيت يطل على كوبري عباس، ولكن من الجهة المقابلة لبيتها، جهة الجيزة.

بعد أن تتداخل الخيوط بين رضوى وشجر في الفصل الأول تعود إلى الانفراج في الفصل الثاني حيث تروي رضوى عن طفولتها المبكرة ولكنها رواية لاتخلو من إلقاء الضوء على حقبة تاريخية بعينها عاشها هذا الجيل وتفسر نظرة الأجانب المتحيزة دائما ضد أبناء البلاد ومحاولة طمس قدراتهم مهما تميزت هذه القدرات، في مدرسة راهبات فرنسية يتكشف أمام الطفلة الصغيرة، رضوى عالم جديد عالم يدهشها، يخيفها ويفزعها في آن، ولكن سرعان ما تألفه إلا أنها ألفة لاتخلو من شعور بالوحشة تتحول بعد ذلك إلى قدرة على قراءة خاصة لتلك الحقبة من التاريخ.

تتلاقى الخطوط وتمتزج أحيانا بين رضوى وشجر ويتقافز النص بينهما، بل وتغيب الفواصل أحيانا، ولكنهما تتحاوران وتشتركان معا في رسم ملامح صورة جيل وقراءة ما بين سطور أوراقه اختارت الكاتبة لشجر المتخيلة أن تعيش في بيت يطل على الجهة الأخرى المقابلة لمنزل أسرتها، ربما لترى شجر ما لاتراه رضوى تدرس شجر التاريخ وتتعمق في دراسة التاريخ الفرعوني القديم ولكنها تختار دير ياسين موضوعا لرسالة الدكتوراه ، وهنا تستخدم الكاتبة شخصية شجر في محاولة لإعادة قراءة تاريخ المنطقة العربية .

ومن خلال شجر تفند رضوى الوثائق التاريخية الخاصة بالواقعة وتسرد الشهادات المختلفة. تحمل شجر العبء

الأكبر فى القراءة التاريخية لأحداث المرحلة وإرهاصاتها فى مراحل تاريخية سابقة، تشاركها رضوى أحيانا ولكن يبقى لشجر دور أستاذ التاريخ المتخصص الذى تستعين الكاتبة بمعارفه فى الإضاءة التاريخية للأحداث والأماكن، ومن خلال شجر أيضا يتعرض النص لسلبيات اجتماعية جديدة وفقدان للقيم يمتد ليلوث حرم الجامعة وتبقى شجر وحيدة مع قلة من الشرفاء تتصدى لتيار الفساد الجارف، وتقاوم شجر حتى لا تجد سبيلا للمقاومة ويبقى أمامها الاختيار إما أن تغض الطرف عن الفساد لتحمى مكانتها العلمية أو تكون نموذجا آخر لجمال حمدان، وبالفعل تختار شجر أن تكون جمال حمدان، بل بمعنى أدق تضطر أن تكون جمال حمدان، بعد أن يتهمها العميد بالجنون فتقدم استقالتها وتذهب للتجول فى قاهرة جمال حمدان تتواصل مع المكان وتتطلع لأطياف آلهة المصريين القدماء تأتيها من أعماق التاريخ المصرى القديم فتتواصل مع حضارة المصريين القدماء وعلمهم وحكمتهم وقيمهم، ومثل جدتها شجر الكبيرة تزورها الأطياف وتتردد أصواتها فى الوادى من جديد

ملامح جيل

بين الدكتورة شجر عبد الغفار، أستاذ التاريخ والدكتورة رضوى عاشور أستاذ الأدب الانجليزى تكتمل الصورة لترسم ملامح جيل عاصر فترة تاريخية دقيقة بكل أحداثها، يسهم التحاور والامتزاج بين الشخصيتين - الحقيقة والمتخيلة فى القراءة المتأنية لأوراق هذا الجيل من هنا جاءت شخصية شجر كعنصر ضرورى أتاح للكاتبة تناول أحداث لم تكن هى نفسها طرفا فيها بشكل مباشر ولكنها أحداث محيطة لفتتها فجاءت شجر لتكون الصوت الداخلى لرضوى تحذو حذوها لو كانت طرفا مشاركا فى هذه الأحداث فشجر هى قرين رضوى وفى نفس الوقت أداة تقنية تمكن الكاتبة من ربط عناصر قد يكون هناك صعوبة فى ربطها، ومع ذلك تبقى شجر شخصية واقعية لها كيانها وانفعالاتها الخاصة، ومن ثم فإن ابتداع شخصية شجر أتاح ثراء للتجربة وعمقا للرؤية لتبقى «أطياف» تجربة إبداعية جديدة تجمع بين الرواية والسيرة الذاتية والقراءة المتأنية لأحداث تاريخية مهمة، ولا يتوقف الجهد الإبداعى الجديد فى هذه الرواية على ذلك المزج الروائى بين شخصية الكاتبة فى سيرة ذاتية تتابع أمام خلفية من الأحداث المهمة فى تاريخ مصر الحديث وشخصية أخرى متخيلة تتكامل وتتحاور معها وتشاركها قراءة الحاضر وتتيح لها التوغل بعيداً فى الزمان مستلهمة أحداثه، بل يتجلى هذا التوجه الإبداعى الجديد أيضاً فى ذلك الحضور الواعى لصوت الكاتبة الذى يتخلل السرد من أن لآخر وفى إثراء النص بأحداث وشهادات تاريخية .

إلى جانب الأطياف التى تزور شجر الجدة والأطياف التى تسعى اليها شجر الحفيدة تبقى «أطياف» (بدون أداة تعريف) عنواناً أكثر ملاءمة لهذه التجربة الإبداعية الجديدة تتفق ومنطق التداعى الحر الذى اختارته الكاتبة إطارا لهذا العمل الذى يزخر برؤى وشهادات من تاريخ مصر الحديث .

في مجموعتها القصصية الجديدة تقارير السيدة راء (٢٠٠١) تواصل د. رضوى عاشور قراءتها المتأنية لأحداث العصر والتقليب في أوراق تاريخية، وتواصل أيضا تمردها على أسلوب السرد التقليدي، فالمجموعة أقرب إلى شكل التقرير منها إلى شكل القصة بالمعنى الموبسانى أو الحداثى، ففيها يغيب الحدث الدرامي تماماً فعلى مدى أثنى عشر تقريراً هي لقطات فكرية شعورية تتشكل سيرة فكرية للكاتبة ترتبط بأحداث العصر وملامحه التاريخية فى الوطن العربى على المستوى الاجتماعي والسياسى والاقتصادى تتنوع التقارير فى سياقاتها الزمانية والمكانية وتتماوج فيها الحركة بين شخصي وعام وتمتزج فيها الضحكات بالأحزان، وتبقى راء بتكوينها النفسى الخاص عنصراً مشتركاً بين التقارير جميعها، وإن اختلفت ملامحها الشخصية الخارجية ووضعها الاجتماعي، تتسع شخصية السيدة راء لتشمل نوعا من البشر له تكوين خاص يجعله أكثر معاناة فى واقع اختلت موازينه واضطربت قيمه، فهو يعانى من ضغوط مختلفة اقتصادية واجتماعية، إنسان تأجلت أحلامه وينتظر أن تتحقق دون جدوى.

تحاول راء أن تكتب القصة بأكثر من أسلوب على الطريقة الميلودرامية، أو على طريقة الأفلام الصامتة، فتتغير تفاصيل القصة ولكن تبقى تيمتها الأساسية، حلم تأجل وقد يضيع العمر انتظاراً لتحقيقه .

يفضى ذلك إلى التقرير الثانى - «تقرير السيدة راء عن الشهر الأخير فى السنة» . تستخدم الكاتبة أسلوبا ساخرا ضاحكا، ولكنها السخرية المرة اللاذعة فلازال البحث المضنى عن حلم تأجل قد يهلك الإنسان بحثاً عنه ولكنه سرعان ما يلملم شتات نفسه ليواصل البحث فى هذا التقرير تستخدم الكاتبة أسلوب اللامعقول الذى يحدث فى أفلام الكارتون، تقفز راء من الطابق الثالث فى مشهد كوميدى تهرع إليها صديقتها لام ولكنها لاترى شيئا فى الظلام فتأتى بكشاف ضوئى للبحث عن راء وهى تنتحب، فتوبخها راء وتطلب منها سرعة شراء شريط لاصق لمعالجة الأمر، فقد تفكك جسد راء، بالفعل تنجح لام فى المهمة: «كان عليها أن تثبت الرأس فى العنق واليد اليمنى فى الكتف اليمين وكان الوسط مخلوعاً واصلت عملها حتى أضاءت خيوط الفجر الأولى السماء فتمكنت من مراجعة ما أنجزته وتمتين اللصق والتثبت منه ».

وكما يحدث فى أفلام الكارتون تعود راء لمواصلة حياتها الطبيعية.

قد يتوقف القارئ عند ذلك الأسلوب الساخر الذى تستخدمه رضوى عاشور للمرة الأولى، ولكنها ترى أن قدرة الكاتب على تضفير المبكيات بالمضحكات هى قمة الدراما الإنسانية، فى روايتها السابقة «أطياف» تكتشف الكاتبة حاجتها إلى القدرة على الكتابة الساخرة حتى تأتى الكتابة أدق تعبيراً عن أكثر المواقف إيلاما ومعاناة : «كان إميل حبيبى بارعاً يعرف كيف يضحك قارئه ويضحك هو نفسه حتى وهو ينقل أكثر التجارب وطأة يضفر إميل حبيبى المضحكات بالمبكيات، يغلف المأساة بالهزل، تلتقط عينه عناصر المفارقة مهما كان الموقف مفجعاً لست كاتبة ساخرة مثله، ما العمل؟من هنا تكتشف رضوى عاشور حاجتها إلى التعبير الساخر الذى شمل جزءا كبيراً من مجموعتها تقارير

السيدة راء.

جاء اختيار الكاتبة لعنواني التقرير الأول والثاني بالغ الدلالة في تأكيد البحث عن الحلم المؤجل فاختيار اليوم الأخير في الأسبوع والشهر الأخير في السنة يؤكد مواصلة البحث على مدى الزمن، فبين الأسابيع والشهور والسنين يمضي العمر.

تحقيق الحلم

تمتد تيمة انتظار تحقيق الحلم المؤجل لتتجاوز الجانب الاجتماعي الاقتصادي في التقارير الثلاثة الأولى لتتفتح على انتظار تحقيق هذا الحلم على المستوى القومي والعربي، في التقرير الرابع. (تأملات السيدة راء في كامبريدج ذات النطاقين) - وهي لمحة مستمدة من رحلة للكاتبة إلى كامبريدج الثانية في أمريكا - تقف راء بالقرب من تمثال جون هارفارد وفي نشرة سياحية عن المكان تقرأ أن فرك أحد أصابع قدميه يجلب الحظ، وهنا تتأمل الكاتبة في نغمة لاذعة السخرية، ولكن تتجلى فيها قدرة بارعة على «تضفير المضحكات بالمبكيات»:

«لو أن راء زارت كامبريدج الثانية قبل ضياع ثلاثة أرباع فلسطين عام ١٩٤٨ ووقوع نكسة عام ١٩٦٧ التي أضاعت الربع الباقي، وأشياء أخرى لاداعي لذكرها الآن لكي لا نقلب مواجع القارئ .. لو أن راء عرفت بموضوع إصبع القدم هذا قبل قصف العراق مثلا وقتل أطفاله بمنع وصول الدواء إليهم لهمت واهتمت وقضت ليلتها تفرك أصابع قدمي جون هارفارد جميعها وليس أصبعاً واحداً، بل كانت تجوب المدينة وتتوقف عند كل تمثال من تماثيلها، تشهق أسى وخيبة كلما وجدت تمثالاً نصفياً ولكنها لاتيأس وتواصل البحث عن تماثيل كاملة حافية الأقدام لأن الإنسان يجب أن يكرر على نفسه : من يدري لعل وعسى يكون في أصبع قدمي هذا التمثال حل قضايانا، وزوال النحس عن تاريخنا المعاصر

في إطار ساخر استطاعت رضوى عاشور بإيجاز بالغ وبراعة فائقة إلقاء الضوء على كثير من التناقضات الفكرية العالمية والعربية على المستويين السياسي والاجتماعي، وكذلك السخرية من الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم.

يتتابع الأسلوب الساخر في التقرير الخامس - «المقارنة الهولمزية» - فتختار الكاتبة الطريقة الهولمزية للبحث عن الحلم المفقود تتقمص راء شخصية شرلوك هولمز، ولكن بأسلوب عصري يستخدم الإنترنت والقنوات الفضائية، وفي نهاية التقرير تطرح تساؤلاً مهماً وخطيراً:

كيف يتحقق الحلم العربي وحلم العالم الثالث؟ هل بأساليب تنبع من الداخل أم أن الأمر يحتاج إلى وسائل حداثية نستقطبها من الخارج .

على الآن أن أفكر أيهما أقرب للهولمزية الأصيلة أيهما أنفع تاريخياً البلاد العالم الثالث؟ أيهما سكة السلامة هولمزية هولمز الأصلي أم الهولمزية الجديدة..؟ تعتقد راء أن الاجابة ستستغرق بعض الوقت ».

بينما تتعالى النغمة الساخرة في التقاريرالأولى يظلل الحزن التقارير الخمسة الأخيرة ففي التقرير الثامن - «قتل نظيف» تستخدم الكاتبة رحلة لها إلى أسبانيا لتستعرض قسوة مصارعة الثيران

مقارنة ذلك الأسلوب فى القتل بما يحدث فى فلسطين والعراق، ومن كتاب لهيمنجواى بعنوان «الموت عصراً» تقتبس الكاتبة «إن المكان الوحيد الذى يستطيع فيه مشاهدة الحياة والموت أى الموت العنيف الآن بعد أن انتهت الحروب (يقصد الحرب العالمية الأولى، فالكتاب منشور عام ١٩٣٢) هو حلبة مصارعة الثيران». ومن كتاب هيمنجواى أيضاً تعرف راء أن «ثور المصارعة النموذجى ثور لا ذاكرة له، لم يسبق له المصارعة وتخلص إلى أن الذاكرة إذن، الذاكرة هى كل شئ ومن ذلك ربما يخلص القارئ إلى أن قتل ذاكرة الشعوب وطمس هويتها هو الهدف الأول الذى يسعى إليه الاستعمار فى جميع أشكاله .

فى التقرير العاشر - «تقرير السيدة راء عن رحلتها إلى أسبانيا فى الثالث من أكتوبر ٢٠٠٠ - تزور راء منزل الشاعر الأسبانى فيديريكو جارثيا لوركا وتستحضر تاريخ اعتقاله فى الحرب الأهلية الأسبانية عام ١٩٣٦ يستدعى المشهد أحداث الاعتقال والقتل فى فلسطين، يبدأ التقرير بمتابعة راء لأخبار الانتفاضة الفلسطينية من أسبانيا، وفى الجزء التالى من التقرير نتابع حياة الشاعر الأسبانى فيديريكو جارثيا لوركا واعتقاله فى غرناطة، فى الجزء الثالث من التقرير تتداخل أحداث ثورة غرناطة ١٩٣٦ وأحداث فلسطين .

«عند التقاء الشارع بطريق النهر أقول هنا، على الأرجح حفر العمال خندقا لحمايتهم من اقتحام الكتائب للحى عام ١٩٣٦ أتذكر خندقا آخر أقامه أهل دير ياسين على مداخل قريتهم بعد ذلك بإحدى عشرة سنة، لا خندق الآن، هنا أو هناك».

تعود الكاتبة إلى تاريخ الأندلس القديم وملامح ومن ثلاثيتها غرناطة ومريمة والرحيل ليستدعى تاريخ اضطهاد المسلمين فى الأندلس وحرق كتبهم ما يحدث فى فلسطين :

«الحمام العربى القديم فى الجانب الآخر من الشارع، أعبر قصور قديمة، فى قصر منها سترى مريمة اللوحة فتضطرب وتتطير، فى اللوحة وعل جريح وصيادون وكلاب، أشبه بتلك النسجية التى رأيتها قبل ربع قرن فى متحف فى شمال نيويورك نسجية من سبعة أجزاء تصور حصاناً أسطوريا أبيض له قرن وحيد، ناهض يترصده الصيادون ثم نازف ومحاصر، ثم يسقط، ولكن الأغنية الشعبية تقول: إنه وحيد القرن النبيل، إنه يحقر رماح الصيادين، وإن طريقه وعرة ضيقة وتقوده إلى السماء حيث لا أحد يستطيع قتله ».

وفى نهاية التقرير تنسحب أحداث التاريخ الماضى إلى خلفية المشهد لتركز كاميرا الأحداث على أخبار الانتفاضة الفلسطينية وحدها :

« لم أفكر فى .. الشاعر الذى ولد فى الخامس من يونيه عام ١٨٩٨، وأعدم فى التاسع عشر من أغسطس عام ١٩٣٦، ولا فى الخندق الذى حفره العمال عند مدخل الحى فى ذلك الصيف ، ولم أفكر فى أبى جعفر ومريمة،، ولا فى سليمة التى أعدمت حرقاً فى ساحة باب الرملة، لم أكن أفكر سوى فى نشرة الأخبار : كم شهيداً؟ كم جنازة ؟ كم أصيبوا وكم منهم أطفال ؟ كم مظاهرة ؟ كم معتقلا ؟».

ومن بين تماثيل صغيرة كل منها نسخة طبق الأصل لتفصيلة من تفاصيل لوحة جرنيكا لبيكاسو تختار راء «المرأة التى لايظهر منها سوى رأس مندفع من نافذة تشرف .على المشهد وذراع تستطيل وهى

تقبض بعزم موتور على مصباح صغير» لتعود بها إلى القاهرة، بكل ما يحمله التمثال من أمل فى تحقيق الحلم المؤجل .

التقرير الأخير

فى «التقرير الحزين» تستدعى الكاتبة تاريخ ثورة الجزائر من خلال كتاب قديم عن جميلة بو باشا مؤكدة على استمرار تاريخ مقاومة الاستعمار على مدى الزمن، ويأتي اقتباس شهادة سيمون دى بوفوار عن الشهيدة الجزائرية مؤكداً بشاعة المستعمر وشرعية المقاومة واستمرارها .

فى بداية «التقرير الأخير» نقرأ: «رأيت فيما يرى النائم عربة طفل تسقط من أعلى سلم رخامى عال، تدرج عليه عجلاتها وتتدحرج فى اندفاع خاطف، تصطدم بدرجه وتهوى».

وهنا قد يتساءل القارئ: هل يعنى ذلك الاستسلام لضياع الحلم المؤجل؟ ولكنه تساؤل يجد إجابته فى الفقرة التالية فى اقتباس من مسرحية هاملت لشكسبير : «أيهما أكثر نبلا تتحمل سهام الدهر أم ترفع السلاح ؟... تنهى الألم بضربة واحدة تموت تنام لعلك تحلم

يأتي هذا التقرير بالغ القصر شديد الكثافة يميل نحو الأسلوب الشعرى، وفيه تختصر راء عمرها فى أربعة صور

«رأيت بأم عينى عربة طفل تهوى فى عنف من أعلى درج، ورأيت الفتى يصعد درج القلعة، والتهمت مع رفيقى كرات من الحلوى المثلجة فى نهار صيفى فى أعلى درج مشمس، ضحكنا ثم هبطنا معاً لزيارة بيت صيفى من غرفتين، معروض فى إحداهما أوراق لفتى فى الخامسة والعشرين ولآخر يكبره بأربعة أعوام، ماتا فقيرين وحيدين وتركا أشعاراً درستها لطلابى بعد مائتى عام من رحيلهما .. لاشئ سوى ذلك ».

فى هذا التقرير الأخير تختفى راء لتفاجئنا رضوى.

«تقارير السيدة راء» سيرة فكرية شعورية للكاتبة يلتقى فيها الرمز بالتعبير الساخر فى إطار من التداعى الحر، ويربطها خيط انتظار تحقيق الحلم المؤجل فى واقع مؤرق مضطرب على جميع المستويات، تتسع شخصية على كافة المستويات، تتسع شخصية السيدة راء فى التقارير الأولى لرؤية ساخرة بطلها الإنسان المعاصر، وعلى الأخص نوع من البشر يتميز بقدر عال من الحس المرهف، تتكثف سمات الشخصية فى التقارير الأخيرة حيث تستخدم الكاتبة لمحات من رحلات ومواقف لها توظفها توظيفاً خاصاً لبعث دفقات فكرية شعورية جديدة، المجموعة تجربة إبداعية جديدة تستلهم فيها الكاتبة نصوصاً من أعمال إبداعية عالمية تثرى النص وتضئ جوانبه، فى هذه المجموعة أيضاً يتجلى الحضور الواعى الكاتبة بوصفها المؤلفة، وهو نفس الأسلوب الذى اتبعته فى روايتها أطياف .

بين أطياف وتقارير السيدة راء» تقدم رضوى عاشور تقنية أدبية جديدة فى السرد الروائى والقصصى العربى، تتسع للرمز واستلهام الثقافات والبحث فى دهاليز التاريخ ومحاورة أحداثه وتكوين رؤية تاريخية اجتماعية سياسية تحلل الأحداث وتتفاعل معها. ■

مداعبات ونسائيات وموسوعات



مي زيادة



وداد سكاكيني



زاهية قدورة

بقلم
وديع فلسطين

من أجمل أغراض الشعر المداعبات، وهي تكون في الأغلب الأعمّ ارتجالاً ومن وحي البديهة الحاضرة، وتكون أحياناً أدخل إلى الغزل منها إلى الدعابة المجردة. وللشعراء كباراً وصغاراً إسهام في هذا الباب، سواء سجلته الدواوين أو لم تسجله، على أن بعض المداعبات ينحرف إلى الهجاء، وقد يكون مقذعا وما أكثر ما سمعت من أمثاله من الشاعر العوضي الوكيل (١٩١٥ - ١٩٨٣) الذى كان في مداعباته مع الأصدقاء يكاد يقع تحت طائلة قوانين السب والقذف، لولا أن صدور الشعراء في ذلك الزمان كانت واسعة، تتقبل هذه المداعبات بروح فكاهية تخفف من رتابة الجلسات الأخوية. على أن المداعبات قد تحدث حتى في المجالس النيابية الملتزمة بالوقار والرصانة.

فقد روى الأديب السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى - أطال الله بقاءه - فى كتابه «ذكريات أيام السياسة» أنه عندما كان عضواً فى المجلس النيابى السورى كانت الرياسة معقودة للدكتور فارس الخورى (١٨٧٩ - ١٩٦٢) حتى عند غيابه فى هيئة الأمم المتحدة ممثلا لبلاده ورئيساً لمجلس الأمن، وكانت أمانة السر معقودة للشاعر محمد سليمان الأحمد المكنى ببدوى الجبل (١٩٠٤ - ١٩٨١) بينما كان العجيلى ينتدب لأمانة السر متى غاب الأمين الثانى .

وفى إحدى الأمسيات رغب العجيلى فى غشيان «حلقة الزهراء»، وهى ندوة كانت تقيمها فى دمشق السيدة زهراء العابد زوجة محمد على العابد رئيس الجمهورية الأسبق، ورافقه فى التوجه إلى الحلقة - بعد تردد - الشاعر بدوى الجبل ، وكانت فى الحلقة فتاة جميلة اسمها سلمى سحرت جميع الحاضرين حتى كاد موعد جلسة المجلس النيابى يضيع على العضوين.

ولما انتظم عقد المجلس، واستقر بدوى الجبل على المنصة، فى حين جلس العجيلى فى القاعة بين كتلة من النواب الشباب نادى بدوى الجبل أحد السعاة وأعطاه وريقة مطوية وأمره بحملها إلى العجيلى الجالس فى القاعة، ولما فض العجيلى الورقة، قرأ فيها بيتاً واحداً هو:

لا تبالي، والخير في أن تبالى
ألهجر تصدّ أم لدلال ؟

ويقول العجيلى: ضحكت ، وسألنى زملائى ماذا تريد الرياسة منى، فتهربت من الجواب، وكنت أعرف ماذا حرّك شيطان الشعر فى صديقى أو من حركه، فتناولت قلمى ورحت أجيب بالأبيات التالية:

لو تراها وأومضت مُقلتاها
تسكب الشوق فى ثنايا السؤال
أين، لا أين ، شاعر بدويّ
ملهم الروح عبقرى الخصال
قلت أودى بلبه يا سليمى
خافق هام فى فنون الجمال
كلنا فى هواك صب عميد
مثل بدو السهول بدو الجبال!

وبعث العجيلى بالورقة مع الساعى إلى منصة الرياسة وعينى عليه وكذلك أعين زملائى، ولحظنا جميعاً كيف قرأ البدوى الورقة ومال بها إلى الرئيس فارس الخورى يتلوها عليه ، وكيف كان الرئيس يهز هامته الضخمة لتلك التلاوة!!

وبعد قليل عاد الساعى حاملاً إلى العجيلى وريقة جديدة من بدوى الجبل، فلما فضها قرأ الأبيات التالية:

ما لسلمى بعد المشيب ومالى
بدعة الحب صبوتى واكتهالى
إن حب الجمال أصبح عندى
بعد شيبى عبادة للجمال
كلما لاح بارق من سناه
جن قلبى ، وضل أى ضلال
وأنا الظامىء القنوع كفانى
عن ورود الغدير ومضة آل

أعشق الحسن نظرة وحناناً
ورؤى حالم وطيف خيال
وأحب الجمال يلهمنى السحر
وأهواه مشرباً بالدلال!

ويقول العجيلي: قرأت الورقة، وطويتها محتفظاً بها لنفسي غير مشبع فضول رفاقي ولا فضول الصحافيين الذين كانوا يرقبون من شرفتهم رواح السعاة ومجيئهم بين سدة الرياسة وبيني بهذه الأوراق المكتوبة، لقد ظنوها تتعلق بإحدى المناورات السياسية التي كان المجلس النيابي مسرحاً لها، فجاءوا إلىّ بعد انفضاض الجلسة يسألون ويلحون في السؤال، غير أني لم أطلع أحداً على خفي الحكاية، ولم أنشر هذه الأبيات التي أوحتها حسناء في حلقة الزهراء ونظمها نائبان من نواب الأمة، حتى تلك الفاتنة لم تدر بما ألهمته من شعر وأثارته من اهتمام، وبما شغلت به عدداً من النواب والصحافيين من حيرة السؤال.

هذا وقد راجعت ديوان بدوى الجبل فلم أقع فيه على هذه المداعبة الطريفة، ولولا أن العجيلي سجلها في ذكرياته لما عرف القارىء أخبارها.

جنة من فواكه الشام

ومن المداعبات الشعرية الطريفة ما أرويه نقلا عن الشاعر العراقي الكبير حافظ جميل (١٩٠٨ - ١٩٨٤) الذي قابلته من نحو ربع قرن عندما زار القاهرة ونزل في فندق عمر الخيام الذي كان يحتل حديقة فندق ماريوت في ذلك الوقت، وقضيت معه نحو ساعتين كان كل حديثه فيهما يدور حول الشعر والمرأة والكاس، ولعله آثر أن يقيم في فندق عمر الخيام تيمناً بصنوه الشاعر الفارسي.

وعندما سألت حافظ جميل عن قصيدة «ياتين ياتوت يارمان ياعنب» قال لي: وهل أتاك خبرها؟ فقلت: نعم، ولكننا لا نعرف حقيقة مؤلفها وهل هو أنت أو هو الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١).

فقال، إن لهذه القصيدة قصة ترجع إلى أيام دراستي في جامعة بيروت الأمريكية، فقد زاملني وقتها الشاعر إبراهيم طوقان والشاعر الطبيب السوري وجيه بارودي، كما كان من بين طالبات الجامعة شقيقتان من عائلة «تين» السورية، وكانتا بقوامهما وبأنوثتهما تمثلان جنة من فواكه الشام، فأراد ثلاثتنا أن نداعبهما من خلال الفواكه الشامية من تين وتوت ورمان وعنب، فاشتركنا في نظم هذه القصيدة التي ترددت في رحاب الجامعة وصار الطلاب يرددونها بمسمع من الشقيقتين ليلى وأليس تين.

وسألت حافظ جميل: وماذا كان شعور هاتين الفتاتين؟ فقال إن الغواني يغرّهن الثناء، أما القصيدة فهي طويلة، وأجتزىء هنا بالمقاطع الثلاثة الأولى منها.

ياتين، ياتوت، يارمان، ياعنب

يادُر، ياماس، ياياقوت ، يا ذهب
الله، الله، ما هذا الدلال وما
هذا الصدود، وما للقلب يضطرب؟
ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب
الشمس، ما الشمس، إن الشمس تنكف
البدر ، ما البدر، إن البدر ينخسف
والدمع ، ما الدمع ، إن الدمع ينذرف
يامنية القلب ، هل وصل وانصرف؟

***

ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب
ياتين ، ياليت سرح التين يجمعنا
ياتوت ، ياليت ظل التوت مضجعنا
وأنت ليتك يا رمان ترضعنا
والكرم ، ياليت بنت الكرم تصرعنا
ياتين ، ياتوت، يارمان ، ياعنب

معارضة شعرية من الكويت

كنت نشرت فى هلال أكتوبر الماضى أن الشاعر العراقى أنور شاؤول حول رسالة مجوعة وجهها الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) إلى العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ - ١٩٨٥) إلى قصيدة مطلعها :

أنا إن سئلت عن المودّة قلت إن الود ودك

وقد تلقيت بعد ذلك معارضة لهذه الأبيات من الأديب الكويتى فهد محمد نايف الدبوس جاء فيها :

أحييت يارب البيان قصائداً، فالجهد جهدك
وحفظت للأجيال كنزاً غالياً، فالمجد مجدك
إن كان قصدك نشر آثار مضت، قد طاب قصدك
اسلم، فقد فاق القصيد وسحره المكنون قولك

وقد سئلت عن الشاعر أنور شاؤول، فأجبت السائلين بأنه محام عراقى يهودى، ولكن العراقيين يذكرونه بكل خير، وقد ولد فى الحلّة عام ١٩٠٤ وأصدر ثلاثة دواوين بعنوان «الحصاد الأول» و«الحصاد الثانى» و«همسات الزمن» ووضع قصة سينمائية عنوانها «عليا وعصام» انتجت كأول فيلم عراقى فى عام ١٩٤٨ كما ترجم أقاصيص ومسرحيات لأدباء غربيين، وجمع معارضات لقصيدة «ياليل الصب».. وقام الأديب على الخاقانى المولود فى النجف عام ١٩٠٩ بنشر نماذج من شعر أنور شاؤول.. هذا وقد غادر شاؤول العراق - ويقال إلى إسرائيل - وتوفى هناك.

مى زيادة، ووداد سكاكينى

أشادت السيدة حرم رئيس الجمهورية فى كلمتها فى مؤتمر المرأة والابداع بالأديبتين مى زيادة (١٨٨٦ - ١٩٤١) ووداد سكاكينى (١٩١٣ - ١٩٩١) فكانت هذه تحية كريمة وجهت إلى هاتين الأديبتين الكبيرتين ، وإذا كانت الأسباب لم تواتهما باللقاء، فقد عُنيت وداد سكاكينى بإعداد كتاب منصف عن مى زيادة ، ومن الأسف أنه بعد نفاده لم يعد طبعه .

وقد لقيت مي زيادة في حياتها كثيراً من الظلم، وهو ظلم لاحقها بعد وفاتها، فعندما لقيت مي وجه ربها في ١٩ أكتوبر ١٩٤١ أشرفت زعيمة النهضة النسائية هدى شعراوي (١٨٧٩ - ١٩٤٧) على تشييع جنازتها ودفنها في قبر مستقل في مقابر الموارنة بحي مصر القديمة، وكان الضريح محاطاً بمزروعات وورود لم تلبث أن ذبلت لانعدام الزائرين، سواء من ذوي القربى أو من معاصريها.

وقد زارت الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبري - أطال الله بقاءها - ضريح مي وسجلت في كتابها «مي زيادة أو مأساة النبوغ» صورة لهذا الضريح ووصفته قائلة «نقش على قبرها المتواضع ما يلي : هنا ترقد نابغة الشرق، زعيمة أديبات العرب، المثل الأعلى للأدب والاجتماع المرحومة مي زيادة ، ودفنت في ٢١ أكتوبر ١٩٤١ ، صلوا من أجلها».

وأضافت قولها : مازال هذا النقش واضحاً على قبر مي، إذ مازالت ترقد هناك في أرض الكنانة التي أحبتها وكرمتها، أجل، مازالت مي زيادة ترقد في قبر متصدع مهجور، لا من يزوره، ولا من يضع زهرة عليه، ولكن الطبيعة كانت ومازالت أكرم من أهليها وأبناء وطنها، إذ أنبتت على جوانبه أغصاناً ندية دائمة الاخضرار تحنو عليه وتباركه».

ومع الهجمة الاستثمارية التي لم تسلم منها حتى المقابر، ضنت إدارة مقابر الموارنة على مي بهذا الضريح المستقل الذي يشغل حيزاً عريضاً ، وعوضاً عن أن تقوم بترميمه، عمدت إلى هدمه لكي تبيع الأرض بالثمن الغالي، ونقلت التابوت إلى فجوة في جدار تعلوها وتحيط بها فجوات أخرى لراحلين، وبعد ما أزيلت العبارة التي كانت منقوشة على الضريح، وضعت على الفجوة لوحة مختصرة نصها «الأديبة مي زيادة نابغة الشرق ١٩٤١».

وهكذا حوربت مي حتى في رقدتها الأخيرة.

والأديبة السورية وداد سكاكيني أديبة عصامية علمت نفسها بنفسها وأصبحت مثالاً مشرفاً للمرأة السورية بما نشرته من كتب تدور محاورها حول النقد الأدبي والأدب الروائي بفنونه المختلفة والتراجم وقضايا المرأة والذكريات ، وهي تتميز بأسلوب ناصع البيان كنت في شبابي أثر سمة وأحاول السير على منواله، وهي وإن لم تشتغل بالسياسة أو تهتم بها، فقد اختيرت عضواً في البرلمان المصري السوري في زمن الوحدة تقديراً لشخصها واعترافاً بفضلها.

وقد تزوجت وداد سكاكيني من

العلامة السورى الدكتور زكى المحاسنى (١٩١١ - ١٩٧٢) الذى عمل أستاذاً فى الجامعات العربية واختير عضواً فى مجمع اللغة العربية فى مصر وله طائفة كبيرة من الدراسات الأكاديمية، فضلاً عن ديوان شعر مازال ينتظر أسباب نشره .

وقد عمل الدكتور المحاسنى مستشاراً ثقافياً فى السفارة السورية فى مصر عندما كان على رأسها العلامة الأمير مصطفى الشهاوي (١٨٩٣ - ١٩٦٨) رئيس مجمع دمشق بعد ذلك، فأصبحت السفارة السورية فى عهديهما منتدى للأدب والفكر والثقافة على نحو غير معهود فى دور السلك الدبلوماسي.

ولعل التكريم الوحيد الذى نالته وداد سكاكينى فى حياتها هو حفل تأبين أقيم لها فى مدينة صيدا اللبنانية التى ولدت فيها .

الدكتورة زاهية قدورة

ويستدرجنى الحديث عن أديبات رائدات إلى الإشارة إلى الأديبة اللبنانية الدكتورة زاهية قدورة التى توفيت فى ٩ أكتوبر ٢٠٠٢ بعدما نيفت على الثمانين من العمر.

وهى من خريجات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) وتزوجت من الأديب المصرى الدكتور محمد عبدالسلام كفافى (١٩٢١ - ١٩٧٢) الذى سبق إلى ترجمة كتاب «مثنوى» لجلال الدين الرومى قبل أن يتصدى لترجمته الدكتور إبراهيم شتا.

وعملت الدكتورة زاهية أستاذة للأدب العربى ثم عميدة لكلية الآداب بالجامعة اللبنانية.

وفى عام ١٩٩٩ أصدرت كتاباً كبيراً يتضمن سيرة حياتها بعنوان «رحلة العمر» تحدثت فيه بإعجاب شديد وتعلق عميق بمصر حيث وصفت الفترة التى قضتها فيها للدراسة بقولها «مصر مهد الحضارة وأرض الإبداع، مصر العروبة والعزة والكرامة ، وسيظل لها على الدوام مركز مميز وحميم فى نفسى».

وقد نعى صديقى الدكتور ميشال جحا الدكتورة زاهية بقوله «إنها أمنت بالعروبة ذات الرسالة المتفتحة والمؤمنة بدينها السمح، لقد كانت داعية تفاهم وتعايش وسلام ووئام ، تعمل للصالح العام بكل اندفاع، وتؤمن بوطنها لبنان، قلائل هم الناس الذين تدل أسماؤهم على شيمائهم ، وزاهية قدورة هى من هؤلاء، وهى حقا زاهية».

ومن سنوات أنشأت الدكتورة زاهية قدورة جمعية للجامعات فى لبنان وتولت رئاستها ولكن انشغال الجامعيات بمآرب الحياة عجل بنهاية هذه الجمعية وفقد لبنان أخيرا الأديبة إدفيك جريدينى شيبوب التى توفيت عن ٨٣ عاماً فى ١٥ سبتمبر (٢٠٠٢) الماضى، ولئن يرد اسمها ضمن الأديبات الرائدات اللائى

أشيد بهن فى مؤتمر المرأة والابداع، فقد ورد اسم زميلتها روز غريب التى تقضى شيخوختها فى بيت للمسنين بعدما بلغت الثالثة والتسعين من العمر.

كلام عن موسوعات الأعلام

من متابعتى لما تنشره الصحف والمجلات من سير الأعلام والمعاصرين، ألاحظ أمرين: أولهما ورود أخطاء فيها ولا سيما فى التاريخ، وثانيهما وجود فجوات واسعة قد تعزى إلى المعايير المستخدمة فى تقدير منزلة الأعلام المترجم لهم، وأورد فى هذه الفذلكة محاولات جادة قام بها بعض الباحثين لإخراج موسوعات عن الأعلام.

ولعل أبرزهم هو الأديب السورى خير الدين الزركلى (١٨٩٣ - ١٩٧٦) بموسوعته البائخة «الأعلام» التى نشرت لها أخيرا دراسات حاكتها واستدركت عليها منها «ذيل الأعلام» للأديب الأردنى أحمد العلاونة و«فوات الأعلام» للأديب السعودى عبدالعزيز الرفاعى (١٩٢٣ - ١٩٩٣) و«إتمام الأعلام للأديبين السوريين الدكتور نزار أباظة ومحمد رياض المالح.

وهناك «معجم المؤلفين» للأديب السورى عمر رضا كحالة وهناك موسوعة «مصادر الدراسة الأدبية» للأديب اللبنانى يوسف أسعد داغر (١٨٩٩ - ١٩٨١) وموسوعة «أعلام الأدب العربى المعاصر» للمستشرق روبرت كامبل وموسوعة «معجم المؤلفين العراقيين» للعلامة العراقى كوركيس عواد (١٩٠٨ - ١٩٩٢) وموسوعة «من أعلام الفكر والأدب فى فلسطين» للأديب الأردنى يعقوب العودات المكنى بالبدوى الملثم (١٩١٠ - ١٩٧١) وموسوعة «أعلام مصر والعالم» للدكتور رؤوف سلامة موسى وموسوعة «أعلام الفكر العربى» لسعيد جودة السحار وموسوعة «المستشرقون» لنجيب العقيقى (١٩١٦ - ١٩٨١) وموسوعة الأدب المهجرى لجورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) وعنوانها «أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية» وموسوعة «ديوان الشعر العربى فى القرن العشرين» للأديب الفلسطينى راضى صدوق وموسوعة «شعر فلسطين فى القرن العشرين» لراضى صدوق وكتاب «قاموس المؤلفين» فى شرقى الأردن لكامير مصطفى هاشم و«موسوعة أعلام العرب فى القرن التاسع عشر والعشرين» الصادرة عن بيت الحكمة فى بغداد وكتاب «الأدباء العراقيون المعاصرون وإنتاجهم» لسعدون الريس وموسوعة «الأدب العربى السعودى الحديث» بإشراف سعد البازغى، عدا عن مجلدات «الإثنينية» التى تضم سير مئات من الأعلام المعاصرين الذين يكرمهم فى جدة الشيخ عبد المقصود خوجة فى ندوته الأسبوعية.

ولعل هناك موسوعات أخرى استعصت علىَّ أخبارها.

حسين بيكار

الفنان الشامل

بين فن الصالون وبلاط صاحبة الجلالة

بقلم
صلاح بيصار

ورحل بيكار

في السابع عشر من نوفمبر الماضي رحل الفنان حسين بيكار عن عالمنا، بعد رحلة من العطاء الفني استمرت لأكثر من ستين عاما، وتميزت بريادته لفن أغلفة الكتب واسهامه فى الاخراج الفنى لصحف ومجلات أخبار اليوم .

وقد عرف عنه إلى جانب فنه عشقه للموسيقي ودعمه المستمر لتلاميذه من الفنانين وعلى الرغم من حصوله على العديد من الجوائز ألا أن سمة التواضع وعشقة الفن والناس والحياة لم تتغير أبداً

رحم الله فناننا الذى أعطى لفنه الكثير .

الـهـلال



ليس من قبيل الصدفة دخول بيكار ميدان الرسم للأطفال حين قدمه زميله عبدالقادر رزق إلى د. طه حسين ليرسم كتاب «الأيام» عام ١٩٤٤ فيصبح ذلك عهدا جديدا لفن الكتاب العربى.

وليس غريبا أن يطلب منه على أمين التفرغ للصحافة فيترك قسم التصوير بالفنون الجميلة وكان رئيساً له عام ١٩٥٩ ويحمل لواء الريادة فى الرسم الصحفى.

وربما لا يكون مثيرا للدهشة أن يرشحه الاستاذ هيكل ليكتب قصة ويرسمها فيستوحى «المصباح الأحمر» من واقعة حقيقية وتنشر بآخر ساعة حين كان هيكل رئيسا لتحريرها وتبدأ أولى كتاباته فى الصحافة.

وليست صدفة أيضا أن يقترح الأستاذ سعد كامل مدير تحرير الأخبار فى الستينات أن يقدم بيكار نافذة يطل منها القارىء على الإبداع التشكيلى التى تألقت بمصاحبة معزوفاته المنظومة.

تقول ذلك وقد امتدت شخصية بيكار بالريادة فى كل اتجاه مع فن البورتريه بالإضافة إلى شخصيته الموسيقية من العزف على البزق والطنبور.

وهذا ليس إلا أنه إنسان قبل أن يكون فنانا مع عمق موهبته وقدراته الفنية التى تهيأت لها المقادير لا الصدفة.

ولقد جاء كتاب «حسين بيكار الفنان الشامل» للناقد د. صبحى الشارونى عن دار الشروق بمثابة باقة حب وتحية عميقة ورقيقة إليه.. شفاه الله.

والكتاب رحلة فى عقل وقلب وفن بيكار.. وهو من القطع الكبير (٢٣,٥ فى ٣٣,٥ بغلاف سحبك).. تمتد صفحاته إلى ١٦٤ صفحة.. انيق فى عرضه واخراجه وطباعته.

من الفن إلى الصحافة

اختار الناقد صبحى الشارونى تلك الواقعة الشهيرة فى بداية الكتاب حين استدعى على أمين بيكار وقال له بالحرف الواحد:

«ليس من مبادئنا تعدد الزوجات لذلك انت مطالب بتطليق احدى زوجتيك وأنا أريدك ان تطلق زوجتك الحكومية وتتفرغ للصحافة ان مكانك هنا فى أخبار اليوم..

بعدها أصبح بيكار «سندبادا صحفيا» يسافر إلى بلاد العالم حاملا قلمه وريشته ليعود بانطباعاته الصحفية مكتوبه ومرسومة.. لقد استبدل الكاميرا بالريشة والألوان.

وتبدأ أولى رحلاته الصحفية إلى الحبشة ليكون الفنان المصرى الثانى الذى يسافر إلى هناك رساما بعد فنان الجيل الأول محمد ناجى وتوالت رحلاته إلى تونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان وأسبانيا واليابان.

والكتاب يصحبنا معه من مولده فى ٢ يناير عام ١٩١٣ بحى الانفوشى بالاسكندرية إلى نشأته بكل المؤثرات التى جعلت منه رائدا لفن الكتاب ورسوم الأطفال والرسم الصحفى.. مشيرا إلى مشاركته فى رسم كتب كامل الكيلانى وإبداعه لمجلة سندباد وكتاب «القراءة الجديدة» للمدارس الابتدائية الذى اشتهر باسم طريقة شرشر.

كما دفع بتلاميذه من الفنانين إلى ان يؤلف كل منهم قصة ويرسمها لتنشر فى سلسلة الكتاب العجيب التى اصدرتها دار المعارف فى بداية الستينات وشارك فيها جورج البهجورى وإيهاب شاكر ومحيى اللباد وفايزة نجيب.

وكانت بدايات بيكار فى هذا المجال فى وقت كان الفنان المصرى يخطو أولى خطواته لتحقيق ذاته فى الحركة الفنية التى كان مفهومها قاصراً على اللوحة والتمثال وحدهما.. وكان الفنانون التشكيليون يعتقدون أن ملامسة الريشة لغير اللوحة امتهان لقداسة الفن وإهدار لكرامته وحط لمنزلته على حد تعبير بيكار نفسه.

من قنا إلى المغرب

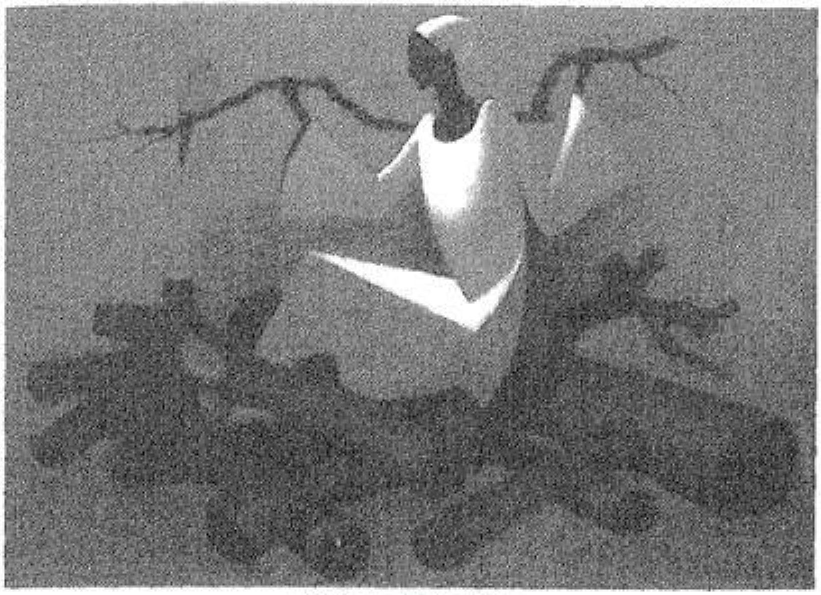
ويتعرض الكتاب إلى عمل بيكار بالتدريس بعد تخرجه عام ١٩٣٣ من مدرسة الفنون الجميلة العليا خاصة بمدرسة قنا الثانوية .. هناك بقنا بدأ يتعرف على مصر الحقيقية.. مصر



١٣٣

الهلال

رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م



«البلبل والحطب» - ١٩٩٤

الفرعونية وكان يشعر ان الوجوه المرسومة على جدران المعابد تتحرك معه وتتكلم معه وتأكل معه في نفس الأناء الفخار..

وكان أستاذه حبيب جورجي رائد التربية الفنية ومفتش الرسم يأتي للتفتيش عليه فيحول التفتيش إلى جولات معه للرسم في احضان الطبيعة هناك.

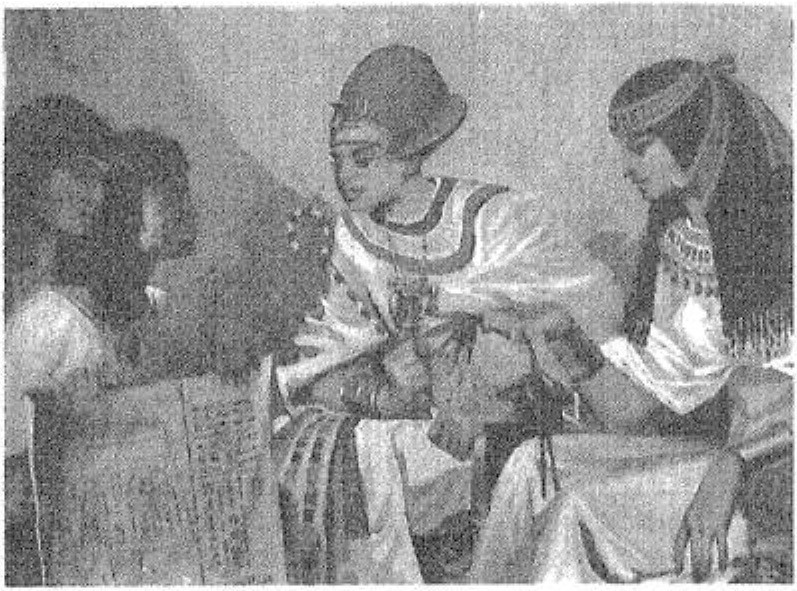
ومن هنا ينتقل إلى المغرب عام ١٩٣٩ حيث يقضي في «تطوان» ثلاث سنوات وهناك تحتم عليه أن يرسم من غير موديل حيث لم يكن متاحا له فبدأ يرسم «فنتازيات» أي موضوعات خيالية ليس لها دخل بالواقع أو الطبيعة وكان هذا هو أحد المداخل التي قادته إلى ممارسة رسومه التوضيحية في الكتب والمجلات فيما بعد فقد تدرب على ترجمة ما يتخيله.

وقد نشرت أولى رسومه التوضيحية في تطوان عندما وضع مدرس اللغة الاسبانية كتابا لتعليم اللغة الأسبانية للتلاميذ المغاربة وطلب من بيكار مدرس الرسم ترجمة الكلمات إلى صور بسيطة ومن هنا نشأت أول علاقة بينه وبين الرسوم التعبيرية والرسم للأطفال.

العجيبة الثامنة

يمتد كتاب الشاروني إلى لوحات بيكار في فيلم «العجيبة الثامنة» مؤكداً ان تاريخ الفنون الجميلة لا يعرف سوى عملين غير قابلين للتكرار وليس لهما مثيل ..

الأول: هو ما قام به الفنان الراحل «الحسين فوزي» من تسجيل بالرسم لمساجد مصر التي استغرق في رسمها عامين كاملين.. ونشرت رسومه لها في كتاب ضخم من جزأين على نفقة وزارة



من لوحات فيلم «العجيبة الثامنة» عن إنشاء معبد أبي سمبل .. الملك رمسيس الثاني وزوجته نفرتاري يفحصان تصميمات معبد «أبو سمبل»

الأوقاف .. والعمل الثاني: الذي يماثله عظمة وضخامة هو لوحات الفنان بيكار لفيلم «العجيبة الثامنة» الذي يحكي قصة معبد رمسيس في أبي سنبل ونقله إلى أعلى الجبل بعيدا عن فيضان المياه بعد بناء السد العالي.

ان لوحات الفنان لهذا الفيلم تكشف عن سيطرة بيكار الكتابية على صنعته وفنه وقد ابدعها بيكار مستعينا بقوة الخيال مع المراجع التاريخية واستطاع ان يبعث الحياة في حقبة كاملة من التاريخ موغلة في القدم فبدت أمام عيوننا نابضة بالمئات من التفاصيل الدقيقة.

وكتاب الشاروني لم يغفل بيكار الكاتب والناقد والشاعر.

فهو يحكي عن تجربة بيكار في كتابة القصة حين ألح عليه الاستاذ هيكل في ان يكتب قصة ويرسمها فكانت «المصباح الأحمر» قصة حقيقية من واقع رحلته من المغرب إلى موزمبيق حين كان ذلك هو الطريق الوحيد لعودته إلى مصر خلال أحداث الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢ ومن ذلك الوقت صارت الكتابة عنده هي عمل أدبي فني قبل أن تكون شرحا وتوضيحا .. بعد ذلك جاءت منظوماته التي أخذت شكل خماسيات وسداسيات وأخيرا رباعيات تتميز ببساطتها الشديدة وصدقها.. كما تألق بيكار في مجال نقد الفنون الجميلة بأسلوب جذاب يتناسب مع المستوى الثقافي لقارىء الجريدة اليومية.. يقف موقف الاستاذ المعلم الذي يبسط المصطلحات ويعرض بوضوح وشاعرية

اعقد المشكلات وأدقها.. انه رائد فى مجال توصيل مفاهيم الفن إلى أكبر قطاع من الجماهير من خلال الصحافة الشعبية اليومية.

فنان البورترية والريف والنوبة

لم يشغل الفن الصحفى بيكار عن رسم اللوحات الزيتية خاصة لوحات «البورتريه» التى تصور ملامح الأشخاص.

وقد تألقت مئات الصور الشخصية بلمساته مما يجعله واحداً من القلائل فى فن الصالون.. وهو يرى فى الشكل الإنسانى الذى أبدعه الله جمالا لا يجب تشويهه وقد اتجه إلى اتباع انجازات عصر النهضة الأوروبية فى هذا المجال كما يقول صبحى فى كتابه.. فالتزم بالنسب الواقعية واختار الأوضاع الرسمية الوقورة كما أعطى للوجه واليدين اهتماما جعلهما أول ما يجتذب نظر المشاهد، وأحاط الرقبة والجسم بالحلى والثياب الفاخرة بالنسبة للمرأة مع احترام للكتلة وتأكيد الحضور الإنسانى عن طريق عدم ابراز أو تأكيد الخلفية وما بها من عناصر وتسود لوحات السيدات الملابس المصنوعة من الدانتيل أو الشيفون الشفاف والساتان اللامع بالاضافة إلى الفراء الفاخر ثم اللمسات اللامعة فى مقدمة الأنف والوجنتين مع البريق المتألق فى العينين وكلها عناصر تتضافر من أجل تقديم لوحة جديرة بموقع الصدارة فى صالون الأسر المتيسرة.

وتضم اللوحات الزيتية للفنان إلى جانب الصور الشخصية -البورترية) لوحات عن الريف المصرى وأخرى عن النوبة وتحتل المرأة الصدارة فى تلك اللوحات وهى تعبر عن الجمال فى كل أعماله يرسمها فى رشاقة ورقة فيحرص على إبراز تفاصيل الجسد مع الالتزام بالاحتشام ففى الموضوعات التى يبتكرها من خياله يعطى لنفسه حرية أكبر فى التعبير عن أنوثة المرأة.

ولقد منح الفنان للمرأة فى لوحات النوبة قدرا أكثر من الحركة الراقصة أو حركات الدلال التى تقترب من الرقص بينما نرى الرجال فى أوضاع هادئة نسبيا وأحيانا نجدها صدى لما تفعله المرأة وهو يتخذ الرجل فى موقف السنيد سواء بالتصفيق أو النقر على الدفوف وجميع الرجال النوبيين يرتدون الملابس البيضاء بينما ترتدى النساء الملابس الملونة.

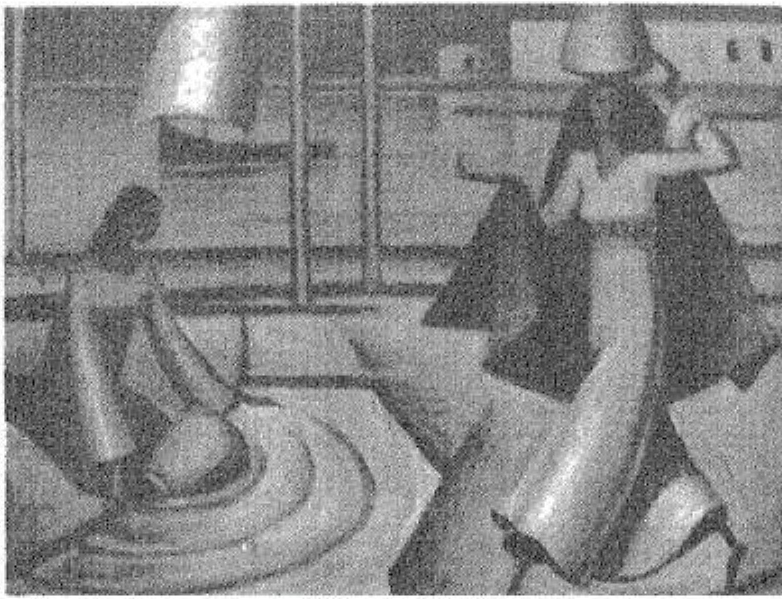
وبعد..

لاشك ان كتاب «حسين بيكار الفنان الشامل» يمثل اضافة حقيقية فى فن الكتاب بالنسبة للابداع التشكيلى المصرى وجاءت شاعرية اللغة عند الشارونى بمثابة تحية تناسب شخصية بيكار الفنية من لغته ولمساته التشكيلية.

لكن أغفل الكتاب بعض الأعمال الهامة لبيكار فى فن البورترية.. منها لوحة السيدة والدته وكان لها فضل كبير عليه ليس من ناحية التنشئة والتربية ولكن أيضا من جهة تنمية ميوله الفنية.

وأيضا بورترية أستاذه كلوزيل أستاذ النحت بمدرسة الفنون العليا وهو يمثل عنده نموذجا للأستاذ والمعلم وقد ابدع بيكار هذا البورتريه حين دعاه أستاذه وهو طالب ليرسمه بمنزله بالازبكية فى ذلك الوقت.

وأيضا أغفل الكتاب ثلاث صور شخصية للولا الأسبانية والتى التقت



«نداء النيل» – ١٩٩٨

بيكار في تطوان بالمغرب وربطتهما صداقة ومودة إنسانية كبيرة ومازالت تتصل به حتى الآن من أسبانيا.

وفي حجرة نوم الفنان الكبير تطل صورة كلوزيل بألوان الباستيل مع إحدى صور لولا.. في لوحة بيلطناوية تهمس بالشاعرية والجمال.

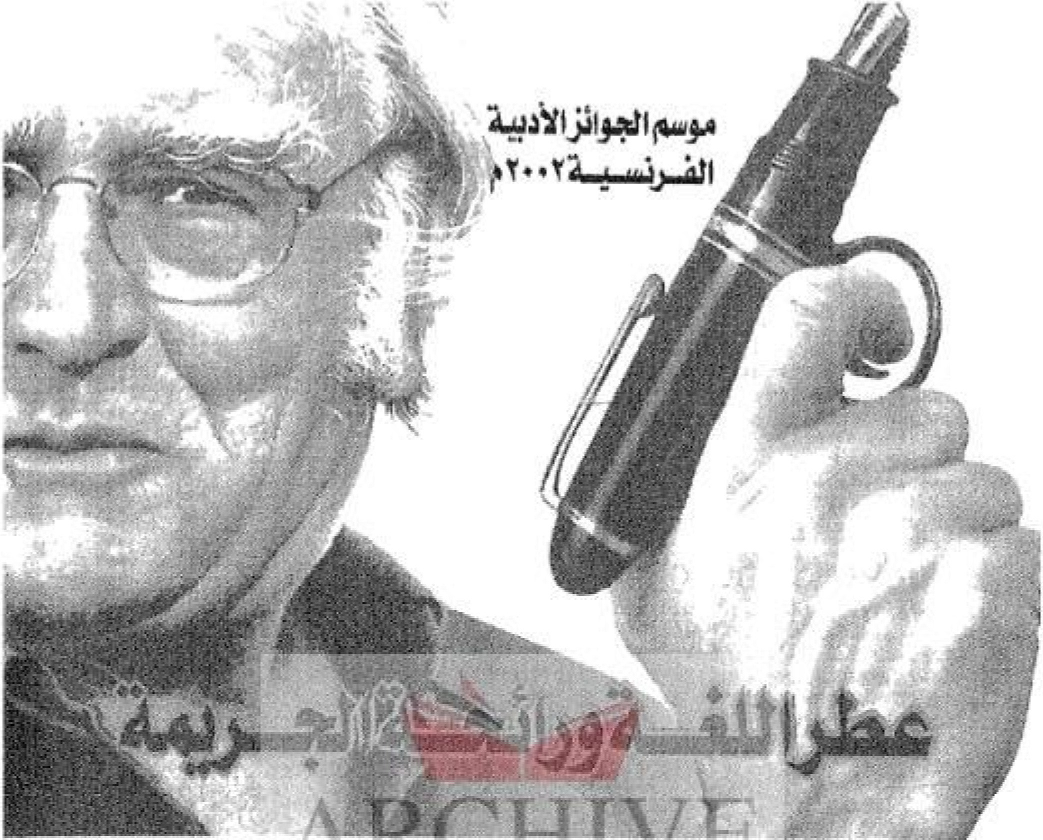
أيضا لم يعط الكتاب مساحة كافية لرسوم بيكار الصحفية والتي تعد بمثابة لوحات مكتملة خاصة رحلاته إلى مختلف العالم وما أجمل أعماله تلك والتي صورت الحبشة والمغرب واسبانيا وغيرها.

بالاضافة إلى هذا لم يحتف الكتاب ببيكار فنان الغلاف خاصة وقد قام بتصميم مئات الأغلفة بعضها يمثل تاريخاً هاماً في قيمة فن الغلاف.. وقد بلغ فن الكتاب المصرى ذروته عام ١٩٤٨ حين صدر عدد من دواوين الشعر اصدرتها دار المعارف وشركة فن الطباعة للشعراء : (على الجارم وبشارة خورى مع ديوان نزار قبانى الثانى طفولة نهد» ..

وكان القاسم المشترك بين هذه الدواوين الشعرية الجميلة هو رسام أغلفتها ورسومها الداخلية حسين بيكار، وربما كانت لوحات ألف ليلة وليلة التي أبدعها بيكار (طبعة دار الشعب).

من أجمل ما قدمه بالأبيض والأسود ولم تمثل في الكتاب أيضا.

تحية إلى بيكار الرائد ودعوات بالشفاء.. وتحية إلى كتابه الذى قدمه الشارونى بعمق ما فيه من فن وأبداع. ■



موسم الجوائز الأدبية الفرنسية ٢٠٠٢م

عطر اللغـ [illegible] الجـريمة

بقلم
محمود قاسم

تأخرت جائزة جونكور كثيراً فى الذهاب إلى باسكال كوينيار وهو أحد الذين يستحقونها بجدارة.

ولأن للجائزة نواميس خاصة لا تمنح لاسم الكاتب، بقدر ما تحصل عليها سنويا رواية متميزة، تدخل فى نطاق المنافسة مع بقية الروايات الصادرة فى نفس السنة، فإن كوينيار وجد نفسه دوما فى منافسة مع أقرانه من كافة الأجيال..

وكان استبعاد رواياته أمراً مثيراً للدهشة..

إلى أن جاءت الجائزة أخيرا. عن روايته «الظلال الشاردة» بعد أن تغيرت ملامحه، وصار أبيض الشعر، أصلع الرأس، لكنه لم يتوقف عن الإبداع، بغزارته التى عهدت عنه فى بداية حياته.

تجيء أهمية كوينيار أنه روائي صاحب رؤية، ووجهة نظر، وهو مُنَظر لما يكتبه، أسوة بما فعله من قبله كل من سارتر، وروب جرييه، وقد ظهر لأول عام ١٩٧٦، أي منذ ربع قرن إبان أزمة الرواية الفرنسية كي يحاول تجديد الشكل، وأن يعود بالرواية إلى صياغة مختلفة تجمع بين التجديد والتقليد.

ولد باسكال في بلدة «فرنوى سير آفر» عام ١٩٤٨، تأثر كثيرا في كتاباته بدراسته للأدب الاغريقي واللاتيني، وغاص في التاريخ من خلال هذه الأعمال الروائية المتعددة المناقب، مارس الكتابة في العديد من الأشكال، فهو كاتب مقال، ودراسة، وناقد، كما أنه عازف ماهر لآلة التشيللو.

عن بداياته الأدبية، واتجاهة تحدث: «لم يكن لديّ قط أي اتجاه أو درب سوى العشق الذي لاينضب معينة بداخلي والذي يلتصق باحشائي وبرأسي، ذلك العشق الذي اعتقدت أنه على وشك أن يهجره، والذي كان يعود من جديد كارتداد الأمواج، هذا العشق هو رنين الجرس الذي يقتحم السكون، الكتابة ضجيج داخل سكون الجسد، وهو شيء شبيه بليل العالم القديم».

في عام ١٩٧٦ ظهر لكوينيار كتاب بعنوان «القارئ».. وهو مقال أدبي قيم ودقيق، وحاد له طابع روائي، ثم صدر له كتاب آخر بعنوان «الواح خشب النفس» وهو عبارة عن مذكرات زوجة أحد المواطنين الرومان، وقد كان لهذا العمل الأدبي أصداته الواسعة في الأوساط الأدبية، حيث تجد فيه معالم الحضارة الرومانسية القديمة بتاريخها وروحها وشخصياتها بشكل يختلف عما اختزنته ذاكرتنا المدرسية.

لكل لغة .. عطرها

في كل عام، يدفع كوينيار إلى الناشر برواية جديدة، وقد قام الكاتب بتغيير الناشر عدة مرات، وهو أمر قليل الحدوث لأقرانه في فرنسا، ومن هذه الأعمال «كاروس» ١٩٧٨ و«قاعة فرتمبرج» ١٩٨٦، و«سلالم شامبور» ١٩٨٩ و«اليسيوس» ١٩٩٠ ودرته «كل صباحات العالم» ١٩٩١، و«معالجات صغيرة» ١٩٩٢، «الاسم على اللسان» ١٩٩٣ وشرفة روما» ٢٠٠٠، ثم «الظلال الشاردة» التي حازت جائزة جونكور عام ٢٠٠٢ والتي صدر الجزء الثاني لها عقب فوزه بالجائزة.

في عام ١٩٨٦، نشر الروائي فرانسوا نورسييه، مقالا في مجلة الفيجارو، قال في خضم حديثه عن رواية «قاعة فرتمبرج» أن كوينيار كان يستحق جائزة جونكور عن هذه الرواية وأن منافسه ميشيل هوست قد انتزع الجائزة بصعوبة، مما يعني أن كوينيار تأخر طويلا في الحصول على جائزة كان يستحقها منذ سنوات.

البطل في هذه الرواية مثل المؤلف، عازف تشيللو، هو مترجم وكاتب سيرة ذاتية للعديد من أعلام الموسيقي، وهو متمكن من اللغة بحيث يستطيع فهم ما وراء المعاني، ويمكنه أن يلعب

بالمصطلحات حسبما يشاء. عاش بين فرنسا وألمانيا.. ويتقن لغتيهما، وهو يقوم بالانتقال بينهما حسب الظروف، ففى ألمانيا يسمونه كارل، وفى فرنسا يتم تحوين الاسم إلى شارل، كما أنه واحد من عصر الاستهلاك، يحب الشيكولاته، والحلويات، ويبحث دوما عن لغة موازية للغتين اللتين يتقنهما.

يرى الراوية أن لكل لغة سماتها، وعطرها، ومغامراتها داخل القلب، وهى تدفع المرء إلى البحث عن المعانى الحقيقية للمشاعر.

نحن إذن، أمام رواية أقرب إلى الإبحار فى قواعد اللغة، ومعانيها، ويتوقف الراوية دوما عند معان بعينها ويتساءل هل هى مقصودة بنفس الدقة فى اللغة الثانية، أى هل أن البشر لهم نفس الأحاسيس عندما يرددون نفس الكلمة بلغاتهم المختلفة.

يقرر كارل أن يعتزل العالم فى بيته الريفى الألمانى، ويسترجع ذكريات قصص حب منتهية، ويغوص داخل أرشيفه الفنى القديم، وتغمره حالة من الحنين المتدفق، وكأنه يقول كلمته الأخيرة.

وقد أشارت مجلة «لويوان» فى ٤ سبتمبر ١٩٨٩ أن كوينيار يستحق الجائزة عن روايته «سلالم شامبور» ولعل هذا النحس الذى ظل يلازم الكاتب فى عدم حصوله على الجائزة، قد دفعه إلى أن تصدر روايته «كل صباحات العالم»، درة أعماله، فى خريف عام ١٩٩١، أى بعد نهاية موسم الجوائز الأدبية، وبدا أنه يتحدى الجائزة، وبالفعل قوبل كتابه باحتفاء ملحوظ، فقد كتبت ايزابيل ماركان فى «جريدة چينيف». الملحق الأدبى فى ٧ ديسمبر ١٩٩١ - أنه أجمل الكتب التى ظهرت فى الفترة الأخيرة، كما أن النقاد استقبلوا الكتاب بحفاوة مما مكنه من منافسة كافة الروايات الحائزة على الجوائز الأدبية فى تلك السنة.

موسيقى .. وزوجة

فى هذه الرواية، يبدو كوينيار وفيا للنوع الأدبى الذى كرس حياته للموسيقى: «خلال ثلاث سنوات كان ظهورها ماثلا أمام عينيه، وفى خلال خمس سنوات، راح صوتها يهمس دائما أذنيه».

الموسيقى لم تكن بديل عن الزوجة الراحلة فى حياته، بل كانت بمثابة رسائل يكتبها إليها، حين يؤلف المقطوعات أو يعزفها، وقد احتفظ الزوج لنفسه بمقطوعة عزفها لأول مرة عند مقبرتها باسم «مقبرة الندم»، فهو لم يسمعها لأى من ابنتيه، أو تلاميذه الذين يعلمهم الموسيقى، لأنها تخصه وحده، هى رسالته إليها، تضم مفردات حسية خاصة، هذا الرجل لا يشعر قط بالملل من الوقت الطويل الذى يقضيه فى مقصورته الخشبية المقامة بمدينة ريفية بعيداً عن المدينة. أنه يعزف خمس ساعات يومياً على الكمان دون توقف.

ظل الرجل يندمج داخل لحنه، ويغرق

فيه طوال اثني عشر عاما، لدرجة أنه رأى شبح امرأته الراحلة يخرج له من الحديقة.. ويقترب منه، ويقوم بمس شعره، إذن، فلابد أن الموت كائن حي، يستمع بدوره إلى الموسيقى، ويتمايل لها، «إنها أداة للكلام إلى من لا نستطيع أن نكلمهم».

وفي تصرف فجائي غريب، يقرر الموسيقار أن يتخلى عن آلته، وأن يحتفظ بها في مكان بعيد، وأن يتحول إلى موسيقار يعزف للملك وحاشيته، لكن هذه الوظيفة كانت سبباً حقيقيا إلى أن يعود من جديد إلى ماضيه، كي يرسل إلى زوجته تحيته الخاصة، الصامتة، المليئة بالتدفق، عبر ألحانه الوجدانية.

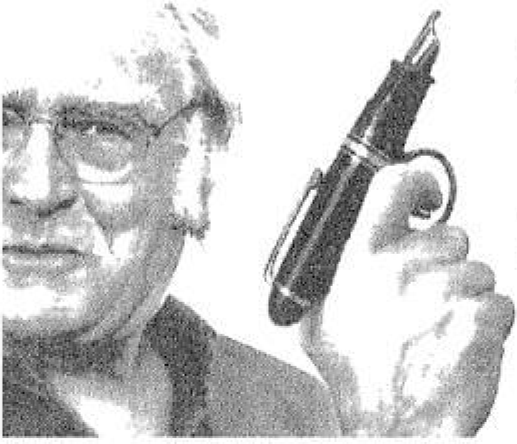
أما روايته «الاحتلال الأمريكي» ١٩٩٤، فتدور أحداثها عام ١٩٥٨، على ضفاف نهر «لا لوار» . في تلك الآونة كانت فرنسا تستضيف حوالي ٢٧ ألفاً من الجنود الأمريكيين، في تلك الآونة، التقى باتريك وماريان المراهقان، وسقطا في قصة حب مرتجفة، انهما يتصارعان مثلما يتصارع نمطان مختلفان من الحياة، أي الحضارة الترفيهية السفيهة آنذاك، وهي حضارة الولايات المتحدة، وفي المقابل الحضارة الراقية التي كان يحن إليها الفرنسيون، ويحاولون استردادها في الوقت الذي كانوا قد فقدوا الوسائل التي تمكنهم من ذلك، فالكوكاكولا كانت مشروبا ساما، وبربرياً قبل أن ينقض عليه الجميع. وكانت موسيقى الجاز



باسكال كوينار

تعد في الأقاليم موسيقى الهمج المتوحشين، ثم جاء ديجول، ورحل الجنود الأمريكيون، وانطفأت نار العشق.

وقد كتب الناقد جان ماك بروشييه في مجلة «ماجزان لتيرير» أنها رواية غريبة كنا «قد نسيناها كما نسينا عصر الامبراطورية الرومانية، حتى جاء



كوينيار ليفرضها على ذاكرتنا من جديد، إنها حجر إضافى داخل بناء كل صباحات العالم».

شرفة روما

فى روايته «شرفة روما» ٢٠٠١ يعود الكاتب إلى نفس الحقبة، القرن السابع عشر من خلال خطاط مولود عام ١٦١٧ ومات فى سن الخمسين، هناك أيضا امرأة فى حياة هذا الرجل، لكنها امرأة مختلفة، فهى تود أن تدخل حياته، لا تريد النظر إليه، أو أن تحبه، لكنها فى أعماقها ترغب فيه. ورغم أن هناك نساء كثيرات فى حياته، فإنه لايرغب سواها، ولهذا السبب فإنه يكرس حياته للسفر، والحفر، والحلم والرسم، والكتابة. يتجه إلى أسبانيا، وروما، ولا يكف عن العمل، فالحفر بالنسبة له «رؤية الأشياء للمرة الأولى».. أو «حتى لا يقع المرء فى دائرة النسيان»..

ورغم ذلك فإن ما يحفره يصبح بلا معنى، لأن المرأة غير موجودة حوله أسوة ببقية النساء، لذا فهو يعود مرة أخرى إلى قريته، كى يكون قريبا منها، فلعله يتنسم منها ما يجعل لما يفعله قيمه فنية حقيقية.

***

والمتابع للمجلات الأدبية الأوروبية والأمريكية، سواء كانت مجلات لها وزنها الثقافى، أو حتى صفحات الكتب فى العديد من المجلات، والصحف، سوف يلاحظ ذلك الاهتمام بحكايات الكتب حول الجديد فى عالم الرواية البوليسية سواء فى العناوين أو المؤلفين الجدد.

أهم ما فى الأمر أن تسمية «رواية بوليسية» قد صارت فى حد ذاتها قديمة، وانه قد ظهرت أسماء عديدة، لا توحى بالمرة أننا أمام روايات من هذا النوع، وعلى سبيل المثال اعتاد القارئ، أن يكون غلاف السلسلة بالأسود، وحدث ذلك مع سلسلة الروايات الصفراء لدى ناشر آخر. وفى فترة لاحقة اتفق على تسميتها برواية القطب Polar أو فلنعتبر أنها ترجمة خاطئة لأن بعض هذه المصطلحات كاذب إلا إذا استخدمنا أصله.

ومن أجل كشف أهمية هذا النوع من الروايات، فإن مجلة «لوبوان» قد خصصت ملفين كبيرين عن هذا الموضوع، ونحن نستخدم مصطلح «مجلة سياسية» لنؤكد أن مطبوعة جادة تفتح هذا الملف يعنى أهميته.

لكن الغريب هنا، هو أنها فعلت ذلك مرتين، مرة فى بداية موسم الاجازات، فى ٢٨ يونيه الماضى، والمرة الثانية فى ٩ أغسطس لم يحدث هذا من فراغ فقد اكتشف المحررون الذين زاروا معرض الكتاب السابع فى مدينة «نيس» أن الاقبال على الروايات البوليسية يشكل ظاهرة يجب الالتفات اليها، وأن هذا النوع من الكتابة يكتسب دوما المزيد من القراء وأن هؤلاء لا يهمهم اسم الكاتب،

بقدر الغموض الداكن الذى تفوح روائحه من صفحات الروايات. ويعتبر هذا التحقيق الضخم انعكاسا لما يتم الآن فى ساحة التأليف الإبداعي، فهذا النوع من الكتب يحتاج إلى مؤلف له حاسة خاصة تجاه حبكة الجرائم واثارة أجواء غير مألوفة من الغموض، هذا الغموض الذى لا تنكشف أسبابه إلاّ فى الصفحات الأخيرة.

وهناك مجموعة من الملحوظات يمكن الوقوف عندها فى هذه الروايات الحديثة.

الدببة .. والثعابين

الأدباء الأمريكيون هم الأكثر حظوة، وموهبة فى هذا النوع من الروايات، يليهم الأدباء الفرنسيون، ثم الروس ولعل ازدهار هذه الروايات فى الولايات المتحدة، يفسر انتشار هذا الكم الهائل من الأفلام البوليسية التى اصطلح على تسميتها بالقصص البوليسية.

وقد رأت المجلة أن هناك ثلاثة أسماء بارزة من أجيال مختلفة قاموا بترسيخ هذه الروايات الـ Polar وكلهم من الولايات المتحدة، الأول داشيل هاميت، سيد النوع كما يسمى (١٨٩٤-١٩٦١) الذى ابتدع شخصية المفتش الخاص (الذى لا يعمل فى مؤسسة رسمية) فيليب مارلو والذى ظهر فى العديد من الروايات التى أخرجت للسينما عدة مرات منها.. «الصقر المالطى» و«مفتاح من زجاج»، وقد اتسمت رواياته بالغموض المرتبط بتهديد يدفعه إلى اللجوء لمفتش تحر من أجل ابعاد الخطر عنه.

أما شستر هايمز، فهو أشهر من كتب فى الروايات السوداء وهو أبرز كتاب ما بعد الحرب مات عام ١٩٨٤، بعد أن ترك العديد من الروايات منها «الأعمى والمسدس ويعتبر من أحد رموز ثقافة الزنوج فى هارلم.

ويقال إن الكاتب جيمس تروملى، المولود عام ١٩٣٩ هو الوريث الشرعى لما كتبه الأساتذة وقد تتلمذ على دوستويفسكى وتولستوى، ودايلان توماس، وله العديد من الروايات منها القبلة الأخيرة، و«رقصة الدببة» وفى عام ١٩٩٦ نشر «ثعابين الحدود» ثم «الحاجز الأخير» ٢٠٠١.

وأهمية هذه الأسماء الثلاثة أنهم فى الأصل أدباء، طعموا الغموض بالمفرد اللغوى المنمق، بأشخاص لهم مشاعر انسانية فياضة، مما أبعد الأعمال التى تركوها عن الهامشية والغريب أن المجلة لم تتوقف عند أسماء لامعة فى هذا المجال لم تكن كتابتها أدبية، مثل أجاثا كريستى، لكن الأغرب أن كاتبا غزير الانتاج من طراز جورج سيمنون لم يذكر له اسم بالمرة، أى أن ما يقل عن



عشرين رواية في ابداع هامليت أكثر من الألف رواية التي خلفها كل من سيمنون وكريستي وراءهما.

لذا، فإن الفرسان الجدد في هذا النوع من الروايات هم أقرب إلى الأدباء منهم إلى مؤلفي الروايات البوليسية ومن هنا فإن مصطلح «بولار» يكتسب قيمة لدى الناس. فالجرائم هنا ليست بهدف الغموض، ولكن الأشخاص فيها لهم دوافع إنسانية وهم يجبرون على ذلك مثلما حدث في روايات الكاتبة باترشيا هايسميث.

من أبرز هذه الأسماء جون ساندفوردو واسمه الحقيقي جون كامب)، الذي فاز بجائزة بوليتزر - كصحفي - وقد استطاع أن يخلق عالما متفردا في روايات الثلاث عشرة وبطل هذه الروايات مفتش شرطة يدعى لوكاس لكن الشخصية الرئيسية صحفية تدعى أنا بوتاري التي تعمل محررة في التليفزيون ودورها هو اصطياد الجرائم أثناء حدوثها لعرضها في برنامج تليفزيوني تقوم بإعداده وفي روايته الأخيرة ليل السعير يموت زميلها المصور في ظروف غامضة.. ويصير الليل الذي تعمل فيه بمثابة جحيم، فهي تعرف أن القاتل يتربص بها.

انه شكل مختلف من الروايات الغامضة، فلسنا أمام جريمة قتل، تدور فيها الشبهات حول مجموعة من الأشخاص المعروفين، ويكون الفاعل في النهاية شخص بعيد تماما عن الشكوك ولكن البطلة هنا تنتظر فاعلا مجهولا وتعيش في رعب قاتل وباعتبار أن الخوف هو من الأحاسيس التي تتبلور فيها جميع سمات الإنسان.

الإيطاليون لا يحبون القتل!!

الأدباء الأمريكيون الآخرون، يمثلهم كل من جورج بيلكاتو، صاحب رواية «أبيض كالثلج» ومايكل كونللي مؤلف «نهر الغموض» ونيك توشس صاحب «قطار الليل» أما الروسي بوريس أكونين فقد بيع من رواياته الأخيرة قرابة ٢٠٠ ألف نسخة، وهذا النوع من الروايات لم يكن موجودا في الاتحاد السوفييتي، ولكن تغير شكل الحياة خلق نوعا مختلفا من الجرائم، وأسفر عن ظهور جيل من القراء يعشقون روايات الغموض فقد قام المؤلف بابتداع شخصية تتكرر في رواياته، مثلما يفعل كتاب الغرب، هو المفتش ارست بتروفيتش الذي يمتلك حاسة لاكتشاف الغموض مثلما كان يمتلك شرلوك هولمز، وفي روايته الأخيرة موت أخيل يبدو تأثره بالأدب الياباني فالمفتش بتروفيتش يسافر إلى اليابان من أجل كشف النقاب عن جريمة لمقتل جنرال روسي كان موجودا في اليابان ولا شك في أن موته يعني الكثير للشعب الروسي، فهو في نظرهم بطل قومي، وينتقل المفتش بين بلدان عديدة ليعرف من يقف وراء هذا الاغتيال.

نحن بالفعل أمام رواية غموض لكنها أيضا رواية فيها الكثير من الملامح السياسية في ظل التغيرات الحادة التي عرفتها روسيا في السنوات العشر الأخيرة.

أما الكاتب البريطاني جرهام هيرلي فإنه أحد الوافدين الجدد ولم يكن أمامه سوى اتباع خطى أساتذة النوع حيث يتكرر ظهور المفتش فاراداي في رواياته الثلاث، وهو ارمل يعيش وحيدا مع ابنه الأخرس والذى يكن له كل مشاعره الخاصة، وكلا الاثنان يحبان البحر والطيور وبيتهما الأبيض المطل على المحيط وهو بيت يشبه السفينة أما الحى الذى يعيشان فيه فإنه مسكون بالفقراء، والبحارة والجريمة هنا تتمثل في اختفاء أستاذ جامعى يقوم بأبحاثه عن البحر ما يدفع بالمفتش إلى فك لغز الاختفاء.

هذه الاجواء يمكن أن نجدها فى الكتابات الأدبية، لذا فإن واحدا من كتاب الـ «بولار» يمكنه أن يجعلها تدور فى عالم الغموض الأسود فلا يفقدك شعورك الانسانى بالتعاطف مع الناس.

وفى ايطاليا، هناك أيضا هذا النوع من الروايات تبرز فيه دوناليون التى تعيش فى فينسيا وهى كاتبة غزيرة التأليف ويقال : إن رواياتها تلقى شهرة خارج ايطاليا منها داخل وطنها، مما يعنى أن الرواية البوليسية تزدهر فى بلاد دون أخرى وفى روايتها الأخيرة «قضية باولا» تتوقف عند ما يسمى بالسياحة الجنسية، فقد امتلأت ايطاليا بالبنات الصغيرات القادمات من آسيا بهدف الدعارة حيث تقوم شركات السياحة باستغلالهن فى تنشيط أعمالها وبسبب موت إحدى هؤلاء البنات فى ظروف غريبة، يمكن التعرف على عالم جديد أسود من الدعارة.

الرافضون

فى فرنسا هناك كتاب أقل براعة، باختصار لأنهم أدباء أكثر منهم مؤلفى روايات بوليسية منهم من الجيل الجديد برجيت أوبير صاحبة موت الغابة التى حازت على جائزة الرواية الوليسية، أما باتريك كوتين، فهو كاتب مخضرم، قسم نفسه إلى شخصين، أحدهما اسمه كولتز يكتب الروايات البوليسية والآخر كوتين يكتب النصوص الأدبية وقيل انه يكتب ما يسمى بـ «البولار الأدبى» وقد جاءت روايته الأخيرة «دماء وردية» قطعة أدبية راقية مليئة بالغموض، لكنها مرصعة بالسحر الانسانى.

إذن، فكتاب هذا النوع من الرواية يرفضون استخدام مصطلح البوليسية لما يكتبونه وذلك عكس المشاهير الذين نعرفهم حاليا وأغلبهم من الكاتبات النساء مثل مارى هيجنز كلارك وروث راندل وفى. د. جيمس، لذا فإن هؤلاء الأدباء يراهنون على الجوائز الأدبية من ناحية، وأيضا على بقاء هذه العوالم فى ذاكرة القراء لسنوات طويلة. ■





بديع الكسم ودرية:

قصة غرام فلسفية

بقلم
صافى ناز كاظم

وصلنى صوتها المميز، الذى يجمع بين الجمال والرقى والثقافة، فصحت فى فرح: «درية معقول!» كانت قد غابت ولم أعرف كيف أتصل بها حين قرأت عفوا خبر وفاة زوجها صديقها «بديع الكسم» ، الدكتور أستاذ الفلسفة .

هي وهو من أصـــــدقـــائي الحميمين، تعرفت عليهما في القاهرة في الستينيات بواسطة السفير العلامة سامي الدروبي وزوجته الغالية إحسان بيات، رحمة الله عليهما، وشاء الله أن ألتقي بهما عام ١٩٦٩ خلال إقامتهما المكثفة بمهام الواجب العروبي في الجزائر بعد أن أعير دكتور بديع الكسم من جامعة دمشق إلى جامعة الجزائر ليسهم في خطة التعريب التي نهضت بها حكومة «هواري بومدين» في ذلك الوقت. ثم التقيت بهما - بعد عشر سنوات - في دمشق عام ١٩٧٩ حين أخذتني الغالية إحسان بيات «الدروبية»، وأنا في ضيافتها، إلى ندوة الجمعة التي كانا يقيمانها في منزلهما كل أسبوع على مدى سنوات طوال، لأن ندوة «بديع الكسم» - كما أكدت لي إحسان - واحدة من أهم معالم دمشق الثقافية التي يجب الحرص عليها.

ذكريات في القاهرة

كانت، «درية وبديع»، يحضران إلى القاهرة وكان لابد ، كل مرة، أن يكون لي معهما لقاء. تتباعد الأماكن والأزمنة، لكنني معهما دائما على تواصل وجداني، وحين نلتقي يبدو وكأننا لم نفترق، كنت أضحك وأقول: «دائما معا على الخط». رغم كل ما بيننا من اختلاف ممكن في المنطلقات والرأي أو الفكر ، كان هناك ذلك التآلف الروحي والتقارب النفسي. أصدقاء. ليس من الضروري أن يتطابق الاتفاق في الرأي بين الأصدقاء، أحكي ويضحكان. يحكيان وأنصت باستمتاع. «يحكيان»، نعم لم يمكنني أبدا أن أفصل بينهما وأقول «يحكي» و«تحكي» فهما رابطة غير منفصمة. ينطقان بلسان واحد وصوت واحد. أقول : «بديع الكسم ودرية: قصة غرام فلسفية». هو من دمشق وهي من القاهرة . عام ١٩٤٣ جاء موفدا من دمشق بعد أن أكمل دراسته الثانوية ليكمل دراسته الجامعية بجامعة فؤاد الأول، بكلية الآداب قسم الفلسفة. وكانت هي قد انتهت من دراستها الثانوية بمدرسة الأميرة فوقية، والتحقت بالجامعة والكلية والقسم نفسه.

لعله شاهدها، لعلها لاحظته لكن اللقاء القدري لم يتم إلا في العام التالي ، في السنة الدراسية الثانية

١٩٤٤ - ١٩٤٥، بحث فى المنطق مراجعه فرنسية وانجليزية هو السبب، ثلاثة فقط كونوا مجموعة المرجع الفرنسى: سوريان: الطالب «وفيق العظمة» والطالب «بديع الكسم» وطالبة وحيدة: المصرية «درية عبدالحميد فؤاد». فى الدرس والبحث ينبثق الإعجاب المتبادل بين الدمشقى والقاهرية، وكلاهما فى العشرين ، بين مراجع المنطق وكتب الفلسفة والنشاط الخيرى لجمع المصروفات اللازمة للزملاء المتعثرين اقتصاديا، حيث تعزف «درية فؤاد» البيانو فى الحفلات المقامة بالقاعة الكبرى بالجامعة تنظمها «جمعية الطلبة العرب». كل عناصر الرومانسية المرجوة ليترعرع الحب حاضرة لتزداد الرابطة بين الدمشقى والقاهرية. فى حفل التخرج عام ١٩٤٧ يتقدم إلى والدها ليخطبها، لكن الموافقة لا تتم إلا حين عودته عام ١٩٤٨ لدراسة الماجستير فيتزوجان وتسافر «درية» معه إلى دمشق ليواصلا معا مشوار الحياة، على مدى ٥٢ سنة، من ١٩٤٨ حتى يوم رحيله ٥/١٠/٢٠٠٠ . زوجين زميلين، صديقين، متوحدين . أوفدته جامعة دمشق إلى جامعة جنيف سنة ١٩٥٤ فنال شهادة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩٥٨ عن رسالته «فكرة البرهان فى الميتافيزيقا». هل قلت «نال»، الأصح أن أقول «نالا»، فدرية تتكلم عن أطروحته، التى ترجمها من الفرنسية الى العربية الأستاذ جورج صدقنى تحت عنوان «البرهان فى الفلسفة» بشغف المشارك فى الهم العلمى، المتابع لكل فكرة ، لكل كلمة، والحارس للوثائق والأوراق، حتى يقول عنها مترجم «البرهان فى الفلسفة»: «وإذا كان كمال الفضل أن ينسب لأهله، فإنه ينبغى لى أن أعلن أن الفضل يعود إلى السيدة الفاضلة درية فؤاد الكسم رفيقة عمر فيلسوفنا الكبير فى إنقاذ.. الأوراق الثمينة من بين أوراق الفقيد الكثيرة، وفى وضعها بين يدى»..

مع درية بعد رحيله

فى شهر ذكراه الثانية، ٥/١٠/٢٠٠٢، جاءت «درية» إلى القاهرة، وأهدتنى بعض كتبه ومعها هذه الكلمات: «وأخيرا أخيرا وجدتك ياصافى، وجدتك ويلا بديع هذه

المرة..» ولم تكن هذه الكلمات صحيحة مائة بالمائة، فدرية لم تدر أنها، بكلامها الذى لم يتوقف عنه، قد جسدته بانصهارها الروحى فيه. ورأيتها كما تعودت أن أراهما معا، بابتسامتها الباشة السعيدة المستغرقة فى «اعتناق» بديع الكسم. أنظر إليها وأراه، كما كنت أراه، إلى جوارها ناظرا إليها فى مودة بلا حدود تاركا لها انطلاقة الحديث بالنيابة عنه، أسأله فتجيب، يبدأ فتكمل، يختصر فتستطرد. يتذكر فتغذى ذاكرته بالتفاصيل . يعترض فتقدم حيثيات تدعم اعتراضه، لم تزل خطواتها منضبطة على إيقاع خطوه فكيف يجوز لها أن تبكى فقدانه؟

سيرة حياته

فى حفل تأبينه قال الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، فيما قال:

«... ولد الدكتور بديع الكسم بدمشق عام ١٩٢٤، ونشأ فى أسرة عرفت بالتقوى والورع، وانصرفت إلى العلم والتفقه فى الدين . كان أبوه الشيخ محمد عطا الله الكسم - «١٨٤٤ ـ ١٩٣٨م» - من كبار فقهاء الحنفية بدمشق وأهّله علمه الواسع. .. لتولى منصب المفتى العام واحدا وعشرين عاما حتى توفاه الله.... وكان منزله منتدى العلماء والفقهاء والأدباء وكبار رجالات دمشق، تعقد فيه مجالس العلم، وتدور الأحاديث والمناظرات ، ويمضى بهم القول حينا إلى تناول ما يلم بالوطن الحبيب من وقائع ومظالم يقترفها المستعمر الغاشم... فى هذا الجو الذى تهيمن عليه المثل الأخلاقية ، والتعلق بالعلم، وحب الوطن والمذاكرة فى همومه وقضاياه نشأ الدكتور الكسم وترعرع وتفتحت نفسه لما رأى وسمع... لقد ظل الدكتور الكسم حياته كلها خدين الكتب لا يكاد يفارقها، وقد أولع بالفلسفة خاصة ولوعا شديدا ... ولما أكمل الدكتور الكسم شوط دراسته بنيل درجة الدكتوراه فى الفلسفة عاد إلى ساحة التدريس فى جامعة دمشق تملؤه الحماسة والنشاط ... لقد رأى فى التدريس تحقيق غاية من أحب الغايات إلى نفسه، هى أن ينشىء جيلا من العلماء عارفى الفلسفة يؤدون رسالة الفكر فى نزاهة وإخلاص.

ومن هنا نرى أن هاجس الأستاذ الكسم الذى كان لا يغادره أمران: أولهما، السعى إلى نشر المعرفة فى مجتمعه وبين قومه... والثانى، تطلعه الدائم أن يبسّط ما أداه إليه النظر، وهو يتأمل أحوال قومه، ويلتمس الأسباب التى تدعو إلى نهضة العرب ليشاركوا فى الحضارة الإنسانية»...

وفى مشاركته قال الدكتور حسن حنفى :

«من القاهرة التى أحبها... أتيت... هو من الرعيل الثانى لرواد الفكر العربى وأساتذة الفلسفة العربية من الأربعينيات مع زكى نجيب محمود، وتوفيق الطويل، ومحمد عبدالهادى أبوريده، ومحمود أمين العالم، وسامى الدروبى، وعبدالرحمن بدوى، ومحمود قاسم، وعادل العوا، بعد الرعيل الأول مثل ابراهيم بيومى مدكور وعثمان أمين، ومحمد مصطفى حلمى، وأبو العلا عفيفى، وعلى سامى العشار، ومحمد على أبو ريده، تلاميذ المؤسس الأول للفلسفة فى البلاد العربية مصطفى عبدالرازق تلميذ محمد عبده تلميذ الأفغانى...»

وعن أسلوبه فى الكتابة قال أخوه الدكتور الناقد بدر الكسم: «كان يعمل إزميله فى صخور اللغة ليفجر منها مياها رقراقة ، صافية حيث لا زبد.. لغته لغة صلبة مرمرية ولكنها فى الوقت نفسه شفافة كالكريستال يرى المتأمل فيها حزما ضوئية تشع بألف لون ولون.. كان عاشقا للكلمة الحلوة يصطادها كالفراشات».

وللتأكيد على ذلك نقرأ هذه الأسطر المقتطفة من مقال للدكتور بديع الكسم بعنوان «الحرية أساسا»:

«يقول مفكر فيلسوف : إن معاجم اللغات جميعا لم تعرف عبر تاريخها الطويل، لفظة أجمل من لفظة الحرية، باستثناء لفظة الحب، وواضح أن الجمال هاهنا ليس جمال الصورة البصرية ولا جمال الصورة السمعية، وإنما المقصود أن لفظة الحرية أحلى فى المذاق وأطيب طعما من كل لفظة ، أو أنها بتعبير آخر أكثر قدرة من غيرها على تجميع قوى النفس، وعلى تفتيح طاقاتها، وعلى تعريض الأفق أمامها آفاقا بعد آفاق.

قد يقال إن الحرية حريات، لأن حرية التصميم فى قرارة الأنا غير حرية التنفيذ فى ساحة الواقع، ولأن

التفكير الصامت غير حرية التفكير بصوت مرتفع، ولأن حرية الفرد الواحد غير حرية الإنسان أينما كان. والجواب البسيط أن الحرية واحدة. إنها ماهية ذات مظاهر، أو وجود ذو أبعاد باطنها قدرة على تعيين الذات بالذات، وانتفاء القسر فى كل صوره ، وظاهرها نسق من الحريات ، أو إذا شئتم من الحقوق الأساسية التى تتكون من خلال النشاط المشترك للعقل والعمل والمحبة والتطلع. فالإنسان كما قال ابن الخطاب حر منذ أن تلده أمه، ولكنه ليس حرية كله. إنه أيضا نزوع إلى وعى الواقع وامتلاكه، وانفتاح متصل على الناس، وتجاوز صاعد لا يقطعه إلا الموت. ولكن الإنسان لا يتحقق على كل صعيد إلا حين تحركه حريته الباطنة وترافق كل خطواته . إن الحرية أساس.........

الحرية هى أساس البرهان نفسه وإنها كالشمس لا تحتاج أبدا لكى نراها إلى أن نضىء الشموع... إن النفس تمتلىء بالمرارة والأسى حين توضع الحرية موضع الشك لحظة واحدة».

★★★

كلام الدكتور أستاذ الفلسفة الحكيم بديع الكسم هذا عن الحرية يفسر ما قالته لى درية: «لقد تحاشى بديع العمل السياسى وظل يردد : لقد خلقت لكى أكون معلما ...»

وقد كان، ولهذا نوفيه «التبجيلا» لأن «المعلم» - كما قال الشاعر - كاد أن يكون رسولا!

قالوا عن المرأة

• بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم .. ليستردوا شيئا من حريتهم المفقودة !

نجيب محفوظ

• تتزوج المرأة لتدخل الى المجتمع ، ويتزوج الرجل ليهرب منه !

شوبان

• الزواج خطوة هامة جدا، ولذلك يجب أن نتردد فيها حتى الموت !

أنيس منصور

تقويم النيل

لأمين سامي باشا

بقلم
د. أحمد زكريا الشلق

يتفرد نهر النيل بين أنهار الدنيا، كما تتفرد مصر في حوضه، ولسنا نبالغ إن قلنا إن مصر هي النيل، فتلك حقيقة أولية تتعلق بوجود مصر، فبدونه لاكيان لها، كما يقول جمال حمدان، ليس فقط من حيث مائه، وإنما كذلك من حيث تربته، فالنيل بأي مقياس، نهر غير عادي، جيولوجيا وجغرافيا، تاريخيا، وحضاريا.

وكانت تلك نقطة البداية في تفكير مؤلفنا «أمين سامي باشا» حين اتخذ من النيل، في سخائه وكرمه وفيضاناته، ومن شحه وبخله وتحاريقه، تقويما حوليا وركيزة أساسية للكتابة، ليس فقط عن أحواله، وإنما عن مجمل أوضاع مصر، فتتبع أحوالها، مقرنا ذلك بأحوال النيل، ليضع لنا هذا السفر الضخم، الجليل والقيم، بعد أن أنفق في تأليفه مايزيف عن ربع قرن من الزمان.



أمين سامي باشا

ومؤلفنا مثيل مدرسة تاريخية مصرية أصيلة، تمتد جذورها إلى العصور الوسطى الإسلامية - وإن تطورت بعد ذلك تطورا حقيقيا - كانت لها تقاليدها وملامحها. وكانت سمتها البارزة أن كتابها كانوا يعتمدون على النقل الحرفي في معظم الأحيان، عندما يؤرخون لعصور سبقتهم ولايأتون بجديد، إلا عندما يصلون بكتاباتهم إلى التاريخ المعاصر الذي يعيشون فيه، كما لم يحفلوا كثيرا بنقد الروايات أو تمحيصها، أو حتى إبداء الآراء بشأنها، وبشكل عام كان معظمهم يتبعون طريقة «الحوليات» التي برع فيها المصريون والعالم الإسلامي، عاما فعاما، وقليل منهم حاول التأريخ للموضوعات أو العلل كما فعل ابن خلدون.

التحولات

ولسنا نبالغ كثيرا إن قلنا إن المدرسة التاريخية المصرية شرعت تنتقل تدريجيا من تقاليد «الحوليات» إلى التاريخ العلمي، وإن ظل الاهتمام بالتسجيل الحولي قائما بدرجة أقل كثيرا مما سبق، وقد أسهمت جهود المؤرخين في بلورة وعي تاريخي ساهم بدوره في تكوين الوعي القومي العام، وتكوين الأيديولوجية الوطنية والفكر الاجتماعي في مصر «النهضة» كما يذكر أنور عبدالملك. كما يلاحظ أن هذه الجهود مرت بمرحلتين واضحتين أولاهما مرحلة الجبرتي ومدرسته والتي ينظر إلى كتاباتها في إطار عصرها وفي دائرة قرائها المحدودة التي تتمثل في كبار رجال الدولة والقادة. أما جمهور المثقفين فقد كان عليهم أن ينتظروا الطهطاوي الذي أطلعهم على الثقافة تاريخيا وعلى الثقافة الحديثة في شتى مجالاتها، وتأتي مدرسة الطهطاوي



ومدرسته وحركة الكتابة التاريخية فى عصر الخديو إسماعيل، حين حدث الاعتراف بالتاريخ كعلم لأول مرة، وصار مادة من مواد الدراسة فى مدرسة الألسن، يدرسها معلمون مختصون، وبينما اهتم تلاميذ الطهطاوى بترجمة الكتب التاريخية على نحو ما هو معروف، فإن عصر إسماعيل شهد اهتماما واضحا بتأليف الكتب .. ويفضل جهود فريقين من مدرسة الطهطاوى، فريق الأزهريين وفريق مدرسة الألسن، وجد المثقفون المصريون والعرب بين أيديهم مجموعة من المؤلفات التاريخية تعالج مختلف العصور فى العالم وبطريقة علمية حديثة.

وقد حظى النيل والتاريخ له، ولفيضانه وتحاريقه، باهتمام كتاب القرن التاسع عشر، فها هو المهندس محمود باشا الفلكى، أستاذ على مبارك وأمين سامى، والذى نشرت بحوثه فى المجلات العلمية الأوروبية، والتى مزج فيها بين الدراسات التاريخية والدراسات العلمية الخالصة، جمع بيانات موثقة عن فيضان النيل وتحاريقه عن الفترة مابين عامى (١٨٢٥ ـ ١٨٨٤) وضمنها فى كتاب كان مرجعا لمهندسى الرى والنيل، كما أن تلميذه على مبارك قد ضمن الأجزاء الثلاثة الأخيرة من خططه، دراسات مستفيضة عن النيل وفيضانه ومقاييسه وترعه، كما يصدق القول نفسه على كتاب له يحمل عنوان «نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» الذى طبع بالقاهرة عام ١٨٧٢، وهو كتاب تتمثل أهميته فى دراسة تاريخ نهر النيل ونظم الرى ومشروعاته فى مصر، ثم جاء أمين سامى باشا، الذى كان تلميذا للفلكى وعلى مبارك، ليضع لنا كتابه الوثائقى المهم «تقويم النيل» الذى لم يكن مجرد كتاب عن النيل وأحواله، وإنما عن تاريخ مصر والمصريين.

أمين سامى ومؤلفاته

ومؤرخنا أمين سامى باشا (١٨٥٧ ـ ١٩٤١) هو ابن الشيخ محمد حسن البرادعى المصرى، الذى ينسب إلى «البرادعة» إحدى قرى قليوب بالدلتا المصرية، وكان أبوه وجده شيخين للقرية مما يعنى أنه نشأ فى أسرة ميسورة من أسر شيوخ القرى المصرية فى القرن التاسع عشر، وبالرغم من أنه ليس لدينا معلومات كافية عن نشأته وسنى تعليمه الأولى، إلا أنه من الواضح أنه تلقى تعليما أوليا فى قريته، لم يلبث أن استكمله فى القاهرة، التى لاتبتعد كثيرا عن بلده، قبل أن يدخل مدرسة المهندسخانة، (التى كانت قد تأسست منذ عام ١٨٣٤) وذلك فى عهد نظارة محمود باشا الفلكى لها (١٨٧١ ـ ١٨٨٢) وفى هذه المدرسة تلقى أمين سامى تعليما فنيا، أهله لحياة عملية انتظم خلالها فى سلك التعليم الفنى، فعين مدرسا بمدرسة المساحة فى بنى سويف، وذلك فى أواخر عهد الخديو إسماعيل، وكانت هذه المدرسة تؤهل الطلاب للدراسة بمدرسة المهندسخانة، وقد شغل أمين سامى وظيفته تلك نحو خمس سنوات، قدم فيها لطلابه مختصرا لهندسة إقليدس.

انتقل مؤلفنا بعد ذلك للعمل مفتشا بنظارة المعارف حيث أظهر نشاطا كبيرا فى ظل رئاسة المسيو دوربيه السويسرى، الذى يعد أحد الشخصيات الأوربية المرموقة التى خدمت التعليم بمصر، وإليه يعزى تأسيس أول مدرسة للمكفوفين بمصر، وقد انتهى عهد الخديو إسماعيل (١٨٧٩) وأمين سامى فى وظيفته تلك، ونتيجة لنشاطه الجم وخبرته الواسعة وسمعته الطيبة، عهد إليه بإنشاء مدرسة ابتدائية بالمنصورة، فأسسها على أحدث طراز فى عصرها، وطورها بأن أضاف إليها فصولا تجهيزية (ثانوية) وكان من أنجب تلاميذه فيها أحمد لطفى السيد ـ أستاذ الجيل فيما بعد ـ الذى روى عنه فى ذكرياته أنه كان غلاما ذكيا ينزع إلى الفلسفة والتفكير مع حداثة سنة.

وفي مدرسة المنصورة قدم أمين سامي أسلوبا جديدا في التربية والتعليم لتنشئة الطلاب، فكان يكلفهم بإعداد موضوعات معينة خلال الأسبوع ثم يحشد المعلمين وكبار الموظفين والنابهين ليتحدث إليهم الطلاب، كل في موضوعه من الذاكرة حديثا مرتجلا، وقد زار الخديو توفيق هذه المدرسة عام ١٨٨٣ حيث اصطف التلاميذ لاستقباله وهم يلبسون ثيابا بيضاء كالتي يلبسها الجند بالثكنات، وقد أبدى الخديو إعجابا شديدا ببناء المدرسة وتنظيمها ونظافتها وبنظام التعليم فيها، حتى أنه تولى بنفسه امتحان التلاميذ باللغة الفرنسية.

ويبدو أن أمين سامي عمل فترة في دار المحفوظات المصرية منذ عام ١٨٨٠، انتقل بعدها للعمل مفتشا بنظارة المعارف مرة أخرى، ومنها انتقل إلى وظيفة أكبر وأكثر أهمية عندما تولى نظارة مدرسة الناصرية (المبتديان) حيث مكث بوظيفته هذه نحو ربع قرن، بين عامي (١٨٨٥ ـ ١٩١٠) استطاع خلالها تأسيس مبنى عصري للمدرسة بالمنيرة، حتى صارت مدرسة لأبناء الأعيان وصفوة المجتمع المصري، باعتبارها أرقى مدرسة في مصر حينئذ، وكانت أشبه بكليتي «هارو» و«إيتون» بانجلترا حيث يربى أبناء العائلات والأسر تربية خاصة، وقد ذكر أمين سامي أن اللورد كرومر، المعتمد السياسي البريطاني في مصر قد زار المدرسة وأثنى على نظامها ونظافتها وبرامجها الدراسية، كما زارها الخديو عباس حلمي مرتين.

وقد أضاف أمين سامي في ذكرياته عن هذه المدرسة أنه ابتدع مخالطة المعلم لتلاميذه، والعناية بالرياضة، وإذكاء المنافسة بين الطلاب عن طريق الجوائز ولوحات الشرف وتنشئتهم على النهج الذي رسمه الدين الحنيف، وقد تهافت رجالات مصر وكبراؤها وأعيانها على المدرسة يضعون أبناءهم تحت رعايتي وإشرافي، وكانوا يفضلون إلحاقهم بالقسم الداخلي رغم سكناهم بالقاهرة... وقد تخرج من هذه المدرسة من كبار شخصيات مصر البارزين كلا من مصطفى النحاس وعلي ماهر وأحمد ماهر وعلي الشمسي وزكي العرابي وحافظ رمضان وغيرهم.

ونتيجة للسمعة العلمية والإدارية التي حازها أمين سامي، عهد إليه في نهاية القرن التاسع عشر بنظارة مدرسة دار العلوم أيضا، وذلك في عهد نظارة مصطفى فهمي باشا (١٨٩٥ ـ ١٩٠٨) الذي أطلق يده في المدرسة ليعيد تنظيمها، حيث نجح في مهمته نجاحا لقي عليه ثناء الأستاذ الإمام محمد عبده، الذي كان رئيسا لهيئة امتحان الطلاب بها، وقد شهد له الإمام بأنه أحيا اللغة العربية فيها، وقد تخرج على يديه منها عدد من كبار الكتاب والعلماء والشعراء.

لقد كان شغوفا بالعلم والتعليم طوال حياته، وقد ذكر الزركلي في «الأعلام» أنه ألف كتابا مدرسيا بعنوان «النفحات العباسية في المبادىء الحسابية»

المهم أن مؤلفنا بذل جهودا كبيرة في سبيل نشر التعليم، وإصلاح التعليم الابتدائي والثانوي في عهدي الخديو توفيق وعباس حلمي، وكان من أنصار جعل التعليم الإلزامي في مصر مجانيا وإجباريا للقضاء على الأمية، وفي حديث نشر له بمجلة الهلال عام ١٩٢١ ذكر أنه يتمنى أن يعيش حتى يتعلم آخر أمي في وطنه، وقد عبر عن اغتباطه لانتشار التعليم الإلزامي ثقة منه بأن تعليم الشعب هو أساس كل تقدم وفلاح، وكان يرى أن القضاء على الأمية وما يصحبه من تطور هو الخطوة الأساسية لمنافسة الشعوب الأخرى.

وعموما فإن المسئوليات التي تولاها في شئون التعليم فضلا عن نشاته الاجتماعية، قد هيأ له مكانة اجتماعية مرموقة، ومن ثم الاختلاط والتحرك داخل الدوائر

الاجتماعية العالية فى مصر، فكان عضوا بالمجلس الأعلى للمعارف، كما عين عضوا مجمع اللغة العربية، وكانت نشاطاته الاجتماعية والثقافية العامة مدعاة اختياره عضوا فى مجلس الشيوخ منذ عام ١٩٢٨، وحتى وفاته عام ١٩٤١.

ومع ذلك كله فإن وجهات نظره وآرائه السياسية لم تنعكس على كتاباته التاريخية، كما كان نادرا ما يفصح عن آرائه الخاصة ويعبر عن مشاعره بشأن أى موضوع يكتب عنه.

مؤلفاته

أما عن مؤلفاته، فإنه باستثناء كتاباته المدرسية التى كتبها للطلاب، ولم تنشر خارج هذا السياق، فإن أول كتاب ألفه ونشره كان المجلد الأول من «تقويم النيل» الذي يتضمن مقدمة الكتاب (١٢٤ صفحة) ثم الجزء الأول منه الذى يتناول أوضاع النيل وتاريخ مصر من الفتح الإسلامى حتى الفتح العثمانى، وقد نشره عام ١٣٣٣ هـ ـ ١٩١٥م، ثم أعقبه بكتاب يحمل عنوان «التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤ و١٩١٥»، وبيان تفصيلى لنشر التعليم الأولى والابتدائى بأنحاء الديار المصرية، وقد نشره عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م، مدفوعا بأن عليه دين لمصر يجب أداؤه عند القدرة عليه، وبالرغم من أنه أراد أن يكتب عن التربية والتعليم منذ القرون الأولى وحتى عصره، إلا أنه ركز كتابه حول عامى ١٩١٤ و١٩١٥، مستعينا بالوثائق، والإحصائيات التى تناولت أعداد التلاميذ والمدارس وخطط التعليم، مما جعله مصدرا وثائقيا مهما لمؤرخى التعليم فى مصر خلال هذه الفترة.

ثم شرع مؤلفنا بعد ذلك فى استكمال إعداد ونشر مشروعه الطموح «تقويم النيل»، فنشر عام ١٩٢٨ مجلده الثانى الذى تناول تاريخ مصر من الفتح العثمانى حتى نهاية عصر محمد على، ونتيجة لاتساع نطاق ومجال العمل لديه، لم يستطع أن يصدر المجلد الثالث، بأجزائه الثلاثة، فضلا عن جزء خاص بالملاحق، إلا فى عام ١٩٣٦، وهى الأجزاء التى غطت عهود خلفاء محمد على، عباس باشا ومحمد سعيد والخديو إسماعيل.

وبعد أن أتم أمين سامى نشر مجلدات «تقويم النيل» بين عامى ١٩١٥ ـ ١٩٣٦ كانت لديه بقية من علم ووثائق عن النيل وعن التعليم فى مصر، لذلك صنفها فى كتاب آخر، كان آخر مؤلفاته، حيث توفى بعد نشره بثلاث سنوات، وكان تحت عنوان «مصر والنيل، من فجر التاريخ إلى الآن» وقد نشرته دار الكتب المصرية عام ١٩٣٨، ويلاحظ أن الحديث فيه عن التعليم فى مصر من عصر محمد على وخلفائه، حتى عهد فاروق، اختلط بالحديث عن النيل ووفائه وفيضانه، كما امتلأ هذا الكتاب بالوثائق والإحصائيات التى لم يكن قد نشرها فى أعماله السابقة.

تقويم النيل: الهدف والأهمية

يقع هذا السفر الضخم فى مجلدات ستة اشتمل **المجلد الأول منها** على مقدمة طويلة، أوضح فيها أسس مشروعه الطموح وتحدث عن جهوده وأهدافه من هذا العمل، كما اشتمل على الجزء الأول الذى وضع له عنوانا فرعيا طويلا إلى جانب العنوان الرئيسى «تقويم النيل» هو «وأسماء من تولوا مصر ومدة حكمهم عليها وملاحظات تاريخية عن أحوال الخلافة العامة وشئون مصر الخاصة عن المدة المنحصرة بين السنة الأولى وسنة ١٣٣٣ هـ / ٦٢٢ ـ ١٩١٥م»، وكما أشرنا يتناول هذا الجزء الفترة التاريخية الممتدة من الفتح الإسلامى لمصر، وتعاقب حكام وولاة الدول الإسلامية عليها حتى نهاية حكم سلاطين المماليك، ليقف عند بداية دخول مصر تحت الحكم العثمانى، ويلاحظ أن المؤلف وضع تقويما النيل من حيث تواريخ تحاريقه

وفيضاناته، بتسلسل زمني في الصفحات اليمنى، وما يقابلها من الولاة والحكام وأهم أحداث عهودهم في الصفحات اليسرى، ملتزما هذه القاعدة في الجزء كله،كما يلاحظ أنه يذكر الكثير من مصادره في نهاية العديد من فقرات كتابته، فيشير بين قوسين إما إلى اسم المصدر أو اسم المؤلف،دون استكمال بقية معلومات المصادر.

أما المجلد الثاني فقد استكمل به حلقات تاريخ مصر في الفترة التالية أي منذ بداية الحكم العثماني مرورا بالغزو الفرنسي، ثم عودة مصر إلي حكم الدولة العثمانية، وولاية محمد على باشا عليها، لينتهي الجزء بوفاة إبراهيم باشا عام ١٨٤٨، وهناك عدد من الملاحظات بشأن هذا الجزء **أولها** أن المؤلف مر سريعا على فترة الحكم العثماني لينتقل إلى عصر محمد علي الذي استغرق أكثر من أربعمائة صفحة (الجزء كله ٦٢١ صفحة) وقد ذكر أنه أراد توضيح أعمال «ولاة الدولة العثمانية من خير وشر، وقوة وضعف، وما كان من نفوذ الأمراء المصريين ـ يقصد المماليك ـ الذين صيروا نفوذ الولاة معدوما في أغلب الأحيان، حتى تسبب عن استمرار الخلافات بينهم تسهيل الاحتلال الفرنسي، »وقد أضاف أنه اجتاز القرون التي تخص هؤلاء مكتفيا بذكر أهم حوادثهم، ليصل إلى بغيته، أي إلى عصر محمد على باشا الذي يهم الناس معرفة حوادثه مفصلة لأهميتها والاتصال تاريخنا بها اتصالا تاما.

وثانيها أنه تخلى عن التقليد الذي اتبعه في الجزء الأول المتعلق بتقويم النيل وأحواله، فعرض بشكل أساسي للأحداث التاريخية، وجاء حديثه عن النيل في سياقها، حسبما توفرت مادة تاريخية له أو حسب تعبيره «دون ما تيسر له العثور عليه من أمر فيضان النيل وتحاريقه في المدة من ١٥١٥ ـ ١٨٤٨» وأضاف أن هناك سنوات خلت من معلومات عن النيل (حصرها في جدول) مبررا ذلك باضطراب الأحوال وباكتفاء المؤرخين بذكر وفاء النيل والاحتفال به، وقد أبدى أسفه لخلوه المدة بين عامي ١٨٠١ ـ ١٨٢٤ من بيان نهاية الفيضان ونهاية التحاريق وفسر ذلك بانهماك الوالي في سياسة الإنشاء والتجديد، وأضاف أنه بذل جهده في الحصول على معلومات عن النيل خلال هذه الفترة واتصل بأسر كبار المهندسين، الذين ذكرهم بالاسم، ممن تولوا الإشراف على الأعمال الهندسية في عهد محمد على، ووعد بأنه سيراجع الدفاتر الموجودة في مخازن خلف القلعة مرة أخرى.

وثالثها أن المؤلف، إلى جانب اهتمامه بسير الحكام وتطور الأوضاع السياسية والإدارية، أبدى اهتماما كبيرا بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد تحدث عن نظم ولوائح ترتيب الأراضي والأطيان، وإنشاء الفابريقات والصناعات، والمدارس وشئون التعليم، وتسعيرة الأصناف والبضائع والعملة، وإنشاء المستشفيات، وتنظيم الجيش وتحديثه، وحتى تسمية الشوارع وتنمير البيوت وتعداد أهالي القطر، وقد استقى معلوماته من نصوص الوثائق والأوامر والمراسيم والتقارير التي حصل عليها من الدفترخانة المصرية (دار المحفوظات) ومن جرنال الوقائع المصرية، ومن مصلحة الرسم بالمساحة العمومية، ومن نظارة الأشغال، فضلا عن مؤلفات العصر وكتبه.

أما المجلد الثالث الذي تضخم في الواقع، حتى جعله المؤلف ثلاثة مجلدات (الثالث والرابع والخامس) بثلاثة أجزاء، فتناول الجزء الأول منه عصري عباس باشا ومحمد سعيد باشا (١٨٤٨ ـ ١٨٦٣) بينما انفرد اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) بالجزءين الثاني والثالث بسبب وفرة المادة العلمية، ويلاحظ أن مؤلفنا في هذا المجلد بأجزائه

الثلاثة، تخلى أيضا عن تقليده القديم الذى التزمه فى المجلد الأول، بوضع تسجيل لتقويم النيل فى الصفحات اليمنى، وإن ظل ملتزما بالتسلسل الزمنى «الحولى» فى عرض الأحداث الكبرى، ويعد هذا المجلد على درجة كبيرة من الأهمية لندرة المادة الوثائقية المنشورة عن عصرى عباس الأول وسعيد باشا، خاصة أنه تناول موضوعات مهمة مثل إنشاء السكك الحديدية فى مصر، وتأسيس القناطر الخيرية، وأوضاع الحكم المصرى فى السودان، وإنشاء وترتيب المجالس والدواوين، كما قدم لنا المؤلف عن عصر إسماعيل معلومات ووثائق عن مختلف أوضاع مصر الداخلية والخارجية، خاصة ما يتصل بعلاقات مصر بالباب العالى، وتأسيس ونشاط مجلس شورى النواب، والمحاكم المختلطة، وتطور ميزانية مصر... إلخ.

وأخيرا أصدر أمين سامى المجلد السادس كملحق وثائقى يحمل عنوان «ملحق تقويم النيل عن الجسور والقناطر والكبارى والخزانات على النيل وفروعه بمصر والسودان، من فجر التاريخ إلى الآن» ضمنه ما استطاع من وثائق وخرائط وجداول وإحصائيات ورسوم توضيحية، استكمل بها موضوعات المجلدات السابقة.

وإذا تحدثنا عن أهداف أمين سامى باشا من وضع هذا العمل الكبير، فمن الواضح أنه كان مدفوعا إليه بشعور الإلتزام بخدمة العلم والتاريخ وبالرغبة فى خدمة الوطن، كما قصد منه تلبية احتياجات العلماء والمؤرخين والمهندسين، وحسب تعبيره فإنه يقدم هذا العمل «للقراء والباحثين.. ولم أرد بذلك إلا القيام بواجب العلم والتاريخ وخدمة الوطن العزيز...»، وقد حدد مؤلفنا ثلاثة أهداف أو مآرب لوضعه هذا العمل الكبير أولها أنه أراد أن يضع تقويما للنيل المبارك، تضمن فترات تحاريقه وفيضانه كل عام منذ بداية التاريخ الهجرى حتى عام ١٣٣٢ هـ/ ٦٢٢ ـ ١٩١٤م معتمدا فى ذلك على ما كتبه مؤرخو مصر، الذين سجلوا حالة النيل فى حولياتهم كل سنة هجرية، وثانيها أن يقرن ذلك بعرض تاريخى للوقائع والأحداث التى مرت بمصر خلال الفترة نفسها، وثالثها أن يوضح النتائج التى ترتبت على حالة النيل وتأثيرها على الحوادث التى حلت بمصر وسكانها، من رخاء وشدة عبر التاريخ، ورغم هذا الجهد الكبير واتساع العمل كلما اقترب مؤلفنا من السنوات التى عاصرها، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فإن القدر لم يمهله لإنجاز عمله كله، ومن هنا توقف به الجهد عند نهاية عصر الخديو إسماعيل (١٨٧٩).

مصادر الكتاب ومنهج المؤلف

إن قيمة أى عمل علمى تستمد من أهمية مصادره ومنهج وأسلوب الكاتب فى التعامل مع المعلومات والحقائق الواردة فى هذه المصادر، ونقدها نقدا تاريخيا لاستخراج الحقائق الصحيحة منها، وتوظيفها لبناء معرفة تاريخية علمية، وقد كشف لنا أمين سامى عن مقدرة عالية وعن تمكن ملحوظ فى الاستفادة من المصادر على نحو علمى، وربما كان هو أول مؤرخى مصر فى القرن العشرين الذين استخدموا الوثائق التاريخية على نطاق واسع، كما استطاع أن يخضع الكثير من هذه المصادر للنقد التاريخى، من خلال مقارنة الروايات والتحقيق والتدقيق فيما ورد بها سعيا وراء الحقيقة، ورغم استخدامه الشكل الحولى، إلا أن مضمون عمله جاء مختلفا عمن سبقوه.

ومن أشهر مصادره العربية ذكر أنه رجع إلى كتابين لأبى بكر بن عبدالله بن أيبك هما «درر التيجان»، «وكنز الدرر وجامع الغرر».

وفى معرض حديثه عن مصادره كذلك

ذكر أنه استفاد من كتاب عبداللطيف البغدادي «الإفادة والاعتبار...» وأنه عندما قرأ كتاب ابن إياس «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» وجد فيه زيادة عن كتابه «النجوم الزاهرة».. كما قارن المعلومات التى استقاها من كتاب أبى السرور البكرى «قطف الأزهار...» بغيرها من المصادر للتحقق والتثبت من صحة ودقة هذه المعلومات.

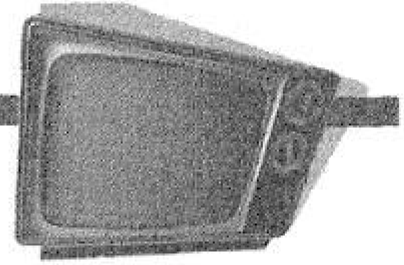
وفيما يتعلق بالمصادر الحديثة، فيلاحظ أنه استفاد «بكشف فيضان النيل» (١٠٥٠ ـ ١٢١٥ هـ) الذى أعده المسيو لوبير، أحد رجال البعثة العلمية الفرنسية فى مصر، وقد أخذه عن عدد من مشاهير الكتاب العرب، فاقتضت أمانته أن يذكر أنه «غير واثق من دقته»، كما استعان بمحررات أستاذه محمود باشا الفلكى بين عامى (١٢٤١ ـ ١٣٠١هـ) أما ما يتصل بتحاريق النيل وفيضانه عن الفترة بين عامى (١٣٠٢ ـ ١٣٣٢ هـ) فقد استقى معلوماته من صحيفة الوقائع المصرية، طبقا لما سجلته وزارة الأشغال العمومية، ويستفاد من ذلك كله أن مؤلفنا استقى معلوماته من مصادرها الأصلية طبقا لطبيعة عصرها، سواء كانت مخطوطات أو مؤلفات أو تقارير ومحررات رسمية، سواء وجدت فى القاهرة، بدار المحفوظات ومصلحة المساحة ووزارة الأشغال، أو فى العواصم الأوروبية كباريس واستانبول وغيرها.

أما عن المعلومات التاريخية أو «الشذرات التاريخية» ـ كما كان يسميها ـ من حيث أهميتها والمنهج الذى اتبعه فى عرضها، فقد كشف أمين سامى عن وعى كبير بمناهج المؤرخين وطرائقهم، من قدماء ومحدثين، وربط بين ذلك وبين أهمية المعرفة التاريخية على نحو مهم.

وقد ذكر أمين سامى أنه اعتمد فيما كتبه على ثقات المؤرخين «وما أنا بالنسبة لهم إلا ناقل» «أمين» وإن كنا نعتقد أنه غمط نفسه حقها فى الجملة الأخيرة التي أراد بها الإشارة، فى تورية بلاغية، إلى أمانته فى النقل وإلى اسمه، لأنه لم يكن مجرد ناقل، وإنما كان باحثا مدققا وناقدا فى كثير من الأحيان.

ويبدو أن مؤلفنا على امتداد سنوات تأليفه للكتاب، كان يتلقى أسئلة تتعلق بالنيل وشئونه من قبل القراء، بعد أن نشر الجزء الأول عام ١٩١٥، وقد اعتذر لهم عن إبطائه فى الإجابة عن بعض ما أرسلوه إليه، معللا ذلك بأنه لايريد أن يجازف بالإجابة دون تحرى المسائل أشد التحرى، ولايجيب حتى يتأكد ويتثبت بأقصى ما فى وسعه «كما تقتضى بذلك أمانة العلم وكرامة النفس» حتى لقد كان ذلك يكلفه السفر ومراجعة المصادر فى مختلف المكتبات الأوروبية، ليطمئن إلى أن كل ما أجاب به لم يكن إلا بعد التحرى العظيم والتثبت الشديد».

وأخيرا، يمكن القول أن أمين سامى باشا كان متنبها لتطور منهج البحث فى التاريخ، بفضل ثقافته الحديثة، وما داخلها من مؤثرات أوربية، فضلا عن معرفته بتراث ثقافته العربية، لقد تضمنت المجلدات التى تناولت عصر محمد على وخلفائه، ثروة ضخمة من الوثائق والتقارير الرسمية والفرمانات والأوامر العالية، التى أجاد مؤلفنا ربطها فى تطورها الزمنى، مخلفا لنا عملا موسوعيا فريدا، على درجة كبيرة من الأهمية لاتتوفر بسهولة فى مرجع آخر، ومساهما بذلك فى بناء الإرث القومى المصرى، كما تميز هذا العمل بشمولية واضحة جعلته لاغنى عنه لأى مثقف أو باحث أو مؤرخ، لذلك ضمنت له أبعاده الموسوعية الخلود والبقاء، وربما كانت القيمة الأعلى والأهم لذلك السفر الجليل، ليس باعتباره «تاريخا» فى حد ذاته، وإنما باعتباره «مصدرا» للكتابة التاريخية، والمصدر بطبيعة الحال أكثر أهمية وبقاء من التاريخ ذاته. ■



بقلم
مرفت رجب

السيد الوزير

برغم أناقته شكلا ولفظا ، أفشت خلجات وجهه قلقا يجتهد فى إخفائه عن زوجته الناعمة ، غير راغب فى الإيحاء بأهمية الضيف الذى ينتظران .

ولم تحل نعومة الزوجة دون حرص حانق على حضور المقابلة ، فالبرغم مما أوضحه الضيف فور وصوله من خصوصية الأمر ، فقد جاء عرضها بتركهما وحدهما مصرحا بانعدام الجدوى ، فقد اعتاد السيد الوزير على أن يحكى لزوجة كل شىء ، .. وهكذا بقيت ، وإن لم تشارك فى الحوار ..

لم يضيع الضيف وقتا ، وإنما أكد للسيد الوزير أنه يبلغه بشكل شخصى بأنه تأكد من مصادره أثناء وجوده فى روما أن هناك أسلحة متقدمة مصنوعة فى المملكة المتحدة ، تم توريدها لجماعات إرهابية فى إيطاليا !! ومن فرط الذعر الذى ألمّ بالسيد الوزير سأل ضيفه فى حدة «ما معنى هذا الكلام؟» ، فأجابه الضيف ، بأن معناه أن التقدم التكنولوجى الذى حققته بريطانيا بتصنيعها متفجرات يمكن التحكم فيها عن بعد ، أصبح الآن فى أيدى الإرهابيين الإيطاليين . ويسأل

الوزير ضيفه ، ولماذا تخبرني بهذا الأمر ؟ ويجيبه الضيف «لكى تتصرف» .

يحاول الوزير مراوغة ضيفه ، بتذكيره ، بأنه جاء فى زيارة شخصية وبدأ كلامه على المستوى الشخصى وليس .. ويقاطعه الضيف بأن هذا صحيح ، ومع ذلك فهو يتوقع منه ، لوصفه وزيرا مسئولا فى الحكومة البريطانية ، أن يفعل شيئا ، أى شىء ، للتصرف فى هذه الكارثة .

في مكتب الوزير

وتتابع مشاهد التمثيلية التليفزيونية ، لتنقلنا إلى مكتب السيد الوزير ، وقد جلس قبالته مستشاره الحصيف ، وفى الركن ، قبع آخر ، لم نسمع له صوتا فى الحوار الذى احتدم بين الوزير ، يدافع عن الإيطاليين ، ومستشاره يعجب من انفعاله ، والوزير يوضح : أن الأسلحة التى ستقتل الإيطاليين لا محالة ، وصلتهم من بلده ، بريطانيا . وإذ بالمستشار يؤكد الوزير ، أن هذا شأن وزارة التجارة ، أو وزارة الخارجية ويحتد الوزير مؤكداً أن قيام بريطانيا بتوريد أسلحة فتاكة للإرهابيين فى إيطاليا بما يترتب عليه قتل الأبرياء ، هو عمل غير أخلاقى .

ويفاجىء المستشار وزيره بالسؤال : وما دخل الحكومة بالأخلاق ؟!

ويتساءل الوزير : إن لم تكن الأخلاق من شئون الحكومة ، فما هى شئونها ؟! ويؤكد له المستشار ؛ أن شأن الحكومة هو الاستقرار عملا على منع الفوضى ، أما الأخلاق ، فليست من اختصاص الحكومة .

ويمضى المستشار المحنك ، باذلا كل جهد فى تبصير وزيره المندفع ، وإثنائه عن رغبته العارمة فى عرض الأمر على رئيس الوزراء ، فمثل ذلك العرض يستتبع بالضرورة ، إجراء تحقيق ، وفى هذا الشأن لا تعوزه الأمثلة ، يكفى منها مثال ووترجيت ، والذى يؤكد مغزى ما سبق أن قاله «لينين» : من أن أى شىء مرتبط بكل شىء ..

ولم تفلح رزانة منطق المستشار فى تهدئة ثورة الوزير ، أو إثنائه عن عزمه على مقابلة رئيس الوزراء .. وما إن غادر السيد الوزير مكتبه ، حتى انبرى الذى كان قابعا فى الركن ، ليدخل مع المستشار فى لعبة جدل ، يبدأ بتصوير الأهوال ، وينتهى بالتآمر على السيد الوزير .

وفيما بدا أنه لعبة ، أبدى الخارج

عن صمته لماحية فى سبك خيوط التآمر مع أعلى الرءوس فى مكتب رئيس الوزراء ، للحيلولة دون إتمام المقابلة التى ابتغاها السيد الوزير وهو بالضبط ما يحدث فى المشهد التالى ، والذى يبدأ حين نرى السيد الوزير واقفا بباب رئيس الوزراء ، وما إن ينفتح الباب ، حتى يفاجأ السيد الوزير بأنه يقابل شخصا آخر ، وليس رئيس الوزراء .

ومن سياق الحوار ، تتكشف لنا مواهب من وصف لنا من قبل بحق ، بأنه أعلى الرءوس فى مكتب رئيس الوزراء ، ففى بساطة مذهلة ، يشرح للسيد الوزير استحالة لقائه برئيس الوزراء المشغول حاليا فى أمور أخرى جد خطيرة ، وحين تظهر نية السيد الوزير فى طلب ترتيب موعد آخر ، نجد الحوار يتحول إلى شبه تحقيق يتولاه المسئول رفيع المستوى الذى يفاجئ السيد الوزير بسؤاله إن كان حقا غير راض عن منصبه كوزير ، وإن كان حقا مستعدا للاستغناء عن هذا المنصب . وقبل أن ينطق الوزير بالرد نافيا ، نكون قد وقعنا من الضحك من امتقاع وجهه من صدمة السؤال خاصة وأن المسئول رفيع المستوى ، أتبع السؤال بسيل من التلميحات والتصريحات والتهديدات ، والتى تنصب جميعها فى اتجاه واحد هو نفسه الذى ذكره به مستشاره من قول لينين إن أى شىء مرتبط بكل شىء .

مشكلة الوزير

وأخيرا استوعب السيد الوزير الدرس ، وفهم أن عرض الأمر على رئيس الوزراء معناه إحراجه ، بما يحتم عليه فتح التحقيقات تلك التى يصعب التكهن بمن يقدر على الإفلات من أخطارها وتنتهى المقابلة ، وقد قنع الوزير ، بأن يلزم حدود واجبات عمله ، ولا يترك أبدا لحميته أى فرصة تأخذه إلى أبواب جهنم !!

وإذ ظننا أن المشكلة انتهت ، لا نلبث أن نجدها وقد ازدادت تعقيدا ، ففى المشهد التالى الذى نرى فيه السيد الوزير فى مكتبه ، يحاور مستشاره الحصيف ، ومساعده الألمعى ، نتعرف على التطور الجديد المعقد للأزمة فالخطاب الذى يقرأه الوزير وصله من ضيفه ذاك الذى أبلغه بأمر توريد بريطانيا لأسلحة ومتفجرات هى الآن فى أيدى الجماعات الإرهابية الإيطالية وطلب منه التصرف ، وما نسمعه من الوزير مقروءا من الخطاب ، يعرفنا باطمئنان

كاتب الرسالة إلى أن الوزير قد اتخذ الإجراء المتوقع منه ، وكذلك ثقته في أن الحكومة البريطانية لابد أن تكون قد شرعت الآن في اتخاذ ما من شأنه التعامل مع هذه الكارثة .

وفي اللحظة التي يظهر فيها على ملامح المستشار الحصيف ظل حيرة ، نجد المساعد الألمعي القابع في الركن يخرج عن صمته ليقترح على السيد الوزير ضرورة إطلاع رئيس الوزراء على الأمر ، بأن يكتب له رسالة . وتنفرج أسارير المستشار ارتياحا للفكرة . وإذ يعجز الوزير عن استيعاب إمكان أن تكون الكتابة لرئيس الوزراء حلاً يسأل مستشاره« وما الفرق الآن ، ألن يتسبب إعلام رئيس الوزراء كتابة في إحداث نفس نوع الحرج الذي يحتم عليه إصدار الأوامر بفتح التحقيق . وهنا ، يبادر المستشار الحصيف بتوضيح الفرق، مؤكدا للسيد الوزير أن الرسالة المطلوب كتابتها لرئيس الوزراء ، لابد أن تصاغ عباراتها في إحكام ، بحيث تكون الألفاظ غامضة ، غير محددة ، تسمح بتفسيرات متعددة ! فالمطلوب إذن هو نوع من الغموض المحكم الذي يكون إبلاغا لرئيس الوزراء بأمر يستحيل معرفة كنهه ، أو فهم معناه ..

ولا يهمني هنا أن أسرد بقية التفاصيل التي قادت أحداث التمثيلية التليفزيونية إلى نهايتها المحتومة لأن كلا من القراء الأعزاء يستطيع أن ينسجها في خياله ، وأغلب الظن أن تصح كل التوقعات ..

في عصر الفضائيات

كما أنه لا يهمني هنا أن أشير إلى أسباب يستطيع كل قارىء أيضا أن يتكهن بها .. فالواضح أن اختيار هذا النوع من الموضوعات ، ووضعه في الصيغة التي يذاع بها ، وهي صيغة الحلقات الدرامية المتصلة المنفصلة ، يعتبر من أكثر الصيغ ملاءمة للتمثيلية التليفزيونية في عصر القنوات الفضائية .. إذ يتضح من السرد السابق أن المشاهد ، أي مشاهد ، في أي مكان على وجه الأرض ، من الممكن أن يظل مشدودا للشاشة ، يستمتع بحوار محكم ، ومواقف تولد الضحك الصاخب ، وتتابع في الأحداث وثيق ، وتطور للمواقف يعقدها ويصعدها ، وإذ تنفرج الأزمة في النهاية ، تترك المشاهد وقد جنى حظا من المتعة لا يقارن ، وحظا آخر من الفهم والاستنارة والبصيرة بأمور الدنيا .. فما يشاهده من السيد الوزير

والمستشار والمساعد والمسئول الكبير فى مكتب رئيس الوزراء والضيف وزوجة السيد الوزير ، كل ذلك من الممكن أن يصدق على الكثيرين ممن يديرون شئون العالم .

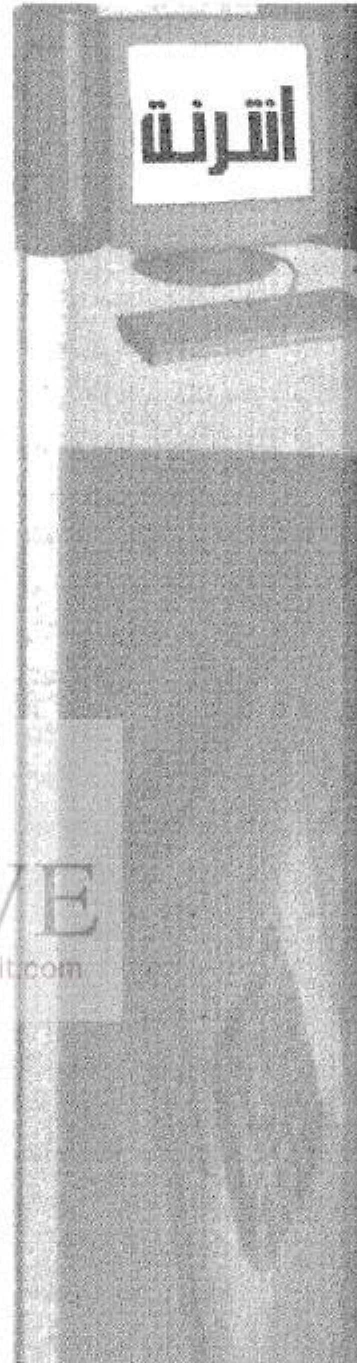
ومع ذلك فهذا جانب واحد من الجوانب التى دعتنى للاستشهاد بهذه التمثيلية التى شاهدتها على شاشة التليفزيون البريطانى قبل عامين فى إطار الحلقات الشهيرة التى يعرضها منذ سنين تحت العنوان المصدر لهذا المقال السيد الوزير» .

الصيغة الأمثل

أما الجانب الآخر الأهم عندى ، فهو أن صيغة الحلقات التمثيلية المتصلة المنفصلة هى الصيغة الأمثل ، أرى ضرورة التوجه إليها لازم لإقالة الدراما التليفزيونية المعاصرة من عثرات كثيرة . والقنوات التليفزيونية التى تحذو حذو البريطانيين فى الأخذ بهذه الصيغة تتغلب ، إذ تفعل ، على المشاكل الناجمة عن صعوبة ربط المشاهد لأيام متتالية ، تتتابع عليها الحلقات إلى أن تنتهى .

والرأى عندى أن هذه الصيغة لازمة أيضا للتخلص من محترفى الثرثرة المقولبة فى شكل مسلسلات ذلك أن الكتابة فى صيغة الحلقات المتصلة المنفصلة والتى تعنى ثبات أشخاص الممثلين ، مع تغيير الموضوع فى كل حلقة ، هى من نوع الكتابة التى تحتاج إلى قلم حاذق كقلم الكاتبة النادرة «نهى حقى» التى مازلنا نذكر الحلقات التى كتبتها وأمتعتنا متابعتها على الشاشة الصغيرة تحت عنوان «اللقاء الثانى».

أما القول بأن الحلقات المتصلة المنفصلة ، تحتاج لتغيير أماكن التصوير ، مما يعنى زيادة فى عدد الديكورات ، فهو قول مردود عليه بأن تكلفة الإنتاج من الموضوعات المثيرة أصلا للجدل ، ويكفى فى هذا الشأن هنا أن نذكر ، بأن الحلقات التى أخرجها الأستاذ نور الدمرداش أوائل الستينات والتى مازالت صامدة للمنافسة تفضل كل المعروض حاليا على - شاشاتنا - من حيث إحكام النص وسلاسة تغيير المناظر ودرامية الإضاءة ورفعة مستوى أداء الممثلين ، وبراعة الإخراج ، كل ذلك كان يتحقق بتكاليف زهيدة وبتقنيات أكثر زهدا ، وأترك للقارىء الكريم تبين أسباب الفروق الملحوظة ، استرشاداً بوقائع التمثيلية البريطانية «سيادة الوزير» . ■



ثورة المعلومات.. أم خداع المعلومات؟

بقلم
د. أحمد محمد محمد صالح

يحكى فى الصين القديمة ، أن بستانيا بسيطا اكتشف أداة جديدة للزراعة ، وعدت بتغيير وتحسين انتاج البساتين . هذا البستانى عندما أعلن اكتشافه ضحك محتقرا نفسه ، متذكرا مقولة معلمه التى تقول : عندما توجد اختراعات خادعة وماكرة سوف تؤدى إلى أداءات ونتائج ماكرة مخادعة أيضا ، وحيث هناك أداءات ماكرة ستكون هناك قلوب ماكرة . ومن يملك فى صدره قلبا ماكرا سوف يكذب ويشوه نقاء طبيعته ! ومن يشوه نقاء طبيعته ، سوف يزعج ويقلق هدوء روحه ، ومن يقلق هدوء روحه لن يشعر فى نفسه بالسكينة ابدا ! واسترسل البستانى قائلا : اننى يجب أن أكون خجلان لاستعمالى هذا الاختراع !

وبنفس خجل هذا البستانى البسيط ، أريد أن أبوح للقارىء بسر مثير صغير حول ثورة المعلومات ! أن تلك الفرص الجديدة والرائعة والمدهشة والرخيصة من كتل الأخبار التى تصلنا عبر وسائل الإعلام والإنترنت مشكوك فى صحة معظمها ومرتاب فيها ! أما محتوى المواد التى تحملها الميديا والإنترنت يصنف غالبيتها فى خانة المسابقات المعلوماتية أو الثقافية التى لها الطابع الترفيهى والتجارى (من يربح المليون ؟ وزنك ذهب ، مسابقات التليفونات عن الكرة والمسلسلات ، فوازير رمضان ... الخ) ، حتى الأخبار الفورية جدا التى تجارى أحداث العالم دقيقة بدقيقة كانت على حساب الصحافة المدروسة والأكثر دقة (أنظر سى إن إن وقناة الجزيرة مثلا) .

خصائص المعلومات

المعلومات هى محرك وجودنا ، وتضع أسس تصوراتنا ، وإدراكنا ، ومشاعرنا، وتكون قاعدة المنظورات التى نبنى عليها العالم من حولنا ، وهى التى تعطى الانطباعات وتقوى وتدعم الاعتقادات ، وفى النهاية توجهنا للقيام بالاختيارات ، والطريق الذى نسلكه وهى أيضا تخبرنا بما يحدث فى العالم حولنا ! وتكون اختياراتنا السياسية من المحلية إلى العالمية . لكن المعلومات التى تصلنا خلال الميديا من إذاعة وتليفزيون وصحافة وإنترنت ، تعتمد فى وصولها على معتقدات وعقائد ، وانحيازات الآخرين القائمين بعملية الاتصال ، فهى يمكن أن تقودنا وتوجهنا إلى اتجاهات ضارة -- طبعا بالإضافة إلى فوائدها - حتى انها يمكن أن تبنى لنا صورا خاطئة ، وكاذبة وخادعة عن حياتنا ، وأعمالنا ، وتأثيرنا على العالم .

هذا يعنى أن المعلومات كيان فريد فى عالمنا ، ليست مثل الأجسام المادية ، وجودتها لاتقاس بالكتلة أو الحجم ، ولا يمكن أن تمسك! ولا تقاس بالوزن أو اللون ، فالصورة تساوى آلاف الكلمات ، وكل من الكلمات والصورة يمكن أن تغير حياتنا تماما ، وهى ليست مثل تدفق الطاقة التى تحيط بنا ، فبرميل من النفط إذا وزع بين عشرة مراسلين، كل واحد منهم يأخذ عشرة براميل ، بينما قصة عن النفط يمكن أن تعطى كاملة إلى كل واحد منهم ، وتلك القصة نفسها قد تصبح ١٠ قصص مختلفة ، اعتمادا على معرفة ونية وهدف المراسل . والمعلومات يمكن أن تكون العديد من الأشياء والمعانى للعديد من الناس . انها تنتشر وتتكاثر ، انها

تؤثر وتصطدم وتفعل ! انها تركز الانتباه ، انها تلهى ، وتسلى وتصرف الانتباه ، أنها تضلل وتكذب ، وتلوى الحقائق ، انها كل ذلك ! فهى تصنع فهمنا الصحيح والخاطىء فى نفس الوقت للعالم حولنا . إنها تستطيع أن تغير تصورات وادراكات ، وأفعال الأمم والأشخاص . وهكذا تساعد المعلومات فى تدفق وسريان التاريخ وبناء عالم اليوم . فى الحقيقة ، المعلومات هى القاعدة الجذرية للعالم الحديث اليوم ، فالديمقراطية ، والتبادلات المالية ، والسياسية ، والثقافية تعتمد على التدفق السريع للمعلومات الدقيقة والموثوق فيها .

ماذا يفعلون بالمعلومات اليوم ؟

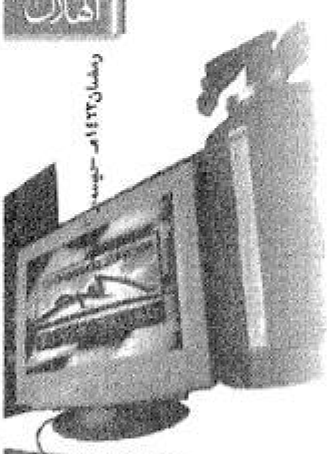
انهم يطلقون النار على عيون وآذان البشر . وتتزاحم وتتنافس كتل البيانات والمعلومات على الوصول بجرعات مكثفة ، تشبه الصدمة فى العيون والآذان ، انها خدع تسويقية ، وفيض وتخمة من البيانات والمعلومات النافع منها قليل للغاية ! فالمعلومات ليست المعرفة ، فمواد الإثارة والتشويق تلاحقنا كل يوم وتمسك بعقولنا ، لكن المهم التمييز بين مواد التشويق والحماس واستثارة العواطف ، وبين المواد المغذية للعقول !

فى عصر صرف الانتباه نجد الأصوات والضجيج والصور والبيانات تجرى فينا كالأنهار ، بدون توقف ، ومن كل اتجاه ، وهو شيء مدهش أن نسمع ، ونشاهد ، ونفهم خلال تلك الفوضى ! »

يجب أن نحمى حياتنا من غزو التكنولوجيا » تلك المقولة تتردد من وقت لآخر بين المفكرين ، ففى عصر الإلهاء الذى نعيش فيه ، حيث يسيطر الحاسوب على جميع تفاصيل حياتنا الآن ! فى هذا العصر المحموم ، تكنولوجيات المعلومات تحاصرنا فى كل مكان ، فى هذا العصر كيف نقرر ماتريد أن نفعله ؟! فى هذا العصر عصر المعلومات تصب فوقنا كميات هائلة من البيانات والمعلومات من مصادر عديدة ، تجعلنا نعيش فى صعوبة ، ولا نستطيع استمرار السيطرة على الذى نريده ، أو نحتاج التفكير فيه !

لماذا لا نستمع إلى بعضنا البعض ؟

لماذا لانصغى لأفراد أسرتنا ؟ لأطفالنا ؟ لماذا لا نسمع المهمشين فى الأرض من الفقراء والبؤساء ؟ لماذا لا نشعر ونتنبه للآخرين ؟ بل لماذا لا نسمع أنفسنا ؟ لسبب



بسيط للغاية أننا نعيش عصر الإلهاء ! والمعلومات تقذف علينا كل ثانية بالقنابل وتفرغ عقولنا وتثير البلبلة ، وتفصلنا عن الآخرين ! وتلهينا بالتسالي العمياء ، وتفقدنا القدرة على الإصغاء !

وفى عصر الإلهاء وصرف الانتباه ، أصبحت قدرتنا على الكلام تفوق قدرتنا على الاستماع والإنصات للآخرين ! نحن نستطيع بسهولة أن نعطى لشخص ما جزءاً من انتباهنا العقلى ، لكننا نجد صعوبة شديدة فى تفهم وجهة النظر الأخرى ! وتوضح الدراسات الحديثة أن أقل من ٤٠٪ من ساعات استيقاظنا تنفق فى الاستماع ! ودقائق قليلة للغاية تنفق فى مناقشة الآخرين ! فى حين نتذكر حوالى ٢٥٪ فقط أو أقل من كتل المواد التى نسمعها ونشاهدها ، ومع مرور الوقت تضعف تلك النسبة بسرعة شديدة !

طبيعة العصر

عندما سيطر الطابع التجارى على المعلوماتية ، انطوى مضمونها على تحريض دائم وحاسم لإغراء الناس بالغوغائية والكسل والاستسلام لسلوكيات السوق ، وتكوين رأى عام تتلاعب به الدعاية والإعلانات ، وهدم كل فكر ناقد ومسئول ، من خلال استطلاعات الرأى العام المغلوطة ، وغباء ألعاب الفيديو والكمبيوتر ، ومسابقات التليفزيون والإنترنت التى تلوح بإغراء الحصول على المال بسهولة ، ويزيد على ذلك انفجار الإباحية على الإنترنت والفضائيات ، لتكتمل الملهاة المعلوماتية .

فنحن نعيش فى عصر التشويش ، عصر اللهو والتسلية ؟ عصر صرف الانتباه ! عصر الإلهاء ! عصر شرود الذهن ، عصر اللامبالاة، عصر اللامبالين ، كلها تسميات أطلقها المفكرون على هذا العصر !

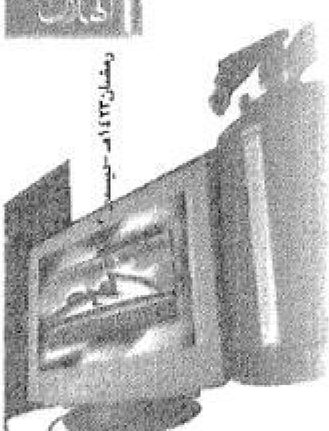
والمفارقة ، أننا دخلنا عصر معلومات بشكل متزامن أيضا مع عصر الإلهاء أو صرف الانتباه ، حيث تتحرك الحياة حولنا بسرعة أكبر ، وبطريقة إلكترونية أكثر إثارة وأعظم : وتقلصت محادثاتنا وضعف انتباهنا وتبددت رغبتنا فى انتظار الأشياء ، ونفد صبرنا ، واختصرت قدرتنا بسرعة على التفكير بشكل نقدى ، وأصبحنا منومين مغناطيسيا ، وتمت محاصرتنا بالصوت والحركة ، حتى فى اللحظات القليلة من اليقظة تحاصرنا الإعلانات على الأرصفة والمظلات ، والحوائط ، والملصقات -stick er على ثمار الفاكهة ، وترفرف رايات "الخدع المجانية" على شبكة الإنترنت : وأصبحت شاشات التلفزيون والإنترنت فى

كل صالة ودهليز ، وفى كل مطعم ، وكل طائرة ، حتى فى الأنفاق الأرضية وسيارات الأجرة ! وعندما تتأمل كل هذه الملهيات معا ، تعتقد أنه لايمكن أن تكون هناك ملهيات جديدة بعد الآن ، وأنها تمثل كل الحياة ! لدرجة أصبحت المحادثات الطويلة والتسامر بين البشر ، ولحظات المسالمة والهناء ، وقصائد الشعر وقطع النثر التى تثير خيالك ، وممارسة الشعائر الروحية : أصبحت جوانب غير مألوفة فى الحياة ، وومضات غير متوقعة وشاذة !

الإلهاء السياسى بالمعلومات

هناك مقولة مشهورة لمارك توين Mark Twain تقول : احصل على الحقائق أولا ، فأنت يمكن أن تحرفها فيما بعد ! لقد استحثت المعلومات الخاطئة والكاذبة رفض العديد من الناخبين فى الانتخابات الرئاسية بفلوريدا إعطاء أصواتهم لبوش بدلا من جور ! وكانت المعلومات المضللة حول الفضيحة المالية لعملاق الطاقة إنرون واستثمارتها بالبلايين من الدولارات ، وحساباتها الرسمية المغلوطة ، وأثر ذلك على الاقتصاد الأكبر فى العالم . والمعلومات المغلوطة التى تبثها الميديا العالمية ، تملأ الدنيا ضجيجا بأن الاقتصاد يزدهر ، ونسبة البطالة أقل من أى وقت مضى ! لكن الحقيقة أن الناس تعمل ساعات أطول ، فى وظائف غير آمنة ، وتحصل على دخول أقل ، وتفشل فى تسديد ديونها . وكلنا أصبحنا نعرف من المعلومات التى تصلنا أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت القوة السوبر الوحيدة فى العالم تعطى الأوامر وتضع المعايير . لكن القليل جدا من الشعوب هى التى تطيع تلك الأوامر وتنصاع لتلك المعايير ، سواء فى الشرق الأوسط العربى ، أو الوسط الغربى الأوربى .

إن القوة الأمريكية السوبر لم تخلق أى سلام أو استقرار فى النظام العالمى الجديد ، لكن بالأحرى ساعدت على إحداث فوضى فى العالم الجديد من حروب إقليمية ، وزيادة التلوث البيئى ، وتزايد الفاقة . والتناقض أن الولايات المتحدة تهاجم الدول النامية ، وتخبرها بضرورة تطهير نواتجها من التلوث ، بينما هى نفسها المصدر الأعظم للقمامة والنفاية والسموم فى العالم ، وتتعامل مع



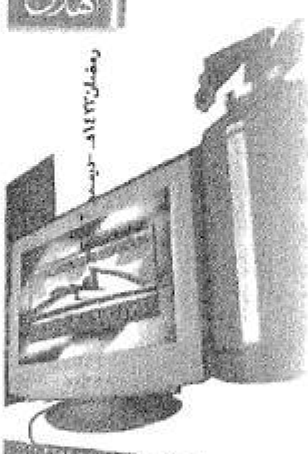
كوكب الأرض كمكان واسع لإلقاء النفاية والقمامة ، فالولايات المتحدة تحرق فى اليوم الواحد كمية من وقود بعض الامم فى سنة كاملة فالقوة مفسدة ، والسلطة المطلقة تجعل صاحبها غبى جدا ، وخطر جدا ، وتمكنه أيضا من السيطرة على تدفق المعلومات والحقائق المحسوسة بدون أى حاجة للشرطة السرية أو الرقابة الرسمية ، وهو تقريبا يسيطر تماماً على ماذا يقرأ ويشاهد ويفكر الناس ! والولايات المتحدة تمثل أقل من خمسة بالمائة من سكان العالم ، وتستهلك ٢٥ بالمائة من موارد العالم وتتجشأ أكثر من ٢٠ بالمائة من ثانى أكسيد الكربون فى الجو العالمى ، وفى عام ١٩٩٧ تجشأت الولايات المتحدة نسبة كربون أكبر من الصين رغم أن الأخيرة أكبر خمس مرات من سكان الولايات المتحدة ، والآن تحاصر أمريكا الصين وتتهمها بتلويث البيئة ، منتهى التضليل !

فقد نجحت المعلومات المضللة فى نشر صورة الولايات المتحدة الأمريكية كأنها نصير العدالة والمساواة وحقوق الإنسان فى داخل أمريكا وخارجها ، والحقيقة أن حكومة الولايات المتحدة تنفق المال وتصدر القوانين وتفعل بالخارج فى الأغلب لإفادة أقلية من المواطنين الأغنياء ، لكنهم يخفون هذه الحقيقة بالبلاغة وإلهاء الرأى العام بمراقبة حقوق الإنسان فى دول العالم ، ولعب دور الشرطى العالمى لمعاقبة الدول المتمردة ، والتى تخرج عن قواعد السلوك المطلوب !

فالمعلومات المضللة لا تشتت فقط الناس وتلهيها عن القضايا الأكثر أهمية ، لكنها تحدث خلطا فى انتباه الناس ، ففى حكاية مونيكا فاضت المعلومات بأخبارها ، لدرجة أن الإنترنت امتلأت عن آخرها بمواقع جنس مع مونيكا بالصوت والصورة ، وانتشرت games ألعاب جنسية مع مونيكا فى برامج الكمبيوتر ، ونسى العالم القضية الأساسية ، وهى إعاقة العدالة وحلف اليمين الكاذبة والتحريض ، وبذلك يكون العالم ألهى وشتت عن القضايا المهمة الرئيسية ، نفس السيناريو كرر ، عندما طلب كلينتون استعمال صواريخ كروز ضد الدول المشاكسة مثل العراق والسودان ، وتزامن ذلك مع اللحظات السيئة فى نتيجة صراعه الفاشل والطويل لتجنب الاتهام فى قضية ليونسكى ، فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ ، ليلة عودة مونيكا ليونسكى من عند هيئة المحلفين ، فقط بعدها بثلاثة أيام

، وبعد اعتذار كلينتون وطلب الرحمة علنا فى التليفزيون ، أمر كلينتون بقذف مصنع فى الخرطوم للصناعات الصيدلية فى ضواحى المدينة وعملت إدارة كلينتون على تضليل الرأى العام العالمى بحكايات أن المصنع ينتج غاز أعصاب VX بتمويل من السعودى أسامة بن لادن ، المطلوب القبض عليه فى الهجوم على السفارات الأمريكية ، وكانت هذه الادعاءات الثلاثة التى اعتمد عليها الإعلام الأمريكى فى تبرير الضربة ، لإلهاء الناس عن الموقف الحرج لكلينتون فى قضية ليونسكى . وتبخرت هذه الادعاءات بسرعة مدهشة . حيث تأكد للجميع ، أن المصنع فعلاً يصنع الأدوية ، وتكرر نفس الموقف أخيرا مع حادثة سقوط الطائرة البوينج المصرية فى الأجواء الأمريكية ! وحاولت الآلة الجهنمية لوسائل الإعلام المعولمة أو على الأصح المأمركة ، أن تلهى الرأى العام العالمى بحكاية انتحار طيار مصرى ، لتغطى على حقيقة واضحة كالشمس أن الطائرة ضربت بشكل أو بآخر وانفجرت فى الجو ! ونفس السيناريو يتكرر الآن مع العراق ، بتسريب معلومات عن تصنيع العراق لأسلحة الدمار الشامل !

وحتى إذا بلغتنا المعلومات الجادة ، فهى تصلنا عادة متأخرة جدا ، وفى خيوط غير مترابطة ، وتقدم بسرعة شديدة ، وبدون خلفية تاريخية ، أو ظروف السياق التى حدثت فيه ، فهى تقدم لنا خدعة سهلة وعلينا أن نقع فيها ! فكلنا عشنا حرب الخليج ، وكيف ضللتنا المعلومات التى تصلنا من وسائل الإعلام ، وأخذت تقدم لنا الخدعة بعد الأخرى بسهولة ويسر . وصدقت وزيرة الخارجية الأمريكية ، مادلين أولبرايت عندما قالت إن «شبكة C.N.N هى العضو السادس بمجلس الأمن بالأمم المتحدة» !؟ . لقد بدأت وزارة الدفاع الأمريكية فى إنشاء وحدة سرية لتزويد أجهزة الإعلام الأجنبية بقصص كاذبة تحول الأسود إلى أبيض والأبيض إلى أسود ! وتشوش الأخبار وتزرعها فى تقارير الأخبار الأجنبية ، وتلتقطها دكاكين الصحف الأمريكية! ■



الفنان وبشائر التحول

بقلم
عزالدين نجيب

على عكس ما كان غالبا على مسار الشريحة الفوقية من الفنانين المصريين، منذ أوائل السبعينات حتى الأمس القريب ، من إعطاء ظهورهم للماضى وللطبيعة إلى جانب عدم اكتراثهم باتخاذ موقف فكرى أو سياسى واضح تجاه مايجرى على أرض الواقع من متغيرات، وترفعهم عن أى دور أو رسالة نحو المجتمع والإنسانية ، تتجاوز حدود الشكل البحت والخامات والتقنيات المدهشة ، مكتفين بمخاطبة الذات والنخبة بالغة الصغر من تذوقى أنماط الحداثة الأوروأمريكية ، أو بمخاطبة «الآخر» فى مسقط رأس تلك الاتجاهات خلف البحار .. على عكس ذلك كله : تومىء مجموعة من المعارض المتلاحقة فى الموسم الفنى الراهن الى بداية تحول فى قناعات كثير من الفنانين التجريديين أو التجريبيين أو المتشددين فى انحيازهم ضد الماضى والطبيعة والموقف والرسالة. ممن اعتنقوا نموذج الفن الغربى «سابق التجهيز» بكل توجهاته وتحولاته المحمومة.

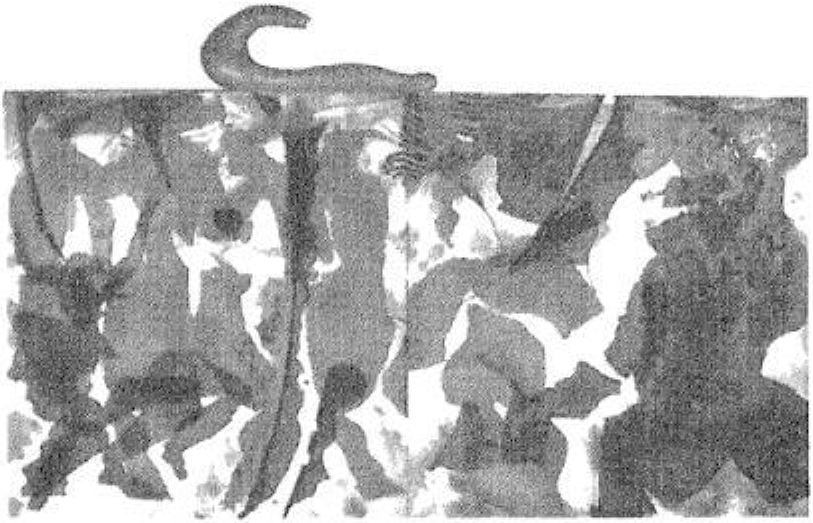


القيامة - أحمد نوار

هكذا بزغت على استحياء بشائر هذا التحول، بعضها من خلال معرض مشترك، يستند إلى رؤية ناقدة لما آل إليه شأن الفن في بلادنا، الذي بات «يحكمه النمط الجاهز إلى درجة أشرفت فيها الحقيقة على الموت!» حسبما جاء في بيان أصحاب المعرض الذي أقيم بقاعة أخناتون الشهر الماضي للفنانين أحمد فؤاد سليم، مصطفى الرزاز، حلمي التوني، تحت عنوان «متحدون ومختلفون»، وقدموا من خلاله مختارات من جميع المراحل الفنية لكل منهم منذ الستينات حتى الآن، مايحمل حنينا إلى الماضي الجميل، وإلى رؤاهم الشبابية فترة التكوين والانغماس في حملات التعبئة القومية للشعارات الناصرية .. وهكذا منحوا ماضيهم صكا بالبراءة من تهم الرجعية أو الدعائية أو الماضوية، التي اعتادوا أن يطلقوها على غيرهم بضمير مستريح!

أما المبادرات الفردية فتمثلت في معارض استعاد فيها أصحابها مراحلهم الفنية من الماضي السحيق أو القريب، وقد تبنوا اليوم موقفا فكريا وثقافيا يحتفي بهذا الماضي بما يشمله من تجارب فنية تنبع من الطبيعة الخارجية أو من قاع الحياة الشعبية، أو يلتزم بموقف سياسي مباشر من قضايا العصر.

من بين هذه المبادرات الفردية كان معرض الفنان أحمد نوار تحت عنوان



تكوين محمد فؤاد سليم

«فلسطين : ٥٤ سنة احتلال» بمجمع الفنون بالزمالك، ومعرض الفنان مصطفى عبدالمعطى بقاعة خان المغربى تحت عنوان «مختارات من الستينات: المنظر الطبيعى فى رحاب جماعة التجريبيين» ومعرض الفنان ممدوح عمار (مختارات من الخمسينات) بقاعة سفرخان، ومعرض الفنان محمد عبلة بقاعة الزمالك تحت عنوان «الونس بالنيل والشجر» .. أما ذروة هذه المعارض الفردية فى اتجاه التأصيل والتحديث والبحث عن الجذور والموقف معا، فكان للفنان الغائب الحاضر دائما عبدالهادى الجزار، حيث نجحت قاعة إبداع بحى المهندسين فى تجميع أكبر مجموعة من تراثه كانت لدى أسرته أو لدى أصحاب المجموعات الخاصة وتضمنت أعمالا مجهولة عرضت لأول مرة.

نوار .. وفن الاحتجاج

ولنبدأ بمعرض الفنان أحمد نوار الذى شغل كل فضاءات الدور الأرضى بمجمع الفنون بالزمالك تحت عنوان «فلسطين : ٥٤ سنة احتلال» وكأنه استمرار لمعرضه السابق عام ٢٠٠٠ بنفس المكان ونفس الأسلوب والتقنيات.

وبدءا من العنوان ، وبعد مشهد الحديقة التى حفرت فيها ٥٤ مقبرة تطل منها رءوس وأصابع الشهداء، وأطباق «الدش» المتجهة جميعا نحو نهر النيل الذى تشرف عليه الحديقة، وربما نحو



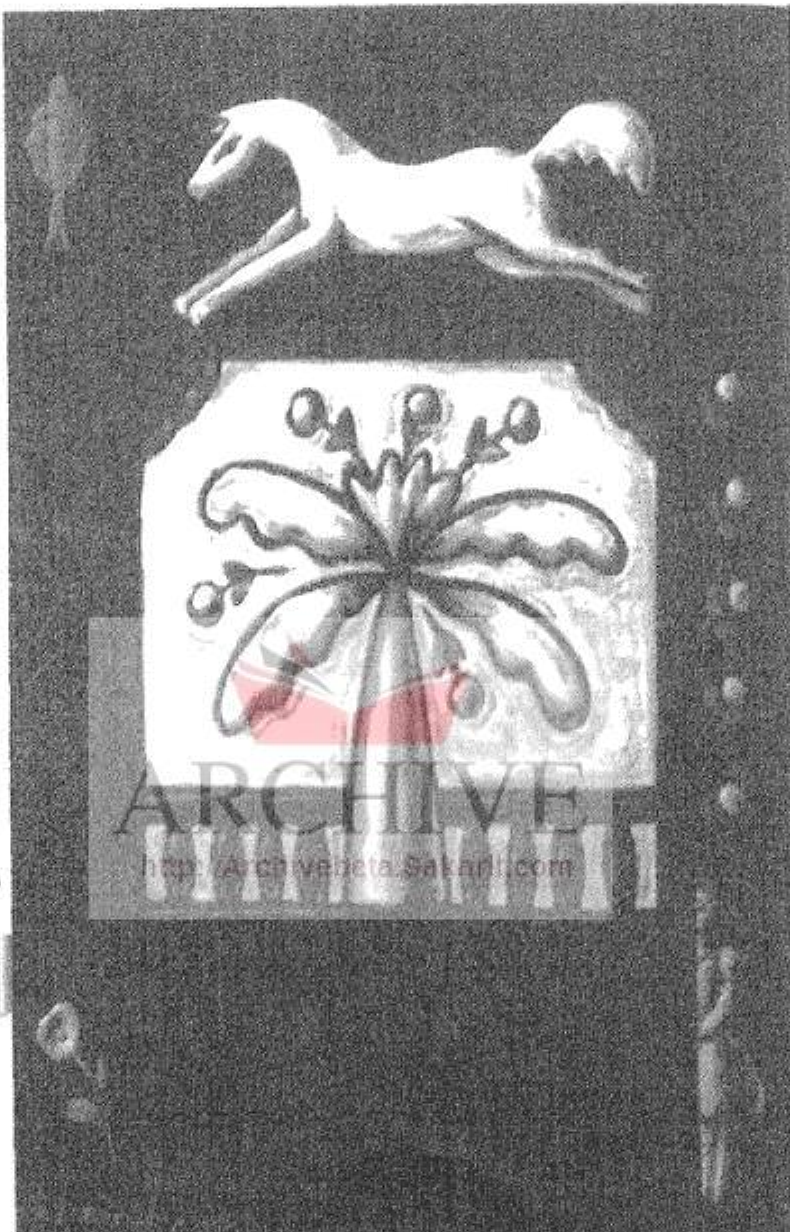
تكوين - مصطفى الرزاز

المسجد الأقصى فى فلسطين، ثم ظهور تمثال أبيض بالحجم الطبيعى ينهض من مقبرته متجاوزا ساحة الموت فى اتجاه النيل، تدرك أن الفنان يريد أن يرسل رسالة مباشرة إلى العالم، بعيدا عن الوسائل التقليدية وقاعات العرض الضيقة، بأسلوب الفن التعليمى أو السياسى (إذا جاز هذا المصطلح)، رسالة تحمل رأيا وموقفا احتجاجيا على استمرار الاحتلال والعدوان والذبح اليومى لأبناء الشعب الفلسطينى، بما ينحط إلى جرائم الحرب والإبادة المنظمة لهذا الشعب البطل، بتواطؤ ومساندة القوة الوحيدة المهيمنة على مصير كوكب الأرض وما فى سمائه ومافى باطنه أيضا، وصمت العالم إزاء كل ذلك .. جبنا أو تخاذلا أو عداء أو إيثارا للمصالح!

وتتصاعد نبرة التعبير الاحتجاجى المباشر إلى حد قيام الفنان بإدخال «كراكة» ضخمة إلى ساحة الحديقة، لتقوم - أمام الجمهور - باقتلاع شجرة زيتون، وبتمثيل حى لعملية هدم أحد البيوت وإحالته إلى أنقاض، ثم يقودك الفنان بعد ذلك للنزول إلى طابق تحت الأرض فى ظلام حالك، إلى درجة يستحيل عليك أن تتبين موطىء قدميك حتى تتعثر وتتعرض للسقوط فوق الدرجات غير المرئية حتى يتم ابتلاعك فى ظلمات القبو، لتجد نفسك بعد قليل فيما يشبه بيت الرعب، حيث تستقبلك

أصوات متداخلة لصرخات الضحايا ودوى القنابل وصفير الصواريخ وضجيج الأبواق ، ووسط ذلك الكابوس تبزغ أمامك رءوس صواريخ مستعدة للانطلاق وقد كسيت بأعلام إسرائيل وأمريكا وبريطانيا، وفى مشهد آخر ترى نموذجا لبرج شاهق يرمز لأبراج نيويورك، يمتطى قمته جهاز تليفزيون يعرض صورا لإطلاق الصواريخ وتفجير قنبلة هيروشيما وغيرها من مظاهر الحروب العدوانية والدمار الناتج عنها فى بقاع العالم، فيما يشتعل البرج عند أدواره العليا بما يذكرنا بأحداث سبتمبر ٢٠٠١، وعلى أحد جانبى المبنى جهاز «دش» موجه إلى أشلاء جسد جالس فوق مقعد ولم يتبق منه غير زيه العسكرى الممزق وخوذته الملقاة على الأرض والتى غطاها اللون الأحمر حتى لتشعر بأنك تقف وسط بركة من الدماء، ثم يأخذك الفنان إلى قاعة المرايا أسفل الجدران المحيطة بك، فتتداخل أمامك حركة الأرجل المتخبطة وسط هذا الكابوس المركب، الذى يتضاعف بانعكاسات حركة الأرجل المهرولة المرتبكة على المرايا ويزداد شعورك بالاختناق والعجز عن أى فعل، بل بالعجز عن التنفس، فتبحث لاهثا عن باب الخروج والنجاة وسط كتل الظلام وزحام الزائرين الذين يشعرون بأنهم وقعوا فى ورطة، وأخيرا تنجح فى الخروج متنفسا الصعداء! .. ليأخذك الفنان إلى القاعة الأخيرة (رقم٥) ليفاجئك أو يفجعك بمشهد الجثث المصفوفة فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف ملفوفة بالعلم الفلسطينى، وكأننا «داخل ثلاجة الحشر» على حد تعبير الفنان أحمد فؤاد سليم فى تقديمه للمعرض.

لسنا -- إذن -- بصدد عمل فنى عادى يقوم على معايير جمالية، حتى ولو نظر له الفنان «سليم» بأنه ينتمى إلى فن الحدث وفن الأرض وفن الجسد والتربيط، لسبب بسيط: وهو أن هذه الصيحات الفنية ترتبط بالأماكن المفتوحة وتستهدف مشاركة الجمهور فى العملية الفنية بما يحقق حالة من الاندماج الآنى والعمل الجماعى، فى إطار احتفالى أغلب الأحيان، ثم تنفض بانفضاض الجمهور، مما لايتوفر فى هذا المعرض، حيث يقف الجمهور موقف المتلقى للدرس، العاجز عن أى فعل أو مشاركة، لكننا بصدد صرخة احتجاج مدوية تنبع من ضمير معذب ازاء قضية شعب يذبح كل يوم، ويرفض الاستسلام، ويطمح الفنان إلى أن تصل صرخته إلى أقصى مدى ممكن، لتقوم بالتحريض ضد جميع قوى القهر فى الحاضر والمستقبل ولأن قيمة الرسالة أكبر من قيمة «المتعة الجمالية» التى ينبغى أن يتوخاها أى عمل فنى، فلقد اختار الفنان لغة خطاب مباشرة، تتضمن مؤثرات مسرحية ووسائل ميكانيكية والكترونية، وقرر أن يحتوى زائر معرضه



١٧٧

الهلال

رمضان ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢م

الحلم - حلمي التوني

لعدة دقائق داخل بيت الرعب المظلم أو مستودع الجثث، متطلعا إلى انتقال هذا الزائر من حالة الشعور السلبي إلى حالة الفعل الايجابي، غير أن تحقيق ذلك يتطلب اختيار مكان جماهيري يلبي مطلب التفاعل المنشود، أما طبيعة قاعة اخناتون وموقعها النخبوي وسجل نشاطها المرتبط بفئة الفنانين وصفوة المشاهدين من مثقفين وإعلاميين فإنهم ليسوا في حاجة إلى مزيد من الشحن والتحريض السياسي، بل قد يصابون بمزيد من الشعور بالاختناق والقهر والاحباط لأنهم عاجزون عن القيام بأى فعل ثورى إزاء ما يحدث من جرائم على أيدي قوى غير متكافئة مع قوى المقاومة والحق.

غير أن ذلك لايقلل من تقديرنا لنبل المقصد لدى الفنان نوار، الذي يؤكد دائما اهتمامه بموقف إيجابي للفنان نحو قضايا الوطن والعصر، موظفا موهبته لابتكار أشكال ورؤى فنية لبلوغ ذلك الهدف، مستفيدا من آخر منجزات الفن الحديث.

متحدون .. ومختلفون

تبدو الفكرة وراء معرض «متحدون ومختلفون» نبيلة ومبهرة، بالنظر إلى ما تضمنه البيان الذي يتصدر قاعة المعرض، حيث يقول :

«خلال لقاءات حميمة تحدثنا فيها طوال الوقت عن همومنا الخاصة والعامة، وتطرق الحال من بين أحاديثنا عن أساليب في الفن أخذ يحكمها النمط الجاهز إلى درجة أشرفت فيها الحقيقة على الموت، جاءت مبادرة حلمى التونى حين تساءل عما إذا كان يمكن أن نتقدم للناس بتجربة ونموذج يكونان بمثابة رسالة ورأى ...».

وبغض النظر عن ركاكة اللغة في هذه العبارة، تظل الفكرة نبيلة ومبهرة، استنادا الحاجة الملحة إلى طرحها خاصة في الآونة الراهنة، حيث تشهد تضخم الذات الفردية حتى حجبت أي منظور جماعي أو وحدوى للنشاط الفنى والثقافي، بينما غابت عن أفق الفنان كلمة رسالة أو رأى، بل واختفت من قاموسه كلمة «الناس» التي اتخذت مكانها كهدف في هذا البيان .. فهل جاء المعرض على مستوى هذه الكلمات؟

لقد بحثت عن «الوحدة» المشار إليها في عنوان المعرض بين أعمال الفنانين الثلاثة فلم أجد غير محاولة منسق المعرض لإزالة الحدود بين أعمال كل فنان وزميليه، دون تخصيص قاعات مستقلة لكل منهم، مايعنى أن الوحدة جاءت قرارا قسريا على الأعمال المختلفة عن بعضها البعض شكلا ومضمونا فلم تثمر غير الارتباك للمشاهد، الذى ما أن يبدأ في الاندماج مع بعض لوحات أحدهم حتى يفاجأ بلوحة فنان آخر تقوم على رؤية فكرية وجمالية مختلفة، ليعود بعد عدة لوحات إلى الفنان الأول .. وهكذا تشتتت الرؤية دون أن تصل

إلى إدراك الرسالة من وراء هذا الخليط.

● فأعمال «سليم» منذ بدايات رحلته الفنية تنتمى إلى التعبيرية التجريدية فى إطار كونى لايسعى إلى استلهام مؤثرات محلية ولا يؤكد خصوصية ثقافية، بل يعتمد على منظومة لغوية تشكيلية شائعة فى الغرب وإن تعددت لهجاتها، لكنه يجتهد لممارستها بنزعة تفجيرية تحيل الأشكال المنطوية على كائنات عضوية هائمة إلى شظايا ومزق مبعثرة، مفصحا عن شحنة درامية صاخبة النبرة، سرعان ماتتبدد قبل أن تعرف لها مصبا تتجه نحوه : لا فى اتجاهنا كمشاهدين ولا فى اتجاه البناء الداخلى للوحة، باستثناء مجموعة لوحاته فى الثمانينات خاصة مجموعة صبرا وشاتيلا، التى يبلغ التعبير الدرامى فيها ذروة تتجاوز الإطار التجريدى الذى صيغت بداخله، إلى حالات من الجيشان الملحمى متعددة الأصوات الطبقات النغمية باللون والكتلة والمساحة، وقد تبلورت فوق مسطحاته أطراف الصراع فى تمايز نغمى بين التصام والتماهى، أو بين الكونتربوينت والهارمونى، إذا شئنا استعارة مصطلحات الموسيقى.



من الرزاز - ممدوح عمار

● وأعمال «الرزاز» تشكل حالة من الالتباس، بمحاولة المزج فى لوحاته بين منظومتين متناقضتين من الأسس الجمالية: منظومة استلهام الموروث الشعبى بحس ملحمى، يقوم على الموتيف الزخرفى المتكرر والنمط

والفلكلورى المحفوظ والترصيص الشرقى للمشخصات، مع ميل إلى طابع السذاجة الطفولية، وبين منظومة البناء التكعيبى الذى يسعى للتحرر من التشخيص المباشرة، رغم احتفاظه بمجموعة الرموز القديمة التى تبدو محشورة أو متزايدة. فيتراوح أثرها بين الحلية الزخرفية وبين الإلغاز السريالى، وإن يكن قد نجح نسبيا فى فض هذا الالتباس فى أعمال التسعينات من خلال ترجيحه للحلول التجريدية بإيقاعات موسيقية متذبذبة، متوسلا بتقنيات وخامات متنوعة كالكولاج والمجسمات، لكنه فى المحصلة الأخيرة يبدو أقرب إلى لغة الخطاب الغربى، مبتعدا بمسافة شاسعة عن قاعدة انطلاقه الأولى على أرض الواقع الشعبى والوجدان المصرى.

● أما لوحات «التونى» فقد اتخذت منذ بداية مشواره الفنى نهجا ثابتا يقوم على استلام المأثور الشعبى أو على إعادة إنتاجه برؤية عصرية، منطلقا من وحدة وتواصل الحلقات الحضارية للتراث المصرى والعربى، لكن هذا النهج الثابت لم يحل دون إقدامه على تحليل عناصر الوحدات المشخصة أو الزخرفية حتى تلامس حدود البناء المجرد، متحررا من الضرورة الوظيفية لها فى سياقها التاريخى والمعتقدى، كى يؤلف بواسطتها معزوفته الخاصة بمعطيات رمزية وسريالية تحمل دلالات ذهنية جديدة، وهو بذلك أقرب إلى مضمون الرسالة التى بشر بها بيان أصحاب المعرض، وليس غريبا أن يكون «التونى» صاحب الفكرة، لكن الغريب هو أن نقدم هذه الوحدة المفترضة بين الفرسان الثلاثة على ضلع واحد، فيما تبدو عوامل الاختلاف أكثر من عوامل الاتحاد، وتبدو المسافة شاسعة - ماتزال - بين هذا الحلم الطوباوى وبين إرسائه على أرض الواقع ليكون «بمثابة رسالة ورأى».

وبالرغم من ذلك، فأنا أسعد الناس بهذا التوجه الجديد، الذى ضاع من بين أقدام المسيرة الممتدة للمبدعين المصريين منذ عصر الجماعات الفنية فى الأربعينات، وإذا كانت التجربة قد بدأت بهذا الحلم، فسوف تصل إلى مبتغاها بقدر صدق أصحابها فى حلمهم، وبقدر إرادتهم لتحقيقه.

ممدوح عمار وكنز الشباب

مازالت جعبة هذا الشيخ الساحر عامرة بالمفاجآت المثيرة، ولا أقول بالحيل، ذلك أن ممدوح عمار أبعد الناس عن ألاعيب الصنعة وعن شطارة «خفة اليد» فى اقتباس أساليب «الحركات» العالمية التى برع فيها نجوم الشكلانية فى مصر، أما مفاجآته فإنه يستدعيها من رقدتها فى قاع ذاكرته الإبداعية على امتداد ٥٢ عاما منذ ١٩٥٠، متمثلة فى لوحاته لمشروع التخرج بكلية الفنون



الفنان محمد عبلة - حياة نيلية

الجميلة وفى أعماله التالية خلال الخمسينات حول الموالد الشعبية والسيرك والدراويش وطقوس الحارة وتجليات حياتها اليومية.

كشف «عمار» أخيرا عن كنزه المدفون وقدمه فى معرض جديد بقاعة سفرخانة الشهر الماضى .. وياله من كنز! لقد تصادف موعد معرضه مع معرض الفنان الكبير الراحل عبدالهادى الجزار (وقد بيعت فيه لوحتان بمليون ونصف المليون من الجنيهات!) .. وأتاح هذا التزامن بين المعرضين الفرصة للمقارنة بينهما، خاصة وأن فارق السن بينهما لايتعدى ثلاث سنوات، أى أنهما من جيل واحد ومناخ فنى واجتماعى واحد . وأعتقد أن موهبة عمار بإنجازها الابداعى فى تلك السنوات المبكرة قادرة على مناظرة الجزار ومحاورة عالمه بكفاءة، وإذا كان عالم الجزار فى حقبته المبكرة، خلال الأربعينات والخمسينات، قد انغلق على المهمشين والساقطين من ميزان العدل والإنسانية، والمخدرين بفعل الخرافة وطقوس الشعوذة والخوف من المجهول والباحثين عن لقمة العيش من بين الأسلاك الشائكة وأنياب الأفاعى، والمسوسين بشياطين الرغبات المكبوحة وقهر الطبقة والسلطة، فإن عالم عمار احتوى على نفس الموضوعات والدوافع

التعبيرية والهواجس السحرية، لكنه انطلق من سكونية الجزار المسكونة بشبح الموت وأبدية القهر، إلى ديناميكية زحام البشر واشتباكهم اليومي مع الحياة، حتى في تصويره لحلقات الزار، فإنه أقرب إلى التعبير عن تحرير الأرواح من قبضة القهر، عبر مسعاه إلى فك قيود الجسد وإطلاق سراحه لممارسة رقصة الحياة، دون انشغال كبير بطقوس الزار لاسترضاء الجن والأسياد أما في بنائه الفني فإنه يبدو - في تلك السن المبكرة - شديد السيطرة على فراغ اللوحة، ليجعل منها ساحة مفتوحة يصول فيها ويجول، من أعلاها إلى أسفلها ومن يمينها إلى يسارها وبالعكس، لينسج بزحام الأشخاص والألوان والملامس والأضواء نسيجا شديد التركيب والتماسك، بالغ الجرأة في تحوير وتحريف نسب الأشخاص وعناصر الواقع المرئي، لينشيء بناء مفارقا للواقع، حتى ليمكن تجريد هذه العناصر إلي مساحات وخطوط وألوان، فتبدو اللوحة كعمل تجريدي مكتمل، وتمثل «اسكتشاته» في تلك المرحلة سيطرة أستاذية في اقتناص حركات الأشخاص حتى وهم مستغرقين في رقصة الزار الهستيرية، مما يرتقي بها الى مستوى الأعمال المكتملة ولقد أحجم - من فرط شعوره باكتمال هذه العجالات الخطية أو الملونة - عن تنفيذها في لوحات زيتية بمساحات كبيرة، موقنا بأنها خلقت لتعيش بحالتها الفطرية الأولى دون زيادة، إلا باستثناءات نادرة قام فيها بإعادة رسم بعض اللوحات التي فقدت عبر رحلة العمر، فعاد إلى تلك الاسكتشات واستعان بها في رسم لوحات زيتية بمذاق جديد.

ويبقى السؤال الحائر بغير إجابة هو : كيف غاب عمار طوال عشرات السنين عن صدارة الحركة الفنية وعن جدران متحف الفن الحديث وعن دراسات النقاد والدارسين، وهو الذي تخرجت على يديه بكلية الفنون الجميلة أجيال وأجيال؟.. هل يدفع ثمن عزة نفسه وارتفاعه فوق الشلل والمصالح ، في واقع يكرس هذين العاملين؟ هل يدفع ثمن انطوائه وعزوفه عن التزاحم حول «تورتة» الأجهزة الرسمية؟.. وهل بلغ هذا الثمن حد الكبح الذاتي لملكة الإبداع بداخله قهرا ويأسا من اعتدال الميزان؟.

أيا كانت الأسباب .. فما أتعسه من واقع يغتال أجمل من فيه!

ومع ذلك فها هو يقوم قيامته الثانية بعد سن السبعين، بدفقة إيمانية فريدة، ليدهشنا بإبداعات طازجة تسخر من أسباب اكتئابه وعبوس روحه، وتبشر بانطلاقة جديدة عبر لوحاته في السنتين الأخيرتين.

الونس بالنيل والشجر

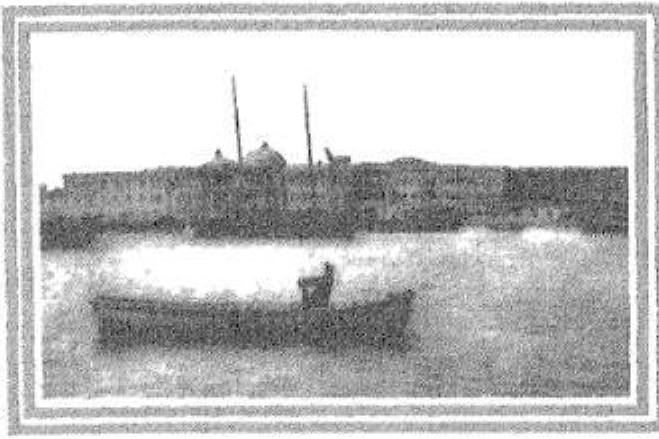
هل يستطيعه الفن أن يقاوم الإحباط بالأمل؟

يطرح الفنان محمد عبلة من خلال معرضه الأخير الشهر الماضي بقاعة الزمالك هذا السؤال الذي تبدو إجابته بديهية .. وهي نعم يستطيع .. ولكن كم يبدو ذلك عسير التحقيق على أرض الواقع .. فإذا كان النيل بكل مدلولاته التاريخية والحضارية والطبيعية رمزا للحياة والعطاء والخصوبة والاستمرار فقد أصبح يعني الآن أنه ضحية للتلوث والإضرار بالحياة والإهدار لكل آيات الجمال فيه على أيدي ابنائه جيلا بعد جيل .. فكيف نتوقع أن يصلح النيل رمزا يتخذه الفنان لمقاومة الإحباط ودافعا لبلوغ الأمل؟

لكن عبلة – الذي سبق له التعبير في أعمال فنية حازت جوائز دولية عن مأساة النيل بعد تلوثه بشتى المخلفات السامة – حاول أن يتجاوز هذا المعنى في معرضه الجديد، بإحالة صفحة مياهه المتدفقة إلى مسرح يتراقص فوقه الأطفال والصبايا والطيور والحيوانات الأليفة، بل حتى الزواحف، في تعايش حميم مع بعضهم البعض، حتى أنهم يتبادلون الملامح في بعض الأحيان، ويمارسون حريتهم إلى آخر المدى باللعب، و«الونس» وسط أزهار اللوتس وورد النيل، فيما تتماوج ألوان الطيف وتلتمع على صفحة الماء من خلفهم.

لقد مضت المسيرة الفنية بمحمد عبله طوال ربع القرن الأخير في طريق زجزاجي كجدول ماء يشق مجراه في أرض صخرية، باحثا ومجربا شتى الأساليب والخامات، متنقلا من عالم الزحام في المدينة إلى عالم المراكب وورد النيل، إلى عالم التلوث والنفايات المترسبة في القاع، مستمتعا باكتشاف رؤى تتماهى من الواقع إلى اللاواقع، بل مستمتعا بإحداث الصدمات للمشاهدين، متنقلا من عالم إلى آخر ومن أسلوب إلى آخر، عبر الخامات والأشكال المتناقضة والوسائط المختلفة حتى الفوتوغرافيا والطباعة والفيديو والنحت، لكنه لم يجعل قط من التجريب والبحث غايته، وإذ يسعى دائما إلى اكتشاف نبض الحياة ولو بين شقوق الطين والنباتات العائمة فوق صفحة النيل .

ولم يكتف بالتعبير عن المياة على شاطئه أو فوق مياهه المتدفقة في رحلتها الأبدية من الجنوب إلى الشمال ، وهو يراقبهما من الخارج كرسامي المناظر الطبيعية، بل اختار أن يعيش ويقيم مرسمه فوق جزيرة صغيرة في وسط مجرى النيل، وكأنه يريد أن يختزل العالم الذي سبق له التعبير عنه في دائرة صغيرة تتمثل بداخلها سمات العالم بأسره، متحديا ذاته «كي يحول تلك الدائرة إلى عالم رحب يتسع لكل أحلامه» على حد قوله في تقديم المعرض. ■



هذه الرواية مضى على صدورها مائة عام

السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين

بقلم
محمد جبريل

صدرت الرواية في عام ١٩٠٢ ، أي أنه قد مضى على صدورها مائة عام . مؤلفها محمد كاظم ميلانى ، التاجر بشارع الميدان بالاسكندرية . قدم الراوى / الكاتب نفسه بأنه ولد من اب إيرانى وأم مصرية ، فضلا عن انتساب الأم إلى ذرية الحس بن على بن أبى طالب .



محمد كاظم

قبل أن يتم المرحلة الابتدائية (١٣٠٥ هجرية) ألزمه والده العمل فى الدكان الذى يملكه بسوق الطباخين ، الموازى لشارع الميدان ، كما يصفه الكاتب ، أهم مركز تجارى للبضائع الشرقية : الأبسطة والشيلان وغيرها . لكن الكاتب فضل - بعد فترة - أن يتخذ لنفسه دكانا ملاصقا لدكان الأب ، جلب إليه أنواعا من الخردوات والأحجار الأصلية والتقليد والأصناف الاسلامبولية والافرنجية ، وعنى بخاصة بلوازم النساء الحديثة . وإذا كانت الظروف قد أجبرت الصبى كاظم أن يهجر الدراسة ، فإنه - على حد تعبيره - لم يترك المطالعة ، ولا آن ، وما كنت أسمع عن جمعية إلا وانضممت إليها ، ولا عن طغمة إلا وأنالها ، ولا عن جريدة إلا طالعتها ، ولا مجموعة إلا ذاكرتها » وثابر الراوى / الكاتب على القراءة فى اللغات العربية والتركية والفارسية والفرنسية «لم أترك فيها المطالعة عند الفراغ من الأشغال ، ولا طلب الراحة من الأيام والليالى» . وظل الراوى الكاتب فى عمله ، إلى اللحظة التى أمسك فيها القلم ، وبدأ فى كتابة روايته .

* * *

ذات صباح ، دخلت الدكان فتاة «كأنها حور الجنان» ، تغزل الراوى فى جمالها بأبيات من الشعر - أشهد أنها من أجمل ما قرأت من موروث الشعر العربى ! - كان يتبعها خادم وخادمة حسب عادة أكابر السيدات إذا خرجن لقضاء مهمة فى الذهاب والعودة . وحين تكلمت لتطلب ما تريد أضاعت بعذوبة لفظها حواسه ما سمعت بأفصح وأرق منه كلام ، مهما اجتهد الأصمعى أو أبو تمام «ظهرت الفتاة فى حياته ومضت كأنها حلم - ونتذكر بياتريس فى الكوميديا الإلهية ! - وتحولت - فى اللحظة التالية - إلى شاغل له فى الصحو والمنام . أخذت عليه حياته ، فهو لا يفكر إلا فيها» ما بعدت عن ناظرى إلا ووقعت فى حيص بيص ، واستولت على الدهشة حتى صرت لا أميز بين الخبيص والبصيص . وأمضى الشاب أيامه التالية متنقلا بين الأسواق والدكاكين ، يمنى النفس بلقاء فتاته ، حتى تصور أنها ليست حقيقة ، وأنها لم تكن من البشر ، أو أنها ملك من السماء . وبعد أن أوشك على اليأس من لقائها ، لزم دكان جواهرجى فى ممر بشارع الضابطة. جعله موضعا يراقب منه حركة الطريق ، لعله يلتقى بفتاته . ولما أخفق الشاب فى العثور على فتاته فى

مدينة الاسكندرية ، أزمع أن يترك المدينة إلى القاهرة ، ربما قدمت المحبوبة منها لقضاء إجازة الصيف. وأقام فى العاصمة ضيفا على صديق له هو «عارف» يقضى طيلة النهار فى البحث عن محبوبته ، ويتعرف -- فى الوقت نفسه -- إلى مشاهد وتصرفات لاتهملها ملاحظاته .

حكاية الفتاة

روى الشاب لصديقه عارف حكايته منذ زارت الفتاة نكانه ، واختفائها كأنها لم تكن . وعرض عارف على الراوى أن يصحبه إلى بعض الأماكن التى قد تتردد عليها فتاته للتسوق أو للنزهة . وكانت تلك فرصة للراوى كى يشاهد ويتأمل ويبدى الملاحظات ، بل ويعلن انتقاده للعديد من الظواهر السلبية . رجح عارف أن تكون الفتاة «من وجوه المصريات» ، فزيارتها إلى الاسكندرية لقضاء إجازة الصيف . واقترح عارف على صديقه أن يلزم نقطة فى شارع الموسكى الموصل للسكة الجديدة ، أمام محل الخواجة سمعان ، والذى تتردد عليه أعداد كبيرة من النساء لشراء احتياجاتهن . لزم الراوى الموضع الذى حدده صديقه ، لم يتركه من الصباح إلى المساء ، ثم صحبه عارف إلى الأزبكية للقاء بعض الأصدقاء . وطالت ملاحظات الراوى على ما شاهده من تسابق فى مضمار الملاهى وسوء المنقلب . واتجهت الجماعة -- بعد ذلك إلى أحد المسارح «مارستان من الصراخ والضحك والشخر والنخر والهذيان» .

وفى صباح أحد الأيام ، ذهب الراوى إلى الموقع الذى حدده له عارف فى ناصية الممر ، فطالعته مواكب ما يسمى بمولد الفار . وهى مواكب تمر من شارع محمد إلى مسجد السيدة نفيسة ، تتمة للاحتفالات بمولد السيدة نفيسة . وينتقد الكاتب الزحام والتصاق الأجساد وحركات البغى والضلال والصخب والصياح ..

يدين الراوى الحضارة الغربية التى حاول البعض من الذكور والإناث تقليدها . لقد حرض الأب ابنته على ما يمكن تسميته فى ضوء المفهومات الأخلاقية بعامة -- بالانحلال فهى تلتقى بضيوف أبيها ، وتجالسهم ، وتصادق الشاب الذى يستهويها ، وتميل لتصرفات ربما أراد الكاتب من تجسيدها أن يصور التطبيقات السلبية لدعوة قاسم أمين ، لو أن ذلك ما حدث ! وفى المقابل ، فقد وافق الشاب - أعماه الحب! على أن الفتاة عنوان الفضيلة هذا هو تعبيره ! والكمال من بعض شيمتها .

بين العشق والعقيدة

تعددت زيارات الشاب إلى بيت المحبوبة، وتعددت كذلك لقاءاتهما خارج البيت ، وأقامت أسرة محمد بك ، الأب والأم والابنة -- فى بيت الشاب ، بدعوة منه «وصارت العائلتان ببعضهما مولعة ، ولكن والدتى لم تستحسن خطة تبرج وحيدة ، وتأسفت كثيرا على تمسكها بالبدعة الجديدة ، وشاورتنى باستقباحها لهذه البدعة الفاسدة ، وأظهرت عدم جواز تأهلى بها إن بقيت على هذه القاعدة ، فوعدتها بأنى مهما كنت مغرما مفتون ، فلا أقبلها حليلة ولو ذقت

لبعادها المنون» . مع ذلك ، فقد تواصلت ليالى «المسامرة والمصاحبة والمزح والسرور والملاعبة» . أما النهار ، فقد شغله الراوى للبحث فى عقيدة أهل الشيعة .

وعادت مشكلة النظرة إلى الشيعة تفرض نفسها على ذهن الشاب : « كيف ينسبون الأعجام إلى ما ليس فيهم ، وأنا واقف على ظاهرهم وخافيهم . الكل أراه يدعي أنهم مخالفون وأرفاض ، ويرمونهم كما شاءوا وشاءت الأهواء والأغراض . هذا محض بهتان وزور ، وأشد باعث للنفور



محمد المويلحي

وانتهى إلى القول : « تعالوا إلى بلادنا (هو إذن ينسى ، أو يتناسى ، موطنه !) وانظروا الدين والتدين كيف يكون ، والشيعى كيف بمظاهر الإسلامية الحقة مفتون ، فلا نظر ولا سمع فى جميع بلادنا لهذا الآن عن أحد فرط لسانه بإهانة الدين، وفى بلادكم سبه متواترا جهرا بدون حذر وخوف من غضب الخالق ذى القوة المتين ، فلا حانة ولا خمارة عندنا ، ولا دار فحش وزنا تضلنا ، ولا محل ميسر ولا مرقص ولا أقل أثر من الآثام ولا مصدر للغصص . فبأى عيب ومذلة تباكتوننا .

أما كان الواجب عليكم أن تتقلدوا بأعمالنا ، وتفتخروا بانسائنا ، وتقولوا نعم الاخوان إخواننا الشيعة ، ونعم الأمة أمة تمسكت بالشريعة ، وتساعدونا لإعلاء كلمة الدين ، ووضع أيديكم بأيدينا لقهر العدو وطرده من الكمين ، فالمسلمون ليسوا بالقليلين ولا بالضعفاء ، ولم يضعفهم غير التفرق من كثرة الاختلاف والشحناء . فتأملوا أيها السادة لقولهم واعتراضهم، وبرهانهم واقتراحهم . فلا يشك فى الحقيقة ، والحقيقة لذى العينين كالشمس ظاهرة ، ولا يخفى الصدق والصدق مؤثر للنفوس الطاهرة ، فلا فائدة حينئذ من هذا الحال ، وهلموا بنا التقرب والوصال»..

أفرد الكاتب للشيعة الاثنى عشرية ، وجوانب اختلافها عن المذاهب الإسلامية الأخرى ، أكثر من نصف صفحات الرواية .

فضلا عن انتقاده لبعض سلبيات الحياة المصرية .

حاول الكاتب أن يجعل معلوماته وآراءه نبض مساجلات بينه وبين «العقلاء والفضلاء» الذين أحاطوا به من كل فج لمناقشته حسابات الدخل والخرج ، لكن المساجلات تحولت إلى ما يشبه الدراسة المطولة ، التى تناقش ما يبدو من أوجه الاتفاق والاختلاف ، وأنه «لا فرق ولا اختلاف فى الأساس ، وما سمعناه وما أشيع عن هذه الطائفة هو محض اختلاق ومساس» .

طالت رحلة الكاتب – والقارىء – فى توضيح سلامة المذهب الشيعى ، وأنه ليس كما يتصوره البعض من أهل

السنة . واختتم رحلته بالقول إنه لا يرغب بواسطة إثبات حق أهل البيت «استرجاع الحق المغصوب ، أو إصلاح الماضي وهو عكس ما أبحث عنه وكل مطلوب . فليس العاقل من يذهب لإصلاح الماضي ، أو المنصف من يحد سيفه الماضي . نعم ، لا فائدة من تجديد ماضي السيرة ، وهل يجوز الحكم على السريرة ؟ .. ومن رام مثل ذلك فهو ضال عن السبيل ، ومسبب لضياع بقية المسلم بغير تعليل » . ويضيف : « كفى ما حصل بين الفريقين من النقض والإبرام ، وما قاساه الطرفان إلى هذه الأيام . فقد أصبحنا والحمد لله للاتحاد أقرب ، ولأسباب الانضمام على مشرب فالكلمة مفهومة وسهلة ، لا تحتاج لنظر أو مهلة . وبالحقيقة : لماذا تفرقنا مع تمسكنا بلا إله إلا الله ، وهي الكلمة الجامعة لمن هداه الله؟ كيف يجمعنا الدين ونتفرق ؟ وكيف تربطنا رابطة الكلمة ونتمزق ؟» .

سيرة الحبيبة

يعود الراوي إلى سيرة الحبيبة، فقد التقى بها مصادفة في أحد المتنزهات ، لاتعلو فيه غير ألحان الموسيقا والرقصات، ويزدحم بالشبان والفتيات اللائي يرتدين اليشمك للتحلية ، والحجاب الذي ليس فيه إلا الاسم . ويقف الراوي وصديق له على حافة بحيرة صناعية داخل المتنزة ، يشاهدان «الصارخ والصارخة ، والضاحك والباكية ، بعين الاستغراب والحيرة . وبينما أنا وصاحبي نتندم على هؤلاء النسوة اللاتي خلعن الحياء ، لركوبهن مع الرجال كي يتعلقن بهن .. ترى الواحدة تترامى على الثاني ، والثانية تتظاهر بحركاتها للآخر فيعاني ، وما أدراك ما يعاني» . ويلمح الراوي بين كل هؤلاء حبيبته وحيدة : « لا كان التقليد ولا كنا لزمانه ، ولا كان اليوم الذي يصرح فيه المجتمع باختلاط شبانه . من التي أراها ، وكنت أقسم بذيلها الطاهر (نسي مصارحته لأمه بأنه مهما كان مغرما بالفتاة ، فلن يقبلها حليلة ولو ذاق لبعادها المنون !) وكيف بالاختلاط أصبحت كالعواهر ، خرجت تتسند على ذراع أحد الفتيان ، كأنه من الاقارب أو من الخصيان » . وواجه الشاب الفتاة بأنه قد أحلها من «كل رباط ووثاق بيننا ، فلا عهد ولا اتفاق بعد هذا يجمعنا» . وبعث كاظم رسالة إلى محمد بك ، أشار فيها إلى أن الله ضرب على نساء المسلمين حجابا مستورا ، فخرقه أحد الناس جهلا ، فأوسعتم الخرق باتباعكم إياه ظلما وفجورا .. فالمرأة مرأة خدرها وبيتها ، ولا تصلح لزوجها وبنيها ، وإن تجاوزت بابها وسترها» وأكد على تمسك الايرانيات بالحجاب ، فلا يرى لهن أقل عضو ، لا عين ولا جبهة ولا أقل أثر للناظر منه يستفيد . ومع هذا الاحتجاب وعدم الاختلاط يربين أولادهن أحسن تربية مع ما يشتغلنه من الأشغال اليدوية التي عجزت عن تقليدها أوروبا بأجمعها ، فلا تناظرهن أعظم امرأة في الغرب مهما كانت مترببة . فالمرأة لا تقوم مقام الرجل مهما فعلت . ويكفيها وظيفتها ولو قدرنا أنها من التطبع بالرجل تبدلت الخ» . واختتم رسالته بسحب يده لعدم

توافق المشرب «وليس فى مذهبى هذا مما يستغرب . يجب على المسلم أن يتعصب لدينه وعرضه ، ولا يتساهل فيهما لميله وغرضه» .

* * *

الرواية تطرح قضيتها الأهم فى العنوان السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين ، وهو سبب - كما يشير فى الصفحات الأولى - إلى عناصر الاختلاف بين السنة والشيعة ، وكفى - على حد تعبيره - ما حوى هذا الاسم من الاشارة، وما فيه من المعنى ودليل العبارة .

يلحظ الراوى / الكاتب أن الايرانى «عند الجميع مذموم ، ويرمونه بسهام الطعن واللوم ، ويتقولون عنه بكل قبيح ، ويسلبون ماله من كل مليح ، مع أنهم قوم لم يخرجوا عن الحق ووافقوا الصواب ونطقوا بالصدق ، معترفين لله عز وجل بالوحدانية الأبدية ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الأزلية ، فليس لمسلم سبيل للطعن فيهم ، ولا يجوز مطلقا الافتراء عليهم» .

إعادة النظر إلى الشيعة - بتجرد وموضوعية - منطلق مهم لتحقيق الوحدة بين المذاهب الإسلامية - السنة والشيعة على وجه التحديد - « إذ لا يخفى ما لاتحاد الإسلام من الأهمية ، وما يعود بالنفع إذا اتفقا سوية ، فكفانا من الانحطاط الناتج عن نفور الطرفين ، والبغضاء المتسببة من أقاويل وشماتة الفريقين» . ويضيف الكاتب إن الاتحاد بين السنة والشيعة ممكن ، «إذا دفعنا ورفعنا العقبات ، وأزلنا من بيننا الإساءات، بحيث تنقشع السحابة المظلمة بين أهل الشيعة وأهل السنة ، وتتجدد الوصلة ، ويمحى المرض ، وتشفى العلة»



قاسم أمين

هل تأثرت بالكوميديا الالهية وحديث عيسى بن هشام ؟

الرواية تذكرنا - فى البداية - بالكوميديا الإلهية لدانتى ، ثم تذكرنا - فى رحلة البحث عن الحبيبة - بحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى .

ظهور الحبيبة فى حياة الراوى واختفائها كطيف ، فى لحظات كأنها السحر يذكرنا بظهور بياتريس واختفائها فى الكوميديا الإلهية . وكانت تلك اللحظات القصيرة هى انطلاقة الأحداث فى السبب اليقين وفى كوميديا دانتى . اختفى ما قبل ، ووضع الراوى انشغاله فيما بعد . ظلت الفتاة فى ذهنه ووجدانه ، فهو دائم التفكير فيها ، ودائم البحث عنها . أصبح البحث عن الحبيبة ومحاولة لقائها محور حياته جميعا . ويبين تأثر الكاتب بحديث المويلحى فى توالى المواقف التى يناقش الراوى من خلالها بعض قضايانا الاجتماعية . ثمة اختلاف - واتفاق - المذاهب الإسلامية ، ووضع المرأة ، والحجاب ، والأحوال الاقتصادية ، والمتنزة، والفندق ، والكازينو ، والمولد ، وشاطىء البحر ،

والمسرح ، وحديقة الأزبكية ، وغيرها في السبب اليقين .

لقد كان المنيكلي باشا هو رفيق عيسى بن هشام في الأماكن المختلفة التي زارها . وكان عارف هو رفيق كاظم ميلاني في الأماكن التي تردد عليها ، بصرف النظر ما إذا كانت أماكن حقيقية أم فرضها الحدث الروائي . وكان الباعث للمنيكلي هو التأمل في الحياة والبشر ، وما آلت إليه الأمور بعد انقضاء عقود على زمانه . أما كاظم فقد كان باعث رحلته التي صحب فيها فيما بعد - صديقه عارف هو حبه لوحيدة ، منذ ظهورها في حياته كطيف ، ما لبث أن اختفى ، فبدأ بالتالي رحلة البحث عنها .

ومن الواضح أن معظم آراء الراوي / الكاتب تصدر عن مفهوم أخلاقي ، ينتصر للصواب ، ويدين الخطأ . وهو ما ينتظم فصول الرواية جميعا ، العين ناقدة ، ترى وتتأمل وتصدر الحكم . فهو - على سبيل المثال - يدين اختلاط النساء بالرجال ، والتعري في حمامات السباحة ، وشرب الخمور ، ولعب القمار ، وغيرها من المظاهر السلبية التي أتاح له البحث عن فتاته أن يتعرف إليها .

وتبين دعوة قاسم أمين في تحرير المرأة والمرأة الجديدة عن ملامح مؤكدة في الحرية التي أتاحها الأبوان لابنتهما ، وكما تقول ، فإنهما أباحا لها «هذا التصرف ، وعود إلى متابعته ، بعدما استصوبا رأى فلان المنادى برفع الحجاب - تقصد قاسم أمين - ولزوم مخالطة الإناث بالرجال ، وشرح فضيلته» .

* * *

في ١٩٠٠ أصدر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة . وتولت نشره دار الترقي للطبع والنشر ، وعلى الرغم من أن عدد نسخ الطبعة الأولى لم يزد عن ألف ، فقد ظلت في المكتبات عدة أعوام قبل أن تنفد . حدد قاسم أمين دعامتي التحرير الحقيقي للمرأة بأنهما : التعليم ونزع الحجاب ، وذهب إلى أن «تربية النساء أهم من تربية الرجال في الهيئة الاجتماعية» لأنه «يجب أن يكن عظيمات وفاضلات ليكون الرجال عظماء وفضلاء» «لأن الرجال يكونون كما تريد النساء» .

لم تنطلق دعوة قاسم أمين من مجرد الرغبة في «تحرير المرأة» ، لكنه كان ينشد حلا لمشكلة بدأت تجد سبيلها إلى الظهور والتأكد ، وهي أن «رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة ، فإنهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها ، وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم ، لا خادمة تستعمل في كل شيء ، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة»

والحق أن قاسم أمين لم ينكر على المرأة دورها الأساسي ، وهو إنشاء الأسرة ، وتربية الأولاد ، كانت تلك عنده أفضل خدمة تقدمها المرأة للمجتمع ، بل لقد اعتبرها «قضية بديهية» لا تحتاج إلى نقاش ، لكنه أضاف إلى ذلك دورها الغائب في مواجهة الحياة بالعمل إذا

فرضت عليها الظروف ذلك والملاحظ كذلك أن قاسم أمين لم يطلب المساواة بين الرجل والمرأة فى التعليم - على سبيل المثال - فذلك فى تقديره كان غير ضرورى، وإنما طلب المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل . أما الحجاب ، فهو قد طالب بالاقتصار على الحجاب الشرعى «على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، والمتمثل فى «كشف المرأة وجهها وكفيها ونحن لا نريد أكثر من ذلك» .

والافت أنه عندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة ، وإلى المرأة الجديدة ، فإن المعركة - التى شغلت حياتنا السياسية والاجتماعية جميعا - لم تقتصر على المقالات والكتب التى تناقش وتحلل وتؤيد وتعارض ، وتجعل من دعوة قاسم أمين معلما مهما ومؤثرا فى مسار الحياة المصرية ، وفى حياة المرأة المصرية على وجه الخصوص . فثمة إسهام مباشر فى المعركة لم يفطن إليه مؤرخو تلك الفترة ، رغم أنه شكل صوتا جهيرا فى المناقشات التى أثيرت ، مناصرة ورفضا لتحرير المرأة وسفورها وصعودها درجات فى سلم المساواة بالرجل . ويتمثل هذا الإسهام فى العديد من الأعمال الأدبية والفنية التى تتناول دعوة قاسم أمين ، وتبين عن ملابساتها ونتائجها فى حياة قطاعات مختلفة من المجتمع .

كانت القصة فنا مستحدثا ، لكن



مصطفى كامل

السمة التى غلبت على كل المحاولات الأولى، بدءا بعلم الدين وانتهاء بزينب ، ومرورا بليالى الروح الحائر وقلب الرجل وحديث عيسى بن هشام وليالى سطيح ومذكرات الأميرة براعه ونظرات المنفلوطى وعبراته وغيرها ، أنها عانقت همومنا الاجتماعية ، وحاولت أن تناقش ما يعانى المجتمع من قضايا ومشكلات . وقد أحدثت دعوة قاسم أمين رد فعل عنيف فى أوساط المثقفين المصريين ، تمثل فى المواقف المؤيدة والمعارضة التى عبر عنها كتاب وساسة كبار وصغار . بل إن مصطفى كامل أفرد صفحات «اللواء» - لأشهر طويلة - للهجوم الضارى على قاسم أمين ، إلى حد التشكيك فى وطنية الرجل! .

ومع الأصوات المؤيدة والمعارضة لدعوة قاسم أمين ، فإن الشيخ على يوسف كتب فى «المؤيد» : «إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدر تغير عظيم فى أفكار الأمة ، ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم فى أخلاقها» .

ولعل الظاهرة التى تبين عنها غالبية الأعمال التى حاولت أن تناقش دعوة قاسم أمين فى ضوء الظروف القائمة آنذاك ، أنها خلصت إلى إدانة حاسمة وشجب لدعوة قاسم أمين . وفى المقابل من تلك الأعمال ، فقد حاولت بعض الأعمال الأدبية الأخرى أن تناقش الدعوة ، وتستشرف نتائجها فى إطار

من الموضوعية والتفهم لطبيعة الظروف التي كان يحياها المجتمع المصرى آنذاك

لماذا فضل السجع ؟

أما تفضيل الكاتب أسلوب السجع ، فقد كان ذلك - حسب تعبيره - لحاجة في نفسه يعقوب » ولم أتوفق إلا ببركة النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته لهـذا الأسلوب» ، والحق أننا لم ندرك الحاجة في نفسه التي جعلته يختار أسلوب السجع ، وإن لم تكن الكتابة في تلك الفترة قد تخلصت من أسلوب المقامة ، أو أنها لم تكن تخلصت منها تماما .

نحن إذا استثنينا العدد الأقل من الأعمال الروائية التي صدرت في الفترة منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى نهاية العقد الأول من القرن العشرين : عذراء دنشواي لمحمود طاهر حقي ، ليالى الروح الحائر لمحمد لطفي جمعة ، فتاة مصر ليعقوب صروف ، فتاة الفيوم ليعقوب صروف ، مذكرات الأميرة براعة لصالح حمدي حماد ، وغيرها - فإن المقامة كانت هي لغة الرواية في تلك الفترة ، ثمة مقامات اليازجي ، وكتاب علم الدين لعلى مبارك ، والمقامة الحلوانية أو الغزية لمحمود سلامة ، وحديث عيسى بن عصام لابراهيم المويلحي ، وحديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي ، وليالى سطيح لحافظ إبراهيم ، وصهاريج اللؤلؤ لتوفيق البكرى ، وغيرها ، فراوية كاظم ميلانى تتسق - في لغتها وأسلوبها - مع تلك الروايات . وحين قدم سليم تكلا طلب ترخيص «الأهرام» ذكر أن مقاصده طبع بعض الكتب كمقامات الحريرى .

والرواية تنتسب - تطبيقا - وقبل نشوء التعريفات والمصطلحات النقدية الحديثة - إلى رواية السيرة الذاتية . فالراوى محمد كاظم ميلانى هو كاتب الرواية ، وأبوه الحاج إبراهيم الميلانى تاجر بشارع الميدان بالاسكندرية . وأحداث الرواية يرويها الشاب كاظم ، وثمة أسماء معاصرة تتناثر في فصولها كالشيخ سلامة وجوقة إسكندر فرح والجناب الخديوى - يقصد عباس الثانى - ومحل الخواجة سمعان بالموسكى الخ....

و«للسهولة جعلناها أقساما وفصولا» هذه هي الحبكة . التقسيم إلى أقسام وفصول لمجرد السهولة في السرد ، وإن حفلت الرواية بالكثير من المصادفات المفتعلة . بل إن الكاتب يستدعي المصادفة ، حيث يقف على ناصية أحد الشوارع - في الاسكندرية ، ثم في القاهرة - يمنى النفس بأن يلتقى بالمحبوبة ، التي لم يرها من قبل سوى مرة واحدة ، ولا يعرف عن أحوالها شيئا . وحرص الكاتب على أسلوب الوعظ وتقديم العبرة ، كما حرص أن يذيل صفحات الرواية بهوامش تشرح معانى الكلمات الغامضة ، وتوضح بعض المعلومات التاريخية والاقتصادية وغيرها

قيمة هذه الرواية

قيمة هذه الرواية تتمثل في التجليات التالية :

- إنها أول عمل روائي يناقش دعوة

قاسم أمين فى كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة . إن أسرة محمد بك تعبير عن التيار المناصر لدعوة قاسم أمين ، والمأساة التى اصطدم بها فى إصراره على تطبيق تلك الدعوة ، وعانت نتائج المأساة وحيدته «وحيدة» .

- إنها أول عمل روائى يطرح المذهب الشيعى على القارىء غير المتخصص ، فضلا عن مناقشة العلاقة بين السنة والشيعة . وإذا كان الكاتب قد انتصر - فى وجهة نظره - للمذهب الشيعى ، فلأنه ينتسب إليه ، وإن كان من المهم - فى تقديرى - أن يتعرف القارىء على ذلك المذهب الذى تدين به واحدة من أهم دول المنطقة ، وهى إيران ، فضلا عن قطاعات عريضة من الشعب العربى .

- إنها تعرض للتيارات والظواهر الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، مما يجعل منها قواما مناسبا لدارسى علم الاجتماع الأدبى .



الخديو عباس

- أما إذا كانت التسلية هى ما يطلبه القارىء فى هذه الرواية ، فلعل ذلك ما يتيحه له تنامى العلاقة بين كاظم ووحيدة ، والنهاية الحزينة التى انتهت إليها .

* * *

هذه رواية تستحق القراءة لأكثر من سبب ، وإن كان من المهم أن توضع عملية القراءة فى إطار الزمن الذى كتبت فيه ، وكتبت له ..

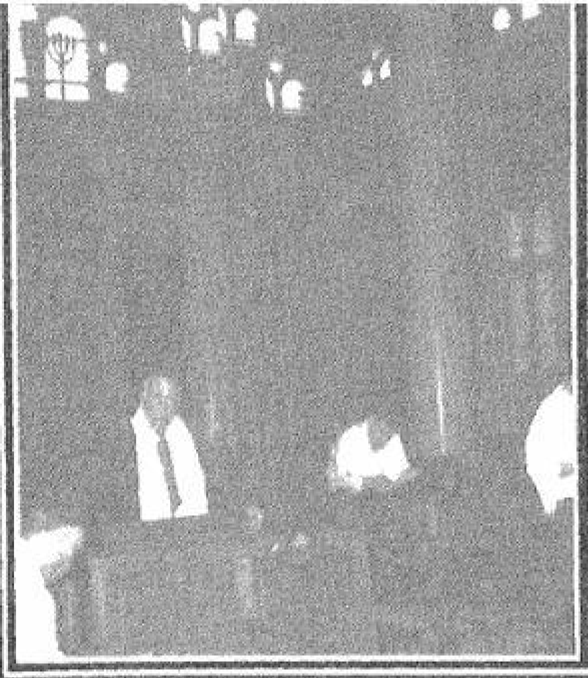
لقد روى الكاتب أجزاء من سيرته الذاتية ، ومزج بين الواقع والخيال ، وناقش قضايا مهمة من أخطر ما عاناه المجتمع المصرى فى فترة الانسحاب من هزيمة العرابيين ، والتهيؤ لصحوة بلغت ذروتها فى ١٩١٩ ، وتلاحم الشعب المصرى - بكل طوائفه - فى ثورة شكلت معلما مهما فى مسار تاريخنا الحديث . ■

قالوا

* الإمبراطورية التى تقوم على الحرب تعيش بالحرب
مونتسيكيو

* التاريخ حلم مزعج .. أحاول أن أنساه
جيمس جويس

* الإنسان الذى لا يفقد عقله أمام الاغراء لس لديه ما يفقده
ليسنج



الخروج من مصر

اليهود فى الاسكندرية

حكاية عائلة يهودية وقراءة بعيون مصرية

بقلم

د. محمد أبو الغار

لقد كان الانتهاء من بناء مكتبة الاسكندرية وافتتاحها حافزا لكثير من الكتاب والمفكرين ليكتبوا عن القلعة العلمية والثقافية العظيمة والتى تمركزت فى مكتبة الاسكندرية القديمة، وتناولت الكتابات أيضا مدينة الاسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتان فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى العقد السادس من القرن العشرين.

ومما لا شك فيه أن الحنين (النوستالجيا) قد لعبت دورا مهما عند الكتابة عن تاريخ الاسكندرية الحديث، فالأجيال التى تعدى عمرها الستين عاما تتذكر الاسكندرية النظيفة الجميلة الهادئة المليئة بالمطاعم والكازينوهات والمقاهى الجميلة، وكانت المدينة مرتعا للفنون التشكيلية الرائعة المستوى



أمين صندوق الطائفة ابراهام بنمويز في محل الأدوات الكهربائية الذى يملكه بشارع سعد زغلول



مدرسة الطائفة اليهودية بمحرم بك



الحاخام الأكبر حاييم ناحوم في احتفال للطائفة اليهودية بالإسكندرية برأس السنة اليهودية عام ١٩٤٧

وكل من يتذكر روايات لورنس داريل يعيش الحياة السكندرية فى مطلع القرن العشرين، ومن يقرأ ترجمات نعيم عطية الراقية لأعمال كفافيس يحس بتأثير الأسكندرية الشعرى الساحر.. ومن المؤكد أن بعض المعاصرين يتذكرون ليالى الاسكندرية الساحرة والعشاء البسيط فى تافرنا وسط المدينة، ولم يكن أحد من المصريين سعيدا بتدهور أحوال الإسكندرية خلال أربعين عاما حتى أن العقل الباطن للكثيرين منا قدا أبدوا أسفهم على الهجرة الجماعية للأجانب التى حدثت فى خلال عقدين من الزمان، وكنت شخصيا أود أن تحتفظ الاسكندرية بطابع خاص لها كما تحتفظ أسوان أو الواحات بطابع خاص أيضا.. وتشاء الظروف أن أجد كتابا اسمه الخروج من مصر. يحكى الكتاب قصة حقيقية لعائلة يهودية عاشت فى الاسكندرية أكثر من خمسين عاما فى القرن العشرين وهاجرت بعد ذلك للخارج بقلم أحد أفراد الجيل الرابع لهذه العائلة، ولقد خرجت بعد قراءة الكتاب بانطباع بأن الكاتب صريح وصادق ويحكى تاريخ الأسرة ببساطة ودقة، وربما يكون من أسباب ذلك أن الكاتب كان شاهد عيان لكثير من الأحداث وأنه قابل بعض أفراد العائلة من الكبار الباقيين على قيد الحياة وجلس معهم للتوثيق والتاكد من معلوماته ، وهو لم يحاول أن يجمل وجه العائلة فى مصر بل ذكر كل مشاعرها الحقيقية والإساءات لمصر والمصريين .

والكاتب أندريه أكيمان ولد فى الاسكندرية وعاش بها طفولته وشبابه إلى أن غادرها فى عام ١٩٦٤ وقد درس فى جامعة هارفارد العريقة بالولايات المتحدة وهو يقوم حاليا بتدريس آداب اللغة الفرنسية فى جامعة برينستون .

ترجع أصول العائلة اليهودية منذ مئات السنين إلى أسبانيا حين طرد اليهود منها فى عام ١٩٤٢ ميلادية وهاجرت الأسرة إلى تركيا وعاشت فى اسطنبول . وفى القرن التاسع عشر حاول أفراد العائلة مثل كثير من اليهود الأتراك البحث عن جنسية أوروبية أثناء إقامتهم فى تركيا وذلك بجانب جنسيتهم التركية والتى حملوها أجيالا. ونجح الكثيرون فى أن يدعو بأن أجدادهم القدامى الأسبان قد هاجروا إلى ميناء ليفورنو

الصغير فى إيطاليا بجوار بيزا وعاشوا هناك ، ولذلك فهم يستحقون الجنسية الإيطالية ، وفعلا حصل عليها الكثيرين من أفراد هذه العائلة ودخل بعضهم المدارس الإيطالية فى اسطنبول لتعلم الإيطالية ويقى الكثيرين من الذين يحملون الجنسية الإيطالية لا يعرفون حرفا من هذه اللغة .

الهجرة إلى الأسكندرية

وقد بدأت هذه العائلة فى التفكير فى الهجرة من تركيا عندما أحست بأفول نجم الامبراطورية العثمانية . وكان الحافز الأكبر لاختيار مصر كبلد المهجر هو الصداقة الوثيقة التى ربطت بين أحد أبناء العائلة المدعو إيزاك (إسحق) وبين الأمير أحمد فؤاد ولى عهد مصر والذى أصبح سلطانا ثم ملكا بعد ذلك ، وقد بدأت هذه الصداقة فى إحدى الجامعات الايطالية حيث تزاملا معا فى نفس السنة الدراسية ، وفعلا هاجرت الأسرة بأبنائها الثلاثة نسيم وإيزاك وآرون (المسمى فيلى) وبناتها الأربعة إلى الاسكندرية عام ١٩٠٥ بعد أن باعت ممتلكاتها فى اسطانبول (وهى ليست بالكثيرة) واستوطنت الاسكندرية وعاشت فيها أكثر من نصف قرن حتى غادرها آخر فرع فى العائلة ومن ضمنهم مؤلف الكتاب فى عام ١٩٤٦ .

وقد توارثت العائلة لغة تسمى لادينو، وهى لغة قاربت على الانقراض تماما ، يتكلمها اليهود السفارديم فى البلقان وشمال أفريقيا واليونان وتركيا، وهى لغة مشتقة من إحدى اللهجات الاسبانية مختلطة بقليل من العبرية ويتكلمها الذين ينحدرون من سلالة اليهود الذين طردوا من أسبانيا فيالقرن الخامس عشر . وتكتب هذه اللغة بالحروف العبرية ولكن معظم من يتكلمها لا يكتبها ، وفى الوقت الحالى أصبح من يعرف هذه اللغة قليل جدا، وكان الابن الأصغر للعائلة المسمى فيلى شخصية غريبة الأطوار متعددة المواهب والقدرات وهى تمثل الشخصية اليهودية أصدق تمثيل، فبعد أن تعلم الإيطالية والفرنسية بجانب التركية واللادينو جند فى الجيش التركى وحارب معه ثم انضم للجيش الألمانى وحارب فى الحرب العالمية الأولى تحت العلم الألمانى وبالطبع أتقن اللغة، وعندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى مع الحلفاء انتقل للجانب الآخر وحارب

فى صفوف الجيش الإيطالى وهرب منه بعد الهزيمة المفجعة للإيطاليين وذهب ليعمل فى جزر البحر المتوسط، ثم لحق بالعائلة التى هاجرت إلى الاسكندرية، وفى الاسكندرية افتتح صالة للمزادادت تبيع التحف والأنتيكات.. وفى الثلاثينيات ومع ظهور الفاشية، كان من أكبر مؤيدى موسيلينى من الجالية الإيطالية فى الاسكندرية ، حتى أن موسولينى قد أهداه دائرة معارف موقعة منه شخصيا بيعت بعد ذلك لأحد المكتبات قبل مغادرتهم مصر نهائيا.. وكان يرسل خطابات تحية وتشجيع لهتلر ، وعندما طلبته المخابرات الإيطالية ليكون عميلا لها وقبل أن يوافق ذهب للمخابرات البريطانية فى الاسكندرية وعرض عليهم الأمر فانضم رسميا كجاسوس للتاج البريطانى عام ١٩٣٦، وتنقل فيلى بين روما والقاهرة وأثيوبيا التى كان موسولينى قد غزاها ليتجسس على الإيطاليين لصالح الانجليز، وكانت المخابرات الإيطالية تصدر له كميات هائلة من التحف والأثاث الإيطالى القديم من روما لصالة المزادات فى الاسكندرية وذلك بمبالغ رمزية حتى يكون هناك مبرر لسفره المتكرر لروما أمام عيون الانجليز.. وكان فيلى يتباهى بأن أخاه إيزاك وبالتالى هو شخصيا يضع الملك فؤاد ثم فاروق فى جيب الصديرى الصغير ، وقد ساعد الملك على تعيين فيلى عضوا فى مجالس الإدارة لعدد كبير من الشركات الكبرى فى مصر بمرتبات مرتفعة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كافأته الحكومة الانجليزية بمنحه الجنسية البريطانية، ولم تكن علاقة فيلى جيدة بالحركة الصهيونية فى مصر الذين اتهموه بأنه يتجسس لصالح الانجليز ضدهم فى الفترة التى سبقت قيام دولة إسرائيل، بل وحاولوا الاعتداء عليه. وبعد قيام دولة إسرائيل أحس فيلى بعقل وقلب الجاسوس أنه يجب أن يعد العدة فى وقت ما للرحيل من مصر وتأكد الإحساس بعد قيام الثورة فى عام ١٩٥٢، فبدأ يهرب أمواله الضخمة للخارج وبالتدريج باع كل ممتلكاته ما عدا فيلا قديمة مليئة ببعض الأثاث الذى لا يساوى شيئا.. ويبدو أن فيلى كان يرأس منظمة للتهريب وربما للجاسوسية ضد مصر.. وفى عام ١٩٥٥ وبينما الأسرة تنظم حفلا

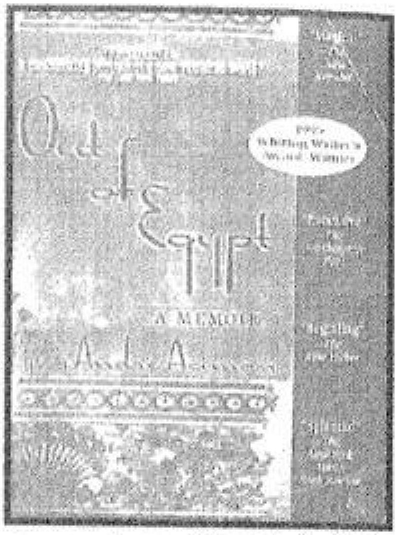


أسرة يهودية عاشت في مصر

ضخما استمر ثلاثة أيام الميلاد لمئات المدعوين احتفالا بعيد الميلاد المئوي للجدة الكبرى رأس العائلة التي هاجرت عام ١٩٠٥ إلى مصر وكان عمرها آنذاك خمسة وأربعون عاما وبلغت مائة عام وهي بصحة جيدة وذاكرتها قوية، وفي مساء اليوم الثالث والأخير لحفل عيد الميلاد ألقى ابنها الأكبر نسيم كلمة لتكريم أمه وتأكد من أن مائة شمعة قد أضيئت في أنحاء المنزل وقالت الجدة كلمة تحية، بدأتها بالتركية التي كانت قد نسيتها وحاولت التكملة بالإيطالية الركيكة ولكنها غيرت إلى الفرنسية التي تجيدها ولم يكن هناك مكان للغة لادينو لأن أقل القليل من الحضور يعرفها.. وفجأة دخل أحد أصدقاء الأخوة وهو يلهث قادما من الخارج وطلب مقابلة في لي على انفراد وأخبره بأن أحد أعضاء الخلية التي ينتمي إليها فيلي قد قبض عليه وضبطت معه ورقة بها بضعة أسماء من ضمنهم فيلي وبعض المعلومات الأخرى من ضمنها أرقام الحسابات في سويسرا، ونادى فيلي بقية الإخوة وأخبرهم أنه سوف يغادر مصر نهائيا وفوراً الآن وطلب أن تستمر الحفلة بطريقة عادية حتى لا يلاحظ أحد شيئاً.. وقد رفض السفر هاربا على ظهر سفينة تجارية يونانية تغادر الميناء بعد بضع ساعات وأخذ حقيبة من المنزل بها بعض الملابس القديمة، وانطلق مع السائق إلى مطار القاهرة، وقبل أن يتم التبليغ بالقبض عليه ببضع ساعات كان قد غادر القاهرة، ومن عجائب القدر أن تستدعي الحكومة المصرية فيلي بعد أربع سنوات كخبير أجنبي لبيع مقتنيات العائلة المالكة بالمزاد العلني!)..

ذهب فيلي صاحب الجنسية البريطانية لإنجلترا وغير اسمه لاسم انجليزي قح وغير ديانته للمسيحية واشترى ضيعة في الريف الانجليزي ليتقاعد فيها دون أن يعلم أو يحس أحد بأنه أجنبي أو أن له تاريخا تشيب له الرؤوس.

وعندما ذهب مؤلف الكتاب لزيارة فيلي حين كان في الثمانين من عمره في ضيعته بانجلترا حيث يعيش مع أولاده وأحفاده رفض الحديث عن الاسكندرية، وعندما ذكر أمامه بعض أسماء الأصدقاء والأقارب قال: إن هذا التاريخ سيئ، والمهم هو الحاضر، وأليس المنظر رائعاً هنا في



غـلاف كـتـاب «الخروج من مصر»

الريف الانجليزى، وبعد قضاء يومين فى ضيافته عرف بالصدفة من أحفاد فيلى أنه قبل أن ينام يغلق الحجرة على نفسه بحيث لا يعرف أحد أنه يستمع كل ليلة لنشرة الأخبار بالفرنسية لمدة ساعة كاملة من محطة راديو إسرائيل.

الحياة فى الاسكندرية

وقد قام كل من المهاجرين الجدد لمصر من العائلة بعمل مشروع مختلف بدءاً من فتح صالة بلياردو إلى صالة مزادات إلى محل لبيع وإصلاح الدراجات، وتكبر العائلة فى الحجم والثروة ويزداد عددها وتسكن فى الإبراهيمية بالإسكندرية واسبورتنج، ثم تنتقل إلى سموحة. وكان لهم بيت بالمندرة ينتقلون إليه كل صيف، وكانوا فى بحبوحة من العيش عندهم الخدم والطباخين والسفرجية والسائق.

واستمرت العائلة فى حياة سعيدة بالرغم من القلق الشديد الذى راودها فى فترة معركة العلمين وخوفهم من انتصار الألمان وهو ما يعنى هروبهم من مصر أو احتمال القبض عليهم.

وكانت هذه الفترة من الفترات العصيبة فى حياة يهود الاسكندرية، وقد حددت الحكومة البريطانية إقامة الرعايا الإيطاليين والألمان خوفا من أن يكونوا طابورا خامسا لجيش روميل. ولكن هذه العائلة التى يحمل أفرادها جوازات سفر إيطالية لم تمس من قريب أو من بعيد لأنهم أولا يهود وثانيا لأن فيلى يعمل جاسوسا للانجليز. وفيما معركة العلمين ترك الجميع منازلهم وذهبوا إلى الجدة الكبرى فى منزلها الذى رفع منه الأثاث وفرشت المراتب على أرض البيت لينام الجميع رجالا ونساء وأطفالا كل يوم حتى انتهت المعركة بهزيمة روميل فعاد كل إلى بيته حتى قيام دولة إسرائيل. وعندئذ شعرت

الأسرة مرة أخرى بالخوف من الشعور المتوقع من المصريين تجاه اليهود وذهبوا مرة أخرى للجدة الكبرى وفرشت المراتب ونامت العائلة جميعها على الأرض حتى هدأت النفوس وعاد الجميع مرة أخرى لمنازلهم.

أما الأخ إيزاك فهو الصديق الشخصى للملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق، فقد وصلت درجة الصداقة إلى حد أن أيزاك أخبر الملك فؤاد بأن أخته قاربت على سن الأربعين ولم تتزوج بعد، فساعده الملك بتنظيم وترتيب زواج بين الأخت وبين يهودى يقيم فى مصر يسمى الدو خون ويعرفه العامة باسم خون باشا .

ولفرط ثقة الملك فؤاد وحبه للسيد إيزاك عينه فى منصب مدير عام وزارة المالية وساعد ايزاك فيلى على الوصول لمناصبه الكثيرة وساعد فى تعيين أعداد كبيرة من أفراد العائلة شبابا وشيوخا فى مناصب إدارية كبرى فى الشركات والبنوك بمرتبات كبيرة مغرية، وقد بلغت مساعدات الملك لإيزاك حدا غير معقول عندما تدخل لمساعدة أحد أقارب العائلة فى الهروب من ألمانيا وأعطاه جوازاه سفر مصرية دبلوماسية له ولزوجته.

أما الأخ نسيم فلم يكن له دور واضح باستثناء حبه للهدوء والقراءة ولعب الجولف بصفة دائمة.

أما البنات فقد تزوجن من يهود من الاسكندرية ذو الأصول الغربية وكان اليهودى العربى القادم من حلب والذى تزوج إحدى الأخوات هو الوحيد من غير اليهود الأوروبيين الذين دخل هذه العائلة، وقد نظر إليه الأخوة جميعا بنظرة متعالية فيها بعض الاحتقار.

أثناء عدوان ١٩٥٦

ويحتل العدوان الثلاثى على مصر والذى اشتركت فيه انجلترا وفرنسا وإسرائيل جزءا مهما فى تاريخ هذه العائلة لأنه كان حدا فاصلا فى علاقتهم بالحكومة المصرية التى بدأ يشوبها بعض القلق بعد عام ١٩٥٢، وتطورت العلاقة تدريجيا حتى وصلت لقمة الأحداث أثناء عدوان ١٩٥٦ حين ظهر بوضوح إلى أى جانب يقفون، واتخذت الحكومة المصرية منهم موقفا شديد الحزم والحذر. ومن ناحية أخرى كان لاشتراك إسرائيل فى العدوان الثلاثى أثرا حاسما فى إثارة الشعور الشعبى ضد اليهود وخاصة بعد ما ظهر من تصرفاتهم

أثناء العدوان.

وهناك كثير من الأحداث التى كان الكاتب فيها شاهد عيان أثناء فترة الحرب تدل على عدم تعاطف وانتماء هذه العائلة ومثيلاتها إلى مصر.

الهجرة من مصر

وبدأت العائلة مناقشة الهجرة من مصر والتخطيط لها، والذى بدأ يتحقق على أمر الواقع لجميع أفراد العائلة ما عدا والد المؤلف الذى كان يملك مصنعا للنسيج يدر أرباحا هائلة، وكان يود أن يبقى مع عائلته فى الاسكندرية وفعلا بقى فيها ثمان سنوات حتى غادرها فى عام ١٩٦٤ وخلال هذه الأعوام تغيرت الأسكندرية وتغيرت الحياة فى مصر وأممت كلية فيكتوريا التى كان الصبى يدرس بها وتحولت إلى كلية النصر وأصبح تدريس اللغة العربية إجباريا وأصبح هو اليهودى الوحيد فى الفصل وكان عليه أن يحفظ أجزاء من القرآن كجزء من دروس اللغة العربية وعليه أن يحفظ الأناشيد التى تمجد العرب وتحقر من اسرائيل وكان أبوه مصر أن يستمر بالمدرسة لأنه إذا أراد أن يعيش فى مصر فى هذا العصر لابد أن يجيد لغتها وقد لاقى الصبى كثيرا من العنت فى هذه الفترة تارة من المدرسين وتارة من الزملاء حتى رضخ أبوه ونقله للمدرسة الأمريكية التى لم تكن اللغة العربية إجبارية فيها . وأضطر أبوه أن يغادر مصر نهائيا بعد أن أممت أملاكه بعد ذلك . ويذكر الكاتب أنه أثناء زيارة للمقابر اليهودية بالاسكندرية فى يوم كيبور بينما هم يخططون لترك مصر قال أباه أنه لمن المحزن أن نترك أحبائنا فى قبورهم يتقلبون بينما نخطط نحن للمغادرة، ولعلهم يسألوننا لماذا جئنا فى المقام الأول لمصر ونحن نكره هذه البلد التى دفنونا فيها.

وإذا أبديت بعض الملاحظات على الكتاب فأولها أن الكاتب كان أمينا فى رواية الأحداث الحقيقة التى مرت بعائلته وحاول جمع المعلومات ومقابلة الأحياء لاستكمال الأحداث ولم يحاول أن يجمل الشخصية اليهودية بل أظهر بوضوح أن الجميع لم يحب مصرنا ولا شعبنا وانما أحب اسكندريتهم وبحرها وجمالها .

● يعطى الكتاب انطباعا واضحا أن مصر كانت بها دولتان أحدهما للمصريين والأخرى للأجانب، فخلال صفحات هذا الكتاب التى قاربت

الثلاثمائة والذى يغطى أكثر من ٥٠ عاما من تاريخ مصر فى القرن العشرين لم نقرأ ولا حدث واحد عن ثورة ١٩١٩ أو مظاهرات ١٩٣٥ أو التغيرات السياسية المتلاحقة، ولم يذكر اسم زعيم أو وزير مصرى واحد ولا أى كاتب أو أديب أو فنان مصرى، ولا حتى راقصة مصرية . فالكتاب ملئ بالأسماء والشخصيات وكلها أجنبية أما الأسماء المصرية الكثيرة فهى فقط أسماء الخدم بكافة أنواعهم .

● العائلة اليهودية الكبيرة التى قد تفرعت عن طريق الزواج والانجاب حتى الجيل الرابع كانت مترابطة بشكل يفوق الخيال وكان ذلك واضحا خلال الأزمات الكبرى فى عام ١٩٤٢ و ١٩٤٨ و ١٩٥٦ وكانوا يتعالون على الجميع حتى على زوج أختهم اليهودى الحلبى الذى لا يتكلم لادينو .

● وكانت اللغة العربية عديمة الأهمية لهم، فلم يهتم أحد بتعلمها أو قراءة آدابها خلال خمسين عاما إلا فى الجيل الرابع عندما بدأ بعض الاهتمام بتعليم اللغة وقد قالت الجدة فى كلمتها احتفالا بعيد ميلادها المئوى أنها تعرف خمسين كلمة عربية بواقع كلمة عن كل سنة أقامتها فى مصر .

● وعند ذكر مواطنى مصر كان دائما يشار اليهم بالعرب وكثيرا ما كان يلى كلمة عرب صفة القذارة والجهل، وقد ذكر الكتاب جميع أسماء الخدم والطباخين والسائقين والغسالة والسفرجى الذين كانوا يعملون فى خدمة العائلة أما كلمة مصرى فلم تذكر إلا نادرا ، فمثلا عندما ذهبت الجدة للمستشفى الإسرائيلى بالاسكندرية لإزالة المرارة بجراحة كان جراح العائلة اليهودى قد تم القبض عليه بتهمة الجاسوسية وقام بإجراء العملية جراح مصرى شاب وتمت بنجاح وكان تعليقها أن هذا المصرى شاطر وربما يكون من هذا الجيل مصريين مختلفين وهذه هى المرة الأولى التى ذكر فيها كلمة مصرى فى الكتاب والمرة الأخرى التى ذكر فيها شخص باسم مصرى كان الصيدلى الذى اشتروا منه الدواء وعموما فيما عدا هذه الأمثلة فإن النظرة العامة للشعب فكانت نظرة فوقية متدنية للغاية .

● بالرغم من أن هذه العائلة بعد الخروج من مصر لم تذهب لإسرائيل إلا أن زعيمهم العم فيلى المقيم فى انجلترا كان يسمع كل ليلة لمدة ساعة

كاملة لنشرة الأخبار بالفرنسية من محطة إسرائيل . والعم إيزاك كان يتعلم العبرية الدارجة وهو فى الثمانين من عمره لأنه كان يتمنى أن يموت فى إسرائيل .

●لايمكن اعتبار أن معاناة تلميذ يهودى واحد بسبب دراسته لتاريخ الشرق الأوسط من وجهة النظر المصرية والتى تدين إسرائيل بسبب الكوارث التى سببتها فى الشرق الأوسط مختلفة عن معاناة آلاف التلاميذ الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية عندما يقرأون التاريخ الذى يمجد إسرائيل ولا يعترف بأى حقوق للعرب .

● معظم الأجانب واليهود الذين هاجروا إلى الاسكندرية كانوا فقراء فى أوروبا وبعد فترات وجيزة أصبحوا يعيشون حياة رغدة ومنهم من ربح أموالا طائلة ولم يشعر أى منهم باستثناء بعض اليونانيين أن هذا الوطن يمكن أن يكون وطنهم الدائم وأن يندمجوا فيه ويتعلموا لغته وحياته . وحقيقة الأمر أنه عندما أممت ممتلكات الأجانب اليهود كان ذلك جزءاً من سلسلة تأميمات سياسية للدولة والتى طالت كل الأغنياء المصريين أيضا فى قطاعات الصناعة والتجارة والزراعة . وعندما هاجرت العائلة لأوروبا مرة أخرى واستوطن معظمهم فى فرنسا أصبحت حياتهم بسيطة فى شقق صغيرة بدون الخدم والحشم والطباخين والسائقين .

● وأخيرا، فإن ذكرى الاسكندرية ذات الطابع الكوزموبوليتان بسحرها وجمالها ونظافتها لاتزال عالقة بالأذهان، وقد فكرت كما فكر الكثيرين أنه كان من الممكن أن نحتفظ للاسكندرية بسكانها لو كنا قد فكرنا بطريقة مختلفة، ولكن عند قراءة هذا الكتاب كان واضحا لدىّ أن ذلك كان سرابا وأن المشكلة لم تكن فى مصر ولا المصريين وإنما المشكلة فى الأوروبيين واليهود الذين أرادو أن يعيشوا ملوكا وأمراء لهم دولتهم وعالمهم الخاص على أرض مصر ولتذهب حريتها وليذهب استقلالها للجحيم أما عن الولاء فكانت الصورة صارخة تعلن أنه لا ولاء لهذا الوطن الذى أحبوه وتغزلوا فى جماله وسحره لأنه المكان الوحيد فى العالم الذى أعطى لهم مميزات لم يحصلوا عليها فى وطنهم الأصلى . ■

التكوين

صراع جسم المجتمع بالثورة التي اعتقد الجميع أنها آتية

إبراهيم فتحي

كان والدى موظفاً صغيراً ينتقل من مديرية إلى أخرى فى المملكة المصرية. وكان من حسن حظى أن سبقنى فى الميلاد شقيقان: محمد قنصوة ومصطفى كمال قنصوة، والأول يفارق بعض السنوات التى كانت تبدو طويلة أيامها وتجعل منه مربياً ممتازاً لى. فهو أزهرى متفتح وفدى الهوى على غير الشائع فى طلبة الأزهر أيامها ويضيق بالزى الأزهرى. والثانى فنان متعدد المواهب يجيد الرسم والغناء والتمثيل ويعكف على القراءة.



وأصل عائلتنا تلا منوفية، وإن كنت قد ولدت فى القناطر الخيرية. وفى بعض السنوات كنا نمكث فى تلا ولا نصاحب الوالد حيث تلقى به أوامر النقل توفيراً للنفقات. وذهبت إلى الكتاب وحفظت سوراً من القرآن الكريم وتعلمت بعض الحساب. وكان ينظر إلى «حامل كتاب الله» باحترام شديد باعتباره مباركاً، ولكننى كنت معفى من هذه النعمة لأن الأمل كان قوياً فى أى يتمكن أبى من إلحاقى بالتعليم الابتدائى. وهذا التعليم غير التعليم الإلزامى أو الأولى، فهو يتطلب دفع مصروفات وارتداء بدلة وحذاء وطربوش، وتدرس فيه اللغة الإنجليزية وتصبح أفندياً بعد الحصول على الشهادة التى تؤهل حاملها لوظيفة حكومية. وكان التعليم أيامها والحصول على شهادة هو الطريق الملكى الوثير أمام قلة المحظوظين من أبناء الفقراء للصعود الطبقى وتحقيق «الحياة الكريمة». ورمز التعليم هو الكتاب - السلم المضمون للحصول على الاحترام والتميز. وكان المثقفون البارزون فى الحياة العامة أمثال طه حسين والعقاد من أبناء الفقراء نماذج تحتذى على ألسنة الآباء والأمهات فى البيوت. أما كلمة أديب فكانت لقباً عالى القدر للتشريف. ومنذ البداية كانت أمنيتى الغامضة متعلقة بأن أكون فى المستقبل على صلة بتلك الهالة الأدبية، دون أن تصبح وظيفة لأكل العيش. وكان أخى الأكبر محمد يشركنا أنا وشقيقى القريب من عمرى مصطفى كمال فى قراءة ما يجلبه من كتب وروايات، ومعظم كلامه معنا يكاد يكون بالعربية الفصحى على عادة أزهرية ذلك الزمان. وكان مصطفى كمال سلس الأسلوب فيما يكتبه، ولكننى اتبعت نصيحة أحد مدرسى اللغة العربية الذى كان يرى أن خير طريقة لتجويد الأسلوب هى نسخ بعض كتب مصطفى صادق الرافعى بخط يدى فى كراسات وحفظها عن ظهر قلب إن أمكن. وقد أثر ذلك زمنا طويلاً فى إيثارى الأسلوب المعقد والتركيبات بعيدة الغور. ولم أتخلص من ذلك إلا بصعوبة. وكانت طريقتى فى كتابة موضوعات الإنشاء تقارب طريقتى فى الكلام لأن إخوتى وأنا كنا شبه منعزلين عن اللهجات العامية السائدة بحكم كثرة انتقالاتنا. ففى تلا المفروض أن أتكلم باللهجة المنوفية، وفى القاهرة بالمصراوية، وفى قنا بالصعيدية، لذلك كانت الفصحى الميسرة هى أفضل طريقة للحديث مع المتعلمين الذين

التكوين

اقتصرت علاقاتنا عليهم. وقد طبع ذلك طريقة كلامي بالحذلقة، وإن مكنني من الإلمام بمفردات غنية منذ البداية. ولم تكن أمي تعرف إلا أقل القليل عن البلاد التي تتنقل بينها، وظلت محتفظة برصيدها الذهبي من المأثور الشعبي المنوفي، فما أكثر الأمثال التي ترددها. وحينما كان الأولاد ينجحون وتشعر بالبهجة تردد التعديد (البكائيات) على أولادها الذين رحلوا في طفولتهم وأطلقت أسماء بعضهم على القادمين الجدد، وكأنها ترى في نجاح الأحياء بعثاً للأعزاء الموتى الذين تستحضرهم بالبكائيات، وبعد الفراغ من ترديدها الإيقاعي تحس بالراحة. وقد تعلمت الكثير منها ومن تفانيها وحكمتها في إدارة شئوننا بميزانية متواضعة، ومن انكبابها على الكدح البيتي من الفجر إلى المغرب، ومن عباراتها الساخرة من بعض ممارسات الأهل والأقارب والجيران ومن ممارستنا نحن. وربما كانت تلك الأم الأمية الواعية هي أول معلم لي. فقد كان أبي يستيقظ في الفجر للصلاة وأستيقظ معه وأجلس على ركبته حينما كنت طفلاً وهو يرتل أوراداً لا أفهم معناها وأتحرك معها من الأمام إلى الوراء في سعادة غامرة أحس معها بأنها تنفذ إلى عظامي.

وهو لا يعود من عمله إلا بعد أن يحل الظلام. ويكاد يكون غائباً إلا يوم الجمعة حين تكون سعادته في إعادة ترتيب خزانة كتبه الدينية والتراثية وروايات «اللطائف المصورة» التي تعمل على «تكبير» المخ. وكان ينتمي إلى طريقة «خلوتية» يفخر وردها بأن أفرادها المعتكفين يجالسون ربنا. والصورتان الوحيدتان المعلقتان في حجرة الكنب عندنا (حجرة الجلوس) هما للشيخين فؤاد صاحب المقام والمولد في تلا (ويقص أبي أنه كان من أصفيائه المواظبين على حضرته، فالشيخ كان من قطاع الطرق ثم تاب وأصبح من أهل الطريقة الصوفية)، وخليفته الشيخ توفيق. وكان من المفهوم أننا جميعاً ننعم بالحراسة المشددة للوليين. كما كانت أمي وكنت معها نعتقد في فضل «حجاب» جلدي داخله أوراق لم أطلع عليها تضعه تحت إبطي أيام الامتحانات لكي أنجح، ولم يخذلني قط فيما أعتقد.

معالم التكوين في قنا

أما الفترة التي قضيناها في قنا وامتدت طويلاً فقد كانت من أهم محددات تكويني. حصلت فيها على الشهادة



الأشقاء الثلاثة من اليمين: مصطفى كمال ثم صلاح قنصوه وإبراهيم فتحى

الابتدائية وكنت الأول على المدرسة وعلى شهادة الثقافة، وكنت الأول على المنطقة. وقرأت أكشاكاً كاملة من روايات الجيب عن طريق الإيجار بخمسة مليمات والتبادل مع الزملاء، ومجلدات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال من مكتبة المدرسة العامرة. وكانت مدرسة قنا الثانوية الأميرية فى تلك الفترة من الأربعينات أثناء حكومات السعديين و«الدستوريين» وصدقى باشا الديكتاتورية الموالية للإنجليز والقصر منفى لأفضل المدرسن الذين يعارضون الأوضاع المتدهورة للبلاد، بعضهم ليبرالى وبعضهم يسارى وبعضهم يتمسك فحسب بالشرف الوطنى، وكان مدرس اللغة الإنجليزية مستر سينيور عالم مصريات أنشأ فى المدرسة «نادى اللغة الإنجليزية» حيث لا يكون الكلام إلا باللغة الإنجليزية، ويقوم الطلبة بتمثيل مسرحيات مقررة أو غير مقررة. وبالمثل كان أساتذة اللغة الفرنسية يعيروننا دواوين شعر فرنسية وروايات رائعة ويشرحون بالكتابة على هوامشها التعبيرات الصعبة بالإنجليزية. وكنا نلتقى بالأساتذة خارج المدرسة ونزور بعضهم ويقابلون آباءنا فى المناسبات ويتعرف عليهم أهل المدينة. أما المدرسون من أهل

المديرية فقد كان لهم دور كبير في رعاية الطلبة القادمين من القرى والدفاع عن حقوقهم وتقديم المساعدة العلمية للجميع وحل المشاكل التي تنشأ بين الطلبة والإدارة.

وفي تلك الفترة عرفت قنا وباءين: الملاريا والكوليرا، وعرفت المدرسة الثانوية المظاهرات السياسية الصاخبة كأصداء لما كان يحدث في القاهرة والاسكندرية. وبرز السؤال عن مصير البلاد بحدة. ولم يكن الفقر في قنا مماثلاً للفقر في الوجه البحري، فهي منطقة أهملت منذ زمن طويل وأرضها لاتزرع إلا مرة واحدة في السنة، ولكن أهلها يتميزون بالتمسك الشديد بالكرامة والشرف وتقاليد النخوة العربية.

وفي تلك الفترة المبكرة كانت أفكاري خليطاً غير متجانس من اتجاهات متناقضة. كنت أميل عاطفياً إلى الوفد وأسكن منطقة «الأشراف» التي كان عميدها من رجال الوفد، ويناوىء مكرم عبيد زعيم حزب الكتلة المنشق عن الوفد الذي استقطب تأييد رجال «الحمادات» القبيلة المنافسة تاريخياً للأشراف.. وكان أخي محمد يخطب في مناسبات احتفالات الأشراف بأعياد الجهاد وذكرى سعد، وكان الوفد بالمعارضة والمكان محاطاً بالشرطة. وبالقرب من بيتنا كانت جمعية الشبان المسلمين التي تعقد المحاضرات لمثقفين بارزين قادمين من القاهرة ولسياسيين لامعين. وأذكر محاضرة لصالح حرب باشا، وكانت المستوطنات الصهيونية تتدعم في فلسطين وقوات الاحتلال البريطانية تدنس المدن المصرية، دعا فيها إلى الإعداد العسكري للشباب كطريقة للتحرير، وندد فيها بإهمال الشباب لذلك الإعداد صائحاً: أيها الشباب المجرم. وقد أخذت الحماسة شيخاً كبيراً من الحاضرين فرفع عصاه مجيباً: أهينا، أي نحن هنا. وكانت كلمة مجرم الدارجة أيامها لا علاقة لها بالإجرام المتعارف عليه، بل تعني الرجل القوي الذي يقاوم الظلم الرسمي، فضحك السامعون. ولم يدر أحد أين السبيل إلى ذلك الإعداد. وسمعت محاضرة عميقة لطالب دراسات عليا أيامها هو الدكتور الطاهر مكي بعد ذلك عن التصوف الإسلامي وجذوره العربية كان السامعون يقولون الله بصوت مرتفع مقاطعين المحاضر بإعجاب شديد عند نطقه بأبيات صوفية قد تتعارض مع العقيدة الراسخة لديهم (مثل سبحانك سبحاني للحلاج). وكانت الاستجابات الحماسية من جانب بعض أفراد الجمهور للصيغ الرنانة البلاغية التي لا يفهمونها أو

يفهمونها فهماً عكسياً تدفعني إلى الحيرة في مسألة صدقية التأثير الخطابي وجدواه، وتجعلني أميل إلى التحليل الموضوعي المنطقي الذي قد لا يلقى استجابة مباشرة.

وفي هذه الفترة كان شقيقي مصطفى كمال نجماً مسرحياً في فرقة تمثيل الشبان المسلمين حيث مثل على مسرح البلدية الواسع في المدينة مسرحية «انتقام المهراجا» التي ترفض التغريب، ومسرحية «أصحاب الفيل» حيث يقول عبد المطلب أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه. وقد شعرت بالحيرة أيضاً إزاء التصفيق الحماسي الحار لأفكار تدعو إلى المناقشة والتأمل ومراعاة حدودها وأرجعته إلى براعة التمثيل.

وتأكد لي أنني لا أفضل مخاطبة المهتدين ليزدادو إيماناً على إيمانهم، ولا أفضل الخطابة والتأثير على جمهور يتفق مقدماً مع ما أنوي قوله، بل أفضل الكتابة التي قد تدافع عن آراء غير جماهيرية. وفي مظاهرات المدرسة كنت أشارك بالسير وأتعرض للضرب وقد وقعت على ركبتي في إحداها، ومازالت ندبة الجرح ظاهرة حتى اليوم، لتضاف إليها ندوب أخرى من آثار التعذيب في معتقلات مختلفة في عهود مختلفة. ولكنني كنت أضحك من شعارات مثل «شباب الفاروق أسد العرين» و«اليوم حرام فيه العلم» و«أحرقوا كتب اللغة الإنجليزية» . وذات مرة في مؤتمر داخل المدرسة أخذ ضباط البوليس الخطباء معهم معتقلين عن طريق المفاجأة، وأصيب الطلبة بالوجوم للمفاجأة وأمرنا الضباط بالانصراف. ولأنني لم أكن «مندمجا» وأحتفظ بمسافة نقدية تعودت عليها، فقد بدأت بالخبط على الكتب التي كنت أحملها، وفعل القريبون مني ذلك، وتجمع الطلبة حولي وأقاموا سداً يحمي زعماء جدداً يجيدون صياغة الشعارات. وترددت أقوال عن ضم التلميذ صاحب البنطلون الأبيض (ويبدو أن هذا البنطلون كان ملازماً لي) إلى اللجنة التنفيذية الجديدة. وما أن وصلت إلى البيت حتى جاء مخبران لاستدعائي إلى قسم الشرطة حيث احتجاز «الزعماء». وكان هذا الفاصيل شديد القصر فاتحة لاعتقالات متعددة لازمتني من الصبا المبكر حتى الشيخوخة.

تأثرت بهؤلاء الأساتذة

وكان بعض المدرسين المنتمين إلى الإخوان المسلمين يدعوننا إلى الحضور في «الشعبة»، وتكوين جمعية للخطابة، وذهبت مرات قليلة من باب الفضول.

وكانت صورة الملك فاروق الضخمة تتصدر المكان والعداء كل العداء ليس للحكومات الرجعية بل للوفد. وكانت علاقات رجال الإخوان بالأعيان فى القرى وبأبنائهم فى المدرسة تتوطد فهم الأرض الخصبة للدعوة، والمرشد العام كان مدرساً فى مدرسة قنا الثانوية منذ سنوات قليلة. وجاء فضيلته للخطابة فى شعبة قنا واستقبله المدير والحكمدار والمأمور وهم من «خيار الأصدقاء» كما وصفهم المرشد فى كلمة شكر تمهيدية. ومازلت أذكر أن هذا الرجل فى ثيابه البيضاء (غير الإفرنجية) وصوته العميق وتمكنه من اللغة ومرادفاتها الكثيرة كان ساحراً لا يقول شيئاً محدداً بل يخلق جواً روحياً بشيد بالله والرسول والكتاب وقدرة الإسلام على حل مشاكل البلاد والعباد وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة فى مواجهة النزعات المادية والأجنبة.

وفى السنة الرابعة الثانوية جاء إلى المدرسة أستاذان كان لهما أثر كبير فى تكويني. الأول عبد الفتاح لاشين مؤلف الكتب التعليمية المتعددة الرائدة وكبير مفتشى اللغة العربية بعد ذلك، وهو مثقف موسوعي لم يكن يسارياً، ولكنه يعيرنى ترجمات راشد البراوى لرأس المال (ولم أفهم من الكتاب فى ذلك الحين حرفاً) والتفسير المادى للتاريخ (وقد فهمت القليل منه) والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية (وقد ظننت أننى فهمته)، فقد كان يبحث عن منهج للإصلاح ويدرس المذاهب المختلفة فى العالم بطريقة حيادية، ويحترم الديمقراطية الإنجليزية. وفى حصة الإنشاء، كان يترك لنا اختيار الموضوعات التى نحب الكتابة عنها ويتشدد فى الصحة اللغوية. وقد اخترت موضوعا ذات مرة أسميته العنكبوت المقدس (صحته المقدسة فالعنكبوت مؤنث كما علمنى) أهيم فيه على وجهى ثائراً بطريقة هوجاء، على كل شيء، فعلق بهدوء، ناصحا بالتمييز بين الأشياء المختلفة التى أعتبرها قديمة، فلا أعتبرها متماثلة، وقال فى آخر التعليق «ولولا الرمز فى الهمز لأصابك ما لا أستطيع له دفعاً». ومن مكتبه أعارنى كتب العقاد ربان مرحلته الوطنية الديمقواطية قبل أن يربط مصيره بالقصر والسعديين، وكتب طه حسين عن أبى العلاء المعرى والمتنبى وابن خلدون شارحاً ما غمض علي، ومسرحيات توفيق الحكيم الذهنية وكتب سلسلة عيون الأدب الغربى وخصوصاً «تس سليلة آل دربرفيل»

لتوماس هاردى ترجمة الشاعر فخرى أبو السعود، وكتب جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة. وكان يحتفى دائماً بالقيمة الفنية من وجهة نظر شديدة المرونة لاتقف عند البلاغة القديمة. وكان تأثيره الدائم فى تكوينى قائماً على عدم التعصب المنغلق لمدرسة معينة فى الأدب مهما كنت ميالاً إليها. وقد أعارنى ترجمة رواية «إلى الأبد يا عنبر» التى ثارت ضدها ضجة تشبه ضجة «وليمة لأعشاب البحر» بعد ذلك معلقاً على الوضع التاريخى والسيكولوجى للبطلة، وهو الميال إلى كتابات محمد حسين هيكل الإسلامية التى كان يخفف منها بقراءته لما تيسر من «ثورة الأدب» لمحمد حسين هيكل نفسه.

وقد جعلنى تأثيره أتخيل نموذجاً مأمولاً للكاتب الذى أريد أن أكونه، وأعتقد أننى لم أحققه قط، نموذجاً يمزج بين عقلانية ومنطقية العقاد وتحليلية هيكل وموسيقية طه حسين ورومانسية ميخائيل نعيمة والتفلسف الحى لتوفيق الحكيم.

بين نظرية التطور والاشتراكية العلمية

وقد تغير كل ذلك وأطيح بالتناسب بين عناصره مع مجىء دكتور فى علم الأحياء مغضوب عليه لأنه شيوعى إلى المدرسة وكان مسيحيا بالميلاد.. ولما أنشأ جمعية للأحياء يدرس فيها بطريقة مبسطة نظرية التطور بالصور وشرائح الميكروسكوب فتبنى ذلك وتعرفت على منهج علمى تجريبى يضيف إلى المنهج العقلانى لمدرس اللغة العربية ولم أجد تعارضا بينهما. وثارت ثائرة الإخوان المسلمين الذين اعتبروا نظرية التطور إلحادا لمجرد أنها تقول «تطورا» وليس «تطويرا» عن طريق التدخل الإلهى فى أطوار ما قبل الإنسان.

وفى ذلك الوقت كان الإخوان أصدقاء للحكومات الرجعية وإن تطوع بعضهم فى فلسطين للكفاح ضد الصهيونية. وجاء إلى قنا الداعية سعيد رمضان الذى كان هناك حر الحركة خطيبا فى ساحة واسعة اسمها الفدان فى شارع «البحر» وجلجل صوته ذاكرا كيف كانت الملائكة تحارب متطوعى الإسلام. فإذا جاعوا حملت لهم الريح طعاما، بل إن اليهود يحارب بعضهم بعضا بعد أن أعمى الله عيونهم عن المسلمين. وأصابنى ذلك بصدمة رغم تكبير كثير من السامعين. وكان حل الأدواء الاجتماعية عندهم كجماعة منحصرا فى بركة الزكاة التى لم يجد

العاملون عليها فقيرا بعد صرفها فى مصارفها الشرعية أيام عمر بن عبدالعزيز، وقد أدت قشور الماركسية بالإضافة إلى سوء ممارسات الإخوان وضربهم المخالفين والتشهير الكاذب بهم وقبولهم للنظام الاجتماعى والسياسى الجائر بعد ترقيعه وتعاليم الإمام القائلة احذر يا أخى المسلم أن يقع قرشك فى يد غير مسلمة إلى أن تساورنى الشكوك فى بعض تفسيرات الدين، ولم أكن أجد أى تلازم بين مظاهر التدين الخارجية ومكارم الأخلاق أو الوطنية أو السلوك القويم، وبدأت أبحث عن تفسيرات مختلفة لنعيم الجنة الذى تجعله بعض التفسيرات الشائعة بعيدا عن الروحانية وقد وجدتها - المفارقة - عند سيد قطب الذى لم يكن قد أصبح إخوانيا بعد فى عبارة حفظتها عنه، فهذا النعيم ترجمة حسية للمتع الروحية التى وعد الله بها عباده المتقين، وظللت أحاول أن أجد توفيقا بين التفسيرات الشائعة ومقتضيات المنهج العلمى حتى عجزت تماما ووصل بى الأمر إلى تبنى موقف توفيق الحكيم القائل بأن الإيمان مناطه القلب والعلم مناطه العقل ولا حل للتنازع بينهما .

فى القاهرة

ونقل والدى إلى القاهرة وانتقلت إلى السعيدية الثانوية مدرسة أبناء الأغنياء بفضل مجانية التفوق ولم يكن هناك اتصال بأحد، وكانت سنة حاسمة فى حياتى، فحرب فلسطين انتهت بالنكبة وانقلب الإخوان على النقراشى بعد طول ممالأة وظنوا أنهم وصلوا إلى مرحلة التمكين، وخرجت مظاهرات تهتف «بؤت بخزى يانقراشى» انتهت باغتياله، وكانت المواقف من القضية الفلسطينية فى بؤرة الاهتمام. وكنت أرى بعض الطلبة الشيوعيين الذين لاتربطنى بهم صلة يطالبون بالتقسيم وسط اشمئزاز عام من الطلبة وكانت الحجة التركيز على جلاء الإنجليز، وقد فتحت المعتقلات أبوابها لجميع الاتجاهات أيامها، وكنت معزولا عن أى تنظيم منكبا على الاستعداد لامتحان التوجيهية ومسابقة اللغة العربية ودخلت امتحان جائزة كيلرن فى الإنجليزية ونجحت فيها جميعا وكان ترتيبى الثامن على المملكة والأول على منطقة الجيزة والمدرسة ومايزال اسمى مدرجا على لوحة شرف أوائل السعيدية.



مع د. فاطمة موسى ود. حمدى السكوت فى اتحاد كتاب شنغهاى بالصين - ٢٠٠١

وكان ذلك آخر عهدى بمنطق الصعود الطبقى بالشهادة التعليمية وانتقلت إلى منطق معاكس، بدأ بدخولى كلية الطب والانغماس فى العمل السياسى.

فى «حدتو»

وقد انضممت إلى حدتو فى تلك الفترة وهى المنظمة التى أسسها هنرى كورييل، وعلمت أن هناك تنظيمات أخرى فى الكلية: الراية بقيادة الرفيق خالد ولم يعرف أحد من هو إلا فى نهاية الخمسينيات (الدكتور فؤاد مرسى وزير التموين أيام السادات) والنجم الأحمر والديمقراطة الشعبية د.ش. وتظل شريفا طالما لم تنضم إلى أى من هذه التنظيمات وما أن تنضم إلى إحداها حتى تصبح انتهازيا أو عنصرا بوليسيا عند التنظيمات الأخرى، وكان الوفد فى الحكم أثناء تلك الفترة ويتعاون بعض طلبة الوفد مع البوليس السياسى الوفدى كما خرج الإخوان من المعتقلات وقابل مرشدهم حسن الهضيبى الملك فاروق وخرج من الزيارة معلنا أنها زيارة كريمة لملك كريم وكان الشغل الشاغل لطلبة الإخوان استخدام الكرابيج والقبضات الحديدية لضرب الوفديين واليساريين، وفى هذه الأيام كان أول مسئول التقيته فى حدتو

هو يوسف إدريس (وسيظل ينكر بعد ذلك أنه كان منظما على الإطلاق)، وكان يصدر جريدة أسمها الجميع، وأصدرت جريدة اسمها أسرة الطب وقد قدمنا إلى التحقيق في الكلية وحاول الحرس مصادرة الجريدتين، وكانت كلية الطب أيامها تبشر بمستقبل باهر لخريجيها : عيادة وعربية وعمارة وعروسة (الأربع عينات) أو هكذا كانت الأحلام أما قصر العيني فقد كان جحيما للنزلاء ولرواد العيادات الخارجية، وكان كثير من الزملاء قد أصابهم اليأس من جدوى معالجة المرضى الفقراء وكانت جثث المشرحة من الموتى الذين بلا أهل قد مزق السل رئاتها، وكيف يشترى المريض المعدم الطعام أو الدواء حينما تفترسه الأنيميا.

وبدا لي أن علاج جسم المجتمع بالثورة التي أعتقد الجميع أنها آتية لاريب فيها - يشهد على ذلك اضرابات جميع الطوائف (حتى البوليس وممرضى المستشفى) أجدى من جهد أناني عبثي لعلاج أجساد قليل من المرضى لا أمل في شفائهم، وكانت هناك أمثلة لمحترفين ثوريين : شريف حتاتة، صلاح حافظ، سعد رحمي، جمال شلبي، عبدالحميد السحرتي، محمود حزين قضوا بعد ذلك أجمل سنوات عمرهم في السجون أو المنفى، وليس ذلك بالطبع طريقا أمثل للكثرة، بل لعدد شديد الضآلة من الذين يدفعهم تكوينهم، واهتمامهم الفكرى في أوقات الأزمة الحادة حينما تكون مصر حبلى بالثورة إلى أن يذوبوا في قضية عامة هي المعنى العميق لحياتهم ولموتهم وقد استشهد في تلك الفترة بعض طلبة الجامعة في القنال وهم يحاربون الإنجليز.

لذلك عكفت على دراسات اجتماعية وفلسفية وسياسية وعلى كتابة تحليلات للأوضاع ومنشورات ومحاضرات عن دور الأدب في الحركة الوطنية ونقد الاتجاهات المغرقة في الرومانسية، ومن مآثر حدتو في تلك الفترة لا مركزيتها فكانت لدينا أدوات طباعة بدائية سرية نستعملها فيما نراه ضروريا للعمل السياسي، وفي تلك الفترة تم إرساء تقاليد ماتزال مستمرة في النشاط الطلابي تقاليد جديدة الحائط



مع د. لطيفة الزيات ود. علي الراعي في ندوة المرأة العربية

متعددة الموضوعات وحلقة النقاش الواسعة حولها.

أفدت من انقسام الحركة الشيوعية

وقد أفدت من أنقسام الحركة الشيوعية التي لا تعترف بها موسكو، فالباب مفتوح لجميع الاجتهادات دون مرجع هو الحكم الملزم ، كما أدى الانقسام إلى ميوعة التنظيمات وانفضاح أسرارها وعدم ظهور زعماء من طراز ستالين رغم أن الكثيرين كانوا يربون شواربهم على طريقته ويتخذون من يوسف أو الحديدي أسماء حركية لهم، وحينما كان يحاط اسم «زعيم» بالتوقير المبالغ فيه كان ذلك مدعاة للسخرية عند الخصوم ينعكس على القاعدة وطوال تلك الفترة لم أقابل شيوعيا يهوديا واحدا فقد ساوم معظمهم على الخروج من المعتقل بالذهاب إلى فرنسا الجميلة تاركين مصر والشيوعية معا (ماعدا حلقة كورييل في فرنسا).

وكانت الكتابة والسياسة متآزرتين في تكويني أيام العهد الملكي قبل التحولات التي أتت بها ثورة ١٩٥٢ والتي صاحبت نضوج شقيقي صلاح قنصوه الذي كان الحوار والاختلاف معه من مصادر تطوري الفكري المهمة ■

د. البيومي تلميذ لأحمد حسن الزيات


أحمد حسن الزيات

هل الدكتور محمد رجب البيومي الذى يكتب بانتظام مقالات بديعة آخرها مقال عازف الربابة والذى استوحى من خلاله الفنان محمد أبو طالب هذه اللوحة الجميلة التى تصدرت العدد عن عازف الربابة.. هل هو ذاته الذى كان يكتب فى مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات؟

أمين محمد جدعان
الشارقة - الإمارات العربية


د. محمد رجب البيومي

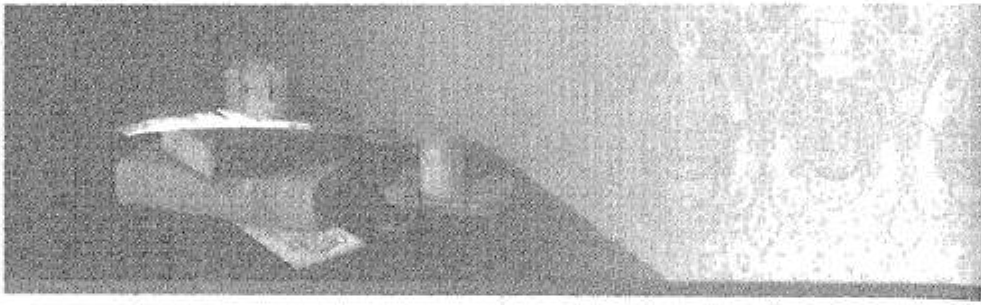
● **الهلال:** محمد رجب البيومي كان تلميذا لأحمد حسن الزيات، وقد كتب مقالات كثيرة بالرسالة وهو طالب بكلية اللغة العربية وبعد تخرجه منها ومقالاته في مجلة الرسالة من ١٩٤٥ حتى احتجبت سنة ١٩٥٢ وله أربعون مؤلفا بين الأدب والتاريخ والتشريع الإسلامى ونال خمس جوائز من مجمع اللغة العربية فى المسرحية والتراجم الأدبية والشعر والبحث العلمي.. وهو الآن عضو بمجمع البحوث الإسلامية ورئيس تحرير مجلة الأزهر وأستاذ متفرغ بكلية اللغة العربية بالمنصورة بعد أن تولى عمادتها عشر سنوات متتالية وعنوانه الآن: كلية اللغة العربية بالمنصورة - ج.م.ع

قضايا إسلامية مهمة تحتاج إلى الدراسة

من المقالات التى أعجبتنى فى العدد الماضى مقال التقريب بين المذاهب، وهذا يدفعنى للقول لماذا لا يجتمع علماء من الأزهر، ومن قم بإيران والزيتونة بتونس والقيروان بالمغرب مع جميع الدول الإسلامية ويقدموا للعالم الإسلام السمح ويردوا على الهجوم الذى يتعرض له الإسلام الآن؟!

عبدالرحمن محمد الجفيري - قطر

● **الهلال:** مدى علمنا أن اجتماعات تمت فى الآونة الأخيرة من أجل الرد على ما يتعرض له الإسلام من حملات الغرب، وبالطبع فهذا لا يكفى ونحن نضم صوتنا إلى رسالة القارئ وخاصة فى موضوع مهم مثل التقريب بين المذاهب الإسلامية فمثل هذه القضايا تحتاج إلى حسم وتوضيح لأن مفكرى الغرب يبدأ هجومهم علينا فى مثل هذه القضايا التى مازال الخلاف حولها برغم مرور أكثر من أربعة عشر قرنا على انتشار الدين الإسلامي.



مفتي الديار المصرية وذو النون المصري



د. أحمد الطيب

لاحظنا أن الدكتور أحمد الطيب مفتى الديار المصرية كتب فى الأعداد الأخيرة من الهلال مقالا عن تكوينه الثقافى، ومقالا آخر عن «ذو النون المصرى» وفى مقاله الأخير لاحظنا مدى اهتمامه بالكتابة عن هذه الشخصية من خلال كتاب الكوكب الدرى لابن عربى والطريف فى الأمر أن «ذا النون» كما أشار الدكتور الطيب ربما يكون قد ولد فى اخميم بصعيد مصر، أو ببلاد النوبة، ثم رحل إلى اخميم فى مرحلة تالية من حياته، أو ولد بجنوب مدينة أسوان، وهى نفس المنطقة التى ولد ونشأ بها الدكتور الطيب.

وهذا المقال مهم جدا حيث تناول صورة قلمية متميزة عن حياة «ذى النون» من خلال منهجية ابن عربى والذى قسمه إلى ثلاثة أقسام.

وكل ما أرجوه أن نقرأ لمثل هؤلاء الكتاب الذين يحرصون على تناول كل ما يفيد القراء.

محمد السعيد الطنطاوي
وادي النطرون

● **الهلال:** فى لقاء مع الدكتور أحمد الطيب أشار إلى أنه يحب الكتابة ولن يتوانى فى تزويد الهلال بمقالات من حين إلى آخر، وقد وعد بذلك فعلا.

أين دور العلماء في تحديث مصر؟!

تكتبون عن العلماء وتكرمونهم ومن بينهم على سبيل المثال الدكتور أحمد مستجير الذى برزت بحوثه واهتماماته فى مجال الهندسة الوراثية للحيوان وأيضا بحوثه فى مجال المحاصيل الزراعية حيث قرأنا بأنه نجح فى زراعة الأرز على المياه المالحة وهو اكتشاف يحقق أهمية كبرى فى مجال الزراعة فى مصر.

نحن نسمع ونقرأ ولكن تدهورت الزراعة فى مصر ونقص المعروض من لحوم الحيوان واستشرى غلاء اللحوم البلدية فأين دور هؤلاء العلماء الذين تكرمهم الدولة ولماذا لا نلمس جهودهم ولماذا لا يؤدون الدور المطلوب منهم؟!

مينا عبدالمسيح
القاهرة - العتبة

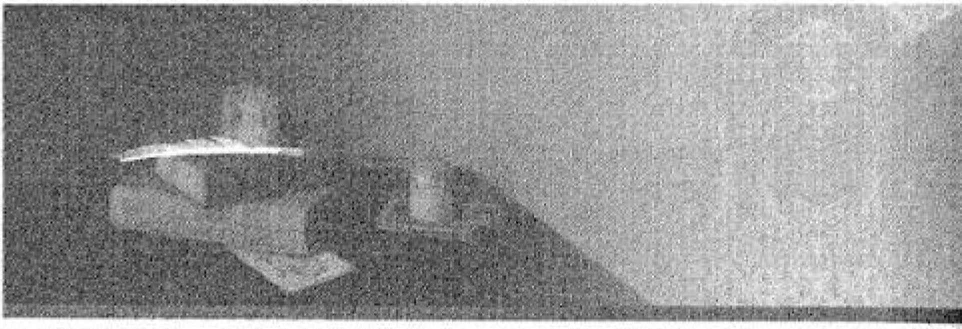
أنت والهلال

دقات .. من طبول الغضب

لا تعجبوا!!
حين اندلاع الشمس من جوف الأنين
لا تعجبوا!!
حين اخضرار العتق فى الرمل الحزين
لا تخبروا أحداً
بما يجرى هنا
إن الضياء.. مهاجر
والأرض تنزف كل حين
لا تقلقوا!!
فالأسد ملت نومها
تغتاظ من ذل العرين
ملك العرين
ما كان يرضى أن يموت أمامه
شبلاً جريحاً
واقفاً يطوى الحنين
ملك العرين
أتراه يترك أى نخاس
ليهرب للسفين؟!
لا تقلقوا!!
لو ظل يرنو فى مهب القرفصاء..
مراقباً
أو ظل يوماً يستكين
حتماً سيغضب - إى وربى -
فالأسود على ذراها
لا تلين!!



عبدالناصر أحمد الجوهري - دكرنس - دقهلية



قضايا الملفات والسيطرة على العالم!

منذ نعومة أظافرنا ونحن أطفال صغار وحتى الآن نسمع عن الملف الفلسطيني والقضية الفلسطينية ويتوقف بحث هذا الملف عند انتهاء فترة رئاسة أي رئيس أمريكي وإلى أن يجئ الرئيس الجديد يظل هذا الملف في طي النسيان.

وبمرور الأيام بدأنا نتشكك في أن يوجد حل لهذه القضية التي استمرت لأكثر من خمسين عاما، وتجئ أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ وليبدأ ملف جديد من تلك الملفات الإرهاب ثم أفغانستان وملف العراق والأسلحة الخطيرة التي يخفيها العراق وتشكل خطرا على الولايات المتحدة وعلى العالم.

إنني أتساءل عن الخبراء والعلماء الذين تجهزهم أمريكا لفتح هذه الملفات وهذا لن يحدث بالطبع فلقد أصبحت الدولة العظمى والتي لا يستطيع أن ينافسها أحد أو يسألها عن حدود الهيمنة والسيطرة على العالم كله!

د. جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

متى يتم ترشيد استخدام المياه؟!

تحتل قضية المياه اهتماما خاصا في دول العالم أجمع ودول المنطقة ومصر بصفة خاصة في السنوات الأخيرة ومع زيادة عدد السكان في مصر والذي وصل حاليا إلى ٦٨ مليون نسمة، سوف تتضاعف مشكلات المياه في السنوات القادمة حيث أن مصادر المياه شبه ثابتة في مواجهة زيادة عدد السكان وتبخر المياه والفاقد الذي يتم أمام أعيننا دون أن نحرك ساكنا.

وعلى الرغم من برامج ترشيد استخدام المياه سواء في الزراعة أو في الاستخدام المنزلي فإننا وعلى سبيل المثال نجد أن القاهرة وحدها تحصل على حوالي من ١٦٠٠ - ١٨٠٠ مليون متر مكعب سنويا، وهو من أعلى معدلات الاستخدام للمياه في العالم، كما وصل فاقد المياه بالشبكات الخاصة بالمياه والمنازل إلى ٣٥٪.

نسأل متى نحرص على استخدام المياه والتي يقول عنها ربنا تبارك وتعالى «وجعلنا من الماء كل شئ حي».

حازم علاء الدين كلية الآداب - قسم عبري

تواكـــل

عندما تخفت أنفاس الحياة
ويسيل الوقت من شريانها المفتوح
فالعمر انتهى
والصدر لم تبرحه آه
يولد الحب جديدا، أخضر النظرة
للأحلام فى عينيه ميزان الخطى يرسم عيدا
يتغنى بالنجاة
فلماذا نحرق الأوتار بالترحال
والصبر بتكرار السؤال؟
ركدت أيامنا: ملحا شتائيا وغابا
طحلبا منتفخ الصمت
زوايا من عظام الموت
صمتا واغترابا!
وبقينا نحرث الذكرى ونتسى الحب والماء
ونرجو الغد نهرا
خارج الوادى
بلا شمس وناس وبلاد
عينه ترعى السماء!

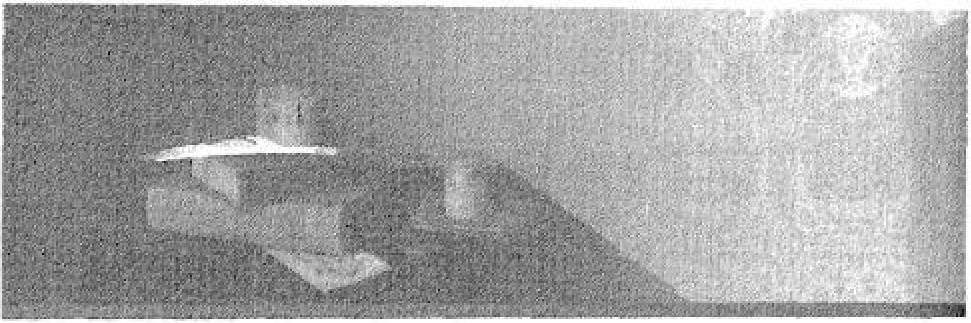


عبدالرحيم الماسخ - نجع الماسخ - المراغة - سوهاج

عيوب نحرص على تلافيها!

سبق أن اتصلت بالسيد رئيس التحرير بخصوص التغليف السيئ والتجليد دون المستوى للمجلة، حتى أننى لا أستطيع قراءة العدد كله لأنه يصبح أوراقا متناثرة بعد قراءة مقال أو مقالين.

د. نبيل أمين مرجان - النزهة الجديدة



● **الهلال:** تحدثنا فى هذا الأمر مع مدير المطابع خاصة أن العدد الماضى قد حمل إشادة للعاملين فى مطابع دار الهلال فأكد لنا أنه ابتداء من هذا العدد لن تكون هناك أية شكوى حيث تعرف على السبب الذى أحدث تلك المشكلات.

قصة قصيرة: البائع العجوز

ينادى البائع أبو حمدى بصوت ضعيف على بضاعته المنوعة من الخضراوات والفواكه الموضوعة فوق عربة كارو قديمة متهالكة يصلح كل يوم جزءا منها بعد انتهاء العمل اليومى.. رسم الزمن على وجهه خريطة صعبة تحمل الوهن والمشقة والحزن ماهو يدخل شارعا ضيقا حتى يبيع ويدعو الله أن تنفق بضاعته كانت الشمس ترسل له تحياتها عبر أشعتها القوية فالوقت وقت الظهيرة وكل دقيقة يمسح عرقه بمنديل كبير يمسكه بيده.

نهق الحمار عندما رأى مجموعة من الحمير موجودة فى مكان فى آخر الشارع وأسكته أبو حمدى وقال: هل هذا وقت إزعاج.. اهدأ

جاءت إليه مجموعة من النساء وقد تجمعن حول العربة وكل واحدة منهن تسأل عن فاكهة أو خضرة قالت إحداهن وقد عدلت من وضع شاشتها على رأسها: بكم هذا الكيلو من البندورة؟ فقال الكيلو بشيكل يا ابنتى فقالت لا هذا كثير هل آخذ رطل بشيكلين وكان متسامحا مع المشترين ولا يرفض طلب أحد فقال: خذى.. ثم أخذت المرأة تختار من حبات البندورة (الطماطم) واشترى منه أيضا معظم النسوة اللاتى تجمعن حوله.

ثم ذهب ليشترى بمكسب هذا اليوم كيس طحين فأولاده ينتظرون الغدا ، ولا يوجد لديهم رغيف خبز... حمل الكيس ووضعه بصعوبة على العربة ثم أنقد صاحب البقالة ثمنه.

ثم عرج بعربته إلى الطريق العام وكانت الحافلات مسرعة وتضايقه وبالكاد وصل إلى حارته.

أرسلت الشمس أشعتها الضعيفة.. لتنذر الناس بأن وقت مغيبها قد اقترب وقد التف حولها هالة باهتة.

حمل أبو حمدى الكيس فوق ظهره وقد تأوه كثيرا وتوجع من ثقله وقبل أن يدخل منزله هوى هو والكيس على الأرض!!

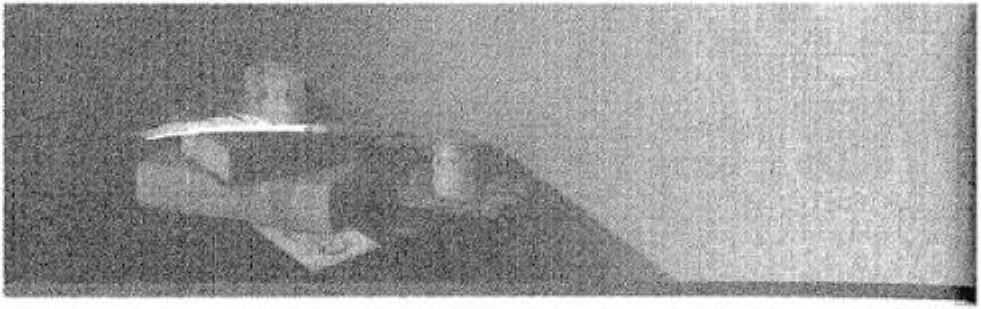
مدحت أمير الدربال
غزة - الزيتون

كيف أنشر في الهلال ؟

أكتب إليكم من ليبيا.. وأرجو أن تتاح لى فرصة الكتابة على صفحات مجلتكم العريقة، واسمي عائشة أحمد بازامه من مواليد ١٩٥٤ فى بنغازى وقد بدأت الكتابة فى سن مبكرة وأكتب حاليا مقالات بالصحف الليبية ولدى مقالات بعنوان تأملات امرأة فى زمن العولمة) أتمنى لو تنشر بمجلتكم.

عائشة

● **الهلال :** أهلا بمساهماتك.



مع الأصدقاء

● أشرف عبدالغني: قنا - مركز أبو تشت - قرية الرواتب شكرا على رسالتك وعليك أن تواصل الكتابة وقصتك « الحضن الدافئ » تحتاج إلى مراجعة دقيقة فى اللغة وتتابع الأحداث حيث ينقصها أهم عناصر القصة القصيرة.

● محمود علام عبداللطيف - كلية التربية - قسم اللغة العربية أرسلت إلينا مساهماتك « مصر فى خاطرى» ومكتبة الثغر تقول فى إحداها:

للمكتبات من الأنحاء زوار - وأنت من تملك الدنيا فتحتار

لما نظرت على مهل أشاهدها - أنكرت أن الذى شاهدت أحجار

ماذا تقصد يا أخى وهل هذا شعر؟!

أنت طالب بقسم اللغة العربية وتعرف أدوات الشاعر جيدا أن تلم إلماما كاملا بدراسة علم العروض وهى مادة مقررة لابد أنك قد درستها فضلا عن الموهبة راجع ما تكتبه إلينا لتتأكد أنه ليس شعرا!

● عاصم فريد البرقوقى: الاسكندرية تعيش هذه الأيام فرحة وبهجة بافتتاح مكتبة الاسكندرية والتى أصبحت ملتقى للثقافات والحضارات وليعود للاسكندرية مجدها من خلال هذه المكتبة العريقة التى يأتى إليها عمالقة الفكر من جميع أنحاء العالم فى لقاءات وندوات فضلا عن أهم الكتب والموسوعات التى تضمها ولتصبح من أهم مكتبات العالم ومن يدخل أقسامها المتعددة يكتشف هذا الصرح الحضارى المتميز.

● أحمد طلعت أبو زيد - مصر الجديدة - القاهرة - أتمنى أن تهتم الهلال بإلقاء الضوء على محافظات مصر، خاصة المحافظات التى تضم تراثنا الفرعونى والرومانى والقبطى والإسلامى وسوف تكتشف بأننا سوف نتناول محافظات فى أقاصى الصعيد وفى الوجه البحرى أيضا.



البيولوجيا قبل الايديولوجيا

بقلم : د. أحمد مستجير

رجل اسمه نورمان بورلوج Norman Borlaug، هل سمعت اسمه قبلا؟ الأغلب أن ستكون إجابتك بالنفي . لكن هذا الرجل قد حصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٠، وأنقذ عشرات الملايين من فلاحي العالم الثالث من الموت جوعاً! إن فضله على البشرية لا ينسى، أبداً لن ينسى . هو الأب الحقيقي للثورة الخضراء، الثورة التي غيرت الحياة في العالم في ستينات وسبعينات القرن العشرين، والتي أثبتت أنه من الممكن بالعلم تحسين حياة مئات الملايين من الفقراء . لقد ساعد هذا الرجل العظيم الدول الفقيرة كي تساعد نفسها . كرس علمه لإنتاج سلالات من القمح القزم فائقة الإنتاج بشكل مذهل . مافائدة العلم إذا لم يوفر الرغيف أولاً لكل فم : الرغيف قبل الكمبيوتر !

يقول بورلوج في محاضرته بحفل تسليم جائزة نوبل في ١١ ديسمبر ١٩٧٠ : «يكاد يكون من المؤكد أن لب العدل الاجتماعي هو توفير الطعام الكافي لكل البشر . الطعام هو الحق الأخلاقي لكل من يولد في عالمنا هذا . ورغم ذلك فنصف سكان العالم جوعى. إذا أردت السلام فلتزرع العدل (كذا يقول الميثاق الذي يلتزم به الحاصلون على جائزة نوبل للسلام) نعم. لكنك في نفس الوقت لابد أن تزرع الحقل، وإلا .. فلا سلام».

نقل بورلوج سلالات قمحه القزم إلى باكستان وإلى الهند (ثم إلى غيرهما من بلدان العالم الثالث) فارتفع بها إنتاج القمح في باكستان من ٤.٦ مليون طن عام ١٩٦٥ إلى ٨.٤ مليون طن عام ١٩٧٠ ، وارتفع المحصول في الهند في نفس هذه الفترة من ١٤.٢ مليون طن إلى ٢٠ مليون طن ، بل لقد حصدت الهند مؤخراً من القمح ٧٣.٥ مليون طن. اكتفت الهند والباكستان من القمح اكتفاء ذاتياً، بل وأصبح لديهما فائض بفضل هذا الرجل

ضاقت الأرض بما تحمله من بشر . غدت المهمة الأولى لعلماء الزراعة في عصرنا هذا - كما يراها بورلوج - هي رفع الإنتاج من وحدة المساحة، نطعم به الأفواه الجائعة المتزايدة ، ونحفظ به البيئة . والمثال الذي ضربه في خطاب له في أكتوبر ٢٠٠٢ مثال يستحق الذكر، كان مزارعو الذرة في بلاده (أمريكا) ينتجون منذ ٦٠ عاماً ٦٠ مليون طن متري من زراعة ٧٧مليون فدان، لكنهم في عام ٢٠٠٠ أنتجوا ٢٥٢ مليون طن متري من ٧٢ مليون فدان. لابد من اللجوء إلى البيوتكنولوجيا الحديثة - إلى الهندسة الوراثية .انبرى وهو مربي النبات التقليدي يدافع عن المحاصيل المهندسة وراثياً مؤكدا أن معارضيها إنما يحركهم كرههم للرأسمالية والعولمة، لا قضية أمان هذه المحاصيل كما يدعون ! البيولوجيا عنده قبل الايديولوجيا - حملة تذكرنا بـ «لايسنكو» وما فعله بالاتحاد السوفييتي : كانت الايديولوجيا عنده قبل البيولوجيا فدمر الزراعة في بلاده .

نعرف الكثير عن هتلر وستالين وغيرهما من صناع الموت. أليس الأجدر بنا أن نعرف عن حياة صناع الحياة ؟!. ■



وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر للطيران للخطوط الجوية
مصر للطيران
EGYPTAIR
تنشيطا لحركة السياحة و السفر
بين مصر و اليابان
تعلن مصر للطيران
عن رحلة جديدة ثالثة بدون توقف
القاهرة / طوكيو
كل يوم احد
اعتبارا من ٢٢ ديسمبر
بالاضافة الى رحلاتنا حاليا
القاهرة / بانكوك / مانيلا / طوكيو
الثلاثاء والجمعة
القاهرة / اوزاكا
الجمعة و الاحد
اهلا بكم معنا


أدبيات
نحو الآداب والثقافة المعاصرة
سيكولوجية الإرادة
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس: ٦٨٢٧٠٠٢